هديةُ المنصور الى صدّام

بقلم

عبدالحميد العلوجي

رئيس التحرير

حين تنفسّتِ الحياةُ بين الرّمالِ جادتْ بالمنصورِ أبي جعفرٍ ليُقدِّمَ بغدادَ طاقةَ نرجسٍ الى كلِّ عربيٍّ ..

ومع أسعدِ فجرٍ ، على دربِ تاريخنا .. تباركَ زينُ الخلفاءِ اذْ حاكَ معجزتَهُ ، بين ذراعيْ دجلةَ ، من قرىً شتّى ، فوق عشبٍ رآهُ يتماوجُ بضحكةٍ خضراءَ ..

انه صنعَ بغدادَ لتكونَ ، أولاً ، لسانَ تاريخٍ .. ولتكون ، ثانيا ، قوةً أرضيةً .. ولتكون ، ثالثاً ، نبْعاً ذهبيّاً لحضارةٍ تنفعُ الانسانَ .

وهو ، بهذا العزمِ ، أراد أن يقولَ للأجيالِ العربيةِ انَّ العظيمَ ، كمثلهِ ، خليقٌ بمدينةٍ عظيمةٍ كبغدادَ ... مدينةٍ قادرةٍ على أن تمنحَ الانسانيةَ أكملَ حضارةٍ ، وترْسخَ على وُدٍّ خالصٍ مع الأصدقاءِ ، واستطاعةٍ خارقةٍ على دحرِ العدْوان .

وتزاحمتِ العهودُ ، بعد المنصورِ ، على بغدادَ .. محكومةً بارادةٍ عربيةٍ شاءتْ لها امتدادَ معاشٍ بأسلوبٍ فاضلٍ يتفجّرُ عدْلاً بين شرائعِ السماءِ وقوانينِ الأرضِ . ثم تلاحقتْ أقدارُها ، على حسابٍ عجيبٍ .. اختلَّ ميزانُه ، في صمْتٍ ضائعٍ ، مع دواعي التّلفِ والخراب . فكانَ للعروبةِ في قلْبِ بغدادَ – منذُ اجتياحِ المغولِ – هواجسُ موصولةٌ ظلّتْ تلعنُ جنونَ الغزاةِ وجشعَ اللصوصِ ، وتحنُّ – بلا هوادةٍ – الى نسقِها الحضاريِّ الذي عاشتْ نهارَهُ مكاسبَ تحت الشمس ، وليلَهُ مؤانسةً في القمرِ ..

انها أخذتْ تتلمسُ طريقَها الى الخلاصِ ، فشاءتْ أن تُحطّمَ أغلالَها بتاريخٍ جديدٍ .. وعندئذٍ توفّرتْ على أن تبطشَ

ـ مَشْهَداً وغَيْباً ـ بالشقاءِ المجلوبِ ، وتهزُّ الضميرَ المخلصَ ، وتنقضُّ على أوهامِ المتلكئينَ .. لكَيْ تُعاجلَ الهيمنةَ الامبرياليةَ بالضربةِ الحاسمةِ ...

انّها أرادتْ ما كان لها .. فكان لها ما أرادتْ بقيادةِ حزبِ البعثِ العربيِّ الاشتراكي .

ومن حقِّ بغدادَ ، ومن حقِّ الحزبِ ، بعد أن تعارفا بالحزنِ والفرَحِ ، أن يجتمعا على ثورةٍ ، وأن يتعاونا على مشاركةٍ وجدانيّة .. فهما أدركا ، جيّداً ، أنّهما كانا على مَوْعدٍ مع قَدَرٍ بارعٍ استوعبَ كلمةَ البعثِ في حروفِ بغدادَ ، وكلمةَ بغدادَ في حروفِ البعثِ .

واستقرَّ المطافُ ببغدادَ ، عبرَ قائدٍ قائدٍ ، على « صدّام » : القائدِ الفذِّ الذي استطاع بما أُوتيَ من تواضعٍ وقوّةٍ ، ومن رأفةٍ وصرامةٍ ، ومن عفوٍ وغضبٍ .. أن يَسْطَعَ بين قادةِ العصرِ .. كما استطاع بما أُوتيَ من حكمةٍ وبصيرةٍ وفطنةٍ وذكاءٍ أن يتألّقَ بين العدالةِ والرحمةِ ..

فَهُوَ هُوَ مَنْ تَضَرّمَ في قلبِهِ حبُّ بغدادَ .. وهو هو مَنْ اذا تكلّمَ مع بغدادَ ، فانّما يتكلمُ بلسانِهِ وفؤادِهِ .. وهو هو مَنْ اذا أرادَ من بغدادَ شيئاً مَنَحها أشياءَ ..

هذا ، وأكثرُ من هذا .. أتاحَ للجماهيرِ أن تنفذَ الى قلبِهِ الكبيرِ .. تماماً كما نَفَذَ الى قلوبِها .

فهنيئاً لبغدادَ بقائدِها المقدامِ ...

هنيئاً لها ، في عهدِهِ الأزْهرِ ، أن تكونَ العاصمةَ التي تتضوّعُ بشَذا الاقحوانِ حيالَ الصداقةِ والوفاءِ ، وأن تكونَ القاصمةَ التي تتأجّجُ غضباً حيالَ الأثمِ والعدوان .

ومجلّةُ المورد ، بهذا العددِ البغداديِّ ، تهتبلُ هذه المناسبةَ النّشْوى لتقدّمَ الى السيّدِ الرئيسِ صدّام حسين ، ما لدارِ الجاحظِ ، ولأُسرةِ تحريرِ المورد من مشاعرَ نبيلةٍ طافحةٍ بالمحبّةِ والولاءِ .. مؤكّدةَ العَزْمَ على بَذْلِ الأنْفُسِ في خدمةِ الحزبِ والثورةِ ، وعلى تحقيقِ الأنفعِ والأبْقى على امتدادِ يومٍ وغَدِهِ ..

تخطيط مدينة بغداد

عبر العصور التاريخية «دراسة في التخطيط الحضري»

بقلم الدكتور

صبري فارس الهيتي

كلية التربية ـ جامعة بغداد

ان البحث في تخطيط مدينة بغداد ، هذه المدينة الخالدة التي يمتد عمرها الى اكثر من اثني عشر قرناً ، يحتاج الى الكثير من الجهد والاناة . وذلك لطول الفترة التي مرت على هذه المدينة ؛ ولتعدد الحكومات التي سيطرت على العراق بشكل عام وبغداد بشكل خاص ابتداء من ايام العباسيين حتى خروج الانكليز من العراق . وما اصاب بغداد من جراء ذلك من بناء وعمران تارة وعنت وتخريب تارة اخرى . ولسبب ذلك فان ما كتب عن هذه المدينة يحتاج الى تمحيص وتدقيق لكي يمكن الخروج منه بمادة دقيقة ومنظمة تعكس تخطيط مدينة بغداد عبر العصور التاريخية . وهذا ما حاولت هذه الدراسة الخروج به .

× × ×

اختيار موقع بغداد

بدأ الخليفة العباسي الثاني ابو جعفر المنصور في سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م في بناء مدينته المدورة المشهورة (بغداد) على الضفة اليمنى من نهر دجلة في الزاوية المتكونة بين مجرى الصراة ومجرى دجلة شمالا وسماها « مدينة السلام »(١)

وكان اسم بغداد معروفا قبل المنصور ، اذ كانت بغداد في ايام مملكة العجم قرية يقيم بها الفرس في كل سنة سوق عظيمة يجتمع بها في ذلك الموسم التجار (لاحظ الخارطة شكل ١) ، فلما توجه المسلمون الى العراق وفتحوا السواد ، ذكر للمثنى بن حارثة الشيباني امر سوق بغداد فقصدها .(٢) وهذا يستدل منه على وجود بغداد قبل الفتح الاسلامي .

ولكن كيف وقع اختيار المنصور على هذا الموضع لبناء مدينته ؟ تذكر الكتب التاريخية : على ان المنصور عندما تفحص موضع بغداد القديم توجده موضع ملائم من الناحية العسكرية قال عنه : هذا موضع معسكر صالح »(٣) كما انه بعث روادا يطلبون له موضعاً ، فأستشاروا عددا من الحكماء ومنهم صاحب بغداد الذي اخبر المنصور بميزات موضع بغداد التي اعجبه بها المنصور حيث قال له : وانت يا امير المؤمنين « عندما تنزل في بغداد فانك تصير بين اربعة طساسيج (جهات) ، طسوجان في الجانب الغربي وطسوجان في الجانب الشرقي ، فاللذان في الغربي قطربل وبادوريا ، واللذان في الشرقي نهر بوق وكلواذى ، فانت تكون بين نخل وقرب الماء ، فان اجدب طسوج وتأخرت عمارته كان الاخر عامراً . وانت يا امير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة من الغرب ، وفي الفرات تجيئك طرائف الشام ومصر وتلك البلدان ، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند

(١) د . مصطفى جواد ، دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٨ ، ص ٤٢

(٢) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٣١ ، ص ٢٥ ــ ٢٧ .

(٣) طاهر مظفر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، مطبعة النعمان ، النجف ، ١٩٦٧ ، ص ١٢٨ .

والبصرة وواسط في دجلة ، وتجيئك الميرة من ارمينية واذربيجان وما اتصل بها حتى الى الزاب، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة ودياربكر وربيعة والموصل في دجلة . وانت بين انهار لايصل اليك عدوك الا على جسر او قنطرة ، فاذا قطعت الجسر واخربت القناطر لم يصل اليك عدوك . وانت بين دجلة والفرات لا يجيئك احد من المشرق والمغرب الا احتاج الى العبور ، وانت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله ، وانت قريب من البر والبحر والجبل(٤) .

وكانت مدينة المنصور تقع بين الكاظمية من الشمال وقرية الكرخ من الجنوب الغربي والشيخ جنيد والشيخ معروف الكرخي من الجنوب الشرقي وهي تقابل محلة هيبة خاتون في الجانب الشرقي ، وعليه كان موضعها الصحيح قريبا من مقابر قريش (أي الكاظمية) الحالية (انظر الخارطة شكل — ٢) ، وان اكثر مواضعها اصبحت بساتين ومزارع ، ثم جرى عليها تغيير مستدام بسبب تقدم العمران وتكرار الاغراق من فيضان الفرات ودجلة مما ادى الى زوال اثارها منذ قرون عديدة واندثرت معالمها منذ عصور طويلة ، ولم يبق من مبانيها واسوارها وحوائط فصلانها وخندقها ومسناتها وابوابها اي اثر .(٥)

تخطيط المدينة :

عندما عزم المنصور على بناء المدينة احضر المهندسين واهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الارضين فمثل لهم صفتها التي في نفسه ، ثم احضر الفعلة والصناع من النجارين والحفارين والحدادين وغيرهم . فاجرى عليهم الارزاق وكتب الى كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئا من امر البناء ولم يبتدىء في البناء حتى تكامل بحضرته من اهل المهن والصناعات الوف كثيرة . ثم اختط خطتها التي رسمها له المهندس العربي (الحجاج بن ارطاة) وجعلها مدورة .(٦)

وقد خطت المدينة اولا بالرماد ثم وضعت على تلك الخطوط كرات من القطن وصب عليها النفط واشعلت فيها النار بغية ابرازها بشكل واضح ، وحفرت اسس السورين والخندق العميق المحيط بها من الخارج بحسب الخطوط الموضوعة .(٧) واشتهرت مدينة المنصور في كونها مدورة ، اذ تميز بنائها بكونه مثالا لاقوى المدن المحصنة في القرون الوسطى تتجلى فيها عظمة الدولة العباسية في ادوارها الاولى .

ومع ان اليعقوبي يذكر بانه لم يعرف اذ ذاك في جميع اقطار الدنيا مدينة مدورة غير مدينة المنصور ، لكن المعتقد ان شكل المدينة كان تقليداً للتصميم البنائي لمدينة الحضر المدورة وذلك من حيث الشكل والمساحة . ولم تكن مدينة الحضر المدينة المدورة الوحيدة في الشرق العربي ففي جزيرة العرب مدينة مأرب باليمن كانت مستديرة ايضاً . ومع ذلك فمدينة المنصور كانت فريدة في نوعها في العهد الذي انشئت فيه بالنظر لعظمتها وضخامتها والجهود التي بذلت في انشائها .(٨)

وكانت خطة مدينة بغداد : هي ادارة خندقاً واسعاً وعدة اسوار حول المدينة . وقد جعل المنصور لتلك الاسوار اربعة ابواب متقابلة ، فسمى الباب الشمالي الغربي « باب الشام » والباب الجنوبي الغربي «باب الكوفة» والباب الجنوبي الشرقي « باب البصرة » والباب الشمالي الشرقي « باب خراسان » وكان يسمى ايضاً « باب الدولة » .

وتعد هيئة مدينة المنصور المدورة ذات الابواب الاربعة المتساوية الابعاد ابتكاراً في الريازة العربية ، وتبلغ المسافة بين كل باب واخر ما يقارب ٢٥٠٠ باردة ، ويتبين لنا من ذلك ان مقدار طول قطر الدائرة الخارجية حول الخندق من باب الى باب نحو ٣٢٠٠ باردة .(٩) وحفر حول المدينة خندق عريض وعميق ، وله مسناة محكمة

(٤) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن، ١٨٧٧ ، ص ١١٩ .
— ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ليبزك ١٨٦٦ ، ج ١ ، ص ٦٨ .
— الطبري تاريخ الامم والملوك ، ليدن ١٨٩٠ ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ — ٢٧٦ .
— ابن الجوزي ، مناقب بغداد ، نسخ وتعليق محمد بهجة الاثري ، مطبعة دار السلام بغداد ، ١٩٢٢، ص ٨ .

(٥) د . احمد سوسة ، د . مصطفى جواد (وجماعتهما) ، بغداد ، مطبعة رمزي ، بغداد ، ١٩٦٩ ص ٢٢ .
د . احمد سوسة ، الفيضان وغرق بغداد في العصر العباسي ، مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد العاشر، ١٩٦٢ ، ص ٣٠ .

(٦) الخطيب البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٦٦ .

(٧) كي لسترنج ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة بشير يوسف فرنسيس ، المطبعة العربية ، بغداد ، ١٩٣٦ ، ص ٢٥ .

(٨) د . مصطفى جواد ، دليل خارطة بغداد ، ص ٤٤—٤٦.

(٩) الطبري ، المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

عالية من جهة المدينة مبنية بالآجر والصاروج وهو مادة بنائية كالسمنت في القوة واللون ، واجري فيه الماء من قناة تأخذ ماءها من نهر (كرخايا)(١٠)

وكانت في وسط المدينة رحبة مدورة واسعة لم يشيّد في بعض جنباتها بادىء الامر غير القصور والجوامع ، الا انها على توالي الايام اخذت تزدحم بالابنية نظير بقية اقسام بغداد . وكانت مساحتها نحو (٢٠٠٠ ياردة) طولا في مثلها عرضاً يحيط بها السور المدور الداخلي بابوابه الاربعة .(*) وفي وسطها قصر الخليفة الذي بناه بالآجر وسماه (قصر الذهب) وسمي بابه باب الذهب وانشأ مسجداً واسعاً ملاصقاً له . وكانت مساحة القصر اربعمائة ذراع في اربعمائة ومساحة المسجد مائتين في مائتين ، وكان في صدر القصر ايوان طوله ثلاثون ذراعاً وعلى سطح الايوان مجلس مثله وفوق المجلس القبة الخضراء التي كان على راسها تمثال فارس بيده رمح ، فاذا ادار التمثال استقبل بعض الجهات ومد رمحه نحوها . وارتفاع الايوان الى اول عقد القبة عشرون ذراعاً وارتفاع المجلس والقبة الخضراء ستون ذراعاً . وقد سقطت تلك القبة سنة ٣٢٩هـ في يوم مطير فيه ريح ، وكانت تلك القبة علم بغداد وتاج البلد ومأثرة بني العباس .(١١)

اما المسجد فقد انشاه المنصور من اللبن والطين ، وجعل لاروقته اساطين من الخشب ، كانت كل اسطوانة منها قطعتين معقبتين بالعقب والغراء وضبات الحديد إلا خمس اسطوانات اوست كانت عند منارة الجامع .

ولم يكن بالرحبة الوسطى التي فيها قصر المنصور ومسجده بناء ولا دار ولا مسكن لاحد الا داراً من جهة باب الشام وسقيفة كبيرة ممتدة على اعمدة مبنية بالآجر والجص ، فكان صاحب الشرطة يجلس في الدار وصاحب الحرس يقيم في السقيفة ، وكان حول الرحبة منازل على خط دائر وهي منازل اولاد المنصور الاصاغر ومنازل القريبين من خدمته وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج (التجهيزات) وديوان الاحشام (الاتباع) وديوان النفقات وديوان الصدقات (الزكاة)(١٢) . (انظر الشكل رقم ٢) .

اسوار المدينة :

ولاهمية اسوار مدينة بغداد باعتبارها احدى المعالم المهمة في المدينة ، ولانها على جانب كبير من الاهمية في اظهار الابداع في الريازة العربية ، نورد الوصف التالي لها وحسبما ورد في كتب المؤرخين والمخططين العرب :-

بنيت اسوار بغداد من اللبن الكبير الحجم جداً . وقد كانت مكعبة الشكل ، يبلغ طول الضلع الواحد لبعضها (١٨ عقدة) وتزن الواحدة منها ٢٠٠ رطل ، والبعض الاخر بقدر نصف الاول وزناً وسمكاً . وان المسافات التي بين اللبن في اسوار المدينة لم تكن متصلة ببعضها البعض بالاعمدة الخشبية (على العادة المألوفة عند العرب) بل بحزم القصب . وكان في كل ساف من سافات البناء ١٦٢٠٠٠ لبنة . وكان السور الداخلي اعلى من السورين الخارجيين(١٣) وكان ارتفاع السور الكبير يبلغ ٩٠ قدماً ، وعرض قاعدته ١٠٥ قدماً ويقل سمكه تدريجيا الى ان يبلغ في الاعلى (٢٧/٥) قدماً وتتفق جميع الروايات على ان سمك السور الخارجي الاول اقل من هذا بكثير وربما كان هذا السور الذي ذكر الطبري ابعاده ، فقد ورد عنه ان عرض قاعدته ٧٥ قدماً ويقل سمكه في الاعلى حتى يبلغ ٣٠ قدماً وارتفاعه نحو (٦٠ قدماً) . كما ان الخطيب البغدادي يعطي ابعاداً اخرى للسور الكبير فيقول « وسمك ارتفاع هذا السور الداخلي في السماء ٣٥ ذراع (٥٢٫٥ قدماً) وعرض السور من اسفله نحو ٢٠ ذراعاً او ٣٠ قدماً(١٤) .

وجلب المنصور لابواب مدينته رتاجات من الحديد لا يغلق الرتاج الواحد منها ولا يفتحه الا جماعة رجال لضخامته ، فقد كان الفارس يدخل منه بالعلم والرامح بالرمح الطويل من غير ان يميل

(١٠) د . احمد سوسة ، بغداد المصدر نفسه ، ص ١٩ .
(*) تقول بعض المصادر بان لبغداد سوران وليس ثلاثة ، وذلك لان السور الداخلي حول الرحبة المركزية لم يكن سوراً متيناً كالمتراس ولهذا فلا يعتبر سورا للمدينة . اما السوران الاخران فهما الخارجيان وكان كالمتراسين ولذا كان احدهما هو سور داخلي والاخر سور خارجي، اما السور الداخلي فليس الا حاجزا حول رحبة القصر والجامع انظر الخطيب البغدادي ، ج ١ ، ص ٧٢ وكي لسترنج ، ص ٢٦ .
(١١) زكريا بن محمد بن محمود القزويني اثار البلاد واخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٣١٤ .
(١٢) كي لسترنج ، المصدر نفسه ، ص ٢٦ - ٢٧ .
(١٣) الخطيب البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٢ .
(١٤) انظر : كي لسترنج ، ص ٢٧ ، البغدادي ص ٧٤ ، ابن الجوزي ، ص ٩ ، الطبري نفس المكان .

الاول العلم ولا ان يثني الثاني رمحه . وجعل للابواب الاربعة دهاليز اربعة عظيمة كلها ازاج (اي عقود) وطول كل دهليز ثمانون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً ؛ وعقودها من الاجر والجص . وكان إذا دخل احد الابواب وجد الدهليز على يساره ، وكان فوق كل عقد من عقود الدهليز مجلس قبة شاهقة عظيمة ، ارتفاعها خمسون ذراعاً (٢٥ متراً) فيها زخارف ونقوش . وكان يصعد الى القبة وامثالها سيراً او ركوباً على الدواب لضخامتها وكان يرابط عند كل باب الف جندي مع قائدهم(١٥) . ومما يروى عن هذه العقود بان علوها غير متساو وان بعضها مبني بالجص والاجر وبعضها الاخر باللبن العظام . وعلى ظهور هذه العقود حتى اعلى السور المصعد ؛ وبهذا يتم الصعود الى القبة التي فوق الباب . وكانت على المصعد ابواب تغلق ، فوق كل باب من ابواب السور الكبير غرفة عليا « مجلس » تشرف على المدينة ؛ فيجلس الخليفة هناك اذا احب النظر الى من يقبل من تلك الناحية .

واذا دخل الداخل مدينة المنصور يعبر اولا الخندق الواقع دون السور الخارجي . ثم يجتاز احد هذه الابواب الاربعة ، ومن كل باب يمتد طريق تؤدي الى الرحبة المركزية ؛ وكان للخندق بعد المسناة قد اجري فيه المياه ؛ وفي جانب الخندق القريب من السور سدة او مسناة حول المدينة بشكل اقواس كل منها ربع دائرة تصل بين باب واخر ؛ وجوانب هذه المسناة مبنية بالآجر والصاروج . وكان في السور الخارجي ابراج ، فبين باب الكوفة وباب البصرة ٢٩ برجاً ، وبين كل باب من الابواب الاخرى ٢٨ برجاً فقط ؛ ومعنى هذا ان كل برج يبعد عن الاخر ٦٠ ياردة بناء على طول السور(١٦) .

استعمالات الارض داخل المدينة المدورة :

اضافة الى قصر الخليفة ومسجده في الرحبة الوسطى ، وقصور ابنائه والمقربين والدواوين لم يكن هناك اي بناء اخر في بادئ الامر (كما سبق الاشارة الى ذلك) . اما بقية الابنية والدور فكانت في الفصيل الذي بين السورين الكبير والداخلي الذي حول الرحبة المركزية وكان في الفصيل اربعة اقسام كل منها ربع دائرة . ويفصل هذه الاقسام الاربعة عن بعضها بعضا السكك الاتية من الابواب . وكان عرض الفصيل من السور الكبير الى السور الداخلي اقل من ١٥٠ ياردة ؛ وطول كل ربع من ارباع الفصيل من باب الى باب ميل واحد . ويختلف هذا الفصيل عن الفصيل الخارجي الذي كان خالياً من الدور لوجود الشوارع والدروب فيه . ولم تكن مساحة الارباع الاربعة للفصيل تعدو على ثلث ميل بوجه عام(١٧) وقد بلغت مساحة المدينة ٢٦٢ر٣١٤ر٥ متراً مربعاً او ٢١٢٦ مشارة وعلى هذا يكون طول قطر محيطها ٢٦١٥ متراً . وعند بدء السكك التي بين ابواب السور الكبير والسور الداخلي وعند منتهاها ، رحبة خارجية واخرى داخلية ؛ وعلى جانبي الطريق صفان من الطاقات . وعلى يمين الداخل الى الرحبة طريق وعلى يساره طريق للوصول الى الشوارع والدروب .

وكانت اسواق مدينة المنصور في الطرق الاربعة وبعد بضع سنين حرّلها من داخل المدينة الى ربض الكرخ التي امر ببنائه (كما سنأتي على ذكره فيما بعد) وجعلها لاصحاب السوق والتجار، وهكذا خلت الطاقات من الدكاكين واتخذت مراكز لشرطة المدينة وحرسها .

ولم يسمح المنصور لرجاله ان يبنوا دورهم ملاصقة للسور الكبير او سور الرحبة المركزية ، ولهذا فقد كان يلي السور الكبير حلقة عرضها ٤٢ ياردة خالية من الابنية تماماً لتكون طريقاً ، كما كان قبل سور الرحبة المركزية ارضاً خالية حوله لتكون طريقاً اخر وتغلق الطرق والشوارع التي في كل ربع من الفصيل بابواب متينة قوية عند الحاجة .(١٨)

وظلت الشوارع تسمى غالباً باسماء اصحاب الدور والبساتين الذين كانوا وقت بناء بغداد ؛ وبنى الخليفة سجنه الكبير المسمى (المطبق) في الربع الجنوبي للفصيل ، حيث كانت الدور بين طريق باب البصرة وطريق باب الكوفة وباسمه سمي الشارع الذي يقع هذا السجن فيه . وسميت بعض اسماء الشوارع في الارباع الاخرى للفصيل باسماء سكانها وحرفهم مثل

---

(١٥) د . احمد سوسة ، بغداد ، المصدر نفسه ، ص ١٩ .
علي ظريف الاعظمي ، مختصر تاريخ بغداد ، ص ٩ .
(١٦) كي لسترنج ، ص ٢٠ — ٢١ .

(١٧) البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٠ — ٧١ .
(١٨) كي لسترنج ، ص ٣٢ .

شارع السقايين وشارع المؤذن وشارع الشرطة(١٩) .

ويمكن فيما يلي اعطاء وصفا دقيقا للاستحكامات الحصينة لمدينة المنصور والتي من خلالها نستطيع ان نتاكد من ان تلك المدينة كانت من امنع الحصون العظيمة في الشرق بالقرون الوسطى

فقد كان الشخص اذا جاوز احد الابواب عطف على يساره فيسير في دهليز ازج معقود بالآجر والجص عرضه عشرون ذراعا وطوله ثلاثون ذراعاً ، وهذا الدهليز يفضي الى رحبة مفروشة بالحصى طولها ستون ذراعاً وعرضها اربعون ذراعاً ، ولها في جانبيها الجنوبي والشمالي - حائطان متوازيان ينتهيان عند باب في اخر الرحبة وهو الباب الذي يراه الداخل . وفي كل من الحائطين باب يفضي الى فصيل عرضه مائة ذراع (٥٠ مترا) ؛ فمن يمين الداخل ويساره فصيلان . وهذا الباب الشاهق هو باب السور الاعظم ولذلك سمي (باب المدينة) ؛ مع ان الباب الاول هو باب الفصيل(٢٠) . فيدخل الداخل من الباب المذكور في دهليز ازج اخر معقود بالآجر والجص ايضا طوله عشرون ذراعا وعرضه اثنا عشر ذراعا ويؤدي الى رحبة مربعة عرضها كطولها عشرون ذراعاً في مثلها ؛ فعلى يمين الماشي (الداخل من باب خراسان مثلا) يوجد طريق يؤدي الى باب الشام وعلى يساره طريق يؤدي الى باب البصرة في فصيل ثان يدور في داخل المدينة كدورة الفصيل الاول ، عرضه خمسة وعشرون ذراعاً ؛ وفي هذا الفصيل تكون ابواب سكك مدينة المنصور التي يسكنها سكان المدينة الذين اجاز لهم الخليفة الاقامة فيها ثم يدخل السائر من باب ساج كبير فردين الى الطواق عدتها ثلاثة وخمسون طاقا وعرض الواحد منها خمسة عشر ذراعاً وطولها مائتا ذراع(٢١) . ثم يخرج من الاطواق الى رحبة مربعة مساحتها عشرون ذراعاً في عشرين ذراعا فمن يمينه طريق يفضي الى فصيل ثالث ويؤدي الى رحبة مماثلة لما يسلك اليها من باب الشام ، ورحبة باب الشام فيها طريق يؤدي الى رحبة ثالثة يسار اليها من باب الكوفة ومنها الى نظيرتها الرابعة في طريق باب البصرة ، وفي الفصيل الثالث تشرع ابواب لعدة سكك . واذا خرج السائر من الرحبة نحو الجنوب دخل في طاقات صغيرة ثم دهليز وسور ثالث يخرج منه الى رحبة دائرة حول قصر المنصور المعروف بباب الذهب ومسجد المنصور .(٢٢) (لاحظ شكل رقم ٤) .

محلات بغداد المدورة :

على اثر انشاء العاصمة الجديدة ؛ اقبل الناس على السكن في جوارها واتسعت قرية الكرخ التي في جنوب المدينة وصارت تعرف باسم محلة (الكرخ) وهي من المحلات الكبيرة بغربي بغداد . والكرخ قرية قديمة كانت في بعض مواضع كرخ العباسيين وكان يمر بالقرب منها الصراة ونهر الرخيل . واتصلت عمارة الكرخ واسواقه بقرية (سونايا) الارمية التي سميت بالعتيقة لتقدمها عصرا على مدينة المنصور ؛ وعرفت ايضا بمشهدها المعروف اليوم بمشهد المنطقة بين الكاظمية وبغداد .(٢٣) وقد نقل المنصور في سنة ١٥٧هـ الاسواق من مدينته المدورة ومدينة الشرقية الى باب الكرخ وباب الشعير والمحول وهي السوق التي تعرف بالكرخ ، وفيها وسع طرق المدينة وارباطها ووضعها على مقدار اربعين ذراعا .(٢٤) وذلك بعدما قدم عليه وفد ملك الروم فامر ان يطاف بهم في المدينة ثم دعاهم فقال للبطريق ، كيف رايت هذه المدينة ؟ قال رايت امرها كاملا الا من خلة واحدة قال ما هي ؟ قال عدوك يخترقك متى شاء وانت لا تعلم ، واخبارك مبثوثة في الآفاق لا يمكنك سترها . قال كيف ؟ قال الاسواق . فامر المنصور حينئذ باخراج الاسواق من المدينة الى الكرخ وان يبني ما بين الصراة الى نهر عيسى . ودعا المنصور بثوب واسع فحدد فيه الاسواق ، كل صنف منها في موضعه .(٢٥) فكان لكل تجارة وتجار شوارع معلومة وصفوف في تلك الشوارع وحوانيت ، وليس يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف مع غيره . وكل اهل منفردون بتجاراتهم .

ومهما يكن من امر فان الكرخ الا ملاءمة هذا الربض الواسع كان موجودا في تخطيط مدينة المنصور . وقبل مرور قرن على ذلك اخذت الكرخ

---

(١٩) اليعقوبي ، البلدان ، المطبعة الحيدرية ، النجف ١٩٥٧ ، ص ٩ — ١٠ .

(٢٠) د . مصطفى جواد ، بغداد ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٢١) الخطيب البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٥ — ٧٦ .

(٢٢) د . احمد سوسة ، فيضانات بغداد في التاريخ ، مطبعة الاديب البغدادية ، ١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ٢١ .

(٢٣) د . احمد سوسة ، الفيضان وطرق بغداد ، المصدر نفسه ، ص ٣١ .

ـ د . مصطفى جواد ، المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

(٢٤) الخطيب البغدادي ، ص ٧٩ .

(٢٥) ابن الجوزي ، المصدر نفسه ، ص ١٢ .

بالتوسع والامتداد خارج حدود نهر عيسى ، فامتد هذا الربض الى جنوب النهر واشغل الاراضي الواقعة على جانبي طريق الكوفة مسافة بعيدة خارج بغداد (انظر الخارطة شكل) ويقدر طول الكرخ بفرسخين (الفرسخ ستة اميال) حدها الاعلى قصر وضاح خارج باب البصرة ؛ وحدها الاسفل سوق الثلاثاء ؛ اما عرضها فنحو فرسخ اعتباراً من ضفة دجلة شرقاً الى قطيعة الربيع غرباً . وتقع هذه القطيعة على يمين الاتي من طريق الكوفة بعد مروره بباب الكرخ .(٢٦)

كما انشأت محلات اخرى عديدة من اهمها محلتا باب البصرة وباب الكوفة اللتان كانتا تقعان شمال الكرخ ؛ اما المنطقة التي في شمال المدينة ففيها عدة ارباض اهمها محلة الحربية في الناحية الشمالية الغربية ومحلة الشارع في الناحية الشرقية ، ومحلة باب التبن والقطيعة والزبيدية في اقصى الشمال بالقرب من الكاظمية الحالية . ومن المحلات الاخرى ، محلة باب الشعير وهي فوق مدينة المنصور ، ومحلة المحول التي كانت متصلة بالكرخ وفيها سوق دخان . ومحلة بادوريا وهي محلة مشهورة ، ومحلة براثا في طرف من بغداد في قبلة الكرخ(٢٧) ، ومحلة الترجمانية وهي محلة قديمة ، ثم محلة التسترين ومحلة دار القطن بين الكرخ ونهر عيسى . ومحلة الشرقية ومحلة ابو النجم . ثم محلة الشارع وهي محلة تعد من المحلات الاربع الكبرى ، والعتابية وهي محلة مهمة يصنع فيها الثياب العتابية وهي حرير وقطن مختلفات الالوان(٢٨) . (انظر الخارطة شكل — ٥) .

كيف تدهورت المدينة المدورة :

يظهر من الوقائع والكتب التاريخية ان المدينة المدورة بقيت كما تركها المنصور الى وفاة حفيده الرشيد سنة ١٩٣هـ/٨٠٩م . وبعد عامين من وفاة الرشيد اشتجر الخلاف بين الامين والمامون ؛ وحوصرت بغداد لأول مرة في تاريخها ودام الحصار اربعة عشر شهراً . وفي حوالي عام ١٩٦هـ ٨١٢م اطبق جند المأمون على الامين في بغداد(٢٩) ، ورزح الجانب الغربي تحت ضربات المجانيق ؛ وتخرب الجزء الاكبر من نصفها الشمالي المعروف بالحربية . ثم رفع الحصار عنها بعد عامين واصبحت بغداد المزدهرة خرائب ودمار لاول مرة في تاريخها ،فقد دمرت النيران احياء باكملها واتت على سجلات الدولة .(٣٠)

ولكن يظهر ان المدينة المدورة بقيت قائمة في خلال القرن الذي تلا هذا الحصار الا ان قصر الذهب تهدم سنة ٣٢٩هـ/٩٤١م ، وبقي الجامع صالحاً للصلاة حتى القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي بعد الحصار المغولي .

كما ان الغرق المتكرر من فيضان دجلة والفرات كان لها اثر في تخريب قسم من مدينة بغداد ، فقد كان يصعب صد تيار الماء في اثناء الفيضان . وقد حصل غرقاً عظيماً في سنة ٣٣٠هـ انهدمت على اثره الطاقات في المدينة المدورة القريبة من باب الكوفة(٣١) . وفي سنة ٣٠٧هـ رفعت بقايا قصر الخلد الذي كان في خارج الاسوار .

وفي نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ،اختفت معظم مدينة المنصور عن الانظار، اما الاقسام الباقية منها فقد تداخلت تدريجياً مع الابنية ، فالفت محلات بغداد التي قامت وراء الابواب الاربعة القديمة لمدينة المنصور وحولها .

بغداد الشرقية (الرصافة) :

تاسيسها :

كان المنصور قد عزم ان ينشيء محلة كبيرة في الجانب الشرقي من بغداد بشرقي مدينته المدورة ، وقدر ذلك وعزم عليه . وقد بدات العمارة فيها سنة ١٥٢هـ ٧٦٨م وانتهت سنة ١٥٧هـ/٧٧٣م . وكان يرى ان هناك ضرورة لجعل مقر ولي عهده (المهدي) وجيشه الخراساني مفصولا عن مقر الخلافة ، ليكون مستعداً اذا اقتضت الحال لقمع كل نزاع قد ينشب بين هذا الجيش وبين جنده العربي هناك . وكانت تعرف هذه المحلة الجديدة اولا باسم « عسكر المهدي » ،

(٢٦) كي لسترنج ، المصدر نفسه ، ص ٦٤ — ٦٥ .
(٢٧) ياسين خيرالله العمري ، غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ، دار البصري بغداد ١٩٦٨ ، تحقيق للمخطوطة في سنة ١٩١٧ لنفس المؤلف ، ص ٢٣ — ٢٤.
(٢٨) محمود شكري البغدادي ، اخبار بغداد وما جاورها من البلاد ، مخطوطة سنة ١٣٢٠هـ / ورقة ٨٥ .
الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق د . جابر عبد العال ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٥٨ — ٥٩ .

(٢٩) دائرة المعارف الاسلامية ، انتشارات جيهان ، تهران ، ج ٤ ، ص ٨ .
(٣٠) الطبري ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٨٦٤ .
(٣١) البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٦ .
— كي لسترنج ، المصدر نفسه ، ص ٤٨ — ٤٩ .

ثم سميت « الرصافة » ، والرصافة كانت تطلق على المواضع التي توجد فيها طرق مرتفعة . واول بناء شيد في هذا الجانب هو جامع الرصافة الكبير ، ثم عقب ذلك بناء قصر المهدي في جوار الجامع واقيمت الدور والقطائع حوله .(٢٢) وقد انشىء حول المعسكر سور يدور حوله خندق عملا بما تقتضيه الاحوال الدفاعية. وعقد المنصور جسراً فوق دجلة من جهة باب خراسان ليصل به القسم الغربي من مدينته بمحلة الرصافة الشرقية وكان يعرف هذا الجسر باسم الجسر الكبير أو جسر الرصافة .(٢٢)

وصارت الرصافة وحدها بقدر مدينة المنصور ، لأن من المقطعين من جعلوا قطائعهم بالجانب الغربي بساتين واسواقاً ومستغلات وغير ذلك من المرافق ، وكانت بين القطائع منازل الجند وسائر الناس من الملاكين والتجار . وكان في الجانب الشرقي اربعة الاف درب وسكة(٢٣) .

توسع الرصافة وبناء اسوارها :

كانت بغداد في اواخر القرن الثالث الهجري تشبه حلقة يحيط بها سور المستعين من كل اطرافها ، ثم اخذ العمران ينتشر في الجانب الشرقي منها فامتد جنوب السور على ضفة دجلة الى مسافة زهاء كيلومتر ، حيث اقيمت قصور الخلفاء والبساتين الملحقة بها وكان اهم هذه المنشآت قصر التاج الذي اسسه المعتضد واتم بناءه المكتفي ، ودار الشجرة والدار المثمنة التي جلس فيها الطاغية هولاكو عند فتحه بغداد ، والدار المربعة ، ودار الوزارة ، والدواوين وغيرها . وصارت تعرف هذه القصور وملحقاتها باسم (دار الخلافة) . وقد اتخذها الخلفاء العباسيون مقراً لحكمهم بعد عودتهم من سامراء سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م . وقد سورت هذه الدار بسور على هيئة نصف دائرة . وقد وصفها ابن الجوزي بقوله « وهي بنفسها بلد » . وكان للسور الذي يطوقها تسعة ابواب رئيسة اشهرها باب الغربة ، وباب الخاصة ، وباب النوبي ، وباب العامة وباب المراتب . اما تاريخ انشاء سور دار الخلافة ، فهو على الارجح ان المعتضد شرع ببنائه واتمه الخلفاء المتأخرون . واتصلت العمارات حول دار الخلافة واصبح سوق الثلاثاء اعظم سوق في الجانب الشرقي فانشئت على جانبيه المحلات والدروب وفي منتصف القرن الخامس الهجري انشئت المدرسة النظامية الى الشمال من دار الخلافة ثم انشئت شمال هذه المدرسة المدرسة المستنصرية في الثلث الاول من القرن السابع .(٢٤)

وفي هذه المرحلة من تطور مدينة بغداد ، اصبح اهم العمران في الجانب الشرقي منتشراً حول دار الخلافة ؛ فكانت اصلا لمدينة بغداد الرئيسة التي ظهرت في العهد الاخير . ففي مستهل حكم الخليفة المستظهر ٤٨٨هـ/١٠٩٥م شرع في انشاء سور عظيم وخندق عميق يحيطان بهذه المدينة الجديدة . ويضمان داخلها دار الخلافة وسورها وجميع العمران الذي انشأ حولها . وكان هذا السور هو وخندقه الخارجي يبدءان من دجلة شمالا وينتهيان الى دجلة عند الباب الشرقي الحالي جنوباً .

وكان الشروع في انشاء هذا السور في خلافة المستظهر ، لكنه لم ينجز سوى قسم يسير منه . واكمل انشاؤه في عهد الخليفة المسترشد . فاتم بناؤه بناء محكماً سنة ٥١٧هـ ، وجعل عرضه (٢٢ ذراعاً) ، وقد ظل هذا السور قائماً حتى اواخر القرن الثالث عشر للهجرة اي ما يقارب ثمانمائة عام . وفي عهد المقتفي عملت مسناة حول السور لئلا تؤثر مياه الخندق فيه ، ثم اكمل في عهد خلفائه وكان الخندق يتصل بنهر دجلة في بدايته ونهايته . وكان يسد عادة كلما دعت الحاجة الى ذلك للحيلولة دون عبور الغزاة . الا ان المياه كانت تتسرب اليه من جهة البر عندما يفيض نهرا دجلة وديالى وتحدث بثوق في السداد التي في الجهة اليسرى لنهر دجلة شمالاً وفي السداد التي في الجهة اليمنى لنهر ديالى شرقاً ؛ فتتجمع مياه الفيضانات خلف سور المدينة فيمتلىء الخندق بالمياه وتصبح مدينة بغداد الشرقية جزيرة محاطة بالمياه من كل جهاتها .

وقد جعل لهذا السور العظيم اربعة ابواب هي : الباب الاعلى في الشمال الذي سماه الناس (باب السلطان) اي السلطان طغرلبك لانه دخل بغداد هناك ، وعرف في العصور الاخيرة بـ « باب

(٢٢) احمد سوسة ، فيضانات بغداد ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٨ .

(٢٣) د . مصطفى جواد ، بغداد ، ص ٢٤ .

(٢٤) انظر : كليمان هوار ، خطط بغداد ، تعريب ناجي معروف ، مطبعة العاني بغداد ١٩٦١ ، ص ١١ – ١٦ .
– د . احمد سوسة ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ص ٥٨ .
– د . مصطفى جواد ، المصدر نفسه ، ص ٥١ .

المعظم » وقد ظل هذا الباب حتى سنة ١٩٢٣ حيث هدم لكي يتسع الدخول الى بغداد ومحله اليوم بين قاعة الشعب وجامع الازبك على يمين الداخل الى بغداد . والباب الثاني هو « باب الظفرية » في الجنوب وهو الباب المقابل لمحلة الظفرية وما زال قائماً بقرب جامع الشيخ عمر السهروردي . والباب الثالث هو الذي كان يعرف بـ « الباب الوسطاني » و « باب الحلبة » وهو الذي عرف في العصور الاخيرة بـ « باب الطلسم » لأن في اعلى الباب تمثال رجل متربع وعلى كل يمنته وبسرته تمثال افعى عظيمة ، وعد العامة ذلك طلسمة لبغداد تحفظها من الاعداء . وقد اتخذه الاتراك في ايامهم الاخيرة بالعراق مخزناً للبارود ثم اوقدوا النار في البارود ونسفوه ليلة خروجهم من بغداد واخلائهم لها للانكليز في ١١ اذار ١٩١٧ . اما الباب الرابع من ابواب السور فهو « باب البصلية » وسمي في العصور التي قبل الاخيرة « باب كلواذى » وقد عرف هذا الباب في العصور الاخيرة بـ « الباب الشرقي » وقد هدمته امانة العاصمة سنة ١٩٣٧ ، بعد ان كان كنيسة للانكليز ، واصبح محله في ساحة التحرير قبالة مدخل جسر الجمهورية . وكان عدا الابواب الاربعة الرئيسة هذه عدد من الابواب الاخرى السرية(٢٤) (انظر الخارطة شكل ٦) .

وفي اخر عهد الخلافة العباسية وبامر المستنصر سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م تكامل بناء سور حول الرصافة ، ومن المرجح ان هذا السور كان يقتفي اثر سور المستعين القديم في اكثر اقسامه . والظاهر انه انشيء للدفاع عن منطقة الرصافة بعد ان وصل خبر تهيؤ عساكر المغول للزحف نحو بغداد . وقد استفيد من هذا السور في الوقاية من خطر الفيضان .

وبعد اكثر من قرنين قام المطراقي الذي كلفه السلطان سليمان القانوني سنة ٩٤٤هـ برسم السور . وفي القرن السابع عشر الميلادي وصفه تافرنيه الفرنسي ، وذكر ابراجه والمدافع التي فوقه وذكر ان طوله حوالي ثلاثة اميال .(٢٥)

وفي سنة ١٧٣٢ ذكر الجغرافي التركي (حاجي خلفه) في كتابه (جهانخا) : ان محيط بغداد الشرقية يبلغ بين ٤٠٠ر١٢١ و ٤٠٠ر١٢ ذراع ، وقد ذكر ان السور كان يضم حوالي ١٦٣ برجا واستحكاماً ، ولكن هذه الابراج لم يكن الدفاع بها ممكناً الا بواسطة الاسلحة الخفيفة ، بينما الابراج العشرة الكبيرة التي في السور كان في كل واحد منها ستة مدافع او سبعة . اضافة الى وجود عدد من الثقوب بين كل ثقب واخر خطوة واحدة .(٢٦)

(٢٤) هواد ، المصدر نفسه .

(٢٥) هواد ، المصدر نفسه .

محلات الرصافة :

اخذت الرصافة بالنمو والتوسع ، بحيث اصبحت تزاحم بغداد الغربية في سعة قصورها وشوارعها واسواقها وعظمتها . وكما جرى للمدينة المدورة حين احاطت بها الارباض التي فيها قطائع رجال بلاط المنصور . كذلك حصل للرصافة في خلال الاثنى عشرة سنة من حكم المهدي ، فاصبحت مركزاً لمدينة نشأت من الدور التي شيدها ابناء الجيل الثاني من رجال القصر . واضحت محلات بغداد الشرقية ثلاث : الرصافة والشماسية والمخرم في سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م (لاحظ الخارطة شكل ــ ٧) .

ومن المحلات الاخرى محلة مشهد الامام ابي حنيفة وكانت مسورة ، وجامع السلطان وهي محلة غير مسورة . وفي جوار محلة ابي حنيفة نشأت محلة باسم (محلة سوق يحيى) . كما نشأت محلتا الخضيرية شمالا جوار محلة الشماسية . ومن المحلات الاخرى محلة الشيخ والظفرية والى جانب الاخيرة ، محلة اخرى كبيرة يقال لها قراح ظفر منسوبة الى ظفر الخادم والترجمانية وهي من محلات بغداد المتصلة بالمراوزة(٢٧) .

حالة العمران في الرصافة :

بعد انتصار المأمون قام بنقل مقر الحكم الى الجانب الشرقي من بغداد واستولى على مقر البرامكة السابق . وفي عهد المعتصم الذي حكم للفترة بين (٢١٨ـ٢٢٧هـ / ٨٣٣ـ٨٤٢م) تنزل بغداد عن مركزها الممتاز باعتبارها حاضرة الدولة؛ بسبب قيامه بنقل العاصمة الى سامراء وذلك لمدة خمس وخمسين سنة(٢٨) . وفي عهد المعتمد نقل مقر الخلافة الى بغداد ، عندما هجر مقر

(٢٦) سعاد هادي العمري ، بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة ، مطبعة دار المعرفة، بغداد ، ١٩٥٤ ، ص ١٤ ــ ١٥ .

(٢٧) محمود شكري البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٨٢ـ٨٩. ــ د . احمد سوسة ، فيضانات بغداد ، ص ٢٨ .

(٢٨) دائرة المعارف الاسلامية ، ص ٨ ــ ١١ .

الخلافة وجعل بغداد حاضرة الدولة الاولى سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م .

وعند تولي المستعين الخلافة ، حاول ان يتم السور حول الجانب الشرقي (كما سبق ذكره) ، الا انه قبل ان يتمه فاجأه المعتز على رأس جيش وبدأ الحصار على بغداد ، مما ادى الى ان يصاب الجانب الشرقي باضرار جسيمة وتخريب اهم احيائه كالرصافة والشماسية والمخرم واعيد بناء اجزاء منها فقط بعد ذلك .(٣٩)

وشهدت الفترة التي اعقبت عودة الخلفاء الى بغداد ، وقبل قدوم بني بويه ، بناء القصور العظيمة ــ على طول ضفة النهر ــ والجوامع ومنها جامع الخليفة (جامع سوق الغزل) والمسجد الجامع المعروف بجامع السلطان . وكانت القصور الى جنوب باب سوق الثلاثاء في سور المدينة الذي اقامه المستعين . وهكذا فقد تضاعفت مساحة بغداد قبل مرور زمن طويل على ذلك ، وانشئت محلات جديدة حول قصر الفردوس والحسني والتاج ، واتصل بعضها بالمخرم .(٤٠) وبنى المستنصر بالله عام ٦٣٠هـ/١٢٣٢–١٢٣٣م المدرسة المستنصرية التي لازالت قائمة وتطل على نهر دجلة .

انهار بغداد ومياه الشرب فيها

كان يروي الجانب الغربي من بغداد نهر واسع يسمى نهر عيسى العظيم، يتفرع من الجانب الايسر لنهر الفرات شمال الفلوجة ويصب في دجلة جنوب بغداد الحالية . وكان قد انشىء عليه سد من الحجر لرفع مستوى المياه وتحويلها الى جدولين رئيسين :شمالي وهو نهر الصراة العظمى وجنوبي يعرف بالرفيل والذي صار يسمى في العهد العربي باسم نهر عيسى . ويتفرع نهر كرخايا من جهته اليسرى . ويتفرع الجدولان من الجانب الايسر للنهر امام السد ، ويجريان متوازيين نحو الشرق وينتهيان الى دجلة فيصبان في وسط بغداد الحالية .(٤١) اما الجزء الشمالي من الجانب الغربي فكان يسقى من جدول قديم يتفرع من الضفة اليمنى لنهر دجلة في جوار بلد الحالية وسمي في العهد العربي باسم نهر دجيل وكان يتفرع من نهر بطاطيا .

(٣٩) الطبري ، ج ٣ ، ص ١٥٥٣ .
(٤٠) كي لسترنج ، ص ٢٧٠ .
(٤١) د . مصطفى جواد ، بغداد ، ص ٨٦ – ٨٩ .

ومن الانهار الاخرى ، نهر العلا وهو يستمد مياهه من الخالص . ونهر موسى ونهر القلايين اللذان يجريان في بغداد . ونهر الطابق في محلة تسمى به بالجانب الغربي قرب نهر القلايين شرقا وأصل اسمه نهر بابك ومأخذه من نهر كرخايا ويصب في نهر عيسى عند دار البطيخ ، ونهر الدجاج عند محلة تسمى به وهو قرب الكرخ(٤٢). (انظر الخارطة شكل ــ ٨) .

اما شبكة جداول الجانب الشرقي من بغداد (الرصافة) ، فكان يستقي من نهر واسع يفوق كلا من انهار الجانب الغربي حجماً وطولا ، وهذا النهر هو الذي عرف (بالنهروان) . وكان يتفرع من الجانب الايسر من نهر دجلة في جوار سامراء فيمتد بمحاذاة نهر دجلة من جهة الشرق مسافة اكثر من مائتي كيلو متر حيث كان اطول نهر عرفه العالم وقتذاك . ثم يلتقى اخيراً بدجلة بالقرب من الكوت الحالية .

وكان فرعان من الفروع لهذا النهر يمدان شبكة الانهار التي كانت تتغلغل في قلب منطقة بغداد الشرقية ، احدهما وهو الشمالي الذي كان يعرف (طسوج نهر بوق) وكانت منطقة الرصافة وما جاورها من قطائع تقع ضمن هذا الطسوج ، وكانت تروى من الانهار التي كانت تتفرع من النهروان فتؤلف شبكة من الجداول تنتشر فروعها في تلك المنطقة . وكان نهر الخالص الفرع الرئيسي الذي يمون هذه الجداول بالمياه والذي يتفرع من نهر الفضل . اما الاخر الجنوبي فكان يسمى (طسوج كلواذا ونهر بين) وهو يأخذ من الجانب الايمن لنهر النهروان متجهاً نحو كلواذى حيث يصب في دجلة وعليه كان يعتمد جزء من الجانب الشرقي لبغداد(٤٣) (انظر الخارطة شكل ٨) .

اما إرواء مدينة بغداد ، فبالنسبة الى المدينة المدورة ، عندما بنى المنصور مدينته لم يفكر في سحب المياه من جداول لقربها من دجلة فكانت ترتوي بماء الروايا وهي جلود تملأ ماءاً فكانت تنقل الى المدينة على بغال ، ولما شعر بصعوبة نقل الماء في الروايا ورأى ما تحدثه البغال من اوساخ . امر رجلين من العالمين بمد القنوات

(٤٢) ياسين العمري ، المصدر نفسه ، ص ٤٤ .
(٤٣) سوسة ، فيضانات بغداد ، ص ٢٢٣ .

بان يمدا قناتين من دجلة الى داخل المدينة .(٤٤)، وامر ايضاً بمد قناة من نهر دجيل وقناة من نهر كرخايا وجرهما الى المدينة في عقود وثيقة من اسفلها محكمة بالآجر والصاروج من اعلاها وكانت كل قناة منها تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع فضلا عن الارباض خارج المدينة . وتجري صيفاً وشتاء لا ينقطع ماؤها في وقت من الاوقات .(٤٥)

تخطيط بغداد منذ الفتح المغولي ١٢٥٨م وحتى الوقت الحاضر :

للاطلاع على حالة التخطيط في بغداد منذ نهاية العصر العباسي ، ودخول المغول وحتى الوقت الحاضر ، لابد من استعراض موجز لحالة الادارة التي كانت في هذه المدينة . ففي سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وصل هولاكو وجنوده الترك والمغول الى بغداد ووجد المستعصم نفسه مضطراً الى التسليم دون قيد ففتحها المغول ونهبت المدينة واحرقت ولكنها لم تخرب باسرها كغيرها من المدن التي فتحوها لانهم كانوا يريدون ان يتخذوا منها عاصمة لهم .

وظلت بغداد بعد احتلال هولاكو تتقاذفها امواج الحروب فتتناوبها ايدي الحكم من احتلال الى آخر زهاء اربعة قرون متتالية الى ان احتلها السلطان مراد الرابع في سنة ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م . فقد حكم فيها الايلخانيون اخلاف هولاكو ٨٢ عاماً . ثم عقبهم الجلائريون الذين حكموا البلاد ٥٧ عاماً ، وبنيت في ايامهم المدرسة المرجانية . وفي ايامهم استولى تيمورلنك على بغداد مرتين الاولى عام ١٣٩٣م ولم يلحق بالمدينة ضرر ؛ والثانية عام ١٤٠٢م حيث ذبح اهلها وخربت المساكن والمنشآت العامة . ورجع احمد الجلائري عام ١٤٠٥م الذي احكم الاسوار (بقدر استطاعته) التي دمرها تيمور ، ولم ينقض سوى ست سنوات حتى قتله قره يوسف امير دولة الخروف الاسود التركمانية ، واستولى رجاله على المدينة وظلت بحوزتهم حتى عام ١٤٦٨م . الى ان انتزعها منهم تركمان الخروف الابيض ، وفي سنة ١٥٠٨م غزا الشاه اسماعيل الصفوي بغداد وظلت بحوزة الصفويين حتى عام ١٥٣٤م . حيث احتلها الاتراك بقيادة سليمان الاول ، وظل يحكمها حتى عام ١٦٢٣م ، حيث استولى عليها الشاه عباس الاول الصفوي . الا ان الاتراك استعادوها مرة ثانية عام ١٦٣٨ بقيادة السلطان مراد الرابع .

وسد مراد باب الطلسم ورمم عدة اضرحة دينية ، وفي هذا العهد هبطت بغداد الى الدرك الاسفل . واستمرت بغداد من جديد مركز ولاية تركية يحكمها هي والبصرة وال واحد في بعض الاحيان . وتميزت ولاية مدحت باشا ١٨٦٩-١٨٧٢ في تاريخ بغداد بانها كانت عهد نهضة اذ تم خلالها فتح عدة مدارس واقامة منشآت ومد خط للترام تجره الخيول بين بغداد والكاظمية .

وفي الفترة الممتدة بين ١٨٧٦ وحتى ١٩٠٩ وهي فترة حكم عبدالحميد لم تشهد بغداد من اعمال الاعمار الذي يهم التخطيط فيها سوى بعض المنجزات البسيطة ومنها انشاء العديد من المباني العامة مثل تاسيس دارين للمطالعة وحصر محلات بيع النفط ، واصلاح بعض الشوارع والازقة التي لم تكن منتظمة بل انها كانت املمرصوفة بالحجارة او طرقات طينية .(٤٦)

وللاحاطة بحالة بغداد العمرانية يمكن استعراض بعض الاقوال التي ذكرها الباحثون في كتبهم ،وكذلك ذكر اهم المعالم الاثارية والحضارية التي لا زالت تحتويها مدينة بغداد .

ففي سنة ١٢٥٨م ، لم يبق من الجانب الغربي الا محال متفرقة اعمرها الكرخ ، وخرب الجانب الشرقي من الشماسية الى المخرم ، وخرب السور(٤٧) .

وفي سنة ١٣٣٩م كانت بغداد الشرقية والغربية محاطة بالاسوار، ولسورالمدينة الشرقية اربعة ابواب ويمتد من ضفة النهر الى ضفته في اسفل السور على هيئة نصف دائرة . ولسور الربض الغربي (الكرخ) بابان .

وكانت حالة بغداد بين ١٥٦٣-١٥٧٤ كما شاهدها caesar Federigo وكذلك راوولف ، قليلة البهجة وابنيتها ليست مشيدة بصورة جيدة،

---

(٤٤) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٥٩ .
- سوسة ، ص ٩٣ - ٩٤ .
- البغدادي ، ص ١١٣ .
(٤٥) محمود شكري البغدادي ، ورقة ٢٢ .

(٤٦) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، ص ٨ - ١٥ .
- عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ج ٤ ، ١٩٤٩ والجزء الثامن ١٩٥٦ .
- جاسم محمد حسن ، العراق في العهد الحميدي ، ١٨٧٦ - ١٩٠٩ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب / جامعة بغداد ، ص ٢٥٤ - ٢٥٨ .
(٤٧) صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق ، مراصد الاطلاع ، ليدن ، ١٨٥٢ ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

وتظهر فيها الازقة الضيقة والبيوت المتهدمة وكثير من الجوامع الخربة التي استحال لونها الى اسود قاتم نقشت على احجارها الكتابات العربية. ومن الاماكن التي تستحق الرؤية مقر الباشا التركي والسوق الكبير ودكاكين التجار ، اما حماماتها فهي اكثر رداءة من حمامات طرابلس والاسكندرية[٤٨] .

اما في الفترة بين ١٦٣٢–١٦٣٨ ، فان من الذين وصفوا بغداد هو الفرنسي تافرنيه الذي مر بالعراق اثناء ذهابه الى الهند ، وتبين من وصفه ، انها كانت في جانبها الشرقي محاطة بسور من الاجر يبلغ طوله نحو ثلاثة اميال ، وتقدر مساحة الارض التي كانت عليها الدور بالف وخمسمائة خطوة طولا وسبعمائة او ثمنمائة خطوة عرضاً .[٤٩]

اما في الفترة بين ١٧٣٢–١٧٥٠ فقد كتب كارستين عن بغداد إذ ذكر ان مقر الحكومة التركية في الولاية كان في بغداد الشرقية ويحيط السور بالمدينة .

وفي سنة ١٧٦٤ وصف نيبور بغداد الحديثة حيث ذكر ان الازقة لا زالت ضيقة وقذرة ومرتفعة ، وان الدور متالفة من عدة طوابق واطرافها محاطة بالجدران وقد غرس في وسطها بعض النخيل وتؤثر اشعة الشمس النازلة على هذا (الحوش) في مضاعفة الحرارة . فيحتاج المرء هناك الى الغرف الصيفية الباردة والمبنية تحت الارض (السراديب) . وتكون سقوف هذه الغرف مغطاة بصورة تامة ومبنية على عمق اربعة او خمسة اقدام تحت الارض وتتصل بواسطة الدهاليز الهوائية المفتوحة على استقامة الشمال ويجري الهواء البارد في هذه الدهاليز وهذه المحلات مفروشة بصورة حسنة .

وكانت استحكامات مدينة بغداد قوية جداً. وكان عدد الجوامع ذات المنائر فيها يبلغ عشرين ، اضافة الى وجود كثير من المساجد الصغيرة . وكان في المدينة وضواحيها حينئذ (٢٢ خاناً) ولكن ستة او سبعة منها فقط كانت مشغولة من قبل التجار الكبار ، كما يوجد فيها كثير من الحمامات العامة .[٥٠]

(٤٨) سعاد العمري ، ص ١٦ – ١٧ .

(٤٩) سوسة ، فيضانات بغداد ، ص ٢٥٠ ، ص ٢٩٢ .
– العمري ، ص ١٠ .

(٥٠) د . احمد سوسة ، فيضانات بغداد ، ٢٥٢ .

اما حالة بغداد في عام ١٨٣٠–١٨٣١ ، فقد كانت على الرغم من تعرضها للتهديم ، ذات اسوار احسن حالا من المدن الاخرى في دول مجاورة . اما ازقتها فكانت ضيقة وعرضها على الاكثر تسعة او عشرة اقدام . وكانت ابنيتها متصلة وليس فيها شبابيك ، وللبيوت ابواب جميلة ، واكثرها لطيفة جداً من الداخل كما فيها الشرفات والاطواق الكثيرة المطلة على الشارع حيث يجلس هناك الناس .وتعج الميادين العامة بالمقاهي الكثيرة حيث يجلس فيها كثير من الناس وهم يدخنون ويشربون القهوة .

اما بغداد في سنة ١٨٦٤ فكانت تتميز كما وصفها Peterman في كتابه (رحلات في الشرق) بكون القسم الاكبر منها واقع في الجانب الايسر ، ومحاط بسور عال متهدم في كثير من المواقع وفيه خندق عميق وجاف . وتحوي المدينة على الكثير من الجوامع الجميلة ذات القباب والمنائر المزينة بالطابوق الملون اللامع . وتتميز ازقتها بان اكثرها ضيقة وممتلئة بالزوايا المفروشة بالحجر ، بحيث يصعب السير فيها اثناء هطول الامطار ، واسواقها بعضها مسقف .

وكانت الدور تبنى وفق طراز خاص من البناء ، إذ كانت الدار تحتوي على حوش واسع في القسم الايمن مطبق بالكاشي ، وهول مفتوح يسمى (بالايوان) وبجانبه غرفتان تحتهما سرداب كبير . وفي مدخله باب يصل الى المطبخ عبر (هول) صغير وفي الوسط مقابل باب الدار تقريباً يوجد ايوان ثان كبير[٥١] .

اما حالة المدينة حتى عام ١٩١٧م ، فقد تعرضت المدينة الى فيضانات خطيرة في سنوات ١٨٨٤ و ١٨٩٤ و ١٨٩٦ و ١٩٠٧ و ١٩١٥م . يضاف الى ذلك ضعف الادارة واضطراب الامن . وفقد سور المدينة اهميته وازيلت المسناة لاستعمال حجارتها في الابنية ثم دفن الخندق وبقي السور الترابي ، وصار يعرف بعد الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٧ ب (سدة المدينة) .

ثم جاء عهد الاحتلال البريطاني ، فلم تكترث بريطانيا للامر وللخراب الذي اصاب بغداد ، فاستمر الامر على حاله ، ومعه بغداد مستمرة على حماية نفسها بالطرق العلاجية الوقتية باعتمادها على السداد الترابية .وقامت السلطات العسكرية المحتلة بتحكيم السور القديم الذي

(٥١) العمري ، ص ٨٤ – ٨٨ .

صار يعرف بأسم (السدة الشرقية) . يضاف الى ذلك انشاء سداد جديدة لحماية المحلات المديدة في بغداد مثل البتاوين والعلوية والكرادة الشرقية والزوية ومعسكر الرشيد والرستمية والزعفرانية . وخلال الفترة الممتدة بين ١٩١٩ و ١٩٥٤ تعرضت بغداد الى تسعة فيضانات غرق قسم من بغداد في بعض منها .(٥٢) اما عن اهتمام الانكليز بالجوانب العمرانية والتخطيطية لبغداد فلم يكن يذكر لشدة اهمالهم لهذا الجانب وتاكيدهم على امور السيطرة على البلاد وابتزازها .

وفي نهاية هذا البحث ينبغي ان نؤكد على ضرورة الاهتمام الكبير بالموروثات الحضارية التي لازال بعضها شاخصاً حتى الوقت الحاضر في مدينة بغداد ، ومنها البيوت الكبيرة ذات الطراز العربي الاصيل ، والمدارس والجوامع ، والاسواق بحيث يمكن تحويلها الى اماكن سياحية تعكس اصالة الحضارة العربية ، او تلك التي تحتاج الى احياء كما لوانها لازالت قائمة حتى الوقت الحاضر ومنها سور بغداد وابوابه خاصة وان هذا السور توجد عنه العديد من المصورات والمرتسمات التي

(٥٢) د . مصطفى جواد ، بغداد ، ص ١١٨ — ١١٩ .

يمكن الاستفادة منها . وفي الخارطة شكل (٩) يمكن ملاحظة بعضاً من هذه المواضع التي توجد فيها بعض تلك الموروثات الحضارية . وذلك لان الاهتمام بها خدمة لامتنا العربية المجيدة ، ومتعة لاجيالنا والسواح الاجانب الذين يرتادون بلادنا .

ومما يلاحظ على مدينة بغداد بعد ثورة تموز ١٩٥٨ ، انها شهدت توسعاً كبيراً في العمران . ونمواً مضطرداً في عدد السكان اذ ازداد عددهم من مليون نسمة عام ١٩٥٧ الى حوالي ثلاثة ملايين عام ١٩٧٧ بسبب الهجرة السكانية من جميع المحافظات الى بغداد ، وقد صحب ذلك ظهور احياء جديدة وعلى الاخص بعد فتح قناة الجيش في عام ١٩٦١ ، اذ ادى الاجراء الاخير الى توزيع العديد من القطع السكنية على المواطنين على جانبي القناة التي يبلغ طولها ٢٣٫٧ كم(٥٣) . يضاف الى ذلك التوسع الافقي الكبير لمدينة بغداد في جانبيها الشرقي والغربي ، مما جعلها مدينة تفتقر الى الكثير من الجوانب التخطيطية التي تتوفر في المدن العالمية الكبرى .

(٥٣) صالح فليح الهيتي ، تطور الوظيفة السكنية لمدينة بغداد الكبرى ، مطبعة دار السلام بغداد ، ١٩٧٦ ، ص ١٢٧ — ١٣١ .

★

عمارات بغداد في العصر العباسي

خالد خليل الأعظمي

بغداد ـ الجمهورية العراقية

ولدت الفنون الاسلامية ونشأت على اثر ظهور الاسلام وانتشاره ، وقد نهضت وتطورت في خدمة هذا الدين الجديد ، والمجتمع الجديد ، والدولة الجديدة .

كانت هناك فنون عديدة سابقة للاسلام مثل الفنون الساسانية والبيزنطية والهلنستية والقبطية، اقتبس المسلمون منها ما هم بحاجة اليه وما يتناسب مع دينهم ويلائم ذوقهم الفني ، واضافوا الى ذلك ما ابتكروه من عناصر واشكال جديدة ، ومن هنا كانت من مميزات الفنون الاسلامية تنوع مصادرها تنوعا كبيرا ، واتساع افق الاقتباس والاشتقاق فيها اتساعا كبيرا . على ان الفنون الاسلامية عموما تمتاز في الوقت نفسه بوحدة التعبيرات الفنية التي مصدرها هو ان المسلمين ـ عربا أم عجما ـ اصبحت لهم قدرة فائقة على تحوير العناصر المشتقة وتشكيلها باشكال جديدة لم تكن معروفة او متبعة من قبل ، وادخلوا عليها من الخصائص الفنية ، وابتكروا من الاساليب ما يطبع بطابع خاص يعبر عن وحدة الخيال الفني ، ووحدة التفكير والمزاج والالهام ، وكانت العمارة اول حقل ظهرت فيه تلك المواهب الفنية عندما نشأت من ذلك البناء البسيط الذي اقامه الرسول (ص) في المدينة حيث بنى مسجده الذي اصبح نظام بنائه نموذجا للمساجد الاسلامية . ولا يكاد بناء من الابنية الاسلامية الا ونجد فيه عنصرا من العناصر المبتكرة الجديدة . وكانت الفكرة الاسلامية الانشائية الرئيسية في تخطيط وتصميم العمائر بصفة عامة هي فكرة الاتساع الافقي وقابلية الامتداد حيث الفضاء الشاسع الذي تحدده المرتفعات . اما الزخارف المعمارية الاسلامية فقد ازدهرت ازدهارا كبيرا واتخذت لها خصائص مميزة من حيث التصميم والاخراج الفني، ومن حيث الموضوعات والاساليب الزخرفية . وبصورة عامة نجد ان العمارة وزخرفتها في العصر الاسلامي قد اتسمت بطابع واضح ينطق بوحدة التعبير الفني مظهرا وجوهرا رغم اختلاف الاقطار الاسلامية وتتابع العصور .

وفي الحقيقة ان العمارة الاسلامية خضعت في في نشأتها وتطورها الى عوامل كثيرة من اشهرها وابرزها هي :

١ ـ العوامل الدينية التي تمثلت في تخطيط وعمارة المساجد والمدارس والاربطة والابنية الاسلامية الاخرى ، والتي انبثقت منها نظم تخطيطية لم تكن معروفة من قبل .

٢ ـ العوامل الجغرافية والطبيعية للاقطار الاسلامية ، حيث كانت لبعض العمائر اهداف وفوائد مقصودة ، كبناء الخانات في الطرق التجارية ، واقامة الاربطة عند حدود الدولة الاسلامية .

اما بالنسبة لمواد البناء فنجد استعمال الآجر في الاقطار والاقاليم التي تتوفر فيها مادة الطمي والطينة الجيدة كما في العراق ومصر وايران . بينما استعملت الصخور والاحجار في بلاد الشام والحجاز حيث يمكن الحصول بسهولة على هذه المادة هناك .

٣ ـ العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . فقد بنيت عمائر متنوعة تبعا لاوضاع الدولة في حالات السلم والحرب ، كبناء المدن والقصور المحصنة والاسوار والقلاع . وكذلك اقامة

عمائر لطبقة الاثرياء والحكام تختلف عن ابنية عامة الناس(١) .

يمكننا القول بان العمارة الاسلامية قد اكتملت شخصيتها وبلغت اوج تقدمها خلال العصر العباسي، وهذا ما نلاحظه في الابنية الباقية ببغداد من ذلك العصر . اذ هي رغم قلة عددها لكنها تعكس السمات البارزة للعمارة والزخرفة آنذاك وتدل على خبرة واسعة في التخطيط والبناء ، وعلى مقدرة ودراية في اختيار المواد المناسبة وحسن استعمالها ، وعلى براعة في تكييف تلك الابنية وفق متطلبات الظروف المناخية للقطر . وهي مع ذلك تحتفظ بزخارف تدل على ذوق رفيع وعلى مهارة في ابداع الاساليب الفنية وتنسيق الاشكال الزخرفية .

ان هذا العدد القليل من العمائر الذي وصلنا من الفترة العباسية ليدعو الى الاعتزاز لما تميز به من مظاهر وخصائص جديرة باستلهام الافكار منها .

ويجدر بنا قبل الكلام عن العمائر العباسية القائمة ببغداد ان نشير ولو بايجاز الى مدينة السلام التي اسسها الخليفة المنصور وجعلها دائرية الشكل، وان نتطرق الى بعض الاشارات التاريخية وما ورد في المراجع العربية عن الابنية البغدادية ، لنستخلص منها بعضا من ميزات العمارة العباسية ببغداد التي لم يصلنا مثال قائم عنها .

اشارت كتب المؤرخين والرحالة بصورة مفصلة الى تاريخ بغداد وتاسيسها وخططها واسوارها ومداخلها ووصفها ؛ حتى ليستطيع المرء ان يرسم صورة واضحة عنها في عهد مؤسسها المنصور الذي جعلها مدورة لئلا يكون بعض الناس فيها اقرب اليه من البعض الاخر . وقد اصبح اختيار الشكل الدائري لهذه المدينة موضع نقاش طويل بين العلماء والباحثين ، فسار البعض على النهج الذي وضعه معظم المستشرقين في محاولاتهم نسبة كل جديد وكل ابتكار في الحضارة العربية الاسلامية الى العهود القديمة السابقة للاسلام ؛ فتوصلوا الى امثلة قليلة عن مدن مدورة الشكل تقريبا ، كما توصلوا الى ان هذا التخطيط الدائري له مزايا حربية وفيه اقتصاد في نفقات البناء بالنسبة لاي تخطيط آخر . ولكن الباحث يلاحظ في تلك الاراء امورا لا تؤيدها من ابرزها : ان امثلة المدن المدورة السابقة لبغداد كانت في عهد المنصور جميعها اطلالا مندثرة لا حياة فيها اضافة الى كونها بعيدة المنال نائية عن موقع الانظار ، ثم ان تلك المدن لم تكن مدورة تماما بل كانت شبيهة بذلك ، هذا بالاضافة الى كونها مدنا محصنة ذات اسوار وابراج فكانت استدارتها من متطلبات فكرة التحصين(٢) .

ان اهمية تخطيط بغداد تكمن في جوهرها اكثر من مظهرها ، وان هذا التخطيط نموذج واضح رائع من اهم نماذج تخطيط المدن التي عرفت في التاريخ كما انه ليس لهذا التخطيط نظير في اي مدينة سابقة للفتوحات العربية الاسلامية اذ هو تخطيط مبتكر من قبل الخليفة المنصور وحققه ونفذه اتباعه من المهندسين واهل المعرفة(٣) .

ان الفكرة السائدة في انشاء المدن الاسلامية الاولى هي ان يقام في مركزها المسجد الجامع ودار الامارة وبيت المال ثم تبنى المنازل حولها ، وهذا ما سار عليه المنصور ، ولكن الفكرة الجديدة في تخطيط بغداد هو ان يتساوى البعد بين المركز الذي فيه قصر الخلافة وبين جميع اطراف المدينة ، وهذا ما لم يحدث قبل بغداد . والناحية الثانية هي اننا لم نلاحظ في غير مدينة بغداد ان انبثقت من مركزها طرق مستقيمة ممتدة الى الاطراف . والناحية الثالثة هي تقسيمها الى اربعة اقسام متساوية بين كل واحد منها وآخر صفا من الطاقات تمتد من وسط المدينة الى المداخل الاربعة في سورها ، وكل قسم منها قائم بذاته تتناسق فيه الشوارع والدروب والمنازل وهذا مما لم يراعى في اية مدينة اخرى . والناحية الرابعة في مبتكرات تخطيط بغداد هي اكتفاء كل قسم من اقسامها الاربعة اكتفاء ذاتيا ، حيث المساجد والحمامات في كل ناحية ومحلة ، كما ويوجد سوق تجمع التجارات فيها(٤) .

بنى الخليفة المنصور المسجد الجامع في وسط المدينة المدورة وكان بسيط البنيان ، حيث استعمل في بنائه اللبن والطين واساطين الخشب . والى جوار

(١) شافعي (الدكتور فريد) : العمارة العربية في مصر الاسلامية (عصر الولاة) المجلد الأول ، مصر (١٩٧٠) ص ٢٣١ - ٢٩٢ .

(٢) انظر عن ذلك : اليعقوبي : البلدان (العراق - ١٩٥٧) ص ٦ .
الطبري : تاريخ الرسل والملوك (ليدن - ١٩٦٤) ج١٠ ص ٢٧١ - ٢٧٩ .
الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد (القاهرة - ١٩٣١) ج ١ ص ٦٦ - ٦٧ .
البلاذري : فتوح البلدان (ليدن - ٨٦٦) ص ٢٨٧ .
دائرة المعارف الاسلامية : مادة بغداد (طبعة سنة ١٩٢٣)

(٣) شافعي : المرجع السابق ص ١٨٣ . فكري (الدكتور احمد) : اهمية تخطيط بغداد في تاريخ البلديات ، مجلة الاقلام (بغداد) ج ١ (ايلول - ١٩٦٤) ص١٠٤.

(٤) فكري : المرجع السابق ص ١٠٦ - ١٠٧ .

هذا المسجد بنى المنصور قصره المعروف بقصر باب الذهب او قصر القبة الخضراء حيث اقيم فيه ايوان كبير مرتفع تعلوه قبة على رأسها تمثال فارس بيده رمح(٥) ؛ ومن المحتمل ان تكون هذه القبة قد كسيت بالواح القاشاني الاخضر او الاجر المزجج باللون الاخضر فاسبحت توصف بذلك .

توسعت بغداد حتى عبرت الى الجانب الاخر من نهر دجلة فسمي الجانب الغربي منها « الكرخ » واطلق على الجانب الشرقي اسم « الرصافة » وازدهرت المدينة بجانبيها ، وبنيت فيها قصور وابنية كثيرة ذكرت اسماءها المراجع العربية ولكنها اغفلت وصف عمارتها وزخارفها . على انه وصلنا وصف موجز عن بعضها . وفي قصص الف ليلة وليلة اشارات عديدة عن بعض القصور الفخمة التي زينت جدرانها وسقفها بزخارف ذهبية وملونة والتصاوير المتنوعة(٦) . واشارات بعض الكتب الادبية الى مجلس انشاه الخليفة الامين ابن هرون الرشيد كان فيه ايوان صورت فيه التصاوير وذهب سقفه وحيطانه وابوابه ، وجعل كالبيضة بياضا(٧) . وذكر ايضا ان قصر المعتصم ببغداد كان له ايوان منقوش بالفسيفساء وفي صدره صورة عنقاء(٨) . كما وذكر ان احد الاغنياء بنى دارا زينت بالنقوش والصور الذهبية والكتابات التذكارية(٩) ، واشار الرحالة الى قصر الخليفة المستنجد بالله الذي كان واسع الارجاء فيه الرخام والاساطين المزوقة بالذهب والمزينة بالحجارة النادرة والمنقوشة بالريازة البديعة تكسو الحيطان(١٠) .

ان هذه الامثلة القليلة التي اوردتها المراجع القديمة تدل على ان الخلفاء والاثرياء من الناس قد تفننوا في بناء العمائر والقصور الفخمة من حيث البناء والزخرفة . وتدل ايضا على استعمال زخارف جدارية متنوعة منها جصية ومنها بالالوان المائية ومنها بالواح القاشاني ومنها باحجار المرمر والرخام .

شاركت عوامل كثيرة في خراب واندثار الابنية الكثيرة المشهورة التي اقيمت في بغداد خلال العصر العباسي ، ولم يبق غير قليل منها يرجع تاريخها الى الفترة المتأخرة من العصر العباسي اي الى حوالي القرن السادس والسابع بعد الهجرة (القرن الثاني عشر والثالث عشر بعد الميلاد) ، وهذا العدد القليل هو الاخر لم يسلم من يد الاعتداء والتجاوز وعوامل التخريب والتشويه ، على ان العناية والرعاية قد تداركت ذلك فبذلت جهود كبيرة من اجل المحافظة عليها وترميمها وصيانتها بما يكفل محافظتها على صورتها الاصلية .

ان اقدم الابنية العباسية القائمة ببغداد هو احد مداخل سور الجانب الشرقي ويعرف باسم « باب الظفرية » ومن المعلوم ان هذا السور بني في عهد الخليفة المسترشد بالله الذي حكم في الفترة بين سنة ٥١٢-٥٢٩ هجرية (١١١٨-١١٣٥) ميلادية(١١). وهو عبارة عن برج اسطواني الشكل ضخم ومرتفع تتصل به قنطرتان احداهما تربطه بالمدينة والثانية تربطه بخارج المدينة ، وقد فتحت في جوانب الجدران واعاليها مزاغل للرماية ، هذا وزينت واجهة المدخل المطلة على المدينة بزخارف هندسية ونباتية بينما احاط بالبرج من الخارج شريط من كتابة تذكارية ، ان هذا المدخل يعتبر خير نموذج للمداخل المنحنية التي استخدمت في مدينة المنصور المدورة والتي فقدت آثارها ومعالمها الان .

ومن الاثار التي تعود الى العصر العباسي ثلاث مآذن كانت تابعة لمساجد مشيدة بجوارها ، واقدمها مئذنة مسجد الحظائر (يعرف حاليا جامع الخفافين) الذي شيد من قبل زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة سنة ٥٩٩ هجرية (١٢٠٢ ميلادية)(١٢) ؛ وقوامها قاعدة مثمنة يعلوها بدن اسطواني الشكل ينتهي بمقرنصات تحمل شرفة لوقوف المؤذن ؛ ويقوم فوقها عنق المئذنة وهو اسطواني الشكل كذلك لكنه يقل عن البدن في قطره وطوله ، ثم تنتهي المئذنة في اعلاها براس مدبب او

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ١ ص ٤٨ - ٤٩ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .
(٦) الف ليلة وليلة ، مقابلة وتصحيح الشيخ محمد قطة العدوي (مصر - بولاق ١٢٧٩ هجرية) جـ ٤ ص ٣٠٢ ، ٣١٤ .
(٧) ابن المعتز : طبقات الشعراء (القاهرة - ١٩٥٦) ص ٢٠٩ .
(٨) المرزباني : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء (مصر ١٣٤٣ هجرية) ص ٣٠١ - ٣٠٢ .
العسكري : الصناعتين : الكتابة والشعر (مصر - الطبعة الثانية) ص ٤١٨ - ٤١٩ .
(٩) ابن الجوزي : المنتظم (حيدر آباد - ١٣٥٧ هجرية) جـ ١٠ ص ٨٠ - ٨٢ .
(١٠) بنيامين : الرحلة (بغداد - ١٩٤٥) ص ١٢١ - ١٢٢ .

(١١) ابن الجوزي : المنتظم جـ ٩ ص ٨٥ . ابن الجوزي : مناقب بغداد (بغداد - ١٣٤٢ هجرية) ص ١٧ .
ابن الاثير : الكامل في التاريخ (ليدن - ١٨٧٠) حوادث سنة ٤٨٨ ، ٥١٧ .
(١٢) جواد (الدكتور مصطفى) : عمارات القرن السادس المشخصة ، مجلة سومر م ٢ (١٩٤٦) جـ ١ ص ٦٥-٧٢

قمة تشبه القبة الصغيرة . وهذه المئذنة تمتاز بتناسق اقسامها واجزائها تناسقا بديعا يدل على ذوق رفيع وبراعة في بناء المآذن مما جعلها تترك اثرا بالغا في طراز المآذن البغدادية عموما . والمئذنة الثانية تقع في مسجد الجنائز المعروف حاليا جامع الشيخ معروف وقد كتب عليها تاريخ بنائها في سنة ٦١٢هـ (١٢١٥ ميلادية) وهي تشبه سابقتها مع اختلاف قليل في شكل المقرنصات وزخارفها اما المئذنة الثالثة فهي مئذنة مسجد قمرية الذي بناه الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٢٦هجرية (١٢٢٨م)(١٣) وهي تختلف عن سابقتيها من حيث ارتكازها على قاعدة مربعة ووجود بدن اسطواني ضخم فوقها وبساطة مقرنصات شرفتها ونحافة عنقها بشكل يوحي الى انها قد تعرضت لاصلاحات وترميمات عديدة .

ومن العمائر العباسية التي بنيت خلال فترة نفوذ السلاجقة الابنية التي تقام بجوار اضرحة العلماء والاولياء واصحاب النفوذ والسلطان . ويوجد مثال عن ذلك في بغداد ينسب الى زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله وعرفت تسميته حاليا بالست زبيدة زوجة هارون الرشيد وهذا ما لا تؤيده الشواهد التاريخية والادلة الاثرية وعناصر البنيان وشكله(١٤) . والبناية المذكورة عبارة عن حجرة صغيرة مثمنة الاضلاع يقع مدخلها في احد اضلاعها ، ويقوم فوقها قبة مخروطة مقرنصة الشكل ويصل الارتفاع الكلي لها حوالي "١٣" مترا" ، وسطوح الجدران من الداخل مغطاة بالجص بينما من الخارج تظهر مزينة باشكال عقود مدببة تعلوها مساحات مزخرفة بالآجر .

ويوجد في بغداد بناية تعرف حاليا بالقصر العباسي تعتبر من روائع التراث العربي الاسلامي في العمارة والزخرفة ، ورغم ان تاريخها وحقيقتها غير معروفين تماما الا انه يوجد رأيان بارزان عنها احدهما يقول بانها « دار المسناة » التي بناها الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٦ – ٥٨٠ هجرية = ١١٨٠–١١٨٤ ميلادية) والراي الاخر يرى بانها « المدرسة الشرابية » التي بنيت في حدود سنة ٦٢٨ هجرية (١٢٣٠ ميلادية)(١٥) ورغم عدم التوصل الى نص صريح او ادلة قطعية الا ان الراي الاخير الذي يعتمد على وجود تشابه كبير بين هذه البناية وبين المدارس الاسلامية عامة والعباسية القائمة ببغداد مثل المستنصرية من حيث التخطيط والعمارة والشكل العام والمعزز كذلك بالشواهد التاريخية كل ذلك يجعله مرجحا على غيره . والبناية المذكورة عبارة عن مجموعة من الحجرات ذات طابقين تطل على ساحة مكشوفة في جانب منها بين الحجرات ايوان كبير يقابله مسجد ويقع خلف الحجرات رواق يتقدم قاعات كبيرة مرتفعة ويقع مدخل البناية في الضلع الجنوبي الغربي حيث يؤدي الى ممر افقي طرف منه يؤدي الى القاعات الكبيرة والطرف الاخر الى الساحة الوسطية ، ويتقدم الحجرات الصغيرة المطلة على الصحن رواق مزخرف بمقرنصات بديعة التكوين والنقوش . كما زينت بواطن الايوان والممرات وبعض السقوف بزخارف هندسية ونباتية .

وخير مثال للعمارة العباسية نجده في المدرسة المستنصرية التي شيدها الخليفة المستنصر بالله في سنة ٦٢٥هجرية (١٢٢٧ ميلادية) واستغرق بناؤها ستة اعوام(١٦) . وهي تتكون من ساحة وسطية مستطيلة الشكل في جهتها الشرقية مدخل له واجهة شامخة مزخرفة ويبرز في بنائه عن جدران البناية بينما يطل على الساحة بما يشبه الايوان الكبير ، ويحيط بالساحة الوسطية حجرات وغرف من طابقين ، وعلى طرفي الساحة ايوانان كبيران متقابلان ويقابل المدخل مسجد صغير ، وفي الجانب الجنوبي توجد قاعات كبيرة للدرس يتقدمها رواق مرتفع . وكانت في الجانب الشمالي من البناية من الخارج دار القرآن بقي منها ايوانها فقط . هذا وزخرفت جميع الواجهات وبواطن الاواوين بزخارف هندسية بديعة تتخللها العناصر الزخرفية النباتية بينما يمتد في اعالي الجدران من الخارج شريط زخرفي من كتابات بعمارتها وزخارفها موضع اعجاب من زارها من تذكارية وتاريخية . وقد كانت هذه البناية الرحالة والمؤرخين خلال تاريخها الطويل .

---

(١٣) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة (بغداد – ١٣٥١ هجرية) ص ٤ ، ١٨٨ ، ٢٩٦ .

(١٤) جواد (الدكتور مصطفى) العمارات الاسلامية ، مجلة سومر م ٣ (١٩٤٧) ج ١ ص ٢٨ وما بعدها .

(١٥) مديرية الآثار القديمة (العراق) : بقايا القصر العباسي في قلعة بغداد (بغداد – ١٩٣٥) ص ١ – ٢١ ، ٢٠–٢٢.

جواد (الدكتور مصطفى) : القصر العباسي ببغداد ، مجلة سومر (١٩٤٥) ج ٢ ص ٦٥ – ٨٦ .

ناجي معروف : المدارس الشرابية (بغداد – ١٩٦٥) ص ١٥٢ – ١٨٦ .

(١٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان (حيدر آباد – ١٩٥٢) ج ٨ ص ٧٢٩ . ابن الساعي : مختصر اخبار الخلفاء (مصر ١٢٠٩هـ) ص ١٢٢ . ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٥٣ . السيوطي : تاريخ الخلفاء (مصر ١٩٥٢) ص ٤٦٢ .

التخطيط العام للابنية

ان الامثلة القليلة الباقية من العمائر العباسية وما ذكرته المراجع التاريخية والادبية توضح لنا الخصائص المهمة للتخطيط العام للابنية العباسية ببغداد فمدخل سور المدينة المعروف بباب الظفرية يذكرنا بمداخل مدينة المنصور المدورة التي جعلها من النوع المعروف بالمداخل المنحنية او الزورة ، والذي يتميز بكونه اكثر تحصينا ومناعة من سواه من خلال شكله وطريقة اجتيازه والعوائق الموجودة في طريق المقتحمين ووسائل الدفاع المقامة في جدرانه والخندق المحيط به .

اما المآذن فان من مزاياها تقسيمها الى اجزاء متناسقة في الحجم والطول ؛ فاستخدم لقواعدها الشكل المربع والمضلع ، بينما تميزت ابدانها بالشكل الاسطواني واقيمت شرفة المؤذن فوق طبقات من المقرنصات ذات الوظيفتين العمارية والزخرفية . وقد روعي تناسب اقسامها تناسبا يدل على خبرة ومهارة . كما غلب على عمارة المآذن البغدادية طابع البساطة والهدوء في التخطيط والمظهر العام مما جعلها نموذجا يحتذى به حتى الوقت الحاضر .

وابنية المشاهد والقباب التي اقيمت فوق الاضرحة التي وصلنا مثال عنها تتميز باقامة حجرة مضلعة فوقها قبة مقرنصة ذات شكل مخروطي يساعد على ارتفاعها في الفضاء ارتفاعا شاهقا رغم المساحة الصغيرة التي بنيت فوقها مما يجعلها مميزة بارزة .

اما بالنسبة للمدارس فان الساحة الوسطية المكشوفة هي التي تزود الحجرات والغرف المحيطة بها بالضوء والهواء النقي كما انها تستخدم احيانا للصلاة في ايام الجمعة والعيد عندما لا يتسع مسجد المدرسة الصغير الى جمهور المصلين . واقيمت في هذه المدارس قاعات كبيرة للدرس تقع في جانب منها واستخدمت الاواوين فيها للاستراحة او للتدريس احيانا . وبنيت لهذه العمائر مداخل ذات واجهات شاهقة مزخرفة وبارزة عن البناية ربما لتكسب المدرسة اهمية وتميزها من العمائر .

البناء والتسقيف

استعمل الاجر كمادة رئيسة في البناء والزخرفة في جميع العمائر العباسية القائمة لامكان الحصول عليه بسهولة وتوفر المادة الاولية الجيدة التي يصنع منها في منطقة بغداد وما يجاورها . على ان المراجع العربية تشير الى استخدام الاحجار والجص الى جانب ذلك وخاصة في الزخارف الجدارية . وقد استخدمت في العمارة عموما العقود والاقبية ذات الاشكال المدببة في الغالب وخاصة في المداخل والواجهات ، والى جانب ذلك نجد عقودا مفصصة او مقوسة (جزء من قوس دائرة) . وقد تفنن المعمار في بناء الاقبية فجعل بعض السقوف ذات اقبية متقاطعة فتحت في وسطها فتحة للضوء والهواء وهذا ما وجدناه في قاعات الدرس الكبيرة في المستنصرية وبناية القصر العباسي . وقد استعين بالمقرنصات في تسقيف الممرات والاروقة .

وسائل الاضاءة والتهوية

ان المصدر الرئيس للضوء والهواء في مختلف العمائر البغدادية هو الساحة الوسطية المكشوفة فكانت معظم مرافق السكن مفتوحة الابواب عليها ، وكان اغلبها عديم النوافذ والشبابيك . وكانت الجدران الضخمة عاملا مهما في قوة البناء وفي عزله عن الخارج ، كما كانت ذات فائدة كبيرة في تكييف البناية صيفا وشتاء باعتبارها تساعد على احتفاظ المرافق السكنية بجو ودرجة حرارة ثابتة تقريبا وتكون عازلا لها عن الظروف المناخية القاسية . والى جانب ذلك استخدمت طريقة لايجاد جو مناسب في القاعات الكبيرة حيث اقيم رواق مرتفع البناء في اعلاه نوافذ تفتح صيفا فيصبح الهواء المار خلالها لطيفا قبل وصوله الى تلك القاعات والحجرات الموجودة عنده .

الزخارف والنقوش

اوضحت لنا الامثلة القائمة ان العمائر البغدادية لم تخلو من الزخرفة كما ان المراجع التاريخية والادبية فيها الكثير من الاشارات عن الزخارف المتنوعة التي كانت تزين الابنية العباسية ببغداد ، واذا كان الآجر قد لعب دورا كبيرا في زخرفة العمائر التي وصلتنا ، فان الجص والواح الرخام والمرمر والقراميد (القاشاني) كان لها دور في ذلك ايضا .

ان الآجر مادة يسهل تقطيعها وتهذيبها ونحتها ونقش العناصر الزخرفية عليها ومن خصائصه كذلك مقاومته ودوامه مدة طويلة . ومن خلال الزخارف التي وصلتنا تميز ثلاث طرق اتبعت في تكوينها :

١ ـ تصفيف قطع الآجر باوضاع مختلفة يبرز بعضها عن سطح الجدار مما يكون زخرفة تشبه في شكلها العام حياكة الحصير لذلك سميت بالزخرفة الحصيرية .

٢ ـ تقطيع الآجر الى اجزاء صغيرة ذات احجام واشكال تؤلف في مجموعها شكلا هندسيا ، وتكون تارة بارزة عن سطح الجدار ، او بمستوى سطح الجدار .

٣ ـ حفر الزخارف على سطوح قطع الآجر بحيث تظهر العناصر الزخرفية بارزة مجسمة وهذا يتمثل في العناصر النباتية بصورة خاصة .

اما بالنسبة للعناصر الزخرفية فاشهرها : الاشكال الهندسية ، الاشكال النباتية ، المقرنصات، الكتابات .

احتلت الاشكال الهندسية مكانة مرموقة حيث زينت بها معظم العمائر التي وصلتنا ، وقوامها الاطباق النجمية المتنوعة والمضلعات الهندسية . وهذه الاشكال الهندسية تعتمد في اساس تكوينها على الدائرة واقطارها التي تؤلف من تقاطعها والتقائها الاشكال المطلوبة ، وهذا يدل على ازدهار علم الهندسة ومهارة الفنان ؛ ومما اضفى حيوية على تلك الزخارف هو تزيينها بالعناصر النباتية .

لعبت الزخارف النباتية دورا بارزا كذلك فقد زينت بها الاشرطة والاطارات وارضيات الكتابات وبواطن الاشكال الهندسية والمقرنصات وكان العنصر الرئيس المستخدم فيها هو « المروحة النخيلية » المعروفة باسم (البالمت Palmette) ولكنه ظهر بانواع واشكال عديدة منها المفصصة والبسيطة . وبصورة عامة تميزت العناصر النباتية بالتناظر والتقابل والتكرار بصورة توحي الى اتباع نظام خاص في مظهرها وتكوينها كما تميزت بظاهرة النمو والامتداد . وهذا النوع من الزخرفة اثار اهتمام الباحثين نظرا لما كان يشاهد في جميع المجالات الفنية وعلى مختلف التحف والاثار فاطلق عليه الباحثون اسم الزخرفة العربية او زخرفة التورق العربي وسماه الاجانب باسم الارابسك (Arabeque) ⁽¹⁷⁾ .

ومن الزخارف المهمة عنصر المقرنصات الذي كانت وظيفته عمارية فاصبح يؤدي دورا زخرفيا كذلك ؛ وظهر بازهى اشكاله في بناية القصر العباسي والمقرنصات تتكون من مجموعة من قطع الآجر تختلف في شكلها وحجمها وتتدرج في طبقات او صفوف من حنايا وكتل بارزة تنتهي باشكال نجمية او قباب مضلعة صغيرة ، ومما زاد في رونقها وبهائها تزيين بواطنها بالعناصر النباتية .

واستخدمت الكتابات التذكارية كعنصر من العناصر الزخرفية حيث زينت بها الواجهات بشكل اشرطة وحقول تمتد في اعالي الجدران أو في مداخل العمائر وقد انجزت هذه الكتابات بطريقتين : تارة ذات حروف بارزة كبيرة كل حرف من كلماتها يتكون من عدة قطع من الآجر ؛ وتارة اخرى تظهر الحروف بارزة فوق مهاد من زخارف نباتية قوامها اغصان وفروع مورقة تملأ الفراغات الموجودة بين الحروف .

ان تلك المزايا والخصائص التي نلاحظها في العمارة العباسية ببغداد تدل على الجهود الكبيرة المبذولة من قبل المعمار والفنان خلال تلك الفترة التاريخية ؛ وتوضح لنا مدى الخبرة والمهارة في هذا المضمار ؛ وكذلك تبين لنا المعالجة العلمية والموضوعية لتقلبات الجو والمناخ في القطر ، وفي ذلك ايضا توضيح لجانب من حضارتنا وتراثنا المتميزة بالحيوية والتجديد والابداع والاتقان ؛ مما يجعلها امثلة تستلهم منها الافكار .

---

(١٧) فكري : مساجد القاهرة ومدارسها (مصر ١٩٦٥) ج ١ ص ١٧٦ ـ ١٩٠ . مرزوق (دكتور محمد عبدالعزيز) : الفن الاسلامي ـ تاريخه وخصائصه (١٩٦٥) ص ١٨٠ ـ ١٨٢ .

خانات بغداد

من القرن التاسع وحتى مطلع القرن العشرين

بقلم
برهان نزار محمد علي المناخ
كلية التربية ـ جامعة بغداد

المقدمة

مدينة بغداد ، هذه الحاضرة العربية العريقة في حضارتها وثقافتها ، والغنية بآثارها وفنونها ومواردها ، يمكن أن نعدها بحق من اعظم مدن العالم في القرون الوسطى ، لما خلدته لنا من آثار مادية وفكرية وفنية ؛ جعلتها تفوق شهرتها ـ وخاصة في العصر العباسي ـ شهرة مدن دمشق والقاهرة وقرطبة والقسطنطينية .

ونظراً للتوسع العمراني الذي شهدته هذه المدينة في العصر المذكور آنفا ، ونتيجة لما حصل لها من التقدم والازدهار والذي شمل جميع مرافق الحياة العلمية والاجتماعية والاقتصادية والمتمثلة في بناء المدارس والجامعات والمكتبات والمساجد والمراصد الفلكية وبناء المدن والقصور والمستشفيات وشق الترع والأنهار وإقامة القناطر المائية والجسور والبرك وتشييد الخانات والحمامات وحلبات الخيل ... الخ ، مما جعلها ان تتبوا مركزا مرموقا من التوسع والتنظيم لم تبلغه المدن التي شيدت قبلها او بعدها .

وقد ظلت مدينة بغداد محتفظة بهذا المركز المرموق حتى الربع الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، حيث اصابها ما ادى الى تدهور احوالها بصورة خاصة واحوال العراق بصورة عامة ، وذلك عندما غزاها الأعاجم من الفرس والترك ، وما رافق هذا الغزو من عوامل الدمار والتخريب نتيجة الحروب والتي راح ضحيتها الكثير من الابرياء ، اضافة الى ما سببته الفيضانات من اوبئة وامراض وفزع وغلاء في المواد الاقتصادية ، وكانت هذه العوامل ايضا قد عجلت في زوال واندثار الكثير من المعالم العمرانية والثقافية لمدينة بغداد .

ورغم ذلك فقد ظلت مكانة واهمية مدينة بغداد تحتل مركز الصدارة بين المدن الاسلامية الاخرى ؛ لكونها حلقة وصل تربط بين المدن والحواضر في داخل العراق وخارجه ، مما تركز فيها عدد من الخانات الكبيرة منها والصغيرة لتؤدي خدمات اكبر للتجار والمسافرين والزائرين .

ان خانات بغداد ـ مع الاسف ـ لم تحظ من قبل الباحثين بدراسة مستفيضة ، كما لم يذكر المؤرخون اشياء يعتد بها عن هذه الخانات ، واقتصر الامر على بعض المعلومات البسيطة التي وردت في كتب الرحالة الاجانب ممن مروا بها ، وربما يعود ذلك الى انهم كانوا يعنون في مؤلفاتهم بالجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، أو يرون ان الأمور المتعلقة بالجانب العماري والهندسي غير ذات اهمية ولانهم ليسوا باختصاصيين فيها . ومن هذه الكتب « العراق في القرن السابع عشر » ل

« تافرنييه » و « رحلة ابي طالب خان الى العراق واوربة سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٩م » و « رحلة نيبور الى العـــراق في القرن الثامن عشر » و « رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦م » لـ « بكنفهام » و « رحلة ريج الى العراق سنة ١٨٢٠م » و « رحلة المنشىء البغدادي » الذي كتبها عام ١٨٢٢م و « رحلات الى العراق » لـ « بدج »(١) .

واقتصرت هذه المعلومات على إشارات عابرة ومختصرة ذات صبغـــة تاريخية خاليـــة مـــن التخطيطات والتحليلات الضرورية التي تتطلبهـــا الدراسات الآثارية العلمية(٢) .

ونظراً لندرة المصادر وما كتب عن الخـانات التي شملها البحث فقد تطلب الأمر منا القيـــام بدراسة الخان من الناحية اللغوية والتاريخيـــة ونشاة خانات بغداد قديماً وحديثـــاً كخطوة أولى على الطريق للكشف عن جانب من تراثنا المعماري والحضاري العظيمين .

الأصل اللغوي لكلمة الخان :

اجمعت معظم مصـــادر اللغويين والمؤرخين القديمة منها والحديثـــة على أن لفظة « خان » فارسية معربة(٣) ، ومن المرجح انها اشتقت مـــن الكلمات الفارسية « خانه »(٤) أو « حانه »(٥) أو « خاناه »(٦) ، والتـــي تعطـــي جميعهـــا معنى البيت(٧) ، أو الموضع(٨) ، اضافـــة الى معـــان اخرى(٩) .

وذهب عدد من الباحثين الى أن كلمة خان هي تحريف لكلمة حانوت الآرامية المشتقة مـــن

(١) المياح ، (برهان نزر محمد علي) ، عمـــارة وتخطيط الخانات العراقية ، صفحات ٥ ـ ٦ ، رسالة ماجستير مطبوعة على آلة الطابعة ومقدمة الى مجلس كلية الآداب ـ جامعة بغداد ، ١٩٧٦م .

(٢) المياح ، نفس المصدر ، ص ٦ .

(٣) العسكري ، (ابو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن مهران اللغـــوي) ، كتاب التلخيص في معرفـــة اسماء الاشياء ، عني بتحقيقـــه د. عزة حسن، ج١ ، ص٢٦٩ ، مطبعة الترقي ، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق ، (١٣٨٩هـ/١٩٦٩م) .

ـ ابن سيده ، (علي بن اسماعيل) ، المحكم والمحيط الاعظم في اللغة ، تحقيق د. مراد كامل ، ج ٦ ، ص ٢٩٠ ، الطبعة الاولى ، مصـــر ، (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) .

ـ ياقوت الحموي ، (شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت بن عبداللـــه الحموي الرومي البغـــدادي) ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٤١٢ ، بيروت ، (١٢٧٥هـ/١٩٥٦م) .

ـ ابن منظور ، (ابو الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور الافريقي المصري) ، لســـان العرب ، مجلـــد ١٣ ، ص ١٤٦ ، بيروت ، (١٢٧٦هـ/١٩٥٦م) .

ـ الزبيدي ، (محب الدين ابي الفيض محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيـــدي الحنفي) ، تـــاج العروس من جواهـــر القاموس ، مجلد ٩ ، ص ١٩٤ ، الطبعة الاولى ، المطبعة الخيرية ، مصر ، (١٣٠٦هـ) .

ـ بطرس البستاني ، محيط المحيط ، مجلـــد ١ ، ص ٦٠٩ ، بيروت ، (١٨٧٠م) .

ـ احمد رضا ، معجم متن اللغة ، مجلد ٤ ، صفحات ٤٥٤ ـ ٤٥٥ ، بيروت ، (١٢٧٩هـ/١٩٦٠م) .

(٤) ادي شير ، كتاب الالفاظ الفارسية المعربة ، ص ٥٨ ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، (١٩٠٨م) .

(٥) اللبناني ، (طوبيا العنيسي الحلبي) ، كتاب تفسيـــر الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه ، عني بنشره وتصحيحه والتعليق على حواشيه الشيـــخ يوسف توما البستاني ، ص ٢٤ ، الطبعة الثانيـــة ، مصر ، (١٩٣٢م) .

(٦) والجدير ذكره هنا ان هذه الكلمة استعملت مقرونـــة باسماء البيوت والالقاب السلطانية في زمن المماليك بمصر فمثلا يقال (الســـلاح خاناه) و (الشـــراب خاناه) و (الطشت خاناه) ، اي بمعنى البيت والمكان ، كبيت السلاح او مكان السلاح ... الخ . انظر : احمـــد رضا ، المصدر السابق ، مجلد ٢ ، ص ٢٦٣ ، بيروت ، (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م) .

(٧) ادي شير ، المصدر السابق ، ص ٥٨ .

ـ التبريزي ، (محمد حسين بن خلف) ، برهان قاطع ، بتصحيح واتمام محمد عباس ، ص ٤١٦ ، مهرماه يكهزار وسيصدوسي وشش ، جاب بيروز مؤسســـة مطبوعات امير كبير .

ـ اللبناني ، المصدر الســـابق ، ص ٢٤ .

ـ ايوار ، « مادة خان » ، دائرة المعارف الاسلاميـــة ، ترجمة احمد الشنتناوي وآخرون ، مجلد ٨ ، ص ٢١١ ، (بدون مكان وسنة الطبع) .

ـ احمد رضا ، المصدر السابق ، مجلد ٢ ، ص ٢٦٣ .

(٨) وكلمة (خانه) كما ذكرناها سابقا تعني البيت أو الموضع سواء اكان هـــذا البيت او غيره للسكن او لراحـــة المسافرين او التجار ، وعلى هذا الاعتبار اشتقت منهـــا الكلمة (خان) ، حيث أن الهـــاء في الاولى للنسبة او للتصغير .

(د. حسين محفوظ ، حديث شخصي ، ١٩٧٥م) .

(٩) وفي بلاد فارس تعني كلمة « خانه » ايضا المربع في رقعة الشطرنج .

(ايوار ، « مادة خان » ، دائرة المعارف الاسلاميـــة ، مجلد ٨ ، ص ٢١١) ويذكر أن من معانيها كذلك المرتبـــة في الأمور الحسابية ، والنقطة التي يرفع بها الصـــوت والمستعملة عند الموسيقيين ، وتدل ايضا على الشطر من المواليات . (بطرس البستاني ، محيط المحيط ، مجلد ١ ، ص ٦٠٩) .

كلمة (حنه) العبرانية والتي من معانيها خَيَّمُ واقامُ ونزلُ وحل(١٠) .

وورد ايضا ان لفظة خان مرادفة لكلمة (فيروان سراي) التركية الاصل او (كرفان سراي (Caravansary or Caravanseria) والتي تعني النزل والخان والفندق ، وذلك برغم اختلافها في اللفظ(١١) . وتعني كلمة (خان) ايضاً منزل المسافرين على ما هو معروف في اللغة العربية(١٢) . ومن جملة ما ورد عن اصل الكلمة هو ان كلمة خان ما هي إلا اختصار لكلمة (قاغان) والتي تلفظ بالعربية (خاقان) فيما إذا وردت مرادفة للقب من الألقاب(١٣) .

وأختلف الباحثون في اصل الكلمة إذ أن بعضهم يراه فارسيا ــ تركيا أو انه تتريا(١٤) او تركيا بالاصل فقط(١٥) ، كما ان بعضهم يراه عربياً فارسيا(١٧) ويمكن القول ان اصل كلمة (خان) ؛ فارسي حوره العرب بالنقص او الزيادة او القلب(١٨) .

معاني كلمة (خان) :ــ

ومثلما تعددت الاراء في اصل الكلمة (خان) تعددت المعاني التي تشير اليها ، فهي تعني الحانوت(١٩) ؛ وربما جاءت من تشابه الاثنين في السعة والوظيفة(٢٠) ، وتدل كلمة خان ايضاً على مالك الحانوت(٢١) ، كما تدل على المتجر(٢٢) ؛ والمكان الخاص بالتجار اي محل اقامتهم ؛

---

(١٠) ادي شير ، الالفاظ الفارسية المعربة ، ص ٥٨ .
ــ اللبناني ، تفسير الالفاظ الدخيلة ، ص ٢٨ .
ــ رشيد عطية ، معجم عطية في العامي والدخيل ، ص ٥٥ ، دار الطباعة والنشر العربية ، سان باولو ، برازيل ، (١٩٤٤م) .
ومما تجدر الاشارة اليه ان كلمة الحانوت تعني « بيت الخمار » انظر : العسكري ، التلخيص ج ١ ، ص ٢٦٩ ، وهو المكان الذي يباع او يشرب فيه الخمر ، كما دلت على بائع الخمر نفسه ، هذا ما ذكره بطرس البستاني في مؤلفه « قطر المحيط » ج ١ ، ص ٥٩٠ ، وعندما شاع استعمال كلمة الخان اصبحت تعني اي مكان تباع فيه السلع اي انها دلت على ما نسميه بـ « الدكان » انظر : العسكري ، المصدر السابق ، واللبناني ، المصدر السابق .

(١١) Porter, R.K., Travels in Georgia, Persia, Armenia, and Ancient Babylonia, during the years, 1817-1820, vol. 1. p. 209, London, (1822).
ويعرف (الخان) بلغة اهل خراسان بـ « تيمنك » ومعناها خان التجار . انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٦٧ . وعلى هذا الاساس سمي خان مرجان باسم (التيم) وقد جاء هذا الاسم مدونا على واجهة المدخل الرئيس للخان ، وقد ذكر أن كلمة (تيم) تعني نصف سرداب ، أو تعني مكانا اوطا قليلا من مستوى الطريق ، وبهذا تكون هذه الكلمة (تيم) عماربة فارسية . انظر : (ناصر النقشبندي) ، « خان مرجان » مجلة النفط ، ص ١٠ العدد ٦٧ ، السنة ١٩٥٧م .

(١٢) رشيد عطية ، معجم عطية في العامي والدخيل ، ص ٥٥.

(١٣) بارتلد ، « مادة خان » دائرة المعارف الاسلامية ، مجلد ٨ ، ص ٢٠٤ واستعملت كلمة (خان) لتشير الى لقب من الالقاب للمرة الاولى في العصر الاسلامي حوالي نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، على السكة التي ضربها الايلخانيون غير انه لم يتبين الفرق بين كلمة (قاغان) او (قان) والتي معناها الحاكم الاعلى ، وكلمة (خان) التي تعني حاكم المدينة الا في العهد المغولي . (بارتلد ، المصدر السابق) وذكر أيضا ان أول من تلقب بكلمة خان هو (جنكيزخان) ثم لقب بها اول ملوك العثمانيين السلطان (عثمان خان) سنة ٦٦٩هـ/١٢٩٩م ، واستمر هذا اللقب يطلق على رؤساء الدولة الصفوية في زمن الشاه اسماعيل الصفوي وكذلك على رؤساء العشائر الايرانية . انظر : احمد رضا ، معجم متن اللغة ، مجلد ٢ ، ص ٢٦٢ .

(١٤) اللبناني ، تفسير الالفاظ الدخيلة ، ص ٢٢ .

(١٥) بطرس البستاني ، « مادة خان » دائرة المعارف ، مجلد ٧ ، ص ٢٢٤ .

(١٦) يعقوب صروف وفارس نمر ، باب المسائل ، « معنى خان » مجلة المقتطف ص ٩٢٧ ، ج ١٠ ، مجلد ٢٦ ، السنة ١٩٠١م .

(١٧) رشيد عطية ، المصدر السابق .

(١٨) ابراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، أشرف على طبعه عبدالسلام هارون ، ج ١ ، ص ٢٦٢ ، مصر ، مطبعة القاهرة (١٣٨٠هـ/١٩٦٠م) .

(١٩) ابن منظور ، لسان العرب ، مجلد ١٣ ، ص ١٤٦ .
ــ الزبيدي ، تاج العروس ، مجلد ٩ ، ص ١٩٤ .
ــ الفيروز ابادي ، (مجد الدين محمد بن يعقوب) ، القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ ، مطبعة السعادة ، مصر ، (١٣٣٢هـ/١٩١٣م) .
ــ الشرتوني ، (سعيد بن عبدالله الخوري) ، اقرب الموارد في فصح العربية والشوارد ج ١ ، ص ٣١٠ ، مطبعة مرسلي اليسوعية ، بيروت ، (١٨٨٩م) .

(٢٠) فقد وصف الرحالة ابن جبير دكاكين وحوانيت احدى مدن الشام بانها تشبه الخانات والمخازن اتساعا . انظر : ابن جبير ، (ابو الحسن محمد بن احمد) ، رحلة بن جبير ، ص ٢٢٢ ، بيروت (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) .

(٢١) ابن منظور ، المصدر السابق .
ــ الزبيدي ، المصدر السابق .
ــ الفيروز آبادي ، المصدر السابق .

(٢٢) ابراهيم مصطفى وآخرون ، المصدر السابق .

وتجارتهم[٢٣] ، وتعني أيضاً منزل المسافرين والقوافل[٢٤] ؛ وكلمة الفندق من المرادفات الاخرى لكلمة خان[٢٥] ؛ ومما يستحسن ذكره ما اورده الجواليقي المتوفى سنة (٥٤٠هـ/١١٤٥) ؛ من ان كلمة الفندق بلغة الشاميين تشير الى معنى خان ينزل به المسافرون ؛ وموقعه عند الطرق او في المدائن ، وقد نقل الجواليقي عن الفراء قوله :ـ « سمعت أعرابياً من قضاعة يقول (فنتق) للفندق وهو الخان[٢٦] » . وإن من مرادفاتها ايضا كلمة الوكالة[٢٧] والسوق[٢٨] (القيسارية)[٢٩] ؛ والجدير بالذكر انه لم يفرق مؤرخو العصور الوسطى من العرب بين هذه المنشات المعمارية ؛ إذ لم يجدوا بينها فروقاً واضحة ، بل وجدوها متشابهة من حيث التصميم والوظيفة التي تؤديها للمسافرين والتجار[٣٠] . وقد كتب المقريزي في هذا الموضوع واستنتج بانه لافرق يذكر بين تلك المنشات المشار اليها[٣١] .ويذكر ان كلمة (الربع) تعني ايضا الخان او الفندق[٣٢] .

النشأة التاريخية للخان :ـ

وفي هذا المجال أهدف الى تبيان فكرة نشأة الخان من حيث البداية الاولى للنشأة وبعض التطورات الحاصلة عليه ؛ اي التدرج في تنوع المرافق المضافة . ولما كانت المعلومات التي وردت عن نشأة الخان قليلة ، فاعتمدنا على ما هو متيسر في هذا المجال .

لقد اقيم في بلاد وادي الرافدين الكثير من الخانات ، وما بقي من هذه الخانات قليل بالنسبة الى ما ذكره الرحالة والمؤرخون ، بسبب تهدمها واندثارها بفعل زوال بعض الاسباب التي انشأت من اجلها ، والعوامل الطبيعية ، كما يرجع أيضاً الى تغير طرق المواصلات وأبتعادها عنها ؛ اضافة الى ظهور وسائل النقل الحديثة ؛ وأماكن اكثر راحة للمسافرين كالفنادق الحديثة مثلاً ؛ وإن

(٢٣) الجوهري ، (ابو نصر اسماعيل بن حماد) ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق احمد عبدالغفور عطار ، ج ٥ ، ص ٢١١٠ ، مطابع دار الكتاب العربي بمصر ، القاهرة (١٢٧٦هـ/١٩٥٦م) .
ـ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢٢١ .
ـ ابن منظور ، المصدر السابق ، مجلد ١٠ ، ص ٩٢٥ .
ـ الزبيدي ، المصدر السابق . ـ الفيروز آبادي ، المصدر السابق .

(٢٤) بطرس البستاني ، محيط المحيط ، مجلد ١ ، ص ٦٠٩ .
ـ التوي ، (عبدالرشيد) ، فرهنك رشيدي ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ، مطبعة كلكته ، (١٨٧٢م) .
ـ التبريزي ، برهان قاطع ، ص ٤١٦ . ـ اللبناني ، تفسير الالفاظ الدخيلة ، ص ٢٢ .

(٢٥) ابن منظور ، المصدر السابق ، مجلد ١٠ ، ص ٣١٢ .
ـ الزبيدي ، المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ص ٥١ .
ـ الفيروز آبادي ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٧٧ .

(٢٦) الجواليقي ، (ابي منصور موهوب بن احمد بن محمد بن الخضر) ، المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم ، تحقيق وشرح ابي الاشبال احمد محمد شاكر ص ٢٣٩ ، أعيد طبعه بالاوفست ، طهران ، ١٩٦٦م .
والجدير ذكره ان اصل كلمة فندق فارسي . انظر :
ابن منظور ، المصدر السابق ، مجلد ١٠ ، ص ٣١٢ .

(٢٧) الوكالة : هي عبارة عن فندق يتكون من عدة شقق صغيرة على عدة طوابق ، فالطابق الارضي فيها يتكون من مخازن منفصلة تطل على صحن مكشوف ، اما الطوابق العليا فهي مخصصة للاقامة وتطل على الصحن أيضاً ، وتضم جميع الخدمات والمرافق اللازمة . انظر :
توفيق احمد عبدالجواد ، تاريخ العمارة والفنون الاسلامية ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ ، المطبعة الفنية الحديثة ، مصر ، ١٩٧٢م .

(٢٨) توفيق احمد عبدالجواد ، نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ .

(٢٩) القيسارية : هي تحريف لكلمة (قيصرية) المشتقة من أسم (القيصر) امبراطور الرومان . انظر :
حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج ٤ ، ص ٤١٢ ، المطبعة الاولى ، المطبعة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

(٣٠) نعيم زكي فهمي ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (اواخر العصور الوسطى) ، ص ٢٨٦ ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة (١٣٩٢هـ/١٩٧٣م) .
ـ توفيق احمد عبدالجواد ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ .

(٣١) المقريزي ، (تقي الدين ابي العباس احمد بن علي) ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، ج ٢ ، صفحات ٩٣ ـ ٩٤ ، طبعة جديدة بالاوفست ، مكتبة المثنى ، بغداد ، (بدون تاريخ) .

(٣٢) وعرفت (الربع) في بلاد مصر لتؤدي نفس الغرض الذي تؤديه الوكالة والخان والفندق ، ولاجل تحقيق رغبات الصناع وصغار التجار فقد صممت على شكل طوابق متعددة ، كان الطابق الارضي يتكون من محلات وحوانيت ومرافق اخرى ، اما الطوابق العليا فكانت تتكون من شقق منفصلة مكونة كل شقة من حجرة او حجرتين ومطبخ ودورة مياه لعائلات الصناع واصحاب هذه المحلات . ويبدو أن هنالك اختلافاً بين الوكالة والربع والخان ، حيث أن الوكالة والربع استخدمت للاقامة الثابتة ، اما الخان فللاقامة المؤقتة انظر : توفيق احمد عبدالجواد ، تاريخ العمارة والفنون الاسلامية ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

اندثار الخانات مسألة طبيعية جاءت نتيجة للتطور الحضاري المادي في الحياة(٢٣) .

ولما كانت الخانات ضرورة ملحة لمواصلة المسير والتنقل من مكان لآخر ولولاها لتعذر على المسافرين قطع المسافات النائية ؛ فهي قديمة كقدم التجارة نفسها إذ كان يراد منها تهيأة اماكن تضمن الراحة للانسان والحيوان على حد سواء بعد قطعهم مسافة طويلة تستوجب عليهم هذه الراحة(٢٤) .

ولعل بداية نشوء الخانات في الاصل منطلقة من إقامة بئر وسياج يحيط بقطعة من الارض ؛ واخذت تتطور بعد ذلك الى البنايات المعروفة حيث الاواوين الكثيرة والمرافق المتعددة ؛ وقد نال الكثير منها التخطيط الدقيق(٢٥) . وهذا يوضح لنا الأصول الأولى لنشأة الخانات وصور تطورها شأنها في ذلك شأن الكثير من المرافق التي تتطور بتطور الحياة .

إدارة الخان :

ومن الناحية الادارية فقد ذكر بأنه لا يدفع من يحل في الخان اي اجر سوى ان العرف الجاري يقضي بأن يكرم النازلون في الخان الشخص المسؤول عن إدارة الخان الذي يعرف (بالكيم) من المال شيئاً ، نظراً لما يقوم به عادة باستئجار جماعة تلقى عليهم مهمات تنظيف الخان وتنظيمه ، كما يقوم المسؤول عن الخان بتجهيز النزلاء بالحبوب والأطعمة والوقود وكثير من اللوازم التي يحتاجونها على ان تدفع له قيمة هذه المواد وعلى هذا فان هناك جماعة يضمنهم (الكيم) مهمتها ادارة شؤون الخان(٢٦) .

تطور الخان :

وقد كانت الخانات في الشرق ضرورية لتسهيل التنقل بين المدن الاسلامية لاغراض التجارة والحج وزيارة الاماكن المقدسة ؛ وقد اخذت هذه الخانات تتطور تدريجياً حتى اصبحت ذات ادارة ومرافق متعددة ومطابخ(٢٧)، هذا اضافة الى ما تضمنته بعض الخانات من المرافق الاخرى كالمسجد(٢٨) ؛ والمخازن التي تخزن فيها انواع السلع وحوض للماء ؛ كما يوجد في بعضها اماكن لحفظ اموال اليتامى(٢٩) وحظائر للماشية(٤٠) ؛ اضافة الى مجموعة من الحمامات والأسواق(٤١) ؛ كما يوجد احياناً خارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت تبيع اللوازم التي يحتاجها المسافر لنفسه ولدابته(٤٢) . ونتيجة لاهمية تلك الخانات فقد كانت بعض المدن تضم عدداً كبيراً منها(٤٣) . ونظراً للتوسع الكبير للخانات في مساحتها فقد زادت مرافقها حتى كان البعض منها يحتوي على غرف عديدة مزودة بمدافىء ومصاطب للنوم والجلوس ، اضافة الى غرف خاصة ، واحدة منها عند المدخل لحارس الخان واخرى كمقهى وثالثة كمخزن لصلحي

---

(٢٣) الباج ، عمارة وتخطيط الخانات العراقية ، ص ٢٦ .

(٢٤) Pope, Arthur, Upham, "Bridges, Fortifications and Caravanserais," A Survey of Persian Art from Perhistoric Times to the Present, (Editor) Pope, A. U. and (Assistant Editor) Ackerman, Phylis, Text Architecture, Vol. III, P. 1245. London and New York, (1930).

(٢٥) Texier, C., Description de l'Armenia, la perse et la Mesopotamie, Paris, 1842-52, 11, pp. 110-111,
نقلا عن Pope, A. U., Op. Cit., Vol., 111, p. 1246.

(٢٦) انظر : بدج ، (سر ارنست الفردولس) ، رحلات الى العراق ، ج ١ ، ص ١٢٢ نقله الى العربية وقدم له وعلق عليه فؤاد جميل ، الطبعة الاولى ، مطابع دار الزمان ، بغداد ، (١٩٦٦م) .

(٢٧) Reitlinger, G. "Atower of Skulls," Ajourney through Persian and Turkish Armenia, p. 52, London, (1932)

(٢٨) ابن دقماق ، (ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي الشهير بابن دقماق) ، الانتصار لواسطة عقد الامصار ، ج٤ ، ص٩٠ ، طبع بالمطبعة الكبرى ببولاق (١٣١٠هـ/١٨٩٣م) .

(٢٩) المقريزي ، الخطط ، ج٢ ، صفحات ٩٢-٩٣ .

(٤٠) Teixeira, P. The Travels of Peter Teixeira from India to Italy by Land, p. 27.

(٤١) وقد قيل ان خان المسافرين (Saffron) في بلاد فارس ، هو من اكبر الخانات اذ يحتوي على ١٧٠٠ (ايوان) اضافة الى مجموعة من الحمامات والاسواق داخل اسواره . انظر
Fraser, J., Narrative of Ajourney in to Khorasan, pp. 383-385, London, (1825).

(٤٢) ابن بطوطة ، (ابو عبدالله محمد بن ابراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة) ، رحلة ابن بطوطة ، ص٥٤ ، بيروت ، (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) .

(٤٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ص ١١٤ .

العربات ورابعة كدكان للحدادة ، اضافة الى اسطبل للحيوانات(٤٤) .

ورغم سعة بعض الخانات وكثرة غرفها لاهميتها من حيث وقوعها على طرق التجارة القديمة فانها تكتظ بالساكنين في مواسم معينة مما يضطر البعض منهم للاقامة في الاماكن القريبة منها(٤٥) ، علماً ان بعضها كان يستوعب عدداً يتراوح بين ٣٠٠ ــ ٤٠٠ شخصاً(٤٦) ، وبعضها الاخر يتسع لعدد يتراوح بين ٥٠٠ ــ ١٠٠٠ شخص(٤٧) .

التأثير المعماري للخان في المنشآت المعمارية الاخرى

وبناءاً على كون الخانات مؤسسات قائمة ومتطورة وذات سمات خاصة اكتسبتها من خلال تطويرها فانها ولاشك تؤثر في رغبات الناس ، فيعكس هؤلاء الناس تلك الرغبات في طرز ابنية أخرى يقيمونها كالمنازل او المدارس او المساجد ومعنى هذا ان هناك تأثيرا متبادلا بين هذه المنشآت المعمارية والخانات في مجال الشبه المعماري(٤٨) . فقد اشار الرحالة ناصر خسرو في رحلته الى انه شاهد بعض البيوت التي تشبه الخانات في مدينة طرابلس بلبنان(٤٩) ، كما ان بعض المنشآت المعمارية ايضاً كالاسواق والقلاع(٥٠) ، والقصور(٥١) ، والدكاكين والحوانيت(٥٢) ، والاربطة(٥٣) ، والاديرة(٥٤) ، او الكنائس(٥٥) ، تشبه الخانات من حيث ضخامتها وبنائها .

تسلسل نشأة خانات بغداد قديماً وحديثا :ـ

لم تسعفنا المصادر التاريخية القديمة منها والحديثة عن الخانات التي بنيت في مدينة بغداد قبل الاسلام ، لكنه ورد اول ذكر لاقامة الخانات العراقية جاء في ترتيلة خاصة للملك (شولكي) ثاني ملوك سلالة اور الذي حكم (٢٠٩٤ ــ ٢٠٤٧ ق . م) ؛ حيث جاء فيها عن ولع هذا الملك بتعبيد الطرق واقامة البيوت الكبيرة فيها لايواء المسافرين(٥٦) .

اما عن خانات بغداد المشيدة في العصور الاسلامية ــ فللاسف ــ لم تخبرنا المصادر القديمة الا النزر القليل منها . فقد اشار ياقوت الحموي الى وجود خان يعرف (بخان وردان)(٥٧) ، وكان موقعه شرقي مدينة بغداد ، وهو يعود الى العصر العباسي الاول(٥٨) . ومن هذا العصر ايضاً ذكر عن وجود خان في مدينة بغداد ينزله الغرباء من التجار وغيرهم(٥٩) . وذكر اليعقوبي المتوفى سنة (٢٨٤هـ/٨٩٧م) خانا في بغداد ايضا يعرف (بخان النجائب)(٦٠) .

اما في اواخر العصر العباسي (٥٥٢ ــ ٦٥٦هـ/١١٥٧ ــ ١٢٥٨م) ؛ فعلى الرغم من الانحطاط والتدهور اللذين حلا بمدينة بغداد في ذلك العصر فقد كانت فيها الكثير من المنشآت المعمارية ، وان الاحصاءات التي دونها ياسين العمري في كتابه ،

(٤٤) Unsal, B. Turkish Islamic Architecture in Seljuk and Ottoman Times 1071-1923. pp. 48ff. London (1970).

(٤٥) تافرنييه ، (جان بابتيست) ، العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنييه ، نقله الى العربية وعلق عليه حواشيه بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، صفحات ٤٤ــ٤٥ ، مطبعة المعارف بغداد (١٩٤٤م) .

(٤٦) Teixeira, P., The Travels of Peter Teixeira from India to Italy by Land, pp. 27 f.

(٤٧) Cowper, H. S., Through Turkish Arabia, p. 318, London, (1894).

(٤٨) الباح ، عمارة وتخطيط الخانات العراقية ، ص٣٠ .

(٤٩) ناصر خسرو ، (ابو معين) ، « سفر نامة » رحلة ناصر خسرو الى لبنان ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري ، نقله الى العربية د . يحيى الخشاب ، ص٨ ، الطبعة الثانية ، بيروت ، (١٩٧٠م) .

(٥٠) المنشىء البغدادي ، (محمد بن احمد الحسيني المعروف بالمنشىء البغدادي) ، رحلة المنشىء البغدادي نقلها عن الفارسية عباس العزاوي ، صفحات ٤١ــ٤٢ ، طبع شركة التجارة والطباعة المحدودة بغداد ، (١٩٤٨م) .

(٥١) كونل ، (ارنست) ، الفن الاسلامي ، ترجمة د . احمد موسى ، ص١٥٦ ، بيروت ، (١٩٦٦م) .

(٥٢) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٣ .

(٥٣) ناصر خسرو ، المصدر السابق ، صفحات ٤٠ــ٤١ و ٤٧ .

(٥٤) Teixeira, P., The Travels of P.T. from India to Italy by Land pp. 27 f.

(٥٥) Filmer, H., The Pageant of Persia, P. 217, London, (1937).

(٥٦) Pritchard, James. B., Ancient Near Eastern Text Relating to old Testament, p. 585, U.S.A., (1969).

(٥٧) سمي بهذا الاسم نسبة الى وردان ابن سنان احد قادة الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور .

(٥٨) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢٤١ .

(٥٩) المدور ، (جميل نخلة) ، حضارة الاسلام ، ص٢٢ القاهرة (١٩٣٥م) .

(٦٠) اليعقوبي ، (احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب الشهير باليعقوبي) ، البلدان ص١ ، الطبعة الثالثة ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٥٧ م .

(الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون) للجوامع والمساجد والمدارس والخانات والحمامات ... وغيرها من المنشآت العمارية في مدينة بغداد ــ قبل ان يحتنها المغول ــ خير دليل على ذلك ، بل انه لم يكتف بذكر هذه المنشآت بل اورد ايضا عددها ومما يتوجب الاشارة اليه أن عدد خانات بغداد آنذاك تعدادها (٩٨٠)[٦١] خانا .

ومن القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي يخبرنا ابن الفوطي عن خان في مدينة بغداد يعرف بخان الخليفة ، والذي امر ببنائه الوالي علاء الدين الجويني ، وكان موقعه بالقرب من نهر دجلة ؛ ويذكر ان باني هذا الخان هو البناء ابو العباس احمد بن عبدالله الاصفهاني[٦٢] . والجدير بالذكر ان هذه الخانات التي اشار اليها المؤرخون آنفاً لاتوجد لها آثار شاخصة في الوقت الحاضر .

ومن اشهر خانات بغداد الشاخصة الان هو خان مرجان : الذي يعود تاريخ انشائه الى سنة (٧٦٠هـ/١٣٥٨م)، وقد امر ببنائه حاكم بغداد امين الدين مرجان في عهد السلطان اويس بن الشيخ حسن الايلخاني ، وكان يعرف هذا الخان ايضاً (بخان الاورتمة) ، اي الخان المسقوف باللغة التركية ؛ وينفرد هذا الخان بهذه الميزة العمارية ؛ عن باقي الخانات الاخرى المكشوفة الوسط ؛ ويعتبر خان مرجان من أجمل الخانات العراقية حيث تتجلى فيه روعة عمارته وتخطيطه ودقة زخارفه الآجرية الجميلة ، ورغم سعة وارتفاع هذا الخان ، الا انه قد سقف بطريقة عمارية فائقة تنم عن المقدرة الفنية لبناة هذا الخان . ومما يذكر عن هذا الخان انه قد اوقفت وارداته اضافة الى خانات اخرى ودكاكين ومزارع وبساتين في ضواحي بغداد وخارجها ، الى المدرسة المرجانية والمستشفى ، جاء ذلك في الكتابة التي تعلو باب الخان الرئيس الكائنة في سوق البزازين في محلة (باب الآغا) حالياً . والجدير بالذكر ان هذا الخان يتكون من طابقين ، الاول يحتوي على ٢٢ غرفة ، والثاني على ٢٣ غرفة ، وكان التجار والمسافرون يحتلون غرف الخان ، وكان يجري فيها وفي ساحته عملية البيع والشراء مدة ما يقارب السبع قرون[٦٣] .

ومن القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، كان في مدينة بغداد خان يعرف بخان جغان ، وكانت سنة بنائه (٩٩٩هـ/١٥٩٠م) في زمن حكم السلطان مراد ؛ وعلى نفقة جغالة زادة سنان باشا والي بغداد (٩٩٩هـ ــ ١٠٠١هـ/ ١٥٩٠ ــ ١٥٩٢م) ، وكان يُعرف هذا الخان عند العامة بهذا الاسم نسبة لمؤسسه[٦٤] . وقد بقي هذا الخان على حاله حتى سنة ١٩٢٩م حيث هدم وعُمر مكانه اسواقاً ومما تجدر الأشارة اليه ان هذا الخان كانت له بابان شمالي وجنوبي وكانت تعلو مدخله الشمالي كتابة مطولة بالتركية وتحتها بضعة اسطر بالعربية ، وقد شاهد الرحالة نيبور هذه الكتابة عندما زار بغداد عام ١٧٦٦م[٦٥] .

اما القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي وحتى القرن الرابع عشر الهجري/ العشرون الميلادي فقد كانت هناك مجموعة كثيرة من خانات بغداد لم يبق منها في الوقت الحاضر الا النزر القليل ؛ حيث لعبت ايادي الزمن والتخريب بها فضاعت معالمها واندرست آثارها وبقينا نفتش عنها في صفحات الكتب علنا نسعف بوصفها واخبارها ، ولم نجد في بطون الكتب ما يشير الى وصفها عمارياً او زخرفياً ؛ ولكن اكتفت بذكر عددها وبعض التتف القليلة عنها ، فقد ذكر الرحالة تافرنييه الى وجود عشرة خانات في مدينة بغداد كانت في حالة غير جيدة من البناء ما عدا اثنين منها يوفران الراحة للمسافرين[٦٦]. اما الرحالة نيبور فقد اشار هو الآخر الى عدد خانات بغداد في القرن الثامن عشر الميلادي والبالغة اثنان وعشرون خاناً ؛ اربعة منها تقع في ضواحي بغداد والبقية في داخل المدينة ، وقسم منها كبير الحجم يسكنها التجار والقسم الاخر صغيرة[٦٧] . ولم يترك لنا الرحالة بكنغهام في رحلته الى العراق سنة ١٨١٦م اية معلومات تتعلق بخانات بغداد والتي مجموعها آنذاك ثلاثون خاناً ، ما عدا اللهم اشارة عابرة من ان هذه

---

(٦١) نقل بتصرف عن د. مصطفى جواد و د. احمد سوسه ، دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديما وحديثا ، ص١٩٤ مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٥٨ م .

(٦٢) مصطفى جواد واحمد سوسة ، نفس المصدر ، ص ٢٠٦ .

(٦٣) لمعرفة المزيد عن عمارة وتخطيط هذا الخان . يراجع :ــ مديرية الاثار العامة ، دليل متحف الاثار العربية في خان مرجان ، القسم الاول ، بغداد ، ١٩٣٨م .

(٦٤) نظمي زاده مرتضى افندي ، كلشن خلفا نقله الى العربية موسى كاظم نورس ، صفحات ٢٠٩ـ٢١٠ ، النجف١٩٧١م :

(٦٥) نيبور ، رحلة الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمه عن الالمانية د. محمود حسين الامين ، راجعه وعلق عليه ووضع فهارسه سالم الالوسي ، ص ٣٢ ، بغداد ، ١٩٦٥ م .

(٦٦) تافرنييه ، العراق في القرن السابع عشر ، ص ٨١ .

(٦٧) نيبور ، المصدر السابق ، ص ٤٤ .

الخانات مشابهة في بنائها للخانات الموجودة في ديار بكر ، واحد هذه الخانات هو خان مرجان(٦٨) .

اشرنا قبل قليل من انه كان في مدينة بغداد عدد كثير من الخانات الكبيرة منها والصغيرة والتي اتخذت اماكن للتجارة والسكن وراحة المسافرين وكان بعض الموسرين من المسلمين وغيرهم يقومون بأعمال ومشاريع خيرية ومنها بناء الخانات ، وكان البعض من الخانات كبيرة والبعض الآخر صغيرة وفيها عدد كثير من الغرف والاواوين والمخازن غالبا ما تكون خالية من الأثاث(٦٩) . وقد بلغ عددها آنذاك حوالي ١١٨ خاناً ، ولكن الاكثر منها خاص (بالمكارية) وايواء الدواب وحفظ الأموال والمهم منها ما كان في الأسواق والتي كانت مشغولة من قبل التجار(٧٠) ومن هذه الخانات هي :ـ

١ ــ خان مرجان : وقد مر ذكره في ص ٣٣ .

٢ ــ خان اللاوند : وكان موقعه في سوق الفضل ، وقد امر ببنائه الوزير داود باشا والي بغداد سنة (١٢٣٢هـ/١٨١٦م) واسكن فيه عسكره (اللواند) والتي كانت مهمته الحفاظ على الوالي . وكانت مساحة هذا الخان واسعة ، ولكن التغيرات التي طرأت عليه نتيجة الاهمال والتخريب دعت والي بغداد نامق باشا سنة (١٣١٥هـ/١٨٩٧م) ان يجعل مساحته متنزهاً وبنى في وسطه حوضاً للماء ، وغرس فيه النخيل والاشجار وسوره بسور من الحديد ، وبقي على هذا الحال حتى عزل الوالي وخلفه من خلفه فاهمل امره وقطعت مساحته قطعاً قطعاً فاصبح شبه محلة عامرة(٧١) .

٣ ــ خان (قابچيلر كهيه سي) اي بمعنى خان رئيس البوابين وموقعه في سوق البزازين على طريق شارع الصفافير ، وقد امر ببنائه اسماعيل آغا رئيس البوابين ، ووقفه على ذريته ويذكر أن مساحة هذا الخان كبيرة(٧٢) .

٤ ــ خان دلة الكبير : وكان موقعه في سوق البزازين ، وقد شيده الحاج عبدالقادر دلة ابن اسماعيل سنة (١٣٢٢هـ/١٩٠٤م) ، وهو خان كبير يتكون من طابقين متين البناء، وهو الآن محل تجاري(٧٣) .

٥ ــ خان دلة الصغير : وموقعه في المراديبة (السكة خانه)(٧٤) .

٦ ــ خان جغان : وقد مر ذكره في ص ٣٣ .

٧ ــ خان النخلة او خان مخزوم : وكان موقعه في راس سوق البزازين ، وقد شيده الشيخ محمد المخزوم ابن احمد حافظ باشا سنة (١١١٠هـ) ووقفه على ذريته(٧٥) .

٨ ــ خان الباجه‌چي : ويقع باتصال جامع الخفافين من الجهة الشرقية وقد شيده الحاج ابو بكر الباجه‌چي ووقفه على مصالح الخفافين ، وهو الآن محلا تجارياً ، ويشتمل على طابقين(٧٦) .

٩ ــ خان كبه الكبير : ويسمى ايضاً بخان الباشا ، وكانت ملكيته تعود لآل كبه وقد اشتراه الوزير داود باشا وجعل وقفاً على جامعه ومدرسته . وموقعه في شارع البنوك(٧٧) .

١٠ ــ خان كبه الصغير : وموقعه في شارع البنوك وهو يسمى ايضاً بخان الباشا الصغير ويشتمل على طابقين وقد اشتراه الوزير داود باشا والي بغداد واوقفه على مصالح جامع الحيدر خانه ومدرسته(٧٨)

١١ ــ خان محمد سعيد جلبي الشابندر : ويقع في شارع المستنصر غربي المحكمة الشرعية ويشتمل على طابقين وبناؤه جيد وقد شيد سنة ١٣٣٧هـ(٧٩) .

١٢ ــ خان الدفتر دار : وكان موقعه في شارع

(٦٨) بكنغهام ، (جمس سلك) رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦م ج١ ، ص١٩٧ ، ترجمة سليم طه التكريتي ، مطبعة اسعد ، بغداد ، (١٩٦٨م) .
(٦٩) الدروبي ، ابراهيم ، البغداديون اخبارهم ومجالسهم ، ص٣٩ ، مطبعة الرابطة ، بغداد ، (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م) .
(٧٠) الشيخلي ، (محمد رؤوف طه) ،مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ج ١ ، ص ٦٣ ، مطبعة البصرة ، البصرة (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) .
(٧١) الدروبي ، المصدر السابق ، صفحات ٣٩ ــ ٢٩٥ .
(٧٢) الدروبي ، البغداديون ، ص ٢٩٥ .
(٧٣) الدروبي ، نفس المصدر .
(٧٤) الشيخلي ، المصدر السابق .
(٧٥) الدروبي ، المصدر السابق .
(٧٦) الدروبي ، نفس المصدر السابق .
(٧٧) الدروبي ، نفس المصدر ، ص ٢٩٦ .
(٧٨) الدروبي ، نفس المصدر .
(٧٩) الدروبي ، نفس المصدر .

المستنصر غربي المحكمة الشرعية وكانت ، مساحته كبيرة وقدهدم وشيدت على ارضه بنايات حديثة(٨٠) .

١٣ ـ خان الحاج ياسين جلبي الخضيري : وموقعه في شارع المستنصر وكان قبلا دار الحرم والديوانخانة تعود للسيد انور بك بن درويش بك الحيدري ، وقد عمره الحاج ياسين الخضيري سنة ١٣٤١هـ ، وهو يشتمل على طابقين وبناؤه جيد(٨١) .

١٤ ـ خان باب المعظم : وموقعه كان على شارع المستشفى (الجمهوري) وهوذو مساحة كبيرة وبناؤه قديم استاجره احدتجار بغدادليكون مكانا لتجارته(٨٢) .

١٥ ـ خان البرزنلي : وكان موقعه في آخر شارع البنوك ، وقد شيده الحاج صالح جلبي البرزنلي وقد شيدت على ارضه قبل اكثر من عشرين سنة بناية متعددة الطوابق(٨٣) .

١٦ ـ خان جني مراد : وموقعه في سوق العطارين حاليا وسوق مرجان قديما ، ويشتمل الخان على طابقين الطابق الارضي وفيه عشرون غرفة ، اما الطابق العلوي فيحتوي على ثلاث وعشرين غرفة ، وقد شيد هذا الخان الحاج مراد الحاج علي سنة ١٠٩٧ هـ ، واوقفه على ذريته(٨٤) .

١١٦ ـ خان الدجاج : وكان موقعه في سوق العطارين وهو من الخانات القديمة العهد في بغداد ، وقد شيدت على ارضه في الوقت الحاضر ابنية ودكاكين جديدة(٨٥) .

١٧ ـ خان المواصلة : وقد استخدم قسما من المدرسة المستنصرية كخان لتجار الموصل وذلك سنة (١٣٢٥هـ/١٩٠٧م)(٨٦) .

١٨ ـ خان الزرور : وهو من خانات بغداد الشاخصة الان ، ويقع بالقرب من خان مرجان في سوق الخياطين القديم في الفرع المقابل للمدخل الرئيس لخان مرجان . وقد ثبتت فوق مدخله كتابة هذا نصها : « السلطان ملك رقاب الا (مم) السلطان سليم بن السلطان سليمان خان فخر آل عثمان عز نصر عبده امير امراء ... » ومن الجدير ذكره هنا ان هذا الخان قد اعلن عن اثريته في الجريدة الرسمية المرقمة ١٧٢٧ والمؤرخة في ١٢/٥/١٩٦٩(٨٧) .

١٩ ـ خان القوندرجية : وكان موقعه في سوق القوندرجية (الجوقجية) مقابل جامع الوزير(٨٨) .

٢٠ ـ خان الذهب الكبير وخان الذهب الصغير : وموقعهما في سوق القزازين(٨٩) .

٢١ ـ خان فتح الله عبود : وموقعه في بداية سوق باب الآغا في شارع الرشيد وفي شمال جامع مرجان . وكان هذا الخان يعرف (بخان اللكي)(٩٠) .

٢٢ ـ خان الكمرك : وكان موقعه عند تلاقي الكمرك مع سوق الصياغ ، وهو صغير الحجم وكان متصلا بالمدرسة المستنصرية(٩١) .

٢٣ ـ خان القبلانية : في سوق القبلانية(٩٢) .

٢٤ ـ خان الوقف : مقابل جامع مرجان(٩٣) .

٢٥ ـ خان درويش علي وخان الريجي وخان المميز كلها في الشارع المتفرع من سوق الصفافير والنافذ الى الدنكچية(٩٤) .

٢٦ ـ خان الرماح : في سوق الخردة فروشية(٩٥) .

٢٧ ـ خان العادلية : يقابل المحكمة الشرعية وبجانب جامع العادلية الكبير(٩٦) .

---

(٨٠) الدروبي ، نفس المصدر .
(٨١) الدروبي ، البغداديون ، ص ٢٩٦ .
(٨٢) الدروبي ، نفس المصدر .
(٨٣) الدروبي ، نفس المصدر .
(٨٤) الدروبي ، نفس المصدر ، ص ٢٩٧ .
(٨٥) الدروبي ، نفس المصدر .
(٨٦) الشيخلي ، مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ، ج ١ ، ص ٥٦ .
(٨٧) تقرير ممثل مديرية الآثار العامة في خان الزرور ، رقم الاضبارة ٥٤٥/٤٠ .
(٨٨) الشيخلي ، مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ج ١ ، ص ٦٣ .
(٨٩) الشيخلي ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٦٤ .
(٩٠) سركيس ، (يعقوب) ، مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد ... الخ ، القسم الثاني ، صفحات ١٢٥ و ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ، تقديم رفائيل بطي ومير بصري ، شركة التجارة والطباعة المحدودة ، بغداد ، (١٣٧٤هـ/١٩٥٥م) .
(٩١) سركيس ، نفس المصدر ، ق ٢ ، صفحات ١٨٧ ـ ١٨٨ .
(٩٢) الشيخلي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٤ .
(٩٣) الشيخلي ، نفس المصدر .
(٩٤) الشيخلي ، نفس المصدر .
(٩٥) الشيخلي ، نفس المصدر .
(٩٦) الشيخلي ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٦٥ .

٢٨ـ خان الصفافير : وهو عند مدخل سوق الصفافير من جهة سوق الچوخەچية[٩٧] .

٢٩ـ خان المصبغة : وموقعه عن يمين المتوجه الى شريعة المصبغة يلاصق خان الخفافين من جهاته الداخلية[٩٨] .

٣٠ ـ خان اللوقنطة : في سوق المولە خانە مقابل سوق القرطاسية[٩٩] .

٣١ـ خان الجسر : في آخر سوق القرطاسية .

٣٢ـ خان الزئبق في الدنكچية[١٠٠] .

٣٣ـ خان التمر في الشارع الذاهب الى شريعة خان التمر[١٠١] .

٣٤ـ خان الكبابچية (المضماوي) في سوق الكبابچية[١٠٢] .

واخيراً لابد من القول وبناء على ما تحمله الخانات من آثار عمارية وسمات حضرية تروي لنا حقبة من تاريخ العراقيين والمعاناة التي عاشوها في تلك الفترة ومما يؤسف له ان الانسان عاون الطبيعة في احاطة معظم هذه الخانات بالخراب والانهدام !!

ان الامم تحافظ على تراثها وتبذل كل ما في وسعها لتحقيق هذا الغرض ، وفي اعتقادي ان هذه الخانات جديرة بالرعاية وبان يتخذ لها ما يلزم من الحفاظ على التراث لأنها بنايات اثرية يحافظ عليها ويؤمها الناس من كل حدب وصوب ليستجلوا روائعها. ونحن نأمل لما بقي من هذه الخانات خيراً في المستقبل القريب بعد ان ساد الشعور في الوقت الحاضر والمتعلق بمسألة الاهتمام بكل ما هو اثري وصدور قرارات قومية ووطنية تحفز المعنيين للأخذ بمبدأ الحفاظ على التراث ومنه المباني العمارية التاريخية المتواجدة في اماكن كثيرة من بلادنا وخير دليل على ذلك اهتمام مؤسسة الآثار والتراث الموقرة الحالي الذي نرجوه ان يعم الخانات ايضاً ، وارجو ان اكون قد وفقت ومن الله التوفيق .

---

(٩٧) الشيخلي ، نفس المصدر .
(٩٨) الشيخلي ، نفس المصدر .
(٩٩) الشيخلي ، نفس المصدر .
(١٠٠) الشيخلي ، نفس المصدر .
(١٠١) الشيخلي ، نفس المصدر .
(١٠٢) الشيخلي ، نفس المصدر .

مصادر البحث

آ ـ المصادر العربية

١ ـ ابراهيم مصطفى وآخرون : حمد حسن الزيات ، حامد عبدالقادر ، محمد علي النجار .
المعجم الوسيط : اشرف على طبعه عبدالسلام هارون ، الجزء الاول ، مطبعة مصر ، القاهرة ، (١٣٨٠هـ/١٩٦٠م) .

٢ ـ احمد رضا : (الشيخ)
معجم متن اللغة ، المجلدان الثاني والرابع ، بيروت ، (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م) (١٣٧٩هـ/١٩٦٠م) .

٣ ـ ادي شير :
كتاب الالفاظ الفارسية المعربة ، الطبعة الكاثوليكية، (١٩٠٨م) .

٤ ـ ابن بطوطة : (ابو عبدالله محمد بن ابراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة) (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٢م) .
رحلة ابن بطوطة ، بيروت ، (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) .

٥ ـ ابن جبير : (ابو الحسن محمد بن احمد بن جبير الكناني الأندلسي) (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) .
رحلة ابن جبير ، بيروت ، (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) .

٦ ـ ابن دقماق : (ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي الشهير بابن دقماق) (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) .
الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، الجزء الرابع ، طبع بالطبعة الكبرى ، ببولاق ، (١٢١٠هـ/١٨٩٢م) .

٧ ـ ابن سيده : (علي بن اسماعيل) (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م) .
المحكم والمحيط الاعظم في اللغة ، تحقيق الدكتور مراد كامل ، الجزء السادس ، الطبعة الاولى ، مصر ، (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) .

٨ ـ ابن منظور: (ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور) ، (ت ٧١١هـ/١٣١١م) .
لسان العرب ، المجلدان العاشر والثالث عشر ، بيروت ، (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م) .

٩ ـ ابوار :
(**مادة خان**) ، دائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة احمد الشنتناوي ، ابراهيم زكي خورشيد ، عبدالحميد يونس ، حافظ جلال ، المجلد الثامن ، (بدون مكان وسنة الطبع) .

١٠ـ بارتلد :
(**مادة خان**) ، دائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة احمد الشنتناوي وآخرون ، المجلد الثامن .

١١ـ بدج : (سر ارنست الفردولس)
رحلات الى العراق ، نقله الى العربية وقدم له وعلق عليه فؤاد جميل ، الجزء الاول ، الطبعة الاولى ، مطابع دار الزمان ، بغداد ، (١٩٦٦م) .

١٢ـ بطرس البستاني : (المعلم)
قطر المحيط ، الجزء الاول ، بيروت ، (١٨٦٩م) .

١٣ـ بطرس البستاني : (المعلم)
محيط المحيط ، المجلد الاول ، بيروت ، (١٨٧٠م) .

١٤ـ بطرس البستاني : (المعلم)
(**مادة خان**) ، دائرة المعارف للبستاني ، المجلد السابع ، مطبعة المعارف ، بيروت ، (١٨٨٢م) .

١٥ـ بكنغهام : (جمس سلك)
رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦ ، ترجمة سليم طه التكريتي ، الجزء الاول ، مطبعة أسعد ، بغداد ، (١٩٦٨م) .

١٦ـ تافرنييه : (جان بابتيست)
العراق في القرن السابع عشر ، نقله الى العربية وعلق حواشيه بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، مطبعة المعارف ، بغداد ، (١٩٤٤م) .

١٧ـ توفيق احمد عبدالجواد :
تاريخ العمارة والفنون الاسلامية ، الجزء الثالث ، المطبعة الفنية الحديثة ، مصر ، (١٩٧٢م) .

١٨ ـ الجواليقي : (ابو منصور موهوب بن احمد بن محمدبن الخضر) (ت ٥٤٠هـ/١١٤٥م) .
المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم ، تحقيق وشرح ابي الاشبال احمد محمد شاكر ، اعيد طبعه بالاوفست في طهران (١٩٦٦م) .

١٩ـ الجوهري : (الشيخ ابو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري) (ت ٣٩٨هـ/١٠٠٧م) .
الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق احمد عبدالغفور عطار ، الجزء الخامس ، مطابع دار الكتاب العربي بمصر ، القاهرة ، (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م) .

٢٠ـ حسن ابراهيم حسن : (الدكتور)
تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الجزء الرابع ، الطبعة الاولى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، (١٩٤٨م) .

٢١ـ حسين محفوظ : (الدكتور)
حديث شخصي ١٩٧٥م .

٢٢ـ الدروبي ، ابراهيم : **البغداديون اخبارهم ومجالسهم** ، مطبعة الرابطة ، بغداد ، (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م) .

٢٣ـ رشيد عطية :
معجم عطية في العامي والدخيل ، دار الطباعة والنشر العربية ، سان باولو ، برازيل ، (١٩٤٤م) .

٢٤ـ الزبيدي : (محب الدين ابي الفيض محمد مرتضى الحسيني) (ت ٨١٧هـ/١٢٠٥م) .
تاج العروس من جواهر القاموس ، المجلدان السابع والتاسع ، الطبعة الاولى ، المطبعة الخيرية ، مصر ، (١٣٠٦هـ) .

٢٥ـ الشرتوني : (سعيد بن عبدالله الخوري) (ت ١٣٣١هـ/١٩١٢م) .
أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد ، الجزء الاول ، مطبعة مرسلي اليسوعية ، بيروت ، (١٨٨٩م) .

٢٦ـ الشيخلي ، (محمد رؤوف طه) ، **مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها** ، الجزء الاول ، مطبعة البصرة ، البصرة ، (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) .

٢٧ـ العسكري : (ابو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران اللغوي العسكري) (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م) .
كتاب التلخيص في معرفة أسماء الأشياء ، عني بتحقيقه الدكتور عزة حسن ، الجزء الاول ، مطبعة الترقي ، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق ، (١٣٨٩هـ/١٩٦٩م) .

٢٨ـ الفيروزآبادي : (مجدالدين محمدبن يعقوب الفيروزآبادي) (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م) .
القاموس المحيط ، مطبعة السعادة ، الجزء الرابع ، مطبعة السعادة ، (١٣٣٢هـ/١٩١٣م) .

٢٩ـ كونل : (ارنست)
الفن الاسلامي ، ترجمة الدكتور أحمد موسى ، بيروت ، (١٩٦٦م) .

٣٠ـ اللبناني : (طوبيا العنيسي الحلبي)
كتاب تفسير الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر اصلها بحروفه عني بنشره وتصحيحه والتعليق على حواشيه الشيخ يوسف توما البستاني ، الطبعة الثانية ، مصر ، (١٩٣٢م) .

٣١ـ المدور ، (جميل نخلة) ، **حضارة الاسلام** ، القاهرة ، (١٩٣٥م) .
مصطفى جواد واحمد سوسة ، **دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديما وحديثا** ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، (١٩٥٨م) .

٣٢ـ المينو ، (برهان نور محمد علي) ، **عمارة وتخطيط الخانات العراقية القائمة على طرق الزارات** ، رسالة ماجستير ، مقدمة الى مجلس كلية الآداب ـ جامعة بغداد ، مطبوعة على آلة الطابعة ، بغداد ، (١٩٧٦م) .

٣٣ـ مديرية الآثار العامة :
دليل متحف الآثار العربية في خان مرجان ، القسم الاول ، مطبعة الحكومة ، بغداد ، (١٩٣٨م) .

٣٤ـ المقريزي : (تقي الدين ابي العباس احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) .
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، الجزء الثاني ، طبعة جديدة بالاوفست ، مكتبة المثنى ، بغداد ، (بدون تاريخ) .

٣٥ـ المنشيء البغدادي : (السيد محمد بن السيد احمد الحسيني المعروف بالمنشيء البغدادي) .
رحلة المنشيء البغدادي ، نقلها من الفارسية عباس العزاوي المحامي ، طبع شركة التجارة والطباعة المحدودة ، بغداد ، (١٣٦٧هـ/١٩٤٨م) .

٣٦ـ ناصر خسرو ، (ابو معين) ((سفرنامه)) ، **رحلة ناصر خسرو الى لبنان ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري** ، نقله الى العربية د. يحيى الخشاب ، الطبعة الثانية ، بيروت ، (١٩٧٠م) .

٢٧ــ ناصر النقشبندي :
(خان مرجان) ، مجلة أهـــل النفط ، العـدد السابع والستون ، (١٩٥٧م) .

٢٨ــ نظمي زادة مرتضى أفندي : (ت ١١٣٦هـ/١٧٢٢م) .
كلشن خلفا ، نقله الى العربية موسى كاظم نورس، مطبعة الآداب ، النجف الاشرف ، (١٩٧١م) .

٣٩ــ نعيم زكي فهمي :
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (اواخر العصور الوسطى) ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، (١٣٩٣هـ/١٩٧٢م) .

٤٠ــ نيبور ، (كارستن) :
رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمه من الالمانية الدكتور محمود حسين الأمين ، راجعه وعلق عليه ووضع فهارسه سالم الالوسي ، بغداد ، (١٩٦٥م) .

٤١ــ ياقوت الحموي : (شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي) ، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) .
معجم البلدان ، المجلدان الثاني والرابع ، بيروت، (١٣٧٥هـ/١٩٥٦م) ، (١٣٧٦هـ/١٩٥٧م) .

٤٢ــ اليعقوبي : (احمد بن يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي) (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) .
البلدان ، الطبعة الثالثة ، المطبعة الحيدرية ، النجف الاشرف ، (١٩٥٧م) .

٤٣ــ يعقوب صروف وفارس نمر ، بابه المسائل ، ((معنى خان)) مجلة المقتطف ، ج ١٠ ، مجلد ٢٦ السنة ١٩٠١م .

ب ــ المصادر الاجنبية

1. Cowper, H.S., **Through Turkish Arabia,** London, (1894).
2. Filmer, H., **The Pageant of Persia,** London, (1937).
3. Fraser, J., **Narrative of Ajourney in to Khorasan,** London (1825).
4. Peters, Gohn, Punnett, **Nippure or Explorations, and adventures on the Euphrates,** 2. Vols., New York, and London, (1898).
5. Pope, Arthur, Upham, **"Bridges, Fortifications, Caravanserais", Asarvey of Persia Art from perhistoric Times to the present,** (Editor) Pope, A. U., and (Assistanteditor) Ackerman, Phylis, Text Architecture, Vol. III, London and New York,
6. Porter, R. K., **Travels in Georgia, Persia, Armenia, and Ancient Babylonia during the years 1817-1820** in 2 vols., London, (1822).
7. Pritchard, James. B., **Ancient Near Eastern Texts Relating to the old Testament,** U.S.A. (1969).
8. Reitlinger, G., **"Atower of Skalls," Ajourney through Persian and Turkish, Armenia,** London, (1932).
9. Texier, C., **Description de l'Armenia, la Perse et la Mesopotamia,** Vol. 11, pp. 110-11, Paris, (1842-52).
10. Teixeira, Peter., **The Travels of Peter Teixeira from India to Italy by Land,** London,
11. Unsal, B., **Turkish Islamic Architecture in Seljuk and Ottoment Times 1071-1923),** London, (1970).
12. التبريزي : (محمد حسين بن خلف) برهان قاطع ، بتصحيح واهتمام محمد عباسي ، مهرماه يكهزار وسيصد وسي وشش ، چاپ بيروز ، مؤسسة مطبوعات امير كبير (باللغة الفارسية) .
13. التتوي : (ملا عبدالرشيد) فرهنك رشيدي ، الجزء الاول ، طبعة كلكته ، (١٨٧٢م) (باللغة الفارسية) .

اسوار بغداد

بقلم
عبدالله عبد الرحيم السوداني
بغداد ـ حي القاهرة

يلاقي الباحثون في خطط بغداد وتحديد مواقعها متاعب جمة ، اذ تضافرت عوامل عديدة على طمس معالمها القديمة وازالة اثارها .

حتى اذا جاء الباحثون المحدثون وحاولوا نفض الغبار عن تلك المعالم وقعوا في تشويش كبير ولبس شديد ، فقد زالت آثار بغداد ولم يبق من معين لنا على تحديدها غير اوصاف متناثرة في المصادر العربية التاريخية وكتب البلدان ، ولا يخفى ان الناس لم يكونوا على درجة سواء في ايضاح افكارهم ولا في فهم افكار الآخرين ، وستلمس في ثنايا البحث الكثير من تشويش المحدثين في فهم نصوص القدامى الامر الذي اثر على تحديدهم مواقع بغداد .

وكان لاستعمال اللبن والطين في بناء بغداد المدورة اثره في زوال آثارها ، بالرغم من ان المعمار البغدادي استطاع ان يخرج بغداد بصورة توحي بالسمو والعظمة(١) .

فبغداد تقع بين دجلة والفرات وهما في ثورة وفيضان دائمين ، فكثيراً ما تطغى وتهدد بغداد الغربية ، اما بغداد الشرقية فلم تسلم من عسف نهري دجلة وديالى ، ونظرة سريعة على كتاب الاستاذ احمد سوسه « فيضانات بغداد » تكفينا تصور حال بغداد وتهديد المياه لها منذ تاسيسها وحتى وقتنا الحاضر .

لقد اسهمت الفيضانات المتلاحقة في تدمير الكثير من معالمها الاثرية .

وغير دجلة مجراه خلال تاريخها ، فاتى على كثير من المواقع التي يمكن الاستعانة بها على فهم خطط بغداد ، وجرفت معالم مهمة ، يذكر منها المرحوم مصطفى جواد واحمد سوسة في « دليل خارطة بغداد » جرف دجلة قبر عبدالله بن احمد بن حنبل ، ودير القباب ، وشريعة خضر الياس ومعالم اخرى عديدة(٢) .

ولولا بقاء القليل من المعالم القديمة الباقية التي صمدت في وجه الزمن لضاع الكثير وتعسر الفهم وازداد التخبيط والتخليط ، من هذه المعالم ، بقايا سور بغداد الشرقية وقرب العهد بنقضه ومراقد الكاظمين وابي حنيفة والمستنصرية والباب الوسطاني ومعالم اخرى .

واسهم العمران الحديث بنصيب كبير في تعفية آثار اخرى ، قد تعيننا على اعطاء صورة اوضح واكمل لبغداد المدورة او الشرقية ، فمنذ القديم والمراقبون ينقضون معالم ليبنوا بآجرها معالم اخرى وهكذا ، كما ان المحلات الجديدة انما قامت في اماكن المحلات القديمة ، ولو قامت دوائر الآثار مثلا بتنقيب في مناطق العطيفية والمنطقة ومحلات اخرى من الكرخ الحالية او الرصافة فما اظنها ستخيب في ايجاد بقايا اثرية تكشف عن غوامض بغداد .

كما دفع الجهل الكثير من العوام والجاهلين الى نسبة البعض من المواقع الى غير اصحابها ، كما ان لتبدل الحكومات وتعاقب الازمان اثرا في تبدل اسماء الأماكن ونسيان اسمائها الاولى بفعل الزمن ،

من ذلك ما سجله الرحالة الاوربيون في القرنين السابع عشر والثامن عشر من اسماء تركية اطلقت على ابواب سور بغداد الشرقية مثلا ، طغت على اسمائها الأولى (٣) .

كما ان الاسماء الحالية لمواقع بغداد تجر الكثير الى التصور الخاطيء لاماكن الكرخ والرصافة ، اللذين لم يكونا غير محلتين من محال بغداد القديمة المدورة بينما يطلق اسم الكرخ حاليا على الجانب الغربي برمته كما يطلق اسم الرصافة على الجانب الشرقي(٤) .

ان احياء التراث المخطوط يزيل الكثير من الابهام الذي يقع فيه الباحثون بسبب شحة المعلومات التاريخية الخططية ، اذ ان الغالب على تواريخ المدن ابتداؤها بمقدمات خططية شاملة لتلك المدن تليها تراجم المشاهير من ابنائها .

ويتعذر الجزم بوجود مقدمة خططية في كتاب تاريخ بغداد لاحمد بن ابي طاهر طيفور (المتوفى سنة ٢٨٠ هـ) ، لانه لم يعثر على غير الجزء السادس منه والذي يضم مادة تاريخية بحتة(٥) .

وقد رجح الاستاذ صالح العلي وجود مقدمة خططية له اعتمادا على قول الحميدي الذي يذكر ان احمد بن محمد بن موسى الرازي « الف في صفة قرطبة وخططها ومنازل العظماء بها كتابا على نحو ما بدا به احمد بن ابي طاهر في اخبار بغداد وذكره لمنازل الصحابة بها . »(٦)

ولو تيسر لنا هذا الكتاب كاملا لكفانا الظن ولقدم الكثير مما يعين على فهم خطط بغداد واخبارها .

ان احياء التراث المخطوط كفيل بان يلقي الضوء على ما خفي وابهم على الباحثين ، فحين ترى وصفا مفصلا لاسوار بغداد المدورة بجانبك وصف موجز لاسوار اخرى لا يكاد يشفي الغليل ويزيل الأبهام وذلك لشحة ما وصلنا عنها .

بغداد المدورة

وضع ابو جعفر المنصور اول لبنة في اساس مدينته الجديدة بغداد في احتفال كبير حضره القادة والعلماء وذوو الراي ، وقال :

« بسم الله والحمد لله ، وان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ثم قال للبناة « ابنوا على بركة الله . » وابتدا البناء(٧) .

وكان ذلك في سنة خمس واربعين ومائة للهجرة على قول اكثر الروايات(٨) .

وان كانت ثمة روايات اخرى تشير الى سنين مختلفة لبنائها ؛ فذكرت بعضها ان بناءها كان في سنة تسع وثلاثين ومائة للهجرة وروايات اخرى حددت سنة اربعين ومائة للهجرة سنة بدء بنائها ، ورواية اخرى تذكر سنة اربع واربعين ومائة بداية لبناء بغداد(٩) .

وتكاد تكون الرواية الاولى القائلة بان بناءها كان في سنة خمس واربعين اقرب الروايات للصحة ، اعتمادا على حادث مشهور وقع اول بناء بغداد ، اذ يذكر المؤرخون انه ما ان شرع المنصور ببناء بغداد حتى قام محمد بن عبدالله بن حسن بن حسن ابن علي بن ابي طالب الملقب بـ « النفس الزكية » بثورته بالحجاز سنة خمس واربعين ومائة للهجرة ، وذلك ايام اشتغال المنصور ببناء المدينة المدورة ، وثار اخوه ابراهيم بالبصرة وتوجه يريد الكوفة ، وكان ان اضطرت هاتان الثورتان المنصور الى ان يوقف العمل ببناء بغداد حتى فرغ من امر الثائرين(١٠) .

وكان المنصور قد هيأ لبناء بغداد ما يحتاج اليه من خشب وساج وغير ذلك ؛ واتاه الخبر بخروج محمد النفس الزكية ، فاستخلف على اصلاح ما اعد لذلك مولى له يقال له اسلم ، وبلغ اسلم ان الغلبة لعسكر النفس الزكية على عسكر ابي جعفر ، فاحرق ما كان خلفه عليه ابو جعفر من خشب وساج خوفا من ان يؤخذ منه اذا غلب مولاه ، ولما لام المنصور اسلم ؛ اعتذر اليه بخوفه من ان يظفر بهم ابراهيم فياخذه فلم يقل له المنصور شيئا(١١) .

وبحلول سنة ست واربعين ومائة تقدم البناء تقدما سمح للمنصور بنقل دواوينه وبيت المال الى بغداد(١٢) .

واستمر البناء سريعا ، يعمل فيه نحو من مائة الف عامل حتى تم بناء المدينة المدورة في سنة تسع واربعين ومائة للهجرة(١٣)

× × ×

لقد كان بناء بغداد حدثا تاريخيا وهندسيا ضخما ؛ دل على تبدل طراز الحكم وتغير مفهوم الخلافة السياسي الجديد تغيرا جوهريا عن مفهوم الخلافة ايام الراشدين فتغير مفهوم المدينة تبعا لذلك لتصبح حصنا منيعا يذود عن الخليفة ثورات الثائرين فاصبحت حصنا محاطا بسور ضخم يمتد لاكثر من اربعة اميال(١٤) .

« وجعل أبوابها اربعة على تدبير العساكر في الحروب » على قول الطبري(١٥) .

او « تشبه معسكرا رومانيا » على ما يقول كـوك(١٦) .

ويذكر الطبري عن عيسى بن المنصور انه وجد في خزائن ابيه في الكتب انه [اي المنصور] انفق على مدينة السلام وجامعها وقصر الذهب بهـا والاسواق والفصلان والخنادق وقبابها واسوارها اربعة آلاف الف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهما ، ومبلغها من الفلوس مائة الف الف فلس وثلاثـة وعشرون الف فلس ، وذلك ان الاستاذ من البنائين كان يعمل يومه بقيراط فضة والروزكاري بحبتين الى ثلاث حبات(١٧) .

[والقيراط ١/١٢ من الدرهم والحبة الواحدة ١/٢٤ من الدرهم](١٨) .

كما يذكر ياقوت ان المنصور انفق على بناء بغداد ثمانية عشر الف الف دينار ذهبا(١٩)

ويرى المرحوم مصطفى جواد ان الرقم الذي ذكره ياقوت مبالغ فيه مبالغة ظاهرة(٢٠) .

ومثله لاسنر في كتابه عن خطط بغداد [والذي اكملت ترجمته مع السيد شعلان جاسم] : فهو يرى ان هذا الرقم مبالغ فيه ، فهو يرى ان قيمة الدرهم ١/١٠ من الدينار ، ومهما تباينت هذه النسبة فهي لا تقل عن ١/١٤ من الدينار(٢١) .

والمبالغ كبيرة ــ على تفاوتها في الروايات المختلفة ــ وقد نبه الخطيب البغدادي على تفاوتها(٢٢) .

ولا يخفى ان الانفاق على الاسوار يستأثر بحصة كبيرة من المبالغ المذكورة على بناء المدينة المدورة لضخامة الاسوار وتعددها وارتفاعها وتحصينها .

× × ×

لقد اختلف الخططيون في تحديد المكان الذي شيد عليه المنصور بغداد المدورة بالنسبة لبغداد الحالية ، لاندثار معالم الاولى وزوالها حتى انه لم تبق من بقاياها حجارة واحدة ولا علامة يستدل بها لتحديد موقعها .

وقد قلد اكثر الخططيين المعاصرين المستشرق الكبير لسترنج في كتابه القيم « بغداد في عهد الخلافة العباسية» وتابعوا خطاه، ووقعوا في اوهامه التي نبه عليها الاستاذان المرحوم مصطفى جواد والاستاذ احمد سوسة اكثر من مرة(٢٣) .

ويستدل الاستاذان الفاضلان على وهم لسترنج بنص ينقلانه عن ابن الطقطقى في كتابه « الفخري » يقول فيه « ... ثم ارسل جماعة من الحكماء ذوي اللب والعقل وامرهم بارتياد موضع، فاختاروا له مدينته التي تسمى مدينة المنصور وهي بالجانب الغربي قريبة من مشهد موسى والجواد ــ عليهما السلام ــ فحضر الى هناك ، واعتبر المكان ليلا ونهارا فاستطابه وبنى به المدينة »(٢٤) .

من خلال هذا النص يريان ان مدينة المنصور كانت قريبة من مقابر قريش التي دفن فيها موسى الكاظم ومحمد الجواد ، لا كما يجعل لسترنج حدها قريبا من محلة الرملة في العصر العباسي [الجعيفر الحاليـة]

وقد جره هذا الوهم الى الوقوع في اوهام اخرى ترتبت على اختلاله بتعيين المسافات والابعاد(٢٥)

ثم ان مدينة المنصور التي على الجانب الغربي تقابل الرصافة الواقعة شرقي دجلة ، ان الرصافة مجاورة لمحلة ابي حنيفة النعمان بن ثابت التي بنيت حول مقبرته : كما يقول ياقوت(٢٦) ، ومقبرة ابي حنيفة لما تزل باقية ، فبتحديد مكان مقبرة ابي حنيفة نستطيع تحديد موقع المدينة المدورة التي تبدو قريبة من مقابر قريش [الكاظمية الحالية](٢٧)

كما ان يد العمران امتدت على موقعها لتزيل الكثير من معالمها ، فاصبحت اكثر مواقعها مزارع وبساتين منذ ازمان بعيدة .

واخيرا فان الناظر الى خارطة مجرى دجلة التاريخية وتغيره بين العصر العباسي ايام بناء بغداد وبين ايامنا هذه يدرك ان مجراه طغى على قسم من المدينة المدورة فاصبحت في واديه .

ويرى الاستاذان مصطفى جواد واحمد سوسة ان الاستاذ هرزفلد قد قارب الصواب في تحديده موقع مدينة السلام(٢٨) .

ويريان انها تقع بين الكاظمية من الشمال وبراثا والكرخ من الجنوب الغربي ودجلة من الشرق وقرية سونايا [موضع مسجد المنطقة الحالي] ونهر الصراة من الجنوب(٢٩) .

ويرى الاستاذ سوسة انها كانت تقع بين الكاظمية وقرية الكرخ من الجنوب الغربي والشيخ الجنيد [مقبرة الشونيزي] والشيخ معروف الكرخي من الجنوب الشرقي وقرية سونايا [المنطقة الحالية] من الشرق(٣٠) .

× × ×

أحاط ابو جعفر المنصور مدينة بغداد المدورة بسور يحميها وجعل لها اربعة مداخل وحفر حولها خندقا يحيط بالسور ، فقد ذكر اليعقوبي ان المسافة بين الباب والاخرى من خارج الخندق خمسة الاف ذراع بالذراع السوداء[31] ، فيكون طول السور المحيط بها عشرين الف ذراع ، وقد اختلف في تحديد طول الذراع السوداء ، فهي (٣/٤٩٣) مليمتر ، اي قرابة الخمسين سنتمترا[32] ، فيكون طول السور قرابة عشرة كيلومترات وبالضبط « ٩٨٦٦ مترا » .

ويرى آخر أن طول الذراع يساوي نحوا من خمسة وستين سنتمترا[33] ؛ وحسب هذا التقدير يكون طول السور

٦٥ × ٢٠,٠٠٠ = ١٣٠٠٠٠٠ سم

اي ثلاثة عشر كيلومترا .

ويقدر هنز طول الذراع السوداء ب « ٥٤,٠٤ سنتمترا »[34] .

فيكون محيط بغداد :

٥٤,٠٤ × ٢٠,٠٠٠ = ١٠٨٠٨ مترا .

والتقدير الاول اقرب للصحة وادق .

ويروى الخطيب عن رباح البناء — وكان ممن تولى بناء سور مدينة المنصور — انه كان بين كل باب من أبواب المدينة والباب والآخر ميل ، وبهذا يكون طول السور اربعة اميال[35] ، والميل اربعة الاف ذراع على ما يقول ياقوت في معجم البلدان .

وفي رواية اخرى للخطيب يقول : « ان المنصور جعل الطول من باب خراسان الى باب الكوفة ثمانمائة ذراع ومن باب الشام الى باب البصرة ستمائة ذراع »[36] .

فالابواب بحسب هذه الرواية متناظرة لا متعامدة في قطريها[37] .

ويشك لاسنر في كتابه عن خطط بغداد بصحة هذه الرواية ؛ لان ذلك يعني ان المدينة غير مدورة على ما يقول[38] .

[ينظر شكل ١]

× × ×

وبنيت الأسوار باللبن ، اذ يحوي الساف الواحد من أسواف السور مائة ألف واثنتين وستين الف لبنة من اللبن الجعفري ، حتى اذا جاوز البناؤون ثلث السور لقطوه فصيروه في الساف مائة الف لبنة وخمسين الف لبنة ، ولما جاوزوا الثلثين صيروا في الساف مائة الف لبنة واربعين الف لبنة الى اعلاه[39] .

ويؤيد لاسنر راي هرزفلد وكرسويل في صحة الارقام التي ذكرها الخطيب بشان عدد اللبن المستعمل في البناء ، ولما كان الميل الواحد اربعة الاف ذراع اسود وان محيط السور اربعة اميال اي ستة عشر الف ذراع ؛ فيرى هرزفلد ان سمك الأسوار عند القاعدة يساوي عشرة اذرع ، وبهذا يكون عدد اللبن المستخدم في بنائها مائة وستين الف قطعة يضاف اليها الفين للابراج .

اما المائه والخمسون الف قطعة المستعملة في بناء الثلث الثاني [القسم الاوسط] من السور فتكون سورا سمكه تسعة اذرع وربع الذراع يضاف اليها الفا للابراج .

وكان سمك الثلث الاعلى من السور ثمانية اذرع ونصف الذراع ، يضاف اليها اربعة الالف قطعة في الاعلى للابراج والشرفات .

ويضيف لاسنر ان هذه الارقام تبدو مقبولة ظاهريا على الرغم من كونها لاتتفق وما تذكره المصادر العربية[40] .

وذكر ان اللبن المستعمل في بناء المدينة المدورة كان بحجمين كبير وصغير . فالكبيرة مكعبة الحجم : طول ضلعها ذراع في ذراع ، [اي حوالي نصف متر في نصف متر] .[41]

وتزن الواحدة منها مائتي رطل[42]

وقدر آخرون وزن اللبنة الواحدة منها بزهاء مائة وسبعة عشر كيلو غراما[43] .

وقد ذكر الخطيب انه هدمت قطعة من السور مما يلي باب المحول ، فوجدنا فيها لبنة مكتوب عليها بمغرة [صبغة حمراء] وزنها مائة وسبعة عشر رطلا . قال فوزناها فوجدنا كذلك[44] .

اما حجم اللبنة الصغيرة فبقدر نصف الكبيرة ، اي ذراع في نصف ذراع ووزنها مائة رطل على ماذكر اليعقوبي[45] .

وقد ذكر المؤرخون ان اباحنيفة النعمان بن ثابت صاحب المذهب المشهور كان يتولى القيام بضرب اللبن وعده ، حتى فرغ من استتمام بناء حائط بغداد مما يلي الخندق ، وكان يعد اللبن بالقصب ، وهو اول من فعل ذلك فاستفاده الناس منه .

وكان ابو حنيفة قد رفض قبل ذلك طلب

المنصور بتعيينه قاضيا على المدينة ، لكن المنصور جعله يقبل بعمله في بناء بغداد(٤٦) .

واستعملت جوائز القصب مكان الخشب في بناء السور(٤٧) [والجوائز جمع جائز ، والجائز من البيت الخشبة التي يوضع عليها اطراف الخشب في سقف البيت . لسان العرب] وذكر ياقوت ان المنصور امر ان يجعل في البناء جرز القصب مكان الخشب [والجرزه الحزمة . لسان العرب] .

وقد اعتاد العرب استعمال روابط من خشب او حديد تشد اسواف البناء الى بعضها(٤٨) .

× × ×

وحفر ابو جعفر المنصور خندقا عميقا حول اسوار المدينة المدورة من خارجها ، واجرى فيه الماء من قناة تستمد مياهها من نهر كرخايا الذي يتفرع من الفرات .

ولحماية السور من تاثير مياه الخندق المحيط به شيد مسناة محكمة عالية من جهة الاسوار مبنية بالآجر والصاروج(٤٩)

[والصاروج : النورة واخلاطها مما تصرج به الاحواض والحمامات . المعرب للجواليقي] .

وذكر ابن رسته ان حافتي الخندق بنيتا بالجص والآجر(٥٠) .

واختلفت الروايات بشان عرض الخندق ، فعرضه عشرون ذراعا في رواية واثنا عشر ذراعا في اخرى(٥١) .

بينما يذكر ابن الفقيه ان عرضه كان اربعين ذراعا(٥٢) .

ويشك لاسنر في صحة هذا الرقم ، اذ يرى انه لو كان عرضه اربعين ذراعا لوجب ان يربط بشاطىء دجلة المقابل له وان تجعل عنده فرضة لوصول السفن اليه(٥٣) .

ولا بد لمن يدخل المدينة من عبور الخندق على قنطرة تصل باب السور الخارجية بخارج المدينة .

[ينظر شكل ٢]

× × ×

وبعد الخندق مباشرة يأتي السور الاول الخارجي ، ويعرف بسور الفصيل ، نسبة الى الفصيل الذي يحيط به من الداخل(٥٤) .

وهو اقل ارتفاعا وسمكا من السور الثاني الذي يعرف بالسور الاعظم .

قال الطبري : « وامر [المنصور] ان يجعل عرضه من اسفله خمسين ذراعا ، وقدر اعلاه عشرين ذراعا . »(٥٥)

ويقدر كرزويل ارتفاعه باربعة وعشرين ذراعا على الاقل(٥٦) .

كما يذكر هرزفلد ان نسبة ارتفاع السورين الاول [الخارجي] الى الثاني [السور الاعظم] هي اربعة الى خمسة ؛ ويفترض ان ارتفاع السور الخارجي ثمانية وعشرون ذراعا وسمكه ثمانية اذرع(٥٧) .

بينما يرى الاستاذان جواد وسوسة ان احد السورين كان اعلى من الآخر بما يقرب من النصف ، وان ارتفاع السور الاعظم مع الشرفات المدورة ستون ذراعا بالذراع السوداء ، اي ثلاثون مترا على وجه التقريب(٥٨) .

ولم تشر المصادر التي بين ايدينا صراحة الى انه كان لهذا السور دعامات مدورة تدعمه مما يلي الخندق ، وان كان هرزفلد يرجح وجود دعامات له تزيد من قوته وتدعمه كتلك التي في اسوار سامراء ، ولا يشترط فيها ان تستخدم لغاية حربية(٥٩) .

[ينظر شكل ٣]

× × ×

وفي السور اربعة ابواب بحسب المناطق والبلدان التي ينفذ منها اليها ، وكانت متقابلة ، فسمي الباب الشمالي الغربي باب الشام ، والباب الجنوبي باب الكوفة ، والباب الجنوبي الشرقي باب البصرة والباب الشمالي الشرقي باب خراسان(٦٠) .

والباب الاخير هذا كان يسمى ايضا « باب الدولة » او « باب الاقبال » لاقبال الدولة العباسية من خراسان(٦١) .

وكان كل باب قد خصصت لاهل مصر من الامصار ؛ قال الخطيب : « اذا جاء احد من الحجاز دخل من باب الكوفة ، واذا جاء احد من المغرب دخل من باب الشام ، واذا جاء احد من فارس والاهواز والبصرة وواسط واليمامة والبحرين دخل من باب البصرة ، واذا جاء الجائي من المشرق دخل من باب خراسان »(٦٢) .

كما ذكر الخطيب ان « للمدينة اربعة ابواب ، شرقي وغربي وقبلي وشمالي ، ولكل منها بابين ، بابا دون باب بينهما دهليز ورحبة . »(٦٣) ويفهم

من قوله ان ابواب السور الخارج [وهو السور الاول] كانت ثمانية ابواب .

ويفضي كل باب من ابواب السور الخارجي الى دهليز طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا .

قال الخطيب : « فاذا دخل الداخل من باب خراسان الاول عطف على يساره في دهليز ازج معقود بالآجر والجص ، عرضه عشرون ذراعا وطوله ثلاثون ذراعا : المدخل اليه في عرضه والمخرج منه من طوله »(٦٤)

وتختلف مساحة الدهليز في رواية اليعقوبي التي تقول ان المنصور : « جعل لأبواب المدينة اربعة دهاليز عظاما آزاجا ، طول كل دهليز ثمانون ذراعا ، كلها معقود بالآجر والجص ، فاذا دخل من الدهليز الذي على الفصيل وافى رحبة مفروشة بالصخر ثم دهليزا على السور الاعظم . »(٦٥)

ويتضح من وصف الخطيب ابواب السور الخارجي ان الباب الخارجي المطلة على الخندق والمسناة ليست على استقامة قطر المدينة المدورة المار بمركزها والمخترق ابواب السور الاعظم والابواب المفضية الى الرحبتين والدهليزين ، بل لابد للمار من الباب الخارجي من ان يستدير نحو اليسار فيتعرض جانبه الايمن لسهام ورماح المدافعين عن المدينة ، لان المقاتل انما يحمل ترسه بيده اليسرى ويحمل سيفه او رمحه بيده اليمنى(٦٦) .

[ينظر شكل ٤]

وتتجلى في هذا التصميم ميزة معمارية خاصة تحقق غاية حربية ، اذ يقول الطبري « وجعل [اي المنصور] ابوابها اربعة على تدبير العساكر في الحروب » ؛ وتلك الميزة البغدادية تعرف ب « المحور المنكسر » لمداخل الابواب ، وهو تقليد بغدادي اصيل نقله الصليبيون فيما نقلوه عن الشرق ونفذوه في تصميم قلاعهم على ما يذكر رايس(٦٧) .

ومن الأبواب التي طبقت عليها هذه القاعدة الباب الوسطاني ، من ابواب سور بغداد الشرقية ، الا ان الداخل يتجه يمينا لا يسارا كما في سور المدينة المدورة .

[ينظر شكل ٥]

ومن هذه الخاصية اشتق اسم الزوراء ، قال ابن الفقيه وياقوت بعده أن بغداد « انما سميت بالزوراء لأن المنصور حين عمرها جعل الابواب الداخلة مزورة عن الأبواب الخارجة ، اي ليست على سمتها . »(٦٨)

والمسافة بين الباب والأخرى خمسة آلاف ذراع على ما ذكر اليعقوبي(٦٩) ؛ ولعل القياس مأخوذ من الجهة الخارجية كما يرى لسترنج ؛ وهي ميل على رواية الخطيب(٧٠) وياقوت(٧١) [والميل اربعة آلاف ذراع](٧٢)

× × ×

اما ابواب السور الخارجي، فقد صير المنصور على باب خراسان الخارج [التي على السور الخارجي] بابا جيء به من الشام من عمل الفراعنة ؛ وصير على باب الكوفة بابا جيء به من الكوفة كان عمله خالد بن عبدالله القسري وامر باتخاذ باب لباب الشام فعمل ببغداد وهو اضعف الابواب كلها(٧٣) .

ولم يذكر الطبري الباب الرابعة التي جعلها المنصور على باب البصرة ولا الجهة التي جيء بها منها(٧٤) .

وعلى كل باب من ابواب السور الخارجي قبة ، وبين الباب والاخرى من ابوابه ثمانية وعشرون برجا عدا الابراج التي بين باب البصرة وباب الكوفة فانها تسعة وعشرون برجا(٧٥)

ويذكر جواد وسوسه ان هذه الابراج كانت السور الداخلي [الاعظم](٧٦) .

وليست ثمة اشارة الى ان السور الخارجي كان محصنا بالأبراج ، وان كان هرزفلد يحتمل وجود ركائز صغيرة مستديرة فيه كتلك التي في اسوار سامراء ، تؤدي غاية معمارية لا غاية عسكرية(٧٧) .

وتقدر المسافة بين البرج والآخر بستين ياردة استنادا لمعرفتنا بالمسافة بين الباب والاخرى ولعدد الابراج بينهما(٧٨) .

كما كان ارتفاع كل برج خمسة اذرع فوق السور(٧٩) .

وبعد السور الاول ارض خالية تدور بين السورين الاول والثاني اعدت لحركات الدفاع تسمى « الفصيل » وكأنها تفصل بين السور والعمران(٨٠) .

وينقسم هذا الفصيل الى اقسام اربعة متناظرة متساوية وصفها الخطيب بانها « على نعت واحد وحكاية واحدة »(٨١) .

وقد ذكر اليعقوبي ان عرضه مائة ذراع بالذراع السوداء(٨٢) ؛ بينما ذكر الخطيب ان عرضه ستون ذراعا(٨٣) .

وامر المنصور ان لا يسكن تحت السور الطويل احد ولا يبنى منزلا(٨٤) .

يدخل الى الفصلان الاربعة من رحاب اربعة بين السورين الخارجي والاعظم ، وهذه الرحاب مستطيلة طولها ستون ذراعا [اي بقدر المسافة بين السورين ، اي بعرض الفصيل ، كما يرى الخطيب] وعرضها اربعون ذراعا . ويقتضي ان يكون طولها مائة ذراع [لانها بقدر عرض الفصيل] كما ذكر اليعقوبي .

ولكل منها في جانبها حائطان يفصلان الرحبة عن الفصيل . وعلى كل حائط باب يؤدي الى ربع الفصيل : فالباب الايمن يؤدي الى الفصيل الايمن بينما يؤدي الباب الايسر الى الفصيل الايسر(٨٥) .

والرحاب متشابهة متناظرة شانها شان الابواب والفصلان(٨٦) .

اما السور الثاني فهو السور الاعظم الذي يسميه الخطيب بـ « السور الداخل » ؛ وهو اعلى من السور الاول واضخم(٨٧) .

وقد ذكر اليعقوبي ان عرض اساسه كان تسعين ذراعا بالذراع السوداء ، ثم ينحط حتى يصير في اعلاه خمسة وعشرين ذراعا(٨٨) وقال الخطيب « وعرض السور من اسفله نحو عشرين ذراعا . »(٨٩)

اما ارتفاعه فقد كان ستين ذراعا مع الشرفات على رواية اليعقوبي(٩٠) ؛ وانه خمسة وثلاثون ذراعا وعليه ابرجة كما يقول الخطيب(٩١) وبالمقاييس المعاصرة حدده لسترنج فذكر ان ارتفاعه كان تسعين قدما وان عرضه في اعلاه اثنتا عشرة باردة ونصف البارده ؛ وعليه ابراج كبيرة وصغيرة ، وانه كان سورا متينا كالمتراس مبنيا بالآجر(٩٢) .

لقد كان هذا السور اضخم من السور الاول [الخارجي] واشد احكاما ، اذ ذكر المؤرخون ان « للفصيل ابرجة عظام وعليه الشرفات المدورة »(٩٣)

و « ... كل برج منها فوق السور خمسة اذرع ، وعلى السور شرف »(٩٤) وكان لسترنج قد ذكر ان على السور ابراجا كبيرة وصغيرة وان ارتفاع الصغيرة سبعة اقدام ونصف القدم اعلى من مستوى السور(٩٥) .

قال الخطيب « وقد جعل المنصور بين كل بابين ثمانية وعشرين برجا الا بين باب البصرة وباب الكوفة فانه كان يزيد واحدا »(٩٦)

وبعملية حسابية بسيطة نستطيع معرفة المسافة بين برج وآخر ، فالمسافة بين كل باب من ابواب السور والباب التي تليها اربعة الاف ذراع ، [ميل كما ذكر الخطيب] وعرض البوابة اربعون ذراعا ؛ فالمسافة بين الباب والاخرى من السور هي (٣٩٦٠ ذراعا) ، وبقسمتها على عدد الابراج وهو (٢٩) يكون الناتج (١٣٦٫٥ ذراعا) اي حوالي (٦٨ مترا) وهي المسافة بين البرج والآخر(٩٧) .

ويقدر لسترنج المسافة بين كل برج والذي يليه بستين باردة بناء على طول السور وعدد الابراج التي فيه(٩٨) .

ولم تذكر المصادر العربية هيأة تلك الأبراج ولا وصفها ؛ الا ان كرزويل يرى انها من غير شك كانت على هيأة نصف مستديرة وانها تشبه تلك التي كانت في هرقلة وابراج قصور وجوامع واسوار سامراء(٩٩) .

ويقدر هرزفلد ارتفاع كل برج عن الارض بمائة وو..ند واربعين ذراعا وان هذه الأبراج لم تكن مجرد مساند ودعامات بل هي ابراج ذات تجاويف بارزة وحجرات يكمن فيها الرماة ، وان هذه الابراج يفترض انها كانت مستديرة كما كان شائعا يومذاك(١٠٠) .

لقد منع المنصور الناس من السكن تحته ومن بناء منزل يلاصقه ، اما من الخارج فقد كان يحيط به الفصيل الاول(١٠١) .

ومن الداخل كان يحيط بالسور الاعظم شارع يفضي الى الابواب الاربعة ، وكان هذا الشارع — وعرضه خمسة وعشرون ذراعا — يخرج من الرحبة الثانية ويدور تحت السور ومنه تبدأ مداخل السكك(١٠٢) .

ويدخل الى السور الاعظم من دهليز ازج معقود بالآجر والجص طوله عشرون ذراعا وعرضه اثنا عشر ذراعا(١٠٣) . عليه بابا حديد جلبلان(١٠٤)

قال اليعقوبي : وكان فوق البوابة الرئيسية في السور الاعظم « قبة معقودة عظيمة مذهبة وحولها مجالس ومرتفعات يجلس فيها فيشرف على كل ما يعمل به . »(١٠٥)

و « يصعد الى هذه القباب على عقود مبنية بعضها بالجص والآجر وبعضها باللبن العظام قد عملت آزاجا ، بعضها اعلى من بعض ، فداخل الآزاج للمرابطة والحرس ، وظهورها عليها المصعد الى القباب التي على الأبواب على دواب ، وعلى المصعد ابواب تغلق »(١٠٦)

وذكر الخطيب ان على كل أزج من آزاج ابواب

السور مجلس له درجة على السور يرتقي اليه منها ، وعلى هذا المجلس قبة عظيمة في السماء سمكها خمسون ذراعا مزخرفة(١٠٧) .

تقوم هذه القبة على اعمدة من الساج ، ويرجح انها كانت مغطاة بالقرميد ، وارتفاعها من الداخل خمسة وسبعون قدما ، اما داخلها فقد كان مزخرفا بنقوش ذهبية(١٠٨) وكانت القبة خضراء(١٠٩) .

وكانت هذه القبة مجلس المنصور اذا احب النظر الى الماء ، والى من يقبل من ناحية خراسان ، وقبة على باب الشام كانت مجلس المنصور اذا احب النظر الى الأرباض وما والاها ، وقبة على باب البصرة كانت مجلسه اذا احب النظر الى الكرخ ومن اقبل من تلك الناحية ، وقبة على باب الكوفة كانت مجلسه اذا احب النظر الى البساتين والضياع(١١٠)

وعلى راس كل قبة منها تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره(١١١)

[ينظر شكل – ٦ –]

ابواب مدينة المنصور

وعلى كل باب من ابواب المدينة باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منه فردان(١١٢) .

وهذه الابواب ضخمة يقول اليعقوبي « لا يغلق الباب الواحد منها ولا يفتحه الاجماعة رجال »(١١٣)

لقد جيء بابواب سور بغداد من اماكن شتى نصبها على السور وجعل احدها على باب القصر . قال الطبري : « وذكر ان ابا جعفر احتاج الى ابواب للمدينة ، فزعم ابو عبدالرحمن الهماني ان سليمان ابن داود كان بنى مدينة بالقرب من موضع بناء الحجاج واسطا يقال لها الزندورد ، واتخذت له الشياطين خمسة ابواب من حديد لا يمكن الناس اليوم عمل مثلها فنصبها عليها ، فلم تزل عليها الى ان بنى الحجاج واسطا ، وخربت تلك المدينة ، فنقل الحجاج ابوابها فصيرها على مدينته واسط ، فلما بنى ابو جعفر المدينة المدورة اخذ تلك الابواب فنصبها على المدينة ، فهي عليها الى اليوم »(١١٤) .

بينما يذكر الاستاذان جواد وسوسة ان المنصور جلب لابواب مدينته رتاجات لا ابوابا ، لا يغلق الرتاج الواحد منها ولا يفتحه الا جماعة رجال لضخامته ... فرتاج باب خراسان الخارجي جاء به المنصور من الشام من عمل الفراعنة ؛ وجاء برتاج باب الكوفة من الكوفة وكان قد عمله خالد بن عبدالله القسري والى الكوفة ايام هشام بن عبدالملك ، وكان المنصور قد عمل رتاجا لباب الشام وكان اضعف الابواب ، ويظهر انه وضع في باب البصرة رتاجا من ارتجة خمسة امر بجلبها من واسط كانت على ابواب الحجاج ، وكان الحجاج وجدها على مدينة زندورد التي كانت بازاء واسط(١١٥) .

قال الطبري : « وللمدينة ثمانية ابواب ، اربعة داخلة واربعة خارجة ، فصار على الداخلة اربعة من هذه الخمسة [التي نقلها من واسط كما ذكرنا] ، وعلى باب القصر الخارج الخامس منها »(١١٦)

وكانت هذه الأبواب مرتفعة يدخل الفارس بالعلم والرمح الطويل من غير ان يميل العلم ولا يثني الرمح(١١٧) .

ولم تتوفر لدينا ارقام تعين حجم هذه الابواب، الا ان هرزفلد يذكر أن طول الرمح الذي يستعمله العربي في العصر الحديث هو عشرة أذرع ولذا فهو يفترض ان ارتفاع قوس الباب كان عشرة أذرع ، وكأنه لم يحسب حساب الحصان ، لقد كانت نسبة طول ابواب سامراء الى عرضها هي نسبة ثلاثة الى اثنين ؛ وعليه يرى لاستر ان عرض ابواب بغداد ستة أذرع وثلثا الذراع(١١٨) .

لقد كان نقل الأبواب من مدينة لاخرى من الاشياء المتعارف عليها في تلك الازمان(١١٩)

ويظن لاستر ان ذلك كان عملا رمزيا يعبر عن سلطة الحكام والخلفاء(١٢٠) .

وقد ظلت هذه الأبواب طويلا حتى ذكر الخطيب انه « في سنة تسع وثلاثمائة وقد كسرت العامة الحبوس بمدينة المنصور ، فافلت من كان فيها ، وكانت الابواب الحديد للمدينة باقية ، فغلقت وتتبع اصحاب الشرط من افلت من الحبوس فاخذوا جميعهم حتى لم يفلت منهم احد »(١٢١)

ويدخل من الباب الكبير [الذي في السور الكبير] الى دهليز ازج معقود بالجص والآجر ، طوله عشرون ذراعا وعرضه اثنا عشر ذراعا(١٢٢) .

ويفضي الدهليز الى رحبة مفروشة بالصخر(١٢٣) « مربعة ، عشرون ذراعا في مثلها ؛ على يمين الداخل اليها طريق وعلى يساره طريق يؤدي الايمن الى باب الشام والأيسر الى باب البصرة ؛ والرحبة كالرحبة التي وصفنا [في الحديث عن السور الخارجي] ثم يدور هذا الفصيل على سائر الابواب بهذه الصورة ؛ وتشرع في هذا الفصيل ابواب

السكك ، وعرض كل فصيل من هذه الفصلان من السور الى افواه السكك خمسة وعشرون ذراعا»(١٢٤)

وامر المنصور ان يبنى في الفصيل الثاني مع السور النازل لأنه احصن للسور(١٢٥) .

قال الخطيب : « ثم يدخل من الرحبة [الثانية] التي وصفنا الى الطاقات ، وهي ثلاثة وخمسون طاقا سوى طاق ، المدخل اليها من هذه الرحبة ، وعليه باب ساج كبير فردين ، وعرض الطاقات خمسة عشر ذراعا ، وطولها من اولها الى الرحبة التي بين هذه الطاقات والطاقات الصغرى مائتا ذراع ، وفي جنبتي الطاقات بين كل طاقين منها غرف كانت للمرابطة ... ثم يخرج من الطاقات الى رحبة مربعة عشرون ذراعا في عشرين ذراعا ، فمن يمينك طريق يؤدي الى نظيرتها من باب الشام ، ثم تدور الى نظيرتها من باب الكوفة ثم الى نظيرتها من باب البصرة »(١٢٦)

× × ×

وبنى الخليفة سجنه الكبير المعروف بـ « المطبق » في الربع الجنوبي للفصيل الاول الذي بين باب البصرة وطريق باب الكوفة بين السورين(١٢٧)

وقد سميت السكة التي يقع فيها هذا السجن بـ « سكة المطبق » .

لقد ذكر لسترنج ان المنصور شيد سجنه الكبير قبالة باب الشام ، وكان يعرف بسجن باب الشام ، وان العامة كسرته في فتنة سنة خمس وخمسين ومائتين للهجرة ايام العامل سليمان الطاهري ، فتتبعهم اصحاب الشرط حتى امسكوهم جميعا(١٢٨) ، وهذا السجن غير سجن المطبق كما نرى من ذكر مكانه .

وكان المطبق متين البناء قوي الاسس بناه المنصور تحت الارض فكان شديد الظلام ، وقد زج فيه الكثير من مناوئيه ، وكذلك فعل من جاء بعده من الخلفاء ، وقد ظل هذا السجن قائما الى ما بعد عهد الخليفة المقتدر بالله(١٢٩) .

× × ×

ولم يعط التخطيط الدائري المدينة المدورة اسباب النمو ، فلم تستوعب السكان ، مما اضطر الى اهمال التخطيط الدائري تدريجيا ، فامتد البناء سريعا خارج الاسوار وفي فترة قصيرة عبر الى الجانب الشرقي(١٣٠) .

ورأينا ان المنصور اخرج الاسواق خارج المدينة المدورة ـ وعلى ايامه ـ بناء على نصيحة احد مقربيه ، اذ راى في بقائها داخل المدينة المدورة مصدر خطر ، اذ يدخلها الجواسيس والغرباء وينقلون اسراره بحجة البيع والتجارة(١٣١) ، كما انه بنى في سنة سبع وخمسين مائة للهجرة قصرا جديدا خارج اسوار بغداد المدورة ، على نهر دجلة من جهة باب البصرة سماه قصر الخلد(١٣٢) .

ولم يتوقف العمران ببغداد ، حتى لقد روى ابن الفقيه عن ابن يزيد الحرفي ومحمد بن نصر الدلالين وهما شيخان مستوران قد اسنا « انما لنركض على حمرنا في حواشي بغداد واوساطها منذ سبعين سنة لدلالة ما يباع من المنازل والعقارات وسائر انعقد والمستغلات في الليل والنهار والغدو والاصال ، وانا لنمر في ايامنا بل في الزمان جميعا ببقاع لا عهد لنا بها ، ودور لا معرفة لنا بشيء منها ، وبمسالك لا تحيط بها اوهامنا ولا سلكناها قط »(١٣٣) .

وهذا النص يشير صراحة الى استمرار العمارة واتصالها ، وقد اشار اليعقوبي الى ان القطائع والشوارع والسكك قد تغيرت على ما رسمت ايام المنصور ووقت ابتدائها ... ولم تخرب بغداد(١٣٤)

وعلى الرغم من سعة بغداد وبناء الناس خارج اسوار المدينة المدورة الا ان المصادر لم تذكر لنا شيئا عن سور يحيط بالعمران الجديد ، وان كنا نلمس في اثناء النصوص ما يدل على وجود سور وذكر من خلال ذكر بعض الابواب والتي يفترض أن تبنى على سور .

لقد بنى اكثرسور مدينة المنصور باللبن وتعاقبت عليه احداث شتى من فيضانات وهدم اسهمت في خرابه ، من تلك الاحداث الفيضان الذي وقع في سنة ثلاثين وثلاثمائة والذي تسبب بهدم طاقات باب الكوفة وغرق بغداد الغربية ودخول الماء مدينة المنصور [المدورة] ، فقد ذكر الخطيب بان البثق انبثق من قبين ودخل الماء الأسود المدينة وهدم طاقات باب الكوفة وبيوتا كثيرة حتى اضطر البعض الى ترك بيوتهم الى اماكن آمن ، ثم اصلح السور(١٣٥) .

ومر بنا في حوادث الحرب بين الاخوين الأمين والمأمون أن جيش طاهر بن الحسين حاصر بغداد الغربية ، ورأى طاهر اخيرا وجوب ضرب المدينة المدورة التي دافع عنها رجال الامين بقوة وجلد بعد ان التجأ اليها الامين(١٣٦) .

فاصيبت اسوار المدينة المدورة باضرار جسيمة

نتيجة رمي المنجنيق عليها حيث ان طاهرا احاط بها ... ونصب المجانيق حول السور .

ووصفها المقدسي البشاري في الربع الاخير من القرن الرابع للهجرة فقال : « ... أما المدينة فخراب والجامع فيها يعمر في الجمع ثم يتخللها بعد ذلك الخراب ، اعمر موضع بها قطيعة الربيع والكرخ في الجانب الغربي »(١٣٧) .

على ان ابواب السور الكبير الاربعة ظلت باقية حتى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وكذلك الدهاليز(١٣٨) .

وانه في سنة سبع وثلاثمائة كسرت العامة الحبوس بمدينة المنصور فافلت من كان فيهما ؛ وكانت الابواب الحديد للمدينة باقية فغلقت وتتبع اصحاب الشرط من افلت من الحبوس فاخذوا جميعا حتى لم يفلت منهم احد(١٣٩) .

الرصافـة

قدم المهدي مع عسكره من المحمدية بالري الى بغداد في سنة احدى وخمسين ومائة ؛ فامره ابوه المنصور ان يعسكر بالجانب الشرقي من بغداد ويبني له ولاصحابه دورا ، فبنى له سورا وحفر خندقا وغرس بستانا وسماها « عسكر المهدي » اولا ، الا ان اسم الرصافة غلب عليها(١٤٠) .

وكان جامع الرصافة قد اسس قبل ذلك التاريخ اي في سنة ثلاث واربعين ومائة ، ولم يقم العمران حوله حتى عودة المهدي(١٤١) .

لقد كان الجامع اول بناء شيد في ذلك الجانب، وكان الفراغ من بناء الرصافة وبناء جامعها في سنة تسع وخمسين ومائة للهجرة وهي السنة الثانية من خلافة المهدي(١٤٢) .

تقع الرصافة مقابل المدينة المدورة على الجانب الشرقي لدجلة ويربطها بالمدينة المدورة جسر .

وسرعان ما ساوت الرصافة بغداد الشرقية في المساحة(١٤٣) .

ولم تسعفنا المصادر التي بين ايدينا بمايعين على وصف سور الرصافة .

× × ×

وينتقل المعتصم الى سامراء في سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، فتصبح عاصمة الخلافة العباسية طيلة مقامه بها مدة حياته وايام الواثق والمتوكل ، ولم تخرب بغداد ولا تقفت اسواقها ، لانهم لم يجدوا منها عوضا ؛ حتى لقد اتصلت العمارة والمنازل بين بغداد وسامراء(١٤٤) .

وتعود الحياة اليها من جديد فتصبح مسرحا صاخبا لصراع مرير على الخلافة بين المعتز والمستعين .

اسوار المستعين

ففي سنة مائتين واحدى وخمسين للهجرة بايع الجند الاتراك بسامراء المعتز بانه خليفه ؛ ففر المستعين مع جماعة من رجاله الى بغداد ، وكانت موافاته بغداد يوم الاربعاء لثلاث ساعات مضين من النهار لأربعة ايام ــ وقيل لخمسة ايام ــ خلون من المحرم من هذه السنة(١٤٥) .

ونزل في دار محمد بن عبدالله بن طاهر والي بغداد يومذاك ، وكان عونا للمستعين في حربه ضد الاتراك الذين تتبعوه واصحابه فحاصروا بغداد واستمر حصارهم سنة تقريبا ؛ وبالضبط حتى الرابع من محرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين(١٤٦) .

ولحماية المدينة ينشيء المستعين سورين حول المدينة الدفاع عنها ؛ يحيط الاول بالجانب الشرقي ويضم محلات الشماسية والرصافة والمخرم من الشمال الى الجنوب ؛ ويبدا من دجلة قبالة قصر حميد بن عبدالحميد ويمر بسوق الثلاثاء حتى يصل الى باب ابرز ثم ينحرف الى الشمال الغربي ويسير بمحاذاة دجلة من الشرق فيجتاز في طريقه باب سوق الدواب وباب خراسان ثم بمحاذاة نهر السور فيصل الى باب البردان ومن ثم يميل الى الغرب فيجتاز باب الشماسية وينتهي الى ضفة دجلة قبالة فرضة [مرفأ] الخندق الطاهري حيث يبدا سور الجانب الغربي من المدينة(١٤٧) .

ويحيط السور الثاني بالمحلات المهمة حول مدينة المنصور المدورة في الجانب الغربي ؛ ويبتدي، من ضفة دجلة عند فرضة الخندق الطاهري متتبعا الجانب الايمن حتى باب الانبار ؛ ومن ثم ينحرف الى الجنوب الشرقي متتبعا ضفة نهر عيسى ثم يلتقي ثانية بدجلة(١٤٨) .

ويفهم من حدود السورين الشرقي والغربي اللذين ذكرهما الاستاذان جواد وسوسة ان الجانبين المحصنين بالاسوار كانا متقابلين .

ان المصادر العربية القديمة لم تذكر حدود السورين بوضوح الا ان الاستاذ لسترنج استطاع

معرفة حدود السورين من تقصيه اخبار الحصار وهجمات الاتراك وتحصينات المستعين(١٤٩) .

[ينظر شكل – ٧ –]

ويامر المستعين بحفر الخنادق حول السورين وانشاء مظلات ياوي اليها الفرسان من الحر والمطر(١٥٠) .

بلغت نفقة بناء السورين وحفر الخنادق واقامة المظلات ثلاثمائة الف دينار وثلاثين الف دينار(١٥١) .

وتم بناء السور بسرعة عجيبة فقد ذكر الطبري ان المستعين وافى بغداد لاربعة ايام وقيل لخمسة ايام مضين من المحرم(١٥٢) ، ثم نجده يقول : « وكان الفراغ من عمل السور يوم الخميس لسبع بقين من المحرم »(١٥٣) .

فلا ندري مبلغ هذا السور من التحصين والمنعة وقد انشيء في ثمانية عشر يوما كما راينا ،

على ان يد الادامة والاصلاح لم تغفله ، ولعل المدافعين عنه كانوا مستمرين على اصلاحه وتقويته والاضافة اليه .

واغفل المؤرخون الحديث عن هذا السور وتحصيناته وكل ما وصلنا لا يتعدى وصف الطبري لابوابه ، فقد ذكر ان المستعين جعل على باب الشماسية خمس شداخات بعرض الطريق فيها العوارض والمسامير الطوال الظاهرة(١٥٤) .

وجعل للسور ابوابا داخلة واخرى خارجة ، بينها دهاليز مسقفة يسع كل دهليز مائة فارس ومائة راجل ، ولم يذكر مساحتها ، وجعل على الابواب الخارجية المجانيق والعرادات [العرادة اصغر من المنجنيق] لحمايتها ، اما الأبواب الداخلة فقد جعل من خارجها بابا معلقا بحبل بمقدار الباب ، ثخين ملبس بصفائح الحديد ، يشد بالحبال ، حتى اذا هوجمت الابواب ارسلت حباله فسقط وقتل من يحاول اقتحام ابواب السور من المهاجمين(١٥٥) .

وامر المستعين وقواده بهدم ماوراء سور الجانب الشرقي من دور وحوانيت وبقطع النخيل والاشجار المحيطة بالسور لكي لا يتخذها المهاجمون سترا يتسترون وراءه ولتتسع الناحية على من يحارب فيها(١٥٦) .

× × ×

روى الحميري عن احمد بن ابي طاهر انه اخذ الطول من الجانب الشرقي من بغداد للامير الناصر لدين الله [ابو احمد طلحة الموفق] عند دخوله مدينة السلام فوجد مائتي حبل وخمسين حبلا وعرضه مائتي وخمسة احبل ، ووجد طول الجانب الغربي مائتين وخمسين حبلا وعرضه خمسين حبلا(١٥٧) [والحبل ضلع ارض مساحتها جريب ، والجريب ثلاثة الاف وستمائة ذراع مربع ، فيكون طول الحبل ستين ذراعا] .

كما ذكر الاستاذ الدوري انه في سنة تسع وسبعين ومائتين الهجرة كان طول بغداد سبعة كيلومترات وربع الكيلومتر وعرضها ستة كيلومترات ونصف الكيلومتر(١٥٨) .

ولعل في ما ذكرت ما يعين على تقدير اطوال اسوارها وتصور مقدارها .

ويفهم من اخبار معارك المستعين وحصار الاتراك له ان لسور بغداد الشرقية عدة ابواب هي باب الشماسية الى الشمال وباب خراسان الى الشرق ، اما ابواب السور الغربي فمنها باب قطربل وباب الحديد وباب الانبار(١٥٩) .

× × ×

وعلى مدار سنة تامة يشتد قتال المهاجمين ورميهم السور بالمجانيق ، فتعرض سور الجانب الغربي لتصدع بعض أجزائه وتهدمها ، وسرعان ما بنى المدافعون ما تهدم منه(١٦٠) .

وينهار سور المستعين تدريجيا ، اذ كيف يصمد سور شيد في عجالة من الوقت بوجه قتال ضار وهجوم شديد ، كما ذكر المؤرخون ان فيضان سنة ثلاثين وثلثمائة اغرق بغداد الغربية فتهدمت مبان عديدة منها سور المستعين على جانبي بغداد(١٦١) .

ويعود الخلفاء العباسيون الى بغداد ثانية فتصبح مركز خلافتهم بعد تركهم سامراء وكان اول خلفائهم ابو العباس المعتضد بالله(١٦٢) .

وقبل ذلك كان الناصر لدين الله ابو احمد طلحة الموفق [اخو الخليفة المعتمد] قد ترك سامراء واقام ببغداد اذ اتخذ منها مركزا لقيادة حملاته ضد الزنج الثائرين ، وكان ذلك تمهيدا لانتقال مركز الخلافة الى بغداد(١٦٣) .

وتتوسع بغداد في نهاية القرن الثالث الهجري توسعا كبيرا بالقياس الى ما كانت عليه في اوله ، ويتجه العمران نحو الجنوب رغبة من الخلفاء في الابتعاد عن صخب بغداد وزحامها فقد ذكر ابن الجوزي ان المعتضد كان يقول « كيف يفلح بلد يخالط هواءه هذا ؟ » واشار الى الدخان(١٦٤) .

لقد امتد البناء لمسافات كبيرة خارج اسوار المستعين فبنيت دار الخلافة خارج المخرم وامتدت بساتينها وابنيتها الى نهر بين على بعد فرسخين ، وامتد من دار الخلافة جنوبا الى اعلى الشماسية شمالا بمحاذاة دجلة على امتداد خمسة اميال(١٦٥) .

ويذكر الاستاذ سوسة ان امتداد العمران في الجانب الشرقي في اواخر القرن الثالث الهجري قد وصل الى زهاء كيلومتر جنوب سور المستعين حيث قصور الخلفاء وبساتينها(١٦٦) .

دار الخلافة

عاد الخليفة المعتضد بالله الى بغداد فاحتاج الى دار تليق به كخليفة ، فلم يجد افضل من القصر الحسني [الذي بناه الحسن بن سهل] ، وكانت تقيم به ابنته بوران زوج الخليفة المأمون فاستنزلها عنها ؛ فاستنظرته اياما في تفريغها وتسليمها ؛ ثم رمتها وعمرتها وجصصتها وبيضتها وفرشتها باجل الفرش واحسنه وعلقت على ابوابها اصناف الستور ورتبت فيها الخدم والجواري ... فانتقل المعتضد بالله الى الدار ، ثم استضاف اليها ما جاورها ووسعها وعمل عليها سورا(١٦٧) .

ويشك الخطيب في صحة هذا الخبر ، اذ يذكر ان بوران توفيت في سنة احدى وسبعين ومائتين ، وقد بلغت ثمانين عاما ولم تعش حتى ايام المعتضد . فلعل هلال بن المحسن الصابي راوية الخبر وهم وابدل اسم المعتمد فجعله المعتضد(١٦٨) .

والذي لا شك فيه ان القصر الحسني كان نواة دار الخلافة العباسية وقصورها المديدة التي اضيفت اليها ؛ فقد شيد المعتضد قصر الفردوس بجوار القصر الحسني في موضع يقع فوقه حيث يصب نهر معلى بدجلة(١٦٩) . كما بنى قصر الثريا ، واخيرا وضع اساس القصر الذي اصبح مركز الخلافة الرسمي واكمله المكتفي بالله وزاد عليه ، وبنى الخلفاء بعده فيها قصور « دار الشجرة » و « الدار المثمنة » و « الدار المربعة » ودار الوزارة والدواوين .

وقد اسهب المؤرخون في وصف عظمة تلك القصور وما تحتويه ، فمن ذلك ما رووه عن طريق معقود بآزاج تحت الارض يربط قصر الثريا خاص بالجواري والسراري طوله ميلين(١٧٠) .

× × ×

وذكر الخطيب ان خازن عضد الدولة البويهي طاف دار الخلافة عامرها وخرابها وحريمها وما يجاورها فذكر ان ذلك مثل مدينة شيراز(١٧١) وقد قدر ياقوت مساحتها بثلث بغداد(١٧٢) .

وجميع ما يشتمل عليه السور الدائري يسمى حريم دار الخلافة ويضم دار الخلافة وقصور الخلفاء كما يضم محال واسواقا ودورا كثيرة للرعية(١٧٣) ، واصل الحريم من حريم البئر وهو ما حولها من حقوقها ومرافقها ثم اتسع فقيل لكل ما يتحرم به ويمنع منه حريم ، وبذلك سمي حريم دار الخلافة ببغداد(١٧٤) .

يجتاز الخارج من دار الخلافة سورا له ابواب يقع شرقي دار الخلافة ويعزلها عن منازل الرعية ، فدار الخلافة وقصورها تقع بين هذا السور من الشرق ونهر دجلة من الغرب .

وبعد اجتياز تلك الابواب يمر بحريم دار الخلافة(١٧٥) .

ودار الخلافة والحريم يحيط بهما سور دائري ذي تسعة ابواب ، وقد عفيت آثار السورين الى حد يصعب تعيين موضعهما ، يضاف الى ذلك ان الخططيين القدامى لم يذكروا علما ثابتا صمد على حوادث الزمان يمكن ان يستدل به على تحديد اي منهما ، الامر الذي اوقع العارفين بخطط بغداد ومعالمها التاريخية في شك وريب . فينقل المرحوم الدكتور مصطفى جواد عن ياقوت انه عد جامع القصر [الذي من بقاياه جامع سوق الغزل الحالي] من حريم دار الخلافة ، بينما ينقل عن الخطيب ان باب العامة [من ابواب حريم دار الخلافة] ملاصق لجامع القصر ، فاختلط الامر حتى على المرحوم مصطفى جواد فلم يدر ان كان الجامع داخلا كله في الحريم أم اكثره ام بعضه(١٧٦) .

حريم دار الخلافة

يحيط بحريم دار الخلافة ودار الخلافة سور كهيأة الهلال او نصف دائرة(١٧٧) يبتدىء من ضفة دجلة جنوب محلة سوق الثلاثاء ، عند شريعة السموال(١٧٨) شرق المدرسة المرجانية وينتهي عند دجلة جنوبا عند شريعة المربعة الحالية او نحوها تحت قصر التاج(١٧٩) ، ويصعب ضبط موقع الحد الجنوبي لعدم وجود اثر يمكن اعتماده في تحقيق الموضع ، ويقدر المرحوم مصطفى جواد الحد الجنوبي عند قبر السيد سلطان علي(١٨٠) .

[ينظر شكل — ٨ —]

وكان للسور تسعة ابواب هي من الشمال الى الجنوب :

١ ـ باب الغربة
٢ ـ باب سوق التمر [الباب القالمي]
٣ ـ باب بدر [باب الخاصة]
٤ ـ باب النوبي [باب العتبة]
٥ ـ باب العامة [باب عمورية]
٦ ـ باب النصر
٧ ـ باب الخاصة
٨ ـ باب البستان
٩ ـ باب المراتب

× × ×

اما باب الغربة فهي اولى ابواب حريم دار الخلافة من جهة الشمال ، وقد سمي بذلك لوجود شجرة غرب نابتة بالقرب منه[١٨١] وباب الغربة في المشرعه التي تسمى الآن « شريعة المصبغة » وعندها يبدأ حريم دار الخلافة[١٨٢] وقربه داخل دار الحريم قصران هما دار خاتون ودار السيدة وكانتا لابنة الخليفة المقتدي وشيد المستنجد بالله في محلهما قصرا سماه « دار الريحانيين » نسبة الى سوق الريحانيين [سوق الفواكه والرياحين خارج سور الحريم] الواقع بالقرب منه ، وكانت هذه الدار ذات وجوه اربعة متقابلة سمة صحنها ستمائة ذراع[١٨٣] .

× × ×

وثاني ابواب السور « باب سوق التمر » وهو قريب من باب الغربة ويسمى ب « الباب القالمي » ايضا ، وهو باب شاهق البناء والى جانبه من داخل الحريم الدار القطنية ، وهي قصر يشرف على مشرعه الابريين [الذين يبيعون الابر][١٨٤]

وقد ذكر ياقوت ان هذا الباب والدار الملاصقة به اغلقا في اول ايام الناصر لدين الله ، اي بعيد سنة خمس وسبعين وخمسمائة للهجرة[١٨٥] ، وقد ذكر القزويني ان المسترشد خرج منه فاصابه ما اصابه فتطيروا به واغلقوه[١٨٦] .

× × ×

وعلى مسافة قليلة من باب الغربة وباب سوق التمر باب يعرف ب « باب بدر » أو « باب البدرية » نسبة الى بدر من مماليك الخليفة المعتضد[١٨٧] ، وكان يسمى « باب الخاصة » في اول امره وذلك لدخول الخاصة من الناس منه الى دار الخلافة ومنهم الامير بدر[١٨٨] ، ولم يدم اسم باب الخاصة اذ حل محله اسم باب بدر حوالي منتصف القرن الرابع الهجري ، وقد جدده الخليفة الطائع .

والى جانبه من الخارج دار بدر وسويقه بدر ، وعليه انشا المستظهر بالله منظرة تشرف على ساحة قصور الخلفاء وعلى سوق الريحانيين الواقع خارج السور قريبا منه[١٨٩] .

× × ×

ويعرف الباب الرابع من ابواب السور ب « باب النوبي » نسبة الى حاجب يجلس عنده اسمه سعيد النوبي ، ويعرف ب « باب العتبة » ايضا نسبة الى العتبة التي يقبلها الرسل والامراء والملوك ورؤساء الحجاج اذا قدموا بغداد[١٩٠] وهذه العتبة اسطوانة من الرخام الابيض موضوعة امام الباب الداخلي ، ولعل الخليفة الناصر دفن تحتها صليبا من الذهب وكان صلاح الدين الايوبي غنمه فاهداه له ، وقد روى لسترنج نقلا عن ابي شامة ان الناصر لدين الله امر بدفنه تحت باب النوبي[١٩١] .

وفي ايام حرب المسترشد بالله مع السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه، امر الخليفة ببناء ابواب السور واغلاقها جميعا وابقى باب النوبي وحده دون ان يغلق[١٩٢] .

× × ×

وخامس الابواب « باب العامة » ويعرف ب « باب عمورية » ايضا وقد ذكر ان المعتصم جلب ابوابه الحديدية الضخمة من مدينة عمورية[١٩٣] .

قال القزويني عنه « ولم ير مصراعان اكبر منه »[١٩٤]

× × ×

وبعد باب العامة يأتي « باب النصر » وكان المسترشد بالله قد فتحه وصار يتفاءل به بالظفر حين يخرج للحرب منه[١٩٥] .

× × ×

ويأتي « باب الخاصة » بعد باب النصر ، وكان اسم باب الخاصة يطلق على باب بدر اولا ثم اهمل[١٩٦] .

قال ياقوت « كان باب الخاصة احد ابواب دار الخلافة المعظمة ببغداد احدثه الطائع تجاه

دار الفيل وباب كلواذى »(١٩٧) [وباب كلواذى تقع جنوبي دار الخلافة] .

وقد نبه المرحوم مصطفى جواد الى وهم لسترنج [في كتابه بغداد ، ص ٢٧٠ — ٢٧١ من الترجمة العربية] — على جلالة قدره وعلمه — وخلطه بين باب الخاصة القديم الذي سمي باب بدر وبين باب الخاصة الجديد(١٩٨) .

× × ×

والباب الثامن « باب البستان » وكانت عليه منظرة تشرف على موضع الضحايا حيث كانت تنحر في عيد الاضحى(١٩٩) .

× × ×

وآخر الابواب في السور « باب المراتب » ويقع بالقرب من ضفة النهر في الجنوب .

قال فيه ياقوت « كان من اجل ابواب دار الخلافة واشرفها ، له حاجب عظيم القدر نافذ الامر ، داخل محلة كبيرة كان يسكنها الاكابر والتجار والاشراف ذوو البيوتات القديمة ، وكانت الدور بها غالية لها قيمة ، ثم باد اهلها وانتقلوا عنها . اما الآن فلم يبق لها قيمة ، واراد اهلها بيعها فلم تشتر منهم فنقضوها وباعوا انقاضها »(٢٠٠)

وقال ايضا : « وبين باب المراتب وبين دجلة نحو رميتي سهم . »(٢٠١)

ولا يعلم تاريخ بناء السور على التحقيق ، ومن المرجح انه بديء ببنائه في عهد المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) واتمه من جاء بعده من الخلفاء(٢٠٢)

اسوار بغداد الشرقية

واتسع عمران بغداد الشرقية سريعا وامتد حول دار الخلافة وحريمها واسوارها وشيد الناس حول اسوارها المحلات والاسواق والدور التي اصبحت اصل مدينة بغداد التي بقيت حتى العصور الاخيرة(٢٠٣) .

وذلك لان حماية الخليفة كانت تمتد الى الحريم كما كانت باب المراتب [الباب الجنوبي الشرقي لدار الخلافة] ملجأ المستعيذين وملاذ الخائفين والمستجيرين ، فازداد العمران ونما سريعا حولها(٢٠٤)

وفي بداية حكم الخليفة المستظهر (٤٨٧ — ٥١٢ هـ) بديء بانشاء سور عظيم وخندق يحيطان بالمدينة والعمران الجديد ويضم دار الخلافة وحريمها واسوارها وما شيد حولها ، وكان الشروع في البناء في الثامن عشر من ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين واربعمائة للهجرة(٢٠٥) ، فخط الوزير عميد الدولة ابو منصور محمد بن محمد بن جهير السور وقدره ومعه المساح وشرع بجباية الاموال التي يحتاج اليها من عقارات الناس ودورهم ، واذن للناس في التفرج والعمل ، فزينوا البلد وعملوا القباب وجدوا في عمارته(٢٠٦) .

وحمل اهل المحال السلاح والاعلام والطبول ومعهم المعاول والسلال وانواع الملاهي والزمور والحكايات والخيالات ، فعمل اهل باب المراتب من البواري المقيرة على صورة الفيل وتحته قوم يسيرون به ، وعملوا زرافة كذلك ، واتى اهل قصر عيسى بسميرية كبيرة [السميرية نوع من انواع السفن] فيها الملاحون يجدفون وهي تجري على هاذور [عجلات] ، واتى اهل سوق يحيى بناعورة تدور معهم في الاسواق ، وعمل اهل سوق المدرسة قلعة خشب تسير على عجل وفيها غلمان يضربون بقسي البندق والنشاب ، واخرج قوم بثرا على عجل وفيها حائك بنسج ، وكذلك السقلاطونيون وكذلك الخبازون جاؤوا بتنور وتحته ما يسير به والخباز يرمي الخبز الى الناس(٢٠٧) .

فبنوا من السور مائة قامة فقط وحدثت عوائق عن اتمامه ، اهمها النزاع على السلطنة بين الملوك السلاجقة بركيارق ومحمد وسنجر اولاد ملكشاه(٢٠٨) .

وتوفي الخليفة المستظهر في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة للهجرة وبويع ابنه المسترشد بالله خليفة من بعده .

× × ×

وفي سنة سبع عشرة وخمسمائة للهجرة عزم المسترشد بالله على بناء سور لبغداد الشرقية وجبى ما يخرج عليه من الناس ، كما فعل ابن جهير وزير ابيه ، فحصل من ذلك مالا كثيرا ، فاضر ذلك بالناس وشق عليهم ، فلما علم الخليفة كراهة الناس لذلك واعسارهم وضيق ذات يدهم امر باعادة ما اخذ منهم فسروا بذلك(٢٠٩) .

وقيل ان الوزير احمد بن نظام الملك بذل من ماله خمسة عشر الف دينار ، وقال تقسط الباقي على ارباب الدولة(٢١٠) .

وكان اهل بغداد يعملون بانفسهم وكانوا يتناوبون العمل ، يعمل اهل كل محلة منفردين بالطبول والزمور ، وزينوا البلد وعملوا فيه

القباب(٢١١) قال ابن الجوزي : « وكان كل اسبوع يعمل اهل محلة ويخرجون بالطبول والجنكات »(٢١٢)

وكان الابتداء بعمارة السور في صفر من سنة سبع عشرة وخمسمائة للهجرة(٢١٣) ، وقيل في يوم السبت النصف من شعبان من السنة نفسها(٢١٤)

وكان السور قويا محكم البناء ليستطيع انقاذ الخلافة من سلطان السلاجقة ، وجعل عرضه اثنين وعشرين ذراعا(٢١٥) .

[ينظر شكل ٩ ، ١٠ ، ١١]

× × ×

وانشأ الخليفة المقتفي مسناة حول السور وتوفي ولما يكملها ، ثم ولي المستنجد وعمل منها قطعة وتوفي ؛ وولي المستضيء فعمل بمقدار ما عمل في زمن المقتفي والمستنجد .

ووصف المؤرخون السور في العهد الذي يلي الحصار المغولي فقالوا انه كان من خارج السور مبنيا بالآجر وخندقه مرصوفا بالحجارة على هيأة نصف دائرة طولها ثمانية عشر الف خطوة يتصل بدجلة من بدايته ونهايته(٢١٦)

وقد ذكر نيبور في رحلته انه كان جافا على ايامه(٢١٧) ؛ ويمكن ان يغمر بالمياه اذا ضرب الحصار على بغداد(٢١٨) .

وكان عمقه نحو خمس او ست قامات كما ذكر تافرنييه الذي زار بغداد سنة ١٦٣٢م وسنة ١٦٥٢م كما ذكر او ليفييه ان الخندق كان عميقا جدا ؛ ففي حصار حافظ باشا لبغداد [١٠٣٥ هـ = ١٦٢٥ م] قطعت الاف النخيل ورميت في الخندق ودفنت في التراب للوصول الى الخندق وعمل ثغرة فيه(٢١٩) .

وزار ابن جبير بغداد ايام الناصر لدين الله فذكر ان للشرقية اربعة ابواب ؛ فاولها وهو في اعلى الشط باب السلطان ثم باب الظفرية ويليه باب الحلبة فباب البصلية ، وهذه الابواب التي هي في السور المحيط بها من اعلى الشط الى اسفله(٢٢٠)

× × ×

اما الباب الشمالي فيسمى « باب السلطان » نسبة الى السلطان طغرلبك الذي دخل بغداد من هناك(٢٢١) .

وكان يقع هذا الباب عند باب المعظم الحالي ؛ في جنوب جامع السلطان على مسافة قليلة منه ؛ وجامع السلطان في المخرم [العيواضية الحالية] ، وفي جنوبي هذا الباب كانت السوق المعروفة بسوق السلطان والتي تقع في الميدان الحالية(٢٢٢) .

وعرف في العصور الاخيرة باسم « باب المعظم » نسبة الى الامام الاعظم ابي حنيفة ، وقد سمي بذلك لابتداء الشارع المؤدي لمحلة الامام الاعظم منه(٢٢٣) .

وقد ظل هذا الباب حتى هدم في سنة ١٩٣٢م ، ومحله اليوم بين قاعة الشعب وجامع الازبك .

× × ×

والباب الثاني من ابواب سور بغداد الشرقية هو « باب الظفرية » وقد سمي باسمه هذا لانه يقابل محلة الظفرية نسبة الى ظفر وهو من مماليك الخلفاء العباسيين ، كما كان يعرف بـ « باب خراسان » لبداية الطريق المؤدي الى خراسان منه(٢٢٤)

وعرف في العصور المتاخرة باسم « الباب الابيض » « آق قابو » ويسمى ايضا بـ « الباب الوسطاني »(٢٢٥)

ومازالت بقايا هذا الاثر قائمة حتى اليوم بالقرب من مرقد الشيخ عمر السهروردي .

ويتكون من برج اسطواني الشكل ضخم يحيط به خندق يمتليء بالماء من الخندق المحيط بالاسوار ، وللبرج بابان مائلان [اي ليسا على سمت واحد] مبنيان بالآجر ؛ الباب الاول يربط البرج بخارج المدينة ويوصل اليه بقنطرة معقودة مبنية بالآجر ؛ والباب الثاني يربط البرج بسور المدينة ويوصل اليه بقنطرة معقودة مبنية بالآجر ، وقد اقيم على جانبي هذه القنطرة جداران عاليان فيهما مواضع للرماة تستخدم في صد هجمات الاعداء اذا حاولوا اقتحام الباب الاول وتجعلهم عرضة للرماة فتصيبهم السهام(٢٢٦) .

وقد روعي في تصميم البرج ومداخله المدخل المنكسر الذي ذكرناه في اثناء الحديث عن ابواب المدينة المدورة .

[ينظر شكل ٥ ، ١٢]

× × ×

وسمي الباب الثالث من ابواب بغداد الشرقية بـ « باب الحلبة » لقربه من ميدان سباق الخيل وكان موقعه هناك قبل انشاء السور .

وقد عرف في العصور المتاخرة باسم « باب الطلسم » لان في اعلى الباب تمثال رجل متربع وعلى

كل من يمنته ويسرته تمثال افعى عظيمة ، وقد عد العامة ذلك طلسمة تحمي بغداد من شرور اعدائها(٢٢٧) .

وذكر لسترنج ان هذا الباب كان يعرف قديما باسم « الباب الابيض »(٢٢٨) .

وقد جدد الخليفة الناصر لدين الله باب الحلبة وذلك في سنة ثماني عشرة وستمائة كما تدل على ذلك الكتابة التي كانت على الباب والتي نقلها نيبور والتي نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ؛ ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم . هذا ما امر بعمله سيدنا ومولانا المفترض الطاعة على كافة الانام ابو العباس احمد الناصر لدين الله امير المؤمنين وخليفة رب العالمين وحجة الله عز وجل على الخلق اجمعين ؛ صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه الطاهرين ، ولا زالت دعوته الهادية على يفاع الحق منارا ، والخلائق لها اتباعا وانصارا ، وطاعته المفترضة للمؤمنين اسماعا وابصارا ، واتفق الفراغ في سنة ثمان عشر وستمائة [كذا] ، وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين »(٢٢٩) .

ومنه دخل السلطان مراد الرابع حين احتل بغداد في سنة ثمان واربعين والف للهجرة بعد ان كانت تحت الاحتلال الفارسي(٢٣٠) .

وسماه « برج الفتح » لانه يرى انه دخل منه بغداد فاتحا(٢٣١) .

وسده مراد بعد دخوله بحائط لكي يبقى مقدسا فلا يضع احد قدمه على عتبته احتراما له . وظل مسدودا حتى نسفه الاتراك العثمانيون عند دخول الانكليز بغداد وانسحابهم منها ليلة الحادي عشر من آذار سنة ١٩١٧ م ؛ وكان مخزنا للبارود(٢٣٢) .

واثر الفيضان الكبير الذي حصل في سنة ١٠٦٧ هـ ؛ واصابه التآكل والتصدع ، فرممه الوالي محمد باشا الخاصكي في سنة ١٠٦٨ هـ(٢٣٣)

وكان هذا الباب مبنيا بالآجر ، يوصله بالسور المجاور له جسر محصن على جانبيه برجان منيعان(٢٣٤) .

[ينظر شكل ـ ١٣ ـ]

× × ×

ورابع ابواب سور بغداد الشرقية « باب البصلية » ويقع في الجنوب ، وقد سمي باسم محلة البصلية [وكان يزرع فيها البصل] التي تقع الى جواره والتي انشاها الخليفة المقتدي ، وكان يسمى ايضا « باب كلواذى » لان منه الطريق الى قرية كلواذى(٢٣٥) .

وسمي في العصور التي تلت سقوط بغداد باسم « الباب المظلم » « كارانق قابو » ووهم بعض الرحالة في لفظه اذ سماه نيبور في رحلته باسم « كارولوك » كما سماه تيفنو باسم « كارانلوقابي »(٢٣٦) .

وعرف في العصور المتأخرة باسم « الباب الشرقي » وقد هدمته امانة العاصمة في سنة ١٩٣٧ ، على عهد امينها ارشد العمري ، وكان الانكليز قد اتخذوه كنيسة لهم(٢٣٧) .

وعنده اتخذ احد قواد هولاكو مقر معسكره حيث جيء بالخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين فكانت نهايته بعد ذلك(٢٣٨) .

وعد هوار « باب الجسر » الباب الخامس في سور بغداد الشرقية ، وهو يفضي الى جسر على ثلاثة وثلاثين قاربا(٢٣٩) .

وذكر الرحالة تافرنييه ان هذا الباب كان يسمى « سوقابي » اي « باب الماء » او « باب الشط »(٢٤٠) .

× × ×

لقد كان سور بغداد الشرقية يحصن بغداد من جميع جهاتها بما في ذلك جهة النهر ويؤيد هذا ما نراه في « خارطة تافرنييه التي تصور بغداد في القرن السابع عشر ، شكل » اذ يبدو السور واضحا فهو يحيط ببغداد من كل جهاتها .

× × ×

ويضاف الى الابواب الخمسة التي ذكرنا عدد من الابواب السرية وكانت آزاجا تفضي الى دجلة ؛ وتسمى « اوغرين قابي »(٢٤١) .

× × ×

لقد ترك الرحالة الغربيون وصفا مفصلا وخرائط وافية الى حد بعيد صورت جوانب مختلفة من سور بغداد ؛ من ذلك خارطة ووصف نيبور مدينة بغداد : فقد ذكر ان في السور عشرة ابراج كبيرة وكان في كل منها ستة مدافع او سبعة ؛ وبين هذه الابراج الكبيرة ابراج صغيرة بدافع عنها بالاسلحة الخفيفة .

وذكر الحاج خليفة عدد هذه الابراج الصغيرة وتوزيعها على نقاط السور المختلفة ، فذكر ان بين

باب النهر وباب الامام الاعظم اثنى عشر برجا موزعة على مسافة سبعمائة ذراع ؛ وبين باب الامام الاعظم والباب الابيض اربعة وثلاثون برجا موزعة على مسافة الفين وثمانمائة وخمسين ذراعا ؛ وبين الباب الابيض والبرج العجمي ستة وعشرون برجا على مسافة قدرها الفان وخمسون ذراعا ؛ ومن البرج العجمي الى الباب المظلم ستة وثلاثون برجا على مسافة طولها الفان وثمانمائة وخمسون ذراعا ؛ ومن الباب المظلم حتى النهر اربعة ابراج على مسافة قدرها خمسون ذراعا ، ومن ذلك المكان الى الجسر ثلاثة وثلاثون برجا على مسافة طولها الفان وستمائة وخمسون ذراعا ؛ ومن الجسر باتجاه معاكس لمجرى النهر ثمانية عشر برجا على مسافة طولها الفان وخمسون ذراعا .

وبذلك يكون المجموع مائةوثلاثة و ستين برجا تتوزع على مسافة طولها « ١٢٤٠٠ ذراعا » ، هي محيط سور بغداد[٢٤٢] .

× × ×

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية لسور مدينة بغداد الشرقية برج كبير يسمى « برج العجمي » نسبة الى صوفي كان يأوى اليه يسميه اهل بغداد بالعجمي ، ثم اشتهر وعرف بعد ذلك ، وهو الشيخ عبدالقادر الجيلي المعروف بالكيلاني .

وعرف هذا البرج ايضا باسم « تابية الزاوية »[٢٤٣] ، ويقع هذا البرج بالقرب من باب الحلبة بينها وبين باب البصلية .

وقد وجه هولاكو هجومه على بغداد من هذا البرج لانه اقصر ابراج السور واوهنها ، فتمكن من هدمه ودخول بغداد منه في التاسع من محرم سنة ست وخمسين وستمائة[٢٤٤] .

× × ×

على ان هناك اسوارا فردية كانت تحصن المحلات والقصور الضخمة اقتضتها الحاجة ؛ ففي اواخر العصر العباسي وجدنا العديد من محلات بغداد واماكنها تحيطها الاسوار الفردية[٢٤٥] من تلك الاسوار السور الذي كان يحيط بالحريم الطاهري[٢٤٦] ، وما ذكره ابن جبير في رحلته من ان محلةالكرخ فيالجانب الغربي وانما محاطة بسور[٢٤٧] .

كما ذكر الرحالة المتاخرون ان قلعة بغداد ، الواقعة في القسم الشمالي الغربي والمحاذية لدجلة والواقعة ضمن اسوار بغداد ؛ كانت محاطة ايضا بسور فردي[٢٤٨] .

وكذلك ما ذكر عن اسوار دار المملكة البويهية ، ودار السلطنة السلجوقية ، والدار المعزية في الشماسية ، والسور الذي حول مشهد الامامين الكاظمين[٢٤٩]

× × ×

اما الجانب الغربي فقد ذكر ابن جبير ان الخراب قد عمه واستولى عليه على ايامه وانه يحتوي على سبع عشرة محلة ، كل منها مدينة مستقلة[٢٥٠] .

ونشاهد هذا الجانب في خارطة جونس وكولينكوود [القرن التاسع عشر الميلادي] وقد لفه سور ضم محلاته ويقابل القسم المعمور من الجانب الشرقي ، ولهذا السور اربعة ابواب هي باب الكريمات في الجنوب وباب الحلة وباب الشيخ معروف في الشرق وباب الكاظمية في الشمال .

واهملت خارطة سار وهرزفلد [اوائل القرن الحالي] باب الكاظمية في بغداد الغربية[٢٥١] .

وظل هذا السور يقاوم الزمن ويصد الغزاة ويحمي المدينة حتى نقض على عهد مدحت باشا سنة ١٨٧٠ م باستثناء ابوابه الاربعة والابواب المتصلة بالقلعة ؛ وشيد بحجارته مباني جديدة استحدثها .

وامر سري باشا الوالي العثماني في سنة ١٨٨٧ م بهدم ما بقي من هذا السور عدا الابواب[٢٥٢]

ولم يبق للسور وابوابه اثر يذكر غير الباب الوسطاني فقد اتى العمران الحديث عليه ؛ واحتلت السدة المحيطة ببغداد القديمة ما بقي من مواضعه بين باب الحلبة والباب الوسطاني[٢٥٣] .

× × ×

الهوامش

(١) محمد مكية . بغداد ص ٢٠٤
(٢) جواد وسوسة . دليل خارطة بغداد ص ١٠٢
(٣) مصطفى جواد . بغداد في رحلة نيبور ، في مجلة « سومر » ١٩٦٤ ، مج ٢ ص ٥٠
(٤) دليل خارطة بغداد ص ٢٤٢
(٥) كراتشكوفسكي . تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ق ١ ص ١٦٧
(٦) صالح احمد العلي . مصادر دراسة خطط بغداد ، في « مجلة المجمع العلمي العراقي » ١٩٦٧ ، مج ١٤ ص ٨
(٧) معجم البلدان ج١ ص ٦٨٠ ، الفخري ص ١٦٣
(٨) تاريخ بغداد ج١ ص ٦٦ ، الفخري ص ١٦٣

(٩) حمدان الكبيسي . أسواق بغداد ص ٤٠
(١٠) الطبري ج٧ ص ٦٢١ ، ابن الفقيه ص ٢٢ ، معجم البلدان ج١ ص ٦٨١
(١١) الطبري ج٧ ص ٦٥٠
(١٢) تاريخ بغداد ج١ ص ٦٧ ، لسترنج ص ٢٤
(١٣) الطبري ج٧ ص ٦١٩ ، تاريخ بغداد ج١ ص ٦٧
(١٤) محمد مكية ص ٢٠٣
(١٥) الطبري ج٧ ص ٦٥١
(١٦) كوك . بغداد ، ج١ ص ٢٧
(١٧) الطبري ج٧ ص ٦٥٥ ، ابن الفقيه ص ٤٠ ، تاريخ بغداد ج١ ص ٧٠
(١٨) Lassner. The topography of Baghdad. p. 235.
(١٩) معجم البلدان ج١ ص ٦٨٣ ، لسترنج ص ٤٤
(٢٠) جواد وسوسة . بغداد (ط مهندسين) ص ١٨
Lassner. p. 236
(٢٢) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٠
(٢٣) دليل خارطة بغداد ص ٤٥ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٢٢
(٢٤) الفخري ص ١٦١
(٢٥) دليل خارطة بغداد ٤٥
(٢٦) معجم البلدان ج٢ ص ٧٨٣
(٢٧) بغداد (ط مهندسين) ص ٢٣
(٢٨) المصدر نفسه ص ٢٣
(٢٩) دليل خارطة بغداد ص ٤٨
(٣٠) سوسة . الفيضان ص ٣٠
(٣١) اليعقوبي . البلدان ص ٢٣٨
(٣٢) سوسة . الفيضان ص ٤١
(٣٣) المصدر نفسه ص ٤١
(٣٤) Lassner. p. 235.
(٣٥) تاريخ بغداد ج١ ص ٧١
(٣٦) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٢
(٣٧) دليل خارطة بغداد ص ٦٣
(٣٨) Lassner. p. 235.
(٣٩) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٢
(٤٠) Lassner. p. 238.
(٤١) الطبري ج٧ ص ٦٥٢ ، اليعقوبي ص ٢٣٨
(٤٢) لسترنج ص ٢٧
(٤٣) بغداد (ط مهندسين) ص ١٩
(٤٤) الطبري ج٧ ص ٦٥٢ ، ابن الفقيه ص ٢٦ ، تاريخ بغداد ج١ ص٧٢ ، معجم البلدان ج١ ص ٦٨٣
(٤٥) اليعقوبي . ص ٢٣٨
(٤٦) الطبري ج٧ ص ٦١٩ ، تاريخ بغداد ج١ ص ٧١
(٤٧) الطبري ج٧ ص ٦١٩
(٤٨) لسترنج ص ٢٧
(٤٩) الطبري ج٧ ص ٦١٩ ، دليل خارطة بغداد ص ٤٩ ، لسترنج ٢٩
(٥٠) ابن رسته . الاعلاق النفسية ص ١٠٨
(٥١) Lassner. p. 239
رمزية الاطرقجي . بناء بغداد ص ١١٠
(٥٢) ابن الفقيه ص ٢٥
(٥٣) Lassner. p. 238
(٥٤) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٤
(٥٥) الطبري ج٧ ص ٦١٩ ، ناجي معروف . تخطيط بغداد ص ١٢
(٥٦) طاهر العميد . بغداد ص ٢١٨
(٥٧) المصدر نفسه ص ٢١٨
(٥٨) بغداد (ط مهندسين) ص ١٩
(٥٩) طاهر العميد ص ٢١٨ [نقلا عن هرزفلد]
(٦٠) اليعقوبي ص ٢٢٨ ، ابن رسته . ص ١٠٨ ، دليل خارطة بغداد ص ٤٨ ، لسترنج ٣١
(٦١) دليل خارطة بغداد ص ٤٨ ، لسترنج ٣١
(٦٢) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٢ ، معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٢
(٦٣) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٤
(٦٤) المصدر نفسه ج١ ص ٧٤
(٦٥) اليعقوبي . ص ٢٣٩
(٦٦) ناجي معروف . تخطيط بغداد ص ١٤
(٦٧) محمد مكية . بغداد ص ٢٠٣
(٦٨) ابن الفقيه ص ٢٦ ، ياقوت . المشترك ص ٢٢٥
(٦٩) اليعقوبي ٢٣٨
(٧٠) تاريخ بغداد ج١ ص ٧١
(٧١) معجم البلدان ج١ ص ٦٨٣
(٧٢) المصدر نفسه ج١ ص ٢٨
(٧٣) الطبري ج٧ ص ٦٥١ ، تاريخ بغداد ج١ ص ٧٥ ، لسترنج ص ٢٨
(٧٤) لسترنج ٢٩
(٧٥) تاريخ بغداد ج١ ص ٧١ ، بغداد (ط مهندسين) ص ١٩ ، لسترنج ٢٩
(٧٦) دليل خارطة بغداد ص ٤٩
(٧٧) Lassner. p. 241.
(٧٨) لسترنج ص ٢٩
(٧٩) بغداد (ط مهندسين) ص ١٩
(٨٠) المصدر نفسه ص ١٩ ، تخطيط بغداد ص ١٢
(٨١) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٤
(٨٢) اليعقوبي ص ٢٣٩
(٨٣) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٤
(٨٤) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٣
(٨٥) طاهر العميد ص ٢٣٢
(٨٦) تخطيط بغداد ص ١٢
(٨٧) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٤
(٨٨) اليعقوبي ص ٢٣٩
(٨٩) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٤
(٩٠) اليعقوبي ص ٢٣٩
(٩١) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٤
(٩٢) لسترنج ص ٣٠
(٩٣) اليعقوبي ص ٢٣٩ ، دليل خارطة بغداد ص ٤٩
(٩٤) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٤
(٩٥) لسترنج ص ٣٠
(٩٦) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٢ ، دليل خارطة بغداد ص ٤٩
(٩٧) طاهر العميد ص ٢٢٥ [نقلا عن كرزويل]
(٩٨) لسترنج ص ٢٩
(٩٩) طاهر العميد ص ٢٣٦ [نقلا عن كرزويل]
(١٠٠) Lassner. p. 240
(١٠١) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٣
(١٠٢) المصدر نفسه ج١ ص ٧٣

(١٠٣) المصدر نفسه ج١ ص ٧٤
(١٠٤) اليعقوبي ص ٢٣٩
(١٠٥) اليعقوبي ص ٢٣٩ ، طاهر العميد ٢٤٠
(١٠٦) اليعقوبي ص ٢٣٩
(١٠٧) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٤
(١٠٨) لسترنج ص ٣١
(١٠٩) ابن رسته ص ١٠٨
(١١٠) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٤ ، لسترنج ص ٣٢
(١١١) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٤
(١١٢) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٥
(١١٣) اليعقوبي ٢٣٩
(١١٤) الطبري ج٧ ص ٦٥١ ، تاريخ بغداد ج١ ص ٧٥ ، معجم البلدان ج١ ص ٦٨٤
(١١٥) بغداد (ط مهندسين) ص ١٩
(١١٦) الطبري ج٧ ص ٦٥١
(١١٧) اليعقوبي ص ٢٣٩
(١١٨) Lassner. p. 242
(١١٩) طاهر العميد ص ٢٤٢
(١٢٠) Lassner. p. 243
(١٢١) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٥
(١٢٢) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٤
(١٢٣) اليعقوبي ص ٢٣٩
(١٢٤) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٦
(١٢٥) المصدر نفسه ج١ ص ٧٣
(١٢٦) المصدر نفسه ج١ ص ٧٦
(١٢٧) دليل خارطة بغداد ص ٥٢
(١٢٨) لسترنج ص ١١٧
(١٢٩) دليل خارطة بغداد ص ٥٢ [نقلا عن تاريخ سني ملوك الارض لحمزه الاصفهاني ص ١٣٢]
(١٣٠) محمد مكية . بغداد ص ٢٠٣
(١٣١) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٨
(١٣٢) تاريخ بغداد ج١ ص ١١٥
(١٣٣) ابن الفقيه ص ٧٥
(١٣٤) اليعقوبي ص ٢٥٤
(١٢٥) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٦ ، دليل خارطة بغداد ص ١٤٨ ، لسترنج ص ٤٨
(١٢٦) لسترنج ص ٤٧
(١٢٧) دليل خارطة بغداد ص ١٤٨ [نقلا عن احسن التقاسيم للمقدسي البشاري ص ١٢٠] .
(١٢٨) دليل خارطة بغداد ص ١٤٨
(١٢٩) تاريخ بغداد ج١ ص ٧٥
(١٤٠) ابن الفقيه ص ٣٩ ، ياقوت . المشترك ص ٢٠٥ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٢٤ ، لسترنج ص ١٦٢
(١٤١) لسترنج ص ١٦٣
(١٤٢) معجم البلدان ج٢ ص ٧٨٣
(١٤٣) معجم البلدان ج٢ ص ٧٨٣ ، لسترنج ص ١٦٥
(١٤٤) اليعقوبي ص ٢٥٤ ، الحميري . الروض المعطار ص ١١٢
(١٤٥) الطبري ج٩ ص ٢٨٣
(١٤٦) الطبري ج٩ ص ٢٤٨
(١٤٧) الطبري ج٩ ص ٢٨٧ ، دليل خارطة بغداد ص ١١٩ ، سوسة . فيضان ص ٢٨
(١٤٨) الطبري ج٩ ص ٢٨٧ ، دليل خارطة بغداد ص ١١٩ ، لسترنج ص ١٥٠
(١٤٩) لسترنج ص ١٥٠
(١٥٠) الطبري ج٩ ص ٢٨٧
(١٥١) المصدر نفسه
(١٥٢) الطبري ج٩ ص ٢٨٣
(١٥٣) الطبري ج٩ ص ٢٨٨
(١٥٤) الطبري ج٩ ص ٢٨٨
(١٥٥) الطبري ج٩ ص ٢٨٨
(١٥٦) الطبري ج٩ ص ٢٨٨
(١٥٧) ابن الفقيه ص ٦٠ ، الروض المعطار ص ١١٢
(١٥٨) مكيه سلمان . بغداد ص ٢٣
(١٥٩) لسترنج ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦
(١٦٠) الطبري ج٩ ص ٢٣١
(١٦١) دليل خارطة بغداد ص ١٤٨ ، سوسة . الفيضان ص ٤٩
(١٦٢) مصطفى جواد . في التراث العربي ص ٧٩
(١٦٣) لسترنج ص ٢١١
(١٦٤) ابن الجوزي . المنتظم ج٥ ص ١٤٤ .
(١٦٥) مكيه سلمان ص ٢٢
(١٦٦) سوسة . الفيضان ص ٢٩
(١٦٧) تاريخ بغداد ج١ ص ٩٩
(١٦٨) المصدر نفسه
(١٦٩) لسترنج ص ٢١٢
(١٧٠) لسترنج ٢١٤
(١٧١) تاريخ بغداد ج١ ص ١٠٠ ، معجم البلدان ج٢ ص ٢٥٥
(١٧٢) معجم البلدان ج٢ ص ٥٥ ، المشترك ص ١٢٩
(١٧٣) المشترك ص ١٣٠
(١٧٤) معجم البلدان ج٢ ص ٢٥٥
(١٧٥) المشترك ص ١٣٠ ، في التراث العربي ص ٩٦ ، لسترنج ٢٢٥
(١٧٦) في التراث العربي ص ٩٨
(١٧٧) المشترك ص ١٢٩ ، القزويني . آثار البلاد ص ٢١٥
(١٧٨) دليل خارطة بغداد ص ١٥٧ ، يعقوب سركيس . مباحث عراقية ج١ ص ١٢٢
(١٧٩) دليل خارطة بغداد ص ١٥٧ ، يعقوب سركيس ج١ ص ١٢٢ ، لسترنج ص ٢٢٥
(١٨٠) في التراث العربي ص ٨٨
(١٨١) دليل خارطة بغداد ص ١٥١
(١٨٢) يعقوب سركيس ج١ ص ١٢٢
(١٨٣) دليل خارطة بغداد ص ١٥٨
(١٨٤) المصدر نفسه
(١٨٥) المشترك ص ١٢٩ ، لسترنج ص ٢٢٦
(١٨٦) آثار البلاد ص ٣١٦
(١٨٧) دليل خارطة بغداد ص ١٥٨ ، لسترنج ص ٢٢٩
(١٨٨) دليل خارطة بغداد ص ١٥٨ ، في التراث العربي ص ٩٠
(١٨٩) في التراث العربي ص ٩٠ ، لسترنج ص ٢٣٠ ، دليل خارطة بغداد ص ١٥٨
(١٩٠) آثار البلاد ص ٢١٦ ، دليل خارطة بغداد ص ١٥٨ ، لسترنج ص ٢٣٢
(١٩١) لسترنج ص ٢٣٣
(١٩٢) دليل خارطة بغداد ص ١٥٨

(١٩٣) دليل خارطة بغداد ص ١٥٩ ، لسترنج ص ٢٢٤
(١٩٤) آثار البلاد ص ٣١٦
(١٩٥) دليل خارطة بغداد ص ١٥٩
(١٩٦) المصدر نفسه
(١٩٧) معجم البلدان ج١ ص ٤٤٤
(١٩٨) في التراث العربي ص ٩٥
(١٩٩) دليل خارطة بغداد ص ١٥٩
(٢٠٠) معجم البلدان ج١ ص ٤٥١
(٢٠١) المشترك ص ١٣٠
(٢٠٢) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠ ، سوسة . الفيضان ص ٤٠
(٢٠٣) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠ ، سوسة . الفيضان ص ٥٨
(٢٠٤) بغداد (ط مهندسين) ص ٥٦
(٢٠٥) المنتظم ج٩ ص ٨٥
(٢٠٦) المنتظم ج٩ ص ٨٥ ، ابن الاثير . الكامل ج١٠ ص ٢٥١
(٢٠٧) المنتظم ج٩ ص ٨٥
(٢٠٨) بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠
(٢٠٩) ابن الاثير ج١٠ ص ٦١٦
(٢١٠) المصدر نفسه
(٢١١) ابن الاثير ج١٠ ص ٦١٧
(٢١٢) المنتظم ج٩ ص ٢٤٥
(٢١٣) ابن الاثير ج١٠ ص ٦١٦
(٢١٤) المنتظم ج٩ ص ٢٤٥
(٢١٥) دليل خارطة بغداد ص ١٦٣
(٢١٦) دليل خارطة بغداد ص ١٦٣ ، لسترنج ص ٢٢٩
(٢١٧) بغداد في رحلة نيبور ص ٥٠
(٢١٨) هوار . خطط بغداد ص ١١
(٢١٩) هوار . ص ١١
(٢٢٠) رحلة ابن جبير ص ٢٠٥
(٢٢١) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠
(٢٢٢) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠
(٢٢٣) بغداد في رحلة نيبور ص ٥٠ ، هوار ص ١١
(٢٢٤) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠ ، ٢١١
(٢٢٥) هوار ص ١٢
(٢٢٦) تخطيط بغداد ص ١٦
(٢٢٧) بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠
(٢٢٨) لسترنج ص ٢٤٧
(٢٢٩) بغداد في رحلة نيبور ص ٥٠ ، دليل خارطة بغداد ص١٦١
(٢٣٠) هوار ص ١٣
(٢٣١) دليل خارطة بغداد ص ١٦١
(٢٣٢) بغداد (ط مهندسين) ص ٦٩ ، ٥٠ ، دليل خارطة بغداد ص ١٦١ ، هوار ص ١٣
(٢٣٣) دليل خارطة بغداد ص ١٦١
(٢٣٤) هوار ص ١٣
(٢٣٥) دليل خارطة بغداد ص ١٦١ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠
(٢٣٦) لسترنج ص ٢٥٠ ، هوار ص ١٦
(٢٣٧) دليل خارطة بغداد ص ١٦٢
(٢٣٨) لسترنج ص ٢٤٩
(٢٣٩) بغداد في رحلة نيبور ص ٥٠ ، هوار ١٦
(٢٤٠) هوار ص ١٦
(٢٤١) هوار ص ١٦
(٢٤٢) هوار ص ١٩
(٢٤٣) دليل خارطة بغداد ص ١٦٢
(٢٤٤) الفخري . ص ٣٣٦
(٢٤٥) لسترنج ص ٢٥١
(٢٤٦) بغداد (ط مهندسين) ص ٥٢
(٢٤٧) رحلة ابن جبير ص ٢٠١
(٢٤٨) هوار ص ٢٠
(٢٤٩) لسترنج ٢٤٢ ، سوسة . الفيضان ص ٦٠
(٢٥٠) رحلة ابن جبير ص ٢٠٠
(٢٥١) بغداد (ط مهندسين) ص ٧١
(٢٥٢) هوار . ص ٩
(٢٥٣) هوار ص ١١

★

المراجع

١ ـ ابن الاثير ، عز الدين علي بن محمد . الكامل في التاريخ . دار صادر . بيروت ١٩٦٦ .

٢ ـ ابن جبير ، محمد بن احمد . رحلة ابن جبير . دار صادر ، بيروت ١٩٦٤ .

٣ ـ ابن الجوزي ، عبدالرحمن بن علي . المنتظم . حيدر آباد ، ١٣٥٦ هـ .

٤ ـ ابن رسته ، احمد بن عمر . الاعلاق النفسية ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٩١ .

٥ ـ ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا . الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية . دار صادر . بيروت ١٩٦٦

٦ ـ احمد سوسة . الفيضان وغرق بغداد في العصر العباسي . في « مجلة المجمع العلمي العراقي » ١٠ (١٩٦٢) .

٧ ـ الاطرقجي ، رمزية . بناء بغداد في عهد أبي جعفر المنصور . مطبعة النعمان . النجف ١٩٧٥ .

٨ ـ الحميري ، محمد بن عبدالمنعم . الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، دار القلم ، بيروت ١٩٧٥

٩ ـ الطبري . محمد بن جرير . تاريخ الرسل والملوك . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . دار المعارف . القاهرة

١٠ـ العبيدي ، مكية سلمان . بغداد في القرن الثالث الهجري [رسالة ماجستير مقدمة لجامعة بغداد] . طباعة رونيو ، بغداد ١٩٦٧ .

١١ـ العلي ، صالح احمد . مصادر دراسة خطط بغداد في العصور العباسية . في « مجلة المجمع العلمي العراقي » ١٤ (١٩٦٧) .

١٢ـ العميد ، طاهر مظفر . بغداد مدينة المنصور المدورة . مطبعة النعمان . النجف ١٩٦٧ .

١٣- القزويني ، زكرياء بن محمد بن محمود . آثار البلاد واخبار العباد . دار صادر . بيروت ١٩٦٠

١٤- الكبيسي ، حمدان . اسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي . دار الحرية ، بغداد ١٩٧٩

١٥- كراتشكوفسكي تاريخ الادب الجغرافي العربي . ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم .

١٦- كوك ، ريچارد . بغداد مدينة السلام . ترجمة وتقديم وتعليق مصطفى جواد وفؤاد جميل . مطبعة شفيق ، بغداد ١٩٦٢

١٧- لسترنج ، في . بغداد في عهد الخلافة العباسية . ترجمة بشير يوسف فرنسيس ، المطبعة العربية ، بغداد ١٩٣٦ .

١٨- مصطفى جواد واحمد سوسة وناجي معروف ومحمد مكية . بغداد . مطبعة رمزي ، بغداد ١٩٦٩ [نشرته نقابة المهندسين] .

١٩- مصطفى جواد . بغداد في رحلة نيبور . في مجلة « سومر » ٢ (١٩٦٤) .

٢٠- مصطفى جواد واحمدسوسة . دليل خارطة بغداد . مطبعة المجمع العلمي العراقي . بغداد ١٩٥٨ .

٢١- مصطفى جواد . في التراث العربي . [مجموعة ابحاث جمعها عبدالحميد العلوجي ومحمد جميل شلش]

٢٢- ناجي معروف . تخطيط بغداد . في مجلة « الاقلام » [العراقية] ج١ السنة الثالثة .

٢٣- هوار ، كليمان . خطط بغداد . ترجمة وتعليق ناجي معروف . دار الجمهورية ، بغداد ١٩٦٦ .

٢٤- ياقوت الحموي . المشترك وضعا والمفترق صقعا . كوتنجن ، ١٨٤٦ .

٢٥- ياقوت الحموي - معجم البلدان . لايبزيج ، ١٨٦٦ .

٢٦- يعقوب سركيس . مباحث عراقية [مجموعة ابحاث نشرها في المجلات] . القسم الاول . مطبعة شركة التجارة ، بغداد ١٩٤٨ .

٢٧- اليعقوبي . احمد بن جعفر بن وهب . البلدان . بريل ١٨٩٢

٢٨- Lassner, Jacob. The topography of Baghdad in the early middle ages. Wayne State University, 1970.

[وقد اكملت ترجمته مع الزميل شملان جاسم فياض]

❋ ● ❋

حملة هولاكو على بغداد

٦٥٦ هـ

بقلم الدكتور
رشيد عبد الله الجميلي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

عرف المغول قبل عصر جنكيزخان باسم (التتار) ، وقد وردت هذه التسمية في نقوش ارخون في القرن الثامن الميلادي ، وكانوا ينقسمون الى قسمين : الاول يتألف من تسع قبائل والاخر يتألف من ثلاثين قبيلة .(١)

عاش المغول في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي الممتدة في اواسط جنوبي سيبيريا وشمال التبت وغربي منشوريا وشرقي التركستان ، بين جبال التاي غرباً وجبال جنجان شرقاً ؛ وقد مارس المغول الرعي والصيد فكانوا يتنقلون في ارجاء هضبة منغوليا سعياً وراء مواطن المياه والكلأ، فيهبطون في الشتاء الى سهولها ومناطقها الدافئة حيث تتوفر الظروف المناسبة للرعي ، وفي الصيف يستقرون في المرتفعات واعالي الجبال مدة شهرين او اكثر حيث البرودة والمياه .(٢)

والواقع ان تاريخ المغول السياسي بدأ مع ظهور جنكيزخان الذي نجح في استقطاب جموع المغول وربطهم بتنظيمات سياسية قدر لها الاستمرار بفضل مهارته وحسن قيادته حتى بعد وفاته .(٣)

بدا جنكيزخان اجتياحه لاقاليم العالم الاسلامي منذ عام ٦١٦هـ/١٢١٩م ، ففي هذه السنة تدفقت جيوشه على دولة خوارزم فسيطر ولده جوجي على القسم الغربي من بلاد ما وراء النهر في نفس الوقت الذي نجح فيه بعض قواده في الاستيلاء على بناكت وخجندة على الرغم من المقاومة التي ابداها اهل هذا الاقليم(٤) اما جنكيزخان نفسه فقد زحف بالجيش الرئيسي نحو بخارى فوصلها في غرة ذي الحجة من سنة ٦١٦هـ فاحدث فيها مجزرة رهيبة تحولت المدينة على اثرها الى حطام ورماد .(٥) ، ولم تلبث سمرقند ان استسلمت في يوم عاشوراء من سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م بعد حصار قصير ولقي معظم سكانها مصرعهم على ايدي المغول الذين تمت لهم السيطرة على معظم اقليم ما وراء النهر واصبحت الطريق امامهم ممهدة الى خراسان وبقية الولايات الغربية .(٦)

---

(١) بارتولد ، مادة جنكيزخان ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ، م٧ ص ١٢٧ الباز العريني ، المغول ص ٢٢ ، بيروت ١٩٦٧ ، احمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة ج ٢ ص ٦٦٥ .

(٢) هوتسمان ، مادة التتار ـ دائرة المعارف الاسلامية ، م٤ ص ٥٧٦ ، حسن احمد محمود واحمد الشريف ، العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٦٢٨ .

(٣) محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٨ ـ ٩ .

(٤) تاريخ بخارى ص ١٦٦ ـ ١٦٨ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ج ٩ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ ، الجوزجاني ، تاريخ آل جنكيز ص ١٤ .

(٦) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٣٢٣ ، تاريخ بخارى ص ١٧٣ ـ ١٧٥ محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٣٤ .

وكان خوارزم شاه (علاء الدين محمد) قد غلب عليه الهلع والخوف ففر امام المغول قبل ان يشتبك في معركة فاصلة تاركاً مهمة الدفاع لحكام الولايات فتنقل في هربه من جيحون الى نيسابور الى بسطام ثم الى الري ومنها الى مازندران دون ان يفكر في الوقوف والتصدي للفرق التي أرسلها جنكيزخان لمطاردته ، ثم آل به الامر الى إحدى جزر بحر الخزر حيث قضى هناك بقية ايامه ومات في أواخر سنة ٦١٧هـ.(٧) اما جنكيزخان فقد عاد الى منغوليا في سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م حيث مات بعد أربعة اعوام ، ولم يتم انتخاب ولده وخليفته اوغوتاي إلا في سنة ٦٢٦هـ(٨) ، وكان جلال الدين منكبرتي ابن علاء الدين محمد قد رحل من الهند في سنة ٦٢٢هـ بعد فراره امام جنكيزخان وشرع باعادة تعبئة جيوش ابيه ، ثم إستعد لاعادة سيطرته على جنوب ايران وغربها غير انه انصرف الى محاربة القوى الاسلامية المجاورة وتعرض لبلاد الخليفة العباسي حتى وصلت طلائع قواته الى يعقوبا وتكريت واستولت على داقوقا(٩) ، غير ان تعرضه لمدينة خلاط في سنة ٦٢٦هـ قد ادى الى تحالف الملك الاشرف بن العادل الايوبي مع كيقباذ بن كيخسرو فتمكنا من هزيمته والقضاء على معظم قواته(١٠) ، وقد اطمعت هذه الهزيمة اعداء جلال الدين فاغروا به المغول ، وحين احس بالخطر المحدق به سعى للتقرب الى الخليفة العباسي والملك الاشرف الايوبي ، كما راسل عدداً من أمراء المسلمين في اقليم الجزيرة وبلاد الشام ، غير ان المغول كانوا له بالمرصاد فلم يتركوا الفرصة له لاعادة بناء قوته العسكرية واسرعوا بمهاجمته في سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م ففر الى احدى قرى ميافارقين ولم يلبث ان سقط صريعاً بيد احد الاكراد في المنطقة.(١١)

زحف المغول نحو بغداد :

كان سقوط الدولة الخوارزمية واختفاء جلال الدين قد اتاح للمغول التوسع السريع نحو الغرب فوصلوا ديار بكر وآمد وميافارقين وبلغوا الجزيرة وحران ، وتعرضت بلاد الموصل واربل ودقوقا لهجماتهم ، واصبح الطريق ممهداً امامهم نحو عاصمة الخلافة بغداد ، فقاموا بعدة حملات استهدفت اشاعة الرعب في النفوس والوقوف على وضع الخلافة من الناحية العسكرية ومدى استعدادها للدفاع عن بغداد ، وقد بلغت هجمات المغول على العراق خلال هذه الفترة وحتى احتلال بغداد ثلاث عشرة حملة.(١٢)

وكانت المرة الاولى التي هاجم فيها المغول اطراف العراق سنة ٦١٨هـ حين وصلت الاخبار الى بغداد بتقدم المغول من مراغه في اذربيجان نحو اربل ، فبادر الخليفة الناصر لدين الله الى تحصين بغداد وكتب الى امير الموصل وامير اربل يأمرهما بالانضمام الى عساكره في داقوقا ، وخرجت قوات اربل والموصل فعلا لمواجهة الموقف ، وفوجئت هذه القوات بقلة عساكر الخليفة التي لم تكن تتجاوز ثمنمائة رجل خلافاً لما كان قد وعد به من انه سيرسل عشرة الاف رجل لمواجهة المغول ، ولم يجسر امير اربل مظفر الدين كوكوري على مهاجمة المغول الذين شرعوا في الانسحاب ظناً منهم ان قوات الخلافة في اثرهم(١٣) .

وتلا ذلك فترة من الهدوء دامت نحواً من عشر سنوات وذلك بسبب عودة المغول الى بلادهم وما تبع ذلك من وفاة جنكيزخان وتولي ولده اوغوتاي العرش من بعده الذي تمكن من القضاء على آخر مقاومة للخوارزميين بهزيمة جلال الدين منكبرتي في سنة ٦٢٨هـ ، ثم عاود المغول هجماتهم ضد العراق فوصلت غاراتهم الى اربل والموصل وداقوقا . وتكررت هذه الاغارات عدة مرات حيث تعرضت مناطق اربل والموصل وسنجار وحران وماردين للغزو بين عامي ٦٣٣هـ و ٦٣٤هـ واضطر على اثرها امير الموصل بدر الدين لؤلؤ الى مصالحتهم(١٤) .

ولم تكن الخلافة في هذه المرحلة التاريخية الخطيرة على مستوى المسؤولية ولم تدرك حقيقة الكارثة التي باتت تهدد البلاد ، فكانت تكتفي باستنفار المتطوعين من الاطراف وترسل الكتب

(٧) الجويني ، تاريخ جهانكشاي ، ج ٢ ص ١١٤ – ١١٧ ، تاريخ بخارى ص ١٧٦/١٧٨ حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ص ١٢٧ – ١٣٠ .

(٨) جعفر خصباك ، الاحتلال المغولي للعراق مجلة كلية الآداب العدد ٣ سنة ١٩٥٨ ص ١١٠ – ١١١ .

(٩) سبط ابن الجوزي ، مراة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص٦٣٤.

(١٠) ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ج ٣ ص ١٥٣ .

(١١) سبط ابن الجوزي ، مراة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٦٦٦ ، ابن العبري ، ص ٢٤٧ . القزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٥١ .

(١٢) نفس المصدر ، ج ٨ ق ٢ ص ٦٧٢ ، القزاز ، نفس المرجع السابق ص ٥٢ .

(١٣) ابن الاثير ، الكامل ج ٩ ص ٣٣٧ – ٣٣٨ .

(١٤) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ٨٤ ، ٩٩ ، ابن العبري ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

الى الامراء تستحثهم على النهوض(١٥) ، وسرعان ما تختفي هذه الاجراءات مع ابتعاد الخطر عن اطراف الدولة ، ويعود الناس الى اعمالهم ، في حين كان يتعين على الخلافة تعبئة طاقات الامة وحشد قواها المادية والبشرية لمواجهة التحدي المغولي وان يتولى الخليفة نفسه قيادة القوى المقاتلة لما يترتب على ذلك من رفع للمعنويات وشحذ للهمم ، غير ان شيئاً من ذلك لم يحدث لقد كانت سياسة المستنصر بالله(١٦) تقوم على محاولة استرضاء المغول ومصانعتهم ، ثم بلغت الخلافة ذروة ضعفها في عهد المستعصم بالله(١٧) (٦٤٠هـ - ٦٥٦) ، الذي وصفه المؤرخون بالغفلة وضعف الراي وقلة العزم ، وكان اخطر ما اقدم عليه الخليفة الجديد هو اهماله الجيش وامساكه عن الانفاق على الجند .(١٨)

والواقع ان اهمال الناحية العسكرية وما ترتب عليها من نتائج سيئة لا يتحمل مسؤوليتها الخليفة وحده بل يشاركه رجال دولته من الوزراء والحجاب وامراء الجيش والحاشية ، فهؤلاء جميعاً يتحملون مسؤولية الكارثة التي حلت بالبلاد(١٩) . فكان بعضهم يهون على الخليفة امر المغول والبعض الآخر ينصح باسترضائهم بالهدايا والاموال ، بالاضافة الى ما تفجر بين هؤلاء الامراء والوزراء من خلافات وصراعات حول السلطة عجز الخليفة عن السيطرة عليها وازالة اسبابها ، فكان ذلك عاملا من عوامل اشاعة الفوضى والاضطراب في دار الخلافة .

هجوم المغول على بغداد :

استعد هولاكو للزحف نحو بغداد في المحرم سنة ٦٥٥هـ بعد ان تم له القضاء على قلاع الاسماعيلية في ايران ، وبعث من همدان انذاراً شديداً الى الخليفة المستعصم بالله دعاه الى تدمير جميع اسوار بغداد والمثول بشخصه امامه او ارسال ثلاثة من كبار رجال دولته نيابة عنه ، فرفض الخليفة ذلك(٢٠) ، وكتب اليه واصفاً اياه بالغرور ومهدداً بان ملوك الارض سيقفون الى جانبه اذا استمر في الزحف نحو بلاده ، ودعاه الى الجنوح للسلم والعودة الى خراسان أو الا للحرب ، فلم يأبه هولاكو برسالة الخليفة بل استخف بها واكد اصراره على مواصلة زحفه الى بغداد(٢١) ، ثم ارسل نداءاً آخر دعا الخليفة فيه الى تحديد موقفه وهدده بانه متوجه الى بغداد « بجيش كالنمل والجراد » .(٢٢) وقد رفض الخليفة هذا الانذار ظناً منه بان الايوبيين في الشام والمماليك في مصر سيسارعون الى الانضواء تحت لوائه متناسياً الظروف السيئة التي كانت تحيط بهؤلاء في هذه الفترة(٢٣) .

وفي المحرم من عام ٦٥٥هـ تحرك هولاكو من همدان فوصل اسد آباد حيث اوفد رسولا الى بغداد يطلب الى الخليفة الحضور امامه بهدف التوصل الى اتفاق لتجنب الحرب ، وترك للخليفة الخيار في الحضور او ان ينيب عنه وزيره ابن العلقمي وقائده الدويدار وسليمان شاه ، غير أن الخليفة لم يكن يملك القدرة على حمل هؤلاء الثلاثة بالخروج لملاقاة هولاكو ، فاكتفى بارسال شريف الدين ابن الجوزي وخوله بذل الاموال لاقناع الزعيم المغولي بالعودة عن بغداد ، غير ان ذلك لم يجد نفعاً .(٢٤)

ولم يجد الخليفة بدا من المواجهة فأمر قائده مجاهد الدين ايبك الدويدار بالخروج على راس قوات بغداد للتصدي لهولاكو على طريق حلوان .(٢٥)

وكان هولاكو قد وضع خطة للاطباق على بغداد من جميع جهاتها وتقرر أن يزحف قسم من جيشه عبر دجلة ليحيط بالجانب الغربي في حين يتولى بنفسه الالتفاف على القسم الشرقي من المدينة ، ويشير المؤرخ رشيد الدين الى أن جيش هولاكو كان يتالف من اربعة اقسام اطبقت على

(١٥) المصدر السابق ، ص ٨٥ - ٩٨ ، ١١٠ ، ١١٢ .
(١٦) المستنصر بالله : ابو جعفر منصور بن الظاهر بامر الله ولد في صفر سنة ٥٨٨هـ .
(١٧) المستعصم بالله : ابو احمد عبدالله بن المستنصر بالله ولد في سنة ٦٠٩هـ .
(١٨) ابن الفوطي ، ص ١٦٨ ، ٢٩١ ، ٣٢٠ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٨ .
(١٩) القزاز ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير .

(٢٠) رشيد الدين ، جامع التواريخ م٢ ج١ ص ٢٦٧ - ٢٧١، ابن العبري ، ص ٢٧١ .
(٢١) رشيد الدين ، جامع التواريخ م١ ج٢ ص ٢٧١ .
(٢٢) المصدر السابق ، جامع التواريخ ص ٢٧١ .
(٢٣) القزاز ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير ص ٣١٣ .
(٢٤) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ٣٢٠ ، ابن العبري ص ٢٧٠ .
(٢٥) جعفر خصباك ، الاحتلال المغولي للعراق مجلة كلية الاداب عدد ٣ سنة ١٩٥٨ ص ١٤٠ .

بغداد من جانبيها ؛ في حين يذكر ابن الفوطي القسمين الرئيسيين لهذا الجيش .(٢٦)

نزل عسكر الخليفة بقيادة الدويدار في بادىء الامر في بعقوبة ؛ فلما علم بتقدم قوة من المغول نحو الضفة الغربية لدجلة ، سارع بعبور النهر ليتصدى لهم شمال بغداد ، فادى انسحابه هذا الى خلو الجهة الشرقية من الجند ، وحاول الخليفة حمل من تبقى من امراء العسكر على الخروج تحت قيادة مرشد الخصي ؛ فرفضوا المسير تحت لوائه ولم ينفذوا اوامر الخليفة ، مما سهل مهمة هولاكو في الوصول الى اسوار بغداد(٢٧) والتقى جيش الخليفة بطلائع المغول بالقرب من قنطرة باب البصرة ، وقد اختلف المؤرخون في تقدير حجم القوة المغولية ، فابن كثير يذكر انها كانت نحواً من عشرة الاف ؛ في حين يجعلها ابن الطقطقى ثلاثين الفاً(٢٨) . ولجأ المغول الى تطبيق اساليبهم المعروفة في الحرب فتظاهروا بالهرب امام قوات الخليفة التي كان يقودها الدويدار ، فاندفع وراءهم ولم يستمع الى نصيحة فتح الدين بن كمر الذي اشار عليه بالثبات في مواقعه ؛ والاستعداد لمواجهتهم مرة اخرى ؛ وكان المغول يرمون الى ابعاد قوات بغداد عن مواقعها في نفس الوقت الذي تقوم فيه فرقة منهم بتدمير السدود المقامة على تفرع نهر بشير من الدجيل لاغراق الاراضي وراء تلك القوات وحصرها فيها ، وقد نجح المغول في تحقيق هذا الهدف حين توقفوا عن التراجع وعادوا للهجوم ثانية حيث انحصرت قوات بغداد في المنطقة المغمورة بالمياه فهلك معظمها الا من القى نفسه في الماء ومن دخل البرية ومضى على وجهه الى الشام، وتمكن الدويدار من النجاة ودخل بغداد في عدد قليل من اصحابه(٢٩) .

وفي الحادي عشر من محرم سنة٦٥٦هـ/٢٢ كانون ثاني ١٢٥٨م استكمل المغول حشودهم على الضفة الغربية لنهر دجلة ، وتولى قيادة هذه الحشود ثلاثة من كبار امرائهم وهم : بايجو ؛ وبقاتيمور ، وسوجونجق (سونجاق) ، في حين كان هولاكو وكتبغا يضيقون الخناق على بغداد من الجانب الآخر ، وبادر المغول الى اقامة الاستحكامات ، فاقاموا على دجلة باعلى المدينة وباسفلها جسرين قائمين على السفن امعاناً في تضييق الحصار على بغداد وكي لا يدعوا لاهلها الفرصة في الرحيل عن طريق النهر ، واستخدم المغول جذوع النخيل للرمي بالمنجنيق بدلا من الاحجار التي لم تكن متوفرة حول بغداد حيث كانوا يأتون بها من جبل حمرين وجلولاء .(٣٠)

وبدأ المغول الحرب في الثاني والعشرين من المحرم وشدد هولاكو على القطاع الشرقي فتمكن من الاستيلاء على الاسوار المتمثلة في البرج المعروف ببرج العجمي المجاور لباب الحلبة ، وكان لنجاح المغول في الاستيلاء على هذا الجزء الهام من المدينة اثره في معنويات المدافعين وسكان المدينة ، فقرر الخليفة ايفاد وزيره ابن العلقمي وجاثليق المسيحيين النساطرة الى هولاكو لاقناعه بالكف عن القتال وعقد الصلح ، غير ان هولاكو لم يلتفت الى ذلك ؛ بل طلب من الوزير ان يصطحب معه الدويدار وسليمان شاه ؛ الا ان الوزير حضر في اليوم التالي مع صاحب الديوان وجماعة من اعيان بغداد ، فردهم هولاكو خائبين واستمرت الحرب بين الطرفين .(٣١)

وساءت الاحوال ببغداد وحاول عدد كبير من رجال حاميتها الهرب غير انهم لم ينجحوا ووقعوا في قبضة المغول فاجهزوا عليهم ، ولم يلبث الخليفة المستعصم ان اعلن الاستسلام وارسل فخر الدين الدامغاني وابن درنوس مع بعض الهدايا لتقديمها الى هولاكو ، غير ان الاخير لم يأمر بوقف القتال ، كما رفض شفاعة ولدي الخليفة الفضل عبدالرحمن وابي العباس احمد اللذين خرجا بعد ذلك مع جماعة من اهل بغداد محملين بالهدايا والتحف .(٣٢) واصر الزعيم المغولي على ضرورة حضور الدويدار وسليمان شاه اللذين كانا يتوليان قيادة المقاومة ضد المغول ؛ فقررا الخروج لمقابلة هولاكو في الاول من صفر سنة ٦٥٦هـ ؛ فطلب اليهما اصدار الاوامر الى المدافعين عن بغداد بالانضمام الى الجيش المغولي الذي سيتوجه الى الشام ومصر ، فاستجابا لذلك ، وخرج عدد كثير من الجند للالتحاق

(٢٦) رشيد الدين ، جامع التواريخ م٢ ج١ ص ٢٨١ ، ابن الفوطي ، ص ٣٢٠ ، القزاز ، ص ٣٢٤ .

(٢٧) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٩ .

(٢٨) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١ ، ابن الطقطقى ، الفخري ص ٢٩٣ .

(٢٩) ابن العبري ، ص ٢٧٠ ، العريني ، تاريخ المغول ص ٢١٨ .

(٣٠) ابن العبري ، ص ٢٧٣ ، القزاز ، ص ٣٢٥ .

(٣١) رشيد الدين ، جامع التواريخ م٢ ج١ ص ٢٨٦-٢٨٧ .

(٣٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ ، ابن العبري ، ص ٢٧١ .

بالمغول ؛ غير أن الموت كان بانتظارهم خارج الاسوار وخرج الدويدار وسليمان شاه في اليوم التالي ولقيا نفس المصير .(٣٣)

ولم يجد الخليفة بدأ من الخروج فاستاذن هولاكو في ذلك وخرج معه اولاده واهله ، فامر هولاكو بانزالهم بباب كلواذا ، وطلب الى الخليفة أن يصدر اوامره الى بقية المدافعين عن بغداد بالقاء اسلحتهم والخروج لاحصائهم فاستجاب لذلك وخرجت جماعات كبيرة منهم ، فاحاط بهم المغول وقتلوهم عن آخرهم ، ثم دخل هولاكو بغداد ليشاهد دار الخليفة وامر باحضاره ،فحضر المستعصم ومعه جمع من العلماء والاعيان ، وقدم الى هولاكو الجواهر والدرر واواني الفضة والثياب النفيسة ، ففرقها على الامراء ، وعنف الخليفة تعنيفاً شديدا وحمله مسؤولية ما وقع من احداث بسبب تهاونه في الدفاع عن البلاد وامساكه عن انفاق امواله لتقوية الجيش .(٣٤)

واطلق هولاكو اصحابه لنهب بغداد فاستباحوها مدة سبعة ايام(٣٥) ، وامر عساكره المرابطة على الاسوار بالنزول الى داخل المدينة والاشتراك في الاجهاز على السكان ، فلم يفرقوا بين الرجال والنساء والاطفال ، واستجار قسم منهم ببعض المقربين من المغول ، والتجأ بعضهم الى بيوت النصارى الذين كانوا قد حصلوا على الأمان والرعاية من المغول ، واشتعلت النيران في ارجاء بغداد ، فاحترق جامع الخليفة ومشهد موسى الكاظم ومراقد الخلفاء ، وكان القتلى في الاسواق والدروب كالتلول وقعت عليهم الامطار وداستهم الخيول فتغيرت صورهم ؛ ولم يلبث هولاكو ان امر بقتل الخليفة المستعصم مع ولده ابو العباس احمد ثم ابنه الاوسط ابو الفضل عبدالرحمن ، كما قتل اعمام الخليفة واقاربه وجماعة من الاعيان ؛ ثم امر برفع السيف واعلن ان من بقي على قيد الحياة اصبح من رعاياه(٣٦)

(٣٣) ابن العبري ، ص ٢٧١ .
(٣٤) نصير الدين الطوسي ، استيلاء المغول على بغداد ص٢٨ (رسالة بالفارسية ترجمها محمد صادق الحسيني ونشرت في مجلة المرشد البغدادية ج ٤) .
(٣٥) ابن العبري ، ص ٢٧٢ ، ذكر ابن الفوطي أن المغول استباحوا بغداد مدة اربعين يوماً ، الحوادث الجامعة ص ٣٢٩ .
(٣٦) رشيد الدين ، جامع التواريخ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ابن الفوطي ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، خصباك ، ص ١٤٢ ، القزاز ص ٣٢٩ .

وقد اختلفت روايات المؤرخين حول تقرير عدد الذين لقوا مصرعهم على ايدي المغول في بغداد: فذكر ابن الفوطي انهم كانوا يزيدون على ثمنمائة الف سوى من هلك من الاطفال ومن مات في السراديب والآبار(٣٧) ، اما الذهبي فيقدر عدد القتلى بما يزيد على الف الف وثمنمائة(٣٨) ؛ ولاشك أن هذه التقديرات مبالغ فيها اذا ما اخذنا في نظر الاعتبار مساحة بغداد المحصورة بين الاسوار آنذاك ومدى استيعابها للسكان، بالاضافة الى ان الكثير من اهلها كانوا قد التمسوا النجاة بانفسهم بعد سماعهم باقتراب المغول الذين اشاعوا الخوف والذعر في نفوس الناس ، كما يجب انلا ننسى الذين لجاوا الى بيوت النصارى او المقربين من المغول ، ومن ظل مختفياً عن الانظار في المناطق المهجورة ، والدليل على ان المغول لم يجهزوا على جميع السكان اعلان هولاكو بان بغداد (اصبحت ملكاً لنا فليستقر الاهالي ولينصرف كل شخص الى عمله)(٣٩) ؛ وقد قدر المؤرخ الفرنسي جروسيه عدد القتلى بتسعين الفا مستنداً الى دراسة المصادر الاولية ، ولعل هذا الرقم هو الاقرب الى الواقع .(٤٠)

وبعد أن اعلن هولاكو ايقاف القتال امر بدفن الموتى ورفع جثث الحيوانات من الطرقات والاسواق ، بعد ان فسد الهواء ببغداد وانتشر الوباء في ارجائها ، وقبل أن يغادر معسكره الى همدان امر بتنظيم الامور في العراق ، وفوض حكومة بغداد الى الامير علي بهادر وجعله شحنة بها ، واقر الوزير ابن العلقمي في الوزارة وفخر الدين الدامغاني في الديوان ، ونظام الدين عبدالمنعم في القضاء ؛ كما وزع المناصب الادارية والمالية على نجم الدين عبدالغني بن درنوس ، وتاج الدين علي بن الدوامي ؛ وفخر الدين مبارك ابن المخرمي ؛ ثم رحل هولاكو في جمادى الأولى من السنة نفسها ٦٥٦هـ ، وترك على بغداد قائدين من المغول في ثلاثة الاف جندي ؛ وواصل رحيله الى همدان .(٤١)

(٣٧) ابن الفوطي ، ص ٣٢١ .
(٣٨) الذهبي ، دول الاسلام ج ٢ ص ١٢١ .
(٣٩) رشيد الدين ، جامع التواريخ ص ٢٩٣ ، خصباك ص ١٤٤ – ١٤٥ ، القزاز ، ص ٣٢٨ .
(٤٠) Grousset, L'Empire des steppes. P. 299
(٤١) خصباك ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، القزاز ، ص ٣٤٠ .

حملات تيمور على بغــداد

٧٩٥ ـ ٨٠٧هـ/١٣٩٣ ـ ١٤٠٥م

بقلــم

نوري عبدالحميد خليل

جامعة بغداد/كلية التربية

تجزات المملكة الايلخانية سنة ٧٣٦/١٣٣٥م، واندلعت الحروب بين الطامعين بالسلطة ، وقد تمكن الشيخ حسن الجلائري ان يستقل بالعراق سنة ٧٢٩هـ/١٣٣٨م ، ويؤسس الدولة الجلائرية ؛ واتخذ من بغداد عاصمة له . وفي سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م تولى الحكم ابنه الشيخ اويس الذي بسط نفوذه على منطقة اذربيجان الغنية ، ونقل عاصمته الى تبريز ، اما العراق فقد اصبح ولاية جلائرية . ولما خلفه ابنه حسين سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م ، وكان صغير السن ضعيفا ، تسلط امراء الجيش على شؤون الحكم ، وانضم فريق منهم الى اخيه الشيخ علي حاكم بغداد ؛ ومال فريق آخر الى اخيه الثاني احمد ، وكان حاكما على ولاية البصرة . ونشب صراع على السلطة بين الاخوة الثلاثة ، انتهى سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م بمقتل السلطان حسين واستيلاء احمد على الحكم في تبريز .

لكن السلطان احمد اساء معاملة اخوته وامراء الجيش ، فهرب اخوه بايزيد الى مدينة السلطانية ، عاصمة الايلخانيين ، لاجئا عند حاكمها الجلائري الامير عادل اغا ؛ وكان ساخطا على السلطان احمد ايضا ؛ فاكرم بايزيد واقامه سلطانا هناك . ولجأ قسم من الامراء الى بغداد ، ونصبوا الشيخ علي سلطانا ؛ وساروا به نحو تبريز على رأس جيش عراقي كبير . وقد تمكن السلطان احمد من قتل اخيه الشيخ علي ، وتشتيت جيش بغداد في السنة التالية ، بمساعدة حليفه قره محمد حاكم التركمان القره‌قوينلو . غير ان الامور لم تستتب للسلطان احمد ؛ فقد شهد العالم الاسلامي في عهده موجة مغولية جديدة ، اندفعت من اواسط اسيا بقيادة تيمور (تيمورلنك)(١) .

ينتسب تيمور الى احدى القبائل المغولية ـ التركية ، وقد نشأ نشأة اسلامية في مدينة كش في ما وراء النهر (جيحون) ، وصاحب نظراءه من اولاد الامراء والوزراء ، وتدرب على فنون القتال . وقد مكنته شجاعته العسكرية من ضم القبائل المغولية تحت لوائه ، والتخلص من الامراء المنافسين على السلطة واحدا بعد الاخر ؛ واصبح حاكما على ما وراء النهر سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م ، واتخذ سمرقند عاصمة له . وكانت الاوضاع الاقتصادية المتردية في بلاد ما وراء النهر ، ورغبة تيمور في السيطرة ؛ وعدم اعترافه بوجود حاكم آخر ، من العوامل المهمة في اندفاعه نحو الغرب ، لا سيما وقد اعتبر نفسه وريثا لاملاك المغول ؛ والامبراطورية الايلخانية الواسعة التي كانت تضم خراسان وبلاد الجبل والعراق العربي واذربيجان والاحواز وفارس وديار بكر واسيا الصغرى(٢) .

---

(١) نوري عبدالحميد خليل ، العراق في العهد الجلايري ١٣٢٧ ـ ١٤١١م ، رسالة ماجستير غير منشورة) كلية الاداب ـ جامعة بغداد ١٩٧٦ ، ص ٢٧ ـ ٣٠ ؛ وانظر ايضا : شيرين بياني ، تاريخ آل جلاير (طهران ١٣٤٥) ص ١٣ ـ ١٠٨ ؛ عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ج٢ (بغداد ١٩٣٦) ص ٢٤ ـ ٢٦ ،

(٢) جاسم مهاوي حسين ، تاريخ الغزو التيموري للعراق والشام وآثاره السياسية ١٣٨٥ ـ ١٤٠٥م ، رسالة

اثارت الانتصارات التي احرزها تيمور في اواسط آسيا وشمال ايران والولايات الايلخانية قلق السلطان احمد في تبريز ، فامر سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م بوضع حامية عسكرية كبيرة في مدينة السلطانية . وانسحب الى بغداد ، لكن قوات تيمور داهمت السلطانية ، بعد فترة قصيرة ، واستولت عليها(٣) . ويبدو ان السلطان اراد تقوية مركزه في تبريز وابقاء سيطرته عليها ، فسار اليها في السنة التالية على رأس جيش عراقي كبير من بغداد ، غير ان قوات تيمور هاجمت المدينة فاضطر السلطان الى التراجع عنها ، ودخلها تيمور دون مقاومة(٤) .

وبعد ان اخضع تيمور اذربيجان وجورجيا وارمينيا ، كان متوقعا ان يضع العراق ضمن مخططاته التوسعية ، لكونه مفتاحا الى بلاد الشام والحجاز ومصر ، ولاجل تامين طرق التجارة القادمة من الخليج العربي الى بغداد وتبريز وسمرقند . وكانت الاوضاع السائدة في العراق لا تساعد على المقاومة ، فقد اتسمت سياسة السلطان احمد بضيق الافق ، وعدم تقييمه لقوة تيمور . فلم يتخذ اجراءات عسكرية لدفع خطره ، او اقامة جبهة داخلية قوية تدعمه ، بل اجهد نفسه في القضاء على خصومه السياسيين ، ففقد خيرة ضباط جيشه . ويقول عزيز الاسترابادي ، وكان نديمه في بغداد : ان السلطان احمد « قتل عددا كبيرا من قادة الجيش واعيان رجال الدولة ، من ذوي الكفاءة والدراية والراي في تدبير الامور ، وجمع حوله عددا من الاسافل ممن عرفوا بالجهل والحماقة والخمول ، ونصبهم في المناصب العليا . وقد ادى تقصيرهم وسوء تصرفهم الى ايجاد فتور كبير في اعمال الدولة ، فقامت المعارضة والفتن في كل مكان ؛ وانصرف السلطان الى اقامة مجالس الشراب ، ولم يصرف لحظة واحدة في اعمال الملك والدولة »(٥) . وتتفق مصادر تيمور الرسمية مع المصادر المصرية على ان سكان بغداد كرهوا السلطان احمد وسياسته التعسفية ، فكاتب بعض اعيانها تيمور يحرضونه على سلطانهم ، ويستحثونه القدوم واحتلال بغداد ، حتى ان بعض موظفي البريد وكشافة الطرق الذين ارسلهم السلطان احمد لرصد تحركات تيمور ، لجأوا الى تيمور ودخلوا في طاعته قبل وصوله الى بغداد(٦) .

اما على الصعيد الخارجي فان السلطان احمد لم يتعاون مع الدول المجاورة للوقوف بوجه تيمور ، واهمل العرض الذي تقدم به الامير ولي حاكم مازندران لاقامة حلف معه ضد تيمور بالتعاون مع الدولة المظفرية في فارس ، واتسمت علاقته بالدولة الاخيرة بطابع عدائي(٧) . كما اهمل العرض الذي تقدم به تقتمش ، خان القبيلة الذهبية الحاكمة في جهات الفولغا ، والذي اقلقه اقتراب جيش تيمور من حدود بلاده ، ولما شعر تقتمش بضعف السلطان احمد ، ارسل في سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م (٥٠) الف فارس للمرابطة عند مدينة دربند (باب الابواب) على بحر الخزر ، تحسبا للطوارىء . وفي الوقت نفسه ارسل الى بغداد وفدا برئاسة قاضي مدينة سراي عاصمة القبيلة الذهبية ، عارضا على السلطان احمد اقامة تعاون ضد عدوهما المشترك ، الا ان السلطان لم يغتنم هذه الفرصة ، بل اساء معاملة احد اعضاء الوفد ، مما ادى الى تردي العلاقة مع تقتمش(٨) .

لم يدرك السلطان احمد خطر تيمور الا بعد فوات الاوان ، وبعد ان فقد العاصمة تبريز ، فأخذ يفتش عن حليف يساعده على الوقوف بوجه هذا الخطر ، وقد باءت المحاولات التي بذلها للتحالف مع العثمانيين بالفشل ، كما انه لم يحصل على مساعدة المماليك الجراكسة في مصر والشام ، بسبب اضطراب مملكتهم وسوء اوضاعها الداخلية(٩) .

ماجستير (غير منشورة) كلية الاداب ـ جامعة بغداد ١٩٧٦ ، ص ٤٤ ـ ٦١ .

(٣) شهاب الدين عبدالله بن لطف الله بن عبدالرشيد الخوافي المدعو بحافظ آبرو ، ذيل جامع التواريخ رشيدي ، (طهران ١٣١٧) ، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

(٤) معين الدين نطنزي (منسوب لـه) منتخب التواريخ معيني ، (طهران ١٣٣٦) ص ٣٢٠ .

(٥) عزيز ابن اردشير الاسترابادي ، بزم ورزم (استانبول ١٩٢٨) ص ١٦ ـ ١٧ ؛ خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ١٦٢ .

(٦) تيمور ، تزوكات تيموري ، تحرير ابو طالب حسيني (اكسفورد ١٧٨٣) ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن الفرات ؛ تاريخ ابن الفرات ، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين (بيروت ١٩٣٨) جـ٩ ق٢ ص ٢٤٤ ؛ تقي الدين احمد بن علي المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، حققه سعيد عبدالفتاح عاشور (القاهرة ١٩٠٧٠) جـ٣ ق٢ ، ص ٧٨٨ .

(٧) نطنزي ، منتخب التواريخ ، ص ٣٢٥ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ٩٥ ـ ٩٦ .

(٨) حافظ ابرو : ذيل ، ص ٢٢٥ ـ ٢٣٦ ؛ محمد بن برهان الدين خواوند شاه المشهور بميرخواند ، روضة الصفا (طهران ١٣٣٩) جـ٥ ، ص ٥٩٥ .

(٩) حسين ، الغزو التيموري ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

الحملة الاولى ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م :ـ

في ١٥ رجب ٧٩٤هـ/١٣٩٢م زحف تيمور على راس جيش يبلغ تعداده حوالي مئة الف مقاتل من جهات ما وراء النهر نحو الغرب ، وبعد ان اخضعت هذه القوات فارس وخوزستان وبلادالجبل واحكمت سيطرتها في السنة التالية على ايران ، تجمعت في الثامن من شعبان ٧٩٥هـ/١٣٩٣م في همدان تمهيدا للزحف على بغداد(١٠) .

بعث تيمور رسالة الى السلطان احمد ، ومعها الخلعة والسكة ، وامره باعلان خضوعه ، وان يذكر اسمه على النقود وفي الخطبة ، والاسراع بالمثول بين يديه لتقديم فروض الطاعة(١١) . لكن السلطان رفض ذلك ، واجاب برسالة تهكمية ، اعلن فيها استخفافه بتيمور ، واستغرابه من اعجابه الشديد بنفسه ، فكيف « يصبح الثعلب الضال الذي لايد له ، ولا رجل ليثا ، وكيف يتقابل الاصل مع الاصيل » معتبرا اياه مجرد (نملة في صحراء)(١٢) .

شرعت قوات تيمور في ١٣ شعبان ٧٩٥هـ/١٣٩٢م بسلسلة من الحملات في شمال العراق بقصد اخضاع القبائل الكردية والتركمانية المتحالفة مع السلطان احمد ، والاستحواذ على المواد الغذائية المتوفرة في المنطقة ، وضبط الطرق الموصلة الى بغداد . وبعد ان احكمت هذه القوات سيطرتها على الطريق الممتد بين همدان وجمجمال ، واخضعت القبائل الكردية والتركمانية المنتشرة على طوله(١٣) وجد السلطان احمد نفسه عاجزا عن مقاومة الجيش الزاحف ، فاراد تدارك الامر باعلان خضوعه وارسل اليه وفدا برئاسة الشيخ نور الدين عبدالرحمن الاسفراييني ، وكان من اكابر مشايخ بغداد ، وحمله رسالة الى تيمور ، معلنا فيها خضوعه اليه ، ومعتذرا عن الحضور بنفسه والمثول امامه ، وابدى ترحيبه به اذا اراد القدوم الى بغداد وارسل معه جملة من الهدايا الثمينة والتحف النادرة من بينها الخيول العربية ذات السروج المذهبة .

قابل الوفد تيمور في قرية اق بولاق ، قرب شهرزور بين همدان واربيل ، فاستقبله تيمور بحفاوة واجلال عظيمين ، لكنه رفض استلام الهدايا لان السلطان لم يحضر بنفسه لتقديم فروض الطاعة وبعد ان انعم على الشيخ خلعة وحصانا ثمينا مع كمية من النقود ، اعاده الى بغداد ، واعدا اياه بعدم التعرض لها(١٤) .

لقد اراد تيمور التمويه على السلطان احمد ، فبعد ان عاد الشيخ عبدالرحمن مطمئنا ، امر قواته في ١٢ شوال ٧٩٥هـ/١٣٩٣م بالزحف على بغداد . فتقدمت هذه القوات عبر ممرات جبلية ضيقة ، ووصلت بعد خمسة ايام الى مزار الشيخ ابراهيم يحيى المشهور بقبته ابراهيم الك ، قرب الخالص . ولما شاهد اتباع السلطان احمد غبار الجيش طيروا حمامة مع رسالة يخبرون فيها السلطان بوصول جيش تيمور . وحين وصل تيمور وعلم بالامر امرهم في الحال ان يرسلوا رسالة اخرى ، يذكرون فيها ان الغبار الذي شاهدوه لم يكن من اثر جيوش تيمور بل غبار التركمان الذين هربوا منه ، ثم امر قوته بالسير باقصى سرعة(١٥) .

تقدمت قوات تيمور لاحتلال بغداد ، وقد تولى قيادة المقدمة الامير عثمان عباس ، وتولى تيمور نفسه قيادة القلب ، وقاد الميمنة حفيده محمد سلطان ، والميسرة ابنه ميرانشاه ، اما عثمان بهادر فقد قاد المؤخرة(١٦) . فوصلت هذه القوات بغداد في ٢١ شوال / اب ، ونزلت في الجانب الشرقي (الرصافة) . اما السلطان احمد فحين علم بقدوم تيمور نقل امواله وحريمه واسلحته وارسلهم امامه الى الحلة ، ثم قطع الجسر ونقل السفن الى الجانب الغربي (الكرخ) واغرق بعضها واحرق البعض الاخر ، لكي لا يستفيد منها العدو ، وانسحب من بغداد مع عدد من اتباعه(١٧) . وبعد خروج السلطان احمد قام بعض اعيان المدينة بفتح الابواب واستقبلوا تيمور ، وكان على راس

---

(١٠) المصدر نفسه ، ص ١١٢ ـ ١١٧ .

(١١) احمد بن علي بن حجر العسقلاني ، انباء الغمر بابناء العمر ، تحقيق حسن حبشي (القاهرة ١٩٦٩) جـ١ ، ص ٥٢ ؛ ابي العباس احمد بن علي القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة ١٩٦٣) ، جـ٣ ص ٣١١ .

(١٢) بياني ، تاريخ آل جلاير ، ص ٨٢ ـ ٨٣ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٢٢ ـ ١٢٤ .

(١٣) حسين ، الغزو التيموري ، ص ١١٧ ـ ١٢٠ .

(١٤) شرف الدين علي اليزدي ، ظفرنامة ، بتصحيح واهتمام محمد عباسي (طهران ١٣٣٦) جـ١ ، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ ؛ عبدالله بن فتح الله الملقب بالغياثي ، التاريخ الغياثي ، دراسة وتحقيق طارق نافع الحمداني (بغداد ١٩٧٥) ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ، ١٨٥ .

(١٥) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ١ ص ٤٥٠ ، خليل ، العراق في العهد الجلايري ص ١٥٥ .

(١٦) حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٢٨ .

(١٧) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ١ ص ٤٥١ ؛ الغياثي ، ص ١١١ ، ١٨٦ .

المستقبلين الشيخ نظام الدين الشامي الذي دون فتوحات تيمور فيما بعد[١٨] .

عبر بعض اتباع تيمور نهر دجلة سباحة لجلب السفن الراسية في الجانب الغربي من بغداد ، والتي لم يتمكن السلطان احمد من اتلافها . فاستولوا على سفينة السلطان الخاصة المسماة الشمس ، وهي ذات ثلاثين مجدافا ، مع اربع سفن اخرى ، فاستخدم تيمور هذه السفن في العبور الى الجانب الغربي ، والسيطرة على بغداد[١٩] .

من الصعوبة بمكان تحديد حجم الخسارة التي تعرضت لها المدينة من جراء دخول جند تيمور ، فقد قدر المقريزي عدد اسكان الذين قتلوا بثلاثة الاف نفس[٢٠] . غير ان مصادر تيمور الرسمية لا تشير الى وقوع خسائر في الارواح لان المدينة استسلمت صلحا . وتذكر هذه المصادر ان تيمور اكتفى باخذ (مال الامان) ، وهي الضريبة التي اعتاد اخذها من سكان المدن التي تفتح صلحا ، مقابل الحفاظ على ارواحهم[٢١] . وقد اناط مهمة جمعها بأحد امراء السلطان احمد الذين تعاونوا معه والمدعو شرف الدين البليقي مع عدد من اعوانه[٢٢] .

كان امر تيمور ان يجبى من السكان كل حسب مقدرته المالية ، لكن الذين تولوا جمع الضريبة طالبوا الناس باموال كثيرة ، وحملوهم فوق طاقتهم[٢٣] . ويذكر المقريزي ان تيمور صادر اهل بغداد ثلاث مرات ، وجمع في كل مرة ١٥٠٠ تومان ، اي ما مجموعه ٤٥ مليون دينار عراقي (الدينار ست دراهم)[٢٤] . وقد رافق عملية الجمع ابشع انواع التعذيب واقساها ، وكان من بين الوسائل التي اتبعها الجند في تعذيب الناس : عصر الاعضاء والمشي على النار وتعليق البعض من الارجل . كما كانوا يدسون خرقة فيها تراب ناعم بانف المعذب حتى تكاد تخرج نفسه فيخلى عنه كي يستريح ، ثم تعاد العقوبة عليه[٢٥] . وقد مات من اثر التعذيب والعقوبة عدد كبير من الموسرين والتجار واعيان بغداد وامرائها ، قدرتهم المصادر المصرية بين ٧٠٠ — ٨٠٠ نفس[٢٦] . كما استولى اتباع تيمور على خزائن السلطان احمد ، وصادروا اموال الرؤساء والاعيان والامراء الذين هربوا معه ، منهم قاضي بغداد الشافعي غياث الدين ابن العاقولي ، ومحتسب بغداد وجيه الدين ابن الانباري ، ومحمد بن عبدالقادر الواسطي[٢٧] . وقاموا باذلال الناس باخراج الفتيات والاعتداء على اعراضهن ، ونهبوا كل ثمين يقع تحت ابصارهم من تحف ومجوهرات ، فكانوا يقتلعون الذهب والفضة التي تزين بيوت الاغنياء[٢٨] .

اما الخسارة في الجوانب الحضارية فقد كانت كبيرة جدا ، فرغم الكارثة التي حلت بالحضارة العربية بعد سقوط بغداد على ايدي المغول ، ظلت بغداد مركزا للعلم والصناعة والفن[٢٩] . الا ان تيمور امر بجمع الموهوبين من اصحاب الحرف والصناعات والفنون المختلفة ، ونقلهم الى عاصمته سمرقند . وقد حفظت المصادر اسماء عدد ممن شملهم النقل من امثال الموسيقي المشهور عبدالقادر المراغي[٣٠] ، الذي لازم السلطان اويس واولاده حسين واحمد ، وكان عازفا بجميع الالات ذوات الاوتار وخاصة العود ، والموسيقي المشهور قطب الموصلي ، وكان اعجوبة الزمان واستاذ علم الموسيقى والادوار ، والمصور المشهور عبدالحي البغدادي ، الذي استخدمه تيمور في تزيين بلاطه في سمرقند[٣١] .

(١٨) نظام الدين الشامي ، ظفرنامة ، بسعي واهتمام وتصحيح فلكس تاور (بيروت ١٩٣٧) ص ١٣٩ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ق٢ ص ٣٤٤ .

(١٩) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ١ ، ص ٤٥١ ، الغياثي ، التاريخ الغياثي ، ص ١١٢ ، ١٨٦ .

(٢٠) المقريزي ، السلوك ، جـ٩ ق٢ ، ص ٧٩٠ .

(٢١) الشامي ، ظفرنامة ، ص ١٤١ ، اليزدي ظفرنامة ، جـ١ ص ٤٥٧ .

(٢٢) الغياثي ، التاريخ الغياثي ، ص ١١٣ .

(٢٣) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ق٢ ص ٣٦٢ ، خليل ، العراق في العهد الجلايري ص ٣٨٦ .

(٢٤) المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ ، ص ٧٩٠ .

(٢٥) حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٢٧ .

(٢٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ، جـ٧ ، ص ٣١٤ . ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ق٢ ، ص ٣٦٢ ، عبدالرحمن محمد بن خلدون ، العبر وديوان المبتدا والخبر (بيروت) م٥ ص ١٠٨٤ .

(٢٧) حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٢٨) الاسترابادي ، بزم ورزم ص ١٩ ، حسين الغزو التيموري ، ص ١٣٩ .

(٢٩) خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ٣٠١ — ٣٢٨ .

(٣٠) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ١ ، ص ٥٦٤ ، الغياثي ، التاريخ الغياثي ، ص ١٨٨ .

(٣١) احمد بن محمد بن عبدالله بن عرب شاه الدمشقي ، عجائب المقدور في اخبار تيمور ، (لاهور ١٨٦٨) ص ١٥٥ ، ١٦٩ ، نطنزي ، منتخب التواريخ ، ص ١٦٦ ، خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ٣٢٤ ، ٣٢٨ .

ويذكر ابن عرب شاه الدمشقي ، وكان من جملة من نقلهم تيمور من بلاد الشام ، وعاش في سمرقند عدة سنوات ، ان بلاط تيمور ضم من النقاشين والخطاطين والرسامين وغيرهم من الصناع ما لا يحصى عددهم ، كان كل منهم علامة دهره واعجوبة عصره ، وقد اخذ عددا كبيرا منهم من العراق(٣٢) . كما امر ايضا بنقل عدد كبير من العلماء والفقهاء والشيوخ ، من امثال نظام الدين الشامي ، الذي اصبح مؤرخ بلاطه ، وصنف بأمره كتابا عن غزواته اسماه (ظفرنامه) اي النصر . وكذلك عبدالقادر الواسطي مدرس النحو والفرائض بالمدرسة النظامية ، والفقيه عبدالسلام ابن احمد الحسني ، والنسابة جمال الدين احمد ابن علي بن عنبة الحسني ، والفقيه عبدالله بن محمد الحسيني ، وابن النسابة محمد بن تقي الدين عبدالله الحسيني(٣٣) .

واتخذ تيمور اجراءات اخرى يقصد منها اظهار نفسه بمظهر الحامي للشريعة الاسلامية ، فاخذ يتقرب الى رجال الدين في بغداد ، وقام بزيارة مشاهد الامام ابي حنيفة والشيخ عبدالقادر الكيلاني والامام احمد بن حنبل والامام موسى الكاظم وحفيده الامام الجواد ، واوقف لهذه المشاهد اراض زراعية في بغداد وغيرها ، وخصص الاقطاعات والرواتب للسادات والعلماء والمشايخ والمدرسين(٣٤) . كما امر اتباعه بجمع المشروبات الموصلية والدياربكرية الموجودة في قصر السلطان احمد ، مع كافة الخمور الموجودة في المدينة ، واراقتها في نهر دجلة ؛ وامر ايضا بغلق بيوت اللطف (بيوت الدعارة)(٣٥) .

امضى تيمور في بغداد شهرين يتنزه في قصورها الفخمة ، وبيوت اللهو المطلة على ضفتي نهر دجلة ، تمكنت قواته خلالها من احكام سيطرتها على مدن العراق الجنوبية . ثم عين احد أعوانه المدعو مسعود السبزواري حاكما على بغداد ، وترك معه حامية عسكرية مقدارها ثلاثة الاف فارس ، وسار نحو الموصل لاتمام فتح بقية مدن العراق(٣٦) .

الحملة الثانية ٨٠٢هـ/١٤٠١م :ــ

حين هرب السلطان احمد من بغداد لاحقه عدد من اتباع تيمور ، وبعد مطاردات عنيفة قرب كربلاء ، تمكن السلطان ان يهرب مع عدد من اتباعه عبر الصحراء الى مدينة الرحبة على الفرات ؛ حيث منازل نمير بن حيار بن مهنا امير آل فضل ، الذي رحب به وانزله عنده ، ثم سار نحو حلب طالبا اللجوء عند السلطان المصري الظاهر برقوق (٧٨٤ ــ ٨٠١هـ/١٣٨٢ ــ ١٣٩٨م) ، فطلبه الاخير الى القاهرة ورحب به واكرمه(٣٧) .

اما في العراق فان مسعود السبزواري لم يتمكن من ضبط بغداد ، بسبب ضعف الحامية التي وضعها تيمور فيها . وقد شعر اتباع السلطان احمد بذلك فتجمعوا على الفرات ، واجتمع معهم ايضا عدد كبير من سكان بغداد الفارين ، وأفراد القبائل العربية القاطنة على الفرات بين هيت وعنه ، وطلبوا من السلطان احمد الحضور اليهم ، للزحف على بغداد وطرد نائب تيمور منها(٣٨) . وكان السلطان احمد في هذا الوقت في بلاد الشام ، يشارك السلطان المصري برقوق استعداداته لمجابهة تيمور عند زحفه عليها . فانتهز هذه الفرصة وبدعم من السلطان المصري ، الذي امده بالمال والسلاح والخيل والجمال ، وكتب له تقليدا بسلطنة بغداد ، سار في الاول من شعبان ٧٩٦هـ/١٣٩٤م من دمشق الى بغداد(٣٩) . كما امر السلطان المصري كافة اتباع السلطان احمد المقيمين بالشام بالالتحاق بسلطانهم ، اما قوات برقوق فقد بقيت على الحدود ، رصدا للعدو ، وانتظارا لما يستجد في بغداد(٤٠) .

---

(٣٢) ابن عرب شاه ، عجائب المقدور ص ٤٦٩ ؛ وانظر ايضا اليزدي ، ظفرنامة ، جـ١ ، ص ٥٧١ ــ ٥٧٢ .

(٣٣) حسين ، الغزو التيموري ، ص ٢٩٢ ــ ٢٩٣ .

(٣٤) تيمور ، تزوكات تيموري ، ص ٣٥٦ ــ ٣٦٠ ، خليل ، العراق في العهد الجلايري ص ٢٥١ .

(٣٥) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ١ ، ص ٤٥٧ ، حافظ ابرو ، زبدة التواريخ بايسنغري ، بسعي واهتمام فلكس تاور (براغ ١٩٥٦) ، ص ١٠٨ ؛ حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٧٢ .

(٣٦) الشامي ، ظفرنامة ، ص ١٤٥ ، اليزدي ، ظفرنامة ، جـ١ ص ٤٥٧ ، ٤٦٩ ؛ حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١١٨ .

(٣٧) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ق٢ ، ص ٢٤٤ ــ ٢٤٩ ، ٣٦٦ ــ ٣٦٧ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ ، ص ٧٨٩ ــ ٨٠١ ، حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١١٧ .

(٣٨) محمد بن محمد بن صصري ، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، حققه ونشره وليم بريز (بركلي ، جامعة كاليفورنيا ١٩٣٦) ، ص ١٥٨ ــ ١٥٩ ، خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ٢١١ .

(٣٩) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ق٢ ص ٣٨٤ ــ ٣٨٦ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ ، ص ٨١٤ ــ ٨١٥ .

(٤٠) ابن صصري ، الدرة المضيئة ، ص ١٥٩ ــ ١٦٠ ؛ ابن حجر العسقلاني ، انباء ، جـ١ ، ص ٧٥ ؛ ابن خلدون ، العبر ، م٥ ص ١١٧٥ ــ ١١٧٦ .

وجد مسعود السبزواري انه لا يستطيع المقاومة ، فقرر مغادرة المدينة ، لكنه اراد ان يشاغل الجيش الزاحف نحوه ، وان يتيح لاتباعه فرصة الخروج من بغداد . فامر بكسر السدود المقامة على نهر دجلة ؛ فاغرقت المياه مناطق واسعة بصورة اعاقت تقدم القوات العراقية مدة يومين ، تمكن خلالها مسعود السبزواري من الخروج مع اتباعه من بغداد ، وتوجهوا الى شوشتر في خوزستان . ثم دخل السلطان احمد بغداد ؛ وبدأ باعادة تنظيم جيشه معتمدا في ذلك على العرب والتركمان ؛ واخذ يعمل على اعادة تعمير المدينة وزراعتها(٤١) .

ان عودة السلطان احمد الى بغداد ادهشت تيمور ، فقرر انهاء حكمه ، واخضاع المدينة بصورة نهائيــة . ففي صيف ٨٠١هـ/١٣٩٨م ارسل ابنه ميرانشــاه من تبريز على راس جيش كبير لمحاصرة بغداد ، لكن ميرانشاه اضطر الى الانسحاب بعد يومين من الحصار ، اذ وافته الانباء بقيام حركة تمرد ضده في تبريز(٤٢) . كما فشلت محاولة ثانية قام بها حفيد تيمور المدعو رستم في السنة التالية ، عندما وصلت قواته الى مندلي في جمادى الاخرة سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م ، وبعد ان احتلت المدينــة ونهبتها استعدت للزحف على بغداد(٤٣) . وفي الوقت نفسه كانت رغبة تيمور هي ان يلقي القبض على السلطان احمد حيا للانتقام منه . فاتفق مع نائبه في خوزستان الامير شروان بن شيخ براق منصوري ؛ على ان يأخذ مبلغا كبيرا من المال ويتظاهر بالهرب منه ويعلن لجوءه مع عدد من اتباعه لدى السلطان احمد . وقد انطلت الخطة في اول الامر على السلطان ، اذ رحب بشروان ؛ وجعله احد امرائــه المقربين ؛ واقطعه قريتي القبة وزنكيادباد في منطقــة ديالى وقرب مرتفعات حمرين .

شرع شروان يدس الاموال سرا الى كبار امراء السلطان احمد واقربائه بقصد استمالتهم ، وتسهيل مهمة القبض عليه . فاعطى لكل امير مبلغا يتراوح بين عشرة الاف الى ثلاثمائــة الف دينــار عراقي ، كل حسب رتبتــه ودوره في المؤامرة . لكن السلطان اكتشف المؤامرة في اواخر ادوارها ، فقد عثر خادمه ، كوره بهــادر ، على القائمة التي وردت فيها اسماء المتآمرين والمبالغ التي استلموها من شــروان ؛ في الوقت الذي وصلت فيه قوات رستم مندلي . فامر السلطان احمد بغلق ابواب المدينــة ، وقتل كل من ورد اسمه في القائمة ، بما فيهم شروان ؛ حتى بلغ عدد القتلى في اسبوع واحد الفا شخص من امرائــه واقاربه .

لقد اضعفت هذه المؤامرة قدرة السلطــان العسكرية ، وافقدتــه خيرة ضباط جيشــه ، واكفاهم ، ولم تعد له ثقة بهذا الجيش . فترك في احدى الليالي بغداد ؛ وتوجه سرا الى ديار بكر طالبا المساعدة منحليفه قره يوسف امير التركمان القــره قوينلو . فخف قره يوسف مسرعا مع عدد كبير من اتباعه ؛ وعسكروا في الجانب الغربي من بغداد ، لتقديم الحماية للسلطان . وفي هذه الاثناء اضطر رستم قائد الجيش الزاحف نحــو بغداد الى الانسحاب ؛ بسبب حدوث تمــرد في فارس ؛ فاطمئن السلطان احمد ، لكنه اضطر الى تقديم مبالغ كبيرة من المال والاقمشة والخيــول والسروج المذهبة الى قره يوسف واتباعه مكافئة لهم ، ولمنعهم من التعرض لمدينة بغداد او نهبها ، فعادوا الى موطنهم(٤٤) .

ادرك السلطــان احمــد ان تيمور لن يتركه يتمتع بحكم بغداد ؛ لا سيما بعد ان شرعت قواته بالزحف على مدينة سيواس في الاناضول سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م . فاذا استطاعت هذه القــوات احتلال المدينة ، فان تيمور سيسد عليه طريق الهرب الى بلاد العثمانيين ؛ كما ان الاوضــاع السياسية في مصر وبلاد الشام اضطربت بعد وفاة السلطان برقوق . لذا قرر ان يسرع في الفرار ، فترك على حكم بغداد احد امرائــه المدعو فرج الجلائري ، واخذ اهله وامواله ونفائسه ، وتوجه مع حليفه قره يوسف الى الدولة العثمانيــة ، فاستقبله السلطان بايزيد بن مراد الاول (٧٩١ ــ ٨٠٥هـ/١٣٨٩ ــ ١٤٠٢م) واقطعه منطقة كوتاهية ليعيش على مواردها(٤٥) .

---

(٤١) حافظ ابرو ، زبــدة التواريــخ ، ص ١١٨ ، ١٢٩ ؛ المقريزي ، السلوك ج٣ ق٢ ، ص ٨١٧ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج٩ ق٢ ، ص ٣٨٦ ، ابن حجر العسقلاني ، انباء ، ج٢ ص ٤٦٦ .

(٤٢) اليزدي ، ظفرنامة ، ج٢ ، ص ١٢٨ ــ ١٢٩ ؛ الغياثي، التاريخ الغياثي ، ص ١١٨ .

(٤٣) حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١٦٧ ، حســين ، الغزو التيموري ، ص ٢٤٦ .

(٤٤) الغياثي ، التاريخ الغياثي ، ص ١١٩ ــ ١٢٢ ، ١٩٦؛ اليزدي ، ظفرنامة ، ج٢ ، ص ١٦٨ ــ ١٦٩ ، حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١٤٩ ــ ١٥١ .

(٤٥) حافظ ابرو ، زبــدة التواريــخ ، ص ١٥٥ ــ ١٥٦ ، ميرخواند ، روضة الصفا ، ج٦ ، ص ٣٤٥ .

وبعد ان اتم تيمور احتلال بلاد الشام سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م ، وعاد الى ديار بكر ، اعد جيشا كبيرا وامره بالزحف على بغداد ، فوصلوا بعد عدة ايام الى الجانب الغربي ، وعسكروا في القسم الجنوبي من المدينة .

استبسل الامير فرج في الدفاع عن بغداد ، وقرر عدم تسليمها مهما كلف الامر ، وحشد داخلها عددا كبيرا من مقاتلي العرب والتركمان ، وارسل الى امراء وحكام المدن العراقية القريبة ، طالبا منهم الحضور مع قواتهم لمشاركته في الدفاع عن العاصمة . فقدم الامير علي قلندر حاكم مندلي ، والامير حيان احمد حاكم بعقوبة ، وعبروا دجلة مع قواتهما من قرب المدائن . وقدم ايضا الامير فرخ شاه حاكم الحلة ، والامير ميكائيل حاكم السيب القريبة من الحلة ، مع قواتهما ، والتقوا جميعا عند قرية صرصر القريبة من الجانب الغربي من بغداد واجتمع معهم حوالي ثلاثة الاف فارس ثم تقدموا جميعا ، واشتبكوا مع قوات تيمور قرب عمارة السلطان احمد في الجانب الغربي ، حيث هزمت القوات العراقية ، وقتل الامير جان احمد مع عدد كبير من الجنود العراقيين ، وغرق قسم منهم في نهر دجلة عندما حاولوا الهرب ، بينما انسحب الباقي الى داخل المدينة(٤٦) .

اصر فرج على المقاومة رغم الخسارة التي تعرض لها اتباعه ، واعلن ان السلطان احمد امره ان لا يسلم المدينة الا عند حضور تيمور بنفسه . وحين ابلغ تيمور بالامر ، وكان في الموصل ، خف مع عدد كبير من اتباعه مسرعا عبر آلتون كوبري ، فوصل بغداد في ١٦ شوال ٨٠٣هـ/٣٠ ايار ١٤٠١ وعسكر مع اتباعه في الجانب الشرقي من المدينة ، فاحاطت قواته بالمدينة من جميع جوانبها .

امر تيمور باقامة جسر من القوارب جنوبي بغداد ، بالقرب من قرية العقاب ، ووضع باسفل النهر عددا من الرماة للحيلولة دون هرب اي شخص من المدينة . ثم شرعت قواته بنقب الاسوار ، وفي الوقت نفسه اقامت فرقة من هذه القوات ربوة ونصبت عليها المجنيق لرمي المدينة بالاحجار . وتؤكد تواريخ تيمور الرسمية ان الامير فرج اراد التأكد من وجود تيمور ، فارسل وفدا الى معسكره . فاستقبل تيمور الوفد بحفاوة واعاده الى المدينة ، لكن فرج لم يصدق الخبر ، وامر بسجن رئيس الوفد(٤٧) . فاحضر تيمور احد اعيان محلة الامام ابي حنيفة المدعو الشيخ بشر واقترب معه من السور ، فاقسم الشيخ بشر لفرج وللجنود المرابطين على السور ان رفيقه هو تيمور بعينه ، فلم يصدقوه بل رموه بالنشاب(٤٨) .

شدد تيمور الحصار على المدينة ، وتمكنت قواته من احداث عدة حفر في السور واشعلوا فيها النيران ، فسقط قسم من السور . لكن المدافعين سارعوا الى اصلاحه ، وتمكنوا من تاخير فتح المدينة اربعين يوما عانى خلالها السكان من الجوع وارتفاع الاسعار ، بسبب شحة المواد الغذائية . ورغم تفوق جيش تيمور من حيث العدد والعدة ، فان الظروف كانت في صالح الجيش العراقي ، بسبب شدة الحرارة وصعوبة تموين الجيش الهاجم . لكن اهمال بعض جنود بغداد وتهاونهم ادى الى فتح المدينة . ففي ظهيرة يوم ٢٧ ذي القعدة ٨٠٣هـ/٣٠ حزيران ١٤٠١م نزل الجند المدافعون عن برج العجمي في الجهة الجنوبية من بغداد ، وذهبوا الى منازلهم للاستراحة من شدة الحر ، ووضعوا خوذهم على العصي في الاماكن المخصصة لهم على السور ، الا ان اتباع تيمور اكتشفوا الامر ، فتسلقوا السور بواسطة السلالم ، واحتلوا البرج . وفي الوقت نفسه تمكنت القوات الهاجمة من احداث ثغرات في السور فتم فتح المدينة ، ولم يجد السكان ملاذا من سيوف المحتلين سوى نهر دجلة ، لكن الجنود المرابطين على الجسر قتلوا كل من اقترب منهم . اما الامير فرج فقد ركب مع ابنته قاربا وفر عبر دجلة ايضا ، لكن اتباع تيمور تمكنوا من اغراق القارب ومن فيه ، ثم انتشلوا جثة فرج واوصلوها الى ضفة النهر(٤٩) .

تعرضت بغداد لخسارة كبيرة من جراء هذه الحملة ، فقد امر تيمور باستباحة المدينة ، واجراء مذبحة عامة للسكان ، شملت حتى الشيوخ

(٤٦) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ٢ ، ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨ ؛ ميرخواند ، روضة الصفا ، جـ٦ ، ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣ ؛ خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ٢٥٧ .

(٤٧) الشامي ، ظفرنامة ، ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠ ؛ اليزدي ، ظفرنامة جـ٢ ، ص ٢٥٨ ــ ٢٦١ .

(٤٨) الفياض ، التاريخ ٢ص ١٢٥ ، حسين ، الغزو التيموري ، ٢ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨ .

(٤٩) الشامي ، ظفر نامة ص ٢٤١ ؛ اليزدي ، ظفرنامة ، جـ٢ ، ص ٢٦٢ ــ ٢٦٤ ؛ الفياض ــ ص ١٢٦ .

والاطفال[٥٠] . والزم اتباعه ان يأتيه كل واحد منهم براسين من رؤوس السكان ، فلما عجز الجند عن تحصيل سكان بغداد ، قطعوا رؤوس بعض اسرى الشام ، بل ان بعضهم كان يقطع راس المراة ويزيل شعرها ويحضره . وقد قدرت بعض المصادر عدد من قتل بين ٩٠ الف ومئة الف ، واعتقد بعضها الاخر ان القتل شمل سكان المدينة جميعا حتى فني اهلها ، واقيمت من جماجم القتلى عدة مآذن لتكون عبرة لمن تسول له نفسه برفع راية العصيان[٥١] . ورغم ما في ذلك من مبالغات فانه يدل على كثرة من قتل ، وعلى مبلغ القسوة والعنف الذي مارسه اتباع تيمور . ولم يكتف تيمور بهذه المجزرة الرهيبة ، بل امر اتباعه بتخريب المدينة ، وتهديم العمارات والاسواق والخانات والبيوت ، وتحويلها قاعا صفصفا[٥٢] .

لقد تعفن هواء بغداد من نتن جثث القتلى كما يذكر اليزدي ، فتركها تيمور في بداية ذي الحجة سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م ، وتوجه شمالا نحو شهرزور ومنها الى تبريز[٥٢] . ولم تذكر المصادر شيئا عن الاجراءات الادارية التي اتخذها لضبط المدينة ، ويبدو ان الفوضى عمتها بعد خروجه منها . وعندما بدا زحفه في السنة التالية نحو الاناضول ، انتهز السلطان احمد هذه الفرصة وغادر الاناضول متوجها الى العراق . وقد واصل سيره على امتداد نهر الفرات ، فدخل بغداد دون مقاومة ، واخذ يعمل على اعادة السكان الفارين وتعمير المدينة وزراعة اراضيها[٥٤] . لكن قوات تيمور داهمت المدينة في الثامن من رجب سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م من الجانب الشرقي ، فاندهش السلطان احمد ، وآثر الفرار الى الحلة ، ومنها الى منطقة الاهوار والمستنقعات في القسم الاسفل من الفرات . الا ان قوات تيمور انسحبت من العراق بعد فترة قصيرة[٥٥] .

ثم نشب صراع حول بغداد بين السلطان احمد وحليفه قره يوسف ، انتهى باستيلاء الاخير عليها ، بعد ان زحف عليها من الحلة ، فتركها السلطان احمد في الخامس من محرم سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م هاربا الى بلاد الشام . اما قره يوسف فلم يتمتع بحكم بغداد سوى ثلاثة اشهر ، اذ قرر تيمور وضع حد لسيطرته ، وضم بغداد الى نفوذه . فاسند حكم العراق لحفيده ابي بكر ، وامره بان يقوم باستمالة السكان وتشجيعهم على بناء دورهم وزراعة اراضيهم ، وان يعمل على اعادة تعمير المدينة واعادتها الى ازدهارها السابق . فتقدمت قوات ابي بكر نحو بغداد ، والتقت مع قوات قره يوسف عند نهر الغنم قرب الحلة ، حيث اندحر قره يوسف وهرب الى بلاد الشام ايضا[٥٦] . ثم دخل ابو بكر بغداد ، غير ان حكمه لم يدم طويلا . فقد مات تيمور في ١٧ شعبان سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٥م ، واضطربت الاوضاع السياسية في العراق ، فاستغل السلطان احمد ذلك وتوجه من الشام نحو بغداد ، ودخلها في الخامس من محرم سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م وطرد حاكمها التيموري دولة خواجه ايناق[٥٧] .

---

(٥٠) تيمور ، تزوكان تيموري ، ص١٥١ ، الشامي ، ص ٢٤١ .

(٥١) ابن عرب شاه ، عجائب المقدور ، ص ٢٤٨–٢٤٩ ، ابن حجر العسقلاني ، انباء ، جـ٢ ص١١٨ ، ٢٠٨ ، الغياثي التاريخ الغياثي ، ص ١٢٦ ، ٢٠٢–٢٠٣ حسين الغزو التيموري ، ص ٢٦٠–٢٦١ .

(٥٢) تيمور ، تزوكان تيموري ، ص ١٥١ ؛ الشامي ، ظفرنامة، ص٢٤١ ؛ اليزدي ، ظفرنامة ، جـ٢ ص ٢٦٦ ، الغياثي التاريخ الغياثي ، ص ١٢٧ .

(٥٢) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ٢ ص ٢٦٦ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ٢٦٨ .

(٥٤) الغياثي ، التاريخ الغياثي ، ص٢٠٢–٢٠٤ .

(٥٥) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ٢ ، ص٢٧٦–٢٧٧ ، حسين الغزو التيموري ص ٢٧٢–٢٧٤ .

(٥٦) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ٢ ، ص٢٦٩–٢٧١ ، ٢٩١،٢٩٢ الغياثي ، التاريخ الغياثي ، ص ٢٠٦–٢١٠ .

(٥٧) ميرخواند ، روضة الصفا ، جـ٢ ، ص ٥٠٠–٥٠٢ ، خليل، العراق في العهد الجلايري ، ص ٢١٢ .

حملة السلطان سليمان القانوني على بغداد عام ١٥٣٤ [1]

بقلم الدكتور

حسين محمد القهواتي

كلية الآداب ـ جامعة البصرة

لقد تردت الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العراق منذ اواخر العهد العباسي[2] لذلك تهيأت الظروف المناسبة لسلسلة من الغزوات الخارجية التي بدأت بالاحتلال المغولي لبغداد من قبل هولاكو عام ١٢٥٨ ثم الجلائري (١٣٣٦ ـ ١٤١١) ثم التركماني المتمثل في دولتي « قره قوينلو » (الخروف الاسود) (١٤١٠ ـ ١٤٦٧) و « آق قوينلو » (١٤٦٧ ـ ١٥٠٨) ثم الصفوي (١٥٠٨ ـ ١٥٢٤) حيث اسهم هذا الاحتلال الاخير في تأجيج روح العداء بين الدولة العثمانية وبلاد فارس ، لا سيما بعد محاولة الشاه اسماعيل الصفوي ضم بعض اراضي الاناضول الى ممتلكاته في اعقاب سيطرته على العراق ؛ الا ان السلطان العثماني سليم الاول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) استطاع الحد من نمو الدولة الصفوية وافلح في دحرها في معركة جالديران عام ١٥١٤ ، ونجح في ضم الموصل وشمال العراق الى اراضيه . وتيسر له فتح سورية ومصر في عامي ١٥١٦ و ١٥١٧ على التوالي .

وعندما تبوأ الشاه طهماسب عرش بلاد فارس بعد وفاة والده الشاه اسماعيل الصفوي عام (١٥٢٤) ، كان قد ورث عداءا مستحكما مع قبائل الازبك في اقصى الشرق من بلاده من جهة ومع العثمانيين المتاخمين له في الغرب من جهة اخرى ، فبادر اولا الى محاربة الازبك ؛ الا ان السلطان العثماني سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) الذي خلف والده السلطان سليم الاول استغل حرب الشاه مع الازبك واراد السيطرة على طريق تبريز التجاري ، لذا ارسل « اولامه تكلو »[3] وهو احد اللاجئين اليه من الفرس المعارضين لحكم الشاه الجديد ، على راس قوة صغيرة الى اطراف اقليم آذربايجان لاستطلاع الاوضاع العسكرية ولاستمالة سكان الاقليم الى جانب الدولة العثمانية قدر المستطاع ، وما ان وصلت منه انباء مشجعة حتى اصدر السلطان اوامره الى صدره الاعظم ابراهيم باشا في ٢ ربيع الآخر[4] ٩٤٠هـ / تشرين الاول ١٥٣٣ ليتوجه هو الآخر على راس جيش كبير قدر بـ ٨٠,٠٠٠

(١) لمزيد من التفاصيل عن دوافع هذه الحملة يمكن مراجعة: حسين محمد القهواتي ، العراق بين الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ١٥٣٤ ـ ١٦٣٨ ، اطروحة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، بغداد ، ١٩٧٥.

(٢) للاستزادة في دراسة احوال العراق في الفترة التي سبقت الغزو المغولي وخلال مراحل الاحتلال يراجع : د. جعفر حسين خصباك ، العراق في عهد المغول الايلخاني ، الطبعة الاولى ، بغداد ، ١٩٦٨ .

(٣) احد امراء قبيلة تكلو ، بدأ حياته مواليا للسلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١ ـ ١٥١٢) ولكنه انحاز الى الشاه اسماعيل الصفوي (١٥٠١ ـ ١٥٢٤) عند ظهوره على مسرح الاحداث الفارسية ، وظل يتدرج في مناصب الدولة الصفوية حتى صار بكلربكا لاذربيجان وفي عهد الشاه طهماسب عاد ليعلن ولاءه ثانية للدولة العثمانية .
ابراهيم بجوى ، تاريخ بجوى ، جلد اول ، استنبول، ١٢٨٣ ، ص ١٧٥ .

(٤) ابراهيم بجوى ، تاريخ بجوى ، جلد اول ، ص ١٧٤ .

مقاتل للالتحاق باولامه(٥) وقد قصد الصدر الاعظم بعد اعداد الجيش الى مدينة (آمد)(٦) حيث مكث فيها ستة اسابيع للتموين اتجه بعدها الى قلعة (اونيك)(٧) ثم الى قلعة (وان) ثم الى (عادل جواز) ومن هذه الاخيرة توجه الى اطراف آذربايجان حيث امر فيها (اولامه) وجيشه بالتقدم الى اردبيل ، في الوقت الذي زحف هو على مدينة تبريز(٨) ولما سمع الشاه طهماسب بتوغل اولامه في اراضيه وعلم بنجاح ابراهيم باشا في اقتحام تبريز ، بادر الى عقد صلح مع الازبك وبسرعة فائقة توجه الى اقليم اثري ومنه ارسل فرقة من « القزلباش »(٩) لمواجهة الحملة العثمانية(١٠) ولما علم ابراهيم باشا بالامر بعث الى السلطان سليمان يستقدمه على جناح السرعة وذلك لعجزه عن مواجهة الشاه طهماسب لوحده(١١) وقد استجاب السلطان لطلب صدره الاعظم واعد جيشا في شهر ذي القعدة من عام ٩٤٠هـ / مايس ١٥٣٤ قاصدا به تبريز(١٢) . وفي ٢٩ ربيع الاول ٩٤١هـ / تشرين الاول ١٥٣٤ وصل مصيف (اوجان)(١٢) في اذربايجان حيث هب ابراهيم باشا فيه لاستقباله(١٤) ، ولما كان في نية السلطان سليمان مواجهة طهماسب وجها لوجه فانه غادر مصيف اوجان في طريقه الى (سلطانية)(١٥) ، ليزحف منها الى قزوين(١٦) عاصمة الدولة الصفوية آنئذ لدحر الشاه في عقر داره ، الا ان الامطار الغزيرة التي هطلت والثلوج الكثيرة التي تراكمت في الطرقات ادت الى هلاك عدد كبير من رجال الحملة العثمانية وولدت تذمرا بين افراد الجيش(١٧) ولكن رغم ذلك استطاع السلطان قيادة جيشه باتجاه قزوين وقد نشرت انباء زحفه الهلع في صفوف الجيش الصفوي وبخاصة اولئك المترددين منهم حيث مال فريق منهم الى تأييد السلطان سليمان ، كما اعلن بعضهم الآخر العصيان في وجه الشاه(١٨) الا ان سوء الاحوال الجوية خدمت الشاه ، فالشيء الذي لم يستطع فعله في مواجهة جيش السلطان سليمان فعله الطقس ؛ حيث ان الامطار والثلوج الكثيرة التي تراكمت خلفت الاوحال في الطرقات وادت الى غوص العربات والمدافع فيها فاثر هذا الوضع على نفسية الجيش العثماني وزاد في تذمره وقلقه واضطرابه لدرجة ان فريقا منه تجرأ

---

(٥) اسكندر بك منشيء تركمان ، تاريخ عالم آراي عباسي ، ج١ ، تهران ، ١٣٣٤ش ، ١٩٥٥م ، ص٦٧ . رضا قليخان ابن هادي طبرستاني (هدايت) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصري ، ج ٨ ، ص ٥٩ .

(٦) مدينة في اقليم ديار بكر .

(٧) تقع على بعد ثمانية فراسخ الى شرق ارضروم .

(٨) موردتمان ، دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) ج ١ ، ١٩٣٣ ، ص ٤٦ .

(٩) اي اصحاب العمائم الحمراء ، وكان هؤلاء يحلقون لحاهم في الوقت الذي كانوا يطلقون العنان لشواربهم لتطول ، كما كانوا يحلقون شعر رؤوسهم ويتركون في وسطها خصلة من الشعر فقط . وتطورت الطريقة السلمية للدراويش الصفويين (القزلباش) تدريجيا الى شكل عقائد وتعاليم عسكرية .

(١٠) شرف خان البدليسي ، شرفنامه ، ج٢ ، الفه بالفارسية ، ترجمه الى العربية محمد علي عوني ، راجعه وقدم له يحي الخشاب ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٦١ .

(١١) ابو العباس احمد بن يوسف الدمشقي القرماني ، اخبار الدول وآثار الاول ، طبع حجر ، بغداد ، ١٢٨٢هـ ، ص ٣١٩ .

(١٢) مصطفى بن عبدالله حاجي خليفة ، المشهور بـ (كاتب جلبي) ، تقويم التواريخ ، قسطنطينية ، ١١٤٦هـ ، ص ١١٨ . بجوى ، المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

(١٢) تقع على الجانب الايسر الجنوبي لرافد نهر سراو وتبعد عشرة فراسخ عن تبريز .

(١٤) البدليسي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ .

(١٥) تقع في منتصف المسافة بين ابهر وزنجان وتبعد عن كل منهما خمسة فراسخ وتبعد عن تبريز ٤٦ فرسخا الى الجنوب وتقع الى شمال همدان بحوالي ثلاثين فرسخا وعن بغداد ١١٨ فرسخا ، انشاها ارغون خان واتم بناءها السلطان الجايتو في سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٥م وجعلها قاعدة الدولة الايلخانية ، ويخطيء لونكرك عندما يجعل سير الحملة من تبريز الى (السليمانية) بدلا من السلطانية التي تشير اليها معظم النصوص الاولية ، وبذلك اوهم بعض الباحثين بان الحملة العثمانية كانت تستهدف بغداد مباشرة .

Hamd Allah Mustawfi of Qazwin, The Geographical Part of The Nuzhat-Al-Qulob, Translated by G. Le Strange, Leyder, 1919, pp. 161-175.

Stephen H. Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq. Beirut, 1968, p. 22.

(١٦) لقد غير الشاه طهماسب عاصمته وجعلها قزوين بدلا من تبريز ، كما ان العاصمة انتقلت بعد ذلك الى اصفهان ، ثم الى طهران .

(١٧) هدايت ، المصدر السابق ، ص ٥٩ . البدليسي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ .

ستيفن هيمسلي لونكرك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، نقله الى العربية جعفر الخياط ، الطبعة الرابعة ، بغداد ، ١٩٨٧ ، ص ٣٧ .

(١٨) تركمان ، المصدر السابق ، ص ٦٧ . القرماني ، المصدر السابق ، ص ٣٢٠ . قطب الدين محمد بن احمد النهروالي ، كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام ، ج ٣ بيروت ١٩٦٤ ، ص ٣١٦ .

وطالب بالعودة الى الوطن(١٩) ونتيجة لذلك اضطر السلطان الى مغادرة مدينة السلطانية ، ولما كان الرجوع الى اذربايجان في ذلك الفصل يعني مواجهة القحط والمجاعة . لذا قرر التوجه الى الموصل عن طريق شهرزور لقضاء فترة الشتاء والعودة بعدها لمواجهة طهماسب في بلاده ثانية عند حلول فصل الربيع .(٢٠)

وفي الوقت الذى عزم فيه السلطان سليمان على التوجه الى الموصل اثناء تورطه في الجبال ، وصله وفد من الحامية الفارسية في بغداد يحمل اليه مفاتيح المدينة(٢١) حيث ان الصدر الاعظم ابراهيم باشا كان قد ارسل في وقت سابق جماعة يحملون رسالة من « اولامه تكلو » الى قريبه محمد خان شرف الدين اغلي تكلو حاكم بغداد ، يستلطفونه ويستميلونه ويدعونه للولاء للسلطان العثماني كبقية ابناء قبيلته . ولكن يبدو ان محمد خان رفض ذلك . وكان رفضه جزء من مناورة لانه لم يظهر العزم الجدى للدفاع عن المدينة الامر الذى دعا الدكتور (ستربلنك) الى الاعتقاد بان محمد خان ربما كان قد قبل الرشوة من وفد السلطان سليمان القانوني لانه هرب من البلاد قبل تقدم العثمانيين باتجاه العراق .(٢٢) كما ان هناك نصوصا تشير الى ان الشاه طهماسب لم يكن مطمئنا الى ولاء محمد خان تكلو ، لذا قرر استدعاءه وحاميته الى بلاد فارس(٢٣) في حين يرى كانتمير (Cantemir) ان محمد خان تكلو كان اضعف من ان يقاوم .(٢٤)

والمعروف ان الاوضاع في بغداد كانت قد اضطربت نتيجة فزع الحامية الفارسية حيث كانت اخبار انتصارات الجيش العثماني تتوارد الى العراق عن طريق رسائل كان يبعثها باستمرار « اولامه تكلو » والصدر الاعظم العثماني الى بغداد بقصد اضعاف معنويات حاكمها ، وقد ادت تلك الرسائل فعلا الى انقسام ابناء قبيلة التكلو في بغداد الى مجموعتين احداهما تؤيد الشاه والثانية تروم التعاون مع الدولة العثمانية ، وحاول محمد خان اقناع الفريق الثاني بالعدول عن موقفه والتعاون معه لصد الهجوم المتوقع والدفاع عن بغداد وقلعتها بعد ان وصلته رسائل سليمان القانوني وهي تتضمن الاغراء والتهديد ، الا ان هذا الفريق ابى ذلك . وفي هذه الاثناء وصله رسول من قبل الشاه يدعوه وافراد حاميته للتوجه الى قزوين ، ولما عرض الامر على قبيلته رفضت الدعوة بل تحصنت في المدرسة المستنصرية واعلنت التمرد ضده وجاهرت بالولاء للدولة العثمانية ، ولما لم يكن في مستطاعه والحالة هذه الدفاع عن بغداد كما لم يكن في مقدوره مغادرتها وحده اتصل بقادة المعارضين وتظاهر امامهم بانه قد غير رأيه واخبرهم بموافقته على تسليم بغداد الى السلطان وطلب منهم تنظيم وفد من زعمائهم للذهاب اليه واستقدامه فرحب القادة المعارضون بقراره وهرعوا الى السلطان فرحين لاستدعائه ، عندئذ انتهز خلو المدينة منهم فجمع ماله وحاشيته وعبر نهر دجلة ليسلك الطريق البرى فارا الى البصرة .(٢٥)

وعندما تسلم سليمان القانوني مفاتيح بغداد من وفد قبيلة تكلو استبشر وكان آنئذ على مشارف سهل (ماهي دشت) في طريقه الى العراق لذا تحرك على الفور باتجاه مدينة (ماهي دشت) في اول جمادى الاولى ٩٤١هـ / تشرين الثاني ١٥٣٤م ثم واصل سيره باتجاه العراق حيث وصل الى « قلعة شاهين » في السادس من الشهر المذكور ،(٢٦) وبعد مغادرته لهذه القلعة هطلت امطار غزيرة اعاقت الجيش عن المسير وسببت متاعب كثيرة له(٢٧) . وفي يوم السبت المصادف ٨ جمادى الاولى وصل السلطان وطلائع

---

(١٩) هدايت ، المصدر السابق ، ص ٥٩ . البدليسي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ .
لونكريك ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٢٠) تركمان ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .

(٢١) حسن روملو ، كتاب احسن التواريخ ، بسعي وتصحيح جارلس نادمن ، سيدن ، كلكتا ، ١٩٣١ ، ص ٢٥٢ .

(٢٢) George William Stripling, The Ottoman Turks and Arabs (1511-1574) Illinois 1942, p. 79.

(٢٣) البدليسي ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

(٢٤) Demetrius Cantemir, The History of the Growth and Decay of Ottoman Empire, Translated inti English the Author's Own Manuscrpt by N. Tindal Vols. III, London, 1734, p. 197.

(٢٥) روملو ، المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .
Cantemir, op. cit., p. 196.

(٢٦) عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٤ ، بغداد ١٩٤٩ ، ص ٢٥ .

(٢٧) Sir Percy Sykes, A History of Persia, Vol. II Third Edition, London, 1958, p. 164.

الجيش العثماني الى « يكي امام » والامطار مستمرة في الهطول، وفي يوم ٩ منه وصل الجيش الى قصر شيرين وتوجه منها الى نهر شميران نوصلها يوم ١٢ منه من الشهر نفسه(٢٨) ومن الجدير بالذكر ان المرحلة التي تلي قصر شيرين الى الغرب هي خانقين حيث تبعد عنها خمسة فراسخ ومنها الى جلولاء خمسة فراسخ ثم الى هارونية خمسة فراسخ اخرى ، واستمر الجيش حتى قارب اولوصو ، اى النهر الكبير(٢٩) وكان النهر في موسم فيضانه الاول مما يصعب عبوره في هذا الوقت وكانت خسارة الجيش في هذه المسيرة كبيرة للغاية(٣٠) وان الفترة الواقعة بين ١٢ جمادى الاولى لغاية ١٩ منه كرست لعبور مجموعة من الجداول والانهار حتى قارب جبل حمرين ودخل قرية شرورين (سودين) اى طاش كوبرى وفي ٢٠ من الشهر عبر نهر الخالص وفي ٢٢ منه اجتاز قرية الوندية وفي ٢٣ وصل الى مرقد الشيخ سكران الذي يقع قريبا الى قرية مرقد آخر يسمى مرقد (لقمان الحكيم) وفي يوم ٢٤ وصل الى مرقد الامام ابي حنيفة(٣١) وحينئذ ترجل السلطان عن جواده وزار المرقد ثم دخل بصحبة حاشيته فقط الى مدينة بغداد(٣٢) لقد فتح السلطان سليمان بغداد دون قتال في يوم ٢٤ جمادى الاولى من عام ٩٤١هـ / ٣٠ كانون الاول ١٥٣٤م(٣٣) .

ومن الامور الهامة التي يجب الاشارة اليها، ان السلطان لم يسمح لجيشه بدخول المدينة خوفا من عدم استطاعته كبح جماحه وتلافيا لأعمال النهب والهتك ، ولو اخذنا بنظر الاعتبار ما صاحب جيش سليمان من متاعب ومجاعة عبر الطريق الشاق الطويل وما عاناه من كثرة هطول الامطار وتراكم الثلوج لاستطعنا تصور حالة بغداد لو سمح للجيش بدخولها ، لذا سلمت المدينة من السلب والنهب والهدم ، وهذا ما لم يعهده سكانها في تلك الايام من المحتلين .(*)

ومن الجدير بالذكر ان مدينة بغداد كانت عند دخول السلطان سليمان القانوني محاطة بسور على شكل قوس يتخلله حوالي ١٥٠ برج وفيه اربعة ابواب يدعى الشمالي منها باب الامام الاعظم ، والجنوبي يسمى الباب المظلم ، والشرقي الباب الابيض ، اما الغربي فاطلق عليه باب الجسر ، الذى كان يؤدى الى قلعة الطيور في الجانب الغربي (الكرخ) وكان يحيط السور خندق عميق ، اما المدينة فانها كانت خربة لا اثر لدور العلم والمدارس والمساجد التي اشتهرت بها في العصور السالفة ، فالمدرسة المستنصرية مثلا كانت قد تحولت الى مخزن للبضائع في الوقت الذى اصبحت المدرسة النظامية اثرا بعد عين .(٢٤)

وخلال مكوث السلطان سليمان في بغداد قام ببعض الاعمال العمرانية ، منها توسيع مرقد الامام ابي حنيفة وبناء قبة عليه ومدرسة وجامع وزاوية الى جواره وسور حوله(٢٥) ووضع حامية بقربه لحماية زواره(٢٦) ومن جهة اخرى قصد السلطان مرقد الشيخ عبدالقادر الكيلاني وامر المعمار العثماني سنان باشا بتشييد قبة المسجد ، فانجز هذا القبة البيضاء ودار السبيل(٢٧) وفي اطراف بغداد زار السلطان مراقد الائمة والمشايخ والاولياء وظهر امام العراقيين بمظهر التقي المتسامح وكان يقظا في سياسته الدينية والمذهبية ، لذا قصد العتبات المقدسة في الكاظمية وكربلاء والنجف واوقف مقاطعات مغلة عليها ، فتجنب بذلك اثارة المشاكل المذهبية

---

(٢٨) Huseyin G. Yurdaydin, An Ottoman Historian of the XVI th Century, Nasuh Al-Matrakii and his Beyan-i Menazil-i-Sefer i- Irakyan and its importance for Some Iraqi Citiės, p. 10.

بحث قدم الى المؤتمر التاريخي في آذار ١٩٧٣ .

(٢٩) العزاوى ، المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٣٠) بجوى ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ١٨٥ .

(٣٢) العزاوى ، المصدر السابق ، صص ٢٣ — ٢٤ .

(٣٣) Yurdaydin, op. cit., p. 10.

(*) للاطلاع على ما عاناه سكان بغداد ابان الاحتلال الصفوى الاول ١٥٠٨ والاحتلال الصفوى الثاني (١٦٢٤) والعثماني الثاني ١٦٣٨ .

براجع : القهواتي ، المصدر السابق ، صص ٤١ ، ٢٠٤ ، ٢٦٥ .

(٢٤) Par J. De Hammer, Histoire De L'Empire Ottoman Vol. 5 (1520-1547) Paris, 1836 p. 217.

(٢٥) النهروالي ، المصدر السابق ، ص ٢١٧ . البدليسي، المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

احمد بن لطف الله منجم باشي ، منجم باشي تاريخي، جلد ثالثي ، استانبول ، ١٢٨٥هـ ، ص ٤٩١ .

(٢٦) Cantemir, op. cit., p. 196.

(٢٧) ابراهيم الدروبي ، الباز الاشهب ، في حياة السيد الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، بغداد ، ١٩٥٢ ، ص٢٠.

والاجتماعية التي كان يمكن ان تواجهه آنذاك . ومن اعماله الهامة التي بالغ المؤرخون العثمانيون في اظهارها ، محاولة تعميقه نهر الحسينية الذي يروي مدينة كربلاء وبساتينها . ولكن بعض المؤرخين عرضوا هذا الاصلاح بشكل يوحي ان السلطان سليمان هو الذي حفر هذا النهر لاول مرة(٣٨) وليس الامر كذلك ، لان النهر كان يصل الى المدينة وان الاشجار والبساتين اليانعة كانت تظللها قبل هذا التاريخ . وما فعله السلطان سليمان هو تعريض فم النهر وتنظيف فروعه(٣٩) وهو عمل كبير ايضا بالاضافة الى امره ببناء سدة ترابية لانقاذ المدينة من الغرق الذي كان يصيبها في سنوات فيضان نهر الفرات ، ولا تزال هذه السدة تسمى باسمه (روف السليمانية)(٤٠) .

ويبدو لي ان السلطان في توسيعه للنهر اراد ان يباري الشاه اسماعيل الصفوي الذي حفر ووسع نهر عطا الملك ابان زيارته لمدينة النجف في فترة الاحتلال الصفوي للعراق ، وهي المدينة التوأم لمدينة كربلاء ، التي رغب السلطان ان يترك فيها اثرا ايضا . ومن كربلاء سلك الطريق الصحراوي الى النجف لزيارة مرقد الامام علي بن ابي طالب ومنها قصد الكوفة ثم توجه الى الحلة(٤١) ومنها عاد الى بغداد وخلال مكوثه فيها امر باصلاح اسوار وابراج المدينة وقلعتها ، ولكن مع الاسف قام باستبدال باب السلطان الاثرية بباب خشبية من الصاج المضرب بالمسامير الحديدية وبيض واجهتها بالجص وبذلك ازال ما كان عليها من كتابة اثرية(٤٢) ومن جهة اخرى قسم البلاد الى وحدات ادارية(٤٣) وادخل نظام الاقطاع الذي كان معروفا في المقاطعات الاخرى من دولته ، ومنح التيمارات والزعامات(٤٤) الى الجنود والقادة الذين اظهروا البطولة في الحملة الاخيرة على بلاد فارس والعراق(٤٥) كما نظم سجلات للاملاك الخاصة والاوقاف(٤٦) واوكل ولاية بغداد الى سليمان باشا وعقد عدة اجتماعات للديوان(٤٧) وزود الحاكم الجديد بحامية من حوالي الف جندي مزودين بالاسلحة النارية والف فارس وتموين كاف للدفاع عن المدينة ان اقتضت الضرورة امام هجمات الشاه طهماسب المتوقعة في المستقبل(٤٨) وفي بغداد استقبل السلطان المهنئين « بالفتح »

---

(٣٨) منهم : سيترلنك ، لونكرك ، العزاوي ، نظمي زادة ، وبجوي .

(٣٩) هذه الفروع كانت معروفة في العهود التاريخية المختلفة واتخذت اسماء متعددة وتسمى في الوقت الحاضر بنفس الاسماء التي اشتهرت بها في العهدين الصفوي والعثماني وهي تطلق اليوم على المقاطعات الزراعية في منطقة الحسينية وهي : (١) ابو جردان (٢) ابو سليمان (٣) جميتنة (٤) ابو زرنت (٥) الوند (٦) الكمكاعية (٧) الحمودية (٨) الهادري (٩) البكيرة (١٠) عويرة الكبيرة (١١) عويرة الصغيرة (١٢) ابو عصيدة (١٣) بدعة اسود (١٤) بدعة شريف (١٥) ابو طحين (١٦) جويب (١٧) عميشة (١٨) القرطة (١٩) الكمالية (٢٠) بدعة عيشة (٢١) القاضي (٢٢) حسرودي (٢٣) حيدرية (٢٤) الرزارة (٢٥) طويريج (٢٦) ابو صحانة (٢٧) شيطة (٢٨) الصالحية (٢٩) كريد محمد صالح (٣٠) عساقية (٣١) البتيرات (٣٢) الابراهيمية (٣٣) خير الدين (٣٤) لابج (٣٥) فريحة (٣٦) كربله (٣٧) جنكنة .

(٤٠) لونكرك ، المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٤١) Yurdaydin, op. cit., p. 10.

(٤٢) محمد صالح السهروردي ، جريدة العراق ، العدد ٢١٧٤ في ١١ ايلول ١٩٣٠ .

(٤٣) لم تتكامل الوحدات الادارية في العراق الا في اوائل القرن السابع عشر ، عندما قسمت الى خمس ايالات هي : بغداد ، الموصل ، شهرزور ، والاحساء .

(٤٤) مصطلحات تخص المقاطعات الزراعية في الدولة العثمانية ، يعتقد بانها مقتبسة من اليونان ، ويطلق على صاحب التيمار اسم (تيمار صاحبي ، او تيمار آري ، او تيمار سباهي) والتيمار هي الارض التي تدر دخلا سنويا يتراوح بين ٣٠٠٠ — ٢٠,٠٠٠ اقجه . اما الزعامة فهي الارض التي تدر دخلا سنويا يتراوح بين ٢٠,٠٠٠ — ١٠٠,٠٠٠ اقجة

الاقجه : عملة عثمانية فضية شاعت في القرن السادس عشر وسماها الاوربيون اسبر Asper وكان وزنها ٤ قمحات من الفضة او ما يساوي ١/٤ غرام .

انظر : (Deny) دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٦ ، الطبعة العربية ، ص ١٣١ ، و ج ٣ ، ص ٢٧٢ .

(٤٥) Hammer, op. cit., p. 220.

(٤٦) انظر السجلات العثمانية للطابو ، مصور المخطوطات ، كلية الدراسات العليا في كلية الآداب ، جامعة بغداد .

(٤٧) يتألف الديوان من الوزراء وقادة الجيش الكبار ومن رجال الحاشية المقربين من السلطان والوجهاء الاخرين.

(٤٨) Stripling, op. cit., p. 80.

مـن رجال الدين والوجهاء مـن انحـاء العـراق والاقطار العربية المجاورة .(٤٦)

ان احتلال بغداد من قبل السلطان سليمان القانوني وولاء امراء ورؤساء المناطق المجاورة ، مهد السبيل للدولة العثمانية بفرض هيمنتها ومد سيادتها الى الخليج العربي لاسـيما بعد أن اقر ديوانه في بغداد احياء المشروع القاضي بارسـال الاسطول العثماني لمواجهة البرتغاليين في الخليـج العربي حيث تزايد نفوذهـم في منطقـة البحـار العربية . لذا كلف امراء مصـر المرافقين لـه في الحملة بالعودة فورا الى بلادهم لاعداد الاسطول ووضعه على اهبـة الاستعداد لمواجهـة الموقف الجديد ، رغبة منه في السيطرة على طريق الخليج العربي التجارى المؤدى الى الهند .

وخلال القرن اللاحق ، غدت البصرة قاعدة للعمليات العسـكرية وللنشاط العثماني البحرى في ملاحقـة البرتغاليين في مياه الخليـج العـربي والبحار العربية الاخرى .

* ● *

(٤٦) قره جلبي زادة ، روضة الابرار المبين بحقائق الاخيار ، مصر ، مطبعة بولاق ، ١٢٤٨هـ ، ص ٢٥) . مرتضى افندى نظمي زادة ، كلشن خلفا ، نقله الى العربيـة موسى كاظم نورس ، النجف الاشرف ، ١٩٧١ ، ص ٢٠٤ .

Huseyin C. Yurdydin, Matrakci Nasuh Ankara, 1963, p. 60.

حملة السلطان مراد الرابع لاستعادة بغداد ١٦٣٨م

بقلم الدكتور

صالح محمد العابد

كلية الاداب – جامعة بغداد

على اثر العصيان المسلح الذي قام به بكر صوباشي ١٠٣١هـ/١٦٢١م – ١٠٣٢/١٦٢٣ وما رافقه من مضاعفات ، تمكن العاهل الصفوي الشاه عباس ، من احتلال بغداد ، التي قدر لسكانها ان يعانوا مجددا الوانا من المآسي والفواجع . كما ان استيلاء الفرس على بغداد ، والذي دام خمسة عشر عاما « لم يجلب لهم لا الثروة ولا الجلال »(١) . ولكن الدولة العثمانية ، وعلى الرغم من فترة الضعف التي كانت تمر بها في هذه الفترة ، لم تنثن عن محاولة استعادة بغداد « انبل مدن آسيا »(٢) . فمنذ لحظة فقدها ، « كانت مسالة استعادتها طموحا ملحا للبلاط العثماني »(٣) .

جرت المحاولة الاولى لطرد الفرس في سنة ١٦٢٥ ؛ وكان على راس القوات العثمانية المكلفة بهذه المهمة حافظ احمد باشا ، الذي عين بمنصب الصدر الاعظم في السنة الماضية . دام حصار حافظ لبغداد ستة اشهر ، ويعود جانب من تاخره في اقتحام المدينة المحصنة ، الى النقص الذي كانت تعانيه قواته في سلاح المدفعية ، وقد اعطت هذه المدة ، الشاه عباس فرصة للتقدم بجيشه من اصفهان للاحتفاظ بالمدينة ، ولعل مما يدل على ما كانت تعانيه الحامية الفارسية من ضغط القوات العثمانية انها « ظلت لمدة ثلاثة ايام وثلاث ليال تهتف محيية الشاه »(٤) . لقد ابدى حافظ باشا شجاعة متناهية في مقارعة الفرس وتقدم قواته في الهجوم على طلائع الجيش الفارسي ونجح في الاستيلاء على اللواء المقدس لهم(٥) . اعقب ذلك مفاوضات فاشلة بين حافظ والشاه . ولكن طول مدة الحصار من جهة ، وما كانت تعانيه القوات العثمانية من نقص في المؤن والذخيرة والخيل من جهة اخرى ، دفع بالانكشارية الى التذمر ومن ثم الى تمردهم على الصدر الاعظم . فاصطدم تصميم القائد العثماني على استعادة بغداد بتطور الموقف الجديد ، مما اجبره على الانسحاب(٦) .

لم توفق المحاولة الثانية ايضا ، والتي بدات في ١٦٢٩ ، في طرد الفرس من بغداد . كان على راس القوات العثمانية ، في هذه المرة خسرو باشا « البسنوي الصارم الذي كان عنفه العنيد هو سياسته الوحيدة »(٧) . لقد ارتكب خسرو خطا عسكريا كبيرا في عدم توجهه مباشرة الى الهدف المحدد وتركيز مجهوده عليه ، حيث اشغل نفسه

(١) Stephen H. Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq (Beirut, new imp., 1968), P. 58.

(٢) Demetrius Cantemir, The History of the Growth and Decay of the Ottoman Empire, translated from the Latin by N. Tindal (London, 1734), vol. I, p. 246.

(٣) Longrigg, op. cit., p. 59.

(٤) A. De Lamartine, History of Turkey, translated from the French (New York, 1857), vol. III, pp. 225-6.

(٥) Ibid., p. 226.

(٦) Ibid., pp. 226-8;
انظر ايضا : حسين محمد القهواتي ، العراق بين الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ، ١٥٢٤ – ١٦٣٨ ، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة بغداد) ص ٢١٣ – ٢٣٥ .

(٧) Lamartine, op. cit., p. 231.

بأمور عسكرية ثانوية(٨) ، بالاضافة الى قيامه بنشر قواته في مناطق واسعة ، فتوغل في شهرزور واردلان وهاجم همدان (حزيران ١٦٣٠) ، ثم توجه الى دركزين عن طريق قزوين ووصل اليها وخربها ، بعد كل ذلك ، وبعد اصرار المجلس العسكري الذي عقد في تلك المدينة على تنفيذ امر السلطان بان الهدف من الحملة هو بغداد ، آنذاك فقط توجه الجيش نحو العراق ، بعد ان اضاع وقتا ثمينا من جهة ؛ وانهك قواته واستهلك الجانب الاكبر من ذخيرته من جهة اخرى(٩) .

حاصر خسرو باشا بغداد واستمرت المعارك سجالا بين الطرفين اربعين يوما ، وفي اليوم الاربعين شن القائد العثماني هجوما جريئا على المدينة المحاصرة ؛ الا ان الهجوم احبط بالرغم من شجاعة خسرو الجنونية(١٠) . وبعد خمسة ايام من ذلك الهجوم ، قرر المجلس العسكري الانسحاب من امام بغداد ، وقد تم الانسحاب بنظام وحمل الجيش كافة المدافع والمؤن ووصل الموصل في الايام الاولى من سنة ١٦٣١(١١) .

بعد هذا التاريخ بوقت قصير اخذت الدولة العثمانية تحس بالانتعاش مجددا متمثلا بالشخصية الصارمة لمراد الرابع ؛ الذي نجح في القضاء على روح التسيب والفتنة في الدولة . وما ان حل شهر مايس ١٦٣٢ « حتى اتم مراد مهمة التخلص من الطغاة العسكريين ليبدأ عهدا من الرعب »(١٢) . حقا ان السلطان « اقام سلطنته على الرعب ، ولم تكن هناك قوة تستطيع ان تؤثر على ارادته الفولاذية ، لقد كان يرقب كل اقسام ادارته بعين يقظة متفحصة ، فساد القانون والعدالة ، النظام والانضباط بشكل لم يعرف منذ ايام سليمان القانوني . طاغية كان ، ولكنه لم يسمح لاي رجل آخر بأن يطغى . فادرك الناس بان طغيان فرد هو الحرية بالمقارنة بالطغيان غير الهادف للعديدين »(١٣) .

كانت مسالة استعادة بغداد بالنسبة للسلطان امرا يحتل اهمية كبرى ؛ خاصة وان احتلال الفرس لتلك المدينة ، قد شجعهم على مد تحرشاتهم الى بعض المناطق الشرقية في الاناضول. وقبل ان يباشر مراد بمشروع الحملة على بغداد ؛ قاد جيشه في ربيع سنة ١٦٣٥ متوجها نحو الاقسام الشرقية من آسيا الصغرى لابعاد الفرس من المدن التي كانت ضمن حدود الامبراطورية العثمانية والتي دخلوها مستغلين فترات الفوضى التي عانت منها الدولة . استولى السلطان على اريفان « مظهرا الروح الصادقة للسلاطين العثمانيين القدماء في العناية بجنده ، اضافة الى روح الانضباط العالي التي فرضها على القطعات بالنشاط الشخصي والقيادة العسكرية البارعة التي اظهرها »(١٤) . وقد كتب عنه كاتب انكليزي هو ريكاوت Rycaut يقول(١٥) « لعدة اشهر لم يستعمل وسادة غير سرجه ولا غطاء سوى ذلك المستعمل لفرسه » . ان استرجاع مدينة ومقاطعة اريفان كانت مأثرة عسكرية هامة ، بالاضافة الى ان زحف مراد في خلال آسيا الصغرى ثم عودته منها ، كان بحد ذاته « تفقدا ملكيا صارما لجميع حكام المقاطعات ؛ الذين اتهموا ، اوشك في سوء ادارتهم واهمالهم »(١٦) .

ما ان حلت سنة ١٦٣٨ ، حتى شرع مراد بالقيام بآخر واعظم اعماله العسكرية المتمثلة بالحملة لاستعادة بغداد من ايدي الفرس ، وهذا هو موضوع بحثنا هذا .

تحرك الحملة ومراحل الزحف

اشرفت الاستعدادات المتعلقة بحملة استرداد بغداد من ايدي الصفويين على نهايتها في اوائل شهر شوال ١٠٤٧هـ/شباط ١٦٣٨ ، حيث رفع

(٨) امضى مدة سبعة ايام في ترميم الحصن الذي اشاده سليمان القانوني ، والواقع على الحدود بالقرب من كل عنبر Gulanbar والذي لم تكن له تلك الاهمية لاهدار ذلك الوقت الثمين .
Longrigg, op. cit., p. 65.

(٩) انظر : Ibid., pp. 64-7

(١٠) Ibid., pp. 66-7.

(١١) Ibid., p. 67.

(١٢) Edward S. Creasy, History of the Ottoman Turks (Beirut, 1961), p. 249.

(١٣) Stanley Lane-Pool: Turkey (London, 1908), p. 219.

(١٤) Creasy, op. cit., p. 254; وانظر ايضا : W. Eton, A Survey of the Turkish Empire (London, 1799), p. 176.

(١٥) Quoted in : Creasy, op. cit., p. 254.

(١٦) Loc. cit.

« الطوغ الهمايوني »(١٧) امام « الجبخانه »(١٨) في ٨ شوال/٢٣ شباط ، كعلامة على بدء التنفيذ العملي للحملة(١٩) . وفي ١٥ شوال/٢ آذار ، اي بعد اسبوع واحد ، نقل « الطوغ » الى اسكدار(٢٠) ، انتظارا لوصول السلطان ، الذي وصل في يوم ٢٣ ذي القعدة يرافقه كافة ماموري السراي(٢١) .

دخل السلطان مراد الرابع اسكدار ممتطيا حصانا اسودا وعلى صدره درع من الفولاذ اللامع تحت شال احمر يغطي كتفيه ، وعلى راسه مغفر عليه عمامة من الشال الاحمر حسب الطريقة العربية ؛ فكان في زيه هذا يحاكي طراز الصحابة الكرام حينما يتاهبون للجهاد(٢٢) . امضى الجيش في اسكدار مدة تسعة وعشرين يوما ؛ تم في اثنائها انجاز مختلف الامور المتعلقة بتحركات الحملة واختيار الطريق الذي ستسلكه القوات ومناطق راحتها ؛ وقد قسم الطريق ما بين اسكدار وهدف الحملة النهائي ، بغداد ؛ الى مائة واحدى وعشرين مرحلة(٢٣) . فكان على القوات ان تسير بمعدل ساعتين الى تسع ساعات يوميا ، في خلال فترة تتراوح ما بين اربعة الى خمسة عشر يوما ، ثم تتوقف للراحة في محطات اعدت مسبقا(٢٤) . ان هذا التخطيط الدقيق ، والذي نفذ بشكل يدعو الى الاعجاب ، ليدل على روح الارادة والتصميم التي كانت من ابرز مزايا السلطان مراد الرابع ؛ الذي قدر له ان يكون آخر السلاطين المحاربين العظام في قيادة حملة عسكرية بنفسه(٢٥) . كما يبدو ان السلطان قصد من ورائه اضافة الى المحافظة على النظام وروح الضبط في الجيش وعدم ارهاقه لحين الاطباق على الهدف المحدد ، تمشيط ودراسة الاوضاع العامة في مناطق الدولة التي تمر منها قوات الحملة واقرار الامن والاستقرار فيها . وعلى امتداد سير الحملة ، وجهت عناية خاصة لحالة الطرق وتحسينها . وعن هذه الناحية يشير تافرنييه بقوله(٢٦) « ... والحق يقال ان زحف السلطان عاد بفائدة جزيلة على المسافرين في هذا الطريق [الطريق الذي يوصل الموصل ببغداد] » . وكان السلطان في خلال سيره يدقق في تصرفات المسؤولين « بتلك الروح المدققة الصارمة كما فعل من قبل في حملته

---

(١٧) الطوغ Tug او ذيل الحصان ، راية خاصة تتالف من ذيل حصان معلق في سارية تتوجها كرة ذهبية . وكان هذا شعارا تركيا قديما من المحتمل انه من اصل طوطمي، والطوغ في الاصل كان يؤخذ من ذيول الياك لا من الخيل. السنجق بك له الحق في رفع طوغ واحد والبكلربك في طوغين . اما الوزراء في البلاط او في الاقاليم فلهم الحق في ثلاثة اطواغ ، والصدر الاعظم بخمسة . اما السلطان نفسه فيتقدم موكبه في الحملات الحربية عدد قد يبلغ تسعة اطواغ . انظر :
H.A.R. Gibb and Harold Bowen, Islamic Society and the West (Oxford, 1969), vol. I, pp. 139-140.

(١٨) دار صناعة الاسلحة ، وهي ماخوذة من جبه Cebe التي تعني الدرع أو السلاح .
انظر : Ibid., p. 66.

(١٩) هاممر ، دولت عثمانية تاريخي ، مترجمي محمد عطا ، (اوقاف اسلاميــة مطبعة سي ١٣٢٥هـ) مجلد ٩ ، ص ٢٢٧ ؛ اما كوك فيحدد خطا بدء تحرك الحملة بـ ٢٠ آب ١٦٣٧ .
انظر :
Richard Coke, Baghdad the City of Peace (London, 1927), p. 204.
حيث يظهر من قوله ان الحملة استغرقت ستة عشر شهرا اذ يؤكد ان القوات العثمانية وصلت الى بغداد في شهر تشرين الثاني من السنة التالية . ويقع في نفس الخطا شاكر صابر الضابط انظر كتابه : العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران (بغداد ١٩٦٦) ، ص ٣١ .

(٢٠) Halil Sahilloglu, Dördüncu Muradin Bagdat Seferi Menzilnamesi (Belgeler-C. 11-1965 - Sayi - 3-4), p. 13.

(٢١) هاممر ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢٨ ، عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين (بغداد ١٩٤٩) جـ ٤ ص ٢٠٩ ؛
Lamartine, op. cit., pp. 263-4

(٢٣) انظر تفصيل تلك المراحل في :
Sahilloglu, op. cit., pp. 13-27;
وهو ادق مصدر في هذه الناحية ، لان كاتبه كان مرافقا للحملة وسجل تفاصيلها بدقة . ولكن كلا من هامر ولامرتين وكريسي ولونكريك يحددون تلك المراحل بمائة وعشر مراحل . انظر : هامر ص ٢٢٨ ؛
Lamartine, op. cit., p. 264; Creasy, op. cit., p. 255
Longrigg, op. cit., p. 69.
اما العزاوي فيذكر انها مائة وخمس عشرة مرحلة (العزاوي ، ٢٠٩) .

(٢٤) انظر : Sahilloglu, op. cit., pp. 13-27.

(٢٥) Creasy, op. cit., p. 254; Lane-Pool, op. cit., p. 255;
Longrigg, op. cit., p. 70.

(٢٦) العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنييه ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، (بغداد ــ مطبعة المعارف ، ١٩٤٤) ص ٣٢ . وسنشير الى هذا المصدر منذ الآن باسم (تافرنييه) .

على اريفان »[٢٧] . ففي كل مرحلة من تلك المراحل، كان السلطان يحقق مع المسؤولين ، مصدرا اوامره الصارمة بحق المقصرين من باشوات وقضاة وحكام وجامعي ضرائب ، والتي كانت في معظم الاحوال احكاما بالموت ؛ في نفس الوقت الذي كان فيه يكرم بالهدايا والهبات اولئك الذين كان راضيا عن تصرفاتهم[٢٨] . وسنلاحظ انه في خلال التقدم في الطريق المرسوم كانت تلحق بالجيش قطعات عسكرية جديدة ، قام بتحشيدها حكام الولايات العثمانية وبخاصة في الشام ومصر .

تحركت الحملة من اسكدار في يوم الجمعة المصادف ٢٣ ذي الحجة/وبعد خمسة ايام وصلت ازميد ، وهي المرحلة السادسة من مخطط السير؛ حيث امضى الجيش فيها ثمانية ايام[٢٩] . وهنا استاذن القضاة والمدرسون الذين كانوا في توديع السلطان بالعودة الى العاصمة[٣٠] . ثم تقدمت قوات الحملة فوصلت منطقة الغين ، وهي المرحلة الخامسة والعشرين[٣١] ، وفيها قدم قاضي اسكي شهر الى مقر القيادة وعرض امر المدعين بالمهدية؛ فامر السلطان « كتخدا السلحدارية » مع اربعة من البكلربكات بالتوجه لضرب حركة الشيخ الدعي ؛ وكان هذا الاخير قد جمع حوله حوالي اربعة آلاف رجل من سكاريا ومودورني وقدجيني؛ وخاض معركة مع بكلربك اولجه في الاناضول[٣٢] .

وفي اثناء التوقف في جاقيد خاني ، وهي المرحلة الثانية والاربعين[٣٣] ، التحق بالجيش

(٢٧) Creasy, op. cit., pp. 254-5;
قاد مراد جيشه بنفسه لاستعادة المواقع التي احتلها الفرس في فترة الفوضى السابقة وطردهم من مناطق اسيا الصغرى . ففي ربيع ١٦٢٥ زحف مراد باتجاه اريفان ، عاكسا المثال الطيب لجنوده في القدرة على التحمل والصبر وروح العزم الذي لا يلين . فتح اريفان ودمر طوروس وعاد الى العاصمة في نفس تلك السنة .
انظر :
Elon, op. cit., p. 176; Creasy, op. cit., p. 254.

(٢٨) انظر : هامر ، ص ٢٣٩ — ٢٥٠ ؛
Lamartine, op. cit., p. 260
Creasy, op. cit., pp. 254-5.

(٢٩) Sahilloglu, op. cit., pp. 13-14.

(٣٠) هامر ، ص ٢٣٩ .

(٣١) Sahilloglu, op. cit., pp. 15-6.

(٣٢) هامر ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

(٣٣) Sahilloglu, op. cit., pp. 13-18.

بلغار احمد باشا بيك طرابلس السابق[٣٤] . وواصلت القوات تقدمها فدخلت حلب ؛ وهي المرحلة السادسة والخمسين ، في ١١ ربيع الاول/١١ تموز ، حيث استراحت فيها القوات العثمانية مدة ستة عشر يوما[٣٥] . وفي هذا الموقع انضم الى قوات الحملة جيش من مصر يقوده رضوان بك[٣٦] . وقد بلغ عدد هذا الجيش ١٠٥٠٠ رجل ارسلهم والي مصر قبوجي باشي جوان محمد باشا المعروف بسلطان زاده ، مساهمة مع السلطان لاسترداد بغداد[٣٧] .

وصلت القوات الى بيرة جك ، المرحلة الخامسة والستين ، في ١٩ ربيع الاول/١٩ تموز ؛ وفيها اتخذت الترتيبات لعبور الجيش نهر الفرات ، فبني جسر من اربعين طوافة عبرت عليه القوات العثمانية ؛ في حين عبر السلطان الى الجانب الثاني في زورق خاص يرافقه المفتي يحيى افندي[٣٨] . وفي خلال فترة التوقف هذه ، تم صب خمسة مدافع كبيرة : اثنان منها بحشوة عشرين اوقية من البارود وثلاثة بحشوة ثمانية عشر اوقية[٣٩] . كما التحق بالجيش في هذا الموقع بكلربك سيواس واسير بوزاوق شمس بك زادة[٤٠] . وفي موقع قريب ، تم بناء ثمانمائة زورق لنقل الذخيرة والتموين[٤١] .

بعد اسبوع واحد ، اي في ٢٦ ربيع الاول ، وصل الجيش الى منطقة جلاب[٤٢] : المرحلة السبعين ؛ وفيها توفي الصدر الاعظم بيرم باشا ، وقد تأثر السلطان كثيرا لموته ، وعين لمنصب الصدارة العظمى والي الموصل ، طيار محمد باشا ، الذي جرى اعلامه بذلك بواسطة كتخدا البوابين

(٣٤) هامر ، ص ٢٤٢ .

(٣٥) المصدر السابق ، ص ٢٤٢ ، ولو ان هامر يعتبر حلب المرحلة الخامسة والخمسين ، ولكن انظر :
Sahilloglu, op. cit., p. 20.

(٣٦) العزاوي ، ص ٢١٠ .

(٣٧) الميرالاى اسماعيل سرهنك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، (القاهرة ـ بولاق ١٣١٤) ، جـ ٢ ، ص ٢٠٠ ، الفهواني ، ص ٢٦٠ .

(٣٨) هامر ، ص ٢٤٤ ؛ العزاوي ، ص ٢١٠ ؛
Sahilloglu, op. cit., pp. 20-1

(٣٩) العزاوي ، ص ٢١٠ .

(٤٠) المصدر نفسه .

(٤١) هامر ، ص ٢٤٤ ؛ العزاوي ، ص ٢١٠ ؛
Lamartine, op. cit., p. 265

(٤٢) يسميها لونكريك دولاب
Longrigg, op. cit., p. 69

الذي ارسله السلطان بأمر التعيين ، وعين بصفة مؤقتة قره مصطفى باشا[43] .

وصل الجيش الى ديار بكر ، وهي المرحلة السابعة والسبعين ، في ٢٣ ربيع الآخر ، وعسكر فيها لمدة تسعة ايام[44] . وفي خلال وجود الجيش في ديار بكر التحق بالسلطان الصدر الاعظم الجديد، على راس جيش كبير[45] . وقد جرى له استقبال كبير وانعم عليه السلطان[46] . وقبل التحرك نحو الموصل ، جرى تنظيم السير بحيث يكون كل من « امير الصحراء » ابن ابي ريشة وباشوات حلب وطرابلس الشام على مقدمة الجيش . تحت امرة والي ديار بكر درويش باشا[47] . وفي منطقة حكمية المرحلة الثامنة والثمانين ، والتي وصلها الجيش في ١٧ جمادى الاولى ، قدم عرب البادية الى مقر القيادة وهم يصحبون خمسمائة اسير من القزلباش اسروا قرب بغداد وقد امر السلطان باعدامهم جميعا[48] . وبعد مرحلتين اي في كفر زمان ، جرى عبور نهر دجلة بدون جسر ، وقد توفي هناك بكلر بك مرعش بيقلي مصطفى باشا[49] .

في ٢٩ جمادى الاولى ، دخل الجيش العثماني مدينة الموصل ، وهي المرحلة السابعة والتسعون ، وعسكرت فيها القوات للراحة واتخاذ الاجراءات النهائية لمدة عشرة ايام[50] . وفي الموصل استقبل السلطان سفيرا من ملك الهند ، وهو يحمل رسالة الى السلطان مع هدايا ثمينة كان من بينها جواهر ثمينة تعادل قيمتها ٥٠.٠٠٠ دوكا ذهبيا مع سيف مرصع[51] وحزام ثمين تعادل قيمته ١٥٠.٠٠٠ قرشا . والى جانب ذلك حمل السفير للسلطان ترسا ثمينا مصنوعا من اذن الفيل ومغطى بجلد الكركدن ، وكان الشائع آنذاك ان هذا الترس لا تؤثر فيه السيوف والاطلاقات النارية[52] ، ولكن مراد الرابع تمكن بضربة واحدة من بلطته ان يخرقه[53] ، وحينئذ وضع في الترس خمسمائة فلوري — عملة ذهبية — واعاده الى السفير[54] . ان السبب في تلك السفارة ، يعود الى سماع ملك الهند بنبأ حملة السلطان ضد الصفويين ولاسترجاع بغداد ، ولذا فقد اشار في كتابه المرسل الى السلطان انه بدوره قد حشد قواته لمهاجمة قندهار واستعادتها من الصفويين ، وقد كان لهذا النبأ وقع طيب في القيادة العثمانية ، ذلك ان « عمل الهند مما يشوش الوضع على ايران من مجاوريها ويسهل فتح بغداد »[55] .

قبل ان تغادر قوات الحملة الموصل ، عقد السلطان مجلسا حربيا لبحث موضوع نقل المدافع الى بغداد[56] . فكان راي غالبية القادة المجتمعين ان من الافضل نقلها عن طريق النهر ، وذلك بسبب هلاك كثير من الجاموس الذي يسحبها وما متبقٍ منه فانه منهك ، وراى آخرون افضلية نقلها برا بصحبة الجيش حيث تصل المدافع مع بقية الجيش في وقت واحد الى بغداد . وبعد الدراسة قر راى السلطان ان يتم نقل عشرين مدفعا برا مع الجيش ، وان ترسل المدافع الباقية ، وعددها عشرة ، عن طريق النهر[57] . وقد برزت حكمة هذا القرار الذي اتخذه السلطان ، حيث ان المدافع التي نقلت بواسطة النهر لم تصل الا بعد عشرين يوما من بدء حصار الجيش العثماني لمدينة بغداد. وكان من شان ذلك ، فيما لو وقع ، ان يقلل من فاعلية الحصار[58] . وقبيل الحركة ، امر السلطان بمنح كل فرد من الانكشارية والسباهية مائة اقجة كهبة ، كما وزعت على اصحاب الزعامات والتيمارات القنابل لنقلها فيما بينهم ، من اجل ان تكون ذخيرة المدافع مهياة حين الوصول الى الهدف[59] .

---

(٤٣) هامر ، ص ٢٤٦ — ٢٤٧ ، منجم باشي ، صحائف الاخبار (بالتركية) (مطبعة عامرة ، استانبول ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م) ، جـ ٣ ، ص ٦٧٣ .

(٤٤) Sahilloglu, op. cit., p. 22 ; اما هامر فيقول ان الجيش مكث في ديار بكر عشرة ايام . هامر ، ص ٢٤٧ .

(٤٥) المصدر نفسه ؛ Longrigg, op. cit., p. 69

(٤٦) العزاوي ، ص ٢١٠ .

(٤٧) هامر ، ص ٢٤٧ .

(٤٨) Sahilloglu, op. cit., p. 23

(٤٩) هامر ، ص ٢٤٨ .

(٥٠) هامر ، ص ٢٤٨ ؛ Sahilloglu, op. cit., p. 24

(٥١) Lamartine, op. cit., p. 265; وقد اشار تافرنييه الى تلك الواقعة بقوله انه في خلال وجوده في البصرة وصل اليها سفير عظيم المغول الذي جاء من بغداد بعد لقائه بالسلطان . انظر : تافرنييه ، ص ٣٢ .

(٥٢) العزاوي ، ص ٢١١ .

(٥٣) Lamartine, op. cit., p. 265 -6.

(٥٤) العزاوي ، ص ٢١٢ .

(٥٥) المصدر نفسه .

(٥٦) هامر ، ص ٢٤٩ .

(٥٧) المصدر نفسه ، العزاوي ، ص ٢١٢ .

(٥٨) العزاوي ، ص ٢١٢ .

(٥٩) المصدر نفسه ، هامر ، ص ٢٤٩ .

نظم سير الجيش حين مغادرة الموصل « للدخول في المنطقة المعادية »(٦٠) ، فعهد بقيادة قوات الطليعة الى والي ديار بكر ، وتألفت ميسرة الجيش من قوات الشام وسيواس ؛ اما المؤخرة فوضع على قيادتها بكلربك مرعش ؛ محمد علي باشا الكرجي ، وتولى قيادة المدفعية بوغاي باشا زادة والي حلب(٦١) . في يوم ٩ جمادى الآخرة ، غادر الجيش الموصل زاحفا الى بغداد فمر على حمام العليل ثم زاب صوى ، وفي يوم ١٢ جمادى الآخرة ، وعند المرحلة الواحدة بعد المائة وعند مقابلة زاب صوى ، عبر معظم الجيش النهر راجلين في حين اجتاز السلطان النهر على ظهر حصانه(٦٢). وبعد اربعة ايام ، ١٧ جمادى الآخرة ، وصل الجيش الى آلتون كوبرى ؛ وهي المرحلة الخامسة بعد المائة ، فعبرت القوات العثمانية على الجسر(٦٣) . ومن هنا مر الجيش على گوك تبة وخاصة صوي ثم كركوك ، التي امضت فيها القوات يوما واحدا للراحة ، ثم تحرك الجيش من كركوك في ٢٢ جمادى الآخرة ، فمر على تازه خرماتي وطاووق وطوز خرماتو وكفري وناربن صوي وطاش كوبرى(٦٤) . وفي يوم ١ رجب وصل الجيش جبق كوبرى ، حيث امر الجيش بالتحشد والراحة ليوم واحد(٦٥) . وهنا وصل الى السلطان خبر انتصار حاكم آخسخة ، سفر باشا ، في حملة روان(٦٦) . فلقد تمكنت القوات العثمانية التي هاجمت روان ، من دحر حاكمها الفارسي كلب خان ، واستولت على ذلك الموقع . كما وصلت ايضا انباء نجاح الغارة العثمانية على منطقة شهرزور(٦٧) . ومن جبق كوبري ، عبر الجيش بعقوبة ثم بهرز ، وكانت المرحلة قبل الاخيرة هي مقابل الامام موسى الكاظم ، التي وصلها الجيش في يوم ٧ رجب ، وفي صباح الاثنين ٨ منه/١٥ تشرين الثاني ، وبعد حركة ساعة واحدة ، ضرب الجيش مواقعه امام مقام الامام الاعظم(٦٨) . وبذلك يكون الجيش العثماني قد سلخ مائة وسبع وتسعين يوما منذ مغادرته لاسكدار حتى وصوله الى مواقعه في مواجهة اسوار بغداد ، امضى فيها ستا وسبعين يوما للاستراحة(٦٩) .

دفاعات بغداد

تقوم بغداد على الجانب الشرقي من نهر دجلة ، ويبلغ طولها بحسب تقدير تافرنييه ٥٠٠ر١ خطوة وعرضها ما بين ٧٠٠ الى ٨٠٠ خطوة ، اما طول محيطها فيبلغ ثلاثة اميال(٧٠) . يحيط بالمدينة سور مبني من الآجر ، قام اوليا جلبي بقياس طوله ، فوجد انه يبلغ ٨٠٠ر٢٨ خطوة او سبعة اميال (الميل الواحد يساوي ٠٠٠ر٤ خطوة) في حين ان حاجي خليفة يجعل طوله ٢٠٠ر١٢ ذراعا او ميلين(٧١) . يكتنف السور خندق عرضه ستين ذراعا ، يستقي مياهه من دجلة(٧٢) ، ويبلغ

---

(٦٠) Longrigg, op. cit., p. 70

(٦١) هامر ، ص ٢٤٩ ، العزاوي ، ص ٢١٣ .

(٦٢) Sahilloglu, op. cit., p. 25.

(٦٣) Loc. cit. ؛ اما العزاوي فانه يحدد خطا تاريخ الوصول الى آلتون كوبري بيوم ٢ رجب ، كما يذكر الرواية القائلة بان السلطان في هذا الموضع رفض عبور القنطرة قائلا « دع النهر يجرفك ولا تمر من قنطرة الجبان، واترك الاسد يختطفك ولا تركن الى ظل ابن الحصين » (العزاوي ، صص ٢١٣ – ٢١٤) في حين ان من المؤكد مما اورده مرافق السلطان ان العبور تم مر على الجسر . ويبدو ان القهواتي يقع في نفس الخطا بتاييده لرواية العزاوي الآنفة الذكر (القهواتي ، هامش ٥ ، صص ٢٦٢ – ٢٦٣) . ولعل الخطا هنا ناشيء من الالتباس الذي وقع فيه العزاوي من كون الجيش العثماني قد عبر في منطقة زاب صوى على الارجل لا في منطقة آلتون كوبري .

(٦٤) Sahilloglu, op. cit., pp. 25-6.

(٦٥) Ibid., p. 26.

(٦٦) هامر ، ص ٢٥٠ .

(٦٧) العزاوي ، ص ٢١٤ .

(٦٨) Sahilloglu, op. cit., p. 27.

(٦٩) انظر : Ibid., pp. 13-27 ؛ ان دقة العزاوي في تحديده لاوقات الراحة ب ٧٦ يوما تدعو الى الاعجاب (العزاوي ، ص ٢١٥) . اما هامر ، فيذكر ان عدد ايام التوقف بلغت ٨٦ يوما (هامر ، ص ٢٥٠) ؛ ومن الجدير بالذكر ان باربر يخطىء بقوله ان الرحلة من اسكدار الى بغداد استغرقت مائة وعشرة ايام ، انظر : Noel Barber, The Lords of Golden Horn from Suleiman the Magnificent to Kamal Ataturk (London, 1974), p. 86.

(٧٠) تافرنييه ، ص ٧٨ .

(٧١) Quoted in: A.A. Duri, 'Baghdad', The Encyclopeadia of Islam, (new edition, Leiden, 1960), vol. I, p. 904; نجد ان لامرتين يقدر طول السور ب ٠٠٠ر١٠ خطوة انظر Lamartine, op. cit., p. 266 ولكن اذا اخذنا بنظر الاعتبار راى مؤرخ حصار بغداد ضياء الدين اوغلي فيكون طول السور ١٥٠ر٨ خطوة . انظر هامش رقم (١) ص ٧٩ من هذا البحث .

(٧٢) Duri, op. cit., p. 904.

عمق المياه فيه نحوا من خمس قامات(٧٢) . الجزء من السور الذي يحيط بالجهة الشرقية من المدينة كان دائريا تقريبا ، ويبلغ ارتفــاعه ستين ذراعا وعرضه ما بين ١٠ الى ١٥ ذراعــا(٧٤) . تنتصب ابراج كبيرة في الزوايا الرئيسة من سور بغــداد ، اقيمت فيها المدافع النحاسية ، في حين تقوم ابراج اصغر على مسافات قصيرة من بعضهـا البعض ، ويبلغ عدد هذه الابراج مائة وثمانية عشر برجــا في جوانب السور المطلة على البر و ٤٥ برجا تشرف على النهر(٧٥) وبحسب ما يذكره مؤرخ حصــار بغداد ، ضياء الدين اوغلي(٧٦) . فقد كانت بين كل برج وآخر خمسون فتحة لاطلاق نيران المدافــع والبنادق ، وبين كل فتحة واخرى خطوة واحدة . في الزاوية الشمالية الغربية من السور تقوم القلعة الداخلية التي يطوقها حائط مفرد يبــدأ من باب المعظم الى نهر دجلة ، ترتفع عليه ابراج صغيرة نصبت فيها المدافع(٧٧) . ويحدق بسورها خندق ضيق(٧٨) . وهذه القلعة تضم الثكنات ومخــازن الذخيرة والمؤن بالاضافة الى الخزينــة ، والــى جوارها ، من جهة الجنوب يقوم السراي حيث مقر الوالي(٧٩) . في الاسوار ابواب اربعة ، ثلاثة منها من جهة البر وهي : باب المعظم في الشمال وبعد ٧٠٠ ذراع من دجلة ، الباب المظلم او «باب كلواذة» في الجنوب على بعد ٥٠ ذراعا من النهر ، والباب الابيض او « الباب الوسطاني » في الشرق ، امــا الباب الرابــع فهو بواجــه النهر ويسمى بباب الجسر(٨٠) . والاخير يربط ما بين بغداد والجهــة المقابلة من دجلة حيث تنتصب قلعــة الطيــور "Kushlar Kalasi" (٨١) .

لا تتفق المصادر في تحديد عدد افراد الحامية الفارسية المكلفة بالدفاع عن بغــداد ، وتراوحت التقديرات ما بين ١٢٫٠٠٠ الى ٨٠٫٠٠٠ رجل .

(٧٢) تافرنييه ، ص ٧٨ .

(٧٤) Duri, op. cit., p. 904.

(٧٥) ; Loc. cit.
اما هامر فانه يجعل عددها مائتين واحد عشــر برجا . انظر : هاممر ، ص ٢٥١ .

(٧٦) مقتبس في : هاممر ، ص ٢٥١ .

(٧٧) Duri, op. cit., p. 904.

(٧٨) تافرنييه ، ص ٧٨ – ٧٩ .

(٧٩) Duri, op. cit., p. 904.

(٨٠) Loc. cit. ؛ هاممر ، ص ٢٥١ .

(٨١) ; Loc. cit.
يحدد العزاوي موقع قلعة الطيور بالقرب من تكية خضر الياس للبكتاشية . العزاوي ، ص ٢١٩ .

فهامر يذكر ان عدد افراد القوات التي تحت امرة بكتاش خان هو ١٢٫٠٠٠ فارس وبندقچي يقودهم خلف خان(٨٢) . ولكن هذا الرقم هو اقل بكثير مما تجمع عليه المصادر وتدل عليه ظواهر الاحوال . فالعزاوي يقول ان العدد الذي اورده هامر يشمل رماة البنادق فقط الذين التحقوا ببغداد تعــزيزا لحاميتها بقيادة اغا صادق بن مير فتاح(٨٢) . اما بجوي فيقدر عــدد تلك القــوات بـ ٢٤٫٠٠٠ قزلباشي(٨٤) . في حين ان منجم باشي يجعلهــم ٣٠٫٠٠٠(٨٥) . ويستشف ممــا اورده كانتمير ان العدد يزيد على ما ذكرناه ، ولو انه لم يذكر رقما محددا ، لكنه يقول ان عدد القوات الفارسية التي استسلمت للسلطان بلغ عـــدد افرادها ٣٠٫٠٠٠ رجل(٨٦) . فاذا اخذنا بنظر الاعتبار القتال الضاري الذي دار بين الحامية والقوات العثمانية المهاجمــة فان عــدد افراد الحاميــة يزيد كثيرا على ذلك الرقم . اما لامرتين فانه يقدر عدد الجند الفرس في داخل بغداد بـ ٨٠٫٠٠٠ رجل(٨٧) . ومهما كانت هذه الاختلافات فان من المؤكد ان الحامية كانت ذات مستوى عددي مناسب نظرا للدفاع العنيف الذي واجهت به القوات العثمانيــة المستبلــة بالهجوم طيلة اربعين يوما من القتال المتواصــل . ويبدو من المؤكد ان الحامية الفارسية قــد تلقت تعزيزات كبيرة في الرجال والسلاح والذخيرة قبل ان تطبق عليها القوات العثمانية . ويذكر القهواتي نقلا عن محمد يوسف (٨٨) ، ان بكتاش خان كان قد علم بزحف السلطان مراد الرابع الى بغــداد وذلك عن طريق القوافل القادمة من حلب ، فبعث الى الشاه طالبا امداده بقوات اضافية لتعــزيز الحامية ، وكانت استجابة الشاه فورية لهــذا الطلب ، اذ سارع باعداد جيش كبير قرر ان يقوده بنفسه ، في نفس الوقت الذي ارسل فيه الى عدد من حكام الولايات طالبــا منهم الالتحاق لنجــدة الحامية الفارسية ، كما هيأ كميــات كبيرة مــن معدات الحصار والمدافع لارسالها الى بغداد ، وقد

(٨٢) هاممر ، ص ٢٥٢ .

(٨٢) العزاوي ، ص ٢١٧ .

(٨٤) انظر سيد فائق ، تاريخ بجوى (استانبول ، مطبعــة العامرة ، بدون تاريخ) ، ج ٢ ، ص ٤٥١ .

(٨٥) منجم باشي ، تاريخي (استانبول ، مطبعــة العامــرة ١٢٨٥هـ/١٨٦٨) ، ج ٢ ، ص ٦٧٤ .

(٨٦) Cantemir, op. cit., p. 248.

(٨٧) Lamartine, op. cit., p. 267

(٨٨) مؤلف كتاب ذيل تاريخ عالم آراى عباسي .

بلغ تعداد تلك الحملة ٢٠ر٠٠٠ قزلباشي(٨٩) . ولكن تطورات الحالة في المناطق الشرقية من من الامبراطورية الصفوية ، نتيجة تحرشات الازبك ، دفعت بالشاه الى البقاء في قزوين وكلف مير فتاح لينوب عنه في قيادة الحملة الى بغداد(٩٠).

اما عن عدد افراد القوات العثمانية التي اطبقت على بغداد فغالبية المصادر تغفل ذكر ارقام بشكل محدد ، ويذكر القهواني تضارب الارقام ، ذاكراً ان التقديرات تتراوح ما بين ١٠٠ الف الى ٣٠٠ الف جندي(٩١) . اما لامرتين فيقدر عدد افراد الجيش العثماني الذي قاده السلطان بـ ٣٠٠ الف رجل(٩٢) . ويورد باربر رقما يدل على المبالغة حيث انه يقدر عدد القوات العثمانية التي طوقت بغداد بنصف مليون رجل ، ويصف زحف ذلك الجيش اللجب مشبهاً اياه « بنهر عظيم كانت الروافد تصب فيه باستمرار اثناء جريانه معززة جبروته بحيث لم يعد بامكان اية قوة مواجهة المد العارم لنصف مليون رجل »(٩٣) .

تمكنت القيادة العثمانية من الحصول على معلومات مهمة حول خطط الفرس الدفاعية ، فتبين لها منها ان الفرس قد ركزوا اقوى دفاعاتهم في منطقتي باب المعظم والباب المظلم ، ويرجع ذلك الى ان الحملات العثمانية السابقة لاستعادة بغداد ، والتي قادها حافظ باشا وخسرو باشا ، فرضت الحصار على المدينة من تلك الجهتين ، وكل ما احدثته القوات العثمانية من ثغرات في الاسوار ، قامت الحامية الفارسية بترميمه وتحصينه بالاضافة الى اصلاحها بقية الاسوار ، ولكنها اهملت طرف السور المواجه للصحراء عند الباب الابيض(٩٤) . ويبدو انها لم تتوقع شن الهجوم من تلك الناحية ، وهذا تقصير واضح . لقد احاط السلطان واركان حربه بتلك التفصيلات وهم في الموصل على اثر القاء القبض من قبل القوات العثمانية على احد المسؤولين الفرس المدعو مير محمد ، وكان هذا قد وصل الى تكريت لجمع الضرائب ، وحينما جلب الى السلطان كشف له عن تلك الاسرار في محاولة لانقاذ حياته(٩٥) .

(٨٩) القهواني ، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .
(٩٠) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ .
(٩١) المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ .
(٩٢) Lamartine, op. cit., p. 266.
(٩٣) Barber, op. cit., p. 86.
(٩٤) هامر ، ص ٢٥١ .
(٩٥) العزاوي ، ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

معارك حصار بغداد ٨ رجب ـ ١٧ شعبان

اقيمت خيمة السلطان مقابل مقام الامام الاعظم ، وبرزت ثقة السلطان بالنصر ، من امتناعه عن زيارة الامام « لانه وجد انه لا يليق بسه زيارة المقام قبل اتمام فتح بغداد »(٩٦) . وقبل حلول المساء من نفس يوم الوصول ، بوشر بالاستعدادات الفورية للهجوم ، فعقد السلطان مجلسا حربيا ضم بالاضافة الى الوزراء والقادة ، شيخ الاسلام وقاضي العسكر ؛ وتقرر فيه توزيع القوات على المواقع وارتداء الرجال لدروعهم وقيام افراد « الجبخانة » بتوزيع لوازم الحصار « كالفؤوس ، الكركات » على الرجال(٩٧) . وعلى الفور اخذ الجميع مواقعهم ؛ فالقوة التي كانت تحت قيادة السلطان عسكرت امام باب المعظم(٩٨) . وفي مواجهة الباب الابيض وضع على القيادة الصدر الاعظم طيار باشا يسنده اغا الانكشارية جغال زادة وبكلربك الروملي ارسلان اوغلو باشا(٩٩) . وفي مواجهة الاسوار الممتدة الى الجنوب ، ما بين الموقع السابق والباب المظلم : اتخذت قوات عثمانية اخرى مواقعها يقودها القبودان مصطفى باشا وبكلر بك سيواس والصمصونجي باشي ، في حين عهد لقيادة القوات المكلفة بمواجهة الباب المظلم الى بكلربك الاناضول حسين باشا يدعمه بكات كوستنديل وآلونية وقوات مصر واربعون ضابطا آخر مع زغارجي باشا(١٠٠) . وقد جرت اول الالتحامات امام الموقع الاخير(١٠١) .

في اليوم الثاني من الحصار ، الثلاثاء ٩ رجب ، وصلت المدافع التي رافقت الجيش عن طريق البر ، فوزعت على الفور على جميع الجبهات(١٠٢) . تسلم الصدر الاعظم عشرة مدافع والقبودان مصطفى باشا ستة ، وحسين باشا قائد موقع الباب المظلم اربعة مدافع(١٠٣) . ومع

(٩٦) هامر ، ص ٢٥٢ . وانظر ايضا : العزاوي ، ص ٢١٦ ؛ Coke, op. cit., p. 206 .
(٩٧) Sahilloglu, op. cit., p. 27.
(٩٨) Coke, op. cit., p. 206.
(٩٩) Sahilloglu, op. cit., p. 27.
(١٠٠) Loc. cit. ؛ هامر ، ص ٢٥٢ .
(١٠١) Sahilloglu, op. cit., p. 27.
(١٠٢) Loc. cit.
(١٠٣) هامر ، ص ٢٥٢ ، اما بجوى فيورد بان الصدر الاعظم تسلم ١٢ مدفعا والقبودان مصطفى ٩ مدافع وحسين باشا ٨ والدرويش باشا اربعة مدافع . وعليه فيكون مجموع المدافع التي فتحت نيرانها في الايام الاولى من القتال ثلاثة وثلاثين مدفعا (بجوى ، ص ٢٤٧) ، اما ←

بواكير صباح اليوم التالي ، الاربعاء ، انطلقت المدافع من الجبهات الثلاث تقصف الاسوار ، كما فتح الرجال نيران بنادقهم على العدو . وسقط اول القتلى والجرحى من الطرفين ، وحينما وصلت اول دفعة من الجنود الجرحى امام السلطان استقبلهم مشجعا وانعم على كل منهم مبلغا يتراوح ما بين عشرين الى ثلاثين قرشا(١٠٤) . ويصف شاهد عيان موقف السلطان من جرحاه فيقول(١٠٥) « وقد امر بنصب خيمة الجراحين في الجيش بقرب موقعه وكان يأمر باجراء الاسعافات الفورية للجرحى مشجعا اياهم بكلمات طيبة ومقدما لهم بعض الهبات المالية » .

تواصل القتال في يومي الخميس والجمعة وفي ليلة السبت ، ١٢ رجب اشتد قصف المدفعية من الجانبين ، وفي صباح اليوم الثاني جلب اول الاسرى من القزلباشي وعددهم اربعة وثلاثون فردا فصدر الامر باعدامهم واكرم السلطان آسريهم(١٠٦) . وفي اليوم الرابع من القتال عبر السلحدار باشا يرافقه بكلربك طرابلس شاهين باشا ، على راس قوة مؤلفة من ١٢٫٠٠٠ رجل نهر دجله مهاجما قلعة الطيور ، وقد نجح الهجوم وتم الاستيلاء على القلعة(١٠٧) . ان اقتحام القوات العثمانية لهذا الموقع ساعد على الاطباق الكلي على الحامية الفارسية ، كما انه من الناحية الاخرى جعل قصف المدفعية العثمانية اكثر تاثيرا لانكشاف جانب القلعة الداخلية المطل على النهر . يقول العزاوي نقلا عن المحبي « خلاصة الاثر » ان الشاه ارسل رسولا لطلب الصلح في اليوم الخامس من الحصار ، يدعى جانبك سلطان ، وان السفير اجتمع بالصدر الاعظم في ١٣ رجب ، ولكن السلطان وجميع الوزراء والاركان رفضوا عرض الصلح هذا(١٠٨) . وهذا يدل ، في حالة وقوعه ، على شعور الشاه بالعجز عن مواجهة قوات الحملة العثمانية التي صمم قائدها ، السلطان بذاته ، على عدم القبول باقل من الاستسلام التام لحامية بغداد .

في اليوم الثامن من الحصار ، ١٦ رجب ، نجحت القوات المهاجمة في ايصال المتاريس الى قرب الخندق ، في الوقت الذي تهدمت فيه كثير من الابراج بفعل قصف المدفعية العثمانية(١٠٩) . وقد دفع القصف العثماني الكثيف بافراد الحامية الفارسية الى « ارتداء جلود الاغنام على رؤوسهم لحمايتها من نيران المدفعية »(١١٠) وقد تمكن كنعان باشا ، بكلر بك ارضروم ، من اسر بعض القزلباش الذين تم اعدامهم جميعا ، وانعم السلطان على آسريهم(١١١) .

في خلال ايام المعارك هذه والايام التي تلتها ، كان السلطان مراد الرابع في غاية النشاط والحيوية واستطاع ان يجعل من نفسه القوة المحركة وان يخلق ذلك الزخم المطلوب لانتزاع النصر ؛ كان يعمل في المتاريس ويشارك في اختيار مواقع المدافع وتصويبها ، ممضيا معظم الليالي والسرج له بمثابة الوسادة(١١٢) . لقد كان حماس الجند يصل اقصاه من مشاركة السلطان لهم في اعمالهم المرهقة ، فيذوب الشعور بذلك الارهاق ليتحول الى طاقة لا تعرف الكلل في الوصول الى النصر ، وتزيد حماستهم تلك الكلمات الحماسية التي كان يخاطبهم بها « عليكم جميعا ان تفكروا بانني لم اجيء الى هنا لاعود قبل ان استرجع هذا الموقع ؛ كلا ، لقد جئت على راس عدد كبير من الجند الصادقي الايمان لافتح او اموت هنا ، فعلى الجميع ، وعلى كل فرد منكم ان يتخذ نفس ذلك القرار . . »(١١٣) وفي مناسبة اخرى قال محدثا جنوده « ابذلوا جهودكم في سبيل الدين والغيرة الاسلامية ولا تقصروا . هذا يوم السعي وبذل ما في الوسع »(١١٤) . ولم يقتصر السلطان على كل ذلك ، بل كان ينعم على الجرحى ويحسن اليهم « ويطيب القلوب بالانعامات ويعنى بشؤون الجميع »(١١٥) . لقد كان فتح بغداد بالنسبة للسلطان امرا في غاية الاهمية ، فكان كما يقول

كوك فيذكر ان عدد المدافع التي بدات القصف في اليوم الاول من الحصار كانت ستين مدفعا وهذا غير دقيق . انظر : Coke, op. cit., p. 205.

(١٠٤) Sahillog'u, op. cit., p. 27.

(١٠٥) Quoted in : Coke, op. cit., p. 206.

(١٠٦) Sahillog'u, op. cit., p. 27.

(١٠٧) هامر ، ص ٢٥٢ ، ولو ان هامر يقول سهوا ان قلعة الطيور تقع شرقي دجلة ، في حين انها ، وكما سبقت الاشارة بذلك ، تقع غربي النهر .

(١٠٨) العزاوي ، ص ٢١٨ .

(١٠٩) هامر ، ص ٢٥٢ .

(١١٠) المصدر نفسه .

(١١١) Sahilloglu, op. cit., p. 28.

(١١٢) Barber, op. cit., p. 86; وانظر ايضا : Lane-Poole, op. cit., p. 220; Longrigg, op. cit., p. 71.

(١١٣) Coke, op. cit., p. 205.

(١١٤) العزاوي ، ص ٢٢٠ ، هامر ، ص ٢٥٢ .

(١١٥) العزاوي ، ص ٢٢٠ .

شاهد عيان(١١٦) « طيلة ايام الحصار التي دامت تسعة وثلاثين يوما حتى تم الاستيلاء عليها [بغداد] في اليوم الاربعين ، كان جلالته يقوم بصلاته في كل يوم وليلة على ركبته ، منكبا وساجدا على الارض والدموع تتلالا في عينيه » .

وفي احدى المناسبات قدم مراد الدليل الحاسم على روح الجراة والشجاعة التي اتصف بهما ، فعندما ارسل الفرس فارسا عملاقا لتحد المحاصرين في مبارزة فردية ، لم يتردد لحظة واحدة واندفع بنفسه لمواجهة المتحدي ، وبعد صراع عنيف شق جمجمة ذلك العملاق من الهامة الى الفك في ضربة واحدة من سيفه(١١٧) .

في يوم الجمعة ، ٢٦ من رجب ، قامت مجموعة من القزلباش بهجوم مباغت ، اذ خرجت من الاسوار امام الجهة التي يقودها حسين باشا ، في محاولة لتدمير المتاريس العثمانية ، الا ان القوات العثمانية ردت على هجومهم بهجوم مضاد فاضطرتهم الى الانسحاب بعد ان خلفوا وراءهم عددا من القتلى(١١٨) . وفي صباح اليوم التالي ، ٢٧ منه ، وصلت المدافع العشرة التي سبق ان ارسلت من الموصل عن طريق النهر فسلمت ثلاثة منها الى السلحدار باشا وخمسة للصدر الاعظم واثنان لمصطفى باشا ، واخذت المدافع الجديدة مواقعها وباشرت بالقصف في فجر اليوم التالي الاحد ٢٨ رجب ، واشتد القصف في هذا اليوم من جانب الطرفين بضراوة(١١٩) . لقد تمكنت القوات العثمانية في هذه الفترة من القتال ، من احداث تدميرات كبيرة في تحصينات بغداد ، فقد نجح الصدر الاعظم في هدم برج الباب الابيض ، كذلك تمكن القبودان باشا من هدم البرج المبني زمن جغالة زادة ، في الوقت الذي نجحت مدافع حسين باشا في هدم البرجين الكبيرين الاخيرين ، وتهدم تماما جانب من السور يبلغ ثمانمائة ذراع ، مما دفع بالقيادة العثمانية الى التفكير بشن هجوم عام من تلك الثغرة ، ولكنها عدلت عن ذلك بعد تقدير للموقف ، اذ تبين لها خطورة ذلك لما وردها من وجود الاستحكامات والمتاريس والخنادق داخل المدينة(١٢٠) . وتواصل القتال بدون انقطاع معتمدا

(١١٦) Quoted in : Coke, op. cit., p. 207.

(١١٧) Lane-Poole, op. cit., p. 220; Barber, op. cit., p. 86.

(١١٨) Sahilloglu, op. cit., p. 28.

(١١٩) Loc. cit.

(١٢٠) هامهر ، ص ٢٥٤ ؛ Coke, op. cit., p. 207.

بالاساس على القصف بالمدافع وتبادل نيران البنادق .

في يوم ٢ شعبان/٩ كانون الاول وصل الى مقر قيادة القوات العثمانية امير العرب (ابو ريشة) وهو يقود قافلة مؤلفة من ١٠٫٠٠٠ جمل محملة بالارزاق للجيش(١٢١) ، وجالبا معه عددا من الاسرى الفرس ، وقد استقبل السلطان ابا ريشة بترحاب واحترام كبيرين وقدم الخلع لسبعة من رجاله(١٢٢) . في اثناء ذلك ، ومع ورود الانباء باقتراب الشاه من ديالى على راس جيش فارسي مؤلف من ١٢٫٠٠٠ رجل ، حاول القادة الفرس المحاصرون رفع معنويات جنودهم ، ولكن سرعان ما خاب املهم في النجدة . فحالما سمع السلطان بذلك النبا اصدر امره الى كل من والي حلب محمد باشا ووالي طرابلس شاهين باشا وامير العرب ابو ريشة وخيالته ، بالتوجه على الفور الى منطقة ديالى للتصدي للقوات الفارسية ، ولكن الفرس سرعان ما انسحبوا حينما علموا باقتراب قوة التصدي العثمانية هذه(١٢٣) .

تواصل القتال بين الطرفين ولكنه اشتد « بضراوة لا توصف في الفترة ما بين ٥ و ١٨ شعبان »(١٢٤) ففي صباح الخامس من شعبان وزع على الجند ٢٦٠٫٠٠٠ كيس ، جرى العمل على ملئها بالتراب والرمال واصبحت مهياة في اليوم التالي ، وكانت الغاية منها ردم الخنادق(١٢٥) . وفي الالتحامات التالية استبسل الطرفان وسقط عدد من القتلى كان من بينهم اغا الفدائيين (سردن كچدى) وآلاي بك جرمن ، وكان لاستشهادهم صدى مؤلم لدى السلطان(١٢٦) . وقد تم افشال محاولة اغارة قام بها الفرس(١٢٧) .

نجحت القوات المهاجمة في ردم اجزاء كبيرة من الخنادق بحلول يوم ١٦ شعبان ، وكان السلطان متحرقا لشن الهجوم العام ، ولهذا فقد وجه لومه

(١٢١) المصدر نفسه ؛ Loc. cit.

(١٢٢) المصدر نفسه ؛ Loc. cit.

(١٢٣) المصدر نفسه ؛ العزاوي ، ص ٢٢٢ ؛ Longrigg, op. cit., p. 71; Coke, op. cit., p. 207

(١٢٤) Sahilloglu, op. cit., p. 28.

(١٢٥) Loc. cit. ؛ هذا مع العلم ان كلا من هامر والعزاوي يذكران ان عدد هذه الاكياس هي ٢٦٠٠ كيسا ! هامهر ، ص ٢٥٤ ، العزاوي ، ص ٢٢١ .

(١٢٦) هامهر ، ص ٢٥٤ .

(١٢٧) العزاوي ، ص ٢٢٢ .

الى الصدر الاعظم طيار باشا لتباطئه في شن الهجوم[١٢٨] قائلا « اهذه شجاعتك واقدامك ، ما هذا الانتظار وما معنى هـذا التأخير ؟ » فاجاب طيار « انا حاضر لفداء روحي لسلطاني ، فلو مات عبدك طيار فلا قيمة له ، اسأل الله ان يسهل الفتح »[١٢٩] . وقد تقرر القيام بالهجوم العام واختراق مواقع الدفاع الفارسية في صباح اليوم التالي . وفي تلك الليلة الحاسمة لم ينم العثمانيون وكان تكبيرهم يسمع من مسافة بعيدة[١٣٠] .

ما ان بزغت شمس يوم ١٧ شعبان ، حتى اندفعت جحافل العثمانيين من خنادقها يتقدمهم الوزراء والقادة ، والكل يهتف بصوت عاصف « الله كريم الله عظيم » ، فكان اندفاعهم « كموجة مد عارمة على انقاض الاسوار »[١٣١] . كان في مقدمة القوات المندفعة الصدر الاعظم طيار الذي « اعمل في عدوه السيف وابدى بسالة لا مثيل لها »[١٣٢] . ولكنه اصيب بقذيفة في جبهته ادت الى وفاته[١٣٣] . جيء بجثمان القائد الى خيمة السلطان ، فكان تأثره عميقا وحزنه صميميا ومرا[١٣٤] . وقرض نعيما طيار بقوله[١٣٥] « لقد عاش سعيدا ومات شهيدا » . وقد قام السلطان نفسه بامامة الصلاة على روح القائد الراحل[١٣٦] ، ودفن في مقبرة الامام الاعظم بالقرب من قبر والده مصطفى باشا ، الذي كان واليا على بغداد في فترة سابقة[١٣٧] . وعلى الاثر عين السلطان القبودان مصطفى باشا بمنصب الصدارة العظمى ، قائلا له « حقق ثقتي بك ، فبعون الله انت الذي ستفتح بغداد »[١٣٨] . قبّل مصطفى باشا الارض بحضرة السلطان قائلا بتأثر « لا اريد الا رضاك ودعواتك » ، وخرج وعيناه مغرورقتان بالدموع[١٣٩] .

اندفع مصطفى باشا مجددا الهجوم ، والجنود الذين الهب حماسهم تقدم الصدر الاعظم ، اندفعوا وراءه بفدائية عالية . وواصل القائد هجومه بعنف ، وتساقط العديد من اتباعه واصدقائه ولكنه لم يتوقف الى ان استولى على كافة الابراج ، وهكذا سقطت مدينة بغداد في ١٨ شعبان/٢٥ كانون الاول ، بعد اربعين يوما من الحصار والقتال الضاري[١٤٠] . وطيلة هذه الفترة « كان القتال يبدو وكأنه مذبحة متواصلة ... لم يتوقف فيها اطلاق القذائف وصليل السيوف للحظة واحدة مدمرة الجنود من كلا الجانبين »[١٤١] .

كان بكتاش خان ، الحاكم الفارسي لبغداد ، اول من ادرك عقم المقاومة بعد بدء الهجوم العثماني الشامل واكتساح اهم مواقع الدفاع الايرانية ، فعرض تسليم نفسه الى السلطان وارسل رسولا يحمل ذلك الى مراد الرابع[١٤٢] . وعن هذه الناحية يقول صاحب كلشن خلفا ، ان بكتاش خان قبل ان يقدم على خطوته تلك ، تداول مع القادة خلف خان وعلي بار ومير فتاح ، وانهم جميعا قرروا الاستسلام للقوات العثمانية ، ولكنه يخالف ما ورد في المصادر الاخرى بقوله « وبعدئذ تقدم بكتاش خان نحو السلطان يعرض الخضوع والتسليم وكذلك فعل بقية الامراء الآخرين الا امير القزلباش ابن فتاح فقد امتنع .. »[١٤٣] ولكن الوقائع تشير الى ان بكتاش خان سار وحده الى المعسكر العثماني ، يرافقه الجاويش باشي طوراق اغا ومتصرف نيكدة حسن اغا ، اللذان ارسلا لجلبه الى مقر القيادة العثمانية[١٤٤] . ومن خيمة الصدر الاعظم سار الوالي الفارسي بين صفين من

---

(١٢٨) هامر ، ص ٢٥٤ .
(١٢٩) المصدر نفسه ، العزاوي ، ص ٢٢٢ .
(١٣٠) هامر ، ص ٢٥٤ .
(١٣١) المصدر نفسه ؛ Lamartine, op. cit., p. 266
(١٣٢) العزاوي ، ص ٢٢٢ .
(١٣٣) هامر ، ص ٢٥٤ ؛ نظمي زادة مرتضى افندي ؛ كلشن خلفا ، ترجمة موسى كاظم نورس ، (بغداد ، مطبعة الاداب ، بدون تاريخ) ، ص ٢٢٢ ؛
Lamartine, op. cit., p. 266; Creasy, op. cit., p. 255; Longrigg, op. cit., p. 72.

(١٣٤) هامر ، ص ٢٥٥ ؛
Lamartine, op. cit., p. 266

ولو ان العزاوي يجعلها « مائة مدينة مثل بغداد » العزاوي ، ص ٢٤٤ . هذا ويخطيء كانتمير بقوله ان السلطان قتل بيده وزيره الاكبر لانه اظهر له مهملا !
Cantemir, op. cit., p. 248.

(١٣٥) مقتبس في : هامر ، ص ٢٥٥ ، اما لامرتين فيقول في رثائه « ان روحه غادرت قفصها الى الجنة »
Lamartine, op. cit., p. 266
(١٣٦) Coke, op. cit., p. 207

(١٣٧) هامر ، ص ٢٥٥ .
(١٣٨) المصدر نفسه Lamartine, op. cit., pp. 266-7
(١٣٩) هامر ، ص ٢٥٥ .
(١٤٠) المصدر نفسه ؛ العزاوي ، ص ٢٢٤ ؛
Longrigg, op. cit., p. 72
(١٤١) Cantemir, op. cit., p. 248
(١٤٢) هامر ، ص ٢٥٦ .
(١٤٣) كلشن خلفا ، ص ٢٣٣ .
(١٤٤) هامر ، ص ٢٥٦ .

السلحدارية والسباهية متوجها الى خيمة السلطان ، الذي كان جالسا على كرسي من الذهب، معتمرا شالا كشميريا على راسه معقود بابرة ذهبية مرصعة ، يحيط به الخدم متمنطقين الاحزمة المرصعة ، والى جانبه شيخ الاسلام والوزراء وسائر اركان الدولة . ان منظر الديوان هذا ، كان مجسما للآية الكريمة « انا فتحنا لك فتحا مبينا »(١٤٥) . اقتيد بكتاش خان الى الموضع الذي جلس فيه مراد ، فقبل ارجل السلطان ملتمسا « الامان » فاجابه السلطان لذلك على ان يقوم باخلاء القلعة في نفس ذلك اليوم ؛ كما وجه اليه اللوم لعدم استسلامه قبل هذا الوقت ؛ الا انه اردف « لكنك تمت بواجب الخدمة لمتبوعك جهد طاقتك ، فانت معذور »(١٤٦) ثم انعم عليه بخلعة وخنجر مرصع بالجواهر(١٤٧) . ثم انهى كلامه بالقول « على كل الخانات والقادة في القلعة الاستسلام ، وهم مخيرين في البقاء عندنا او بالذهاب الى الشاه »(١٤٨) .

وبناء على هذا توجه بكتاش خان الى خيمة الصدر الاعظم ، وهناك كتب رسائل الى كل من مير فتاح وبار علي وخلف وبقية الخانات والضباط الفرس طالبا منهم وجوب تسليم القلعة(١٤٩) . في الوقت نفسه اصدر الصدر الاعظم امره بتفتيش كافة الابراج التي استولى عليها الجيش العثماني خشية من وجود كمائن والغام . الا ان المدافعين رفضوا الانصياع فنشب القتال من جديد(١٥٠) .

(١٤٥) المصدر نفسه .

(١٤٦) المصدر نفسه ؛ العزاوي ، ص ٢٢٥ .

(١٤٧) Sahilloglu, op. cit., 28.

(١٤٨) هامر ، ص ٢٥٧ .

(١٤٩) المصدر نفسه ؛ في نفس تلك الليلة وجد بكتاش خان ميتا ، وتختلف المصادر في توضيح ظروف ودوافع موته . ويكتفي الكاتب الذي رافق السلطان مراد في حملته على بغداد بقوله « في يوم الجمعة مات بكتاش خان فجاة » (Sahilloglu, op. cit., p. 29)
ومن هذا الراى لونكريك « مات بكتاش خان مسمما بصورة مفاجاة » Longrigg, op. cit., p. 73
ويتهم هامر زوجة بكتاش خان بانها هي التي سممته « لانها رفضت مرافقته الى الاستانة ، وقد سلمت القاتلة مع خزينتها الى والدها لور حسين خان حاكم مندلي » (هامر ، ص ٢٥٩) ويتفق صاحب كلشن خلفا وكوك على ان بكتاش خان « انتحر متاثرا بالغم الذي اصابه من انخذال قواته » (كلشن خلفا ، ص ٢٢٢ ؛ (Coke, op. cit., p. 208

(١٥٠) هامر ، ص ٢٥٧ .

وفي نفس تلك الليلة التجأ كل من مير فتاح وبار علي وخلف الى « قلعة نارين » ، في نفس الوقت الذي كانت فيه الجحافل العثمانية تتدفق على المدينة من كل الجهات . وقد صحب دخول القوات العثمانية واستمرار بعض الفرس في المقاومة ، وقوع حوادث فوضى ونهب وقتال(١٥١) . ويقول الكاتب المرافق للحملة عن تلك الليلة « دخل الجيش العثماني الى المدينة ونهبها واخرج ارزاقا عظيمة »(١٥٢) . ولم توفق جهود الصدر الاعظم ، الذي جاء بنفسه ، في ايقاف الفوضى واعادة الامن(١٥٣) .

استمرت الاشتباكات بسبب اصرار بعض الفرس على القتال ، وسقط رئيس الكتاب اسماعيل افندي قتيلا ؛ كما تعرض السلحدار باشا للاغتيال حينما هجم عليه احد الفرس شاهرا سيفه ، الا ان احد افراد الدلي – قوة من القوات الفدائية – انقذه مضحيا بحياته في سبيل ذلك(١٥٤) . في هذا الوقت قدم الى السلطان احد جنود عسكر الروملي مطالبا اياه بعدم منح « الامان » وقد استغرب السلطان هذا الموقف من احد جنوده وتساءل عن السبب في هذا الطلب ، فبين الجندي ان والده واخوته واعمامه قد سقطوا قتلى في الحملات المتعاقبة لاستعادة بغداد ، وها ان الفرصة قد حانت للانتقام(١٥٥) . وفي خلال هذا الحديث ، قدم احد مشايخ بغداد وهو يقتاد رجلين من الفرس مربوطين بالسلاسل ، قد غضب مراد ووجه كلامه الى الشيخ متسائلا « لقد اصدرت الامان فلماذا تأسرهم ؟ » فأجاب الشيخ بأن هؤلاء قد رفضوا الامان الممنوح لهم وحملوا السلاح(١٥٦) . ولدى سماع السلطان لهذا القول ، ارسل احد خدمه التتار على فرسه لاستطلاع الحالة في بغداد واعلامه بالموقف ؛ ولم يلبث الوصيف ان عاد يخبره بان الفرس عند الباب المظلم يقاتلون باستماتة ، وان عددا من الباشوات قتلوا او جرحوا(١٥٧) . وهنا استدعى السلطان حسين باشا بكلربك الروملي ، وامره باجراء قتل عام اذا واصل الفرس المقاومة(١٥٨) .

(١٥١) المصدر نفسه .

(١٥٢) Sahilloglu, op. cit., p. 29.

(١٥٣) هامر ، ص ٢٥٧ .

(١٥٤) المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ .

(١٥٥) المصدر نفسه .

(١٥٦) المصدر نفسه .

(١٥٧) Lamartine, op. cit., p. 267.

(١٥٨) هامر ، ص ٢٥٨ .

قام حسين باشا يرافقه السلحدار بانذار القادة الفرس المستحكمين في قلعة نارين بوجوب الاستسلام . فاستجاب كل من مير فتاح وخلف ويار علي للانذار واعلنوا استسلامهم ، فاقتيدوا الى السلطان الذي عهد بهم الى السلحدار لحجزهم ؛ في حين واصل ولدى مير فتاح القتال(١٥٩) . وعند هذا وجهت المدفعية العثمانية نيرانها الى القلعة فتساقط عدد من القزلباش قتلى وتم اسر كثيرين منهم ، جرى قتلهم امام خيمة السلطان(١٦٠) . ولم يبق هناك خيار للباقين من الفرس فاعلنوا استسلامهم وعلى الاثر دخل بكلربك الاناضول الى القلعة واخرج الموجودين فيها(١٦١) . ادت تلك المضاعفات والملابسات التي رافقت دخول بغداد الى ان تعم الفوضى ، ولهذا لم يحفل الجنود العثمانيون بامر العفو « وبعد تعقب الفرس من زاوية الى اخرى » صدر امر ثان بالامان(١٦٢) .

في هذه الاثناء تمكن عدة مئات من الفرس(١٦٣) من الهرب من الباب المظلم ووصلوا قرب نهر ديالى ، الا ان القوات المصرية التي عهد اليها بمهمة مطاردتهم ادركتهم وقتلت الكثيرين منهم في حين لجأ قسم من هؤلاء الفارين الى داخل قبة كبيرة في شهربان(١٦٤) ، ولكن انهيار تلك القبة ادى الى هلاك اكثرهم(١٦٥) . اما الكاتب الذي رافق الحملة فيورد رواية مغايرة لتلك حيث يذكر ان اثنين من الخانات سلموا انفسهم ومعهم ثمانمائة قزلباشي ، وقد اقتيد هذان الخانان الى حضرة السلطان في حين سلم القزلباش الى بكلر بك الروملي « وقد جاء بهم هذا الى ديالى حيث اطلق سراحهم هناك »(١٦٦) .

تختلف الروايات في تحديد خسائر القوات الفارسية ، فبجوى الذي حدد عدد افراد الحامية

(١٥٩) المصدر نفسه .

(١٦٠) المصدر نفسه .

(١٦١) المصدر نفسه .

(١٦٢) Sahilloglu, op. cit., p. 29.

(١٦٣) يقدر لامرتين خطا عدد هؤلاء الفارين بـ ٢٠٠٠ر٢٠ رجل ! Lamartine, op. cit., p. 267.

(١٦٤) يقول العزاوي نقلا عن الغرابي ان عدد الذين لجاوا الى القبة كان خمسة وعشرين شخصا فقط نجا واحد منهم فقط . العزاوي ، ص ٢٣٠ .

(١٦٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٩ ، هامر ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ ؛ Lamartine, op. cit., p. 267.

(١٦٦) Sahilloglu, op. cit., p. 29.

بـ ٠٠٠ر٣٤ مقاتل يقول(١٦٧) « من غير المؤكد نجاة عشر معشارهم » . اما منجم باشي فيتقارب مع بجوى في تقديراته ، حيث يذكر انه من مجموع الـ ٠٠٠ر٣٠ محارب من الفرس نجا ٣٠٠ جريح فقط « وصلوا اشبه بالاموات الى جيش الشاه ، وفيما عدا هؤلاء فان البقية ابيدوا »(١٦٨) . ويحدد بشكل اكثر دقة تلك الارقام فيقول « قتل منهم في ايام الحصار ٠٠٠ر١٠ رجل ، وبعد الفتح ذبح ٧٠٠ر١٩ »(١٦٩) . اما هامر فيقول « من مجموع ٠٠٠ر٣٠ مقاتل فارسي دافعوا عن بغداد لم يصل منهم الى جيش الشاه سوى ثلاثة آلاف رجل ؛ فقد قتل منهم ٠٠٠ر١٢ في خلال معارك الحصار ، في حين جرت عملية قتل عام للبقية يوم التسليم »(١٧٠) . اما كوك فيورد رواية شاهد عيان يظهر فيها المبالغة اذ يقول(١٧١) « كان في بغداد واحد وثلاثين الفا من الجنود وعشرين الف متطوع تم قتلهم جميعا بالسيف ، ولم ينج منهم اي فرد ليحمل نبا ذلك الى مدن فارس » . اما كل من كانتمير وباربر فانهما يوردان روايتين فيهما مبالغة في محاولة لالصاق صفة الجزار بالسلطان فيقول الاول(١٧٢) « مجموع الـ ٠٠٠ر٣٠ فارسي الذين سلموا انفسهم الى السلطان ، جرى ذبحهم جميعا في حضرته حتى آخر رجل » . اما الثاني فيقول(١٧٣) « امر مراد بمذبحة عامة للحامية ونفذ الامر في يوم واحد من المجازر ومن بين الـ ٠٠٠ر٣٠ فارسي لم ينج سوى ٣٠٠ رجل فقط » . ولكن اقرب الروايات الى المعقول ما اورده الكاتب الذي رافق الحملة حيث يقول(١٧٤) : « لقد قتل من الفرس اكثر من ٠٠٠ر٢٠ رجل » . وهو في هذا يدمج عدد القتلى الذين قتلوا في الالتحامات باولئك الذين تم اعدامهم بعد الاستيلاء على بغداد .

على اثر سيطرة القوات العثمانية على بغداد والقضاء على المقاومة الفارسية ، صدرت الاوامر بالمحافظة على حياة السكان المدنيين(١٧٥) ، « وعدم نهب ممتلكاتهم ؛ وان كل من عثر على ماله بامكانه

(١٦٧) بجوى ، ص ٤٥١ .

(١٦٨) منجم باشي ، ص ٦٧٤ .

(١٦٩) المصدر نفسه .

(١٧٠) هامر ، ص ٢٥٩ .

(١٧١) Coke, op. cit., p. 210.

(١٧٢) Cantemir, op. cit., p. 248.

(١٧٣) Barber, op. cit., p. 86.

(١٧٤) Sahilloglu, op. cit., p. 29.

(١٧٥) هامر ، ص ٢٥٦ .

استمدادته »(١٧٦) وعقد السلطان مراد بعد الفتح ديوانا عاما انعم فيه على شيخ الاسلام والوزراء والقادة ، الذين ابدوا بسالة في القتال ، ثم توجه بعد ذلك الى مقام الامام الاعظم لأداء الزيارة المنتظرة(١٧٧) . وارسلت بشارة الفتح الى استانبول بيد خليل اغا(١٧٨) .

قام مراد الرابع بعد انجاز الفتح باتخاذ الترتيبات المقتضية لتنظيم ادارة بغداد ؛ فعين كجك حسن ، اغا الانكشارية واليا على بغداد(١٧٩)، كما قرر ترك حامية مؤلفة من ٠٠٠ر٨ جندي للمحافظة على بغداد ، وعين على قيادتها بكتاش اغا ، كتخدا الانكشارية ، كما عين سلحدار باشا بمنصب القبودان(١٨٠) ؛ اما منصب قاضي بغداد فقد عهد به الى تذكرجي موسى افندي(١٨١) .

قبل انجاز الاستعدادات الاخيرة لمغادرة بغداد ؛ قام السلطان وكافة اركان الدولة المرافقين له ، بزيارة مرقد الامام موسى الكاظم ، في يوم الجمعة المصادف التاسع من رمضان(١٨٢) . وفي ذلك اليوم حدث انفجار في « بارود خانة »(١٨٣) بغداد ، ادى الى مقتل عدد من الافراد(١٨٤) مما اغضب السلطان ، فاصدر امره بقتل « البقية الباقية من القزلباش »(١٨٥) . وهناك خلاف في المصادر حول تحديد عدد الذين تم قتلهم نتيجة هذا الحادث . يقول لامرتين « اصدر السلطان امره بان يقوم سكان بغداد بقتل اي فارسي قد يكون لاجئا في دورهم ، وتم اعدام ١٠٠٠ فارسي امامه على ضفة دجلة »(١٨٦) . اما لونكريك وباربر فيذكران ان عدد الذين قتلوا في الذبحة التي اعقبت الانفجار بلغ ٠٠٠ر٣٠ شخص(١٨٧) ولكن يبدو بصورة عامة ، ان امر القتل قد شمل الرجال من الفرس ، سواء اكانوا من الجنود او من الذين اشتبه باشتراكهم بالقتال في خلال معارك الحصار ثم اعفي عنهم ، فالكاتب الذي رافق الحملة خص بالذكر ، كما مر بنا قبل قليل ، القزلباش ، كما ان صاحب كلشن خلفا يقول بصدد حادثة الانفجار وما تلاها بانها « تدل على انقضاء عهد القزلباش وادبارهم وفعلا صدرت الاوامر بافنائهم ، سواء الذين يسكنون داخل المدينة ام خارجها ، عدا الذين لم يشتركوا في القتال فقد رحلوا من البلاد وانتشر المنادون يعلنون العفو العام في البلدة »(١٨٨) .

اشرفت مهمة السلطان على نهايتها ، واستعد لمغادرة بغداد بعد ان امر الصدر الاعظم بانجاز المهمات التي بداها هو ، وبخاصة اعادة بناء الاسوار والاستحكامات وتعمير مرقدي الامام الاعظم والكيلاني(١٨٩) . وفي ١٢ رمضان غادر المدينة ؛ ولدى مغادرته تم اغلاق باب الطلسم(١٩٠) . ومن امام مقام الامام موسى الكاظم بدات مسيرة العودة نحو العاصمة(١٩١) . وفي خلال ذلك وجه مراد تحديا مهينا للشاه قال فيه « لو كنت رجلا لاظهرت نفسك . ذلك انه من ينتحل العرش لنفسه لا يجدر به ان يظل متواريا وراء الجدران ، فالذي يخاف من الحصان لا يجب ان يمتطيه ، والذي يبهره وهج الفولاذ ان لا يقرب السيف ؛ فما كتب منذ الازل لابد وان يتحقق »(١٩٢) .

عودة السلطان الى استانبول

استغرقت رحلة العودة للسلطان حوالي

(١٧٦) العزاوي ، ص ٢٣٠ .
(١٧٧) Sahilloglu, op. cit., p. 29.
(١٧٨) هاممر ، ص ٢٥٩ .
(١٧٩) Sahilloglu, op. cit., p. 29.
(١٨٠) هاممر ، ص ٢٦٠؛ Longrigg, op. cit., p. 73
اما لامرتين فيقدر عدد افراد الحامية التي تركها السلطان في بغداد بـ ٠٠٠ر١٠ رجل
(Lamartine, op. cit., p. 268)
في حين ان العزاوي يذكر ان عدد القوات التي كلفت بحماية بغداد بعد ان غادرها السلطان هي ٠٠٠ر١٢ من الجيش البغدادي و ٠٠٠ر٨ انكشاري و ٠٠٠ر١ سباهي (العزاوي ، ص ٢٣٦) .
(١٨١) Sahilloglu, op. cit., p. 29.
(١٨٢) Loc. cit.
(١٨٣) Barudhâna وهي كلمة تركية تعني مخازن البارود . انظر : Gibb and Bowen, op. cit., p. 68.
(١٨٤) بلغ عدد القتلى والجرحى من الانكشارية ٨٠٠ رجل (Greasy, op. cit., p. 256)
(١٨٥) Sahilloglu, op. cit., p. 29. ؛ ويخطيء كوك بذكره ان الانفجار حدث في اليوم الاول من دخول القوات العثمانية الى بغداد . انظر : Coke, op. cit., p. 208
(١٨٦) Lamartine, op. cit., pp. 267-8.
(١٨٧) Longrigg, op. cit., p. 74; Barber, op. cit., p. 86.
(١٨٨) كلشن خلفا ، ص ٢٣١ .
(١٨٩) المصدر نفسه ؛ العزاوي ، ص ٢٣٤ ؛ Cantemir, op. cit., p. 249; Creasy, op. cit., p. 256.
(١٩٠) Duri, op. cit., p. 904.
(١٩١) Sahilloglu, op. cit., p. 29.
(١٩٢) Quoted in : Lamartine, op. cit., p. 268.

ثمانين يوما وقسمت الرحلة الى خمس وستين مرحلة ابتدات من امام مقام الكاظم في ١٢ رمضان وانتهت بدخول السلطان اسكدار في الخامس من صفر(١٩٣) . وقد سلك السلطان في مسيرة العودة طريقا غير الطريق الذي قدم منه ، ويبدو ان الغاية من ذلك اكمال تفقد مقاطعات الدولة وتنظيم امور المناطق التي يمر منها . كانت اهم المناطق التي مر بها والقوات المرافقة له : سميكة ـ تكريت ـ حمام العليل ـ الموصل ـ نصيبين ـ ماردين ـ ديار بكر ـ ملطية ـ سيواس ـ انقرة ـ اسكدار(١٩٤) .

قبل ان يدخل العاصمة ، كان مصمما على ان يحتفل بانتصاره « بدرجة سيظل السكان يذكرونها ابدا » ولهذا ، وحينما كان على بعد ايام قليلة من استانبول ارسل تعليماته باعداد الاستقبال حملها الحمام الزاجل(١٩٥) .

دخل مراد الرابع استانبول في يوم ١٠ حزيران ١٦٣٩(١٩٦) ، بموكب حافل ظلت ذكراه عالقة بالاذهان . لا بسبب روعته واهمية الانتصار العسكري الذي احرزه الجيش العثماني فحسب ، بل لكونه كان آخر مشهد قدّر فيه لعاصمة الامبراطورية ان ترى عاهلها وهو مكلل بالنصر(١٩٧) . ويصف مؤرخ عثماني شهد المنظر فيقول(١٩٨) « انه منظر يقف اللسان عاجزا عن الاخبار عنه ويعجز اي قلم عن وصفه . كانت الشرفات واسطح المنازل تغص بالناس وهم يهتفون بحماس كبير : ليكن الله الرحيم معك يا ايها الفاتح ، مرحبا مراد ، لتكن انتصاراتك مباركة » . وكان مراد يرتدي درعا من الفولاذ الصقيل المذهب ويغطي كتفيه جلد الفهد ويمتطي حصانا حربيا رائعا متبوعا بسبعة خيول عربية ذات سروج مرصعة بالجواهر(١٩٩) . ويسير الى جانبه اثنان وعشرون من كبار النبلاء الفرس على اقدامهم وهم مقيدون بسلاسل مذهبة(٢٠٠) في حين كانت الابواق والصنوج تعزف في مقدمة الموكب ، وهو ، في مروره ، ينظر بفخر الى كلا الجانبين « كالاسد الذي نال بغيته ، محييا الجماهير التي كان يعلو صياحها : تبارك الله ، رامين بانفسهم على الارض »(٢٠١) في نفس الوقت ، كانت كل السفن الحربية في البسفور تطلق مدافعها محيية « فبدا وكأن البحر يتفجر انفعالا واهيبا » وقد كرست سبعة ايام وليال للاحتفال بهذا النصر العظيم(٢٠٢) .

معاهدة زهاب ١٧ مايس ١٦٣٩

ذكرنا ان الصدر الاعظم ، وبناء على تعليمات السلطان مراد الرابع ، تخلف في بغداد لانجاز المهمات التي بداها العاهل العثماني . وقد امضى مصطفى باشا قرابة الشهرين في بغداد وجه خلالها اهتماما خاصا لاعادة بناء التحصينات وتحديد عدد القوات المناسبة للمحافظة على المدينة خشية من محاولة قد يفكر بها الفرس للهجوم على بغداد « وبذلت الجهود لبناء المنازل والاسواق واعادة زرع البساتين وتشجيع كل اولئك الذين غادروها، ابان الحكم الفارسي ، على العودة اليها »(٢٠٣) . ولم يكتف مصطفى باشا بذلك ، بل قرر استثمار النصر وتامين المناطق المحيطة ببغداد ، نزولا عند وصية السلطان له « بان يكون متيقظا وان يتخذ الاحتياطات الضرورية »(٢٠٤) . تحرك الصدر الاعظم على راس قواته ، في اوائل شهر ذي القعدة ، متجها نحو الشرق بهدف الدخول في المناطق الفارسية ، ولكن التطورات التي اعقبت تحرك الجيش العثماني ، وقبل ان يتوغل مسافة واسعة في المناطق التابعة للصفويين ، قادت بالنهاية الى عقد معاهدة صلح بين الطرفين في (زهاب) ـ الواقعة شمال ايران ـ في ١٤ محرم ١٠٤٩هـ/ ١٧ مايس ١٦٣٩ . وفيما يلي اهم ما جاء في تلك المعاهدة الشهيرة(٢٠٥) : « معاهدة السلم والحدود بين الامبراطورية العثمانية وايران ١٧ مايس ١٦٣٩ » (اعيد اقرارها في ٤ ايلول ١٧٤٦ ، ٢٨ تموز ١٨٢٣ ، و ٣١ مايس ١٨٤٧) .

تبدا بآيات قرآنية عن مزايا السلام وكراهية الحرب ، ثم يسجل الصدر الاعظم بانه مخول

---

(١٩٣) Sahilloglu, op. cit., pp. 29-35.

(١٩٤) للمزيد من التفاصيل : Ibid.

(١٩٥) Barber, op. cit., p. 86.

(١٩٦) Eton, op. cit., p. 178.

(١٩٧) Creasy, op. cit., p. 256; Barber, op. cit., p. 87.

(١٩٨) Creasy, op. cit., p. 256.

(١٩٩) Loc. cit.; Barber, op. cit., p. 86.

(٢٠٠) Ibid., pp. 86-7.

(٢٠١) Creasy, op. cit., p. 256.

(٢٠٢) Loc. cit.

(٢٠٣) Coke, op. cit., p. 210.

(٢٠٤) كلشن خلفا ، ص ٢٢٥ .

(٢٠٥) للنص الكامل للمعاهدة يراجع :
J C. Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East (New York, rep., 1958), vol. I, pp. 21-3.

بصلاحية كاملة من قبل السلطان « حامي العقيدة ... وظل الله في الارض ... حامي الاسلام والمسلمين وخادم الحرمين الشريفين » في اقرار ما يراه من حرب او سلام . لقد امرت القوات العثمانية المظفرة بالزحف من وراء بغداد ، وبدات بالتوجه اماما بهدف الدخول في المناطق الفارسية، وحين وصولنا الى الموقع المدعو هاروني Haronia وصل اليها المحترم شمس الدين محمد قولي بك Chems Uddin Mehemed Culy Bey وهو مخول بصلاحيات سفير ويحمل رسالة من الشاه المبجل « الذي عظمته مساوية لتلك التي لداريوس ... اللؤلؤة الثمينة في بحر الملكية وشمس سماء السيادة ، النسر النبيل في ميدان النبل ... عسى الله ان يعلي رايات قوته من الارض الى السماء » الى ملكنا المعظم ورسالة اخرى لي . وقد طلب السفير ان نعمل على اطفاء نيران الحرب ، وانا بدوري ولرغبتي في تطبيق ما جاء في كتاب الله العزيز « فان جنحوا للسلم فاجنح لها » وافقت من اجل سلامة الجنس البشري على احلال السلام ؛ وارسلت رسالة الى الشاه طالبا منه ان يرسل شخصا مخولا بصلاحية مطلقة لتحقيق شروط السلام بطريقة مشرفة لكلا الحكومتين . ونتيجة لذلك ، فقد عين الشاه المحترم صاروخان Saroukhan عاهدا له بصلاحية التفاوض لعقد المعاهدة .

وحين وصول صاروخان الى المعسكر الامبراطوري في (زهاب) استقبل بالترحاب . وفي اليوم الرابع عشر من محرم من سنة ١٠٤٩ للهجرة، عقد اجتماع في المعسكر الامبراطوري حضره الوزراء والميري ميران Miri Miran [٢٠٦] والقادة والاغوات ، اغا الانكشارية وستة اغوات لستة سرايا وضباط آخرون من الجيش . وقدم صاروخان والسفير محمد قولي بك الى الديوان، وجرت مناقشة المقترحات التمهيدية معهم لوضع الاساس للعلاقات بين الطرفين . وقد جرت كتابة نتيجة المناقشات التي تمت بين الجانبين كما يأتي :

« جصان Tzanan بدرة ، مندلي ، درتنك Dertenk درنة Dernai التابعة لباشوية بغداد ستظل تحت سلطة عاهلنا المهيب ، والذي ستكون من ممتلكاته ايضا السهول الواقعة بين مندلي ودرتنك ، في حين تبقى الجبال تحت سلطة الشاه . وتشكل سرميل Serminil الحدود بين درتنك وديراني . وذلك الجزء من منطقة هاروني Haronia الذي تقطن فيه قبائل الجاف وضياء الدين Zilja Uddin ستكون للسلطان ، في حين تبقى Pezai و Zerdony تابعة للشاه. اما قلعة زنجير Zindjir والتي تقوم على قمة الجبل فيجب ان يتم هدمها ، وتكون في حوزة السلطان كل القرى الواقعة غربها . اما القرى الواقعة الى الشرق منها فانها ستكون من ممتلكات الشاه كالقرى الواقعة على الجبل فوق سالم قلعة Sailm Calé بالقرب من شهرزور في حين ان القرى الواقعة الى الشرق تكون من ممتلكات الشاه ، الذي سيحتفظ بالاضافة اليها بقلعة اورمان Orman مع القرى التي تعتمد على تلك القلعة . ويعتبر الممر الضيق (الشعب) المؤدي الى شهرزور ، خط حدود . ونظل في حوزة السلطان قلعة قزلجة Kizilidji مع توابعها في حين تكون من ممتلكات الشاه منطقة مهربان Mihreban وتوابعها . وعلى الطرفين القيام بهدم قلاع قوتور Cotour او Kotur وماكو Makoo على حدود وان وقلعة مغازبرد Magazberd باتجاه قارص ووان . ويتعهد الشاه بعدم التحرش والتعرض بقلاع آخسخة Akiskha وقارص وشهرزور وبغداد والبصرة والاماكن الاخرى الواقعة ضمن الحدود ، مثل الحصون والقلاع والمقاطعات والاراضي والتلال والجبال وبعدم تشجيع حركات التمرد في هذه الاماكن . ومن جانبه ، فان جلالة عاهلنا المبجل سيحترم السلام وسوف لن يتحرش او يتعرض بما يناقض المعاهدة في الاماكن التي تقع ضمن حدود الطرف الآخر . وبناء على ذلك ، ومن اجل حرية وسلامة التجار والمسافرين التابعين لكلا الجانبين ، فانني ؛ وبقوة ما امتلكه من صلاحية كاملة وسلطة، كتبت هذه المعاهدة الاولية ذات المحتوى الصادق، وارسلتها الى جلالة الشاه والى عاهلنا المعظم المبجل . وطالما حافظ الشاه على التزامه بهذه

(٢٠٦) مير ميران كلمة عربية متركة تقابل (البكلربك ، والكلمة « اميرى اميران Emiri Emirân » هي تكييف فارسي للكلمة العربية « امير الامراء » . انظر :
Gibb and Bowen, op. cit., p. 139 and fn. 1.

المعاهدة فان صاحب الجلالة عاهلنا المبجل من جانبه سيتصرف وفق الامر الالهي « اوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا » .

هذا السلام السعيد سيستمر ويحافظ عليه بمشيئة الله ، الى يوم الدين .

الحمد لله الواحد الاحد والسلام على من لا نبي بعده اولا وآخر » .

ختم

مصطفى ، الصدر الاعظم[٢٠٧]

تحتل هذه المعاهدة اهمية خاصة في تاريخ العلاقات بين الدولتين ، العثمانية والفارسية ، وهي اكمل المعاهدات التي عقدت بينهما حتى ذلك الوقت ، كما انها رسمت حدودا معلومة بين الدولتين ولا سيما المناطق التي كانت مسرحا للنزاع بينهما[٢٠٨] . وقد ظلت تلك الحدود ، على الرغم من عدم دقة رسمها ، غير متغيرة « فيما عدا استثناءات قليلة » لاكثر من قرنين من الزمن[٢٠٩] . وحتى منتصف القرن التاسع عشر ، وحينما عملت لجان مشتركة على تعيين الحدود بدقة كاملة ، شكلت معاهدة (زهاب) هذه ، نقطة الارتكاز[٢١٠] .

---

(٢٠٧) Hurewitz, op. cit., pp. 21-3.

(٢٠٨) الضابط ، ص ٢٤ .

(٢٠٩) Hurewitz, op. cit., p. 21.

(٢١٠) Loc. cit

مصادر ومراجع البحث

١ ــ المصادر التركية

(١) Sahilloglu, Halil, Dördüncu Muradin Bagdat Seferi Menzilnamesi (Belgeler-C. 11-1965-Sayi-3-4).

(٢) عاتق ، سيد ، تاريخ بجوى (استانبول ، مطبعة عامرة ، بدون تاريخ) جـ ٢ .

(٣) منجم باشي ، تاريخي ; مطبعة عامرة ، استانبول ١٢٨٥هـ/١٨٦٨) جـ ٣ .

(٤) هامعر ، دولت عثمانية تاريخي ، مترجمي محمد عطا (اوقاف اسلامية مطبعة سي ، ١٢٢٥هـ) ، مجلد ٩ .

٢ ــ المصادر العربية

(١) تافرنييه ، العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنييه ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، (بغداد ، ١٩٤٤) .

(٢) سرهنك ، الميرالاى اسماعيل ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، (القاهرة ١٣١٤هـ) ، جـ ٢ .

(٣) الضابط ، شاكر صابر ، العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران ، (بغداد ، ١٩٦٦) .

(٤) القهواتي ، حسين محمد ، العراق بين الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ١٥٣٤ ــ ١٦٢٨ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ١٩٧٥ .

(٥) العزاوي ، عباس ، العراق بين احتلالين ; بغداد ، ١٩٤٩) ، جـ ٤ .

٣ ــ المصادر الاجنبية

(1) Barber, Noel; The Lords of the Golden Horn (London, 1974).

(2) Cantemir, Demetrius; The History of the Growth and Decay of the Ottoman Empire, trans. from the Latin by N. Tindal (London, 1734), vol. I.

(3) Coke, Richard; Baghdad the City of Peace (London, 1927).

(4) Creasy, Edward S.; History of the Ottoman Turks (Beirut, rep., 1961).

(5) Dury, A. A., 'Baghdad', in : The Encyclopeadia of Islam, new edition (Leiden, 1960), vol. I.

(6) Eton, W; A Survey of the Turkish Empire (London, 1799).

(7) Gibb, H. A. R. and Bowen, H.; Islamic Society and the West (Oxford, 1969), vol. I.

(8) Hurewitz; J. C., Diplomacy in the Near and Middle East (New York, rep., 1958), vol. I.

(9) Lamartine, A. De; History of Turkey, trans. from the French (New York, 1857), vol. III.

(10) Lane-Pool, Stanley; Turkey (London, 5th imp., 1908).

(11) Longrigg, S. H.; Four Centuries of Modern Iraq (Beirut, new imp., 1968).

حملة نادرشاه على بغداد

بقلم الدكتور

علاء موسى كاظم نورس

كلية الاداب / جامعة بغداد

كانت العلاقات العثمانية الفارسية ذات طابع خاص محلي ودولي منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي . فقد ادى ظهور الدولة الصفوية في بلاد فارس ، الى احداث انقلاب في استراتيجية الدولة العثمانية فتوقف زحفها في اوربا او كاد واتجهت اتجاهاً شرقياً في قلب الشرق العربي(١) . وذلك للوقوف بوجه الصفويين الذين كانوا معهم على طرفي نقيض ، والذين اخذت قوتهم تتعاظم بسرعة واصبحوا يهددون الدولة العثمانية بعد ان امتدت سيطرتهم الى هراة شرقاً وديار بكر وبغداد غرباً(٢) .

ولكن ، كما واجه الساسانيون والفرثيون من قبلهم البيزنطيين والرومان فقد وجد الصفويون ان عليهم ان يتحملوا تبعة تحدي سلطة الاتراك العثمانيين(٣) ؛ خاصة وانه لم يبق لدولة الاق قوينلو الحاجزة بينهما اي وجود بعد سقوطها سنة ١٥٠٨م(٤) .

ولما كان العراق مركز الجاذبية السياسية والاقتصادية خلال مختلف العصور ، فقد دار صراع متطاول بين الفرس والعثمانيين للاستيلاء عليه . ولم ينه الفتح العثماني للعراق سنة ١٥٣٤م هذا الصراع ، فالعراق عاد الى السقوط مرة اخرى بعد ذلك في يد الصفويين(٥) . ولكن اذا كان العثمانيون قد حاولوا اكثر من مرة استرداد بغداد وفشلوا ، الا ان ذلك ما كان ليحول دون معاودة الكرة ، وبقوة اكبر ، اذا تولى العرش سلطان قوي مثل مراد الرابع آخر السلاطين العثمانيين الفاتحين . فقد قام بحملة شاملة على بلاد فارس واسترد العراق في سنة ١٦٣٨م(٦) ، بعد احتلال فارسي دام خمسة عشر عاماً (١٦٢٣ — ١٦٣٨) . ودارت من بعد مفاوضات ادت الى عقد معاهدة زهاب سنة ١٦٣٩م(٧) ؛ والتي اصبحت نصوصها اساساً لجميع المعاهدات التالية ؛ بل كان لها شأن خطير في تحديد العلاقات بين الدولتين العثمانية والفارسية حتى القرن العشرين .

غير ان اطماع الدولة الفارسية التوسعية لم تحل دونها اية معاهدة ، واذا قدر لهذا الصلح ان يدوم فترة طولها ثمانون عاماً ، دون ان يعكره

(١) محمد انيس ، الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة ؟ ، ص ١٠٠ .

(٢) محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، القاهرة ١٨٩٦ ، ص ٧٣ ؛ خليل ادهم ، دول اسلامية ، استانبول ١٣٤٥ ، ص ٤١٢ .

(٣) فيليب حتي ، موجز تاريخ الشرق الادنى ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٧٢ .

(٤) ستيفن لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ط ٢ ، بغداد ١٩٦٨ ، ص ٢٣ .
وكان الشاه اسماعيل الصفوي قد استطاع في سنة ١٥٠٨م ان ينتزع بغداد من سيطرة القبيلة التركمانية الاق قوينلو التي حكمت العراق منذ سنة ١٤٦٨م .

(٥) سقطت بغداد ثانية بايدي الفرس سنة ١٦٢٣م في عهد الشاه عباس الكبير .

(٦) مرتضى نظمي زادة ، كلشن خلفا ، ترجمة موسى كاظم نورس ، النجف ١٩٧١ ، ص ٣٢ ؛ احمد بن لطف الله منجم باشي ، صحائف الاخبار ، ج ٣ ، ص ٢١٣ .

(٧) انظر نصوص المعاهدة في : تاريخ نعيما ، ج ٣ ، ص ٤٢٠ ؛ معاهدات عمومية مجموعة سي ، ج ٢ ، ص‌ص ٢١٠ — ٢١٢ ؛ شاكر الصابط ، العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران ، ص‌ص ٣٢ — ٣٦ .

قتال جدي بين الدولتين ، فان ذلك يمكن ان يعزى الى انشغال الدولة العثمانية بحروبها الاوربية(8)، وانشغال الدولة الفارسية بمشاكلها الداخلية .

وينبغي ان نشير هنا الى ان بلاد فارس شهدت في اوائل القرن الثامن عشر ، تزايد انحلال الاسرة الصفوية ، وسيرها نحو الانهيار بخطى سريعة . وما رافق ذلك من موجات عاصفة من الاضطراب وعدم الاستقرار ، استغرقت العقود الثلاثة من ذلك القرن ، ووصلت الى مداها بتمزق البلاد الفارسية على اثر سقوط الحكم الصفوي سنة ١٢٧٧م بعد الغزو الاجنبي الافغاني اولاً ، ومن ثم الروسي والعثماني(9) .

غير ان الفرس بعد أن افاقوا من نكباتهم واستطاعوا اخراج كافة القوى الغازية من بلادهم ، اثر ظهور شخصية نادر شاه(10) على مسرح الاحداث في بلاد فارس ، وتزعمه المقاومة ضد الغزاة(11) ، عادوا مرة اخرى الى التدخل في شؤون العراق ، واستخدموا في سبيل ذلك كل ما في جعبتهم من اسلحة . ثم غزت قواتهم العراق تحت قيادة نادر شاه في سنة ١٧٣٢م ؛ وهي تعتبر آخر محاولاتهم الخطيرة للاستيلاء عليه ، وكادت بغداد ان تسقط لولا صمودها وتصدي جماهيرها للقوات الغازية .

وكان نادر شاه قد بعث برسالة الى احمد باشا والي بغداد يتوعده فيها وينذره بانه زاحف نحو بغداد لفتحها حيث خاطبه قائلاً : « ليكن معلوماً لديكم ، يا باشا بغداد ، اننا سائرون حالاً على راس جيشنا لنتنسم هواء سهول بغداد العليل ، ولنستريح في ظل أسوارها »(12) .

وقد اسرع احمد باشا بتحصين مواقع الحدود في درنه ومندلي وبدرة(13) ، وعزز حامياته في زهاب وقصر شيرين . ثم أصلح مراكز الدفاع الموجودة في سور بغداد ، وأخبر الباب العالي بسرعة دنو الخطر(14) . وذكر في رسالة بعثها الى القسطنطينية ، بيد مبعوثه عثمان اغا الجوقدار « ... ليس لدينا جيش يعتمد عليه ، اتفقت كلمتنا أن نتخذ الحصار في بغداد ... نطلب الاهتمام للأمر واتخاذ العدة اللازمة من جميع جهاتها »(15) . وقد اسرعت الدولة العثمانية بارسال نجدات كبيرة الى بغداد(16) .

اما نادر فقد اقترب بقواته التي تقدر بمئة الف مقاتل من الحدود العراقية ، وبدأ بمهاجمة المواقع التي قام احمد باشا بتعزيزها ، فاستطاع ان يحتل موقع زهاب بعد ان فاجأ القوات العثمانية

---

(8) كانت ابرز حروب الدولة العثمانية في هذه الفترة مع النمسا ، وقد انهزمت خلالها هزائم ساحقة . وفي سنة ١٦٩٩م انهت الحرب معاهدة كارلوفتز ، والتي لم تعد الدولة العثمانية بعدها ذلك الخصم العنيد الذي كان يهدد اوربا الغربية ، وغدت اوربا هي التي تهدد وحدة الامبراطورية العثمانية وتماسك اجزائها .

(9) Sykes, P. : A History of Persia, Vol. II, London 1969, 183, 237;
صالح العابد ، دور القواسم في الخليج العربي ، بغداد ١٩٧٦ ، ص ٥٢ .

(10) ولد نادر وترعرع في خراسان ، وكانت ولادته في الثاني والعشرين من تشرين الاول ١٦٨٨م (٦ محرم ١١٠٠هـ) ، وبدأ حياته راعيا كابيه ، غير انه اختط سلم النجاح منذ دخوله في خدمة (بابا علي بيك احمدلو) الذي كان حاكما لمدينة ابيورد ، وزعيما للقبائل الافشار فيها . وعند موت احمدلو ـ وبعض الروايات تتهم نادر بتدبير قتله ـ اصبح نادر حاكما على ابيورد ، وبدأ نجمه بالظهور على مسرح الاحداث . وفي السابع من تموز ١٧٣٢م (١٧ ربيع الاول ١١٤٥هـ) وضع نادر نفسه وصيا على العرش الفارسي واتخذ لقب (وكيل الشاه) وبعد حوالي اربعة سنوات توج شاها لبلاد فارس (٨ آذار ١٧٣٦م/٢٤ شوال ١١٤٨هـ) . للاطلاع على سيرة نادر شاه ، راجع :
Sykes, P.: op. cit., Vol. II, pp. 247-8;
Encyclopaedia Britanica, (U.S.A. 1965), Vol. 15, P. 1146;
محمد حسين ميمندي ، حياة نادر شاه افشار

(11) دونالد ولبر ، ايران ماضيها وحاضرها ، ترجمة عبدالنعم محمد وابراهيم الشواربي ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٩٥ ؛
Lockhart, L.: The Fall of the Safavi Dynasty, Cambridge 1958, P. 307.

(12) لونكريك ، المصدر السابق ، ص‌ص ١٦٩ – ١٧٠ .

(13) محمد حسين قدوسي ، نادرنامه ، خراسان ١٣٢٩ ، ص ٢٢٩ .

(14) لونكريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٠ ؛ جعفر الخياط ، صور من تاريخ العراق ، ج ١ ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٣١ .

(15) عباس العزاوي ، العراق بين احتلالين ، جـ ٥ ، ص‌ص ٢٢٣ – ٢٢٤ .

(16) السويدي ، حديقة الزوراء ، ق ٢ ، مخطوط ، ورقة ١١٧ ؛ الكركوكلي ، دوحة الوزراء ، ترجمة موسى كاظم نورس ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٢٩ .

هناك ، بمهاجمتها ليلاً من جهة غير متوقعة[١٧] . ثم بدأ توغله في الاراضي العراقية ، وبدلاً من ان يتجه مباشرة الى بغداد تظاهر بأنه زاحف بجيشه نحو كركوك ، على امل أن يخدع احمد باشا ويجعله يتحرك من بغداد لملاقاته[١٨] .

وبالقرب من طوزخورماتو[١٩] ؛ توقف نادر شاه وارسل قسماً من قواته لغزو كركوك[٢٠] ؛ ولكن القوات الفارسية واجهت مقاومة شديدة فعجزت عن احتلالها ، وعندئذ قامت بتدمير القرى المجاورة لها[٢١] . وفي الوقت نفسه كانت هناك قوات فارسية تقدر بثمانية آلاف مقاتل يقودها (نركز خان) تشن هجوماً على الموصل ، الا ان واليها حسين باشا الجليلي تمكن من صدها والحاق الهزيمة بها ، فاضطرت الى التقهقر بعد أن قتل قائدها نركز خان ، والتحقت بالجيش الرئيس الذي كان قد اقترب في زحفه من بغداد[٢٢] .

وكان نادر قد واصل تقدمه من طوز خورماتو وتمكن من دحر القوات العثمانية المتواجدة بالقرب من شهربان[٢٣] ، كما حاصر بعد عبوره نهر ديالى من بهرز ، وصار على بعد عدة مراحل من بغداد ، نرتة استطلاع عثمانية كانت قد ارسلت للتعرف على حقيقة العدو ، فقتل واسر عدداً كبيراً من افرادها ؛ كما قتل قائدها محمد باشا حاكم كوي[٢٤] .

وفي اواخر كانون الاول ١٧٣٢م (رجب ١١٤٥هـ) بدأ نادر بفرض حصاره على الجانب الشرقي من بغداد ، وقد عسكر بالقرب من قصبة الامام الاعظم ابي حنيفة ، وعزم على العبور الى الجانب الايمن لنهر دجلة ، لتطويق بغداد من جميع جهاتها ، وكان احمد باشا والي بغداد قد قام بتحصين هذا الجانب ، لمنع اية محاولة فارسية للعبور[٢٥] . وفي العشرين من كانون الثاني ١٧٣٣م (شعبان ١١٤٥هـ) ؛ احبطت اول محاولة لهم[٢٦] .

غير ان نادر استعان بمهندس اوربي كان يرافقه في الحملة ، في انشاء جسر عائم من جذوع النخيل على بعد عدة اميال من شمالي بغداد ، وبعد الانتهاء منه ، تمكنت ثلة من القوات الفارسية تعدادها الفين وخمسمائة مقاتل ، يقودها نادر نفسه ، من العبور الى الجانب الايمن من نهر دجلة ، وذلك في الخامس عشر من شباط (الاول من رمضان ١١٤٥هـ) ، ثم عبرت بالزوارق قوات اخرى تتألف من الف وخمسمائة مقاتل ، فتكون من ذلك رتل قوي زحف الى الكرخ[٢٧] ، فتصدت لهم القوات العثمانية بقيادة قره مصطفى باشا ، واسرع احمد باشا في ارسال تعزيزات كبيرة الى هناك[٢٨] . وقد جرت معركة عنيفة رجحت فيها كفة العثمانيين في اول الامر ، حتى خاف نادر على حياته ، الا ان نجدات فارسية عبرت بسرعة ، فتغير الموقف ، وانسحبت القوات العثمانية الى المدينة بعد ان تكبدت خسائر كبيرة[٢٩] .

واذ ذاك امر احمد باشا سكان جانب الكرخ بالانسحاب العام الى الجانب الايسر[٣٠] (الرصافة) ؛ ليكونوا في حماية سوره المنيع ، وقد صحب هذا الانتقال عبر دجلة اهوال ومصاعب كبيرة حيث يذكر الكركوكلي « وكانت السفن لا تكاد تكفي لنقلهم من جانب الى جانب ، ومن جراء الازدحام هلك خلق كثير من الناس ، بمن فيهم الشيوخ والعجائز والاطفال »[٣١] .

وقد خف نادر لاحتلال راس الجسر في جانب

---

(١٧) ميرزا مهدي خان ، جهانكشاي نادري ، تهران ١٣٢١ ، ص‌ص ١٩١ ـ ١٩٢ ؛ دره نادرة ، تهران ١٣٤١ ، ص٧٢٥، لونكريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(١٨) قدوسي ، المصدر السابق ، ٢٢٩ .

(١٩) قرية تقع الى الشرق من الطريق المباشر المار من بغداد الى الموصل ، والى الشمال الغربي من كركوك .

(٢٠) ميرزا مهدي خان ، جهانكشاري نادري ، ص ١٩٣ .

(٢١) صفحة منسية من تاريخ نادر شاه ، نبذة تاريخية كتبها احد نصارى كركوك المعاصرين لنادر ، ونشرها ترسيس صائيغان في مجلة لغة العرب ، الجزء الخامس ، السنة السابعة ، مايس ١٩٢٩ ، ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ .

(٢٢) ياسين العمري ، غاية المرام ، ص ٣٨٠ ؛ زبدة الاثار الجلية تحقيق عماد عبدالسلام ، النجف ١٩٧٤، ص ٨٨، سليمان صائغ ، تاريخ الموصل ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٢٣ ، ص٢٧٤.
ومما يجدر ذكره هنا انه لم ترد اية اشارة في المصادر الفارسية الى قيام القوات الفارسية بمهاجمته .

(٢٣) ناحية تابعة لقضاء مركز بعقوبة في محافظة ديالى ، وهي تبعد عن بغداد حوالي ١٠٨ كيلومتر .

(٢٤) ميرزا مهدي خان ، جهانكشاري نادري ، ص ١٩٤ ؛ قدوسي ص ١٧١ .

(٢٥) السويدي ، المصدر السابق ، ق٢ ، ورقة ١١٧ و ١١٨ ؛ المصدر السابق ، ص‌ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ؛ لونكريك ، المصدر السابق الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص‌ص ٢٩ـ٣٠ .

(٢٦) لونكريك ، المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٢٧) ميرزا مهدي خان ، المصدر السابق ، ص‌ص ١٩٦ ـ ١٩٧ ؛ قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٣١ .
المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٢٨) السويدي ، المصدر السابق ، ق٢ ورقة ١٢٠ ؛ الكركوكلي

(٢٩) لونكريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٣٠) نفس المصدر .

(٣١) الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص ٣٠ .

الكرخ[٣٢] ، وبعث قسماً من قواته لاحتلال سامراء والحلة وكربلاء والنجف والحسكة والرماحية[٣٣] .

وبعد ان احكم الفرس الحصار حول بغداد ، اصبح الموقف فيها حرجا تماما ، غير ان الفرس سرعان ما ادركوا ضعف مدفعيتهم ، حيث لم تتمكن من احداث ثغرات خطيرة في سور بغداد ، الذي كان محكماً . ولذا لم يكن امامهم غير الاستمرار في الحصار املاً في أن تستسلم لهم . ولجأ نادر الى الاساليب النفسية في محاولة للتأثير على معنويات جماهير بغداد ، فكان يرسل ارتالاً من جيشه بصورة خفية ليلاً الى اطراف بغداد ، ثم يعودون بوضح النهار وكأنهم نجدة قادمة الى الفرس[٣٤] .

والواقع ان الحالة داخل المدينة المحاصرة اصبحت مضطربة ، فقد كان الضيق آخذاً بالاشتداد ، حيث قلت الاقوات ، ويأس الناس من أمل وصول الامدادات العسكرية من الباب العالي ، رغم ان احمد باشا والي بغداد كان يشرف بنفسه على شؤون الدفاع ومناوشة العدو ، وعلى ادامة المقاومة وبث الروح المعنوية لاطالة أمد الثبات والصمود ، حيث كانت تذاع من وقت لآخر وبايعاز منه ، اخبار تنبىء بقرب وصول الامدادات[٣٥] . لكن ويلات المجاعة اخذت شكلاً مروعاً في المدينة ، بحيث اكل الناس لحم الحمير والكلاب والقطط ، فانتشرت الاوبئة بصورة هائلة ، وبلغت الحالة ـ كما يصفها الشيخ عبد الرحمن السويدي ـ انه اثناء خروجه من مسجد الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، بعد انقضاء صلاة الجمعة متجهاً نحو منزله ، شاهد في طريقه امراة منكبة على جيفة حمار وبيدها سكين تقطع لحمه وتضعه في حجرها[٣٦] .

وفي هذه الاثناء ورد كتاب من مفتي الجيوش الفارسية الى علماء بغداد ـ بناء على امر من نادر ـ يقول لهم فيه :

« اننا علمنا ما وصلت اليه الحالة بكم ، وعلمنا انكم تنقصكم الاقوات والعساكر والعتاد ، وان الناس قد اهلكتهم المجاعة ، فانتم وحدكم المسؤولون عنهم عند الله . قولوا لاحمد باشا ان لا يلقي الناس الى التهلكة عبثاً ، وان يستسلم فان ذلك أولى له من الدمار التام »[٣٧] .

فلما بلغ الباشا ذلك قال للعلماء اكتبوا له « انني لا اسلم حجراً من احجار بغداد حتى اقبر في مكاني هذا ، وان ذخيرتنا كافية ومددنا كثيرة العدد متواصلة المدد ، ولم يكن توقفنا عن مناوشتكم في بعض الايام دون علة او حكمة ، وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون »[٣٨] .

وفي اوائل حزيران ١٧٣٣م (محرم ١١٤٦هـ) وصل مدينة الموصل طوبال عثمان باشا الصدر الأعظم السابق ، على راس جيش تعداده ثمانون الفا ، بعث به السلطان العثماني لفك الحصار عن بغداد[٣٩] . وبعث طوبال برسالة الى والي بغداد يخبره فيها بانه قادم لنجدته[٤٠] ، فاشتدت العزائم ، واستماتت المحاصرون في الدفاع[٤١] .

وعندما تأكد نادر من صحة اقتراب القوات العثمانية ، اصدر اوامره بتشديد الحصار على بغداد[٤٢] ، وبعث كتاباً الى طوبال عثمان باشا ، الذي كان قد وصل في زحفه الى كركوك ، تمنى له رحلة سريعة نحو حتفه ، وعند اقترابه من سامراء تسلم كتاباً آخر من نادر يعلمه فيه بانه جاهز للاقائه في اي وقت ومكان يختاره هو . ثم زحف نادر على راس قوة كبيرة مؤلفة من خمسين الف مقاتل[٤٣] ، لمجابهة القوات القادمة قبل وصولها الى بغداد ، تاركاً اثنى عشر الفا من قواته لمواصلة حصار بغداد[٤٤] .

---

(٣٢) لونكرك ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .
(٣٣) Hammer, J.: Histoire de L'Empire Ottoman, Vol. XIV (14), Paris 1839, P. 287.
وانظر : كامل باشا ، تاريخ سياسي دولت عليه عثماني جـ٢ ، ص ١٤٥ ؛ قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢١
(٣٤) لونكرك ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .
(٣٥) الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص ٢١ .
(٣٦) السويدي ، المصدر السابق ، ق٢ ، ورقة ١٢١ و ١٢٢ .

(٣٧) الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص ٢١ وانظر السويدي، المصدر السابق ، ق ٢ ، ١٢٢ .
(٣٨) السويدي ، المصدر السابق ق٢ ، ورقة ١٢٢ .
(٣٩) لونكرك ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ ؛ Sykes, P. : op. cit., Vol. II, P. 251.
(٤٠) قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٣ .
(٤١) الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص ٣٣ .
(٤٢) نفس المصدر .
(٤٣) لونكرك ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ ؛ قدوسي ، المصدر السابق ، صص ٢٢٣ ــ ٢٢٤ .
(٤٤) ابراهيم افندي ، مصباح الساري ، جـ١ ، ص ٢٢٠ ؛

وعندما علم القائد العثماني طوبال بذلك عن طريق دوريات الجند الاستطلاعية ، التي كان يرسلها لمعرفة تحركات نادر العسكرية ، توقف عن المسير ، وعسكر على ضفاف دجلة بالقرب من سامراء ، وأمر ضباطه بالاستعداد للمواجهة(٤٥) .

وفي صباح اليوم التاسع عشر من تموز ١٧٣٣م (٦ صفر ١١٤٦هـ) ، التحمت طلائع القوتين(٤٦) ، في معركة كانت في ضراوتها واحدة من اشد المعارك التي خاضها العثمانيون والفرس(٤٧) ، وتمكنت قوات نادر في بدايتها من دحر خيالة العثمانيين ، الا ان تقدم قوة المشاة العثمانية ، اعاد التوازن الى المعركة(٤٨) . فشن الفرس هجوماً عنيفاً ارغم خط الدفاع العثماني على التقهقر ، وتم الاستيلاء على قسم كبير من مدفعيته ، فأصبح موقف العثمانيين حرجاً ؛ ولكن طوبال عثمان باشا واجه الموقف الصعب برباطة جاش ، ورفض فكرة مستشاريه الذين اشاروا عليه بالتقهقر ، وزج بقواته الاحتياطية المؤلفة من عشرين الف مقاتل الى ساحة المعركة ، فاستطاعت الحد من الهجوم الفارسي ، واستعادت المدفعية التي فقدتها(٤٩) ، مما دفع نادر ان ينزل بنفسه الى قلب المعركة ، فسقط مرتين على الارض ، وهرب حامل لوائه من الميدان معتقداً ان نادر قد قتل ، وبلغ جنده درجة الاعياء من الحر والعطش ، فبالاضافة الى اشعة تموز المحرقة ، لم يكن بوسع الفرس الحصول على الماء لسيطرة العثمانيين على ضفاف دجلة ، فأضطر نادر الى الانسحاب من ارض المعركة ، بعد أن اضاع سيطرته على الفلول المتفرقة من جيشه(٥٠) .

وهكذا بعد قتال مرير دام تسع ساعات متواصلة ؛ انتهت المعركة بهزيمة تامة وساحقة للقوات الفارسية(٥١) ؛ وارسلت رسائل الظفر من ميدان الموقعة(٥٢) ، الى السلطان العثماني ، والى باشا بغداد(٥٣) .

ويمكن ان يعزى صمود العثمانيين الى شخصية قائدهم البطولية وثباته في المعركة ، فقد كان خلالها « يوجه رجاله بحكمة كبيرة وعزم » على حد قول طبيبه الفرنسي الخاص جان نيكوديم في رسالة له الى السفير الفرنسي في القسطنطينية الماركيز دي فيلنيوف مؤرخه في ١٠ آب ١٧٣٣م . ويستطرد الكاتب الفرنسي في وصفه لطوبال يوم المعركة قائلا : « وبعد ان صلى ، امتطى صهوة جواده ، وهو عمل لم يقم به خلال الحملة ، اذ كان محمولاً على محفة بسبب اعتلال صحته ، ولا يمكن ان اعزو القوة التي اظهرها الآن الى شيء سوى روحه العسكرية ، والحماس المتاجج في داخله ... فقد رايته ممتطيا جواده كانه في عنفوان الشباب ، قابضاً بيده على سيفه ، فكانت سيماه تبعث في الناظرين اليه الحماسة والنشاط ، وعيناه تتالقان حين يصدر اوامره بخفة مدهشة وفكر متيقظ »(٥٤) .

لقد انقذ النصر الذي احرزه طوبال عثمان باشا ، بغداد من السقوط بايدي الفرس ، فقد هرب نادر جريحاً ومعه فلول قواته المنهزمة عن طريق بهرز باتجاه الاراضي الفارسية(٥٥) . وقام

كامل باشا ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٤٥ ؛ قدوسي ، المصدر السابق ، ص‌ص ٢٢٢ – ٢٣٤ ؛ العزاوي ، المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٢٤١ ؛
Sykes, P. : op. cit., Vol. II, P. 251.
اما لونكرك فيقول ان القوة التي تركها نادر لتديم الحصار كانت مؤلفة من ثمانية الاف مقاتل . (لونكرك ، المصدر السابق ، ص ١٧٦) .

(٤٥) لونكرك ، المصدر السابق ، ص‌ص ١٧٤ – ١٧٥ .

(٤٦) ابراهيم الندي ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٢٠ ؛ قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٤ ؛
Hammer, J.: op. cit., Vol. XIV, P. 290.

(٤٧) Malcolm, J.: The History of Persia, Vol. II, London 1815, P. 57;

(٤٨) Sykes, P.: op. cit., Vol. II, P. 252.

(٤٩) لونكرك ، المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

(٥٠) قدوسي ، المصدر السابق ، ص‌ص ٢٢٤ – ٢٢٥ ؛
Malcolm, J.: op. cit., Vol. II, P. 57.

(٥١) تاريخ صبحي ، جـ١ ، ص ٩٧ ؛ ابراهيم الندي ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٢٠ ؛ احمد راسم ، عثمانلي تاريخي ، جـ٢ ، ص ٢٨٦ ؛ لونكريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٦ .

(٥٢) كان ميدان الموقعة عند قرية الدجيل على ضفاف دجلة ، على بعد (٦٢) كيلومتر الى الشمال من بغداد . انظر :
Hammer, J.: op. cit., Vol. XIV, P. 290.

(٥٣) لونكريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٦ .

(٥٤) انظر نص رسالة نيكوديم الى السفير الفرنسي في :
Hammer, J.: op. cit., Vol. XIV, PP. 514-528.
وفي الرسالة وصف مسهب لمعركة التاسع عشر من تموز ١٧٣٣م (٦ صفر ١١٤٦هـ) وانظر : لونكريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٥ ؛
Creasy, E.: History of the Ottoman Turks, PP. 353-4.

(٥٥) ابراهيم الندي ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٢٠ ، احمد راسم ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٨٦ ؛
Shay, M.: The Ottoman Empire from 1720 to 1734, Urbana 1944, P. 144.

أحمد باشا عند وصول أنباء الانتصار ، بمهاجمة القوة الفارسية المرابطة عند اسوار بغداد ، فقتل معظم افرادها[٥٦] ، واستطاع الباقون الهرب الى بلاد فارس[٥٧] ، فتخلصت بغداد من الحصار الذي عانت منه الويلات طيلة سبعة شهور[٥٨] .

وقد استقبلت القسطنطينية اخبار انتصار طوبال عثمان باشا ، وانتهاء حصار بغداد ، بفرح عظيم ، وامتدت الاحتفالات ثلاثة ايام بلياليها ، وانهالت على طوبال الالقاب والتفويضات ، حيث انعم عليه السلطان محمود الاول بلقب (الغازي)[٥٩]. وتفاخر الصدر الأعظم علي باشا حكيم اوغلو امام السفير الفرنسي في القسطنطينية الماركيز دي فيلنيوف Villeneuve بان طوبال عثمان جمع غنائم من الحرب تكفي لتحصين وتسليح مدينة جديدة[٦٠] .

(٥٦) يبالغ لونكرك حين يقول ان القوة الفارسية ابيدبت عن اخرها ولم يسلم منها انسان . (اربعة قرون من تاريخ العراق ، ص ١٧٦) .

(٥٧) قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

(٥٨) السويدي ، المصدر السابق ، ق٢ ، ورقة ١٢٦ .

(٥٩) احمد واسم ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٨٦ .

(٦٠) Shay, M.: op. cit. P. 144.

* * *

بغداد سنة ١٩١٧

ترجمة وتعليق الدكتور
محمد مظفر الادهمي
الجامعة المستنصرية ـ بغداد

« ان على هؤلاء الذين ينكرون سحر هذه المدينـة ان يقفوا على النهر من جهة الشمال وقت الغروب ليشاهـدوا الامتداد الرشيق لجبهة النهر حيث تصطف المساجد والمنارات ذات الآجر الازرق لتمسك بخيوط اشعة الشمس المائلة » .

"Edmond Candler

ادموند كاندلر هو احد الذين رافقوا قوات الاحتلال البريطاني التي دخلت بغداد في ١١ اذار ١٩١٧ ، وكتب مذكراته عن هذه الحملة في جزءين نشرا عام ١٩١٩ في لندن . اطلق كاندلر على كتابه اسم "The Long Road to Baghdad" : الطريق الطويل الى بغداد ـ شاهد عيان في بلاد وادي الرافدين ـ قدم فيه عرضا كاملا للحملة على العراق منذ نزولها الى الفاو ؛ كما انه قدم وصفا للمدن التي مر بها جيش الاحتلال ، فكان كتابه استعراضا جغرافيا اجتماعيا اكثر منه عرضا للعمليـات العسكرية .

توقف كاندلر طويلا عند وصفه لبغداد ، ولم اجد احدا فيما اطلعت عليه من المؤلفات ، قد كتب عن بغداد عند دخول قوات الاحتلال البريطاني اليها مثلما كتبه كاندلر . لقد تعرض الى وصف ثلاثة جوانب رئيسة هي : ـ

١ ـ حالة العامة من الناس عند دخـول القوات المحتلة بغداد .
٢ ـ بغداد كما تركها الاتراك المنسحبون .
٣ ـ جمال البيوت والطبيعة .

ولكي اضع القارىء في الصورة لابد من التنويه الى ان بغداد كانت ، في فتـرة دخـول المحتلين البريطانيين اليها ، تعيش انحسارا حضاريا تمتد جذوره الى سقوط الدولة العربية الاسلامية حينما احتل الغزاة المغول بغداد سنة ١٢٥٨م . لذلك فان الوصف الجميل الذي يعرضه كاندلر تحف به ؛ ولاشك ، بعض الجوانب السلبية التي كانت المدينة تعيشها ؛ الا ان هذه المظاهر السلبية تكشف في الوقت نفسه الفرق الحضاري بين ذلك الواقع وبين ما كانت عليه بغداد ايام ازدهارها زمن العباسيين وما هي عليه الان في تطورها الحضاري المعاصر . ومع ذلك فان التراث الحضاري تبقى اثاره قائمة في اي زمان ، ولا يمكن لاي شاهد ان يتغاضى عنه . وقد كان كاندلر امينا في وصفه لنا بغداد .

في فصله المتعلق ببغداد المسمى: "First Days in Baghdad" : الايام الاولى في بغداد ، والمنشور في الجزء الثاني من المذكرات ، يبدأ كاندلر بوصف احوال المدينة عند دخول القوات البريطانية المحتلة اليها بعد ان انسحب منها الاتراك دون قتال فيها . لقد انسحب الاتراك من بغداد في الساعة الثانية صباحا من يوم ١١ آذار وبقيت المدينة سائبة لمدة سبع ساعات الى ان دخلها المحتلـون الجدد في الساعة التاسعة صباحا من اليوم نفسه من جهة الباب الشرقي في جانب الرصافة : ـ

بقلم الدكتور

صالح احمد العلي

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

(١)

المواصلات والجسور في بغداد

دراسة في توزيع مراكز الحيوية

استهدف المنصور من بناء بغداد ان تكون مركزا له ولجنده والمتصلين به ، وان تتوفر فيها الاحوال التي تمكنها من ان تصبح مركزا حضريا متوسعا ، وهذا يقتضي توفر المواد الغذائية والحاجات الاخرى للسكان وتيسر المواصلات معها. وقد ذكرت المصادر ان المنصور راعى في اختيار البقعة التي شيد عليها عاصمته هذين العاملين بالاضافة الى حسن موقعها الصحي ؛ فيروي انه عندما جاء منطقة بغداد وسأل عن احوالها ذكر له احد القسس ان من خصائصها المفضلة « ان تنزل اربعة طساسيج ، في الجانب الغربي طسوجين وهما قطربل وبادوريا ، وفي الجانب الشرقي طسوجين وهما نهربوق وكلواذى ، فانت تكون بين نخل وقرب الماء ، فان اجدب طسوج وتاخرت عمارته كان من الطسوج الاخر العمارات »(١) .

وكان لابد ان يتوفر في الموقع المختار سهولة المواصلات ، لانه اذا اقام « في موضع لا يجلب اليه من البر والبحر شيء غلت الاسعار وقلت المادة واشتدت المؤونة وشق ذلك على الناس »(٢) .

وكان للموقع الجديد مواصلات متيسرة « فانه تاتيه المادة من الفرات ودجلة وجماعة الانهار ولا يحمل الجند والعامة الامثله »(٣) . وقد قال « هذا موضع ارضاه : تاتيه الميرة من الفرات ودجلة ومن هذه الصراة »(٤) .

وقد اورد الطبري نصا فيه تفاصيل اوفى عن هذه المواصلات ، فقد قال القس للمنصور « وانت يا امير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة في السفن من المغرب من الفرات وتجيئك طرائف مصر والشام ، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط من دجلة . وتجيئك الميرة من الروم وامد والجزيرة والموصل من دجلة . وانت بين انهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر او قنطرة ، فاذا قطعت الجسر واخربت القناطر لم يصل اليك عدوك .

وانت بين دجلة والفرات لا يجيئك احد من المشرق والمغرب الا احتاج الى العبور »(٥) .

ويتبين من النصوص الانفة الذكر ان المنصور فضل هذا الموقع لتوفر المواصلات النهرية فيه ؛ فنهر دجلة يمر عموديا عليها من الشمال الى الجنوب ، وبالنظر لطوله وموقعها في منتصفه تقريبا فانه يصلها باقاليم ومدن بعيدة ، كما ان اتصاله عند

(١) الطبري ٢٧٥/٣ .

(٢) الطبري ٢٧٣/٣ .

(٣) الطبري ٢٧٤/٣ .

(٤) الطبري ٢٧٦/٣ ، ٢٧٧ وانظر بغداد لابن الفقيه ٨١ .

(٥) الطبري ٢٧٥/٣ ، وانظر ايضا ٢٧٣ .

المصب بالبحر يربطه ببلاد ابعد ذات منتوجات لها اهمية خاصة للمجتمع في تلك العصور . ويتميز دجلة ايضا بسعته وعمقه وعدم وجود السدود وقلة وجود الجسور المعرقلة للملاحة ؛ وبذلك تستطيع السفن والزوارق والكارات من المخور فيه والوصول الى بغداد .

اما الفرات فيتميز بطوله وسعته ايضا ، غير ان اقسامه الجنوبية بعد منطقة الانبار ، تكثر عليها القناطر والسدود والجسور ، كما انه يتشعب الى انهر كثيرة يكون كل منها حفيرا ؛ مما تعرقل الملاحة وسير السفن ، وخاصة المتوسطة والكبيرة منها .

وقد اختار المنصور لبناء مدينته منطقة زراعية كانت فيها عدة قرى ، كما كان يقام فيها سوق مؤقت للمنتوجات الزراعية للمنطقة . وقد وزع المنصور الاراضي في هذه المنطقة على السكان ، وبذلك تحولت الى اراضي سكنية دون أن يخصص منها اراض للزراعة او يزودها بالماء الكافي لارواء المزارع أو حتى لاقامة الارحاء الضرورية لحياة السكان . والواقع انه لم يعرف في اقطاعات الجانب الغربي ما اصبح مزرعة سوى العباسية التي تقع جنوبي المدينة المدورة بين الصراتين ؛ وكانت عند تأسيس بغداد « مضربا لمبنى مدينة السلام » ثم اقطعها المنصور عمه العباس بن محمد « وكان العباس اول من زرع فيها الباقلاء ، فكان باقلاءها نهاية ، فقيل له الباقلي العباسي ، وربما قيل لها جزيرة العباس لكونها بين الصراتين ، ومن اجل باقلاءها وجودته صار الباقلاء الرطب يقال له العباسي »(٦) .

اما الجانب الشرقي فقد قرر المنصور توطين الناس فيه بعد سكن الجانب الغربي بسنوات قليلة، وقد ذكرت المصادر الخططية اسماء عدد قليل مما فيه من الاقطاعات والقصور والاسواق ، كما ذكرت الانهار التي جرت اليه ؛ وقد وصف اليعقوبي هذا الجانب بانه « كان اوسع الجانبين ارضا ؛ لان الناس سبقوا الى الجانب الغربي وهو جزيرة بين دجلة والفرات فبنوا فيه وصار فيه الاسواق والتجارات، فلما ابتدىء البناء في الجانب الشرقي امتنع على من اراد سعة البناء »(٧) . وقد ذكرت في الجانب الشرقي عدة بساتين ، غير انه لم تذكر فيه مزارع ؛ علما بان المعلومات المتوفرة لدينا لا تكفي للجزم بعدم وجود المزارع ، غير انه يمكن القول بان عدم اشارة المصادر الى المزارع في الجانب الشرقي يدل على قلة هذه المزارع ، ان وجدت .

غير ان كلا الجانبين الشرقي والغربي كانت حوله منطقة وفيرة الماء ، خصبة التربة وانتاجها الزراعي وافر ؛ وهذه المنطقة ذات ميل خفيف نحو الانهار ؛ ويسقى الجانب الغربي بالانهار الاخذة من الفرات ؛ اما الجانب الشرقي فكانت انهاره تأخذ من دجلة والقاطول ؛ اي ان المنطقة تعتمد على عدة انهار وليس على نهر واحد ؛ وبذلك لا تتوقف مياهها على مصدر واحد قد يهددها الى حادث يؤثر فيه ، وهكذا « فان اجدب طسوج وتأخرت عمارته كان في الطسوج الاخر العمارات »(٨) .

وقد اورد ابن خرداذبه(٩) مقدار الجباية من طساسيج السواد ، ومنها الطساسيج المحيطة ببغداد او قريبة منها وهي كما يلي : ـ

الطسوج	عدد رساتيقه	البيادر	الحنطة	الشعير	الورق
بادوريا	١٤	٤٢٠	٣٥٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠ر٠٠٠ر٢
قطربل	١٠	٢٢٠	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠ر٠٠٠
مسكن	٦	١٥٠	٣٠٠٠	٢٠٠٠	١٥٠ر٠٠٠
الانبار	٥	٢٥٠	٢٣٠٠	١٤٠٠	١٥٠ر٠٠٠
كلواذي ونهرين	٣	٣٤	١٦٠٠	١٥٠٠	٣٣٠ر٠٠٠
نهر بوق	ــــ	ــــ	٢٠٠	١٠٠٠	١٠٠ر٠٠٠
الراذان	١٦	٣٦٢	٤٨٠٠	٤٨٠٠	١٢٠ر٠٠٠
بزرجسابور	٩	٢٦٣	٢٥٠٠	٢٢٠٠	٣٠٠ر٠٠٠

(٦) ياقوت : معجم البلدان ٦٠١/٣ بغداد لابن الفقيه ٥١ .

(٧) البلدان ٢٥١ . وقد وصفت في مقال نشرته في مجلة سومر بعنوان « ادارة بغداد في العهود العباسية الاولى »

احوال الجانب الشرقي بالمقارنة مع الجانب الغربي من الناحية العمرانية والسكنية .

(٨) الطبري ٢٧٥/٢ . (٩) المسالك والممالك ٨ـ٩ ، ١٢ .

وهذه الارقام لا تختلف كثيرا عما ذكره قدامة ابن جعفر(١٠) عن هذا الطساسيج ؛ وهي توضح احوال القرن الثالث الهجري ، والراجح انها تعبر عن معدل انتاج هذه الطساسيج في العصور الاسلامية الاولى وحتى القرن الرابع الهجري حيث حدثت تبدلات في اوضاع الانهار اثر في انتاجية هذه الطساسيج . ولابد ان المنتوجات الزراعية لهذه الطساسيج كانت تنقل الى بغداد لسد حاجة اهلها .

غير انه بالرغم من كبر مقدار منتوج الطساسيج القريبة من بغداد ، فانها لم تكف لسد كل حاجات السكان وخاصة ابان ازدهار بغداد التي كانت تستورد أيضا من منطقتي واسط والموصل «وبغداد تمير نفسها اربعة اشهر ، وتميرها واسط اربعة اشهر ، وتميرها الموصل اربعة اشهر »(١١) .

الفُرَض :

ويبدو ان كثيرا من منتوجات هذه المناطق الواقعة قرب دجلة كانت تنقل بالنهر وتفرغ على ضفافه فتوزع على بغداد . ومن هنا نشأت على دجلة الفرض لافراغ هذه السلع ؛ ولما كان الجانب الغربي هو الذي عمرت فيه بغداد في اول العهد وكان فيه مقام الخليفة واتباعه ، كما كان مزدحم السكان منذ اوائل انشائه لذلك كان من المنتظر ان تكون فيه نهايات المواصلات ، وان تنشأ فيه الفرض .

ذكر ياقوت عند كلامه عن باب الشعير « قالوا كانت ترفا اليه سفن الموصل والبصرة(١٢) » ويظهر من هذه الرواية التي تمثل الاحوال في السنين الاولى من تأسيس بغداد ، وان لم يصرح بذلك ، انه كانت في الجانب الغربي فرضة واحدة رئيسة تأتيها السفن الماخرة دجلة من الشمال والجنوب . ومما قد يؤيد كلام ياقوت ان هذه الرقعة تسمى باب الشعير الذي هو احد المحاصيل الرئيسة التي تستوردها بغداد . وكانت الفرضة في القرن الثالث الهجري قريبة من هذه المنطقة .

وعند باب الشعير عقد المنصور احد الجسور الرئيسة التي تربط الجانبين الشرقي والغربي(١٣) .

ولعله اختار هذه البقعة لجسره بسبب قربها من الفرضة ؛ ولعل من دوافع اختيار هذه المنطقة لانشاء الجسر هو تيسير نقل المواد الغذائية من هذه الفرضة الرئيسة الى الجانب الشرقي الذي لم تكن فيه انذاك فرضة رغم تزايد سكانه .

وقد ظلت هذه المنطقة مكان الجسر الثاني الرئيس في بغداد ؛ ويلاحظ عندما اعيد انشاء جسر ثان في بغداد في سنة ٤٤٨ مكان يمتد من مشرعة الحطابين الى مشرعة الروايا(١٤) .

ويلاحظ ايضا ان المنطقة التي تلو باب الشعير ، هي الكرخ ونهر الدجاج ونهر البزازين ؛ كانت من اشد مناطق بغداد ازدحاما بالسكان . ومن اكبر مراكز النشاط التجاري والاقتصادي فيها ؛ كما كان يمتد فيها شارع يصل النهر ؛ وهذا الشارع هو الشريان الرئيس للحياة في تلك المنطقة .

ولا ريب في ان اقامة جسر على دجلة يعرقل ، ولكنه لا يعطل كليا ، سير الزوارق . ثم ان التوسع الكبير في المدينة اقتضى انشاء فرض جديدة لا في الجانب الغربي فقط ، بل في الجانب الشرقي ايضا .

فاما الجانب الغربي فقد كان فيه في القرن الثالث الهجري فرضتان ، احداهما في الشمال ، والاخرى في الجنوب .

فاما في الشمال فان اليعقوبي في كلامه عن القطائع التي في الطرف الشمالي يقول « .. ثم قطيعة البغيين أصحاب حفص بن عثمان ودار حفص هي التي صارت لاسحق بن ابراهيم ، ثم السوق على دجلة في الفرضة ، ثم قطيعة لجعفر بن امير المؤمنين صارت لام جعفر ناحية باب قطربل تعرف بقطيعة ام جعفر »(١٥) ولعل هذه هي الفرضة التي يقول الخطيب « جعفر بن ابي جعفر الذي ينسب اليه فرضة جعفر »(١٦) وكانت على دجلة بقرب فرضة جعفر دار ابي عبدالله الموساوي العلوي»(١٧) والراجح ان هذه الفرضة كانت ترسو فيها المنتوجات والسلع القادمة من المناطق الشمالية . ويذكر

---

(١٠) نبذة من كتاب الخراج ٢٢٧-٢٢٨ . ويلاحظ ان هاتين القائمتين ، هما الوحيدتين الشاملتين اللتين وصلتانا وسيكون تحليلهما موضوع مقال آخر .

(١١) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ١٢٥ .

(١٢) ياقوت ٤٤٥/١ .

(١٣) الطبري ٢٨٠/٣ . الخطيب ١١٦/١ مناقب بغداد ٢٠ .

(١٤) المنتظم ١٦٩/٨ . ومشرعة الروايا عند باب الشعير ، وقد انجزت دراسة مستوعبة لخطط هذه المنطقة في العصر العباسي الاول .

(١٥) البلدان ٢٤٩ .

(١٦) الخطيب ٩٠/١ .

(١٧) الخطيب ١٢٨/٢ المنتظم ٢٩٤/٦ تكملة الطبري ٤/٣ ، والموقع التقريبي لهذه الفرضة عند جسر الائمة الحالي من جهة الكاظمية .

الصولي انه في سنة ٣٢٣ « ضمنت دجلة والماصر الاعلى بخمسمائة دينار(١٨) ، ولعل هذا الماصر كان عند الفرضة الشمالية .

وقد وردت في المصادر اشارة الى مشرعة باب خراسان(١٩) الذي يقع في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة المدورة ، ولكن الاخبار عنها قليلة ، ولعل ذلك راجع الى انها لم تكن ذات اهمية لوقوعها قرب الجسر .

اما الفرضة الجنوبية فان اليعقوبي يذكر « نهر عيسى الاعظم الذي يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقة ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر، تصير الى فرضة عليها الاسواق وحوانيت التجار ، لا تنقطع في وقت من الاوقات ، فالماء لا ينقطع »(٢٠) ويفهم من هذا ان نهر عيسى كان يستعمل لملاحة السفن النهرية العظام ، وقد يفهم منه ان الفرضة كانت عليه ، غير اننا نشك في دقة كلام اليعقوبي ، لان كثرة رواضع نهر عيسى في منطقة بغداد ، وكثرة القناطر التي عليه لابد انها كانت تعطل ملاحة السفن الكبار . ثم انه لم يرد في اي مصدر وقوع الفرضة على نهر عيسى .

وقد ذكر الخطيب ما يحدد موقع الفرضة اذ انه في كلامه عن انهار الجانب الغربي يذكر « نهرا يقال له نهر القلائين حدثنا من ادركه جاريا يلتقي في دجلة تحت الفرضة »(٢١) علما بانه يذكر في مكان آخر ان نهر القلائين يصب في نهر الدجاج ثم يصير النهر الى نهر طابق ثم يصب في نهر عيسى »(٢٢)، اي ان نهر القلائين كان بين نهري طابق والدجاج . والى شمالي نهر عيسى . وقد ظلت هذه الفرضة حتى اواخر القرن الخامس ، اذ يذكر ابن الجوزي انه عند بناء النظامية « نقضت الدور التي كانت للناس بمشرعة الروايا والفرضة وباب الشعير ودرب الزعفراني »(٢٣) ويظهر هذا النص ان الفرضة كانت بالقرب من مشرعة الروايا وباب الشعير .

وقد اشار الطبري الى فرضة البصريين(٢٤) ولكنه لم يحدد موقعها .

(١٨) اخبار الراضي والمتقي ٢٧٦ .
(١٩) الطبري ٩٢٨/٣ مروج الذهب ٤١٩/٣ .
(٢٠) البلدان ٢٥٠ .
(٢١) الخطيب ٧٩/١ .
(٢٢) الخطيب ١٢٣/١ .
(٢٣) المنتظم ٢٨/٨ مرآة الزمان ٢٢١ طبعة سويم .
(٢٤) الطبري ٢٢٥١/٣ .

اما في الجانب الشرقي فقد ذكرت فرضة في باب الطاق ، فيذكر الخطيب فذكر لي غير ابن شاذان ان الجسر الذي كان محاذي الميدان نقل الى الفرضة بباب الطاق ، فصار هناك جسران يمضي الناس على احدهما ويرجعون على الاخر(٢٥) وفي هذه الفرضة كانت دار علي بن الجهشيار التي هدم بابها سنة ٣٠٩ وبنى موضعه مستغلا(٢٦) .

ويذكر هلال بن الحسن ان « دار المملكة التي باعلى المخرم محاذية الفرضة »(٢٧) ومع ان سياق النص يوحي بوجود فرضة واحدة مشهورة ، الا انه يصعب القول بان هذه الفرضة هي نفس فرضة باب الطاق ، لطول المسافة بين المخرم وباب الطاق ووجود الرصافة بينهما . ولعل هذه الفرضة كانت ترسو فيها السفن التي تمون الرصافة بالبضائع والسلع .

وقد ذكر الخطيب شريعة ابي عبيد الله في الجانب الشرقي عند شارع عبد الصمد(٢٨) وذكر ان هذا الشارع قرب قنطرة البردان(٢٩) .

ومن المشارع التي تردد ذكرها في الجانب الشرقي هي مشرعة الحطابين ، فاما الحطابين فكانت في الجانب الشرقي وعندها دار هلال بن محمد(٣٠) ودار محمد بن عمر القاضي(٣١) ، وكان وراءه المعترض حيث كان ينزل عبدالله بن عمر بن شاهين(٣٢) .

ويذكر مضمار الحقائق « عمرت ام الخليفة مسجدا بمشرعة السقائين على شاطىء دجلة بمشرعة الحطابين »(٣٣) وذكر ابن الجوزي ان « السقائين قريبا من سوق السلاح »(٣٤) .

مراكز العمال :

اسس ابو جعفر المنصور عاصمته ليسكنها الخليفة وحاشيته وحرسه وجنده ، أي ان سكانها الاولين اناس مختارون من ذوي الطابع العسكري بالدرجة الاولى ، ثم الاداري ، ويعتمدون في

(٢٥) الخطيب ١١٦/١ .
(٢٦) المنتظم ١٥٩/٦ .
(٢٧) الخطيب ١٠٥/١ .
(٢٨) الخطيب ٣٥٧/٤ .
(٢٩) الخطيب ٤١١/٤ .
(٣٠) الخطيب ٧٥/٤ المنتظم ١٥/٨ .
(٣١) الخطيب ٣٨١/٣ .
(٣٢) الخطيب ٢٨٦/١٠ المنتظم ١٢٨/٨ .
(٣٣) مضمار الحقائق ١٧٨ .
(٣٤) المنتظم ٨٧/٧ .

معاشهم بالدرجة الاولى على العطاء الذي تقدمه لهم الدولة ، ويسدون حاجاتهم من السلع التي يقتنونها بالشراء ولا يصنعونها بايديهم ، وهي سلع محدودة وذلك لان حرفة غالبيتهم هي العسكرية . وان دخلهم محدود . الا ان اسرة الخليفة والمتصلين به وحاشيته كان مستوى معيشتهم اعلى ، ومواردهم اكبر ، فكانوا بحاجة الى سلع اكثر تنوعا واغلى ثمنا ، وكان يعوض عن قلة عددهم النسبي زيادة استهلاكهم .

وقد رافق بناء بغداد ونموها تقاطر عدد كبير من العمال والصناع واهل السوق للقيام بما يسد حاجات السكان . وادرك المنصور هذه الحاجات فانشأ اسواقا محلية في مختلف ارجاء بغداد ، غير انها كانت اسواقا للبيع وليست للصناعة ؛ وكان النمو العمراني يتطلب عددا كبيرا من اصحاب الحرف كالبنائين والنجارين والحدادين الا انه لم تذكر في بغداد اسواق مخصصة لهؤلاء ؛ فالاسواق غالبها للباعة وليست للصناعة .

غير ان الجانب الغربي كان اسبق في التشييد، وشهد توسعا كبيرا منذ فترة مبكرة وهذا ما جعله الجانب الاهم حتى القرن الرابع الهجري حيث اصابه الانحطاط بغداد بجانبيها .

اما الجانب الشرقي فقد تأخر استيطانه ونموه عن الجانب الغربي ، ولم تذكر المصادر من الاقطاعات والمساكن التي كانت فيه الا ما كان لعدد قليل من رجال الاسرة العباسية وكبار الموظفين والقواد ، كما ذكرت عددا من القصور ومن الاسواق الضخمة ، ولم تذكر اسماء ما كان في الجانب الشرقي من محلات مما قد يستدل منه على نوع وجنس السكان وازدحامهم فيه . وهذا يرجع الى ان الجانب الشرقي كان اقل ازدحاما بالسكان ، وان كانت مساحة الرقعة المسكونة فيه كبيرة ولا تقل كثيرا عن نظيرتها في الجانب الغربي . وان كثرة القصور والاسواق الغنية بالامتعة المترفة في الجانب الشرقي . يدل على النشاط الاقتصادي القائم على بيع السلع الاستهلاكية المترفة .

وكان الجانب الشرقي بحاجة الى العمال والحرفيين اللازمين لمواجهة التوسع الكبير والسريع في اعمار المدينة ، ولابد ان عددا كبيرا من هؤلاء الحرفيين كانوا يقيمون في الجانب الشرقي الذي يعملون فيه ؛ غير ان هذا لا ينفي احتمال الحاجة الى صناع وحرفيين يوميين او موسميين يقدمون من الجانب الغربي ، الامر الذي يساهم في نشاط التنقل بين الجانبين .

مراكز الصناعة في بغداد :

ان سعة بغداد وغناها وازدهارها المادي يستلزم نمو صناعة محلية لسد بعض حاجات اهلها ؛ غير ان المصادر لم تذكر الا عددا قليلا من المصنوعات التي اختصت بها بغداد ، واشارات الى قليل من الاماكن التي تركزت فيها بعض الصناعات ببغداد ، علما بان هذه الاشارات ترجع الى القرن الرابع الهجري فما بعد ، حيث كانت هذه الصناعات قد وصلت مستوى عاليا من الاستقرار والازدهار لم تصل اليه الا بعد مرور زمن طويل عليها . ويمكن ارجاع قلة المعلومات عن المصنوعات البغدادية وعن المناطق التي تركزت فيها الى اعتماد اهل بغداد الكبير على استيراد السلع التي يحتاجونها ، والى ان مراكز الصناعات كانت موزعة وان كثيرا منها كانت « بيتية » فلم تنحصر في منطقة واحدة ، يذكر الهمداني ان بغداد اجتمع فيها ما هو متفرق في جميع الاقاليم من انواع التجارات والصناعات ؛ ولهم الذي لا يشركهم فيه احد : الثياب البيض المروية والزجاج المحكم من الاقداح والاقحاص والكاسات والطاسات والغضائر الحجرية ولهم الدارش والكاء(٢٥) . ويذكر ايضا ان المادرانيين والمقارض الهيثمية والامشاط الطاهرية والسكاكين الكتابية ، وكثيرا مما يصنع من الابنوس والعاج والعام الموجود من العطر والزجاج(٢٦) .

واشتهرت بغداد بالسقلاطونيات والعتابي ، لا يشاركها فيهما غير نيسابور(٢٧) كما اشتهرت بالحصر(٢٨) .

وفي المصادر اشارات بعضها صريحة وبعضها ضمنية عن تركز الصناعات في بغداد فاما صناعات الجانب الشرقي فان الهمداني يصرح انه الدارش واللكاء « فيهما اعجوبة وذلك ان الدارش يتخذ من هذا الجانب واللكاء من ذلك الجانب ، فلو جهد صاحب الدارش ان يتخذ من جانب صاحب اللكاء لاعوزه ، وكذلك لو جهد صاحب اللكاء ان يتخذ من جانب صاحب الدارش لتعذر عليه ذلك ، على انهم قد امتحنوا ذلك وجربوه فقد تعذر عليهم »(٢٩) .

وقد ورد في المصادر ذكر للعمامة الرصافية

---

(٢٥) البلدان ٢٥٢ .
(٢٦) بغداد ٧٣ .
(٢٧) لطائف المعارف ١٩٥ وانظر عن سقلاطون بغداد لطائف المعارف ٥٥ ، ٢٣٥ .
(٢٨) لطائف المعارف ٢٣٦ ، ثمار القلوب ٥٢٨ .
(٢٩) البلدان ٢٥٢ .

التي كان يلبسها الخلفاء(٤٠) وقد يدل اسمها على المكان الذي كانت تصنع فيه ، وهو في الجانب الشرقي من بغداد .

يتردد في المصادر ذكر دار القطن في الجانب الغربي عند قطيعة الربيع التي كانت من اكبر المراكز التجارية والنشاط الاقتصادي ، وكان اسمها يطلق على محلة سكنها عدد من الفقهاء وعلماء الحديث ونسبوا اليها . غير ان المصادر لم تذكر سبب نسبتها الى القطن وهل كانت في الاصل محلا لبيعه ام لصنعه ، وما اذا كانت قد ظلت فيما بعد مركزا للقطن الخام او المصنوع(٤١) .

ويذكر الصابي انه في سنة ٣٨٩ « كان ابو نصر سابور قد حاول وضع العشر على ما يعمل من الثياب الابريسمات والقطنيات بمدينة السلام ، فثار اهل العتابيين وباب الشام من ذلك وقصدوا المسجد الجامع بالمدينة . . ومنعوا الخطبة والصلاة . . واستقر الامر على اخذ العشر من قيم الابريسميات خاصة ، ونودي بذلك بالجانب الغربي من يوم الاحد . . وبالجانب الشرقي من يوم الاثنين ، وثبت هذا الرسم ورتب في جبايته ناظرون ومتولو ن، وافرد له ديوان على دار بالبركة ووضعت الختوم على جميع ما يقطع من المناسج ويباع ويختم(٤٢) » . وواضح من هذا النص ان اهل باب الشام والعتابيين هم الذين كانوا يعملون هذه المنسوجات آنذاك في بغداد .

فاما باب الشام فهو احد الابواب الاربعة لمدينة المنصور المدورة ، وكان يقع في جهتها الشمالية الغربية ، وقد نشأت حوله محلة واسعة سميت باسمه وظلت مزدهرة حتى اواخر العصر العباسي ، ولم تنغمر بالفتن الطائفية التي شاركت فيها كثير من محلات الجانب الغربي .

اما المنطقة الواقعة وراء باب الشام ، اي في الجهات الشمالية الغربية فان ما فيها من قطاعات ومحلات ومعالم خططية ، ذكرته المصادر المؤلفة في اواخر القرن الثالث الهجري . وقد اورد كل من اليعقوبي في كتاب البلدان ، وابن الفقيه الهمداني في الفصل الذي كتبه عن بغداد وسهراب فيما كتبه عن الانهار التي تأخذ من دجيل وتجري في شمالي المدينة المدورة(٤٣) ، اسماء كثير من الاقطاعات والمعالم الخططية في هذه المنطقة ، واشار اليعقوبي الى ازدحام هذه المنطقة واصول بعض سكانها وفيهم من اهل اليمامة ، والكوفة ، وخوارزم ، ومروالروذ ، وطخارستان وبخاري ، كما يذكر ان عند سوق باب الشام « تمتد في شارع عظيم فيه الدروب الطوال ، كل درب ينسب الى اهل بلد من البلدان ينزلونه في جنبتيه جميعا الى ربض حرب بن عبدالله البلخي . وليس ببغداد ربض اوسع ولا اكبر ولا اكثر دروبا واسواقا في الحال منه ، واهله اهل بلخ واهل الختل واهل بخارى واهل اسبيشاب واهل اشتاخنج واهل كابل شاه ، واهل خوارزم . ولكل اهل بلد قائد ورئيس »(٤٤) ، وقول اليعقوبي « في الحال » يدل على انه يصف الوضع في زمن كتابة كتابه (اي حوالي سنة ٢٨٠هـ) كما ان قوله ان « لكل اهل بلد قائد ورئيس » قد يدل على انهم كانوا قوة عسكرية ومع ان اليعقوبي يدعي ان « هذه القطائع والشوارع والدروب والسكك التي ذكرتها على ما رسمت في ايام المنصور ووقت ابتدائها » الا انه يصعب موافقته على ان ما ذكره عن هذه المنطقة يرجع الى زمن المنصور (اي حوالي ١٥٠هـ) لانه لا يوجد ما يدل على كثرة اهل هذه المدن في جيش المنصور . والواقع ان اليعقوبي يتابع كلامه فيقول ان هذه الخطط « قد تغيرت ومات المتقدمون من اصحابها وملكها قوم بعد قوم ، وجيل بعد جيل ، وزادت عمارة بعض المواضع ، وملك قوم ديار قوم ، وانتقل الوجوه والجلة والقواد واهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم الى سر من راى في سنة ٢٢٣ »(٤٥) . ويبدو ان معظم سكان هذه المنطقة استقروا فيها بعد خلافة المنصور ، وربما في خلافة الرشيد او بعده . ولم يرد في المصادر ذكر لقيام الصناعة في هذه المنطقة حتى اوائل القرن الرابع الهجري ، سوى ما ذكره اليعقوبي من ان درب الاقفاص الذي يقع في هذه المنطقة « متصل بدرب القصارين »(٤٦) . غير ان عدم ذكر المصادر للصناعات في هذه المنطقة لا يكون دليلا قاطعا على عدم قيامها انذاك ، لان مصادرنا لم تعن بذكر مراكز الصناعة .

---

(٤٠) الطبري ٢٢٦٨/٣ رسوم دار الخلافة ٩٠ .

(٤١) انظر عن اشتهار بغداد بالقطن : بغداد لابن الفقيه ٧٥ ويذكر الصابي بعض موظفي الجباية في بغداد ومنهم « عامل دار القطن » (الوزراء ١٧٦) .

(٤٢) ذيل مسكويه ٣٦٣/٣ .

(٤٣) انظر مقالنا « مصادر دراسة خطط بغداد » مجلة المجمع العلمي العراقي م ١٤ سنة ١٩٦٧ .

(٤٤) البلدان ٢٤٨ .

(٤٥) البلدان ٢٥٤ وقد اعددت دراسة مفصلة عن تطور خطط هذه المنطقة .

(٤٦) البلدان ٢٤٧ .

لقد ذكرت من قبل قول الصابي ان اهل باب الشام والعتابيين احتجوا على فرض الضرائب على المنسوجات . فاما العتابية التي نسب اليهـا العتابيون فلم يرد لها ذكر في الكتب التي بحثت في خطط بغداد او اشارت اليها ، مما كتب منها او اعتمد على رواة لها عاشوا عند او قبل بداية القرن الرابع الهجري ، كاليعقوبي ، وابن الفقيه الهمداني وابن طيفور ، وسهراب ، ووكيع اللذين اعتمـد عليهما الخطيب في مقدمته الخططية . كما اني لم اجد لها ذكرا في الحوادث التي سبقت اشـارة الصابي الانفة الذكر . الامر الذي يدل على ان هذه المحلة لم تظهر ، او تشتهر ، الا بعد ذلك التاريخ .

ذكر الخطيب في تراجمه عددا ممن عاش او توفي في شارع العتابيين واقدم الذين ذكرهم هو ابو الحسين بن سمعون الذي توفي سنة ٣٨٧(٤٧) ، اما الاخرون الذين ذكرهم فكانت وفاتهم بين سـنـي ٤١٩ ــ ٤٤٥هـ(٤٨) والواقع ان « العتابيين » يتردد ذكرها بعد هذا التاريخ ، وقد وصفها بعضهم بانها محلة ، وان فيها مسجدا . ولم يذكر اي مصدر اطلعت عليه هوية من نسبت اليه هذه المحلة(٤٩) .

ذكر الخطيب ان شارع العتابيين من مربعة الفرس(٥٠) ، وهي مربعة ذكرتها المصادر المؤلفة قبل القرن الرابع الهجري وكانت تقع بين الانبار وباب الحديد ، وبقربها قطائع الخوارزمية والبخارية والسرخسية والكوفيين واليمانيين(٥١) غير ان المصادر لم تشر الى تركز الصناعات والمناسج في هذه المنطقة في الفترة التي سبقت القرن الرابع كما اشرنا من قبل .

لقد ذكرنا من قبل ان مما اشتهرت به بغداد هو النسيج العتابي ؛ وهو نسيج مخطط ، يشبه

(٤٧) الخطيب ٢٧٧/١ ، ١٥/٨ .
(٤٨) انظر الخطيب ٤٣/٢ ، ٢٦٢/٤ ، ٢٩٤ ، ١٥/٨ ، ٤٧ ، ٢٩٨/٩ ، ١٣٨/١٠ ، ٢٨٦ ، ٨٠/١١ .
(٤٩) المعروف باسم العتابي هو الشاعر المشهور كلثوم بن عمرو ، وهو تغلبي قدم بغداد في زمن الرشيد (انظر عنه الاغاني ١٢/ معجم الادباء ٢٦/١٧ الخطيب ٦٦٩١ ولكن لاتوجد اشارة او دليل على نسبة المحلة اليه . ويذكر سهراب ان الصراة الصغير يصب عند القنطرة الجديدة ويعرف عند مصبه باسم نهر عتاب (١٣٢) ولكنه لم يذكر هوية من نسب اليه هذا النهر البعيد عن محلة العتابيين .
(٥٠) الخطيب ١٥/٨ .
(٥١) سهراب ١٢٤ الخطيب ١١٤/١ وانظر ايضا بغداد لابن الفقيه ٤٨ ، ياقوت ٤٨٥/٤ ، ٧٥٠/٢ .

بنخطيطه الحمر(٥٢) ، وبطيخ الشمام(٥٣) ، وهو ينسج ايضا في نيسابور واصبهان(٥٤) ويبدأ ذكره في اخبار الثلث الثاني من القرن الرابع الهجري حيث يروي ابن الجوزي ان سبكتكين صاحب عز الدولة خلف عشرة الاف ثوب دبيقي وعتابي(٥٥) ؛ كما روى ان بختيار اهدى ناصر الدولة الحمداني ثوبا عتابيا(٥٦) ؛ كما اهدى طغرلبك ملك الروم ثيابا منها عتابية(٥٧) ، ويقول ابن جبير ان العتابي نسيج من حرير وقطن(٥٨) .

وبالقرب من العتابية نشأت دار القز ، وهي محلة يدل اسمها على انها كانت مركزا لمعالجة القز ، وربما نسجه ايضا ، فهي مركز صناعي للنسيج كمجاورتها العتابية ، ولكنها ايضا لم تذكر الا في اخبار القرن الخامس الهجري ، مما يدل على ازدهارها فيه ، كما ان عدم ورود ذكرها قبل ذلك التاريخ يدل على تأخر ظهورها .

ويذكر ياقوت ان دار القز صارت كالمدينـة وعليها سور ، وانه كان يصنع فيهـا في زمنـه الكاغد(٥٩) ، ولكن لم اجد في المصادر اشارة الى زمن ظهور صناعته في بغداد عموما ، وفي هذه المحلـة خصوصا كما لم اجد في انواع الكاغد ما يسمى باسم هذه المحلة(٦٠) . ولعل تركز صناعة الورق في هذه المحلة وما يجاورها راجع الى توفر المواد الاولية من بقايا القطن ونفايته في هذه المنطقة .

ويلاحظ ان بالقرب من هذه المحلات كانت تقع دار الرقيق التي يذكر اليعقوبي انها ربض « كان فيه رقيق ابي جعفر الذين يباعون من الآفاق ، وكانوا مضمومين الى الربيع مولاه »(٦١) . ومن المحتمل ان هؤلاء الرقيق ، او عددا منهم ، كان يستخدم في الصناعات ايضا منذ زمن ابي جعفر ، وان وجودهم

(٥٢) يذكر الرشيدي « حمارا عتابيا جسده كخلقة العتابي » (الذخائر والتحف ١٩٢) ويذكر الغرناطي ان حمير الزنج كالعتابي المخطط (تحفة الالباب) .
(٥٣) جامع الادوية المفردة ١٠١/١ ، ١١٠/٤ .
(٥٤) لطائف المعارف ١٩ ، ثمار القلوب ٥٤٠ ، ابن الفقيه ٢٥٤ وعن عتابي نيسابور انظر المقدسي ٣٢٣ ، وعن عتابي اصفهان انظر الاصطخري ٩٩ .
(٥٥) المنتظم ٧٧/٧ .
(٥٦) الذخائر والتحف ٦٦ .
(٥٧) الذخائر والتحف ٨٠ .
(٥٨) الرحلة ٢١٢ (طبعة حسين نصار) .
(٥٩) ياقوت ١٦٧/٢ ، ٥٢٢ . ويذكر ابن حجلة ان دار القز احد مدن بغداد السبع .
(٦٠) سافرد للكاغد وصناعته بحثا مستقلا .
(٦١) البلدان ٢٤٨ .

في هذه المنطقة كان من العوامل التي ادت الى تركزه نحو الصناعة في هذا القطاع .

ولابد ان وجود هذه المراكز الصناعية كان من عوامل نمو « الشارع الاعظم الماد الى الجسر الذي على دجلة ، وفيه سوق ذات اليمين وذات الشمال »(٦٢) .

اما الجانب الشرقي فلم تذكر فيه محلة او منطقة تركزت لصناعة النسيج كالذي حدث في الجانب الغربي ، ولكن المصادر ذكرت عدة قرى في شمالها كان في كل منها صناعة للنسيج مشهورة ومن هذه القرى الحضيرة « ينسج فيها الثياب والكرباس الصفيق ويحملها التجار الى البلاد »(٦٣) « وباقدرا بينها وبين بغداد اربعون ميلا ، وتعمل بها ثياب من القطن غلاظ صفاق يضرب اهل بغداد بها المثل »(٦٤) ، ويلاحظ انه كانت في هذه المنطقة عدة قرى مشهورة بالخمور منها القفص(٦٥) وصريفون(٦٦) .

لم تذكر المصادر غير هذه المراكز الصناعية في بغداد وما يجاورها ويلاحظ انها موزعة بين الجانبين ، ولا يعقل ان استهلاك كل منهما اقتصر على اهل الجانب الذي قامت فيه . وان كثرة الاسواق في بغداد هو مظهر على ازدحام السكان وحاجتهم الى السلع وليس دليلا قاطعا على ازدهار الصناعة وتعدد مراكزها ، اذ ليس من الضروري ان تكون مراكز الصناعة متجمعة في مكان واحد او ان تكون قرب الاسواق . وكل هذا يقتضي تبادل السلع بين الجانبين وضرورة تنظيم المواصلات بينهما .

التجارة بين اقاليم المشرق والمغرب :

لقد ذكرنا ان المصادر ذكرت ان ابا جعفر المنصور عند اختياره موقع عاصمته الجديدة راعى ارتباط هذا الموقع مع الشمال والجنوب بالمواصلات النهرية . غير ان لهذا الموقع اهمية كبيرة في المواصلات بين اقاليم المشرق واقاليم المغرب . فمن المعلوم ان اقاليم المشرق كانت منذ ازمنة قديمة غنية ببعض المحاصيل والمنتوجات المهمة للعراق ولاقاليم البحر المتوسط ، فضلا عما يمر بها من طرق تصل الصين واواسط اسيا بالغرب . وقد ازدادت اهمية الاتصال بين اقاليم الشرق بالمغرب بعد الفتح الاسلامي الذي وحد اقاليم الشرق الاوسط من اواسط اسيا حتى المحيط الاطلسي تحت ظل دولة واحدة نشرت الامن والاستقرار وازالت الحواجز والعقبات التي وضعتها الدول المتنافسة السابقة بوجه الانتقال ، وكانت الدولة الاسلامية تسير على مبدا حرية التنقل والتجارة ، وكانت الاحوال فيها تقتضي زيادة هذا التنقل ، لان الاماكن المقدسة الرئيسية في الاسلام كانت في الحجاز الذي عاش فيه الرسول ومارس اعماله وطبق سننه وكان فيه اغلب الصحابة والتابعين الذين صاروا المصدر الرئيس للعلم بالدين والفقه ، ولا يخفى ان الحج الى مكة فريضة اسلامية واجبة .

ثم ان الدولة كانت تعتمد في صدر الاسلام على الجزيرة العربية لتجهيزها بالمقاتلة ولما كانت اقاليم المشرق تكون اطراف الدولة ، فان مقاتلتها الذين كانت بحاجة مستمرة لهم ، كانوا ياتون من الجزيرة الى تلك الاقاليم ، وكثير منهم كان يحتفظ بعلاقته مع عشيرته في الجزيرة ، وادى ذلك الى تزايد اهمية الطرق بين اقاليم المشرق والمغرب لتنقل الجند .

وقد ادى زوال الحواجز والعقبات امام التنقل ، وزيادة موارد اقاليم المغرب وخاصة الحجاز وبلاد الشام ، وارتفاع مستوى معيشة اهلها وتزايد قوتهم الشرائية الى زيادة طلب اهل هذه الاقاليم على سلع ومنتوجات اقاليم المشرق وكثرت في الاقاليم العربية ، ولابد انه رافقها ازدياد نشاط القوافل وتنقل التجار وربما القيام بنشاطات اقتصادية اخرى .

وترتبط اقاليم المشرق بالمغرب عن طريقين رئيسين : جنوبي وشمالي ، فاما الطريق الجنوبي فهو الذي يمر بالبصرة وتاتي عنه منتوجات اقاليم جنوب الهضبة الايرانية وكابل اما الطريق الشمالي فهو الذي يمر بوسط العراق وتاتي عن طريقه بعض سلع الصين واواسط اسيا وكذلك سلع اقليم خراسان والاقاليم التي في شمال ووسط الهضبة الايرانية وكلها اقاليم غنية وثيقة الصلة بالعالم الاسلامي .

والطريق الشمالي قديم الاستعمال ، كانت تسلكه القوافل ، وازدادت اهميته في العصر الروماني وخاصة بعد زمن اغسطوس ، وقد وصفه إيسيدور الكرخي في كتابه المشهور « المحطات الفرثية »(٦٧) . وكان يدخل العراق من خانقين

(٦٢) المصدر نفسه .
(٦٣) ياقوت ٢٩٢/٢ .
(٦٤) ياقوت ٧٥/١ .
(٦٥) ياقوت ١٥٠/٤ .
(٦٦) ياقوت ٢٨٤/٣ .

(٦٧) نشرت ترجمته العربية في مجلة سومر

ويعبر دجلة من جسر المدائن ثم يتجه غربا الى الحيرة ، التي اقيمت قربها الكوفة ، او الى وادي الفرات حيث يذهب الى بلاد الشام . وكانت المدائن تتصل باقاليم شمال العراق وارمينية وبالمناطق الجنوبية من العراق عن طريق دجلة ، كما تتصل باقليم الشام عن طريق الفرات ونهر الملك . ولما كانت المصادر الاسلامية لم تذكر اي جسر على دجلة غير جسر المدائن ، فالراجح ان هذا الطريق هو الذي كان مستعملا في صدر الاسلام(*) .

غير ان تاسيس بغداد على مسافة ثلاثين كيلو مترا شمالي المدائن كان لابد ان يؤثر في نهايات هذا الطريق ، لكي يرتبط ببغداد بدل ارتباطه بالمدائن .

ثم ان الطريق البري الى شمالي العراق ، بما في ذلك سامراء والموصل ، كان يسير على الجانب الشرقي من دجلة .

وكل هذا يؤدي ان يكون الجانب الشرقي من بغداد هو المحطة الرئيسة لطريق خراسان والموصل ويستلزم انشاء جسر في منطقة بغداد لا لتيسير ربط الجانب الغربي بالشمال والشرق فقط ، بل ايضا لتامين تنقل البشر والتجارات بين اقاليم المشرق والمغرب .

الصلات العسكرية بين الشرق والغرب :

اختار ابو جعفر المنصور موقع عاصمته في الجانب الغربي من دجلة ، ووضع بنفسه خطتها واسس تنظيمها ، وكان الجزء الرئيس فيها هو المدينة المدورة التي تقع قرب دجلة والصراة ؛ يفصلها عنهما رقعة صغيرة من الارض . وكانت لها اربعة ابواب متناظرة ليس فيها اي باب متعامد على دجلة . فالمدينة المدورة لم يتحكم في تخطيطها النهر ، ولم يكن في التخطيط الاول لابي جعفر المنصور ان يجري في المدينة المدورة او ارباضها اي نهر او قناة حتى للشفة والطواحين . وقد ظل هذا الوضع حتى نبهه بطريق الروم الى اهمية الماء في تشغيل الطواحين وفي سقي المزروعات التي تضفي على المدينة جمالا(٦٨) . وقد استجاب المنصور لملاحظة البطريق فجر الى المدينة المدورة ترعا تاخذ ماءها من الدجيل في الشمال ومن الصراة في الجنوب ؛ وكانت هذه الترع صغيرة وتجري في بعض الاماكن في قنى تحت الارض(٦٩) مما يقطع بانها لم تستعمل للمواصلات .

وقد جعل في المدينة المدورة حوالي خمسين شارعا منتظما تتفرع كلها من الساحة المركزية وتنتهي عند الاسوار ، فهي كمحاور العجلة ولا تتصل بالخارج . اما الارباض التي حول المدينة المدورة فكانت فيها طرق ودروب متعددة تتفرع باشكال غير منتظمة ، ولم تذكر المصادر انه جعل فيها شارعا عريضا وطويلا كالمحور .

وفي خلال السنوات الاولى من بناء المدينة كانت صلة الخليفة بالاقاليم الغربية اقوى ، فكان العراق اغنى اقليم تعتمد عليه الخلافة وتتفاعل معه ؛ كما حدثت في ارمينية واقاليم المغرب احداث اثارت الخلافة اكثر مما اثارتها الاحداث في اقاليم الشرق التي اقتصر في معالجتها على حملة قادها محمد المهدي ولي العهد ، وقضى اربع سنوات في معالجتها متخذا طوالها من الري مركزا له دون ان يحتاج الى امدادات جديدة من بغداد .

لذلك كان الخليفة ومستوطني الجانب الغربي اشد اتصالا بالاراضي والاقاليم الغربية فيعتمدون عليها في سد مطالبهم دون حاجة شديدة الى الجانب الشرقي الذي بالامكان الاتصال به عن طريق القوارب والزوارق .

الصلة بين الجانبين :

غير ان الحاجة الى استيطان الجانب الشرقي ظهرت مبكرة ، فمن المعلوم ان ابا حنيفة وابن اسحق ، وهما من اعاظم العلماء الذين عاشوا في بغداد ، توفيا سنة ١٥٠هـ(٧٠) ودفنا في مقبرة بالجانب الشرقي ، ولابد ان دفنهما في تلك المقبرة يرجع الى كونهما كانا عند وفاتهما يسكنان الجانب الشرقي ؛ وانهما لم يكونا وحدهما في هذه السكنى بل ان عددا آخر يصعب تقديره كان قد استوطن الجانب الشرقي . وتجدر الاشارة الى ان ابا حنيفة هو من اهل الكوفة في الاصل ، وان ابن اسحق هو من اهل الحجاز ؛ اي انهما من المهاجرة الى بغداد وليسوا من قدماء سكانها .

يذكر الطبري بان الاعمار في الجانب الشرقي بدا سنة ١٥١ ، وهو يذكر رواية عن الشروي في ان

(*) يذكر البلاذري انه عند الفتوح « عبر المسلمون جسرا كان معقودا عند قصر سابور الذي يعرف اليوم بقصر عيسى » (فتوح البلدان ٢٤٨) ، ولكن لم يتردد ذكر هذا الجسر في الاخبار مما يدل على قلة اهميته .

(٦٨) الخطيب ١/٧٨ .

(٦٩) الخطيب ١/٧٩ .

(٧٠) من سنة وفاة ابي حنيفة انظر الخطيب ١/١٢٥ ، ٣/٢٤٤ ، ٤/١٧٦ ومن وفاة محمد بن اسحق انظر تاريخ خليفة ١٥٤ الخطيب ١/٢١٤ ، ٤/١٧٦ .

الرصافة بنيت على اثر قدوم المهدي من خراسان في تلك السنة ، ورواية اخرى عن محاولته قسمة جيشه كوسيلة للسيطرة عليه ، وافتعاله حادثة لتبرير نقل بعض الجيش الى الجانب الشرقي ، ثم يقول بعد ذلك « وكان ذلك سبب البناء في الجانب الشرقي وفي الرصافة واقطاع القواد هناك »(٧١) غير ان هذا التاريخ قد ينطبق على بدء بناء الرصافة وبدء توزيع الاقطاعات ، اي على الزمن الذي بدات به الخلافة « رسميا » اعمار الجانب الشرقي ، وهو زمن متأخر عن بدء سكن الناس فيه .

ويروى الطبري عن موسى بن محمد بن ابراهيم العباسي انه « تولى صالح صاحب المصلى القطائع في الجانب الشرقي »(٧٢) ، ويعدد اليعقوبي والخطيب اقطاعات الجانب الشرقي(٧٣) غير ان الاقطاعات التي ذكراها قليلة العدد ، ومعظمها لرجال كان لهم دور بارز في خلافة المهدي او بعده ، مما يدل على ان المعلومات التي اورداها تعكس احوال فترة متأخرة عن سنة ١٥٠ التي لم يكن لمعظم هؤلاء المقطعين دور بارز فيها او فيما قبلها(٧٤) .

وذكر اليعقوبي الشوارع والاسواق التي تخترق الجانب الشرقي ، وهي تتفرع من باب الطاق الذي كان عليه الجسر . ويبدو من كلامه ان الجسر كان محور تنظيم الجانب الشرقي ، في حين ان المعلومات والدلائل الاخرى تشير الى ان جسر باب الطاق تأخرت اقامته ، ولا يوجد ما يدل على ان المنصور اراد ان يجعل التنظيم الخططي للجانب الشرقي قائم على الجسر . فالصورة التي تتكون من وصف اليعقوبي تنطبق على احوال فترة متأخرة عن زمن المنصور . كما لا يوجد ما يدل على ان المنصور جعل الجانب الشرقي قائما على تنظيم مقرر كالذي فعل في الجانب الغربي .

ويروى احمد بن محمد الشروى عن ابيه « ان المهدي لما قدم من خراسان امره المنصور بالمقام بالجانب الشرقي ، وبنى له الرصافة ، وعمل لها سورا وخندقا وميدانا وبستانا ، واجرى له الماء ، فكان يجري الماء من نهر المهدي الى الرصافة »(٧٥) .

ويتبين من هذا النص ان المنصور هو الذي قرر توطين المهدي وجيشه في الجانب الشرقي وبنى له الرصافة . وقد يفهم من سياق الكلام ان المنصور هو الذي وضع بنفسه تخطيط الرصافة ، وان محمد المهدي لم يكن له راى نافذ في ذلك التخطيط ومما يؤيد ذلك ان المهدي لما ولى الخلافة لم يقم طويلا في الرصافة ، بل اقام في قصر الطين ثم في قصر السلامة بعيساباذ(٧٦) .

لم تذكر المصادر مساحة الرصافة او تفاصيل الخطط والمحال والدروب التي فيها كما هو الحال في المعلومات التي اوردوها عن المدينة المدورة في الجانب الغربي . غير ان النص الذي اوردناه اعلاه يبين ان الرصافة تتميز على المدينة المدورة من حيث ان فيها ميدانا وبستانا ونهرا يدخل فيها .

تنقل العمال والصناع والمصلين :

ويبدو ان المنصور لم يهدف من استيطان الجانب الشرقي ان ينشىء مدينة ثانية ، فان الطبري يذكر انه في سنة ١٥٩ « بنى المهدي مسجد الرصافة وفيها بنى حائطها وحفر خندقها »(٧٧) ويذكر الخطيب رواية عن يعقوب بن سفيان ان المهدي بنى المسجد الذي بالرصافة سنة ١٥٩(٧٨) ، وقد يكون هذا هو المقصود بقول يحيى بن الحسن ان بناء الرصافة استتم سنة ١٥٩(٧٩) .

لقد كان البناء في الجانب الشرقي اقل منه في الجانب الغربي ، ومع هذا فقد استغرق حوالي تسع سنوات (١٥١ ــ ١٥٩) مما يدل على بطء العمل فيه ، وعلى انه كان يتم تدريجيا . ونظرا لصغر الجانب الشرقي وبطء العمل فيه ، فان العمال والصناع الذين عملوا في بناء الجانب الشرقي عددهم اقل من عدد من بنى الجانب الغربي . غير انه ينبغي الا نبالغ في قلة عددهم وبالنظر لاتصال البناء واستمراره ، فلابد ان عددا من هؤلاء العمال والصناع كان يقيم دائميا في الجانب الشرقي ، وانهم جلبوا معهم اسرهم وعوائلهم ، كما ان عددا لا يستهان به من غير العمال اخذ يستوطن هذا الجانب الذي صار يوفر مجال الرزق للكسبة .

غير ان عددا آخر ممن عمل في بناء الجانب

(٧١) الطبري ٣/٣٦٧ .
(٧٢) الطبري ٣/٣٦٧ .
(٧٣) البلدان ٢٥١ــ٤ ، الخطيب ١/٩٣ ــ ٩٦ .
(٧٤) انظر مقالتنا ادارة بغداد ومراكزها في العصور العباسية الاولى سومر م ٣٣ سنة ١٩٧٧ ص ١٣٢ فما بعد .
(٧٥) الطبري ٣/٣٦٤ ــ ٥ .

(٧٦) انظر مقالتنا « منازل الخلفاء وقصورهم في العهود العباسية الاولى سومر م ٣٢ سنة ١٩٧٦ .
(٧٧) الطبري ٣/٤٦٠ .
(٧٨) الخطيب ١/١٠٩ .
(٧٩) الخطيب ١/٨٢ .

الشرقي واعماره ، او وجـد فيه الرزق ، ظلت اقامته الدائمية في الجانب الغربي ، فكان عليه ان يعبر النهر للوصول الى محل عمله .

ثم ان مستوطني الجانب الشرقي لم تنقطع صلتهم كليا مع اهل الجانب الغربي ، فقد كان للكثير منهم اقارب ومعارف في الجانب الثاني ، فكان لابد من عبور النهر عند الاتصال بين اهل الجانبين .

ويبدو ان المنصور عندما بدأ في بناء الجانب الشرقي لم يكن يعتزم ان يجعل منه مدينة مستقلة قائمة بذاتها او مركزا خليفيا رسميا . فكانت الرصافة متصلة بما حولها ، ولم يفصلها شيء حتى بنى لها المهدي سورا وخندقا عندما ولي الخلافة كما انها ظلت خالية من مسجد جامع الى ان ولي المهدي الخلافة فبنى الجامع . وقد تطلب وجود جامع واحد في الجانب الغربي للجمعة ان يعبر الحريصون على صلاة الجمعة من اهل الجانب الشرقي الى الجانب الغربي كل جمعة على الاقل . كما أن تركز الدواوين والمؤسسات الادارية استلزم مستخدميها ومراجعيها من اهل الجانب الشرقي ان يعبروا النهر للوصول اليها .

مراكز الادارة :

ان بناء المهدي على اثر توليه الخلافة ، جامع الرصافة وخندقها وسورها يعبر عن عزمه على جعل الجانب الشرقي مدينة مستقلة عن الجانب الغربي ، وقد ظل جامع الرصافة هو الوحيد في الجانب الشرقي ، وثاني اثنين في بغداد حتى عودة الخلفاء من سامراء في اواخر القرن الثالث الهجري . وقد احتفظ جامع الرصافة باهميته وظل بناؤه قائما عامرا حتى بعد ان اندثرت كافة الابنية حوله في اواخر القرن الرابع الهجري . وكان هذا الجامع من مراكز الحياة الفكرية ، فكان عدد غير قليل من العلماء البارزين يلقون دروسهم فيه ، الامر الذي يحمل من يريد الاستماع لهم او الاتصال بهم من اهل الجانب الغربي الى عبور النهر للوصول الى الجامع .

ان بناء القصر من داخل الرصافة ، واحاطتها بالسور والخندق جعلها مفصولة عن باقي اراضي الجانب الشرقي بحاجز مادي يحددها ويمنع توسعها ، ويؤثر في جعل الحياة فيها معزولة عن الحياة في اطرافها . وقد احتفظ قصر الرصافة بطابعه « الملكي » حتى بعد ان ترك الخلفاء الاقامة فيه ، او انه ظل مسكونا يقيم فيه عدد من كبار افراد الاسرة العباسية ، وخاصة النساء . وبوجود القصر في وسط الرصافة واحاطتها بالسور والخندق ، اصبحت الرصافة قريبة الشبه بمدينة المنصور المدورة في الجانب الغربي ، من حيث انها اصبحت مدينة مسورة في وسطها جامع يلصقه قصر خليفي وحولها ربض مكشوف .

غير ان المهدي لم يقم طويلا في الرصافة ، ففي سنة ١٦٣ انتقل الى قصر الطين ، وفي السنة التالية انتقل الى قصر السلامة في عيساباذ التي كان فيها مقامه ومقام ابنه موسى الذي تلاه في الخلافة . وفي خلافة الرشيد والامين عاد الخلفاء الى الجانب الغربي ، غير ان المامون لما عاد الى بغداد استقر في الجانب الشرقي واقام في قصر بناه على بعد من الرصافة ، ولما عادت الخلافة من سامرا استقرت في القصر الحسني القريب من قصر المأمون ، وقد نما هذا المركز الجديد فاصبح دار الخلافة وظل كذلك حتى سقوط الخلافة العباسية .

يتبين من هذا ان الجانب الشرقي ظل مركز الخلافة منذ زمن المهدي ، الا في فترات محدودة غير ان مقام الخلفاء في الجانب الشرقي لم يكن مستقرا في العهود الاولى ، فقد تنقل من قصر الرصافة الى قصر الطين فعيساباذ فقصر المأمون فالحسني وكان التنقل نحو الجنوب ، ولكنه عموما لم يبعد عن ضفاف النهر .

ان بناء الجانب الشرقي ونمو الاعمار فيه وتزايد سكانه تطلب قيام مؤسسات ادارية لمعالجة القضايا والمشاكل التي قد تظهر بين اهله ، وخاصة فيما يتعلق بالامن والقضايا والجباية ويبدو من الاشارات القليلة التي وردت في المصادر ان الادارة ببغداد كان لها مركز واحد في السنين الاولى ، ولم تظهر المؤسسات المزدوجة في كل جانب الا بعد أمد غير قصير . وكان وجود مركز واحد للمؤسسات في بغداد يتطلب تنقل ذوي المصالح والموظفين وعبورهم الى الجانب الذي كانت فيه المؤسسات ان كانوا من اهل الجانب الثاني .

حاشية الخليفة وحرسه والدواوين :

غير ان التنقل بين الجانبين كان اشد تأثرا بتنقل مقام الخلفاء ومراكزهم . فالخليفة باعتباره راس الدولة والمسؤول الاكبر عن ادارتها وعن ما يتصل بها من الدواوين المركزية ، كان يرتبط به شخصيا عدد من الجند والحرس والحاشية والاتباع ، فضلا عن الدواوين المتصلة به ، وقد

ذكرت المصادر التنقلات التي حدثت في مقام الخلفاء الاولين لا بين الجانبين فحسب ، بل وفي عدة اماكن من الجانب الواحد ايضا ، وان هذا التنقل كان يصحبه انتقال المتصلين بالخليفة والراجعين له تبما لتنقله . ومن البديهي ان الذين يعيشون في قصر الخليفة من افراد اسرته وخدمه وعبيده وجواريه ، كانوا يتبعون الخليفة وينتقلون بانتقاله ثم يستقرون في سكناهم معه .

والمفروض أن الحرس الخاص للخليفة ينتقلون معه ويقيم في او قرب قصره . غير ان افراد الحرس ، وهم احرار وليسوا رقيقاً ، كانت لهم اسر متصلة بهم ، والراجح ان اسر الحرس لم تكن تقيم في قصر الخليفة او قربه لان ذلك يعرض الخليفة الى كشف حياته الخاصة واثارة الحسد واحتمال التجسس على حياته الخاصة ، فضلا عن اثره في تشويه الحياة والجمال حول القصر ، غير ان عدم سكن اسر الحرس في قصر الخليفة او حوله لا يعني انها جميعا ظلت في اماكن سكناها الاولى ؛ والراجح ان عددا غير قليل منهم انتقلوا الى الجانب الذي كان يقيم فيه الخليفة ، وان عددا اخر ظل مقيما في اماكنه القديمة في الجانب الغربي . وفي كلتا الحالتين ينشط عبور النهر ، اما عند نقل اسر او اناث افراد الحرس ؛ او عند تنقل هؤلاء الافراد او اسرهم اذا كان مقام الاسر في غير الجانب الذي تقتضي واجبات الحرس اقامتهم فيه .

وينطبق على الجند المتصلين بالخليفة ما ذكرناه عن الحرس في تنقلهم واسرهم بين الجانبين.

وعندما بنى المنصور المدينة المدورة واعمر الجانب الغربي ؛ جعل الدواوين في داخل المدينة المدورة ؛ واقطع من كان عليها قطائع قريبة من دواوينهم خارجها ويبدو ان معظم الكتاب استوطنوا محلة الانباريين على الصراة قرب باب البصرة خارج المدينة المدورة . والراجح ان قرب الدواوين من مقام الخليفة وقرب سكن الكتاب من الدواوين ظل طيلة حياة المنصور ، اما الكتاب الرئيسيين الذين كانوا يقومون بعمل الوزارة ، فكانت لكل منهم اقطاعات في الارباض التي حول المدينة وخاصة في شماليها ، فمساكن هؤلاء « الوزراء » غير بعيدة عن قصر الخليفة ولا يحتاج الاتصال بينهما الى عبور النهر .

غير ان المهدي اقام عندما ولي الخلافة ، في الجانب الشرقي ، في الرصافة اولا ثم في عيساباذ فيما بعد . اي انه نقل مقام الخلافة الى الجانب الشرقي الذي لم يستقر فيه في مكان واحد ، وكان لوزرائه والمقربين اليه اقطاعات في الجانب الشرقي، الامر الذي يدل على سكناهم في ذلك الجانب قريبا من الخليفة .

اما الدواوين فليست لدينا نصوص واضحة عن مواقعها في زمن المهدي ، والراجح انها انتقلت الى الجانب الشرقي الذي لم يكن يتم بدون عبور النهر . والواقع ان الدواوين اذا كانت قد بقيت في زمن المهدي والهادي في الجانب الغربي فان ذلك كان يتطلب عبور الوزراء والكتاب باستمرار للتوفيق بين الاتصال بالخليفة والاشراف على سير الدواوين اما اذا كانت الدواوين قد انتقلت الى الجانب الشرقي ، فان انتقالها يستلزم نقل الكتاب محل سكناهم ليكونوا بقربها ، او تنقلهم باستمرار اليها اذا ظلوا يقيمون مع اسرهم في الجانب الغربي . ومن المعلوم انه كان يستخدم في الدواوين كتاب يختلف عددهم وتنظيمهم ومقدار رواتبهم باختلاف الدواوين ومراكزهم فيها ، وهم يتميزون بالبستهم وبالتقاليد التي يسيرون عليها في حياتهم وفي اساليب عملهم . وكان عملهم يوميا ومنتظما ويخضع الى اشراف دقيق ودخلهم محدود ، فكان راتب الرؤساء منهم ثلاثمائة درهم في الشهر ، وراتب الاعتياديين ثلاثين درهما(٨٠) في الشهر وهو مبلغ لا يمكن من حياة مادية مترفة فضلا عما يهددهم من اخطار العزل والبطالة ، وكان هذا يقضي عليهم الاقامة بقرب دواوينهم وان تيسر لهم وسائل الوصول الى دواوينهم .

يتبين من كل ما ذكرنا ان الحاجة الى عبور دجلة لتامين الاتصال بين الجانبين قد بدات منذ اوائل تاسيس بغداد في الجانب الغربي ، غير انها اتسعت بعد اعمار الجانب الشرقي ، وازدادت شدة على اثر نقل الخلفاء مراكز اقامتهم من جانب لاخر . وكانت هذه الحاجة شاملة ، ولكن بدرجات متفاوتة ، لانواع متعددة من المنتوجات الغذائية والسلع التجارية ، وذلك لاصناف كثيرة من الناس، وخاصة العمال والصناع واصحاب الاعمال والكتاب والموظفين والحرس والجند . ولا ريب في ان ازدياد عدد المتصلين بالحكومة ممن يتطلب عملهم التنقل بين جانبي بغداد القى على الحكومة مسؤولية تنظيم هذا الانتقال .

عندما اسس المنصور مدينة السلام في الجانب الغربي من بغداد ؛ لم يضع في تخطيطه الاول لها

---

(٨٠) الوزراء والكتاب للجهشياري .

انشاء جسر على دجلة ، فلم تذكر المصادر انه جعل على هذا النهر موقعا تتفرع منه طرق ؛ او انه شيد عليه ما يمهد لبناء جسر . فقد جعل قصره والجامع في وسط المدينة المدورة التي كان يفصلها عن النهر شريط من الارض اقطعه لبعض اولاده وكان يقابل النهر بعض سور المدينة ، ولم يجعل فيه بابا مواجها لدجلة ، كما لم يسم اي باب باسم دجلة . وكان اثنان من ابواب المدينة الاربعة ، هما باب خراسان وباب الشام لا يقع اي منهما مواجها للنهر ، بل كانا منحرفين عنه .

ودجلة في المنطقة التي بنيت فيها بغداد مجراه بطيء نسبيا ، وخاصة في مواسم انخفاض الماء التي لا تقل عن تسعة اشهر في السنة ، وشواطئه ترابية رخوة معظمها بطيئة الانحدار ولا تكون جروفا عالية . ومجراه محصور مستقيم تقريبا ليس فيه التواءات حادة كثيرة ، بل توجد فيه تحنيات تدريجية قليلة ، مما يجعل الاماكن الشديدة التيار فيه قليلة . وكانت فيه بعض الجزر ابرزها جزيرتان اولاهما قريبة من الضفة الغربية عند دار عبدالله ابن طاهر ، وكانت كبيرة ذكرت المصادر انه اجتمع فيها مرة عدد كبير من الناس(٨١) وعسكر فيها بعض الجيش .

والجزيرة الثانية قرب الشاطىء الشرقي عند بستان ام موسى في المخرم ، وقد ذكرها ابو يوسف في كتاب الخراج كمثل للجزر التي تظهر في الانهار ، ونصح بعدم السماح في البناء فيها ، لان ذلك يضر بالابنية التي على شاطىء النهر(٨٢) .

وتقع على شواطىء دجلة بعض القصور التي كان للكثير منها مسنيات ، اي حيطان عمودية تقريبا على النهر لحماية القصر من مياه الفيضان . غير ان الناس عموما لم يفضلوا بناء بيوتهم على الشاطىء ، ولذلك فان معظم قصور وبيوت الكبار والاغنياء كانت بعيدة عن النهر وليست عليه ، ولعل من اهم اسباب ذلك الامن ، اذ ان الدور الشاطئية اذا كانت فيها فتحات وشبابيك فانها تتعرض للسرقة والغرق ، واذا لم يكن فيها ذلك فان فائدة النهر لها تنعدم . وكانت الجوامع الرئيسة والمساجد والدواوين لا تقع على الشاطىء ، الا القليل منها في العهود العباسية المتأخرة . وقد وزع ابو جعفر معظم الاراضي الواقعة على دجلة اقطاعات للعباسيين . وقد اجمل وصف ذلك ابن عرفة فيما نقله عنه الخطيب بقوله « وأما شاطىء دجلة فمن قصر عيسى الى الدار التي ينزلها في هذا اليوم على قرن الصراة ابراهيم بن احمد فانما كانت اقطاعا لعيسى بن علي ــ يعني ابن عبدالله بن عباس ــ واليه ينسب نهر عيسى وقصر عيسى ، وعيسى بن جعفر وجعفر بن ابي جعفر ، واليه ينسب فرضة جعفر .. واما شاطىء دجلة من قرن الصراة الى الجسر ، ومن حدا الدار التي كانت لنجاح بن سلمة ثم صارت لاحمد بن ابي اسرائيل ثم هي اليوم بيد خاقان المفلحي الى باب خراسان فذلك الخلد ، ثم ما بعده الى الجسر فهو القرار نزله المنصور في آخر ايامه ثم اوطنه الامين »(٨٣) . ويقول في مكان اخر « واما شاطىء دجلة من الجانب الشرقي ، فاوله بناء الحسن بن سهل وهو قصر الخليفة في هذا الوقت ، ودار دينار ودار رجاء بن ابي الضحاك ، ثم منازل الهاشميين ، ثم قصر المعتصم وقصر المأمون ، ثم منازل آل وهب الى الجسر كانت اقطاعا لناس من الهاشميين ومن حاشية الخلفاء »(٨٤) .

يظهر مما سبق ان شواطىء دجلة نظرا لتدرج انحدارها وقلة جروفها ورخاوة تربتها تصلح لتكون فيها المشارع اي الاماكن التي ترسو فيها القوارب والزوارق التي تفضل المياه الهادئة والشواطىء القليلة الانحدار . ولا ريب في ان وجود القصور يعرقل انشاء المشارع ، لان لمعظم القصور مسنيات ، ولان اصحاب القصور يفضلون ان تكون المشارع قريبة منهم وليست في دورهم ؛ ولعل هذا من الاسباب التي لم تسم ــ بسببه ــ اية مشرعة في بغداد باسم صاحب قصر او متنفذ ، اللهم الا فرضة جعفر . غير انه يجدر ان نلاحظ ان القصور لم تشغل كل شواطىء دجلة ، فكانت فيها اماكن تصلح للمشارع .

القناطر والجسور :

مهما كانت الخدمات التي تؤديها والاغراض التي تحققها الزوارق في النقل النهري بين جانبي بغداد فانها لا تكفي للتعويض عن اقامة معابر ثابتة ؛ حيث ان الكلفة العامة للنقل في هذه المعابر ارخص وعدد الايدي العاملة فيها اقل ، ثم انها بتحدد موقعها وثباتها تكون قاعدة لتنظيم المواصلات وحياة الناس وتنقلاتهم .

والمعابر الثابتة التي يتردد ذكرها في المصادر

(٨١) الطبري ٣ .

(٨٢) الخراج لابي يوسف ٩٢ .

(٨٣) الخطيب ٩٢/١ .

(٨٤) الخطيب ٩٨/١ .

العربية هي اما قناطر او جسور ، فالقنطرة : « ازج يبنى بالاجر او بالحجارة على الماء يعبر عليه »(٨٥) اما الجسر فيبنى عادة من الخشب على قوارب ضخمة تثبت بسلاسل ويصف عليها الواح الخشب ليتيسر السير عليها وعبورها . وقد ورد في اخبار خطط بغداد ذكر عدد من القناطر على الترع والانهار الصغيرة ، بعضها مسماة باسم المحلة التي اقيمت فيها ، او النهر الذي نصبت عليه ، ولكن كثيرا منها سميت باسماء اشخاص لم تذكر الكتب التي اهتمت بذكر رجال السياسة والادارة والحرب ، او العلماء شيئا عنهم، ولذلك لا نستطيع الجزم بسبب هذه التسميات ، وهل انه راجع الى ان الشخص الذي سميت به القنطرة هو رجل محلي مشهور في المنطقة ، ام انه باني القنطرة .

اما الجسور الكبيرة على دجلة فكلها مما انشاه الخلفاء او اصحاب السلطة في بغداد ، وتكون اقامتها وصيانتها والعناية بها من عمل الدولة نظرا لكلفتها ولتأديتها الخدمات العامة للناس وتحقيقها بعض اغراض الحكومة لنقل الجند ومستخدمي الحكومة . وكانت كلفتها في سنة ٣٠٦هـ ، وهي الوحيدة التي وصلتنا في ذلك ثلاثمائة دينار في الشهر(٨٦) .

يجري دجلة في منطقة بغداد في ارض تربتها رسوبية رخوة خالية من الصخور والحصى ، ويسير مجراه في منخفض من الارض غير عميق ، وبعض مناطق مجراه عريضة واسعة ، وبعضها ضيقة نسبيا وذات جروف عالية خاصة في فصل الصيف الحار وبذلك تكون اشد ملاءمة لنصب الجسور ، وهي مناطق غير قليلة فكانت تنشأ عندها الجسور. ومثل هذه الطبيعة الجغرافية تجعل بالامكان عدم التقيد بنقطة واحدة في انشاء الجسر ، بل الاختيار بين اكثر من بقعة او انشاء اكثر من جسر واحد عبر دجلة ، وان يكون العامل الاساس في انشاء الجسور هو الاحوال الادارية ، او الاجتماعية والاقتصادية .

كان هدف ابي جعفر المنصور من انشاء بغداد واضحا محددا ، وهو ان يتخذ منها مقرا ثابتا لنفسه واهله وحاشيته وحرسه ودواوينه ومع انه ادرك القابلية الجغرافية لهذا الموقع ان يتوسع فيصبح مركزا حضريا كبيرا ذا نشاط اقتصادي واجتماعي واسع ، الا انه اهتم في البداية ان يجعله مركزا اداريا محصنا مكتفيا بذاته ، وقد وضع بنفسه تخطيط المدينة الجديدة وجعله بالشكل الذي يحقق اغراضه .

وقد اختار المنصور انشاء مدينته في الجانب الغربي ، وكان اهم ما فيه هو المدينة المدورة التي احتوت قصره ودواوينه والمسجد الجامع ومقام شرطته وحرسه ، وهي محاطة بسور محكم له اربعة ابواب تحكمت فيها التخطيطات الداخلية للمدينة ، ولم يجعل فيها شارعا او بابا متعامدا على النهر ، بل كانت المنطقة المواجهة للنهر يمتد فيها سور بين باب البصرة وباب خراسان ، وكلاهما منحرف عن النهر ، ويحصر بين السور وشاطىء النهر شريط ضيق من الارض توزعت ارضه اقطاعات بني على كل منها قصر لاحد اولاد المنصور ، فلم تنشأ فيها محلة او يقام فيها سوق ، أي انها لم تكن مركزا لنشاط سكاني او اقتصادي قد يستلزم انشاء جسر فيها .

وكان اهتمام ابي جعفر عند انشاء بغداد منصبا على الجانب الغربي ، فعمل على ان يعتمد في معاشه على ما تنتجه المنطقة الواقعة حوله ، اي في الجانب الغربي ، وهي منطقة خصبة غنية بمنتوجاتها ومرتبطة بالاقاليم الشمالية والغربية والجنوبية ، ولم يراع في تخطيطه الاعتماد الكبير على الجانب الشرقي . والواقع ان اعمار الجانب الشرقي تأخر عن تأسيس المدينة المدورة ، فلم تكمل الرصافة وجامعها الا في سنة ١٥٩ ، اي بعد ان مر على تحول المنصور الى المدينة الجديدة اربع عشرة سنة حدثت خلالها تطورات كبيرة ، حيث نمى الاعمار في الجانب الغربي وازداد سكانه واتسع النشاط الاقتصادي فيه ، وتوسعت علاقاته بالجانب الشرقي ، وبذلك ظهرت الحاجة الى ربط الجانبين وانشاء الجسور بينهما .

الجسور الاولى :

ورد عن الجسور الاولى نص رواه كل من الخطيب ، وابن الجوزي وابن الفقيه الهمداني ، ولكن في رواياتهم بعض الاختلافات .

فاما الخطيب فانه يذكر بسنده عن محمد بن خلف « قال احمد بن الخليل ابن مالك عن ابيه قال :

كان المنصور قد امر بعقد ثلاثة جسور : احدهما للنساء ، ثم عقد لنفسه وحشمه

(٨٥) لسان العرب ٦/٢١ .
(٨٦) الصابي : الوزراء ٢٦ .

جسر بين باب البستان وكان بالزندورد جسران عقدهما محمد .

وكان الرشيد قد عقد عند باب الشماسية جسرين .

وكان لابي جعفر جسر عند سويقة قطوطا .

فلم تزل هذه الجسور الى ان قتل محمد ، وبقي منها ثلاثة الى ايام المامون ، ثم عطل واحد(٨٧)

وقد نقل ابن الجوزي هذا النص ، واشار الى نقله اياه من الخطيب ولكنه ذكر ان جسري الزندورد عقدهما المهدي ، كما انه اكتفى من الجملة الاخيرة من النص بقوله : « فلما قتل الامين عطلت »(٨٨)

اما ابن الفقيه فقد روى هذا النص كما يلي :

« قال الخليل بن مالك(٨٩) كان المنصور قد امر بعقد ثلاثة جسور ، جسر يعبر عليه ، وجسر يرجعون منه ، وجسر في الوسط للنساء . وعقد بعد ذلك بباب البستان جسرين ، جسر له ولولده ، وجسرا لخدمه وحشمه .

وعقد الرشيد بعد ذلك عند باب الشماسية جسرين .

وكان لام جعفر جسر عند مشرعة فرج الرخجي بالقرب من سويقة قطوطا .

فلم تزل هذه الجسور قائمة الى ان قتل محمد بن زبيدة ، ثم عطلت الا الثلاثة التي عند مجلس الشرطة فانها باقية الى وقتنا هذا(٩٠) .

وعند مقارنة الروايات الثلاث يتبين :

١ ـ لم يذكر الهمداني جسري الزندورد ، ولعل ذلك سقط من الناسخ . وذكر ابن الجوزي ان باني هذين الجسرين هو المهدي ، وبذلك ازال الالتباس في نص الخطيب عندما ذكر ان بانيهما هو محمد ، الذي قد يكون المهدي ، او الامين .

٢ ـ ان كلا من الخطيب والهمداني ذكر ان المنصور بنى خمسة جسور ، اثنان منها في باب البستان ، ولكن نص الهمداني اوسع حيث بين خصائص واغراض كل جسر .

٣ ـ ذكر الخطيب ان الجسر الذي عند سويقة قطوطا عقده ابو جعفر . اما الهمداني فذكر ان الذي عقده هو ام جعفر ، ولا ريب في ان تنظيم سياق النص يرجح رواية الهمداني .

٤ ـ ان الخطيب يذكر انه بعد مقتل الامين بقيت ثلاثة جسور ، ثم عطل واحد ، اي انه بقي بعد المأمون جسران .

اما الهمداني فيذكر ان الجسور الثلاثة ظلت الى زمن الخليل بن مالك .

وعند تنسيق روايتي الخطيب وابن الفقيه الهمداني يمكن ان نصنف الجسور الاولى الى المجموعات التالية : ـ

١ ـ المجموعة الاولى عقدها المنصور ، وتتكون من ثلاثة جسور احدها للذهاب ، والثاني للاياب ، والثالث للنساء . ولم يذكر الخطيب موقع هذه الجسور ، غير انه ذكر انها بقيت بعد ان عطل منها واحد في زمن المأمون . اما ابن الفقيه فذكر ان هذه الجسور الثلاثة المنصوبة القديمة التي عند مجلس الشرطة ، فانها باقية الى وقتنا هذا .

٢ ـ المجموعة الثانية ، وهي الجسران اللذان عند باب البستان ، احدهما له ولولده ، والثاني لخدمه وحشمه .

٣ ـ المجموعة الثالثة وهي الجسران اللذان بالزندورد ، وقد عقدهما المهدي .

٤ ـ المجموعة الرابعة وهي جسرا الرشيد عند باب الشماسية .

٥ ـ المجموعة الخامسة وهي جسر ام جعفر عند سويقة قطوطا .

وجسور كل من هذه المجموعات متقاربة وفي موقع واحد ، وبذلك يمكن اعتبار كل منها «جسرا واحدا» تيسيرا للبحث .

لم يحدد النص بدقة تاريخ انشاء هذه الجسور ، علما بان كلا من المنصور والرشيد ظل

(٨٧) الخطيب ١/١١٦ .
(٨٨) المنتظم ، مخطوطة ايا صوفيا حوادث سنة ١٤٥ (١٢٨) .
(٨٩) ذكر الخطيب « احمد بن الخليل بن مالك بن ميمون بن سعيد ، ابو العباس مولى علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب ، يماني الاصل ، ويعرف بجور ، حدث عن ابي بكر بن عياش وابي اسامة وعبدالملك بن قريب الاصمعي وزينب بنت بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس » (٤/١٢١) ولم يذكر سنة وفاته ، كما انه لم يترجم لابنه ، ومن الواضح ان جده سعيد هو مولى علي بن عبدالله ، ويبدو من شيوخه ان اباه كان معاصرا لهم ، وانه عاش في اوائل القرن الثالث .
(٩٠) بغداد مدينة السلام ٥٥ .

في الخلافة زهاء عشرين عاما ، وان كلا من المهدي والامين ظل في الخلافة زهاء خمسة اعوام .

ويلاحظ ان المجموعة الاولى تتكون من ثلاثة جسور ؛ وان المجموعة الخامسة تتكون من جسر واحد ، اما المجموعات الثلاث الاخرى فيتكون كل منها من جسرين . وقد حدد النص اغراض كل من الجسور التي عقدها المنصور ؛ فاما المجموعة الاولى فاحد جسورها للذهاب ؛ والثاني للاياب ، والثالث وهو الوسط للنساء .

واما المجموعة الثانية فهي جسران احدهما لنفسه ولولده ، والثاني لخدمه وحشمه . اما جسرا كل من المجموعتين الاخريين فلم يحدد النص الغرض من كل منهما . وصراحة النص تنفي اي زعم بان كل مجموعة كانت جسرا واحدا قسم الى ثلاثة اقسام لغرض تنظيم السير فيه .

غير ان حرفية النص تثير بعض التساؤلات ، ومنها :

١ ــ ما هي الاسباب التي دفعت الى انشاء جسرين ، او ثلاثة ، في مكان واحد بدلا من انشاء جسر واحد ؟ هل ان ذلك راجع الى قصور في فن بناء الجسور ، كعدم اتقان انشاء قوارب ضخمة تكفي للجسر الكبير ؟ ام انه لاغراض امنية وتنظيمية ، وان ما ذكر عن المجموعة الاولى التي احد جسورها للذهاب والاخر للاياب ينطبق على جسور المجموعات الاخرى ؟

٢ ــ ان ادعاء النص ان جسري المجموعة الثانية كان احدهما للخليفة ولولده ، والثاني لخدمه وحشمه ، يعني انها كانت جسورا خاصة للخليفة وتوابعه وليس للعامة ، وهذا لا ينسجم مع الاتجاهات السياسية العامة للخليفة المنصور ، فهل ان النص دقيق ومنطبق على الواقع ؟ وهل ان جسري المجموعتين الثالثة والرابعة كانت لنفس الاغراض ؟ علما بان المجموعة الاولى التي عند درب سليمان لم تذكر المصادر التالية انها كانت ثلاثة جسور ، بل تردد انها جسر واحد . فهل ان هذا يعني ان النص غير دقيق ، ام ان جسور المجموعة الاولى ، على الاقل ، ادخلت عليها تغييرات فيما بعد فصارت جسرا واحدا .

لقد بينا ان نص الخطيب لم يذكر موقع جسور المجموعة الاولى كما لم يصرح بالمجموعة التي بقيت جسورها بعد المأمون ، اما ابن الفقيه فقد نص ان الجسور عطلت «الا الثلاثة المنصوبة القديمة التي عند مجلس الشرطة فانها باقية الى وقتنا» . ومعنى هذا ان هذه الجسور عند درب سليمان ، وسنتحدث عنها فيما بعد بتفصيل اوفى .

اما المجموعة الثانية فقد اتفق الخطيب وابن الفقيه على انها كانت في باب البستان ، ويظهر سياق النص ان هذا الموقع كان ثابتا مشهورا في تاريخ كتابة النص ، غير ان النص لم يذكر في اي من جانبي بغداد يقع باب البستان ، ولا اسم المكان الذي امتد اليه الجسر في الجانب المقابل ؛ ولما كانت المصادر لم تذكر بستانا مشهورا ، او باب بستان في الجانب الغربي(٩١) ، فلابد ان يكون باب البستان هذا يقع في الجانب الشرقي من بغداد .

اما في الجانب الشرقي فان الخطيب ذكر باب البستان فيه في عدة مواضع من كتابه(٩٢) . غير انه لم يذكر اسم البستان الذي نسب اليه هذا الباب ، كما انه لم يشر الى موقعه بدقة .

وذكرت بعض كتب التاريخ باب البستان وما فيه من معالم . فقد ذكر الصابي ان فيه دار علي ابن عيسى(٩٣) ، وذكر مسكويه ان فيه دارا لابن مقلة(٩٤) . وذكر الصابي في موضع من كتابه ان دار علي بن عيسى تقع في بستان الزاهر(٩٥) ، كما ذكر ابن الجوزي ان دار ابن مقلة في ذلك البستان ايضا(٩٦) ، وهذا يقطع بان البستان الذي نصب الجسر ببابه هو بستان الزاهر . وذكر سهراب موقع بستان الزاهر حيث ذكر ان نهر موسى يمر « ملاصقا لقصر المعتصم الى ان يخرج الى الشارع الاعظم ، ثم يخرج الى شارع عمرو الرومي ، ثم يدخل بستان الزاهر فيسقيه ، ثم يصب في الدجلة التي تنحر تحتها الذبائح (٢٥٥/٢) وكل هذه الابواب من دار الخلافة وهي بعيدة عن النهر .

(٩١) ورد ذكر لبستان ام القاسم ابنة المنصور بباب الشام (طبري ٤٤٥/٣) وبستان مؤنسه الذي اتخذه طاهر بن الحسين مقرا عند حصاره بغداد ، وهو بباب الانبار (طبري ٩١٧/٢ ، ٩٢٤ وانظر ايضا ٨٦٧ ، ٩٢٤) غير ان كلا من الموقعين بعيد عن نهر دجلة .

(٩٢) انظر الخطيب ١٢٢/٥ ، ١٤٨ ، ٦٨/٩ ، ٥٦/١١ وقد ذكر في المكانين الاخيرين المقبرة التي كانت في باب البستان.

(٩٣) الوزراء ٢١١ ، ٣٣٦ تكملة الطبري ٥٠ .

(٩٤) مسكويه ٢٦٥/١ تكملة الطبري ٧٨ .

(٩٥) الوزراء ٢٩١ .

(٩٦) المنتظم ٢١٠/٦ .

اسفل البستان بشيء يسير»(٩٧) . ويتبين من وصف سهراب لانهار الجانب الشرقي ان بستان الزاهر يقع اسفل المخرم ، ولما كان موقع المخرم عند الصباوضية الحالية ، فيكون البستان الزاهر عند موقع مدينة الطب او وزارة الدفاع ويكون موقع المجموعة الثانية من الجسور ، عند جسر باب المعظم الحالي .

ذكر يعقوب بن سفيان الفسوي انه في « سنة ١٥٧ ابتنى ابو جعفر قصره الذي يعرف بالخلد ، وفيها عقد الجسر عند باب الشعير »(٩٨) .

ومن المعلوم ان باب الشعير تقع في الجانب الغربي ، وهي تقابل بستان الزاهر ، كما حددنا موقعه اعلاه ؛ لذلك يمكن القول ان هذا الجسر هو نفس جسور المجموعة الثانية التي ذكرها الخليل ابن مالك وبين مواقعها بالنسبة للجانب الشرقي . وبالنظر لاهمية هذا الجسر الموازية لاهمية سابقه ، فاننا نرجي الكلام عنه الى ما بعد استكمالنا الحديث عن جسور المجموعات الثلاث التي ذكرها الخليل ابن مالك .

لقد ذكرنا ان الخليل بن مالك ، فيما نقله عنه الخطيب وابن الجوزي ذكر ان الخليفة محمد المهدي كان له جسران بالزندورد ، وانهما مما تعطل على اثر مقتل الامين ، ولم يرد ذكر هذا الجسر في النص الذي رواه ابن الفقيه الهمداني الذي اشار الى زوال كافة الجسور ما عدا التي عقدها المنصور .

فاما الزندورد التي كان الجسران فيها ، فقد ورد ذكرها في نصين ؛ احدهما للخطيب حيث قال « ان المعتمد والمعتضد والمكتفي ماتوا بالقصور من الزندورد »(٩٩) فمن المعلوم ان هؤلاء الخلفاء وافاهم اجلهم في القصر الحسني الذي كانوا يقيمون فيه(١٠٠) ؛ وهذا يظهر ان الزندورد هي المنطقة التي كان فيها القصر الحسني ودار الخلافة التي موقعها عند شارع البنوك حاليا . اما النص الثاني فهو الذي رواه ياقوت عن الشابشتي حيث قال «الزندورد في الجانب الشرقي من بغداد ، وحدها من باب الازج الى الشفيعي ، وارضها كلها فواكه واترج واعناب ، وهي من اجود الاعناب التي تعصر ببغداد »(١٠١) .

ومن المعلوم ان باب الازج يقع عند مرقد الشيخ عبدالقادر ، وذلك يقتضي ان يكون موقع هذا الجسر من الجانب الغربي بين موقع الشواكه والصالحية ؛ اي انه جهة جسر الاحرار او جسر الجمهورية .

يذكر النص ان المهدي انشأ هذا الجسر لنفسه ؛ اي لخدمه اغراض محدودة بالخليفة وليس للاغراض العامة ؛ خاصة وان اعمار الجانب الغربي لم يتجاوز في العصور العباسية نهر عيسى الذي كان يصب قرب جسر الشهداء الحالي ، جعل فوائده العامة محدودة ؛ ولعل هذا من اسباب تعطله بعد فترة وجيزة من عقده ، وانه لم يعقد مكانه بعد ذلك اي جسر .

اما المجموعة الرابعة فهي جسرا باب الشماسية اللذان عقدهما الرشيد ، وموقعهما يقتضي ان تكون نهايتها الغربية عند قطيعة ام جعفر اي قرب المحيط في الكاظمية . ولا ريب في ان هذه المجموعة يمكن ان تخدم اغراضا عامة لانها تصل بين منطقتين كانتا مزدهرتين ، وهما الشماسية وقطيعة ام جعفر ، كما انها تيسر اتصال الجانب الغربي بطريق خراسان وطريق سامراء اللذين كانا يمران بجهة الشماسية .

اما المجموعة الخامسة فهي الجسر الذي عقدته ام جعفر « عند سويقة قطوطا » في نص الخطيب ، او « عند مشرعة فرج الرخجي بالقرب من سويقة قطوطا » في قول ابن الفقيه الهمداني .

فاما سويقة قطوطا فقد ذكر الطبري ما يحدد موقعها حيث قال في كلامه عن الاضطراب ببغداد سنة ٢٥٥ » ومضى ابن اوس من وجهه الى منزله ، وكان ينزل في دار لآل احمد بن صالح بن شيرزاد بالدور مما يلي قصر جعفر بن يحيى ابن برمك ، وجد اهل بغداد في آثارهم والقواد معهم حتى تلقوهم ، فكانت بينهم وقعة بالدور .. واعان ابن اوس جيرانه من اهل سويقة قطوطا واصحاب الزواريق من ملاحي الدور »(١٠٢) . وواضح من هذا النص ان سويقة قطوطا تقع قرب الدور التي فيها دار آل شيرزاد وقصر جعفر البرمكي .

---

(٩٧) سهراب ١٢٠ ، الخطيب ١/١١٥ .
(٩٨) المعرفة والتاريخ ١/١٤٤ ، الخطيب ١/١١٦ . وقد ذكر الطبري هذا النص (٢/٢٨٠) دون سند ولكنه اضاف في كلامه من الجسر « وجرى ذلك على يد حميد القاسم الصيرفي بامر الربيع الحاجب » ولم يذكر مصدره . وقد اشار الخطيب في موضع آخر (١/٧٥) الى عقد هذا الجسر .
(٩٩) الخطيب ١/٦٩ .
(١٠٠) انظر ٣/٢١٢٢ و ٣/٢٢٠٦ ،وعن وفاة هؤلاء الخلفاء،
(١٠١) ياقوت ٢/٦٦٥ وهذا النص مفقود منمخطوطة الديارات التي نشرها الاستاذ كوركيس عواد .
(١٠٢) الطبري ٣/١٧٢٠ .

أما مشرعة فرج الرخجي فلم تذكرها المصادر، والراجح انها كانت قرب دار فرج الرخجي الذي تردد ذكره في المصادر ، فقد ذكر ابن الفقيه الهمداني انها « فوق سوق يحيى .. وداره اقطاع من الرشيد ، ولم يكن على شاطيء دجلة بناء احكم من بنائها ، ثم هدمت فيما هدم من منازل عمر بن فرج لما قبضت »(١٠٣) وفي قصر فرج التي على دجلة كانت دار طازاد التي نزلها البريدي عندما جاء بغداد سنة ٣٣٣(١٠٤) .

وعند قصر فرج كانت بستان الحميري التي بنى معز الدولة سنة ٣٥٠هـ داره فيها «وهدم ما جاورها من العقارات »(١٠٥) و « قلع الابواب الحديد التي على مدينة المنصور والتي بالرصافة ، ونقلها اليها ، ونقض قصور الخلافة بسر من راى ، ونزل في المسناة ستة وثلاثين ذراعا ، ولزمه على بنائها ثلاثة عشر الف الف درهم »(١٠٦) .

ويتبين مما ذكرناه ان جسر ام جعفر كان باقصى أعلى الجانب الشرقي ، اي فوق باب الشماسية ، قرب الدور ، فهو اذا فوق المجموعة الرابعة التي شيدها الرشيد ، ولم تذكر المصادر المعالم الخططية التي كانت في طرف الجانب الغربي من الجسر .

يذكر الطبري ان طاهر بن الحسين عند حصار بغداد « امر بعقد جسر على دجلة فوق الشماسية »(١٠٧) . ومن الواضح ان الغرض من عقد هذا الجسر هو تيسير نقل الجند بين جانبي بغداد ، اي لاغراض عسكرية وان عقده يدل على ان جسري الرشيد وام جعفر كانا مخربين ، والا لم تكن هناك حاجة الى عقده .

يتبين من العرض الذي قدمناه ان المجموعتين الاوليتين من الجسور وهي التي عقدها ابو جعفر المنصور ، هي الجسور الاساسية التي ظلت مستعملة حقبة طويلة من الزمن ، ولابد ان هذا يرجع الى ان الجسور الاولى ظلت تؤدي خدمات اساسية للحكومة والناس مما اقتضى العناية بها وصيانتها لضمان بقائها ، اما الجسور الاخرى فلم تكن تؤدي مثل هذه الاغراض ، ولم تعقد في اماكن مهمة ولذلك تعطلت منذ ايام المأمون ، أي بعد فترة قصيرة من تشييدها ولم تجر محاولة لاعادة بنائها.

وقد ذكرت المصادر تاريخ عقد الجسر الثاني ، وهو سنة ١٥٧ اي في السنة الاخيرة من خلافة المنصور، ولم تذكر هذه المصادر تاريخ عقد الجسر الاول ، وهو الشمالي ، الامر الذي يجعلنا نرجح انه عقد قبل الجسر الثاني ، ومع ان المصادر لم تذكر ما يساعد على تحديد زمن عقده ، الا اننا نرجح انه تم حوالي سنة ١٥٠هـ حين عاد المهدي بجيشه من الري وبدىء ببناء الرصافة في الجانب الشرقي .

لقد انشا المنصور الجسور بعد عدة سنوات من اكتمال بناء بغداد وانتقاله اليها ، لذلك يمكن القول انها لم تكن ضمن الخطة الاساسية الواسعة الاولى للمدينة ، وان تأسيسها المتأخر نسبيا يرجع الى ما بعد تأسيس المدينة من حاجات مستجدة كان لابد من العمل على تحقيقها على ان لا يؤثر ذلك في الاسس التي حرص المنصور على السير عليها في تأسيس مدينته ، ولعل من ابرز هذه الاسس هي ان تبقى المدينة المدورة منطقة دفاعية محصنة يقيم فيها مع دواوينه وحرسه ، ولذلك لم يكن في خطته انشاء جسور لربط المدينة المدورة باجزاء اخرى . فلم يجعل لهذه المدينة شوارع متعامدة على النهر أو متصلة بالفرض لتكون منافذ تتصل بالجسور . ويبدو انه عندما اسس مدينته في الجانب الغربي ، وكانت صغيرة نسبيا ، راعى فيها الاعتماد على المناطق والاقاليم الواقعة في غربي دجلة ، فلم يعن بربطها بالجانب الشرقي ، غير انه سرعان ما بدأت تظهر وتتزايد اهمية الجانب الشرقي لدرجة انه قرر الاهتمام باعماره وتوطين الناس فيه ، هذا فضلا عن ظهور اهمية الصلة بالاقاليم الشرقية الواسعة والغنية .

اختار المنصور للجسر في الجانب الغربي رقعة غير بعيدة عن باب خراسان ، اي في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة المدورة ، فهي متصلة بمنطقة باب التبن والحربية والجهات الشمالية التي كانت فيها اقطاعات ومساكن لعدد كبير من الناس اي لمعظم جيشه . حيث ان الجهة الجنوبية كانت في البداية ضيقة الرقعة سكنها العرب والصحابة وكتاب الدواوين ، او ما يمكن اعتبارهم « علية القوم » ولم تتفرع عند راس الجسر شوارع كثيرة، ولكنه أدى بالتدرج الى نمو شارع كبير هو الوحيد الرئيس الذي يتصل بالجسر . وكانت المنطقة التي قرب بدايته القريبة فيها اقطاعات وقصور اولاده، ثم انشأ له قصر الخلد ، كما كان فيها بعض المؤسسات العامة كالسجن والشرط . ويلاحظ انه

(١٠٣) بغداد مدينة السلام ٥٦ ، وانظر ياقوت ٥٢٢/٢ .
(١٠٤) مسكويه ٧٨/٢ ، تكملة الطبري ١٤٤ .
(١٠٥) مسكويه ١٨٣/٢ .
(١٠٦) تكملة الطبري ١٧٩ .
(١٠٧) الطبري ٨٩٧/٣ .

لم ينشأ عند هذا الجسر سوق كبير مما يدل على ان الغرض الاول من انشائه هو غرض عسكري ؛ اي لتيسير نقل الجند بين الجانبين .

اما نهاية الجسر من الجانب الشرقي فقد جعلت على بعد من الرصافة التي استهدف من انشائها ان تكون مقرا محصنا لابنه ، فاحاطها بسور وخندق كالذي في المدينة الغربية . ويبدو ان سعة الفسحة امام النهاية الشرقية ، وقلة الاقطاعات فيها ادى الى اقامة عدة شوارع واسعة صار كل منها سوقا كبيرة فيذكر اليعقوبي عن الجانب الشرقي « وسوق هذا الجانب العظمى التي تجتمع فيها اصناف التجارات والبياعات والصناعات على راس الجسر ، مارا من راس الجسر مشرقا ذات اليمين وذات الشمال من اصناف التجارات والصناعات » ثم ذكر ان طرق الجانب الشرقي خمسة .

١ ــ طريق مستقيم الى الرصافة الذي فيه قصر المهدي والمسجد الجامع .

٢ ــ طريق من السوق الذي يقال له سوق خضير وهو معدن طرائف الصين ويخرج منه الى الميدان ودار الفضل بن الربيع .

٣ ــ طريق ذات اليسار الى باب البردان وهناك منازل خالد بن برمك وولده .

٤ ــ طريق الجسر من دار خزيمة الى السوق المعروفة بسوق يحيى بن الوليد والى الموضع المعروف بالدور الى باب بغداد المعروف بالشماسية ومنه يخرج من اراد الى سر من راى .

٥ ــ وطريق عند الجسر الاول الذي يعبر عليه من اتى من الجانب الغربي يأخذ على دجلة الى باب المقير والمخرم وما اتصل بذلك(١٠٨) .

ولا ريب في ان هذه الاسواق ازدهرت بعد عقد الجسر ، وان قيام الجسر كان عاملا فعالا في ازدهارها ، وقد يكون لمرور طريق الى سر من راى والى خراسان من هذا الجسر اثر في ازدياد اهميته وفي سرعة نمو هذا السوق ، وعلى اي حال فان الاسواق المعمرة في الجانب الشرقي كانت في الشمال ، بعكس الجانب الغربي ، وان كلا من الرصافة والمدينة المدورة ظلت مدينة جامدة تفتقد الحيوية والنشاط .

(١٠٨) البلدان ٢٥٣ ــ ٢ .

اما الجسر الثاني : وهو الواقع جنوب المدينة المدورة ، فقد عقده المنصور في السنة الاخيرة من خلافته ؛ اي بعد ان نقل التجار واصحاب الحرف من المدينة المدورة الى الكرخ التي بدات تزدهر كمركز للحياة التجارية والاقتصادية ، وقد انشىء هذا الجسر في نفس السنة التي بنى المنصور فيها قصر الخلد واتخذه مسكنا له ، ولابد انه قصد من عقد الجسر الجنوبي ان ييسر للناس الانتقال بين الجانبين ، مع تحاشي المرور من المدينة المدورة او قربها او المناطق الجنوبية من الجسر الشمالي ، اذ ان هذه الاماكن كانت فيها قصوره وقصور اولاده .

لم يكن هذا الجسر يربط بين المدينة المدورة والرصافة ، بل كان يربط الكرخ بالمنطقة المقابلة لها من الجانب الشرقي ، اي انه يربط بين منطقتين كل منهما جنوب المدينة « الرسمية » وخارجة عنها ، فغرضه تجاري صرف ولخدمة الناس ، وخاصة من التجار والصناع واصحاب الحرف . ويقع طرفه الغربي في باب الشعير وهي محلة كانت قد نمت فيها الحياة التجارية ؛ ولذلك فان عقده يخدم بالدرجة الاولى المناطق الجنوبية من الجانب الغربي ، اي الكرخ الذي يعتبر باب الشعير احد محاله . ويلاحظ ان هذا الجسر انشىء في الوقت الذي كان الجانب الغربي هو مركز الخليفة والدواوين .

والمنطقة التي ينتهي عندها الجسر في الجانب الشرقي لم تكن مزدهرة انذاك ، اذ كانت فيها قصور متفرقة لعدد من افراد الاسرة العباسية الذين كانوا حريصين على الانتقال الى الاجزاء الجنوبية من الجانب الغربي ومما يدل على ضعف اعمارها انذاك قلة الانهار فيها ، حيث ان الانهار فيها مسماة باشخاص ظهر دورهم بعد زمن المنصور ، كما ان سوق الثلاثاء الذي كان يمتد قربه ، لم يرد له ذكر في المصادر الاولى التي دونت المعلومات في اول القرن الرابع او قبله . لذلك يمكن القول بان الجسر انشىء لتيسير اعمال اهل الجانب الغربي ، وانه ادى الى نمو المنطقة التي ينتهي عندها من الجانب الشرقي .

في ثنايا اخبار القرنين اللذين تليا تاسيس بغداد اشارات غير قليلة تتعلق بجسور بغداد ، وقد وردت في هذه الاشارات تعابير متنوعة ، منها الجسر ، والجسر الشرقي ، والجسرين ، والجسر الاعلى ، و « رحبة الجسر » و « ناحية الجسر » و « راس الجسر » و « مجلس الجسر » .

فاما تعبير « الجسر » ، فقد ورد في بعض النصوص دون تخصيص او دلالة على موقعه :

فيذكر الطبري ان طاهر بن الحسين عندما كان يحاصر الامين « امر هرثمة ليقطع الجسور » وانه « وثب خزيمة بن خازم ومحمد بن علي بن عيسى بن ماهان على جسر دجلة فقطعاه »(١٠٩) .

ويذكر الطبري أيضا انه عند مقتل ايتاخ « شحن ابراهيم (والي بغداد) الجسر بالجند والشاكرية »(١١٠) .

وفي سنة ٢٥٢هـ حدثت فتنة بين جند بغداد واصحاب محمد بن عبدالله ابن طاهر ، فسار الثوار « ثم مضوا يريدون الجسر في شارع الحدادين ... ودفعوهم عن الجسر حتى صيروهم الى باب عمرو بن مسعدة »(١١١) كما يذكر «الشارع النافذ الى الجسر »(١١٢) .

ويذكر مسكويه انه في سنة ٢٩٨هـ « غرقت فاطمة القهرمانة في طيارها تحت الجسر »(١١٣) .

ويتردد ذكر الجسر عند الصولي ، فهو يقول : « دفن هارون في داره بقرب الجسر »(١١٤) و « نهبت دار علي بن خلف بن طياب في الجانب الغربي بقرب الجسر(١١٥) » وان المتقي وابن رائق « .. سار من داره الى الجسر وركب الماء » ، وفي الوقت الذي ركب الخليفة الماء من الجسر رجع الى قصره انقطع الجسر وانخلع الكرسي وهو مملوء بالنضارة فغرق خلق كثير من رجال ونساء وصبيان(١١٦) » وانه « صعد ناصر الدولة وقطع الجسر وسار من الجانب الغربي »(١١٧) وان توزون « رحل الى بغداد .. فمضى في شارع المخرم الى الجسر »(١١٨) .

وذكرت المصادر عددا من الولاة « للجسر » .

فيذكر مسكويه ان عبدالله بن طاهر ولى « اسحق بن ابراهيم امر الجسر وجعله خليفته »(١١٩) ويذكر الطبري انه في سنة ٢٣٥ « كانت وفاة اسحق ابن ابراهيم صاحب الجسر »(١٢٠) وانه كان « محمد ابن عبدالله بن طاهر على الجسر »(١٢١) .

وذكرت المصادر « باب الجسر » اطلاقا دون ان تحدده ، وان كانت تذكر احيانا معالم خططية قد تساعد في تحديده .

فمما ذكره الطبري ان صالح صاحب المصلى تولى القطائع في الجانب الشرقي فله بباب الجسر وسوق يحيى .. مواضع بناء(١٢٢) .

وفي حصار طاهر بن الحسين بغداد « قصد طاهر الى مدينة ابي جعفر فاحاط بها وبقصر زبيدة وقصر الخلد من لدن باب الجسر الى باب خراسان »(١٢٣) .

وفي سنة ٢٤٩ « اجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء ففتحوا سجن نصر بن مالك واخرجوا من فيه وفي القنطرة بباب الجسر »(١٢٤).

وفي سنة ٢٥٢ حصلت فتنة وكان محمد بن عبدالله واليا على بغداد « فامر الحوانيت التي على باب الجسر والتي تتصل بدرب سليمان ان تحرق يمنة ويسرة »(١٢٥) .

كما انه يذكر ان العباس بن عبدالله خرج فاتى حسين بن علي «ثم وقف عند باب الجسر»(١٢٦) وانه في سنة ٢٥٠ قتل يحيى بن عمرو واخذ راسه « الى بغداد لينصب بها بباب الجسر »(١٢٧) ، وفي سنة ٢٥١ « صلب الوكل على السور فلم يزل مصلوبا على باب الجسر الى ان انزل مع ما انزل من الرؤوس »(١٢٨) .

وذكر طيفور خبر رجلين تنازعا بباب الجسر(١٢٩) .

---

(١٠٩) طبري ٩٠٤/٣ ويلاحظ ان الطبري يقول « فقال حسين الخليع في قطع الجسر » ثم يروي له قصيدة يشير في اولها الى جسري بغداد !
(١١٠) الطبري ١٣٨٥/٣ .
(١١١) الطبري ١٦٦٥/٣ .
(١١٢) الطبري ١٦٦٥/٣ .
(١١٣) مسكويه ٢٠/١ .
(١١٤) اخبار الراضي والمتقي ٧٥ .
(١١٥) كذلك ١٤٩ .
(١١٦) كذلك ٢٢٣ .
(١١٧) كذلك ٢٤١ .
(١١٨) كذلك ٢٦٧ .

(١١٩) مسكويه ٥٢٤ (طبعة كايتاني) .
(١٢٠) الطبري ١٤٠٣/٣ .
(١٢١) الطبري ٢٠٢٧/٣ .
(١٢٢) الطبري ٣٦٧/٣ .
(١٢٣) كذلك ٩٠٦/٣ .
(١٢٤) كذلك ١٥١٠/٣ .
(١٢٥) كذلك ١٦٦٥/٣ .
(١٢٦) كذلك ٩٥٥/٣ .
(١٢٧) كذلك ١٥٢٢/٣ .
(١٢٨) كذلك ١٥٧٩/٣ .
(١٢٩) طيفور ٤٣ .

وإذا كانت المعالم الخططية التي ذكرت في النصوص الاربعة الاولى قد تدل على ان الجسر المقصود هو الذي بين درب سليمان وباب الطاق . فان الثلاثة الاخيرة ليس فيها دليل قاطع على ذلك .

وذكرت ايضا رحبة الجسر التي اخرج اليها الحلاج عندما قتل ثم « نصبت راسه يومين على الجسر »(١٣٠) .

وذكر ايضا راس الجسر اذ كانت « دار عبدالله ابن عبدالله (ابن طاهر) عند راس الجسر »(١٣١) .

وقد ورد تعبير راس الجسر في الكلام عن دار خزيمة بن خازم ودار علي بن الجهشيار .

فيذكر اليعقوبي ان خزيمة بن خازم « اقطاعه على راس الجسر(١٣٢) ويذكر الخطيب ان « دار خزيمة هي التي صارت لعلي بن الجهشيار »(١٣٣) ويذكر الهمداني في كلامه عن طاق اسماء « وكان في دارها التي صارت لعلي بن الجهشيار - بمشرعة الصخر ، اقطعه اياها الموفق ، ثم اقطعها ازكوتكين بن ساتكين »(١٣٤) .

ويذكر الطبري ان « دار علي بن الجهشيار وكانت في الخراب على باب الجسر الشرقي »(١٣٥) ويذكر عريب ان « اللصوص كبسوا دار صاحب الشرطة محمد بن عبدالصمد ، وكان ينزل الجانب الشرقي في الدار المعروفة لعلي بن الجهشيار »(١٣٦) ويذكر ابن الجوزي انه في سنة ٣٠٩ « هدم دار علي ابن الجهشيار »(١٣٧) ويذكر الطبري « دار ابن ابي ليلى ابن عبدالعزيز ابي دلف وهي دار علي بن الجهشيار على راس الجسر »(١٣٨) .

ومن المعلوم ان طاق اسماء ، ودار علي بن الجهشيار تقع على راس الجسر الذي بدايته من الجانب الغربي عند درب سليمان فيكون هو المقصود بهذه النصوص .

وذكر اليعقوبي « الجسر » في نصوص يدل سياقها على ان المقصود هو الجسر الذي يربط منطقة باب خراسان بباب الطاق .

فقد ذكر « والربع من باب الشام الى ربض حرب وما اتصل بربض حرب وشارع باب الشام وما اتصل بذلك الى الجسر على منتهى دجلة .. ومن باب خراسان الى الجسر الذي على دجلة مادا في الشارع على دجلة الى البغيين »(١٣٩) .

وذكر ايضا « ومن باب الشام في الشارع الاعظم الماد الى الجسر الذي على دجلة سوق ذات اليمين وذات الشمال ، ثم ربض يعرف بدار الرقيق »(١٤٠) .

ثم يذكر « والربع من باب خراسان الى الجسر على دجلة ، وما بعد ذلك بازائها الخلد ، وكان فيه الاصطبلات وموضع العرض ، وقصر يشرع على دجلة .. فاذا جاوز موضع الجسر فالجسر ومجلس الشرطة ودار صناعة الجسر ، فاذا جاوزت ذلك فاول القطائع قطيعة سليمان بن ابي جعفر »(١٤١) .

ووصف اليعقوبي بعض اماكن الجانب الشرقي من الجسر فقال « طريق الجسر من دار خزيمة الى السوق المعروفة بسوق يحيى بن الوليد (برمك ؟) والى الموضع المعروف بالدور من باب بغداد المعروف بالشماسية ، ومنه يخرج من اراد من سر من راى »(١٤٢) .

وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه « قصر خزيمة الذي على راس الجسر »(١٤٣) ، ويلاحظ ان بعض المصادر ذكرت « درب سليمان بقرب الجسر »(١٤٤) او « طرف الجسر »(١٤٥) .

وفي المصادر ذكر لمجلس الجسر ، ومجلس الجسر الشرقي ، ومجلس الشرطة بالجسر . فيذكر الطبري انه في فتنة المستعين انتهب مجلس الجسر(١٤٦) . ويذكر ايضا انه لما ولي يعقوب بن الليث الصفار الشرط في بغداد ، كان للشرط « اعلام ومطارد وترسه في مجلس الجسر »(١٤٧) .

(١٣٠) الخطيب ١٢٦/٨ تكملة الطبري ٢٥ .
(١٣١) الطبري ٢١٥٩/٣ .
(١٣٢) البلدان ٢٥١ .
(١٣٣) الخطيب ٩٣/١ .
(١٣٤) بغداد مدينة السلام ٥٥ وانظر ياقوت ٨٩/٢ .
(١٣٥) الطبري ١٦٢٢/٣ .
(١٣٦) عريب ٥٦ .
(١٣٧) المنتظم ١٥٩/٦ .
(١٣٨) الطبري ٢١٢٢/٣ .
(١٣٩) البلدان ٢٤٢ .
(١٤٠) البلدان ٢٤٨ .
(١٤١) البلدان ٢٤٩ .
(١٤٢) البلدان ٢٥٣ .
(١٤٣) التاريخ ٤١٠/٢ .
(١٤٤) اخبار الراضي والمتقي ٢٠٩ .
(١٤٥) الخطيب ٥٨/١١ .
(١٤٦) الطبري ٢١٢١/٣ .
(١٤٧) الطبري ٢١١٢/٣ .

ويذكر الجهشياري ان الرشيد « جلس في مجلس الجسر الشرقي واحرق جثة جعفر بن يحيى البرمكي »(١٤٨) .

ويذكر الطبري ان العامة في فتنة المستعين « هاجموا ابا مالك الموكل بالجسر الشرقي ، فدخل داره وخلاهم فانتهبوا ما في مجلسه »(١٤٩) .

غير انه يذكر ان الموفق امر ان تقطع يد الدويني ورجله من خلاف « فقطع في مجلس الجسر بالجانب الغربي »(١٥٠) .

فاما مجلس الشرطة بالجسر فقد اوردنا من قبل النص الذي جاء في اليعقوبي عند وصفه المعالم الخططية في الجانب الغربي حيث قال : « فاذا جاوز موضع الجسر ، فالجسر ومجلس الشرطة ودار صناعة الجسر »(١٥١) .

وذكر طيفور : « وكان صاحب الجسر اذا انصرف عياش من مجلسه جلس في المسجد الذي في ظهر مجلس الشرطة ، وكان الاخر اذا انصرف السندي صار الى مسجد حسنه ام ولد المهدي ، وهو المسجد الذي بباب الطاق في الحدادين ، وهناك دار حسنه »(١٥٢) .

وذكر الصولي انه « وصل ابو بكر بن مقاتل الى مجلس الشرطة من الجانب الغربي فرأى الجسر مقطوعا »(١٥٣) .

وذكر الطبري انه « سار جماعة من الغوغاء والعامة الى المجلس الذي يعرف بمجلس الشرطة في الجسر من الجانب الشرقي .. وتهدم حيطان مجلس الشرطة »(١٥٣م) .

ويبدو من سياق الحوادث ، ومن المعالم الخططية المذكورة في هذه النصوص ان « الجسر » المذكور فيها هو الجسر الذي يمتد بين باب خراسان وباب الطاق ، وان تردد ذكره يرجع الى اهمية موقعه في القرن الثالث الهجري ، حيث كان يربط الارباض الشمالية للمدينة المدورة مع المناطق الشمالية للرصافة ، ويمر به طريق خراسان وسامراء ، ولذلك فان تجارات المشرق تمر به ، كما انه وسيلة الاتصال بين الحربية وما حولها بالاطراف الشمالية من الجانب الشرقي وبالرصافة ، التي كانت قد انمت حركة اقتصادية نشطة ، وان وروده في الكتب باسم « الجسر » كاسم علم يدل على اهميته وشهرته ، ولا يستلزم حتما ان يكون دليلا على وجود جسر واحد في بغداد ، ولما كان باب الطاق قد اصبح يطلق على المحلة التي فيها قبر ابي حنيفة فيمكن تحديد موقعه التقريبي بين ساحة عبدالمحسن الكاظمي في الغرب ، وبناية دار المعلمين الابتدائية في الغرب والواقع انه توجد اشارات غير قليلة في المصادر الى « الجسرين » و « الجسر الاعلى » و « الجسر الاسفل » .

فاما تعبير الجسرين فقد ورد منذ ايام الرشيد حيث ان الجهشيار قال ان الرشيد عندما عزم على تكبة البرامكة كان السندي بن شاهك « يلي الجسرين ببغداد » وان السندي قال بعد تكبة البرامكة « فلما امسيت قمت ليلتي بالجسر بالجانب الشرقي .. كتاب الرشيد الي بصلب كل نصف على احد الجسرين »(١٥٤) .

وعند مقاتلة الامين امر طاهر بمحاصرة الجسر ، فقال حسين الخليع :

اناخ بجسري دجلة القطع والقنا
شوارع والارواح في راحة العضب(١٥٥)

ولما ولي طاهر بن الحسين الشرط استشار الفضل بن الربيع فاختار له « السندي بن يحيى وعياش بن القاسم فولاهما الجسرين »(١٥٦) ، وقد استخلف المامون هذين الرجلين « على الجسرين »(١٥٧) .

وفي سنة ٢٠٦هـ ولي عبدالله بن طاهر اسحق بن ابراهيم الجسرين »(١٥٨) .

---

(١٤٨) الجهشياري ٢٣٧ .
(١٤٩) الطبري ١٦٣٠/٣ .
(١٥٠) الطبري ٢١٠٩/٣ .
(١٥١) البلدان ٢٤٩ .
(١٥٢) طيفور ٣ .
(١٥٣) اخبار الراضي والمتقي ٢٠٧ .
(١٥٣) الطبري ١٦٦٤/٣ .

(١٥٤) الجهشيادي ٢٣٦ ، ويذكر اليعقوبي انه كان « لبغداد يومئذ ثلاثة جسور (التاريخ ١٥٢/٣) .
(١٥٥) الطبري ٩٠٤/٣ .
(١٥٦) طيفور . ويذكر مسكويه ان ابا السرايا عندما اسر « صلب نصفين على الجسرين في كل جسر نصف (مسكويه ٢٤) طبع كايتاني) غير ان الطبري يروي انه صلب نصفين على الجسر ، في كل جانب نصف (٩٨٢/٣) .
(١٥٧) طيفور ٩٢ .
(١٥٨) الطبري ١٠٦٢ .

وقد صلب بابك في الجانب الشرقي بين الجسرين بمدينة السلام »(١٥٩) .

ولما سمع اهل بغداد بمقتل عمر بن عبدالله الاقطع وعلي بن يحيى الارمني في الثغور « هاجوا ففتحوا سجن نصر بن مالك واخرجوا من فيه وفي القنطرة بباب الجسر .. وقطعوا احد الجسرين وضربوا الاخر بالنار ، وانحدرت سفنه »(١٦٠) .

وفي سنة ٢٥٢ احرق ابن طاهر الجسرين لما رأى الجند قد ظهروا على اصحابه(١٦١) .

ولما اشيع موت الموفق اثار ابو الصقر اضطرابا « وقطع الجسرين ووقف قوم على الجسر في الجانب الشرقي يحاربون اصحاب ابي الصقر »(١٦٢) .

وفي سنة ٢٥٥هـ ولي سليمان بن عبدالله ، ابراهيم بن اسحق بن ابراهيم « ما كان الحسين بن اسماعيل يتولاه لعبيدالله من امر جسري بغداد وطساسيج قطربل ومسكن »(١٦٣) .

وفي سنة ٢٨٥هـ خرج المعتضد من بغداد قاصدا آمد « واستخلف ببغداد صالحا الامين الحاجب وقلده المظالم والجسرين »(١٦٤) .

وكانت « نفقات الجسرين وثمن ما يبدل من سفنهما والغلاوس وارزاق الجسارين من جملة ثلاثمائة دينار في الشهر : عشرة دنانير (في اليوم) » وذلك في التقدير الذي وضعه علي بن عيسى سنة ٣٠٦هـ(١٦٥) .

وفي المصادر ذكر للجسر الاعلى ، وترجع اول اشارة اليه الى زمن المهدي حيث يقول الطبري ان المهدي بعد ان قبض على يوسف البرم وجماعته « صلبهم على جسر دجلة الاعلى مما يلي عسكر المهدي(١٦٦) » . ثم ينقطع ذكر هذا الجسر حتى اواسط القرن الثالث ، حيث يتردد ذكره ، فقد ذكر الطبري ان ابا الاغر جلب اسرى وجثث قتلى ونصبت الرؤوس على راس الجسر الاعلى والجانب الشرقي »(١٦٧) كما ذكر ايضا « صلب بدر القرمطي في طرف الجسر الاعلى ببغداد »(١٦٨) وعند ما ارتاع اهل بغداد من الزبزب في سنة ٣٠٤ اخذ السلطان حيوانا « فصلب عند راس الجسر الاعلى بالجانب الشرقي »(١٦٩) .

ويبدو ان « الجسر الاعلى » هذا هو نفس « الجسر » المشهور بين باب خراسان وباب الطاق، فقد ذكر الخطيب « درب سليمان بن جعفر حيال الجسر الاعلى »(١٧٠) ، وذكر الطبري ان الجند تقدموا في بعض احداث فتنة المستعين « وصاروا الى درب اسد بن مرزبان فشحنوا الشارع النافذ الى درب الرقيق .. ووكلوا بباب درب سليمان بن ابي جعفر جماعة ، ثم مضوا يريدون الجسر في شارع الحدادين .. ودفعوهم عن الجسر حتى صيروهم الى باب عمرو بن مسعدة . وكان ابن طاهر قد اعد سفينة شوك وقصب ليضرم النار ويرسلها الى الجسر الاعلى ، ففعل ذلك ، فاحرقت عامة سفنه وقطعته الى الاخر ، فادركها اهل الجانب الغربي ففرقوها واطفاوا النار التي تعلقت بسفن الجسر .. واحرق ابن طاهر الجسرين لما رأى الجند قد ظهروا على اصحابه ، وامر الحوانيت التي على باب الجسر التي تتصل بدرب سليمان أن تحرق يمنة ويسرة ، ففعل ، فاحترق فيها للتجار متاع كثير(١٧١) » .

ان موقع الجسر الاعلى عند درب سليمان يدل على انه هو نفس الجسر المشهور ، كما يدل نص الطبري على انه كان بقرب جسر اخر ، لعله الاسفل الذي سنذكره في الفقرة التالية ، كما ان نص الطبري يدل على ان الجسرين كانا متقاربين ، لان النار التي احرقت عامة سفن الجسر الاعلى سرعان ما سارت الى الاخر . وقد يدل هذا على ان احد الجسرين كان للذهاب ، والاخر للاياب .

وقد ورد في طيفور ذكر للجسر الاسفل ؛ اذ ذكر ان المأمون ضرب اعناق اربعة « فلما كان بالغداة صلبهم على الجسر الاسفل »(١٧٢) ثم قال

(١٥٩) الطبري ٣/١٢٣١ .
(١٦٠) الطبري ٣/١٥١٠ .
(١٦١) الطبري ٣/١٦٦٥ .
(١٦٢) الطبري ٣/٢١٢١ .
(١٦٣) الطبري ٣/١٧٢٧ .
(١٦٤) الطبري ٣/٢١٨٥ .
(١٦٥) الوزراء للصابي ٢٦ .
(١٦٦) الطبري ٣/٤٧١ .

(١٦٧) الطبري ٣/٢١٩٢ .
(١٦٨) الطبري ٣/٢٢٤٦ .
(١٦٩) مسكويه ١/٢٩ المنتظم ٦/١٣٩ .
(١٧٠) الخطيب ١٢/٢٨٨ .
(١٧١) الطبري ٣/١٦٦٤ .
(١٧٢) طيفور ٩٨ .

ان المأمون بعد ذلك « امر بانزالهم ، وكانوا مصلبين على الجسر الاسفل »(١٧٣) .

وورد في المصادر ذكر « الجسر الاول » فقد ذكر الطبري « الجسر الاول من الجانب الشرقي من الدار التي لعبيدالله بن عبدالله »(١٧٤) الا ان المصادر لم تذكر موقع هذه الدار مما كان يعيننا على تحديد موقع الجسر .

وذكر اليعقوبي في كلامه عن الطرق الخمسة في الجانب الشرقي « وطريق عند الجسر الاول الذي يعبر عليه من اتى الجانب الذي ياخذ على دجلة الى باب المقير والمخرم وما اتصل بذلك »(١٧٥) ، ويفهم من هذا النص ان الجسر الاول يقع عند باب المقير والمخرم ، فهو بعيد عن الجسر الاعلى المشهور بين باب خراسان وباب الطاق ، فيكون موقعه اقرب الى موقع الجسر الذي اقامه المنصور سنة ١٥٧هـ والذي كان بين باب الشعير ومشرعة الروايا .

يتبين مما تقدم انه كان في بغداد في القرن الثالث الهجري جسر مشهور فكان يسمى في المصادر « الجسر » او « الجسر الاعلى » ، وهو يقع بين درب سليمان في الجانب الغربي ودار خزيمة في الجانب الشرقي . ولهذا الجسر اهمية كبيرة لوقوعه قرب دور آل طاهر ، ولاة بغداد ، والحريم الطاهري الذي استوطنه اولاد الخلفاء بعد عودتهم من سامراء ، ولانه كان بقربه مجالس الشرطة ، وكذلك لانه يقع في الجهات الشمالية فهو اقرب الى الحربية والى طريق سامرا .

وبالقرب من الجسر الاعلى كان يقع جسر اخر هو الجسر الاسفل ، وهو اقل شهرة وذكرا من الاعلى . ومن المحتمل ان هذين الجسرين كان احدهما للذهاب والاخر للاياب . وقد انشأ هذين الجسرين ابو جعفر المنصور الذي كان قد انشأ جسرا ثالثا للنساء ثم بطل استعماله في زمن المأمون لسبب لا نعلمه .

وكان في بغداد جسر اخر سماه اليعقوبي « الجسر الاول » ويبدو انه هو الذي عقده المنصور بين باب الشعير ومشرعة الروايا . ولكن لم تكن له شهرة الجسر الاعلى .

(١٧٣) طيفور ١١٣ .
(١٧٤) الطبري ٢٢٥٢/٣ .
(١٧٥) البلدان ٢٥٣ .

ويتردد في المصادر ذكر « الجسرين » والراجح ان المقصود بذلك مجموعة جسري باب الطاق ، وجسر باب الشعير ، وان قول الخليل ان الجسور ببغداد عطلت بعد مقتل الامين وبقي منها ثلاثة الى ايام المأمون ، ثم عطل منها واحد ، ينبغي ان يفهم منه انه بقيت منهما مجموعتان ، وليس جسران .

ويذكر الصولي ان الراضي عمل الجسر الفوقاني بمال اوصى به ابو الوليد من ثلثه ؟ واوصى بان يعمل به الجسر »(١٧٦) ، وابو الوليد هو ناصر الدولة ابن حمدان الذي توفي سنة ٣٢٧هـ ولما كان الراضي توفي سنة ٣٢٩هـ ، فيكون هذا الجسر قد عقد بين سنتي ٣٢٧هـ ، ٣٢٩هـ . وتدل صفته « الفوقاني » على ان موقعه فوق ، او شمالي الجسر المعروف آنذاك ، وهو الجسر الاعلى عند باب الطاق ، وهذا يقتضي ان يكون موقعه عند باب الشماسية .

ويذكر مسكويه انه في سنة ٣٦٣ « انتقل المطيع لله ووالده بختيار وجماعة من الحرم والاولاد الى القصر (الذي) بناه معز الدولة بباب الشماسية على طريق التحصن ، وعقد ابو اسحق جسرا في هذا الموضع على دجلة »(١٧٧) ولابد ان هذا الجسر كان صغيرا ومحدود الغرض .

ويقول ابن مسكويه في كلامه عن اعمار عضد الدولة ببغداد سنة ٣٦٩ « وكذلك جرى امر الجسر ببغداد ، فانه كان لا يجتاز عليه الا المخاطر بنفسه ، لا سيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه وتزاحم الناس عليه ، فاختير له السفن الكبار المتقنة وعرض حتى صار كالشوارع الفسيحة ، وحصن بالدربزينات ووكل به الحفظة والحراس »(١٧٨) . ويتبين من هذا ان عضد الدولة لم ينشيء في بغداد جسرا ، بل اصلح الجسر القائم ، دون ان يحدد مسكويه موقع هذا الجسر .

يظهر نصا الصولي ومسكويه انه انشيء في سنة ٣٢٨ جسر فوقاني ، ثم انشيء في سنة ٢٦٣ جسر عند الدار المعزية ، وانه كان في سنة ٣٦٩

(١٧٦) اخبار الراضي والمتقي ١٢٨ .
(١٧٧) تجارب الامم ٣١٧/٢ .
(١٧٨) تجارب الامم ٤٠٦/٢ .

جسر واحد مشهور ببغداد ، وهذا يعني اما ان الجسرين الاخرين قد زالا ولم يعد لهما وجود في زمن عضد الدولة ، او انهما كانا صغيرين وغير مهمين ، وان الشهرة تركزت في جسر واحد كان هو العلم « الجسر » . والواقع ان نص مسكويه عن الجسر زمن عضد الدولة لا يقطع بعدم وجود جسور اخرى في بغداد .

ويروى الخطيب عن ابي علي بن شاذان (٣٣٩ ـ ٤٢٦هـ) انه قال : « ادركت ببغداد ثلاثة جسور : احدها يحاذي سوق الثلاثاء ؛ واخر بباب الطاق والثالث في اعلى البلد عند الدار المعزية يحاذي الميدان »(١٧٩) وكلمة « ادركت » قد تدل على ان زمن وجود الجسور الثلاثة كان في ايام صبا ابن شاذان ، اي حوالي سنة ٣٦٠ ، وان الوضع قد تبدل في زمن قوله . وهو يذكر ثلاثة جسور رئيسة دون ان يحدد اهمية كل منها .

وقد تابع الخطيب بعد ما رواه عن ابن شاذان كلامه فقال : « فذكر لي غير ابن شاذان ان الجسر الذي كان يحاذي الميدان نقل الى الفرضة بباب الطاق فصار هناك جسران يمضي الناس على احدهما ويرجعون على الاخر »(١٨٠) ، اي ان الجسر الذي عند الشماسية نقل الى باب الطاق التي صارت فيها مجموعة مكونة من جسرين ؛ احدهما للذهاب والاخر للاياب . والذي يفهم من النص الاخير ان جسر سوق الثلاثاء ظل باقيا في مكانه . غير ان هذا النص لا يذكر التاريخ الذي نقل فيه جسر الشماسية الى باب الطاق ، ومن المحتمل ان ذلك تم بعد زمن عضد الدولة ، وعلى اي حال فلابد ان يكون قد تم قبل سن ادراك الخطيب (ت ٤٦٣ هـ) .

ويلاحظ ان موقع الشماسية متطرف نسبيا في الشمال ، وان جسورا اقيمت فيها قبل زمن معز الدولة ، ولكن ايا منها لم يبق مدة طويلة لان فائدته للناس محدودة بسبب تطرف موقعها ، ولعل هذا الجسر شيده معز الدولة للافادة منه بعد ان بنى داره المشهورة ؛ ولكنه لم يبق طويلا لانه لم يكن يؤدي خدمات عامة واسعة للناس .

اما الجسر المحاذي لسوق الثلاثاء فليس في المصادر اشارة تساعدنا على تحديد موقعه بدقة ، لان سوق الثلاثاء كان يقع جنوب المخرم ويمتد موازيا للنهر ، ولا نعلم فيما اذا كان الجسر يقع في اول ، او وسط او نهاية سوق الثلاثاء .

ويلاحظ ان بغداد تعرضت منذ اوائل الربع الثاني من القرن الرابع الهجري الى فتن واضطرابات واسعة ادت الى تدهور احوال كثير من المناطق التي كانت مزدهرة من قبل .

فاما في الجانب الغربي فقد جفت كثير من الانهار التي كان يعتمد عليها السكان ، واخليت كثير من المناطق ، وخاصة مدينة المنصور المدورة ، التي صارت تدعى « باب البصرة » كما عم الخراب كثيرا من المناطق على شاطيء النهر .

واما الجانب الشرقي فقد وصف ياقوت ما آلت اليه الرصافة وما حولها بعد ان كانت من اكبر مراكز الحيوية والنشاط الاقتصادي ، فقال : « وخربت تلك النواحي كلها ولم يبق الا الجامع وبلصقه مقابر الخلفاء لبني العباس وعليهم وقوف وفراشون برسم الخدمة ، لولا ذلك لخربت وبلصقها محلة ابي حنيفة الامام وبها قبره ، وهناك محلة وسويق وبلاصقها دار الروم ؛ ولم يبق شيء غير هذا »(١٨١) .

والواقع انه جرت محاولات لاعادة اعمار بغداد ، ومن ابرزها ما قام به عضد الدولة عند قدومه بغداد سنة ٣٧٢(١٨٢) ، غير ان هذه المحاولات لم تفلح في اعادة المناطق المخربة الى ما كانت عليه من اعمار .

فلما عاد الانتعاش الى بغداد في اواخر القرن الخامس ، صار الازدهار مركزا في الجانب الغربي على المحلات الواقعة في اقصى الشمال كالحريم والمارستان والعتابية ودار القز ؛ وكذلك الواقعة

(١٧٩) الخطيب ١/١١٥ .

(١٨٠) الخطيب ١/١١٥ .

(١٨١) ياقوت ٢/٧٨٣ .

(١٨٢) مسكويه ٢/٤٠٦ ، وسنفرد لتطور اعمار بغداد بحثا مستقلا شاملا .

قرب نهر عيسى ، اي في اقصى الجنوب . اما الجانب الشرقي فقد تركز الاعمار على المناطق الممتدة من المخرم الى باب الازج ، اي جنوبي المنطقة التي كانت معمرة في القرون الثلاثة الاولى .

اما جسور بغداد بعد عضد الدولة فقد اجمل ذكرها الخطيب نقلا عن هلال بن المحسن حيث قال :

« عقد جسر بمشرعة القطانين في سنة ٣٨٣ فمكث مدة ثم تعطل . ولم يبق ببغداد بعد ذلك سوى جسر واحد بباب الطاق الى ان حول في سنة ٤٤٨هـ فعقد بين مشرعة الروايا من الجانب الغربي وبين مشرعة الحطابين من الجانب الشرقي . ثم عطل في سنة ٤٥٠ ثم نصب بمشرعة القطانين »(١٨٣).

فاما جسر مشرعة القطانين فان ابن الجوزي يذكر في حوادث سنة ٣٨٣ « وفي يوم الاربعاء لاربع بقين من جمادي الاولى وقع الفراغ من الجسر الذي عمله بهاء الدولة في مشرعة القطانين بحضرة دار مؤنس ، واجتاز عليه من الغد ماشيا وقد زين بالمطارد »(١٨٤) . ويلاحظ انه في تلك السنة تقدم القادر بالله « بعمارة مسجد الحربية وكسوته واجرائه مجرى الجوامع في الصلاة »(١٨٥) ، وانه في السنة السابقة كان ابو الحسن بن المعلم الذي كان قد استولى على امور السلطان « شرع في حفر الانهار المخترقة لاسواق الكرخ وما يتصل بها وجبى من ارباب العقار مالا جزيلا »(١٨٦) ، وهذا يدل على ان تشييد الجسر المذكور هو جزء من خطة عامة لاعادة اعمار الجانب الغربي الذي كان قد انهكته الاضطرابات والفتن الطائفية .

فاما موقع الجسر فيوضحه قول ابن الجوزي انه في « مشرعة القطانين بحضرة دار مؤنس » ، وكانت دار مؤنس تقع في سوق الثلاثاء(١٨٧) ، وقد صارت المدرسة النظامية فيما بعد « من جملة دار مؤنس »(١٨٨) وكانت هذه الدار من اشهر دور بغداد في القرن الرابع الهجري ، فقد كان ينزلها ابن رائق ، وبجكم ، والبريدي ، وتوزون ، ومعز الدولة ، وعميد الدولة(١٨٩) ، وقد اعاد بهاء الدولة تعميرها بعد ان هدم الدار المزية واستعمل اجرها في البناء الجديد(١٩٠) ، وتقع دار مؤنس بالقرب من دار الخلافة ، وعلى مسافة من جنوبي النقطة المقابلة لمصب نهر عيسى ، اي ان الموقع التقريبي لهذا الجسر ، هو عند جسر الشهداء الحالي .

فهذا الجسر يربط طرف دار الخلافة بالجانب الغربي .

لم تذكر المصادر سنة تعطل جسر مشرعة القطانين ، ولكن النص يظهر انه عند تعطله وحتى سنة ٤٤٨ لم يكن في بغداد جسر في اسفل بغداد ، وان الاتصال الوحيد بين جانبي بغداد كان عن طريق جسر باب الطاق الذي يقع في جهة متطرفة في الشمال ، فيزيد من العزلة بين دار الخلافة والجانب الغربي .

ويلاحظ ان المقدسي الذي الف كتابه في اواخر القرن الرابع الهجري ذكر في كلامه عن بغداد « الجسر عند باب الطاق الى جانبه بيمارستان بناه عضد الدولة »(١٩١) .

اما الجسر الذي عقد في سنة ٤٤٨ ، فان هلال بن الحسين يذكر انه نقل من باب الطاق ، اما ابن الجوزي فيذكر ما يدل على انه جسر قائم بذاته حيث يقول في حوادث سنة ٤٤٨ « وفي المحرم ابتدى بعقد الجسر من مشرعة الحطابين الى مشرعة الروايا ، زيد في زوارقه لعلو الماء ، فعصفت ريح شديدة فقطعت الجسر ، فانحدرت زوارقه الى

(١٨٣) الخطيب ١١٦/١ .
(١٨٤) المنتظم ١٧١/٧ ، والراجح ان هذا الجسر هو الذي ذكره ابن الجوزي في ترجمته فخر الملك وزير بهاء الدولة انه « عمل الجسر ببغداد وكان قد نسي وبطل وعمل له درابزينات » (المنتظم ٢٨٦/٧) .
(١٨٥) المنتظم ١٧١/٧ .
(١٨٦) المنتظم ١٦٨/٧ .
(١٨٧) مسكويه ٣٦٦/١ تكملة الطبري ١١٠ .
(١٨٨) تكملة الطبري ١٤٨ .
(١٨٩) عن نزولهم انظر بالتتابع : تكملة الطبري ١١٠ ، ١١٩/١١٠/١٢٧ ، ٢٢٤/١٢٤/١٤٨/٢١٤ وانظر ايضا عن نزول بجكم بها : مسكويه ١٩٦/١ وعن نزول معز الدولة انظر ايضا رسوم دار الخلافة ١٣٦ المنتظم ١٣٦/٧ وعن نزول ابن رائق فيها مسكويه ٢٥/٢ وعن نزول البريدي مسكويه ٢٥/٢ .
(١٩٠) المنتظم ٣١/٨ .
(١٩١) احسن التقاسيم ١٥٠ . ويلاحظ ان البيمارستان العضدي بني على موقع الخلد قرب درب سليمان .

الدراعين ؟ »(١٩٢) ويلاحظ انه في السنة السابقة قدم طغرل بغداد ، واتخذ مقامه بدار المملكة عند المخرم ، وان هذا الجسر يقع فيما يظهر جنوبي المخرم .

لم يذكر ابن الجوزي مصير الجسر بعد ان عصفت به الريح ، ولكن يبدو انه اعيد تشييده ، فكان الجسر الوحيد الذي يربط الجانبين .

يذكر هلال ان الجسر عطل في سنة ٤٥٠ ، اما ابن الجوزي ، فيذكر انه في سنة ٤٥٠ زادت دجلة زيادة كبيرة(١٩٣) ، ولعل هذه الزيادة هي التي ادت الى تعطل الجسر ، ولكن في تلك السنة شرع البساسيري « في اصلاح الجسر فعقدة بباب الطاق وعبر عسكره »(١٩٤) ، أي ان البساسيري نقل الجسر الى باب الطاق . ويلاحظ ان البساسيري كانت داره في الحريم الطاهري ، وان الجانب الشرقي كان قسمه العلوي قد خرب آنذاك ، فاعادة الجسر الى باب الطاق كان بدافع شخصي وعسكري من البساسيري .

وفي سنة ٥٢٥ قام السلطان داود « بقطع الجسر من راس نهر عيسى ، ونصب بباب الغربة يوم الاحد ٢٣ ذي القعدة ، فكثرت الاراجيف لنقله وصار متنزها مليحا يجتمع الناس بعد العصر تحت الرقة كما كانوا يجتمعون في الرحبة »(١٩٥) وهذا معناه ان الجسر الذي كان عند نهر عيسى قد نقل فلم يبق مكانه جسر . ومصب نهر عيسى عند ثانوية الكرخ حاليا .

ويذكر سبط ابن الجوزي انه في سنة ٥٤٣ قطع الجسر ببغداد ، ويقال ان شحنة مسعود قطع الجسر ، وكان الغزنوي الواعظ تولى عمله ، وعمل له درابزينات من الجانبين(١٩٦) ، وهو يذكر « المشهور في الوعاظ ان الغزنوي الذي يعظ ببغداد هو ابو الحسن علي بن الحسين الغزنوي ووعظ بها ونصر مذهب الاشعري»(١٩٧) ، ولم اجد في المصادر ذكر لزمن تجديد الغزنوي ، ولا ما يدل على المقصود من القطع ، وهل هو دائمي ام مؤقت .

وفي سنة ٥٥٢ توترت العلاقة بين الخليفة ومحمد شاه ، واستعد الطرفان للقتال « وضرب محمد شاه بالدحلة لقطع الجسر : وجيء به الى التاج »(١٩٨) اي انه نقل الى جنوب باب الغربة ، ويلاحظ انه في خلال هذه الحوادث عاد اصحاب محمد شاه « ونصبوا الجسر وعبر اكثر العساكر(١٩٩) » ثم « قطع كوجك الجسر وقلع الخيم وضرب النار في زوارق الجسر »(٢٠٠) وعلى اي حال فهو غير الجسر الذي نقل الى التاج . ويلاحظ ان قصر التاج من قصور دار الخلافة التي تقع عند شارع البنوك وشارع النهر ؛ أي ان الجسر نقل من موقعه عند مصب نهر عيسى (قرب جسر الشهداء الحالي الى موقع قرب السفارة البريطانية الحالي .

ويذكر ابن الجوزي انه في سنة ٥٧٠ «نصب جسر جيد امرت بعمله جهة من جهات المستضيء بامر الله تلقب بنفشه وكتبت اسمها على حديدة في سلسلة ، وجعل تحت الرقة مكان الجسر العتيق ، وحمل الجسر العتيق الى نهر عيسى الى ان حول في هذه الايام نحوا من خمسين سنة ، فوجد الناس له راحة تامة بوجود جسرين(٢٠١) » ، ويقول ابن الكازروني انه في ايام المستضيء « عمل جسر ومد على دجلة مع الجسر العتيق ، وعبر الناس عليه في اواخر المحرم سنة ٥٧٠ »(٢٠٢) ، ويذكر ابن الساعي ان بنفشه أمرت بعمل جسر على دجلة(٢٠٣) .

ولما زار ابن جبير بغداد سنة ٥٧٩ نزل المربعة « على شط دجلة بمقربة من الجسر ، فحملته دجلة بمدها السيلي ، فعاد الناس يعبرون بالزوارق . . والعادة ان يكون لها جسران : احدهما

(١٩٢) المنتظم ١٦٩/٨ .
(١٩٣) المنتظم ١٩٨/٨ .
(١٩٤) المنتظم ١٩٢/٨ .
(١٩٥) المنتظم ٢١/١٠ .
(١٩٦) مرآة الزمان ١٩٦/٨ .
(١٩٧) مرآة الزمان ١٤/٨ ، وانظر عن وعظه ١٨٤ .
(١٩٨) المنتظم ١٦٩/١٠ .
(١٩٩) المنتظم ١٧٤/١٠ .
(٢٠٠) المنتظم ١٧٥/١٠ .
(٢٠١) المنتظم ٢٥٠/١٠ .
(٢٠٢) خلاصة الذهب المسبوك ٢٢٩ .
(٢٠٣) الجامع المختصر ٨٥ .

مما يقرب من دور الخليفة والاخر فوقه ؛ لكثرة الناس ، والعبور في الزوارق لا ينقطع »(٢٠٤) .

ومن الواضح ان الجسر الذي يذكر ان مد دجلة جرفه ، هو الذي عند الرقة التي تقابل دار الخلافة غير انه لم يذكر موقع الجسر الاخر الذي اشار اليه ، ولا فيما اذا كان هذا الجسر المجروف قد اعيد تصليحه .

ويذكر ابن الطقطقى الذي الف كتابه سنة ٧٠٠هـ « ان الظاهر (٦٢٢ – ٦٢٣) هو الذي عمل هذا الجسر الجديد الموجود الان ببغداد »(٢٠٥) غير ان ابن الطقطقى لم يذكر موقع هذا الجسر الجديد ، ولا الجسور الاخرى ؛ ان وجدت .

ولما حاصر هولاكو بغداد امر بانشاء جسرين واحد اعلاها والاخر اسفلها(٢٠٦) بالطبع ان هذين الجسرين انشئا لاغراض عسكرية مؤقته ولا علاقة لهما بالجسور الاخرى القائمة ، ان كانت موجودة.

ولما زار ابن بطوطة العراق كان « لبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التي ذكرناها في جسر مدينة الحلة ، والناس يعبرونهما ليلا ونهارا رجالا ونساء ؛ فهم في ذلك في نزهة »(٢٠٧) غير انه لم يذكر موقع اي من هذين الجسرين .

المشارع :

من أبرز الخصائص التي تميزت بها منطقة بغداد التي اختارها المنصور لتشييد عاصمته فيها هو انها تتصل بمختلف المراكز الفنية في الدولة عن طريق المواصلات النهرية . ورغم كثرة الترع والانهار التي تجري فيها الزوارق ، فان دجلة هو الشريان الرئيس الذي تعتمد عليه بغداد في المواصلات النهرية . وهو نهر يتميز بعرضه ووفرة مياهه ، وخاصة في فصول الشتاء والربيع واوائل الصيف ، وقاعه غير عميق ، وشواطئه مكونة من تربة رسوبية رخوة ، ومجراه غير مستقيم او ثابت، كما أن فيه عددا من الجزر . وقد بنيت على ضفتيه قصور لم تكن كثيرة العدد بالنسبة الى سعة بغداد وازدهار حضارتها وطول بقاء الخلافة فيها. ويلاحظ ان القليل من هذه القصور والدور الشاطئية كانت لها مسنيات قوية وكبيرة .

وبالنظر لقلة الجسور في بغداد ، فقد اعتمد السكان في تنقلهم بين الجانبين على الزوارق ، وقد روت المصادر كثرة الزوارق في بغداد فيروى الخطيب عن هلال بن المحسن انه « احصيت السميريات المعبرانيات بدجلة في ايام الناصر لدين الله وهو ابو احمد طلحة الموفق ؛ فكانت ثلاثين الفا؛ قدر من كسب ملاحيها في كل يوم تسعون الف درهم »(٢٠٨). ومن المعلوم ان استعمال السميريات يتطلب وجود مشارع ؛ اي مناطق منخفضة ومستوية تصلح لوقوف الزوارق واستخدام الناس لها .

وتتطلب المشارع اماكن ملائمة لوقوف الزوارق بحيث يستطيع الناس الركوب فيها او النزول بسهولة ويسر ، وقد ذكرنا ان انبساط مجرى دجلة وتربة شواطئه الرسوبية وقلة المسنيات عليه توفر اماكن كثيرة لهذا الغرض .

وتتوقف اهمية المشرعة على مدى حاجة الناس الى العبور من منطقة معينة دون اخرى ولذلك تزداد اهمية المشارع في المناطق القريبة من الاسواق حيث تزداد الحاجة الى نقل السلع او اهل الاعمال والمصالح بين الجانبين . فظهور المشارع وانتعاشها او انحطاطها يرتبط الى حد كبير بمدى ازدهار الحركة الاقتصادية . غير ان المشارع تحتفظ عادة باسمائها القديمة التي كانت تسمى بها عند بدء استعمالها . ومعظم معلوماتنا عن المشارع مستمدة من اخبار القرن الرابع الهجري فما بعد . غير ان كثيرا من المشارع التي ذكرت خلال ذلك او بعدها كانت مستعملة قبل ذلك التاريخ ولكننا لا نستطيع الجزم بتحديد الزمن الذي بدء فيه استعمالها ، رغم ما لهذا التحديد من اهمية لمعرفة بداية وتطور الازدهار الاقتصادي والحضاري في مناطق بغداد .

(٢٠٤) الرحلة ٢١١ طبعة حسين نصار .
(٢٠٥) الفخري ٢٨٧ طبعة علي الجارم .
(٢٠٦) العراق في عهد المغول الايلخانيين للدكتور جعفر خصباك نقلا عن نصير الدين الطوسي ٥٢ .
(٢٠٧) تحفة النظار ١/١٢٠ طبعة الازهرية .
(٢٠٨) الخطيب ١/١١٧ .

وتكون المشارع عادة متقابلة بين الجانبين ، أي أن كل مشرعة تقابلها اخرى في الجانب الاخر ، ولكن ليس من الضروري ان يكون التقابل تاما او دائما ، لان وجود المشرعة يتوقف على طبيعة الشاطىء وعلى منافذ المسالك العامة .

فاما مشارع الجانب الغربي فقد ورد في الاخبار ذكر عدد منها :

١ ــ مشرعة باب البصرة وقد ورد ذكرها حيث نزلها قريش بن بدران عندما كان يقاتل البساسيري الذي كان في مشرعة الروايا(٢٠٩) . وباب البصرة كان يطلق في الاصل على الباب الجنوبي الشرقي من مدينة المنصور المدورة ، وموقعه على مسافة من شاطىء النهر ، ثم صار الاسم يطلق منذ اواسط القرن الخامس الهجري على محلة واسعة تشمل كل المدينة المدورة . فموقع هذه المشرعة اما قريب من باب البصرة الاول ، او في الطرف الشرقي من المدينة المدورة ، اي انها عند مكان سايلو الحبوب حاليا او في شماليه .

٢ ــ مشرعة المارستان التي نقل اليها البساسيري عسكره(٢١٠) ولعلها كانت عند المارستان العضدي الذي شيد في مكان قصر الخلد .

٣ ــ مشرعة الرباط ، وقد ورد ذكرها في حوادث القرن السادس(٢١١) ولكن لم اجد اشارة تساعدني على تعيين موقعها ، والراجح انها قرب مصب نهر عيسى حيث توجد عدة ربط .

٤ ــ مشرعة الساج . وقد ذكرت في اخبار اوائل القرن الرابع الهجري حيث استتر عندها سلامة سنة ٣٢٢(٢١٢) ، وكان فيها دار ابن(٢١٣) عبدون وكذلك الدار المعروفة بالموزة(٢١٤) ، كما دفن عندها علي بن محمد بن بشار(٢١٥) الذي لا يزال قبره معروفا اليوم وهو جامع الشيخ بشار ، فالمشرعة تقع اذا قرب الشيخ بشار .

(٢٠٩) المنتظم ١٩٢/٨ .
(٢١٠) المنتظم ١٩٦/٨ .
(٢١١) المنتظم ١٤٦/٩ ، ٢٤٩ .
(٢١٢) مسكويه ٢٨٨/١ .
(٢١٣) الصابي . الوزراء ١٥٧ .
(٢١٤) تكملة الطبري ١٩٥ .
(٢١٥) الخطيب ٧/٦ المنتظم ١٩٩/٦ .

٥ ــ مشرعة الروايا وكانت تقع عند باب الشعير ، وهي من اشهر المشارع واقدمها ، فكانت معروفة منذ الازمنة الاولى لتأسيس بغداد . وهي في الاصل « المشرعة التي كان يصعد منها اصحاب الروايا »(٢١٦) ، وكان يقعد في طريقها وكيع بن الجراح(٢١٧) . وقد دفن فيها ابو الحسن الاشعري « في تربة الى جانبها مسجد وبالقرب منها حمام . وهي عن يسار المار من السوق الى دجلة »(٢١٨) ، غير ان قبره اصبح « عافي الاثر لا يلتفت اليه » في اواخر القرن السادس الهجري(٢١٩) . وفي مشرعة الروايا عند قبر الاشعري دفن احمد بن محمد الفوركي(٢٢٠) ولما سيطر البساسيري على بغداد دخل مرة الكرخ « وخرج الى مشرعة الروايا »(٢٢١) .

وفي سنة ٤٤٨ عقد جسر من مشرعة الحطابين الى مشرعة الروايا ، غير ان الرياح عصفت بالجسر فقطعته وحدثت زوارقه(٢٢٢) .

لعل الجسر الذي عقده ابو جعفر المنصور في سنة ١٥٧ عند باب الشعير(٢٢٣) كان موقعه عند مشرعة الروايا .

اما في الجانب الشرقي فقد ذكرت فيه عدة مشارع :

١ ــ مشرعة الصخر ، وقد ذكرت فيها عدة دور منها دار سليمان بن وهب(٢٢٤) ودار نقل منها بهاء الدولة اخته زوجة الطائع لله حيث بقيت حتى وفاتها(٢٢٥) . ولما كانت دار

(٢١٦) الخطيب ٧٠/١٣ .
(٢١٧) الخطيب ٤٧١/١٣ .
(٢١٨) الخطيب ٣٤٧/١١ .
(٢١٩) المنتظم ٣٣٢/٦ .
(٢٢٠) المنتظم ١٧/٩ .
(٢٢١) المنتظم ١٩٢/٨ .
(٢٢٢) المنتظم ١٤٩/٨ وانظر الخطيب ١١٦/١ .
(٢٢٣) يعقوب بن يوسف . المعرفة والتاريخ ١٤٤/١ الخطيب ١٥٧/١ .
(٢٢٤) عريب ٦٥ .
(٢٢٥) المنتظم ١٦٣/٧ وقد وردت في الروذراوري « مشرعة الصحراء » (ذيل تجارب الامم ٢٠٨/٣) وهو خطأ .

سليمان بن وهب بالمخرم(٢٢١) ، وهي التي اصبحت في اول القرن الرابع الهجري دار الوزارة ؛ فتكون مشرعة الصخر عند المخرم ، اي قرب مدينة الطب حاليا .

٢ ـ مشرعة باب البستان(٢٢٧) ، والراجح انها كانت قرب بستان الزاهر ، كما سنتحدث فيما بعد عن الجسور .

٣ ـ مشرعة دار الملك(٢٢٨) ولعلها قرب دار المملكة اي قرب المشرعتين السالفتين حيث تقع عندها دار المملكة اي قرب وزارة الدفاع حاليا .

٤ ـ مشرعة باب الطاق(٢٢٩) وهي كما يدل اسمها ، تقع في باب الطاق الذي ينتهي عنده الجسر الاعلى في بغداد .

٥ ـ مشرعة باب الازج(٢٣٠) ؛ ولابد ان موقعها في الجهات الجنوبية من بغداد حيث يقع باب الازج .

٦ ـ مشرعة الصباغين ، وقد ورد ذكرها في اخبار حريق شب سنة ٥٥٨ وامتد اليها من باب درب فراشة(٢٣١) .

٧ ـ مشرعة القصب وقد ذكرت ان فيها دار ابي الحسن بن الشيب العلوي(٢٣٢) ودار شفيع اللؤلؤي المجاورة لدار ابن الصريفيني(٢٣٣) .

٨ ـ مشرعة الحطابين وكانت في الجانب الشرقي(٢٣٤) ، امام المترض(٢٣٥) ، وكان عندها على شاطىء دجلة مسجد(٢٣٦) ، ولعله المسجد الذي عمرته ام الخليفة « بمشرعة السقائين على شاطىء دجلة بمشرعة(٢٣٧) الحطابين وفي مشرعة الحطابين كان طرف الجسر الذي نصب سنة ٤٤٨ وطرفه الاخر في مشرعة الروايا من الجانب الغربي(٢٣٨) ؛ فهي اذا تقابل مشرعة الروايا : اي ان موقعها قرب وزارة الدفاع الحالية .

٩ ـ مشرعة القطانين ، وكانت « بحضرة دار مؤنس »(٢٣٩) ؛ وعندها الجسر الذي عقده بهاء الدولة سنة ٣٨٣ فلم يلبث الا قليلا ثم تعطل(٢٤٠) ، ولما كانت دار مؤنس عند النظامية ، فالراجح ان موقع هذه المشرعة عند شارع المامون وفي اول جسر الشهداء الحالي .

---

(٢٢٦) سنفرد لها بحثا خاصا ، وانظر عن موقعها في المخرم تكملة الطبري ٥ ، ٨ الوزراء للصابي ٢٨ ـ ٩ .
(٢٢٧) المنتظم ١٧٧/٨ .
(٢٢٨) المنتظم ١٢٧/٧ .
(٢٢٩) المنتظم ٦٩/٨ .
(٢٣٠) المنتظم ١٦٢/٨ .
(٢٣١) المنتظم ٢٠٥/١٠ .
(٢٣٢) تكملة الطبري ٢٢٥ .
(٢٣٣) الوزراء للصابي ٢٢١ .
(٢٣٤) الخطيب ٣٨/٣ ، ١٨٦/١٠ .
(٢٣٥) الخطيب ٢٨٦/١ ، ٧٥/١٤ . المنتظم ١٣٨/٨ .
(٢٣٦) ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ١٢٦ب .
(٢٣٧) مضمار الحقائق ٧٨ .
(٢٣٨) الخطيب ١١٦/١ والمنتظم ١٤٩/٨ .
(٢٣٩) المنتظم ١٧١/٧ .
(٢٤٠) الخطيب ١١٦/١ والمنتظم ١٧١/٧ .

بغداد في عهد الثورة

بقلم

جواد كاظم البياتي

ديوان وزارة الري ـ بغداد

مقدمة

في الزنزانة المظلمة كانت هناك كوة ضيقة تطل على صباح ربيعي ممطر ، في تلك الزنزانة كان هناك سجينان ينظران من خلال تلك الكوة الضيقة ، نظر الاول نحو الاسفل فلم ير غير الطين والاوحال وعبوس الارض فابتأس ، نظر الثاني نحو الاعلى فرأى السماء زرقاء صافية ندية تطرزها هنا وهناك جزيئات الغيوم القطنية المتقطعة وطيور سنونو وعصافير تمرح في فضاء ضاحك ، فابتسم ابتسامة الأمل البعيد نحو الافق .

وهكذا فعلت بغداد عندما كانت تمر في عهود الجهل والتخلف كانت دائما تحمل الامل في احشائها ، كان لديها شيء كبير تحتفظ به لتلده يوما وكان هذا اليوم .. الامل .. هو يوم السابع عشر ـ الثلاثين من تموز الخالد ، كان هو تلك السماء الزرقاء الندية التي تطرزها الغيوم القطنية البيضاء المتقطعة وهو نفسه طير السنونو وعصافير الفرح ونسائم الخير والمكاسب العظيمة .

حديث الوجه المشرق

رغم ان الحديث عن التغيير في شكل ومحتوى خارطة بغداد لا يحتاج الى ايضاح شفهي او مدون، لما للتغيير هذا من شواهد واضحة وملموسة يقرها القريب والبعيد والأعداء قبل الاصدقاء الا اننا لا نستطيع أن نتجاوز فرصة صدور العدد الخاص ببغداد لمجلتنا دون أن ندون شيئا اعترى وجه المدينة من إبتسام ومشاهد حضارية ليس على صعيد الشكل والمظهر حسب وانما ايضا في المحتوى والمضمون الحضاري للعصر الذي راح يسابق في النهوض نحو الأمام ارقى عواصم ومدن العالم ، سيما وان احد عشر عاما لا تعد زمنا الى جانب العشرات من السنين التي وصلت فيها العواصم والمدن المتقدمة الى ما هي عليه الآن .

وخطا نقول اننا نستطيع حصر كلما تحقق لبغداد خلال عهد الثورة لاننا مهما حاولنا فسنغفل الكثير منها ، لأن ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز منذ قيامها كان لها في كل زاوية وفي كل لحظة « بصمة » جميلة فاعلة وحضارية على وجه بغداد ، اقتصاديا ، ثقافيا ، اجتماعيا ، تخطيطيا ، تجميليا ، صحيا ، وخدميا . وعلى ذلك فنستميح قارئنا عذرا اذا ما فاتنا شيء من ذكر بعض مكتسبات بغداد .. وابن بغداد .

زيادة النفوس ـ واتساع الارض

بين عام ١٩٦٨ وعام ١٩٧٩ اختلاف كبير جدا وان اعطاء نسبة لهذا التغيير عما كانت عليه بغداد قبل الثورة هو ضرب من ضروب الوهم ، لقد ارتفع عدد نفوس بغداد خلال الاعوام الاحد عشر السابقة فتشير احصاءات التعداد العام الاخير للسكان عام ١٩٧٧ الى ان عدد سكان بغداد قد وصل الى (٠٠٧ر١٨٩ر٣) مليون نسمة عما كان عليه في تعداد ١٩٦٥ الذي اظهرت نتائجه بان نفوس بغداد (٣٧٥ر٤٥٠ر٢) مليون نسمة واذا ما اخذنا نسبة الزيادة الحاصلة في سكان بغداد خلال هذه الفترة يمكننا طبعا ان نتصور نسبة الزيادة الحاصلة في عدد السكان في بغداد خلال اعوام ١٩٧٨ و ١٩٧٩ آخذين بنظر الاعتبار التطور الشامل

الذي حصل في الجوانب الاجتماعية والصحية لأهالي بغداد واثر ذلك في زيادة السكان .

ولابد لهذه الزيادة في عدد سكان بغداد - لكي تبدو الحياة طبيعية وبدون ارباك - ان ترافقها زيادة او تطور في كافة مرافق الحياة لذا نجد ان رقعة بغداد زادت بالنسبة لحدود امانة العاصمة حيث شملت قصبة المدائن ايضا التي مساحتها بحدود (٣٧٥ر٣) كلم٢ مضافة الى حدودها الاصلية لما قبل الثورة والتي مساحتها (٨٦٥) كلم٢ ، واذا ما اضفنا اليها مساحات الارض الممتدة بين حدود بغداد القديمة وحدود قصبة المدائن فسيرتفع عدد الكيلومترات المربعة المضافة الى مساحة العاصمة.

وخلال عمر الثورة انشات في بغداد عددا كبيرا من المناطق السكنية الحديثة تركز اغلبها في جنوب المدينة مثل حي العامل والسيدية والحي الدبلوماسي وراحت تمتد رقعة السكن باتجاه مطار بغداد الدولي وفي شمال بغداد ايضا اخذت المناطق السكنية تزحف نحو حدود محافظة ديالى ، وحسب احصاءات امانة العاصمة فان المباني للدور الحديثة التي انشات خلال العشر سنوات الماضية من عمر الثورة بلغت (١٠٢٦٤٨ر١٠٢) دارا حديثة ويتجاوز هذا العدد الـ (١٠٣٠٠٠ر١٠٣) خلال هذا العام ، كما تشير هذه الاحصاءات ايضا الى ان عدد العمارات المعدة لاغراض السكن والتي انشأها الاهلون بلغت (١٤٤٦) خلال نفس الفترة المذكورة ، ويعتقد انها قد تجاوزت هذا العدد خلال هذا العام . كما ان زيادة عدد أفراد العائلة البغدادية ذات الامكانيات المادية المحدودة حدا بها الى اعادة بناء دورها بشكل يتلائم وروح العصر والزيادة الحاصلة في العائلة فوصل عدد هذه الدور الى ما يقارب (٥٠٠٠) دار . وهناك الكثير من العوائل اضافت مرافق جديدة الى بناء دورها الاصلية حتى بلغت بحدود (١٠٢٥٠٠ر١٠٢) دارا ، وشمل الترميم زهاء (٨٣٠٠٠ر٨٣) دارا من قبل اصحابها(١) .

وباعتبار ان امانة العاصمة الجهة الاساسية المسؤولة عن تخطيط المدينة وتوسعاتها وتغيير خارطتها وفقا للتطور الذي احدثته الثورة في كافة المجالات ، فقد دابت هذه المؤسسة الخدمية على محاكاة المسيرة الحضارية للثورة لتضفي علامات مضيئة على وجه بغداد في كافة جوانبها. وسنحاول الاشارة الى ابرز نشاطات واعمال امانة العاصمة وبصماتها الحضارية على وجه بغداد .

التصميم الاساسي لبغداد

في عام ١٩٧١ صدر قانون تحت رقم (١٥٦) هذا القانون حمل صفة الالزام والتقيد بمضامينه ومقترحاته ؛ انه قانون التصميم الاساسي لمدينة بغداد ويعني مجموعة السياسات الخاصة بتنظيم شكل وتطور المدينة على اسس علمية وفنية وتخطيطية سليمة . ويعتبر هذا التصميم من اهم منجزات الامانة في عهد الثورة باعتباره الاساس الذي من خلاله يعاد النظر في التخطيط العام للمدينة ، وهو ايضا يسهم بجدية واضحة الى الحد من زحف وتوسيع المدينة الذي اخذ يسير بشكل افقي رهيب يكلفه الكثير من النفقات والخدمات والوقت والجهد الذي نحن بحاجة اليها في مشاريع اخرى اكثر اهمية في مسيرة التنمية القومية ، وعلى ضوء نتائج البحث والتحليل التي توصل اليها المهندسون والاستشاريون والتي شملت كافة نواحي الحياة الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والسكانية . فيمكن القول ان التصميم الاساسي اصبح دليلا ومرشدا لنمو واعمار مدينتنا الخالدة بغداد حتى عام (٢٠٠٠) ومنظما لكل نشاطاتها لامد طويل واطارا عاما وشاملا للتطوير والتمدين بحيث يؤمن اعمارا صحيحا للمدينة مع الحفاظ على عناصرها وسماتها الاساسية وتاريخها واثارها وملامحها العمرانية المتميزة .

نظام ترقيمي جديد

كانت بغداد قبل الثورة تعتمد نظاما ترقيميا مشوها لا ينسجم وضرورات التطور السريع للمدينة ، لذا بات من الضروري اعتماد اسس سهلة ومبسطة لمعرفة اي موقع او شارع في المدينة ، فقد وضعت اسس جديدة ومتطورة للتعامل بارقام مبسطة وثابتة وضعت على خرائط تفصيلية واضحة لكل قطاع ومحلة يضاف الى ذلك محافظته على التسميات التاريخية لاحياء المدينة وشوارعها المهمة . وقسم هذا النظام المدينة الى (٩) قطاعات اربعة منها في جانب الكرخ وخمسة في الرصافة اخذت الاولى ارقاما زوجية والثانية ارقاما فردية واعتبرت الشوارع التي تقع على يسار الشارع الرئيس الذي يخترق القطاع ذات ارقام

---

(١) هذه الاحصاءات اخذت عن النشرات الاحصائية لقسم الاحصاء في امانة العاصمة خلال السنوات العشر الاولى من عمر الثورة مضافا اليها نسبة تقديرية للفترة اللاحقة .

روجيه وتلك التي تقع على يمينه تاخذ ارقاما فردية وهكذا يستمر النظام وبنفس الطريقة في ترقيم الدور والمحلات والعمارات الاخرى . وقد الزمت كل الدوائر والمؤسسات ذات العلاقة اعتماد هذا النظام الجديد اساسا في معاملاتها وتعاملها .

عمارات سكنية وتجارية

للمرة الاولى في تاريخ القطر وبعد ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز الخالدة تبادر امانة العاصمة في تنفيذ عدد من مشاريع السكن للمواطنين اسهاما منها في حل مشكلة السكن التي يعاني منها بعض المواطنين ، فانشأت عددا من العمارات السكنية ذات الطوابق المتعددة والتصاميم الحديثة والمناسبة لسكن العوائل البغدادية المحافظة وقد بلغ عدد هذه العمارات (٣٥) موزعة على مناطق الزعفرانية وشارع حيفا في الكرخ وحي الرياض وحي ٧ نيسان في بغداد الجديدة وعمارة لذوي الكفاءات في منطقة العطيفية واخرى ايضا في جانب الرصافة وتتراوح عدد طوابقها بين ٣ ـ ٦ طوابق .

كما ساهمت الامانة ايضا بانشاء عدد من العمارات والاسواق التجارية ذات التصاميم الحديثة التي تميزت معظمها بالطابع البغدادي والريازة الاسلامية . وتفي هذه المشيدات بمتطلبات المواطنين في سد احتياجاتهم ، فقد قامت بانشاء اسواق تجارية نذكر منها على سبيل المثال السوق المركزي الكبير في المنصور (السوبرماركت) الذي يضم عددا كبيرا من المرافق التكميلية كمحطة تعبئة بنزين وساحات لوقوف السيارات وحدائق ولعب للاطفال ودار للحضانة المؤقتة للصغار وصالونات لحلاقة الرجال والنساء اضافة الى السوق المجمع الذي يتكون من طابق واحد وطابق ارضي يضم المراكز الرئيسية لمعارض القطاع الاشتراكي ، وبايعاز من الأب المناضل احمد حسن البكر فقد انشأت الامانة عددا من الشقق السكنية للمواطنين لتكون الطابق الثاني للمجمع . وهناك اسواق اخرى لا تختلف عنه في الطبيعة ولكنها تختلف في الشكل كالسوق العباسي في الاعظمية والسوق العربي في الشورجة وسوق المدائن الذي يضم مخازن وشقق سكنية ، وهناك سوقا اخرى يجرى العمل على انشائها في منطقة قناة الجيش . يضاف الى ذلك العمارات التجارية التي قامت بانشائها هذه المؤسسة كعمارة الرشيد والمستنصر والغريري . اما المباني الاخرى التي انشأتها الامانة فيبلغ عددها (١٢٧) أبرزها دور الضيافة ومجمع المرور .

هذا وقد قامت الامانة ايضا ببناء (٢٧٠) دارا للايتام والارامل والشهداء .

كازينوهات ومطاعم عصرية

افتقرت بغداد قبل الثورة الى الكثير من اماكن الراحة العصرية لذلك جاء اقدامها على انشاء عدد من المطاعم والكازينوهات الحديثة التي جاءت ولادتها ملازمة جنبا الى جنب مع اقامة المتنزهات والحدائق الكبيرة في العاصمة والتي يبدو انها كانت من ضروراتها . وقد آثرت امانة العاصمة كما يبدو ان تكون لهذه المطاعم والكازينوهات تصاميم حديثة وجميلة وبعضها يحمل التصاميم الاسلامية العربية وهي على درجات مختلفة لتفسح المجال امام جميع المواطنين لارتيادها كل حسب رغبته ومزاجه وقد بلغ عدد هذه الكازينوهات والمطاعم (٥٥) موزعة على متنزهات وكورنيشات العاصمة ومناطقها المختلفة نذكر منها على سبيل المثال مطعم اللؤلؤة والمجمع الاندلسي والبغدادي والياباني في الزوراء والكواكب في المسبح ، والخورنق والسدير في الاعظمية والعالم في ابي نؤاس وتلك المنتشرة على ضفاف قناة الجيش .

الاسواق وعلاوي المخضرات

انشأت مجموعة من الاسواق العصرية والشعبية في مناطق مختلفة من بغداد وبلغ عدد دكاكينها ومخازنها (٢٥٠٦) دكانا ومخزنا وهدفها حصر الباعة المتجولين الذين كانوا يفترشون الأرصفة والساحات العامة والتي كانت سلعهم بعيدة عن الرقابة والاشراف الصحي وكما تهدف المؤسسات المسؤولة القضاء على ظاهرة الفوضى والتجاوز التي تسود شوارع العاصمة وساحاتها كما استطاعت بذلك تامين حاجة المواطنين من السلع والحاجيات اليومية الضرورية ومن جهة اخرى لم يعد من المناسب بقاء امكنة علاوي المخضرات والخضر في قلب المدينة نظرا لما تسببه من زحام وعرقلة لحركة المرور والتنقل لذا فقد خصصت الامانة اماكن معينة ومناسبة لتتوفر فيها شروط التنظيم الصحيح والصحي وانشأت (١٠٦) علوة شعبية أبرزها (علاوي جميلة) وعلوة الكاظمية والسيدية وقد روعي في أختيار مواقعها البعد عن مركز العاصمة وقربها من مناطق جمع الخضار والفواكه لتوفر على الفلاحين والبقالين الوقت والجهد ونفقات النقل .

مناطق متخصصة

تنفيذا لما اقره التصميم الاساسي للمدينـــة وعلى سبيل التنظيم المهني للقطاعات الخدمية لابناء بغداد فقد كانت هذه القطاعات مبعثرة هنا وهناك بشكل تسوده الفوضى واللانظام تتداخـــل ضمن المناطق السكنية في الشوارع العامة والازقة مؤشرة بشكل مباشر او غير مباشر على راحة المواطنـــين وحركة المرور بالاضافة الى ما تحمله من اضـــرار صحية وتشويه لمنظر العاصمة . الامر الذي جعل المسؤولين يسارعون الى نقل محـــلات تصليـــح السيارات وادامتها الى مناطق محـــددة لها تؤدي فيها وظائفها بعيدا عن مركز العاصمة . وكـــذلك شملت هذه الخطة كل المصانع والمعامل الاهليـــة والمطابع والورش الكبيرة بنقلها الى المناطق الصناعية كمنطقة جميلة والبياع وكسرة وعطش والمنطقـــة الصناعية في الكاظمية .

ومن جهة اخرى تم ترحيل معـــارض بيـــع وشراء الـسيارات الى مجمعاتها الجديدة في البيـــاع وخلف الـسدة الشرقية .

طرق معلقة .. انفاق ..

من علامات التحضر والمدنية في عصرنا الراهن هي طرق المواصلات وبقدر ما للانهار من اهميـــة بالنسبة للدولة ورقيهـــا الزراعي والاقتصادي ، كذلك الطرق فهي احدى عوامل قوة الدولة . اما في المدن فهي علامة من علامات رقي المدينـــة ، وفي بغداد وخلال عهد الثورة كان لابد من تنفيذ الطرق والشوارع لاستيعاب الاعداد الهائلة من المركبـــات التي ازدادت بشكل متوازٍ مع ارتفـــاع المستوى المعاشي للمواطنين اضافـــة الى ما يقـــع ضمن مؤسســـات القطاع الاشتراكي من هذه المركبات .

وعليه فكان لزاما على الدوائر المختصة وعلى راسها امانة العاصمة ان تقوم بشق عدد كبير مـــن الطرق والانفاق والجسور وتقوم بتحوير الـساحات وتطبق نظام الاشارات الضوئيـــة (الترافكلايت) من اجـــل تسهيل حـــركة المرور وانسيابيتها في الشوارع وكذلك لمعالجة الاختناقات المروريـــة في بعض مراكـــز المدينـــة . فقـــامت بتبليط (١٥٫٠٠٠٫٠٠٠) مليون متر مربع من الشـــوارع اهمها شارع حيفـــا وشارع الزيتـــون وشارع مستشفى اليرموك في الكرخ وشـــوارع الثـــورة وسواها من المناطق الكثيرة الاخـــرى كمـــا بدات بتنفيذ مشروع طريق المرور الـسريع الذي يربط شمال بغداد بجنوبها والذي يمر بمحاذاة الـسدة الشرقية في الرصافة ويتقاطع مع الطرق الرئيـسية التي تعترضه بواسطة جسور معلقة ويلتقي بهـــا بواسطة طرق مساعـــدة تربط الشارع الرئيس بالشوارع التي تعترضه وفق مسارات واشكال تخطيطية حديثة .

كمـــا انتهت المســـوحات الجيولوجيـــة والطبوغرافية لمشـــروع الكورنيش المعلـــق الذي سيربط الاعظمية بأبي نؤاس وسيقام هذا الكورنيش على اعمدة معلقة داخل نهر دجلة في ضفته اليمنى بطول (٣٫٢٠٠) كلم ويتكون من ممرين بسعـــة ٢٣ مترا تتوسطهما جزرة وسطيـــة ورصيفين جانبيين بعرض متر واحد لكل منها وستشيد على الكورنيش عمارتان لوقوف الـسيارات الاولى في المنطقة المقابلة لشارع السموأل والاخـــرى في منطقـــة السنك وتستوعب هاتان العمارتان لـ (٢٤٠٠) سيارة .

اما الانفاق فابرزها (نفق التحرير) الذي يربط شارعي الجمهورية بالسعدون والذي خفف من ضغط المركبات على الساحة بحـــدود ٦٠٪ استنادا الى تخمينات الخبراء يحاط النفق بسوق يحتوي على اكثر من (٤٠) دكانا تؤدي اليه ستـــة انفاق من كل اتجاهات الـساحة مزودة بالـسلالم الكهربائية . اما (نفق الشرطة) فيربط بين الشارع المؤدي الى الكاظمية وذلك المؤدي الى المطار الدولي ويشيد حاليا نفق ثالث في ساحة الطيران وهـــو اضخم نفق يشيد لحد الآن وسيحتوي على شبكة من الانفاق والجسور للسابلة وللسيارات وسيعمل كثيرا على تخفيف الزحـــام في ساحـــة (يونس الـسبعاوي) ، وسيبدأ قريبا العمل في تنفيذ جسر دمشق الذي تنفـــذه وزارة الاسكان والتعمـــير وصممته امانة العاصمة وهو بكلفة (٥٫٦٤٣٫٤٩٣) مليون دينار لمعالجة اختناقات المرور في الـساحـــة والمشروع عبارة عن جسر يربط ساحة حلب بشارع المحطة العالمية بطول (٢٧٥)م وعرض (٢١) مترا ، ذو اربع ممرات للسيارات اضافـــة الى مماشٍ جانبية وكذلك هناك نفـــق رئيس يربط ساحـــة المتحف بساحة الفارس العربي ، اضافة الى ساحة بمستوى الارض تتحكم فيها الاشارات الضوئية .

ومن اجـــل انسيابيـــة السير في الشـــوارع الرئيـسية انشأت امانة العاصمة عددا من انفـــاق السابلة في شارع المامون والشورجة والوثبـــة والـسعدون وينفذ في المستقبل القريب نفق في بداية شارع الرشيد باعتباره من اضمامات نفق التحرير

وللغرض نفسه انشات ايضا جسورا لعبور السابلة كجسر الجامعة المستنصرية وساحة المتحف وشارع دمشق ومستشفى اليرموك .

جسور على دجلة

ضمن التصميم الاساسي لبغداد فانه يجب ان يصل عدد الجسور فيها حتى عام (٢٠٠٠) ، (١٣) جسرا لمواجهة ضغط المركبات وتوقيا للاختناقات المرورية ، فانشيء (جسر المثنى بن حارثة الشيباني) شمالي بغداد ، افتتح في ١٥ آب ١٩٧٩ ، وكذلك (جسر الدورة) الذي يجري العمل فيه حاليا ، كما سيباشر بتنفيذ (٢١) جسرا لمرور السيارات والسابلة على قناة الجيش في نهاية العام الحالي بهدف تسهيل حركة المرور عبر القناة بما يتلائم والحركة المتوقعة بعد افتتاح جسري المثنى والدورة .

وسيتم في المستقبل القريب (جسر الاعظمية المعلق) بطول (٤٠٠)م وعرض (٣٠) مترا وبمقتربات طولها (٥٧٠) مترا ، كما انجزت تصاميم (جسر السنك) بطول (٢٧٦) مترا وعرض (٣١٫٥) مترا وبمقتربات (٢٥) مترا وبهدف الى تخفيف ضغط المركبات على جسري الاحرار والجمهورية ، وسيشهد العام المقبل المباشرة بانشاء (جسر الجادرية) في بغداد بطول (١٥٠٠) على النهر وبمقتربات (٢٥٠٠) مترا ويمتد على جزيرة ام الخنازير السياحية ويحتوي على (٦) ممرات ثلاثة منها للذهاب والاخرى للاياب بهدف ربط المنطقة الممتدة من ساحة جامعة بغداد حتى طريق بغداد ــ حلة عند نقطة السيدية وبمستوى على ممرات نزول الى جزيرة ام الخنازير دون استعمال اي طريقة مائية .

اشارات مرور متطورة

وفقا لمتطلبات العصر بادرت امانة العاصمة بتنفيذ مشروع تحوير الساحات ونصب اضوية المرور الالكترونية ، يشمل هذا المشروع تقليص بعض الساحات وتغيير مقترباتها لاستيعاب اكبر عدد ممكن من المركبات يراعى في ذلك الحفاظ على جمالية المدينة ونصبها وتماثيلها فشمل هذا المشروع (٣٤) ساحة نذكر منها ساحات الوثبة وزبيدة وباب المعظم والجمهورية والمنصور والفارس العربي والفتح وغيرها كما استحدث مبدا نظام الاتجاه الواحد للمرور في الشوارع الرئيسية الذي شمل شوارع الكفاح والرشيد وحيفا والنصر في الكرخ وجمال عبدالناصر وجسري الشهداء والاحرار وبعض الشوارع العمودية وقد شملت معظم الساحات والتقاطعات بنصب اضوية المرور المتطورة وباشكال وحجوم مختلفة رئيسية وثانوية وصغيرة داخل تلك الساحات والتقاطعات بالاضافة الى الاشارات الضوئية لمناطق عبور المشاة ترتبط هذه الاشارات بمحطة سيطرة مركزية لتوجيه هذه الشبكة الضوئية مركزيا ، كما شمل المشروع ايضا نصب العلامات المرورية وفق مقاييس دولية اضافة الى تخطيط التقاطعات بالاشرطةالبلاستيكية التي تستعمل لاول مرة في القطر .

هدم من اجل البناء

وضعت تصاميم تفصيلية حديثة لمنطقتي الكرخ والسنك في الرصافة بما يكفل اظهارهما بشكل يقضي على الفوضى في التخطيط وضمن مساحات معينة باعتبار ان هاتين المنطقتين تمثلان قلب المركز . وان وصفهما بشكل عصري يتلائم وتطور الحركة العمرانية التي تحيط بهما او ملح جدا . .

نهر الخير

نهر الخير كان فيما مضى واحدا من شبكة اروائية تحيط ببغداد في جانبها الغربي ، وقد اختفى بمرور الزمن ولم يعد الا مستنقعا لمياه آسنة تحمل الامراض الفاتكة للمناطق السكنية المحاذية له ، ولكن بعد ثورة ١٧ــ٣٠ من تموز العظيمة وضعت امانة العاصمة كل ثقلها لاحيائه والاستفادة منه اقتصاديا وسياحيا وفعلا فقد عاد من جديد قناة تخترق الجانب الغربي من بغداد تحيط به المتنزهات ، يبلغ طوله (١٩) كلم ، يأخذ مائه العذب من دجلة شمال الكاظمية بواسطة مكائن ضخمة ويمر بمناطق كثيرة كالدولعي ويكون بحيرة سعتها (٦٠) الف م٢ عند حي العدل ويقطع حي المعري فالمنصور ويصب في دجلة ايضا عند منطقة القادسية ، يتلوى قاطعا (١٩) جسرا لعبور السيارات والسابلة وبذلك يتم احياء اكبر مشروع اروائي تاريخي لبغداد .

خدمات ليس لها حدود

قد يكون من قبيل (الحِكَم) حين تقول « لا قيمة لشارع بدون مجار » لذلك ولكل ذكرى المعاناة التي لم ينج منها مواطن في بغداد عند الشتاء في العهود الماضية ، نجد ان شبكات المجاري راحت

تختبىء داخل الارض لامتصاص ما يقع على الشوارع من مياه الامطار وقد وضعت الخطط لاقامة شبكات مجاري للشوارع الرئيسية والفرعية والمناطق السكنية وقبل المباشرة بتبليط اي شبكة شوارع .. وقد خصت المنطقة المركزية ببغداد جميعها تقريبا سواء كان ذلك في الكرخ او الرصافة بشبكة مجاري ، وقد انشأت من اجل هذه الاعمال الشركة العامة لمقاولات مشاريع المجاري والماء التي قامت بمشاريع كبيرة اهمها مشروع ربط مجاري مياه المناطق السكنية في بغداد الجديدة بالمجرى الرئيسي وقيامها ايضا بانشاء خطوط واسعة للمجاري في بعض انحاء العاصمة لاستيعاب افرازات دور السكن والمعامل وغيرها .

وهناك مشروعان كبيران للمجاري بدأ الاول بتنفيذه في مدينة الثورة بكلفة (٣٠) مليون دينار لانشاء شبكة مجاري وتبليط الطرق الرئيسية في مدينة الثورة(٢) ، كما وقعت امانة العاصمة مؤخرا عقدا مع احدى الشركات العالمية لتنفيذ مجريين رئيسين لمياه الامطار في بغداد بكلفة (١٦) مليون دينار في الكرخ والرصافة . بالاضافة الى بدء المباشرة بمشروع مجاري جانب الكرخ بكلفة مليون دينار وتقوم بتنفيذه الشركة العامة للمقاولات .

الماء والمجاري

ومن الخدمات التي تطورت في عهد الثورة هي خدمات التنظيف فقد تخطت الطرق المتخلفة القديمة في تنظيف الشوارع والازقة بواسطة سيارات حديثة كابسة للنفايات واخرى لغسل الشوارع بصورة اوتوماتيكية ، كما استحدثت طريقة تعميم استخدام اكياس النايلون في جمع النفايات من الدور والمحلات العامة التي تأخذها سيارات جمع النفايات الى معمل الاسمدة العضوية على بعد كيلومتر واحد من شمال غربي مدينة الثورة . وهو معمل واسع اقيم لاستقبال النفايات من مناطق العاصمة وتحويلها الى اسمدة عضوية صالحة كسماد للمزارع والحدائق والبساتين ويؤمل ان ينصب معمل آخر على غراره في منطقة الكرخ .

(٢) يتكون المشروع من ثلاثة اجزاء الاول : شبكة مجار بطول (١٢٥) كلم وباقطار من (٢٥ - ٨٠) سم . الثاني : انشاء المجرى الرئيسي بطول (١٦) كلم من الكونكريت المبطن بالصفائح البلاستيكية اقطاره بين (١٨٠ - ٢٠٠) سم ، الثالث : انشاء (١٥) مضخة .

كما تم انشاء (٣) مجازر عصرية اوتوماتيكية داخل بغداد في منطقة الكاظمية والكرخ والشيخ عمر ، يتم فيها نحر المواشي على الطريقة الاسلامية بعد فحصها من قبل اطباء بيطريين للتأكد من سلامتها من الامراض ، ثم توزع على الاسواق بواسطة سيارات مكيفة استقدمت لهذا الغرض ، وتم ايضا انشاء حضائر خاصة لتجمع المواشي بجوار هذه المجازر وبذلك يقضى على الاساليب غير الانسانية في نحر المواشي .

ومن الخدمات الانسانية الاخرى التي شهدتها بغداد في عهد الثورة هي اقامة اربع مقابر حديثة يسودها التنظيم في دفن الموتى بما يتناسب وقيمة الانسان وهذه المقابر تقع في اطراف بغداد على طريق ابي غريب وعلى طريق سامراء ومقبرة السيد محمد السكران على طريق بعقوبة الجديد واخرى على طريق بعقوبة القديم تتوفر في هذه المقابر كل الشروط الصحية والمغاسل والمساجد ذات هيبة كبيرة لاداء الطقوس التي ترافق دفن الموتى وتتخلل هذه المقابر الحدائق والاشجار والطرق المعبدة والمرافق الضرورية الاخرى .

ومن مرافق الخدمات الضرورية الاخرى هي انشاء عمارات متعددة الطوابق لوقوف السيارات وكانت عمارة السنك هي التجربة وتتكون من ستة طوابق تستوعب لـ (٦٣٦) سيارة وطابقها الارضي خصص للمخازن ومحلات تجارية و (ورشة) للغسل والتشحيم وصيانة العطوب البسيطة في السيارات . وسيتم تنفيذ عمارتين لهذا الغرض في المستقبل القريب الاولى قرب جسر الجمهورية والثانية في ساحة الامين واخرى في بداية شارع الجمهورية .

مسابح للصيف

بالاضافة للمسبح القديم الذي تأسس عام ١٩٤٦ انشىء مسبح اولمبي في متنزه الزوراء وهو مسبح كبير يحتوي ايضا على حوضين احدهما للاولاد والاخر للاطفال وهو ذو قياسات اولمبية لاقامة السباقات فيه والى جانبه مسبح بلاستيكي يجري العمل على اصلاحه الآن بالاضافة الى العمل حاليا في انشاء مسبحين قياسيين احدهما في مدينة الضباط والاخر قرب الجامعة المستنصرية وهما من ضمن عدد من المسابح سيصار الى انشائها مستقبلا . هذا بالاضافة الى انشاء المسابح داخل

مراكز الشباب ، ومسابح شعبية في حوض قناة الجيش غلفت بالآجر لخدمة اولاد المناطق السكنية الواقعة على القناة .

مشاريع سكنية وعمرانية كبيرة

بموجب قانون خاص انشات الثورة المؤسسة العامة للاسكان ، كما اصدر مجلس قيادة الثورة في اواخر شباط ٩٧٩ خمسة قرارات مهمة تستهدف حل ازمة السكن بقصد دفع وتعزيز وتنظيم قرارات وامكانات الاجهزة المعنية بتقديم الخدمات السكنية في وزارة الاسكان والتعمير والمؤسسة العامة للاسكان والمصرف العقاري والاتحاد التعاوني الاسكاني فيما تتولى وزارتي التخطيط والمالية تخصيص المبالغ ، واكدت القيادة مرارا على ضرورة متابعة مشاريع الاسكان حقليا .

مشروع الثورة الاسكاني : تتم التهياة حاليا في هذا الموقع على مساحة (١٢٨) دونم لاقامة (١٠٠٠) شقة عليه وكذلك بناء (٣) مدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية وروضتين للاطفال وداري حضانة وبريد ومركز طبي وآخر للشباب اضافة للمرافق الحيوية الاخرى .

ويتواصل العمل بانجاز (٣٠٠٠) شقة سكنية في منطقتي السيدية وزيونة وبناء (١٤٥٠) شقة في الدورة ، كما سيتم انشاء المجمع السكني في كرادة مريم بكلفة (٢٤٢ر١٣٠٠٠ر١٣) مليون دينار وعلى مساحة (٢٥٨٨١٢ر٢٥٨) م٢ ويحتوي على (٢٤) عمارة تضم (٢٣٠٠) وحدة سكنية ؛ اضافة الى (٤) مدارس ثانوية ومتوسطة وابتدائية مع مركزين طبي وشبابي ورياض للاطفال وملاعب رياضية ومسبحين ومركز اجتماعي واسواق ومحلات تجارية .

وفي منطقة الدورة ينفذ مشروع سكني لبناء (١٤٤٨) وحدة سكنية تحتوي على (٢٤٠٠) شقة سكنية بكلفة (٠٠٠ر٧٥٠ر١٠) مليون دينار وعلى مساحة (٩٦) هكتار . يضاف الى ذلك بناء (٢٨٢٣) دارا جاهزة و (٣٠٠) دارا للعمال في السيدية ، وتجري حاليا المسوحات لمشروع انشاء (٢٠٠٠) وحدة سكنية قرب محطة شرقي بغداد .

ومن معالم العمران في المدينة الذي تقوم به المؤسسة العامة للاسكان : مبنى القيادة القومية . مبنى وزارة الخارجية ، مبنى مجلس الوزراء ، ومبنى دار الثورة ومشروع قاعة الالعاب المغلقة في المدينة الرياضية . وكلها مباني ضخمة وذات تصاميم ومواصفات متطورة جدا .

قصر المؤتمرات

على مساحة (٦٥) الف متر مربع وفي المنطقة الواقعة بين ساحة عمان وساحة حلب سيرتفع شامخا في احتفالات الثورة لعام ١٩٨١ بناية تعتبر من اضخم المباني في الشرق تصميما وعمرانا هي بناية « قصر المؤتمرات » وسيستقبل هذا القصر الكبير ملوك ورؤساء المؤتمر السابع لدول عدم الانحياز عام ١٩٨٢ .

بدا العمل في هذا المشروع الكبير في تموز عام ١٩٧٨ وسيحتوي على قاعة رئيسية تسع لـ(١٦٠٠)شخص في حالة الجلوس كاعضاء مشاركين في مؤتمر واكثر من (٢٠٠٠) شخص في حالة الجلوس بشكل قاعة للمحاضرات او الاحتفالات . بالاضافة الى عدد من القاعات الثانوية التي تستخدم كقاعات للمحاضرات والمناقشة وكذلك قاعة للمؤتمرات الصحفية وقاعة صغيرة لمراقبة البرامج التلفزيونية باللغات المتعددة .

كما يضم المبنى اجهزة (تلكس ؛ اذاعية وتلفزيونية بقنوات متعددة داخلية وعبر الاقمار الصناعية . كما يحتوي على مطبعة ومكاتب سكرتارية وفروع للمصارف والسياحة والخدمات. وسيربط طرفي الشارع نفق داخلي ، وفتح شارع بين ساحة عمان والساحة المجاورة لمبنى اتحاد نقابات العمال للحد من اختناقات المرور اثناء انعقاد المؤتمرات ، وقد اعتمد المشروع الذي تزيد كلفته على (٣٠) مليون دينار في تصاميمه على طرز الهندسة العربية والاسلامية والسومرية العريقة ، وسيكون احدى العلامات العمرانية المميزة لبغداد الثورة[٢] .

المطار الكبير

في الاول من آب الماضي وضع النائب الاول لرئيس الوزراء السيد طه ياسين رمضان حجر الاساس لاكبر مطار دولي في العراق بكلفة (٢٤٥)

---

(٢) عن مجلة وعي العمال العدد ٥٢٥ ؛ ٤ اب ١٩٧٩ .

مليون دينار وسيكون بامكان هذا المطار الذي سيواكب التوسعات المستقبلية حتى عام (٢٠٠٠) استقبال (٩) ملايين مسافر في العام . وسيضم هذا المطار الذي قامت بتصميمه المؤسسة العامة للطرق والجسور بالتعاون مع بعض الخبراء العالميين (١٨) موقفا للطائرات ترتبط بابنية المسافرين واربعة مواقف احتياطية للاستعمالات الضرورية وقاعة للشرف ، وجناحا خاصا للسيد الرئيس وآخر خاص للاجتماعات القصيرة للسادة الرؤساء وقاعة لكبار المسؤولين .

كما تشتمل منشآت المطار الجديد على بناية للاتصالات للمراقبة وبناية للشحن الجوي والملاحة وطرق مؤدية الى اماكن الصيانة وساحة لخدمة الطائرات .

اما المنشآت الاخرى فتضم مطعما يسع لـ (٥) آلاف مسافر يوميا وابنية للبضائع ومركزا لاطفاء الحريق ومحطة لوقود الطائرات ، وبناية لوقوف السيارات بثلاث طوابق تتسع لـ (٣٠٠٠) سيارة . ويؤمل انجاز هذا المشروع الكبير في نهاية عام ١٩٨١[٤] .

اوقاف للبناء والاعمار

صارت الاوقاف في عهد الثورة مؤسسة للبناء والاعمار ، متجاوزة بذلك وظائفها التقليدية بعد ان دعمتها الثورة بكل الوسائل فساهمت بتطور الجانب العمراني في بغداد الى حد كبير وكذلك في حل ازمة السكن وتتلخص نشاطاتها في هذا الجانب بما يلي :

١ ـ مشروع مدينة الاوقاف في السبع ابكار يتالف في مرحلته الاولى من (١٠) عمارات تحتوي على (٢٤٠) شقة ، وتتالف المرحلة الثانية من (٧) عمارات تحتوي على (٨٤) شقة ويشمل المجمع بناء المدارس ورياض الاطفال ودور الحضانة والاسواق .

٢ ـ عمارة العلوية الثالثة بارتفاع (١٤) طابق الى جانبها عمارة من (٨) طوابق مع المرافق الخدمية الضرورية .. وتقع في منطقة العلوية .

٣ ـ عمارة سكنية من (١٤) طابق في منطقة العلوية ايضا .

٤ ـ عمارة المنصور في المنصور وتتكون من (٨) طوابق .

٥ ـ عمارة هيبت خاتون السكنية في الاعظمية تتالف من (٤) طوابق .

٦ ـ عمارتي العلوية الاولى والثانية في العلوية .

٧ ـ عمارات الخيرات وهو اضخم مجمع عمراني تقوم به الاوقاف في شارع السعدون .

٨ ـ عمارة المديرية العامة للتخطيط والانشاء التابعة للاوقاف وتتالف من (٥) طوابق .

٩ ـ مجمع سكني للوزارة يتالف من (١٠) طوابق على شارع الامام الاعظم في دور الاعلان .

١٠ـ عمارة نائلة خاتون في منطقة الحيدرخانة (٦) طوابق .

١١ـ عمارة وقف الطبقجلي وتتالف من (٥) طوابق في الحيدرخانة .

١٢ـ عمارة وقف الشيخ قادر في شارع الرشيد تتالف من (٦) طوابق .

١٣ـ عمارتي البر واحسان مقابل المركز المدني وساحة النافورة .

١٤ـ العمارة البغدادية في دور التصاميم والاعداد وستقام في منطقة الجندي المجهول .

١٥ـ بناية ذات طابقين في الكاظمية لاستقبال حجاج بيت الله الحرام الوافدين من الاقطار المجاورة .

ان هذه النشاطات تضاف الى واجبات الوزارة الاصلية في بناء وصيانة المساجد الدينية .

اعمار اجتماعي

على المستوى المهني والاجتماعي فقد ولدت بعد ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز الكثير من المؤسسات لتأهيل العمال وتدريبهم ومكاتب التشغيل ومعاهد اجتماعية لخدمة بعض الشرائح الاجتماعية من المواطنين ذوي العاهات وغيرهم وفيما يلي جدول يبين نوع وعدد هذه المؤسسات :

(٤) من جريدة الثورة الصادرة يوم ١٩٧٩/٧/٢٦ ، كتاب الثقافة والفنون في عهد الثورة ، صادر من وزارة الثقافة والفنون .

اسم المؤسسة	عددها قبل الثورة	بعد الثورة
١ ـ مكاتب التشغيل	٢	٢٢
٢ ـ مراكز التدريب المهني	ـ	٤
٣ ـ مراكز التاهيل المهني والورش المحمية	ـ	٤
٤ ـ مؤسسات العمل الصحية	ـ	٦
٥ ـ دور حضانة واجنحةملحقة بالمراكز الاجتماعية	١	٥٠
٦ ـ المراكز الاجتماعية	٨	٣١
٧ ـ دور رعاية المسنين والمقعدين	٤	٩
٨ ـ دور رعاية الاحداث والبنات	١٠	٢٣
٩ ـ معاهد الصم والبكم والمتخلفين عقليا	ـ	٨
١٠ـ معاهد المكفوفين	١	٤
١١ـ رياض الاطفال	ـ	٤

كما قامت وزارة العمل والشؤون الاجتماعية خلال عهد الثورة بانشاء (٨١٧) دارا اضافة الى (٤٠) عمارة كل منها يحتوي على (١٢) شقة ، كما انشات (١٣) عمارة يحتوي كل منهـا على (٤٨) شقة . وهناك قيد الانشاء (٣) عمارات سكنية ، اما عدد الدور التي شيدت والتي تحت الانشاء فيبلغ (١٣٠) دارا .

وتضع المؤسسات الاجتماعية في تصوراتها عن الافاق الحالية والمستقبلية لبرامج عمل مؤسساتها على الصعيدين الاجتماعي والعمالي على المؤشرات الاساسية للسياسة الاجتماعية التي حددها التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن للحزب اطارها المرحلي كي تتمكن من اداء دورها على نحو يتناسب مع مسيرة التحولات ، ولا شك ان الحاجة ستتعاظم مستقبلا الى بعض النشاطات الخدمية المعينة كدور الحضانة وذلك بسبب اتساع ممارسة المراة لنشاطات خارج المنزل . ولا ينس دور مراكز التنمية الاجتماعية المهم في عملية التغيير بسبب تعدد وظائفها وتنوع ادوارها . كما تجري تنفيذ مشاريع الرعاية الاجتماعية في اطار مؤسسات متخصصة .

ان مؤشرات التطور المستقبلي للمشاريع التنموية تعكس اهتمام الثورة بالحاجات المتعاظمة لعملية تغيير البناء الاجتماعي والاقتصادي وانعكاس ذلك على السلوك الانساني ومن هذه المؤشرات :

١ ـ انشاء دور الحضانة ومستلزماتها .
٢ ـ انشاء مراكز التنمية الاجتماعية .
٣ ـ انشاء ابنية للمعوقين .
٤ ـ انشاء سكن للعمال في بغداد .
٥ ـ انشاء سكن للفلسطينيين .
٦ ـ انشاء مستشفيات ومراكز طبية للعمال .
٧ ـ تطوير السجون والاصلاحيات .
٨ ـ انشاء دور لرعاية البنات .
٩ ـ انشاء فنادق عمالية ودور سياحية ونوادي ومكتبات للعمال .

شواهد الثورة الفنية على وجه بغداد

انتشر في شوارع ومتنزهات العاصمة عدد من الانصاب والتماثيل تخلد مشاهير رجالات العلم والادب والفن والسياسة بلغ عددها (٥٠) نصبا وتمثالا (كالرصافي) و (الكاظمي) و (ابو نؤاس) و (الفارابي) و (الواسطي) و (شهريار) و (ابي جعفر المنصور) والنصب الكبير (مسيرة الحزب ..) و (جدارية التأميم) اللذين يجسدان بطولة الحزب والثورة(٥) . وانتشرت في ساحات وحدائق ومتنزهات بغداد نافورات ملونة زاد عددها على المائة موزعة على (٥٠) موقعا . كما تخللت معظم الساحات والحدائق اكثر من (٢٠) ساعة مختلفة الاشكال والتصاميم والابراج فمنها الجدارية والبرجية وساعات الزهور .

كما شهدت بغداد خلال عهد الثورة الزاهر عددا من المؤتمرات والاحتفالات والمعارض الفنية

(٥) وتم لاغراض صناعة التماثيل انشاء مصهر البرونز التابع لامانة العاصمة . اضافة الى تاليف لجنة وطنية من كبار المسؤولين المتخصصين بالثقافة والفنون لاختيار النصب والتماثيل وتحديد اماكنها في القطر .

عكست الوجه الحقيقي لنشاطات الثورة ومكاسبها وجسدت مبدأ الفن في خدمة الثورة ويمكن تلخيصها بما يلي :

(١) ١٩٧٤ اقيم معرض السنتين العربي الاول في بغداد .

(٢) ١٩٧٤ انشأت فرقة التراث الموسيقي للمقام والبستات في بغداد .

(٣) ١٩٧٤ انعقاد المؤتمر الرابع للمجمع العربي الموسيقي في بغداد .

(٤) ١٩٧٥ انعقاد المؤتمر الدولي الثاني للموسيقى في بغداد .

(٥) ١٩٧٥ بدات احتفالات القطر باليوم العالمي للموسيقى واصبح تقليدا فنيا جميلا .

(٦) ١٩٧٦ انعقاد الاجتماع (٣٣) للهيئة التنفيذية لرابطة الفنون الدولية التشكيلية في بغداد .

(٧) اقامة معارض الحزب السنوية لمناسبة ذكرى احتفالات القطر في السابع من نيسان من كل عام .

(٨) ١٩٦٨ تشكيل الفرقة القومية للتمثيل في بغداد .

(٩) ١٩٧١ تشكيل فرقة الفنون الشعبية في بغداد .

(١٠) اقامة مسرح الاطفال والاهتمام بكتابة نصوص مسرح الطفل .

(١١) انشاء داري سينما للاطفال في الاعظمية وأبي نؤاس .

(١٢) انشاء المسرح الجوال .

(١٣) تكوين اكثر من (٢٠) فرقة مسرحية للشباب .

مشاهد العصر السياحية ببغداد

لم تغفل القيادة دور السياحة في استقطاب السواح والوافدين وما تحققه من سمعة دولية للقطر ، فكانت رعايتها غير المحدودة ودعمها المتواصل لهذا الجانب أيا كانت الجهة المتنفذة له وبخاصة المؤسسة العامة للسياحة . وفيما يلي اهم المرافق التي ولدت مع الثورة :

البانوراما : مشروع سياحي يقع على بعد (٧٥٠) مترا من طاق كسرى ويعتبر الاول من نوعه في الشرق الاوسط والرابع في العالم ، يحكي قصة معركة القادسية التي انتصر فيها العرب على الفرس وهي عبارة عن مشاهد منظورة هي اقرب الى الواقع ـ لدى مشاهديها ـ الى الخيال وسينتهي العمل فيها قريبا وهي من مشاريع امانة العاصمة السياحية .

المتنزهات والحدائق : ظلت بغداد تعاني من شحة الحدائق والمتنزهات وظل مواطنها يحلم بحديقة او متنزه يقضي فيه وقت فراغه ويشم نسائمها مع عائلته ، وبقيت اغلب المناطق الشعبية تغلف نفسها بغلاف الحركة الآلية المتكررة بعيدة عن التغيير وبقيت عيون ساكنيها لا تصطدم الا بجدران عتيقة وازقة ضيقة ونفس ثقيل فقد كانت كل المساحات المزروعة في بغداد قبل الثورة هي (٢٥) الف متر مربع ، الا انها وصلت بعد قيام ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز المجيدة الى (١٤ر٥٢٨ر٧٩٠) مليون م٢ موزعة على (٥٩١) متنزها وحديقة ابرزها متنزه الزوراء وحدائق قناة الجيش وبحيرة الثورة وابي نؤاس والمسبح . وينتشر فيها عشرات الاكشاك لبيع الاطعمة الجاهزة والمرطبات ، وكذلك ينتشر على ضفاف النهر (٢٠) كشكا لبيع السمك المسقوف .

متنزه الزوراء : او ما يطلق عليه المدينة الخضراء والذي يضم على كل ما يصبو اليه المرء من وسائل الراحة واللهو البريء ، فهو مدينة سياحية قائمة يقع ضمن مساحة (١٢٠٠) دونم في جانب الكرخ نظمت خارطته بشكل جميل وفريد تتوزع على جوانب شوارعه وممراته الكثير من وسائل الراحة فهنا وهناك تنتشر الحدائق وملاعب الاطفال والمتاحف كمتحف السيارات والعربات الملكية ومتحف التاريخ الطبيعي وابراج الطيور والشلالات والبحيرات ذات السحر اللذيذ التي تطفو على مسطحاتها زهور اللوتس ، وناعور يرقد على ضفاف احدها ليرسم مشهدا من اعالي الفرات وعلى قبالته نصبت خيمة الشمر الواسعة تعيد للزائر حلم الصحراء العربية وعلى بعد غير قليل ارتفعت الجنائن المعلقة بتشكيلها الجميل تطل على المسلة والاسود البابلية وشارع الموكب والى مسافة غير بعيدة يرتقي مصباح علاء الدين وحدائق الابراج والتماثيل ومن جهة اخرى يرتفع برج الزوراء مطلا على حديقة الحيوانات التي ضمت عشرات الانواع من الحيوانات يتمتع برؤيتها الكبار والصغار ، وفي مدينة العاب الزوراء ترفرف ضحكات الفرح . ويضم المتنزه مسرحا وسينما صيفيان وانصاب وتماثيل وساعات والمسبح

الاولمبي والمعارض وقطار الزوراء والمضارب العربية والاكشاك واجهزة التلفزيون الملون ، وعدد كبير من المطاعم والكازينوهات السياحية . هذا وتنظم الى هذا المتنزه السفرات من جميع المحافظات وتقام فيه الحفلات والمعارض الفنية والنوعية المتخصصة .

معارض الزهور

وقد اتبعت الجهات ذات الاختصاص في امانة العاصمة تقليدا جميلا منذ عدة سنوات على اقامة معارض ربيعية وخريفية للزهور تكون بمثابة تظاهرات جميلة تتخللها الفعاليات الخفيفة كاختيار ملكة جمال الزهور واجمل سلة زهور تصنعها الايدي الناعمة ، كما يستعرض اطفال بعض الرياض خلال هذه المهرجانات البسيطة بعض اناشيدهم الناعمة للحب وللوطن وللزهور وللناس .

الاثار السياحية

تعتبر المواقع الاثرية والتاريخية في بغداد من اهم عوامل جذب السواح بالاضافة الى انها تمثل علامات تاريخية مميزة لطابع المدينة ، ومن اهم الاكتشافات وصيانة المواقع الاثرية ما يلي :

(١) المدائن : عثر خلال التنقيبات على ابنية تعود الى العهود العربية الاسلامية ، كما شملت اعمال التحري الجناح الشمالي فابرزت الواجهة المتساقطة ، وقامت مؤسسة الاثار بصيانة الايوان وتروم اعادة بنائه القديم .

(٢) موقع عقرقوف : (مدينة دور كاريكالزو) على بعد (٣٠) كلم الى الغرب من بغداد ، كانت عاصمة الكيشيين منذ القرن (١٥ ــ ١٢ ق. م) وقد اكمل الجدار الخارجي للزقورة .

(٣) تل حرمل : يقع في بغداد الجديدة ، ما زالت البعثات الاثرية تحاول حماية الاثار الموجودة هناك خوفا عليها من زحف الطغيان المعماري الحديث الذي اخذ يهددها .

(٤) منطقة تل ابو صخير : ما زالت البعثات الاثارية تزاول اعمال التنقيب وقد كشفت عن منشآت اسلامية مهمة تعود الى العهود الاسلامية .

(٥) المدرسة المستنصرية : بقرار من مجلس قيادة الثورة تحت رقم (١١٥) في ١٩٧٢/٢/١ حولت ملكيتها الى الاثار مع جميع الابنية المضافة في واجهتها ، وقد تم قيام الهيئات الفنية بصيانة الواجهة ، كما انجزت صيانة الضلع الجنوبي الشرقي مع تكملة الحلية المزخرفة التي تعلو موضع الاطار الكتابي وجرت عملية تخفيض مستوى الارض المحيطة بالمدرسة الى عمق مترين لتكون بمستوى الارض الاصلية . ثم جرى تبليطها وتصريف المياه المتجمعة وما تزال اعمال الصيانة مستمرة في هذه المدرسة .

(٦) القصر العباسي : شملت الصيانة الاثارية معظم اقسام هذا القصر التاريخي وتم صيانة واعادة بناء مدخل القصر المطل على دجلة وفق تصميم خاص واستنادا الى بقايا المعالم الاثارية المستظهرة وبالاسترشاد بمعالم بوابة المدرسة المستنصرية . وقد تم تشييد بوابة بارتفاع (١٢٫٨٠) م واعادة بناء الواجهات الداخلية المطلة على صحن القصر وكذلك جميع المرافق الداخلية منه واعادة تركيب الزخارف .

(٧) خان مرجان : استطاعت الاثار انقاذ هذا البناء التاريخي من خطر السقوط بفعل تسرب المياه الجوفية الى هذا البناء الفريد والذي يمثل طرازا معماريا خاصا وهو من بقايا ابنية القرن الثامن الهجري يتألف من طابقين من الغرف حول بهو كبير مسند باقواس واقبية وشملت اعمال الانقاذ والصيانة جميع القاعات والمرافق والواجهة الخارجية والبوابة الرئيسية .

(٨) منارة سوق الغزل : انجزت صيانة القاعدة في هذه المئذنة وهي فريدة في تصميم بنائها وتعود الى جامع القصر أو مسجد دار الخلافة الذي شيده الخليفة العباسي المكتفي بالله (٢٨٩ ــ ٢٩٥هـ) أما المئذنة نفسها فيعود تاريخها الى عام ٦٧٨هـ وشملت اعمال الصيانة في هذه المئذنة اكمال الزخارف الاجرية واعادتها الى شكلها الاصلي .

(١٠) الباب الوسطاني : وهو الباب الوحيد المتبقي من ابواب بغداد القديمة ، تواصل الهيئات الاثارية من صيانته وترميمه وصيانة برج البوابة وبناء العقود بعد ازالة الاجزاء المتصدعة ، والاعمال تجري على اعادة القنطرة وبناء جدران السور الخارجي المحيط بالخندق لاعمار هذا الموقع وابراز معالمه .

(١١) مرقد الست زبيدة : وهو مرقد زمرد خاتون تمت صيانة الاجزاء المتهرئة من المقرنصات الداخلية والزخارف الاجرية في واجهة القبة وتم صيانة المدخل الرئيس للمرقد وتسييجه وانارته باساليب فنية .

المتاحف الجديدة

(١) قاعة المسكوكات في المتحف العراقي : اضيفت الى قاعات العرض في المتحف العراقي ، ضمت مجاميع نفيسة ونادرة من المسكوكات الاسلامية والعربية يبلغ عددها (١٥٩٣) نقدا منها (٤٣٦) ذهبا و (١٠٩١) فضة والباقي نحاسا افتتحت في العيد الاول للثورة .

(٢) متحف حزب البعث العربي الاشتراكي : انشيء في بيت الاب المناضل احمد حسن البكر الذي تبرع به سيادته ليكون متحفا للحزب يضم تراث الحزب اثناء النضال السلبي مع نماذج من آلات وادبيات الحزب وصور شهدائه ومكتبة الاب المناضل وشهاداته .

(٣) متحف الازياء : انشيء في بناية الكمرك القديم وهي ذات طراز معماري بغدادي اصيل تم ترميمها وتطويرها ، عرضت في قاعاته نماذج من الازياء والمأثورات الشعبية .

(٤) متحف المدائن : اقيم في المدائن يضم نماذج مختلفة من الاثار المكتشفة في المنطقة .

(٥) متحفان للتاريخ الطبيعي : احدهما يتبع لجامعة بغداد يضم نماذج ومشاهد لبعض الاحياء المنقرضة والمحنطة وهياكل متنوعة . والاخر تابع لامانة العاصمة في متنزه الزوراء يضم بعض الحيوانات والطيور المحنطة عرضت بشكل يلائم موقع المتحف .

(٤) المتحف الطبيعي : تابع لامانة العاصمة ، انشا في بداية السبعينات يضم تماثيل واشكال تصور العادات والمهن والتقاليد البغدادية القديمة ، وتقام في المتحف حفلة للجالغي البغدادي عصر كل يوم جمعة .

(٥) متحف الطفل : يمثل احدى قاعات المتحف الوطني ، ويعتبر الاول من نوعه في منطقة الشرق الادنى وهو نموذج لمتحف اكبر ومتطور تنوي الجهات المسؤولة اقامته ضمن البوابة الاشورية الواقعة في مقدمة المتحف .

(٦) متحف الاثار العربية والاسلامية : اعدت الدراسات لاقامة هذا المتحف وذلك ضمن البناية لمؤسسة الاثار ورصدت لذلك المبالغ اللازمة .

دار الازياء

تأسس عام ١٩٧٠ بموجب قرار مجلس قيادة الثورة المرقم (٥٧) ، راعت الدار في منهاجها التنفيذي تحقيق الاهداف الحضارية لعملها وهي وضع اسس جديدة للزي العراقي ، ولم يقتصر عملها على ابتكار اشكال موسمية للملابس كما هو الحال مع المؤسسات التجارية وانما تركز عملها الاساس في توجهها الاعلامي ذو المضمون الثقافي وتشكيل تيار ثقافي في الذوق الخاص وتقدم الخبرة والمشورة للمدارس والجامعات ومصانع الملابس في تصميم الازياء .

الجندي المجهول

مشروع كبير خصصت له امانة العاصمة مبالغ معينة قام بتصميمه وعمل نماذجه الفنان خالد الرحال وخصصت له المنطقة الواقعة في جهة ام العظام من متنزه الزوراء وسيكون بديلا عن النصب القديم الذي اصبح موقعه لا يتلائم والمراسيم التي تقام عنده في المناسبات الوطنية . لما لذلك من تاثير على حركة السير في الشوارع المحيطة .

وللسياحة ايضا

خلال عهد الثورة اتجهت المؤسسة العامة للسياحة الى بناء الفنادق والمجمعات السياحية وفق طرز العمارة البغدادية العريقة ووجهت جهودها بالتعاون مع المؤسسات ذات العلاقة للعناية بابنية بغداد القديمة لابرازها سياحيا كمعالم جمالية حضارية ثمينة . ومن هذه المشاريع :

(١) المجمع السياحي في المدائن : يحتوي على (٣٥) غرفة اضافة الى (١٧) شقة سكنية .

(٢) فندق القناة : ويحتوي على (١٤١) غرفة ومسبح .

(٣) مطعم خان مرجان السياحي في الشورجة الذي قامت باستصلاحه الاثار .

(٤) المطعم الصيني والايطالي في الجادرية يقدم المأكولات الصينية والايطالية فقط .

(٥) فندق الكاظمية الجاهز : يحتوي على (٥٠٠) غرفة مخصصة لزوار العتبات المقدسة .

(٦) مرسى الزوارق : يقع على شارع ابو نؤاس يقدم الجولات النهرية للمواطنين ويحتوي المرسى على مطعم ممتاز وحدائق .

(٧) مطعم الشموع ويقع في شارع السعدون وهو من الدرجة الممتازة .

(٨) فندق عباس بن فرناس : يقع على طريق

المطار الدولي يحتوي على مسبح ومطعم ويحتوي على (١٠٠) غرفة .

(٩) فندق ميليا المنصور في الصالحية : يحتوي على (١٢٨) غرفة ومسبح وصالة مؤتمرات وساحات العاب وسينما ومكاتب للبريد والخطوط الجوية ، والحقيقة ان معظم الفنادق السياحية ذات الدرجة الاولى تتوفر فيها الصالات والنوادي الليلية وساحات وقوف السيارات .

(١٠) تطوير اماكن الاثرية في بغداد لاستخدامها لاغراض السياحة كدار النقيب في السنك ودار الاسترابادي في الكاظمية .

(١١) تطوير جزيرة ام الخنازير وتحويلها الى منطقة سياحية حيث انشأت فيها الشقق وملاعب ومسبح ونادي ليلي ومختلف الخدمات السياحية وتصل الجزيرة بالساحل عبارات لنقل المواطنين « فقط » من الساحل الى الجزيرة .

اما الفنادق السياحية الكبيرة التي تحت الانشاء والتي ستكون علامات واضحة لتطور العمراني والسياحي في بغداد هي :

(١) فندق نوفوتيل قرب ساحة الاندلس .

(٢) فندق شيراتون : مقابل الجندي المجهول الذي يحتوي على كل ما يحتويه ميليا المنصور .

(٣) فندق ميريديان : يقع في نفس المنطقة ويحتوي على (٤٠٠) غرفة وكل المرافق المهمة .

(٤) فندق بابل : يقع في الجادرية يحتوي على (٥٠٠) غرفة مع مرافقه الاخرى .

كما تقوم المؤسسة بانشاء مكاتب وطنية للسياحة وتقدم التسهيلات للمواطنين للمساهمة في الحركة السياحية .

الصحة في ظل الثورة

لكي يكون المواطن مؤهلا صحيا ونفسيا للمساهمة في عملية بناء الوطن ، يجب ان نوفر له اسباب الصحة ، وهذا ما خططت له الثورة منذ لحظاتها الاولى فعمدت على تطور مستوى الطب بما يوازي التطور العلمي الحاصل في العالم تحققت المكاسب الصحية وتطورت طرق الفحص والمعالجة ومن ابرز ما حصل في هذا المضمار :

(١) مؤسسة مدينة الطب : بعد شهور من قيام الثورة اطلت مدينة الطب برجها الجديد واقسامها المتعددة المتكاملة توفر خدماتها الصحية لكل مواطن . وجهزت باحدث ما توصل اليه العلم من اجهزة ومعدات . فقامت بفتح مركزا خاصا لرعاية المعوقين من الصمم والبكم سمي (مركز السمع والتخاطب) جهز باحدث المعدات العلاجية والمختبرية المتطورة ، كما تم استخدام الحاسبات الالكترونية في المؤسسات لتوظيفها في الامور الطبية والادارية ، كما تم زيادة عدد الجراحين والاختصاصيين في مختلف الامراض من ذوي الامكانات الكبيرة للقيام بادق العمليات الجراحية والطبية .

(٢) مستشفى العلوية للولادة : افتتحت في ١٧ تموز ١٩٦٩ لتقديم الخدمات الطبية للنساء الحوامل ورعاية الاسرة وزودت بالكوادر المتخصصة وجهزت باحدث الالات والاجهزة المتطورة وتضم شعبة لمعالجة حالات العقم افتتحت عام ١٩٧٥ ، كما الحقت بالمستشفى عيادة خارجية تعمل لمدة (٢٤) ساعة لاستقبال المرضى .

(٢) المجمعات الطبية الاستشارية المتخصصة :

اول تجربة في القطر قامت في مستشفى الفردوس عام ١٩٧٧ لكي يمارس فيها (٥) اطباء اختصاصيون مسؤولياتهم تجاه المواطنين في كافة الامراض وجهز هذا المجمع بكل الاجهزة الطبية المتطورة وطرق العلاج الذي يقدمه مجانا للمواطنين وسيتم شمول حوالي سبعة مناطق بمثل هذه المجمعات : هذا اضافة الى ان السلطات الصحية راحت تستدعي مشاهير الاطباء في العالم لالقاء المحاضرات الطبية والتدريب في المؤسسات الصحية وفحص المرضى وتقديم العلاج لهم .

(٣) العيادات الطبية الشعبية : في عام (١٩٧٠) صدر قانون العيادات الشعبية واسست اول عيادة من هذا النوع في مدينة الثورة ، انتشرت بعد ذلك في اغلب المناطق السكنية وتعتبر هذه كغيرها من ثمرات جهود الحزب والثورة لتأمين الطب الاشتراكي . ثم اصبحت بنوعين الاول عام لكل فروع الطب والثاني مختص يعمل فيه اطباء اختصاصيين . وقد اصبح عددها حاليا (١٣٢) عيادة شعبية .

(٤) الاسعاف الفوري :

تطورت الخدمات الصحية في هذا الجانب بشكل كبير في عهد الثورة حتى اصبح لها (٣٤) مركزا تؤدي خدماتها للمواطنين المحتاجين لخدماتها بصورة سريعة جدا بواسطة سياراتها المتطورة المجهزة باللاسلكي وباجهزة حديثة ، وكوادرها المدربة على وسائل الطوارىء وسيتم ادخال

طائرات الهليوكوبتر في الاسعاف الفوري وتطوير وتوسيع شبكة اتصالاتها ..

التامين الصحي : جاء استنادا للقانون رقم (١) لسنة ١٩٧٥ الذي اعطى المقومات الحقيقية لهذه المؤسسة لتامين الصحة الى كل المواطنين من خلال شبكة المراكز الصحية الرئيسة والفرعية التي يبلغ عددها حوالي (١٠٦٥) مركزا وعيادات التامين الصحي وصيدليات التامين الصحي وكذلك فان مؤسسة التامين الصحي قامت بانشاء المستشفيات والعيادات الطبية المركزية وتنفيذ المشاريع الصحية الكبرى .

ان وزارة الصحة قامت في ظل الثورة بفتح (٣٥) مركزا صحيا (٤٥٦) عيادة نسائية لم يكن لها وجود في العهود السابقةكما زادت عدد المستشفيات من (١٤٩) الى (٢٠٠) والعيادات الطبية المركزية من (٣٤) الى (٥٨) . ومراكز رعاية الامومة والطفولة من (٥١ ـ ٧٨) وكذلك (١٧٩) مستوصف سيار و (٤١٠) عيادة وطبابة اسنان .

هذا ولابد لكل مواطن منا يشاهد وهو يسير في الشارع لافتة على محل مغلق مكتوب عليهما (اغلق لمخالفته تعليمات وزارة الصحة) وهذا يدل على مدى النشاط والمتابعة والرقابة على هذه المحلات لحماية صحة المواطنين من الامراض .

النقل بعد ١٧ ـ ٣٠ تموز في بغداد

ان نظرة بسيطة مقارنة لواقع النقل في الوقت الحاضر عما كان عليه قبل الثورة يجعلنا نشهد ببساطة الفرق الشاسع بين الحالين فقد شهدت شوارع العاصمة ضغطا كبيرا من وسائط النقل العامة والخاصة ، الامر الذي حدا بالمؤسسات الرسمية الى تنظيم نشاطاتها بشكل يكفل توفير خدمات افضل للمواطنين ، حتى ان الزيادة الحاصلة في عدد السيارات الاهلية او تلك الخاضعة للقطاع الاشتراكي اصبحت لا تتناسب وكثافة السكان الامر الذي خلق ازمة في مضمار النقل ، وعليه كان لزاما على المؤسسات ذات العلاقة اتخاذ الاجراءات المناسبة للتخفيف من الازمة فبادرت الى استيراد عدد كبير من باصات النقل وسيارات الصالون المجهزة بالعدادات ثم ادخال وضع ضوابط للنقل الاهلي بالاضافة الى طرح عددا من المشاريع التي يؤمل ان تحد من تفاقم الازمة في نقل المواطنين .

المنشاة العامة لنقل الركاب في مدينة بغداد :

بعد ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز المجيدة تم منح مصلحة نقل الركاب مساعدات مالية عاجلة لتمكنها من الخروج من ازمتها المالية وشكلت لجنة بموجب قرار مجلس قيادة الثورة الصادر بتاريخ ١٩٧١/١٠/٣ لتتولى دراسة وضع المصلحة فوضعت اللجنة توصياتها لمعالجة ذلك ، منها الغاء المصلحة وقيام المنشاة العامة لنقل الركاب في بغداد تتولى شؤون النقل العام والاهلي للركاب في العاصمة . فبادرت المنشاة الى استيراد (٢٠٠) حافلة نوع ايكاروس كما تم شراء (٠٠) حافلة نوع ليلاند ذات طابقين بالاضافة الى (٣٠٠) حافلة ريم ، كما اعيد تخطيط مسارات خطوط الحافلات تعديلا وتمديدا وتقليصا استنادا الى المسوحات الميدانية وبما يتلائم والكثافة السكانية لقطاعات بغداد ، كما تم ادخال العنصر النسائي لأول مرة للقيام بدور المحصل ، بالاضافة الى انه تم اعتماد تشغيل الحافلات بدون محصلين وذلك عن طريق الحافلات المزودة بمكائن التسقيط او بمكائن طبع البطاقات او سائق الحافلة يقوم بواجب المحصل ايضا . كما تم نصب اكشاك في مناطق انطلاق الباصات لبيع التذاكر وتوفير دفاتر بـ (٢٥) بطاقة وسعر (٥٠٠) فلسا وذلك تسهيلا لأمور المواطنين وعدم التبذير في الوقت والطاقات .

النقل الخاص :

اسند تنظيم هذا القطاع الكبير في البداية الى مؤسسة ادارة شؤون محلات النقل التي كانت تابعة لامانة العاصمة وتحولت تبعيتها الى المنشاة العامة لنقل الركاب في بغداد ، وكان من اولى واجباتها هو تنظيم النقل داخل بغداد . ووضع ضوابط لعمل هذه السيارات ضمن خطوط محددة وفقا للكثافات السكانية وتحديد اجورها وخطوطها واصبحت لقرارات المنشاة صفة ملزمة على نشاطات هذه السيارات عن طريق اتخاذ الاجراءات المناسبة ضد المخالفين . كما تم تثبيت خط واجرة ورقم الخط في جوانب السيارة بشكل ظاهر للحيلولة دون ارتكاب المخالفات . ومن جهة اخرى قامت المنشاة بتوزيع سيارات الصالون المجهزة بالعدادات وبشكل واسع يساهم كثيرا في الحد من مشكلة النقل داخل العاصمة . ويؤمل العمل في العدادات قريبا .

قطار الثورة :

تجربة رائدة ولدت في عهد الثورة لحل ازمة

النقل بين مركز بغداد وبين اكثر مناطق العاصمة كثافة في السكان وهي مدينة الثورة ؛ يبدأ الخط من ساحة المتحف عبر جسر الصرافية فمحطة غربي بغداد ــ الحبيبية ــ نهاية مدينة الثورة فمعامل الطابوق وله مواقف لصعود ونزول الركاب عبر طريقه ولكن لم يقدر لهذا المشروع ان يستمر فالغي في شهر حزيران الماضي نظرا لاجراء التحويرات على ساحة بضائع الخط المتري وتحويلها الى ساحة لنقاش بضائع الخطوط الرئيسية .

مشروع المستقبل الكبير

بعد اعداد الدراسات الجيولوجية والبيئية والاقتصادية والاجتماعية استقر راي الخبراء واختصاصيي النقل على اعتماد مشروع (المترو) الارضي لحل ازمة النقل داخل مدينة بغداد وضواحيها واقترحت الدراسة استعمال قاطرات كهربائية تسير على قضبان حديدية خالية من التقاطعات مع بقية وسائط النقل الاخرى ، وقد اثبتت الدراسة ايضا ضرورة انشاء خطين للنقل السريع حتى نهاية عام (٢٠٠٠) مع خطة بعيدة المدى لانشاء خط ثالث في فترة لاحقة .

وتوصي هذه الدراسة بانشاء خطوط يبلغ طولها (٢٢) كلم وتشغيلها قبل نهاية (١٩٩) تمثل الشبكة الرئيسية وهي عبارة عن خطين يسير الاول منهما تحت الارض في شارع السعدون مبتدا من ساحة الفتح فساحة عقبة بن نافع ــ الجندي المجهول ــ ساحة النصر ــ التحرير فساحة الخلاني ــ شارع الرشيد مارا تحت نهر دجلة من شفنه الشرقية وحتى ساحة المتحف ــ المحطة العالمية ــ شارع دمشق وحتى نهايته في ساحة الفارس العربي .

اما الخط الثاني من الشبكة الرئيسية فيسير بخط مرفوع عن سطح الارض مبتدا من قناة الجيش ــ محطة شرقي بغداد ــ ساحة بورسعيد حيث يبدأ بالنزول الى مستوى تحت الارض مارا بساحة السبعاوي ــ الخلاني متقبا بالخط الاول من الشبكة الرئيسية مستمرا بشارع الجمهورية ــ باب المعظم ــ شارع الامام الاعظم ــ جسر الصرافية ــ منتهيا بساحة عنتر .

وهناك اربع توسعات في هذا الخط للمستقبل حيث يصل الاول الى حي الشرطة في الكرخ والثاني الى نهاية مدينة الثورة والثالث الى بغداد الجديدة والرابع الى نهاية الكاظمية .

وفي عام ١٩٩٠ سيبلغ عدد القطارات العاملة على الشبكة الرئيسية في بغداد (٦٢) قطارا وفي عام (٢٠٠٠) سيبلغ طول شبكة سير المترو (٤٠) كلم وعدد القطارات (١١٩) قطارا تتوقف في (٥١) محطة في مختلف الاتجاهات . وقد روعي في مد هذه الشبكة الحفاظ على طابع المدينة العمراني والاثري والتاريخي .

نقل الركاب النهري :

ومن وقت لآخر نسمع او نقرا اخبارا عن نية المؤسسات ذات الاختصاص بالنقل اقامة خط للنقل النهري في نهر دجلة داخل بغداد يربط الكاظمية بالكرادة الشرقية ولكننا لم نعثر على اجابة واضحة لاستفسارنا عن هذا الموضوع ، ففضلنا الصمت .

خاتمة

ان بديهة واحدة تكفي لتكون الخاتمة . وهي ان التطور في كل زاوية وفي كل وقت لا يعرف حدودا له ما دام هناك اناس مؤمنون باوطانهم وشعوبهم وبحق الاجيال في العيش من بعدهم ضمن مبادىء حقيقية لا تعرف الخمول ، فاذا كانت بغداد خلال هذه الاعوام القصيرة من عمر الثورة قد وصلت الى ما هي عليه الآن من تقدم وتطور فانها وبفضل قيادتنا الرائدة سوف تتطور تطورا كبيرا بعد عشر سنوات اخرى فتسير نحو الاحسن والارقى واذا لم يتح لجيلنا ان يرى ما ستؤول اليه بغداد في الاعوام اللاحقة من جمال وحضارة فهنيئا لابنائنا واحفادنا ببغداد المستقبل .. بغداد الاول . . بغداد الحضارة . . والتقدم والتجربة . والامل .

مصـــادر

١ ـ مجلة امانة العاصمة الاعداد ٨ ، ٩ لسنة ١٩٧٧ و ١٩ لسنة ١٩٧٩ .
٢ ـ كراريس التصميم الاساسي لمدينة بغداد .
٣ ـ المجاميع الاحصائية لقسم الاحصاء بامانة العاصمة .
٤ ـ ارشيف امانة العاصمة .
٥ ـ المجموعة الاحصائية للجهاز المركزي للاحصاء لعام ١٩٧٨.
٦ ـ مجلة النقل والتنمية ، ايلول ١٩٧٩ .
٧ ـ مجلة رسالة النقل ، تموز ١٩٧٧ والعدد ٧ ، ١٩٧٨ .
٨ ـ مجلة الاعلان الحديث ، تموز ١٩٧٩ .
٩ ـ مديريات الاعلام في وزارات : النقل ، العمل والشؤون الاجتماعية ، الاوقاف ، الصحة ، المؤسسة العامة للاسكان ـ المؤسسة العامة للسياحة/ادارة المرافق السياحية .
١٠ـ وزارة الاسكان والتعمير/مديرية الاعلام/الارشيف .
١١ـ مجلة وعي العمال ، العدد ٥٢٥ في ٤ آب ١٩٧٩ .
١٢ـ جريدة الثورة ، العدد الصادر بتاريخ ١٩٧٩/٧/٢٦ .
١٣ـ الثقافة والفنون في عهد الثورة/صادر عن وزارة الاعلام .

★ ★ ★

تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد

بقلم الدكتور

عماد عبد السلام رؤوف

كلية التربية - جامعة بغداد

مقدمة

اذا كان البحث في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمدن يعد من المجالات الحديثة للدراسات التاريخية في بلادنا ، فان دراسة تاريخ « الخدمات » او المرافق المدنية ، لهي من اكثر الدراسات التاريخية حداثة ، ولعلها في الوقت نفسه ، من اشدها طرافة واهمية ، وذلك من ناحيتين ، اولاهما الصلة الوثيقة بين هذه الخدمات، وبين تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة ، لأن وجود « الخدمات » يوجب - في احايين كثيرة - انشاء مؤسسات رسمية ، او غير رسمية ، تختص بادارتها ، والعناية بمرافقها .

ومن الناحية الاخرى فان دراسة هذه الخدمات تكشف ، على نحو فريد ، عن الصلة بين التاريخ الاجتماعي ، وبين التاريخ العلمي والتقني . وبمعنى آخر ، فان الخدمات هي احدى اهم المجالات الرئيسة لتطبيق المعرفة النظرية بما يخدم مصالح الشعب ويرفه عنه ويحمي بيئته وييسر له العيش في مدينته ، اذ ليست المدينة ، في أحد وجوهها على الأقل ، الا المكان الذي تتوفر فيه الخدمات للناس .

ومن هنا اذن تبرز اهمية دراسة «الخدمات» ومشاكلها في مدينة كبرى ، ومركز حضاري رئيس كمدينة بغداد ، تقلبت بين عصور الازدهار والحيوية ، وعصور الانحطاط والتخلف على حد سواء . ويمكننا القول ، بهذا الصدد ، ان معظم هذه المجالات المفيدة في الدراسة التاريخية لم ياخذ مجاله من اهتمام الباحثين ، ربما بسبب ان « اعتيادية » هذه الخدمات ، لم تلفت أنظار المؤرخين المعاصرين لها الا نادراً ، وفي مناسبات فريدة ، رغم ان اي من تلك « الخدمات » كان يمكن ان يسبب مشاكل غير اعتيادية لو انه توقف او اهمل ولو الى حين .

ولا نشك في ان امر مياه الشرب ، كان يعد من الأمور البالغة الأهمية في حياة هذه المدينة العريقة ، ولعله كان مشكلة من مشاكلها الدائمة عبر العصور ، فهذه المدينة التي اتسعت على نحو سريع ، منذ تاسيسها في منتصف القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد) لتغطي مساحات وسيعة من الأرضين ، تربو على مساحتها الاصلية يوم تأسست باضعاف عديدة ، وتشمل خلال مدة تقل عن قرنين ، انحاء مترامية الأطراف على جانبي نهر دجلة ، وفي اتجاهات متباعدة ، لا شك انها كانت تستهلك كميات ضخمة من مياه الشرب كل يوم ، ولا شك - ايضاً - في انها كانت تعاني من مشكلة نقل هذه المياه الى سكانها وايصالها الى دورهم ومساجدهم واسواقهم وسككهم لاستعمالها في حياتهم اليومية .

ان البحث في تاريخ مشاريع مياه الشرب في بغداد خلال عصورها المتعاقبة ، لهو امر تكتنفه صعوبات جمة ، اذ ليست ثمة اجابات كافية لما

يمكن ان يطرحه هذا البحث من اسئلة ، وقد يعجب الباحث ، أول الامر ، حينما يلحظ ان مشكلة كهذه لم تلق من المؤرخين القدامى اي اهتمام يذكر ، فعلى الرغم من الارقام الكبيرة ، والمبالغ بها جداً ، عن عدد الحمامات ببغداد في العصر العباسي ، وما تستهلكه من الصابون ، ومن يعمل في خدمتها[1] ، فاننا لم نعثر على ما يوضح السبل التي كانت متبعة في تزويد هذه الحمامات العديدة بما تحتاجه من مياه نظيفة تصلح للغسل . ومثل هذا يقال ايضا عن مساجد المدينة وربطها ومدارسها ، وكلها مما يحتاج فيه الى المياه الصالحة للوضوء والشرب .

ويزداد الأمر صعوبة ، عندما يلحظ انه لم تكن ثمة فروق واضحة بين وسائل نقل المياه المختلفة ، ولا يستطاع التمييز – على وجه التحديد – بين انواع المياه الخاصة بالشرب ، او المستعملة للغسل والاستعمال اليومي الآخر ، او المستخدمة في سقي الحدائق والبساتين والحيوان، كما ليس من اليسير – في اغلب الاحيان – التفرقة بين وسائل نقل هذه المياه ، ووسائل تصريف المياه المستعملة . فقد وصف لنا المؤرخون شبكة من الانهار الصغيرة مما كان يخترق مدينة بغداد بجانبيها الشرقي والغربي ، ويتخلل الاحياء السكنية والبساتين ، ولكننا لا نعلم كم من مياه تلك الانهار كان يستخدم للشرب، وكم منها كان يستعمل كمبزل للمياه الفائضة عن الحاجة ، او المستعملة لأن استقبال المدينة للعدد الضخم من الانهار التي تجري بين دروبها ودورها ، كان يستلزم بطبيعة الحال عدد آخر من مصارف المياه ، وبما ان احداً لم يشر الى تلك المصارف ، ومن المستبعد جداً ان تستخدم هذه الانهار للغرضين في وقت واحد ، فمن الضروري للباحث اذن ان يعيد النظر في طبيعة عملها ومهمتها ، بحسب تعاقب العصور .

وعلى الرغم من ان العرب عرفوا سبل تنقية المياه من الشوائب وجعلها رائقة صافيه ، عن طريق استخدام ماده « الشب »[2] ، الا انا لم نعثر على ما يفيد باستعمال هذه المادة بشكل واسع لتنقية مياه الشرب . ونحن نميل الى ان استعمالها لبث حبيس مختبرات العلماء والاطباء للافادة منها في تجاريبهم المختلفة ، دون ان تجد لها تطبيقاً في مشاريع مياه الشرب العامة ؛ اذ ليست ثمة نصوص تدل عليه ، الا اذا استخدم ذلك في نطاق ضيق ، وفي دور بعض ذوي الشأن ، مما لم يلفت نظر المعاصرين .

ومع ان اخباراً دلت على وجود احواض كبيرة في الجانب الشرقي كانت تصب فيها فروع بعض الانهار الآخذة من الخالص[3] ، الا انه ليست ثمة ما يفهم منه ان تلك الاحواض كانت تستخدم لترسيب المياه من شوائبها ، ومن المحتمل جداً ان تكون عملية ترسيب المياه مما يجري في نطاق الدور والمحلات الخاصة ، عن طريق وضعها في « الأزيار » العادية قبل شربها ، وهي الطريقة التي لبثت معروفة ببغداد حتى فترة متأخرة .

ونحن نحسب ان مشكلة مياه الشرب ببغداد، لم تكن تتجاوز امرين ، احدهما رفع المياه من المواضع المنوعة على شاطىء دجلة ، وثانيهما نقلها بمختلف الوسائل لتجد طريقها الى سكان المدينة .

الفصل الاول

مشاريع مياه الشرب في العصر العباسي

١ – المدينة المدورة :

انشا ابو جعفر المنصور مدينته المدورة على الضفة الغربية من نهر دجلة ، في الزاوية المتكونة بين مجرى الصراة غرباً ، ومجرى دجلة شمالاً ، وسماها « مدينة السلام » . وكانت حواليها مجموعة من الانهار والجداول القديمة التي تصل نهر دجلة بالفرات في اقرب نقطة يقتربان فيها من بعضهما . وكان واضحا ان من اهداف المنصور الرئيسة ، ان لم يكن أهمها ، أن تكون مدينته هذه في موقع عسكري منيع ، يسهل على سكانها الدفاع عنها[4] ، ويجعل من الصعب اقتحامها ؛ فصارت

---

(١) بالغ المؤرخون في عدد الحمامات ببغداد مبالغة كبيرة ، حتى قيل انها بلغت مائتي الف حمام ، الى الضعف ، وأكد بعضهم العدد الاول ، بينما قال آخرون انها مائة وثلاثون الفا ، او مائة الف ، واقل تقدير لها كان ستين الفا . انظر : هلال بن المحسن الصابي : رسوم دار الخلافة ص ١٩ تحقيق ميخائيل عواد (بغداد ١٩٦٤) والخطيب البغدادي ١١٧/١ (القاهرة ١٩٣١) .

(٢) البيروني : الصيدنة في الطب ، تحقيق محمد سعيد ورانا احسان الهي (كراتشي ١٩٧٣) ص ٢٩١ وداود الانطاكي : تذكرة اولي الألباب (بيروت د. ت) ٢٠٩/١ .

(٣) الخطيب ١١٤/١ .

(٤) لا نميل الى الاخذ بالرأي القائل بان اختيار المنصور لموقع بغداد ، بين نهري دجلة والفرات للتمتع بحمايتها الطبيعية ، كان يدل على فكر ستراتيجي حصيف ، اذ سرعان ما انبتت هذه المزية لهافتها بعد نحو اربعين عاما ←

« المدينة المدورة » بذلك قريبة لان تكون « قلعة » او « حصنا » منها الى المدينة السكنية ، فاقيمت الابواب المحكمة العديدة ؛ وحفرت الخنادق ؛ وانشئت ثلاثة نطاقات من الاسوار ، ثم لم يكتف بذلك وحسب ، بل اخليت ــ بعد وقت قليل من تاريخ انشائها ــ من عامة الشعب ، وهم الباعة والتجار واصحاب الحرف ، الا القلة منهم ، ثم منع الدخول اليها ركوبا ، وحتم على الجميع ان يمشوا فيها راجلين .

وكان من الطبيعي ان تنال مشكلة نقل مياه الشرب الى المدينة الجديدة جزءاً من اهتمام الخليفة المنصور وعنايته ، فقضية كهذه كانت عظيمة الخطورة عند مخططي المدن والحصون ابان تلك العصور ، لانها تتعلق بصفة مباشرة بمدى امكان ثبات المدينة او الحصن في الحصارات التي تفرض عليها في اثناء الحروب .

ويبدو ان تفكير المنصور بهذا الأمر جاء متاخرا على قيامه بانشاء المدينة ، فقد لبث طيلة الشهور الاولى لسكناه فيها[5] لا يدري بالوسيلة التي تنقل بواسطتها المياه الى قصره ، بل يبدو ان الأمر لم يستلفت نظره البتة ، تاركا له ان يسير بحسب الطرق المالوفة في عصره ؛ فكانت مياه الشرب تنقل الى قصره وسائر انحاء مدينته بواسطة سقائين يحملونها على ظهور البغال المعروفة ببغال الروايا ، وهي معبأة ــ على ما كان معروفا ــ في اوان خاصة ، او « قرب » من الجلد .

واول مشروع هندسي امر به المنصور لتوفير مياه الشرب لسكان مدينته كان انشاء قناة (أو قناتين) من خشب الساج ، ترفع اليها المياه من دجلة بواسطة دولاب نصب هناك . والظاهر ان هذه القناة كانت مرتفعة عن الارض بما يكفي لانحدارها التدرجي حتى تجتاز باب خراسان (وهو اقرب الأبواب الى شاطيء دجلة) وتخترق المدينة حتى تصل رحبتها ، ومنها الى قصر المنصور . ولا يعلم على وجه التحديد ما اذا كان هذا الماء مخصوصا بقصره وحده ، ام انه كان يجري لغيره من دور المدينة وسككها ، كما ليس من المستطاع معرفة مدى سعة هذه القنى من الماء . ولكن يبدو انها كانت من المتانة والاحكام بحيث استمرت قائمة تؤدي مهمتها حتى النصف الاول من القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد)[6] .

ويفهم من رواية نقلها الطبري عن يحيى بن الحسن بن عبدالخالق خال الفضل بن الربيع[7] ، والخطيب عن عياش بن القاسم[8] ان انشاء المنصور للقنى الخشب الخاصة بمياه الشرب كان بعد فترة قصيرة من انتقاله الى المدينة المدورة ، وخلاصة الخبر ان عما للمنصور ، هو عيسى بن علي[9] في رواية الطبري ، وهو عبدالصمد بن علي[10] في رواية الخطيب والاول ارجح ، شكا الى المنصور كبر سنه وضعفه وصعوبة وصوله الى قصره (اي قصر المنصور المسمى بباب الذهب) ماشيا . واستاذن منه ان يسمح له بركوب بعض بغال الروايا التي تخترق الرحاب وتغذي القصر بالماء ، فقال المنصور ، فيما رواه الخطيب ، « يا ربيع ! بغال الروايا تصل الى رحابي ؟ فقال : نعم يا امير المؤمنين . فقال : تتخذ الساعة قنى بالساج من باب خراسان حتى تجيء الى قصري ، ففعل » ويشير الطبري ، فيما نقله عن خال الفضل بن الربيع ، الى ان المنصور امر عند علمه بوصول بغال الروايا الى رحابه ، بتحويل ابواب الدور الى فصلان الطاقات ، بعد ان كانت تؤدى الى الرحاب ، لكنه لا يشير الى امره بعمل قني الساج ، مع ان طبيعة الخبر تستلزمه . لعدم العلاقة بين تحويل ابواب الدور ، ووصول بغال الروايا الى الرحاب . فهذا الخبر ، على الاختلاف الطفيف في رواته واسماء

من انشاء المدينة ، ولم يكن السلاح والفكر العسكري قد تطور في هذه المدة القليلة ، ففي اثناء فتنة الامين والمامون ، نفذ الامين خطة المنصور العسكرية بدقة ، فقطع الجسور التي تربطه بالجانب الشرقي ، وتحصن بالمدينة المدورة ، ولكن الجيش القادم بقيادة طاهر بن الحسين تجنب العبور من النواحي القريبة من المدينة ، والتف عليه بعد عبوره دجلة على جسر موقت اقامه في الشماسية اعلى بغداد ، فادت حركة الالتفاف هذه الى انهيار مقاومة جند الأمين ، ولم تثبت المدينة المدورة الا قليلا اذ تهاوت بسرعة امام جيش طاهر ، وبذلك اثبت هذا الحادث تهافت فكرة الموقع المتحصن بالحواجز المائية التي انشأ المنصور على هداها مدينته .

(٥) كان الفراغ من بناء بغداد ونزول المنصور بها ، ونقل الخزائن والدواوين وبيوت الاموال اليها . سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م وكان استتمامه بناء السور والخندق واحكام امر المدينة سنة ١٤٩هـ/٧٦٦م . ابن الفقيه : بغداد مدينة السلام ٣٩ تحقيق د. صالح احمد العلي (بغداد ١٩٧٨) والخطيب البغدادي ٦٧/١ .

(٦) ابن الفقيه ٢٨ .
(٧) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٢٢/٣ (ط. ليدن) .
(٨) الخطيب ٧٨/١ .
(٩) توفي سنة ١٦٤هـ/٧٨٠م .
(١٠) توفي سنة ١٨٥هـ/٨٠١م .

شخوصه ؛ يدل على ان بغال الروايا ؛ المخصصة لنقل مياه الشرب ، كانت تصل ـ قبل الحادثة المذكورة ـ الى قصر المنصور ، مجتازة الابواب فالفصائل فالرحبة ، وهي الساحة الكبيرة التي تتوسط المدينة ، وفيها قصر المنصور وجامعه ؛ فترتوي بذلك جميع الدور في الدروب والسكك . وبينما يحدد الطبري تاريخ هذه الحادثة ، سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م ، اي بعد بضعة شهور من انتقال المنصور الى مدينته الجديدة ؛ نجد ان في رواية اخرى نقلها ابن الفقيه عن الشروي[١١] ؛ والخطيب عن أبي العيناء عن جده[١٢] ، ما يفهم منه ان ذلك جرى نحو سنة ١٥٦ أو ١٥٧هـ/٧٧٢ ـ ٧٧٣م ؛ اي بعد عشر سنين من التاريخ المتقدم . وخلاصة ما ذكرا ان وفداً روميا قدم الى بغداد في تلك الآونة ، واخبر المنصور بأن من عيوب مدينته « ان ليس لها نهر يخترقها » وانها بعيدة عن الماء « ولابد للناس من الماء لشفاههم » فما كان من المنصور الا ان عمل « لها دولاباً اجرى ماء الى القصر ؛ فكان يخترقها حتى يوافي القصر ، قال : هذا يقوم مقام النهر ، فلم يزل ساج ذلك النهر والدولاب يصب فيه الى ايام محمد بن عبدالله بن طاهر (توفى سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م) ثم قلع وعطل » واذ قرنت الرواية هذا الحادث بحادث آخر مهم ، هو قيام المنصور بنقل الاسواق الى الكرخ ، خارج المدينة المدورة ، اثر نصيحة اخرى مشابهة اسداها سفير الروم المذكور ، يكون انشاء هذا الدولاب وما يستتبعه في حدود سنة ١٥٦هـ او ١٥٧هـ/٧٧٢ ـ ٧٧٣م ، وهو التاريخ الذي امر فيه المنصور بنقل الاسواق بعد اضطراب حدث هناك[١٣] .

وتتفق روايات المؤرخين على جسامة هذا المشروع ، فقد نقل عن عياش بن القاسم ان المنصور امر بمد قناتين من دجلة[١٤] بينما اشار آخرون الى كونها « قنى » دون تحديد لعددها[١٥] . ووصف المنصور لها بانها تقوم مقام نهر ؛ يدل على انها كانت كبيرة ، عظيمة السعة ؛ وأشار اليها بعض المؤرخين بانها كانت نهراً[١٦] .

فاذا ما راينا ان هذا النهر كان محمولا على الخشب ، ويجرى على ارتفاع معين ، بميل محسوب الى الاسفل ؛ لمسافة لا تقل عن كيلومترين[١٧] ؛ لاحت لنا جسامة هذا المشروع ، واتقان مهندسيه في تصميمه وعمله .

بيد ان تصميم هذا المشروع وطريقة عمله ان كانت تلائم ظروف السلم ؛ فما كانت لتلائم اية ظروف غير عادية ، وبخاصة حالات الحروب والحصار التي لم تكن بمبعدة عن تفكير المنصور[١٨] ؛ ذلك انه من اليسير على اي جيش غاز ان يقطع هذه القنى الخشبية المرفوعة ، او ان يعطلها . فيقضي على اهل المدينة عطشاً ؛ ولعل هذا ما قصده سفير الروم حين لاحظ « ان ليس لها نهر يخترقها »[١٩] . فكان ان قام المنصور بتصميم مشروعه الآخر في مد مدينته بمياه الشرب ، فيذكر الخطيب انه مد « قناة من نهر دجيل الآخذ من دجلة ، وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات ، وجرهما الى مدينته في عقود وثيقة من اسفلها ، محكمة بالصاروج[٢٠] والآجر من اعلاها . وكانت كل قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والأرباض ؛ وتجري صيفاً وشتاء، لا ينقطع ماؤها في وقت »[٢١] فهاتان القناتان كانتا مشيدتين تحت مستوى سطح الارض لا فوقها كما في المشروع الأول ؛ والظاهر انهما كانا من السعة والارتفاع ما يصلح لسير انسان ، على ما يفهم من قول المنصور « في بنائي هذا ما ان اخذني فيه الحصار خرجت خارجا منه على فرسخين »[٢٢] وعقب ابن الجوزي على ذلك بقوله « ولعله اشار الى القنوات »[٢٣] فيكون طول القناة التي قصدها نحو ١٢ كيلومتر[٢٤] .

---

(١١) ابن الفقيه ٢٨ .
(١٢) الخطيب ٧٨/١ .
(١٣) الطبري ٣٢٤/٣ .
(١٤) الخطيب ٧٨/١ .
(١٥) الخطيب ٧٨/١ وابن الجوزي : مناقب بغداد ١٢ (نشر محمد بهجة الاثري) وياقوت : معجم البلدان ٤٦٠/١ (ط. دار صادر ، بيروت ١٩٥٥) .
(١٦) ابن الفقيه ٢٧ .

(١٧) كان قصر المنصور يتوسط مدينته ، وبما ان قطر المدينة كان يبلغ ، في اوسط المقادير ، ميل عربي ، اي ٢ كم ، تكون المسافة بين القصر وباب خراسان نحو كيلومتر واحد ، ولا تعرف المسافة بين هذا الباب وشاطئ دجلة ، ومن المحتمل ان تكون مثل ذلك .
(١٨) الخطيب ٧٧/١ ومناقب بغداد ١٩ .
(١٩) ادمج ابن الجوزي في مناقب بغداد ١٢ خبري هذين المشروعين المتباينين ، كما نقلهما من الخطيب ، في خبر واحد ، مما اظهر ان قيامه بانشاء القناتين كان بسبب اكتشافه وصول بغال الروايا الى قصره .
(٢٠) الصاروج : النورة واخلاطها .
(٢١) الخطيب ٧٩/١ ومعجم البلدان ٤٦٠/١ .
(٢٢) الخطيب ٧٧/١ .
(٢٣) مناقب بغداد ١٩ .
(٢٤) يبلغ طول الفرسخ الواحد ٣ اميال ، وكل ميل ١٠٠٠ ...

واغلب الظن ان المقصود بنهر دجيل ، النهر المتفرع عنه المسمى بنهر بطاطيا ، أو أحد فروعه ، فقد ذكر الخطيب انه كان لهذا النهر ، اي بطاطيا ، ثلاثة فروع في عهده (توفى سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م) سماها انهار الحربية ، وقال « انها قنوات تحت الارض واوائلها مكشوف » وكونها تجري تحت الارض ، يشير الى انها كانت تستعمل للشرب ، ولكننا لانعلم اي من هذه الانهار كان الذي مده المنصور ، وذلك لأن مفهوم « بغداد » توسع في عهد الخطيب حتى صار يشمل منطقة تبلغ اضعاف مساحة المدينة المدورة(٢٥) وتسميتها بأنهار الحربية يعني انها كانت تسقي الحي الوسيع الذي عرف بهذا الاسم . وكانت الحربية «محلة كبيرة مشهورة ببغداد عند باب حرب قرب مقبرة بشر الحافي واحمد بن حنبل »(٢٦) اي انها كانت تقع خارج اسوار مدينة المنصور ، في شمالها ، حيث تلك المواضع . وليس ببعيد ان يكون نهر المنصور المذكور هو اول تلك الانهار عهداً ، ثم زيد عددها فيما بعد نظراً لعمران تلك النواحي .

اما القناة الاخرى الآخذة من نهر كرخايا ، فنرجح انها كانت تتفرع من النهر المعروف بنهر رزين ، عند باب سويقة أبي الورد ، فمن هناك « يحمل منه نهر يعبر على عبَّارة على قنطرة العتيقة ويمر الى شارع باب الكوفة ، فيدخل من هناك الى مدينة المنصور ، ويمر النهر من باب الكوفة الى شارع القحاطبة ثم الى باب الشام ، ويمر في شارع الجسر الى الزبيدية فيفنى هناك »(٢٧) ودخول النهر من باب الكوفة ، وخروجه من باب الشام يدل على انه كان يتخذ شكل زاوية قائمة تقريباً ، ولكننا لانعلم ماذا كان قد لبث مجراه معقوداً بالصاروج والآجر على صفته في أيام المنصور لأن الخطيب لم يفرده بملاحظة خاصة بهذا الشأن ، في حين افرد انهار الحربية بملاحظته السابقة على مامر بنا .

وقد ذكر اليعقوبي ان المنصور مد لمدينته قناة تأخذ مياهها من كرخايا ، ولم يشر الى القناة الاخرى الآخذة من دجيل بشيء . ولكن يفهم من كلامه ان عمل تلك القناة كان في اثناء بناء المدينة لغرض عمل المواد اللازمة للبناء وشرب العَمَلَة القائمين عليه . قال « وعملت القناة التي تاخذ من نهر كرخايا ، وهو النهر الاخذ من الفرات فاتقنت القناة ، واجريت الى داخل المدينة للشرب ولضرب اللبن وبل الطين »(٢٨) . ويلاحظ ان احداً من المؤرخين لم يشر الى وجود هذه القناة في داخل ارض المدينة قبل رفع قواعدها ، كما ان ملاحظة السفير الرومي بأن « ليس لها نهر يخترقها » تكشف عن عدم وجود هذا النهر حتى بعد انتقال المنصور اليها ، على ان من المحتمل جداً ان يكون مجرى هذا النهر قد استغل فيما بعد بأن انشئت فيه القناة المحكمة المذكورة .

باع ، وكل باع ٤ اذرع شرعية (الذراع ٤٩ر٨٧٥ سم) فيكون طول الفرسخ حوالي ٦ كم . فالتر هنتس : المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري ٩٢ (ترجمة كامل العسلي ، عمان ١٩٧٠) .

(٢٥) انظر عن مساحة بغداد في القرون التالية : ابن الفقيه ٦٠ والخطيب ١١٧/١ .

(٢٦) ياقوت : معجم البلدان ٢٢٧/٢ .

(٢٧) الخطيب ١١٣/١ .

٢ ـ الجانب الغربي

اتسع العمران ، بسرعة كبيرة ، حوالي اسوار المدينة المدورة ، وازدادت كثافة السكان في الاحياء السكنية والتجارية الجديدة مما امر المنصور ببنائه ، او انشاءه غيره من الامراء والقواد وعامة الناس ، وتزايد السكن في الربض الكائن خارج المدينة المعروف بالكرخ ، بين نهر الصراة ونهر عيسى ، من انهار الجانب الغربي ، فكان ان نشأت محال جديدة هناك ، عرف بعضها بالشرقية لانها شرق الصراة ، بينما كانت المدينة المدورة في غربها . ونجد في كتب التاريخ والتراجم ، والخطط بخاصة ، اسماء اعداد كبيرة من الاحياء والسكك والاسواق والدروب مما انشيء في تلك النواحي في خلال عهد قصير ، مما دل على ان مشكلة مياه الشرب مالبثت ان ظهرت ، وبالسرعة نفسها ، لتواجه أهل تلك المواطن الجديدة .

ويظهر ان حجم هذه المشكلة لم يكن بعيداً عن تقدير المنصور ، رغم ان نهرين رئيسيين ، هما الصراة وعيسى ، كانا يأخذان من الفرات ويقطعان الجانب الغربي ليصبا في دجلة ، فعمد منذ اخراجه اهل الاسواق الى الكرخ ، الى حفر شبكة من الانهار الصغيرة تأخذ من هذين النهرين الكبيرين وتمر بين الدروب والاسواق ، وتسمى باسمائها وبذلك امسى لاهل الجانب الغربي نوعين من مصادر المياه ، الاول : الانهار الرئيسية القديمة التي كانت تخترق المنطقة منذ فترة تسبق فترة انشاء المدينة المدورة ، والثاني : الانهار الفرعية الجديدة التي استحدثها المنصور على ماتقدم .

(٢٨) اليعقوبي : البلدان ٨ (النجف ١٩٥٧) .

ويعتبر نهر عيسى اهم انهار الجانب الغربي لارروائه عددا هائلا من المحلات والسكك ، فكان يخترق احياء الجانب الغربي السكنية ، فيفضي الى محلة الزياتين (باعة الزيت) نباعة الاشنان وباعة الشوك ، فباعة الرمان . ويظهر ان مياهه — رغم اجتيازها كل تلك المحال — كانت من الاندفاع بحيث تكفي لتشغيل عدد من الارحاء ، بعدها ، حتى تصب في دجلة اسفل قصر عيسى(٢٩) .

اما نهر الصراة ، فكان يسقي مناطق زراعية في طسوج بادوريا ، قبل ان يجتاز محلات الجانب الغربي ، ويظهر ان هذه المحلات لم تكن مكتظة كالتي على نهر عيسى ، بسبب ان المنصور جعل هذا النهر فاصلاً بين التجمعات السكنية في الكرخ وبين مدينته المدورة .

وبالاضافة الى هذين النهرين القديمين ، فقد امر المنصور بجر عدة انهار صغيرة من نهر كرخايا المتفرع اصلاً من نهر عيسى ، لارواء ما تكاثر عليها من دور واسواق ، فكان منها نهر الدجاج ، ونهر القلائين ، ونهر طابق ، ونهر البزازين ، وغير ذلك ، فكان نهر كرخايا اذن مسقى اهل كرخ بغداد القديم من ناحية الجنوب، ومسقى المدينة المدورة من ناحية الشمال ، الا انه في الكرخ مكشوف بفروعه المذكورة ، على خلاف فرعه الذي كان ياخذ الماء الى المدينة المدورة فانه كان معقوداً بالآجر والصاروج على ما ذكرنا . فليس ثمة ما يدل على ان انهار الكرخ هذه كانت تستعمل لغرض الشرب . ونحن نميل الى القول بان هذه الانهار كانت لاجل توصيل مياه الاستعمال اليومي ، من غسيل وسقي ، وربما لتصريف المياه المستعملة ايضا ، اذ ليس من المتصور ان تبقى مياه هذه الانهار نظيفة صالحة للشرب ، وهي تجري في مجار ضيقة مكشوفة لعوارض الطبيعة وتلويث السكان ، فنهر يجري بين محلات مكتظة بباعة الدجاج والزيت والاشنان والشوك والرمان والقصابين وغيرهم ، من العسير التصور بانه يبقى — بعد ذلك كله — صالحاً للشرب ، ولو تخيلنا كم من فضلات هذه المهن وقاذوراتها من ريش الدجاج وبقايا الزيوت والشوك وقشور الرمان ومخلفات النحر يمكن ان يطرح في هذه الانهار ، للاح لنا ما يؤكد ما ذهبنا اليه تاكيداً تاماً . ويظهر ان مهمة هذه الشبكة من الانهار تحولت تدريجيا وخاصة في العصور العباسية الاخيرة لتمسي شبكة تصريف للمياه القذرة ، وسقي الزروع ، وتحريك الارحاء ، وتركت استعمالاتها الحيوية الاخرى . وليس من شك في ان تحول مهمة هذه الانهار على ذلك النحو كان سبباً رئيسياً في ترك السكن في تلك المحلات البعيدة عن دجلة ، ومن ثم خرابها . وهكذا ، فان حفر الانهار الجديدة في الكرخ ، واستخدام القديم منها ، لم يحل مشكلة نقل مياه الشرب الى احياء الجانب الغربي ، كما فكر المنصور . ولعله لو عقد تلك الانهار بالآجر والصاروج ، كما فعل بالأنهار التي مدها الى مدينته المدورة ، لكانت قد ادت مهمتها ، وحققت الغرض من انشائها .

٢ — الجانب الشرقي

كان الجانب الشرقي من ارض بغداد ، يسقى قبل انشاء بغداد نفسها ، من مياه نهر الخالص ، عن طريق شبكة متقنة من الانهار القديمة تتوزع في مختلف انحائه . وعندما انشأ المهدي الرصافة ، مقابل المدينة المدورة ، من الجانب الشرقي ، حدود سنة١٥٩هـ/٧٧٦م ، اصبحت بعض فروع الانهار التي تصب هناك ، تجري في وسط « الرصافة » فتخترق شوارعها وقصورها حتى تصب في دجلة ، وكان اهم تلك الفروع نهر الفضل الاخذ من نهر الخالص ، فمنه يتفرع نهر آخر سمي بنهر المهدي يسير الى شرق الرصافة ، ثم ينقسم هناك الى فرعين صغيرين اولهما يصب في الجعفرية (شرقي الرصافة) وثانيهما ينحدر الى قصر المهدي وجامعه فيجري في بركة داخل القصر ومنها ينتهي الى دجلة(٣٠) .

وكان اتساع بغداد جنوباً ، وبخاصة في العهدين البويهي ثم السلجوقي ، يزيد من اهمية الانهار الآخذة من الخالص والمختصة بري تلك

(٢٩) الارحاء جمع رحى ، وهي طاحونة الماء ذات الدولاب الافقي ، وتعد اقدم آلة استخدمت فيها طاقة الماء . وفي اسفل محور الحركة يوجد دولاب مغمور في تيار الماء وعلى محيطه مجموعة من الفراشات ، ويرتفع المحور للاعلى مارا بحجر الطحن السفلي . ويرتبط المحور بالحجر العلوي ارتباطا وثيقا وبذلك يدور الحجر العلوي مع دوران دولاب الماء بواسطة المحور الواصل بينهما ، وهذه الدواليب المائية الافقية هي الاصل الذي تطورت منه العنفات المائية الحديثة . د. احمد يوسف الحسن : تقي الدين والهندسة الميكانيكية العربية (حلب ١٩٧٦) ص ٥٢ .

(٣٠) الخطيب ١١٢/١ .

الانحاء(٢١) . وعندما تم عمران الجانب الشرقي في القرنين الخامس والسادس للهجرة (١١و١٢م) وتحولت بساتينه وجنائنه الى احياء سكنية واسواق تجارية ودروب ، تحولت مهمة تلك الانهار من سقي الزروع ، الى تيسير الحياة اليومية لسكان بغداد الشرقية ، فكان نهر موسى يأخذ مياهه من نهر بين الكبير الاخذ من الخالص والماضي بمياهه حتى مصبها عند قرية كلواذى جنوب بغداد . ويصل نهر موسى الى قصر « الثريا » الذي بناه المعتضد (خارج اسوار بغداد الشرقية المتأخرة) « فيدخل القصر ويدور فيه ويخرج منه » ليصل منطقة مهمة عرفت بمقسم المياه ، حيث تنقسم مياهه الى ثلاثة شعب(٢٢) : الاول بباب سوق الدواب ، فالعلافين فيصب في نهر كان المعتضد حفره ، ويمر شيء منه الى باب سوق الغنم ثم الى خندق العباس بباب المخرم ويبرز في دجلة . بينما تتفرع من نهر موسى ايضاً ثلاثة فروع صغرى كانت تصب في ثلاثة احواض بنيت في القرن الثاني للهجرة . ويمضي نهر موسى حتى قصر المعتصم ؛ ومنه يتفرع نهر يمر الى سوق العطش حيث يفنى بعده في دار الوزير ابن الفرات ؛ ويسقي فرع آخر منه بستان الزاهر على دجلة ، ويصب — من ثم — فيه . فهذه الانهار كما يتضح لنا كانت تستخدم لسقي الزروع والجنائن اكثر من استخدامها للشرب ، كما ان سعتها من المياه لم تكن تكفي لان تصل ، في معظمها ، الى دجلة وانما كانت تفنى في طريقها اليه ، مما دل على ضيق مجاريها وقلة مائها . ويظهر ان تجميع مياهها في احواض خاصة صناعية كما مر بنا ، كان يهدف الى تيسير استعمالها للشؤون اليومية ؛ ولكننا لانعلم نوع تلك الشؤون : اهي للشرب ، ام غيره(٢٣) . وعلى اية حال فان تسمية احد الاسواق الكبيرة في هذا الجانب بسوق العطش ، يدل على ان مشكلة مياه الشرب كانت من الخطورة بحيث تعجز عن سدها فروع نهر موسى الصغيرة الواصلة الى تلك الانحاء .

وثمة فرعان آخران من فروع نهر موسى ، لها اهمية خاصة تزايدت في العصور العباسية المتأخرة ، وهما نهر المعلى ، ويمر بين الدور والسكك حتى يصل قصر الخلافة المسمى بالفردوس فيدور فيه ويصب في دجلة ؛ ونهر آخر في اسفله مواز له تقريباً يخترق بغداد من شمالها الى جنوبها ، حيث يدور في القصر الحسني (قصر التاج فيما بعد) على دجلة ثم يصب فيها . وكان هذان النهران يأخذان مياههما من مقسم المياه اسفل قصر الثريا المذكور . وزادت خطورة هذين الفرعين بسبب تزايد كثافة السكان حواليهما وتكون الاحياء والمحلات في القسم الجنوبي من الجانب الشرقي حيث كانا يجريان (وهو القسم الذي استقرت عليه بغداد في العصور التالية) . وليست ثمة نصوص تدل على ان هذه الانهار كانت تجري في قنوات معقودة بالآجر والصاروج ؛ ومن المحتمل جداً ان تكون قد استخدمت في العصر العباسي الاول كمورد لمياه الشرب ، عندما كانت الارض هناك قليلة السكان ؛ بيد اننا نستبعد بقاءها كذلك في العصور العباسية المتاخرة ، وذلك للأسباب نفسها التي قدمناها عند حديثنا عن انهار الجانب الغربي ؛ فكان نهر المعلى يخترق في طريقه الى دجلة محلة باب ابرز ، وفيها احدى كبريات مقابر بغداد ، ثم قراح ظفر ، وهو بستان تحول الى محلة سكنية ، فسوق الثلاثاء ، فدرب دينار والمنطقتان الاخيرتان من اكثر المحلات ببغداد ازدحاماً وكثافة في السكن ، وفيهما الاسواق والخانات والمتاجر ليصب بعد ذلك في دجلة عند المدرسة المستنصرية . وكان النهر الاخر يخترق قلب بغداد الشرقية ، فيجتاز محلة المختارة ، فقراح ابن رزين ، وهو بستان كبير تحول الى محلة(٢٤) ، فالمنطقة المزدحمة حوالي دار الخلافة ، فدار الخلافة العباسية نفسها ؛ ليصب عند القصر الحسني ، وقصر التاج فيما بعد(٢٥) . وانهار صغيرة مكشوفة تجري وسط هذا الحشد الهائل من الاحياء والدور والاسواق ، لايمكن ان تكون مياهها صالحة للشرب ، واغلب الظن ان مهمتها لم تكن تتجاوز كونها مصارف للمياه

(٢١) انظر احمد سوسة ومصطفى جواد : دليل خارطة بغداد المفصل ص ١٠٦ .

(٢٢) فصل القدامى وبعض المحدثين في وصف هذه الانهار وتتبع مجاريها وما تمر به من نواح ، ولا يهمنا منها في بحثنا هذا الا ما له صلة بمشكلة مياه الشرب .

(٢٣) اشارت المصادر الى ثلاثة احواض ، هي حوض داود ، وحوض هيلانة ، وحوض الانصار ، ولكن ليست ثمة ما يدل على حجم ما تسعه من المياه ، وتدل اسماء من نسبت اليهم ، الى انها انشئت في فترة لم تتجاوز اوائل القرن الثالث للهجرة (٩م) وهي الفترة التي لم تكن هذه الانحاء قد اكتظت فيها بالسكان بعد . ومن المحتمل ان تكون هذه الاحواض نوعا من مشاريع مياه الشرب ، لكننا نجهل فائدتها وطريقة عملها على وجه التحديد .

(٢٤) انظر عن زحمة هذه المحلات وكثرتها ياقوت : معجم البلدان ، مادة قراح ، ٣١٥/٤ .

(٢٥) معجم البلدان ٢/٢ .

القذرة التي تطرحها الدور والقصور ومئات الحمامات الموجودة هناك[٣٦] .

٤ ـ السقايات والسقاؤون :

ان تلوث مياه الانهار المخترقة مدينة بغداد ، بجانبيها الشرقي والغربي ، كان احدى اهم المشاكل التي واجهتها هذه المدينة في العصور العباسية الاخيرة ، ونحن نرى ان هذه المشكلة كانت وراء تغير حدود المساحات السكنية في خارطة بغداد ابان تلك العصور ، ففي الجانب الغربي ادى افتقاد ماء الشرب في الانحاء القاصية عن دجلة ، الى هجرة مستمرة من تلك الانحاء الى المحلات الشاطئية او القريبة من مجرى النهر ، فبادت محلات باب التبن والعتابيين وباب البصرة وباب الكوفة ، والنصريين والكرخ القديم وغيرها من محلات طسوجي قطسربل وبادوريا الزاهرة ، ليتركز السكن في المحلات الشاطئية الجديدة ، مثل الرملة والقرية والنجمي والرقة ، وهي المحلات التي كونت فيما بعد الكرخ الحديث، بمحلاته المعروفة منذ العصر العثماني .

وتعرض الجانب الشرقي الى الظاهرة نفسها ، فقد تركت المحلات البعيدة عن دجلة ، كسوق العطش وسوق الدواب وغيرهما ، بينما توسعت المحال القريبة منه ، مثل المخرم وسوق الثلاثاء وسوق السلطان ودرب دينار وحريم دار الخلافة وباب الازج ، وعلى ذلك استقرت بغداد الشرقية منذ اواخر العصر العباسي ، وحتى الثلث الاول من هذا القرن .

وكان السقاؤون يقومون بسد حاجة اهل بغداد الى المياه النظيفة نسبيا ، المأخوذة من نهر دجلة مباشرة ، فكان اولئك ينقلون مياه الشرب من دجلة الى دواخل المحلات بواسطة بغال الروايا ، وكانت لهم على شاطىء دجلة مشارع مخصوصة ، تسمح لهم ـ فيما يبدو ـ باخذ الماء نظيفا الى حد ما ، غير ملوث بما يلقيه الموج على الشاطىء من شوائب واقذار[٣٧] . وقد اشتهرت في بغداد الغربية ، منطقة على شاطىء دجلة ، قرب باب خراسان ، اسمها « مشرعة الروايا » بانها الموضع الذي ينقل منه السقاؤون الماء الى المدينة ، وكان في هذه المشرعة مسجد وحمام[٣٨] ، وفيهما دفن الامام الاشعري سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م[٣٩] فنالت بذلك شهرة دامت حتى اواخر العصر العباسي[٤٠] . وعرفت في الجانب الشرقي مواضع نسبت الى اهل هذه الحرفة ، منها موضع اشتهر باسم « درب السقائين » كان قريبا من الشارع الأعظم[٤١] .

وتبارى السقاؤون في كل ما يتصل بنظافة مياههم ، وحسن عرضها ، بل عمد بعضهم الى تطييبها بالعطور الزكية ، كالمسك ، لتكون احسن مذاقا واطيب طعما . من ذلك ما نقله محمد بن عبيدالله التميمي عن ذي النون ، حين قال بمصر : من اراد المروءة والظرف فعليه بسقاة الماء ببغداد . فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : لما حملت الى بغداد رمي بي على باب السلطان مقيداً ، فمر بي رجل متزر بمنديل دبيقي[٤٢] بيده كيزان خزف رقاق وزجاج مخروط ، فسالت : هذا ساقي السلطان ؟ فقيل لي : لا ، هذا ساقي العامة ، فاومات اليه : اسقني ، فتقدم وسقاني ، فشممت من الكوز رائحة مسك فقلت لمن معي : ادفع اليه ديناراً فاعطاه فأبى ، وقال : لا آخذ منك شيئاً . فقلت له : لم ؟ فقال : انت اسير ، وليس من المروءة ان آخذ منك شيئاً . فقلت : كل الظرف في هذا[٤٣] !

وليست لدينا معلومات توضح ما يمكن ان تدره حرفة السقاية من مال ، الا انها كانت ـ كما يبدو ـ حرفة العوام ، او حرفة من لا حرفة له ، نظراً لعدم تطلبها خبرة معينة ، او راسمال

(٣٦) انتقد بعض مثقفي بغداد في القرن الرابع الهجري طبقة اهل الاسواق وارباب الحرف بانهم « يكدرون المياه » ابن عبد ربه : العقد الفريد (القاهرة ١٩٥٦) ٢٩٣/٢ .

(٣٧) ذكر ابن بسام المحتسب انه « لما كانت الامواج تجيب الاوساخ والاقذار الى الشطوط ، وجب ان يكون السقاؤون يدخلون في الماء الى ان يبعدوا عن الاوساخ ، والا يستقوا منمكان يكون قريبا من سقاية ولا مستحم ولا مجراة حمام » (نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، حققه حسام الدين السامرائي ، بغداد ١٩٦٨ ، ص ٢٥) .

(٣٨) الخطيب ٣٤٦/١ .

(٣٩) الهمداني : تكملة تاريخ الطبري (تحقيق البرت كنعان ١٢٠/١ وابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ٣٤٣/٦ .

(٤٠) المنتظم ١٦٩/٨ .

(٤١) الجهشياري : الوزراء والكتاب (القاهرة ١٩٣٨) ص ٢٨٩ .

(٤٢) الدبيقي : نوع من القماش الفاخر ينسب الى « دبيق » وهي بليدة كانت بين الفرما وتنيس من اعمال مصر (معجم البلدان ٣٨/٢) والمنديل هنا بمعنى حزام او منطقة . انظر دوزي : المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب (ترجمة اكرم فاضل ، بغداد ١٩٧١) ص ٢٣٥ .

(٤٣) ابن الجوزي : اخبار الظراف والمتماجنين (القاهرة ١٩٧٨) ص ٣١ ومناقب بغداد ٣١ .

خاص[44] . وكان السقاؤون يؤلفون صنفاً من الاصناف المهمة في التنظيم الحرفي في بغداد في العصور العباسية ، ولهم ولي خاص بهم ينتسبون اليه ، هو سلمان الكوفي ، او محمد بن عبدالله[45] .

والنصوص التي توضح طبيعة اشراف الدولة ببغداد على هذا الصنف المهم غير كافية وان كان مؤلفو كتب الحسبة قد قدموا لنا معلومات ذات قيمة وبصفة عامة ، عن العلاقة بين الطرفين . ففرقوا بين صنفين رئيسيين يتصلان بمهنة السقاية ، اولهما صنف السقائين ، وثانيهما صنف الروايا ، وهم صانعو قرب السقائين والاتهم ، وبينما يوصي الفريق الاول « بنظافة ازيارهم ، وصيانتها بالاغطية ، وتغطية قربهم التي يسقون منها في الاسواق بالميازر ، ويمنعهم ان يسقوا بكيزانهم المجذوم والابرص واصحاب العاهات والامراض الظاهرة ، وجلاء الكيزان النحاس كل ليلة وتطييب شبابيكها بشمع المسك واللادن[46] الطيب العنبري وافتقاد الخوابي[47] بالبخور والغسل كل ثلاثة ايام »[48] يوصي الفريق الاخر بان « يعرف عليهم عريفا ثقة عارفا ، ويأمره ان يمنعهم ان يعملوا شيئا من هذه الاوقات والالات الحافظة للمياه التي فيها مادة الحياة الا من الجلود المدبوغة بالقرض اليماني التي قد استحكم دباغها وطال مكثها في الدباغ[49] » وشرط على عريفهم ان يتفقد دكاكينهم كل وقت وهذا كله يدل على ادراك الدولة خطورة هذه الحرفة لتاثيرها الشديد على صحة الناس .

وتفيدنا كتب الفقه بأن الحصول على الماء النقي الصالح للشرب ، لم يكن ميسراً للفقراء في معظم الأحوال ، فقد تشدد نفر غير قليل من الفقهاء في التاكيد على ان مياه السقايات العامة هي لهم اساسا دون الأغنياء[50] . مما دل على صعوبة حصول الطبقات الفقيرة على مياه الشرب عن طريق الشراء كما يفعل اهل الغنى واليسار . لذا فقد عمد الخلفاء وبعض الموسرين واهل الخير، منذ اواخر العصر العباسي ، الى انشاء عدد من السقايات العامة في المواضع المهمة من بغداد[51] ، ووضع الفقهاء لهذه المنشآت المفيدة قواعد قانونية تنظم امور وقفها ، وضمان ايصال الماء لها بطريق الاجارة ، ووضع الاواني والكيزان عندها ، وضمانها اذا كسرت ، الى غير ذلك من امور[52] .

وعلى الرغم من اهمية هذه المرافق الحيوية في حياة مدينة كبغداد ، فاننا لم نعثر الا على وصف القليل منها ، ويظهر ان معظمها كان يعتمد على السقائين ايضا ، يملؤون احواضها كل يوم باجر معلوم . بيد ان هذا لا ينفي اعتماد بعضها طرقا هندسية متقنة ، والأخبار القليلة التي وردت عن هذه السقايات تفيد بانها كانت تاخذ مياهها من دجلة عن طريق قنوات تحت الارض . ولكن ليست ثمة معلومات عن طريقة عملها ، والاسلوب المتبع في انشائها . وقد سبق ان ذكرنا بان قنوات المنصور كانت ، فيما رواه المصادر ، مبنية على شكل عقود وثيقة من اسفلها ، محكمة بالصاروج ، وان اشارات مختلفة تدل على اتباع هذه الطريقة في بناء الانفاق تحت الارض بوجه عام[53] .

(44) عرف عن بعض اهل التصوف والزهد احترافهم هذه الحرفة ، ومن مشاهيرهم الشيخ الصوفي الزاهد ابي النجيب عبدالقاهر بن عبدالله السهروردي الصديقي الشافعي (ت ٥٦٢هـ/١١٦٧م) فقد لبث « عدة سنين يستقي بالقربة على ظهره بالاجرة ويتقوت بذلك ومن عنده من الصوفية » . السبكي : طبقات الشافعية الكبرى (القاهرة ١٣٢٤هـ) ٢٥٦/٤ .

(45) ابن المعمار البغدادي : كتاب الفتوة (حققه مصطفى جواد وآخرون ، بغداد ١٩٦٠) ص ٩٢ .

(46) اللادن : نبات تستخرج منه مادة زكية الرائحة .

(47) الخوابي : القرابات .

(48) ابن بسام : نهاية الرتبة ٢٥ ـ ٢٦ .

(49) نهاية الرتبة ٢٠٣ .

(50) انظر محمد بن ولي القرمشهري الازميري : رسالة في شؤون السقايات ووقفها (مخطوط في المكتبة القادرية ببغداد) الورقة ٦ و ٨ .

(51) ذكر بعض الكتاب ان عدد سقايات بغداد بلغت في اخر العصر العباسي (١٠٢٥) سقاية من النوع المسمى « مزملات سبيل » اعتمادا على احصاء نقله الاب انستاس ماري الكرملي من كتاب الدر المكنون لياسين العمري الموصلي ونشره في مجلة المشرق (مج) (بيروت ١٩٠٨) ص ٢٠٤) واعيد نشره في دليل خارطة بغداد المفصل للدكتورين احمد سوسة ومصطفى جواد (ص ١٩٤) وعند رجوعنا الى مخطوطة الدر المكنون (نسخة باريس ٤٤٢٩) تبين ان مصدر هذا الاحصاء هو ابن الجوزي في بعض كتبه ، وانه يخص مدينة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ لا بغداد ، وان العدد الصحيح لسقايات الموصل هو ١٢٥ لا ١٠٢٥ كما تسربت اخطاء مشابهة لمفردات الاحصاء الاخرى .

(52) الأزميري . الورقة ٧ .

(53) ومن تلك الانفاق المعروفة ، نفق كان يصل بين قصر الثريا (موقعه خارج سور بغداد الشرقية المنشا بعده) وقصر التاج على شاطىء دجلة ، وبينهما مقدار ميلين على ما قدر ياقوت ، بناه المعتضد (معجم البلدان ٧٧/٢) ومن ذلك ما رواه لي السيد عبدالهادي المختار ، من انه عثر ايام كونه مديرا للمدرسة المامونية القديمة (في

ومن ناحية اخرى ، فان الكرخي(٥٤) وصف ، فيما رآه من « حال العراق » طريقة توصيل المياه الى المواضع البعيدة بواسطة استخدام « البرابخ » وهي انابيب الفخار المتألفة من قطع عديدة ، توصل ببعضها بطريقة محكمة . ويبدو ان هذه الطريقة كانت اكثر اتباعاً في شؤون السقايات ، نظراً لقلة كلفتها ، وسهولة مدها(٥٥) .

وتختلف اطوال هذه القنوات بحسب بعد السقاية عن شاطىء دجلة ويظهر ان انشاءها كان يجري وفق خطة هندسية وقياس دقيق لمستوى ارتفاع الارض(٥٦) حتى يكفل ذلك للماء الخروج من السقاية على هيئة نوارة متدفقة – على ما وصفها المؤرخون – ، ويزداد ادراكنا لصعوبة العمل اذا لاحظنا ان مستوى الارض ببغداد الشرقية لم يكن على ارتفاع واحد ؛ فهو في الجنوب يقل ارتفاعاً كلما شرّق مبتعداً عن شاطىء دجلة(٥٧) . وهذا يسهل مهمة مد القنوات تحت الارض او فوقها وانسياب الماء فيها الى اي بعد مطلوب . بيد ان الامر في المناطق الوسطى والشمالية من المدينة اكثر صعوبة ، حيث يزداد مستوى الارض ارتفاعاً كلما اتجه شرقاً (وهو امر يؤكده انسياب فرعي نهر بين الاخذ من الخالص من الشرق الى الغرب وصبهما عند قصر التاج ، والمدرسة المستنصرية) . واذ لم يصلنا خبر الطريقة الهندسية المتبعة في ايصال مياه الشرب من دجلة الى تلك المناطق المرتفعة ، فليس لنا الا ان نستدل من اوصاف سقايات بغداد في العصر العباسي ؛ الى ان الامر كان يجري على اساس الزيادة في علو مأخذ القناة من الدولاب الذي يمدها بالماء ، الى حد يعلو على ارتفاع الارض المنشأة فيها السقاية ، فينبثق الماء من نهاية القناة عند السقاية ، بقوة عمود الماء النازل في الطرف الاخر من القناة عند مأخذها من النهر . وهذا ما يفسر سبب ابتكار المهندسين البغداديين في العصر العباسي الاخير ، دواليب متعددة العلو ؛ تستطيع اصعاد الماء الى علو شاهق ، يبلغ اربعة اضعاف ما يستطيع اصعاده دولاب واحد (لاحظ ماسيأتي عن سقايةدار الخلافة) . ومن الطبيعي ان يُمكن نزول الماء من هذا العلو وصوله الى اي نقطة في المدينة مهما ارتفع مستوى ارضها ، لينبثق من سقاياتها باندفاع على هيئة « الفوارات » المذكورة آنفاً ، على حسب قاعدة « الاواني المستطرقة » (انظر الشكل ١ و٢) وعلى اية حال ، فان وصف دواليب دار الخلافة العباسية ببغداد يقدم احتمالاً قوياً بانه كانت ثمة وسائل متنوعة لرفع المياه وتوزيعها ليست معروفة لنا الآن . وفي الحقيقة فان معلوماتنا عن الوسائل الميكانيكية التي كانت تتبع في تزويد تلك المنشآت الحيوية بالماء ليست كافية لدراستها من هذه الناحية(٥٨) .

الميدان) على نفق معقود بالآجر والنورة ، عريض عال ، ظاهر القدم ، عند حفر (بالوعة) للمدرسة ، وهو يتجه مشرقاً الى موقع مدخل شارع الرشيد تقريباً . ولكن ظروف العمل المسرعة ادت الى ردم هذا الجزء منه ، فضاعت آثاره .

(٥٤) محمد بن الحسن الحاسب الكرخي : انباط المياه الخفية (حيدر آباد الدكن ١٣٥٩) ص ٢٣ .

(٥٥) ذكر الكرخي ان « البرابخ تنصب في الماء لامرين ، اما ان تكون ساقية ناشئة له بمحق (كذا) الماء او لصيانته من حلول النجاسات فيه اذا كان جريه على وجه الارض في ساقية غير قصيرة ما بين العمارة » .

(٥٦) وهو ما تعرفه كتب التراث العلمي العربي بوزن الارض ، ويعرفه المساحون المحدثون بـ « التسوية » ويريدون به اعمال رصد ارتفاعات الاراضي ، وذلك بالنسبة لمستوى سطح البحر او لنقطة معينة على الارض . ويعرفه الكرخي بانه « معرفة مقدار صعود مكان على مكان بينهما بعد قليل او كثير ، وعلم ذلك بالموازين » (انباط المياه الخفية ص ٣٥ – ٥١) .

(٥٧) يبلغ ارتفاع مستوى الارض عند مدخل شارع الكيلاني في السنك (قرب نهر دجلة) ٢٥ر٥ متر فوق مستوى سطح البحر ، وارتفاعه عند نهايته (عند السدة الشرقية) ٦ر٣٢ .

(٥٨) اهتم المهندسون العرب بابتكار او تطوير طرق ميكانيكية متقنة لرفع المياه بالكميات الكافية والسرعة الكبيرة ، وصمموا انواعا بارعة من الآلات الخاصة بهذه الامور ، بلغ بعضها شاوا بعيدا من الاتقان في الصنعة ، والبراعة في التصميم ، مما سجل احيانا سبقا علميا لهم في هذا المضمار ، تقدموا به علماء اوربة بشوط غير يسير ، مثل اختراعهم المضخة ذات الاسطوانتين وذات الاسطوانات الستة ، والمضخة الحلزونية . وبما ان تصميمات هذه الآلات كانت مما حفظته لنا كتب التراث العلمي العربي ، ولعل من اهمها كتاب ابن الجزري المعنون « الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل » وكتاب تقي الدين محمد بن معروف المعنون « الطرق السنية في الآلات الروحانية » فقد ساد الاوساط العلمية اعتقاد بان هذه الآلات المتقدمة لم تخرج من نطاق النظرية الى واقع التطبيق ، الا انه تم العثور اخيرا على آلة ما تزال في حالة جيدة تقوم برفع الماء من نهر يزيد الى المسجد والمارستان القيمري (في سفح قاسيون بدمشق) وهي مبنية على اساس بعض التصميمات المتقدمة لكتاب ابن الجزري ، فاثبت ذلك ان عبقرية المهندسين العرب لم تكن حبيسة الكتب والمعرفة النظرية حسب ، وانما وجدت لها تطبيقات عملية نافعة في الحياة العامة . وليس ببعيد ان يكون بعض تلك الآلات التي وصفها مؤلفو الكتب المذكورة ، وجد طريقه الى التنفيذ في بغداد ، وهي ←

فمن السقايات العامة التي انشئت في العصر العباسي ، نذكر :

١ – سقاية الراضي .

انشأ هذه السقاية الخليفة الراضي بالله (٣٢٢–٣٢٩ هـ/ ٩٣٤–٩٤٠ م) في جامع المنصور في المدينة المدورة بغربي بغداد ؛ ولا نعلم ما اذا كان ثمة اتصال بينهما وبين تلك القنوات التي كانت تنقل الماء تحت الارض الى قصر المنصور في العهد الاول للمدينة . واول اشارة الى هذه السقاية ما جاء في حوادث غرق بغداد سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣ م . فقد ذكر ابن الجوزي ان المشرف على البيمارستان العضدي اضطر الى ان يبعث المرورين الى « سقاية الراضي بجامع المنصور »(٥٩) وآخر اشارة اليها ما جاء في ترجمة الشيخ عبد الله الرومي الحنفي سنة ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م . قال ابن الساعي البغدادي في ترجمته « شيخ زاهد عابد منقطع في سقاية الراضي بالله بجامع المنصور»(٦٠) وهذه النصوص توحي للمرء باتساع السقاية المذكورة بحيث يمكن ان تتخذ ماوى للمرضى ومتعبداً للزهاد ، وانها استمرت قائمة بمهمتها في ارواء اهل تلك الناحية مدة لا تقل عن ثلاثة قرون .

٢ – سقايات جامع الرصافة

كانت هذه السقايات في طريق جامع الرصافة ، في اعلا بغداد الشرقية ، اشار اليها هناك ابو الوفاء علي بن عقيل البغدادي (ت ٥١٣هـ/١١١٩م) عند وصفه احياء الجانب الشرقي من بغداد ، وما فيها من القصور والدور والدروب والاسواق ، في حديث طويل ، منه قوله

حاضرة العالم الاسلامي ، ومباءة الخلافة العباسية ، الا ان زوال تلك المشاريع منذ عهود بعيدة ، وعدم تفصيل المؤرخين في شانها ، يجعل من المتعذر تصور طريقة عملها من الناحية الفنية ، وان كان من المحتمل انها من نوع السواقي (اي المضخات ذات الزناجير والدلاء) المعروفة والمنتشرة في العالم الاسلامي وهي التي تدور بواسطة الحيوانات وليس بقوة الماء (نشر د. احمد يوسف الحسن الفصل الخاص بالالات المائية من كتاب ابن الجزري في مجلة تاريخ العلوم العربية التي يصدرها معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ، مجلد ١ عدد ١ ; ايار ١٩٧٧) ص ٢٠ – ٤٠ ونشر كتاب تقي الدين مع دراسة تحليلية بعنوان تقي الدين والهندسة الميكانيكية العربية ، حلب ، ١٩٧٦) .

(٥٩) المنتظم ٢٤٥/١٠ .

(٦٠) الجامع المختصر في عيون التواريخ وعين السير ج ٩ (بتحقيق مصطفى جواد بغداد ١٩٣٤) ص ٢٤٥ .

« ثم سوق الرصافة وجامع الرصافة ودرب الروم ، وشارع عبدالصمد ، والسقايات العجيبة في طريق الجامع ذات الاجراس الكثيرة »(٦١) . وبما اننا لا نعلم طريقة عمل هذه السقايات ، فليس بالامكان تصور وجه العجب فيها ، وليس في النص المقدم ما يفيد بتاريخ انشائها اول مرة .

٣ – سقايات جامع القصر

انشأ هذا الجامع الخليفة المكتفي بالله اثناء فترة حكمه (٢٨٩ – ٢٩٥هـ/٩٠٢ – ٩٠٨م) فكان ثالث الجوامع ببغداد ، بعد جامع المنصور في المدينة المدورة وجامع المهدي في الرصافة . ثم تولاه بالاصلاح والتوسيع الخلفاء من بعده لاتصاله بدار الخلافة العباسية من جهة ، ووقوعه في قلب بغداد الشرقية من جهة اخرى(٦٢) .

وفي النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة (١١م) انشأ الوزير ابو نصر محمد بن جهير ، فخر الدولة(٦٣) ، سقاية في هذا الجامع « واجرى فيها الماء من داره في قنى تحت الارض ، وجعل لها فوارات فانتفع الناس بذلك منفعة عظيمة »(٦٤) . وقد ذكر المؤرخون ان دار الوزير ابن جهير كانت تقع في محلة باب المراتب(٦٥) ؛ في اسفل حريم دار الخلافة ، على شاطىء دجلة(٦٦) ؛ فيكون ماخذ هذه القنى من الشاطىء المذكور ، في موضع يبعد بما يزيد على كيلومتر واحد ، عن

---

(٦١) مناقب بغداد ص ٢٦ ولا ندري أية علاقة بين السقايات والاجراس ، ولعل ذلك من قبيل الطرق التي شرحها تقي الدين في كتابه «الطرق السنية في الالات الروحانية» عند وصفه مجموعة من « الفوارات » المائية ، ذات تصميمات تصدر أصوات « الزمر الدائم والنفارات » (تقي الدين : مصدر سبقت الاشارة اليه ، الباب الرابع ص ٣٩ – ٤٨) .

(٦٢) عماد عبدالسلام رؤوف : جامع الخلفاء قديما وحديثا . مجلة الرسالة الاسلامية ٧٠/٢ – ٧٨ .

(٦٣) تولى الوزارة للقائم والمقتدي في السنوات ٤٥٠ و ٤٥٤ و ٤٦٠ – ٤٦٧هـ . زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة (القاهرة ١٩٥١) ص ٩ .

(٦٤) المنتظم ٣/٩ .

(٦٥) وموقع هذه المحلة اليوم في ارض شريعة السنك وحواليها.

(٦٦) استملكت هذه الدار السيدة بنفشا حظية المستضيء بامر الله (٥٦٦ – ٥٧٥) المتوفاة سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م ، ثم حولتها لتكون مدرسة للحنابلة ، وافتتحتها سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ، وكان اول من تولى التدريس بها ابو الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) انظر : كتابنا مدارس بغداد في العصر العباسي (بغداد ١٩٦٦) ص ١٨٤ – ١٩٠ .

مصبها في الجامع ، والظاهر ان مدها لتصل شاطيء دجلة مباشرة ؛ في اقرب مسافة بين الجامع والشاطيء على خط مستقيم ، كان يعد من الأمور المتعذرة او العسيرة ، بسبب وقوع قصور دار الخلافة في هذه المنطقة ، واشغالها طراز دجلة الشرقي ، فلم يكن بالامكان اذن مد هذه القنى الا من منطقة أقل ازدحاماً في السكن ، هي باب المراتب ، حيث تنتهي قصور الخلافة ومرافقها .

ولقد استمرت هذه السقاية تؤدي عملها زمنا طويلا على الرغم من موقعها البعيد عن مصدر مياهها ، وطول القنوات التي تمدها بالمياه من دجلة ، فوصف الرحالة ابن جبير هذا المشروع المهم بعد نحو قرن من الزمن بقوله « جامع الخليفة(٦٧) متصل بداره(٦٨) ، وهو جامع كبير وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة مرافق الوضوء والطهور »(٦٩) .

وفي سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م امر الخليفة المستنصر بالله بانشاء سقاية أخرى في جامع القصر ، وكانت هذه السقاية الجديدة تأخذ مياهها من حباب تملأ بالماء في مواعيد منتظمة ؛ والظاهر ان قنوات الوزير ابن جهير الارضية لم تعد تكفي لايصال مياه الشرب والوضوء والغسل للجامع المذكور ؛ فاستعين بهذا المشروع الجديد لسد الحاجة المتزايدة . قال صاحب كتاب الحوادث في حوادث السنة المذكورة « وفي آخر شعبان ، انتهي من عمارة باب جامع القصر مما يلي الرحبة ، وفتح ، وفتحت المزملة(٧٠) التي عملت بالجامع المذكور ايضا »(٧١) .

يتضح لنا مما تقدم ان جامع القصر احتوى لأهميته على عدة سقايات كبيرة ، لا سقاية واحدة ، وان بعض تلك السقايات كان يأخذ مياهه من دجلة بطرق هندسية ، والبعض الآخر يأخذها بالطرق الاعتيادية . وقد لاحظ الرحالة المغربي ابن بطوطة ذلك عند زيارته بغداد سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م فقال « وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة احدها جامع الخليفة ، وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم ، وهو جامع كبير فيه سقايات ، ومطاهر كثيرة للوضوء والغسل »(٧٢) .

٤ ـ سقاية دار الخلافة

من المشاريع الهندسية البديعة التي شهدتها بغداد في اواخر القرن السادس للهجرة (١٢م) ، انشأتها السيدة بنفشا بنت عبدالله الرومية حظية الخليفة المستضيء (توفيت سنة ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م) . وكانت تأخذ مياهها بطريقة فريدة ، لم يرد ما يشبهها في غيرها من السقايات المختلفة، وقد وصف ابن الساعي البغدادي هذا المشروع بانه « اربعة دواليب ، تستقي الماء من دجلة الى دار الخلافة المعظمة ، كل واحد منها أعلى من الآخر ، فيأخذ الاول من دجلة ، والثاني من الأول ، والثالث من الثاني ، والرابع من الثالث »(٧٣) وقد بحثنا في كتب الآلات المائية ، على ما ينطبق عليه هذا الوصف ، فلم نعثر على بغيتنا ، وانشاء مثل هذا المشروع يستلزم بناء دار عالية ذات اربعة طوابق ؛ في كل منها دولاب يدور . ولا نعلم وجها لايصال الماء الى هذا الارتفاع الشاهق ، سوى الاستفادة القصوى من ضغط الماء النازل لاحداث فوارات عالية (شاذروانات) وايصال المياه الى مواضع مختلفة من دار الخلافة العباسية ، على ما اشرنا اليه من قبل (انظر الشكل ١ و ٢) .

٥ ـ سقاية تربة احمد بن حنبل بالجانب الغربي

انشا هذه السقاية سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م الخليفة المستنصر بالله ، اظهاراً لتأييده لمذهب الحنابلة الذي كان يميل اليه(٧٤) . ويفهم مما ذكره صاحب كتاب الحوادث ان اخذ السقاية للماء اعتمد على طريقة السقائين ، لا على حفر القنوات

(٦٧) تسمية جامع القصر بجامع الخليفة متاخرة نسبيا ، وفي العصور الاخيرة شاعت تسميته بجامع الخلفاء ، ثم عرف بين العامة باسم جامع سوق الغزل حتى ازالته عند فتح شارع الجمهورية سنة ١٩٥٧ ، وقد قامت « الاوقاف » اخيرا بانشاء مسجد جامع كبير حوالي مئذنته القديمة (وهي كل ما تبقى منه) واطلقت عليه اسم « جامع الخلفاء » .

(٦٨) يريد بدار الخلافة العباسية وفيها قصور الخلفاء .

(٦٩) رحلة ابن جبير (بغداد ١٣٥٦هـ) ص ١٨٢ .

(٧٠) انظر ما تقدم عن معنى هذا اللفظ .

(٧١) كتاب الحوادث المسمى بالحوادث الجامعة (تحقيق مصطفى جواد ، بغداد ١٣٥١هـ) ص ١٠٢ .

(٧٢) رحلة ابن بطوطة (القاهرة ١٩٢٨) ١٤٢/١ .

(٧٣) ابن الساعي : جهات الائمة الخلفاء من الحرائر والاماء (تحقيق مصطفى جواد ، القاهرة) ص ١٢٦ .

(٧٤) دفن احمد بن حنبل في مقبرة باب حرب ، وهي من اشهر مقابر بغداد في العصور العباسية ، وكان موقعها في خارج عمارة البلد ، الى الشمال من مقابر قريش (الكاظمية) وقد زال قبر ابن حنبل نتيجة لتحويل نهر دجلة مجراه .

او رفعها ، قال في حوادث السنة المذكورة[75] « وفيها امر الخليفة بعمل مزملة عند قبر الامام احمد بن حنبل - رضي الله عنه - لأجل الزوار والواردين فلما تكامل بناؤها فتحت ، وجعل فيها الحباب وملئت من الجلاب . ورتب فيها قيّم يقوم بمصالحها ، ونظم الشعراء في ذلك قصائد ، منها ما قاله جعفر بن مهدويه الكاتب من قصيدة يمدح بها الخليفة :

وقبر احمد قد طرز
بحلية زينت منه مبانيه
ثم اتخذت لنا فيه مزملة
تدل انك يوم الحوض ساقيه
فاسلم فدتك الرعايا يا امام الهدى
تهدى الى الحق من ضل في التيه »

٦ - سقاية المدرسة المستنصرية

احتوت المدرسة المستنصرية منذ افتتاحها سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م على سقاية تزود طلبتها ومدرسيها والقائمين عليها وغيرهم بمياه الشرب والوضوء ، وكان لهذه السقاية موظف خاص ، يسمى « مزملاتي » نسبة الى « المزملة » وهي حباب الماء المخصصة للشرب . فقد ورد في شروط الخليفة المستنصر على مدرسته ، انه شرط ان يكون فيها « مزملاتي » ، وقرر له ما لغيره من الجرايات والمشاهرة[76][77] .

ويفهم مما جاء في ترجمة ابن الحشاش ، انه كان للمزملاتي هذا مظهراً يوحي بالهيبة ، وان راتبه كان يبلغ خمسة دنانير كل شهر . حكى شمس الدين الجزري انه « دخل بغداد ، ودخل المستنصرية ، فشرب من المزملة ، فلما فرغ ، قال للذي فيها ، وكان عليه بزة : حاشاكم ، أو ما هذا معناه . فقال شخص : لا تقل له هكذا ، هذا له خمسة دنانير على سقي الناس ، او ما هذا معناه »[78] .

وفي سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م انشأ صاحب ديوان العراق علاء الدين عطا ملك الجويني[79] مشروعه الكبير لتزويد المدرسة المستنصرية والمنطقة المجاورة بمياه الشرب . فكان المشروع يتألف من دولاب على شاطىء دجلة المجاور ، يصب الماء في قناة محكمة ، مبنية تحت الارض ، فتزود القناة مزملة المدرسة ، ثم بركة صنعت في وسطها ، ثم تخرج من المدرسة لتمد بمائها مزملة اخرى عملت تجاه ايوان الساعات (وهي مائية ايضا) التابع لمدرسة الطب ، مقابل بابها الرئيس[80] . قال صاحب كتاب الحوادث ، في احداث السنة المذكورة « تقدم علاء الدين صاحب الديوان بعمل دولاب تحت مسناة المدرسة المستنصرية بقبض الماء من دجلة ويرمى الى مزملتها ، ثم يجرى تحت الارض الى بركة عملت في صحن المدرسة ، ثم يخرج منها الى مزملة عملت تجاه ايوان الساعات خارج المدرسة ؛ وجدد تطبيق صحنها ، وتبنيد حيطانها »[81] .

وبما ان انشاء هذا المشروع كان تالياً لانشاء المدرسة ذاتها ، فمن غير المتصور انه غير في تصميمها العام . والظاهر لنا ان مهندسي الجويني عمدوا الى مد القنوات من خلال المواضع التي يمكن نقبها والتغيير فيها ، لذا فمن الراجح ان تكون القنوات قد اجتازت احد بابي المدرسة المطلين على ضفة النهر ، الواقعين في مسجدها ، فزودت المزملة الاولى هناك ، ثم قطعت صحن المدرسة ، بخط مستقيم ، لتمد البركة في وسطه ، ومنها خرجت من تحت باب المدرسة الرئيس ، الى المزملة الثانية ، وذلك لاستحالة مد اية قناة من تحت مباني المدرسة الضخمة فيما عدا المواضع المذكورة . ويلاحظ ايضا ان وجود البركة ، والمزملتين ، وجريان الماء فيها على الدوام ، يوجب وجود قناة اخرى لتصريف المياه الفائضة ، ولكن النصوص لا تكشف لنا شيئا عن هذا الأمر .

---

(٧٥) الحوادث ص ٩١ .

(٧٦) ابن الساعي : التاريخ المرتب على السنين (في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ٤ ج ١ ص ٢) ، ١٩٢٤) .

(٧٧) الجراية : ما يجرى على ارباب الوظائف من المواد العينية ، كالخبز والسمن وغيره ، والمشاهرة راتبهم الشهري .

(٧٨) التقي الفاسي : منتخب المختار من تاريخ ابن رافع السلامي المذيل به على تاريخ ابن النجار (نشره عباس العزاوي ، بغداد ١٩٣٨) ص ٢١٣ .

(٧٩) حكم العراق ، بعد وفاة ابن العلقمي الوزير السابق ، من سنة ٦٥٧ الى سنة ٦٨١هـ/١٢٥٧ - ١٢٨٢ . عماد عبدالسلام رؤوف : حكام العراق وموظفوه في عهد المغول الايلخانيين مجلة المؤرخ العربي (يصدرها اتحاد المؤرخين العرب) العدد ١١ ص ٦٠ .

(٨٠) اي في سوق الهرج الحالي ، عند جامع الفيلانية . وكنا قد اثبتنا بان هذا الجامع ورث ارض مدرسة الطب والايوان التابع لها في مجلة الرسالة الاسلامية (بغداد ، تصدرها وزارة الاوقاف) الاعداد ٢٢ و ٢٨ - ٢٩ و ٤٣ (سنة ١٩٧١) و ٤٤ (سنة ١٩٧٢) .

(٨١) الحوادث ص ٣٦٥ .

الفصل الثاني

مشاريع مياه الشرب في العصر العثماني

١ ـ مشكلة مياه الشرب

توالى احتلال القبائل الغازية لبغداد منذ سقوطها الاول على يد المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، وتقلبت بايدي دول قبلية متخلفة مدة تزيد على ثلاثة قرون حتى دكت معالمها الحضارية، وتعرضت الحياة فيها الى خطر التخريب والتدمير ، وهجرها الكثير من اهلها ، بينما قضت النكبات على قسم غير قليل منهم . وكان من نتائج هذه الاوضاع ، ان سرعت عملية انكماش المساحة المسكونة من بغداد ، وهي العملية التي بدأت بعض ملامحها تظهر منذ اواخر العصور العباسية، فانحصر السكن داخل اسوار الجانب الشرقي على ما استقرت عليه في اخر القرن الخامس للهجرة (١١م) . ثم استمرت عملية الانكماش السكني ، كمظهر من مظاهر الانكماش الحضاري العام ، فخلت اماكن وسيعة داخل الاسوار ذاتها ، كانت قد وصفت بانها محلات مكتظة شبيهة بالمدن المستقلة . وتحولت محلات مثل باب الأزج وباب المراتب والبصلية وقطيعة العجم والريان وغيرها، الى صحراء قاحلة لا نبت فيها ولا ماء ، وكانت الانهار التي وصفناها فيما سبق ، قد اهملت تدريجياً ، حتى اندثرت تماماً في خلال القرنين الثامن والتاسع (١٤ و ١٥م) ففقدت بغداد بذلك ما كان يحيط بها من نبات وخضرة ، وبخاصة في الاقسام المحصورة بين سورها الشرقي والمناطق السكنية ، وهي الاقسام التي كان يسقيها نهر بين الاخذ من الخالص بفروعه المديدة في العصور السابقة ، مما ادى الى ازدياد تجمع السكان في المحلات القريبة من دجلة ، والى ان تتخذ مشكلة نقل مياه الشرب ـ من ثم ـ شكلاً آخر يقوم على اساس التغير الجديد .

ومن الجدير بالملاحظة اننا لم نعد نسمع في هذا العصر ما يشير الى انشاء قنوات محكمة تحت الارض توصل مياه الشرب الى السقايات العامة ، بل اننا لا نعلم الفترة التي استمرت فيها هذه المشاريع قائمة بمهمتها ، فقد انطوت اخبار المشاريع المذكورة بانقضاء صفحة العصر العباسي نفسه . واقرب الى الاحتمال ان بغداد اكتفت في الفترة السابقة على العصر العثماني ، بما يحمله اليها السقاؤون من مياه دجلة في « قِرَبِهِم » ، ولا شك انه كانت هناك سقايات عامة موزعة في ارجاء المدينة يملؤها السقاؤون لتبقى في خدمة السكان بقية اليوم . بيد ان معلوماتنا لا تكفي لتصور مدى نجاح هذه السقايات في سد حاجة اولئك السكان من مياه الشرب فضلاً عن توفير مياه الاستعمال. ومن الراجح أن تكون الآبار قد اتخذت مورداً للنوع الآخير من المياه .

ولقد شهدت بغداد ، منذ استقرار الحكم العثماني فيها في بدايات القرن الحادي عشر للهجرة (١٧م) ، تطوراً ملموساً في تصميم مشاريع دائمة لنقل مياه الشرب ، تعتمد على انشاء قنوات محكمة ، مرفوعة على عقود عالية مبنية بالآجر والنورة واخلاطها ، ويرفع الماء اليها بواسطة الدواليب ، فتجري المياه في القنوات المطلية بطبقة من القار ، مجتازة بذلك الدروب والمحال ، بانحدار محسوب ، حتى تصل الى المواضع المهمة ، أو الأكثر ازدحاماً في السكن ، فتتفرع منها في قنوات اخرى لتصب في السقايات المشيدة هناك ، بينما تحمل القناة الرئيسة الفائض من الماء الى مناطق بعيدة نسبياً ، لتغذي بعض السقايات في تلك النواحي ، وليفنى ما يتبقى في الاراضي القاحلة حواليها . وهذا النوع من مشاريع مياه الشرب يذكرنا بمشروع قنوات الساج الذي اقامه المنصور لمد مدينته بالمياه من نهر دجلة ، الا ان المشاريع العثمانية تميزت بثباتها ودوام عملها ، وهي في الواقع لم تكن الا تقليداً لأمثالها من المشاريع التي انشاها العثمانيون في بعض المدن الكبيرة ، متاثرين بعمارة القنوات البيزنطية العالية التي كانت تزود مدن الاناضول بالماء منذ عهود قديمة (انظر الشكل ٤) .

بيد أن استخدام هذا النوع من السقايات ، لم يقض على النوع الآخر الذي يعتمد على انشاء احواض كبيرة ، او حباب ، تملأ بالماء كل يوم بواسطة سقائين لهم اجر معلوم . لقد ميز الفقهاء العثمانيون بين هذين النوعين ، فاعتبروا النوع الاول من المشاريع الخيرية العامة ، الموقوفة لنفع الجميع بلا ادنى تمييز ، ويظهر انهم اعتبروا حكمها كحكم العيون الطبيعية المسماة « چشمة ». اما النوع الآخر ، فانهم سمحوا بوضع بعض الشروط عليه ، كتخصيص مائه للفقراء بالدرجة الاولى[٨٢] ، وترتيب قيم مسؤول عن ادارته ،

---

(٨٢) يذكر محمد بن ولي الازميري (ت ١١٦٥هـ/١٧٥١م) ان « الماء مشترى بغلات الاوقاف المبنية له » ، ومتخذ بطريق الاجارة ويعطى الاجرة من تلك الغلات ، لذا فلا يستوى ←

ياخذ راتبه من غلة الوقف ؛ وما الى ذلك من أمور(٨٣) .

ويذكر الرحالة محمد ظلي المعروف باوليا جلبي الذي قدم بغداد سنة ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م وسنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م انه كان فيها نحو مائة سقاية يسميها « سبيل » ومائتي « چشمة » من النوع الذي يملؤه السقاؤون بقربهم من النهر(٨٤). هذا في حين اعتبر الآقشهري(٨٥) السبيل (او السبيل خانة) ما يملأ بالقرب بالأجرة ، و « الچشمة » عيون الماء النضاحة ، ويقرب منها ما تحمله القنوات من مياه دافقة متصلة تصب في سقايات عامة .

ويستفاد مما ذكره اوليا جلبي ايضا ، ان صعوبات جمة كانت تكتنف عمل السقائين في نقل المياه من النهر ، الى درجة ان حاجة المدينة لم تكن تسدها الا مياه الآبار التي يقدرها ب (٦٠٠٠) بئر . ونحن نعتقد بأن وجه الصعوبة التي اشار اليها اوليا جلبي هو ان شواطىء بغداد في عهده كانت مغلقة في وجه السقائين الا من مكان واحد فحسب ، قرب الميدان ، اشار اليه هو ، اما سائر الشواطىء فكانت مسورة بسور عال ليس له من باب سوى باب الجسر . وقد وردت صورة هذا السور في صورة بغداد التي رسمها نصوح السلاحي المطراقي سنة ٩٤٤هـ/١٥٣٧م ؛ وخارطة بغداد من عمل تافرنييه سنة ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م(٨٦) ، ومنها يظهر انه لم تكن لبغداد مشارع على دجلة ، ولعل هذا هو ما دفع حكام المدينة الاوائل الى مد القنوات على عقود الآجر لتزود سقاياتها الداخلية . ويؤكد هذا القول ان دواليب هذه القنوات لم تكن تأخذ مياهها من دجلة راسا ؛ وانما من آبار عميقة حفرت خصيصا بها . ويدل بئر قناة الشيخ عبدالقادر الكيلاني ؛ وهو آخر ما بقي من هذه الآبار ، على ان مواقع الآبار كانت بعيدة عن دجلة بمسافة كافية لاقامة الاسوار والحصون(٨٧) . واذ بقيت هذه الاسوار قائمة الى نهاية القرن الثاني عشر على اقل تقدير ، فان بامكاننا ان نتصور بقاء مشكلة ايجاد موارد كافية لمياه الشرب ، عدا الآبار ، حتى ذلك التاريخ ؛ حتى ان عددا من السياح الذين اقاموا ببغداد او مروا بها ، نوهوا بهذه المشكلة ، ووصفوا متاعب البغداديين في الحصول على ماء الشرب . فاشار الرحالة الايطالي الأب فنشنسو (Vincenzo) الذي زار بغداد سنة ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م الى ان الماء الذي يباع ببغداد يأتي ملوثا بالقار ـ وان كان لا ضرر في هذا التلوث ـ ووصف طريقة جلبه الى المدينة ، بانه كان ينقل على ظهور الثيران والجياد ، في قرب كبيرة من الجلد(٨٨) . والمعروف ان جلب الماء الى المنازل بالقرب المدبوغة لا يؤدي الى ما لاحظه من تلوث الماء بالقار ، فالظاهر ان الماء الذي شربه كان من مياه السقايات العامة التي تبطن مجاريها واحواضها بطبقة كثيفة من القار لحفظها من انضياع ، وليس من مياه القرب المحمولة على الطريقة التي وصفها . ولم ينتبه سائح آخر هو البريطاني جاكسون في رحلته الى بغداد سنة ١١٨١هـ/١٧٦٧م الى وجود قنوات عمة لنقل الماء في المدينة ، وانما اشار الى ان كثيرا من الفقراء كانوا يستخدمون لنقل الماء من النهر في ظروف من الجلد يحملها البعض منهم على ظهورهم ؛ بينما يحملها البعض الآخر على الحمير والبغال(٨٩) . ومثل ذلك ما وصفه الرحالة البريطاني بكنكهام (Buckingham) عند قدومه الى بغداد سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٦م حيث ذكر ان المدينة تزود بمياه الشرب من نهر دجلة في قرب من جلود المعز تنقل على ظهور الدواب وتصل باب منزل كل عائلة ؛ اذ ان وسائل نقل الماء ؛ والصهاريج والاحواض غير معروفة فيها(٩٠) .

الغني والفقير بالانتفاع به ، والقول بان الغلة تصرف على مصارف المتولي وعمارة السقاية لا الماء غير صحيح ، كيف ولا يحمل الماء الى السقاية مجانا بل بثمن او اجرة يعطى من الغلة » . رسالة في شؤون السقايات ووقفها (مخطوط) الورقة ٨ وانظر عبدالرحمن بن شيخ محمد : مجمع الانهر في شرح ملتقى الأبحر (الطبعة العثمانية ١٣٠٥) ص ٣٢٦ .

(٨٣) ومن تلك الشروط انه يصب فيها الماء بالجرة للشرب او الوضوء ، ولا يجوز استعمال مائها لغيرها ، ويكون لها قصاع وكيزان .

(٨٤) اوليا جلبي سياحتنامه سي (استانبول ١٣١٤هـ) ٤/٢٠ .

(٨٥) رسالة في شؤون السقايات ووقفها الورقة ٨ (مخطوط).

(٨٦) انظر اطلس بغداد للدكتور احمد سوسة (بغداد ١٩٥٢) ص ١٢ و ١٣ .

(٨٧) انظر ما سياتي عن هذه السقاية . والشكل (١) .

(٨٨) رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمة بطرس حداد ، مجلة المورد العدد ٢ ، المجلد ٥ (بغداد ١٩٧٦) ص ٧٧ .

(٨٩) مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٦٧٦ ، ترجمة سليم طه التكريتي ص ٧٥ .

(٩٠) بكنكهام : رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦ ، ترجمة سليم طه التكريتي (بغداد ١٩٦٨) ٢٠٦/١ .

ونظراً لما كان يكتنف عملية نقل مياه الشرب من صعوبات ، وما يكلفه شراءها من مال ، فقد نالت شؤون السقايات العامة ببغداد اهتمام الولاة وارباب الدولة والأعيان واهل الخير ، وشارك عدد من السيدات المحسنات بانشاء جملة من السقايات المهمة . ووقف الجميع عليها الوقوف الدارة بموجب وقفيات وحجج شرعية رسمية ، وثبت بعضهم عدد العاملين على خدمة السقاية ، وحدد رواتبهم بدقة . وصار للسقائين الذين ينقلون الماء الى السقاية راتب معلوم . واحتاط بعض الواقفين فحدد عدد « قرب » الماء التي يحملها السقاء كل يوم ، فنص والي بغداد داود باشا على ان تكون عشر قرب يومياً ، لقاء راتب قدره ٣٦٠ قرشاً ، وجعلت السيدة نازندة خاتون لسقايتها ١٨٠٠ قرشاً رائجاً (٤٥٠ قرشاً صاغاً) بينما حدد نقيب الاشراف سليمان القادري راتب من يقوم بخدمة سقايته بـ ٤٥ قرشاً صاغاً كل شهر .

ومثلما اهتم اولئك الموسرين بالانفاق على هذه المشاريع الحيوية ، فقد تفنن المهندسون والنقاشون في تصميم عماراتها ، وتزيينها بالواح الرخام المنقوش والقاشاني الملون وبشبابيك النحاس الفاخر ، وسجلت على معظم السقايات ، بخطوط بديعة ، آيات قرآنية ، وابيات شعرية تؤرخ انشاءها ، وتذكر اسم صاحبها احياناً ، وزاد آخرون بأن اقاموا حولها حدائق صغيرة ، وزرعوا فيها أشجاراً تظلل الشاربين .

فكان من نتائج هذا الاهتمام ان زاد عدد السقايات العامة التي يملؤها السقاؤون بسرعة منذ مطلع القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) الى الحد الذي اصبح انشاؤها ظاهرة من الظواهر الاجتماعية في المدينة ، وامتدت خدماتها لتشمل محلات عديدة من بغداد(٩١) .

اما القنوات الآجرية المرفوعة على العقود ، فقد توصلنا الى ثلاثة مشاريع منها ، وهي تغطي مساحة كبيرة من بغداد الشرقية ، لكننا لا نقطع بعدم وجود غيرها في اجزاء اخرى من المدينة . ويرتقي انشاء هذه المشاريع الى عهود مختلفة من القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة (١٧ و ١٨م) . اما السقايات الآخذة منها فهي عديدة ومتنوعة ، وفيما يأتي من البحث عرض تفصيلي عن هذه المشاريع .

(٩١) انظر الخارطة .

٢ ـ قنوات المياه المرفوعة

ساقية (قناة) الشيخ عبدالقادر الكيلاني .

ليس من المحدد تاريخ انشائها ، واول اشارة الى وجودها كانت سنة ١٠١٣هـ/١٦٠٤م ، حين وصفها الرحالة البرتغالي بيدرو تكسيرا Pedro Texeira اثناء زيارته بغداد . قال واصفاً جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، وان لم يسمه ، انه واقع في طرف المدينة عند بساتين النخيل ، وان الماء ينقل اليه من فوق قناطر خاصة ، على نمط بديع(٩٢) .

واشار اليها السائح الدانمركي نيبور C. Niebuhr عند قدومه بغداد سنة ١١٨٠هـ/١٧٦٦م ، وذلك في اثناء وصفه التكية القادرية . قال « ولتكيته واردات مالية وقفية تفوت اكثر من ثلثمائة انسان ، ولاكثرهم فيها حجر وغرف يسكنونها بالمجان ، ولها كرد (دولاب) يساق ماؤه اليها من دجلة في ساقية »(٩٣) .

كما اشار اليها سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م الكوماندر فيلكس جونز F. Jones فذكر ان من عقود محلة راس الساقية « عقد الساقية » وعد من معالم محلة «باب الشيخ» ، قهوة « المزملة »(٩٤) على انه لم يشر اليها في خريطته التي رسمها ، وكولنكوود ، لمدينة بغداد ، وان كان رسم الدرب الذي تجري فيه .

بلغ طول هذه القناة ما يزيد على كيلومتر . وتبدأ من شاطيء دجلة في محلة السنك ، قرب قصر السيد عبدالرحمن الكيلاني نقيب الأشراف الاسبق (بستان محمد اكريبوز) ثم تمتد فوق جدار عال يبلغ ارتفاعه ٢٫٣٠ متراً عند حديقة (بقچة) كان قد وقفها محمد بن جواد اوطه باشي سنة ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م ، ومن هناك تنعطف فتعبر على عقد كان فوق باب حديقة عبدالجبار غلام ، وتمضي مشرّقة في شارع الكيلاني ، فتعبر الطريق الذاهب الى الباب الشرقي عند جامع النعماني على عقد ، ثم تجتاز الطريق الذاهب الى مرقد الخلاني على عقد آخر ، وتمضي فتعبر الدرب المتجه الى محلة الصدرية ، عند مسجد رأس الساقية ،

(٩٢) Texeira, P. : The Travels of Pedro Texeira, P. 64 (London 1902).

(٩٣) بغداد في رحلة نيبور ، ترجمة د. مصطفى جواد (مجلة سومر المجلد ٢٠ الجزء ١ ـ ٢ (بغداد ١٩٦٤) ص ٥٢

(٩٤) Jones, F.: Selections from the record of Bombay Government., P. 327.

والدرب الواقع قرب حوض سقايتها : على عقود مشابهة . وتنتهي عند جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ؛ حيث تملأ حوض سقايته بالماء المخصص للشرب . وقد عرفت هذه السقاية بـ (الزملة البرانية) لوقوعها خارج اسوار الجامع لا داخله(٩٥) ، كما سميت المنطقة التي في غرب محلة باب الشيخ ، بمحلة (راس الساقية) نسبة اليها ؛ وما تزال تعرف بهذا الاسم(٩٦) .

وكان مأخذ هذه القناة من دولاب يرفع الماء من بئر عميقة واسعة عند شاطىء النهر ؛ وما تزال هذه البئر موجودة الى يومنا هذا ؛ وعندها آخر بقايا القناة المذكورة .

والظاهر ان هذه السقاية بقيت على وضعها القديم دونما تغيير حتى سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م ، وهي سنة تولى علي رضا باشا اللاز ولاية بغداد ؛ فقد ذكر السيد محمود شكري الآلوسي أن هذا الوالي امر بانشاء سقاية في جوار جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ؛ وصفها بانها « غزيرة الماء ، كثيرة الارواء » وقال انه أجرى اليها جدولاً من نهر دجلة واوقف عليها عقاراً لتبقى على مر الأيام وتعاقب الأعوام(٩٧) . ونحن نرجح ان تكون هذه السقاية هي نفسها سقاية الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، وانما قام علي باشا اللاز بتجديدها ، او اضافة اشياء اليها . وليس ببعيد أن يكون تجديد القناة وترميمها هو ما دفع السيد الآلوسي الى ذلك القول ؛ مستنداً الى ما كان مدوناً على رخامة السقاية من ابيات ؛ مع ان البيت الخامس منها يدل صراحة على انها جددت ، لا أنشئت انشاء . وفيما يأتي هذه الأبيات :

لله ساقية قد شاد مبناها
والي العراقين اقصاها وادناها
أعني علي رضا بل حيدري وغى
سميه لجميع الناس مولاها
من ماء دجلة أجرى سلسبيل ندى
يروي العطاش من الرمضاء اصفاها
وانساب بها كعبة للائذين بها
لقد صفا زمزم الجدوى ومرواها
تطوعا واحتساباً من فواضله
تجددت وسمت اركانه علياها
فيا لها نية لله خالصة
تفتر عن شنب الحسن ثناياها
صح القبول جرى فوراً فأرخه
« تجرى فينبوع بسم الله مجراها »
١٢٤٧

ونظراً لأهمية جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ومدرسته ، وسعة محلته ، وكثافة السكن في تلك الناحية ؛ فقد حظيت هذه القناة وسقايتها بعناية فائقة . واوكل امر التولية على اوقافها والانفاق على مصالحها من تجديد وصيانة السادة نقباء الاشراف ومتولو الاوقاف القادرية ؛ وذلك بموجب الحجج الشرعية التي كان يصدرها ولاة بغداد ؛ وتحتوي كل حجة ـ عادة ـ على وصايا بشأن وجوب الاهتمام بالقناة والعناية بمرافقها(٩٨) .

وقد وصفت السقاية في مطلع هذا القرن بانها بناية كبيرة لها حوض ؛ وفيه ثلاث حنفيات وامام الحوض طارمة ذات ثلاثة اطواق متصلة على شكل ثلاثة اضلاع مثمن(٩٩) .

وفي حدود سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م قام احد الاغنياء الهنود بتثبيت انبوب حديد في داخل قناة الآجر ، ورفع العقود القديمة التي كانت القناة تجتاز عليها الدروب والطرق الجانبية ، ووضع بدلا منها انابيب . فكان الانبوب ينزل الى الارض عمودياً؛ حيث يتصل بانبوب افقي مدفون تحت الارض باستقامة الساقية ، ثم يتصل بانبوب آخر

(٩٥) كان موقعها عند الزاوية الجنوبية من مقبرة الجامع .
(٩٦) عماد عبدالسلام رؤوف : متى تم اول مشروع لاسالة الماء في بغداد . جريدة التآخي البغدادية بتاريخ ١٩٦٨/٨/١٢ .
(٩٧) محمود شكري الآلوسي : مساجد بغداد ص ٦٠ (مخطوطة المتحف العراقي المرقمة ١٠٦٤) وقد نشر السيد محمد بهجة الاثري هذا الكتاب ، بتغييرات رآها ، تحت عنوان « مساجد بغداد وآثارها » (بغداد ١٣٤٦) واشارتنا ، في هذا البحث ، الى المخطوط .

(٩٨) انظر مثلا الوثيقة الشرعية المتضمنة توليه السيد محمود افندي بن زكريا القادري على ساقية الماء العائدة لجامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني (سجل المحكمة الشرعية ببغداد ، عدد ١٥٨ ص ٥٩ بالتركية ، وتذكر ان والي بغداد سليمان باشا الصغير اصدر بيورلدي (امر رسمي) سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م يقضي بتسليم التولية الى السيد حبيب سنه بك ، وذلك لتدهور العلاقات بينه وبين متوليها السابق السيد رمضان القادري ، وبقي الوضع كذلك حتى استعادها السيد محمود الكيلاني سنة ١٢٢٣هـ/١٨١٧م باعتبار ان القناة المذكورة موضوعة اصلا لخدمة جامع الشيخ عبدالقادر ، وبما انه يتولى اوقافه فمن الاولى والارجح ان يتولى ساقيته ايضا .
(٩٩) محمد رؤوف الشيخلي : المعجم الجغرافي لمدينة بغداد (البصرة ١٩٧٧) ص ١٤٢ .

عمودياً ، فيربط بالانبوب الذي في الساقية من الجهة الأخرى

وفي سنة ١٢٢٨هـ/١٩١٠م الغي العمل بالدولاب ، واستعيض عنه بمضخة حديثة وقام السيد عبد الرحمن الكيلاني نقيب الاشراف برفع قناة الماء تماماً[١٠٠] ، ومدت الانابيب المعدنية تحت الارض ، بخط مستقيم ، الى جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني . وعند فتح جادة خليل باشا (الشارع العام، ثم شارع الرشيد كما سمي فيما بعد) زمن ولاية خليل باشا سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٥م قضى على آثار القناة المرفوعة ، فادخل جدارها وقسم قليل من حديقة أوطه باشي (المقدم ذكرها) في الشارع المذكور . ولم يبق من آثارها سوى ذلك الجزء الواقع عند البئر الشاطئية . وهو – على الحقيقة – آخر ما تبقى من آثار قنوات مياه الشرب القديمة ببغداد كلها (انظر الشكل ٧).

تبعد البئر عن شاطىء دجلة بأكثر من عشرين متراً ، وكان جزء من هذه المسافة مشغولاً بسور بغداد وحصونه المطلة على دجلة ، ثم شغل في بداية القرن الحالي بقصر السيد عبدالرحمن الكيلاني[١٠١] . وكانت مسناة السور لم تزل مرئية عند هذا القصر عندما رسم جونز وكولنكوود خارطة بغداد في القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد)[١٠٢] .

تتخذ البئر شكلاً بيضويا يبلغ محيطه ١٦ر٨٧ متراً ، واطول قطريه ٩٢ر٤ متراً ، واقصرهما ٣ امتار . وهي مسورة بسور من الآجر عرضه ٣٥ سنتمتراً ، تعلوه حافة عرضها ٤٥ سنتمتراً . ويرتفع السور عن الارض بـ (١٢ر١) متراً ؛ ويبلغ عمق البئر حاليا من حافة سورها ٥٥ر٣ متراً . ومن المعتقد ان عمقها الأصلي كان يزيد على ذلك بأربعة أمتار أخرى على الأقل . ويزين الجدار الداخلي للبئر (بعمق ٦٠ر٢ متراً) زخرفة بقطع الآجر مرتبة عموديا (يعرفها البناؤون المحليون باسم سكة) تعلوها زخرفة بالآجر ايضاً بارزة وغائرة على شكل خمسة متوازيات أضلاع متجاورة (ويعرفها البناؤون المحليون باسم بقلاوة) انظر الشكل (٦) .

ويتصل بحافة البئر من ناحية الجنوب الشرقي (بشكل يوازي مجرى نهر دجلة) بناء متين من الآجر والجص ، كان قد ثبت في اعلاه دولاب الدلاء . وهو يتخذ شكلاً هندسياً غير منتظم (الشكل ٥) . ويبلغ ارتفاع هذا البناء ٣٠ر٢ متراً ، ويتخذ عند البئر هيئة قوس يتمم الشكل البيضوي لها . وكانت على سطحه اسكلة من الخشب مهمتها استقبال المياه المرفوعة اليها بالدولاب . ثم يضيق عرض البناء بعد مسافة ٣٠ر٢ متراً ليصبح عرضه متراً واحداً ، بطول قدره ٨٢ر٣ متراً . وكان على هذا الجزء مجرى يأخذ الماء من الدولاب ويصبه في الحوض التالي الذي يتصل به .

ويتألف هذا الحوض شكلاً هندسياً غير منتظم الزوايا . كانت مهمته تجميع المياه الآتية من المجرى المذكور ، لتصب بعده في قناة الشيخ عبدالقادر الممتدة الى جامعه . وقد بطنت ارضية المجرى والحوض والقناة بطبقة كثيفة من القار ، يبلغ ثخنها نحو ستة أو سبعة سنتمترات ، وذلك منعاً من تسرب الماء أثناء جريانه وضياعه بدداً[١٠٣] . (الصورة رقم ٥) .

يعمل الدولاب (الكرد) بقوة الدواب ، حيث تدور الدابة محركة ذراعاً قد ثبتت نهايتها بمحور راسي ، وبدوران هذا المحور يدور مسنن افقي ثبت في اعلاه ، وينقل المسنن الأفقي العلوي المذكور الحركة الى مسنن راسي يتصل به محور افقي ، وينقل الاخير الحركة الى دولاب الدلاء فيرفع الماء بذلك الى القناة (انظر الشكل ٣) .

ويختلف اسلوب عمل هذا الدولاب عن الدواليب العادية الاخرى الموجودة على شواطىء الأنهار بان في مقدوره رفع المياه راساً الى ما يزيد على المترين فوق مستوى سطح الأرض ، في حين ترفع الدواليب الاخرى الماء الى سطح الارض فحسب . ومنشأ هذا الاختلاف ان المسنن الراسي المحرك لمحور دولاب الدلاء ، يعلو على المسنن الافقي بخلاف الدواليب الاخرى ، التي يكون المسنن الراسي فيها في الأسفل . وهذا الوضع يفسح المجال

(١٠٠) وقد تبرع لفرض الدابة القار الذي في القناة المرفوعة بالف اوقية من الحطب ، ثم تبعه السيدان غياث الدين آل جميل وداود الكيلاني ، فتبرعا بمبلغ خمسمائة اوقية ايضا ، على ما نشرت الخبر في حينها جريدة الزوراء ونقلته جريدة صدى بابل البغدادية الصادرة في ١١ ذي القعدة سنة ١٢٢٨هـ .

(١٠١) من القصور الفخمة ، البديعة المنظر ، ببغداد . وقد قامت المؤسسة العامة للسياحة اخيرا بترميمه ، واعادته الى وضعه القديم ايام كونه عامراً .

(١٠٢) انظر اطلس بغداد ص ١٥ .

(١٠٣) قامت المؤسسة العامة للسياحة بترميمه ترميما حسنا ، ورفع ما كان في داخل بئره من انقاض .

للمحور الأفقي أن ينقل الحركة الى دولاب الدلاء بالارتفاع نفسه ، دون ان يشكل عائقاً لدوران الدابة تحته (الشكل ٣) .

ويمكن القول ـ بناء على ما تقدم ـ ان هذا التصميم هو الذي كان متبعاً في جميع الدواليب التي ترفع مياه الآبار الى قنوات عالية ؛ كساقية الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، ومنها قناة الشيخ عمر السهروردي ، وقناة الشيخ سراج الدين الآتي ذكرهما .

ساقية (قناة) الشيخ عمر السهروردي

انشأ هذه القناة والي بغداد الوزير حسين باشا السلاحدار (محرم ١٠٨٣هـ/١٦٧٢م ـ ١٠٨٥هـ/١٦٧٤م) ووقف عليها الأوقاف الكثيرة لادامتها والعناية بمرافقها . منها سوقا كبيرة انشأها عند باب المدرسة المستنصرية ، وعقارات اخرى اشتراها ، منها دكاكين متفرقة في جانبي بغداد ، ومقهى كان يعرف بقهوة مراد ، وبستاناً قرب مرقد الشيخ عمر السهروردي(١٠٤) فكانت تلك الاوقاف سبباً في استمرار عمل المشروع مدة تقرب من ثلاثة قرون(١٠٥) .

وكانت هذه القناة تأخذ مياهها بواسطة دولاب يرفع الماء من بئر عميقة عند شاطىء دجلة ، في شريعة الميدان ، بين مبنى المتحف العسكري السابق ، ونادي الضباط الحالي ، ثم تمتد من هناك مرفوعة على عقود عالية بنيت بالآجر والجص على صفة قناة الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، حتى تصل الى منطقة « الميدان » قرب جامع الأحمدية ، فتجتازه مشرّقة في درب طويل تقع عليه معظم محلات القسم الشمالي من بغداد الشرقية ، فتمد بمياه الشرب محلة الصابونجية ، ثم محلة ايلان دلي ، فمحلة الفضل ، والجلالي ، ثم تمتد باستقامة حتى تصل الى غربي جامع الفضل ، فتجتاز الدرب الذي يقع عليه فوق عقود(١٠٦) وتمضي مخترقة محلة خان لاوند ، ثم تتجه في ارض قاحلة حتى تصل الى جامع الشيخ عمر السهروردي ، حيث تصب هناك في سقايتين كبيرتين ، ويجرى الفائض من مائها ليسقي بستان السلاحدار الموقوفة عليها ، ترفيها للمارة في تلك النواحي النائية الموحشة(١٠٧) .

استمرت هذه القناة البديعة بأداء مهمتها حتى النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) فقد وردت في خارطة بغداد التي رسمها الكوماندر فيلكس جونز وكولنكود سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م على نحو يظهر امتدادها الى جامع الشيخ السهروردي . وذكر جونز ان من عقود محلة « ايلان دلي » عقداً سماه « عقد الساقية »(١٠٨) .

ولقد تعطلت اجزاء من هذه القناة في عهد والي بغداد نامق باشا الكبير (من ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م الى ١٢٦٨هـ/١٨٥١م)(١٠٩) ، وهي الأجزاء التي تصل بين محلة خان لاوند ، وبين جامع عمر السهروردي . اما الاجزاء الباقية ، فقد بقيت سليمة تؤدي مهمتها في نقل مياه الشرب الى المحلات السكنية . ولم تندثر تلك الاجزاء او تتعطل الا في عهد والي بغداد مدحت باشا (١٢٨٦ ـ ١٢٨٩هـ/ ١٨٦٨ ـ ١٨٧٢م) .

ويبدو ان تخرب هذه الاجزاء من القناة ، هو ما دفع ببعض اعيان بغداد واهل الخير منهم الى انشاء عدة سقايات جديدة تأخذ مياهها من الاجزاء السليمة الباقية منها ، وقد وقفنا على ثلاثة من تلك السقايات ، تقع الاولى في « الميدان » والثانية في محلة « البارودية » اما الثالثة فتقع في محلة « خان لاوند » الى الشرق من محلة الفضل . فكانت هذه السقايات تشكل بمجموعها مشروعاً واسعاً ـ نسبيا ـ لايصال مياه الشرب الى محلات بغداد في تلك الجهات . ويلاحظ ان تواريخ انشاء السقايات المذكورة كانت ترقى الى عهود مختلفة . كما يتضح لنا من تتبع أخبارها .

---

(١٠٤) مجموعة من وقفيات بغداد (مخطوط) .

(١٠٥) حكم هذا الوالي سنتين فقط ، وقام خلالهما بمشاريع كبيرة ذكرها مرتضى نظمي زاده في كتابه كلشن خلفا (ترجمة موسى كاظم نورس ، بغداد ١٩٧١) ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ومن غير المتصور ان تكون هذه الاوقاف كلها من ماله الخاص ، وانما هو قد اشتراها من واردات الولاية ، وربما من الجزء المخصص لارساله الى الدولة (وغالبا ما يجرى هذا بعلم الدولة فهذا المشروع وغيره من الاعمال الكبيرة التي يقوم بها الولاة ، هي في الحقيقة اعمال حكومية عامة ، وان ظهرت بمظهر الاعمال الخيرية لافراد .

(١٠٦) في ارض شارع الكفاح اليوم .

(١٠٧) عماد عبدالسلام رؤوف : سقاية الشيخ عمر السهروردي . جريدة التآخي البغدادية بتاريخ ١٩٦٨/٩/٢٣ .

(١٠٨) Jones, F. : Op. Cit., P. 320. واعيد نشر الخارطة ، في « اطلس بغداد » من وضع الدكتور أحمد سوسة (بغداد ١٩٥٢) ص ١٥ .

(١٠٩) على ما افادنيه الشيخ كمال الدين امام جامع عمر السهروردي عن ابيه الشيخ عبدالمحسن السهروردي ، في صيف سنة ١٩٦٥ .

أ ـ سقاية شوكت بك

انشاها دفتردار بغداد شوكت بك سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م في « الميدان » الى الشرق قليلاً من جامع الأحمدية (مدخل شارع الرشيد حالياً) ولكنها لم تلبث ان عطلت بعد مضي عهد قصير من انشائها ، ثم قام حفيد مؤسسها قدرت بك بن عصمت بك ، بتعمير سقاية جده سنة ١٣٣٠هـ/١٩١٢م ، وكان يومذاك مديراً للأموال الاجنبية ، فطلب من المهندس الفرنسي گودار Godard ان يصمم بناءها على هيئة بديعة ، ففعل ، واجرى لها الماء من تلك القناة ، وبلغت كلفة المشروع كله (١٠٨) ليرات عثمانية(١١٠) .

وكان للسقاية واجهتان ، على الاولى منهما ابيات عربية ، وعلى الأخرى ابيات فارسية وتركية، وكلها مكتوبة على الآجر القاشاني ، وتحيط بالكتابة صور لأغصان مورقة ، وثمار ملونة ، ونقوش . اما الأبيات فهي هذه(١١١) :

ناظر اوقاف العراق الفتى
شريف رب الحسب الطاهر
في البلدة الزوراء قضى نحبه
وفاز بالغفران من غافر
فسخر الباري له صاحبا
كان له في الزمن الغابر
محمد شوكت اقلامه
تغنى عن الذابل والباتر
انشا له هذا السبيل الذي
أبيح للوارد والصادر
اصفى من الدمع على فقده
ما قد جرى ارخ من الناظر
١٢٧٢

وانشئت حوالي السقاية حديقة نزهة غناء ، دامت أمداً من الدهر ، ثم اندثرت عند فتح جادة خليل باشا (شارع الرشيد الحالي) قبيل الاحتلال البريطاني لبغداد(١١٢) (انظر الصورة رقم ١) .

ويبدو ان لهذه السقاية اوقاف ، اوقفها مؤسسها الاول شوكت بك ، فقد جاء في ترجمة الشيخ محمد الأمين بن الشيخ عبدالرحمن السهروردي (ت ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م) انه كان « متولياً على أوقاف سبيل خانت (كذا) شوكت بك »(١١٣) .

ب ـ سقاية البارودية

لا يعلم تاريخ انشائها ، اذ لم تكن على جدرها وشباكها شيء من الكتابات الدالة على ذلك ، وكان موقعها في محلة البارودية ، في موضع مطل على شارع الفضل ، متصل بقناة الشيخ عمر السهروردي . ووصفها بعض من عاصرها بانها كانت تتألف من طابقين ، على اسفلهما شبابيك من نحاس ، على هيئة منبتة بديعة ، وفي داخلها حباب كبيرة تملأ بمياه الشرب . وبعد انقطاع تزويدها بالماء من الساقية المذكورة ، اصبحت تملأ كل يوم بواسطة السقائين .

جـ ـ سقاية سري باشا

انشاها والي بغداد سري باشا (١٣٠٧ ـ ١٣٠٨هـ/١٨٨٩ ـ ١٨٩٠م) على انقاض مبنى خان لاوند العتيق ، وجعل ما حولها بستاناً غرس فيه انواع الشجر . وصمم السقاية على هيئة حوض كبير من الرخام المتين ، ووضع في وسطه نافورة تقذف الماء في الهواء .

وقد أطرى العلامة عبدالوهاب النائب (ت ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م) هذا المشروع الخيري بقصيدة ، منها قوله(١١٤) :

هذي العدالة لا عدمتك منصفاً
تسقى العطاش اذا اتوك نميرها
ان النفوس لمثل ذالك ترتجي
لتكون في زمن الاياس بشيرها

ولما انتقل المشروع الى البلدية لادارته ، اصابه الاهمال، فتلفت منشآته، وصارت حفرة من الحفر ، واخيراً اشترى العلامة عبدالوهاب النائب ارضه وقسمها الى دور وحوانيت وخانات ، منها المدرسة التي عرفت بالحميدية وهي اليوم مدرسة الفضل الابتدائية .

وبهذا انتهى تاريخ آخر سقاية من سقايات هذا المشروع الكبير ، بعد أن لبث يزود اهل بغداد بحاجتهم من مياه الشرب نحو ثلاثة قرون .

(١١٠) وهم الاستاذ يعقوب سركيس في امر هذه السقاية ، وسقاية الشيخ عمر السهروردي نفسها ، وحقيقة القناة الوصلة بينهما ، والآخذة من دجلة ، فقال في مجلة البيان النجفية (عدد ١٥ شباط ١٩٤٦) « هل يمكن ان تكون سقاية في الميدان لمدرسة في جامع السهروردي والمسافة بينهما لا تقل عن كيلومترين ؟ »

(١١١) مجلة لغة العرب ٢ (بغداد ١٩١٢) ص ٣٩ ـ ٠) .

(١١٢) رسمها السيد رشيد الخوجة في خارطة بغداد التي وضعها سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٨م (انظر احمد سوسة : اطلس بغداد ص ١٦) .

(١١٣) محمد صالح السهروردي : لب الالباب (بغداد ١٩٣٣) ٢٥٩/٢ .

(١١٤) لب الالباب ٢٤/١ـ٢٥ .

سقاية (قناة) الشيخ سراج الدين

انشأها والي بغداد الوزير حسن باشا (١١١٦ – ١١٣٦هـ/١٧٠٤ – ١٧٢٣م) عند تعميره جامع الشيخ سراج الدين في محلة الصدرية (جزء من محلة سراج الدين حالياً) سنة ١١٣١هـ/١٧١٨م ، وذلك لمد الجامع والأسواق المزدحمة حوله بمياه الشرب(١١٥) .

ولقد اُتبع في تصميم هذه القناة ، وضع قناة الشيخ عبدالقادر وطريقة عملها . فكانت تأخذ مياهها من دولاب عند شاطىء دجلة ، في شريعة السيد سلطان علي ، وتمتد من هناك الى شارع السيد سلطان علي ، فتدخل يميناً في الدرب المعروف بطرف حاج فتحي ، وتخرج منه لتجتاز محلات السويدان والعوينة والصدرية ، حتى تصل الى سقاية الشيخ سراج الدين(١١٦) ، فتزودها بالماء ، أي انها كانت تبلغ طولاً قدره نحو ٧٠٠ متر تقريباً .

تقع سقاية الشيخ سراج الدين في الجهة المقابلة للجامع من جهة الشمال ، وكان فوق شباكها لوح من الرخام والحجر القاشاني ، عليه أبيات لامية تؤرخ لهذا العمل النافع ، منها(١١٧) :

اجريت للناس سبيلاً لهم
فيه سبيل الخير في كل حال
قد نزل الناس بساحاته
واجتذبوا الماء بدون الحبال
للشرب والطهر ورفع الأذى
حباك ربي نعمة لا تزال
هذا الذي فيه ينال الرضا
في عطش المحشر يوم السؤال
الله قد يسر تاريخه
اجرى لك الكوثر ماء زلال
١١٣١

قال السيد محمود شكري الآلوسي في وصفه هذه القناة « واوصل ايضاً (يريد : حسن باشا) الى هذا المسجد ساقية من ماء دجلة . وانشأ سقاية يشرب منها المار وابن السبيل(١١٨) » . وذكرها الشيخ عباس بن رجب البغدادي بصفتها « سقايات » لا واحدة(١١٩) ، مما دل على سعتها ووفرة مياهها .

وكانت تتشعب من القناة ، فروع تزود سقايات اخرى ، موزعة على طول مجراها ، وقفنا منها على :

ا – سقاية الشيخ عبدالكريم الجيلي

لا يعلم تاريخ انشائها ، وكانت عند جامع الشيخ عبدالكريم الجيلي(١٢٠) ، في الدرب المسمى بطرف الحاج فتحي(١٢١) ، المتفرع من شارع السيد سلطان علي . وزالت هذه السقاية عند نقض الجامع المذكور قبل سنين .

ب – سقاية الحاج فتحي

لا يعلم تاريخ انشائها ايضاً(١٢٢) ، ولعلها ترقى الى عهد سقاية الشيخ عبدالكريم الجيلي المتقدمة لتقارب الموضعين ، وكانت تقع في جامع الحاج فتحي ، في آخر الدرب المنسوب اليه .

ولقد استمرت هذه القناة بالعمل ، حتى استبدلت ، في مطلع القرن الحالي ، بانابيب معدنية دفنت تحت الارض ، ثم زالت سقاياتها تدريجياً او انقطع ماؤها ، بعد انتشار استخدام الانابيب الحديثة في تلك الناحية من بغداد .

---

(١١٥) قال الرحالة الدمشقي ، مصطفى بن كمال الدين الصديقي البكري ،عند قدومه بغداد سنة ١١٢٩هـ/١٧٢٦م « ولما وصلت جامع الشيخ سراج الدين – قدس الله سره المتين – الذي بناه المرحوم حسن باشا .. وقفت لدى الشباك ، والاسواق في اشتباك » (كشف الصدا وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان الورقة ٢٣ مخطوط) .

(١١٦) اشار السيد محمد رؤوف الشيخلي الى جزء من هذه القناة ، وهو الواصل من دجلة الى جامع الحاج فتحي ، ولكنه خلط بينها وبين سقاية الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، حين ظن انها تمضي من هناك الى جامع الشيخ الكيلاني فتزود سقايته بالماء . والصواب انها تنتهي الى جامع سراج الدين اما سقاية الشيخ الكيلاني فلها قناة مستقلة غيرها على ما قدمنا (الدليل الجغرافي لمدينة بغداد ص ٥٧ و ١٤١) .

(١١٧) مساجد بغداد ص ٥٨ (مخطوط) .

(١١٨) مساجد بغداد ص ٥٦ .

(١١٩) نيل المراد في أحوال العراق وبغداد (نشرنا بعض فصوله في مجلة الرسالة الاسلامية) العدد ١١٧–١١٨ (بغداد ١٩٧٨) ص ٤٧ .

(١٢٠) مسجد عامر قديم ، فيه قبر الشيخ عبدالكريم بن ابراهيم الجيلي (ت ٨٣٢ هـ) .

(١٢١) رقم بابه ١٩٧ وبعد نقضه لبث سنين ساحة خالية ، الا من القبر ، ثم قامت الاوقاف ببناء مدرسة في ارضه ، تحولت الى مدرسة ثانوية للبنات ، ومايزال القبر قائما .

(١٢٢) جامع قديم كان يطل على شارع الجمهورية ، ينسب الى أحد صلحاء الموصليين وقد انشاه سنة ١١٦٩هـ/١٧٥٥م . وكنا قد شاهدناه وقرأنا ماعليه من كتابات اثرية قبل نحو عشر سنوات ، الا انه هدم وازيلت انقاضه ، ومنها تلك الكتابات ، وهو اليوم ساحة خالية .

٣ ـ السقايات العامة

سقاية حسب‌الله الشابندر[١٢٣]

اشار اليها اوليا جلبي في رحلته الى بغداد سنة ١٠٥٨هـ/١٦٧٤م وسنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م ؛ وذكر ان لمؤسسها حسب‌الله قصراً عده بين قصور المدينة البارزة ، وحماماً عاماً ذكره في موضع آخر من رحلته[١٢٤] .

سقاية ابي بكر خواجه

اشار اليها اوليا جلبي ، وعد مؤسسها من اعيان بغداد في ايامه ، اي في تضاعيف القرن الحادي عشر للهجرة (١٧م)[١٢٥] .

سقاية سميز موسى باشا

انشأها والي بغداد موسى باشا الملقب بـ « سميز » اي السمين (١٠٥٧هـ/١٦٤٧م ـ ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م)[١٢٦] واشار اليها اوليا جلبي في رحلته[١٢٧] .

سقاية حسين باشا

اشار اليها اوليا جلبي في رحلته ، ولعل منشؤها والي بغداد حسين باشا (١٠٦٠ ـ ١٠٦١هـ/١٦٥٠م) .

سقاية مراد باشا

انشأها والي بغداد مراد باشا (٩٧٧ ـ ٩٧٨هـ/١٥٧٠ ـ ١٥٧١م) عند جامعه المعروف بالمرادية ، في محلة الميدان ، قبالة قلعة بغداد (وزارة الدفاع حالياً) . اشار اليها اوليا جلبي في رحلته .

سقاية حيدر جلبي الشابندر

انشأها حيدر جلبي شابندر التجار في بغداد في القرن الحادي عشر للهجرة ، وكان من اعيان بغداد وسراتها[١٢٨] ؛ وهو صاحب الحمام الشهير باسم « حمام حيدر » في شارع النهر ، اشار الى ذلك اوليا جلبي في رحلته ، وذكر ان له قصراً ايضا .

سقاية آل مدلج

انشأها الشيخ مدلج الصغير بن الشيخ ظاهر ابن الشيخ احمد الرجبي ، مفتي بغداد ، والمدرس في جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني (توفي سنة ١٠٨١هـ/١٦٧٠م) والحقها بمسجد ابتناه باتصال الشارع الذي يمر على مرقد الخلاني ، قرب زاوية انميدروسي ، في محلة الشيخ عز الدين الجديداوي (قسم من محلة السنك فيما بعد) .

وقد تعهد آل مدلج هذه السقاية والمسجد بالعناية المستمرة ، ففي سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م حبس الشيخ عبدالقادر مدلج عليهما الدار العائدة له والمتصلة بجامع النعماني ، مقابل مسجد العلامة محمد بن عبدالرحمن الرجبي مفتي الشافعية ببغداد ، بموجب الوقفية المؤرخة في السنة نفسها .

وفي سنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م وقفت السيدة عائشة خاتون بنت الشيخ عبدالقادر مدلج بستان في قصبة الكاظمية على مصالح المسجد والسقاية بموجب الوقفية المؤرخة في ٢٧ ذي القعدة من السنة المذكورة[١٢٩] .

سقاية ابي سيفين

شيدها والي بغداد حسين باشا السلاحدار (١٠٨٣ ـ ١٠٨٥هـ/١٦٧٢ ـ ١٦٧٤م) عند المرقد والمسجد المنسوبين الى « ابي سيفين »[١٣٠] الواقعين في محلة الطاطران ، وهي آخر المحلات المعمورة من بغداد الشرقية في العصر العثماني . وقد وردت الاشارة اليها في وقفية حسين باشا المذكور ، المؤرخة في سنة ١٠٨٦هـ/١٦٧٥م[١٣١] .

---

(١٢٣)الشابندر تخفيف لـ (شاه بندر)شاه،ملك:بندر ميناء ، او فرضة (او مدينة تجارية) وفي الاصطلاح:الشاهبندر، هو كبير تجار المدينة ورئيس طائفتهم . وشيخ بندر قريبة من شاهبندر بالمعنى والمبنى ، وبخاصة ان الاتراك يلفظون الشين هاء ، وقد اوردها على هذا الشكل مرتضى نظمي زاده : كلشن خلفا ص ٢٥١ .

(١٢٤) اوليا جلبي سياحتنامه سي ٤٢٠/٤ و ٤٢١ .

(١٢٥)المصدر نفسه ٤٢٠/٤ .

(١٢٦) كلشن خلفا ٢٤٢ وتاريخ نعيما (استانبول ١٢٨٠) ٤٢٠/٤ والاثر الوحيد الذي مايزال قائما من آثار هذا الوالي ، لوحة رخام مثبتة على المرقد المنسوب لابن‌الجوزي في محلة السنك ، قرب بئر سقاية الشيخ عبدالقادر الكيلاني .

(١٢٧) اخباره في كلشن خلفا ص ٢٥٢ .

(١٢٨) اوليا جلبي سياحتنامه سي ٤٢١/٤ .

(١٢٩) مجموعة من وقفيات بغداد (مخطوط) .

(١٣٠) ورد اسمه في قائمة اولياء بغداد (مخطوط كتب في القرن الحادي عشر للهجرة) على النحو الآتي « الشيخ محمد ابو سيفين في محلة الطاطر » وذكر عباس‌بن‌رجب‌البغدادي انه احد « المجاهدين الذين اتوا مع المرحوم السلطان مراد خان الرابع » . نيل المراد في احوال العراق وبغداد ، (مخطوطة نشرنا بعض فصولها في مجلة الرسالة الاسلامية ، العدد ١١٧ ـ ١١٨ ، ١١٩ ـ ١٢٠ ، و ١٢١ ـ ١٢٣(بغداد ١٩٧٨) .

(١٣١) مجموعة وقفيات بغداد (مخطوط) .

سقاية مرقد الغزالي

شيدها والي بغداد حسين باشا السلاحدار ، عند القبر المنسوب الى الامام ابي حامد محمد بن محمد الغـــزالي (المتوفى في طوس سنة ٥٠٥هـ/١١١١م) وقد اشير اليها في الوقفية المتقدمة(١٢٢) .

سقاية مرقد ام موسى الكاظم

شيدها والي بغداد حسين باشا السلاحدار ، في ناحية قاحلة خارج المنطقة المأهولة من بغـداد الشرقية . وقد وردت الاشارة اليها في الوقفيـة المشار اليها آنفا(١٢٣) .

سقاية جامع علي افندي

انشأ هذا الجامع الحاج علي افندي بن مراد من اهالي القرم سنة ١١٢٣هـ/١٧١١ ، وموقعـه في محلة راس الكنيســـة (جزء من محلة الميدان حاليا) . وانشأت سقايته السيدة امينة ، احدى المحسنات ببغداد في العصر العثماني . وكتبت على جدار السقاية الأبيات الآتية(١٢٤) :

ذا سلسبيــــل مــاؤه سلســـل
راق ومنـــه طاب نفســا وارده

زلالـــه عـــذب فرات سائـــغ
شرابـــه يروي العطـــاش بارده

عين الرضـــا قد سلسله صافيــا
موصولـــة لشـــارب عوائـده

خيراتـه امينـــة من ربيـــة
نافعـــة والخير طاف شاهـــده

مرصعا بجوهـر انعقـــد أتى
تاريخـــه حـــوض صفت موارده

وقد زالت هذه السقاية عند هدم الجامـــع وشق شارع الجمهورية ، ثم قامت الأوقاف باعادة بنائه على صورة حديثة لا صلة لها بشكله القديم .

سقاية السيدة سكينة العباسية

شيدتها السيدة سكينة بنت محمد العباسية، في المسجـــد الذي كانت أسرتهـا لتولاه منذ سنة ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م ، وموقعه في ارض « ســـراي بغداد » . وكان موضع السقاية منه مما يلي باب الجامع من شرقيه في السوق ، ورتبت للسبيل مسبلا وســـقاء ماء النهر الى حوض السبيـــل . وشرطت للاول يوميا خمس آقجات وللثاني ست آقجات ، وثبتت ذلك في نص الوقفية . وقد بقيت هذه السقاية قائمة حتى هدمها في ايام ولاية مدحت باشا (سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٨م) وقيل ان كتابات اثرية كانت عليها حطمت في اثناء هدمها(١٢٥) .

سقاية كنج عثمان

كانت تقع عند قبر كنج عثمان ، احد المحاربين العثمانيين الذين اسهموا في فتح عـدد من المـدن العراقية ، قبل قدوم السلطان مراد الرابع سـنة ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م(١٢٦) . وليس من المعروف تاريخ انشاء هذه السقاية عند قبره . ومن المرجح انها انشأت سنة ١١٣٣هـ/١٧٢٠م عند قيام والي بغداد حسن باشا بتجديد قبة قبره ، ومصلاه وتزيينه بقطع القاشاني وفيه مايسجل المناسبة ويؤرخها .

وقد لبثت هذه السقاية قائمة حتى مطلع هذا القرن ، وقامت دائرة الاوقاف بتعميرها ، وما حولها من آثار ، سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م ، ولكنها هدمت وسويت بالارض سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٤م ، ولم يبق منها سوى القبر وحده في الطريق . وفي ٢٠ ربيع الاول سنة ١٣٣٦هـ/١٩١٧ قام المحتلون الانكليز بازالته وتسويته في الطريق ، ونقلت بقايا رفاة كنج عثمان الى مقبرة الشهداء خارج سور بغداد(١٢٧) .

سقاية جامع النعمانية

انشأتها السيدة فاطمة خاتون بنت بكتاش بن ولي سنة ١١٨٥هـ/١٧٧١م والحقتها بالمسجد الذي ابتنته في محلة الشط (جزء من محلة الميدان حاليا) ووقفت على المسجد والسقاية اوقافا كثيرة ، وجعلت التولية من بعدها لزوجها نعمان اغا بن الحاج ابراهيم اغا (ومنه اكتسب الجامع اسمه) ومـن بعـده لاولاده(١٢٨) . وكان موضع السقاية من المسجد قرب بابه ، يطل شباكها على الطريق (انظر الصورة رقم ٢) وفي سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٢م أعاد من اسمه عبدالحميد تعمير السقاية . فكتبت عليها ستة أبيات دالية ، على ثلاثة أسطر ، تؤرخ ذلك . هي(١٢٩) .

---

(١٢٢) المجموعة نفسها .

(١٢٣) وقد وقف عليه عقارات جمة ، فصلها في وقفيته المؤرخة ٨ جمادي الاولى سنة ١١٣٣هـ/١٧٢٠م .

(١٢٤) محمود شكري الالوسي : مساجد بغداد ص٧٠ (مخطوط)

(١٢٥) محمد صالح السهروردي في جريدة العراق البغدادية ، بتاريخ ١٥ تشرين الاول سنة ١٩٢٠ .

(١٢٦) اخباره في تاريخ نعيما ١٩/٣ ومحمد ثريا : سجل عثماني ٤١٨/٢ .

(١٢٧) رزوق عيسى في مجلة لغة العرب ٢٣٢/١ وعباس العزاوي تاريخ العراق بين احتلالين ١٨/٥ .

(١٢٨) مجموعة من وقفيات بغداد (مخطوط) .

(١٢٩) نقلتها من على شباكها مباشرة في صيف سنة ١٩٦٧م . وكانت قد فقدت معالمها تحت طبقات من الاسمنت في اثناء بعض اصلاحات الجامع ، فلم تعد تقرأ . فقمت بحكها وازالة مابشوهها ، فظهرت جلية الى العيان .

هـذا السـبيل على تقى حوض أجر
حميـد السـجايا قد بناه جـديدا
وهـذب بالطبـع السـليم نميره
فاصبـح عـذباً للشـفاء مفيـدا
وراق بـه المـاء الـزلال كخلـقه
من الطبـع ان تجني الورود ورودا
لـه الطالـع السـعد المنور بالهـدى
ابى الله الاّ ان ان يعيش سـعيدا
الا ايها الظامي لك الشـرب سـائغ
هنيئـاً مريئـاً ان قضـيت ورودا
تـرى الكوثـر الصافي عليه مؤرخا
ورودك حـوض السلسبيل حميـدا

سقاية مسجد الست نفيسه

ترقى الى القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد) . انشأها بعض أهل الخير في مسجد الست نفيسه في الجانب الغربي من بغداد(١٤٠) . ونالت اهمية خاصة نظرا لموقعها في آخر عمران هذا الجانب . وقربها من خط الترامواي الذي انشاه مدحت باشا والي بغداد . ولبثت هذه السـقاية موجودة حتى توسيع الشارع الذي تطل عليه (شارع موسى الكاظم) سنة ١٩٥٤ ، فنقضت ، مع قسم من المسجد ، وعند اعادة بناء المسجد لم تبن السقاية المذكورة(١٤١) .

سقاية زكريا الخضيري

انشأها الحاج زكريا بن عبدالوهاب بن ملا خضر المعروف بالخضيري ، أحد وجهـاء بغـداد وتجارها في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر للهجرة (١٨ و ١٩) الحقها بمسـجده الذي شيده في محلة التسابيل ، القريبة من محلـة باب الشيخ في شرقي بغداد ، وهو المعروف بمسجد التسـابيل . وكان افتتـاح السـقاية سـنة ١٢٢٨هـ/١٨١٢م ، وقد كتبت على شباكها خمسة ابيات لامية هي :

اباح لوراد مـن المـاء صـافيـا
واوردهـم عذبـا فراتـاوانهـلا
وصـيره وقفـاً علـى كـل وارد
اراد وضـوا او تطلـب منهـلا
فحـاز ثوابـ" كالذي صـام دهـره
وصـلى دوام العمـر طولا وهللا
تـرى زمـر الوراد تأتي صـواديـا
وترجـع من ري مـن المـاء عللا
لـذلك اضحـوا قائلـين وارخـوا
سـقى زكريـا ليوم يبعث سـلسلا
١٢٢٨

وعند وفاة الواقف سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٧م ، دفن في مسجده ، قرب السقاية المذكورة .

وعلى الرغم من جسامة الاوقاف التي حبسها الواقف(١٤٢) ، اهمل مسجده وترك . وافرزت مديرية الاوقاف محل السقاية واقتطعت قطعـة من ساحة الجامع ، فادخلتها ضمن ارض السقاية ، ودفعتها الى وزارة المعارف يومذاك بالاجارة الطويلة فانشأت عليها الاخيرة مدرسة ابتدائية تسمى بمدرسة التسابيل . فكان هذا آخر العهد بالسقاية.

سقاية خضر بك

انشأها خضر بك بن عبدالله جلبي بن امير الحاج محمد ياسين جلبي ، أحد امراء الحلة في القرن الثاني عشر(١٤٣) ، في جامعه الذي شيده في محلة امام طه من شرقي بغداد سنة ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م ، وخصص لها شيئاً من الاوقاف ، وشرط ان يشترى الماء من شاطىء دجلة بـ (١٢٠) آنجـة يوميـا . وخصص رواتب ثابتة للعاملين فيهـا وفي سنة ١٢٣٩هـ/١٨٢٣م وقفت السيدة رحمة خاتون بنت عبدالكريم جلبي بن محمد ياسين جلبي ، من اسرة الواقف الاول ، عددا من البسـاتين على مصـالح الجامع وسقايته(١٤٤) .

---

(١٤٠) ينسب الى السيدة نفيسة القشطيني من فضليات بغداد في القرن الثاني عشر للهجرة ويرى بعضهم ان مؤسسه هو محمد سعيد القشطيني الاول ، عمره بخالص ماله ، في حين يرى آخرون انه محمد سعيد المشهور بالحاج اسعودي التكريتي . ووصفه محمد افندي الناصري التكريتي فقال « فيه غرفة تحتانية فيها قبور عديدة ، منها قبر الرجل الصالح المشهور بالكرامات الشيخ موسى الجبوري (توفي سنة١٢٤٦هـ/١٨٣١م) وقبر الشيخ عبدالغفور أحد خلفاء الشيخ خالد النقشبندي (توفي سنة١٢٧٢هـ/١٨٥٥م) .. ولم اقف علىتاريخ تاسيسه ، وفيه قبر بجانب البئر عن يمين غرفة المقبرة للداخل فيها يقال انه هو محمد سعيد افندي الحاج اسعودي والله اعلم ، اما اليوم فالاوقاف قائمة بمصارفه وفيه خطيب وامام ومؤذن وخادم ، تقام فيه الجمع والاعياد والجماعات » ذيل مساجد بغداد (مخطوط) .

(١٤١) الالوسي : مساجد بغداد ص ٥٦ (مخطوط) .

(١٤٢) الوقفيتان المؤرختان ٢٥ ذى الحجة ١٢١١هـو١٧ شعبان ١٢١٧ الصادرتان من المحكمة الشرعية ببغداد .

(١٤٣) توفى سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٧م وهو من الاسرة التي عرفت فيما بعد بآل عبدالجليل وحكمت الحلة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة .

(١٤٤) مجموعة من وقفيات بغداد (مخطوط) .

بيد ان الخراب لم يلبث ان استولى على هذه المنشآت الخيرية حيناً من الدهر ، وعند قيام المتولي بتعمير الجامع وتجديده ، اهملت السقاية فانقطعت اخبارها منذ ذلك الحين(١٤٥) .

سقاية اسماعيل الشطي

انشأها الحاج اسماعيل جلبي بن عبدالرحمن جلبي الشطي البغدادي من التجار البارزين ببغداد في القرن الثالث عشر للهجرة(١٤٦) : سنة ١٢٠٧هـ / ١٧٩٢م وكان موقعها قرب جامع القزازة في محلة القاهرة من شرقي بغداد(١٤٧) .

سقاية عادلة خاتون

انشأتها السيدة عادلــة خاتون بنت والي بغداد احمد باشا (توفيت سنة ١١٨٢هـ/١٧٦٨م) سنة ١١٦٠هـ/١٧٤٧م ، في مسجدها المعروف بجامع العادلية الصغير(١٤٨) على طريق الجسر القديم : جسر الشهداء حاليا)(١٤٩) . وكان على باب المسجد لوحة من الرخام عليها ستة ابيات دالية فيها اشارة الى السقاية ، وتاريخها ، منها :

فلما زها بنيــان باب دخولــه
وجلت ماء الظمآن من الصــدى
هنالك اقتباسيانه (كذا) الذكر ارخوا
لرب السماء الهادي ادخلوا الباب سجدا
١١٦٠

سقاية جامع السراي

لا يعلم منشؤها ، وكانت تقــع في جامــع السراي(١٥٠) ؛ ويطل شباكها على الطريق المؤدية الى ساحة مديرية الشرطة . أشار اليها عباس بن رجب البغــدادي سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٤م(١٥١) . وبقي حوض السقاية موجوداً في موضعه ، وهــو من حجــر الحلان المنقــور ، المتوفر في نواحي الموصل ؛ وله ثلاث فتحات لصب الماء منه ، وعند تعمير الجامع مؤخراً ازيل هذا الحــوض الاثري وكسر فلم يبق للسقاية اي اثر .

سقاية نابي خاتون

انشأتها السيدة نابي خاتون بنت عبدالله ، زوج والي بغداد سليمان باشــا الكبير (١١٩٤ ــ ١٢١٧هـ/١٧٨٠ ــ ١٨٠٢م) ووالدة والي بغــداد سعيــد باشــا (١٢٢٨ ــ ١٢٣٢هـ/١٨١٣ ــ ١٨١٦م)(١٥٢) باتصال مدرستها التي شيدتهــا في السوق الجديد من « الميدان » بالجانب الشــرقي من بغداد سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م ووقفت عليها ، وعلى مدرستها ؛ عقــارات عديدة ، ابتتهــا في وقفيتهــا المؤرخــة في ٢٨ رجــب ١٢٣٧هـ/ ١٨٢١م(١٥٣) .

سقاية السيف

انشأها والي بغداد داود باشــا (١٢٣٢ ــ ١٢٤٧هـ/١٨١٦ ــ ١٨٣١م) عنــد جامــع السيف(١٥٤) ، حين قام بتعميره تعميراً شاملاً في الســنوات ١٢٣٦ ــ ١٢٤٠هـ/١٨٢٠ ــ ١٨٢٤م « ليستقي منها الناس ويشرب من مائهــا ابنــاء السبيل »(١٥٥) وقد امتدحها الشيخ محمد صالح التميمي بابيات بائية كتبت على جدرانها ، هي :

---

(١٤٥) يقع الجامع اليوم قريبا من شارع الجمهورية ، مجاورا لمركز شرطة الهدية .

(١٤٦) ولد سنة ١١٨٢هـ/١٧٦٨م ولااعلم تاريخ وفاته .

(١٤٧) نقض هذا الجامع وادخلت ارضه في شارع الجمهورية عند فتحه .

(١٤٨) ويعرف باسم جامع الدنكجية نسبة الى (العقد) الذي يقع فيه .

(١٤٩) نقض هــذا الجامع وادخلت ارضه في شــارع المأمون ، وشيدت الاوقاف جامعا كبيرا باسمه على يسار الذاهب الى الاعظمية .

(١٥٠) ويسمى جامع جديد حسن باشا ، وكان يسمى قديما بالجامع السليماني نسبة الى السلطان سليمان القانوني الذي عمره سنة ٩٤١هـ/١٥٣٤م ثم جدده والي بغداد الوزير ابراهيم باشا سنة ١٠٩٤هـ/١٦٨٢م واعاد بناءه ووسعه والي بغداد حسن باشا (المتوفى سنة ١١٣٥هـ/١٧٢٢م) وليبنت جامعا خاصا بالولاة والوزراء طيلة العصر العثماني .

(١٥١) مجلة الرسالة الاسلامية العدد ١٢١ ــ ١٢٢ (بغداد ١٩٧٨) ص ٨٦ .

(١٥٢) شاركت هذه السيدة في الحكم واسهمت في توجيه سياسة زوجها وولدها ، وبعد مقتل الاخير ، اعتكفت عن الناس وتركت الحياة العامة ، ثم شرعت بجملة اعمال خيرية نافعة منها هذه السقاية . انظر : سليمان فائق : مرآة الزوراء في اخبار الوزراء (المسمى تاريخ بغداد) ترجمة موسى نورس ص ٥١ وتاريخ المماليك الكولة مند في بغداد ، ترجمة نجيب الارمنازي ص ٤٩ .

(١٥٣) مجموعة من وقفيات بغداد (مخطوط) .

(١٥٤) مسجد قديم كان على شاطيء دجلة الغربي ، قريبا من جسر الشهداء الحالي ، كنا قد رجحنا ان اصله في العصر العباسي دار القرآن البشيرية المشيدة سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م وعمر في عهد السلطان سليم الثالث سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م ومن المؤسف ان ينقض هذا الاثر المهم ويحطم ما عليه من كتابات اثرية ، ليمسي ساحة لوقوف السيارات ! عماد عبدالسلام رؤوف: دار القرآن البشيرية وهل هي مسجد السيف القديم . جريدة البلد البغدادية بتاريخ ١٠-١١-١٩٦٦ .

(١٥٥) ديوان محمد صالح التميمي .

ارى كل مكرمة في الورى
الى غير داود لا تنسب
حبى الكرخ من بركة سيبها
اذا نضب البحر لا ينضب
وما يبتغي الناس من صيب
ونائل راحاته صيب
اذا ذقت من مائها فاستمن
باخر ري به يعذب
وارخ وناد بواردها
هنيئاً مريئاً لمن يشرب

واندثرت هذه السقاية عند نقض الجامع نفسه سنة ١٩٦٦م ، فلا اثر لها اليوم .

سقاية جامع الأزبك

انشا هذه السقاية او جددها والي بغداد داود باشا سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٨م ، وكانت تطل بشباكها من جامع الأزبك ، على الطريق العام ، فهي قريبة من باب المعظم ، الى يمين الداخل منه الى بغداد . وبقيت موجودة حتى الربع الاول من هذا القرن(١٥٦) .

سقاية جامع الحيدرخانة

انشاها والي بغداد داود باشا سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٩م في جامع الحيدرخانة الذي عمره ، او اتم تعميره في تلك السنة(١٥٧) . وكان لها شباك مطل على سوق الحيدرخانة ينهل منه المارون(١٥٨) . وشرط مؤسسها في وقفيته « لمن يناول الماء للشاربين من الماء المسبل للشرب خمسون قرشاً .. وللسقاء الذي ياتي بماء الجامع في كل يوم عشرة قرب ، ثلثمائة وستون قرشاً »(١٥٩) .

سقاية خاتون بنت عبدالله

شيدتها السيدة خاتون بنت عبدالله وزوجها احمد آغا بن اسماعيل اغا سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م ، وكانت تقع في محلة الميدان ، ببغداد الشرقية ، مطلة بشباكها على الشارع العام(١٦٠) . ووقفت عليها اربعة دكاكين في المحلة نفسها ، وشرطت ان تصرف الغلة على لوازم السقاية والفضلة تكون لذريتها ، وبعد انقراضها تصرف جميع الغلة على السقاية وتعميرها . وسجلت هذه الوقفية في ٧ صفر من السنة نفسها(١٦١) .

سقاية عاتكة خاتون

انشأتها السيدة عاتكة خاتون بنت السيد علي القادري الكيلاني نقيب الأشراف (توفيت سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م) في مدرستها التي شيدتها قرب جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ببغداد سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م وعرفت بالمدرسة الخاتونية(١٦٢) . وقد وقفت على مدرستها هذه وسقايتها اوقافا جمة ، وشرطت للسقاية كل يوم مبلغاً قدره (٢٤) آقجة(١٦٣) . ولكن خراباً اصاب جميع هذه المنشآت نتيجة الطاعون الجارف والغرق الذي الم ببغداد سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م ، فاندرست ومحي اثرها(١٦٤) .

سقاية نازندة خاتون

انشأتها السيدة نازندة خاتون بنت مصطفى اغا (توفيت سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م) زوج علي باشا والي بغداد (١٢١٧ — ١٢٢٢هـ/١٨٠٢ — ١٨٠٧م) وافتتحتها سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م(١٦٥) . وكانت تقع في الجامع الذي شيدته في محلة الحيدرخانة ، قريباً من شارع الرشيد ، يطل شباكها على الطريق ، وخصصت لها منشآتها من الاوقاف العديدة التي وقفتها مبلغاً قدره (١٨٠٠) قرشا رائجا ، للانفاق على صيانتها ، ومدها بالماء على الدوام(١٦٦) .

وقد تعطلت هذه السقاية منذ ان لحق الخراب الجامع نفسه ، في اوائل القرن الحالي(١٦٧) .

---

(١٥٦) انظر عن هذا الجامع : عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ٥/٢٥ وديوان محمد صالح التميمي ص ٧٩ .
(١٥٧) اسامة النقشبندي : جامع الحيدرخانة ، عمارته وموضعه . مجلة سومر مجلد ٢٩ جزء ١-٢ (بغداد ١٩٧٣) ص ٢٤٥ .
(١٥٨) زال هذا السوق ، وكان يقع في ارض شارع الرشيد ، ويتصل بالواجهة الحالية للجامع بعقود .
(١٥٩) مجموعة من وقفيات بغداد (مخطوط) .
(١٦٠) في نص الوقفية انها تقع بين الشارع العام وملك عبدالكريم النقطجي .
(١٦١) مجموعة من وقفيات بغداد (مخطوط) .
(١٦٢) عماد عبدالسلام رؤوف : الآثار الخطية في المكتبة القادرية (بغداد ١٩٧٤) ٢٩/١ .
(١٦٣) وقفية المدرسة الخاتونية مؤرخة في ٢٠ جمادى الاولى سنة ١٢٢٥هـ . المحكمة الشرعية ، سجل ١١ ص ٢٠٧ .
(١٦٤) ابراهيم الدروبي : البغداديون ، اخبارهم ومجالسهم (بغداد ١٩٥٨) ص ٢٢٩ .
(١٦٥) البغداديون ص ٢٤٠ .
(١٦٦) مجموعة من وقفيات بغداد (مخطوط) .
(١٦٧) اعادت الاوقاف بناءه ليكون مدرسة دينية باسم« المدرسة نازنده خاتون » .

سقاية دكان شناوه

لا يعلم مؤسسها ، وكانت تقع في محلة « دكان شناوه » بين محلة الحيدرخانة جنوباً ، والقراغول شرقاً والصابونجية شمالاً والميدان غربا .

ذكرها فيلكس جونز سنة ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م ، اذ اشار الى ان عقداً من عقود هذه المحلة يسمى « عقد السبيلخانة »(١٦٨) . ولا ندري الى اي عهد بقيت .

سقاية صبغة الله الحيدري

انشاها السيد صبغة الله بن ابراهيم الحيدري البغدادي ، مفتي الشافعية ببغداد (توفي سنة ١٢٧١هـ/١٨٥٤م)(١٦٩) سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م وكان موقعها قرب جامع الخلفاء (جامع القصر قديماً) ببغداد الشرقية . وكتب على جدارها ، بالرخام ، خمسة ابيات حائية ، تضمنت اسم المنشيء ، وتاريخ انشائها . وكان السيد محمود شكري الالوسي (توفي سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م) قد سجل هذه الابيات ، قبل نقضها ، وهي(١٧٠) :

ذي بركة يرتوي منها بضحضاح
كادت تؤلف ابدانا بارواح
فصبغة الله اجرى ماءها غدقا
للواردين بتبريد واصلاح
يرجو الثواب من الرب الكريم بها
يوم الحساب وان يسقى باقداح
بشراه قد ربحت فيها تجارته
وفاز في خير محصول وارباح
ان جئت ظمآن قلب يا مؤرخها
اشرب هنيئاً مريئاً بارد الراح

وعند هدم الجامع سنة ١٩٥٨ لشق شارع الجمهورية ، زالت هذه السقاية وفقدت الرخامة المذكورة . وبقيت كذلك ، حتى اسعدني الحظ بالعثور عليها ، واذا بها ما تزال في حالة جيدة ، يبلغ طولها ٣٦ سم وعرضها ٣٥ سم وثخنها ٥ر٥ سم . وقرأت عليها ، بعد حكها وتنظيفها ، الابيات الخمسة المذكورة ، وهي مكتوبة بخط النسخ البديع ، ومنقوشة باتقان وعناية .

ومما يلفت النظر ان الالوسي سجل تاريخ شطر الشعر في الرخامة (١٢٦٠) رغم ان المكتوب على الرخامة نفسها (بالارقام اضافة الى مجموع الحروف) هو ١٢٦٧ وعليه جرى الاستاذ يعقوب سركيس في بحثه عن « منارة جامع سوق الغزل »(١٧١) والاستاذ عباس العزاوي في مقاله « جامع الخلفاء » ، لعدم اطلاعهما على النص الوارد فيها عيانا (انظر الصورة رقم ٢) .

سقاية خلف اغا

انشاها خلف اغا ، قائم مقام الحلة(١٧٢) في عهد والي بغداد نامق باشا الكبير سنة ١٢٧٧هـ/١٨٥٣م قرب حديقة له ظاهر سور الكرخ ، في الجانب الغربي من بغداد وكان « يبرد فيها الماء العذب لشرب ابناء السبيل » . وكتب على جدار السقاية قصيدة بائية ، فيها تاريخ انشائها ، وهي(١٧٣) :

هذا سبيل لا عيب فيه قد
راق لابناء السبيل مشربا
كوثر ماء في رياض جنة
يجنى جنى الجود منها رحبا
رق لظمآن الحشا سلساله
رقى سلسال زلال الصهبا
مدى عليه للقرى قصر علا
طال الزمان في علاه الشهبا
اكرم به من « خلف » سلسبيله
اوقفه لله منه حسبا
وراح كل وارد وصادر
يشكره شكر الرياض السحبا
وكم ورى قلباً به لحاسد
وكم به روى لصاد قلبا
ومن تكن عقباه مثل هذه
فلا يخف يوم المعاد العقبا
يا حبذا سيب سبيل ورده
فارخت شراباً عذبا
١٢٧٧

سقاية نائلة خاتون

انشاتها السيدة نائلة خاتون بنت عبدالرحيم سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م ظاهر اسوار الجانب

(١٦٨) Jones, F., Op. Cit., P. 314.

(١٦٩) ترجم له ابنه ابراهيم فصيح في كتابه « عنوان المجد في بيان احوال بغداد والبصرة ونجد » (بغداد ١٩٦١)ص١٢٠-١٢١ .

(١٧٠) مساجد بغداد ص ٦٧ (مخطوط) .

(١٧١) مباحث عراقية (بغداد ١٩٤٨) ٢٢٦/١ وفيه مايوافق السنة (١٢٦٠هـ) حسب التاريخ الميلادي ، وهو١٨٤٤م) .

(١٧٢) يوسف كركوش : تاريخ الحلة (النجف ١٩٦٥) ١٤٣/١ .

(١٧٣) مساجد بغداد ١٢١ (مخطوط) .

الشرقي من بغداد ، على الطريق المؤدية الى قصبة الأعظمية ، ضمن البستان المعروف ببستان الوقف ، قريباً من سقاية الحجية[174] . ووقفت عليها اوقافاً دارة ، وشرطت ان يصرف عليها من غلتها ، وما يتبقى يصرف على المدرسة التي انشأتها قبالة جامع الحيدرخانة ببغداد[175] . كما جعلت هذه السقاية مدفناً لزوجها مراد افندي المتوفى سنة انشائها ، ثم مدفناً لها بعد وفاتها سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م . وقد بقيت السقاية قائمة للنفع العام حتى ازالتها عند توسعة الشارع سنة ١٩٣٥ ونقل رفاة دفينيها الى مقبرة الامام الاعظم . ولما بنى السيد عبدالحميد الدهان جامعه على قطعة ارض تعود الى هذه الواقفة ، بنى فيه سقاية ، وهي موجودة الى اليوم[176] .

سقاية سلمان القادري

انشأها السيد سلمان بن علي بن سلمان القادري الكيلاني ، نقيب الأشراف ببغداد (توفى ١٣١٥هـ/١٨٩٧م) سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م . وتقع باتصال المسجد الذي شيده في السنة نفسها ، والواقع في محلة السنك من شرقي بغداد[177] . وقد وقف على مصالح سقايته ومسجده اوقافاً جساماً ، فصلها في نص وقفيته ، وشرط « ان يكون الماء جارياً بلا انقطاع شتاء وصيفاً يستقى كل من اراد من ابناء السبيل والمترددين ، ومن اراد حمل الماء بالأواني المخصوصة الى بيته من الحوض المعد لذلك فلا يسوغ لاحد منعه ، ومن منعه وقطعه فعليه ما يستحق من الله تعالى ! » وشرط ان يعطى لمن يقوم بخدمة السقاية ٧٥ قرشاً صاغاً كل شهر ، اضافة الى مخصصات مالية عديدة لتغطية مصارف السقاية الاخرى[178] . ولبثت فوق شباكها لوحة رخامية نقشت عليها خمسة ابيات بائية ، فيها تاريخ انشائها . وهي :

سيد القوم وفخر النجبا
من له فوق الثريا نسب
رضى الله على افعاله
وبه يعلو العلى والرتب
بالندى بمنساه أجرت مورداً
جلة الوارد منه تشرب
فاذا قلت لعمري دجلة
ماؤها عذب فرات طيب
قلت بالواحد لطفاً ارخوا
سلسبيل القادري اعذب
١٣٠٠

وما تزال هذه السقاية قائمة ، وعليها ما نقلناه من ابيات ، الا ان الماء انقطع عنها منذ عهد بعيد (الصورة ٤) .

سقاية عبدالرزاق الخضيري

انشأها الحاج عبدالرزاق چلبي بن ياسين بن عمر الخضيري سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م عند مسجد الشيخ عبدالعزيز الانصاري في محلة الشيخ سراج الدين من شرقي بغداد ، وذلك بمناسبة تعميره للمسجد المذكور في تلك السنة . ووقف عليها بعض الأوقاف ضماناً لدوامها[179] .

سقاية عطية خاتون

انشأتها السيدة عطية خاتون بنت محمود اغا بن عبدالله سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م باتصال باب جامع العاقولي[180] في شرقي بغداد ، ووقفت عليها داراً في محلة جديد حسن باشا ، وشرطت صرف غلتها على اصلاح السقاية وترميمها . واوكلت امر توليتها الى اسماعيل افندي بن الحاج سليم بن امين بن شعبان ، وجعلت النظارة عليها للعلامة السيد نعمان خيرالدين الآلوسي (توفى سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م)[181] . ولم يبق للسقاية اليوم اثر ، وقد علمت ممن عاصرها انها زالت في الاربعينات من هذا القرن .

سقاية صالح بن محمد

انشأها الشيخ صالح بن محمد بن فتاح في محلة (فضوة عرب) التي هي جزء من محلة باب الشيخ ، ووقف على ادارة مصالحها دار سكناه وكانت تقع بقربها بموجب الوقفية المؤرخة في ٧ ذي القعدة سنة ١٣١٢هـ/١٨٩٥م[182] .

---

(١٧٤) سيأتي الكلام عليها في هذا البحث .
(١٧٥) الوقفيات المؤرخات ٩ ربيع الاول ١٢٩١ و ١٦ ذى الحجة ١٢٩١ و ٦ ربيع الاول ١٢٩٢ .
(١٧٦) البغداديون ٣٠٦ وهاشم الاعظمي : تاريخ جامع الامام الاعظم (بغداد ١٩٦٥) ٢/١٩٠ .
(١٧٧) محمد صالح السهروردي : لب الالبا ب٢/١٢١ .
(١٧٨) وقفية السيد سلمان القادري ، مورخة في ١٧ رمضان ١٣١٢هـ . المحكمة الشرعية السجل ٤٤ .
(١٧٩) مجموعه من وقفيات بغداد (مخطوط)
(١٨٠) جامع قديم كبير في محلة العاقولية التي نسبت اليه ، كان في الاصل دارا للشيخ جمال الدين عبدالله بن محمد بن العاقولي مدرس المستنصرية ، وبعد وفاته سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م تحول الى مسجد . وقبره فيه ظاهر الى اليوم ، وجرى تعميره غير مرة آخرها سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢ م .
(١٨١) مجموعة من وقفيات بغداد (مخطوط) .
(١٨٢) المصدر نفسه .

سقاية جاسم الحجية

شيدها جاسم الحاج محمد خلف الحجية سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٤م في الحديقة (البقجة) المحاذية لبستان الربع التي ورثها عن والده الحاج محمد الحجية متعهد ارزاق الجيش العثماني في بغداد في عهد مدحت باشا . على الطريق العام المؤدي الى جامع الامام الاعظم ، حيث كان المارة وعابرو السبيل يستريحون هناك ويتوضؤون ان كان وصولهم اليها في اوقات الصلاة ، حيث كان في الجهة المقابلة لمدخلها مصلى واسع .

ولضمان تزويد السقاية بالماء ، فقد مد منشؤها اليها قناة من شاطىء دجلة ، يرفع اليها الماء بواسطة دولاب كان يسقي ايضاً بستان الربع ، ويصب في حوض كبير ، مطلي داخله بالقار ، موضوع داخل مبنى السقاية ، مما يلي شباكها مباشرة ، وفي هذا الحوض يترسب الماء ، ويتعهده بالملء والتنظيف عامل خاص له مرتب شهري . وكانت ساحة السقاية ١٥٦ متراً مربعاً ، اضافة الى مصلى مقابلها ، وبئر لاستعماله عند انقطاع مياه القناة .

وكتبت فوق محل شرب المياه ثلاثة ابيات للعلامة عبدالوهاب النائب (توفي ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م) فيها تأريخ انشائها . ومنها[١٨٣] :

جاسم قد بنى واحسن متقناً
لأبيه محمد خير منهل

وبعد انتفاء الحاجة الى هذا المشروع الخيري، بوصول العمران بين الأعظمية وبغداد ، واستعمال وسائل النقل الآلية ، هدم جاسم الحجية سقايته، الا جداراً واحداً كان يشتمل على المدخل ومحل شرب الماء وفوقه الرخامة المذكورة ، وبقيت هذه الآثار حتى باعها الورثة سنة ١٩٥٩م ، فهدم من اشتراها محل الشرب وادخله في بيته .

سقاية كامل الزند

انشاها كامل بك بن الحاج امين الزند سنة ١٣٢١هـ/١٩٠٣م ، عند المسجد الذي شيده على قسم من دار ابيه مفتي بغداد ، في محلة البارودية، من محلات شرقي بغداد . وكتب فوق باب المسجد خمسة ابيات تشتمل على تاريخ العمارة ، وفيها اشارة الى السقاية المذكورة ، هي[١٨٤] :

ذا جامع فيه رياض التقى
مزهرة فليعمل العامل
مكتبة فيه لاهل الهدى
ينال من جوهرها السائل
وماؤه العذب غدا كوثراً
فليس يحكيه الحيا الهاطل
شيده محتسباً موقناً
سليل صدر العلما الكامل
على التقى مذ تم ارخته
قد نار هذا المسجد الكامل
١٣٢١

وقد هدم هذا المسجد في تموز سنة ١٩٦٤ فضاع اثر سقايته .

سقاية سالم الحيدري

انشاها السيد سالم الحيدري سنة ١٣٣٠هـ/١٩١٢م في محلة النصة ، على طريق الأعظمية . اشترى أرضها لتكون مقبرة له ، وكانت قبل ذلك قسماً من بستان (بقال بكر)[١٨٥] . ثم شيد عليها مسجداً صغيراً ، دفن فيه قريبه السيد صالح الحيدري المتوفى في السنة المذكورة ، والحق به سقاية ذات طابقين ، وجعل فوق شباكها لوحة رخام كتب عليها بخط بارز جميل سطرين ، يؤلفان العبارة الآتية « قد انشات هذه السبيل خانة الى المرحوم الشهيد حيدري زادة صالح افندي سنة ١٣٣٠ » . تلي ذلك قصيدة عينية من عشرة أبيات، كتبت على ستة اسطر ، وهي في رثاء السيد صالح الحيدري .

وما تزال بناية هذه السقاية قائمة ، وهي تقع بلصق دائرة البريد في الاعظمية .

سقاية هيبت خاتون

انشاتها السيدة الحاجة هيبت خاتون سنة ١٣٣٥هـ/١٩١٦م في محلة النصة من محلات قصبة الاعظمية . عند المدرسة التي شيدتها هناك . ووقفت عليهما اوقافاً بموجب الوقفية المؤرخة في ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٣٦هـ/١٩١٨م[١٨٦] .

سقاية مسجد آل جميل

لا يعلم تاريخ انشائها ، وكانت تقع عند مسجد آل جميل في محلة قنبر علي بشرقي بغداد ، وفي سنة ١٣١٥هـ/١٩٠١م وقفت السيدة صفية

(١٨٣) عزيز جاسم الحجية : بغداديات (بغداد ١٩٦٧) ١٦٩/١ – ١٧١ .

(١٨٤) مساجد بغداد ٩٧ (مخطوط) .

(١٨٥) تاريخ جامع الامام الاعظم ١٩٢/٢ .

(١٨٦) البغداديون ٢٤٤ وتاريخ جامع الامام الاعظم ٥٨/٢ .

خاتون بنت محمد افندي بن السيد عبدالغني آل جميل مفتي بغداد بعض الدكاكين على هذا المسجد، وعلى السقاية ، وشرطت ان يعطى (٣٥٠) قرشاً لتصرف على لوازم السقاية[١٨٧] .

سقاية حاجية خاتون

لا يعلم تاريخ انشائها ، وكانت تقع في مسجد حاجية خاتون ، في محلة الامام طه بشرقي بغداد ، ذكرها الشيخ محمد بهجة الاثري سنة ١٩٢٥م[١٨٨] ونقضت ، والمسجد ، عند توسعة شارع الرشيد .

سقاية الملا حمادي

انشأها شاكر الملا حمادي سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م في المسجد الذي جدد عمارته قرب جامع السيد سلطان علي في شرقي بغداد . واشار اليها عباس بن رجب البغدادي سنة ١٣٣٥هـ/١٩١٧م[١٨٩] .

سقاية سيد محمد

اشار اليها السيد رشيد الخوجة في خريطته لبغداد[١٩٠] . وموقعها ــ كما تظهر فيها ــ خارج باب المعظم ، في ارض المدرسة الغربية المتوسطة اليوم ، وفيها قبر صاحبها .

سقاية الشيخ معروف الكرخي

لا يعلم تاريخ انشائها ، وموقعها عند جامع الشيخ معروف الكرخي ومقبرته في الجانب الغربي من بغداد[١٩١] .

خاتمة

شهدت بغداد ، في اواخر العصر العثماني ، محاولات متفرقة لتحسين الوسائل القديمة المتبعة في رفع مياه الشرب ونقلها الى محلاتها . ولقد انصبت تلك المحاولات ، بالدرجة الاولى ، على استبدال الآلات القديمة التي تعمل بقوة الحيوانات بآلات ذاتية الحركة ، اكثر حداثة ، دون ان تستهدف انشاء نظام جديد لتوزيع مياه الشرب على المحلات ، او ادخال فكرة تنقيتها من شوائبها او تعقيمها ، فلم تتجاوز تلك المشاريع ، في اغلب الاحيان ، رفع القنوات الآجرية القديمة ، واستبدالها بانابيب معدنية لتعمل على الأسلوب القديم نفسه ، ولتزود سقايات المدينة العامة بالطريقة المتبعة سابقاً .

ولعل اول محاولة من هذا النوع ، هي التي جرت في آخر عهد الولاة المماليك[١٩٢] ، ففي سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م عرض مهندس ايراني يدعى (ميرزا عبدالمطلب) كان قد قدم بغداد آنذاك على والي بغداد داود باشا (١٢٣٢ ــ ١٢٤٧هـ/١٨١٦ ــ ١٨٣١م) ان يقوم بصنع مضخة (طلمبة) تسحب الماء الى اي مكان مرتفع على ان تتعهد الحكومة بدفع ما يلزم من النفقات . نوافق داود باشا ، بعد ان درس المشروع بعناية ، وخصص له عدداً من الحدادين والعمال للعمل معه ، وسهل له كل الوسائل التي تعينه على انجازه المشروع ، فتم صنع المضخة في خلال مدة قصيرة ، ونصبت على دجلة ، واخذت بضخ الماء بكثرة هائلة ، فكانت موضع اعجاب الناس على اختلاف طبقاتهم[١٩٣] . وسميت بـ (چرخ يوسف) اي دولاب يوسف ، نسبة الى ابن للوالي يدعى طورسون يوسف .

ورغم ان داود باشا طلب من المهندس المذكور الاقامة ببغداد « ليتعلم سائر الناس منه » واجرى له راتباً[١٩٤] ، فاننا لا نجد في اخبار السنين التالية على هذا الحادث ما يدل على انشاء مشاريع اخرى من النوع المذكور اذ بقيت الدواليب القديمة مستمرة في عملها في مد اهل بغداد بمياه الشرب حتى فترة متاخرة من القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) واغلب الظن ان خرابا لحق بمشروع داود باشا نفسه بعد سنوات قليلة من تأسيسه اذ خلت المصادر ، وبخاصة اخبار المشاريع التالية ، من ادنى اشارة اليه .

وفي عهد والي بغداد المصلح مدحت باشا (١٢٨٦ ــ ١٢٨٩هـ/١٨٦٨ ــ ١٨٧٢م) بدأ التفكير جدياً بانشاء مشروع دائم لربط دور بغداد وسقاياتها العامة بانابيب ، وتضخ اليها المياه بواسطة مكائن حديثة تنصب في أماكن مختلفة من شاطىء دجلة . وتكون تحت ادارة بلدية بغداد

---

(١٨٧) البغداديون ص ٢٦٠ .

(١٨٨) مساجد بغداد وآثارها ، الفوائت ، ص ١٤٠ .

(١٨٩) مجلة الرسالة الاسلامية ، العدد ١١٧ ــ ١١٨ (بغداد ١٩٧٨)

(١٩٠) خارطة بغداد كما مسحها ورسمها السيد رشيد الخوجة عام ١٩٠٨ ص ١٦ .
عام ١٩٠٨ م (اطلس بغداد ص ١٦) .

(١٩١) محمد رؤوف الشيخلي : مراحل الحياة في الفترة المظلمة ومابعدها (البصرة ١٩٧٢) ص ٨٢ .

(١٩٢) دام حكمهم من ١١٦٢ الى ١٢٤٧هـ/١٧٤٨ ــ ١٨٣١م .

(١٩٣) رسول حاوي الكركوكلي : دوحة الوزراء في تاريخ وقائع الزوراء (ترجمة موسى كاظم نورس ، بيروت) ص ٢٩٤ .

(١٩٤) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ج ٦ (بغداد ١٩٥٤) ص ٢٦٨ .

المنشاة حديثا . وقد اوصي لهذا الغرض على خمسة مكائن من لندن ، قوة كل منها ١٢ حصاناً ، ووضعت واحدة منها في مشرعة (شريعة) الميدان على سبيل التجربة ، الا انه لا دليل على اتمام المشروع على ما وعدت به جريدة الزوراء الرسمية في حينه . وكانت هذه الجريدة قد نشرت في ٧ ربيع الاول سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) خبراً يبشر البغداديين بانتهاء مشكلة مياه الشرب في مدينتهم على النحو الآتي :

« لا يخفى ان سطح بلدة بغداد بحسب ارتفاعه مقدار ذراعين ثلاثة اعشارية عن سطح نهر الدجلة ، فلهذا لا يمكن دخول الماء الى دار من الدور اصلاً ، والماء الذي تشربه الأهالي ينقل بواسطة سقائي الحمير وسقائي الظهر ، فالمشقة الحاصلة للخلق من هذه الجهة وعلى الخصوص لبعض المعجزة من النساء ، فحوصلة البيان لا تسع ايضاح ذلك . بناء على هذا لاجل دفع احتياج أهالي مملكتنا من جهة الماء ، وان الذين يرمون (يرومون) ادخال الماء الى دورهم يعطى في بعض الأمكنة حياض فيها مزملات ياخذ بواسطتها الماء . كان قبل هذا قد اوصى على جلب خمسة ماكينات لاجل الماء من لونده ، وقوة كل منها في قوة اثني عشر حصان ، وان تدخل تحت حساب دائرة البلدية . وبهذه الدفعة قد وردت تلك الماكينات ووضعت واحدة منها بحذاء مطبعتنا لاجل التركيب والتجربة . فهذه المادة ما عدا انها تكون دافعة للضرورة العارضة للخلق من جهة تصل الماء ، فكذلك يكون الماء الجاري دائماً في كل دار . وحيث ان هذه الفائدة هي موجبة لكسب معمورية البلدة درجة أخرى ، فالحق انها لايقة بالتشكر والامتنان ، وانهـا ألطف من الماء الزلال لدى الظمآن »(١٩٥) .

وفي سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م امر والي بغداد حازم بك (١٣٢٥ – ١٣٢٦هـ/١٩٠٧ – ١٩٠٨م) بنصب ماكنة اخرى في مشرعة الميدان واجرى الماء بالانابيب الى داخل بغداد ، فكانت تمد بمياه الشرب محلات الميدان وبعض الحيدر خانه والصابونجية وجديد حسن باشا والطوب ، وبلغ مجموع الدور التي يوزع عليها الماء ٣٦٠ دارا حسب(١٩٦) . وفي سنة ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ نصبت ماكنه مشابهة عند دولاب الشيخ عبدالقادر الكيلاني فاسمت تزود سقايته بالماء(١٩٧) ؛ بيد ان اشراف البلدية بقى قاصرا على المشروع الحكومي الوحيد ، وهو المنشا عند شريعة الميدان . وعند سقوط بغداد على يد المحتلين البريطانيين تولت سلطات الاحتلال ادارة المشروع ، ثم عهد به بعد تأسيس الحكومة العراقية الى ادارة « البلدية » فبقي تحت ادراتها حتى انشاء اول هيئة عامة لمياه الشرب في بغداد والعراق باسم « لجنة اسالة الماء لمدينة بغداد » سنة ١٩٢٤ . ورغم ان حالة الاسالة والتوزيع كانت في هذه الفترة بدائية للغاية(١٩٨) ، الا انها كانت بداية لاعمال عديدة نشطة ، ذات صفة علمية وتقنية حديثة(١٩٩) ؛ وبذلك ينتهي تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة ببغداد ، ليبدأ بعدها تاريخ مشاريع حديثة ، اخذة باسباب التطور والتقدم .

(١٩٥) جريدة الزوراء نمرو ١٤٧ ، ٧ ربيع الاول ١٢٨٨ .

(١٩٦) محمد رؤوف الشيخلي : مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها (البصرة ١٩٧٢) ٩٨/١ومما يذكر ان اجرة الماء الشهرية لكل دار كانت تبلغ عشرة قروش صحيحة ، اي مايعادل ١٠٠ فلس . عبدالكريم العلاف : بغداد القديمة (بغداد ١٩٦٠) ص ٧٥ .

(١٩٧) انظر ماتقدم عن هذه السقاية .

(١٩٨) كان طول الانابيب الموصلة لمياه الشرب في الايام الاولى لتسلم المشروع سنة ١٩٢٤ ٢٠٫٠٠٠ متر ، وكانت ميزانية المشروع تحوم ارقامها حول مايقارب ١٧٫٠٠٠ دينار اما عدد المشتركين فلم يزد على ٧٠٠٠ مشترك . ولم تكن هناك عملية ترسيب او تصفية ، وكانت الانابيب ترفع غالبا من اماكنها لتنظيف مافي داخلها من الاطيان والرواسب ، ولم تكن هناك مقاييس البتة ، وانما تستوفى الاجور بالتقدير .

(١٩٩) في سنة ١٩٢٥–١٩٢٦ ابتدا الاهتمام بالتصفية ، والحق بعد ذلك مركز الكرادة بالمشروع ، وكان بعهدة وزارة الطيران وفي سنة ١٩٢٧ وضع منهج انشاء مركز تصفية جديد لمنطقة الكرخ لضم اليه منطقة الكاظمية ، وقد صدر بالفعل سنة ١٩٢٩ قانون بتشميل اعمال اللجنة على منطقة الكاظمية وكمل المشروع في اواسط ١٩٣٠ . وفي الوقت نفسه كانت اعمال التصفية قد بدأت بالتحسن ، واستعملت احواض الترسيب وبدأ بتعقيم الماء بالكلورين ، وفي اواخر سنة ١٩٣٠ استقرضت اللجنة اول قرض من البنوك ، وفي سنة ١٩٣١ صدر قانون تاسيس لجنة اسالة الماء لمنطقة بغداد رقم ١٠٤ لسنة ١٩٣١ واصبح للجنة شخصية حكمية ، وزيد عدد اعضائها ، وفي اواسط ١٩٣٤ تم لاول مرة تزويد جهتي الرصافة والكرخ الماء لمدة ٢٤ ساعة متصلة . وفي ايلول ١٩٣٥ افتتح مركز التصفية في الصرافية الذي اعتبر بداية لضخ الماء النقي لجانب الرصافة وكانت مراكز المشروع في هذا التاريخ هي ثلاثة الصرافية والشالجية والكرادة وفي اواخر ١٩٣٥ عدل قانون اللجنة بحيث اصبح مرجعها الاعلى وزارة الداخلية وفي اواسط ١٩٣٩ ادمج مشروع الاعظمية باعمال اللجنة وادخلت عليه تحسينات شاملة ومنح صاحب الامتياز تعويضا عن ممتلكاته . وفي حزيران ، ١٩٥٣ اضيف مركز ضخ وتصفية جديد الى مراكز اللجنة هو مركز السبع وبصدور القانون رقم ٥٤ لسنة ١٩٥٥ اصبح اسم المشروع (مصلحة) ثم زادت اعمال هذه المصلحة وتوسعت بتوسع مدينة بغداد نفسها في الستينات والسبعينات .

حـول بغـداد

- ١ -

بيت الحكمة في بغداد

وازدهار حركة الترجمة في العصر العباسي

بقلم
سليم طه التكريتي
بغداد – الجمهورية العراقية

ما ان خرج الاسلام من بطن الجزيرة العربية الى الاطراف المحيطة بها ، حتى بدأت في الحال اضخم عملية تزاوج فكري وحضاري في تاريخ البشرية جمعاء ، انها عملية الامتزاج بين ثقافة العرب الذي حملوا راية الاسلام ، وبين الشعوب التي اعتنقت هذا الدين الحنيف الذي انقذها من الظلم والاستعباد ، واخرجها من الظلمات الى النور.

لقد كانت عملية التزاوج هذه ، اوسع انطلاقة فكرية عمت البيئة الجديدة التي خلقها الاسلام ، وصبغ الحياة الفكرية والاجتماعية فيها بالصبغة العربية الاسلامية . والواقع ان العرب المسلمين كانوا ، وهم في غمار الزحف المقدس لنشر الاسلام، وترسيخ قواعده بين الشعوب الاخرى ، يعملون في ذات الوقت على نشر العلم والمعرفة في كل صقع يحلون فيه ؛ ويضعون اسس نهضة علمية وفكرية مزدهرة في كل بلد كانوا يصلون اليه . وهذا ما دفع المؤرخ الانكليزي « هربرت جورج ولز » الى القول بان « العلم كان يشب على قدميه وثبا في كل موضع وطأته قدم الفاتح العربي »(١) وكيف لا وقد وصف المفكر الفرنسي الشهير « غوستاف لوبون » الفاتحين العرب بقوله « ما عرف التاريخ ارحم فاتحا من العرب »(٢) .

وما ان استقر الامر للمسلمين في عهد بني امية ، حتى ظهرت اول حركة لترجمة العلوم الاخرى استهدفت نقل ما يتوفر نقله من العلوم عن اللغات الاجنبية ، كاليونانية ، والفارسية ، والهندية وغيرها الى اللغة العربية . ولقد اشرف بعض خلفاء بني امية وامرائهم على رعاية حركة الترجمة هذه وتشجيعها وكان من بينهم الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذي يعتبره معظم المؤرخين خامس الخلفاء الراشدين في الاسلام .

وكان الامير خالد بن يزيد بن معاوية اشهر من رعى حركة النقل ، وبذل لها العون والتشجيع، فجلب لها النقلة والعلماء ؛ وخصص لها كل وقته واهتمامه . ذلك ان خالدا هذا قد عشق علم الكيمياء منذ الصغر ؛ وكان من بين الذين صحبوا « مسلمة بن عبدالملك بن مروان » الى بلاد الروم لمحاصرة القسطنطينية ، فلما ارتد المسلمون عنها ، ولم يستطيعوا افتتاحها ؛ حصل خالد في هذه الغزوة على كثير من كتب اليونان .

(١) هـ. ج. ولز : موجز تاريخ العالم ص ٢٠٦ ترجمة عبدالعزيز جاويد .

(٢) غوستاف لوبون : حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر ط ١٩٤٥ .

ولم يقف شغف خالد بالعلم والكيمياء بصفة خاصة عند هذا الحد : بل استقدم عددا من العلماء العاملين في مدرسة الاسكندرية ؛ وامرهم بنقل علوم الكيمياء ، التي كان العرب يطلقون عليها اسم « الصنعة » ، الى اللغة العربية وقد تكفل احد اولئك العلماء بهذا العمل وهو « اصطفن القديم(٣) » ، وكانت تلك اول عملية نقل في الاسلام »(٤) .

واذ توقفت عملية نقل العلوم اثر الصراع الدامي على السلطة بين الامويين والعباسيين، والذي انتهى بزوال حكم بني امية ، وانتقال زعامة العالم الاسلامي الى بني العباس ، فانها ما لبثت ان عادت الى الظهور مرة اخرى ؛ وانتعشت في زمن المنصور ثم بلغت اوج ازدهارها في عصر الرشيد والمامون والمتوكل ، ويعود الفضل في ازدهارها الى التشجيع المقرون بالبذل المديد الذي سار عليه الخلفاء العباسيون ، والاخذ بيد المترجمين الذين نبغوا من بين العلماء .

ومع ان حركة الترجمة كانت في الاصل بمبادرة من الخلفاء ورعاية منهم ؛ سواء في ذلك الامويون او العباسيون ، الا ان هذه الحركة كانت في الواقع تجري على نطاق فردي محدود ، ومن دون ان تكون لها مؤسسة تتولى شؤونها ؛ وتنهض باعبائها . ذلك لان كل قادر على النقل من لسان ما الى لسان آخر سواء بدافع من خليفة او امير ، او راغب في العلم ، كان يعكف على ترجمة ما يراد منه أن يترجمه ، او ما يريد هو ان يترجمه حسب رغبته الخاصة .

غير ان تطورا كبيرا وخطيرا قد حدث في هذا الموضوع في عصر هرون الرشيد ، فالرعاية الفائقة التي اولاها هذا الخليفة للعلوم وللعلماء على حد سواء ، قد دفعت به الى ان يخص موضوع الترجمة بعناية فائقة لم تحظ بها قبلا ، وان ينشىء لها مؤسسة خاصة قائمة بذاتها ، عرفت باسم « بيت الحكمة » .

يعتقد كثير من المؤرخين ، ولا سيما الغربيين بان « المامون » هو الذي اسس بيت الحكمة . ومن هؤلاء المستشرق الالماني « بروكلمان » الذي يقول عن المامون بانه « اسس ببغداد (بيت الحكمة) والحق به مكتبة ومرصدا ، وصار بيت الحكمة مركز نشاط علمي دائب »(٥) .

ومنهم الدكتور « ماكس ما يرهوف » احد واضعي «كتاب تراث الاسلام » الذي اصدرته جامعة اكسفورد سنة ١٩٣٦ ، فقد قال « وقد انشأ المامون في بغداد دارا رسمية للترجمة مجهزة بمكتبة »(٦) .

ومنهم « الفريد غيوم » من المشاركين في كتاب تراث الاسلام ايضا والذي ذكر بان المامون قد انشا مدرسة للعلماء في بغداد ؛ نشطت فيها دراسة الكتب الاغريقية وترجمتها نشاطا عظيما(٧) .

ولكن الذي نتصوره هو ان بيت الحكمة قد انشيء في عهد هرون الرشيد لا في عهد الخليفة المامون ؛ ونستدل على ذلك بما ذكره كل من « ابن النديم » «وابن القفطي » في كتابيهما ، عند الحديث عن ترجمة كتاب « المجسطي » من اليونانية الى العربية (٨) فقد ترجم هذا الكتاب الذي يتحدث عن علم الجغرافيا مرات عديدة ، ونقحت ترجماته عدة مرات . وكان اول من عني بتفسيره واخراجه الى العربية يحيى بن خالد البرمكي . فقد « فسره له جماعة فلم يتقنوه ، ولم يرض بذلك . فندب لتفسيره «ابا حسان » و « سلما » صاحب بيت الحكمة فاتقناه ، واجتهدا في تصحيحه ، بعد ان احضرا النقلة المجودين ، فاختبرا نقلهم ؛ واخذا بافصحه واصحه »(٩) .

وهذا ما يؤكد ان بيت الحكمة كان موجودا قبل ان ينتقض الرشيد على آل برمك ، ويقضي على نفوذهم الواسع ؛ اذ لم يعد لهم اي اثر بعد تلك النكبة .

كان الرشيد ، قبل ان ينشىء بيت الحكمة ،

(٣) اصطفن القديم واحد من العلماء الاسكندريين السبعة الذين عكفوا على دراسة مؤلفات جالينوس وكان من بينهم الراهب مريانوس الذي درس خالد على يديه في دير خارج دمشق .

(٤) ابن النديم : الفهرست ص ٢١١ .

(٥) بروكلمان : تاريخ الادب العربي ج ٤ ص ٩١ ترجمة د. السيد بكر يعقوب و د. رمضان عبدالتواب ط. ١٩٧٥ .

(٦) تراث الاسلام : ترجمة جرجيس فتح الله ج ١ ص ١٧٤ ط. ١٩٥٤ .

(٧) تراث الاسلام : ج ١ ص ٢٥٠ ترجمة توفيق الطويل ورفاقه ط ١٩٣٦ .

(٨) اصل كلمة « المجسطي » هي « ميجسال » في اللغة اليونانية وتعني « المجموعة » وقد حرف الاوربيون هذه الكلمة في القرون الوسطى الى ماجستي Magastii فنقلها العرب باسم « مجسطي » ويذكر اليعقوبي المؤرخ ان معنى المجسطي هو الكتاب الاعظم وانه يقع في ثلاث عشرة مقالة . اليعقوبي ج ص ١١٥ .

(٩) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٧ ــ ٢٦٨ وابن القفطي : تاريخ الحكماء ص ٩٨ .

قد جلب الكثير من المؤلفات اليونانية من بلاد الروم، ففي الحملة التي استولى فيها على مدينتي « عمورية » و « انقره » امر الرشيد عماله هناك بالمحافظة على ما فيهما من مكتبات ؛ ثم لم يلبث ان انتدب بعد ذلك طائفة من العلماء الذين يعرفون اليونانية ، والارامية ، والسريانية ، للقيام بفحص ما تحويه تلك المكتبات من مؤلفات تتحدث عن الطب ، والفلك ، والرياضيات ، والحكمة ، والفلسفة ، وغيرها .

وقد اختار اؤلئك العلماء النفيس والنادر من تلك المؤلفات ، وعادوا به الى بغداد ، فاودعها الرشيد بيت الحكمة ، واوكل امر العناية بها الى الطبيب يوحنا بن ماسويه الذي اصبح رئيسا لبيت الحكمة ذاته فيما بعد .

كذلك اختلف الباحثون والمؤرخون في الموضع الذي كان يقوم فيه بيت الحكمة ، ولكن الشيء المؤكد هو وجوده في جانب الرصافة من بغداد لان الخلفاء العباسيين ما لبثوا بعد وفاة المنصور ان انتقلوا الى الرصافة وهجروا المدينة المدورة التي بناها المنصور في جانب الكرخ .

ولقد كانت نواة بيت الحكمة من الكتب ، هي الخزانة التي جمعها ابو جعفر المنصور ، وافرد لها جناحا خاصا في قصر الخلد الذي كان يسكنه في المدينة المدورة ، وقد انتقلت هذه الخزانة بحكم الارث الى هرون الرشيد ، فنماها ووسعها بما اضاف اليها من الكتب التي جلبت له من البلدان الاخرى .

وقد تساءل بعض المؤرخين عما اذا كان بيت الحكمة جناحا من اجنحة احد قصور الرشيد او المأمون ، ام انه كان يقوم في بناية خاصة به ، منفصلة عن بقية القصور ، والذي يتراءى لنا ان بيت الحكمة كان يقوم في بناء خاص ، كما نستدل على ذلك من الوصف الذي سنورده له فيما بعد .

وكان من نتائج اختلاف المؤرخين حول الخليفة الذي انشأ بيت الحكمة؛ ان اختلفوا اختلافا شديدا حول تحديد التاريخ الذي انشئت فيه هذه المؤسسة، فالمستشرق الانكليزي « دبلاسي ادليري » وهو من القائلين بان المأمون هو الذي انشأ بيت الحكمة ، يذكر في كتابه « الفكر العربي ومكانته في التاريخ » ان بيت الحكمة قد انشىء في عام ٢١٧هـ-٨٣٢م(١٠)، غير اننا لا نعرف السند التاريخي الذي اعتمد عليه « اوليري » في تحديد مثل هذا التاريخ .

× × ×

كان بيت الحكمة مقسما الى عدد من الاقسام والقاعات والغرف .. فهناك غرف كثيرة للتدريس يحضرها الطلاب من مختلف انحاء العالم لتلقي العلوم فيها على ايدي اساتذة منتدبين لتدريس تلك العلوم ، اما المكتبة فكانت تتألف هي الاخرى من عدد من الغرف ؛ مزودة برفوف تصف عليها الكتب .

والى جانب المكتبة وغرف التدريس توجد قاعة واسعة مخصصة لالقاء المحاضرات ؛ وعقد المناظرات العلمية ، وفي هذه القاعة كان النقاش والجدل يطرح علانية ؛ وبمنتهى الحرية ؛ حول شتى الموضوعات المختلفة بما في ذلك الموضوعات التي تخص العقيدة الاسلامية .

وهناك غرفة خاصة معدة للاستراحة يؤمها الدارسون والمدرسون والمطالعون والعاملون في المكتبة ؛ ليستريحوا فيها من عناء العمل ، ولكي يشنفوا اسماعهم بالاستماع الى الانغام الشجية التي يعزفها جوق موسيقي في القاعة ذاتها(١١) .

وافردت في بيت الحكمة غرف اخرى للمترجمين ، واخرى غيرها للذين يقومون بمراجعة تلك الترجمات وتنقيحها ، واصلاح كل خطأ فيها ، في حين تقوم غرف خاصة بالناسخين الذين يقومون بنسخ الكتب اما لانفسهم ، او لحساب الغير ، كذلك توجد غرف معدة لعمل المجلدين الذين يتولون تجليد كل كتاب يدخل الى بيت الحكمة ، بالاضافة الى الغرف المهيأة للوراقين ، وخازني الكتب والمناولين ، الذين ينقلون الكتب من الرفوف الى المطالعين والنساخين والمجلدين وما سواهم .

وقد اشتهر عدد من المجلدين والعاملين في بيت الحكمة من اشهرهم المجلد «ابن ابي الحريش» وكانت النساء يزاولن اعمالا في بيت الحكمة بصفة مناولات . وقد اشتهرت من بينهن « توفيق السوداء » التي كانت مناولة للكتب في عهد ابي منصور بن محمد الخازن(١٢) .

ولم يكن العمل في بيت الحكمة وقفا على طائفة

---

(١٠) De Lacy Oleary: Arab Thoght its Place in History P. 112.

(١١) من روائع حضارتنا : الدكتور مصطفى السباعي ص ١٨٠ .

(١٢) سليم طه التكريتي : مصادر الفكر العربي الاسلامي ص ٧٤ مخطوط

معينة من العلماء فقد كان في مستطاع كل حاذق باحدى اللغات الاجنبية ، وقادر على النقل عنها ، ان ينضم الى زمرة النقلة كما كان في مقدور كل من يعرف القراءة والكتابة باحدى اللغات ان يؤم قسم المكتبة ، ويطلب اي كتاب متوفر فيها ليقراه لكنه كان يحظر على المطالع حظرا باتا ان يكتب اية تعليقات او تفسيرات ، بل واية تصحيحات على هوامش الكتاب الذي يطالعه .

كذلك كان باستطاعة اي شخص ان يستعير من المكتبة اي كتاب يشاء ، فيخرجه منها الى مقره ، وقد تطول مدة الاستعارة هذه شهرا كاملا .

× × ×

كان العمل في بيت الحكمة منسقا تنسيقا بديعا . فقد كان المترجمون ينقسمون الى عدة اصناف . صنف ينقل من اللغة الاجنبية التي يحذقها الى اللغة العربية راسا . وصنف لا يحذق اللغة العربية لكنه يحذق لغتين اجنبيتين او اكثر ، وكان يعرف اليونانية والسريانية ، او اليونانية ، والسريانية ، والفارسية في وقت واحد . نمثل هذا الصنف قد ينقل عن اليونانية الى السريانية ، او عنها الى الفارسية .

حتى اذا ما انتهى من عملية النقل هذه ، تولى مترجمون من الملمين باحدى هذه اللغات ترجمة ما تم نقله الى اللغة العربية . ولذلك نان كثيرا من المصنفات اليونانية في الدرجة الاولى ، لم نترجم الى اللغة العربية مباشرة ، وانما جرت ترجمتها الى السريانية او الفارسية ، ثم نقلت مجددا عن هاتين اللغتين الى اللغة العربية . وكانت الترجمة في بيت الحكمة تتم عن ست لغات هي اليونانية ، والسريانية ، والفارسية ، والهندية ، والعبرية ، والقبطية . وقد جرت ترجمة بعض الكتب عن اللغة النبطية ايضا .

وكثيرا ما يحدث ان تكون بعض هذه النقول غير دقيقة ، وركيكة العبارة ، او « عفطية اللفظ » حسبما يسميه « ابن النديم » عند تقييمه لبعض المترجمين . ولذلك يتولى مترجمون اخرون من المتضلعين باللغة العربية ، مراجعة امثال هذه الترجمات ، وتصحيحها ، وتقويمها وكان على راس هؤلاء الفيلسوف الكندي .

وكان قسم الترجمة في بيت الحكمة مصنفا حسب موضوعات الكتب التي يراد ترجمتها . فهناك مترجمون مختصون بترجمة كتب الفلسفة ، واخرون بكتب الطب ، وغيرهم بمصنفات الفلك والكيمياء والرياضيات وغيرها من العلوم .

وكان الاسلوب الذي يعتمده المترجمون في ذلك الوقت يستند الى اتباع واحدة من طريقتين ما تزالان شائعتين لدى المترجمين حتى الوقت الحاضر .

فالطريقة الاولى تعتمد الترجمة الحرفية الدقيقة ، اي ترجمة العبارات كلمة فكلمة ، والتقيد بالالفاظ الاصلية تقيدا تاما ، وعدم التصرف او الخروج على هذه القاعدة .

اما الطريقة الثانية فانها تعتمد على ترجمة معنى العبارة دون التقيد باللفظ الاصلي ، وذلك بان يقرا المترجم الكتاب الذي يريد ترجمته ، بامعان وبعد ان يستوعب معناه في ذهنه يشرع بنقله الى اللغة التي يحسنها .

وقد اتى على وصف هاتين الطريقتين في الترجمة « بهاءالدين العاملي » صاحب كتاب « الكشكول » المتوفى سنة ١٠٣١هـ ١٦٢٢م فقال « قال الصلاح الصفدي[١٣] وللتراجمة في النقل طريقان : احدهما طريق « يوحنا ابن البطريق » و « ابن الناعمة الحمصي » وغيرهما ، وهو ان ينظر الى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية ، وما تدل عليه من المعنى ، فياتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى ، فيثبتها وينتقل الى الاخرى كذلك حتى ياتي على جملة ما يريد تعريبه . وهذه الطريقة ردية .

والطريق الثاني في التعريب . طريق حنين بن اسحق والجوهري[١٤] وغيرهما ، وهو ان ياتي الجملة فيحصل معناها في ذهنه ، ويعبر عنها من اللغة الاخرى بجملة تطابقها ، سواء ساوت الالفاظ ام خالفتها ، وهذا الطريق اجود »[١٥] .

ولقد ادى اتباع المترجمين للطريقة الاولى الى ظهور ترجمات ضعيفة ومفككة ، على ما نشهد امثاله في وقتنا الحاضر الذي نعيش فيه الآن ، وقد اشار « ابن النديم » الى امثال هؤلاء المترجمين منهم « ابن شهدي الكرخي » ومنهم « لاحبي » الذي قال عنه « انه جيد المعرفة بالسريانية ، عفطي الالفاظ

---

(١٣) صاحب كتاب « فوات الوفيات » وهو تكملة لكتاب ابن خلكان « وفيات الاعيان » وقد طبع مؤخرا في ثمانية مجلدات

(١٤) هو ابن سعيد الجوهري من كبار المترجمين في عصر المأمون.

(١٥) نقل ذلك العلامة « كرلونللينو » الاستاذ بالجامعة المصرية سابقا ومؤلف كتاب « علم الفلك تاريخه عند العرب في القرن الوسطى ص ٢٢٦ »

بالعربية » : ومنهم « فوبري » ايضا الذي قال عنه ان «كتبه مطرحة مجفوة لان عبارته كانت عفطية غلقة » .

× × ×

اتسع نطاق العمل في بيت الحكمة اتساعا كبيرا نتيجة ما جمعه فيه الرشيد والمأمون من خزائن الكتب القديمة التي جلبت من الاقطار الاخرى . فكانت هذه الكتب تجلب من اسيا الصغرى ، ومن الهند ، وايران ، وجزيرة قبرص ، بالاضافة الى ما كان يجمعه السريان من كنائسهم واديرتهم في الشام وبلاد الجزيرة(١٦)(*) .

كانت اول مجموعة من الكتب العلمية باللغات اليونانية والسريانية ضمت الى بيت الحكمة ، هي الكتب التي استجلبها هرون الرشيد من عمورية وانقره ، كما اشرنا الى ذلك قبلا .

وجلب المأمون مجموعة من الكتب اليونانية من جزيرة قبرص . قال « ابن نباته المصري » في كتابه « سرح العيون في شرح قصيدة ابن زيدون » ان المأمون جعل « سهلا بن هارون » على خزانة الحكمة وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص . وذلك ان المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة ارسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها احد فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته ، وذوي الراي عنده . واستشارهم في حمل هذه الخزانة الى المأمون، فكلهم اشاروا اليه بعدم الموافقة ، الا مطران واحد فانه قال « الراي ان تعجل بانفاذها اليه ، فما دخلت هذه العلوم العقلية في دولة شرعية الا افسدتها ، واوقعت بين علمائها » . فارسلها اليه ، واغتبط بها المأمون »(١٧) .

واستجلب المأمون من القسطنطينية مجموعة اخرى من هذه الكتب ايضا ، تحدث عنها « ابن النديم » في فهرسته فقال « ان المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يساله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فاجابه الى ذلك بعد امتناع ، فاخرج المأمون لذلك جماعة منهم «الحجاج بن مطر » و « ابن البطريق » و « سلم » صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فاخذوا منها مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه اليه امرهم بنقله فنقل ، وقيل ان « يوحنا بن ماسويه » كان ممن انفذ الى بلد الروم(١٨) .

كذلك ذكر ابن النديم ان ممن عنى باخراج الكتب من بلد الروم هم محمد ، واحمد ، والحسن بنو « شاكر المنجم »(١٩) .

وهناك مجموعة اخرى من الكتب القديمة جيء بها من مدينة اصفهان . وقد ذكر «ابن النديم» هذه المجموعة فقال « والذي رايته انا بالمشاهدة ان « ابا الفضل بن العميد » انفذ الى ها هنا في سنة، نيفا واربعين كتابا اصيبت في اصفهان في سور المدينة ، فاستخرجها اهل هذا الشأن مثل « يوحنا »(٢٠) .

والى جانب نفائس الكتب ، كان بيت الحكمة يضم مجموعة من الخرائط والمصورات البلدانية ، وقد ذكر «المسعودي» المؤرخ في كتابه « التنبيه والاشراف » هذه الخرائط والمصورات فقال عنها « رايت هذه الاقاليم مصورة في غير كتاب بانواع الاصباغ ، واحسن ما رايت ... في « الصورة المأمونية » التي عملت للمأمون ، اجتمع على صنعتها عدة من حكماء اهل عصره ، صور فيها العالم بافلاكه ونجومه ، وبره وبحره ، وعامره وغامره ، ومساكن الامم ، والمدن ، وغير ذلك . وهي احسن مما تقدمها من جغرافيا « البطليموس » وجغرافيا « مارتيوس » وغيرها(٢١) .

و « الصورة المأمونية » هذه عبارة عن خارطة مصورة للارض ، انتدب لها المأمون طائفة من علماء عصره ، فوضعوا له صورة الارض نسبت اليه ودعيت بالصورة المأمونية وقد ذكر الكاتب الاندلسي « محمد بن ابي بكر الزهري » صاحب « كتاب الجغرافيا » ان « الصورة المأمونية » قد اجتمع عليها وعلى عملها سبعون رجلا من فلاسفة العراق ، فوضعوها على صفة الارض ، وان كانت على غير الحقيقة من ذلك ، لان الارض كروية والجغرافيا بسيطة(٢٢) .

---

(١٦) سعيد الديوجي : بيت الحكمة ص ٣٥

* المقصود ببلاد الجزيرة هي المنطقة المحصورة بين الفرات ودجلة في كل من العراق وسوريا ومنها ديار بكر وجزيرة ابن عمر وغيرها

(١٧) ابن نباتة المصري : سرح العيون في شرح قصيدة ابن زيدون ص ٢٢٦ ، والدكتور احمد الشبلي في كتابه « تاريخ التربية الاسلامية ص١٥٠ »

(١٨) ابن النديم : الفهرست ص ٣٥٣

(١٩) ابن النديم : الفهرست ص ٣٥٤

(٢٠) ذات المصدر ص ٣٥٠

(٢١) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٦٦ .

(٢٢) الدكتور احمد سوسة : الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية مجلد اول ص ١١٢

وبالاضافة الى الصورة المأمونية وضع علماء الهيئة والجغرافيا للمأمون كتابا في وصفها اعان عمال الدولة على التعرف الى البلاد والامم التي كانت خاضعة للدولة العباسية(٢٢) .

وكذلك كان بيت الحكمة يحتوي على كتب كتبت بخطوط قديمة من امثال الخط الحبشي ، والخط الحميري ، الى جانب الكتب المكتوبة بالخط الارامي ، والسرياني ، والعبري ، واليوناني ، والنبطي وغيرها ، كما اشار الى ذلك ابن النديم . كذلك ذكر ابن النديم نفسه عن وجود كتاب في بيت الحكمة ، مكتوب على جلد ادم بخط عبدالمطلب بن هاشم جد الرسول عليه الصلاة والسلام(٢٤) .

× × ×

كان من بين الاسباب التي شجعت المترجمين على نقل الكتب القديمة ، ما كانوا يحصلون عليه من اموال وهبات ، من الخلفاء العباسيين ، ومن الاشخاص الذين كانوا يهتمون بهذه العلوم ؛ من امثال بني برمك ، وبني شاكر المنجم ، وغيرهم . فقد كان المأمون مثلا يدفع الى « حنين بن اسحق » زنة ما يترجمه ذهبا . ولذلك كان « حنين » يعمد الى الكتابة على ورق سميك وثقيل ، وباحرف كبيرة ، لكي ترتفع زنتها ، فتزداد مكافأته(٢٥) .

وكان اولاد « موسى بن شاكر » ممن عنوا باخراج الكتب من بلاد الروم « وبذلوا الرغائب ، وانفذوا حنين بن اسحق » وغيره الى بلد الروم ، فجاؤوهم بطرائف وغرائب المصنفات في الفلسفة ، والهندسة ، والموسيقى ، والارتماطيقي ، والطب ...... قال « ابو سليمان المنطقي السجستاني » ان « بني المنجم »(٢٦) كانوا يرزقون جماعة من النقلة ، منهم « حنين بن اسحق » ، و « حبيش بن الحسن » ، وثابت بن قرة « وغيرهم في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة »(٢٧) .

وكان من بين الذين شجعوا حركة الترجمة ، وبذلوا الاموال في سبيلها ، الوزير « محمد بن عبد الملك بن الزيات » ، فقد كان يقارب عطاؤه للنقلة وللنساخ الفي دينار في الشهر »(٢٨) .

وكان من المشجعين لحركة الترجمة ايضا « علي بن يحيى » المعروف بالمنجم الذي نقل له كثيرا من الكتب الطبية ، و « ابراهيم بن محمد بن موسى الكاتب » وكان حريصا على نقل كتب اليونانيين الى لغة العرب ، كثير البذل في سبيلها ؛ ومنهم ايضا « عيسى بن يونس الكاتب الحاسب » من أهل العراق ، وكانت له عناية في تحصيل الكتب القديمة والعلوم اليونانية(٢٩) .

وظلت حركة تشجيع الترجمة والمترجمين سارية المفعول حتى الى عصور ملوك الطوائف . فقد كان لدى «سيف الدولة» طبيب اسمه «عيسى الرقي» ينقل له من السرياني الى العربي»(٣٠) .

ولقد راجت الكتب المترجمة رواجا منقطع النظير في كل ارجاء العالم الاسلامي ، ونفقت سوقها ، وكانت تباع باغلى الاثمان . ذكر العالم المنطقي والمترجم « يحيى بن عدي التكريتي » ، وهو من تلامذة « حنين بن اسحق » ، « ان شرح « الاسكندر » « للسماع » كله ، وكتاب « البرهان »(٣١) رايته في تركة « ابراهيم بن عبدالله » الناقل النصراني ، وان الشرحين عرضا علي بمائة وعشرين دينارا . فذهبت لاحتال في الدنانير ، ثم عدت فاصبت القوم قد باعوا الشرحين في جملة كتب على رجل من خراسان بثلاثة الاف دينار(٣٢) .

ويذكر يحيى بن عدي ايضا انه التمس من ابراهيم بن عبدالله نص « سوفسيطا » ونص « الخطابة » ونص « الشعر »(٣٣) بخمسين دينارا ؛ فلم يبعها له واحرقها وقت وفاته(٣٤) .

× × ×

ما ان تم انشاء بيت الحكمة ، ووضعت خزائن الكتب التي جمعت في عهد المنصور والرشيد فيه ، حتى عين له رئيس يعني بشؤونه ، ويشرف على

(٢٣) نفس المصدر
(٢٤) ابن النديم : الفهرست ص ٢٩
(٢٥) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج٢ ص ١٦١ ط ١٩٥٨ .
(٢٦) يقصد بهم اولاد موسى بن شاكر الملقب بالمنجم : انظر مقالتنا عنهم في مجلة العربي « الكويتية سنة ١٩٧١ »
(٢٧) ابن النديم : الفهرست ص ٣٥٤ وابن القفطي ص ٢٠-٢١
(٢٨) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص١٧٠ ط ١٩٥٨
(٢٩) المصدر السابق .
(٣٠) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ج١ ص ١٤٠ .
(٣١) هذان الكتابان من كتب « ارسطو » وقد فسرهما « الاسكندر الافروديسي » .
(٣٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٨ .
(٣٣) هذه الكتب الثلاثة من مؤلفات ارسطو ايضا .
(٣٤) ابن النديم ص ٢٦٨ .

أعمال الترجمة فيه ، ويساهم نفسه في تلك الاعمال، وكان يطلق عليه اسم « صاحب بيت الحكمة » .

كان « سلم » ، ولم يذكر المؤرخون سوى اسمه هذا مجردا ، اول من تولى رئاسة بيت الحكمة في عصر هرون الرشيد ، وكان حاذقاً في اللغتين الفارسية واليونانية بدليل انه كان من بين الذين اختارهم كل من الرشيد والمامون لجلب الكتب العلمية من بلاد الروم .

وكان « سلم » هذا يشرف في الاصل على ترجمة الكتب الفارسية التي تجمعت في بيت الحكمة ، وذكر عنه « ابن النديم » بانه كان ينقل من اللسان الفارسي الى العربي ، غير ان ابن النديم لم يذكر له اي كتاب مترجما كان أم موضوعا .

ومن الذين تولوا رئاسة بيت الحكمة «يوحنا ابن ماسويه » ، الذي ادخلناه ضمن كبار المترجمين ويرى بعض المؤرخين ان « يوحنا » هذا كان اول رئيس لبيت الحكمة ، وانه كان بالاضافة الى ذلك يشرف على ترجمة الكتب التي جلبها الرشيد من عمورية وانقرة ، وكان يعمل تحت يده عدد من المترجمين ، والكتبة ، والنساخ .

ومن الذين تولوا رئاسة بيت الحكمة في عهد المامون : « سهل بن هارون » وهو فارسي شديد التعصب لقومه الفرس ، مقذع الهجاء للعرب . وكان « سهل » هذا يشرف على ترجمة الكتب التي وردت للمامون من جزيرة قبرص .

وكان سهل بن هارون قد انتقل اول الامر من فارس الى البصرة ، ومن ثم جاء بغداد والتحق بخدمة المامون . وكان حكيما وفصيحا وشاعرا ويقول « ابن النديم » عنه انه « فارسي الاصل » شعوبي المذهب ، شديد العصبية على العرب . وله في ذلك كتب كثيرة ، ورسائل في البخل ، وعمل للحسن بن سهل رسالة يمدح فيها البخل ، ويرغبه فيه ، ويستميحه في خلال ذلك ، فاجابه الحسن على ظهر رسالته « وصلت رسالتك ووقفنا على نصيحتك ، وقد جعلنا المكافاة عنها القبول منك والتصديق لك والسلام ... »(٢٥) .

ومن ثم تولى « حنين بن اسحق » رئاسة بيت الحكمة طيلة عهدي المامون والمعتصم وحتى عصر المتوكل ، وقد نهض بهذه المهمة على احسن وجه ، واحاط نفسه بعدد من المترجمين الذين دربهم على هذه الصنعة خير تدريب .

(٢٥) ابن النديم : الفهرست ص ١٨٠ .

كان من نتائج الاضطراب الذي اعقب وفاة المامون ، وتعاظم نفوذ الجند الاتراك ، وتدخلهم في شؤون السلطة ايام المعتصم ، ثم انتقال مركز الخلافة من بغداد الى سامراء ، ان قلت العناية ببيت الحكمة ، وانفرط عقد العلماء والدارسين فيها ، وسرى الخراب اليها ، حتى تولى « المتوكل على الله » الخلافة (٢٣٢هـ ٨٤٧م) ، فقد كان المتوكل — مع ما اشتهر به من الشدة والقسوة — محبا للعلم ، وراعيا للعلماء ، اعاد فتح بيت الحكمة وبذل له الهبات ، ولذلك اتت حركة الترجمة خير ثمارها في عهده ، ذلك لانه عهد برئاسة بيت الحكمة مجددا الى « حنين بن اسحق » فنهض حنين بهذه المهمة خير نهوض ، واحاط نفسه بعدد من خيرة المتدربين على اعمال الترجمة احسن تدريب ، وبقي بيت الحكمة قائما الى أن داهم المغول بغداد « فذهبت خزانة الكتب فيما بعد ، وذهبت معالمها، وعفيت آثارها »(٢٦) .

× × ×

لقد كان انشاء بيت الحكمة فتحا مبينا للعرب المسلمين في ميدان العلم والمعرفة ، يضاهي فتوحاتهم الكبرى في ميادين السياسة . يقول المستشرق الانكليزي « ديلاسي اوليري » « لقد انشا الخليفة المامون مدرسة سماها بيت الحكمة ، وجعلها معهدا تعد فيه الترجمات لكتب علماء اليونان ، ليتسم تداولها بين العرب ..... ومنذ ذلك الوقت سارت الترجمة قدما . ولم يمض وقت طويل حتى وجد الطلاب من العرب ، أن قد تيسر لهم الاطلاع في العربية على الشطر الاكبر من مؤلفات جالينوس ، وابقراط ، وبطليموس ، واقليدس ، وارسطو ، وغيرهم من فطاحل المؤلفين في اليونان »(*) .

ويعتبر الدكتور فيليب حتي بيت الحكمة « اهم مجمع علمي تم تشييده منذ ان انشئت مدرسة الاسكندرية في النصف الاول من القرن الثالث قبل الميلاد . وكان هذا المعهد في الوقت ذاته من اهم خزائن الكتب في الاسلام ، على اختلاف دوله وعصوره »(٢٧) .

× × ×

(٢٦) ماكس مايرهوف في « تراث الاسلام » ج١ ص ١٧٧ ترجمة جرجيس فتح الله .

(*) ديلاسي اوليري : كيف انتقلت علوم اليونان الى العرب ص ٢٢٧ .

(٢٧) Ph. Hitti : History of the Arabs P. 316

شارك عدد كبير من العلماء والمترجمين في النهوض باعمال الترجمة في بيت الحكمة وفي خارجها. فمن بين الذين عملوا بصفة مترجمين « سلم » صاحب بيت الحكمة الذي كان يترجم عن الفارسية وكان في الوقت ذاته يشرف على ترجمة الكتب التي وردت للمأمون من الاستانة ، وكان يشاركه في ذلك سهل بن هارون بن راهوي الفارسي ؛ وهو ينقل عن الفارسية ، وقد اشرف على ترجمة الكتب التي وردت للمأمون ايضا من جزيرة قبرص . وعمل سعيد بن هارون الكاتب في بيت الحكمة ايضا وكان ينقل من الفارسية الى العربية .

واشتغل يوحنا بن ماسويه الى جانب رئاسته لبيت الحكمة في ترجمة كتب الطب التي جلبت للرشيد من بلاد الروم . وتولى ابو بكر يحيى ابن البطريق ترجمة كتب ارسطو في الفلسفة ، وابقراط في الطب .

وعمل حنين بن اسحق العبادي مترجما في بيت الحكمة ورئيسا لها ، فقام بترجمة كتب الطب والفلسفة والفلك وغيرها وسار على منواله كل من ولده اسحق بن حنين ، وابن اخته حبيش بن الحسن الاعسم ، وكانا من المترجمين في بيت الحكمة .

ومن المترجمين الذين عملوا في بيت الحكمة ايضا ، وكانوا ينقلون عن اليونانية والسريانية ، كل من يحيى بن أبي منصور المنجم الموصلي ، وحبيب ابن بهريز مطران الموصل ، والعالم الرياضي ثابت بن قرة الصابي ، وقسطا بن لوقا البعلبكي . كما كان من مشاهير المترجمين في بيت الحكمة ، الحجاج بن مطر ، وعمر بن الفرخان الطبري .

وبالاضافة الى اعمال الترجمة اشترك عدد من هؤلاء المترجمين في البعثات التي ارسلت الى بلاد الروم وغيرها للبحث عن الكتب العلمية فيهما ؛ وجلبها الى بغداد .

وقد شارك معظم هؤلاء المترجمين في ترجمة كتب اليونان ، اما عن اللغة الاغريقية راسا ، او عن الترجمات السريانية التي وضعت للكتب اليونانية ، وكان هذا الفريق وفير العدد ، نذكر منهم غير الذين وردت اسماؤهم في سياق البحث ، « البطريق » والد « يحيى ابن البطريق » ، وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي ، وهلال الحمصي ، وسلام الابرش ؛ وزوربا ابن ماجوه الناعمي الحمصي ، وباسيل المطران ، واصطفن بن باسيل ، وابو نوح بن الصلت ، ويحيى ابن عدي التكريتي ، واخوه ابو الفضل جرير بن عدي التكريتي ، ويوحنا بن يوسف الكاتب ، وايوب الرهاوي ؛ واخرون غيرهم ممن اورد ابن النديم اسماءهم في كتابه « الفهرست » .

اما الذين اشتهروا بالنقل من الفارسية فهم آل نوبخت ، وعبدالله بن المقفع ، وموسى ويوسف ولدا خالد ، وعلي بن زياد التميمي ، والحسن ابن سهل ، واحمد بن يحيى البلاذري ، وجبلة بن سالم ، واسحق بن يزيد ، ومحمد بن الجهم البرمكي ، وموسى بن عيسى الكردي ، وهشام بن القاسم وغيرهم .

وكان النقلة من اللغة الهندية الى العربية يؤلفون فريقا كبيرا ايضا من اشهرهم ابو الريحان البيروني ، ومن اقدمهم منكة الهندي ، وابن دهن الهندي الذي كان يشرف على بيمارستان البرامكة، وصالح بن بهلة ، وسواهم .

وكان كل من « ابن وحشية » و «ابن العوام» ينقلان عن اللغة النبطية ، وقد تخصصا في نقل كتب الفلاحة والنبات .

ولقد تناولت حركة الترجمة سواء في العصر الاموي ام في العصر العباسي ، سائر العلوم والمعارف ؛ وعلى الاخص علوم الطب والفلسفة والفلك والكيمياء والحركات والهندسة ، وذلك لانه لم يكن للعرب في جاهليتهم سوى المام بسيط وبدائي بهذه العلوم .

وبلغ اندفاع العرب في نقل العلوم القديمة اقصى مداه في عصري الرشيد والمأمون بصفة خاصة ذلك لانه ما يكاد يصل كتاب الى يد الخليفة او سواه من المعنيين بهذه العلوم ، حتى يقبل القوم على ترجمته واستنساخ تلك الترجمة باعداد كبيرة ، ووضع الشروح والتفاسير له والتعليقات عليه في كتب خاصة ومطولة احيانا .

واكثر من هذا ان كثيرا من الكتب ، وعلى الاخص مؤلفات ارسطو وافلاطون وابقراط وجالينوس وبطليموس واقليدس وغيرهم ، قد ظهرت عدة ترجمات لها ، واقبل اكثر من مترجم على نقلها ؛ واكثر من شارح على شرحها والتعليق عليها .

ولناخذ على ذلك مثلا كتاب « المجسطي » فقد ترجم هذا الكتاب عدة ترجمات على ايدي مترجمين مختلفين ، كما نقحت بعض هذه الترجمات ، وصححت مرات عديدة . فقد كان من بين الذين ترجموا المجسطي : الحجاج بن مطر ، وسهل بن ربن الطبري ، وحنين بن اسحق ، وابو الريحان

البيروني . وكان ثابت بن قرة الصابي على راس الذين اصلحوا ترجمة المجسطي ، وتوجد الان نسخة خطية من ترجمة الحجاج بن مطر لكتاب المجسطي، في مكتبة « ليدن » بهولندا(٣٨) .

ومثل هذا القول يصدق ايضا على كتاب « السند هند » الشهير الذي وضعه العالم الرياضي الهندي « براهمفبت » في سنة ٦٢٨م بعنوان « براهمسهت سندهانت Brahma Shopta Sind Hanta ومعناه « كتاب الهيئة المصحح المنسوب الى براهمفبت » .

وكان الخليفة ابو جعفر المنصور قد امر بترجمة هذا الكتاب الى العربية ، فاقبل على ترجمته غير واحد من المترجمين ، كان اولهم ابراهيم بن حبيب الفزاري ، ثم ترجمه من بعده يعقوب بن طارق المنجم ، واخرون غيره .

× × ×

كان الطب والفلك من اول العلوم التي اشتغل العرب المسلمون بنقلها الى اللغة العربية ، وذلك يعود في الدرجة الاولى الى الاهتمام الكبير الذي يوليه العرب لهذين العلمين . فقد ذكر الاستاذ « كرلونللينو » في كتابه « علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى » ان « اول ما اشتغلت به البلاد الاسلامية من العلوم ؛ هي العلوم العملية؛ وخصوصا الطب والكيمياء ، واحكام النجوم»(٣٩) .

في حين يذكر دبلاسي اوليري في كتابه « كيف انتقلت علوم اليونان الى العرب » ان « هناك من الاسباب ما يدعو الى الاعتقاد بان بعض الترجمات الاولى التي نقلت عن اليونانية مباشرة ، كانت تخص الفلك والرياضيات »(٤٠) .

وهذا الاهتمام بعلوم الطب والكيمياء والفلك قد برز حتى في عهد الامويين ، وكان من العوامل التي وجهت انظار العرب الى نقل كل ما تيسر لديهم نقله من الكتب التي تبحث هذه العلوم ؛ والعمل على نشرها قبل المبادرة بنقل غيرها من المصنفات .

فقد ثبت ان اول كتاب في الرياضيات ترجم الى اللغة العربية هو كتاب « السندهانتا » الذي اشتهر لدى العرب باسم « السند هند » الذي سبقت الاشارة اليه . فقد جلب هذا الكتاب احد اعضاء الوفد الهندي الذي قدم الى بغداد سنة ١٥٤هـ ٧٧١م ، وحظي بمقابلة الخليفة ابي جعفر المنصور(٤١) . وكان من اوائل الكتب الطبية التي ترجمت الى العربية كتاب « شاناق » عن السموم وقد ترجمه « منكه » الهندي ، كما نقل « كنكه » الهندي ؛ وهو من كبار علماء الهنود ، كثيرا من الكتب الطبية والفلكية الى اللغة العربية .

× × ×

كانت غالبية الكتب التي جرت ترجمتها من اللغة اليونانية ، سواء في بيت الحكمة ام خارجه ، من الكتب اليونانية . وكانت هذه الكتب المترجمة تؤلف قائمة ضخمة يصعب تعدادها ، ذلك لان ما ذكره كل من ابن النديم ، والقفطي ، وابن ابي اصيبعة ، وابن جلجل ، وحاجي خليفة ، وغيرهم ممن عنوا بجمع اسماء المصنفات واصحابها ، لا يؤلف في الواقع سوى نسبة ضئيلة مما تمت ترجمته من هذه الكتب . ذلك لان عدد الكتب اليونانية المترجمة قد تجاوز الخمسمائة كتاب بل اكثر من ذلك بكثير .

وكانت معظم الكتب التي ترجمت عن اللغات الهندية تبحث في الطب والفلك والرياضيات من امثال « السند هند » وكتاب « ارياهيت » وكتاب « كهند كهاديك » وكتب « شاناق » في السموم والتدبير ، وكتاب « روسا » ــ وهي امراة هندية ــ في امراض النساء وعلاجها ، وكتاب «شارك سهنيا» في الطب الهندي ، وكتاب « شارك سهنيا » في الطب ، وكتاب «بيدبا » في الحكمة ، وكتاب « اسرار المسائل » وكتاب « سيرر » الذي ترجمه «منكه» ، وكتاب « عشر مقالات » لمنكه ايضا وكتاب « سدستاق واستانكي » الجامع وقد ترجمهما « ابن دهن » . وترجم البيروني كتاب « بانفل سوكرا » ؛ وكتاب «الكسوفين» عند الهنود ؛ وكتاب « لكهرجانكم راشاكات هند »(٤٢) .

ومن مؤلفات ومترجمات « كنكه » كتاب « اشودار » في الاعمار ، وكتاب القرانات الكبير . وكتاب القرانات الصغير ، وكتاب في التوهم ؛ وكتاب في احداث العالم ، وكتاب الدرر في القرآن(٤٣) .

---

(٣٨) جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية ج٢ ص ٢٢٢.
(٣٩) كرلونللينو : علم الفلك ص ١٤٣ .
(٤٠) De Lacy Oleary : How Greek Sciences Passed to the Arabs P. 175.

(٤١) كرلونللينو : علم الفلك تاريخه عند العرب ص ١٤٩ .
(٤٢) مهيش برشاد : بين اللغتين العربية والسنسكريتية مجلة « ثقافة الهند » الجزء الاول ص ٩٥ مارس ١٩٥٠.
(٤٣) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج٢ ص ١٧٧ .

وهناك كتب هندية اخرى ترجمت الى العربية ايضا منها كتاب سيرك الهندي ، وكتاب علامات الادواء ، وكتاب الحار والبارد ، وكتاب المواليد من تأليف الطبيب الهندي جوادر ، وكتاب سرور في الطب نقله منكه ، وكتاب عقاقير الهند من تقـل منكه ايضا ، وكتاب «مختصر الهند في العقاقير » ؛ وكتاب علامات الحبالى ، وكتاب السكر ، وكتاب راي الهند في اجناس الحيات وسمومها .

وترجم البيروني ، الى جانب ما ذكرناه قبلاً، كتابا عن طرق الحساب ، ومقالة في الامراض العفنة ومقالة في الجوابات الواردة من منجمي الهنـد ، كما اصلح ترجمة كتاب « اريابهت » .

ومن كتب الحكم والادب والاساطير التي نقلت من الهندية الى العربية كتاب كليلة ودمنة ، وكتاب السندباد الكبير والسندباد الصغير ، وكتـاب « بوداسف » وكتاب « بوداسف مفرد » ، وادب الهند والصين ، وكتاب «هابل» في الحكمة ، وكتاب الهند في قصة هبوط آدم ، وكتاب « دبك » الهندي وكتاب حدود الهند ، وكتاب « ساديرم » ، وكتاب ملك الهند القتال والسباح ، وكتاب «بيافر» عن اصول الالحان »(٤٤) .

بدات حركة النقل عن الفارسية الى العربية في عصر ابي جعفر المنصور كما اسلفنا ذكر ذلك وكان ابن المقفع في مقدمة الذين نقلوا عن الفارسية فقد ترجم ، الى جانب كليلة ودمنة ، كتاب سيرة ملوك العجم وهو الكتاب الفهلوي المعروف باسم « خداي نامة » وكتاب «الائين» وكتاب «الين نامة» عن انظمة الدولة ، وكتاب التاج الذي قيل انه كان في سيرة انوشروان واردشير ، وكتاب مزدك وهـو قصة روائية ، وعن الفارسية ايضا ترجم ابن المقفع بعض كتب ارسطو وفرفريوس .

وفي زمن ابن المقفع على وجه التقريب اشتغل بعض معاصريه من العجم ايضا في ترجمة كتب من الادب الفارسي الى العربية ؛ منهم محمد بن جهـم البرمكي ، وزارويه بن شاهويه الاصفهاني ، ومحمد ابن بهرام بن مهيار الاصفهاني ، وهشام بن القاسم الاصفهاني(٤٥) .

ومن الذين ترجموا عن الفارسية ايضا بهرام ابن مردانشاه ، وموسى بن عيسى الكردي ، اللذان ترجما كتاب « خداينامك » . ولعل موسى بن عيسى هو الذي ترجم قصة السندباد التي بقيت منها ترجمة يونانية »(٤٦) .

وترجم ابان بن عبدالحميد اللاحقي كتـاب سيرة اردشير ، وكتاب سيرة انوشروان ، وكتاب « بلوهر وبوداسف » وهذا الكتاب حكاية بوذيـة ترجمت للمانويين في « السـند » فاعجبـوا بها ، وعكفوا على قراءتها ، والى هذه الترجمة ترجع صياغتها الحالية »(٤٧) . كما ترجم « ابان » ايضا كتابا في الرسائل ، وكتاب حلم الهند ، وغيرها . وقيل انه ترجم هذه الكتب شعرا .

وترجم « علي بن زياد » كتاب زيج الشهر ، في حين ترجم اسحق بن يزيد كتاب « اختيار نامه » واثبت ابن النديم في كتابه طائفة كبيرة باسـماء الاشخاص الذين قال انهم كانوا يقومون باعمـال الترجمة من الفارسية الى العربية ، من امثـال آل نوبجت ، والحسن بن سهل ، وعمر بن المفرخان وجبلة بن سالم ، واحمد بن يحيى البلاذري .

وكان من بين المترجمين الشهيرين عن الفارسية ابو العباس الدميري ، ومحمد بن خلف بن المرزبان الذي قيل عنه انه ترجم اكثر من خمسين كتابا(٤٨) .

وتبدو اهمية بيت الحكمة فيما هياه من اجواء وامكانيات لذوي المواهب من العلماء والمفكرين ، الذين عكفوا على وضع مختلف المؤلفات في شتى اصناف العلوم العقلية منها والعملية . فقد استفاد من بيت الحكمة ، ومواظبة البحث والتاليف فيه ، عدد كبير من مشاهير العلماء والمؤرخين ، على راسهم العالم الرياضي الشهير محمد بن موسى الخوارزمي مؤسس علم الجبر والمقابلة ، والذي اشتهر لدى الغربيين باسم « اللوغارتمي » فاصبحت هذه الكلمة تعني « الجبر » ونقلت بشكلها المحرف حتى الى كتب الرياضيات التي تدرس في كل مدارس العالم العربي في الوقت الحاضر .

فلقد استطاع الخوارزمي بما اطلع عليه من الكتب المحفوظة في مكتبة بيت الحكمة ، ان يضع كتبه الرياضية هذه ، وان يؤلف الزيج الشهير بالاضافة الى كتبه التي تبحث في الاسطرلاب وغيره .

وبامر من الخليفة هرون الرشيد ، وفي بيت الحكمة نفسـه ، وضع « الاصمعي » اللغوي الشهير

(٤٤) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج٣ ص ١٧٩ ــ ١٨٠ ، وابن النديم : الفهـرست ص ٤٢٨ ــ ٤٢٩ .

(٤٥) بروكلمان : تاريخ الادب العربي ج٢ ص ١٠٢ .

(٤٦) ذات المصدر .

(٤٧) نفس المصدر ص ١٠٣ .

(٤٨) نفس المصدر .

كتابا عن تاريخ الملوك انفابرين ، كما وضع «الفراء» العالم النحوي المعروف ، وبامر من المأمون ، كتابه في اصول النحو ، حيث افردت له غرفة خاصة في بيت الحكمة .

وفي بيت الحكمة وضع العالم محمد بن اسحق ابن النديم كتابه الشهير « الفهرست » كما وضع « المسعودي » المؤرخ مؤلفاته « مروج الذهب » والاشراف والتنبيه وغيرها في ذلك المعهد العظيم

وفي بيت الحكمة ايضا وضع«حمزة الاصفهاني» كتابه « تاريخ الملوك والانبياء » معتمدا على المصادر التي توفرت له في تلك المؤسسة .

× × ×

الان وقد انتهينا من ابراز اهمية بيت الحكمة وما احدثه من ثورة في حركة الترجمة ، وفي نشر العلوم في مختلف انحاء العالم الاسلامي ، لابد لنا من التحدث ، ولو بايجاز ، عن كبار المترجمين في ذلك العصر الزاهر ، سواء منهم الذين عملوا في بيت الحكمة ذاته ؛ او الذين ساهموا مساهمة حميدة فعالة في نقل التراث العلمي والفكري ، ذلك التراث الذي كان له اثره الكبير في تطور الفكر العربي الاسلامي ونضوجه ، وفي ازدهار الحضارة العربية الاسلامية التي كانت بحق وحقيقة ، المصدر الرئيس للمدنية العالمية الحاضرة .

١ ـ عبدالله بن المقفع

يقول العالم الفلكي الكبير « ابو معشر الفلكي » في كتاب « المذكرات » الذي الفه لحساب «شاذان ابن بحر » ان « حذاق الترجمة في الاسلام اربعة . حنين بن اسحق العبادي ، ويعقوب بن اسحق الكندي ، وثابت بن قرة الحراني ، وعمر بن الفرخان الطبري . ونفهم من كلام « ابي معشر » هذا ، ان هؤلاء المترجمين اكثر حذقا في عمل الترجمة ، واوفر دقة واصالة من سواهم من المترجمين الاخرين . غير اننا نود ان نبدأ بعبدالله بن المقفع لانه من اوائل المترجمين الحذاق والبلغاء . فقد باشر عمله في الترجمة في عهد ابي جعفر المنصور .

يكنى ابن المقفع ، وهو فارسي ، بابي عمرو واسمه الاصلي « روزبه » وقد ابدله الى «عبدالله» بعد اعلان اسلامه . ويدعى ابوه « داذويه » ولقب بالمقفع لمال احتجنه من بيت المال فضربت يداه وتقفعتا وكان ابن المقفع في اول امره كاتبا لدى « داود بن عمر بن الحسن » اخر ولاة بني امية في ولاية «كرمان» وقد جمع اموالا كثيرة ، ومن ثم اصبح كاتبا لدى عيسى بن علي العباسي عم الخليفة ابي جعفر المنصور ، وعلى يده اعلن اسلامه ، وان ظل يخفي عقيدته المانوية والزردشتية .

وكان ابن المقفع كاتبا مجيدا وشاعرا بليغا وهو من خيرة الذين نقلوا عن الفارسية الى العربية لكنه كان في الوقت ذاته شديد التعصب لقومه الفرس ، مقذع الهجاء للعرب . فقد كان في مقدمة الادباء الذين سعوا الى نشر الاداب الفارسية في العصر العباسي، والمفاخرة بما كان عليه ملوك فارس من ابهة وفخفة ، ومن الذين عمدوا الى نشر الافكار المانوية والزردشتية في المجتمع الاسلامي آنذاك .

كان اول ما ترجمه ابن المقفع عن الفهلوية ، اللغة الفارسية القديمة ، هو كتاب « كليلة ودمنة » وهو مؤلف هندي الاصل يدعى « بنجه تترا » اي « الكتاب المخمس »(٤٩) كما عرف ايضا باسم « اساطير بيدبا » وقد ترجمه ابن المقفع ترجمة بليغة تعد نموذجا بارزا من روائع النثر العربي . ولا عجب في ذلك فقد ذكر ان ابن المقفع قد تفقه في العربية على يد « الخليل »(٥٠) . وقد ضاع الاصل الفارسي والسنسكريتي لهذا الكتاب ، ولم تبق سوى ترجمته العربية التي ذاعت ذيوعا منقطع النظير في العالم الاسلامي . واعتمد الاوربيون على الترجمة العربية هذه فنقلوا كتاب كليلة ودمنة الى مختلف لغاتهم منذ اوائل القرن التاسع عشر .

وقد بقيت للكتاب ترجمة سريانية وضعها الداعية النسطوري « بود » في حدود سنة ٥٧٠م وتم نشرها على يد كل من « بيكل » و «بنفى» سنة ١٨٧٦(٥١) .

وترجمت كليلة ودمنة الى الفرنسية على يد المستشرق سلفستر دي ساسي ، ونشرت في باريس سنة ١٨١٦ . وترجمها « فولف » الى الالمانية ونشرها في شتوتغارت سنة ١٨٣١ . ونشرت لها ترجمة انكليزية في اكسفورد سنة ١٨١٩ ؛ وترجمة ايطالية في سنة ١٩١٠ ، وترجمة روسية سنة ١٩٣٤(٥٢) .

وترجم ابن المقفع ـ كما اشرنا الى ذلك قبلا ـ كتاب

(٤٩) دي بوير : تاريخ الفلسفة في الاسلام : ترجمة عبدالهادي ابو ريدة ص ١٢ .
(٥٠) المصدر نفسه ص ٢٩ .
(٥١) دبلاسي اوليري : الفكر العربي مكانته في التاريخ ص ١٢٢ .
(٥٢) بروكلمان : تاريخ الادب العربي : ج٢ ص ٩٣ ـ ٩٥ .

التاج ، وكتاب «الائين» وكتاب « ائين نامة » وكتاب « مزدك » ، وكتاب « تنسر » وغيرها .

وعن اللغة الفارسية ايضا ترجم ابن المقفع ثلاثة من كتب ارسطو هي « قاطيغورياس » ، « وبارامنياس » و « انا لوطيقا » كما ترجم كتاب « ايساغوجي » لفرفريوس(٥٢) .

والى جانب هذه الترجمات وضع ابن المقفع عدة كتب منها كتاب « الادب الكبير » الذي سمي في بعض الاوقات باسم « الدرة اليتيمة » ، والادب الصغير ، وكتاب رسالة الصحابة ، وكتاب الدرة الصغيرة او الثانية ، وحكم ابن المقفع التي نشرها العلامة « محمد كردعلي » في « رسائل البلغاء » . ولابن المقفع قصيدة في الشهور المسيحية محفوظة في مكتبة جامع اياصوفيا باسطنبول وقد نشرت مع ترجمة المانية لها ، كما ان له رسالة في معارضة القرآن يقول بروكلمان عنها « فلم نعرفها الا من الرد عليها الذي كتبه الامام الزيدي القاسم بن ابراهيم العلوي المتوفى سنة ٢٤٦هـ ٨٦٠م(٥٤) .

٢ ــ يوحنا بن ماسويه ١٩٧–٢٤٣هـ ٨٠٩–٨٥٧م

من اوائل المترجمين في العصر العباسي، ورئيس بيت الحكمة ، ومن المعنيين عناية فائقة بالعلوم الفلسفية والطبية ، كما كان من الاطباء المشهورين في طب العيون .

كان ابوه ، وهو نسطوري ، يدق الادوية في مستشفى جنديسابور . واستطاع بفضل ممارسته وخبرته هذه، ان يعرف كثيرا من الامراض وعلاجها، رغم انه لم يكن يعرف الكتابة والقراءة . ولقد جاء ماسويه الى بغداد ، وحاول الاتصال بطبيب الخليفة الرشيد ، جبرائيل بن بختيشوع ، غير انه لم يفلح في ذلك ، بسبب كلام قيل انه صدر عنه في حق جبرائيل . وعندئذ اخذ ماسويه يبيع الادوية في صندوق يحمله معه ، ويجلس به عند باب الحرم في قصر « الفضل بن الربيع » وزير الرشيد . واستطاع ماسويه ان يشفي خادم « الفضل » من رمد اصاب عينها ، فاستانس به الفضل بن الربيع ، واجرى له في كل شهر ستمائة درهم ، وعلوفة دابتين ، ونزل خمسة غلمان، وامره ان يحمل عياله من جنديسابور ، واعطاه نفقة واسعة فحمل عياله و « يوحنا » حينئذ صبي صغير »(٥٥) .

(٥٣) نفس المصدر ص ٩٨ .
(٥٤) نفس المصدر ص ١٠١ .
(٥٥) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ج٢ ص ١١٨ – ١١٩.

وقد ذكر ابن القفطي ، واعاده ابن ابي اصيبعة رواية عن جبرائيل بن بختيشوع يفهم منها ان ماسويه تزوج في بغداد جارية « داود بن سرافيون » انجبت له ولديه « يوحنا » و « ميخائيل » .

كذلك ذكر « ديلاسي اوليري » في كتابه « كيف انتقلت العلوم اليونانية الى العرب » ان يوحنا بن ماسويه تولى مدرسة جنديسابور ومستشفاها حين انتقل جبرائيل بن بختيشوع الى بغداد . على ان معظم الذين ترجموا ليوحنا يتفقون على انه قد تثقف في بغداد .

نشأ يوحنا ببغداد ، وبها نال تعليمه واشتهر بالطب وبالنقل من السريانية الى العربية حتى ذاع صيته ، فاتخذه الرشيد طبيبا خاصا له ، وقلده رئاسة بيت الحكمة ، وعهد اليه بالاشراف على الكتب التي جلبها من بلاد الروم .

وقد نال يوحنا الحظوة البالغة ليس لدى الرشيد حسب ، بل ولدى الخلفاء الذين اعقبوه ، وكان مجلسه في بغداد اعمر مجلس لمتطبب او متكلم او متفلسف ، لانه كان يجتمع فيه كل صنف من اصناف اهل الادب »(٥٦) ولم يقتصر عمله في بيت الحكمة على الرئاسة والاشراف حسب ، وانما كان يعمل في نقل الكتب وقد ترجم كثيرا منها(٥٧) .

وقد تتلمذ يوحنا على جبرائيل بن بختيشوع في اول الامر ، ثم على يد « عيسى بن نون » الذي صار بطريركا للنساطرة سنة ٨٣٢م وكان يوحنا طبيبا فاضلا ، ومؤلفا بالسريانية والعربية ، ومتمكنا من الاغريقية ، وجاء الى بغداد باشارة من جبرائيل بن بختيشوع ، وقدم الى بلاط الرشيد باعتباره طبيبا حاذقا ، واحد الذين يشتغلون بالطب اليوناني(٥٨).

قال عنه « جمال الدين ابن القفطي » صاحب كتاب « تاريخ الحكماء » ، « كان يوحنا من اجل علماء عصره ، متضلعا في الترجمة ، عالما بالعلوم التي يقوم بترجمتها . كما كان يعقد مجلسا للنظر ، ويعمر ذلك المجلس بعلم هذا الشان اتم عمارة ، ويجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة باحسن عبارة . واجتمع اليه اهل العلوم والادب وكان يجتمع اليه تلاميذ كثيرون »(٥٩) .

(٥٧) صاعد الاندلسي : طبقات الامم ص ٥٥ .
(٥٦) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ج٢ ص ١٢٣ .
(٥٨) ديلاسي اوليري : العلوم اليونانية وسبل انتقالها الى العرب ص ٢٢٣ الترجمة العربية .
(٥٩) ابن القفطي : تاريخ الحكماء ٢٨٢ – ٢٨٣ .

وكان الى جانب حذقه السريانية والعربية ، والتأليف بهما ، متمكنا من استخدام الاغريقية(*) . كما انه كان من الذين اوفدوا الى بلاد الروم للبحث عن كتب العلوم اليونانية فيها(٦٠) .

لا مجال للتفريق بين الكتب التي تركها يوحنا ابن ماسويه ، وما اذا كانت موضوعة ام مترجمة . ذلك لان الذين ترجموا له لم يفعلوا ذلك ، ومنهم « ابن ابي اصيبعة » صاحب كتاب « طبقات الاطباء » الذي ذكر له اربعة واربعين مؤلفا(٦١) .

وقد ظفرت بعض كتب يوحنا بالشهرة الواسعة حتى في اوربا . ومن هذه المؤلفات ، كتابه عن « الحميات » الذي اشتهر زمنا طويلا ، وترجم الى اللاتينية والعبرية(٦٢) . ومن كتبه الشهيرة ايضا كتاب « دغل العين » في طب العيون الذي اهداه الى تلميذه حنين بن اسحق . وبلغ من شهرة هذا الكتاب انه كان من بين الكتب الطبية المقررة في الامتحان الذي اجراه الخليفة العباسي « القاهر » (٩٢٢ — ٩٣٤م) للحصول على اجازة الطب(٦٣) .

ويعد كتاب « دغل العين » اول كتاب في طب العيون يصل الينا . ذلك لان الكتب اليونانية والسريانية ، وما صنف باللغات الاخرى في هذا الفن ، قد ضاعت ، وتوجد مخطوطة كاملة من هذا الكتاب في مكتبة « احمد تيمور باشا » في القاهرة ، واخرى في مكتبة لنينغراد »(٦٤) .

وذكر « جرجي زيدان » في كتابه « المختصر في آداب اللغة العربية » ان ما بقي من كتب يوحنا ابن ماسويه هو :

١ — كتاب « نوادر الطب » وفيه ترجمة لاتينية وشروح .
٢ — جواهر الطب .
٣ — كتاب ماء الشعير .
٤ — كتاب الادوية المسهلة وغيرها .

بقي يوحنا بن ماسويه يخدم خلفاء بني العباس حتى عهد الخليفة « الواثق بالله » (٨٤٢ — ٨٤٧م)

(*) اوليري : الفكر العربي مكانته في التاريخ ص ١٢٦ الترجمة العربية .
(٦٠) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٢ .
(٦١) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ص ١٢٦ — ١٢٧ .
(٦٢) اوليري : الفكر العربي ص ١٢٧ .
(٦٣) اوليري : كيف انتقلت علوم اليونان الى العرب ص ٢٢٤ الترجمة العربية .
(٦٤) اوليري : المصدر السابق .

وكان الواثق شغوفا به وقد اهداه في يوم واحد ثلثمائة الف درهم ... وذكر يوحنا عن نفسه انه اكتسب من صناعة الطب الف الف درهم ، وعاش بعد قوله هذا ، ثلاث سنين اخر(٦٥) .

وكانت وفاة يوحنا بن ماسويه «بسر من راى» يوم الاثنين لاربع خلون من جمادى الاخرة سنة ثلاث واربعين ومائتين في خلافة المتوكل(٦٦) .

× × ×

٢ — ثابت بن قرة الصابي

يعد ثابت بن قرة من اشهر المترجمين واكثرهم دقة ، وذلك بشهادة العلماء من غير العرب . فقد كان يحسن السريانية والعبرية ، واليونانية الى جانب العربية ، جيد النقل عن هذه اللغات ؛ الامر الذي جعل العالم الانكليزي « جورج سارطون » يعتبره من اعظم المترجمين ، واعظم من عرف في مدرسة « حران » في العالم العربي »(٦٧) .

ولد ثابت بن قرة بمدينة حران يوم الخميس الحادي والعشرين من شهر صفر سنة ٢١١هـ ٨٢٦م ونشأ على دين آبائه وهو الوثنية التي تحولت الى الصبئية(٦٨) وحين اصطدم مع رئيس كنيسة حران اصدر هذا الرئيس قرارا بحرمانه حوالي سنة ٢٥٩هـ ٨٧٢م وارسله الى « كفر توثا » بالقرب من « دارة »(٦٩) .

وبعد ان جال ثابت في بلاد كثيرة التقى باحد اولاد موسى بن شاكر وهو « محمد »(٧٠) عند انصرافه من بلاد الروم حيث كان يفتش فيها عن كتب الاغريق . وقد اعجب « محمد » بفصاحته فاصطحبه معه الى بغداد . وقيل ان محمد هذا قد قرا على ثابت ، وتعلم في داره ، وانه هو الذي اوصله بالخليفة المعتضد ، فادخله في جملة

(٦٥) ابن ابي اصيبعة : ج ٢ص ١٢٢ .
(٦٦) نفس المصدر السابق .
(٦٧) و (٦٨) قدري حافظ طوقان: العلوم عندالعرب ص١٢٧ .
(٦٩) ذكر ابن النديم ص ٢٩٤ وابن القفطي ص ١١٥ ان ولادة ثابت كانت في سنة ٢٢١ هـ وذلك خطا لان ابن النديم قال عنه انه توفي في سنة ٢٨٨ هـ وعمره سبع وسبعون فيكون مولده الصحيح في سنة ٢١١ .
اوليري : علوم اليونان . ص ٢٢٨ وابن خلكان .
(٧٠) وقع الباحث العلامة المرحوم قدري حافظ طوقان واخرون غيره في خطا فاضح حين ذكروا ان الذي اتصل بثابت بن قرة هو محمد بن موسى الخوارزمي ، في حين ان الذي اتصل به في كفر توثا هو محمد بن موسى بن شاكر المنجم انظر ابن القفطي ص ١١٥ وابن اصيبعة ج ١ ص ١٩٣ واوليري علوم اليونان ص ٢٢٨ .

المنجمين عنده ، وذكر عن ثابت انه هو الذي ادخل رئاسة الصابئة الى العراق ، فتثبتت احوالهم ، وعلت مراتبهم ، وبرعوا(٧١) وقد اكرم المتضد وفادته ، واجرى له معاشا شهريا قدره خمسمائة دينار ...... ويعد ثابت اعظم هندسي عربي على الاطلاق »(٧٢) .

وروى « ابن ابي اصيبعة » كيفية اتصال ثابت بن قرة بالخليفة المعتضد بالله ، فذكر ان الخليفة « الموفق » حين غضب على ولده المعتضد ، أمر بحبسه في دار اسماعيل بن بلبل ، واوكل به « احمد » الحاجب . وقد طلب اسماعيل بن بلبل الى ثابت ان يدخل الى المعتضد في سجنه ليرفه عنه ، ففعل ذلك ، فأنس المعتضد به ، اذ كان ثابت يدخل عليه ثلاث مرات في اليوم يحادثه ويسليه ، ويعرفه احوال الفلاسفة ، وامر الهيئة والنجوم وغير ذلك ، فشغف به ولطف منه محله(٧٣) .

ولما تولى المعتضد الخلافة سنة ٢٧٩هـ ٨٩٢م زاد اهتمامه بثابت بن قرة واكرامه له ، فقربه اليه ، واقطعه ضياعا جليلة . وكان يجلسه بين يديه بحضرة العام والخاص . وقد حدث ذات مرة ان كان المعتضد يتمشى مع ثابت في « الفردوس » ـ وهو بستان في دار الخليفة ـ للرياضة فاتكأ على يد ثابت وهما يتمشيان ، فنتر الخليفة يده بشدة من يد ثابت وقال له « يا ابا الحسن سهوت ووضعت يدي على يدك واستندت عليها ، وليس هكذا يجب ان يكون ، فان العلماء يعلون ولا يعلون »(٧٤) .

وثابت بن قرة واحد من العلماء الموسوعيين لدى العرب والذين تعددت نواحي عبقريتهم . فقد نبغ في الطب ، وفي الفلسفة ، والفلك ، والرياضيات(٧٥) . ولم يكن في زمانه من يماثله في صناعة الطب ، ولا في غيره من جميع اجزاء الفلسفة ، وحسن التخرج والتمهر في العلوم(٧٦) وقد قطع شوطا بعيدا في الرياضيات وفي الفلك ، واضاف اليها ومهد في ايجاد اهم فرع من فروع الرياضيات هو التكامل والتفاضل(٧٧) .

ولثابت بن قرة ارصاد حسان للشمس ، تولاها ببغداد ، وجمعها في كتاب بين فيه مذهبه في حركة الشمس(٧٨) . كما اشتغل في التحليلات الهندسية واجاد فيها اجادة عظيمة . وله ابتكارات سبق بها الفيلسوف والعالم الرياضي الفرنسي «ديكارت»(٧٩) .

وحل ثابت بعض المعادلات التكعيبية بطرق هندسية ، استعان بها بعض العلماء الغربيين في بحوثهم الرياضية خلال القرن السادس عشر من امثال « كاردان » وغيره من كبار الرياضيين(٨٠) . واستخرج ثابت حركة الشمس ، وحسب طول السنة النجمية فكانت اكثر من حقيقتها بنصف دقيقة ليس الا . كما حسب دائرة البروج ، وقال بوجود حركتين ، مستقيمة ومتقهقرة لقطبي الاعتدال(٨١) .

والشيء المؤكد ان ثابت بن قرة هو الذي وضع دعوى « منلاوس » حول استعمال الجيوب بدلا من الاوتار في شكلها الحاضر . وفضلا عن ذلك حل بعض المعادلات التكعيبية بالطرق الهندسية(٨٢) .

كان ثابت من الذين مهدوا السبيل لظهور علم التكامل والتفاضل ولهذا العلم شأن خطير في الاختراع والاكتشاف ، فقد ذكر العالم الرياضي الانكليزي « سمث » في كتابه « تاريخ الرياضيات » يقول « يجدر بنا ان نذكر ثابت بن قرة الذي اوجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافيء حول محوره »(٨٣) .

ويظهر تفوق ثابت بن قرة في الطب ، بارزا من قصة القصاب الذي مات فجاة ، وكيف شرع اهله ينوحون عليه ، وكيف اسرع ثابت اليه ، فعالجه وانقذه من موت محقق(٨٤) .

× × ×

وضع ثابت بن قرة ترجمات لعدد من كبار علماء الرياضيات والطب اليونانيين من امثال بولونيوس ، وارخميدس ، واقليدس ، وبطليموس ، وتيودوسيوس ، وجالينوس ، بالاضافة الى اصلاحه

(٧١) ابن القفطي ص ١١٥ وابن النديم ص ٢٩٤ وابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٩٣ .
(٧٢) البارون كارادي فو في « تراث الاسلام » ج١ ص ٢٤١ .
(٧٣) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٩٤ .
(٧٤) ذات المصدر ج ٢ ص ١٩٤ .
(٧٥) قدري حافظ طوقان : الخالدون العرب ص ٥٨ .
(٧٦) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٩٣ .
(٧٧) نفس المصدر ج ٢ ص ١٩٤ .

(٧٨) قدري حافظ طوقان : العلوم عند العرب ص ١٢٧ .
(٧٩) نفس المصدر ص ١٢٨ .
(٨٠) المصدر السابق والخالدون العرب لطوقان .
(٨١) طوقان : العلوم عند العرب والخالدون العرب ، وعمر فروخ : عبقرية العرب ص ٥٢ .
(٨٢) قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمي ص ٩٨ .
(٨٣) نفس المصدر ص ١٩٩ .
(٨٤) انظر القصة مفصلة في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٩٥ وابن القفطي تاريخ الحكماء ١٢١ .

كثيرا من الترجمات التي نقلت في زمانه . فالمشهور عنه انه اصلح الترجمة التي عملها حنين بن اسحق لكتاب « المجسطي » اصلاحا جيدا . ولم يكتف بذلك بل قام هو نفسه بترجمة المجسطي ترجمة جيدة ؛ واصلحه ، ووضعه ثم اختصر ذلك الكتاب اختصارا نافعا لم يوفق اليه احد غيره(٨٥) .

بلغت مؤلفات ثابت بن قرة في اللغة العربية بين موضوع ومترجم مائة وخمسين كتابا . وبالاضافة الى ذلك وضع باللغة السريانية ستة عشر كتابا في الهندسة والحساب ، والفلك ، والفيزيقي؛ وقد ذكر كل من ابن القفطي ؛ وابن ابي اصيبعة اسماء مؤلفات ثابت ، غير انهما لم يفصلا الكتب المترجمة منها عن الموضوعة .

فمما نقله عن جالينوس ، كتاب الادوية المفردة وكتاب المرة السوداء ، وكتاب سوء المزاج المختلف ، وكتاب الفصد ، وجوامع كتاب الامراض الحارة ، وجوامع كتاب الكثرة ، جوامع كتاب تشريح الرحم ، جوامع كتاب المولودين لسبعة اشهر ، جوامع تشريف صناعة الطب ، تفسير جالينوس لكتاب ابقراط في الاهوية ؛ والمياه ، والبلدان ، اختصار كتاب النبض ؛ جوامع كتاب النبض ؛ جوامع كتاب النبض الكبير ، اختصار كتاب قوى الاغذية ، حيلة البرء ؛ اختصار كتاب ايام البحران ، اختصار كتاب الاسطقات ، جوامع كتاب الادوية النفسية ، جوامع كتاب الاعضاء الالمة ، وكتاب الكيموس .

كذلك ترجم ثابت بن قرة « الكتب السبعة الاولى » وهي ثمانية كتب من اجزاء المخروطات لانطونيوس(٨٦) .

ومما ترجمه عن بطليموس — بالاضافة الى كتاب المجسطي — كتاب وجه مسيرات القمر الدورية ؛ وجوامع المقالة الاولى كما ترجم رسالة في الحجة المنسوبة الى سقراط ، وجوامع كتاب نيقوماخوس في الارثماطيقي ؛ اي الحساب ، وكتاب بار ارمنياس وجوامع كتاب انالوطيقا لارسطو ؛ ونقل كتاب اقليدس في الهندسة واصلحه اصلاحين(٨٧) .

وهناك ترجمات مختصرة ذكرها ابن القفطي فقال عنها «وله عدة مختصرات في النجوم والهندسة رايتها بخطه مما عمله ثابت للفتيان ابقاهم الله ، واظنه يعني بهم اولاد محمد بن موسى بن شاكر ... واما نقله من لغة الى اخرى فكثير»(٨٨) .

ومما ترجمه ثابت ايضا كتاب«اثافروديطوس» الذي فسر به كلام « ارسطو » عن الهالة وقوس قزح . وكذلك كتاب « النسبة المحدودة » لابولونيوس ، وشروح «اوطوقيوس » لمقالة ارخميدس في الكرة والاسطوانة ؛ وكتاب « اصول الهندسة » لمنلاوس ، وكتاب الجغرافيا وصفة الارض لبطليموس ، وكتاب « ببس » الرومي عن تفسير كتاب بطليموس في تسطيح الكرة .

ضاعت كل مؤلفات ومترجمات ثابت بن قرة التي ناهزت المائتين ، ولم يبق منها في وقتنا الحاضر سوى قلة احصى منها بعض المتتبعين الكتب والرسائل التالية .

١ ـ كتاب الكرة والاسطوانة .

٢ ـ كتاب المأخوذات ، وكلاهما لارخميدس ويوجد الاول في مكتبة خراجي زادة ببروسه، والثاني في مكتبة فاتح باسطنبول ؛ ومنه نسخة في طهران .

٣ ـ كتاب المعطيات في مكتبة نور عثمانية .

٤ ـ كتاب الاصول في مكتبة فاتح .

٥ ـ عمل الدائرة المرسومة بسبعة اقسام متساوية وهذه الكتب الثلاثة من بعض ما ترجمه ثابت من كتب اقليدس وما ترجمه عن اوطولوقس بقي .

٦ ـ كتاب الكرة المتحركة وهو محفوظ بصورته الاصلية في مكتبة اياصوفيا باسطنبول .

٧ ـ كتاب في الطلوعات والغروبات منه نسخة في اياصوفيا واخرى في طوبقبوسراي باسطنبول.

٨ ـ كتاب في حكاية ما استخرجه القدماء من خطين بين خطين حتى يتوالى الاربعة متناسبة لاوطرقيوس ؛ منه نسخة في باريس .

٩ ـ المطالع ترجمه في الاصل حنين بن اسحق واصلحه ثابت وهو لابسقلاوس منه نسخة في باريس .

١٠ـ المخروطات لابولونيوس صححه اولاد موسى منه نسخة في مكتبة ليدن بهولندا .

١١ـ تسهيل المجسطي لبطليموس منه نسخة في

(٨٥) ابن القفطي ص ١٢٠ .
(٨٦) يقول كارادي فو ان ثابت قد حفظ لنا ثلاثة كتب من مخروطات ابولونيوس ضاعت اصولها اليونانية انظر تراث الاسلام ج ١ ٣)؟ الترجمة العربية .
(٨٧) ابن القفطي : ص ١١٩ .

(٨٨) المصدر السابق .

مكتبــة اياصوفيــا واخرى بخط عبري في مكتبة المتحف البريطاني .

١٢ـ في اقتصاص جمل حالات الكواكب المتحيره لبطليموس ايضا منه نسخة في المتحف البريطاني واخرى في ليدن .

١٣ـ تصحيح كتاب الطلوعات والغروبات لبطليموس كذلك ، منه نسخة في اياصوفيا واخرى في طوبقبوسراي .

١٤ـ باري ارمنياس لارسطو وبتهذيب نيقولاوس.

١٥ـ مقالة لارسطو لكتابه فيما بعد الطبيعة منه نسخة في مكتبة اياصوفيا .

١٦ـ جوامع لكتب جالينوس منها نسخة في اياصوفيا[١٨٨] .

اما الباقي من مؤلفات ثابت فقد احصاه « بروكلمان » على النحو التالي .

١ ـ كتاب الروضة في الطب منه نسخة في بودليان .

٢ ـ جوامع من كتاب جالينوس في الذبول منه نسخة في بودليان .

٣ ـ رسالة في تولد الحصاة عن حصاة المثانة والكلى في مكتبة برلين .

٤ ـ كتاب البيطرة في مكتبة كوبري منه نسخة .

٥ ، ٦ ـ كتابان في الفلك منهما نسختان في مكتبة الاسكوريال بمدريد .

٧ ـ كتاب الشكل والقطاع منه عدة نسخ في لندن وباريس ومدريد واسطنبول وغيرها .

٨ ـ كتاب المفروضات منه نسخ في القاهرة وباريس واسطنبول ولندن وفلورنس .

٩ ـ رسالة في القرسطون : نظرية ميزان الذهب منها نسخ في برلين وبيروت والهند .

١٠ـ كتــاب في ابطاء الحــركة في فلك البروج وسرعتها منه نسخة في باريس .

١١ـ كتاب سنة الشمس والارصاد منه نسخة في الاسكوريال .

١٢ـ كتاب في تأليف النسب .

١٣ـ كتاب في مساحة المجسمات المكافئة . منه نسخ في اياصوفيا ، والقاهرة ، وباريس .

١٤ـ كتاب في مساحة قطع المخروط منه نسخ في باريس والقاهرة واياصوفيا .

١٥ـ كتاب في ان الخطين اذا خرجا على زاويتين قائمتين التقيا توجد منه نسخ في باريس ، واياصوفيا ، والقاهرة .

١٦ـ كتاب في الاعداد المتحابة منه نسخة في اياصوفيا .

١٧ـ رسالة في استخراج عمل المسائل الهندسية منه نسخة في باريس .

١٨ـ قسمة الزاوية بثلاثة اقسام متساوية موجود في باريس .

١٩ـ المسائل التي سأل عنها علي بن اسد منه نسخة في المتحف البريطاني .

٢٠ـ كتاب في حساب رؤية الاهلة ، في المتحف البريطاني .

٢١ـ نيل المطلوب من المعاني الهندسية منه نسخ في القاهرة واياصوفيا .

٢٢ـ كتاب الروح لافلاطون منه نسخة في ميونيخ واخرى في ليدن .

٢٣ـ قطوع الاسطوانة منه نسخة في اياصوفيا واخرى في القاهرة .

٢٤ـ كتاب عن المثلث قائم الزاوية في الاسكوريال .

٢٥ـ حجة سقراط في المربع وقطره ، في اياصوفيا والقاهرة .

٢٦ـ كتاب في عمل شكل مجسم ذي ١٤ قاعدة في مكتبة كوبري .

٢٧ـ كتاب في الات الساعات (الرخامات) . مكتبة كوبري .

٢٨ـ كتاب في الكرة في الاسكوريال .

٢٩ـ كتاب في ايضاح الوجه الذي ذكره بطليموس، مكتبة كوبري .

٣٠ـ كتاب ارتعاش النجوم الثابتة .

٣١ـ كتاب في حركة الفلك في باريس وفلورنس .

٣٢ـ في البياض الذي يظهر في البدن : اياصوفيا .

٣٣ـ مساحة الاشكال المسطحة والمجسمة : اياصوفيا .

٣٤ـ النسبة المؤلفة : طوبقبوسراي .

٣٥ـ ذكر الافلاك وخلقها : اياصوفيا .

٣٦ـ السبب في ملوحة مياه البحر : طوبقبوسراي.

٣٧ـ كتاب في الهيئة : اياصوفيا[٨٩] .

---

(١٨٨) بروكلمان تاريخ الادب العربي ج ٤ ص ١٧١ ـ ١٧٣ .

(٨٩) المصدر السابق ص ١٨٣ ـ ١٨٧ .

وقد ذكر ابن القفطي ان ثابت بن قرة وضع كتابا كبيرا في الموسيقى يقع في خمسمائة ورقة(٩٠) كما عمل ارصادا فلكية في بغداد ، حول ارتفاع الشمس ، وطول السنة الشمسية .

وقد توفى ثابت بن قرة في السادس والعشرين من شهر صفر سنة ٢٨٨هـ الموافق ١٨ شباط ٩٠١م وكانت ولادته في حدود سنة ٢١١هـ ٨٣٤م .

حنين بن اسحق العبادي

١٩٤ – ٢٦٠هـ ٨٠٩ – ٨٧٢م

ولد حنين بن اسحق العبادي بالحيرة في عائلة مسيحية نسطورية النحلة . كان ابوه يبيع العقاقير في الحيرة ، وقد عمل حنين معه وهو فتى غير ان مطامحه التي كان يحلم بها لا يمكن ان يتسع لها حانوت صغير في بلدة صغيرة . فقد كانت بغداد مطمح انظاره ، ومحط اماله ، حتى لقد كان ، وهو في صغره ، يسال رجال القوافل عن المسافة بين بغداد والحيرة .

وحدث ذات مرة ان تضرع الى مرشد احدى القوافل فقبل هذا بان ياخذه معه الى بغداد مقابل قنينة من مرهم الكافور ، وقد وافق حنين على ذلك ، وطار فرحا ، ولم تغمض له عين تلك الليلة من شدة الفرح»(٩٠) . وراح حنين يحضر مجلس ابن ماسويه رئيس بيت الحكمة ، وجعل يخدمه ويقرأ عليه(٩١) وقد اعجب ابن ماسويه بنباهة الفتى وذكائه ، وصار يعتمد عليه في تحضير بعض العقاقير امامه ، ويقرأ له كتاب « فرق الطب » الموسوم باللسان الرومي والسرياني « بهرأسيس »(٩٢) .

كان اهل جنديسابور ومتطببوها بصفة خاصة يكرهون أن يدخل ابناء التجار في صناعة الطب وهذا ما كان يباعد حنينا عن ابن ماسويه ، وفضلا عن ذلك كان حنين كثير السؤال الامر الذي لم يحتمله ابن ماسويه . فقد حدث ان ساله حنين حين كان يقرأ عليه سؤالا في قضية « فحرد يوحنا وقال : ما لاهل الحيرة وتعلم الطب ؟ سر الى فلان قرابتك حتى يهب لك خمسين درهما تشتري منها قفافا صغيرة بدرهم ، وزرنيخا بثلاثة دراهم ، واشتر بالباقي فلوسا كوفية وقادسية ، وضع زرنيخ القادسية في تلك القفاف ، واقعد على الطريق ، وضع الفلوس الجيدة للصدقة والنفقة ، وبع الفلوس فانه اعود عليك من هذه الصناعة » ثم امر به فاخرج من داره ، فخرج حنين باكيا مكروبا »(٩٣) .

بعد تلك الحادثة مباشرة وطد حنين عزمه على ان يتقن صناعة الطب : ويتعلمها بلغتها الاصلية وهي اليونانية ؛ ولذلك شد الرحال الى آسيا الصغرى لتعلم اللغة الاغريقية ، واتقان صناعة الطب ؛ حتى اذا ما اكمل هناك ثلاث سنوات ، عاد الى بغداد متخفيا في زي كاهن ، وقد اطلق شعر راسه ولحيته ؛ وراح يتردد على بيت « اسحق بن الخفي » وهو من الملمين باليونانية الماما جيدا ؛ حتى اكتشف امره يوسف بن ابراهيم الطبيب ، اذ سمعه ذات مرة يترنم باشعار هوميروس كبير شعراء الاغريق ، فعرفه من نغمته ؛ وقد اسر حنين الى يوسف هذا بان لا يفضح امره ، لانه يريد ان يحكم اللسان اليوناني قبل ان يتعلم الطب(٩٤) .

اتصل حنين بعد عودته الى بغداد باولاد موسى بن شاكر المنجم ؛ فعهدوا اليه بمهمة السفر الى بلاد الروم على نفقتهم الخاصة ، وجلب كل ما يعثر عليه من كتب اليونان في الفلسفة والفلك والرياضيات ، وقد سافر حنين الى بلاد كثيرة ووصل الى اقاصي بلاد الروم ، ثم عاد الى بغداد فامضى فيها فترة ، رحل بعدها الى البصرة حيث تعلم العربية على الخليل بن احمد . وكان حنين هو الذي ادخل كتاب « العين » للخليل بن احمد الفراهيدي الى بغداد(٩٥) .

بعد ان اكمل حنين تمكنه من اللغة العربية اقبل على ترجمة الكتب اليونانية ، واتصل خلال وجوده في بغداد بجبرائيل بن بختيشوع . ويذكر يوسف بن ابراهيم الطبيب انه دخل يوما على جبرائيل فوجد عنده حنينا وقد ترجم له اقساما من كتب جالينوس في التشريح . وكان جبرائيل يخاطب حنينا بكلمة « المعلم » فاستعظم يوسف ما سمع وما راى ، فرد عليه جبرائيل يقول « لا تستكثر ما ترى من تبجيلي هذا الفتى فوالله لئن مد له في العمر ليفضحن «سرجيس» وكان جبرائيل يقصد بذلك سرجيس الراسعيني ، وهو اول من نقل علوم اليونان الى اللغة السريانية(٩٦) .

---

(٩٠) ابن القفطي ص ٨٣ .

(٩١) ابن القفطي ص ٨٤ .

(٩٢) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٣٩ .

(٩٣) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٤١ والقفطي ص ٨٤ .

(٩٤) ذكر ابن ابي اصيبعة نقلا عن سليمان بن جلجل ان حنينا تعلم لسان اليونانيين في الاسكندرية وهذا قول مشكوك فيه .

(٩٥) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٤٦ – ١٤١ .

(٩٦) المصدر ذاته ص ١٤١ .

ويستطرد « يوسف بن ابراهيم » في حكايته فيقول « وخرج حنين ، واقمت طويلا ، ثم خرجت فوجدت حنينا في الباب ينتظر خروجي ، فسلم علي وقال « قد كنت سالتك ستر خبري ، والان فانا اسالك اظهاره واظهار ما سمعت من ابي عيسى وقوله في . فقلت له « وانا مسود وجه يوحنا بما سمعت عن ابي عيسى لك » فاخرج من كمه نسخة مما كان دفعه الى جبرائيل وقال لي « تمام سواد وجه يوحنا يكون بدفعك اليه هذه النسخة ، وسترك عنه علم من نقلها ، فاذا رايته قد اشتد عجبه بها ، اعلمه انه اخراجي » . ففعلت ذلك من يومي وقبل انتهائي الى منزلي .

فلما قرا يوحنا تلك الفصول ، وهي التي يسميها اليونانيون « الفاعلات » ، كثر تعجبه وقال: اترى المسيح اوحى في دهرنا هذا الى احد ؟ فقلت له في جواب قوله : ما اوحى في هذا الدهر ولا في غيره الى احد ، ولا كان المسيح الا احد من يوحى اليه » فقال « دعني من هذا القول . ليس هذا الاخراج الا اخراج مؤيد بروح القدس ! » فقلت له « هذا اخراج حنين بن اسحق الذي طردته من منزلك ، وامرته ان يشتري فلوسا » فحلف بان ما قلت له محال ، ثم صدق القول بعد ذلك ، وسالني التلطف لاصلاح ما بينهما ، ففعلت ذلك ، وافضل عليه افضالا كثيرا ، واحسن اليه ، ولم يزل مبجلا له ، حين فارقت العراق في سنة خمس وعشرين ومائتين(٩٧) .

ومنذ ذلك الوقت لازم حنين يوحنا بن ماسويه وتتلمذ له ، واشتغل عليه بصناعة الطب ، كما نقل له نقولا كثيرة وخاصة من كتب جالينوس ، بعضها الى السريانية وبعضها الى العربية (٩٨) .

ونظرا لما لمسه اولاد موسى بن شاكر من عبقرية حنين في ترجمة الكتب التي جلبها لهم من بلاد الروم وغيرها ، قدموه الى الخليفة المامون سنة ٨٢٨م باعتباره من خيرة المترجمين ولم يلبث المامون بعد ان ذاع صيت حنين ونبه ذكره ، ان اختاره رئيسا لبيت الحكمة ، واوكل اليه الاشراف على ترجمة كتب الطب والفلسفة والمنطق .

وكانت الدائرة التي يعمل بها حنين في بيت الحكمة واسعة ضمت عددا كبيرا من المترجمين الذين كانوا يعملون تحت امرته . فكان يختار لكل واحد من اولئك المترجمين نوع الكتب التي يترجمونها ، ثم يفتح ما استغلق عليهم من الفاظها ، ويصحح ما يجده في ترجماتهم من اخطاء . وكان من اولئك المترجمين ابن اخته حبيش بن الاعسم ، وموسى بن يحيى بن ابراهيم ، واصطفن بن باسيل ، وموسى بن خالد الترجمان ، ويحيى بن هارون ، وغيرهم(٩٩) .

(٩٧) المصدر السابق ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢ .
(٩٨) المصدر السابق .

وذكر جرجي زيدان ان الحجاج بن مطر ، وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة قد عملوا تحت امرة حنين ليصلح ما يترجمونه »(١٠٠) .

وكذلك نبه ذكر حنين في الطب الى جانب نبوغه في الترجمة ولذلك اختاره الخليفة المتوكل طبيبا خاصا له ، بعد ان امتحنه امتحانا عصيبا اذاقه فيه سوء العذاب ، ذلك لان المتوكل كان يخشى ان يكون حنين مدسوسا عليه من ملك الروم. وقد سرد كل من ابن ابي اصيبعة ، وابن جلجل ، والقفطي ، ذلك الامتحان في مؤلفاتهم . وخلاصة ما ذكره هؤلاء هو ان المتوكل بعد ان اقطع حنينا اقطاعا يدر عليه خمسين الف درهم في السنة ، طلب اليه بان يهيء له دواء يقتل به الاعداء ، فرفض حنين ذلك الطلب فامر المتوكل بالقائه في السجن ، فمكث فيه سنة كاملة كان خلالها ينقل ، ويفسر ، ويصنف ، وهو غير مكترث بما هو فيه(١٠١) .

وبعد انقضاء السنة اخرجه المتوكل من السجن واحضره امامه ، واحضر اموالا طائلة يرغبه فيها ، كما احضر سيفا ونطعا وسائر ادوات العقوبات . وخيره بين ان يقبل بطلبه فيهبه تلك الاموال ، وبين ان يرفض فيقتله . فاصر حنين على الرفض ؛ واذ ذاك ابتسم المتوكل وقال « يا حنين طب نفسا وثق بنا . فهذا الفعل منا كان لامتحانك ، لانا حذرنا من كيد الملوك ، واعجبنا بك ، فاردنا الطمانينة اليك ، والثقة بك ، لننتفع بعلمك(١٠٢) .

وحين ساله المتوكل عما منعه من تلبية طلبه، اجاب حنين بقول « منعني شيئان يا امير المؤمنين هما الدين والصناعة . فالدين يامرنا باستعمال الخير والجميل مع اعدائنا فكيف ظنك بالاصدقاء ؟ والصناعة تمنعنا من الاضرار بابناء الجنس ، فانها موضوعة لنفعهم ، مقصورة على معالجتهم . ومع هذا فقد حصل في رقاب الاطباء عهد مؤكد بايمان

(٩٩) ابن القفطي ص ١٧١ .
(١٠٠) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٦٢ .
(١٠١) ابن ابي اصيبعة : ج ٢ ص ١٤٤ .
(١٠٢) ذات المصدر ص ١٤٥ .

مغلظة بان لا يعطوا دواء قتالا . فلم ار ان اخالف هذين الامرين الشريفين »(١٠٣) .

× × ×

خلف حنين بن اسحق وراءه ثروة فكرية هائلة تمثلت في مترجماته التي بلغت مائتين وستين كتابا ، وفي مؤلفاته التي وصلت نحو مائة وخمسة عشر كتابا(١٠٤) كما تمثلت في العدد الوفير من الرجال الذين تتلمذوا على يديه وقد بلغ عددهم حوالي تسعين تلميذا »(١٠٥) .

ونظرا للمكانة الرفيعة التي كان يحتلها حنين في دنيا الفكر والعلوم ، فان الكثيرين من تلامذته ترجموا بعض الكتب ووضعوا اسمه عليها ترويجا لها . ولذلك توجد عدة كتب منحولة له .

ترجم حنين كل مؤلفات جالينوس في الطب والفلسفة بالاضافة الى مؤلفات اخرى لابقراط ، واوريباسوس ، وبولس الاجانيطي ، ودسقوريدس وافلاطون ، وارسطو ، والاسكندر الافروديسي وغيرهم .

نقل حنين مائة كتاب من مؤلفات جالينوس الى اللغة السريانية ، وتسعة وثلاثين كتابا آخر الى اللغة العربية . والى حنين وحده يرجع الفضل في تبوء جالينوس اسمى مقام في الشرق خلال العصور الوسطى ، وفي الغرب الوسيط بصفة غير مباشرة »(١٠٦) .

ولم يقف حنين عند كتب جالينوس وحدها ، بل نقل ايضا الى اللغتين السريانية والعربية ، كل الشروح التي وضعها جالينوس على مؤلفات ابقراط وافرد حنين كتابا في تعداد ما ترجمه من مؤلفات جالينوس . وهذا الكتاب عبارة عن رسائل بعث بها حنين في سنة ٨٦٥م الى « علي بن يحيى » المشهور بابن المنجم ، احد المولعين بالترجمة ، وصاحب مكتبة ضخمة وشهيرة في بغداد ، وقد عثر المستشرق الالماني « بوغشتراسر » على هذه الرسائل في مخطوطتين بمسجد « ايا صوفيا » فترجمها الى الالمانية ونشرها في « لايبزغ » سنة ١٩٢٥(١٠٧) .

كانت نقول حنين عن « ارسطو » كثيرة .

(١٠٣) نفس المصدر السابق .
(١٠٤) احمد سوسه : الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية ج ١ ص ١١٨ .
(١٠٥) تراث الاسلام ج ١ ص ١٧٧ .
(١٠٦) نفس المصدر السابق ص ١٧٥ .
(١٠٧) ابن النديم : الفهرست ص ٤٢٤ .

فقد نقل عنه كتاب « قاطيغورياس » اي «المقولات» كما ترجم مختصر هذا الكتاب وترجم «باريرمنياس» اي « العبارة » الى السريانية ونقل جزءا من كتاب « انالوطيقيا » اي « القياس » الى السريانية ايضا ، واصلح الترجمة العربية التي وضعها له «تيادورس» كما ترجم كتاب « طوبيقا » اي « الجدل » الى السريانية وشروح كل من امونيوس والاسكندر الافروديسي لهذا الكتاب . وترجم المقالة الثانية من كتاب « السماع الطبيعي » الى السريانية ، واصلح ترجمة ابن البطريق لكتاب «السماء والعالم» وترجم بعضا من شرح ثامسطيوس لهذا الكتاب ، ونقل كتاب « الكون والفساد » الى السريانية .

وترجم الى السريانية ايضا كتاب «الحروف» اي الالهيات وعددا من شروح ثامسطيوس لهذا الكتاب ، وتفسير فرفوريوس لكتاب ارسطو في الاخلاق(١٠٨) .

وعن افلاطون ترجم حنين كتاب «النواميس» وكتاب طيماوس في ثلاث مقالات ، وكتاب الجمهورية وكتاب السياسة وكتاب القوانين . ويقول الدكتور احمد شلبي ان حنينا ترجم كتب اقليدس الى العربية(١٠٩) .

وكان حنين شديد التمحيص والتدقيق في اعمال الترجمة ، لا يكتفي بالاعتماد على نص واحد. وكان يكرر قوله « وددت دوما لو كانت لدي ثلاث نسخ يونانية من كل كتاب النقلة ، ليتسنى لي ان اقابل فيما بينها واستخرج الاصل الصحيح منها »(١١٠) .

وكان حنين من المجدين في طلب العلم والبحث عن نوادر كتب الطب والفلسفة والمنطق ، قام باسفار ورحلات واسعة في اسيا الصغرى واليونان وفارس والشام وفلسطين ومصر ، لتعلم اللغتين اليونانية والفارسية ، وللتنقيب عن كتب العلوم في تلك الاقطار .

ومما رواه عن نفسه في هذا الصدد انه احتاج ذات مرة الى نسخة من كتاب «البرهان» لجالينوس فراح يبحث عنه بنفسه في عدد من البلدان «وطلبته انا ، وجلت في طلبه بلاد الجزيرة والشام كلها وفلسطين ومصر الى ان بلغت الاسكندرية : فلم اجد منه شيئا الا بدمشق نحوا من نصفه »(١١١) .

(١٠٨) تراث الاسلام ج ١ ص ١٧٦ .
(١٠٩) احمد شلبي : الفكر الاسلامي ص ٤٤ .
(١١٠) ابن النديم : ص ٣٥٨ .
(١١١) ابن ابي اصيبعة : ج ١ ص ١٥١ ـ ١٥٢ .

ويظهر فضل حنين على التراث الفكري اليوناني بارزا ، اذا ما علمنا بان سبعة من كتب جالينوس في علم التشريح قد ضاعت أصولهـا اليونانية ، ولكن ترجمة حنين هي التي حفظت هذه الكتب واعادتها الى الظهور(١١٢) .

والى حنين ايضا يعزى الفضل في وضع المنهج الكامل لمدرسة الاسكندرية الطبية في متناول الطلاب العرب ، وكان هذا المنهج يشمل طائفة مختارة من مقالات جالينوس وهي الكتب التي عرفت لدى المؤلفين العرب باسم كتب جالينوس الست عشرة(١١٣) . وكانت بعض هذه الكتب قد ترجمت ، قبل حنين ، الى السريانية والعربية على يد بعض المترجمين من امثال سرجيس الراسعيني ، وموسى بن خالد الترجمان وغيرهما ، الا ان الترجمة الدقيقة الصائبة هي ترجمة حنين وحدها . ويقول ابن ابي اصيبعة عن مترجمات حنين من كتب جالينوس « وغالب الامرلا يوجد شيء من كتب جالينوس الا وهي بنقل حنين او باصلاحه لما نقل غيره »(١١٤) .

× × ×

كانت نهاية حنين مفجعة ، مثل نهاية غيره من المفكرين وذوي العقيدة الثابتة في كل الازمان . فقد دفعت الغيرة منه ، حساده الى الوشاية به وايغال صدر الخليفة المتوكل عليه ، وكان على راس اولئك الحساد بختيشوع بن جبرائيل ، واسرائيل بن زكريا الطيفوري وهما من النساطرة ايضا .

لقد لفق الطيفوري حكاية مفادها ان حنينا لم يبصق على صور الذين صلبوا السيد المسيح ، الامر الذي اثار غضب الجاثليق رئيس الكنيسة الشرقية فلعن حنينا بحضرة الملأ من النصارى سبعين لعنة ، وقطع زناره ، وامر المتوكل ان لا يصل اليه دواء من قبل حنين حتى يشرف على عمله الطيفوري . وانصرف حنين الى داره فمات من ليلته »(١١٥) .

لم يمت حنين من ليلته تلك كما ذكر ذلك خطأ ابن ابي اصيبعة . لان المتوكل امر بالقائه في السجن وصادر املاكه وفيها مكتبته . وقد سرد حنين نكبته تلك في رسالة نقلها ابن ابي اصيبعة وفي هذه الرسالة يقول حنين ان المتوكل « احضر السوط والحبال ، وامر بي فشددت مجردا بين يديه ، وضربت مائة سوط ، وامر باعتقالي والتضييق علي . ووجه فحمل جميع ما كان لي من رحل واثاث وكتب وما شاكل ذلك ، وامر بنقض منازلي الى الماء ، واقمت داخل داره معتقلا ستة اشهر في اسوأ ما يكون من الحال ، حتى صرت رحمة لمن رآني . وكان ايضا في كل يسير من الايام يوجه من يضربني ويجدد لي العذاب »(١١٦) .

غير ان الخليفة اطلق سراح حنين فيما بعد ، ورد اليه امواله ، وافرد له ثلاثة دور ، واطلق الفائت له من رزقه ، وخصص له خمسة عشر الف درهم في الشهر الواحد ، كما فرض غرامة على الذين رشوا به زادت عن مائتي الف درهم(١١٧) وعاش حنين بعد تلك النكبة عشرين سنة اخرى ، حتى توفي ـ باتفاق معظم المؤرخين ـ يوم الثلاثاء لست خلون من صفر سنة ٢٦٠هـ ٨٧٣م .

لم نشأ ان نذكر بالتفصيل مترجمات ومصنفات حنين بن اسحق وذلك لكثرتها كما اننا لم نرد ان نذكر ما بقي من تلك المترجمات والمصنفات . فقد تكفل المستشرق الالماني المعروف «بروكلمان» بسرد كل ما عثر عليه من اثار حنين في مختلف اقطار العالم وذلك في الجزء الرابع من كتابه « تاريخ الادب العربي » فليرجع اليه من اراد الافاضة في ذلك .

٤ ـ قسطا بن لوقا البعلبكي
٢٠٥ ـ ٣٠٠هـ ٨٢٠ ـ ٩١٢م

ولد قسطا بن لوقا بمدينة بعلبك في لبنان وهو من سلالة يونانية مسيحية(١١٨) وقد نبغ في علوم كثيرة . فهو الى جانب حذقه اللغات اليونانية والسريانية والكلدانية والعربية ، وجودة النقل عنها ؛ كان فيلسوفا وطبيبا ورياضيا وفيزيائيا ، مشهور التحقيق بالعدد والهندسة والنجوم والمنطق والعلوم الطبيعية والموسيقى(١١٩) .

وكان ابن النديم يفضله على حنين بن اسحق لانه « كان بارعا في علوم كثيرة منها الطب والفلسفة

(١١٢) تراث الاسلام ج ١ ١٧٧ .
(١١٣) اوليري : علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ص ٢٢٨ .
(١١٤) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٤٦ .
(١١٥) نفس المصدر ص ١٤٨ .
(١١٦) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص ١٤٩ ـ ١٥٨ .
(١١٧) نفس المصدر .
(١١٨) صاعد الاندلسي ص ٢٤٢ ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٢٤٤ هنري كوربان تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٥٩ وغيرهم .
(١١٩) ابن النديم ص ٤٢٤ .

والهندسة والاعداد والموسيقى ، لا مطعون عليه ، فصيحا باللغة اليونانية ، جيد العبارة بالعربية(١٢٠) ولذلك كان قسطا يشرف في ايام المأمون على قسم الترجمة من اليونانية والسريانية والكلدانية الى العربية ، كما كان من المبرزين الذين عملوا في بيت الحكمة(١٢١) .

ويبدو ان شهرة قسطا قد ذاعت بعد ان رحل الى بلاد الروم وحصل على شيء كثير من تصانيفهم حتى اذا عاد الى مستقره استدعاه الخليفة المأمون، واوكل اليه امر الاشراف على ترجمة الكتب اليونانية والسريانية وغيرهما في بيت الحكمة . فكان «يترجم كتبا ويستخرجها من لسان يونان الى اللسان العربي(١٢٢) .

وكان قسطا ذائع الصيت واسع المعرفة في العالم العربي الاسلامي ، وعالم الفرنجة لما كان يتحلى به من سعة المعرفة(١٢٢) ولذلك قال عنه « ابو الفرج الملطي » ، « لو قلت حقا لقلت انه افضل من صنف كتابا بما احتوى عليه من العلوم والفضائل ، وما رزق من الاختصار للالفاظ وجمع المعاني »(١٢٤) .

برع قسطا في الجغرافية والفلك وعلم الرصد . وكان من اوائل العلماء العرب الذين بحثوا في تأثير الطبيعة ، من حرارة ، وامطار ، وبحار ، وجبال وسهول ، على عادات الانسان ونشاطه الاقتصادي بل حتى على لون بشرته ، كما هو مدون في كتابه المعروف « العلة في اسوداد الاحباش »(١٢٥) .

وقد اعتبره المستشرق الفرنسي « هنري كوربان » من علماء النفس فقال عنه « وكذلك بعض ابحاثه في العلوم الخفية حيث تشبه شروحاته ، بشكل مثير ، ابحاث علماء النفس في ايامنا هذه(١٢٦).

ويبدو لنا ان كل ما كان يتمتع به قسطا من شهرة ، ويظفر به من مكافأة وتقدير ، لم يكن يتناسب مع سعة علمه وفضله . ولذلك فضل ان يهجر العراق الى ارمينيا ليعيش فيها بقية حياته، وليموت هناك ويدفن فيها . والظاهر ان اضطراب الاحوال في العراق بعد اغتيال المتوكل كان هو الدافع الاول لذلك النزوح عن العراق .

وقد ذكر كل من ابن القفطي ، وابن ابي اصيبعة ، ان شخصا يدعى « سنحاريب » ـ ولا نعرف من امره شيئا سوى اسمه هذا ـ هو الذي حبب لقسطا القدوم الى ارمينيا وكان فيها آنذاك مولى الخليفة المعروف باسم « ابو الغطريف البطريق » وهو من اهل العلم والفضل ، فحمل اليه قسطا كتبا كثيرة جليلة في اصناف من العلوم »(١٢٧) .

ولم يورد المؤرخون الذين كتبوا عن قسطا اسم المدينة التي استقر فيها ومات في ارمينيا ، وانما اكتفوا بالقول انه ارتحل الى ارمينيا ، وبها مات ودفن ، وبنيت على قبره قبة ، واكرم قبره كاكرام قبور الملوك ورؤساء الشرائع(١٢٨) .

كذلك لم يفرق المؤرخون بين الكتب المترجمة وتلك التي وضعها قسطا . فابن النديم مثلا لم يذكر من كتبه المترجمة سوى كتاب « السماع الطبيعي » لارسطو ، وكتاب « اصول الهندسة » لافلاطون ، وكتاب الاراء الطبيعية لفلو طرخس ، وتفسير الاسكندر الافروديسي لكتاب ارسطو عن الكون والفساد » علما بان قسطا ترجم لطائفة كبيرة من اطباء اليونان وعلمائهم من امثال ايرن وجالينوس ، واقليدس ، وثيوفراسطوس ، وفيلوبونيوس ، وثيودوس وغيرهم ، كما ورد ذلك في بعض الكتب الحديثة من امثال تراث العرب العلمي لقدري حافظ طوقان ، وتاريخ الفلسفة الاسلامية لهنري كوربان ، وسبل انتقال العلوم اليونانية الى العرب لديلاسي اوليري وغيرها .

والمتفق عليه لدى المؤرخين القدامى ان قسطا وضع اكثر من مائة كتاب ورسالة ، وانه بقي يواصل الترجمة والتأليف حتى بعد ان انتقل الى ارمينيا حيث ذكر ابن ابي اصيبعة ان قسطا الف كتبا كثيرة للغطريف البطريق(١٢٩) ومن بين هذه الكتب ثبت بالمؤلفات التي ترجمها عن اليونانية او التي صنفها بنفسه .

فمن مؤلفاته الطبية اوجاع النفوس ، الروائح وعللها ، احوال الباه ، المدخل الى علم الطب ، القوة والضعف ، الاغذية ، النبض ، الحميات ،

---

(١٢٠) الجغرافيون العرب محمد صبري حسن ج ١ ص ١٢٢ .
(١٢١) ابن القفطي ص ٢٦٢ .
(١٢٢) ابن القفطي ص ٢٦٢ .
(١٢٣) محمد صبري حسن . الجغرافيون . ج ١ ص ١٢٣ .
(١٢٤) جرجي زيدان التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٦٥ .
(١٢٥) محمد صبري حسن ج ١ ص ١٢٣ .
(١٢٦) هنري كوربان : تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٥٨ ـ ٥٩ ترجمة نصير مروة وحسن قبيسي .

(١٢٧) ابن القفطي ص ٢٦٢ .
(١٢٨) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٢٤٥ وابن القفطي ص ١٦٣ .
(١٢٩) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

الخدر ، الامراض الحادة ، الكبد ، تدبير الابدان بالسموم ، تولد الشعر ، حركة الشريان ، الدم ، الصفراء ، السوداء ، الفصد وغيرها .

ومن كتبه في الفلسفة والرياضيات كتاب « برقنطس » في المسائل القدرية ، استخراج مسائل عددية من مقالة اقليدس ، كتاب شكل الكرة والاسطوانة ، الهيئة وتركيب الافلاك ، كتاب حساب الثلاثي في الجبر والمقابلة : كتاب العمل بالكرة النجومية كتاب الاوزان والمكاييل ، الالة التي ترسم عليها الجوامع ، كتاب المدخل الى الهندسة

ومن كتبه المترجمة والموضوعة في الحيل والميكانيك ، كتاب المرايا المحرقة ، وكتاب الفرسطون وعدة كتب في عمل الاسطرلاب وفي الارصاد الفلكية ، وكتاب الفلاحة اليونانية .

اما كتبه ومترجماته في الفلسفة والمنطق فمنها كتاب المدخل الى المنطق ، شرح مذاهب اليونانيين الفصل في بيان النفس والروح ، كتاب الجزء الذي لا يتجزأ ، كتاب النوم والرؤيا ، المدخل الى كتاب « ايساغوجي » مسائل في الحدود على راي الفلاسفة وغيرها .

بقي عدد من مؤلفات ومترجمات قسطا في عدد من المكتبات في العالم وقد ترجم العديد منها الى عدة لغات عالمية . فرسالته الفلسفية المعنونة « الفرق بين النفس والروح » قد ترجمت الى اللاتينية منذ القرن الثاني عشر على يد يوحنا الاسباني ، كما نشر نصها العربي الاب لويس شيخو في مجلته « المشرق » سنة ١٩١١(١٢٠) .

وقد احصى بروكلمان طائفة من كتبه الموجودة في المكتبات العالمية منها .

١ ــ رسالة في اختلاف الناس في سيرهم واخلاقهم منها نسخة في برلين .

٢ ــ رسالة في السهر واسباب الارق الفها لابي الغطريف منها نسخة في مكتبة برلين .

٣ ــ في تدبير الابدان للسفر للسلامة من المرض والخطر . الفه لابي محمد الحسن بن مخلد . منه نسخة في المتحف البريطاني .

٤ ــ كتاب في البلغم وعلله الفه لابي الغطريف الفصل الاول منه موجود في ميونيخ .

٥ ــ كتاب في علل الشعر الفه لابن مخلد موجود في المتحف البريطاني .

٦ ــ رسالة في العمل بالكرة ذات الكرسي منها نسخ في برلين والمتحف البريطاني وباريس .

٧ ــ كتاب العمل بالاسطرلاب الكري منه نسخة في ليدن واخرى في طوبقبوسراي باسطنبول .

٨ ــ رسالة في الكرة الفلكية موجودة في برلين ولندن واياصوفيا .

٩ ــ كتاب العمل بالكرة الفلكية موجودة في بودليان .

١٠ــ كتاب البرهان على عمل حساب الخطاين منه نسخة في المكتب الهندي .

١١ــ هيئة الافلاك منه نسخة في بودليان .

١٢ــ رد قسطا على « ابن المنجم » في مكتبة عيسى اسكندر المعلوف بدمشق .

١٣ــ كتاب الوباء في مكتبة بنكيهور .

١٤ــ كتاب في الادوية المسهلة في ايا صوفيا .

١٥ــ كتاب في المياه في اياصوفيا .

١٦ــ كتاب في علة طول العمر وقصره ، اياصوفيا .

١٧ــ كتاب في الفرس منه نسخة في اياصوفيا .

١٨ــ كتاب في ذكر اصلاح الادوية المسهلة ، اياصوفيا .

١٩ــ كتاب في صفة الجدري واسبابه ، ايا صوفيا .

٢٠ــ في الوزن والكيل منه نسخة في اياصوفيا .

ومن كتبه المترجمة الموجودة في الوقت الحاضر ما يلي

١ ــ كتاب الاصول لاقليدس في مكتبة اوبسالا وفي مكتبة جامع فاتح باسطنبول .

٢ ــ كتاب المطالع لابسقلاوس . منه نسخة في برلين واخرى في مشهد بايران .

٣ ــ كتاب الاكر لثيودوسيوس ، منه نسخة في برلين ، وكمبردج ولننغراد واسطنبول وغيرها .

٤ ــ كتاب المساكن لثيودوسيوس في طبقبوسراي .

٥ ــ كتاب الايام والليالي لثيودوسيوس في برلين واسطنبول .

٦ ــ كتاب شيل الاثقال لايرن . ليدن والقاهرة واياصوفيا .

٧ ــ كتاب الطلوع والغروب لاطراوقس في ليدن .

٨ ــ فهرس مصنفات جالينوس في مدريد واسطنبول .

---

(١٢) دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ترجمة ابو ريدة ص ٢٢ .

والملاحظ ان عددا كبيرا من مؤلفات قسطا ومترجماته قد ترجمت الى لغات عديدة في القرنين التاسع عشر والثامن عشر بصفة خاصة ، ومنها اللاتينية والعبرية والفرنسية والانكليزية والالمانية(١٢١) .

٥ - يحيى بن عدي التكريتي
توفي سنة ٣٦٤هـ - ٩٧٣هـ

ابو زكريا يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي . ولد في تكريت وكان نصرانيا يعقوبي المذهب ، ومن اصحاب عقيدة « الطبيعة الواحدة » وهؤلاء يعتقدون ان للمسيح طبيعة واحدة . ولذلك اثر المؤتمر الذي عقده «فلافيان» بطريرك الاستانة في « خلقدونية » مقاومة عقيدة الطبيعة الواحدة . وكان نصارى تكريت في مقدمة الذين عاضدوا هذه العقيدة ، وتحمسوا لنشرها ، حيث اصبحت تكريت مقرا لهم ، واصبح الاسقف «مارولا» في سنة٦٢٩م يلقب باسم « مفريان » تكريت ، وكان يراس اثنى عشر اسقفا(١٢٢) .

وبعد ان تلقى يحيى علومه الاولية في تكريت انتقل الى بغداد فاشتغل مترجما في بيت الحكمة ، وتعرف في الوقت ذاته على ابي بشرمتى بن يونس - وهو من كبار مترجمي بيت الحكمة - وتتلمذ على يديه ، ثم اوصل بالفيلسوف الكبير ابي نصر الفارابي فدرس عليه المنطق والفلسفة ، ونبغ في هذين العلمين نبوغا عظيما اكسبه لقب « المنطقي » في زمانه ، حتى قال عنه ابن النديم ، وابن القفطي بانه انتهت اليه رئاسة اهل المنطق في زمانه(١٢٣) .

كان يحيى يحذق اللغتين السريانية والعربية ، ويجيد النقل عنهما ، وربما عرف اللغة اليونانية ايضا . ولكن الشيء الذي اشتهر به هو نقله عن السريانية الى العربية في بيت الحكمة . كما انه كان يقوم بتصحيح ما يقوم به غيره من مترجمات ، وذلك لسعة اطلاعه على علوم الفلسفة والمنطق . وهذا ما جعل بعض المستشرقين يعدونه في جملة الفلاسفة ومن هؤلاء المستشرق « ادم متز » صاحب كتاب « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » الذي قال عنه

(١٢١) بروكلمان تاريخ الادب العربي الجزء الرابع الصفحات ٩٨ - ١٠٣ .
(١٢٢) ديلاسي اوليري : علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ص ٣٦٠ .
(١٢٣) ابن النديم ص ٢٨٣ وابن القفطي ٢٦١ .

بانه « كان من اكبر فلاسفة القرن الرابع الهجري »(١٢٤) .

ولا غرو في ذلك فقد تتلمذ يحيى على الفارابي ولازمه زمنا اثناء وجوده في بغداد ، واطلع على الكثير من آرائه ومؤلفاته ؛ بالاضافة الى ما اطلع عليه من الكتب الاخرى التي توفرت له في بيت الحكمة عن الفلسفة والمنطق .

كان يحيى منهمكا في عمله اشد انهماك ، جم النشاط في اعمال الترجمة والتاليف ، منقطعا اليهما فكان يمضي جل اوقاته اما في الترجمة او التاليف او التصحيح والنسخ ايضا وقد تحدث ابن النديم عن يحيى ، وكان معاصرا له وذا معرفة وعلاقة قوية به ، فقال « قال لي يوما في الوراقين ، وقد عاتبته على كثرة نسخه فقال : من اي شيء تعجب في هذا الوقت ؟ من صبري ! قد نسخت بخطي نسختين من تفسير الطبري(١٢٥) وحملتهما الى ملوك الاطراف »(١٢٦) وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى ؛ ولعهدي بنفسي وانا اكتب في اليوم والليلة مائة ورقة واقل(١٢٧) .

ولم يقف نشاط يحيى بن عدي عند الفلسفة والمنطق حسب ، بل اشتغل بالعلوم الرياضية ايضا كما اعتبره ابن ابي اصيبعة من الاطباء وادخله في كتابه الشهير « طبقات الاطباء »(١٢٨) .

كان يحيى في وقته من اشهر المترجمين ، وقد اعاد النظر في العديد من الترجمات التي تمت قبله، واجرى عليها التصويبات اللازمة ، كما قام بعدة ترجمات جديدة لبعض الكتب الهامة(١٢٩) .

عكف يحيى على ترجمة ومراجعة كثير من الترجمات لكتب ارسطو ؛ وافلاطون والاسكندر الافروديسي . وثيوفراسطوس ، وامونيوس ، وفرفوريوس واناافروديطوس وغيرهم ، فقد ترجم من كتب افلاطون كتاب النواميس ، وكتاب طيماوس وكتاب سوفسطس وكتاب المناسبات(١٤٠) .

وعن ارسطو نقل يحيى كتاب طوبيقا . كما

(١٢٤) ادم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة محمد عبدالهادي ابي ريدة ج ١ ص ٢٤٢ .
(١٢٥) يقصد به تفسير القرآن الكريم للطبري وهو من خيرة التفاسير .
(١٢٦) ابن النديم ص ٢٨٣ .
(١٢٧) نفس المصدر .
(١٢٨) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٢٧ .
(١٢٩) احمد شلبي : الفكر الاسلامي ص ٢٦ .
(١٤٠) ابن النديم ٢٨٣ .

تُرجم تفسيرات هذا الكتاب التي وضعها كل من الاسكندر الافروديسي ، وامونيوس . ويقع هذا التفسير في الف ورقة(١٤١) .

ومن كتب ارسطو ايضا ترجم كتاب سوفسطيقا من السرياني الى العربي ، وترجم له كتاب ابوطيقا ، ونقل بعض مقالات كتاب السماع الطبيعي ، كما ترجم تفسير ثامسطيوس لكتاب ارسطو عن السماء والعالم ، واصلح ترجمة متى بن يونس لكتاب الكون والفساد وترجم كتاب طوبيقا ووضع تفسيرا له ، وترجم شرح الاسكندر الافروديسي لكتاب ارسطو عن الاثار العلوية ، ومختصر نيقولاووس لكتاب الحيوان وترجم كتاب الالهيات المعروف بالحروف كما ترجم كتاب « ما بعد الطبيعة » الذي وضعه ثاوفرسطس احد تلامذة ارسطو .

وفي مجال العلوم الرياضية وضع يحيى بن عدي عدة كتب ورسائل منها كتاب « ان القطر غير مشارك للضلع » ، وكتاب « ان العدد غير متناه » ، وكتاب « ان كل متصل ينقسم الى متصل » ، وكتاب « في استخراج العدد المنضم » وغيرها(١٤٢).

وقد ذكر له ابن القفطي زهاء اربعين كتابا ورسالة عدد اسماءها ، في حين ذكر له ابن ابي اصيبعة سبعة كتب ، وابن النديم ستة كتب ، وذلك بالاضافة الى ذكر الكثير من ترجماته وتفاسيره لكتب جالينوس ، وارسطو ، وافلاطون وغيرهم .

وقد اشتهر عن يحيى بن عدي انه كان حسن الخط ، وفي غاية الجودة والصحة . وقد توفي يحيى ببغداد يوم الخميس لتسع بقين من ذي القعدة سنة ٣٦٤هـ وكان عمره احدى وثمانين سنة ، ودفن في بيعة « مار توما » بقطيعة الدقيق في بغداد(١٤٣) .

وذكر ابن ابي اصيبعة نقلا عن الامير بشر بن فاتك ما سمعه عن ابي الحسين المعروف بابن الامدي انه سمع من ابي علي اسحق بن زرعة ــ وهو من المترجمين ايضا ــ ان « ابا زكريا يحيى بن عدي وصى اليه ان يكتب على قبره حين حضرته الوفاة ، وهو في بيعة « مار توما » بقطيعة الدقيق هذين البيتين(١٤٤) .

رب ميت قد صار بالعلم حيا
ومبقى قد مات جهلا وغيا
فاقتنوا العلم كي تنالوا خلودا
لا تعدوا الحياة في الجهل شيا

احصى بروكلمان في كتابه تاريخ الادب العربي ما عثر عليه من نتاج يحيى بن عدي منه :

١ ــ احدى الترجمات العربية الثلاث لكتاب سوفسطيقا لارسطو في مخطوطة بباريس .
٢ ــ ترجمة المقالة الثالثة من كتاب النفس لارسطو الى العربية نقلا عن السريانية في مكتبة مديتش .
٣ ــ كتاب تهذيب الاخلاق طبع في بيروت سنة ١٨٢٦ وفي القاهرة سنة ١٨٩١ .
٤ ــ شرح فلوبونوس على كتاب الترياق لجالينوس منه نسخة في بيروت .
٥ ــ الاحتجاج للمسيحية ضد عيسى بن هارون الوراق ، بيروت .
٦ ــ فلسفة الحب الالهي .
٧ ــ تفسير مقالة ارسطو في علم ما بعد الطبيعة في مكتبة باتنه .
٨ ــ المسائل الفلسفية .
٩ ــ مقالة في الموجودات مكتبة باتنه .
١٠ ــ رسالة في الكل والجزء مكتبة باتنه(١٤٥) .

٦ ــ متى بن يونس
توفي سنة ٣٢٨هـ ٩٣٩م

نشأ ابو بشر متى بن يونس (يونان) في دير « قنى » ويقع هذا الدير على الجانب الشرقي من نهر دجلة ، وبمسافة زهاء تسعين كيلو مترا جنوبي بغداد ، وكانت في هذا الدير مدرسة تدرس فيها اللغات اليونانية والسريانية والعربية(١٤٦) .

وبمرور الزمن نشأت قرية عرفت باسم « قرية ديرقنى » لان هذا الدير كان قد بنى في المائة الاولى للميلاد . وفي هذا الدير درس متى بن يونس على طائفة من العلماء والمترجمين من امثال ابي يحيى المروزي الطبيب ، وابن كويري المترجم ، وابن كرنيب ، وروفيل ، وبنيامين(١٤٧) .

(١٤١) نفس المصدر .
(١٤٢) ابن القفطي ص ٣٦٣ .
(١٤٣) ابن ابي اصيبعة ٢٢٨ .
(١٤٤) ذات المصدر .

(١٤٥) بروكلمان ج ٤ ص ١٢٠ ــ ١٢٢ .
(١٤٦) الديارات للشابشتي تحقيق كوركيس عواد الطبعة الثانية ص ٢٩٤ .
(١٤٧) ابن النديم الفهرست ص ٢٨٢ .

وقد انفرد ابن النديم بين المؤرخين العرب في دعواه بان متى بن يونس كان يونانيا ، في حين اكتفى غيره بقولهم انه كان نصرانيا . وقد وفد على بغداد وشارك في حركة الترجمة والنقل في عهد الخليفة الراضي بالله ، واشتهر بعلم المنطق ، والنقل من السريانية الى العربية واليهانتهت رئاسة المنطقيين في عصره(١٤٨) .

وعرف عن متى بانه كان فصيح العبارة جيد النقل الى العربية ، ولذلك وصفه ابن القفطي بانه « عالم المنطق » شارح ، مكثر ، وطيء اللسان ، قصده التعليم والتفهم ، وعلى كتبه وشروحه اعتماد اهل هذا الشأن في عصره ومصره(١٤٩) .

والى جانب ذلك كان متى بن يونس فقيها في اللغة العربية . وقد جرت له مناظرة في هذا الشأن وفي مجلس عام مع ابي سعيد السيرافي النحوي بحضره الفضل بن الفرات(١٥٠) .

ولم يكتف متى بترجمة عدد من كتب ارسطو، والاسكندر الافروديسي ، وثامسطيوس ، وفرفوريوس ، وغيرهم ، بل وضع تعليقات اصيلة على كتبهم وشروحهم وتفسيراتهم ، ومنها تعليقاته على مقولات ارسطو ، وعلى كتاب ايساغوجي فرفوريوس(١٥١) وقال عنه ابن النديم انه فسر الكتب الاربعة في المنطق باسرها ، وعليها يعول الناس في القراءة(١٥٢) .

ولقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاة متى بن يونس . فقد ذكر ابن ابي اصيبعة انه توفي ببغداد يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من رمضان سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ، في حين قال ابن القفطي ان وفاته كانت بعد سنة عشرين وثلثمائة وقبل سنة ثلاثين(١٥٣) .

اما المستشرق الانكليزي ديلاسي اوليري فقد اورد تاريخين مختلفين لوفاة متى بن يونس . فذكر في كتابه « الفكر العربي ومكانته في التاريخ » انه توفى سنة ٣٢٨هـ ٩٣٩م ، بينما ذكر في كتابه الاخر « كيف انتقلت علوم اليونان الى العرب » ان وفاته كانت في سنة ٩٤٠م(١٥٤) .

ترجم متى عن ارسطو كتاب ابوديطيقا وقد نقله عن اللغة السريانية الى اللغة العربية ، وكانت الترجمة السريانية من عمل اسحق بن حنين ، كما ترجم كتاب سوفسطيقا الى السريانية في حين نقل كتاب الشعر من السريانية الى العربية ، وترجم جزءا من كتاب السماء والعالم ، وبعضا من كتاب الحس والمحسوس ، وجزءا من كتاب الحروف (الالهيات) كما نقل نص كتاب البرهان .

اما الشروح التي وضعت لكتب ارسطو فقد نقل متى منها شرح الاسكندر الافروديسي لكتاب الكون والفساد ، وشرح ثامسطيوس لكتاب الحكم والمواضع ، ولقسم من كتاب الحروف ، وترجم شرح امقيدوس لكتاب الكون والفساد ، وكتاب ايساغوجي لفرفوريوس ايضا .

وفضلا عن ذلك وضع متى شروحا لبعض مؤلفات ارسطو ولبعض الشروح التي وضعت لها فوضع تفسيرا لكتاب انالوطيقا الاولى ، وتفسيرا لكتاب باراوميناس ، وفسر شرح الاسكندر الافروديسي لكتاب قاطيغورياس ، وشرح ثامسطيوس لكتاب ابوديطيقا . وذكر ابن النديم والقفطي له كتاب القايس الشرطية ومقدمات كتاب انالوطيقا .

احصى بروكلمان بعض مترجمات ومؤلفات متى بن يونس في كتابه تاريخ الادب العربي ومنها

١ ـ كتاب البرهان (انالوطيقا الثانية) لارسطو الذي نقله الى العربية عن الترجمة السريانية التي وضعها اسحق بن حنين فذكر ان نسخة من هذا الكتاب موجودة في باريس ، واخرى في رامبور وتكيبور في الهند .

٢ ـ كتاب الشعر لارسطو توجد نسخة منه في مكتبة الاسكوريال بمدريد .

٣ ـ مناظرته مع ابي سعيد السيرافي موجودة في كتاب معجم الادباء لياقوت الحموي الجزء الثالث .

(١٤٨) ابن النديم ص ٢٨٢ وابن القفطي ص ٢٢٣ ، وابن ابي اصيبعة ج ٢ ٢٢٧ وبروكلمان ج ٤ ص ١٢٠ .
(١٤٩) ابن القفطي ص ٢٢٣ .
(١٥٠) نفس المصدر .
(١٥١) اوليري : الفكر العربي ومكانته في التاريخ ترجمة تمام حسان ص ١٢٨ .
(١٥٢) ابن النديم ص ٢٨٢ .
(١٥٣) ابن القفطي ٢٢٣

(١٥٤) اوليري الفكر العربي ص ١٢٨ وعلوم اليونان ص ٢٢٣ .

- ٢ -

بغداد في دوائر المعارف العالمية

ترجمة وتعليق

سليم طه التكريتي

تمهيد

مما تفخر به الامم الغربية ، وتعده مظهرا اساسيا من مظاهر حضارتها ، وازدهار العلوم والفنون فيها ؛ اقدام بعض هذه الامم على تدوين الموسوعات التي تضم مختلف البحوث والموضوعات التي تهم البشرية جمعاء ، مما عرف باسم « الانسكلوبيديا Encyclopaedia واصطلح على تسميته لدى العرب باسم « دائرة المعارف » او « المعلمة » .

ومما يحز في نفوس المخلصين من ابناء العروبة والاسلام ، ان نجد الامة العربية ذات التاريخ المجيد ومن ورائها العالم الاسلامي برمته ، ما تزال متخلفة حتى الان عن هذا المضمار ، على الرغم من توفر الامكانات المادية والادبية للنهوض بمثل هذا العمل المفيد .

ومما يزيد النفس ايلاما ان تعجز الحكومات العربية والمؤسسات العلمية فيها حتى عن ترجمة واحدة من هذه « المعلمات » ترجمة كاملة فلقد انبرى بعض من الشباب المصري في سنة ١٩٣٣ لترجمة « دائرة المعارف الاسلامية » وهي من اشهر هذه الموسوعات ؛ لكنهم لم يكملوا - مع الاسف - هذا العمل الجليل ، ووقفوا عند حد الاجزاء القليلة التي اصدروها من هذه الترجمة ، ونفضوا ايديهم من المشروع نهائيا .

ولما كانت « المورد » قد خصصت هذا العدد للتحدث عن « بغداد » فقد آثرنا ان ننقل ما ورد عن هذه المدينة العظيمة فيما تيسر لنا الاطلاع عليه من دوائر المعارف هذه ، واجراء بعض التعليقات والتصويبات الضرورية لذلك .

بغداد في دائرة المعارف البريطانية(*)

بغداد اعظم مدينة في بلاد الرافدين القديمة ، وهي اكبر مدينة وعاصمة للعراق الحديث ، ولمحافظة بغداد ذاتها . وتقع على نهر دجلة في القسم الاوسط الشمالي من العراق ، على بعد زهاء للثمانة وخمسين ميلا (خمسمائة وستون كيلومترا) شمالي الخليج العربي(١٥٥) .

ومنذ الاطاحة بالنظام الملكي في سنة ١٩٥٨ ، اصبحت العاصمة بغداد مسرحا لصراع سياسي ؛ حيث حاول القطر ان يجعل من نفسه دولة اشتراكية وحدوية . وقد بلغ عدد سكان المدينة في اوائل سني السبعينات اكثر من مليونين ومائة الف نسمة(١٥٦) .

تاريخ بغداد

تقع في محافظة بغداد كثير من العواصم القديمة من امثال « اكد » وبرج عقرقوف العاصمة الكشية الواقعة الى الغرب ، وسلوقية وطيسفون

(*) دائرة المعارف البريطانية الحديثة
New Encyclopaedia Britanica
طبعت سنة ١٩٧٤ في ثلاثين مجلدا المجلد الثاني صفحة ٥٨٥ - ٥٨٧ ، ومجلد ٣ ص٦٣٤ - ٦٣٧ .

(١٥٥) مايزال معظم الكتاب الغربيين الى الان يطلقون على الخليج العربي ما اطلقه الاستعمار الاوربي الغاشم عليه منذ مطلع القرن الخامس عشر .

(١٥٦) اظهر الاحصاء العام الذي اجري في سنة ١٩٧٧ ان عدد سكان بغداد بلغ ثلاثة ملايين وستمائة الف نسمة . وربما ارتفع هذا العدد الى زهاء اربعة ملايين نسمة في الوقت الحاضر .

اللتين تقعان على بعد حوالي عشرين ميلا الى الجنوب . وفي سنة ٧٥٠م قامت الخلافة في العراق وذلك بانشاء السلالة العباسية الحاكمة على يد « ابي العباس السفاح » . وفي سنة ٧٦٢م قرر خلفه واخوه ابو جعفر الذي اشتهر باسم المنصور، ان يبني لنفسه عاصمة جديدة في موقع قرية ساسانية قديمة ؛ هي مدينة بغداد(١٥٧) .

وقد سميت مدينة المنصور « المدورة » باسم مدينة السلام ، وكانت تقوم على الضفة الغربية من نهر دجلة ، غير انه لم تبق اية اثار من هذه المدينة ، وغدا موقعها الصحيح غير معروف .

كان قطر المدينة المدورة ثلاثة الاف ياردة (٢٧٠٠ متر) . وكان لها ثلاثة اسوار موحدة المركز ، لكل واحد منها اربعة ابواب ، تمر خلالها طرقات تبدأ من قصر الخلافة في وسط المدينة ، وتتجه نحو الاطراف الاربعة للامبراطورية العباسية ولم يسمح باقامة الاسواق داخل المدينة المدورة ، وقد نشا حي التجار « الكرخ » خارج باب البصرة.

ومن الباب الشرقي الشمالي يمر طريق خراسان عبر نهر دجلة فوق جسر عائم . وخلف هذا الطريق ، وعلى الضفة الشرقية من النهر ، كان يقوم قصر « المهدي » الذي خلف المنصور في الحكم ، وقد قامت وتعاظمت حوله الضواحي الثلاث وهي « الرصافة » و « الشماسية » و « المخرم » وهي اقدم المستوطنات السابقة لمدينة بغداد الحديثة .

ولقد بلغت بغداد ذروة رخائها في القرن الثامن واوائل القرن التاسع الميلادي . وذلك في عهد الخليفة هرون الرشيد بن المهدي ، الذي جمع في عاصمته الثروات وعلوم العالم المعروف آنذاك . وقد وردت حكايات كثيرة تحدثت عن مجد بغداد في تلك الفترة ، كما ورد ذلك في قصص الف ليلة وليلة .

اعقبت وفاة هرون الرشيد قيام حرب اهلية بين ولديه ؛ خربت خلالها المدينة المدورة تخريبا فظيعا ؛ لم تقم لها قائمة بعدها . وفي الفترة بين سنتي ٨٣٦ و ٨٩٢م هجر الخلفاء مدينة بغداد لان حرسهم الخاص من الاتراك اصبح مقيتا ؛ فانتقلوا الى عاصمة جديدة هي « سامراء »(١٥٨) . وما لبثوا ان اقاموا ؛ بعد عودتهم الى بغداد في نهاية القرن التاسع الميلادي ، في « المخرم » على الضفة الشرقية من دجلة .

وفي سنة ١٠٩٥م تم انشاء سور جديد حول بغداد وقد بقي هذا السور مع كثير من المستودعات فيه قائما حتى القرن التاسع عشر حين اصابه التخريب على نطاق واسع . ولقد نسف احد البابين الباقيين من ابواب ذلك السور ، وهو « باب الطلسم » عند انسحاب الاتراك من بغداد سنة ١٩١٧ اما الباب الثاني ، وهو « الباب الوسطاني » فما يزال قائما وقد اعيد ترميمه واتخذ متحفا للاسلحة.

وعلى الرغم من انحطاط سلطة الخلفاء الاخيرين بقيت بغداد مركزا عظيما للتجارة والثقافة ، ما دام الرخاء الزراعي متواصلا في العراق . وجاء سقوطها الحقيقي عندما اجتاح « هولاكو » المغولي بلاد الرافدين ، واستولى على بغداد سنة ١٢٥٨م ، وقتل الخليفة « المعتصم » مع ثمانمائة الف من سكان المدينة ذاتها ، كما ذكر ذلك .

نجم عن القضاء على الحكومة العباسية ، انتقال السلطة التي استطاعت ان تحافظ على صيانة نظام الري ، وحماية الاراضي المزروعة من القبائل البدوية المغيرة . واذ ذهبت الاهمية السياسية لمدينة بغداد ، هبط عدد سكانها الى حد العشر ، فلم تنهض بعد ذلك ، ولم تبلغ اكثر من مرتبة مدينة اقليمية ، الى ان ظهر العراق كدولة مستقلة بعد الحرب العالمية الاولى . لقد ظلت بغداد تخضع لسلطة « الخانات » الذين اعقبوا هولاكو في الحكم حتى سنة ١٣٠٤م ، حين حققت الاستقلال المحلي

---

(١٥٧) كشفت التنقيبات الاثرية في السنوات الاخيرة عن شواهد تؤكد ان بغداد كانت معروفة بهذا الاسم وفي موضعها الحالي منذ العصر البابلي وربما قبله . فقد اشارت احدى الوثائق من عصر حمورابي (سنة ١٨٠٠ ق . م) الى مدينة بغدادو وهذا يشير الى ان الاسم كان مستعملا قبل عصر حمورابي وعلى وجه التحديد قبل اي نفوذ فارسي محتمل .

كما عثر على حجر حدود من عهد الملك البابلي سمردوك - ابال - ادن (١٢٠٨ - ١١٩٥ ق .م) يشير الى مدينة بغداد وعثر على حجر من احجار « ادنيراري الثاني الاشوري ٩١١ - ٨٩٢ ق . م » ذكر فيه اسم « بغدادو » كما ذكر الملك الاشوري ايضا « تغلات بلسر الثالث ٧٤٥ - ٧٢٧ ق .م » اسم بغداد في بعض مدوناته (دائرة معارف الاسلام طبعت ١٩٦٠ المجلد الاول ص ٨٩٤ النص الانكليزي)

(١٥٨) تؤكد الشواهد التاريخية والاثرية القديمة ان سامراء كانت مستوطنة حضارية قبل فجر التاريخ وانها كانت معروفة باسم سمارا Samara حتى في العهود الاكدية والبابلية والاشورية . انظر كتابنا مع الدكتور عيسى سلمان عن سومر الذي ترجمناه عن الاثاري الفرنسي اندريه بارو والذي صدر موخرا .

في عهد « الجلائريين » الذين حاولوا استعادة رخائها .

في سنة ١٤٠١م تعرضت بغداد لاخر موجة اجتاحتها من الغزاة المغول تحت امرة «تيمورلنك» وفي سنة ١٤١٠م سقطت تحت حكم « قره قوينلو » اي «الاغنام السوداء» ، وهم من «التركمان» الذين افسحوا الطريق في سنة ١٤٦٩م امام «آق قوينلو» اي « الاغنام البيض » .

ولقد اخرج هؤلاء « آق قوينلو » في سنة ١٥٠٨م من بغداد على يد الشاه اسماعيل الصفوي . وفي سنة ١٥٣٤م استولى العثمانيون على بغداد لاول مرة في عهد السلطان سليمان الفاتح وما لبث الشاه عباس الفارسي ان استعادها تحت حكمه في سنة ١٦٢٣م لكن اعيدت تحت حكم الاتراك على يد السلطان مراد الرابع في سنة ١٦٣٨م .

كان هذا التبدل المستمر في ولاء بغداد يعود ، في ناحية منه ، الى موقعها الجغرافي ، ووقوعها بين امبراطوريتين عظيمتين، كما يعود ، من ناحية ثانية، الى الخلاف بين ابنائها .

وفي اثناء القرن السابع عشر الميلادي ، لم يعمل الحكام الاتراك الذين كانوا يتعاقبون بسرعة ، سوى الشيء الضئيل لاستعادة الرخاء في بغداد . على ان بداية القرن الثامن عشر ، شهدت تعيين حاكمين « والبين » متعاقبين ، هما حسن باشا وولده احمد باشا(١٥٩) اللذين اصلحا ادارة الحكومة وذلك عن طريق ادخال طبقة من الموظفين من الارقاء القوقاز المدنيين والعسكريين ، الذين عرفوا باسم « المماليك » ، الذين رفعوا من منزلة العاصمة بغداد ، فاستطاعت ان تسيطر على كل بلاد الرافدين من البصرة الى ماردين ، ومن دون أن يدينوا الا بولاء شكلي لاسطنبول .

ولقد اعقبت هؤلاء طائفة من الحكام المماليك الى ان تم الغاء حكم المماليك على يد السلطان محمود الثاني في سنة ١٨٣١م . وفي عهد الحكم المملوكي اصبح النفوذ الاجنبي ، وعلى الاخص النفوذ البريطاني ، ملحوظا بصفة اكثر في بغداد ، فقد انشئت في المدينة مقيمية بريطانية في سنة ١٧٩٨م. وفي سنة ١٨٠٢م منح المقيم البريطاني في بغداد رتبة تنصل .

ولقد كانت منزلة المقيم البريطاني في بغداد تاتي في الدرجة الثانية بعد الوالي ، وذلك في عهد المقيم « كلوديوس جمس ريج » (١٨٠٨–١٨٢١م) وعهد المقيم « رولنصون » (١٨٤٣–١٨٥٥م)(١٦٠) .

استولت القوات البريطانية على بغداد سنة ١٩١٧(١٦١) ، ثم اصبحت عاصمة لمملكة العراق المستقلة سنة ١٩٢١ .

ولقد كانت المدينة مهدا لثورة عارمة اثارها الشعور المعادي للانكليزي في سنة ١٩٤٢(١٦٢) . وبعد انقلابات متعاقبة ، قام الجيش بانقلاب في سنة ١٩٥٨ تم به القضاء على الملكية . وحدثت ثورة اخرى في بغداد سنة ١٩٦٣(١٦٣) جاءت بحزب البعث الى الحكم لكنه لم يدم فيه سوى فترة قصيرة ، ومن ثم استعاد البعثيون الحكم في سنة ١٩٦٨ .

بغداد المعاصرة

موقع المدينة ومخططها

يكون موقع مدينة بغداد على نهر دجلة ، في اقرب نقطة تفصل بين دجلة والفرات ، وهي لا تزيد عن خمسة وعشرين ميلا . وعلى مسافة ستة وعشرين ميلا يلتقي نهر دجلة باكبر رافد له هو نهر ديالى وتقع المدينة في سهل مستو يرتفع بمقدار مائة واثني عشر قدما (اربعة وثلاثون مترا) عن مستوى البحر .

كانت المدينة قد بنيت في الاصل على الضفة الغربية من نهر دجلة . ولكن في خلال اكثر من الف سنة اصبح القسم الاعظم منها يقع على الضفة الشرقية من النهر . ومع ذلك توجد ضاحية واسعة متعاظمة في الجانب الغربي ، تضم « الكرخ » و « كرادة مريم » و « المنصور » . وترتبط الضفة

(١٥٩) الصواب اواخر القرن السابع عشر حيث حكم حسن باشا خلال الفترة (١٦٨٩ – ١٦٩٠ م) وحكم احمد باشا في الفترة مابين سنتي ١٦٩٣ – ١٦٩٥ م .

(١٦٠) اكملنا ترجمة رحلة « ريج » الشهيرة المعنونة « حديث اقامة في كردستان سنة ١٨٢٠ » بجزئيها وعلقنا عليها تعليقات وتصويبات ضافية وهي معدة للطبع الآن .
اما « رولنصون » فهو الى جانب قيامه بوظيفة المقيم البريطاني في بغداد ، كان من اشهر علماء الاثار في ذلك الوقت ولقد قام باكتشافات عديدة في كل من نينوى ، ونلو ، وغيرها .

(١٦١) وقع الاحتلال البريطاني لمدينة بغداد في الحادي عشر من شهر اذار سنة ١٩١٧ .

(١٦٢) اخطا الكاتب في تحديد التاريخ فالصواب هو سنة ١٩٤١ التي قامت في الشهر الخامس منها ثورة ايار المجيدة .

(١٦٣) يقصد بها ثورة الثامن من شباط ١٩٦٣ .

الشرقية مع هذه الضواحي بجسور ، يمتد فوق واحد منها خط حديدي .

وهناك جسر آخر يصل الى الكاظمية شمالي الكرخ . وهي عبارة عن بلدة شهيرة اتسعت وتعاظمت حول قبري « موسى الكاظم » و « محمد الجواد » الامامين السابع والتاسع المنحدرين من نسل الرسول . ومع ان التمييز بين منطقة المدينة القديمة وحاضرها يبدو غير دقيق ، فان المنطقة الاولى تبلغ زهاء اربعة عشر ميلا مربعا ، والثانية خمسة وسبعون ميلا مربعا .

المنـــــاخ

تكون اشهر الصيف (من شهر ايار الى شهر تشرين الاول) جافة . وشديد الحر . ذلك ان المعدل اليومي لدرجة الحرارة خلال شهري تموز وآب ، يصل الى حد ثمانين درجة فهرنهايت (سبع وعشرون درجة مئوية) قبل غروب الشمس ؛ ومن مائة وخمس درجات فهرنهايت الى مائة وعشر درجات فهرنهايت (من احدى واربعين الى ثلاث واربعين درجة مئوية) وذلك في منتصف النهار ، غير انها ما تلبث ان تهبط الى ما دون ست وسبعين درجة فهرنهايت (اربع وعشرون درجة مئوية) اثناء الليل .

وتكون ايام الشتاء اكثر بردا ، اذ ان معدل درجة الحرارة فيها يكون حوالي خمس وخمسين درجة فهرنهايت (ثلاث عشرة درجة مئوية) .

ويؤدي هبوب الرياح الشمالية الغربية الجافة الشاملة والمعروفة باسم « رياح الشمال » الى التخلص من شدة الحر ، لكنها تثير الزوابع الترابية ايضا ، وعلى الاخص في شهر تموز ويكون معدل سقوط الامطار في حدود خمس بوصات (مائة وثلاثون ملمترا) في السنة .

بغداد وما جاورها

تم استبدال الدور والحوانيت المزدحمة في المدينة القديمة ، والتي لم تكن لمعظمها اية اهمية اثرية ، وكذلك الازقة والممرات الضيقة ، بشوارع عريضة ، ودوائر ، ومخازن ، وفنادق حديثة ؛ وهكذا اخذ مظهر المدينة القديمة يتغير تدريجيا خلال سني السبعينيات ولقد بقيت اسواق النحاس والفضة ، والملابس وغيرها على حالتها ؛ كما بقيت كثير من المساكن والمقاهي والجوامع والمساجد القديمة المميزة ، على ما كانت عليه قبلا .

فعلى الجانب الغربي من النهر تقوم بناية البرلمان ، وكذلك السفارات الاجنبية في العاصمة(١٦٤) . واصبح للضواحي الرئيسة في هذا الجانب من امثال الكرخ ، وكرادة مريم ، والمنصور(١٦٥) اسواقها وحوانيتها الخاصة بها . كما قامت الانحاء السكنية وحدائقها على ضفتي النهر .

وقد ادى انجاز سد سامراء في سنة ١٩٥٦ الى انقاذ مدينة بغداد من خطر الفيضانات المدمرة ، والتي كانت تسبب الدمار الشديد في كثير من المناسبات خلال التاريخ . كذلك ادت السيطرة على الفيضان الى اتساع المدينة فاصبح مخططها الجديد دائري الشكل ، يشمل كلا الجانبين من النهر .

وســـــائط النقل

تتألف وسائط النقل داخل بغداد من سيارات الاجرة و « الباصات » وقد ازدادت وسائط النقل الالية زيادة حادة منذ سنة ١٩٥٠ . فالمدينة التي توسعت عند ملتقى طرق التجارة القديمة الاتية من ايران وبلدان الشرق الاقصى عبر وادي نهر ديالى الى بغداد ، وعبر وادي نهر الفرات نحو سوريا والبحر الابيض المتوسط ، او عبر وادي دجلة الى ارمينيا والبحر الاسود ، هذه المدينة ما تزال مركزا للمواصلات عبر هذه المناطق .

ولقد وضعت خلال القرن التاسع عشر عدة مشاريع لتحسين المواصلات مع بغداد . فقد اجري مسح كامل لحوض نهر الفرات ، وللقسم الادنى من حوض نهر دجلة في سنة ١٨٣٦ . وفي سنة ١٨٦٠ تم تاسيس مصلحة بواخر اعتيادية في نهر دجلة بين بغداد والبصرة . وفي اواسط القرن الحالي تدنت اهمية النقل بالنهر ؛ وان بقيت في سني السبعينات بعض وسائل النقل العاملة في نهر دجلة بين بغداد والبصرة(١٦٦) .

---

(١٦٤) كانت معظم السفارات الاجنبية تحتشد في منطقة كرادة مريم بصفة خاصة منذ اواخر سني الخمسينات واوائل سني الستينات لكن هذه السفارات انتقلت الآن الى اماكن اخرى في الجانبين الغربي والشرقي من بغداد .

(١٦٥) مع ان الكرخ كانت من ضواحي بغداد عند انشائها على يد المنصور ، الا ان الكرخ كان يقصد به على الدوام الجانب الغربي كله من بغداد .

(١٦٦) تقتصر هذه الوسائط في الوقت الحاضر على بعض الزوارق البخارية التي تنقل الحمولات ، في حين بقيت بعض السفن الصغيرة التي كانت تنقل الركاب في دجلة بين بغداد والبصرة حتى اواخر سني العشرينات .

تلتقي طرق السكك الحديدية الكبرى الثلاثة التي تمتلكها الدولة وتديرها في مدينة بغداد . فهناك خط يسير شمالا الى الموصل . وحتى سنة ١٩٤٠ لم تكن العاصمة قد ارتبطت نهائيا باوربا ، عن طريق القطار ، وذلك عندما كمل مد سكة حديد بغداد عبر الاراضي السورية الى اسطنبول(١٦٧) .

وهناك خط ثان يربط بغداد مع البصرة ، وخط اخر يربطهما مع الانحاء الشمالية الشرقية الى اربيل عبر مدينة كركوك .

وقد تأسست مصلحة نقل منتظمة بالسيارات بين بغداد ودمشق في سنة ١٩٢٣ ، اما في النصف الثاني من القرن الحالي فقد اصبحت المدينة تحتفظ بطرق خارجية تتعقب الطرق التقليدية ، وتربطها بكل المدن الرئيسة في العراق . وغدت سيارات النقل المجهزة بالات تكييف الهواء تجلب الكثيرين من الزوار الاجانب .

وافتتح خط لنقل البريد بين القاهرة وبغداد في سنة ١٩٢١ ، واعقبه خط لنقل المسافرين بينهما في سنة ١٩٢٩ . واصبح للمدينة مطاران مدنيان ، وقد كمل بناء مطارها الدولي في سنة ١٩٧٠ .

احصائيات السكان

بلغ عدد سكان مدينة بغداد في سنة ١٩٧٠ اكثر من مليونين ومائة الف نسمة ، وذلك بالمقارنة مع مليون وستمائة الف نسمة في سنة ١٩٦٥ .

ولقد ادى هذا النمو السريع في المدينة الى نقص عدد المساكن التي تفي بحاجة القادمين الجدد، على الرغم من انخفاض كلفة المشروعات العامة ، والاغلبية الساحقة من سكان المدينة هم من العرب وهناك عناصر اقليات تشمل الاكراد ، واللر ، والافغانيين ، والارمن ، والايرانيين ، والصابئة ، وغيرهم .

واللغة الرئيسة في المدينة هي اللغة العربية ، وهي اللغة الرسمية في العراق . والدين الاساس هو الاسلام . وهناك عدد واسع من المسيحيين . اما اكثرية افراد الطائفة اليهودية السابقة فقد هاجروا الى بلدان اخرى .

(١٦٧) كان خط سكة الحديد بين بغداد والموصل ينتهي عند قرية بيجي (فضاء بيجي الان) وقد بوشر بايصال الخط الى الموصل ابتداء من سنة ١٩٣٦ وحين كمل انشاء هذا الخط في اواخر سنة ١٩٣٩ تم ربطه بالخط الحديدي الذي يربط سوريا مع تركيا واوربا .

الاسكان والعمارة

ادى الانفجار السكاني في بغداد ، كما هو الامر في بقية المدن الاخرى التي تتعاظم بسرعة ، الى حدوث نقص في بناء بيوت السكن . ولم تعد مشاريع بناء المساكن تتماشى مع الحاجة الى توفير السكن . وفضلا عن ذلك فان المشاريع السكنية واسعة النطاق ، من امثال توسيع واستقامة الشوارع ، وانشاء الدوائر الكبيرة والمتوسطة ، واقامة المنشآت التجارية ، لم تؤد الى نقص عدد المساكن في بعض المناطق حسب ، بل انها اجتذبت ايضا عددا كبيرا من العمال الذين كانوا يبحثون عن العمل .

وكان من حسن الحظ ان سمحت السيطرة على الفيضان بحدوث التوسع في المدينة .

يتراوح فن العمارة في بغداد بين البيوت والازقة الشرقية القديمة ، والبيوت والفنادق والمستشفيات الحديثة التي تبنى بالحديد والزجاج والحجر . وهناك امثلة من فن العمارة في القرن الثالث عشر الميلادي ما تزال باقية من العصر العباسي ، وهي تشتمل على « القصر العباسي » و «المستنصرية» وهي كلية كبيرة للفقه شيدها وانفق عليها الخليفة المستنصر بالله سنة ١٢٣٢م ، وقد اعيد استخدام هاتين البنايتين بمثابة متحف .

وهناك مجموعة اخرى شهيرة من الابنية باقية من القرن الرابع عشر تشتمل على جامع وكلية شيدا على يد « مرجان بن عبدالله » حاكم بغداد الجلائري في سنة ١٣٥٨م ، بالاضافة الى خان جميل معقود (كروان صاري او نزل) يستعمل الان متحفا للاثار العربية .

اما الجوامع والمساجد التي تزيد على مائة ، ومن بينها القباب المذهبة في الكاظمية ، والتي كمل بناؤها في القرن التاسع عشر ، فانها تضيف المزيد من الاهمية العمرانية للمدينة .

وتشتمل المباني الحديثة على البلاط الملكي للملك فيصل الاول مؤسس الملكية(١٦٨) و « القصر الابيض » (مقر ضيوف الحكومة) وقاعة المدينة(١٦٩) وبناية وزارة الدفاع ، والبلاط الملكي

(١٦٨) نقض البلاط الملكي القديم في سنة ١٩٧٢ .

(١٦٩) عرفت باسم قاعة الملك فيصل في العهد الملكي ، وقد استبدلت باسم قاعة الشعب منذ ثورة الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨ .

(القصر الجمهوري) ، وبنايات جامعة الحكمة في الزعفرانية ، والمتحف العراقي الحديث(١٧٠) .

الحياة الاقتصادية

ازدادت عائدات العراق من النفط بعدالحرب العالمية الثانية زيادة كبيرة جدا وقد انعكست الثروة التي اصابتها البلاد في وفرة رأس المال ، فشرع التجار يهتمون بالاستيراد والتوزيع ، كما اخذوا يهتمون — ولو على نطاق ضيق لكنه متعاظم — في انشاء صناعات السلع الراسمالية والاستهلاكية .

وتتركز معظم الصناعات العراقية في بغداد . وهي تشمل صناعة الجلود والاقمشة الحريرية والقطنية ، والاجر ، والسمنت ، ومنتجات التبوغ، وتقطير المواد الكحولية من التمور والاعناب . وهناك معامل لسكك الحديد ومصنع للفولاذ(١٧١) .

كذلك تركزت الخدمات الحالية هي الاخرى في العاصمة ايضا ، وهي تضم المصرف المركزي في العراق والذي له وحده حق اصدار العملة .

الحكومة والخدمات

يدير المدينة امين العاصمة وهو عسكري(١٧٢) كما ان للمحافظة محافظ . ويقوم في بغداد مقر الحكومة القومية ومركز مؤسساتها الرئيسة وفروعها .

ولقد اتسعت تسهيلات التعليم بعد الثورة اتساعا سريعا جدا ، وتم انجاز التعليم الجامعي الاجباري في بغداد تقريبا ، واصبح التعليم العالي مجانيا ، وهو متوفر في جامعة بغداد التي تأسست في سنة ١٩٥٨ . وتوجد في بغداد جامعة الحكمة التي تأسست سنة ١٩٥٦ ، وجامعة المستنصرية التي انشئت في سنة ١٩٦٣ ، واربع كليات من بينها المعهد التقني العالي الذي انشيء في سنة ١٩٦٠ ، ومعهد الفنون الجميلة الذي اسس سنة ١٩٣٦ .

وكانت بغداد اول من استفاد من مشروع توفير السكن للفقراء ، ومن التوسع في الخدمات والتسهيلات الصحية والاجتماعية ، بما في ذلك انشاء المستشفيات والعيادات الطبية الحديثة . اما مشاريع القوة الكهربية ؛ وتوفير اسالة الماء في المدينة ، فانها ملك للدولة ، وتدار من قبلها مباشرة.

الحياة الثقافية

يستدل من تاريخ المدينة ، ومن كثرة الجوامع والمساجد فيها ؛ ان الكثير من نواحي الحياة الثقافية فيها كانت متركزة لدى الطوائف الدينية.

فمرقد الامامين ومسجد الكاظمية الذي يضمهما ، من اهم الاماكن التي يقصدها الزوار .

وتشتمل المكتبات الموجودة في بغداد على مكتبة الاوقاف التي تأسست سنة ١٩٢٩ ، وهي تضم مجموعة من كتب التاريخ والاداب العربية . وتعتبر المكتبة المركزية التابعة لجامعة بغداد ؛ والتي تأسست سنة ١٩٦٠ ؛ مستودعا للمطبوعات العراقية وتستخدم بمثابة مركز للتبادل الدولي(١٧٣) .

وهناك معاهد ثقافية اخرى منها متحف القصر العباسي ، ومتحف الاسلحة الذي انشيء في سنة ١٩٤٠ ، ومتحف الازياء الذي افتتح في سنة ١٩٤١. اما المتحف العراقي الذي تأسس في سنة ١٩٢٣ فقد جدد في سنة ١٩٦٦ ، ومتحف التاريخ الطبيعي الذي انشيء في سنة ١٩٤٦ ، والمتحف الوطني للفن الحديث المؤسس سنة ١٩٦٣ ؛ ومتحف الاثار العربية الذي انشيء سنة ١٩٣٧ وهناك ايضا عدد من الجمعيات المعروفة في العلوم والفنون .

وسائل التبادل

كانت توجد في بغداد خلال سني السبعينات اكثر من ست صحف يومية . وكانت جريدة « الزمان » تعتبر اكثرها اهمية بصفة عامة(١٧٤) .

---

(١٧٠) اممت جامعة الحكمة التي تملكها وتديرها طائفة من المبشرين الامريكان في سنة ١٩٧٢ فاصبحت الان مقرا لمعهد التكنلوجيا .

(١٧١) لاتوجد معامل لسكك الحديد سوى معامل التصليح وصنع العوارض الكونكريتية في الشالجية . اما معمل الصلب فيجري العمل في انشائه الان .

(١٧٢) استبدل امين العاصمة العسكري في اوائل هذه السنة بامين مدني .

(١٧٣) نسي الكاتب المكتبة الوطنية التي تأسست سنة ١٩٢٥ وهي من اهم المكتبات العامة واقدمها في العراق . كما نسي الكاتب ان يشير أيضا الى مكتبة الآثار العامة التي نقلت مجاميع الصحف والمجلات منها مؤخرا الى المكتبة الوطنية ولم يذكر المجمع العلمي العراقي ومكتبته ، وغير ذلك من المكتبات الملحقة بالكليات والمعاهد وغيرها .

(١٧٤) هذا خلط فاضح ومشين من كاتب المقال . ذلك ان جريدة « الزمان » قد عطلت منذ صبيحة اليوم الثامن من شباط سنة١٩٦٣ولم يسمح لها بالصدوربعد ذلك ابدا. اماالصحف التي صدرت خلال سني السبعينيات الحالية فهي الثورة والجمهورية ، والتآخي ، وطريق الشعب ، والعراق .

وبالاضافة الى هذه توجد صحف اسبوعية سياسية ودوريات فنية ، ونشرات حكومية عن شؤون التعليم والموضوعات الاخرى .

واللغة الانكليزية من اوسع اللغات الاجنبية الشائعة . وكانت الصحف والمجلات البريطانية والامريكية مقروءة في العاصمة .

اصبحت الاذاعة والتلفزيون ملكا للحكومة منذ سنة ١٩٦٧(١٧٥) واذاعة بغداد هي اذاعة الامة الوحيدة ، وهي تذيع بعدة لغات في كل انحاء القطر . اما محطة تلفزيون بغداد — وهي اول محطة من نوعها انشئت في اي بلد عربي — فانها قد بدات البث في سنة ١٩٥٦ .

ما تزال المصادر الحديثة عن بغداد متفرقة ، رغم وجود عدد من المؤلفات التي تشمل تاريخ المدينة من امثال كتاب « لي سترانج » المعنون « بغداد اثناء الخلافة العباسية من المصادر العربية والفارسية » الذي صدر لاول مرة سنة ١٩٠٠ ثم اعيد طبعه سنة ١٩٢٤(١٧٦) وكتابي « ستيفن همسلي لونغريغ » وهما « اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث » و « العراق من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠ »(١٧٧) وكتاب « نابيا ابوت » المعنون « ملكتان في بغداد » عن ام الرشيد وزوجته(١٧٨) ، وكتاب طه باقر عن بغداد »(١٧٩) .

اما تاريخ المواصلات فيتمثل في كتاب « مبيبل ربيكا جابمان » المعنون بريطانيا العظمى وسكة حديد بغداد ١٨٨٨ — ١٩١٤ الصادر في سنة ١٩٤٨ . وكتاب « روبرت . م . ادمز » المعنون « ارض فيما وراء بغداد » هو دراسة فنية تتركز حول الاتجاهات المتغيرة في شؤون الري ، والزراعة ، والمستوطنات المدنية . وهناك معلومات قيمة عن بغداد وردت في كتاب « فرياستارك » الموسوم « صور من بغداد » والصادر في سنة ١٩٢٧ .

منظمة التنمية الاقتصادية للشرق الاوسط

E. E. D. M. O.

بغداد في اوج ازدهار الامبراطورية العباسية

بلغت بغداد اوج ازدهارها في عصر الخليفة المأمون (٨١٣ — ٨٣٣م) فاذا كانت اية خلافة تستحق بان توصف بانها العصر الذهبي للمدنية العربية ، فان تلك هي خلافة المأمون .

فلقد قام المأمون الذي اتسم بالشجاعة بعدة حملات ضد البيزنطيين ، وقضى على الثورات التي حدثت في مصر ، وسوريا وارمينيا ، وخراسان ، على ان انتصار المأمون على اخيه الامين كان ينظر اليه دوما بانه انتصار فارسي موجه ضد المصالح العربية التي كان يمثلها اخوه الخليفة المندحر ، وهذا الاعتقاد مصيب على نطاق واسع . ذلك لان المأمون جلب معه الجيوش الفارسية ، والوزراء الفرس . وافسح المجال امام الاتجاهات الفارسية ، في التطبيق الاداري التي كانت مستترة اثناء الحكم السابق فغدت الان ظاهرة بشكل متشدد كذلك كان المأمون صاحب ذهنية وقادة استناد ممن الخلافات القائمة بين اصحاب العقائد ، لقد انشأ المراصد وشجع دراسة علم الفلك والهندسة ، كما اسس « بيت الحكمة » في بغداد ، وكرسه لترجمة المؤلفات العلمية والفلسفية عن الاصل اليوناني .

ويبدو ان المأمون كان يحمل في ذهنه تصميما عظيما لصورة اسلامية موحدة ، تراب الصدع العميق بين المسلمين . فبمثل هذه الطريقة يمكن ضمان الوحدة السياسية الخلافة ، وتحقيق السلام الداخلي والرخاء . وقد ادى عطفه على المفكرين من جماعة « المعتزلة » الذين كانوا يركزون الدفاع عن الاسلام بالجدل العقلاني ضد الهرطقة والكفر ، الى تقارب قوي من الشيعة الذين كانوا يشاركون المعتزلة في بعض مواقفهم .

وطبقا لذلك تميز القسم الاوسط من عهد المأمون باختياره الامام « على الرضا » ، وريثا له وذلك في سنة ٨١٧م . لكن حدث ان مات الامام بعد ذلك بوقت قصير . ولا يعني هذا بالضرورة ان المأمون كان يخطط بصفة دائمة لتحويل الحكم الى العلويين ، لكنه ربما كان يعتزم ان يوسع قاعدة الترشيح امام القادرين من المرشحين العباسيين والعلويين الذين قد ينجحون في ذلك طبقا المواهب الشخصية . ولقد جرت مثل هذه المحاولة من قبل خلفاء عباسيين اخرين خلال القرن

(١٧٥) هذا قول خاطىء لان الاذاعة منذ ان انشئت في سنة ١٩٣٦ كانت ملكا للحكومة ، ومثل ذلك حصل لمحطة التلفزيون ايضا
(١٧٦) ترجمة الاستاذ بشير فرنسيس ونشره في سنة ١٩٣٦ .
(١٧٧) ترجم الاستاذ جعفر خياط كتاب اربعة قرون وطبع اربع طبعات اخرها في سنة ١٩٧٤ اما الكتاب الثاني من مؤلفي لونغريغ فلم يترجم حتى الان .
(١٧٨) ترجم السيد عمر ابو النصر هذا الكتاب ونشره في بيروت سنة ١٩٦٦ .
(١٧٩) كتيب صغير اصدرته مديرية الاثار العامة .

التاسع ، وعلى الاخص على يد كل من « المنتصر » و « المعتضد » .

مدرسة بغداد للتصوير

تعتبر هذه المدرسة ، على اوسع احتمال ، اول مدرسة تعنى بتصوير المنمنمات الاسلامية . وقد تأسست هذه المدرسة في اواخر القرن الثاني عشر الميلادي (ولو ان اقدم النتاجات الفنية الباقية لا يمكن ان يعزى تاريخها الى ما قبل القرن الثالث عشر) .

لقد انشئت المدرسة اول الامر في عهد الحكام الاتابكيين ، وهم الاوصياء المحليون الذين استولوا على الحكم بعد سقوط حكم الاتراك السلجوقيين في منتصف القرن الثاني عشر . وبقيت هذه المدرسة قائمة حتى بعد تدمير بغداد على ايدي المغول سنة ١٢٥٨م ، واستمرت موجودة الى حدود سنة ١٣٠٠م .

ولقد اظهرت مدرسة بغداد هذه مقاومة واستقلالا مدهشين ، وبقيت متحررة من التأثيرات المغولية ، والسلجوقية التي تغلغلت في معظم الاساليب المحلية للتصوير . كانت المميزات الشهيرة لفن مدرسة بغداد تتمثل في تصوير الوجود الفردية المعبرة بدلا من الانماط الظاهرية ، وذلك بالتعبير عن الحركة ، والاهتمام بتفاصيل الحياة اليومية .

من الامثلة الاولى لمنمنمات مدرسة بغداد ، هي الصور التي رسمت لترجمة عربية من كتاب « دسقوريدس » المعنون « الاقرباذين »(١٨٠) المؤرخة بسنة ١٢٢٤م . وهذه المخطوطة موزعة الان في جملة من المجاميع الخاصة والمتاحف . فهناك رسم محفوظ في معرض « فرير » بمدينة «واشنطن » يصور احد الاطباء اليونانيين وهو يفسر وصفة طبية لاحد الكتبة . فهذا الرسم يكشف عن عناصر تقليدية لمدرسة بغداد ، تلك العناصر التي تتميز بالالوان القوية ، والاحساس الحسن المتطور للتصميم ومظاهر الوجه المعبرة .

ومع أن صور الاشخاص قد رسمت بشكل بسيط ، وعلى أساس البعدين ، الا ان هنالك واقعية تنبعث من الاهتمام بالتفصيل .

وتبين فاتحة كتاب « رسائل اخوان الصفا
The Epistles of the Sincere Brethren
التي يعود تاريخها الى سنة ١٢٨٧م ، ان عناصر الاسلوب الاساسية لمدرسة بغداد قد بقيت حية حتى النهاية . فهذه الصورة المحفوظة في مسجد « سليمانية » باسطنبول تبين ايضا واقعية في التفصيل ، في ذات الوقت الذي تحتفظ فيه بصفة زخرفية طاغية .

لقد صور مؤلفو الكتاب مع كتبهم ، وركز الاهتمام على الوحدة . ولم يكن استعمال الالوان — مع التركيز على اللونين الابيض والذهبي — اقل اثارة من الالوان التي احتوتها النتاجات الاولى لمدرسة بغداد ، ففي بداية القرن الرابع عشر الميلادي ماتت هذه المدرسة ، وبدأ التصوير في المنطقة باخذ الكثير من مميزات المدارس المغولية .

× × ×

دائرة المعارف الدولية(١٨١)

بغداد عاصمة العراق ، واكبر مدينة فيه ، تقع في القسم الشرقي المركزي من القطر ، على ضفتي نهر دجلة . وليست بغداد هي مقر الحكومة حسب ، بل هي المركز التجاري ، والصناعي ، والثقافي للعراق . وهي تستخدم اكثر من خمس اليد العاملة في البلاد ، والذين يسكنون بكثرة عند الجانب الغربي من النهر(١٨٢) .

وتشتمل المشاريع فيها على سكك الحديد ، والمشاغل ، ومحلات التصليح ، ومعامل الزيوت والاسفلت ، ومعمل تكرير النفط ، والمواد الانشائية بالاضافة الى معامل صغيرة وكبيرة لصنع الاقمشة والملابس ، وكثير من الصناعات الانشائية .

وتتلقى بغداد من المطر ايام الشتاء ما معدله ست بوصات ويكون الجو بهيجا تماما ، ولكن في معظم

---

(١٨٠) De Materia Medica
مادة تستعمل في تركيب الادوية وهذا الكتاب من وضع احد علماء النبات والطب لدى الاغريق . وقد اهتم العلماء العرب به اهتماما كبيرا وترجم عدة مرات الى اللغة العربية [انظر كتابنا فن التصوير عند العرب الذي ترجمناه بالاشتراك مع الدكتور عيسى سلمان عن المؤلف الامريكي ريجار رانتنهاوزن ، ونشرته وزارة الاعلام في سنة ١٩٧٤].

(١٨١) المجلد الثاني صفحة ٢١٦ — ٢١٧ اصدرتها مؤسسة شركة غولير الكندية المحدودة .
Golier of Canada Ltd.
وقد طبعت في الولايات المتحدة الامريكية في عشرين مجلدا سنة ١٩٦٦ .

(١٨٢) انتشرت الطبقة العاملة التي هجرت الريف بعدما اجتذبتها المشاريع في بغداد ، في كل انحاء العاصمة الغربية منها والشرقية ولم يعد هناك اي تمييز لها عن بقية سكان المدينة .

أيام السنة تطغى الحرارة المرعبة ، حيث ترتفع درجات الحرارة اثناء النهار الى مائة وخمس عشرة درجة فهرنهايت ، ولو ان درجة الحرارة اثناء الليل قد تهبط الى ثلاثين درجة .

وتبدأ مياه دجلة بالهبوط ابتداء من شهر تموز حتى شهر كانون الاول ، لكن مستوى النهر يرتفع بسرعة في موسم الربيع . وفي معظم ايام السنة تتالف وسائط النقل التجاري في النهر ، من مراكب تسير في المياه الضحلة .

وتشتمل تسهيلات النقل على سكك الحديد وجملة خطوط جوية دولية ، وطرق معبدة تتفرع من المدينة . ويقع مطار بغداد الدولي في الجانب الغربي من النهر . وتبدأ الخطوط الحديدية الكبرى من ذات المنطقة ايضا .

ويسير احد خطوط سكك الحديد ، ذي العرض القياسي ، الى الموصل ، ثم يجتاز الاراضي التركية الى اوربا ، ويمتد فرع منه جنوبا نحو ميناء البصرة . ومن بغداد يمتد خط حديدي ، بعرض متر واحد ، الى كركوك واربيل .. ويوجد طريق للسيارات يقطع الصحراء السورية الى البحر الابيض المتوسط ، ويمتد طريق اخر داخل تركيا ، وثالث نحو الشمال الشرقي من ايران .

ولا تحمل بغداد الحديثة سوى مشابهات ضئيلة لنفس المدينة التي كانت قائمة قبل ربع قرن مضى من الزمن . فلقد استبدل الجسران العائمان فوق نهر دجلة بجملة من الجسور الفولاذية الثابتة وذلك الجو النعسان الذي كان يطغى على الضفة الشرقية للنهر بشارعه التجاري الصغير ، وسوقه المسقف ، واحيائه السكنية المزدحمة التي لا يمكن الوصول اليها الا عبر ازقة ضيقة ؛ كل هذه قد اختفت الان عن الانظار نهائيا .

فلقد شقت شوارع وساحات واسعة معبدة بالحصباء ، تكتظ بسيول من سيارات الاجرة ، والنقل ، والسيارات الخاصة .

وتعج الساحة الرئيسة الموازية للنهر بفنادق مجهزة بادوات تكييف الهواء ، وبالمخازن والابنية الحكومية الحديثة ، وتمتد نحو الجنوب الى الاحياء السكنية الواسعة التي تحتل قسما منها بعض السفارات الاجنبية .

وقد ادى تيسير وسائط النقل الى توسيع المدينة توسعا هائلا ، وقيام الضواحي الجديدة التي يسكنها على نطاق واسع عمال الصناعات ، وموظفو الحكومة ومستخدموها ، وعدد من أفراد الطبقة المتوسطة المتنامية .

ولقد انشئت جملة من المباني العامة . غير ان الانفجار السكاني الناجم عن الهجرة من الريف الى المدينة بحثا عن العمل فيها ، يعتبر من اعظم المشاكل القومية ، ذلك لان الالوف من الناس قد ارغموا على العيش في اكواخ حقيرة من الحصر(١٨٢) .

اسست جامعة بغداد في سنة ١٩٥٦ لكي تضم عددا من الكليات التي كانت قائمة آنذاك والتي كانت تحتوي على ستة آلاف طالب وطالبة ، بالاضافة الى جملة من المدارس والمعاهد الحكومية التدريبية من بينها كلية العلوم الدينية .

ولا توجد في بغداد سوى مناظر قليلة يهتم بها الزائر ، وهي نقطة البداية لسفرات الى المواقع القديمة من امثال سامراء ، وبابل وطيسفون . ويضم المتحف العراقي الفخم مجموعة متالقة من مواد التقطت من هذه المواقع وغيرها من المواقع الاخرى ، وعلى الاخص من المواقع التي كانت مقرا لعصور السلالات الحاكمة الاولى .

لم يبق اي شيء من اثار المدينة المدورة التي انشئت في عهد المنصور . ونتيجة للغزو المغولي المدمر فلم يبق في بغداد سوى بضعة من المباني التي شيدت في العصور الاسلامية الاولى ؛ وتشتمل هذه على كليتي الفقه «النظامية» و «المستنصرية»(١٨٤) .

تقع الى شمالي المدينة ضاحية الكاظمية المكتظة بالسكان ، وبمراقد الائمة ، والتي لا يسمح لغير المسلمين بالدخول اليها وهناك اجزاء قليلة من الاسواق القديمة المسقفة تزود المتسوق باشياء كثيرة من المواد والحاجات النحاسية والبرونزية ، والفضية والسجاد ، والملابس الداخلية والمجوهرات القديمة .

تقع بغداد في سهل بين النهرين العظيمين دجلة والفرات ، وفي منطقة يسهل تطوير وسائل الري فيها . وتقوم بغداد في الموقع الذي كانت تحتله المدن المهمة في العصور القديمة والتي تلقت التجديد في العصر الاسلامي .

---

(١٨٢) ازيلت الصرائف والاكواخ من بغداد في اوائل الستينات غير ان تعاظم الهجرة الى بغداد من مختلف انحاء القطر في السنوات الاخيرة قد احدث مشكلة سكن معقدة .

(١٨٤) لم يبق للمدرسة النظامية اي اثر . اما المدرسة المستنصرية فقد تم ترميمها في السنوات القلائل الماضية وكان المقرر ان تتخذ دارا لحفظ المخطوطات المكدسة في صناديقها وبلا نظام حتى الان في مؤسسة الاثار العامة .

وفي سنة ٧٦٢م أمر المنصور ثاني خلفاء بني العباس ببناء مدينة مدورة ، كمل بناؤها مع حصون واحياء واسعة على الضفة الغربية من النهر .

وفي نهاية ذلك القرن ، واثناء حكم هرون الرشيد ، اصبحت المدينة المدورة ، مقرا متالقا للعلوم والاداب ، اضافة الى كونها عاصمة للعالم الاسلامي ، وفي خلال القرن التاسع اصبحت سامراء التي تقع شمالي بغداد ، عاصمة للعباسيين زهاء نصف قرن من الزمان ، قبل ان تستعيد بغداد شهرتها .

ولقد اتسعت بغداد بامتداد الضفة الشرقية للنهر ، وبقيت المركز الروحي والدنيوي للعالم الاسلامي حتى سنة ١٢٥٨م ، حين اجتاحت قطعان المغول القادمة من الشرق المدينة وقضت على الاسرة العباسية الحاكمة ، وبعد ذلك الوقت بحوالي ثلاثة قرون ، تدهورت المدينة تحت امرة حكام متعاقبين الى ان تمت سيطرة الاتراك عليها في القرن السادس عشر ، ثم اصبحت خلال القرن التاسع عشر احدى الحواضر الاقليمية في الامبراطورية التركية . وبدات تنتعش .

وفي اثناء الحرب العالمية الاولى استولى البريطانيون على بغداد في شهر اذار سنة ١٩١٧ . ثم اصبحت في سنة ١٩٢١ عاصمة لدولة العراق الحديثة . وفي سنة ١٩٤١ احتلت القوات البريطانية مدينة بغداد مرة اخرى ، بالتعاون مع الحكومة العراقية في هذه المرة ، وذلك لاخماد ثورة مؤيدة للالمان(*) .

كان التقدم المعتدل الذي شرع به بعد الحرب العالمية الاولى ، قد وصل الى درجة الشلل في السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الثانية . يؤلف المسلمون الاكثرية الساحقة من السكان ، وهناك حوالي عشرين الف مسيحي . اما اليهود الذين كانوا يؤلفون في وقت من الاوقات اكبر طائفة يهودية فقد هاجروا الى فلسطين المحتلة وكان عددهم ٥٥٨٨٢٠ نسمة . (دونالد والاس ، جمعية بحوث الشرق الاوسط) .

(*) لم تكن ثورة العراق في ١٩٤١ كما تزعم دائرة المعارف الدولية فهي ثورة قومية تحررية ، اعلنها العراق شعبا وجيشا على الوجود الاستعماري (المورد) .

دائرة المعارف الامريكية(١٨٥)

بغداد (العراق) عاصمة المملكة ، واعظم مدينة في بلاد الرافدين على نهر دجلة . وقد ذكر ان بغداد القديمة مقر الخلافة ، والتي كانت تضم حوالي مليوني نسمة ، كانت تقوم على الجانب الغربي من النهر ، وكانت من اعظم مدن العالم الاسلامي .

اما بغداد الحديثة فتقوم على ضفتي النهر غالبا في وسط جغرافي للقطر . وكانت قديما محاطة بسور دفاعي من الاجر في شكل دائري ، يبلغ طوله زهاء ستة اميال . غير ان هذا السور في الوقت الحاضر متهدم بصفة عملية(١٨٦) . والمساكن مبنية من الاجر بصفة رئيسة وهي على النمط الاوربي بشكل عام . وهناك شبكة من الشوارع المعبدة بالاسفلت تربط كل انحاء المدينة ، وتؤلف واحدا من المظاهر الحديثة .

ومن المساجد التي يبلغ عددها زهاء مائة مسجد ، بقي عدد جدير بان يستحق المشاهدة ، ويمكن ان يجتذب الزائر اليه اما الكثير منها فهي مخربة ، وطراز عمارتها مغاير لطراز ما هو موجود منها في المدن الاسلامية الاخرى . غير ان لها مظهر مزوق عظيم من القاشي المزجج الذي يغطي قبابها ومنائرها ، وهي مرتبة في شكل نتاجات من الفسيفساء بمختلف الالوان .

والاسواق واسعة تعج بالسلع . وما تزال الاسواق التي بناها « داود باشا »(١٨٧) تعتبر من اشهر المباني الفخمة في العالم .

كانت بغداد منذ عهد طويل تهيمن على جزء كبير من وسائل النقل بينها وبين اوربا من ناحية ، ومع ايران والهند من ناحية اخرى . وما تزال التجارة الايرانية والهندية على نطاق واسع ، كما هو الامر ايضا مع اوربا ، حيث يتم نقل جزء كبير

(١٨٥) The Encyclopedia Americana
صدرت طبعتها الجديدة في سنة ١٩٤٨ في ثلاثين مجلدا اما طبعتها الاولى فكانت في سنة ١٩٢٩ نقلنا هذه المعلومات عن بغداد من المجلد الثاني ص ٨١ — ٨٢ .

(١٨٦) لم يبق من هذا السور الذي كان يحيط بمدينة بغداد منذ عهد الخليفة الناصر لدين الله سوى باب واحد هو المعروف بالباب الوسطاني .

(١٨٧) داود باشا الكرجي اخر الحكام المماليك في العراق حكم في الفترة ١٨١٦ — ١٨٢١ م حيث استرد العثمانيون سيطرتهم على العراق بعد مقتله . ويعزى الى داود باشا بناء السوق المسقف المعروف باسم سوق السراي .

منها بالمراكب في النهر . وكانت التجارة مع اوربا سابقا واسعة كثيرا بطريق البر ايضا ؛ وذلك عبر الصحراء السورية الى دمشق ، وعبر طريق ارمينيا شمالا .

ومنذ ان فتحت قناة السويس غدت الطرق البحرية اكثر اهمية ؛ فانحط النقل عبر الهند بعض الشيء . غير ان تطور تسهيلات التنقل بالسكك الحديدية جعل منها السوق التي يمكن الاستيراد منها من منطقة البحر الابيض المتوسط والتصدير اليها .

كانت الاصواف هي الصادرات الرئيسة الى اوربا ، بالاضافة الى الشعير والحنطة والصمغ والجلود والعفص ومصنوعات الجلود ، اما المستوردات فكانت تشمل الحديد والنحاس والسكر والقهوة . وكانت توجد في بغداد عدة مصنوعات من ادوات نحاسية ؛ ومن الملابس ، والاصباغ وغيرها .

تكون درجة الحرارة في بغداد خلال الصيف شديدة جدا . ولكن الشتاء فيها بارد ايضا ، الى درجة يصبح استعمال النار امرا ضروريا . والمناخ فيها مقبول ، وصحي بوجه عام . ويسكن المدينة العرب والاكراد والاتراك والفرس والارمن واليهود . ويؤلف العرب المسلمون اغلبية سكان المدينة . ومع ذلك فان جميع الاقليات العرقية والدينية تشترك على قدم المساواة بكل الحقوق التي تتمتع بها الاغلبية العربية . وطبقا لتخمينات سنة ١٩٤٨ بلغ عدد سكان بغداد حوالي ستمائة وستين الف نسمة .

× × ×

اسست بغداد سنة ٧٦٢م على يد الخليفة المنصور . وبلغت درجة رفيعة من المجد في القرن الثامن الميلادي على يد الخليفة هرون الرشيد الذي شخصته قصص الف ليلة وليلة . وقد اصبحت آنذاك المدينة الرئيسة في العالم الاسلامي كله ، ومركزا عظيما للثقافة والعلوم .

وتعاظم هذا التقليد الثقافي للمدينة بعد ان تطورت كمركز تهذيبي ومقر للعراق الحديث حيث انشئت كليات تدريب المعلمين ؛ والصيدلة ، والهندسة ، والمدارس العسكرية . وتشتهر المدينة ايضا بانها المركز المهم للصناعة والتجارة والمواصلات في العراق . وبرهنت المناظر الجميلة على امتداد شاطىء النهر بانها كانت المغناطيس الذي يجتذب السواح .

في القرن الثالث عشر الميلادي اجتاح حفيد جنكيزخان مدينة بغداد فقضى على الخلافة وذبح اخر الخلفاء منها وطرد احفاد الفاتح هولاكو على يد تيمورلنك . وفي القرن الخامس عشر استولى الشاه اسماعيل اول حاكم من البيت الصفوي الفارسي على بغداد . ومنذ ذلك الوقت اصبحت المدينة عرضة لحروب مدمرة بين الاتراك والفرس. وبعد حصار واسع افتتحت المدينة على يد الامبراطور التركي مراد الرابع . وحاول « نادر شاه » بلا جدوى ، خلال القرن الثامن عشر استخلاصها من ايدي الاتراك .

وفي سنة ١٩١٧ خلال الحرب العالمية الاولى، افتتحتها القوات البريطانية بعد هزيمة الجيش التركي الذي كان يدافع عنها . ثم اصبحت بعد عقد معاهدة السلام عاصمة للعراق ، ووضعت تحت الانتداب البريطاني بقرار من عصبة الامم ، واستمرت عاصمة قومية بعد توقيع معاهدة ١٩٣٠ .

وفي خلال الحرب العالمية الثانية احتل العراق مرة اخرى من قبل القوات البريطانية وذلك في شهر تموز سنة ١٩٤١ للقضاء على ثورة عسكرية فيه ، وفي سنة ١٩٤٥ منحت الحكومة حق نقل العاصمة في حالة الضرورة ، من بغداد الى اي مكان اخر من الاراضي العراقية .

× × ×

سكة حديد بغداد

اسم شهير لخط حديدي يمتد الى الكويت قرب راس الخليج العربي في الجنوب ، ومن هناك يصعد عبر العراق الى البصرة وبغداد والموصل ، ومنها عبر اراضي سوريا الى الحدود التركية ومن هناك يسير داخل سوريا الى نقطة تقرب من حلب. ثم يسير شمالا ليتفرع منه فرع يمتد الى اسطنبول، في حين يسير الفرع الثاني جنوبا نحو حلب ليربطها مع طرابلس وحيفا ، ثم ينتهي في القاهرة .

ولقد اصاب هذا الخط اهمية دولية في اواخر سني ١٨٩٠ عندما اصبح يعرف باسم طريق القيصر فلهلم الثاني امبراطور المانيا ، وذلك على اثر زيارة قام بها لسلطان تركيا ، وحصل خلالها على وعد بمنحه امتيازا لبناء سكة حديد يمتد من «قونية» الى الخليج العربي .

وكان الالمان قد حصلوا قبلا ؛ وعن طريق الجهود التي بذلها الدبلوماسي الالماني البارون

مارشل فون بيبر شتاين ، على امتياز امده تسع وتسعون سنة لبناء خط حديدي من انقرة الى ازمير ، ويتصل بالخط الحديدي القائم هنالك انذاك . وقد مول هذا المشروع من قبل « شركة سكة حديد الاناضول » التي كان يسندها البنك الالماني Deutsche Bank .

أثار الامتياز الذي ظفر به القيصر شكوك عدد من الدول الاوربية وعلى الاخص بريطانيا العظمى ، التي اعتبرته مشروعا يهدف الى قطع شريان حياة بريطانيا في الهند . وسرعان ما اصبح الطريق يعرف باسم « سكة حديد برلين ـ بغداد Berlin - Bagdad Bahn » وقد جسد الخطة الالمانية الرامية الى اقامة خط مباشر عبر اوربا واسيا الى الخليج العربي .

وفي سنة ١٨٩٩ ، وبعد وقت قصير على زيارة القيصر لاسطنبول منح سلطان تركيا امتيازا الى شركة سكة حديد الاناضول لبناء خط واحد (من قياس عرض اربعة اقدام وثماني بوصات ونصف) يبدأ من قونية حتى النهاية الشرقية لسكة حديد الاناضول ، ويمتد الى الكويت على الخليج العربي ، مارا ببغداد ، ويبلغ طوله الفا وخمسمائة وخمسين ميلا .

كان الطريق المقرر ان يسير الخط فيه ، ابتداء من قونية الى ادنه ، ومن هناك يتجه جنوبا الى حلب ، ومنها الى طرابلس ، ثم يجتاز نهر الفرات الى الموصل ، حتى يصل الضفة الغربية من بغداد ، ومن هناك يسير الى الخليج العربي[188] .

ولقد افتتح خط (قونية ـ اوغلي ـ بلغاريا) ، والبالغ طوله مائة واربعة وعشرين ميلا ، في شهر تشرين الاول سنة ١٩٠٤ وعند اندلاع الحرب العالمية الاولى كان حوالي الفا ومائتي ميل من مجموع طول الخط البالغ الفا وخمسمائة وخمسين ميلا ، قد كمل بناؤه ما عدا بعض الثغرات في بعض الاقسام المهمة .

كان اول قطار بين البصرة وبغداد قد غادر مدينة البصرة في اليوم الثالث عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٠ . وفي سنة ١٩٣٦ قررت الحكومة العراقية ربط الموصل بكل من تل كوجك وبغداد من النقطة التي كانت ينتهي بها في « بيجي » وقد كمل بناء هذا الخط وبكلفة ثلاثة ملايين باون ، وافتتح في السابع عشر من شهر تموز سنة ١٩٤٠ .

---

(١٨٨) بدأ الالمان العمل في مد سكة حديد بغداد برلين في جانب الكرخ منطقة السكك الحالية في سنة ١٩١١ واعدوا لذلك عمارتين هدمت احداهما ومازال الاخرى قائمة بجوار دار الاذاعة وياحبذا لو حوفظ عليها لما له اهميته التاريخية وحين اندلعت الحرب العالمية الاولى كان الخط قد وصل الى سامراء فتوقفت الاعمال فيه ، ثم استانف الانكليز بعد احتلالهم بغداد مدة فاوصلوه الى قضاء الشرقاط اول الامر لكنهم مالبثوا ان ارجعوه الى بيجي الى ان شرع باكماله مجددا في عهد حكومة حكمة سليمان ١٩٣٦ .

الجند الأموي والجيش العباسي

● دراسة في تطور المؤسسة العسكرية في العصرين الأموي والعباسي

بقلم الدكتور

فاروق عمر فوزي

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

في البدء لابد لنا ان نشير بان استعمالنا لاصطلاح « الجيش » للدلالة على الجند او المقاتلة العرب في العصر الاموي يعتبر استعمالا مبالغا فيه الى حد ما ، بل انه غير وارد تاريخيا ، ذلك لان العرب المسلمين في صدر الاسلام وردحا من العصر الاموي لم يعرفوا الجيش المنظم الدائم ، وان المؤسسة العسكرية العربية لم تتبلور وتاخذ ابعادها وسماتها الحقيقية الا في العصر العباسي .

حين جاء الاسلام غدت الامة كلها مقاتلة ، والامة المقاتلة تعني ان كل القادرين على حمل السلاح من الرجال ينفرون للحرب عند الحاجة ، ولكن لم يكن هناك تنظيم عسكري يربط هؤلاء المقاتلة ولم تكن هناك مؤسسة عسكرية تضمهم . وحين بدأت حروب التحرير والفتح الاسلامي اشترك فيهاالمقاتلة من مختلف القبائل ولكن هؤلاء المقاتلة لم يشكلوا جيشا نظاميا بالمعنى الدقيق المتعارف عليه .

لانهم لم يكونوا تحت السلاح على الدوام بل انصرفوا الى اعمالهم الخاصة ومشاغلهم في اوقات السلم ، ولم يسكنوا في ثكنات عسكرية ويتدربوا على السلاح بصورة مستمرة . كما لم تكن تربطهم رابطة قوية واحدة فيما بينهم من جهة او مع الدولة من جهة اخرى خاصة عند حدوث الفتن او الازمات الداخلية .

تطور معنى الجند :

دل اصطلاح الجند في البداية على وحدة من المقاتلة العرب من قبيلة او قبائل معينة وربما كانت لا تتجاوز في عددها الكتيبة . وبمرور الزمن تطور اصطلاح الجند فاصبح ذا مضمون جغرافي يعني الاقليم او المنطقة التي يحكمها اداريا وعسكريا قائد يترأس مجموعة من المقاتلة ويعتمد على واردات الاقليم في التموين والعطاء .(١)

ولم يسكن المقاتلة العرب في البداية المدن في البلاد المفتوحة بل بنوا لانفسهم مدنا جديدة بدأت على هيئة معسكرات استقروا فيها مع عوائلهم وسميت الامصار . وقد قسم المقاتلة في الامصار الجديدة الى ارباع او اخماس منفصلة عن بعضها البعض وتحتوي على قبائل معينة واطلق على هؤلاء المقاتلة اسم جند (جمع اجناد) . على ان خلفاء بني امية في بلاد الشام انتهجوا سياسة معينة في سوريا بحيث جعلوا في كل مصر من بلاد الشام قبيلة معينة ، فكان جند قنسرين في غالبيتهم قيسية اما حمص فكانت غالبا يمانية وكانت كلب وجذام غالبة على دمشق .(٢) وقد نجحت هذه السياسة في بلاد الشام وابعدت القبائل العربية الى فترة ما عن الحزازات والصراعات القبلية وسهلت على الخلفاء الامويين الاوائل ان يحفظوا التوازن بينها .

وقد كانت السلطة المركزية تدعو المقاتلة من اقاليم مختلفة عند الحاجة او الضرورة لقمع تمرد داخلي او لمواجهة خارجية ، وبقي اصطلاح (الاجناد) يستعمل للدلالة على هؤلاء المقاتلة ، ولكن ظهرت اصطلاحات جديدة ذات دلالات مترادفة مثل الجيش والعسكر . وكانت نفس التنظيمات القبلية تحفظ اثناء القتال ، ففي رواية تاريخية :

« وقد دعا عدي اهل البصرة فبعث على خمس من اخماسها رجلا ، فبعث على خمس الازد المغيرة بن زياد العتكي وعلى خمس بني تميم محرز بن حمران السعدي وعلى خمس بكر بن وائل عمران بن عامر ... ودعا مالك بن الجارود فعقد له على عبد القيس ودعا عبدالاعلى بن عبدالله فعقد له على اهل العالية .. »(٣)

ولما كانت القبيلة تلعب دورها في تعبئة المقاتلة فمن الطبيعي ان اهم عامل لتحقيق النصر على الاعداء هو مهارة القائد وحذقه في ترتيب الجند وتنظيمهم في ساحة المعركة ، ذلك ان العصبية القبلية كانت تعمل عملها بين الجند ، واذا ارتكب القائد خطأ ستراتيجيا بان وضع قبيلة ما في المقدمة لتتحمل وحدها ضربات العدو ويقع عبء المعركة عليها ، بينما تبقى قبيلة اخرى في الجناح او المؤخرة لتنقض في نهاية المطاف وتقتطف ثمرات النصر وتدعي انها هي التي حققته ... اذا ارتكب القائد مثل هذا الخطأ فقد يفقد سيطرته على الجند .

ومن اجل ضمان عدم الوقوع في مثل هذه الاخطاء كان القائد يعتمد على رجل ذى خبرة ، معروف بحنكته في التعبئة وله تجارب في هذا الباب . وفي مصادرنا روايات تاريخية تشير الى هؤلاء تقول احداها مثلا :

« وكان عبدالرحمن بن اصبح اذا نزل الامر العظيم في الحرب لم يكن لاحد مثل رايه وكان عبيد الله ابن حبيب على تعبئة القتال ، وكان رجال من الموالي مثل هؤلاء في الراي والمشورة والعلم بالحرب فمنهم الافضل بن بسام مولى بني ليث وعبدالله بن ابي عبدالله مولى بني سليم والبختري ابن مجاهد مولى بني شيبان » .(٤)

وهناك العديد من المقاتلة الذين تصفهم المصادر بعبارة « صاحب راي في الحرب » ولا شك فهو يختص بوضع الاستراتيجية ويقابل مدير الحركات العسكرية .

مزايا المقاتل العربي :

وكان المقاتل العربي يتمتع بمزايا وصفات حققت له انتصارات فذة ومن هذه المزايا :(٥)

اولا – روح الجماعة والاصرة التي تربط المقاتلة ببعضهم وخاصة اثناء تعرضهم لخطر خارجي على الحدود الشرقية او الشمالية .

ثانيا – الثقة بقابلياتهم والاعتداد بشجاعتهم فقد كان عدد العرب مجتمعين اقل بكثير من عدد سكان اى اقليم من الاقاليم المفتوحة . واذا كان سكان البلاد المفتوحة قد فاقوا العرب بالعدد فان العرب فاقوهم بالكيفية وبالقدرة القتالية. لقد كان العربي فارسا يشار اليه بالبنان يرمي وهو على ظهر فرسه . لقد امتلك العربي روح البداوة بكل ما فيها من جرأة واقدام وعنف واعتماد شديد على النفس .

ثالثا – كان المقاتل العربي يتمتع بروح قتالية عالية وفذة ، بينما كانت هذه الروح قد خبت منذ زمن بين سكان البلاد المفتوحة الذين استخدموا المرتزقة والعبيد للقتال بدلهم وكانت الدنيا ومتاعها والتعلق بالحياة ولذاتها شغلهم الشاغل.

رابعا – اعتقاد العربي بان الله معه في قضيته العادلة وانه سينصره على عدوه وهذا اعطاه ثقة متزايدة بالنصر .

خامسا – كانت القوة العربية تتكون من قبائل خفيفة الحركة ، اكثر خفة من الاعداء . وقد حافظت الدولة الاموية على هذه الصفة طالما بقيت سياستها هجومية توسعية ونجحت في توسيع حدود الدولة وفي مجابهة الاعداء وخاصة الترك على الحدود الشرقية في بلاد ما وراء النهر .

الموالي والقتال :

لقد غالى بعض المستشرقين ومن اتبع رايهم من المؤرخين(٦) في تصوير التمايز الاجتماعي بين العرب وغير العرب من سكان البلاد المفتوحة ووقعوا في تفاسير عنصرية ليست من مفاهيم العصر الذي ظهر فيه الاسلام . واذا كان هناك بعض الحالات الاستثنائية التي تدل على التنافر فان هناك امثلة عديدة على الامتزاج والتعاون والاشتراك في السلطة. وليس يهمنا في هذا المجال ان نفصل في الامثلة ولكننا نقول بقدر ما يتعلق الامر بالجند بان السلطة العربية اشركت مقاتلة من المرتزقة من الموالي فهناك الارمن في ارمينيا والفراغنة والبخارية والسمرقندية والاشروسنية في الساحة الشرقية ، ففي رواية عن الطبري ان هناك ما لا يقل عن ٢٠ الفا من سكان الاقاليم الشرقية استخدمهم نصر بن سيار في حملاته في الجبهة الشرقية(٧) . وقد وصل بعض هؤلاء الى مراتب عاليه في القيادة .

كما كان الامويون يستخدمون الرقيق في القتال ، هذا مع تأكيدنا بان القوة الضاربة والرئيسية كانت تكون من المقاتلة العرب .

وحدات شبه نظامية :

رغم اعتماد الامويين على المقاتلة العرب من القبائل المختلفة باعتبارهم جند الدولة فقد برزت بوادر وحدات نظامية دائمية . فاذا استثنينا الشرطة ، التي تعتبر خارج نطاق هذا البحث ، ابتدع معاوية بن ابي سفيان نظام الحرس وهي كتيبة خاصة بحماية الخليفة وحذا حذوه امراء الاقاليم. وكان قائد هذه الوحدة يسمى (صاحب الحرس) واطلق معاوية على كتيبته اسم القمامة .

ولم يكن صاحب الحرس شخصا عسكريا بالدرجة الاولى بل قد تناط به واجبات اخرى مثل الحجابة اوديوان الرسائل او الخاتم .(٨)

وكانت هناك وحدات شبه نظامية اخرى مثل حاميات الثغور وكذلك الروابط على الحدود التي تعتبر وحدات متحركة وخفيفة من الخيالة . كما نظم الامويون المسالح في الداخل وخاصة في المدن غير المستقرة او المهمة من الناحية الاستراتيجية مثل مسلحة واسط في العراق ومسلحة الحيرة التي تسيطر على الكوفة . وكانت هذه المسالح تحت قيادة (صاحب المسلحة) .(٩)

المقاتلة العرب :

وفيما عدا الحرس ووحدات الثغور والروابط والمسالح التي لم تكن باعداد كبيرة وتقوم بواجبات محددة ، فان القوة العسكرية الرئيسية في الدولة الاموية كانت مناطة بالمقاتلة العرب من القبائل الشامية والعراقية والمقاتلة العرب من اهل خراسان .

وقد اشرنا فيما مضى بان هؤلاء المقاتلة العرب كانوا يعيشون في وقت السلم حياة عادية يزرعون اراضيهم او يتاجرون ببضائعهم او يمتهنون حرفة معينة وقد زاد ولعهم بالتجارة والمهن بعد ان اختلطوا بسكان البلاد المفتوحة . ولكن ما ان يستدعي الامر بسبب ازمة داخلية او خطر خارجي كان الجميع ينفرون للحرب وعليهم يعتمد الخليفة الاموي في درء الخطر .

ان هذا الوضع الذي كان عليه الجند في العصر الاموي يحتوي دون شك على نقاط ضعف رئيسية نذكر منها :(١٠)

١ – فقدان عنصر الضبط والربط والنظام بين صفوف المقاتلة تلك الصفات العسكرية التي تعلم المقاتل الطاعة لرؤسائه . ان فقدان هذا العنصر كان يعني عدم تواجد تلك الروابط التي تعلم الطاعة والولاء والمسؤولية تجاه الخليفة الاموي باعتباره رأس الدولة .

٢ ـ كان المقاتلة مشدودين بروابط القبيلة ولذلك لم يكن لديهم حافز محرك واحد للقتال بل كان المحرك يختلف من فئة مقاتلة الى اخرى فمنهم من يقاتل مندفعا بعوامل دينية ومنهم من يقاتل من اجل الغنائم او لاسباب سياسية او قبلية كما وان قتالهم ضد الاعداء الخارجيين كان للدفاع عن انفسهم وحمايتها . وفي كل الحالات كانوا يتوقعون من الدولة ان تدفع لهم عطاءا جيدا مقابل القتال .

٣ ـ في كل المعارك التي خاضها المقاتلة العرب في العصر الاموي لم يقاتلوا كجند للدولة بل كافراد في قبائل . ومعنى ذلك ان وحدة الهدف او الغاية كانت تنقصهم . بل تحكمت احيانا المصالح الخاصة بالقبائل او بزعامة القبائل في الاشتراك بالقتال او عدمه .

٤ ـ لم يكن هناك من رادع يمنع المقاتلة من الاشتراك في الصراع السياسي الداخلي ومعنى ذلك الاشتراك في ثورات او تمردات سياسية ضد الدولة او التناحر بين القبائل نفسها . وهذا دون شك له اثاره السلبية على الحياة العسكرية والاستعداد الحربي الذي كانت الدولة تريده من المقاتلة . وفي مثل هذه الظروف فقد لايواجه الخليفة صعوبة في قيادة المقاتلة ضد عدو خارجي ولكن في حالة حدوث تمرد داخلي فان المقاتلة من القبائل المختلفة ينشقون على انفسهم بين مؤيد للدولة ومعارض لها . والمقاتلة في كلا العسكرين لهم نفس التدريب والاستعداد والسلاح والتكتيك . وكان حسن تصرف الخليفة واستغلاله لمثل هذه الحالة يعتمد على قابليته وذكائه فقد ارسل عبدالملك بن مروان الى الحجاج الثقفي رسالة يقول فيها :(١١)

« ... فانما امير المؤمنين امين الله وسيان عنده منع واعطاء باطل ... وسيأتيك من امير المؤمنين امران : لين وشدة فلا يؤنسك الا الطاعة ، ولا يوحشنك الا المعصية .. »

ان الامر الاخير الوارد في الرسالة آنفة الذكر يعتبر اكثر اهمية والحاحا . فقد استطاع الخليفة الاموي ان يربط مصلحة القبائل العربية في بلاد الشام بمصلحة الدولة ولذلك فقد كانت الثقة متبادلة بين الطرفين ، ولكن في الاقاليم الاخرى البعيدة عن مركز الدولة فان نجاح السلطة المركزية كان يعتمد الى حد كبير على خلق وضع يكون مفيدا لاكبر عدد ممكن من المقاتلة من اجل ضمان مساعدتهم لسياسة الدولة الاموية . وكان على الوالي الاموي ان يجامل ويداهن شيوخ القبائل والمتنفذين فيها والذين يتحكمون بولاء القبائل وبيدهم زمام قيادتها وتوجيهها . ففي رواية للطبري ان ابن هبيرة سأل يوما من سيد قيس ؟ قالوا الامير ، قال :

« دعوا هذا ، سيد قيس الكوثر بن زفر لو بوق بليل لوافاه عشرون الفا لا يقولون لم دعوتنا ولا يسألونه .. »(١٢)

ولا شك فان هذه الرواية توضح نفوذ رؤساء القبائل . وقد كان في الاقاليم اكثر من واحد من امثال الكوثر بن زفر !!

محاولات للاصلاح :

وازاء هذا الوضع حاول بعض الخلفاء او الولاة محاولات جادة لتغيير الوضع واصلاحه وذلك عن طريق مزج القبائل وربطها برابطة جديدة اكثر قوة من رابطة القبيلة . ففي سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م حاول اسد القسري نقل الجند من البروقات الى بلخ . وقد كان الجند في الاولى منقسمين الى اخماس ، اما في بلخ فقد خلطهم واسكنهم دون اخذ التقسيم القبلي بنظر الاعتبار .(١٣) كما حاول الخليفة هشام بن عبدالملك ان يخفف من اثر النفوذ القبلي بان اختار نصر بن سيار وهو حيادي ليس له نفوذ قبلي في خراسان واليا على اقليم خراسان . واتخذ نفس الخليفة موقفا عمليا حين امر واليه الجنيد بن عبدالرحمن بان يسقط من الديوان (العطاء) اسماء المقاتلة الذين يرفضون الجهاد وامره بألا يضغط عليهم لانه سيرسل له مقاتلة جدد ممن يرغبون في القتال . ان هذا الموقف من السلطة المركزية يدل على ادراك الخليفة بان هناك بعض المقاتلة لايرغبون بالاستمرار في القتال ولا يمكن للسلطة الاموية ان تجبرهم على ذلك .(١٤)

الا ان ارسال عناصر عربية جديدة من البصرة والكوفة او ارسال الجند السوري ادى الى حدوث شقاق وتصادم بين القادمين الجدد وبين العرب القدماء من اهل خراسان . وبرزت كتلتان : المقاتلة من اصحاب الامتيازات والنفوذ السياسي والمستقرين المحرومين ولم يكن في مقدور السلطة الا ان تعتمد على المقاتلة من اصحاب السلطة والنفوذ.

لقد ادت هذه الحالة الى استمرار الحركات المعارضة للدولة وابانت اكثر من اي وقت مضى مدى حاجة الدولة الاموية الى جيش نظامي دائم قوي . ذلك لان الثوار رغم قلة عدد المنخرطين تحت لوائهم استطاعوا تحدي الدولة وتمكنوا من مطاولتها مدة ليست بالقصيرة لا بسبب ضعف الدولة بل بسبب عدم اعتمادها على جيش دائم ومنظم . ولعل في حركة يزيد بن المهلب(١٥) في خلافة يزيد الثاني ما يوضح ذلك احسن توضيح . تشير مصادرنا التاريخية بان يزيد بن المهلب حين بدأ حركته لم يكن معه اكثر من سبعين شخصا ، وقد امر والي البصرة عدي بن ارطاة المقاتلة من الاخماس بالخروج للتصدي ليزيد بن المهلب ولكن ازد البصرة انشقوا عن الوالي الاموي والتحقوا بيزيد بن المهلب لان المهالبة من اليمانية والازد من اليمن كذلك . على ان عدي بن ارطاة ربما توقع ذلك ، الا انه لم يتوقع الموقف الذي وقفته تميم وعبد القيس وهما من مضر . ذلك ان كليهما انتهزتا الفرصة وقررتا الطلب من الوالي زيادة العطاء الذي كان ٦٠ درهما شهريا . ولما امتنع الوالي من اجابة هذه المطاليب بحجة ان زيادة العطاء من اختصاص الخليفة امتنعت القبيلتان عن مساعدة الوالي في محنته هذه .

ولم يبق امام الوالي الاموي الا الاعتماد على الشرطة وبعض الموالي للدفاع عن البصرة ولكن مقاومته لم تستمر واجبر على الاستسلام . وقد استولى يزيد بن المهلب على بيت المال في البصرة حيث كان فيه ٩ ملايين درهم استطاع بها ان يجمع عددا كبيرا من الاتباع ولم تخمد حركته الا بعد ان ارسلت السلطة المركزية في دمشق ٨٠ الفا من المقاتلة من بلاد الشام .

ان حركة يزيد بن المهلب لم تكن حالة استثنائية او

معزولة بل ان حالات مشابهة لها حدثت المرة تلو الاخرى وفي كل مرة يقف الوالي مكتوف اليدين ويظهر عجزه عن التصدي لها حتى تسعفه السلطة المركزية بارسال القبائل السورية الموالية لها .

الخاتمـــة :

ان عدم قدرة الخليفة على خلق جيش نظامي دائم مرتبط بالدولة وموال لها ومدافع عن قضيتها ، كان من اهم نقاط الضعف في الخلافة الاموية بحيث جعل السلطة المركزية عرضة لاهواء وميول شيوخ القبائل والمتنفذين في اقاليم الدولة الواسعة .

ان الازمة التي حدثت في خراسان في اواخر العصر الاموي(١٦) كشفت عن نقاط الضعف هذه بوضوح ولم يكن هناك من شيء يمكن عمله لانقاذ الموقف ، فكان الخليفة مروان ابن محمد ، رغم قابليته الفذة ، الضحية . وبسقوطه سقطت دولة الامويين .

الجيش العباسي في عصره الاول ١٣٢هـ ــ ٢١٨ :

تمهيـــد :

في صدر الاسلام كانت الامة كلها مقاتلة مستعدة للجهاد تنفر للحرب اذا دعت الضرورة ذلك ، ولم يتغير الحال كثيرا في العصر الاموي حيث كان العرب المستقرون في الامصار يزاولون اعمالهم وحرفهم في اوقات السلم وينفرون للحرب حين تعلن الدولة النفير العام لقمع حركة داخلية او مواجهة عدو خارجي .

والذي يبحث في اسباب سقوط دولة الامويين سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م يجد ان السبب الرئيسي هو فشل الخلفاء الامويين في انشاء جيش نظامي ثابت واستمرار اعتماد الدولة الاموية على مبدا الامة المقاتلة . فلما ضعف المقاتلة وضعف تماسكهم من جراء العصبية القبلية أو المطامع الشخصية او غيرها وفقدت رابطة الهدف المشترك الذي يربطهم بالدولة انهارت الدولة الاموية .

لقد استغلت الدعوة السرية العباسية في خراسان اسباب تذمر المقاتلة العرب من اهل خراسان الذين تذمروا من سياسة التجمير الاموية التي تقضي ابقاء المقاتلة على الحدود شتاء وعدم السماح لهم بالرجوع الى الامصار . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فكان للعرب من اهل خراسان مقاتلة او مستقرين اسباب اخرى للتذمر من السياسة الاموية التي كانت تقطع اعطياتهم احيانا او تسلبهم فيئهم وغنيمتهم او تقتطع نسبة اكبر مما تستحقه من هذه الغنائم بينما كان الواجب ان تاخذ الدولة الخمس وتترك الباقي يوزع على المقاتلة .

وقد زاد من اسباب استياء العرب من اهل خراسان في اواخر العصر الاموي هو ارسال ريع خراسان من الضرائب الى بيت المال المركزي في الشام بينما طالب اهل خراسان بضرورة صرفه على اقليم خراسان نفسه . واكثر من ذلك كان الوالي الاموي يسلط احيانا الدهاقين الفرس على المستقرين العرب لجباية الضرائب منهم وتقدير نسبتها . وهكذا استطاعت الحركة العباسية (الهاشمية) ان تجلب اليها الكثير من هؤلاء العرب المتذمرين في خراسان وغيرها .

اول جيش نظامي :

وحين انتصرت الثورة العباسية كان هؤلاء المقاتلة العرب من اهل خراسان جند العقيدة العباسية اول جند للدولة الجديدة . وقد استفاد العباسيون من اخطاء الامويين ولذلك سجلوا هؤلاء المقاتلة في (ديوان شيعة بني العباس) حسب قراهم ومدنهم واقاليمهم التي عاشوا فيها بخراسان لاحسب قبائلهم وانسابهم .

ان هذا الاجراء اتبعه العباسيون يعتبر منعطفا جديدا مهما في تاريخ الجيش العربي الاسلامي في العصر الوسيط ، ذلك ان الدولة العباسية ارادت ان تزيل كافة العوامل التي نخرت في كيان الجند الاموي حتى غدا قوة منهكة لا يمكن الاعتماد عليها . لقد شعرت الدولة العباسية باهمية وجود الترابط القوي بين المقاتلة الذين يدعمون نظام الحكم الجديد ويكونون كتلة واحدة صلدة وراء الدولة الجديدة . ومن هذا المنطلق فاننا نعتبر الجيش العباسي اول جيش منظم في تاريخ الدولة العربية الاسلامية . فالجند الهاشمية كانوا نواة اول جند نظامي بالمعنى المتعارف عليه في التنظيمات العسكرية لانهم كانوا ينتظمون كافراد لا كقبائل وكان ولاؤهم للدولة التي تعنى بتدريبهم وتموينهم المستمر وتجهزهم شهريا بعطائهم .

ورغم ابقاء الدولة العباسية على اهل خراسان ، وغالبيتهم من العرب ، في وحدة عسكرية واحدة ترتبط بالولاء للدولة التي كانت تسمى بدولة اهل خراسان . فانها نظمت تشكيلات عسكرية اخرى تستند على القبائل فكان هناك فرق قبلية يمانية ومضرية وربيعية . وهذا يشير بوضوح الى ان الجيش العباسي في عصره الاول كان جيشا عربيا ــ لا كما يقال فارسيا ــ كما وان قيادة الجيش ظلت في ايدي عربية .

وحين بنى الخليفة المؤسس ابو جعفر المنصور (١٣٦هـ/٧٥٤ ــ ١٥٨هـ/٧٧٥) مدينته المدورة بغداد كان هدفه الرئيس ايجاد مركز اداري وعسكري جديد ولذلك كانت مدينة السلام في بدايتها وكأنها قلعة عسكرية دائرية يسهل الدفاع عنها . ولم يسمح بالسكنى فيها وما حولها الا للشيعة العباسية من من جند خراسان من المقاتلة . ثم بنى الرصافة على الجانب الشرقي لدجلة ووضع فيها حامية عسكرية تحت قيادة ولي عهده المهدي يساعده في ذلك بعض القادة العرب . وكان لهذا التدبير براعة سياسية وعسكرية ، وذلك لغرض ضرب احد المعسكرين في حالة تمرد المعسكر الاخر .

عناصر الجيش العباسي :

حين يتكلم الجاحظ(١٧) عن تنظيمات الجيش العباسي يقسمه الى العناصر التالية :

(١) العرب (٢) الخراسانية (٣) الموالي (٤) الاتراك (٥) الابناء.
ورغم ان الجاحظ عاش في اواخر العصر العباسي الاول (القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي) فان تقسيمه هذا يصدق الى حد كبير على جيش المنصور وخلفائه .

ويتفق المؤرخون الاخرون(١٨) مع الجاحظ في تقسيمه هذا ويضيفون وحدات عسكرية جديدة مثل : الغلمان ، الشاكرية ، المغاربة ، الصعاليك . والملاحظ ان هذه الوحدات الجديدة لم تكن وحدات رئيسية .

وفي اواخر العصر العباسي الاول اعيد تشكيل الجيش

العباسي فقد جعل الترك وحدة عسكرية منفصلة عن الموالي . وادمجت السلطة العباسية وحدات من الازد والارمن والزواقيل والصعاليك والابناء ضمن فرقة الموالي وجعلها تحت قيادة واحدة(١٩) .

وليس يهمنا ان نتتبع تطور الجيش العباسي عبر العصور وانما سنركز في هذا البحث على الجيش العباسي في عصره الاول . وفي اعتقادنا بان الجيش العباسي في عصر الخلفاء الاوائل كان يتكون من الوحدات التالية :

(١) العرب :

لقد بانت اهمية العرب للعباسيين منذ ايام الثورة وزادت اهميتهم اثناء الحروب التي خاضها الجيش العباسي ضد الجند الشامي في العراق . فخلال تقدمه في العراق ساعدت عناصر قبلية مختلفة الجيش الخراساني . ثم ان سقوط الكوفة وواسط والموصل والبصرة ودمشق كان نتيجة مساعدة شيوخ القبائل الذين انضموا الى العباسيين .

وتورد الروايات التاريخية(٢٠) المتفرقة الكثير من الامثلة الاستدلالية فقد عملت الخثاع من طي كدليل للقوة الخراسانية المتقدمة نحو الكوفة حيث دلتها على احسن الطرق واسلمها. والمعروف ان الكوفة سقطت على يد محمد بن خالد القسري زعيم اليمانية الذي احتلها باسم الجيش العباسي قبل ان يدخل هذا الجيش المدينة . كما وان محاولة القائد الاموي استعادة الكوفة فشلت بسبب انسحاب اليمانية من صفوف جنده وخاصة بجيلة وبجدل . كما وسقطت مدينة الموصل بيد الخراسانيين نتيجة تعاون زعماء القبائل في المدينة مع الخراسانيين حيث اغلقوا الابواب في وجه مروان وجنده . وقد اجبر يزيد بن هبيرة والي العراق الاموي على طلب الامان بعد ان ضعفت مقاومته بسبب تخاذل العناصر اليمانية في جيشه حيث اتهمهم ابو جعفر (المنصور) قائلا : « السلطان سلطانكم والدولة دولتكم »(٢١) . ويعود فضل العباسيين في احتلال البصرة في البداية الى كون والي البصرة الاموي مسلم بن قتيبة الباهلي كان يتمتع بنفوذ كبير في المدينة لكثرة اتباعه وانصاره من القبائل . اما دمشق فلم يفلح عبدالله بن علي العباسي بدخولها الا بعد وقوع الفتنة بين اليمانية انصار العباسيين وبين المضرية انصار الامويين حيث استغاث عبدالله العباسي باليمانية قائلا : « انكم واخوتكم من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وانصارنا وانتم دفعتم الينا مدينة دمشق وقتلتم الوليد بن معاوية وانتم منا وبكم قوام امرنا فانصرفوا وخلوا بيننا وبين مضر(٢٢) » .

ان الحوادث الفاصلة التي وقعت في بداية نشوء الدولة العباسية تشهد على الاهمية الكبرى والدور الفاصل الذي لعبته القبائل العربية . فالطبري يشير الى ان هذه القبائل كانت تشكل اغلبية الجيش العباسي الذي كان يتكون من مضر واليمن والخراسانية وربيعة . ولذلك كان اكثرية قادة الجيش في تلك الفترة من العرب الذين لم يقودوا الحملات فقط ضد الثوار ولكنهم لعبوا ايضا دورا مهما في الصراع السياسي وبصورة خاصة فيما يتعلق بمشكلة ولاية العهد .

ولقد ادرك العباسيون مدى التأثير البالغ الذي يمارسه شيوخ القبائل على قبائلهم ولذلك عاملوهم معاملة طيبة ومحترمة . وكان الاحترام والود يتناسب مع عدد اتباع الشيخ . فقد رفض ابو العباس معاقبة اسحق بن مسلم العقيلي بحجة ان ذلك سيسيء الى قيس . « اترى قيسا ترضى بان نضرب سيدها حدا ، لو دعوته بالبينة لجاء مئة من قيس يشهدون ان القول قوله » . وقد منح نفس الخليفة الامان الى مسلم بن عقبة الباهلي رغم انه تحدى العباسيين في البصرة ولم يطلب العفو . وقد كان مسلم الباهلي طرفا في نزاع حدث في البصرة الا ان الوالي سليمان بن علي العباسي سامحه نظرا لنفوذه القبلي قائلا : « ما كان مسلم ليقول شيئا الا شهد له الف نزاري » .(٢٢)

ومن المهم ان نلاحظ ان المنصور ترك في الهاشمية خازم ابن خزيمة التميمي نائبا عنه ومسؤولا عن الجيش والميرة حينما حج سنة ٧٦١/١٤٤ – ٧٦٢م .

على ان رواية ابن عساكر تظهر مقدار القوة التي لم تزل كامنة في ايدي شيوخ القبائل حتى زمن المامون العباسي . وفي الرواية يتهم عبدالله بن طاهر احد شيوخ القبائل محمد ابن صالح بن بيهس لتفاخره بمساعدة المامون وكان قد اصبح مساويا لطاهر بن الحسين ولكن محمد بن صالح اجاب قائلا : « لقد حارب طاهر من اجل سلطان امير المؤمنين بمال امير المؤمنين ورجاله ، اما انا فحاربت بمالي ورجالي !! »

وعلى الرغم من ان الدولة حاولت منذ عهد الامويين ان تنمي بين القبائل العربية شعور الولاء والاخلاص للدولة لا للقبيلة ، فان هذه المحاولات زادت في الصدر الاول من عهد العباسيين . فالمنصور مثلا اكد على الولاء للنظام العباسي اكثر من تاكيده على الولاء القبلي ، ومع ذلك فان الضرورة السياسية جعلته يضرب التكتلات القبلية الكبيرة بعضها بالبعض الاخر مستهدفا في ذلك تحقيق اهداف سياسية ليس الا . ولقد شهد عهده الكثير من هذه المناورات . وقد نجح المنصور بكسر الحلف القديم بين ربيعة واليمن وذلك بتحريض والي اليمن معن بن زائدة الشيباني بالتشديد على اهل اليمن المتمردين ثم شجع نفس الخليفة والي اليمامة والبحرين عقبة ابن مسلم الهنائي للثار من ربيعة (قبيلة معن الشيباني) التي كانت جزءا كبيرا من سكان اليمامة والبحرين .

(٢) اهل خراسان :

ليس لدينا في هذا المقام مجالا لمناقشة طبيعة القوة الضاربة الخراسانية التي حققت النصر العباسي والتي كانت تتكون بصورة رئيسية من العرب من (اهل خراسان) . على اننا يجب ان نشير الى ان هؤلاء العرب الخراسانية الذين عاشوا في خراسان لفترة طويلة تكلموا الفارسية اضافة الى العربية وتزوجوا نساء فارسيات ولبسوا الملابس الفارسية وتكيفوا للبيئة الفارسية بتقاليدها العريقة واحتفلوا بالاعياد الفارسية .

ان (اهل خراسان) ، بعد زحفهم الى العراق خلال الثورة ، مروا بعملية (تعريب) جديدة خاصة وان الخلفاء العباسيين الاوائل كانوا انفسهم يشجعون الثقافة العربية والروح العربية في البلاط والمجتمع .

كانت الفرقة (الخراسانية) واحدة من اربع فرق في جيش المنصور . اما الثلاثة الباقية فهي : ربيعة ومضر واليمن .وهذه دلالة واضحة على نسبة العرب الكبيرة في الجيش العباسي في الصدر الاول من الدولة . وحين يتكلم الجاحظ(٢٤) عن فترة ابعد قليلا عن عهد المنصور يصنف الجيش العباسي كالاتي :

(١) الخراسانية
(٢) الترك
(٣) الموالي
(٤) العرب
(٥) الابناء

ويظهر من ذلك انه حتى في فترة الجاحظ كان العرب والخراسانية والابناء الذين « استعربوا » لا يزالون موجودين في الجيش . والواقع ان عملية ادخال الاتراك في الجيش من قبل الخليفة المعتصم لاقت معارضة قوية من العرب والخراسانية .

لقد حافظ العباسيون على وحدة الفرقة الخراسانية . ويلاحظ بان الخراسانية منذ الايام الاولى للدعوة سجلوا حسب قراهم ومدنهم لا حسب قبائلهم وهذا مما يؤكد حرص العباسيين على الابقاء على تماسك الفرقة الخراسانية وعدم السماح للعصبية القبلية بتفكيك وحدتهم . ويصف ابن المقفع الخراسانية فيقول : « فمن الامور التي يذكر بها امير المؤمنين امر هذا الجند من اهل خراسان فانهم جند لم يدرك مثلهم في الاسلام وفيهم صفة بها يتم فضلهم انشاء الله . اما هم فاهل بصر بالطاعة وفضل عند الناس وكف عن الفساد وذل للولاة . فهذا حال لا نعلمها توجد عند احد غيرهم » . ويذكر ابن المقفع الخليفة بضرورة ضبط امر جند خراسان ورعايتهم ويشير الى الانتباه الى الامور التالية :

١ ـ تنظيم امور الضبط والربط والنظام عن طريق اصدار الخليفة لمنشور يبين فيه واجبات القادة ومسؤولياتهم وواجبات الجند وحقوقهم . « ... ومن كان انما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الراي والقول والسيرة فهو كراكب الاسد الذي يوجل من رآه والراكب اشد وجلا . فلو ان امير المؤمنين كتب امانا معروفا محيطا بكل شيء يحفظه رؤساؤهم ويقودوا به دهماءهم » .(٢٥)

ويشير ابن المقفع بصراحة الى اصل اهل خراسان العربي من اهل العراق وارتباطهم المتين باهل الكوفة والبصرة فيقول : « ويذكر امير المؤمنين باهل هذين المصرين (البصرة والكوفة) فانهم بعد اهل خراسان اقرب الناس، الى ان يكونوا شيعته وحقيقته مع اختلاطهم باهل خراسان وانهم منهم عامتهم . »(٢٦)

٢ ـ على الدولة الا تسلم القادة العسكريين امورا مالية كجباية الخراج لان ذلك يفسدهم ويلهيهم عن واجبهم الاصلي . « واذا اريد صلاح هذا الجند فيجب الا يولى احدا منهم شيئا من الخراج . فان الخراج مفسدة للمقاتلة . وان جبوا الدراهم اجترأوا عليها واذا وقعوا في الخيانة صار كل امرهم مدخولا . مع ان ولاية الخراج داعية الى ذلة وتحقير وهوان وانما منزلة المقاتل منزلة الكرامة واللطف .

٣ ـ الاستعانة بذوي القدرة والكفاءة والنزاهة منهم . « ومما ينظر في امرهم ان منهم من المجهولين من هو افضل من بعض قادتهم فلو التمسوا واصطنعوا كانوا اعمدة وقوة . وكان ذلك صلاحا لمن فوقهم من القادة ومن دونهم من العامة » .

٤ ـ وان يعتني بتثقيفهم وتعليمهم الكتاب والسنة ليتجنبوا الاهواء والمعاصي والفرقة .

٥ ـ ان يكون الخليفة مثلا اعلى لهم في تجنب الترف والاسراف والمغالاة في الملبس والعطر والنساء والظهور بمظهر المتواضع المعتدل .

٦ ـ ضرورة تعيين وقت ثابت لارزاقهم كل ثلاثة او اربعة اشهر . وتسجيل اسمائهم في السجلات والقضاء على اسباب شكواهم . وربما كان من الاحسن ان يكون نصف رزقهم عينا والنصف الاخر نقدا .

٧ ـ على الخليفة ان يستقصي اخبارهم ويستعين بالثقات في معرفتها . « وان لا يخفى (عن الخليفة) شيئا من اخبارهم وحالاتهم وباطن امرهم بخراسان والعسكر والاطراف . وان يحتفز في ذلك النفقة ولا يستعين فيه الا بالثقات النصاح فان ترك ذلك واشباهه احزم بتاركه من الاستعانة فيه بغير الثقة فتصير مقبلته للجهالة والكذب » .

ولقد دافع الخراسانية في فترات الازمات الحادة عن النظام العباسي ضد الثوار . كما وان العباسيين اعتادوا ارسال قوات خراسانية لمدد طويلة او قصيرة في المناطق المضطربة او التي كانت معروفة بميولها المضادة للعباسيين مثل البصرة والموصل وكذلك الشام والريقيا . كما واشترك الخراسانية في الجهاد ضد البيزنطيين . واستغل الخلفاء اسم اهل خراسان وولوقهم باخلاص وراء الخلافة العباسية في سبيل تنفيذ مآربهم او مشاريعهم وخاصة فيما يتعلق بولاية العهد . ويذكر في هذا الصدد ما قاله المنصور لعيسى ابن موسى حين حثه على التنازل لولاية العهد الاولى الى محمد المهدي « ليعلم انصارنا من اهل خراسان انك اسرع الى ما رجوا »(٢٧) وحينما اراد المهدي، من عيسى ان يتنازل عن ولاية العهد اخبره بان هذا الطلب نابع من اجماع « اهل بيته وشيعته وقواده وانصاره وغيرهم من اهل خراسان(٢٨) » . وحين خطط الهادي لتنحية اخيه هارون الرشيد ساعده بعض القواد فخلعوا هارون وبايعوا لجعفر « ودسوا الى الشيعة فتكلموا في امره وتنقصوه في مجلس الجماعة »(٢٩)

على ان الخراسانية لم يكونوا الفرقة الوحيدة في الجيش العباسي فقد شكل العباسيون وحدات اخرى ـ كما ذكرنا ذلك ـ على اسس قبلية . وكذلك اشركوا القبائل في حملاتهم العسكرية . وعلى هذا فان الخلفاء طبقوا الاسس القبلية فيما يخص الفرقة الخراسانية . فسياسة عدم الاعتراف بالقبيلة ضمن تشكيلات الخراسانية كانت موافقة تماما لفترة الدعوة العباسية ، وما ان حقق العباسيون النصر حتى وجدوا من الضرورة ضرب القبائل ببعضها البعض ، وعلى هذا نظم العباسيون فرقا جديدة على اسس قبلية . ثم ان العباسيين ، رغم ثقتهم بالخراسانية واهتمامهم برعاية امتيازات هذه الفرقة ،فقد وضعوا امامهم احتمال حدوث تمرد او انحراف من جانبها وبهذا شكلوا فرقا جديدة لتامين جانبهم من هذه الناحية . يقول الطبري بان تمرد الراوندية سنة ١٤١هـ/٧٥٨م اشعر المنصور بضرورة تقسيم جيشه الى قسمين ووضع بعضه في بغداد والاخر في الرصافة . وبهذا يستطيع ان يضرب احدهما بالاخر في حالة حدوث تمرد من جانب ما .

لقد استعمل المنصور البارزين من اهل خراسان في مناصب عالية ، وكان يحرص على الاحتفاظ بولائهم للنظام السياسي . وفي رأينا فان تعيين المنصور لخازم بن خزيمة التميمي المروزي الخراساني نائبا عنه في الهاشمية على « العسكر والميرة »(٣٠) حينما ذهب للحج سنة ١٤١هـ له دلالته الكبيرة من حيث ثقة الخليفة باهل خراسان . فقد استغاث المنصور بهم في اثناء ثورة الحسنيين الخطرة . « يا اهل خراسان انتم شيعتنا وانصارنا واهل دعوتنا »(٣١). واوصى ابنه المهدي بهم خيرا حيث قال :

« واوصيك باهل خراسان خيرا فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا اموالهم في دولتك ودماءهم دونك ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ان تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم على ما كان منهم وتخلف من مات منهم في اهله وولده » .

وحين حضرت المنصور الوفاة دعا بني هاشم والشيعة من خراسان ان يتحدوا وراء المهدي ولي العهد ويساعدوه على تسيير امور الدولة . « واسأل الله ان لا يفتنكم بعدي ولا يلبسكم شيعا ولا يذيق بعضكم بأس بعض يابني هاشم ويا اهل خراسان ثم اخذ في وصيتهم بالمهدي واذكارهم البيعة له وحضهم على القيام بدولته والوفاء بعهده » .

على ان قلة استعمال اصطلاح « اهل خراسان » في المصادر التاريخية بعد الانتصار العباسي قد يدعو الى استنتاج خاطىء فيما يتعلق بدورهم ككتلة سياسية في البلاط العباسي . فالاعتقاد بضعف قوتهم او تلاشيها ليس له صحة ذلك لاننا يجب ان نلاحظ بان اصطلاح (اهل خراسان) لم يكن الاصطلاح الوحيد الذي عرفت به هذه الكتلة السياسية ، فقد كان يطلق عليهم اسم (الشيعة) و (انصار الدولة) (ورؤساء الشيعة) و (القواد) . وبما انهم سجلوا منذ البداية باسماء مدنهم وقراهم ولذلك كان يطلق عليهم كذلك اسم (المروزية) و (البغشيين) و (اهل بلخ) و (اهل بخارى) و (اهل فرغانة) والى آخره .

وعلى ذلك فان الكثير من ابرز رجالات اهل خراسان لم يكونوا يعرفون باسم الخراسانية بل باسم قراهم او مناطقهم التي عاشوا فيها . والامثلة على ذلك كثيرة ومتفرقة في الروايات التاريخية منها :

خازم التميمي (المروزي)

قحطبة الطائي (الجرجاني)

الفضل التميمي (الطوسي)

جديع الازدي (الجرجاني)

عبدالملك العتكي (الجرجاني)

ومن هذا المنطلق يمكن الاستنتاج بانه من غير المعقول ولا من الدقة في شيء ان تنعت المروزية اتباع خازم التميمي او الجرجانية اتباع عبدالملك العتكي على انهم فرس .

وهناك امثلة كثيرة اخرى في مصادرنا التاريخية لتأثير (اهل خراسان) في سياسة الدولة وكذلك في مشكلة ولاية العهد . فقد تعلق المنصور باهل خراسان حين كتب الى عيسى بن موسى سنة ١٤٧هـ/٧٦٤م يسأله التنازل لولاية العهد الاولى لمحمد المهدي . « ليعلم انصارنا من اهل خراسان وغيرهم انك اسرع الى ما اصبو مما عليه رأيهم في صلاحهم منهم الى ذلك من انفسهم » .

وقد حصل الخراسانية ، افرادا وجماعات ، على ارباض واراض داخل المدينة المدورة وفي ضواحيها . وقد سكن نسبة كبيرة منهم في الشمال من بغداد وخاصة في الحربية حيث استقروا تبعا للمدن والمناطق التي قدموا منها في خراسان . وبمعنى آخر كان سكناهم على اساس اقليمي لا عنصري .

(٢) الموالي :

ان اصطلاح « المولى » مثل غيره من الاصطلاحات في هذه الفترة ، اصطلاحا مرنا وغير محدود . وعلى الرغم من ان « الولاء » كان علاقة اجتماعية وقانونية فان موالي الخليفة تمتعوا بمنزلة خاصة في علاقتهم بالخليفة الذي خدموه ضمن اختصاصات مختلفة .

ولقد كان بين « الموالي » نسبة كبيرة من العبيد المحررين من مختلف العناصر والاجناس . كما وان عددا من « الموالي » كانوا عربا اسروا في الحرب .

ليس من اختصاص هذا البحث ان يتعقب محتوى اصطلاح « الموالي » ولا يهمنا ماهية الاعمال المتنوعة التي كان يقوم بها الموالي في المجتمع الاسلامي . على ان ما قصدناه من اصطلاح الموالي في هذه الدراسة لا يشير الى كتلة عنصرية مكونة في الاغلب من الفرس ولكن كتلة مزيجة من اجناس عديدة يربطها بالخليفة ولاء الاخلاص الذي تضعه فوق كل اعتبار ، كما وان ارتباطها بالبلاط العباسي كان اقوى من اي ارتباط آخر .

لقد شعر المنصور منذ بداية حكمه بالحاجة الى مثل هذا السند سواء في البلاط او في الادارة او في الجيش . وقد عزم على خطة من شأنها جمع هذه العناصر المختلفة ، التي جلبت بطريق الحرب او التجارة وانها جذبت انتباه الخليفة بطريقة او باخرى ، في جسم صلب واحد يستطيع ان يعتمد عليه كليا . وحالما دخل الموالي في معية الخليفة اصبحوا مرتبطين به كليا وبالتالي مطيعين له طاعة عمياء .

يقول الجاحظ : « وكان المنصور ومحمد بن علي وعلي ابن عبيدالله يخصون مواليهم بالمواكلة والبسط والايناس لا يهرجون الاسود لسواده ولا الدميم لدمامته .. ويوصون بحفظهم اكابر اولادهم ويجعلون لكثير من مواتهم الصلاة على جنائزهم وذلك بحظوة من العمومة وبين الاعمام والاخوة »(٣٢).

وقد اعتنى المنصور بتدريب البعض من « احداث مواليه » على السلاح وتطورت هذه الكتلة فاصبحت وحدة كبيرة في الجيش .

ويؤكد ابن خلدون في ان البيت والشرف للموالي واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بانسابهم فيقول : « فاذا اصطنع اهل العصبية قوما من غير نسبهم واسترقوا العبدان والموالي والتحموا بهم كما قلنا ، ضرب معهم اولئك الموالي والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جلدتها كانها عصبيتهم وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها كما قال رسول الله (ص) « (مولى القوم منهم) ، وسواء كان مولى رق او مولى اصطناع او حلف »(٣٣) ولقد ظهر في الدولة العباسية نوع جديد من الولاء سمي « بولاء الاصطناع » ،

ويعني هذا اختيار الخليفة لافراد او جماعات بغض النظر عن اصلهم العنصري حيث يمنحهم الخلع والرتب ويعهد اليهم بالاعمال المهمة . وعلى هذا فيلاحظ ظهور شخصيات متنوعة في اصلها ولكنها تحس بنفسها ككتلة منفصلة عن غيرها وتجمعها مصالحها واهدافها المشتركة ، كما وان المهم في الامر ان الخليفة نفسه كان يعود الى هذه الكتلة حيث ان بعض الخلفاء العباسيين يرجعون الى اصول عربية من جهة الام .

ومما لا شك فيه فان كتلة الموالي في الدولة العباسية اعتبرت نفسها كتلة مستقلة ومختلفة عن كل من العرب وغير العرب . ويقول الجاحظ في هذا الخصوص بان الموالي ادعوا بانهم افضل من العرب بسبب اصلهم الاعجمي وانهم افضل من العجم بسبب روابطهم الجديدة بالعرب . ان مضمون مقالة الجاحظ واضح فالموالي كانوا كتلة ممزجة من عرب وغير العرب تجمعهم صفة واحدة الا وهي انهم اعتبروا انفسهم كتلة معينة تختلف عن العرب والعجم . وقد وصف الجاحظ منزلة الموالي بالمقارنة مع العرب والعجم ، واظهر ، وهذا امر مهم ، دعواهم بانهم افضل من العرب والعجم . ان هذه النظرة الى الموالي يؤيدها اشارة الجاحظ الى ان كتابه (العرب والموالي) يختلف عن كتابه (العرب والعجم) . وحين يدافع الجاحظ عن نفسه تجاه احد نقاده الذين اتهموه بالتكرار فيقول بان الفروق بين العرب وغير العرب هي ليست كالفروق بين العرب والموالي . من المحتمل ان الجاحظ يشير هنا الى تلك الكتلة من الموالي الذين طغت روابطهم بالخليفة على الروابط العنصرية (الجنسية) اذا كان هناك رابطة جنسية ذات بال في تلك الفترة المبكرة من عهد العباسيين ، كما وان منزلتهم (اي الموالي) في البلاط والادارة والجيش ميزتهم تماما عن كل من العرب والعجم اللذين كانوا منافسيهم في كسب رضا الخليفة والحصول على المراكز الحيوية .

على ان الجاحظ يعترف بان الموالي حصلوا على تلك المنزلة الرفيعة بسبب رعاية الخلفاء العباسيين الذين امهاتهم غير عربيات على الاغلب ، وادركوا مدى الاستجابة القوية والرابطة المشتركة التي تربطهم بكتلة الموالي من السكان . وبهذا فالجاحظ يرفض رفضا باتا فكرة العنصر كمعيار لتصنيف المجتمع ويعتبر البيئة والثقافة عوامل رئيسية في قياس الشخص وفي تربيته . ومن هذا المنطلق فان الموالي ثقافيا ولغويا وبيئيا كانوا عربا كما يمثلهم الجاحظ .

يشير الجاحظ واليعقوبي بان الخليفة المنصور كان اول خليفة عباسي استعمل مواليه وغلمانه في اعماله . على ان المسعودي والمقريزي يدعيان بان المنصور لم يستخدمهم فقط بل فضلهم على العرب ايضا . ويظهر ان الرأي الاخير رأي اعتباطي لا يسنده دليل ثابت . واذا كان الخليفة قد وثق بمواليه وقدمهم فان ذلك لم يكن بالتأكيد على حساب العرب الذين استمروا يحتفظون بمراكز رئيسية وخطيرة . ويمكن القول بان ادعاء المسعودي والمقريزي ينطبق على فترة متأخرة (في حوالي منتصف القرن الثالث الهجري) من العصر العباسي ويؤيد ذلك المؤرخ الناقد ابن خلدون الذي يظهر بوضوح نفوذ العنصر العربي خلال العصر العباسي الاول دون ادنى شك . ويحدد ابن خلدون بدقة الى ان العرب فقدوا السلطة حين تسلم ابناء الرشيد العرش وانهارت العصبية العربية في عهد المعتصم . وينظر ابن خلدون في تحليله لهذه الفترة المتقدمة من التاريخ الاسلامي ، الى ان القضية كلها قضية عربية تحمل فيها العنصر العربي المسؤولية على عاتقه حتى بدات تفلت من يديه بصورة تدريجية .

لقد بدا (الموالي) بالنمو من حيث الاهمية في البلاط والادارة منذ عهد الخليفة المنصور . ويجهزنا اليعقوبي بقائمة من اسماء الموالي الذين اختصهم المنصور ووثق بهم ، ومن بينهم : عمارة بن حمزة ، مرزوق ابي الخصيب ، واضح ، منارة ، العلاء والربيع بن يونس .ويقول ابن قتيبة بان المنصور غضب غضبا شديدا لما سمع ان والي البصرة سلم بن قتيبة الباهلي عاقب احد موالي الخليفة واعتبر ذلك تجاوزا على الخليفة نفسه كما وان المنصور اوصى ولي عهده المهدي بالموالي قائلا انه ترك له ثلاثة اشياء مهمة هي : المال ، الموالي ومدينة السلام .

ولم يقف الامر عند هذا الحد بل ان هذه الرابطة القوية والولاء استمر فشمل الجيل التالي من الموالي . فقد قيل عن حاتم بن هرثمة بن اعين مولى الرشيد « فانه ممن لا يعرف الا بالطاعة ولا يدين الا بها بما قدر من الله مما قدم له من حال ابيه المحمود عند الخلفاء » .(٣٤)

ويظهر ان تأثير الموالي قد تعدى الحدود في عهد الخليفة المهدي . فقد حذر عبدالصمد بن علي ، خال المهدي ، الخليفة – على ما يذكره الطبري – بأن علاقته الودية بالموالي سوف تبعد اهل خراسان عنه . ولكن المهدي اجاب بان الموالي يستحقون كل هذا التقدير ذلك لانهم يضطلعون باي عمل سيطلبه منهم مهما كان ذلك العمل لا يتناسب مع منزلتهم او قد يعتبر تحقيرا لهم ، بينما يعترض الاخرون من غير الموالي على مثل هذه الطلبات من قبل الخليفة متعذرين باصلهم ومنزلتهم وسابقتهم في الدعوة العباسية .

وفي رواية للخطيب البغدادي عن الربيع بن يونس ان المهدي حين تبوأ الخلافة وزع محتويات احدى خزانات بيت المال بين « مواليه وغلمانه وخدمه »(٣٥) .

ويقول الجهشياري بان المهدي اظهر احتراما كبيرا لعمارة ابن حمزة لدرجة ان القرشيين الذين كانوا يزورون البلاط في ذلك الحين استغربوا من شخصية القادم ، فاجاب المهدي « انه عمارة بن حمزة مولاي » . وتذكر المصادر التاريخية الموالي جنبا الى جنب مع العباسيين واقرباء الخليفة المقربين في قوائم الهبات والهدايا التي يعطيها الخليفة . كما وان اهمية الموالي تظهر من الرواية التي تشير بان المهدي حين رحل الى جرجان سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م ترك مولاه الربيع بن يونس لينوب عنه في بغداد .

ولقد كان عدد الموالي الذين تقلدوا مناصب سياسية وعسكرية او اظهروا براعة في المجال السياسي في عهد المهدي واولاده الذين خلفوه كبيرا ، على ان بعض المؤرخين الذين اعتبروا الموالي كتلة عنصرية (جنسية) لا كتلة اجتماعية سياسية، يدعون بان اختيار الخلفاء العباسيين لوزرائهم من (الفرس) كان خطة مدروسة ومصممة تصميما جيدا من قبل الخلفاء كدليل على ان العهد العباسي الجديد شركة بين العرب والفرس . ونستطيع ان نؤكد بان ليس هناك في مصادرنا التاريخية ما يشير الى ان المناصب في الدولة العباسية في عصرها الاول كانت توزع حسب اعتبارات او مقاييس عنصرية. وقد اظهرنا سابقا بان الموالي لم يعتبروا انفسهم فرسا كما وانهم لم ينظر اليهم كفرس من قبل الاخرين . وكان وزراء العصر العباسي الاول اما ذوي اصول غامضة غير معروفة تماما

ترعرعوا في البلاط العباسي او موالي جربوا لمدة طويلة فكانوا موضع ثقة واثبتوا كفاءة عالية . وقد عينوا في مناصبهم العالية بسبب مهارتهم الادارية وولائهم السياسي للعباسيين، ويجب ان نضيف بان الخليفة كان بوسعه دون اية صعوبة ان يقصيهم من مناصبهم اما لشكه فيهم او لاعتبارات يعتقد انها ضرورية .

وفي المدينة المدورة استوطن الموالي قطاعا خصا بهم سمي (درب الموالي) ، كما وان موالي آخرين منحوا قطائع اما افرادا اوعلى شكل جماعات مثل عباد الفرغاني والفرغانية، حسن الشروي والشروية ، والربيع بن يونس ، سليمان بسويد والخ ... على اننا يجب ان نشير بان الشروية هم موالي محمد بن علي ابن عبدالله العباسي ثم موالي للخلفاء العباسيين من بعده . وكان للموالي ديوان خاص بهم في بغداد يسمى « ديوان الموالي والغلمان » .

(٤) الابناء :

في اواخر عهد المهدي وفي ايام الهادي وهارون الرشيد بدأ يظهر اصطلاح جديد بين كتل البلاط وفي تشكيلات الجيش العباسي الا وهو (الابناء) . ويذكرهم ابن سعد في طبقاته باسم (ابناء اهل خراسان) حيث يشير الى ابي نصر التمار على انه من ابناء اهل خراسان من نسا . وتؤكد رواية اخرى الاصل الخراساني لكتلة الابناء هذه في مناقشة بين الرشيد واحدهم الذي قال يتحدث عن نفسه بانه « من ابناء هذه الدولة ، اصله من مرو وولادته في بغداد » . ويذكر الدينوري ان الرشيد حين زار سنة ١٨٠هـ مدينة الهاشمية التي بناها ابو العباس قرب الانبار وجد فيها عددا من « ابناء اهل خراسان » لا يزالون يقطنونها . ويشير الدينوري نفسه الى ان ثورة رافع بن ليث الليثي في خراسان كان سببها سياسة الوالي عيسى بن ماهان التعسفية تجاه اهل خراسان ، كما وان فشلها يعود الى انحياز بعض الابناء الذين كانوا مع رافع الليثي مثل عجيف بن عنبسة والاحوص بن مهاجر الى الجيش العباسي . وفي رواية للطبري يسمي هذه الكتلة « معشر الابناء واهل السبق الى الهدى » والهدى هنا معناه الانضمام الى الدعوة العباسية . كل هذه الروايات التاريخية تؤكد دون شك الاصل الخراساني للابناء . وبمعنى اخر ان الابناء هم ابناء واحفاد اهل خراسان جند العقيدة العباسية الذين ثاروا في وجه السلطان الاموي وزحفوا نحو العراق والشام فحطموا الدولة الاموية واقاموا الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م .

وفي العراق مركز السلطة العباسية الجديد استوطن اهل خراسان محافظين على وحدتهم غير متناسين اصلهم ولذلك برزت كتلة الابناء من كتلة اهل خراسان كتلة واحدة منسجمة تاثرت بالتطورات الجديدة السياسية والثقافية والحضارية الا انها لم تنس اقليم ابائها الاول حيث ولدت الدعوة العباسية وتفجرت .

وكما ان اهل خراسان كانوا عربا وعجما فالابناء دون شك سيكونون مزيجا من الجنسين ولذلك يصدق ابن طيفور حين يسميهم « ابناء خراسان المولدون » . فمن ابرز العرب من الابناء هو عبدالله بن حميد بن قحطبة الطائي حيث يشير اليه الخليفة وداود بن عيسى بن موسى الخراساني ومحمد ابن ابي خالد المروزي .

اما ابرز العجم من الابناء فهو يحيى بن خالد البرمكي الذي يشار اليه كواحد من « اهل الدولة » .

ومما يدل على الصلة القوية والترابط الوثيق بين (اهل خراسان) و (الابناء) هو اشارة الروايات التاريخية لهم جنبا الى جنب ، فيذكر الجاحظ على لسان الخراساني «انا النقباء وابناء النقباء» ويدعي البنوي الاصل الخراساني دائما فاصله في خراسان وفرعه في بغداد . ويؤكد الجاحظ في مناسبة اخرى في مناقب الترك بان « البنوي خراساني » . يقول البنوي « انا اصلي خراسان وهي مخرج الدولة ومطلع الدعوة ... وفرعي بغداد وهي مستقر الخلافة والقرار بعد الجولة وفيها بقية رجال الدعوة وهي خراسان العراق وبيت الخلافة وموضع المادة » .(٣٦)

ويستطرد البنوي فيفخر بنفسه قائلا : « وانا اعرق في هذا الامر من ابي واكثر ترددا فيه من جدي واحق في هذا الفضل من المولى والعربي . ولنا بعد في انفسنا ما لاينكر من الصبر تحت ظلال السيوف القصار والرماح الطوال ... ولنا الصبر على الجراح وعلى جسر السلاح اذا طار قلب الاعرابي وساء ظن الخراساني(٣٧) » .

وقد اثبتت التجارب السياسية وقوف الابناء الى جانب اهل خراسان في فترات الشدة والازمات . فقد وقف الابناء مع اهل خراسان ضد اهل الشام كما وقف الابناء مع الجرمية (وهم من خراسان) ضد اجراءات المعتصم بادخال الترك في الجيش العباسي .

ولكن الابناء لم يكونوا قوة كبيرة في عهد الخلفاء العباسيين الاوائل ويزداد ذكرهم في عهد الرشيد ثم لعبوا دورا مهما في النزاع بين الامين والمأمون .

وسكن الابناء في بغداد الارباض وكانوا يسمون (اهل الارباض) او (ابناء الارباض) . على ان الفرق بين الابناء واهل خراسان هو ان اهل خراسان من - العرب تاثروا بالبيئة الفارسية وتقاليد حضارتها لاستقرارهم هناك ردحا من الزمن اما الابناء فتاثروا بتقاليد الخلافة العباسية في العراق الذي كانت بيئته تختلف تماما عن بيئة خراسان الاعجمية .

(٥) السودان والزنوج والعبيد :

لقد تقربت الدعوة العباسية الى المستضعفين في المجتمع الاسلامي فدعت العبيد الى الانخراط في صفوف الثوار وعتق كل عبد ينضم اليها . ولم يكن وجود العبيد في الجيش العباسي شيئا مبتدعا فقد كان العبيد يرافقون الحملات العسكرية منذ العهد الاموي .

وتذكر المصادر التاريخية وجود العبيد والزنوج كتشكيلة في الجيش العباسي فكان هناك وحدة مكونة من ٤ الاف زنجي في جيش يحيى بن محمد العباسي والي الموصل حين وصوله سنة ١٣٣هـ/٧٥١م كما ورافق السودان الجيش العباسي الذي ارسله المنصور الى البصرة لاخماد ثورة ابراهيم الحسني . والمعروف انه كان يوجد في بغداد دار خاصة بالرقيق تسمى (دار الرقيق)(٣٨) . وكان الرقيق يستوردون من مصادر مختلفة منها الشراء او السبي او هدايا او جزء من ضرائب اقليم من الاقاليم ..

(٦) الاعراب :

ولقد كان من عادة قادة الجيش العباسي من اصحاب النفوذ القبلي امثال خازم بن خزيمة التميمي ومعن بن زائدة الشيباني وعقبة بن مسلم الهنائي وعبدالله بن شهاب المسمعي ويزيد بن مزيد التميمي ان يصطحبوا جزء من قبائلهم مع الجيش المنظم عند انتدابهم للغزو او لقمع ثورة وبهذا يستطيع القائد ان يعتمد على تفانيهم له في فترات القتال الحرجة ثم انهم سيستفون بالغنائم والاسلاب ويتيسر للسلطة اشغالهم لفترة مع الزمن . ولقد استعمل ابو جعفر (المنصور) نفس هذه السياسة مع قبائل الجزيرة حين كان واليا عليها في خلافة اخيه ابي العباس .

(٧) الشاكرية :

المعروف ان اصطلاح شاكرية يعني بالفارسية الخدم . وهؤلاء من المرتزقة المرتبطين بالوالي او القائد ويعتبرون جزءا من مواليه وغلمانه . وكانت الشاكرية في الجيش تستخدم في الخدمات بالدرجة الاولى والحراسة . وقد ربطوا في اواخر العصر العباسي الاول بالمؤسسة العسكرية فسجلوا في ديوان واحد مع الجند سمي ديوان الجند والشاكرية(٣٩) .

(٨) الصعاليك :

وتعني كلمة « صعلوك » الفقير الضعيف الحال وان انخراطهم في الجيش العباسي في اواخر العصر الاول يعني دخول عناصر من الطبقات الضعيفة والكادحة في الجيش . ولا شك فان قبول هؤلاء في الجيش يدل على سياسة حكيمة للدولة العباسية فقد انضم هؤلاء الفقراء والمحرومين الى حركات التمرد ضد السلطة وسببوا قلاقل كثيرة في اقاليم عديدة مثل اذربيجان وارمينية وغيرهم فكان حلا معقولا من قبل الدولة ان تقبلهم في الجيش فقضت بذلك على اسباب تذمرهم وحلت مشكلة بطالتهم . وكان الصعاليك يتواجدون بين الجند المرابط في الثغور .

(٩) الزواقيل :

يرد هذا الاصطلاح عند الكلام عن النزاع بين الامين والمامون . وكان الزواقيل كجماعة وقفت الى جانب الامين ، وغالبية هذه الكتلة تتجمع من اقليمي الشام والجزيرة وتذكر المصادر بعض زعمائهم امثال نصر بن شبث العقيلي والعباس ابن زفر الهلالي وقد حار المؤرخون في تمييز هذه الجماعة(٤٠) ونحن نعتقد بان الزواقيل في غالبيتهم عرب من القبائل القيسية المستوطنة في بلاد الشام والجزيرة . يشير الطبري الى ان الخليفة هارون الرشيد ارسل جعفر البرمكي سنة ١٨٠هـ/٧٩٧م لوضع حد للعصبيات القبلية بين القيسية واليمانية « وقتل زواقيلهم ومتلصصتهم » وقد اشرنا بان زعماءهم كانوا عربا .

ولهذا نرى بان الزواقيل عربا قيسية نصروا الامين وبقوا بعد انتصار المامون ضد السلطة العباسية ولذلك نعتتهم السلطة « باللصوصية » وكان لهذا النعت ما يبرره لان هؤلاء البدو كانوا محرومين من العطاء وربما عمدوا الى النهب لاقامة اودهم وبمرور الزمن اصبح اصطلاح الزواقيل اصطلاحا اجتماعيا يدل على الضعفاء من البدو العرب وخاصة من القيسية .

وكما ادخلت السلطة العباسية الصعاليك في الجيش ضمت كذلك الزواقيل لضبطهم وحل مشكلتهم المعاشية وايجاد عمل مفيد لهم .

(١٠) عناصر اخرى :

وقد انضم الى الجيش العباسي بمرور الزمن عناصر اخرى وخاصة في اواخر العصر الاول(٤١) مثل الفراغنة والزط والارمن وغيرهم على ان اغلب هذه العناصر لم تتبلور في فرق عسكرية في الفترة موضوعة البحث وربما دخلت ضمن المتطوعة والقوات النظامية .

★

الهوامش :

١ ــ البلاذرى ، فتوح البلدان ، جـ١ ص٢٠٢ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٢ ص١٧٦ طبعة ليدن .

٢ ــ دنيت ، مروان بن محمد ، اطروحة دكتوراه ، جامعة هارفرد ١٩٢٩ ، ص١٢٢ .

٣ ــ الطبرى ، تاريخ ، الطبعة الاوربية ، القسم الثاني ، ١٣٨١ ــ ١٣٨٢ .

٤ ــ المصدر السابق ، ص ١٥٤٤ .

٥ ــ راجع دنيت ، المصدر السابق ، ص ١٢٢ فما بعد .

٦ ــ فان فلوتن ، السيادة العربية ، القاهرة ١٩٣٤ ــ ولهاوزن ، الدولة العربية القاهرة ١٩٥٨ . جرجي زيدان التمدن الاسلامي ، جـ٤ ص ١٨ ــ ٢٨ د. عبد الامير دكسن الخلافة الاموية ١٠١ ــ ١٠٤ (بالانكليزية) .

٧ ــ الطبرى ، تاريخ ، ص ١٦٩٠ .

٨ ــ المصدر السابق ، ص ١٦٤٩ ، ١٦٥٠ .

٩ ــ دنيت ، المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

١٠ ــ المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

١١ ــ المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٥ ص ٢٧٦ . وقد خطب الحجاج الثقفي في المقاتلة فقال : « .. الا وان امير المؤمنين امرني اعطائكم اعطياتكم واشخاصكم الى محاربة عدوكم (الخوارج) مع المهلب وقد امرتكم بذلك واجلت لكم ثلاثا واعطيت الله عهدا يؤاخذني به ويستوفيه مني ان لا اجد احدا من بعث المهلب بعدها الا ضربت عنقه وانهبت ماله . » مروج الذهب ، القاهرة جـ ٢ ص ١٢٥ .

١٢ ــ الطبرى ، تاريخ ، ص ١٤٥٥ .

١٣ ــ المصدر السابق ص ١٤٩٠ .

١٤ ــ د . فاروق عمر فوزى ، العباسيون الاوائل ، الجزء الاول ، بيروت ١٩٧٠ .

١٥ ــ الطبرى ، ص ١٢٧٩ .

١٦ ــ د . فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، بيروت ١٩٧٠ .

١٧ ــ الجاحظ ، الرد (في ثلاث رسائل) ١٩٠٣ ص ٨ .

١٨ ــ الطبرى ، تاريخ القسم الثالث ، ١٣٨٠ ــ ١٣٨٤ .

١٤٠٠ ، ١٤٢١ — الكامل لابن الاثير جـ ٧ ص ٢٩ ، ٤٤ ، ٦٤ — المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٧ ص ٢٥٨ ، ٢٧٢ — ٢٧٧ .

١٩ — مياه ، عصر المتوكل ، اطروحة (بالانكليزية) ، جامعة لندن ١٩٦٣ .

٢٠ — راجع د . فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، جـ ٢ ، الفصل الاول ، دمشق ، ١٩٧٣ .

٢١ — راجع مقالنا

The Composition of Abbasid Support:

في مجلة كلية الاداب سنة ١٩٦٨ ففيه معلومات اكثر من مصادرنا الاصلية والحديثة .

٢٢ — الازدى ، تاريخ الموصل ، ص ١٢٤ .

٢٣ — د . فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، جـ٢ ، ص٣٨ .

٢٤ — الجاحظ ، الترك ، ١٩٠٢ ص ٨ .

٢٥ — ابن المقفع ، رسالة في الصحابة ، ص ١١٩ فما بعد .

٢٦ — المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

٢٧ — الطبرى ، تاريخ ، القسم الثالث ، ص ٣٢٨ — ٣٤١ ، اليعقوبى ، التاريخ جـ٢ ، ٤٥٦ — ٤٥٧ .

٢٨ — الطبرى ، ص ٤٧١ — ٤٧٦ (القسم الثالث) .

٢٩ — المصدر السابق ، ص ٥٧٢ — الجهشياري ، الوزراء والكتاب ١٧٤ ، اليعقوبي تاريخ ٤٨٦ — ٤٩٠ .

٣٠ — الطبرى ، ص ٦٠٠ — ٦٠١ اليعقوبي ، تاريخ ، ص ٤٩٠ .

٣١ — الطبرى ، ص ١٤٣ (القسم الثالث) الطبعة الاوربية .

٣٢ — الجاحظ ، رسائل ، (مناقب الترك) تحقيق عبدالسلام هارون ، ص ٢٣ — ٢٤ .

٣٣ — ابن خلدون ، مقدمة ، جـ ٢ ص ٤٢٣ — ٤٢٤ .

٣٤ — الطبرى ، تاريخ ، ص ٧٦٦ .

٣٥ — الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، جـ ٥ ص ٢٩٢ .

٣٦ — الجاحظ ، رسائل (مناقب الترك) ، ص ٢٩ .

٣٧ — المصدر السابق ، ص ٢٦ .

٣٨ — المقريزى ، المقفى ورقة ٩١ ب .

٣٩ — الكوفي ، الفتوح ورقة ٢٢٥ب — الطبرى القسم الثالث ص ٤٢٩ — تاريخ طبرستان جـ ٢ ص ١١٨ .

٤٠ — راجع ، فاروق عمر ، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٨ (المقدمة) .

٤١ — Miah, The Reign of Al - Mutawakkil, PH . D., London 1963.

بغداد مركز العلم والثقافة العالمية في القرون الوسطى

بقلم الدكتور

جليل كمال الدين

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

ـ « إن العلم الغربي ... يدين بوجوده للحضارة العربية »

(بريفو)

ـ « فنحن في الغرب مدينون للعرب بكل علمنا »

(ج . د . برنال)

ـ « إن الاسلام ... قد خلق ، بفتوحاته الواسعة ، الظروف الضرورية لتجديد الحضارة ، ولتجديد شباب العالم »

(روجيه غارودي)

ـ « الغرب وليد الشرق ، ولايزال مفتاح ماضي الحوادث في الشرق ، فعلى العلماء ان يبحثوا عن هذا المفتاح فيه »

(غوستاف لوبون)

ـ ١ ـ

لقد اهتم العرب ، مبررين تمام التبرير ، بدار السلام ، بغداد ، اهتماماً ليس له مثيل . فالفوا فيها الكتب ، وصنفوا المصنفات ، ونظموا الشعر وكتبوا الحكايات والقصص والأساطير ، والأزجال ، والمواليا والرسوم والتصاوير المدهشة . ولم يكن كل ذلك دون سبب وجيه ، فالحق ان بغداد كانت بعظمتها ، وهيبتها ، ومركزها العلمي والثقافي والتجاري ، ومكانتها الجغرافية والستراتيجية والعسكرية ،معقد آمال العرب والمسلمين ، على حد سواء . وكان كثيراً ما يقال ان من لم ير بغداد لم ير الدنيا . ولهذا كان العلماء والفقهاء والشعراء ، من جهة، والتجار والباحثون عن الثروة والعمل ، من جهة اخرى ، يشدون الرحال ، جميعاً الى بغداد ليستقروا فيها بقية حياتهم ،أو ليتزودوا بالعلم والثقافة ويعودوا الى أوطانهم مجازين في التدريس ، أو الفقه ، او الافتاء .

وبلغت عظمة بغداد ومكانتها الراسخة حداً لم تستطع معه حاضرة إسلامية اخرى ان تنافسها ، تستوي في ذلك سامراء (العاصمة العباسية الشهيرة الثانية) ، ودمشق (عاصمة الامويين) ، والقاهرة (عاصمة الفاطميين والايوبيين ومماليكهم) . ولعل قرطبة في الاندلس كانت بالنسبة الى المغرب العربي ، الاسلامي مثلما كانت بغداد بالنسبة للمشرق العربي ـ الاسلامي . على ان قرطبة واشبيلية ، وفاس ، والقيروان كانت تتبارى ، فيما بينها ، او كلا على حدة ، لتقول شيئاً « بغدادياً » ، او لتروي شعراً أو حديثاً او تاريخاً بغدادياً ، حتى أن بعض المغاربة والاندلسيين نفسوا ذلك على بغداد ،وعذلوا اهل عصرهم في هذا « التبغدد » ، والهيام بكل شيء بغدادي ، وشرقي !

وهكذا ، فان من الغريب ، على ضوء مثل هذه الخلفية ، ان تأتي «الموسوعة الميسرة » (١٩٦٥) ، في باب « بغداد » ، على ص ٣٨٣ ، بتعريف بائس ، حقاً لها . ولعل اقليمية كاتب فقرة « بغداد » ، في احسن الاحوال ، او جهله،

في أسوا الاحوال ، هو الذي دفع الكاتب الى هذا « البؤس العلمي » ، إذا أمكن التعبير وصح .

يقول الكاتب : بعد ان يذكر بغداد هي عاصمة الجمهورية العراقية ، ويشير الى عدد سكانها ، يقول :

— « المدينة الحالية اسسها المنصور الخليفة العباسي ، على الضفة اليمنى لنهر دجلة في ٧٦٢م ، وتقع على خط عرض (١٨ ، ٢٦ ، ٣٣) درجة شمالا ، وعلى خط طول (٩ ، ٢٣ ، ٤٤) درجة شرقا ، ومنذ ذلك الحين اصبح مركزها التجاري عظيما لا ينافسه موقع ، وبقيت مركزاً مهماً للعالم الاسلامي لقرون عديدة ، وتحيط بها البساتين والحدائق الغناء ، وبلغت اوجها في زمن الخليفة هارون الرشيد ، وهي ، بالاضافة الى ذلك ، مواطن لعدد من العلماء والمفكرين والفنانين ، تمتعت بمركز مالي هام ، واشتهرت بمنتجاتها كالحرير والفسيفساء ، وخلدتها في العالم الغربي قصص (الف ليلة وليلة) . ضعف شأنها بعد انتقال مقر الخلافة العباسية فيها الى سامراء ، ولكن مالبث ان عاد إليها مقر الخلافة ، ثم جاءت فترة ركود بسبب الصراع الداخلي في الدولة العباسية ، وتعرضت المدينة لغزو المغول (١٢٥٨) ، فدمرت معالمها الرئيسية ومكتباتها ودور العلم بها . ثم بدات تسترجع مكانتها ، ولكنها دمرت ثانية من قبل تيمورلنك (١٤٠٠م) ، وغزاها الشاه اسماعيل الصفوي (١٥٠٨م) ، ومرت فترة تناوب فيها الفرس والاتراك حكم بغداد ، وكان تعدادها حينذاك (١٤٠٠) نسمة . ولم يبق من آثارها وثرواتها إلا القليل .. » .

إن مثل هذا التعريف محدود جداً ، وهو لا يفي بالحد الأدنى من متطلبات التعريف العلمي الموسوعي لمدينة كبيرة ، شهيرة ، مثل « بغداد » ، ناهيك عن كونه قاصراً في الاحاطة بأبعاد عظمة ومكانتها ودورها الكبير في نشر العلم والثقافة ، واهميتها العربية والاسلامية والعالمية .

ولعل خير من كتب عن بغداد ، في معرض التفصيل في مكانتها العلمية ودورها الثقافي والحضاري الاساتذة الاجلاء : محمد كرد علي (في كتابه « الاسلام والحضارة العربية ») ، وطه الراوي (في كتابه «بغداد ـ مدينة السلام») ، وناجي معروف ومصطفى جواد وأحمد سوسة ومحمد طاهر مكية وشاكر حسن آل سعيد (في كتاب « بغداد ») الذي نشرته (نقابة المهندسين العراقيين) ، بغداد ، (١٩٦٩) ، وطاهر مظفر العميد (في كتاب « بغداد » ، مدينة المنصور المدورة) ، ورمزية الاطرقجي (في كتابها عن بناء بغداد في عهد ابي جعفر المنصور) ، وبدري محمد فهد (في كتابه « العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري ») ، وعبدالعطيف الراوي (في كتابه « المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع للهجرة») ،وحكمت نجيب (في كتابه « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، منشورات جامعة الموصل) ، وقدري طوقان في كتبه (العلوم عند العرب ، الخالدون العرب ، مقام العقل عند العرب ، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك) ، ومحمد عبدالغني حسن (في كتابه « ملامح من المجتمع العربي ») وعبدالحميد العلوجي (في كتابه « تاريخ الطب العراقي ») ، ومصطفى لبيب (في كتابه « الكيمياء عند العرب ») ، محمد مفيد الشوباشي (في كتابه « العرب والحضارة الأوربية ») ، وغيرهم بالاضافة الى كوكبة لامعة من المستشرقين في شتى انحاء العالم .

وعقد لوبون بحثا طريفا عن بغداد ،ضمن كتابه الشهير « حضارة العرب » . وكتب كثير من المستشرقين عن بغداد ، في تضاعيف كتاباتهم وكتبهم عن الحضارة العربية ، الاسلامية ، والخلافة العربية ، والدولة العباسية ، والتمازج الثقافي الاسلامي .(١)

ومن المهم ان نشير الى بحث لوبون عن بغداد ، ونجتزىء منه شيئاً .

يقول لوبون :

« دور الخلافة في بغداد بآسية ودورها في قرطبة باسبانيا أنضر ادوار الحكم العربي، ولما استقلت تانك الدولتان بسرعة ، وفصلت بينهما مساوق عظيمة ، كان لهما اصل واحد ودين واحد ولغة واحدة ، تقدمتا تقدما متوازياً عدة قرون ، وكانت المدينتان الكبيرتان ، بغداد وقرطبة ، وهما القاعدتان اللتان كان السلطان فيهما للاسلام من مراكز الحضارة التي اضاءت العالم بنورها الوهاج ايام كانت اوربا غارقة في دياجير الهمجية » .(٢)

ويفيض لوبون في التفصيل في مكانة بغداد

الحضارية ، ودورها العلمي والثقافي ، مما سنعرض له ، لاحقا . وبامكان المرء ان يقارن بين ما كتبه المستشرق الفرنسي لوبون عن بغداد وبين ماكتبه كاتب فقرة « بغداد » في « الموسوعة العربية الميسرة » ، ليلمس الفرق في التوجه والمنهجية والموضوعية بين الكاتبين .

- ٢ -

من اين جاء اسم « بغداد » ؟ وماذا يعني ؟

تلكم اسئلة خطرت وتخطر في بال كثير من الباحثين ، والمؤرخين ، ولابد من البحث عن جواب شاف عنها . وسنستعرض ، فيما يلي ، بعض اهم الاراء في التسمية ، واصلها ، ومغزاها .

يقول الباحثان العراقيان المعاصران ، الاستاذان : د . مصطفى جواد ، و د . احمد سوسة ، في بحثهما المشترك « تخطيط بغداد في مختلف عصورها » ، في كتاب « بغداد » ، وفي فقرة اولى تحمل عنوان « بغداد في ادوارها الاولى » :

ـ « اختلف المؤرخون ، قديما وحديثا ، في بيان اسم « بغداد » ، وتعيين معناه ، فمنهم من قال ان اصله « بعل جاد » باللغة البابلية ، ومعناه « معسكر بعل » ومنهم من قال انه (بعل داد) ، اي الاله الشمس ومنهم من قال انه كلداني ، وان اصله « بلداد » ، و « بل » ، اسم الاله الكلداني ، و « داد » كلمة آرامية معناها « الفتك » . ويذهب هؤلاء الى انه حدثت على عهد (بختنصر ٦٠٤ ـ ٥٦٢ ق.م .) ملحمة عظيمة ظفر فيها باعدائه ، فانشا هذه القرية تخليدا لظفره ، وسميت باسم الصم « بل » . ومنهم من يقول بان الاسم بابلي من عهد حمورابي في القرن الثامن عشر ق.م. ، وان اصله « بيت كدادا » ، اي بيت الغنم ، ويرى بعض الباحثين ان كلمة بغداد آرية الأصل ، وان الكيشيين استعملوها اول مرة في مستهل الالف الثاني ق.م. ، ومعناها « عطية الاله » . والفرس يفسرونها على عاداتهم ويرجعونها إلى اصل فارسي هو (باغ داد) اي بستان (ذا دويه) ، او « بغ دادي » اي الصم (بغ) اعطاني ، او « باغ اي داد » وهو اسم بستان ، انشاه كسرى انوشروان (٥٢٢ ـ ٥٧٩ ق.م.) في هذه البقعة ، فسميت القرية باسمه ، وقيل : كان اسم ملك الصين « بغ » فكان تجار الصين اذا انصرفوا الى بلادهم بارباحهم الوافرة من سوق بغداد ، قالوا « بغ داد » ، اي هذا الربح من عطية الملك ،وهو اضعف الاقوال وابعدها عن الاحتمال . وقد ورد اسم بغداد في اخبار فتح العرب للعراق في الثلث الأول من القرن السابع للميلاد واخبار الدولة الأموية ، وقد ذكر المؤرخون عدة اسباب حملت ابا جعفر المنصور على تاسيس مدينته المعروفة بمدينة السلام ، والذي يهمنا في هذا البحث الموجز هو انه عزم عزما اكيدا على إنشاء مدينة حصينة بين عدة قرى مسكونة مزدهرة ـ وهي بغداد العتيقة البابلية ، وسونايا الآرامية ، التي من بقاياها الاسلامية اليوم مسجد المنطقة بين بغداد والكاظمية ، والخطابية . وشرفانية، وبناورا ، وورثاه ، وبراثا ، وقطفتا (التي هي اليوم « محلة المشاهدة » بالجانب الغربي من بغداد) ، والوردانية ، وقد اختير لموضع المدينة مزرعة تعرف (بالمباركة) ، تيمنا باسمها على عادة العرب في التفاؤل بالاسماء ،وكانت المزرعة ملكا لستين شخصا من اهل بغداد فعوضهم المنصور عنها بالنقد ، وكانت هذه المزرعة في موضع البساتين المنسوبة في ايامنا الى المرحوم عبدالحسين الجلبي بين المنطقة والكاظمية في الجانب الغربي من بغداد .. » (٢).

وهكذا يتبين ، مما كتبه باحثا بغداد ، المعاصران : جواد وسوسة ان اسم (بغداد) لا زالت تحوطه الشكوك أصله وانحداره، وان كانا يكادان يقطعان بان الاسم غير عربي ، ويمكن ملاحظة هنا من ذكر الباحثين لبغداد العتيقة البابلية ، وورود اسم بغداد في اخبار فتوحات العرب للعراق ، مما يعني ان التسمية موجودة ، او شبيه بها او قريب منها موجود ، قبل تأسيس مدينةالمنصور المدورة باسم بغداد، الذي اشتهرفي التاريخ ، والعلم والثقافة ، على مدى الأزمان ، ومختلف العصور ، والانظمة الاجتماعية ـ الاقتصادية ـ السياسية .

إن ما يهمنا هو ان بغداد ، في التاريخ والسياسة والعلم والثقافة والتقدم الحضاري ،

اقترنت دائما بالعرب ، وبمؤسسها ابي جعفر المنصور ، وبالحضارة العربية ، الاسلامية ، في عصرها الذهبي (عصر الرشيد والمأمون) ، وعصورها الاخرى .

لقد كانت روما موطنا للبرابرة قبل ان يحضرها الرومان ، مثلما كانت اثينا وكريت قبل ان يحضرها اليونان . وهكذا ، فان بغداد ، سواء كانت بابلية ام فارسية ، في سحيق الأزمان ، فانها عربية منذ اسسها المنصور ، واستوطنها الشعب العربي الذي انشأ اضخم حضارة في القرون الوسطى ، يوم كانت اوربا غارقة في سباتها .

ولشهرة إسم بغداد ،والعظمة التي اقترن بها ، سمي الكثير في المشرق والمغرب العربي ، على حد سواء ، للتيمن به ، مسمين عديداً من مدنهم به . يقول ناجي معروف ، كاتب المقدمة ، لرسالة الماجستير لطاهر مظفر العميد (بغداد — مدينة المنصور المدورة) ، ما يصلح ان نقتبسه ، هنا ، على سبيل الاستشهاد :

— « ويظهر تأثير بغداد واضحاً في تسمية بعض المدن والاماكن باسمها ، فقد سميت مدينة فاس بـ (بغداد المغرب) ، وهي المدينة التي تتكون من مدينتين مسورتين هما (عدوة القرويين) و (عدوة الاندلسيين) ... اما المدن والأماكن التي سميت (بغداد) فكثيرة منها — (بغداد) التي انشأها (زيري بن عطية) في المغرب. ومنها الأسماء التي اطلقت على اماكن مختلفة في العالم القديم والعالم الجديد . نقد اطلق اسم (بغداد) في الولايات المتحدة الامريكية على مدينة في (اريزونا) وفي (فلوريدا) ، وفي كانتاكي ستي ،وعلى قريتين من قرى الولايات المتحدة ايضا ، وسميت احدى مدن بولونيا في اوربا باسم (بغداد) ، كما سميت احدى مدن اوستراليا باسم (بغداد) ، ايضا وفي تانزانيا بافريقيا اطلقت كلمة (دار السلام) على عاصمتها . وسمى المغاربة بعض مدنهم بأسماء المدن الشرقية ، متاثرين بزيارة تلك الديار ، أو ورودهم منها . فنجد اسم (بغداد) يطلق على مكان في مدينة (مكيك) لما يتوفر فيه من نخل . وفي مصر اطلق اسم (قصر بغداد) على قرية من قرى (المنوفية) ويقال في النسبة اليه (القصري) » .(٤)

ويمكن ان نضيف الى ذلك ، ان اسم بغداد معروف في جورجيا بالاتحاد السوفييتي ، فقد اطلق اسم (بغدادي) على احدى مدن جمهورية (جورجيا) السوفييتية ، وهذه المدينة شهيرة في عالم الادب والتاريخ ، لانها موطن الشاعر السوفييتي الكبير فلاديمير ماياكوفسكي ومسقط راسه (فقد ولد ماياكوفسكي في (بغدادي) بجورجيا في ١٨٩٣ وتوفي عام ١٩٣٠ .

— ٣ —

تقترن بغداد بعظمة الحضارة العربية — الاسلامية ، واكبر دور لها في القرون الوسطى ، على صعيد العلم ، والثقافة ، والفنون ، والعمران ، والازدهار الحضاري ، عموماً .

إننا نكاد نستطيع الجزم ان مدرسة بغدادية متكاملة قد شكلت في الفكر العربي — الاسلامي ، والفلسفة ، وعلم الكلام ، والفقه ، والفنون ، والعلوم الطبيعية ، والاداب .

ويقرن المؤرخون ، والباحثون ، والمتابعون مدرسة بغداد هذه بعصر الرشيد والمأمون . حتى ان احمد الرفاعي ، الباحث العربي البارز، الف كتاباً ، بعدة أجزاء ، عن « عصر المأمون ». اما لوبون (الذي لم ينصف العرب بدواعي المجاملة ، التي لا حاجة لها ، طبعا — ، بل بدواعي الموضوعية ، وبالضرورات التي املتها إنجازات الحضارة العربية (الاسلامية الكبيرة) فهو ايضاً يقرنها بعصر هارون الرشيد ،والمأمون إذ يؤكد في الفصل الثاني من كتابه المشهور « حضارة العرب » ، الذي اسلفنا الاشارة اليه، ان بغداد بلغت ذروة الرخاء في عصر هارون الرشيد (٧٨٦ — ٨٠٩م) ، وابنه المأمون (٨١٣ — ٨٣٣م) وصارت اهم مدن الشرق ، وذاع صيت الرشيد ، وطبق الافاق ، فارسلت بلاد التتر والهند والصين رسلا الى بلاطه ، وارسل اهل الغرب الحقيقي ، وصاحب الحول والشوكة ، الامبراطور شارلمان ، الذي كان يملك ما بين المحيط الاطلنطي ونهر الالب ، وهو الذي لم يملك غير اناس من الهمج ، وفداً ليبلغ الرشيد أطيب تحياته ، ويلتمس الحماية

لحجيج القدس ، فاجابه الرشيد الى سؤاله ، ورد اليه وفده مع هدايا عظيمة ، ومن بينها فيل مجهز بافخر جهاز ، والفيل كانت تجهله اوربا تماما ، ولآلىء وجواهر وحلي وعاج وعطور ونسائج حريرية وساعة دقاقة تدل على الوقت. وقد قضى امبراطور الغرب شارلمان العجب من هذه الساعة هو وحاشيته المتبربرون الذين لم يكن بينهم من قدر على إدراك كنهها - والذين حاول شارلمان عبثاً ان يحملهم على إحياء حضارة الرومان » .(٥)

ومع ذلك فقد اعطى لوبون حيزاً اكبر للرشيد (مقابل المأمون) ، وفعل فعله نيكولاي غوغول ، القاص الروسي الشهير في القرن التاسع عشر ، فيمحاضراته عن الرشيد والمأمون في جامعة سانت بطرسبورغ ، فقد اكد غوغول ان الرعية والدولة ، معاً ، انتفعت بالرشيد وحزمه وحدبه وحنكته في السياسة وإدارة شؤون الدولة ، اكثر مما انتفعت بعلم المأمون وثقافته وبيت حكمته .(٦)

ورأينا ، ان الرشيد مهد للمأمون ، وانهما يتكاملان ، ويرفد إنجاز احدهما انجاز الاخر ، أما مقابلتهما ، الواحد بالآخر ، فهو ليس امراً صائباً . لقد كان المأمون يمنح المترجم زنة الكتاب الذي ترجمه ذهباً ، وكان يشرف على أعمال بيت الحكمة ، والتاليف والترجمة ، وكان يعقد المناظرات في ديوانه ، وينصر احرار الراي والفكر ، ويضع كل ثقله في جانبهم ، رغم ان ذلك قد جر عليه كثيراً من الوان المعارضة الدينية المتزمتة ، والخلاف العقائدي غير ان المأمون ما كان ليستطيع ان يفعل كل ذلك ، دون الاستناد الى تخصيصات مالية ضخمة ، وإدارة مالية دقيقة ، واستقرار وازدهار اقتصادي ، تحمل العبء الاكبر فيه أبوه وسلفه هارون الرشيد .

لقد كانت الجباية موكولة إلى لجنة سميت « الديوان » ، وكان هذا الديوان حازماً ، دقيقاً في عمله . ويمكننا ان نستشير المؤرخ والمفكر العربي الشهير ، ابن خلدون ، صاحب المقدمة الشهيرة (مقدمة ابن خلدون) ، وتاريخه ، لنسمع عنه شيئاً عن فعاليات هذا الديوان الرشيدي البغدادي . يقول ابن خلدون :

- « إن ديوان الاعمال والجبايات من الوظائف الضرورية للملك وهي ، القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير ارزاقهم وصرف اعطياتهم في إباناتها والرجوع في ذلك الى القوانين التي يرتبها قومه تلك الأعمال وقهارمة الدولة ، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من اهل تلك الاعمال ، ويسمى ذلك الكتاب بالديوان .. » .(٧)

واذا عدنا الى لوبون ، وجدناه بفصل في تأثير القاعدة المادية - الاقتصادية على ازدهار العلم والثقافة في بغداد الرشيد والمأمون ، بخاصة . والحق ، ان شهادة لوبون ، المفكر الاوربي الغربي النزيه جديرة بان تدرس ، وتحلل ، وتستلهم ايضاً . فقد طالما ظلم العرب اناس محسوبون على العلم ، والعلم منهم براء . إن عقدة « الأوربية » ، و « التفوق الاوربي » ، و « عبء الرجل الأبيض » ، و « رسالة التمدن » قد تركت اثرها البالغ ، إضافة الى العقلية الامبريالية ، في طريقة تفكير هؤلاء « المؤرخين » و « المفكرين » الأوربيين الاستعماريين . ومن هنا تبدو شهادة لوبون ، ودرابر ، وهوليارد ، وهولميدت ، وسارطون ، واضرابهم ، في مقابل هذا الهذر الامبريالي الذي لا يجمعه جامع مع العلم ، والتاريخ العلمي ، موضوعية ، منصفة ، ناهيك القول عن ان الأدلة والوثائق تدعمها، دعماً اكيداً .

فلننظر ، إذن ، ما يقوله لوبون ، بخصوص الازدهار المادي - الاقتصادي ، والقاعدة المادية التي كونها ، وعلاقة كل ذلك بالازدهار العلمي - الثقافي في بغداد الحضارة العربية الاسلامية ، وبالثقافة العالمية ، عموماً .

يقول لوبون (في ذات الكتاب المشار اليه آنفاً) :

- « كان انتظام مالية الخلفاء سبباً في القيام بأعمال عظيمة تعود على الناس بالخير ، كتعبيد الطرق ، وإنشاء الفنادق والمساجد والمشافي والمدارس في جميع نواحي الدولة ، ولاسيما بغداد والبصرة والموصل الخ . واتسع نطاق الزراعة والصناعة ... وانشئت مصانع للنسائج الحريرية في الموصل وحلب ودمشق ، وصار العرب يستغلون المالح ، ومناجم الكبريت ، والرخام ، والحديد ، والرصاص ، الخ ،

بطرق فنية . ووسعت دائرة التعليم العام. واستدعى الأساتذة من مختلف اقطار العالم ، وبلغ علم الفلك درجة رفيعة من التقدم ، وانتهى الى نتائج لم ينته إليها الأوربيون الا في العصر الحاضر ، كقياس دائرة نصف النهار ، ونقلت الى اللغة العربية كتب علماء اليونان واللاتين ، ولا سيما كتب الفلسفة والرياضيات، وصارت تدرس في جميع المدارس ، وبحث العرب في آثار القدماء ، فسبقوا الأوربيين الى ذلك ببضعة قرون . واقدم العرب على تلك المباحث ، التي لم يكن لهم عهد بها ، بشوق ونشاط ،واكثروا من إنشاء المكتبات العامة والمدارس والمختبرات في كل مكان ، وكانت لهم اكتشافات مهمة في اكثر العلوم .. »(٨)

وبالطبع ، ليس للازدهار الاقتصادي وحده ان يصنع الازدهار في العلم والثقافة . ان الثقافة الامريكية المعاصرة لازالت قاصرة امام الثقافة الأوربية ، مع ان الولايات المتحدة الامريكية تملك من ذهب العالم الراسمالي ورؤوس أمواله ما يفوق ما لأوربا كلها ، بل والعالم الراسمالي كله، عدة مرات .

إذن ما الذي صنع هذا الازدهار الثقافي والعلمي العربي ــ الاسلامي في القرون الوسطى ؟ ولماذا تفوقت بغداد على سواها من الحواضر ؟ ولماذا بز العرب والمسلمون المشبعون بالثقافة العربية (حتى انهم ليعدون مجداً لهم انهم يتقنون العربية ويكتبون بها ، كما يقول البيروني) سواهم من الشعوب ، في تلك العصور ، في حقول العلم والثقافة والمعرفة ؟

أسئلة مشروعة لابد من الاجابة عنها بشكل واف ، أو محاولة ذلك على الأقل ، قبل الدخول في تفاصيل إنجازات بغداد الثقافية والعلمية والحضارية .

مرة اخرى ، نستشير لوبون ، مؤرخ وباحث ثقافة العرب ، على الطبيعة (ونحن نعني بذلك ــ ان لوبون لم يكتف بالثقافة النظرية ، وباستشارة العديد من الكتب والمراجع الهامة ، بل طاف في رحلات عديدة بلاد الشرق العربي ، من مراكش الى دمشق والقدس ، وقد استعان بعديد من رجال العلم والثقافة الفرنسيين ، والاسبان ، والبرتغاليين) .

يقول لوبون (وكأنه ينتظر امثال هذه الاسئلة) ، في بحثه المشار اليه :

ــ « كان حب العرب للعلم عظيماً ، ولم يترك الخلفاء في بغداد طريقاً لاجتذاب اشهر العلماء ورجال الفن في العالم إلا سلكوها ، ومن ذلك ان شهر احد اولئك الخلفاء الحرب على قيصر الروم ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين في التدريس ببغداد . وكان العلماء ورجال الفن والادباء من جميع الملل والنحل ــ من يونان وفرس واقباط وكلدان ، يتقاطرون الى بغداد ، ويجعلون منها مركزاً للثقافة في الدنيا ، وقال ابو الفرج عن المامون إنه « كان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم ؛ علما منه بأن اهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده ... فلهذا السبب كان اهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر ، واوحشت الدنيا لفقدهم » . وكان اولئك يحيطون بخلفاء بغداد ، وكان يمكن هؤلاء الخلفاء ان يعدوا قصرهم أول قصور العالم وانضرها » .(٩)

لعل لوبون قد وضع يده على السر في تقدم العرب الحضاري ، وفي عظم إنجازات بغداد الثقافة العربية ــ الاسلامية ، ودورها العالمي ، في ما اصطلح عليه ، خطأ ، بالقرون الوسطى (بمعنى التخلف والهمجية ، وهو شيء يصح على الشعوب الاوربية في القرون الوسطى ، وليس على شعوب الشرق ، وعلى الخصوص ، شعوب الدولة العربية ــ الاسلامية) .

إن من المهم ان نشير الى انه حتى الكتب الدينية المقدسة ، وبخاصة ــ القرآن الكريم تؤكد على وجوب طلب العلم ، وانتهال موارد المعرفة . بل ان احد الوان القسم في القرآن ، هو القسم بالقلم ، كما ان عديداً من السور القرآنية ورد فيها الفعل « اقرأ » ! وثمة حديث نبوي مشهور ، كثيراً ما يورد في معرض الحث على العلم والدراسة ، وهو يقول : « اطلب العلم ولو في الصين » . وهذا الحديث مشهور شهرة حديث آخر ، بليغ الدلالة ، يقول : « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » . ولعل هذين الاقنومين الجوهريين : العلم والعدل ، هما الأساس في تقدم العرب المذهل ، وازدهار الحضارة العربية ، الاسلامية ، وقتذاك .

وليس الامر مقتصرا على القرآن ، والحديث النبوي ، فان نهج الخلفاء الاربعة مضى على ذات المسار . ان الخليفة الرابع ، مثلا ،

الامام علي ، نذر نفسه للعلم وتعليمه . ويحفل « نهج البلاغة » ـ كتاب الامام علي (ع) ـ ، وديوانه المنسوب اليه ،بكثير من المقالات البليغة في الدعوة للعلم والمعرفة والتنوير(١٠) .

ونجد مثل هذا لدى الامام الغزالي ؛ وكثير من مفكري العرب والمسلمين .

إن مقومات الروح العلمية متكاملة لدى علماء بغداد والمدرسة البغدادية ، والعلماء العرب والمسلمين عموماً . ولعل من الظلم ان نسميها روحاً علمية فحسب ؛ فهي منهجية علمية حقيقية ، سبقت المنهجية العلمية الاوربية ، وتقاليد البحث العلمي البايكونية (نسبة الى بايكون) ، وان كان البعض من مؤرخي الاوربيين وباحثيهم ، البرجوازيين ، لازالوا لايريدون ان يعترفوا بذلك . ودواعي عدم اعترافهم بالسبق العربي ، والشرقي في المنهجية العلمية والتقاليد العلمية معروفة ، وهي تتصل ، اوثق الاتصال ، بعقدة التفوق الاوربي ، و « رسالة الرجل الأبيض » ، وما إلى ذلك من خرافات ،واعتبارات لا موضوعية ، تقوم عليها العقلية الامبريالية ، والبرجوازية الأوربية ، عموماً .

إن المنهجية العلمية في الفكر العربي ـ الاسلامي ، في بغداد (وفيما بعد ، في سائر ارجاء الدولة العربية ـ الاسلامية المترامية الاطراف ، اي من جابر بن حيان العراقي الى ابن خلدون التونسي الى ابن رشد وابن ماجة وابن طفيل في الأندلس ، تقوم ، في جوهرها على الاسس التالية:

١ ـ **التجربة ، والروح التجريبية** : وتتجلى هذه ، بشكل خاص ، واستثنائي لدى جابر بن حيان « مؤسس علم الكيمياء » ، والرازي ـ العقل العلمي العالمي الفذ ، والجاحظ ، الاديب العالم المشهور . يقول هولميارد : « ان التامل غير المفيد والبعد عن الملاحظة لم نشهدهما في عبقرية جابر ، الذي كان يفضل العمل داخل المعمل ، تاركاً مجال الخيال . لقد كانت وجهات نظره واضحة ومتقنة ،وبسبب ابحاثه الدقيقة الشاملة استحق لقب « المؤسس الأول للكيمياء » ، على قواعد سليمة واسس راسخة »(١١) . وقريب من ذلك ما يقوله بول كراوس ناشر مختارات رسائل جابر بن حيان : « إن جابر بن حيان قد سار بالتراث الشرقي ـ اليوناني في الكيمياء في اتجاه اكثر تجريباً وتنظيماً ، وبعد به عن السرية والرموز »(١٢) .

وبالتاكيد ، فان جابر بن حيان ، العالم العربي الفذ ، تلميذ احد الائمة المسلمين المشهورين « جعفر الصادق » أو زميله ، كان عالما تجريبياً ، ليس له نظير في عصره ، فهو يؤكد في كتاب « التجريد » : ان « ملاك كمال هذه الصنعة (يقصد الكيمياء) العمل والتجربة ، فمن لم يعمل ولم يجرب لم يظفر بشيء أبداً »(١٣) وهو يضع التجربة قبل كل شيء « لأن من لا يعمل ويجري التجارب لا يصل حتى الى ادنى مراتب الاتقان . فعليك يابني بالتجربة لتحصل على المعرفة »(١٤). كما انه لا يقوم بالتجربة لاجل التجربة ، فالتجربة من اجل المعرفة ، والتجربة مسببة ، ولابد من التسبيب والغائية في كل عمل علمي ، وهكذا يقول جابر ، في إحدى تجلياته العلمية الفذة :

ـ « يجب على المشتغل بالكيمياء ان يعرف السبب في إجراء كل عملية ، وان يفهم التعليمات جيداً لان لكل صنعة أساليبها الفنية ، كما يجب عليه الا يحاول عمل شيء مستحيل او عديم النفع »(١٥) .

كما كان جابر يفهم ، فهماً استثنائياً ، القوانين الموضوعية للطبيعة ، ويطالب باحترامها ، واستلهامها . فهو يقول في « كتاب الرحمة الصغير » :

ـ « واقتف اثر الطبيعة فيما تريده من كل شيء طبيعي فاعتمد عليه »(١٦) .

وهكذا ، فان جابر ، هذا العالم المختبري الاول في التاريخ ، كان نتاجا للبيئة العلمية ـ الثقافية العربية ـ الاسلامية ، وهي بيئة متفردة في اصولها العلمية وعطائها ،في عصر العرب الذهبي، العصر العباسي الأول . وينظر لجابر هذا عالم خطا خطاه العلمية الاولى في البصرة ، واتمها في بغداد ، وهو الجاحظ . وكان يقول بالتجربة ويعتمدها اعتماد العالم المختبري ، المسلح بنظرية علمية متكاملة نسبياً ، فذة بالنسبة الى عصرها ، وبالنسبة الى الشعوب الأخرى المعاصرة للشعب العربي والشعوب المسلمة .

فان الجاحظ ، الاديب الذي كتب « البيان والتبيين » في النظرية الأدبية والبحث الأدبي والبلاغي ، كتب ، كما فعل العلماء الموسوعيون في عصره ـ كتاب « الحيوان » ، الذي نقل لنا فيه كثيراً من آرائه العلمية الفذة ، وإيمانه بالتجربة والتجريب سبيلا الى المعرفة العلمية اليقينية .

يقول قدري حافظ طوقان (وهو من اوائل

من بحث العلوم عند العرب بحثاً موضوعياً) ، في مبحثه عن الجاحظ ، وفي معرض الحديث عن كتابه « الحيوان » ، اقوالا بليغة الدلالة :

— « وفي هذا الكتاب الجامع تتجلى دقة الملاحظة والتمحيص عند « الجاحظ » ، فهو يلجأ الى التجربة ليتحقق من صحة نظرية من النظريات او راي من الاراء ، فقد جرب في الحيوان والنبات ، وفي كل تجربة كان يسير على نهج خاص ، ففي بعضها « ... كان يقطع طائفة من الاعضاء ، وفي بعضها كان يلقي على الحيوان ضرباً من السم ، وحينا كان يرمي بتجربته الى معرفة بيض الحيوان والاستقصاء في صفاته ، وكان حينا يقدم على ذبح الحيوان وتفتيش جوفه وقانصته . ومرة كان يدفن الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته ، ومرة كان يذوق الحيوان . وكان في اوقات يبعج بطن الحيوان ليعرف مقدار ولده ، وفي اوقات كان يجمع اضداد الحيوان في إناء من قوارير ليعرف تقاتلها . وكان يلجأ في بعض الاحايين الى استعمال مادة من مواد الكيمياوية ليعلم تاثيرها في الحيوان . ولم يقف الجاحظ عند التجارب بنفسه ، واتباع منهاج خاص لكل منها ، بل كان في كثير من الاحيان يشك في النتائج التي يتوصل إليها ويستمر في الشك وتكرار التجربة ، بل ويدعو الى ذلك كله حتى تثبت صحة النظريات والآراء ، وتتجلى له الحقيقة ، ويتعرف على مواضع اليقين والحالات الموجبة لها . وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما . فلولم يكن ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج اليه »(١٧) .

كما قال جابر بن حيان مقولات اخرى سنعرض لها فيما بعد . ويمكننا ان نقول ، بثقة ، ان هذا العالم المعتزلي كان قمة من قمم الثقافة البغدادية ، ومفخرة من مفاخر الثقافة العربية — الاسلامية ، في عصر بغداد الذهبي . وكانت كثير من مقولات وتطبيقات جابر بن حيان والجاحظ (اللذين اشرنا إليهما ، على سبيل المثال) ، علمية متكاملة ، تقوم على التجربة ، وتعتمد التجريب ، سبيلا للبحث العلمي ، وصولا إلى الحقيقة العلمية ، والمعرفة .

٢ — **مشاعية العلم وديمقراطيته :** وخير من يمثل ذلك ، ويقول به العالم الموسوعي العربي ، والاديب الناقد ،أبو عمرو بن عثمان الجاحظ . يقول قدري حافظ طوقان ، في كتابه « العلوم عند العرب » ، المشار اليه آنفاً ، في بحثه عن الجاحظ وروحه العلمية :

— « ... كان الجاحظ يؤمن بان العلم « مشاع » ليس ملكاً لأمة دون اخرى ، وانه انما وضع ليستفيد جميع الناس على تعدد اهوائهم واختلاف نحلهم . جاء في مقدمة كتابه « الحيوان » ما يلي : « ... وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الامم وتتشابه فيه العرب والعجم ، لانه وان كان عربيا اعرابيا وإسلاميا جماعياً ، فقد اخذ من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة، واشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة .. » .... وادرك الجاحظ ما في الانسان من مزايا تدفعه الى التقدم ،جاء في كتاب « الحيوان » قوله « ... وينبغي ان يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا . على أنا قد وجدنا من العبرة اكثر مما وجدوا ، كما ان من بعدنا يجد من العبر اكثر مما وجدنا ... » ... ومن هنا يتجلى إدراك الجاحظ لما ادركه بعض الفلاسفة في هذا العصر ، فقد سبقهم في ملاحظتهم الدقيقة عن الانسان ومزاياه التي ادت الى التقدم والارتقاء . فالانسان يأخذ ما عمله غيره ويضيف اليه »(١٨) .

ويقول طوقان ، ايضا ، في موضع آخر من بحثه المشار اليه : « ولقد جاء في كتاب الحيوان » للجاحظ ما يؤيد اخذه ونقله قال :

— « ... وقد نقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونان ، وحولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً ، وبعضها ما انتقص شيئا .. وقد نقلت هذه الكتب من امة الى امة ، ومن قرية الى قرية ، ومن لسان الى لسان ،حتى انتهت الينا ، وكنا آخر من ورثها ، ونظر فيها ... » . والثالث ان الجاحظ لم يقع في يده كتاب إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين ويثبت فيها للنظر ... »(١٩) .

ومن المشهور عن الجاحظ ، انه صاحب مقولة ان المعاني مشاعة مرمية في الطريق . والجاحظ يهدف ، بذلك ، الى القول ان العلم ليس حكراً على أحد ، وان بامكان اي عقل بشري ، واي

انسان ، ان يكشف كشفا علميا ، وان يأتي بجديد في العلم . ان هذه النظرة الديمقراطية إنما هي اقنوم أساس لمنهجية الجاحظ وامثاله من علماء المدرسة البغدادية العباسية .

ولابد من القول ان الجاحظ اثر فيمن جاء بعده ، فالبيروني ، مثلا ، الذي يتمجد به العرب ، وآسيا الوسطى ، على حد سواء ، والذي يعده سخاو ، العالم الألماني البارز ، وليس دون أسباب وجيهة ، « أعظم عقلية عرفها التاريخ » ، كما يقول جورج سارطون فيه ، انه « ... من أعظم عظماء الاسلام ومن أكابر علماء العالم » ، ان البيروني هذا يقول ، منصفاً كل الأمم ، في التراث العلمي العالمي ، ومنحازاً للعرب ، واللغة العربية ، والثقافة العربية ، الاسلامية التي تشربها :

— « ... كل واحدة من الامم موصوفة بالتقدم في علم ما او عمل . واليونانيون قبل النصرانية موصوفون بفضل العناية في المباحث وترقية الاشياء إلى اشرف مراتبها وتقريبها من كمالها ... واما ناحية المشرق فليس فيها من الامم من يهتز لعلم غير الهند . ولكن هذه الفنون خاصة عندهم مؤسسة على أصول مخالفة لما اعتدناه من قوانين المغربيين ... ديننا والدولة عربيان وتوأمان يرفرف على أحدهما القوة الالهية وعلى الآخر اليد السماوية . وكم احتشد طوائف من التوابع في إلباس الدولة جلابيب العجمة فلم ينفق لهم في المراد سوق ... والى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والاوردة ، وان كانت كل امة تستحلي لغتها التي الفتها واعتادتها واستعملتها في مآربها مع آلافها واشكالها ، واقيس هذا بنفسي وهي مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب ، والزرافة في الكراب ، ثم منتقلة الى العربية والفارسية ، فانا في كل واحدة دخيل ولها متكلف ، والهجو بالعربية احب إلي من المدح بالفارسية ... »(٢٠) .

إن طوفان على حق كبير في استنتاجه من مقولات البيروني الدالة ، هذه ، الاستنتاج التالي : « ويمكن الخروج من أقواله ورسائله انه يؤمن بانسانية العلم ، وبالوحدة الشاملة التي يؤدي إليها العلم ، فيوحد بني العقل ويزيل التنافر بينها ، ويقرب بعضها ببعض ، ويدعو الى التفاهم على أساس المنطق والحقيقة »(٢١) .

٣ — ابتغاء الحقيقة الموضوعية قبل اي شيء :

اشتهرت مدرسة بغداد ، بين مدارس الفكر والثقافة العالمية ، بريادتها واصالتها في نشدان الحقيقة الموضوعية ، والسعي من اجلها ، واتخاذها ملهماً اساساً ، وفيصلا ، ونبراساً في كافة فعاليات البحث العلمي .

وكان العلماء العرب والمسلمون ، في مدرسة بغداد في العصر العباسي الاول ، وما تلتها من مدارس الامصار العربية ، صعودا في التاريخ الى مدرسة ابن خلدون ، وقبلها مدرسة ابن رشد وابن ماجة وابن طفيل (وابن حزم لحد كبير ، ايضاً) في الاندلس ، كانوا يطلقون على الحقيقة الموضوعية مصطلحاً آخر يسمونه : الحق » (في مقابل الباطل) ؛ والعدل (مقابل الهوى والتعصب) وذلك لا يضير شيئاً ، لان الجوهر واحد ، فالحق والعدل هما الحقيقة الموضوعية ، في الاساس ، وان اختلف المصطلح شيئاً ، باختلاف العصر .

وكان توجه علماء المدرسة البغدادية في ابتغاء الحقيقة الموضوعية محكوما بضرورات ودوافع تتعدى الدوافع الدينية والاخلاقية ، وتكون شيئاً هو من صلب التفكير العلمي — العقلاني — المنطقي — الفلسفي لدى هؤلاء العلماء ، وعلماء الحضارة العربية ، الاسلامية عموما . ومن المهم ان نشير الى ان معظم هؤلاء العلماء ، إن لم يكن كلهم ، قد اشتغل بالفلسفة ، وانطلق منها ، كاطار عام ، وخلفية متكاملة ، إلى بحوثه العلمية . وحسبنا ان نشير الى جابر بن حيان ، والكندي ، والرازي ، وابن سينا ، والبيروني وغيرهم .

قال الكندي ، فيلسوف العرب ، واحد « الاثنى عشر عبقرياً الذين هم من الطراز الاول في الذكاء » ، كما يقول كاردانو(٢٢) ، والذي يقف مع الحسن بن الهيثم «في الصف الاول مع بطليموس» ، على حد قول باكون(٢٣) ، في رسالته الى المعتصم بالله في الفلسفة الاولى : « فقد جاء في هذه الرسالة ان أعلى الصناعات الانسانية واشرفها مرتبة صناعة الفلسفة . ولماذا ؟ لان حدها علم الاشياء بحقائقها بقدر طاقة الانسان ، ولان غرض الفيلسوف في عمله إصابة الحق ، وفي عمله العمل بالحق »(٢٤) . كما اكد في هذه الرسالة ذاتها ، ايضا ، وجوب إعلاء راية الحقيقة والحق ، وتغليب كلمة الحقيقة على كل ما عداها ، وان جيش الحقيقة وطلاب الحقيقة العلمية الموضوعية واحد ، وان حلقات الحقيقة مترابطة جدليا مثلما هي مترابطة ، جدلياً ، ايضا ، مساعي العلماء والبحث

العلمي ، فقضية الحقيقة العلمية والبحث العلمي في سبيلها واحدة لا تتجزأ ، والشعوب جميعاً تتبارى وتتكامل جهودها في سبيلها . وبذلك ضرب الكندي المثل ، حقاً ، في الانتصار للحقيقة العلمية الموضوعية وجيشها العالمي ، مبرهناً ، بذلك ، على طليعية مركز بغداد العلمي ودوره العالمي في العلم والثقافة العالمية ، واصالته وعظمته في ذلك العصر يقول الكندي :

ـ « ... ومن أوجب الحق ان لا نذم من كان احد اسباب منافعنا الصغار الهزلية ، فكيف بالذين هم اكبر اسباب منافعنا العظام الحقيقية الجدية ، فانهم وان قصروا عن بعض الحق فقد كانوا لنا انساباً وشركاء فيما افادونا من ثمار فكرهم التي صارت لنا سبلاً والات مؤدية الى علم كثير مما قصروا عن نيل حقيقة ، ولاسيما إذا هو بين عندنا وعند المبرزين من المتفلسفين قبلنا من غير اهل لساننا . إنه لم ينل الحق ـ بما يستاهل الحق ـ أحد من الناس بجهد طلبه ، ولا احاط به جميعهم ، بل كل واحد منهم ، اما لم ينل منه شيئاً ، واما نال شيئاً يسيراً بالاضافة الى ما يستأهل الحق . فاذا جمع يسير ما نال كل واحد من النائلين الحق منهم اجتمع من ذلك شيء له قدر جليل ، فينبغي ان يعظم شكرنا للآتين بيسير الحق ، فضلا عمن أتى بكثير من الحق ، إذا اشركونا في ثمار فكرهم وسهلوا لنا المطالب الحقية الخفية بما افادونا من المقدمات المسهلة لنا سبل الحق ، فانهم لو لم يكونوا ، لم يجتمع لنا من شدة البحث في مددنا كلها هذه الأوائل الحقية التي بها تخرجنا الى الاواخر من مطلوباتنا الخفية . فان ذلك إنما اجتمع في الأعصار المتقادمة ، عصراً بعد عصر ، الى زماننا هذا ، مع شدة البحث ولزوم الداب وايثار التعب في ذلك ... »(٢٥) .

وتكاد مقولات الكندي الثاقبة في ابتغاء الحقيقة العلمية الموضوعية ان تكون دستوراً ، ينبغي استلهامه ، واعتباره نقطة الانطلاق دائماً إن احدى هذه المقولات ، العظيمة الدلالة ، والخالدة ، بالضرورة ، تقول :

ـ « وينبغي ان لا نستحي من الحق واقتناء الحق من اين يأتي ، وإن آتى من الأجناس القاصية عنا ، والأمم المباينة لنا ، فانه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق ، وليس ينبغي بخس الحق ولا تصغير بقائله ولا بالآتي به ، ولا احد بخس بالحق ، بل كل يشرفه الحق »(٢٦) .

إن تعليق طوقان ، الباحث العربي المعاصر ، على مقولة سلفه العربي العظيم ـ الكندي ـ قويم ، في اساسه ، وان كان يلمح تحسسب الى المغزى العالمي لهذه المقولة ، وارتباطها الجدلي بحرية الراي ، التي تعتبر حجر الزاوية في كل نشاط علمي اصيل . يقول طوقان ، في معرض الاستنتاج . « ... يرى الكندي ان معرفة الحق ثمرة لتضامن الاجيال الانسانية . فكل جيل يضيف الى التراث الانساني ثمار افكاره ويمهد السبيل لمن يجيء بعده ، ويدعو الى مواصلة البحث عن الحق ، والمثابرة في طلبه ، وشكر من يشغل نفسه وفكره في ذلك ، وهو يعتبر طالبي الحق شركاء ، وان بينهم نسباً ورابطة قوية هي رابطة البحث عن الحق والاهتمام به . وقد دفعه اهتمامه بالحق وطالبيه الى الشعور بمسؤوليته ، وان عليه ان يساهم في بناء الحقيقة ، ويدعو الى الحدب على طالبها والتفاني في اسعافه .. »(٢٧) .

إن منهج المدرسة البغدادية العلمي في الفكر والثقافة والبحث العلمي الموضوعي يظل يفرض نفسه حتى على علماء متاخرين ، نسبياً ، في الحقبة الزمنية . فان البيروني ، مولود القرن العاشر الميلادي (ولد في خوارزم عام ٩٧٣م ، ووافاه الأجل عام ١٠٤٨م) ، يوصي في مقدمة كتابه القيم « الاثار الباقية عن القرون الخالية » ، بوجوب نبذ التعصب ، والتحامل ، والأهواء ، والتكريس للعلم والحقيقة العلمية ، وبضرورة « تنزيه النفس عن العوارض المردئة لاكثر الخلق ، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهي كالعادة المالوفة ، والتعصب والتظاهر واتباع الهوى والتغالب بالرئاسة واشباه ذلك ... »(٢٨) .

ولعل الدكتور شاخت لم يبالغ في تبيان عظمة خريج المدرسة البغدادية في العلم والثقافة ، العالم الخوارزمي ، البيروني (الحريص على الكتابة بالعربية وحتى على ان يهجى بها ولا يمدح بلغة اخرى (!) ، حين اكد يقول :

ـ « ... والحق ان شجاعة البيروني الفكرية وحبه للاطلاع العلمي وبعده عن التوهم وحبه للحقيقة وتسامحه وإخلاصه ـ كل هذه الخصال ـ كانت عديمة النظر في القرون الوسطى ، فقد كان البيروني في الواقع عبقرياً مبدعاً ذا بصيرة شاملة نفاذة ... »(٢٩) .

وينبغي القول ان ابتغاء الحقيقة العلمية الموضوعية كان سنة يقول بها كل العقليين التنويريين في الاسلام ، وخصصاً المعتزلة (مدرسة النظام بخاصة) ، الى علماء المدرسة البغدادية جميعاً ، دون استثناء ، الى علماء الاندلس والمغرب ، حتى ابن خلدون .

فان صاحب « الرسالة العذراء » ، ابراهيم بن المدبر ، انتصر للحقيقة العلمية انتصارا لفت نظر معاصريه . فقد جاء في مفتتح رسالته : « ... فتق الله بالحكمة ذهنك وشرح بها صدرك . **وانطق بالحق لسانك وشرف به بيانك** »(٢٠) .

اما الجاحظ المعتزلي ، الموسوعي ، عالم بغداد والبصرة معاً ، والمكافح البارز في سبيل العروبة والاسلام ، فقد ابتدأ كتابه المشهور « الحيوان » بدستور بليغ الدلالة في تقاليد البحث العلمي في المدرسة البغدادية الرائدة في العلم والثقافة العالمية ، وكل مدرسة عربية — إسلامية احتذت حذوها ، او طورت تقاليدها ، فيما بعد (كمدرسة ابن رشد وابن باجة) ومدرسة (ابن سينا) ومدرسة (ابن خلدون) . يقول الجاحظ :

— « جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا ، وبين الصدق سبباً ، وحبب إليك التثبت ، وزين في عينيك الانصاف ، واذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، واودع صدرك البر واليقين ، وطرد عنك ذل اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الذلة ، وما في الجهل من القلة ... »(٢١) .

وجاء ابن الهيثم بذات الدستور ، ولكن بمصطلحه الخاص ، فقد صرح في مدخل كتابه (المناظر) ، بان هدفه في جميع مساعيه العلمية (استعمال العدل لا اتباع الهوى) ، وانه يتوخى في كافة مقولاته وتجاربه (طلب الحق لا الميل مع الآراء)(٢٢) . وكان ابن الهيثم متواضعاً ، نصيراً فذاً للحقيقة العلمية ، فقد ذكر عالم عربي مشهور يدعى البيهقي ، ان ابن الهيثم قال : « اذا وجدت كلاماً حسناً لغيرك فلاتنسبه الى نفسك واكتف باستفادتك منه »(٢٣) .

وانعكس الانتصار للحقيقة العلمية اولا وقبل كل شيء ، حتى في كتابات بعض علماء الحديث ، فقد اكد معاصرنا الباحث العربي ، قدري حافظ طوقان ، في كتابه المشهور « العلوم عند العرب » ، مثل ذلك ، حين قال : « وما دمنا في صدد الاخلاص للحق وتوخي الحقيقة والدقة العلمية ، لابد لنا من الاشارة هنا الى الطرق التي اتبعها علماء الحديث في الوصول الى تمييز الحديث الموضوع من الحديث الصحيح . فقد وضع جماعة منهم طرقا وقواعد للتوصل الى الحقيقة في الحديث « تتفق في جوهرها واتجاهها والانظمة التي كشفها علماء اوربا فيما بعد في بناء علم الميثودولوجية » وللقاضي (عياض) رسالة في علم المصطلح ، هي انفس ما صنف في مجموعها وقد سماها القاضي الى اعلى درجات العلم والتدقيق ، ويعترف الدكتور رستم بفضلها ، فيقول : « ... وعلى الرغم من مرور سبعة قرون عليها ، فانه ليس بامكان رجال التاريخ في اوربا وامريكا ان يكتبوا احسن منها في بعض نواحيها . وان ما جاء فيها من مظاهر الدقة في التفكير والاستنتاج تحت عنوان تحري الرواية والمجيء باللفظ يضاهي ادق ما ورد في الموضوع نفسه في اهم كتب الافرنج في المانيا وفرنسا وامريكا وانكلترا .. » . وقد ثبت ان المسلك الذي اتبعه العرب في تنقية الحديث وتمييز صحيحه من موضوعه ، قد اثر الى حد في أساليب العلماء ، إذ ابان لهم اهمية اتباع الطرق التي تؤدي الى الحق ، كما اوضح لهم منهاجاً دقيقاً للسير بموجبه للوصول الى الحقيقة والى الصحيح من الوقائع والاخبار والاقوال ، وكذلك كان للاساليب التي اتبعها علماء الحديث فضل كبير على التاريخ . واصبحت القواعد التي ساروا عليها في تحري الحقيقة هي المعول عليها لدى المؤرخين المعاصرين ومحل تقديرهم واعجابهم »(٢٤) .

وربما يبدو طوقان مبالغاً ، ولكن الوقائع التاريخية تؤيد دعواه ، فقد دفع بعض علماء الحديث ، والمتكلمين ، والفلاسفة ، والمناطقة ، ضرائب ثقيلة في غمرات مساعيهم في سبيل الحقيقة العلمية ، والعدل ، والصدق ، والاصالة .

٤ — تغليب سلطان العقل والاستهداء بالمحاكمة العقلية :

إن مما يتصل اوثق الاتصال بالمقومات الثلاثة المنهجية والتقاليد العلمية للمدرسة البغدادية في الفكر والثقافة والبحث العلمي (وهي ما سبق ان اشرنا اليه ، التجربة والتجريب ، ومشاعية العلم وديمقراطيته ، وابتغاء الحقيقة العلمية الموضوعية) هو الانصياع الى سلطان العقل الانساني وإرادته ، والاستشهاد بمعطيات المحاكمة العقلية . وفي هذا إعلاء ، ولا شك ، لشأن الانسان ، وعقله ، وإرادته ، وتغليب لها ، على ارادة كل القوى

الخارجية ، بما فيها قوى السلطة الغاشمة ، والاستبداد ، والخرافة ، والغيبيات .

ولعل من تحصيل الحاصل ان يؤمن علماء المدرسة البغدادية العربية ـ الاسلامية في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، بالعقل ، والتنوير ، والشك ، والمحاكمة العقلية ، والتمحيص . فان كل هذه المقومات الاربعة التي اشرنا اليها (اي مضافا اليها الايمان بالعقل) مترابطة جدليا ، ملتحمة عفويا إذ صح التعبير ، يؤدي احدهما الى الاخر ، ويشترط احدهما الاخر ، ويتكامل الواحد منهما بالاخر . فالتجربة والتجريب بحد ذاته هو تغليب لسلطان العقل ، وابتغاء الحقيقة العلمية بعيدا عن التعصب والأهواء هو من صلب مايقول به العقليون المسلمون وغير المسلمين ، ومثل ذلك القول بمشاعية العلم وديمقراطيته .

إن العقليين العرب كانوا رائدين أفذاذا ، وقد شقوا الطريق لغيرهم من عقليي اوربا . ويشير الفيلسوف جون لويس ، كما يشير المستشرق السوفييتي البارز : براغينكي الى ريادية عقليي الشرق ، والحضارة العربية ـ الاسلامية ، والمدرسة البغدادية في هذه الحضارة ، بصفة خاصة . وليس هنا مجال التفصيل في كل هذا ، فهو موضوع ينبغي ان يوفى حقه من البحث والتدقيق ، لانه يجلو امورا كثيرة ، غمط حق الشرق العربي ـ الاسلامي ، فيما اعلي شأن اليونان ، وعقليي اوربا المتاخرين ، دون وجه حق . إن كل ذلك مرتبط ، ولا شك بعقدة التفوق الاوربية ، التي تغذيها الدعاية الامبريالية ، والعنصرية والفاشية والصهيونية .

لقد ولدت العقلية او العقلانية ، والانسانية في الشرق ، وفي احضان المعتزلة والراديكاليين العرب والمسلمين ، في صفوف مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي . ولم يستطع الغرب الأوربي المناداة بذلك إلا في عصر النهضة ، مقتبسا كثيرا من اصول دعوته من الحضارة الشرقية ، والعربية ـ الاسلامية ، بخاصة .

إن المستشرق السوفييتي غريغوريان قد اماط اللثام عن بعض هذه الأمور في كتابه عن الفلسفة العربية ـ الاسلامية (الذي ترجمنا فصلا منه لمجلة « المورد » العدد الخاص بالفارابي) ، وجاء مستشرق سوفييتي آخر هو شيروبان (وكلا المستشرقين من ارمينيا السوفييتية) ، باضافة جدية في هذا الصدد . وبوالي كثير من المستشرقين والباحثين السوفييت (وغير السوفييت في المعسكر الاشتراكي وسواه) بحث هذه الموضوعة الحضارية الهامة .

إن معاصرنا ، الباحث العربي الذي اكثرنا استشارته ، بصفته مختصا في بحث اصول البحث العلمي ، والعلوم عند العرب ، قدري حافظ طوقان ، يدلي بدلوه ، ويقدم كثيرا مما هو مفيد وقيم ، حقا ، في هذا الخصوص . لقد الف عدة كتب يكمل احدها الاخر ، وان كانت بعض الموضوعات والمضامين تتكرر فيها (وليس دون جدوى) ، ان كتبه الاربعة :

ـ (العلوم عند العرب ، سلسلة الالف كتاب ، القاهرة) .

ـ و (مقام العقل عندالعرب) ، دار القدس ، بيروت) ؛

ـ و (الخالدون العرب) ، دار القدس ، بيروت) ؛

ـ و (تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، دار القلم ، القاهرة) ،

قيمة تعالج كثيرا من المشكلات ، والموضوعات الحضارية والثقافية العربية ـ الاسلامية في عصر العرب الذهبي ، والعصور التي تلته وهي لازمة ، لا غنى عنها لكل باحث في الحضارة العربية ـ الاسلامية ، ومدرستها البغدادية .

ان كتاب (الاسلام والحضارة العربية) لمحمد كرد علي ، لا يرقى ، على صعيد العطاء ، الى مستوى كتب طوقان ، ولعل مصادره التي استشارها ، والفترة المبكرة التي جرى تأليفه فيها ، اضافة الى منطلقات ومنهجية المؤلف ذاته ، قد اضعفت ، في مجموعها ، نسبيا من مردود الكتاب الفكري والعلمي ، قياسا الى كتب طوقان .

يفصل طوقان في كتابه القيم (مقام العقل عند العرب) في اصول العقلية والدعوة العقلانية او المذهب العقلاني لدى العرب ، وفي الدين الاسلامي عموما . ومن هذا التفصيل نفهم ان جذور المدرسة العقلية المعتزلية ، في المدرسة البغدادية في العلم والثقافة والبحث العلمي ، تمتد الى عقلية العربي نفسه ، والى اصول الدعوة الاسلامية ذاتها .

ويسوق طوقان كثيرا من الايات القرآنية في التدليل على المقام الكبير للعقل في الدعوة الاسلامية .

وهكذا ، فان العقليين العرب والمسلمين ، من

المعتزلة وغيرهم ، في العصر العباسي الاول (عصر العرب الذهبي) ، كانوا يرتكزون إلى خلفية غنية من اصول العقلانية ، خصوصاً ايام الدعوة الاسلامية الاولى ، وايام الخلفاء الراشدين .

إن طوقان على مطلق الصواب ، في تاكيده ، في تضاعيف هذا الكتاب ، (في فصل : الاجتهاد في الاسلام) ، على ان صاحب الدعوة الاسلامية ، محمداً ، نفسه ، كان قد وقف بجانب الاجتهاد رافعاً الشعار (اجتهدوا ، فكل ميسر لما خلق له) ، وتاكيده ان « سد باب الاجتهاد والتمسك بالتقليد الاعمى » هو من جملة اسباب ما اصاب العرب والمسلمين من تاخر ونكبات . ويقف طوقان مع جمال الدين الافغاني ، ومحمد عبده ، والمصلحين الاسلاميين في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وينقل نصاً للافغاني يقول فيه :
« ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود ؟ ... وبأي نص سد ؟ ومن قال لا يصح لمن بعدي ان يجتهد ليتفقه في الدين ويهتدي بهدى القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم الحديثة وحاجات الزمن واحكامه ؟ إن الفحول من الائمة اجتهدوا واحسنوا . ولكن لا يصح ان نعتقد انهم احاطوا بكل اسرار القرآن ، واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا قطرة ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده »(٣٥) .

وإذا ما عدنا الى العصر الذهبي للخلافة العربية ، نعني العصر العباسي الاول ، وازدهار المدرسة البغدادية في العلم والثقافة والبحث العلمي ، فاننا سنجد ان هذا العصر كان رائداً حقاً في إعلاء شان العقل والعقلانية والاجتهاد وحرية الرأي .

وحسبنا نقرأ ما كتبه طوقان ، بهذا الخصوص ، في كتابه « العلوم عند العرب » ، لنطلع على الانجازات الرائعة ، الرائدة ، حقاً ، للتقدم الحضاري الانساني ، لبغداد العصر الذهبي في الفكر والثقافة والبحث العلمي .

يقول طوقان : « سار المعتزلة في اسلوبهم على اساس العقل ــ وكان العقل مقياسهم ــ وهذا ما جرد كتاباتهم وآراءهم من الأساطير الخرافية ، وفي اقوال بعض المتكلمين من المعتزلة نجد ما يدل على انهم قد وضعوا الاسس التي بني عليها ــ فيما بعد (علم البحث والمناظرة) . روى الاصفهاني قال : « ... اجتمع متكلمان فقال احدهما : هل لك في المناظرة ؟ فقال على شرائط الا تغضب ، ولا تعجب، ولا تشغب ، ولا تحكم ، ولا تقبل على غيري وانا اكلمك ، ولا تجعل الدعوى دليلا ،ولا تجوز لنفسك تاويل مثلها على مذهبي ، وعلى ان تؤثر التصادق، وتنقاد للتعارف ، وعلى ان كلامنا يبقى مناظرته على ان الحق ضالته والرشد غايته ... » اليس في هذه الاقوال الجامعة ما يتجلى الروح العلمي الصحيح الذي كان له اكبر الاثر في اسلوب الكثيرين من الفلاسفة والعلماء مما جعل هؤلاء يتوخون في كتاباتهم الحقيقية ، والوصول الى الحق ، ويلجأون ، في سبيل ذلك الى السير على اساس علمي دقيق . لقد سار النظام (وهو ذو عقلية قوية سابقة لزمنها) كما يقول الاستاذ احمد امين ــ في كتاباته عن الشك والتجربة . وهما الركنان اللذان سببا النهضة الحديثة في اوربا ، فاعتبر الشك اساساً للبحث . وقد قال في هذا الشأن : «الشاك اقرب إليك من الجاحد . ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك . ولم ينتقل احد من اعتقاد الى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك ... » . وعلى ذكر الشك ، نذكر قولا لأبي هاشم البصري وهو (الشك ضروري لكل معرفة) . واستخدم النظام التجربة كما يستخدمها الان الطبيعي والكيميائي في مختبره . وجاء في كتاب الحيوان للجاحظ ، ذكر تجارب كثيرة للنظام في الحيوان وغير الحيوان لا يتسع المجال لعرضها . وقد عرضناها بشيء من التفصيل في بعض مؤلفاتنا . وهذه التجارب هي امثلة على البحث العلمي والتجربة الصحيحة القائمة على الدقة والمنطق . ووضع النظام منهجاً بديعاً للدرس ، فهو ينقد من يسير في تعلمه على طريقة حشو المعلومات في الذهن، وانه ينبغي على طالب العلم ان يتخير من الكتب الجيد المنتقى ، لان العلم ليس في جمع الكتب وحفظ ما فيها وإنما هو بالتعقل . وجاء الجاحظ بعد النظام ، وسار على غراره في منهج البحث وتحرير العقل وفي الشك والتجربة قبل الايمان واليقين . قال الجاحظ : « تعلم الشك في المشكوك فيه تعلما ، فلو لم يكن الا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج اليه .. » . ويأتي بعد ذلك التفريق بين العوام والخواص . لأنهم لا يتوقفون في التصديق ولا يرتابون بانفسهم، فليس عندهم إلا الاقدام على التصديق المجرد أو على التكذيب المجرد » . قال بسلطان العقل ، لا يسلم بشيء إلا اذا استساغه العقل ، فالادب عنده خاضع للنقد ، وكذلك فلسفة ارسطو ، وغيره من فلاسفة اليونان . حتى الحديث نقده ، ولم يقبل الاخذ به إلا على اساس العقل . واذا اختلف

الناس فالحكم للعقل لا لغيره . ومن يطلع على كتابه الشهير (الحيوان) يتبين له صحة ما ذهبنا اليه ، وانه هاجم رجال الحديث ، لانهم على رايه جماعون لا يشغلون عقولهم . وقد قال عنهم : « ولو كانوا يروون الامور مع عللها وبرهاناتها خفت المؤونة ، ولكن اكثر الروايات مجردة ، وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ودون الاخبار عن البرهان ... » . وفي هذا الكتاب دقة الملاحظة والتمحيص : فهو يلجأ الى التجربة ليتحقق من صحة نظرية او راي من الآراء . يجرب بنفسه في الحيوان والنبات ؛ ويشك ويستمر في الشك ، بل ويدعو إليه حتى تثبت صحة النظريات والآراء . وكان يفضل التجربة على كل نقل ، ولا يأخذ بقول احد حتى يتحقق من ذلك بنفسه ، والأمثلة على ذلك عديدة في كتاب الحيوان . وكان يجري في تفسيره للظواهر والطبائع حسب المعقول وطبائع الاشياء . و أبان صراحة بان العقل الصحيح يجب ان يكون اساسا من اسس التشريع »(٣٦) .

إن مما يدعم طوقان ، وزملاءه في هذا الانتصار لتقاليد ومنهجية البحث العلمي في عصر الازدهار العباسي النموذجي ؛ العصر العباسي الأول ، وعلو كعب المدرسة البغدادية في العلم والثقافة ، ان مما يدعمهم هو سيل لا ينضب من مقولات علماء بغداد ؛ والمدرسة البغدادية ، وتلامذتها في كل مكان ومختلف الازمان، تقريباً ، في إعلاء سلطان العقل والاحتكام العقلي ،كسبيل اساس ، من بين السبل الجوهرية التي لا بديل لها ، نحو الحقيقة العلمية الموضوعية ، والكشف العلمي ، والفتوحات الفكرية .

فان الرازي ، شيخ العقليين من علماء المدرسة البغدادية ، والسائر على تقاليد المعتزلة العلمية وفي اطارها الرحب ، يعقد فصلا خاصاً ، من كتابه (الطب الروحاني) ، في (فضل العقل ومدحه) ، تقتطف منه هذه المقتطفات ؛ البليغة الدلالة والمغزى :

- « ... فبالعقل فضلنا على الحيوان — غير الناطق — حتى ملكناها وسسناها وذللناها وصرفناها في الوجوه العائدة منافعها علينا وعليها ... وبالعقل ادركنا جميع ما يرفعنا ، ويحسن ويطيب به عيشنا ، ونصل الى بغيتنا ومرادنا ... »(٣٧) .

- « ... فانا بالعقل ادركنا صناعة السفن واستعمالها ، حتى وصلنا بها الى ما قطع وحال البحر دوننا ودونه ... وبه نلنا الطب الذي فيه الكثير من مصالح اجسادنا وسائر الصناعات العائدة علينا النافعة لنا . وبه ادركنا الأمور الغامضة البعيدة عنا والخفية المستورة عنا ... وبه عرفنا شكل الأرض والفلك ، وعظم الشمس والقمر ، وسائر الكواكب وابعادها وحركاتها ... »(٣٨) .

- « ... وبالعقل وصلنا الى معرفة الباريء عز وجل الذي هو اعظم ما استدركنا وانفع ما اصبنا ... وبالجملة ، فانه الشيء الذي لولاه كانت حالتنا حالة البهائم والأطفال والمجانين .. والذي به نتصور افعالنا العقلية قبل ظهورها للحس »(٣٩) .

- « ... واذا كان هذا مقداره ومحله وخطره وجلاله فحقيق علينا ان لا نحطه عن رتبته ، ولا ننزله عن درجته ، ولا نجعله — وهو الحاكم — محكوماً عليه ،ولا — وهوالزمام — مزموماً ، ولا — وهو المتبوع — تابعاً ، بل نرجع في الامور اليه ونعتبرها به ونعتمد بها عليه ... فنمضيها على إمضائه ، ونوقفها على إيقافه ، ولا نسلط عليه الهوى الذي هو آفته ومكدره والحائد به عن سننه ومحجته ، وقصده واستقامته ، والمانع من ان يصيب به العاقل رشده وما فيه صلاح عواقب أمره ، بل نروضه ونذلله ونحمله ونجبره على الوقوف عند أمره ونهيه . فانا إن فعلنا ذلك صفا لنا غاية صفائه ، وأضاء لنا غاية إضاءته ، وبلغ بنا نهاية قصد بلوغنابه ، وكنا سعداء بما وهب الله لنا منه ومن علينا به ... »(٤٠) .

واذا كان الرازي يقول مثل هذه المقولات ذات الدلالة العميقة في الانتصار للعقل ، وحرية الراي ، والاجتهاد ، فيجعل العقل حاكماً وزماماً، ومتبوعاً ، ونبراساً ؛ فان تلامذة آخرين للمدرسة البغدادية في الفكر والثقافة والبحث العلمي يرفدون مقولات الرازي بمقولات اخرى ليست اقل اهمية او اضال دلالة . فالفارابي يكرس للعقل رسالة خاصة ، بل يبني مدينته الفاضلة على العقل النقدي الواعي وبه(٤١) ، وابن سينا يمجد العقل في كافة مؤلفاته الفلسفية ، والعلمية ، و « القصصية » (بما فيها « حي بن يقظان » ، و « قصة سلامان و ابسال » ، و « قصة رسالة الطير »)(٤٢) وابو العلاء المعري يترجم كثيراً من تعاليم المعتزلة ، والمدرسة البغدادية ، والحركات

الراديكالية الفكرية في الاسلام ، شعراً بليغاً ، نقتطف منه هذه الأبيات(٤٢) :

ايها الغر إن خصصت بعقل
فاسألنه فكل عقل نبي

كذب الظن لا إمام سوى
العقل مشيراً في صبحه والمساء

فاذا ما اطعته جلب الرحمة
عند المسير والارساء

فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة
إذا لم يؤيد ما اتوك به العقل

اللب قطب والامور له رحى
فيه تدبر كلها وتدار

تفكر فقد حار هذا الدليل
وما يكشف النهج غير الفكر

فاحذر ولاتدع الامور مضاعة
وانظر بقلب مفكر متبصر

فكروا في الأمور يكشف
لكم بعض الذين تجهلون بالتفكير

فشاور العقل واترك غيره هدراً
فالعقل خير مشير ضمه النادي

عليك العقل وافعل ما رآه
جميلا فهو مشتار الشوار

إذا تفكرت فكراً لا يمازجه
فسادعقل صحيح هان ماصعبا

خذوا في سبيل العقل تهدوا بهديه
ولا يرجون غير المهيمن راجي

إذا رجع الحصيف الى حجاه
تهاون بالمذاهب وازدراها

نخذ منها بما اداه لب
ولا يغمسك جهل في صراها

سألت منجمها عن الطفل الذي
في المهد كم هو عائش من دهره

فاجابها مائة لياخذ درهما
واتى الحمام وليدها في شهره

بل ان هذا الشاعر الراديكالي المتطرف(٤٤) يمضي في النهج العلمي حتى نهاية الشوط ، احيانا فيقول بما يقوله العديد من العلماء المعاصرين الان: انه لا يقين مطلق ، ولا إطلاق ، بل هو الاجتهاد ، وكل شيء نسبي :

أما اليقين فلا يقين وإنما
اقصى اجتهادي ان اظن واحدسا

ولعل طوقان كان محقا ، تماما ، حين قرر، بخصوص اشعار ابي العلاء العقلانية الناقدة هذه، فقال : « ويرى ابو العلاء ان سبب الفساد في مجتمعه يعود الى عدم الاصغاء الى العقل ، والى إهماله وسيطرة المصالح الخاصة والأهواء . ولقد تدبرنا عيوب المجتمع في القرن العشرين فوجدنا انها لا تختلف كثيراً عن عيوب عصر ابي العلاء ، والسبب في الحالين وفي أسباب الفساد واحد ـ هو عدم الرجوع الى العقل وغلبة الغايات والاغراض »(٤٥) .

أما إخوان الصفا فاعتبروا العقل اشرف الموجودات ، بل جعلوه رئيسهم وإمامهم الذي به يأتمون ويهتدون ، فهم يقولون :

ـ « واعلم انه ما من جماعة تجتمع على امر من امور الدين والدنيا وتريد ان يجري امرها على السداد ، وتكون سيرتها على الرشاد ، إلا ولابد لها من رئيس يراسها ليجمع شملها، ويحفظ نظام امرها ، ويراعي تصرف احوالها ، ويرم على الانتشار جماعتها ، ويمنع من الفساد صلاحها ، ذلك ان الرئيس ايضا لابد له من اصل يبنى عليه امره ويحكم به بينهم . وعلى ذلك الامر يحفظ نظامهم ـ ونحن قد رضينا بالرئيس على جماعة إخواننا ، والحكم بيننا بالعقل الذي جعله الله تعالى رئيساً على الفضلاء من خلقه . . . ورضينا بموجبات قضايا على الشرائط الذي ذكرناها في رسائلنا واوصينا بها إخواننا . . فمن لم يرض بشرائط العقل وموجبات قضاياه ، ولم يقبل تلك الشرائط التي اوصينا بها إخواننا او خرج عنها بعد الدخول فيها ، فعقوبته في ذلك ان نخرج من صداقته ونتبرأ من ولايته ولا نستعين به في امورنا ولا نعاشره في معاملتنا ولا نكلمه في علومنا ونطوي دونه أسرارنا ونوصي بمجانبته إخواننا . . . »(٤٦) .

ومع ذلك ، فان طليعية افكار إخوان الصفا إنما تستمد اصولها من تعاليم مدرسة المعتزلة البغدادية . فان طوقان يروي في كتابه (مقام العقل عند العرب) ، الذي اسلفنا الاشارة إليه ان تمجيد المعتزلة للعقل بلغ حداً «دفعهم الى محاولة إخضاع النقل للعقل ، وتحوير العقائد الدينية بحيث توافق التعاليم الفلسفية وقالوا : « اذا تعارض النقل والعقل وجب تقديم العقل لأنه أساس النقل »(٤٧)، وروى في موضع آخر ، من كتابه الانف ذكره ، ان

ابا هذيل العلاف ،احد ابرز رجال المعتزلة (واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد) ، وكان يقول : « إن الانسان مكلف بالاشياء التي يستطيع العقل التمييز فيها بين الخير والشر ولو لم تصل إليه اوامر الشرع ، وإن قصر في ذلك استوجب العقوبة نيجب عليه الصدق والعدل والاعراض عن الكذب والجور ولو لم يصله شرع في ذلك لان العقل يستطيع ان يدرك حسنها وقبحها لما فيها من صفات حسنة او قبيحة »(٤٨) .

وقد درس الباحثون العرب المعاصرون وغيرهم تعاليم المعتزلة ، إلا انهم لم يفوها حقها ، فلا زال المجال متسعاً لكثير من الدراسات الميدانية المدققة .

وقد روى طوقان ان الباحث العربي المعاصر شفيق جبري قارن تعاليم الجاحظ بديكارت ، ووجده ـ وهو محق في ذلك ـ رائدا للشك سبيلا للوصول الى يقين المعرفة ، وقال في ذلك : « ... فالادلة والبراهين من اعمال العقل ، وهذه الطريقة إنما هي طريقة ديكارت ملاكها العقل ومدار طريقته على هذه الكلمة : لا تصدق الا ما كان واضحاً ، صدق ما كان واضحاً » . فالوضوح إنما هو اصل الأمر في اليقين . فما ينبغي لقوة من القوى الظاهرة ان يكون لها سلطان على حرية تفكيرنا . وما القوى الظاهرة إلا السلطة والاوهام والمصلحة والاحزاب ... فما اشبه قول ديكارت لا تصدق الا ما كان واضحاً بقول الجاحظ « لا اجعل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الادلة »(٤٩) .

وفيما يبدو ، فان كلا من طوقان ، وشفيق جبري ، على حق ، فان الجاحظ كان إماماً من ائمة العقليين العرب ، واحد اكبر رادة العقليين في العالم ، وحسبنا ان نشير (إضافة الى ما أسلفنا الاشارة إليه من مقولاته) الى هذه المقولة الجاحظية الحاسمة :

ـ « فلا تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب الى ما يريك العقل . وللأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقل . **والعقل هو الحجة** »(٥٠) .

ولعل طوقان مصيب في فذلكته ، حين قرن التراث التقدمي عند العرب والمسلمين بالمعاصرة ، مستنتجا مثل هذا الاستنتاج البليغ ، الذي نقتطفه بنصه :

ـ « والان ... وقد أشرف موضوع (سلطان العقل عند المعتزلة) على ختامه لابد لنا من القول : إن احياء روح المعتزلة في اعزاز العقل وتمجيده ، والرجوع اليه واعتباره الحكم والدليل ـ نقول إن إحياء هذه الروح يوجد الجراة ويفتح الآفاق امام الفكر ويدفع الى إعمال العقل وتحريكه ، فلا تقوم مع هذه حركات رجعية ولا تنجح محاولات لايقاف مجرى التقدم . ذلك ان هذه المحاولات وتلك الحركات لا تثمر إلا في مجالات كبت الفكر وتجميده وتقديس التقليد »(٥١) .

٥ ـ ملاحمة التنظير بالتطبيق :

إن الاقنوم الخامس من اقانيم منهجية وتقاليد مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي هو ـ ملاحمة التنظير بالتطبيق ، أو الفكر النظري بالممارسة العملية . إن كافة هذه الاقانيم (التجربة والتجريب ،مشاعية العلم وديمقراطيته، ابتغاء الحقيقة الموضوعية ، الايمان بالعقل والعقلانية وحرية الراي ، وملاحمة النظر بالعمل) تتلاحم ، معا ، مترافدة ، متكاملة ، لتكون صلب المنهجيةوالتقاليد التيعملت بها المدرسةالبغدادية العلمية ـ الثقافية ، بهذه الدرجة او تلك ، وبهذا **الشكل أو ذاك** .

إن جابر بن حيان اول ، وابرز من قال بوجوب ملاحمة الفكر النظري بالممارسة العملية . فهو في كتاب الميزان ـ احد أقيم كتبه واخطرها ـ يقول :

ـ « إن كل نظرية تحتمل التصديق والتكذيب لا يصح الاخذ بها إلا مع الدليل القاطع »(٥٢)

ويقول في كتاب آخر له ،هو (كتاب الخواص الكبير) ، المقالة الاولى ، مقولة عظيمة المغزى ، بهذا الخصوص :

ـ « إننا نذكر في هذه الكتب خواص ما رايناه فقط ، دون ما سمعناه او قيل لنا وقرأناه ، بعد ان امتحناه وجربناه فما صح أوردناه وما بطل رفضناه وما استخرجناه نحن ايضاً قايسناه على احوال هؤلاء القوم »(٥٣) .

كان جابر ، عالم بغداد المبرز ، يعرف ، جيدا ، العلاقة العضوية بين « العلم » و « العمل » في العملية الكيميائية ، والفعالية العلمية ، و « الصناعة » ، اي التكنولوجيا ، عموماً . فهو لا يوصي بالعمل للعمل ، او التجريب للتجريب ، بل يلاحم بينهما بذكاء ووعي ، فكل « صناعة » في رأيه « لابد لها من سبق العلم في طلبها للعمل ، لان

العمل إنما هو إبراز ما في العلم من قوة الصانع الى المادة المصنوعة لا غير »(٥٤).

واوصى جابر بمراعاة القوانين الموضوعية ، وباحترام الواقع والوقائع المادية ، والحقائق الملموسة ، فان « جهل الجاهل بأمر من الامور ليس سبباً لارتفاع ذلك الأمر من العالم ، فانه ليس لأن كثيراً من الناس لم يسمعوا ولم يعرفوا كيف السبب في امور ، فاذن لا يكون لهذه وجود فيكون جهل الجاهل سبباً لعدم الشيء الكائن فان هذا جهل واول في العقل »(٥٥) .

وبالطبع ، كان جابر لا يتلهى بالتجربة والعمل ، بل هو يقوم بذلك ، ضرورة ، وتطبيقاً لافكار ونظريات سابقة ، فالنظر اولا ، والعمل ثانيا . وهو يقول في ذلك :

ـ « العلم سابق . وكل من لم يسبق الى العلم لم يمكنه إتيان العمل ، وذلك لأن العلل إنما تبرز الصورة في المادة على قدر ما تقدم من العلم وإلا فمال العمل ياليت شعري »(٥٦) .

إن جابر ، ومن ورائه مدرسة بغداد العلمية؛ كلها ، ضد العشوائية والاهدار ، فالتطبيق هو اختبار لفروض ونظريات ، ولكنه ، ايضا ، ضد احتقار العمل اليدوي ، والاستنكاف عن الممارسة (كما كان يفعل علماء اليونان) . من هنا تنطلق نصيحة جابر بن حيان (مجسداً في ذلك طليعية وريادية المدرسة البغدادية العلمية) الى الكيميائي: « اتعب اولا تعباً واحداً ، وانظر واعلم ثم اعمل ــ فانك لاتصل اولا ــ ثم تصل الى ما تريد »(٥٧) .

هكذا ، إذن ، « انظر واعلم ثم اعمل » ، هذا هو شعار جابر ، وعلماء بغداد ، مركز العلم والثقافة العلمية ، في عصرها ، بحق .

إن العالم في العلوم الطبيعية ينبغي ان يقيم في المختبر ، وبذلك يكون التطبيق لفروضه ونظرياته ، كما يكون الربط للعلوم النظرية بالتكنولوجيا . هذا هو ما انتهى اليه علم جابر ، والعلماء البغداديين ، والعلماء الذين سيتتلمذون على ايديهم وعلى كتبهم وتعاليمهم ، في الأجيال والعصور اللاحقة . يقول جابر في ذلك :

ـ « من كان دربا كان عالما حقاً ومن لم يكن دربا لم يكن عالما ، وحسبك بالدرجة في جميع الصنايع إن الصانع الدرب يحذق وغير الدرب يعطل »(٥٨) .

ومؤدى ما يقوله جابر ، ان النظرية بلا تطبيق ، والفكر بلا ممارسة ، امر عقيم ، مثلما يكون التطبيق او التجربة دون نظرية امراً عقيما ، واهدارا ، هو الاخر ، وهذا بعينه ما يقوله علماء اليوم ، سواء كان ذلك في العلوم الطبيعية ، ام العلوم عامة ، ام السياسة ، والعلوم الادارية والاجتماعية ، جميعاً .

إن النظريين من ارستقراطي الفكر ، على الطريقة اليونانية ، ممن يستنكفون عن الممارسة والعمل اليدوي والاختبار ، يظلون قاصرين ، محبطين ، ويكون انتفاع المجتمع بهم معدوماً او كالمعدوم . يقول جابر ، ملخصا بعض معطيات الحياة العلمية وجدليتها :

ـ « كم من دارس إذا بلغ الى العمل وقف ، فيكون اصحاب الصناعة انفذ في ذلك الأمر من العالم الفائق »(٥٩) .

كما يقول ، على صعيد آخر ، متمماً مقولاته هذه :

ـ « ما افتخرت الحكماء بكثرة العقاقير ، وانما افتخرت بجودة التدبير . فعليك بالرفق والتاني وترك العجلة » .

لقد كان جابر بن حيان ، والجاحظ ، والرازي ، وسواهم من علماء مدرسة بغداد العلمية ذوي منهجية علمية متكاملة ، نسبة الى عصرهم ، ورائدين افذاذا في علومهم وتجاربهم ، وفي فلسفة علومهم ايضا . يصف جابر منهجه فيقول قولا ذا دلالة بليغة :

ـ « ... وقد علمته بيدي وعقلي من قبل وبحثت عنه حتى صح وامتحنته فما كذب »(٦٠) .

هذا هو دستور جابر : نظر وعمل . فصل بين الاثنين ، ولا تغليب لاحدهما على الاخر

إنها جدلية العلم والعمل الذي اتت بها مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، وكانت رائدة فيها، سابقة لكافة المدارس الأوربية اللاحقة .

ومن المهم ان ننقل الاستنتاجات التي تطلع بها اخلاف جابر بن حيان وعلماء المدرسة البغدادية ، نعني ــ علماء العرب المعاصرين ، من دراستهم لجابر ومعطيات علومه . يقول زكي نجيب محمود ، في كتابه « جابر بن حيان » : « إن من حق جابر ان نسجل له ، في موضوع الاستقراء ، وانه يؤدي الى الحكم الاحتمالي

فقط ، دون اليقين ، سبقا لرجال المنهج العلمي في العصور الحديثة الذين اوشكوا اليوم ، منذ ديفيد هيوم ، ان يكونوا على اجماع في هذا حتى اصبح من ابرز الخصائص التي تميز العلم اليوم انه احتمالي النتائج ما دام قائماً على اسس استقرائية »(٦١) .

اما مصطفى لبيب ، دارس جابر وعلماء المدرسة البغدادية في الكيمياء وتلامذتهم ، عموما ، فانه يسجل جابر « في ميدان الاهتمام بالبحث التجريبي وتفصيل شروطه وتحديد إمكانياته ومداه سبقا لاعلام البحث وفلاسفة العلم في اوربا وسبقاً للمحدثين والمعاصرين المهتمين بمفاهيم البحث والقياس الكمي في العلوم الطبيعية »(٦٢).

كما يسجل الباحث لجابر ، طليعة ونتاج مدرسة بغداد العلمية ، في ان واحد معا ، تواضعه ، تواضع العلماء الحقيقيين ، وتقديسه حرية الراي والكلمة ، وولعه بالمناظرة في سبيل الاقناع . فقد قال جابر في كتاب البحث وهو يستعرض نظرية الميزان :

ـ « انا نحن قد اخترنا لانفسنا نوعاً من الاوزان ممن اختار ان يعمل به فهو له وان اختار ان يرسم لنفسه رسما اخر فذلك إليه . وليس ترتيبنا لذلك امراً لابد منه بل ذلك لكل احد إذا علم القياس بين افعال الطبائع يرتبه على اختياره كيف ما شاء »(٦٣) .

ويقول باحثنا في الختام « ان العالم المنصف في راي (جابر) ـ « إذا ذكر شيئا احتج عليه وله واخذ حقه من خصومه ووفاهم حقهم وإلا فقد وقع العناد حماقة وجهلا »(٦٤) ... ولم يكن جابر عالما محققا فحسب بل كان فيلسوفا للعلم ، وكان بالاضافة الى ذلك ذا نظرة جوانية عميقة تقدر إمكانية الواقع وتحترم حدود التجربة المحسوسة ومع ذلك فهي تتطلع دائما الى « الماوراء » وتناهض كل دعوة قطعية « دجماطيقية » ، ومن ابى ذلك ازمه ، على حد تعبيره ، ان ينكر وجود اشياء كثيرة وهي موجودة »(٦٥) .

ونعتقد ان مصطفى لبيب و طوقان واضرابهما ممن درسوا جابراً بن حيان ، مثل هذه الدراسة الموضوعية ، وانتهوا الى مثل هذه الاستنتاجات (التى عرضنا لشىء منها) ، نعتقد انهم مبررون بالوقائع ، والادلة المادية الملموسة .

ان التجريب ، وربط النظر بالعمل لدى جابر يخضع لضوابط صارمة ، وهاك مثلا لما يقوله جابر متمما مقولاته السابقة :

ـ « إياك ان تجرب او تعمل حتى نعلم ويحق ان تعرف البيان من اوله الى آخره بجميع تنقيته وعلله ثم تقصد لتجرب »(٦٦) .

وينضم الى جابر ، على هذا الصعيد ، الجاحظ معلم العقل والأدب ، عالم بغداد المعتزلي الكبير ، وخصوصاً في كتابه الشهير « الحيوان ».

فان الجاحظ يجابه زعماء المدرسة الفكرية اليونانية ، من ارستقراطي الفكر النظري ، امثال ارسطو ، ويساجلهم ، ويحاورهم ، و «يقاتلهم» بكل فنون المقاتلة ، بما في ذلك التهكم والسخرية المتبناة على المحاكمة العقلية. انالجاحظ يأخذعلى هؤلاء (رغم جلالهم العلمي وسبقهم وفضلهم) ولوعهم النظري ، واستبعادهم عن التجربة والعمل ، مما يضع مقولاتهم موضع الاحكام الاعتباطية ، بل يضع بعضها في مصاف الخرافة ، والمستحيل .

يعلق الجاحظ على مزاعم ارسطو في « ان اصنافاً من السباع المتزوجات المتلاقحات ، مع اختلاف الجنس والصورة ، معروفة النتاج » ، فيقول مقولة ذات دلالة بليغة ، مشددا على ضرورة اقتران النظر بالعمل ، وجعل التطبيق (التجربة) المحك الامثل للنظريات :

ـ « وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل ، وما نظن بمثله ان يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها اشباهه من العلماء ، وما عندنا في معرفة ما ادعى الا هذا القول »(٦٧)

على ان الجاحظ الناقد العلمي يواجه أرسطو (وهو « المعلم الاول ») بالسخرية لانه يزعم شيئا هو خرافة او كالخرافة ، ولا يمكن للجاحظ ،وهو العالم التجريبي البغدادي ، الذي يقدم التجربة والاحتكام والعقل والتطبيق على كل شيء ، ان يتقبل مثل هذه الخرافة . فارسطو زعم ان ثوراً الفح فور إخصائه ، فتناول الجاحظ هذا الزعم ، بجدليته الثاقبة :

ـ « فاذا افرط المديح ، وخرج من المقدار ، او افرط التعجيب ، وخرج من المقدار ، احتاج صاحبه الى ان يثبته بالعيان ، او بالخبر الذي لا يكذب فعله وإلا فقد تعرض للتكذيب »(٦٨) .

ولا يلبث ان يضيف الى ذلك مفذلكاً، استنتاجه الحاسم :

- « والصدور تضيق بالرد على اصحاب النظر ، وتضيق بتصديق هذا الشكل »(٦٩)

ترى ، هل كان هناك دستور للبحث العلمي محدد لدى مدرسة بغداد العلمية ؟

لقد تحدثنا عن هذا الدستور ، مسمين بعض مقولات علماء بغداد من العرب والمسلمين فقرات في هذا الدستور العلمي . الا ان اخوان الصفا كفونا المؤونة ، فطلعوا علينا ، منذ وقتهم الرائد ذاك ، والسباق في كثير من المآثر العلمية والبحثية والفكرية والفلسفية والمنطقية ، بشيء يمكن تسميته دستوراً متكاملا لمدرسة بغداد في العلم والثقافة والبحث العلمي .

فقد جاء في إحدى رسائل اخوان الصفا(٧٠)، أن هؤلاء الأخوان أوصوا باتباع الدستور الآتي في البحث العلمي ، وهو منهج متكامل ، بحد ذاته ، رائد في كثير منه . إنها تسعة أحكام ، كما وردت في الجزء الأول :

السؤال الأول : هل هو ؟ يبحث عن وجدان الشيء أو عدمه ، والجواب : نعم أو لا .

السؤال الثاني : ما هو؟ يبحث عن حقيقة الشيء.

السؤال الثالث : كم هو ؟ يبحث في مقدار الشيء

السؤال الرابع :كيف هو ؟ يبحث عن صفة الشيء

السؤال الخامس : اي شيء هو ؟ يبحث عن واحد من الجملة أو عن بعض من الكل .

السؤال السادس : اين هو ؟ يبحث عن مكان الشيء أو رتبته .

السؤال السابع : متى هو ؟ يبحث عن زمان كون الشيء .

السؤال الثامن : لم هو ؟ يبحث عن الشيء المعلول

السؤال التاسع : من هو ؟ يبحث في التعريف للشيء .

اما ابن الهيثم : تلميذ المدرسة العلمية البغدادية ، فهو يتمم مقولات إخوان الصفا ؛ فيقدم دستوراً عملياً ، يتفق ، في الجوهر ، مع دستورهم ، ومع كل الدساتير العملية لعلماء مدرسة بغداد الفكرية وامتداداتها (كجابر والجاحظ والكندي والخوارزمي والرازي وثابت بن قرة ، وابن سينا وتلامذته ، فيما بعد ؛ ؛ ويضيف شيئاً مهماً هو من خصوصيات منهج واسلوب ابن الهيثم ؛ لكنه يحمل جوهراً عمومياً، استثنائياً .

فان ابن الهيثم وصف ،في كتاب (المناظر)، منهجه في البحث العلمي ، والابداع الفكري ؛ على النحو الآتي :

- « ... ونبتدىء في البحث باستقراء الموجودات ، وتصفح احوال المبصرات ، وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الابصار وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الاحساس . ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والتدريب مع انتقاد المقدمات والتحفظ من الغلط في النتائج ؛ **ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق الذي يثلج الصدر** ، ونصل بالتدرج والتلطف الى الغاية التي عندها يقع اليقين، ونظهر مع النقد **والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم به مواد الشبهات** ... وما نحن مع ذلك براء مما هو في طبيعة الانسان من كدر البشرية . ولكننا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الانسانية ... »(٧١) .

وفي ضوء مثل هذا « الدستور العملي » في منهجية البحث العلمي ، لدى عالمنا ابن الهيثم ، والتي وضعت اسسها المكينة مدرسة المعتزلة الفكرية في بغداد ، في مثل هذا الضوء يبدو ما يقوله مصطفى نظيف ، الباحث المصري المعاصر ، في منهجية ابن الهيثم ومساره البحثي ، ودلالته، ورنينه المعاصر ، مبرراً تمام التبرير :

- « ... ان ابن الهيثم قد عمق تفكيره الى ما هو ابعد غوراً مما نظن أول وهلة ، فادرك ما قال به من بعده (ماك) و (كارل بيرسون) وغيرهما من فلاسفة العلم المحدثين في القرن العشرين . ادرك الوضع الصحيح للنظرية العلمية ، وادرك وظيفتها الحقة بالمعنى الحديث ويمكن القول انه من نصوص اقوال ابن الهيثم ، ان تفكيره اتجه الى الوجهة التي يتجه اليها التفكير العلمي الحديث ... وانه ليس من المغالاة ايضاً القول انه قد ادرك عن بينة الطريقة الحديثة في البحث العلمي ، وادرك الأوضاع الصحيحة الى تسمية الحقائق العلمية »(٧٢) .

أما قدري طوقان فقد ذهب الى ان ابن الهيثم ، تلميذ المدرسة البغدادية ، قد كان سابقا فذا في الطريقة الاستقرائية العلمية ، فهو يقول: « ... وابن الهيثم في طريقته العلمية التي اتبعها في بحوثه وكشوفه الضوئية قد سبق بيكون في طريقته الاستقرائية ، وفوق ذلك سما عليه »(٧٣)، « وكان اوسع منه افقا واعمق تفكيرا »(٧٤) .

ــ ٤ ــ

فلنلق نظرة خاصة ، الآن ، على مراكز بغداد العلمية والثقافية والفكرية ، التي أهلتها لانجازاتها الضخمة ، الفريدة في عصرها ، والرائدة بالنسبة للأزمان والعصور التي تلتها .

إن المنهجية والتقاليد العلمية التي طمحت بها المدرسة البغدادية في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، في العصر العباسي الأول ، كان لابد ان تتبلور في مراكز علمية وثقافية . واذا ما انعمنا النظر في جامعة بغداد « المستنصرية » ، وفي انظمتها وبحوثها وجهودها العلمية ، فاننا سنجد انها تطوير لجهود علماء المدرسة البغدادية ومراكزها العلمية والثقافية. لقد وضع الرشيد، والمأمون ، بخاصة ، حجر الأساس للصرح العلمي والثقافي في بغداد ، وهو الصرح الذي سيتوج ، في قمته ، بالجامعة المستنصرية ، والنظامية ، والعصمتية ، والمسعودية .

إن دار الحكمة ، ومراكز الترجمة ، والحلقات والمدارس العلمية والفكرية المبثوثة في زوايا بغداد ، والكوفة ، والبصرة ، كانت ، ولا شك ، اصولا لجامعة المستنصرية ، فيما بعد ، ومراصد بغداد الفلكية ، وسواها من مراصد الحواضر العربية والاسلامية .

فقد كانت (دار الحكمة) او (خزانة الحكمة) او (بيت الحكمة) ، خزانة للرشيد والمأمون ، الخليفتين العربيين اللذين أسسا امجاد ومآثر عصر العرب الذهبي ، العصر العباسي الأول . وكانت هذه الدار حافلة بالخزان ، والكتاب ، والمترجمين اللامعين ، « امثال بني موسى بن شاكر المنجم ، وهم ثلاثة إخوة : محمد واحمد والحسن ، ثم يحيى بن أبي منصور المنجم المأموني ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، وسعيد بن هارون الكاتب ، وحنين بن اسحق العبادي ، وابنه اسحق ، وابن اخته حبيش بن الحسن الأعسم ، وثابت بن قرة ، وعمر بن الفرخان الطبري »(٧٥) .

وقد انضمت الى هذه الخزانة ، خزائن اخرى ، في الأعصر العباسية اللاحقة، منها خزانة عضد الدولة البويهي ، وخزانة الوزير ابي نصر ، التي يذكر ابن الجوزي بخصوصها » ... ان ابا نصر ابتاع في سنة ٣٨١ هجرية دارا بالكرخ ... وعمرها وبيضها وسماها « دار العلم » ، وحمل اليها كتب العلم من كل فن حتى بلغت اكثر من عشرة آلاف مجلد . وعمل لها فهرستا ، ووقف عليها الوقوف . ورد النظر في أمورها ومراعاتها والاحتياط عليها إلى اربعة من كبار علماء بغداد »(٧٦) . ومن هذه الخزائن ، ايضا ، خزانة الوزير ابي منصور بن فنه ، وخزانة أبي الحسن محمد بن هلال الصابي ، وخزانة الناصر لدين الله العباسي ، وخزانة المستنصر بالله » وهي الخزانة التي نقل منها فيما ذكره المؤرخون نحو (٨٠) الف كتاب الى خزانة المستنصرية »(٧٧) .

هل عرفت بغداد ، في حياتها العلمية الموارة، « الجامعة » ، بالمعنى المتعارف عليه ، إضافة الى المراكز العلمية والثقافية التي تحدثنا عنها ، والتي كانت من سمات العصر العباسي الاول ؟

إننا نجد الجواب الشافي ، عن هذا السؤال، لدى الاستاذ المرحوم ناجي معروف ، احد ابرز باحثي بغداد المعاصرين .

يقول ناجي معروف ، في بحثه الذي اسهم به في كتاب « بغداد » ، الذي أسلفنا الاشارة إليه :

ــ « يمكننا ان نطلق لفظ « الجامعة » على آخر مرحلة وصلت اليها الدراسة عند المسلمين في القرون الوسطى ، إذا اردنا بالجامعة المؤسسة العلمية التي تحتوي على عدد من الكليات والمعاهد والأقسام العلمية التي تحتوي على عدد من الكليات والمعاهد والاقسام العلمية بهيآتها الخاصة بها ، ووسائل ايضاحها ، واموالها المرصدة لها ، وما تقوم به من بحوث وتحريات في مختلف ميادين المعرفة النظرية والتقاليد التي كانت تأخذ بها ... وقد ثبت لنا بعد تحرياتنا فيما انشأه المسلمون في بلادهم الواسعة من معاهد العلم ومن مدارس احادية وثنائية وثلاثية ورباعية ومن دور القرآن ، ودور العلم ، ومدارس للطب الخ .

ان المستنصرية ببغداد ، كانت اول جامعة عراقية بل اول جامعة اسلامية في العالم الاسلامي،

كما تبين لنا من دراسة الجامعات الأوربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين وما بعدهما انها قد سبقت كل الجامعات الاوربية أيضاً .

— « وقد جعل المستنصر لمدرسته هذه ميزة اخرى على المدارس الاسلامية . وذلك انه شرط ان يضاف الى مدرستي الفقه والطب ، فيما ذكر ابن الساعي ، داران اخران لعلمين مهمين من علوم الشريعة الاسلامية : اولاهما ، دار القرآن ، والثانية دار السنة ، وبذلك يمكننا ان نقول : ان المستنصر بالله اول خليفة في العالم الاسلامي ، جمع في آن واحد المذاهب الفقهية الاربعة وعلوم القرآن ، والسنة النبوية ، وعلم الطب ، والعربية ، والرياضيات ، والفرائض ... وجعلها في مكان واحد يتألف من مبان عديدة متصاقبة، أو متجاورة، اطلق عليها اسم (المستنصرية) بعضها باق . وبعضها درس ، وعفى عليه الزمن . ولم تكن المدارس قبل المستنصرية كذلك . فقد كانت مدارس الطب تبنى مستقلة عن مدارس الفقه ، أو دور الحديث ، أو دور القرآن ، كالبيمارستان العضدي بالجانب الغربي من بغداد ، ومدرسة الطب التي انشأها ابو المظفر باتكين بالبصرة سنة ٦٢٩ هجرية في خلافة المستنصر ، ومدارس الطب في دمشق ، كالمدرسة الدخوارية سنة ٥٦٥ هجرية ، واللبودية سنة ٦٦٤ هجرية ، والربيعية سنة ٦٨٦ هجرية ... »(٧٨) .

ويشير ناجي معروف إلى ميزات اخرى امتازت بها المستنصرية هي « تعيين المشاهرات النقدية ، وإجراء الجرايات العينية الدارة يومياً على ارباب المستنصرية من فقهاء وطلاب ، ومدرسين ، وموظفين ومستخدمين ، وكانوا نحو خمسمئة شخص »(٧٩) ، و « تأسيس حمام في المستنصرية رتبه المستنصر بالله لجميع ارباب المشاهرات ، ويدخلون اليه متى احتاجوا ، وفيه من يقوم بخدمتهم ، « وهو امر لم يسبق اليه » ، كما يقول احمد بن عبدالله البغدادي في كتابه (عيون اخبار الاعيان) »(٨٠) .

ومن كل هذا يتضح ان المستنصرية كانت ، بالفعل ، اول جامعة عربية — اسلامية في الشرق، بل وفي العالم ، أيضاً، وان ما كان فيها من انظمة، وامتيازات ، وميزات ، جعلها ، بالفعل ، جامعة حقيقية . وتلكم ، مأثرة كبرى أخرى من مآثر مدرسة بغداد العلمية ، الثقافية ، كان لها امتداداتها وتأثيراتها اللاحقة ، في إنشاء جامعات إسلامية أخرى ، كالجامع الأزهر الذي أنشأه الفاطميون في القاهرة وجامعة القيروان في تونس، وعديد من الجامعات الأندلسية . ولعله من المفيد ان نشير ، مرة اخرى ، الى ما كتبه ناجي معروف ، استطراداً ، بصفته المصدر المعاصر الوحيد حتى الآن (مما تيسر بين يدينا) في الحديث عن المستنصرية . يقول ناجي معروف :

— « ولما كانت بغداد قد سبقت جميع البلاد العربية والاسلامية ، وسنت لها بناء المدارس الرباعية على المذاهب الاربعة ، فقد تتبعنا اخبار المدارس في البلاد الاسلامية التي انتشرت فيها المذاهب الفقهية ،فوجدنا ان بغداد احتوت على اربع جامعات .كما وجدنا ان مصر اول بلد عربي حذا حذو بغداد ، حيث انشأت فيه اول مدرسة على المذاهب الاربعة ، بعد عشر سنوات من افتتاح المستنصرية . وتكاثرت هذه المدارس بالقاهرة حتى اننا عثرنا على اخبار سبع جامعات فيها . وكانت حلب البلد العربي الثالث الذي انشأت فيه مدرسة واحدة على المذاهب الاربعة بعد مضي اكثر من قرن من الزمن على افتتاح المستنصرية . وكانت مكة البلد العربي الرابع الذي انشأت فيه ثلاث مدارس رباعية في القرن التاسع الهجري »(٨١) .

إن المدارس (الجامعات) البغدادية الأربع هي ، على حد ما يقول الاستاذ ناجي معروف ، المستنصرية ، والبشيرية ، والعصمتية ، والمسعودية . فاما المستنصرية فقد جرى الحديث عنها ، واما البشيرية فهي ، وفقاً لما يقوله الاستاذ معروف ، أيضاً ، كانت قد استمدت اسمها من السيدة « باب بشير » ، زوجة الخليفة العباسي المستعصم . واما العصمتية (٦٧١ هجرية — ١٢٧٢ ميلادية) ، فهي كما يقول استاذنا الفقيد معروف ، قد شيدت بعد الغزو المغولي لبغداد بخمس عشر سنة « امرت بانشائها في ظاهر بغداد بجوار مشهد عبيد الله بن عمر العلوي السيدة « شمس الضحى » شاه لبنى بنت عبدالخالق بن ملكشاه ابن السلطان صلاح الدين الايوبي ، وهي ام رابعة العباسية حفيدة

المستعصم ، وقد وقفتها على الطوائف الأربع »(٨٢) . واما المسعودية فتنسب الى « خواجة مسعود بن سديد الدولة » ، وهو من أكابر بغداد ... جعلها وقفاً على المذاهب الاربعة على صفة المستنصرية ، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة »(٨٣) .

لقد كان لعلماء مستنصرية بغداد دور كبير في نشر الثقافة العربية ـ الاسلامية ليس في بغداد فحسب ، بل وفي سائر أرجاء الدولة الاسلامية ، وخارج حدودها أيضاً . يقول باحثنا معروف : « نستطيع ان نؤكد ان علماء المستنصرية كان لهم الفضل الاكبر في نشر الثقافة الاسلامية في أحلك العصور واشدها ظلاماً . فقد كانوا خلال فترة الحكم المغولي ، اي منذ سقوط بغداد بيد هولاكو سنة ٦٥٦ هجرية حتى تدميرها بيد تيمور لنك سنة ٧٩٥ هجرية وسنة ٨٠٣ هجرية ، يحملون مشاعل العلم ، وينشرون نتاج الفكر الاسلامي مدة قرن ونصف القرن »(٨٤) .

ويذكر معروف ، مستنداً ، فيما يبدو ، إلى أوثق المصادر الاصلية ، انه كان من بين كبار مدرسي جامعة المستنصرية ورجالها أساتذة مشهود لهم بالفضل مثل جمال الدين العاقولي وابنه وحفيده ، وآل الجوزي ،ومؤرخون بارزون كالقطيعي وابن النجار ، وابن الساعي ، وابن الفوطي ، والدهلي ، وفقهاء معروفون كابن الساك الحنفي « وهو الذي اطلق عليه لقب (استاذ) وانتهت اليه الرياسة بالمستنصرية » ، وجغرافيون كعبد المؤمن بن عبدالحق المعروف بكتابه « مراصد الاطلاع » ، واطباء « مشهورون كانوا ماهرين في الطب ولهم فيه مصنفات قيمة كشمس الدين ابن الصباغ وربيبه مجد الدين المعروف بسنجر ، وعلاء الدين الاربلي الكتبي الشافعي ، والبرزبي الذي كان رأساً في الطب »(٨٥) ورياضيون وفرضيون كقمر الدين الحاسب الرياضي الفرضي ، وصفي الدين بن عبد الحق « وكان إماماً في علم الفرائض والجبر والمقابلة والهندسة والمساحة . ومهندسون كهبة الله الدهلي الشهرباني المهندس وغيرهم ممن ظهرت فضائلهم في العقليات »(٨٦) ، ومقرئون ووعاظ ومفسرون مشهورون ، وشعراء وقصصيون ، ونحويون « انتهت إليهم مشيخة الادب العربي كابن الانصاري الخزرجي ، وابن القواس الموصلي ، وابن الصيقل الجزري ، وابن الفصيح الكوفي شيخ نحاة بغداد ، ومفتون » أصدروا الفتاوى والاقضية والاحكام كنور الدين البدلياني ، وابن مقبل الواسطي ، والمحب بن نصر الله البغدادي ، وجمال الدين العاقولي الذي درس بالمستنصرية نحواً من خمسين سنة ،وأفتى سبعين سنة او اكثر »(٨٧) ، وخطاطون لامعون ، و « منهم من لبس لباس الفتوة كعبد الله الشار مساحي ... مدرس المالكية فيها ، وعبدالرحمن التكريتي الناظر الأول في مصالح المستنصرية »(٨٨) ، ومن مدرسيها أيضاً، محتسبون ، وقضاة ، وسفراء « بين المستنصر بالله وبين الملوك والأمراء ، فقد ارسل المستنصر محي الدين بن فضلان برسالة الى ملك الروم . وأرسل محي الدين يوسف ابن الجوزي الى ملك الروم ايضاً »(٨٩) .

ويؤكد الاستاذ ناجي معروف ، ايضاً ، ان عديداً من علماء المستنصرية ترك « عدداً كبيراً من المؤلفات القيمة ، منها المطبوع ، ومنها مالا يزال مخطوطاً في امهات المكتبات العالمية ، ومنها ما لم يبق إلا اسماؤها او ما نقل منها »(٩٠) ويشير ، كذلك ، الى رحلات بعض علماء هذه الجامعة البغدادية وأسفارهم العلمية ، وعلاقات هذه الجامعة الثقافية ، ومكانتها العالمية ، وخدماتها الجلى في نشر العلم والثقافة ، بما اتاحه العصر وسمحت به الظروف ، « فقد رحل بعض علماء المستنصرية رحلات طويلة للتحري والبحث عن الحقائق العلمية ، في الاقطار العربية والاسلامية، كرحلة ابن فضلان ، و ابن النجار وغيرهما . **كما قصد هذه الجامعة عدد كبير من العلماء والأدباء والكتاب والمؤلفين من البلاد الاسلامية النائية للدرس والتدريس فيها . وقد حدث كثير من رجالها في اغلب البلاد الاسلامية ودرسوا في مدارسها »**(٩١) .

إن من اهم مآثر جامعة المستنصرية ، في تضاعيف انشطة المدرسة البغدادية الكبرى في العلم والثقافة والبحث العلمي ، هو انها حولت العلم الى عمل ،وترجمت الكلمة والفكرة الى واقع نضالي اجتماعي ـ سياسي ، ذي دلالة عظيمة . وبالطبع ، ينبغي ان نفهم هذا ، نسبيا ، وبمواصفات العصر ، وإطاره .

فقد درست النساء ـ في شبه مساواة عملية ـ عديداً من رجال المستنصرية ، ودرسن هن بدورهن على ايدي اساتذة فضلاء في المستنصرية . يقول معروف : « وكان لكثير من النساء العالمات فضل كبير على رجال المستنصرية فقد درسوا عليهن ، وحصلوا على الاجازات

العلمية منهن ، كما كان لمدرسيها فضل عليهن اذ درسن عليهم ، ونلن الاجازات منهم »(٩٢) . إن المرء ليسر ، حقاً ، إذ يسجل مثل هذا المعطى القيم لجامعة المستنصرية البغدادية ، ولكنا كنا نود لو طلع علينا ، باحثنا البغدادي المعاصر ، معروف ، ببعض الامثلة لبعض الشخصيات النسائية .

ومن مآثر مستنصرية بغداد في حرية الفكر، وتمثل حس المواطنة ، باعتبار ان العالم مواطن اولا وقبل كل شيء ، وقوف العديد من علماء هذه الجامعة البغدادية ، سوية مع زملائهم العلماء الآخرين ،ومع المواطنين ، جميعاً ، في وجه الغزاة الاجانب ، ذياداً عن شرف الوطن ، والعلم ، والاسلام ، واستشهادهم في سبيل الحرية . إن علماء المقاومة الأجلاء هؤلاء استحقوا ويستحقون التكريم ، والتخليد ، فقد قرنوا شرف الكلمة ، وكرامة العلم ، بشرف البلاد ، وكرامة الوطن ، وحرية ابنائه . ولنا هنا ان نسمع هذا من باحثنا البغدادي المعاصر الاستاذ ناجي معروف ، تفصيلا :

- « ويمكننا ان نذكر من بين علماء المستنصرية من أوذي ، ومن اسر في وقعة بغداد ، وذهبت مؤلفاتهم ، واثباتهم ، واجازاتهم ، ومن نفي أو اعتقل وسجن ، او هرب من بغداد في أثناء الفتن والاضطرابات ، أمثال: ابن المحيا العباسي ، وابن وضاح الشهرباني ، وابن عكبر العكبري ، والبلالي الأموي ، وغياث الدين ابن العاقولي ، وقوام الدين ابن الجوزي ، ونجم الدين خواجة امام ، والمحب بن نصر الله البغدادي ، وابيه نصر الله ، وابن الفوطي ... كما يمكننا ان نذكر من بين علمائها وفقهائها الذين استشهدوا في واقعة بغداد سنة ٦٥٦ هجرية ، صبراً بسيف التتر وهم يذودون عن دينهم وبلادهم ، كلا من كمال الدين الحموي ، وعلي ابن النيار ، ومحيي الدين ابن الجوزي ، وابنه جمال الدين ابن الجوزي ، ومحمود الزنجاني ، وابن القصاب البغدادي ، وابن البديع التكريتي ، وفخر الدين الآمدي »(٩٣) .

كما ان عديداً من علماء مستنصرية بغداد لم يكتفوا بمقاومة الظلم والغزو الخارجي ، بل قاوموا الظلم الداخلي ، ايضاً ، ونافحوا الاستبداد، واجتهدوا في آراءهم، ولم يألوا شيئاً، وكافحوا الجور والطغيان من أي جاء . يقول ناجي معروف : « ونستطيع ان نذكر ان من بين المدرسين علماء احراراً كانت لهم آراؤهم الخاصة بهم فلم يقلدوا غيرهم من العلماء . وكانوا يقولون ان المشايخ قبلنا كانوا رجالا ،ونحن رجال ، امثال محمود الزنجاني الشافعي ، وقاضي القضاة ابن اللمعاني ، الحنفي ، وسراج الدين الشارمساحي المالكي ... وكان كثير من علماء المستنصرية من ذوي المكانة العالية لا يغشون الاكابر ولا يخالطونهم . وكان من علمائهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويواجه الكبراء بما يكرهون »(٩٤)

وفيما يبدو ، فان المستنصرية باتت موضع احتذاء وتقليد ، على نطاق واسع ، ولعل ذلك يعود لنجاحها الباهر في أداء مهماتها ورسالتها ، يعود لمكانة بغداد العلمية الراسخة ، وكل ما يتصل بها من مراكز علمية وثقافية . يقول الاستاذ ناجي معروف : « ويظهر ان المستنصرية ببغداد اصبحت قدوة لمؤسسي المدارس من الرجال والنساء ليس في العراق فحسب ،بل وفي مصر والشام والحجاز حيث شرعوا يبنون مدارسهم على صفتها من حيث الدراسة على المذاهب الاربعة ، او احتواؤها على دروس الطب والتفسير والحديث والعربية ، وعلى مخازن ودور الكتب ، وعلى بقية المرافق الاخرى . وربما نافسوها في الريازة فبنوها على غرارها من حيث هندسة البناء والزخرفة واحتواؤها على الاواوين »(٩٥) .

— ٥ —

إن من القصور ان نتحدث عن مراكز بغداد العلمية ومدارسها الفكرية والعلمية والثقافية ، وجامعاتها ، ولا نتحدث عن مراكز بغداد الفلكية التي اشتهرت في عالم القرون الوسطى ، اجمع ، وترسخت مكانتها وتوطدت قدمها ، بصفتها ، في الاساس ، إنجازاً هائلا لمدرسة بغداد في العلم والثقافة والبحث العلمي في العصر العباسي الاول ، وتطويرا وتكميلا متقناً لهذا الانجاز ، فيما بعد .

وعلى العموم ، فان للعرب فضلا كبيراً في علم الفلك ، كعلم طبيعي مستقل عن الشعوذة والتنجيم . ويجمل صاحب كتاب « العلوم عند العرب » ، قدري حافظ طوقان ، ذلك ، فيما يلي : (وبالجملة ، فان للعرب فضلا كبيراً على الفلك : (أولا) لأن العرب نقلوا الكتب الفلكية عن

اليونان والفرس والهنود والكلدان والسريان وصححوا بعض اغلاطها وتوسعوا فيها . وهذا عمل جليل جدا ، لاسيما اذا عرفنا ان اصول تلك الكتب ضاعت ولم يبق منها غير ترجماتها في العربية ، وهذا طبعا ما جعل الأوربيين يأخذون العلم عن العرب ، فكانوا (أي العرب) بذلك اساتذه العالم فيه . (ثانيا) ــ في اضافاتهم الهامة واكتشافاتهم الجليلة التي تقدمت بعلم الفلك شوطا بعيدا (ثالثا) ــ في جعلهم علم الفلك استقرائيا وفي عدم وقوفهم فيه عند النظريات . (رابعا) ــ في تطهير علم الفلك من ادران التنجيم »(٩٦) .

إن الاستاذ ناجي معروف «الباحث البغدادي المعاصر ، الذي تطوع باضاءة الحياة الثقافية في بغداد ، من وجهة نظره ، يسلط ضوءه ، كذلك ، على علم الفلك في بغداد . وهو لا يعدو الحق ، حين يصرح بان بغداد كانت مركز علم الفلك في زمانها . ولعل من الخير لنا وللقارىء ان نطلعه على وجهة نظر هذا الباحث ، التي تبدو معززة بالوثائق والادلة التاريخية والوقائع المادية ، التي ذكرها اكثر من باحث عربي ، واوربي ، بهذا الصدد

يقول معروف : « إن أول من عني بعلم الفلك ابو جعفر المنصور ، فقد قرب المنجمين وشجع المترجمين والعلماء ، واغدق عليهم العطايا ، واحاطهم بعنايته ورعايته ، واقتدى بالمنصور الخلفاء الذين ولوا الحكم بعده في نشر العلوم وتشجيع المشتغلين بها فترجموا كتب الأمم التي سبقت العرب ، وصححوا كثيرا من اغلاطها واضافوا إليها مما ابتكروه او اكتشفوه الشيء الكثير واصبحت بغداد مركزا لهذا العلم مدة خلافة العباسيين ، فانشئت فيها الأرصاد ، ودونت الازياج ، وتنوعت آلات الرصد ، وظهر كبار الفلكيين الذين نبهت اسماءوهم واشتهرت اعمالهم ، وقد اعتمدت دار الرصد المغولية ، التي انشئت سنة ٦٥٧ هجرية (١٢٥٩ ميلادية) ، أي بعد سقوط بغداد بسنة واحدة ، على علماء بغداد وفلكييها ، وعلى ما الف ببغداد من كتب في هذا العلم ، وعلى الكتب التي جمعها نصير الدين الطوسي من بغداد والموصل وواسط والبصرة ، وكانت تبلغ نحو (٤٠٠) الف مجلد . ويعتبر من جاء بعد العباسيين نقلة ومقلدين يوضحون ما ابتكره العباسيون ببغداد ويختصرون المطول من علم الفلك ويفصلون المختصر منه .. »(٩٧) .

وكان من اشهر الازياج الفلكية العربية ــ زيج أبي بكر محمد الخوارزمي ، وزيج ابراهيم الفزاري ، وزيج البتاني ، وازياج المأمون ، وازياج ــ ابن السمح ، وابن الشاطر ، وابي حماد الاندلسي ، وابن يونس ، وابي حنيفة الدينوري ، وابي معشر البلخي ، والايلخاني ، وعبدالله المروزي البغدادي ، والصغاني ، والبوزجاني ، والطوسي ، وشمس الدين ، وملكشاهي ، والمقتبس وغيرها .

لقد كانت مدرسة بغداد الفلكية المتميزة وثيقة الاتصال بعلم الرياضيات عند العرب ، وبكل ما انجزه العرب والمسلمون من إنجازات في العلوم الطبيعية ، والمنهجية العلمية ، عموما . وكانت قدم العرب في علم الفلك راسخة ، لحد انه لا زال اكثر من نصف اسماء النجوم عربيا ، ولحد ان خليفة جليلا كالمأمون كان يشرف بنفسه على مراصد بغداد وسواها ، ويتابع ، بنفسه الدراسات الفلكية في البلاد ، ولحد ان كثيرا من معطيات علم الفلك المعاصرة ذات اصل عربي . فان اكتشاف بعض انواع الخلل في حركة القمر يعود الى ابي الوفاء البوزجاني (وليس الى تيخوبراهي الدانماركي ، كما يزعم بعض متعصبي الغرب) ، كما ان آلة الاسطرلاب المشهورة ، والربع ذا الثقب هي مبتكر عربي صرف ، والى ذلك يمكن ان نضيف إصابة الفلكيين العرب (وخصوصا البتاني) في حساب ميل فلك البروج على فلك معدل النهار ، وتدقيقهم (البتاني ايضا) في حساب طول السنة الشمسية ، وتحقيقهم مواقع كثير من النجوم ، ورصدهم الاعتدالين الربيعي والخريفي ، واشاراتهم الى كلف الشمس ، ووضعهم الجداول الدقيقة لبعض النجوم الثوابت ، واتقانهم بناء المراصد الفلكية وصنع آلاتها (التي منها ، اللبنة ، والحلقة الاعتدالية ، وذات الاوتار ، وذات الحلق ... ، وذات السمت والارتفاع ، والآلة الشاملة ، وذات الشعبتين ، وذات الجيب ، وذات المشتبهة بالناطق ، والاسطرلاب وانواعه المختلفة(٩٨) .

وبهذا الصدد يؤكد طوقان « ان المأمون اول من اشار باستعمال الآلات في الرصد وقد ابتنى مرصدين على جبل قيسون في دمشق وفي الشماسية في بغداد . وفي مدة خلافته وبعد وفاته انشئت عدة مراصد في انحاء مختلفة من البلاد الاسلامية ، فلقد ابتنى بنو موسى مرصداً في بغداد على طرف الجسر وفيه استخرجوا حساب العرض الاكبر من عروض القمر ، وبنى شرف الدولة ايضا مرصدا في بستان دار المملكة . ويقال ان الكوهي

رصد فيه الكواكب السبعة ، وانشا الفاطميون على جبل المقطم مرصدا عرف باسم المرصد الحاكمي ، وكذلك انشأ بنو الاعلم مرصدا عرف باسمهم ؛ ولعل مرصد المراغة الذي بناه نصير الدين الطوسي من أشهر المراصد واكبرها ، واشتهر بآلاته الدقيقة وتفوق المشتغلين فيه . وقد قال الطوسي عنهم من زيج الايلخاني : « اني جمعت لبناء المرصد جماعة من الحكماء منهم المؤيد العرضي ، والفخر المراغي الذي كان بالموصل ، والفخر الخلاطي الذي كان بتفليس ، ونجم الدين بن دبيران القزويني ، وقد ابتدانا في بنائه سنة ٦٥٧ هجرية » . واشتهرت ارصاد هذا المرصد بالدقة ، حتى لقد اعتمد عليها علماء اوربا في عصر النهضة وما بعده في بحوثهم الفلكية »(٩٩) .

إن سؤالا قد ينشأ : ما هي العلاقة بين مرصد الشماسية المبكر في بغداد العصر العباسي الاول ، ومرصد مراغة للطوسي المبنى بعد سقوط بغداد ، وما تأثير ذلك على انتشار العلوم الفلكية في العالم ؟

ولعل ناجي معروف ، باحث بغداد المعاصر ، أولى الباحثين بالاجابة عن مثل هذا السؤال المشروع . وها هو الاستاذ معروف يوضح ذلك في مبحث صغير له بعنوان « مدرسة بغداد الفلكية » ، فيقول : « لقد ازدهرت مدرسة بغداد الفلكية سبعة قرون منذ تأسيس مدينة السلام سنة ١٤٥هـ ـ ٧٦٢ ميلادية حتى سنة ٨٥٤هـ ـ ١٤٥٠ ميلادية وقد ادت هذه المدرسة في خلافة الرشيد والمأمون الى اعمال مهمة . وادمجت مجموعة الارصاد التي تم امرها في المراصد ببغداد ودمشق في كتاب « الزيج المصحح » . وقد عين العرب فيه مدة السنة بالضبط . واقدم فلكيو بغداد على قياس خط نصف النهار ، الذي لم يوفق له الاوربيون الا بعد الف سنة ، كما يقول العالم الفرنسي الدكتور غوستاف لوبون ... ويرى الدكتور لوبون ان عمل العرب في حقل الحضارة قد دام الى ما بعد زوال سلطانهم السياسي بزمن طويل . ودام بفضل ذلك تقدم بغداد العلمي ، حتى بعد ان صارت في قبضة الاجانب . وقد ظلت مدرسة بغداد الفلكية على ازدهارها إلى اواسط القرن الخامس عشر الميلادي (القرن التاسع الهجري) ولم تنقطع عن نشر رسائل مهمة في الفلك فالبيروني علم الهنود ما انتهت اليه مدرسة بغداد، وملكشاه السلجوقي امر في سنة ٤٧٢ هجرية (١٠٧٩ ميلادية) بالقيام بأرصاد ادت إلى إصلاح التقويم السنوي بما هو افضل من التقويم الغريغوري الذي تم بعد (٦٠٠) سنة . كما ذكر لوبون ، أيضا ، ان هولاكو نقل افضل علماء العرب الى المرصد الذي انشاه بمراغة . كما نقل اخوه كوبلاي الى بلاد الصين كتب علماء بغداد والقاهرة في علم الفلك . وقد استنبط هؤلاء معارفهم الفلكية الاساسية من تلك الكتب ولذا يقول لوبون « ان العرب هم الذين نشروا هذا العلم في العالم كله بالحقيقة » . وجمع تيمورلنك بمدينة سمرقند التي اتخذها عاصمةلامبراطوريته المشتملة على بلاد التركستان وفارس والهند فريقاً من علماء العرب. واقبل حفيده أولوغ بك على علم الفلك بنشاط عظيم . ويمكن عد أولوغ بك ، الذي لا يفصله عن كبلر ، سوى قرن ونصف القرن ، آخر ممثل لمدرسة بغداد الفلكية »(١٠٠) .

وبهذا الخصوص ،تؤكد المعطيات ، والمصادر الروسية والسوفييتية صحة تأثر مدرسة سمرقند الفلكية بمدرسة بغداد الفلكية ، وقيامها على المعارف العلمية الاساسية المستقاة منها .

ولعل من أمجاد مدرسة بغداد العلمية الكبرى ، التي وضعت أصولها ، ونواتها الضخمة مدرسة بغداد في العلم والثقافة والبحث العلمي ، انها انقذت الناس من الخرافة والشعوذة ودجل التنجيم ، وانها قالت « باستدارة الارض وبدورانها حول محورها » ، وضبطت حركة أوج الشمس « بينما لم ينتشر تعليم حركة الأرض الدورية عند الفرنج الا بعد سنة ١٥٢٣م ، عندما وضح ذلك كوبرنيك ، الذي يذكر ان كثيراً من كتب الفلك العربية نقلت الى اللاتينية والفرنسية والايطالية »(١٠١) .

اما اشهر مراصد بغداد الفلكية ،على مختلف عصورها ، فهي ـ المرصد المأموني في الشماسية ببغداد ، (وكان موقعه في أعلى بغداد الشرقية ، « عند محلة الصليخ احدى محلات الأعظمية اليوم » ، على حدما يقول الاستاذ ناجي معروف)(١٠٢) . ومن مراصد بغداد الفلكية أيضاً، مرصد بني موسى بن شاكر ، ومرصد بني الأعلم، والمرصد الشرقي ببغداد (« وهو المرصد المنسوب الى شرف الدولة بن عضد الدولة البويهي ، وقد بناه في حديقة قصره المعروفة بدار المملكة ببغداد على نهر دجلة ... ويرجح ان موقع دار المملكة في اعلى محلة « الميواضية » ، ببغداد اليوم)(١٠٣) .

اما اشهر رصاد بغداد الفلكيين ، فهم : ابراهيم بن حبيب الفزاري ، « الامام العالم المشهور ، المذكور في حكماء الاسلام ، وهو اول من

عمل في الاسلام اسطرلابا ، وله كتاب في تسطيح الكرة أخذ منه كل الاسلاميين »(١٠٤) ، ومحمد بن ابراهيم الفزاري وكان في حاشية المنصور ، و « الفزاري هو الذي اختار للمنصور الوقت المناسب للبدء ببناء بغداد »(١٠٥) ، وموسى بن شاكر وبنوه الثلاثة ، والحسن بن محمد الطوسي التميمي ، وحبش الحاسب المروزي البغدادي ، وابو معشر البلخي ، ومحمد بن جابر البتاني ؛ « احد عظماء العرب المشهورين برصد الكواكب ، والمتقدمين في علم الافلاك وحساب النجوم ... ولا يعلم أحد في الاسلام بلغ مبلغه في تصحيح ارصاد الكواكب وامتحان حركاتها . ابتدا في الرصد من سنة ٢٦٤هـ الى سنة ٣٠٦ هجرية ... وهو فلكي شامي جاء الى بغداد مع بني الزيات من اهل الرقة ، فلما رجع مات في طريقه بقصر الجص في سامراء سنة ٣١٧ هجرية . وقد عده الفلكي الفرنسي لالاند واحداً من العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله . وقالت هونكه : لقد كان تأثير هذا العربي النابغة على بلاد الغرب عظيم الشان فسيطرت نظرياته في علمي الفيزياء والبصريات على العلوم الاوربية حتى ايامنا هذه »(١٠٦) ؛ ويعقوب الكندي العالم الفيلسوف المشهور عدو الخرافة والتنجيم ، وهو من الاثني عشر عبقرياً الذين ظهروا في العالم ... لانه كان عالماً بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق وعلم النجوم وتاليف اللحوت وطبائع الاعداد ، وقد انتخبه المأمون ليكون احد الذين يعهد اليهم في ترجمة مؤلفات ارسطو .... (وله) آراء خطيرة وجريئة عن نشأة الحياة على الارض دفعت العلماء الى الاعتراف بأنه مفكر عميق من الطراز الحديث . وكان لمؤلفاته في البصريات تأثير كبير في العقل الأوربي ... وقد وضع عدداً كبيراً من الكتب بلغ فنها في النجوم تسعة عشر كتاباً ، وفي الفلك ستة عشر كتاباً ، وثمانية كتب في الكريات ، كما وضع رسائل في بعض الآلات الفلكية حتى قيل ان دولة المعتصم كانت تتجمل بالكندي وبمصنفاته ... »(١٠٧) .

ومن رصاد بغداد المشهورين : كذلك ، ويجن بن رستم ابو سهل الكوهي ، واحمد بن محمد الصاغاني (ابو حامد الاسطرلابي) ، وابو الوفاء البوزجاني الحاسب ، الذي انتقل الى بغداد من بلدته بوزجان (بين هراة ونيسابور) ؛ «وقد قضى ابو الوفاء حياته ببغداد في التاليف والرصد والتدريس ،وقد انتخب ليكون احد اعضاء المرصد الشرقي ، الذي انشأه شرف الدولة . وقد استطاع ان يجد حلولا تتعلق بالقطع المكافيء ، وقد مهدت هذه الحلول السبيل امام علماء اوربا ليتقدموا بالهندسة التحليلية خطوات واسعة ادت الى التكامل والتفاضل ، الذي يعتبر من اهم ما وصل اليه العقل البشري . ويقول غوستاف لوبون : ان ابا الوفاء هو الذي عرف الاختلال القمري الثالث ... ويرى لوبون انهذا الاكتشاف عظيم للغاية لان مسيو سيديو استدل به على وصول مدرسة بغداد في اواخر القرن العاشر إلى اقصى ما يمكن علم الفلك ان يصل إليه بغير نظارة ومرقب ..(١٠٨) .

وكذلك اشتهر من رصاد بغداد الفلكيين ـ عبدالرحمن الصوفي (القرن العاشر الميلادي) ،وهو الذي بنى المرصد الشرقي ، « وكان عضد الدولة يفخر بعبد الرحمن الصوفي لانه كان معلمه في الكواكب الثابتة وسيرها »(١٠٩) ، وابراهيم بن هلال بن ابراهيم (ابن زهرون) ؛ وقد خدم ملوك العراق من بني بويه ، والبديع الاسطرلابي (عبد الله بن الحسين ابو القاسم البغدادي) ، « وكان وحيد زمانه في عمل الالات ، وقام بأمور عجز عنها المتقدمون ؛ وقد عاش في زمن المسترشد بالله »(١١٠) .

ان الاسطرلاب العربي قد لعب دوراً كبيراً في تقدم علم الفلك العربي ـ الاسلامي ، والعالمي عموماً . ويذكرنا ناجي معروف ان العرب الفوا في بغداد وغيرها مؤلفات كثيرة في صنع الاسطرلاب والعمل به خلال اثنى عشر قرناً ، « وقد احصي منها اليوم نحو (٢٠٠) مؤلف ما بين كتاب ورسالة في هذا العلم »(١١١) .

وتتوسع البروفسورة الدكتورة زيغرد هونكه ؛ المستشرقة الالمانية البارزة (التي زارت بغداد صيف ١٩٦١ ، كما زارت الجمهورية العربية المتحدة صيف ١٩٦٢) ، في كتابها الشهير الذي ترجم الى العربية تحت عنوان « شمس العرب تسطع على الغرب » ؛ تتوسع في وصف آلة الاسطرلاب العربية ، ذات الأصل البغدادي ، وساعات العرب الشمسية ، وساعاتهم « التي تسير على الماء وعلى الزئبق وعلى الشمع المشتعل ، او التي تعمل بواسطة الاثقال المختلفة او ساعات تحمل فتحات منسقة الواحدة تلو الاخرى في شكل نصف دائري ؛ وما تلبث ان تبرق كلما جاوزت الساعة الثانية عشرة ليلا في حين يمر فوقها هلال وضاء » .

فتقول :

ـ « وفي عام ٨٠٧ قدم عبدالله رسول هارون

الرشيد الى القيصر شارلمان ، في مدينة (آخن) ، من أعمال المانيا ، ساعة من هذا النمط ، وقد علق مؤرخ القصر (انيارد) على هذا الحدث في يومياته قائلا : « كانت ساعة من النحاس الاصفر مصنوعة بمهارة فنية مدهشة ، وكانت تقيس مدة اثنتى عشر ساعة وفي حين إتمامها لذلك كانت تسقط الى الاسفل اثنتى عشرة كرة صغيرة ، محدثة لدى اصطدامها برقاص معدني مثبت ، دويا ايقاعيا جميلا بالاضافة الى عدد مماثل من الأفراس الصغيرة التي كلما دارت الساعة دورتها الكاملة قفزت من فتحة اثنتى عشرة بوابة واغلقتها بقفزاتها هذه . وهناك أشياء أخرى كثيرة تسترعي الانتباه في هذه الساعة تدعو الى العجب والدهشة ... » . نحن ما زلنا حتى يومنا هذا نقف فاغري الأفواه دهشة وأعجابا ، كلما رأينا ساعة كبيرة في مبنى البلدية ، وما يرافق دقاتها من ظهور شخوص صغيرة متحركة ،تذكرنا بما فعله العرب ، في الماضي البعيد »(١١٢) .

— ٦ —

إن لعلوم بغداد الفلكية صلتها الوثقى ، وانني تكاد تكون عضوية ، بعلومها الرياضية ، بخاصة ، وببقية العلوم الاخرى ، عامة .

لقد قدمت مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي رياضيين ممتازين ، كانت لهم مكانتهم العالمية ، في العلوم الرياضية ، فقد طوروا ، واضافوا ، وابتكروا ، واستنبطوا شيئا من الجديد والاصيل في الرياضيات عموماً .

إن علم الجبر ، مثلا ، لم يصبح علما متقنا إلا على يد العرب ، واصبح جزءا من مآثرهم على الحضارة الانسانية ، ويكفي للدلالة على فضلهم فيه ، أنهم مهروه بلفظ من لغتهم ، فانتقلت كلمة « الجبر » الى جميع اللغات الحديثة »(١١٣) . وقد اكد العالم الغربي (كاجوري) « ان حل المعادلات التكعيبية بواسطة تطوع المخروط من أعظم الأعمال التي قام بها العرب ، ويكون العرب بذلك قد اشتغلوا بهذا المجال قبل غيرهم من علماء الغرب ، وبهذا قد سبقوا ديكارت وبيكر ، وتوصلوا الى حلول بعض المسائل التي يؤدي حلها الى معادلات تكعيبية »(١١٤) . ويضيف الاستاذ حكمت نجيب ، في كتابه القيم ، حقاً ، « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، الذي اسلفنا الاشارة اليه ، ان « من هؤلاء العلماء العرب الذين توصلوا الى حلول هذه المسائل الصعبة ثابت بن قرة ، وابو جعفر الخازن ،وعمر الخيام ، والخجندي ، وابن الهيثم وغيرهم »(١١٥) .

إن ثابت بن قرة ، الحراني الاصل ، هو احد علماء المدرسة البغدادية اللامعين ، ويقال في مجيئه بغداد ، انه التقى بمحمد بن موسى الخوارزمي ، عند رجوعه من ارض الروم ، فاعجب الخوارزمي بذكائه ووقدة فكره ، فاستصحبه الى بغداد ، ووصله بالخليفة العباسي المعتضد ، وصار يعمل في معية علمائه(١١٦) وقد حظى ثابت بن قرة بتكريم لا نظير له من جانب خليفة بغداد ، بل ان الخليفة اعتذر منه ، يوماً ، حين « تزيده من يد ثابت ، وقال له : يا أبا الحسن سهرت ووضعت يدي على يدك واستندت عليها ، وليس هكذا يجب أن يكون، فان العلماء يعلون ولا يعلون »(١١٧) .

وكان ثابت بن قرة ، الذي يتقن السريانية والعبرية واليونانية ، ويجيد النقل عنها ، عالما موسوعيا ، كعادة علماء المدرسة البغدادية ، جميعا ، نقد نبغ في الرياضيات ، والفلك ، والطب ، والفلسفة ، إضافة الى كونه قطب مدرسة الترجمة عن السريانية واليونانية في بغداد في عصره .

ويؤكد قدري طوقان ، انه جاء في كتاب « تاريخ الرياضيات » لسمث ما يلي « ... كما هي العادة في احوال كهذه يتعسر ان نحدد بالتاكيد الى من يرجع الفضل في العصور الحديثة في عمل أول شيء جديد بالاعتبار في حساب التكامل والتفاضل . ولكن في استطاعتنا ان نقول ان ستيفن يستحق ان يحل محلا هاماً من الاعتبار . اما مآثره فتظهر في تناول موضوع ايجاد مركز الثقل لاشكال هندسية مختلفة اهتدى بنورها عدة كتاب اتوا بعده . ويوجد آخرون ، حتى في القرون الوسطى قد حلوا مسائل في ايجاد الحجوم والمساحات بطرق يتبين منها تأثير نظرية إفناء الفرق ، اليونانية . وهذه الطريقة تنم نوعما على طريقة التكامل المتبعة الآن . ومن هؤلاء يجدر ان نذكر ثابت بن قرة الذي وجد حجم الجسم المتولد من دورات القطع المكافىء حول محوره ... »(١١٨)

اما محمد بن موسى الخوارزمي فهو احد ابرز كوكبة العلماء الذين استظلوا بظل الخليفة البغدادي العالم ، المأمون . ويذكر ابن النديم ، في (الفهرست) ،ان الخوارزمي هو أبو عبدالله محمد

بن موسى ، رياضي فلكي ومؤرخ من اهل خوارزم، ينعت بالأستاذ ؛ ولاه المأمون العباسي منصب بيت الحكمة ، وعهد اليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها وامره باختصار كتاب المجسطي(١١٩) . بيد ان الخوارزمي نبغ في الرياضيات . واشتهر بكتابه « الجبر والمقابلة » الذي الفه بتكليف من المأمون . فقد قال الخوارزمي في مقدمته : « وقد شجعني ما فضل الله به الامام امير المؤمنين مع الخلافة التي حاز له إرثه واكرمه بلباسها وحلاه بزينتها ، من الرغبة في الأدب وتقريب اهله وإدنائهم وبسط كنفه لهم ومعونته إياهم على إيضاح ما كان مستبهماً وتسهيل ما كان مستوعراً »(١٢٠) .

ويؤكد قدري طوقان في كتابه (تراث العرب العلمي) المكانة العلمية الراسخة لكتاب عالم بغداد الخوارزمي ، هذا ، فيشير الى ان روبرت اوف جستر Robert of Chester قد نقله الى اللاتينية ، وافاد منه ليونارد اوف بيزا ، وكاردان، وتار تاكلي ، ولوقا باصيولي ، وفراري وغيرهم(١٢١) . ويشير رومر لاندو الى تأثير هذا الكتاب في اعمال ليوناردو فيوناتشي البيزوي (هو نفسه ليونارد اوف بيزا) ، والمعلم يعقوب الفلورنسي ، واعمال ليونارد دافنشي ايضاً(١٢٢) ويمجد ريسلر ، في كتابه (الحضارة العربية) اعمال الخوارزمي وفكره الرياضي ، ويعتبره أعظم رياضي في ميدان علم الجبر ، ومن اكبر علماء العالم الذين اجترحوا مآثر عظيمة في علوم الرياضة والفلك خدمت الثقافة العالمية والحضارة الانسانية

ولا عجب في ذلك ، فان الخوارزمي كان عقلية فذة حقا ، فهو ، فيما يثبته طوقان ، « واضع علم الجبر في شكل مستقل منطقي ، وهو المبتكر لكثير من بحوث الجبر التي تدرس الآن في المدارس الثانوية والعالية ، وإليه يرجع الفضل في تعريف الناس بالارقام الهندسية وفي وضع بحوث الحساب بشكل علمي لم يسبق اليه ، بحيث يصح القول ان الخوارزمي وضع علم الجبر وعلمه ، وعلم الحساب للناس أجمعين .. وخلق في سماء الرياضيات ، وكان نجما متألقا فيها اهتدى بنوره علماء العرب وعلماء أوربا ، وكلهم مدين له ، بل المدنية الحديثة مدينة له بما اضاف من كنوز جديدة الى كنوز المعرفة الثمينة »(١٢٣) .

إن من افضال الخوارزمي العلمية انه مهد السبيل لتيار رياضي في علم الجبر اساسه علم الحساب لا علم الهندسة ، وقام بعض علماء العرب ومنهم الكرجي والسموال بتطبيق العمليات الحسابية (الجمع والطرح والقسمة والضرب واخذ الجذور) على العمليات الجبرية ، وتمكنوا بذلك من تعميم علم الجبر تعميماً لم يكن مستطاعا لو بقي الجبر هندسياً فقط ، مما ساعد كثيراً على تطور علم الجبر الحديث(١٢٤) .

ويوضح طوقان ، اكثر من ذلك كله ، ان عالم بغداد الخوارزمي وضع كتاباً في الحساب كان الأول من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة ، وقد نقله ادلارد اوف باث الى اللاتينية تحت عنوان Algaritmi de Numero Indarum ، وهذا الكتاب هو اول كتاب دخل اوربا . وقد بقي زمناً طويلا مرجع العلماء والتجار والحاسبين ، والمصدر الذي يعتمدون عليه في بحوثهم الحسابية . وقد يعجب القارىء إذا علم أن الحساب بقي عدة قرون معروفاً باسم (الغورتمي) نسبة الى الخوارزمي. ومن هذا الكتاب وغيره من الكتب العربية التي دخلت اوربا ـ فيما بعد ـ عرفت اوربا الارقام العربية والهندية)(١٢٥) .

وتوالت مع كتاب الخوارزمي الشهيرة « الجبر والمقابلة » وبعده كتب اخرى في ذات الموضوع لتلامذة الخوارزمي المختلفين في شتى امصار الدولة العربية ـ الاسلامية ، منها كتاب ابي كامل شجاع بن اسلم (كتاب كمال الجبر وتمامه والزيادة في اصوله) ،وكتاب الجبر والمقابلة لابي حنيفة احمد بن داؤد الدينوري ، وكتاب الارثماطيقي في الاعداد والجبر والمقابلة لأبي العباس احمد السرخسي (من تلاميذ الكندي) ، وكتاب تفسير كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة لابي الوفاء البوزجاني ؛ وكتاب الجبر والمقابلة لسند بن علي (معاصر المأمون) ، وكتاب في تصحيح مسائل الجبر بالبراهين الهندسية لثابت بن قرة ؛ وكتاب الفخري في الجبر والمقابلة لابي بكر فخر الدين محمد بن حسن الكرجي ، وكتاب « الجبر والمقابلة » لعمر الخيام ، الفه باللغة العربية ، وكتاب في الجبر والمقابلة (كتاب الظفر) لنصير الدين الطوسي(١٢٦) .

أما في علم الحساب فقد قدمت مدرسة بغداد العلمية الكثير ، فقد كان علماء بغداد وسواها يعتبرون ، الحساب ، على حد ما يقول ابو بكر محمد بن حسن الكرجي « ارفع الصناعات درجة واعمها مصلحة واتمها فائدة » نصناعة الحساب « يحتاج إليها جميع الناس على طبقاتهم واختلاف اديانهم ولغاتهم لما فيه صلاح الجمهور وسداد الامور »(١٢٧) . ويؤكد الاستاذ حكمت نجيب انه

قد كان « للمؤلفات التي وضعها العرب تأثير كبير على الحركة العلمية في الغرب ، وان من اهم الكتب التي اثرت في هذه النهضة كتاب في علم الحساب لمحمد بن موسى الخوارزمي ، ضاع أصله العربي، إلا ان ترجمته اللاتينية بقيت واثرت على بعض علماء الرياضيات في الغرب كرجيو مونتانوس ١٤٣٦ ـ ١٤٧٦م(١٢٨) .

إن من اهم علماء الغرب في الحساب من تلامذة المدرسة البغدادية وسواها علماء اهتموا بالجبر والهندسة ايضاً ، فكانوا علماء ذوي تخصص رياضي عام . ومن ابرزهم سنان بن الفتح الحراني الذي « اشتغل في العلوم الرياضية ولا سيما في الحساب والاعداد وبرع فيها والف في ذلك كتباً مشهورة منها : التخت في الحساب الهندي وكتاب الجمع والتفريق الذي شرح فيه طريقة إجراء الاعمال الحسابية بواسطة الجمع والطرح عوضاً عن الضرب والقسمة وهي الاساس الذي قامت عليه فكرة اللوغاريتمات »(١٢٩) .

ومن علماء بغداد المبرزين في الحساب علماء موسوعيون افذاذ يعرفهم العالم اجمع ، ومنهم الكندي (ابو يوسف يعقوب بن اسحق) وابو الوفاء البوزجاني . ويضيف مؤرخو العلم الاسلامي والعالمي أساتذة عرباً آخرين في الرياضيات هم : الكرابيسي ، ويعقوب الرازي ، وأحمد بن الطيب (من تلامذة الكندي) ، وابو حنيفة الدينوري ، وسند بن علي ، والكلواذي البغدادي ، وابو برزة الجيلي ، وابو بكر الكرجي صاحب كتاب (الفخري) المشهور الذي يعتبره علماء أوربا « وثيقة فائقة الاهمية في تاريخ الرياضيات » ، والقاضي النسوي الذي يلقبه نصير الدين الطوسي بـ « الاستاذ » ، وعبدالقادر التميمي البغدادي . وثمة علماء آخرون برزوا في الحساب والرياضيات ، وكانوا موسوعيين كعلماء بغداد الاوائل ، ومن هؤلاء ابن الهيثم ، وأبو الريحان البيروني . كما كان لمدرسة بغداد في الحساب والرياضيات تلامذة عباقرة في المغرب والاندلس ومنهم ابن اللبودي ، وابن البناء المراكشي ، وأبو الحسن القلصاوي . كما كان لهذه المدرسة البغدادية ابن بار هو قاضي زادة ـ الذي افاد من معطيات العلم العربي ـ السلامي وكان هو وغياث الدين الكاشي من ابرز العلماء الذين عهد اليهم أولوغ بك في إنشاء مرصد سمرقند ، في بلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى) وقد امتدت تأثيرات مدرسة بغداد الرياضية حتى القرن السابع عشر الميلادي حيث ظهر بهاء الدين العاملي الذي اشتهر بكتابه « الخلاصة في الحساب » ، الذي يعتبره جلال شوقي دارس رياضياته « عرضاً دقيقاً لعلوم الحساب والجبر والمساحة ، كذلك لمفاهيم العلماء العرب في الرياضيات وطرق حلولها في القرن الاخير من الحضارة العربية .. »(١٣٠) .

★ ★ ★

ويؤكد قدري طوقان ، ومن بعده حكمت نجيب ان الاوربيين اخذوا علم الهندسة اليونانية من العرب دون اليونان ، فقد « نقلوها من العربية الى اللاتينية مباشرة وظلوا يتدارسونها كما عرفوها من العرب إلى أواخر القرن السادس عشر حين عثر الباحثون (٩٩١هـ/١٥٨٣م) على مخطوط من كتاب اقليدس باللغة اليونانية ، فقد وجد أحد علماء الانكليز في أوائل هذا القرن (حوالي عام ١٩١٠) ، مقالتين قديمتين في الهندسة في مكتبة وبستر ، الاولى كتبها جربرت الذي صار بابا سنة ٩٧٩م ، باسم البابا سلفستر الثاني ، ولم يكن اقليدس في الهندسة معروفاً حينذاك إلا في العربية، والمقالة الثانية تاريخها بداية القرن الثاني عشر ، وكاتبها راهب اسمه « ادلارد اوف باث » كان قد تعلم العربية ودرس في مدارس غرناطة وقرطبة واشبيلية ، والمقالتان كتبتا باللغة اللاتينية من نسخة ترجمت عن ترجمة اقليدس في اللغة العربية ، وبقيت هذه الترجمة تدرس في المدارس الاوربية الى سنة ١٥٨٣م »(١٣١) .

وقد تركز اهتمام مدرسة بغداد العلمية بالهندسة في الناحية العملية (اكثر من الناحية النظرية) ، ولذلك برزت إنجازاتها وانجازات تلامذتها فيما بعد (وخصوصاً ابن الهيثم) في الهندسة المعمارية ، واعمال الري وتوزيع المياه ، والأقنية ، وبناء المباني المختلفة ، بما فيها الجوامع والقصور . إن هندسة الري كانت ابرز وجوه «التنمية» في المجتمع العربي ـ الاسلامي في بغداد، والشام ، ومصر ، والمغرب ، والاندلس ، ومختلف الحواضر الاسلامية في فارس وافغانستان وآسيا الوسطى . وذلك مبرر ومفهوم « لان تنظيم الري يتطلب معرفة دقيقة بمستوى الأرض وانحدارها وبكمية المياه وسرعتها ومجراها ، وبمواد البناء لاختيار الأنسب منها ، ومعرفة طرق البناء التي تؤمن السكور ، والسدود ، والمسنيات والشاذروانات والبزندات ، ووقوفها بوجه المياه الزائدة القوية الجريان وضبط توزيعها »(١٣٢) .

ومع ذلك فان إخوان الصفا أولوا الهندسة النظرية جل اهتمامهم ، لان إتقانها « يؤدي الى الحذق في الصنائع العلمية . لان هذا العلم هو احد الابواب التي تؤدي إلى معرفة جوهر النفس التي هي جذر العلوم وعنصر الحكمة ، واصل الصنائع العلمية والعملية ، اعني معرفة جوهرالنفس »(١٢٣)

واهتم علماء بغداد ، أوسع الاهتمام ، بكتاب اقليدس ، لانه الباب الرئيس للعلوم الهندسية في ذلك العصر : ومن هنا كثرت الشروح والتلخيصات العربية لهذا الكتاب . وطلع الكندي فيلسوف بغداد الموسوعي بكتابه الشهير (أغراض كتاب اقليدس) ، ولكنه طلع بكتب عديدة اخرى ، من ابتكاره الأصيل ، في مختلف علوم الهندسيات (ومنها كتاب اختلاف المناظر ، كتاب في تقريب وتر الدائرة ، كتاب في تقريب وتر التسع ، كتاب في شروق الكواكب وغروبها بالهندسة ، كتاب في البراهين المساحية لما يعرض من الحسابات الفلكية ، كتاب في تصحيح قول ابقلاوس في المطالع، كتاب في صنعة الاسطرلاب بالهندسة ، كتاب في استخراج نصف النهار وسمت القبلة بالهندسة وكتب اخرى) .

وكتب علماء بغداد الاخرون عديداً من الكتب الهندسية ، منها ما كتبه **اولاد موسى بن شاكر (محمد واحمد والحسن)** : ومن هذه الكتب « كتاب الشكل الهندسي » لاحمد بن موسى ، وكتاب الشكل المدور والمستطيل للحسن بن موسى . كما كتب ثابت بن قرة كتابه المشهور « كتاب في استخراج المسائل الهندسية) ، اضافة الى اعمال عديدة اخرى . واشتهر ابو الوفاء البوزجاني بـ « كتاب في الأعمال الهندسية » . ويرى ابن خلكان ان البوزجاني كان احد الائمة المشاهير في علم الهندسة ، وله فيها استخراجات غريبة لم يسبقه اليها عالم آخر .

وهناك كتب عديدة اخرى الفها تلامذة مدرسة بغداد العلمية ، في مختلف العصور ، والأمصار الاسلامية (منها ، مثلا لاحصراً ، « شرح كتاب اقليدس في اصول الهندسة » للتبريزي ، و « تحرير اقليدس » لنصير الدين الطوسي وكتاب « التجريد في الهندسة » المنسوب للطوسي ايضاً، وكتاب مختصر اقليدس لابن سينا ، وكتاب اشكال التأسيس في الهندسة لشمس الدين السمرقندي، وكتاب المدخل الى الهندسة لأبي العباس المكناسي المتوفى سنة ١٦١٦م)(١٢٤) .

★ ★ ★

أما علم المثلثات فقد تحول علما مستقلا على ايدي علماء بغداد ، ويعتبره الكثير علماً عربياً . يقول طوقان : لولا العرب لما كان علم المثلثات على ما هو عليه الآن . فاليهم يرجع الفضل الاكبر في وضعه بشكل علمي منظم مستقل عن الفلك وفي الاضافات الاساسية الهامة التي جعلت الكثيرين يعتبرونه علماً عربياً كما اعتبروا الهندسة علماً يونانية .... ومما يزيدنا اعتقاداً بهذا كله ، اعتراف كاجوري بأن هناك اموراً كثيرة ، وبحوثا عديدة في علم المثلثات كانت منسوبة الى (ريجيو مونتانوس) ،ثبت انها من وضع المسلمين والعرب، وانهم سبقوه اليها ، وكذلك وجد غير كاجوري (امثال سمث ، وسارطون ، وسيديو ، وسوتر) ممن اعترفوا بأن بعضاً من النظريات والبحوث نسبت في اول الامر الى ريجيو مونتانوس وغيره ، ثم ظهر بعد البحث والاستقصاء خلاف ذلك(١٢٥).

ان العرب هم أول من استعمل مبدأ الجيب والمماس ، والظل تمام ، وتطور علم المثلثات نوعياً بابتداع الجيب ، والجيب تمام ، والظل . وقد « اعتبر العالم الفرنسي شاسل استعمال العرب للمماس انقلابا هائلا في العلوم ، اذ سهل حل الكثير من المسائل الرياضية . وقام علماء الغرب بنشر اول كتاب علمي في المثلثات سنة ١٤٦٤ ميلادية ونقلوا اكثر ما جاء فيه عن تأليف عربي ، الا انهم لم يذكروا فيه شيئاً عن استعمال المماس ، بينما استعمل العرب المماس قبل ذلك بخمسة اجيال »(١٢٦) .

لقد كان علماء بغداد ابرز العلماء العرب الذين عملوا على تحويل علم المثلثات علماً مستقلا ، وكان البتاني (ابو عبدالله محمد بن جابر بن سنان) في المقدمة . فقد أدخل الجيب ، كما ادخل الظل والظل تمام ، وابتكر الجداول الرياضية لنظير المماس ، واليه تنسب معادلات المثلثات الكروية الاساسية . « ويعتبر احد مؤسسي المثلثات الحديثة باكتشافه غالبية النسب المثلثية الاساسية كما تستخدم في الوقت الحاضر . ومن اهم مؤلفاته في هذا المضمار رسالة في تحقيق اقدار الاتصالات »(١٢٧) .

أما البوزجاني (ابو الوفاء) عالم بغداد البارز فباسمه يقترن تطور حساب المثلثات ، وكذلك القول عن ابي اسحق ابراهيم الصابي (ابن زهرون) ، الذي نشأ في بغداد ودرس فيها ، ومن مصنفاته (كتاب في المثلثات) وله عدة رسائل في اجوبة مخاطبات لأهل العلم بهذا النوع »(١٢٨) وجاء نصير الدين الطوسي (المتوفى ١٢٧٤م) بابتكارات

أصيلة من علم المثلثات ، وحسبه انه الف رسالته في الشكل الرباعي (الشكل القطاع) . ويقول الاستاذ حكمت نجيب فيه ، مستنداً الى بحوث خوقان والى دراسته الدقيقة هو ، ان علم المثلثات المستوي والكروي اصبح علما راسخ الدعائم بفضل الطوسي ، اساساً ، « فقد عرف الطوسي قانون الجيب في المثلثات المستوية وشرحه. اما في المثلثات الكروية ، فقد عرف وشرح المعادلات الست الخاصة بالمثلث القائم الزاوية ، وبحث جميع الحالات الخاصة بالمثلث الحاد الزاوية ، واستنتج من ذلك العلاقة بين زوايا المثلث واضلاعه ؛ وبذلك يكون الكتاب (الشكل القطاع) اول كتاب يفصل المثلثات عن الفلك واصبح له الاثر الكبير في جعل علم المثلثات علما مستقلا . وترجم هذا الكتاب الى اللغات اللاتينية والفرنسية والانكليزية ، وبقي قروناً عديدة مصدراً لعلماء اوربا في المثلثات الكروية والمستوية »(١٣٩) .

وكان لمدرسة بغداد الرياضية في المثلثات تلامذتها ومطوروها في شتى اصقاع الدولة العربية ـ الاسلامية ، فقد كان ثمة جابر بن افلح ، وابن يونس المصري الذي اسهم في تقريب الطريق الى اكتشاف اللوغاريتمات ، وابو علي المراكشي صاحب كتاب (جامع المبادىء والغايات في علم الميقات) ، واولوغ بك السمرقندي المتوفى (في ١٤٣٧ ميلادية) .

★ ★ ★

وحسبنا بعد هذا ان نستشهد ، في معرض فذلكة الاستنتاج اللازم من انجازات مدرسة بغداد العلمية وتلامذتها ومطوريها في الرياضيات ، ان نستشهد بالمستشرقة الالمانية زيغريدهونكه ، التي تبدو ، في كل الاحوال ، اكثر موضوعية بكثير من غيرها . تقول هونكه في كتابها « شمس العرب تسطع على الغرب ، اثر الحضارة العربية في اوربا » :

ـ « والعقل العربي الدقيق في تفكيره ، السريع في استيعابه للمسائل التي يغلب عليها الجفاف والخشونة ، كان اول من القى على القضائد وضوحاً ناصعاً في وضوح الماس . وكان الخوارزمي ، كذلك ، اول من طور فن الحساب ، وجعل منه فناً صالحاً للاستعمال اليومي العملي ومفيداً بقية العلوم ، بعد ان وسع فيه ونظمه تنظيماً دقيقاً . وهكذا اصبح فن الحساب هذا ، بالاضافة الى ما زاد عليه العلماء العرب وعلماء الفرس ، خاصة في القرون التي تلت ، الركيزة الاساسية لفن الحساب في بلاد الغرب . ولا ننسى علم الجبر الذي يعود الفضل الى العرب ، وفي طليعتهم الخوارزمي ، في وضعه وسكبه بقالب ترتيبي نظامي ، وجعله علما بكل ما في هذه الكلمة من معنى ... ان اسلوب الرياضيات الذي عرفه الغرب عن طريق العرب ، كان في حقيقة امره ، فتحاً مبيناً جديداً . ذلك لأن الزي الهندسي الذي كسا الاغريق الرياضيات به هذا العلم نزعه العرب وعوضوا عنه بآخر جبري حسابي .. ان علم الجبر لا يزال حتى هذا اليوم يحتفظ بطابع عربي ... وكما فعل العرب كل هذا ، كذلك فانهم يعتبرون المؤسسين الحقيقيين لعلم المثلثات ، وهذا لعمري ، ميدان لم يخضه الاغريق البتة ولم يعرفوا عنه شيئا .... وبهذا يكون العرب قد خلقوا ميداناً نسبحاً من العلوم ، كان من قبلهم مجهولا ، صارت له اهمية كبرى في علم الفلك ، والابحار ، ومسح الاراضي ...... إن ارقام العرب وآلاتهم التي بلغوا بها حداً قريباً من الكمال ، وحسابهم وجبرهم وعلمهم في المثلثات الدائرية ، وبصرياتهم الدقيقة ، كل ذلك افضال عربية على الغرب اوثقت باوربا الى مكانة ، مكنتها عن طريق اختراعاتها واكتشافاتها الخاصة من ان تتزعم العالم في ميادين العلوم الطبيعية منذ ذلك التاريخ حتى ايامنا هذه »(١٤٠) .

إن هونكه على مطلق الحق ، فان عقلية العرب (كما تبرزها مدرسة بغداد في العلم والثقافة والبحث العلمي وتلامذتها فيما بعد) عقلية رياضية ، تعتبر الرياضيات ركنا اساسياً في كل العلوم (بما فيها علم الفلسفة) ؛ وحسبنا الاشارة الى الكندي والرازي وجابر والخوارزمي وابن سينا وابن الهيثم وغيرهم .

ـ ٧ ـ

لقد انجزت مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي إنجازها الهائل ايضاً في حقل علوم الطب والصيدلة والكيمياء والاحياء . ولقد عرضنا ، شيئاً ، لانجازات هذه المدرسة في الكيمياء والتجارب الكيميائية ، حين تحدثنا عن منهجية وتقاليد مدرسة بغداد العلمية .

ونود الآن ان نعرض ، ولو بشكل سريع ومركز ، لانجازات بغداد وتلامذتها في حقل الطب والصيدلة .

لقد نقل طوقان إلينا في كتابه « العلوم عند العرب » ، مقولة للدكتور سارطون ، تقول : « .. ان بعض الغربيين الذين يجربون ان يستخفوا بما أسداه الشرق الى العمران يصرحون بان العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا اليها شيئا .. هذا الراي خطأ .. لو لم تنقل الينا كنوز الحكمة اليونانية ، ولولا إضافات العرب الهامة ، لتوقف سير المدنية بضعة قرون »(١٤١) . كما نقل الينا مقولة وليم اوسلر التي تقول ـ « ان العرب اشعلوا سراجهم من القناديل اليونانية ، وبلغت مهنة الطب عندهم أثناء القرن الثامن الى الحادي عشر للميلاد من المكانة والأهمية مالا تكاد نجد له مثيلا في التاريخ »(١٤٢) .

وواضح من هاتين المقولتين المكانة التي بلغها الطب العربي ـ الاسلامي عموماً (بما فيه الطب العراقي) ، والدور العالمي الذي لعبه في تطوير المعرفة الطبية . ان القارىء يستطيع الاستزادة من كتابين غاية في الاهمية هما « الطب العربي ـ لامين شكر الله » (١٩٤٦) ، و « تاريخ الطب العراقي ـ لعبد الحميد العلوجي » (١٩٦٧) . وثمة كتب اخرى تضيف الكثير الى هذين الكتابين ، رغم انها تستند ، في معطياتها الاساسية ، اليهما .

لقد أفردت المستشرقة الالمانية زيغريد هونكه الكتاب الرابع في موسوعتها « شمس العرب تسطع على الغرب » لبحث الطب العربي ـ الاسلامي ، تحت عنوان « الأيدي الشافية » . ومن الصعب حقاً ، الاتيان على كل ما جاءت به هذه الباحثة الاوربية الموضوعية المعاصرة بحق إنجازات طبنا العربي ـ الاسلامي ، ومدرسته البغدادية ، بخاصة . غير اننا سنشير الى بعض المقولات التي جاءت بها ، لانها ذات صلة وثيقة جداً بالموضوع .

لقد اختارت الرازي ، شيخ اطباء العرب دون منازع ، وقطب المدرسة البغدادية الطبية العلمية ، فقالت ، فيما قالت :

ـ « قبل ٦٠٠ عام كان لكلية الطب الباريسية اصغر مكتبة في العالم ، لاتحتوي إلا على مؤلف واحد ، وهذا المؤلف كان لعربي كبير. وكان هذا الأثر العظيم ذا قيمة كبيرة ، بدليل ان ملك المسيحية الشهير ، لويس الحادي عشر ، اضطر الى دفع اثنى عشر ماركا من الفضة ومئة تالر من الذهب الخالص لقاء استعارته هذا الكنز الغالي ، رغبة منه في ان ينسخ له اطباؤه نسخة ، يرجعون إليها إذا ما هدد مرض او داء صحته وصحة عائلته . وكان هذا الأثر العلمي الضخم يضم كل المعارف الطبية منذ ايام الأغريق حتى عام ٩٢٥ بعد الميلاد . وظل المرجع الأساس في أوربا لمدة تزيد على الاربعمائة عام بعد ذلك التاريخ ، دون ان يزاحمه مزاحم او تؤثر فيه أو في مكانته مخطوطة من المخطوطات الهزيلة التي داب في صياغتها كهنة الاديرة قاطبة ، وهو العمل الجبار الذي خطته يد عربي قدير . ولقد اعترف الباريسيون بقيمة هذا الكنز العظيم وبفضل صاحبه عليهم وعلى الطب إجمالا . فاقاموا له نصباً في باحة القاعة الكبيرة في مدرسة الطب لديهم ، وعلقوا صورته وصورة عربي آخر في قاعة اخرى كبيرة تقع في شارع سان جرمان ، حتى اذا ما تجمع فيه اليوم طلاب الطب وقعت ابصارهم عليها ورجعوا بذاكرتهم للوراء يسترجعون تاريخه ... فمن هو ؟ إنه **الرازي** ، أو رازاس (Rhases) كما سمته بلاد الغرب ، وأما اسمه الحقيقي فهو ابو بكر محمد بن زكريا . ولد في مدينة الري في خراسان ... كان اعتيادياً كالبقية دون ان تبرق بارقة تنبىء بنبوغه الفذ ، واهتم كغيره بالدراسات الفلسفية واللغوية والرياضية . ثم تعاطى الموسيقى فبرع فيها نوعاً ما ، وأصاب شهرة محلية كمغن وعازف ، وظل على هذه الحالة حتى الثلاثين من عمره ، ثم ضاق ذرعاً بهذا الفراغ الدائم وبهذه الرتابة ، فعزم على تغيير حياته جذرياً ، فادار ظهره لمدينته الأم وانطلق سعياً وراء تحقيق آماله وطموحه .... الى اين ؟... **الى مدينة الشفاء ومدينة السلام، الى بغداد عاصمة الدنيا قاطبة وكعبة كل ذي قلب كبير يبغي الرفعة والسمو** !(١٤٣) .

وتستطرد هونكه في الحديث عن طبيب بغداد الاشهر ، ومعلمها **الطبي الاكبر** ، معرجة على بعض إنجازات وأسانيد الطب العربي ـ الاسلامي في بغداد ، قبل الرازي :

ـ « وبكل قواه وتصميمه الاكيد اندفع في دراسة الطب فتعلم على يد تلميذ من تلامذة **حنين بن اسحق** ، رئيس مترجمي ابن موسى

وكثير من الخلفاء ، وتعلم فن انعلاج الاغريقي والفارسي والهندي والعربي الحديث العهد، وعب منه عباً ، حتى إذا ما ارتوى قفل راجعاً الى بلدته الأم ليعمل كمدير للمستشفى هناك ، ولكن ليس لمدة طويلة ، اذ ما لبث ان سعى الى الحصول على منصب رئيس الطبابة في المستشفى الكبير في العاصمة ، وفاز بمطلبه من بين الكثير من منافسيه وبهذا تفتحت امامه ابواب قصور الخليفة ليعمل فيها كطبيب خاص . ولم يمض وقت طويل حتى ذاعت شهرته في طول البلاد وعرضها ، فزحف طلاب العلم من كل اطراف الامبراطورية رغبة في تلقي المعرفة على ايدي الرازي العظيم وتعلم فنون المعالجة والكشف ، والمعاينة الطبية كلما سار بين مرضاه في مستشفاه الكبير . فكان ان ازدحمت قاعات التدريس « بالاطباء وتلاميذهم وتلامذة غيرهم » ، وكان هذا حدثاً جديداً . واصبح الرازي حجة في علم الطب وأي حجة ، ومرجعاً اخيراً لكل الحالات المستعصية ومعايناً لا يعرف الخطأ، ويسعى وراءه الجميع من كل حدب وصوب »(١٤٤) .

لانعتقد انه ثمة حديث افضل موضوعية ، وتدقيقاً ، من حديث عالم أوربي بارز معاصر في فضل الثقافة العربية على الثقافة العالمية كهذا الحديث (ناهيك عن طلاوته ، وعناصر التشويق العلمي والروائي فيه) .

لقد اكدت هونكه ، فيما بعد ، مثلما اكد كثير من المفكرين والباحثين العالميين من فرديناند ووستنفلد ، وكارادي فو ، وكارل بروكلمان ، وماكس مايرهوف ، ورونالد كامبل ، وغاربسون ، وادوارد براون، وباكون الى غريغوريان، وبارتولد، ورمضانوف ، وشاه محمدوف وغيرهم ، اكدت أصالة علم الرازي ، كبير اطباء بغداد ، وابتكاراته الفذة . فباسم الرازي تقترن مقدمات الطب النفسي ـ الجسمي ، والطب الشعبي (طب الفقراء ، أو كما سماه الرازي نفسه في كتابه : « كتاب من لا يحضره الطبيب » ، وباسم الرازي تقترن حرية الفكر وتمجيد العقل ، فهو القائل (ويسمح لنا القارىء في تكرار مقولته العظيمة) : « ... فبالعقل ادركنا جميع ما يرفعنا ، ويحسن ويطيب به عيشنا ، ونصل الى بغيتنا ومرادنا ... وبه نلنا الطب الذي فيه الكثير من مصالح اجسادنا وسائر الصناعات العائدة علينا النافعة لنا . وبه ادركنا الامور الغامضة البعيدة منا والخفية المستورة عنا ... وبه عرفنا شكل الارض والفلك وعظم الشمس والقمر وسائر الكواكب وابعادها وحركاتها .. واذا كان هذا مقداره ومحله وخطره وجلاله فحقيق علينا ان نحطه عن رتبته ، ولا ننزله عن درجته ، ولا نجعله وهو الحاكم محكوماً عليه ، ولا وهو الزمام مزموماً ، ولا وهو المتبوع تابعاً ، بل نرجع في الامور اليه ونعتبرها به ونعتمد بها عليه ... فنمضيها على إمضائه ، ونوقفها على إيقافه. ولا نسلط عليه الهوى الذي هو آفته ومكدره والحائد به عن سننه ومحجته ... بل نروضه ونذلله ونحمله ونجبره على الوقوف عند أمره ونهيه . فانا إذا فعلنا ذلك صفا لنا غاية صفائه ، واضاء لنا غاية إضاءته ، وبلغ بنا نهاية قصد بلوغنا به »(١٤٥) .

وبالفعل ، فقد اضاء العقل للرازي غاية إضاءته ، فقرن النظر بالتطبيق ، ووضع لنفسه منهجية علمية صارمة ، ووضع كثيراً من اجهزته وادويته بنفسه (او اشار الى صنعها) ، ولاحم الكيمياء والصيدلة بالطب ، حتى قال فيه بعض الباحثين « ان الرازي مؤسس الكيمياء الحديثة في الشرق والغرب معاً » ، وهو في الحقيقة المعلم الثاني في الكيمياء بعد جابر بن حيان ، والمعلم الاول في الطب العربي ، او ابو الطب العربي بحق وحقيق . و « احد اعظم اطباء الانسانية اطلاقاً » على ما تقول هونكه .

إن عالم بغداد الكبير ، خريج ونتاج ومطور مدرسة بغداد العلمية ، الرازي ، قد بهر الجميع، في الشرق والغرب ، بكتابه (الحاوي في الطب) ، مثلما بهرهم بكتابه (المنصوري) ، « الذي يحتوي على وصف دقيق لتشريح اعضاء الجسم كلها ، وهو أول كتاب عربي وصل الينا في هذا البحث . ترجم الى اللاتينية وكانت له اهميته في اوربا ، وبقي معمولا به عند الاطباء وفي الجامعات حتى القرن السابع عشر للميلاد »(١٤٦) . وللرازي كتاب الاسرار في الكيمياء « ترجمه كريمونا في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد ، وكان الكتاب المعول عليه والمعتمد في مدارس أوربا مدة طويلة . وقد رجع اليه باكون واستشهد بمحتوياته . وكذلك للرازي كتاب نفيس في الحصبة والجدري ، وهو من روائع الطب الاسلامي عرض فيه للمرة الأولى تفاصيل هذه الامراض واعراضها والتفرقة بينها ،

وقد أدخل فيه ملاحظات وآراء لم يسبق اليها . وقد ترجمه الاوربيون الى اللاتينية وغيرها من اللغات »(١٤٧) .

ومن مآثر الرازي قوله بالعدوى ، وبعوامل البيئة المادية في المرض ، وبتجربة العقاقير على الحيوانات قبل تجربتها على الانسان (وكان يجربها على القرود ، بصفة خاصة ، باعتبارها الاقرب الى الانسان) ، وبوجوب استئصال الخرافة والشعوذة في الطب والمعالجة الطبية ، وبضرورة التدقيق في الصناعة الطبية واحترام خصوصيتها وقوانينها تنظيراً وتطبيقاً . تقول هونكه : « كان الرازي طبيباً عن اقتناع داخلي ، وكان له اقتناع تام بقدسية مهنته وبرسالته في المجتمع . وشعر بمسؤولياته تجاه طبقة الاطباء ، ورأى في الشعوذة وتجار الطب مضار وتدنيساً للرسالة المقدسة ، فحمل عليهم حملة شعواء كشفت النقاب عن وجوههم امام الجماهير ، واضطر المسؤولون فيما بعد ، كنتيجة لهذه الحملات ، ان يزدادوا صرامة في تعليم النشىء الجديد . ثم ادخلت الامتحانات وإعطاء الاجازات بعد ست سنوات من موته »(١٤٨)

ومن مآثر الرازي الطبية العلمية ، إلى ما تقدم كله ، قوله بوجوب إيلاء الاهتمام الى المراقبة السريرية ، وبالمعالجة بالاغذية دون الادوية إن امكن ذلك فقد قال : « ان استطاع الحكيم ان يعالج بالاغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة »(١٤٩) .

وتنسب للرازي كتب اخرى (اضافة الى ما ذكرنا : الحاوي ، والمنصوري ، ورسالة في الجدري والحصبة ، والاسرار وكتاب (الى من لايحضره طبيب)) هي : سر الأسرار (الذي ضمنه منهجه الطبي والعلمي ، و (الكتاب الفاخر) ، وكتاب (برء الساعة) ، والكتاب الجامع أو « حاصر صناعة الطب » بل ان ابن أبي اصيبعه ذكر له في كتابه (طبقات الاطباء) : (٢٣٢) مؤلفا ، فقد اكثرها .

يقول الدكتور امين اسعد خير الله ، في كتابه « الطب العربي » (الموضوع بالانكليزية ، والمعرب بقلم الدكتور مصطفى ابو عز الدين ، والمنشور في بيروت ، عام ١٩٤٦) ، يقول في وصف الرازي : انه كان شغوفاً بالقراءة والمطالعة والكتابة وهمه الاكبر في الحياة ان يطالع كل الكتب الطبية ، وانه اشتهر بدقة الملاحظة ، وهو الذي اختاره عضد الدولة لبناء المستشفى العضدي في بغداد (فقد اختار المكان الذي تأخر فيه تعفن اللحم عن غيره) « وانتخب من بين مئة طبيب لرئاسة ذلك المستشفى ، وكان بعد فحصه مرضاه ومراقبتهم يدون الاعراض وسير المرض والعلاج الذي استعمل . وكانت هذه القيودات اساس كتابه « الحاوي » . . . (كما) كان الرازي محباً لتلامذته ومرضاه وخصوصاً الفقراء منهم الذين لا يكتفي بعلاجهم بل يسعفهم بالمال أيضاً »(١٥٠) .

إن قطب مدرسة بغداد الطبية وفيلسوفها وكيمياويها التطبيقي الاكبر والاشهر ، الرازي ، قد حاز بجدارة ، شهرة علمية عالمية ، وصيتاً مستطيراً ، سواء كان ذلك في عصره ، ام في عصرنا بعد الف عام ونيف . وها هي البروفسورة الدكتورة هونكه تختتم فصلها الخاص بطبيب بغداد الاكبر ، هكذا :

ـ « في شخصية الرازي الطبيب تتجسد ، كما في المرآة ، كل ما امتاز به الطب العربي وما حققه من فتوحات علمية باهرة . فهو الطبيب الذي عرف واجبه حق المعرفة ، وقدس رسالته كل التقديس ، فملأت عليه نفسه وجوانب قلبه وهو ينقذ المعوزين ويساعد الفقراء ! وهو الموسوعي الشمولي الذي استوعب كل معارف سالفيه في الطب وهضمها وقدمها للانسانية أحسن تقديم ! وهو الطبيب العملي الذي يعطي للمراقبة السريرية اهميتها وحقها ! وهو المراقب المفكر والبحاثة الكيمياوي المستقل والمجرب الناجح ! وهو اخيراً المنهجي في عمله الذي اضفى على الطب في عصره نظاماً رائعاً ووضوحاً يثير الاعجاب . »(١٥١) .

وبالفعل ، فان العالم الاكاديمي والطبي ، في كل انحاء العالم ، وجد في الرازي عملاقاً لا يطال ، فخلده في الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، على حد سواء ، وفي العديد من اقطار العالم ، بالتماثيل ، والنصب ، والأجنحة ، والمدارس والجوائز باسمه .

لقد فصلنا ، بعض الشيء ، في الرازي وعقليته ومنهجيته وطبه النظري والتطبيقي وشخصيته العلمية ، ضاربين به المثل لاقطاب مدرسة بغداد الطبية العلمية .

ولم يعش الرازي في معزل عن سواه ، كما لم تكن البيمارستانات (المستشفيات) البغدادية وسواها من بيمارستانات الدولة العربية ـ الاسلامية في العصر العباسي الكبير تزهو بالرازي وحده ، فقد كان ، إلى الرازي ومعه وقبله : اساتذته ، وتلامذته ، ومعاصروه ، واخلافه .

فقد استخدم المنصور ، مؤسس بغداد (عام ١٤٥هـ / ٧٦٥م) جورجيس بن بختيشوع النسطوري من جنديسابور ، ليطببه ، وكلفه بتعريب العديد من الكتب الطبية . واشتغل ابناء بختيشوع وجبريل بتطبيب المهدي والهادي والرشيد . وجعل الرشيد جبريل طبيبه الخاص ورئيسا للأطباء ، واشتهر بمؤلفه (الروضة الطبية) .(١٥٢)

والى جانب آل بختيشوع ، برز في الطب **يوحنا بن ماسويه** الذي اشتهربالترجمة ،وبتأليف العديد من المؤلفات الطبية (ككتاب البرهان ، وكتاب البصيرة ، وكتاب الكمال والتمام ، وكتاب في الحميات ، وكتاب في الادوية ، وكتاب في الجذام ، وكتاب في الاغذية) . وكان **حنين بن اسحق** احد تلاميذه . كما اشتغل بالطب ثابت بن قرة ، الذي ذكرناه غير مرة في غير موضع لموسوعيته وتعدد اهتماماته) ، وقسطا بن لوقا(١٥٣) .

واشتهر في الطب البغدادي، تنظيراً وتطبيقاً، الطبري « استاذ ابي بكر الرازي » ، واشتهرت كتبه (مثل كتاب تحفة الملوك ، وكتاب منافع الاطعمة والاشربة والعقاقير ، وكتاب ترتيب الاغذية) . وقد ذكر علي بن سهل الطبري — (المتوفى بعد ٨٥٠م) في كتابه « فردوس الحكمة » . وهو اشهر كتبه ، ان مصادره وشيوخه هم (ابقراط ، ارسطو ، جالينوس ، يوحنا بن ماسويه ، حنين بن اسحق) . وقد ثار الطبري على المختصرات ، فألف كتاباً جامعاً « ليكون زماماً لها وإماماً محيطاً »(١٥٤) .

اما تلامذة مدرسة الطب البغدادية فلعل اشهرهم ابن سينا ، ولكن علياً بن عباس سبقه زمنياً . وقد الف علي بن عباس ، طبيب القرن العاشر الميلادي ، كتابه « الملكي » (كامل الصناعة) وقد انتقد فيه اسلافه من اطباء اليونان ، ونصح معاصريه بملاحمة للنظر بالعمل والافادة من الملاحظة السريرية ، وقال في ذلك : « ومما ينبغي لطالب هذه الصناعة ان يكون ملازماً للبيمارستانات ومواضع المرضى كثير المداولة لامورهم واحوالهم مع الاستاذين الحذاق من الاطباء ، كثير التفقد لاحوالهم والأعراض الظاهرة فيهم، متذكراً لما كان قد قرأ »(١٥٥) . وقد ترجم هذا الكتاب الى اللاتينية مرتين عام ١٤٩٢ (بفينيسيا) وعام ١٥٢٣ (بمدينة ليدن) . ويذكر كاربسون ان قسطنطين الافريقي قام بترجمته بين عامي (١٠٧٠—١٠٨٠م) وكان المرجع الرئيس لعلم التشريح في سالرنو بإيطاليا(١٥٦) .

اما **ابن سينا** الذي تتمجد به بغداد، وايران، وتركيا ، وآسيا الوسطى (بخارى أوزبكستان السوفييتية وغيرها) ، فهو اسطع نجم في الطب العربي بعد الرازي . ويقدمه البعض عليه ، والحق ان العصر الذي جاء فيه ابن سينا لابد ان يكون متقدماً في معطياته العلمية والطبية عن عصر الرازي الرائد ، إضافة إلى خصوصيات شخصية وابداع ابن سينا الفذ . كان ابن سينا ، تلميذ ومطور المدرسة البغدادية في الطب ، والصيدلة والكيمياء الطبية ، عالماً عبقرياً ، موسوعياً . وقد اشتهر بكتابه **(القانون في الطب)** . الذي ترجم الى اللغة اللاتينية واللغات الاوربية عديداً من المرات ، « وبالنظر لأهميته العلمية كان الكتاب المدرسي في الطب في جامعتي مونبليه ولوفان في أواسط القرن السابع عشر »(١٥٧) . ابتدأ ابن سينا كتابه (القانون) بالتشريح ، فعلم وظائف الاعضاء ، فعلم طبائع الامراض ، فعلم العلاج . ولابن سينا كتاب آخر هو (الأدوية القلبية) ، كما له عدد من الاراجيز الطبية .

ان من مآثر ابن سينا ، مطور مدرسة بغداد الطبية وقطبها الثاني بعد الرازي ، هي دقته في تشخيص ووصف التهاب السحايا ، واكتشافه (الدودة المستديرة) — الانكلستوما — قبل ان تعرف اوربا ذلك بتسعمائة عام ، وقد اعترفت مؤسسة روكفلر ان ابن سينا عرف مصدر هذا المرض قبل ان يعرفه الطبيب الايطالي الذي نسب اليه هذا المرض)(١٥٨) ، ومن مآثره ، الى ذلك ، اكتشافه ووصفه عضلات العين الداخلية . والامراض التي تنقلها مياه الشرب ، واستخدامه العلاج النفسي في التطبيب .

ومن تلامذة مدرسة بغداد الطبية ايضاً **امين الدولة بن التلميذ** (ابو الحسن هبة الله بن أبي العلاء صاعد : المتوفى عام ١١٦٤م) ، وكان رئيساً للبيمارستان العضدي ، واشتهر بشروحه للكتب الطبية اليونانية والعربية .

وبرز في مختلف الامصار الاسلامية اطباء اختصاصيون ، ومؤرخون طبيون أفادوا ، كثيراً، من مدرسة بغداد الطبية الرائدة وإنجازاتها الضخمة . ومن هؤلاء عمار بن علي الموصلي ، الذي اشتهر بكتابه « المنتخب في علاج امراض العين » ، ويعتبر « من أعظم أطباء العيون في عالم العرب ومن اكثرهم ابتكاراً واصالة »(١٥٩) ،

ومنهم ،ايضاً علي بن عيسى الكحال الذي اشتهر بكتابه (تذكرة الكحالين) وقد توفي سنة ١٠٣٩م . « واكتسب هذا الكتاب شهرة واسعة في اوربا فترجم الى اللاتينية والعبرية »(١٦٠) . اما اعظم مؤرخي الطب العربي فهو ابن ابي اصيبعة (موفق الدين) المتوفى سنة ١٢٦٩م وكان « من اطباء العرب المعروفين ، ترجم في كتاب واحد اطباء العالم المشهورين منذ بدء التاريخ حتى يومه ، الفه لامين الدولة وزير الملك ، الصالح ، وهو احسن كتب التراجم ، لا يضاهيه كتاب الا كتاب اخبار الحكماء لابن القفطي . فقد قضى سنين طويلة مدققاً ومحققاً، حتى تمكن من تاليفه واسماه اطباء عيون الانباء في الاطباء »(١٦١) .

وبرز ايضاً خلف بن عباس الزهراوي ، اعظم الجراحين العرب ، واشتهر بكتابه (التصريف) الذي ضم اقساماً في الطب والصيدلة والجراحة ، واستمر اكثر من خمسة قرون ، العمدة في الامور الجراحية في اوربا ، وترجم الى اللاتينية مرات عديدة .(١٦٢)

اما ابن النفيس الدمشقي ، عالم القرن الثالث عشر الميلادي ، فقد كان إماماً في الطب ، اشتهر (بكتابه الشامل في الطب) ، وهو اول من وصف الدورة الدموية الصغرى قبل ان يكتشفها العالم الانكليزي وليم هارفي في القرن السابع عشر .

★ ★ ★

ولعل من اهم ابتكارات مدرسة بغداد العلمية في الصيدلة والكيمياء الطبية ، هي إفادتها من الاعشاب الطبية ، وكان الرازي يقول : العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات الارض فعليك بالاشهر مما اجمع عليه .(١٦٣)

وقد وظفت مدرسة بغداد الطبية معارفها الكيميائية فيخدمة الطب ،واشتهر فيذلك الرازي وابن سينا . وعلى العموم فان الكيمياء ، كما سبق ان تطرقنا الى ذلك في مفتتح البحث ، كانت ، وخصوصاً قسمها العملي (التطبيقي) علماً عربياً. « وقد عاشت تعاليم العرب في الكيمياء حتى القرن الثامن عشر »(١٦٤) .

ويؤكد الدكتور امين اسعد خير الله ،صاحب كتاب « الطب العربي — مقدمة لدرس مساهمة العرب في الطب والعلوم المتصلة به » (الذي سبق ان اشرنا اليه) ، يؤكد ان العرب كانوا رواد علم الصيدلة ومؤسسيه ، « وكل صيدلية او مخزن عقاقير في زمننا هذا يشير الى عبقريتهم فقد برعوا في معرفة الادوية سواء كانت من الأصل النباتي أو المعدني او الحيواني . فهم اول من الف الاقراباذين وكان يوحنا بن ماسويه السابق في هذا المضمار ثم تبعه سابور بن سهل من مستشفى جنديسابور الذي الف الاقراباذين الكبير المؤلف من سبعة عشر نصلاً والذي بقي مستعملا حتى ظهور اقراباذين ابن التلميذ »(١٦٥) .

وكان ابن التلميذ هذا « عميد اطباء بغداد ، ومؤلف الاقراباذين الكبير الذي كان يحتوي على عشرين فصلاً ، والذي بقي كتاب التدريس في البلدان العربية عدة قرون . وقد الف الاقراباذين الكبير الذي وضع لاستعمال المستشفيات »(١٦٦) .

وكان لاطباء بغداد فضل اكتشاف ادوية جديدة كثيرة ، منها ، مثلا لا حصراً ، الكافور ، والسنامكة ، والصندل ، والمسك ، والراوند ، والمر ، والتمر هندي ، والحنظل ، وجوز الطيب ، وخانق الذئب (اكونيت) ، والقرفة . ومن مآثرهم، ايضاً ، اكتشاف الاشربة والكحول والمستحلبات وخلاصات العطور . وقد اشار مارتن ليفي ، العالم الامريكي المعاصر ، الى فضل علماء بغداد الكبير في صنع العطور الطبية وغيرها ، وفي الاستخلاص والتقطير ،وابرز دورالكندي وكتابه فيالتصميدات وكيمياء العطور ، كما اشار الى الرازي ، واثنى على المدرسة الطبية — الكيميائية — الصيدلانية العربية ، وابرز دور رجالها في العلوم الطبية العالمية(١٦٧).

ولم يكن مارتن ليفي الوحيد في ذلك ، فقد انضم اليه وسبقه علماء اوربيون وامريكيون ، واشتراكيون عديدون .(١٦٨)

ويؤكد الدكتور امين اسعد خير الله ان ابن سينا توصل الى تغليف الحبوب الموصوفة للمرضى ، وان اطباء العرب استنبطوا الترياق « المؤلف من عشرات بل مئات الادوية » ، وحسنوا تركيب الأفيون والزئبق وتوسعوا في استعمالها ، وهم اول مناستعمل الحشيش والافيون والزوان للتخدير »(١٦٩) .

واهتم الكيمياويون البغداديون والعرب عموماً . بتحضير العقاقير ، وكانت طرقهم في ذلك علمية متقدمة ، بل رائدة لعصرها وعصور كثيرة تلتها ، ومن طرقهم او (تدابيرهم) : التكليس ، والتشميع ، والتحليل (كتحليل ماء الاملاح ، وتحليل الزئبق الحي وغيره) ؛ والتصعيد ، والتقطير ، والتنقية ؛ والاستنزال . وبرز الرازي

في ذلك فهو أول من ادخل المستحضرات الكيميائية في الطب لاعتقاده الجازم بأن تأثير الادواء إنما يكون نتيجة « عمليات حيوية تجري بين العقار وخلايا الجسم ، وهذا ما يؤيده العلم الحديث من ان الادوية تتفاعل في جسم الانسان تفاعلات كيميائية وفيزيائية ، مما يؤكد ان الرازي خطا خطوة كبيرة نحو علم الصيدلة أيضاً »(١٧٠) .

ولعل من ابرز مآثر العرب في مدرسة بغداد الطبية – الصيدلانية – الكيميائية ، بخاصة ، ادخالهم « **نظام الحسبة ومراقبة الادوية** » ،

« اذ ان بعض الصيادلة لم يكونوا أمينين ومخلصين في أعمالهم ، فكان قسم منهم لا يكتفي بالتدليس والغش ،بل كانوا من الاستهتار بدرجة انهم يدعون بأن لديهم جميع اصناف الادوية ويعطون لمن طلب منهم اي دواء آخر ... **فامر المأمون بامتحان امانة الصيادلة ، ثم امر المعتصم ان يمنح الصيدلي الذي ثبتت امانته شهادة تجيز له العمل ، ثم ادخلت الصيدلة تحت مراقبة الحسبة . وانتقل نظام الحسبة الى اوربا ، ولا تزال كلمة « محتسب » تستعمل في اللغة الاسبانية بلفظها العربي حتى** الوقت الحاضر »(١٧١) .

ويفيدنا الدكتور امين اسعد خير الله ، انه منذ زمن المأمون كان الصيادلة خاضعين للامتحان، والحصول على إجازة الممارسة، وكانت صيدلياتهم خاضعة للتفتيش المنظم ، وكان يوجد في كل مدينة كبيرة عميد للصيادلة الذين كانوا يدعون عطارين(١٧٢) .

★ ★ ★

بيد ان عبقرية مدرسة بغداد الطبية – العلاجية ، لم تقتصر على التفوق والريادة العالمية في الطب النظري والتطبيقي ، والصيدلة، والكيمياء الطبية ، بل تجاوزتها الى السبق في فن العلاج والتطبيب او ما يسمى الاشفاء في البيمارستانات (المستشفيات) ، والصحة العلاجية والوقائية ، والصحة العامة عموماً .

تقول المستشرقة الالمانية البارزة ، زيغرد هونكه ، مقولة ذات دلالة خطيرة حقاً :

– **« إن كل مستشفى ، مع ما فيه من ترتيبات ومختبر ، وكل صيدلية ومستودع ادوية في ايامنا هذه ، إنما هي في حقيقة الامر نصب تذكارية للعبقرية العربية »**(١٧٣) .

ولا تلبث تعلل مقولتها هذه بحديث آخر غاية في الاهمية ؛ وفي الدلالة العالمية للمستشفيات العربية في بغداد وسواها وعلم الطب والعلاج العربي – الاسلامي في القرون الوسطى ، فتقول (في الفصل الثاني ، من كتاب « الايدي الشافية »، في موسوعتها « شمس العرب تسطع على الغرب »، وعنوان هذا الفصل وحده دال بذاته «مستشفيات مثالية واطباء لم ير لهم العالم مثيلا ») :

– « ... كان ثمة مستشفى عضد الدولة في بغداد بأقسامه الواسعة ، ومستشفى النوري في دمشق مع مبانيه المخصصة لكل الفروع ، وجوهرة المستشفيات المستشفى المنصوري بالقاهرة ، وقد اعتبرت كل هذه المستشفيات اشهر المؤسسات الطبية في العالم العربي ... ولم يكن تأسيس المستشفيات وقفاً على الخلفاء والسلاطين أو الرجال الأغنياء ، وإنما داب ايضاً على تأسيسها الأطباء ، من امثال سنان بن ثابت، وثابت بن سنان ، ابن ثابت بن قرة وحفيده .... كانت المستشفيات الكبيرة بمثابة مدارس عالية للطب . وكان يتلقى الطلاب فيها علومهم . ويتعلمون كل ما قاله ابقراط وجالينوس وما جاء به اساتذتهم العرب الكبار انفسهم . وكانوا يستمعون الى كل هذا ايضاً في باحات الجوامع وفي مدارس خاصة طبية كان يديرها اطباء معروفون . هذا وبينما طلاب العلم في بلاد الغرب يسهرون الليالي درساً وحفظاً على ضوء الشموع في قاعات الاديرة كانت التجربة العملية هنا تسير مع العلم جنباً الى جنب ، وتجابه النظريات ، على اسرة المرضى ، حقائق المعاينة والكشف وحقائق التجارب . فتفند الظواهر تفنيداً علمياً وتتبع الحالات المستعصية بحثاً ونقاشاً ، وعلاجها تفصيلا وشرحاً ،بعكس ما كان يجري في بلاد الغرب حيث كانت النظريات الجافة تملأ عقول رجال الاكليروس وتحول دونهم والاحتكاك بالمخلوقات ذات الدماء الحارة ! »(١٧٤) .

هكذا كانت هي الحال ، إذن ، في الدولة العربية – الاسلامية ،وهكذا كانت (بالمقابل) في اوربا التي كانت تغط في دياجير القرون الوسطى !

ولعل شهادة المستشرقة الالمانية هونكه هذه، في غنى عن التعليق .

ابتدأت بغداد تقاليدها العلمية الراسخة في

العلاج والاستشفاء في بيمارستاناتها الشهيرة . وكانت اول البيمارستانات التي بناها العرب ... قد اقيمت على يد الوليد بن عبدالملك ، الا ان المنصور والرشيد انشأ هذه البيمارستانات ، على تقاليد علمية ، فقد انشا الرشيد بيمارستاناً في بغداد سماه باسمه ، وعهد لماسويه (من اطباء بيمارستان جنديسابور) برئاسته ، كما تولاه جبريل بن بختيشوع أيضاً . واقام البرامكة في بغداد بيمارستانا تولاه ابن دهني(١٧٥) اما البيمارستان الثالث فهو بيمارستان علي بن عيسى (الوزير)_ عام ٩١٤م . والبيمارستان الرابع ، هو بيمارستان المقتدري بناه الخليفة المقتدر عام ٩١٨م . وهناك البيمارستان الشهير بالبيمارستان العضدي ، بناه عضد الدولة عام ٩٨١م . وثمة بيمارستانات اخرى ، مثل بيمارستان ابن الفرات، انشاه ابن الفرات وزير المقتدر ، و « بيمارستان بدر غلمان بني على طلب سنان بن ثابت » و « بيمارستان السيدة بناه سنان بن ثابت » »(١٧٦).

وانتشرت البيمارستانات ، بعد ذلك ، على طريقة بيمارستانات بغداد (أو حتى بشكل اكثر تطويراً) في سائر ارجاء الامبراطورية الاسلامية (وذلك مثل بيمارستان حران ، وبيمارستان مجاهد الدين في الموصل ، وبيمارستان الرقة ، وبيمارستان ميافارقين ، والبيمارستان النوري في الشام ، وبيمارستان المجذومين في الشام ، والبيمارستان الجديد في حلب ، وبيمارستان القدس (بناه صلاح الدين)،وبيمارستان حماه ، وبيمارستان مكة ، وبيمارستان المدينة ، وبيمارستانات شمالي افريقيا والاندلس)(١٧٧) .

ويؤكد الدكتور أمين اسعد خير الله ان العرب في بغداد كانوا اول من بدأ التدريس في المستشفيات بطريقة علمية ، واول من اقام العيادات الخارجية ، واول من اهتم بادارة المستشفيات وضبط حساباتها ، واول من أوجب فحص الاطباء قبل الترخيص لهم بمعاطاة الطب . كما كانوا اول من الحق بالمستشفيات الصيدليات القانونية . واكثر من ذلك فانهم اوجبوا على الاخصائيين ان يقدموا امتحاناً خاصاً ويحصلوا على ترخيص خاص بالفرع الذي تخصصوا به . ويعلق الدكتور خيرالله ، **في الختام على تقديم الترخيص في التخصصات والفروع ، مذ آنذاك ، ان هذا امر « لم ندرك شأوه حتى يومنا هذا رغم تكرار الطلب والالحاح »(١٧٨) .**

لقد كان المستشفى العضدي في بغداد ، مثلا، مفخرة من مفاخر الطب العربي . فقد كان له ساعوره (عميدة) ، كما كان له معاونوه من رؤساء الاقسام الاكفاء . وكان فيه اربعة وعشرون طبيباً يتوزعون في اختصاصاتهم بين الأمراض الداخلية ، والجراحة ، وامراض العيون ، والتجبير ، وغيرها. وقد تولى عمادة اطبائه اطباء مشهورون مثل جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع ، وابن التلميذ، وثابت بن سنان بن ثابت بن قرة ، وابو بكر الرازي (الذي اختار موقعه) ، وساعد بن بشر ، ونظيف النفس الرومي ، وابو الخير بن ابي الفرج الجرائحي ،وابو الحسن بن سنان الصابي؛ وكان ساعوراً في البيمارستان ، وله إصابات في الطب ، وتقدمة المعرفة والتوفيق في العلاج عجيبة »(١٧٩).

لقد زار ابن جبير ، الرحالة العربي الكبير ، بغداد ، عام ١١٨٤ ، ووصف المستشفى العضدي بانه اشبه بالقصر ،يضم عدة اجنحة ،وعدداً كبيرا من الغرف . ويحتوي جيد الفراش ، والوان الراحة ، وفي كل قسم من اقسامه ماء جار من مياه دجلة . وقال في ذلك : « ... وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد ، وهو على دجلة ، وتتفقده الاطباء كل يوم اثنين وخميس ، ويطالعون احوال المرضى به ويرتبون لهم اخذ ما يحتاجون اليه ، وبين ايديهم قومة يتولون طبخ الادوية والاغذية وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية ، والماء يدخل اليه من دجلة »(١٨٠).

وقد تحدث ابن الجوزي في تاريخه المنتظم ، وابن خلكان ، وابو المظفر في مرآة الزمان ، والعماد الاصفهاني في كتابه « نصرة الفترة » احاديث مستفيضة عن المستشفى العضدي .

★ ★ ★

ويحدثنا الاستاذ ناجي معروف عن مدرسة الطب المستنصرية (اي ــ مدرسة الطب في جامعة المستنصرية البغدادية) ، فيقول ــ كان علم الطب من العلوم التي تدرس بالمستنصرية في بناية خاصة تقع تجاه المدرسة المستنصرية اي مقابل باب المدرسة الرئيس .وهي صفة فاخرةتحت الايوان الذي تكامل سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٥ ميلادية) ، وقد اتخذت هذه الصفة مكاناً لتدريس الطب ، ومداواة مرضى المستنصرية على اختلافهم . وذكر ابن العبري ــ ان طبيب المستنصرية كان يتردد الى مرضاها في بكرة كل يوم يتفقدهم . وكان يطلق على

هذا المكان أبيمارستان او المارستان (أي المستشفى) . وذكر ابن العبري وابن واصل وغيرهما انه كان في المستنصرية مخزن فيه انواع الأشربة والأدوية والعقاقير . ولا شك في ان هذا المخزن كان بمثابة المذخر الطبي او الصيدلية فيها ... ومما يحسن ذكره ، في هذا الصدد ، ان بناء مدرسة الطب المستنصرية بجوار مدرسة الفقه ، ودار السنة ، ودار القرآن الخ كان امرا ضروريا وذلك لتسهيل معالجة المرضى في تلك الجامعة الواسعة وللاستفادة من الامتحانات الاخرى التي امتازت بها المستنصرية كالاستفادة من دار الكتب ، ومن المخزن ، ومن المطبخ الذي كان الطعام يهيأ فيه ويوزع على الطلاب وغيرهم . ومما يتصل بمدرسة الطب ما ذكره عبدالرحمن الاربلي بصدد ما كان يدرس بالمستنصرية ، فقد عد حفظ قوام الصحة وتقويم الابدان من الأمور التي كانت تحظى بعناية هذه المدرسة واطبائها . وينبغي ان نذكر ان كثيرا من علماء المستنصرية اشتهروا بالطب والتأليف فيه ، فقد كان البرزبي راسا في الطب ... واليك ما وجدناه من اسماء اطباء هذه المدرسة : ١ ـ شمس الدين ابن الصباغ ٢ ـ سنجر الطبيب ٣ ـ علاء الدين الاربلي ٤ ـ ابن الكتبي الشافعي ... »(١٨١) .

واتفق معظم باحثي الطب العراقي ، والعربي ـ الاسلامي ، عموما وخصوصا ابرزهم : (الدكتور امين اسعد خير الله ، وعبدالحميد العلوجي ، والدكتور مصطفى شريف العاني ، ود . احمد شوكت الشطي ، ود . محمود دياب) وعديد من المستشرقين (بينهم لوبون ، وبراون ، وكارا دوفو ، وجاك بيرك ، وآدم متز ، وهونكه ، وغريغوريان ، ونيكولسكي) ، اضافة الى قدري طوقان ، وحكمت نجيب ، وناجي معروف ، وجلال مظهر (ممن بحثوا الطب العربي ـ الاسلامي ضمن بحوثهم في الحضارة العربية ـ الاسلامية والعلوم عند العرب) ، يتفق كل هؤلاء ، وعديد سواهم على ان علم الطب عند العرب ، وخصوصا في مدرسته الأولى الأساس ، المدرسة البغدادية ، لم يتحدد بالنقل والترجمة من الامم الاخرى ، بل تجاوز ذلك الى الابتكار ، والتطوير ، فقد تقدم نوعيا ، وكميا ، بشكل استثنائي ، جراء المنهجية العلمية التي اتبعتها مدرسة بغداد في العلم والثقافة والبحث العلمي ، على صعيد الملاحظة والتجربة والمتابعة السريرية ، وربط النظر بالعمل والنظرية بالممارسة، ناهيك عن الابتكارات الاصلية في القول بالعدوى ، وأثر البيئة ، وبالطب النفسي ـ الجسمي . والتفاعل الكيميائي لعقاقير ، والاضافات في التشريح والجراحة ، وطب العيون ، وطب الاطفال ، والصحة الوقائية ، والصحة العامة .

لقد أدت بيمارستانات بغداد وسواها ، الثابتة والمحمولة (المتنقلة) ، والمستشفيات الحربية، والمستشفيات المتخصصة (كمستشفيات الجذام ، ومستشفيات المجانين) ، ومآوي العميان والايتام والنساء العاجزات (التي انشاها المأمون في المدن الكبيرة) ، ومستشفيات السجون ، ومحطات الاسعاف (بالقرب من الجوامع) ، ومدارس الطب الملحقة بالمستشفيات . لقد ادت كل هذه المؤسسات الطبية البغدادية وما ماثلها في الأمصار العربية والاسلامية دورها في حفظ الصحة العامة ، وفي « تقويم الابدان » ، وتنشئة المواطن في الدولة العربية ـ الاسلامية تنشئة صحية سليمة ليسهم بدوره في العمل والبناء والانتاج واسع النطاق ، في الميادين الحياتية المختلفة .

ومن جملة تقاليد مستشفيات بغداد ونظيراتها في الحواضر العربية والاسلامية تكريس اقصى الاهتمام الرسمي والشعبي للمستشفيات ، وتخصيص الايرادات الدائمة لها ، وتجهيزها باحسن الاثاث (حتى لقد قيل ان بعض اثاثها كان يماثل اثاث قصور الخلفاء والامراء) ، وبالغذاء الصحي اللازم (بما فيه لحوم الابقار والاغنام والطيور) ، والتطبيب المجاني ، والتخصص في الطب والمعالجة (الأبدان ، والعيون ، والاسنان ، والجراحة ، والامراض العقلية وغيرها) ، والفحص الطبي العدلي (في العصر العباسي ، « عند حدوث بعض الوفيات الغامضة أو الاغتيال »)(١٨٢) ، واستحداث اجنحة خاصة للرجال ومثلها للنساء ، وإلحاق بعض مدارس الطب بالمستشفيات ، وتواجد صيدليات دائمة في المستشفيات ، الى جانب العيادات الخارجية ، والمتابعة الدائمة .

وقد اورد الدكتور امين اسعد خير الله ، في كتابه : « الطب العربي » ، (الذي اشرنا إليه غير مرة) ، ان المرضى كانوا يفحصون في مستشفيات بغداد وما ماثلها ، اولا في القاعة الخارجية فمن كان منهم بحالة مرض خفيف يكتب له العلاج ويصرف من صيدلية المستشفى . اما الذي هو بحاجة الى المعالجة في المستشفى فكانوا يدخلونه اليه . وبعد قيد اسمائهم يعطون حماما وثيابا نظيفة وكانت ثيابهم القديمة ترسل الى المخزن . ويبقى هؤلاء المرضى في المستشفيات حتى الشفاء التام ...

وكانوا عند خروجهم من المستشفى يعطون بدلة من الثياب ومبلغا من النقود يكفيهم الموز الى ان يصبحوا قادرين على العمل ... وكانت صيدلية المستشفى في عهدة صيدلي كفء ... تضاهي في حسن ترتيبها صيدليات هذا الزمن ... وفي المستشفيات العمومية كان الساعور (أي عميد المستشفى) مسؤولا عن علاج المرضى ويعاونه رؤساء الاقسام الاكفاء . وكان المرضون رجالا ونساء يقومون بخدمة المرضى بعناية متصلة . وفي كل مستشفى كان يوجد أطباء مختصون بالأمراض الداخلية او الجراحة او امراض العيون ... وكان يلحق بالمستشفيات الكبيرة مدارس للطب فكان الطلبة يجتمعون في القاعة الكبرى من المستشفى حيث كانوا يراجعون دروسهم وينسخون المخطوطات الطبية التي راجعها اساتذتهم وأصلحوها لهم . وكان هؤلاء الاساتذة يلقون عليهم الدروس من مؤلفات جالينوس والرازي وعلي بن عباس المجوسي حتى ظهر قانون ابن سينا الذي كسف التعاليم السابقة له . وكان المساعدون والطلبة يفحصون المرضى في العيادة الخارجية ويعرضون الحوادث الصعبة على رئيس العيادة وكانت الحوادث المهمة تشرح لهم شرحاً وافيا ويوصف لها العلاج اللازم ... وعدا المحاضرات التي كانت تعطى للطلبة على المرضى كانت تكتب التعليمات اللازمة لكل مريض وتنفذ بدقة وتدون الملاحظات عن كل مريض متتبعة سير المرض . وقد قيل ان الرازي بنى كتابه « الحاوي » على هذه الملاحظات . وكان للأطباء الحرية بالتجربة للأدوية الجديدة التي كانت تدون معلوماتها في كتاب خاص تنشر تحت عنوان « المجربات » ... ولم يكن يصرح لأحد بتعاطي الطبابة إلا بعد الفحص القانوني ... وكان أطباء المستشفيات يختارون بعناية دقيقة فالرازي انتخب لرئاسة المستشفى العضدي في بغداد من بين مائة طبيب ... (وكان الاطباء) يتعاطون ما هو ضمن اختصاصهم فقط وذلك بعد الامتحان والترخيص الخاص ... اما المشاورة بين الاطباء فيما يختص بالمرضى فكانت تحدث كلما دعت الحاجة اليها ... »(١٨٢) .

إن الدكتور خير الله (وهو من اوائل من كتب عن الطب العربي في بغداد وغيرها ، إن لم يكن اولهم) يستنتج من كل ذلك ، محقا ، انه لا مجال لمقارنة والحالة هذه بين طب بغداد ، مركز العلم والثقافة العالمية في عصرها - وبين « الطب » الاوربي في القرون الوسطى ، وهو شيء اشبه بالشعوذة والدجل والفوضى ان لم يكن نشراً للأمراض من جديد ، فقد ذكر د . خير الله (يؤيده العديد من المستشرقين والباحثين) :

- « في هذا التاريخ كانت المستشفيات في أوربا مثل اوكار للأمراض والجراثيم . وهاك ما قاله ماكس توردو عن مستشفى « أوتيل ديو » في باريس الذي كان معاصراً لمستشفيات العرب ، والذي كان يعد حينئذ من أحسن المستشفيات في أوربا ، قال : « في الفراش الواحد من الحجم المتوسط كان يرقد اربعة الى ستة اشخاص الواحد جنب الاخر وارجل احدهم فوق راس الآخر . وكان الأطفال يرقدون بجانب الرجال المسنين والنساء والرجال معاً ... وفي الفراش الواحد امراة في دور المخاض وبجانبها طفل بحالة التشنج ومصاب بالتيفوس في حالة الهذيان من ارتفاع الحرارة ومريض بالسل يسعل سعالا متواصلا وبجانب كل هؤلاء شخص مصاب بمرض جلدي يحك جلده حكاً شديداً باظفاره الطويلة ... اما الأكل فكان من اردأ الأصناف وقليل الكمية ويعطى بأوقات غير منتظمة ... والبناية نفسها تعج بالحشرات الدنيئة . وكان هواء قاعات المرضى فاسداً كريهاً لا يجرأ الخدم ان يدخلوها إلا اذا سدوا انوفهم بالقطن المبلول بالخل ... وكانت جثث الموتى تترك احيانا (٢٤) ساعة او اكثر قبل ان ترفع من فراش المرضى وكانت تتصاعد منها الروائح الكريهة ويحوم فوقها الذباب »(١٨٤) .

بل ان الدكتور خير الله يمضي اكثر من ذلك، فيستلهم تراث بغداد الطبي العربي من منظور مقارن معاصر ؛ ويقول في ختام استنتاجاته ، مبرراً كل التبرير : ((**لذلك فالمستشفيات العربية تعطينا دروساً مفيدة حتى في ايامنا هذه**))(١٨٥) .

ولم يكن الدكتور خير الله بالوحيد في استنتاجاته بخصوص التفوق العربي (البغدادي) الحاسم للطب العربي في تلك العصور على سواه (من طب أوربي وغيره) ، فان الباحث الموصلي المعاصر الاستاذ الفقيد حكمت نجيب عبدالرحمن يستنتج مثل ذلك (في كتابه « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » منشورات جامعة الموصل ، ١٩٧٧) ، فيقول :

- **«استمر الطب مزدهراً عندالعرب طيلة فترة القرون الوسطى** ،واصبح فنا وعلما **تخصص**

له المعاهد الدراسية بحيث عرفوا عنه كل شيء قبل اختراع المجهر ... ولقد ذكر فرانك آدمز ان الأطباء العرب الذين اعطوا حياة جديدة لدراسة العلوم الطبيعية في اوربا وقدموا خدمات جلى للأوربيين ، ليس فقط عن طريق حفظ أعمال فلاسفة اليونان وعلمائها ، وإنما عن طريق ابتكاراتهم العلمية والتي قدمها علماؤهم ، ومن بينهم في الطب والعلوم الطبيعية ابن سينا ، في الوقت الذي لم تكن فيه أوربا تعرف الطب بالمعنى الحقيقي وكانت متأثرة الى درجة كبيرة بالتعاويذ والاحجية والتمائم ، مع الاستسلام لأقسى انواع الدجل والشعوذة بالاضافة الى التعصب الديني . يورد الاستاذ درابر في كتابه The Intellectual Development in Europe

« بان الفلاح الاوربي إذا اصابته حادثة وفاجاته الحمى يسرع الى ضريح قرب قديس انتظاراً لحدوث معجزة تشفيه ،وأما العربي الاسباني فكان يعتمد على تعليمات طبية ومشرط وتضميد جراحي » انتقل الطب العربي مبكراً الى الغرب فانشئت المدارس الخاصة بالطب في مدن مونبلييه ، ونابلي ، وبولونيا ، وپادوا واورليان ، واوكسفورد ، وكمبريدج وغيرها . وكانت هذه المدارس تستخدم كتب الطب العربية المترجمة الى اللاتينية ،متخذة إياها اساساً لتدريس الطب))(١٨٦) .

ويبدو ان المستشرقة الالمانية المعاصرة ، هونكه ، على تمام الحق ، حين اكدت تقول : « كان هناك رجل تغنى بعظمة الطب العربي وبراعة اساطينه فقال : « لقد برع العرب في علم الشفاء الى حد اعتقد المرء فيهم انهم مؤسسوا هذا الفن . وقد كان بامكانهم ان يدعوا ذلك بسهولة لولا انهم لم يكثروا من ايراد الأسماء والكلمات اللاتينية واليونانية ، ولهذا فان كتب ابن سينا والرازي وابن رشد قد استقبلت بالثقة نفسها التي استقبلت بها كتب ابوقراط وجالينوس ، ونالت ثقة كبيرة ، حتى ان كل من حاول التطبيب بدون الاستناد عليها كان يتهم بسهولة انه يهدم المصلحة العامة)) . هذا الرجل هو أجريبافون ناتسهايم ، « الابن الرهيب » بين رجال الثقافة والعلم . أليس بشيراً للخير ان يكون أساتذة الاطباء والصيادلة المسيحيين الذين تشهد « اوراد القديسين » ان البابا فيليكس الرابع قد خصهم بكنيسة قديمة في « الفوروم » الروماني ؛ تقول ، أليس بشيراً للخير ان يكون أساتذة هؤلاء الأطباء المسيحيين قد ولدوا عرباً ؟))(١٨٧) .

وبالمثل ، كانت باحثتنا الالمانية الكبيرة ، في تمام موضوعيتها العلمية ، حين قررت ، في ختام كتابها « الأيدي الشافية » (أحد كتب موسوعتها « شمس العرب تسطع على الغرب ») ، وبكل ثقة:

ــ « إن كل حبة من حبوب الدواء ، منذهلة او مسكرة ، إنما هي كذلك ، تذكار صغير ظاهر ، يذكرنا باثنين من اعظم اطباء العرب ومعلمي بلاد العرب))(١٨٨) .

وهي تقصد بذلك الرازي طبيب بغداد الرائد الكبير ، وابن سينا خليفة الرازي ومطور تعاليمه الطبية في بغداد والدولة العربية ــ الاسلامية .

وإذا كان هذا رمزاً للتاثير العميق النافذ لمدرسة الطب العربية الاسلامية ، ذات المنبع البغدادي ، واذا كان التاثير العربي قد عاصر في ميدان علم العقاقير في أوربا فترة ما قبل النهضة ، والنهضة نفسها ، وتعداها حتى وصل الى القرن التاسع عشر (ففي عام ١٨٣٠ استعملت مصادر عربية في تصنيف الاقراباذين الاوربي)(١٨٩) ، إذا كان هذا قد تم ، بهذا الشكل ، فان بغداد ، كمركز للعلم والثقافة العالمية ؛ تكون قد بسطت تاثيرها العلمي والمعرفي ؛ إذا صح التعبير ، على الحضارة الأوربية في شتى عصورها ؛ بصفتها منبع واساس إزدهار العلم العربي والثقافة العربية ــ الاسلامية التي اضلت بنفوذها أوربا والعالم كله ، خصوصاً في القرون الوسطى وعصر النهضة ايضا .

ــ ٨ ــ

إن تراث العلم والثقافة في بغداد لا يتحدد بما سبق ان بحثنا لحد الان (الرياضيات ، والعلوم الفلكية ، والطبية) ، فثمة العلوم الطبيعية ، وثمة الجغرافيا ، والتاريخ ،والعلوم الاجتماعية أو الانسانية ، ولكن إيفاء كل ذلك حقه ، بالتفصيل ، امر يكاد يكون مستحيلا ، في مثل هذا الحيز . وحسبنا اننا اشرنا بتفصيل نسبي الى الاساس والجوهر ــ نعني بذلك المنهجية العلمية ، وتقاليد البحث العلمي في المدرسة البغدادية ، وهي التي كانت سر نجاح

العلوم العربية والثقافة العربية ـ الاسلامية في بغداد ، سواء كانت علوماً رياضية ، او فلكية ، او طبية ، او طبيعية ، او اجتماعية وانسانية .

إن هذه المنهجية العلمية التي قامت ، اساساً ، بالروح العلمية والتقاليد العلمية : والأخلاق العلمية ايضاً (تقاليد وأخلاق البحث العلمي) التي طلعت بها بغداد الحضارة العربية ـ الاسلامية ، هي التي تقف وراء كل نجاحات علماء بغداد والدولة العربية ـ الاسلامية في مساعيهم وبحوثهم وانجازاتهم العلمية الجبارة .

ولعلنا مدعوون هنا الى إيضاح حقيقة طالما ثار حولها الجدل ، وهي حقيقة ابتكار وأصالة الفكر العلمي العربي ، والثقافة العربية ـ الاسلامية. فكثيراً ما تهجم المتعصبون والمتحاملون والمتزمتون من اعداء العلم ، واعداء العرب (عرب بغداد وغيرهم) ، واعداء الشعوب والثقافة الانسانية ، على العرب وعلى الثقافة العربية ـ الاسلامية ووصفوها ظلماً وعدواناً ، بالخواء والهزال ، وبأن دورها في التاريخ لا يعدو ان يكون دور الناقل والمترجم لفلسفة وثقافة اليونان .

ويؤكد رينان ، مثلا ، ان الساميين (ومنهم العرب) ـ بل هو يقصد العرب بالذات ـ لا يعرفون الثقافة والعلم والفلسفة الا تقليداً . وقد ناصر المنصريون ، والامبرياليون ، والصهاينة ، في كافة انحاء المعمورة ، هذه المقولة الباطلة ونشروها في كل مكان ، وبشتى السبل (خصوصاً ايام الانتكاسات العربية وبعدها) .

وبالطبع ، فان الأغراض التي تختفي وراء هذه المقولات واضحة تتلخص في طمس الحقيقة العربية وتشويه علوم العرب وثقافتهم ، والخروج من ذلك الى القول بأن العرب أمة تابعة : من حيث العلم والثقافة لغيرها ، وانه لا جديد لديها ولا غناء ، وان التخلف فيها سمة عريقة ثابتة .

على ان الحقيقة العربية في بغداد العلم والثقافة والبحث العلمي ، بغداد الحضارة العربية ـ الاسلامية ، وفي كافة الامصار في الدولة العربية ـ الاسلامية الواسعة ، إنما هي امر لا يمكن له (كأية حقيقة موضوعية ، تاريخية ، مادية) ان يختفي او يطمس . فالعلم العربي والثقافة العربية ـ الاسلامية والروح العلمية عند العرب هي من الضخامة والجلال والسطوع بحيث لن يقوى على طمسها أي تزوير او تزييف ، رجعياً ، كان ام امبريالياً ، ام صهيونياً .

فهذا هو البروفسور برنارد لويس يشهد ، في جملة من شهدوا للعلم العربي والعقل العلمي العربي فيقول :

ـ « إن أوربا تحمل ديناً مزدوجاً للعرب : اولا ، محافظة العرب على وقدة الفكر الانساني ، والميراث العلمي والفكري لليونان وتوسعهم فيه ، وثانيا : في تعليم أوربا طريقة جديدة للبحث بوضع العقل فوق السلطة » .

ويؤكد الباحثون المنصفون ، من ذوي النظرة الموضوعية في البحث والتحليل ، ان الفكر العربي ـ الاسلامي كان ، من حيث الجوهر ، **فكراً تجريبياً** . ويضيف هؤلاء قائلين ان ذلك لا يعني ان هذا الفكر كان ضد القياس ، ذلك ان التجربة ذاتها تتضمن القياس وتنص عليه ، وتتطلبه عضوياً . ويزيدون ، ايضاً ، قائلين ، وللقول دلالته البالغة ، ان الفكر العربي ـ الاسلامي قد تجاوز الاطر الصورية لمنطق ارسطو ، وتشبث بالتجربة العلمية متخذاً إياها ، في اكثر الاحيان ، مصدراً للعلم والفلسفة . ويستنتجون من كل ذلك ، محقين ، ان الفكر التجريبي العلمي العربي ـ الاسلامي يلاحم بين الدراسة والتأمل النظري والممارسة العملية ، اي ما نسميه نحن بالتطبيق ، ويتجه ، بصورة اساسية ، الى التحديد الكمي . وهكذا ، **فهو ليس تقليداً للفكر العلمي اليوناني ، بل هو ، كما يقول هؤلاء الباحثون بالحرف « صفحة جديدة كل الجدة بالنسبة للفلسفة الارسطوطاليسية والافلاطونية »(١٩٠)** .

وبالفعل ، فان الاتجاه الى الكم والتجربة هو خروج مباشر على مفهوم جوهري في منطق ارسطو هو التعريف . والتعريف او الحد الارسطوطاليسي بالنوع والفصل مثلا هو تعريف يوافق النظرة الكيفية الى الاشياء .

واذا كان رجال الفقه والأصول هم اول من خرجوا على منطق ارسطو ، فان الفلاسفة والعلماء العرب والمسلمين كانوا المطورين لهذا الخروج العلمي الجليل ، الذي ادى ، في مراميه البعيدة ، الى تثبيت عملية التجريب العلمي وليس الاستخلاص المنطقي الشكلي نهجاً لاكتساب المعرفة ، وادراك الحقيقة .

ويؤكد ذلك ، مثلاً لاحصراً ، ابن خلدون (العالم العربي الكبير الذي يشهد له علماء العالم

جميعاً بالريادة والسبق في علم الاجتماع ، والاقتصاد ، والنظرة العلمية ، وإعادة كتابة التاريخ بروح علمية ، نسبة لمواصفات العصر) نقول ، يؤكد ذلك ابن خلدون في نقده لمنطق ارسطو حيث يقول : « إن الأقيسة المنطقية احكام ذهنية ، والموجودات الخارجية متشخصة ، فالتطابق بينهما غير يقيني . لأن المادة قد تحول دونه ، اللهم الا ما يشهد له الحس من ذلك فدليله شهوده لا تلك البراهين المنطقية » . وينبغي ان نسارع للقول ،ان مقولة ابن خلدون هذه لا تعني القضاء التام على القياس المنطقي ، ذلك ان عمليات التجريب تتضمن في جوهرها عمليات قياسية جزئية .

وتدل **ابحاث الجاحظ في الحيوان** ، وابحاث الكندي الفلسفية ، ودراسات وابحاث وكشوف **جابر بن حيان** ، والكندي ، والرازي ، وابن الهيثم ، وابن رشد والبيروني وابن **سينا وابن باجة وابن خلدون** وغيرهم ، على ان الروح العلمية العربية ، كما بداها **مصدر الأشعاع الفكري** والحضاري العربي — الاسلامي : بغداد ، روح اصيلة غير **مستوردة** ، او مقلدة . كما تدل ، فيما تدل عليه ، على ان المنهج التجريبي **العربي ، والتوحيد الجدلي** بين النظرية والتطبيق ،والنظرة **الشمولية للمادة والانسان والكون ، والاتجاه** الكمي ، والقيم التجريبية **والحسية انما كان مصداقا لهذه الروح العلمية** الأصيلة لدى العرب، وشهادة بليغة على **عمق وضخامة الاضافة العربية — الاسلامية** (بالشكل الذي بداته بغداد — **المتبع، والرائد**) الى العلم والثقافة العالمية .

واذا كان لنا ان نستشهد ، هنا ، بشيء فاننا نشير الى مقولة البروفسور برنارد لويس ، التي ذكرنا توا ، وهي **تعليم العرب اوربا طريقة جديدة للبحث** . وهذه الطريقة الجديدة في البحث إنما هي طريقة **البحث العلمي الموضوعي الجدلي** ، وهي نفسها ما تشير إليه مستشرقتنا الالمانية البروفسورة هونكه حيث تقول (وكأنها تجيب عن التساؤلات حول دور العلم العربي والثقافة العربية — الاسلامية ، في العملية الحضارية والثقافية العالمية) ، وذلك في ختام مبحث لها بعنوان « هدايا العرب للغرب » (في كتابها المشار اليه انفاً) :

— « ... **لقد طور العرب ، بتجاربهم وأبحاثهم العلمية ، ما اخذوه من مادة خام عن الاغريق ، وشكلوه تشكيلا جديداً . فالعرب ، في الواقع ، هم الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمي الحق ، القائم على التجربة** »(١٩١) .

ونعلل البروفسورة هونكه مقولتها هذه بشكل تستشهد ، في تضاعيفه بالبحث العلمي العربي في بغداد ، اساساً ، وفي سائر الحواضر العربية — الاسلامية ، فيما بعد ، وتذكر ، ضمنياً بالنظّام ومدرسته المعتزلية الفكرية ، التي قامت على الشك سبيلا الى التثبت ، والتجربة والبرهان (مما عرضنا له آنفا في فصل سابق من بحثنا هذا) ، فتقول :

— « ... لقد سرت بين العلماء الاغريق ،الذين لم يكونوا جميعاً بالاغريقيين بل كان اغلبهم من أصل شرقي ، سرت بينهم رغبة في البحث الحق ، وملاحظة الجزئيات ، ولكنهم تقيدوا دائماً بسيطرة الاراء النظرية **ولم يبدأ البحث العلمي الحق القائم على الملاحظة والتجربة إلا عند العرب . فعندهم فقط بدأ البحث الدائب الذي يمكن الاعتماد عليه ، يتدرج من الجزئيات الى الكليات . واصبح منهج الاستنتاج هو الطريقة العلمية السليمة للباحثين . وبرزت الحقائق العلمية كثمرة للمجهودات المضنية في القياس والملاحظة بصبر لا يعرف الملل . وبالتجارب العلمية الدقيقة التي لا تحصى، اختبر العرب النظريات والقواعد والاراء العلمية مراراًوتكراراً ،فاثبتوا صحةالصحيح منها ، وعدلوا الخطأ في بعضها . ووضعوا بديلا للخاطىء منها متمتعين في ذلك بحرية كاملة في الفكر والبحث ، وكان شعارهم في ابحاثهم — الشك هو اول شروط المعرفة — تلك هي الكلمات التي عرفها الغرب بعدهم بثمانية قرون طوال . وعلى هذا الأساس العلمي سار العرب في العلوم الطبيعية شوطا كبيراً ، أثر ، فيما بعد ، بطريق غير مباشر، على مفكري الغرب وعلمائه ، امثال روجر باكون ، وماجنوس ، وفيتليو ، وليوناردو دافنشي ، وغاليلو** »(١٩٢) .

ولعل هونكه بذلك قد قالت القول الفصل ، وحسمت هذه المسألة التي طال فيها الاخذ والرد ، وبودنا ان نعلق على مقولتين وردت في رايها هذا :

١ . ان العناصر الشرقية ، غير الاغريقية (بين العلماء الاغريق) كانت ذا اصل سامي (عربي) . ويمكن الاشارة هنا الى احدث البحوث في هذا الباب ، حول عروبة الساميين ، والهجرات العربية من الجزيرة ، وعروبة الحضارات القديمة في وادي الرافدين : البابلية ، والاكدية ، والآشورية وغيرها) ـ ؛ **وخصوصا بحث الاستاذ الدكتور مصطفى شريف العاني « الطب العربي بين التراث والمعاصرة » ، مجلة « المورد » ، العدد الخاص (بالتراث والمعاصرة) ، العدد الثاني ١٩٧٨(١٩٣)** .

٢ . إن الشك الذي يبرزه بعض الباحثين الاوربيين غربياً اوربياً ، هو مذهب عربي ، معتزلي ، قال به النظام والجاحظ (من مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي) ، وقال به ابن الهيثم والبيروني (من تلامذة هذه المدرسة ومطوري تعاليمها ، فيما بعد) .

وقد عرضنا سابقا لمقولات النظام المعتزلي ، كما عرضنا لمقولات الجاحظ في الشك والتجريب ، ونورد الان مقتطفاً لابن الهيثم ، يقول فيه (مبيناً قيمة الشك والتجريب والبحث وصولا الى الحقيقة العلمية الموضوعية) .

ـ **إني لم ازل منذ عهد الصبا مرويا في اعتقادات** الناس **المختلفة ... فكنت متشككاً في جميعه ، موقنا بان الحق واحد ، وان الاختلاف فيه إنما هو من جهة** السلوك اليه ـ **فلما كملت لادراك الامور العقلية انقطعت** الى طلب **معدن الحق ... فخضت لذلك ضروب** الاراء والاعتقادات ... **فرايت اني لا اصل الى الحق** إلا من آراء يكون **عنصرها** الامور الحسية وصورتها الامور العقلية .. »(١٩٤) .

ومن هذا المقتطف يتبين **شيئان ـ اولهما ربط التجربة الحسية بالتامل العقلي الفلسفي عند ابن الهيثم ، والثاني هو التعويل على طريقة التناول (اي المنهجية ، التي يسميها ابن الهيثم ، جهة السلوك الى الحق)** .

وتختتم هونكه رايها السابق (المشار اليه آنفا) باستنتاج حاسم للغاية ، تقول فيه :

ـ **« إن العرب لم ينقذوا الحضارة الاغريقية من الزوال ونظموها ورتبوها ثم اهدوها إلى الغرب فحسب ، إنهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع . وبالاضافة الى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم والتي سرق اغلبها ونسب لاخرين ، قدم العرب اثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهدت امام الغرب طريقه لمعرفة اسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم »(١٩٥)** .

إذن فهدية العرب العظمى الى الغرب (وكل شعوب المعمورة) هي **طريقة البحث العلمي الصحيح** . وهنا هو سر مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، فهي التي اكتشفت هذه الطريقة ، وهي التي اتبعت هذه المنهجية ، وقد اتضح لنا ذلك ، في كل تضاعيف بحثنا ، ومقتطفاتنا .

★ ★ ★

لقد نشرت مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي طريقة البحث العلمي الموضوعي، ولكنها نشرت الى جانبها ، بالضرورة ،وفي تفاعلية جدلية ؛ الكتاب ؛ والثقافة . لقد كانت بغداد عاصمة الثقافة في العالم ، ومنجم الفكر فيها . حسبنا ان نستشهد بمقتطف صغير من استاذتنا البروفسورة هونكه (وهو مقتطف تعززه كافة كتابات الباحثين العرب والمسلمين ، ومؤرخي الفكر والثقافة العربية ـ الاسلامية ، ويكفي ان نشير الى كتب الاساتذة الأجلاء : طه حسين ، واحمد امين ، وعبدالحميد العبادي في دراساتهم الاسلامية (فجر الاسلام وظهره وضحاه) والى كتب لوبون ، ومتز ، وجاك بيرك ، وجب ، وارنولد ، وآربري ، وكراجكوفسكي ، وغريغوريان ، ورمضانوف ، وشاه محمدوف وغيرهم) . **تقول هونكه (في كتابها : شمس العرب ص ٣٨٥) :**

ـ « ... وكما يقاس ثراء الناس اليوم بمدى ما يملكون من عربات فاخرة مثلا ، قدر الناس ـ في ذلك العصر الممتد من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر ـ الثراء

بمدى ما يقتني من كتب او مخطوطات ...
ونمت دور الكتب في كل مكان نمو العشب في الأرض الطيبة . ففي عام ٨٩١م يحصي مسافر عدد دور الكتب العامة في **بغداد** باكثر من مئة . وبدات كل مدينة تبني لها دارا للكتب يستطيع عمرو او زيد من الناس استعارة ما يشاء منها ، وان يجلس في قاعات المطالعة ليقرأ ما يريد ، كما ويجتمع فيها المترجمون والمؤلفون في قاعات خصصت لهم ، يتجادلون ويتناقشون ، كما يحدث اليوم في ارقى الأندية العلمية فمكتبة صغيرة كمكتبة **النجف** في العراق ، كانت تحتوي في القرن العاشر اربعين الف مجلد ، بينما لم تحو اديرة الغرب سوى اثنى عشر كتابا ربطت بالسلاسل ، خشية ضياعها . ويحتاج تصنيف الكتب الموجودة في مدينة الري الى عشرة فهارس كبيرة . وكان لكل مسجد مكتبته الخاصة ، بل انه كان لكل مستشفى يستقبل زواره : قاعة فسيحة صفت على رفوفها الكتب الطبية الحديثة الصدور ، تباع لتكون مادة لدراسة الطلاب ومرجعاً للاطباء ، يقفون منه على آخر ما وصل إليه العلم الحديث . ولقد جمع نصير الدين الطوسي لمرصده في مراغة (٤٠٠,٠٠٠) مخطوطة . **وحذا حذو الخليفة في بغداد في مختلف انحاء العالم العربي ، فاربت ، مثلا ، مكتبة امير عربي في الجنوب على (١٠٠,٠٠٠) مجلد))** .

هكذا كانت بغداد ، وهكذا كان إشعاعها العلمي والثقافي في سائر ارجاء الدولة العربية ــ الاسلامية الواسعة .

وإذا كان هذا هو ما تقرره باحثة اوروبية موضوعية معاصرة : مثل البروفسورة هونكه ، في القرن العشرين ، فان لغوستاف لوبون فضل السبق ، فقد اشار الى ذلك إشارة مفصلة ، في كتابه « حضارة العرب » ، في القرن التاسع عشر(١٩٦) . وإذا كنا نشير الى الباحثين الاوربيين ، فاننا نريد بذلك تعزيز مقولاتنا بشهادات موضوعية لعلماء همهم كشف الحقيقة، ونشرها .

يحدثنا الاستاذ الراحل محمد كرد علي ، في كتابه « الاسلام والحضارة العربية » (الذي اشرنا اليه آنفا) ان **غوته** قال :« ان العرب علمونا صنع الكتاب وصنع البارود وعمل إبرة السفينة ، فعلينا ان نفكر ماذا كانت نهضتنا او لم يكن من ورائها هذه المخلفات التي وصلتنا من المدنية العربية »(١٩٧) .

وفي التاكيد على الكتاب والثقافة ، كمؤشر اكبر على المدنية العربية في بغداد والحواضر العربية والاسلامية الاخرى ، يطالعنا البروفسور ادم متز ، في كتابه (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ــ من ترجمة محمد عبدالهادي ابو ريدة) ، بمقارنة طريفة ، عميقة الدلالة : « ... كان في مكتبة الكاتدرائية بمدينة كنستانز في القرن التاسع الميلادي ثلاثمائة وستة وخمسون كتابا ، وفي مكتبة دير البندكتيين عام ١٠٣٢م ما يزيد على المائة بقليل ... »(١٩٨) ومقابل ذلك « ... عمل علي بن يحيى المنجم ، وكان ممن جالس الخلفاء ، حوالي منتصف القرن الثالث الهجري خزانة كتب عظيمة في ضيعته ، وسماها خزانة الحكمة ، وكان يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة لهم والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى . فقدم ابو معشر المنجم من خراسان يريد الحج ... فوصفت له الخزانة ، فمضى ورآها وهاله امرها ، فاقام بها واضرب عن الحج ... وفي ٣٥٧هـ ــ ٩٦٧م صودر حبشي بن معز الدولة لانه اراد عصيان اخيه امير بغداد ، فكان من جملة ما اخذ منه خمسة عشر الف مجلدا سوى الاجزاء وما ليس بمجلد ... »(١٩٩) . وينتقل آدم متز من ذلك الى المكتبات العامة ــ التعليمية ، فيقول:

ــ « على انه قد ظهرت الى جانب دور الكتب مؤسسات علمية اخرى تزيد على دور الكتب بالتعليم ، او على الاقل باجراء الارزاق على من يلازمها ، فيحكى عن ابي القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الفقيه الشافعي المتوفى عام ٣٢٣هـ ـ ٩٣٥م انه اسس داراً للعلم في بلده ، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفا على كل طالب علم ، لايمنع احد من دخولها ، وإذا جاءها غريب يطلب الادب ، وكان معسراً اعطاه ورقا وورقا ... وفي سنة ٣٨٢هـ اسس ابو نصر سابور بن اردشير وزير بني بويه **داراً للعلم في الكرخ غربي بغداد** ونقل اليها كتباً كثيرة اشتراها وجمعها ، وكان بها مائة نسخة من القرآن بأيدي احسن

النساخ . هذا الى عشرة الاف واربعمائة مجلدة اخرى معظمها بخط اصحابها او من الكتب التي كان يملكها رجال مشهورون .. وكذلك اتخذ الشريف الرضي (المتوفى عام ٤٠٦هـ-١٠١٥م) نقيب العلويين والشاعر المشهور دارا سماها دار العلم وفتحها لطلبة العلم وعين لهم جميع ما يحتاجون إليه . ويدل مجرد اسم هذه المؤسسات على الفرق بينها وبين دور الكتب القديمة ، فكانت دار الكتب قديما تسمى خزانة الحكمة ، وهي خزانة كتب ليس غير ، اما المؤسسات الجديدة فتسمى دور العلم ، وخزانة الكتب جزء منها ... »(٢٠٠) .

إن كل هذا الذي يقرره البروفسور متز وينقله لنا يبدو صحيحاً في خلفية فكرية تقول ان حضارة العرب في بغداد كانت شاملة ، متلاحمة ، بحيث يبلغ عدد الاطباء مثلا ثمانمائة رجل ونيفا وستين رجلا في جانبي بغداد « سوى من كان في خدمة السلطان » . وبحيث تضم سوق الكتب عند بوابة البصرة ببغداد اكثر من مئة متجر ... لقد كانت حضارة متكاملة حقا ، وكانت بغداد قلبها النابض .

★ ★ ★

وبكلمة ، كانت بغداد الحضارة العربية ـ الاسلامية ،منبع الفكر والعلم والثقافة العالمية في القرون الوسطى ، والقنديل الوهاج للمعرفة لأمد كبير من الزمن . وقد امتدت تأثيراتها الى سائر ارجاء الامبراطورية العربية ـ الاسلامية ، والى عديد من الدول والمناطق الاخرى في العالم (من الفولغا في روسيا ، وبحر الخزر وداغستان . والصين والشرق الاقصى ، الى المغرب الاقصى والاندلس حيث كان لا يعترف بالفضل العلمي والثقافي والفني إلا لما هو مشرقي ، وبغدادي . بخاصة) .

يتحدث الاكاديمي البروفسور الراحل كراجكوفسكي في فصول عديدة من احد مختارات كتبه عن التأثير الثقافي العربي في داغستان ، وجنوبي روسيا . وقد ضمت مجلة « آفاق » البغدادية بين جوانبها (في العدد الثاني ١٩٧٩) مقال كراجكوفسكي عن داغستان واليمن ، وهو يتحدث فيه ، عن تأثير الثقافة والادب العربي ، واصوله البغدادية في داغستان (والترجمة لكاتب السطور)(٢٠١) .

ويقرر كراجكوفسكي ، وهو ناشر ومحقق كتاب (البديع) لابن المعتز ، والاعتبار (لأسامة بن منقذ) ، والمتحدث عن الادب العربي في بغداد والدولة العربية الاندلسية ، يقرر ان تأثير بغداد ودولتها العربية ـ الاسلامية ، على مختلف العصور ، ظل بارزا ، ابدا ، في جنوبي روسيا ، وآسيا الوسطى (الاسلامية، بلاد ماوراء النهر)، بل ان القرآن الكريم والعملة البغدادية وسواها (في عهد الرشيد والمأمون وخلفاء بغداد ، والخلفاء الآخرين في الأمصار الاسلامية) بلغت البلطيق ، وتجاوزته الى فنلندا »(٢٠٢) .

اما الاديب المؤرخ الفرنسي روبير بريفو ، فيقرر في كتابه « الشعراء التروبادور » ـ وفقاً لما ينقله الاستاذ محمد مفيد الشوباشي ، في كتابه « العرب والحضارة الاوربية » . ان « اوربا كانت في القرن الحادي عشر ، والقرن الثاني عشر تتجه الى العرب باحثة عما استجد عندهم من صناعات وعلوم ... ومن فنون خاصة بالملاحة كانت السبب في تطورها وتبدل حالها ... كانت اوربا تتجه إليهم منقبة عن كشوفهم في علوم الرياضة والفلك والطب والكيمياء ، بل كانت تبحث عندهم عن آثار ارسطو ، وابن سينا ، وابن رشد . وكان علماؤنا من امثال (دانيال دي موربي) و (ميشيل سكوتوس) و (دي جريمون) و (دوربلاك) و (ريمون لول) يلتمسون عند العرب حصاد عالم جديد من الفكر والعلم . ووجد (ربجيو مونتانوس) عندهم المعارف التي مكنت (هنري الملاح) و (فاسكو دي جاما) و (خرستوف كولمبس) من ارتياد المحيطات ، والوصول إلى اطراف العالم .... وبحث كل من (البير الاكبر) و (توماس الين) عن فلسفة العقيدة الكاثوليكية نفسها في بلنسية ، وعن الفارابي ... وفي الوقت الذي انشد الشعراء التروبادور شعرهم على عتبة اسبانيا العربية صرح (**روجر بيكون) فيإكسفورد بان وجود الفكر الأوربي ، والعلم الأوربي كان مستحيلا لولا وجود المعارف العربية . لقد دعيت اوربا فجأة الى الحياة بعد ان ظلت غارقة في ظلمات الجهل طوال خمسة قرون ، وهي مدينة بكل مقوماتها الى العالم الاسلامي))**(٢٠٣) .

إن هذه الشهادة العلمية من روبير بريفو ليست بالوحيدة ،وقد شهدنا لها مثيلات كثيرات ، عرضنا لبعضها ، وقد نعرض غيرها . وبالطبع ، فانه ليس كل المفكرين الفرنسيين مثل غوستاف لوبون ، او بريفو ، او غارودي ، او

ودارين التي استمرت تلعب دورها في التجارة مع (بمن فيهم العرب) العلم والحكمة والفلسفة . رسمة عقدة لدى بعض المؤرخين والمفكرين الفرنسيين تكمن في عدم رغبتهم في الاعتراف بتفوق التراث الاسباني الأندلسي ، او في الاقرار بأن حضارة فرنسا المعاصرة وثقافتها وعلومها اخذت الكثير من اصولها من الحضارة والعلم العربي الاندلسي المنتقل الى فرنسا عن طريق اسبانيا ، او عن طريق جنوبي فرنسا ، التي حل العرب في اجزاء عديدة منها ، امدا من الزمن(٢٠٤)

وبالنسبة للتراث العلمي ـ الثقافي العربي ـ في بغداد ، بخاصة ، فان انتقاله إلى العالم اجمع (بما فيه القارة الاوربية) ، تم بعدة طرق منها المباشرة ومنها غير المباشرة . فمن الطرق المباشرة الانتقال بواسطة التجارة ، فقد كانت بغداد مركزاً تجارياً ناشطاً ، بل لعلها كانت قلب التجارة العالمية في القرون الوسطى (لتوسطها بين آسيا وافريقيا واوربا) . كما كانت مركز القوافل المختلفة ، وملتقى الطرق التجارية ومنطلقها الى الشرق والغرب ، على حد سواء .

يحدثنا الأستاذ الدكتور فيصل السامر في كتابه القيم ((الأصول التاريخية للحضارة العربية والاسلامية في الشرق الأقصى ـ منشورات وزارة الاعلام في بغداد ، ١٩٧٧)) حديثاً ذا قيمة استثنائية ، بهذا الصدد ، نستميح القارىء الكريم عذراً في اقتطافه ، للتوثيق والتعميق يقول السامر : « كانت التجارة عاملا مهماً من عوامل انتشار الاسلام والثقافة العربية في مناطق وأقاليم قاصية . ذلك ان العرب حلوا سياسياً وعسكرياً محل الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية . ومن ثم قبضوا على اعنة التجارة العالمية في العصور الوسطى ... إن تطور التجارة العربية مع الشرق ارتبط بقوة الدولة العربية الاسلامية وامتدادها إلى أقاليم شاسعة ممتدة من جزر الكناري على ساحل افريقيا الغربي غرباً وحدود الصين شرقاً وبين القوقاس شمالا وسواحل البحر العربي جنوباً . وقد ادى ضم بلاد السند الى الدولة العربية إلى تنشيط التجارة العربية البحرية مع الشرق ، وبخاصة مع الهند . **ويعتبر بناء بغداد من قبل الخليفة ابي جعفر المنصور حدثاً مهماً وخطيراً في النشاط التجاري مع الشرق** . إذ ربطت عاصمة الدولة العربية لأول مرة مباشرة وبطريق المواصلات المائية بالبحر العربي عبر موانىء الخليج العربي كالابلة وصحار

جاك بيرك . فهناك رينان الذي انكر على الساميين الشرق . في حين قدر للبصرة ان تغدو على مر الزمن ابرز الموانىء العربية ، ومحط رحال التجار ومركز تبادل الصادرات والواردات ، ومخزن البضائع المستوردة من الهند والصين ومصر وافريقيا الشرقية . وكانت البضائع المصدرة تنقل من البصرة الى سيراف (على الخليج العربي) ، ومنه تشحن على السفن الكبيرة الى الهند والصين . وفي الوقت نفسه لم تفقد موانىء مصر والبحر الاحمر اهميتها ، فقد ظلت تمارس دورها في التجارة العالمية ، واعتبر ميناء مخا في اليمن وميناء مكلا في حضرموت وعمان على الساحل الجنوبي للخليج العربي : من انشط الموانىء العربية والمعها ذكرا في التجارة العالمية القديمة والوسيطة مع الشرق الاقصى »(٢٠٥) .

يتبين من حديث الاستاذ السامر ان بغداد اصبحت بالفعل قلب التجارة العالمية في القرون الوسطى . ودون شك لا يمكن ان تؤخذ بغداد لوحدها ـ كمدينة ـ بل ان بغداد كانت عاصمة دولة واسعة (هي اكبر الدول في تلك الحقبة الزمنية : تمتد من الصين الى الاطلسي) ، كما ان بغداد كانت عاصمة حضارة ناشطة تمثلت حضارات سابقة وابتكرت إضافاتها الكبيرة الجديدة ، الخاصة بها ، وعاصمة ثقافية للدين فيها ، اكثر الاحيان ، مقام اول .

وبالطبع ، فان التجار العرب لم يكونوا سواحاً ، كما ان التجارة في ذلك الوقت لم تكن بالشكل الذي هي عليه الان ، فالتجار العرب كانوا يقيمون مستوطنات خاصة بهم ، في كل مكان يحلون به ، وكل قطر يتجرون معه ان انتشار المستوطنات العربية ، وما تبعه من انتشار الجاليات العربية(٢٠٦) ، استتبع ، بالضرورة ، نشر الثقافة العربية ـ الاسلامية ، التي تستمد معينها الأول من بغداد قلب الدولة العربية ـ الاسلامية ، ومركز ثقافتها النابض المؤثر .

وإذا ما استشرنا الاستاذ السامر ، مرة اخرى ، فاننا سنفهم ان للتجارة العربية «وجهاً» علمياً ، ثقافياً الفاً ، من العبث ان يطمس ، ومن المستحيل ان يحجب . يقول السامر : « ... يجب ان نقرر حقيقة ذات اهمية كبرى ، هي ان كثيراً من منجزات العرب والمسلمين في حقول الحضارة والثقافة والآداب والفنون ، ذات علاقة مباشرة بحمية المسلمين في نشر دينهم في كل بقعة يستطيعون الوصول إليها ، باعتبار ذلك جزءاً من

رسالة الاسلام في ان يغدو دينا للبشرية جمعاء . هذا النشاط بحد ذاته دفع بالكثيرين من المسلمين : تجارا وعلماء وفقهاء ورحالة وبحارة الى ان يسيحوا في دنيا الله الواسعة ، وفي اذهانهم هدف نشر الدعوة الاسلامية . كما ان هذه المنجزات ارتبطت بهدف ثان هو النشاط التجاري والاقتصادي الذي صاحب توسع الدولة العربية وامتدادها الى اقاليم شاسعة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وهنا يجب ان نضع في اذهاننا حقيقة اساسية ، هي ان التاجر العربي المسلم ، في سعيه لاقتناء الربح في البيع والشراء ، كان دائما يبذل جهده في نقل عقيدته وايصالها إلى جميع أولئك الذين يقدر له ان يتعرف عليهم في رحلاته في الاقاليم التي يذهب اليها . »(٢٠٧)

وقد نشأت عن هذه التجارة الناشطة ، المتسعة باطراد ، والمرتبطة ، جدليا ، باشتداد شوكة الدولة العربية ـ الاسلامية الواسعة ، نشأت عنها جملة عوامل ، ساعدت كلها في نشر تأثير بغداد العلمي ـ الثقافي (الذي كان يمثل ، بجدارة ، جوهر التأثير الفكري والحضاري العربي ـ الاسلامي ، خصوصا في عصور ازدهار الحضارة العباسية) .

ومن هذه العوامل ، الاستيطان والتزاوج ، ومنها الرحلات العلمية (الجغرافية ـ التاريخية)، ومنها كذلك السفارات والايفادات وتبادل الهدايا إن هذه العوامل غير المباشرة التي ارتبطت بالتجارة ، ارتبطت ، في ذات الوقت ، بالفتوح والحروب ، وقد تفاعلت كلها ، جدليا وعضويا ، لتؤدي ، في نهاية المطاف ، إلى نشر الدين الاسلامي ، وبسط لواء الثقافة العربية ـ الاسلامية بأوسع نطاق ممكن . ويصح هذا على التوسع الثقافي ، الحضاري العربي ـ الاسلامي في الشرق ، كما يصح على هذا التوسع والامتداد في آسيا الوسطى والقفقاس وحوض بحر الخزر ونهر الفولغا ، وفي افريقيا .(٢٠٨)

إن التلاقح والتفاعل الحضاري الذي اشتد أواره في عهد الدولة العربية ـ الاسلامية ، في العصور العباسية الاولى ، وابان الازدهار العربي ـ الاسلامي في بغداد ، قد ادى ، في ذات الوقت ، الى إغناء الفكر العربي ، وتعميق الثقافة العربية ـ الاسلامية ، مثلما ادى الى نشر هذه الثقافة في الاقطار المفتوحة ، والاقطار المتاجر معها ، والاقطار التي كانت تقيم فيها جاليات عربية كبيرة (كالجاليات العربية في الهند ، والصين ، وآسيا الوسطى ، والملايو ، واندونيسيا وغيرها) .

وتشهد الف ليلة وليلة ، التي تقترن دائما باسم بغداد ، والتي تركت دويا كبيرا في مملكة الفكر والادب العالمي (بحيث ان العديد من أدباء العالم يعترفون بتأثيرها على إبداعاتهم القصصية والشعرية والفكرية والفنية وحتى الفلسفية ، وذلك كفولتير وسوذي وبايرون ، وتولستوي ، وجيرنيشيفسكي وعديد غيرهم) ، تشهد على مدى سعة التأثير الأدبي العربي، المنطلق من بغداد الدولة العربية ـ الاسلامية ، بدءا وأساسا ، في الأدب الأوربي بخاصة ، والأدب العالمي عامة . وإذا ما عدنا الى السامر ودراسته التاريخية ـ الحضارية ، عن الأصول التاريخية للحضارة العربية والاسلامية في الشرق الاقصى ، ، الكتاب الذي استشرناه توا ، فاننا سنجد ان (الف ليلة) استمدت بعض أصولها القصصية ـ الاسطورية ، متبادلة التأثير والتأثر مع القصص الملاوية والفيليبينية ، وهو يقول في ذلك : « إننا لانريد عنا ان نستعرض القصص والحكايات الاسطورية التي رواها الرحالة العرب والمسلمون ، فهي كثيرة ومدونة في بطون الكتب ، وما على القارىء إلا ان يرجع اليها في مظانها . لكني أردت ان اشير الى ناحية مهمة هي ان حكايات الف ليلة وليلة (وخاصة رحلة السندباد البحري) تشبه القصص الملاوية والفيليبينية التي وجدت في تلك البلاد منذ العصر الخرافي »(٢٠٩) .

وقد ساحت (الف ليلة) في بلدان العالم طرا ، وترجمت مئات المرات الى كثير من لغات العالم ، وكانت ملهما فذا لخيال كثير من الشعراء ، والقصصيين ، والفنانين ذوي الموضوعات الشرقية ، الرومانتيكية خصوصا وللأساتذة فاروق سعد ومحمد مفيد الشوباشي ، وعبد الجبار السامرائي ، والدكتور محسن جاسم الموسوي والدكتورة سهير القلماوي ، وغيرهم من الباحثين العرب المحدثين ، ولكاتب السطور ايضا ، دراسات في هذا الموضوع الهام في العلاقات الأدبية العربية ـ العالمية والأدب المقارن(٢١٠) .

وعلى صعيد اخر ، انتشرت الأمثال والمأثورات العربية في سائر ارجاء الدولة العربية ـ الاسلامية ، وتجاوزتها إلى كثير من اقطار الشرق والغرب . ويمكن للقارىء ان يتتبع ، مثلا لا حصرا ، دراسة كاتب السطور « دراسة مقارنة في الأمثال الروسية والعربية » ، ليلمس تأثير

المأثورات العربية العميق في آداب شعوب الاتحاد السوفييتي ، وتأثير الاسلام ، والرحلات ، والتجارة ، والجاليات العربية ، والتفاعل الثقافي المتبادل وغير ذلك من العوامل في ذلك .(٢١١)

إن كراجكوفسكي ، شيخ المستعربين السوفييت ، واحد اكبر المستشرقين في العالم ، يؤكد ، في كتابه تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ان الرحلات والرحالة ، واسفار التجار قد اثرت كثيراً في نشر القصص والحكايات والأساطير والامثال والابداعات الثقافية العربية في اصقاع كثيرة في العالم بل ان كراجكوفسكي قد تحدث عن ادب عربي المضمون والشكل في ارجاء عديدة في الجنوب السوفيتي ، خصوصا في القفقاس ، وقد عقد حول ذلك دراسات قيمة (ترجمنا اثنتين منها لمجلة « المورد » الغراء هما : داغستان واليمن ، والادب العربي في القفقاس الشمالي)(٢١٢) . وفي تضاعيف ذلك يؤكد كراجكوفسكي ان عديدا من الحكم والأمثال والاشعار العربية قد خلدت في اعمال فنية ، وعلى واجهات المباني والبيوت ، والحلي ، والصناديق ، وحتى على نصال الخناجر والسيوف(٢١٣) .

ودون شك ، تقدمت شعوب الامبراطورية الاسلامية افواجا من المثقفين والمفكرين ، الذين كتبوا ابداعاتهم وكتبهم باللغة العربية (واحيانا بلغتين — كفضولي البغدادي ، وعمر الخيام ، وجلال الدين الرومي) . ويمكن الاشارة ، هنا ، الى مثال ساطع جداً ، هو ابو الريحان البيروني (الذي مر بنا ذكره) ، وكيف انه كان يؤكد ان هجوه بالعربية احب إليه من مدحه بلغة اخرى) . ان استكمال فتح السند في عهد المنصور والمأمون والمعتصم ، وسيادة اللغة العربية والثقافة العربية في بلاد فارس والافغان وبلاد ما وراء النهر وطاجيكستان ، وانتشار الثقافة العربية في الهند ، قد اهل البيروني ان يدرس الهند دراسة مدققة ، وان يطلع ببحوث علمية رصينة اكد فيها منهجيته العلمية التي تستمد اصولها من مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي . وقد ساعد الرحالة العرب وكتبهم (كابن خرداذبه في « المسالك والممالك » ، وسليمان السيرافي ، والمسعودي في «مروج الذهب ومعادن الجواهر» ، وابن بطوطة في « عجائب الاسفار ») ساعد كل هؤلاء وغيرهم في تقديم ادق المعطيات ، نسبيا ، عن الهند وشعوبها .

ومثل ذلك يمكن قوله عن ابن فضلان ورحلته الى الشمال ، والفولغا والروسيا ، وعن رحالة اخرين ، بحيث ان مؤلفات هؤلاء الرحالة العرب والمسلمين تعتبر الان مصادر لدراسة تاريخ روسيا ، وشعوب آسيا الوسطى والقفقاس وما وراء القفقاس في القرون الوسطى(٢١٤) .

إن سفارات ووفود العرب الى الصين (خصوصا في العصر العباسي) ، والترحيب العظيم الذي تلقيته هناك ، ثم إقامة المستوطنات العربية ونشوء الجاليات العربية في الصين ، إنما يشهد لعظمة الدولة العربية — الاسلامية ورسوخ حضارتها . ويذكر الاستاذ السامر انه « جاء في التواريخ الصينية : أشار الوزير (ليمي) على امبراطور الصين بضرورة إقامة امتن الروابط مع العرب . فتساءل الامبراطور : ولم ؟ فاجاب الوزير : ان العرب هم اقوى الامم في هذه الايام »(٢١٥) . ويؤكد السامر انه بعد عديد من الاحتكاكات العدائية بين الدولتين الكبريين العربية والصينية ، استقرت العلاقات وتحولت ودية ، خصوصا بعد تدخل العباسيين ، ايام المنصور لصالح أسرة (تانغ) الصينية الحاكمة . ويقول السامر : ظلت السفارات العباسية تترى الى عاصمة الصين وكانت اهمها تلك التي ارسلها المنصور والمهدي والرشيد (الذي سماه الصينيون « آلون ») . ذلك ان بناء بغداد ادى الى ازدهار الحركة التجارية مع الشرق الاقصى بحيث ارتبطت عاصمة العباسيين ارتباطا وثيقا بالطرق التجارية البرية والبحرية مع تلك الجهات . ويظهر من المصادر العربية ومؤلفات ابن خرداذبة والمسعودي وابن بطوطة ، أن العلاقات التجارية بين العباسيين وبلاد الصين أصبحت منتظمة منذ القرن الثاني وزادت انتظاما في القرن الثالث الهجري . وكان من نتيجة هذه المصالح التجارية ان اهتم العباسيون بتقوية العلاقات الدبلوماسية مع بلاد الصين ، كما اهتموا بتقوية الاسطول الحربي لحماية التجارة القادمة من الصين والهند ... »(٢١٦) . ان هذه العلاقات العربية — الصينية الوطيدة ، اسفرت ، في تضاعيفها ، عن علاقات ثقافية وعلمية وطيدة ، هي الاخرى (وان لم تبلغ شأو العلاقات الثقافية العربية — الهندية) .

ويشهد الفارابي ، وابن سينا ، والبخاري ، وابن المقفع ، والبيروني ، وعديد من علماء اللغة ، والاداب ، والتاريخ ، والجغرافية ، والفلسفة ، والاسلاميات (بكل علومها) ، من أبناء شعوب

الدولة العربية ـ الاسلامية الواسعة ، وتشهد إبداعاتهم القيمة المختلفة باللغة العربية على تأثير الحضارة العربية ، وقلبها بغداد ، على هذه الشعوب ، التي دخل معظمها في دين الاسلام طوعاً ، بل حتى قاهرو بغداد ، دخلوا فيما بعد في الدين الاسلامي ، وابدع علماؤهم باللغة العربية ، شاهدين ، بذلك ، شهادة يندر مثيلها، حقاً ، على عظمة الثقافة العربية ، وتسامح الدين الاسلامي وتقدميته (بالنسبة الى معتقداتهم الوثنية ، والمتخلفة) . يقول لوبون : « استولى المغول على بغداد (سنة ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م) وخربوها تماماً ... ولكن اولئك الوحوش الضارية الذين اضرموا النار في المباني واحرقوا الكتب وخربوا كل شيء نالته ايديهم خضعوا لسلطان حضارة المغلوبين بدورهم ، حتى ان هولاكو الذي خرب بغداد وامر بجر نخبة آخر العباسيين تحت اسوارها بهرته عجائب حضارة العرب الجديدة في نظره ، فلم يلبث ان صار من حماتها ، وفي المدرسة العربية تمدن المغول **واعتنقوا دين العرب وحضارتهم** ، وشملوا متفنني العرب وعلماءهم برعايتهم . **واقاموا في بلاد الهند دولة قوية عربية من**نورهم كما يمكن ان يقال **وذلك لأنهم احلوا حضارة العرب محل الحضارة القديمة ، ولأن سلطان حضارة العرب لا يزال مسيطراً هناك حتى اليوم** »(٢١٧) . كما يقول « ان حضارة العرب كان لها من المناعة ما استطاعت ان تهيمن به على البرابرة الذين حاولوا هدمها ، وقد ظهر لنا ان جميع امم الشرق الكثيرة التي ساعدت على قهر العرب ، ومنها الترك ، اعانت بلااستثناء على نشر نفوذ العرب ، **وان امماً قديمة قدم العالم ، كالمصريين والهنود ، اعتنقت ما جاءها به العرب او ورثتهم من الحضارة والدين واللغة** »(٢١٨) .

إن لازمة لوبون التاريخية ، كاستنتاج علمي حاسم هي :

إن « خلفاء بغداد ملكوا العالم بحضارتهم على الخصوص »(٢١٩) .

ولعل هذه اللازمة ـ الاستنتاج البليغ تجيب ، بشكل واف ، على التساؤلات التي تدور حول تأثير حضارة بغداد (ومدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي) ، بالذات ، على الشعوب الاوربية وحضارتها . ولقد فصلنا ، ما استطعنا ، بحثاً وتوثيقاً ، في تأثير الحضارة العربية ـ الاسلامية المشعة من بغداد . ان هذا التأثير هو الطريق غير المباشر الذي سلكته الحضارة العربية ـ الاسلامية في ترسيخ جذورها في التربة الاوربية .

لقد امتد تأثير الحضارة العربية ـ الإسلامية الى أوربا عبر صقلية ، والاندلس ، وجنوب فرنسا . كما كان للحروب الصليبية دور في ذلك ، ولكنه كان دوراً ضئيلاً نسبياً . اما التأثير الاهم فقد جاء عن طريق الاندلس . ولا يهم ولا يضر كون حكام الاندلس كانوا امويين ، فيما كان حكام بغداد عباسيين ، فالحضارة العربية ـ الاسلامية هي ذات الحضارة ، والشعب العربي هو ذات الشعب العربي . وقد تمثل البربر حضارة العرب ودينهم ، فاسهموا ، في العهود التي حكموا الاندلس فيها ، في ترسيخ قيم الحضارة العربية ـ الاسلامية ومنجزاتها .

يرى الرحالة الاسباني (بنيامين التطيلي) ، الذي زار بغداد عام (١١٦٠م) ، في عهد الخليفة العباسي (المقتفي بالله) ، ان بغداد والقاهرة وطليطلة وقرطبة (تضم جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية وكل شيء يساعد على البحث العلمي ، ومن الصعب تقدير عدد الكتب التي كانت في مكتبات بغداد العامة والخاصة ، وذلك لكثرتها وتشعب مواضيعها ، وقد كان للعرب في اسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامة ، وكان في مكتبة الحكم الثاني في قرطبة (٦٠٠) الف كتاب ، وفيها اكثر من (٤٠) مجلداً من الفهارس فقط)(٢٢٠) .

وواضح من هذا ان الحديث يدور عن مستوى متماثل ، ان لم يكن واحد في الحضارة العربية ـ الاسلامية ، وينبغي هنا ، ان نذكر ، ان الاندلسيين استمدوا حضارتهم من المشرق العربي ، فكانوا لا يعترفون بأصالة العطاء الثقافي أو العلمي المعين ، ان لم توثقه شهادات و « تزكيات » مشرقية (بغدادية) . **ولا نريد بهذا ان نغض او نقلل من مستويات الحضارة العربية ـ الاسلامية في الاندلس، او المغرب ،وانما الحضارة الأم ، والحضارة ـ المركز هي التي تفرض التأثير الأساس ، وتشكل اقوى التيارات في الرافد الواحد .**

إن صاحب (نفح الطيب) يشير الى كثير من القصص والتواريخ عن مئات من علماء الاندلس كانوا يشدون الرحال ، باستمرار ، الى المشرق العربي لارتشاف مناهل العلم ، ولاقتناء امهات الكتب ، وجديدها ، كما كان حكام

الاندلس ، على اختلافهم ، في شبه مباراة دائمة ، في تجميع او استنساخ (على الاقل) ذخائر الكتب والمصنفات من حواضر المشرق العربي المختلفة ، وبغداد ، بخاصة . وبالمثل ، فان عددا من أبرز علماء وفناني المشرق العربي شدوا الرحال الى الاندلس ، ولعل زرياب يشخص هنا مثالا ساطعا . ولعل الدكتور خير الله يسهم ، ابلغ الاسهام ، في حسم مسالة التبادل الثقافي والعلمي بين جناحي الحضارة العربية المشرقي والمغربي ، حين يقول ، في ختام بحثه القيم عن (الطب العربي ، الذي اشرنا اليه غير مرة) ، ان « تيار العلم كان متبادلا بين الشرق والغرب بتبادل السياحات من الغرب الى الشرق وبالعكس . فالكرماني سافر من بغداد الى الاندلس حاملا معه رسائل إخوان الصفاء ، وابن البيطار ادخل للشرق اقراباذين الغرب »(٢٢١) .

والاهم من كل ذلك ، هو ان تيار الحضارة العربية ــ الاسلامية فرض نفسه في اوربا ، الغارقة في البربرية آنذاك ، فساعدها ، مع الزمن ، على بلوغها عصر نهضتها ، عصر الاحياء (الرينسانس) ، وبذلك تكون بغداد قد اسهمت ، لا بالسيف ، بل بالثقافة ، وعن طريق الفكر والبحث العلمي ، ومقومات الحضارة الأساس ، في نقل عصا الحضارة العالمية الى اوربا ، لتسهم إسهامها المتميز في مواصلة المدنية الانسانية وتطويرها . يقول الاستاذ الدكتور عبدالواحد لؤلؤة في بحثه (ملامح عربية في بواكير الشعر الانكليزي) : « ... لقد نقل زرياب حضارة بغداد العباسية في اوجها ، ثقافة بلاط الرشيد والمأمون ، بعد ان ادرك ان ليس في القمة متسع لاكثر من عظيم واحد ، وقد سبقه الى تلك القمة اسحق الموصلي . وكما دخل قرطبة يحمل عوده معه ، وجد في المحيط الجديد من الحرية ما جعله يزيد في أوتار عوده وتراً خامساً ، يتخذها من امعاء السباع ، ومن قوادم النسر ريشة يضرب بها فيخرج ما لا عهد للموصلي به من الحان . وكان زرياب شاعراً وقد تغذى بشعر ابي نؤاس وابي العتاهية ومن سبقهما . وانشأ زرياب مدرسة للغناء والشعر في قرطبة ، واقام مدرسة في القيافة وآداب الطعام ، شاعت تعاليمها في طول البلاد وعرضها ... »(٢٢٢) إن امثال زرياب من المشرقيين ، وتلامذة مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، ومطوري تعاليمها ومنهجيتها العلمية في الاندلس قد ساعدوا في خلق اجيال عالمة ، فنانة ، مثقفة ، اضطلعت بترسيخ القيم الحضارية الجديدة ، التي انتقلت الى الاسبان والفرنسيين ، دون جواز سفر ، فحقائق العلم والثقافة ومعطيات الفن والفكر لا تحتاج هذا الجواز ، وقد اسهم جيل المستعربين والمدجنين ، حتى بعد خروج العرب من اسبانيا ، في نشر القيم الحضارية العربية ، رغم محاكم التفتيش ، وكان ان اصبحت اسبانيا الاندلسية ، في تلك الحقبة الزمنية ، في قمة الحضارة الاوربية . منها نهل الشعراء التروبادور ، وفيها ترجمت كتب العرب وفلسفتهم ومنطقهم ، واقتبست حضارتهم ، وفنونهم ، وفيها (وفي جنوبي فرنسا لحد اقل) نشأت بذور الحضارة الجديدة ، ممهدة لعصر النهضة العظيم . وكما يقول د . لؤلؤة ، مرة اخرى : كانت بغداد في القرن التاسع الميلادي ذروة الحضارة العربية ومنها انتقل زرياب الى قرطبة فكان ، مثل **هاملت** مرآة الذوق وقالب الأناقة ، وما كان زرياب غير واحد ممن حمل **مرايا الذوق الشعري** الغنائي وقوالب الحضارة الجديدة من **بغداد العربية العباسية الى قرطبة العربية الاندلسية فكان بعض من ساعد اوربا في تلك « الولادة الجديدة »**(٢٢٣) .

إن هذه « **الولادة الجديدة** » هي ما كان قد تحدث عنها ، منذ عام ١٩٤٧ ، **المفكر الفرنسي الكبير المعاصر روجيه غارودي ، واسماها مساهمة العرب في تجديد شباب العالم ، باعتبار ان عصر النهضة الاوربية جدد شباب الحضارة العالمية ، وأحياها** . يقول روجيه غارودي (في دراسة له ، نشرت في آذار ١٩٤٧) :

ــ « إن احد مظاهر سياسة التفرقة العنصرية التي يتبعها المستعمرون هي إنكارهم الدور الذي لعبته الحضارة العربية في تكوين العالم الحديث ... فمؤامرة الصمت والتشنيع المنظم على هذه الحضارة إنما تهدف الى تجاهل هذه الحقيقة الواقعية ، وهي ان الامة العربية ساهمت ، في ظروف تاريخية معينة ، بين العصر القديم وعصر النهضة ، مساهمة غنية في التقدم الانساني في كل ميادين الفكر والفن .... ولكن ... إذا نحن طرحنا جانباً ذلك التحيز الاستعماري والعنصري بدت لنا هذه الحقيقة الأولية ، وهي ان الاسلام ... حتى قبل ازدهار ثقافته الخاصة ... قد خلق بفتوحاته الواسعة ،

الظروف الضرورية لتجديد الحضارة ، ولتجديد شباب العالم))(٢٢٤) .

ونكيلا يتهم غارودي بالتعصب للعرب ، وهو المفكر الفرنسي الحر ، فانه يعلل (ويحيث) مقولاته الحاسمة هذه (والتي كانت لطمة مدوية في وجوه العنصريين والامبرياليين والصهاينة وكل من « ابتلى » بلعنة عقدة « التفوق الاوربي » ورؤية كل حضارة ، وكل شيء ، من خلال أوربا فقط !) ، فيقول :

— « بين عامي ٨١٢ — ٨٣٢م ، **وبينما كانت أوربا تجهل** القراءة ، كان **الخليفة المأمون يؤسس في بغداد ((بيت الحكمة)) الذي اشتمل على مكتبة وجامعة ومكتب ترجمة ، والذي اصبح التراث اليوناني بواسطته في متناول جميع الذين يتلون القرآن ...** وبعد زمن قليل ، كان الخليفة الحكم الثاني في قرطبة يملك (٦٠٠) الف مجلد) بينما لم يستطع ملك فرنسا « شارل الحكيم » أن يجمع ، بعد ذلك باربعمائة سنة ، اكثر من (٩٠٠) مجلد . **لقد ظل إنتاج الكندي (٨٥٠م) والذي ترجمه جيرار دي كريمون الىاللاتينية يثقف الغرب خلال قرون عدة.** لقد اتسمت الثقافة العربية باول مظهر من مظاهر النهضة الاوربية ، مظهر الاحاطة بالاصول الثقافية القديمة والعمل على إحيائها ، نكانت أشبه برباط وثيق يصل بين الثقافة القديمة والحضارة الحديثة .. فهي لم تقتصر على إحياء الحضارات البائدة التي سبق ان ازدهرت في العراق ومصر واليونان وروما ، بل قامت اساساً بتطوير تراث القدماء واجتازتهم في **عصرها الذهبي** الذي امتد من عام ٩٠٠م الى عام ١١٠٠م. **لقد وثب الشعب العربي** ، بزلزلته النظام **الاقطاعي ، وثبة جبارة بالعلوم ، وثبة** تتلاءم **مع الأهداف العلمية التي حددها لها ... لقد كانت** الجغرافيا ، ولاسيما **الفلكية ، ضرورة حيوية لدى اولئك الرجال الذين** دابوا على **اجتياز الصحارى والبحار ، وان مراصد سمرقند وبغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة ، وهي المراصد الأولى في العالم ، كانت من صنع ايديهم ... وكان الجغرافيون والفلكيون العرب ، اثناء وضعهم ، عملياً ادلة الطرق وبيان مراحلها، يحافظون على جوهر الفكرة القائلة بكروية الارض ، هذه الفكرة التي كان ينكرها رجال اللاهوت المسيحيون ...** وحوالي منتصف القرن العاشر استطاع المسلمون ان يبلغوا شواطىء كانتون في الصين ، ولعلهم بلغوا كوريا واليابان ايضا .. وبعد خمسمائة سنة ، كان الملاح الذي ارشد فاسكو دي جاما الى طريق الهند .. ملاحا عربياً ... لقد ادت ضرورات التجارة الى قلب علم الحساب راساً على عقب ،فكان اكتشاف الارقام العربية ، واختراع الصفر الذي يرتكز عليه نظام التعداد العشري كله ، **الثورة الثانية** في العلوم الرياضية منذ عهد الفينيقيين الذين قاموا **بالثورة الاولى ... ولم تعرف اوربا هذه الاكتشافات إلا عن طريق العرب .. عرفتها بعدهم بمائتين وخمسين سنة ...** في علم الجبر وفق **الخوارزمي** الى إعادة وضع المنهج الذي كان يعرفه اليونان لحل المعادلات ذات المجهولين ... واستطاع الشاعر الرياضي **عمر الخيام** حل المعادلات ذات الثلاث مجهولات بواسطة المنهج الذي استخدمه ديكارت بعده بخمسة قرون ، فوضع اسس الهندسة التحليلية . وفي حساب المثلثات اكتشف **ابو الوفا** وليس كوبرنيك الخط القاطع ... واكتشف **الفارابي** اللوغاريتمات .. ودرس ابن سينا الكميات غير المتناهية ... وفي **الطب ، ولن نذكر الا الرازي ، وحسد هذا العبقري بين الملاحظة والتجربة فوضع** بذلك تصنيفاً منهجياً **للامراض ... وقد اعيد طبع موسوعته الطبية التي** ترجمها فراجوت الى اللاتينية ، **اربعين مرة من ١٤٩٨ — ١٨٦٦** ، وفي عصر النهضة اعيد **طبعها في فينا عام ١٥٢٠ ، وفي فرانكفورت** عام ١٥٨٨ ... اي انها ظلت **خلال الف سنة ، حتى ظهور** كلود برنار ، توجه الابحاث الطبية لدى كل الشعوب . ان **ابن سينا الطبيب والفيلسوف ، وابن رشد الفقيه المجدد والعالم الطبيعي الفذ ، قد اعلنا قبل ديكارت بخمسة قرون ، حق إخضاع كل شيء ... الى حكم العقل ... كانا رائدي الفكر النقدي والمذهب العقلي الحديث** .. لقد ادرك ذلك الشاعر **دانتي** فأثنى **على ابن رشد** ثناءاً عظيما في النشيد

الرابع من كتاب الجحيم في الكوميديا الالهية ، كما أدرك ذلك روجر **بيكون** اكبر مفكر غربي في القرن الثالث عشر ، فقال : **إن الفلسفة مستمدة من العربية** .. وليس من لاتيني واحد يستطيع أن يفهم .. الفلسفة .. كما ينبغي .. ان لم يكن يجيد اللغات التي نقل عنها ... »(٢٢٥) .

إن غارودي يتمم ، هنا ، من منظوره الخاص ، مقولات المفكرين الفرنسيين الكبار غوستاف لوبون ، وماسينيون ، وبريفو ، وهو ينطلق من مفهوم علمي متكامل ، درس به الحضارة العربية ـ الاسلامية ، في سائر إنجازاتها العظيمة ، خصوصاً في عصرها الذهبي (عصر مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي)، ويتوصل الى هذه الاستنتاجات مرتاح الضمير . فهذه الحقيقة التي انتهى اليها ، يشاركه فيها العديد من مفكري أوربا الاحرار ، **((دوزي))** الذي يقول « لقد كان الفتح العربي نعمة بالنسبة لاسبانيا ، فقد ادى الى ثورة اجتماعية هامة ، وازال قسماً كبيراً من المساوىء التي كانت اسبانيا تئن تحت عبئها منذ قرون »(٢٢٦) و **((اناتول فرانس))** الذي يأسف لانكسار العرب في معركة بواتيه عام ٧٣٢م ، ولتراجع العلم والفن والحضارة امام البربرية الفرنسية (ويشاركه في هذا الأسف غارودي وعديد من مفكري اوربا الاحرار) ، **وبلاسكو ايبانز** ، المفكر الاسباني الذي يقول بالحرف ، حاسماً (بلغة صاحب الدار وهو أدرى بالذي فيها) مسائل الفتح العربي لاسبانيا ، وعلى نحو غاية في الموضوعية والتجرد العلمي :

ـ **((إن تجديد شباب اسبانيا لم يصلنا عن طريق الشمال مع القبائل البربرية وإنما من الجنوب مع العرب الفاتحين .. لقد كان الفتح العربي بعثة حضارية اكثر مما كان فتحاً ... عن هذا الطريق وليس عن طريق آخر ... دخلت الى بلادنا هذه الثقافة الفنية القوية اليقظة ، التي تبعث على الدهشة لتقدمها السريع ، والتي ما كادت تولد حتى انتصرت))(٢٢٧) .**

إذن ... فالسر في هذه الحضارة الجديدة التي اتى بها العرب ، حضارة العقل ، وحرية الرأي والضمير ، والموضوعية ، والتقدم ، الحضارة التي بدأتها بغداد ، عاصمة دولة هذه الحضارة العربية ـ الاسلامية ، وطورتها بعض الحواضر العربية ، الحضارة التي **((لاتوصي بالهرب من معترك الحياة او الانفصال عنها ... والتي اوجدت الظروف الاقتصادية والاجتماعية الملائمة بازالة الفوضى الاقطاعية وطبقاتها الطفيلية))(٢٢٨) .**

من هنا ... نأتي بغداد المعاصرة ، بغداد سبعينات القرن العشرين ، لتكمل رسالة بغداد الرشيد والمأمون ، بغداد بيت الحكمة ، وحضارة العقل والمنطق والموضوعية وحرية الضمير والتقدم ، لتقول باعادة كتابة التاريخ بشكل علمي وتنتصر لانجازات العرب الحضارية ، وفي **مقدمتها طريقة البحث العلمي اوالمنهجية العلمية، وهي اجود ما جاد به العقل العربي في بغداد وسواها** . يقول الرفيق رئيس مجلس قيادة الثورة في الجمهورية العراقية ، الاستاذ **صدام حسين : ((هناك نقطة يركز عليها اعداء العرب وهي ان العقل العربي ليس من النوع الذي يحسب التعقيدات ، اي انه عقل غير مركب ، متهمين إياه بانه عقل ذو صفحة واحدة في الحساب وهو لا يحسب الصفحات المحتملة الاخرى** بطريقة مركبة . **في حين تؤكد الحضارة او الحضارات العربية بشواهد لا تقبل الدحض ان الأمة العربية قد حسبت ادق الصفحات والاحتمالات في كافة شؤون الحياة والعلم في الوقت الذي كانت جميع الامم تعيش في دياجير الظلام والتخلف))(٢٢٩) .**

إن متهمي العقل العربي بالقصور ، وهم المبتلون بعقدة التفوق الاوربي ، وبعقدة (الاغريقية) بالتالي ، اي ان الحضارة البشرية المعاصرة اوربية بدأتها اليونان واتمتها شعوب أوربا الحديثة ، وليس لأمة اخرى فضل في الحضارة العالمية ! إن هذه العقدة الاوربية التي تمثل اسوأ ما في بعض العقول الأوربية والغربية عموماً من تخلف وبربرية معاصرة هي التي جعلت **البروفسور خالدوف** يقول : « **إن الاسس المتبعة في طرق البحث التاريخية تجد صعوبة في إزالة الخرافة التي تعتبر أوربا في كل العصور ، تمثل تلك الأهمية** سياسياً وحضارياً **كالتي تتمتع بها الآن** »(٢٣٠) وقد استعرضنا ، في تفصيل نسبي ، الرد العلمي المفحم على هذه الخرافة الأوربية المعاصرة ، واعتمدنا ، اكثر ما اعتمدنا ، على مقولات المفكرين الأوربيين الاحرار ، من لوبون ، الى درابر ، الى هرلمبارد ، الى سيديو ، الى بريفو ، وهونكه ،

وغاردي ، واناتول فرانس ، وبلاسكوايبانز وغيرهم . واليوم ، يتفق كل الباحثين العلميين الموضوعيين ، اوربيين كانوا أم عرباً ، اشتراكيين كانوا أم غير اشتراكيين ، على المقولة التي انتهى اليها المفكر المصري التقدمي المعاصر الدكتور محمود امين ، حين اكد يقول : ((**ان الفكر العربي العلمي هو جوهر الفلسفة الاسلامية . وان الفلسفة الاسلامية بهذا ليست امتداداً للفكر اليوناني بل كانت إضافة جديدة اليه ذات طابع تجريبي كمي ، كما كانت نقطة انطلاق ، عبر روجر بيكون ، وديكارت ، وفرنسيس بيكون ، وجاليلو، الى نشاة العلم التجريبي الحديث**))(٢٣١) .

وليس لنا ، في ختام بحثنا المتواضع هذا ، إلا ان نقول ، مع البروفسور ج.د. برنال ، العالم البريطاني الكبير ، والشخصية العلمية العالمية الشهيرة في حركة السلام ، (في معرض تثمين الانجازات الحضارية لمدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، واستخلاص الاستنتاجات اللازمة من دروس الحضارة العربية في ضوء النهضة العربية المعاصرة اليوم) :

- ((**ان العلم باعتباره وجها من اوجه النشاط الانساني ليس قائماً بذاته ، بل هو جزء من الثقافة الانسانية ، ولعل هذا الاعتبار لم يتحقق في الماضي قط باكثر مما كان في الدول العربية ، فنحن في الغرب مدينون للعرب بكل علمنا ، وهم لم ينقلوا إلينا تراث الاغريق فحسب ، بل اضفوا على هذا التراث احكاما ادق وروحاً عملية ، لم تكن ظاهرة في عمل الاغريق ، وقد اضاف العرب في الرياضيات والكيمياء إضافات لا تنكر في تاريخ العلم ... ولم يكن العلم عند العرب يعتبر متفردا قط ، فقد عرف رجاله الفطاحل مثل جابر والخوارزمي وابن سينا وابن رشد بالثقافة العامة واتساع الافق الفكري .. فلنامل اذن ، عندما تقوم الأمة العربية ، مرة اخرى ، باداء نصيبها كاملا في التقدم العلمي ، ان يكون ذلك بنفس الروح التي كانت تميز العلم العربي ابان ازدهاره**))(٢٣٢) .

اجل ، لقد نهضت بغداد اليوم ، منطلقة من روح البحث العلمي ، اعظم هدية جادت بها على الثقافة العالمية ، لتكمل مسيرة الاسلاف العظام .

الهوامش

(١) الاشارة الى كتاب ((حضارة العرب)) ، للدكتور غوستاف لوبون (وقد الفه عام ١٨٨٤) ، ونقله الى العربية الاستاذ الفقيد عادل زعيتر (من نابلس، بفلسطين) ، وطبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه . اما الذين كتبوا عن بغداد واسهامها في الحضارة العربية والعالمية فهم من الكثرة بحيث لا يطالهم الحصر ، وتكفي الاشارة الى ابرزهم ، لوبون ، ماسينيون ، عبدالكريم جرمانوس ، بففيني بيلايف ، كراچكوفسكي ، بارتولد ، كريمسكي ، غريغوريان ، شيرويان ، شاه محمدوف ، بريفو ، درابر ، هوليارد، بول كراوس ، مينسكي ، كوفالسكي ، بولديريف ، سيمينوف ، يوشمانوف ، فرانده ، بارانوف ، تيخو ميروف ، نسيرتيلي ، سلطانوف ، دولينينا ، سولوفيوف ، بولجاكوف ، غفوروف ، شارباتوف ، بيلكين، كوفاليوف، كامينكي ، ساغال، كراسنوفسكي، بوريسوف ، ايفانوف ، غوته ، بيرك ، دي فو ، ليفي بروفنسال ، ماسه ، رودنسون ، غارودي ، كايتانو نلليتو ، دوزي ، كارليل ، ارنولد ، آربري ، تومبسون ، ستيوارت ، مرجليوث ، نيكولسن ، رمضانوف ، نيكولايسكي ، براون ، مينورسكي ، فيلبي ، لانداو ، غومس ، نوجاليس ، كرايمر ، شتراوس ، اراغون ، سنوك ، هرجونجة ، فلهوزن ، كيرن ، نولدكه ، بروكلمان ، جب ، جروهمان ، كاله، شاخت ، برنال ، كومب ، غولدسيهر ، فؤاد سزكين، كاظم مرزابك ، جوزي ، كوفالفيسكي ، كاشتاليفا ، شميدت ، فينيكوف ، اليسيف ، نويمر ، نيكل ، روزنتال ديجا ، جرنيوم ، جيرنيشفيسكي ، تولستوي، غوغول ، مواله ، جوبار ، بالفريف ، سنكوفسكي ، ليديفا ، بيكون ، رينان ، كازانوفا ، لانس ، جونثالث ، باتسيفا ، يوشين ، بيساريفسكي ، كوزمين ، فيتزجرالد ، اوليري ، آدم متز ، روزين ، شوموفسكي ، كور دوبوف ، ليفين ، كريموف ، ستيبانوف ، تلاتوفسكي ، لونسكي ، لونسكايا ، عثمانوف ، فالان ، سديو ، بارتلمه ، برناردلويس ، شولتز ، بيبل ، ساله ، سارطون ، مايرهوف ، كاربنسكي ، غريغوريف ، روكيرت ، كوتلوف ، لودفيج، لورنس ، محمدوف ، حميدوف ، ميخايلوفسكي ، هاملتون ، هولبوند ، ويلسون ، يوسوبوف ، ريستلر، مهدييف ، سمدييف ، سمليانسكايا ، ديمجنكو وغيرهم كثير .

(٢) لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، فصل ((العرب في بغداد)) ، ص ١٧١ .

(٣) ينظر كتاب ((بغداد)) ، (قامت بنشره ـ نقابة المهندسين العراقية ، على نفقة مؤسسة كولبنكيان) ، ١٩٦٩ ـ (البحوث من اعداد د . مصطفى جواد ، و د . احمد سوسة ، د . محمد مكية ، الاستاذ ناجي معروف) ـ (اشرفت على التنفيذ لجنة مؤلفة من الاستاذ المهندس سعيد علي مظلوم ، والدكتور المهندس رمزي سليمان ـ اخراج وطبع مؤسسة رمزي للطباعة ، بغداد) . [فصل ـ ((تخطيط بغداد في مختلف

عصورها » للدكتور مصطفى جواد ، والدكتور أحمد سوسة ، ـ بغداد في ادوارها الاولى ، تسمية بغداد ، ص ١٦] .

(٤) ينظر ـ كتاب « بغداد ـ مدينة المنصور المدورة » ، تاليف ـ طاهر مظفر العميد (الدكتور) ـ رسالة مقدمة الى جامعة بغداد للحصول على الماجستير بالآثار الاسلامية ، من منشورات المكتبة الاهلية ، بغداد ، ١٩٦٧ . [المقدمة ـ للاستاذ ناجي معروف] .

(٥) لوبون ، « حضارة العرب » ، ترجمة عادل زعيتر ، « العرب في بغداد » ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

(٦) نفسه . كذلك ينظر ـ غوغول ، المؤلفات الكاملة (بالروسية) :

Gogol, N. V. Sobranie Sochineivie, tom 6, "Al-Mamyn", p. 62.

[وسنترجم البحث القيم هنا ، قريبا ، لمجلة « المورد » القراء .]

(٧) ابن خلدون ، المقدمة . [كذلك ينظر : لوبون ، حضارة العرب ، مصدر سابق ، ص ١٧٢] .

(٨) لوبون ، حضارة العرب (مصدر سابق) ، ص ١٧٣ .

(٩) المصدر ذاته ، ص ١٧٤ .

(١٠) ديوان الامام علي (ع) ، دار كرم ، بيروت .

(١١) مصطفى لبيب ، « الكيمياء عند العرب » ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٥٩ .

(١٢) نفسه .

(١٣) نفسه ، ص ٨٣ .

(١٤) نفسه .

(١٥) نفسه ، ص ٨٢ .

(١٦) نفسه ، ص ٨٣ . [أورده هوليارد في « مصنفات في علم الكيمياء للحكيم جابر بن حيان »] .

(١٧) قدري حافظ طوقان ، « العلوم عند العرب » ، (الالف كتاب ـ ٤) ، مكتبة مصر ، ١٩٥٧ ، ص ٨٢ .

(١٨) نفسه ، ص ١١٣ .

(١٩) نفسه ، ص ١١٢ .

(٢٠) نفسه ، ص ١٦٨ .

(٢١) نفسه .

(٢٢) نفسه ، ص ١٠٤ .

(٢٣) نفسه .

(٢٤) نفسه ، ص ١٠٩ .

(٢٥) نفسه ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٢٦) نفسه ، ص ١٠٩ .

(٢٧) نفسه .

(٢٨) نفسه ، ص ١٦٥ .

(٢٩) نفسه ، ص ١٦٦ .

(٣٠) ينظر كتاب د . داود سلوم « النقد الادبي » ، وكتاب د . احسان عباس « تاريخ النقد الادبي عند العرب » .

(٣١) ينظر كتاب د . داود سلوم ، النقد الادبي وكتابه : النقد المنهجي عند الجاحظ وكذلك « الجاحظ » لمحمد عبدالمنعم خفاجي .

(٣٢) قدري حافظ طوقان ، « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ، ص ١٦٠ .

(٣٣) نفسه ، ص ٧٩ .

(٣٤) نفسه ، ص ٨١ .

(٣٥) نفسه ، ص ٦٦ ـ ٦٧ .

(٣٦) قدري حافظ طوقان ، ذات المصدر « فصل » سلطان العقل عند المعتزلة .

(٣٧) ذات المصدر ، مقام العقل عند الرازي [تنظر ، كذلك ، رسائل الرازي] .

(٣٨) نفسه .

(٣٩) نفسه .

(٤٠) نفسه .

(٤١) الفارابي ، « رسالة في العقل » . [تنظر ، كذلك ، مجلة « المورد » ، العدد الخاص بالفارابي ، ١٩٧٥ ـ عدة بحوث ، منها البحثان المترجمان لكاتب السطور] .

(٤٢) ابن سينا ـ (عدد خاص) ـ مجلة « العلوم » البيروتية ، ١٩٥٧ .
[تنظر كذلك مجموعة الابحاث الصادرة بمناسبة المهرجان الالفي لابن سينا ، وكتاب البروفسور غريغوريان ، بالروسية ، عن الفلسفة العربية ـ الاسلامية .]

(٤٢) مجلة الأديب البيروتية ، العدد الخاص بابي العلاء المعري ، ١٩٤٤ . [ننظر كذلك دواوين المعري ، والدراسات الصادرة حوله ، خصوصا الدراسات التالية للدكتور طه حسين : « مع أبي العلاء في سجنه » ، وللدكتورة بنت الشاطيء «رسالة الغفران» ، وللاكاديمي البروفسور كراجكوفسكي ـ « متنبينا » ، و « المعري والمتنبيء » ـ وهما دراستان سنترجمهما لمجلة « المورد » القراء ـ ، وكتاب البروفسور شيروبان عن أبي العلاء المعري ـ بالروسية ـ ، وكتاب البروفسور غريغوريان (المار ذكره) . بالروسية حول الفلسفة العربية ـ الاسلامية] .

(٤٤) هكذا تدعوه معظم الدراسات الاستشراقية المعاصرة .

(٤٥) قدري حافظ طوقان ، مقام العقل عند العرب (مصدر سابق) .

(٤٦) اخوان الصفاء ، الرسائل ، الرسالة السادسة من العلوم الناموسية والشرعية .

(٤٧) قدري حافظ طوقان ، مقام العقل عند العرب ، فصل « سلطان العقل عند المعتزلة » .

(٤٨) نفسه .

(٤٩) نفسه .

(٥٠) نفسه ، فصل ، « سلطان العقل عند المعتزلة » .
[ينظر كذلك « الجاحظ » لمحمد عبدالمنعم خفاجي ، و « الجاحظ » لشارل بلا ، وكتاب البروفسور غريغوريان ، بالروسية ، عن الفلسفة العربية ـ الاسلامية] .

(٥١) المصدر السابق ذاته (مقام العقل عند العرب ـ طوقان) .

(٥٢) « مختار رسائل جابر بن حيان » (عني بتصحيحها ونشرها بول كراوس) ، مكتبة الخانجي ومطبعتها ، القاهرة ، ١٣٥٤ هجرية . [اعادت طبعه بالاوفسيت مكتبة المثنى ببغداد] . ـ (كتاب « الميزان ») .

(٥٣) المصدر ذاته ، « كتاب الخواص الكبير » ، ص ٢٣٢ .

(٥٤) جابر بن حيان ، كتاب البحث (أورده مصطفى لبيب ، « الكيمياء عند العرب » ، مصدر سابق) .

(٥٥) مختار رسائل جابر بن حيان (مصدر سابق) ، كتاب « التصريف » . [ينظر كذلك كتاب « الكيمياء عند العرب » ، مصدر سابق ، (ص ٨٤ - ٨٥)] .
(٥٦) جابر بن حيان ، كتاب البحث ، ص ٢١٠ (الكيمياء عند العرب ، مصدر سابق ، ص ٧٦) .
(٥٧) مختار رسائل جابر بن حيان ، « كتاب الخواص الكبير » ، ص ٢ - ٤ . (مصدر سابق) .
(٥٨) المصدر السابق ذاته ، « كتاب السبعين » ، ص ٤٦٤.
(٥٩) جابر بن حيان ، « كتاب البحث » ، ص ٣٠٨ (الكيمياء عند العرب ، ص ٨٤) .
(٦٠) د . زكي نجيب محمود ، « جابر بن حيان » ، ص ٥٨.
(٦١) نفسه ، ص ٧٥ .
(٦٢) و (٦٣) و (٦٤) و (٦٥) « الكيمياء عند العرب » (مصدر سابق) .
(٦٦) جابر بن حيان - كتاب التجريد ، ص ١٢٧ - ١٢٨ - نشر هوليارد .
(٦٧) الجاحظ ، كتاب « الحيوان » ، ج ١ ، ص ١٨٥ .
(٦٨) المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ٥٠ .
(٦٩) نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٠٣ .
(٧٠) رسائل اخوان الصفاء ، الرسالة السابعة .
(٧١) كتاب المناظر لابن الهيثم . [كذلك : الحسن بن الهيثم : بحوثه وكشوفه البصرية ، لمصطفى نظيف] .
(٧٢) مصطفى نظيف : المصدر ذاته .
(٧٣) قدري حافظ طوقان ، « العلوم عند العرب » ، (مصدر سابق) ، ص ٨٦ .
(٧٤) نفسه . [كذلك ينظر كتاب « مقام العقل عند العرب » لنفس المؤلف ، الباب الخامس] .
(٧٥) كتاب « بغداد » ، (نشرته نقابة المهندسين العراقية) ، مصدر سابق - (ص ١٤٥) .
(٧٦) نفسه .
(٧٧) نفسه .
(٧٨) ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ - ٩٥) نفسه .
[بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » ، تنظر ايضا دراسات طه حسين ، واحمد امين ، وعبدالحميد العبادي عن الحياة العقلية والعلمية والثقافية في (فجر الاسلام ، وضحاه وظهره ، وكذلك كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » ، للمستشرقة الالمانية زيغريد هونكه - الترجمة العربية ١٩٦٩ ، وكتاب « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » لحكمت نجيب الموصل ، ١٩٧٧] .
(٩٦) قدري حافظ طوقان ، « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) .
(٩٧) بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » (مصدر مرت الاشارة اليه) .
(٩٨) ينظر (« طوقان - « العلوم عند العرب) و (حكمت نجيب - « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ») و (د . امام ابراهيم ، « تاريخ الفلك عند العرب » القاهرة ، ١٩٧٥) .
(٩٩) قدري حافظ طوقان - « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) - ص ٦٤ .
(١٠٠) بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » (مصدر مرت الاشارة اليه) .
(١٠١) نفسه .
(١٠٢ ، ١٠٣ الى ١١١) نفسه (بحث ناجي معروف المشار اليه آنفا) .
(١١٢) زيغريد هونكه - « شمس العرب تسطع على الغرب »، الترجمة العربية ، منشورات المكتب التجاري ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ١٤٢ .
(١١٣) « الموجز في تاريخ العلوم عند العرب » ، محمد عبد الرحمن مرحبا ، ص ١٢٨ - ١٣٠ .
(١١٤) « تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك » قدري حافظ طوقان ، ص ٧٦ ، ٧٩ .
(١١٥) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، حكمت نجيب ، منشورات جامعة الموصل ، ١٩٧٧ .
(١١٦) و (١١٧) « العلوم عند العرب ، قدري حافظ طوقان (مصدر سابق) هـ
(١١٨) نفسه ، ص ١٢٠ .
(١١٩) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٩٧ .
(١٢٠) كتاب « الجبر والمقابلة » ، للخوارزمي (تحقيق د . علي مصطفى مشرفة ، و د . محمد مرسي أحمد . مطبعة فتح الله الياس ، القاهرة) ، ص ٥ .
(١٢١) « تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك » ، طوقان (مصدر سابق) ص ١٥٩ - ١٦٠ .
(١٢٢) «الاسلام والعرب» لروم لاندو ، ترجمة منير البعلبكي، بيروت ، ص ٢٥٢ .
(١٢٣) « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ص ١٠٢ .
(١٢٤) نفسه [ينظر كذلك « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب »] .
(١٢٥) « العلوم عند العرب » ص ١٠٢ .
(١٢٦) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » (مصدر سابق) .
(١٢٧) - (١٢٨) (١٢٩) (١٣٠) - المصدر ذاته (علم الحساب عند العرب) .
(١٣١) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، فصل « علم الهندسة عند العرب » ، « تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك » لطوقان .
(١٣٢) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » [الأصل هو بحث الاستاذ الدكتور صالح احمد العلي ، « دراسة العلوم الرياضية ومكانتها في الحضارة الاسلامية » ، مجلة « المورد » ، مج ٣ ، العدد ٤ ، ١٩٧٤ ، ص ٤٥) .
(١٣٣) رسائل اخوان الصفاء ، القسم الرياضي ، ص ٩٧ ، و ١٠١ .
(١٣٤) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » (مصدر سابق) .
(١٣٥) « العلوم عند العرب » ، ص ٥٩ .
(١٣٦) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ص ١٦٩ .
(١٣٧) (١٣٨) (١٣٩) نفسه ص ١٧٠ - ١٧٢ .
(١٤٠) زيغريد هونكه ، « شمس العرب تسطع على الغرب »، الترجمة العربية (مصدر سابق) ص ١٥٨ - ١٦٣ .
(١٤١) « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ص ٤ - ٥ .

(١٤٢) المصدر السابق ، ص ١٤ (والاشارة الى كتاب « تطور الطب » للسير وليم اوسلر) .

(١٤٣) و (١٤٤) زيغريد هونكه ، « شمس العرب تسطع على الغرب » ، الترجمة العربية (مصدر سابق) ، [كتاب « الايدي الشافية » ، فصل « احد اعظم اطباء الانسانية اطلاقاً » ، ص ٢٤٣ فصاعدا] .

(١٤٥) رسائل الرازي [كذلك « العلوم عند العرب » (مصدر سابق)] .

(١٤٦) و (١٤٧) « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) [كذلك « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب »] .

(١٤٨) « شمس العرب تسطع على الغرب » (مصدر سابق)، ص ٢٥٢ .

(١٤٩) نفسه ، ص ٢٥٠ [كذلك : « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، ص ٤٦] .

(١٥٠) الدكتور امين اسعد خير الله ، « الطب العربي — مقدمة لدرس مساهمة العرب في الطب والعلوم المتصلة به » ،تعريب الدكتور مصطفى أبو عز الدين ، بيروت، ١٩٤٦ ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(١٥١) « شمس العرب تسطع على الغرب » (مصدر سابق)، ص ٢٥٧ .

(١٥٢) و (١٥٣) — (١٦٢) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ، فصل « الطب في عصر الدولة العباسية » . [كذلك « الطب العربي » للدكتور امين خير الله ، الفصل السابع] .

(١٦٣) و (١٦٤) (١٦٥) و (١٦٦) « الطب العربي » (مصدر سابق) الفصل العاشر [كذلك « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، الفصل الثالث عشر] .

(١٦٧) Chemistry and Chemical Technology in Ancient Mesopotamia, By Martin Levey, Elsevier Publishing Company (Amesterdam, London, New York, Princeton), 1959.

(الكيمياء والتكنولوجيا الكيمائية في وادي الرافدين، للبروفسور مارتن ليفي ، من جامعة تمبل (فيلادلفيا — الولايات المتحدة ، ١٩٥٩) — وقد ترجمناه لحساب وزارة الثقافة والاعلام (بالمشاركة مع د . محمود فياض و د . جواد البدري) .

(١٦٨) يمكن الاشارة الى هوليارد ، وهامرتن ، وهوز ، ومسور ، وبارتنجتن ، واولبري ، وكراوس ، ونيكولايسكي ، وايفانوف ، وستابلن ، وتيلر ، وتومسون ، وفون ليبان ، وهاوفر ، وفرجاسون ، وبرتلو ، وفون ماير ، وبيتروف كامثلة على ذلك .

(١٦٩) (١٧٠) (١٧١) (١٧٢) « الطب العربي » ، للدكتور امين اسعد خير الله (مصدر سابق) ، الفصل العاشر .

(١٧٣) (١٧٤) [« شمس العرب تسطع على الغرب » ، مصدر سابق ، « الايدي الشافية » ف١ و ف٢] .

(١٧٥) (١٧٦) (١٧٧) « الطب العربي » (مصدر سابق) — [كذلك بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » عن بيمارستانات بغداد (مصدر سابق)] .

(١٧٨) « الطب العربي » (مصدر سابق) ، الفصل السادس

(١٧٩) [بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » (مصدر سابق) — فصل « بيمارستانات بغداد »] .

(١٨٠) تنظر رحلة ابن جبير . [وكذلك بحث « بيمارستانات بغداد » لناجي معروف في كتاب « بغداد »] .

(١٨١) [ينظر مبحث ناجي معروف « مدرسة الطب المستنصرية » ، في كتاب « بغداد » — (مصدر سابق)] .

(١٨٢) [بحث « بيمارستانات بغداد » لناجي معروف ، في كتاب « بغداد » (مصدر سابق)] .

(١٨٣) « الطب العربي » ، للدكتور امين اسعد خير الله ، (مصدر سابق) ، الفصل السادس] .

(١٨٤) و (١٨٥) المصدر ذاته ، ص ٧٥ .

(١٨٦) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، حكمت نجيب (مصدر سابق) ، ص ٧٧ — ٧٨ .

(١٨٧) « شمس العرب تسطع على الغرب » (مصدر سابق)، كتاب « الأيدي الشافية — الفصل الاول ، والفصل الثاني . والمقصود بالحبة المسكرة (اي المغلفة بالسكر) والمذهبة (المغلفة بالذهب) ، وهذا تدبير كان يلجأ اليه ابن سينا مع مرضاه ، تسهيلا لتناول الدواء .

(١٨٩) نفسه .

(١٩٠) ينظر كتاب د . محمد امين ، « مواقف فكرية » ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١١٢ .

(١٩١) و (١٩٢) [« شمس العرب تسطع على الغرب » (مصدر سابق) ، (الكتاب الخامس « سلاح المعرفة »)] .

(١٩٣) تنظر مجلة « المورد » العدد الثاني ١٩٧٨ (عدد خاص بالتراث والمعاصرة) ، بحث الاستاذ الدكتور مصطفى شريف العاني « الطب العربي بين التراث والمعاصرة » ص ٩٥ — ١٢٢ . [وتنظر دراسات الاستاذ طه باقر واطروحته حول التراث العربي ، مجلة آفاق عربية ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ ، وكتاب « محاضرات في التاريخ القديم » للدكتور عامر سليمان واحمد مالك الفتيان، ١٩٧٨] .

(١٩٤) « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ص ١٦٢ .

(١٩٥) « شمس العرب تسطع على الغرب » ص ٤٠١ — ٤٠٢.

(١٩٦) يكرس غوستاف لوبون ، لهذه الموضوعة ، فصولا عديدة في كتابه « حضارة العرب » ، خصوصا (الباب الخامس) و (الباب الثالث) .

(١٩٧) « الاسلام والحضارة العربية » ، محمد كرد علي ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ص (٢١٥) .

(١٩٨) و (١٩٩) و (٢٠٠) « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » ، ادم متز ،ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة ، (القسم الاول) ، القاهرة ، ١٩٤٠ ، الفصل الثاني عشر « العلماء » .

(٢٠١) تنظر ، مجلة « المورد » ، المجلد الثامن ، العدد الثاني ، صيف ١٩٧٩ ، (ص ١٠٩) ، « داغستان واليمن » للاكاديمي البروفسور كراجكوفسكي ، ترجمة كاتب السطور ، وبتصل بذلك بحث آخر لكراجكوفسكي ، ايضا ، عن (الادب العربي في القفقاس الشمالي) ، وقد ترجمه كاتب السطور للمورد ايضا .

(٢٠٢) تؤكد ذلك اللقى والتنقيبات الاخيرة في شمال الاتحاد السوفيتي ، وثمة دراسات عديدة حول ذلك .

(٢٠٣) تنظر ، كتاب محمد مفيد الشوباشي « العرب والحضارة الاوربية » ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٢٩ — ٤٠ .

(٢٠٤) يشار الى ذلك ، في كتاب « تاريخ الفكر الاندلسي » ، اشارات مفصلة .

(٢٠٥) الدكتور فيصل السامر ـ « الاصول التاريخية للحضارة العربية والاسلامية في الشرق الاقصى » ، منشورات وزارة الاعلام في بغداد ، ١٩٧٧ ، (ص ١٢ فصاعداً) .

(٢٠٦) و (٢٠٧) نفسه ، ص ١٤ ، ٢٧ .

(٢٠٨) يفسر هذا سر وجود جاليات عربية في عديد من بلدان الشرق ، بمن فيهم عرب آسيا الوسطى .

(٢٠٩) « الاصول التاريخية للحضارة العربية والاسلامية في الشرق الاقصى » (مصدر سابق) ، ص ٢٤ .

(٢١٠) بلغت البحوث المعدة في انتشار وتاثير الف ليلة في الادب العالمي اكثر من خمسمائة بحث ، بشتى اللغات

(٢١١) « دراسة مقارنة في الامثال الروسية والعربية » لكاتب السطور ، بغداد ، ١٩٧٨ .

(٢١٢) و (٢١٣) تعتبر دراسة (الادب العربي في القفقاس الشمالي) للاكاديمي البروفسور كراجكوفسكي مكملة لدراسة (داغستان واليمن) وهي تستند الى معطياتها ، وتطورها . اما انتشار الحكم والماثورات العربية في المناطق المسلمة في الاتحاد السوفيتي (وخصوصا داغستان) فهو نظير لانتشار هذه الماثورات في الشرق الاسيوي (الهند والملايو واندونوسيا وبعض مناطق الصين والفلبين) .

(٢١٤) ثمة كتب عديدة حول معطيات الرئائات العربية (للرحالة العرب أو للكتاب العرب والمسلمين عموماً)، واهمية هذه المعطيات في دراسة تاريخ شعوب الاتحاد السوفييتي ، والمنطقة .

(٢١٥) و (٢١٦) ينظر كتاب الدكتور فيصل السامر ـ « الاصول التاريخية للحضارة العربية والاسلامية في الشرق الاقصى » ، الفصل الخامس « السفارات العربية الى الصين في العصور الوسطى والاسلامية »

(٢١٧) « حضارة العرب » (مصدر سابق) ص ١٧٨ .

(٢١٨) المصدر ذاته ، ص ١٨٠ .

(٢١٩) المصدر ذاته ، ص ١٨٠ .

(٢٢٠) اورده د . جابر الشكري في بحثه « الماثر العربية في دراسة المنتجات الطبيعية » ، مجلة (آفاق عربية)، آب ١٩٧٩ ، ص ٨٦ .

(٢٢١) « الطب العربي » (مصدر سابق) ص ٢١٧ .

(٢٢٢) و (٢٢٣) تنظر مجلة « آفاق عربية » ، تشرين الاول ١٩٧٧ ، ص ٧٩ .

(٢٢٤) و (٢٢٥) و (٢٢٦) و (٢٢٧) و (٢٢٨) ينظر « دفاع عن الثقافة العربية » ، فتحي خليل ، ١٩٥٩ ، (ص ٩ ـ ١٢) .

(٢٢٩) صدام حسين ، حول كتابة التاريخ ، تشرته مجلة « المورد » في افتتاحيتها للعدد الثاني ، المجلد الثامن، ١٩٧٩ (صيف ١٩٧٩) ، وكان هذا النص معقد الدرس والتامل في الاجتماع الموسع لكتب الاعلام بتاريخ ١٩ ايلول ١٩٧٧ . (ونشرت « المورد » ايضاً ، دراسات لبعض الاساتذة استلهمت للنص) .

(٢٣٠) اورده الدكتور فاروق عمر فوزي، في دراسته المنشورة في المورد (صيف ١٩٧٩ ـ المصدر السابق) بعنوان : « آراء خاطئة في تفسير التاريخ العربي » . وقد تحدث بهذا الخصوص د . صالح احمد العلي ، ايضا ، في دراسته « اصول ومقومات الحضارة العربية . حاجتها الى اعادة التقييم » ، (انظر دراسة د . فوزي ص ٢٦ ، ودراسة د . العلي ص ١٩) .

(٢٣١) ينظر كتاب « معارك فكرية » ، للدكتور محمود امين (مصدر سابق) ص ١٢٢ — ١٢٣ . [من المهم هنا ان ننقل رأي لوبون في ما حققه العرب وما حققه الاغريق ، وفي اضافة العرب العلمية الى الحضارة العالمية . يقول لوبون ، على ص ٤٢٣ في كتابه المشهور « حضارة العرب » ، وبعنوان « مناهج العرب العلمية » : « ليست المكتبات والمختبرات والالات غير وسائل للدرس والبحث ، وتكون قيمتها في معرفة الاستفادة منها . وقد يستطيع المرء ان يكون مطلعا على علوم الاخرين ، وقد يبقى عاجزا عن التفكير وابتداع اي شيء مع ذلك ، فيظل تلميذا غير قادر على الارتقاء الى درجة استاذ ... لم يلبث العرب ، بعد ان كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان ، ان ادركوا ان التجربة والرصد خير من افضل الكتب ، وعلى ما يبدو من ابتذال هذه الحقيقة جد علماء القرون الوسطى في اوربا الف سنة قبل ان يعلموها . ويعزى الى بيكون ، على العموم ، انه اول من اقام التجربة والترصد ، اللذين هما ، ركن المناهج العلمية الحديثة ، مقام الاستاذ ، ولكنه يجب ان يعترف اليوم بان ذلك كله من عمل العرب وحدهم ، وقد ابدى هذا الراي جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب ، ولاسيما همبولد ، فبعد ان ذكر هذا العالم الشهير ان ما قام على التجربة والترصد هو ارفع درجة في العلوم قال : « ان العرب ارتقوا في علومهم الى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء تقريبا » . وقال مسيو سيديو : « ان اهم ما اتصفت به مدرسة بغداد في البداءة هو روحها العلمية الصحيحة التي كانت سائدة لاعمالها ، وكان استخراج المجهول من المعلوم والتدقيق في الحوادث تدقيقا مؤديا الى استنباط العلل من المعلومات وعدم التسليم بما لايثبت بغير التجربة مبادىء قال بها اساتذة العرب ، وكان العرب ، في القرن التاسع من الميلاد ، حائزين لهذا المنهاج المجدي الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول الى اروع الاكتشافات » . (لقد انتقل) تراث اليونان العلمي الى البيزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه منذ زمن طويل ، ولما آل الى العرب حولوه الى غير ما كان عليه فتلقاه ورثتهم وخلقوه خلقاً آخر » .] .

(٢٣٢) ينظر ، (« رسالة العلم الاجتماعية » ، للبروفسور ج . د . برنال ، ترجمه د . ابراهيم حلمي ، ص ٤

التماثيل والانصاب في بغداد

بقلم
عادل العرداوي
بغداد - الجمهورية العراقية

● مدخل :

● مع دخول الثورة عامها الحادي عشر ، مليئة بانتصاراتها وتلاحمها مع الجماهير ، تكون بغداد عاصمتنا الزاهرة ، قد تغيرت ملامحها نحو الموقع الابهى والافضل والاجمل .. وهذا ما حدث بالفعل .. ما دامت هذه المدينة العربية العريقة تحمل بين ثناياها ارث الماضي المشرق الذي عاشته قبل عدة قرون .. وما دامت هي هي بغداد الاولى تبعث حضارتها المجيدة من جديد في زمن ثورة السابع عشر من تموز القومية الاشتراكية .

● فمع كل اطلالة فجر باسم جديد يمر بهذه المدينة العامرة .. تكتسب فرحا جديدا ومكسبا عظيما وتغييرا شاملا في هذا الموقع او ذاك .. وتشهد ايضا اجتثاثا من الاساس لبقايا التخلف والاهمال الذي عانت منه بغداد ابان العهود الرجعية المندثرة . من بين تلك الملامح الجديدة والاصيلة التي اكتسبتها بغداد في السنوات الاخيرة ظاهرة النصب والتماثيل واللوحات الجدارية الرائعة التي زرعت في ساحاتها ومنعطفاتها ومتنزهاتها الخضراء الفسيحة ، والتي اضفت عليها مسحة جمالية اخاذة ذات جذور حضارية عريقة تمتد الى عصور هذه المدينة الزاهرة وايامها الذهبية .. يوم كانت موئلا لبلاد العرب والمسلمين.

● وكما في المدن المتقدمة في ارجاء العالم ، فقد تكاثرت هذه النصب والتماثيل بشكل يشير الفخر والاعتزاز بماضي الامة ، وما قدمته من ابداعات في شتى حقول المعرفة والفكر والحضارة.. فانتصبت تماثيل عديدة تمجد البطولة وملاحم الشعب ونضالاته.. كذلك تماثيل تذكارية للشعراء والادباء والفنانين والعلماء والقادة التاريخيين وغيرها من الرموز العربية المستمدة من تاريخ وتراث امتنا العربية وامجادها الفذة ، والتي ساهمت مدينة بغداد عبر تاريخها الطويل بصنعها.

● ليس غريبا على بغداد العربية ان تحتضن هذه المجموعة الكبيرة من التماثيل والانصاب التذكارية الجميلة ، لان هذه المدينة هي عاصمة بلاد الرافدين العريقة بحضارتها وآثارها المنتشرة في كل مكان ، والتي تحكي للاجيال قصة الحضارة الانسانية ، وفجر السلالات البشرية التي سكنت وادي الرافدين قديما وتركت للاجيال التي تلتها موروثا حضاريا وآثاريا عظيما ملأ قاعات المتاحف العراقية والعالمية الشهيرة..ومنها ما زال مطمورا تحت التراب ، لم تصله يد البحث والتنقيب بعد .. !!

ان حضارات ومخلفات البابليين والاشوريون والسومريين وغيرهم من الاقوام الاخرى .. ما تركته لنا من آثار وشواخص عديدة خير شاهد لهذا الامتداد الحضاري المشرق .. الذي عاشته ارض الرافدين منذ بدء البشرية وحتى يومنا الحاضر .

وما التماثيل والانصاب المنتشرة هنا وهناك في ارجاء العاصمة ومتنزهاتها الا غيض من فيض ذلك الدفق الحضاري الاصيل .. الذي حبى الله به هذه التربة المباركة ، التي شهدت عصر النهضة والانبعاث العربي الاسلامي خاصة في زمن العباسيين..وتشهد حاليا انتصارات الثورة العملاقة بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي .

● هذه المقالة المتواضعة التي اتناول من

خلالها موضوعا فنيا ذا ابعاد جمالية ، وجـذور تاريخية مستمدة من تاريخ هذا القطر وحضارته : الا وهو موضوع « النصب والتماثيل في بغداد » ليس بالضرورة ان يكون دراسة فنية اكاديمية ؛ من حيث حرفية النحت والرسم .. ولكنه موضوع استعراض شامل لمعظم ما موجـود من تماثيل في العاصمة حاليا او حتى تلك التماثيل الملغاة منذ معرفة بغداد لهذه الظاهرة اي منذ عشرينات هذا القرن حيث نتصب اول تمثال الى يومنا الحاضر .

● المرحلة الاولى :

● نبدا اولا بالمرحلة التي سبقت ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ .. اي منذ العشرينات وحتى عام ١٩٥٨ .. حيث ان بغداد لم تشهد شوارعها وساحاتها آنذاك سوى (٣) تماثيل كبيرة وتمثال آخر صغير .. وربما تكون هناك بعض التماثيل الجبسية الاخـرى التي تناثرت هنا وهنـاك بين البيوت والقصور الفخمة حينها .. ومنها العديد من تماثيل الاسرة المالكة في العراق والتي تقبع الان في متحف الازياء والمأثورات الشعبية الكائن في شارع الرشيد / السنك والعائد لوزارة الثقافة والاعلام حاليا .

● « مود » فاتح بغداد :

● الجنرال الانكليزي « مود » الذي فتـح بغداد في ١١/آذار/١٩١٧ بجيوشه الجرارة بعد هزيمة الاتراك في الحرب العالمية الاولى .. والذي اشتهر بوعده لاهل بغداد «ان جيوشه دخلت العراق محررة لا فاتحة» ! والذي لم يتحقق من وعده شيء يذكر ، بل بالعكس كانت جيوشه غازية ومعتدية وليس محررة للعراق كما ادعى .. ! !

ولاجتياح مرض (الهيضة) بغداد انذاك ؛ وما اكثر الامراض والطواعين التي كانت تجتـاح بغداد والعراق وتحصد ارواح البشر بلا رحمة .. فقد خطفت الهيضة حياة الجنرال « مود » في بغداد ودفن في مقبرة الانكليز الواقعة الان في الكرنتينة .

وقد اراد المستعمرون والسائرون في ركابهم تخليد هذا الجنرال المتغطرس ، باعتباره منقـذا لبغداد ، وممثلا لجيوش الامبراطورية العظمى ..!! فقد تقرر ان يقام له نصب تذكاري يخلده وبالفعل فتح باب الاكتتاب والتبرع لاقامة هـذا النصب البغيض الذي يمثل الاستعمار .. حيث اقيم هذا النصب المشؤوم ونصب في منطقة الشـواكة في جانب الكرخ في الساحة المقابلة للسفارة البريطانية .

وظل هذا التمثال منتصبا في مكانه متحديا مشاعر وارادة ابناء الشعب .. حتى يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ : حيث سارعت الجماهير الى تهديم حجارته وتحطيم قاعدته من الاساس .. وهكذا قضت على هذا الرمز الاستعماري البغيض .

● عبدالمحسن السعدون :

● يعتبر تمثال المرحوم عبدالمحسن السعدون رئيس الوزراء العراقي في اواخر العشرينات ؛ من اقدم تماثيل العاصمة اليوم .. فقد اقيم التمثال عام ١٩٣٣ ، وهو من عمل النحات الايطالي (بياترو كانونيكا) وهو من خيرة الفنانين الايطاليين آنذاك ، حيث سبق له ان نحت تمثالا لمصطفى كمال اتاتورك مؤسس تركيا الحديثة في انقرة .

وياتي اقامة تمثال للسعدون ؛ بمثابة تكريم من الحكومة العراقية له ، ولموقفه من الاستعمار البريطاني المتحكم حينها في شؤون البلاد ؛ مما دفع بعبد المحسن السعدون الى الانتحار برصـاصة من مسدسه اطلقها على نفسه اثر خلافاته مـع المستعمرين الانكليز حيث ترك وصية قال فيهـا مخاطبا ولده علي : « الشعب يريد الخدمة والانكليز لا يوافقون .. » .

ومن الطريف ان هذا التمثال تنقل مرتين من مكانه ، قبل ان يستقر اخيرا في ساحة النصر .. فمنذ نصبه اختير له مكان يقع اليوم في راس جسر الجمهورية من جانب الرصافة .. بعدها تم تحويله من مكانه الى مدخل شارع السعدون الذي اطلق اسم عبد المحسن السعدون على هذا الشارع تخليدا له ايضا .. وذلك لتعارضه مع موقـع الجسـر المذكور .. وقبل (٧) سنوات وعند المباشـرة بمشروع نفق ساحة التحرير ، ولتعارض موقعه مع هذا المشروع نقل مرة ثالثة الى ساحة النصر وما زال في مكانه .

والسعدون من مواليد مدينة الناصرية عام ١٨٨٩م ، وتعلم في المدرسة الحربية في (استنبول) وتخرج ضابطا منها وعمل في الجيش العثماني ؛ وانتخب في مجلس النواب .. وبعد الحرب الاولى عاد الى العراق ، حيث تقلد منصب وزير العدلية لاول مرة عام ١٩٢٢ ثم اصبح وزيرا للداخلية ، ثم رئيسا لمجلس الوزراء اربع مرات للفترة من ١٩٢٢ حتى ١٩٢٩ حيث حادثة انتحاره المعروفة .

والتمثال مصنوع من مادة البرونز يرتفع على قاعدة من الرخام يمثل السعدون واقفا وهو يرتدي ملابسه الاعتيادية (زي الافندية) ويعتمر السدارة

الوطنية فوق راسه متابطا في يده اليمنى ملفة اوراقه .. بينما ازدانت واجهة القاعدة التي يقف عليها التمثال بجدارية تحمل بعض التماثيل .

● فيصل الاول :

● وفي نفس الفترة التي صنع فيها النحات الايطالي (كانونيكا) تمثال محسن السعدون ، باشر بعمل تمثال آخر للملك فيصل الاول تخليدا له ، حيث تم نصب هذا التمثال على قاعدة رخامية مرتفعة في ساحة جمال عبدالناصر – حاليا – في الصالحية ، والمواجهة لجسر الاحرار ولمعرفة تفاصيل انجاز هذا التمثال يمكن الرجوع الى ما ذكره امين الريحاني ، الرحالة والاديب اللبناني المعروف ، الذي كان يزور العراق انذاك ، في كتابه (فيصل الاول) حيث يصف وبشيء من التفصيل الساعات الطويلة التي كان يقضيها الملك واقفا امام النحات الايطالي لاكمال ملامح وجهه وتقاسيم جسمه الاخرى .

والتمثال يمثل فيصل الاول بملابسه العربية (الكوفية والعقال والعباءة) وهو يمتطي ظهر جواده ..

وقد ازيل هذا التمثال في صبيحة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ .. وظلت قاعدته فارغة الى ان ازيلت بعد حين .. حيث بادرت امانة العاصمة الى تحويل الساحة الى حديقة جميلة ونصبت فيها ساعة للزهور ..

وقبل فترة قصيرة ازيلت هذه الساحة وساعتها الارضية تمشيا مع مشروع تحوير الساحات والشوارع الذي طبق مؤخرا .. وحلت مكانها ساحة صغيرة انتصبت فيها ساعة حديثة من جهاتها الاربعة .

● لجمن . . فوق المنارة

● وكما اقيم للاستعماري « مود » تمثال في الشواكة .. صنع الاستعماريون تمثالا صغيرا آخر لاستعماري آخر له دور كبير في الجاسوسية البريطانية ، التي مهدت للقوات الغازية من احتلال العراق والسيطرة عليه ..

انه القائد الانكليزي «لجمن» الذي قتله المناضل الوطني الشيخ ضاري المحمود في منطقة خان النقطة قرب مدينة الفلوجة .. في احداث ثورة العشرين المجيدة .. والتمثال يجسد شخصية لجمن بالملابس العربية (ملابس البدو) ، وهو على ظهر جمل دلالة على ان لجمن كان يجوب الصحاري على ظهر هذا الجمل ، ويعرف مسالكها وتقديرا من الاستعماريين ، والسائرين في ركابهم من رجالات العهد المباد : فقد تم نصب هذا التمثال البغيض في اعلى منارة القشلة التاريخية .. وظل هكذا حتى عام ١٩٥٨ حيث ازيل من مكانه واتلف الى الابد .

● المرحلة الثانية :

● بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ .. وبعد ان الغيت كل التماثيل البغيضة .. التي كانت ترمز للاستعمار والظلم والتسلط ، لم يبق في بغداد سوى تمثال واحد هو تمثال عبدالمحسن السعدون في بداية شارع السعدون ..

● الجندي المجهول :

● لم يسبق لبغداد ان شهدت نصبا تذكاريا للجنود المجهولين ، الذين سقطوا دفاعا عن حياض الوطن عبر الشدائد والملمات.. فكان لابد من تخليد هؤلاء الشهداء الميامين الذين رفعوا اسم الوطن والامة عاليا بنصب تذكاري يخلدهم مدى الازمان..

فكان عام ١٩٥٩ حيث اقيم نصب الجندي المجهول الحالي تخليدا وعرفانا لدور الجندي العراقي الذي بذل روحه في سبيل تربة هذا الوطن ..

وقد اختيرت الساحة الحالية التي يربض فيها هذا النصب الجميل بالذات تخليدا لدخول قوات جيشنا الباسل من هذه الجهة ، لانهاء الحكم الملكي العميل واعلان الجمهورية صبيحة يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ ..

النصب شارك بتصميمه وعمله ثلاثة مهندسين عراقيين هم : عبدالله احسان كامل ، ورفعت الجادرجي واحسان شيرزاد .

ويقسم هذا النصب الى قسمين الشمالي والجنوبي ، يتوسطه قوس كبير على شكل (طاق) طوله ١٤ متر وارتفاعه ١٨ متر حيث يرمز الى الاقواس التي بناها العراقيون القدامى .. مقارنة بالنهضة العلمية في الهندسة المعمارية في قطرنا ، بينما ترمز الفتحتان في الطاق الى هلالين عربيين .

ويتوسط الطاق من الداخل قبر الجندي المجهول المربع الشكل الذي يتكون من (٤) قطع حجرية بحجم (٩) امتار مربعة تعلوه شعلة من نار متوهجة رمزا لخلود هذا الجندي المجهول ..

ويزور هذا النصب كل الرؤساء والملوك الذين يزورون قطرنا حيث يؤدون مراسيم الزيارة له ؛

ويضعون على القبر باقات من الزهور ؛ كذلك تقام فيه الاحتفالات الرسمية مثل اعياد تموز وعيد الجيش العراقي وغيرها من المناسبات الوطنية الاخرى ..

● نصب جديد للجندي المجهول في بغداد

● وما دمنا بصدد الحديث عن هذا النصب.. فان نصبا جديدا سيقام قرب ساحة عمان في الكرخ للجندي المجهول .. من تصميم النحات خالد الرحال .. حيث وضع حجر الاساس لهذا النصب في ٦ كانون الثاني عام ١٩٧٦ ..

اذ يعتبر تشكيل نصب الجندي المجهول مثالا لنماذج الهندسة المعمارية الحديثة وتجسيدا لفكرة التصميم والتشكيل التي خلقت مفاهيم وتعبيرات غاية في الروعة والابداع .

ونقدم للقارىء العزيز تعريفا سريعا عن ما يحتويه هذا التصميم الذي لم ينفذ بعد ..

« القبة المائلة تمثل ترسا عربيا اثناء سقوطه على الارض مضرجا بالدماء التي تمثلها بدورها الوان القاعدة .. وهذا يعني سقوط الشهيد دفاعا عن ارض وطنه .. اما العلم داخل القبة فهو يبدأ من القاعدة الداخلية الى نهاية محيطها الامامي ممثلا للعلم العربي الذي يبرقع به الضريح والذي تتجلى الوانه بوضوح .

اما جوانب العلم ، فتمثل جناحي الصقر وتتحلى بالزخارف العربية والاسلامية المصنوعة من مادة المري (المعدن اللامع) . اما القاعدة بشكلها البيضوي الاحمر ومدرجاتها ؛ فانها تمثل صدى وقع الترس على الارض ، وهي باللون الاحمر الذي يرمز لدم الشهيد .

اما العمود المخروطي الطويل الشكل ، فانه يمثل صعود الروح الى خالقها .. وفي ذات الوقت تستعمل كسارية للعلم .

والضريح المكعب الشكل بطبقاته يمثل اكفان الشهيد الذي يشع من داخله الضياء الازرق الذي يعطي الرهبة والسمو للضريح » .

وعندما سيكمل بناء هذا النصب الكبير ستتحول الاحتفالات والمراسيم والزيارات اليه بدلا من النصب الذي سيصبح – قديما – في شارع السعدون .. والذي سيظل نصبا قائما في نفس الساحة ..

● نصب الحرية .. ملحمة الشعب :

● من الانصاب الكبيرة التي شهدتها سنوات ما بعد الثورة ؛ نصب الحرية الشامخ في الباب الشرقي في قلب بغداد .. حيث ساحة التحرير اكبر ساحات العاصمة بينما تقبع خلفه حديقة الامة من اولى الحدائق الكبيرة في بغداد .. والذي غدى سمة مميزة وعلامة بارزة من ملامح هذه المدينة .

وهذا النصب العملاق ملحمة نضالية خالدة تمثل المراحل النضالية التي مر بها شعبنا العراقي منذ العهود المظلمة ؛ وثوراته وانتفاضاته ، وحتى ثورة تموز ١٩٥٨ .. وقد نفذه وصممه الفنان العراقي جواد سليم ؛ الذي وافته المنية قبل ازاحة الستار عنه بفترة قصيرة .. حيث افتتح في عام ١٩٦١ .

تتجسد في هذا النصب ، شخوص واشكال عديدة تكمل بعضها الاخر ، لا مجال لذكرها هنا بالتفصيل .. وسأكتفي بتعدادها للتعريف فقط فهي : (الحصان .. ورواد الثورات .. الباكية .. ام ترثي ولدها .. ام وطفلها .. المفكر السجين .. الجندي .. الحرية .. الدعة والاستقرار .. دجلة والفرات .. الزراعة .. الثروة الحيوانية .. الصناعة .. شموخ العامل ..)

انها بحق مأثرة فنية خالدة تعتبر من المع وابرز الاثار المعاصرة التي تعتز بها مدينتنا الحبيبة بغداد .. صنعها لنا واحد من رواد النحت في قطرنا العراقي .. الفنان جواد سليم رحمه الله ..

● الام :

● من التماثيل التي شهدتها تلك الفترة ايضا تمثال (الام) من عمل النحات خالد الرحال والذي ازيح الستار عنه عام ١٩٦١ في حديقة الامة .. حيث يحيط قاعدة هذا التمثال حوض دائري للماء انتشرت على جانبيه من الداخل النافورات والاضوية الملونة .. وقد نقل هذا التمثال قبل سنوات قليلة الى متنزه الزوراء ..

التمثال يمثل الام وهي تنظر الى مستقبل الجيل الذي يعبر عنه بالطفل الواقف الى جنبها والذي وفرت له الثورة كافة المقومات التي تجعله يقف على ارض صلبة .. يبلغ طول التمثال (٤) امتار ونصف المتر ، وهو منحوت من حجر الحلان .

● ١٤ تموز :

● ومن النصب التي يعود تاريخها ايضا الى تلك الفترة نصب ١٤ تموز .. الذي ازيح الستار عنه في عام ١٩٦٢ .. وفي موقعه الحالي مقابل القصر الجمهوري بكرادة مريم في الساحة المواجهة لبداية الجسر المعلق .. وهو من عمل الفنان ميران السعدي .. يظهر في النصب اربعة من جنودنا الابطال يشقون طريقهم نحو النصر .. وقد رفع احدهم راية النصر عاليا بينما مسك في يده الثانية بندقيته .. بينما استشهد آخر وهو في طريقه الى المعركة .. فكرة النصب عموما تركز على صلابة الجندي العراقي وقوة باسه في ساحات الوغى والقتال .

وعند هذه التماثيل تنتهي مرحلة .. وتبدا مرحلة اخرى بالنسبة لتماثيل بغداد .. هي مرحلة العطاء الفني الكبير .

● مرحلة الثورة .. والعطاء الفني الكبير :

● بعد ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز القومية الاشتراكية عام ١٩٦٨ والتي فجرها وقادها حزب البعث العربي الاشتراكي .. تفجرت ايضا طاقات الفنانين وامكاناتهم ومواهبهم ، وتوفرت امامهم الفرص للبروز والابداع .. حيث شهدت بغداد تغييرات شاملة على صعيد التنظيم والتجميل وتزيين الساحات والشوارع بالنصب والتماثيل والجداريات المستمدة من تاريخ وتراث امتنا العربية المجيدة .. فكان ان انتصبت عشرات التماثيل ، واجزل العطاء لمن ابدع من صناعة وتجسيد هذه الانصاب التذكارية لمسيرتنا المعطاءة ..

من ابرز تلك المنجزات في ازدهار الجانب الجمالي والفني لمدينة بغداد .. ان انيطت مهمة اقامة التماثيل والانصاب بامانة العاصمة باعتبارها الجهة الرسمية المسؤولة عن تنظيم وتجميل العاصمة بما يتلائم ومكانتها السياسية والاجتماعية والحضارية والتاريخية وامام هذا الوضع انشات الامانة مصهرا متكاملا لمادة (البرونز) بدلا من صب (قوالب) التماثيل في الخارج ، واختير له مكان ثابت في شارع الشيخ عمر .. وتاسست ايضا في عام ١٩٧٤ مديرية عامة تابعة لامانة العاصمة تتولى تنفيذ هذه الامور يديرها الفنان خالد الرحال .

وهذه المديرية التي نفذت عشرات التماثيل تنهمك الان بتنفيذ اعمال فنية اخرى سنشاهدها بمرور الايام تحتل لها مكانا في ساحات وشوارع العاصمة ..

واكمالا لتنظيم هذا الجانب الجمالي فقد شكلت لجنة عليا لاختيار موضوعات هذه التماثيل واقرارها نهائيا سواء منها التي في بغداد او محافظات القطر الاخرى ..

وامام هذه الاجراءات الجديدة التي اتخذت لصالح هذا التوجه ، بدانا نلمس اثار هذا الدعم الذي توليه قيادة الحزب والثورة لهذا التوجه .. وبدانا نرى بين آونة واخرى ان تمثالا نصب في هذه الساحة .. وان نصبا اقيم هناك .. وهكذا هي عطاءات الثورة زاخرة مستديمة ..

● اربعة تماثيل .. لاربعة اعلام :

من بين التماثيل التي شهدتها بغداد في عام ١٩٦٨ خمسة تماثيل في آن واحد تم نصبها في متنزه (الاوبرا) سابقا ـ (الوحدة) حاليا .. وقد ظلت هذه التماثيل ردحا من السنوات هناك ولكن المسؤولين عنها قرروا نقلها الى متنزه المسبح في الكرادة على شاطىء دجلة .. فزادها المكان الجميل الجديد روعة وجمالا .

وهذه التماثيل هي (المنصور .. المتنبي .. الرازي .. الفراهيدي .. الكندي) .

● ابو جعفر المنصور :

● الخليفة المنصور ، ثاني خلفاء بني العباس وهو الذي شيد مدينة بغداد المدورة .. واسمه (عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس) ولد عام (٧١٣) م وتوفي عام ٧٧٥م .. وقد عرف المنصور بالرجل الاداري الحكيم والسياسي المحنك والقائد المقتدر .. حيث تولى الخلافة بعد اخيه ابي العباس السفاح مؤسس الدولة العباسية عام (١٣٦)هـ .. وشهدت مدينة بغداد في عصر المنصور ازدهارا عظيما ، كما تطورت الدولة العربية الاسلامية على يده ؛ واشتهر عهده بالرخاء والامن وازدهار العلوم والاداب .

التمثال .. يمثل الخليفة العباسي واقفا نحو الامام ، بينما ارتفعت عمامته نحو الاعلى بعض الشيء .. يبلغ طول التمثال الذي صنعه النحات العراقي محمد غني حكمت في عام ١٩٦٨ .. (٦) امتار وهو من الحجر .

● **راس المنصور :**

● وما دمنا نتحدث عن ابي جعفر المنصور ، فقد خلدت بغداد مؤسسها مرة ثانية من خلال النصب التذكاري الجميل لراس الخليفة المنصور الذي انجزه الفنان خالد الرحال والذي نصبه في ساحة الحي العربي بالمنصور .. وازيح الستار عنه في ٦/كانون الثاني/عام١٩٧٦ بمناسبة الذكرى السادسة والخمسين لتاسيس الجيش العراقي الباسل ـ النصب يتكون من راس الخليفة بارتفاع (٣) امتار ونصف وينصب فوق قاعدة طولها (٦) امتار ونصف .. وفكرة النصب تمثل قاعدة لاحد ابراج سور مدينة بغداد القديمة على شكل دائري .. حيث ان هذه القاعدة مزخرفة من الخارج بنقوش من فن الزيازة الاسلامية البديعة .. وبداخل هذا البرج غرفة على شكل متحف صغير يضم نحتا يمثل الخليفة ، وهو يمتطي جواده برفقة نخبة من علماء الفلك والمهندسين ، وهو يؤشر الى المنطقة التي اختارها موقعا لمدينة بغداد ، اضافة الى صور قديمة للمدينة وما تبقى من اثارها مثل خان مرجان والمدرسة المستنصرية وغيرها من المعالم .

● **الكندي :**

● وثاني تلك النصب التي يحتضنها متنزه المسبح حاليا .. نصب للفيلسوف الكندي الذي احتفلت بغداد بذكراه قبل (٢٠) عاما ، عندما احتفلت بعيدها الالفي ..

وهو ابو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي ، وهو عراقي عربي من منطقة (كنده) في الكوفة قضى معظم ايام حياته في مدينة بغداد والبصرة ، وبرع في العلوم خصوصا الفلسفة والرياضيات والطب والموسيقى والفلك ..

وقد قام الكندي بشرح ، وتاليف كتب يزيد عددها على (٣٠٠) كتاب كان لها الاثر البالغ في التراث العالمي ، كما قام المترجمون بترجمة عدد منها الى شتى اللغات الاجنبية ، حيث استفادت منها اوربا ، ايام عصورها المظلمة وحملت اليها افكاره مشاعل العلم والمعرفة .. وفي عام١٩٦٨ تم نصب هذا التمثال الذي نفذه النحات العراقي محمد الحسني ، اذ يبلغ طوله (٦) امتار وهو مصنوع من الحجر .

● **المتنبي :**

● من منا لا يعرف ابا الطيب المتنبي .. الشاعر العملاق الذي (ملأ الدنيا وشغل الناس) باخباره واشعاره ومغامراته واسفاره .. وما تركه للاجيال العربية من قلائد شعرية رضية .. ما زالت تحمل سر حياتها الى يومنا هذا ..

هو ابو الطيب احمد بن الحسين الجعفي المعروف بالمتنبي ولد في رحاب محلة كنده في الكوفة عام ٩١٥م وتوفى عام ٩٦٥م ـ وترعرع في الكوفة وتنقل بين الشام ومصر وايران وتنقل في البوادي والاقطار العربية الاخرى .. وقد قتل عند رجوعه من بلاد فارس هو وولده (محسد) وعبده .. وقبره الان قرب قضاء النعمانية في محافظة واسط .. يبلغ طول التمثال الذي نفذه الفنان العراقي عبدالرحمن الكيلاني ـ (٥) امتار من الحجر ، ويمثل المتنبي واقفا وكانه يلقي احد قصائده حيث يؤشر بيده اليمنى .. بينما قبض بيده اليسرى على السيف ..

تم نصب التمثال عام ١٩٦٨ ..

● **نصب جديد للمتنبي :**

● في عام ١٩٧٧ شهدت بغداد مهرجانا تكريميا كبيراً للشاعر المتنبي شاركت به العديد من الشخصيات الاوربية اللامعة في الوطن العربي وعدد من المستشرقين الاجانب .. المهرجان امتد لاسبوع كامل .. اشرفت على تنظيمه وزارة الثقافة والفنون .. تضمن اماسي شعرية والقاء عدد من البحوث والدراسات الخاصة باسرار حياة وشعر المتنبي .. وقامت الوزارة بطبع العديد من الكتب القيمة التي تتعلق بهذا الشاعر الفذ .. وتضمن المهرجان ايضا تشييد ما هدم من قبر المتنبي قرب النعمانية وتاسيس مكتبة باسم المتنبي في مدينة الكوفة .. مدينة الشاعر الاولى .. وما يهمنا في هذا الصدد .. هو تمثال الشاعر المتنبي الذي ازيح الستار عنه خلال ايام المهرجان حيث انتصب التمثال على قاعدة حجرية مرتفعة في حديقة بناية المكتبة الوطنية مقابل وزارة الدفاع .. وهذا التمثال الثاني ، في بغداد .. ! !

وهو من عمل الفنان محمد غني حكمت . .

وهو يمثل ابا الطيب واقفا .. بينما اخذت الرياح العالية تتلاعب بثيابه الفضفاضة .. بينما مد يده اليمنى على قبضة سيفه .. وقد لبس المتنبي على راسه غطاء اشبه بالعمامة متصلة مع ملابسه .. في حين ظهر وجه الشاعر مرتفعا نحو الاعلى متطلعا للسمو والانطلاق في الصحراء العربية التي جابهـا اكثر من مرة عبر سهول ووديان وجبال العراق

والشام ومصر وبلاد فارس .. وغيرها من الامصار التي استقر فيها ردحا من الزمن .

● **الرازي :**

● رابع هذه الانصاب .. نصب ابو بكر بن محمد بن زكرياء الرازي .. من مواليد مدينة الري في فارس عام ٨٦٥م ، اقام في بغداد حتى وفاته عام ٩٢٣م — وكان فيلسوفا نابغا في الطب والموسيقى والغناء والكيمياء .. ولكن شهرته برزت اكثر في مجالي الطب والهندسة ..

وقد الف في حياته (٢٣١) كتابا منها — الحاوي في الطب — .. وكان الرازي يؤمن بالعلاج السريري .. حيث اصبح في فترة من فترات حياته مديرا لاحدى مستشفيات مدينة القاهرة بمصر .. وقام بطبع قسم من مؤلفاته ، وترجم بعضها الى اللغات الاجنبية . من المآسي التي مرت بهذا الرجل .. انه فقد بصره في اواخر ايام حياته ومات في بغداد ..

تمثال هذا العلم الرائد نفذه الفنان العراقي صالح القرهغولي عام ١٩٦٨ ، ويبلغ طوله (٦) امتار من الحجر الجبسي .. موقعه في متنزه المسبح .

● **الفراهيدي :**

● التمثال الخامس .. هو لعالم اللغة الشهير ابن البصرة الفيحاء الخليل بن احمد الفراهيدي ، الذي ولد عام ٧١٨م وتوفى فيها عام ٧٨٦م .. وقد عرف الفراهيدي اماما في اللغة والنحو .. وواضعا لعلم العروض ومؤسسا لعلم الاصوات ومخارج الحروف العربية .. ومؤلفا لاقدم معجم عربي — كتاب العين — .

كما يعتبر هذا العالم الجليل في طليعة من الف في النغم والايقاع اذ لا زالت اثاره مرجعا للباحثين.

تمثاله هو الاخر يقبع في متنزه المسبح انجز عام ١٩٦٨ من قبل الفنان ميران السعدي يبلغ ارتفاعه (٥) امتار ، وهو يرتكز على قاعدة كونكريتية .

ومن المفيد ان نشير الى ان مدينته البصرة قد اقامت له تمثالا اخر نصبته في احدى ساحاتها العامة قبل سنوات تخليدا لابنها البار .. عندها يكون الفراهيدي قد خلد بتمثالين الاول في بغداد والثاني في البصرة ..

● **النسور :**

● نعود مرة اخرى الى شوارع العاصمة وساحاتها .. وجولة اخرى لمعرفة ما موجود من آثار فنية فيها .. فهذه ساحة النسور قرب جسر (الخير) في الكرخ يتوسطها تمثال جميل عرف ايضا باسم « النسور » تحيط به الاشجار والزهور من كل جانب .. والنسور .. عند العراقيين الاقدمين تعني رمز القوة والجبروت .. وقد عبرت فكرة التمثال بطريقة المقصود منها ، اظهار التلاحم العربي بالشكل الواقعي المنشود .. فالوجوه التي تبرز بين ثنايا هذا التمثال الدائري توضح الالتحام العربي.. اضافة الى النسور التي تمثل الجيل المعاصر واندفاعه الى امام بخطى ثابتة لتحقيق اهداف الامة .. يرتكز هذا النصب على قاعدة نصف كروية يبلغ ارتفاعها (٢) متر تعلوها كتلة حديدية يبلغ ارتفاعها (٥) امتار ، تمثل وجه رجل عربي ملثم ، اما الوجه الثاني ، فيمثل وجه فتاة عربية تعلوها مجموعة من النسور التي ترمز للجيل العربي الجديد ويعلو هذه النسور هلال ..

ازيح الستار عن نصب النسور عام ١٩٦٩ ، في نفس الساحة الحالية وهو من عمل ميران السعدي .

● **الشاعر الكاظمي :**

● اهتمت حكومة الثورة بالادب والادباء والشعراء وكرمتهم في اكثر من مجال .. ومن ذلك التكريم والرعاية المتواصلة لحملة الفكر .. تأتي مبادرة امانة العاصمة في اقامة نصب تذكاري كبير للشاعر العراقي عبدالمحسن الكاظمي في احدى الساحات الجميلة عند مدخل مدينة الكاظمية من جهة الكرخ ..

وللتعريف بهذا الشاعر الرائد .. نقول هو : عبدالمحسن بن محمد بن علي بن محسن الكاظمي ولد عام ١٨٦٦م في مدينة الكاظمية .. حيث نشأ وترعرع فيها ، بعدها هاجر الى مصر وبقى فيها حتى وفاته عام ١٩٣٥م — والكاظمي يلقب بشاعر العرب .. وهو شاعر غزير الانتاج .. وكان في طليعة الداعين الى وحدة واستقلال الامة العربية.. وكان لقصائده كبير الاثر في تحريك مشاعر الجماهير واثارتها بوجه المحتلين والغاصبين ..

من اهم اثاره .. ديوانه المعروف بـ (ديوان الكاظمي) .

وقد ازيح الستار عن هذا التمثال يوم

١٠/نيسان/١٩٧٢ ضمن احتفالات القطر باليوبيل الفضي لتأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي ؛ وقد سميت الساحة التي تم فيها نصب التمثال باسمه ايضا تكريما له .. وهي الساحة الواقعة عند التقاء شارع الامام موسى الكاظم بشارع عبدالمحسن الكاظمي .. وقد حضرت حفل الافتتاح كريمة الشاعر السيدة رباب الكاظمي .. التي رافقت عملية صنع تمثال والدها .. حيث نفذه الفنان اسماعيل فتاح الترك .. ويبلغ طوله (٤) امتار وارتفاع قاعدته (٥) امتار ظهر فيه الكاظمي بملابسه التقليدية (الجبة والعمامة) وهو يلقي احدى قصائده ..

● الرصافي :

● الثورة التي كرمت الكاظمي .. كرمت مرة اخرى شاعرا عراقيا بارزا في تاريخ العراق الحديث .. الا وهو الشاعر المشهور معروف الرصافي ذو المواقف الوطنية الصلبة بوجه الاستعمار واذنابه . .

والرصافي هو معروف بن عبدالغني البغدادي الرصافي .. ولد ببغداد عام ١٨٧٧م وتوفي فيها عام ١٩٤٥م وقبره الان في الاعظمية .. ولا مبالغة اذا ما قلنا ان الرصافي هو شاعر كبير لا تستغني عنه مكتبة الشعر العراقي والعربي مطلقا .. فقد نظم اروع القصائد في الاجتماع والحث على الثورة ورفض التسلط الاجنبي .

وقد ايد ثورة مايس / ١٩٤١ التي قادها المرحوم رشيد عالي الكيلاني . . ونظم العديد من اناشيدها .

وبعد فشل الثورة انتقل الى بغداد .. وعانى من شظف العيش ما عانى وبقي كذلك منزويا في بيته في الاعظمية حتى وفاته .. في ١٦ آذار ١٩٤٥

ومن اثار هذا الرجل .. ديوان شعر شهير يعرف بـ (ديوان الرصافي) .. وتخليدا لذكرى شاعر العراق الكبير معروف الرصافي .. فقد اقيم له هذا التمثال الكبير في واحدة من اهم ساحات العاصمة هي ساحة المأمون .. حيث انها تعتبر ملتقى لشارع الامين بشارع المأمون بشارع الرشيد .. ونظرا لشهرة الرصافي فقد طغى اسمه في السنوات الاخيرة على اسم الساحة .. حيث نسي الناس « المأمون » وعرفت باسم ساحة « الرصافي » ..

التمثال يمثل الرصافي واقفا بملابسه العصرية متطلعا نحو الامام .. ازيح الستار عنه عام ١٩٧٠ يبلغ طوله (٥ر٣) متر للفنان اسماعيل فتاح الترك .. وهو اول تمثال عراقي من البرونز يتم صب قوالبه في العراق .

● الجرار :

● منذ عام ١٩٧٢ .. انتصب نصب الجرار حيث يلاحظ ابن بغداد او زائر المدينة عند وصوله الى ساحة المتحف مجموعة من الجرار الشعبية المرتكزة واحدة فوق الاخرى .. بشكل مخروطي بديع .. حيث تتحول الجرة العليا الى نافورة من الماء تقذفه بالحوض الذي يحيط بالنصب ..

وهذا النصب الذي صنعه ميران السعدي يمثل فكرة قديمة لازمت حياة الاجداد الاقدمين اذ ان لهذه الجرار علاقة حياتية وثيقة بالفرد العراقي خلال معيشته اليومية ومنذ اقدم العصور وما زالت .

يرتفع النصب حوالي (٦) امتار .. وهو عبارة عن مجموعة جرار متلاصقة .. ولا بأس من الاشارة.. ان الاشجار التي تحيط بهذا النصب غطته اكثر من مرة حيث يجري تشذيبها بين آونة واخرى ..

● كهرمانة والاربعين حرامي :

● هذا النصب الشامخ في شارع السعدون ـ ساحة علي بابا عند مفرق الكرادة .. حيث يروي حكاية الجارية كهرمانة وعلي بابا والاربعين حرامي.. انها حكاية الف ليلة وليلة التي ولدت في بغداد .. والنصب يجسد هذه الحكاية الشعبية او يروي جزءاً منها .

وكهرمانة تلك المرأة الذكية التي استطاعت ان تكتشف الاربعين حرامي المختبئين في الجرار .. وذلك بسكبها الزيت على رؤوس هؤلاء اللصوص الواحد تلو الاخر .. النصب مصنوع من مادة البرونز .. طول تمثال كهرمانة (٢٠ر٣) متر اما الجرار فهي بين كبيرة ومتوسطة وصغيرة .

ازيح الستار عن هذا النصب الجميل عام ١٩٧١ وهو من عمل النحات محمد غني حكمت .

● حمورابي .. ومسلاته :

● الملك البابلي القديم حمورابي ابن الرافدين .. هو اول مشرع للقوانين خلدته الثورة ايضا بثلاثة انصاب احتلت لها مواقع متميزة في عاصمتنا الحبيبة ..

ففي شارع كرادة مريم وقبالة المجلس الوطني .. انتصب هذا الملك العظيم الذي اسهم بحكمته وذكائه وشدة بأسه في تكوين وادارة اعظم امبراطورية عرفها تاريخ العراق القديم .. تلك هي دولة البابليين .

وحمورابي يعتبر المشرع الاول للقوانين التي بسطت نفوذها على الارض .. حيث نظمت حياة الافراد .. واشاعت العدل والنظام بين الناس .. وهذه القوانين تدل في جوهرها على التطور السريع في الفكر الانساني والقانوني والاجتماعي والسياسي ايام البابليين ان نصب الملك حمورابي ومسلاته .. بما يحمله من سمات فنية رائعة .. وما يعكسه من ادراك وحس متدفق ويجسد عظمة العطاء الذي منحته ثورة السابع عشر من تموز القومية الاشتراكية لتراث هذه الامة وابنائها المبدعين .. واعترافا صريحا بالحرية والعدالة التي تمنحها للمواطنين ، والرغبة الصادقة في الذود عنها وحمايتها ..

يبلغ طول تمثال حمورابي (٣٠ر٤)م فيما يبلغ طول القاعدة التي يستند اليها (٣٠ر٢)م وبمناسبة الذكرى الاولى لتاميم النفط فقد ازيح الستار عنه في الاول من حزيران عام ١٩٧٣م وهو من عمل محمد غني حكمت .

● **مسلة حمورابي :**

● كما اقيم تمثال آخر لمسلة القوانين التي شرعها حمورابي .. فقد اقيم هذا التمثال الذي يجسد مسلة حمورابي المشهورة التي دونت عليها تلك القوانين والانظمة التي شرعها هذا الملك العظيم لكي يطلع عليها شعبه ويعمل بموجبها .. منها هذا النص :

« من احرق احدا احرقناه .. ومن قطع يدا قطعنا يده .. والعين بالعين والسن بالسن ، ومن يسرق من اموال الالهة يقتل .. ويقتل معه من تكون الاموال بحيازته .. » الخ من التفاصيل الاخرى .

وهذه المسلة تمثل جزءا من التراث العربي القديم ونموذجا رائعا لابداعات ابن الرافدين انذاك .

ومعروف ان النسخة الاصلية من المسلة منحوتة من الحجر الاسود (اللديورايت) يبلغ ارتفاعها (٢٤٥ سم) وهي الان تقبع في متحف اللوفر بباريس .. سرقت في حينها من العراق موطنها الاصلي مع عشرات القطع والتحف الفنية والاثارية التي سرقها المستعمرون قبل قرن من الزمن . .

وهي الان موزعة على اكبر المتاحف في العالم ولمسلة حمورابي الاصلية نسخة جبسية مماثلة وضعت في المتحف العراقي ببغداد ..

ويشاهد في اعلى المسلة (التمثال) الاله « شمس » على عرشه وهو اله العدل والحكمة - بينما يقف حمورابي في حضرته وقفة المتعبد .. ليستلم الشرائع المقدسة منه .

تتالف المسلة من (٤٤) بندا قانونيا .. وتقسم الى ثلاثة اقسام اولا المقدمة وثانيا المواد القانونيه وهي (٢٨٢) مادة وثالثا الخاتمة .

والمسلة (التمثال) من نحت الفنان صالح القرهغولي وهي مصنوعة من البرونز وارتفاعها (٥ر٤) مترا .. وهي الان في ساحة قحطان السامرائي قرب جامع ام الطبول في الكرخ .

● **مسلة اخرى :**

● وما دام الحديث متواصلا عن حمورابي ومسلته وقوانينه.. فان نصبا اخرا لمسلة حمورابي تم تشييده في متنزه الزوراء قبل (٥) سنوات وموقعها بالقرب من الجنائن المعلقة .. حيث انتصبت هذه المسلة على قاعدة رخامية زينت جدرانها بنصوص مختارة من شرائع حمورابي تتعلق بالزواج والدين والموت والحياة .. يحيط بقاعدة هذا النصب المرتفع نسبيا عن الارض (٤) تماثيل لاسود متوثبة من الجهات الاربع طليت باللون الاسود ..

● **الفارس العربي :**

● في الساحة المقابلة لمعرض بغداد الدولي.. انتصب تمثال الفارس العربي ، حيث ازيح الستار عنه يوم ١٩٧٢/٥/٩ ضمن احتفالات القطر باليوبيل الفضي لحزب البعث العربي الاشتراكي .

التمثال يجسد شغف العرب بالفروسية .. حيث اشتهر الفارس العربي بصفات الكرم والشهامة والشجاعة والبسالة .. ولا زالت تلك الصفات الحميدة متغلغلة في اعماق مجتمعنا العربي منذ اقدم العصور .

يبلغ ارتفاع التمثال (٥) امتار .. ووزنه (٤) اطنان من البرونز .. حيث يمثل فارسا عربيا بملابس القتال شاهرا بيده السيف ، وهو على ظهر حصانه الذي رفع قوائمه الامامية الى الاعلى توثبا للقفز .. والتمثال من عمل الفنان ميران السعدي .

● **عباس بن فرناس :**

● ما دمنا في جانب الكرخ فلا بأس ان نعرج على شارع المطار الدولي .. وفي منتصف الطريق نلتقي مع اول عربي حاول الطيران بواسطة جناحين .. هو عباس بن فرناس هذا المخترع الاندلسي والفيلسوف الشاعر الذي عاش في عصر الخليفة الاموي عبدالرحمن الثاني في القرن التاسع للميلاد .. حيث استطاع من خلال ما يتمتع به من مواهب فكرية فائقة وقدرات عقلية نادرة ان يهب الحضارة العربية والاسلامية اثمن عطاء .. وكان من شدة طموحه وثقته بنفسه قد عمد الى الطيران رغم خطورة التجربة .. وعلى الرغم مما اصابه حيث ذهبت حياته ضحية لهذه المحاولة لكنها تبقى محاولة جريئة مهدت الطريق امام العلم لاختراق الفضاء والطيران والتطبيق فيه ..

وابن فرناس يعتبر اذن اول طيار عربي .. ولاشك انه اصبح رائدا من رواد الطيران .. والذي لا يمكن نسيانه أو تجاوزه على مر العصور .

يزن تمثاله حوالي (٦) اطنان بارتفاع (٦) امتار .. اما فتحة الجناحين ، فيبلغ طولهما حوالي (١٠) امتار .. وتم نصب التمثال فوق قلعة من الحجر ذات جدارين بارتفاع (٧) امتار ، نفذه الفنان العراقي بدري السامرائي ، وافتتح في الاول من كانون الاول ١٩٧٢ .. لمناسبة انعقاد الدورة الحادية عشرة لمؤتمر الطيران المدني للدول العربية في بغداد.

● **((المسيرة)) النصب العملاق :**

● لعل آخر نصب تم نصبه في شوارع العاصمة النصب الكبير الذي انجزه الفنان خالد الرحال (المسيرة) الذي مضى على البدء به حوالي الخمسة سنوات تقريبا .

والنصب يمثل مسيرة شعبنا منذ اقدم العصور ، وحتى قيام ثورة ١٧ تموز القومية الاشتراكية .. حيث يضم النصب مجموعة من التماثيل المتداخلة التي تتخذ في النهاية شكل ملحمة تظهر فيها بداية الحضارة في بلاد وادي الرافدين والتطورات التي طرات عليها عبر مراحل الزمن .. من هذه التماثيل المتداخلة شخوص مثل (كلكامش .. عشتروت .. البراق ..) ورموز تاريخية متوجة بانتصارات الفلاح واندحار الاقطاع .. ثم الانجازات الهائلة التي حققها حزب البعث العربي الاشتراكي.

قاعدة النصب التي ضمتها ساحة المتحف في الكرخ .. فهي تشبه سفينة ذات سبعة اطباق ويرمز بالاطباق الى يوم ٧ نيسان عيد ميلاد الحزب القائد .

هذا العمل العملاق (المسيرة) يمثل ملحمة تاريخية عريقة تمتد منذ اقدم الازمنة وحتى يومنا الحاضر ، حيث مسيرة الثورة الظافرة التي حولت القطر العراقي الى نموذج اصيل لخلق المستقبل الافضل من اجل الوصول الى المجتمع العربي الاشتراكي .

والنصب بمجموعة تماثيله الكثيرة بشكل كلمة (لا) كرمز دائم لرفض التسلط الاجنبي .. ورفض واقع التجزئة والتخلف .. يبلغ طوله (٩) امتار وعرضه (٣) امتار وهو من مادة البرونز والسمنت.

وربما ازيح الستار عن هذا النصب في الفترة التي استغرقها نشر هذا الموضوع في هذا العدد الخاص من مجلة المورد الزاهرة عن مدينة بغداد .

● **ابو نواس :**

● عندما نذكر بغداد .. يتبادر الى الذهن « ابو نواس » شاعرها الخمري المشهور الذي كرمته بغداد اليوم .. بتخصيصها لاسمه واحدا من اجمل شوارعها الرئيسية الذي يقع على شاطىء دجلة والذي يبدأ من جسر الجمهورية وينتهي عند الجسر المعلق في الكرادة الشرقية ويمتاز بمناظره السياحية الخلابة ولياليه النواسية الساحرة .. حيث ينتصب فيه ابو نواس تمثالا رائعا وسط حديقة غناء من حدائق هذا الشارع الطويل ..

وابو نواس هو الحسن بن هاني بن عبدالاول بن صباح الحكمي .. شاعر عراقي معروف وُلد في الاحواز عام (٧٦٣م) وتوفي في بغداد عام (٨١٤) .. ونشأ في البصرة ثم رحل عنها الى بغداد .. وهو اول من اسس للشعر طريقته الحضرية .. واخرجه من اللهجة البدوية التي كانت سائدة انذاك .. واشتهر هذا الشاعر بقصائده الخمرية الكثيرة التي بز بها كافة شعراء عصره وزمانه .

يظهر ابو نواس في هذا النصب الذي يقع في منتصف شارعه .. وهو جالس على اريكة .. ماسكا بيده كأسا للشراب ــ بينما ارتدى زيا وعمامة تمثل الترف الاجتماعي الذي عاشه خلال معاصرته للخليفتين العباسيين الرشيد والمأمون .. تمثال الشاعر من عمل الفنان اسماعيل فتاح الترك .. افتتح في ١٩٧٢/٩/٢٦ وقد اعتبر من اجود التماثيل التي انجزها هذا الفنان ..

يزن التمثال (طن ونصف الطن) من مادة

البرونز ، ويبلغ ارتفاعه (٥ر٢) متر فيما يبلغ ارتفاع قاعدته المرمرية حوالي الـ (٢) متر .. والتي احتوت على ثلاث لوحات برونزية جدارية لتضفي على جوانب التمثال اشراقا .. وهي تمثل مراحل حياة ابي نواس .. والذي تحول نصبه في هذه الايام الى ملتقى الاحبة والخلان .. ومكانا لتجديد الذكريات وتسجيلها بالصور الفوتغرافية .

● **شهريار وشهرزاد :**

● حكايات « الف ليلة وليلة » ترعرعت واشتهرت في بغداد .. حيث تقول الاسطورة : ان الملك شهريار كان يقتل كل ليلة فتاة عذراء .. وهو اذ يفعل هذا العمل فانه ينتقم من خيانة زوجته له .. ولما عجز وزيره عن ايجاد الفتاة المناسبة التي تليق كزوجة لهذا الملك .. وامام حيرة والدها تطوعت ابنة الوزير « شهرزاد » للزواج من شهريار الملك ولتثنيه من فعله المتكرر الذي ذهبت ضحيته عشرات الفتيات البريئات من بغداد ..

ولما اصبحت «شهرزاد» في عصمة «شهريار» اخذت تسليه بان تقص عليه في كل ليلة حكاية جديدة تقطع نهايته عند فصل مشوق لها علاقة بحكاية اليوم التالي .. حيث « تسكت شهرزاد عن الكلام المباح .. بعد ان يدركها الصباح .. » وهذه هي قصة الف ليلة وليلة الحقيقية وباختصار .

التمثال الذي انتصب ايضا في حدائق كورنيش ابي نواس يخلد هذه الاسطورة الشعبية .. وقد اضفى (الصوت والضوء) من حول التمثال رونقا جديدا لم يعهده اي نصب آخر في بغداد من قبل .. حيث تروي للزوار بعض قصص الف ليلة وليلة .. ارتفاع التمثال (٤) امتار و (٣٠سم) ، ويبلغ طول تمثال (شهريار) (٤) امتار وارتفاعه (٣) امتار حيث يشاهد الملك جالسا ومستمتعا بحكايات شهرزاد بينما وقفت هي بين يديه تقص حكاياتها المشوقة..

يرتكز التمثالان فوق (٧) مدرجات من الحجر بارتفاع مترين .

نفذه الفنان محمد غني حكمت .. وافتتح يوم ١٩٧٥/٥/١٩ في موقعه الحالي على شاطئ دجلة قرب مرسى الزوارق .

● **تماثيل رياضية :**

● ونحن ما زلنا في شارع ابي نواس .. وقبالة وكالة الانباء العراقية .. انشىء قبل (٣) سنوات حوض كبير على شكل هندسي رائع ، تتوسطه نافورة تقذف المياه الى الاعلى بارتفاع (٨) امتار ..

تحيط بهذا الحوض (٩) تماثيل من الجبس تجسد الالعاب الرياضية المختلفة مثل (كرة المضرب .. الطائرة .. رامي الرمح .. رامي القرص) وغيرها من الممارسات الرياضية الاخرى قام بعملها الفنان ميران السعدي .

● وعلى ذكر التماثيل الرياضية .. فان مجموعة اخرى من هذه التماثيل المشابهة التي تم نصبها في ابي نواس .. انتصبت في بداية شارع كورنيش الاعظمية في الساحة القريبة من بناية المتحف العسكري .. حيث توسط هذه التماثيل نصب صغير ايضا للوية سامراء .. ازدانت اركانه بالاضوية الملونة ..

● وفي باب ملعب الكشافة الرياضي في الكسرة انتصب تمثال شامخ لاحد لاعبي كرة القدم المشهورين في قطرنا .. والذي عرفته الملاعب والمباريات الرياضية الدولية والمحلية بقدرته الفائقة وفنونه في هذا المجال انه تمثال اللاعب الشعبي « جمولي » جميل عباس .. الذي تقاعد عن الرياضة منذ سنوات .. حيث اصبح هذا التمثال المصنوع من مادة البرونز والمرتكز على قاعدة طولية .. رمزا للتخليد وتكريم هذا الرياضي من قبل وطنه وجمهوره الرياضي .

● وعلى ذكر الرياضة والرياضيين .. فان ساحة الطلائع التي تقع في بداية جسر باب المعظم (جسر ١٧ تموز) من جهة الكرخ : قد ضمت هي الاخرى (٦) تماثيل لعدد من الرياضيين والرياضيات في مجال رمي القرص .. والرمح .. وغيرها ..

● وفي باب نادي الصيد في المنصور .. نصب صغير لصياد هو وكلبه متوثبين لقنص صيدهما في الصحراء ...

● **تماثيل في « الزوراء » :**

● المتنزه الجميل الذي يشع بالخضرة والعطر والضياء .. « الزوراء » الذي يعتبر رئة تتنفس منها بغداد وزوارها .. في هذا المرج الاخضر .. شمخت في كل زاوية منه العديد من الانصاب والتماثيل والجداريات الجميلة البديعة اضافة الى عشرات النافورات والبحيرات الصناعية التي امتاز بها هذا المتنزه الكبير .. ومن تلك التماثيل :

● الواسطي :

● هو يحيى بن محمد الواسطي ، الفنان ، الرسام ، الخطاط .. الذي اشتهر بتزويقه لمقامات الحريري التي ذاع صيتها في الادب العربي منذ القرن السابع للهجرة .. القرن الثالث عشر الميلادي .. اذ يروي الحريري قصصه باسم الحارث بن همام وهي تشمل نوادر ابي زيد السروجي .

ويعتبر الواسطي فنان عصره .. حيث اصبحت له مدرسة خاصة في الرسم العربي لاقت نجاحات عديدة .. وجسد حياة مجتمعه انذاك خير تجسيد ، وظلت اعماله خالدة الى يومنا هذا .

والادوات التي استخدمها الواسطي في رسوم الحريري ، وغيرها من الاعمال الاخرى فهي ما زالت محفوظة الان في المكتبة الوطنية بباريس .

يوضح التمثال الذي انجزه اسماعيل فتاح الترك .. يحيى الواسطي جالسا على مقعد وبيده مخطوطة مقامات الحريري الشهيرة ..

والتمثال اقيم عام ١٩٧٢ في متنزه (الزوراء) لمناسبة مهرجان الواسطي الذي عقد في بغداد انذاك .. وهو مصنوع من البرونز ويبلغ ارتفاعه (٢) و (٣٠)سم .

● ومن المناسب ان نشير ان هناك تمثالا للواسطي في مدخل اكاديمية الفنون الجميلة في الوزيرية (من داخل بناية الاكاديمية) .. صنع من الجبس الابيض صنعه طلاب الاكاديمية قسم النحت ووضعوه في مدخل كليتهم تخليداً لهذا الرائد العربي الفنان في مجال الرسم ..

● الفارابي

● ونحن ما زلنا نتجول في « الزوراء » وبالقرب من تمثال الواسطي .. ونحن متجهين الى منطقة المتاحف وخيمة الشعر .. لابد ان يلفت نظرنا الفارابي الفيلسوف الذي يعد من اعظم فلاسفة العرب والمسلمين .. ولقبه المعلم الثاني .. باعتبار ان (ارسطو طاليس) كان يعرف بالمعلم الاول .. ! !

وللفارابي مؤلفات عديدة .. لا تعد ولا تحصى في الفلسفة والمنطق والموسيقى وغيرها من الموضوعات ..

في النصب يظهر الفارابي جالسا على اريكة وبين يديه كتاب ، وبجانبه الة العود الموسيقية ..

أزيح الستار عنه عام ١٩٧٥ .. بمناسبة مهرجان الفارابي الذي انعقد ببغداد في تلك السنة ..

نفذه الفنان اسماعيل فتاح الترك .. ويبلغ طول الفارابي فيه (٢٫٧٥٠) متر وارتفاع قاعدته (١٫٦٠) متر .

● المرأة العربية :

● من التماثيل الاخرى التي يضمها هذا المتنزه .. تمثال المرأة العربية الذي يصور امرأة عربية تحمل اكليلا من الزهور لتقدمه هدية الى الجيل الجديد .. جيل المستقبل وصانعي الحياة ..

ودلالة هذا التمثال تنطوي على تكريم قيادة الحزب والثورة للمرأة واحترام دورها في عملية البناء والتحول الاشتراكي في قطرنا العراقي المناضل .

حيث انتصب هذا التمثال الجميل الذي ابدعه الفنان العراقي نداء كاظم عام ١٩٧١ .. ويبلغ ارتفاعه ثلاثة امتار والتمثال يستقر فوق قاعدة عمودية وسط حوض ماء تتدفق منه المياه عبر نافورات جميلة ..

● حاملات الجرار :

● حيث المجمع الاندلسي وسط الزوراء .. انتصبت (٤) (كازينوات) سياحية جميلة شيدت على طريقة الطراز الاسلامي الاندلسي .. يفصل بين كل اثنين منهما جدول صغير تجري فيه المياه سمي بالنهر انعباسي تخليدا لواحد من انهر بغداد القديمة وهذه الكازينوات هي (اشبيلية ، قرطبة ، طليطلة ، غرناطة) حيث انتصبت في الحديقة الفناء المواجهة لهذا المجمع (٤) تماثيل لنساء قرويات يحملن الماء .. وهذه الجرار صنعت على شكل نافورات يتدفق منها الماء حيث البحيرة الصغيرة التي انتصبت عليها هذه التماثيل الاربعة التي تشكل مجموعة فنية متكاملة ، ذات ميزة تراثية عريقة .. وتتوسط البحيرة نافورة مثمنة الاضلاع ترتفع مترا ونصف المتر ويبلغ قطرها (٢٠) مترا .

ازيح الستار عن هذه التماثيل التي صنعها الفنان ميران السعدي ، عام ١٩٧٥ حيث اضفى على هذه التماثيل مسحة فنية ساحرة خاصة لوجوه هؤلاء النسوة الاربع واجسامهن وملابسهن القروية البسيطة .

● **مراحل الحياة :**

● وانت تدخل الزوراء من باب ساحة حلب وتسير قليلا حيث تدلف يسارا وعلى يمين الشارع ، وبالقرب من متحف التاريخ الطبيعي . انتصبت (٥) تماثيل صنعت من مادة الجبس الابيض .. وانتصبت على قاعدته مرتفعة نوعما .

هذه التماثيل التي نحتها ميران السعدي ايضا تمثل مراحل حياة الانسان منذ ولادته وحتى شيخوخته ، بدأ من مرحلة الولادة .. ثم مرحلة التلمذة والتعلم ، .. ومرحلة الشباب ثم مرحلة الزواج والانجاب ، واخير مرحلة الشيخوخة ونهاية العمر ... كانت شخوص هذه التماثيل تمثل المراة والرجل والطفل .

● **العربة الاشورية .. ومنطقة المتاحف :**

● وفي منطقة المتاحف في هذه الجنينة الفسيحة .. حيث يقبع متحف السيارات الملكية القديمة .. والبيت البغدادي الذي بني على طراز بيوت بغداد القديمة وخيمة الشعر التي تطل على بحيرة كبيرة تحوي صنوفا عديدة من الاسماك العراقية الاصيلة ، ونصب على جانبها الثاني احد نواعير الفرات والتي تشتهر في مناطق اعالي الفرات (هيت وعنه) .. وفي جانب آخر انيم المضيف العربي المشهور في اهوار الجنوب ـ حيث رابطت بجانبه العديد من (المشاحيف) والزوارق النهرية .. وكذلك ابراج الحمام والبلابل .. وغيرها من المرافق السياحية الممتعة التي يعج بها هذا البستان البغدادي (متنزه الزوراء) .

● بالقرب من بيت الفنانين .. حيث انتصب تمثال « العربة الاشورية » التي يظهر فيها الملك الاشوري (اشور بانيبال) .. حيث اشتهرت هذه العربة ايامهم وفي عاصمتهم العتيدة نينوى ..

● بالقرب من تمثال العربة الاشورية ، وفي الشارع المؤدي الى « الجنائن المعلقة » انتصبت على جانبي الشارع عشرات التماثيل الجميلة لعدد من انواع الطيور البرية الكبيرة وبوضعيات مختلفة .. مثل الصقر .. العقاب .. الغراب .. البوم وغيرها .

● وعلى مقربة من هذا الشارع نصب تمثال صغير لراس ثور يقذف الماء من فمه .. وهذا النصب واحد من مجموعة انصاب ابراج الحظ .. حيث ستقام انصاب اخرى للجوزاء والميزان والجدي وغيرها في المستقبل .

● وخلف خيمة الشعر بامتار معدودة وعلى مرتفع ترابي ، تقع مجموعة من النافورات التي هي عبارة عن مجموعة من التماثيل لعدد من الحيوانات البرية مثل : الاسد ولبوة الاسد ، والدب ، وكلب البحر ، والقط الوحشي وغيرها من الحيوانات الاخرى .. حيث يندفع الماء من افواهها بقوة حيث تتجمع في حوض متدرج ذي سواق متعرجة تحيط به شتلات وسنادين الورد من كل جانب ..

عام ١٩٧٧ تم نصب هذه المجموعة من التماثيل التي نفذها عدد من طلاب وطالبات معهد الفنون الجميلة بطلب من امانة العاصمة .

● **تماثيل اخرى في الزوراء :**

● ومن التماثيل الاخرى التي تضمها « الزوراء » تمثالين لاسدين ينتصبان في مدخل حديقة الحيوانات .

وتمثال آخر للفارس العربي (عنتر بن شداد) المعروف ببطولاته واشعاره الحماسية .. اذ كان التمثال الذي صنعه ميران السعدي في بداية السبعينات ينتصب في ساحة عنتر في الاعظمية .. بعدها نقل الى متنزه الزوراء واستقر في منطقة مخصصة للعب الاطفال .

وفي المتنزه ايضا هناك نصب آخر يدعى (الحضارة) لعبد الكريم القرغولي والذي نقل هو الاخر من ساحة الجمهورية في الباب المعظم الى الزوراء ..

ونصب برونزي غريب الشكل اطلق عليه اسم (فتاتان) للفنان نداء كاظم يقبع في الحديقة المحصورة بين ساعة الزهور واذاعة الزوراء ..

وهناك مجموعة من التماثيل الصغيرة التي نصبت في بحيرة الزوراء .. وهي تمثل حورية البحر .. والجاموس .. وغيرها من الاشكال الفنية الاخرى .

● **انصاب وتماثيل متفرقة :**

● ولغرض الالمام بمعظم الانصاب والتماثيل التي تضمها بغداد .. خاصة تلك الانصاب غير المعروفة او غير المهمة .. فهناك في جانب الجدار الخارجي لمتنزه الزوراء في شارع دمشق بادر معهد الفنون الجميلة الى نصب العديد من التماثيل التي انتجها طلاب المعهد في ربيع عام ١٩٧٩ .. وذلك لتجميل الشارع .. وهذه التماثيل التي صنعت

من الجبس الابيض تمثل الطلائع .. والمرأة والثورة العربية والمستقبل .. وانتصار الخير على الشر وغيرها .

● وفي حدائق المعهد وقاعاته انتصبت عشرات التماثيل الكبيرة والصغيرة وهي من انتاجات طلابه .. حيث ظلت هذه التماثيل منتصبة هناك وما زالت حتى ضاقت بها حدائق المعهد .. وكذلك الحال في بناية اكاديمية الفنون الجميلة التي تضم هي الاخرى مجموعة كبيرة من التماثيل من انتاج الطلبة ايضا .. لعل ابرزها تمثال « الواسطي » الرسام المعروف الذي تحدثنا عنه قبل قليل .

● هناك عدة تماثيل تضمها اروقة وقاعات المتحف الوطني للفن الحديث اكثرها بين (نصفي او راسي) لعدد من مشاهير الفن والادب في قطرنا

● وفي متنزه ١٤ تموز في الكاظمية قرب جسر الائمة .. هناك نصب شاهق متكون من جداريتين متلاصقتين ذات ارتفاع عال .. كتب في اعلى وجهتي هاتين الجدارتين المصنوعتين من الموزائيك عبارة (١٤ تموز ١٩٥٨) اشارة الى تخليد الثورة المذكورة .

● وبالقرب من المتحف العراقي في الصالحية ينتصب (اسد بابل) رمزا للشموخ .. وكذلك انتصب تمثال آخر للملك آشوري ..

● ولا يفوتنا ونحن في هذا الاستعراض ان نذكر ان المتحفين العسكري التابع لوزارة الدفاع والازياء والمأثورات الشعبية في السنك تضم قاعات العرض فيهما مجموعة من التماثيل التاريخية التي تمثل مراحل من تاريخ العراق الحديث ..

● بينما ضم المتحف البغدادي التابع لامانة العاصمة عشرات التماثيل التي تجسد حياة البغداديين وطقوسهم اليومية في الزمن الغابر .. حيث غدى هذا المتحف مكانا ترويحيا وسياحياً معروفا في بغداد وبفضل ما يضمه من هذه التماثيل الشعبية .. ! !

● تماثيل في الطريق :

● في مصهر البرونز يجري العمل حاليا لانجاز تمثال كبير لمؤسس مدينة بغداد (الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور) حينها يكون للمنصور ثلاثة تماثيل في مدينته بغداد .

● بينما العمل يتواصل لاكمال تمثال الخليفة ــ العباسي (هرون الرشيد) الذي عاشت بغداد في ايامه عصرها الذهبي ومجدها التليد ونهضتها العمرانية والحضارية .. هذين التمثالين يضطلع بعملهما الفنان النحات خالد الرحال .

● هناك نصب آخر يصنع حاليا في ايطاليا .. يمثل شخصية (السندباد البحري) وحكاياته وسفراته الطريفة التي تتعلق بمغامراته ورحلاته الخطيرة التي انطلق فيها من بغداد حيث جاب ارجاء المعمورة .. وسينصب هذا العمل بعد اكماله في عرض نهر دجلة في مكان بارز يمكن مشاهدته ..

● « نبوخذنصر » حامي الحدود :

● لعل ابرز التماثيل التي ستنصب مستقبلا في بغداد ؛ وتنفيذا لتوجيهات السيد الرئيس المناضل صدام حسين ، تمثال كبير للملك البابلي (نبوخذنصر) الذي تربع على عرش مملكة بابل في الاول من شهر ايلول عام ٦٠٤ ق.م ، واستمر حكمه (٤٣) عاما قضاها بالحروب والعمران حيث حرر هذا الملك العراقي الاراضي السورية والفلسطينية اكثر من مرة وخلصها من ايدي الغزاة والمحتلين الاجانب .

ويعني اسم (نبوخذنصر) (الاله نابو) اي حامي الحدود ..

يتولى انجاز هذا التمثال المهم الفنان خالد الرحال ــ الذي ينهمك حاليا في دراسة ملامح شخصية هذا الملك المملاق ، وتحديد الفترة الزمنية التي حكم بها ، والانجازات الكبيرة التي حققها لمملكة بابل العظيمة ، والانتصارات الباهرة التي احرزها على اعدائه .

● جداريات بغداد :

● وقبل ان نختم هذا البحث الفني التاريخي عن الانصاب والتماثيل في بغداد ، لابد لنا من تعريف المواطن بعدد من الجداريات الفنية الجميلة التي تشكل هي الاخرى مظهرا جماليا وسياحيا رائعا في عاصمتنا بغداد الحبيبة ..

● جدارية « فائق حسن » :

● في عام ١٩٦٠ ، تعرفت بغداد لاول مرة على هذا الفن واعني به (الجداريات) . حيث انتصبت في ساحة الطيران وفي مؤخرة حديقة الامة جدارية جميلة من عمل الفنان العراقي فائق حسن وتعتبر اول عمل جداري يقام في العاصمة ..

يبلغ طول الجدارية (١٠) امتار وعرض ارضها (٤) امتار ، وهي مصنوعة من الموزائيك الملون وفي

اسفلها نصبت العديد من النافورات الملونة تحيط بحوض من الماء .. حيث تحيل الاضوية الملونة المسلطة على الجدارية ليلا الى آية من السحر والجمال .

● **جدارية بغداد قديما وحديثا :**

● هذه الجدارية عبارة عن لوحتين الاولى تكمل الثانية تنتصبان في باب ساحة «حلب» عند مدخل متنزه الزوراء من جهة الباب الشرقي صنعهما الفنان العراقي غازي السعودي عام ١٩٧١ .

تمثل الاولى نماذج رائعة للمعمار البغدادي القديم والحديث ، مثل بنايات الجوامع والكنائس والقباب والمنائر البغدادية ، اضافة الى البنايات الحديثة الاخرى .. فيما تمثل الجدارية الثانية المقهى والجالغي البغدادي ، وشارع ابي نؤاس ، وصيادي الاسماك ، وطريقة « السمك المسكوف » المشهورة في بغداد .. حيث تظهر في الجدارية فرقة للموسيقى الشعبية التي تعزف في حفلات الاعراس والختان الشعبية ..

يبلغ طول كل جدارية (١٠) امتار والارتفاع مترا واحدا .. وصنعت من مادة الموزائيك الملون .. وهي اول جدارية موزائيك تصمم وتنفذ داخل القطر .

● **جدارية التاميم :**

● انتصار التاميم العظيم والاعلان التاريخي الذي بشر به الاب المناضل احمد حسن البكر في الاول من حزيران عام ١٩٧٢ .. جسدته جدارية كبيرة انتصبت في شارع المطار الدولي عام ١٩٧٧ .

الجدارية تروي تاريخ العراق قديما وحديثا منذ عهد السومريين والاشوريين والاكديين ، وحتى الفترة المعاصرة ..

وهي تعتبر من اكبر الجداريات في الوطن العربي .. ويعود كبر حجمها الى عظمة قرار التاميم الخالد وسيطرة الشعب على ثرواته النفطية التي كانت نهبا مشاعا للشركات الاحتكارية .

وجه الجدارية الاول المقابل لمدينة بغداد ، نفذه الفنان العراقي نزار الهنداوي .. وفيه تظهر جماهير الشعب وهي تعلن فرحها بالحلم الاتي على شكل طير في السماء .. وهذا الطير يرمز الى حلم التاميم والانتصار العظيم ، حيث بذل فيها الفنان الهنداوي جهودا كبيرة .

اما الوجه الثاني للجدارية فقد تضمن مقاطع من نص قرار التاميم الخالد الصادر من مجلس قيادة الثورة والذي اعلنه الاب القائد عشية يوم الاول من حزيران .. مكتوب بالخط الكوفي البارز المرسوم على الموزائيك نفذه الخطاط العراقي الدكتور سلمان الخطاط .

ولابد من الاشارة الى ان هذه الجدارية ، وقبل ان تستقر في مكانها الحالي سبق لها ان شاركت في معرض الحزب الذي اقيم لمناسبة الذكرى السابعة والعشرين لتأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي عام ١٩٧٤ .

تنتصب الجدارية على قاعدة دائرية الشكل بارتفاع متر واحد .. اما ارتفاع الجدارية فيبلغ (١٤) مترا اما عرضها فيبلغ (١٢) مترا و (٦٠)سم وهي من الموزائيك الملون .

● **جدارية القادسية :**

● على جانبي باب « القادسية » في متنزه الزوراء المواجه لشارع الزيتون .. انتصبت جداريتان من صنع الفنان غازي السعودي في بداية عام ١٩٧٨ ، تمثلان معركة القادسية الشهيرة التي تم النصر فيها للجيش العربي بقيادة سعد بن ابي وقاص ، على الجيش الفارسي .. وعلى اثرها تم تحرير العراق من الحكم الاجنبي .

تصور الجدارية الاولى : الجيش العربي .. والثانية الجيش الفارسي .. وقد بذل الفنان السعودي جهودا بارعة في تجسيد احداث هذه المعركة الفاصلة في التاريخ العربي .

● **« بانورما » القادسية في المدائن :**

● ما دمنا نتحدث عن معركة القادسية المشهورة .. لابد ان نعرف شيئا موجزا عن موقع « القادسية » التي حدثت فيه تلك المعركة .. فهي في موقع في الصحراء المحيطة بمدينة النجف الاشرف .. والوصول اليها اما عن طريق بحر النجف او عن طريق مدينة ابي صخير التي تقع بالقرب منها اطلال مدينة الحيرة عاصمة دولة المناذرة العربية .. وبالضبط فان موقع المعركة الان في وسط الصحراء قرب ناحية (الرحبة) ويمكن الوصول اليها عن طريق الحج البري الذي يربط العراق بالسعودية .

● العمل الكبير الذي تتولى انجازه حاليا امانة العاصمة هو انشاء رابع (بانوما) في العالم وهي بانورما القادسية التي يجري العمل فيها في منطقة المدائن (سلمان باك) قبالة طاق كسرى .

وهي عبارة عن بناية كبيرة على شكل (زقورة) قاعدتها السفلى (٢٥٠٠) متر مربع وقاعدتها العليا (١٦٠٠) متر مربع ، حيث تضم هذه البناية من الداخل شاشة دائرية (البانوراما) حيث ستجسد هذه الشاشة معركة القادسية ، بشكل تفصيلي يشبه الفلم السينمائي (الصوت والصورة) وتمثل عظمة وانتصار العرب على اعدائهم بقيادة القائد العربي سعد بن أبي وقاص زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عام (٢٢) هجرية ..

ولضم كذلك بناية البانوراما متحفا عسكريا تعرض فيه ابرز الاسلحة المستعملة في تلك الحقبة التاريخية من الزمن .. اضافة الى الملحقات الخدمية الاخرى باعتبار ان هذا المرفق واحدا من اكبر المرافق السياحية والتاريخية في القطر .

وكما قلت فان هذا المشروع العراقي هو رابع مشروع من نوعه في العالم حيث سبقتنا في هذا المجال اربعة دول . وهي تمثل وقائع ومعارك تاريخية معروفة في تلك البلدان سجلت شعوبها فيها انتصارات عظيمة على الاعداء فاستحقت هذا التخليد والتبجيل .

● بدء العمل في مشروع بانوراما القادسية عام ١٩٧٥ .. ومن المؤمل الانتهاء منه عام ١٩٨٠ .. ويعمل على تنفيذ رسم تفاصيل المعركة عدد من الفنانين الكوريين الذين سبق لهم خوض مثل هذه التجربة ..

ومما لا شك فيه ان هذا النصب العملاق سيضفي على منطقة المدائن ذات الاثار والشواهد العريقة ، موقعا سياحيا جديدا ، لما يمثله هذا الاثر الكبير من خصائص تاريخية واثارية وترفيهية لكل المواطنين الذين يؤمون هذه المنطقة السياحية المعروفة ..

● **خاتمة المطاف :**

● من هذا يتضح ان بغداد اليوم في زمن الثورة الزاهرة .. اصبحت بالفعل مزرعة خصبة للتماثيل والانصاب التذكارية .. وهي دليل جميل وعرفان لتاريخ هذه المدينة العظيمة ولابنائها من الشعراء والادباء والمؤرخين ورجال السياسة والمجتمع .. كذلك غدت هذه الانصاب مصدر تقييم وتكريم لحضارات وادي الرافدين القديمة والعريقة والفنية بوافر عطاءاتها الفكرية والحضارية والثقافية منذ فجر السلالات البشرية .. باعتبار ان ارض الرافدين مهد البشرية الاولى .

● في خاتمة هذا المطاف .. لا يفوتني الاعتذار عن الهفوات التي ربما وردت في هذا المقال .. أو نسيان بعض التماثيل والانصاب الاخرى التي فاتني ذكرها في هذا العرض السريع .. وامل ان يبادر ذوو الاختصاص في هذا الجانب الحضاري الممتع واغنائه بما يستحق من مكانة فنية وجمالية وتاريخية تتوافق والمكانة العظيمة التي تحتلها عروس الرافدين الحبيبة بغداد عاصمة قطرنا العراقي المناضل وامل كل العرب في كل مكان .. والله الموفق وبه نستعين .

★

● **مصادر المقال :**

١ ـ كراس (من اجل بغداد اجمل ـ التماثيل والانصاب) اعداد فاروق بطرس اصدار امانة العاصمة .

٢ ـ ارشيف امانة العاصمة من الصحف والمجلات العراقية (اضبارة النصب والتماثيل) .

٣ ـ اعداد من مجلة امانة العاصمة للاعوام ١٩٧٧ و ١٩٧٨ .

بغداد
ودورها الرائد في تفوق العرب على اليونان في مختبرات الطب

بقلم الدكتور

خليل باز

الجامعة اللبنانية ـ بيروت

كانت بغداد في العصور العباسية ، مدينة الطب والاطباء ، يرنو اليها العربي والاعجمي ، على حد سواء ، انّ لجهة الاختصاص في هذا الميدان ، وانّ لجهة طلب الشفاء من مرض عضال ، اما النهضة الطبية الرائدة ؛ فان هذه المدينة الخالدة حملت اعباءها حقبة طويلة من الزمن ؛ حتى تجاوزت الطب اليوناني اشواطا بعيدة .

فهارون الرشيد اول من شجع ترجمة كتب اليونان الطبية ؛ وكانت مجموعته في هذا الميدان ، مقتطفات من كتب اخبار اليونان ، ولاسيما جالينوس ثم ترجمت كتب ابوقراط وسواه ، ولقد عمل العرب على تنمية تلك العلوم ، وقد بلغ العلم العربي قمة عصره الذهبي بين القرن الثامن والتاسع ، وكان مركزه الاساسي ، بغداد .

ولقد اشتهر من الخلفاء العباسيين ، المنصور والمامون بحبهما للتوسع العلمي بحيث اولع هذان الخليفتان بالعلوم اليونانية ، فاشتريا مخطوطات كثيرة ؛ من يونانية وغيرها ، وحفظاها في « بيت الحكمة » وامرا بترجمتها الى العربية .

فالطب العربي ؛ بفضل مدينة بغداد خاصة ، وبعض الحواضر العربية عامة ، سبق الطب الغربي بمئات السنين .. وكانت في بغداد والبصرة والكوفة ودمشق وقرطبة مدارس جامعة ، يقصدها الطلاب من الشرق والغرب ، ويتفق العلماء ، على ان العرب بلغوا شأوا فاقوا فيه اليونانيين بكثير . فدرسوا علم وظائف الاعضاء ؛ وعلم الصحة وكانت طرق طبهم العلمية ، نظير طرقنا الحاضرة ؛ ولا نزال حتى اليوم نستعمل كثيرا من ادويتهم وكان جراحوهم يعرفون التخدير ؛ ويجرون العمليات الصعبة ، والعرب اول من جعل احتراف الطب ، تابعا لامتحان ، واول من افتتح الصيدليات المجانية . وهكذا وفق علم الامراض العربي ، ان يتعدى حدود العلم الاغريقي ؛ ويسبق في فتوحاته ، ما جاء بعد جالينوس نفسه ، الذي وان اشتهر بتحليلات رائعة صائبة ، الا انه صرف طاقاته الجبارة في تسخير الحقائق لخدمة نظرياته وصبها في بنائه الضخم مهما كان السبب .

حتى جاء الرازي ؛ فعلم العرب التفكير الطلق والنظر الحر ، فرسالته عن الحصبة والجدري ، ظلت المرجع الاول والاخير في اوروبا ، حتى القرن الثامن عشر . ثم فرق مرض النقرس عن الروماتيزم وكان ابن سينا اول من وضع تشخيصا دقيقا عن التهاب الاضلاع ، والرئة وخراج الكبد ، ثم فرق بين الالتهاب الرئوي والبلوري ؛ وبين التهاب السحايا الحاد والثانوي ، وبين عوارض المغص المعوي والمغص الكلوي ؛ وتعرض لشلل الوجه واسبابه ؛ ففرق بين الشلل الناتج عن سبب مركزي في الدماغ والناتج عن سبب محلي ، ووصف تشعب الاعصاب في القفص الصدري ؛ ومن المعروف ان الاغريق قد عالجوا الشلل بوسائل حارة ، فجاء العربي ابن بشر وادخل كعلاج للشلل ، الادوية المبردة وعنصر الماء الرطب وحقق به نجاحا هائلا ، ووضع حدا لاستعمال الوسائل الحارة ؛ وعالج مرضاه بماء الشعير وبغيره من النباتات .

ويدين علم الطب لابن زهر باول تشخيص سريري لالتهاب الاهاب (الجلد الخام) الوسطي

وللالتهابات الناشفة والانسكابية لكيس القلب ، وقد فرقها عن امراض الرئـة . ويدان له باكتشاف الحقنة الشرجية المغذية والغذاء الاصطناعي لمختلف حالات شلل عضلات المعدة ، وبوصف كامل لسرطان المعدة ، في الوقت الذي اكتشف فيه ابن سينا ان سرطانا موضعيا يعطي عوارض السرطان العام في الجسم ، واكد امكانية عدوى داء السل وخطـر الاشعة الشمسية على المصابين به .

اما ابن رشد فقد اكتشف المناعة التي يتركها داء الجدري الاسود لدى اصابته الاولى ، كما ان مبدا التطعيم يتم بواسطة جراثيم ضعيفة ، وذلك بان نجرح اليد ما بين المعصم والابهام ، وبوضع قليل من بثور غير ملتهبة فوق الجرح ، بينما كان الصينيون ، يضعون ضمادة مبلولة بقيح الجدري فوق انف الولد .

وفي النصف الاول من القرن التاسع صور ابن مسكويه صورة شاملة للجذام (البرص) وقال انه مرض معد ، ولقد اهتم به كثيرون غيره كابن الجزار الذي كتب مفصلا اسبابه وطرق علاجه ، وكذلك عندما انتشر مرض الطاعون انتشارا هائلا ، نشر الطبيب الاندلسي ابن الخطيب ، رسالة علمية منطقية عن العدوى بواسطة الاتصال بالمرض ، ومن المؤكد ان اكتشاف العدوى واخطارها والوقاء من الهلاك ، الذي كانت تزرعه بين افراد الشعب ، اعتبرا من اعظم الفتوحات العلمية التي حققها الفكر العربي الخلاق .

وكما وفق العرب في الطب ، كذلك وفقوا في فن الجراحة ، واسدوا له خدمات جلى ، فالجراح الاندلسي الزهراوي ، ادخل تجديدات في مداواة الجروح ، وفي تفتيت الحصاة داخل المثانة ، وفي التشريح واجراء العمليات . وقد اهتم هذا الجراح العربي ايضا بالالتهابات المفاصلية ، وبالسل في خرزات الظهر ، الذي سمي فيما بعد باسم الانجليزي بوت ، الداء البوتي ، وكذلك طور فرع الامراض النسائية بان ادخل عليه طرقا في البحث والمداواة جديدة ، والات حديثة ، بعد ان كان على يد الاغريق في مستوى غير لائق . كما اوجد لمسات جديدة للولادة في حالة سقوط يد ، او ركبة الجنين او وضعه المسمى بوضع الارجل (تقدم الارجل من باب الرحم على الراس) او الوضع الوجهي ، وهو اول من عالج هذا الوضع الاخير واول من اوصى بولادة الحوض ، وعلم القيام بعمليات في المهبل والبة لتوسيع باب الرحم .

وقد درس ابو القاسم علاج تشويهات الفم والفك . ونجح في عملية شق القصبة الهوائية ، وقد اجرى هذه العملية على خامة . ووفق ايضا في ايقاف نزيف الدم بربط الشرايين الكبيرة محسناً بذلك عملياته الجراحية ، ومسهلا بقطع الاعضاء ، وهو فتح علمي كبير حققه وعلمه ابو القاسم العـربي ، كما انه علم تلامذته كيفية تخييط الجروح بشكل داخلي لا يترك شيئا مرئيا منها ، والتدريز المثمن في جراحات البطن ، وكيفية التخييط بابرتين وخيط واحد مثبت بهما ، واستعمل الخيطان المستمدة من امعاء القطط في جراحات الامعاء ، وهو اول من اوصى في كل العمليات الجراحية في النصف السفلي من الانسان ، ان يرفع الحوض والارجل قبل كل شيء . وهذا الجراح العربي هو اول من اوجـد طريقة فتحة في رباط الجبس في الكسور المفتوحة ، وامد الجراحين واطباء العيون والاسنان ، بالالات اللازمة للعمليات بواسطة الرسوم الجديدة التي وضعها .

اما في طب العيون ، فقد بلغ العرب شاوا عظيما ، تفوقوا فيه على اليونان واول كتاب في هذا الموضوع كان كتاب اسحق بن حنين (العشر مقالات عن العين) وقد بقي مع مؤلفات علي بن عيسى وعمار من الموصل ، المرجع الاول لطب العيون حتى القرن الثامن عشر .

كذلك ، فان العرب برعوا في معالجة تشويه المفاصل والعظام ، وادخلوا طريقة جديدة لمعالجة خلع الكتف . وقـد زاد ابن سـينا على المداواة بالحمامات الباردة او الساخنة الموروثة عن القدماء علاجا يقضي بجمع الاثنين في آن واحد ، يفصلهما تراوح زمني بسيط . كما انه اوجد الحقنة الشرجية او كيس الثلج . اما استعمال خيط الشعر للعمليات الجراحية في القرون الوسطى ، فيرجع الى الرازي والعرب هم اول من استخدم المرقد (المخدر) العام في العمليات الجراحية ، وكان التخدير العربي فريدا من نوعه ، يختلف عن المشروبات المسكرة التي كان الهنود والرومان واليونان يجبرون مرضاهم على تناولها كلما ارادوا تخفيف آلامهم .

لقـد اعتقـد ابو قـراط اليوناني بان تقيح الجروحات ما هو الا عملية طبيعية مرغوب فيهـا جدا ، وذلك لعملية التطهير التي يقوم بها في الجسم ولكن ابن سينا ، عارضه في هذا ، بنظريته عـن الجروح الخالصة من القيح . وكان نجاحه هائلا ، والسر في ذلك يرجع الى انه قد تخلى عن نظرية القيح القديمة ، وعمل ما بوسعه لتجنب اي عامل

كيماوي ، مع الخمرة المعتقة القوية ، واثبت قوة مفعول الخمرة الفاتكة للجراثيم التي توازي قوة البنسلين ، وفي مداواة الجروح تقليد عربي قديم ، ذلك ان عرب الجاهلية قد ابدعوا في مداواة الجروح المعدية ؛ ووجدوا لها وسيلة ، نعني بها مضادات الجراثيم ، فمن سروج حميرهم ودوابهم حصلوا على المواد المضادة للجراثيم (البنسلين) وعلى دواء الهليون ، وضعوا منها مراهم وعالجوا بها جراحاتهم الملتهبة ، كما انهم نفخوا غبار العفن في الحلق لدى التهابه ، كما هو المعهود لدى البدو حتى ايامنا هذه .

والعرب هم أول من عالجوا الامراض العقلية والعصبية بالافيون ، كما هو متبع حديثا ، كما انهم ابدعوا في المعالجة النفسية التي مثلت دورا مهما في مداواتهم بالموسيقى ، ووضعت كتب خاصة بهذا الموضوع ككتاب (تأثير الموسيقى في الانسان والحيوان) لابن الهيثم . ولقد نادى ابن سينا بضم الوسائل النفسانية ، الى التداوي بالعقاقير لزيادة مفعولها وازالة الخوف عن المريض قائلا بما معناه علينا ان نعلم ان افضل العلاجات وانجعها ، هي العلاجات التي تقوم على تقوية قوى المريض النفسانية والروحية ، وتشجيعه ليحسن مكافحة المرض ، وتجميل محيطه ؛ وسماعه ما عذب من الموسيقى ، وجمعه بالناس الذين يحبهم .

ولم يجهل العرب حفظ الصحة ، فكانوا يعرفون جيدا ، ان علم الصحة ؛ يعلمنا طرق الوقاية من الامراض التي لا يستطيع الطب شفاءها . وكانت مناهجهم الصحية . طبية منذ القديم ، وما سار عليه ابناء البلاد الحارة من تفضيل الطعام النباتي على الطعام الحيواني غاية في الحكمة . وكان من عادة مؤلفي العرب ان يوجزوا وصاياهم الصحية ، في كلمات جامعة يسهل حفظها ، ويظهر ان مشافي العرب التي انشئت فيما مضى ، افضل صحيــة من مشافينا الحديثة ، فقد كانت واسعة ذات هواء كثير وماء غزير ؛ ولما عهد الى الرازي في اختيار حي في بغداد لاقامة مشفى عليه ، التجأ الى طريقة لا ينكرها عليه اصحاب نظرية المكروب الحديثة ، وذلك انه علق قطعة لحم في كل حي من احيــاء المدينة ، واعلن ان اصلح حي يقام عليه المستشفى هو الحي الذي يتأخر فيه فساد قطعة اللحم المعلقة .

وكانت مشافي العرب ، ملاجيء للمرضى ؛ واماكن لدراسة الطلاب بحيث كانوا يتلقون دروسهم في المشافي ، اكثر مما يتلقونها في الكتب ، وانشأ العرب مشافي للمصابين ببعض الامراض العقلية ؛ ولم يجهلوا تأثير الجو الصحي ، ومن ذلك نص ابن رشد في شروحه لكتب ابن سينا ، على تأثير الاقليم في داء السل وايصاؤه المصابين به بان يقضوا فصل الصيف في جزيرة العرب وبلاد النوبة . وكان العرب يعتمدون كثيرا على علم الصحة في معالجة الامراض ، وعلى الوسائل الطبيعية ، ولا يختلف لذلك عن الطب الحديث .

الظرف البغدادي

بقلم
فاطمة حمزة الراضي
كلية التربية ـ جامعة بغداد

لا ننكر ان البحث في موضوع (الظرف البغدادي) ، شيق ممتع ، فضلا عن انه يثير فينا نزوعا نفسيا للاطلاع على جوانب كثيرة مهمة لصيقة بواقع الحياة الاجتماعية للانسان العربي في بغداد العصر العباسي ، فالظرف بوصفه ظاهرة حضارية قد سادت المجتمع البغدادي ، وفي هذا القول شمولية وسمة تعم المجتمع العربي ، لان بغداد يومذاك مثل يحتذى ومنار يشع بكل مقومات الحياة المشرقة ، فحين يبحث الدارس في (الظرافة البغدادية) ، وممارسات الظرفاء ، فكأنه يتحسس ويلمس الصورة الطبيعية للحياة الاجتماعية المتوازنة للانسان ، في جدها وعزلها في تعقلها ، وعواطفها ، وفي حكمتها . ما لزم حد المعقول وما تجاوزه . وقد عاشت الحضارة الاسلامية زمن النضج بعلو مجتمعها دمائة في الخلق ، وحكمة في الراي منبثة في انتاج العصر على السنة الظرّاف شعرا ونثرا ، وقد صوّر هذا الجانب من الحياة بصراحة وجراة بلغت حدا بعيدا ، واننا نجد ان الذي ساعد على ذلك هو : الظروف الثقافية وامتلاك وعي الواقع والنضج الحضاري والا لما استسيغ ، وسجل ، ونقل ذلك الادب الظريف بكل انواعه ، لكثير من ظرفاء العصر .

ولقد كان لبعض الدارسين القدامى قصب السبق في التاليف في هذا الموضوع ، وفي مقدمتهم الوشّاء(*) في كتابه (الموشّى) . واخبار الظراف والمتماجنين ، واخبار الاذكياء ، لابن الجوزي .

ومن المحدثين صلاح الدين المنجد في كتابه (الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس) وقد استفاد من كتاب الموشى كما افدنا منهما في بحثنا هذا ، اما اخبار الظرفاء فقد غصت بها كتب الاخبار والادب والتاريخ وانبثت نصوصها في تآليف كثيرة ككتاب الديارات للشابشتي ، والاغاني لابي الفرج ونهاية الارب للدينوري ويتيمة الدهر للثعالبي ، وكتب الجاحظ ، وتاريخ الطبري ، والكامل في التاريخ والمنتظم . ومؤلفات السيوطي وغير ذلك كثير .

على اننا وجدنا ان في البحث في موضوع (الظرف البغدادي) اطلاع واسع على معرفة الاحوال الاجتماعية في العصر العباسي ولا سيما ان دراسة الاحوال الاجتماعية هي محك او وسيلة من انجع الوسائل التي تكشف الاحوال الثقافية والعلمية بضروبها المختلفة ـ والنصوص دالة عليها ـ وبالتالي اظهار الجانب الحضاري للمجتمع وما بلغه من سمو وعلاء .

ولقد كان (الظرف البغدادي) سمة حضارية لانه يتصل كل الاتصال باسباب حضارتها(**) ، فبغداد ـ التي خلدها الشعراء في اشعارهم يومذاك استوت فيها الحضارة الاسلامية ونضجت ومال الناس فيها الى كثير من مظاهر الترف والاناقة والتزين بل التنافس في هذا السبيل وكانوا في بحبوحة من العيش وسعة الرزق وتعدد اسبابه وسبله ولا غرو في ذلك ؛ فقد عم الامن ،

(*) هو ابو الطيب محمد بن اسحاق عاش في بداية القرن الرابع للهجرة (٨٦٠ ـ ٩٣٦م) .

(**) ظرفاء المنجد ص/٢ .

وكثر الخير ، وتفرغ القوم للتمتع وافتنوا في ترف العيش والتنعم باسباب الدنيا وحب كل ما هو طريف ظريف ، (وهذه عناصر تتصل بالفن اتصالا وثيقا)(١) .

وفي بغداد عاصمة الدولة العباسية اضحى المجتمع الاسلامي – بسبب الفتوحات وسعة الرقعة الاسلامية – خليطا اجتماعيا انفه الاسلام من عناصر شتى ذات طبائع واخلاق واذواق وبيئات وعادات مختلفة بكل موروثها ، الحضاري ، والثقافي المختلف ، فكان من اغزر المصادر واعجبها(٢) وساعد على خلق انموذج للانسان ، الذي تفاعلت ، وامتزجت في نفسه وروحه كل عوامل المجتمع الجديد ، فكان انسانا متحضرا دمثا ، في سماحة وظرف وذكاء وهي سمة حضارية استمدت مقوماتها من ذلك المزيج .

ومما افاء به الفتح الاسلامي على بغداد ، وغيرها من عواصم الدولة العباسية كثرة الاسرى من الجواري الفارسيات ، والروميات – وهو سبب نضيفه الى ما ذكرنا آنفا – ؛ وبذلك دخل – في المجتمع البغدادي – لون جديد ادخل مظهرا جديدا في المجتمع والجديد بطبيعة الحال يلفت النظر ، ويستدعي الاهتمام ، ومن هنا كان للمرأة الاسلامية الجديدة اثرها في مجتمع بغداد (فسمى نحوها الرجال ، وسعت القيان اليهم وتبودلت المشاعر ، وكان نتيجة ذلك التظرف والتزين والارضاء)(٣) .

وراجت سوق الجواري ، وقد افتن النخاسون(٤) في تعليمهن وتأديبهن الشعر ، والغناء فضلا عن حفظ القرآن الكريم ومأثور القول ، كل ذلك لان هؤلاء النخاسين وجدوا فيهن تجارة مربحة رائجة ، وانتشرت تجارة الرقيق في بغداد وعني بها هؤلاء على اكمل وجه . وكان في بغداد شارع يسمى شارع (دار الرقيق) وقد بكاه الشاعر بقصيدة طويلة آخرها :

ومهما انسَ من شيء تولّى
فاني ذاكرٌ دار الرقيق(٥)

واشتهر منهم كثير كأبي عمير الذي كان له جوار قيان لهن ظرف . منهن (عبّادة) التي عَوِيها عبدالله محمد بن البواب . يقول فيها :

لو تَشكّى (ابو عُمير) قليلا
لأتيناه عن طريق العيادة
فقضينا من العيادة حقا
ونظرنا في مُقلتي (عبّادة)

ومنهم (الخطاب) كانت له جارية تعرف (بذات الخال) التي كان يهواها ابراهيم الموصلي ، وغيرهم كثير(٦) . وقد كان الشعراء يأوون اليهم بسبب ذلك .

وقد احسنت الجواري اساليب المطارحة الشعرية والمنادمة وسبل المجالسة والمسامرة ، وتطارح الرجال من الشعراء الشعر معهن(٧) ، وكانت بغداد والعصر العباسي مصر هذه المطارحة والمعارضة على الوزن والرويّ الواحد وبقية المعنى ، واكثر ما تكون الغلبة فيها لهن (فقد كن أسرع بديهة ، وارق طبعا)(٨) .

ومن ذلك ما جرى بين الشاعر السلولي وعنان (جارية الناطفي) وصاحبة ابي نواس بعد ان طلبت ان يبدأ السابق في المعارضة(٩) :

قال السلولي :

لقد جدَّ الفراق وعيل صبري
عشيةَ عيرُهم للبين زُمَّتْ

فقالت عنان :

كتمت هواكم في الصدر مني
على انَّ الدموع عليَّ نمَّتْ

فكانت اشعر منه .

وقد عجت قصور الخلفاء والوزراء وذوي الجاه والمال منهم بهن ، ظريفات وظرفاء وكانت مجالس سمرهم ومنادمتهم واماكن لهوهم وبساتينهم مكانا لحضورهن ومصاحبتهن .

---

(١) الظرفاء / صلاح الدين المنجد طبعة الرسالة ص/٢ .
(٢) نفسه / المقدمة . وانظر تاريخ الادب العربي : العزاوي ص/٦ وتاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : ابراهيم ابو الخشب ص/مقدمة .
(٣) المنجد في الظرفاء ص/١٠ .
(٤) بائعو الرقيق ، واحده نخاس . اللسان / نخس . وانظر مليحة رحمة الله : الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع الهجري ص/٨٥ حول الشعر والغناء .

(٥) الوشي : الوشاء ، مقدمة ص/د .
(٦) نفسه .
(٧) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : الثعالبي ص/١٧٧ .
(٨) قول الجاحظ في المصدر السابق نفسه .
(٩) المرأة في ادب العصر العباسي : واجدة الاطرقجي /٢٠١ .

وفي ذكر انتشار الجواري والغلمان افادنا كتاب ابي حيان التوحيدي (ت ٤٠٠هـ) : الامتاع والمؤانسة بنص[١٠] ينير ذلك . قال : (فقد احصينا في بغداد سنة (٣٦٠هـ) : (٤٦٠) اربعمائة وستين جارية من القينات ومائة وعشرين من الحرائر ، وخمسة وتسعين من الصبيان الذين يجمعون بين الحذق والحسن . هذا سوى من كنا لا نظفر به ، ولا نصل اليه) . وابو حيان هذا شاهد معاصر وأديب حضارة القرن الرابع يدلي لنا بدلوه بهذا الصدد .

قلنا ان الحضارة طغت في بغداد (مدينة السلام) وانغمس الناس في الترف ، ورقت الطباع ، والاذواق واخذ اهل ومجتمع بغداد العادات الفارسية ، وتأثروا بتقاليدهم ايما تأثر ، وكان اثرهم هذا اكثر من اثر اليونان ظهورا) فقد كان اثر هؤلاء في الحياة العقلية في الفلسفة ، والجدل والمنطق[١١] . ولذا فقد كان تبدل المجتمع في بغداد تبدلا جذريا[١٢] . وهذا ما يكاد يجمع عليه المؤرخون في الادب والتاريخ ، وقد كثر التسري والجواري ، ويكفي ان نشير هنا ان ستة وثلاثين خليفة من العباسيين امهاتهم من الجواري[١٣] .

وفوق ذلك فان الروح الدنيوية سادت قصور الخلفاء ، والوزراء ومجالسهم : كالرشيد ، والواثق وامثالهما وقد عُدّت قصورهم ، وما يدخلوا عليها ، وما ضمت عليه من فرش وثيرة ، طنافس ورياش ، وازاهير وتحف ، وسرر وما فيها من حدائق وبرك والوان مما دعا الشعراء ونخص منهم الظرفاء الى وصفها باجمل الابيات وارقها ظرفا ، مما يُعدّ من اعجب آيات الفن والعمران حتى انه ليشك[١٤] في انها من الحقائق الواقعة في بغداد وغيرها لولا ما تؤكد عليه النصوص الادبية المتواترة ، ونقول المؤرخين ومعاصري ذلك الترف مما اعتمد عليه البحث في (الظرافة البغدادية) .

ولقد كان الظرفاء من الرجال والنساء يتنادمون وهؤلاء اعطوا أيضا صورة او وجها جديدا للشاعر ودوره لانه كان يحمل طابعا تصح تسميته في عصرنا هذا بالمدافع (السياسي) في مراحل الاسلام السابقة ، الا وهو دور النديم لدى قصور الخلفاء والوزراء ومن هم في عدادهم ، وتغني المغنون ، والمغنيات باشعارهم ، والناس في بغداد في هذا العصر يتغنون بالشعر الفصيح ، والجواري والقيان يحفظن بل يحرصن على حفظه وروايته وغنائه ، وبرزت كثيرات ، ومنهن (عريب)[١٥] ، التي عرفت بجمال صوتها وانه من اجمل الاصوات بين المغنين والمغنيات وكن يغنين من وراء الستائر[١٦] ، مما يوقع الكثير من المستمعين بهواهن ، والحرص على لقائهن لمعرفة صاحبة ذلك الصوت الرخيم .

اسباب نشوء الظرف البغدادي

ان اسباب نشوء الظرف على ما بدا لنا سابقا كثيرة وقد مهدت لها عوامل عدة تظافرت وبلغت ، اوجها زمن الترف ، زمن المهدي (١٥٨هـ) ووصلت حد الانبهار ، زهو في العيش ، تمتع باللذات ، تأنق في كل شيء ميل الى الظرافة والجدة ، والفن ، ترف فائق في الحياة ، توفرت في بغداد فزهوا بذلك كله، وقد اشار ابو حيان الى ان البغدادي[١٧] ميال بطبعه الى الظرف والتظرف .

وقد كان للغنى وكثرة الاموال عن طريق الجباية والخراج عاملا مهما ولما نقل وترجم بنشاط اثر عقلي فالتأثر الفكري الجديد في الفلسفة وعلم المنطق وما الف ادباء بغداد المعاصرين — كان من العوامل الاخرى المؤثرة في زيادة التظرف ، ولقد الف الجاحظ كتاب (التاج)[١٨] .

الظرف ظاهرة ومذهب

تعريف الظرافة ومدلولها :

تناولت مراجع اللغة دلالة (الظرف) واتفقت على مدلولات كثيرة تشتملها الظرافة ، ويتصف بها الظرفاء[١٩] : فالظرف عندهم : البراعة ، وذكاء القلب : يوصف به الفتيان الازوال[٢٠] ، وهم الغلمان

---

(١٠) ١٨٣/٢ .

(١١) ظرفاء المتجد ص/١٠ .

(١٢) الحالة الاجتماعية في العراق : مليحة رحمة الله ص/١٠٧ — ١٠٩ وانظر اعلام النساء ١٧/١) .

(١٣) مقدمة الوشى ص/د .

(١٤) انظر مقدمة الوشى ص/و .

(١٥) شاعرة ومغنية ذات فصاحة وبلاغة ، قيل انها ابنة جعفر البرمكي ، ولها مراسلات مع ابراهيم بن المدبر وغيره وكان المأمون يعشقها . توفيت سنة ٢٧٧هـ . انظر : المستظرف ص/٢٧ — ٢٨ وطبقات ابن المعتز ص/٤٢٥ .

(١٦) راجع حول الستائر ، مجلة المجمع العلمي بدمشق . مجلد/٢ ، لسنة ١٩٢٢ ص/٣٩١ (مقالة احمد تيمور ، الالفاظ العباسية) .

(١٧) انظر كتاب الصداقة والصديق ص/٣٢ .

(١٨) ظرفاء المتجد ص/٢ .

(١٩) اللسان / ظرف ، والتاج كذلك .

(٢٠) البستاني : محيط المحيط مكتبة لبنان ١٨٢٠/ظرف

الظراف ، وذكروا أنه لايوصف به الشيخ ولا السيد فكانه من لوازم الشباب لدواع كثيرة فيه . ومايقرب من هذا المعنى في الدلالة انه اي الظرف : حسن العبارة ، والهيئة ، وهو مصدر الظريف . وقد ظرف يظرف ، وهم ظرفاء ورجل ظريف من قوم ظراف ، وظروف وظراف على التخفيف من قوم ظرفاء . وظراف بتشديد الراء من قوم ظرافين ...

ويتظرف : يتكلف الظرف .

والظرافة قليلة في غير الشعر(٢١) . قال ابن الاعرابي : الظرف في اللسان ، والحلاوة في العينين ، والملاحة في الفم . والجمال في الانف . قال : كانه جعل الظريف وعاء للادب ومكارم الاخلاق(٢٢) .

وفي حديث ابن سيرين : الكلام اكثر من ان يكذب ظريف ، اي ان الظريف لاتضيق عليه معاني الكلام ، فهو يكني ويعرض ولا يكذب . والظريف يملك تلك الملكة التي تكون مبدأ لصدور الالفاظ التي لاتخلو من ظرافة والهام(٢٣) .

وابن الجوزي(٢٤) يذكر للظرافة والظريف مدلولا يقرب من مفهومنا للظرافة اليوم ، فقد نقل قول الحسن البصري .. كانه وعاء كل لطيف .

والتورية تدخل في معاني الظرف ، فما يوجب خجل المذنب فيورى عنه هو من الظرف كذلك قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام « اذ اخرجني من السجن »(٢٥) ولم يذكر (الجب) لئلا يستحي اخوته .

واحسب انما ذكره ابن الجوزي ممهدا للتوسع في بعض معاني ومداول الظرف الذي فيه حلاوة النكتة(٢٦) .

وقيل : ان الظرف لايكون الا في اللسان(٢٧) يقال : فلان ظريف اي هو بليغ جيد المنطق ومنه حديث عمر (رض) : اذا كان اللص ظريفا لايقطع اي ان له لسانا يتحجج به فيدفع عن نفسه .

قال : هو الخفيف الظريف يعجب حسن ظرفه ، والجمع :ـ ... ، وفي حديث النساء : (بزولة وجلس) ، هي الفطنة الداهية ، وقيل : الظريفة ، وتزول : تناهي ظرفه ، وانظر اللسان / زول .

(٢١) اللسان / زول .
(٢٢) اللسان / ظرف وزول .
(٢٣) البستاني / ظرف ، والسابق نفسه .
(٢٤) الظراف والمتماجنون ص/٢ .
(٢٥) الآية ١٠٠ يوسف .
(٢٦) الظراف والمتماجنون ص/٣ .
(٢٧) الاصمعي وابن الاعرابي : الوشى ٢/١٥٩ - ١٦٠ .

فانت تجد مدلولات مترابطة المعاني لاينفك بعضها يشد أزر بعض ؛ فالذكاء وبراعة اللسان ، والبداهة وتعدد الجواب والبلاغة والتورية منها دائرة في فلك واحد على التوسع في المعنى الذي وصل اليه الظرف بعدئذ .

صفة الظريف وسنن الظرافة :

لاادب لمن لامروءة له ولامروءة لمن لاظرف له ، ولاظرف لمن لاادب له . فالوشاء(٢٨) هنا يجعل للظريف من الخلال ما يلزم به فهو اديب متادب تحمد خلاله ذو مروءة ، وليس هذا فحسب فقد نعته بنعوت كثيرة ، فالفصاحة ، والبلاغة ، والعفة والنزاهة ، فضلا عن انه حسن الوجه ، رضي الهيئة ، قد اخذ من العلوم ، فصار وعاءا لها ، رقيق الطبع . صادق اللهجة . كاتما للسر . هذا هو سلوك الظريف ولا يكون بخلافها ممن يعد منهم . كما ان للظرفاء البغداديين سلوكا اجتماعيا يكن عن مبلغ الكمال في حسن السيرة والسلوك . منها حفظ ذمار الجار والوفاء له ، والانفة من العار ، وطلب السلامة من الاوزار ، والوشاء حين ينقل لنا ماذكرناه قد استشفها من واقع ممارسات الظرفاء في بغداد من ذلك انه (الوشاء) سأل ظريفا عن الظرف : (فقال : التودد الى الاخوان ، وكف الاذى عن الجيران)(٢٩) . فالظرفاء في بغداد لهم ميزات تنبىء عنهم لما فيهم من لطف في الشمائل ، ورهافة في الحس ، وتتبع للجمال والتانق في الملبس ، والتطيب ، والزينة ، والهيام بالرياض ، والازهار والولوع بالطريف الذي لم تعرفه العوام ، واللباقة في التعبير عن الاحساس بالافكار والمتظرفات لهن زهو حلو وعناية بالشعر الغنائي العربي الذي يترجم العواطف والهوى(٣٠) . وفوق ذلك لاتخلو حياتهم من بساطة في جمال . وقد تجاوز هذا الى فوضى لدى بعضهم . وفيه يقول الوشاء : (سألت بعض متظرفات القصور عن ظرفهن فقالت من كان فصيحا عفيفا كان عندنا ظريفا متكاملا ، ومن كان غنيا عاهرا كان ناقصا(٣١) ، والصراحة من شؤونهم وبلغوا مبلغ عمر بن ابي ربيعة ، من ذلك شعر ابن المعتز ومسلم بن الوليد ، قال مسلم :

انــي احبك فاعلمــي
ان لم تكوني تعلمينــا

---

(٢٨) الوشى ١/٥٠ .
(٢٩) الوشاء ص/٥٢ .
(٣٠) المنجد في الظرفاء ص/٢ .
(٣١) الوشاء ص/٥١ .

حبـا أقـل قليلـــه
كجميـع حب العـالمينـا

وتفانوا في حبهم كقول قائلهم :

انا الذي لم تدع فيه محبتكم
فضلا لغيرك من انس ولا جان
سلبت روحي واسكنت الهوى بدني
فصار فيه مكان الروح في الجسـد

ولا يفوتني هنا ان اذكر شيئا من فطنة ظرفاء بغداد مما ذكره ابن الجوزي في اخبار الظرفاء[٢٢] وذلك : (ان المأمون غضب يوما على طاهر بن عبدالله فاراد طاهر ان يقصده فورد كتاب له من صديق له ليس فيـه الا سلام وفي حاشيته : (يا موسى ، فجعل يتأمله ولا يعلم معنى ذلك . وكان له جارية فطنـــة فقـــالت : (يا موسى ان الملأ يأتمـرون ليقتلوك)[٢٣] .

وفيه ايضا : (قال المأمون لزبيدة لما قتـل ابنها : لن تعدمي الا عينيه ، وانا ولدك مكانـــه فقالت : ان ولدا افادنيـك جـدير ان اجـزع عليه)[٢٤] .

وفي صدد سنن الظرفاء وما عليهم من شرائع قول الوشاء : فيما نصه :

(واعلم ان للعشق سنة مقصودة ، وللظرف شرائع محدودة ورأينا اربابه واهله وطلابه متبعين لسبلها ، متمسكين بحبلها ، متى حالوا عنها سموا بغير الظرفاء عند اهل الظرف ودعوا الى غير سُنّة العشاق والادباء ولهم فيما استحسنوه من الزي والطيب والثياب ، والهدايا والطعام والشراب حدٌ محدود ، مستحسن معلوم ، وزي بين الطائفتين مقسوم ، لا الرجال يتجاوزون الى ما حُد لهم الى حد متظرفات النساء ، ولا النساء يتجاوزن حدهن الى حد الرجال الظرفاء ..)[٢٥] .

الظرف مذهب

غدا الظرف مذهبا واستوى وله سنن وعادات زمن المهدي (١٥٨هـ) زمن الترف في بغداد[٢٦] ، واعتنقه كثير منهم وبعد ان كان في بغداد ظرفاء اخذ الاخرون من البغداديين وغيرهم يتظرفون ، قاصدين اليه ، ومنتقين اياه .

وقـد نما الظرف والتظرف في وقت شاعت فيه الزندقة بين النـاس ، واحب الظرفاء رقـة الزنديق ولطفه وصراحته فضلا عن انهم نشـدوا العلم والعقل والادب فاصبحت الزندقة مدعاة الى الظرف وعبر الناس عن ذلك فقالوا في المثـل : (اظرف من زنديق)[٢٧][٢٨] .

وانتحل كثـير من الظرفاء الزندقة منهم محمد بن زياد ، قيل انه تزندق تظارفا فقال ابن مناذر فيه :

لسـت بزنديـق ولكنمـا
اردت أن توسـم بالظـرف[٤٠]

وقد تزندق المتظرفون حتى قيل انهم تزندقوا وغلبت عليهم هذه الصفة او ليضيفوا الى الظرف زندقة . كما في قول الشاعر :

لقـد بقي التزندق فيـه وسما
وما قيـل الظـريف ولا الخفيف
تزندق معلنـا ليقـول قـوم"
من الادبـاء زنديـق ظريف

واستقطب الظرف الناس فصار مدعاة للفخر والاعتزاز ، ونظر له العوام طموحا يسعون اليـه ولا سيما - بعد ان كانت للظرفاء حظـوة لدى الخلفاء والامراء .

وقد افادنا الثعالبي في ذلك فاورد في كتابـه ثمار القلوب[٤١] نسبة الظرف الى الزنديق فقال : اما قولهم : اظرف من الزنديق فقد صار مثـلا في زمان كثير ظرفاؤه وهـو زمان المهـدي ، وكانـوا يرمون بالزندقة كأبي العتاهية ، وبشار بن برد ، ومطيع بن اياس .. وغيرهم ثم قال وما منهم الا

(٢٢) ص/١٢٨ .
(٢٣) القصص : ٢٠ .
(٢٤) الظراف والمتماجنون ص/١٥٩ .
(٢٥) الوشاء ص/١٥٩ - ١٦٠ .
(٢٦) ظرفاء المتجد / ١ .

(٢٧) قال الجواليقي في المعرب ص/١٦٦ - ١٦٧ ليس في كلام العرب « زنديق » والجمع زنادقة . والهاء فيها مزيدة عوض من الياء في زنديق . وهو فارسي معرب . والزنديق : القائل ببقاء الدهر ، وزندقته انه لا يؤمن بالاخرة ووحدانية الخالق .
(٢٨) انظر اللسان زندق .
(٣٩) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ص/١٧٧ .
(٤٠) ظرفاء المتجد / ٧ - ٩ .
(٤١) الثعالبي / ١٧٧ .

لطيف البزة ، جميل الشكل ، ظاهر المروءة ، فصيح اللهجة وكان ابو نواس يعد فيهم :

وصيف كاس محدثه مليك

فيه مغن وظرف زنديق[٤٢]

ظرف العامة :

ولقد كان هذا الظرف الذي تحدثنا عنه يمثل الطبقة الارستقراطية في المجتمع لانه ظرف المترفين في القصور وتأثرت العامة بذلك فنشأ هناك ما يسمى بظرف العوام ونذكر هنا خبرا يمكن ان يعطينا ولو صورة بسيطة عن هؤلاء ويوضح الفرق بينهما جاء عن ابي الفرج الاصفهاني ان محمد ابن ذي السيفين ارسل طعاما الى (عريب) يوما فلما رأته امرت فانهب ، فارسلت إليه طعاما ، ورقعة فيها : يا عجمي يا غبي ظننت انني من الاتراك وحسرش من الجند ، فبعثت الي بخبز ولحم وحلواء ، يا فدتك نفسي قد وجهت اليك زلة من حضرتي فتعلم ذلك اخلاق العامة في الظرف فيزداد العيب والعتب عليك فكشف محمد المنديل ، فاذا طبق ومكبة من ذهب وفيه زبيبة فيها لفتان من رقاق قد عصبت طرفيهما وقطعتان من صدر دراج مشوي[٤٣] .

اثر الظرف في المجتمع البغدادي

لقد كان للظريفات خاصة والظرفاء عامة اثر في المجتمع البغدادي ، من بينهم الجواري فقد كان لهن بليغ الاثر في التمذهب بمذهب (الظرف) وتبلوره ، فقد تفنن الظرفاء في التقرب اليهن ، واخذ ظرفاء العوام يقلدونهن ، زد على ذلك ما لهن من الاثر السياسي في الدولة فقد برعت منهن شخصيات عرفت في الميدان السياسي وذلك برجاحة عقولهن وصواب آرائهن الى جانب اجادتهن الشعر والادب والغناء ، والمنطق .

وممن اشتهر من الجواري (ام المقتدر)[٤٤] فقد برزت وكانت صاحبة نفوذ وقوة ، وسلطة وبقيت في العصر العباسي الثاني ، ودام ذلك امدا .

وام المعتز[٤٥] : جارية رومية رائعة الجمال سميت (قبيحة) من باب تسمية الشيء بضده ، وكان المتوكل يفضلها على جواريه واصبحت بعدئذ سيدة البلاط العباسي . وكانت وفاتها سنة (٢٦٤هـ) بسامراء .

ومنهن القهرمانات (الحاكمات) اللواتي لهن ادوار سياسية كام موسى الهاشمية وحسن الشيرازية وزيدان الشيرازية ونظم فالاولى وصيفة ام المقتدر كانت تشرف على حبس رجالات الدولة قيل ان المستكفي كان عبدا لها[٤٦] .

والخيزران زوج المهدي وام الرشيد كانت ذات نفوذ وسلطان[٤٧] ؛ فاحشة الثراء سعت في قتل المهدي وتولية الرشيد مكانه .

وبذلك اصبحت الظريفات شغل المجتمع الشاغل مع الظرفاء ، وخاصة في قصور الخلفاء وتجلت مطارحاتهن ومعارضاتهن في الشعر وما وقع لهن من اخبار مع عشاقهن من الخلفاء والوزراء كان موضع اهتمام ادباء وكتاب العصر فسجلوا كل ذلك ، واختصت به مؤلفات تناقلتها اسفار مهمة من المظان المختلفة ؛ فقد الّت بكل طريف ظريف نذكر بعضها ، وقد احتوى بعضها على قسم من طرائف وملح الظرفاء :

رسالة القيان (ثلاث رسائل) للجاحظ .
اشعار النساء للمرزباني .
اخبار الظرفاء والمتماجنين لابن الجوزي .
المستطرف من كل فن مستظرف : للابشيهي
المستظرف من اخبار الجواري للسيوطي جلال الدين .
نساء الخلفاء لابن الساعي . تحقيق مصطفى جواد .
اخبار النساء لابن قيم الجوزية .
الاذكياء لابن الجوزي .
بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي صلاح الدين المنجد .
الموشى للوشاء .
اعلام النساء عمر كحالة .

ومن المعاصرين صلاح الدين المنجد في كتابه (الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس) .

وادب المرأة في العصر العباسي لواجدة الاطرقجي[٤٨] ومقالات الدكتور مصطفى

(٤٢) ديوان ابي نواس ص/٥١ ط. بيروت .
(٤٣) ظرفاء المنجد ص/٢٦ – ٢٧ .
(٤٤) انظر ابن الاثير في الكامل ١٣٩/٨ حوادث سنة (٣١١هـ) والمنتظم : ابن الجوزي ١٧١/٦ ، ١٧٢ – ١٨٥ .
(٤٥) اعلام النساء ١٨٢/٤ ، نساء الخلفاء / ٨٢ ، المستظرف /٥٧ .
(٤٦) الخلفاء والخلعاء / ١٧ .
(٤٧) المستظرف / ٢٤ .
(٤٨) رسالة دكتوراه لم تطبع بعد / ١٩٧٨ .

جواد والمنجد وغيرهم في المجلات . هذا وكل المراجع المذكورة في ثبت المراجع ، وغيرها مما لم تصل اليه ايدينا كثير .

ولمكانتهن والاعتزاز بهن كن يرثين ننقل اليك من قول ابي احمد يحيى بن علي المنجم يعزي ولد (اسحاق جارية المتوكل وام المؤيد والموفق) الموفق بوفاتها فيقول[٤٩] :

لقد اظلمت بغداد عند وفاتها
كاظلامها للشمس ساعة تغرب
فولت وولى الحمد يتبع نعشها
ويصدق من يثني عليها ويندب
وما مات من ابقى الامير ومن له
من الفضل ما يعتزى اليها وينسب
تقدمها اياك بعد بلوغها الـ
منى فيك ما كانت من الله تطلب
فقد اعطيت في ذاوذالك سؤلها
وباتت كما بات الحيا المتحلب
فاحسن عزاء وابق فينا مسلما
مفدى من الاسواء ترجى وترهب

وقد اعتزت الظريفات باسيادهن فرثينهن وهذه (تيماء) جارية ابي العباس خزيمة بن خازم النهشلي فقالت ترثيه[٥٠] :

ان ابا العباس خدن العلى
خزيمة البأس فتى الجود
والمتلف المخلف رب الندى
اودى فما جود بموجود
لئن حواه القبر ميتا فقد
تضيق عنه سعة البيد
كانه لم يغن يوما ولم
يعقد على الشم الصناديد

ولما ماتت (شاجي) وهي محسنة مبرزة متقدمةفي الغناء (ت ٣١٩)[٥١]ـ جارية علي عبيدالله ابن عبدالله بن طاهر ـ حزن عليها حزنا شديدا وانشد :

زرعت وشاجي بيتنا من شبيبتي
غراس الهوى فاعتم بالثمر العذب
فشاب بنو شاجي لظهري وادركوا
وشاب بنوهم وهي مالكة قلبي

وفي كثير من الاحيان كان الظريفات انداد يعارضوهن الشعر ويهاجونهن كالذي جرى بين ابي نواس ودنانير[٥٢] وما جرى بين العباس بن الاحنف وعنان فقد كان يهواها فجاء ابا جعفر النخعي يوما فقال : امضي بنا الى عنان ، فكانت كالهاجرة له فجلسا قليلا فابتدا العباس فقال :

قال عباس وقد اجهد في وجد شديد
ليس لي صبر عن الهجر ولا لدع الصدود
لا ولا يصبر للهجر فؤاد من حديد

فقالت عنان :

من تراه كان اغنى
منك عن هذا الصدود
بعد وصل لك مني
فيه ارغام الحسود
فاتخذ للهجر ان شئـ
ـت فؤادا من حديد
ما رايناك على ما كنـ
ـت تجني بجليد

فقال العباس :

او تجودين بصفح
عن اخي وجد شديد
داخي جهل بما كا
ن يجني من صدود
ليس من احدث هجرا
لصديق بسديد
ليس منه الموت ان
لم تصليه ببعيد

قال : فقلت : ويحك ما هذا الامر ؟ فقال : انا جنيت على نفسي بتتياهي عليها ، فلم ابرح حتى ترضيتها له .

الحب عند الظرفاء

الم تعلم فداك ابي وامي
بأن الحب من شيم الظراف

هذا البيت للشاعر محمود الوراق ، وقد ذكره الوشاء[٥٣] مشيرا الى ان الحب من صفاتهم ،

---

(٤٩) انظر المستظرف / ١٠ ـ ١١ ونساء الخلفاء / ٨٢ .
(٥٠) المستظرف / ١٦ ـ ١٧ .
(٥١) المستظرف / ٣٥ ، ونشوار المحاضرة ٦٣/١ ـ ٦٤ .
(٥٢) جارية اديبة ، شاعرة ، مغنية ، راوية للشعر والغناء . حكت لغناء ابراهيم الموصلي . اعلام النساء ٤١٧/١ والمستظرف / ٢٨ .
(٥٣) الوشاء ٥٩/١ والوراق هذا كان نخاسا يبيع الجواري .

وقد حفل ادب الظراف به . وللظرفاء حب ووفاء للاصدقاء قبل حب العشاق والمعشوقات فهم اوفياء اشد الوفاء . وهذا التزام لا خروج عنه عند الظريف وله حدوده المعقولة المطلوبة دون افراط واستهانة ، والنصوص شاهدة على ما ذكرنا شعرا ونثرا ومنها ان بعضهم سئل :

(اخوك احب اليك ، ام صديقك ؟ فقال : اخي اذا كان غير صديق لم احبه .)(٥٤) .

ولهم ملاحظات ذكية ، وحدود في حب الاصدقاء وقول الشاعر في انحب الصديق للصديق دون افراط جميل محبب ، مفضل ، حذر انكشاف الضد : دليل ذلك قول الشاعر :

فهونك في حب وبعض فربما
يرى جانب من صاحب بعد جانب(٥٥)

ولا ينكر ان حب الحبيب والمحبوب هو الجانب الذي طغى على ظرف الظرفاء فقد طغت عليه المشاعر ، واليه انست نفوسهم ، وانبعثت فيها كل انواع المسرة والعوامل كثيرة كنا قد ذكرناها من اول هذا البحث .

وفيما راى الوشاء(٥٦) انما هو اشارة الى مصاحبة عفة النفس وعدم التبذل والترفع عن الدنايا ، وهو حب لا يدعو الى ريبة ، ولا سيما وان كمال الظرف ان (يكون عن الحرام عفيفا)(٥٧)؛ ويبدو ان الوشاء وقد عاش عصر الظرافة وسجل لنا سننهم وشرائعهم التي لا تتجاوز ولكن الذي وضح لدينا ان النصوص الواردة والجزء الاول خاصة كان لظراف عشقوا واحبوا حبا عذريا عفيفا في زمن كان فيه ما يزال السلطان للدين قائما . ولكن الظريف لابد ان يكون قد عانى في هذا السبيل فهو لا يخلو من هوى ، (ولا يعرى من ضنى ، لان الهوى كما وصفه العلماء ، وكما قال فيه الحكماء: انه اول باب تفتق به الاذهان ، وتنفسح به الجنان، وله سورة في القلب ، يحيا بها اللب ..)(٥٨) .

ولقد اقر مسالة الحب والعشق عند الظرفاء ، ولكنه ابتعد بهم عن التبذل والترخص

(٥٤) نفسه .
(٥٥) نفسه .
(٥٦) ظرفاء المنجد ص/٢٨ ، وانظر قول ابن سيرين في الامتاع والمؤانسة ٢/٥٦ .
(٥٧) الوشاء ١/٥٩ .
(٥٨) نفسه .

وعدم الوفاء او السعي وراء لذة دنيوية مؤقتة ، نعم لقد هاموا عشقا :

بي اليأس او داء الهيام اصابني
فإياك عني لا يكن بك ما بيا

والهيام داء يأخذ الابل فتشرب فلا تروى ، ولم يكن ببعيد موت بعض العشاق بسبب هيامهم .

لان (العشق يحسن باهل العفة والوفاء ، ويقبح اهل العهر والخنا) ، وعاب على الظرفاء المتماجنين ومباذلهم ، لانه كما يقول : (ما وجدنا احدا من العرب يفعل ذلك ، وقد كان الواحد منهم يعشق من اول دهره الى آخره ، لا يحاول فسقا ، ولا يقرب رفثا(٥٩) .

اقول هنا ان الوشاء بصفته اول من كتب عن الظرفاء بهذا الشكل الموسع انكر المباذل واحسب ان عبارة ابن سيرين الواردة في كتاب الامتاع والمؤانسة نافعة بهذا الصدد حيث يقول : (كانوا يعشقون في غير ريبة وكان لا يستنكر من الرجل ان يجيء الى اهل البيت ثم يذهب ، قال هشام ، ولكنهم اليوم لا يرضون الا بالموافقة)(٦٠).

وقد حمل الوشاء(٦١) على القيان والجواري فقال : (اعلم انه لم يبتل احد من اهل المروءات ، والادب ، ولا امتحن سراة الفتيان ببلية هي اعظم من هوى القيان ..) .

اود ان اقف عند مقولة الوشاء هذه ومن شايعه الراي من معاصري هذه الحقبة ولم يثبتوا عنده بل سرعان ما خالفوا ما ذكروا ، والجاحظ منهم(٦٢) فاقول :

١ – ان الجواري والقينات كانت مهماتهن بقدر ما وجهن اليه ودربن عليه مثل حفظ الشعر والمطارحة والغناء ، والتزين واظهار الغنج وما يلحق به .

٢ – انهن على ما بدا لنا قد وقعن فريسة بيد النخاسين ومن هم دون ذلك .

٣ – انهن وما بنين من العلاقات المستهجنة وما اخذ عليهن من الممارسات لهن دور مبادلة طرف آخر .

(٥٩) انظر في هذا الموضوع الوشاء ١/٩٩ .
(٦٠) التوحيدي ٢/٥٦ .
(٦١) الوشاء ٢/١١٦ .
(٦٢) ثمار القلوب ص/٤٩٠ . ورسالة القيان للجاحظ ص/٨٢ .

٤ – لقد وقعن – في الغالب – تحت قهر وضغط من ملكهن من الاسياد . وهذا لا يحتاج الى بيان لان النصوص الادبية والتاريخية شاهدة عليه وهي كثيرة .

٥ – وحقيقة اخرى اسوقها هنا وهي : انهن لم يكن عربيات .

اضيف الى ما ذكرت ان روح العصر ، وتفتحه ، وظروفه الثقافية والاجتماعية توحي للباحث وتبدي له ان الكلام عن الجنس والتحدث بذلك كان مباحا لا يتحرج منه بدليل النصوص الكثيرة الظريفة الشعرية وغيرها . والمتداول منها في مجالس السمر ، والندمان والشرب اكثر ، مما يجعلنا نقول ان ما نستهجنه اليوم في التحدث بمثلها كان يجري جريانا طبيعيا ويأخذ طريقه في حياتهم .

ومن الجواري من لم يُعدمْنَ اخلاصا ووفاء : فهذه (دنانير) ابت على الرشيد ان تغني بعد نكبة جعفر البرمكي فغضب الرشيد وصفعها وجعلها تقيم على رجليها ، واعطيت العود فاخذته وهي تبكي أمرَّ البكاء واندفعت تغني :

يا دار سلمى بنازح السند
بين الثنايا ومسقط اللبد
لما رأيت الدار قد درست
ايقنت ان النعيم لم يعُد

فرق لها الرشيد وامر باطلاقها .

ثم التفت لابراهيم بن المهدي فقال : كيف رايتها ؟ فقال رايتها تختله برفق وتقهره بحذق . خطبها عقيل مولى صالح بن الرشيد والح فلم تجبه .. واقامت على الوفاء لمولاها فكتب لها عقيل :

يا دنانير قد تنكر عقلي
وتحيرت بين وعد ومطل
شفني شانفي اليك والا
فاقتليني ان كنت تهوين قتلي
انا بالله والأمير وما
آمل من موعد الحسين وبذل
ما احب الحياة يا اخت ان لم
يجمع الله عاجلاً بك شملي

ووفاء (محبوبة)[٦٤] جارية المتوكل التي نسبت دون الجواري حتى توفى المتوكل واقامت في بغداد على وفائها له حتى ماتت .

ووفاء (هند)[٦٥] جارية ابي محمد بن مسلمة الشاطبي الكاتب التي ظلت على وفائها للفتح بن خاقان ورثته بقولها :

قلت للموت حين نازلَهُ
والموت مقدامةٌ على البُهُم
لما تبيّنتُ ما فعلت إذن
قرعتُ سنًا عليه من الندم
فاذهب بمن شئت إذ ذهبْتَ به
ما بعد فتحٍ للموتِ من ألمِ

ولم تزل تبكيه وتنوح عليه حتى ماتت .

وفي اخبار النساء ووفائهن روى ابن قيّم الجوزية[٦٦] هذه الرواية : (قال الاصمعي : قال الرشيد : امض الى بادية البصرة فخذ من تحف كلامهم وطرف حديثهم . فانحدرت ، فنزلت على صديق لي بالبصرة ، ثم بكرت انا وهو الى المقابر ، فلما صرت اليها اذا بجارية نادى الينا ريح عطرها قبل الدنو منها ، عليها ثياب مصبغات وحلي ، وهي تبكي احر بكاء . فقلت : يا جارية ما شانك ؟ فانشأت تقول :

فان تسألاني فيمَ حزْني ؟ فانني
رهينة هذا القبرِ يا فتيان
اهابك اجلالاً ، وان كنت في الثرى
مخافةَ يوم ان يسؤك مكاني
واني لاستحييكَ ، والتربُ بيننا
كما كنت استحييك حين تراني

فقلنا لها : ما راينا اكثر من التفاوت بين زيك وحزنك فاخبري بشانك ؟ فانشأت تقول :

يا صاحب القبر ، يا من كان يؤنسني
حيًا ويُكثر في الدنيا مواساتي
ازور قبرك في حلي وفي حُلَلِ
كانني لست من اهل المصيباتِ
فمن رآني ، رأى عبرةً مفجعة
مشهورة الزيّ تبكي بين امواتِ

---

(٦٣) اعلام النساء ١/١٨ – ١٩ .
(٦٤) انظر المستظرف ص/٦٧ .
(٦٥) المستظرف ص/٧٤ .
(٦٦) ص/١٢٦ – ١٢٧ .

فقلنا لها : وما ألرجل منك : قالت بعلي ، وكان يحب أن يراني في مثل هذا الزيّ ، فآليت على نفسي ان لا اغشى قبره الا في مثل هذا الزيّ لانه كان يحبه ايام حياته وانكرتماه عليّ) .

ولما سمع الرشيد خبرها خطبها من اهلها وحملوها الى الرشيد وهي لا تعلم ثم علمت الخبر فشهقت شهقة فماتت .

وفيه أيضا[67] عن ابي بكر الانباري ـ اللغوي المشهور ـ عن ابي اليسر قال : دخلت منزل نخاسي لشراء جارية ، فسمعت في بيت بازاء بيت جارية تقول :

وكنا كزوج من قطا في مفازةٍ
لدى خفض عيشٍ معجب مونق رغد
اصابهما ريب الزمان فافردا
ولم ار شيئا قطُّ اوحش من فرد

فقلت للنخاس : أعرض عليَّ هذه المنشدة .
فقال : انها حزينة . قلت : ولم ذلك ؟ قال اشتريتها من ميراث ، فهي باكية على مولاها ثم لم البث ان انشدت :

وكنا كغصني بانة وسط دوحة
نشم جنا الجنات في عيشةٍ رغد
فافرد هذا الغصن من ذاك قاطع
فيا فردة باتت تحن الى فرد

قال ابو السمراء : فكتبت الى عبدالله بن طاهر (قائد وسياسي وشاعر) فكتب اليَّ : ان الق عليها هذا البيت ، فان اجازته فاشترها ولو بخراج خراسان . والبيت :

قريب صدٌ ، بعيد وصلٍ
جعلت منه لي ملاذا

فقالت مسرعة :

فعاتبوه ، فزاد شوقا ،
فمات عشقا ، فكان ماذا

قال ابو السمراء : فاشتريتها بالف دينار وحملتها اليه ، فماتت في الطريق فكانت احدى الحسرات .

وكانت الجارية (ريم) قد احبت (اشجع بن عمرو السلمي)[68] وكان يبادلها اياه ويجد بها وجدا شديدا . وكانت تحلف له انها ان بقيت بعده لم يحكم عليها رجل ابدا فقال يخاطبها :ـ

اذا غمضت فوقي جفون حفيرة
من الارض فابكيني بما كنت اصنع
تعزيك عني بعد ذلك سلوة
وان ليس فيمن وارث الارض مطمع

فاجابته ريم تقول :ـ

ذكرت فراقا والفراق يصدع
واي حياة بعد موتك تنفع
اذا الزمن الغدار فرق بيننا
فمالي في طيب من العيش مطمع
فلو ابصرت عيناك عيني ابصرت
شآبيب جدر غيثها ليس تقشع

وقال فيها ايضا[69] :

وليس لاخوان النساء تطاول
ولكن اخوان الرجال يطول
فلا تبخلي بالدمع عني فان مَنْ
يضن ، بدمع غير ذا لبخيل
فمالي الى برد الشبيبة حيلة
ولا لي الى دفع المنون سبيل
وان لداتي قد مضوا لسبيلهم
وان بقائي بعدهم لقليل

فاجابته ريم :ـ

بكى من صروف خطبهن جليل
ومن ذا به عُمرُ الحياة يطول ؟
ومَنْ ذا الذي ينعى على حدث الردى
وللموت في اثر النفوس رسول
وكل جليلٍ سوف يلقى حمامه
وكل نعيم دائم سيزول
لي الويل ، إن عمّرت بعدك ساعة
وان كثير الويل لي لقليل
وتزعمُ اني لا اجود بعبرة
اذا نجمُهُ قد حان منه افول

(٦٧) اخبار النساء ص/١٢٧ ـ ١٢٨ .

(٦٨) من بني سليم . انظر طبقات ابن المعتز ص/٢٥١ ـ ٢٥٢ .
(٦٩) انظر اخبار النساء ص/١٤١ ـ ١٤٢ .

ومَنْ ذا الذي ابكي له ، إن فقدته
سواك ، ومن دمعي عليه يسيل
فلا وقيت ريم ، إذا ، ما تخافه
اذا ناب خطبٌ للزمان جليلُ
ولا لقيت يوم القيامة ربها
وميزانها بالصالحات ثقيل
إذا ما سخا قلبُ امرئٍ بمودة
فقلبي بودٍ عن سواك بخيل

ولما مات اشجع ، آلت على نفسها ان لا تاكل طعاما ، ولا تذوق شرابا ، فعاشت بعده اياما ثم توفيت ودفنت الى جانبه .

وما ورد من امثال ذلك كثير في مظان الكتب التي تحدثت عن وفاء النساء ونكتفي بما ذكرنا ، ولعله يفي بالغرض .

وقد جاء في النصوص التي اوردها الوشاء ما يشير او يرد على الوشاء قوله السابق في القيان منها الابيات الآتية :

زعموا خلة القيان غرورٌ
كلُّ زَعْمٍ من القالة زور
قَسَماً للقيان بالعهد اوفى
من جوارٍ تضمهن الخدودُ
انما زخرف المفاليس هذا
حين قلّت صحاحهم والكسورُ
اهلُ هذا الزمان اطرى من الآ
سِ وكلٌّ مموهٌ مستورُ

ولا ينكر ان دواعي الظرافة والحب في بغداد زمن العباسيين كانت كثيرة ، فقد حفل العصر بكل مظاهر الحضارة ، فن وادب وعلم وتانق وجمال ، وجوار حسان وترف عيش ، ثم صار مغالاةً في التزين والتانق ظهر على رقة الناس في خلقهم وظرفهم مما لا يخطر ببال في العصور الاسلامية السابقة .

ولكن الذي وجدنا فيما اطلعنا عليه البحث من سيرة الظرفاء والظريفات ان فيهم غالبية تبذلت في الحب في زمن انطلاق وحرية وترف عيش ، ولربما كان بعضها يقتصر على التعبير عن مواقف كان القصد من ورائها حسن المجالسة ، واللطف والمجاملة بسبب روح التحضر ، والثقافة التي سادت بغداد وعواصم الدولة العباسية الاخرى وما تهيأ من أسباب الاختلاط بعادات شعوب اخرى والفارسية ، خاصة ، والا فبِمَ تعلل النقول الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى مما ذكرته كتب الاخبار والتاريخ ، والادب والفن واخبار النساء وادبهن !!

والذي بدا لنا ان ادب المراة(٧٠) (الجواري والقيان) وان بدا عليه المجون في قسم منه فهو من المصادر التي شاركت في ادب العصر آنذاك وازدادت مع توغل الحضارة وكان له الاثر الكبير في تظرف المجتمع البغدادي .

والى جانب ما ذكرنا فقد كن عاملا مهما في الاحساس الفني ونشر الشعور به وبذلك ساعدن على بعث حركة فنية في الغناء والتصوير والرقص . فالتجمل والتانق في الملبس وتزيين الوجه والتفنن بتسريح الشعر وما يلحق ذلك من ادوات الزينة والحلي يبعث على الاحساس بفن التجمل . وقد تمتعت كثير منهن باصوات جميلة كعريب وفريدة ودنانير وغيرهن . وبذلك بلغن غاية في الملاحة والظرف والفن .

وفي صفة العاشق من الظرفاء ذكر قول المأمون في ابراهيم المهدي(٧٢) :

وجهُ الذي يَعْشَقُ معروف
لأنّهُ اصفرُ منحوفُ

والعرب تمدح الضُمْر وتذم السِمن ، وتنسب اهل النحول الى المعرفة والادب ، واهل السمن الى الحمق والفدامة وقلة الفهم(٧٣) .

وفي ذكر علامات العشق والتوله بالمحبوب ، قال الوشاء(٧٤) انشدني بعض الادباء ولم يذكر اسمه :

علامة من كان الهوى في فؤاده
إذا ما لقي احبابَهُ يَتَحيّرا
ويصفرُّ لون الوجه بعد احمراره
فان حرّكوه للكلام تَشَوّرا

ويحسن هنا ان نذكر ابيات ابن الرومي ابي الحسن في وصف ما يختلج نفس العاشق إذ يقول :

---

(٧٠) الوشاء ١٢٧/٢ .
(٧١) ادب المراة في العصر العباسي ص/٢٣٦ .
(٧٢) الموشى ٦٣/١ .
(٧٣) اخبار النساء ٦٢/١ .
(٧٤) الوشى ٦٦/١ .

ارى ما بي عطش شديد
ولكن لا سبيل الى الورودِ
اما يكفيك انك تملكيني
وان الخلق كلهم عبيدي
وانك لو قطعت يدي ورجلي
لقلتُ من الهوى احسنتِ زيدي

وقال ابن الرومي في فتاة(٧٥) :

غيداء من ماء الشباب الاغيد
كانما ترنو بعيني فرقد
تضرب متنيها بوحف اسود
دافعتها فما التقتني باليدِ

وقد تطارح الظراف والظريفات الشعر في مجالس اللهو والطرب متغزلات متوجدات . ومنه قول عنان :

وما زال يشكو الحب حتى رايته
تنفس في احشائه وتكلما

قالت :

ويبكي فابكي رحمة لبكائه
إذا ما بكى دمعا بكيت له دما

وجرت معارضات بين الشواعر والشاعرات الظريفات نورد منها هنا :

ما ذكره ابن الجوزي(٧٦) : قال العتبي : سمعت الفضل بن ابراهيم يقول : مرّ شاعر بنسوة فاعجبه شانهن فجعل يقول :

إنّ النساء شياطين خلقن لنا
نعوذ بالله من شر الشياطين

قال فاجابته واحدة منهن تقول :

إن النساء رياحين خلقن لكم
وكلكم يشتهي شم الرياحين

وقد عشق اكثر العرب(٧٧) وكتبوا في ذلك اروع المعاني والطف الشعر وارقه وفي عصر الظرافة والتظرف في بغداد كان منهم كثير ، وممن

(٧٥) الظرفاء ص/٥٠ .
(٧٦) الاذكياء ص/٢٢٠ ، بيروت .
(٧٧) ذكر الوشاء ٦٩/١ انه افرد كتابا لذكر العشاق والمتيمين واخبارهم وملحهم واشعارهم وصفاتهم اسماه (المقتفي) ولا ندري ما تزال نسخه موجودة ام لا .

عرفوا به العباس بن الاحنف عشق (فوز) وابو العتاهية عشق (عتبة) وابو الشيص عشق (امامة) :

ومن قول (قبيحة)(٧٨) بخط (فضل) في هذا الباب(٧٩) :

لاصبرنّ على ما بي من المَضض
حتى اموت ولا يَشعُر بي الناس
ولا يقال شكا من كان يعشقُهُ
إنّ الشكاة لمن يهوى هي الياس
ولا ابوح بسرّ كنت اكتمه
عند الجليس اذا ما دارت الكاسُ

والحب فيه عند الظرفاء مرارة وحلاوة وهو مع ذلك مستحسن عندهم قال الكميت بن زيد(٨٠) :

الحبُّ فيه حلاوة ومرارة
سائل بذلك من تطاعمَ او ذاقِ
ما ذاق بؤس معيشةٍ ونعيمها
فيما مضى احدٌ اذا لم يعشقِ

وقد ادلى الجاحظ بدلوه في حب القيان والاماء فقال : انما هو (طمع وعرض)(٨١) ، ولكنه عاد في موضع آخر الى اقرار بالواقع فذكر : (وليس هذا مما يُذم لهن ولكنه من فرط المدح ، فليس بحسن هاروت وما روت ، وعصا موسى ، وسحرة فرعون الا دون ما يحسنّه)(٨٢) .

والعبارة فيها بيان كبير لا تحتاج الى تفصيل .

وقد قال بعض الظرفاء في ذم هوى القيان :

فهذه فضل تقول(٨٣) :

يا حسَن الوجه سيءَ الادب
شِبتَ وانت الغلام في اللعب
يا وَيْل ان القيان كالشرك الـ
منصوب بين الغرور والعطب

(٧٨) هي ام المعتز جارية المتوكل وزوجه . عاقلة ، فاضلة . شاعرة سميت قبيحة لشدة جمالها توفيت ٢٦٤ للهجرة .
(٧٩) ستاتي ترجمتها في (ادب الظرفاء) .
(٨٠) الوشاء ٨٧/١ .
(٨١) الوشاء ١١٦/٢ .
(٨٢) رسالة القيان للجاحظ ص/٦٣ .
(٨٣) الوشاء ١٢٢/٢ .

وقول احمد بن غزال لنفسه[٨٤] :

اذا تعرّضت للقيان
فمثّل الفقر بالعيان
واعزم على فلة اسافا
امضُ من طعنة السنان

وابيات اخرى كثيرة .

ويبدو ان الظرفاء فضلوا حب الجواري من غير الاماء المقدّمات[٨٥] على القيان كثيرا لاننا لم نجد من النصوص في ذم حب الجواري فيما وقعنا عليه ما بلغ من التعرض والانتقاد كحب القيان والاماء فانه كثير ونصوصه الشعرية كذلك .

والذي يبدو فان التدرج من البساطة الى التكلف ومن الاناقة الى التانق رافقه تحول من الظرافة الى التظرف والحرية والانطلاق ولقد كان خلفاء بني العباس كلهم[٨٦] يحيون مجالس المنادمة والطرب والغناء . وان تباينوا نسبيا ، وكانت القيان يدخلن متزينات الى الدواوين وليس هناك من منكر ولا عائب[٨٧] . وشاعت الزينة والتزويق في كل شيء .

ولذا يمكن القول ان من بين هؤلاء الظراف من التزم بسنن الظرافة الاولى او في بدايتها ونشوئها واختار البعض الآخر الانغمار والانغماس فيما هيأ له العصر من ملذات وغلب عليه ذلك فلم يقنع بالبسمة والنظرة والحديث والنجوى فتحوّل الى القبلة واللهو والاجتماع في النوادي والمقاصف، والادبرة متنادمين سامرين ساهرين شاربين عابثين ولسان حالهم يقول[٨٨] :

وكلنا من طرب
يطير او يكاد
ولهونا لذيذ
لم تلهُه العباد

(٨٤) الوشاء ٢/١٢٢ .
(٨٥) الجارية : الشمس والسفينة : واستعير مجازا الى الجواري من النساء / اللسان / جرى القينة : العبدة والامة غنت ام لم تغني ، ويقال في جمعها قيان وقينات اللسان : قين .
(٨٦) التاج في اخلاق الامم والملوك ص/٢٢ - ٢٨ .
(٨٧) رسالة القيان ص/٦٢ .
(٨٨) ظرفاء المنجد ص/٣٩ .

ومنه : ما جرى بين حماد وسعاد[٨٩] :

قبّليني سعاد ، بالله قبلة
واسئليني لها ، فديتك ، نحله

فيدفع حماد سعاد هذه ، ويقول :

فاجيبي وانعمي وَخذ البد
ل واطفي بقبلة منك نحله

ومما ذكره الاصفهاني[٩٠] :

كان لابي الشيص[٩١] جارية سوداء اسمها (تبر)[٩٢] وكان يعشقها وفيها يقول :

لم تنصفي ياسميّة الذهب
تتلف نفسي وانت في لعب
يابنة عم المسك الذكي ومن
لولاك لم يتخذ ولم يتطيب
ناسبك المسك في السواد وفي الري
ح فاكرم بذال من نسب

وكان الشاعر ابن المعتز من بين الشعراء الذين انطلقوا او فازوا باللذات وعبروا عن مشاعرهم في ذلك .

اذ يقول :

لقد كان دأبي جنة اللهو والصبا
وما زلت باللذات والعيش لعابا[٩٣]

ولقد سحر الحب هذا الامير وصرعه الهوى والشباب . ولصريع الغواني : مسلم بن الوليد دلاء ذكرها لا يتسع له المجال نذكر قليلا من قوله :

هل العيش إلاّ ان تروح مع الصبا
صريع حُميّا الكاس والاعين النجل[٩٤]

وله ايضا :

ان شئت غاداني صبوح من الهوى
وان شئتُ ما ساني غبوق من الخمر

(٨٩) ظرفاء المنجد ص/٤٠ .
(٩٠) الاغاني ٢٠/٢٢٠ - ٢٢١ .
(٩١) محمد بن رزين ويكنى بابي جعفر ، وقد عاصر ابا نواس . الاغاني ٢٠/٢١٩ ، اعلام النساء ١/١٦٤ .
(٩٢) اعلام النساء : ١/١٦٤ .
(٩٣) ديوانه / ٩ . الظرفاء ص/٤١ .
(٩٤) الظرفاء ص/٤٢ .

وعريب لها في هذا الشعر ضلع كبير فقد قيل فيها(٩٥) :

قاتل الله عريبا
فعلت فعلاً عجيباً
صبرت حتى إذا ما
اقصد النوم الرقيبا
فتدلت لمحب
فتلقاها حبيبا
جذلا قد نال في الد
نيا من الدنيا نصيبا

وقول مسلم بن الوليد(٩٦) :

إنّ ورد الخدود والاعين النجـ
ـل وما في الثغور من اقحوان
واسوداد الصدغين من واضح الخـ
ـد ، وما في الصدور من رمان
تركتني لدى الغواني صريعا
فلهذا ادعى : صريعَ الغواني

وفي قصور الخلفاء والوزراء كانت دواعي الحب واللهو كثيرة لدى الظرفاء مما جعلهم يولعون بالاقبال عليها اكثر فقد لونت الحياة امامهم وبدت لهم بحلة قشيبة مغرية فاقبلوا يردون من مناهل البهجة ما شاءوا وقد تعلقت بذلك مظاهر كثيرة تبدو ليست جوهرية ولكنها ذات اثر فعال في الظرفاء البغداديين نذكر منها .

ازياء الظرفاء :

(احسن الزي عندهم ما تشاكل وانطبق وتقارب واتفق)(٩٧) . هذا يعني ان لهم ذوقا فيما يلبسون ، وانهم متمدنون متحضرون ، ذلك ان ، انسجام الالوان وعدم تنافرها يوحي للناظر راحة في النفس وطمانينة ، وهو دليل اناقة وحس ذواق سليم وميل فني .

والرجال من الظراف يلبسون من الالوان نقيها ناعمتها ، مثل الدبيقي . منسوب الى دبيق قرية من دمياط بمصر(٩٨) وهو المنقل من الثياب ، والغلائل وهي شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع(٩٩) والسفاق الكثيف . ودراريع البَرْدَجِرْد هي بلدة بين الكرخ وهمدان والاردية المحشاة المدنية ، والجباب والطيالسة النيسابورية والاكسية الفارسية الخزوز الكوفية وكل ما اشبه ذلك وقاربه(١٠٠) .

وفوق هذا فهم نظيفون وهذا عنوان الظريف ودليل مظهره الانيق اذ لا يلبسون من الثياب المغسول الوانها بل النقية الصافية غير مصبوغة بالزعفران ولا مغموسة بالطيب لان هذا من لبس القيان والاماء .

وهم يلبسون من النعال الزيجية والمشمرة اليمانية والمختمة بالخفاف وبشرك فيها الاسود بالاحمر والاصفر بالاسود ، والجوارب الخز المرعزي والقز ويعيبون لبس الاحمر منها .

ومن النعل يلبسون الابريسمية والخزية ، ومن المطارف القطنية والمنقوشة الاردنية .

ويتختمون بالعقيق الاحمر ، والفيروزج الاخضر ، والفضية المحرقة ، واليمانية السود . والمضروبة المتوكلية . ولا يتختمون بالذهب لانه من لبس النساء ، والصبيان والاماء .

ويتعطرون بالطيب والمسك المسحوق المحلول بماء الورد . ويستعملون العود المعنبر بماء القرنفل والعنبر البحراني والكافور المحرق المخلوط بعبير المسك ويتجنبون طيب النساء .

ولا يستعملون من الطيب ، ما كانت رائحته شديده السطوع .

ولهم في اساليب اكلهم نظام خاص فكانوا ، يتبعون نظام الاطباق كل لون في صحفة خاصة ويرفع الطبق ، ويؤتى بغيره . وقد اترفوا في استعمال الملاعق حتى كانت من الفضة البلور . وقد تكون من الزبرجد(١٠١) ولا تستعمل الا في لقمة واحدة .

ولموائدهم كما يبدو آداب واصول فاذا قاموا الى الطعام غسلوا ايديهم بالماء والطيب ، وربما مسحوها بالادهان العطرة لئلا يتمكن الزفر من مسامها . وهم لا يضحكون ولا يثرثرون في اثناء الطعام ، ويصغرون لقمهم ويبعدون عن الشره والنهم . ولا ياكلون القديد ولا يتبعون مواضع الدسم ولا يمششون (يمصون) العظام ولا يلطمون

---

(٩٥) الظرفاء ص/٤٣ .
(٩٦) الظرفاء ص/٤٣ .
(٩٧) الوشاء ١٦١/١ .
(٩٨) معجم البلدان ٥٢٨/٢ طهران .
(٩٩) انظر نشوار المحاضرة الجزء الاول .
(١٠٠) الوشى ١٦٠/١ – ١٦١ .
(١٠١) قال الجاحظ في التبصرة ص/١٤ : خير الزبرجو ، الشديد الخضرة الصافي .

اصابعهم ولا يمجلسون في مضغهم ، ولا بجانبي الشدقين ، ولا يجاوزون ما بين ايديهم ولا ياكلون شيئا من الكواريج والصحناة (السمك الصغير المملوح) ، ولا شيء من الكواميخ (المخللات من الطعام) ؛ وقد تأكل ذلك المتظرفات ولا ياكلون في النهار اكثر من اكلة ، ولا يتحفزون لمجيء المائدة قبل ان توضع ولا يكثرون من اكل النقل(١٠٢) . ويتجنبون الاكل البارد كالفجل والحرف والكراث والهندبا (بقل يؤكل) . ولا ياكلون ما يغير لون الاسنان او ما يحدث رائحة وتغيير كالثوم والبصل .

ومن الفاكهة يأكلون انواعا كثيرة من التمر كالارطاب ؛ والمشمش والنبق والعناب والخوخ والاجاص .

وكان الخلفاء والظراف يحلون موائدهم (بالبزماورد)(١٠٣) اي لقمة الخليفة كما كان يسمى في العصر العباسي ولقمة القاضي .

والبزماورد يتخذ من اللحم والبيض في بغداد وذكر الجاحظ(١٠٤) انه مما يُعجب به اهل خراسان ويتخذونه من فراخ الزنابير .

ويرغبون في السكباج ويسمونه مخ الاطعمة ، وسيد المرق يؤكل حارا وباردا ويتزود منه في السفر . وفي الشتاء والصيف .

وكان السمك مرغوبا فيه وكبود الدجاج كذلك(١٠٥) .

زي الظريفات(١٠٦) :

اما زي الظريفات فالحديث عنه يطول نجتزيء بعضه من بعض فنذكر انهن لا يقلّن اناقة وترفا وظرفا في لبسهن بل كان ما يلبسن مميزا عن الظرفاء في اللون والنوع فمن الالوان الاسود والاصفر وما لا يصبغ الا ما ازرق واخضر ، والمورّد والاحمر ، يتخذن ذلك من الحرير والقز والديباج .

والحمرة والسواد والزرقة عندهم من لبس الارامل والحداد والاحمر عندهن دليل الفرح والسرور .

ويلبس الاردية الرشيدية . والغلائل الدخانية والعصب الملون والحرير المعين الوشى بالذهب قيل ان (زبيدة) كانت تلبسه . ومن السراويل يلبسن الطويلة البيضاء ؛ والكمام المفتوحة . ويتمنطقن بمنطقة من ذهب ، وبعضهن يتنقبن ، قيل ان (متيّم)(١٠٧) الهاشمية لا تخرج الا متنقبة وانها اول من عقد من النساء في طرف الازار زنارا وخيط ابريسم .

وما تنقله وتصفه المراجع من زركشة الالوان وحسن صنيع اللابس يوحي بصور فنية جميلة فكن ينقشن عليها ابياتا شعرية يخترنها ولهن مراد من ورائها .

ومما زاد ظرفهن ظرافة انهن تفنن في انواع الملابس ، فقد لبسن العصائب وكانت آية في الفن والنقوش وكتابة رقيق الغزل والتوجد ، عليها . وكانت (علية) بنت المهدي ، قد ابتدعت هذه البدعة الحسنة فقد كان في جبينها فضل سعة تسمج به فاخفته بلبس العصائب المكللة بالدر والجوهر ، فقلدتها الظريفات في ذلك فصار تقليدا (تقليعة وموضة مما يدعوه الناس اليوم) وينقش عليها الشعر وينثر اللؤلؤ ، وانواع حجوم الدرر وغيره .

حدّث علي بن الجهم قال : حضرت مجلس الظرفاء فخرجت علينا جارية كانها تمثال ، وعليها عصابة قد ارسلت طرفين في صدرها مكتوب :

من يكن صباً وفيّاً
فزمامي في يديه
خد مليكي بعناني
لا انازعك عليه

فوثب ابن الجهم حتى اخذ بطرفي العصابة وقال : انا والله صبّ ، واوفى خلق الله لحبّ(١٠٨) .

وكتبت اخرى على وشاح(١٠٩) :

اغيب عنك بودّ لا يغيره
ناي المحل ولا صرف من الزمن
تعللْ بالشغل عنا ما تكلمنا
الشغل للقلب ، ليس الشغل للبدن

---

(١٠٢) انظر الديارات ١٦٧ – ١٧١ ، وقد اورد الوانا كثيرة .
(١٠٣) الحيوان ٢/٤٢ ، شفاء الغليل / ٩٨ .
(١٠٤) الخلفاء والخلعاء (ماكل الخلفاء) ص/٨١ .
(١٠٥) ثمار القلوب ص/٢٩٠ .
(١٠٦) الوشاء / ١٦٢ – ١٦٣ ، وظرفاء المتجد ٥٢ – ٥٤ .
(١٠٧) المستطرف ص/٦٢ .
(١٠٨) الظرفاء ص/٥٨ .
(١٠٩) الظرفاء : ٥٩ .

وعلى طراز الرداء[110] :

أقل النـاس في الدنيـا نصيبا
مُحِبٌ قـد نأى عنـه الحبيب

واتخذن القلانس والتيجان ونقشن عليهـا ابياتا من الشعر ايضا وصفن التيجان من الذهب على شكل نرجس مشـوب بالفضـة . كتبت (عَنَل) على قلنسوة من ديباج[111] :

ما يَمَلُّ الحبيبُ طول التجنّي
لبلائي بـه ، ولا الصدّ عني أ

ولبسن الزنانير والنعال والخفـاف ونقشن عليهـا طرائف . كتبت (طريفـة) على نعلهـا بالذهب[112] :

لم الق ذا شجن يبوح بحبّـه
إلا حسبتـك ذلـك المحبـوبا
حـذراً عليـك ، وانني بك واثق
الا ينال سـواي منك نصيبـا

وقد افتنن في تصفيف شعورهن وتسريحها وترجيلهـا وكن يضعن المسك والعنبر ، ولهـن وصيفات تزينهن وتمشط شعورهن . وجدائلهن كن يتركنها تتدلى على اكتـافهن . وهؤلاء هن (الغلاميـات) . وقـد رؤي المأمون بـوم الشعانين[113] ؛ وبين يديه عشرين وصيفة مزنرات تزين بالديباج وزر من الاصداغ فقال احمد بن صدقة فيهن :

ظبـاء كالدنانيـر
مـلاح في المقاصيـر
وقـد زرفن اصداغا
كأذناب الزرازير[114]

وربما جممن شعورهن كالجمة السكينيـة نسبة الى سكينة بنت الحسين ـ اي جممنه الى الخلف ـ وكانت العباسة اخت الرشيد تفعـل ذلك ، وهو مستملح . وقد يجعلن الجمة مرصعة بالماس والزمرد .

اما الطيب فقد تطيبن بانواع منه كثيـرة منها : العطور البرمكية وعطور الازهار كالزنبـق والبنفسج ولا يتعطـرن بعطـور الظرفاء مـن الرجال . ولهن الزعفران والقرنفـل والكافـور وعطور الورد[115] .

اما الحلي فهي من الجوهـر والدر ومخانق القرنفل تجلب اليهن من كل حـدب وصـوب . والقلائد الذهبيـة . واللؤلؤ والحب الاصفـر ، واصناف الياقوت[116] .

اما الخواتيم فمن الماس والعقيق ولا يصنعنها من الفضة . وكانت تقدم اليهن الهدايا ما غلا منها ، ويتقرب بها اليهن ؛ الخلفاء والظرفاء ، من الجواهر وانواع غريبة من الحلي والجواهر فقـد اشترى الرشيد جوهرا بمائتي الف دينار لدنانير البرمكية لاسترضائها .

واغضب الواثق (فريدة) فاسترضاها بحُقّ فيه عقد جوهر ما رؤي مثله لخليفة[117] .

اما الازهار فقـد اهتممن بهـا وفضلنها ، وتزين بها فجعلنها اكاليل ، وقد اعجبن بالبنفسج، والورود خاصة ، يؤثرنه على غيره من كل ريحـان وطيب واعجبت (متيّم) بالبنفسج حتى انها من شدة اعجابها ، كان لا يخلو من كمها ؛ وافرطوا في نعت انواع الورود ووصفهـا وتهادوهـا وزهت مجالسهم بها ، وغطيت برك قصور الخلفاء بهـا في اوقات الاعراس والافراح ، وتزيين البيوت بهـا وعنوا بالورد عناية خاصة وشبهوا الخدود بـه . قال الشاعر (وهـو خالد بن يزيد الكاتب المتوفى ـ ٢٦٢هـ) :

عشـيـة حَيَّـاني بوردٍ كأنـه
خـدود أضيفت بعضهن الى بعض
وولى وفعل الخمـر في حركاتـه
فمال نسيم الريح بالغُصُن الغض

وقال آخر :

يضحـكُ الوَرْدُ الـى وَرْ
دٍ بخـدَّيك مُقيـم
جَمَعَـا شـكلين وَقْفَيْـ
نِ لالحـاظِ النـديم
غيـر انّ المسـك أولـى
بك في كـل نسـيم

(110) نفسه .
(111) نفسه .
(112) الظرفاء ص/٦٠ .
(113) عيد من اعياد النصارى .
(114) الظرفاء ص/٦٢ .
(115) ادم متز الحضارة الاسلامية ٢/٣٠٥ .
(116) انظر الجماهر في معرفة الجواهر : البيروني . ص/٣٢ .
(117) المحاسن والمساوىء ٢/٥٤٢ .

وتطيّر بعضهم . قال الوشاء : (خبرت أن قينة اهدت الى ربيط لها غصن آس، فسر بـه فقال :

والآس يبقى وان طال الزمان بـه
والوَرْدُ يَفْنى ولا يبقى على الزمن

واهدت له وردا فتطير منه وقال :

انت وردٌ وبقاء الـ
ورد شهرٌ لا شهور
يذهب الوردُ ويَفنى
والى الآس نصير

فكتب اليه بعض اخوانه :

وسُرّ بالآس الذي اهدت لـه
ثم لما اهدَتِ الوردَ جَزِع
ذاك انّ الاسَ باقٍ دائمٌ
ولان الوردَ حيناً ينقطع

والسواك استعملوه لتنظيف اسنانهم وتبييضها بالغدوّ والعشيّ على الريق وقبل النوم (وهو من شجر الاراك ، واصول السوس) واعتنوا به وحافظوا عليه في اباريق خفاف وابعدوه عن كل ما يفسد من غبار . فالسواك عند الظرفاء مطهرة للفم مرضاة للرب(١١٩) .

وقد تهادوا بالمساويك وكانوا يتخذون العصائب لحفظها ، قال العباس بن الاحنف(١٢٠) :

طال ليلي بجانب الميدان
مع جَوَاري المهديّ والخَيْزُران
ارسلتْ بالبنان قد مَضغتْهُ
بين تفاحتَيْن في ريحان
وبسواكها الذي اختاره الا
نة لعينها من طيب الاغصان
فكأني وَجدْتُ ريحاً من الفِرْ
دَوْس فاحتْ من ريح ذاك البُنان

ومن قول بشار بن برد في السواك :

يطيب سواكها من طيب نكهتها
وإنْ ألمّ بجلدٍ جلدُها طابا

(١١٨) الوشاء في الوشى ٢/١٨٢ .
(١١٩) الوشاء ٢/١٨٤ .
(١٢٠) الابيات من الوشى ٢/١٨٤/١٨٥/١٨٦ .

وقال ايضا :

تسوّكتْ لي بمسواك ليُعلمين
ما طمّم فيها وما همّتْ باصلاحِ
لما اتاني على المسواك ريقتها
مثلوجةٌ كزلالِ الماء بالراحِ
تبلّتْ ما مسّ فاها ثم قلتُ له
يا ليتني كنت ذا المسواك يا صاحِ

اقول لقد بلغ فن التجمل عندهم حدا بعيدا، والظريفات اختصصن به اكثر . ولنكتفِ عن ايراد التفاصيل بذكر نص من رسالة لابن عبدون البغدادي(١٢١) تبين ما بلغته من تأنق وبراعة في هذا الجانب يقول : (وكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة ، وكم جعلوا العين زرقاء كحلاء ، وحمروا الخدود المصفرة وسمنوا الوجوه المقعقعة . وكبروا الفقاح الهزيلة ، واعدموا الخدود شعر اللحى ، واكسبوا الشعور الشقر حالك السواد ، وجعدوا الشعور المبسطة وبيضوا الوجوه المسمرة ، ودملجوا السيقان المعرقة ، ورطلوا الشعور المرطة ، واذهبوا آثار الوشم والنمش والحكة .. وطولوا الشعور بوصلها من اطرافها بشعور من جنسها . وكانوا يزيلون روائح الانف بالسعوط بدهن البنفسج والنيلوفر ونحوهما . ويجلون الاسنان بالسواك بالاشنان السكر وسحيق الصيني او الفحم او الملح المدقوق وكانوا يزيلون الشعث من اصول الاظفار بغسلها بالخل والعسل او دهن الورد واللوز المر .

« وكن يخضبن حواجبهن واطرافهن ، ويصبغن بصبغ احمر شفاههن فان كانت الجارية بيضاء ، فبالخضاب الاحمر ، وان كانت صفراء فبالاسود ، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة في كشف الغد بضده . »

الهدايا وقد عنوا بها وكانت من سجاياهم وكانوا بها ظرافا ، واهدى العشاق لمعشوقاتهم واهدين كل معجب انيق جميل ، فالثياب والازر والعصائب المرصعة وخواتيم الياقوت المنقوشة منها بالشعر وعود الهندي والند والمسك والعنبر ونضود الرياحين والفواكه وصنوف الطعام واستخدم الخلفاء الظرفاء الهدايا سبيلا لاسترضاء جواريهم ومن لقين الحظوة لديهم من الجواري بتقديم اثمن انواع الجواهر والدرر(١٢٢) .

(١٢١) الظرفاء ص/٦٦ — ٦٧ .
(١٢٢) انظر ص/٥٢ من هذا البحث ص/٥١ .

ومن ظريف ما كان يهدى نروي لك هـــذه الهدية الطريفة التي اهدتها (شجرة الدر) وقد كان المتوكل يميل اليها كثيرا فهي من حظاياه المقربات فلما كان يوم المهرجان جاءته بعشرين غزالا تربية ، على كل غزال خرج صغير مشبك حرير فيه المسك والعنبر والغالية واصناف الطيب ، ومع كل غزال وصيفة بمنطقة ذهب ، وفي يدها قضيب ذهب في راسه جوهرة . فقال المتوكل لحظاياه : ما فيكن من تحسن مثل هذا وتقدر عليه) فحسدتها وعملن على قتلها بشيء سَقَيْنَهُ لها فماتت(١٢٣) .

ومن الهدايا الظريفة ايضا ما حدث في سنة (٣١٠هـ)(١٢٤) ان هدية وصلت الى ابن المادرائي الحسين بن احمد من مصر وهي بغلة ومعها فلو ، وغلام طويل اللسان يلحق طرف لسانه انفه .

واهدى ابو دُلف الى عبدالله بن طاهر يوم (الفصد) هدية فجمع ما في الســـوق من الورد وارسله له(١٢٥) .

وكانت (محبوبة) جارية المتوكل قد قدمت له هدية من ابن طاهر(١٢٥) .

ولعل في ذكر الوان الهدايا بيان لاحـــوال الظرافة وتعدد سبلها وانعكاس لاحوال اجتماعيـــة كثيرة .

وتطيروا من بعض الاشياء او من اسمائها او معانيها . فقد تطيروا من : الاترج لان باطنه خلاف ظاهره مختلف الطعم والرائحة .

السفرجل لانه يبدأ بالسفر

الشقائق لانه يبدأ بالشقا

والياسمين لانه يبدأ باليأس والآس كذلك .

والسوسن اسمـــه السوء . ومن الجـــوز والموز . والبطيخ اذا انصدع وانكسر واحبـــوا : الرمان لان معناه الوصل قد آن ، وانبنفسج لان معناه فداء النفس . وبالغوا في تفضيل التفـــاح وكانت (محبوبة) ترسل التفاح الى حبيبها وعليها اثر عضتها وهي علامة حب . قال ادم متز في هذا انه من عادات الرومان(١٢٦) .

واعجبوا بالخوخ وشبهوا الخدود به ، ولكن لا يعدل التفاح عندهم شيء فيه تهدأ اشجانهـــم

(١٢٣) الخلفاء والخلعاء ص/٧١ .
(١٢٤) المنتظم ١٦٧/٦ .
(١٢٥) انظر الخلفاء والخلعاء ص/٧٠ .
(١٢٦) ادم متز : ١٦٨/٢ .

وعنده يضعون اسرارهم(١٢٧) ، وليس في هداياهم ما يعادله ، قال الحكمي :

تفاحـــــةٌ جاءت وقـــد عُلِّقَتْ
وَرُكِّبَـــتْ بالـــورد والآسِ
اشربْ من كاســـي على ريحهـــا
بالرغـــم مـــن اهلي وجلاســـي

وقال آخر :

تفاحـــةٌ من عنـــد تفاحـــة
قريبـــة العهـــد بكفيهـــا
احببْ بهـــا تفاحـــةً اشبهَت
حُمْرتُهـــا حُمْرة خدَّيْهـــا

وقال آخر :

تفاحـــة حمـــراء منقوشـــةٌ
ركبتهـــا فـــي خُضْـــرة الآس
فلـــم تـــزلْ في كف ندمانِنـــا
تـــدور مـــن كاس الـــى كاسِ

وقد يكتبون بماء الذهب كالآتي(١٢٨) :

قبل أن تهدوني نخطّوا
فيَّ سطراً مـــن ذهب
انني اعطف مِنْ صـــ
ـدٌ ليُنصفَني ذا كرَب

وكتبوا عليه ونقشوا كثيرا من لواعجهم وقد طاوعتهم طبيعة التفاح . قال شاعرهم على لسان تفاحة حمراء :

انا حمـــراء دعـــوني
لِمُحـــبٍ وحبيب
وكلـــوا ذات بيـــاضٍ
اكلهـــا غيـــر معيب

وكتب على اخرى :

لي طـــراوات وريـــح
ثم ماء ونَضـــارَه
ليس لِلياقوتِ فضـــلٌ
كل ياقـــوت حجـــاره

(١٢٧) الوشى ٢١٨/٢ .
(١٢٨) النصوص مختارة من الموشى في الجزء الثاني .

ولقد امر عضد الدولة ان تنقش على خواتيم الجواري ابيات السلامي[١٢٩] :

مرقومة الجنبات بالبدع التي
لم يهد قط من الربيع لروضة
كتمت روائحها ، فلما عذبت
بالنار فاح نسيمها فاقرت

اما شرابهم[١٣٠] : لا يشربون من الشراب الا اجوده ، مثل الشمس والزبيبي ، والمعسل ، والمطبوخ ، ولا يشربون ما ثخن وما اشتد ولا المكدر منه الا ما صفا شرابه ، ويترفعون عن شرب العامة والرعاع ، وشرب السوقة ، والاتباع ، ولا يتنقلون على شرابهم بالاشياء الرذلة . بل ان الظرفاء يتنقلون بالبندق ومقشر الفستق والملح النفطي والعود الهندي والتفاح الشامي ويضعونها في اجمل الاواني الزجاجية النقية . ولهم زي خاص في مجالس الشراب فالالوان الزاهية والتي لا يلبسونها في الغالب تلبس عند الشراب زيادة في الظرافة وتحلية لمجلس الشراب ، ولكي يزدادوا انسا على انس ومرحا على مرح .

الظرف والاديرة[١٣١]

كان للاديرة اثرها في ظرافة الظرفاء من الادباء والشعراء فقد اتاحت لهم فرصا واجواء ذات فضل ، في العصر العباسي ، فقد وجدوا في ابنيتها العامرة ، رياضا ترتاح اليها نفوسهم ، ففي مواقعها طبيعة جميلة مؤنقة ، وهواء عذب ، وماء زلال ، وشراب ميسور وخدمات جليلة من الديرانيين ، ويبدو ان الاديرة في داخل بغداد أو حوانيها او في خارجها اختير لها جميعا من الطبيعة اجملها واحسنها[١٣٢] .

والاديرة هذه منها الصغير البناء ومنها العالي العمران الواسع الكبير ويشترط فيها او في كل منها ان تكون منه كنيسة يصلي بها (الديرانيون) وفيها صوامع تستوعب الرهبان .

وهذه الاديرة لاتخلو ، والكثيرة منها على وجه الخصوص ، من (خزانة كتب) يجد فيها الرهبان ما ينشدون من التاليف التي تتناول مواضيع دينية وادبية ، وعلمية مختلفة ، كالكتب المقدسةوتفاسيرها والفلسفة واللاهوت وسير الشهداء والقديسين ؛ والادب والشعر وغير ذلك فهي حافلة بالكثير الوفير زد على ذلك ان فيها دور ضيافة وبيوتا واسعة الرقعة حتى ان بعض الخلفاء والملوك والاعيان كانوا ينزلون بها فيثنون عليها . وتحيط بها بساتين الكروم والرياحين مما يبهج النفس ويسرها ويشرحها .

ادب الظرفاء

زهت بغداد في العصور العباسية وتظافرت كل الاسباب لما يسمى بـ (ادب الظرفاء) فتدشمخت الحضارة في بغداد ، وسما العمران ، وعجت بالعلماء والشعراء وتنادى هؤلاء في كل حدب وصوب ، وكان بين الادباء الظرفاء ، والشعراء الخلفاء والوزراء ، وكثر الندامى في قصورهم وشهد هذا العصر وجه الشاعر (النديم) الذي لم يكن عرف سابقا ، .

وهذا الشاعر النديم الظريف شاركته الظريفات من الجواري المتادبات في قصور منعمة ، مترفة يعجز الوصف عن بيان ايات الفن في زيارتها ، فمن برك ، وحدائق زاهية ، وابهاء مفروشة بكل غال انيق ، وتحف عجيبة غريبة مجلوبة ، وجدران مكسوة مزوقة وشذروانات افتتنت فيها يد المفتنين فجعلتها من ايات الفن تبهر الناظرين .

وتناثرت التماثيل في كل مكان ، من ستور حمر ومعصفرة ، ومجالس وازاهير مشرقة ، وابواب عظام مسمرة بالذهب والفضة . ونفيس الجواهر وفرش مختلفات الانواع والاصناف وامتدت على الارض فرش زركشت وطرزت بالحرير ، واذا فرحوا فلا تسل عن البذخ ولاتحفل بالدنانير ولا تشدهك الاناقة[١٣٣] ، وغيره مما يروع القاري حتى لنظن ذلك الترف،وذلك البذخ ضربامن الخيال[١٣٤] لولا ما يؤكد ذلك ويقطع الشك باليقين مما تدعمه وتتناقله المراجع والشروح في بيان دقائق كل شيء .

كل ذلك جعل ادب الظرفاء وهم يمثلون الطبقة الارستقراطية يعلوه الترف والرقة في التعبير ، والسلاسة في الطبع ، فكان شعرهم رقيقا ونثرهم عذبا منسجما مع ما طبعوا عليه من ظرف الروح ،

(١٢٩) انظر : المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع : (رسالة ماجستير) ص/٢٤٥ .

(١٣٠) الموشى ٢/١٧٢ .

(١٣١) واحدة الدير : وهو خان النصارى . اللسان والتاج / دير .

(١٣٢) يراجع كتاب الديارات ففيه تفصيل كثير .

(١٣٣) الظرفاء ص/٢ .

(١٣٤) انظر تاريخ الادب العربي في العصر العباسي ، ابراهيم ابو الخشب ص/٦٩ .

وانظر ادم متز في الحضارة الاسلامية ٢/١٩٢ . وتاريخ الادب العربي : عباس العزاوي ص/٦ .

وملاحة اللسان ، وشعرهم رشيق الاوزان خفيفها مغنى صالحا لذلك في اغلب الاحيان ، معبرا عن المناسبات التي قيل فيها خير تعبير ، واصفا لواعج من احب منهم بصدق .

هذا الى جانب ما اتفق فيه ادبهم مع شعراء العصر كافة ان نظرنا الى كونه جزءا من ادب العصر متصفا في ميل الظريف البديع كالطباق والجناس والمقابلة ، والتورية وغيرها ، وانت تجد مصداق ماقلنا في الامثلة الشعرية والنثرية متناثرة في اجزاء البحث .

وفي ذلك من قول فضل . الشاعرة الظريفة :

يَصُدُّ وادنو بالمودة جاهداً
ويبعد عني بالوصال واقرُبُ(١٣٥)

ورصد الشاعر الظريف المعاني طريفها ولطيفها وربما يبدو غريبا ، وفيه صور حسية واضحة ، وفيه الانفعالات والعواطف وكل ما هو منسجم مع التظرف بعدئذ .

واللفظ عند الظرفاء مختار ، رقيق ، معبر ، موظف بذكاء وفطنة يشد ازر المعنى العام ويبين المراد .

واغراضهم فيما نظموا وترسلوا دائرة في فلك ليس ببعيد عن الشعر من حيث العموم ، ففي الغزل لهم قصب السبق لرقة عواطفهم وانهم غزليين دعتهم كل دواعي هذا الغرض من المعاني الطريفة ، الظريفة مثل قول الشاعر(١٣٦) .

واني لاخلو مذ فقدتك دائبا
فانقش تمثالا لوجهك في الترب
فاسقيه من عيني واشكو تضرعاً
إليه بمالقاه من شدة الكرب
فوالله ما ادري بما انا مذنب
إليك سوى الافراط في شدة الحب

ومن المديح لهم طرف كبير ، ولابن سكرة الهاشمي(١٣٧) دلو في هذا الباب وفي غيره من ظريف الشعر .

قال في ابي الحسن بن عمرو بن يحيى (من العراق)(١٣٨) .

(١٣٥) نساء الخلفاء / ٩١ .
(١٣٦) الظرفاء ص / ٧٤ — ٧٥ .
(١٣٧) قال الثعالبي في اليتيمة ٣/٣ كان فاتقا في قول الملح والظرف .
(١٣٨) الثعالبي ٣/٢٧ .

لقد امسكت من عمرو بن يحيى
بحبل لا اخاف له انبتاتا
حباني في الحياة ورمَّ حالي
واوصى بي ابا حسن وماتا
فكنت مجاوراً للبحر منه
فلما مات جاورت الفراتا

فقد قيل : (ان زمانا جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسيء جدا)(١٣٩) .

والمدح عند الظرفاء كثير كان فيه متنفسا لملاحة السنتهم :

ومن مليح شعر ابن ابي سكرة اخترت هذا البيت :

هو البحرُ الاّ إنّهُ عَذبُ مَورِدٍ
ومَن عَجَبٍ انّ العذوبةَ في البحر(١٤٠)

وجعلوا من الرثاء وسيلة يتظرفون من خلالها رغم ان الرثاء كما عهدناه تتفجر فيه الام الراثي على المرثي :

كقول ابن الحجاج في رجل سقطت امراته من السطح فماتت(١٤١) .

عفا الله عنها انها يوم ودعت
اجلُّ فقيد في التراب مغيَّبِ
ولو انها اعتلت لكان مصابها
اخفَّ على قلب الحزين المعذَّبِ
واهوت إليه من يَفاع ودونه
ثمانون باعا في علو مصوَّبِ
فصارت حديثا شاع بين مصدق
تحقَّقَهُ علما وبين مكذِّبِ

الى ان قال :

فاعظم باهذا لك اللهُ ربُّها
وربك اجرَ الثكل في شاة اشعب

وعشق الظرفاء الطبيعة ووصفوها باشعارهم ففي وصف بستان قال احدهم(١٤٢) .

(١٣٩) نفسه ٢/٣ .
(١٤٠) الثعالبي ٣/٢٩ .
(١٤١) الثعالبي ٣/٩٩ ، وفيه غير ذلك من شعر ابن سكره قصد اليه في الغزل والنسيب والخمريات ، وماجني الشعر .
(١٤٢) ظرفاء المنجد ص/٧٥ .

إذا لم يزرني ندمانيه
خلوت فنادمتُ بستانيه
فنادمته خضِراً مؤنقاً
يُهيّجُ لي ذكر اشجانيه
يُغرّبُ لي فرحة المستلذ
ويُبْعِدُ همي وأحزانيه
ارى فيه مثل مداري الظبي
تظلُّ لاطلالها حانيه
ونورُ أقاحٍ شتيت النبا
ت كما ابتسمت عجبا غانيه
ونرجسة مثل عين الفتاة
الى وجه عاشقها رانيه

وفي وصف البدر قال بعضهم(١٤٣) :

والبدر في افق السماء كدرهم
ملقىً على ديباجة زرقاء

وفي ليلة قمراء قال آخر(١٤٤) :

هل لك في ليلة بيضاء مقمرة
كانها فضة ذابت على البلد

اما في العشق ، والحب ووصف لواعج الشوق واحوال المحبة قالوا الكثير ما لا يحصى ولا يعد ، وقد مر بعضه في اثناء البحث ، نذكر بعضا آخر :

من قول العباس بن الاحنف(١٤٥) :

اغيب عنك بودٍّ لا يغيّره
نأي المحلُّ ولا صرف من الزمن
تعتلُّ بالشغل عنا ما تكلّمنا
الشغلُ للقلب ليس الشغل للبدن

وقال آخر ، من قصيدة طويلة ، هذه بعض ابياتها(١٤٦) :

يا ايها الممود
قد شفّك الصدود
فانت مستهام
حالفك السهود

(١٤٣) نفسه .
(١٤٤) نفسه .
(١٤٥) ظرفاء المنجد ص/٧٢ .
(١٤٦) نفسه ص/٧٣ .

يا عاذلي كفّا
فانني معمود
قد اقصدت فؤادي
خمصانةٌ خريد

واني لواجدة في ادب الظرفاء انسجاما مع طبيعة الحياة المترفة التي كانوا يحيونها فهم راغبون في الحرية والانطلاق ، والتحدث عن ذكرياتهم والاعتراف برغباتهم ، وما تهفو اليه نفوسهم ، ولذا فلقد كانت صور شعرهم ــ في كثير منها ــ زاخرة بمعانٍ حسية واضحة .

ومن قول ابن سكرة(١٤٧) :

في وجه انسانةٍ كلفت بها
اربعةٌ ما اجتمعن في احد
الخدّ وردٌ ، والصدغ غاليه
والريق خمرٌ ، والثغر من بَرَد
لكلُّ جزء من حسنها بدَعٌ
تودع قلبي بدائع الكمَد

ومن ظريف ادب الظرفاء انهم يختارون من الفاظ الادباء في مكاتباتهم الحسن المليح ومعاتباتهم التي كانوا يضمنونها ماثور القول والشعر :

« اخبرني الوضاح بن ثابت الكاتب قال : كنت عند بعض الكتاب اذ دخلت عليه وصيفة كانها قمر ، تتثنى في مشيتها كانها جان ، او كانها غصن بان ريان ، حتى وقفت بين يديه ، فقالت : مولاتي تقرأ عليك السلام وتقول لك : يا اخي جفوتنا من غير استحقاق للجفاء ، وملت الى غير مذاهب الظرفاء ، واني لم ازل واثقة باخائك ، راجية لحسن وفائك ؛ وتحقيق مؤملك اولى من الوقوف على تجنيك .

فقال لها : اقرئي عليها السلام ، وقولي لها ، يا اختي انا من ودك على احسن عهدك ، ومن الامل لك اضعاف ما عندك ، ولقد استوحشنا من فقدك فاجعلي لنا حظا من انسك »(١٤٨) .

وكتب بعض الكتاب(١٤٩) الى صديق له : ما زال ما احمد من عواقب رأيك واشبه من وفائك ، حتى وثق في ضميري من مودتك ما استجدني لطاعتك واستوى عليَّ من موافقتك ، ما سهل علي

(١٤٧) الثعالبي ص/٧٢ .
(١٤٨) الوشاء ٢/١٩٩ .
(١٤٩) نفسه .

سبيل عتبك ؛ فما اسألك بغلبة الهوى طريقا الا رضاك الى ان قال :

عليّ رقيب من هواك يقودني
إليك على الحالات في السخط والرضا
وليس هواي حيث لا يستحقه
ولكن هواي حيث كان لك الهوى
لساني رهينٌ بالذي انت فاعل
ورايي موصولٌ بما كنته يجري
وما زلت لي عونا براي موفق
على صلة القربي يتهدي اولى النهى

ولعل اظرف ما كان يجري في المجالس ادب المناظرات والمعارضات والمطارحات الشعرية نذكر من ذلك من قول عنان(150) : جارية الناطفي الذي كان يدعو الشعراء لمطارحتها في المجلس في بيته : من ذلك دعوته (ابا حنش) فقال له : هلم الى عنان فطارحها . قال ابو حنش : فعزمت على الغدو فبت ليلي اقول بيتين ثم غدوت عليها فقلت :

احب الملاح البيض قلبي وربما
احب الملاح الصفر من ولد الحنش
بكيت على صفراء في الدهر مرة
بكاء اصاب العين مني بالعمش

وكانت عنان ذات وجه جميل ، صفراء اللون .

فقالت :

بكيت عليها ان قلبي يحبها
وان فؤادي كالجناحين ذو رعش
تمنيتنا بالشعر لما اتيتنا
فدونك خذه محكما يا ابا حنش

وكانت عنان هذه تفحم الشعراء معارضة ومنهم ابو نواس شيخ الماجنين ومما جرى بينهما انه قال :

عنان لوجدت لي فاني
عمري في آمن الرسول بما

عنى بذلك انه في آخر العمر .

فردت عليه قائلة :

فإن تمادى ولا تماديت في
قطعك حبلي اكن كمن ختما

فرد عليها :

علقت من لو اتى على انفس
الماضين والغابرين ما ندما

فردت عليه :

لو نظرت عينها الى حجر
ولد فيه فتورها سقما

ومن طريف ما رواه صاحب الاغاني(151) عن ابي نواس ؛ وجنان جارية آل عبدالوهاب عبدالمجيد الثقفي المحدث قال : (كانت جنان قد شهدت عرسا في جوار ابي نواس ، فانصرفت وهو جالس معنا ، فرآها فانشدنا بديها قوله :

شهدت جلوة العروس جنانُ
فاستحالت بحسنها النظّارة
حسبوها العروس حين رأوها
فإليها دون العروس الاشارة
قال اهل العروس حين رواها
ما دهانا بها سواك عمارة

قال : وعمارة زوج عبدالرحمن الثقفي ، وهي مولاة جنان .

وفي خبر آخر قيل انها(152) (اي جنان) غضبت (من كلام كلمها به ابو نواس فارسل يعتذر اليها ، فقالت للرسول : قل له : لابرح الهجران ربعك ولا بلغت املك ممن احبتك ، فرجع الرسول اليه ، فساله عن جوابها فلم يخبره ، فقال :

فديتك فيم عتبك من كلام
نطقت به على وجه جميل
وقولك للرسول : عليك غيري
فليس الى التواصل من سبيل
فقد جاء الرسول له انكسار
وحالٌ ما عليها من قبول
ولو ردت جنان مردّ خير
تبيّن ذاك في وجه الرسول

فردت عليه .

فانشأ يقول(153) :

ياذا الذي عن جنان ظلّ يخبرنا
بالله قل واعد يا طيّبَ الخبر

(150) المراة في الادب العربي ص/301 .

(151) الاغاني 20/6 .
(152) نفسه .
(153) الاغاني 20/8 .

قال اشتكتك ، وقال ما ابتليت به

اراه من حيث ما اقبلت في اثري
ويُعملُ الطرف نحوي إن مررتُ به
حتى ليخجلني من حدة النظر
وإن وقفت له كيما يكلمني
في الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
ما زال يفعل بي هذا ويدمنه
حتى لقد صار من همي ومن وطري

ويطول ذكر مثل هذه المعارضات والمطارحات الرقيقة التي تنم عن القدرة والبراعة وسرعة البديهة لديهن .

وابدين ظرافة في ادب المراسلات كذلك من ذلك ان الشاعرة عنان كتبت الى الفضل بن الربيع كتابا تستحثه فيه ان يشفع لها عند الرشيد ليشتريها وقالت(١٥٤) :

كن لي هديت الى الخليفة شافعا
بوركت يا ابن وزيره من معلم
حثْ الامام على شرائي وقل له
ريحانة ذخرت لانفك فاشمم

وكتبت عنان الى ابي النضير وكان قد كتب يدعوها للقائه بقوله :

إن لي حاجة فرأيك فيها
لك نفسي الفدا من الاوصاب
وهي ليست مما يبلغه غيري
ولا استطيعه بكتاب

فقالت :

انا مشغولة بمن لست اهوى
وقلبي من دونه في حجاب
فاذا ما اردت امرا فاسرر
ولا تجعلنه في كتاب

ومثل هذه المراسلات كثيرة مما جرى بين الظريفات والظرفاء(١٥٥) . وقد مرت منها امثلة .

(١٥٤) المحاسن والاضداد ص/١٥٦ .
(١٥٥) انظر المزيد في المرأة في ادب العصر العباسي ص/٢٢٧ — ٢٣٥ .

مراجع البحث

اخبار بغداد — مخطوطة المكتبة المركزية رقم/٩ محمود شكري الالوسي .

اخبار الظراف والمتماجنين — ابو الفرج عبدالرحمن الجوزي (ت — ٥٩٧هـ) تقديم وتعليق محمد بحر العلوم . النجف الحيدرية .

اخبار النساء — ابن قيم الجوزية (٦٩١هـ — ٧٥١هـ) . تحقيق نزار رضا . منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت .

الاذكياء — ابن الجوزي ، ط. بيروت .

اساس البلاغة — الزمخشري : جار الله محمود بن عمر . مطبعة الشعب ، القاهرة ١٩٦٠ .

اشعار النساء — المرزباني : ابو عبدالله محمد بن عمران (ت ٣٨٤هـ) . تحقيق سامي مكي العاني وهلال ناجي . الرسالة — بغداد ١٣٩٦/١٩٧٦ .

اعلام النساء — عمر كحالة ، ط : ٢ ، دمشق ، الهاشمية .

الاغاني — الاصبهاني : ابو الفرج : تحقيق عبدالستار فرج ، دار الثقافة بيروت ١٩٥٩ .

الامتاع والمؤانسة — التوحيدي : ابو حيان . ضبط وتصحيح وشرح احمد امين واحمد الزين . دار مكتبة الحياة في بيروت .

بين الخلفاء والخلعاء — صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد .

التاج في اخلاق الامم والملوك — الجاحظ : ابو عمرو بن بحر ، الاميرية ، القاهرة ١٣٣١هـ/١٩١٤م .

تاج العروس من جواهر القاموس — الزبيدي : محمد مرتضى : منشورات مكتبة الحياة ، لبنان .

تاريخ الادب العربي — عباس العزاوي . المجمع العلمي ، بغداد ، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .

تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول — ابو الخشب ابراهيم ، ١٩٦٦م .

التبصر بالتجارة — الجاحظ : ابو عمرو عثمان . الطبعة الثانية / الرحمانية ١٣٥٤/١٩٣٥ . القاهرة .

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب — الثعالبي : ابو منصور عبدالملك بن محمد . مطبعة الظاهر ، ١٣٢٦/ ١٩٠٨ .

الجماهر في معرفة الجواهر — البيروني ابو الريحان محمد بن احمد (٢٠)هـ) ١٣٥٥هـ حيدر آباد / المعارف العثمانية .

الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة — ابو ريده بغداد ، مطبعة الزهراء ، / ١٩٧٠ .

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع للهجرة — ادم متز . ط : ٢ ، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م .

الحيوان — الجاحظ . تحقيق وشرح عبدالسلام هارون ، ١٣٥٦هـ/١٩٤٠ ط : ١ .

الديارات ـ الشابشتي : ابو الحسن علي بن محمد (ت ـ ٣٨٨هـ/٩٩٨م) تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف / بغداد ١٩٥١ .
ديوان ابي نواس ـ تحقيق وضبط احمد عبدالمجيد الغزالي . دار الكتاب العربي / بيروت ، لبنان .
رسائل الجاحظ ـ تحقيق عبدالسلام هارون . مطبعة الخانجي ـ القاهرة / ١٩٦٤م/١٩٦٥م .
شفاء الغليل ـ الخفاجي : شهاب الدين . ط : ١ ، ١٢٧١هـ، ١٩٥٢م المنيرية / الازهر . القاهرة .
الصداقة والصديق ـ ابو حيان التوحيدي ـ تحقيق ابراهيم الكيلاني ـ دار الفكر بدمشق / ١٩٦٤ .
طبقات الشعراء لابن المعتز ـ تحقيق عبدالستار احمد فراج ، مطبعة المعارف ، مصر .
طبقات النحويين واللغويين لابي بكر الزبيدي ، تحقيق محمد ابو الفضل / المعارف ، مصر .
الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس ـ صلاح الدين المنجد . الرسالة ، بيروت .
الكامل في التاريخ ـ ابن الاثير : محمد بن محمد (٦٣٩هـ) ، بيروت ١٢٨٦/١٩٦٦م دار الثقافة ، صادر وبيروت.
لسان العرب ـ ابن منظور : جمال الدين محمد ، ١٩٥٦/ ١٣٧٥ .
المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري : (رسالة ماجستير) لعبداللطيف عبدالرحمن / ١٩٧٦م .
المحاسن والمساويء ـ ابراهيم بن محمد البيهقي ـ تحقيق محمد ابو الفضل القاهرة / ١٣٨٤ .
المحاسن والاضداد ـ الجاحظ / دار مكتبة العرفان ، مطبعة الساحل الغربي .
محيط المحيط ـ بطرس البستاني .
المرأة في الادب في العصر العباسي ـ واجدة الاطرقجي (رسالة دكتوراه) حتى نهاية القرن الرابع الهجري . ١٣٩٨/١٩٧٨ .
المستطرف في كل فن مستظرف ـ شهاب الدين احمد الابشيهي (ت ـ ٨٥٠هـ) ١٣١٤ .
المستظرف من اخبار الجواري ـ السيوطي : جلال الدين ؛ تحقيق صلاح الدين المنجد ١٩٧٦ / بيروت .
مطالع البدور في منازل السرور لابن عبدالله البهائي الغزولي ط : ١ ، ١٣٠٠ ، مطبعة الوطن .
معجم الفاظ القرآن الكريم ـ عبدالباقي . القاهرة .
معجم البلدان ـ الحموي : ياقوت ، ط : طهران .
المعرب ـ الجواليقي : ابو منصور : موهوب بن احمد (٥٤٠هـ) تحقيق احمد محمد شاكر ، ١٣٠٦ (بالاوفست) طهران ١٩٦٦ .
المنتظم في تاريخ الامم والملوك ـ ابو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي . حيدر اباد / الدكن ، ١٣٥٩ .
الموشى ـ الوشاء : ابو الطيب محمد بن اسحق . تحقيق كمال مصطفى ط : ٢ / الخانجي القاهرة ١٣٧٢/١٩٥٢م .
نساء الخلفاء ـ ابن الساعي : علي بن انجب . تحقيق : مصطفى جواد .
نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ـ دار المعارف / مصر .
الوافي بالوفيات صلاح الدين ايبك ١٣٨١ ـ ١٩٦١ . ط : ٢ .
الورقة لابن الجراح : ابو عبدالله محمد بن داود تحقيق عبدالوهاب عزام طبعة المعارف/مصر
وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ـ ابن خلكان ت (٦٨١هـ) تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد . النهضة/ مصر ، ١٣٦٧/١٩٤٨ . ط : ١ .
يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر لابي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي (ت ـ ٤٢٩) حققه محيي الدين عبدالحميد .

المجلات :

مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٣م/٣ ، مقالة
مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٢م/٢ .
مجلة الرسالة لسنة ١٩٤٠/٨ مقالة ميخائيل عواد .
مجلة لغة العرب ١٩٣٠ مقالة انستاس الكرملي .

سفارة من بغداد الى الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني

بقلم

اميدروز[1]

ترجمة

يعقوب افرام منصور

بغداد ـ الجمهورية العراقية

تشتمل الصفحات التالية على عرض تفصيلي نوعا ما ، بمفاوضات خاصة بين عضد الدولة البويهي وبين الامبراطور (باسيل) ـ ذابح البلغاريين ـ جرت في اعقاب وجود (برداس سكليروز)[2] ـ المنافس المغلوب للامبراطور باسيل ـ في بغداد اسيرا معززا . ان اندحاره في بانكاليا[3] عام ٩٧٩ كان قريب العهد جدا باحتلال العراق نهائيا من قبل عضد الدولة ، تلاه اقصاء ابي تغلب الحمداني قسرا عن الموصل . لقد جمعت المصلحة الذاتية بين عضد الدولة وبين (برداس سكليروز) ؛ وقد عززت تلك المصلحة رابطة تجلت في مؤازرة احدهما الاخر لمجابهة خصمي كل منهما ، وقد تم قهرهما . كان اندحار ابي تغلب الحمداني نهائيا عندما تم لعساكر عضد الدولة البويهي اخراجه من ديار بكر ، ففر الى سوريا حيث قضت عليه يد غادرة ، لكنه حتى آنئذ لم يقم اي عائق منيع حال دون مطمح (سكليروز) . لقد فر الى ميافارقين التي آلت مؤخرا الى عضد الدولة ، ومنها اوفد شقيقه (قسطنطين) رسولا عنه الى بغداد ، مناشدا اغاثته[4] ، وعارضا له الولاء . في ذات الحين ، قدم الى بغداد رسول من الامبراطور (باسيل) مع تعليمات بالظفر ـ مهما كلف الامر ـ بتسلم (سكليروز) الذي يبدو انه كان رهانا ثمينا في لعبة الماهل السياسية . عليه ناصر عضد الدولة قدومه الى بغداد سريعا مع اتباعه ، وابتدات اللعبة .

لقد عولج تاريخ الامبراطورية البيزنطية في هذه الحقبة من قبل المؤرخ شلمبرغر[5] في مؤلفين فرنسيين موسومين : (امبراطور بيزنطي في القرن العاشر)[6] بمجلد واحد يغطي فترة حكم (نيسيفوروس فوكاس)[7] و (الملحمة البيزنطية في ختام القرن العاشر)[8] في ثلاثة مجلدات ، الاول يشتمل على فترة حكم (جون زيميسكس)[9] ، وعهد

(١) والبحث منشور بمجلة الجمعية الاسيوية الملكية - H. F. Amedroz
Journal of The Royal Asiatic Society
لعام ١٩١٤ ـ الصفحات ٩١٥ ـ ٩٤٢ .

(٢) الذي تذكره المصادر العربية التي اعتمدها صاحب البحث باسم (ورد) . Badras Scleros

(٣) لم اهتد اليها في معجم ياقوت Pancalia

(٤) استعمل صاحب البحث كلمة (Succour) وهي تعني الاغاثة او اللجوء .

(٥) M. Schlumberger

(٦) Un Empereur Byzantin au xe Siecle

(٧) الذي تذكره المصادر العربية التي اعتمدها صاحب البحث باسم (نقفور) . Nicephorus Phocas

(٨) L'Epopée Byzantine a la Fin du Xe Siecle

(٩) John Zimisces

(باسيل)(١٠) وحتى عهد بعدو اوان تلك الاحداث. لهذه الحقبة بالذات ، انتفع المؤلف بالمقتبسات ، المعلق عليها بالحواشي ، من تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي المكتوب حوالي عام ٤٠٦ للهجرة (الموافق ١٠١٥م) والذي هو تتمة لكتاب (يوطيخوس) المعروف بسعيد بن البطريق الاسكندري ، اللذين نشرا عام ١٨٨٣ من قبل فون روسن(١١) .

ان (شلمبرغر) يذكر ان عرض يحيى بن سعيد الانطاكي للاحداث يتسم بكونه اكثر استفاضة كما هو اكثر اتساقا مع الارجحية مما هو مستقى من المصادر البيزنطية ، ولذا فقد عدها اساسا لسرده الاخباري . كما ان عرض يحيى الانطاكي يتفق تماما مع نصوص تاريخ (تجارب الامم) لابي علي مسكويه ، التي تم الوقوف عليها مؤخرا ، وتتمتها (ذيل تجارب الامم) لابي شجاع(١٢) ، طبعة جب ، المجلد السادس ، ومنها تم استقاء تفصيل هذه المفاوضات .

ثمة بعض الالتباس في التواريخ الاسلامية بشأن اسمي برداس : فوكاس وسكليروز . فيحيى بن سعيد الانطاكي يميز بينهما بشكل صحيح . والاخير(١٣) مشار اليه في (تجارب الامم) ص٤٨٨ فيما يتعلق بابي تغلب ، بكونه الحاكم البيزنطي المعروف ب (ورد) الذي استبدلته المساكر الناقمة بالحاكمين (باسيل) و (قسطنطين) ، كما ورد ذكره ثانية في ص (٥٠٠) فيما يتعلق بايفاد اخيه كرسول الى بغداد باسم « سكليروز المعروف باسم ورد » ، وفي فقرة من (ذيل تجارب الامم) الذي هو العماد في رواية ابن الاثير ، المجلد ٨ ص ٥١٦ — ٥١٧ ، يدعى (فوكاس) باسم (ورد) و (ورديس) بن لاؤون ، بينما (سكليروز) يدعى (ورد بن منير) . هذه التسمية الاخيرة عسيرة على الفهم ، ولو انها استعملت للدلالة على (فوكاس) بدلا من (سكليروز) لكانت اقل غموضا ، اذ ادى هذا اللبس في اسمه الى ان يدعى (فوتيوس)(١٤). فان السيد (بروكس)(١٥) يفيدني بان نصا سريانيا أعده (ناو)(١٦) للنشر استنادا الى مخطوطين سريانيين مشتملين على اسماء لقديسين مختلفين تظهر بشكل مترجم(١٧) ، حيث نفس القديس في احد المخطوطين يدعى (فوكاس) ويدعى في المخطوط الاخر (نوهرا) التي تعني الضوء بالسريانية .

ان مبعوث الامبراطور باسيل الى بغداد يعرف عند المؤرخ يحيى بن سعيد الانطاكي ب (نيسيفوروس اورانوس) الذي غدا فيما بعد قاضيا وواليا لانطاكية(١٨) بينما كتاب (تجارب الامم) في ص.٥٠٠ يذكر فقط ان المبعوث كان شخصاً ذا منزلة متميزة ، ويؤكد على الحقيقة انه وشقيق(سكليروز) كانا سوية في بغداد يخطبان ود عضد الدولة ابان العام ٣٦٩هـ باكمله كظرف يفضي كثيرا الى اجلال ذلك الماهل . ونص (ذيل التجارب) المشار اليه آنفا ، الذي اورده ابن الاثير(١٩) ، يذكر اندحار

---

(١٠) Basil

(١١) في كتابه الموسوم : Von Rosen
Zapiski Imp. Ak Nauk Vol. XLIV, Appendix I.

(١٢) تم العثور على مخطوطته في استانبول من قبل احمد زكي باشا (اميدروز) .

(١٣) يقصد سكليروز (Scleros)

(١٤) Photius

(١٥) Mr. E. W. Brooks

(١٦) Nau

(١٧) الجزء العاشر ص ٥٢ . Patr. Or.

(١٨) في ص ١٥٨ ، ١٥/١ ثم في ص ١٨٤ ، ٤/١ ويدعى Magister و Kuntus وفي ص ١٦٧ ، ٦/١ نقف على امر فراره من بغداد بعد اطلاق سراح (سكليروز) والتحق ثانية بباسيل . في العام ٩٩٦ دحر البلغاريين (اللمحة ١٣٤/٢ — ١٤٢) وفي عام (١٠٠٠) اضحى واليا على انطاكية خلفا لـ (دميانوس دالاسينوس) الذي اندحر وقتل في (اناميا) — انظر (ابن القلانسي ص ٥١ — ٥٢) و (اللمحة ص ١٥٨) — اميدروز .

(١٩) اكتشف (فون روسن) من دراسته لشطر يتعلق ب (بورليان) في كتاب (تجارب الامم) المخطوط ، ص ٣٥٧ ، انه المصدر الذي اعتمدته رواية ابن الاثير (اللمحة ٢١/١ رقم ٤) . كما ان ابن الاثير استفاد من (ذيل التجارب) وفي الجزء ٨/ص ٥١٧ ورد ذكر وفاة زيميسكس بفعل السم الذي دسه له الشقيق المخصي لثيوفانو ، وهو الشقيق « الذي كان وزيرا منذ وفاة (رومانوس) ، والذي كان لقبه باركاموس (*) — او باراكوي مومينوس(**) — وبهذا الشكل توصل الى السلطة » . ان المخصي السالف ذكره كان (باسيل) ، الابن الطبيعي (غير الشرعي) لرومانوس ليكابينوس(***) الذي اعان نقفور (نيسيفوروس) في اعتلائه العرش ، واقصى برنجاس (****) . لكن في فقرة اخرى يورد ابن الاثير رواية اخرى . في استعراضه التاريخ البيزنطي حوالي ٤٢٣هـ ، منذ مولد باسيل فصاعدا (الجزء ٩ ص ٢٤٠ — ٢٤٢) يعزو دس السم الى كاهن حرضته « ليوفانو »(*****) من منذ!ها في ←

* Barkamus
** Parakomomenos
*** Romanus Lecapenus
**** Bringas
***** Theophano

(ورد بن منير) امام (ورديس بن لاؤون) بعد منازلتهما منفردين (انظر الملحمة ٤٢٣/١ــ٤٢٤)

ان الخطوة الثانية في اللعبة السياسية كانت ارسال مبعوث مسلم الى بيزنطية في عام ٣٧١هـ ، هو القاضي ابو بكر الباقلاني (ابن الاثير الجزء ٩ ص ١١ ــ ١٢ ، وقد ترجم له ابن خلكان في الجزء ٢ ص ٦٧١) . ويذكر المؤرخ يحيى الانطاكي (ص ٣/١/١٥٩) ان ارسال مبعوث بخصوص (سكليروز) الذي يدعوه (ابن سهره) ــ وفي احد مخطوطات الكتاب يرد ذكر الاسم صحيحا بانه ابن شهرام ــ وعد فون روسن هذا تحريفا لاسم القاضي وهذا من دواعي استغراب شلمبرغر (ص ٤٤٢ رقم ٢) نظرا لعدم المامه بالاحتمالات التي يعطيها الحرف الشرقي ، ويلوح ان استغرابه له ما يبرره . ان المهمة ، التي من اجلها ارسل القاضي ، لم تؤد الى نتيجة ملموسة ، هذا اذا تركنا جانبا الرواية الدرامية لتملصه من تقديم الاجلال الى (باسيل) كما سردها ابن الاثير ، وكذلك السمعاني في ملاحظته عن القاضي في (الانساب) ــ طبعة جب ٤/١/١٦٢ــ وافاد فضلا عن ذلك ــ كما يفيد فون روسن ــ بايفاد رسول عن عبدالرحمن القرطبي الى احد ملوك النورماند . اما انطلاق ابن شهرام في مهمته ، فقد جرى في تاريخ لاحق ابان عام ٣٧١هـ ، وكانت تعليماته ــ كما اورد يحيى بن سعيد الانطاكي ــ تتفق تماما مع نص (ذيل تجارب الامم) ، بيد ان نصا لاحقا اورده يحيى الانطاكي بشأن احتجاز (نيسيفوروس اورانوس) في بغداد بباعث من الارتياب في تدبير مكيدة للقضاء على (سكليروز) بدس السم له (وهذا يتكرر في «المكين» و «الملحمة» ٤٤٣/١ رقم ٥) ، ليس ما يؤيده في كتاب (تجارب الامم) ولا في (ذيله) ، ويبدو انها في الحقيقة تتعارض كليا مع التفاصيل التالية بصدد المأمورية التي من اجلها اوفد ابن شهرام .

* * *

دبر ناه ، ومنه حادث في اليوم الذي قضى فيه زيمسكس، بينما ورث باسيل العرش وهي وصية عليه بسبب حداثته . وتاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي ص ١/١/١٤٧ يذكر فقط وفاته عام ٣٦٥هـ ، ويقول ان باسيل وقسطنطين ولدي (رومانوس) اصبحا الحاكمين الحقيقيين ، لكن الحكومة اديرت من اكبرهما (باسيل) فقط . وكانت سنه آنذاك ١٨ عاما ، وانه اعتمد على (البركاموس) واستدعى والدته (ثيوفانو) من المنفى ــ اميدروز .

ما يلي ترجمة نص (ذيل تجارب الامم) ــ النسخ المصورة ٤٤ ــ ٦٦ ــ التي يعود الفضل فيها كثيرا الى الاستاذ مرجليوث[٢٠] .

بيان بالمفاوضات التي جرت بين عضد الدولة وبين الحاكم البيزنطي بتبادل الاتصالات شفاها

ان الباعث على هذه الاتصالات ، هو الحقيقة التي سبق ذكرها : الا وهي ان (برداس) قد نفذ الى الامصار الاسلامية ، وكان ذلك بمثابة نذير للحاكم البيزنطي ، فاوفد مبعوثا الى عضد الدولة . وارسل لرد بوساطة ابي بكر محمد بن الطيب الاشعري ، المعروف بابن الباقلاني[٢١] ، الذي آب مع مبعوث يعرف بابن قونس الذي ، عند رجوعه ، مضى برفقة ابي اسحق بن شهرام يطلب عدد من المعاقل من العاهل البيزنطي . فوصل ومعه رسول يدعى نيسيفوروس الكانكلي[٢٢] وهو يحمل هدية سنية .

خلاصة بكل ما جرى حسب اقوال ابن شهرام نمت عن حصافته وحيطته وحزمه

تقول الخلاصة : « عند وصولي خرشنة ، علمت ان الخصيص[٢٣] (يقصد برداس فوكاس) قد غادر القسطنطينية، وشرع في اعداد استعداداته وان معه مبعوثا من حلب يعرف بابن (مامك) ، وكذلك كليب ، حمو ابي صالح السديد . وكان كليب احد مناصري (برداس) وضمن المتمردين الذين صدر الصفح عنهم ، واقاموا في ارض بيزنطية بعد تغربهم . لقد اعتزم البيزنطيون تغريبه .سوة

(٢٠) Professor D. S. Margoliouth

(٢١) انظر ابن خلكان ٦٧١/٢ ــ اميدروز

(٢٢) هذا المأمور هو نيسيفوروس Nicephorus the Kanikleios (نقفور) اورانوس وقد نعت في (ذيل التجارب) بالكانكلي المأخوذة من (كانيكليوس) الرومية التي تعني حامل الدواة (المحبرة) .

(٢٣) استنادا الى بعض القواميس استطيع ان ادل على كلمة (Domesticus) بمعنى (خصيص) وهي في اعتقادي توازي رتبة مدير المكتب الخاص في عهدنا وقد دل عليها (ذيل تجارب الامم) بـ (الدمستق) .

بالاخرين ؛ وليخسر الاملاك التي وهبت له عندما استنبط وسيلة لتسليمهم حصن (برزويه)(٢٤) . لكنه الفى وسيلة لارضاء الحاجب(٢٥) والخصيص ، واستطاع الحصول على تعهدات للعاهل البيزنطي بخصوص حلب وغيرها ، كانت كافية ان تدفع خطرا عاجلا ، مع المرض بضمان دفع فوري لما يتعلق بخراج حلب وحمص لان قريبه هو الذي وعد وما كان ليمارضه . فتخلص منه بهذا الشكل . اما المبعوث من حلب ، فلم تتم تسوية اي شيء معه ؛ لكنه طولب بتراكمات خراج السنين السالفة .

وعند وصول الخصيص الى موضع يناى عن طريق البريد ، انطلق نحوه ابن (قونس) وانا معه، فالفينه حدثا مزهوا بنفسه ، وكارها اتمام المهادنة لعوامل مختلفة ، احدها انه يستطيع الاستغناء عنها في الوقت الراهن ، وانها ستضر بسمعته ، وثانيها ان الحاكم البيزنطي كان توااقا اليها ، معبرا : « ونحن في خشية من ايذاء يلحقنا منه » ، وثالثها : آماله وامنياته الذاتية . لكن في ذات الوقت ابان عن لطفه ، وارتضى المصالحة المعروضة مع الاعراب عن شكره .

ثم استفهمني الفرض من قدومي ؛ فاوقفته على ذلك بشكل واف . واسترعى (ابن قونس) انتباهه الى الصيغ المشترطة ، فلما اطلع عليها ، قال : لو افلح الرؤساء في جعلنا نتخلى لهم وديا عن المناطق والحصون التي بروموني ، لشرع كل منهم في التخطيط لتحاشي ضرورة الابقاء على قوة من الرجال ، والقيام بتسديد الاموال . فاجبت : انه حيث تم دعم التدبير بالقوة والمقدرة ، فهذا برهان على نبل المسلك ، ويجب ان يجابه بالقبول . فاستفسر : « لكن ماذا بشان حلب ؟ فهي ليست شطرا من منطقتكم (يقصد ملك عضد الدولة) ، وحاكمها لا يهتم بكم ، ومبعوثه هنا وكليب يعرضان علينا خراج ارضها ، وينشدان حمايتنا ، اما بخصوص الحصون ، فقد ضبطت في عهد عمي نيسيفوروس(٢٦) وملوك آخرين ، ولسنا احرارا في التخلي عنها . لذا ان استطعت ان تقدم اي اقتراح عداه ، فافعل ، والا فوفر على نفسك مشقة الرحلة الطويلة » . اجبت : « ان حزت ايعاز مليكك بمغادرتي ، فاني سابارح ، لكن اذا قلت ذلك من تلقاء ذاتك فقط ، فالمليك يجب(٢٧) ان يصغي الى ما اقول ، واسمع رده كي اعود بمعلومات موثوقة». فاجاز مسيري . فانطلقت نحو القسطنطينية ، ودخلتها بعد ان استقبلني ورافقني مامور البلاط بمنتهى اللطف . وانزلت باعزاز في جوسق نيسيفوروس (حامل الدواة) ــ المبعوث الذي معي ــ وكان من اعوان العاهل . ثم استدعيت للمثول امام الحاجب (اي باسيل المخصي) الذي قال : « قد وقفنا على المخاطبات التي حملت على ارسالك ، لكن افصح عن مراميك » . آنذاك ، ابرزت الاتفاق الحقيقي(٢٨) الذي تفحصه ، ثم قال « الم يتم حسم التخلي عن خراج بلاد ابي تغلب(٢٩)، سابقا ولاحقا ، مع الباقلاني وفقا لرغباتكم ؟ الم يرتض شروطنا لارجاع الحصون التي قد

(٢٤) استنادا الى ياقوت الحموي : « حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق ، يضرب بها المثل في جميع بلاد الافرنج بالحصانة ، تحيط بها اودية من جميع جوانبها ، وذرع علو قلعتها (٥٧٠) ذراعا ، كانت بيد الافرنج حتى فتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة ٥٨٤ » . ويقول اميدروز صاحب البحث انها كانت على الطريق التي سلكها (زيمسكس) في آخر حملة على سوريا عام ٣٦٤هـ ، وان وصف يحيى الانطاكي في تاريخه بشان التسليم وتسمية كليب حاكما على انطاكية (ص ١٤٦/١/٥) وارد في الملحمة (٢٩٩/١) ، وقد سلم كليب نفسه وانطاكية ايضا فيما بعد الى (سكليروز) الذي جعله واليا على (ملاطية) ص ١٤٧/١/٨ وص ١٤٨/١/٦ ــ و (الملحمة ٢٧٦/١-٢٧٧)، وان سيف الدولة ضبط (برزوية) من البيزنطيين عام ٣٢٧ كما ورد في كتاب موسوم (امبراطور بيزنطي ص ١٣٢/رقم ١) .

(٢٥) استنادا الى القواميس تعني هذه الكلمة (Chamberlain) : « الحاجب » كما تعني امين الخزانة او المال ، والمعنى الاول اقرب الى المراد في اعتقادي ، وقد اوردها كتاب (ذيل تجارب الامم) بصيغة (البركموس) وهو المخصي (باسيل) الذي اعلن عن موالاته لنيسيفوروس فوكاس ، وعند فوزه حل محل برنجاس(*) كرئيس المستشارين، وابث كذلك حتى طرده (باسيل) عام ٣٧٥هـ (عام ٩٨٥م) استنادا الى تاريخ يحيى الانطاكي (ص ١٦٥/١/١٣) والى (الملحمة ٥٧٢/١) ــ اميدروز والمترجم .

(*) Bringas

(٢٦) كان المتكلم نجل ليون فوكاس ، شقيق نيسيفوروس ــ اميدروز .

(٢٧) استعمل صاحب البحث معنى الوجوب بكلمة (Ought) بينما صاحب (ذيل التجارب) استعمل معنى الجواز بكلمة (يجوز) .

(٢٨) ان النص الانكليزي للبحث نعت الاتفاق بكونه (الحقيقي) بينما نص (ذيل التجارب) نعته بكونه (الظاهر) .

(٢٩) ابن ووريث حكم ناصر الدولة في الموصل ــ اميدروز .

ضبطناها(٢٠) ؛ وفي القبض على برداس (ورد) ؟ لقد ارتضى سيدك هذا الاتفاق ، وعمل وفقـا لرغباتنا ، اذ لديكم تصديقه على المهادنة بخـط يده »(٢١) . فاجبت : « لم يتوصل الباقلاني الى اي اتفاق قط » . فاجاب : « انه لم يغادر الا بعد ان سوى شروط الاتفاق الذي مصادقة مولاه عليه كانت سترسل الينا ، وقد سبق ان ابرز خطابه بشأن الموافقة على الشروط باكملها » . لذا ارغمت ان اجد وسيلة لمجابهة هذا الوضع(٢٢) .

فكرة رائعة عنت لابن شهرام لرد حجة الخصم

فقلت : « لم يتوصل ابن الباقلاني الى اي اتفاق معكم . ان ابن قونس هو الذي صاغ هـذا العهد واخذ نصه الاغريقي » . عندئذ استشاط(٢٣) الحاجب واستفهم ابن قونس : «من خولك بهذا ؟» فاجاب انه لا هو ولا ابن الباقلاني قد سويا اي شيء، وانسحبت .

وغب ايام استدعاني الحاجب ، واعاد قراءة الاتفاق ؛ فتوقف حيث تطرق الموضوع الى « ما يجب حسمه مع ابن شهرام على اساس ما تضمنته النسخة الثالثة » . فقال بان هذه احدى النسخ ؛ فاين النسختان الاخريان ؟ لدى مراجعتي تلك الفقرة ؛ الفيت السهو قد وقع في ترك ذلك ؛ وقلت: « معنى الفقرة هو ان يكون الاتفاق بثلاث نسخ : احداها تكون لدى الحاكم البيزنطي ، والثانية تكون في حلب ، والثالثة في العاصمة ــ بغداد » فدحض ابن قونس ذلك ، قائلا ، ان تعليماته كانت ان يدون المعنى الحقيقي للاتفاق وقال الحاجب ان هـذه

(٢٠) نص البحث يفيد قول الحاجب البيزنطي بموافقـة الباقلاني على شروط البيزنطيين لاعادة الحصـون التي قد ضبطوها :

"The Fortresses we had taken,..."

بينما نص (ذيل التجارب) يفيد النقيض : « رد الحصون التي اخذت منا » .

(٢١) نص البحث يعطي المعنى الذي ترجمته للعبارة :

"For you have his ratification of the truce under his own hand"

بينما نص (ذيل التجارب) فاسد المعنى : « وطينا ان خطك معك بتمام الهدنة » .

(٢٢) نص (ذيل التجـارب) لهذه الجملـة متسم بالضعف والغموض : « فاحتجت الى ان اتطلب مجالا اقاوم بـه مجالهم » .

(٢٣) في (ذيل التجـارب) وردت هـذه الكلمـة (اشـتط) وصحيحها استشاط او اشتاط .

النسخة كانت المعول عليها(٢٤) ، وان النسخة الثانية اتت على ذكر لتخلي عن الحصون ، بينما النسخة الثالثة لم تتطرق الى اي ذكر لحلب ، وان الاتفاق تم توقيعه بمقتضى الشروط المتفق عليها مع ابن الباقلاني ، والغرض الوحيد من ارسال هذه النسخة هو استحصال توقيع الملك وختمـه عليها . فكان ردي على ذلك : « يستحيل ان يكون الامر كذلك ، فتعليماتي هي مجرد ما ذكرت بشـأن حلـب والحصون ، وفقا للاتفاق الذي شـاهدت » . فاجاب : « لو كان برداس (ورد) ــ اي سكليروز ــ هنا في العسكر ، وضبطتمونا جميعا اسرى ، ما كان في مقدورك ان تطالب باكثر ممـا طلبت . فكيف و (ورد) هو في الواقع اسير ؟ » .

رد حصيف لابن شهرام

اجبت : « لا اهمية(٢٥) لافتراضك : « لو كان (ورد) في العسكر » ، لانك تعلم جيدا(٢٦) ان ابا تغلب (الذي لا يرقى الى مصاف ادنى اتباع عضد الدولة) عندما اعان وردا ؛ الحق الهزائم(٢٧) بالملوك البيزنطيين طيلة سبعة اعوام . فكيف كانت الحال ستغدو لو ان عضد الدولة اعانه بجيشه ؟ ومع ان (وردا) اسير في قبضتنا ، فهو ليس عرضة للتمثيل كما تفعلون باسراكم . ووجوده في العاصمة افضل لنا(٢٨) ، اذ اننا لم نجعله مقيدا . ولو فعلنا ، لربما ضاق صدره بصده عنا ، ويئس منا مستوحشا ، وتخلى عنا . بيد انه يعمل الان برفقتنا ، ومطمئن الى الابهة والامن اللذين يشاهدهما في العاصمة . والحقيقة اننا نمسك بكل الحبال » .

لقد اثرت فيه كلماتي ، واربكته كثيرا ، لانه ادرك صحتها . فقال : « ليس في الوسع تلبيـة مطلبك . ان اردت ، سنوقع على ما اتفق عليه مع الباقلاني ، والا فانصرف » فاجبت : « ان شئت انصرافي بدون الاستماع الى العاهل ، فسافعل » اجاب : انه تكلم نيابة عن العاهل ، لكنه سياذن لي في المثول امامه .

في غضون ايام قلائل استدعيت فحضرت .

(٢٤) في النص الانكليزي ورد هنا اللفظ (Ruling) وهو مرادف للفظ الدارج (يحكم او باكل ، بينما نص (ذيل التجارب) يذكر (النسخة القاهرة) .

(٢٥)نص (ذيل التجارب) يذكر « غلط » هذا القول المفترض

(٢٦) نص (ذيل التجارب) يذكر (تعلم) فقط .

(٢٧) نص (ذيل التجارب) يذكر (اهلك ملك الروم) .

(٢٨) نص (ذيل التجارب) يذكر (احوط لنا) .

وطلب العاهل البيزنطي (باسيل) اعادة ما سبق ان تم التذاكر بشأنه في حضوري ، فقال : « لقد جئتنا برسالة تستحق الشجب(٣٩) ، فرسولكم جاء واستحصل قبولنا بشروط معينة ، تضمنت اعادة الحصون التي ضبطت ابان العصيان ، وانت الان تطلب التخلي عن حصون اخرى استولى عليها اسلافي . فاما ان ترتضوا ما تم عليه الاشتراط اولا ، او انطلق بسلام » . فاجبت : « لكن الباقلاني لم يتفق على شيء ، اذ فيما يتعلق بالصك الذي جلبه معه ، لقد جردتمونا ـ وفق شروطه ـ من نصف اراضينا . فكيف نقر شيئا كهذا ضد انفسنا ؟ فالحصون في دبار بكر(٤٠) لا تضبطون منها شيئا ، وديار بكر الان تؤول الينا(٤١) . كل ما تستطيع ان تفعل هو ان تنازعنا اياها ، وتجهل ما سيغدو مصير الصراع » . آنئذ تدخل الحاجب(٤٢) قائلا : « هذا السفير متفنن في الجدال ، وفي مقدوره ان يزين الكلام(٤٣) ، والموت افضل لنا من الاذعان لهذه الشروط . دعه ينصرف الى سيده » . فنهض العاهل ، وانصرفت .

انصرم شهران على مكوثي في القسطنطينية ، فاستدعاني الحاجب ، وكان برفقته المشير(٤٤) ـ وهو والد الخصيص ـ الذي الحق به العمى(٤٥) ، وعدد من البطارقة وتداولنا في امر الحصون . فعرضوا التخلي عن خراج حصن (كيفا) في حوزة والدة ابي تغلب التي كانت تستلم الخراج ، فكان جوابي عن ذلك : « وانا بدوري سأتنازل لكم عن خراج سمند(٤٦) (تكتب كذلك اسمند ـ قرية قرب سمرقند ـ استنادا الى ياقوت الحموي) . ولما استفهموا معنى ذلك ، اجبت : « ان الاطراف القصوى فقط هي التي تحدد في الاتفاق كي يكون جليا ان كل ما هو ضمن الاطراف مشمول بالهدنة فحصن (كيفا) هو قبل آمد (دبار بكر) بخمسة ايام . فكيف تذكرونه ؟ » .

اما الخلاف بشأن حلب ، فظل قائما حتى قال المشير (او القيم) : « ان سدد حاكم حلب الخراج الينا ، فسنعلم ان اقوالك باطلة ، وانه بفضلنا عليكم » . فاجبت : « وما هو الاثبات الذي نملك بانكم لم تستميلوا كاتبه وحماه كليبا ليؤدي لكم شيئا ، فتتخذوه حجة ؟ فبغير حيلة ، اعلم ان ذلك لا يصح » ثم انصرفت .

ثم استدعاني العاهل ، وكان خراج حلب قد وصل آنذاك ، فالفيت لهجتهم قد تغيرت في الحدة والحزم ، اذ قالوا : « ها قد اتى خراج حلب ، وقد طلب الينا حاكمها التوصل الى اتفاق معه بشأن بلدتي (حران) و (سروج) وفي مؤازرته لمهاجمتكم وقوى اخرى » . فقلت : « انا اعلم ان استلامكم الخراج بحيلة ، اذ ان عضد الدولة لم يتصور انكم ستجبرون لانفسكم القيام بما اقدمتم عليه ، والا كان في مقدوره ان يجرد جيشا لايقاف عسكركم . اما الذي تروونه عن حاكم حلب ، فانا اعلم منكم بافكاره ، وكل ما بلغكم عنه عار عن الصحة ، والدعوة فيها (حلب) قائمة لعضد الدولة(٤٧) . فسالوا ان كان لدي ما اضيف ، وعند اجابتي « كلا » ، اجابوا بان استأذن الملك بالانصراف مصاحبا بالحماية . فقلت : سافعل ذلك فورا . واستدرت نحو العاهل للاستئذان منه .

تحليل سليم لابن شهرام في هذا المازق

ان تعليله كما يلي : « تاملت الحال ، مدركا ان الحاجب والمشير (او القيم) والباقين معهما يعارضون الهدنة المقترحة (فرجال الجيش يخشون الاستغناء عن سيوفهم ، والنقص في ارزاقهم كما كانت الحال عندما تعقد الهدنة في بيزنطية) ؛

(٣٩) نص (ذيل التجارب) يذكر : (يا هذا قد جئت بأمر منكر) .

(٤٠) في نص (ذيل التجارب) ورد هذا النص كالآتي : « فالحصون التي في دبار بكر منها شيء في قبضك » واعتقد ان النص يجب ان يكون : « ... ليس منها شيء » .

(٤١) لا يشتمل نص (ذيل التجارب) على هذه العبارة « وديار بكر الان تؤول الينا » .

(٤٢) لا ينعت (ذيل التجارب) مقال الحاجب بالتدخل بل يذكر : « فقال البركموس » .

(٤٣) نص (ذيل التجارب) يذكر : « هذا رجل ذو جدل وتمويه للاقوال » .

(٤٤) النص الانكليزي يذكر (Marshal) بينما نص (ذيل التجارب) يذكر (القربلاط) وهي تعني كذلك القيم على البلاط او المراسيم او التشريفات .

(٤٥) هذا المشير او القيم هو ليون فوكاس ، وقد الحق به العمى بسبب تستره على عصيان نجله برداس (ورد) على جون زيميسكس . لكن التمثيل به في هذه المرة اجري قصدا برفق . انظر (الملحمة ٦٦/١) ـ اميدروز

(٤٦) يلاحظ التمعن اللبيب انطواء هذا القول على سخرية بدلالة السطور التي تليه .

(٤٧) عندما وصل الى بغداد سعد الدولة ، نجل سيف الدولة ، قدم خضوعه الى عضد الدولة ، وادخل اسمه في الدعاء بعد اسم الخليفة (يحيى بن سعيد الانطاكي ص ١٨/١/١٥٧) ـ اميدروز .

والسبيل الوحيد الذي تبقى هو استمالة المليك واسترضاؤه(٤٨) ، فخاطبته قائلا : « ايها العاهل الا تتأمل مسلك عضد الدولة تجاهك في عدم مناصرته عدوك ، وفي عدم مهاجمته بلادك عندما كنت منشغلا مع العصاة ضدك ، اذ انك تعلم ان ارضيته لوحده ، وهو مليك المسلمين ، فذلك امر جيد وخير ، وخلافا لذلك يتحتم عليك ارضاء الالوف من مشايعتك ، ورضاهم غير موثوق منه ، واذا اخفقت في الحصول عليه ؛ فربما عليك ان تسترضي عضد الدولة فيما بعد . كما تعلم ان جميع من حوله يعارضون الهدنة المطروحة ، اذ هو فقط يميل اليها ، فهو قادر ان يفعل ما يريد ، اذ لا يجرؤ فرد ان يحاججه في ذلك . ارى انك تحبذ المهادنة معه ، لكن قد تكون رغبتك غير مدعمة من قبل اولئك المحيطين بك » . فانفعل بحديثي ، ولاح عليه الهم(٤٩) من جراء علمي بمعارضة مستشاريه ، فنهض وغادر .

ان الشخص الخصيص بالعاهل ، والذي يقف حياله ، ويوقع نيابة عنه باللون الارجواني ، والملم بكل شؤونه الرسمية ، كان نيسيفوروس (نقفور) الكانكلي (حامل الدواة) الذي رافقني مبعوثا ، فسألته الانصراف معي ، ففعل .

الترتيب الذي توصل اليه ابن شهرام مع المستشار الخصيص بالعاهل ، وبه اصاب غرضه

عندما انفردت به ، تكلمت : « اروم ان تبلغ عني رسالة الى المليك . لقد طال مقامي هنا ، نعرفني بقراره النهائي . ان لبى مطاليبي ، فهذا حسن ، والا فلا وجه لمقامي بعد الان » . وقدمت الى هذا الخصيص هدية تكريمية مما قد جلبته معي ، مشفوعة بوعود حسنة نيابة عن عضد الدولة . كانت رسالتي كالتالي : «ايها المليك : الاهتمام الاول هو ان تصون نفسك ، ثم ملكك ، ثم اتباعك عليك الا تثق بفرد ، مصلحته في اضرارك ، فبعون ابي تغلب نجم ما جرى في بلادك . اذا ماذا سيحدث لو ان عضد الدولة آزر القوات المعادية ضدك ؟ ان التوصل الى المهادنة بينك وبين اول الرجال(٥٠) وحاكم الاسلام : لا اراه موافقا لهوى مستشاريك . لا يدرك الانسان الا ما لم يجرب ، ولقد حصلت لديك تجارب سبع سنين من العصيان عليك وعلى سلطتك فضلا عن ذلك ، ان دوام الدولة لا يعني دوام بقائك فالبيزنطيون لا يبالون بمن يكون عليها امبراطورا (النص هنا محرف)(٥١) . هذا على افتراض ان عضد الدولة باق في السلطة ، لقد اسديت اليك حسن المشورة ، لعلمي بميل صاحبي وتقديره نحوك . لذا تأمل خطابي ، وافعل كما تراه الافضل» فعاد (نقفور) قائلا : « الجواب هو ان الامور كما ذكرت ، لكن ليس في مقدوري مقاومة الجماعة ؛ وهم يحملون عني فكرة من غشهم وآذاهم . مع ذلك ، سامضي في الامر ، وافعل بقدر ما استطيع»

ومن حسن الطالع ، صادف ان الحاجب (باسيل المخصي) مرض مرضا شديدا ، وعجز عن الخروج ، واستمر تراسلي مع العاهل ، ومثلت امامه في ايام متوالية ، وخاطبني بنفسه ، وآزرني الخصيص (حامل الدواة) بدافع من البغض والحسد اللذين يكنهما للحاجب ، حتى تم الاتفاق على الهدنة وفقا لجميع الشروط في الاتفاق ، ولم تلق المحاولات لاخراج حلب قبولا . وعند الحاجي على هذه النقطة بعزم قائلا : « بدون حلب لا يمكن ان يتم هذا » ، قال : « اقلع عن الاصرار ، فاننا لن نتخلى اكثر مما تخلينا عنه ، كما لن نخلي منطقة نستلم خراجها الا قسرا . لكني سانفذ معك خطابا الى صديقي مولاك ؛ لاني واقف على نبله ؛ ولانه متى عرف الحقيقة ؛ فان يجانبها » . ثم طلب الى الذين حوله ان يبتعدوا ؛ وسرني قائلا : « قل لمولاك اني انشد حقا رضاه ؛ لكن يجب ان امشك برهانا عليه . ان شئتم ان نحول اليكم خراج حلب او ان اترك لكم جبايته شريطة ان يطرد ابن حمدان من حلب ، فانجزوا ما وعدتم عن لسان ابن قونس» ـ ملمحا الى تسليم بدراس « ورد » ـ فقلت : « لم اسمع بذلك ، ولم اكن حاضرا آنذاك ؛ لكني احسب فعله مستبعدا » . فانكر ذلك قائلا : « اقلع عن هذه الاطالة ، فلم يبق لديك شيء آخر تحاورني بشأنه » . ثم اوعز بتحرير الردود ، وكتبت جوابي ، وحضرت للاستئذان بالرحيل .

---

(٤٨) يذكر نص (ذيل التجارب) : « الرفق به » وهذه كلمة كبيرة في صدورها عن رسول يتعامل مع عاهل وقد استعمل صاحب البحث كلمة (Conciliate) التي تعني (يسترضي) وهي انسب في اعتقادي .

(٤٩) استعمل صاحب البحث كلمة (Concern) وهي تعني الهم هنا ، بينما مؤلف (ذيل التجارب) اورد (الامتعاض) .

(٥٠) هكذا جاء في نص البحث "First of Men" بينما في (ذيل التجارب) وصف باوحد الدنيا .

(٥١) هذه ملاحظة صاحب البحث .

حادث سعيد لابن شهرام

ولعدم رغبتي في وقوع مقدور يؤدي الى موت من راموا تسليمه ، كما يقع في نظير هذه الاحوال (النص هنا يبدو محرفا)(٥٢) ، وكي تكون الهدنة مشتملة على جميع امصارنا حتى دون الفرات وبلاد باد(٥٣) بدون حلب . قلت : « تعلم اني عبد مأمور ولست ملكا ، وعلي الا اتخطى التعليمات التي نقلتها اليك بصدق . اما شروطك بشأن حلب ، فقد اقسمت لك باني لم اسمع شيئا بخصوصها في بغداد . لكن هل جلالتك مستعد النظر في تدبير خطر لي بانه من الصواب ان تقره ؟ فاستفهم : «ما هو ؟» واجبت : «ان تنص على الهدنة بيننا وبينك لتتضمن كل اقاليمنا من حمص الى منطقة باد بدون اي ذكر لقضية التسليم التي تنشدون ، فقط ولا شيء عداه ، وتقسم عليه بدينك ، وتوقعه بامضائك ، وتختمه بختمك في حضوري ، ومبعوثك سيوصله الى العاصمة معي ، حيث اما ان يقر واما ان يعيده مبعوثك » فسؤلت : « وهل ستعطي تعهدا خطيا مماثلا ؟ » فاجبت : « اجل ، عند تسليمي شروطك التي تبغي » فأجاب : « ولكن هل ستذكر في صكك تسليم الرجل ؟ » فقلت : « لا يسعني ذكر ما هو خارج تفويضي » . فقال : « اذا سأهيء اتفاقين ، احدهما لما يتعدى الفرات ومنطقة باد ، والاخر بشأن حمص وحلب كما قد اشترط . عندئذ ، اذا اختار مولاك الاتفاق الذي يتخطى تخوم الفرات شريطة اقصائه (بدراس) ، فيستطيع ان يبقيه لديه ، وان آثر الاتفاق الاخر ، فبمقدوره ان ينفذه » . فاقترحت تحرير الاتفاق بدون اي ذكر لهذه المسألة ، فقال : « اذا ، دون ذلك ، اذ لن اعطي اي شيء مكتوب بدون ان استلم الشيء المكتوب » . فقلت : « اذا ، دع ترجمانك ينشيء نسخة من اقوالي ، فان اقرّها عضد الدولة ، امكن نسخها في حضوره ، وتوقيعها من قبله » فوافق على هذا . استنادا الى ذلك ، حررت الشروط ، وجعلت الهدنة لعشر سنين . وعند الفراغ من هذا، قلت : « لا تجعل رسولك كمجرد فيج(٥٤) ، لكن اطلعه على ما تروم منه ان يفعل طبقا لما اتفقنا عليه ، ووفقا لما يرتئيه ، وصادق على كل ما يقره » . فارتضى ذلك ، وحررت الصكوك بمقتضاه .

وعند مبارحة الحاجب دار٥ غب ابلاله ، هاج لاسباب منها تفرد الخصيص (حامل الدواة) بمليكه ، ومنها انجاز الامر في غيبته ، والسبب الثالث هو مسألة حلب وحمص والضمانات التي قدمها اليه كليب .

حديث مليك بيزنطية ، به استمال مشاعر الحاجب

حسبما افادني به بعض خواصهم ، قال العاهل مخاطبا حاجبه : « ليس حولي ، كما تعلم يا حاجبي ، من يشفق علي نظيرك ، ولا من يحتل موقعك عندي ، اذ انت مني في ادنى نسب وصله(٥٥) ، اما الباقون ، كما قال السفير ، فغير مبالين ان كان الامبراطور انا ام غيري . يجب ان تصون نفسي ونفسك ، ولا تصغي الى قول الشر (ليون فوكاس) ، ولا تثق به او بمشورته ، اذ انت تعلم ما رواه ابراهيم عنه وعن ابنه (ورد) حول اضمارهما الغش للكنا وخبث نياتهما نحونا » . فسألت محدثي : من يكون ابراهيم ؟ اجاب : «انه رسول الخصيص اليكم ، وهو الذي اعلن للعاهل ناصحا ان الخصيص (اي برداس ـ ورد) قد انفذه

---

(٥٢) هذه ملاحظة صاحب البحث ، واعتقد انه محق في ذلك فنص (ذيل التجارب) بذكر : « ما يعرض مثله فيخرج من الجميع بغير ميتة (كلا) » . فالتشويش والغموض هنا جليان .

(٥٣) اورد صاحب البحث هذه الملاحظة بشان (باد) : « هو الجد الاعلى لسلالة بني مروان الحاكمة في (ميافارقين) قام (باد) بمحاولة جريئة ضد الموصل بعد وفاة عضد الدولة ، لكنه اخفق وخر صريعا في المعركة . ولم يتسن لي التثبت من صحة هذه المعلومات .

(٥٤) بفتح الفاء وتسكين الياء وتعني رسول السلطان ، الذي يسعى على رجليه ، وهي من الدخيل وقد اوردها صاحب (ذيل التجارب) في نصه حول الموضوع وترجمها صاحب البحث الى (Courier) ،ومن معانيها الساعي او رفيق السياح .

(٥٥) باسيل المخصي كان الابن الطبيعي (غير الشرعي) لرومانوس ليكابينوس والد هيلين قرينة قسطنطين بورفيروجنيتوس جد الامبراطور (باسيل) ـ اميدروز.

اليكم (يقصد المسلمين) ناشدا منكم معاضدته على العصيان » .

فتقبل الحاجب مقالة المليك ، وعندمـــا استدعاني : لاحظت فيه لهجة وانبساطا خلافا للسابق ، لكن نظراته ، في ذات الوقت ، ابانت عن عدم موافقته على الشروط التي حصل الاتفاق عليها. وتم ترشيح حامل الدواة ليكون رسولا معي بعد رفضه المهمة ، لكن العاهل الح عليه بذلك بعد ان لم يجد عداه في اهليته ، واعانه الحاجب قائلا : «انت وانا اهم شخصيتين في البلاط ، واينا ينبغي ان يذهب» . وبلغ من جده في الامر حدا عزوته الى رغبة في اقصائه ، والى حسد لما راى من منزلته الحميمة لدى العاهل .

هذا هو موجز معاني الفاظ ابن شهرام . آنذاك كان عضد الدولة عليلا ، ودخول الناس عليه كان محظورا ، فاوعز ان يقدم اليه تقرير عما جرى. تلك العلة اودت بحياة عضد الدولة ، وبعد وفاته ، مثل المبعــوث البيزنطي امام صمصام الدولــة ، وتسلمت الهدايا منه ، وانجز المهمة التي قدم من اجلها ، فتم تحرير اتفاقين : احدهما الاتفاق الذي حصل مع ابن شهرام على اساس كونه كاملا ودائما والاخر الاتفاق المسبق الذي عقد مع نقفور(٥٦) .

الاتفاق بشان ورد واخيه ونجله

ان المداولات اسفرت عن ان نقفور سيمكث في بغداد ، ويوفد مندوبا عنه برفقة اخرين من بغداد لاستحصال توقيع العاهل وختمه لشقيق (ورد) ــ المعروف عند الروم باسم سكليروز ــ وابنه ، والامان والتوثقة لهما بضمان احسانه ، واعادتهما الى منصبيهما السابقين ، والى وضعهما المستقر . وعند وصول ذلك ، كان على نقفور ان يرسلهما الى العاهل البيزنطي ، بينما على ورد (سكليروز) ان يلبث في البلاد الاسلامية ، وان يمنع من التوجه نحو البلاد البيزنطية بغـــرض الاضرار ، وانه عند اتضاح حسن معاملة الاثنين الاخرين وفقا للتعهد ، عندئذ يجب ارسال (ورد) ايضا في غضون العام الثالث ، بعد استحصال التوثقة بمقتضى شروط على غرار ما تم مع ابنه واخيه ، وان المبلغ المدفوع كجزية(٥٧) عن حمص وحلب من ابن حمدان الى العاهل البيزنطي ، ينبغي ــ اعتبارا من ارسال ورد الى بيزنطية ــ تسديده الى خزانة صمصام الدولة ، واذا تاخر ابن حمدان عن التسديد ، فمالك بيزنطية برغمه آنذاك ؛ كي يوفر على صمصام الدولة ضرورة تجريد حملة عليه اما امر بلاد (باد) ، فيجب ان يتعين على ما كان من هدايا المجاملة(٥٨) الى الملك البيزنطي ، على اساس من المفهوم ان الاخير(٥٩) لن يعين (بادا) او يجيره ان اعتصم بالبيزنطيين . لقد ارسل الاتفاقان سوية وتم توقيعهما .

اما بخصوص ما جرى بشأن اطلاق (ورد) من محبسه : فسيلي ذكره بعدئذ .

* * *

ان اعطاء الامان المقترح الى سكليروز (ورد) واقربائه لم يحصل ، واطلاقه من قبل خلف عضد الدولة جرى بعد انصرام عدة اعوام فقط عند اخفاق (باسيل) في حملته البلغارية ؛ وبسبب قيام (ورد) بالعصيان عليه بالاشتراك مع(فوكاس) ــ استنادا الى (اللحمة ١/٦٧٥) وتاريخ يحيى الانطاكي ١٤/١/١٦٦) ، كان نجل سكليروز ، المدعــو (رومانوس) قد تخلى آنئذ عن قضية والــده ، فاصاب حظوة رفيعة عند باسيل (اللحمة ١/٦٩٤، ٦٩٦ ، ٧٧٢) . هذه الرواية لا تدعم حكاية احتجاز (اورانوس) في بغداد بسبب تدبيره قتل سكليروز (ورد) بدس السم له ، ولا تعطي دليلا ما ان باسيل

(٥٦) اي عندما كان في بغداد رسولا من باسيل بعد فرار سكليروز (ورد) الى بلاد الاسلام ــ اميدروز .

(٥٧) وصف صاحب (ذيل التجارب) هذا المبلغ بكونه (مال المفارقة عنهما) ، بينما عبر عنه صاحب البحث بالجزية (Tribute) كما تعني الاتاوة او الضريبة الثقيلة .

(٥٨) نص (ذيل التجارب) يقول : « على ما كان عليه من الالطفة » وهذا غير مفهوم في زماننا وقد ترجمه اميدروز الى (Complimentary Presents)

(٥٩) يقصد صاحب البحث العاهل البيزنطي .

كان ساخطا على حكم وزيره(٦٠) : باسيل المخصي ؛ الذ كان سقوطه مقبلا في عام ٣٧٥هـ (٩٨٥م) وهو التاريخ الذي حدده يحي بن سعيد الانطاكي (اللحمة ٥٧٢/١) .

كما انها تبين ان القيمة التي علقها باسيل على تسليم سكليروز (ورد) كانت كما لو انه على استعداد لشرائها على حساب الخراج باكمله او الجزية ، الواجب دفعهما اليه من حلب بمقتضى شروط استسلامها الى (بيتر فوكاس) في عام ٣٥٩هـ (يحيى الانطاكي ١٥/١/١٣٤ و « امبراطور بيزنطي » ص ٧٣٠) . ان هذا الشطر من المعاهدة قد ابطل ، واستمر دفع المبالغ من حلب ولو بمقادير اقل (يحي الانطاكي ٢/١/١٦٥ و ٢٢/١/١٦٦ واللحمة ٥٥٠/١ ، ٥٧٠ ــ ٥٧١) ، ومرة واحدة سددت كاملة « يحيى الانطاكي ١٢/١/١٧٦ واللحمة ٩٢/٢) . ان (شلمبرغر) يفترض ارسال المبالغ بانتظام (ص ٤٣٥) ، ومن المؤكد ان قسطا كان في سبيله الى بيزنطية عندما اعترضه سكليروز (ورد) في الايام الاولى لتمرده (٢٨٣/١) . ويهمنا ان نعرف مدى اهمية هذه الجزية في بيزنطية كمال مضمون للدولة ، وبتعبير اخر : ما كانت عليه قيمتها الشرائية في السوق . ثمة كشف دقيق في كتاب (الفرج بعد الشدة) ١٣٢/٢ و ١٢/١ : انه قبل زهاء نصف قرن من ذلك التاريخ ، كانت قيمة قطعة ارض في سواد بغداد شروى اربعة اعوام ، بعد خصم الخراج وحقوق الدولة الاخرى . كما يتضح ان ما متوقع استلامه من ضرائب الاراضي ، احرزت قيمة مبيع عالية ، لانه هكذا كان المعول على الواردات المالية للوزيرين (ابن مقلة)ــ تجارب الامم الجزء ٣٢٧/٥ ــ ٣٢٨ ــ والمهلبي (الجزء ١٦٨/٦ ــ ١٦٩ ــ وقارن هذا بما جاء في ص ٨٢٩ و ٨٣٦ من مجلة الجمعية الاسيوية الملكية لعام ١٩١٣) . لكن من ناحية ثانية ، كانت اهمية ما يتوقع الخليفة من الجزية من حاكم خاضع له ، باعتبار ما جرى بين رسول الخليفة وعم عضد الدولة وسلفه (الجزء ٥ ص ٤٦٥ ــ ٤٦٦) تعتبر قليلة جدا في سوق بغداد ، ومن الجائز ان ذات الافتراض سيكون صحيحا فيما يتعلق بجزية حلب في سوق بيزنطية.

(٦٠) لاول مرة يذكر صاحب البحث بان باسيل المخصي كان وزيرا ، بينما في المواضع السالفة ذكر « الحاجب » . وحتى صاحب (ذيل التجارب) ذكر الصيغة الرومية « بركموس » ولم يذكره كوزير مطلقا .

حدائق الحيوانات في بغداد

بقلم
عادل محمد علي
وزارة الشباب ـ بغداد

فذلكة عن فكرة انشاء حدائق الحيوان في وادي الرافدين

لقد كان العرب سباقين في كل شيء طرقوه من اركان الحضارة الانسانية في الابتكار والاختراع والتطوير ؛ فهم اسياد افكارهم وبناة العلوم التي اصبحت فيما بعد اهم اسس بناء الحضارة العلمية العالمية . وقد يندهش اكثرنا اذا علم ان الاقوام العربية القديمة كانت هي اول من عرف اقتناء الحيوانات وبناء اماكن شبيهة بحدائق الحيوانات الحالية ؛ ويشير المؤرخون الى ان عملية انشاء او اقامة حدائق الحيوان في العصور القديمة في العراق مرت بثلاثة اشكال من الحدائق ؛ الشكل الاول مناطق الصيد المتواجدة ضمن الرقعة المملوكة لهذا الامير او ذاك وهذا ما شهدته على وجه التحديد فترة السومريين فقد كان ملوك هذه الدولة يمتلكون حدائق مسورة تضم كثيرا من الحيوانات لاغراض الاحتفالات التي كانت تعد لكهان وقادة الشعب والملوك (الذين يسهمون في خدمة آلهة القوم) وحاشيتهم فيرخي في أثناء مسيرته الدرج الثلاث لبلوغ قمة برج المعبد . ومن هذا المطاف السامق يتاح للمحتفلين ان يشاهدوا دخان الضحايا منبعثا من مزارات بعيدة ؛ وبعدئذ يهبون الآلهة الضحية التي تطلبها من المخلوقات الحية والتي تقضي بها الطقوس المقدسة(١) . ويؤكد المؤرخون على ان جنائن بابل المعلقة الشهيرة كانت تضم بين ما تضم من حدائق غناء جناحا كبيرا من انواع الحيوانات والطيور ولا سيما التي تعيش في المناطق الجبلية . في حين لم يقم الاكديون ببناء مثل هذه الصيغ من حدائق الحيوان ! .

والشكل الثاني هو احاطة مناطق تواجد الحيوانات بقوانين صارمة لحمايتها لا من منطلق الحفاظ عليها وانما من اجل توفيرها لاغراض الصيد مثل هذا النوع من القوانين كان واضحا ايام الملك الاشوري (آشور ناصربال الثاني) .

واحتوت مسلة الملك الشهير حمورابي في احدى موادها مواصفات للرقع الارضية وغطائها النباتي واماكن اختباء الحيوانات وكانت كلها تهدف الى حماية تواجد الحيوانات البرية في مناطق الامبراطورية البابلية وهي اشبه ما تكون حدائق حيوانات مفتوحة اي ما يسمى الان بالمحميات الطبيعية .

وقد انقرضت كثير من الحيوانات في تلك الفترة نتيجة الصيد المستمر ، ويبدو ان حيوان البيسون الذي كان يرتاد سهول امريكا بصورة خاصة كان نوعا منه على ما يظن موجودا في العراق وكان يعرف بالسومرية بكلمة « الم » وكانت له قدسية في العصر الكلاسيكي ، ولما انقرض (في الالف الرابع ق. م) استمر السومريون على تمثيله في فنونهم براس عجل تشد عليه لحية مستعارة لان البيسون يتميز عن الثور بلحيته ، وهذا ما نشاهده في القيثارة الذهبية المعثور عليها في اور التي تبعد ١٥ كم عن مدينة الناصرية حيث

---

(١) المعرفة/المجلد الاول ـ بيروت/ص ١٦٥ .

نرى الحية مشبته بشريط على انف العجل في مقدمة القيثارة(٢) .

ويذكر لنا الملك الاشوري تغلات بلاصر الاول (١١١٢ ـ ١٠٧٤ ق.م) بانه بعد ان طارد قبائل احلامي في حملته العسكرية الخامسة عبر نهر الخابور قتل في المنطقة الواقعة بالقرب من مدينة حران عشرة فيلة واصطاد اربعة احياء نقلها الى بلاده ليحتفظ بها في الحديقة التي نظمها ليشاهد الحيوانات بصورة حية .

ويبدو من هذه الاشارة ان عدد الفيلة اخذ يقل في هذه الفترة . وظلت اعداد منها ترتاد الفرات في زمن اشور ناصربال الثاني الى ان انقرضت باصطيادها من قبل الاشوريين انفسهم في القرن الثامن قبل الميلاد . اما الاسود فقد كانت منتشرة في شمال العراق وجنوبه وظلت تذكر في الكتب العربية ، واخر اسد ذكر اصطياده كان عام ١٨٩٦(٣) .

ومثلما انقرض البيسون والفيل والاسد ، كذلك انقرضت الخيول البرية والنمور والفهود والقطط وبقر المهاة وحمر الوحش والايايل واليحمور والضباع والضان البرية ، ومن الطيور النعام وغيرها .

وينقل لنا زينفون صورة للبيئة التي شاهدها بنفسه عندما رافق في حدود عام ٤٠٠ ق.م الحملة التي سار بها كورش الامير الاخميني الثائر من آسيا الصغرى الى طيسفون (المدائن) . ويقول زينفون : البلاد سهلة منبسطة كالبحر مكسوة بشجيرات الافسنتين وبكل ما ينبت من الاعشاب والشجيرات ذات الرائحة العطرية ، الا انه لا توجد اشجار . ومن الحيوانات البرية الكثيرة الانتشار الحمار الوحشي والنعام ، ويلي ذلك كثرة الحباري ثم الغزلان التي طاردها فرساننا . والحمر الوحشي لما طوردت سبقت الخيل (لانها اسرع منها) ، ثم وقفت ولما اقتربت منها خيولنا ركضت ثانية ثم وقفت ، وهكذا لم يتمكن فرساننا من اصطيادها الا بعد ان انقسموا الى زمر فتمكنوا من ملاحقتها من جميع الجهات واستطاعوا اصطياد الواحد منها بعد الاخر . ان لحم الحمر المصطادة يشبه في طعمه لحم الغزال الا انه اكثر طراوة . وظل هذا الحيوان يرتاد بادية جزيرة العراق الى زمن حديث . يذكر لنا المنقب المشهور ليارد بانه شاهد قطيعا من حمر الوحشي في طريقه من سنجار الى تلعفر في عام ١٨٤٦(٤) .

اما الشكل الثالث فهو اقامة حدائق حيوانات حاوية على حضائر او بيوت من الاسلاك المشبكة ضمت الطيور بشكل اساسي ، وبعضها الطيور التي كانت تأتي كهدايا . وفي عهد ظهور الاسلام والدولة العربية اخذت حدائق الحيوان شكلا مميزا يتسم بالروعة والبهجة حيث احتوت قصور الخلفاء على نوادر الطيور والحيوانات الوحشية ، وفي نفس الوقت ومع بداية التطور العلمي في العصر الذهبي للعرب كانت حدائق الحيوانات والنباتات تتخذ كمراكز للتزود العلمي للفقهاء والعلماء في ذلك العصر . يقول الاب انستاس ماري الكرملي « ان العرب سبقوا غيرهم من الامم في انشاء حدائق الحيوانات وانهم كانوا يسمون حديقة الحيوان (حيرا) ، وجمعه (حيران) ؛ ومنها القصور الشهيرة التي بناها الامويون في اطراف الجزيرة العربية مما يلي الاردن وسوريا من امثال قصر الحير الشرقي والحير الغربي وغيرها » .

ويقول الاستاذ ميخائيل عواد : (اتخذت الحيوانات الكاسرة في بدء الامر للهو فقط ، ثم جاء خلفاء بني العباس فاتخذها الاوائل منهم لاقامة الهيبة وحفظ نظام المملكة وحراستها من اطماع الرعية ، فارتبطوا الاسود والفيلة والنمور . ذكر المؤرخون ان الخليفة المنصور عني بجميع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة اياها واقتنائها لها واعدادها للحروب والزينة في الاعياد وغيرها ؛ انها اوطأ مراكب الملوك وامهرها . وكان للرشيد اقفاص فيها الاسود والنمور وغيرها . ثم تطور الامر من بعد ذلك فعني الخلفاء والامراء والملوك واعيان القوم بتخصيص محل واسع الارجاء يضم جملة كبيرة من مختلف اصناف الحيوان الكاسرة والداجنة والطير والهوام والحشرات ويطلق على ذلك المكان «حير الوحوش» فالحير : بستان واسع فيه انواع الحيوان وهو المسمى بالانكليزية (Zoo) ، والعرب سبقوا الامم المتمدنة . الى اتخاذ تلك الحضائر لحبس الوحوش والحيوان فيها ، ودرس اخلاقها وعاداتها ، مع التفرج على ما هنالك من عجيب المخلوق)(٥) .

(٢) البيئة الطبيعية القديمة في العراق/سومر ، الجزء ١ و ٢/ص ٥ .
(٣) المصدر السابق/ص ٧ .
(٤) المصدر السابق/ص ٧ .
(٥) حدائق الحيوان في العصور الاسلامية/ص ٣٠ .

وقد تجدد الاهتمام بانشاء حدائق الحيوانات في العراق في العهد العباسي لان انشاء مثل تلك الحدائق كان من مظاهر الترف الكبرى التي تفنن العراقيون في تنظيمها وتزيينها ، ومن هنا راح بعض الخلفاء وغيرهم من الموسرين والهواة يقبلون على انشاء حدائق الحيوانات في قصورهم وحدائقهم ويبذلون الاموال لجلب مختلف انواع الحيوانات من اقصى بقاع الارض .

وكانت حدائق الحيوانات لدى العراقيين تصمم على اشكال متباينة فالبعض من الهواة كانوا يجمعون الحيوانات والطيور في اقفاص وحظائر بين اشجار الفاكهة والكروم والاوراد . وكان بعض الناس يجمع بالاضافة الى الطيور والحيوانات المختلفة انواع الافاعي والحيات والعقارب والضبية (مفردة ضب ، نوع من الزواحف) والقطايا وما شاكلها في اقفاص خاصة بها في تلك الحدائق ايضا. وكان البعض الاخر يقيم حديقة منفصلة او يقتطع ركنا واسعا من احدى حدائق قصره ليجمع فيه ما يستطيع جمعه من كل زوجين اثنين ويجعل لكل زوج منها قفص خاص به . وهناك من يفرد لكل زوج من الحيوان او الطير جناحا خاصا واسعا يكون مسورا تسويرا قويا وعاليا بحيث تستطيع الحيوانات ان تتحرك فيه وان تحلق الطيور في اجوائه بكل حرية : فالحيوانات في مثل هذه الاجنحة لا تقيد بالسلاسل ولا تحتجز داخل الاقفاص وانما تترك حرة طليقة داخل تلك الاجنحة(٦) .

وكان لهذه الحيوانات رجال مواظبون يعنون باطعامهم وتنظيفها ويتحققون من نظافتها ونظافة الاماكن التي تعيش فيها .

وكان جمع هذه الحيوانات وجلبها من اقاصي المعمورة يكلف اموالا طائلة ، فالبعض من الخلفاء والموسرين لم يكن ليكتفي بارسال المبعوث والرسل الى مختلف الاقطار لجلب اندر الحيوانات والطيور فحسب وانما كانوا يستخدمون امهر القناصة والصيادين لاصطياد الطيور والحيوانات المتوحشة ايضا .

فقد كان لدى الخليفة الامين جماعة من اصحاب اللبابيد والحراب (وهي العدة الخاصة باقتناص الحيوانات الضارية) يركبون البغال ويصطادون له الاسود ويضعونها في اقفاص ثم يجلبونها الى قصر الخليفة(٧) .

بغداد أسبق العواصم في انشاء حدائق الحيوان

لقد ولع الخلفاء العباسيين باقتناء انواع الحيوانات والطيور والاسماك : وذلك لحبهم للطبيعة وما يتعلق بها ، وبالنظر لان بغداد كانت عبارة عن غابة متشابكة الاشجار والنخيل مما جعلها تعج باصناف كثيرة من الطيور والحيوان وهذا كان يدفع الخلفاء والامراء والناس الى التمثل بهذه الغابة الكبيرة بحيث يجعلوا بعض الاماكن في دورهم او بقربها غابات مصغرة لذلك .

ويشير الاستاذ سليم طه التكريتي الى ذلك فيقول : (بغداد سبقت غيرها من عواصم العرب والشرق في انشاء حدائق الحيوانات وان تلك الحدائق لم تكن من معالم الابهة والزينة التي اغرق فيها بعض الخلفاء العباسيين ومن جاء بعدهم من السلاطين حسب ، وانما شاركهم في هذه الهواية انشاء حدائق الحيوان عدد كبير من الهواة الذين برزوا البعض من الخلفاء والوزراء في هذا المضمار) .

واشهر من استانس الحيوانات وانشا لها الحدائق والمرابي ، وعهد الى ذوي الاختصاص رعايتها والقيام على شئونها الخليفة هارون الرشيد ففي عام ٧٩٧م ارسل الخليفة نفسه الى الملك الفرنسي شارلمان هدية تتكون من فيل وبعض النسانيس اخرجها من حديقة حيوانات بغداد آنذاك . ولما افضت الخلافة الى الامين وجه الى جميع البلدان في طلب الوحوش والسباع والطير وغير ذلك . ولشدة ولعه بجمع الحيوان امر بعمل خمس حراقات في دجلة . والحراقات : (جمع حراقة وهي ضرب من السفن) وجعلها على شكل حيوان (اسد ، فيل ، عقاب ، حية ، فرس) . وكان الامين يتردد كثيرا على حير الوحوش ومعه ابراهيم الموصلي المغني الشهير — قال شاهد عيان ان ابراهيم غنى في احد الايام اشد طبقة يتناهى اليها في العود .

قال : وما سمعت مثل غنائه يومئذ قط ، ولقد رأيت منه شيئا عجيبا لو حدثت به ما صدقت كان اذا ابتدا يغني اصغت الوحوش اليه ومدت اعناقها ولم تزل تدنو منا حتى تكاد ان تضع رؤوسها على المحل الذي كنا عليه ، فاذا سكت

---

(٦) حدائق الحيوانات في العراق/ص ١٧ .
(٧) المصدر السابق/ص ١٨ .

نفرت وبعدت عنا حتى تنتهي الى أبعد غاية يمكنها التباعد فيها عنا . وجعل الخليفة الامين يعجب من ذلك(٨) .

ويقول الدكتور احمد سوسة في كتابه (ري سامراء في عهد الخلافة العباسية): (ويستدل مما ذكره المؤرخون ان المأمون (١٩٨ ــ ٢١٨هـ / ٨١٣ ــ ٨٣٢م) قد انشأ حيراً للوحوش حيث جاء في معجم ياقوت ان الحير كان قد انشيء من قبل المأمون قبل توليه الخلافة ، وقد انشأ بجواره ميدانا اركض الخيل واللعب بالصوالجة وقد الحق الميدان والحير بالقصر المعروف بالجعفري وهو القصر الذي بناه جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك قبل ان اوقع الرشيد بالبرامكة ، ثم سمي هذا القصر بالمأموني ثم الحسيني عندما وهبه المأمون الى عمه حسن بن سهل وذلك بعد ان تزوج المأمون بنت بوران بنت الحسن بن سهل ، واليك ما كتبه ياقوت في مادة التاج ، قال : « وكان قصر الجعفري احب المواضع الى المأمون واشهاها لديه واقتطع جملة من البرية عملها ميدانا لركض الخيل واللعب بالصوالجة وحيرا لجمع الوحوش وفتح له بابا شرقيا الى جانب البرية واجرى فيه نهرا ساقه من نهر المعلى وابتنى مثله قريبا منل منازل برسم خاصته واصحابه سميت المأمونية ») .

وكان في قصر الخليفة المقتدر بالله ببغداد حوالي عام (٣٠٠هـ / ٩١٢م) حيرة بها قطعان من اصناف الوحوش ، وصار يغنيها بكل غريب من الحيوان من جميع العالم وخاصة الاسود ، ولم تكن السباع في ذلك العصر نادرة بالشام ولا على شواطىء نهري دجلة والفرات ، بل كانت احيانا تدنو قريبا جدا من بغداد ، حتى انه في عام ٣٣١هـ ــ ٩٤٣م خرج الخليفة المقتدر الى الشماسية بجوار بغداد لصيد السباع(٩) . وجاء ذكر هذه الحدائق التي تقع في مدينة بغداد الشرقية باسم الحير ايضا اذ ذكر ابن مسكويه في كتابه («تجارب الامم » ان بعض جند المقتدر شق عصا الطاعة (٢٩٥ ــ ٣١٠هـ / ٩٠٨ ــ ٩٣٢م) . فنهب قصر الثريا وذبح الوحش الذي في الحير وذبحوا البقر التي لاهل القرى التي حوله وخرج اليهم مونس وضمن لهم ارزاقهم فرجعوا الى منازلهم)(١٠) .

ولعل الحيوانات التي في هذه الحير هي من جملة الوحش الذي نقل من (سر من رأى=سامراء الحالية) الى حير بغداد ؛ وذلك بعد ان تم ارجاع مقر العاصمة الى مدينة السلام في عهد المتضد (٢٧٩ ــ ٢٨٩هـ / ٨٩٢ ــ ٩٠٢م) وفي عام ٣٠٥ للهجرة (٩١٧م) وصل الى بغداد سفراء من القسطنطينية للتفاوض للصلح بين الخليفة المقتدر وعاهل الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فشهدوا في بغداد ما وصفه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد بقوله : « ولقد ورد رسول لصاحب الروم في ايام المقتدر بالله ، ففرشت الارض بالفروش الجميلة وزينت بالالات الجليلة .. ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة ، وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة ، وبين ايديهم الجنائب (هي الخيل ، جمع جنيبة ، وهي الفرس تقاد ولا تركب) ؛ على مثل هذه الصورة » .

« وادخل رسل صاحب الروم من دهليز باب العامة الاعظم الى الدار المعروفة بخان الخيل ، وهي دار اكثرها اروقة باساطين رخام ؛ وكان فيها من الجانب الايمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهبا وفضة بغير اغشية ، ومن الجانب الايسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج (جل الدابة ، كثوب الانسان يقيه البرد) بالبراقع الطوال ؛ وكل فرس في يدي شاكري بالبزة الجميلة » .

« ثم ادخلوا من هذه الدار الى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش (الحير : الحظيرة او الحمى) . وكان في هذه الدار من اصناف الوحوش التي اخرجت اليها من الحير قطعان تقرب من الناس وتتشممهم وتأهل من ايديهم . ثم اخرجوا الى دار فيها اربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي ؛ على كل فيل ثمانية نفر من السند والزراقين بالنار ... فهال الرسل امرها » .

« ثم اخرجوا الى دار فيها مائة سبع ، خمسون يمنه وخمسون يسره ، في رؤوسها واعناقها السلاسل والحديد ؛ وشاهدوا الزرافة والفهود وحيوانات اخرى كثيرة »(١١) .

(٨) حدائق الحيوان في العصور الاسلامية/مجلة هنا بغداد/ص ٢١ .
(٩) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/ص ٢٦٤ .
(١٠) ري سامراء في عهد الخلافة العباسية/ص ٢٩٦ .
(١١) حدائق الحيوان/دائرة معارف الشعب/ص ١٩٧ ــ ١٩٨ .

وأشتهر عضد الدولة البويهي بتربية الحيوانات وافرد حديقة خاصة بها في قصره . وكان مما اعتاده عضد الدولة انه اذا جلس على كرسيه يامر باحضار النمور والسباع وغيرها من الحيوانات المفترسة فتحضر اليه مقيدة بالسلاسل ثم توضع في حواشي مجلسه ، وكان يفعل ذلك بغية ارهاب الناس واخافتهم وكان للخليفة القاهر بالله ببغداد بستان للطير ، كانت لذته من الدنيا . وصفها المؤرخ والرحالة العربي المسعودي صاحب كتاب « مروج الذهب » بقوله : « كان نحو جريب (فدان) قد غرس فيه النارنج وحمل اليه من البصرة وعمان مما حمل من ارض الهند ، وقد اشتبكت اشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من احمر واصفر ، وبين ذلك انواع الغروس والرياحين والزهر ، وقد جعل في ذلك الصحن انواع الاطيار مما قد جلب اليه من المماليك والامصار . وكان في غاية الحسن » .

واشتهرت حديقة الحيوان للوزير ابن مقلة (عاش في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع الهجري) في منطقة الزاهي من شمالي بغداد الحالية على نهر دجلة وخبرها طريف للغاية لما كانت عليه من النضرة والبهجة والبهاء . حكى شاهد عيان انه رأى شبكة الابريسم التي كان افرخ فيها ابن مقلة الطيور الغريبة قال : فعمد الى مربع كبير فيه بستان عظيم عدة اجربة (اي فدادين) فقطع منه قطعة من زاوية ، فكان مقدار ذلك جريبين بشباك ابن ابريسم ، وعمل في الحائط بيوتا تأوي اليها الطيور وتفرخ فيها . ثم اطلق فيها القماري والدباس والقبج والفواخت والطيور التي التي من اقاصي البلاد من المصونة ومن المليحة الريش فتوالدت وجاءت باجناس غريبة : ثم عمد الى باقي الصحن فطرح فيه الطيور التي لا تطير كالطواويس والبط وعمل منطقة اقفاص فيها فاخر الطيور وجعل من خلف البستان الغزلان والنعام والايائل والارانب والابل والبقر البدوية وحمر الوحش . ولكل صحن ابواب تنفتح الى الصحن الاخر فيرى من مجلسه سائر ذلك . ويقول ابن الجوزي في كتابه « المنتظم في التاريخ » ان ابن مقلة كان يحاول ان يجرب التزاوج بين الحيوانات المختلفة . وحدث ذات مرة ان وقع طائر بحري في حديقته تلك على طائر بري فازدوجا وباضا وافقا فلما بشر بذلك اعطى من بشره به بهدية مائة دينار على ذلك .

ومن الذين اشتهرت حدائق الحيوان لديهم في بغداد ايضا « أبو جعفر محمد بن جعفر التوملي » وكان من السراة المترفين ، ابتنى له في بغداد دارا فسيحة يحيط بها بستان واسع يضم مختلف اشجار الفاكهة والورود وافرد في تلك الدار حديقة خاصة بالحيوانات التي كانت تضم اندر الطير والغزلان والسباع وغيرها . وقد تحدث « ابو عبد الرحمن العتبي » انه دخل ذات يوم على محمد التوملي وهو جالس على ضفة تقع على بركة ماء ويشرف منها على البستان وحير الغزلان وحظيرة القماري واشباهها ، فقلت له : « يا ابا جعفر انت والله جالس في الجنة ! » ، فقال : « فليس ينبغي لك ان تخرج من الجنة حتى تصطبح فيها ! » .

سامراء تتوج بهاءها ببناء حدائق حيوانات كبيرة فيها

وكان بقصر الخليفة بسامراء على عهد المعتصم ، مكان يحفظ به الحيوان ، وهو يسمى « حير الوحش » ، ويحكى عن المعتز حوالي منتصف القرن الثالث الهجري انه اطلع عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ، وقد نزل ضيفا عنده على عراك بين اسد وفيل ، وكان ذلك احد العجائب التي اطلعه عليها(١٢) .

وقام الخليفة المتوكل ، بانشاء حير للحيوانات : وتقع هذه الحدائق خارج مدينة سامراء ومشتملاتها من جهة الشرق بين القاطولين ، القاطول الاعلى الكسروي وبين القاطول الاسفل (نهر القائم) وهي مسورة بسور من الطين يحيط بها من جميع اطرافها ويستدل من آثار هذا السور على ان الحديقة كانت مستطيلة الشكل يمتد ضلعاها الجانبيان باتجاه الشمال ، اما الضلعان الاخران فان الضلع الشمالي الذي يمتد من الغرب الى الشرق يتصل بكل من الضلعين الجانبيين في ركنيهما بزاوية قائمة . اما الشرقي فيسير على محاذاة نهر القاطول الاسفل (مجرى القائم) على مسافة ٦٥٠ مترا تقريبا من منفته اليسرى ، ويتصل الضلع الاخير هذا بالقصر الذي بالمشروحات حيث يقع في منتصف هذا الضلع تماما . وبلغت مساحة الحير حوالي ٢٠ الف مشارة وجاء ذكر حير الحيوانات التي ابتناها المتوكل عند اليعقوبي قال : « وهذه الشوارع التي من الحير كلما اجتمعت الى اقطاعات لقوم هدم الحائط وبنى خلفه حائط غيره وخلف الحائط الوحش من الضباء

(١٢) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/ص ٢٦٤ .

والحمير الوحش والأيائل والارانب والنمام ، وعليها حائط يدور في صحراء حسنة واسعة »(١٢) .

ومما يدل على ان الساحة التي تقع فيها حديقة المتوكل للحيوانات كانت تسمى بالحير ، وانها كانت الى جانب القاطول ، وصف للبحتري لهذه الحديقة في شعره فقد سماها بالحير اي بمعنى الحديقة او البستان ، فقال يخاطب المتوكل مشيرا الى حيوانات الحديقة .

يرعن منك الى وجه يرين له
جلالة يكثر التسبيح رائيها
حتى قطعت بها القاطول واخترقت
بالحير في عرصة فسح نواحيها

ويشير البحتري كذلك في اشعاره الى أن عدد الحيوانات التي كانت في الحير الذي انشاه المتوكل، يقدر بالفي وحش وفي ذلك قال وهو يخاطب المتوكل .

الفان واخت على قدر مسارعة
الى قبول الذي حاولته فيها

وهذه الابيات مما انشده البحتري يصف بها حديقة حيوانات المتوكل وصفا رائعا :

ولم انس وحش القصر إذ ريع سربه
واذ ذعرت اطلاؤه وجآذره
واذ صيح فيه للرحيل فهتكت
على عجل استاره وستائره
ووحشته حتى كان لم يقم به
انيس ولم تحسن لعين مناظره
كان لم تبت فيه الخلافة طلقه
بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها
وبهجتها والعيش غض مكاسره

ومما يؤيد وجود السباع في حير المتوكل ما ذكره المسعودي عن قتلها على عهد المهتدي (٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ / ٨٦٩ ـ ٨٧٠م) وهذا نصه : « وقد كان المهتدي بالله ذهب في امره الى القصد والدين فقرب العلماء ورفع من منازل الفقهاء وعمهم ببره وكان يقول يا بني هاشم دعوني حتى اسلك ملك عمر بن عبدالعزيز فاكون فيكم مثل عمر بن عبدالعزيز في بني امية . وقلل من الباس والفرش وامر باخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم وعمد الى الصور التي كانت في المجالس فمحيت وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين ايدي الخلفاء ، والدبوك وقتل السباع المحبوسة ورفع بسط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة باباحته »(١٤) .

ويمكن ان نستخلص ان الحير المذكور كان يضم عددا كبيرا من الحيوانات المفترسة والوحوش الضارية ، وكانت هذه الضواري في الاقفاص وضمن الجدران الداخلية وكان قسم آخر منها وهو القسم الاكبر طليقا وسط الحير الواسع ، وكانت مساحة الحير من السعة بحيث يسهل معها الصيد والقنص.

حدائق الحيوان والصيد

بعد مجيء خلفاء بني العباس الى الحكم وبناء المدينة المدورة بغداد ، اقبل الحكام والمتنفذون والمحكومون على الترف وكانت متع الصيد وجمع الحيوانات في اقفاص وملذاته في طليعة ما اقبلوا عليه ، فجعلوا يقضون في حفلاته ورحلاته اجمل ايام العمر ، وينفقون على جوارحه وضواريه انفس المال . فكان المهدي محبا للصيد مشغوفا به حتى انه لا يكاد يغبه (من اغب القوم : اي اتاهم يوما وتركهم يوما) او يصبر عنه ، وقد اكثر من رحلات الصيد ورويت له فيها طرائف وحوادث منها ما نقله المسعودي وغيره عن الفضل بن الربيع انه قال : خرج المهدي متنزها ومعه مولاه عمرو بن ربيع وكان شاعرا فانقطع عن العسكر والناس في الصيد فانتاب المهدي جوع شديد ، فقال لعمرو : ويحك الا انسانا عنده ما ناكل ! ! فما زال عمرو يطوف الى ان وجد صاحب مبقلة والى جانبها كوخ له فقعد اليه ، فقال هل عندك شيء يؤكل ؟ قال : نعم ، رقاق من خبز شعير وزبيب وهذا البقل والكراث ، فقال له المهدي : ان كان عندك زيت فقد اكملت ، قال : نعم عندي فضلة منه ، فقدم اليهما ذلك فاكلا اكلا كثيرا . واوفى العسكر ولحقته الخزائن والخدم والموكب ، فامر لصاحب البقلة بثلاث بدر دراهم(١٥) .

---

(١٢) دي سامراء في عهد الخلافة العباسية/الجزء ٢/ص ٢٩٤ .

(١٤) المصدر السابق/ص ٢٩٦ .
(١٥) الصيد عند العرب/ص ٤٤ .

وقد عرف ملوك البلاد المجاورة ولع المهدي بالضواري وشدة شغفه بالصيد وجمع الحيوانات حتى ان « ميخائيل بن ليون » عظيم الروم لما وقف على ذلك اهدى اليه كتابا في دفن البيزرة كان لاوائل الروم . وقيل ان المهدي كان يحتفظ بانواع عديدة من الحيوانات التي كان يصطادها في مكان ملحق بقصره على شكل حديقة حيوانات صغيرة .

وكانت للرشيد رحلات صيد صاخبة يقوم بها ومعه رجال دولته وبعض شعرائه من امثال ابي نواس ، وكان الخليفة يتخلى في هذه الرحلات عن وقاره . وكان اذا نمي اليه خبر متفنن في الصيد استقدمه اليه واتخذه لنفسه ، فقد روى صاحب (انس الملا) انه كان في زمن الرشيد رجل من اهل البصرة اسمه ابراهيم البازيار يصيد جميع الطير وكان له كتاب في البيزرة ، وكان من ادوات صيده التي استحدثها قصب الدبق، فاستدعاه الرشيد اليه واحله عنده منزلة عالية لمعرفته بالضواري وبالدبق، وتفرع التدبيق من ابراهيم البازيار ، ودبق الناس بعده بخمس قصبات او اكثر زمن المأمون . وكما عرف عن المهدي في الافاق ولعه بالصيد وادواته فقد عرف مثل ذلك عن الرشيد فاغتنم «نقفور» ملك الروم باحدى المناسبات الطيبة واهدى الرشيد اثنى عشر بازيا واربعة أكلب من كلاب الصيد ليتقرب اليه بها(١٦) . وقد ضمها الرشيد الى حديقة حيواناته بعد ذلك .

وبعد ان آل الامر من بعد الرشيد الى ابنه محمد الامين فقد كان اشد حبا للصيد واحرص عليه من كل من تقدمه . فقد روى المسعودي ان الامين اصطبح يوما وكان اصحاب اللبابيد والحراب قد خرجوا على البغال الى سبع كان بلغهم خبره بناحية (كوثى) (والقصر) فاحتالوا عليه الى ان اتوا به في قفص من خشب على جمل بختي فحط بباب قصر الامين وادخل عليه فلما مثل في صحن القصر والامين مصبح قال لهم : خلوا عنه وافتحوا باب القفص ، فقيل له : يا امير المؤمنين ، انه سبع هائل اسود وحشي . وقد قال « ابراهيم بن المهدي » استأذنت على الامين يوما وقد اشتد عليه الحصار من كل وجه فاذا هو قد طلع الى دجلة بالشباك ، وكان في وسط قصره بركة عظيمة وفي المخترق شباك حديد فسلمت عليه وهو مقبل على الماء والخدم والغلمان قد انتشروا يفتشون الماء وهو كالواله ، فقال لي وقد ثنيت بالسلام وكررت ، لا تؤذوني فمقرطقتي ذهبت في البركة مني الى دجلة ومقرطقته هذه سمكة كانت صيدت له وهي صغيرة فقرطها حلقتين من ذهب فيهما حبتا در ، قال فخرجت وانا يائس من فلاحه ، وقلت : لو ارتدع من وقت لكان هـذا الوقت »(١٧) .

وورث المتوكل عن اجداده الولع بالصيد من اجل اشباع رغبته في اكثار حيوانات حيرة التي كانت من اعظم حير الحيوانات في ذلك الوقت . وشغف المعتضد بالله بالفهود والاستكثار منها واربى عليه في ذلك حتى قال صاحب الجمهرة « واكثر من اشهر باللعب بالفهود من العباسيين المعتضد ، فانه كان شديد الغوايه بها »(١٨) .

والحقيقة ان الصيد الذي مارسه خلفاء بني العباس وغيرهم من الوزراء والامراء يكن لمجـرد الاستمتاع واللهو كما يظن الكثيرون وانما كان في اكثر الاحيان لغرض تزويد الحدائق التي ابتنوها لهم بالحيوانات المختلفة وارسال قسم منها كهدايا للملوك وامراء الدول المجاورة لهم لتقوية مركزهم الدولي .

بغداد تعيد مجدها من جديد في انشاء حدائق الحيوانات

وبعد مرور حقبة تاريخية طويلة اندثرت فيها فكرة انشاء حـدائق الحيوانات بسبب الحـروب والغزوات المتتالية التي تعرض لها العراق ومن بينها بغداد . الا انه كانت هناك محاولات شخصية قام بهـا ولاة وحكام مناطـق وشخصيات كبيرة ووجهاء في اقامة حدائق للحيوانات المختلفة وللطيور او لحيوان معين فقط ، في قصورهم او اراضيهم

(١٦) المصدر السابق/ص ٤٨ .

(١٧) المصدر السابق/ص ٤٩ .

(١٨) المصدر السابق/ص ٤٩ .

الزراعيـــة . وفي هذا الصـــدد يقول الاستاذ سليم طه التكريتي : (ولقد ظل العراقيون سائرين منذ ذلك الوقت على هذه الهواية اللطيفة الغريبة ، هواية اقامة حدائق الحيوانات في بيوتهم وبساتينهم وفي اوائل القرن الحالي اشتهرت دار محمد فاضل باشا الداغستاني وكانت تقع مقابل وزارة الدفاع الحالية وبجوار جامع المرادية بوجود حديقة فيها تضم الاسود والفهود والنمور والدببة وغيرها . واذكر حادثة وقعت في دار محمد باشا الداغستاني مؤداها ان طفلا مر من احد الاقفاص التي وضعت فيها الاسود وسرعان ما اخرج اسد كفه من بين القضبان وامسك بالطفل وسحبه واطبق على اطرافه بفكيه . واذ علا صراخ الطفل واكتشف امره استدعي محمد باشا على عجل الى مكان الحادث فاسرع بفتح باب القفص وتوجيه لكمة قوية الى راس ذلك الاسد الذي اطلق الطفل من بين فكيه وتم بذلك انقاذه من موت محقق) .

وفي عام ١٩٥٧ بدات فكرة انشاء حديقـــة حيوان ببغداد اسوة بباقي العواصم العربية والعالمية وتتويجا لحضارة وادي الرافدين العريقة فاتخذ من المنطقة المجاورة للمحطة العالمية لسكك حـــديد الجمهورية العراقية في منطقة علاوي الحلة كنواة لحديقة حيوانات ؛ فضمت هذه الحديقة الصغيرة بعض انواع من الغزلان العراقية والطيور المتنوعة عراقية وغير عراقية وبعض انواع من الضبـــاع والثعالب والذئاب والنمر العراقي الذي يعيش في شمال القطر جلبت على شكل هدايا قدمت من قبل اشخاص كانوا يحتفظون بها في بيوتهم وحدائقهم حصلوا عليها عن طريق الصيد او الشراء . وبعد ان ضاقت هذه الحديقة بالحيوانات التي جلبت لها وعدم ملائمة موقعها كحديقة وصغر مساحتها ، فكرت الجهات الرسمية بنقلها من هذا المكان الى متنزه حدائق الزوراء وتوسيعها لتصبح احدى الحدائق الكبيرة في المنطقة العربية .

فقامت امانة العاصمة بانشاء حديقة الحيوانات باعتبارها مرفق ترويح تمثل احدى مظاهر وسمات التطور التي تنطوي عليها مجالات التسلية في المدن العصرية .

ومن اجل ذلك خصصت الامانة موقعا كبيرا وسط متنزه الزوراء الفسيح لانشاء مثل هذه الحديقة في عام ١٩٧١ . وقامت بتحويل اقسام هذا الموقع الذي يضم بحيرة وجزيرة ومضيفـــا للراحة داخل الجزيرة ؛ الى اجنحة لمجاميع عديدة من الحيوانات في بيآت مختلفة من بينها حيوانات من البيئات العراقية ، وضمت هذه المجاميع الكثير من الحيوانات والطيور من مختلف قارات العالم مثل الاسود والنمور والذئاب والضباع والدببة والكركدن والحمار الوحشي والفهود والقردة بانواعها والخنازير والنعامة والزرافة والغزلان بانواعهـــا ومجاميع عديدة من انواع واصناف الطيور والاسماك وغيرها .

وزودت الحديقة بالمشـــرفين والمروضين والاطباء لرعاية الحيوانات ومعالجتها ؛ كما زودت الحديقة ببنادق خاصة لاطلاق الابر المخـــدرة في اجسام الحيوانات الضارية لدى معالجتهـــا او الحيلولة دون هربها . ويقصد حديقة حيوانات بغداد عشرات الالوف من المواطنين سنويا. واعادت امانة العاصمة النظر في الحديقة الرئيسة لتعدها اكثر عصرية وتطورا واوفى غرضا من حيث بيئتها وتشكيلها العلمي وشروطها الصحية ، فقامت بانشاء عديد كبير من بيوتات الحيوانات الحديثة التـــي تتوفر فيها كافة الشروط المتكاملة لاي حديقـــة حيوان حديثة وهي بمواصفات بديعة من حيث الشكل والمحتوى وقامت الامانة باستيراد اعداد كبيرة من انواع الحيوانات التي تدخل الحديقة لاول مرة كالقرود العليا (انسان الغاب والغوريلا) والفيلة وافراس النهر وكلاب البحر الخ .. وقد استغلت الجزيرة الوسطية للحديقة لانشاء حديقة طلقـــة للقرود تحاكي بيئتها الاصلية .

واتجهت نية امانة العاصمة الى اقامة العديد من حدائق الحيوان الصغيرة والمتوسطة في متنزهاتها المختلفة مثل الحديقة التي تنوي الامانة اقامتهـــا ضمن مشروع نهر الخير ، حيث انتهت من تحديد العمل في انشائها في كورنيش الاعظمية وابي نواس.

وسبق ان انتهت الامانة من انشـــاء ثلاث متنزهـــات هي الف ليلة والفـــردوس والرياحـــين وتضم هذه المتنزهات حدائق صغيرة ـ تتـــراوح مساحاتها بين ثلاثة الاف الى خمسة الاف متر مربع فيها عددا من انواع الطيور والغـــزلان والقـــردة وغيرها من الحيوانات النادرة .

حبة بغداد

بقلم الدكتور

جليل كريم ابو الحب

وزارة الزراعة والاصلاح الزراعي

مقدمــــة

كما تشتهر بغداد بتراثها العلمي والادبـــي وبدجلتها ونخيلها وبشهرزادها والف ليلتهــــا ورشيدها وسندبادها ، فانها تشتهر بحبة بغداد او اخت بغداد ، واخت بغداد ندبة واسعة او صغيرة ولكنها واضحة تبقى على الجلد لاسيما الوجه نتيجة الاصابة بمرض جلدي يسمى الليشمانيا الجلدية . وبالرغم من الشفاء فان الاثر يبقى ولا يزول مـع العمر وتسمى اخت بغداد لانها دائما لا توجد منفردة بل هناك ندبتان او اكثر ، الواحدة اخت الاخرى او ان التسمية بالاخت نتيجة ملازمة هذا المرض البغداديين دون او اكثر من غيرهم في العراق ، فهناك تلازم بين الندبة والبغدادي كما يوجد تلازم بين الاخت والاخ برعاية ابيهم .

لا يكاد يخلو فرد بين سكان بعض مناطق بغداد من اجيال الاربعينيات وما قبلها من الاخت . فقد كانت الاصابة عامة بحيث كانت بين اطفال الاعظمية والحيدرخانة والسنك والكرخ وبعض المنـــاطق الاخرى تصل الى ١٠٠٪ ؛ اي انك اذا دخلت اي بيت في هذه المحلات وكان فيه لنفرض خمسة اطفال فان الخمسة مصابون بالاخت بادوار مختلفة من المرض بالاضافة الى الوالدين . كان من الشاذ جدا ان يصل البغدادي سن الرشد بدون ان تظهر عليه اخت واحدة او اكثر ويتســاوى بذلك الاولاد والبنات والفقراء والاغنياء وحتى في زمن متاخــر كانت الاصابات في الاعظمية قد تصل ؛ الى نسبة ٧٠٪ ، انخفضت هذه النسبة في اواسط واواخر الخمسينات ولكنها عادت فارتفعت في اواخــــر الستينات واوائل السبعينات . ليس لدينا الا القليل من المعلومات عن سبب انخفاضها كما ان معلوماتنا عن عودة ارتفاع نسبة الاصابة ليست تامة .

يعتقد البعض ان انخفاضهـــا كان بسبب استخدام المبيدات الحديثة ضد بعوض الملاريــا وبصورة غير مقصودة ضد الحرمس الواخز ، وانخفاض مستوى الماء الجوفي الذي ســاعد في التقليل من تكاثر الحرمس في البيوت والذي يكون عادة في عمق لا يزيد عن سنتمتر او اثنين عن سطح الارض . ان عودتها ؛ اي عودة ارتفاع نسبة الاصابة وان كانت على مستوى اقل من الماضي ؛ قد يكون بسبب نشوء المقاومة في الحرمس الواخز الناقل ضد المبيدات . فالحرمس لم يعد يموت بنفس السهولة التي كانت في اواخر الاربعينات واوائل الخمسينات .

ان شهرة الاخت البغدادية والاثر الذي تتركه جعل من الصعب على اي سائح لبغداد في القرون الخمسة الماضية ان لا ينتبه لها ويذكرها في كتاباته.

الحبة او الاخت ليست في الحقيقة خاصة ببغداد كما قد يتبادر الى الذهن من اسمها ، بل انها توجد في محلات كثيرة اخرى في العالم وتسمى باسماء مختلفة هناك . فهي حبة حلب في سوريا ، وحبة ارمينيا في القفقاس وايران وحبة دلهي في

الهند ، كما ان لها اسماء عامة اخرى مثل القرحة الشرقية وحبة بسكرة ، وحبة البلاد الحارة ومسمار بسكرة وحبة النيل وحبة السنة وقرحة الصحراء وقرحة النيل ... الخ ...

المرض متوطن في كثير من الاقطار الاستوائية وشبه الاستوائية ، ويشمل وجودها في غرب آسيا ، بالاضافة الى العراق ، تركيا وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية وايران وقفقاسيا وارمينيا والجزء الجنوبي من روسيا وفي تركستان ، ويمتد وجودها جنوبا الى البنجاب وبمباي في الهند وفي الصين توجد حوالي منطقة هيونان . كما انها توجد في جميع البلدان التي تحيط بالبحر الابيض المتوسط وجزره ، فهي موجودة في مصر وتونس ومراكش والجزائر وفي قبرص وكريت وسردينيا وفي اليونان وايطاليا واسبانيا . وفي افريقيا تصل الى الصحراء الغربية والسودان واثيوبيا والتشاد والنيجر حتى انغولا جنوبا .

ويجب ان لا ننسى ان هناك مرضا مشابها لحبة بغداد بل وافضع منه في امريكا اللاتينية يترك تشويها على الوجه ويعيش مسببه في المناطق الغضروفية في الوجه ويسمى هذا المرض الليشمانيا البرازيلية .

حبة بغداد في المدن العربية الاخرى :

قبل حوالي ستين سنة كان المرض محدودا في مناطق معينة من سوريا وفلسطين ، وبالذات في منطقتي حلب واريحا على التوالي . كانت اول حالة للمرض في مصر قد ظهرت عام ١٩٢٠ وبعد سنتين ثبت وجودها في القنطرة (قناة السويس) . وفي عام ١٩٢٤ ظهرت في الاسكندرية وفي عام ١٩٢٥ ظهرت بين يافا والقدس وفي القدس نفسها سنة ١٩٢٦ وفي عام ١٩٢٧ ظهر المرض في دمشق . وفي سنة ١٩٢٤ ظهرت الحبة في منطقة تبعد ٣٠ - ٤٠ ميلا الى الشمال الشرقي من القاهرة على طريق قناة السويس . ثم ظهر المرض عام ١٩٣٦ في حيفا . وفي عام ١٩٤٠ ظهر المرض في عشر مناطق في مصر حتى مدينة المنيا التي تبعد ١٥٠ ميلا جنوب القاهرة وفي عام ١٩٤٥ ظهرت حالات كثيرة في فلسطين قرب بيت لحم ، حتى انه ظهر عام ١٩٤٧ في النقب .

وفي هذه الفترة ظهرت حالات المرض في افريقيا العربية وغربي السودان . قد يكون تسجيل هذه الحالات في هذه الفترات المتاخرة يعود الى سبب التعرف والتشخيص الاحسن للمرض اكثر منه بسبب وقت الغزو الفعلي .

حبة بغداد عبر العصور :

بعد هذه المقدمة عن شهرة حبة بغداد وانتشارها في البلدان العربية : فان من المناسب ان نعود الى التاريخ لنتحرى عن حبة بغداد عبر العصور القديمة في العراق والمناطق المجاورة . ان طبيعة المرض واعراضه تساعد على دراسة المرض تاريخيا وعلى تتبع انتشاره عبر القرون . فالقرحة تستمر لمدة طويلة وتشفى ولكنها تترك اثرا دائميا في محل بارز ، ويميل المرض ان يتركز في مناطق معينة من البلاد دون غيرها حيث يستمر بترك الندب والاثار والتشويهات بين عدد كبير لا بأس به من سكان تلك المناطق . هذا الاثر والتشويه واضح ويجلب النظر بسهولة بحيث كان من السهل على الناس ولا سيما المتطببين منهم تشخيص واعطاء الاسماء المختلفة حسب المناطق كما ذكرناها في المقدمة . كما ان هذه الاعراض تمكن الطبيب والسائح في تلك البلدان من ملاحظتها وتسجيلها بدون ادنى شك او تردد .

لقد استطاع Pringle (١٩٥٧) وبمساعدة بعض الكتب في تاريخ الطب وملاحظات السواح الاجانب ، ان يعطينا فكرة جيدة (وهو يسميها سطحية تواضعا منه) عن تاريخ هذا المرض في الشرق الاوسط ، وفي بحثنا هذا اعتمدنا كثيرا على دراسة Pringle المشار اليها اعلاه مع الرجوع الى الكتابات العربية مباشرة والتي يشير اليها Pringle وقد اخذها من المؤلفين الغربيين الذين كتبوا عن هذا المرض .

العراق القديم :

ينقل الاب انستاس الكرملي انه جاء في كتاب « وقائع السحرة والمنجمين » في الرقم ٢٥ ما تعريبه : « اما ما يتعلق بداء الجلد فان الملك لم يكلمني عنه صريحا ، فهذا الداء يدوم سنة واحدة وكل من يصاب به لن يشفى منه ، وعليه فقد شاع الان ان الحبة تدوم سنة واحدة » . والكتاب يتحدث عن عهد الاشوريين ، وقد اورد الاب الكرملي هذا النص ليجيب عن سؤال اتاه من احدهم وهو هل ان حبة بغداد كانت معروفة في العراق القديم؟ لم يذهب الاب الى ابعد مما اورده اعلاه .

لم يعثر المنقبون والاثاريون حتى الان على تمثال او رسم شخص يظهر على وجهه او اطرافه الندب او التشويهات التي قد تعزى الى حبة بغداد .

والبحوث التي اجراها Campell - Thompson (١٩٣٦) وكتابا الدكتور عبداللطيف

البدري عن الطب الاشوري والاكدي اعطتنا صوره عن الادوية التي استعملها الاطباء القدماء والتي وردت اسماؤها في بعض الرقم والكتابات المسمارية. تدل هذه الدراسات على ان الادوية كانت في تلك العهود متقدمة فيما يخص محلات استخدامها ولكنها كانت بسيطة وكانت تهدف الى ازالة الاعراض والقرح بدلا من مداواة المرض ولم يكن من الممكن تشخيص الامراض التي كانت تستعمل لها تلك الادوية حتى ان الدكتور البدري ترك فهم وتشخيص الامراض الى القارىء .

وعلى هذا لم يمكن تشخيص حبة بغداد من بين الكثير من القروح والدمامل التي وصفت ووضعت لها الادوية . في الحقيقة كانت الوصفات المخصصة للقرح والدمامل الجلدية قليلة مما يدل على عدم توطن اي مرض يتصف بالقرح المستديمة في بلاد الرافدين قديما ، ومثل هذه القرح هي الصفة الرئيسية والمهمة في حبة بغداد .

وقد عثر (Bray et al., ١٩٦٧) على ترجمة قام بها فيرولود عام ١٩٠٧ لرقم مسماري من مكتبة آشوربانيبال في نينوى وقد كان هذا الرقم قد طبع بصورته الاصلية من قبل بواسير (١٨٩٤) .

تسجل الكتابة على هذا الرقم تنبؤات وتكهنات (فتح فال) عن المستقبل للشخص الذي تظهر عليه بعض القرح او الندب وهذه التكهنات تعتمد على موقع الندب او القرح في الجسم . فالقرح او الخراجات قد تقع على الوجه والراس مثل الجبهة والخد والشفة او على الرقبة والايدي والبطن والركبة والقضيب او على كل انحاء الجسم . يظهر ان القرحة تحدث بصورة اعم على الوجه اذ ان هناك تنبؤات كثيرة عن موقعها على الشفة العليا او السفلى ، على الخد الايمن او الايسر . اما مواقعها على المحلات الاخرى في الجسم فلم تلق نفس الاهتمام .

لم يوجد في هذه الكتابات اي تشخيص او معالجة او سبب مع ان مثل هذه الامور كانت تذكر بكثرة في الكتب الطبية الاكدية والتي وجدت بنفس المكتبة . طبعا ان المعلومات الطبية التي وردت في الكتب لا تعني انها تخص العراق ، بل انها انحدرت من اصول اقدم ومن مناطق اخرى .

من الظريف ان نذكر ان المريض سوف يواجه مصائر مختلفة حسب هذه التنبؤات المعتمدة على موقع القرحة ؛ فانه قد يصبح غنيا او معدما قد يموت اطفاله او اعداؤه ، قد يكون قانعا او حزينا قد يموت بالتدرن الرئوي او يعيش طويلا .

يستنتج (Bray et al., ١٩٦٧) من هذه الكتابة انه قد لا يكون خيائيا لو اعتقدنا ان حبة بغداد كانت موجودة في العراق قبل ٢٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ سنة .

ان هذا الاستنتاج لا تؤيده الكتب الطبية التي كتبها فطاحل الاطباء في الفترة العربية ـ الاسلامية حتى اواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، مما اوحى الى (Elgood, ١٩٣٤) ان يفترض ان حبة بغداد دخلت العراق مع جيوش هولاكو التي جاءت من اسيا الوسطى والتركمانية وايران .

ان دراسة الاثار والكتب الطبية التي تركتها مراكز تعليم الطب والمستشفيات مثل جنديسابور وبغداد تؤيد وجهة النظر المشار اليها اعلاه وهي عدم توطن اي نوع من القرح المستديمة في العراق القديم . هذه المراكز والمدارس الطبية بلغت شهرة واسعة من تعليم الطب وممارسته من خلال دمجها الاسس اليونانية والاعمال الطبية البابلية والفارسية والبيزنطية في المنطقة . ان العلوم الطبية التي انتقلت الى جنديسابور وبغداد جاءت من منطقة حران والرقة والرها في مناطق اعالي الفرات ، ولو كانت هذه القرحة موجودة في العراق لما فاتت الاطباء ملاحظتها ، مع العلم ان هذه المنطقة اصبحت فيما بعد مشهورة بهذا المرض .

مصر القديمة :

لقد ورد ذكر ، وجود دملة مصر او قرحة مصر في الكتابات المصرية القديمة التي عثر عليها في اوراق البردى ؛ ويعود تاريخها الى ما قبل ٢٠٠٠ سنة ق.م . ، منذ عصر السلالات الحاكمة الاولى . قد تكون هذه الدمامل مشابهة لحبة بغداد كما نعرفها اليوم .

كما ان هناك اشارات متعددة في التوراة الى بعض الامراض الجلدية وردت فيها كلمات دمامل وقرح وبثور وهذه ايضا قد تعني اولا تعني حبة بغداد ، ففي كتاب الخروج (Exodus) ، الاصحاح التاسع الايات ٨ ـ ١٢ ورد ما يلي :

« ثم قال الرب لموسى وهارون خذا ملء ايديكما من رماد الاتون (التنور) وليذره موسى نحو السماء امام عيني فرعون ليصير غبارا على كل ارض مصر . فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور في كل ارض مصر ؛ فاخذا رماد الاتون

ووقفا امام فرعون وذراه موسى نحو السماء فصار دماملا وبثورا طالعة في الناس وفي البهائم ، ولــم يستطع العرافون (السحره) ان يقفوا امام موسى من اجل الدمامل ، لان الدمامل كانت في العرافين وفي كل المصريين » .

لقد كتب كتاب الخروج حوالي ٩٠٠سنةق.م وقد تشير هذه الحادثة الى ما قبل الخروج بقليل اي حوالي ١٢٢٠ سنة ق.م . بعهد حكم قرابين بتنا .

كذلك ورد مـا يلي في كتـاب التثنيـة (Deuteronomy) في الاصحاح ٢٨ وفي الابات ٢١ ـ ٢٧ :

« يلصق بك الرب الوباء حتى يبيدك عن الارض التي انت داخل اليها لكي تمتلكها . يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول ، فتتبعك حتى تفنيك ، يضربك الرب بقرحة مصر والبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء » .

وقد كتب كتاب التثنية بعد كتاب الخروج بحوالي ٣٠٠ سنة ولغرض غير الغرض الذي كتب من اجله كتاب الخروج . فقد كان في كتاب الخروج الدعوة على مصر والمصريين اذا هم لم يسمحوا لموسى ان يأخذ اصحابه .

اما في كتاب التثنية فقد كان هناك تهديد لليهود انفسهم لانهم راحوا يخالفون تعاليم الرب . وعلى اية حال تظهر الاشارة الى نفس المرض الذي بقي عالقا في الاذهان جيلا بعـد جيل بحيث يمكن تهديدهم به اذا هم خالفوا ولم يطيعوا تعاليم وشريعة موسى . وفي كتاب التثنية ورد ذكر المرض باسم « قرحة مصر » .

وقد علق Millington (١٨٧٣) على هذه القرحة بقوله : « انها تختلف عن جميع الانواع الاخرى من الدمامل والقرح من حيث الاصل ومن حيث تأثيرها ، كما تختلف عن الاوبئة الاخرى اذ انها توقفت عند حدود ارض معينة وانهـا لم تصب اليهود وان كانوا يعيشون في المدن المصرية . وقد علل Pringle (١٩٥٧) عدم اصابة اليهود بها الى احتمال انهم قد بداوا من مجتمع ديني غير مهم وكانوا يعيشون حياة البداوة في الصحراء على حواف الدلتا مما ساعد على تخلصهم من الاوبئة الحضارية في المدن . وقد يكون تعليل Pringle هذا معقولا لان اليهود بعد ان عاشوا في المدن كانوا ممن تتفشى بينهم حبة بغداد بكثرة .

ان اشارة التوراة الى القرحـة حتى بعـد الخروج بـ ٣٠٠ عام تدل على ان هذه القرحة ظلت تخيف اليهود الذين هربوا من مصر . ان هـذه الاستنتاجات قد تكون برهانا على ان «قرحة مصر» هي نفسها دملة النيل التي ورد ذكرها في الكتابات المصرية على البردي قبل التوراة . ولكن يبدو ان هذه الدملة كانت مميتة ورهيبة اكثر من حبة بغداد التي لا ينظر لها الناس في اماكن تواجدها بهـذه الرهبة .

الحبة في العصور الوسطى :

لقد شهد الشرق الادني عصرا زاهرا بالعلم والطب وقد ترك لنا العلماء المسلمون والعـرب موسوعات ضافية عن الطب ظلت لفترة طويلة هي المعول عليها حتى طل علينا عصر الطب الحديث . ولكن مع الاسف لا يوجد في اعماق الموسـوعات الطبية الاسلامية العربية المبكرة اية اشارة الى مرض جلدي يمكن مقارنته بحبة بغداد ، فمثلا كتـاب « الذخيرة في الطب »الموسوعي الذي وضعه ثابت ابن قرة ، والذي يضم قسما كبيرا عن امراض الجلد ، لا يشير ابدا الى اعراض او حالة تشبه حبة بغداد بالرغم من ان هذا الطبيب جاء من منطقة حـراء والرقة والرها ـ اعالي الفرات ـ وليس بعيدا عن حلب . فلو كانت حبة بغداد موجودة حينذاك في هذه المنطقة او في بغداد فانه بدون شك كان سيطلع عليها اذ انه كان ذا اطلاع واسع على الامـراض الجلدية في وسط العراق .

يقول Pringle ان ابن قرة وضع كتـاب الذخيرة حوالي عام ١٢١٠م وهذا غير صحيح لانه اي ابن قرة ، كان قد توفى سنة ٩٠١م وقد يكون المستشرقون الذين اخذ عنهم Pringle قد اختلط عليهم اسم هذا الطبيب الذي تعاقبت اجيال من ذريته في الطب واستعمال هذه الاسماء .

لقد حاول المؤرخ الطبي Elgood (١٩٣٤) ان يبرهن ان مرض حبة بغداد بدأ بالظهور والوجود في البلدان الاسلامية الشرقية في بلاد ما وراء النهر . وقد تبعه بعد ذلك Pringle في هذا الاتجاه كما سيأتي فيما بعد . لقد ذكر Elgood ان اعراض حبة بغداد كانت موجودة في منطقة بلخ منذ وقت بعيد ؛ وبلخ هذه هي القصبة السياسية لولايـة خراسان ثم اصبحت المركز الثقافي والديني لمملكة طخارستان . وهي الان ضمن مناطق تركستـان السوفيتية المتاخمة لحدود افغانستان .

من اقدم الاطباء الذين وصفوا حبة بغداد واعطوا اعراضها بصورة دقيقة وواضحة جداً من بلخ هو ابو منصور حسن بن نوح القمري البخاري الذين كان في بخارى ، ومات عام ٩٩١م . كان ابو منصور احد اساتذة ابن سينا ، الف كتاب «غنى ومنى» وهو كتاب « الحياة والموت » وهو مقسم الى ثلاثة اقسام : الامراض الباطنية ، الامراض الظاهرة، والحميات . كما ان لابي منصور مقالة في الطب .

وممن اشار الى حبة بغداد الطبيب والفيلسوف الاسلامي العالمي الشهير ابن سينا المتوفى ١٠٢٤م ، وقد ذكرها باسم قرحة او حبة بلخ في كتابه المشهور « القانون في الطب » ويظهر انه اسماها ايضا البلخية . ومن الممتع ان نذكر انه جرى جدل علمي طريف بين المرحومين الكرملي وداود الجلبي في الثلاثينات من هذا القرن على صفحات لغة العرب . فقد اورد الكرملي اسمها مرة البلخية ، فاعترض عليه الجلبي قائلا انها البلحية « بالحاء » لانها تتواجد دائما حيث يوجد البلح وان ابن سينا اسماها البلحية . فاجابه الكرملي انها لا ترتبط بوجودها بالبلح واحسن دليل على ذلك وجودها في محلات لا يوجد فيها البلح « التمر » وان ورودها في القانون باسم البلحية قد يكون تصحيف النساخ لان هناك نسخا من الكتاب تذكرها باسم البلخية ، ونظرا لورودها باسم البلخية في كتب اخرى قديمة من المنطقة «انظر ادناه»وللحجج التي ساقها واوردوها الكرملي فان الكلمة الصحيحة هي البلخية ، وقد يكون قد حدث تصحيف في الكلمة في نسخة القانون للمخطوطة التي كانت لدى الجلبي .

وايضا ممن اشار الى هذا المرض الطبيب ابو الفضائل اسماعيل بن الحسن زين الدين الجرجاني والذي يسمى غالبا سيد اسماعيل . كان هذا الطبيب يكتب بالعربية والفارسية وتوفى عام ١١٣٧م (٥٣١هـ) واهم كتبه الكتاب المعروف « ذخيرة خوارزمشاه » بالفارسية . والكتاب دائرة معارف طبية الفه للشاه قطب الدين محمد ، كما الف ايضا لوزيره العزيز كتاب «اغراض الطب» وهو صغير الحجم ، ملخص للذخيرة . وقد ورد اسم كتاب الذخيرة في مقالة Pringle (١٩٥٧) باسم System of medicine . وللسيد اسماعيل كتاب الطب الملوكي وكتاب زبدة الطب وتدبير يوم وليلة وهو في الطب ايضا . يذكر الجرجاني ان حبة بلخ ــ اي حبة بغداد ــ كانت لا تزال متوطنة في بلخ وانها كانت موجودة في خانات دهستان . يطلق السكان في قصبة بلخ اسم عضة البعوض (بيش غاز بيداجي) على الحبة . ان من المناسب ان ننتبه هنا الى ان الناس في بلخ ربطوا بين المرض وبين عضة البعوض ، وقد يكون ذلك من اقدم الاشارات الى حدوث او انتقال مرض ما مستديم ومتوطن بعد عضة البعوض او بكلمة اعم حشرة ما . طبعا نحن نعرف الان ان الحرمس وليس البعوض هو الناقل لطفيلي حبة بغداد ولقد اطلق اهالي منطقة داهستان اسم «ساخك» على حبة بغداد الذي يعني البعوض او عضة البعوض .

وفي اوائل القرن الخامس عشر كانت لاتزال الحبة موجودة بنفس المنطقة حيث اطلق عليها الطبيب منصور بن محمد بن احمد بن يوسف بن فقيه الياس اسم البلخية وهذا يؤيد ما ذهب اليه الاب الكرملي من انها البلخية وليس البلحية كما ذهب اليه الدكتور داود الجلبي ويعتقد المؤرخ الطبي Elgood (١٩٣٤) ان المرض دخل مدن الري ومشهد في شمال شرقي ايران في هذه الفترة .

تاريخ حبة بغداد في بغداد :

ان اول اشارة الى وجود هذا المرض في بغداد والشرق الاوسط هو ما ذكره الطبيب بهاء الدولة ابن مير قوام الدين قاسم نور بخش الرازي (وهذا ليس الطبيب محمد بن زكريا الرازي الشهير) في كتابه « خلاصة التجارب » والذي وضعه حوالي عام ١٥٠٠م من ان الحبة لا تزال متوطنة في بلخ وانها منتشرة بكثرة في بغداد وقد اسماها بعض الناس لوجودها بكثرة في بغداد « لوزينج بغداد ». ويذكر بهاء الدولة الرازي انها تكثر بين الفقراء ، وقد تستمر لمدة سنة اذا بقيت بدون مداواة ، قد يكون كتاب « خلاصة التجارب » هو اقدم كتاب ذكر وجود حبة بغداد في بغداد والعراق . وفي هذه الاثناء ذاع صيت المرض بين الايرانيين وقد اسموها « حبة ارمينيا » وبقي هذا الاسم حتى العصور الحديثة . لقد ذكر وجودها لاول مرة في اصفهان عام ١٨٣٠ وفي طهران عام ١٨٤٠ بالرغم من وجودها في شمال شرقي ايران منذ مدة طويلة .

ان كتب بعض السواح الذين زاروا بغداد في القرون الاخيرة لا سيما القرن التاسع عشر ، تشير الى حبة بغداد ، فقد ذكرها Dupre الذي زار بغداد عام ١٨٠٨ ومكث فيها مدة طويلة ، فقد جاء في كتابات Dupre حسب ترجمة سعاد العمري في كتاب « بغداد كما وصفها السواح

الاجانب في القرون الخمسة الماضية » عام ١٩٥٤ ، ص ٤٣ ـ كما يلي :

« ويوجد في بغداد ايضا كما يوجد في حلب وماردين وغيرها من المدن حبة بغداد (الاخت) . تكون جروح الوجه ذات الندب عند الناس بصورة عامة ولا ينجو منها حتى الاوربيين الذين يسكنون بغداد سنوات عديدة » .

ذكر القس Southgate ١٨٤٠ ، وجود الاخت في بغداد بنفس العام ، وقال عنها ما يلي :

« الاطفال الذين رايتهم في الشوارع كانهم مرضاء وكانت وجوههم مشوهة بندب قبيحة ، هذه الندب تظهر نتيجة القرحة والتي تظهر باديء الامر بشكل دملة على الجلد وتتكون بعد ذلك وتنتزع منها القشور على التوالي . لم اتمكن من اكتشاف سببها . انها خاصة بالبلد واذا كانت مصادر اخباري صحيحة فانها تنتشر في محلات على الحدود الغربية الصحراوية في الجزء الشمالي من سوريا . الغريب الذي يعيش طويلا في بغداد لا ينجو منها ولكن تصيبه مرة واحدة واحيانا لا تظهر الا بعد شهور من وصوله . انها تصيب الحيوانات ايضا كما هي الحالة في الانسان » .

ومما جاء عن حبة بغداد في القرن الماضي ما ورد في كتاب نائب القنصل الفرنسي في بغداد الى وزير الخارجية الفرنسية عام ١٨٦٣ ، فقد جاء في تلك الرسالة ما يلي . (وانقل هنا نص الترجمة كما جاءت في كتاب الحياة في بغداد منذ قرن لمؤلفه بيير دي نوصيل وترجمه د . اكرم فاضل عام ١٩٦٨) :

« منذ عودتي من طوافي بديار بابل رزئت بانبثاق حبة بغداد ، فقد كان من سوء حظي ان اصاب بخمس وثلاثين حبة في كل انحاء جسمي ، ويقول اطباء هذا البلد ، يا سيادة الوزير ، انهم لم يشهدوا طوال اعمارهم طفحا بهذه الكثرة ، وقد انتشر بصورة خاصة وبكثرة على المفاصل الكبيرة ، لا سيما على الساعد الايسر ، بحيث يخشى طبيبي ان يظل متشنجا . وهذه القرح التي ينساب من اوساطها وبدون انقطاع قيح اصفر نتن حاد يثير لدى حكات حادة متصلة اعاني من جرائها اوجاعا هائلة . والانكى من ذلك ، يا سيادة الوزير ، انني منذ ملازمتي الفراش قبل خمسين يوما لم اغمض جفني خلالها اكثر من ستين ساعة . وهذه الليالي المؤرقة تكاد تقتلني ، وها قد انهارت قواي ، ولا يوجد دواء لهذا المرض وان جروحي التي سعة اصغرها كسعة نصف راحة اليد تتيبس اعتياديا بعد ثلاثة او اربعة شهور فتصبح بشكل قشرة فظيعة تدوم هي نفسها ثلاثة اشهر قبل ان تسقط . وقد اكد لي مختلف الاطباء الذين استشرتهم بان مرضي يشارف على نهايته وان هذه الخراجات ستجف بعد فترة قصيرة من تلقاء نفسها وهو كل ما اشتهيه ، يا سيادة الوزير ، بغية التخلص بسرعة من حالتي التعيسة التي اتخبط في اهوالها ذلك لان آلامي هائلة » .

وفي سنة ١٨٨٣ ياتي ذكر حبة بغداد في كتاب « رحلة مدام ديولافوا الى كلده العراق » والذي نقله الى العربية عن الفارسية علي البصري عام ١٩٥٨ . فقد جاء في الصفحة ٧٩ ما يلي :

« ولكن من المؤسف انهن (اي النساء الكلدانيات في بغداد) مثل النساء الاخريات في هذه البلاد ـ اليهوديات والمسيحيات والمسلمات ـ مبتليات بعدو خبيث يسمى (الاخت البغدادية) يشوه جمال صورتهن بما يترك فيها من ندب ولم اجد حتى الان امراة من هؤلاء النسوة تكون قد نجت من هذه الآفة اللعينة ، ويخيل للرائي انه قد رمي على صفحة وجه كل منهن اوكسيد السولفريك فشوهها هذا التشويه . وهذه الاخت البغدادية اول ما تظهر تكون نقطة بيضاء على الخد او اي مكان اخر من الوجه ثم تحمر وتتورم بشكل ظاهر تظهر عليها بعد ذلك قشرة كبيرة كما هي الحال في الجدري وعندما تتيبس هذه القشرة وتسقط تتخلف عن ذلك ندبة صغيرة في الوجه تشوه جماله . ولقد علمت انه حتى الوافدين على بغداد من الخارج لا ينجون منها فان لم تكن اصابتهم بها حال قدومهم فلا محالة انهم يصابون بها بعد حين على ابعد الاحتمالات ولكن الذي يبعث على العجب ان هذه الآفة لا تصيب الا البلديات من اهل البلد اما الاوربيات فان اصبن بها فيكون ذلك على ابدانهن لا على وجوههن مع علمنا بان اصابتهن جد قليلة .

اغرب من ذلك ان الاطباء لم يستطيعوا ان يجدوا دواءا يعالجون به هذه الآفة حتى الان » .

وعلى الصفحة ١٢١ من نفس الرحلة تعود المدام فتقول :

« مخاطر مرض الطاعون والاخت البغدادية . . ولا يفوتني ان اقول ان البلائين الاخيرين عندي هما اسهل تحملا ـ اي الطاعون والاخت البغدادية ـ من وجود الموظفين العثمانيين » .

وحتى في وقت متاخر مثل عام ١٩٢٣ ، ذكرت الليدي دراور في كتابها « بلاد الرافدين ، صور وخواطر » ترجمة فؤاد جميل عام ١٩٧١ على الصفحة ٣٢١ : « وقد يصاب الطفل بحبة بغداد (الاخت) عادة وما ان تتقيح الا وتعمد الام الى طلائها بمستحضر قيري وعلى الرغم من ان هذا المستحضر غير ضار بحد ذاته ، لكن القيح قذارة والقذارة يقف عليها الذباب فتسوء حالة الطفل لذلك » وكما ترى لم تذكر الليدي دراور شيئا عن الاثر او الندبة التي تتركها القرحة .

الا ان من العجيب ان بعض الرحالة المشهورين مثل بنجامين التطلى وبكنغهام ويثبوروصون ورج لم يذكروا شيئا عن حبة بغداد ، كما ان الرحالة العرب المشهورين مثل ابن جبير وابن بطوطة ايضا لم يذكروا شيئا عن الاخت البغدادية ، قد يكون لعامل الزمن دخل بذلك لا سيما للاوائل من هؤلاء الرحالة .

اما بالنسبة للدراسات العلمية حول الحبة فقد بدات منذ اوائل هذا القرن ، عندما نشر د . نابليون الماريني ، اخو الاب انستاس الكرملي ، في الاعوام ١٩٠١ و ١٩٠٤ وفي مجلة المشرق البيروتية ، وقد عربها المرحوم الكرملي عن الفرنسية . نشر الماريني دراساته وتجاربه وتصوراته عن هذه الحبة ، كما انه ذكر دراسات بعض الاطباء الفرنسيين عن هذه الآفة في حلب وفي عام ١٩١٠ جاء الى بغداد الاستاذ وينن وقام بدراسات مطولة وسجل كثيرا من الملاحظات اجراها في آذار ـ تشرين الثاني من نفس السنة .

فقد ذكر انها عامة الوجود لذلك كان من السهل عليه دراستها . ان الاطفال معرضون ويتوقعون الاصابة بها كما يتوقع اطفال بريطانيا الاصابة بالحصبة ، الا ان الناس لا يخافون الاخت البغدادية . وقد ذكر انها تصيب الاطفال بين السنة والثلاثة واول ما تظهر على الاطفال ، والبدو غير مصابين كما هي الحالة بين سكان المدن . وتظهر في اي وقت من السنة ولكن اكثر ما تكون في الخريف في وقت نضوج التمر ، ولكنه يسرع ويقول ان هذا لا يعني ان هناك اية علاقة بين الاصابات والتمر ، اذ ان الاطفال الذين لا ياكلون التمر ايضا يصابون بها . يعتقد الناس أن هناك نوعين منها ـ ما يسمونه بالذكر والانثى ـ وقد وجد ذلك صحيح سريريا ، المتقيحة وغير المتقيحة وان كان الاثنان يبدءان بنفس الشكل ، ـ لا يمكن الا القليل من المعالجة ـ وكل الادوية المستعملة لا تعط اي نتائج . يقول ان حشرة ما تقوم بنقل المسبب ، وقد شك بالبعوض وبق الفراش ، ويضع الحرمس على راس القائمة . كما انه وجدها في الكلاب . كما انه يذكر ان بعض الناس يعتقدون فقط ان من يشرب ماء الفرات او دجلة يصاب بالمرض .

ومن المناسب ان نذكر هنا ، وسوف ياتي بعد ذلك بالتفصيل ، ان هذا العالم هو الذي اثبت بصورة قطعية بعد دراساته في حلب ان الحرمس هو الحشرة الناقلة لمسبب المرض .

وممن اشتغل علميا على حبة بغداد من الاجانب الدكتور غوردن جيري برنكل الذي جاء الى العراق عام ١٩٤٧ ليراس معهد الامراض المتوطنة والذي كان قد انشأ حديثا لمكافحة الملاريا ، بقي برنكل بالعراق عشرة سنوات . لقد كان لهذا العالم البريطاني الفضل في وضع عدة دراسات عن الامراض المتوطنة في العراق مثل الملاريا وحبة بغداد والكلازار وقد نشر جل بحوثه في مجلة الامراض المتوطنة التي لا تزال تنشرها وزارة الصحة منذ ١٩٥٤ . وسوف نأتي فيما بعد تفاصيل بحوث برنكل عن حبة بغداد .

اما العراقيون فقد اشتغل الكثيرون منهم حول هذا المرض . اول من اشتغل ، كما ذكرنا : د . نابليون الماريني ، ثم نشر ادوارد بصمه جي كتيب باسم « بعض الملاحظات عن حبة بغداد في العراق » (دار الطباعة الحديثة / بغداد ١٩٣٠ ، (مع الاسف لم اتمكن ان اجده او اعثر عليه) . كذلك اشتغل على الاخت الدكتور جورج فرج رحيم استاذ الامراض الجلدية في كلية طب بغداد سابقا والدكتور اسماعيل التتار الاستاذ في كلية الطب في الوقت الحاضر والدكتور المرحوم سلمان تاج الدين .

كما جرت دراسات كثيرة عن الحرمس الناقل لمسببات هذا المرض في العراق من قبل برنكل وجليل ابو الحب وزهير محسن وبدر العزاوي وسعد عبدالوهاب وفؤاد سكر وغيرهم . وسوف يجد القارىء في اخر البحث نبذا بالدراسات والبحوث عن الحبة والناقل(الحرمس)والحيوانات الخازنة في العراق وباللغة الانكليزية .

الحبة في حلب :

وما زلنا في صدد البحث عن حبة بغداد في بغداد ، فان من الملائم ان نذكر ما نعرفه عن تاريخ هذه الحبة في حلب ، محل اخر مشهور جدا بهذا

المرض في البلاد العربية : اول من كتب عن حبة حلب كان الدكتور Russell (١٧٥٧) وقد يكون هذا الدكتور هو اول من وصف الحبة باللغة الانكليزية ومن حلب بالفرات . فيما يلي وصف الدكتور لهذه الحبة (نقل عن برنكل - ١٩٥٧ - والذي نقلــه بدوره ترجمة كاملة من الفصل المعنون حبة او مرض حلب Mal de Alleppo في كتاب « التــاريخ الطبيعي لحلب » ونحن بدورنا نترجمه عن ترجمة برنكل المشار اليها اعلاه) :

« ينتشر بين الاوربيين اسم مرض حلب او شر حلب "Alleppo Evil" وهو مرض جلدي ؛ يعتقد البعض انه خاص بهذه المنطقة يسميه الاهالي حبة او قرحة السنة بالنسبة لفترة بقائه والتي تدوم سنة كاملة ، وتسمى بالتركية «طالب جوبان» او قرحة حلب . ان هذا المرض في الحقيقة ليس خاصا بهذه المنطقة فهو يوجد في عنتاب والقرى الاخرى على نهر سيجور Sejour وسويك Coick وكما هو الحال في حلب . وجوده في هذه المناطق يوحي بفكرة تسببه عن الماء .

يصف الاهالي نوعين من المرض ويميــزون بينهما باسم ذكر وانثى وهناك نوع ثالث يعزى الى عضة خاتم سليمان او قملة الخشب ولكنه بالنسبة لي هو نفس المرض ولكن على درجة اخف . ان ما يدعوه الاهالي بالذكر يظهر في باديء الامر بشكل دملة او درنة صغيرة وحمراء وقوية وتستمر لمدة اسابيع لا يكترث لها الاهالي اذ انها لا تسبب اي الم . ثم بعد ذلك تبدأ بالتوسع وعادة تصل الى حجم عملة الست عانات الانكليزية (Six pence) انها تبقى حتى تندمل ، اجزاؤها تحت الجلد ، هذا اذا لم يحاول المريض حلها واللعب بها ، تسقط القشرة العليا تاركة اثرا صغيرا . ان فترة هذه الحالة نادرا ما تزيد عن ثمانية شهور .

اما ما يسمونه بالانثى فانها تبدأ قبل حالة الذكر ولكنها تتاخر عنها بشهر أو شهرين ، تصبح مؤلمة وتتوسع تقريبا الى ضعف حالة الذكر وتفرز كمية كبيرة من القيح تحت القشرة وتصير بشكل قرحة حرشفية تحيط بها دائرة فعالة ولكنها اعمق . تبقى على هذه الشاكلة لمدة شهور ، عادة الى حوالي السنة من بدء ظهورها ، قبل ان تشفى . ان هذه المدة ليست ثابتة ؛ كثير من الحالات تشفى وتزول لبضعة شهور قبل ذلك ، بينما تستمر حــالات اخرى وتبقى لشهور اطول بعد أن تشفى ، تترك اثرا قبيحا مستديما مدى الحياة وتبقى لمدة شهور حمراء ، واذا لم يلعب بها المريض فانها نادرا مــا تكون مؤلمة .

اما النوع الثالث من المرض والذي يسمونــه وخزة خاتم سليمان ، فانه يبدأ مثل الاخرين ولكن نادرا ما ينمو ويتوسع الى اكثر من ضعف راس دبوس كبير ولا يبدل مظهره ابدا . يبقى المرض بشكل درنة صغيرة لمدة شهور وبدون الم . بعد ذلك تتساقط منه بعض القشور الحرشفية ويختفي ولكن بعض الاحيان قد يبقى مدة اطول .

المرض يصيب الاهالي وهم اطفال وعادة على الوجه وان كان يصيب بعضهم على الاطراف وان اكثرهم يحمل ندبتين او ثلاثة او اكثر والنادر منهم من يحمل ندبة واحدة . اما بين الغرباء ، فانه يظهر بعد بضعة شهور من دخولهم ولا يظهر بكثرة على وجوههم مثل الاهالي . قليل من الناس من ينجو من المرض ولكنه نادرا ما يصيب نفس الشخص اكثر من مرة واحدة . يصيب المرض الكلاب والقطط كما يصيب الانسان وعادة يظهر على الخطم (البوز) في هذه الحيوانات .

اما بالنسبة للعلاج فكما هي الحالة مع اوجاع الاسنان والزكام عندنا ، كل واحد يصف علاجا للمرض لكن الوجوه الجميلة والتي يشوهها المرض احسن دليل على عدم جدوى هذه الادوية . في الحقيقة ومن ملاحظاتي ؛ ان من الاحسن كثيرا ان لا نستعمل دواء وذلك خير من الادوية غير المجدية التي يستعملونها » .

وممن كتب عن المرض في حلب من السواح Pecocke عام ١٧٦٥ وقد سجل الملاحظة التالية :

« ان للماء هنا خاصية معينة والتي تسبب بين الغرباء الذين يشربونه انتشار ثلاثة او اربعة قروح حول الايدي والعضد ، تستمر هذه القروح من مدة نصف سنة الى سنة وتكون مزعجة . بعض الغرباء لا تظهر عليهم هذه القروح الا بعد أن يمكثوا هناك عدة سنين ، ومن الملاحظ انها تصيب الاهليين مرة واحدة وعلى وجوههم عادة . ليس هناك اي دواء لها . يسميها الانكليز (مرض حلب) » .

الحبة في اعالي الفرات :

اوديسا (الرها) من المحلات الاخرى المشهورة بالمرض . واردت ان اذكر هنا ملاحظة احد السواح لهذه المدينة عن الحبة ، المهم في هذا هو ان هذا السائح نفسه كان قد بقي في بغداد والموصل لمدة لا بأس بها ، ضيفا على القيم البريطاني كلوديوس رج

ومع انه سجل ملاحظات عن المرض في اوديسا فانه لم يسجل اي شيء عنه في بغداد او الموصل مع ان المرض كان معروفا هناك . ان هذا السائح هو Buckingham وقد كتب سنة ١٨٢٧ يقول :

« لا ينجو واحد من خمسة من هذا المرض . كل السكان في اوديسا بمختلف طبقاتهم معرضين للمرض بشدة ويصيبهم على الوجه مثل المرض الذي ينتشر في حلب ـ لكن في هذه المنطقة يعم على درجة اكثر . لم ار واحدا من خمسة من سكان هذه المنطقة بدون المرض بينما يكون نصف الاهالي في حلب مصابين به . وهنا ايضا الاثر الذي تتركه القرحة اكثر عددا وتشويها ، يغطي جميع الوجه احيانا وغالبا ما يمنع نمو اللحى من بعض المناطق. وغير ذلك فان المرض يشوه الناس الذين هم من كل الوجوه ، اصحاء وذو جمال . يعتقد الاهلون في حلب ان القرحة تظهر بسبب الماء ، اما هنا فان الاهالي يعتقدون انها بسبب الهواء . من المحتمل ان الاثنين هما اسباب غامضة يعزى لها مرض غير معروف او مدروس جيدا » .

ويذكر نفس السائح Buckingham نفس الحالة في ماردين . فهو يقول انها توجد بنفس مستوى وجودها في حلب . اما في ديار بكر فانها تصيب واحدا من اربعين فقط من سكان هذه المدينة .

ان اوديسا هنا هي الرها او اورفا وتكتب Edesse ، وليست المدينة التي هي مرفا في غرب الاتحاد السوفيتي (اوكرانيا) ، كما ان Buckingham لم يكتب شيئا اخر في بغداد او الموصل لانه كان هناك في عام ١٨١٦ وزار الرها بعد ذلك ، ورحلته كانت قد نشرت عام ١٨٢٧ وان ما ذهب اليه Pringle من ان هذا السائح زار بغداد والموصل بعد منطقة اعالي الفرات يظهر انه خطأ ؛ لانه كان ضيفا على رج المقيم البريطاني والذي توفي بالكوليرا عام ١٨٢١ في جنوب ايران .

منشأ المرض

يورد برنكل نظرية ظريفة ـ وقد تكون اصيلة ـ عن منشأ المرض ووصوله الى الانسان ، اقدمها فيما يلي باختصار من اجل الفضول العلمي :

من الممكن القول ان حبة بغداد غزت الشرق الاوسط من بؤرة متوطنة قديمة في اواسط آسيا . ان قدم هذه البؤرة في هذه المنطقة واضح ليس فقط لان الاصابات كانت قد ذكرت هناك لاول مرة بصورة اكيدة ، ولكن ايضا بسبب حقيقة هي ان ضربا من الطفيلي المسبب لا يزال يعيش ويوجد في نفس المنطقة بين قوارض الصحراء . فالحرمس الناقل يكون وسيلة لبقاء هذا الطفيلي في مستعمرات اليربوع وسنجاب الارض . من السهل اذن ان نفترض ان هذه البؤرة تمثل بقاء نمط الوبائية من عصور سحيقة وقديمة اقدم من تلك التي توجد في المدن وعلى الانسان . تحدث احيانا اصابات بهذا الضرب من الطفيلي للانسان الذي قد يوجد في وحول مناطق هذه القوارض البرية وعن طريق الحرمس ايضا . القرحة الجلدية الناتجة من الاصابة بهذا الضرب وان كانت تشبه من حيث الاساس حبة بغداد ، فانها تبقى لمدة اقصر ؛ ومن الصعب العثور على الطفيلي في منطقة القرحة على الانسان . ان هذا يعني صعوبة وقلة انتقال هذا الضرب من وإلى الانسان ولا سيما وان هذا الضرب لم يتكيف جيدا للتطفل على الانسان في قفقاسيا . ويوجد بالقرب من المحلات ، حيث يوجد المرض متوطنا بين القوارض ، عدد من مناطق حبة بغداد المتوطنة بين الناس . بعض هذه المناطق قريبة او بين اقدم المحلات التي عرف فيها المرض ، لكن المرض هنا ينتشر بصورة رئيسية في المدن ، والقرحة على الانسان لا تشبه تلك التي توجد في مناطق اخرى يتوطن فيها المرض في العالم القديم . تدل الدراسات الوبائية في هذه المناطق على ان القوارض وغيرها من الحيوانات لا تلعب دورا مهما في خزن او انتقال مسببات المرض . ان من المغرى ان نفترض ان هذا الضرب من الطفيلي الذي ظهر لاول مرة على الانسان في قفقاسيا نشأ من ضرب تكيف للتطفل على الانسان وهو من نفس نوعية الضرب الذي يصيب القوارض . ان هذا لم يكن ليحدث الا بعد ان بدأ الانسان في اقتصاد الاستقرار والعيش في المدن . بعد ان وصل الانسان الى هذا الدور المتقدم فقط صار الحال مفتوحا لكي يتكيف الضرب المحلي (والذي كان على القوارض) على الميل والبيئة الجديدة فانها اكتسبت الصفات الملائمة على الاقل قبل الف سنة .

لقد انتشر المرض الى محلات وجوده الان في الشرق الاوسط من منشئه في اسيا الوسطى وبصورة خاصة من منطقة جرجان وبلخ المعروفتين مستعينا بنوع معين من الحرمس : الحيوان الناقل. فمن قفقاسيا وارمينيا الى الاناضول واخيرا الى العراق . ان بؤر تواجده الصغيرة في ارمينيا وجورجيا وداغستان والمعروفة اليوم ما هي الا بقايا

معزولة اثرية من الوجود الاصلي الواسع هناك ، حسب نظرية العالم Latyshev (١٩٥١) .

لقد اعتقد Elgood (١٩٢٤) ان المرض وصل العراق وبغداد عن طريق جيوش المغول والتتر الغازية والتي كانت قد دمرت خراسان وايران قبل ان تصل وتدمر بغداد . اذا صحت هذه النظرية فانها « مأثرة وانجاز » اخر اسدتها جيوش جنكيزخان وهولاكو . وقد يكون عدم ذكر المرض من قبل بنجامين التطلي وابن بطوطة وابن جبير في رحلاتهم ان المرض كان بعد لم يصل بغداد لانهم زاروا بغداد قبل جيوش هولاكو او بعده بقليل (ابن بطوطة في اوائل القرن الثامن وابن جبير في اوائل القرن السابع) .

لكن برنكل يعتقد ان المرض دخل العراق بالتسال البطيء الطبيعي من الاناضول جنوبا ؛ مستفيدا من جيوب من الاصابات استعملها بمثابة « قناطر عبور » . في القرن الخامس عشر كانت بغداد قد دمرت جزئيا من قبل الجيوش الغازية والطاعون . وفي حالات مثل هذه تتوقف عادة الادارة والعناية وتتلف الممتلكات . هذه الظروف شجعت على زيادة تكاثر الحرمس في المدن ، لذلك فان تمركز المرض في بغداد في القرن الخامس عشر صادف ظروفا ملائمة .

قد يكون المرض ايضا منتشرا في افغانستان وبلوجستان في نفس الوقت الذي كان ينتشر فيه في ارمينيا والاناضول وبغداد وقد يكون عن هذه الطريقة قد انتشر ضرب الطفيلي الشرقي .

وصف المرض :

يصف الدكتور فرج جورج رحيم والدكتور اسماعيل التتار (١٩٦٦) المرض كما يلي :

« حبة بغداد قرحة خاصة تظهر عادة على الاجزاء المكشوفة من الجسم في محل عضة حشرة الحرمس المصابة . الدملة في البداية تكون صغيرة حمراء ؛ ولا تظهر الا بعد ٢ ـ ٨ اسابيع واحيانا اكثر ، بعد العضة المعدية . تتوسع الدملة الحمراء المستديرة تدريجيا بالحجم وتبدأ بعد ٢ ـ ٦ شهور بالرخاوة والتلين في وسطها مكونة حراشف على السطح وبالنهاية تتقيح . يمكن تقسيم ادوار المرض الى الادوار التالية

١ ـ دور الدملة الصغيرة The Nodular stage
٢ ـ دور التحبب The granulomastous stage
٣ ـ دور الندبة The cicatrasation stage

موسم الاصابة :

يكاد يجمع كل من ذكر حبة بغداد في الكتابات القديمة على انها توجد على الانسان في جميع شهور السنة . وقد ذكر الدكتور نابليون الماريني بان فصلي الخريف والشتاء هما وقت ظهور الاصابة بسبب فترة الحضانة للميكروب المسبب . اما البحوث الحديثة فان دراسة رحيم والتتار (١٩٦٦) تحمل معلومات عن موسم الاصابة . فقد ذكرا ان الاصابات الجديدة تظهر وتبدأ بالزيادة في شهر ايلول وتشرين الاول وتصل حدها الاعلى في كانون الثاني وشباط ، ثم تنخفض الاصابات في آذار وتكون على اقلها في تموز وآب . وقد كان هذا النمط نفسه ثابتا ولمدة ثلاث سنوات من الملاحظة والدراسة .

علاقة العمر بالاصابة :

لقد لاحظ الاقدمون ان الاطفال هم اول من تحدث لهم الاصابة . وفي مسح شامل في البيوت بالاعظمية وجد برنكل (١٩٥٧) ان الاصابة تبدأ في وقت مبكر من عمر الطفل قبل السنتين وتزداد مع تقدم العمر كما يوضحها الجدول التالي :

جدول رقم (١)

علاقة العمر (بالسنين) بالاصابة بحبة بغداد

العمر بالسنين	عدد المفحوصين	نسبة الاصابة (قديمة وحديثة)
٠ ـ ٢ سنة	٣٥ فرداً	١٢٪
٢سنة ـ ٦ سنة	٦٥ فرداً	٣٠٪
٦سنة ـ ١٢سنة	٤٣ فرداً	٥٦٪
فوق الـ ١٢سنة	١٦٩ فرداً	٨٠٪

طبعا ان هذه النسب لا تعني الاصابة بهذا العمر ولكنها تعني اصابة تجمعية (تكور) اي قد يكون الشخص المفحوص والذي كان مصابا قد اصيب بعمر قبل العمر الذي جرى فيه فحصه .

يؤيد ذلك رحيم والتتار (١٩٦٦) اذ يقولان ان الاصابة تحدث في اي عمر كان ، وقد كان اصغر مريض عالجاه بعمر ستة شهور ، واكبر مريض عالجاه كان بعمر ٥٤ سنة . وقد كانت الاصابة على اكثرها في العمر ٦ ـ ١٢ سنة .

مسبب المرض :

لقد مر بنا اعلاه ان الناس في بعض البلدان حيث يتوطن المرض قد ربطوا بينه وبين عضة البعوض أو بعض الحشرات ، كما جاء عن اهل بلخ وجرجان . كما ان بعض الناس ربطوا بين حبة بغداد وبين الماء كما في حلب ، وكذلك بين المرض والهواء كما في الرها . وقد ذكر الدكتور نابليون الماريني في مقالته الموسومة « الفوز بالمراد في تعريف حبة بغداد » والمنشورة في مجلة المشرق البيروتية عام ١٩٠١ وثانية عام ١٩٠٤ ، فكرة جيدة عن كل ما كان يعرفه العلم لحين كتابة مقالتيه . فقد ذكر انه لم يعرف بعد السبب المحدث لها . فقد يعتقد بعض الناس انها تعدي بينما يقول اخرون انها لا تنتقل بالعدوى . ولكن الدكتور نابليون الماريني يقول انها من الامراض العفنية تعدي الغير بنفسها وفيها ميكروب والعدوى فيها من جوهرها ، فعلها محصور في الجلد لا غير . وقد تكون الحشرات ناقلة للعدوى مثل البعوض او الحرمس وفي الغالب الذبابة او البرغوث. يبدو التقيح في الخريف والشتاء نتيجة الحضانة ، وقد ينقل التلامس او الادوات العدوى ايضا اذا وضعت على التقيح او جرح دام. ويعتقد احد الاطباء في حلب من الفرنسيين ان الجرثومة تاتي من نبات خاص موجود فقط في حلب ، تأخذه الحشرة الى الجسم الصحيح ، وكذلك قد تنتشر الجرثومة في الهواء وتتساقط على الجرح او القيح ، وقد قام نابليون بتجربة ، فاخذ القيح في الماء المقطر وطعم احد المتطوعين فحدثت الاصابة ولكنها شفيت بوقت اسرع ، واخذ القيح ولقح به اربعة من الجيران فظهرت فيهم الحبة مع انهم كانوا مصابين بها من قبل ولكنها لم تبق طويلا .

لقد اردت ان الخص هنا مع بعض الاطالة النظرة العلمية التي اوردها طبيب عراقي عن سبب مرض حبة بغداد . قد تكون هذه النظرة ، وقد ظهر بعد ذلك فعلا ، غير صحيحة ، ولكنها بداية جيدة واهتمام بالمرض ، نحن نعرف الان ان السبب ليس جرثومة وليس هناك اي نبات او ما اشبه ذلك له علاقة بالمرض وان الناقل هو فقط انواع من الحرمس الواخز .

كان J. H. Wright اول من اكتشف ووصف طفيلي حبة بغداد عام ١٩٠٣ من طفل جاء من ارمينيا الى بوستن في الولايات المتحدة الامريكية وقد اعطاها الاسم العلمي Helocosoma tropicum وقال انه من الحيوانات الابتدائية .

وبعد ذلك ظهر ان هذا الحيوان يعود الى الجنس Leishmania وهو من الابتدائيات السوطية يمت بصلة القربى : بالدرجة الثانية . الى مسبب مرض النوم الافريقي . ونتيجة للدراسات ابدل اسم طفيلي : الحبة الى Leishmania tropica Wright . ومن المناسب ان نذكر هنا ان العالمين الروسيين Borow و Marzinowsky كانا قد اكتشفا ايضا عام ١٩٠٤ طفيليا من مريض بالقرحة الشرقية (حبة بغداد) من حالة مريض كان قد عاش في ايران وقد اعطى هذان العالمان للطفيلي الذي اكتشفاه الاسم العلمي Ovoplasma orientale وقد اثبتت البحوث فيما بعد ان النوع O. orientale هو نفسه L. tropica اي انهما اسمان لحيوان واحد لذلك اطلق عليه الاسم Leishmania tropica Wright لانه اقدم الاسمين وحسب نظام او قانون الاسبقية في التسمية .

وبائية حبة بغداد :

كانت هناك عدة آراء للاقدمين عن سبب حبة بغداد وعن كيفية انتقال المرض وقد مرت بنا هذه الاراء . لكن من المهم ان نذكر ان الاقدمين قد ربطوا بين المرض والحشرات وانها تلعب دورا مهما بنقله ومنذ ان اكتشف الانسان علاقة الحشرات ومفصلية الارجل في انتقال وانتشار مسببات الامراض وكذلك اكتشاف ان السبب من الحيوانات الابتدائية ، اتجهت الافكار نحو الحشرات واهميتها في نقل وانتشار مسببات هذا المرض . فقد اعتقد البعض بان بقة الفراش هي الحشرة الناقلة وكان من هؤلاء باتن ، لكن هذا العالم ترك هذه النظرية بعد ان جاء الى بغداد اثناء الحرب العالمية الاولى ووجد ان حبة بغداد منتشرة في بغداد ولكن بقة الفراش اما قليلة الوجود جدا او معدومة كليا مما يدل على عدم اهميتها في نقل هذا المرض . وقد توصل وينيون الى نفس الاستنتاج قبل باتن بسنين طويلة . وقال البعض باهمية الذباب الماص للدم ، مثل ذباب الاسطبل وذباب الكلب ، ولكن ايضا لاسباب عديدة وبعد تجارب كثيرة اضطر اصحاب هذه النظريات الى تركها ، كذلك كان الامر بالنسبة للبعوض .

ثم اتجهت الانظار نحو الحرمس . في الحقيقة لم يكن هذا امراً جديداً ، فقد ذكر بعض الاطباء الاقدمين البعوض والجرجس (الحرمس) من مسببات هذا المرض .

كان بريسات وسرجنتس من اوائل من نادى

باهمية الحرمس في نقل مسببات حبة بغداد في العصر الحديث ، لكن يظهر ان ونيون الذي اشتغل في حلب وبغداد كان اول من اقترح واثبت ان الحرمس هو الناقل وكان هذا الاكتشاف من حظ هذا البحاثة . لقد برهنت تجاربه التي اجراها في حلب ان الحرمس هو الناقل ، ثم ايد هذا الاكتشاف Connor و Short (١٩١٨) ثم Acton (١٩١٩) فيما بعد ؛ في العراق حيث جرت بحوث عديدة من قبل اناس اجانب في بادىء الامر مثل Theodor و Adler (١٩٢٩) وبعد ذلك Pringle (١٩٥٢ ـ ١٩٥٧) ؛ وبعدها قام الكثير من العراقيين اطباء ومختصين بالحشرات الطبية بعمل ابحاث وتجارب في هذا المضمار .

قال Theodor و Adler (١٩٢٩) ان نوع الحرمس الناقل المهم هو Phlebotomus sergenti في منطقة بغداد ؛ اذ انهما جمعا ٦٨٤ نموذجا من انثى هذا النوع ، وبعد التشريح عثرا على اثنين من هذه الاناث مصابتين . وقد ايد Pringle (١٩٥٧) هذا الراي معتمدا على راي هذين العالمين ، ولكننا نشك كثيرا بهذا الاستنتاج اعتمادا على دراستنا التي اجريناها مؤخرا . لقد اظهرت هذه الدراسات ان النوع المزعوم Phlebotomus sergenti قليل الوجود في بغداد واطرافها ، بل وحتى في جميع العراق . اما النوع الذي ينتشر بكثرة ويكاد ان يكون ٩٠٪ من مجموع افراد انواع الحرمس التي يجري جمعها في الحقل هو النوع Phlebotomus papatasi . من المعروف ان هذا النوع ناقل مهم لطفيلي حبة بغداد في اماكن اخرى وانه بعد التشريح عثرنا فيه على كائنات سوطية تشبه المسبب لمرض حبة بغداد. هذا وقلة وجود النوع الاول قادنا الى الاعتقاد ان الناقل المهم لمسبب حبة بغداد في العراق هو نوع الحرمس المسمى Phlebotomus papatasi

الحرمس في العراق :

يوجد في العراق ١٦ نوعا من الحرمس ، تنتشر في محلات مختلفة من العراق ، لكن بعضها موجود باعداد قليلة جدا وباوقات قصيرة ، وهناك بعض الانواع التي لا تقترب من الانسان بل تعيش بربة على القوارض والزواحف والطيور او الحيوانات الزراعية . ان الانواع المهمة والضارة هي تلك التي تعيش على دم الانسان وعلى دم الحيوانات الاخرى القريبة منه ؛ وبحكم هذه العادة والطبيعة فان هذه الانواع هي المهمة والضارة واكثر هذه الانواع انتشارا هو النوع المسمى Phlebotomus papatasi الذي يعيش على الحيوانات الزراعية والقوارض وكذلك يدخل البيوت ويهاجم الانسان . يظهر هذا النوع باعداد كبيرة في الربيع ثم تقل اعداده في الصيف ويعود الى الارتفاع مجددا والى حد عال في ايلول وتشرين اول . يقضي الشتاء بدور الاناث البالغة او بدور اليرقات في التربة . وتتكاثر انواع الحرمس في التربة الخفيفة الرطبة والتي تكون غنية بالمواد العضوية وتفضل المحلات المظلمة . تمر دورة الحياة باربعة ادوار هي : البيضة ـ اليرقة ـ الخادرة ـ البالغة، وهذا ما يسمى « الاستحالة الكاملة » . ان الاناث وحدها تتغذى على الدم وتهاجم الحيوانات اما الذكور فانها لا تعيش طويلا ولا تعتمد على الدم في غذائها .

تقوم الان في العراق عدة جماعات للدراسة والبحث في موضوع الحرمس الناقل والطفيلي المسبب للمرض .

قد يكون شهر ايلول واواخر آب واوائل تشرين الاول هي اوقات حدوث العدوى لان الحرمس يكون باعداد عالية في هذه الاوقات ، ولكن المرض لا يظهر الا في اواخر الخريف وفي الشتاء بسبب ان مدة حضانة الطفيلي في الانسان قد تطول بين ٣ ـ ٦ اشهر . ان هذا لا يعني انه ليس هناك حدوث عدوى وظهور اصابات في بقية ايام السنة ولكنها تكون بصورة اخف واوطأ .

حبة بغداد على الحيوانات :

لقد ذكر بعض الاطباء القدامى مثل Russell (١٧٥٧) في حلب ، والقس Southgate (١٨٤٠) في بغداد ان حبة بغداد توجد على الحيوانات الاخرى مثل القطط والكلاب .

تحدث اصابات الكلاب بهذه الحبة في المناطق التي يوجد فيها المرض متوطنا مثل تفقاسيا وايران والعراق وبعض المناطق مثل حلب . في العراق حبة بغداد تكون اعتيادية بين الكلاب وتنتشر كثيرا في بعض الفصول وقد تكون الكلاب هي الحيوانات الخازنة للطفيلي والذي يكون مصدر العدوى الى الانسان عن طريق الحرمس ، فقد ذكر Machattie و Chadwick (١٩٢٧) اصابات عالية بين الكلاب

في بغداد والموصل وكركوك وخانقين والناصرية وبعقوبة والحلة والعمارة . وقد ثبت ان الطفيلي الذي يصيب الكلاب هو نفسه الذي يصيب الانسان او انه يمكن ان يصيب الانسان .

ظهرت في كتابات المديد من الباحثين اشارات الى حيوانات اخرى مصابة بالطفيلي مثل اليرابيع والقوارض البرية الاخرى والفئران البرية والجرذان البرية والسنجاب والدببة بل وحتى القطط ، لكن دراستنا في العراق حتى الان لم تثبت الاصابة على اي من هذه الحيوانات ما عدا الكلاب ولم يثبت بعد ان الكلب هو الحيوان الخازن للطفيلي .

انتشار حبة بغداد في العراق :

ظهرت اثناء الحرب العالمية الاولى اصابات بين الجنود في منطقة شيخ سعد والبصرة ولكن اكثر المناطق شدة كانت بغداد والموصل . في عام ١٩٤٩ وعام ١٩٥٠ اجرى معهد الامراض المتوطنة وباشراف برنكل مسحا عاما لهذا المرض بين اطفال المدارس . والجدول التالي رقم (٢) يعطينا فكرة عن نتائج هذا المسح .

جدول رقم (٢)

نتائج مسح حبة بغداد في مناطق العراق عام ١٩٤٩ ــ ١٩٥٠

المنطقة	عدد المدن المفحوصة	عدد المدن الموجبة	عدد المفحوصين	نسبة الاصابة
شط العرب وهور الحمار	٣٥	٢٩	١٩١٤	١ر ٤٪
سهول الفرات	٩١	٨٩	٤٩٠٨	٦ر٣٠٪
سهول دجلة	٢٩	٢٧	١٨٥٧	١ر٢٧٪
سهول ديالى	٤٤	٣٧	١٣٨٥	٣ر٣٠٪
مناطق شمالية	٢٤	٢٠	ــــ	ــــ

وسط العراق :

تحتل بغداد المركز في منطقة واسعة من الاصابة بين الناس بحبة بغداد ، وتمتد هذه المنطقة من الحدود الشمالية للسهول الرسوبية حتى القادسية وشمال ذي قار وميسان ، ويكون الانتشار في هذه المنطقة غير منتظم في المدن الكبيرة ونسبة الاصابة تكون عالية بينما قد تكون المناطق الريفية القريبة خالية من الاصابة . ولكن بعض القرى في ناحية الحسينية (كربلاء) وفي الحلة تعاني من الاصابة وكذلك على قنوات خريسان (بعقوبة) ومهروت (ديالى) وفي القرى على شواطىء دجلة .

شمال العراق :

المرض في الشمال يكون نادرا او غير موجود ولكن في السهول الشمالية حيث تقع الموصل وبعض المدن والقرى الاخرى تكون الاصابة عالية وهناك اصابة متوسطة في سنجار وعقرة والعمادية وشقلاوة ، اما في مدينتي اربيل وكركوك فيكون المرض نادر الوجود . لم يسجل رحيم والتتار (١٩٦٦) اكثر من ١٨ حالة لفترة ٢٤ شهرا من الدراسة والملاحظة .

جنوب العراق :

ايضا يكون المرض هنا نادرا او غير موجود تقريبا او انه اختفى من محافظتي ذي قار والبصرة ولكنه يوجد في المناطق على الانهار في شمال محافظة ميسان . لقد ذكر رحيم والتتار (١٩٦٦) تسجيل ٢٢ حالة فقط من هذه المنطقة لفترة ٣٤ شهرا .

انتشار المرض في مدينة بغداد :

ان هذه البؤرة المشهورة بالمرض تهيء فرصة ثمينة لدراسة المرض . ففي عام ١٩٢٩ كانت الاصابة اعلى منها في عام ١٩٥١ ، فكانت الاصابة في الاعظمية والحيدرخانة والكرخ والسنك تصل ١٠٠٪ بينما كان المرض نادرا في العلوية وكمب الارمن ومعسكر رشيد . اما في سنة ١٩٥١ فقد وجد برنكل (١٩٥٧) ان معدل الاصابة في الاعظمية

كان ٦٩٪ أي أقل مما كانت عليه عام ١٩٢٩ . أما في الوقت الحاضر والسبعينات من هذا القرن ، فلا يوجد لدينا احصائيات مماثلة للمقارنة ، ولكن وكما ذكرنا في المقدمة فقد هبطت لاصابات الى الخمسينات وعادت الى الارتفاع في الستينات ولكن ليس بالمستوى القديم . ثم ان الهجرة الى بغداد تجعل من الصعب اجراء مسح يعطي فكرة صحيحة عن الاصابات في بغداد لان الناس تقاطروا على العاصمة من جميع الجهات . ان الجدول رقم (٣) يعطينا المحلات البغدادية التي سجلها برنكل في مسح ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ .

جدول رقم (٣)

محلات بغداد المصابة بحبة بغداد
(١٩٤٩ ـ ١٩٥٠)

المحلة	عدد المفحوصين	نسبة الاصابة
شيوخ	١٣٨	٣٧ ٪
نصة	٤٣	٧١ ٪
حرة	٢٧	١٠٠ ٪
راغبة خاتون	٨٠	٤٧ ٪
هيبت خاتون	٢٨	٦١ ٪
سفينة	١٥١	٧٤ ٪
كاظمية	٥٢	٦٦ ٪
عيواظية	٥٠	٣٤ ٪
وزيرية	١٠٠	٥٠ ٪
شالجية	١٨٦	٤٥ ٪
كرخ	٥٠	٦٢ ٪
كرادة مريم	٥٠	٥٢ ٪
باب الشيخ	٥٠	٣٤ ٪
بتاوين	٥٠	٣٠ ٪
علوية	٢٠	صفر
كرادة (برة)	٩٦	٤٩ ٪
كرادة (جوة)	٥٠	٣٦ ٪
حي دراغ	١٠	صفر
حارثية	٢٥	٢٠ ٪
صليخ	١٨٤	٥٨ ٪
نحـامة	٥٠	٥٠ ٪
زعفرانية	٥٠	٣٦ ٪
تل محمد	٥٠	١٦ ٪
رستمية	٣٢	١٦ ٪
دورة	٢٥	٣٠ ٪
وشاش	٩٢	٥٠ ٪
غرب الكاظمية	٢٥	٢٠ ٪

حبة بغداد المعروفة بـ Leishmania recidiva

هذه الحالة الغريبة والتي تبقى لمدة طويلة . تبدأ دائما من حواف حبة بغداد مندملة وتظهر عادة بشكل الذئبة العادية (وهي مرض جلدي يشبه بالذئب وقد سماها سندرسن بالاسم العلمي للذئب Lupus vulgaris . انها ندبات مسطحة حمراء تنتشر ضمن الاخت او القرحة الشافية . من الصعب العثور على الطفيلي في هذه الحالة الا اذا انتزعت جميع الندبة ثم زرعت . يعتقد برنكل انها تحدث في ١٥٪ من الحالات الشافية من حبة بغداد ، بينما رأى رحيم والتتار (١٩٦٧) اثنتي عشر حالة من بين ٢٧٨٨ حالة من حبة بغداد .

يسميها برنكل Leishmania recidiva cutis . قد تبقى الندب غير واضحة وقليلة الارتفاع او انها تندمج مع بعضها لتكون منطقة مرتفعة ملساء ، مع توسع بطيء بالحواف قد يمتد لعدة سنوات ، اما مركز القرحة فيصبح شاحبا ومغطى بطبقة حرشفية. قد تستمر الحالة لمدة خمس سنوات او اكثر قبل ان تندمل . وبنفس الوقت يكون لها مظهر منطقة حمراء واضحة المعالم عليها لطخات من لون أعمق ومغطاة وايضا عليها نديبات وطبقات سطحية من نسيج ندي حديث . ان هذه الحالة تشوه الوجه اكثر من حبة بغداد (وقد ذكر ذلك بكنهام (١٨٢٧) في منطقة اورفا (الرها) قد تشمل نصف الوجه ولم يمكن علاجها بأي شيء ؛ مع ان هذه الحالة مرافقة لاصابة حبة بغداد سابقا ، الا انه لم يمكن عزل المسبب (Leishmania) منها . لا تختلف الندبة على الوجه عن حالة حبة بغداد من الناحية الباثولوجية والنسيجية . ان وجودها في العراق محدود اكثر من وجود حبة بغداد فهي مثلا لم توجد بين مئات الاطفال المصابين بحبة بغداد والذين فحصوا من قبل برنكل (١٩٥٧) من منطقة الفرات الجنوبية ؛ في هذه المناطق تكون حبة بغداد ضحلة صغيرة ، واهليلجية الشكل . يقول رحيم والتتار (١٩٦٦) انهما صادفا ١٢ مريضا من مجموع ٢٧٨٨ حالة حبة بغداد وعلى مدى ثلاث سنوات مصابين بهذه الحالة ان الندب المضاعفة من اثر حبة بغداد اما ان تحيط بها او في وسطها ، ويحدث التقيح وسقوط الحراشف بعدها وقد تتوسع الندبات .

ستنتج الباحثان ان Leishmania الذئابية نادرة الوجود في العراق .

بعض المصادر العربية
التي ورد فيها ذكر حبة بغداد

١ ـ **ابن سينا** ، ابو علي . توفى ١٠٣٤هـ ، كتاب القانون في الطب .

٢ ـ **الجرجاني** ، اسماعيل بن حسين (السيد اسماعيل) . توفى ١١٣٧هـ . كتاب « خوارزمشاه » حوالي ١١٣٠هـ .

٣ ـ **الرازي** ، بهاء الدولة . خلاصة التجارب حوالي ١٥٠٠م .

٤ ـ **الكرملي** ، انستاس . مجلة لغة العرب . مجلد ٨ ، ص ٦٢٤ و ٧٧٧ ـ ٧٨٢ سنة ١٩٢٠ .

٥ ـ **الجلبي** ، داوود . مجلة لغة العرب . مجلد ٨ ، ص ٧٧٧ ـ ٧٨٣ ، سنة ١٩٣٠ نقاش مع الاب انستاس .

٦ ـ **العمري** ، سعاد . بغداد كما وصفها السواح الاجانب ص ٢) ، (مترجمة من "Dupre" مطبعة دار المعرفة .

٧ ـ **الكتاب المقدس** (كتاب العهد القديم والعهد الجديد) المطبعة الامريكية في بيروت سنة ١٩٢٩ . كتاب الخروج ، اصحاح ٩ ، آية ٨ ـ ١٢ ، وكتاب التثنية اصحاح ٢٨ ، آية ٢١ ـ ٢٧ .

٨ ـ **بصمه‌جي** ، ادوارد . « بعض الملاحظات عن حبة بغداد في العراق » . دار الطباعة الحديثة بغداد ١٩٢٠ (لم اطلع عليه) .

٩ ـ **فوصيل** ، بيير دى . الحياة في العراق منذ قرن (١٨١٤ ـ ١٩١٤) ، ص ٥٤ ـ ٥٥ . ترجمة اكرم فاضل ١٩٧٤ .

١٠ـ **ديو لافوا** ، مدام . رحلة الى كلده ـ العراق . ترجمة علي البصري عام ١٩٥٨ دار منشورات البصري . بغداد .

١١ـ **ماريني** ، نابليون . مجلة المشرق . رقم ٤ ، ص ٣٥٤ ـ ٣٦١ ، سنة ١٩٠١ ، ورقم ٧ ص ٦٥٢ ـ ٦٦١ ، سنة ١٩٠٤ .

١٢ ـ **دراور** ، ليدى . « في بلاد الرافدين ، صور وخواطر » ترجمة فؤاد جميل ١٩٦١ .

●

المصادر باللغة الانكليزية

عن الحرمس وحبة بغداد في العراق : ـ

Abul-hab, J. K. and M. T. Mehdi, 1970.
Seasonal occurrence of Phlebotominae (Diptera, Psychodidae) sandflies of Baghdad area, Bull. End. Dis. Baghdad, XII (1-4) : 81.

Abul-hab, J. K. and R. al-Bagdadi, 1972.
Seasonal occurrence of five species of **Phlebotomus** (Diptera, Psychodidae) in Baghdad area; Ibid., XIII (1-4) : 55-75.

Abul-hab, J. K. and R. al-Baghdadi, 1972.
Seasonal occurrence of man-biting **Phlebotomus** (Diptera, Psychodidae) in Baghdad area; Annals of Trop. Med. and Parasitology, 66 (1) : 165-166.

Acton, H. W. 1918.
A study of the distribution of the Baghdad boils on the body made with view to the discovery of the transmitting agent; Indian Jour. Med. Res. 6 : 202.

Adler, S. and O. Theodor, 1929b.
The distribution of sandflies and Leishmaniasis in Palestine, Syria and Mesoptamia. Ann. Trop. Med. Parasitology, 23 : 269 - 306.

Adler, S. and O. Theodor, 1930.
The Inoculation of Canine Leishmaniasis into man. Ann. Trop. Med. Parasi., 24 : 197 - 210.

Ahmad, S. A., 1976.
A revision of the Phlobotomidae (Diptera) sandflies in Iraq. A thesis submitted to the Univ. of Baghdad for the Degree of M. Sc.

al-Azzawi, B. M. 1975.
Vector potential of Phlebotomus papatasi Scopoli (Diptera, Psychodidae) to kala azar in Baghdad area. Thesis submitted to the Univ. of Baghdad for the M. Sc. Degree.

al-Azzawi, B. M and J. K. abul-hab, 1977.
Vector potential of P. papatasi Scopoli (Diptera, Phlebotomidae) to kala azar in Baghdad area; Bull. End. Dis. Baghdad; XVIII (1-4) : 35-45.

al-Adhami, B. H. 1974.
Protozoal parasites of blood of Muridee (rats and mice) in Baghdad area. A thesis submitted to the Univ. of Baghdad for the M. Sc. Degree.

Bashir, Y. 1954.
A pre. note on Occ. kala azar in No. Iraq. Bull. End. Dis., 1 : 77-80.

Boissier, A. 1894.
Doc. Assy. Presage, Vol. 1, Lib. Emile Boui. Paris (Cited by Pray et al., 1967.

Lamborn, W. A. 1955.
The Haematophagous fly as a possible vector of Leishmania. Bull. End. Dis. Baghdad, I : 239 - 249.

Ledingham, J. C. G. 1919.
Kala azar in Mesopotamea. British Med. Jour., 2 : 88. (Cited by Bray et. al., 1967).

Machattie, C. and C. R. Chadwick, 1920.
Notes on cutaneous Leishmaniasis of dogs in Iraq; Trans. Roy. Soc. Trop. Med. Hyg. 20 (7) : 422-432.

Machattie, C., E. A. Mills and C. R. Major, 1931.
Naturally occurring oriental sore of the domestic cat in Iraq. Ibid., 25 : 103.

Marinkelle, C. J., 1975.
Visceral leishmaniasis control, Iraq, WHO, Reg. Office Eastern Med. an assigment report., pp. 13.

Millington, H. 1873.
Signs and wonders in the Land of Ham, John Murry, London. (Cited by Pringle, 1957).

Mills, E. A., Machattie, C. and C. R. Chadwick, 1930.
A preliminary note on the relationship of the parasites of human and canine dermal leishmaniasis. Trans. Roy. Soc. Tro. Hyg. 23 : 413-416.

Mohsen, Z. H. 1973.
Lab. Studies on the Bio. and Vec. Pot. of man-biting Phlebotomus sandflies (Diptera, Psychododae) in Baghdad area; a thesis to the Univ. of Baghdad for the M. Sc. Degree.

Mohsen, Z. H. and J. Abul-hab, 1975.
Lab. studies on the biology of Phlebotomus papatasi Scopoli (Diptera, Psychododae); Bull. End. Dis. Baghdad 16 : 33-56.

Patton, W. S. 1919. Notes Epid. Oriental Sore in Meso. Bull. Soc. Path. Exot. 12: 500-504.

Pecocke, R. 1765.
A description of East. Vol. II, Bowyer, London. (Cited by Pringle, 1957).

Bray, R. S., G. F. Rahim and S. Taj el-Din. 1967.
The present State of Leishmaniasis in Iraq.; Protozoology, 11 : 171-186.

Buckingham, J. J. 1827.
Travels in Mesopotamia, London. (Cited by Pringle, 1957).

Budge, E. A. Wallis, 1920.
By Nile and Tigris. John Murray, London. (Cited by Pringle, 1957).

Campell-Thomson, R. 1936.
A dictionary of Assyrian Chemistry and Geology. Clarendon Press. (Cited by Pringle, 1957).

Candler, E. 1919.
The long road to Baghdad. Cassel & Co. London (Cited by Bray et al, 1957).

Chadwick, C. R. and C. Machattie, 1927.
Cutaneous Leishmaniasis in Iraq; Trans. Roy. Soc. Trop. Med. Hyg., 20 : 422-432.

Connor, R. and H. E. Short, 1918.
Dermal Leishmaniasis in Iraq. Indian Jour. Med. Res., 6 : 162.

Corradetti, A. 1965.
Informations on Leishmaniasis collected in Lebanon, Syria, Iraq, Iran and Turkey. WHO Pub. PA/66. 80.

Elgood, C. 1934.
The early history of the Baghdad boil. Jour. Roy. Asiatic Soc., III : 519-533.

Elgood, C. 1951.
A med. Hist. of Persia and E. Caliphate, Univ. Press, Cambridge.

Kirchmair, H. 1954.
Kala azar in North Iraq. Jour. Med. Prof., 2 : 50-55.

Kultz, L. 1916.
Pathologische und theapeutische Beobachtuigen aus Niedermesopotamien. Arch. Schiffs. Tropenhyg. 20 : 487-502. (Cited by Bray et. al., 1967).

Labat, R. 1951.
Traite Akkadien de Diagnostics et prognostics medicaux. Vol. 1, E. J. Brill Ed., Leiden, p. 75. (Cited by Bray et. al., 1967).

Sprawson, C. A. 1919.
Kala azar in Mesopotamea and its incubation period. British med. Jour. 2 : 667-6668.

Sukkar, F. 1972.
Visceral leishmaniasis in Iraq; Bull, End. Dis. Baghdad, 13 : 77-83.

Sukkar, F. 1974.
Sudy on sandfliies as vectors of kala azar in Iraq; Ibid. 15 : 85-104.

Sukkar, F. 1976.
Some Epid. Information from annual rep. on kala azar in Iraq during 1974. Ibid. 17 : 119-127.

Taj el-Din, S. and K. al-Alousi, 1954.
Kala azar in Iraq; Report of four cases; Jour. Fac. Med. Baghdad, 18 : 15 - 19.

Taj el-Din, S. and M. H. al-Hassani, 1961.
Kala azar in Iraq, Analysis of 100 cases : Jour. Fac. Med. 3 (New Series) : 1-9.

Virolleaud, Ch. 1907.
Pronostics sur l'issue de diverses maladies aves 2 planches. Babyloniaca 1 : 1-103. (Cited by Bray et. al., 1967).

Wenyon, C. 1911. Oriental sore in Baghdad; Parasitology, 4 : 273-344.

Zein el-Din, K., 1973.
Visceral leishmaniasis in Iraq, in search of a reservoir host and a vector; Jour. Egypt. med. Assoc, 56 : 689.

Pringle. G. J. 1952.
The sandflies (Phlebotominae) of Iraq; Bull. Ent. Res., 43 : 707-734.

Pringle, G. J. 1956.
Kala azar in Iraq : Preliminary epidemiological consid., Bull. End. Dis. Baghdad, 1 : 275-294.

Pringle, G. J. 1957.
Oriental Sore in Iraq, Historical and Epidemiological Problems; Ibid., 2 : 41-70.

Rahim, G. F. and I. H. Tatar 1966.
Oiental Sore in Iraq. Ibid., 8 : 1 - 4.

Rahim, G. J., 1967.
Present Problems of Oriental Sore in Iraq, Ibid., 9 : 48-58.

Russel, Alex., 1756.
The Nat. Hist. of Aleppo and parts of Adjacent. Millar, London, (Cited by Pringle, 1957).

Salim, H. H., Z. Hayatee and A. Awaness, 1966.
Dehyd. Resi. for oriental sore. Lancet, 1 : 1428.

Sinderson, H. 1931. Lupus vulgaris and oriental sore. Trans. R. Soc. Trop. Med. Hyg. 25 : 75-76.

Southgate, Rev. H., 1840.
Narrative of a tour through Armenia Kurdistan, Persia and Mesopotamea. Appleton & Co., New York. (Cited by Pringle, 1957).

قبتان مخروطيتان من بغداد

بقلم
عطا محمد صالح الحديثي
الدار الوطنية للتوزيع والاعلان ـ بغداد

نبذة تاريخية

ان دراسة الطبيعة الجغرافية لوسط وجنوب العراق توضح لنا ان هناك ثمة عوامل طبيعية وبيئية قد تحكمت في اساليب البناء نتيجة لندرة مواد انشائية معينة ووفرة اخرى وفي دراستنا للقباب وما لوفرة مادة الطين بكميات هائلة في هذا الوسط وندرة مادة مهمة كالخشب والحجر دفعت المعمار العراقي القديم الى ابتكار فنون معمارية جديدة في تسقيف الابنية وذلك باستخدام العقود والاقبية عوضا عن السطوح المستوية والاستغناء عن استخدام الاعمدة والدعائم طالما ان مادة الطين بطبيعتها مادة مرنة تعطي البناء القدرة والكفاءة في التحوير والتحكم ، ان هذا العامل لعب دورا كبيرا في تحديد انواع وفن العمارة في العراق .

لذلك فان دراسة مراحل التطور الثقافي والحضاري لوادي الرافدين الذي كان له اوفر نصيب في بلوغ النضج الحضاري واقامة حضارة اصيلة في تاريخ البشرية مقارنة بالحضارات الاخرى التي قامت الى جانب حضارة وادي الرافدين ، توضح لنا ان الانسان في هذه المنطقة ابتدع كل ما هو جديد في الفنون المعمارية وعلى ذلك يمكن ان نجد اصول الابنية المقببة في العمائر القديمة التي شيدت في بلاد وادي الرافدين ومنها انتشرت الى العالم القديم .

فالقبة اذن عنصر عماري محور عن فنون الازج(١) المعمارية التي تعد من اهم الخصائص البنائية المميزة لابنية وادي الرافدين عن سواها « فابتداع التاريخ في البناء وحز الحنائر كان فتحا عظيما في الفن المعماري فهو يساوي اختراع العجلة في الاته وادواته مع اشتهار الرومان ببناء القناطر التي هي حنائر وبناء عقود الظفر المعروفة باقواس النصر ، فاول من ابتدع الحفر والتأريخ والتقويس في البناء هم سكان وادي الرافدين القدامى »(٢) .

فقد هدتنا التنقيبات الاثرية الى نمط التسقيف في ابنية مرحلة القرى الزراعية المتطورة « الالفين السادس والخامس قبل الميلاد »(٣) ، فحفريات تل حسونة اثبتت لنا ان السقف كان مسنما بينما ظهر في عصر حلف(٤) على شكل قبة(٥) .

وقد دلت الحفريات التي اجريت في موقع الاربجية(٦) عن بناء القبة واورد الاستاذ ملوان

(١) الازج : ضرب في الابنية ومصطلح عماري للدلالة على كل بناء شيد مقوسا . « الفيروز ابادي القاموس المحيط ج ١ ص ١٧٧ ـ دار الفكر ـ بيروت » والدكتور مصطفى جواد ، سومر م ٢٥ ص ١٦٤ بغداد ـ ١٩٦٩ .

(٢) الحنيرة : عقد الطاق المبني والقوس او بلاولر والعقد المضروب ليس بلبك العريض . « الفيروز ابادي القاموس المحيط ج ٢ ص ١٤ ـ دار الفكر ـ بيروت » د . مصطفى جواد ، سومر م ٢١ ص ١٦٤ بغداد ـ ١٩٦٩ .

(٣) فؤاد سفر سومر ١ ج ٢ ص ٢١ بغداد ـ ١٩٤٥ .

(٤) تقع قرية حسونة على نحو ٥ كم في الضفة اليمنى لدجلة وعلى ٣٥ كم جنوب الموصل ، نقبت فيها مديرية الاثار العراقية في عامي ٩٤٣ ـ ١٩٤٤ وهي قرية كبيرة في العصر الحجري الحديث يقدر تاريخها بنحو (٥٨٠٠ ـ ٥١٠٠ ق . م) .

(٥) يقع تل حلف في شمال سوريا على ٥ كم جنوب غربي راس العين قرب منبع الخابور نقبت فيها بعثة المانية عن متحف برلين سنة ١٩١٠ . ١٩١٣ ، ١٩٢٩ .

(٦) الاربجية : موقع اثري يقع بالقرب من اطلال نينوى ويرجع تاريخه الى (٤٩٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق . م) .

نماذج مختلفة لها واشار الى ان الطراز ، اي بناء القبة يختلف من مكان لآخر فهناك نموذج بشكل قبة دائرية واخر بشكل قبة مخروطة(٧) .

وقد وجد الاستاذ ليونارد ولي في المقبرة الملكية بـ اور في العهد السومري «الالف الثالث ق.م» نماذج لسقوف معقودة بشكل اقبية وقباب مخروطة .

اما في العصر الاسلامي فان اقدم مثال عراقي للقباب ما زال قائما فيه هو قبة قصر الاخيضر التي تعود الى النصف الاول من القرن الثاني للهجرة .. اما اقدم قبة اسلامية في بغداد ذكرها لنا المؤرخون العرب فهي : قبة قصر المنصور ، الخضراء

ان خير من وصف قصر المنصور وقبته الخضراء هو الخطيب البغدادي حيث روى انه : ـ « كان في صدر قصر المنصور ايوان طوله ثلاثون ذراع وعرضه عشرون ذراع وسقفه قبة وعليه مجلس فوقه القبة الخضراء وسمكه الى حد عقد القبة عشرون ذراعا تصار من الارض الى راس القبة الخضراء ثمانين ذراع » ويضيف انه كان على راس القبة الخضراء تمثال فرس عليه فارس في يده رمح يتجه مع الريح ، وكانت ترى من اطراف بغداد .

ويذكر لنا الخطيب ان قبة المنصور بقيت قائمة حتى سقط راسها في يوم الثلاثاء لسبع خلون من جماد الاخر سنة تسع وعشرين وثلاثمائة وكان ليلتئذ مطر عظيم ورعد هائل وبرق شديد وكانت هذه القبة تاج بغداد وعلم البلد ومأثرة من مآثر بني العباس ، بنيت اول ملكهم وبقيت الى هذا الوقت « الى اخر امر الواثق »(٨) .

ويذكر لنا ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٥٢ ان سبب سقوط القبة الخضراء هو الغرق العام الذي خرب مدينة بغداد ، حيث كانت تتعرض لفيضانات مستمرة وبالتاكيد ان تأثير المياه على العمران كان كبيرا(٩) .

ان ما يعنينا من هذا الموضوع هو دراسة قبتي زمرد خاتون والسهروردي وهما « وامثالهما من القبب المخروطية تكاد تكون خاصة بمشاهد الائمة والكبراء والكبيرات منذ زمن العباسيين » ، وقد انتشرت في العراق في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري حتى نهاية القرن السابع الهجري ومما بقي منها في العراق قائما حتى الان ثماني عشرة قبة وفي الغالب تكون قبة الضريح منفردة وقد تكون ملحقة بمدرسة او جامع ، وتكون شرفة الضريح على الاكثر ثمانية اضلاع لان كثرة الاضلاع في الشكل المضلع تعني غالبا قيام بناء مخروطي وتاتي بعدها الثرية الرباعية الاضلاع .

والقباب المخروطية انواع منها ذات المقرنصات من داخل البناء وخارجه وهو السائد ويكون هذا المخروط صفوفا من المقرنصات تستمر حتى نهاية القبة ويكون الشكل الخارجي مشابها للشكل الداخلي ومن القباب ما تكون مخروطا من الداخل وهي مضلعة من الخارج وهذا النوع يكون على شكل قبتين داخلية وخارجية بينهما فراغ . كما في قبة يحيى ابي القاسم في الموصل .

قبة السيدة زمرد خاتون

تقع قبة السيدة زمرد خاتون في الجانب الغربي من مدينة بغداد « جانب الكرخ » الى الجنوب الغربي من ضريح الشيخ معروف الكرخي في وسط المقبرة المعروفة باسمه(١٠) .

يعرف الضريح ـ عند العامة ـ باسم الست زبيدة ولا زال . وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذا الضريح واغلب الاراء لا تنسبه الى السيدة زبيدة ـ بنت ابي جعفر المنصور ، فقد راى المرحوم الاستاذ عباس العزاوي في كتابه تاريخ العراق بين احتلالين ان الضريح يعود الى زبيدة بنت هارون الجويني المتوفاة سنة ٧٠٦هـ(١١) في حين يذكر لنا الاب انستاس الكرملي ان الضريح تعود نسبته الى زبيدة خاتون ابنة السلطان بركياروق زوجة السلطان مسعود بن السلطان ملكشاه المتوفاة سنة ٥٣٢هـ ويؤيد هذا الراي الاستاذ عبدالرزاق الحسني(١٢) .

---

(٧) M.E.L. Mallawan and Jerviklovnd Rose, Excavations at Tell Arpachiyah Iraq Volc. 11, Part LPP, 25 Lonlan 1935.

(٨) الخطيب ج ٧٢/١ طبع المكتبة السلفية ـ الرياض .

(٩) الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٢٠٧ .

(١٠) تسمى المقبرة التي دفن فيها الشيخ معروف الكرخي بمقبرة باب الدير . ثم بنيت له تربة واحترقت عام ٤٥٩هـ ثم امر الخليفة القائم بامر الله بعمارة المكان . « د . مصطفى جواد ، المعاثر الاسلامية العتيقة سومر م ٣ سنة ١٩٤٧ » .

(١١) عباس العزاوي / تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٤٠٦ .

(١٢) الاب انستاس ماري الكرملي لغة العرب مج ٦ ص ٧٥٥. دائرة المعارف الاسلامية ج ٤ ص ١٧ (حاشية) .

ويرى السيد محمود شكري الالوسي انه ربما كان يمثل تربة لزوجة او بنت احد الامراء او ملك من الملوك اي لا صلة له بالسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد(١٣) .

اما الدكتور مصطفى جواد فينسب الضريح الى السيدة زمرد خاتون ام الناصر لدين الله المتوفاة سنة ٥٩٩هـ وهو الراي الراجح الذي تؤكده الروايات التاريخية(١٤) .

تقوم قبة السيدة زمرد خاتون على قاعدة تتكون من ثمانية اضلاع لان كثرة الاضلاع في الشكل المضلع تساعد كثيرا على قيام بناء مخروطي عليها اي قيام دوائر في البناية متضائلة شيئا فشيئا حتى تنتهي بسماوته اي بنقطة اعلاه(١٥) انظر صورة رقم (١) .

يتوسط احد اضلاع القبة مدخل تتقدمه غرفة مربعة تعود الى فترة متأخرة من العهد العثماني كما يدل على ذلك طرازها المعماري حيث سقفت بقباب نجمية الشكل عرفت بالصينية ، وهو طراز شائع في بغداد في تلك الفترة(١٦) .

تقوم القبة على جدران صلبة ثمانية الاضلاع مبنية بالاجر والجص ، اما خارجها فتزينها زخارف اجرية بسيطة محفورة حفرا قليل الغور ومكونة من نجوم وبعض الاشكال الهندسية والزخارف النباتية . . انظر صورة رقم (٢) .

وشكل رقم (١) الذي يمثل نماذج لحشوات زخرفية اجرية .

وفي ظاهر كل وجه من اوجه القاعدة الثمانية بابان معميان وفي صورتها التي صورت قبل سنة ١٨٥٠ . اربعة ابواب معماة اثنان من فوق واثنان من تحت ولم تحافظ هذه العمارة على شكلها القديم نتيجة الترميمات الحاصلة عليها ولعدة مرات(١٧) .

اما ظاهر القبة فقد غطي بالجص .

(١٣) محمود شكري الالوسي : تاريخ مساجد بغداد وآثارها ص ١٢٩ .

(١٤) د . مصطفى جواد : سيدات البلاط العباسي ص ١٨١ .
د . مصطفى جواد : المآثر الاسلامية العتيقة سومر م ٣ سنة ١٩٤٧ .

(١٥) د . مصطفى جواد / المآثر الاسلامية العتيقة سومر م ٣ سنة ١٩٤٧ .

(١٦) عطا الحديثي / هناء عبدالخالق ـ القباب المخروطية في العراق ص ٢٩ .

(١٧) د . مصطفى جواد المآثر الاسلامية العتيقة سومر ٣ سنة ١٩٤٧ .

تتراوح اطوال اضلاع المثمن ما بين ٢/٧٢م ـ ٢/٩٣م وهذا الاختلاف في الاطوال متأت من الترميمات العديدة التي اجريت عليها خلال الازمان . يتوسط الضلع الشمالي الشرقي مدخل القبة الاصلي والى يساره درج البناء قد فتح من صلب الجدار يؤدي الى سطح البناء .

يبلغ ارتفاع اضلاع الشكل المثمن اي الجدران الحاملة للقبة ٤/٨٠م وهي قائمة ليس بها اي عيب .

تقوم في اعلى زاوية المثمن مقرنصات معقودة ومركبة لتكون منطقة الانتقال من الشكل المثمن الى القاعدة الدائرية . وتتكون من ثلاثة صفوف متتالية الواحد فوق الاخر تنتهي بقاعدة نجمية ذات ستة عشر راسا . انظر صورة رقم (٣) .

هناك اختلاف واضح في مقرنصات منطقة الانتقال عنها في مقرنصات انحناء القبة وهذا الاختلاف متأت من الغرض المعماري في احداثها .

فمقرنصات منطقة الانتقال هو تحويل القاعدة المثمنة الى قاعدة ذات ستة عشر ضلعا كما ان التثبيت على قواعد ذات ستة عشر راسا تبدأ من ارتفاع ٩/٥م ففي هذه الحالة يكون ارتفاع منطقة الانتقال ٤/٧٠م .

تكون مقرنصات القبة الدائرية عشرة صفوف متتالية يحوي كل صف من الصفوف السبعة الاولى ستة عشر مقرنصا(١٨) .

بينما تحوي الصفوف الثلاثة الاخرى ثمانية مقرنصات لكل منها .

يتم الانتقال من السابع الى الثامن بعقود صغيرة تجمع رؤوس كل مقرنصين متجاورين ويفصل بين كل ضلعين من صفوف مقرنصات القبة قاعدة نجمية ذات ستة عشر راسا في الصفوف السبعة الاولى وذات ثمانية رؤوس في الصفوف الثلاثة الباقية ، حيث ينتهي الصف العاشر بقبة صغيرة نجمية ذات ثمانية رؤوس(١٩) .

ومن دراسة العناصر المعمارية والزخرفية للقبة اضافة الى الروايات الاستطرادية نستطيع تنسيب تأريخ بنائها الى القرن السادس الهجري . هذا وان المرقد يحتوي على خمسة قبور اضافة الى قبر السيدة زمرد خاتون .

(١٨) عطا الحديثي وهناء عبدالخالق / القباب المخروطية في العراق .

(١٩) عطا الحديثي وهناء عبدالخالق / القباب المخروطية في العراق .

قبة ضريح السهروردي

تقع في الجانب الشرقي من مدينة بغداد « الرصافة » بالقرب من الباب الوسطاني احد ابواب مدينة بغداد الذي لا يزال قائما[٢٠] وفي المحلة التي تنسب اليه وهو الشيخ شهاب الدين ابوحفص عمر السهروردي المدفون في المقبرة الوردية[٢١] .

في الاصل يتكون البناء من غرفة الضريح والحق بها مؤخرا مسجد يعود تأريخ بناءه الى سنة ٩١٧هـ ، لها مدخلان الاول وهو الباب الرئيس من داخل المسجد تعلوه كتابة تحمل تاريخ أصلاح القبة ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، جدد هذه العمارة المباركة الشريفة لضريح الشيخ القدوة الرباني خطب الاولياء والعارفين شهاب الدين عمر ابن محمد السهروردي روض الله مرقده محمد ابن رشيد اصلح الله شانه وذلك في شهور سنة خمس وثلاثين وسبعمائة والحمد لله وحده وصلواته على نبيه محمد واله) انظر صورة رقم (٤) .

والثاني يدخل من مجاز اضيق الى البناء سنة ٧٣٥هـ

(٢٠) الباب الوسطاني : ويسمى قديما باب الظفرية وهو احد ابواب سور الجانب الشرقي الاربعة .
وظل معظم هذا السور قائما مع ابوابه الى عهد قريب حيث اندثر على عهد الوالي مدحت باشا . لم زالت اقسامه الباقية منه مع الابواب بعد ذلك ولم يبق منه غير باب واحد في جهته الشمالية الشرقية وهو الباب الوسطاني الذي رممته مديرية الاثار واتخذت منه متحفا للاسلحة القديمة في سنة ١٩٣٩ .

(٢١) ابو حفص عمر بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عمويه واسمه عبدالله البكري الملقب شهاب الدين السهروردي. ويصل نسبه الى ابي بكر الصديق رضي الله عنه كان خطيبا شافعي المذهب شيخا صالحا ورعا كثير الاجتهاد في العبادة والرياضة وتخرج عليه خلق كثير من الصوفية وصحب عمه ابا النجيب وعنه اخذ التصوف والوعظ والشيخ ابا محمد عبدالقادر صالح الجيلي وغيرهما من الشيوخ وعقد مجلس الوعظ سنين ، وكان شيخ الشيوخ ببغداد ، وتوفي سنة اثنين وثلاثين وستمائة ببغداد ودفن بالوردية . ابن خلكان / وفيات الاعيان ج ٣ ص ٤٤٦ . دار الفكر ــ بيروت .

تقوم القبة على غرفة مربعة الشكل ابعادها ٤/٧٠م ٤/٩٠م خالية جدرانها من الزخرفة على علو ٥/٦م حيث تزين الجدران دخلات عددها اثنتا عشرة دخلة تلف مع جدران الغرف تحيط بها اعمدة خمسة من هذه الدخلات تتوج قسمانها عقود مفصصة والاخر عقود مدببة . يعلوها صفان من المقرنصات يقوم فوقها غطاء القبة تزينه كتابة حديثة العهد . انظر الشكل رقم (٢) .

ومن الخارج فان ظاهر القبة مكون من احد عشر صفا من فوق المنحني الذي تقوم عليه القبة . فهناك اختلاف في مقرنصات القبة الخارجية عنها في الداخلية . صورة رقم (٥) .

فتكون قبة السهروردي مكونة من قبتين الاولى وجه المخروطية وهي الاصلية والثانية اضيفت فيما بعد وهي في باطن القبة الاولى وبينهما فراغ .

وفي سطح المسجد وعلى الواجهة الخالية للقبة من الخارج شريط كتابي :

فانظر الى اثار رحمة ربك كيف يحيي الارض بعد موتها ان ذلك يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير . امر بتجديد بعد ثورة... صورة رقم(٦).

اما تاريخ بناء القبة استنادا الى الرواية التاريخية حيث ذكر د . مصطفى جواد ان احمد ابن عبدالله البغدادي ذكر في كتاب اصول الادب والتاريخ م١٦ ص٢٢ عن حوادث سنة ٦٣٢ وفيها توفي الشيخ شهاب الدين ابو حفص عمر السهروردي . ودفن قريبا من الباب الوسطاني داخل بغداد وعقد على قبره اضافة الى هذا وعلى ضوء الصيانة التي اجرتها دائرة الاثار مؤخرا حيث اظهرت لنا زخارف بنائية[٢٢] ملونة وصفوف المقرنصات فاستنادا الى اسلوب رسم الزخارف البنائية وطريقة تصفيف المقرنصات يمكن نسبة بناء القبة الى سنة ٦٣٢هـ وهي سنة وفاة الشيخ السهروردي[٢٢] .

(٢٢) د . مصطفى جواد : العمارات الاسلامية العتيقة سومر م ٣ سنة ٤٧ .

(٢٣) عطا الحديثي وهناء عبدالخالق / القباب المخروطية في العراق .

الخطيب البغدادي وتاريخه

بقلم المرحوم

عباس العزاوي

اخراج

فاضل عباس

بغداد ــ الجمهورية العراقية

يعتبر القرن الخامس الهجري من خير العصور الاسلامية وارقاها حضارة وتقدما علميا .

ففيه نضجت العلوم المختلفة وازدهرت بل تكاملت حيث نالت حظا وافرا من العناية والرعاية فلا غرو اذا عد هذا العصر من العصور الذهبية للامة الاسلامية ... كما برزت فيه الاراء والنحل وانجلى ما غمض منها وابهم .

في هذا العصر الزاهر ظهر مؤرخنا فابرز اعظم اثر في تاريخ بغداد ، ولم يكن مبرزا فيه وحده وانما الف في موضوعات اخر ولم يقصر همته وجهده عليه وانما كان كما وصفه ياقوت في معجمه ارشاد الاريب :

« الخطيب ابو بكر احمد بن علي بن ثابت بن احمد بن مهدي البغدادي » ، الفقيه الحافظ احد الائمة المشهورين المصنفين المكثرين ، والحفاظ المبرزين ومن ختم به ديوان المحدثين .

ولد يوم الخميس لست بقين من جمادى الاخرة سنة ٣٩٢هـ (١٠٠١م وتوفي سنة ٤٦٣هـ ــ ١٠٧٠م) .

ان العراق يفتخر بمؤرخه العظيم هذا ولا يزال شاكرا لصنيعه ومعجبا بعظيم ما قام به فقد خلد ذكرى جليلة ومنقبة فائقة لا تقدر بثمن ولا يوازيها عمل تاريخي الى اليوم ... ولم تقف فائدة تاريخه عند العراق وحده وانما لهج به واثنى عليه اكابر علماء العالم الاسلامي فقد جلا صفحات غامضة وكشف عن اكابر سلفوا وائمة مضوا واصحاب نحل درجوا ... ابان عنهم واوضح مناهجهم وسجل آراءهم وما قيل فيهم ...

كان موضع الاخذ والرد ، والنقد والتمحيص ، والجدل والمناظرة ... في عصور مختلفة وازمان عديدة ومتوالية ... فكان لنقوله ، ولارائه الاثر الجليل في احتكاك المقالات وايجاد النقول على اختلافها ... فلم يكن مداحا . وانما اورد ما اعتمد مما قيل للمرء وعليه ... وهو في كل هذه وغيرها مرجع العام والخاص ، ومدار النقل والاستدلال ... ولا نغالي اذا قلنا انه لم يسد مسده تاريخ بل لم نر في موضوعه ما هو خير منه ، او ان يكون اولى بالاخذ دونه ... فهو يستحق كل تقدير ، واهل لكل مدح واطراء ... ولسان القلم عاجز ان يقوم بهذه الخدمة نظرا لعظم العمل الجليل الذي زاوله فقام به ؛ وتم على يده ...

وللخطيب مكانة علمية مرموقة تتمثل في هذه الشهادات سلبا وايجابا :

١ ــ قال المؤتمن الساجي : « ما اخرجت بغداد بعد الدارقطني احفظ من الخطيب »

٢ ــ وقال ابن الجوزي : « من نظر في تصانيفه عرف قدر الرجل وما هيء له مما لم يهيأ لمن كان احفظ منه كالدارقطني وغيره » وقال . « كان حريصا على علم الحديث . كان يمشي في الطريق وفي يده جزء يطالعه وكان حسن

القراءة ، فصيح اللهجة ، عارفا بالادب يقول الشعر الحسن » .

٣ ــ وقال اسماعيل بن ابي الفضل القومسي ــ وكان من اعل المعرفة بالحديث ــ . « ثلاثة من الحفاظ لا احبهم لشدة تعصبهم وقلة انصافهم . الحاكم ابو عبدالله . وابو نعيم الاصبهاني ، وابو بكر الخطيب . قال ابو الفرج . وصدق اسماعيل وكان من اهل المعرفة فان الحاكم كان متشيعا ظاهر التشيع ، والاخران بتعصبان للمتكلمين والاشاعرة ...

٤ ــ وقال السمعاني في الذيل . « والخطيب في درجة القدماء من الحفاظ والائمة الكبار كيحيى بن معين ، وعلي بن المديني واحمد بن ابي خيثمة وطبقتهم . وكان علامة العصر . اكتسى به هذا الشان غضارة وبهجة ونضارة . وكان مهيبا وقورا نبيلا ، خطيرا ، ثقة ، صدوقا ، متحريا ، حجة فيما يصنفه ويقوله وينقله ويجمعه . حسن النقل ، والخط ، كثير الشكل والضبط ، قارئا للحديث ، فصيحا . وكان في درجة الكمال ، والرتبة العليا خلقا وخلقا وهيئة ومنظرا ، لتنتهي اليه معرفة الحديث وحفظه ، وختم به الحفاظ رحمه الله » .

٥ ــ كتب ابو بكر البرقاني الى ابي نعيم الاصبهاني يوصيه بالمترجم . (منه)

« ... وقد نفذ الى ما عندك عمدا متعمدا اخونا ابو بكر ... ليقتبس من علومك ويستفيد من حديثك . وهو عبدالله ممن له في هذا الشان سابقة حسنة ، وقدم ثابت وفهم به حسن . وقد رحل فيه وفي طلبه وحصل له منه ما لم يحصل لكثير من امثاله الطالبين له . وسيظهر لك منه عند الاجتماع من ذلك مع التورع والتحفظ وصحة التحصيل ما يحسن لديك موقعه ، ويجمل عندك منزلته . وانا ارجو اذا صحت منه لديك هذه الصفة ان يلين له جانبك ؛ وان تتوفر له وتحتمل منه ما عساه يورده من تثقيل في الاستكثار ، او زيادة في الاصطبار فقديما حمل السلف عن الخلف ما ربما ثقل . وتوفروا على المستحق منهم بالتخصيص والتقديم ما لم ينله الكل منهم . » اهـ .

ونحن لا نستطيع في هذه العجالة ان ننقل اسماء كافة من اطروه ، واثنوا عليه او اقتبسوا منه ، واخذوا عنه جميعا ... فضلا عن ايراد ما قالوه فيه او في مؤلفه ... ولا تسل ايها القارىء عما عاناه في وضع مؤلفه من الاتعاب . والسياحات والاسفار ؛ وما استند اليه من المنقول وما راعاه من المنمنات ؛ والتواريخ التي اعتمد عليها او عول على صحتها فنقل عنها ؛ او اخذ منها ؛ وصرح باسمها ... فهو لم يقل قولا فينسبه لنفسه وهو يعلم انه لغيره وهذا غاية التوفي في النقل ... فلم يغمط حق احد او يسرق قوله ...

فهو المؤرخ الصادق ، والخبير المطلع ، الذي لا نرى في عباره شيره في مختلف العصور ولا يضيع قولا لقائل . ولا يتاخر عن الجهر به ونقله كما وصله ... في حين اننا لا نراه اعتمد كذابا ، ولا اخذ عن مفتر ولا مجهول . . . وانما تلقى عن المشاهير الاكابر في سائر الاقطار الاسلامية لا في العراق وحده وان كان العراق مركز الثقافة ، ونقطة دائرتها اذ ذاك ... مما حبب مؤلفه للناس .

لا نرى ان نأتي هنا على كافة المعدلين له والواثقين به ... وانما الطاعنون كما نقل في الفقرة الثالثة مما جاء في الاقوال فيه انه من المتكلمين وانه يتعصب للاشاعرة منهم فاذا كان هذا مذهبه فلم يكن مضطرا لتحبيذ الاراء الاخرى المخالفة له وهل هذا يعد تعصبا ... اما رجال الشافعية فيعدونه من اكابر ائمتهم والمحدثون يعتبرونه من اساطينهم ، وسائر علماء الاسلام يثنون عليه ...

ويكفي للبرهنة على الوثوق منه ان مؤلفه من حين انتشر وتداولته الايدي انصرفت اليه الانظار ، وصارت تفكر في الاستفادة منه والاستقاء من معينه والاعتماد على ما جاء فيه .. او افراغه بقوالب اخرى بان تراعى نسقا اخر لعرضه الى العموم ... بوضع آثار خالدة مقتبسة في الحقيقة منه ، ومستنبطة نصوصها من اثره الجليل النفيس ... او راعت اسلوبه وطريقة سيره ... فهذا السمعاني قلب تاريخه الى قاموس وجعله بشكل آخر (الانساب) كما انه ذيله ، وهذا ابن الاثير راعى تاريخ الحوادث فقلبه الى شكله وصار خير مرجع له ... وغيرهما ممن كتب في الرجال مال اليه واخذ عنه ، او اختصر ، او اضاف ببعض زيادات ... وهكذا . اما الذيول عليه والتتمات له سواء من قبل السمعاني ، او ابن النجار او غيرهما فكثيرة ... وتدل على شدة الرغبة فيه والاعتناء بموضوعه ... وعلى كل لم يظهر في الاسلام مؤرخ بلغ درجته ، او حاول ان يحصل على منزلته من الشهرة والثناء ، والوثوق ، والصدق ، والاخلاص ...

والبغدادي ــ كما مر ــ تعرض الى صنوف

متعددة من اهل العلم وارباب نحل عديدة . . . ومنها ما يخالف خطته ، ويعارض مذهبه . . . وفي كل هذه التزم الحياد ، وراعى الحيطة بكل معناها، ولم يتحامل لمخالفة في النحلة ، ولم يرم لزيغ كان قد رآه في عقيدة الخصم . . .

ولا ادل على ذلك اكثر مما نقله صاحب (السهم المصيب في كبد الخطيب) عن البغدادي حيث قال :

« قد سقنا عن ايوب السختياني ، وسفيان الثوري ، وسفيان بن عيينة ، وابي بكر ابن عياش، وغيرهم من الائمة اخبارا كثيرة تتضمن تقريظ ابي حنيفة والمدح له والثناء ، والمحفوظ عند نقلة الحديث عن الائمة المتقدمين وهؤلاء المذكورين منهم في ابي حنيفة وكلامهم فيه كثير لامور شنيعة حفظت عليه يتعلق بعضها بأصول الديانات وبعضها بالفروع، نحن ذاكروها بمشيئة الله ومعتذرون الى من وقف عليها وكره سماعها ، بان ابا حنيفة عندنا مع جلالة قدره اسوة بغيره من العلماء الذين دونا ذكرهم في هذا الكتاب واوردنا اخبارهم وحكينا اقوال الناس فيهم على تباينها(١) . » اهـ .

وبهذا هدم اقوال من تحامل عليه واجابهم عما كان يامل ان يتقولوا به ولا عجب ان يؤيد نزاهته وينقل الاقوال على تباينها فيه وفي غيره ولم يشأ ان يخرج عن الخطة القويمة وان يتعداها في بعض دون بعض . . . وانما ترك حق التقدير للقارىء .

وما نقول في الردود الا ان الرجل نقل ما وصل اليه مما قيل لمن ترجمه او عليه وبعضها ناشيء عن مخالفة في المعتقد ، او تخالف في الفقه والتفريع او تحامل من جراء واحدة من هاتين . . . ولا يسلم امرؤ من مبغض او محب . . . وقد قيل من الف فقد استهدف . . . والذي يريد معارضة البغدادي في هذا فانما ينبغي ان يصب معارضته في صحة النقل فيطلب التصحيح والا فلا يهدم نقله بادلة اوردها عقلية ، او عقائدية او ما ماثل من نحل وآراء او تحاملات . . . فهذه ليست من شأن المتناظرين في التقول وامر تصحيحها او طلب مستنداتها . . . في حين اننا لا نرى من كذب النقل لا في حياة الخطيب ولا بعد وفاته فهذا هو الذي يجب ان يلاحظ في النقل . . .

وللخطيب مع هؤلاء المتحاملين عليه اسوة بغيره من الصحابة واهل العلم من التابعين وتابعيهم . . . وكذا يقال في ابي حنيفة والطاعنين فيه . . . والرجل العظيم لا يدقق من ناحية المدح والذم وانما ينظر اليه من جهة اعماله التي قام بها ومبادئه التي بثها والخطة التي نهجها . . . فاللوم الشخصي لا قيمة له ولا اعتبار . . . ومن غلبت حسناته على سيئاته رجح وكل احد يؤخذ من قوله ويرد الا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

ويصدق هذا على الكل فقد اورد الذهبي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه انه انفرد في امور حفظت عليه خالف بها الجمهور وقال : ان هذه مما لا تطعن في مكانته ولا تقلل من منزلته . . . وكل احد يؤخذ من قوله ويرد الا الرسول صلى الله عليه وسلم . . . والمنقول عن الامام مالك رضى الله عنه مثل هذا او هو المنقول عن اصل هذا القول :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها
كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

ان المدونات التاريخية لا يصح الاكتفاء ببعضها عن بعض بان يقال هذا اجمع ويغني عن غيره وما ماثل وانما يلاحظ في كل مؤلف ما صرف نظره للبحث فيه وما حاول الكلام عليه وجعله مدار بحثه، ومرتكز اهتمامه ، وذلك ان من كان يميل الى الحوادث لا يستغني بما يكتبه عن العلاقات السياسية او العلمية او الصناعية ، او الشرعية وهكذا . . . لم نجد تاريخا يبحث في هذه الامور ، او يتكلم عليها بسمة وكذا ما كان قبليا او جغرافيا لا يغني عنه غيره . . . وهكذا .

ولذا ينبغي ان نعقب كل جهة من جانب ليتيسر لنا الجمع ، والاخذ بكل الجهات ، ومن كان همه المذاهب السياسية فلا يكتفي بكل ذلك وانما جل ما يحب الاطلاع عليه مجرى السياسة والطرق المتبعة فيها ، والوسائل التي راعاها كل سياسي .

وهذه لا نراها صريحة في كتاب ، او نعلمها من تاريخ . . . وانما ذلك مواهب تستفاد من مجرى الحوادث واتصالها وسائر حوادثها فلا يمكن العثور عليها مجموعة. وما وجد كان بالنسبة لراي شخص او استنتاجا فرديا يصح ان يصيب شاكلة الحق في امر ويخطيء في امر . . . وهكذا وانما نرى بصيص نورها في مؤلفات ذلك العصر ، وآثاره ووضعه الجغرافي ، والاقتصادي ، والمدني . . .

والمهم هنا البيان عن تاريخ عرك صاحبه الامور وما هدبته السياحات ، وراعى البصيرة في بحوثه التي صقلتها التجارب . فهو وان لم يتعهد

---

(١) السهم المصيب ص ٢٦٩ سطر ١ — ٩ .

السياسة ، ولم يجرب الادارة ففي البصيرة ، والتجوال ما يلفت النظر ويدعو لجمع معلومات جيدة ، واحوال طيبة من شأنها ان توقف المتتبعين على بعض المجاري ، وقد يرى منها ما يشفي غليله وفي الاشارة ما يدعو الى ان يوضح له في طريقه ...

وهذا التاريخ لاكبر مؤرخ نال في عصره مكانة، وحصل على رضا الناس وكسب رغبة تامة اعني به ابا بكر البغدادي .

لا يمكن الوقوف على غالب البحوث السياسية الا من طريق التاريخ ولكن يجب استنطاق مؤرخين كثيرين ومجاورين لمعرفة حقيقة الوقعة ، وماهية الوضع .

اما البحوث العلمية والادبية فانهما تابعـان للجهود التي بذلها القوم ، والاثار التي خلفوها ... على عكس تلك ... وقد تغيب من البين وتنعدم ولكن عزاءنا عن ضياعها كثرة امثالها وتكررها ... الا ان من يهمه احوال محيطه يأسف لضياع ما وقع وما جرى حكمه عليه ...

وقد كتب مؤرخون عن هذا المحيط وعلاقته بالاقوال والممالك الاخرى او بصورة منفـردة واوضحوا ما شاهدوا وقرروا ما راوا ... الا ان مؤرخنا ممن حاز قصب السبق وحصل على الشهرة الفائقة ... فوقف المؤرخون عنده فلم يجتازوه ولكنهم حوروا وغيروا فوصلوا الى اغراضهم استقاء من تاريخه ...

وآخرون اقتفوا طريقته ومشوا مشيته فذيلوا من حيث وقف واتموا ما وصل عندهم الى مـا وصلوا اليه ، او عقبوا الاثر ومشوا من حيث وصل السابق وهكذا ...

واني ذاكر هذا المؤرخ ، وتاريخه ، ونهجه بالنظر لعصرنا والنقد الموجه عليه من كل وضع ... وليعذر القارىء العصر والتفاوت فيه واختلاف النهج التاريخي ...

وهنا مجمل ما يقال انه كتب تاريخه بعد ثلاثة عصور مضت عن تاريخ بناء بغداد وراعـى فيها المصادر التالية :

١ ــ الروايات :

ولما كان من المحدثين فانه يعول على روايته ويؤخذ بسنده ويسمع قوله ، وقد اخذ عن الثقات ومؤلفاته في الرواية كثيرة ، وقد محص الروايات وقرر رأيه الاخير فيها (راجع الاحاديث المروية عن بغداد) .

٢ ــ المشاهدات :

عاش ببغداد وعاد اليها ورأى آثارها ودخل جوامعها ومساجدها وفاضل مثل هذا لا يكـذب بصره ما رأى ... وترى ذلك واضحـا فيما حكاه عن مسجد براثا وما ناله من التقلبات .

٣ ــ العلماء والصلحاء :

يحكي عنهم ويتكلم معهم وينقل... وبوسعنا ان نقول ان المترجم وضع مؤلفه في تراجم علمـاء كثيرين مختلفي النزعات والمذاهب ، فأطنب في تراجمهم ونقل ما قيل فيهم وتبسط في القول حتى بلغ غايته ...

٤ ــ التراجم :

ترجم لكثيرين من العلماء والفضلاء . ومن اراد ان يترجم لمن يتعصب عليه بعضهم نقل ما اسند روايته ، وحكى ما قيل فيه على لسان غيره وراعى حقيقة صفته ولم يبد رأيا ، ولا تكلم عن محاكمة له وهكذا ... وترى ذلك واضحا في ترجمة معاوية ...

ظهر تاريخ بغداد مطبوعا سنة١٣٤٩هـ ــ ١٩٣١م وكان الناس يسمعون به ولا يرونه فهـو اشبه بعنقاء مغرب ، ولم يصلنا خبر المباشرة في طبعه حتى وافى الكتاب .

يعود لمصر الفضل في المبادرة الى طبعه وان كان احد العراقيين قد اشترك في ذلك وهو صديقنا الاستاذ نعمان الاعظمي الكتبي وكذا لها الفضـل الاكبر في احياء تراثنا الفكري الخالد .

وكيف لا تحرص على ذلك وهي اهم قطعة في البلاد الاسلامية العربية التي تقدمت بل عرفت ان تحيي المدنية الغابرة وتضيف اليها حضـارة عصرية جديدة نافعة فتفيد الثقافة العربيـة والاسلامية ...

واني الان في معرض ذكر التـاريخ المبين في صدر هذا المقال .

ان هذا التاريخ منذ تاليفه الى اليوم ينقل عنه السياح لوصف ما جاء فيه والمؤرخون يتناولون منه اقتباسا واختصارا وتوسعا وهكذا... فكان ــ ولا يزال ــ معينا لا ينضب وبحرا لا يفـور ولا ينفد ... وكل هذه لم تف بالحاجة او لا تخلو من تكرار ، وقد مللناها وسئمناها وضجرنا من تقولها واستربنا في صحتها لتفاوت النقل بين السـعة والاختصار .

وقد برز اليوم هذا التاريخ الى الوجود فازال ما ران على البحوث من الابهام وكشف الحجاب فلم يبق بيننا وبينه حاجز ولا حائل ، فهو بين ايدينا نقرؤه ونتدبره ونأخذ عنه مباشرة ولا شك انه سوف ينسخ الاراء التي لا قيمة لها ويبطلها مما قد شاع وانتشر بين ظهرانينا او اساطير بقيت في عماء بسبب قلة نسخه وندرتها .

فلا يسعنا الا ان نزجي الشكر والثناء للقائمين على طبعه والساعين في نشره فلهم فضل السبق والمبادرة وينبغي الا نقف عند التحصيل الابتدائي وتكثير مدارسه وما ماثل من الامور الاولية فقط وانما نحتاج الى الثقافة العليا والتربية الراقية واهمها الكتبات العامة وتاريخ القطر ومعرفة اهليه وطبع آثار اسلافه مما يخدم العلم الصحيح والامم المتقدمة اليوم لم تكتف بالتحصيل الابتدائي ولا الثانوي بل ولا العالي ، وانما نلاحظ المجامع العلمية ، واحياء الاثار التاريخية ، والتربية الاسلامية ... لتوليد الاختصاص وكل هذه لم تحل عندنا المحل اللائق بها اذ كان ينبغي لها ان تجلب المؤلفات النادرة وتعهد به الى بعض الفضلاء ليتولوا تحقيقها بل انها لم تحرص على آثارنا الفكرية ونفائس المخطوطات فتسربت الى الخارج واصبحنا نتلمس وجودها في عواصم اوربا وامريكا عندما نريد التأليف او الاستشهاد ببعض ما ورد فيه مما له علاقة بتاريخنا او حياتنا العقلية .

يتميز كتاب (تاريخ بغداد) بمزية واحدة وهي انه عرف بمحيطنا في ايام قليلة لا ندري ما جرى وراءها ؛ او انه ذكر صفحة تمكن من ذكرها ولكن وراءها كثير من الامور التي اغفلها ، فهذه يجب ملاحظتها ودراستها ، وهذا لا يتيسر ما لم تعد المادة وتحفز الهمم للقيام بهذا العمل .

لقد سلخ هذا القطر اياما سعيدة في الادارة ؛ واصابته نكبات وبيلة ، او كان بين هاتين الفترتين مدهوشا ومتحيرا لا يدري اين يتوجه فكشف هذه الحالات يحتاج الى سهر دائم ، وشغل مستمر ... والا فلا تكفينا نبذ مبتورة ، ووثائق مختزلة ، واشارات مبهمة ...

واعمالنا الفردية لا تفي بهذه الحاجات وانما تحتاج الى مجامع علمية وجمعيات تاريخية ، وبعثات نافعة ...

ولنرجع الى التاريخ :

١ ـ الكتاب

ان هذا التاريخ لم يوصف اصله، ولم ينحر عن نسخه ولا روعي قدمها في خزائن الكتب العامة المتفرقة في انحاء المعمورة ، وللطابعين العذر اذ لم يروا مساعدات مشجعة ولم ينالوا ترغيبا ولا انعامات ليراعوا شروط الطبع بحيث يضارع طبع المطابع المصرية التي في حوزة الحكومة وكان ذلك يقتضي قيام تعاون ثقافي بين مصر والعراق ، لتحقيق هذا المشروع كما يوجب ذلك قيام لجنة علمية لتقابل النسخ المختلفة والتعليق عليها ؛ واتخاذ فهارس نافعة توفر على القارىء كثيرا من الجهد والوقت .

٢ ـ الورق المطبوع عليه الكتاب :

لم يلاحظ الورق وجودته للامر الذي شرحناه .

واذا تعذر على الحكومة النهوض بهذا العمل الشاق فلا تعذر في المعاونة والشروط على الطابعين لغرض ابرازه بشكل كامل بعيد عن عيوب الطبع واخطائه .

ان الكتاب لا يخلو من اغلاط مطبعية واغلاط اخر تظهر للرائي فهذه ـ للاسف ـ لم تلاحظ

٣ ـ الاعلام الواردة فيه :

لقد ذكرت في كتب اخرى ان الواجب كان يقتضي ان ينبه الى مواطن الاختلاف في النسخ المعتمدة في الطبع لتبصير القارىء المتتبع والباحث المتخصص .

ملاحظة اخيرة :

اذا فات الجهات الرسمية عندنا المساهمة في طبع جزء من هذا الكتاب فبوسعها ان تتلافى ذلك في الاجزاء التالية ، او اذا كانت لا تستطيع الاشتراك في هذا الكتاب فبوسعها ان تعقب ذيول هذا التاريخ وتتخذ الاهبة اللازمة لطبعها وتقوم بعمل كبير وخدمة نافعة ... ولتبرهن على حبها لتاريخنا القومي بعمل ما فاذا كانت تتحرى الاثار القديمة وخدمتها للحضارة والاحتفاظ بها فقصورنا ومنشآتنا العربية والاسلامية اولى بالاحتفاظ ، خصوصا انها لم تقطع علاقة معها ولا تزال ذات صلة دينية ووشائج قومية فهي منها واليها .

أعلام من الأندلس في بغداد

بقلم الدكتور

محسن جمال الدين

كلية الاداب/جامعة بغداد

مقدمة

ان خطة البحث تدور في مجملها حول النقاط الآتية : ـ

١ ـ بين بغداد وقرطبة .

٢ ـ أثر بغداد في الاندلس ـ في النواحي : الثقافية، و لادبية ، والفنية .

٣ ـ اثر المعاهد العراقية ، والعلماء العراقيين على الحركة العلمية ، والادبية ، والفكرية في الاندلس .

٤ ـ اثر النتاج العراقي في حركة التاليف الاندلسي .

٥ ـ اثر العلماء والفنانين العراقيين الذين رحلوا الى الاندلس ، واثروا في حياتها الادبية والاجتماعية .

٦ ـ اعلام من الشخصيات الاندلسية التي درست في بغداد ، وعادت تحمل العلم للاندلس .

١ ـ بين بغداد وقرطبة

قال (الحموي) في معجم بلدانه : « بغداد ام الدنيا وسيدة البلاد »(١) .

ووصفها ابن زريق الكوفي الشاعر بقوله :(٢)

سافرت ابغي لبغداد وساكنهـــــا
مثلا ، قــد اخترت شــيئا دونه الياس

هيهات بغداد ، والدنيا باجمعهــــا
عندي وســكان بغــداد هــم النــاس

وقال (ياقوت)(٣) . نقلا عن بعض الافاضل :

« بغداد ، مدينة السلام ، وجنة الارض ، وقبة الاسلام ، وغرة البلاد ، وعين العراق ، ومجمع المحاسن والطيبات ، ومعدن الظرائف واللطائف ! !»

تلك شهادات صادقة عن عاصمة العراق ، في ماضيها التليد ؛ وحاضرها المجيد .

وذكر ايضا فقال :(٤)

كان (ابن العميد) اذ طرا عليه احد من منتحلي العلوم والاداب ، واراد امتحان عقله سأله عن (بغداد) فان فطن بخواصها ، وتنبه على محاسنها، واثنى عليها جعل ذلك مقدمة فضله ، وعنوان عقله ثم سأله عن (الجاحظ) فان وجد اثرا لمطالعة كتبه، والاقتباس من نوره ، والاغتراف من بحره ؛ وبعض القيام بمسائله ؛ قضى له بانه غرة شادخة من أهل العلم والاداب .

وان وجده ذاما لبغداد غفلا عما يجب ان يكون موسوما به من الانتساب الى المعارف التي يختص بها (الجاحظ) لم ينفعه شيء من المحاسن! !

ولما رجع (الصاحب) عن بغداد سأله (ابن العميد) فقال : بغداد في البلاد كالاستاذ في العباد فجعلها مثلا في الغاية في الفضل(٥) .

* * *

ان السر الذي يكمن في (بغداد) كعاصمة للخلافة العباسية ، في انها جمعت بين حسن الموقع ، واعتدال الطبيعة ، وتباين المجتمع ، وعمارة الاسواق ، وتصارع الافكار ، وتصادم الآراء ، وتمازج العقول ، وتقبل الغرباء ، والترحيب بالاصدقاء ، ومحاربة الاعداء . الى ندوات العلم العامرة ، ومنائر الدين الشامخة ، ومعاهد المعرفة السامقة ، ومساجد التقوى الواسعة ، وجوامع الفضيلة الهادية ، وخزائن الكتب المزدحمة ، واسواق الوراقين المتعددة . الى مستشفيات ، ومصحات ، ومنتزهات ، وفنادق ، وحمامات . كلها تدعو للعلم والايمان والفضيلة والصحة والرعاية بالمرض والعجزة والمنقطعين والبائسين . يقابل ذلك حب الخلفاء والامراء والقادة والحكام ، للعلم والمعارف . والعناية ، والرعاية بالعلماء والادباء والشعراء . وكان من ابرزهم . المنصور ، والمهدي ، والهادي ، والرشيد ، والمأمون ، والناصرلدين الله .

هذا في الطرف الشرقي من العالم الاسلامي . وفي العراق ، وعاصمته بغداد .

اما في الطرف الغربي من العالم الاسلامي فتطل علينا (قرطبة) الاندلسية عاصمة الامارة والخلافة الاموية ، وما حل بها من امراء الطوائف ، ومن المتنزين على الخلافة من المرابطين والموحدين

قال : صاحب (الروض المعطار) في موسوعته الجغرافية(٦) عن (قرطبة) :

« وقاعدة الاندلس ، وام مدنها ومستقر خلافة الامويين بها ، وآثارهم بها ظاهرة ، وفضائل (قرطبة) ومناقب خلفائها اشهر من ان تذكر . وهم اعلام البلاد ، واعيان الناس . اشتهروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن الزي ، وعلو الهمة ، وجميل الاخلاق .

وكان فيها اعلام العلماء ، وسادات الفضلاء . وتجارها مياسير ، واحوالهم واسعة وهي في سفح جبل مطل عليها يسمى (جبل المروس) . »

واستمر يصفها ويصف جامعها الكبير فقال :

« وبها الجامع المشهور امره ، الشائع ذكره . من اجل مصانع الدنيا كبر مساحة ، واحكام صنعة وجمال هيئته ، واتقان بنية . صار يحار فيه الطرف ، ويعجز عن حسنه الوصف . وليس في مساجد المسلمين مثله تنميقا وطولا وعرضا ! ! » .

* * *

ومثلما تنافس الشعراء البغاددة من المشارقة في وصف مدينتهم (بغداد) رأينا الاندلسيين اخذوا يجارون اهل المشرق ، في وصف (قرطبة) ومدحها قال الشاعر عبدالحق بن عطية الغرناطي يصفها مادحا :(٧)

بأربع فاقت الامصار (قرطبة)
وهن قنطرة الوادي ، وجامعها
هاتان ثنتان ، والزهراء ثالثة
والعلم اكبر شيء ، وهو رابعها

وقال احد الشعراء في وصف (قرطبة)(٨) .

دع عنك خضرة (بغداد) وبهجتها
ولا تعظم بلاد الفرس والصين
فما على الارض قطر مثل (قرطبة) .
وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

والف (ابن سعيد المغربي) كتابا اسماه (الشهب الثاقبة ، في الانصاف بين المشارقة والمغاربة(٩) . وبه يتحدث عن مدن الشرق والاندلس ويقارن بينها . اقتبس منه (ابن فضل الله العمري) في كتاب (مسالك الابصار) .

وزارها (ابن حوقل الموصلي) ووصفها في (رحلته) وقارن بينها وبين بغداد . فقال :ـ(١٠)

« هي اعظم مدينة بالاندلس وليس بجميع المغرب لها عندي شبيه في كثرة اهل ، وسعة محل . وفسحة اسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق .

ويتعدد الكتاب والمؤرخون الاندلسيون الذين امتدحوا بلادهم ، كابن سعيد المغربي ، وابن حيان ، والرازي ، والحجازي وغيرهم » .

ومما قاله (الحجاري) عن (قرطبة)(١١) :

« منتهى الغاية ، ومركز الراية ، وام القرى ، وقراره اولي الفضل والتقى ، ووطن اولي العلم والنهى ، وقلب الاقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن افقها طلعت نجوم الارض ، واعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها انشئت التاليف الرائقة ، وصنفت التصنيفات الفائقة » .

وهذه شهادات لها قيمتها في عالم التاريخ ! !

٢ ـ اثر بغداد في الاندلس ، في النواحي الثقافية ، والادبية ، والفنية .

ان نظرة عامة على العاصمتين العباسية ، والاندلسية نجد ان (بغداد) هي صاحبة الفضل والايادي السابقة على (قرطبة) . فلقد كان العالم في الاندلس لا يجد له منزلة بين قومه حسب ـ قول المصادر الاندلسية ـ القديمة . ما لم يكن قد زار بغداد . واتصل بالمشرق عن طريق الرحلة والدراسة والتحصيل والزيارة .

واذا استعرضنا جمهرة العلماء الوافدين الى المشرق عامة ، وبغداد خاصة كما ذكرهم اصحاب المكتبة الاندلسية B.A.H. ، كابن الفرضي وابن بشكوال ، وابن الابار ، والحميدي ، وابن خير الاشبيلي ، وابن سعيد المغربي ، والمقري لدهشنا من كثرة عددهم ، واختلاف طبقاتهم ، وثمرات عقولهم ، وعظيم نتاجاتهم ، العلمية ، والادبية ، والفكرية ، واللغوية ، والفقهيه .

ولقد قمنا بدراسة منذ سنوات عنهم بعنوان (الاندلسيون الاوائل من حملة الثقافة العراقية)(١٢) ونشرناها في (مجلة كلية الاداب) (جامعة بغداد) .

ومثلما كان خلفاء بني العباس يشجعون العلم والعلماء . كان خلفاء بني امية في الاندلس يدعون الى ذلك ، ويبذلون الاموال في سبيله . ففي (قرطبة) كانت اسواق الكتب رائجة ، ومنتديات العلم متنشرة .

ومن اعظم اولئك الامراء والخلفاء يأتي في المقدمة (صقر قريش) الامير عبدالرحمن الداخل ، والامير عبدالرحمن الثاني (الاوسط) ، وعبدالرحمن الناصر ، والحكم المستنصر(١٣) .

ونلاحظ ان صاحب الفضل الكبير في فتح ابواب الاندلس امام الثقافة البغدادية العراقية . كما اجمعت عليه المصادر القديمة ، والمراجع الحديثة . انما هو عبدالرحمن الاوسط الذي تولى السلطة عام (٢٠٦هـ ـ ٨٢٢م) واتسع مجال النشاط الفني والادبي في عهده ، لانه كان مثقفا ، شاعرا ، محبا للفلسفة والشريعة .(١٤) ورحب بالوافدين اليه من (بغداد) واستقبلهم خير استقبال وافاد مما حملوه معهم من طرز الحياة ، وانماط الحضارة ، وتعدد الثقافات .

وان التأثيرات البغدادية على الحضارة الاندلسية ، لم تكن مقتصرة على الفن وطراز العيش، بل رأينا تأثير الشعر العباسي والنثر ، يبدو واضحا على الادب الاندلسي ، في بداية مدرسته المحافظة ، وفي حركة مدرسته المجددة .

واصابت اهل الاندلس من الشعراء والمؤلفين غيرة التقليد والمعارضة . يسيرون فيها على شاكلة البغاددة واهل العراق .

فابو تمام المغرب ، ومتنبي المغرب ، وبحتري المغرب . وغير هذه الالقاب والمظاهر ! ! كما عورضت قصائد ابي تمام ، والبحتري ، وابي نواس ، والمتنبي والمعري ، والشريف الرضي .

ونقد بعضها ودرسه دراسة محايدة (ابن بسام) في (ذخيرته)(١٥) كما اخذ على بني قومه تقليدهم للمشارقة . ـ ولكنه ـ قد نسي نفسه يوم تاليفه لكتاب (الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة) الذي سار به على غرار (يتيمة الدهر) للثعالبي(١٦)

ولقد قال حانقا قومه ، ومشيرا لتقليدهم :

.. « الا ان اهل هذا الافق ، ابو الا متابعة اهل المشرق ، يرجعون الى اخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث الى قتادة . حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، او طن باقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما »(١٧) .

وهذا برهان ساطع على تأثر اهل الاندلس بالمشرق ، واهتمامهم بما تبدعه القرائح العراقية في بغداد .

٣ ـ اثر المعاهد العراقية والعلماء العراقيين على الحركة العلمية والادبية في الاندلس .

كانت ابواب دار الحكمة ، والنظامية ، والمستنصرية مشرعة امام الوافدين اليها من الاندلس وبقية الاقطار الاسلامية شرقا وغربا . وفي (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي .

وكتب البلدان ، والمدن ، والرجال ، والتراجم ، الامثلة التي لا يحتاج لها دليل وبرهان على عظمة الحركة العلمية في العراق .

ومن الطبيعي ان الطلبة الوافدين من الاندلس شانهم ، شان الاخرين ، يتلقون العلم على جلة العلماء المشهورين ، في مختلف حقول الثقافة ، واللغة ، والفقه ، والادب . وغيرها من فنون المعرفة الانسانية والعلمية .

وقد وجدنا منهم طبقة درست على الامام (الغزالي) كالمهدي بن تومرت رئيس حركة الموحدين الذي جاء من المغرب ، وادخل مبادىء حركته

الدينية والسياسية في عقول انصاره الذين اسسوا دولتهم في المغرب واحتلوا بعدها الاندلس[١٨] .

ووجدنا القاضي (ابا بكر ابن العربي) يصاحب العالم العراقي ابا بكر الشاشي[١٩] ووجدنا الحميدي يعيش في بغداد ويتتلمذ على الخطيب البغدادي ، ويتلقى العلم على طبقة أخرى من مشاهير العلماء ، ويؤلف كتابه الشهير (جذوة المقتبس)[٢٠] في بغداد ، ولم يغادرها وفضل البقاء فيها حتى مات ودفن في تربتها .

وهناك عالم الاندلس المعروف (ابو الوليد الباجي) الذي قضى شطرا من حياته في بغداد تلميذا وعاد لبلده عالما ، وقد تتلمذ على ابي الطيب الطبري في بغداد ، وعلى ابي اسحق الشيرازي .

والملاحظ ـ مع الاسف ـ ان اغلب هؤلاء العلماء الذين استوطنوا (بغداد) زمنا ثم عادوا لوطنهم ، لم يضعوا لنا كتبا عن انطباعاتهم ، وقضايا حياتهم ، وتراجم علمائهم ، الذين تلقوا العلم عنهم ، الا فئة قليلة من اصحاب (الرحلات) الذين زاروا البلاد ووصفوها وصفا يختلف اختصارا وشمولا ، وعمقا وسطحية .

ومن هؤلاء الرحالة الاندلسيين (بنيامين التطيلي) الذي جاء ليستطلع احوال اليهود في الشرق الاسلامي والف رحلته المعروفة باسمه[٢١] .

وكذلك الرحالة الكناني (ابن جبير الاندلسي) الذي وصف الاقطار الاسلامية التي مر عليها ومن ضمنها العراق[٢٢] .

اننا اذا اردنا ان ندرس الخطى الاندلسية التي جاءت من ديار الاندلس باصحابها الى (بغداد) نجدها قد مرت على بلاد متعددة برية ، وبحرية ، ومغربية ، وشرقية .

وقد سلكت في سيرها طريق البحر والبر . طريق البحر في العبور من الجزيرة الخضراء ، و (جبل طارق) ، وموانى الاندلس الجنوبية والدخول الى (سبته) ومن ثم السير براً في سواحل الشمال الافريقي . والوصول الى (مصر) والبحر الاحمر ، وزيارة الديار المقدسة ، وبيت المقدس ، وبلاد الشام ، والعراق . ومنهم من يجعل السفر بالسفن التي تمخر في البحر المتوسط وينزل في بعض جزره ، ثم يواصل الرحلة حتى ترسوا به باحدى الموانى العربية . وبعدها يسلك طرق البر كي توصله الى (دار السلام) ! !

وفي رحلة (ابن جبير) المثال على ذلك ! !

وكان من الطبيعي ان تجذب بغداد اليها العديد من الناس من هنا وهناك . من اقاصي المشرق الاقصى ، وما وراء النهر ، الى سواحل الاطلسي ، واطراف المغرب ، وكل هؤلاء كانوا يفدون اليها للعلم ، والتجارة ، والسياحة ، والاطلاع ، والمراقبة ، ورصد المعلومات ونقل الاسرار ، وفي رحلة (التطيلي) ما يدل شاهدا على ذلك الامر ، ومثالا على الغرض الخفي لتلك الرحلة ! ؟ .

كما ان الامر يكون معكوسا احيانا للغرض نفسه من العراق الى الاندلس . كما وجدناه في رحلة (ابن حوقل) الموصلي ، الذي زار تلك البلاد ، وصور واقعها الاجتماعي ، والسياسي ، والعلمي . وقد اتهم بان زيارته ورحلته كانت بدافع سياسي ، من الخلافة العباسية ! ! ؟[٢٣] .

٤ ـ اثر النتاج العراقي في حركة التاليف الاندلسي

مما لا شك فيه ان مدرسة بغداد العلمية ، كانت هي الرائده في حقل الترجمة ، والتاليف . من طب ، وفلسفة . وحكمة ، ومنطق ، وكلام ، واداب ، وتاريخ ، وجغرافية ، وعلوم ، وفنون .

وكان العراقيون هم الاساتذة في مختلف هذه الميادين ، لما ترجموه ، ودرسوه ، واخذوه ، وهضموه ، من الامم الاخرى وما ابتكروه بانفسهم . بحيث امتزجت تلك الثقافات في بوتقة الفكر العربي ، واصبحت ذات طابع عراقي عربي معروف .

وفي اي ميدان من الميادين العلمية ، والادبية ، والثقافية . كان لبغداد الحصة الكبيرة ، والريادة الهادفة النافعة .

فاذا الف (الجاحظ) مثلا رسالة التربيع والتدوير . سار على خطاها في النقد والفكاهة (ابن زيدون) في رسالته الهزلية .

واذا الف (ابن داود الظاهري) كتابه (الزهرة) الف هناك (ابن فرج الجياني) كتابه (الحدائق) واذا صنف (الثعالبي) يتيمة الدهر ، راينا (ابن بسام) يؤلف الذخيرة في محاسن (اهل الجزيرة) .

واذا الف (ابن سينا) (حي بن يقظان) في المشرق ، راينا (ابن طفيل) يؤلفه في الاندلس . واذا صنف (ابن قتيبة) كتابه (عيون الاخبار) في بغداد . وجدنا (ابن عبد ربه) يؤلف (العقد الفريد) . وهكذا تستمر هذه الصورة في مختلف الاطارات التي تحيط بها[٢٤] .

وقد نقلت روائع العراق الى الاندلس عن طريق طلبة العلم ، والمسافرين ، والرحالة ، والتجار ، والوسطاء ، والوافدين ، والمهاجرين الى هناك . وتشجيع الخلفاء الامويين في قرطبة ، والامراء في اشبيلية ، وبقية مدن الاندلس السامرة . لنقل تلك الروائع . كما حدث ذلك في زمن الناصر والحكم المستنصر في (قرطبة) وابراهيم بن حجاج في (اشبيلية)(٢٥) والمثال على ذلك كتاب (الاغاني) الذي انتشر في قرطبة قبل ان يقرا في (بغداد) . لكن يا ترى ، ما هو المعيار الفني ، والنقدي ، للمقارنة بين هذين النتاجين ، العراقي ، والاندلسي ؟؟

ان لتلك البلاد نتاج له خصائصه ، وله روعته . ولكن يبقى اثر العراق هو البارز ، وثمرات اقلام ابناء الرافدين هي المتميزة على غيرها . اللهم الا باختراع الفنين الشعريين (الموشحات) ، و (الازجال) . اللذين تميزت بهما العبقرية العربية في الاندلس ! ! .

٥ ــ اثر العلماء والفنانين العراقيين الذين رحلوا الى الاندلس ، واثرو في حياتها الادبية والاجتماعية

في بعض ظروف لم يكن معلوما لدينا سرها الان ، بوضوح ، عن اسباب هجرة من العلماء ، وارباب الفن العراقي ، للاندلس في عصر كان مزدهرا . حسب قول المؤرخين العرب ، فمنهم من كان يعزي هجرتهم الى اضطهاد فكري ، ومنهم يرجعها الى فقر مادي ، ومهم من يعللها الى حب المغامرة والاستطلاع . ومهما كانت الاسباب . فقد حفلت كتب التراجم الاندلسية بطائفة من اخبار (الغرباء) الذين وفدوا على الاندلس و (الطارئين) عليها . وفي مجموعة (المكتبة الاندلسية) B. A. H. الكثير منهم . وفي (الذخيرة) لابن بسام ابرزهم ، وفي (نفح الطيب) اشهرهم .

ومن هؤلاء من دخلها في عصر الامارة ، ومنهم ايام الخلافة ، ومنهم في عصر الانحدار والتاخر والفتنة ، وعصر الطوائف ، وايام المرابطين والموحدين ونهاية مملكة غرناطة .

وكان من ابرزهم دون منازع العالم العراقي (ابو علي القالي البغدادي)(٢٦) الذين ذهب اليها ايام الناصر لدين الله (٣٠٠هـ ــ ٣٥٠هـ) و (صاعد البغدادي)(٢٧) الذي قصدها ايام المنصور بن ابي عامر (٣٢٦هـ ــ ٣٩٢هـ) و (زرياب المغني البغدادي)(٢٨) الذي هاجر اليها ايام الامير عبدالرحمن الثاني (١٧٦ ــ ٢٣٨هـ) والشاعرة المغنية (قمر البغدادية)(٢٩) التي جلبها واشتراها الامير ابراهيم بن حجاج الاشبيلي وهي التي حنت لوطنها العراق ؛ ولايام (بغداد) فقالت :(٣٠)

آهاً على بغدادها وعراقها
وظبائها والسحر في احداقها

ومجالها عند الفرات بأوجه
تبدو أهلتها على اطواقها

متبخترات في النعيم كانما
خلق الهوى العذري من اخلاقها

نفسي الفداء لها فاي محاسن
في الدهر تشرق من سنا اشراقها

والعالم الشاعر (ابو الفضل البغدادي) الذي ترجمه (ابن بسام) في (ذخيرته) ونقل لنا طائفة كثيرة من اشعاره والتي منها يتشوق لبلاده حيث قال :(٣١) وكان ذلك في عصر الطوائف : ــ

اهيم بذكر الشرق والغرب دائبا
وما بي شرق للبلاد ولا غرب

ولكن اوطانا نات واحبة
فقدت متى اذكر عهودهم اصب

اذا خطرت ذكراهم في خواطري
تناثر من اجفاني اللؤلؤ الرطب

ولم انس من ودعت بالشط سحرة
وقد غرد الحادون واستعجل الركب

اليفان هذا سائر نحو غربة
وهذا مقيم سار عن صدره القلب

وقال (ابن بسام) في القسم الرابع من (ذخيرته) عن هؤلاء الوافدين(٣٢) .

« افردته لمن طرا على هذه الجزيرة في المدة المؤرخة من اديب شاعر ، واوى الى ظلها من كاتب ماهر ، واتسع فيها مجاله ، وحفظت في ملوكها اقواله ووصلت بهم ذكر طائفة من مشهوري اهل تلك الافاق ، ممن نجم في عصرنا بافريقية والشام والعراق » .

وقد عد في مقدمتهم (صاعد البغدادي) اللغوي وتلاه (بأبي الفضل الشاعر البغدادي) اما صاحب (النفح) فقد اشار في مقدمة تراجم الوافدين الى الاندلس بقوله :(٣٣)

.. « اعلم ان الداخلين للاندلس من المشرق قوم كثيرون لاتحصر الاعيان منهم ، فضلا عن غيرهم ،

ومنهم من اتخذها وطنا ، وصيرها مسكنا ، الى ان وافته منيته ، ومنهم من عاد الى المشرق بعد ان قضيت بالاندلس امنيته . » وترجم لبعض هؤلاء البغداديين وذكر مجموعة من اشعارهم ومنهم .

(ابو الحسن البغدادي الفكيك)(٢٤) . وكان كما قال حلو الجواب ، مليح التندر ، يضحك من حضره ولا يضحك هو اذا ندر . عاش في عصر الامير (المعتمد بن عباد) صاحب (اشبيلية) ومما قاله في مدح (المعتمد) وبه اشارة طريفة للحنين الى الوطن ، ولمحبته الى (بغداد) ، والى كرم الممدوح وجوده .

.. ولي بحياك الربيع عاما واشهرا
ازخرف اعلام الثناء وارقم
وانفقت ما اعطيتني ثقة بما
اؤمّل فالدينار عندي درهم
وقلبي الى (بغداد) يصبو وانني
لنشر صباها دائما اتنسم

وذكر لنا من الوافدين على الاندلس من اصحاب الخط والضبط (ظفر البغدادي)(٢٥) الذي قصد الحكم المستنصر ، وعاش في (قرطبة) وكان من رؤساء الوراقين المعروفين في عصره كعباس بن عمرو الصقلي ، ويوسف البلوطي . وجعله الخليفة الاندلسي (الحكم) في مقدمة خطاطي قصره ، وفي خزائن مكتبته الشهيرة ! !

* * *

وهناك ايضا من الراحلين العراقين الذين لعبوا دوراً في الحركة الادبية والفنية في الاندلس .

الشاعر (سعيد البغدادي)(٢٦) (وابو محمد المذري) النحوي ، وكل هؤلاء الذين ذكرناهم منحوا ابناء الاندلس الكثير من ادابهم ، وعلومهم ، وفنونهم وكانوا حركة دائمة ، ونشاطا مستمرا ، في خلق الجو الادبي والفني هناك ، وفي تأثيرات (القالي البغدادي) وما القاه من محاضرات ، وما الفه من كتب ، وما بعثه من حياة فكرية . لخير دليل على اثر العراقيين في ديار الاندلس النائية .

ناهيك باثر (زرياب) الفني والاجتماعي وما قدمه للمجتمع الاندلسي من عطاء لا ينكر فضله ، ومن فنون لا تجحد قيمتها . كان من ابرزها التطور الموسيقي والغنائي الذي ساعد وخلق فيما بعد الجو المناسب لانتشار الموشحات ، وتقبل وجودهـا ومزاحمتها لمدرسة الشعر العربي الخاضع للروي والقافية والبحر الواحد .

والاندلس هي التلميذة النابغة ، التي تخرجت في جامعة (بغداد) وافادت من ثقافة اساتذتها ، وتاليف علمائها بحيث انها لم تستطع يوما ان تنكر هذا الفضل ، او تجحد ذلك العلم ، او تتناسى تلك الروابط العربية والاسلامية .

* * *

والغريب في تأثير العراقين على الاندلسين ان الخلفاء انفسهم هناك اصابتهم حرارة الغيرة من بني العباس في بغداد . فترصدوا اخبارهم ، وتشبهوا بطرز الحياة ، وانماط العيش ، التي كانت تدور في قصورهم ، وفي جنبات جنائنهم . وفي اروقة مجالسهم الخاصة والعامة . فاذا نظم خليفة عباسي ابياتا يتغزل بها بجارية من جواربه ، جرى على نمطها ، وسار على غرارها امير او خليفة اموي اندلسي .

ولم يكتفوا بهذا بل رأيناهم يؤلفون فرقا من الجند. والحرس(٢٧) المرتزقة على غرار ما كان يفعله المامون والمعتصم في العراق . ويبدون في المجتمع وهم بأبهى زينة ، وبمختلف الالقاب . كما حدث ذلك ايام امارة (الحكم الربضي) في حوادث الثورة والفتنة التي قامت في عهده .

ولم يرتح الامير (عبدالرحمن الثاني) الاوسط الا بشراء التحف العباسية ، التي تناثرت بعد مقتل (الامين) ومنها العقد النفيس المسمى (بعقد الشفاء) الذي كانت تمتلكه (السيدة زبيدة) والذي وصل بعد ذلك الى (قرطبة) لتتحلى به (طروب) محظية الامير عبدالرحمن الاوسط ! ! !

٦ — اعلام من الشخصيات الاندلسية التي درست في بغداد ، وعادت تحمل العلم للاندلس .

لا نريد في هذه الدراسة : ان نعدد ونذكر جميع من دخل (بغداد) من الاندلسيين ، ودرس فيها ، وتتلمذ في معاهدها ، فذاك امر تصعب الاحاطة به ، والتتبع لدقائقه . لاسباب لا يمكن حصرها الان . منها ان بعضهم لم يكن بالعالم الشهير ولا بالذكي المتميز ، ولا بالمؤلف البارع ، ولا بالشاعر المعروف .

ومنها ان بعضهم لم يستوطن (بغداد) زمنا طويلا ، صابرا على طلب العلم ، متحملا لالام الغربة ، وقساوة الفاقة ! ! والطبيعة ! !

غير اننا نقتصر الان على البارزين منهم ، والذين عادوا لبلدهم فأثروا في حركته العلمية ، والادبية ، والفكرية . على ان لنا عودة — ان شاءالله — في تأليف

كتاب يضم شملهم ، ويجمع شتاتهم . ويدرس اهم مظاهر حياتهم ، وما خلفوه لنا من آثارهم .

* * *

هناك سؤال يتبادر الى الذهن ، ويلح على الفكر . وهو كيف عاش اهل الاندلس في بغداد ؟ وكيف كانوا يتحملون طبيعة المناخ العراقي ؟ وهل اختلطوا في المجتمع العباسي ؟ . وهل جمعوا بين العمل والعلم ؟ وهل سكنوا جانب الرصافة ــ لكثرة المعاهد العلمية فيها ، اكثر من جانب الكرخ ؟ وهل كان يشملهم نظام الاعطيات ، والرواتب ، والمنح المالية ، التي يعطيها اصحاب الخير ، والهبات ، والاموال ، والدولة ، لطلبة العلوم ؟ وهل تقرب بعضهم لدور الخلافة العباسية ، واحتلوا منزلة مرموقة فيها ؟ وهل منهم من فضل البقاء في (بغداد) وعدم العودة الى اهله ووطنه ؟

اننا لم نجد ــ مع الحسرة والاسف ــ من الف لنا منهم تاريخا وسجلا لرحلتهم الى العراق . او كتب لنا وصفا لما كان يحيطهم يومذاك ولعل الايام القابلة تكشف لنا مخطوطا لمؤلف اندلسي ــ صور لنا فيه حياة العلماء الاندلسيين في (بغداد) ، وليس في الحياة شيء غريب ، ولا في الوجود امر مستبعد ! !

نعم ! وجدنا وصفا مفيدا لحياة (الحميدي) ولابي الوليد (الباجي) ، الذي كان يشتغل حارسا في الليل ، ويدرس في النهار ، وقد صبر فظفر ، ورجع الى الاندلس يحمل معه ثروة علمية وخطية من آثار العراق الثقافية . ومنهم من اسمى نفسه (بالبغدادي) لطول اقامته في (بغداد) وحبه لها ! ! امثال ابي عبدالله محمد بن احمد بن ابراهيم الخزرجي(٣٨) ومنهم من اسماه العراقيون لعلمه وبراعته في الطب (بحكيم الزمان) وهو ابو الفضل محمد بن عبدالمنعم الجلياني الطبيب(٣٩) الذي درس في (النظامية) .

ومنهم من قضت عليه همجية التتر ووحشيتهم فمات شهيدا غريبا محتسبا ، امثال ابي عبدالله محمد بن احمد الزهري الاشبيلي(٤٠) .

* * *

وقد اخترت لهذه الدراسة مجموعة من اولئك الاعلام ، واقتصرتهم على (عالم) و (اديب) ، و (شاعر) ، و (رحالة) . ولم ارد الشمول والاحاطة . ومن هؤلاء الخالدين فئة كان لها مقامها ، ولها علمها ، ولها اثرها الطيب ، في دنيا العلوم والمعارف ، وفي ميدان التاليف والتدريس ، وفي رياض الشعر والادب ! !

ابو الوليد الباجي(٤١)

(٤٠٣هـ ــ ٤٧٤هـ)

(عالم من الاندلس)

التعريف به :

ابو الوليد سليمان بن خلف بن وارث الباجي ، اصله من مدينة (بطليوس) Badajos وانتقل اباؤه الى (باجه) Baje واليها نسب .

عالم جليل من الاندلس ، درس في بلده على نخبة من العلماء منهم : ابو الاصبغ ، ومحمد بن اسماعيل ، وابو محمد مكي بن حموش ، وابو شاكر وغيرهم . . .

قصد المشرق عام ٤٢٦هـ ، وجاور بمكة المكرمة ، ودخل الموصل ، واستوطن بغداد زمنا ، وكان من زملائه واساتذته المشهور بن الخطيب البغدادي .

صفاته :

يتميز عمن سواه ، في انه كان صلب العود ، فقيها ، شاعرا ، ناثرا ، مفسرا ، اديبا . ثارت عليه العامة يوم ان عاد الى وطنه وناظر ابا بكر الصائغ في قضية امية الرسول الاعظم (ص) في حديث الكتابة يوم (الحديبية) الذي ورد في البخاري . وقال ابو الوليد (الباجي) بظاهر لفظة . وصنف ابو الوليد رسالة بين فيها ، ان ذلك غير قادح في المعجزة(٤٢) .

روى عنه حافظ المشرق والمغرب . ابن عبد البر في الاندلس ، والخطيب البغدادي في العراق . وكان يسمى (بشيخ الاندلس) .

قال عنه (ابن بسام) في ذخيرته :(٤٣)

« غنى الزمان بغرائب شعره ، حتى جن الاحسان بذكره ، واستغنت مصر والقيروان بخبره عن خبره . ولم تزل تلك الآفاق تراسله ، وعجائب الشام والعراق تغازله » .

« دخل (بغداد) والحرمان قد كساه سرابيل ، ورماه بطير ابابيل » .

ووصفه ابن خاقان في (قلائده)(٤٤) فقال :

« كان امام الاندلس الذي تقتبس انواره ، وتنتجع نجوده واغواره ، رحل الى المشرق نعكف على الطلب ساهرا ، وقطف من العلوم ازاهرا . »

وذكر صاحب (النفح)(٤٥)

بانه كان يؤجر نفسه ببغداد لحراسة الدروب ، لفقره وحاجته .

وفي هذه المناسبة جرت بينه وبين (ابن حزم الظاهري) مناظره . حول همة كل واحد منهما في طلب العلم ، وما وصل اليه من منزلة ومقام(٤٦) .

قال (الباجي) يخاطب (ابن حزم) :

« انا اعظم منك همة في طلب العلم ، لانك طلبته وانت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب ، وطلبته وانا اسهر بقنديل بائت السوق .

فقال (ابن حزم) .. هذا الكلام عليك لا لك ، لانك انما طلبت العلم ، وانت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، وانا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته ، فلم ارج به الا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة . فافحمه !! » .

لله درهما ! ودر اصحاب الهمم العالية في طلب العلم ، والسعي وراء المجد ! !

من ازاهير شعره ..(٤٧)

قال (الباجي) من قصيدة رائعة يمدح بها قاضي القضاة ببغداد (ناصح الدين وتاج الاسلام) السمناني جاء منها .

ما طال عهدي بالديار وانما
انسى معاهدها اسى وتبلد
.. لله ايام الشباب وحسنها
وغصونهن المائسات الميد
ايام انفض للمراح ذوائبي
بين الشباب ودرع بردي مجسد
اتقنص الظبيات في سبل الصبا
فيصيدهن لي المذار الاسود
حتى علاني الشيب قبل تحلم
وابر ما سبق المشيب المولد

ومنها :

ما هالني صعب المرام ولا الذي
تستبعد الايام عندي يبعد
استقرب الغزو البعيد بهمة
ادنى منازلها السها والفرقد
اسري اذا عتكر الظلام وقادني
امل ، مطالبها العلا والسودد

مؤلفاته :(٤٨)

له آثار عديدة المناحي ، ومختلفة المواضيع . ولكنها في الغالب تدور حول فقه المذهب المالكي . سردها (ياقوت) في معجم ادبائه(٤٩) ونذكر الان ابرزها اثرا ، واغلبها شهرة :

١ ــ الاستيفاء في شرح الموطأ .
٢ ــ المنتقى .
٣ ــ الايماء .
٤ ــ السراج .
٥ ــ التعديل والتجريح .
٦ ــ احكام الفصول .
٧ ــ المعاني .
٨ ــ تفسير القرآن .
٩ ــ المقتبس في علم مالك بن انس .
١٠ــ الناسخ والمنسوخ .

القاضي ابو عبدالله محمد بن ابي عيسى الليثي(٥٠)

(٢٨٤هـ ــ ٣٣٧هـ)

(اديب من الاندلس)

التعريف به :

هو ابو عبدالله محمد بن ابي عيسى من بني يحيى بن يحيى الليثي ، اديب ، قاض ، شاعر ، من اسرة عرفت بالعلم ، والوجاهة ، والادب .

جعله الناصرلدين الله قاضي الجماعة بقرطبة سنة ٣٢٦هـ . وقدمه على الاخرين ، وجعله كذلك سفيرا بين الامراء ، ومشاورا في شؤون الحرب والقضاء .

صفاته :

لطيف المعشر ، سمح الخلق ، طيب النفس ، رقيق الحاشية ، يهتز للشعر ، ويرتاح للجميل ، له ثقافة عالية . في قضايا الشعر ، ومعانيه ، وفي اللغة ، ومشاكل الاعراب . وصفه (ابن خاقان) في مطمح الانفس فقال : عنه « ثنينة علم وعقل ، وصحة ضبط ونقل » . واشار عنه صاحب(النفح) وذكر صفاته « كان له نصيب وافر من الادب ، وحظ من البلاغة اذا نظم او كتب » .

من لطائف اخباره واشعاره :(٥١)

ذكر (الحميدي) في (جذوة المقتبس) رواية عن ابي محمد علي بن احمد . قال:اخبرني القاضي ابو الوليد يونس بن عبدالله عن ابيه . انه شاهد قاضي الجماعة محمد بن ابي عيسى في دار رجل من بني حدير مع اخيه ابي عيسى . في ناحية مقابر قريش ، وقد خرجوا لحضور جنازة ، وجارية الحديري تغنيهم هذه الابيات :(٥٢)

طابت بطيب لثاتك الاقداح
وزهى بحمرة خدك التفاح

واذا الربيع تنسمت ارواحه
طابت بعليب نسيمك الارواح
واذا الحنادس البست ظلماءها
فضياء وجهك في الدجى المصباح

قال : وكتبها قاضي الجماعة في يده ، ثم خرجوا ،

قال : فلقد رايته يكبر للصلاة على الجنازة ، والابيات مكتوبة على باطن كفه ! !

ومن شعره :

بعد ان عاد الى وطنه ، من غربة شاقة ، ونوى مؤلم : ـ(٥٣)

كان لم يكن بين ولم تك فرقة
اذا كان من بعد الفراق تلاق
كان لم تؤرق بالعراقين مقلتي
ولم تمر كف الشوق ماء ماقتي
ولم ازر الاعراب في جنب ارضهم
بذات اللوى من راقة وبراق
ولم اصطبح بالبيد من قهوة الندى
وكاس سقاها في الازاهر ساق

ومن شعره في الحنين الى (قرطبة) قوله:(٥٤)

ماذا اكابد من ورق منفردة
على قضيب بذات الجزع مياس
رددن شجوا شجا قلب الخلي فهل
في عبرة ذرفت في الحب من باس
ذكرنه الزمن الماضي بقرطبة
بين الاحبة في امن وايناس
هم الصبابة لولا همة شرفت
فصيرت قلبه كالجندل القاسي

هذه شخصية من شخصيات الاندلس ، امتازت بصفات العلم والادب ، وافادت من ثقافة العراق والمشرق . وعادت تحمل لوطنها الظرف العراقي ، والاخلاق البغدادية . وامثالها الكثيرون في سجل التاريخ ! .

ابو بكر بن العربي(٥٥)
(٤٦٨هـ ـ ٥٤٣هـ)
(شاعر من الاندلس)

التعريف به :

هو ابو بكر محمد بن عبدالله بن العربي، المعافري من اشبيلية . اشتهر بأدبه ، وعلمه ، وشعره ، ورحلته الشهيرة . وبكتابه المعروف (العواصم من القواصم) .

زار المشرق مع والده ، وكان صغيراولاقى الشدة والعذاب ، في مطلع حياته ، واوان شبابه ، وبداية سفره زار المغرب ، ومصر ، والقدس ، والديار المقدسة ، والعراق . واتصل بالعالم الزاهد ابي بكر الطرطوشي صاحب كتاب (سراج الملوك) . وقصد دمشق واخذ عن عالمها ابي الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي الشافعي .

ودخل (بغداد) مع والده ايام الخليفة المقتدى بالله .(٥٦) ومن اساتذته في دار السلام . ابو الحسين المبارك ، وابو الحسن علي بن ايوب البزاز والقاضي ابو البركات الحنبلي ، وابو بكر محمد الشاشي الشافعي . واتصل بالامام حجة الاسلام (الغزالي) في المدرسة النظامية ، وفي دمشق ، ولازمه زمنا ، وكان من تلامذته المقربين. اضافة لاساتذته في الاندلس كالسرقسطي . وغيره ..

صفاته :

امتاز (ابن العربي) ، بالجراة في القول ، والصراحة في الراي ، والصبر على المكاره ، وعاش في عصر الطوائف . وفي اعماله القضائية عرف بالصرامة ، والشدة في الاحكام . مع الرفق بالضعفاء والمساكين ، ووصلت اليه الرياسة الدينية ايام المرابطين .

وصفه ابن سعيد المغربي بقوله(٥٧) « طبق الافاق بفوائده ، وملأ الشام والعراق بأوابده ، وهو امام في الاصول والفروع » .

اما ابو نصر الفتح بن خاقان فقد وصفه في (المطمح)(٥٨) حيث قال عنه : « علم الاعلام الطاهر الاثواب ، الباهر الالباب .. سقى الله به الاندلس بعدما اجدبت من المعارف ، ومد عليها منه الظل الوارف . فكساها رونق نبله ، وسقاها ديق وبله » . هذا وقد عرف بالقضاء ، كما عرف بالشعر ، وعقدت عليه دراسات ، ونشرت عنه ابحاث ، واحيا المحققون رحلته .

من ازاهير شعره :(٥٩)

حاولت ان اقدمه (شاعراً)واترك امره (قاضيا) . وابتعد في بحثي هذا عن نهج التقليد ، وأثر الاعادة والترديد .

قال رحمه الله تعالي ـ دخل علي الاديب

(ابن صارة) وبين يدي نار علاها رماد . فقلت له : قل في هذه ، فقال :(٦٠)

شابت نواصي النار بعد سوادها
وتسترت عنا بثوب رماد

ثم قال لي : اجز ، فقلت :

شابت كما شبنا وزال شبابنا
فكأنما كنّا على ميعاد

ومن رائق نظمه :(٦١) ومن رقة شعره :

اتتني تؤنبني بالبكا
فاهلا بها وبتانيبها

تقول وفي نفسها حسرة :
ابكى بعين تراني بها ؟

فقلت : اذا استحسنت غيركم
امرت جفوني بتعذيبها

ومن شعره وهو في شوق الى (بغداد)(٦٢) :

امنك سرى والليل يخدع بالفجر
خيال حبيب قد حوى قصب الفخر ؟

جلا ظلم الظلماء مشرق نوره
ولم يخبط الظلماء بالانجم الزهر

ولم يرضَ بالارض البسيطة مسحبا
فسار على الجوزا الى فلك يجري

وختمها بقوله :

سقى الله مصراً والعراق واهلها
وبغداد والشامين منهمل القطر

ومن طرائف ما رواه في (رحلته) للعراق . قال :(٦٣)

انه كان بمدينة السلام امام من الصوفية واي امام يعرف بابن عطاء . فتكلم يوما على يوسف واخباره حتى ذكر تبرئته مما ينسب اليه من مكروه فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة . فقال يا شيخ ، يا سيدنا ، فاذن يوسف هم وما تم ، فقال نعم ، لان العناية من ثم فانظروا الى حلاوة العالم والمتعلم ، وفطنة العامي في سؤاله ، والعالم في اختصاره واستيفائه » .

آثاره ومؤلفاته :(٦٤)

ترك (ابن العربي) آثاراً كثيرة ، منها قد طبع وانتشر ومنها لا زال مخطوطا . ومن مؤلفاته المعروفة :

١ ــ انوار الفجر في تفسير القرآن . وهو من اكبر آثاره .
٢ ــ قانون التأويل .
٣ ــ احكام القرآن .
٤ ــ القبس في شرح موطأ مالك بن انس .
٥ ــ عارضة الاحوذي .
٦ ــ حديث الافك .
٧ ــ ترتيب الرحلة .
٨ ــ نواهي الدواهي .
٩ ــ العواصم من القواصم .
١٠ــ الناسخ والمنسوخ .

الطبيب ابو الفضل محمد بن عمر الجلياني(٦٥)

(٥٣١هـ ــ ٦٠٢هـ)

(حكيم من الاندلس)

طبيب ، اديب ، رحالة ، سائح ، مؤلف ، شاعر ، اصله من (وادي آش) . ولد بقرية (جليانة) التابعة (لغرناطة) . وصل في رحلته الى القاهرة ، ودمشق ، ودخل بغداد سنة ٦٠١هـ . وسكن المدرسة النظامية .

صفاته :

اشتهر بادبه ، وشعره ، وحكمته ، وطبه ، وبراعته في الرياضيات ، وادب النفس مع حسن في الاخلاق ، ولطف في المعاشرة ، وحضور في الاجابة ولقبوه (بحكيم الزمان) . وسافر الى دمشق ، وحضر مجلس السلطان (صلاح‌الدين الايوبي) واتصل بحاشيته . وكان من معاصريه القاضي الفاضل ، وترجمه صاحب (خريدة القصر) واشاد بشاعريته وفنون ادبه .

ازاهير من شعره :(٦٦)

ترك الشاعر دواوين شعر عديدة ، ذكرها لنا صاحب (فوات الوفيات) ابن شاكر الكتبي(٦٧) وتغلب على شعره الحكمة ، والكرامة ، وعزة النفس ، واستعمال المحسنات البديعية ، اسوة ببعض شعراء عصره .

ومن جيد شعره :

فابخس شيء حكمة عند جاهل
واهون شيء فاضل عند ظالم

فلو زفت الحسناء للذئب لم يكن
يرى قربها الا لاكل المعاصم

ومن لطيف وجدانياته :

اؤمل لقياكم وان شطت النـــوى
وازجـر قربـا في مرور الســـوانح
وبذكي اشتياقي زند تذكار عهدكـــم
وما الشــــوق الا بعض نار الجـوانح

ومن حكمه :

قالوا ترى نفـراً عند الملـوك ســموا
وما لهــم همـــة تسمو ولا ورع
وانت ذو همــة في الفضـل عاليــة
فلم ظمئت وهم في الجاه قد كرعوا ؟
فقلت : باعوا نفوسـا واشتروا ثمنـا
وصنت نفسي فلم اخضع كما خضعوا
قد يكرم القرد اعجـابا بخســته
وقد يهان لفرط النخــوة الســبع

ومن شعره :

لابد للجســم من قــوام
فخذه من جــانب اعتــدال
واقرب من العزّ في اتضــاع
واهرب من الذل في المعالـي

ومن بديع قوله :(٦٧)

الا انما الدنيــــا بحــــار تلاطمت
فما اكثر الغــرقى على الجنبــات
واكثــــر من لاقيت يغــرق الفــه
وقل فتـى ينجــي من الغمــرات

وقال من اشعاره الحكمية :(٦٨)

قالوا نراك عــن الاكــابر تعــرض
وســــواك زوار لهــم متعــرض
قلت الزيارة للزمــــان اضـاعــة
واذا مضى زمـــن فما يتعــوض
ان كــان لي يومــا اليهـم حاجــة
فبقــدر مـــا ضمن القضــاء تقيض

ومن اشعاره الدالة على عزلته ، وبعده عن المشاكل . قوله :(٦٩)

خبرت بني عصري على البسط والقبض
وكاشفتهم كشــف الطبــائع بالنبض
ارى الشخص من بعد فاغضي تغافلا
كمشــدوه بال في مهمتـه يمضـــي
ويحســـبني في غفلــة وفراســـتي
على الفور من لمحي بما قد نوى تقضي

اجانبهم ســلما ليســلم جانبــي
وليس لحقـد في النفـوس ولا بغض
تخليت عــن قومــي ولـو كان ممكن
تخليت عن بعضــي ليسلم لي بعضـي

ومن شعره في مدح الســلطان صلاح الدين الايوبي قوله :(٧٠)

ابا ملكا افنى العــداة حســـامه
ومنتجعـا افنى العفـاة ابتســامه
لقاؤك يومـا في الزمـان ســعادة
فكيف بثـاو في حمــاك حمامـــه
.. اتينا لمـا عودتنـا من مكــارم
يلوذ بها الراجــي فيشـفى غرامـــه
فرحمـــاك غـوث لا يغيب نصيره
ونعمـــاك غيث لا يغب انسجامـــه

آثاره ومؤلفاته :(٧١)

من آثاره الشعرية .

١ ــ ديوان الحكم وفتور الحكم .
٢ ــ ديوان المشوقات .
٣ ــ ديوان السلوك .
٤ ــ ديوان نوادر الوحي .
٥ ــ ديوان تحرير النظر .
٦ ــ سر البلاغة وصنائع البديع .
٧ ــ ديوان المبشرات .
٨ ــ ديوان الغزل والتشبيب والموشــحات والدوبيت .
٩ ــ ديوان تشبيهات والغاز ورموز واحاجــي واوصاف وخمريات .
١٠ــ ديوان ترسل ومخاطبات .
١١ــ منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر ، في خصائص الملك الناصر .
١٢ــ جامع انماط المسائل في العروض والخطب والرسائل .

سعدالخير بن محمد الانصاري البلنسي(٧٢)

(توفي ــ ٥٤١هـ)

(رحالة من الاندلس)

التعريف بشخصيته :

هو ابو الحسن الانصاري سعدالخير بن محمد بن سعد . محدث . رحالة . لم يترك ارضا الا

زارها في المشرق ووصلت خطواته الى (الصين) . وكان يسمي نفسه بالصيني البلنسي . وهو اشبه بأبي حامد الغرناطي . صاحب (تحفة الالباب) . وابن جبير الكناني ، وابن سعيد المغربي . الا انه اختلف عنهم وفاقهم جميعا في الوصول الى (الصين) وسدها العظيم ! ! وتشابه مع (ابن بطوطة) . في حياته : وزواجه ، غير انه اكثر علما ، ورواية ، وفقها ، منه .

صفـــاته :

كان من صفاته حب المغامرة ، والصبر على المشاق وركوب البحار ، وقطع الفيافي والقفار ، ومصاحبة العلماء ، ومجالسة الادباء .

ومن اساتذته : ابو زكريا التبريزي ، وابو حامد الغزالي . وروى عنه السمعاني ، والكندي : وابن الجوزي ، وطوف بالبلاد ، ثم عاد مشتاقا الى بغداد ومات فيها سنة ٥٤١هـ . ودفن بحسب وصيته في تربة الامام احمد بن حنبل (رض) .

آثاره :

كان هذا الرحالة الاندلسي . كما يبدو محدثا لا مؤلفا : ولعل له رحلة مخطوطة ، ومشاهدات طريفة عن البلاد التي زارها وسكنها في اقاصي المشرق . وفي وسط الجزيرة العربية . نأمل ان تكشف لنا الايام القابلة . والسنين الاتية ، عما خفي من آثاره ومؤلفاته .

لقد اخترته مثالا للعالم المغامر ، والرحالة الرائد ، والمحب المعجب ببغداد ، بحيث انه فضلها على البلاد التي زارها ، وعاوده الشوق اليها ، ثم مات في تربتها ، بين اعلام العلم ورجال الفضيلة ، واساطين السياسة ، ومشاهير الادب ! !

* * *

هذه دراسة ارجو انني وفقت في عرضها ، وتقديم الصورة الواضحة ، عن مضمونها ، واعطاء النماذج من الشخصيات الاندلسية ، التي زارت (بغداد) وتعلمت فيها ، وتركت آثارا في دروبها . ونقلت العديد من تراثها الفكري والعلمي والادبي لبلادها . فكم (لبغداد) من اياد لا تنسى على الناس ! ! وعلى (الاندلس) ، وكم لها من فضل لا تمحو آثاره أحداث الزمن ! !

الهوامش

(١) راجع / معجم البلدان المجلد الاول ص / ٤٥٦ .
(٢) راجع / المصدر السابق ص / ٤٦١ .
(٣) راجع / المصدر السابق ص / ٤٦١ .
(٤) راجع / المصدر نفسه ص / ٤٦١ .
(٥) راجع / المصدر نفسه ص / ٤٦١ .
(٦) راجع / الروض المعطار ص / ٤٥٦ .
(٧) راجع / نفح الطيب ج / ١ ص / ٦١٦ .
(٨) راجع / المصدر نفسه ج / ١ ص / ٤٥٩ .
(٩) راجع / المصدر نفسه ج / ١ ص / ٢١٠ .
(١٠) راجع / المصدر ذاته ج / ١ ص / ٤٦٠ .
(١١) راجع / المصدر ذاته ج / ١ ص / ٤٦١ .
(١٢) راجع / مجلة كلية الآداب ـ جامعة بغداد . العدد / ١١ سنة ١٩٦٨ . ص / ١٤٦ وما بعدها .
(١٣) راجع / البيـــان المغرب ج / ٢ ص / ١٣٦ . وتاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص / ٢٢٩ .
(١٤) راجع / البيان المغرب ج / ٢ ص / ١٣٥ وما بعدها . وتاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص / ٢٢٨ وما بعدها .
(١٥) راجع / الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، لابن بسام القسم الاول ـ المجلد الاول . ص / ٢٩٧ وما بعدها .
(١٦) راجع / المصدر نفسه ـ مقدمة الكتاب ص / ب وما بعدها . و ص / ٢٠ من مقدمة المؤلف .
(١٧) راجع / الذخيرة ـ القسم الاول ـ المجلد الاول . ص / ٢ .
(١٨) راجع / نفح الطيب ج / ١ ص / ٦٠٩ و ج / ٢ ص / ٢٧ .
(١٩) راجع / المصدر نفســه ج / ٢ ص / ٢٥ وما بعدها وكتاب العواصم من القواصم ، لابن العربي ص / ٢٠ .
(٢٠) راجع / دراستنا عن (الحميدي) في مجلة كلية الاداب ـ العدد / ١٠ ص / ١٧٩ وما بعدها ـ ١٩٦٧م . جامعة بغداد .
(٢١) راجع / عن رحلة بنيامين التطيلي ، كتاب تاريخ الادب الجغرافي ، للمستشرق كراتشكوفسكي ج / ١ ص / ٣٢٨ والرحلة نفسها المطبوعة في بغداد سنة ١٩٤٥م .
(٢٢) راجع / عن ابن جبير ورحلته . نفح الطيب ج / ٢ ص / ٢٨١ . ورحلة ابن جبير بطبعات متعددة .
(٢٣) راجع / عن رحلة (ابن حوقل) . تاريخ الادب الجغرافي. ج / ١ ص / ٢٠٠ ورحلة ابن حوقل في المكتبة الجغرافية .
(٢٤) راجع / الشعر الاندلسي ، لغرسيا غومز ص / ٢٨ ودراستنا (الاندلسيون الاوائل من حملة الثقافة العراقية) مجلة كلية الاداب العدد / ١١ ص / ١٤٦ / ١٩٦٨م .
(٢٥) راجع / البيان المغرب ج / ٢ ص / ١٨٨ .
(٢٦) راجع / عن ابي علي القالي البغدادي ـ دراستنا عنه في كتابنا (ادباء بغداديون في الاندلس) بغداد . ط ١٩٦٢ ص / ١٢ .
(٢٧) راجع / عن صاعد البغدادي . دراستنا عنه في مجلة كلية الاداب . جامعة بغداد . العدد / ٦ سنة ١٩٦٣ . ص / ٢٦٥ .
(٢٨) راجع / دراستنا عن (زرياب المغني البغدادي) في (ادباء بغداديون في الاندلس) ص / ٤١ وكتاب (قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس) ج / ٢ ص / ٨٧ وما بعدها .

(٢٩) راجع / عن المغنية (قمر) البيان المغرب ج / ٢ ص / ١٩٤ ونفح الطيب ج / ٢ ص / ١٤٠ .
(٣٠) راجع / الابيات في نفح الطيب ج / ٤ ص / ١١٥ .
(٣١) راجع / الذخيرة . القسم الرابع / المجلد الاول ص/٧٧ .
(٣٢) راجع / المصدر السابق . القسم الاول ، المجلد الاول ص / ١٨ .
(٣٣) راجع / نفح الطيب ج / ٣ ص / ٥ وما بعدها .
(٣٤) راجع / المصدر السابق ج / ٣ ص / ١١٩ .
(٣٥) راجع / المصدر السابق ج / ٣ ص / ١١١ .
(٣٦) راجع / قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس . ج / ١ ص / ٥٨ و ص / ٥٩ .
(٣٧) راجع / المصدر السابق ج / ١ ص / ٥٥ .
(٣٨) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ١٥٦ .
(٣٩) راجع المصدر نفسه ج / ٢ ص / ٦٢٥ .
(٤٠) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ ص / ٢١٤ .
(٤١) راجع / المصدر السابق ج / ٢ ص / ٦٧ وبهامشه عدة مصادر عنه .
(٤٢) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٦٨ .
(٤٣) راجع / الذخيرة لابن بسام ـ القسم الثاني ـ المجلد الاول ص / ٨٠ وما بعدها .
(٤٤) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٧٤ ولم اجد النص هذا في القلائد .
(٤٥) راجع / عن الباجي وحياته معجم الادباء ج / ١١ ص / ٢٤٦ . والمرقبة العليا ص / ٩٥ . ونفح الطيب ج / ٢ ص / ٧٧ .
(٤٦) راجع / المناظرة في نفح الطيب ج / ٢ ص / ٧٧ .
(٤٧) راجع / الذخيرة . القسم الثاني ـ المجلد الاول ص / ٨٢ . وله اشعار في نفح الطيب ج / ٢ ص / ٧٥ وما بعدها .
(٤٨) راجع / مؤلفاته في نفح الطيب ج / ٢ ص / ٦٩ .
(٤٩) راجع / معجم الادباء ج / ١١ ص / ٢٦٤ وما بعدها .
(٥٠) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ١٢ . والمرقبة العليا ص / ٥٩ . وجذوة المقتبس ص / ٦٩ .
(٥١) راجع / جذوة المقتبس ص / ٦٩ وما بعدها . ونفح الطيب ج / ٢ ص / ١٣ وما بعدها .
(٥٢) راجع / الابيات في المصدرين السابقين (الجذوة) ص / ٧٠ والنفح ص / ١٤ .
(٥٣) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ١٣ .
(٥٤) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ١٣ وفي الجذوة ص / ٧٠ رواية اخرى للابيات مع زيادة .
(٥٥) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٢٥ . والمواصم من القواصم ص / ١٠ .
(٥٦) راجع / العواصم من القواصم ص / ١٧ .
(٥٧) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٢٦ .
(٥٨) راجع / مطمح الانفس ط١ / الجوائب ـ الاستانة ١٣٠٢ ص / ٦٢ . وكذلك نفح الطيب ص / ٣٢ ـ ج / ٢ .
(٥٩) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٣٠ .
(٦٠) راجع / المصدر السابق ج / ٢ ص / ٣٠ .
(٦١) راجع / المصدر السابق ج / ٢ ص / ٣٠ .
(٦٢) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٢٤ .
(٦٣) راجع / المصدر ذاته ج / ٢ ص / ٤١ .
(٦٤) راجع / العواصم من القواصم ص / ٢٧ وما بعدها . ونفح الطيب ج / ٢ ص / ٣٥ .
(٦٥) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٦٢٥ و ج / ٢ ص / ٦١٤ وقد ترجمه مرتين ، راجع / الذيل والتكملة ج / ٥ ص / ٥٧ .
(٦٦) راجع / مجموعة من اشعاره في (فوات الوفيات) ج / ٢ وقم ٢٦٣ . ص / ٣٥ .
(٦٧) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٦١٤ .
(٦٨) راجع / المصدر السابق ج / ٢ ص / ٦٢٦ .
(٦٩) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ ص / ٦٢٦ .
(٧٠) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ ص / ٦٢٧ .
(٧١) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٦١٤ وفوات الوفيات ج / ٢ ص / ٣٥ وما بعدها .
(٧٢) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٦٢٢ .

اهم المصادر والمراجع

المصادر القديمة :

١ ـ نفح الطيب ـ ط١ / صادر ـ بيروت / ١٩٦٨م .
٢ ـ قلائد العقيان ـ لابن خاقان ـ مصر ١٢٨٤هـ .
٣ ـ المغرب ـ لابن سعيد ـ ط١ / مصر ١٩٥٣م .
٤ ـ الذخيرة ـ لابن بسام ط١ / مصر ١٩٣٩م .
٥ ـ الذخيرة ـ لابن بسام ط١ / مصر ١٩٧٥م .
٦ ـ مطمح الانفس ـ لابن خاقان ط١ / الاستانة ١٣٠٢هـ .
٧ ـ المرقبة العليا ـ للنباهي ط١ / مصر ١٩٤٨م .
٨ ـ البيان المغرب ـ لابن عذاري ط١ / بيروت ١٩٥٠م .
٩ ـ معجم البلدان ـ لياقوت ط٢ / دار بيروت ١٩٧٧م .
١٠ ـ معجم الادباء ـ لياقوت ـ دار المأمون ـ مصر ١٩٣٦م .
١١ ـ فوات الوفيات ـ لابن شاكر ط١ / مصر ١٩٥١م .
١٢ ـ جذوة المقتبس ـ للحميدي ط١ / مصر ١٣٧٢هـ .
١٣ ـ الذيل والتكملة ـ للمراكشي ط١ / بيروت ١٩٦٥ م .
١٤ ـ العواصم من القواصم ـ لابن العربي ط٢ مصر ١٣٧٥هـ .

المراجع الحديثة :

١ ـ قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس . للدكتور السيد عبدالعزيز سالم ، ج/١/ط١/بيروت / ١٩٧١ .
٢ ـ قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس . ج/٢ ط/١ بيروت/ ١٩٧٢ .
٣ ـ الشعر الاندلسي . غرسيا غومز (الطبعة العربية) ط/٢ القاهرة ١٩٥٦م .
٤ ـ تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس . للدكتور السيد عبدالعزيز سالم ، ط/١ ـ دار المعارف ـ بيروت ١٩٦٢ .
٥ ـ ادباء بغداديون في الاندلس . للدكتور محسن جمال الدين ، بغداد ـ ١٩٦٢م .
٦ ـ تاريخ الادب الجغرافي . للمستشرق كراتشكوفسكي ، الطبعة العربية ـ مصر ١٩٦٣م .
٧ ـ مجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد / ١٩٦٣م .
٨ ـ مجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد / ١٩٦٧م .
٩ ـ مجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد / ١٩٦٨م .
١٠ ـ الاعلام ـ للزركلي ط/٢ القاهرة ١٩٥٩م .
١١ ـ معجم المؤلفين ـ لعمر كحالة ط١ / دمشق ١٩٥٨م .
١٢ ـ دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) مصر ١٩٣٣م .

مقدمة حكاية ابي القاسم البغدادي *

بقلم المستشرق

آدم ميتز

ترجمة

طارق حيدر العاني

بغداد ـ الجمهورية العراقية

لو طرح على مؤلف « الحكاية » ما قاله احمد بن ابي طاهر في سعيد بن حميد** (فهرست ابن النديم ، ص ١٢٣) ولو طبقنا هذه المقولة « ارجع الى اهلك » لما وجدنا عنده من الجيد الا القليل ؛ ومن غير المحمود ربما الكثير . لقد استطعت ان ارجع اغلب المواد الى اصولها ، ولكني اصطدمت ب « اصول » غريبة في جوانب اخرى من الحكاية . والمؤلف نفسه يصف عمله اساساً بانه مجموع ادبي مختار ؛ فقد برزت في حكايته اشياء كثيرة كانت ذات اهمية في عهده ، كالوطن والبيت والحصان والحمار والخمر والكاس وحفلات المائدة والنديم والراقصة والغلام والجارية والمغني والموسيقي والخطيب والمستمع والمتطفل والمتفاخر ؛ وقد اقتبست بعض الابيات الشعرية مباشرة ، من مؤلفات مرتبة تاريخيا (كما في الصفحتين ٥١ و ١٢٩) ومفعمة بالاحساس والتعبير ابتداء من ابن المعتز وانتهاء بابن الحجاج .. وظهرت لعبة الشطرنج ، لاول مرة ؛ اداة بلاغية ، وحلية للحوار الفني الذي كان يرافق كل نقلة اسوة بالمألوف في المسرح الآسيوي الشرقي . لقد وزع الشاعر رغباته بين (نعم) و (لا) .. ولكنه اهمل نسق الاضداد التي انحدرت مادتها المدرسية . في ذلك الوقت ، عن طريق كتاب الثعالبي (مدح الشيء وذمه) . و (الشيء) عنده لم يكن الفكرة ، بل الشيء المجرد نفسه .. فهو لا يذكر السبب وضده في بناء البيت ، وانما يصف لنا البيت اما بالجودة او السخافة(١) . ولم يعر المؤلف اية اهمية للاقبال على الطعام او الامتناع عنه .. بل ابان لنا كيف يتناول البغدادي الثري طعامه ، وكيف ياكل الفقير في اصفهان ؛ هذه المفارقة لا وجود لها في الكتب القديمة ـ بما فيها البلاغة ـ لانها منتزعة من المشاهدة ؛ وربما اغنت الحركة التوفيقية بين العقائد المتعارضة فن الوصف الذي ضمن لهذه الحكاية اتجاهاً ادبياً ذا منحى واقعي . ولهذا تعتبر حكاية ابي القاسم عند (دي غويه) و (كرباجك) من المصادر القيمة . ومن هنا استقلالها عن الادب المدرسي بصورة جلية : فلنوادر الملاحين مكانها الثابت في المصادر المعروفة ، ومن يقارن نماذج (الراغب الاصفهاني) او نماذج (المستطرف) بنماذج ابي القاسم (ص ١٠٧ والتي تليها)(٢) يقع على الشمولية في مكان ، والاستبصار في مكان آخر ، دون ان يعي الاشكال المألوفة ، رغم ان القيمة التاريخية الادبية للانتاج

---

* حقق الاستاذ ادم متز حكاية ابي القاسم البغدادي ، ونشرها في هايدلبرج سنة ١٩٠٢ ، وصدرت عن مطبعة كارل ونتر (واعادت طبعها بالاوفست مكتبة المثنى في بغداد) . ولقد الحق ا . ميتز بالنص العربي مقدمة نفيسة باللغة الالمانية ، ووجدنا بعضها جديرا بالنقل الى اللغة العربية ، وهو هذا الذي بين يدي القارىء [رئيس تحرير المورد] .

** عبارة ابن النديم وردت هكذا : « لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع الى اهلك لما بقي معه منه شيء . هذا لفظ احمد بن ابي طاهر » . ويفهم من النص ان الشاعر سعيد بن حميد كان مشهورا بالسرقة [رئيس تحرير المورد] .

استقرت في الشكل لا في المضمون . كانت المائة والخمسون سنة الاولى من عمر الاسلام مثقلة بنوع مثمر ذي جانب واحد من أدب الحرب . ولم يستطع عصر الرشيد والمأمون ان يجودا باسلوب موحد للحياة . وكان على المرء ان يقاسي كثيراً لكي يتلاءم اجتماعيا وفكريا مع الحياة الجديدة . فلا غرو اذا انطلق الادب الرفيع ـ وبصورة أساسية ـ صدى واسعا للشكل القديم : فاسحاق الموصلي عكف على المعرفة التاريخية العميقة للأغاني الحضرية ، فضلا عن النقد الفنائي الرائع في كتابه (الاغاني والشعراء) الذي بز به اباه المشهور وادهش الاخرين (الاغاني ٦ : ١٧ و ١٨ : ١٧٦) حتى ان ابا نواس لم يسلم منه **(الاغاني ٢١:٧).**

.. كما ان الزمن العصيب الذي اطمأن للانواع الجديدة لم يكن ، عهد ذاك ، حديثا ، ومع ذلك استعين به ، ويفخر ، في الهجوم على القديم . لقد كان جديده نزراً ، ولكنه مشبع بالموروث العتيق . وقد قورن عدي بن زيد بأبي نواس ، وابن الاحنف ومسلم وكشاجم بعمر بن أبي ربيعة وبشار بن برد (رائد الجديد) الذي يقال انه نظم (١٢٠٠٠) قصيدة (راجع : الحصري ، والعقد الفريد ٢ : ٢٠)(٢) . ولم يثر فيض المادة الجديدة الادب (كما يزعمون) فقد كانت للأدب حصانة غير حضرية ، فهو لم يعتن الا باراجيز القتال بعد ازدهارها في حرب الخوارج واثناء قيام الدولة العباسية(٤) وليس لذلك اية علاقة بشعر الحرب الذي قيل في بلاط الحمدانيين .. ولكن شيئا واحدا كان جديدا ، هو : ان بغداد باعتبارها اول حاضرة اسلامية لم تكن معسكرا حربياً بالمعنى الحقيقي ، ولذلك خففت من غلواء المشاكل السياسية الداخلية ، ومن الاهتمام بالانساب والتقاليد . ففي هذه المدينة ترعرعت برجوازية جديدة عن طريق قوة التمركز التي عمت ارجاءها(٥) ، وثبتت الحياة الدنيوية ، وطورت الحقبة منذ الحروب الصليبية ، وحولتها الى عصر حضارة التجار(٦) . لقد سبب ازدهار التجارة ذات الامتيازات القوية ، لم تفرض ضريبة على اسواق بغداد الا في عصر الخليفة المهدي لأول مرة ـ اليعقوبي ٢ : ٤٨١ ، والاقبال على الفنون حركة شعرية ناشطة ، فكانت تدرس ، عند ابراهيم الموصلي ، احيانا ، ثمانون مغنية (الأغاني ٥ : ٦) كلهن من الفتيات الجميلات الكريمات ، وممن يهوين تلقي فنه الذي يحكره السودان والروم (الاغاني ٥ : ٩) .. فلقد أصبح التمتع بالفن باهض الثمن ، كثير المتطلبات ، واضحى الملل ، والاذن المتعبة علامة مميزة لكل الادب الحضري والاجتماعي الذي لم يتلاءم ـ لا خلال الحرب ولا في مواسم الزرع ـ مع لحن الطبيعة الموصول ، وبات كل مباح ـ من الآن فصاعداً ـ لامصدر له ـ سوى الاقوام الدخيلة المزعجة .. ففي ذلك الوقت احتل الفعل (مل) مكان الصدارة في النقد (قال أحد اصدقاء جعفر البرمكي للشاعر : قل أبياتا ولا تطل ، فانه يمل الاطالة . فقلت : لست بصاحب اطالة ـ الاغاني ١٧ : ٢٣) . وكذلك القصة النثرية . فانها لم تستعمل الا في (رداء الايجاز) ولم يكن المرء يمقت ـ اكثر مما يمقت ـ القصص الطويلة (حلبة الكميت ، ص ٣٠ . طراز المجالس ، ص ٦٦) ولابد أن يكون ذلك من دواعي القضاء على الشكل الطويل للقصيدة .

هذا العالم المصغر الذي لم تنقصه غير الصحراء(٧) كان بالنسبة للعرب (كالاخيلة الكنائسية بالنسبة للفن التشكيلي) ان (ما) او (ماذا) كانت موجودة دائما فالامر متعلق تثط ب (كيف) . ولم يثقف هذا العالم الصحراوي الفنانين فقط بل الجمهور ايضا ، وهذا ما لايجب ان نطمح اليه قصص اخرى ، وهكذا اجاد الجمهور سماع مصطلح جميل ، وحكاية سورية رمزية جديدة ، وانتقالة موفقة ، وتقسيم مثير جدا . كما حافظت القصيدة التي كانت بحاجة الى المحسنات البديعية على الطراوة والتجريد وعلى العامية التي كادت تختفي في صراع الكلم ، والنغمة مدينة قبل كل شيء الى ملكية القصيدة . وقد اعتاد المأمون حينئذ ان يسمع منها التشبيب والوصف فقط وبيتين او ثلاثة من المديح (الاغاني ٨ : ٩٢) ولم يسمح ابراهيم بن العباس المتوفى في سنة (٢٤٣م) عند التلاوة ، الا بقراءة ابيات قليلة من القصيدة ولم يرو الا بيتا او بيتين أحيانا (الاغاني ـ ٩ـ٢١) وقد تبع هذا التدهور تحلل كامل فقد كانت السنوات الاربعون قبل وبعد عام ٢٠٠ عهد اضطراب شديد في الادب وعهد بحث عن اسلوب جديد . اذ كانوا ينتقلون وبسرعة من اسلوب الى اسلوب ومن صيغة الى صيغة . قال الجاحظ (البيان ٢ : ١٦٤) لايعتبر الراوي في وقته راوية اذا لم يحفظ قصائد المجانين واللصوص والعشاق واشعار الرجز القصيرة عند البدو(٨) والاشعار المنصفة ، ثم وجدوا ذلك مملا فتمسكوا بالنوادر والمقاطع والحكم والاقوال المأثورة والمختارات البراقة ثم انقض كل شيء على الشعر الوجداني العاطفي للعباس بن الاحنف(٩) الى ان جاء خلف الاحمر بنصيب البدر

في الصيغة(١٠) وارتد كل شيء عن ابن الاحنف . وما كاد خلف يجمع كل شيء باعتناء حتى نسي الجميع فضائله وجلسوا ينصتون الى النحاة ولا يهتمون الا بالقصيدة ذات التعبير النادر(١١) والمعنى الدقيق الذي يحتاج الى تأويل وكذلك بالقصيدة ذات التركيب الممنع ، وهذا يعني : ان الشعر كان متوقفا تماما بينما كانت الطريق مفتوحة للنثر وكان الخطيب دائما خصما للشاعر والخرافة القائلة بان في العائلة لا يمكن ان يصبح الصغير خطيبا قبل ان يموت الخطيب الكبير تبرهن على ان الخطيب نفسه يشارك في رسم الهالة الالهية حوله (الاغاني ١٨ : ١٧٣) ويقول البيان (١ : ١٨) انه ارتفع عندما انحط الاخر . ان اسباب النمو الأدبي للنثر كثيرة ، فالتدريس الفني للخطيب (ابحاث كولد زهر – ١ – ٦٦ والصفحة التي تليها) الا تقوية الكلام التي يرجعها الفهرست بصورة رئيسية الى حركة المعتزلة (W. Z. K. M – ٤) – ص ٢١٧ والصفحات التي تليها) والاسطورة التي رعاها واهتم بها القاص والتي تسلق عليها فن الرواية(١٢) ، وشكل الحكومة البيروقراطية بماثوراته(١٣) المغاير تماما للنظام الاقطاعي الاموي ، ولكن الاخلاص المألوف آنذاك والذي كان يبدأ عادة بالاشياء الصغيرة بدلا من المتوسطة وكذلك الاهتمام بالمحيط هما من اهم عوامل نمو الادب النثري وكان الاخلاص يظهر على شكل سرور وانبساط عند مختلف طبقات الشعب .

صحيح ان لهارون رغبة في مرددات الملاحين والبنائين والسقائين ولكنها كانت على الاغلب رغبة السادة الكبار من رجال البلاط ويتمثل ذلك في الاديب الذي جلس على احد جسور بغداد واخذ يدون حديث المارة (ورد ذكره في فهرس ابواب كتاب الاغاني) ولكن « علم نفس الجماعات » قام بعمله مسبقا ، فابعد الادب عن العنصرية باتجاه التصنيف الاجتماعي وفي نفس المعنى توجد رسالة في فصول الجاحظ (لندن . شرقيات – ٣١٢٨) كتبها الجاحظ نفسه الى المعتصم ولكنها لم تصل الى الخليفة لاسباب لم يود المؤلف التطرق اليها . وتعتبر هذه الرسالة مهمة جدا من الناحية الموضوعية وجاء على وجه الورقة (٨٢) ما يلي : لا يتعلق الامر بالعرق ، بل ان كل حلاق مهما يكن اصله وموطنه يحب عرق التمر وكل رقاع وسماك ونخاس وحائك مهما يكن اصله وموطنه فهو احقر ما خلق الله في الحياة العامة . ان الاسم الذي يتعلق به هذا التعبير هو اسم الجاحظ ، فلا يقرأ المرء غير ديوان اوصاف انطبقات في طراز المجالس ١ ص ٦٧ والصفحات التي تليها(١٤)) كل شيء ثان ، متما ومهما بالنسبة له ابتداء من بني هاشم (للحصري مقالة حول هذا الموضوع . العقد – ١ – ص ٥٦ والصفحة التي تليها) الى قوامي المدارس (المستطرف ٢ – ١٩٩) والصفحة التي تليها وكان قوامو المدارس اكثر اهمية من الاوائل (بني هاشم) . لقد كان طفلا مدللا حقيقيا(١٥) اذ اصبح ادبه في متناول الجميع كفلسفة سقراط القبيح(١٦) وبنزول ادبه الى الشارع حصلت لغته على دم حار ونشوة وديناميكية .

وهكذا يعود النثر الحضري الجديد المتنت بعض الشيء والمطول ذا حيوية وبارعا وملبئا بجيد المعاني(١٧) وهذا ما كان يعرفه الثعالبي عندما اطلق على انجاحظ اسم (ابو النثر) (اليتيمة ٣ : ٢٣٨) وهذا ما عرفه ابن العميد مستشار ركن الدولة وواحد من اكبر كتاب النثر في القرن الرابع(١٨) ، عندما كان يسال كل من يريد ان يختبره عن رايه ببغداد والجاحظ (لطائف المعارف ص ١٠٥ ياقوت ١ : ٦٨٦) ، حتى انه سمي بالجاحظ الثاني (اليتيمة ٣ : ٣) ولهذا السبب اطلق الهمداني اسمه على احدى مقاماته واستطاع ابن عرب شاه وهو من المتاخرين ان يستغل لعبة الكلمة القديمة « كنية البحر ابو الجاحظ » (عمرو بن بحر) (فاكهة الخلفاء ، ص ٢٥) .

يبدو ان المدرسة القديمة قد شعرت بالهزة القادمة ولهذا ثبتت في القرن الثالث اهراماتها في المؤلفات الرائعة التي وضعها ابن قتيبة(١٩) والمبرد والبلاذري والطبري – حتى ان العقد قام بسرقة خزانات الجاحظ بالاضافة الى غزواته على ابن قتيبة . ان هذا الاكتشاف الحاصل من قبل ذوي الخبرة اثار الاهتمام الفضولي بالعالم البعيد واخذت مواد المقارنة تصب من جميع الجهات لفتح الافاق . لقد حكى الجاحظ عن الزنجي الذي قلد كل الشعوب المعروفة (البيان – ١ – ٣١) ومثل زميله المتاخر المغازلي بين يدي الخليفة المعتضد (المسعودي ٨ : ١٦١) وكما يقول لنا كتاب (عجائب الهند) فقد كانوا يرسلون الى الخليفة الكتب الضخمة في مختلف مجالات المغامرة بينما لم يكن يخطر من قبل على بال احد ان مثل هذه الامور ستجد عند البلاط اهتماما .

فمن فهرس عجائب القصور الذي عرض على الاغريق في عام ٣٠٥ تظهر اشياء تنطوي على

اكثر من التبجح العادي حتى ان المسعودي يذهب في عام ٣٠٤ الى الصين ويذهب ابن فضلان الى روسيا في عام ٣٠٩ . كان ذلك الوقت حسبما جاء في عجائب الهند العصر الذهبي للبحارة المسلمين المغامرين ومن ثم فان كتاب « مغامرات البحار » المدون بجدية لم يكن ممكنا في السابق ولم نستطع بعد ان نلاحق بالتمام كيف تطور الادب الرفيع في هذا الوقت الجديد .

فالخوارزمي يأتي بفهرس المؤلفات الادبية والمثالية على الاقل بالنسبة لاتجاهه (الرسائل ص ـ ٣٦) والتي تظهر كما تظهر رسائله بانه بقدر ما كان ممكنا في ذلك الوقت رجلا من رجال المدرسة القديمة ـ انه استاذ علم البلاغة الجمالي ـ كان طريق الجاحظ يؤدي الى الهمذاني وبينهما يقف الاحنف (من عكبرا) شاعر المكدين الاكبر حسبما جاء في اليتيمة (٢ : ٢٠٥) وقام باتمام الموضوع الذي بداه الجاحظ ; كتاب البخلاء ـ ص ٤٧ والصفحات التي تليها) وعلى ما يبدو انه اوجد الطراز الذي اوصل الهمذاني الى شكل جديد واعطى اهتماماته الى الرحالة ابي دلف الذي كتب قصيدته الساسانية والتي مده الاحنف بمادتها (اليتيمة ـ٣ـ١٧٥) وتبعه الهمذاني في المقامة الرصافية (يقرأ ذلك فقط في طبعة بومباي او القسطنطينية) ولكنه تجنب ان يعيد فيها ما كان واردا ولكن اقتباسه لبعض ابيات ابي دلف (اليتيمة ـ٣ـ١٧٦) جعله يشعر بانه من اتباعه . وقف الجاحظ والاحنف وابو دلف الى جانب الشكل الواسع الجديد للمقامة المجموعة وان كانت ما تزال مفككة ـ على ما يبدو وقد نشأت مختارة من ٤٠٠ مقولة مدرسية من الهمذاني تدور حول شخص واحد . ان المعلم الكبير لهذه الحضارة الجديدة والذي قدم بحرية وثقة معطيات واسعة وحكيمة مصحوبة بالفطرة لما هو حي وبالنظرة للشكل ، هو ابن الحجاج ... انه احد القلائل في الادب العالمي على الاطلاق ممن جمعوا بين الحماس والروعة وكل ذلك كان بلغة تمتلك طلاقة اسلوب الجاحظ وتكتسب شكلا قويا بعد مرن من التمرين وغلفها برداء الحياة اليومية الملون (مصبوغة بصبغة الحياة اليومية)(٢٠) .

لقد اراد ابن الحجاج ان يمرغ اسلوب الجاحظ في الوحل وفي عمله هذا تلبية قوية لمساعي سابقيه ، حيث ان البدايات الاولى للشعر الحضري عند بشار بن برد كانت تتعامل بالفحش كمادة وقيمة وما تزال اللغة البدوية اطهر بكثير من لغة الحضر (Landberg proverb P. 16)

ويشكل هذا الفرق القمة في قصة ابنة القاضي الفنية في البصرة والبدوي الذي اراد ان يتوج اسمه بها (ان يذهب نبله بها) (العقد ٣ : ٢١٦ ؛ انها احدى اروع القصص التي عرفنها . ان اهل المجون(٢١) لابد انهم كانوا طبقة مستقلة متميزة تابعة لجماعة اردشير السكيرة (قطب السرور ؛ ظهر الورقة ١٠٥ والورقة التي تليها) . اقام ابو العبر في عصر المتوكل مدرسة للشعر في سامراء حيث يلتقي المجان ويستنسخون (الاغاني ـ٢٠ـ ٩١ ؛ وتظهر اليتيمة ان لابن الحجاج الكثير من المرافقين على هذا الدرب وربما يمكن ان يذكر بعده « صريع الدلاء البغدادي » (المتوفي في ٤١٢م) والذي كتب قصيدة طويلة باسلوب ماجن (الدميري ـ٢ـ٢٢٣) ؛ لقد حافظ هذا الاسلوب الذي له كغيره وقته الخاص به على نفسه كرد فعل للشعر المغالي بالفحش . وهكذا فرح ابو نواس والذي يعتبر بجانب المتاخرين ماجنا بسيطا باغاظته لابن الاحنف (حيث سخر بشعره الوجداني العاطفي ـ مصارع العشاق ؛ ص ٣٠٦) وفرح ابن الحجاج باغاظة البستي الورع حيث قال ابن الحجاج (ص ـ ٢) .

بشرين هرون حين يسمعها
يعجب منها ويضحك البستي
يا سيدي فاستمع لنادرة
غريبة قد مشى بها وقتي

واكثر اصابة هو ما تعكسه نادرة العاشق الذي يتوسل بالرسائل وفق الاسلوب القديم من محبوبته ان تظهر له ولو في الحلم فترد عليه بانها تاتيه بنفسها حية بدرهمين (ابو القاسم ص ٧٣ (

ارشديني الى خيالك حتى
اتقاضاه موعدا لي عليه

قال فقالت لجاريته : ويحك قولي لهذا الرقيع يا مدبر انا اعمل بك ما هو خير لك من ان يطرقك خيالي احمل دينارين في قرطاس حتى اجيئك انا بنفسي .. الخ » .

ان شاعرنا ابو المطهر محمد بن احمد الازدي هو من اتباع مدرسة ابن الحجاج ويستشهد في المقدمة به وبالجاحظ ولم يذكر اي مرجع ادبي اسمه او اسم كتابه . ولما كان في نهاية كتابه (ص ١٠٥ والصفحات التي تليها) يهجو بغداد ويمدح اصفهان فانه يكتب اذا لاصفهان وهذا

يعني أنه عاش في اصفهان . وليس من السهل تحديد وقت التاليف على الرغم من ان بعض التواريخ قد وردت في الكتاب . ففي ص ٨٧ يحصي ابو القاسم جواري بغداد في عام ٣٠٦ ..

« ولو ذكرت هذه الاطراب من المستمعين والاغاني من الرجال والصبيان والجواري والحرائر لطال ومل وكنت كالمزاحم لمن صنف كتاب الغناء والالحان ولعهدي بهذا الحديث سنة ست وثلثمائة وقد احصيت انا وجماعة في الكرخ اربعمائة وستين جارية في الجانبين وعشر حرائر وخمسة وسبعين من الصبيان البدور يجمعون من الحسن والحذق والظرف ما يفوت حدود الوصف هذا سوى من كنا لا نظفر بهم ولا نصل اليهم لعزتهم وحرسهم ورقبائهم وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء والضرب الا اذا نشط في وقت او ثمل في حال وخلع العذار في هوى قد حالفه واضناه وترنم واوقع وهز راسه وصعد انفاسه واستكتم جلاسه وكشف حجابه وادعى الثقة بالحاضرين » .

وفي ص ٢٤ يذكر دار المعز التي بنيت في عام ٣٥٠ وفي ص ٢٢ يرد ذكر جامع براثا الذي هجر في عام ٤٥١ .

« ربي بحق امام صلى الضحى في براثا »

ووصف الباذنجان في ص ١٠٠ .

ويتذكر ابو القاسم في ص ٨٨ حفلة في قرية مع ابن الحجاج واصدقائه (بين عام ٣٦٦ وعام ٣٩١) وقد ورد في ص ٧٨ ذكر طرب ابي عبدالله المرزباني المتوفى في (٣٨٤) وفي صفحة ٧٩ جاء ذكر طرب القاضي بن صبر (المتوفى في عام ٣٨٨) وطرب قاضي القضاة ابن معروف (المتوفى في عام ٣٩٠) وفي صفحة ٨٠ ذكر طرب الشاعر ابن نباتة (المتوفى في عام ٤٠٥) وجاء ذكر طرب ابن غيلان البزاز (المتوفى في عام ٤٤٠) في صفحة ٨١ وفي هذا تناقض اذ لا يتطابق ما ورد ذكره عن عام ٣٠٦ بصورة معقولة مع ما ورد ذكره مؤخرا . لقد اخذ المؤلف مادته من مراجع اخرى عندما استنسخ ديوان الطرب ؛ ولكنه اراد عندما اخذ ذلك التاريخ ان يضع الحديث في القرن الرابع(٢٢) وتظهر قصص الطرب مستقاة على اى حال من احد الدواوين ويظهر من الرجوع الى الهمذاني ان تاليف الكتاب جاء بعد عام ٤٠٠ . كما وان نهاية عهد سلطة السلجوقيين في بغداد مع ما حدث من تبديلات في ذلك العصر لم يذكر عنها شيء ولم يمجد كذلك جامع براثا بعد اندثاره . فاذا كان ابو المطهر قد كتب في اصفهان في النصف الاول من القرن الخامس وان الباخرزي (المتوفى عام ٤٦٧) قد زار كاتبا في اصفهان يدعى ابو المطهر (الدمية – لندن ٩٩٩٤ وجه الورقة ٤ – ملحق ٢٢ – ٢٧٤ ظهر الورقة ٣) فلابد ان يكون هذا هو كاتبنا ، ويقال انه كتب بعد ذلك « طراز الذهب على وشاح الادب » ولكن الباخرزي يسكت عن هذه الحكاية .

تبين المقدمة القيمة ان ابا المطهر كان على يقين بانه قد اعطى للادب شكلا جديدا ويستشهد فقط بالقدوة العملية لابي ربويه الذي يحكي عنه الجاحظ ان التقليد مع المبالغة المضحكة قد استعمل فعلا في الثقافة العربية (وهو بالتاكيد احد الانتصارات القديمة لشخص على آخر) ياقوت – بوركات) لقد ادى فن النقل (من جيل الى جيل) القوي عند اللاهوتيين وعلماء فقه اللغة الذين ادخلوا كلمة حكاية في الادب بعد فترة قصيرة الى حمل المحاكاة على محمل الجد بينما بقي تاثيره في اوربا مضحكا دائما (وهكذا رويت كلمات الحجاج بصوته الخافت (عيون الاخبار ، بروكلمان ص – ١٢٩) واعيدت حكاية مغن وكانه حي (الاغاني – ٨ – ١٦٢) . كان التقليد يعتبر دائما تدريبا فنيا يسمى القائم به باسمه ويستمع اليه باهتمام يكاد يكون علميا . مثل ابي ربويه ومن ثم ابن المغازلي وفي القرن الرابع الشاعر الابيوردي (اليتيمة – ٣ – ١٤١ والصفحات التي تليها) ولدينا من لدن المؤرخين العرب الكثير مما يعكس صورة الزمن ولا يمكن التفكير بان مثل هذه الحكاية هي من الاعمال الفنية الادبية الا بعد ان يكون للحياة اليومية نصيب في الادب ، وهكذا تكون حكاية ابي المطهر(٢٢) قد وقعت في نهاية القرن الثاني عندما بدأ الادب العربي يغزو مملكة هذا العالم .

انتصرت مع الحريري المدرسة القديمة ثانية والتي كانت الى هذا الوقت ممثلة بالخوارزمي وابي العلاء ، فالمادة بالنسبة للحريري كانت فقط ذلك الخيط الرفيع جدا الذى يرقص عليه واذا قورن بالهمذاني يبدو كمن يعمل بلا كواليس . لقد انتقل ككاتب كلاسيكي على القرون اللاحقة ولم يفت الكاتب ان يذكر بفخر بان اداة الشاعر لم تكفه في عمله (مثل ابن الاثير المثل السائر – ص٥). لقد شكل ابو المطهر المادة في ادبه منذ بناء القصيدة بقوة تنظيمية هائلة حيث يقدم البطل اولا ثم يوصف وهذا ما لم يفكر به الهمذاني ، وهذه بداية ظاهرها ديني :

بسم الله الرحمن الرحيم كان هذا الرجل المحلى يعرف بابي ... الخ ثم يصفه مدحا وذما ...الخ ويصف عاداته واعماله ... الخ .. ص٢ والصفحات التي تليها ..

ثم يتم تغيير الموقف عن طريق ضحكة ضيف يتعرف من خلالها على الحاضرين بصورة سيئة كان يشتم جوانب المجتمع مثلا . وفي ص ١٧ يؤخذ الضيف نفسه بعين الاعتبار «فيقول صاحب الدار يا ابا القسم ما بقي في المجلس احد لم تذكره غيري فيقول يا سيدنا وما عسى ان اقول فيك الا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر احدكم من يخالل وكما قال الشاعر:

الى المرء لا تنظر بل انظر خليله

فكل امريء يصبو الى من يجانسه

من يكون هؤلاء السادة ندماؤه واصفياؤه واخلاءه ايش يقال فيه . وحياتي ما الف التاماني منلكم : في السماء ملك اسمه العمندر يؤلف بين الاشكال أبصر بعضهم ببغاء وغرابا وبوما في موضع واحد فعجب من اتفاقهم وتأملهم فاذا الغراب اعور والببغاء اعرج والبوم مكسور الجناح فقال انما جمعتكم العاهة ويحدق النظر الى اثنين منهم وهما صديقان فيقول لا اله الا الله ينضاف الشوم كما ينضاف البصل الى الثوم اطلع القرد في الكنيف قال ما تصلح هذه المرآة الا لهذا الوجه ... الخ » .

وتنهي محاكاة الواصف الوقور القسم الاول بعد ان تقاطع بمفاخرة قصيرة عن طريق تهكم احد السامعين :

« فيضحك واحد ممن في المجلس فيقول ذبحه ذابحه .. الخ نبشت القبر نصبت المجانيق على الكعبة .. الخ يا مدبر من ايش تضحك انما قلت :

كل دجاجا وفراخا وجدا
واشو حملانا صفارا رضعا
واشرب الراح التي في دنها
شاهدت عادا ولاقت تبعا

ويبدأ القسم الثاني بشرب نخب اصفهان وهو عبارة عن مقارنة بين بغداد واصفهان تمتد من ص ٢١ الى ص ٩١ . وتعطي اللمسة الفنية الفرصة لوصف بغداد بالرقة والعذوبة ولدفع آلات الطرب الرئيسة في ذلك الزمان الى الأمام ولسلب الفضائل والتعصب انواع الانتشار . انها المناظرة القديمة وكيف انتقلت من القبائل الى المدن كما عند ابن الفقيه ــ ١٦٧ والصفحات التي تليها (والاغاني ٥ ــ ١٥٧) بين الكوفة والبصره ; ابن الفقيه ــ ٢٢٧ والصفحات التي تليها وياقوت : ٤ ــ ٩٨٤ والصفحة التي بعدها) بين همدان والعراق (المقدمة ــ ١١٧) بين بغداد والبصره ، حلبة الكميت ــ ٩٦) بين العراق واصفهان(٢٤).

كانت اصفهان تسمى في القرن الثالث بغداد الثانية (ابن الفقيه ــ ٢٥٤) ففي عام ٣٢٠ تجمع الفيمون في بغداد واعاقوا الخطبة فيالجامع الغربي وضربوا المحافل في قصر الخلافة بالحجارة وانزلوا الخطيب من على ظهر حماره وهو في طريقه الى البيت واخذوا منه عمامته (حمزة ــ ٢١٥) .

ثم يسال ابو القاسم عن الطعام وبه يبدا القسم الثالث : انه حفلة السمر تتخلل طعام الفطور المختصر المصحوب بكلمات الاسكندري الوقحة (مقامات الهمداني ــ ٨٩ والصفحة التي بعدها) والوجبة الاساسية لعبة شطرنج هزليه وتصحب كل نوع من الطعام في الوجبة الرئيسية نادرة لطيفة وتعطي جرعة ماء المناسبة الاولى للتفكير باصفهان بصورة احسن [ص ١٠٢] ويستدعي في خلال ذلك ماء ويشربه ويقول والله اني اظلم اهل اصفهان في احوال : عمر الله اصفهان ماؤها الماء العذب وجليدها البلور الرطب وفي خلال ذلك يكون الشيخ قد انشغل بالسؤال عن اثنين من اهل بغداد بتحفظ بلاغي محبب .. ثم تبدا المحاورة المتضاربة بما تشتهر به بغداد من الخمور المنتقة من عرق الدندى الى الداذى المركز وعن المصطلحات العجيبة عند السباحين والملاحين [ص ١٠٧ــ١٠٨] فيقال له في اثناء المحاورة يا ابا القاسم تعرف شيئا من السباحة فيقول يا احمق وسوادي لا يحسن ان يركب البقر وتركي لا يحسن ان ينزع فيالقوس انا والله اسبح من الضفدع ومن التنين اعرف من السباحة انواعا لم يحسنها قط سمك ولا بط ... الخ » . ينتقل بعدها الى سكة الجوهري حيث يسكن في بغداد وعن الوصف المختصر لادارته البيتية الاخلاقية وعن سعر الخمر ومدح المضيف الذي سرعان ما يتراجع عن مدحه له بصوت خافت (ص ١١١).

« احمد الله على انعمه
قد انجز الدهر بها وعده
نلت الذي مازلت اغرى به
على طريق الفال مذ مده
والمن للمولى على عبده
في فعله لما اشترى عبده

ولا يزال يتلقاه بهذه المدائح التي ينبيء بها عن صدق الولاء وحسن العهد والعشرة والوفاء الى ان يتفرس في بعضهم سوء اعتقاد في هـذا الصاحب الذي يقرظه بامثال ذلك فيقول له سرا يا سيدنا من ذا ما هو الا طاعون في مجرى النفس ليتني حممت سنة ولم اعرفه ما هو والله يا سيدنا الا كما قال الشاعر :

انفاسه كذب وعقد ضميره
دجل وطلعته سقام الروح »

ومن ثم ينصت الى جاره على يمينه ويمدح مجالسته ثم يذمه عند الذي على يساره .. (ويتكرر مدح الحديث وذمه عدة مرات) (١٣١ والصفحات التي تليها) الى ان تسكت الموسيقى وتحصل الطنبوري والعواد والمغنية على الثناء المعتاد (١١٥ والصفحات التي تليها) واخيرا تاتي نوبة العربدة وعندما تفعل الخمرة فعلها ويقترب ابو القاسم من المغنية وبيده قدح شراب وهو يلاطفها بابيات من الغزل ولما يضحك عليه الغرب منها يمطره الشيخ بوابل من سباب القرن الرابع المختار لكونه رقيبا مفسدا للحب (ص ٨١ والصفحات التي تليها) وغالبا ما تؤخذ المادة من الخوارزمي والهمداني وابن الحجاج كما تظهر الهوامش لقد قام هؤلاء الثلاثة بتطوير هجاء القرن الرابع . يراجع المستطرف (٢ : ٣) وعند ابن بسام المتوفي في عام ٣٠٢ يمكن البحث عن الانتقال من هجاء القرن الثالث الذي وصف تطوره/٢٥) كولدتسيهر (المستشرق الهنغاري) (البند ـ ٤٦ ZDMG) .

يود الحاضرون الاسراع بتصعيد النشوة عنده فيزيدون له من الشراب ليتخلصوا منه فيلاحظ الهدف حيث يترشح له اكثر فاكثر ابو قفوا فيغني ويرقص ويترنح الى ان يتعب المغني ويستحثه ليجيزي ابو القاسم ذلك بالشكل القديم في سب المغنين (ص ـ ١٣٤ والصفحة التي تليها) .....

مـن اسـتخف بقـدري
فـسم يـا مخـنث عني

وعندما بدافع ثالث يبدأ هجاء قاس مع فخر زائد (ص ـ ١٣٧ والصفحة التي تليها) (إليّ بعينيك واصغ الي باذنيك لا تحرك يديك ولا منكبيك نبه مستضعفا واولئك اصدقائي اكثر من خوص البصرة وبلوط الجبل وخردل مصر وعدس الشام وحصا الجزيرة وشوك القاطول وحنطة الموصل ونبق الاهواز وزيتون فلسطين .. الخ

لم يكن تتفخر في خصومات الجاهلية مكانة دينية الى جانب الهجاء وقد انحصر نعله بصورة رئيسة في كسب العروس (الاغاني ـ ١٨ ـ ١٦٦) . ان الانعطاف نحو الخيال الغريب الشاذ جاء عن طريق وعاظ الصدقة والادباء المتجولين كما يبين كتاب البخلاء في (ص ٤٩ ـ والصفحات التي تليهما) حيث كان المواطنون رحلا وتنقل معهم الاسفار والاخبار بسرعة الحصان الجامح .

ينعكس كل رد الفعل ضد المجتمع الاموي في (ارلندو) العاشق المتغضب وفي (رابلياس) في قصص الفرسان [ارلـندو فوريوزو ـ ديوان الشاعر الايطالي : اروستو رابلياس كاتب فرنسي نقد الحكم بنوادره ـ ١٤٩٤] . كان القرن الرابع مرة غريبا عن هـذا النوع من السخرية . فالخوارزمي يستعمل عباراتها مبتسما (الرسائل ص ـ ١٠٦) والعجوز السكران الذي يرتعش امامه الاسكندر ونمرود الشيطان والذي يتبجح باصدقائه ذوي الاسماء غير المحببة كالمكاري والارمني والصقلبي كان بالنسبة لابي المطهر تمثيلا هزليا .

ان نقل المفاضلة الذي تم اولا في القرن الثالث على المادة والمعنى والذي اعتاد ان يتعامل مع التقاليد في استعمال الاضداد كالربيع والخريف . البخل والكرم . الشعر والنثر لم تتوضح الا عن طريق تاثير مذهب التوفيق اليوناني وخلال ذلك يكون ابو القاسم قد غط بفعل الخمرة في نوم عميق واول شيء يسمعه المرء في الصباح الثاني هو صلاته ثم يبدأ بغنائه الاستهلالي ويأخذ طيلسانه ويقول : السلام عليكم ..

هنا تظهر ايضا بوضوح المقولة القائلة « لا تكون البداية في المادة بارعة » فالفن القصصي العربي لم يعرف نهاية هذا الوقت بغير المنولوج والحوار . فبينما يأخذ الهمداني احيانا نماذج قصيرة للمحادثات العامة يعذب ابو المطهر نفسه بشدة ليطرح اسئلة وليضع محادثة . انه يأخذ احيانا مع العبارة ملحقها الذي لا يلائمها مثل مقارنة ابن الرومي ص ـ ١٠٠ . وحيث وجب عليه تغيير المنشأ بسبب العلاقة المحلية فانه فشل في تحقيق ما يمده بصورة غير مرضية مثلما ورد في ص ٥٩ . وفي ص ٢١ حيث ايد اصفهان في القصيدة الساخرة بينما يصبح الشيخ العجوز والذي لابد ان يكون نموذجا للبغدادي ، في البيت الثالث اصفهانيا بالولادة ......

يا سائلي عن اصفهان واهلها
حكم الزمان بنحسهم وخرابها
شبانها ككهولها وكهولها
كشيوخها وشيوخها ككلابها

وبالعكس من ذلك فلابد من الاعتراف بان الشاعر قاوم ظاهرة التبغدد التي جاءت اليه بالتأكيد بعد دراسة العكبري وابي دلف . كان من الممكن ان يلقى تاليفه ترحابا عند علماء اللغة ولكنه اصبح غير ادبي حيث ان الادب والشعب لا يمكن ان يلتقيا الا وفق قوانينهما وذلك اهم ما في تاريخ الادب . ان بغداد ابي القاسم ليست بغداد المقدسي (ص ـ ١١٩) الذي قال ان بغداد في طريقها الى السقوط (ص ـ ١٩٣) وعلى الرغم من ورود ذكر المستشفى فلابد انه قد راى المدينة قبل ان تزدهر على يد عضد الدولة (ابن الاثير ـ ٥١٨) . لقد كان المرض كامنا ثم انفجر بعدئذ وكان من الممكن ان يقضي على حروب الشوارع المستمرة منذ عام ٣٠٨ ولكن الشؤم كان في اسكان معز الدولة لاتباعه وجنوده في العراق وهؤلاء نشروا الفوضى ولم يدعنوا لموظفي الدولة (ابن الاثير ـ ٨ ـ ٣٤٢) وهكذا اصبحت المدينة معتمدة كليا على الواردات وعندما حوصرت المدينة في اوقات الحرب بيع لاول مرة كل شيء في العاصمة من اجل لقمة العيش (المصدر نفسه، ص ٣٤٩) وابتدات في نفس الوقت الضائقة المالية بسبب تناقص الدخولات العراقية ولهذا بيع كرسي القاضي لاول مرة في عام ٣٥٠ وتبعه بيع شرطة المدينة والبلاط (شرطه وحسبه ـ ص ٣٩٩) ولكن العواقب ظهرت اولا في العصر السلجوقي . يظهر ابو المطهر المدينة الكبيرة البراقة المتهورة مع غواية محلات الموضة (مودة) وفتاتي الموضة (كذلك مقامات الهمداني ـ ص ـ ١٠٥) والمحضيات المستهترات تارة والعاطفيات تارة اخرى واللواتي يتم تصديرهن حتى الى مصر . (الاضداد الجاحظ ـ ١٨ ـ ومصارع العشاق ص ١٠٨) .

ان كلام النساء في كتاب لب اللباب وفي كتاب الاضداد للجاحظ يظهر بالمقارنة مع ما في كتاب ابي المطهر في ثقافة هذا الحقل الخاص(٢١) . فالاسلام لا يتحدث بالسوء عن عاصمته . واذا كان ابن جبير يشكو غرور البغداديين فان ذلك لا يعني كثيرا بالنسبة لفخره المتعصب .ويرى ياقوت ـ١ـ٦٩٠ ان بغداد عاصمة الاغنياء بينما يجد الفقير نفسه فيها كالقرآن في بيت الكافر .

ان اصدار مثل هذا الكراس من مخطوطة فريدة متاخرة يحتاج الى الثقة فيجب قبل كل شيء ان يعامل كتاب الادب الرفيع في القرن الخامس بطريقة تختلف تماما عن التي يعامل بها كتاب القرن الثالث او الكتاب اللغوي .

ولوصف مخطوطة الفهرس لابد من القول ان توابع ٥٢ ؛ و ٥٣ مربوطة ومرقمة خطأ وان بعض العبارات تشكل تشويشا (لغزا) لا يمكن حله الا بصعوبة بالغة جدا وبهذا اسعدني كثيراً مساعدة البروفسور هورن وانا مدين ايضا الى السيد البارون فون روزن لتفضله بوضع نسخة المخطوطات تحت تصرفي .

الهوامش

(١) كانت الهندسة المعمارية من المواضيع المحببة في المحادثة (قارن « المقامة الوصلية للهمداني » و « قواعد الموائد » مخطوطة الفاتيكان ، رقم ٣٥٦ ، ظهر الورقة)١٧) من الناس من يدخل «الدار فيبتدئ» بالهندسة فيقول كان المجلس يصلح بابه من هنا والايوان ان يكون مقابلا لهذا الباب وهذه الخزانة ما كان يليق ان تكون ها هنا .

(يبرز كتاب العيون خصائص عصور الخلفاء ، في نهاية القرن الاول : ففي عصر الوليد تكلم الناس على البناء وفي عصر سليمان على النساء وفي عصر عمر الثاني على الدين Fragm. hist. S. 11) .

(٢) ان ما يذكره (قرب السمارية) يناسب بصورة خاصة ما هو اشبه بالملامح (قطب السرور ـ فينا ـ الجزء الثاني ـ ظهر الورقة ١٩٦٠) .

(٣) ومع ذلك فهو يحمل هذا اللقب بحق . انه رائد الواقعية في الحياة الحضرية .

(٤) الدولة هي الانقلاب ، والثورة و « الواحد بعد الآخر » وتمنى في احدى قصائد العصر الاموي (الاغاني ١٠ : ١١٣) سخط الافخاذ المحكومة على العائلة الحاكمة . ولم يبد

ابن المقفع مع الاسف اي رأي (الدرة اليتيمة ، بيروت ، ص ١٤) : « اذا كان سلطانك عند جدة دولة ... » . ويبدو ان هذه الكلمة كانت مصطلح الدعاية البدوية القديمة (انظر : بيت ابي دلامة في عيون الاخبار ، بروكلمان ، ص ٤٤) وعند ابن ابي اصيبعة (٢ - ٢٧) لذكره كتاب اخبار الدولة كانت بداية حكم عبدالله المهدي . لقد عمل دعاة العباسيين كما هو معروف بمثل هذه المصطلحات وهكذا فان الدولة هي انتفاضتهم او كما نسمي في الاغاني (٣ : ٥٨) في موضوع قديم : دولة اهل خراسان . وفي خراسان تم تحديد معنى الدولة ويستشهد ابن الفقيه (٥ : ٦٥) بكتاب الدولة العباسية وامراء خراسان - وتسمى باب خراسان في بغداد استنادا الى المسعودي في وقت سابق بباب الدولة (ص - ٢٤ (La Strange Bagd.)
وانه لمعروف ان ابا مسلم غالبا كان يسمى بصاحب الدولة وصاحب الدعوة ويشهد البيان (١ : ١٢٨ و ١٢٩) بانه عالم بالدولة وبرجال الدعوة . وبذلك تكون الدولة مرادفة لهذه « الدعوة » في رسائل الجاحظ (لندن ، رقم ٢١٢٨ الورقة ٦٤) « كهول من ابناء رجال الدولة » . انها تلك التي اسيء فهمها بعبارة (ابناء الدولة) كما في فهرست (WZKM - الجزء الرابع - ٢٠٤) حيث ان الراونديين الاوائل كان قد اطلق عليهم (ابناء الدولة) وهم يؤلفون بجانب الهاشميين في بغداد طبقة من النبلاء تهيمن على امور الدولة حتى قيل (المصدر نفسه ص ٢٠٦) : في مدينة بغداد بيت الخلافة وفيها بقية رجال الدعوة . ان اول تحوير لمعنى الدولة وجدته في الاغاني (١٥ : ٣٦) في صيغة : دولة برمك وفي (عيون الاخبار ، بروكلمن ، ص ١٣١ حيث قيل للخليفة المامون : انا سليل نعمتك وابن دولتك) وبنفس المعنى في نفس الوقت (الاغاني ١٨ : ٥ و ١٦ : ٣١ و ٧٢) والكندي (الابحاث الشرقية ، ص ٢٧٧) : ونقل الملك والدولة الى العراق . اذا كان المرجع صحيحا وقد يدور الحديث على الدولة الاموية ولهذا كان ابو مسلم ناقد الدولة (حمزة الاصفهاني ، ص ٢١٨) . اما الدولة اليوم فتعني حكومة وفي اليمن سمي والي المدينة في عصر نيبور بالدولة
- (Kop. 1774, P. 295

(٥) كان الهاشميون يتواجدون سوية في مقر باب البصرة (ابن الاثير ٩ : ١٤٦) واعلنوا معارضتهم الدائمة لدار الخلافة ولاهل الكرخ (٩ : ٢٨٦) حتى ان ياقوت ذكر تحت كلمة (كرخ بغداد) انه كان هنا بعض الطوائف لم تكن لهم اية جدوى في الحياة الفكرية حتى ان المنصور قد شكى قلة احتفالهم بالادب (الاغاني ٦:٦١) وكذلك (الحجازيون المقيمون في سامراء بامر من المتوكل) لم يقدموا ايضا شيئا يذكر . وهكذا كان البلاط المعطش للادب ضعيفا على الرغم من ان الشعراء في عصر هارون الرشيد كانوا يملكون رحبة خاصة في طاق اسماء (ياقوت : ٣ - ٤٨٩) وكان الكثير منهم يجتمعون في حلقات خاصة في الكرخ (٩ : ١١٢) وخصصوا ساعات الغناء والخلاعة عند النخاسين الكبار (الاغاني ٢٠ : ٤٢) .

(٦) نشهد على ذلك ، في عام ٤٠٠ ، رسالة المعري (ص ٦٩ وما بعدها) .

(٧) للريف معنى عند الشرقيين لا يتعدى كونه قطعة صغيرة بحجم السجادة : واجهة محدودة بدون ساحة . وهذا يمكن الوقوف عليه في كتاب الديارات للشابشتي .

(٨) وكانت تغنى في الحرب والحداء عند المفاخرة (الاغاني ١٨ : ١٦٤) .

(٩) سخر منه ابو نواس (مصارع العشاق ص ٢٠٦) .

(١٠) رواية في ديوان ابي نواس (ظهر الصفحة ٢٥ - ٢٢٢٥ Gotha) جاء الشاعر الى خلف الاحمر ليتعلم عنده الشعر ، فحفظه في بادىء الامر الف قصيدة بدوية وطلب منه ان ينساها ثم سمح له ان يبدأ بنفسه .

(١١) استعمل راس المعتزلة البصري ابن ابي داؤد (المتوفى في عام ٢٤٠) الاغراب حتى في اسم وكنية اطفاله المديدين (الفهرست WZKM ٤ - ٢٢٢) .

(١٢) وفي اسطورة « ولد النبي » يرد موضوع في قصة علاء الدين يشبه ما جاء في قصص الانبياء (القاهرة - ١٣٠٨ - ص ٢٦١) .

(١٣) ان الرسالة حسبما هو معترف عليه هي من اصل فارسي (سالم ٣٦٨ .) اما مجموعة رسائل المستشار الاموي عبدالحميد التي ذكرها المسعودي فكانت تزويرا وغالبا ما يقيم التأثير الفارسي على الادب بصورة معكوسة فتشذيب الاسلوب المشبوه غير صحيح وتبدو الرسائل وكأنها واقعة تحت تأثير ان اسلوب ابن المقفع طولي وبكل بساطة ضد انجازات « بني الاهتم » القدماء وكذلك تبدو رسائل ابي يوسف الكندي فهي تأخذ مع الشكل الصيغة الجامدة من هناك .

(١٤) استعمل هذا مؤخرا في المحسنات البلاغية - الحصري (العقد ١ : ١١٢ والصفحات التي تليها) .

(١٥) وحسبما جاء في غرر الفوائد للمرتضى (طهران ١٢٧٢ - لم استطع الاستشهاد الا بنسخة المكتبة غير المرقمة) كان ابو نواس شاعره المحبب . اما الوى سابقة فهو عدي بن زيد الذي لم يؤخذ به كليا كحضري (الاغاني - ١٥ - ١٧ و ١٧ - ١٢) . لم يعر للفلاحين اهتماما وهؤلاء ظهروا في الادب اولا في كتاب « هز القحوف » .

(١٦) هكذا كان تصرفه تجاه السلف في كتاب البخلاء متميزا، رغم كل حبه للكتب وجمعها (الفهرست ص ـ ١١٦ وغرر الفوائد) .

(١٧) اشتهر الجاحظ بانه صانع القول البارع (اللاحقة الظريفة) (الاغاني ١٨ : ٥٤) .

(١٨) حسب كتاب المرقصات (ص ٨) استاذ ابن عباد .

(١٩) الذي اقترف عند اختيار الشعراء ما سمي اخيرا في مواجهة الموصة بمغمز (انتهازي) (نولدكه ـ محاضرة ص ـ ٦ ، البيان ـ ٢ ـ ص ١٦٤) .

(٢٠) يعتبر ابو العلاء بجانبه نموذجا للمتأقلم (بالاضافة الى ذلك فقد انتقل رواد مدرسة الصنوبري الشعرية الى مدرسة المهلبي . انهم الفنانون الذين يمكن ان يصبحوا في ، حضارة اخرى ، رساميه .

(٢١) الترجمة الحرة لكلمة ماجن هي في احسن الاحوال تقابلها في الفرنسية كلمة (الفاجر) ومعناها في الاغاني (٥ : ١٧٥) متهور ، وهي في الاغاني (٤ : ٦٤) تعني بدون حكم سابق متساو في الحقوق . وكذلك في ديوان مسلم ص ١٤١ و (اخبار الهند ، ص ١٤٩) فالماجن هو المازح او الهازل او المرح بكل ما تعنيه الكلمة .

(٢٢) حسبما جاء في الصفحة الاولى : في الوقت الذي كان فيه هو في بغداد ؛ يذكر ابن الحجاج في ديوانه اسم مطهر من بين اصدقائه انني اجد على اي حال مثلا آخر لاختصار الاسماء في بيت الشعر بمثل هذه الصورة :

وصلوا بمولاهم ركوعا وسجدا
يوم ابن هرون بهم والمطهر

(٢٣) العنوان لا يكون « تاريخ ابي القاسم » بل « مأثورات ابي القاسم » ... الخ . يؤخذ في الالمانية المعنى المجازي للعنوان فيكون « ابو القاسم ـ صورة اخلاق بغدادية . »

(٢٤) كلها وضعت اما سجعا او في قافية بينما كانت المناظرة الشخصية القديمة بلا قافية . نقطة التبلور : الحسن ضد عمرو بن العاص ومروان في بلاط معاوية (مثلا الجاحظ ـ كتاب الاضداد ـ ١٤٠ وما بعدها) . لقد كانت بلا قافية نهائيا .

(٢٥) جاءت ملاحظات خلف ربما خلف الاحمر بصورة غير مرتبة واليه ترجع المقامات (رقم ـ ٤ ـ ١٢٧) وكذلك ابن بسام المتوفى في عام (٣٠٢م) وللمقارنة يرجع الى ابن خلكان ، طبعة باريس (سلين ـ ٢ ـ ٣٠٤) .

(٢٦) كما جاء في ص ٧٥ كانت صناعة مثل هذه النوادر عند النخاس .

بغداد وضعت للخط العربي مقاييسه

بقلم
محمود شكر الجبوري
وزارة التربية ـ بغداد

الكتابة العربية قبل الاسلام وبعد ظهوره

قيل ان الخط العربي اصله من اليمن وهو (المسند الحميري) الذي كتبت فيه دولتا سبأ وحمير ودونت به الكتابات المعينية والسبأية والحميرية .

وقيل ان اصل الخط العربي من الحميرة والانبار وهو الخط المسمى بالحميري او الانباري . والذي نشأ في ارض العراق .

وقيل ان اصل الخط العربي هو (الفنيقي) نسبة الى فنيقيا ارض كنعان .

ورويت عن الاصل آراء كثيرة واخيرا قبل استنادا على ما اعتمد عليه المؤرخون والباحثون من خلال نقوش الاحجار التي وجدت في الاثار النبطية والتي تبين (ان الخط النبطي اخذ عن الخط الارامي والخط العربي اخذ عن الخط النبطي بدليل وجوده في كتابات المصاحف التي دونت في العهد الاول للاسلام) .

(ونحن هنا لا نريد الخوض في بحث هذا الموضوع ، ربما يتطلب مجالا قد يطول فيه الكلام)

وقد وصلت الكتابة العربية الى الحجاز بعدة طرق سواء اكانت التجارية منها او الصلات الاخرى ونستخلص من ذلك ان الكتابة العربية موجودة قبل ظهور الاسلام وفي قريش من يقرأ ويكتب .

ولقد ادرك النبي محمد (ص) ان للكتابة اثرا عظيما وعونا كبيرا في نشر الدعوة الكريمة : وكان اقرب الناس اليه الكتاب . وخاصة كتاب الوحي .

ان ذلك الحرص الشديد من لدن الرسول الكريم ، كان نتيجة لدرايته العظيمة في نشر المعرفة، والاهمية القصوى في الكتابة في تحديد علاقات الناس بعضهم ببعض وتثبيت ما لهم وما عليهم اضافة الى اهميتها في تدوين آيات القرآن المجيد . (وجاء في المدونات التاريخية الاسلامية ، ان النبي الكريم قد ارسل عددا من الرسائل الى الملوك وامراء الدول المجاورة يدعوهم فيها الى الاسلام) .

وقد وردت اشارات عن الذين كتبوا عند رسول الله ومنهم علي بن ابي طالب (رض) وعثمان ابن عفان (رض) وزيد بن ثابت ومعاوية بن ابي سفيان وغيرهم .

وقد وصلتنا من عصر الخلفاء الراشدين وثائق تبدأ من زمن خلافة عمر بن الخطاب (رض) (١٣ــ٢٣هـ) اقدمها يرجع الى سنة (٢٠هـ)واخرها يرجع الى اواخر عصر خلافة الامام علي بن ابي طالب (رض) (٤٠هـ) وتشمل تلك الوثائق المكتوبة مسكوكات ولفائف بردي واحجار .

وان دراسة الخط على المسكوكات على درجة كبيرة من الاهمية لكونها وثائق رسمية تصدرها الدولة . فالخط فيها معتنى به عناية كبيرة .

وتلك المسكوكات لها ولاشك اهمية كبيرة في دراسة تطور الخط العربي(١) .

(١) انظر :
القلقشندي : صبح الاعشى (مطابع كوستاتوماس ، ١١/٣) .
ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية (سلسلة اقرا ، ٢١ ــ ٢٥) .
سهيلة ياسين الجبوري : اصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الاموي (٧٨ ــ ٩٨) .

←

البدايات الاولى في التحسين

بعد مقتل الامام علي بن ابي طالب (رض) في سنة ٤٠هـ . انتقلت الخلافة بعد ذلك بقليل الى معاوية بن ابي سفيان مؤسس حكم الاسرة الاموية (٤٠–١٣٢هـ/٦٦٠–٧٤٩ ميلادية) .

وكان من اول اعمال معاوية ان نقل مركز الخلافة في الكوفة الى دمشق ببلاد الشام . وفي العصر الجديد اتسعت رقعة الدولة العربية كثيرا ... ولقد تميز هذا العصر بانصراف المسلمين بشكل عام الى الحياة الدنيوية ـ عكس ماكان عليه الحال في عصر الراشدين حيث تجنب العرب الى درجة كبيرة البذخ والترف ـ فتقدمت الفنون المعمارية كما مال العرب الى الخط والنحت والتصوير والزخرفة ...

ومن المعروف ان الخلفاء الامويين قد اولوا الخط عناية بالغة وذلك لحاجتهم الماسة اليه سواء في الكتابة على العمائر والتحف ام في استعماله في كتابة المصحف الشريف والمراسلات والنقود ... ان لكثرة النقوش الكتابية التي وصلتنا واختلاف المواد التي دونت عليها تساعد ولاشك في تتبع تطور الخط العربي في العصر الاموي(٢) .

ولقد اشتهر في هذا العصر خطاطون منهم خالد ابن الهياج وشعيب بن حمزة الكاتب المتوفى ١٦٢هـ ومالك بن دينار المتوفى سنة ١٣٠هـ . اما قطبة المحرر المتوفى سنة ١٥٤هـ فقد كان « اكتب الناس على الارض في العربية » . (ويقال انه هو الذي بدأ في تحويل الخط الكوفي وهو الذي اخترع القلم الطومار والقلم الجليل) . وقد اصبح للمشق في العصر الاموي اصوله وقواعده يميل اليه الكثير من الخطاطين .

واخيرا فقد ظهر على الخط في العصر الاموي بوادر زخرفية جديدة(٢) .

بغداد تجود الخط العربي

لقد زاد تطور الخط العربي في اوائل الدولة العباسية على يد رجل من اهل الشام في خلافة السفاح اول خلفاء بني العباس ، يقال له (الضحاك بن عجلان الكاتب) ، فزاد على (قطبة) ، فكان بعده اكتب الخلق ثم كان بعده اسحاق بن حماد الكاتب في ايام خلافة المنصور والمهدي ، فزاد على (الضحاك) .

وكانا هذان الكاتبان بخطان (الجليل) ، وكانه يراد به الطومار او قريب منه .

ثم ازدهر عصر المأمون بتلامذة اسحاق بن حماد ، الذين كتبوا « الخطوط الاصلية الموزونة » التي لا يقوى عليها احد الا بالتعليم الشديد ، وعدتها اثنا عشر قلما يخرج منها اثنا عشر قلما(٤) . وهذه الاقلام هي

١ ـ قلم الجليل
٢ ـ قلم السجلات
٣ ـ قلم الديباج
٤ ـ قلم الطومار الكبير
٥ ـ قلم الثلثين
٦ ـ قلم الزنبور
٧ ـ قلم المفتح
٨ ـ قلم الحرم
٩ ـ قلم المؤامرات
١٠ـ قلم العهود
١١ـ قلم القصص
١٢ـ قلم الخرفاج(٥) .

و (ابراهيم الشجري) ، وكان اخط اهل دهره ، اخذ عن اسحاق (الجليل) ، واخترع منه قلما اخف منه سماه (قلم الثلثين) ثم اخترع من قلم الثلثين قلما سماه (الثلث) .

واخوه (يوسف الشجري) ... اخترع من القلم الجليل قلما ادق منه .. فاعجب به الفضل بن سهل وزير المأمون .. وسماه (القلم الرئاسي) وقيل ان الاصول المحرر استنبطه من الثلثين والثلث قلم سماه (النصف) ، وقلما اخف من الثلث سماه (خفيف الثلث) . واقلام اخرى مثل (المسلسل) و (غبار الحلبة) و (خط المؤامرات) و (خط القصص) و (الحوائجي) الا ان خطه مع حسنه وبهجته كان غير محكم ولا متقن(٦) .

وكان ينافسه في عصره (وجه النعجة) محمد بن معدان المعروف بابي قرجان وكان مقدما في

محمود شكر الجبوري : كتاب نشأة الخط العربي وتطوره (ص ٣٨) .
مجلة آفاق عربية (العدد ٢ ـ ١٩٧٧ ، ٦٤ ـ ٦٩) .
مجلة آفاق عربية (العدد ٦ ـ ١٩٧٩ ، ٩٠ ـ ٩٧) .

(٢) سهيلة ياسين الجبوري : اصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الاموي (ص ١١٩) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٣٢ ـ ١٢٧ .

(٤) الدكتور سهيل انور : الخطاط البغدادي علي بن هلال ٤٤ .

(٥) عبدالله المشهور بحاجي خليفة : كشف الظنون (طهران) ٧١٠ ـ ٧١١ .

(٦) القلقشندي : صبح الاعشى (١٤/٢) .
د . سهيل انور : الخطاط البغدادي (ص ٤٥) .
البطليوسي : الاقتضاب (٨٧ ـ ٨٩) .
محمود شكر الجبوري : نشأة الخط العربي وتطوره (ص ٥٨) .

(الجليل) ؛ واحمد بن محمد بن حفص المعروف بـ (زاقف) وكان اجل الكتاب خطا في (الثلث) .

وكان ابن الزيات في ايام ابن طولون وزير المتعصم يعجبه خطه ولا يكتب بين يديه غيره .

وانتهت رياسة الخط بمصر الى طبطب المحرر جودة واتقانا(٧) ثم انتهت جودة الخط وتحريره على راس الثلثمائة الى الوزير ابي علي محمد بن مقلة واخيه عبدالله(٨) .

ثم اخذ عن ابن مقلة محمد بن السمسماني ومحمد بن اسد ، وعنهما اخذ الاستاذ ابو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب ... وممن اخذ عنه محمد بن عبدالملك ، وعن محمد بن عبدالملك اخذت الشيخة المحدثة الكاتبة زينب الملقبة بشهدة ابنة الابري ، وعنها اخذ امين الدين ياقوت ، وعنه اخذ ولي العجمي ، وعليه كتب العفيف ؛ وعن العفيف اخذ ولده الشيخ عماد الدين ، ويقال ، انه كان كابن البواب في زمانه ، عن الشيخ الدين بن العفيف اخذ الشيخ شمس الدين بن ابي رقيبة محتسب الفسطاط ، .. واخذ عنه الشيخ شمس وصنف مختصرا في قلم الثلث مع قواعد ضمها اليه في صنعة الكتاب ، احسن فيه الصنيع ، وبه تخرج الشيخ زين الدين شعبان بن محمد بن داود الاثاري محتسب مصر ، ونظم في صنعة الخط الفيه وسمها بـ (العناية الربانية في الطريقة الشعبانية) ، لم يسبق الى مثلها ، ثم توجه بعد ذلك الى مكة ، ثم الى اليمن والهند ثم عاد الى مكة فاقام بها ونبغ(٩) .

نستخلص من العرض اعلاه ان مناخ بغداد كان ظرفا مناسبا مما جعل الخط يتطور ويجود وتتغير اوضاعه وتصبح له اشكال خضعت الى قواعد ومقاييس كانت الاساس المتين لهذا الفن الرفيع .

(اللوحات التالية تمثل انواع الخطوط العربية في العصر العباسي والتي جودها الخطاطون الاوائل عبر العصور) .

ابن مقلة هندس الحروف العربية وقدر مقاييسها

ولد ابو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة يوم الخميس لتسع بقين من شوال سنة ٢٧٢ هجرية(١٠) .

انه كان « مقلة حدقة الزمان يافوت العرفان ؛ مصور النقوش القدسية بالصور الروحانية ، وحضر الخطوط الهندسية بالادوات الجسمانية . عليه الرحمة والرضوان ما كتب القلم وظهر الرقم » وهو بغدادي ، يكنى بابي الصدر محمد بن علي بن حسن بن مقلة الوزير(١١) رغب عن عمل ابيه ؛ وانصرف الى الدرس ؛ ويقول مؤلف كتاب (تحفة الخطاطين) ان (اباه) كان زياتا ، يبيع الزيت ، .. وكان ابوه كاتبا مليح الخط، وعلى خطه كتب ولداه : ابو علي ، وابو عبدالله . بلغ مرتبة عالية في علم الاعراب ، وحفظ اللغة ، وبلاغة البيان منثورة ومنظومه ، كما شهد له الصولي بذلك وبفضائل اخرى ايضا تميز بها على اقرانه في اهل عصره(١٢) .

ومن المحقق ان ابن مقلة الذي عد (انسان عين الاعيان ، واستاذ اساتذة الزمان ، ووزيرا ذا شان) ، كان اكبر معرفته هذا الانقلاب الذي احدثه في الخط . وهو لم يقتصر على الخط وحده كأمثاله من ارباب المعرفة ، بل لقد قرض الشعر ايضا ؛ ومن شعره في ابن خلدون قصيدة رائية في الخط(١٣) .

وقد افاض العلماء المعنيون ببحوث ـ الخط العربي ـ من القدماء خاصة في شرح قوانين الكتابة المنسوبة ؛ وما تعارف عليه الخطاطون من تناسب الحروف ومقاديرها في كل قيم ؛ ونسبة بعضها الى بعض ، مما توجبه قوانين الهندسة والنسبة الفاضلة . وكتبوا رسائل كثيرة . ونجد مثالا لذلك مختصرا وواضحا في كلام صاحب (رسائل اخوان الصفا) في رسالة الموسيقى منها ، وفي (الفية زين الدين شعبان الآثاري) ، وكلام شرف الدين ابن عبدالسلام في (صبح الاعشى) ؛ وغيرهم(١٤) . ومما اورده في قواعد تتعلق بالكتابة التي لا يستغنى الكاتب المجيد عن معرفتها) . (في هندسة الحروف ومعرفة اعتبار صحتها ونحن نذكرها على ترتيب الحروف . (ومما قاله الوزير ابو علي بن مقلة : عنها :

(٧) القلقشندي : صبح الاعشى (١٣/٣) .
د. سهيل انور : الخطاط البغدادي (ص ٢٥) .
(٨) القلقشندي : صبح الاعشى (١٣/٣) .
(٩) المصدر السابق (١٤/٣) .

(١٠) وليد الاعظمي : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين (ص ١١٠) .
(١١) د. سهيل انور : الخطاط البغدادي (ص ١٤) .
(١٢) المصدر السابق ، ص ٥٣ .
(١٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٥ .
(١٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .

الالف : هي شكل مركب في خط منتصب ، يجب ان يكون مستقيما غير مائل الى استلقاء ولا انكباب : قال : وليست مناسبة لحرف في طول ولا قصر .

الباء : هي شكل مركب من خطين : منتصب ومنسطح . قال ونسبقه الى الالف بالمساواة ثم قال وهذا الحرف وما يجري مجراه من يمنه الى يسره ، وكل ما كان كذلك فينبغي ان يمال القلم فيه نحو اليسرة قليلا .

ولا يخفى ان التاء والثاء في معنى الباء في ذلك جميعه .

الجيم : هي شكل مركب من خطين : منكب ونصف دائرة ، وقطرها مساو للالف .

وقال ايضا : واعتبار صحتها ان نخط عن يمينها وشمالها خطين فلا تنقص عنهما شيئا يسيرا ولا تخرج .

ولا يخفى ان الحاء والخاء في معنى الجيم من جميع ما تقدم .

الدال : هي شكل مركب من خطين : منكب ومنسطح مجموعهما مساو للالف وقال ايضا : واعتبار صحتها ان نصل طرفيها بخط فنجده مثلثا متساوي الاضلاع .

ولا يخفى ان الذال في معنى ما تقدم .

الراء : وهي شكل مركب في خط مقوس هو ربع الدائرة التي قطرها الالف وفي راسه سنه مقدرة في الفكر .

وقال ايضا : واعتبار صحتها ان تصلها بمثلها فتصير نصف دائرة .

ولا يخفى ان الزاي في معناها .

السين : وهو شكل مركب في خمسة خطوط : منتصب ، ومقوس ، ومنتصب ، ومقوس ومنتصب .

وقال ايضا : واعتبار صحتها يعني صحة راسها ان تمر باعلاها واسفلها خطين فلا تخرج عنهما ولا تنقص .

ولا يخفى ان حكم الشين ايضا كذلك .

الصاد : هي شكل مركب من ثلاثة خطوط : مقوس ، ومنسطح ومقوس وقال : اعتبار صحتها ان يكون راس النون مشرفا على اخرها .

ولا يخفى ان الضاد كذلك .

الطاء : قال ابن عبدالسلام : هو شكل مركب من ثلاثة خطوط : منتصب ، ومقوس ، ومنسطح يبدأ اوله بنقطة واخره بنقطة .

قال : ومساحة ضوء الطاء في الطول كثلثي الف خطه .

قال ابن مقلة : واعتبارها كاعتبار ا الصاد :

وقال ابن عبدالسلام : اعتبار صحتها ان يكون المنتصب كالف في خطه في الانتصاب والطول : والمقوس كراء معلقة ، والمنسطح كباء مرسلة .

ولا يخفى ان حكم الظاء في ذلك كالطاء .

العين : وهي شكل مركب من خطين : مقوس ومنسطح ، احدهما نصف دائرة .

قال : واعتبار صحتها كاعتبار الجيم .

ولا يخفى ان الغين في الحكم كذلك .

الفاء : هي شكل مركب من اربعة خطوط : منكب ، ومستلق ومنتصب ومنسطح .

وقال : واعتبار صحته ان نصل بالخط الثاني منها خطا فيصير مثلثا قائم الزاوية .

القاف : هو شكل مركب من ثلاثة خطوط : منكب، ومستلق ، ومقوس .

وقال : واعتبار صحتها كاعتبار النون ، وسياتي ذكره .

الكاف : شكل مركب من اربعة خطوط : منكب ، ومنسطح ، ومنتصب ومنسطح .

قال : واعتبار صحتها ان ينفصل منها باءان :

قال ابن عبدالسلام : يعني مستقيمة ومقلوبة .

اللام : هي شكل مركب من خطين : منتصب ، ومنسطح .

قال : اعتبار صحتها ان تخرج من اولها الى اخرها خطا يماس الطرفين فيصير مثلثا قائم الزاوية .

قال : وتكتب على الانواع الثلاثة التي تكتب عليها الباء .

الميم : هي شكل مركب من اربعة خطوط : منكب ، ومستلق ، ومنسطح ومقوس .

وقال : واعتبارها كاعتبار الهاء . وسياتي.

النون : هو شكل مركب في خط مقوس ، هو نصف الدائرة وفيه سنة مقدرة في الفكر .

وقال : واعتبار صحتها ان يوصل بها مثلها فتكون دائرة .

الهاء : شكل مركب في ثلاثة خطوط : منكب ، ومنتصب ، ومقوس .

قال : واعتبار صحتها ان تجعلها مربعة الزاويتين السفلاوين .

الواو : هي شكل مركب من ثلاثة خطوط : مستلق ، ومنكب ، ومقوس .

اللام الف : (قال ابن عبدالسلام) : هي شكل مركب من ثلاثة خطوط : منكب ، ومنسطح مستقيم ، ومستلق ، طول المنكب كطول الف من قلم الكتابة وطول المنسطح كتنشي الف الكتابة ، وطول المستلق كطول الف الكتابة ، تبدا اول المنكب بنقطة ، وكذلك المستلقي .

قال : ومنها نوع اخر مركب من ثلاثة خطوط : منكب ، ومستدير يقارب الفا ، ومستلق يقابل طرفه المنكب .

الياء : شكل مركب من ثلاثة خطوط : مستلق ، ومنكب ، ومقوس .

قال : واعتبارها كاعتبار الواو(١٥) .

ويتضح لنا : (ان للحروف العربية حيوية شديدة ناشئة من مطاوعتها واستدارتها وانبنائها جميعا ، على اصل هندسي ثابت وقاعدة رياضية معروفة ، فاصل الحروف العربية « الالف » التي هي خط مستقيم جعلوه قطر الدائرة ، اما بقية الحروف فهي اجزاء من الدائرة المحيطة بهذا القطر منسوبة اليه ، او اعيدت الى التسطيح وازيل تقوسها لكانت كلها من الالف بنسبة معينة ثابتة) .

لكل حرف من حروف العربية هندسته الخاصة ، والحروف كلها باجزائها وطلباتها مردوده الى نسبة ثابتة ، عرفت بالنسبة الفاضلة (١٦) .

(١٥) القلقشندي : صبح الاعشى (٢٣/٣ ـ ٢٤) .
(١٦) محمود شكر الجبوري : نشاة الخط العربي وتطوره ، ص ١٢ .

ابن البواب بين الصياغة والقاعدة

الاستاذ علي بن هلال ، بغدادي ، اشتهر باسم « علاءالدين بن البواب » وكني بابي الحسن . وكان ابوه يعرف بابن ستري ، وكان في دولة آل بويه بوابا عند ملوكهم .

توفي في بغداد سنة ٤٢٣هـ ودفن بجوار الامام بن حنبل (على ما رواه ابن خلكان) .

كان علي بن هلال يحفظ القرآن الكريم ، وقد اخذ الخط في حداثته من محمد بن اسد ، ثم من محمد بن السمسماني صاحب محمد بن اسد وتلميذه على قوله ، ثم جمع خطوط محمد بن مقلة في النسخ والثلث اللذين قلبهما من الخط الكوفي ، واذهبها ، ونقحها ، وصححها ، وروجها ، فاستقام بفضله اسلوب بن مقلة في كل الوجوه ، وخلد اسمه ونال شهرة عظيمة باقية الى يوم الدين ، حتى اطلق عليه لقب « الناقل الاول » . ولكن الحقيقة ان ابن مقلة ليس هو الناقل الاول ، وانما الناقل ابن ابي طالب على ما اوضح ذلك «مستقيم زاده» في بحثه في محمد بن الحسن بن مقلة(١٧) .

ولقد نشا ابن البواب محبا لفن الخط العربي وما اليه بكلشه وكان في شبابه مزوقا يشتغل بتصوير الدور والكتب والدواوين ثم تعشق فن الخط والتمع نبوغه . واتقن قاعدة ابن مقلة ثم جودها وحسنها وابدع في اوضاع الحروف العربية وابعادها(١٨) ومن اعظم اعمال ابن البواب وسبب شهرته انه اكمل اسلوب الكتابة الذي ابتداه قبل قرن من الزمان الوزير ابن مقلة .

وهو الذي وضع القوقات الفنية التي كان الخط المنسوب لابن مقلة بحاجة اليها وقد كان ابن البواب فنانا بالفطرة وله نظرة فنية وهذا يبدو جليا في انتظام وحركة خطوط الاقواس العظيمة التي انشاها ويمكن ان ندعوه حقا مؤلف الخط المنسوب المنسجم دون منازع ودون الحاجة ان نخلط معه ابن مقلة او تذهب بعيدا الى اصل من بدا بهذا الخط(١٩) .

وقد نظم علي بن هلال قصيدة رائية جليلة ضمنها قواعد الخط ، وشرحها كثير من العلماء ،

(١٧) د. سهيل انور : الخطاط البغدادي ، ص ٦ ـ ٧ .
(١٨) الخطاط وليد الاعظمي : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين (ص ١١٥) .
(١٩) سهيلة ياسين الجبوري : الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق ، ص ٧٥ ـ ٧٦ .

لانها تشتمل على قواعد علم الخط . وقد ذكرها ابن خلدون في تاريخه ؛ وعدتها ثمانية وعشرون بيتا ومطلعها :

يا من يريد اجازة التحرير
ويروم حسن الخط والتصوير

ويعد اكبر كتاب الخط بعد ابن مقلة ، لانه - في حقيقة الامر - استطاع ان يقلب الخط على وجه يسترعي الانتباه ، وان يستنبط منه اسلوب الثلث والنسخ ، ويعلو بهما الى مرتقى رفيع من الكمال .

وتدرج خط علي بن هلال في مدارج على مر الايام ، وارتقى كثيرا من بعد على يد ياقوت المستعصمي . لكن الفرع الذي استمر الى القرن الخامس عشر في مصر ، متبعا طريقة علي ابن هلال اتباعا تاما ؛ لم يستطع في استمراره ان يبلغ مرتبة مدرسة(٢٠) .

والخطاط العظيم ابن البواب ، قد ارسى قواعد الخط العربي ؛ وهذب حروفه ، واجاد في تراكيب السطور ، وبقيت قاعدته ثابتة الى اليوم ، ولم يصل الى مرتبته احد ؛ حتى برز الخطاط البغدادي ياقوت المستعصمي فجود طريقة ابن البواب وحشها ؛ وهذبها في القرن السابع الهجري(٢١) .

ياقوت المستعصمي قبلة الكتاب

هو ابو الدر جمال الدين ياقوت المستعصمي الرومي الكاتب . اشتراه الخليفة العباسي المستعصم بالله وهو اخر الخلفاء العباسيين . ونشأ ياقوت في دار الخلافة ، (واصل ياقوت رومي وكان من مماليك المستعصم فانتسب اليه . تميز بالادب ، والشعر ، وجودة الخط . وهو اخر من انتهت رئاسة الخط المنسوب اليه) .

اعتنى بتعليمه فنون الخط الشيخ صفي الدين عبدالمؤمن احد فقهاء المدرسة المستنصرية واشهر كتاب زمانه .

وقد عشق ياقوت فنون الخط العربي منذ صباه ، حتى برع فيه ، واظهر من المهارة ما جعله في مصاف عظماء الخطاطين . وبقي ياقوت يتحلى خطوط الائمة المجودين ممن سبقوه في هذا المضمار

(٢٠) د. سهيل انور : الخطاط البغدادي ، ص ٨ .
(٢١) الخطاط وليد الاعظمي : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين ص ١٢٢ .

حتى بلغ الغاية في حسن الخط ؛ وضبط قواعده واصوله وفاق ابن البواب في جمال الخط وحسن تنسيقه والابداع في تراكيبه فلقب بـ (قبلة الكتاب) وتصدر ياقوت لتعليم فنون الخط ؛ وبلغت شهرته الافاق وقصده الناس ، وبالغوا في اقتناء خطوطه(٢٢) .

كان ياقوت المستعصمي خازنا بدار الكتب في المدرسة المستنصرية باشراف المؤرخ الكبير ابن الفوطي .

وقد افاد ياقوت من دار الكتب كثيرا ؛ وكان يجتمع بالادباء والعلماء والشعراء والوزراء ، فعرفوا فضله ؛ وقدروا فنه ، ونال رعايتهم وتشجيعهم . حتى بلغ القمة وتربع على عرش الخط العربي ؛ وصار مضرب المثل في حسن الخط .

حتى كان الناس اذا استحسنوا خطا قالوا : خط ياقوتي . وبرع في تجويد الخط كثيرا وهذب اوضاع الحروف ، وحور في الكتاب واستلقاء بعضها ؛ وصارت مدرسة بغداد الخطية هي السائدة في العالم الاسلامي بفضل جهوده حيث سمي الخطاطون في الافاق يقلدون خطوطه ويمشقون على قاعدته التي لا تزال الى يومنا هذا تمتاز بخصائصها عن المدرسة العثمانية التي اعقبتها . وعند سقوط بغداد على يد هولاكو ، عزل ياقوت عن خزانة كتب المستنصرية وفوض امر خزائن الكتب الى موفق الدين ابن ابي الحديد واخيه عزالدين(٢٣) .

ويقال انه انتقل الى المدرسة المستنصرية قبل احتلال بغداد .. واخذ يقرا ويتعلم وينهل من العلوم والكتب الموجودة فيها تارة يدرس اللغة العربية ويتعرف على اسرارها وقواعدها وتارة تعلم اصول الخط .

ويقال ان هذه المدرسة لم يصلها الدمار مثل ما اصاب الامكنة الاخرى . ولم تعطل فيها الدراسة الا المدة وجيزة من الزمن(٢٤) .

وقال فيه صاحب كتاب الاعلام باللغة الفارسية (ان في يده سرا من اسرار الله)(٢٥)

(٢٢) المصدر السابق : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين ، ص ١٢٢ - ١٢٤ .
(٢٣) المصدر السابق نفسه : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين ، ص ١٢٦ .
(٢٤) ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ص ٤٢ .
(٢٥) شمس الدين سامي : قاموس الاعلام ، ٤٧٨٦/٦ .

وكان ياقوت المستعصمي يكتب على طريقة ابن البواب الخطاط الا انه قطع راس قصب الطيب (الريشة) بصورة مائلة ونتيجة لذلك كان خطه رفيعا من جهة وغليظا من جهة اخـرى وبهذا أصبح اكثر اناقة(٢٦) .

الخـــلاصة

يرى المتتبع لتطـور الخط اهتمـام الكتاب به باعتباره الوسيلة التي كتبت به آيات القرآن الكريم . وبرزت اهمية تجويد الكتـابة والعناية بها لقدسيتها ومكانتها العظيمـة عنـد المسلمين . وليس من شك ان الفنان المسلم ابتعد عن رسم كل ما فيه روح ، نبع ذلك من عقيدته ، فسخر كل طاقاته وملكاته بالابداع بالخط وبالغ بزخرفته ، واصبحت تلك الوسيلة التي كتبت بها آيات القرآن الكريم فنا رفيعا ، وبالخط العربي كتبت مؤلفات ائمة المفكرين المسلمين ، وعد هذا الفن من اسمى الفنون العربية والاسلامية .

والمتفحص لتطور الحروف وتجويدها يجد بغيته بيد الكتاب الاوائل النابغين الذين عنـوا بتحسينه والابداع به .

وفي بغداد هندست الحروف العربية وقدرت مقاييسها واجيد تحريرها على يد ابن مقلة وابن البواب وياقوت المستعصمي وهؤلاء الرواد جهابذة الخط سعوا الى نشر قواعده واشاعته في مشارق الارض ومغاربها . وشغف الناس بتعلمها والاحتفاظ بالمخطوطات النادرة الثمينة . وضمت المكتبات منها ما حوت من العلوم والفنون نماذج منها كانت رائعة وجميلة شكلا ومضمونا .

(٢٦) سهيلة ياسين الجبوري : الخط العربي وتطـوره في العصور العباسية في العراق ، ص ٦٤ .

مقامة في قواعد بغداد

في الدولة العباسية

تاليف : ظهير الدين الكازَرُوني (ت : ٦٩٧هـ = ١٢٩٨م)

تحقيق

كوركيس عوّاد وميخائيل عوّاد

تمهيد :

في خزانة كتب السلطان محمد الفاتح بجامع السليمانية في استانبول ، مجموع خطي نفيس كبير ، برقم ٥٤١١(1) ، كُتب بخطوط مختلفة وازمنة متفاوتة ، يرقى بعضها الى المئة السابعة للهجرة . ولعلّ تلك الاعلاق كانت متفرّقة متبعثرة ، حتى عمد بعضهم في زمن مجهول لدينا ، الى جَمْع شملها بين دَفّتَي هذا المجلّد .

وفي ما يأتي ثبتٌ بأجلّ ما ينطوي عليه هذا المجموع من كتب ورسائل ونبذ(2) :

١ ــ كتاب مفرّج النفس : لشرف الدين ابي نصر محمد بن عمر بن ابي الفتوح البغدادي ثمّ الماردِيني المعروف بابن المراه . تاريخ النسخة ٦٨٨هـ = ١٢٨٩م (الورقة ١ ــ ٣٣) .

٢ ــ مقامة أنشأها ظهير الدين أبو الحسن عليّ بن محمد الكازروني ، في قواعد بغداد في الدولة العباسية (الورقة ٣٥ ــ ٤٦) .

٣ ــ صفة عمل الجبن المقلو وغير ذلك (تتمة الورقة ٤٦) .

٤ ــ رسالة في تفسير قول النبيّ : تفترق امّتي على ثلاث وسبعين فرقة (الورقة ٨٩ ــ ٩٧ أ) .

٥ ــ نبذة من تذكرة الكحالين(3) (الورقة ٩٧) .

٦ ــ فصْل في معرفة صوم النصارى (الورقة ١٠٢ ــ ١٠٥) .

٧ ــ مِن كلام ما شاء(4) الله (الورقة ١٠٥ ب) .

٨ ــ دلائل الشهور الرومية والعربية : جَمْع الحسن بن البهلول الكاتب النصراني(5) . تاريخ النسخة ٦٧٩هـ = ١٢٨٠م (الورقة ١١٣ ــ ١٣٧ أ) .

٩ ــ مِن كتاب المواليد : لابن ابي الخصيب الكاتب (الورقة ١٣٧ ب) .

---

(1) صور بعضه بالمكروفلم ، صديقنا المرحوم يوسف يعقوب مسكوني ، وقد وقفنا على ما صوره ، فاذا به ينتهي عند الورقة ١٧٢ من المخطوط .

(2) اشار مؤلف « فهرست خزانة فاتح » الى ثلاثة تاليف فقط مما يحتويه هذا المجموع الخطي الواسع ، وهي ذوات الارقام ١ و ٦ و ٨ . اما الباقي وهي ١٨ مؤلفا ، فقد اغفل ذكرها .

(3) تذكرة الكحالين : من اشهر كتب التراث العربي في طب العيون . الفها علي بن عيسى الكحال ، المتوفى سنة ٤٢٠هـ = ١٠٢٩م .

وقد طبعت في حيدر اباد سنة ١٩٦٤ ، في ٤٠٠ ص .

(4) هو المنجم اليهودي ما شاء الله ، كان في زمن المنصور وعاش الى ايام المامون . ترجمته في (« الفهرست » لابن النديم ، ص ٢٧٣ ؛ طبعة ليبسك) ، (« اخبار الحكماء » للقفطي ، ص ٣٢٧ ؛ طبعة ليبسك) ، (« تاريخ مختصر الدول » لابن العبري ، ص ٢٤٨) .

(5) من أهل المئة الرابعة للهجرة (= العاشرة م) . وهو صاحب « المعجم السرياني » الذي طبع في باريس .

١٠- رسالة يعقوب بن اسحاق الكندي في أحداث الجو[٦] (الورقة ١٤٨ أ - ١٤٩ ب) .

١١- كلام لابن وَحْشيـبّة[٧] (الورقـة ١٥٠ - ١٥٤ أ) .

١٢- فَصْل في معرفة اعياد اليهود (الورقة ١٥٤ أ - ١٥٨ أ) .

١٣- فَصْل في شرح اعياد اليهود (الورقة ١٥٨ ب - ١٥٩ ب) .

١٤- فَصْل في صفة الأرْغَنُون[٨] (الورقة ١٦٠ أ ١٦١ أ) .

١٥- آلات الروم [الموسيقية] (الورقة ١٦٣ أ) .

١٦- صفة عمل بَرّ شَعْشَا[٩] : لرجمة الحكيم ابي البركات أوحد الزمان[٩١] . منقول من السرياني . (الورقة ١٦٣ ب) .

١٧- فائده في معنى لفظة « العراق » (الورقة ١٦٤ ب) .

١٨- تقويم فلكي (الورقة ١٦٥) .

١٩- في تاثيرات الكواكب وحلولها البروج (الورقة ١٦٧ ب - ١٧٠ أ) .

٢٠- الحِكَم والامثال (قصيدة نونية) لأبي الفتح عليّ بن محمد البُسْتي[١٠] (الورقة ١٧٠ ب - ١٧٢ أ) .

٢١- نبذة في كيفية الأذان عند الشيعة (الورقة ١٧٢ أ) .

المخطوط الذي ننشره :

يتضح من هذا السرد ، انّ المخطوط الذي ننشره اليوم ، هو ثاني ما في هذه المجموعة ، وقوامه إحدى عشرة ورقة ، تقع في هذا المجموع بين الورقة ٣٥ و ٤٦ على ما أسلفنا .

وكان معهد المخطوطات العربية في القاهرة ، قد صوّر هذه « المقامة » في جملة ما صوّره من مخطوطات خزائن كتب استانبول[١١] .

وخطّ هذه «المقامة» فيما يبدو ، من خطوط المئة الثامنة للهجرة ، وهو ، على ما يراه القارىء في النماذج المنشورة ها هنا ، من الخطوط الوعرة التي تصعب قراءتها . ذلك انّ الناسخ ، ولم يرد لإسمه ذِكْر في المخطوط ، قد اغفل تنقيط بعض الحروف المعجمة ، كما وقع له في اثنـاء النقل تصحيفات تناثرت في مواطن مختلفة منها .

تنطوي هذه المخطوطة على « مقامة » ادبية تاريخية عمرانية ، تتناول بالوصف مدينة بغداد في اواخر ايامها العبّاسية ، وبُعَيْد سقوطها بايدي المغول .

انشأ هذه « المقامة » ظهير الدين الكازَروني البغدادي الشافعي ، احـد علماء المئة السابعة للهجرة . وسيأتي الكلام عليه .

ونسخة هذه « المقامة » فيما بدا لنا ، فريدة لا يُعرف لها نظير . فهي اكثر انْف بحسن إحياؤه بالتحقيق والنشر .

وقد سبق لنا أن حقّقنا هذه « المقامة » ، سنة ١٩٦٢ ، بمناسبة إحتفالات بغداد والكندي . ونَشَرْنها حينذاك « وزارة الإرشـاد » . ولكن نُسَخها المطبوعة لم يتمّ توزيعها يومئـذٍ لأسباب لا محلّ لذكرها ، فبقيت مطمورة . وهذا ما حدا بنا الى إعادة تحقيقها وإخراجها اليوم بهذا الوجـه الجديد ، على صفحات مجلّة « المورد » الزاهرة .

---

(٦) حققها ونشـرها : يوسف يعقوب مسكوني (بغـداد ١٩٦٥) .

(٧) هو أبو بكر احمد بن علي ، المعـروف بابن وحشية الكلداني ، العالم العـراقي بالفلاحة ، المتوفى سنة ٢٩٦هـ = ٩٠٩م . لـه تصانيف كثـيرة في الزراعة والكيمياء ، أشهرها كتاب « الفلاحة النبطية » في اجزاء . ولم يطبع . وقد نشر عادل ابو النصـر ، خلاصته في بيروت .

(٨) آلة موسيقية قديمة . تعرف اليوم بـ (الارغن) .

(٩) لفظة سريانية بمعنى « ابن الساعة » ويراد بـه الدواء الذي يفعل فعله في ساعته . ونظير هذه اللفظة ما اتخذه أبو بكر الرازي عنوانا لاحد تاليفه وهو « برء الساعة ». راجع : (« تذكرة داود الانطاكي » ١ : ١٠١ - ١٠٢ ؛ بولاق ١٢٨٨هـ) .

(٩ ا) هو أبو البركات أوحـد الزمان بن ملكا (أو : ملكان) ، الطبيب الفيلسوف العـراقي ، ت ٥٤٧هـ = ١١٥٢م ، مؤلف كتاب « المعتبر » وغيره من التصانيف . راجـع ترجمته في « تاريخ حكماء الاسلام » للبيهقي . تحقيق : محمد كرد علي (دمشق ١٩٤٦ ؛ ص ١٥٢ - ١٥٤) .

(١٠) توفي سنة ٤٠١هـ = ١٠١٠م . له ديوان شعر . حققه : د. محمد مرسي الخولي . وسينشر قريبا .

(١١) راجع في ذلك : (« فهرست المخطوطات المصورة » الجزء الأول . لفؤاد سيد . القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٥٢١ ؛ الرقم ٧٩٩) .

وانظر : (« تاريخ الادب العربي في العراق » لعباس العزاوي ١ ؛ بغداد ١٩٦١ ؛ ص ٢٦١) .

المقامات البغدادية :

ولنا ان ننوه بأن غير واحد من منشئي المقامات ، قد افرد مقامة اسماها بـ « المقامة البغدادية » ، من ذلك :

انَّ المقامة الثانية عشرة من مقامات بديع الزمان الهمداني (المتوفى سنة ٣٩٨هـ = ١٠٠٨م)، عُرفت بـ « البغدادية » .

وانَّ المقامة الثالثة عشرة من مقامات الحريري (المتوفى سنة ٥١٦هـ = ١١٢٢م) ، عُرفت ايضا بـ « البغدادية » .

وانَّ المقامة الاولى من المقامات الزينية لابن الصيقل الجزري (المتوفى سنة ٧٠١هـ = ١٣٠١م) ، عُرفت بـ « البغدادية » ايضا .

وقد خصَّ الشيخ ناصيف اليازجي (المتوفى سنة ١٢٨٧هـ = ١٨٧١م) ، بغداد ، بالمقامة الثامنة من مقاماته الموسومة بـ « مجمع البحرين » .

وافرد الشيخ عبدالله بن مصطفى الفيضي الموصلي (كان حيًّا سنة ١٢٩٣هـ = ١٨٧٦م) مقامة بعنوان « المقامة البغدادية » . لم تُطبع . منها نسخة لدى حفيده نشأة الفيضي في الموصل . ذكرها الدكتور داود الجلبي (« مخطوطات الموصل » ص ٢٩٩ ؛ الرقم ١٥) .

المؤلف :

١ ـ مراجع ترجمته :

في كثير من المؤلفات القديمة والحديثة ، ذِكرٌ لظهير الدين الكازروني . وقد رجعنا إليها ومحّصناها ، فاذا بترجمته واخباره في جميعها محدودة ضيّقة النطاق لا تتعدى في جملتها كلمات معدودات .

وفي ما يأتي ثبتٌ بهذه المراجع ، وقد رتّبناها فيه وفق السياق الهجائي لعنواناتها :

الأعلام : لخيرالدين الزركلي (٥ : ١٥٥) .

إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون : لاسماعيل باشا البغدادي . (١ : ٣٢٨ ؛ ٢ : ٧١٤ ـ ٧١٥) .

تاريخ الادب العربي في العراق : لعباس العزّاوي (١ : ٣٥ ـ ٣٦ ، ٩١ ، ٢٦١ ، ٢٦٧) .

تاريخ العراق بين احتلالين : لعباس العزّاوي (١ : ٣٤١ ، ٣٨٠ ، ٤٣٣ ؛ ٢ : ٦٨) .

تاريخ علم الفلك في العراق : لعباس العزّاوي (ص ٦٧ ـ ٦٨) .

التعريف بالمؤرّخين : لعباس العزّاوي (١ : ١٢٧ ـ ١٢٩) .

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة[١٢] : لابن الفوطي (ص ٤٩٧) .

الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة : لابن حجر العسقلاني (٣ : ١١٩) .

دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً : للدكتور مصطفى جواد والدكتور احمد سوسه (ص ٢٢٦ ، ٢٢٣) .

طبقات الشافعية الكبرى : للسبكي (٦ : ٢٤٢) .

غاية الإختصار في اخبار البيوتات العلوية المحفوظة من الغبار : المنسوب الى ابن زهرة الحسيني الحلبي (بولاق ١٣٠٩ هـ ، ص ١٢) .

فهرس المخطوطات المصوّرة في معهد المخطوطات العربية : لفؤاد سيّد . (١ : ٥٣١ ؛ ٢ [التاريخ : القسم الثاني] ص ١٣٤) .

كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون : لحاجي خليفة . (١ : ٩٢٣ ؛ ٢ : ١٠١٣ ، ١٩٢٣ ؛ طبعة استانبول الثانية) .

مختصر التاريخ للكازروني : تحقيق : د . مصطفى جواد . (مقدّمة المحقّق . ص ٣ ـ ٢٢) . اسمه ونسبه ـ مذهبه ـ ولادته وثقافته ـ وفاته . مؤلّفاته .

معجم المؤلّفين : لعمر رضا كحّالة (٧ : ٢٣٢) .

المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي : لابن تغري بردي :

عمد المستشرق الآثاري جاستون ڤييت ، الى

(١٢) نشره الدكتور مصطفى جواد ، في بغداد سنة ١٣٥١هـ . وقد ذهب حينذاك الى انه لابن الفوطي (المتوفى سنة ٧٢٣هـ) . ثم تحقق له بعد ذلك ان كلا العنوان والمؤلف غير ثابت لديه .

وضع فهرس شامل بأسماء المترجَمين فيه ، ونشره بالفرنسية — في القاهرة سنة ١٩٢٢ — بعنوان :

Wiet (Gaston) : Les Biographies des Manhal Safi.

وقد اشار (ص ٢٤٠ ؛ الرقم ١٦٣٩) الى ورود ترجمة الكازروني في هذا الكتاب .

طبع الجزء الاول من « المنهل الصافي » : (القاهرة ١٩٥٦) وفيه تراجم مَن اسمه (ابراهيم ، واحمد) فقط .

مؤرخ العراق ابن الفوطي : لمحمد رضا الشبيبي (٢ : ٩٧) .

هدية العارفين ، اسماء المؤلفين وآثار المصنفين : لاسماعيل باشا البغدادي (١ : ٧١٥) .

* * *

وهناك مراجع مخطوطة ، نوّهت بالكازروني ، لم يتسنّ لنا الوقوف عليها . قال صاحب « الدرر الكامنة » في اثناء ترجمة الكازروني : « مات بعد السبعمائة فيما ذكره البرزالي . وقال الادفوي : في ربيع الأول سنة ٦٩٧ . وقال الذهبي : كتب إليّ بمروياته سنة ٦٩٧ » .

ففي هذا الكلام دليل على انّ هؤلاء المؤرخين الثلاثة قد ذكروه في مؤلفاتهم .

امّا المراجع الافرنجية الإستشراقية ، فانّ نصيب الكازروني منها ، الاهمال والاغفال. فهذا (بروكلمان) لم يذكر الكازروني بكلمة في كتابه « تاريخ الأدب العربي » ، لا في الأصل ولا في الذيل . ومثله « دائرة المعارف الإسلامية » .

٢ — ترجمته :

لم نجد المؤرخين القدامى والمحدثين الذين افردوا ترجمة لظهير الدين الكازروني ، مَن اطال القول في تلك الترجمة ، أو أسهب فيما كان عليه من مقام في العلم والأدب، ومنزلة في المجتمع . وغاية ما ذكروه فيه كلمات معدودات ، على ما أسلفنا ، في وسعنا ان نجملها بما يأتي :

هو الشيخ ظهير الدين عليّ بن محمد بن محمود بن ابي العزّ بن احمد بن اسحاق بن ابراهيم الكازروني[١٣] ، ثمّ البغدادي : الشافعي .

وُلد سنة ٦١١هـ (١٢١٤م) . وسمع الحديث من الامير ابي محمد الحسن بن عليّ ابن المرتضى . وابي عبدالله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثي الواسطي (المتوفّى سنة ٦٣٧هـ = ١٢٣٩م) وغيرهما .

كان الكازروني من رجال العصر المغولي في العراق ، من اهل بغداد . خدم الديوان في الأعمال الجليلة . وكتب خطًا جيدًا .

كان مؤرخا ، حَيْسُوبيا ، فَرَضيًا ، لغويا ، فقيها ، شاعراً . قال السبكي : له شعر حسن . واورد له ابن حجر العسقلاني هذين البيتين :

زارني في الظلام اهيف كالبدر
بوجه منه يلوح النور
قلتُ اهلاً لو كنتَ زرتَ نهاراً
قال مهلاً في الليل تبدو البدور

لقد كان الكازروني شيخ ابن الفوطي المؤرخ البغدادي الشهير (المتوفّى سنة٧٢٣هـ = ١٣٢٣م)، وليس بمستبعد ان يكون ابن الفوطي قد خصّ استاذه بترجمة في كتابه الموسوم بـ « تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب » . ولكن الجزء الذي فيه حرف « الظاء » ضائع لا يُعرف له وجود اليوم .

ويؤخذ من ترجمة حياة البرزالي المؤرخ الشهير ، انّ الكازروني كان قد اجازه باجازة علمية[١٤] .

ولنا ان نقول انّ مؤلف «الحوادث الجامعة» كثيراً ما ينقل عن تاريخ الكازروني ومثله الذهبي[١٥] .

وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاة الكازروني ، على ما سبقت الإشارة إليه . ولكنّ اغلب الروايات تقول انه توفي سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٨م) .

(١٣) نسبة الى كازرون . بفتح الزاي وضم الراء . مدينة في ايران في غرب شيراز .

(١٤) عباس العزاوي : مؤرخ الشام او البرزالي وتاريخه : (« مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق » ٢٠ [١٩٤٥] ص ٢١) .

(١٥) (« تاريخ العراق بين احتلالين » ١ : ٢٨٠) ، و (« التعريف بالمؤرخين » ص ١٢٨) .

٣ ـ مؤلفاته :

إنّ كانت الخسارة بضآلة وقوفنا على ترجمة الكازَروني كبيرة ، فانّ الخسارة بضياع مؤلفاته ادهى وأفدح من تلك . ذلك انّ مترجميه ذكروا له جملة مؤلفات لم ينته إلينا منها ؛ فيما نعلم سوى ثلاثة ؛ هي : هذه « المقامة » التي ننشرها اليوم ، و « مختصر التاريخ » ؛ و « الإختيارات » . امّا سائر مؤلفاتـه فقد امتدّت إليهـا يد الضياع واصبحنا لا نملك مِن امرها اكثر من اسمائها .

وفي ما يأتي ثبتٌ بهـذه المؤلفات ، وقـد رتّبناها على السياق الهجائي :

١ ـ الإختيارات : في علم النجوم واختيار اوقات الأعمال والأفعال والحركات للانسان :

جاء في : « الحوادث الجامعة » ص ٤٩٧) : انّ الكازَروني « عمل كتاباً في الإختيـارات سلك فيه طريقة ابن حرّاز في الإختيارات التي عملهـا لشرف الدين إقبال الشرابي »[١٦] .

٢ ـ تاريخ المعدلين عند قاضي القضـاة [سراج الدين] الهنايسي :

ذكره ابن الفوطي (« تلخيص معجم الألقاب » ج٤ : القسم الأول ، ص ٢٢٩ ؛ ٢٦٦ ، ٦٥١) .

ولاتعرّف لهذا الكتاب نسخة مخطوطة في زماننا .

٣ ـ التذييل :

قال عباس العزّاوي : « هذا الكتاب جاء ذيلاً على تاريخ العمراني في الدولة العباسية من اوّلها الى ايام المستنجد بالله[١٧] . وهو تأليف الشيخ الثقة محمد بن علي بن محمد ابن العمراني ، ابتدأ في الذيل في اول ولاية المستنجد ، وختمه بآخر إمامة المستعصم بالله[١٨] . عثرت على تاريخ العمراني[١٩] ولم اعثر على التذييل . وجاء ذكر الأصل والتذييل في كتابه (مختصر التاريخ) عند الكلام على خلافة الناصر لدين الله . فكان لإشـارته قيمتها » .[٢٠]

وانظر مقدمة الدكتور مصطفى جواد ، على (« مختصر التاريخ » ص ٢١ ـ ٢٢) .

٤ ـ التنزّلات[٢١] .

٥ ـ روضة الأريب[٢٢] :

في التاريخ[٢٣] : في سبعة عشر سفراً[٢٤] .

قال الدكتور مصطفى جواد ، في مقدّمته على كتاب (« مختصر التاريخ » ص ١٨ ـ ١٩) : بصدد هذا الكتاب ، ماياتي : « روضة الأريب ، بالراء كما جاء في كشف الظنـون ، وتصحّف في اكثر الكتب الاخرى الى (روضة الأديب) بالدال المهملة . . . ، وهو كتاب في التاريخ جليل كبير ، لم نعثر إلاّ على نقول منه تدلُّ على جزالة فوائده . . . ؛ وطريقته كانت على حسب استمرار السنين » .

٦ ـ السيرة النبوية[٢٥] :

سمّاها صاحب (« هديّة العارفـين » ١ : ٧١٥) بـ « الذروة العليا في سيرة المصطفى صلّى الله تعالى عليه وسلّم » . ولعلّ هذه « السيرة » من ضائعات الكتب .

٧ ـ كنز[٢٦] الحُسّاب في الحِسـاب :

في مجلّد[٢٧] . ولانعرف له نسخة خطيّة .

٨ ـ مختصر التاريخ : مِن اوّل الزمان الى منتهى دولة بني العبّاس :

منه نسخة فريدة ؛ بخطّ قديم ، في خزانـة

---

(١٦) عنوان هـذا الكتاب « الاختيارات الزمانية للاعمـال الكلية » . وقد علمنـا ان نسخة الاصل التي كتبت لخزانة الامير اقبال الشرابي . وهي نسخة خزانيـة نفيسة ، في مكتبة عثمان فوزي في استانبول .

(١٧) دامت خلافته من ٥٥٥ الى ٥٦٦هـ (١١٦٠ ـ ١١٧٠م) .

(١٨) دامت خلافته من ٦٤٠ الى ٦٥٦هـ (١٢٤٢ ـ ١٢٥٨م) .

(١٩) عنوان هذا التاريخ : « الإنباء في تاريخ الخلفاء » . وقد حققه وقدم له : د. قاسم السامرائي (مطبعة بريل ـ ليدن ١٩٧٣ ؛ ٢٦٧ + ١٥ ص) .

(٢٠) (« التعريف بالمؤرخين » ص ١٢٩) .

(٢١) (« ايضاح المكنون » ١ : ٣٢٨) ، (« هدية العارفين » ١ : ٧١٥) .

(٢٢) (« طبقات الشافعية الكبرى » ٦ : ٢٤٢) ، (« الدرر الكامنة » ٢ : ١١٩) .

(٢٣) في (« كشف الظنون » ١ : ٩٢٢) : في التاريخ ، اي تاريخ بغداد .

(٢٤) في (« كشف الظنون » ١ : ٢٨٨ و ٩٢٢) ، و (« هدية العارفين » ١ : ٧١٥) : في سبعة وعشرين مجلداً .

(٢٥) (« الدرر الكامنة » ٢ : ١١٩) ، (« الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» للسخـاوي ، ص ٨٩) ، (« كشف الظنون » ٢ : ١٠١٢) .

(٢٦) في (« هدية العارفين » ١ : ٧١٥) ، و (« ايضـاح المكنون » ٢ : ٧١٤) : تصحف اسمـه الى « وكـر الحساب » . وفي (« معجم المؤلفـين » ٧ : ٢٣٢) : كسر . . .

(٢٧) (« الدرر الكامنة » ٢ : ١١٩) .

جار الله باستانبول برقم ١٦٢٥ ، كتبت سنة ٦٦٢هـ ، مكتوب بأولها انها بخط المؤلف. وهي في ٩٧ ورقة ، بحجم ١٤ × ١٨ سم . وعنها نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية(٢٨) . وأخرى كانت في خزانة عباس العزاوي ببغداد . اوله بعد البسملة : ذكر مدة الزمان وما مضى منه . وآخره: وانقضت الدولة العباسية فسبحان من لا ينقضي ملكه ولا يزول سلطانه .

وقال عباس العزاوي فيه : « في سنة ١٩٣٩ ، وقفت عليه بخط مؤلفه . كتبه بعد سقوط الخلافة العباسية بنحو سبع سنين . وكنت اظن ان آثاره طمست ولم يبق ما يشير الى مكانته التاريخية . وفيه مطالب مهمة عن الآثار العراقية، وتوضيح لمشاهدات في عمارات خيرية ، وكلام في الأسرة العباسية لا نجدها في غيره . فكان عظيماً في اختصاره وهو صفوة تاريخ العراق ، ومتن متين فيه ، يغني على اختصاره عن مطالعة اسفار . وهو زبدة التصانيف وروح المطالب . وهذا المؤرخ ممن له اصبع في الإدارة او علاقة في الدولة ، ويستفاد من صحة نقله نبصره في شؤونها ، وكتب كما يريد ولم يكتب كما يُراد »(٢٩) .

حقق هذا الكتاب الجليل وعلق عليه : الدكتور مصطفى جواد . ولكنه توفي قبل ان يُطبع . فنشرته وزارة الإعلام . وقد وضع فهارسه وأشرف على طبعه : سالم الآلوسي : (مطبعة الحكومة ـ بغداد ١٩٧٠ ؛ ٤٣٣ ص) .

(٢٨) (« فهرست المخطوطات المصورة » : الجزء الثاني ـ القسم الثاني : لفؤاد سيد ، ص ١٢٤ ; القلم ٨٣٢) .
(٢٩) (« التعريف بالمؤرخين » ص ١٢٨ ـ ١٢٩) .

راجع بشأنه ، ما كتبه :

د. قاسم السامرائي : (« مجلة مجمع اللغة العربية » ٤٨ [دمشق ١٩٧٣] ص ٤١٢ ـ ٤٢٨).

صبحي البصام : (« مجلة مجمع اللغة العربية » ٤٩ [دمشق ١٩٧٤] ص ١٦٦ ـ ١٨١).

٩ ـ مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية :

وهي هذه التي ننشرها اليوم . ولم نجد بين المؤرخين الاقدمين من ذكرها .

١٠ـ اللاحة في الفلاحة(٣٠) :

وهو من التصانيف الضائعة .

١١ـ المنظومة الاسدية(٣١) :

في اللغة العربية . نظم فيها رسالة « أسماء الأسد » للصغاني .

١٢ـ النبراس المضيء(٣٢) :

في اللغة .

* * *

(٣٠) (« الدرر الكامنة » ٢ : ١١٩) ، (« هدية العارفين » ١ : ٧١٥) .
(٣١) (« طبقات الشافعية الكبرى » ٦ : ٢٤٢) ، (« هدية العارفين » ١ : ٧١٥) ، (« تاريخ الادب العربي في العراق » ١ : ٣٥) .
(٣٢) (« طبقات الشافعية الكبرى » ٦ : ٢٤٢) ، (« الدرر الكامنة » ٢ : ١١٩) ، (« هدية العارفين » ١ : ٧١٥) . وفي (« كشف الظنون » ٢ : ١٩٢٢) : « نبراس الفتي » . وهو وهم . وفي (« الأعلام » للزركلي ، ٥ : ١٥٥) : « في فقه الشافعية » .

[٣٥ أ]

مقامة
أنشأها الشيخ العالم العدل ، ظهير الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمود بن الكازروني ، تغمده الله برحمته ، في قواعد بغداد في الدولة العباسية

[٣٥ ب]

بسم الله الرحمن الرحيم

عليه توكلت .

حدثنا قاضي تبريز ؛ وهو من ثقات المحدثين وسادات المحدثين ، قال : كنتُ لا أريم[٣٣] عن بلدي المألوف ولو رغبت بالألوف . وكنت ضنيناً أن أفارق بلدة بتربتها نيطت عليّ التمائم . إلاّ انّي كنتُ أسمع من جوّاب الأقطار وطرّاق البلاد والأمصار ، انّ دار السلام هي كعبة الاسلام وحرم الإمام ومعدن الكرام ودار الخلافة ومحلّ الأمن من المخافة . وبها مقرّ الملك وسريره وإمام العصر وأميره ، خليفة[٣٤] الله وابن عمّ نبيّه الأواه . تذعن الملوك بالطاعة لسلطانها ، وتتداكّ[٣٥] على أبوابه لتقبيل أركانها . والعدل بها ممدود الرواق ، والعلم مديد الاطناب في الآفاق . والدين منشور اللواء ، والإسلام محروس الجناب بالخلفاء . وقطانها أعذب الناس أخلاقاً [٣٦ أ] وأكثرهم حياء واطراقا ، وأثقب العالم بصيرة ، وأعدلهم سيرة ، وأصفاهم سريرة ، وأدمثهم للصديق ، وأحناهم على الصاحب والرفيق . وزاهدهم العلم المشهور ، والقدوة المشار إليه في الأمور . وعوامها السوقة تغتنم مفاكهتهم وتروق مجالستهم . أخلاقهم عذبة للصاحب ؛ وخواطرهم من أعجب العجائب . يسبق ادراكهم البرق اللامع ، ويدهش ذكاؤهم الرائي والسامع . قد اعتدل هواؤها ، وطاب فناؤها ، وعذب ماؤها ، ورقت أسحارها ، وورفت[٣٦] أشجارها . فهم في خفض من العيش يتقلبون . « لَهُمْ دارُ السلامِ عندَ رَبِّهِم ، وهو وَلِيُّهُم بما كانوا يَعْمَلُونَ »[٣٧] .

---

(٣٣) المخطوط : لا ارم . والوجه ما في اعلاه .

(٣٤) المخطوط : وفيها خليفة .

(٣٥) المخطوط : وتتباكك . يقال : تداك عليه القوم بمعنى ازدحموا .

(٣٦) المخطوط : وزفت .

(٣٧) سورة الأنعام . الآية ١٢٦ .

فخطر ببالي في بعض الليالي ، أن ألبس سربالي البالي وأفارق أشبالي ، واجعل على الله اتكالي ، في قطع فيافي البيداء ، ورفض الدعة للحث [٣٦ ب] الى الزوراء[٣٨] . فرأيتُ في المنام قائلاً أسمع نداءه ولا أتحقق مرآه ، ويملأ سمعي صوته وإنْ كنتُ لا أراه ، يقول : يا عبدالله « فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ على اللهِ »[٣٩] .

فنهض بي عزمي لإجابة الداعي ، وقعد أطفالي ينتحبون لوداعي ، وأنا أعدّ للرحلة زادي ، وأملأ بالماء ، لبُعْد المسافة ، مزادي[٤٠] . فلما اقتعدت راحلتي وأنضيتها في قطع مسافتي ، وافيتها بلدة خالية ، وأمة جالية ، ودمنة حائلة ، ومحنة جائمة[٤١] ، وقصوراً خاوية ، وعراصا باكية . قد رحل عنها سكانها ، وبان عنها قطّانها ، وتمزّقوا في البلاد ، ونزلوا بكلّ واد . وقصورها المشيدة مهدومة ، ونعماؤها مسلوبة معدومة ، موحشة لفقد قطانها ، باكية بلسان الحال على سكّانها . عظام العظام بالية تسفي عليها الرياح السافية . « فَهَل تَرَى لَهُم مِن باقيةٍ »[٤٢] . فوقفتُ أبكيها واندب ربوعها ومَن كان فيها .

[٣٧ أ] وأندب أطلالها تارة وأبكي على فرقة الظاعنينا
فلو ذهبت مقلة بالبكاء لفرط الغرام لكنّا عمينا

وهناك شخص قد بصر بحالي وهو يذري[٤٣] دمعه لسماع ارتجالي . فقلتُ له : ما جلاؤك فقد أعجبني حالك . فقال : إليك عنّي واذهب لسبيلك ودعني . فاني أتمتع بالبكاء وأسح[٤٤] الدمع على هذه الأصداء ، وأقيم مأتم العزاء . فلو رأيتَ من هذه البلدة ما رأيتُ . لأذريت معي الدمع ولأسمع بكاؤك الجمع . فقلت له : حدّثني كأنّي أشاهد ، وصف لي ما كان بها من المشاهد . فقال : يتصدّع قلبك ويطير لسماع ذلك لبّك . وإذا شئت فاتبعني وحدّث عن نفسك ولا تروعني . فأسرعتُ خلفه أقص أثره ، حتّى وقف بي على عبرة ما[٤٥] اعتبره .

(٣٨) مِن اسماء بغداد .
(٣٩) سورة آل عِمْران . الآية ١٥٨ .
(٤٠) المزاد : قربة الماء .
(٤١) المخطوط : جائلة .
(٤٢) سورة الحاقّة . الآية ٧ .
(٤٣) اذرت العين دمعها : صبّته .
(٤٤) سح الدمع : نزل بغزارة .
(٤٥) المخطوط : من .

فرأيتُ حرم الخلافة مهانا ، بعد أن كان كعبةوأمانا . فطاف [٣٧ ب] بي ببعض قصوره[٤٦] واعتذر عن الباقي لقصوره ، وقال : يكفيك ما المحك واريك . هذا رواق[٤٧] عزيز ، الرفيع البناء ، وهو سرير ملك الخلفاء ، ومحلّ أنس السادة الأمراء ، ومهبط الخول[٤٨] والحشم ، ومقرّ الحور والخدم ، يسرح النظر منه في أنضر مقام ، وترتع العين منه في أبهى خليفة وإمام .

مقام عليه للنبوّة هيبة   وفيه من الركن العتيق ملامح

يودّ بسيط الجوّ لو انّه له   بساط وانّ الشهب فيه طرائح[٤٩]

كانت تبرز منه الأوامر الشريفة الى الديوان بعلم الخليفة ؛ تارة بجزيل الصلات ، وتارة بالمعروف وإقام الصلاة ، وتارة بالنهي عن المنكرات ، وتارة بالقصاص من أهل الجنايات ، وتارة الى الملوك بالتقدمات ، وتارة بالتخويف من التبعات . ترعد فرائص الملوك لورودها ، وينزل بها الرعب في صدورها ، فتقابلها بالامتثال [٣٨ أ] وامضاء مراسمها في الحال بعد التبرّك بها ، وامرارها على نواظرها . طوبى لمن كانت تصل إليه ، ويا حسرة مَن فاته تقبيلها[٥٠] ، وواها لمن[٥١] كان يصل الى هذا المقام أو يتمنّاه أو يبلغ درجة المثول به ، أو يراه . قد تبدّل بعد الأنس بالكآبة ، حتى صار بهذه المثابة يستوقف بلسان حاله ، ويستبكي على تغيّر أحواله . فسبحان مَن له الدوام والبقاء والعظمة والكبرياء . « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ »[٥٢] .

ثمّ قال : وهذا باب الحَجْرة[٥٣] الشريفة المشار إليه ، وعنده كانت تقف[٥٤] دابة

(٤٦) راجع بشأن قصور دار الخلافة العباسية ببغداد ؛ ما كتبه : د. مصطفى جواد بعنوان « دار الخلافة العباسية : تعيين موضعها وأشهر مبانيها » : (« مجلّة المجمع العلمي العراقي » ١٢ [بغداد ١٩٦٥] ص ٩٨ — ١١٥) .

(٤٧) من أروقة دار الخلافة ببغداد . كان قائما في اواخر أيام الدولة العباسية ، وبعد انقراضها . راجع : مقالة « عثور الجدود على النقود » لكوركيس عوّاد : (« مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق » ٢٠ [١٩٤٥] ص ١٥٤ — ١٥٦) . وانظر (« دليل خارطة بغداد » ص ٢١٦ — ٢١٩) .

(٤٨) الخول ، محرّكة : جمع خولي . العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية .

(٤٩) المخطوط : طلايح . والطرائح جمع طرحة ، وهي ها هنا بمعنى الطيلسان .

(٥٠) المخطوط : فضيلتها .

(٥١) المخطوط : وراها عليه من كان .

(٥٢) سورة آل عمران . الآية ٢٥ .

(٥٣) راجع (« معجم البلدان » ١ : ٤٤٤ ، طبعة وستنفلد . ليبسك ١٨٦٦م) .

(٥٤) المخطوط : يقف .

النوبة والمعوّل من الأبواب عليه ، لأنه باب أمّ الخليفة ، فلذلك فضلها . وعنده كان ينادي بالصلاة لكلّ فريضة افترضها . فلو سمعت ترجيع القراء به من الأذان واختلاف الأصوات [٣٨ ب] بضجيج الألحان ، لأنسيت مطربات القيان . ولو عاينت وقوفهم بهذا المكان يودّون لو صافحوه بالأجفان ، لعلمت موضع هيبته ،ولظهر(٥٥) لك حقيقة حرمته . ولكن أنت تشاهد الآن أصداء بالية وربوعاً خالية .

ثمّ استدبره وتعداه ومضى عنه وخلاه ،وأنا أتبع ظله أينما ذهب ، وأقفو(٥٦) أثره لأنظر العجب .

فجنح الى بعض الأماكن ، وقال : وهذه دار الطبل ، ولكن أين الساكن ؟ كانت آهلة بالمبنكمين(٥٧) ، عامرة بالساعاتية لإدراك وقت التأذين . فاذا دخل وقت الصلاة ، ضربت النوبة في جميع الأوقات .

وهذه القصور التي تراها ، والنعمة الظاهر أثرها ، أين مَن بناها ؟. كانت الجهات(٥٨) بها محمية الجانب الى أن حكم فيها الأجانب ،فاسترقوا كالإماء ، واستُهينوا كالعبيد ، بعد الملك والثراء والنعيم والضوضاء والصيتة [١٣٩] والعلاء والمنزلة الرفيعة العلياء .

ثمّ هرول قدّامي وأنا أنقل خلفه أقدامي ،حتى خرج من الدار ، وقال قد وقفت على الآثار ،

(٥٥) المخطوط : وظهر .
(٥٦) المخطوط : واقفوا .
(٥٧) هم الذين إليهم النظر في البنكامات . والبنكامات آلات يقدّر بها الزمان . وهي اصناف : رملية ، ومائية ، ودورية اي معمولة بدواليب يدير بعضها بعضاً . انظر : (« كشف الظنون » ١ : ٢٥٥ ؛ طبعة استانبول ١٩٤١) .
وراجع في هذا الشأن :
يوسف غنيمة : « صناعات العراق في عهد العباسيين : البنكامات والآلات المتحرّكة » : (« مجلّة غرفة تجارة بغداد » ٤ [بغداد ١٩٤١] ج ٨ ؛ ص ٥٧٥) .
د. مصطفى جواد : « البنكامات والساعات المائية » : (مجلّة « العلم والحياة » بغداد ـ آذار ١٩٦٩) ، و (جريدة « الثورة » بغداد ٢٢ ـ١٢ـ١٩٦٩ ، ع ٤٠٤ ، ص ٦) .
ولشمس الدين محمد بن عيسى بن احمد الصوفي ، رسالة تقع في مقدّمة وخمسة ابواب وخاتمة ، عنوانها « الإعلام بشدّ البنكام » ألّفها سنة ٩٤٣هـ = ١٥٣٦م . ذكر فيها طريقة آلة الساعة من الرمل في القارورة . انظر :(« كشف الظنون » ١ : ١٢٧) . ومنها نسخة خطّية في مكتبة الدراسات العليا بكلّية الآداب من جامعة بغداد .
(٥٨) الجهات واحدتها الجهة . وهي كناية عن المراة السيدة الجليلة القدر . انظر : (« صبح الأعشى » للقلقشندي ٥ : ٥٠٢) ، و (« الالقاب الإسلامية » لحسن الباشا ، ص ٢٤٨) .

فقلت : بالذي حكم بما نحن فيه ! اجعلني ممّن تصطفيه ؛ فقد أنست بصحبتك نهاري ، ورحضت[٥٩] فكاهتك تعبي وأفكاري . فقال : سمعاً لك وطاعة ، فقد وجب حقّك في هذه الساعة . فمن صحّ قصده إلينا وجب حقّه علينا ، وسأنكفىء بك الى داري ، وأسهمك درهمي وديناري . فشكرتُ له عن صالح ما نواه ، وقطعت أملي عمّن سواه . فلمّا صرت معه الى داره ، فصُرت[٦٠] بوجهي إليه لاستماع أخباره . قلتُ له : غرضي ، حيث ند فاتني العيان أن أعرف ما كانت عليه بغدان[٦١] ، فابسط لي بالحديث ولا تبق[٦٢] من قديم ولا حديث . فقال : أمّا الدولة الإمامية فمن ينتهي الى وصفها ؟ ، وكيف أبلغ الى حقيقة نعتها ؟. كانت دار الوزراء ينزلها الأمراء ؛ لأنها باب الخليفة الظاهر ، وإليها التقدمات لشريف الأوامر . والصدور تختلف إليها ، وتراجع الديوان فيما يعتاص عليها [٣٩ ب] ، وحاجب المجلس بصدد إنفاذ التقدمات وامضاء المراسم وابرام المهمات . والحجّاب على اختلاف طبقاتهم بين يديه ، [والنقباء في أماكنهم إلاّ انّهم أهون عليه . فحجّاب المناطق[٦٣] كالعرائس في صدور المجالس ، أو الأقمار في الليل الدامس ، والقيام قياما لا يزالون ، والنقباء بعدهم في الخدمة يقفون][٦٤] . والمركوب يقف عند ستر الباب الثاني على أجمل هيئة وأحسن معاني . وبعده الدار الوسطى . وبها دست[٦٥] الوزارة في الإيوان . وكاتب السلة [ونوّاب الديوان وكتّابه على صُفّة وتجاههم عارض الجيوش ومسومها[٦٦] على صُفّة][٦٧] . وبوّاب العرض في ذلك المكان ، كلّ منهم يختصّ بقطر منها ، وله مقام لا يحول عنها . والوزير منها بعد الستر

(٥٩) رحضت : غسلت .

(٦٠) من صار يصور : بمعنى أمال يميل .

(٦١) بغدان لغة في بغداد . وفي (« معجم البلدان » ١ : ٦٧٨) : سبع لغات وردت في اسم بغداد .

(٦٢) المخطوط : تبقي .

(٦٣) المناطق ، واحدتها المِنْطَقَة : ما يُشَدّ في الوسط . وعنها يعبّر اهل زماننا بـ « الحياصة » .

(٦٤) ما بين المربّعين يعتوره غموض فيما نرى .

(٦٥) الدَّسْت . جَمْعها : الدُّسُوت : لفظة معرّبة بمعنى الديوان ، ومجلس الوزارة . او ما يُهيّأ لجلوس الخليفة او الأمير او الوزير او كبار الناس .

راجع : (« رسوم دار الخلافة » لهلال بن المُحَسِّن الصابىء . حقّقه وعلّق عليه ونشره : ميخائيل عوّاد . مطبعة العاني ـ بغداد ١٩٦٤ ؛ ص ١٣) ، (« شفاء الغليل » للخفاجي ، ص ٩٧ ؛ طبعة الوهبية ـ مصر ١٢٨٢ هـ) .

(٦٦) التسويم : التعليم ؛ أي وَضْع العلامات .

(٦٧) ما بين المربّعين ورد في هامش الصفحة .

الثاني تحفته ولداته المعوذون بالمثاني • فمن ورد من الصدور وذوي المراتب جلس الى أن يأذن له الحاجب • وإن قدم رسول ؛ تأهبوا للخـروج وجعلوا صدر الموكب مَن يليق بحالـه للتسليم عليه حبراً[٦٨] لمرسله وتشريفاً لمنفـذه ومحمله ،فيدخل والدعاة بين يديه والجاووشية[٦٩] تصيح بالتطريق[٧٠] ، والجاندارية[٧١] الى جانبيـه ،والمماليك في طريقه صفوفاً وعلى الخـدمة عكوفا [٤٠ أ] ، فاذا وصل باب النوبي[٧٢] ، عضّدوه وفسحوا له فحطوه . فصلّى به ركعتين ، وقبّل مرة بعد مرتين ليحصل له بذلك كمال الدخـول في طاعة الديوان والتشرّف[٧٣] بالمثـول في ذلك المكان • ثمّ يحشّل الى دار خدمته وتدرّ عليه الإقامـة[٧٣أ] من ساعتـه كذلك ثلاثة أيام • ثمّ يُستدعى للكلام • فاذا نجزت أشغاله وآن ارتحاله ، كُتب له الجواب ، وشرّف بأفخر الثياب •

وكانت البدرية أحد أبواب الخليفـة[٧٤] العلية ، يسكنها الشرابي أحد خدمه وصاحب[٧٥] الحكم في داره وحرمه ، وخاصّ الخواص وسيّدالعام والخاص وزعيم الجيوش والقوّاد ومالك الأمر في البلاد ، وإليه ترجع المماليك والخـدم ،وعلى يده تُفَضّ الأموال والنعم • فمنها انه في

(٦٨) يُقال حبره حبرا : سره وابهجه .

(٦٩) الجـاووش والجـاويش والشاويش : لفظ تركي . جمعه جاوشية وجاويشية . وهم جنـود وظيفتهم السير امام السلطان في مواكبه للنداء وتنبيه المارة . راجع (« معجم الادباء » ٧ : ١٩٩ ، طبعـة مرجليـوث) ، و (« السلوك » للمقريزي ، ١ : ٨٧ ، الحاشية ٢ ، تحقيـق : د. محمد مصطفى زيادة) و (Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes. I, 169.)
وما كتبـه الاب انستاس ماري الكرملي ، في « لغة العرب » ٤ [بغداد ١٩٢٧] ص ٦١١-٦١٢) ، و (« الرتب والألقاب المصريـة » لأحمـد تيمور . القاهرة ١٩٥٠ ؛ ص ٥٥ ــ ٥٦) .

(٧٠) طرّق له بتشديد الراء : جعل له طريقا .

(٧١) الجاندارية : فئة من مماليك السلطـان اوالأمير . واللفظـة فارسية من : « جان » بمعنى سلاح ، و « دار » بمعنى ممسك . راجع : (« السلوك » للمقريزي ١ : ١٣٣) ؛ و (« دائـرة المعارف الإسلامية » : الترجمة العربية ٦ : ٢٤٧ ؛ مادة « جاندار ») .

(٧٢) باب النوبي : من ابواب دار الخلافة العباسية ببغداد . كان يدعى بباب العتبة ايضاً ، فقد كانت فيه العتبـة التي يقبّلها الرسل والامـراء والملوك ورؤسـاء الحجّاج إذا قدموا بغداد .
انظر : (« دليـل خارطة بغـداد » ص١٥٨) .

(٧٣) المخطوط : والتشريف .

(٧٣ أ) الإقامة وجمعها : الإقامات : يراد بها انـواع المؤن .

(٧٤) لعـلّ الاصل : احد ابواب دار الخليفة ، اودار الخلافة .

(٧٥) المخطوط : نصاحب .

كلّ عام يجلس للخاصّ والعام ، ويفض من المبار ما يجاوز حدّ الإكثار ، فيشمل بعطائه الداني والقاصي ، ويعمّ بنائله المطيع والعاصي ؛

شعر :

يكاد يحكيه صوب الغيث منهمرا   لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا

[٤٠ ب] فيستمر على ذلك أياماً ، يعطي فيها أموالاً جساما ، نيابة عن مولاه ، إذْ هو أجلّ من أن يتولاّه ، إلاّ انّه يشاهد فضّ الأموال من وراء الحجاب ، ويسمع ابتهال المخلصين بالدعاء المجاب، فاذا انقضت أيام العطاء ،انتصب لتدبير ملك الزوراء مشيراً بالمصالح ، ومنبّهاً على الخير اللائح . وله مركوب يوقف(٧٦) بها الى الليل(٧٧) ، ثمّ يحمل الى مقام الحيل ، تحفّه غلمان كالعقبان ، وتزفّه في مركب من العقيان . وكانت الصدور كالأهلّة لا [بل](٧٨) كالبدور . فصاحب ديوان الزمام(٧٩) هو صدر صدور الإسلام وخالصة

(٧٦) المخطوط : يقف .

(٧٧) كذا ورد في النصّ . والظاهر انّ المقصود انّ له محفّة يطوف بها على المصالح .

(٧٨) زيادة اقتضاها المقام .

(٧٩) عُرف ايضاً بـ « الديوان » و « ديوان المزيز » و « ديوان زمام الازمّة » . لم يكن موجوداً في عهد بني اُميّة . انشيء في سنة ١٦٢هـ . والمراد به : الديوان الأعلى المُشرف على دواوين الدولة . قال الطبري (في حوادث سنة ١٦٢هـ) : « وفيها وضع المهدي دواوين الأزمّة ، ووَلّى عليها عمر بن بَزيع مولاه ، فولّى عمر بن بَزيع ، النعمانّ بن عثمان ابا حازم زمام خراج العراق » .

وذكر الطبري ايضاً (حوادث سنة ١٦٨هـ) : « وفيها ولّى المهدي ، عليّ بن يقطين ديوان زمام الازمّة على عمر بن بَزيع . وذكر احمد بن موسى بن حمزة ، عن ابيه ، قال : اوّل مَن عمل ديوان الزّمام عمر بن بزيع في خلافة المهدي ؛ وذلك انّه لمّا جُمعت له الدواوين تفكّر ، فاذا هو لا يضبطها إلاّ بزمام يكون له على كلّ ديوان ؛ فاتّخذ دواوين الأزمّة ، وولّى كلّ ديوان رجلاً ، فكان واليه على زمام ديوان الخراج اسماعيل بن صُبَيْح ، ولم يكن لبني اُميّة دواوين ازمّة » .

وراجع بشأن هذا الديوان : (« الوزراء والكتّاب » للجهشياري ، ص ١٦٧ – ١٦٨ ، تحقيق : مصطفى السقا وزملائه . القاهرة ١٩٣٨) ، (« تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء » لهلال الصابيء ، ص ١٢٤ ، ١٨٣ ؛ طبعة آمدروز . بيروت ١٩٠٤) ، (« تكملة تاريخ الطبري » لمحمد ابن عبدالملك الهمداني ، ص ٢٠٥ ، الطبعة الثانية – بيروت ١٩٦١ ؛ بتحقيق : البرت يوسف كنعان) ، (« الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السِيَر » لابن الساعي ، ٩ : ١٦ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٢٠١ ، ٢٢١ ، ٢٨٠ ، بتحقيق : مصطفى جواد . بغداد ١٩٣٤) .

وانظر ايضاً : (« الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية » : لمحمد ضياء الدين الريس ، ص ٤٢٦ – ٤٢٧ ؛ القاهرة ١٩٦١) .

الإمام وسيّد أصحاب الأقلام . وصاحب البلاد ، والمؤتمن على الطارف والتلاد . الحاكم في السهل والجبل ، المطاع الأمر ان قال أو فعل ،لا يدرك شأوه أصحاب المراتب ، ولا ينال درجته أرباب المناصب ، لقربه من الخليفة ، ومثوله عندالسدّة الشريفة ، في حالتي السفر والحضر ، إنْ غاب شخصه عنه أو حضر . يتخصّص بذلك عنهم ، فإن جحدوه فضله ، فانه تتزلزل لركوبه أرض الزوراء ، وترعد لهيبته فرائص الكبراء ،وتنشر خلفه [٤١ أ] اعلام المشاد ، وتضرب له الطبول في سائر البلاد ، وفي خدمته النظار والصغار والكبار ، والأتراك والأمراء والسادة والعظماء . حتى انّ الخليفة جلس يوماً عند عوده من البلاد . والسادة ولده الأجواد ، لينزههم في موكبه ويشاهد ركوبه في منصبه . وكفى بذلك شرفاً ، فآهاً على المُلك كيف قد عفا .

وأستاذ(٨٠) الدار بصدد مصالحها ، وله منصب شريف بها ، يتولّى أمور الأمراء ، وديوان الأبنية ، وأبواب الخلفاء ، وخزائن السلاح وأمر نوّابها ، ورجال الأبواب وما يتعلق بها ، وخزانة الفرش للاستعمال ، وإليه في الكلّ المرجع والمآل .

وقاضي القضاة لمصالح المسلمين وتشييد قواعد الدين ، واثبات الحقوق الشرعية والعمل بالشريعة المحمدية ، يسجّل بشهادة المعدّلين(٨١) ،ويعقد الأنكحة بين المسلمين . يكتب له تقليد عند ترتبه ، وتفوّض إليه الأمور ليعلي منار الشرع بعزّه [٤١ ب] وعزمته . ومال الأيتام إليه ومعولهم في حفظ أموالهم عليه .

وصاحب المخزن أحد الصدور المنصوص عليه ، وصاحب الرأي المشار اليه ، يتولّى أعمال المخزن ونواحيه ، وتدبير كثير من مصالح الديوان ويليه . فطوبى لمن أهّل لمقامه ، وشرف بما فوّض إليه في اهتمامه .

والنقيبان ، فأحدهما ينظر في مصالح الطالبيين الأكارم ، والآخر يلي أمر الأسرة(٨٢) من بني هاشم . وكلّ منهما عالي الدرجة والمكان ،عظيم القدر جليل الشأن .

وحاجب الباب هو صاحب سيف الإمام ،المتفرّد بالسياسة في العوام بالعدل في الأحكام .

(٨٠) ويقال فيها استدار واستادار واستادالدار . وهي مركّبة من لفظين فارسيين : استاذ او استذ بمعنى « الاخذ » ، ودار بمعنى « المسك » . وهو لقب من يتولى قبض مال الخليفة او السلطان او الامير ، وصرفه . وتمتثل فيه اوامره .

(٨١) هم الذين ثبتت لهم العدالة في الديوان الشرعي .

(٨٢) يقصد الاسرة العباسية .

فمَن سرق قطعه ، ومَن انتهك المحرمات ردعه ،ومَن قتل قتله ، واقتصّ للمظلوم ممن ظلمه . وبين يدبه النواب والأعيان ، والحجّاب يتقلّدون ذلك أجمع ويقتصّون في ملأ ومجمع .

وعارض الجيوش بصدد مصالحهم والعرض في الديوان لتخير صالحهم ، واعتبار[٨٣] الأسلحة والدواب [٤٢ أ] واصطفاء الأكفاء والشباب .

إلاّ انّ سبحانه وتعالى ، لمّا أرسل عذابه سلب كلاًّ منهم عقله وصوابه . فنفذ سهم القضاء ، وانتشرت جناح الحِمام في الفضاء ، فلم تنفع الجُنّة ولا السلاح ولا البواتر ولا الرماح . فوقع الفشل وعمّ الكسل وساء العمل وكثر الزلل ، وبَطُل التدبير وحار الوزير : فنزل بهم العدو حين اختلّوا ، و « ما غُزِي قوم في عُقر دارهم إلاّ ذَلّوا »[٨٤] .

ولقد كانت الملوك كالأسود الضواري ، أوكالعقبان على ظهور المهاري . والمماليك كالبدور والبُزاة والصقور . والمُلك على سوقه قائم ،ورواق المملكة رفيع الدعائم . والأيام أعياد وأفراح ، والليالي أعراس ومراح ، ورياض الزمان متفتّقة النوّار ، وساعات الأيام مشرقة الأنوار . وشخص العطاء مهزوز الأعطاف ، وسحائب الإنعام غدِقة النِطاف . وبروق الآمال مسطرة الأنواء ، وأقطار المواهب عبقة الأرجاء . وأفنان الأفراح خضرة الأغصان ، وأطيار [٤٢ ب] المسارّ خاطبة على منابر الأفنان[٨٥] . ففي كلّ وقت تضرب طبول الهناء على أبواب الأمراء ، وتخفق بوقات السرّاء مؤذنةً بدوام النعماء . فلا وحقّك لا واللّه ، ما نظرت عيني الى أحسن[٨٦] منها بلدةً أبداً . وكيف يمثّل بها أو يقاس ، أويشبّه بالقدم ، الرأس .

وقد كانت تمضي لأهلها الأوقات والأيام والساعات كاملة المسار واللذّات ، ولهم فيها من كلّ المسرات . والمواسم تجلى في حلي النضارة ،وتلذّ أيامها للنظّارة .

فمنها موسم الحاج ، وهو أعظم مواسم السنة التي تكلّ عن وصف حسنه الألسنة ، وتفتح فيه آدُر المضيف لكلّ بائس من الحاج وضعيف . وتضرب على دجلة الحياض والروايا ، ويؤذن بالحجّ في سائر الرعايا . ثمّ يهرع الناس الى الفرجة على التبريز في حُلل الإبريز ، ما بين

(٨٣) اعتبر الشيء : اختبره .

(٨٤) من كلام أمير المؤمنين عليّ بن ابي طالب في « نهج البلاغة » (١ : ٦٤ ، من طبعة محمد محيي الدين عبدالحميد ــ في القاهرة) .

(٨٥) في أعلى هذه الكلمة : جمع فَنَن .

(٨٦) المخطوط : باحسن .

فتى وفتاه ، وشاب قد فتن بحسنه فتاه . يرتعون في رياض الجانب الغربي ، ما بين ماشٍ أو ممتطٍ صهوة عربي . فلا يزالون كذلك أياماً يمرحون وحداناً [٤٣ أ] وثناماً[٨٧] . والسبل تجلى في المواكب الى الخيام ، وتزفّ الى منازلها بالعبيدوالخدام . فاول ما يَقدِمُها العَلَم ، وهو مَحمَل الخاص . وبعده الكُوس[٨٨] ، وجندالسفر ، والنوبة المكيّة في الأثر ، تتهادى بين الحجّاب والدعاة ، والقرّاء في أحسن الصفات .ثمّ يتوالى في كلّ يوم سبيل بعد سبيل ، ورَحْل كل جهة[٨٩] محمل جميل ، حتى ينتهي خروج الحاج المجتمعين في الفجاج ، فيُخلَع على الأمير ويُكلَّل ، ويُنعَم عليه ثمّ يَحمَل ، فيخرج من ساعته ويدخل الحاج في طاعته .

فاذا رجعوا سالمين ، فهو موسم ثانٍ للمتنزجين ، يُفَض فيه من التشريفات[٩٠] على الحاشية والولاة ، ما يدهش الناظر ويجلو النواظر . وما منهم إلاّ من قد بَخْبَخ[٩١] بسلامة أهله ، مرحبين « بما آتاهمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ »[٩٢] .

---

(٨٧) الثنام : الجماعة من الناس .

(٨٨) الكُوس : بضمّ اوله ، جمعه الكوسات . وقد ورد ذكره في كثير من المراجع العربية القديمة. ويؤخذ ممّا جاء فيها انّ له مدلولَيْن :

الاول : الطبل الذي يُتَّخذ في ايام الحروب لتنبيه الناس ، وقد يُتَّخذ لغير اوقات الحرب ، كتنبيه الناس الى بدء الصيام اونحو ذلك . انظر : (« مقدّمة ابن خلدون » طبعة دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٥٦ ، ص٤٦٥ ـ ٤٦٦) ، (« تاج العروس » ٤ [القاهرة ١٣٠٦هـ] ص ٢٣٦) .

الثاني : الصنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يُدَقّ بأحدها على الآخر بايقاع مخصوص . راجع : (« صبح الأعشى » ٤ : ٩) .

وقد عقد هلال بن المُحسِّن الصابىء ، فصلاً بعنوان « ضَرْب الطَبْل في أوقات الصلوات » : راجع كتابه (« رسوم دارالخلافة » ص ١٣٦ ـ ١٣٧) ، وما ذكر من مراجع في حواشيهما .

(٨٩) الجهة : كناية عن المراة السيّدة الجليلة القدر . وقد سبقت الإشارة اليها في الحاشية (٥٨) .

(٩٠) التشريفات جَمْع « التشريف » . وقد وردت في : « صبح الأعشى » ٤ : ٥٢) بصورة « التشاريف » ويُراد بها : الخلع والهدايا التي يشرّف بها بعض الناس .

وراجع الفصل الموسوم بـ « خِلَع التقليد والولاية والتشريف والمنادمة » في كتاب (« رسوم دار الخلافة » ص ٩٢ ـ ٩٦) .

والفصل الذي يليه ، بعنوان « ما يُخدَم به الخليفة عند التقليد والتشريف بالتكنية واللقب» (ص ١٠٠ ـ ١٠٣) .

(٩١) بخبخ الرجل قال له : بخٍ بخٍ . وهي تقال للمدح وإظهار الرضى بالشيء .

(٩٢) سورة آل عمران . الآية ١٦٩ و ١٧٩ ، سورة النساء . الآية ٣٦ و ٥٣ .

ومنها شهر الصيام ، المختص بالعبادة والقيام ، المفتتح بالصدقات ، المنوَّر الليالي بالصلوات . ففي أول يوم منه يُفَضّ على العلماء والمتصوّفة [٤٣ ب] والنبلاء من بِدَر الإنعام وبُدْن الأنعام ما يجاوز حدّ الإكثار . ويُغني وقت الإفطار . ثمّ تفتّح آدُر المضيف للعوام والفقراء والأيتام ، فلا يبقى من لا(٩٣) يشمله الإنعام ، ويحصل له القوت في الصيام . وما من الملوك إلاّ مَن عليه راتب ، وكذلك الصدور وأصحاب المراتب ، يُفْطِر على أطباقهم الأماثل ، وأطايب الألوان تصل الى الفقير والسائل . ولياليه مشرقة بالمصابيح ، والمساجد منيرة بالصلوات والتراويح . والعوام ملتهية بالملاذ والغناء والفرح الى منتهى وقت العشاء . ثمّ ترفع قناديل التسحير ، وتتناغى شحارير التذكير . وأيامه كلّها عبادة ، وأوقاته طاعة وزيادة . فاذا بقي من الشهر أربع ليال ، وعاد جديده كالأسمال ، خلع المخزن تشريفات الخليفة على صدور الدولة الشريفة ، ثمّ بعده الملوك وأرباب المراتب والسادة ولُدّه الأطايب ، حتى يصل الإنعام الى الخاص والعام . فقلّ مَن لا ينال منها نصيباً ، وفي البعيد مَن لا يكون منها قريباً .

ثمّ يتهيأ الناس للعيد المشهود والمجمع المحشود الذي تكِلّ عن حسن وصفه ألسنة البلغاء ، وتعجز عن ادراك وصفه عقول الألباء ، فلا ينتهي الى نعته [٤٤ أ] قول قائل ، ولا يصل الى مثله الأواخر ولا الأوائل ، ولا رُئي لأحد من الملوك ما يناسبه ، ولا حُكي انّ لهم مثله أو ما يقاربه . فيباكر إليه في أحسن زينة ولباس ، ويجتمع لرؤية الموكب أكثر الناس . ثمّ يجلس الخليفة في داره ويعرض الموكب بأهله وصغاره ، والملوك في أحسن زينة وأبهى حلية ، وأعظم سكينة . فلا يزال الموكب والعساكر تجري كالسيل في جمع كنجوم الليل ، كذلك ثلاثة أيام حتى ينقضي منقضاه ، ويصل آخره ومنتهاه ، وقد تكاملت للعالم المسارّ في آناء الليل والنهار .

فإن كان الأضحى نحر الخليفة في أبوابه ، وكذلك أهل بلده ، رغبةً في ثوابه . فيمتار الفقراء ، ويؤجر الأغنياء .

ومنها موسم الترَب(٩٤) ، وإليها المنقلب . فيركب الوزير في أرباب الدولة والأمراء والصدور والكبراء ، في موكب مُشْتَهَر الى الرصافة ، وهي مدفن ولاة الخلافة . فيجتمعون بها للقراءة والدعاء

---

(٩٣) في المخطوط : فلا يبقى الا من يشمله . والوجه ما في اعلاه .

(٩٤) القبور .

وإهداء الثواب للخلفاء ، كذلك أياما يتشرّق[فيها](٩٥) ويتغرّب(٩٦) ، وقرّاء المواكب تشوّق وتطرّب . فاذا كان الليل اجتمع المتصوّفة والفقهاء ، وأوقدت الشموع ، وقرأ القرّاء ، وشرع الوعّاظ في الكلام[٤٤ ب]والاحياء الى آخر الظلام . فاذا أسفر الصباح وبادر المؤذّن بالفلاح ، فُضَّ على المذكورين من الحلواء وأطايب الطعام والغذاء ما يستغرق حدّ الإكثار ، ويعمّ ذوي الاقتار . على انّ الأيام كلّها كانت تمضي أفراحاً ومواسم يرتاح إليها الناس ارتياحاً . ففي كلّ سبت(٩٧) عيد جديد وموسم سعيد ، يخرج الناس الى الرياض والأزاهير لسماع أصوات الشحارير ، والغلمان كالولدان(٩٨) ، والجواري كالحور الحِسان ، ما بين أهيف وأحور وأكحل وأغيّد وأعطر(٩٩) .

في البدر من وجنته نكتة   وفَترة في العين من طرفه
إذا مشى جاذبه ردفه   كأنه يمشي الى خلفه

وطفلة تكامل شبابها ، وطاب عرفها ، وعذب رضابها ، ترمي عن قِسِيّ الحواجب بسهام الغنج الصوائب .

شعر :

وتنال منك بحدّ مقلتها   ما لا تنال بحدّها النُّصلُ
وإذا نظرت الى محاسنها   فلكلّ موضع نظرةٍ نَبْلُ

والناس في أرغد عيش ، وأطيب زمان ، وأعدل وقت . وأصفى أوان .

وأمّا زمان الربيع وأيام الوشي البديع ، فانّهم كانوا [٤٥ أ] يصطحبون ويتجمعون وينثالون « كأنّهم إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ »(١٠٠) . فينزلون الجواري في رهط من

(٩٥) زيادة اقتضاها المقام .
(٩٦) اي يحضر وقت الشروق والغروب .
(٩٧) راجع : ١ ــ حبيب زيّات : (« ايّام السبوت في دمشق في عهد العباسيين » : مجلّة « المشرق » ٣٦ [بيروت ١٩٣٨] ص ٤١ ــ ٤٦) .
٢ ــ ميخائيل عوّاد : (« العطلة الاسبوعية في الدولة العباسية » : « مجلّة المجمع العلمي العربي » ١٨ [دمشق ١٩٤٣] ص ٥٨) .
(٩٨) يقصد الولدان المخلدين .
(٩٩) كذا . ولعلّها : واقمر ، ما لونه لون القمر .
(١٠٠) سورة المعارج . الآية ٤٣ .

الجواري ، ويدخلون نهر[101] عيسى ، ويباكرون نحو قصده تغليسا[102] . فيجتمعون بالمحوّل[103] ، إذ عليه في الحسن المعوّل . فيخترفون[104] أشجاره ، ويقطفون ثماره ونوّاره ، ويفترشون رياضه وأزهاره ، وينزلون غيطانه وأنهاره . ثمّ تعزف القيان ، وتصطخب العيدان ، وتصفق الغدران ، وترقص الأغصان ، وتميد الأفنان . وكلّما دسع[105] الراووق[106] طاب المشوق ، وكلّما بكى السحاب ضحك الحَبَاب[107] . وكلّما طرب العُود زمجرت الرعود ، وقد انتظموا في سلك الراحة واجتمعوا للاستراحة . كذلك أياماً لا يطعمون مناماً . إلاّ انهم انتهكوا المحارم وارتكبوا المآثم ، وأصرّوا على الفجور وسفك الخمور . ولا جرم انّ العرش اهتزّ غضبا ، وسعِرَت جهنم حصباً[108] ، وازدادت لهباً ؛ فأخذهم الله تعالى إليه « أخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ »[109] ، « وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ »[110] . فأين المُلْك الباذخ [٤٥ ب] والشرف الشامخ . ذهبت والله الشهوات ، وبقيت التبعات . وخشعت الأصوات ، وسقيت الرفات من أعظم العظات . فالمرجع الى الله تعالى في الملمات ، فانّه « رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ »[111] ، « وهو الذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عن عِبادِهِ وَيَعْفُوا عن السَّيِّئاتِ »[112] .

(١٠١) نهر كان يروي منطقة بغداد الغربية . عُرف في العصر العباسي بهذا الإسم نسبة الى عيسى بن عليّ عمّ المنصور .
(١٠٢) غلّس : قام عند الغَلَس ، وهي ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح .
(١٠٣) المخطوط : بمحول . والمحوّل على ماذكر ياقوت (« معجم البلدان » ٤ : ٤٣٢ ، طبعة وستنفلد) : « بليدة حسنة طيبة نزهة كثيرة البساتين والفواكه والاسواق والمياه . بينها وبين بغداد فرسخ . وآثارها عند التلول المعروفة اليوم باسم « المضبق » ، على الطريق بين بغداد وابي غريب على بُعد زهاء ستة كيلومترات من جسر الخرّ . انظر : (« دليل خارطة بغداد » ص ٤٧) .
(١٠٤) اخترف الثمر : جناه .
(١٠٥) دسع الإناء : ملأه .
(١٠٦) الراووق : الكأس ، أو الإناء يروق فيه الشراب .
(١٠٧) الحَبَاب : الفقاقيع التي تعلو الماء والخمر .
(١٠٨) الحصب : ما هيّئ للوقود من الحطب .
(١٠٩) سورة القمر . الآية ٤١ .
(١١٠) سورة القمر . الآية ١٤ .
(١١١) سورة غافر . الآية ١٤ .
(١١٢) سورة الشورى . الآية ٢٤ .

فما رأيك أيها العبد الصالح ، في الإشتمال على المصالح . ورفض الدنيا والإنقطاع ، والتطبّع بأحسن الطبـــاع . فقلتُ : نعـم مـا رأيتَ والبشـرى لك في ما نويتَ . فعاهِدْني على الزهادة والتخلّي لنوافل العبـادة . ودع عنـك الأباطيل « واللهُ على ما نقولُ وَكيل" »[113].

ثمّ أكد بيني وبينه الميثـاق وعـزم على الإنطلاق فزوّدتُه بما حضر مِن العَيْن[114] ، وودّعتُـهُ وعيني كالعَيْن[115] ، فلا أدري ،وأبيـك ، أين سلك ، ولا أعلم أحيٌ هـو أم هلك .

تمّت المقامـة مُنْتَسَخَـةً مِن خطّ مصنّفها . والحمد للّه ربّ العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبيّ وآله الطيّبين الطاهرين وسلامُهُ .

(١١٣) سورة القصص . الآية ٢٧ .
(١١٤) العَيْن : النقد المضروب من المعـــدن ،نحاساً كان ام فضّة ام ذهبا .
(١١٥) العَيْن : ينبوع الماء .

بغداد في الكتب البلدانية العربية

اعداد

عدنان محمد الطعمة

غرناطة ـ اسبانيا

كانت فكرة صائبة وخطوة جليلة والتفاتة جميلة تلك التي دعت لها مجلة المورد باصدار عدد خاص عن (بغداد مدينة السلام) .

في البحث الذي أعددته وهو بغداد في الكتب البلدانية العربية ، توخيت فيه جمع ما كتبه الجغرافيون العرب عن مدينة دار السلام ، وكانت هذه الكتب قد تناولت بغداد طوبغرافيتها ، مساحتها وسكانها ، محالها وبيوتها حالتها العمرانية ، الجداول والسواقي والبساتين والرياض ، الجوامع والاسواق وأبوابها المشهورة ، كلاً حسب منهجه في الكتاب ، وارتأيت أن أنقل النصوص كما هي دون تعليق مني على المادة ، واستصواب رأي . بل تركت النصوص كما هي مشيراً الى الطبعة التي أخذت منها النص . فليست وظيفتي في الجمع البلداني أن أُدقق في النصوص وأحققها ، بل هي من عمل محققي تلك الكتب ، ولا يجوز لي التجاوز على عملهم ، وان يكن ثمة جهد لي ، فهو نقل النصوص فقط وترتيب المصادر حسب وفيات مؤلفيها كما استثنيت كتاب الهمداني عن بغداد ذلك لأنه كتاب مستقل وقد أخرجته وزارة الثقافة والاعلام من سنتين . كذلك تركت ما يتعلق ببغداد في الكتب التاريخية من مواد جغرافية ، وكذلك كتب الموسوعات الأدبية ، مثل صبح الأعشى .

وأقول بتواضع إن العملَ ليس لي ألبتة ، إنما لأولئك العظماء من سلفنا الجغرافي ؛ كما اني لا أريد الأشارة الى ميزة كل كتاب عن بغداد فذلك ما يدعو القارىء أن يصرف نظره عن الاستفادة وعدم استمتاعه بقراءة النصوص ؛ فتركتها لهُ دون ما اشارة كي يلتمس متعتهُ ويجد ضالته ويعفيني من الخطأ ويعذرني من السهو ، ومن الله التوفيق .

- ١ -

اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب ت/٢٨٤هـ(*)

- « بغداد » -

وانما ابتدأت بالعراق لانها وسط الدنيا وسرة الارض ، وذكرت بغداد لانها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الارض ومغاربها سعة وكبراً وعمارة وكثرة مياه وصحة وهواء ولانه سكنها من اصناف الناس واهل الامصار والكور ؛ انتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية وآثرها جميع اهل الآفاق على اوطانهم ، فليس من اهل البلد الا ولهم فيها محلة ومتجر ومتصرف ، فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا ثم يجري في حافتيها النهران الاعظمان دجلة والفرات فيأتيها التجارات والمير براً وبحراً بأيسر السعي حتى تكامل بها كل متجر يحمل من المشرق والمغرب من ارض الاسلام وغير ارض الاسلام فإنه يحمل إليها من الهند والسند والصين والتبت والترك والديلم والخزر والحبشة وسائر البلدان حتى يكون بها من تجارات البلدان اكثر مما في تلك البلدان التي خرجت التجارات منها ويكون مع ذلك اوجد وامكن ، حتى كانما سيقت إليها خيرات الارض . وجمعت فيها ذخائر الدنيا ، وتكاملت بها بركات العالم ، وهي مع هذا مدينة بني هاشم ودار ملكهم ومحل سلطانهم ؛ لم يبتد بها احد قبلهم ولم يسكنها ملوك سواهم ، ولان سلفي كانوا القائمين بها ؛ واحدهم تولى امرها ؛ ولها الاسم المشهور والذكر الذائع ، ثم هي وسط الدنيا ؛ لانها على ما اجمع عليه قول الحساب وتضمنته كتب الاوائل من الحكماء في الاقليم الرابع ، وهو الاقليم الاوسط الذي يعتدل فيه الهواء في جميع الازمان والفصول ، فيكون الحر بها شديداً في ايام القيظ ، والبرد شديداً في ايام الشتاء ، ويعتدل الفصلان الخريف والربيع في اوقاتهما ، ويكون دخول الخريف الى الشتاء غير متباين الهواء ، ودخول الربيع الى الصيف غير متباين الهواء ، وكذلك كل فصل ينتقل من هواء الى هواء ، ومن زمان الى زمان ، فلذلك اعتدل الهواء ؛ وطاب الثرى ، وعذب الماء ، وزكت الاشجار ، وطابت الثمار ، واخصبت الزروع ، وكثرت الخيرات ؛ وقرب مستنبط معينها ، وباعتدال الهواء ، وطيب الثرى ، وعذوبة الماء حسنت اخلاق اهلها ، ونضرت وجوههم ، وانفتقت اذهانهم حتى فضلوا الناس في العلم والفهم والادب والنظر والتمييز والتجارات والصناعات والمكاسب والحذق بكل مناظره ، واحكام كل مهنه . واتقان كل صناعة ؛ فليس عالم اعلم من عالمهم ، ولا اروى من راويتهم ، ولا اجدل من متكلمهم ، ولا اعرب من نحويهم ؛ ولا اصح من قارئهم ، ولا امهر من متطببهم ، ولا احذق من مغنيهم ، ولا الطف من صانعهم ، ولا اكتب من كاتبهم ، ولا ابين من منطيقهم ، ولا اعبد من عابدهم ، ولا اورع من زاهدهم ، ولا افقه من حاكمهم ، ولا اخطب من خطيبهم ، ولا اشعر من شاعرهم ، ولا افتك من ماجنهم ، ولم تكن بغداد مدينة في الايام المتقدمة ؛ اعني ايام الاكاسرة والاعاجم ، وانما كانت قرية من قرى طسوج بادوريا ؛ وذلك ان مدينة الاكاسرة التي خاروها من مدن العراق المدائن وهي من بغداد على سبعة فراسخ وبها ايوان كسرى انو شروان ولم يكن ببغداد الا دير على موضع مصب الصراة الى دجلة الذي يقال له قرن الصراة وهو الدير الذي يسمى الدير العتيق قائم بحاله الى هذا الوقت ؛ نزله الجاثليق رئيس النصارى النسطورية . ولم تكن ايضا بغداد في ايام العرب لما جاء الاسلام لان العرب اختطت البصرة والكوفة ؛ فاختط الكوفة سعد بن ابي وقاص الزهري في سنة سبع عشرة وهو عامل عمر بن الخطاب ، واختط البصرة عتبة بن غزوان المازني - مازن قيس - في سنة سبع عشرة وهو يومئذ عامل عمر ابن الخطاب ، واختطت العرب في هاتين المدينتين خططها الا ان القوم جميعا قد انتقل وجوههم وجلتهم ومياسير تجارهم الى بغداد . ولم ينزل بنو امية العراق لانهم كانوا نزولا بالشام وكان معاوية بن ابي سفيان عامل الشام لعمر بن الخطاب ثم لعثمان بن عفان عشرين سنة ، وكان ينزل مدينة دمشق واهله معه ، فلما غلب على الامر وصار اليه السلطان جعل منزله وداره دمشق التي بها كان سلطانه وانصاره وشيعته ثم نزل بها ملوك بني امية بعد معاوية لانهم بها نشأوا لا يعرفون غيرها ولا يميل اليهم الا اهلها ؛ فلما افضت الخلافة الى بني عم رسول الله (ص) من ولد العباس ابن عبدالمطلب عرفوا بحسن تمييزهم وصحة عقولهم وكمال آرائهم في فضل العراق وجلالتها وسعتها ووسطها للدنيا ، وانها ليست كالشام الوبيئة الهواء ، الضيقة المنازل ، الحزنة الارض ؛ المتصلة الطواعين ، الجافية الاهل ولا كمصر المتغيرة

(*) كتاب البلدان ، منشورات المطبعة الحيدرية - النجف ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م ، ص ٣ - ٢١ .

الهواء ، الكثيرة الوباء ، التي هي بين بحر رطب عفن كثير البخارات الرديئة التي تولد الادواء وتفسد الغذاء ، وبين الجبل اليابس الصلد الذي ليبسه وملوحته وفساده لا ينبت فيه خضر ولا ينفجر منه عين ماء . ولا كافريقية البعيدة عن جزيرة الاسلام وعن بيت الله الحرام ، الجافية الاهل ، الكثيرة العدو ، ولا كارمينية ، النائية الباردة ، الصردة الحزنة التي يحيط بها الاعداء . ولا مثل كور الجبل ، الحزنة الخشنة المثلجة ، دار الاكراد ولا كأرض خراسان ، الطاعنة في مشرق الشمس ، التي يحيط بها من جميع اطرافها عدو كلب ، ومحارب حرب . ولا كالحجاز ، النكدة المعاش ، الضيقة المكسب ، التي قوت اهلها من غيرها ، وقد انبانا الله عز وجل في كتابه عن ابراهيم خليله عليه السلام فقال : « رب اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع » . ولا كالتبت ، التي بفساد هوائها وغذائها تغيرت الوان اهلها ، وصغرت ابدانهم ، وتجعدت شعورهم فلما علموا انها افضل البلدان نزلوا مختارين لها ، فنزل ابو العباس امير المؤمنين وهو عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله ابن العباس بن عبدالمطلب الكوفة اول مرة ثم انتقل الى الانبار فبنى مدينة على شاطىء الفرات وسماها الهاشمية ، وتوفي ابو العباس (رض) قبل ان يستتم المدينة فلما ولي ابو جعفر المنصور الخلافة وهو ايضا عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بنى مدينة بين الكوفة والحيرة سماها الهاشمية ، واقام بها مدة ، الى ان عزم على توجيه ابنه محمد المهدي لغزو الصقالبة في سنة اربعين ومائة ، فصار الى بغداد ، فوقف بها وقال : ما اسم هذا الموضع ؟ قيل له بغداد . قال : والله المدينة التي اعلمني ابي محمد ابن علي اني ابنيها وانزلها وينزلها ولدي من بعدي، ولقد غفلت عنها الملوك في الجاهلية والاسلام حتى يتم تدبير الله لي وحكمه في ، وتصح الروايات ، وتبين الدلائل والعلامات ، والا فجزيرة بين دجلة والفرات ، دجلة شرقيها ، والفرات غربيها ، مشرعة للدنيا ، كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة والابلة والاهواز ، وفارس وعمان واليمامة والبحرين وما يتصل بذلك ، فاليها ترقى ، وبها ترسى . وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة واذربيجان وارمينية مما يحمل في السفن في دجلة . وما يأتي من ديار مصر والرقة والشام والثغر ومصر والمغرب مما يحمل في السفن في الفرات ، فيها يحط وينزل ومدرجة اهل الجبل اصبهان وكور خراسان ، فالحمد لله الذي ذخرها لي واغفل عنها كل من تقدمني ، والله لابنيها ثم اسكنها ايام حياتي ويسكنها ولدي من بعد ، ثم لتكونن اعمر مدينة في الارض ، ثم لابنين بعدها اربع مدن لا تخرب واحدة منهن ابدا فبناها ، وهي الرافقة ولم يسمها ، وبنى ملطية المصيصة ، وبنى المنصورة بالسند ، ثم وجه في احضار المهندسين واهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الارضين حتى اختط مدينته المعروفة بمدينة ابي جعفر واحضر البنائين والفعلة والصناع من النجارين والحدادين والحفارين ، فلما اجتمعوا وتكاملوا اجرى عليهم الارزاق واقام لهم الاجرة وكتب الى كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئا من البناء فحضره مائة الف من اصناف المهن والصناعات ، خبر بهذا جماعة من المشايخ ان ابا جعفر المنصور لم يبتد البناء حتى تكامل له من الفعلة واهل المهن مائة الف ، ثم اختطها في شهر ربيع الاول سنة احدى واربعين ومائة ، وجعلها مدورة . ولا تعرف في جميع اقطار الدنيا مدينة مدورة غيرها . ووضع اساس المدينة في وقت اختاره نوبخت المنجم ، وما شاء الله بن سارية ، وقبل وضع الاساس ما ضرب اللبن العظام . وكان في اللبنة التامة المربعة ذراع في ذراع وزنها مائتا رطل واللبنة المنصفة طولها ذراع وعرضها نصف ذراع ووزنها مائة رطل وحفرت الآبار للماء وعملت القناة التي تأخذ من نهر كرخايا ، وهو النهر الآخذ من الفرات فاتقنت القناة واجريت الى داخل المدينة للشرب ولضرب اللبن وبل الطين وجعل للمدينة اربعة ابواب ، بابا سماه باب الكوفة ، وبابا سماه باب البصرة ، وبابا سماه باب خراسان ، وبابا سماه باب الشام ، وبين كل باب منها الى الآخر خمسة آلاف ذراع بالذراع السوداء من خارج الخندق ، وعلى كل باب منها بابا حديد عظيمان جليلان ، ولا يغلق الباب الواحد منها ولا يفتحه الا جماعة رجال ، يدخل الفارس بالعلم والرامح بالرمح الطويل من غير ان يميل العلم ولا يثني الرمح ، وجعل سورها باللبن العظام التي لم ير مثلها قط على ما وصفنا من مقدارها والطين ، وجعل اساس السور تسعين ذراعا بالسوداء ثم ينحط حتى يصير في اعلاه على خمس وعشرين ذراعا وارتفاعه ستون ذراعا مع الشرفات ، وحول السور فصيل جليل عظيم ، بين حائط السور وحائط الفصيل مائة ذراع بالسوداء ، وللفصيل ابرجة عظام وعليه الشرافات المدورة ، وخارج الفصيل كما يدور مسناة بالآجر والصاروج متقنة محكمة عالية والخندق بعد المسناة قد اجري فيه

الماء من القناة التي تأخذ من نهر كرخايا وخلف الخندق الشوارع العظماء ، وجعل لابواب المدينة اربعة دهاليز عظاما آزاجا كلها ، حول كل دهليز ثمانون ذراعا كلها معقودا بالآجر والجص فاذا دخل من الدهليز الذي على الفصيل وافى رحبة مفروشة بالصخر ثم دهليزا على السور الاعظم عليه بابا حديد جليلان عظيمان ، لا يغلق كل باب ولا يفتحه الا جماعة رجال ، والابواب الاربعة كلها على ذلك ، فاذا دخل من دهليز السور الاعظم سار في رحبة الى طاقات معقودة بالآجر والجص فيها كواء رومية يدخل منها الشمس والضوء ولا يدخل منها المطر وفيها منازل الغلمان ، ولكل باب من الابواب الاربعة طاقات وعلى كل باب من ابواب المدينة التي على السور الاعظم قبة معقودة عظيمة مذهبة وحولها مجالس ومرتفعات يجلس فيها فيشرف على كل ما يعمل به ، يصعد الى هذه القباب على عقود مبنية بعضها بالجص والآجر وبعضها باللبن العظام قد عملت آزاجا بعضها اعلى من بعض فداخل الآزاج للرابطة والحرس ، وظهورها عليها المصعد الى القباب التي على الابواب على الدواب ، وعلى المصعد ابواب تغلق فاذا خرج الخارج من الطاقات خرج الى رحبة ثم الى دهليز عظيم ازج معقود بالآجر والجص عليه بابا حديد يخرج من الباب الى الرحبة العظمى وكذلك الطاقات الاربعة على مثال واحد ، وفي وسط الرحبة القصر الذي سمي بابه باب الذهب ، والى جنب القصر المسجد الجامع ، وليس حول القصر بناء ولا دار ولا مسكن لأحد إلا دار من ناحية الشام للحرس وسقيفة كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالآجر والجص يجلس في احداهما صاحب الشرطة وفي الاخرى صاحب الحرس ، وهي اليوم يصلي فيها الناس وحول الرحبة كما تدور منازل أولاد المنصور الاصاغر ومن يقرب من خدمته من عبيده وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج وديوان الاحشام ومطبخ العامة وديوان النفقات ؛ وبين الطاقات الى الطاقات السكك والدروب تعرف بقواده ومواليه وبسكان كل سكة ، فمن باب البصرة الى باب الكوفة سكة الشرطة وسكة الهيثم وسكة المطبق وفيها الحبس الاعظم الذي يسمى المطبق وثيق البناء محكم السور ، وسكة النساء وسكة سرجس وسكة الحسين وسكة عطية مجاشع وسكة العباس وسكة غزوان وسكة ابن حنفية وسكة الضيقة . ومن باب البصرة الى باب خراسان سكة الحرس وسكة النعيمية وسكة سليمان وسكة الربيع وسكة مهلهل وسكة شيخ بن عميرة وسكة المروروذية وسكة واضح وسكة السقائين وسكة ابن بريهة بن عيسى بن المنصور وسكة ابي احمد والدرب الضيق . ومن باب الكوفة الى باب الشام سكة المكي وسكة ابي قرة وسكة عبدويه وسكة السميدع وسكة العلاء وسكة نافع وسكة اسلم وسكة منارة . ومن باب الشام الى باب خراسان سكة المؤذنين وسكة دارم وسكة اسرايل وسكة تعرف في هذا الوقت بالقواريري قد ذهب عني اسم صاحبها وسكة الحكم بن يوسف وسكة سماعة وسكة ساعد مولى ابي جعفر وسكة تعرف اليوم بالزبادي وقد ذهب عني اسم صاحبها وسكة غزوان هذه السكك بين الطاقات ، والطاقات داخل المدينة وداخل السور ، وفي كل سكة من هذه السكك جلة القواد الموثوق بهم في النزول معه وجلة مواليه ومن يحتاج اليه في الأمر المهم وعلى كل سكة من طرفيها الابواب الوثيقة ، ولا تتصل سكة منها بسور الرحبة التي فيها دار الخلافة لان حوالي سور الرحبة كما تدور الطريق وكان الذين هندسوها عبدالله بن محرز والحجاج بن يوسف وعمران بن الوضاح وشهاب بن كثير بحضرة نوبخت وابراهيم بن محمد الفزاري والطبري المنجمين اصحاب الحساب .

وقسم الارباض أربعة ارباع وقلد للقيام بكل ربع رجلا من المهندسين واعطى اصحاب كل ربع مبلغ ما يصير لصاحب كل قطيعة من الذرع ومبلغ ذرع ما لعمل الاسواق في ربض ربض، فقلد الربع من باب الكوفة الى باب البصرة وباب المحول والكرخ وما اتصل بذلك كله المسيب بن زهير والربيع مولاه وعمران بن الوضاح المهندس . والربع من باب الكوفة الى باب الشام وشارع طريق الانبار الى حد ربض حرب بن عبدالله بن سليمان بن مجالد وواضح مولاه وعبدالله ابن محرز المهندس . والربع من باب الشام الى ربض حرب وما اتصل بربض حرب وشارع باب الشام وما اتصل بذلك الى الجسر على منتهى دجلة حرب بن عبدالله وغزوان مولاه والحجاج ابن يوسف المهندس ، ومن خراسان الى الجسر الذي على دجلة ماداً في الشارع على دجلة الى البغيين وباب قطربل هشام بن عمرو التغلبي وعمارة بن حمزة وشهاب بن كثير المهندس . ووقع الى كل اصحاب ربع ما يصير لكل رجل من الذرع ولمن معه من اصحابه وما قدره للحوانيت والاسواق في كل ربض ، وامرهم ان يوسعوا في الحوانيت ليكون في كل ربض سوق جامعة تجمع التجارات ، وان يجعلوا في كل ربض من السكك والدروب النافذة

وغير النافذة ما يعتدل بها المنازل ، وان يسموا كل درب باسم القائد النازل فيه أو الرجل النبيه الذي ينزله أو اهل البلد الذين يسكنونه ، وحدهم ان يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعا بالسوداء ، والدروب ستة عشر ذراعا ، وان يبتنوا في جميع الارباض والاسواق والدروب من المساجد والحمامات ما يكتفي بها من في كل ناحية ومحلة وامرهم جميعا ان يجعلوا من قطائع القواد والجند ذرعاً معلوماً للتجار يبنونه وينزلونه والسوقة الناس واهل البلدان وكان اول من اقطع خارج المدينة من اهل بيته عبدالوهاب بن ابراهيم بن محمد بن علي بن العباس بازاء باب الكوفة على الصراة السفلى التي تأخذ من الفرات ، فربضه يعرف بسويقه عبدالوهاب وقصره هناك قد خرب . وبلغني ان السويقة ايضا قد خربت . واقطع العباس بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب الجزيرة التي بين الصراتين فجعلها العباس بستانا ومزروعا وهي العباسية المذكورة المشهورة التي لا تنقطع غلاتها في صيف ولا شتاء ولا في وقت من الاوقات . واستقطع العباس لنفسه لما جعل الجزيرة بستانا في الجانب الشرقي وفي آخر العباسية تجتمع الصراتان والرحا العظمى التي يقال لها رحا البطريق . وكانت مائة حجر تغل في كل سنة مائة الف الف درهم ؛ هندسها بطريق قدم عليه من ملك الروم فنسبت اليه . واقطع الشروية وهم موالي محمد ابن علي بن عبدالله بن العباس دون سويقة عبدالوهاب مما يلي باب الكوفة وكانوا بوابية رئيسهم حسن الشروي . واقطع المهاجر بن عمرو صاحب ديوان الصدقات في الرحبة التي تجاه باب الكوفة فهناك ديوان الصدقات وبازائه قطيعة ياسين صاحب النجائب وخان النجائب ، ودون خان النجائب اصطبل الموالي ، واقطع المسيب ابن زهير الضبي صاحب الشرطة يمنة باب الكوفة للداخل الى المدينة مما يلي باب البصرة ، فهناك دار المسيب ومسجد المسيب ذو المنارة الطويلة واقطع ازهر بن زهير اخا المسيب في ظهر قطيعة المسيب مما يلي القبلة وهو على الصراة ؛ وهناك دار ازهر وبستان ازهر الى هذه الغاية . ويتصل بقطيعة المسيب واهل بيته قطيعة ابي العنبر مولى المنصور مما يلي القبلة ، وعلى الصراة قطيعة الصحابة وكانوا من سائر قبائل العرب من قريش والانصار وربيعة ويمن ؛ وهناك دار عياش المنتوف وغيره ، ثم قطيعة يقطين بن موسى احد رجال الدولة واصحاب الدعوة ثم تعبر الصراة العظمى التي اجتمعت فيها الصراتان الصراة العليا ، والصراة السفلى ، وعليها القنطرة المعقودة بالجص والاجر المحكمة الوثيقة التي يقال لها القنطرة العتيقة ، لانها اول شيء بناه وتقدم في احكامه ، فتنعرج من القنطرة ذات اليمين الى القبلة الى قطيعة اسحاق بن عيسى بن علي وقصوره ودوره شارعة على الصراة العظمى من الجانب الشرقي والطريق الاعظم بين الدور والصراة ومن قطيعة عيسى بن علي الى قطيعة ابي السري الشامي مولى المنصور ثم الطاق المعقود عليه الباب المعروف بباب المحول فتصير منه الى ربض حميد بن قحطبة الطائي وربض حميد شارع على الصراة العليا ، وهناك دار حميد واصحابه وجماعة من آل قحطبة بن شبيب ، ثم يتصل ذلك بقطيعة الفراشين ، وتعرف بدار الروميين وتشرع على نهر كرخايا ثم تعود الى الشارع الاعظم وهو شارع باب المحول ، وفيه سوق عظيمة فيها اصناف التجارات ، ثم يتصل ذلك بالحوض المتبق ، وهناك منازل الفرس اصحاب الشاه ، ثم يستمر المسير الى الموضع المعروف بالكناسة ، فهناك مرابط دواب العامة ، ومواضع نخاسي الدواب ثم المقبرة القديمة المعروفة بالكناسة مادة الى نهر عيسى بن علي الذي يأخذ من الفرات والدباغين ، وبازاء قطيعة الروميين على نهر كرخايا الذي عليه القنطرة المعروفة بالروميين دار كعيوبة البستانبان الذي غرس النخل ببغداد؛ ثم بساتين متصلة غرسها كعيوبة البصري الى الموضع المعروف ببراثا ، ثم رجعنا الى القنطرة العتيقة ، فقبل ان تعبر القنطرة مشرقا الى ربض ابي الورد كوثر بن اليمان خازن بيت المال وسوق فيها سائر البياعات تعرف بسويقة ابي الورد الى باب الكرخ وفي ظهر قطيعة ابي الورد كوثر بن اليمان قطيعة حبيب بن رغبان الحمصي وهناك مسجد ابن رغبان ومسجد الانباريين كتاب ديوان الخراج ، وقبل ان تعبر الى القنطرة العتيقة وانه مقبل من باب الكوفة في الشارع الاعظم قطيعة سليم مولى امير المؤمنين صاحب ديوان الخراج وقطيعة ايوب بن عيسى الشروي ثم قطيعة رباوة الكرماني واصحابه وتنتهي الى باب المدينة المعروف بباب البصرة وهو مشرف على الصراة ودجلة وبازائه القنطرة الجديدة لانها آخر ما بني من القناطر وعليها سوق كبير فيها سائر التجارات مادة متصلة ؛ ثم ربض وضاح مولى امير المؤمنين المعروف بقصر وضاح صاحب خزانة السلاح ؛ واسواق هناك واكثر من فيه في هذا الوقت الوراقون اصحاب الكتب فان به اكثر من مائة حانوت للوراقين ، ثم الى قطيعة عمرو بن سمعان الحراني وهناك طاق الحراني ثم الشرقية وانما

سميت الشرقية لانها قدرت مدينة للمهدي قبل ان يعزم على أن يكون نزول المهدي في الجانب الشرقي من دجلة فسميت الشرقية وبها المسجد الكبير ، وكان يجمع فيه يوم الجمعة وفيه منبر وهو المسجد الذي يجلس فيه قاضي الشرقية ثم اخرج المنبر منه ، وتنعرج من الشرقية مارا الى قطيعة جعفر بن المنصور على شط دجلة ؛ وبها دار عيسى بن جعفر وتقرب منها دار جعفر بن جعفر المنصور ، ثم تخرج من هذه الطرق الاربعة التي ذكرنا الى شارع باب الكرخ فاولها عند باب النخاسين ، ثم الاسواق مادة في جانبي الشارع وتنعرج من باب الكرخ متيامنا الى قطيعة الربيع مولى أمير المؤمنين التي فيها تجار خراسان من البزازين واصناف ما يحمل من خراسان من الثياب لا يختلط بها شيء وهناك النهر الذي ياخذ من كرخايا عليه منازل التجار يقال له نهر الدجاج لانه كان يباع عليه الدجاج في ذلك الوقت وفي ظهر قطيعة الربيع منازل التجار واخلاط الناس من كل بلد يعرف كل درب باهله وكل سكة بمن ينزلها . والكرخ السوق العظمى مادة من قصر وضاح الى سوق الثلاثاء طولا بمقدار فرسخين ومن قطيعة الربيع الى دجلة عرضا مقدار فرسخ فلكل تجار وتجارة شوارع معلومة وصفوف في تلك الشوارع وحوانيت وعراص ، وليس يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف مع غير صنفه ؛ ولا يختلط اصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم وكل سوق مفردة وكل اهل منفردون بتجاراتهم ، وكل اهل مهنة معتزلون عن غير طبقتهم وبين هذه الارباض التي ذكرنا والقطائع التي وصفنا منازل الناس من العرب والجند والدهاقين والتجار وغير ذلك من اخلاط الناس ينتسب اليهم الدروب والسكك . فهذا ربع من ارباع بغداد وهو الربع الكبير الذي تولاه المسيب بن زهير ، والربيع مولى امير المؤمنين ، وعمران بن الوضاح المهندس ، وليس ببغداد ربع اكبر ولا اجل منه . ومن باب الكوفة الى باب الشام ربض سليمان بن مجالد لانه كان يتولى هذا الربع فنسب اليه وفيه قطيعة واضح ثم قطيعة عامر بن اسماعيل المسلى ، ثم ربض الحسن بن قحطبة ومنازله ومنازل اهله شارعه في الدرب المعروف بالحسن ثم ربض الخوارزمية اصحاب الحارث بن رقاد الخوارزمي وقطيعه الحارث في الدرب ثم قطيعه ... مولى امير المؤمنين صاحب الركاب وهي الدار التي صارت لاسحاق بن عيسى بن الهاشمي ، ثم اشتراها كاتب لمحمد بن عبدالله بن طاهر ، يقال له طاهر بن الحارث ، ثم ربض الخليل بن هاشم الباوردي ثم ربض الخطاب بن نافع الصحاوي ، ثم قطيعة هاشم بن معروف وهي في درب الاقفاص ، ثم قطيعه الحسن بن جعفرات وهي في درب الاقفاص ايضا متصل بدرب القصارين . ومن شارع طريق الانبار القطائع ؛ قطيعه واضح مولى امير المؤمنين وولده . ودرب ايوب بن المغيرة الفزاري بالكوفة ؛ والدرب يعرف بدرب الكوفيين ؛ ثم قطيعه سلامة بن سمعان البخاري واصحابه ، ومسجد البخارية والمنارة الخضراء فيه ثم قطيعه الجلاج المتطبب ، ثم قطيعه عوف ابن نزار اليمامي ودرب اليمامية النافذ الى دار سليمان بن مجالد وقطيعه الفضل بن جعونة الرازي ؛ وهي التي صارت لداود بن سليمان الكاتب كاتب ام جعفر المعروف بداود النبطي ؛ ثم السيب ودار هبيرة بن عمرو ؛ وعلى السيب قطيعة صالح البندي في درب صباح النافذ الى سويقة عبدالوهاب ؛ وقطيعة قابوس بن السميدع ، وبازائه قطيعة خالد بن الوليد التي صارت لابي صالح يحيى بن عبدالرحمن الكاتب صاحب ديوان الخراج في ايام الرشيد ؛ نتعرف بدور ابي صالح ، ثم قطيعة شعبة بن يزيد الكابلي ، ثم ربض القس مولى المنصور ، وبستان القس المعروف به ، ثم ربض الهيثم بن معاوية بشار سوق (شهارسو) الهيثم ، وهناك سوق كبيرة متصلة بمنازل ودروب وسكك كله ينسب الى شار سوق (شهارسو) الهيثم ؛ ثم قطيعة المروروذية آل ابي خالد الانباري ؛ ثم ابي يزيد الشووي مولى محمد بن علي واصحابه ، ثم قطيعة موسى بن كعب التميمي وقد ولي شرطة المنصور ، ثم قطيعة بشر بن ميمون ومنازله ، ثم قطيعة سعيد بن دعلج التميمي ؛ ثم قطيعة الشخير وزكريا بن الشخير ؛ ثم ربض ابي ايوب سليمان ابن ايوب المعروف بابي ايوب الخوزي الورياني (ووريان قرية من كورة من كور الاهواز يقال لها مناذر) . ثم قطيعة رداد بن زاذان المعروفة بالردادية ؛ ثم المددار ، ثم حد ربض حرب . ودونه الرملية : وهذا الربع الذي تولاه سليمان ابن مجالد وواضح مولى امير المؤمنين والمهندس عمران بن الوضاح . والربع من باب الشام فاول ذلك قطيعة الفضل بن سليمان الطوسي ، والى جنبه السجن المعروف بسجن باب الشام والاسواق المعروفة بسوق الشام وهي سوق عظيمة فيها جميع التجارات والبياعات ممتدة ذات اليمين وذات الشمال آهلة عامرة الشوارع

والدروب والعراص ، وتمتد في شارع عظيم فيه الدروب الطوال ، كل درب ينسب الى اهل بلد من البلدان ينزلونه في جنبتيه جميعا الى ربض حرب بن عبدالله البلخي ؛ وليس ببغداد ربض اوسع ولا اكبر ولا اكثر دروبا واسواقا في الحال منه ، واهله اهل بلخ واهل مرو واهل الختل واهل بخارى واهل اسبيشاب واهل اشتاخنج واهل كابل شاه واهل خوارزم ولكل اهل بلد قائد ورئيس . وقطيعة الحكم بن يوسف البلخي صاحب الحراب وقد كان ولي الشرطة . ومن باب الشام في الشارع الاعظم الماد الى الجسر الذي على دجلة سوق ذات اليمين وذات الشمال . ثم ربض يعرف بدار الرقيق كان فيه رقيق ابي جعفر الذين يباعون من الآفاق وكانوا مضمومين الى الربيع مولاه ؛ ثم ربض الكرمانية والقائد بوزان ابن خالد الكرماني ، ثم قطيعة الصغد ودار خرفاش الصغدي ، ثم قطيعة ماهان الصامغاني واصحابه؛ ثم قطيعة مرزبان ابي اسد بن مرزبان الفاريابي واصحابه واصحاب العمد ثم تنتهي الى الجسر . فهذا الربع الذي تولاه حرب بن عبدالله مولى امير المؤمنين والمهندس الحجاج بن يوسف . والربع من باب خراسان الى الجسر على دجلة وما بعد ذلك بازائها الخلد وكان فيه الاصطبلات وموضع العرض وقصر يشرع على دجلة لم يزل ابو جعفر ينزله وكان فيه المهدي قبل ان ينتقل الى قصره بالرصافة الذي بالجانب الشرقي من دجلة . فاذا جاوز موضع الجسر فالجسر ومجلس الشرطة ودار صناعة الجسر ، فاذا جاوزت ذلك فاول القطائع قطيعة سليمان بن ابي جعفر في الشارع الاعظم على دجلة وفي درب يعرف بدرب سليمان. والى جنب قطيعة سليمان في الشارع الاعظم قطيعة صالح بن امير المؤمنين المنصور وهو صالح المسكين مادة الى دار نجيح مولى المنصور التي صارت لعبدالله بن طاهر . وآخر قطيعة صالح قطيعة عبدالملك بن يزيد الجرجاني المعروف بابي عون واصحابه الجرجانية ؛ ثم قطيعة تميم الباذغيسي متصلة بقطيعة ابي عون ؛ ثم قطيعة عباد الفرغاني واصحابه الفراغنة ؛ ثم قطيعة عيسى ابن نجيح المعروف بابن روضة وغلمان الحجابة ، ثم قطيعة الافارقة ؛ ثم قطيعة تمام الديلمي مما يلي قنطرة التبانين ، وقطيعة حنبل ابن مالك ، ثم قطيعة البغيين اصحاب حفص بن عثمان ودار حفص هي التي صارت لاسحاق بن ابراهيم ، ثم السوق على دجلة في الفرضة ، ثم قطيعة لجعفر ابن امير المؤمنين المنصور صارت لام جعفر ناحية باب قطربل تعرف بقطيعة ام جعفر ، ومما على القبلة قطيعة مرار العجلي وقطيعة عبدالجبار بن عبدالرحمن الازدي وقد كان يلي الشرطة ثم عزله وولاه خراسان فعصى هناك فوجه اليه المهدي في الجيوش فحاربه حتى ظفر به فحمله الى ابي جعفر فضرب عنقه وصلبه . وفي هذه الارباض والقطائع ما لم نذكره لان كافة الناس بنوا القطائع وغير القطائع وتوارثوا . واحصيت الدروب والسكك فكانت ستة الاف درب وسكة . واحصيت المساجد فكانت ثلاثين الف مسجد سوى ما زاد بعد ذلك . واحصيت الحمامات فكانت عشرة الاف حمام سوى ما زاد بعد ذلك . وجر القناة التي تأخذ من نهر كرخايا الآخذ من الفرات في عقود وثيقة من اسفلها محكمة بالصاروج والآجر من اعلاها معقودة عقدا وثيقا فتدخل المدينة وتنفذ في اكثر شوارع الارباض تجري صيفا وشتاء قد هندست هندسة لا ينقطع لها ماء في وقت ؛ وقناة اخرى من دجلة على هذا المثال وسماها دجيل . وجر لاهل الكرخ وما اتصل به نهرا يقال له نهر الدجاج ، وانما سمي نهر الدجاج لان اصحاب الدجاج كانوا يقفون عنده ؛ ونهرا يسمى نهر طابق بن الصمية ولهم نهر عيسى الاعظم الذي يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقة ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر تصير الى فرضة عليها الاسواق وحوانيت التجار لا تنقطع في وقت من الاوقات فالماء لا ينقطع ، ولهم الآبار التي يدخلها الماء من هذه القنوات فهي عذبة شرب القوم جميعا منها ؛ وانما احتيج الى هذه القنوات لكبر البلد وسعته والا فهم بين دجلة والفرات من جميع النواحي تدفق عليهم المياه حتى غرسوا النخل الذي حمل من البصرة فصار ببغداد اكثر منه بالبصرة والكوفة والسواد وغرسوا الاشجار واثمرت الثمر العجيب وكثرت البساتين والاجنة في ارباض بغداد من كل ناحية لكثرة المياه وطيبها ، وعمل فيها كل ما يعمل في بلد من البلدان لان حذاق اهل الصناعات انتقلوا اليها من كل بلد واتوها من كل افق ونزعوا اليها من الاداني والاقاصي ؛ فهذا الجانب الغربي من بغداد وهو جانب المدينة وجانب الكرخ وجانب الارباض ؛ وفي كل طرف منه مقبرة وقرى متصلة وعمارات مادة . والجانب الشرقي من بغداد نزله المهدي بن المنصور وهو ولي عهد ابيه وابتدا بناءه في سنة ثلاث واربعين ومائة فاختط المهدي قصره بالرصافة الى جانب المسجد الجامع الذي في

الرصافة وحفر نهرا ياخذ من النهروان سماه نهر المهدي يجري في الجانب الشرقي . واقطع المنصور اخوته وقواده بعدما اقطع من الجانب الغربي وهو جانب مدينته وقسمت القطائع في هـذا الجانب وهو يعرف بعسكر المهدي كما قسمت في جانب المدينة ، وتنافس الناس في النزول على المهدي لمحبتهم له ولاتساعه عليهم بالاموال والعطايا ولانه كان اوسع الجانبين ارضا لان الناس سبقوا الى الجانب الغربي وهو جزيرة بين دجلة والفرات فبنوا فيه وصار فيه الاسواق والتجارات ، فلما ابتديء البناء في الجانب الشرقي امتنع من اراد سعة البناء فاول القطائع على راس الجسر لخزيمة ابن خازم التميمي وكان على شرطة المهدي ، ثم قطيعة اسماعيل بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب ، ثم قطيعة العباس بن محمد بن علي ابن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب لانه جعل قطيعته في الجانب الغربي بستانا ، ثم قطيعة السري بن عبدالله بن الحارث بن العباس بن عبدالمطلب ، ثم قطيعة قثم بن العباس بن عبيدالله ابن العباس بن عبدالمطلب عامل ابي جعفر على اليمامة ، ثم قطيعة الربيع مولى امير المؤمنين لانه جعل قطيعته بناحية الكرخ اسواقا ومستغلات فاقطع مع المهدي وهو قصر الفضل بن الربيع والميدان ، ثم قطيعة جبريل بن يحيى البجلي ، ثم قطيعة اسد بن عبدالله الخزاعي ، ثم قطيعة مالك بن الهيثم الخزاعي ، ثم قطيعة سلم بن قتيبة الباهلي ، ثم قطيعة سفيان بن معاوية المهلبي ، ثم قطيعة روح بن حاتم ، ثم قطيعة ابان بن صدقة الكاتب ، ثم قطيعة حمويه الخادم مولى المهدي ، ثم قطيعة سلمة الوصيف صاحب خزانة سلاح المهدي ، ثم قطيعة بدر الوصيف مع سوق العطش وهي السوق العظمى الواسعة ، ثم قطيعة العلاء الخادم مولى المهدي ، ثم قطيعة يزيد بن منصور الحميري ، ثم قطيعة زياد بن منصور الحارثي ، ثم قطيعة ابي عبيد معاوية بن برمك البلخي على قنطرة بردان ، ثم قطيعة عمارة بن حمزة بن ميمون ، ثم قطيعة ثابت بن موسى الكاتب على خراج الكوفة وما سقي الفرات ، ثم قطيعة عبدالله ابن زياد بن ابي ليلى الخثعمي الكاتب على ديوان الحجاز والموصل والجزيرة وارمينية واذربيجان، ثم قطيعة عبدالله بن محمد بن صفوان القاضي ، ثم قطيعة يعقوب بن داود السلمي الكاتب الذي كتب للمهدي في خلافته ثم قطيعة منصور مولى المهدي وهو الموضع الذي يعرف بباب المقير ، ثم قطيعة ابي هريرة محمد بن فروخ القائد بالموضع المعروف بالمخرم ، ثم قطيعة معاذ بن مسلم الرازي جد اسحاق بن يحيى بن معاذ ، ثم قطيعة الغمر بن العباس الخثعمي صاحب الجر ، ثم قطيعة سلام مولى المهدي بالمخرم وكان يلي المظالم ، ثم قطيعة عقبة بن سلم الهنائي ، ثم قطيعة سعيد الحرشي في مربعة الحرشي ، ثم قطيعة مبارك التركي ، ثم قطيعة سوار مولى امير المؤمنين ورحبة سوار ، ثم قطيعة نازي مولى امير المؤمنين صاحب الدواب واصطبل نازي ، ثم قطيعة محمد بن الاشعث الخزاعي ، ثم قطيعة عبدالكبير بن عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب اخي عمر بن الخطاب ، ثم قطيعة ابي غسان مولى امير المؤمنين المهدي وبين القطائع منازل الجند وسائر الناس من التناء ومن التجار ومن سائر الناس في كل محلة وعند كل ربض . وسوق هذا الجانب العظمى التي تجتمع فيها اصناف التجارات والبياعات والصناعات على راس الجسر مارا من راس الجسر مشرقا ذات اليمين وذات الشمال من اصناف التجارات والصناعات . وينقسم طرق الجانب الشرقي وهو عسكر المهدي خمسة اقسام ، فطريق مستقيم الى الرصافة الذي فيه قصر المهدي والمسجد الجامع ، وطريق في السوق التي يقال لها سوق خضير وهي معدن طرائف الصين وتخرج منها الى الميدان ودار الفضل بن الربيع ، وطريق ذات اليسار الى باب البردان ، وهناك منازل خالد بن برمك وولده ، وطريق الجسر من دار خزيمة الى السوق المعروفة بسوق يحيى بن الوليد ، والى الموضع المعروف بالدور الى باب بغداد المعروف بالشماسية ، ومنه يخرج من اراد الى سر من راى ، وطريق عند الجسر الاول الذي يعبر عليه من اتى من الجانب الغربي ياخذ على دجلة الى باب المقير والمخرم وما اتصل بذلك ، وكان هـذا اوسع الجانبين لكثرة الاسواق والتجارات في الجانب الغربي كما وصفنا فنزله المهدي وهو ولي عهد وفي خلافته ، ونزله موسى الهادي ، ونزله هارون الرشيد ، ونزله المامون ، ونزله المعتصم ، وفيه اربعة آلاف درب وسكة وخمسة عشر الف مسجد سوى ما زاده الناس ، وخمسة آلاف حمام سوى ما زاده الناس بعد ذلك ، وبلغ اجرة الاسواق ببغداد في الجانبين جميعا مع رحا البطريق وما اتصل بها في كل سنة اثني عشر الف الف درهم ونزل ببغداد سبعة خلفاء : المنصور ، والمهدي ، وموسى الهادي ، وهارون الرشيد ، ومحمد الامين وعبدالله المامون ، والمعتصم . فلم يمت بها منهم واحد

الا محمد الأمين بن هارون الرشيد فانه قتل خارج باب الانبار عند بستان طاهر . وهذه القطائع والشوارع والدروب والسكك التي ذكرتها على ما رسمت في ايام المنصور ووقت ابتدائها وقد تغيرت ومات المتقدمون من اصحابها وملكها قوم بعد قوم وجيل بعد جيل ، وزادت عمارة بعض المواضع ، وملك قوم ديار قوم ، وانتقل الوجوه والقواد واهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم الى سر من رأى في سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، ثم اتصل بهم المقام في ايام الواثق والمتوكل ، ولم تخرب بغداد ولا نقصت اسواقها ، لانهم لم يجدوا منها عوضا ولانه اتصلت العمارة والمنازل بين بغداد وسر من رأى في البر والبحر اعني في دجلة وفي جانبي دجلة .

- ٢ -

عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة(١)

معرفة انهار مدينة السلام – في الجانب الشرقي

فأمّا انهار مدينة السّلام الجارية فيها ومنها شرب من يقرب اليها فاول ما نبدأ بــه من ذلك الانهار التي في الجانب الشرقي وهو عسكر امير المؤمنين المهدي من ذلك نهر يُقال له نهر موسى اوله من النهربين في ظهر قصر المعتضد المعروف بالثريا ، واول النهربين من النهروان فوق الجسر بشيء يسير يمرّ جاريا ويتفرع منه انهار كثيرة تسقي سواد بغداد ويمرّ في شرقي الثريا وعليه قرى وضياع ويسقي بعض طسّوج كلواذي ويصبّ في دجلة اسفل من مدينة السّلام باقلّ من فرسخين . ويحمل منه أيضا النهر المعروف بنهر موسى واوله في الموضع الذي تقدّم ذكره يمرّ فيدخل قصر الثريّا ويدور فيه ويخرج منه ثم يصير الى موضع يُقال له مقسم الماء ، فينقسم هناك ثلاثة اقسام فيمرّ الاول منها الى باب سوق الدوّاب ويجتاز بباب عمّار ويحمل منه هناك نهر يمرّ الى دار البانوجة ويفنى هناك ويمرّ نهر موسى فيدخل من باب سوق الدوّاب ويمرّ الى باب مُقيَّر الكبير فيحمل منه هناك نهر يمرّ الى دار ابن الخصيب في الشارع المعروف بسمد الوصيف ويخرج الى العلّافين فيصبّ في النهر الذي حفره المعتضد للبحيرة ويمرّ في الشارع المعروف خلف الحوانيت الى العلافين بباب المخرّم ويمرّ في قنطرة العباس التي في باب المخرّم ويمر في الشارع الى المخرّم ويفنى هناك . ويمر نهر موسى الى قنطرة الأنصار فتحمل منه هناك ثلاثة انهار يصبّ احدها في حوض الانصار والثاني في حوض هيلانة والثالث في حوض داود ، ويمرّ نهر موسى الى شارع درب الطويل وقصر المعتصم بالله فيحمل منه هناك نهر يمرّ الى سوق العطش مادّاً في وسط شارع كرم العرش ويصبّ في دار الوزير علي بن محمد بن الفرات ويفني هناك ويمرّ نهر موسى ملاصقا لقصر المعتصم الى ان يخرج الى الشارع الاعظم ثم يخرج الى شارع عمرو الرومي ثم يدخل الى بستان الزاهر فيسقيه ثم يصب في الدّجلة اسفل البستان بشيء يسير ، ثم يمرّ النهر الثاني من المقسم الى باب أبرز فيدخل الى بغداد من هناك ويسمى نهر المعلّى ويمرّ بين الدور الى باب سوق الثلاثاء ثم يدخل قصر المعتضد المعروف بالفردوس ويدور فيه ويصب الى دجلة مع القصر ، ويمر النهر الثالث من المقسم الى باب قطيعة موشجير ثم يمرّ الى باب العامّة ثم يدخل الى القصر المعروف بالحسني فيدور فيه ويصب في دجلة مع قصر المكتفي بالله المعروف بالتاج ويحمل من النهربين نهر يُقال لـه نهر عليّ أوله فوق نهر موسى بشيء يسير يمرّ معترضاً لطريق خراسان الى قريـة الاثلة ويمرّ فيسقي طسّوج نهر بوق ورستاق الأفروطر ويصبّ في نهر من الخالص ويحمل من نهر الفضل نهر يُقال له نهر الجعفرية يمرّ بقرى وضياع ويصبّ في سواد بغداد الذي في شمالها ويحمل من نهر الجعفرية نهر يقال له نهر السّور يمرّ مع سور بغداد أوله من نهر الجعفرية يمرّ بباب خراسان وباب البردان ويصبّ في نهر الفضل الذي يصب بباب الشماسية ، ويحمل من نهر الخالص الذي قلنا إنه يصبّ أسفل الراشدية نهر يُقال له نهر الفضل يجيء الى باب الشماسية يمرّ فيسقي ضياعا عليه وقرى ويصبّ في دجلة مع باب الشماسية ويحمل من نهر الشماسية وهو نهر الفضل نهر يُقال له نهر المهدي أوله فوق الباب بشيء يسير يمرّ فيدخل الى مدينة السّلام من باب الشماسية ويجيء الى سويقة جعفر ويمرّ في الشارع المعروف بشارع نهر المهدي ثم يجيء الى قنطرة البردان ويدخل في دار الروميين ثم يخرج الى سويقة نصر بن مالك ثم يدخل الرصافة في مسجد الجامع الى بستان حفص ويصبّ في جوف قصر الرّصافة في بركة فيه ، ويحمل من هذا النّهر نهر اوله في سويقة نصر مع

(١) تصنيف سهراب . اعتنى بنسخه وتصحيحه هانس فون مزيك ص ١٢٩ – ١٣٤ ط فينا ١٣٤٧ – ١٩٢٩ .

الابواب الحديد يمرّ في وسط شارع باب خراسان مادّاً الى ان يصبّ في نهر السور بباب خراسان ، فهذه انهار الجانب الشرقي ، وبقي انهار الجانب الغربي وانا ابيّنها ان شاء الله .

« معرفة انهار مدينة السّلام في الجانب الغربي »

من ذلك نهر يُقال له الصراة اوّله من نهر عيسى فوق قرية المحوّل الكبير بشيء يسير يمرّ هذا النهر فيسقي ضياع وبساتين بادوريا ويتفرع منه انهار كثيرة ويدخل بغداد فيمر بقنطرة العباس ثمّ يمرّ الى قنطرة الصينيّات ثمّ يمرّ الى قنطرة رحا البطريق وهي قنطرة الزّبد ثم يمرّ الى قنطرة العتيقة ثم يمرّ الى قنطرة الجديدة ثم يصب في دجلة اسفل الخلد بشيء يسير ويحمل من الصراة نهر يُقال له خندق طاهر اوّله من نهر الصّراة اسفل من فوهته بفرسخ يمرّ فيسقي الضياع ويدور حول مدينة السلام ممّا يلي الحربية فيمر الى باب الانبار وعليه هناك قنطرة ثم يمرّ الى باب الحديد وعليه هناك قنطرة ويمرّ الى باب حرب وعليه هناك قنطرة ويمرّ الى باب قطربل وعليه هناك قنطرة رحا ام جعفر ويمرّ في وسط قطيعة ام جعفر ويصبّ في دجلة فوق دار اسحاق بن ابراهيم الطاهري بشيء يسير ؛ ويحمل من الخندق نهر يقال له الصراة الصغيرة يجيء قاطعاً للبساتين يمرّ ببعض بادوريا ويصبّ في الصراة الكبيرة أسفل من رحا البطريق بشيء يسير ؛ ويحمل من نهر عيسى نهر يُقال له كرخايا اوله اسفل المحوّل الكبير بشيء يسير يمرّ في وسط طسوج بادوريا ويتفرع منه انهار تنبث في بادوريا تسمى وتعرف وعلى جانبيه قرى وضياع وبساتين مادّاً الى ان يدخل بغداد من باب ابي قبيصة ويمرّ الى قنطرة اليهود ويمرّ الى قنطرة درب الحجارة ويمرّ الى قنطرة البيمارستان وباب محوّل فيتفرع منه هناك أنهار الكرخ كلّها ؛ فمن ذلك إذا جاوز كرخايا قنطرة البيمارستان فاول الأنهار نهر يُقال له نهر رزين يمرّ فيأخذ في ربض حميد فيدور فيه ثم يمرّ الى سويقة ابي الورد ثم يمرّ الى بركة زلزل فيدور فيها ثم يمر الى باب طاق الحرّاني ثم يصب في الصراة الكبيرة اسفل من القنطرة الجديدة مع القنطرة ويعرف بنهر أبي عتّاب ؛ واذا صار نهر رزين الى باب سويقة ابي الورد يحمل منه نهر يَعبر في قورج عند قنطرة العتيقة فيمرّ مادّاً الى شارع باب الكوفة فيدخل من هناك الى بعض آثار مدينة ابي جعفر المنصور وينقطع فيها ويمرّ النهر من باب الكوفة مادّاً الى شارع القحاطبة يمرّ الى باب الشام ويمر في شارع الجسر الى طرف الزبيدية ويفنى هناك ، ثم يمرّ نهر كرخايا من البيمارستان فاذا صار الى الدرّابات يُسمى هناك العمود وهو النهر الذي تتفرع منه انهار الكرخ الداخلة فيمر النهر من هناك الى موضع قريب منه فيسمى هناك رحا ابي القاسم ثم الى موضع يُعرف بالواسطيين ثم يمرّ الى موضع يعرف بالخفقة فيحمل منه هناك نهر يُقال له نهر البزازين يعطف فيخرج في شارع المصوّر ثم يمرّ الى دار كعب ثم يخرج الى باب الكرخ ثم يدخل البزازين ثم يمرّ الى الجزارين ثم يدخل في اصحاب الصابون ثم يصبّ في دجلة تحت دار الجوز ثم يمر النهر الكبير من الخفقة الى طرف مربعة الزيات فيعطف منه هناك نهر يُقال له نهر الدجاج يمرّ فيأخذ مادّاً الى اصحاب القنى ثم يمرّ الى اصحاب القصب وشارع القيارين ويصبّ في دجلة في اصحاب الطعام ثم يمرّ النهر الكبير من مربعة الزيات الى دوّارة الحمار فيعطف منه هناك نهر يُقال له نهر الكلاب يأخذ في شارع قطيعة الكلاب مادّاً حتى يصب تحت قنطرة الشوك في نهر عيسى بن موسى ثم يمرّ هذا النهر الكبير من دوارة الحمار الى موضع يُقال له مربعة صالح فيعطف منه هناك نهر يُقال له نهر القلائين يمر مادّاً الى السواقين ثم الى اصحاب القصب ويصبّ هناك في نهر الدّجاج ويصيران نهراً واحداً ثم يمرّ النهر الكبير من مربعة صالح الى موضع يعرف بنهر طابق ثم يصبّ في نهر عيسى في موضع يعرف بمشرعة الآس بحضرة دار البطيخ ، فهذه انهار الكرخ وبقي انهار الحربية وانا ابيّنها ان شاء الله تعالى .

من ذلك نهر يحمل من دجيل يُقال له نهر بطاطيا اوّله من اسفل فوهة دجيل بستة فراسخ يمرّ فيسقي ضياعاً وقرى ويمرّ في وسط مسكن ويصب في الضياع ويفنى فيها ويحمل منه نهر اسفل جسر بطاطيا بشيء يسير يجيء نحو مدينة السلام فيمر على عبارة قورج قنطرة باب الانبار ثم يدخل بغداد من هناك فيمر في شارع باب الانبار ويمرّ في شارع الكبش ويفنى هناك ، ويحمل من نهر بطاطيا نهر اسفل من النهر الاول يجيء نحو بغداد فيمر على عبّارة يُقال لها عبّارة الكرخ بين باب حرب وباب الحديد ؛ ويمر فيدخل بغداد من هناك ويمرّ في شارع دجيل الى مربّعة الفرس فيحمل منه هناك نهر يُقال له نهر دكان الابناء ويفنى هناك ويمرّ النهر الكبير من مربعة

الفرس الى قنطرة ابي الجون فيحمل هناك منه نهر الى كتاب اليتامى الى مربعة شبيب ويصب هناك في نهر الشارع سنذكره ، ثم يمرّ النهر الكبير من قنطرة ابي الجون الى شارع قصر هاني، ثم يمرّ الى بستان القس ويصب في النهر الذي يمرّ بشارع القحاطبة ، ويحمل من نهر بطاطيا نهر اوّله من قناة الكرخ يجيء الى بغداد ويمرّ على عبّارة قورج على قنطرة باب حرب ويدخل بغداد من هناك ويمرّ في وسط شارع باب حرب الى شارع دار ابن ابي عون ، ويجيء الى مربّعة ابي العباس ثم يجيء الى مربعة شبيب فيصب فيه النهر الذي ذكرناه ثم يمرّ الى باب الشام ، فهذه انهار مدينة السلام قد بيّناها ، وهذه الانهار التي في الحربية من قنى تحت الأرض واوائلها مكشوفة فافهم ذلك ان شاء الله .

- ٣ -

الاصطخري : ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الكرخي ـ المتوفى في حدود النصف الاول من القرن الرابع .

المسالك والممالك(١)

واما بغداد فإنها مدينة محدثة في الاسلام ، لم تكن بها عمارة فابتنى المنصور المدينة في الجانب الغربي ، وجعل حواليها قطائع لحاشيته ومواليه واتباعه ، مثل قطيعة الربيع ، والحربية وغيرهما ، ثم عمرت ، فلما كان في ايام « المهدى » جعل معسكره في الجانب الشرقي ، فسمى عسكر المهدي ثم عمرت بالناس والبنيان ، وانتقلت الخلافة الى الجانب الشرقي ، وهي اليوم اسفل هذا الجانب بالحريم ، ليس وراءها بنيان للعامة متصل ، وتفترش قصور الخلافة وبساتينها من بغداد الى نهر بين فرسخين على جدار واحد حتى تتصل من نهربين الى شط دجلة ، ثم يتصل البناء بدار الخلافة مرتفعاً على دجلة الى الشماسية نحو خمسة اميال . ويحاذي الشماسية في الجانب الغربي الحربيّة ، فيمتد نازلاً على دجلة الى آخر الكرخ ويسمى الشرقي جانب الطاق (باب الطاق) وجانب الرصافة وعسكر المهدي ، فمن نسبه الى الطاق يعني ان اوّله باب الطاق ، وهو موضع السوق الأعظم ومن نسبه الى الرصافة نسبه

(١) المسالك والممالك ، ٥٨ ـ ٥٩ ، تحقيق الدكتور محمد جابر عبدالعال ـ ط. وزارة الثقافة والارشاد القومي دار القلم ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م القاهرة .

الى قصر كان الرشيد بناه بقرب المسجد الجامع بها ومن نسبه الى عسكر المهدي فإنّ المهدي كان عسكر من هذا الجانب بحذاء مدينة ابي جعفر ، ويسمى الجانب الغربي جانب الكرخ وببغداد مساجد جوامع في ثلاثة مواضع ، في مدينة المنصور ، وفي الرصافة وفي دار الخلافة وتتصل العمارة والبنيان بكلواذى وبها مسجد جامع فلو عدّ في جملة بغداد لجاز ، وقد عقد بين الجانبين على دجلة جسران من سفن ويكون من باب خراسان الى ان يبلغ باب الياسريّة ، وذلك عرض الجانبين جميعا نحو خمسة اميال ، واعمر بقعة منها الكرخ وبها اليسار ومساكن معظم التجار ، واما الاشجار والأنهار التي في الجانب الشرقي ودار الخلافة ، فإنّها من ماء النهروان وتامرّا ، وليس يرتفع إليها من ماء دجلة الاّ شيء يسير يقصر عن العمارة وينضح بالدواليب ، واما الجانب الغربي فإنّه قد شقّ إليه من الفرات نهر عيسى من قرب الأنبار تحت قنطرة دمِمّا ، وتتحلب من هذا النهر شعابات تجتمع فتصير نهراً يسمى الصراة وينفجر منها انهار ، وبها عمارات الجانب الغربي وتقع ما بقى من ماء الصراة الصغيرة والكبيرة في دجلة . وينتهي آخر نهر عيسى الى دجلة في جوف مدينة بغداد ، واما نهر عيسى فإنّ السفن تجري فيه من الفرات الى ان يقع في دجلة ، واما الصراة فإنّ فيها حواجز تمنع من جري السفن ، فتنتهي السفن منها الى قنطرة الصراة ، ثم يحول ما فيها ويجاوز به ذلك الحاجز الى سفن غيرها(١) .

- ٤ -

ابن حوقل : ابو القاسم المتوفى بعد عام ٣٧٠ هـ .

صورة الأرض(١)

ومدينة السلام محدثة في الاسلام ابتناها ابو جعفر المنصور في الجانب الغربي من دجلة وجعل حواليها قطائع لحاشيته ومواليه واتباعه ،

(١) صورة الارض ، ٢١٥ ـ ٢١٧ ، ط بيروت د. ت . ويشير الناشر الى ان ابن حوقل هو من القرن العاشر الميلادي اي القرن الرابع الهجري وفي نصوص الكتاب اشارات صريحة في مواضع ذكرت في بغداد سنة ستين وخمسمائة اي ان تغييرات اساسية واضافات زيدت على الكتاب . يراجع بشان ابن حوقل كراتشكوفسكي (تاريخ الادب الجغرافي العربي) ١/٢٠٠ ـ ٢٠٥ .

كقطيعة الربيع والحربية وغيرهما ثم عمرت وتزايدت . فلمّا ملكها المهدي جعل معسكره في الجانب الشرقي فسمّيَ عسكر المهدي وتزايد بالناس والبنيان وكثرت عمارتهم ، وانتقل اسم الخلافة الى الجانب الشرقي ، ودارٌ من بيده حال من اسم المملكة وعمل الى اسفل هذا الجانب بالمخرّم واستحدث الدار التي في اسفلها للسلطان وليس بما وراءها بنيان للعامة متصل . ويتصل قصور السلطان وبساتينها من بغداد الى نهر بين فرسخين على جدار واحد ، ثم يتصل من نهربين الى شط دجلة . ويتصل البنيان بدار خلافتهم مرتفعا على دجلة الى الشماسية نحو خمسة اميال وتحاذي من الجانب الغربي الحربية فيمتد نازلاً على دجلة البنيان الى آخر الكرخ . ويسمى الجانب الشرقي منها جانب باب الطاق وجانب الرصافة . ويُسمّى عسكر المهدي لانه كان عسكر بحذاء مدينة ابي جعفر المنصور [ويبنى هناك مسجد جامع حسن . والآن فقد خرّب ذلك المكان ولم يبق معمور غير الجامع ومقابر قريش والمحلة المعروفة بقبر ابي حنيفة رضي الله عنه . وانتقلت العمارة الى نهر معلّى وقد سوّر في زماننا هذا وهو عشر الستين وخمسمائة بسور حصين منيع . وبين يديه خندق عميق محيط به يتخرّقه ماء الدجلة](٢) ويسمى الجانب الغربي جانب الكرخ وبها مساجد للجمعة وصلاتها خاصة في اربعة مواضع منها فمنها في الجانب الغربي الذي بمدينة ابي جعفر ، وبالرصافة جامع آخر لأهل باب الطاق وفي دار السلطان ايضاً جامع يحضره الخاصة والعامة ومسجد براثا في الجانب الغربي واستحدثه امير المؤمنين علي صلوات الله عليه وتتصل عمارة الجانب الشرقي في اسفل دار الخلافة بكلواذى، وهي ايضاً مدينة قصدة فيها مسجد جامع ولو عدّ في جملة بغداد لجاز لانّ كثيراً من اهلها يصلون فيه . وبين الجانبين في وقتنا هذا جسر بقرب باب الطاق ، وكانا اثنين لعبر الجنازين ، ولما بان النقص عليهما عُطّل احدهما لبيان الأختلال وهلك اكثر محالها وذلك انه كان من باب خراسان عمارة الى ان تبلغ الجسر وتمتد الى باب الياسرية من الجانب الغربي وعرضها فقد اختل ايضاً من الجانبين جميعاً نحو خمسة اميال، ونقص وهلك منه الكثير واعمر بقعة بها اليوم الكرخ وجانبه لأن اهل الياسرية ومعظم مساكن التجار هناك وذكر بعض المؤلفين انّ الموفق امر بمساحتها فوجد الجانب الشرقي مائتي حبل وخمسين حبلاً وعرضه مائة حبل وخمسة احبل . ويكون ذلك ستة وعشرين الف جريباً ، ومائتين وخمسين جريباً ، وهذا حساب لا اعرفه ووجد الجانب الغربي مائتين وخمسين حبلاً والعرض سبعين حبلاً ، سبعة عشر الف وخمس مائة جريب . الجميع ثلاثة واربعون الف جريب وسبعمائة وخمسون جريباً . ويكون بفدان مصر حساب كل جريبين ونصف فدان سبعة عشر الف فدان وخمس مائة فدان ، وكانت هذه مساحة رقعتها .

فاما الاشجار والأنهار التي في الجانب الشرقي ودار الخلافة فإنّها من ماء النهروان وتامرا ، وليس يرتفع إليها من دجلة الاّ شيء يقصر عن العمارة . واما الجانب الغربي فيشق إليه من الفرات نهر عيسى من قرب الأنبار تحت قنطرة دمّما ؛ وتتحلّب من هذا النهر صبابات تجتمع فتصير نهراً يسمى الصراة يفضي ايضاً الى بغداد [عند المحلّة المعروفة بباب البصرة](٢) وعليه عمارات كثيرة للجانب الغربي وتنفجر منه انهار كثيرة لعمارات الناحية ، ويقع ما يبقى من ماء الصراة الصغيرة والكبيرة فيما يجاور نهر عيسى من بغداد في نحو نصف المدينة وعليها كثير من مساكنهم ودورهم وبساتينهم .

فاما نهر عيسى فإن السفن تجري فيه من الفرات الى ان يقع في دجلة والصراة فيها حواجز وموانع من جري السفن بسكور ودوال فيها ، فتنتهي السفن فيها الى قنطرتها ثم يحول ما يكون فيها فيجاوز به ذلك الحاجز الى سفن غيرها . وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق اليه انهار من الفرات ، فاولها مما يلي بغداد نهر صرصر عليه مدينة صرصر تجري فيه السفن ، وعليه جسر من مراكب يعبر عليه ومدينة صرصر عامرة بالنخيل والزروع وسائر الثمار صغيرة من بغداد على ثلاثة فراسخ . ثم ينتهي على فرسخين الى نهر الملك وهو كبير ايضا اضعاف نهر صرصر في غزر مائه ، وعليه جسر من سفن يعبر عليه ونهر الملك مدينة اكبر من صرصر عامرة بأهلها ، وهي اكثر نخلا وزرعا وثمرا وشجرا منها . ثم ينتهي الى قصر ابن هبيرة ؛ وليس بين بغداد والكوفة مدينة اكبر منها وهي بقرب نهر الفرات الذي هو العمود ويطلع اليها هناك عن يمين وشمال انهار مفترقة ليست بكبار ، الا انها تعممهم

(٢) ما بين القوسين زيادة مقحمة في النص . واثبتها كما هي حفاظا على الامانة العلمية .

لحاجتهم وتقوتهم وهي اعمر نواحي السواد ؛ ثم ينتهي الى نهر سورا وهي مدينة مقتصدة ونهر كثير الماء وليس للفرات شعبة اكبر منه وينتهي الى سائر سواد الكوفة ، ويقع الفاضل منه الى بطائح الكوفة وسورا هذه بين تلك النواحي اكثرها كروما واشربة ، وكربلا من غربي الفرات فيما يحاذي قصر ابن هبيرة ، وبها قبر الحسين بن علي صلوات الله عليهما ، وله مشهد عظيم وخطب في اوقات من السنة بزيارته وقصده جسيم .

— ٥ —

المقدسي : محمد بن احمد ، ت/٣٩٠هـ

احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

بغداد في مصر الاسلام ، وبها مدينة السلام ، ولهم الخصائص والظرافة والقرائح واللّطافة هواء رقيق وعلم دقيق ، كلُّ جيّد بها ، وكلّ حسن فيها ؛ وكلُّ حاذق منها وكلّ ظرف لها . وكلّ قلب إليها وكل حرب عليها ، وكلُّ ذبّ عنها ، هي اشهر من ان توصف واحسن من ان تنعت واعلى من ان تمدح احدثها ابو العباس السفاح ثم بنى المنصور بها مدينة السلام وزاد فيها الخلفاء من بعده ولما اراد بناء مدينة السلام . سأل عن شتائها وصيفها ، والامطار والبق والهواء وامر رجالاً ، حتى يناموا ، فيها فصول السنة حتى عرفوا ذلك ثم استشار اهل الراي من اهلها فقالوا نرى ان تنزل اربع طساسيج في الجانب الشرقي بوق وكلواذى وفي الغربيّ قطربّل وبادوريا فتكون بين نخل وقرب ماء فان اجدب طسّوج او تأخّرت عمارته كان في الآخر فرج وانت على الصراة تجيئك الميرة في السفن الفراتية والقوافل من مصر والشام في البادية وتجيئك آلات من الصين في البحر ومن الروم والموصل في دجلة فانت بين انهار لا يصل إليك العدوُّ الاّ في سفينة او على قنطرة على دجلة وفرات فبناها اربع قطع مدينة السلام وبادوريا والرّصافة وموضع دار الخليفة اليوم وكانت احسن شيء للمسلمين واجلّ بلدٍ وفوق ما وصفنا حتى ضعف امر الخلفاء فاختلّت وخفّ اهلها ، فامّا المدينة فخراب والجامع فيها يعمر في الجمع ثم يتخللّها بعد ذلك الخراب اعمر موضع بها قطيعة الربيع والكرخ في الجانب الغربي وفي الشرقي باب الطاق وموضع دار الامير والعمارات والاسواق بالغربيّ اكثر والجسر عند باب الطاق الى جانبه بيمارستان بناه عضد الدولة حصل في كلّ طسّوج مما ذكرنا جامع وهي في كلّ يوم الى ورا . واخشى انها تعود كسامرا مع كثرة الفساد والجهل والفسق وجور السلطان اخبرنا ابو بكر الاسماعيليُّ بجرجان قال حدّثنا ابن ناجية قال حدّثنا ابراهيم الترجمانيُّ قال حدّثنا سيف بن محمّد قال حدّثنا عاصم الاحول عن ابي عثمان النهديّ قال كنتُ مع جرير بن عبدالله فقال ايُّ شيء يدعى هذا النهر قالوا دجلة قال فهذا النهر الاخر قالوا دُجَيْل قال فهذا النهر قالوا صَرّاة قال فهذا النخل قالوا قُطْربّل قال فركب فرسه واسرع ثم قال سمعت رسول الله : صلعم ، يقول تبنى مدينة بين دجلة ودُجَيْل وقطربّل والصراة تجبى اليها خزائن الارض وجبابرتها يخسف بهم فهم اسرع هوياً في الارض من الوتد الحديد في الارض الرخوة ، وانهار الفرات تقلب في دجلة في جنوبيّها وما حاذى المدينة وما شماليّها دجلة حسب وتجرى في هذه الشعب الفراتيّة السفن الى الكوفة وفي دجلة الى الموصل وذكر الشمشّاطيُّ في تاريخه ان المنصور لمّا اراد بناءَ مدينة السلام احضر اكبرَ منْ عرف من اهل الفقه والعدالة والامانة والمعرفة بالهندسة وكان فيهم ابو حنيفة النعمان بن ثابت والحجّاج بن ارْطاة وحشر الصنّاع والفعَلة من الشام والموصل والجبل وسائر اعماله وامر بخطّها وحفر الاساسات في سنة ١٤٥ وتمّت في سنة ٤٩ وجعل عرض السور من اسفل خمسين ذراعاً وجعلها بثمانية ابواب اربعة داخلة صغار واربعة خارجة كبار باب البصرة وباب الشام وباب خراسان وباب الكوفة وجعل الجامع والقصر وسطها وقبلة جامع الرُصافة اصحُّ منه ووجدتُ في بعض خزائن الخلفاء ان المنصور انفق على مدينة السلام اربعة آلاف الف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهماً لان اجرة الاستاذ كانت قيراطاً والروزكاري حبّتين .

— ٦ —

المنجم : الشيخ اسحق بن حسين المنجم ت/حوالى « القرن الخامس » .

آكام المرجان(١)

ذكر مدينة بغداد

وانما رجعنا الى ذكر مدينة بغداد بعد تقديم

(١) آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان ص ٤-٥ طبعة بالاوفسيت د. ت .

ما وجب تقديمه لأنها اصل المدائن واحسنها بنياناً واطيبها هواءً وهي في وسط الأقليم الرابع الذي هو اعزّ الأقاليم واهلها اعظم الناس في ضروب اللبّ والفهم بناها ابو جعفر المنصور من بني العباس وابتدأ بذلك في الاول سنة احدى واربعين ومائة ونقل إليها البناة والحذّاق والصناع من جميع البلدان وجعلها مدورة ووسع رياضها وازقتها وكان الذي تولى ذلك من اهل الحساب والمهندسين الحجاج بن يوسف الحاسب والطبري وابراهيم الفزاري ولها درب بابواب في دورها عشرون ذراعاً ولها اربعة ابواب ما بين كل باب خمسة آلاف ذراع باب الكوفة وباب البصرة وباب خراسان وباب الشام وعلى كلّ باب تلبيس من الحديد لا يغلقها الاّ جماعة من الرجال ولكل باب منها دهليز وعلى كلّ باب منها قبة عظيمة مزينة بالذهب وحول القصر دور الأولاد من بني العباس ، واهل الخدمة والقصر في وسط المدينة ، والى جانبه المسجد الاعظم وهي بين نهر الدجلة والفرات وكان بها من المساجد في القديم الف مسجد وعشرون الف حمام وبعدها عن خط المغرب سبعون درجة وذلك من الأميال اربعة آلاف وستمائة وعشرون ميلاً وبعدها عن خط الاستواء في الشمال ثلاث وثلاثون درجة وذلك من الاميال الفان ومائة وثمانية وسبعون ميلاً وكان المنصور قد نقل اليها النخل والأشجار فانبتت ونمت في مدة يسيرة وذلك لطيب مائها واعتدال هوائها وكذلك نقل إليها الرخام والأساطين والصناع من كل بلد وامر اهل الخدمة ان يقطع كلّ واحد منهم ويبني فقطعوا واكثروا البناء وقامت في اقل مدة وبساتينها تسقى بماء الدجلة والفرات في قنوات وكان سكنى المنصور قبل ذلك في مدينة الانبار ثم نزلها السفاح اول خلفاء بني العباس .

- ٧ -

البكري :

معجم ما استعجم(١)

بغداد : فيها اربع لغات ـ بغداد بدالين مهملتين ، وبغداذ معجمة الاخيرة وبغدان بالنون ، ومَغدان بالميم بدلاً من الباء ، تذكر وتؤنث .

(١) ابو عبيد عبدالله عبدالعزيز البكري الأندلسي ت/٤٨٧هـ معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع ، ١/٢٦١ تحقيق مصطفى السقا ، الطبعة الاولى ـ ١٩٤٥ القاهرة .

قال ابن الانباري : أنبانا ابو العباس ؛ قال : سمعتُ بعض الأعراب يقول : لولا انّ ترابَ بغداذ كحلٌ نعمى اهلُها . وانشد :

ما انتِ يا بغداذ الاّ سَلْحُ
وإنْ سكنْتِ فترابٌ بَرْحُ

وانشد ابو بكر المخزومي في بغدان :

اقرا سلاما على نَجدٍ وساكنِه
وحاضرٍ باللّوى إن كانَ او بادي
سَلامَ مغتربٍ بغدان منزلُه
إن انجدَ الناس لم يَهْمُمْ بانجادِ

وانشد صاحب العين شاهداً على بغداذ :

لما رايتُ القومَ في اغذاذِ
وإنّه السيرُ الى بغداذِ
جئتُ فسلَّمتُ على معاذِ

قال ابو حاتم : سالت الاصمعي كيف يقال : بغداد او بغداذ : او بغدان ، او بغدين ؟ فقال : قل مدينة السلام وابغضه اليّ بغداذ ، بالذال المنقوطة هكذا نقل عنه ابو حاتم قال ابو حاتم : وانما كره الاصمعي هذه الاسماء لانّ بغداذ بالفارسية عطية الصنم ، لانّ [بغ] صنم ؛ و [داذ] عطية وكانت قرية من قرى الفرس فأخذها ابو جعفر غصباً فبنى فيها مدينته .

قال الجرجاني : باغ بالفارسية هو البستان الكثير الشجر وداذ مُعطى ، فمعناه معطى البساتين .

- ٨ -

ياقوت الحموي : شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي ت/٦٢٦هـ

(ا) المشترك وضعا والمفترق صقعا(١)

بغداد البلد المشهور المعروف فيه لغات وله اشتقاق بسطت القول فيه في المعجم (معجم البلدان) . وبغداد حدثني الحافظ ابو عبدالله محمد بن محمود ابن النّجار قال : خرجنا من مكة نريد جدة فسمعتهم يقولون اللّيلة نبيت في بغداد فباتوا في منزل قفر هناك ، لا ادري قال في

(١) تحقيق : فردناند وستنفلد . ط. جوتنجن ١٨٤٦ . ص ٦٠ .

المنزل الأول او الثاني من مكة . وقال لي الشيخ الامام ابو الربيع سليمان بن الريحاني جزاه الله خيرا اسم هذا الموضع بغيديد بالتصغير وهو على ليلة من مكة(*) .

* **باب الحريم** : بفتح الحاء وكسر الراء ، وياء ساكنة الأول [وميم] حريم دار الخلافة ببغداد وهو مقدار ثلث مدينة السلام بغداد ، وعليه سور ابتداؤه من دجلة وانتهاؤه الى دجلة كهيئة الهلال او نصف دائرة وله ابواب اولها باب الغربة على دجلة ثم باب سوق التمر ، باب شاهق البناء واغلق في اول ايام الناصر ابي العباس احمد. واستمر غلقه الى الآن ثم باب البدرية ثم باب النوبي . وفيه العتبة التي تقبلها الرسل والملوك وغيرهم . إذا قدموا بغداد . وهي قطعة من عمود رخام ابيض مطروحة امام هذا الباب طولا ، ثم باب العامة ويقال له ايضا باب عمورية ، وبين هذين البابين محال يسكنها عامة الناس بينهم وبين دار الخلافة سور آخر فيه عدة ابواب منها باب الدوامات وباب عليان ، وباب الحرم وغير ذلك ، ثم يمتد السور من باب العامة نحو ميل لا باب فيه الا باب بستان في آخر المأمونية تحت المنظرة التي تنحر تحتها الضحايا في الاعياد ، ثم باب المراتب بينه وبين دجلة من جهة باب الأزج نحو رميتي سهم وهو من ناحية الشرق وجميع ما يشتمل عليه هذا السور يسمى حريم دار الخلافة فيه محال واسواق وخانقاهات ودور كثيرة للرعية كأكبر مدينة وبين منازل الرعية وبين دجلة سور آخر من دونه دور الخلافة لا يشركه فيه شيء من منازل غيره وانما بسطنا القول في هذا ، وذكرناه لكثرة ما يجيء ذكره في التواريخ والأخبار ، وربما نسب إليه بعض الرواة . الثاني باب الحريم الطاهري في اعلا مدينة دار السلام بغداد في الجانب الغربي كان منازل آل طاهر بن الحسين وكان من لجا إليه امن فسمي الحريم ، وقد نسب إليه جماعة من رواة الحديث منهم ...(*)

والدور محلة في طرف بغداد بباب الطاق قرب مشهد ابي حنيفة الامام خربت ينسب إليها ابو عبدالله محمد بن مخلد بن حفص الدوري العطار ، سمع يعقوب الدورقي والزبير بن بكار وغيرهما ، روى عنه الدارقطني وابو الحسين الآجري والجماني وغيرهم ؛ وكان ثقة ولد في

(*) في الاصل بياض ١٢٩ - ١٣٠ .

رمضان سنة ٢٣٣هـ ومات في جمادى الآخرة سنة ٣٣١هـ والهيثم بن محمد الدوري .

باب دولاب : يروى بضم الدال وفتحها دولاب مبارك في شرقي بغداد ينسب إليها ابو جعفر محمد بن الصبّاح البزاز الدولابي سمع ابراهيم بن سعد واسماعيل بن جعفر وشريكا وغيرهم ، روى عنه احمد بن حنبل وابنه عبدالله وابراهيم الحربي واصله من هراة مولى لمزينة سكن بغداد وابنه احمد بن محمد بن الصباح حدث عن ابيه وغيره .

باب ربض الأرباض كثيرة قلّ ما تخلو مدينة من موضع فيها يقال له الرّبض ، وانّما المذكور منها ها هنا ما نسب إليه احد او ما لا يعرف الا بأضافته الى رجل ؛ والربض في الأصل حريم الشيء يقال انربض بالضم وتسكين الباء اساس المدينة والرّبض بالفتح والتحريك ما حوله من خارج وقيل هما لغتان ، وقد نسب الى هذه الارباض قوم يحتاج الى التفرقة بينهم ، الأول ربض ابي حنيفة بالجانب الغربي من بغداد قرب الحريم الطاهري ينسب الى قايد من قوّاد المنصور يقال له ابو حنيفة ، وربض ابي عون ببغداد وابو عون من موالي المنصور . وربض اصبهان ينسب اليه ابو شكر احمد بن محمد بن علي الربضي سمع الاصبهانيين روى عنه ابو مسعود سليمان بن ابراهيم الحافظ الاصبهاني ، وربض حرب وهو المحلة المعروفة اليوم بالحربية ببغداد ، وحرب من قواد المنصور وربض حمزة محلّة كانت في غربي بغداد خربت .

وربض حميد بن قحطبة الطائي ببغداد ومتصل بالنصرية .

وربض الخوارزمية ببغداد ايضا يتصل بربض الفرس من الجانب الغربي .

وربض رشيد ببغداد متصل بربض الخوارزمية ، ورشيد من موالي المنصور وهو والد داود بن رشيد المحدّث ، وربض زهير بن المسيب ببغداد متصل بربض سعيد بن حميد ، وربض سعيد بن حميد ، وربض سلمان بن مجالد مولى المنصور ببغداد .

وربض عثمان بن نهيك متصل بربض الخوارزمية .

وربض نصر بن عبدالله ببغداد يعرف اليوم بالنصرية .

وربض هيلانة بين الكرخ وباب محوّل

وعيلانة قهرمانة المنصور أو حظية الرشيد والى احد هذه الأرباض التي ببغداد ينسب ابو ايوب سليمان الربضي الضرير حدث عن داود بن المحبّر ابن محـدم ، روى عنه ابراهيم بن الوليد الحشّاش .

(باب الرصافة)

بضم الراء رصافة بغداد محلة كبيرة بالجانب الشرقي عمرها المنصور لأبنه المهدي وهي التي تعرف ايضاً بعسكر المهدي وقد حدث من اهل هذه الرصافة جماعة منهم محمد بن بكار بن ريّان ابو عبدالله الرصافي مولى بني هاشم وجعفر بن محمد بن علي ابو الحسن السمّار وغيرهما كثير .

الرملة محلّة كانت ببغداد في مشرعة الكرخ الى دجلة ثم خربت وهي في الجانب الغربي .

وروذبار من قرى بغداد ينسب اليها احمد ابن عطاء الروذباري ابن اخت ابي علي الروذباري قاله ابو موسى الحافظ والنسوي ، والباطقراني الى روذبار بغداد .

الريّان محلّة ببغداد عامرة الى الآن بالقرب من باب الأزج ينسب إليها ابو المعالي هبة الله بن الحسين بن الحسن بن ابي الأسود الرياني يعرف بأبن التل حدث عن قاضي البيمارستان وغيره .

باب الزبيدية : منسوبة الى زبيدة بنت جعفر بن المنصور أم محمد الأمين بن الرشيد ، والزبيدية محلة ببغداد بالجانب الغربي قرب باب التبن ، والزبيدية ايضاً محلة ببغداد من الجانب الغربي اسفل مدينة السلام .

باب الزعفرانية : والزعفرانية قرية قرب كلواذا تحت بغداد ينسب إليها الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني وإليه ينسب درب الزعفراني ببغداد وهو صاحب الشافعي قرأ عليه كتبه لما ورد الى بغداد فقال له الشافعي من أي العرب انت فقال ما انا بعربي وانّما انا من قرية يقال لها الزعفرانية فقال له انت سيد هذه القرية وسمع ايضا ابن عيينة وغيره روى عنه ابو داود السجستاني والترمذي وغيرهما ، وتوفي سنة ٢٤٩ في ربيع الآخر وقد نسب جماعة الى درب الزعفراني هذا ؛ هكذا .

باب الزوراء بفتح الزاي وسكون الواو ، وراء والمدّ ، الزوراء اسم لدجلة ببغداد سميت بذلك لميلها وانعراجها ، والزوراء مدينة المنصور ببغداد تسمى الزوراء (ايضا) ، قالوا لأنه جعل ابوابها الداخلة مزوّرة عن ابوابها الخارجة .

باب الزهيرية : ربض كان ببغداد ينسب الى زهير بن المسيب في شارع الكوفة .

والزهيرية (ايضا) محلّة كانت ببغداد ايضاً يقال لها قطيعة زهير بن محمد الأبيوردي وهو ازدي غامدي الى جانب قطيعة ابي النجم .

الزيدية : قرية من سواد بغداد من اعمال بادوريا ، ينسب اليها ابو بكر محمد بن يحيى بن محمد الشوكي الزيدي سمع محمد بن اسماعيل الوراق وابا حفص بن شاهين وغيرهما .

باب السلام بفتح السين مدينة السلام بغداد ينسب اليها سلامي ، كما نسب إليها محمد بن عبيدالله السلامي الشاعر مات سنة ٣٩٢هـ وابو الفضل محمد بن ناصر السلامي الحافظ ولد سنة سبع او ثمان وستين واربعمائة ومات في شعبان سنة ٥٥٠ وغيرهما وقصر السلام من ابنية الرشيد بالرقة .

سوق الثلاثاء بنهر المعلّى من محال مدينة السلام بغداد كانت تقام فيه سوق في كل شهر مرة في يوم الثلاثاء فنسب إليه اليوم الذي كانت تقام فيه وذلك قبل ان يعمر المنصور بغداد وهو الآن من اعمر محال بغداد وبه معظم سوق البزازين .

سوق السلاح محلة كانت ببغداد نسب إليها ابو الحسين محمد بن محمد بن المظفر بن عبدالله الدقاق السلاحي المعروف بأبن السراج بغدادي سكن سوق السلاح سمع ابا القاسم بن حبابة وعلي ابن عمر الحربي وابا عبيدالله المرزباني سمع منه الحافظ ابو بكر احمد بن علي الخطيب ؛ وكان صدوقاً مولده سنة ٣٧٤ ، ومات سنة ٤٤٨ .

وسوق عبدالواحد كان ببغداد بالجانب الغربي عند باب الكوفة قرب باب البصرة ؛ وسوق العطش كان من اكبر محال بغداد بالجانب الشرقي بين الرصافة ونهر المعلّى بناه سعيد الخُرسي للمهدي ، وقال له المهدي عند تمامه سمّه سوق الري فقلب عليه سوق العطش ، والخرسي نسبة الى خراسان وكان صاحب الشرطة ببغداد .

وسوق يحيى ببغداد بين الرصافة ودار المملكة منسوبة الى يحيى بن خالد البرمكي وايّاها عنى ابن حجّاج بقوله [الى وطني القديم بسوق يحيى فقلبي عن هواه غير سالي] .

سويقة حجاج منسوبة الى حجاج الوصيف مولى المهدي كانت بشرقي بغداد خربت.

سويقة العباسية بنت الرشيد بن المهدي ببغداد .

وسويقة ابي عبيدالله بن معاوية بن عمرو وزير المهدي كانت بين الرصافة ودار المملكة خربت .

وسويقة عبدالوهاب محلة قديمة في غربي بغداد تنسب الى عبدالوهاب بن ابراهيم الأمام بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس .

وسويقة خالد ببغداد تنسب الى خالد بن برمك كانت بباب الشماسية من شرقي بغداد .

وسويقة غالب من محال بغداد ينسب اليها بعض الرواة .

وسويقة نصر وهو نصر بن مالك الخزاعي في شرقي بغداد اقطعه اياها المهدي وهو والد احمد ابن نصر الزاهد الممتحن في ايام الواثق في خلق القرآن المصلوب فيه ولم يقل انه مخلوق .

وسويقة ابي الورد في غربي بغداد بين الكرخ والصراة تنسب الى ابي الورد عمر بن المطرف الخراساني صاحب المظالم في ايام المهدي .

وسويقة الهيثم في غربي بغداد تنسب الى الهيثم بن سعيد بن ظهير مولى المنصور قرب مدينة المنصور .

شارع الأنبار من محال بغداد قرب مدينة المنصور من جهة الأنبار فلذلك سميت شارع الأنبار .

شارع دار الرقيق ببغداد ايضا محلة متصلة بالحريم الطاهري من الجانب الغربي عامرة الى الآن .

شارع الميدان من محال بغداد ايضاً بالجانب الشرقي بظاهر الرصافة ، وكان شارعاً ماداً من باب الشماسية الى سوق الثلاثاء ، ولهذه الشوارع ذكر في الأخبار والاشعار كثير ، فذاك الذي اوجب ذكرها .

باب طاق : طاق اسماء في شرقي بغداد بين الرصافة ودار المملكة منسوب الى اسماء بنت المنصور وهو الذي يقال له راس الطاق كان طاقا عظيماً يجلس اليه الشعراء . وطاق الحراني محلة كانت ببغداد في الجانب الغربي قالوا هو من حد القنطرة الجديدة . والحراني هذا هو ابراهيم ابن ذكوان بن الفضل الحراني من موالي المنصور ووزير الهادي موسى بن المهدي .

الطاهرية : من قرى بغداد يستنقع في موضع من ارضها فضلات مياه الامطار والأنهار فيتولد فيه سمك كثير جداً يسميه اهل العراق البني اطيب ما يكون من انواع السمك فيضمنه السلطان بمال وافر .

والطاهري بغير هاء الحريم الطاهري (محلة ببغداد (معروفة) تقدم ذكره في الحريم .

باب عسكر : عسكر ابي جعفر المنصور امير المؤمنين وهي مدينته المسماة اليوم **باب البصرة** التي بها جامع المنصور ، وقصره ببغداد .

باب القرية وهو تصغير القرية القريّة محلة كبيرة في حريم دار الخلافة ببغداد سكنتها وكان بها جماعة من اهل العلم ونسبوا إليها **والقرية** ايضاً محلة كبيرة كالمدينة ذات اسواق وجامع مفرد بالجانب الغربي من بغداد مقابل سوق المدرسة النظامية كان بها جماعة ممن روى الحديث .

باب القطيعة اربعة عشر موضعا بفتح القاف وكسر الطاء وياء ساكنة وعين مهملة وهاء وجميعها محال ببغداد قد نسب الى بعضها قوم من المحدثين فلذلك اوجب ذكرها كان ابو جعفر المنصور لما عمر بغداد اقطع كلّ واحد من قوّاده واعيان اصحابه موضعاً ليعمره ويسكنه : هو واتباعه ففعلوا ونسبت كل قطيعة الى من عمرها وانا اذكر من اضيفت إليه القطيعة على حروف المعجم : قطيعة اسحق الأزرق الشروي مولى محمد بن علي بن عبدالله بن عباس ، وهو قرب الكرخ ، وقطيعة ام جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور كانت ببغداد قرب باب التبن من الجانب الغربي ينسب اليها اسحق بن محمد بن اسحق القطيعي الناقد حدّث عن الحسن بن عرفة وغيره، وقطيعة بني جدار بطن من الخزرج نسب إليها بعض الرواة جداري ، وقطيعة الدقيق ببغداد بالجانب الغربي ينسب إليها ابو بكر احمد بن جعفر بن حمدان بن مالك القطيعي وكان من المكثرين روى عنه الائمة ، ومات سنة ٣٦٨ ، وقطيعة الربيع بن يونس حاجب المنصور ، اقطعه إياها المنصور ، وتعرف بالقطيعة الداخلة ينسب إليها ابو معمر اسماعيل بن ابراهيم بن معمر بن الحسن الهروي القطيعي بغدادي ثقة ، وقطيعة الربيع ايضاً ، وتعرف بالقطيعة الخارجة اقطعه

أباها المهدي بالله أمير المؤمنين ، وقطيعة ربسانة بعض الفهارمة محلة كانت بقرب مسجد رغبان في غربي بغداد قرب باب الشعير ، وقطيعة زهير قرب حريم بني طاهر بالجانب الغربي وهو زهير بن محمد الابيوردي ، وقطيعة العجم بالجانب الشرقي بين باب الحلبة وباب الأزج محلة كبيرة ينسب إليها جماعة منهم أبو العباس احمد عمر القطيعي الحنبلي كان واعظاً وابنه أبو الحسين محمد تركته ببغداد حيا سمع وروى وصنف ويرى انه من الحفاظ الاعيان ، وقطيعة العكي وهو مقاتل بن حكيم بن عبدالرحمن بن الحرث من قواد المنصور بين باب البصرة وباب الكوفة من مدينة المنصور . وقطيعة عيسى بن علي بن عبدالله بن عباس ـ عم المنصور ـ ببغداد ينسب اليها ابراهيم ابن محمد بن الهيثم القطيعي كان يسكن في جوار عبيد العجل بقطيعة عيسى حدث عن منصور بن ابي مزاحم وابي معمر الهذلي وعمرو الناقد وغيرهم روى عنه ابو عبدالله المحاملي وغيره ؛ وقطيعة الفقهاء بالكرخ وقد فرق المحدثون بينها وبين قطيعة الربيع بالكرخ فنسبوا الى هذه ابا اسحق ابراهيم ـ بن محمد ـ بن منصور القطيعي الكرخي روى عن خديجة بنت محمد بن عبدالله الشاهجانية وابي بكر الخطيب وغيره ذكره ابو سعد في شيوخه وتوفي سنة سبع او ثمان وثلاثين وخمسماية ؛ وقطيعة ابي النجم احد قواد المنصور متصلة بقطيعة زهير متصلة بالحريم الطاهري ؛ وقطيعة النصارى محلة متصلة بنهر طابق من محال بغداد .

المالكية قرية على باب مدينة السلام ـ بغداد ـ مقابل باب الظفرية .

باب المحمدية : والمحمدية ايضا من قرى بغداد من ناحية نهر سل نسبوا إليها ابا علي محمد ابن الحسين بن احمد بن الطيب المحمدي الاديب روى عنه هبة الله الشيرازي .

ياقوت الحموي : شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي ت/٦٢٦هـ .

(ب) معجم البلدان(١)

بغداد أم الدنيا وسيدة البلاد .. قال ابن الانباري اصل بغداد للأعاجم والعرب تختلف في لفظها إذ لم يكن اصلها من كلامهم ولا أشتقاقها من لغاتهم .. قال بعض الأعاجم تفسيره بستان رجل ، فباغ بستان وداد اسم رجل وبعضهم يقول بغ اسم للصنم فذكر انه اهدي الى كسرى خَصِيٌّ من المشرق فاقطعه إياها وكان الخصي من عباد الأصنام ببلده فقال بغ داد اي الصنم اعطاني وقيل بغ هو البستان وداد اعطى وكان كسرى قد وهب لهذا الخصي هذا البستان فقال بغ داد فسميت به .. وقال حمزة بن الحسن بغداد اسم فارسي معرب عن باغ داذويه لأن بعض رقعة مدينة المنصور كان باغا لرجل من الفرس اسمه داذويه وبعضها اثر مدينة دارسة كان بعض ملوك الفرس اختطها فاعتل فقالوا : ما الذي يامر الملك ان تسمى به هذه المدينة فقال : هليدوه وروز؛ اي خلوها بسلام فحكى ذلك للمنصور فقال سميتها مدينة السلام . وفي بغداد سبع لغات ـ بغداد وبغدان ويأبى اهل البصرة ولا يجيزون بغداذ في آخره الذال المعجمة وقالوا لانه ليس في كلام العرب كلمة فيها دال بعدها ذال .. قال ابو القاسم عبدالرحمن بن اسحق فقلت لأبي اسحق ابراهيم ابن السري فما تقول في قولهم خرداذ فقال هو فارسي ليس من كلام العرب قلت انا وهذا حجة من قال بغداذ فإنه ليس من كلام العرب واجاز الكسائي بغداد على الأصل وحكى ايضا مغداذ ومغداد ومغدان وحكى الخارزنجي بغداد بدالين مهملتين ، وهي في اللغات كلها تذكر وتؤنث وتسمى مدينة السلام ايضا .. فأما الزوراء فمدينة المنصور خاصة وسميت مدينة السلام لان دجلة يقال لها وادي السلام ؛ وقال موسى بن عبدالحميد النسائي كنت جالساً عند عبدالعزيز ابن ابي رواد فأتاه رجل فقال له من ابن انت فقال له من بغداد فقال : لا تقل بغداد فان بغ صنم وداد اعطى ولكن قل مدينة السلام فإن الله هو السلام والمدن كلها له وقيل إن بغداد كانت قبل سوقا يقصدها تجار اهل الصين بتجاراتهم فيربحون الربح الواسع وكان اسم ملك الصين بغ فكانوا إذا انصرفوا الى بلادهم قالوا بغ داد اي ان هذا الربح الذي ربحناه من عطية الملك وقيل إنما سميت مدينة السلام لان السلام هو الله فأرادوا مدينة الله .. وأما طولها فذكر بطليموس في كتاب الملحمة المنسوب إليه ان مدينة بغداد طولها خمس وسبعون درجة وعرضها اربع وثلاثون درجة داخلة في الأقليم الرابع .. وقال ابو عون

---

(١) معجم البلدان ٤٥٦/١ ـ ٦٧) ، ط . دار صادر بيروت ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

وغيره إنهما في الاقليم الثالث . قال : طالعها السّماك الأعزل بيت حياتها القوس لها شركة في الكف الخضيب ولها اربعة اجزاء من سرّة الجوزاء تحت عشر درج من السرطان يقابلها مثلها من الجدي عاشرها مثلها من الحمل عاقبتها مثلها من الميزان ؛ قلت انا ولا شك ان بغداد احدثت بعد بطليموس بأكثر من الف سنة ، ولكني اظنّ ان مفسّري كلامه قاسوا وقالوا ؛ وقال صاحب الزيج طول بغداد سبعون درجة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلث وتعديل نهارها ست عشرة درجة وثلثا درجة . واطول نهارها اربع عشرة ساعة وخمس دقائق وغاية ارتفاع الشمس بها ثمانون درجة وثلث . وظلّ الظهر بها درجتان ، وظل العصر اربع عشرة درجة ، وسمت القبلة ثلاث عشرة درجة ونصف ، وجهها عن مكة مائة وسبع عشرة درجة في الوجود ثلاثمائة درجة هذا كله نقلته من كتب المنجمين ولا اعرفه ولا هو من صناعتي .. وقال احمد بن حنبل بغداد من الصّراة الى باب التبن وهو مشهد موسى الكاظم ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن الامام علي بن ابي طالب ، ثم زيد فيها حتى بلغت كلواذى والمخرّم وقطربّل قال اهل السّير ، ولما اهلك الله مهران بأرض الحيرة ومَنْ كان معه من العجم استمكن المسلمون من الغارة على السّواد وانتقضت مسالح الفرس وتشتّت امرهم واجترأ المسلمون عليهم وشنوا الغارات ما بين سورا وكسكر والصراة والفلاليج والاستانات .. قال اهل الحيرة للمثنى إن باقرب منّا قرية تقوم فيها سوق عظيمة في كلّ شهر مرّة فيأتيها تجار فارس والاهواز ، وسائر البلاد يقال لها بغداد وكذا كانت إذ ذاك فأخذ المثنى على البرّ حتى اتى الانبار فتحصّن فيها اهلها منه فارسل الى سفرّوخ مرزبانها ليسير إليه فيكلمه بما يريد وجعل له الأمان فعبر المرزبان إليه فخلا به المثنى وقال له اريد ان اغيرّ على سوق بغداد واريد ان تبعث معي ادلاء فيدلوني الطريق وتعقد لي الجسر لاعبر عليه الفرات ففعل المرزبان ذلك وقد كان قطع الجسر قبل ذلك لئلا تعبر العرب عليه فعبر المثنى مع اصحابه وبعث معه المرزبان الادلاء فسار حتى وافى السوق ضحوة فهرب الناس وتركوا اموالهم فأخذ المسلمون من الذهب والفضة وسائر الأمتعة ما قدروا على حمله ثم رجعوا الى الانبار ووافى معسكره غانماً موفوراً وذلك في سنة ١٣ للهجرة فهذا خبر بغداد قبل ان يمصّرها المنصور لم يبلغني غير ذلك .

[فصل] في بدء عمارة بغداد .. كان اول من مصّرها وجعلها مدينة المنصور بالله ابو جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب ثاني الخلفاء وانتقل إليها من الهاشمية. وهي مدينة كان قد اختطها اخوه ابو العباس السفاح قرب الكوفة وشرع في عمارتها سنة ١٤٥ ونزلها سنة ١٤٩ ؛ وكان سبب عمارتها ان اهل الكوفة كانوا يفسدون جنده فبلغه ذلك من فعلهم فانتقل عنهم يرتاد موضعاً . وقال ابن عياش : بعث المنصور روّاداً وهو بالهاشمية يرتادون له موضعاً يبني فيه مدينة ويكون الموضع واسطاً رافقاً بالعامة والجند فنُعِتَ له موضع قريب من بارمّا وذكر له غذاؤه وطيب هوائه فخرج إليه بنفسه حتى نظر إليه وبات فيه فرأى موضعاً طيباً فقال لجماعة منهم سليمان بن مجالد وابو ايوب المرزباني وعبدالملك بن حميد الكاتب ما رأيكم في هذا الموضع قالوا طيّب موافق فقال صدقتم ولكن لا مرفق فيه للرعية وقد مررت في طريقي بموضع تجلب إليه الميرة والأمتعة في البرّ والبحر وانا راجع إليه وبائت فيه فان اجتمع لي ما اريد من طيب الليل فهو موافق لما اريده لي وللناس ؛ قال فأتى موضع بغداد وعبر موضع قصر السلام ثم صلى العصر وذلك في صيف وحرّ شديد وكان في ذلك الموضع بيعة فبات اطيب مبيت واقام يومه فلم ير الا خيراً فقال هذا موضع صالح للبناء فإن المادة تأتيه من الفرات ودجلة وجماعة الأنهار ولا يحمل الجند والرعية إلا مثله فخطّ البناء وقدّر المدينة ووضع اول لبنة بيده فقال بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال ابنوا على بركة الله ؛ وذكر سليمان بن مختار ان المنصور استشار دهقان بغداد وكانت قرية في المربّعة المعروفة بأبي العباس الفضل بن سليمان الطوسي وما زالت داره قائمة على بنائها الى ان خرّب كثير مما يجاورها في البناء فقال الذي اراه يا امير المؤمنين ان تنزل في نفس بغداد فإنك تصير بين اربعة طساسيج ، طسّوجان في الجانب الغربي وطسّوجان في الجانب الشرقي فاللذان في الجانب الغربي قَطرَبّل وبادوريا واللذان في الشرقي نهر بوق وكلواذى فان تأخرت عمارة طسوج منها كان الآخر عامراً وانت يا امير المؤمنين على الصّراة ودجلة تجيئك بالميرة من الغرب وفي الفرات من الشام والجزيرة ومصر وتلك البلدان وتحمل اليك طرائف

الهند والسند والصين والبصرة وواسط في دجلة وتجيئك ميرة ارمينية واذربيجان وما يتصل بها في تامرا وتجيئك ميرة الموصل وديار بكر وربيعة وانت بين انهار لا يصل إليك عدوك الا على جسر او قنطرة فاذا قطعت الجسر والقنطرة لم يصل إليك عدوك وانت قريب من البر والبحر والجبل ؛ فاعجب المنصور هذا القول وشرع في البناء ووجه المنصور في حشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط فاحضروا وامر باختيار قوم من اهل الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة فجمعهم وتقدم إليهم ان يشرفوا على البناء وكان ممن حضر الحجاج بن ارطاة وابو حنيفة الأمام وكان اول العمل في سنة ١٤٥ وامر ان يجعل عرض السور من اسفله خمسين ذراعا ومن اعلاه عشرين ذراعاً وان يجعل في البناء جرز القصب مكان الخشب فلما بلغ السور مقدار قامة اتصل به خروج محمد بن عبدالله بن حسن ابن حسن بن علي بن ابي طالب فقطع البناء حتى فرغ من امره وامر اخيه ابراهيم بن عبدالله بن حسن بن حسن ..

وعن علي بن يقطين قال كنت في عسكر ابي جعفر المنصور حين سار الى الصراة يلتمس موضعا لبناء مدينة ، قال فنزل الدير الذي على الصراة في العتيقة فما زال على دابته ذاهباً جائياً منفرداً عن الناس يفكر قال وكان في الدير راهب عالم فقال لي لم يذهب الملك ويجيء قلت انه يريد ان يبني مدينة .. قال فما اسمه ؟ قلت : عبدالله ابن محمد .. قال ابو من ؟ قلت : ابو جعفر قال هل يلقب بشيء قلت المنصور قال ليس هذا الذي يبنيها قلت ولم ؟ قال لانا قد وجدنا في كتاب عندنا نتوارثه قرناً عن قرن ان الذي يبني هذا المكان رجل يقال له : مقلاص .. قال فركبت من وقتي حتى دخلت على المنصور ودنوت منه فقال لي ما وراءك قلت خير القيه الى امير المؤمنين واريحه من هذا العناء فقال : قل ، قلت امير المؤمنين يعلم ان هؤلاء معهم علم وقد اخبرني راهب هذا الدير بكذا وكذا فلما ذكرت له مقلاص ضحك واستبشر ونزل عن دابته واخذ سوطه واقبل يذرع به فقلت في نفسي لحقه اللجاج ثم دعا المهندسين من وقته وامرهم بخط الرماد فقلت له اظنك يا امير المؤمنين اردت معاندة الراهب وتكذيبه فقال : لا والله ولكني كنت ملقباً بمقلاص وما ظننت ان احداً عرف ذلك غيري وذاك انا كنا بناحية السراة في زمان بني امية على الحال التي تعلم فكنت انا ومن كان في مقدار سني من عمومتي واخوتي نتداعى ونتعاشر فبلغت النوبة الي يوما من الايام وما املك درهما واحدا فلم ازل افكر واعمل الحيلة التي ان اصبت غزلاً لداية كانت لهم فسرقته ثم وجهت به فبيع لي واشترى لي بثمنه ما احتجت إليه وجئت الى الداية وقلت لها افعلي كذا واصنعي كذا قالت من اين لك ما ارى قلت اقترضت دراهم من بعض اهلي ففعلت ما امرتها به فلما فرغنا من الأكل وجلسنا للحديث طلبت الداية الغزل فلم تجده فعلمت اني صاحبه وكان في تلك الناحية لص يقال له مقلاص مشهور بالسرقة فجاءت الى باب البيت الذي كنا فيه فدعتني فلم اخرج اليها لعلمي انها وقفت على ما صنعت فلما الحت وانا لا اخرج قالت اخرج يا مقلاص ، الناس يتحذرون من مقلاصهم وانا مقلاصي معي في البيت فمزح معي اخوتي وعمومتي بهذا اللقب ساعة ثم لم اسمع به الا منك الساعة فعلمت ان امر هذه المدينة يتم على يدي لصحة ما وقفت عليه .. ثم وضع اساس المدينة مدوراً وجعل قصره في وسطها وجعل لها اربعة ابواب واحكم سورها وفصيلها فكان القاصد إليها من الشرق يدخل من باب خراسان والقاصد من الحجاز يدخل من باب الكوفة والقاصد من المغرب يدخل من باب الشام والقاصد من فارس والأهواز وواسط والبصرة واليمامة والبحرين يدخل من باب البصرة .. قالوا فانفق المنصور على عمارة بغداد ثمانية عشر الف الف دينار ، وقال الخطيب في رواية انه انفق على مدينته وجامعها وقصر الذهب فيها والابواب والاسواق الى ان فرغ من بنائها اربعة آلاف الف وثمانمائة وثلاثة وثمانين الف درهم وذاك ان الاستاذ من الصناع كان يعمل في كل يوم بقيراط الى خمس حبات والروز جاري بحبتين الى ثلاث حبات وكان الكبش بدرهم والحمل باربعة دوانيق والتمر ستون رطلاً بدرهم ، قال الفضل ابن دكين كان ينادي على لحم البقر في جبانة كندة تسعون رطلاً بدرهم ولحم الغنم ستون رطلاً بدرهم والعسل عشرة ارطال بدرهم ، قال وكان بين كل باب من ابواب المدينة والباب الآخر ميل وفي كل ساف من اسواف البناء مائة الف لبنة واثنان وستون الف لبنة من اللبن الجعفري ؛ وعن ابن الشروي قال هدمنا من السور الذي يلي باب المحول قطعة فوجدنا فيها لبنة مكتوبا عليها بمغرة وزنها مائة وسبعة عشر رطلاً ، فوزناها فوجدناها كذلك . وكان المنصور كما ذكرنا بنى

مدينته مدوّرة وجعل داره وجامعها في وسطهـا وبنى القبة الخضراء فوق ايوان وكان علوّها ثمانين ذراعاً وعلى راس القبة صنم على صورة فارس في يده رمح ؛ وكان السلطان إذا راى ان ذلك الصنم قد استقبل بعض الجهات ومدّ الرمح نحوها علم ان بعض الخوارج يظهر من تلك الجهة فلا يطول عليه الوقت حتى ترد عليه الأخبار بأن خارجياً قد هجم من تلك الناحيـة ؛ قلت انا هكـذا ذكر الخطيب وهو من المستحيل والكذب الفاحش وانما يحكى مثل هذا عن سحرة مصر وطلسمات بليناس التي اوهم الاغمار صحتها تطاول الأزمان والتخيّل ان المتقدمين ما كانوا بني آدم ؛ فاما الملة الاسلامية فانها تجلّ عن هـذه الخرافات فإن من المعلوم ان الحيوان الناطق مكلّف الصنائع لهذا التمثال لا يعلم شيئاً مما ينسب الى هذا الجماد ولو كان نبياً مرسلاً وايضاً لو كان كلّما توجهت الى جهة خرج منها خارجي لوجب ان لا يزال خارجي يخرج في كلّ وقت لأنها لابدّ ان تتوجّه الى وجـه من الوجوه ؛ واللّـه اعلم .. قال وسقط راس هذه القبة سنة ٣٢٩هـ وكان يوم مطر عظيم ورعد هائل وكانت هذه القبة تاج البلد وعلم بغداد ومأثرة من مآثر بني العباس وكان بين بنائها وسقوطها مائـة ونيّف وثمانون سنة ونقل المنصور ابوابها من واسط وهي ابواب الحجاج ، وكان الحجاج اخذها من مدينة بازاء واسط تعرف بزَنْدَوَرْد : يزعمون انها من بناء سليمان بن داود عليـه السلام واقام على باب خراسان باباً جيء به من الشام من عمل الفراعنة وعلى باب الكوفة باباً جيء به من الكوفة من عمل خالد القسري وعمل هو باباً لباب الشام وهـو اضعفها وكان لا يدخل احد من عمومة المنصور ولا غيرهم من شيء من الابواب الاّ راجلاً الاّ داود ابن علي عمّه فانه كان متفرساً وكان يحمـل في محفّة وكذلك محمد المهدي ابنـه ؛ وكانت تكنس الرحاب في كل يوم ويحمل التراب الى خارج فقال له عمّه عبدالصمد يا امير المؤمنين انا شيخ كبير فلو اذنت لي ان انزل داخل الأبواب فلم يأذن لـه فقال يا امير المؤمنين عدّني بعض بغال الرّوايا التي تصل الى الرحاب فقال يا ربيع بغال الروايا تصل الى رحابي تتخذ الساعة قنيّ بالساج من باب خراسان حتى تصـل الى قصـري ففعل ومدّ المنصور قناة من نهر دُجيل الآخذ من دجلة وقناةً من نهر كرخايا الآخـذ من الفرات وجرّهما الى مدينته في عقود وثيقة من اسفلها محكمة بالصاروج والآجر من اعلاها فكانت كلّ قناة منها تدخـل المدينة وتنفـذ في الشـوارع والدروب والأرباض تجري صيفاً وشتاء لا ينقطع ماؤها في شـيء من الاوقات ؛ ثم اقطع المنصور اصحابـه القطائـع نعمروها وسمّيت باسمائهم ؛ وقـد ذكرت مـن ذلك ما بلغني في مواضعـه حسب ما تقتضي به ترتيب الحروف وقد صنف في بغداد وسمتها وعظم رفعتها وسعة بقعتها وذكر ابو بكر الخطيب في صدر كتابه من ذلك ما فيه كفاية لطالبه .

[فلنذكر الآن ما ورد في مدح بغداد]

ومن عجيب ذلك ما ذكره ابو سهـل بن نوبخت قال : امرني المنصور لما اراد بناء بغـداد بأخذ الطالع ففعلت فاذا الطالع في الشمس وهي في القوس فخبّرته بما تدلّ النجوم عليه من طول بقائها وكثرة عمارتها وفقر الناس الى ما فيها ثم قلت واخبرك خلّة اخرى اسرّك بها امير المؤمنين قال : وما هي ؟ قلت نجد في ادلة النجوم انه لا يموت بها خليفة ابداً حتف انفه قال فتبسم وقال الحمد للّه على ذلك هذا من فضل اللّه يؤتيه من يشـاء واللّـه ذو الفضل العظيم ؛ ولذلك يقول عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطفى :

اعاينت في طول مـن الأرض او عرض
كبغـداد من دارٍ بهـا مسكن الخفض
صفا العيش في بغـداد واخضرّ عوده
وعيش سـواها غير خفْض ولا غضّ
تطول بهـا الأعمـار إنّ غـذاءها
مريء وبعض الأرض امرأ مـن بعض
قضى ربّهـا ان لا يموت خليفـة
بهـا انـه ما شاء في خلقـه يقضي
تنـام بهـا عين الغريب ولا تـرى
غريباً بأرض الشـام يطمع في الغمض
فإن جُزيت بغـداد منهم بقرضها
فما اسلفتْ الا الجميلَ من القرض
وإن رُميت بالهجـر منهم وبالقلى
فما اصبحت اهلاً لهجـر ولا بغض

وكان من اعجب العجب ان المنصـور مات وهو حاج والمهدي ابنه خرج الى نواحي الجبـل فمات بماسبذان بموضع يقال له الرذّ والهـادي ابنه مات بعيساباذ قرية او محلة بالجانب الشرقي من بغـداد والرشيد مات بطوس والأمين اخـذ في شبارته وقتـل بالجانب الشـرقي والمأمون مات

بالبلندون من نواحي المصيصه بالشام والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر وباقي الخلفاء مالوا بسامرا ثم انتقل الخلفاء الى التاج من شرقي بغداد كما ذكرناه في التاج وتعطلت مدينة المنصور منهم .

وفي مدح بغداد قال بعض الفضلاء : بغداد جنة الارض ومدينة السلام وقبة الاسلام ومجمع الرافدين وغرة البلاد وعين العراق ودار الخلافة ومجمع المحاسن والطيبات ومعدن الظرائف واللطائف وبها ارباب الغايات في كلّ فن وآحاد الدهر في كلّ نوع وكان ابو اسحق الزجاج يقول بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية ؛ وكان ابو الفرج البيغا يقول هي مدينة السلام بل مدينة الاسلام فان الدولة النبوية والخلافة الأسلامية بها عششتا وفرّختا وضربنا بعروقهما وبسقتا بفروعهما وان هواءها اغذى من كلّ هواء وماءها اعذب من كل ماء وان نسيمها ارقّ من كلّ نسيم وهي من الاقليم الأعتدالي بمنزلة المركز من الدائرة ولم تزل بغداد موطن الاكاسرة في سالف الأزمان ومنزل الخلفاء في دولة الاسلام ؛ وكان ابن العميد إذا طرأ عليه احدٌ من منتحلي العلوم والآداب واراد امتحان عقله ساله عن بغداد ، فان فطن بخواصها وتنبه على محاسنها واثنى عليها جعل ذلك مقدّمة فضله وعنوان عقله ثم ساله عن الجاحظ فان وجد اثراً لمطالعة كتبه والاقتباس من نوره والاغتراف من بحره وبعض القيام بمسائله قضى له بانه غرة شادخة في اهل العلم والآداب وان وجده ذاما لبغداد غُفلاً عما يجب ان يكون موسوماً به من الانتساب الى المعارف التي يختص بها الجاحظ لم ينفعه بعد ذلك شيء من المحاسن ؛ ولما رجع الصاحب عن بغداد ساله ابن العميد عنها فقال بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد فجعلها مثلاً في الغاية في الفضل .. وقال ابن زريق الكاتب الكوفي :

سافرت ابغي لبغداد وساكنها
مثلاً قد اخترتُ شيئاً دونه الياس
هيهات بغداد والدنيا بأجمعها
عندي وسكان بغداد هم الناسُ

وقال آخر :

بغداد يا دار الملوك ومُجتنى
صنوف المنى يا مستقر المنابر
ويا جنة الدنيا ويا مجتنى الغنى
ومنبسط الآمال عند المتاجر

.. وقال ابو يعلى محمد بن الهبّارية سمعت الشيخ الزاهد ابا اسحق ابراهيم بن علي بن يوسف الفيروز ابادي يقول من دخل بغداد وهو ذو عقل صحيح وطبع معتدل مات بها او بحسرتها ؛ وقال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير :

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين
على تقلبها في كلّ ما حين
ما بين قطربل فالكرخ نرجسة
تندى ومنبتِ خيريٍّ ونسرين
تحيا النفوسُ بريّاها إذا نفحت
وخرّشت بين اوراقِ الرّياحين
سقياً لتلك القصور الشاهقات وما
تخفي من البقر الأنسية العينِ
تستَنّ دجلة فيما بينها فترى
دُهمَ السّفين تعالى كالبراذين
مناظرٌ ذاتُ ابواب مفتحة
انيقة بزخاريف وتزيين
فيها القصور التي تهوي بأجنحةٍ
بالزائرين الى القوم المزورين
من كلّ حرّاقةٍ تعلو فقارتها
قصر من السّاج عالٍ ذو اساطين

وقدم عبدالملك بن صالح بن علي بن عبدالله ابن عباس الى بغداد فراى كثرة الناس بها فقال ما مررت بطريق من طرق هذه المدينة الا ظننت ان الناس قد نودي فيهم ؛ ووجد على بعض الاميال بطريق مكة مكتوباً :

ايا بغداد يا اسفي عليكِ
متى يقضي الرجوع لنا إليكِ
قنعنا سالمين بكلّ خير
وينعم عيشنا في جانبيكِ

ووجد على حائط بجزيرة قبرص مكتوباً :

فهل نحو بغداد مزارٌ فيلتقي
مشوق ويحظى بالزيارة زائرُ
الى الله اشكو لا إلى الناس إنّه
على كشف ما ألقى من الهمّ قادرُ

وكان القاضي ابو محمد عبدالوهاب بن علي ابن نصر المالكي قد نبا به المقام ببغداد فرحل الى مصر فخرج البغداديون يودّعونه وجعلوا يتوجعون

لفراقه فقال والله لو وجدت عندكم في كل يوم مداً من الباقلى ما فارقتكم ، ثم قال :

سلام على بغـداد من كل منزل
وحـقّ لهـا مني السلام المضاعف
فوالله ما فارقتهـا عن قِلىً لهـا
واني بشطى جانبيهـا لعـارف
ولكنهـا ضاقت عليّ برحبهـا
ولـم تكن الارزاق فيهـا تساعف
وكانت كخـل كنت اهـوى دنوّه
واخلاقـه تنأى بـه وتخالف

ولما حج الرشيد وبلغ زرود التفت الى ناحية العراق وقال :

اقول وقـد جزنا زرودّ عشيّةً
وكادت مطايانا تجوز بنا نجـدا
على اهـل بغـداد السلام فانني
ازيد بسيرى عن ديارهم بعـدا

وقال ابن مجاهد المقرى رايت ابا عمرو بن العلاء في النوم فقلت له ما فعل الله بك فقال دعني مما فعل الله بي من اقام ببغـداد على السـنة والجماعة ومات نقل من جنّة الى جنة وعن يونس ابن عبد الاعلى قال : قال لي محمد بن ادريس الشافعي رضى الله عنه ابا يونس دخلت بغداد فقلت لا فقال ابا يونس ما رايت الدنيا ولا الناس .
وقال طاهر ابن المظفرّ بن طاهر الخازن :ـ

سقى الله صوب الغاديات محلّةً
ببغداد بين الخلد والكرخ والجسر
هي البلدة الحسناء خصت لاهلهـا
باشياء لم يجمعن مذ كنّ في مصر
هواء رقيقٌ في اعتدال وصحـة
وماء لـه طعم الذُّ من الخمـر
ودجلتهـا شطّان قـد نظما لنـا
بتـاج الى تـاج وقصر الى قصر
تراها كمسكٍ والميـاه كفضـةٍ
وحصباؤها مثل اليواقيت والـدر

.. قال ابو بكر الخطيب انشدني ابو محمد الباقي قول الشاعر :

دخلنـا كارهين لهـا فلمـا
الفنـاها خرجنـا مكرهينـا

فقال يوشك هذا ان يكون في بغداد ؛ قيل وانشد لنفسه في المعنى وضمنه البيت :

على بغـداد معـدن كلّ طيب
ومغنى نزهـة المتنزّهينـا
سـلام كلمـا جرحت بلحظ
عيـون المشتهين المشتهينـا
دخلنـا كارهين لهـا فلمـا
الفناها خرجنـا مكرهينـا
وما حب الديـار بنـا ولكـن
امر العيش فرقـة من هوينـا

قال محمد بن عليّ بن حبيب الماوردي كتب اليّ اخي من البصرة وانا ببغداد :

طيبُ الهـواءِ ببغداد يشوقني
قدما اليهـا وان عاقت معاذير
وكيف صبري عنها بعـد ما جمعت
طيب الهـواءين ممدود ومقصـور

وقلد عبيدالله بن عبدالله بن طاهـر اليمن فلما اراد الخروج ، قال :

ايرحـل اليفٌ ويقيـم إلفُ
وتحيـا لوعـة ويمـوت نصفُ
على بغـداد دار اللهـو مني
سلام ما سجـا للعـين طرفُ
وما فارقتهـا لقلىً ولكـن
الا جـار مـن الحـدثان كهف
لعـل زماننا سيعود يـوما
فيرجـع اليفٌ ويسـر إلفُ

فبلغ الوزير هـذا الشعر فاعفـاه ؛ وقال شاعر يتشوق بغداد :

ولمـا تجاوزتُ المدائن سائـراً
وايقنت يا بغداد اني على بعـد
علمتُ بان اللـه بالـغ امـره
وان قضاء الله ينفذ في العبـد
وقلت وقلبي فيه ما فيه من جوىً
ودمعيٌ جار كالجمان على خـدي
ترى الله يا بغداد يجمع بيننـا
فالقى الذي خلّفتُ فيك على العهد

وقال محمد بن عليّ بن خلف النيرماني :

فدى لك يا بغـــداد كل مدينـــة
مـــن الارض حتى خطتي ودياريا
فقد طفتُ في شرق البـلاد وغربها
وسيّرتُ خيلي بينهـا وركابيـــا
فلم ار فيها مثـل بغــداد منزلاً
ولم ار فيها مثـــل دجلــة واديا
ولا مثـــل اهليهـــا ارقَّ شمائلا
واعذب الفـاظاً واحلى معانيـــا
وقائلـــة لو كان ودك صـــادقاً
لبغداد لم ترحـل فقلت جوابيـــا
يقيم الرجال الموســـرون بارضهم
وترمي النـوى بالمقترين المراميـــا

- ٩ -

القزويني : زكريا بن محمد بن محمـــود / ٦٨٢هـ

آثار البلاد واخبار العباد

بيروت دار صادر
١٩٦٠م ص ٣١٣

بغـداد

ام الدنيا وسيدة البلاد وجنة الارض ومدينة السلام ، وقبة الاسلام ومجمع الرافدين ، ومعدن الطرائف ومنشا ارباب الغايات ، هواؤها الطف من كلّ هواء ، وماؤها اعذب من كل ماء ، وتربتها اطيب من كل تربة ، ونسيمها ارق من كل نسيم ! بناها المنصور ابو جعفر عبدالله بن محمد بن علي ابن عبدالله بن عباس ، ولما اراد المنصور بناء مدينة بعث روّاداً يرتاد موضعا ، قال له : أرى يا امير المؤمنين ان تبنى على شاطىء دجلة ، تجلب إليها الميرة والامتعة من البر والبحر ، وتاتيها المادة من دجلة والفرات ، وتحمـل اليها طرائف الهنـد والصين ، وتاتيها ميرة ارمينية واذربيجان وديار بكر وربيعة ، لا يحمل الجند الكثير إلاّ مثل هذا الموضع . فاعجب المنصور قوله واخذ المنجمين ، وفيهم نوبخت ، باختيار وقت للبنـاء فاختاروا طالع القوس الدرجة التي كانت الشمس فيهـا ، فاتفقوا على ان هذا الطالع ممـا يدل على كثرة العمارة وطول البقاء ، واجتماع النـاس فيهـا وسلامتهم عن الأعداء فاستحسن المنصور ذلك ثم قال نوبخت : وخلة اخرى يا امير المؤمنين قال : وما هي ؟ قال : لا يتفق بها موت خليفة ! فتبسّم المنصور وقال : الحمد لله على ذلك . وكان كمـا قال ، فإن المنصور مات حاجاً ، والمهـدي مات بماسبذان ، والهادي بعيساباد ، والرشيد بطوس ، والأمين اخذ في شبارته ، وقتل بالجانب الشرقي ، والمأمون بطرسوس ، والمعتصم والواثق والمتوكل والمستنصر بسامرا . ثم انتقل الخلفاء الى التاج وتعطلت مدينة المنصور من الخلفاء ! قال عمارة بن عقيل :

اعاينتَ في طول من الارض او عرض
كبغداد من دار بها مسكن الخفض ؟
صفا العيشُ في بغداد واخضر عودُهُ
وعيشُ سواها غيرُ خفض ولا غض
قضى ربُّها انْ لا يموتَ خليفـــة
بها ، إنّه ما شاءَ في خلقه يقضي

ذكر ابو بكر الخطيب ان المنصور بنى مدينة بالجانب الغربي ، ووضع اللبنة الأولى بيـــده ، وجعل داره وجامعها في وسطها ، وبنى فيها قبّة فوق ايوان كان علوها ثمانين ذراعاً . والقبّـــة خضراء على راسها تمثال فارس بيده رمح ، فاذا راوا ذلك التمثال استقبل بعض الجهـات ومدّ رمحه نحوها ، فعلموا ان بعض الخوارج يظهـر من تلك الجهة ، فلا يطول الوقت حتى ياتي الخبر ان خارجياً ظهر من تلك الجهة . وقد سقط راس هذه القبة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة في يوم مطير ريح ، وكانت تلك القبّة علم بغـداد وتاج البلـد ، ومأثرة بني العبّاس . وكان بجانبهـا الشرقي محلّة تسمى باب الطاق ، كان بها سوق الطير فاعتقدوا ان من تعسّر عليه شيء من الأمور فاشترى طيرا من باب الطاق وارسله ، سهل عليه ذلك الامر . وكان عبدالله بن طاهر طال مقامـه ببغداد ولم يحصل له اذن الخليفة ، فاجتاز يوماً بباب الطاق فراى قمرية تنوح ، فامر بشرائهـا واطلاقها ، فامتنع صاحبها ان يبيعها إلا بخمسمائة درهم ، فاشتراها واطلقها وانشا يقول :

ناحتْ مطوقـــةٌ بباب الطاق
فجرت ســوابقُ دمعي المهراق
كانت تغـــرد بالاراك وربمـــا
كانت تغــردُ في فروع السـاق
فرمَى الفراقُ بها العراقَ فاصبحت
بعد الاراك تنوح في الأســواق

فجعتُ بإفراخٍ فاسبل دمعُها
إنّ الدموع تبوحُ بالمشتاقِ
تعس الفراقُ وتب حبلُ وتينه
وسقاهُ من سمّ الاساودِ ساقي
ماذا اراد بقصدهِ قمرية
لم تدر ما بغدادُ في الآفاقِ
بي مثلُ ما بكِ يا حمامةُ فاسألي
من فك اسرك ان يحلّ وثاقي

هذه صفة المدينة الغربية، والآن لم يبقَ منها اثر . وبغداد عبارة عن المدينة الشرقية كان اصلها قصر جعفر بن يحيى البرمكي ، والآن هي مدينة عظيمة كثيرة الاهل والخيرات والثمرات ، تجبى إليها لطائف الدنيا وظرائف العالم إذ ما من متاع ثمين ولا عرض نفيس إلاّ ويحمل اليها ، فهي مجمع لطيبات الدنيا ومحاسنها ؛ ومعدن لأرباب الغايات وآحاد الدهر في كل علم وصنعة . وبها حريم الخلافة ، وعليه سور ابتداؤه من دجلة وانتهاؤه الى دجلة كشبه الهلال ؛ وله ابواب : باب سوق التمر باب شاهق البناء عالٍ ، اغلق من اول ايّام الناصر واستمر إغلاقه . ذكر ان المسترشد خرج منه فاصابه ما اصابه فتطيروا به واغلقوه . وباب النوبي وعنده العتبة التي يقبلها الملوك والرسل إذا قدموا بغداد . وباب العامة وعليه باب عظيم من الحديد نقله المعتصم من عمورية لم يُرَ مصراعان اكبر منهما من الحديد ، ومن عجائبها دار الشجرة من ابنية المقتدر بالله ، دار فيحاء ذات بساتين مؤنقة ، وإنّما سُميت بذلك لشجرة كانت هناك من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة امام ابوابها ، ولها من الذهب والفضة ثمانية عشر غصناً ؛ ولكلّ غصن فروع كثيرة مكلّلة بانواع الجواهر على شكل الثمار . وعلى اغصانها انواع الطير من الذهب والفضة ؛ إذا هبّ الهواء سمعت منها الهدير والصفير وفي جانب الدار عن يمين البركة تمثال خمسة عشر فارسا ، ومثله عن يسار البركة قد ألبسوا انواع الحديد المدبّج مقلدين بالسيوف ، وفي ايديهم المطارد يحركون على خطٍّ واحد ، فيظن ان كل واحد قاصد الى صاحبه . ومن مفاخرها المدرسة التي انشأها المستنصر بالله . لم يبن مثلها قبلها في حسن عمارتها ورفعة بنائها ، وطيب موضعها على شاطىء دجلة واحد جوانبها في الماء . لم يعرف موضع اكثر منها اوقافا ولا ارفه منها سكانا . وعلى باب المدرسة ايوان ركب في صدره صندوق الساعات على وضع عجيب ، يعرف منه اوقات الصلوات وانقضاء الساعات الزمانية نهاراً وليلاً ! قال ابو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي :

يا ايّها المنصورُ يا مالكا
برايه صعب الليالي يهونُ !
شيدتَ للّهِ ورضوانه
اشرفَ بنيانٍ بروقُ العيونْ
إيوانُ حُسنٍ وصفُهُ مدهشٌ
يَحارُ في منظرهِ الناظرونُ !
تهدي إلى الطاعاتِ ساعاتهُ
الناس وبالنجم هم يهتدونْ
صُوَرٌ فيه فلكٌ دائرٌ
والشمسُ تجري مالها من سكونْ
دائرةٌ من لازوردٍ حلتْ
نقطةُ تبرٍ فيه سرٌّ مصونْ
فتلكَ في الشكلِ وهذا معا
كمثلِ هاءٍ ركبت وسط نونْ
فهيَ لإحياءِ العلى والندى
دائرةٌ مركزها العالمونْ

واما اولو الفضل من العلماء والزهّاد والعبّاد والادباء والشعراء والصناع فلا يعلم عددهم إلا الله . ولنذكر بعض مشاهيرنا إن شاء الله . ينسب إليها القاضي ابو يوسف . ذكر انه كان رآه رجل يهودي وقت الظهيرة يمشي راكبا على بغلة ، واليهودي يمشي راجلاً جائعاً ضعيفاً ؛ فقال للقاضي : اليس نبيكم يقول الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ؟ قال : نعم . قال : فانت في السجن وانا في الجنّة والحالة هذه ! فقال القاضي : نعم يا عدوّ الله ، بالنسبة إلى ما اعد الله لي من الكرامة في الآخرة في السجن ، وانت بالنسبة الى ما اعدّ الله لك في الآخرة من العذاب في الجنّة ! وحكي ان الهادي الخليفة اشترى جارية فاستفتى فقال الفقهاء: لابدّ من الاستبراء او الاعتاق والتزويج. فقال القاضي ابو يوسف : زوجها من بعض اصحابك وهو يطلّقها قبل الدخول وحلت لك . وحكي ان الرشيد قال لزبيدة : انت طالق ثلاثا إن بتّ الليلة في مملكتي ! فاستفتوا في ذلك فقال ابو يوسف : تبيت في بعض المساجد فإن المساجد لله ! فولاه القضاء بجميع مملكته . وحكي أن زبيدة قالت للرشيد : انت من اهل النار . فقال لها : إن كنت من اهل النار فانت طالق ثلاثا ! فسألوا عنه فقال :

هل يخاف مقام ربّه ؟ قالوا : نعم . قال : فلا يقع الطلاق لان اللـّه تعالى يقول : ولمن خاف مقام ربّه جنتان . وينسب اليها القاضي يحيى بن اكثم . كان فاضلاً غزير العلم ذكي الطبع ، لطيفاً حسن الصورة حلو الكلام ، كان المامون يرى له لا يفارقه ، ويضرب به المثل في الذكاء . وولي القضاء وهو ابن سبع عشرة سنة فقال بعض الحاضرين في مجلس الخليفة : اصلح اللـّه القاضي ! كم يكون سنّ عمره ؟ فعلم يحييَ انه قصد بذلك استحقاره لقلّة سنه ، فقال : سنّ عمري مثل سن عمر بن عتاب بن اسيد حين ولاه رسول الله ، عليه السلام، قضاء مكة ! فتعجب الحاضرون من جوابه . وحكي انّه كان ناظر الوقوف ببغداد فوقف العميان لـه وقالوا : يا أبا سعيد اعطنا حقنا ! فأمر بحبسهم فقيل له : لم حبست العميان وقد طلبوا حقهم ؟ فقال : هؤلاء يستحقون ابلغ من ذلك ، إنهم شبهوني بأبي سعيد اللوطي من مدينة كذا ! وكان هـذا قصدهم فما فات القاضي ذلك . وحكي انه اجتاز بجمع من مماليك الخليفة صبياناً حساناً فقال لهم : لولا انتم لكنّا مؤمنين . فعرف المامون ذلك فامر ان يذهب كلّ يوم الى باب داره اربعمائة مملوك حسن الصورة ، حتى إذا ركب يمشون في خدمته الى دار الخلافة ركاباً . وينسب إليها ابو عبدالله احمد بن محمد بن حنبل ــ كان اصله من مرو وجيء به حملاً الى بغداد فنشأ بها ــ فلما كان ايام المعتصم وقع في محنة المعتزلة ، جمع المعتصم بينه وبين المعتزلة وكبيرهم القاضي ابو داود . قالوا : ان القرآن مخلوق . قال لهم أحمد : ما الدليل على ذلك ؟ قالوا : قوله تعالى : وما يأتيهم من ذكر من ربّهم محدث . فقال لهم احمد : المراد من الذكر ههنا الذكر عند قوله تعالى : ص والقرآن ذي الذكر . فالذكر مضاف الى القرآن فيكون غير القرآن ، وههنا مطلق وفي ص مقيد ، فيجب حمل المطلق على المقيد. فانقطعت حجتّهم، فقال المعتصم لأبي داود : ما تقول في هذا ؟ فقال القاضي: هذا ضالّ مضلّ يجب تأديبه ! وعن ميمون بن الاصبع قال : كنت حاضراً عند محنة احمد ، فلمّا ضرب سوطاً قال : بسم الله ، فلمّا ضرب الثاني قال : لا حول ولا قوّة إلا بالله ، فلما ضرب الثالث قال : القرآن كلام الله غير مخلوق ، فلما ضرب الرابع قال : لا يصيبنا الا ما كتب الله لنا !

وعن محمد بن اسماعيل قال : سمعت شاباً يقول ضربت لأحمد ثمانين سوطاً لو ضربت فيلاً لهدته فجرى دمه تحت الخشب . ثم أمر بحبسه فانتشر ذكر ذلك واستقبح من الخليفة . وورد كتاب المأمون من طرسوس يأمر باشخاص أحمد فدعا المعتصم عند ذلك احمد وقال للناس اتعرفون هذا الرجل قالوا نعم هو احمد بن حنبل قال انظروا اليه ما به كسر ولا هشم وسلّمه اليهم . وحكى صالح بن احمد قال دخلت على ابي وبين يديه كتاب كتب اليه بلغني ابا عبدالله ما انت فيه من الضيق وما عليك من الدين وقد بعثت اليك اربعة آلاف درهم على يد فلان لا من زكاة ولا من صدقة وانما هي من إرث ابي . فقال احمد قل لصاحب هـذا الكتاب اما الدين فصاحبه لا يرهقنا ونحن نعافيه والعيال في نعمة من الله قال فذهبت الى الرجل وقلت له ما قال ابي والله يعلم ما نحن فيه من الضيق فلما مضت سنة قال لو قبلناها لذهبت .

وحكى احمد بن حرار قال كانت امي زمنة عشرين سنة فقالت لي يوما : اذهب الى أحمد بن حنبل وسله ان يدعو اللـّه لي . فذهبت ودققت الباب فقالوا من ؟ قلت : رجل من ذاك الجانب ، وسالتني امي الزمنة ان اسالك ان تدعو الله لها . فسمعت قائلاً يقول : نحن احوج الى من يدعو الله لنا ! فوليت منصرفاً فخرجت عجوز من داره قالت : انت الذي كلمت ابا عبدالله ؟ قلت : نعم . قالت : تركته يدعو الله لها فجئت الى بيتي ودققت الباب ، فخرجت امّي على رجليها تمشي وقالت : قد وهب الله لي العافية . وذكروا أن احمد بن حنبل جعله المعتصم في حل يوم قتل بابك الخرمي او يوم فتح عمورية . وتوفي أحمد سنة إحدى واربعين ومائتين عن تسع وسبعين سنة . وحكى ابو بكر المروزي قال : رايت احمد بن حنبل بعد موته في المنام في روضة ، وعليه حلّتان خضراوان وعلى راسه تاج من نور ، وهو يمشي مشياً لم اكن اعرفه . فقلت : يا احمد ما هذه المشية ؟ قال : هذه مشية الخدام في دار السلام ! فقلت : ما هذا التاج الذي اراه فوق راسك ؟ فقال : ان ربّي اوقفني وحاسبني حسابا يسيراً ، وحباني وقربني واباحني النظر وتوجني بهـذا التاج ، وقال لي : يا احمد هذا تاج الوقار توجتك به كما قلت القرآن كلامي غير مخلوق . وينسب اليها ابو علي الحسين ابن صالح بن خيران. كان عالما شافعي المذهب جامعا بين العلم والعمل والورع . طلبه علي بن عيسى وزير المقتدر لتوليته القضاء فأبى وهرب فختم بابه بضعة عشر يوما ، قال ابو عبداللـّه بن الحسن العسكري : كنت صغيراً وعبرت مع ابي على باب ابي علي بن خيران ، وقد وكل بـه الوزير علي بن عيسى .

وشاهدت الموكلين على بابه فقال لي ابي : يا بني ابصر هذا حتى تتحدث ان عشت ان انساناً فعل به هذا فامتنع عن القضاء . ثم ان الوزير عفا عنه وقال : واردنا بالشيخ ابي علي إلا خيراً ، واردنا ان نعلم الناس ان في ملكتنا رجلاً يعرض عليه قضاء الشرق والغرب وهو لا يقبل . توفي ابن خيران في حدود عشرين وثلاثمائة . وينسب اليها ابو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي . كان عالماً بعلم التفسير والحديث والفقه والادب والوعظ ، وله تصانيف كثيرة في فنون العلوم .

توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة .

وينسب إليها الوزير علي بن عيسى وزير المقتدر ووزير ابنه المطيع ، ركب يوم الموسم كما كان الوزراء يركبون في موكب عظيم ، فرآه جمع من الغرباء قالوا من هذا ؟ وكانت امراة عجوز تمشي على الطريق قالت : كم تقولون مَن هذا ، هذا واحدٌ سقط من عين الله تعالى فابتلاه الله بهذا كما ترونه ، فسمع هذا القول علي بن عيسى فرجع الى بيته واستعفى من الوزارة ، وجاور مكة الى ان مات . وينسب إليها ابو نصر بشر بن الحارث الحافي ذكر ايوب العطار انه قال له بشر : الا احدّثك عن بدو امري ؟ بينا انا امشي إذ رايت قرطاساً على وجه الارض عليه اسم الله تعالى فاخذته وكنت لا املك الاّ درهماً واحداً اشتريت به الماورد والمسك ، غسلت القرطاس بالماورد وطيبته بالمسك ثم رجعت الى منزلي ونمتُ ، فاتاني آتٍ يقول : طيبتَ اسمي لاطيبن ذكرك وطهرتَه لاطهرن قلبك !

وحكي ان بشراً الحافي دُعي الى دعوة ، فلما وضع الطعام بين يديه اراد أن يَمدّ يده إليه فما امتدت حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال بعض الحاضرين الذي كان يعرف بشراً : ما كان لصاحب الدعوة حاجة الى إحضار من اظهر ان طعامه ذو شبهة .

وحكي ان احمد بن حنبل سئل عن مسألة في الورع فقال : لا يحلّ لي ان اتكلم في الورع وانا آكل من غلّة بغداد ! لو كان بشر بن الحارث حاضراً لأجابك فإنه لا ياكل من غلّة بغداد ولا من طعام السّواد ! توفي سنة تسع وعشرين ومائتين عن خمس وسبعين سنة .

وحكي الحسن بن مروان قال : رايت بشراً الحافي في المنام بعد موته فقلت له : ابا نصر ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي ولكلّ من تبع جنازتي ، وكانت جنازته قد رفعت اول النهار فما وصل الى القبر الاّ وقت العشاء لكثرة الخلق . وقال لي خزيمة رايت احمد بن حنبل في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي وتوّجني والبسني نعلين من ذهب ! قلت فما فعل الله ببشر ؟ قال : بخ بخ ! من مثل بشر تركته بين يدي الخليل وبين يديه مائدة الطعام والخليل مقبل عليه ، وهو يقول له : كل يا من لم ياكل واشرب يا من لم يشرب ، وانعم يا من لم ينعم ! وقال غيره : رايت بشراً الحافي في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي وقال يا بشر اما استحيت منّي وكنت تخافني كلّ ذلك الخوف ؟ ورآه غيره فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : قال لي يا بشر لقد توفيتك يوم توفيتك وما على وجه الارض احبّ إليّ منك !

وينسب إليها ابو عبدالله الحرث بن اسد المحاسبي . كان عديم النظير في زمانه علماً وورعاً وحالاً كان يقول : ثلاثة اشياء عزيزة : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن الخلق مع الديانة ، وحسن الاجابة مع الامانة ، مات ابوه اسد المحاسبي وخلّف من المال الوفاً ما اخذ الحارث منه حبّة ، وكان محتاجاً الى دانق ، وذلك لان اباه كان رافضياً فقال الحرث : اهل ملتين لا يتوارثان !

وحكي الجنيد : إن المحاسبي اجتاز بي يوماً فرايت اثر الجوع في وجهه ، فقلت : يا عم لو دخلت علينا ساعة ! فدخل فعمدتُ الى بيت عمّي ، وكان عندهم اطعمةٌ فاخرة فجئت بانواع من الطعام ووضعته بين يديه فمدّ يدهُ واخذ لقمة رفعها الى فيه يلوكها ولا يزدردها ، ثم قام سريعا ورمى اللقمة في الدهليز وخرج ما كلمني فلما كان الغد قلت : يا عم سررتني ثم نغصت عليّ ! فقال يا بنيّ اما الفاقة فكانت شديدة وقد اجتهدت ان انال من الطعام الذي جعلته بين يديّ ، ولكن بيني وبين الله علامة وهي ان الطعام إذا لم يكن مرضياً يرتفع منه الى انفي زفرٌ لا تقبله نفسي ! توفي سنة ثلاث واربعين ومائتين . وينسب إليها ابو الحسن السري ابن المغلّس السَّقطي ، خال أبي القاسم الجنيد واستاذه وتلميذ معروف الكرخي . دعا له استاذه معروف وقال له : اغنى الله قلبك ! فوضع الله تعالى فيه الزهد . وقيل إن امراة اجتازت بالسري ومعها ظرف فيه شيءٌ فسقط من يدها وانكسر . فاخذ السري شيئاً من دكانه واعطاها بدل ما ضاع عليها فراى معروف ذلك فاعجبه وقال له ابغض الله إليك الدنيا ؛ فتركها وتزهد كما دعا له .

وحكي ان امراة جاءت الى السري وقالت يا ابا الحسن انا من جيرانك وان ابني اخذه الطائف واني اخشى ان يؤذيه فإن رايت ان تجيء معي او تبعث إليه احداً نقام يصلي وطوّل صلاته فقالت المراة ابا الحسن ، الله الله ، في ولدي ! إني اخشى ان يؤذيه السلطان فسلّم وقال لها : انا في حاجتك فما برحت حتى جاءت امراة وقالت لها : لك البشرى فقد خلّوا عن ابنك . حكي الجنيد قال : دخلت على السّري فاذا هو قاعد يبكي وبين يديه كوز مكسور ، قلت : ما سبب البكاء ؟ قال : كنت صائماً فجاءت ابنتي بكوز ماء فعلّقته حتى يبرد فافطر عليه ، فاخذتني عيني فنمت فرايت جارية دخلت عليّ من هذا الباب في غاية الحسن ، فقلت لها لمن انت ؟ قالت : لمن لا يبرّد الماء في الكيزان الخضر وضربت بكمها الكوز ومرّت وهو هذا . قال الجنيد فمكثت اختلف إليه مدة طويلة ارى الكوز المكسور بين يديه ، وحكي ان السري كلّ ليلة إذا افطر ترك لقمة ، فإذا اصبح جاءت عصفورة واكلت تلك اللقمة من يده ، فجاءت العصفورة في بعض الأيام ووقعت على شيء من جدار حجرته ثم طارت وما اكلت اللقمة فحزن الشيخ لذلك وقال بذنب مني نفرت العصفورة حتى تذكر انه اشتهى الخبز بالقديد فاكل ، فعلم ان انقطاع العصفورة بسبب ذلك ، فعهد ان لا يتناول ابداً شيئا من الآدام فعادت العصفورة .

وحكي انه اشترى كرّ لوز بستين دينارا وكتب في دستوره ثلاثة دنانير ربحه فارتفع الربح وصار اللوز بتسعين ديناراً فاتاه الدلال واخبره انه بتسعين ديناراً فقال إني عقدت عقداً بيني وبين الله تعالى اني ابيعه بثلاثة وستين لاجله لست ابيعه باكثر من ذلك فقال الدلال واني عقدت عقداً بيني وبين الله تعالى اني لا اغش مسلماً . توفي السري سنة احدى وخمسين ومائتين . وينسب ابو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد اصله من نهاوند ومولده بغداد ، كان ابوه زجاجا وكان هو خرازاً ، صحب الحرث المحاسبي وخاله السّري السقطي وكان الجنيد يفتي على مذهب سفيان الثوري كان ورده في كل يوم ثلاثمائة ركعة وثلاثين الف تسبيحة ، وعن جعفر الخلدي ان الجنيد عشرين سنة ما كان ياكل في كل اسبوع الا مرة . حكى ابو عمرو الزجاجي قال اردت الحجّ فدخلت على الجنيد فاعطاني درهماً شددته في مئزري ، فلم انزل منزلاً الا وجدت رزقا فما احتجت إلى إخراج الدرهم فلما عدت الى بغداد ودخلت عليه مدّ يده واخذ الدرهم .

وحكي بعض الهاربين عن ظالم قال : رايت الجنيد واقفاً على باب رباطه فقلت : يا شيخ اجرني اجارك الله ! فقال : ادخل الرباط . فدخلت فما كان الا يسيراً حتى وصل الطالب بسيف مسلول ، فقال للشيخ اين مشى هذا الهارب فقال الشيخ : دخل الرباط ، فمرّ على وجهه ، وقال تريد ان تقوّيه عليّ ! قال الهارب : قلت للشيخ كيف دللته علي ، اليس لو دخل الرباط قتلني ؟ فقال الشيخ : وهل نجوت الا بقولي دخل الرباط ؟ فما زال منا الصدق ومنه اللطف .

وحكي ان رجلاً اتى الجنيد بخمسمائة دينار، وكان هو جالسا بين اصحابه ، وقال له خذ هذا ، وانفق على اصحابك فقال له : هل لك غيرها ، قال نعم لي دنانير كثيرة قال : فهل تريد غيرها ؟ قال نعم ، قال خذها إليك فانت احوج إليها منّا .

قال ابو محمد الجزري : لما كان مرض موته كنت على راسه وهو يقرأ ويسجد ، فقلت : ابا قاسم ارفق بنفسك . فقال : يا ابا محمد هوذا صحيفتي تطوى ، وانا احوج ما كنت الساعة ! ولم يزل باكياً وساجداً حتى فارق الدنيا سنة ثمان وستين ومائتين .

وقال جعفر الخلدي : رايت الجنيد بعد موته في المنام قلت : ما فعل الله بك يا ابا قاسم ؟ فقال : طاحت تلك الاشارات وغابت تلك العبارات ، ونفدت تلك العلوم وامحت تلك الرسوم ، وما بقينا الا على الركيعات التي كنّا نصلّيها في جوف الليل .

وينسب اليها ابو الحسن علي بن محمّد المزيّن الصغير . كان من المشايخ الكبار صاحب الحالات والكرامات . حكى ابو عبدالله بن خفيف قال : سمعت ابا الحسن بمكة يقول : كنت في بادية تبوك فتقدمت الى بئر لاستقي منها ، فزلقت رجلي، فوقعت في قعر البئر فرايت في البئر زاوية ، فاصلحت موضعا وجلست عليه لئلا يفسد الماء ما عليّ من اللباس ، وطابت نفسي وسكن قلبي ، فبينما انا قاعد اذا انا بشخشخة فتأمّلت فاذا حيّة عظيمة تنزل عليّ ، فراجعت نفسي فاذا نفسي ساكنة ، فنزلت ولفت ذنبها عليّ وانا هادىء السر لا اضطرب شيئاً ، واخرجتني من البئر وحلّت عني ذنبها ، فلا ادري الارض ابتلعتها ام السماء رفعتها؟ فقمت ومشيت الى حاجتي .

وحكى جعفر الخلدي : عزمت على السفر فودّعت ابا الحسن المزيّن وقلت زوّدني شيئا . فقال : ان ضاع شيء واردت وجدانه او اردت ان يجمع الله بينك وبين انسان فقل : يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد . ردّ الي ضالتي او اجمع بيني وبين فلان . قال : فما دعوت في شيء الا استجبت . توفي بمكة مجاورا سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة .

وينسب اليها محمّد بن اسماعيل ، ويعرف بخير النساج ؛ كان من اقران الثوري عاش مائة وعشرين سنة . كان اسود عزم الحجّ . اخذه رجل على باب الحرم وقال : انت عبدي واسمك خير ! فمكث على ذلك مدّة يستعمله في نسج الخزّ ثمّ عرف انه ليس عبده ولا اسمه خير ، قال له : انت في حلّ من جميع ما عملت لك . وفارقه .

وحكى ان رجلا جاءه وقال له : يا شيخ امس قد بعتّ الغزل وشددت ثمنه في مئزرك ، وانا جئت خلفك وحللتـه فقبضت يدي ! فضحك الشيخ واومى الى يده فحلّت وقال : اصرف هذه الدراهم في شيء من حاجتك ولا تعد الى مثلها . ورئي في المنام بعد موته ، قيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : لا تسألني عن هذا ، استرحت من دنياكم الوضرة !

وينسب اليها ابو محمّد رُوَيْم بن احمد البغدادي . كان من كبار المشايخ وكان عالما بعلم القراءة والفقه على مذهب داود ؛ وكان يقول : من حكمة الحكيم الشريعة على اخوانه والتضييق على نفسه ، لان حكم الشريعة اتباع العلم وحكم الورع التضييق على نفسه .

حكي انه اجتاز وقت الظهيرة بدرب في بغداد وكان عطشان ، فاستسقى من بيت فخرجت جارية بكوز ماء فاخذ منها وشرب ؛ فقالت الجارية : صوفي يشرب بالنهار ! فما افطر بعد ذلك . توفي سنة ثلاث وثلاثمائة .

وينسب اليها ابو سعيد احمد بن عيسى الخرّاز . كان من المشايخ الكبار . صحب ذا النون المصري والسريّ السّقطي وبشراً الحافي ، وكان ابو سعيد يمشي بالتوكل .

حكى عن نفسه قال : دخلت البادية مرّة بغير زاد فاصابني فاقة ، فرايت المرحلة من بعيد فسررت بان وصلت الى العمارة ثم فكرت في نفسي اني سلوت ، واتكلت على غيري فآليت الا ادخل المرحلة الا اذا حملتُ اليها ، فحفرت لنفسي في الرمل حفرة وواريت جسدي فيها الى صدري ، فلما كان نصف الليل سمعوا صوتا عاليا : يا اهل المرحلة ان لله وليا في هذه المرحلة فالحقوه فجاءت جماعة واخرجوني وحملوني الى القرية .

وينسب اليها الاستاذ علي بن هلال الخطاط ، ويعرف بابن البواب . كان عديم النظير في صنعته ؛ لم يوجد مثله لا قبله ولا بعده ؛ فان الكتابة العربية كانت بالطريقة الكوفيّة ثمّ ان الوزير ابا الحسن ابن مقلة نقلها الى طريقته ، وطريقته ايضا حسنة ، ثمّ ان ابن البوّاب نقل طريقة ابن مقلة الى طريقته التي عجز عنها جميع الكتاب من حسنها وحلاوتها وقوّتها وصفائها ؛ ولا يعرف لطافة ما فيها الا كبار الكتّاب ؛ فإنه لو كتب حرفا واحداً مائة مرة لا يخالف شيءٌ منها لانّها قُلبت في قالب واحد ، والناس كلّهم بعده على طريقته . توفي سنة ثلاث وعشرين واربعمائة .

وينسب اليها ابو نواس الحسن بن هانيء كان اديبا فصيحا بليغا شاعرا اوحد زمانه . حكي ان الرشيد قرا يوماً : ونادى فرعون في قومه قال : يا قوم اليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي افلا تبصرون ؟ فقال : اطلبوا لي شخصا اذل ما يكون حتى اولّيه مصر . فطلبوا شخصا مخبّلاً كما اراد الخليفة ؛ فولاه مصر وكان اسمه خصيبا . فلما ولّي احسن السيرة وباشر الكرم وانتشر ذكره في البلاد حتى قيل :

إذا لمْ تَزُرْ ارْضَ الخَصيبِ رِكَابُنَا
فايّ فَتًى بَعْدَ الخَصِيبِ تَزُورُ
فتًى يَشْتَرِي حُسْنَ الثناءِ بمالِهِ
ويَعْلَمُ أنّ الدائِراتِ تَدُورُ

فقصده شعراء العراق وابو نواس معهم وهو صبي ؛ فلمّا دنوا من مصر قالوا ذات يوم : نحن من ارض العراق وندخل مصر فلا يأخذن علينا المصريون خطاً او عيباً ! ليعرض كلّ واحد منّا شعره حتى نعتبره ، فإن كان شيء منها محتاجا الى اصلاح اصلحناه . فاظهر كلّ واحد ما معه على القوم فقالوا لأبي نواس : هات ما عندك . فقال عندي هذا :

واللّيلُ لَيْلٌ والنّهارُ نهارْ
والبَغْلُ بَغْلٌ والحِمَارُ حِمَارْ
والدّيكُ ديكٌ والدجاجَةُ زَوْجُه
والبَطُّ بطّةٌ والهَزّارُ هَزّارْ

فضحكوا وقالوا : هـذا ايضاً له وجـه للمضاحك ! فلمّا دخلوا على الخصيب وضعـوا كرسيّا كلّ واحد من الشعراء يقف عليه ويورد شعره حتى اوردوا جميعهم . بقي ابو نواس فقال بعض الشعراء : ارفعوا الكرسي ، ما بقي احـد ! فقال ابو نواس : اصبروا حتى اورد بيتا واحـداً ثم بعد ذلك ان اردتم فارفعوا ، فانشا يقول :

انتَ الخَصيبُ وهذه مِصْـرُ
فَتَدَفَّقا فكِلاهُما بَحْرُ !

فتحير الشعراء وانشـد قصيدة خيراً من قصائدهم كلّها .

وحكي ان محمّداً الامين امر بحبسه وامـر ان لا يترك عنده كاغـد ودواة ، فحبس في دار ، فدخل عليه خادم من خدام الخليفة ونام عنـده وعليه جبّة سوداء ، فاخذ قطعة جصّ من الحائط وكتب على جبّة الخادم :

ما قَدْرُ عَبْدِكَ بي نُوَاسِ
وهـو لَيسَ بِذي لِبَـاسِ
ولَغَيْـرُهُ اوْلـى بِهـا
إنْ كُنتَ تَعْمَلُ بالقِيَـاسِ
ولَئِنْ قَتَلْتَ ابا نُوَاسِـكَ
قِيـلَ مَـن هُـو بو نُوَاس

فقراوا وفرّجوا عنه .

وذكر انّه رئي في المنام بعد موته فقيل لـه : ما فعل الله بك ؟ قال : قد غفر لي بابيات قلتُها وهي تحت وسادتي ، فوجدوا تحت وسادته رقعة فيها مكتوب :

يا رَبِّ ان عَظُمَتْ ذُنُوبي كَثْرةً
فلَقَدْ عَلِمْتُ بأنَّ عَفْوَكَ اعظمُ
انْ كانَ لا يَرْجُوكَ الاّ المُحْسِنُ
فمن الذي يَرْجُوهُ عَبْدٌ مُجرِمُ
ادْعُوكَ يا رَبِّ اليْكَ تَضَـرُّعا
فاذا رَدَدْتَ يدي فَمَنْ ذا يَرْحَمُ
مَالي إلَيْـكَ وَسِيلَـةٌ غير الرَّجَا
وكَرِيمُ عَفْـوِكَ ثُمَّ اني مُسْلِمُ

جرجرايا : قرية من اعمال بغداد مشهورة ينسب اليهـا على الجرجـرائي كـان من الابدال لا يدخل العمران ولا يختلط باحد ، حكى بشر الحافي قال لقيته على عين ماء ، فلما ابصرني عدا ، قال بذنب مني رايت اليوم انسياً فعدوت خلفه ، وقلت اوصني فالتفت اليّ ، وقال عانق الفقر وعاشر الصبر ، وخالف الشهوة واجعل بيتك اخلى من لحدك يوم تنقل اليه على هذا طاب المصير الى الله تعالى .

الطاهرية : قريـة من قرى بغـداد بهـا مستنقع يجتمع فيه في كل سنة ماء كثير عند زيادة دجلة فيظهر فيه السمك المعروف بالبني فيضمنه السلطان بمال وافر ولسمكه فضـل على سائر السمك لطيب لحمه ، وانه غلّة من حاصل هـذه القرية مع سائر غلاتها ، والله الموفق .

كرخ

قرية فوق بغداد على ميل منها . وبها دكاكين الكاغد والثياب الابريسمية .

ينسب اليها ابو محفوظ معـروف بن فيروز الكرخي وكان من المشايخ الكبار مستجاب الدعوة من موالي علي بن موسى الرضا ، كان أستاذ السري السقطي ؛ فقال له يوماً إذا كان لك الى الله حاجة فاقسم عليه بي واهل بغداد يقولون قبر معروف ترياق مجرب . حكي انزبيدة بنت جعفر عبرت على معروف مع مواليها وخدمها ، فدعا عليهـا بعض الحاضرين فقال له معروف : يا رجل كن عـون رسول الرحمن ولا تكن عون رسول الشيطان إن رسول الرحمن يريد نجاة الخلق كلهم قال الله تعالى: وما ارسلناك الاّ رحمة للعالمين . ورسول الشيطان يريد هلاك الخلق كلّهم قال الله تعـالى مخبراً عنه . بعزتك لأغوينهم اجمعين ، إن الذي اعطاهم الدنيا على هواهم قادر ان يعطيهم الآخـرة على مناهم .

وحكى ابراهيم الاطروش انه قال لمعروف : ابا محفوظ بلغني انّك تمشي على المـاء فقال ما مشيت على الماء ولكن إذا هممت بالعبور يجمـع لي طرفها ، وحكى خليل الصيّاد قال : غاب ابني الى الأنبار فوجدت امه وجداً شديداً فذكرت ذلك لمعروف فقال : ما تريد ؟ قلت ان تدعو الله ليرده علينا فقال اللّهم إن السّماء سماؤك والارض ارضك وما بينهما لك ائت به !

قال خليل : اتيت باب الشام فإذا ابني قائم منبهر يقول : الساعة كنت بالأنبار .

وحكى محمد بن صبيح انه مرَّ بمعروف ورجل سقاء ينادي رحم الله من شرب ! فشرب منه وكان صائماً وقال : لعلَّ الله ان يستجيب منه .

وحكى عبدالله بن سعيد الانصاري انه راى معروفاً في النوم واقفاً تحت العرش فيقول الله للملائكة : من هذا ؟ فقالت الملائكة : انت اعلم يا ربنا ، هذا معروف الكرخي قد سكر من حبك لا يفيق الاّ بلقائك !

وحكى احمد بن ابي الفتح قال : رايت بشراً الحافي في المنام قاعداً في بستان وبين يديه مائدة ياكل منها ، فقلت : ابا نصر ما فعل الله بك ؟ فقال: رحمني وغفر لي واباحني الجنة باسرها وقال : كل من ثمرها ، واشرب من انهارها وتمتع بجميع ما فيها لما كنت تحرم نفسك شهوات الدنيا ! قلت اين احمد بن حنبل ؟ قال : قائم على باب الجنة يشفع لأهل السنة ممن يقول القرآن كلام الله غير مخلوق ! قلت : وما فعل معروف الكرخي ؟ فحرك رأسه وقال هيهات ! حالت بيننا وبينه الحجب إن معروفاً ما كان يعبد الله شوقاً الى جنته ولا خوفاً من ناره ، وانما عبده شوقاً إليه ، فرفعه الله الى الرفيع الأعلى ووقمت الحجب بيننا وبينه ، ذاك الترياق المقدس المجرب ، فمن كانت له الى الله حاجة فليأت قبره وليدعُ فإنه يستجاب له . وحكي انه قال : إذا مت تصدَّقوا بقميصي فإني احب ان اخرج من الدنيا عرياناً كما دخلتها ، توفي سنة إحدى ومائتين .

- ١٠ -

الحميري : محمد بن عبدالمنعم ت/٧٢٧هـ

الروض المعطار في خبر الاقطار

بغداد : دار مملكة خلفاء بني العباس وفيها اربع لغات ، بغداد بدالين مهملتين وبغداذ معجمة الأخيرة وبغدان بالنون ، ومغدان بالميم بدلاً من الباء ، وتذكر وتؤنث . قالوا : وبغداذ بالفارسية عطية الصنم لأن بغ صنم ، وداذ عطية ، ولذلك كره الأصمعي هذه التسمية . وكانت قرية من قرى الفرس فاخذها ابو جعفر غصباً فبنى فيها مدينة وقال الجرجاني باغ بالفارسية هو البستان الكثير الشجر ، وداذ معطي . فمعناه معطي البساتين : قال ابو عثمان النهدي : كنا نسير مع جرير بن عبدالله البجلي حتى انتهى الى موضع فقال : ايّ موضع هذا ؟ قالوا : قطربل ، فحرك دابته ثم قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : تبنى مدينة بين دجلة والدّجيل والصّراة وقطربل يجبى إليها خراج كلّ ارض وتجمع إليها جبابرة الأرض ، وفي رواية يُخسف بها كذا احسب . وسميت بغداد لانه اهدي الى كسرى خصي من المشرق ، وكان له صنم يقال له بغ، فقال الخصي : بغداذي اي أعطاني إلهي يعني الصنم، ولهذا كان المتورّعون يكرهون أن يسموا بغداذ بهذا الأسم ويقولون بغداد بالدال المهملة .

وكان ابو جعفر المنصور بعث رجالاً سنة خمس واربعين ومائة يطلبون له موضعاً يبني فيه مدينة فطلبوا فلم يرضوا موضعا حتى جاء موضعاً بالصراة وقال : هذا موضع ارضاه تاتيه الميرة من الفرات ودجلة والصراة ، وكان ابو جعفر هذا وهو عبدالله ابن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس ، بنى مدينة بين الكوفة والجزيرة سماها الهاشمية ، فاقام بها مدة الى ان عزم على توجيه ابنه محمد المهدي لغزو الصائفة في سنة اربعين ومائة فصار الى بغداد فوقف بها وقال : ما اسم هذا الموضع ؟ فقيل : بغداد ، فقال : هذه والله المدينة التي اعلمني ابي محمد بن علي اني ابنيها وانزلها وينزلها ولدي من بعدي ، ولقد غفلت عنها الملوك في الجاهلية والأسلام حتى يتم تدبير الله تعالى وحكمه فيَّ وتصح الروايات وتبين الدلالات والعلامات تاتيها الميرة في الدّجلة والفرات من واسط والابلة والأهواز وفارس وعمان واليمامة وما يتصل بذلك وكذلك ما ياتي من الموصل وديار ربيعة واذربيجان وارمينية والرقة والشام والثغور ومصر والمغرب واصفهان وكور خراسان فالحمد لله الذي ذخرها لي واغفل عنها كلَّ مَنْ تقدّمني والله لابنينّها ثم اسكنها أيام حياتي ويسكنها ولدي من بعدي ثم لتكوننّ اعمر مدينة في الدنيا ثم لابنينّ بعدها اربع مدن لا تخرب واحدة منهنّ ابداً فبناها وبنى

الرافقـة ولم يستتمها وبنى ملطيـة والمصيصـة والمنصورة ، فوجّه في حشر الصنّاع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة وأمر باختيار قوم من اهل الفضل والعدالة والعفة والامانة والمعرفة بالهندسة وكان فيمن احضـر الحجاج بن ارطاة وابو حنيفة فكان اول ما ابتدىء ببنيانها في سنة خمس واربعين ومائـة ثم قسّم الارض اربعة اقسام وقلّد القيام بكل ربع رجلاً من قواده ورجلاً من مواليه ورجلاً من المهندسين ونظر عند بنائها مَنْ اخذ الطالع فكان المشتري في القوس فدلت النجوم على طول ثباتها وكثرة عمارتها وانصباب الدنيا إليها قال المخبر : ثم قلنا يا امير المؤمنين وخلّة اخرى فيها تدل النجوم على انه لا يموت فيها خليفـة ؛ فتبسّم وقال : الحمد لله ذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشـاء ، ولذلك قال بعض مداح المنصور :

إنّ خير القصور قصـر السّلام
إذ بـه حـلّ سائس الاسلام
منزلٌ لا يزال مَنْ حلّ فيـه
آمنـاً مِنْ حـوادث الايام

ولهذا قالوا : نزل بغداد سبعة خلفـاء : المنصور والمهدي وموسى الهادي وهارون الرشيد ومحمد الامين وعبدالله المأمون والمعتصم فلم يمت بها واحدٌ منهم الا محمد الامين فإنه قتـل خارج باب الانبار عند بستان طاهر ؛ وانتقل المعتصـم سنة ثلاث وعشرين ومائتين الى سر من راى فهذا مصداق ما دلّت عليه النجوم . وانمـا سمّيت مدينة السلام لأن دجلة كان يقال لها وادي السّلام فقيل لبغداد مدينة السّلام ؛ وقيل لانّهم ارادوا مدينة الله واسمهـا الاول عند الناس الزوراء لانعطافها بانعطاف دجلة . وتسمى القوس زوراء لانعطافها . وكان بعضهم يسميها الصّيادة لانّهـا تصيد قلوب الرجال ، وقال رجـل من اهـل البصرة : مررت ببغداد في السّحر فأعجبني كثرة الاذان فيها فهتف بي هاتف : ما الذي يعجبك منها لقد فجر فيها البارحة سبعون الفاً . وراى ابو بكر الهذلي سفيان بن عيينه ببغداد فقـال : باي ذنوبك دخلتها ! وقيل لرجل : كيف رايت بغداد ! فقال : الارض كلّها بادية وبغداد حاضرتها . وقال آخر : لو ان الدنيـا خربت وخـرج اهل بغـداد لعمّروها . وكان فراغ المنصور من بنائها ونقـل الخزائن إليها والدواوين وبيوت الاموال سنة ست واربعين ومائة وكان استتمامه لجميع امر المدينة سنة تسع واربعين .

وقال احمد بن ابي يعقوب : بغداد وسـط العراق ، والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الارض ولا في مغاربها سعة وجلالة وكبراً وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء ، سكنها اهـل الامصار والكور وانتقل إليها من جميع البلـدان القاصية والدانية وآثرها جميع اهل الآفـاق على اوطانهم يجري في حافتيها النهران الاعظمان دجلة والفرات فتأتيها التجارات والميرة براً وبحراً بأيسر السّعي حتى تكامل فيها كلّ متجر من المشـرق والمغرب من ارض الاسلام ومن غير ارض الاسلام فإنه يحمل إليها من الهند والسند والصين والتبت والترك والديلم والخزر والحبشة وسائر البلـدان القاصية والدانية حتى يكون بها من التجارات اكثر مما في البلدان التي خرجت التجارات منها إليها، وهي مدينة بني هاشم ودار مملكتهم ومحلّ سلطانهم لم يستبدّ بها احد قبلهم ولم يسكنها سواهم وهي وسط الدنيا لانها من الاقليم الرابـع وهو الاقليم الاوسط الذي يعتدل فيه الهواء في جميع الازمـان والفصول فيكون الحرّ شديداً في ايام القيظ ، والبرد شديداً في ايام الشتاء ويعتـدل الفصلان الربيع والخريف . قال وباعتدال الهـواء وطيب الثرى وعذوبة الماء حسنت اخلاق اهلها ونضرت وجوههم وانفتقت اذهانهم حتى فضّلوا الناس في العلم والفهم والنظر والتمييز والتجارات والحذق بكل مناظرة وإحكام كل مهنة واتقان كل صناعة ، فليس عالم اعلم من عالمهم ولا أروى من رواتهم ولا اجدل من متكلمهم ولا اعرب من نحويّهم ولا افصح من قارئهم ولا امهر من طبيبهم ولا احذق من مغنيهم ولا الطف من صانعهم ولا اكتب من كاتبهم ولا ابين من منطقيهم ولا اعبد مِنْ عابدهم ولا اورع من

زاهدهم ولا افقه من حاكمهم ولا اخطب من خطيبهم ولا اشعرَ من شاعرهم ولا افتك من ماجنهم . وكانت بغداد في ايام الاكاسرة قرية من قرى طسوج بادوريا ومدينة الاكاسرة إذ ذاك [المدائن] من مدن العراق وهي من بغداد على سبعة فراسخ وبها إيوان كسرى انوشروان ، ولم تكن بغداد إلاّ ديراً على مصبّ الصراة ولم يكن ببغداد للملك اثر قديم ولا حديث . اما ملك العرب فبدأ اولاً بالحجاز ثم استقرّ بدمشق من ايام معاوية رضي الله عنه لا يعرف بنو امية غيرها ، فلما جاء ابو العباس السّفاح عرف فضل العراق وتوسطها في الدنيا وهو عبدالله بن محمد بن علي بن [عبدالله] العباس فنزل الكوفة اول مدة ثم انتقل الى الانبار فبنى بأعلى شاطىء الفرات الهاشمية ، وتوفي قبل ان تستتم المدينة ثم كان من بنيان ابي جعفر لبغداد ما كان . ووضع الاساس وضرب اللبن العظام وحفرت الآبار وعملت القناة التي من نهر كرخايا وهو الآخذ من الفرات واجريت الى داخل المدينة للشرب ولضرب اللبن ، وجعل للمدينة اربعة ابواب : باب الكوفة ، وباب البصرة وباب خراسان وباب الشام ، بين كل باب منها الى الآخر خمسة آلاف ذراع بالذراع السوداء ، وعلى كلّ باب منها بابا حديد عظيمان جليلان لا يغلق الواحد منهما ولا يفتحه الاّ جماعة رجال يدخله الفارس بالعلم والرمح الطويل من غير ان يثنيه ولا يميله ، وجعل عرض اساس السّور تسعين ذراعاً ثم ينخرط حتى يصير في اعلاه خمس وعشرون ذراعاً وارتفاعه ستون ذراعاً مع الشرفات ، وحول السّور فصيل عظيم بين حائط السور وحائط الفصيل مائة ذراع وبالفصيل ابرجة عظام وعليه الشرفات المدوّرة ، وحدّ لهم ان يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعاً وان يبنوا في جميع الارباض والدروب من الاسواق والمساجد والحمّامات ما يكتفي به اهل كلّ ناحية ومحلّة ، وامرهم ان يجعلوا قطائع القواد والجند ذرعاً معلوماً وللتجار ذرعاً معلوماً يبنونه وينزلونه ولسوقة الناس واهل البلدان ، وآخر ما بنى القنطرة الجديدة وبها اسواق كثيرة فيها سائر التجارات مادة متصلة ثم ربض وضاح مولى امير المؤمنين المعروف بقصر وضاح حاجب خزانة السلاح وهناك اسواق واكثر من كان فيه في هذا الوقت القريب ، الوراقون اصحاب الكتب فإن به اكثر من مائة حانوت للورّاقين . والكرخ السوق العظمى مادة من قصر وضاح الى سوق الثلاثاء طولاً مقدار فرسخين ، وكل تجارة لها شوارع معلومة في تلك الشوارع حوانيت ، وليس يختلط قوم بقوم ولا تجاور تجارة تجارة ، واحصيت الدروب والسكك فكانت ستة آلاف درب وسكة ، واحصيت المساجد فكانت ثلاثين الف مسجد سوى ما زاد بعد ذلك واحصيت الحمامات عشرين الف حمّام سوى ما زاد بعد ذلك ، وحفرت القناة التي تأخذ من الفرات في عقود وثيقة من اسفلها محكمة بالصاروج والآجر من اعلاها ، فتدخل المدينة وتنفذ في اكثر شوارعها وشوارع الارباض صيفاً وشتاءً قد هندست هندسةً لا ينقطع الماء منها في وقت ، وقناة اخرى من دجلة على هذا المثال سماها دجيلاً ، وجرّ لاهل الكرخ وما اتصّل به نهراً يسمى نهر الدّجاج لانّ اصحاب الدّجاج كانوا يقعدون عنده ، ونهر عيسى الأعظم الذي يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقة يحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر وتصير الى فرضة عليها الأسواق وحوانيت التجار لا تنقطع صيفاً وشتاءً ولهم الآبار التي يدخلها الماء من هذه القنوات وانما احتيج الى هذه القنوات لكبر البلد وسعته ، وإلاّ فهم بين دجلة والفرات من جميع النواحي تتدفق عليهم المياه حتى غرسوا النخل الذي حمل من البصرة وغيرها فصار ببغداد اكثر منه بالبصرة والكوفة والسّواد ، وغرسوا الأشجار فاثمرت ثمرات عجيبة وكثرت البساتين والجنات في ارض بغداد من كلّ ناحية لطيب المياه وطيب الأرض وعمل فيها كلّ ما يعمل في بلد من البلدان لان حذاق اهل الصناعات انتقلوا إليها من كلّ بلد واتوها من كلّ أُفق ونزعوا إليها من الأداني والأقاصي فهذا الجانب الغربي من بغداد وهو جانب الكرخ وجانب الارباض ، وفي كل طرف منه

مقبرة وقرى متصلة وعمـــارات مادة ، والجانب الشرقي من بغداد نزله المهدي بن المنصور وهـو وليّ عهد ابيه وابتدأ بناءه سنة ثلاث واربعـين ومائة واختط المهدي قصوره بالرّصافـة الى جانب المسجد الجامع الذي بالرصافة وحفر نهراً يأخذ من النهروان سمّاه نهر المهدي يجري في هذا الجانب واقطع المهدي اخوته وقواده بعد من اقطع في الجانب الغربي وهو جانب مدينتـه ، وقسمت القطائع في هذا الجانب وتنافس النـاس في النزول مع المهدي لمحبتهم له ولتوسعته عليهم ولانّه كان اوسع الجانبين أرضـاً . وفي الجانب الشرقي الذي نزله المهدي أربعة آلاف درب وسكة وخمسة عشر الف مسجد سوى ما زاد النـاس وخمسة الاف حمّام سوى ما زاد الناس بعـد ذلك . وانتقل المعتصم الى سرّ من راى في سنة ثلاث وعشرين ومائتين واتصل مقامه بها مدة حياته وايام الواثق والمتوكل ولم تخرب بغداد ولا نقضت اسواقها لأنهم لم يجدوا منها عوضاً ولانّه اتصلت العمارة والمنازل بين بغداد وسرّ من راى .

قال احمد بن ابي الطاهر : اخذ الطول من الجانب الشرقي من بغداد الأمير الناصر لدين الله عند دخوله مدينـة السّلام فوجد مائتي حبل وخمسين حبلاً ، وعرضه مائتي حبل وخمسة احبل تكون ستة وخمسين الف جريب ومائتين وخمسين جريباً ووجد طول الجانب الغربي مائتين وخمسين حبلاً وعرضه خمسين حبلاً يكون ذلك سبعة عشر الف جريب وخمسمائة جريب فجميع ذلك ثلاثة وسبعون الف جريب وسبعمائة جريب وسبعون جريباً .

وحكى الهيثم بن عدي ان المنصور لما جلس في قصره بباب الذهب اذن لرسل ملك الروم فدخلوا عليه فقال لرسول ملك الروم : هل ترى عيباً ؟ قال : نعم عيوباً ثلاثـة ، قال : ما هي ؟ قال : النفس خضراء ولا خضرة عندك ، والحياة في الماء ولا ماء عندك ، وعدوّك مخالطك ومطلّع على سرّك قال : اما الماء فحسبي منه ما بلغ الشفة ، واما الخضـرة فللتّجـد خلقت لا للعب واما السّر فلا أبالي علم بسري رعيتي أم ولـدي وخاصتي ، فامسك الرومي عن الكلام . ثم تعقّب ابو جعفر الراي فراى ان القول ما قال فاتخذ العباسية واجرى القناة من دجلة واخرق السوق عن المدينة ، فلما فعل ذلك وجلس في قصره بالخلد نظر الى التجار من البزازين والصيرفي والقصاب وطبقات السوقة فتمثل بهذين البيتين :

كمـا قال الحمـار لسهم رامٍ
لقـد جمّعت من شتى لأمرِ
جمّعت حديدةً وجمعت نصلاً
ومن عقب البعير وريش نِسـرِ

ثم قال : يا ربيع ان هذه العامة تجمعهـا كلمة وترأسها السفلة ولا ارينك معرضاً عنها فإن اصلاحها يسير واصلاحها بعـد إفسادها عسير فاجمعها بالرّهبة واملأ صدورها بالهيبـة ومـا استطعت من رفق بها واحسان إليها فافعل .

وفي هذا الذي ذكرناه من اولية بغداد كفاية وهي اعظم ممّا قيل واشهر حالاً ممّا ذكر فلنقتصر على هذا القدر ثم إن دولة بني العباس استمرت بها من مبايعة السفاح بالكوفة يوم الخميس لثلاث عشرة خلون من ربيع الآخر سـنة اثنتين وثلاثين ومائة الى ان ملكها الططر (التتر) حين دخلوا العراق واستولوا على تلك الآفاق ، وقتلوا الخليفة المستعصم .

(*) كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، ١٠٩ – ١١٢ تح : احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٥ .

- ١١ -

ابو الفداء : عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر صاحب حماه ت/٧٣٢

تقويم البلدان(1)

قال في اللباب : وانما سمّيت بغداذ بهـذا الاسم لأنّ كسرى اهدى إليه خصيّ من المشرق

(1) تقويم البلدان ٢٩٢ – ٢٩٣ ، تحقيق رينود ، والبارون ديسلان ، باريس ١٨٤٠ .

فاقطعه بغداذ ، وكان لهم صنم يعبدونه بالمشرق يقال له البغ فقال ذلك الخصيّ بغ داذ يقول اعطاني الصنم ، والفقهاء يكرهون هذا الاسم من اجل هذا وسمّاها المنصور مدينة السّلام لأن دجلة كان يقال له وادي السلام . قال وكان ابن المبارك يقول ، لا يقال بغداذ يعني بالذال المعجمة ، فإن بغ شيطان وداذ عطيّة وانها شرك ، وانما يقال بغداد يعني بالدالين المهملتين وبغدان ايضاً وقال بعضهم إن بغ بالعجمية البستان وداذ اسم رجل يعني بستان داذ ، والحريم ببغداذ هو حريم دار الخلافة قال ياقوت الحموي في المشترك ، بفتح الحاء وكسر الراء المهملتين ، ثم مثناة من تحتها ساكنة وفي آخرها ميم ؛ قال ومقدار الحريم قريب من ثلث بغداذ ، وعلى الحريم سور ابتداؤه من دجلة وانتهاؤه الى دجلة من الجانب الشرقي كهيئة الهلال او كنصف دائرة وله ابواب اولها باب الغرّبة وهو على دجلة ، ثم يليه باب سوق التمر وهو باب شاهق واغلق في ايام الخليفة الامام الناصر واستمرّ غلقه ، ثم باب البدرية ثم باب النوبي وفيه العتبة التي كان يقبّلها الملوك والرسل ثم باب العامّة ويقال له ايضاً باب عمورية ثم يمتد السّور نحو ميل لا باب فيه الا باب بستان تحت المنظرة التي تنحر تحتها الضحايا ثم باب المراتب وبينه وبين دجلة نحو رميتي سهم قال وجميع ما يشتمل عليه هذا السّور يقال له حريم دار الخلافة وفيه محالّ واسواق ودور كثيرة للرّعية وهو كاكبر مدينة تكون ؛ قال وبين دور الرعية التي داخل هذا السور وبين دجلة سور آخر ، وداخل السور الثاني دور الخلافة لا يداخلها شيء من دور العامة . قال في اللباب والسندية بكسر السين المهملة وسكون النون وكسر الدال المهملة قال وهي قرية بنواحي بغداد ينسب اليها السندواني .

وبغداذ على شطي دجلة ، فالجانب الغربي يسمّى الكرخ وبه كان سكنى ابي جعفر المنصور ولما بنى بغداذ سمّيت الزوراء لانه جعل ابواب المدينة الداخلة مزوّرة عن الابواب الخارجة وأما الجانب الشرقي فيسمى عسكر المهدي لأن المهدي ابن المنصور اوّل من سكنه بعسكره ، ويسمى ايضا الرّصافة لان الرشيد بنى فيه قصراً وسمّاه الرصافة ويسمى جانب الطاق نسبة الى راس الطاق موضع السّوق الاعظم قال في المشترك ونهر معلّى منسوب الى المعلّى بن طريف مولى المنصور قال وهو اعظم محلّة ببغداذ من الجانب الشرقي وفيها الحريم ودور الخلافة[2] .

قال في اللباب وكلواذا قرية مشهورة من قرى بغداد قال في العزيزي ومدينة كلواذا بينها وبين بغداد فرسخان ومن كلواذا الى النهروان اربعة فراسخ .

---

(٢) تقويم البلدان ٣٠٢ .

- ١٢ -

البغدادي : صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق البغدادي ت/٧٣٩هـ

مراصد الاطلاع[1]

(بغداد) كانت امّ الدنيا وسيّدة البلاد ؛ فيها سبع لغات : بغداد ، وبغداذ وبغذاد ، ومغداد، ومغداذ ، ومغدان ، وبغدان ، وهي في اللغات كلّها تذكر وتؤنث ، وكانت في زمن الفرس قرية تقوم بها سوقٌ للفرس . فأغار عليها المثنى في ايام سوقهم ، فانتسفها . قال احمد بن حنبل : بغدادٌ من الصّراط الى باب التبن ثم انتقلت الى الجانب الشرقي من الشماسية الى كلواذى ، وكانت عظيمة فخرّبت باختلاف العساكر إليها واستيلائهم على دور الناس وامتعتهم ، فلم يبق من الجانب الغربي الا محالّ متفرقة ، اعمرُها كان الكرخ وخربٌ من الجانب الشرقي من الشماسية الى المخرّم ، وبُني السّور على ما بقي منه على جانب دجلة حتى جاء التتر اليها فخرّب اكثرها ؛ وقتلوا اهلها كلّهم ، فلم يبق منهم غير آحاد كانوا انموذجاً حسناً وجاءها أهلُ البلاد فسكنوها وبادّ اهلها ، وهي الآن غير التي كانت ، واهلُها غيرُ من عهدناهم والحكم لله تعالى .

---

(١) مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار احياء الكتب العربية)١٩٥ . ٢٠٩/١ .

- ١٣ -

الباكوي : عبدالرشيد صالح بن نوري ، كان حياً ١٤٠٣/٨٠٦ — ١٤٠٤

تلخيص الاثار وعجائب الملك القهار

بغداد سيّدة البلاد ومدينة السلام هواها الطف من كل هواء ، وماؤها اعذب من كلّ ماء ، وتربتها اطيب من كلّ تربة ونسيمها ارق من كل نسيم ، بناها المنصور ابو جعفر عبدالله بن محمد بن علي ابن عبدالله بن العباس على طالع القوس والشمس في درجة الطالع ذكر انه بناها بالجانب الغربي ووضع اللبنة الأولى بيده وجعل داره وجامعها في وسطها وبنى فيها قبة فوق ايوان كان علوها ثمانين ذراعاً والقبة خضراء على راسها تمثال فارس بيده رمح وقد سقط راس القبة سنة تسع وعشرين وثلثمائة والآن لم يبق منها اثر وبغداد عبارة عن المدينة الشرقية كان اصلها قصر جعفر بن يحيى البرمكي وهي المدينة العظمى كثيرة الاهل والخيرات والثمرات يجبى إليها لطائف الدنيا وظرائف العالم لها سور ابتداؤه من دجلة وانتهاؤه اليها كشبه الهلال بها دار الشجرة من ابنية المقتدر بالله دار فسيحة ذات اشجار وبساتين مونقة وبها المدرسة التي انشاها المستنصر بالله لم يبن مثلها قبلها في حسن عمارتها ، وعلى باب المدرسة ايوان ركب في صدره صندوق الساعات على وضع عجيب . وفي سنة ست وخمسين وستمائة سار إليها هولاكو بجنوده واخذها . وقيل الخليفة المستعصم بالله نسب اليها القاضي يحيى بن اكثم كان فاضلاً غزير[٢] العلم ذكي الطبع وابو عبدالله احمد بن محمد بن حنبل كان اصله من مرو جيء به الى بغداد فنشأ بها توفي سنة احدى واربعين ومايتين عن تسع وسبعين سنة وينسب اليها أبو الحسن السري ابن المفلس السقطي خال ابي القاسم الجنيد ، ابن محمد واستاذه وكان اصل الجنيد من نهاوند ومولده بغداد ، ومنها الاستاد علي بن هلال الخطاط يعرف بابن البوّاب كان عديم النظير في صنعته لم يوجد مثله .

مخطوطة باريس الفريدة المرقمة Arab 585-945 نقلت عن نسخة كتبت سنة ٨١٦ نقلها علي المصري نزيل اللاذقية .

(٢) هكذا في الاصل ونقل « وينسب » . في الاصل عزيز .

بغداد في آثار المستشرقين الفرنسيين

ترجمة الدكتور
أكرم فاضل
مديرية التراث الشعبي ـ بغداد

- ١ -

بغداد في العهد العثماني

بقلم
روبير مانتران

يوم دخل بغداد ـ قانوني سليمان ـ سليمان القانوني ـ المعروف اكثر في الغرب باسم سوليمان له مانيفيك Soliman le Magnifique سلطان العثمانيين ؛ وذلك في ٢٤ جمادى الاولى ٩٤١ (١ كانون الاول ١٥٣٤) اكمل على هذه الصورة التسلط التركي على الاقاليم العربيـة في الشرق الادنى واستطاع ان يفرض نفسه كوارث شرعي للخلفاء العباسيين ، الذين وقع اخيرهم اسيرا بيدي ابيه سليم الأول في القاهرة منذ سبع عشرة سنة خلت . ولكن فتح العراق هذا واحتلال عاصمته يوافقان في اذهان العثمانيين تاريخ مشاغل عديدة . فقبل كل شيء اتاح غزو بغداد للاتراك وضع ايديهم على جميع المراكز العمرانية الكبرى للعالم العربي الاسلامي الشرقي ، وذلك ما ضمن لهم مكانة سياسية غير منكورة واكد لهم تفوق احدى الفرق الدينية الظافرة ، الممثلة في شخص السلطان التركي الذي اصبح خليفة منذ الاستيلاء على مصر . ومن جهة اخرى فان الاستحواذ على بغداد وضع حدا للتناحرات الناشبة من مطلع القرن مع المواهل الصفويين في ايران . فهؤلاء لم يكونوا يمثلون للعثمانيين خصوما سياسيين وسادة للاقاليم الممتدة من شرقي اسية الصغرى ، يهددون بشكل خطير غالبا السيادة التركية فحسب ، وانما كان هؤلاء الصفويون كذلك من متحمسي المدافعين عن احد المذاهب ؛ وبهذه المثابة كانوا يؤلبون على الصعيد الديني خصوما من الحمق اهمال شأنهم ، لانهم كانوا يستطيعون الاعتماد على جماعات ابتداعية مبعثرة في شرق الامبراطورية العثمانية . وعلاوة على ذلك فان اقاليم شاهات ايران كانت تشكل عائقا خطيرا بوجه الزحف التركي صوب الشرق ، ولاسيما صوب آسية الوسطى والمحيط الهندي .

في عام ١٥١٤ سحق سليم الأول الجيوش الصفوية في جلدران واستولى على تبريز ؛ ولكن مهما بلغت اهمية هذا الفوز فانه لم يجلب حلا شافيا للمشاكل التي اجهد العثمانيون انفسهم بحلها لمصلحتهم . بالاضافة الى ان الصفوي طهماز (١٥٢٤ ـ ١٥٧٦) وضع للمرة الثانية بغداد في اطار

الولاء الايراني الوثيق بعد محاولة انفصال الوالي ذي الفقار (٩٣٥ – ١٥٢٩) .

واخيرا ، وهذه النقطة ليست النقطة الاقل اهمية ، فمنذ نهاية القرن الخامس عشر نجمت اضطرابات اقتصادية . وعلى الاخص لدى اكتشاف طريق راس الرجاء الصالح . فبالرغم من استغلاله استغلالا محدودا ، فسيتاتى من جانبه خطر قريب او بعيد لتقويض دور الوسيط للشرق الادنى بين اقطار المحيط الهندي والشرق الاقصى واقطار الغرب. وكان العثمانيون وهم سادة مصر والسواحل الغربية للجزيرة العربية ، يراقبون البحر الأحمر وشواطئه المباشرة ، وبالتالي حركة التجارة التي واصلت نشاطها . وسيكون وضعهم أفضل لو استطاعوا كذلك مراقبة الخليج العربي وبلاد ما بين النهرين ، وهي احدى الطرق المعتادة التي تسلكها البضائع القادمة من الهند وآسية الشرقية . وعلى هذه الشاكلة سيكون بمقدورهم حفظ التوازن بين تأثير تحول المسيرة التجارية من جنوب افريقية والسيطرة في الوقت نفسه ، اي بموجب ذات الانظمة ، على الوضع المنحاز للشرق الادنى في التجارة الدولية ، التي كانت بعيدة عن هجر طرقها التقليدية من البحر الأبيض المتوسط الى المحيط الهندي .

كل هذه الاسباب حملت سليمان القانوني على التحرك : ففي عام ١٥٣٤ شن على فارس « حملة العراقين » (عراقين سفري : عراقي عجم وعراقي عرب) تلك الحملة التي مكنته من الاستيلاء على اذربايجان ، في حين انحدر صدره الأعظم ابراهيم باشا الى بلاد ما بين النهرين ، فاحتل بغداد دون كبير عناء بعد ان غادرها واليها الصفوي ، فسلمه اعيانها مفاتيحها في تموز ١٥٣٤ . وقد حدث دخول السلطان المهيب الى بغداد المفتوحة في الأول من كانون الاول التالي . وباستثناء الفاصل الزمني الوجيز في القرن السابع عشر ، بين ١٦٢٣ و ١٦٣٨ ، الذي فيه خضعت مرة اخرى لحكم الصفويين ، فقد ظلت بغداد بأيدي العثمانيين حتى آذار ١٩١٧ ، التاريخ الذي احتلها فيه الانكليز .

خلال هذه الفترة الطويلة التي تبلغ زهاء اربعة قرون ، ظل تاريخ بغداد بعيدا عن كونه خاليا من القلاقل خاويا من الحوادث . اذ يمكننا ان نميز فيه بين ثلاث مراحل :

١ – حكم العثمانيين المباشر (١٥٣٤ – ١٧٠٤) .
٢ – حكم الكولمنديين او المماليك (١٧٠٤ – ١٨٣١)
٣ – عودة الادارة العثمانية (١٨٣١ – ١٩١٧) .

١ – حكم العثمانيين المباشر .

ما ان وصل سليمان القانوني الى بغداد حتى عكف على تنظيم ادارة المدينة والاقاليم المرتبطة بها ، فقام بمسح الاقاليم وسجل الاراضي ووزع التيمارات والزيامات ونصب واليا يحمل عنوان باشا ، يساعده دفتر دار (ناظر الخزانة) مع قاض (حاكم) . وكان سليمان باشا الوالي الأول .

وانشئت حامية للانكشارية في المدينة لضمان الدفاع والامن . واخيرا : لاجل اظهار استقرار الاسلام الحنيف ، شيد سليمان القانوني مقاما لابي حنيفة (لا ننسى ان الاتراك كانوا على المذهب الحنفي) الذي بنيت بالقرب منه مدرسة ، واشاد ضريحا ، واقام تكية للفقيه الحنبلي الشهير عبدالقادر الكيلاني ، وتم بناء مسجد الكاظمية ، الذي بدا ببنائه الشاه اسماعيل .

وقد اكمل فتح بغداد ، بعد ذلك بسنوات ، بفتح البصرة التي احتلها اياس باشا والي بغداد عام ١٥٤٦ . وكرست معاهده اماسيا المؤرخة في ٢٩ مايس ١٥٥٥ ، التي وضعت نهاية للنزاع الناشب بين العثمانيين والصفويين ، السيادة العثمانية الرسمية على العراق وبصورة اخص على بغداد .

ساد الهدوء في القطر حتى نهاية القرن السادس عشر ؛ وشرع عدة ولاة ببناء المساجد والتكايا والخانات والاسواق . وعمل حسن باشا على احاطة جانب الكرخ بسور وخندق ليجعله في مأمن من غارات القبائل البدوية . وصينت المواقع الدفاعية احسن صيانة ورممت . فالقلعة الداخلية القريبة من دجلة تشتمل على عدة مهاجع للانكشارية وعلى مستودع للذخيرة ومخزن للأقوات والأموال . وكان قصر الوالي يجاور كل هذا .

ظلت بغداد طوال هذه الفترة تمثل مركزا عظيما للقوافل . فنشطت فيها التجارة . وخف السواح الاوربيون لزيارتها في ختام القرن السادس عشر . فوصفوا باعجاب ميادينها واسواقها ومتاجرها التي وجدوا فيها البضائع المقبلة من الشرق الادنى او الاقصى ، وكذلك المنتجات المحلية: من اقمشة حريرية وقطنية واسلحة وامتعة معدنية

دمشقية كالسروج ومختلف اصناف السراجة . ويلوح لنا ان عدد السكان آنئذ ، وهم مؤلفون بصورة اساسية من العرب والاتراك والايرانيين ، لم يتجاوز الاربعين او الخمسين الف نسمة .

بعد حكم احمد الاول (١٦٠٤ — ١٦١٧) ادى ضعف حكومة اسطنبول الى اضطرابات في الاقاليم التي كانت فيها الادارة المحلية اما محرومة من وسائل الادارة ، واما انها كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي لمصلحة الوالي او لمصلحة من يستطيع الانقضاض على السلطة . ففي بغداد تمرد احد ضباط الانكشارية الشوباشي بكر مع اغا الازاب محمد قنبر وجرا معهما شطرا كبيرا من القوات المقاتلة ، ولم يستطع الوالي حافظ احمد باشا قمع التمرد ، الذي لعله استفاد من دعم شاه ايران ، والواقع ان الشاه عباس الاول كان يفكر ، وهو يشهد مهزلة الفوضى العثمانية ، بسلب الاتراك الاقاليم المضاعة في القرن السابق ، فاتصل ببكر . وخلال بعض الوقت تفاهم بكر ومحمد قنبر ثم انتهيا الى التصادم : فانتصر بكر وظل وحده سيد بغداد التي اشاع فيها الارهاب ، بحيث ان قسما من السكان ولوا فرارا .

ارسل السلطان لمحاربة بكر جيشا بامرة حافظ احمد باشا الذي اقترب من بغداد . حينئذ استغاث بكر بالشاه عباس ووضع نفسه تحت حمايته . فأوعز الشاه عباس الى والي همدان صفي قلي خان بالاستيلاء على المدينة . آنئذ اخذ حافظ احمد باشا على عاتقه مسؤولية تعيين بكر واليا على بغداد لحساب العثمانيين . ولما لم يعد لدى بكر سبب لتسليم المدينة للصفويين اعترض قوات صفي قلي خان الذي شرع بمحاصرة بغداد دون تلكؤ . دام هذا الحصار ثلاثةاشهر استسلمتالمدينة في ختامها ،بعد ان كانت الأهوال من الجوع . ورغم وعوده بالصفح ، ذبح صفي قلي شطرا من السكان ، وعلىراسهم بكر والقاضي نوري افندي ، في حين بيعالسكان الآخرون بوصفهم عبيدا . وخرب بعض قبور الصالحين ، واغلق عدد كبير من المساجد والمدارس . فهجر المدينة الكثير من السكان (١٠٣٢ — ١٦٢٣) .

لقد اهتزت اسطنبول اهتزازا عنيفا لخسارتها بغداد ، وكلفت حافظ احمد باسترجاعها ، فحاصرها من ١٣ تشرين الثاني ١٦٢٥ الى ٣ تموز ١٦٢٦ ، ولكنه اخفق وانسحب لدى وصول الجيش الايراني. فحوصرت المدينة للمرة الثانية من قبل بوشناق خسرو باشا طوال اربعين يوما في خريف ١٦٣٠ ، ولكن دون جدوى . اذ مات صفي قلي خان بعد ذلك بمديدة ، فعين بكتاش خان واليا على بغداد ، وكانت اثناء ولايته فريسة لوباء عنيف : ذكر بعض المؤلفين ان السكان تناقصوا آنئذ فاصبحوا يعدون ١٥٠٠٠ نسمة . وخلال هذه الفترة القصيرة كانت العمارة الوحيدة الشامخة هي السراي ، او دار الحكومة ، التي بناها صفي قلي خان .

في عام ١٦٣٨ شرع السلطان مراد الرابع ، بعد ان اصبح السيد المسود للسلطة في اسطنبول ، باسترداد بغداد من ايدي الايرانيين . فوصل على راس جيش جرار امام المدينة في ١٥ تشرين الاول ١٦٣٨ وضرب حولها الحصار : دام التطويق ٤٠ يوما . وقد استفاد مراد الرابع من ايام الحصار الاخيرة بوقوع الخلاف بين اثنين من قادتها ، نهاجم النقاط الأضعف في السور ، لاسيما الباب الأبيض (آق قابي) . فجرت معارك طاحنة ، لقي مصرعه خلالها صدره الاعظم طيار محمد باشا . وانتهىالامر ببكتاش خان الى الاستسلام ، ولكن بعض ضباطه واصلوا المقاومة ، فحدثت من جراء ذلك مجازر وتخريبات هامة . وعين مراد الرابع واليا جديدا هو كچك حسن باشا . ولخراب المدينة امر ببنائها : فاعيد تشييد قبور ابي حنيفة وعبدالقادر الكيلاني وشهاب الدين عمر السهروردي والشيخ سراج الدين ، واعيد ترميم الثلمة وامتدت الأسوار الى الجانب الثاني من النهر لتقوية الدفاع عن المدينة . وسور باب الطلسم وظل على هذه الحالة حتى عام ١٩١٧ . وافتتحت مدارس ودور علم وتكايا وحمامات باعداد كبيرة .

ابرمت معاهدة قصر شيرين في محرم ١٠٤٩ — مايس ١٦٣٩ ، بين العثمانيين والصفويين التي نصت على عودة بغداد الى حوزة الامبراطورية

العثمانية . وعرفت بغداد وارباضها حتى نهاية القرن السابع عشر قلاقل منشؤها فتن الانكشارية واضطرابات القبائل البدوية او الكردية ، ولكن الولاة (٣٤ واليا من ١٦٣٨ حتى ١٧٠٤) توصلوا الى قمع القلاقل الناجمة في كردستان او الخليج العربي . اذ سحق قره مصطفى تمرد والي البصرة حسين باشا (١٦٦٧). وغب ذلك استولى الايرانيون على البصرة ، في حين ثارت عشائر المنتفك وشمر وبني دجيل والزبيد ؛ ولم يسمح الظرف بارسال قوات من اوربا الى العراق الا بعد توقيع صلح كارو لوفيز (١٦٩٩) فاستطاع والي بغداد الطبان مصطفى باشا انزال العقاب بالثوار واستعادة البصرة (١١١٢ ـ ١٧٠١) . خلال هذه الفترة التي تلت استرداد بغداد شيد الولاة العثمانيون العديد من العمارات واسهموا في تقوية المواقع الدفاعية للمدينة. فكجك حسن باشا بنى ثلاثة ابراج : آق قابي وبرجي عجم وقرانليق قابي (١٦٤٢) .

اعاد دلي حسن باشا ترميم جامع القمرية (١٦٤٤) وسلا حدار حسين باشا ؛ جامع الفضل ، أصبح مسجد حسين باشا ، ورمم عبدالرحمن باشا (١٦٧٤) مسجد الشيخ معروف واتم السداد الذي يحمي حي الاعظمية. واصلح قبلان مصطفى مسجد الشيخ قدوري الذي اصبح يدعى مسجد القبلانية (١٦٧٦) . وكال عمر باشا نفس الكيل لمسجد ابي حنيفة (١٦٧٨) وقام بنفس العمل ابراهيم بالنسبة لمسجدي السلطان علي والسراي . وشيد احمد بوشناق خان بني سعد وسلا حدار حسين باشا سوقا جديدة قبالة المدرسة المستنصرية ، فعرفت المدينة نشاطا هائلا . ومحيت الأضرار التي خلفتها الحروب التركية الايرانية . وشرع الاهالي بالتكاثر ، وظلت حركة التجارة ، على وجه العموم ، ناشطة كنشاطها في العصر السالف . تعتبر بغداد اهم مدينة في الشرق العثماني . وتؤيد المنازعات التي كانت بغداد مسرحا لها بين الاتراك والايرانيين هذا القول بجلاء . اذ ليست المسألة مسألة استيلاء ـ او محافظة ـ على مدينة تاريخية فحسب ، وانما بالاضافة الى ذلك ضمان السيطرة على طرق مواصلات خطيرة بين الخليج العربي وارمينية ، وكردستان او سورية . وتؤلف بغداد كذلك بوقوعها على مقربة من الحدود التركية الايرانية موقعا ستراتيجيا تطاحن حوله العثمانيون والصفويون ، ففاز باللذة العثمانيون . صحيح ان فترة السيادة الاولى العثمانية هذه لم تحمل على الدوام الى المدينة السلام والرخاء اللذين من حقها ان تنتظرهما من مالكيها الجدد . ومع ذلك بوسعنا القول انه بالنسبة للعصور المتقدمة مباشرة عرفت بغداد فورة شهرة عادت عليها بسيدات عديدة واسهمت على الاخص حتى مطلع القرن السابع عشر ببناء هذه السطوة العثمانية التي كانت عهدئذ اولى سطوة للعالم القديم.

٢ ـ حكم المماليك .

لقد ادى تعيين ايوب حسن باشا واليا على بغداد عام ١٧٠٤ الى تحول عميق في ادارة المدينة والأقاليم : فالواقع ان حسن باشا ؛ الذي تلقى تربيته في سراي اسطنبول وامضى فيه يفاعته وشبابه ؛ تركت هذه التربيةاثرا قويا في نفسه وطبعتها بطابع سمح بتكوين شخص مخلص مقتدر ، منفرغ بكليته لخدمة السلطان . فوضع حسن ايوب باشا موضع التطبيق اساليبه الخاصة فانشا في قصر الولاية غرفة خاصة (خاص اوده) ؛ غرفة للمال (خزينة اوده سي) ، وغرفة ادارة ومدرسةامر ان يربى فيها فتية من عبيد الاباز والجيورجيين والشركس ، وكذلك بعض ابناء ضباطه : كان آولئك الكولمنديين (المماليك) . وعهد بهم الى معلمين ومربين ؛ فتلقوا من هؤلاء تعاليم الدين الاسلامي والمعلومات الثقافية التي لا غنى عنها ، ودربوا على استعمال الاسلحة ومرنوا تمرينات بدنية .

بعد ان ينتهي هؤلاء « الوصفاء » من تعليمهم ، وكان يصل عددهم احيانا الى ٢٠٠ ، يتلقون شهادة ورواتبا ؛ ويدرجون لحظتئذ في صنف اغوات الداخل (اغاياني اندرون) : على هذه الشاكلة تألفت طبقة متعلمة من الرجال وضعوا على راس الخدمات المدنية والعسكرية الرئيسية في بغداد والأقاليم ؛ فوازنوا سطوة الانكشارية باخلاصهم للباشا واطاعتهم له . وقد وصل بعض هؤلاء الكولمنديين الى رتبة (كتخدا) او مساعد والي وتقلدوا بعدئذ القضاء الأعلى في الاقليم .

وفي تنظيم الكولمنديين كان يجيء بعد الكتخدا القابيجلر كتخداسي المسؤول عن الخدمة الداخلية ، والخازندار ، قائد المماليك ، اما الشؤون الادارية الهامة التي تخص البلدة واقليمها فكانت تجري المناقشة بشأنها في الديوان المؤلف من الـذوات الرئيسية في الولاية : الوالي . الكتخدا . القاضي . الخازندار ، الدفتر دار . الديوان افنديسي (رئيس الديوان) . وقد ظل هذا النظام ، الذي اقامه ايوب حسن باشا ، يتبعه ابنه احمد باشا وكذلك اعقابه حتى عام ١٨٣١ . واستفاد النظام خاصة من المدة الطويلة لولايتي حسن باشا واحمد باشا ، فضمن لهذين وللولاة التالين انصارا وهيئة من الاداريين اتاحوا لهم احيانا معارضة القرارات الصادرة من اسطنبول والسير بموجب سياسة شخصية .

لقد ظل ايوب حسن باشا واليا على بغداد مدى ١٩ سنة ، من ١٧٠٧ حتى ٤ــ١٧٢٣ مستعينا بالقوة والدبلوماسية ، فنجح في اخضاع القبائل الثائرة كردية ويزيدية . واستطاع نيل رضى الأهالي بالغاء الضرائب على المواد الغذائية والخشب الداخل الى بغداد . وبفضله استتب الامن في العراق ، وتحسنت احوال الاقاليم بصورة ملحوظة . ومنح ولاية البصرة لمساعدة وصهره مصطفى اغا . وحين ادركته الوفاة عين ابنه احمد باشا واليا على بغداد وقائدا لجيش الأقاليم الشرقية : اصبح الحكم متزيا بزي وراثي . واتبع احمد باشا نفس السياسة الحكيمة التي سار عليها والده فحكم من ١٧٢٤ حتى ١٧٤٧ (مع فجوة قصيرة من ١٧٣٤ حتى ١٧٣٦) .

وفي عام ١١٤٥ ــ ١٧٣٣ هاجم عاهل ايران نادر شاه بغداد وحاصرها مدى ٩ اشهر ، ولكن انتصار طوبال عثمان باشا على نادر شاه ، في ٧صفر ١١٤٦ ــ ٢٠ تموز ١٧٣٣ انقذ بغداد . ورغب ذلك بعشر سنوات اعاد نادر شاه الكرة ، فاندحر مجددا ولم تقم له قائمـة .

لقد اثار موت احمد باشا بعض القلاقل : ففي الواقع خلق الكولمنديون متاعب للوالي الجديد محمد باشا ، الذي لم يكن ناجما من صفوفهم ، ولعل هذه القلاقل كان مصدرها سليمان باشا ، المملوك القديم المعتوق الذي اصبح صهرا لاحمد باشا وواليـا لاطنة . وكان سليمان باشا يأمل في الحصول على ولاية بغداد ، ولكنه لم يفز الا بولاية البصرة ، ومحمد باشا ، الذي كان يحترس منه ، صوره بصورة المتمرد لدى حكومة اسطنبول التي قامت بالتحقيق ، ولكنها تخلت عنه امام عداء المماليك ، وقلدت سليمان باشا ولاية بغداد بالاضافة الى ولاية البصرة (١١٦٣ ــ ١٧٤٩) فلبث سليمان باشا ١٢ سنة في هـذه الوظيفة ، وعاش العراق خلال هذه الفترة في هدوء شبه شامل، في حين كان يشتد عود نظام الكولمنديين . وبعد رحيل سليمان فاز كتخدائيان بالولاية الواحد بعد الآخر ، وهما : علي باشا وعمر باشا ، رغم عدم رغبة الحكومة المركزية في ذلك .

في عام ١١٨٦ ــ ١٧٧٢ انتشر طاعون مروع عاث في المدينة طوال ستة اشهر ، وافضت المنافسات بين الكولمنديين الى اضطرابات وفوضى وشغب ، واندلعت ثورات في كردستان ، في حين كان شاه ايران ، زند كريم خان ، يساعده متصرف البابانات ، يحاصر البصرة ثم يقتحمها ويبعد متسلمها (معاون الوالي) الى شيراز . وبعد موت زند ، عاد سليمان الى العراق واستولى على السلطة في بغـداد : واعترف به السلطان واليا على المدينة وعهد اليه كذلك بولايتي البصرة وشهرزور (١٧٧٨) .

وقد حكم سليمان باشا الملقب ببوك (الكبير) مدى ١٤ عاما : وامتدت سلطته من منطقة ماردين حتى الخليج العربي ، واعتبر بالتالي كأقوى شخصيات الامبراطورية العثمانية ، وفي اثناء ولايته تحتم عليه ان يخضع القبائل العربية والكردية الثائرة وان يواجه هجمات الوهابيين ، ثم ، دسائس عاهل ايران فتح علي شاه . وعلاوة على ذلك اقض طاعون مضاجع اهل بغداد في مطلع القرن التاسع عشر . وقد اعان ببوك سليمان باشا كثيرا على ازدهار التجارة والزراعة وشجع الأعمال العمرانية . ورمم هو بنفسه اسوار بغداد ، وحمى الكرخ بسور وخندق . وهدم السراي وبنى مكانه سرايا جديدا قدر له ان يحترق اثناء حوادث عام ١٨٣٠ ــ ٣١ . وبغداد مدينة له كذلك بالمدرسة السليمانية والمكتبة

العامة وسوق السراجين ، بالاضافة الى تعمير عدة مساجد (القبلانية والفضل والخلفاء) . وقد توفي بيوك سليمان في ٨ ربيع الثاني ١٢١٧ ٨ آب ١٨٠٢ . اما خلفه فابو غدار علي باشا ، الذي تلقى مهمة عقاب الثوار الوهابيين ، ولكن رغم معونة والي دمشق العظيم زادة عبدالله باشا ، لم يستطع الوصول الى نتيجة . اذ سرعان ما اغتيل . وقد اسس اثناء ولايته المدرسة العلية ، التي اعتبر المدرس فيها رئيس علماء بغداد . بعد وفاة ابي غدار علي باشا ، صممت حكومة اسطنبول على استئصال شأفة نظام الكولمنديين فعينت لبغداد واليا من خارج صفوفهم هو يوسف زيا باشا ، ولكن لتجاه المقاومات التي جوبه بها ، وبناء على توصية السفير الفرنسي ، سباستياني ، عينت اخيرا المملوك كجك سليمان باشا . فاخفق هذا في اعماله التي مارسها ضد اليزيدية ، ولكنه نجح في قمع الوهابيين ، اذ كسر شوكتهم وقهرهم واخضعهم . وفي مجال العدالة قام كذلك بمبادرات لم ترق حكومة اسطنبول مثل : الغاء عقوبة الاعدام (باستثناء العقوبات التي جاءت بها المحاكم الدينية) . منع مصادرة الاموال . الغاء رسوم المحاكم . تخصيص مرتب للقضاة . فتذرعت اسطنبول بحجة رفض كجك سليمان باشا دفع بعض المبالغ المطلوبة ، فقررت وضع نهاية لسلطته وارسلت احدى شخصيات الباب العالي الرئيسية بدله هو حالت افندي . فاستعان هذا بمتصرف البابانات ووالي الموصل ، فزحف على بغداد (رمضان ١٢٢٥ ــ تشرين الاول ١٨١٠) . فاندحرت قوات سليمان ، وفر هو نفسه ، فما لبث البدو ان قتلوه .

عين حالت افندي بصفة وال احد الكولمنديين ، عبدالله باشا ، ودون ان يخطو خطوة الغاء نظام المماليك اعلن الاعتراف بسلطة حكومة اسطنبول . فوجد عبدالله باشا نفسه حالا تجاه معضلتين اساسيتين : هجوم شاه ايران فتح علي باشا ، يدعمه متصرف البابانات عبدالرحمن باشا ، وعمل سعيد بك ، ابن كجك سليمان باشا ، الذي تسانده عشائر المنتفك . فتوصل عبدالله باشا الى التفاهم مع عبدالرحمن باشا ، ولكن قهره سعيد بك (صفر ١٢٢٨ ــ شباط ١٨١٣) الذي اعتقله اثناء فراره وصب عليه الموت . فاعترف الباب آنئذ بسعيد بك بصفة وال على بغداد والبصرة وشهرزور . ولكنه اثار ثائرة الكولمنديين ضده باعماله الخرقاء ، وكذلك سخط سكان المدن والارياف . فجمع صهره الكتخدا القديم داود باشا ضده المعارضين ، وباتفاق مع حالت افندي زحف على بغداد فاحتلها في ٥ ربيع الثاني ١٢٣٢ ــ ٢٢ شباط ١٨١٦ ، واعدم سعيد باشا على الفور . فاعترف به الباب رسميا واليا على بغداد ، وهو المنصب الذي تمسك به ١٥ سنة . وتشبث داود باشا في احلال السلام في الارياف . وما لبث أن شيد ثلاثة مساجد ، ولاسيما مسجد الحيدرخانة ، والمسجد والمدرسة الصافية والسوق والقصر . ومن جهة اخرى افتتح مشاغل للنسيج واستدعى الفنيين الاوروبيين ، فنهضت الصناعات اليدوية نهضة جديدة ومثلها الزراعة . واستعان بخبير عسكري فرنسي من مرافقي نابليون واسمه دفو Devaux فدرب جيشا قوامه ١٠٠٠ رجل ، بين مشاة ومدفعيين . وبهذا الجيش نفسه توصل الى دحر هجوم ابن شاه ايران محمد علي ميرزا ، الذي تقدم حتى وصل الى مقربة من بغداد (١٢٣٦ ــ ١٨٢١) .

ولكن تجديد حكم المماليك في بغداد لم يتسق مع سياسة الاصلاحات الادارية والسياسية التي شرع بها السلطان محمود الثاني . فعلى اثر رفض داود باشا حمل معونة مالية الى الحكومة العثمانية اثناء الحرب التركية الروسية عامي ١٨٢٨ ــ ٢٩ ، رفض السلطان استجابة طلب الباشا بأن يضم الى ولايته ولاية الموصل ، ثم ارسل الى الموقع الدفتردار الاول صادق افندي لتوطيد هيبة السلطة المركزية (ربيع الاول ١٢٤٦ ــ آب ١٨٣٠) . ولكن داود باشا اعدم صادق افندي ، فاضطر السلطان الى ارسال والي حلب علي رضا باشا لقمعه . فاوفد هذا الى بغداد احد مساعديه قاسم باشا ، مع بعض القوات : فدارت رحى المعارك في المدينة ، والتهم الحريق قصر الوالي . واخيرا انكسر قاسم باشا وقتل . حينئذ زحف علي رضا بنفسه على بغداد وضرب حولها الحصار مدى ٩٠ يوما . وفي ٩ ربيع

الثاني ١٢٤٧ ـ ١٧ أيلول ١٨٣١ فتح الاهالي الجياع الباب الشرقي ، فاستطاع علي رضا النفوذ الى المدينة . وسرعان ما اعدم جميع المماليك ودمر بهذه الصورة ارجانهم . اما داود باشا فقد شمله العفو بفضل خدماته التي اداها سابقا ، فسلك طريق المنفى . وهكذا انتهى هذا النظام الذي بدأ في ١٧٠٤ ؛ والذي كان له مزية اعطاء بغداد اهميتها بوصفها مركزا سياسيا واداريا عظيما ؛ وذلك بترسيخ سلطة والي الاقاليم على القبائل البدوية او الكردية ؛ وباخضاع السناجق المجاورة للبصرة لهيمنة بغداد ، وكذلك شهرزور والموصل . ومع ذلك كان يمثل خطر تاليف اتجاه بالغ الوضوح في الاستقلال الذاتي في قلب الامبراطورية العثمانية ، وبهذ الشاكلة يشجع المطامع الايرانية في الاقاليم . ولكن رصيده على العموم ايجابي . فقد اسهم في تحسين الوضع السياسي والاقتصادي اسهاما لا ينكر ؛ وولد دفعا جديدا لتعمير المنشآت الدينية وذات المنفعة العامة . وقد تزايد عدد السكان بصورة ملموسة ، فوصل زهاء ١٠٠,٠٠٠ نسمة حوالي عام ١٨١٦ وعلى الأقل الى ١٢٠,٠٠٠ عام ١٨٣٠ .

كان هؤلاء السكان يؤلفون منطقيا عدة مجاميع: فالقادة والعسكريون كانوا اتراكا او مماليك، وكان التجار والصناع عربا أو فرسا أو يهودا ، او مسيحيين احيانا . وقد لوحظ كذلك وجود اكراد وهنود . وكان الأوربيون اقل ما كانوا ، ولم يكن دبدنهم غالبا الا التجول في المدن دون الاقامة فيها طويلا . وكانت بغداد آنئذ تعد من بين مدن الامبراطورية العثمانية الكبرى .

٢ ـ عودة الادارة العثمانية الى الحكم .

في اعقاب انتصاره على داود باشا ، عين علي رضا باشا واليا على بغداد : فظل في هذا المنصب ١٦ سنة . ولكن ما ان تسلم زمام الحكم حتى نكبت بغداد بوباء فظيع اضيفت اليه فيضانات مدمرة . فسرعان ما اصبح الوضع مفجعا ؛ اذ هلك قسم من السكان او هرب : في عام ١٨٣٧ لم يبق من سكان بغداد اكثر من ٤٠,٠٠٠ نسمة ؛ ولم يرتفع هذا الرقم الا ببطء شديد بعد ذلك : ٦٠,٠٠٠ نسمة عام ١٨٥٣ ؛ ٨٠,٠٠٠ نسمة تقريبا عام ١٨٧٧ ؛ ٩٠ الى ١٠٠ الف بين ١٨٩٠ و ١٩٠٠ ؛ ٢٠٠,٠٠٠ عام ١٩١٨ .

وقد انهمك الولاة ، الذين غدوا يرتبطون مباشرة بالسلطة المركزية، بمعالجة الوضع الاجتماعي والاقتصادي . واول من عقدت له صدارة حركة التجديدات هو محمد رشيد باشا ، الذي اسس عام ١٨٤٧ شركة ملاحة للنقل التجاري بين بغداد والبصرة . وامر نامق باشا ببناء مشغل لتصليح (دميرخانة) لسفن هذه الشركة (١٨٥٣) ، ولكن الفضل الأكبر يعود الى مدحت باشا ، الذي اقام الاصلاحات على قدميها اثناء ولايته (١٨٦٩ ـ ١٨٧٢) وهي اعمق اصلاحات ، وذلك بعد ان قمع ثورة بدوية واخضع نجدا ، الذي الحقه بولاية بغداد . وادخل في الاقاليم النظام الاداري الجديد ، معززا بموظفين يخضعون للسلم الوظيفي والخدمات المتخصصة (التعليم العام ، مسح الاراضي ، التسجيل ، المحاكم المدنية) . واسس مجلسا بلديا، نصف اعضائه منتخب ونصفه معين ، مع منتخبين اثنين يمثلان غير المسلمين . والغى عددا من الضرائب القديمة التي تشكل عقبات في سبيل التنامي الاقتصادي ، وانشأ مطبعة ودارا للنشر ، واصدر جريدة رسمية للاقليم باسم الزوراء ، الجريدة الاولى التي ظهرت في بغداد . وفتح مدارس عصرية ابتدائية وثانوية ومدرسة حكومية للصناعة (لم يكن يوجد آنذاك الا بعض المدارس الابتدائية التي يدبرها المبشرون الفرنسيون) . وهدم اسوار المدينة ، وافتتح شارعا كبيرا يصل شمال بغداد بجنوبها ، ووسع الطرق؛ واستحدث عام ١٨٧٠ خط الترمواي الذي يربط بغداد بالكاظمية ؛ واتم بناء السراي ، الذي بدأ به نامق باشا ، وشرع ببناء مستشفى عصري ـ كمل عام ١٨٧٩ . ان الدفع الذي احدثه مدحت باشا لم يحذ حذوه خلفاؤه بحزم وقوة . ومع ذلك فثمة مدارس اخرى بنيت ؛ ولاسيما مدرسة البنات الاولى عام ١٨٩٩ ، ومدرسة دار المعلمين عام ١٩٠٢ . واقيم جسر جديد على دجلة استطاعت وسائل النقل المرور عليه . وفي عام ١٩١٠

اقام ناظم باشا سدادا حول بغداد الشرقية لحماية هذا الجزء من المدينة من الفيضانات . وشق شارع كبير حين كانت حرب ١٩١٤ ـ ١٨ على الابواب : ثم اتمه الانكليز .

في عام ١٨٢٧ اضحت بغداد مقر قيادة الجيش السادس التركي ، وبعد ذلك مقر الفيلق الثالث عشر . واصبحت الموصل عام ١٨٦١ والبصرة عام ١٨٨٤ ولايتين مستقلتين ، فانقسمت ولاية بغداد حينئذ الى ثلاثة سناجق : بغداد . الحلة . كربلاء .

وفي مستهل القرن العشرين اختلط حابل السكان بنابلهم ، ولكن العنصر العربي ـ ظل فيها يمثل الاكثرية وظلت اللغة العربية اللغة العامة .

وكان الاتراك يفضلون سكنى الأحياء الشمالية، واليهود (الذين كان لهم ٦ كنائس) والمسيحيون (٦١ كنائس) سكنى الاحياء الشمالية والغربية من سوق الغزل . ويؤثر الفرس الاقامة في الجزء الغربي، والعرب في جانب الكرخ دون سواه . وكان موقع المركز التجاري للمدينة في شرق الجسر وهو يؤلف اساسا اسواق السراي والميدان والشورجة وحوانيت الأقمشة .

جهز الانكليز خلال حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ حملة عسكرية اخترقت أراضي العراق واحتلت البصرة في ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٤ والقرنة في ٩ كانون الأول . واستولى الجنرال الانكليزي طاوتسند على كوت الامارة ، على طريق بغداد ، في ٢٨ ايلول ١٩١٥ ، ولكن القوات التركية صدت تقدمه . فاضطر الى التحصن بكوت الامارة وارغم على الاستسلام في ٢٩ نيسان ١٩١٦ . ثم حشد الانكليز قوات جديدة فشنوا هجوما حاسما واعادوا احتلال كوت الامارة في ٢٥ شباط ١٩١٧ ، ثم استولوا على بغداد في ١١ آذار التالي . وبالرغم من كون بغداد والعراق يعتبران حتى معاهدة لوزان (تموز ١٩٢٣) جزءا من الاقليم التركي ، فالواقع ان الانكليز جعلوا منهما منذ هدنة ١٩١٨ مملكة عهدا بها الى فيصل الأول ، الذي تسنم العرش بصورة مهيبة ببغداد في ٢٣ آب ١٩٢١ .

واذا كانت بغداد احد المراكز الكبرى للفكر والادب العربي في زمان الخلفاء العباسيين ، فانها لم تشهد خلال الحكم العثماني الا ولادة او حياة عدد محدود من رجال الأدب البارزين . ومع ذلك فمن المناسب ذكر بعض الأسماء : الشاعر فضولي ، الذي عاش في فترة احتلال سليمان القانوني لبغداد ، فكتب قصائد مدح للسلطان وبعض رجالات الدولة العثمانية . وكان ابنه فضلي كذلك شاعرا مفلقا ، ومثله روحي البغدادي ، (مؤلف گلستاني شعراء) ، ونظيره عهدي بغدادي وذهني وعزيز وعلمي يحيى دده . ومن المؤرخين : مرتضى (مؤلف گلستاني خلفاء) وواصف افندي وشفقة افندي (مؤلف حديقة الوزراء) . ومن رجال القضاء : عبدالله السويدي وابو الثناء الالوسي . ومن الكتاب المحدثين تجمل الاشارة الى احمد هاشم : المولود في بغداد عام ١٨٨٩ ، والمتوفى عام ١٩٣٣ ، الذي اصهر الى اسرة الالوسي ، صاحب مذهب الفن للفن .

ولنلاحظ اخيرا انه منذ عقود السنين الأخيرة للقرن التاسع عشر كان شباب الأسر الكبيرة يرحلون الى اسطنبول لاتمام دراساتهم فيها ، حيث الجامعة الوحيدة العصرية للامبراطورية ، فيدخل الطلاب ليختلطوا ليس بالشبيبة التركية المحلية فحسب ، وانما كذلك بالمجتمع العالمي للعاصمة العثمانية . فيتعرفوا على الافكار السياسية والتيارات الفكرية الجديدة ، التي كانت ولا سيما بين عامي ١٨٨٠ و ١٩٠٨ ترج العقول رجا عنيفا وتأتي بتحولات عميقة في امبراطورية السلاطين العتيقة ، واذا كان النظام الجديد الذي انتصب في بغداد عام ١٩١٨ هو ثمرة السياسة الانكليزية للشرق الادنى ، فقد وجد لتحقيقه رجالا ، رجالا عراقيين لم تكن الثقافة العثمانية لديهم كلمة عقيمة .

- ٢ -

النثر العربي في بغداد

بقلم

شارل بيللا

يتفق مؤرخو الأدب على الاعتراف بانه اذا كان قد ولد نثر عربي مترددا وناقصا ، في مطلع الاسلام ، ولكنه ترعرع واستوى على ساقه بعد ذلك ، بفضل جهود عدد متزايد من علماء تشبثوا بصورة رئيسية بالعلوم الدينية في تكوينهم ، فان الفخر بخلق نثر ادبي حقيقي يعود الى كتاب الدواوين الأموية الذين من بينهم يتالق اسم عبدالحميد الكاتب (١٣٢ ـ ٧٥٠) . فهو مؤسس فن الرسائل ، وكذلك ابن المقفع ، صاحب المبادرات الفنية الجديدة في النوع المعروف باسم الأدب . لقد « حمل ابن المقفع الى اعظم المثقفين من معاصريه تجديدات كبيرة للغاية من حيث المضمون والشكل . لقد اكتشف لهم في اللغة العربية ينابيع لا يتطرق اليها الشك . فالحكم القصيرة الوعظية للسامية القديمة ، تخلت عن مكانها في كتاباتها ، الى التنامي الواسع الدقيق للمفاهيم الجميلة العامة . فاحلت محل الجمل القصيرة المتزاوجة بسذاجة لارباب النثر ، مقاطع ذات مفاصل متعددة ، حاملة ، بيسر نسبي ودون الاخلال بالتوازن ، حشدا من الأحداث المنوعة » . ولكن بحكم هذه التصرفات الظالمة للقدر الشاخصة على مجرى التاريخ ، حدث بالضبط في مستهل سلطة السلالة العباسية ، خلال سنوات معدودات فقط (١٣٩ ـ ٧٥٧) قبل تأسيس بغداد (١٤٥ ـ ٧٦٢) ان نفذ حكم الاعدام بأمر المنصور بهذا المزدكي الذي اعتنق الاسلام ، في حين اصبح انتاجه مثالا يحتذى ، او على الاقل كنقطة انطلاق لأجيال الناثرين التي بوسع عاصمة الخلافة الجديدة أن تزهو بهم ، وهي على حق .

واذا كان الشعر من النمط الكلاسيكي قد ازدهر في منتصف القرن الثاني للهجرة . والشعر « المحدث » في طريقه الى التكوين ، فقد ظلت الأعمال النثرية نادرة ، على الاقل الأعمال التي سجلت نثرا ، ذلك لان الشطر الاعظم من الوثائق الدنيوية التي جمعها الأساتذة المعروفون تؤلف موضوع المحاضرات العامة التي قبل ان تثبت مادتها بالكتابة ، كانت تروى شفاها في لغة عارية من كل زخرف ، خرقاء ، جافية ، ولا تشكل مطلقا هذه المحاضرات في الواقع جزءاً من الأدب الخالص ، ولكن يجب ان نحسب حسابها لانها تحتوي على وثائق اساسية اجتهد المتاخرون في استغلالها معتمدين على رواية شفهية ثم كتابية . ويجمل بنا ان نذكر ايضا الأعمال التي حققها العلماء الاوائل في مجال العلوم الدينية ، ولكننا سنمسك عن ذلك ، لاننا دون ان نرفض رفضا باتا كل قيمة فنية للاعمال الدينية الغزيرة ، او للأعمال ذات الطابع الفلسفي او الفني الذي يحمل تاريخ فترة الخلافة العباسية ، نرى من واجبنا ، في هذه المقالة الوجيزة قصر انفسنا على الاشارة اليه اشارة سريعة ، لنشغل انفسنا بالنثر الأدبي الخالص سواء كان مرسلا او مسجوعا ، وبمختلف تفريعات الادبالذي رفعمناره ابن المقفع .

على نهج التقليد الايراني استوحيت الاعمال الادبية الاولى من الاهتمامات التعليمية وتوجهت الى علماء العالم على وجه التخصيص والتقريب . وهي مع حرصها على ان تكون مسلية القراءة عذبتها ، فانها تعرض قواعد سلوك الملوك والأمراء . وهي تقص علينا اخبار الوزراء وعلية القوم ونوادرهم ، وتورد لنا كذلك مبادىء الاخلاق ، مع تعزيز كل ذلك بحكايات تهذيبية . وربما كان اول ممثل لهذا النوع كتاب ثعالة وعفراء لأمين بيت الحكمة سهل ابن هرون (م في بداية القرن الثالث) وقد ضاع هذا الكتاب المشابه لكتاب كليلة ودمنة ، كما اختفت كل

آثار سهل الاخرى ؛ اللهم الا رسالة في البخل ارتأى الجاحظ ادراجها في كتابه البخلاء .

هذا الادب - من النسق الذي نريد ان ندعوه بالتقليدي ، سيدوم ويستمقرط ، بهذا الاتجاه الذي سنرى منه في بغداد ازدهار سلسلة من الكتب الممتعة القراءة نوعا ما والمكرسة لتعليم الاخلاق والتكوين الفني للجماعات المتباينة والاصناف الاجتماعية التي اخذت بالاتساع شيئا فشيئا : كتاب الادارة ، القضاة ، معلمو المدارس ، الخ . . . ويرينا ادب الكاتب او ما نسميه الرفيق الملازم او الكتاب المفضل vade mecum لكاتب ديوان الانشاء ابن قتيبة كيف يستطيع نوع ادبي اصل ان ينتهي الى كتاب مدرسي او مهني بسيط .

عبر تلك الفترة لم تنتشر انواع جديدة كالتاريخ والجغرافية بصورة محسوسة فحسب ، بل كذلك الادب ذو الجذر الساساني الذي ، ولنكرر القول ، يهدف الى التعليم والايناس معاً ، وقد تفرع الى عدة فروع ؛ فالعنصر المسلي انجب نوعا مستقلا ، والغاية التعليمية سمحت باحتضان عدة فنون مختلفة ، متسمة بسمة ابسط والطف واقل تجهما . فالبنية التحتية من النمط الجديد لهذا الأدب، الذي تحول من ايراني الى عربي اسلامي ، وفرته التراجم من الفهلوية واليونانية ، وبدرجة عليا ، جمهرة المعارف ، التي جمعها العلماء المتبحرون في العلوم اللغوية ، من بداية الاسلام ، وذلك بلم اشتات تراث العرب القدماء ، فكانت هناك موروثات قبلية وامثال واشعار وتجارب شخصية . وعلى المستوى الثاني ، جمع المحققون نتاج جهودهم في كتب علمية قليلا او كثيرا . وبانتشار صنع الورق ، بدات هذه الاسانيد تاخذ طريقها الى التقييد كتابة . ونسخ النساخون منها اعدادا ، لانها تهم جمهورا لا باس بضخامته . وفي نهاية القرن الرابع استطاع الوراق ابن النديم ان يكتب فهرستا ، جزئيا دون شك ، ولكنه شق الطريق بسعته امام فهارس اخرى من هذا النوع . لم يحتفظ بها وجه العموم حتى يومنا هذا ، لان كتبا اخرى اعم جعلت هذه عديمة الفائدة .

ومن هذه الكتلة المتنافرة اجزاؤها حتى اليوم، والفوضية والمفرطة في الضخامة والموسوعية ، التي لا تستطيع ارجح العقول هضمها ، من هذه الكتلة ستستخلص المعطيات التي ستتأسس عليها الثقافة العربية الاسلامية الدنيوية ، وفي كل مكان سيقوم عليها النثر الذي سيزدهر قبل كل شيء في بغداد ، وبصورة جوهرية .

اصبح الواجب الاول من ذلك الوقت للكتاب المنتبهين الى حاجات الجماعة التي يعيشون بينها ، والحريصين على بناء روحها وذوقها ، ان يوجدوا مختارات وان يقدموا الى معاصريهم ، الراغبين في تثقيف انفسهم دون ان يتيهوا في التفاصيل المقيمة او الثانوية ، تاليفا بالغ الفنى نابها لئلا يحددوا الافق ، مع تقديم الماهية .

واذا كانت الثقافة ما يبقى حين ننسى كل شيء ، فانها في بغداد ما يبقى عندما تطرح التوابع عن رضى وطواعية . والخطر يكمن في ان الجوهر يوشك في يد الاغرار ان يرفض لمصلحة التوابع. وهذا ما لم يلبث ان وقع .

ومع ذلك فالفضل يعود الى الجاحظ (م ٢٥٥ ٨٦٨) في انجاز اول غربلة ، واقامة معيار منصف عقلاني لمختلف العناصر الثقافية ، وتقديم توفيق بين المعارف المفيدة « للانسان المهذب » في عصره . . . لم يكن هذا الكاتب الموفق المرموق بغداديا . ولكنه عاش نصف قرن في العاصمة ، التي كانت الأوساط الثقافية فيها يتالف معظمها بالضرورة من اشخاص من الاقاليم جرهم القصر الذي جاءوا يبحثون فيه عن استثمار مواهبهم . كم من الشعراء ولدوا في البصرة او في دمشق جربوا فيه حظهم ، وكم من النحاة والمحدثين والفقهاء والمتكلمين هجروا واحدا بعد الآخر اريافهم وهي مساقط رؤوسهم ، في محاولة لاعلاء شان اسمائهم ، وكسب اقواتهم بصورة وافرة ــ قرب السلطان ــ لاغرابة في ذلك كله ، ولكن المغزى الأكبر يكمن في ان يدعى الجاحظ ، وكان مغمورا في البصرة ؛ الى تاليف كتاب عن الامامة ، وان يستدعى بعد ذلك الى القصر لتلقي التهاني من المامون ، واخيرا وضع مواهبه في خدمة العباسيين .

صحيح ان الشعراء لم يكونوا نادرين حول العواهل الذين يكرسون لهم اماديح من الطراز الكلاسيكي او المحدث ؛ ولكن الشعر لم يعد يمارس على السامعين وعلى رعايا الخليفة نفس التاثير الذي كان يحدثه في عهد الامويين . والان ، بعد استيلاء العباسيين ، ينبغي التوجه الى العقل اكثر من التوجه الى القلب ، والاقناع بواسطة الوثائق المشغولة باتقان وامعان ، ومهمة كهذه لا يمكن النهوض بها الا بالنثر . اذن فقد نصب الجاحظ من نفسه محاميا للسلالة وكتب كراريس صرح هو نفسه بأنها انتشرت في انحاء الامبراطورية على الفور . ذلك لأن هذا النثر السياسي الذي يحمل طابعا جديدا كل الجدة هو في عقل السلطان ذو طبيعة تجمع المعارضين حول السلالة ؛ وهم الاكثرية . ولابد اننا متشوقون الى

معرفة النتائج الواقعية لهذه الدعاية ، ولكن ما نعلمه هو ان الجاحظ اصطدم في احايين كثيرة بخصوم عنيدين لم يترددوا بنفض كتاباته ، بنثر هو اقل مرتبة فنية من نثره . واأسفاه ! . . والجاحظ هو نفسه يبلغ به الامر ان يؤلف اماديح نثرية ، واهاجي ومراثي ، وعلى هذه الصورة يبادي الشعراء على صعيدهم الخاص ، وهذا الانقلاب في مواقع الطريقتين الرئيسيتين في التعبير ذو طابع متميز ، بحيث ان الاستاذ هـ . ا . ر كيب جعل النثر في الصف الاول حين واجه الفترة التالية ، وكان اعطى الموقع الاول للشعر في القرن الثاني للهجرة ، وذلك في مقاله الجميل المكرس لتاريخ الأدب العربي ، في دائرة المعارف الاسلامية .

لا نستطيع ، ونحن بصدد دراسة عن النثر في بغداد، ردع انفسنا عن التوسع المطول في الجاحظ ، لا بسبب التاثير الذي احدثه في خلفائه وهو ضئيل نسبيا ، لأن اصالته وشخصيته كانتا قويتين بافراط بحيث استطاع انشاء مدرسة حقيقية لنهجه ، وانما لاقامة نوع رصيد لنشاطه وقد مارس على وجه التقريب كل الانواع التي انتشرت في اتجاهات كثر اختلافها او قل .

لقد حافظ الجاحظ ، بوصفه اديبا قبل كل شيء ، على طريقة الكتاب الى حد كبير ، فكتب عدة رسائل ذات طابع تخيلي واضح ، ولكنه وسع افق الادب بمعناه العريض فجعله يشمل حتى العلوم ذاتها ، والنقد الأدبي والجغرافية بل وعلم الحيوان ، وابتكر اخيرا ، بفضل عقله الملاحظ ، شكلا من الأدب التشخصي الذي ينصب على تصوير الاخلاق والمجتمع ، دون الانقطاع عن تكريس جزء من نشاطه للمشاكل السياسية والدينية ، كما رأينا ، طالما هو مناصر متحمس لمذهب الاعتزال . وهنا لم يسلك الطريقة الأدبية التي اختطها لنفسه بمزج الجد بالهزل ، ولكننا في كتاباته الاخرى نراه شديد الحرص دوما على تعليم الناس وهو يمازحهم ويداعبهم ويعابثهم ، فيمزج الجد بالهزل ، ليس دون السقوط احيانا في وهدة الابتذال . وقد يفلح حينا ببث الانسجام في كتاباته المشوبة باللونين ، وحينا آخر يصد منا بأقواله ويخزنا .

ويعترف هو نفسه باستهانته بالمحاولات التي حاولها معاصرون له بهدف خلق ادب خيالي اصيل ومسل . وهو يقوم بشطره الاعظم على الموروث الدنيوي الذي يظهر مشوها ومزوقا في قصص الحب التي حفظ لنا الفهرست عناوينها ، ولكن ينبغي الاعتقاد بانها كانت هدى تعليقة عابرة ، لانه لم يبق منها عمليا الابعض الشذرات الناجية ، ولا سيما ماصانه ابو الفرج الاصفهاني في كتاب الاغاني .

وعلاوة على قصص الحب ، فان الفهرست يعدد جمهرة من المكتوبات التي، اذا حكمنا بعناوينها، حملت على الضحك والاثارة الجنسية والادب البذيء في مقولات ادبية لاشك ان الجمهور البغدادي كان يستملحها ، وكانت كذلك عامرة بالحكايات الطريفة والاخبار والنكت التي كان البغداديون المحترفون بارعون في تزويقها لايناس زبائنهم . وهناك مجاميع فكاهية الفت في هذه الفترة ، ربما تكون المجموعة المنسوبة الى جحا الوحيدة التي صارعت الزمن ، ولكن بعد مسوخات او شك الا يبقى معها شيء ذو قيمة من المجموعة الاصلية ، ان معظم الآثار التي جئنا على الاشارة اليها غفل من اسماء مؤلفيها او هي منسوبة الى مؤلفين معروفين ، كأبي العباس الصيمري ، ولكنها قبعت في الظلام بفعل الجاحظ الذي هيمن نشاطه على النصف الاول من القرن الثالث باسره .

بعد موت الجاحظ ، نستطيع اعتبار النثر الادبي قد بلغ اشده وارتفع الى قمة بمستواها لن يقدر لنثراء العصور التالية بلوغها الا نادرا . والواقع ان فن الجاحظ يفلت من كل مقارنة ، والنقاد المطلعون على حقيقة الوضع قدروه فحسنوا تقديره باتخاذ لقبه شعارا للعبقرية الادبية ، دون ان يخبرونا مع ذلك بما اعجبهم في كتابته ، ذلك لأن الشعر (بالاستقلال عن القرآن بالبديهة) هو في نظرهم جدير بان يكون محل تحليل اسلوبي .

واذا كان ينبغي تشخيص اسلوب الجاحظ بكلمات معدودات ، فبوسعنا القول انه يتميز بسعة العبارة المؤلفة من جمل مقطعة او من تفريعات تبرز فيها لفظة ذات غنى خارق بشكل يتالف من امثالها وحدة كمية غالبا متساوية او متجاورة وبمعنى مماثل او مضاد ، دون ان تستعمل القافية الا عرضا ، ويحدث ان تغطي جملة صفحة كاملة ، وهذه النفحة غير المعتادة ما زالت الى الآن تشوش الناشرين الذين يقع لهم اما نسيان اداة لا غنى عنها لهيكل الجملة ، او وضع نقطة والمضي الى سطر في قلب العبارة . صحيح ان الجاحظ ليس مؤلفا سهلا وان الافكار ، المضطربة شيئا ، لا تتسلسل لديه دائما بشكل غاية في الوضوح . اذن نفهم من ذلك ان اجزاء دائرة الكلام تفلت احيانا من اولئك الذين لم يكرسوا انفسهم للتحليل المنطقي .

ولو استطاع ضبط نفسه ، لكان من الصعوبة ضمان وارث له ، ولكن وجد من يضبط نفسه ، لاشغال واجهة المشهد : بعقل منهجي منسق ، ونعني به ابن قتيبة (م عام ٢٧٦ ــ ٨٨٩) . فباستفادته من انعدام الثقة الذي غرق فيه المعتزلة منذ منتصف القرن ، فان « محدد الخلافات » هذا ، اذا سمح لي بهذا التعبير ، اجهد نفسه باحلال الوفاق في الصفوف المنتصرة ، ووضع القول المأثور موضع التطبيق « خالف تذكر » فنصب نفسه خصما للجاحظ بعد موته .

واذا كان ابن قتيبة فقيها ونحويا قلبا وقالبا ، فانه كان بعيدا ، كل البعد عن امتلاك الروح المتفتحة واسلوب سلفه ، ومع ذلك فانه هو الذي ثبت حدود الثقافة العامة ، بتحديد حقلها ، مع همه في الوقت نفسه ، كما يبدو ، بتنمية قوامه الديني . والجاحظ بوصفه معتزليا صحيحا لم يفصل بطبيعة الحال الثقافة الدينية عن الثقافة الدنيوية ، ولكنه استمان بالعقل والمنطق لاستغلال المنابع الثلاثة الرئيسية للمعارف العامة : الانسانيات العربية ، المؤسسة بسعة على السنة البصرية ، الهلينية ، وبمقياس اضأل ، الحضارة الهندية الفارسية ، فاحسن الاستغلال .

ابن قتيبة ، بوصفه معتدلا قحا ، وضع النقاط على حروف الشريعة السمحاء ، وفي المجال الدنيوي اجتهد في تنسيق الأسانيد وتصنيفها ، وكانت مشوشة مبعثرة ، واضاف اقساما وفروع اقسام ، وبكلمة ، نظم واستأنس الثقافة العربية الاسلامية ، وفي الوقت نفسه وجهها ومهرها باطار بالغ الاستقرار . على انه نزر الحساسية تجاه التأثير الاغريقي ،اذ اعطى الاولوية للسنة الكونية واخلى للثقافة الايرانية ، التي كان الجاحظ يرتاب منها ، وهو على حق ، موضعا افسح ، ولم يسء بعمله هذا الى كتاب الدواوين الذين فقدوا بالتدريج ، خلال القرن الثالث ، تفوقهم في المادة الادبية .

ولم يكتف بجعلهم يلمسون باصابعهم وبتأليف كتاب عملي لهم ، هو كتاب ادب الكاتب ، وانما قدم لهم ، صنع الرجل المهذب ، موسوعة ادبية ، هي عيون الاخبار ، على نقيض الجاحظ الذي حدد نفسه في حقل النقد بقذف افكاره في البيان والتبيين كيفما اتفق ، اذ كرس للشعر كتبا ضخمة بينها مختارات منسقة ، اعني كتاب الشعر والشعراء ، الذي ظل حتى يومنا هذا وثيقة مفيدة . ولكنه فرض مختارات تحكمية بعض الشيء . ويكتب كذلك كتابا يمكن ان نصفه بالادب التاريخي ، هو كتاب المعارف ، يجمع فيه المعطيات التاريخية التي برايه يجب ألا يجهلها مسلم مثقف . وهذه الكتب المدرسية لم تنقطع عن التمتع ، في الاوساط الناطقة بالعربية ، بثقة لم يعبر عنها تعبيرا جيدا ، ولكنها انالت مؤلفها شرف الاستشهاد به كثيرا في نفس مجال الجاحظ . ومع ذلك فان الرجلين مختلفان جذريا كل الاختلاف ومتعارضان في كل النقاط . مقابل ذلك ، اذا لم نعتبر الا كتاب المعارف ، ثمة مقارنة ممكنة معقوله مع معاصر لابن قتيبة هو اليعقوبي (م حوالي ٢٨٨ ــ ٩٠١) . فان موازنة بين كتاب المعارف وتاريخ اليعقوبي ــ الذي هو ليس بمؤرخ ــ ولكنه اديب ــ تكشف على الفور لدى هذا الاخير عن سعة في النظرات وعن تطلع الى الشعوب الغريبة عن الاسلام ، التي تحمل على التفكير بان المعتزلة وجدوا في بعض الفرق المعتدلة الورثة اللائقين بهم .

وفضلا عن ذلك ، فقد حدث ان ذكر اليعقوبي في عداد « الجغرافيين » . ونحن نعلم ان الاعمال الجغرافية الاولى قد لوحت بها اهتمامات ادارية وسياسية ومالية ليس لها اي علاقة بالادب .

ومع ذلك فان الجاحظ ، الجاحظ ايضا ، مد الادب الى هذا العلم ، والف كتابا اسمه كتاب البلدان المفقود في يومنا هذا ، ولكن شذراته النادرة المحفوظة تحتوي على مأثورات وحكايات اسطورية عن عدة مدن ، وتضم كذلك ملامح يمكن ادراجها دون مشقة في دراسة عن الجغرافية البشرية .

في هذا الحقل يكون الوارث الحقيقي المحاكي للجاحظ معاصرا لليعقوبي ويحمل اسم ابن الفقيه الذي يدخل كتابه البلدان في نطاق الادب الخالص ويبتعد كثيرا عن الجغرافية العلمية . والخلاصة اننا لا نعلم على وجه اليقين ما اذا كان ابن الفقيه بغداديا، بل بوسعنا التردد في حسبان اليعقوبي في عداد كتاب العاصمة . وعلى كل حال فان كتاب البلدان لهذا الأخير هو من الجغرافية الوصفية ، وبهذه الصفة يبرز كوجه رائد. وسيعالجهذه الفترة من الجغرافية في القرن التالي مؤلفون اهمهم المقدسي الذي لم يكن بغداديا (كتابه في ٣٧٥ ــ ٩٨٥) .

على ان الكاتب الذي يذكرنا مباشرة باليعقوبي مولود في بغداد ، اي المسعودي (م عام ٣٤٧ ــ ٩٥٨) ، الذي ارتأى ان يقدم التاريخ والجغرافية بصيغة لذيذة . وهو لا يغالي الى حد ترصيع كتاباته بالنوادر المسلية ، كما كان يصنع الجاحظ ، وانما يحرص على عدم الاملال فيفلح على الدوام تقريبا . وبما انه رحالة كبير وعقلية متشوفة فهو يلتقط من الاقطار التي يزورها معلومات اصلية يضيف اليها وثائق يستعيرها من اسلافه ، ويخرج هذه كلها

معتنيا باسلوبه ، بحيث أن غيرته على الأناقة تؤدي به الى قلب معاني بعض النبذ المنسوخة من كتب اخرى راسا على عقب ، ولا يتردد في كتابه مروج الذهب عن ادراج فصول حول الامم اللاامسلمة ، وانشاء ثبت بملوك فرنسا حتى عصره ، كما قام بنفس الصنيع اليعقوبي ولكن بتوسع اكثر ، اما عن التاريخ الاسلامي فلا يستبقي الا التفاصيل التي يتصورها واخزة اكثر من سواها . ويبتعد عن ايراد كل الحوادث عن حكم اذا استوخم ظلها .

وعلى ذلك فان مسألة معرفة ما اذا كان انتاج المسعودي كما نعهده من التاريخ او من الجغرافية او مجرد كونه اديبا ، فاننا نستطيع ان نجيب على ذلك بدقة : المسعودي اديب يعرف ان الضجر يتولد يوما ... من الرغبة في قول شيء ويجهد نفسه في شد قرائه اليه وهو يقص بلغة مستساغة وبصورة عامة واضحة؛ الوقائع التي يحسبها الأهم والأجذب.

لم تكن حالة المؤرخين الحقيقيين بالتأكيد على هذه الشاكلة ، وهم الحريصون على ان يكونوا واضحين ، وعلى الا يتركوا شيئا في العماء ، فجمعوا الاحاديث وتركوا الصدارة للعلم لا للأدب ، مع اننا نستطيع ان نكتشف لديهم صفحات جميلة من المختارات : وعلى هذه الصورة البلاذري (م نهاية القرن الثالث) أو الطبري (م عام ٣١٠ – ٩٢٢) . وهما اعظم ممثلين لهذا العلم . ومع ذلك ، فبعد هذا بقليل كتب الصولي مذكرات شخصية عن التاريخ البغدادي الذي اتبعه بمختارات من القصائد نظمها امراء عباسيون او شعراء من حواشيهم، والف كذلك لكتاب الدواوين كتاب ادب الكتاب المختلف بصورة محسوسة عن كتاب ابن قتيبة .

ثمة شكل آخر من التاريخ يمثله ابو الفرج الاصفهاني (م ٢٥٦ – ٩٦٧) في كتاب الاغاني ، حيث يجمع اشعارا واخبارا عن الشعراء والموسيقيين وشخصيات المجتمع الكبرى . هذا الكتاب الهائل ، الذي يمكن تصنيفه مع كتب الادب ، له قيمة وثائقية عليا ، وهو يتحفنا بطائفة من المعلومات لا نستطيع العثور عليها في مكان آخر ، لان الشطر الأعظم من مصادر ابي الفرج مفقود .

هناك وجهة نظر تقول ان كتاب الاغاني يعتبر كتاب نقد ادبي ، هذا العلم الذي احتل في تلك الحقبة منزلة رفيعة ، وكان مترجرجاً لدى الجاحظ واكثر منهجية لدى ابن قتيبة ، فاصبح تقنيا فنيا عند ابن المعتز (م ٢٩٦ – ٩٠٨) الذي يفكر في كتابه البديع بتصنيف الصور البلاغية ، ولا سيما لدى قدامة (م نحو ٣٢٦ – ٩٤٨) الذي يؤلف فنا شعريا حقيقيا . وجاء بعده أبو هلال العسكري (م بعد ٤٠٠هـ–١٠١٠م) مستوحيا الجاحظ، فعرض بطريقة منهجية قواعد البلاغة العربية ، في حين حرص معاصره الباقلاني (م ٤٠٣ – ١٠١٣) على اقامة الدليل على اعجاز القرآن .

لا نجد اي شيء ، في هذه الكتب ، حول نثر الكتاب العرب ، ولا نستطيع ان نكون فكرة عن الاذواق النقدية الا في بعض المختارات والمجاميع . تلك الأذواق التي قصرت نفسها على ايراد المقتطفات التي استهوت مختاريها ، دون تبرير الاختيار .

زبدة القول أن الادب استحال بمعناه الصحيح، بعد ابن قتيبة بالضبط ، الى منتخبات ومجاميع تختلط فيها العناصر المختلفة للثقافة العربية الاسلامية، حيث تجتمع المعطيات المتباينة عن الشعر والتاريخ والاخلاق والسياسة ، الخ .. وبالاجمال فان هذه المؤلفات النافعة لا تقدم اي اصالة ولا تعمل اكثر من صيانة التراث : الكامل في الأدب للنحوي المبرد (م ٢٨٥ – ٨٩٨) برهان ساطع على ذلك .

من النوع الترفيهي صدرت بعض المؤلفات القيمة ، وعلى سبيل المثال جمع التنوخي (م ٣٨٤ – ٩٤٤) امثالا ونوادر ومأثورات وحكايات تناقلها القضاة اكثر من سواهم ، عن موضوع الفرج بعد الشدة في كتابه المشهور ، وجمع من كل حديقة زهرة ليؤلف كتابه نشوار المحاضره . أما ابن الجوزي (م ٥٩٧ – ١٢٠٠) فهو رغم كونه فقيها ، اديب كامل يخيل الينا انه لم ينصف حتى الآن .

ان ملاحظة البيئة الاجتماعية ، التي استمد منها الجاحظ بغزارة ، لم يتسع لها عدد صغير من المؤلفات ، التي تتميز مع ذلك باصالتها وطابعها الشخصي عن بقية المؤلفات الادبية التي قوامها الاعظم الشواهد . فالوشاء (م ٣٢٢ – ٩٣٤) يستلهم الجاحظ ولاسيما في كتابه الموشى ، الكتاب المغري للغاية وموضوعه احوال الاوساط المتميزة ومتأنقي عصره . وابتكر ابو المطهر الأزدي (القرن ٤ – ١٠) نوعا بالغ الجدة في رسم لوحة منتزعة من الحياة البغدادية واخلاقها وفي جمله احد الاشخاص يصف مشاهد حية من الواقع . والرابطة التي يمكن ان توجد بين انتاجه ونوع المقامة منكور ولا يمكن مناقشته هنا ، ولكن مما لا مشاحة فيه ان ابا المطهر يحتل مكانة خاصة في نطاق تاريخ الادب العربي ...

بعد انقضاء بعض الوقت نجم بدوره ناثر آخر هو ابو حيان التوحيدي . فانتج بمهارة احاديث تتسم على الاخص بالطابع الفلسفي ، ورسم لوحات

ساخرة لاذعة لمعاصريه (ولاسيما لابن عباد وابن العميد) والف رسائل تذكرنا بالجاحظ . ولا شك أن التوحيدي هو الممثل الاعظم والاخير في سلالة اكبر ناثر للقرن الثالث ، الذي يدعي التوحيدي انتسابه الى طريقته ويعلن اعجابه به ؛ ويتفرد نثره اللامع جدا بمزية عدم الالتجاء الى الاسجاع ؛ في فترة اصبحت فيها هذه المحسنات اللفظية شبه اجبارية في ادب الرسائل واعمال كتاب الدواوين ، فباتت سيدة الموقف في الاوساط التي كان يرتادها ابو حيان .

ان كتاب الدواوين الذين كانوا شبه محتكرين في ايام الامويين وعهد العباسيين الأوائل لاستعمال النثر المسجوع ، جاء الجاحظ فاطفأ نجمهم . واذا كانوا استعملوا الرسائل ، كوسيلة للتقديم ، فعلى الأقل اضطروا للتكيف مع طريقة تلك الفترة وتحبير وثائقهم في نثر بسيط ، دون افتعال مفرط . ومع ذلك ، وبعد ان اتبعوا هذه القاعدة خلال القرن الثالث ، استدرجوا ؛ دون شعور منهم ؛ الى تزويق كتاباتهم ... الى استعارة جزء من وسائل الشعر ، فاحيوا النثر المسجوع ، الذي لم يجرؤا على استعماله بصورة منتظمة ، احتراما للنص القرآني ؛ فنشروا قابلية لم تلبث ان استحالت الى بهارج لفظية . وهكذا حين وضع كتاب الديوان في الدرجة الثانية اخذوا بثارهم فدبجوا بتحذلق متيبس ليس المراسلات الرسمية فحسب ، وانما رسائلهم الخاصة ايضا واعمالهم الأدبية . ودفاعا عن بغداد ينبغي القول ان هذه البدعة الجديدة التي تفشت في الادارة عمت خارج مدينة الخلفاء ، التي اصبحت من ذلك الوقت محرومة من طابعها كعاصمة امبراطورية ، فالوزيران البويهيان ، ابن العميد (م ٣٦٠ — ٩٧٠) الملقب ظلما وعدوانا بالجاحظ الثاني ؛ وابن عباد (م ٣٨٥ — ٩٩٥) تمتعا بهذا الصدد بشهره يستحقانها . ومع ذلك فان استاذ النثر المسجوع الكبير هو بديع الزمان الهمداني (م ٣٩٨ — ١٠٠٧) مبتكر نوع المقامة ، ولم يحظ اي بغدادي بالتسمي باسم هذا النوع الادبي حقا ، الذي توج في القرن التالي باسم نحوي من البصرة هو الحريري (٥١٦ — ١١٢٢) .

ان بغداد التي تألقت بشعاع لا مثيل له اثناء ما ندعوه بـ « العصر العباسي الأول » ، الذي نهضت خلاله الحضارة الاسلامية ، قد مني بصدمة قاسية ايام حكم البويهيين . اما في عهد السلاجقة (من ٤٤٧ — ١٠٥٥) فقد اكتفت بالعيش على مجدها السالف . وعجل انشاء المدرسة النظامية بانحطاطها وذلك بغرض مانعته بالمدرسية . وقد اتم استيلاء المغول على بغداد (٦٥٩ — ١٢٥٨) خرابها ، ومن ذلك الوقت اصبح مركز النشاط الادبي في اقطار ناطقة بالعربية ، ويقع اكثرها غربا . وما يزال بعض البغداديين يرد ذكرهم في تاريخ الادب ، ولا سيما النحوي عبدالقادر البغدادي (م ١٠٩٣ — ١٦٨٢) الذي اسهم في مجهودات مؤلفي الموسوعات ، بتاليفه فيما الف : كتاب خزانة الأدب ، ولكن في القاهرة ، لافي بغداد .

* * *

أن الحدود الضيقة التي ارتضيتها للمقالة الراهنة . وايثار كاتبها للنثر الادبي الخالص ، فرضت استبعاد كل النشاط الديني والفلسفي والعلمي ؛ الذي كان اثاره عاصمة الخلافة ، والذي كان في القرنين الثالث والرابع خاصة على كثافة هائلة . وتاريخ بغداد للمحدث الخطيب البغدادي (م ٤٦٣ — ١٠٧١) المكرس مبدئيا لعلماء الدين الذين عاشوا فيها ينفح بذاته بوثائق واسعة لمن يريد ان يسطر بالتفصيل النشاط الفكري للعاصمة ، ويقيم مسردا بالمؤلفات النثرية التي كتبت . وبتواضع اكبر ، لقد حاولنا متابعة خط الذرى؛مسدلين ستار الصمت على المؤلفين الذين نعتبرهم ثانويين ، بهدف ابراز الأسماء الاشهر والألمع . وهناك اربعة مؤلفين جوهريين : الجاحظ في عهد الاعتزال ؛ وابن قتيبة اثناء عصر الاحياء (الرنيسانس) ، المسعودي في العهد الذي سماه لويس ماسينيون « العهد الاسماعيلي » ، واخيرا التوحيدي الذي ظهر في ايام البويهيين كاحد الرماة الاحرار واخيرا التوحيدي الذي ظهر في ايام البويهيين كاحد franc - tireur او المناضلين ، ورأى نفسه متهمة ؛ خطأ ولاشك ؛ بالزندقة ، ولا نكاد نجد في تاريخ عام للادب العربي ، اسماء لامعة كهذه الأسماء ، للفترة والانواع المعتبرة . وهذا يثبت بجلاء تفوق بغداد الفكري خلال الحقبة الزاهية للخلافة العباسية .

ومع ذلك هناك احتراز يفرض نفسه . ففي تقييمنا للأدب نحن ضحايا الزمن والناس الذين اتلفوا — عمدا او سهوا — جمهرة من المخطوطات . فان اختفاءها يحرمنا من مصطلحات مقارنة لا غنى عنها ، ويجعلنا نؤدي غرامة النقاد العرب ، ولكن من المحتمل ان هؤلاء الآخرين لم يكونوا متوهمين في حكمهم ، وانهم عرفوا الاعتراف بقيمة اعمال اجدادهم الذين استأهلوا الوصول الى الابناء . ينبغي فقط تمني ان يسمح اكتشاف المخطوطات الجديدة بتصليح بعض اخطاء المنظور ، وتوفير التكريم المستحق لكتاب ربما نسوا بدون حق .

- ٣٠ -

تيمورلنك في بغداد

بقلم

جان أوبان

لم تعد بغداد منذ الغزو المغولي عام ١٢٥٨ سوى عاصمة اقليمية . فليس من سفر للحجيج العراقي . وباحتفاظها بالمدارس التي بقي للتعليم الديني فيها بعض المنزلة ، ظلت بغداد مثوى للحياة العقلية . ولكونها مرحلة على الطريق بين الخليج العربي والقفقاس ، لبثت كما كانت ، رغم مساحتها الضيقة ونشاطها العمراني المتحلق حول الجانب الشرقي من دجلة ، مركزا اقتصاديا له اهمية نسبية .

ان الامراء الجلائريين ، الذين اقتطعوا لانفسهم ، بعد سقوط الايلخانيين ، مقاطعات ذات تركيب اصيل شمل اذربايجان وبلاد ما بين النهرين، فاتخذوا من بغداد عاصمتهم الصيفية ، استدرجوا الى تصورهم الادباء والفنانين . ولكن هذا الاشعاع الفني الوليد تبرد من جراء تدفق غزو جديد آت من آسيا الوسطى ، هو غزو جغطاي تيمورلنك .

في عام ١٣٩٢ شرع تيمورلنك بضم ايران الغربية ، وبالتالي ، الدولة الجلائرية . وكانت الحملة على بغداد تحمل طابع العبقرية العسكرية للقائد الكبير . فالجيش الجغطائي ، الذي عسكر في الهضاب العليا لغربي ايران تلقى في منتصف اغسطس الأمر بالتزود بالقطع الخشبية لعبور دجلة بوسائطه الخاصة . وقد اعطيت اشارة الرحيل في ٢١ اغسطس . وكان تيمورلنك يقود الطليعة بنفسه وبسرعة غاية في الخفة ، بحيث انه ، كما قال احد المؤرخين : « لم تستطع الخيالة الخفيفة اللحاق بغبار افراس الغارة له »(١) وان الكيلومترات المائة والاربعين الأخيرة التي طار بها تيمورلنك مرة واحدة(٢) جعلته يقف امام بغداد وجها لوجه في ٢٩ اغسطس ١٢٩٣(٣) في حين لم يكد يبدأ مناخ بلاد ما بين النهرين الصيفي المتهب بالانخفاض والتلطف .

لم يدع هذا الزحف الصاعق للعاهل الجلائري السلطان احمد الوقت الكافي لاتخاذ اي اجراء كان . ومع ذلك فان هدف الحملة ، الذي انحصر في القاء القبض عليه حيا او ميتا ، لم يتحقق ، فقد اشعره الحمام الزاجل في المشية السالفة بخطر وصول العدو ، وعبثا ارسل اليه تيمورلنك حماما آخر يحمل رسالة تصحيحية تعلن بأن سحب الغبار التي ظن الظانون ان الجيش التيموري قد اثارها ، لم تكن الا من آثار قطعان الماشية المتنقلة .

لقد انسحب السلطان احمد الى الساحل الايمن من دجلة وجر معه كافة السفن والزوارق التي لم يقدر لها ان تغرق . اما الجيش التيموري فلم يتوقف تحت اسوار بغداد . بل اخترق النهر فطوق الأسوار من اعلى النهر واسفله . وسحب تيمورلنك النهر على يخته الملكي الذي يدعى الشمس ، وقد جلب اليه من الضفة اليمنى . فأضاع عليه الذهاب والاياب بعض الوقت . فاعترف بعد ذلك لخلصائه بقوله : لو في اللحظة التي وصلت فيها اندفعت الى الماء واجتزت دجلة ، لكنت قبضت على السلطان احمد . ولكن بما انني توقفت ، فقد فاز بمهلة ، وبمضي الزمن الذي انفقه الجنود في العبور استطاع الابتعاد عنا مسافة »(٤) . وقد ثناه الامراء عن قيادة حملة لتعقبه بنفسه ، وفي حين كانوا

(١) نتنزي ، طهران ، ١٩٥٧ ، ص ٣٥٦ .

(٢) خوانمير ، حبيب السير ، ط خيام ، ٣ ، ص ٤٥٦ .

(٣) ٢٠ شوال ٧٩٥ ظفر نامه .

(٤) حافظ ابرو ـ زبدة التواريخ .

يطاردون السلطان أحمد الذي أفلت منهم بأعجوبة ، قفل تيمورلنك عائدا الى بغداد .

عامل تيمورلنك المدن العدوه التي ابدت مقاومة بشكل يختلف عن تلك التي استسلمت لرحمته طبقا للقواعد المحددة . اما قضية بغداد عام ١٣٩٣ نخاصة : لم تكن ثمة مقاومة ، بوانع هروب السلطان احمد ، ولكن فراره سبق وصول قوات الجغطاي بفترة قصيرة بحيث ان سراة بغداد لم يتوفر لهم الوقت الكافي لارسال وفد الى المعسكر التيموري لطلب الغفران وطرح اقتراح افتداء انفسهم .

ان نظام الدين الشامي ، الذي كان اول من خرج من المدينة ذاهبا لتحية تيمورلنك ، راى دجلة مغطاة بالرجال اللذين كانوا يعبرون الى الجانب الايمن . وشاهد العيان هذا ، الذي دبج غب ذلك بسنوات معدودات اول تاريخ رسمي لحملات الرجل الكبير ، المسمى ظفر نامه . لم يشر الى ماهية التقارير الدقيقة للسلطات المحلية ولا الى كنه القيادة الجغطائية .

وهناك شاهد آخر ، هو عزيز الاسترابادي ، الذي احتمى بالنجف ، اذ يروي ان الجنود اوثقوا بالاغلال كل من وجدوا من الرجال وعذبوهم ، وجروا الفتيات اليافعات الى حانات عربدتهم واعتدوا على عفافهن ، وحطموا ثريات المساجد وعلقوا بها الائمة ، وثلوا المحاريب ، واحرقوا المنائر ، وربطوا خيولهم في المدارس ، ومشاهد الاغتصابات الجنسية التي تشير اليها مصادر اخرى[5] لابد من حدوث اشباهها في اماكن اخرى من العراق ، التي وطئتها اقدام عصابات جغطائي بحثا عن الغنائم والنقود ، وفي الضواحي خارج اسوار بغداد .

وبينما كانت هذه العصابات تعيث فسادا في ارجاء القطر » كان اهالي بغداد ، ضنا بحياتهم وبحياة اولادهم ، قد رضوا بتأدية فدية للمساهمة في نفقات الجيش التيموري » . وقد فرضت هذه الاتاوة بسلطة مسؤول . وفي المدن الاخرى التي جبى فديتها تيمورلنك ، لم تدخل الى قلب الاسوار الا بعض الفصائل المكلفة بحماية جباة النقود ومساعديهم ، وظلت ابواب المدينة مقفلة بعناية واحتراس لاجتناب ويلات نهب الاموال على ايدي الجنود الاشرار . اما عن حالة بغداد في عام ١٣٩٣، فرغم وصفها الشاذ الذي يعكسه تشوش المصادر حول هذه النقطة ، يوسعنا أن نتصور أن سكان المدينة القابعين داخل الاسوار كانوا محميين ، بصورة نسبيه على الاقل ، من التماس المباشر مع القوات المسلحة . على ان هذا الواقع لم يخل من شرور التصرفات الهمجية التي انصبت على رؤوس الذين اخفوا اموالهم ، او الذين حامت حولهم الظنون . مكث تيمورلنك شهرين في بغداد ، وقال ابن عرب شاه ، الذي صنف كتابا موتورا عنه ، انه امضى اياما لذيذة في السرادقات المقامة على ضفاف دجلة . وعلى اقل تقدير فان هذه المباهج والمتع كانت محفوفة بالحشمة والوقار . فقد اريق المخزون من خمور الموصل وخمور ديار بكر التي اكتشفت في مذاخر السلطان احمد في دجلة .

ويروي الرواة ان الاسماك الثملة طفت بطونها مواجهة الهواء ، كتلك الاسماك التي هلكت ، والتي اخذ الجنود يصيدونها بسهولة . وقد امر تيمورلنك اثناء اقامته بترميم مرقد الامام احمد بن حنبل ، الذي اضرت به فيضانات دجلة .

غادر تيمورلنك بغداد في الرابع والعشرين من ذي الحجة ٧٩٥ — ٣١ تشرين الاول ١٣٩٣[6] مصطحبا معه الادباء والفنانين الذين زانوا البلاط الجلائري مع عدد من اسرى الحرب واسيراتها ، الذين ما لبثوا ان بيعوا بصفة عبيد . وقد اثار التوقف الطويل للجيش التيموري ، الذي عاش في القطر ، القحط في بغداد بعد رحيله . وكان تيمورلنك قد ترك في بغداد حاكما خراسانيا ، هو الخواجه مسعود السبزواري ، الذي كان خبيرا بشؤون الاقاليم العربية ، اذ سبق له ان تولى في آذار ١٣٩٣ ادارة ولاية شستر . ويمتدح نظام الدين الشامي طبعه الدمث الكريم ، فيقول : « لقد عكف على اسعاد من بقي من السكان » و « بذل كل ما في مقدوره لتكريم العلماء واعالة الفقراء، ولم يغفل لحظة واحدة عن القيام بالتصدق على المعوزين » .

ويقال ان اغلاق بيوت الدعارة ، الذي طبق في ولايات تيمورلنك رغم الخسائر التي نجمت عنه بالنسبة للخزانة العامة ، في تاريخ ، او في تواريخ متلاحقة وفي ظروف غير معروفة لدينا ، قد اصاب باضراره فيما اصاب بيوت سوق السلطان في بغداد ، ومن حقنا ان نتصور ان الاجراء طبق بعد رحيل الجيش ، في عهد ادارة الخواجة مسعود السبزواري .. لقد كان الخواجة مسعود

(٥) العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ و ٢١٣ — وتاريخ الغياثي .

(٦) حبيب السير .

السبزواري ، ابن اخت الرئيس الاخير للسربدارية ووارثه ، وهم الذين اسسوا دولتهم المعروفة في سبزوار ، في خراسان . وحين هددهم تطرف الطبقات الشعبية ، انضم زعماء السربدارية بحماس الى تيمورلنك ، الذي كانت معتقداته تغذيها ، قبل كل شيء ، المحافظة الدينية والاجتماعية . وعلى ذلك فينبغي ان نحترس فلا نعزو لتعيين اي حاكم في بغداد مغزى دينيا . وكل ما نستطيع ان نتصوره ان اختيار شخصية مخلصة للسلطة التيمورية املاه الحرص على تفادي تغشي اندفاعات الحمية التي كانت كامنة في الاوساط المتطرفة العراقية . وتعيين الخواجة مسعود السبزواري يثبت ، من جهته اخرى ، ان تيمورلنك كان ينوي توطيد سلطته بشكل دائم في العراق العربي . وهي النية التي تشير اليها بوضوح اعمال التقوية لاسوار بغداد وخنادقها ، التي عمل على تحقيقها الخواجة مسعود .

لم تسمح الثلاثة الاف من السربدارية من « جيش سبزوار » للخواجة مسعود بالدفاع عن بغداد ضد عودة هجومية جلائرية . ففي خريف عام ١٣٩٤ ارغم على الانسحاب صوب ششتر ، في حين كان السلطان احمد يدخل بغداد ، حيث استانف عاداته من المرح واللهو والتذبذب . وفي عام ٨٠٠ ــ ١٣٩٧ــ٨ جمعت مؤامرة طبخت لقتله يقال ان تيمورلنك اوحى بها ــ كل سراة القوم ضده ، من الامراء الى بعض سيدات الحريم . فحطم المؤامرة بحيلة ، وقتل بيده عدة متآمرين ، تاركا بغداد خفية ، ماضيا الى طلب العون من زعيم التركمان قره قوينلو ، قره يوسف .

وكان سكان بغداد يجهلون الأحابيل التي تحاك وراء ابواب القصر المقفلة ، فلم يعملوا بغياب العاهل الا في لحظة ظهور تركمان قره يوسف على الساحل الايسر من دجلة . وقد اسال لعابهم مشاهد السلب والنهب . فرفض السلطان احمد بغتة اعطاء السفن الضرورية لاجتياز النهر ، وابعدهم في الختام بهدايا باهظة ، من النقوش والمنسوجات والخيول والنفائس الاخرى .

ويقال ان السلطان احمد عمل آنئذ بنجاح على استعادة شعبيته لدى رعاياه . وفي صيف ٨٠٠ ــ ١٣٩٨ هبط ميران شاه ، ابن تيمورلنك ، الذي كان يحكم في اذربايجان ، وقد اصيب منذ فترة قصيرة باضطرابات عقلية ، على بغداد في حماره القيظ اللاهبة ، دون الاصاخة بسمعة الى نصائح مستشاريه . اما السلطان احمد ، فلوثوقه بالمناخ ظل ساكنا خلف اسوار ــ بغداد . وبعد وصول ميران شاه بيومين استدعي الى تبريز لنشوب قلاقل مهددة له . وفي عام ١٤٠٠ ، وقد علم بنزول تيمورلنك في الاناضول الشرقي ، هجر السلطان احمد بغداد ولكنه جرؤ على الظهور فيها مرة اخرى مدى بضعة ايام في الشتاء التالي ، في حين كان الغازي مشغولا في سورية ، ثم عهد بالمدينة الى احد ضباطه الامير فرج، فالتجأ الى الاقليم العثماني .

في مايس ١٤٠١ ارسل تيمور لنك الذي كان في الموصل ــ تشكيلة مؤلفة من خمسة آلاف رجل ليحمل البغداديين على تادية نفقات الحرب . ولكن خلاف كل توقع اصطدم الجغطاي بالتركمان على الجانب الايسر من دجلة ، وقد تضخم عددهم بالبدو الذين دعاهم فرج لنجدته . وقد اقام هذا جسرا من الزوارق لقذف الامدادات على مؤخرة الجيش . حمل الجغطاي على البدو فبددوا شملهم ونزلوا تحت اسوار بغداد تعوزهم الوسائل لتقويضها او تسلقها . فهبط تيمورلنك بشخصه ، من جهة التين كوبري «التون كوبري ؟» ، صوب بغداد التي حاصرها من جهة الشرق ، في حين شرعت قوات بعهدة ميران شاه بتمشيط الجانب الغربي من دجلة . وكانت عملية خطرة حيث عشرات الالوف من الرجال ، في موسم الحرارة المحرقة ، يحلون في سهل بغداد . وعلى ذلك فلم يجلب تيمور لنك الا الحد الادنى من القوات تاركا جماع جيشه مخيما في مخارم كردستان .

لقد انخدع فرج بضآلة عدد المحاصرين ، فابى الاعتقاد بوجود خصمه المرعب بينهم . وقد اضطر تيمور لنك حيال المقاومة التي واجهها ، الى استدعاء قواته الاحتياطية ، فتم له بذلك اكتساح بغداد اكتساحا تاما . دام الحصار قرابة اربعين يوما . ويؤكد كتاب ظفرنامة ان تيمورلنك رفع الحصار عدة مرات على استسلام المدينة والحفاظ على محاسنها . ذلك الحصار الذي طلبه ضباطه . وفي المدينة التي عمها القحط هربت جموع من الجنود والسكان الذين انحدروا من اعالي الاسوار . ثم اعلن

الهجوم اخيرا في ٢٧ ذي القعدة ٨٠٣/ـ ٩ تموز ١٤٠١ ، عند الظهيرة . ونصب جسرا للقوارب في اعلى دجلة مزودة برماة قطعوا طريق النهر على من تسول لهم انفسهم محاولة الهرب مع مجرى الشط وروقبت ضفاف المدينة من الجانبين . فذبح كل الناس المقيمين في بغداد ، ومن ضمنهم الاطفال ،مع سبق الاصرار . وفرض على كل جندي ان يقدم راسا الى المكاتب التي يقوم على حساباتها ضباط . فارتفعت اثر ذلك ابراج من الرؤوس المقطوعة في مختلف ارجاء المدينة . واختلف تقدير عدد الضحايا باختلاف المصادر . وعلى كل حال قدرت قرابين المجزرة بعشرات الألوف . اما الذين نجوا ، وهم قلة في تقدير ظفر نامة ـ واحد من مائة تقريبا ـ فقد بيعوا بصفة عبيد . ولم يستثن منهم الا الفقهاء والشيوخ والدراويش الذين افلحوا في الوصول الى سرادق تيمورلنك . فوزعت عليهم الاقوات والملابس ، وارسلوا الى مكان امين .

ترك الجيش بغداد ، بعد ان اصبحت مدافن ، حوالي ١٥ تموز ، قاصدا مراعي كردستان المرعة . وعلى نقيض ما حدث عام ١٣٩٣ ، لم يمكث اي احد من ممثلي السلطة التيمورية في موضعه ، اذ لا جدوى في ذلك . وتذكر التواريخ ان تيمورلنك ساوى الاسوار بالارض ، اما الممارات ذات المنفعة العامة والاسواق والبيوت والمشيدات ذات الطابع الديني ، كالمساجد والمدارس والخانقات ، فقد استثنيت لوحدها .

وهناك كما في كل مكان آخر حدثت فيه امثال هذه التخريبات لم يوفر شيء الا بتحفظ . فلم يكن للجيش التيموري في بغداد الوقت ولا الوسائل التقنية لتدمير مدينة من المدن ذات اهمية متوسطة ومواقع دفاعية تمتد الى عدة كيلومترات . وقد تأيد علاوة على ذلك ، خلال القرن الخامس عشر برمته ، ان الاسوار حمت الأهالي المتجمعين في موقع بغداد من غارات البداة الشعواء .

وبتشبث ليس له من نظير الاتهاونه ، عاد السلطان احمد الى بغداد فور انقشاع الغمة . فوصل اليها في مستهل عام ١٤٠٢ ، وحاول انهاض القطر من كبوته . فارسلت لحربه تشكيلة من الجغطاي على وجه السرعة مخترقة بعناء ومشقة كردستان المغطى بالثلوج واثبتت وجودها على الفور امام المدينة . فانهزم السلطان احمد بقميصه . وعاد بعد ذلك بعدة اشهر الى عاصمته مصحوبا بقره يوسف وكان قد طرد منها على يد هذا الاخير ، الذي تمسك ببغداد حتى وصول احد احفاد تيمورلنك ، ابي بكر بن ميران شاه ،وذلك في خريف ١٤٠٢ .

ما كاد تيمورلنك يلفظ انفاسه عام ١٤٠٥ حتى اخذت الولايات التي اقتطعها لاحفاده في غربي ايران بالانهيار . فاغتنم السلطان احمد الفرصة لاحتلال بغداد مرة اخرى واعاده تشييد اسوارها . وخلال السنوات المعدودات لاستئناف الحكم الجلائري كانت بغداد بؤرة للمؤامرات ضد العاهل الخامل المنهمك بالملاهي والملذات . ففي عام ١٤١٠ نفذ فيه عملية الاعدام صاحبه القديم قره يوسف ... في تبريز ، ومنح العراق العربي لولده شمس محمد . فصمد الاتباع الجلائريون بعض الاشهر في بغداد التي حاصرتها قوات قره-قوينلو . واخيرا اخترقها شمس محمد في الخامس من محرم ٨١٤ ـ ٢٩ نيسان ١٤١١ . فنهب رجاله المدينة طوال يوم كامل .

هكذا بدات الفترة التركمانية من تاريخ بغداد ، التي قدر لها ان تدوم حتى الاحتلال العثماني عام ١٥٣٥ ، والتي كانت بالنسبة لعاصمة العالم الاسلامي فترة اندثار . وفي عهود حكم امراء اصدقاء الفنون والآداب واداريين مستنيرين ، استطاعت بغداد ان تنفض غبار الذل عن نفسها بعض الشيء ، وان تصحو من هول صدمة احتلال الجغطاي المضاعف . وكانت الفترة التركمانية . بمجموعها غير مؤاتية للحياة العمرانية ، وزاد الموقف المخوف من جراء الغزوات التيمورية تفاقما على تفاقم .

وبحكم كون بغداد مدينة صغرى واقعة على منأى من الطرق الحيوية ومتروكة لصغار البيوتات الحاكمة او المقامات التي ينكر سلطتها المنكرون ، قدر لها ان تعيش خاملة . وبصف المقريزي وضعها عام ١٤٣٧/٨٤١ فيقول ان بغداد خربة . فليس ثمة من مسجد ولا من مصلين ولا من اذان ولا من سوق . جف فيها معظم النخيل ، وتعطلت القنوات ، فلا تستطيع تسميتها مدينة .

- ٤ -

العلوم والفلسفة في حضارة بغداد

أيام العباسيين الاولى

بقلم

روجيه ارنالديز

حين عزم الخليفة المنصور على تأسيس بغداد، جمع الفلكيين والاطباء والمساحين والمهندسين . لدراسة الموقع والمناخ . لعمل كشوف . لاستخراج طوالع . لاعداد مخطط . لتقرير انسب لحظة للبدء بالأعمال ، اذن لقد ولدت عاصمة الخلافة العباسية تحت رعاية العلماء وعنايتهم ؛ وربما ينبغي ان نرى في هذه علامة على الدور الذي ستلعبه في تنامي العلوم والفنون والفلسفة . ولكن اذا كانت العلوم ، كشأن السلطان القوامة ، قد ترأست المشروع وتزعمت بناء بغداد ، فذلك لسبق وجودها. يذكر اليعقوبي ضمن هؤلاء العلماء الفزاري والنوبختي وما شاء الله والطبري . الاول حسبما يروي سوتر Suter ، هو ابراهيم بن حبيب بن سليمان بن سامور بن جندب ابي اسحق، اول مسلم صنع الاسطرلاب السطحي او المسطح ، وكان كتب عدة كتب لها مساس بالات الوزن والقياس والحساب ، وعن الاسطرلاب وعن مواقع الافلاك ، وتعيين الظهيرة الحقيقية (الزوال) والثاني كان فارسيا ، منجما للخليفة المنصور . وكان ماشاء الله يهوديا ؛ وقد صنف عدة كتب في التنجيم . والمذكور الأخير هو عمر بن الفروخان ابو حفص الطبري ، الفلكي المنجم ، شارح المقالات الاربع لبطليموس ومترجم كتب فارسية .

اما الجغرافيون الذين اتوا على بغداد ، ولا سيما المقدسي واليعقوبي ، فلا ينضب لهم معين. فالموقع مختار منذ الازل ، وقد كشف عنه القناع للرسول . والهواء كان نقيا وصحيا ؛ والأرض خصبة ، وطقوس مختلف الفصول متوازنة . وكان سكانه ذوي عقول راجحة ؛ مشغوفين بالعلوم وبضروب المحاكمات العقلية . اما الطرق البرية والنهرية فكانت تتلاقى حول هذا المركز ، فالموقع سرة الدنيا ، تجلب اليه كل الثروات المادية والروحية من جميع ارجاء العالم .

واذا اخذنا بنظر الاعتبار فخامة الاسلوب الشرقي فيظل صحيحا ان بغداد كانت في غاية حسن الموقع لاستقبال وجمع تأثيرات مختلف الأقطار المتمدنة ولقطف ثمار الحضارة اليونانية ـ الاسكندرية مع ثمار الحضارة الفارسية او الهندية بل حتى الصينية . وقد استطاع مايرهوف ان يرسم المسار الذي هاجرت بموجبه الثقافة الهلينية والرومانية من الاسكندرية الى بغداد ، ونحن نعلم ، من جهة اخرى ؛ كيف جعل تأسيس اكاديمية العلوم على يد المأمون من بغداد وريثة لمدرسة جنديسابور حيث النسطوريون ، المطرودون من الرها في القرن الخامس ، ثم فلاسفة مدرسة اثينا ، التي اغلقها جوستنيان عام ٥٢٥ ، كيف تواجد هؤلاء مجتمعين بعلماء قدموا من فارس والهند . وصحيح ان في بوتقة بغداد تألفت ، بالاخصاب المتبادل ، معارف من جميع الشعوب ، هي علم جديد أصبح الينبوع الرئيسي لعلمنا الغربي .

ولكنا لم نأخذ على عاتقنا معالجة فصل من فصول تاريخ العلوم والفلسفة الذي ، بكونه تاريخ تسلسل ونقل المذاهب، والاكتشافات والاختراعات، سيفتح منظورات واسعة عبر الأزمنة وسيهمل السند القوي للأحداث الخاصة وبالتالي المحلية .

وبالعلاقة مع بغداد ، وهي مدينة اسلامية ، وعاصمة الخلافات المنغمسه في مشاكل الملل والنحل والانتماء

القومي المحدد كل التحديد ، سنفحص الافكـار العلمية والفلسفية .

لا يجهل احد ان العباسيين ، بسبب ظـروف دعايتهم ، وكذلك بعلة المحالفات التي مهدت لمجيئهم الى الحكم ، قد استداروا صوب البلدان المفتوحة وانسجموا مع اساليب تفكير ، انتشرت بتأثير التنازع العلوية بين الفـرق الاخرى . فالتاريخ يعلمنـا كم كان دقيقا وعويصا موقف خلفاء بغداد في مواجهة المشاغبين او المدعين المتطرفين الذين كانوا يتظاهرون بلا انقطاع تقريبا . ولم تكن سياسة الخلفاء تجاههم بمجموعها حازمة ولا محددة : فهناك اجـراءات متشددة ، لا تتخذ الا في انسب الحالات ولكنهـا لا تصل الى حد النصر النهائي ، ويتلوها محـاولات للتوفيق تذهب بعيدا في بعض الأحيان . ذلك لأن الخلفاء في الحقيقة تواجدوا وجها لوجه مع قوة ثابتة للمعارضة ، هي قوة القومية اللاعربية التي تزيت بأزياء دينية وفلسفية .

وقد استطعنا ان نلاحظ مثلا ان بعض الاطباء في القرن السابع والثامن ، كانوا من غير المسلمين . وقد ازداد عدد المسلمين من ممتهني الطب خـلال القرن التاسع واصبحوا الاكثرية في القرن العاشر . ويمكن تعميم هذه الملاحظة بسهولة على النشاط العلمي كله .

الواقع ان العرب جلبوا كنزا كان يمثـل في اعينهم كل شيء : لغتهم ، تلك اللغة التي انزل فيهـا القرآن ، الوحي الحاسم ، وهم على شعور تام بهذه القيمة ، وقد نجحوا في اقناع الشعوب التي استولوا عليها بهذا الامر . ولكن هذه اللغة ، التي اختارها وامتدحها المفكرون غير المسلمين ، كاكمل لغـة واوفاها بالتعبير عن الأفكار العلمية والفلسـفية الكبرى ، لم تكن الا جزئيا اللغة القرآنية . فقـد اتقنت وعمقت ومططت بصنع المترجمين ، وكانـت تحمل في ذاتها طابع مختلف الحضارات التي ارتبطت بها المؤلفات المترجمة . وقد اصبحت اللغة التـي بواسطتها استطاعت شعوب متميزة الانفتاح علـى بعضها والتفاهم والتوصل والتجمع . واستطاعت لعب دور اللغة الاغريقية في العصر الاسـكندري ؛ ولكن بشكل اتقن وعلى مقياس اوسع بكثير . فـان فكرة يعبر عنها بالعربية ، مهما كان اصلها ، تصبح ميسورة التناول مباشرة لجمع كبير من الناس ، من اصول وتقاليد مختلفة ، وتسير جنبا الى جنب عالمية « العلم العربي » وعالمية اللغة العربية .

مما لا شك فيه مبدئيا ان هذه اللغة العربية المحدثة آنئذ لم تكن بصورة اساسية لغة اخرى غير لغة القرآن العربية ، ولكن بالتحديد هذا هو مـا اوقع الدراما . لو كان ثمة ازدواجية واضحة فان النصوص المنزلة ستصير محمية ومحفوظة في امان بالطابع الخاص للغة خاصة . ولكن عربية العلمـاء والفلاسفة كانت ، بالقياس الى عربية القـرآن ، مشابهة كل التشابه ، ومتباينة كل التباين . فلـم يمكن تجنب جر قارىء الكتاب المقدس الى تداعيات افكار وطرق تفكير لم تكن قرآنية . لقد اتاحـت تفسيرات تتعارض مع السنة لبعض الفئات ، نوعا من التشبث بافكار غير اسـلامية . والخلفاء ، المدفوعـون بالعقيـدة الخالصة والشعائر الدينيـة الصحيحة ، ليس لهم الا ان يحولوا دون هذا الغزو الوبيل . ولكنهم لم يعودوا يستطيعون ، لو فرضنا انهم ارادوا . لقد كانت الحركة بالغة السرعة ، بالغة العنف . والسياسة « الثقافية » لهذه الفترة ، حتى التدخل الحازم للاتراك ، يصادف نفس المشـاكل الدقيقة وذات الصعاب كالسياسة تجاه العلويين . كان هناك بالنسبة للخلفاء العباسيين حد ادنى يجب انقاذه . كان ينبغي اخلاء مكان ، كبر او صغـر ، ولكنه كاف ، للروح الجديدة . ولنلاحظ من جهة اخرى ان المع اللامعين من بينهم قاموا بهذه المساومات تلقائيا وبطيبة خاطر . كحالة المأمون . ولكن المنصور قبله كان كلف ابا يحيى بن البطريق بترجمة كتب قديمة ، مؤلفات ابو قراط وجالينوس ، وترجـم محمد بن ابراهيم الفزاري ، ابن باني الاسطرلابات المذكور آنفا ، كتابا من الهندية الى العربية هـو السد هانتا ، الذي ظل طويلا يستعمل كاساس لاقامة الزيج ، بالتعاون مع التراجم العربيـة للأزيـاج الفارسية المؤلفة بالفهلوية ايام الساسانيين . وفضلا عن ذلك ، لم يكن الخلفاء وحدهم الذين اهتموا بهذا بهذا العمل وشملوه برعايتهم ، ولكن حذا حذوهم كبار القادة من حاشيتهم مثل : الفضل بن سـهل السرخسي ، وزير المأمون ، فقد كان من اوائـل الفلكيين في عصره وكان ، مع يحيى بن خالد البرمكي ، صديق هذا المترجم العالم ، الطبري ، الذي سبق ان ذكرناه ، كان في خدمته ابو علي يحيى بن ابـي منصور ، وابو عثمان سهل بن بشر بن هاني .

كان هناك عهد كامل مكرس للتراجم توزع على فترات . كان هائلا عدد المترجمين : يؤسفنا القول ان بعض العلماء والفلكيين والمهندسين والرياضيين والأطباء الذين لم يكونوا عربا اقحاحا والذين كانوا غير مسلمين يعرفون لغات اخرى غير العربيـة ، وكانوا يترجمون لانفسهم او لاحد المحسنين . ولكن هذه التراجم لم تكن كلها ذات قيمة واحدة . فالتراجم الاولى من حيث الزمان كانت مشحونة بالاغلاط او

غامضة لحرفيتها ، أو لضعف في التفهم ، وكذلك لأن اللغة العربية لم تكن بالغة المرونة آنذاك ولم توهب مصطلحات تقنية كافية . ولهذا رأينا اجراء مراجعات للتراجم المشغولة سالفا ، وذلك لتقويمها وتحسينها حتى يقر المترجمون الكبار بصلاحها بعد مراجعتها .

لقد كان بنو موسى ثلاثة اخوة ، محمد واحمد وحسن . وكلهم علماء متميزون في الفلك والميكانيكا والهندسة . وكانت لهم علاقات وثيقة مع مشاهير المترجمين : حنين بن اسحق ، المولود في الحيرة عام ١٩٤ ــ ٨٠٩ ، المتوفى في بغداد عام ٢٦٠ ــ ٨٧٣ ، وابن اخته او اخيه حبيش بن الحسن وثابت بن قرة ، الصابئي من حران . وشجع بنو موسى هؤلاء مشاريع الترجمة وساندوها . ولاجلهم قام حنين برحلات الى الاقطار الرومية لجمع كتب قديمة : ونحن مع هذه الجماعة ، في اوج الفترة المزدهرة بالتراجم : لقد ادخل كل هؤلاء تحسينات على جهود اسلافهم : هكذا راجع حنين ترجمة ارسطو ليحيى بن البطريق ، وترجمة مقالات بطليموس الاربع (رابوعات) لابراهيم بن الصلت ، في حين يذهب ابن ابي اصيبعة الى ان ثابت بن قره راجع ترجمة اوقليدس التي صنعها الحجاج (وطبقا لقول سوتر صنعها اسحق بن حنين) . ولكن التراجم لم تستعمل ابدا دون نقد ، وسنرى الفلاسفة الكبار يغيرون هذا التصحيح او ذاك في النصوص العربية لكتاب ارسطو في الطبيعة ، حيث يصحح ابن رشد غالبا تفاصيل في نص قسطا بن لوقا ، المسيحي من بغداد (المتوفى حوالي عام ٣٠٠ ــ ٩١٢) وكان مترجما ذائع الصيت وفيلسوفا وفلكيا ورياضيا وطبيبا ، في آن واحد .

ينبغي التوقف ازاء هذا العمل الضخم الذي صنع من اللغة العربية لغة فلسفة وعلم . وبالنزر القليل الذي قلناه تلحظون ان هذا العمل نفذ بعناية فائقة ومواظبة هائلة وحماس متقد . ولكن ماذا كانت النتيجة من وجهة نظر الفلسفة والعلم ؟ لا نستطيع الدخول في بحث عن اعداد مكتسبات الفلسفة والعلم العربيين ، فنحن منهمكون في تفهم وضع ، وليس في تمداد مذاهب وتحليلها . عندما نستعرض تاريخ الاسلام نوشك ان نقع ضحية وهم استذكاري استعادي Rétrospective مسؤول عنه ولا شك مؤرخو البدع المتاخرون بعض التاخر : نحن نفكر بالسنة الاصيلة المؤسسة أقوى تاسيس منذ البداية والتي تدور حولها الفرق ، من القريبين من العقيدة البدائية حتى اضل المعتقدات

ولكن بالنسبة للمسلمين الذين عاشوا فترات الاضطرابات التي تلت الفتنة ، لم يكن وضع الاسلام ومن بعيد ، واضح الملامح . لقد تحدد التمسك بالسنة لديهم شيئا فشيئا ، عبر معارك سياسية واجتماعية ودينية عديدة . وحتى حين كان ابو الحسن الاشعري يضع اسس السنة في مطلع القرن العاشر ، كانت الخلافات متصلة ، ليس بشكل هجمات خارجية آتية من الهراطقة المطرودين من جماعة الايمان . وانما على هيئة حركات متولدة من داخل اسلام كان يصارع ويكافح . واولئك الذين نرى فيهم حراسا اغيارا للغاية على السنة الصميمة الراسخة ، الذين انطلاقا من القرن التاسع وجدوا تعبيرهم في المذهب الحنبلي ، كانوا يؤلفون معارضة صغرى رغم كونها نشيطة جدا . وبالنسبة لهم لا توجد تعاليم مشروعة الا التعاليم التي جاء بها القرآن او التي ترشحت من العلوم القرآنية . وقد استنكروا كل الاستنكار ، لا الفلسفة والعلوم ذات الأصل الاجنبي والانساني فحسب ، وانما اضافوا الى ذلك استنكار كل لاهوت وكل اخلاقيات متاثرة بتاملات الكفار . ولكن تصلب موقفهم نفسه ومطاليبهم حالت دون اقتداء الجماهير بهم : كما هي حالة الكثرة من المذهبيين ، فلم يستطيعوا العيش الا في حرم المعارضة .

وفيما عدا المذهب الحنبلي ، الذي كان بمقدوره تثبيت العقول لولا انه كان على درجة من العسر بحيث يصعب اتباعه ولا سيما تعميمه ، ينبغي أن نعترف ان حيرة عظمى سادت فتركت جميع الذين كانوا قادرين على الاطمئنان واليقين في ارتباك من امرهم . وتسيب الحياة الاخلاقية وانحطاط العادات ، والشواهد عليهما كثيرة ، كان لها اسباب عديدة . ولكن اضطراب العقيدة يعتبر من اهم الاضطرابات ، فالشاعر مطيع بن اياس ، الذي عاش في كنف الخلافة العباسية ، يظهر عبر الاخبار التي يرويها عنه كتاب الأغاني ، كانموذج من الرجال الذين يحبون الفضيحة والتجديف. فقد اتهم بالزندقة ، والملحدون من شاكلته ، ولو قامت القيامة ضدهم ، كانوا حينئذ عديدين ، وقضايا ابي نؤاس معروفة كثيرا فلا حاجة للنص عليها . ومن طراز مختلف ، هناك شاعر آخر هو ابو العتاهية ، الذي يهبنا شهادة هي كذلك مثيرة . انه صناجة اليأس والموت . ويروي كتاب الأغاني ان بعض معاصريه عزوه الى فريق الفلاسفة الذين لا يؤمنون بالنشور ، ذلك لأن اشعاره لا تتحدث الا عن الخراب والفناء :

للوا للموت وابنوا للخراب
فكلكمو يصير الى التراب

اما مذهبه الصوفي فمستوحى من خيبة الأمل ، والباريء بالنسبة له هو الموت وليس الحياة :

سكن يبقى له سكن
ما بهذا يؤذن الزمن
نحن في دار يخبرنا
ببلاها ناطق لسن
دار سوء لم يدم فرح
لامرىء فيها ولا حزن
في سبيل الله انفسنا
كلنا بالموت مرتهن
كل نفس عند ميتها
حظها من مالها الكفن
ان مال المرء ليس له
منه الا ذكره الحسن

* * *

الا كلنا بائد
واي بني آدم خالد ؟
وبدؤهم كان من ربهم
وكل الى ربه عائد
فياعجبا كيف يعصى الاله (م)
ام كيف يجحده الجاحد ؟
وفي كل شيء له آية
تدل على انه واحد

* * *

حسبك مما تبتغيه القوت
ما اكثر القوت لمن يموت

* * *

الناس في غفلاتهم
ورحى المنية تطحن

* * *

وقد تمثل التدهور الاخلاقي في تلك الحقبة بعبادة رومنسية للظرف . ففي معظم الأحيان تكون القضية قضية سحر موسيقي ولحن عذب ، كما هي الحالة لدى الشاعر ابن الاحنف . ولكن يلوح ان في الاوساط المترخصة كان الباحثون يفتشون عن استثارات اعنف واكثر افتعالا . وبوسعنا تخمين هذا عبر الشعر الغزلي لامثال ابي نؤاس ، حيث الخمرة بنشوتها ، تقارن بالمراة . ودليل آخر على الخلق المريض لهذه الانحلالات الخيالية تزودنا بها قصة جعفر المحزنة ، ابن الخليفة المنصور الذي ، حسب رواية كتاب الاغاني ، اتخذ مطيع بن اياس المتهتك نديما له . وقد وقع لهذا ان احب حبا مذهلا امراة من الجن ، وبذل كل ما في طوقه لتزوجها عن طريق ممارسة السحر . ورافق هذا الاضطراب العقلي ازمات صرع زاد تكرارها الحالة سوءا على سوء حتى ادى الى وفاة المصاب بها . في احوال كهذه ، كيف جرى تقديم العلوم والحكمة الآتية من اليونان او من الهند ؟ ليس في الاجابة غموض : لقد جلبت اليقين والطمانينة الى عالم مهدد بالرحيل الى المجهول .

ولكن ربما شعر الناس بهذه الطمانينة بشكل مختلف فبالنسبة لهؤلاء ، هي مسالة تهدئة الهواجس الوقتية صرفا ، وكانوا يؤلفون الأكثرية الكاثرة ، حتى بين الرجال المتعلمين والشخصيات الكبيرة . وهذا توضيح لوجهة هذه العلوم التي مع شمولها للعناصر التجريبية ظلت « علوما خفية » قريبة من علوم السحر والتنجيم : التنجيم القضائي، علم الطلاسم ، نوع طبي تجريبي ، السيمياء باشكالها السوقية . كانت في ممارستها تتعارض بصورة مباشرة مع روح الاسلام . وقد شهر بها « السحر » الفقهاء بوصفها من « العلوم المذمومة » تحت اسماء عامة السحر « السحر » ونفهم منه السحر الاسود ، الطلاسم ـ الموجودة مع ذلك حتى في تصنيف العلوم لابن سينا علم الشعبدة » . كل هذه الممارسات كان لها الصدارة ، والجزء الاعظم من السبب يكمن في ازدياد انتشار الخرافة كلما تفكك المجتمع . ولكن هذه الممارسات وجدت متجاوبين معها لدى الاقدمين ولا سيما في ماثورات اهل حران . ومع ذلك فان معارضة الفقهاء ما لبثت ان وجدت حلفاء لها بين الفلاسفة والعلماء انفسهم .

هناك آخرون انتظروا من الفلاسفة والعلم يقينيات ارفع ونظريات جديدة او ما نسميه نحن اليوم Weltanschauung جديرة بتوجيه الناس ، ان في حياتهم المادية والاخلاقية الفردية ، وان في حياتهم الاجتماعية والسياسية . وبرز الفكر الاغريقي بوحدة العالم الاعتقاد الاساسي بنظرية اتصال وثيق بين العالم الاكبر (الكون) والعالم الاصغر .

الانسان في ائتلاف يجمع بين كافة اجزاء العالم . ونتج عن هذا ايضا الاقتناع الفلسفي بوحدة العلوم ، ومعنى ذلك ، في التحليل الأخير ، الاقتناع بقيمة النظام الوحيد للمبادىء المطبقة على العالم

باسره . وهذا ما يفسر قدرة التاملات التنجيميه على اجتذاب علماء اقحاح : قضية التنجيم هـي ، في الواقع قضية تواصل شامل بين الكائنات . وعلى صعيد آخر . ولكن بنفس الروح . ما يفسر ما نلاحظه في كتابات المدونة الجابرية، من الرابطة الوثيقة التي وجدت بالنسبة لمفكري هذه الحقبة ، بين التنجيم والسيمياء والطب : كل شيء يقوم في كل مكان على نفس النظام في تاليف الصفات الأولى : البرد والحر ، الجفاف والرطوبة . ومن هذه الأمشاج المختلفة تخرج العناصر ، ثم الاجسام الكيميائية المحمولـة على الكواكب ، واخلاط الجسم ، التي تحصـل الصحة ويحدث المرض من توازنها وفقدان توازنها . والاخلاط البسيطة التي هي في اساس العقاقير ، نعطى نفس التركيب ، وكذلك الاغذية والسموم . والطقوس والظواهر النوئية بدورها تجيب علـى نفس النظام . ولذلك فان العالم باسره ، من كواكب الى حيوانات ونباتات ومياه معدنية وخاصية الاراضي والمياه والهواء ، كلها يمكن ان تمديد المساعدة للطبيب الذي يريد ان يشفي المرض . ما دامت المسألة دائما مسألة اما تغيير درجة الصفات السيئة التوازن في جسم الانسان ، واما بتحريكها من مواضعهـا . وبصورة مبدئية ستكون معرفة السماء له مفيدة كما هي مفيدة له معرفة الحقائق الارضية والجسم البشري .

وبالاجمال ، فان العالم ، بواقع وحدته ، هو ربما يمكننا ان نقول عنه انه عالم مكمل : كل شيء قائم فيه وفق نوع علاقات جبرية متبادلة ، وبموجب توازن اجزاء يحكمها المبدأ الأسمى ، وهو المبدأ الذي يتجب كماله هذه الوحدة ويصونها ويضمنهـا . الانسان غير مسلم التمدنة . يمكنه ان يكون بمنجى من كل تقلبات الزمان والافلات من كل قلق ، شريطة ان تكون لديه معرفة دقيقة بالواقع والتكيف لهـذا الواقع . اليس المثل الاعلى الغنوصي هو تسوية كل شيء بالمعرفة واشاعة الامن بواسطة المعرفة ؟ والواقع ان غنوصية الافلاطونية المحدثة هي التي اختيرت . بالغريزة تقريبا ، لتأسيس هذا البناء المطمئـين وتتويجه . وغب اعمال بول كراوس وريترو فالتزن ، ينبغي ان نسلم بان الافلاطونية المحدثة قد اثرت تأثيرا عميقا في الكندي ، « فيلسوف العرب » واول الفلاسفة . واذا كان الفارابي ، كما يؤيد ذلـك كراوس ، « قد كشف القناع عن اتجاه مضـاد للتصوف ونقاد بشدة ، لا تكاد تكون له علاقة بالتيار الافلوطيني» ، واذا كان اشد اخلاصا من المتصوفين الاستبطانيين للمثل الأعلى الافلاطوني بالرجوع الى الكهف لبناء المدينة الفاضلة فيه ، فانه يحتفظ في الوقت نفسه بالفكرة الرئيسية الاساسية لنزعـة كونية ، تستقبل المعرفة بترحاب ، وقادرة ، سواء بوساطه الحكماء او بوساطة الانبياء ، على خدمة النموذج الامثل للشرائع التي يجب ان تحكم الانسان والمجتمع الانساني . ويقدم العلم والحكمة دائمـا الضمانة التي ترسي دعائم التفاؤل والايمان بالسعادة المحتاج اليها الناس .

ولكن عن هذه الوجهة نفسها ينبغي القـول ان هذه التاملات ، المستوحاة من مثل عليا يونانيه قديمة لا علاقة لها بالاسلام ، شأنها شأن كـل غنوص ، حتى حين تلبس لبوس الافكار الدينيـة المستعارة من كتب مقدسة ، تدير ظهرها لما عليه الطابع الخاص للأديان السماوية : لعجز الانسان عن بلوغ حقيقة منفذة وخير حقيقي ، بعقله الخاص وببحثه العلمي والفلسفي الخاص . وما كان خطيرا ، لم يكن بسبب تفصيل المذهب ، كمسالة الخلق ، او مسألة بعث الاجساد ، او العقوبات والحسابات في الحياة الاخرى . فالفلسفة عارضت التعاليـم الدينيـة .

ومقابل ذلك انطلقت هذه الغنوصية للافلاطونية المحدثة لخدمة الفرق المتطرفة المعروفة ، التي كانت تبحث لا عن فهم النص القرآني كحقيقة مسلم بها ، وانما للاستعانة به وتفسيره ، في سبيل ايجاد افكار لم تكن مستوحاة منه بصورة مباشرة .

ستعترضون بان تفكير احدى الطوائف تمنح التفاؤل والصفاء اللذين حسبنا اننا لمسناهما في الاساليب العلمية والفلسفية . لاريب ان بعض الطوائف من وجهة النظر هذه اشد قلقا من الطوائف الاخرى التي لديها يقين دون مشاكل والتي وجدت للمرة الأولى حقيقة لا سبيل الى مناقشتها . ولكن كما راينا ذلك ، ان منظري اهل السنة الرضية كانوا اناسا ذوي ارادة محنكة ، وقد رفضوا بحزم الخروج من الكتاب الذي قالوا انهم وجدوا فيه كل شيء ، والذين قالوا لا لكل القضايا واستنكروا في الوقت نفسه جذريا حتى طرح هذه المشاكل . والفلسـفة المطمئنة لم تكتب لامثال هؤلاء الناس ، وانما قدرت للذين شملهم الاضطراب والذين ، كأهل بعـض الطوائف ، كانوا دون انقطاع مرهقين بنصيب تاعس ، وقد توقفوا في محاولاتهم وتحددوا بنجاحاتهـم نفسها . اولئك كانت لديهم حاجة بالفلسفة كسلوى، والغنوصية للافلاطونية المحدثة كانت بالنسبة لهم فلسفة السلوان .

ولكن يبدو ان الفلاسفة بدورهم قد شعروا بالحاجة الى ضمان وحدة هذه الطريقة المنسجمة

التي اقاموها لمواطنيهم . لقد وجدوا هذا الضمان في وحدة العقل ، كما ينجم ذلك من منطق ارسطو . وقد عرفنا ولا شك مؤلفات الفلسفة الطبيعية وطبيعة ارسطو . وكانت ترجمت الى العربية ، ولكن ارسطو بالنسبة لمفكري هذه الفترة على الاخص هو استاذ المنطق

والفارابي حين وصوله الى بغداد عثر فيها على المنطيق الشهير ابي بشر متى بن يونس ، الذي يعلمنا ابن خلكان بنجاحه : مئات التلاميذ الذين كانوا يجتمعون كل يوم حوله ليسمعوه يقرأ الاورغانون ـ منطق ارسطو ـ ويشرحه . كان يملي على طلابه الشرح . وكان اسلوبه واضحا . كان يستعمل البسط والتذييل . ولعل ذلك يرجع الى الثقة بالمنطق وبنتائجه التي يسرت فكره الوفاق بين المذاهب التي نادى بها حكيما العهود القديمة افلاطون وارسطو : ذلك الوفاق الذي كرس له الفارابي مصنفا . عندئذ يعلن الفيلسوف بجلاء ووضوح أن غايته قطع حبل الشك في قلوب اولئك الذين يدرسون كتبهما . ويقول : لايمكن ان تساور نفوسنا غاية اهم وانفع . انسان واحد يمكن ان يتوهم ، ذلك لان الاشياء تخامر ذهنه بصورة مغايرة لصورتها الحقيقية . بل احيانا يتوهم عدة اشخاص توهما موحدا : ذلك لانهم يتبعون عن طريق التقليد استاذا واحدا هو نفسه واقع في الخطأ . ولكن عندما يتوافق عقلان نتيجة تأمل ، تدرب . بحث . تنفير . معاندة . تبكيت . حينئذ يمكن ان نطمئن على حقيقة مذهبهما . ما عسى ان نقول سوى ان الانسان الذي يبحث عن نفسه ، بعقله المنطقي وحده ؛ دون هوى أو خيال ، سيتفق في مجال الحقيقة مع جميع الذين يتصرفون تصرفه ؟

وعلى هذا المنوال فان المنطق الارسطوطاليسي كان مفتاح قبة الفلسفة . ولكنه في الواقع ظن غريبا عن الاهتمامات العملية للعلوم . وفي هذا المجال نشهد تشكل حالة عقلية جديدة كل الجدة . فالعلماء الذين تعلقوا بفروع علمية خاصة استطاعوا اعلان نياتهم بأن يصبحوا نافعين لاناس عصرهم ، ولا سيما لأولئك المكلفين بقيادة الآخرين . وفكرة المنفعة كثيرا ما تنساب على الالسنة . وقد دأب العلماء على اثبات وجوب المام الخلفاء والامراء واعوانهم ، لممارسة وظائفهم ممارسة جيدة ، بهذه العلوم وتلك ، أو ان يلقنهم اياها اختصاصيون . ولكن حدث ان ارتفع الباحثون ـ كما اراد ارسطو ـ الى درجة ارفع ، من وجهة النظر ، وتركوا انفسهم مقودة باغراضها . وكذلك المترجمون الذين انكبوا دائما على النصوص القديمة والتصقوا بها ، ومثلهم العلماء الذين ارادوا تحقيق اقوال اسلافهم - في حين انهم قبلوا دون مقاومة المذاهب العامة ، ولو بفهمها على طريقتهم وحسب حاجاتهم (على هذه الشاكلة الطبيب ابن الطبري ، في كتابه فردوس الحكمة ، فهو يعطي للافكار اللاهوتية للعمل والقوة والمادة والشكل ، معنى محسوسا طبيعيا محضا لا يوجد لدى ارسطو مثيله) .

لقد كانوا مستقلين اكثر في كل مكان سقطت فيه الافكار تحت نقد الملاحظة والتجريب . وقد احسوا ان بوسعهم تحسين المقاييس واتقان وسائل الحساب وتحديد التجارب .

لقد بزغت فكرة تقدم العلوم والحضارة : فهي لدى ابي بكر الرازي ، وظهرت لدى التوحيدي .

وهكذا . اصلحوا القدماء ، او اكملوهم ، بعد ان ترجموهم . وسنورد لاسناد رأينا ، الملاحظات المختلفة التي حدثت في مرصد بغداد في حي الشماسية عام ٢١٤/٨٢٩ ، ثم في دمشق عام ٢١٧/٨٣٢ في مرصد جبل قاسيون . كانت المسألة ، بين مسائل اخرى ، قياس ميلان الارض على صعيد الخسوف ؛ وتعيين الذروة وطول السنة الشمسية ؛ وظاهرة الاعتدالين .

وقد شارك في هذه الملاحظات حشد كبير من الفلكيين منهم ، ابو علي يحيى بن ابي منصور ، ابو عبدالله بن موسى الخوارزمي ، المشهور بجبره واعماله الرياضية ، كشهرته في الزيج ؛ وخالد بن عبدالملك المروروذي وسند بن علي و علي بن عيسى والعباس بن سعيد الجوهري ، وآخرون غيرهم . وهذه الاعمال اتاحت اصلاح الالواح (الازياج) طبقا للسندهانتا ، والى اقامة الواح جديدة ينبغي ان نذكر من بينها (الزيج الممتحن) ، والواقعة الاخرى تحقيق طول قوس درجة نصف النهار الارضية . ويروي ابن خلكان قصة اجراء العملية ويعزوها الى بني موسى ! ينكر سوتر هذه النسبة ويروي روايتين اخريين تتضمنان اختلافات في الأشخاص والاماكن . واليكم رواية ابن خلكان :

(ابو عبدالله محمد بن موسى بن شاكر)

« احد الاخوة الثلاثة ، الذين ينسب اليهم جبل بني موسى ، وهم مشهورون بها ، واسم اخويه : احمد ، والحسن ، وكانت لهم همم عالية في تحصيل العلوم القديمة ، وكتب الاوائل ، واتعبوا انفسهم في شأنها ، وانفذوا الى بلاد الروم من اخرجها لهم ، واحضروا النقلة من

الأصقاع الشاسعة، والاماكن البعيدة بالبذل السني، فاظهروا عجائب الحكمة .

وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة ، والحيل ، والحركات ، والموسيقى ، والنجوم ، وهو الاقل .

ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر ، يشتمل على كل غريبة ، ولقد وقفت عليه ، فوجدته من احسن الكتب وامتعها ، وهو مجلد واحد .

ومما اختصوا به في ملة الاسلام واخرجوه من القوة الى الفعل — وان كان ارباب الأرصاد المتقدمون على الاسلام قد فعلوه ، لكنه لم ينقل ان احدا من اهل هذه الملة تصدى له وفعله ، الا هم — وهو ان المأمون كان مغرى بعلوم الاوائل وتحقيقها ، ورأى فيها أن دور كرة الأرض اربعة وعشرون الف ميل كل ثلاثة اميال فرسخ ، فيكون المجموع : ثمانية الاف فرسخ ، بحيث لو وضع حبل على اي نقطة كانت من الارض ، وادرنا الحبل على كرة الارض حتى انتهينا بالطرف الآخر الى ذلك الموضع من الارض ، والتقى طرفا الحبل ، فاذا مسحنا ذلك الحبل كان طوله اربعة وعشرين الف ميل ، فاراد المأمون ان يقف على حقيقة ذلك ، فسأل بني موسى المذكورين عنه ، فقالوا : نعم ، هذا قطعي ، وقال : اريد منكم ان تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك ام لا ، فسألوا عن الاراضي المتساوية في اي البلاد هي ؟ فقيل لهم : صحراء سنجار في غاية الاستواء ، وكذلك وطآت الكوفة ، فاخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون الى اقوالهم ، ويركن الى معرفتهم بهذه الصناعة ، وخرجوا الى سنجار ، وجاءوا الى الصحراء المذكورة ، فوقفوا في موضع منها ، فاخذوا ارتفاع القطب الشمالي ببعض الالات ، وضربوا في ذلك الموضع وتدا ، وربطوا فيه حبلا طويلا ، ثم مشوا الى الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف الى اليمين واليسار حسب الامكان . فلما فرغ الحبل نصبوا في الارض وتدا آخر ، وربطوا فيه حبلا طويلا ، ومشوا الى جهة الشمال ايضا كفعلهم الأول .

ولم يزل دابهم ، حتى انتهوا الى موضع اخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور ، فوجدوه قد زاد على الارتفاع الاول درجة ، فمسحوا ذلك القدر الذي قدروه من الأرض بالحبال ، فبلغ ستة وستين ميلا وثلثي ميل ، فعلموا ان كل درجة من درج الفلك ، يقابلها من سطح الارض ستة وستون ميلا وثلثان .

ثم عادوا الى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الاول وشدوا فيه حبلا ، وتوجهوا الى جهة الجنوب ، ومشوا على الاستقامة ، وعملوا كما عملوا في جهة الشمال : من نصب الاوتاد ، وشد الحبال ، حتى فرغت الحبال ، التي استعملوها في جهة الشمال ، ثم اخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة ، فصح حسابهم ، وحققوا ما قصدوه من ذلك ، وهذا اذا وقف عليه من له يد في علم الهيئة ظهر له حقيقة ذلك .

ومن المعلوم ، ان عدد درج الفلك ثلثمائة وستون درجة ، لان الفلك مقسوم باثني عشر برجا ، وكل برج ثلاثون درجة ، فتكون الجملة ثلثمائة وستين درجة ، فضربوا عدد درج الفلك في ستة وستين ميلا — اي التي هي حصة كل درجة — فكانت الجملة اربعة وعشرين الف ميل ، وهي : ثمانية آلاف فرسخ ، وهذا محقق لا شك فيه .

فلما عاد بنو موسى الى المأمون واخبروه بما صنعوا ، وكان موافقا لما رآه في الكتب القديمة من استخراج الاوائل ، طلب تحقيق ذلك في موضع آخر ، فسيرهم الى الكوفة ، وفعلوا كما فعلوا في سنجار ، فتوافق الحسابان ، فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء في ذلك » .

لقد روينا هذه القصة لانها تحسن الاشارة الى الحرص على المنهج والبحث عن الدقة في جميع مراحل التجربة .

ويوسفنا الاكثار من ضرب الامثلة التي سترينا ان العلماء العرب تحرروا في كل العلوم تدريجا من اساتذتهم الاغريق في كل مكان على نطاق الملاحظة والتجريب والقياس والطرق العملية في الحساب . اما في الطب : فالى جانب المناقشات المدرسية (الاسكولائية) كالمناقشات التي جرت بين رضوان وابن بطلان ، تنبغي الاشارة ، لدى اطباء امثال ابي زكريا الرازي ، الى قيمة الملاحظات السريرية .

وعلى هذه الصورة هدف العلم عند العرب الى الحصول على بعض الاستقلال تجاه الفلسفة ، لكي يصبح علما يقينيا غنيا بالتجارب والحسابات . واخيرا ، بالرغم من ان ممثليه بين المسلمين ظلوا في معظم الاحيان متهمين بشيء من الزندقة ، فقد تناقص ايحاؤه بالخوف لدى المؤمنين الحقيقيين بحيث انه استطاع بعد ذلك احد قادة السنة الاقحاح ، وهو الغزالي » الكتابة بان الرياضيات ومن ضمنها الطبيعة (اي بصورة يقينية) والطب لا تحمل اي

خطر بذاتها . وعلاوة على ذلك فان العديد من هذه العلوم قدم خدماته للدين : فالحساب والجبر تدخلا في حساب حصة كل وارث في قسمة المواريث ، بقدر قرابته وموقعه من اصحاب الحق ، وعلى هذا كتب ابو حنيفة الدينوري في هذا الموضوع كتابين (حساب الوصايا وحساب الدور) .

واستعمل كذلك علم الفلك وعلم المثلثات (حيث كان العرب فيه مع ابي الوفاء من المخترعين) في تعيين اتجاه القبلة : وكتب الدينوري والبتاني وبعدهما ابن الهيثم عن هذه المسألة . واستخدم كذلك علم الفلك المسمى بعلم المواقيت . لتعيين ساعات النهار والليل ولضبط مواقيت الصلوات الخمسة التي فرضها الشرع .

ولكن ينبغي علينا كذلك ملاحظة ان العلوم الخاصة ، الدائرة في فلك ابحاثها الخاصة ، قد افضى بها الامر الى تبني فرضيات للعمل وتخطيطات للنماذج لتمثيل الظواهر ، وبالنتيجة : لاتباع طرق كان الاتفاق عليها بعيدا . والوحدة المنطقية للعلم والعقل التي اعتبرتها الفلسفة كشيء مسلم به وكمثل اعلى . وجدت نفسها تتآكل بضراوة : ففي علم الفلك مثلا ، تبنى العلماء نظام بطليموس ، الذي سمح لهم بترجمة ملاحظاتهم بوضوح في لغة هندسية .

وعلم الفلك الذي نستطيع أن نسميه طبيعة . ترك ايضا للفلاسفة الذين يدرسونه في منظور ما وراء الطبيعة عندهم . ولكن معارضة الطريقة الهندسية بالطريقة الفيزيقية ، ما تزال تبدو اكثر تميزا في المسائل البصرية . وهذا ما يبرهن عليه مايرهوف في مقال حول المذهب الارسطوطاليسي للضوء لدى حنين بن اسحق : حنين الذي بحث اثر ارسطو في تحديد او تعريف طبيعة الضوء ، كان عليه ان يواجه جميع اولئك الذين يحددون نشاطهم في دراسات هندسية للشعاع الضوئي والمرايا ، حسب طريقة كبار الرياضيين القدماء ، اقليدس وبطليموس . ونحن ندرك اهمية هذه المعارضة : انها هي نفسها التي نجدها ، على طول امتداد تاريخ العلوم ، بين الطبيعيات نفسها والظواهر ، بين الاسباب والقوانين . في هذه الحقبة ظل علم طبيعة الكائنات وعلم اسبابها ، في القالب الميتافيزيقي . وهذا هو العلم الذي لم يتقبله الاسلام ، نظرا لان فلسفته الغريزية التي تتعارض كل التعارض مع فكرة جبرية الطبيعيات ، بوصفها محددة للحرية المطلقة لله . وهذا ما يفسر الاستنكار الذي لا علاج له الذي انتهى بضرب مذهب الاعتزال : هذا المذهب كان يقول ، في الواقع ، بأن الله لا يخلق الا الوجودات وليس الماهيات . ولكن مقابل ذلك ، ان علم الظواهر المعطاة للحواس وعلم الشريعة المفهوم على هيئة مؤشرات لمجرد علاقة بين هذه الظواهر . هما اللذان سمحا بأن يروا فيهما عادة وسيره يسيرهما الله بحرية دون اي ضرورة من جانب الشيء . هذا العلم تقبله المتكلمون بسهولة ، وادركوا ضرورة التزام الاسلام بعدم رفض كل ما تجلبه الحضارة « العصرية » .

اما الذي ظل عدوا للاسلام فهي الفلسفة ، هذه التلفيقية التوفيقية القائمة على الافلاطونية المحدثة المزعوم استنادها الى منطق ارسطو ، ومعنى ذلك على قانون العلة الوحيدة الشاملة .

اذا كان الفارابي قد الف كتاب « الجمع » فانه كما قال هو نفسه ، لان بعض معاصريه فكروا بوجود خلاف وجهة نظر بين افلاطون وارسطو . اذن فالايمان ووحدة العقل قد اهتزا . ومشكلة معرفة ما اذا كان العقل هو صاحب الضرورة قد طرحت على بساط المدرسة الأشعرية . وهناك مفكرون كبار امثال الجويني والغزالي يحددون مزاعم العقل (وبالتالي ادعاءات المنطق) بوصفها من مقومات الواقع . وسيكون ثمة نظام للمعرفة ، ولكنه نظام خاص بها ، ولن يهيمن ابدا على نظام الوجود .

ونحن واجدون لدى التوحيدي مناقشة طريفة . للقاية بين النحوي ابي سعيد السيرافي ومتى بن يونس . . . يرى متى ان المنطق بشبه ميزانا لوزن الحقيقة والخطأ ويخالفه ابو سعيد السيرافي مخالفة تامة : واليكم بعض هذا الحوار :

« فقال ابن الفرات : انت لها يا ابا سعيد .

فقال ابو سعيد : مخالفة الوزير فيما رسمه هجنة .

ثم واجه متى فقال : حدثني عن المنطق ما تعني به ؟ فانا اذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه ورد خطئه على سنن مرضي وطريقة معروفة .

قال متى : اعني به انه آلة من الات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صالحه ، كالميزان ، فاني اعرف به الرجحان من النقصان ، والشائل من الجانح .

فقال : ابو سعيد : اخطأت ، لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف والاعراب المعروف اذا كنا نتكلم بالعربية ، وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل اذا كنا نبحث بالعقل . وهبك عرفت الراجح من الناقص من طريق الوزن ، فمن

لك بمعرفة الموزون ايما هو حديد او ذهب أو شبه أو رصاص .

قال متى : انما الزم ذلك لان المنطق يبحث عن الأغراض المعقولة ، والمعاني المدركة ، وتصفح للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة . والناس في المعقولات سواء . الا ترى ان اربعة واربعة ثمانية سواء عند جميع الأمم ، وكذلك ما اشبهه .

قال ابو سعيد : لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة وطرائقها المتباينة الى هذه المرتبة البينة في اربعة واربعة وانهما ثمانيـــة .

قال : نعم .

قال : اخطأت . قل في هذا الموضع : بلى .

قال : بلى . انا اقلدك في مثل هذا ..

قال : اذا لست تدعونا الى علم المنطق ، انما تدعو الى تعلم اللغة اليونانية وانت لا تعرف لغة يونان ، فكيف صرت تدعو الى لغة لاتفي بها ؟ على انك تنقل من السريانية ، فما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة يونان الى لغة اخرى سريانية ، ثم من هذه الى اخرى عربية ؟

قال متى : يونان وان بادت مع لغتها ، فان الترجمة حفظت الاغراض ، وادت المعاني ، واخلصت الحقائق .

قال ابو سعيد : اذا سلمنا لك ان الترجمة صدقت وما كذبت ، فكأنك تقول : لا حجة الا عقول يونان ، ولا برهان الا ما وضعوه ، ولا حقيقة الا مـــا ابرزوه .

قال متى : ولكنهم بين الامم اصحاب عنايـــة بالحكمة والبحث عن ظاهر العالم وباطنه ...

قال ابو سعيد : اخطأت وتعصبت وملت مع الهوى ، فان علم العالم مبثوث في العالم بين جميع من في العالم .

قال متى : هذا قد مر في جملة كلامك آنفا .

قال ابو سعيد : نهل وصلته بجواب قاطع ؟ اسألك عن حرف واحد وهو (الواو) ما احكامه ؟ وكيف مواقعه ؟ وهل هو على وجه او وجوه ؟

فبهت متى وقـــال : هذا نحو ، والنحو لم انظر فيه ، لأنه لاحاجه بالمنطقي اليه ، وبالنحوي حاجة شديدة الى المنطق .

قال ابو سعيد : اخطأت لأن الكلام والنطق واللغة واللفظ من واد واحد بالمشاكلة والمماثلة .

فقال متى : يكفيني من لغتكم هذه الاسم والفعل والحرف . فاني اتبلغ بهذا القدر الى اغراض قـــد هذبتها لي يونان .

قال ابو سعيد : اخطأت ، لانك في هذا الاسم والفعل والحرف تفتقر الى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز اهلها ، وكذلك انت محتاج بعد الى حركات هذه الاسماء والافعال والحروف .

قال متى : لو نثرت انا ايضا عليك من مسائل المنطق اشياء لكان حالك كحالي .

قال علي بن عيسى وتقوض المجلس واهلـــه يتعجبون من جأش ابي سعيد الثابت ولسانه المتصرف ووجهه المتهلل وفوائده المتتابعة . » .

والواقع ان منطق ارسطو هو عمـــل احـــد اليونانيين ، وضع حسب اللغة اليونانية فلا يلـــزم العرب بشيء ولا الفرس ولا الهنود . ويحتج متى بان المنطق يحمل على حقائق واضحة ، وان العقل واحد طالما كان الناس متـــاوين امام المفهومات ، وعلى سبيل المثال اربعة واربعة تساوي ثمانية بالنسبة للجميـــع .

انا لانتحدث عن تراجم . حتى لو كانت امينة ـ ولا تستطيع أن تكون امينة ـ اذن فلماذا نهرع اليها ؟ لتبرير ذلك . ينبغي افتراض كـــون الاغريق هم الشعب الوحيد الذي وهب عصمـــة لاتقتحم، من ذكاء طبيعي متفجر، الى طبيعة خاصة، بحيث لم يقع في الخطأ ، حتى لو كان اراد . ولكنه لكل الشعوب يصيب مرة ويخطىء اخرى . وعلاوة على ذلك ، فالمسألة ليست مسألة الاغريق كافـــة ، ولكن قضية اغريقي واحد ، هو ارسطو . كانـــت قبله وبعده اختلافات بين الناس ذلك لأن التبايـــن في الاراء شيء من الصميم وطبيعي . فهل بوســـع فرد ان يلغيه بجلب منطق . اذا كان ثمة اختـــلاف طبيعي بين العقول؟ على هذه الصورة لا توجد شمولية للعقل . بوسعه تحقيق اجماع بين الناس ، وبيـــن الشعوب والافراد لا يستطيع احد بصورة خاصة ادعاء التمتع بامتياز في هذه المادة . وكما سيقول الغزالي ، لا يمكن للعقل ان يكون حكما اعلى . وليس بمقدور عقل فاعل اضاءة فكر الحكماء او تصـــور الانبياء . لا يستطيع الانسان ان يكتسب بنفســـه افضل يقين يفرض نفســـه . انه لا يحصــــل علـى اليقين الا باتباع الشريعة التي تحكم العالم في كـــل معارج الحقيقة ، الطبيعية والاخلاقية والسياسية والدينية . ولكن اذا كان لابد من العثور على هـــذا الشرع بجهده العقلاني الذاتي ، فينبغي ، للاتيه .

ان يعرف جهده قبل كل شيء . اذن فهو حبيس في دائرة لن يخرج منها اذا كان قد أعطى الشرع مقدما .

اللغة التي خلقها الله ، والعالم المحسوس الذي خلقه كذلك ؛ هما معطيان بالنسبة للانسان . فالكلمات تعين معاني اذا فهمت ادت الى معرفة الاشياء ونظامها وصفاتها . انها تنفتح كذلك على عالم اخلاقي وديني . اذن فهي مفتاح كل معرفة . والحقيقة هي ما ينبغي قوله وما قيل كما ينبغي . والكلام المنزل مكتوب في هذا المجموع من المعاني وسنده . وبالتالي ، فقد وجد الاسلام الصميم طريقه في اسمانية Nominalisme عالمية ذات اساس الهي ، ولكنها استطاعت بسهولة ان تنسجم مع الاسمانية العلمية التي بذر الاسلام بذرتها الاولى دون ادنى ريب . وحين قال الاشعري ان الصفات الالهية ليست هي الله ، ولكنها ليست شيئا آخر سوى الله فان هذا اللغز ، من وجهة نظر المنطق الاغريقي سيكون مفهوما بهذا المعنى ، وهو اننا حين نقول ان الله عالم . مقتدر ، الخ ، فاننا نقول اكثر مما لو حدثنا انفسنا بالنطق باسم الله وحده .

ومع ذلك ، فاننا لا نسمي شيئا اكثر مما نسمي الله . اذن يجب أن يفهم هذا الأمر بنسيان التصور اليوناني لحكم الصفة : س = ب ، وكل النظرية المنطقية النحوية للصفة ، اساس الميتافيزيقا التعقلية للصفات . وعلى الصعيد العلمي ، فان الأشعرية للباقلاني ستنمي هذه الاسمانية في مذهب الجوهر الفرد العرضي .

وعلى هذا المنوال اتسعت الوشائج بين العلم والفلسفة والوحي القرآني ، ايام العباسيين الأولى .

ان مقاومة الفلسفة للافلاطونية المحدثة في خدمة الفرق المتطرفة ، والنضال ضد منطق ارسطو الذي قدر له أن يدوم حتى عهد ابن تيمية ، قد انتهيا بفتح الطريق الى كلامية سنية خالصة لم تستطع ان تشكل نفسها قبل ذلك ، لان الاسلام الحنيف بمؤمنيه الاصفياء وبتحفظه تجاه الحكمة الاجنبية للكفار وحيال اخطار معتزلية ، رفض حتى فكرة ما وراء الطبيعة (الالهيات) وكذلك لأن الكتلة الموحدة التي الفها العلم والفلسفة لم تكن قد تفككت بعد ، فعارض دون مساومة ممكنة مذهب انصار الوحدة في السياسة والدين ، فظلت العقيدة الاسلامية راسخة البنيان .

ومن الجانب الآخر لابن سينا ، ادى هذا الطريق الى افكار الغزالي ، الركينة ، وافكار فخر الدين الرازي ، الرصينة .

★ ★ ★

تراث بغدادي في أثر عراقي

تحقيق وتقديم
حميد مجيد هدو
معهد الفنون الجميلة / بغداد

توطئة

من اوائل الذين كتبوا عن بغداد احمد بن ابي طاهر بن طيفور البغدادي(١) وتبعه احمد بن الطيب السرخسي في كتابه (فضائل بغداد واخبارها) ، ويزدجرد بن مهمنداد في كتابه (فضائل بغداد وصفتهـا)(٢) . ويعتبر الخطيب البغدادي ، احمد بن علي المتوفى (٤٦٣هـ — ١٠٧٠م) في كتابه تاريخ بغداد المطبوع في ١٤ مجلدا ابرز من تعرض الى بغداد في تأسيسها ، وسبب تسميتها ، وانهارها وقصورها وخططها ومساجدها والاعلام الذين درسوا فيها او مروا بها وراووها .

ولم يكتف المؤرخون من بعده بذلك بل توسعوا في تراجمهم وشروحهم ومتابعاتهم فالفوا ذيولا على تاريخ الخطيب منها : ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد ، للحافظ ابن الدبيثي المتوفى ٦٣٧هـ ، حقق المجلد الاول منه الاستاذ بشار عواد معروف(٣) ، وكذلك التكملة لوفيات النقلة لعبدالعظيم المنذري المتوفى ٦٥٦هـ(٤) . ومن الذيول على تاريخ بغداد ذيل للسمعاني صاحب الانساب المتوفى ٥٦٢هـ في خمسة عشر مجلدا ، وجاء محمد بن محمد بن حامد الكاتب المتوفى ٥٩٧هـ فكتب ذيلا على ذيل السمعاني سماه (السيل على الذيل) في ثلاثة مجلدات(٥) . وغيرهم كثيرون ذكرهم صاحب كشف الظنون .

اما من اهتم ببغداد من المتأخرين فهم كثيرون ايضا نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

عبدالرحمن السويدي الف (حديقة الزوراء)(٦) ويسمى تاريخ بغداد ، وتاريخ بغداد ، لسليمان فائق وضعه بالتركية وترجمه الى العربية موسى كاظم نورس(٧) ودوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، للشيخ رسول الكركوكلي وضعه بالتركية وترجمه الى العربية موسى كاظم نورس وقد طبع في بيروت ولم يذكر تاريخ طبعه ، وتاريخ بغداد للمرحوم العلامة طه الراوي وهو مطبوع في مصر ضمن سلسلة اقرأ ، وتاريخ بغداد، لعلي ظريف الاعظمي (طبع في بغداد سنة ١٣٤٤هـ) وحضارة الاسلام في دار السلام ، لجميل نخلة المدور المتوفى سنة ١٩٠٧ ايضا طبع في بيروت .

ويعتبر دليل خارطة بغداد الذي الفه المرحوم الدكتور مصطفى جواد ، والدكتور احمد سوسة من خير ما كتب عن بغداد في العصر الحديث وقد طبع في مطبعة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٨ .

وهناك كتب اختصت بجانب معين من بغداد مثل : مساجد بغداد ، لمحمود شكري الالوسي ، وعمران بغداد ، لمحمد صادق الحسني ، ومناقب

(١) انظر كشف الظنون ١ : ٢٨٨ ، ومجلة لغة العرب السنة ٢ ج ٧ : ٢٣٨ .

(٢) بغداد مدينة السلام ، للهمداني ص ٦ .

(٣) صدر عام ١٩٧٤ عن وزارة الاعلام العراقية (الثقافة والاعلام الآن) .

(٤) حققه بشار عواد معروف وصدر في اربعة مجلدات سنة ١٩٦٨ — ١٩٧١ .

(٥) كشف الظنون ١ : ٢٨٨ ، وشعراء بغداد ، للخاقاني ج ١ : ١٥ .

(٦) حقق ج ١ منه الدكتور صفاء خلوصي وطبع سنة ١٩٦٢ ببغداد .

(٧) طبع في بغداد سنة ١٩٦٢ بمطبعة المعارف .

بغداد لابن الجوزي وشعراء بغداد لعلي الخاقاني ، وقيان بغداد لعبدالكريم العلاف ، وفيضانات بغداد للدكتور احمد سوسة في ٣ مجلدات صدر الاول سنة ١٩٦٢ وغيرها الكثير مما لايتسع المجال لذكرها(٨) .

اما الاثار المخطوطة للمتاخرين التي الفوها عن بغداد فهي ايضا كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : مزارات بغداد ، للاب انستاس ماري الكرملي المتوفى سنة ١٩٤٨ ، ومجموعة تراجم علماء بغداد ، لعلي الالوسي المتوفى سنة ١٩٢١ ، وتاريخ قضاة بغداد ، لابراهيم الدروبي ، ونيل المراد في احوال العراق وبغداد ، لعباس البغدادي ومنتجع المرتاد في تاريخ بغداد وهو الكتاب الذي دققنا النظر فيه ووقفنا على مباحثه وموضوعاته ودرسناه دراسة منهجية علمية بعد ان حققنا فصولا منه .

الاختلاف في اسم الكتاب

اختلف في تسمية الكتاب فبعضهم يسميه منتجع المرتاد في تاريخ بغداد كما هو مكتوب على الكتاب (نسخة الكرملي التي اعتمدناها والتي لا ثانية لها) ويسميه رزوق عيسى في مقالته بمجلة لغة العرب السنة الثالثة ج٧ : ٣٤٥ باسم : مختصر المستفاد من تاريخ بغداد ، والراجح ان الكتاب اسمه : (مختصر المستفاد في تاريخ بغداد او منتجع المرتاد في تاريخ بغداد) .

من هو المؤلف ؟

المؤلف هو الكونت جبرائيل جنوش أصفر ١٨٥٠ – ١٩٢٣(٩) من اهل بغداد له مؤلف مطبوع اسمه : الابحاث العليا في علم الفلك ، مطبوع في بيروت سنة ١٨٧٥ .

وصف المخطوطة :

الكتاب في خزانة المتحف العراقي تحت رقم ١١٠٤ وهو ضمن المخطوطات التي كانت في دير الاباء الكرمليين ببغداد وانتقلت الى الاثار بعد وفاة الاب انستاس ماري الكرملي .

يقع في ٣٠٥ صفحة ، ناقصة الاخر ، وقد كتب بخط متوسط معنون بالحمرى ولم يذكر عليه اسم الناسخ ولعله يكون المؤلف نفسه قد كتبه ، ولم اعثر على نسخة اخرى منه فعلى ذلك تكون نسخة المتحف هذه هي المتمدة والتي سندرسها ونحقق بعض فصولها .

اولها : الحمد لله الازلي الضابط الكل ، الاله العلي الذي بوصفه نعي ونمل ونكل ... وبعد فيقول ... جبرائيل يوحنا اصفر انه لما كان علم التاريخ كضريبة لازب للخاص والعام . اذ كان فيه المرام نافعا للكبير والرفيع والصغير والوضيع ومفيدا للعالم والجاهل ... الخ (ص ٣ – ٤ من المخطوطة) .

آخرها : ترجمة محمود العمري بن يونس افندي العمري الموصلي المتوفى سنة ١٢٠٢هـ . ومن شعره :

سل الواجع عن كربي وتعذيبي
في حب مرهفة بيضاء عبوب

(ص ٣٠٥) .

مباحثها وفصولها :

اما مباحثه فهي : بغداد ، الاصل في تسميتها تاريخها ، ذكر خلفائها من بني العباس حيث يذكر سبعة وثلاثين خليفة حكموها طيلة ٥٢٤ سنة . يبدأ بالسفاح وينتهي بالمستعصم بالله . ثم بعد ذلك يذكر من مَلَكَ بغداد من بعد بني العباس وكذلك اسماء ولاة بغداد من سنة (١٠٤٩هـ – ١٦٤٠م) الى سنة (١١١٥هـ – ١٧٠٣م) ومدةحكمهم اولهم : كوجك حسن باشا سنة ١٠٤٩هـ ومدة حكمه سنة واحدة ، وآخرهم علي باشا ومدة حكمه سنة واحدة كانت سنة ١١١٥هـ – ١٧٠٣م (انظر ص ١٢٧ المخطوطة) .

ثم يستمر في سرد الحوادث واسماء الولاة من العثمانيين الى ان ينتهي برديف باشا الذي تولى بغداد سنة ١٢٩١هـ – ١٨٧٣م وحكمها سنة واحدة (انظر ص ١٥٤ المخطوطة) .

ثم يذكر محلات بغداد وقصورها وطاقاتها واسواقها وما كان في بغداد من البيع والديور ، والمدارس القديمة والحالية (التي عاصرها المؤلف) والحمامات والانهار (من ص ١٥٥ – ١٧٥) .

ولا يقتصر المؤلف في سرده وتفصيله عن بغداد

(٨) من اراد الوقوف على كل ما يتعلق ببغداد فليراجع جمهرة المراجع البغدادية الذي الفه الباحثان كوركيس عواد وعبدالحميد العلوجي ، مطبعة الرابطة – بغداد سنة ١٩٦٢ .

(٩) معجم المؤلفين العراقيين ١ : ٣٢٦ .

وما يتعلق بها بل يتعداها الى ما اضيف اليها من البلاد كالبصرة والكوفة والحلة والموصل فيتحدث عن تواريخها ولم اعثر فيها على راي جديد او خبر طريف اذ هو عبارة عن نقولات حرفيــة من بعض التواريخ المعروفة دون ان يشير اليها المؤلف .

وفي الصفحة ٢٢٨ يبدا بكتابة فصل جـديد عنوانه : ذكر من طرق ارض بغداد من الصحابـة ومن سكنها من العلماء والفضلاء والشعراء وارباب القلم .

وفي الاخير يترجم لرجال الموصل من العمريين الذين مروا بالزوراء وبهذا يختم كتابه .

ماذا حققت من الكتاب ؟

بعد التدقيق والبحث في فصـــول الكتاب وجدت ان المؤلف نقل بعض المباحث من المراجـع التاريخية نقلا مباشرا دون اشارة الى ذلك فالفصل المتعلق بالخلفاء العباسيين وتسمية بغـداد وولاة بغداد في العصر العثماني كلهـــا نقول لا فائدة ولا جدوى من تحقيقها لأنها تكرار لما هـو معلوم فلم اجد اضافة ولو قليلة من لدن المؤلف فتركت ذلك وراء ظهري .

لذا انصب اهتمامي على المباحث الآتيـة : تاعدت النظر فيها وحققت اصولها وصححت مـا امكن تصحيحه مما وقع فيه من الأوهام مستندا الى المراجع التاريخية ومشيرا الى ذلك كل في مكانه والمباحث هي : قصور وطاقات بغداد ، اسواقهـا مدارسها جوامعها ... الخ .

ختاما : ارجو ان اكون قد ساهمت في ابراز معالم بغداد الاثرية ... بغداد الشامخـــة امس واليـــوم .

★ ★ ★

ذكر أماكن وقصور وطاقات بغداد

الحريم الطاهري : وهو قصـــر بالجـانب الغربي في اعلى بغداد ينسب الى الامير طاهر بن الحسين الخزاعي[10] .

قصر ام حبيب : هو لبنت الرشيد ، وهو في الجانب الشرقي وكان من نزه الدنيا[11] .

قصر السلام : بالرقـــة[12] عمره الرشـيد وصرف عليه اموالا[13] كثيرة .

قصر عيسى بن علي بن عبدالله بن العباس: هو اول قصر عمّر في بغداد وكان على شاطىء نهر الرفيل عند مصبه في دجلة وهو الآن وسط العمارة بالجانب الغربي ولم يبق نه الآن اثر[14] .

قصر وضاح[15] : قريبا من الرصافة بنـاه المنصـور لولده المهـــدي وزوقه وفيه يقـــول الشاعر[16] :

سقى اللـــه باب الكرخ من متنزه
الى قصر وضـــاح فبركة[17] زلزل
منـــازل لا يستتبع الغيث اهلهـــا
ولا اوجِنُـــه اللذات عنها بمعـزل
منازل لو ان امرأ القيس حلّهـــا
لاقصر عن ذكر الدخـــول فحـومل
إذا الليل ادنى مضجعي منه لم يقل[18]
عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

قصر التاج : اسم دار الخلافة بناه الخليفة المعتضد بالله ولم يتم عمارته ومات فاتمه ولـــده المكتفي بالله[19] .

---

(١٠) قائد جيش المأمون الذي ارسله لمحاربة اخيه الامين في بغداد وذلك سنة ١٩٨هـ (معجم البلـــدان ٤ : ٢٥٧ ، دليل خارطة بغداد ٧٨) .

(١١) معجم البلدان (٤ : ٣٥٥) .

(١٢) الرقة : تقع في الضفة الغربيـــة من دجلـــة اشتهرت ببساتينها العامرة وكان الخلفاء من بني العباس يتنزهون فيها (دليل خارطة بغداد ٦٥) .

(١٣) في الاصل (اموال) .

(١٤) انشاه عم المنصور عيسى بن علي في موضع قصر سابور وهو في موضع مسجد قمرية الحالي (معجم البلدان ٤ : ٣٦١ ، ودليل خارطة بغداد ١١) .

(١٥) هو وضاح بن شبا من موالي الخليفة المنصور وكان احد الرقباء على بناء المدينة المدورة وعين بعدئذ صاحب خزانة السلاح (دليل خارطة بغداد ٨٦) .

(١٦) الابيات لعلي بن الجهم المتوفى ٢٤٩هـ (ديـوان علي بن الجهم ٥٥ ، معجم البلدان ٤ : ٢٦٤ - ٢٦٥) .

(١٧) في الاصل (وبركة) والصواب ما نقلناه من الديـــوان ص ٥٥ ومعجم البلدان ٤ : ٢٦٤ .

(١٨) في الاصل (اقل) والصواب ما اثبتناه منقولا عن الديوان ص ٥٦ ، ومعجم البلدان ٤ : ٢٦٥ .

(١٩) وضع اسس هذا القصر المعتضد واتم بناءه ابنـــه علي ←

قصر الخلد[20] : بناه الخليفة المنصور بعد تمام بناء بغداد على شاطىء الدجلة وكان موضعه دير فيه راهب وكان من اشرف المواضع[21] .

قصر الخيل : هو دار الخيل احد دور الخلافة وكان صحنها الف ذراع في الف ذراع وكان يوقف بها في الأعياد وعند ورود الرسل من البلاد في كل جانب خمسماية فرس ملبسة بالذهب والفضة .

قصر الرياحين[22] : احد دور الخلافة مشرف على سوق الريحان أحدثه الخليفة المستظهر[23] وهو محل واسع غير انه كغيره لم يبق له ذكر ولا رسم .

قصر الخلافة : يعرف بـ الحريمي وهو دار الخلافة وكان مقدار ثلث بغداد قائم في الوسط ودور العامة محيطة به وله سور كأنه نصف دائرة وله عدة ابواب .

دار الشجرة : داخل دار الخلافة بناه المقتدر سمي بـ الشجرة لان فيه شجرة من فضة وذهب فيها ثمانية عشر غصنا[24] ، لكل غصن فروع مكللة بالجواهر على شكل الاثمار وعليها طيور من ذهب فاذا هب الريح ظهر لها صفير وهدير مختلف كاصوات وتغريد الطيور ، وكان بها بركة ماء عليها خمسة عشر فارسا[25] مصورين من الذهب وخيولهم من الفضة عن يمين البركة ومثلهم عن الشمال[26] .

دار الطواويس : وهو ايضا بدار الخلافة بناه الخليفة المطيع وكان اعجوبة الزمان الحسنة .

المكتفي ، ويقع على ضفة دجلة تحت القصر الحسني وكان يشرف على المسناة كانه التاج . وقد شب حريق في قصر التاج سنة ٥٤٩هـ تحول فيها الى ركام من الرماد الا انه اعيد بناؤه على عهد المستضيء (دليل خارطة بغداد ١٢٥ ـ ١٢٦) .

(٢٠) انظر : تاريخ بغداد (١ : ٨) .

(٢١) سمي بقصر الخلد نسبة الى حدائقه الواسعة وتشبيها بجنة الخلد . يقع شمال الدير العتيق (دير مار فثيون) بقليل . كمل بناؤه في حدود سنة ١٥٩هـ ـ ٧٧٦م ، وكان الرشيد قد فضل الاقامة فيه بدلا من قصر باب الذهب . (تاريخ بغداد ١ : ٧٥ ، ودليل خارطة بغداد ٥٦) .

(٢٢) ويسمى بـ دار الريحانيين نسبة الى سوق الريحانيين الواقع على مقربة من الدار (دليل خارطة بغداد ١٥٨) .

(٢٣) انشاه المستنجد بالله (٥٥٥ ـ ٥٦٦هـ) ـ (١١٦٠ ـ ١١٧٠م) (دليل خارطة بغداد ١٥٨) .

(٢٤) في الاصل (غصن) .

(٢٥) في الاصل (فارس) .

(٢٦) حذفنا لفظة (من) في الاصل لعدم جدواها .

قصر الاحمرية[27] : كان في اقصى كسورة الخالص من الجانب الشرقي وهو نزهة .

خان وردان[28] : اول خان عمر ببغداد .

الطاقات

طاقات ابي سويد[29] : هي ما بين مقابر باب الشام .

طاقات الراوندي[30] : ينسب الى محمد بن الحسن صهر الوزير ابن ماهان .

طاقات العكي[31] : بالجانب الغربي بالشارع .

طاقات الغطريف[32] :

طاق اسماء : بالجانب الشرقي بين الرصافة ونهر المعلى . ينسب الى اسماء بنت المنصور[33] .

طاق الحراني[34] : بالجانب الغربي وشارع ذلك الى شارع باب الكرخ .

قنطرة البردان[35] : في شارع بغداد .

قنطرة بني زريق[36] : على نهر الرفيل[37] .

---

(٢٧) عمر ايام الخليفة احمد بن المستضيء (معجم البلدان ٤ : ٢٥٥) .

(٢٨) نسبة الى وردان بن سنان من قواد المنصور (معجم البلدان ٢ : ٣٩٤) .

(٢٩) في الاصل (ابو) .

(٣٠) واسمه : الجارود (الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ١ : ٧٦) .

(٣١) هو مقاتل بن حكيم . اصله من الشام (تاريخ بغداد ١ : ٨٢) .

(٣٢) هو الغطريف بن عطاء ، اخو الخيزران خال الهادي والرشيد ، ولي اليمن ويقال انه من بني الحارث بن كعب (تاريخ بغداد ١ : ٨٢) .

(٣٣) كان طاقا عظيما وكان في دارها التي صارت لعلي بن الجهشيار (بمشرعة الصخر) وعند طاق اسماء كان مجلس الشعراء وهناك كانوا يجتمعون في ايام الرشيد (بغداد مدينة السلام ٥٥) .

(٣٤) نسبة الى بانيه رجل من حران كان مولى للخليفة المنصور ، ووزيرا له ، اما المؤرخ اليعقوبي فيذكر ان الحراني هو رجل آخر يسمى عمرو بن سمعان وكانت له قطيعة في هذا الموضع . وموقعه على الطريق النازل من باب البصرة (معجم البلدان ٤ : ٤٠٥ ، دليل خارطة بغداد ٨٦) .

(٣٥) انظر معجم البلدان (٤ : ٤٠٥) .

(٣٦) قنطرة مشيدة بالرخام نسبة الى بني زريق وهي اسرة فارسية من البنائين (معجم البلدان ٤ : ٤٠٦ ، دليل خارطة بغداد ٨٥) .

(٣٧) عرف على عهد المنصور بـ نهر عيسى نسبة الى عيسى بن ←

قنطرة الشوك : على نهر عيسى غربي بغداد .

قنطرة المعبدي(٣٨) : بالجانب الغربي على النهر ، وكانت اشهر القناطر في بغداد .

ذكر اسواق بغداد

سوق الثلاثاء(٣٩) : كان قبل ان تعمر بغداد ، وسمي كذلك لان كان يباع فيه نهار الثلاثاء فقط .

سوق السلاح(٤٠) الى الآن . سوق حجاج(٤١) مولى . سوق يحيى(٤٢) . سوق الرياحين(٤٣) يباع فيه الازهار والعطريات . سوق العطارين(٤٤) الى الآن . سوق البزازين الى الآن يباع فيه الخز والحرير . سوق الحدادين(٤٥) . سوق النجارين . سوق الصياغ (سوق الذهب) . والمشهور الآن من الاسواق : سوق دانيال . سوق باعة الاجواخ . سوق الهرج(٤٦) ... الخ .

ذكر مدارس بغداد القديمة

لهذه المدارس اسم لا رسم : فالتاجية كانت مدرسة جليلة العلم تلاقي قبر العلامة اسحق بن ابراهيم الفيروز آبادي(٤٧) بناها تاج الملك ابو الغنايم المرزبان خسرو(٤٨) . قيل دخل شاعر على الرئيس ابي الغنايم يمتدحه بابيات فقال الشاعر(٤٩) :

فسبحان الذي اعطاك ملكاً
وعلمك الجلوس على السرير
اتذكر انْ فراشك جلد شاةٍ
وانْ خفاك من جلد البعير

فقال له بعض من حضر : لا امّ لك تقول هذا في الرئيس والله ما ظننتُ اني قلت عيباً غير اني مدحته فضحك منه ووصله .

المدرسة المستنصرية : في الجانب الشرقي من بغداد وهي التي تكلم عنها كثيرون من العرب بانها كانت زمنا طويلا تقبل التلامذة اما الآن فقد عُجر(٤٩) هذا المحل وقد مُلِيء(٥٠) بالالات الحديدية التي جلبتها الحكومة من اوربا فترى كل قاعاتها

علي عم المنصور الذي جدد انشاءه وشيد عند مصبه في دجلة قصرا في موضع قصر سابور العتيق سمي باسم : قصر عيسى ولكن التسمية القديمة ظلت مستعملة عند بعض المؤرخين كابن الجوزي ، وياقوت الحموي . والرفيل الذي ينسب اليه هذا النهر اسمه ـ دهقان ـ من الفرس . (تجارب الامم ٦ : ٩ ، ودليل خارطة بغداد ٦٤) .

(٣٨) دعيت بذلك نسبة الى عبدالله بن محمد المعبدي وقد بنى تلكم القنطرة على نهر عيسى (معجم البلدان) : ٤٠٧ ، دليل خارطة بغداد ٨٧) .

(٣٩) سمي بذلك لانه كان يقوم عليه سوق لاهل كلواذا واهل بغداد في كل شهر مرة يوم الثلاثاء فنسب الى اليوم الذي كانت تقوم فيه السوق واليوم سوق باب الاغا (دليل خارطة بغداد ٢٤ ، معجم البلدان ٢ : ٢٨٢) .

(٤٠) (معجم البلدان ٣ : ٢٨٤) .

(٤١) نسبة الى الحجاج الوصيف مولى المهدي (بغداد مدينة السلام للهمداني ٥٨ ، تاريخ بغداد ١ : ٩٦) .

(٤٢) نسبة الى يحيى بن خالد البرمكي ، موضع السوق كان مجاورا لمشهد ابي حنيفة (انظر دليل خارطة بغداد ١١٤ ـ ١١٥ ، معجم البلدان ٣ : ٢٨٤ ، تاريخ بغداد ١ : ٩٣) .

(٤٣) الصواب سوق الريحانيين .

(٤٤) بالجانب الشرقي وهو سوق الشورجة اليوم .

(٤٥) اسواق قائمة الى اليوم في محلة باب الاغا بجانب الرصافة .

(٤٦) في محلة باب الاغا من الجانب الشرقي لبغداد قرب باب المدرسة المستنصرية (دليل خارطة بغداد ١٧٥) .

(٤٧) الصواب هو ابراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الفيروزابادي المتوفى ٤٧٦هـ ـ ١٠٨٣م ويعرف ب ابي اسحق الشيرازي وهو من مدرسي المدرسة النظامية . (الاعلام ١ : ٤٤ ، معجم البلدان ٢ : ٥ ، دليل خارطة بغداد ١٥٥ ، العبر في خبر من غبر ٢ : ٩٩) .

(٤٨) وزير السلطان ملكشاه توفي سنة (٤٨٦) . تم انشاؤها في حدود سنة ٤٨٢هـ ـ ١٠٨٩م (دليل خارطة بغداد ١٥٦) .

(٤٩) المشهور ان هذه الابيات قالها اعرابي اراد ان يثير غضب معن بن زائدة الشيباني المتوفى ١٥١هـ وكان معروفا بالحلم والكرم ، فانشد الاعرابي هذه الابيات بين يديه :

اتذكر اذ لحافك جلد شاة
واذ نعلاك من جلد البعير
فسبحان الذي اعطاك ملكا
وعلمك الجلوس على السرير
فلست مسلما ان عشت دهرا
على معن بتسليم الأمير
سارحل عن بلاد انت فيها
ولو جار الزمان على الفقير

... الخ .

فلم يستطع هذا الاعرابي اثارة (الشيباني) فاكرمه ودعا له وتعجب الاعرابي باناته وحلمه وكرمه (قصة الابيات كاملة في قصص العرب ج٣ ص ٢٤٢ تاليف محمد احمد جاد المولى وجماعة) .

(٤٩) في الاصل (انهجر) والصواب ما اثبتناه (محيط المحيط ٢ : ٢١٥٨) .

(٥٠) في الاصل (وقد املوه من الالات) والصواب ما اثبتناه (محيط المحيط ٢ : ١٩٩٦) .

مغلقة(٥١) بعد ان كانت تسكنها العلماء في ذلك العصر المجيد(٥٢) . هذا ومن الجهة المشرقة على الدجلة تقرأ الكتابة الآتية : (ثم يترك المؤلف بياضا بقدر صفحة لم يكتب فيها) .

ذكر مدارس بغداد الحالية

اين الآن(٥٣) بغداد من عظمتها السالفة فقد اندرس رونقها السالف تحت برقع الجهل والغباوة فما فيها مدارس تستحق الذكر مع انك اذا اعتبرت مدارس الاسلام تراها عديدة وربما وجدت لكل جامع قاعة انزوى فيها معلم انحصرت وظيفته على تعليم الشبان مبادىء القراءة (بالقرآن) واصول الكتابة لا غير لكن هذه ماذا تكون في هذا العصر عصر التمدن والتقدم هذا مع قطع النظر عن البعض الذين يدرسون على علماء افاضل في بغداد وفي اماكن معدّة لهم ولكن هؤلاء قليلون . اما مدارس النصارى فقليلة واحسنهن مدرسة اللاتين للاباء الكرملتانيين المحترمين يدرّس فيها الفرنساوية والعربية باصولهما مع العلوم ، والتركية قليلا وانا افتخر بكوني احد تلامذتها ولكني ارى انها الآن ليست على ما كانت عليه قبل ثلاث(٥٤) سنين غير ان حضرة رئيسها المحترم قد قال لي غير مرة : انه مهتم في امر تنشيطها وترقيتها لدرجة عالية من الاتقان فوفق الله مقاصده ونجح اعماله .

ثم لليهود ايضا مدرسة يدرّس فيها الثلاث لغات المذكورة مع العبرانية . ثم لطائفة الكلدان مدرسة يدرس فيها العربية باصولها ثم الكلدانية والفرنساوية قليلا وقد اعتنى بها معلموها(٥٥) كثيرا وكذلك لطائفة السريان مدرسة ففي هذه لا يدرس الا العربية فقط ويا حبذا لو اعتنى القوم في امر المدارس فانها لا غرو الواسطة لاسترداد ما سلبته منا ايدي الزمان وطوارق الحدثان .

ذكر جوامع وبيع وحمامات بغداد

الحالية

وفي بغداد جوامع كثيرة لكن المساجد التي يخطب فيها وتقام فيها الجمعة اثنا عشر مسجدا منها ثمانية بالجانب الغربي واربعة بالجانب الشرقي ؛ وللنصارى اربع(٥٦) كنائس لكل طايفة منهم واحدة اعني كنيسة للبواتر الكرملتان ، وكنيسة لطايفة الكلدان ، وكنيسة للسريان ، وكنيسة للارمن الكاثوليق ، وكنيسة للارمن القدماء ؛ وتوراة لليهود ، واحسن هذه البيع بيعة اللاتين فانها حسنة البناء جميلة المنظر واسعة المكان .

وفي بغداد حمامات كثيرة مسطحة بالقار ولكن بين اتقان ونظافة غيرها من البلدان المتمدنة بون عظيم(٥٧) وقد عرف ذلك من اختبر المحلين .

ذكر بغداد القديمة

لا يخفى ان بغداد التي (كان)(٥٨) عمرها الخليفة ابو جعفر المنصور(٥٩) كانت على الغرب من الدجلة ليس كما هي الآن فانها على يمينه نظرا لخراب الجانب الغربي وعمار الجانب الشرقي غير انه بنى على الساحل الغربي حارة برانية حيث اقام قلعة ولكن لم يبقَ من هذا البناء شيء الا تربة المعظم(٦٠) حيث دفن الامام ابي حنيفة ... الخ .

ذكر بعض عمارات بغداد الحالية

ومن العمارات الجميلة الشهيرة التي انشاها في بغداد سعادة مدحت باشا(٦١) في ايام اقامته فيها سراية الحكومة وقاعات العساكر ثم مدرسة عظيمة دعيت بالرشدية ثم مدرسة الصنايع ثم دار

(٥١) في الاصل (مغلوقة) والصواب ما ابتناه ، قال ابو الاسود الدؤلي :

ولا اقول لقدر القوم قد غليت

ولا اقول لباب الدار مغلوق

(محيط المحيط ٢ : ١٥٤٦) .

(٥٢) اما اليوم فقد اهتمت بها المؤسسة العامة للآثار فجددت بناءها وفتحت ابوابها للزائرين .

(٥٣) الآن يقصد به تاريخ التاليف اي مطلع القرن العشرين اما اليوم فقد عادت عظمة بغداد ومكانتها بين عواصم العالم المتحضر .

(٥٤) في الاصل (ثلاثة) .

(٥٥) في الاصل (معلميها) .

(٥٦) في الاصل (اربعة) .

(٥٧) العبارة مرتبكة وغير مستقيمة وكان الاولى والاجدر ان يقول : ولو قارنا تلكم الحمامات مع مثيلاتها في البلدان المتمدنة من حيث النظافة واتقان البناء لوجدنا بينهما بونا شاسعا وعظيما .

(٥٨) (كان) زائدة حشرها المؤلف من دون مبرر .

(٥٩) بناء بغداد على يد الخليفة ابي جعفر المنصور سنة ١٤٥هـ وارتفع بناؤها سنة ١٤٩هـ (بغداد مدينة السلام ، للهمداني ٢٨) .

(٦٠) وهي محلة الاعظمية اليوم .

(٦١) دامت ولايته من ١٢٨٥هـ – ١٢٨٨هـ (دليل خارطة بغداد ٢٢٠) .

الطباعة والمكتبة ثم مستشفى في جانب الكرخ وكل هذه الابنية على جانب عظيم من النظام والاتقان والجمال على النسق الافرنجي اللطيف وفي بغداد جسر عظيم امر بتعميره الوالي الموما اليه قبل دخول ناصر الدين شاه لبغداد سنة ١٨٧٢م يمشون عليه نهارا وليلا رجالا ونساء فهم في ذلك في نزهة متصلة غير انه اذا زادت مياه الدجلة انقطع فتقوم عوضه القوارب وهي التي يعبّرون عنها ب القفف ... ويركبها عشرة او خمسة عشر نفسا وقد تعمّر ايضا في بغداد طريق مركبات بين بغداد والكاظمية نظير الذي بين بيروت والشام وسلمت ادارته بيد الاهالي فانتفعوا منه كثيرا . وبجانب الكرخ معملان واسعان جدا يشتغل فيهما الحديد والاخشاب مما يتعلق بتعمير المراكب وغير ذلك وبجانب الرصافة قرب المدرسة المستنصرية ترى مركز ادارة البواخر العثمانية وهو بناء جميل قد قام على شكل مستطيل على الدجلة .

ذكر ما كان في بغداد من الانهار

واكثرها الى الان

نهر الخالص(٦٢) : هو شعبة من دجلة وهو نهر عظيم عليه زروع وقرى عامرة منها :

دوخلة وهي قرية كبيرة ثم ينكجه ثم سكران ثم لقمان ثم هبهب .

نهر دجيل(٦٣) : نهر مشهور وهو شعبة من دجلة عليه قرى ومزارع كثيرة .

نهر موسى : هذا يأخذ من نهرين الى ان يصل الى قصر الثريا(٦٤) ثم ينقسم الى ثلاثة انهار ويجري في الجانب الشرقي من بغداد .

نهر الملك(٦٥) : وهو نهر عظيم عليه (كان)(٦٦) ثلثماية وستون قرية على عدد ايام السنة وعليه مزارع غزيرة ويجلب منه الى بغداد فواكه وحبوب كالارز والماش والعدس وامثال ذلك .

نهر المعلى(٦٧) : هو اشهر الانهار وانفعها واعظمها . مجراه في دار الخلافة وهو مستمد من الخالص ونهر موسى .

نهر القلايين(٦٨) : يجري في بغداد في (محلها اهلها ...) كذا في الاصل .

نهر عيسى(٦٩) : عليه قرى في غربي بغداد ، ومأخذه من الفرات عند القنطرة ويصب في دجلة عند قصر عيسى .

نهر طابق(٧٠) : في محلة تسمى به بالجانب الغربي قرب نهر القلايين شرقا واصل اسمه نهر بابك(٧١) ومأخذه من كرخايا ويصب في نهر عيسى .

نهر الرفيل(٧٢) : هو نهر كبير يأخذ من نهر عيسى ويصب في دجلة عند بغداد وهو الذي عليه قنطرة الشوك .

نهر الدجاج(٧٣) : عند محلة تسمى به وهو قرب الكرخ من الجانب الغربي .

نهر الصراة : هو نهران في بغداد الواحد يأخذ من نهر عيسى من عند بلدة المحول يسقي قرى بادوريا(٧٤) ويتفرع منه انهار الى ان يصل الى بغداد ويصب في دجلة .

---

(٦٢) يتفرع من النهروان ولا تزال اثار نهر الخالص الرئيسي القديم قائمة ممكن تتبعها في منجه النهر العتيق المعروف اليوم بنهر الوزيرية الذي يسير في جهة الغرب نحو تلول باب الشام ومن ثم نهر دجلة فينتهي هناك في اسفل الراشدية (دليل خارطة بغداد ١١٠) .

(٦٣) في الاصل نهر الدجيل ، وكان هذا النهر يروي القسم الاعلى من الجانب الغربي من بغداد (مختصر التاريخ ٧٩) .

(٦٤) انشاه المعتضد ويعتبر من القصور الفخمة فقد جعل حوله جنائن زاهرة وساحات واسعة وظل القصر قائما حتى فاضت دجلة فيضانا شديدا فاحدثت خرابا عظيما في بغداد وكان من جملة ذلك خراب الثريا ولا سيما فيضان سنة ٤٦١هـ (المنتظم ٨ : ٢٥٤ ، تاريخ بغداد ١ : ١١٤ - ١١٥) .

(٦٥) ويسمى نهر ملكا فرع من الفرات وكان من السعة بحيث اعتبره البعض عمودا للفرات وقد عد القسم الذي يسير نحو الجنوب من الكوفة فرعا من الفرات (وادي الفرات ٢ : ٧٨ - ٨٥) .

(٦٦) لفظة (كان) زائدة لا مبرر لاقحامها .

(٦٧) نهر يسير باتجاه الجنوب الغربي خارج سور المستعين حتى يدخل المدينة ويدخل قصر الفردوس الذي انشاه المعتضد ويدور حوله حتى يصب في دجلة عند القصر (دليل خارطة بغداد ١٢٢) .

(٦٨) الفرع الرابع الايسر الذي يتفرع من نهر كرخايا ونقع عند هذا النهر محلة نهر القلائين (دليل خارطة بغداد ٨٢) .

(٦٩) سمي بهذا الاسم نسبة الى عيسى بن علي عم المنصور .

(٧٠) في الاصل معطاة بالالف واللام (الطابق) والصواب ما اثبتناه (بغداد مدينة السلام ، للهمداني ٤٢) .

(٧١) هو بابك بن بهرام بن بابك (بغداد مدينة السلام ٤٢ ، ودليل خارطة بغداد ٧٩) .

(٧٢) الاشهر نهر رفيل (بغداد مدينة السلام ٤٤) .

(٧٣) تاريخ بغداد ١ : ١١٣ .

(٧٤) في الاصل (قرابابادرايا) وتقع على يمين نهر الصراة

ذكر من سافر الى بغداد

من فضلاء الامصار الاجواد
اهل العلم والعمل والراي والسداد

الشيخ ابراهيم بن ادهم بن منصور بن بكر بن وابل :ـ مولده في مدينة بلخ(٧٥) سأله يوما ابراهيم بن يسار عن امره فقال : كان ابي من ملوك خراسان فخرجت للصيد وتبعت صيدا فسمعت قائلا ما لهذا خلقت فوقفت ولم ار احدا فلعنت ابليس ومن بعدها تركت أهلي وقدمت لبغداد وقال ايضا عن نفسه : انه رحل الى طرسوس وصار بستانيا فلما اشتهر هرب منها ، توفي سنة ١٦٢هـ(٧٦) .

الامام محمد بن ادريس الشافعي : مولده بمدينة غزة اخذ العلم عن مالك(٧٧) ومسلم بن خالد وسفيان بن عيينة وقدم الى بغداد(٧٨) وسمع الحديث من محمد بن الحسن الشيباني وعبدالوهاب الثقفي واسماعيل بن عُليّة وغيرهم وكان قدومه سنة ١٧٥هـ ثم رحل عنها سنة ١٧٨هـ لما امتحنت العلماء بالقبول في خلق القرآن وقد ناظر فيها بشر المعتزلي وحفص وافحمهما وخرج من بغداد وقدم الى الموصل ثم رحل الى مصر وتوفي بها سنة ٢٠٤هـ ومن نظمه قوله :

واحقّ خلق الله بالهم امرؤ(٧٩)
ذو همـّة يبلى بعيش ضيّق

وقوله :

اكل العقاب بقوة جيف الفلا
وجنى الذباب الشهد وهو ضعيف

الامام عبدالله بن محمد السمناني(٨٠) : مولده في خراسان وسمع بها ثم رحل الى بغداد وسمع بها الحديث ثم توجه منها الى الشام وتوفي سنة ٣٠٣هـ ومن شعره :

ترى المرء يهوى(٨١) ان يطول بقاؤه
وطول البقا ما ليس يشفي له صدرا
ولو كان في طول البقاء صلاحنا
اذا لم يكن ابليس اطولنا عمرا

ابو بكر محمد بن اسماعيل القفال الشاشي الشافعي(٨٢) : قدم الى بغداد واخذ عن ابن سريج وروى عن الطبري ورحل الى الشام ثم الى الحجاز وتوفي سنة ٣٦٤هـ .

ابراهيم بن علي بن يوسف الفيروز آبادي الشيرازي : مولده(٨٣) في شيراز وقدم الى البصرة وتفقه بها ثم قدم الى بغداد(٨٤) وكان إماما في المذهب والاصول والخلاف وله تصانيف كليّة منها : المهذب ، والملخص(٨٥) ، والنكت ، واللمع ، والتبصرة ، ورؤوس المسائل و (قاموسه المشهور)(٨٦) . توفي سنة ٤٢٥هـ(٨٧) ومن شعره قوله(٨٨) :

سألت الناس عن خلّ وفيّ
فقالوا ما الى هذا سبيل
تمسّك ان ظفرت بذيل حرّ
فانّ الحرّ في الدنيا قليل

امام الحرمين عبدالله(٨٩) بن عبدالله بن

في القسم الاسفل والاوسط من منطقة بغداد وكما يدعى عند العرب ما كان من شرقي الصراة (تاريخ بغداد ١ : ١١١ ، دليل خارطة بغداد ٢٠) .

(٧٥) فيه اختلاف فبعض المؤرخين قال في لزة ، والآخر في اليمن وآخر في الشام والاشهر في غزة (الاعلام ٢ : ٥٦ ، طبقات الشافعية الكبرى ٦ : ٢٥٠ ، تاريخ بغداد ١ : ١٨٥) .

(٧٦) اختلف في وفاته ففي البداية والنهاية (١٠ : ١٢٥) ، وتهذيب ابن عساكر ٢ : ١٦٧ أن وفاته سنة ١٦٠هـ ، وفي الاعلام ١ : ٢٤ وفاته ١٦١ ، وفي دائرة المعارف الاسلامية ١ : ٢٣ وفاته ١٦٢ .

(٧٧) مالك بن انس ، ومسلم بن خالد الزنجي ، وعبدالوهاب ابن عبدالمجيد الثقفي (تاريخ بغداد ٢ : ٥٦) .

(٧٨) قدم الى بغداد مرتين الاولى سنة ١٩٥ ، والثانية سنة ١٩٨ (تاريخ بغداد ٢ : ٦٨) .

(٧٩) في الاصل امرءا (طبقات الشافعية الكبرى ١ : ٢٠٥) .

(٨٠) ترجمته في هدية العارفين (١ : ٤٤٣) كما يلي : عبدالله ابن محمد بن عبدالله بن يونس بن عبدالله (ابو الحسين) السمناني (الانساب للسمعاني ٧ : ٢٤٠) .

(٨١) في الاصل (ان يهوى) والصواب ما ذكرناه ، انظر البيت في (معجم البلدان ٣ : ٢٥٢) .

(٨٢) هو محمد بن علي بن اسماعيل القفال ، وفاته ٣٦٥هـ (وفيات الاعيان ؛ : ٢٠٠ ، الاعلام ٧ : ١٥٨) .

(٨٣) سنة ٢٩٣هـ وفيه اختلاف (الاعلام ١ : ٤٤) .

(٨٤) كان ذلك سنة ٤١٥هـ (وفيات الاعيان ١ : ٣١) .

(٨٥) في الاصل (التخليص) (الاعلام ١ : ٥) وابن خلكان في وفيات الاعيان ١ : ٢٩ سماه : التلخيص في علم الجدل .

(٨٦) هذا وهم من المؤلف حيث خلط بين المترجم له وبين مجد الدين الفيروز ابادي المتوفى ٨١٧هـ صاحب القاموس المحيط .

(٨٧) وهم المؤلف فوفاة المترجم له سنة ٤٧٦هـ (الاعلام ١ : ٤٤ ، وفيات الاعيان ١ : ٢٩) .

(٨٨) وفيات الاعيان (١ : ٢٩) .

(٨٩) الصواب عبدالملك بن عبدالله (الاعلام) : ٣٠٦ ، وفيات الاعيان ٣ : ١٦٧) .

يوسف الجويني : إمام العلماء وصاحب التصانيف منها : نهاية المطلب . قدم الى بغداد واخذ عن مشايخها واخذوا عنه الكثير ثم رحل الى الحجاز واقام بمكة والمدينة اربع سنين يدرس ويفتي ويصنف ثم توجه الى نيسابور ومات بها سنة ٤٧٨هـ وعند موته اغلقت الاسواق (وسكرت)(٩٠) الحوانيت وكان(٩١) تلامذته نحو اربعمائة فكسروا محابرهم واقلامهم حزنا .

محمد بن محمد بن محمد بن احمد الغزالي : مولده بمدينة طوس(٩٢) قرأ على امام الحرمين وقدم الى بغداد ودرس بالنظامية ثم تزهد وحج ، ومن تصانيفه : البسيط ، والوسيط ، والخلاصة ، والوجيز ، والمنخول ، والمنتحل في علم الجدل . توفي سنة ٥٠٥هـ .

القاضي حسين بن محمد المعروف ب ابن سكرة :ـ مولده بالاندلس ، قدم الى بغداد وسمع من البانياسي واخذ عن ابي بكر الشاشي(٩٣) وذهب الى دمشق وحج وعاد الى الاندلس ومات بها سنة ٥٢٤هـ(٩٤) .

ابو بكر بن الوليد الاندلسي :ـ مولده(٩٥) في مدينة طرطوشة بلد اقصى بلاد الاندلس سافر الى بغداد وتفقه على الشاشي والجرجاني(٩٦) ثم رحل الى الشام وسكنها ودرس بها . توفي سنة ٥٢٠هـ ، وله شعر منه :

اذا كنت في حاجة مرسلا
وانت بانجازها مغرم
فارسل باكمه خلابة
به صمم اغطش ابكم
ودع عنك كل رسول سوى
رسول يقال له درهم(٩٧)

محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي : اصله من خوارزم وكان حنفي المذهب له تصانيف منها : الكشاف ، والمفصل في النحو ، و (المطول)(٩٩) في البيان ، وكان اماما في الاعتزال . قدم الى بغداد واخذ عن مشايخها الكثير واخذوا عنه الوفير والغزير ورحل الى مكة وجاور فيها(١٠٠) فسمي جارالله ثم رجع عن الاعتزال آخر عمره . توفي سنة ٥٣٨هـ ، ومن نظمه :

يا من يرى مد البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الاليل
ويرى مناط عروقها(١٠١) من لحمها
والمخ في تلك العظام النحل
امنن علي برحمة معهودة
لك يا الهي في الزمان الاول(١٠٢)

وله ايضا(١٠٣) :

وقائلة : ما هذه الدرر التي
تساقط من عينيك سمطين سمطين؟
فقلت : لها الدر الذي كان قد حشا
ابو مضر اذني تساقط من عيني

(٩٠) في الاصل و (تسكرت) والصواب ما ابتناه (يراجع معاجم اللغة مادة سكر) .
(٩١) في الاصل (وكانوا) وهذا لا يجوز الا على لغة اكلوني البراغيث .
(٩٢) ولادته سنة (٤٥٠هـ ـ ١٠٥٨م) (الاعلام ٧ : ٢٧) ، وفيات الاعيان ٤ : ٢١٦) .
(٩٣) محمد بن احمد الشاشي المتوفى سنة ٥٠٧هـ (الاعلام ٦ : ٢١٠) .
(٩٤) وفاته في الاعلام ٥١٤هـ (الاعلام ٢ : ٢٧٩) .
(٩٥) هو محمد بن الوليد بن محمد القرشي الفهري الاندلسي المكنى ب ابي بكر الطرطوشي مولده سنة ٤٥١هـ ـ ١٠٥٩م ، واختلف في وفاته ، ففي وفيات الاعيان سنة ٥٢٠ (٤ : ٢٦٤) اما الزركلي في الاعلام (٧ : ٣٥٩) فقد ثبت وفاته سنة ٥٢٠ الا انه ذكر مصادر الاختلاف فيها .
(٩٦) هو ابو بكر محمد بن احمد الشاشي المعروف ب المستظهري ، والجرجاني هو علي بن احمد (وفيات الاعيان ٤ : ٢٦٢) .

(٩٧) الابيات منسوبة الى الطرطوشي (وفيات الاعيان ٤ : ٢٦٢) .
ولابن فارس اللغوي بيتان يشتملان على اكثر الفاظ هذه الابيات وهما :
اذا كنت في حاجة مرسلا
وانت بها كلف مغرم
فارسل حكيما ولا توصه
وذاك الحكيم هو الدرهم
(انظر وفيات الاعيان ٤ : ٢٦٢) .
(٩٨) ابن احمد في الاعلام ٨ : ٥٥ .
(٩٩) لم يؤلف الزمخشري مثل هذا الكتاب .
(١٠٠) في الاصل (بها) .
(١٠١) في وفيات الاعيان (٥ : ١٧٢) ويرى عروق نياطها في نحرها .
(١٠٢) ويروى البيت في وفيات الاعيان (٥ : ١٧٣) بالصورة الآتية :
اغفر لعبد تاب من فرطاته
ما كان منه في الزمان الاول
(١٠٣) في رثاء شيخه ابي مضر منصور (وفيات الاعيان ٥ : ١٧٢) .

علي بن ابي الوفا ابن مسهر(١٠٤) الموصلي :ـ كان شاعرا اديبا رئيسا مقدما سافر الى بغداد وامتدح الخلفاء وعاد الى الموصل وتوفي بها سنة ٥٤٣هـ . ومن شعره(١٠٥) :

ولما اشتكيت اشتكى كلما
على الارض واعتلّ شرق وغرب
لانك قلب لجسم الزمان
وما صحّ جسم اذا اعتلّ قلب

احمد بن محمد : وقيل ، سعد بن محمد المشهور بـ الحيص بيص :ـ مولده بالري(١٠٦) وتأدب وتفقه بها قدم الى بغداد وكان يلبس زي العرب ويتقلد بالسيف وفيه طيش وتيه حتى قال فيه ابن ابي الفضل(١٠٧) شعر :

كم تبارى وكم تطول طرطورا
وما فيك شعرةٌ من تميم
فكلِ الضب واقرض الحنظل اليا
بس واشرب ماشيت بول الظليم
ليس ذا وجه من يضيف ولا يقر
ي ولا يدفع الاذى عن حريم

فاجابه :

لا تضع من عظيم قدري وان كنـ
ـت مشارا اليه بالتعظيم
فالشريف الكريم ينحط وزراً
بالتجري على الشريف الكريم

حكي ان الحيص بيص سكر يوما في بغداد وقتل جرو كلب فاخذ ابو القاسم بن ابي الفضل(١٠٨) كلبة وعلق في عنقها قصبة واطلقها عند باب الوزير(١٠٩) فاخذت القصبة من عنقها فوجد فيها ورقة مكتوب فيها هذه الابيات(١١٠) شعرٌ :

يا اهل بغداد ان الحيص بيص اتى
بخزية اورثته العار في البلد
ابدى شجاعته في الليل مجترياً
على جري ضعيف البطش والجلد
فانشدت امه من بعد ما احتسبت
دم الابيلق عند الواحد الصمد
اقول للقلب تأساة وتعزية
احدى يدي اصابتني ولم ترد
كلاهما خلف من بعد صاحبه
هذا اخي حين ادعوه وذا ولدي

توفي سنة ٥٧٤هـ(١١١) .

علي بن القاسم بن علي بن الحسن المعروف بـ ابن عساكر(١١٢) : مولده بدمشق وقرأ بها وتعلم العلم الوافي ثم جاء الى بغداد واخذ عن علمائها ثم راح الى خراسان وسمع الحديث ورجع فجرحه اللصوص في الطريق وعند وصوله الى بغداد مات

---

(١٠٤) هو علي بن سعد بن علي المعروف بـ ابن مسهر الموصلي (الاعلام ٥ : ١٠١ ، وفيات الاعيان ٣ : ٢٩١) .

(١٠٥) الابيات في وفيات الاعيان (٣ : ٢٩٢) .

(١٠٦) ولادته في بغداد سنة ٤٩٢)هـ (ديوان حيص بيص ١ : ٢٧) .

(١٠٧) الصواب هو : هبة الله بن الفضل المعروف بـ ابن القطان المتوفى سنة ٥٥٨هـ والابيات ترد في ديوانه المذكور اعلاه (الديوان ١ : ٤١) :

كم تبادى وكم تطول طرطو
رك ما فيك شعرة من تميم
فكل الضب واقرض الحنظل اليا
بس واشرب ما شئت بول الظليم
ليس ذا وجه من يجير ولا يقر
ي ولا يدفع الاذى عن حريم

فاجابه حيص بيص :

لا تضع من عظيم قدر وان
كنت مشارا اليه بالتعظيم
فالشريف الكريم ينقص قدرا
بالتعدي على الشريف الكريم

(الديوان ١ : ٤٢) .

(١٠٨) هو ابن القطان المار ذكره .

(١٠٩) يقصد به : علي بن طراد الزينبي .

(١١٠) وردت الابيات في الديوان المطبوع (١ : ٢)) بالصورة الاتية :

يا اهل بغداد ان الحيص بيص اتى
بفعلة اكسبته الخزي في البلد
هو الجبان الذي ابدى تشاجعه
على جري ضعيف البطش والجلد
وليس في يده مال يديه به
ولم يكن ببواء عنه في القود
فانشدت جمدة من بعد ما احتسبت
بت دم الابيلق عند الواحد الصمد
(اقول للنفس تاساء وتعزية
احدى يدي اصابتني ولم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه
هذا اخي حين ادعوه وذا ولدي)

(١١١) ودفن في مقابر قريش بالكاظمية اليوم (ديوان حيص بيص ١ : ٤٨) .

(١١٢) مرآة الجنان ٣ : ٣٥ ، التكملة لوفيات النقلة ٤ : ٢٨٤ ، النجوم الزاهرة ٦ : ٢٤٦ .

سنة ٦٠٦هـ وفيه يقول ابن عنين(١١٣) يهجوه مع فرط علمه وذكائه . شعر :

يا ابن العساكر ان صح انتسابك ذا
فانت من امم صورت مسبوكا
يا ابن الدجاجة كل الناس كان لها(١١٤)
اب(١١٥) فانت ابن من حتى اناديكا

فلما راى الاديب الاريب امين المصري(١١٦) الشاعر الموصلي هذين البيتين قد اثبتهما في ديوان قال مجيبا عن ابن عساكر :

يا من كمنين له نسبة
ما هذه النسبة امر حسن
تعير الناس بانسابهم
ابوك عنينا فانت ابن من ؟

عبدالله الكردي : علامة العلوم ، مولده في جبال الاكراد سافر الى بغداد واخذ عن علمائها الاجواد ثم سافر الى دمشق وسكنها ثم غلب عليه الحال فالقى كثيرا في الماء ، توفي سنة ١٠٠٣هـ(١١٧) .

صفي الدين بن محمد الكيلاني : نزيل مكة مولده في كيلان اتقن فيها العلوم ثم قدم الى بغداد وصاحب علمائها وقرأ الطب وبرع فيه ثم عاد الى الحج وسكن مكة ومن فراسته مرت عليه يوما جنازة فقير فدعي به فنظر اليه واخذ شيئا من العطار ونفخ في انفه ففاق الميت وجلس فسألوه كيف عرفت ذلك قال : نظرت اقدامه واقفة فعلمت انه حي وطالما صدر مثل ذلك ولم يستحسن به الناس (فلذلك عند الافرنج عادة)(١١٨) لا يرفعون الميت قبل مرور اربعة وعشرين ساعة وناهيك انها عادة مفيدة وحميدة . توفي سنة ١٠١٠هـ(١١٩) .

الوليد بن عبادة(١٢٠) البحتري : الشاعر المشهور صاحب الديوان الموفور مولده بمدينة منبج وتادب بها وسافر الى بغداد وامتدح الخليفة المتوكل ومولده سنة ٢٠٦هـ ومات بها سنة ٢٨٣هـ(١٢١) . حكي عنه قال : صرت في اول امري الى ابي تمام في مدينة حمص وعرضت عليه شعري فاقبل عليّ وترك الناس وسألني عن حالي فشكوته الفاقة فكتب الى اهل المعرة وشهد لي بالحذاقة والفهم فلما وصلت الى المعرة وامتدحتهم فاكرموني واقاموا لي باربعة آلاف درهم فكانت اول مال اصبته . قيل ان البحتري شرب يوما مع ابي(١٢٢) هفان عند بعض الرؤساء فلما خرجا ركب البحتري فرسه واردف وراءه ابو هفان ، فانشد هذا ارتجالا . يقول : شعر :

تلبس للحرب اثوابها
وقال انا الشاعر البحتري
فلما راى الخيل قد اقبلت
اذا هو في سرجه قد خرى(١٢٣)

فغضب البحتري ودفعه فرماه الى الارض .
ومن شعره في المتوكل(١٢٤) :

اخفي(١٢٥) هوى لك في الضلوع واظهر
والام في كمد عليك واعذر
بالبر صمت وانت افضل صائم
وبسنة الله الرضي تفطر
فانعم بيوم الفطر عيدا(١٢٦) انه
يوم اعز من الزمان مشهر
اظهرت عز(١٢٧) الملك فيه بجحفل
لجب يحاط الدين فيه وينصر

(١١٣) توفي سنة ٦٣٠هـ (ديوان ابن عنين ٣) .
(١١٤) في الاصل : له ، (ديوان ابن عنين ٢٠١) ومحقق الديوان يترجم ابن عساكر غير الذي نحن بصدده فيقول : ابن عساكر تاج الامناء ابو الفضل احمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله ولد ٥٤٢هـ وتوفي ٦١٠ وهذا وهم من المحقق (ديوانه ٢٠١) .
(١١٥) في الاصل (ديكا) (الديوان ٢٠١) .
(١١٦) محمد امين بن خيرالله بن محمود بن موسى الخطيب العمري ولد ١١٥١هـ وتوفي ١٢٠٣هـ . (الاعلام ٦ : ٢٦٧ ، منهل الاولياء (مقدمة المحقق سعيد الديوهجي).
(١١٧) ترجمته في خلاصة الاثر ، للمحبي (٣ : ٨٥) .
(١١٨) العبارة مضطربة وكان الاولى به ان يقول : والافرنج عادة ... الخ .
(١١٩) ترجمته في خلاصة الاثر (٢ : ٢٤٤ - ٢٤٥) .
(١٢٠) الوليد بن عبيد وكنيته (ابو عبادة) (ديوان البحتري ص٣) .
(١٢١) الاشهر انه ولد ٢٠٤هـ وتوفي ٢٨٤هـ (الاعلام ٩ : ١٤١ تاريخ بغداد ١٣ : ٤٤٦) ، المنتظم لابن الجوزي (٦ : ١١) (وفيه وفاته ٢٨٥هـ) .
(١٢٢) في الاصل مع (ابو)
(١٢٣) الابيات في وفيات الاعيان (٢ : ١٧٥) ، تاريخ بغداد (١٣ : ٤٤٦) ، معاهد التنصيص (١ : ٢٢٤) .
(١٢٤) ويذكر خروجه يوم الفطر (ديوان البحتري ١٠) .
(١٢٥) في الاصل (اخف) .
(١٢٦) وقع المؤلف في نفس الغلط الذي وقع فيه جامع الديوان حيث ذكر (وعينا) والصواب ما اثبتناه (عيدا) .
(١٢٧) في الاصل (عن) (١٢٨) في الديوان (فالخيل) ص١١ .

والخيل[١٢٨] تصهل والفوارس تدعي
والبيض تلمع والاسنة تزهر
والشمس طالعة توقد[١٢٩] في الضحى
طوراً ويطفيها العجاج الاكدر
حتى طلعت بنور وجهك فانجلى
ذاك الدجى وانجاب ذاك العثير[١٣٠]
وافتن منك الناظرون فاصبع[١٣١]
يؤمي اليك بها وعين تنظر
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا
لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت الى المصلى لابساً
نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع
لله لا يزهى ولا يتكبر
فلو ان مشتاقاً تكلف فوق ما[١٣٢]
في وسعه لسعى إليك المنبر
ابدت من فصل الخطاب بحكمة
تنبي عن الحق المبين وتخبر
ووقفت في برد النبي مذكراً
بالله تنذر تارة وتذكر[١٣٣]

وهي طويلة وفي هذا كفاية اشارة لفضله وعلو نهاه .

ابو الطيب احمد بن الحسين المتنبي : الشاعر المشهور صاحب الفضل الموفور مولده بالكوفة في محلة (كندة) ولذلك نسب اليها . كان ابوه سقاء بالكوفة ولذلك قال فيه الشاعر[١٣٤] :

اي فضل لشاعر يطلب الفضل
من الناس بكرة وعشيا
عاش حينا يبيع بالكوفة الماء
وحينا يبيع ماء المحيا

ولما كبر وانتشى سولت له نفسه عصيان ربه نادعى النبوة في برية السماوة[١٣٥] وتبعه بنو كلب فخرج اليه نائب حمص[١٣٦] وقبضه وهربت امته وجعل في رجليه وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف ، فانشد المتنبي :

زعم المقيم بكوتكين بانه
من آل هاشم ابن عبد مناف
فاجبته مذ صرت من ابنائهم
صارت قيودهم من الصفصاف[١٣٧]

ودخل عليه ابن والي حمص وهو محبوس فوجده منزعجا فقال له : اصبر كما صبر اولوا[١٣٨] العزم من الرسل فقال له المتنبي : وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ثم تاب وحسن اسلامه فاطلقه .

وديوانه مشهور وقد طبع في مصر وبيروت واشعاره فايقة على كل شعر .

سافر الى بغداد وامتدح بها ثم خرج منها فلما وصل الى دير العاقول خرج عليه : فاتك بن ابي جهل ابن فارس من بني اسد ومعه جماعة فعرفوه وتذكروا هجاءه الشنيع لضبة الاسدي وهو هجاء لااذكره لاخراجه عن دائرة الادب فلما عرفوه حملوا عليه فعزم على الهرب فذكره غلامه قوله :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني
والطعن والضرب والقرطاس والقلم[١٣٩]

فقال له قتلتني لانه عرف اذا رجع يقتل وهكذا جرى فانه لما كر راجعا اخذ يحاربهم حتى قتل وذلك سنة ٣٥٤هـ .

بركة بن ابي يعلى الضرير[١٤٠] : مولده بالانبار وبها تعلم وتأدب ثم قدم الى بغداد ونظم فيها الاشعار

اغالب وجدي فيهم وهو غالب
واحبس دمعي وهو في الخد ساكب
وقد عيل صبري واعترتني وساوس
تمانعني طيب الكرى وهو آيب

(١٢٩) في الديوان (والشمس ماتمة) ص١١ .
(١٣٠) البيت في الديوان ص١١ :
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت
تلك الدجى وانجاب ذاك العثير
(١٣١) في الاصل (فاصبح) والصواب ما اثبتناه (الديوان ١١) .
(١٣٢) في الديوان (فيرما) ص١١ .
(١٣٣) في الديوان (وتبشر) ص١١ .
(١٣٤) البيتان في مقدمة ديوان المتنبي ـ شرح البرقوقي صه ، في وفيات الاعيان (١ : ١٢٤) .
(١٣٥) في الاصل (سماوة) .

(١٣٦) هو لؤلؤ بن علي الهاشمي ، وكان قد قبض عليه في قرية يقال لها : كوتكين (العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب ٦٣٦) .
(١٣٧) البيتان في العرف الطيب ٦٣٦ .
(١٣٨) في الاصل (صبروا اولوا) .
(١٣٩) يروى البيت في العرف الطيب ٦٣٦ بالصورة الاتية :
الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم
(١٤٠) هو بركة بن ابي يعلى بن ابي القنائم الانباري الضرير ، من رجال القرن السادس الهجري (نكت الهميان في نكت العميان ١٢٥) .

وقد حرت لما أصبح الركب راحلا
وقد توضت نيرانهم والمضارب
حدا بهم الحادي فاضحيت بالحمى
كئيباً وقد ضاقت علي المذاهب(١٤١)

توفي سنة ٥٧٠هـ .

الفضل بن جعفر المعروف بالبصيري(١٤٢) . مولده الكوفة وبها تادب ونظم الاشعار .

قدم الى بغداد وامتدح الخليفة المتصم ، والمتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ... وكان يجلس مع اخوانه للشرب فيقوم لحاجته ويتخطى الزجاج والكأس ويعود ، واختل عقله قبل موته فكان ينشد:

خبا مصباح عقل ابي علي
وكانت تستضيء به العقول
اذا الانسان مات الفهم منه
فان الموت بالباقي كفيل(١٤٣)

توفي سنة ٢٥٥هـ .

الحسين بن احمد الهمداني المعروف بـ ابن خالويه(١٤٤): مولده بمدينة همدان وبها تادب وتعلم ونظم الشعر . قدم الى بغداد وقرا على السيرا في ورحل الى الشام وسكن حلب . كان اماما في النحو له تصانيف منها : الجمل في النحو ، واعراب ثلاثين سورة من القرآن ، كتاب الاشتقاق ، وكتاب المقصور والممدود ، والمذكر والمؤنث ، ومن شعره :

اذا لم يكن صدر المجالس سيداً
فلا خير فيمن صدرته المجالس
وكم(١٤٥) قيل لي مالي رأيتك راجلاً
فقلت له : من اجل انك فارس(١٤٦)

توفي سنة ٣٧٠هـ .

ابراهيم بن عثمان بن محمد الغزي : مولده بمدينة غزة(١٤٧) . وبها درس وتعلم جاء الى بغداد وأقام بالمدرسة النظامية سنين واياما ورحل الى خراسان وظهر بها فضله الى ان توفي سنة ٥٢٤هـ .

وله ديوان اشعار ما يزيد على الف بيت ، منه:

حملنا من الايام مالا نطيقه
كما حمل العظم الكسير العصايبا(١٤٨)
وليل رجونا ان يدب عذاره
فما اختط حتى صارقي الفجر شايبا(١٤٩)

وقوله :

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة
باب البواعث والدواعي مغلق(١٥٠)
خلت الديار فلا كريم يرتجى
منه النوال ولا مليح(١٥١) يعشق
ومن العجائب انه لا يشترى
ويخان(١٥٢) فيه مع الكساد ويسرق

قيل انه قبل مماته هجر الشعر وغسل كثيرا من نظمه بعد ان نظم هذه الثلاثة ابيات التي ذكرناها.

محمد بن يوسف موفق الدين الاربلي : مولده بمدينة اربل(١٥٣) وبها تأدب وتعلم ونظم الاشعار الرائقة كان بارعا بالعروض والشعر واللغة وكان له يد بكتاب اقليدس بالهندسة . سافر الى بغداد وامتدح بها الاجواد وحظي منهم بنعمة وعاد الى بلده وامتدح صاحب اربل زين الدين يوسف ، منه(١٥٤) :

رب دار بالحمى طال بلاها
عكف الركب عليها فبكاها
كان لي فيها زمان وانقضى
فسقى الله زماني وسقاها
قل لجيران مواثيقهم
كلما احكمتها(١٥٥) رك قواها
كنت مشغوفا بكم اذ كنتم
شجراً لايبلغ الطير ذراها

(١٤١) الابيات ذكرها الصفدي الموما اليه في نفس الصفحة من نكت الهميان .
(١٤٢) هو الفضل بن جعفر بن يونس النخعي توفي سنة (٢٥٥هـ – ٨٦٩م) الاعلام ٥:٢٥١ ، معجم الشعراء ٢١٤ ، نكت الهميان ٢٢٦ .
(١٤٣) نكت الهميان ٢٢٦ .
(١٤٤) ترجمته في الاعلام(٢ : ٢٤٩) ، ووفيات الاعيان(٢ : ١٧٨) طبقات الشافعية (٢:٢١٢) .
(١٤٥) في وفيات الاعيان ٢:١٧٩ (وكم قائل) .
(١٤٦) البيتان في وفيات الاعيان (٢:١٧٩) .
(١٤٧) ولادته سنة ٤٤١هـ (الاعلام ١:٤٤) .

(١٤٨) وفيات الاعيان ١:٥٨ .
(١٤٩) في المصدر السابق نفس الصفحة يروى الشطر الثاني : فما اختط حتى صار بالفجر شايبا .
(١٥٠) المصدر السابق ايضا (١:٥٨) ورد الشطر الثاني : باب الدواعي والبواعث مغلق .
(١٥١) في الاصل (مليحا) المصدر السابق ١:٥٨ .
(١٥٢) في الاصل (ويخاف) المصدر السابق ١:٥٨ .
(١٥٣) ولادته في البحرين سنة ٥٨٥هـ (الاعلام ٨:٢٣) .
(١٥٤) الابيات في وفيات الاعيان (٥:١٠) .
(١٥٥) في وفيات الاعيان ٥:١٠ (رثت) .

وأذا مـا طمـع أغـرى بـكم
عـرض اليـأس لنفسي فنثنـاهـا
فصـبابـات الهـوى اولهـا
طمـع النفس وهـذا منتـهاهـا
لاتظنـوا بي[١٥٦] اليكـم رجعـة
كشف التجريب عن عيني غطاهـا[١٥٧]
إن زيـن الديـن أولاني يـدأ
لـم تـدع لـي رغبـة فيمن سواهـا

توفي سنة ٥٨٥هـ .

---

(١٥٦) في وفيات الاعيان ٥: ١٠١ (لي) .
(١٥٧) في وفيات الاعيان ٥: ١٠١ (عماها) .

★ ★ ★

مصادر التحقيق والتقديم

١ ـ الاعلام ـ لخيرالدين الزركلي ـ ط ٢ المصورة ـ بيروت ١٩٦٩ .
٢ ـ الانساب ـ لعبدالكريم بن محمد السمعاني ـ ط ١ حيدر آباد الدكن ـ الهند ١٩٧٦ .
٣ ـ البداية والنهاية : لعماد الدين ابي الفداء اسماعيل ابن عمر المعروف بـ ابن كثير ـ ط السعادة ـ مصر .
٤ ـ بغداد مدينة السلام ـ لابن الفقيه الهمداني ـ تحقيق : الدكتور صالح احمد العلي ـ ط ١ دار الطليعة للطباعة والنشر ـ باريس ١٩٧٧ .
٥ ـ تاريخ بغداد ـ للخطيب البغدادي ـ الطبعة المصورة ـ دار الكتاب العربي بيروت .
٦ ـ تجارب الامم ـ لابي علي احمد بن محمد ، ابن مسكويه ـ ط مصر .
٧ ـ التكملة لوفيات النقلة ـ لابي محمد عبدالعظيم المنذري ـ تحقيق : بشار عواد معروف ـ ط الاداب ـ النجف ١٩٦٨ ـ ١٩٧١ .
٨ ـ تهذيب ابن عساكر : لابي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ـ ط الشام ١٣٣٠هـ .
٩ ـ جمهرة المراجع البغدادية ـ لكوركيس عواد ، وعبدالحميد العلوجي ـ ط الرابطة ـ بغداد ١٩٦٢ .
١٠ـ خلاصة الاثر ـ لمحمد المحبي ـ ط الوهبية ـ مصر ١٢٨٤هـ .
١١ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ لجماعة ـ القاهرة ١٩٣٣ .
١٢ـ دليل خارطة بغداد ـ للدكتور مصطفى جواد ، والدكتور احمد سوسة ـ ط المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ١٩٥٨ .
١٣ـ ديوان ابن عنين ـ تحقيق : خليل مردم ـ دمشق ١٩٤٦ .
١٤ـ ديوان البحتري ـ ط ١ ـ الجوائب ـ القسطنطينية ١٣٠٠هـ .
١٥ـ ديوان حيص بيص ـ تحقيق : مكي السيد جاسم ، وشاكر هادي شكر ـ مطبوعات وزارة الاعلام (الثقافة والفنون) بغداد ١٩٧٤ .
١٦ـ ديوان علي بن الجهم ـ تحقيق : خليل مردم ـ مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٩ .
١٧ـ شرح ديوان المتنبي ـ لعبدالرحمن البرقوقي ـ ط ٢ الاستقامة ـ القاهرة ١٩٣٨ .
١٨ـ شعراء بغداد ـ للشيخ علي الخاقاني ـ ط اسعد بغداد ـ ١٩٦٢ .
١٩ـ طبقات الشافعية الكبرى ـ لتاج الدين السبكي ـ تحقيق : محمود الطناحي ، وعبدالفتاح الحلو ـ ط ١ ـ عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ .
٢٠ـ العبر في خبر من غبر ـ للحافظ الذهبي ـ تحقيق : فؤاد سيد ـ ط الكويت ـ ١٩٦١ .
٢١ـ العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب : للشيخ ناصيف اليازجي ـ ط الادبية ـ بيروت ١٣٠٥هـ .
٢٢ـ قصص العرب ـ لمحمد احمد جاد المولى وجماعة ـ ط ٣ ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ .
٢٣ـ كشف الظنون ـ لحاجي خليفة ـ النسخة المصورة التي نشرتها المكتبة الاسلامية بطهران ـ ١٩٦٧ .
٢٤ـ مجلة لغة العرب ـ للاب انستاس ماري الكرملي ـ السنة ٣ ، ج ٧ ، ص ٢٣٨ مقال : رزوق عيسى .
٢٥ـ محيط المحيط : لبطرس البستاني ـ النسخة المصورة ـ بيروت ١٨٧٠ .
٢٦ـ مختصر التاريخ : لظهير الدين البغدادي المعروف بـ ابن الكازروني ـ تحقيق : الدكتور مصطفى جواد ـ ط الحكومة ـ بغداد ١٩٧٠ .
٢٧ـ مرآة الجنان : لعبدالله اليافعي ـ الطبعة المصورة ـ منشورات مؤسسة الاعلمي ـ بيروت ١٩٧٠ .
٢٨ـ معاهد التنصيص : لعبدالرحيم بن عبدالرحمن العباسي ـ ط البهية ـ القاهرة ـ ١٢٠٤هـ .
٢٩ـ معجم البلدان : لياقوت الحموي ـ ط دار صادر ـ بيروت ١٩٥٧ .
٣٠ـ معجم الشعراء : لمحمد بن عمران المرزباني ـ تحقيق : عبدالستار احمد فراج ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٦٠ .
٣١ـ معجم المؤلفين العراقيين : لكوركيس عواد ـ ط الارشاد ـ بغداد ١٩٦٩ .
٣٢ـ المنتظم : لابن الجوزي ـ ط دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن ـ الهند ١٣٥٧هـ .
٣٣ـ منهل الاولياء ـ لمحمد امين العمري ـ تحقيق : سعيد الديوه‌جي ـ ط الجمهورية ـ الموصل ١٩٦٧ .
٣٤ـ النجوم الزاهرة ـ لابن تغري بردي ـ الطبعة المصورة عن طبعة دار الكتب القاهرة .
٣٥ـ نكت الهميان في نكت العميان ـ لصلاح الدين خليل الصفدي ـ تحقيق : احمد زكي ـ القاهرة ١٩١١ .
٣٦ـ هدية العارفين ـ لاسماعيل باشا البغدادي ـ الطبعة المصورة ـ طهران ١٩٦٧ .
٣٧ـ وادي الفرات ـ للدكتور احمد سوسة ـ ج ١ ط الحكومة ـ بغداد ١٩٤٤ ، ج ٢ ط المعارف ـ بغداد ١٩٤٥ .
٣٨ـ الوافي بالوفيات : لصلاح الدين خليل الصفدي ، ج ١ ط ٢ باعتناء هلموت ريتر ١٩٦٢ .
٣٩ـ وفيات الاعيان ـ لابن خلكان ـ تحقيق : الدكتور احسان عباس دار الثقافة ـ بيروت .

اقدم وثيقة عثمانية عن بغداد

تعريب وتعليق وتحشية :

عطا ترزي باشي

كركوك ـ محافظة التاميم ـ الجمهورية العراقية

ان الوثائق التاريخية المتعلقة بالعراق في ايام العهد العثماني والموجودة حاليا في مكتبات استانبول وفي ارشيف المستندات الخطية هناك تشكل عددا هائلا لا يستهان به ؛ ومن المؤسف ان الباحثين لم يبذلوا جهدا يذكر في تدقيق هذه الوثائق وترجمتها الى اللغة العربية للافادة منها في قطرنا . ويعود السبب في ذلك الى العناء والمشاق التي يتحملها الباحث في الكشف عن تلك الوثائق وتحقيق محتوياتها وترجمتها بشكل علمي صحيح ؛ فان الامر يتطلب جهدا متواصلا في البحث والتحري وعناءا كبيرا في قراءة النصوص قراءة سليمة اذ هي مكتوبة على الاغلب بخط ديواني معقد او بما يشابهه من خط عربي قديم تصعب على الشخص العادي قراءته ، بالاضافة الى صعوبة فهم لغتها التركية المنمقة المليئة بالكلمات الفارسية والعربية المولدة ، وبالمصطلحات التاريخية المستعملة في ذلك العهد .

ولذا فان عدد ما نشر من هذه الوثائق لا يتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة .. ومن ضمن هذه المنشورات اطلعت على اقدم وثيقة وصلتنا حتى اليوم وتهم تاريخ العراق في العهد العثماني . هي تلك التي نشرها السيد خليل اينالجق في مجلة « بلكه لر »(١) التي يصدرها مجمع التاريخ التركي بانقرا . وهي وثيقة ذات قيمة تاريخية كبرى تهم الباحثين والمؤرخين في العراق لاحتوائها على معلومات جديدة وطريفة عن التاريخ الضرائبي والمالي في العراق خلال حقبة من الزمن . وهي توجب تصحيح كثير من المعلومات التي اوردها المؤرخون في مؤلفاتهم الحديثة(٢) .

ان هذه الوثيقة تلقي الضوء على الحياة الاجتماعية والسياسية في العراق ؛ ليس في العهد العثماني فحسب ؛ وانما في عهود دولتي الـ (آق قوينلي) و (الصفويين) ايضا . وقد عثر عليها ناشرها في مكتبة بايزيد العامة(٣) باستانبول فنشرها ضمن مجموعة كبيرة من الوثائق المماثلة والخاصة بسائر انحاء الامبراطورية . وقد قدم تلك المجموعة بدراسة عامة مسهبة عن ماهية وتاريخ هذا النوع من الوثائق . الا ان الوثيقة المتعلقة بالعراق منها لم تحظ بعناية الناشر ؛ فجاءت خالية عن اي تعليق يذكر . ومهما يكن من شيء فان الفضل في هذا الشأن يعود له لعرضه اياها لاول مرة في عالم النشر .

ويرجع تاريخ هذه الوثيقة الى سنة ٩٤٣هـ . وهي صادرة من السلطان سليمان القانوني الى والي ولاية بغداد وقاضيها . وهي تعد اقدم وثيقة عثمانية معروفة لدينا عن العراق ؛ وان كان قد ورد في صلبها اشارة الى وثيقة اخرى من نوعها صادرة من نفس السلطان بعد استيلائه على بغداد مباشرة في سنة ٩٤١هـ . ولكننا نجهل نصها .

واما الوثيقة التي نحن بصدد موضوعها فهي مؤرخة في ٤ رمضان ٩٤٣هـ . وبذلك يكون هذا التاريخ موافقا لتاريخ ١٤ شباط ١٥٣٧ الميلادي حسب ما ذكره ناشر الوثيقة ؛ و ١٩ شباط ١٥٣٧ وفق

(١) بعدديها الرقمين ٣ و ٤ من المجلد الثاني الصادر في عام ١٩٦٥ .

(٢) ولا سيما ما ورد في كتاب « تاريخ الضرائب العراقية » للمرحوم عباس العزاوي ، المطبوع في سنة ١٩٥٨ .

(٣) خزانة ولي الدين افندي ، الرقم ١٩٧٠ .

ما ينطق به « دليل تحويل التواريخ الهجرية الى الميلادية » (٤) .

ويستبان من فحوى الوثيقة انها تسمى بـ « امر » و « حكم » . فهي قرار بمثابة قانون . وتسمى بـ (عدالتنامة) اي كتاب العدل لانها تتضمن الامر برفع الحيف الذي يلحق بالمواطنين من جراء فرض ضرائب ورسوم باهظة عليهم ...

وتتميز هذه الاوامر السلطانية عن (الفرامين) و (البراءات) بكونها لمصلحة الشعب وليس لمصلحة فرد او اشخاص معينين . فلا يرد فيها ذكر لاسم الشخص الثالث او للمصلحة المقررة له كما هو الحال في الفرامين والبراءات التي تصدر باسماء اصحابها ، وتتضمن ماهية المصلحة المخصصة لهم كما في تعيين زيد بوظيفة معينة او كمنح مقاطعة لعمرو .. وبذلك يمكن عد الاوامر السلطانية بمثابة قوانين تشرع لمصلحة المواطنين كافة او لمصلحة فئات تقطن بمنطقة معينة من البلاد كما هو الحال في الوثيقة موضوعة البحث حيث ان احكامها تسري على سكان ولاية بغداد التي كانت تشتمل آنذاك على كل ارجاء العراق تقريبا . ويتحتم على المسئولين في المنطقة المشمولة باحكامها . وهم كل من والي الولاية وقاضيها ورؤساء الوحدات الادارية الاخرى التابعة لها في ذلك العهد وقضاتها ، تنفيذ محتوياتها فورا ..

ويلاحظ من نص هذه الوثيقة ان السلطان يأمر الوالي والقاضي بوجوب الاعلان عنها في الاماكن العامة المكتظة بالجماهير ، وتفهيم صيغتها وفحواها لهم . وكان المنادون يدعون الناس للتجمع في تلك المحلات للاصغاء الى اوامر السلطان التي يتلوها عليهم قاضي البلد علنا ويوضح لهم ما فيها من الاحكام .

وكان السلطان يتحقق عن صحة نشر الاعلان لاوامره وعن سير العمل في تنفيذها بوسائل عديدة منها التقاؤه بالناس عند تجواله في الولايات او اجتماعه بهم متنكرا في زي رجل معتاد . وكان يرسل بين حين واخر اعوانه وجواسيسه خفية الى جميع انحاء الامبراطورية للغرض نفسه . كما ان هيئات التفتيش للدولة كان لها دور بارز في هذا الشان . وبالاضافة الى كل ذلك ديوان خاص للمظالم ، ينظر في شكوى المواطنين ضد المسئولين من الولاة والقضاة وغيرهم . وكان السلطان يشرف بنفسه على هذا الديوان ، وينزل العقوبات الصارمة بحق المقصرين من المسئولين في تنفيذ اوامره .

ويقصد من اصدار هذه الاوامر تحقيق العدل بين المواطنين وتوفير الامن لهم . وكذلك الحيلولة دون استغلال المتنفذين والمسئولين في الدولة مراكزهم الحساسة وسلطاتهم الواسعة في منافع واغراض شخصية .

ويتضح من مضمون هذه الوثيقة ان كاهل المواطنين كان قبل مجيء السلطان سليمان القانوني الى العراق مثقلا بعبء كبير من الضرائب والرسوم التي فرضتها عليهم حكومة الصفويين . فقد الغى القانوني بهذا الامر اكثر من خمسة عشر لونا من الوان الضرائب والرسوم الباهظة التي كانت تستوفى من المكلفين عينا او نقدا(٥) .. وقد تقرر بموجب هذا الامر اعفاء جميع المكلفين ممن يشيدون ابنية حديثة على العرصات من الضريبة لمدة سنة كاملة وذلك تشجيعا للحركة العمرانية في البلاد كما جاء في اسبابه الموجبة . وهذا المبدأ الذي احدثه القانوني قبل اكثر من اربعة قرون قد اقره المشرعون المعاصرون ايضا . فاخذ مكانه اللائق في القوانين الحديثة التي تنظم احكام الايجار .

ويفهم من فحوى الوثيقة التي نحن بصددها ان السلطان سليمان القانوني كان ينظر الى اهل العراق نظرة حب ومودة . وهو يرجع سبب ذلك الى كونه قد انقذهم شخصيا من ظلم الصفويين وان مؤسس دولتهم الشاه اسمعيل الخطائي(٦) كان شاعرا من الغلاة الباطنيين . وله ديوان شعر كبير متداول بين الناس ، وقد كتبه باللهجة التركمانية.. وكان القانوني بدوره شاعرا مجيدا وصاحب ديوان شعر باللغة التركية ، وكان الصراع المذهبي عنيفا بينهما . ولعل مرد ذلك هو التنافس على السلطة .. وتنطق هذه الوثيقة عن قيام القانوني بالغاء جميع الضرائب والرسوم الاضافية التي كان الصفويون قد فرضوها على

(٤) للاستاذ فايق رشيد اونات . والكتاب هو من منشورات مجمع التاريخ التركي بانقرا وقد طبع في سنة ١٩٧٤ .

(٥) يلاحظ ان هناك فرقا بين الرسم والضريبة هو ان الرسم يستوفى من الافراد كمقابل لما يبذله المستوفي من خدمة خاصة يقدمها لهم . في حين ان الضريبة تستوفى دون اداء خدمة خاصة وانما لتغطية بعض النفقات العامة للدولة . على ان تداخل المصالح المالية والادارية وتضاربها مع بعضها جعل تمييز الرسوم عن الضرائب امرا صعبا في تلك العهود . ولكن الرسوم كانت لها الصفة الغالبة .

(٦) خطائي هو اللقب الشعري له .

العراق . وتثبت ما كان منها مقررا في عهد الاق قوينلية .

ويتضح من اجراء الموازنة بين اصناف الضرائب والرسوم ومقدارها المستوفى من المواطنين ان هناك تفاوتا كبيرا بينها في العهدين العثماني والصفوي .

وتكشف لنا هذه الوثيقة عن اسم قاض عينه القانوني على قضاء ولاية بغداد وهو (قاضي زادة شيخ محمد) . وربما كان وكيلا للوالي ايضا حيث لم يذكر اسم الوالي في تلك الوثيقة اضافة لوظيفته . ولم يكن لنا علم بالقاضي المشار اليه قبل اطلاعنا على هذه الوثيقة . وقد وهم المرحوم عباس العزاوي فيما ذكره من ان المولى مصلح الدين مصطفى النيكساري كان اول قاض ببغداد في العهد العثماني . اذ كان حسب قول العزاوي مدرس مغنيسيا واعيد لقضائها سنة ٩٤٧هـ(٧) . ونعتقد ان القاضي الذي ورد ذكر اسمه في الوثيقة هو نفس قاضي بغداد الذي مدحه الشاعر محمد فضولي البغدادي (المتوفى سنة ٩٦٣هـ) في احدى قصائده حيث سماه بـ (مير سيد محمد غازي)(٨) .

وهناك جوانب اخرى يمكن للباحثين الافادة منها عند دراسة هذه الوثيقة التي ترجمناها الى اللغة العربية .. ولقد راعيت في التعريب اسلوب الترجمة الحرفية نصا ومعنى وذلك باستعمال نفس الكلمات العربية الموجودة فيها اصلا ، وبترجمة الكلمات والعبارات الاخرى بما يقابلها في العربية مع المحافظة التامة على المعنى بحيث يشعر القارىء العربي انه يطالع الاصل التركي للوثيقة . فيستفيد منها كما يستفيد من النص الاصلي تماما . وما اضفته من عندي الى الترجمة من الكلمات والعبارات اكمالا للمعنى ، فقد وضعتها بين قوسين (   ) لكي لا تفقد الوثيقة قيمتها التاريخية . فاسلوب ترجمتنا هو اقرب الى الاسلوب العلمي منه الى الاسلوب الادبي .

واما اسلوب الوثيقة نفسها فهو اسلوب صعب ولكنه واضح وجميل . فبالرغم من ان الجمل مرتبطة ببعضها ارتباطا مسلسلا بحيث تتكون كل جملة من عشرات الكلمات ، الا ان معناها مفهوم لنا باستثناء موضعين . نعتقد بسقوط بعض الحروف والكلمات عنهما اثناء طبع الوثيقة ، وقد اشرنا الى ذلك في الحاشية . وكانت الدقة العلمية تفرض علينا وجوب مراجعة اصل المستند ، الا ان ذلك لم يتيسر لنا في الوقت الحالي .. واما التكرار الذي نلحظه في بعض العبارات من النص المطبوع فان مرده الى التأكيد على فحوى الموضوع وتذكير بالمعنى لطول العبارة الذي اقتضاه اسلوب كتابة الوثيقة . ولقد ابقيت العبارات او الجمل المكررة في الترجمة ايضا وذلك حرصا مني على صون قيمة الوثيقة التاريخية .

× × ×

وفيما يلي نقدم الترجمة الكاملة للوثيقة مع الحواشي اللازمة :

« حكم(٩) (موجه) الى امير امراء(١٠) بغداد وقاضيها :

لقد سبق صدور امر(١١) بوجوب مسك سجل تدون فيه مجددا الاحوال التفصيلية لولاية بغداد دار السلام المحمية . فقدم الينا (من بغداد) في الوقت الحالي من هو فخر الاماجد والاكارم (الشيخ محمد قاضي زادة) زيد مجده ؛ وحل في عتبة داري العلية العالية الشمول ، وتيمن بسدتي السنية المباركة . وعرض على مقامي المعزز والموفور بالحبور ، المستوجب للسرور انه بمقتضى امري الجليل القدر، قد مسك سجلا حرر فيه بالتفصيل شئون الولاية المشار اليها ودون فيه القواعد والقوانين التي كانت مقررة للرعايا(١٢) والبرايا(١٣) في السنين الماضية من عهد السلاطين المعروفين بعدالة اجراءاتهم . ثم شرح ما كان قد شرعه من بعدهم القزلباش(١٤) الاوباش(١٥) من المظالم والبدع(١٦) . وبما ان تلك الولاية قد

(٧) العزاوي ، القضاء في العراق في ايام العهد العثماني ، مجلة « القضاء » التي تصدرها نقابة المحامين العراقيين ببغداد ، العدد ٥ ، السنة ٩ ، تموز ١٩٥١ . وانظر في كتابه « تاريخ العراق » ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ ، بغداد ١٩٤٩ .

(٨) ديوان فضولي المطبوع في الاستانة سنة ١٩٢٤ ، ص ٦٥ – ٦٧ منه .

(٩) اى قرار بمثابة قانون .

(١٠) وفي النص المطبوع (بكلر بكي) ؛ وهو وال بدرجة وزير ، وكان يتمتع بصلاحيات واسعة لا يمتلكها غيره من الولاة .

(١١) اى حكم أو قرار بمثابة قانون كما ذكرناه .

(١٢) الرعايا لغة جمع رعية بمعنى القوم ، واصطلاحاهم المواطنون الخاضعون للرسم او الضريبة .

(١٣) البرايا لغة جمع بربة بمعنى الخلق ، واصطلاحا : الناس الفقراء الذين يشكلون سواد الشعب .

(١٤) طائفة معروفة من الغلاة .

(١٥) اى سفهاء الناس واراذلهم .

(١٦) جمع بدعة بكسر الباء ، لفظة مولدة تعني الضلالة او الباطل ، ولعلها محرفة من فصل بدع بمعنى الزع . واصطلاحا تطلق على التشريعات الجائرة .

فُتحتها بحد سيفي الظافر ، المقرون بعلو عناية الله سبحانه وتعالى ، وظهور معجزة هدى سيد الكائنات عليه افضل الصلوات ، وبقدسية ارواح الخلفـاء الراشدين العظام رضوان الله عليهم اجمعين ، فان رعيـة تلك الولاية يجب ان ينالوا وافـر عطفـي واهتمامي وكامل شفقتي وعدلي . لذا فقد امرت ان تظل جميع العادات [اي الرسوم] المعروفة التي كانت سائدة في عهد المرحوم حسن باشا(١٧) غفر الله له [ذنوبه] ونور مرقده مرعية [في الوقت الحالي] والغيت كليا جميع المظالم والبدع التي احدثت في عهد القزلباش . فمنذ اليوم يجب ان لا يحصل اي ظلم او اعتداء على اهالي تلك الولاية او على احد افراد رعاياها وبراياها ، خلافا للشريعة الطاهرة وللقانون المرعي . ويجب السير وفق النسق الذي امرت به . وقد ارسلت هذا الامر الملزم [للمسئولين] والواجب الاتباع [من قبلهم] وقضيت انه عنـد وصوله [اليك] ان شاء الله الاعز ، وهو (امر) مقبول في نطاق العالم وواجب الاتباع : ان يقرأ بالتمام علنا في جميع الممرات الواقعـة في مـدن الولاية وقصباتها والاماكن التي يجتمع فيها الناس . وان عليك ان تعلن [للملأ] القوانين والقواعد المقررة [من قبلي] بعد الغاء البدع الحادثة وتطبيقها [من النفاذ] بصدور امري العادل (هذا) فيطلع الرعية على [ماهية] التكاليف المفروضة عليهم . فيؤدون [رسـوما وضرائب عن] حـاصـلاتهم بموجبها . وينبغي ان لا يتوقع احد [بعد اليوم] حصول اي اعتداء عليه او الظلم به من قبل شخص ما [من المسئولين والمتنفذين] . ويجب عليك ان تتصف بالعدل المتواصل الذي يرضيني . وان تقوم بالاشراف على اموال الرعية والبرية بصورة دائمة . وان لا تسكت على استيفاء قرش(١٨) واحد من اي فرد يزيد على الحد المقرر في القانون القديم(١٩) . وعليك ان لا تضيع دقيقة واحدة [من وقتك] في ابداء المساعي الحميدة بشأن اعانة المظلومين، واهانة الظالمين . وعلى سبيل المثال (نقول) انه كانت تستوفى (من المواطنين) في الولاية المشار اليها ما يسمى ب (چهار ماهه)(٢٠) و (رسـم استيفـاء) وكانت تستوفى من المحصـولات التي تبلغ قيمتهـا الفي آقچه(٢١) (مبلغ قدره) مائتان وثماني عشرة آقچه بالاضافة الى مائة واربعين منا من الشعير . وكانت تستوفى من مجموع الحاصلات ثلاثة طغارات من كل مائة طغـار من (التـركة)(٢٢) تحت اسـم (صديه)(٢٣) . وبما ان هذه التكاليف مظلمة وجور محض فانني الغيتها ايضا . وعليك منذ اليوم عدم افساح المجال لاستيفاء حبة واحدة عما يسمى بچهار ماهه ورسم استيفاء وصديه خلافا لامري . ويجب عليك ان تعتبر هذه التكاليف ملغية ومرفوعة وان تزيل هذه الاسماء (او المصطلحات) عن تلك الولاية .. لقد كان في ايام عهد المرحوم حسن بك المشار اليه (اعلاه) يستوفى من اصحاب الجواميس اثنان و عشرون آقچه من كل شخص ، ولم يكن يستوفى اكثر من ذلك . الا انه في ايام القزلباش اخذوا يستوفون عشرين الف آقچه والفي مـن من الدهن باسم (ضريبـة او رسم) (پيشكش)(٢٤) وبالاضافة الى ذلك صاروا يستوفون اثنين وعشرين آقچه عن كل راس من الجاموس وما مقداره خمس آقچات باسم (ميرانه)(٢٥) فضلا عن استيفاء (عشر) عن هذا المبلغ . فقد الغيت هذه (الرسـوم او الضرائب) ايضا . فعليك عدم افساح المجـال لاستيفاء هذه البدع (اي الرسوم او الضـرائب

(١٧) هو (اوزون حسن) اي حسن الطويل ، سلطان الآق قوينلية الذي استولى على بغداد سنة ٨٧٤هـ (١٤٧٠م) ، وتوفي سنة ٨٨٢هـ (١٤٧٧ م) .

(١٨) ورد في النص (آقچه) . انظر الحاشية رقم ٢١ ادناه .

(١٩) ويقصد به قانون السلطان حسن الطويل .

(٢٠) لفظة فارسية مكونة من كلمة چهار بمعنى الاربعة وكلمة ماه بمعنى الشهر فيكون معنى اللفظة مع الهاء الملحقة بآخرها « الاربعة اشهرية » ان صحت التسمية . ولعلها كانت ضريبة تستوفى من الحاصلات الموسمية القصيرة المدة .

(٢١) آقچه ، لفظة تركية تعني السكة البيضاء وبالاحرى الضاربة للبياض . وهي تطلق على نقد فضي كان وزنه في عهد القانوني ثلاث قراريط ونصف القيراط . وكان يسك آنذاك في بغداد ايضا بعيار ٨٥د. من الفضة ..

(٢٢) التركة اصطلاحات هي الغلال كالقمح والشعير .

(٢٣) لفظة محرفة حسب اعتقادنا من (صديك) الفارسية بمعنى الواحد بالمائة .

(٢٤) لفظة فارسية بمعنى الهدية او (بالعرضة) العامية .

(٢٥) وتعني الاميرية اي حصة الامير .

الجائزة) المسماة بـ (بيشكش) و(ميوانه) و(عشر) .. وهناك في نواحي مهرود[٢٦] وطريق خراسان[٢٧] والخالص مهنة « السكارية » ، وان النصف (من الناتج) خاص والنصف الاخر يعطى الى من يقوم بعمل السكر . عليك ان تثبت هذا الخصوص بحسب العادة القديمة وذلك بتخصيصه الى القائم بالعمل المذكور عن طريق (التيمار)[٢٨] . فيكون القائم والمشرف على العمل متصرفا وفق العرف المعتاد قديما .. وهناك في كل قرية (كارخ)[٢٩] يقوم منذ قديم الايام بزراعة ارض بمقدار طغار واحد يتصرف بالحاصل لنفسه . واما اليوم فان الكارخين قد تركوا زراعة الارض واخذوا يستوفون من رعايا كل قرية ستة طغارات من المحصول ظلما . لقد رفعت هذه المظلمة فيمنع الكارخون منذ اليوم عن استيفاء اي شيء من الرعية . ولهم ان يزرعوا حسب العادة القديمة ارضا تخصص لهم من قبل (الامارة) (بمساحة تكفي للزراعة) بمقدار طغار واحد لكل كارخ ، فيتصرف بمحصولها لنفسه .

وعليهم (اي على الكارخين) ان يمارسوا عملهم دون استيفاء اي شيء من الرعية . . و (علمنا) أن القائمين على (شؤون) الحصاد يستوفون كميات من الغلال باسم (عليق)[٣٠] و (زكار دسته)[٣١] فانني الغيت ذلك أيضا . وعليك أن لا تسمح (لأحد) بأستيفاء ما ذكر (من الضريبة او الرسوم من المواطنين) . . و (علمنا) انه تستوفى من اصحاب الاغنام شاة واحدة من كل ثلاثمائة شاة باسم (چوبان بكي)[٣٢] وان المباشرين[٣٣] لهذا العمل يستوفون ثلاث آقچات من كل قطيع ظلما ، ومن كل ثلاثمائة غنم ما يسمى بـ (كرو)[٣٤] وبعد استيفاء هذه الرؤوس الستة[٣٥] فان المباشرين يأخذون شاة اخرى . وان الكاتب والمحصل[٣٦] يأخذان غصبا من كل عشيرة بغلا وشركا[٣٧] . لقد الغيت (كل هذه الرسوم اي) رسم چوبان بكي ورسم كرو والعشر آقچات الاضافية من چوبان بكي ورسم الغنم من كرو والبغل وشرك للكاتب والمحصل . فعليك ان لا تدع مجالا لاحد في استيفائها بعد اليوم .. وان نا[٣٨] المتواجدات في مركز بغداد المحمية[٣٩] بداخل السور ؛ وفي الجانب الغربي من الجدول (اي الساقية) ، وفي مركز الحلة كانت معفاة (من الرسوم) ، فلم يكن يستوفى منها شيء . فانني بكامل شفقتي وعطفي (على اهالي محافظة بغداد) امرت بان يكون الاعفاء المذكور ساري المفعول (في عهدي ايضا) . فعليك ان لا تسمح لاحد باستيفاء اي شيء (بهذا الشأن) .. وهناك في الولاية

(٢٦) ورد هذا الاسم الجغرافي في النص المطبوع على شكل (مهزود) . وورد في الكتب القديمة على صورة (مهروذ) ، وفي التاريخ الغياثي على شكل (مهرود) . ويسمى في الوقت الحالي بـ (مهروت) . ويطلق على منطقة تشكل مع خراسان والخالص صدور جداول ديالى حيث يسمى الجدول الذي يمر من مهروت بنفس الاسم .

(٢٧) طريق خراسان هي محافظة ديالى الحالية باستثناء الخالص ومهروت حيث انهما كانتا ناحيتين مستقلتين .

(٢٨) التيمار هي الارض الاميرية التي كانت تمنح من قبل السلطان الى رؤساء الخيالة وكبار موظفي الدولة كحصة من بيت المال لقاء مشاركتهم في الحروب والفتوحات باسلحتهم ومعداتهم الخاصة لهم .

(٢٩) هو القائم بعملية توزيع المياه على البساتين .

(٣٠) اي الشعير ونحوه مما تعلفه الدابة .

(٣١) لفظة فارسية تتكون من اداة (ز) بمعنى من وكلمة (كار) بمعنى العمل وكلمة (دسته) بمعنى الباقة او الحزمة . وبذلك يكون معنى اللفظة الظاهري « من عمل الباقة » .

(٣٢) لفظة تركية تتكون من كلمتين هما (چوبان) بمعنى الراعي و (بك) بمعنى الأمير ، والياء الملحقة باخر كلمة بك هي للاضافة . فيكون معنى اللفظة اللغوي « أمير الراعي » .

(٣٣) ورد في نص الوثيقة لفظ (وارنلر) ومعناه الواصلون اي المباشرون المستوفون للضرائب والرسوم .

(٣٤) وردت هذه اللفظة بكسر الكاف وفتح الراء وسكون الواو، ولعلها (كره) المحرفة من (الكراء) العربية بمعنى اجرة الدابة .

(٣٥) يبدو أن هناك عبارة ساقطة اثناء الطبع ، او ان (كرو) الآنف الذكر هو مصطلح مالي يطلق على ضريبة عينية مقدارها ستة رؤس من الأغنام تستوفى من المكلفين .

(٣٦) المحصل هو الموظف المكلف بجباية اموال الدولة .

(٣٧) لم اعثر في المعجمات التركية على كلمة شرك وهي بالكاف النونية ، ولعلها محرفة عن (ششك) بمعنى الجذع من الغنم .

(٣٨) لم افهم معناها ، ولعلها صدر للفظة (ناعور) وقد سقط عجزها اثناء الطبع .

(٣٩) اي المحفوظة من الآفات والمصائب .

المشار اليها (بغداد) من يمتلك حق (المالكانه)(٤٠) تقررت لهم ذلك . فانهم يستمرون على تصرفهم القديم بالشكل المتعارف عليه . ويجب ان لا يعارضهم احد في ذلك خلافا للشرع الشريف والقانون ما دام هذا الحق مخصصا لهم منذ قديم الزمان .. وان هناك في الولاية المشار اليها عرصات خالية . وان اشخاصا يأتون من الخارج (اي من خارج المدينة) ويرغبون في عمارتها ؛ فانني امرت بان لا يدفع هولاء اي شيء (من الضرائب) لمدة سنة واحدة . وبعد ذلك يستوفى منهم خمس مجرد(٤١) فعليك السير على هذا النوال واعفاء من يعمرون الخربات (من الضريبة) وعدم استيفاء اي شيء منهم لمدة سنة واحدة . وبعد ذلك يستوفى منهم خمس مجرد فقط دون مطالبتهم باية زيادة . وذلك لكي تعمر الخربات وتزدهر في ايام دولتي .. و (علمنا) انه في بغداد المحمية والاماكن الاخرى التابعة لها (ان بعض الاشخاص من المتنفذين) يدخلون البيوت ويعتدون على اهلها وياخذون منهم غصبا وظلما العلف والمأكولات والدجاج والاغنام والخرفان باسم (آقجه سوز)(٤٢) وان المواطنين متضجرون من هذا العمل تماما . فعليك ان لا تسمح بعد اليوم (لاحد) بالاعتداء على اهل احد وعياله وارغامهم على دفع اي شيء من قبيل آقجه سوز .. و (علمنا) انه تغتصب مزارع النخيل والبساتين من بعض الاشخاص كرها ، ويعتدى عليها بزراعتها بالمحصولات . عليك ان تمنع هذا العمل ايضا .. ويجب ان تكون على علم من ان جميع المظالم والمخاوف التي حلت بالولاية المشار اليها في عهد القزلباش الاوباش قد ازيلت (بهذا الامر) .. وفي ضوء ذلك يجب ان تكون مجدا وساعيا مقداما ومهتما بخصوص طمأنينة (اهل) الولاية ورفاهية المواطنين وامنهم وراحتهم واستقرار امورهم ..

في ٤ ن سنة ٩٤٣(٤٣) بمقام ادرنه » .

---

(٤٠) المالكانه هي الاراضي أو المزارع التي كانت تمنح للعسكريين والمدنيين ممن يسدون خدمة للدولة ، وكان لهم حق استغلالها والتصرف بها تصرف المالك المطلق على قيد الحياة .

(٤١) خمس مجرد ، لفظة مولدة ، والظاهر انها ضريبة تعادل خمس الضريبة التي يسددها غير المتزوجين للدولة .

(٤٢) تكون هذه اللفظة من آقجه التركية بمعنى النقد وسوز الفارسية بمعنى الحارق ، فيكون معنى اللفظة الحرفي هو حارق النقد أي مبدده .

(٤٣) يلاحظ ان حرف النون في التقويم الهجري رمز لشهر رمضان .

فصول من كتاب
«نيل المراد في احوال العراق وبغداد»

تاليف

عباس بن جواد بن رجب البغدادي

تحقيق

عبد الحسين مجيد

متوسطة حي الحسين ـ كربلاء
الجمهورية العراقية

من الاثار المخطوطة المؤلفة عن بغداد في العصر الحديث كتاب نيل المراد في احوال العراق وبغداد للسيد عباس بن جواد بن رجب بن عبدالله البغدادي انتهى من تاليفه في الخامس من شهر شعبان سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة والف للهجرة .

عثرنا على نسختين مخطوطتين من الكتاب . الاولى في خزانة المتحف العراقي ببغداد تحمل الرقم ٩٠٩٢ وهي ضمن المخطوطات التي ابتاعها المتحف من ورثة عباس العزاوي .

تقع هذه النسخة في ٥٠٥ ص مكتوبة بخط جميل جدا ومموّنة بالحمرى . كتبها : عبدالرزاق اللا محمد الحاج فليح البغدادي في ٦ محرم ، ١٣٥٥هـ .

اما النسخة الثانية فهي نسخة الباحث الاستاذ كوركيس عواد والتي هي اليوم ضمن مخطوطات مكتبة الدراسات العليا في كلية الاداب ببغداد تحمل رقم (٩٥) وهي بخط المؤلف وتقع في ٢٣٥ صفحة تمت كتابتها في ٥ شعبان ١٣٣٣هـ وقد اشار اليها الاستاذان عبدالحميد العلوجي وكوركيس عواد في كتابهما : جمهرة المراجع البغدادية ص٢٣٥ .

وقد اعتمدنا في استخراج هذه الفصول على هاتين النسختين .

اما ترجمة المؤلف فلم اعثر عليها في المراجع الحديثة لذا اعتمدت على ماكتبه عباس العزاوي في صدر مخطوطة الكتاب التي كانت بحوزته وهي مختصرة جدا لم تزد على ايراد اسمه واسم ابيه وجده ولقبه اما سنة وفاته فلم اعثر عليها .

للبغدادي مؤلفات وآثار غير هذا الكتاب هي :

١ ـ الروض النضر في اسماء السادة اهل بدر . قصيدة طويلة نظمها وضمنها اسماء اهل بدر ، انتهى من نظمها في شهر ربيع الآخر سنة ١٣٢٣هـ . تقع في ٦٨ بيتاً وفي ثنايا هذه المنظومة تعرض الى حال الناس في عصره وما هم عليه من بؤس وشقاء وكذلك رجع الى الوراء الى ايام بني العباس كيف كان حال العراق وبغداد وساكنيه وابدى تذمره وشكواه من اوضاع بغداد ايام زمانه .

مطلع القصيدة :

اقول بعد البدء بسم الله
حمدا لمن جل عن الاشباه

وفيها يقول :

فكيف كانت اولا بغداد
وما الذي كان بها يراد

كانت عروس الملك في الاقطار
مصونة عن وصمة الاكدار

آخرها :

نجزت ولله الحمد في شهر ربيع الآخر من عام ثلاث وثلاثين وثلثمائة .

٢ - مجموعة شعرية تحوي بعض القصائد ، والمقطوعات .

ونيل المراد يبدأ اوله : بعد البسملة والحمد . اما بعد : فهذه نبذة يسيرة تتعلق بذكر احوال العراق من القرى والبلاد سيما عن قلادته بغداد فقد صرفت اكثر البحث اليها لابيّن ما جرى عليها من الحوادث والعواصف ... اما آخره : وهذا ماتيسر للضعيف جمعه على حسب الطاقة والامكان وتعاقب مصائب هذا الزمان واستحالة الحال وتشويش البال فالمرجو ممن وصل هذا المختصر اليه ووقع شريف نظره عليه ان يصفح عما فيه من الخطأ والنسيان وانا لم آل جهداً في صحة التبيان فان مقام العصمة عظيم لم يثبت لغير القرآن الكريم ... الخ .

اما فصوله ومحتوياته فالقسم الاول منه يبدأ بدراسة المدن والقصبات العراقية دراسة وافية تتسم بالطابع التاريخي العام ، أما القسم الثاني من الكتاب ففيه ذكر بغداد قبل المتغلبين واسمائها ، محلاتها ، مقابرها ، انهارها ، حدائقها ، قصورها ، نباتاتها وازهارها . ومقالة لما جرى على بغداد من المحن والمصائب والفتن حيث يترجم لخلفاء بني العباس . وبعدها يتعرض لمساجد بغداد الحالية ومشاهدها ومدارسها الحديثة والفتن التي حدثت في عصره . اما ما اخترته من موضوعات الكتاب فهي :

اسماء بغداد وماقيل فيها ، متنزهات وقصور بغداد ، جوامعها ، محلاتها ، جسورها ، مدارسها بساتينها ، بغداد الحديثة ، اخلاق اهلها .

★

« ذكر ما قيل في اسماء بغداد واوصافها »[1]

ومن اسمائها الزوراء قيل لا زوراء قبلتهـاي لانحرافها[2] ، وقيل لان المنصور لما بناها جعل ابوابها الداخلة مزورة اي منحرفـة عن ابوابهـاالخارجة • وقيل لازورار دجلتها وفي الخبر قال علي بن ابي طالب (ع) : سمعت النبي (ص) يقول :تكون مدينة بين الفرات ودجلة يكون فيها ملك بني العباس وهي الزوراء يكون فيها حرب مفضعةتسبى فيها النساء وتذبح فيهـا الرجال كما يذبح الغنم •

ومن اسمائهـا : دار السـلام[3] وفي سبب تسميتها بذلك قولان : الأول : السـلام اسـم لدجلة[4] ، والثاني انه يسلم فيها الخلفاء •

ويقـال ان اسمهـا بك دار ، ومعنى بكبالتركية : الرب ودار : العادل • وقيل غير ذلك • وهي مدينة عظيمة تذكر وتؤنث وكانت من القرىالقديمة اختارها ابو جعفر وبنى فيها مدينة فكانت ام الدنيا وسيدة البلاد ومدينة السلام[5] وقبـةالاسلام حتى قيل : بغداد في البلاد كالاستاد في العبـاد[6] هواها ألطف من كل هـواء وماؤهااعذب من كل ماء وتربتها أطيب من كل تربـة • ومن اوصافها انها لم يمت فيها خليفة[7] ولذلكقيل فيها[8] :

قضى ربنـا ان لا يموت خليفـة   بهـا انـه ما شاء في خلقـه يقضي

وقال آخر[9] :

طيب الهـواء ببغداد يشوقني   قرباً اليهـا وان عاقت مقادير[10]
وكيف ارحل عنها اليوم اذ جمعت[11]   طيب الهـوائين ممدود ومقصـور

---

(١) ص١٣٦ من مخطوطة الدراسات العليا ، ص٢٠٧من مخطوطة المتحف العراقي .
(٢) الحموي ، معجم البلدان ٣ : ١٥٦ ، ١ : ٤٥٦
(٣) نفس المصدر ٢ : ٤٢١ .
(٤) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ١ : ٥٨ ،معجم البلدان ٥ : ٧٩ .
(٥) البكري ، معجم ما استعجم ١ : ٢٦٢ .
(٦) العمري ، غاية المرام ١٧ .
(٧) إلا الخليفة الامين فانه قتل في شارع باب الانباروحمل راسه الى طاهر بن الحسين وهو في معسكره (تاريخ بغداد ١ : ٦٨) .
(٨) البيت من قصيدة لعمارة بن عقيل بن بلالالخطفي المتوفى ٢٣٩هـ مطلعها :

اعاينت في طول من الارض او عرض   كبغـداد داراً انهـا جنـة الارض

(ديوان عمارة ٩٧ ، تاريخ بغـداد ١ : ٦٨وفيها ينسب هذه الابيات لمنصور النمري) .
(٩) البيتان في تاريخ بغداد ١ : ٥٤ رواهمـاعلي بن محمد بن حبيب الشـافعي البصـري المعروف بـ الماوردي صاحب الاحكام السلطانية رواهما عن اخيه الذي كان بالبصرة وهـو ببغداد . وذكرهما ياقوت ، معجم البلدان١ : ٤٦٣ .
(١٠) الشطر الثـاني في تاريخ بغـداد ١ : ٥٤(قدماً إليها وان عاقت معاذير) .
(١١) الشطر الاول في تاريخ بغـداد ١ : ٥٤(فكيف صبري عنها الآن إذ جمعت) .

وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي المالكي[١٢] :

سلام على بغداد في كل موطن ... وحق لها مني السلام المضاعف[١٣]
فوالله ما فارقتها عن قلى لها ... واني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علي برحبها[١٤] ... ولم تكن الاقدار[١٥] فيها تساعف
وكانت كخل كنت اهوى دنوه ... واخلاقه تنأى به وتخالف

والطف من ذلك قول ابن الرومي[١٦] :

بلد صحبت بها الشبيبة والصبا ... ولبست ثوب العيش وهو جديد
فاذا تمثل في الضمير رأيته ... وعليه اغصان الشباب تميد

ولبعضهم وقد اجاد :

آهاً على بغدادها وعراقها ... وظبائها والسحر في أحداقها
ومجالها عند الفرات باوجه ... تبدو أهلتها على أطواقها
متبخترات في النعيم كأنما ... خلق الهوى العذري من اخلاقها
نفسي الفداء لها فاي محاسن ... في الدهر تشرق من سنا اشراقها

والطف من ذلك قول القاضي ابي الحسن علي بن النبيه من قصيدة :

أنست بالعراق بدراً أميرا ... نضوت غيها وخاضت هجيرا
واستطابت ريا نسائم بغداد فكانت لولا البرا أن تطيرا
ذكرت من مسارح الكرخ روضاً ... لم يزل ناظراً وماء نميرا
واجتنت منه ريا المحول نورا ... واجتلت من مطالع التاج نورا

وقال آخر :

لهفي على بغداد من بلدة ... كانت من الاسقام لي جُنّة
كانني عند فراقي لها ... آدم لما فارق الجنة

---

(١٢) ترجمته في وفيات الاعيان ٣ : ٢١٩ – ٢٢٨وفيه توفي ٤٢٢هـ ؛ والابيات في ص ٢٢٠ منه ، ومعجم البلدان ١ : ٤٦٢ .
(١٣) في وفيات الاعيان ٣ : ٢٢٠ سلام مضاعف .
(١٤) نفس المصدر السابق : بأسرها .
(١٥) نفس المصدر السابق : الأرزاق .
(١٦) الابيات في ديوان ابن الرومي ٢ : ٧٦٦والبيتان فيه :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ... ولبست فيه العيش وهو جديد
فاذا تمثل في الضمير رأيته ... وعليه افنان الشباب تميد

وقال ابو العلاء المعري[١٧] :

بث الزمان حبالي من حبالكم | أعزز عليّ بكون الوصل مبتوتا
ذم الوليد ولم اذمم جواركم | فقال ما انصفت بغداد حوشيتا

والزوراء[١٨] من اسماء الجانب الشرقي خاصة بخلاف بغداد فانه اسم للجانبين وقد ذكروا ان المنصور أنفق على بنائها أربعة آلاف دينار[١٩] ونقل ابواب مدينة واسط[٢٠] وجعلها عليها وجعل عليها سوراً محكماً عظيماً ابتداؤه من الدجلة وانتهاؤه الى الدجلة وهو محيط بها كشبه الهلال وهذه المدينة التي في الجانب الغربي فصارت كما قيل في وصفها بلدة تكل عن حسن وصفها الالسن كأنها الفردوس فيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين ذات القدر الشريف والفضل المنيف مثوى الخلفاء ومقر العلماء لم تزل معرة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة القرشية والجانب الغربي منها هو الذي عمّر أولاً . وقيل لرجل كيف رأيت بغداد ؟ فقال : الأرض كلها بادية وبغداد حاضرتها[٢١] . وقال : ابن جبير[٢٢] في وصف دجلتها التي بين شرقيها وغربيها هي كالمرآة المجلاة بين صفحتين[٢٣] ، والعقد المنظم بلبتين فهي تردها فلا تظمأ وتطلع في مرآة صقيلة فلا تصدأ والهواء المنتظم يتولد بين هوائها ومائها فهي معروفة بفتن الهوى إلا ان يعصم الله منها . وقال وكنا نسمع ان هواء بغداد ينبت السرور في النفس ويبعث دائماً على الانبساط والانس فلا نكاد نجد فيها إلا جذلان طربا وان كان نازح الديار مغتربا حتى حللت بقرية وزيران وهي على مرحلة منها فلما نفحتنا نوافح هوائها ونقعنا الغلة ببرد مائها احسسنا من انفسنا بالرغم على وحشة الانفراد دواعي من الاطراب واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحة الغياب بالاياب وهتفت بنا محركات من الانس ذكرتنا معاهد الاحباب في عصر الشباب وهذا للغريب النازح الوطن فكيف الوافد فيها على اهل وسكن :

سقى الله باب الطاق صوب غمامة | وردّ الى الاوطان كل غريب[٢٤]

وقال الخطيب البغدادي[٢٥] : « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة

---

(١٧) شروح سقط الزند ـ القسم الرابع ١٦٠١ .
(١٨) ص ١٣٨ من مخطوطة الدراسات العليا .
(١٩) في تاريخ بغداد (١ : ٦٩) أربعة آلاف وثمانمائة وثمانين درهما ، وفي معجم البلدان (١ : ٤٥٩) انه انفق عليها ثمانية عشر الف الف دينار .
(٢٠) تاريخ بغداد ١ : ٧٥ .
(٢١) تاريخ بغداد ١ : ٤٥ ، بغداد مدينة السلام ، للهمذاني ٤٢ .
(٢٢) هو ابو الحسين محمد بن احمد بن جبير الاندلسي المتوفى ٦١٤هـ (رحلة ابن جبير ص ١١) .
(٢٣) رحلة ابن جبير ٢١٨ .
(٢٤) باب الطاق محلة كبيرة ببغداد في الجانب الشرقي تعرف بطاق اسماء (معجم البلدان ١ : ٣٠٨) .
(٢٥) تاريخ بغداد ١ : ١١٧ ــ ١١٩ .

امرها وكثرة علمائها واعلامها وتميز خواصها وعوامها وعلم اقطارها وسعة اطوارها وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها[٢٦] ومحالها واسواقها واشكانها[٢٧] وازقتها ومساجدها وحماماتها وطرقها[٢٨] وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد اظلالها وافنائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها وزيادة ماحصر من سكانها » .

وقال أيضاً : « كان ذرع بغداد الجانبين ثلاثة وخمسين الف جريب وسبعمائة والغربي سبعة وعشرين الف جريب والقرى تسعة آلاف وثلثماية جريب[٢٩] .

قال[٣٠] وعدد الحمامات في بغداد ستون ألف حمام[٣١] وقيل غير ذلك ثم قال : واقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر حمامي وقيّم وزبال ووقاد وسقا فيكون ذلك ثلثماية الف رجل وذكر بعضهم ان بازاء كل حمام خمسة مساجد وعلى ذلك فهي ثلثماية الف مسجد وعلى الأقل أن يكون بكل مسجد من الموظفين خمسة نفر فيبلغ عددمن في الحمامات والمساجد ألف ألف وخمسماية الف رجل . قلت : فاذا كان فعلة الحمامات والمساجد بهذا عددهم فالساكنون لا يحيط بهم إلا الذي احصاهم عددا .

جسورها[٣٢] :

ويقال لما بنى المنصور قصره عقد الجسر على باب الشعير[٣٣] ثم عقد بباب البستان ثلاثة جسور[٣٤] وعقد الرشيد جسرين وكان لابن جعفر جسر عند مربعة فكانت الجسور بها سبعة ما عدا القنطرات التي على سائر الانهر وان قصور الخلفاء ودورهم كانت بشرقي الرصافة كما تقدم وانظر بقاع القصور الخطة التي فيها مشهد السيد السلطان علي ويؤيد ذلك ان مربع أبي جعفر المنصور كان هناك والى اليوم تعرف تلك الخطة بـ المربعة تفرعا على اسم القصر المذكور ومن

---

(٢٦) في تاريخ بغداد ١ : ١١٩ (وشعوبها) .
(٢٧) نفس المصدر السابق (وسككها) .
(٢٨) نفس المصدر السابق (وطرزها) .
(٢٩) في هذه الارقام التي اوردها المؤلف اختلاف بين المؤرخين ، فاذا رجعنا الى تاريخ بغداد ١ : ١١٧ وجدناه يقول : « ان ذرع بغدادالجانبين ثلاثة وخمسون الف جريب وسبعمائة وخمسون جريباً ، منها الجانب الشرقي ستة وعشرون الف جريب وسبعمائة وخمسون جريباً ، والغربي سبعة وعشرون الف جريب » . وحتى في هذا اختلف المؤرخون (التفاصيل في المصدر السابق ١ : ١١٧) .
(٣٠) ص ١٤٠ من نسخة الدراسات العليا .
(٣١) وهناك اختلاف في تحديد عدد الحمامات (الحافظ الذهبي ؛ تاريخ الاسلام ٦ : ٢١ ، تاريخ بغداد ١ : ١١٨) .
(٣٢) ص ١٥٤ من نسخة الدراسات العليا .
(٣٣) باب الشعير محلة ببغداد فوق مدينة المنصور قالوا كانت ترفا اليها سفن الموصل والبصرة ، والمحلة التي ببغداد المعروفة بباب الشعير هي بعيدة عن دجلة (تاريخ بغداد ١ : ١١٥ ، دليل خارطة بغداد ٩٢) .
(٣٤) تاريخ بغداد ١ : ١١٦ .

المعلوم ان قصور الخلفاء كانت متصلة بقصور البرامكة كما في كتب التاريخ وذكر بعضهم ان ارض بغداد كانت قبل ان تحتمي بحمى الاسلام متنزهاً لملوك بابل لاعتدال هوائها وعذوبة مائها وكثرة بساتينها وحيطانها وبعد انقراض البابليين اتخذها ملوك فارس متنزهاً وقد اعطاها احد ملوك الفرس لبعض المرازبة ؛ وفي زمن الاكاسرة كان فيها أسواق كبار يقصدها التجار من الاقطار لكن قد بلغت الغاية القصوى والدرجة العليا في العمارة والحضارة والصناعة والتجارة في ايام الرشيد والمأمون حتى يقال أن خارجها كان من معامل القوارير أربعة آلاف معمل ومن معامل الفخار ثلاثون ألفاً ومن الجسور خمسة وخمسون جسراً وكان ريعها ونمو فواكهها وينعها من نهري دجلة والفرات .

محلات بغداد في عصر السلطان محمد رشادخان العثماني[٣٥]

ولم تزل تأخذ بغداد بالترقي حتى طار صيتها في البلاد ، وربما فضلها بعض الناس على حالها يوم بني العباس ، فاتصل عمران جانبها الغربي من نحو الشريعة البيضاء الى قرارة ؛ وعمران جانبها الشرقي من موضع مشهد الامام احمد بن حنبل[٣٦] الى النهر المعروف بديالة وبلغت محلات الجانب الشرقي مما تحت السور فقط اربع عشرة محلة من ذلك : محلة حضرة الشيخ عبدالقادر الجيلي ، ومحلة الشيخ سراج الدين[٣٧] ، ومحلة جامع الخلفاء ، ومحلة المربعة ، ومحلة السبع ابكار ، ومحلة راس القرية ، ومحلة بني سعيد ، ومحلة المهدية ، ومحلة قنبر علي ، ومحلة باب الاغا ، ومحلة الحيدرخانة ، ومحلة محمد الفضل[٣٨] ، ومحلة الميدان ، ومحلة جديد حسن باشا .

وهذه المحلات هن الامهات ويتشعب من كل منهن محلة أو محلتان حسب اصطلاح الوقت .

واما محلات الجانب الغربي مما تحت السور أيضاً فقد بلغت احدى عشرة محلة من ذلك محلة

(٣٥) ولد هذا السلطان في ٢٠ شوال ١٢٦١هـ وهو ابن السلطان عبدالمجيد جاء بعد خلع السلطان عبدالحميد الثاني في ٧ ربيع الثاني ١٣٢٧ ، توفي ١٣٣٦هـ — ١٩١٨ . تاريخ العراق بين احتلالين ١٧٦ .

(٣٦) توفي الامام احمد بن حنبل ٢٩٠هـ —٩٠٣م ودفن في مقبرة باب التبن التي تقع في الشمال من مشهد الكاظمين إلا ان توغل نهر دجلة في الجانب الغربي من هذه المنطقة وفيضان المياه ادّيا الى انهيار قبره في الماء وكان ذلك في حدود منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ولم يعد له اليوم اي اثر (دليل خارطة بغداد ١٠٢) .

(٣٧) نسبة الى الشيخ عمر بن علي بن عمر الحسيني القزويني ، جاء الى بغداد سنة ٧٠٠هـ وتوفي سنة ٧٥٠هـ (دليل خارطة بغداد ٢٣٧) .

(٣٨) هو محمد بن الفضل اسماعيل بن الامام الصادق وتنسب اليه المحلة الا ان هذه النسبة يطعن فيها حيث يقول الدكتور مصطفى جواد انه غياث الدين محمد بن الفضل وزير السلطان ابي سعيد بهادر خان أو الفضل الاسفرائيني المتوفى ٥٤٨هـ . وهذه المحلة كانت تسمي باب أبرز (دليل خارطة بغداد ٢٣٨) .

الكريمات ، ومحلة باب السيف ، ومحلة عـلاوي الحلة . ومحلة الشيخ بشار[٣٩] ، ومحلة الشيخ صندل[٤٠] ، ومحلة الفلاحات ، ومحلة المشاهدة ،ومحلة الست نفيسة ، ومحلة الشيخ علي ، ومحلة الدهدوانة ، ومحلة الجعيفر ، ويتشعب أيضاً من بعضهن محلة أو محلتان .

مساجد بغداد[٤١] :

واما مساجد بغداد فقد بلغت عدداً كثيراًيؤدي ذكر جميعها الى السآمة فمن مساجد جانبها الشرقي : مسجد السيد سلمان افندي ابن السيد علي افندي النقيب[٤٢] وهو بالجادة النافذة الى الباب الشرقي ويحتوي على سقاية طيبة الماء وان هذه العائلة تنتسب الى حضرة الشيخ عبدالقادر الجيلي وبمقربة من المسجد المذكور مشهد الشيخ الزهري ، والعلامات ونقل الثقات يدلان على ان هذا المشهد كان من أكبر المساجد هدّمه الغرق ايام داود باشا[٤٣] ولم يعمر بعد وبمقربة منه المسجد المعروف بـ مسجد السادة[٤٤] وهو وان كان صغيراً إلا انه مسجد قديم يجد المصلي فيه خشوعاً وعلى القرب منه المسجد المعروف بـ مسجد النعماني[٤٥] له مئذنة وتقام فيه الجمعة ولم يبق منه الان إلا المئذنة لانه تهدم نتيجة الغرق وقريباً من المسجد المدفون فيه الشيخ العيدروسي[٤٦] وكان رحمه الله من مشاهير العلماء واكابر المشايخ الصلحاء .

ومن المساجد أيضاً مسجد التسابيل[٤٧] ،ومسجد راس الساقية ، ومسجد الشيخ الالفي[٤٨] ، ومسجد آل الخضيري وهو مسجد قديم كان قد اندثر فعمره الحاج عبدالرزاق

(٣٩) نسبة الى الشيخ علي بن محمد بشار المدفون هناك (دليل خارطة بغداد ٢٤٦ ، ٣٢٥).

(٤٠) نسبة الى عماد الدين صندل بن عبدالله الحبشي المعروف بـ المقتفوي المتوفى سنة ٥٩٣هـ (دليل خارطة بغداد ١٩٦) .

(٤١) صفحة ٤٤٦ من مخطوطة المتحف العراقي.

(٤٢) تاريخ بنائه ١٣١٢هـ وتاريخه :

فعلى نهج الهدى قد ارخو (وعلى تقوى اقمت المسجدا)

وكانت وفاة المؤسس سنة ١٣١٥هـ (تاريخ مساجد بغداد واثارها للالوسي ٨٠) .

(٤٣) تولى ولاية بغداد ١٢٣٢هـ – ١٢٤١هـ المصادف ١٨١٧م – ١٨٢٦م (دليل خارطة بغداد ١٨١) .

(٤٤) ويسمى مسجد السادات ويقع في محلة السنك (تاريخ مساجد بغداد ١٤١) .

(٤٥) جدده داود باشا سنة ١٢٣٩هـ (تاريخ مساجد بغداد ٧٦) .

(٤٦) يقع في محلة راس الساقية على الشارع الذي يؤدي الى جامع الشيخ عبدالقادر الجيلاني أو الجيلي وقد جدد سنة ١٣٢٤هـ (تاريخ مساجد بغداد ١٤٢ ، دليل خارطة بغداد ٣٠٧) .

(٤٧) ويسمى مسجد الدسابيل نسبة الى اقامة اهل دسبول فيه والصواب دسفول من اعمال ايران الجنوبية يقع في محلة باب الشيخ هدم ولم يبق له اثر (تاريخ مساجد بغداد ٧٨).

(٤٨) هو محمد الالفي (دليل خارطة بغداد ٢٠٨) .

(٤٩) يقع في محلة الصدرية ، عمّره عبدالرزاق الخضيري سنة ١٣٠٢هـ ، كما ذكر في ابيات تاريخه :

ولما استتم بناؤه قد ارخوا (اسست في تقواك يوماً مسجدا)

توفي بانيه ١٣١٥هـ (تاريخ مساجد بغداد ٧٨) .

الخضيري(٤٩) ، ومسجد الحاج فتحي(٥٠) ،ومسجد السيد سلطان علي(٥١) وهو مسجد حافل معمور بالجمع والجماعات وله مدرستان مخصص عليهما مبلغ وافر لاطعام الطعام .

وبمقربة من مسجد السيد سلطان علي المسجد المنسوب لآل الباچه‌چي(٥٢) وهو مسجد معمور في الاوقات الخمسة وقريباً منه مسجد جمعة يعرف بـ جامع بنات الحسن(٥٣) وفيه مشهد يزار وله مئذنة ويليه مسجد قديم جدده أحد التجار . ومسجد راس القرية الشهير بـ جامع محمد امين وهو مسجد جمعة وفيه مدرسة ولها مدّرس(٥٤) وقريباً منه المسجد الشهير بـ التكية الخالدية وهذا المسجد من المساجد المعلومة المعمورة فيه رواج للجمعة والجماعات وزحام للمصلين في اوقات الصلاة وفيه مدرسة ومكتبة فيها الكتب النفيسة الثمينة(٥٥) وقريباً من هذا المسجد مسجد عادلة خاتون(٥٦) من بنات وزراء بغداد السابقين وهو جامع جمعة وفيه مدرسة ومئذنة .

ومن المساجد جامع الخلفاء(٥٧) وشأن هذا الجامع عظيم في زمن بني العباس وكانت له مئذنة

---

(٥٠) جددته الاوقاف عام ١٣٤١هـ (تاريخ مساجد بغداد ٥٦) .

(٥١) هو علي بن الامام موسى الكاظم (ع) ،ويشكك الدكتور مصطفى جواد في نسبة الجامع المذكور الى هذا الرجل حيث يقول : (ونحن لم نجد في رجال العراق من تسمى بالسيد السلطان علي إلا السلطان علي بن محمد بن فلاح المشعشع المقتول سنة ٨٦١هـ ثم يستمر في السرد ويقول : انا لم نجد فيما بين ايدينا من التواريخ ان الشيخ علياً توفي ببغداد فانه قتل في وقعة بينه وبين اخيه احمد في بلاد ايران ولا يزال الاختلاف في تاريخ القبر قائماً ايضا (دليل خارطة بغداد ٣٠٤ ، تاريخ العراق بين احتلالين ٢ : ١٧٢) .

(٥٢) يقع هذا المسجد في محلة العمار يتصل من جهة شارع الرشيد بمحل المصور ارشاك والمسجد من اوقاف امينة خاتون بنت عبدالرحمن الباچه‌چي وقد شيد هذا المسجد نعمان چلبي الباچه‌چي سنة ١٢٣٦هـ (البغداديون اخبارهم ومجالسهم ٢٣٥) .

(٥٣) يقع في محلة انقاطرخانة وقد جدد من قبل الاوقاف سنة ١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م والآن مغلق (تاريخ مساجد بغداد الحديثة ٢٦٧) وهناك مسجد صغير في سوق الشورجة في الزقاق الذي يسبق سوق الصابون واليوم يقع خلف السوق العباسي الجديد يعرف بجامع بنات الحسن ايضا .

(٥٤) شيده الحاج امين چلبي الباچه‌چي سنة ١٢٣٧هـ (البغداديون اخبارهم ومجالسهم ٣٢٥) .

(٥٥) ويسمى بـ جامع الاحسائي نسبة الى قبر الشيخ محمد بن احمد الاحسائي المتوفى ١٠٨٣هـ . يقع في قلب الرصافة وبالضبط في شارع المستنصر (النهر) ، ولما اقام فيه الشيخ خالد النقشبندي بعد عودته من الهند سنة ١٢٣١هـ عمره له والي بغداد واصلحه فسمّي بـ التكية الخالدية (تاريخ مساجد بغداد ٢٢٦ والبغداديون اخبارهم ومجالسهم ٢٢٣) .

(٥٦) انشأته عادلة خاتون بنت احمد باشا الذي تولى إيالة بغداد من سنة ١١٤٩هـ ـ ١١٦١هـ . (تاريخ مساجد بغداد ٤٣) .

(٥٧) انشأه الخليفة العباسي علي المكتفي بالله خلال ست سنوات من حكمه ٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ (٩٠٢م ـ ٩٠٨م) وكان يعرف في اول تاسيسه بـ جامع القصر نسبة الى القصر الحسني ثم اطلق عليه اسم جامع الخليفة ثم جامع الخلفاء وكان الجامع الرسمي للدولة العباسية ففيه تقرأ عهود القضاة ويصلى على جنائز الاعيان والعلماء وتعقد فيه حلقات الفقهاء والمناظرين والمحدثين . ومئذنته الحالية شيدت سنة ٦٧٨هـ ـ ١٢٧٩م واليوم تعرف بـ منارة سوق

←

لم يسبق بمثلها ولم يحدث بعدها على شكلهـايصعد عليها من مسلكين مستقلين قد انشأوا فيها للمؤذن موضعين احدهما في ربعها السفلي والاخرفي العلوي يشير لسان حالها وبديع شكلها الى عظم رجالها وشوكة اهلها ومن غريب ما فيها منحسن الصنعة ان محيط قطرها يستوعب طولهـا ومع ما مرّ عليها من العصـــور واعتورها منالاحقاب والدهور فهي الآن في بهجتها البهيـة كالغادة المجلية غير ان مقـداراً يسيراً من ثوبهـاالاعلى أخلقـه أحـد المتغلبين حين استولى حتى قيل فيها :

لم نـدر أنتِ منـارة أم آيـة قامت على عليـا بني العبـاس

هـذا الزمـان على تنوع غـدره لا سيمـا بالسـادة الاكيـاس

مـا ان أغـار على جمـالك عاديا إلا وعـاد بخيبـة وايـاس

وهذا الجامع لما استولت التتار على بغدادتسببوا في خرابه ولما استوزر سليمان باشا ابو سعيد ببغداد(٥٨) عمّر بدله الجامع الموجود الآنواكتفى بهذه المئذنة عن انشاء مئذنة فيـه وان كانت خارجة عنه نحو سبعين ذراعاً وجعل هـذاالوزير لهذا المسجد مدرسة مدرسها الحالي ملا عبدالله افندي الموصلي وفي هذا الجامع سقايـةاحدثها صبغة الله الحيدري(٥٩) .

وعلى القرب من هذا : المسجد المعروف بـ قاضي الحاجات(٦٠) ومسجد جادة بني سعيـد ، ومسجد قنبر علي(٦١) وهو مسجد جمعة معمورالجماعة وبمقربة منه مشهـد قنبر علي المذكـور ويقال هذا هو مولى علي بن ابي طالب (ع) .

ويوجد ببغداد بعض مساجد لم يبق منهـاإلا آثارها وقد خربت بواسطة استيلاء اليهـود على تلك الجهة بالسكنى والاستيطان .

وهناك مساجد ومدارس دينية كثيرة لازالت قائمة الى الآن .

أما مساجد الجانب الغربي من بغداد فمنهامسجد مشهد الامام موسى الكاظم بن الامـام جعفر الصادق(٦٢) وهـو مقـابل لمشهـد ابيحنيفة(٦٣) ، وهذا المشهد كبير جداً ليس له نظير

الغزل واما في الوقت الحاضـر فيطل علىشارع الجمهورية وهو بهيئـة جديدة مشيدة حديثا (دليل خارطة بغداد ١٢٥) مباحثعراقية (١ : ١٣٢ ـ ١٥١) اما الالوسي في تاريخ مساجد بغداد ص ٣٩ ذكر ان هذا الجامعانشيء على عهد الخليفـة المهـدي سنة ١٥٩هـ والصواب ما ذكرناه .

(٥٨) تولى ولاية بغداد سنة ١١٩٣هـ توفي سنة١٢١٧هـ (تاريخ مساجـد بغـداد ٤٠ ومباحث عراقية ١٥١ ، ودليل خارطة بغداد ١٢٥) .

(٥٩) مؤلف كتاب : عنوان المجد في احوال بغدادوالبصرة ونجد ، توفي ١١٨٧هـ . (غاية المرام ٢٦٢) .

(٦٠) يقع في محلة القشل (دليل خارطة بغـداد٣٠٧) .

(٦١) نسبة الى قنبر علي وهذه التسمية مزورةلان قنبراً قتل قبل بناء بغـداد بسنين كثيرة (دليل خارطة بغداد ٢٠٨) .

(٦٢) توفي سنة ١٥٠هـ ، وفيه ايضا مشهــدحفيده الامام محمد الجواد المتوفى ٢٢٠هـ .

(٦٣) يفصل بينهما نهر دجلة .

بغداد واكثر جدران الروضة مطلاة بالذهب وله أربع مآذن وقبتان والكل مطلي بالذهب أيضاً وللروضة اربعة ابواب مصفحة بالفضة الخالصة ويحيط بالقبر الشريف شباكان متلاصقان الخارج من الفضة الخالصة والداخل من الفولاذ وفي هذا المشهد جامع جمعة كبير وفيه ايضاً قبة فيهما مشهدان لابنية الامامين ابراهيم واسماعيل[٦٤] وعلى اثرهما مشهد ابي يوسف[٦٥] صاحب ابي حنيفة وبمقربة من مشهد الامام موسى الكاظم مشهد المرتضى[٦٦] وقريباً منه مشهد يقال له الرضى[٦٧] وهما من العلويين وعلى مسافة تحويل من مشهديهما مسجد براثا[٦٨] ويعرف به المنطقة وبمقربة منه مسجد وفيه مشهد يقال له والله اعلم مشهد نبي الله يوشع[٦٩] وقيل هو مشهد فتى نبي الله موسى بن عمران وعلى أثره مسجد فيه قبر يقال انه قبر البهلول[٧٠] وقريباً منه مشهد داود الطائي[٧١] وتليه قبة (ابي الحسين) الحلاج[٧٢] وعلى اثرهما مسجد وفيه قبة تحتها قبر رئيس الطائفة الصوفية الجنيد البغدادي[٧٣] ويقابله قبر العارف بالله مولانا

---

(٦٤) لم يبق اليوم من اثر لهما حيث هدم المشهدان في سنة ١٣٧١هـ والمؤرخون يختلفون في صحة المدفن ومن اراد التوسع فليراجع (تاريخ المشهد الكاظمي للشيخ محمد حسن آل ياسين ص ٢٠٧) .

(٦٥) هو قاضي القضاة يعقوب بن ابراهيم توفي في عهد الرشيد سنة ١٨٢هـ ، وان المؤرخين القدامى لم يذكروا موضع دفن ابي يوسف وبعضهم شكك في قبره الحالي (تاريخ المشهد الكاظمي ٢٥٥) .

(٦٦) هو الشريف علي بن الحسين المتوفى ٤٣٦هـ والقبر موضع شك لان معظم المؤرخين يذكرون ان المرتضى توفي ببغداد ودفن في داره ثم نقل بعد ذلك الى كربلاء ليدفن فيها (تاريخ المشهد الكاظمي ٢١٢ ، دليل خارطة بغداد ١٠١ ، عمدة الطالب ١٩٤ ، وغيرها من المراجع ، واما هذا القبر فهو لابراهيم الاصغر ابن الامام موسى بن جعفر (ع) .

(٦٧) توفي الشريف الرضي ٤٠٦هـ وهو جامع نهج البلاغة ونقيب الطالبيين وامير الحاج . ويشكك المؤرخون كذلك في صحة قبره الحالي في الكاظمية اذ المشهور والمحقق انه مع اخيه دفن في حائر الحسين بكربلاء (دليل خارطة بغداد ١٠١ ، الاعلام ٦ : ٢٢٩ ، تاريخ بغداد ٢ : ٢٤٦) .

(٦٨) ان مسجد براثا الحقيقي هو غير هذا المعروف اليوم في المنطقة بين الكرخ والكاظمية ومكانه الاصلي جنوبي بغداد وقد عفا وزالت آثاره بعد القرن السابع للهجرة او الثامن (دليل خارطة بغداد ٩١) اما جامع براثا اليوم فهو جامع المنطقة وكان يعرف بمشهد العتيقة (سونايا) (دليل خارطة بغداد ٢٩٧) .

(٦٩) غاية المرام ٣١ .

(٧٠) وبهلول هذا يقال انه كان نديم هارون الرشيد المقرب وعلى لوح القبر تاريخ سنة ٥٠١هـ ولكن الدكتور مصطفى جواد وزميله في دليل خارطة بغداد ص ٢١٤ يكذبان هذا الادعاء لانه لم يرد ذكر لذلك في اي مصدر تاريخي سوى خارطة نيبور وهذه متاخرة لان هذا الرحالة زار بغداد ١١٨٠هـ ـ ١٧٦٦م .

(٧١) هو داود بن نصير الطائي الزاهد المشهور (دليل خارطة بغداد ٢٠٨) .

(٧٢) كنيته ابو مغيث واسمه : الحسين بن منصور الحلاج ، فيلسوف متعبد زاهد نشأ بواسط وانتقل الى البصرة ودخل بغداد وعاد الى تستر . امر المقتدر العباسي بالقاء القبض عليه فسجن وعذب وضرب وقطعت اطرافه ثم حز راسه واحرقت جثته ولما صارت رماداً القيت في نهر دجلة وكان ذلك سنة ٣٠٩هـ (الاعلام ٢ : ٢٨٥) .

(٧٣) هو الشيخ جنيد بن محمد بن الجنيد القواريري الخزاز ، من الزهاد توفي سنة ٢٩٨هـ (دليل خارطة بغداد ٩٠) .

السري السقطي[٧٤] وبمقربة من ذلك جامع جمعة فيه مشهد الشيخ معروف الكرخي[٧٥] وقريباً منه مشهد الصالحة العابدة الست زبيدة[٧٦] وعلى ضريحها المنوَّر قبر مفتول محكم البناء كانه من اثار الخلفاء وبهذه المقبرة اعني الشونيزيه[٧٧] مشاهد كثيرة للعلماء العاملين والاولياء الكاملين عفى رسمهما واندثر لمرور الاعوام وتبدل الايام وفي هذه المقبرة تربة الشيخ الحريفيشي[٧٨] صاحب الدر النفيس في المواعظ وقبره معلوم يزار .

وفي الجانب الغربي من جهة الدجلة مقام من آثار الخلفاء العباسيين يقال انه مقام سيدنا الخضر وقد استولت دجلة عليه فلم يبق إلا الاسم وبعض اصول الجدران وقريباً منه المدرسة المعروفة بمدرسة خضر الياس وبمقربة منه مسجد يعرف بجامع القمرية[٧٩] وهو مسجد معمور وفيه مئذنة وباتصاله مدرسة العمرية[٨٠] ومنذ زمن غير يسير اهملت عن التدريس وقريباً منها مسجد الحنان[٨١] وهو مسجد جمعة وفيه مئذنة ثم مسجد الشيخ صندل[٨٢] ثم مشهد مولانا حبيب العجمي[٨٣]، ثم مسجد الشيخ موسى الجبوري[٨٤]، ومسجد الست نفيسة[٨٥] ، ومسجد السيف[٨٦]

---

(٧٤) هو خال الشيخ جنيد توفي سنة ٢٥١هـ ـ ٨٦٥م وفي (غاية المرام ص ٣٥ انه توفي سنة ٢٥٣هـ . (انظر دليل خارطة بغداد ٩١) .

(٧٥) دفن الكرخي سنة ٢٠٠هـ ـ ٨١٦م ، وفي سنة ٤٥٩هـ ـ ١٠٦٧م احترق المقام الذي شيّد فوق القبر فاعاد الخليفة القائم بناءه (دليل خارطة بغداد ٩٠) .

(٧٦) هذا وهم من المؤلف اذ ان الست زبيدة زوج هارون الرشيد دفنت في مقابر قريش بالكاظمية واما القبر المعروف اليوم باسمها هو قبر زمرد خاتون زوج الخليفة المستضيء بامر الله وام الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة ٥٩٩هـ ـ ١٢٠٢م (دليل خارطة بغداد ١٧٠) .

(٧٧) يعني مقبرة الشيخ جنيد اليوم (دليل خارطة بغداد ٩١) .

(٧٨) هو شعيب بن عبدالله بن سعد المشهور بالحريفيش المتوفى ٨٠١ (معجم المطبوعات العربية والمعربة ٧٥١) ولكن لم نعثر في الكتب التي ترجمت له من انه جاء الى بغداد (انظر شذرات الذهب ٧ : ٧ ، وهدية العارفين ١ : ٤١٨ وسماه : شعيب بن عبدالعزيز وقال انه توفي ٥٩٧هـ وهذا وهم منه .

(٧٩) سمّي نسبة الى الموضع الذي بني عليه ، وقمرية من اهل بيت الناصر لدين الله الخليفة العباسي او احدى حظاياه ، وقد شيّد هذا الجامع سنة ٦٢٦هـ ـ ١٢٢٨م في عهد الخليفة المستنصر بالله (تاريخ مساجد بغداد ١١٤ ـ ١١٥ ، والبغداديون اخبارهم ومجالسهم ٣٤٢) .

(٨٠) اقامها عمر باشا احد ولاة بغداد سنة ١٠٨٨ ـ ١٠٩٢هـ (دليل خارطة بغداد ١٩٠) .

(٨١) يقع في ساحة جسر الشهداء في الكرخ وهو من المساجد القديمة (البغداديون ٣٤٥) .

(٨٢) نسبة الى صندل بن عبدالله الحبشي المتوفى ٥٩٢هـ (دليل خارطة بغداد ١٩٥) .

(٨٣) وهو قريب من دجلة في محلة الشيخ بشار والصواب ان حبيب العجمي توفي بالبصرة وقد زار قبره ابن بطوطة سنة ٧٢٧ (الرحلة ١ : ١١٧) وعلى هذا كما جاء في دليل خارطة بغداد ٢٩٩ : ان قبر العجمي اقرب الى قبر ابي القائم : عمر بن مسعود البزاز المتوفى ٦٠٨هـ ، اما الآلوسي فقد ذكر وفاته ١٤٠هـ اي قبل تأسيس بغداد (تاريخ مساجد بغداد ١٢٤) .

(٨٤) يقع قرب جامع معروف الكرخي في آخر المدينة جدده الشيخ موسى الجبوري سنة ١٢٩٤هـ فنسب اليه (تاريخ مساجد بغداد ١٢٠) .

(٨٥) في محلة الست نفيسة من محال الكرخ الغربية على طريق الكاظمية (يسمى اليوم شارع الامام موسى الكاظم) (تاريخ مساجد بغداد ١٤٥) .

(٨٦) هذا المسجد واقع على شاطىء دجلة في الجانب الغربي ، من المساجد القديمة وفي سنة ←

وجملة مساجد ذكر مفرداتها يجر الى السآمـةوفيما ذكرناه لك من المساجد برهان قاطع على ان بغداد قد بلغت في هذه الايام الاخيرة من العمارةوكثرة الدور والقصور ما تحاكي بـه حسنهـا ونضارتها في زمانها القديم .

*

أما بساتينها[٨٧] في الحـال الحاضـر فهيمتصلة على حافتي دجلـة من الجانبين ولبغـداد اليوم اربعة جسـور احـدها بمحلـة الامـامالاعظم[٨٨] ، والثاني تحت باب المستنصرية مـن جهة دجلة[٨٩] ، والثالث في الموضـع المعـروفبقرارة ، والرابع معقود على النهر الشهير بنهـر الخر[٩٠] .

وللحكومة فيها ما بين دار إمارة ومستشفىومكتب ومخفر ومخزن اسلحـة ومربط دواب وقلعة جند وميدان تعليم وقاعة مجلس ما يتجاوزالمئات واما دورها وقصورها فانهـا تتجاوز على ألفي الف موضع .

واما قهوسها فمن المعلوم انها اضعاف الدوروالقصور .

اخلاق البغداديين[٩١] :

كانت أخلاق اهل بغداد قبلاً انهم يعظمونالكبير ويرحمون الصغـير ويامرون بالمعـروف وينهون عن المنكر ، يرعون الجوار ويحفظـونالذمار حتى ان احدهـم اذا رأى من جاره ادنى مثلبة سارع في تأديبه وبالغ في ترهيبه فاذا سمعرب بيت ذلك المسيء قابل جاره بالشكر والثنـاء وانواع الدعاء غيبة وحضوراً فينزل كل أحـدمنهم غيره منزلة الاخ والأب أو الأخت أو الوالد وكان مـن اخلاقهـم انهـم يحمـلـون السيفويكرمون الضيف ويفشـون السـلام ويطعمون الطعـام ويأوون الغـريب ويشفقـون علىالقريب ويكثرون في صحبة العلماء ويترنحـون لذكـر الكرمـاء ومنهـا انهـم يعودون المرضىويشيّعون الجنائز ويبالغون في اعطاء الجوائز .. ومنها انهم يأنفون من عشرة من لا يؤمن بيـوم الحساب ولا يرغبون في وظائف الحكومة ويعدّون الاعراض عنهـا اكرومـة ومنهـا انهم يقرضونالمحتاج ويصبرون على المعسر ويتعوذون مـن العقـوق ويبادرون لايفـاء الحقوق ويواسـونالبائس العديم ويرحمون الأرملة واليتيم يؤدون

١٢٣٦هـ جدد عمارته داود باشا والي بغداد، ولكنه هدّم اخيراً ولم يبق له اثر (تاريخ مساجد بغداد الحديثة ٢٩٢) .

(٨٧) صفحة ٤٦٥ من مخطوطة المتحف العـراقيللكتاب .

(٨٨) وهو جسـر المعظم الخشبي الذي كان يربطالكاظمية ببغداد ونقل سنة ١٩٥٧ الى النعمانيـة حيث حل محله جسر ثابت حديث يقـع الىشماله بقليل يعرف اليوم بـ جسر الائمة .

(٨٩) كان يسمى جسر المأمون ثم غيّر الى جسـرالشهداء وهو يربط الكرخ بالرصافة .

(٩٠) وهي قنطرة كبيرة وليسـت جسراً .

(٩١) صفحة ٢٨٦ من نسخة الدراسات العليـا ،ويتحدث المؤلف عن اخلاق اهل بغداد في زمانه .

الأمانات الى اهلها ويعدلون في القضايا وفصلها.الظالم عندهم محذول وان كان من الفروع أو الاصول لا تأخذهم في الله لومة لائم وكلهم اماجدأكارم يتحرون أكل الحلال ولو في رؤوس الجبال ويهربون من الحرام ـ كما يقال ـ مسيرة عام لا يشقون عصا المسلمين ولا يركنون الى الظالمين • ومنها انهم يحافظون على العبادات ويبغضون من اجترم السيئات • لباسهم التقوى والشآمة وفاكهتهم البحث في احوال القيامة •يعرضون عن الملاهي والملاعب إلا ما قلّ منهم والحكم للغالب • يتوسمون في اللطائف والمكالمةويتعاطون الظرائف والمنادمة يتواضعون ولكن للمتواضع وينخدعون ولكن من طيب المراضع يقول واعظهم اذ ينصفهم :

خدع جعلناها إليك وسيلة   إنّ الكريم بكل شيء يخدع

وأما الآن فعلى علاتهم فقد ثبت بالسماع والعيان انهم اعدل الناس سيرة واسلمهم سريرة وما ذاك إلا لكون اناء العطر اذا نفدت غاليه بقيت رائحته ، وجودة الاصل تنتج حسن الفعل •

مراجع التحقيق

١ ـ الاعلام : خيرالدين الزركلي ـ ط الثالثة المصورة ـ بيروت ١٩٦٩ •

٢ ـ بغداد مدينة السلام : لابن الفقيه الهمداني ـ تحقيق الدكتور صالح احمد العلي ـ مطبعة دار الطليعة ـ باريس ١٩٧٧ ـ مطبوعات وزارة الثقافة والفنون ـ بغداد •

٣ ـ تاريخ الاسلام : للحافظ شمس الدين محمد بن احمد الذهبي المتوفى ٧٤٨هـ ـ مكتبة القدسي ـ القاهرة •

٤ ـ تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي ، احمد بن علي المتوفى ٤٦٣هـ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الطبعة المصورة •

٥ ـ تاريخ العراق بين احتلالين : لعباس العزاوي ـ بغداد ١٩٣٥ ـ ١٩٥٦ •

٦ ـ تاريخ مساجد بغداد وآثارها : لمحمود شكري الالوسي ـ تحقيق محمد بهجة الاثري ـ مطبعة دار السلام ـ بغداد ـ ١٣٤٦هـ •

٧ ـ تاريخ مساجد بغداد الحديثة : يونس الشيخ ابراهيم السامرائي ـ مطبعة الامة بغداد ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م ـ منشورات وزارة الاوقاف العراقية •

٨ ـ تاريخ المشهد الكاظمي : للشيخ محمد حسن آل ياسين ـ مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٦٧ •

٩ ـ جمهرة المراجع البغدادية : كوركيس عواد ، وعبدالحميد العلوجي ـ مطبعة الرابطة ـ بغداد ١٩٦٢ •

١٠ـ دليل خارطة بغداد : للدكتور مصطفى جواد ، واحمد سوسة ـ مطبعة المجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٥٨ •

١١ـ ديوان ابن الرومي : تحقيق الدكتور حسين نصار ـ مطبعة دار الكتب ١٩٧٤ القاهرة •

١٢ـ ديوان عمارة بن عقيل : تحقيق وجمع شاكر العاشور ـ مطبعة البصرة ١٩٧٢ •

١٣ـ رحلة ابن بطوطة : محمد بن ابراهيم المعروف بـ ابن بطوطة المتوفى ٧٧٩هـ دار صادر ـ بيروت ١٩٦٠ •

١٤ـ رحلة ابن جبير : محمد بن احمد بن جبير الاندلسي المتوفى ٦١٤هـ ـ ط ليدن ١٩٠٧ •

١٥ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب : لعبدالحي بن العماد الحنبلي المتوفى ١٠٨٩هـ ـ مكتبة القدسي ـ القاهرة ١٣٥١هـ •

١٦ـ شروح سقط الزند : تحقيق مصطفى السقا وجماعته ـ النسخة المصورة على طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٦٤ •

١٧ـ عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب • لاحمد بن علي الداودي المعروف بـ ابن عنبة المتوفى ٨٢٨هـ ـ النجف ـ المطبعة الحيدرية ١٣٣٧هـ •

١٨ـ غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد : للشيخ ياسين العمري الموصلي ـ مطبعة دار البصري ـ بغداد ١٩٦٨ •

١٩ـ مباحث عراقية : ليعقوب سركيس ـ مطبعة شركة التجارة ـ بغداد ١٩٤٨ •

٢٠ـ معجم البلدان : لياقوت بن عبدالله الحموي الرومي ت ٦٢٦هـ ـ دار صادر بيروت •

٢١ـ معجم ما استعجم : لعبدالله بن عبدالعزيز البكري المتوفى ٤٨٧هـ ـ القاهرة ١٩٤٥ •

٢٢ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة : ليوسف اليان سركيس ـ القاهرة ١٩٢٨ •

٢٣ـ هدية العارفين : لاسماعيل باشا البغدادي ـ الطبعة المصورة ـ طهران ١٩٦٧ •

٢٤ـ وفيات الاعيان : لاحمد بن محمد ، ابن خلكان المتوفى ٦٨١هـ ـ تحقيق الدكتور احسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت •

من الموروث البغدادي

بقلم
صادق محمود الجميلي
مدرسة الولاء ـ الكرخ ـ بغداد

— ١ —

قصة الساعات في بغداد

المزولة الشمسية

اختلف الباحثون في تعيين اي من بلدان الشرق مهد الحضارات كان له فضل الاسبقية في ابتكار الساعة بانواعها ، ولا احد يستطيع ان يقرر من هو اول من ادرك فكرة استعمال الساعة لقياس الوقت ، ولكننا نعلم بان الانسان القديم استعمل الساعة الشمسية منذ زمن بعيد يرجع تاريخه الى العصر الحجري ؛ وقد سميت ساعة الشمس بـ « المزولة » واقدم ساعة شمسية عثر عليها المنقبون هي المزولة المصرية التي يحتفظ بها اليوم متحف برلين والتي يعود تأريخها الى القرن التاسع قبل الميلاد ، وقد شاع استعمال المزولة في جميع انحاء العالم الاسلامي وفي مساجده المختلفة لمعرفة اوقات الصلاة فهي بمثابة ساعة التوقيت المحلي وقد وجدت قبل اختراع الساعات الميكانيكية الحديثة والتي تعتمد بصورتها البسيطة على ملاحظة ظل العصا ، وهناك شواهد كثيرة في العراق القديم وفي مدينة سامراء بالذات تدلل على وجود مثل هذه الساعات في العراق ، ومن ذلك ما ذكره الدكتور محمد صديق الجليلي المتخصص بشؤون المزولة الشمسية واقتراحاته في تعميمها كوسيلة للتوقيت في عراقنا الحبيب في اللقاء الذي اجرته معه مجلة آفاق عربية الغراء ، فيقول : « .. فللمرة الاولى ظهرت المزولة الشمسية في الآثار العراقية .. كان ذلك في سامراء ؛ وقد اعلنت استعدادي لاعادة نصبها وتشغيلها ، ومن المؤسف ان الساعة ارسلت الى البصرة حجرا عام ١٩٧٥ .. ان هذه الساعة اثر علمي مهم في دراسة الحضارة العربية الاسلامية وهناك ايضا عدة مزاول في بلدان المغرب العربي في تونس والمغرب ..

اني ادعو الى تعميم اعتماد الساعات المزولية في كل مدينة عربية ، ولقد صممت مزولة افقية لبغداد واهديتها الى امانة العاصمة وانا بانتظار الموافقة على نصبها ، ولا احد سواي يهتم بهذا القدر بالمزاول الشمسية ، وقد سمعت من اناس اعدوا ساعات اعتيادية ، وهي ساعات بامكان اي ميكانيكي ان ينصبها على غرار ساعة الاعظمية للسيد عبدالرزاق محسوب .

وبالنسبة للساعات المزولية العربية فانا الان اعمل على حل رموز مزاول الجامع الاموي في دمشق ، وجامع عقبة بن نافع في القيروان بتونس ، فقد بعثوا الي بتخطيطات هذه المزاول لدراستها ..

وانا اليوم ادعو الى اعتماد التوقيت الشمسي الظاهري المحلي الى جانب التوقيت الاعتيادي ، وهو توقيت كان معروفا منذ القدم ولعلنا نعلم ان هناك من المزاول ما تكون احيانا بصورة ضخمة جدا يمكن ان تشاد امام البنايات والمؤسسات العلمية او في الحدائق والساحات العامة الواسعة وفي هذه الحالة تكون لوحة المزولة هي الساحة نفسها » ..

وقد ادركت معظم الدول الكبرى اهمية مثل هذه الساعات كأثر تراثي اقامتها في ابرز ميادينها العامة ، من ذلك ساعة الشمس « المزولة » التي تنتصب اليوم في حديقة لندن وفي ابرز مكان فيها ، لا لتستعمل لغرض معرفة الوقت وانما نصبت كأثر تاريخي تزين به هذه الحديقة الجميلة .

الساعة المائية

لم يشأ الانسان المبدع بعقليته ، والطموح بفطرته أن يقف الى الحد الذي يعين به نهاره بالساعة التي عرفها نقيس وقته منذ شروق الشمس وتنتهي مهمتها بغروبها ، بل ولابد وان يندفع نحو الأمام ليبتكر مقياسا اخر يواكب سير حضارته يعين به وقته في الليل وفي النهار فاوجد بذهنية متفتحة « ساعة الماء » .. ويجمل بنا ان نبسط هذه الفكرة التي قامت على اساسها هذه الساعة والتي كان لاكتشافها اثر كبير في سير ركب المدنية نحو التقدم . كما جاء وصفها في كتاب « قصة الوقت » للمحامي ناجي جواد : « ان فكرة ساعة الماء كانت بدائية تماما اذا ما قيست بعصرنا الحاضر ولكنها اكتشاف عجيب اذا ما قيست بأزمان ما قبل التاريخ .. فساعة الماء عبارة عن وعاء من حجر مثقوب من الاسفل يطفو عائما على سطح الماء، وعندما يتصاعد الماء مترشحا الى داخل الوعاء فالنسبة التي يستوعبها الوعاء حتى اول اشارة تعتبر ساعة ، واذا ارتفع الماء الى الاشارة الثانية تعتبر ساعتين وهكذا .. فالفترة التي يستغرقها الوعاء حتى يغرق تعتبر المدة الزمنية المقصودة على وجه التقريب .. ومن عيوب هذه الساعة من جهة التفاوت للضغوط ، الناتج من عدم تناسب ترشيح الماء حينما يكون الوعاء مقاربا للامتلاء أو عندما يقارب النضوب من جهة ، ومن جهة اخرى فان لتقلبات الجو تأثيرا مباشرا على سيرها بانتظام ، فان اختلاف درجة الحرارة مثلا ، ارتفاعا وهبوطا، لما يؤثر تأثيرا مباشرا على سيرها بالدقة المطلوبة» ..

وكان لوادي الرافدين افضلية السبق في اكتشاف واستعمال مثل هذه الساعات على أرجح الآراء ، وبالاخص في عهد البابليين ، فقد ارتبط الابداع والابتكار في شتى ميادين الحياة بالحضارات الانسانية وسيرها على مدى فترات التاريخ ، ولما كان الشرق والعراق جزء منه مهد الحضارات فلا غرابة ان يكون اختراع الساعات على اختلافها من بنات افكار ابنائه ومن ابتكارهم ، فالساعة الشمسية وهي ساعة النهار فقط قال عنها هيرودتس : ان الاغريق استعاروها من البابليين .. وكذلك الساعة المائية وهي ساعة اليوم ليله ونهاره قد عرفها البابليون قبل غيرهم من الاقوام الاخرى .. وكان العراقيون القدماء يقيسون ساعات اليوم بهذين النوعين من الساعات ، وحجة القائلين باسبقية البابليين في اختراع هذه الساعات تستند على سبقهم تقسيم الوقت الى ايام وساعات ومن مجموع هذه الايام تكون السنة الواحدة .

فكانت السنة السومرية والبابلية تتألف من اثني عشر شهرا قمريا وكل شهر يساوي ثلاثين يوما ولذا اصبح عدد ايام السنة السومرية لا يطابق عدد ايام السنة الشمسية .. وقد قسم البابليون اليوم الفلكي الى اثني عشر قسما وكل قسم يساوي ساعتين من توقيتنا الحالي .. والساعة الى ثلاثين جزءا اي ان يومهم الفلكي كان مقسما الى (٣٦٠) قسما متساويا وكما ان في السنة الواحدة (٣٦٠) يوما فكانت الدقيقة عندهم تساوي اربع دقائق من دقائقنا ، وقد جاء هذا التقسيم منذ السلالة الاكدية .. وتلافيا للفرق الحاصل بين عدد ايام السنة السومرية وعدد ايام السنة الشمسية ، وما دامت الفصول تتوالى حسب السنة الشمسية فقد اقتضت العادة من اجل ضبط الفصول أن يلحق شهر اضافي (كبيس) الى اشهر السنة الاعتيادية بعد مرور عدد من السنين لتعويض الفرق الحاصل بينهما ..

وقد عثر على ساعة الماء في معبد « الكرنك » في عام ١٩٠٤م ، وهي الان معروضة في متحف القاهرة ، وتوجد نسخة عنها معروضة في متحف العلوم في لندن .. وقد دل تاريخها الى عهد الملك امنحوطب الذي حكم مصر في الفترة الواقعة خلال (١٣٨٠ ـ ١٤١٥) قبل الميلاد ، وهي عبارة عن وعاء من حجر يؤشر عليه من الداخل بخطوط افقية ومثقوب من الاسفل ..

وهناك انواع اخرى من الوسائل الطبيعية والساعات البدائية لمعرفة الوقت كالساعة الرملية التي جاء وصفها في كتاب « قصة الوقت » : « فالشمس والماء والنار قد لعبت دورا مهما في علم

قياس الوقت .. واخيرا ظهرت الساعة الرملية فاخذت مكانها بين الساعات الاخرى في قياس الوقت ، فزجاجة الساعة الرملية اضحت رمزا للوقت وكانت دقة قياسها للوقت موضعا لثقة الاقدمين في هذه الفترة الزمنية بينما اصبحت هذه الساعة الرملية تستعمل اليوم في المطابخ حيث يستفاد منها لتعيين وقت نضج البيض على النار ».

ساعة الرشيد لشارلمان العجيبة

ساهم العرب في عصر الدولة العباسية في تطور فن صناعة الساعات واخصها الساعة المائية ، وكانت الصناعة والابتكار والترف الفكري والحضاري من ابرز حضارة العرب المسلمين في العصر العباسي الاول حتى سمي بحق عصر الرشيد الزاهر بكل فنون العلم والمعرفة بـ «العصر الذهبي» في وقت كانت اوربا المسيحية غارقة في ظلام من الجهل قاتم اسود ..

فقد بلغت بغداد على عهد هارون الرشيد اوج عزها ومجدها واصبحت محط انظار طلاب العلم والمعرفة ، ويقصدها الداني والقاصي ليتزود من معارفها ويرتوي من عذب مائها وصفائه ، ويأتيها الناس من كل فج عميق لتعطيهم الشيء الكثير دون ان تأخذ منهم شيئا ، فكانت بغداد العباسيين تزهو بعلمائها الافذاذ ورجال الفكر فيها ، فمنها انطلقت الحركات الفكرية لتصارع الافكار الاخرى وتنازعها السيادة والسلطان فكان على راسها اشهر فلاسفة التاريخ : منهم الفارابي والكندي وابن سينا والغزالي ، وفي بغداد مدارسها الفقهية وعلى راسها وفي مقدمتها مدرسة الراي والقياس وسيدها الامام الاعظم ابو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي .. وفيها المصانع الفخمة والمعامل التي تنتج للعالم كله ، واصبحت جوامع بغداد وقصورها واسواقها ومدارسها من ابرز مظاهر حضارتنا .. لذا ليس بالغريب ان تصل الساعة المائية والتي صنعتها وصممتها الايدي العراقية الماهرة في زمن الرشيد الى غاية الابداع في الفن ودقة العمل .

وكانت هذه الساعة مفخرة ما توصل اليه العلم في مجال الابتكار والاختراع في عراقنا الحبيب .. في بلاد الف ليلة وليلة العباسيين ..

اما قصة هذه الساعة فهي : لقد اراد شارلمان ملك الافرنج الذي عاصر الخليفة العباسي العظيم هارون الرشيد ان تتوثق العلاقة بينه وبين الرشيد بعد ان علم بقوته وعظمة دولته وسلطانه ليتسنى للمسيحيين الاوربيين زيارة بيت المقدس وليحميهم في ذهابهم وايابهم .. لذا ارسل اليه السفراء يحملون اليه الهدايا الفاخرة استرضاء له وكسبا لمودته ، فرد عليه الرشيد هديته باحسن منها فكانت قصة الزمن ظلت مع الزمن خالدة تروي للاجيال مظاهر حضارتنا واصالة مدنيتنا .. وكانت من هذه الهدايا ساعة مائية دقاقة مصنوعة بمهارة عظيمة اعجب بها شارلمان ودهش رجاله ، حتى زعم ان بعضهم هرب من المجلس عند سماع دقاتها ظنا منه بأن شيطانا يختفي في داخلها ..

وذكر فولتير المؤرخ الفرنسي : ان اول ساعة عرفت في اوربا هي الساعة التي اهداها هارون الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا سنة ٨٠٧م . وكانت بدعا في ذلك العصر ، حتى انها اورثت رجال الديوان حيرة وذهولا .. كان لها اثنا عشر بابا صغيرا بعدد الساعات ، فكلما مضت ساعة فتح باب وخرجت منه كرات من نحاس صغيرة تقع على جرس فيقرع ويطن بعدد الساعات ، وتبقى الابواب مفتوحة ، وحينئذ تخرج صور اثنى عشر فارسا على خيل تدور على صفحة الساعة(*) .

ساعة المستنصرية في بغداد

لقد برع العرب في صناعة الساعات المائية الروحانية ، فكانت هذه الساعات عربية صميمة في صنعها .. ويراد بالساعات الروحانية ــ كما كانت تسمى ــ هي التي يحركها شيء خفي يشبه الروح في تحريك الاجسام بحسب راي كثير من الناس ، والساعات الروحانية فرع من فروع علم « البنكام » وهو علم صناعة الساعات لمعرفة الاوقات وقد صنف العرب المصنفات في هذه الصناعة ومنهم بديع الزمان او المعز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري (نسبة الى جزيرة ابن عمر) الذي الف كتاب « الالات الروحانية » في ذلك . وقد طبع قسما منه بعض المستشرقين ، الفه بديع الزمان لقره ارسلان التركي الارتقي ملك ماردين « ٦٥٨ ــ ٦٩١هـ » وجعله ستة انواع : الاول في الساعات ، والثاني في الاواني العجيبة ، والثالث في الالات الزامرة ، والرابع في آلات اخراج الماء من المواضع العميقة ، والخامس في الاباريق والطسوت ، والسادس في صور واشكال تختص بذلك .. وننقل هنا صورة شبيهة بساعة المستنصرية نشرها صاحب كتاب « قصة الوقت » في كتابه منقولة عن كتاب « معرفة

(*) مجلة الوعي الاسلامي الكويتية : العدد ٣٧ سنة ١٩٦٨.

الحيل الهندسية » لبديع الزمان الجزري . . وسبق ان نشرتها مجلة اهل النفط في بحث الدكتور مصطفى جواد ــ رحمه الله ــ عن مجلة « الادب والفن » التي كانت تصدر في انكلترا باللغة العربية والتي اعدنا نحن بدورنا نشــرها في هذه المجلة لنفاستها الا ان ناشرها الاول في مجلة الادب والفن ظنها « صورة لموسيقاربن لبعض السلاطين في مدخل قصره » وفي الحقيقــة ما هي الا صــورة ايوان الساعة .. ومن اشهر الساعات الروحانية المائية الساعة التي وصفها ابن جبير الرحالة الاندلسي ، وكانت في مسجد دمشق في القرن السادس للهجرة وما بعده وصفا رائعا دقيقا ، وقد راى ابن جبير هذه الساعة العجيبة سنة «٥٧٩هـ/١١٨٣م». وقد انشئت بعدها ببغداد ســنة « ٦٣٣هـ/١٢٣٥م » ساعة مثلها قبالة باب المستنصرية التي لا تزال بفخامة بنائها تعد فخرا لفن العمارة العربي ، قال ابن الفوطي في احداث ســنة « ٦٣٣هـ/١٢٣٥م » بصدد هذه الساعة ما نصه : « وفيها تكامل بنــاء الايوان الذي انشىء مقابل المدرسة المستنصرية ، وعمل تحته صفة يجلس فيها الطبيب وعنده جماعته الدين يشتغلون عليه بعلم الطب ويقصده المرضى فيداويهم .. وبني في حائط هذه الصفة دائــرة وصور فيها الفلك وجعل فيها طاقات لطاف لهــا ابواب لطيفة ، وفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب وراءهما بندقتان من شبه لا يدركهمــا الناظر ، فعند مضي كل ساعة ينفتح فما البازين ويقع منهما البندقتان ؛ وكلما سقطت بندقة انفتح باب من ابواب تلك الطاقات ، والباب من ذهب ، فيصير حينئذ مفضضا ؛ واذا وقعت البندقتان في الطاستين تذهبان الى مواضعهما ، ثم تطلع اقمار من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية وتدور مع دورانها وتغيب مــع غيبوبتها ــ كذا ــ . فاذا جاء الليل فهناك اقمار طالعة من ضوء خلفها ، كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر ، ثم يبتدىء في الدائرة الاخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس ، فيعلم بذلك اوقات الصلاة » .. وجاء ذكر هذه الساعة في كتــاب « خلاصة الذهب المسبوك » لعبدالرحمن الاربلي المتوفى سنة ٧١٧هـ ما نصه ايضا : « ... وبني في حائط هذه الصفة دائرة عجيبة وصورتها صورة الفلك وجعل فيها طاقات صغار لها ابواب كلمــا سقطت بندقة انفتح باب من ابواب الطاقات وهو مذهب نضــار مفضض ومضت ساعة من الزمــان والبندقتان من شبه يقعان من فم بازين من ذهب في طاسين من ذهب ويذهبان الى مواضعهما وتطلع شموس من ذهب في سماء زرقاء في ذلك الفلك ومع طلوع الشمس تدور دورانها وتغيب مع غيوبها فاذا غابت الشمس وجاء الليل فهناك اقمار طالعة من خلفها كلما مضت ساعة تكامل الضوء في دائرة القمر ثم تبدو بالدائرة الاخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس فيعلم بذلك اوقات الصلاة » . وقد نقل التقي الفاسي المكي في ترجمة احمد بن علي بن تغلب ابن ابي الضياء البعلي الأصل ، البغدادي المولــد والمنشأ المعروف بابن الساعاتي ، ان اباه هو الذي عمل الساعات المشهورة على باب المستنصرية ببغداد لانه كان مشتهرا بعلم الهيئة والنجــوم وعمــل الساعات .. وقد عين ابن الفوطي سنة ولادة هذا الرجل ووفاته بقولــه : « وفيهــا اي في ســـنة ٦٨٢هـ/١٢٨٤م تــوفي نور الدين علــي بن تغلب الساعاتي وكان يتولى الساعات المشهورة تجــاه المستنصرية ، وكان مولده سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م ».

وقد اشتهرت جماعات بحرفة هذه الساعات فعرفوا بالساعاتيين والواحد « ساعاتي » وعرف كل من ابنائهم بابن الساعاتي ذكر منهم الدكتور مصطفى جواد عن كتاب تكملة اكمال الاكمال «ص٢٢٧» طبعة المجمع العلمي العراقي » : « ومنهــم ابن الساعاتي الشاعر المقتدر المشهور (بهاءالدين علي بن رستم) واخوه الحكيم الطبيب (فخرالدين رضوان رستم) و (نورالدين علي بن تغلب الساعاتي) وكان يتولى تدبير الساعات التي كانت تجاه المدرسة المستنصرية وابنه (مظفرالدين بن علي المعروف بابن الساعاتي) وحفيده (محمد بن احمد بن الساعاتي) و (محمد ابن احمد بن الساعاتي) و (ابن عمرو عثمان برمكي السعدي) قال جمال الدين بن الصابوني عنه : وهو كثير المحفوظ ، وله اليد الطولى في عمل الساعات ومعرفة الاصطرلاب » ..

وممن الف في صناعة « البنكام » تقي الدين محمد المعروف بالراصد المتوفى سنة ٩٩٣هـ فله كتاب « الطرق السنية في الالات الروحانية » وكتاب « الكواكب الدرية في البنكامات الدورية » .. ومن الكتاب الاخير نسخة محفوظة بدار الكتب الوطنية بباريس .

وقد تغنى الشعراء بساعة المستنصرية ونظموا القصائد في وصفها وعجيب صنعها ، منها قول ابي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي يمدح الخليفة :

يا ايهــا المنصور يا مالكــا
برايه صعب الليالي يهــون

تهدي الى الطاعات ساعاته الـ
ـناس وبالنجم هم يهتدون
ـورٌ فيه فلك دائـر
والشمس تجري ما لها من سكون
دائـرة من لازورد حكت
نقطة تبر فيه سر مصون
فتلك في الشكل وهذي معا
كمثل هاء ركبت وسط نون
فهي لأحياء العلى والندى
دائرة مركزها العالمون

وفيها يقول ذو الملكتين الناثر الشاعر عزالدين عبدالحميد بن أبي الحديد المدائني :

ما مثل الفلك العظيم لمبصر
في الارض قبل ابالة المستنصر
هذا بناء معرب عن قدرة
رفعت قواعده بفعل مطهر
حسدت به الارض السماء ولم يزل
حسد الفضائل في طباع العنصر
انظر تجد نظم الثريا في ذرا
شرفاته وضياء نور المشتري
فالافق بين مفضض ومذهب
والجو بين مكوفر ومعنبر
والارض حاسرة القناع كانها
خود تبرج في رداء اخضر

وقال كشاجم الاديب الشاعر يصف «البنكام» الذي معناه بالفارسية (اناء مثقوب لقياس الاوقات) نعربه العرب بصورة « بنكام » وجمعوه على « بنكامات » :

روح من الماء في جسم من الصفر
مؤتلف بلطيف الحس والنظر
تنشا لـه حركات في اسافله
كانها حركات الماء في الشجر

ان ساعة المستنصرية التي تعد من بدائع الصناعة ونفائس الاثار ، لم يبق لها اليوم اثر ما لذا كانت دعوة بعض الباحثين لانشاء ميدان فسيح امام المستنصرية وازالة المباني المستحدثة حولها دعوة صادقة ومنهم الدكتور ناجي معروف ـ رحمه الله ـ الذي دعا الجهات المختصة الى صيانة حرمة تراثنا الحضاري البغدادي ، وذلك فيما يخص اول جامعة عربية كبرى وهي مباني المدرسة المستنصرية .. وقد استعرض الدكتور معروف هذه القضية باسهاب طالب باستخدام الاماكن التي تقع قرب المدرسة للاغراض السياحية في القطر وللصورة والصوت وهي كلها تمثل طرازا بغداديا اصيلا ، ووضع مخططا لذلك اثبت فيه اهم المواقع والمنشآت التابعة لهذه المدرسة ومنها موقع الساعة المائية وقبتها الجميلة والتي عينها قبالة الباب الرئيسي بمسافة عشرات الامتار وبعدها ياتي موقع مدرسة الطب المستنصرية والمستشفى ونشر هذه الدعوة في جريدة الجمهورية البغدادية الغراء في عدد يوم الجمعة ٣١-٣-١٩٧٢ .. ونحن بدورنا نثبت هذا المخطط على صفحات هـذه المجلة لتغطي صورة واضحة عن هذا المشروع المقترح ، نقتطف شيئا مما ذكره الدكتور معروف فيما يخص ساعة المستنصرية « .. ولم تعول هذه المدرسة (اي المستنصرية) على الدراسات النظرية فقط ولم تكن في معزل عن المجتمع بل عقدت فيها مجالس المظالم والمناظرات والندوات الادبية والعلمية واستخدمت الكثير من الاغراض الاجتماعية فذاع صيتها في العالم وقصدها العرب المسلمون والاجانب للدراسة والمناظرة والتزود من علوم اساتذتها والتفرج على بناياتها حتى كان من اغلى اماني الملوك والسلاطين والوزراء والاعيان والعلماء عندما كانوا يفدون الى بغداد بصورة رسمية او غير رسمية ان يؤذن لهم يومئذ في زيارتها وحضور الحفلات التي تقام فيها والاستماع الى البحوث والمحاضرات العلمية التي يلقيها كبار رجال العلم من اساتذتها والاطلاع على خزانتها التي كانت يومئذ اعظم خزانة للكتب في العالم اذ وضع فيها مؤسسها المستنصر بالله عند افتتاحها ثمانين الف مجلدة من المخطوطات ، والتفرج على ساعتها العجيبة التي كانت من المآثر الجليلة لبني العباس ببغداد ...

فقد اصبح من حق المستنصرية العناية بابرازها للزوار والسياح والعلماء والدارسين والباحثين في حضارة بغداد . ولا تتحقق هذه العناية الا بازالة جميع ما حولها من مبان مستحدثة مشوهة واسواق مغطاة بصفائح « الجينكو » وانشاء ميدان فسيح امامها يمتد من بابها الشاهق حتى شارع الرشيد وشارع المامون واعادة ساعتها العجيبة .. » ..

الساعات البغدادية الحديثة

عرف البغداديون الساعة الحديثة منذ القرن الثامن عشر ، وكان التاجر البغدادي من انشط تجار العالم تنافسا في استيرادها من مواطن صنعها في المانيا .. وكان الموسرون من ابناء بغداد وحتى متوسطي الحال مولعين في اقتناء ساعات الجيب والساعات الجدارية لتزين جدران بيوتهم ودواوينهم وما زال بعض هذه الساعات في حوزة اصحابها حيث تعمل بدقة دون ان تنتابها مؤثرات الزمن .. فمن هذه الساعات الساعة التي يحتفظ بها احد المواطنين والتي اشارت الى ذكرها مجلة «الف باء» في عددها (٤٦٨) تحت عنوان « اقدم ساعة في بغداد » والتي يعود تاريخ صنعها الى عام ١٨٠٠م حين دخلت بغداد ضمن اول وجبة ساعات استوردت إبان العهد العثماني من المانيا عام ١٨١٠م والتي ما زالت صالحة تعمل بدقة لحد الان .. وبرز مواطن بغدادي اخر يعقب على هذا الخبر في المجلة المذكورة بعددها اللاحق (٤٧١) : ينفي فيه ان تكون تلك الساعة هي اقدم ساعة في بغداد بل ان التي اقدم منها هي الساعة التي يمتلكها هو والتي آلت من جده الى والده ومن ثم اليه ، وهي من الساعات المعروفة بـ (ام الطمغة) يرجع تاريخ صنعها الى سنة ١٧٤٩م كما هو مثبت في داخلها وهي بحالة جيدة وتشير الى الوقت بدقة حتى هذه اللحظة ! ! .

يا ترى كم من هذه الساعات الاثرية يحتفظ بها البعض ولا نعلم عنها شيئا ؟ ! ! .

ماذا لو دعت جهة من الجهات المختصة ولتكن امانة العاصمة الى تملك امثال هذه الساعات التي كانت تزين جدران البيت البغدادي ايام زمان والتي يحتفظ بما تبقى منها بعض المواطنين والمودع بعضها الاخر وقفا في بعض المساجد والجوامع الكبيرة خاصة بعد ان اصبحت نادرة وتمتاز بمسحة اثارية ووضعها في جناح خاص من المتحف البغدادي لتمثل جانبا من مخلفات المجتمع البغدادي في القرن الماضي قبل ان تختفي وتزول ويمحى اثرها ؟ لاشك انها ثروة تراثية لا تعوض ! ! .

ومن طريف الاخبار ما ذكرته مجلة لغة العرب في مجلدها الثاني ـ العدد ١ عن تموز ١٩١٢ في باب (تاريخ وقائع الشهر) .. وهو خبر الساعة الزوالية الذي يقول : «اتخذت الحكومة في دواوينها العسكرية والملكية الساعة الزوالية (الافرنجية) مع بقاء الساعة الغروبية للصلاة والاذان وعليه فيكون فتح دواوين الحكومة في الساعة السابعة صباحا الى الساعة الثانية عشرة والنصف وحفظا لمصالح موظفي الحكومة وحرصا على اوقاتهم اقيمت ساعتان عند باب دار الحكومة الواحدة لاوقات العبادة والثانية لاوقات الشغل » . مما يدل على اهتمام الناس بقيمة الوقت وضرورة ضبطه لتحديد اوقات العبادة والعمل ! ! ..

الساعات البغدادية ذات الابراج

وعرفت بغداد الساعات الكبيرة ذات الابراج العالية على غرار المنائر ايام حكم الوالي العثماني المصلح مدحت باشا حيث شيد لاول مرة في تاريخ بغداد هذا النوع من الابراج لينصب في اعلاه ساعة القشلة الشهيرة ، وكان ذلك حدثا مهما في تاريخ عاصمة اعرق حضارة في التاريخ وتم ذلك عام ١٨٦٦م اي بعد عشرة اعوام من نصب ساعة (بك بن) الشهيرة والتي تعلو مبنى مجلس العموم البريطاني في العاصمة لندن وتذاع دقاتها من الاذاعات البريطانية الى جميع انحاء العالم ويعود لها الفضل في ضبط الساعات وتوقيتها في بقية اقطار الدنيا .. ثم توالى نصب الساعات ذات الابراج في بغداد بعد ساعة القشلة فكانت ساعة الكاظمين عام (١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م) ، ثم ساعة الحضرة الكيلانية عام (١٣١٦هـ / ١٨٩٨م) ، فالساعة الاعظمية عام (١٣٥٠هـ / ١٩٣٠م) ، ثم ساعتا المحطة العالمية عام ١٩٥٥م في بغداد .. وسنبين تاريخ كل منها على التوالي :

ساعة القشلة (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م)

ارتبط تاريخ هذه الساعة الاثرية ببناء القشلة (الثكنة العسكرية وسراي الحكومة فيما بعد) التي ما زالت قائمة وماثلة امام انظارنا تحكي قصة الزمن في فترة من فترات التاريخ وبقيت وستبقى لتكون احد معالمنا الاثرية في بغداد .. وكان الشروع في بناية هذه القشلة سنة (١٢٧٨هـ/١٨٦١م) ايام الوالي نامق باشا الكبير وفي عهده لم يكمل بناؤها وقد اكمله مدحت باشا (١٨٦٨ـ١٨٧١) واقام في ساحتها برجا نصب عليه الساعة المذكورة لغرض ايقاظ الجنود الى اوقات التدريب العسكري حيث اتخذ القشلة مركزا لقواته الخيالة وكذلك مقرا لولايته ، ومن ثم اشغلت من قبل بعض الوزارات في العهد الملكي الغابر .. وساعة القشلة تدق الساعة فقط وكان رنين صوتها تسمعه بغداد كلها ـ بجانبيها الرصافة والكرخ ـ وخاصة في اوقات

الليل والفجر حيث يستيقظ على دقاتها العمال والموظفون ليذهبوا الى اعمالهم اضافة الى انها كانت تزينها المصابيح مما يساعد على رؤيتها من مسافات بعيدة في الليل .. اما اليوم فان البنايات العالية حجبتها عن الانظار كما حجبت صوتها عن الاسماع وكان الناس قد اعتادوا ان يضبطوا ساعاتهم والموظفون ان يتبينوا بها مواعيد بدء الدوام الرسمي وانتهائه من دواوين الحكومة فهي الحكم الفصل في كل اختلاف بالزمن .

بنيت القشلة وبرج ساعتها وبعض ابنيسة مدحت باشا التي تميز بها عهده من حجارة سور بغداد الشرقية حيث كان قائما يومذاك ، وقد هدمه الوالي المذكور على اعتبار ان بغداد ليست في حاجة له بعد استعمال المدافع كاسلحة حديثة في الحروب ودك الحصون .

انتصب برج ساعة القشلة الذي يطل على شاطىء دجلة الشرقي على مساحة مربعة الشكل طول ضلعها اربعة امتار يضيق كلما ارتفعنا عن الارض شبيها بالهرم وكان في تصميمه ايضا يشبه الى حد بعيد المئذنة ، وارتفاعه ثلاثون مترا ، وبداخله سلم حلزوني يحتوي على (٧٢) درجة ، وفي نهايته حوض كبير يضم مكائن الساعة ذات الجهات الاربع ، كما يوجد ايضا جرس الساعة الذي يبلغ ارتفاعه مترا واحدا وقطره ثلاثة امتار وهو منفصل عن الساعة وعند عملية التشغيل تتصل الساعة بالجرس بواسطة جسر صغير ، وتتم عملية النصب بواسطة مفتاح يشبه الى حد كبير « هندر السيارات » لتعطي الساعة قوة تشغيل لمدة عشرة ايام والجرس لمدة سبعة ايام . ولهذه الساعة اربعة اوجه فالوجهان الجنوبي والغربي على التوقيت الغروبي (العربي) وتشير عقاربها الى الزمن بالرقم العربي المألوف ، اما الوجهان الاخران وهما الشمالي والشرقي فعلى التوقيت الزوالي (الافرنجي) وتشير عقاربها الى الزمن بالرقم اللاتيني القديم ..

ويعتلي برج الساعة سهم حديدي قائم يرتبط في منتصفه بسهم حديدي بشكل افقي متحرك يؤشر هذا الرمح حركة الرياح واتجاهاتها . . ويوجد سهم اخر تحت السهم المتحرك رسم فيه الحروف (N) بالانكليزية ويعني اتجاه الرياح الشمالية ، والحرف (S) ويعني اتجاه الرياح الجنوبية حيث يؤشر السهم المتحرك عند هبوب الرياح على واحد من هذين الحرفين لمعرفة اتجاه الرياح ، وقد صنع مؤشر الرياح هذا عند دخول الانكليز بغداد عام ١٩١٧ مع التاج وتمثال الجمل وبعض الاصلاحات والاضافات الاخرى على البرج .

وكان تمثال الجمل الذي وضع فوق مرتكز الرمح قد صنع من البرونز لقائد الانكليزي «لجمن» الذي جاب الصحراء العراقية وهو يركب الجمل فاسقط هذا التمثال مع التاج من فوق برج الساعة بسقوط النظام الملكي في العراق في تموز عام ١٩٥٨م ..

وكانت تعترض ساعة القشلة مشاكل بسيطة وسببها المطر والغبار اللذان يدخلان الساعة عبر الشبابيك فيؤديان الى تعطيلها عن العمل مما يستوجب مسحها وتنظيفها وطلاءها بالدهن باستمرار .. وكان الرجل المسؤول عن كل ذلك وعن توقيتها وضبطها وادامتها يدعى السيد عبداللطيف احمد الساعاتي وهو في العقد السابع من العمر عايش هذه الساعة وظل يعمل معها قرابة النصف قرن ، وقد توفي رحمهالله في مطلع عام ١٩٧٨م .. وقد خلفه في هذه المهمة المدعو السيد جبار وهو شاب في مقتبل العمر فنتمنى له العمر المديد ومزيدا من الاهتمام في رعاية اقدم ساعة في بغداد ..

ساعة القشلة وتجربة التوقيت في الاذاعة والتلفزيون

ثبت ان ساعة القشلة من الساعات المضبوطة في توقيتها لان حركتها (ميكانيكيتها) مؤسسة على اجود وادق النظريات في صناعة الساعات ولهذا السبب ومنذ تأسيسها كان اعتماد الكثير عليها في توقيت ساعاتهم .. لذا يجب ان تنال هذه الساعة قسطا كبيرا من الاهتمام و لرعاية لادامة ضبطها للوقت . وبهذه المناسبة نطرح وسبق ان طرحنا اكثر من مرة تجربة مهمة تهم الجميع لعل المؤسسة العامة للاذاعة والتلفزيون ان تفيد منها في ضبط الوقت داخل المؤسسة على الاقل فيكون بامكان اذاعة بغداد وصوت الجماهير وتلفزيون بغداد ان ينهوا الخلاف والاختلاف الذي لا يزال مستمرا بل صار مزمنا .. فتدق الساعة في احدى هذه المحطات في الوقت الذي نسمع فيه نشرة الاخبار قد بدات تذاع من محطة اخرى ، والبرنامج المقرر لم ينته بعد في المحطة الثالثة وهكذا يقع المواطن في حيرة من امره وهو ممسك بزمام ساعته يريد ضبط الوقت فيها وتوقيتها ! ! ..

والتجربة تتلخص في شروع الاذاعات البريطانية

في التوقيت على ساعة (بكبن) الشهيرة في لندن وكذلك الأذاعات والتلفزيون في الشقيقة جمهورية مصر العربية في التوقيت على ساعة جامعة القاهرة، فحين تدق الساعة في الجامعة تكون قد دقت في داخل الاذاعة والتلفزيون معا في اللحظة ذاتها وهذا مما يجنبها الاختلاف في ضبط الوقت ، وسوف لن تكون هذه التجربة بأقل نجاحا مع ساعة القشلة اذا اريد لها ان تكون اساس التوقيت لمدينة بغداد ! ! .

ساعة الكاظمين (١٣٠٠هـ/١٨٨٢م)

ومن ساعات بغداد القديمة ذات الابراج ساعتا المشهد الكاظمي الذي يضم قبري الامامين موسى الكاظم ومحمد الجواد عليهما السلام ، فكانت الاولى على الباب الشرقي مقابل ساحة النافورة ، والثانية على الباب القبلي ، وكان قد اهدى الساعة الاولى وهي من الساعات الكبيرة الوزير الايراني « دوست محمد خان » عام زيارته للعراق بصحبة ملك ايران ناصر الدين شاه سنة (١٢٨٧هـ/١٨٧٠م) ولما لم يكن لها موضع تنصب فيه فقد بقيت في مخزن الهدايا العائد للمشهد الكاظمي الى حين شيدت قاعدة وبرج تنصب عليه ، وتم ذلك في حدود سنة (١٣٠١هـ / ١٨٨٣م) وهي قائمة الى اليوم تعمل بانتظام ..

اما الساعة الثانية وهي اكبر واضخم من الاولى فقد وضعت على الباب القبلي وقد اهدى هذه الساعة الحاج محمد مهدي الابوشهري الايراني بعد تشييد القاعدة الثانية والبرج وكان ذلك سنة (١٣٠٣هـ / ١٨٨٥م) .

وقد ارتبط تاريخ هاتين الساعتين بالمشروع الضخم لتجديد عمارة المشهد الكاظمي والذي تطوع على الانفاق عليه الامير (فرهاد ميرزا القاجاري) عم ناصر الدين شاه عام (١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م) . وقد اوكل على ذلك اثنين من كبار تجار الكاظمية وهما الحاج عبدالهادي والحاج مهدي الاستربادي للقيام بهذه المهمة واذن لهما التصرف المطلق والانفاق بالمبلغ غير المحدود ، فكان بدء العمل بالعمارة يوم (١٧ ـ ذي القعدة ـ ١٢٩٦هـ/١٨٧٨م) والانتهاء منه بجميع ما فيه في (١٧ ـ ربيع الاول ـ ١٣٠١هـ/١٨٨٣م) واحتفل بهذه المناسبة لمدة ثلاثة ايام ، ويقال ان مجموع نفقات هذه العمارة بلغ مائتي الف ليرة عثمانية .. وقد اشتمل هذا التعمير على بناء سراديب منظمة لدفن الموتى في ساحة الصحن وايوانه وحجراته ، وتذهيب المنائر الاربع الكبرى من حد وقوف المؤذن الى قمتها . وتشييد سور مرتفع للصحن يتكون من طابقين بالآجر بعد أن كان من اللبن ، ثم تأسيس قاعدتين ضخمتين في سطح الطابق الثاني من الصحن فوق البابين الرئيسيين في جانبي الشرق والجنوب لتقوم عليهما ابراج الساعتين ، وقد استغرق هذا البناء الضخم اربع سنوات ، ومن ثم تم نصب الساعتين المذكورتين عليهما .

وقد امتازت الساعة التي نصبت على الباب القبلي بفخامتها اضافة الى قدمها وجمال برجها ، فكان بداخل البرج سلم خشبي ذو عشرين درجة . اما آلة الساعة فقد ركزت في الطبقة الثانية وهي ذات اربعة اوجه مدورة ، تدق الساعات والانصاف والارباع وتحتوي على جرس ومطرقة ضخمين .. وكان الصوت المنبعث منها عاليا جدا يصم الاذان فافرغت في الجرس كمية من الرصاص للتخفيف من حدة الصوت .. ويبلغ ارتفاع البرج اعتبارا من سطح الباب الى القمة ـ وهي على شكل خوذة ذهبية الطلاء ـ ستة عشر مترا ونصف المتر ، كما بلغ عرض الكتابة ثلاثة امتار ، وغرفة الآلة خمسة امتار .. وقد زاد في روعة منظرها ذلك الكاشاني الجميل النقش والزخرفة البديعة اللذان يكسوان جدرانها ..

ومن اهم المشاكل التي كانت تعترض الساعة انذاك انها حين تتوقف عن العمل ويعجز المصلحون المسلمون عن تصليحها يتحرج الموقف بدخول المصلحين الاجانب الى المشهد المقدس بدافع الاضطرار .. ومن طريف ما يروى عن تصليح هذه الساعة يوم توقفت ما ترويه السيدة « مدام ديولافوا » الاديبة والمؤرخة الفرنسية يوم زارت العراق برفقة زوجها المهندس « مارسل ديولافوا » ودونت مشاهداتها في رحلتها المشهورة سنة (١٨٨١م/١٢٩٩هـ) .. وفي رحلتها من بغداد الى الكاظمية بالكاري برفقة خادم القنصلية الفرنسية تذكر انهم تعرفوا في بغداد على مهندس فرنسي خبير في تصليح الساعات يعمل في بغداد ويدعى « المسيوموكل » فزودهم بتوضيحات كافية عن المشهد الكاظمي المقدس ، واعطاهم صورة موضحة للمقبرة بكافة مرافقها بعد أن نقلوا اليه تفاصيل سفرتهم غير الموفقة هذه ، وحدثوه بما رأوه من صعوبات ومضايقات في زيارتهم لهذا المشهد ، ولم يستطع هو ايضا الدخول اليه في مبدأ الامر لكونه نصرانيا ، لكن الساعة الكبيرة في الصحن توقف دقاقها الكبير في يوم من الايام وتعسر تصليحه فتبرع

هو لاصلاحه وتشغيل الساعة ؛ فحمل ادواته الهندسية ، والة التصوير الدقيقة في الوقت نفسه واستطاع ان يلتقط عدة صور من فوق السطح والبرج ومن الجوانب المختلفة . وتذكر السيدة مدام ديولافوا : ان الدليل خادم القنصلية الفرنسية وهو مسلم هندي وكان يلبس الطربوش ويجيد اللغة العربية المحلية ـ قد اكد انه لم يسبق لاحد الافرنج ان دخل هذا المشهد المقدس ابدا .. ! ! .

ساعة الحضرة الكيلانية (١٣١٦هـ / ١٨٩٨م)

وبعد بضع سنوات من نصب ساعة الكاظمين اهديت من المسلمين بالهند ساعة كبيرة ذات وجهين تدق الساعات وانصاف الساعات فقط الى الحضرة الكيلانية المقدسة في بغداد ، وفعلا تم نصبها في الحضرة المذكورة وكانت تعمل بانتظام حتى حلت محلها ساعة ضخمة اخرى ذات اربعة اوجه كبيرة وهي الساعة القائمة اليوم في صحن الحضرة الكيلانية ، ورفعت الساعة القديمة من محلها وقدمت هدية الى مديرية الاوقاف لتنصب في جامع الامام الاعظم في الاعظمية .. اما الساعة الجديدة فهي ذات اربعة اوجه مدورة كبيرة وتحتوي على ثلاثة اجراس احدها للساعات والاخر لنصف الساعات والثالث للارباع .. وقد تم صنع هذه الساعة الفخمة في معامل (بونه) الشهيرة في مدينة بومبي بالهند . وقد شيد لها المرحوم عبدالرحمن النقيب ، نقيب اشراف بغداد الاسبق المتوفى سنة ١٣٤٥هـ ، برجا عاليا يبلغ ارتفاعه (٣٠) مترا ؛ وكان الانتهاء من تشييده في سنة (١٣١٦هـ/١٨٩٨م) كما هو مدون على واجهة البرج الشمالية بالكاشاني الازرق البديع ، ونقشت طغراء السلطان عبدالحميد خان بالكاشاني الازرق ايضا وتحتها سنة ١٣١٧هـ على واجهته الغربية ، وثبت لوح من المرمر كتب عليه اطراء وثناء ودعاء للسلطان عبدالحميد الثاني على واجهته القبلية وكانت هذه الكتابات بخط السيد عبدالجبار آل خان زاده رئيس كتاب مديرية اوقاف بغداد سابقا والمتوفى سنة ١٣٢٤هـ . وكان البرج من صنع المعمار البغدادي الحاج اسطه درقي الذي حاكى في بنائه برج ساعة القشلة وكان لا يخلو من بعض الاضافات منها المحجران السفلي والعلوي فوق حجرة الساعة واللذان يحيطان بالبرج من جهاته الاربع ، ويرتقى الى الساعة من داخل البرج بسلالم خشبية .

وقد قام هذا البرج على قاعدة ارضية طول ضلعها للانسة امتار ونصف المتر ثم يرتفع البرج هرميا حتى يصل عرض ضلعه المترين ونصف المتر وهي شبيهة بساعة القشلة الشهيرة في كثير من الوجوه .. وتعترض هذه الساعة من المشاكل ما تعترض ساعة القشلة من مطر وغبار مما يستوجب مسحها وتنظيفها وطلاءها بالدهن باستمرار ويقوم بكل ذلك وعن توقيتها وضبطها وادامتها رجل في العقد السابع من العمر وهو من الهنود المسلمين الذين نذروا انفسهم لخدمة الحضرة الكيلانية المقدسة ويدعى هذا الرجل (غلام دستكير) الذي ظل يزاول خدمته هذه منذ اربعين سنة ونيف والى يومنا هذا ..

الساعة الاعظمية (١٣٥٠هـ / ١٩٣٠م)

يحق لكل عراقي ان يتيه فخرا واعتزازا بكل ما ابدعته اليد العراقية الماهرة في الحقل الصناعي على مر العصور ويزهو بنفسه على ذلك العطاء الثر الذي قدمه للانسانية مساهمة منه في كثير من مجالات الفكر والعلم والفن والصناعة . وقد اثبتت الايام بان كثيرا من القابليات والكفاءات ظلت فترة من الزمن مطوية في عراقنا الحبيب حتى اذا ما تهيأت لهـا الفرص المسعفة برزت الوجود فبرهنت للملأ على نبوغ العراقي وابداعه في جميع المجالات وكشفت عن قابلياته وجلت مواهبه ونهضت دليلا على ان النبوغ والابداع لا يختصان ببلد دون اخر وينفرد بهما شعب دون سائر الشعوب . وكان من هؤلاء النوابغ المبدعين الذين تهيأت لهم فرص العمل بعصامية فذة وبعقلية مبدعة متطورة المرحوم الحاج عبدالرزاق محسوب الاعظمي منشيء الساعة البغدادية المشهورة باسم « ساعة المعرض » او الساعة الاعظمية نسبة الى الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ـ رحمه الله ـ .

وتبدأ قصة هذا الصانع الموهوب مع الساعة الاعظمية في عام (١٣٣٧هـ/١٩١٩م) يوم اهديت الساعة الكبيرة ذات الوجهين والتي كانت منصوبة في الحضرة الكيلانية كما قدمنا الى جامع الامام الاعظم لتصليحها ونصبها فيه غير ان هذه الساعة كانت قديمة وقد تلف الكثير من اجزائها اثناء رفعها ، وقد طلب ناظر الاوقاف في حينه الى سلطات الاحتلال البريطاني ارسال خبير لتصليحها ، كما كتب الى الدوائر المختصة للقيام بذلك ؛ غير ان النتيجة كانت سلبية مما اضطر دائرة الاوقاف الى الاعلان عنها في جريدة العراق الصادرة في (١٧ شباط ١٩٢١) تطلب من بعض المتعهدين من ذوي الاختصاص في موضوع تصليح تلك الساعة مراجعتها

وكان ذلك الاعلان بتوقيع الحاج حمدي الاعظمي (العالم الفقيه والاستاذ في تدريس الشريعة الاسلامية في كليات بغداد ومؤسس المكتبة المعروفة باسمه والكائنة في محلة السفينة بالاعظمية) . وكان آنذاك مديراً للاوقاف ، فلم يلب الطلب احد .

وفي (١٩ آذار ١٩٢١) تقدم اليها الحاج عبد الرزاق محسوب الاعظمي متعهداً تصليحها ، فلما فحصها وجدها غير صالحة ، فراودته فكرة القيام بصنع ساعة مثلها ، فاعلن تعهده على انشاء ساعة جديدة بعد ان ذكر ان الساعة القديمة لا يمكن اصلاحها .. وقد وافقت مديرية الاوقاف على الطلب بتاريخ (٢٠ آذار ١٩٢١) وكتبت له بتاريخ ٢٤ منه بموافقتها على قيامه بصنع ساعة جديدة بدلا عن تلك الساعة التالفة .. وفي ٢٥ منه بدأ المشروع ينفذ في معمل محسوب في الاعظمية (ولا تزال بناية المعمل قائمة حتى اليوم في محلة الشيوخ قرب جامع ملا خطاب) ..

وكانت فكرة رائعة تحكمت في احاسيسه ومشاعره حتى اقضت مضجعه في الليل واستنزفت الكثير من وقته في النهار ، فراح يرسم خطوطها الرئيسية منذ تلك اللحظة ودب نشاط غير اعتيادي في معمل السيد محسوب الذي راح يوزع الاعمال بين عماله باهتمام بالغ وجدية ملحوظة وفي ذهنه تصميم لصنع ساعة كبيرة مع هيكلها الخاص ذات اربعة اوجه بدلا من تلك الساعة ذات الوجهين . وهكذا واصل السيد محسوب عمله الفني في صنع هذه الساعة بهمة لا تعرف الكلل والملل وبمساعدة ولديه السيدين محمد رشيد وعبدالهادي حتى افرغ في سبيل ذلك كل جهد وانفق كثيرا من المال فاتم صنعها بتاريخ (٢٨-١٢-١٩٢٩م/١٣٥٠هـ) وبعد الانتهاء من صنعها وتنظيمها واجراء بعض الفحوص والتجارب عليها امام جمهرة من اهل الخبرة وشاهدي العيان طلب من ادارة الاوقاف تسلمها هبة منه وبدون عوض بدلا من تلك الساعة التالفة لتقوم بنصبها في جامع الامام الاعظم متبرعا بها لوجه الله تعالى ، وطلب اليها القيام ببناء البرج المناسب لها وارفق طلبه بمخطط لذلك البرج . الا ان العقليات القاصرة وغير المدركة التي كانت تسيطر على شؤون الاوقاف حينذاك تشككت في صنعها فاخذت تماطل في ذلك . واخيرا رفضت تسلمها فاحتفظ بها واقام لها برجا حديديا في جانب من معمله الكائن في الاعظمية وقد تجاوزت آفاقه بأصداء دقات تلك الساعة وهي تعلن عن الوقت بانتظام وتبارك جهود السيد محسوب وعمله المبدع في خدمة بلاده .. ومما هو جدير بالذكر ان جميع اجزاء هذه الساعة وآلاتها كانت عراقية الصنع مائة في المائة بحيث لم يستورد اي جزء لها من الخارج اذ قامت بصنعها وهندستها الايدي الفنية العراقية في معمل محسوب وباشرافه .

ولما اقيم المعرض الزراعي الصناعي في حدائق باب المعظم في بغداد والذي افتتح في (٧ نيسان ـ ١٩٣٢م) في عهد الملك فيصل الاول ، نقلت اجزاء هذه الساعة الى حدائق المعرض في الفترة ما بين ١١-١-آذار-١٩٣٢) لتنتصب على ارضها ، فكانت هذه الساعة الشامخة ـ والتي فازت بحق وجدارة بالجائزة الاولى ـ من ابرز المعروضات واجدرها باهتمام الجمهور . واخيرا وبعد هذا الفوز الساحق على غيرها من المعروضات وافقت الاوقاف على تسلمها وتسلمتها بالفعل لا لتوضع في جامع الامام الاعظم وانما لتوضع رهن التوقيف والحجز في احد مخازنها فداهمها الصدأ وكادت ان تتلف لولا ان تداركها قرار مجلس الوزراء الصادر بعد ثورة تموز المجيدة عام ١٩٥٨م والقاضي بالافراج عنها ونصبها على برج يناسبها في جامع الامام الاعظم ..

بقيت الساعة تعمل بانتظام في حديقة المعرض حتى اواخر شباط من سنة ١٩٣٣ حيث طلبت السلطات المختصة من صاحبها رفعها من مكانها فاعيدت الى المعمل في الاعظمية .. وهناك وضعت آلاتها بعد تفككها في صناديق انتظارا لنصبها في جامع الامام الاعظم ..وقد استمرت دائرة الاوقاف تماطل في بناء البرج متعللة بشتى المعاذير بالرغم من الحاح صاحبها الذي توفاه الله في (٧-١١-١٩٥٣) وفي نفسه حسرة لانه لم يشاهد ساعته فوق برجها الذي صممه وفقا لذلك حتى هيأ الله لها ان تنصب اخيرا في اواخر عام ١٩٥٨ في مكانها الحالي في ساحة جامع الامام الاعظم بجهود نجل صانعها الدكتور صالح عبدالرزاق (عضو محكمة تمييز العراق سابقا) وبمساعدة اخوته ..

ومن طريف ما يروى ان السيد فؤاد حفيد الحاج عبدالرزاق محسوب كان تلميذا في مدرسة الاعظمية الثانية للبنين واحتاجت مدرسته الى جرس لتنبيه الطلاب الى مواعيد الدروس والفرص

فوعد التلميذ معلمه المرشد بتهيئة جرس للمدرسة المذكورة وفعلا بر التلميذ بوعده فجلب جرسا من اجزاء ساعة جده المفككة وكان بحجم جمع الكف ولما استعمل كان له رنين واضح يفوق حجمه بكثير وكانت تلك بداية معرفة تلاميذ مدرسة الاعظمية بتلك الساعة العربية ..

وبعد ثورة تموز ١٩٥٨ عهد الى وزارة الاسكان بناء الابواب الرئيسية وسياج الجامع مع برج الساعة ؛ وبعد وضع التصاميم والخرائط بوشر بالعمل ونفذ بناء برج الساعة بالكونكريت المسلح وعلى شكل اسطواني وبارتفاع (٢٥) مترا ومحله قرب الباب الرئيسية من جهة الشرق ثم كسي البرج بالفسيفساء الايطالي ذي اللون الازرق والابيض ؛ كما بنيت الابواب على شكل اقواس ثلاثة بالكونكريت المسلح ايضا كما كسيت بنفس النوع من الفسيفساء . وبعد اكمال بناء البرج سنة (١٣٨١هـ / ١٩٥٨م) نصبت الساعة المذكورة اعلاه وهي قائمة تعمل بانتظام ودقة ..

وفي سنة ١٩٧٣م قامت الاوقاف باكساء البرج بصفائح من معدن الالمنيوم المضلع ذي اللون الذهبي فزاد ذلك من روعة منظره ..

اما عن وصف هذه الساعة : فقد بلغ ارتفاعها ثمانية اقدام ، وهي ذات وجوه اربعة مدورة ، وقطر كل منها متران ، وعلى كل وجه ثلاثة عقارب، اثنان منها يشيران الى الدقائق والساعات والثالث يشير الى الايام ؛ وصممت هذه الساعة على مبدأ الثقل حيث يتدلى منها ثلاثة اثقال تحرك ثلاث مكائن ويقع موقع الثقل الأول في الوسط وهو الذي ينظم حركة العقارب ، وموقع الثاني من الجهة اليمنى وهو الذي ينظم دقات ارباع الساعة ، وموقع الثالث في الجهة اليسرى وهو الذي يعلن بدقات قوية عن الوقت ، ويبلغ وزنها ثمانية اطنان من الحديد ..

وليس ادل على مبلغ ما استأثرت به هذه الساعة من اهتمام رواد المعرض الزراعي الصناعي عراقيين واجانب مما اورده (امين الريحاني) خطيب المعرض المذكور عند افتتاحه فقال يصف المشهد الرائع والحدث المهم في تاريخ النهضة العراقية : « .. وكان الناس محتشدين حول الساعة العظيمة ـ الاعظمية ـ التي صنعها احد ابناء البلدة المشرفة باسم الامام الاعظم وبحجرته لتعرض في معرض الزراعة والصناعة ببغداد . وكانت الساعة قائمة في باحة المعرض الكبرى فوق قاعدة عالية من الحديد ، وهي تردد نبأ الزمان ـ ايامه وساعاته ودقائقه ـ وتبشر العراق بعهد جديد . والناس متلعون ؛ والعيون منهم محدقة بهذا الاثر الصناعي العربي البغدادي الاعظمي ، والكل معجبون به ـ هذه الساعة مفخرة المعرض؛ والله بل مفخرة للعراق ـ ومن ذا الذي يقول ان العقل العربي عقيم لا يحسن الاختراع ـ انها بيت القصيد في هذا المعرض ـ وقد قال احدهم : قد يكون صانعها من سلالة ذلك العربي الذي صنع الساعة التي اهداها الخليفة هارون الرشيد الى عاهل الفرنجة الامبراطور شارلمان .

ترجمة الحاج عبدالرزاق محسوب

وجدير بنا هنا ان نتعرض لحياة الحاج محسوب ومواهبه وخبرته الفنية الصناعية في غير مجال عمل الساعات ونلقي بعض الضوء على فترة من فترات التاريخ مرت على عراقنا الحبيب من خلال حياة صانع الساعة الاعظمية :

ولد الحاج عبدالرزاق محسوب في بلدة الاعظمية يوم كانت قرية من قرى بغداد سنة ١٢٩٢هـ ، وقد دخل المدرسة الابتدائية ولم يتمها بعد ان تعلم مبادىء القراءة والكتابة فيها فتركها وانصرف ينمي رغبته الى تعلم احدى الحرف الصناعية فاختار حرفة النجارة فابدى فيها براعة متناهية ؛ وقد مارس هذه المهنة حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى حيث ارسل كجندي اجباري مع القوات العثمانية لمحاربة الانكليز في جنوب العراق؛ واشترك في معركة « الحويزة » .. وعندما انتصر العثمانيون في هذه المعركة وغنموا من الانكليز مدفعين كانت القوات البريطانية قد جردت احدهما من جميع آلاته الدقيقة ومنها (القامة) ..

وبالنظر لعدم توفر الاسلحة الحديثة لدى القوات العثمانية فقد حاولت الاستفادة من هذا المدفع ولذلك عرضته على مهندسيها المختصين

بصناعة الاسلحة فقرروا عدم صلاحه وعدم امكان تصليحه لتعذر توفير الآلات المفقودة وعدم تمكن المعامل العثمانية من صنعها .

وقد دفعت الحمية الدينية المرحوم عبدالرزاق فطلب الى السلطات العسكرية قبول استمداده بصنع نواقص المدفع المذكور على مسؤوليته الخاصة واحتماله عقوبة الاعدام في حالة فشل المهمة ، وبعد مراجعات طويلة ومتعددة والحاح متزايد وافقت السلطة العسكرية على طلبه في تصليح الادوات المفقودة على ان يباشر عمله هذا في معمل (العباخانه) ببغداد ؛ وبعد عراقيل كثيرة وضعها في طريقه المهندسون ومدراء المعمل يدفعهم لذلك عامل الحسد والغيرة اتم بنجاح صنع جميع الآلات الناقصة في المدفع ، واجريت تجربته بنجاح قرب الاعظمية خلف ثكنة الخيالة وبحضور القائد يوسف ضياء بك وغيره من كبار العسكريين وجمع غفير من الاهالي .. ومن اطرف ما يروى عنه : ان شركة انكليزية معينة افتتحت لها فرعا في بغداد ابان الاحتلال الانكليزي وحصرت استيراد الادوات الحديدية والاحتياطية بها وراحت تفرض على سلعها اسعارا خيالية لا يقبلها العقل فكان الحاج عبدالرزاق محسوب يذهب لمقر الشركة ويتناول الاداة التي يحتاجها ويبدأ يتفحصها بدقة اثناء المساومة حتى يتأكد من شكلها وابعادها ومقاييسها ثم يقفل راجعا لمعمله لينتج اشباها لها يبيعها باثمان زهيدة حتى ضج منه مدير الشركة بعد ان علم بحاله فاصدر تعميما يقضي بمنع دخوله الى مقر الشركة .. هذا هو الصانع البغدادي الموهوب الحاج عبدالرزاق محسوب رحمه‌الله وجعل مثواه فسيح جناته .. ! ! .

ساعتا المحطة العالمية

وجدير بالذكر في معرض هذا البحث ان نذكر ساعتي محطة السكك العالمية وقد نصبت هاتان الساعتان على برجين شامخين يرتفعان على واجهة الباب الشرقي من ابواب هذه المحطة التي اكمل بناؤها عام ١٩٥٥ ، وما اروع وازهى منظر البرجين وهما يحتضنان القبة الزرقاء ذات الطابع الشرقي الاسلامي .. وقد علت كل برج منهما ساعة كبيرة ذات الوجه الواحد المدور ، فالساعة الجنوبية منهما تعلن عن الوقت بالتوقيت الغروبي (العربي) ، والساعة الشمالية تشير الى الزمن بالتوقيت الزوالي (الافرنجي) .

الساعات وامانة العاصمة

ان امانة العاصمة كدائرة من دوائر الدولة وجهاز حيوي انيطت به مسؤوليات جسيمة تتجلى بالخدمات الاجتماعية المتنوعة لسكان العاصمة وتحقيقا لشعار « من اجل بغداد اجمل » ادركت مهماتها وعملت وما تزال وبشكل مستمر من اجل اضفاء المسح الجمالية لوجه مدينة بغداد .. ومن هذه المهمات ادراكها لاهمية الوقت بالنسبة للمواطنين واعترافا منها بقيمته حيث اصبح ضبط الوقت حاجة اجتماعية عامة لذا اهتمت بتوفير امكانيات معرفة الوقت بنصب الساعات الزمنية الجدارية وساعات الزهور الناطقة والساعات البرجية ..

ساعات الزهور

وكانت ساعة الزهور التي نصبت في احدى ساحات متنزه الزوراء باكورة اعمالها في هذا المجال .. وبعد ذلك عممت الفكرة بشكل أوسع فنصبت ساعة زهور ثانية ذات الوجه الواحد في « متنزه الاعظمية » الكورنيش . وساعة ثالثة ذات الوجه الواحد ايضا في « ساحة النصر » في الكرادة الشرقية ، وساعة زهور ناطقة رابعة في « متنزهات شارع ابي نواس » مقابل مديرية الحفر والالات الزراعية ؛ كما نصبت ساعة زهور ذات الوجه الواحد في « ساحة الامام الجواد » المقابلة لمركز شباب الكاظمية، اما الساعة السادسة والأخيرة فهي ساعة زهور ناطقة ذات الوجهين نصبت في الساحة التي يلتقي عندها شارعا حيفا بموسى الكاظم في منطقة الجعيفر في الكرخ وهي « ساحة الشهيد حماد شهاب » .

اما الآن فقد رفعت من مكانها بعد ان عبثت بها يد الأطفال فخربتها وعطلتها عن العمل ..

الساعات البرجية

والى جانب الساعات الزمنية الجدارية وساعات الزهور الناطقة ، قامت امانة العاصمة مجموعة من الساعات المتعددة الوجود والمعلقة على ابراج ذات تصاميم متنوعة ومتعددة الاشكال . فقد نصبت ساعة برج ذات اربعة وجوه في « ساحة الشواف » في كرادة مريم في الكرخ .. وساعة برج ثانية في « ساحة يونس السبعاوي » ساحة الطيران سابقا وهي ذات وجهين احدهما باتجاه شارع بور سعيد والاخر باتجاه شارع ابي تمام وهناك ساعة برج ثالثة ذات اربعة وجوه في « ساحة الفتح » مقابل متنزه الاوبرا في منطقة الكرادة الشرقية : اما الساعة الرابعة فهي ذات وجهين نصبت في « المدخل الرئيسي لمتنزه الزوراء » .. والساعة الخامسة ذات الاربعة وجوه في « ساحة باب المعظم » . وقد رفعت الان بسبب مقتضيات تنظيم الشوارع المؤدية الى جسر ١٧ تموز في الباب المعظم على ان تعود في موقعها المناسب بعد اتمام العمل ..

وفي سنة ١٩٧٣ تم نصب ساعة برج الجامعة في « ساحة الحرية » على شارع الجامعة المؤدي الى رئاسة جامعة بغداد في منطقة الجادرية . وهي ذات اربعة وجوه تقوم على برج يبلغ ارتفاعه خمسة امتار ويرتكز على قاعدة مساحتها حوالي المترين مربعين ؛ وتعلن الساعة عند الاشارة بثلاث لغات هي العربية والانكليزية والفرنسية . والساعة الاخيرة تم نصبها سنة ١٩٧٤ في الساحة التي يلتقي عندها شارع سعد بن ابي وقاص بشارع المثنى بن حارثة الشيباني في منطقة العلوية قرب مصلحة المجاري وهذه الساعة ذات الاربعة اوجه وتقوم على برج ذي شكل هندسي جميل ارتفاعه ستة امتار تحيط به ثلاثة احواض كونكريتية دائرية متباينة السعة والارتفاع لاستخدامها في زراعة بعض النباتات المناسبة .. كما قررت امانة العاصمة توسيع شبكة نصب الساعات ذات الابراج في مختلف انحاء بغداد وضمن حدودها وقد شرع العمل لاختيار الاماكن المهمة والمناسبة لذلك في مدينتي الثورة والشعلة وغيرهما من المدن والضواحي ..

وقد تم اخيرا نصب مثل هذه الساعات في « ساحة كمال جنبلاط » في الكرادة الشرقية — الزوية — واخرى في « ساحة جمال عبدالناصر » في الصالحية واخرى في « ساحة النهضة » على شارع الجمهورية ..

والجدير بالذكر ان جميع هذه الساعات تشغل وتدار بواسطة التيار الكهربائي ، ومن عيوب ذلك ان اصبح الخطأ مرضا مزمنا فيها وذلك يحصل بسبب انقطاع التيار الكهربائي عن بعضها فتتوقف عن العمل لحين عودة التيار الكهربائي اليها وحين يعود تكون الساعة قد اشارت الى وقت بشكل خاطىء عن الوقت الصحيح مقدار الفترة الزمنية التي قطع فيها التيار عنها ، وتلافيا لمثل هذه الحالات وغيرها فقد خصصت امانة العاصمة كادرا متخصصا من العمال والمهندسين الكهربائيين لصيانة وادامة تلك الساعات والاشراف عليها بصورة مستمرة من حيث نصب وضبط وقت تلك الساعات واصلاحها في حالات الخلل الذي قد يطرا عليها . وهذه الكوادر المتخصصة لديها الاجهزة واللوازم الخاصة بذلك ؛ علما بان اصلاح الساعة لا يمكن ان يتم بشكل فوري بل يحتاج الى الوقت الذي يتم فيه التبليغ حيث تنقل فيه وحدة صيانة اليها لتقوم باصلاحها ..

وقد روعي في توزيع هذه الساعات المكان المناسب لنصبها وتحقيق اوسع خدمة للجمهور لذا فقد وضعت في التقاطعات المهمة وبعضها باربعة وجوه بينما البعض الاخر بوجهين او وجه واحد فقط .. اما ساعات الزهور الارضية فقد اختير لنصبها بعض الساحات المهمة تحقيقا لغرضين في آن واحد : اضفاء مسحة جمالية على المدينة وضبط الوقت فيها .

ان الاهتمام بتوفير هذا العدد من اجهزة التوقيت في الشوارع والساحات العامة والمتنزهات يدلل بوضوح على تزايد الادراك بقيمة الوقت في حياة الشعوب المتطلعة الى حياة افضل .. وان فكرة تعميم هذه الساعات وهذا الاهتمام بالوقت جاء في وقت متاخر من قبل المسؤولين في امانة العاصمة حيث كانت البداية في نصب الساعات المذكورة آنفا في سنة ١٩٦٨ وما زالت الجهود متظافرة لتعميمها على المناطق المهمة في مدينة بغداد وضواحيها ..

مراجع البحث

١ ـ ارشيف امانة العاصمة .

٢ ـ الباز الاشهب ـ ابراهيم الدروبي .

٣ ـ بغداد القديمة ـ عبدالكريم العلاف .

٤ ـ تاريخ المشهد الكاظمي ـ الشيخ محمد حسن ال ياسين.

٥ ـ جامع الامام الاعظم ـ الشيخ هاشم الاعظمي .

٦ ـ رحلات الى العراق ـ سروابيس بج ، ترجمة فؤاد جميل .

٧ ـ رحلة مدام ديولافوا ـ ترجمة ونشر علي البصري .

٨ ـ فيصل الاول ـ امين الريحاني .

٩ ـ قصة الوقت ـ ناجي جواد الساعاتي .

١٠ـ مجلة امانة العاصمة ـ العدد (١٤) تحقيق عن بناية القشلة : عادل المرداوي .

١١ ـ مجلة أمانة العاصمة ـ العددان ، ١٦و١٧) الساعات البغدادية ذات الابراج ، صادق الجميلي .

١٢ ـ مشاهدات ومقابلات شخصية .

١٣ ـ موسوعة العتبات المقدسة ، الجزء الاول ، ـ ترجمة جعفر الخياط .

١٤ ـ جريدة الجمهورية البغدادية ـ عدد يوم الجمعة في ٢١ـ٣ـ١٩٧٢ . والعدد الصادر في ٢٠ـ٢ـ١٩٧٢ .

١٥ ـ تاريخ العصور القديمة ـ للصف الاول المتوسط الطبعة الثانية سنة ١٩٧١ .

١٦ ـ مجلة افاق عربية ـ السنة الرابعة تشرين الثاني ١٩٧٨ العدد / ٣ بحث للدكتور محمد صديق الجليلي عن (المزولة) .

١٧ ـ خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك ـ عبد الرحمن سنبط الاربلي المتوفى سنة ٧١٧هـ ـ طبع مكتبة المثنى ـ سيرة المستنصر بالله العباسي .

١٨ ـ مجلة اهل النفط ـ (العدد ٧٥) السنة السابعة كانون الثاني ١٩٥٨ ، مقال بقلم الدكتور مصطفى جواد بعنوان « الساعات العربية الروحانية » .

١٩ ـ مجلة لغة العرب ـ المجلد الثاني ـ صحيفة (٢٨) .

٢٠ ـ مجلة سومر ـ بحث عن المدرسة المستنصرية بقلم الاستاذ كوركيس عواد ـ السنة الاولى، الجزء الاول، والجزء الاول والثاني للمجلد الثالث عشر .

٢١ ـ الحوادث الجامعة ـ لابن الفوطي تحقيق الدكتور مصطفى جواد .

٢٢ ـ تكملة اكمال الاكمال ـ جمال الدين بن الصابوني ـ طبعة المجمع العلمي العراقي .

٢٣ ـ نشرة مصلحة نقل الركاب ـ (العدد ١٥٨) كانون الثاني ١٩٦٥ ، من موضوع تحت عنوان « ساعة عربية تتحدى الزمن » للسيد طارق عيسى حسن .

٢٤ ـ رحلة ابن جبير .

٢٥ ـ دليل خارطة بغداد قديما وحديثا ـ الدكتور مصطفى جواد والدكتور احمد سوسة .

٢٦ ـ مجلة الوعي الاسلامي الكويتية ـ العدد السابع والثلاثون ـ السنة الرابعة : غرة محرم ١٣٨٨هـ/مارس ١٩٦٨م ، ص ٩٥ ..

— ٢ —

مذكرات بغدادي

من دفتر مذكرات المرحوم محمد رؤوف السعودي

(ابو عطوف) كتبها في عام ١٩٦٩م ...

اطلعني الاستاذ يحيى السعودي على سجل كتب بخط اخيه المرحوم محمد رؤوف السعودي يتضمن مجموعة خواطر ومقتبسات في شتى الموضوعات .. ووصف شيق لبعض محال رصافة بغداد وتدوين صادق لبعض المشاهدات التي بقيت عالقة في الذاكرة عن بغداد الامس القريب .. فاجاز لي نشرها بعد تهذيبها وتصحيح الاخطاء النحوية فيها ..

★ ★ ★

ترجمة كاتب المذكرات

هو محمد رؤوف السعودي ويكنى بابي عطوف .. وابو عطوف هذا رجل عركته الحياة واكسبته خبرة وتجربة ، عاش حياته بمصاعبه فذة واجتازها بسلام ولم يترك لاسرته من متاع او نشب وانما ترك لها دفتر مذكراته وهو مشحن بشتى الموضوعات الاجتماعية والفلسفية والتاريخية والدينية ، كما دون فيه وصفا دقيقا لبغداد القديمة وما جرى فيها من احداث عاصرها وشاهدها بنفسه وكتب فيها باسلوبه الشيق الجذاب .. يسرد فيه القصص والحوادث التي لم يسمعها او يقراها المواطن في مكان اخر ، انها جلاء للغامض والمجهول من تلك الفترة التي عاشها .. ونظرا لاهميتها آثرنا ان نجتزىء من هذه المواضيع ما يختص ببغداد واحداثها وشخصياتها ونشرها على صفحات هذه المجلة علها تعطي الصورة الحقيقية عن بغداد ايام زمان والتي يجهلها الكثير من اهل بغداد اليوم بعد ان طرأ على هذه المدينة العريقة من تغيير وعمران كبيرين ..

ولد ابو عطوف في بغداد سنة ١٨٩٣ وعاش فيها ولم يدرس بمدرسة ولم يتخرج في معهد بل كانت مدرسته الحياة كلها ، اخذ عنها الكثير وكتب فيها .. كانت مهنته حياكة الازر ويزاولها في معمل والده علوان في محلة « صبابيغ الآل »(١) في رصافة بغداد .. ولما ذهب الزمان بهذه المهنة بزوال لبس الازر « والازر لباس خاص بالمراة المسيحية في بغداد يقوم مقام العباءة تلبسه المراة ايام الاعياد والاعراس» كسدت هذه الصناعة وهجرها اهلها ومنهم ابو عطوف .. وفي سنة ١٩٢١م استطاع ان يستاجر الحانوت العائد لدائرة البرق المركزي في محلة السنك بالباب الشرقي ويعمل فيه بتواضع بقية حياته التي امتدت الى اوائل السبعينات حتى توفاه الله في بغداد في ٦-٥-١٩٧١ ..

قصة السبع ابكار وتحديد مركز الرصافة

في بغداد محلة كبيرة قديمة تدعى (محلة السبع ابكار)(٢) في جانب الرصافة .. وقصة السبع ابكار وتسميتها كما سمعتها وشاهدتها بعيني في طفولتي سنة ١٩٠٤ .. كانت هناك قطعة من الارض تشرف على دجلة وتظللها بضعة شجيرات باسقات سامقات ترتفع عاليا مما يدل على قدمها منها شجرة النبق (السدر) ومنها شجرة التكي (التوت) ومنها شجرة التين ومن بينها شجرة واحدة هي (الصفصاف) .. وكانت تقدر مساحة هذه العرصة زهاء الالف والخمسمائة مترا مربعا وبنيت امامها على الشط مسناة على عرض ارضها سميكة وواسعة وقوية وعميقة الغور اتخذت بئرا ، ولها فتحات بعمق اربعة امتار متصلة بنهر دجلة الى داخل البئر ، ونصبت على حافة البئر سبع بكرات من جهتها العليا لجلب الماء من النهر الى البئر اولا بواسطة الادلاء جمع دلو وسوقه وتوزيعه بواسطة السواقي الى المسافات البعيدة

في الحدائق والبساتين القريبة من النهر وخزانات المياضيء ـ اي احواض الوضوء في الجوامع والمساجد والتكايا ـ وتوفير المياه الصالحة لها ، وهذه الادلاء مصنوعة من جلود الجاموس المدبغة السميكة والقوية والتي تربط وتدلى من اللولب الكبير الحجم الى عمق البئر تسحبه احدى الدواب فتنزل في مدرج او منحدر حتى يلامس الدلو سطح الماء ثم يغمر فيه ويمتليء الدلو بالماء ثم يسحب الى الاعلى ويسكب الماء في حوض واسع بأعلى حافة البئر لتوزيعه الى الجهة المراد توجيهه اليها ثم تكرر عملية الصعود والنزول في هذا المنحدر الواسع الذي يستوعب الحيوانات السبع التي تتناوب الصعود والهبوط جملة او فرادى حتى تسقى الحدائق والبساتين وتزود الجوامع والقصور بالماء الكافي ويخزن بعضه بالاحواض والمياضيء .. وكان موقع هذه (السبع ابكار) وبئرها الكبير الواسع : البناية المتخذة اليوم (نادي نواب الضباط العسكري) والبناية المجاورة لها والتي هي (فندق جبهة النهر) عند مدخل جسر الاحرار من جانب الرصافة والتي كانت تسمى في العهد العثماني بـ (شريعة بيت الباجهجي) الذين كانت بيوتهم وقصورهم تحيط بمداخل ومنافذ هذه الشريعة وتكتنفها من كل الجهات ..

اول اسالة ماء بدائية في بغداد بواسطة (الكرد)[٣] والاماكن السبعة التي تستفيد من مياه السبع ابكار

وكانت هذه السبع ابكار تسقي وتوفر الماء لسبعة اماكن او اكثر على طريقة السقي والارواء القديمة حيث لم يكن هناك آلة ولا ساحبة ولا آلة ماصة ولا دافعة ولا ضاغطة بخارية او ميكانيكية غير بئر (الچرد) حتى ولا اسالة مطلقا كما نعرفها الآن من السهولة واليسر بفضل التكنيك والآلات التي اخترعها واوجدها العقل البشري في كل مجالات الحياة الانسانية .. وهناك وسائط اخرى لجلب الماء وتوفيره في البيوت وذلك بواسطة الادلاء من البئر المالحة والموجودة في كل بيت من البيوت البغدادية او بواسطة السقائين الذين يجلبون الماء من النهر مباشرة في قِرَب من الجلد محملة على ظهور الدواب للشرب والغسيل والطبخ او يجلب الماء من السواقي التي يجري فيها الماء بواسطة الكرد او الناعور من نهر دجلة ان وجد بالقرب منها .. وكانت سواقي السبع ابكار تسقي وتمون وتوزع المياه الى الاماكن التالية :

اولا ـ دور ومنازل وقصور آل الباجهجي القريبة منها مع حدائقها .

ثانيا ـ حديقة دار القنصلية الروسية (القيصرية) والتي هي اليوم مجموعة المباني والمخازن والعمارات التي تحيط بكازينو شط العرب .. وقد اتخذت دار القنصلية هذه فيما بعد فندقا كان يسمى منذ عهد الاحتلال الانجليزي لمدينة بغداد بـ (اوتيل مود) الذي نقل فيما بعد الى البناية الفخمة على دجلة في محلة السنك والذي هو اليوم (فندق السندباد) .. ويدخل ضمن هذه المجموعة المذكورة ايضا ميضأة مسجد آل الباجهجي[٤] وحوضه الكبير والذي ما زال موجودا يصلى به حتى الآن ويقع اليوم في الشارع الفرعي الذي يصل بين شارع الرشيد وشارع النهر وعند مدخله من جهة الرشيد استوديو المصور ارشاك .

ثالثا ـ تم توصيل الماء الى تكية سيدي البدوي[٥] ومسجده وحديقته الغناء الواسعة والتي كانت تتوسط شارع الرشيد ثم بناية شركة (اسطيفن لنج)[٦] على شارع النهر في راس القرية[٧] .. ولكن عندما فتح خليل باشا[٨] جادة بغداد (جاده سي) من الباب الشمالي (باب المعظم) الى الباب الشرقي منها[٩] ذهب معظم هذه التكية ومسجدها وحديقتها ضمن الجادة المذكورة وذلك سنة ١٩١٥م ولم يبق منها اليوم الا هذه العمارة المسماة « عمارة السيد البدوي » وقبة وضريح الصقتا ببناية العمارة ، والضريح هو لاحد اولياء الطريقة البدوية في بغداد والذي اكتشف في اوائل الستينات باسم الولي (ابو شيبة) .

رابعا ـ وكانت تسقي ايضا دار القاصد الرسولي الذي موضعه الان مقر شركة (حافظ القاضي) وبضمنها حديقتها المقابلة لها والتي هي الان مجموعة المباني والمخازن والفنادق ودور السكن وعيادات الاطباء والصيادلة ومحال الاعمال والمتاجر ضمن نصف الدائرة المحيطة من شارع الرشيد الى نفاذ شركة حافظ القاضي قبالة جسر الاحرار المؤدي الى ساحة الوثبة بالتقائه بشارع الرشيد شمالا ويتبعها سينما الرشيد وسينما الوطني وما حولهما من المتاجر والمخازن ودور الاعمال وما حولها من دكاكين البقالة واصحاب المهن من محال ومطاعم وما يعلوها من فنادق ومكاتب وشقق ودور سكن الى غير ذلك مما يرى ويشاهد وكلها كانت حديقة كبيرة وواسعة جدا يحوطها سور عال من الطين زرعت بانواع الفاكهة والحمضيات على اختلاف انواعها وتعلوها النخيل الباسقة ودوالي الاعناب وقد تمددت وانتشرت فوق الفستيات والشذروانات المظللة بعناقيد الاعناب على اختلاف طعومها واشكالها

وحجومها .. وكانت من موقوفيات السيد عيسى ابن السيد مصطفى بن السيد محمد الشهير بالعطار البغدادي[10] وقد جاء شارع الرشيد فشطرها الى قسمين شرقي وغربي وذلك سنة ١٩١٦م ..

خامسا — تسقي هذه السبع ابكار بستان (عدول) التي هي اليوم الشارع المسمى بـ (شارع عرصات النعمان) الواقع بين (عقد الجاموس) وبين مصلحة توليد القوة الكهربائية القديمة (العباخانة)[11] حتى جامع الحاج فتحي[12] في العوينة على شارع الجمهورية اليوم ، وكانت هذه بستانا كبيرة تتفرع منها ساقية يدخل اليها الماء الى تكية ومسجد الامام عبدالكريم الجيلي[13] احد ائمة الصوفية والذي ذكره كثيرا المرحوم الدكتور زكي مبارك في كتابه «التصوف الأسلامي » .. وكانت له باب يقع مدخلها من (عقد الجاموس) قرب حمام تاجة من محلة الحاج فتحي وله حديقة كبيرة ذات نخيل واشجار يانعة مثمرة .

سادسا — وتتشعب من هذه السبع ابكار ساقية سادسة لارواء وسقي جامع السيد سلطان علي[14] وحديقته الواسعة وتسقي بجواره ايضا مرقد احد السادة العلوية الذي موضعه اليوم وسط شارع الرشيد ، ومسجده الذي خربه خليل باشا عند فتحه جادة (خليل باشا جادة سي) كما كتبت قطعة مربعة تحت الجدار مما يلي قاعدة المنارة القديمة من جامع السيد سلطان علي بقدر متر ونصف المتر من القاشاني الملون خط فيها بخط فارسي (خليل باشا جادة سي) وفي أوائل العهد الملكي ازيلت هذه القطعة وجددت عمارة المسجد وكتبت على لوح معدني بدلها عبارة (شارع الرشيد) وأما ما بقي من حديقة وبستان نخيلة فقد شيدت فوق ارضها العمارات والفنادق والمتاجر الكبرى المهمة ومخازن وشركات عالمية اشهرها شركة باتا للاحذية الجلدية ، وسينما الشعب حتى ملتقى محلة المربعة واول واكبر محل تجاري شيد على ارض هذه البستان هو (بناية شركة سيارات فورد) ومخازنها ومحلات تجارية ومعارض سياراتها ومكاتبها ووكلاؤها ومحلات لبيع المحركات والمكائن الزراعية والصناعية وتجار الجملة والمفرد وغيرها من الاماكن المحيطة بجامع السيد سلطان علي ..

سابعا — وهناك تختم السبع ابكار عملية توزيع المياه بالساقية التي تروي دار (آل الاصفر) وحديقتهم المشرفة على النهر والتي هي ملاصقة لدار القنصلية الروسية في العهد العثماني الحميدي (وعائلة بيت اصفر هي من العوائل العراقية التجارية التي توكلت في بغداد منذ قرنين فاكثر لعدة شركات انكليزية واوربية وكانت لها اليد الطولى في ارتباط الوثائق والتعهدات التجارية ليس في بغداد والعراق فحسب بل في جميع انحاء الامبراطورية العثمانية في الصادرات والاستيرادات والاسواق التجارية والمالية والبورصة والمصارف والبنوك) . ومن جوار حديقة بيت اصفر تجتاز عبر الحائط ساقية خاصة لارواء مسجد وتكية وحديقة وميضاة آل (قره علي) وكانت تقوم على قطعة ارض واسعة وقد اتخذتها شركة (اوروزدي باك) قبل اكثر من عشرين سنة (اي في الخمسينات) وقد امتها اليوم الحكومة وسمتها شركة الاسواق والمخازن التجارية العراقية وهي المركز الرئيسي في بغداد ..

هذه هي قصة السبع ابكار كما أوردناها هنا .. وقد اشترت عائلة الباجه چي العرصة التي كانت تقوم عليها السبع ابكار وضمتها الى ممتلكاتها عند نهاية العهد من القرن التاسع عشر .. وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى شيدت على ساحتها القصور والفنادق كما اخذ اصحاب الكرود المحتاجة الى الماء بنصبها في غير هذا المكان من بغداد ومن هذا التاريخ اهملت واندرست معالمها ثم قضت على البقية الباقية منها مكائن اسالة الماء الحديثة التي عمت كل محلات بغداد منذ سنة ١٩٠٨م ..

● مدحت باشا واصلاحاته الادارية في بغداد

وقد اشتهرت المنطقة باسم (السبع ابكار) في زمن الوالي المصلح المجدد (مدحت باشا) الذي وضع مجالس الولايات ومجالس البلديات والمجالس الخاصة بالمتصرفيات ، وقسم بغداد الى محلات واطراف وجعل لكل محلة اسما وعين لها مختارا ومعاون مختار ، ورقم ابواب الدور وغير ذلك من الاصلاحات البلدية من توسيع الادارة وتشكيل المحاكم واصلاح السجون وتوسيع المعامل الميكانيكية

اما فيما يخص بحثنا الان من توزيع البلدية الى محلات فقد عرفت هذه المنطقة بالسبع ابكار من قديم واضيف اليها فيما بعد سكنة محلة العمار والجنابيين وهما من قبيلة (زبيد) اللتان حلتا في بغداد قبل قرون كما حلت اخواتها بقربها (العاجليين) وهم من بني عجيل وبني سويدان وبني سعيد وغيرها من قبيلة زبيد التي تقطن في المحلات التي اشتهرت باسم قبائلها في بغداد لحد الآن قبل زمن داود باشا والي بغداد اي قبل اكثر من ثلاثة قرون مضت ! ! .. وكما قلنا ان المنطقة غلبت عليها لفظة

(سبع ابكار) ونتبعها للزيادة والتوسيع البلدي (عمّار جنابيين) فصارت كلمة (عمار سبع ابكار) هي الغالبة اليوم ، اما (الجنابيين) فبقيت ملحقة بزقاق الجنابيين في راس القرية ..

● سبع ابكار الصليخ او كرود خليل باشا

وهناك سبع ابكار اخرى شمالي بغداد في منطقة الصليخ في قضاء الاعظمية وقصتها :

في اواخر سنة (١٩١٥م) عينت آمرية القيادة التركية في العراق القائد التركي (خليل باشا) ولما وصل هذا القائد الشاب بغداد ، هيأت له الحكومة مسكنا وقصرا منيفا فخما جوار بستان ومزرعة كانت تسقى وتروى من بئر عليها (سبع ابكار) في شمالي الصليخ .. ثم ابدلت السقاية والارواء بالمكائن الزراعية واسالة الماء الحديثة وهدمت السبع ابكار ، ولكن المنطقة بقيت تسمى بـ (السبع ابكار) ولاجل الفارق والتمييز بين سبع ابكار العمار في بغداد وسبع ابكار الصليخ ان اطلق على هذه الاخيرة سبع ابكار خليل باشا او كرود خليل باشا حتى يومنا هذا ..

الست سكينة حسن المصرية في بغداد وصف لمدينة بغداد سنة ١٩٠٦

كانت بغداد عند اعلان الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ حتى نهاية سنة ١٩١٥ كما شاهدتها وانا صبي يافع لم اتجاوز السن الثانية عشرة من عمري ليس فيها شوارع كالتي نراها اليوم طويلة ومستقيمة تخترقها من الشمال الى الجنوب .. ولكن كان فيها عندما ندخلها من الباب الجنوبي الذي نسميه (الباب الشرقي) حسب الاصطلاح البغدادي(١٥) وبعد ان تترك خلفك المعمل الحكومي المسمى (الدباغ خانة) وهو اخر ما بقي من سور بغداد الذي شيده ابو جعفر المنصور سنة ١٥٠هـ(١٦) واتخذه الوالي مدحت باشا معملا لدباغة الجلود الخاص بصنع احذية الجنود وحقائبهم واحتياجاتهم ولوازمهم الحربية الاخرى من هذه الجلود وهو من جملة اصلاحاته المهمة في بغداد سنة ١٨٦٩ واليوم لم يبق اي اثر من ذلك المعمل ببنائه العباسي وقاعاته وعمده وعقاداته وعرض اسسه التي تبلغ في بعض قلاعه وركائزه حوالي العشرة امتار حيث هدم هذا المعمل واسس في موقعه محطة نقل الركاب الذي يمتد من ساحة التحرير عند مدخل شارع الجمهورية حتى نهر دجلة في ساحله الذي كنا نسميه بشريعة (القوله) والذي هو الان مدارج جسر الجمهورية عندما يعلو فوق شارع الرشيد ويلتقي بشارع ابي نواس المشرف على نهر دجلة من جانب الرصافة في الباب الشرقي ..

وكان طول مدينة بغداد من جهة جانب الرصافة من شريعة القوله (بتفخيم اللام) ومن باب الدباغ خانه في الباب الشرقي حتى منتهاها في الباب الشمالي الذي هو باب المعظم ، وكما نسميه نحن بالباب الغربي .. وعلى هذا الاساس تقدر مساحة جانب الرصافة بثلاثة كيلو مترات طولا في زهاء الكيلو مترين عرضا ؛ ويقدر نفوس مدينة بغداد آنذاك بجانبيها بربع مليون نسمة ، وليس في مدينة بغداد كما شاهدتها من وسائط النقل الحديثة الا عدة عربات فخمة(١٧) تجرها الخيول الاصيلة والجياد المطهمة احداها خاصة بالوالي العثماني واخرى للسيد نقيب اشراف بغداد من اسرة آل الكيلاني والتي يجرها حصان واحد ؛ وثالثها وكنت اراها افخم العربات من حيث اناقتها وما فيها من ابهة ومهارة في الصنع حيث رصعت بالمسامير الدقيقة المصنوعة من الذهب والفضة والظاهرة على فوانيسها وطاقم سيور عدتها ولجام حصانيها الجميلين الاصيلين ؛ وكانت هذه العربة خاصة بالسيد داود نجل السيد سلمان نقيب اشراف بغداد وهو عم السيد عبدالرحمن النقيب على بغداد عصرئذ ! ! وهناك عربة رابعة تخص المرحوم العلامة عبدالوهاب النائب ؛ وما عدا هذه العربات كانت وسائط نقل الركاب كافة من الحمير والخيل الكدش والبغال في داخل البلد .. والسفينة والمهابيل الشراعية للمسافات البعيدة بين المدن والقصبات في نهري دجلة والفرات خارج مدينة بغداد .. اما في داخلها من وسائط النقل النهري الزوارق (البلام) جمع البلم (والبَلَم تركية الاصل دخلت في العامية البغدادية وتعني الزورق) والتي تجذف باليد ، والقفف الكبيرة والصغيرة و (الشخاتير) والرمث (الكلك) .. اما (البواخر) وهي الزوارق البخارية فكانت تحمل البضائع التجارية والمسافرين والتي تمخر عباب دجلة (دون الفرات) بين بغداد والكوت والعمارة والبصرة ..

اما البضائع التجارية التي تجلب من انحاء اسيا واوربا وبلدان الغرب الاخرى فكانت تحمل بواسطة البواخر التجارية الكبرى والتي تمتلكها شركتان تجاريتان اجنبيتان ، الاولى تخص بيت اسطيفان لنج المحدودة والثانية شركة (بلوكي كرى

وشركاه ؛ وكلا الشركتين مؤسستان في لندن وهما من الشركات البريطانية العاملة في العراق ؛ وكانت بواخرها لا تتجاوز العشر بواخر ..

ولما اعلنت تركيا الحرب ضد الحلفاء وانضمت الى جانب الالمان اخرجت رعايا الدول التي كانت تشكل تضامنا وهو ما يسمى بالحلفاء من كافة الامبراطورية العثمانية ووضعت يدها على ممتلكاتها وبالاخص الممتلكات الانكليزية والفرنسية وغيرهما من دول الحلفاء ، ومنها البواخر التي كانت تعود الى بيت اللنج ويلوكي كرى واستعملتها لاغراض الدولة الحربية والعسكرية وكان في بغداد جسر واحد تنقله الدولة الى الجهات الجنوبية بين الصويرة والكوت .. وظلت بغداد بلا جسر حتى سنة ١٩١٨ وكان يتم العبور بين جانبي بغداد الكرخ والرصافة بواسطة (البلام والقفف) ما يقارب الثلاث سنوات ! ! ..

وكان في بغداد عشرات الطرق والدروب الضيقة والعقود والاطراف والمحلات التي تخترقها طولا من جنوبها الى شمالها بباب المعظم ، وكذلك مئات الدروب التي تتفرع من طولها عرضا والتي تصل بعضها بالبعض بطريقة حلزونية متداخلة متلازمة لا تنفك ولا تنفذ الى غيرها وكان شبكة هذه الطرق الخلية المحكمة الصنع .. وكانت هذه الطرق والدرابين تضم في منعطفاتها المئة دار او اقل او اكثر .. ومن هذه الطرق الزقاق الصغير (الدربونة) تصغير وتانيث الدرب الذي جمعه الدروب او الدربونات وتضم مجموعة من الدور المتلاصقة والصغيرة والتي تعد بالعشرات حتى تصل المئة دار ومن عدة درابين تتكون المحلة الواحدة والتي يقطنها غالبا ابناء العشيرة الواحدة وتسمى المحلة بأسمها ...

اما الشوارع والازقة التي تنفذ اليها في جميع مناطق بغداد فلم يكن لها اسماء خاصة بها بل تسمى وتعرف باسمائها الشعبية المعروفة او تسمى باسماء المحلات والاطراف التي تقع فيها او تسمى باسماء الاسواق او اسماء ذوي المهن والحرف واماكن الاخذ والعطاء والبيع والشراء او باسماء ابرز معلم اثري اشتهرت به المحلة ..

فمثلا عندما تصل محلة (القاهرة) من شارع الدباغخانة وهي اول حي من احياء بغداد عند مدخلك من الباب الشرقي وتتوغل في محلة السنك تتشعب امامك عدة طرق ودروب وازقة ضيقة كما وصفناها تعقدت عليك مداخلها ومخارجها فاذا وجدت نفسك في شارع الشيخ عبدالقادر الكيلاني وانت خارج من فسحة جامع الشيخ الخلاني المتصل به من محلة الساقية ، فمن هذا الشارع العرضي تتفرع كل مداخل الطرق والمحلات الطولية لمدينة بغداد وكلها تصلك الى مجمعها الرئيسي في الباب المعظم .. وكان شارع الكيلاني العرضي يبتدىء من شريعة بيت النقيب على نهر دجلة في السنك ويمتد حتى يصلك بجامع الحضرة الكيلانية فمقبرة الشيخ الغزالي وهذا الشارع ما زال قائما ..

والان نقف برهة عند الباب الشمالي من صحن جامع الحضرة الكيلانية المقدسة لنطل على ذلك المشهد الرائع حيث جموع النسوة والبنين والبنات والعجائز والشيوخ والاطفال وكلهم تجمهروا بحفل كبير يتطلعون الى تلك اللحظات التي تخرج فيهـا عليهم الملاية والقارئة المصرية الست سكينة حسن حديث الساعة في بغداد ، وقد ضاق المكان بتلك الحشود من الناس على سعة تلك الساحة الفسيحة الواسعة امام مخفر شرطة باب الشيخ قبالة الحضرة الكيلانية والذي كان يسمونه اهل بغداد ب (القلغ) وهي كلمة تركية والتي تجمهروا فيها ، ولم تبدر اية بادرة من رجال (الضابطية) الجندرمة فتقوم بتفريقهم او التدخل في شؤونهم .. وكانت الست سكينة قد اتخذت من احدى الغرف والاواوين في صحن جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني منتجعا لها ومقر سكناها حيث حلت في الجامع المذكور من بضعة اشهر ، وقد اعتادت ان تخرج منه الساعة التاسعة صباحا وتعود اليه الساعة الرابعة مساء تجوب ارجاء بغداد واسواقها تنشد القصائد الدينية والمدائح النبوية بصوتها الساحر الاخاذ فتنهال عليها هبات المحسنين من اهل الخير والجود ..

وقد اذنت ساعة الخروج فطلعت الست على عادتها فاستقبلتها الجموع الحاشدة بالهتافات والصلوات والتكبير والتهليل ، وتهاوت عليها النسوة والبنات والفتيات والصبيان يقبلون يدها ووجهها وراسها ويتمسحون بثيابها تبركا بها وقد احاطوها بهالة من حب وتقدير واحترام .. فنظرت اليهـا فاذا هي امراة في سن الشباب لم تتجاوز الثلاثين من عمرها ، ربعة القامة معتدلة الجسم ؛ سمراء ادمة الوجه على وجهها سمة البداوة واصالـة العرب ، اغمض الله جفنيها واخذ منها نور عينيها. وبدت لنا غير مبصرة ولا ناظرة (عمياء) .. وتقدم نحوها رجل يربو عمره على الاربعين فوقف امامهـا فرفعت يدها اليمنى فوق كتفه وسار بها يهديها السبيل لتمضي ببطء ثقيل تشق زحام النـاس

وتبعتها الحشود تتخاطف امامها وعن ميمنها وعن ميسرها ومن خلفها كموج البحار يتدافع ويتراطم مع بعضه ، والعم المغربي الدليل كما عرفناه يسير الهوينا وهو متأزر وملتف بعباءته السعدونية (تخته وتخنه) اي تخته بيضاء وتخته سمراء وبَرّية وعلى راسه عمة بيضاء بحجم العمامة المصرية ، يمشي وقد الف الصمت والسكون وكان على راسه الطير ، وكانه اخرس ابكم لا يكلم ولا يتكلم واتجه الموكب كعادته تسوده السكينة والمهابة من محلة باب الشيخ نحو ازقة بغداد ومحالها واسواقها تنشد للناس وتمتعهم بصوتها الساحر وتستيقظ بغداد كل يوم على انغام انشادها ومدائحها النبوية فتحيي القلوب بذكر الله .. واتجه الموكب من محلة باب الشيخ الى سوق الصدرية ، ثم وقف الموكب الفخم عند باب جامع الشيخ سراج الدين في محلة الصدرية ، وهنا ساد صمت عميق والعيون ترنو وتتطلع الى الست واذا بصوت سكينة حسن تنشد بيتين من قصيدة للشيخ محمد البوصيري شيخ اهل الطرائق الصوفيين الرمزيين وسيد شعراء الغزل الالهي وذات النبي الكريم :

كيف ترقى رقيك الانبياء
يا سماء ما طاولتها سماء
قد يساووك في علاك وقد
حال سنا منك دونهم وسناء

وتعالت اصوات المعجبين بالتهليل والتكبير والصلوات على خير البشر ، حتى وجدت بعض النسوة يترنحن يمينا وشمالا ويرددن (لا اله الله .. لا اله الا الله) على طريقة الدراويش في اذكارهم وقد اخذتهن سورة السمو الروحي فتدروشن على الطريقة المشيخية ..

اما انا فقد سحرني صوت الست سكينة الملائكي وصعقتني صعقة مذهلة اثارت فيّ كل احاسيسي وشجوني وانساب لحن صوتها الشجي وانغامه العذبة الرقيقة مع دمي في عروقي . وكان لترنيمها ذي المقاطع الموسيقية العندليبية ذات الصدى الصداح اشعرني وكان نفسي تطير من بين جوانحي وترفرف باجنحة خافتة ساكنة هادئة كرفيف جناحي الخفاش في الليل البهيم تعلو بي صعدا في اجواء السماء ، في عالم الغيب ، في ملكوت الصفاء والنقاء والخيال ، من هنا عرفت السر في تقدير الناس ومحبتهم وشدة احترامهم للست سكينة حسن وتعلقهم باذيالها تبركا بنفحات صوتها وعذوبة الفاظه ، فكانت دائما تمنحهم بضاعتها المزجاة من انغام ولحن وسحر وبيان وبلاغة عربية وكلام فصيح بحروف ابجدية لا يتداخلها حرف (الكيم) بدل الجيم ولا كلمة (برنوء) بدل كلمة (برتوق) اي (الكوجة والمنجاص) على طريقة الرطانة العامية المصرية .. والست سكينة حسن مصرية من عرب الصعيد ؛ واهل صعيد مصر من قبيلة كنانة المضرية الذين نزحوا من الجزيرة العربية ناشرين الاسلام تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيادة القائد العربي عمرو بن العاص في الفتح الاسلامي الاول واستقر اكثرهم في ارض الصعيد جنوب مصر .

اما السبب المباشر لوجودها في بغداد بين سنة ٩١٤ ـ ٩١٥ ومن جاء بها فذلك اجهله ولعلها قد نظمت سفرات لبعض الاقطار العربية لتمنح ابناءها بعض ما تمنحنا به وتثير في نفوسهم المشاعر والعواطف الدينية بما تنشده من قصائد صوفية في ذكر الله ومدح رسوله وتصف مناقب آل بيته وصحابته .. وعلى كل حال لا يهمني من كل ذلك سوى انني احضر كل يوم وفي وقت الضحى لاستمع وامتع نفسي بصوت الست سكينة واهيم كما يهيم غيري بما ترسله من انغام والحان شجية تهز بها اوتار القلوب فتوقظ في النفس الاحاسيس وتحيي القلوب بذكر الله .. والحقيقة اقولها : كنت بواسطة اوتار حنجرة الست سكينة القوية المنعشة بدات استشعر حلاوة الايمان وافهم معنى الحياة الروحية .

وانتظم الموكب وسار من الحضرة الكيلانية فسوق الصدرية فالهيتاويين فجامع المصلوب حتى سوق الدهانة ! ! (ومن اول هذه السوق تبتدىء اول سلسلة مسقفة بالجملون (الجمالي) المتخذ من الخشب المغطى بالبواري والحصران والقصب الملوح بالطين الاحمر حتى اذا ما هطل المطر انحدرت مياهه الى المجاري (المرازيب) ثم تنساب الى الارض خارج السوق .. والقسم الاخر من السوق بني سقفه بالجص والطابوق بشكل معقود على الطراز العباسي القديم على اعمدة حجرية قوية ، وتقع هذه السوق في النصف الجنوبي من بغداد حتى منتهى جامع الحيدرخانة في النصف الشمالي من بغداد ثم يتجه الموكب وقد ازدحم اكثر فاكثر نحو سوق السراي فسوق خان الرماح فسوق الفازجية الذي يشمل سوق الهرج القديم وسوق (خان جغان) وسوق الخفافين الذي يحيط بالمدرسة المستنصرية التي اتخذتها الحكومة العثمانية دائرة كمارك ومكوس ثم سوق الحصران والمدات

المصنوعة من ورق البردي فسوق الازر فسوق الصفافير فسوق الجوخچية فسوق الحيّص والهميانات فسوق الابريسم وخان الزرور والقياطين وسوق الجايف وخان دلة للتجارة والقومسيون وسوق البزازين واسواق لم نذكرها وسنأتي على ذكرها فيما بعد ! ! فهذه الاسواق كلها كانت مسقفة بالجملون في الوقت الذي لم يكن في بغداد شارع حديث كشوارعنا الحالية ، ففي ذلك الزمن لم يكن في بغداد لا شارع الرشيد ولا غيره من الشوارع الطولية والعرضية المنظمة العصرية .

وعادت الست سكينة للقراءة والانشاد بنغم الحجاز موالا .. مدائحيا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من نظم مطلعه :

يا حادي العيس يا للي للنبي رايح!!

خذني معاك ازور قبر النبي واشتم الروائح!!

وظلت تردد هذا الموال عدة مرات حتى خرجت من سوق لحم البقر في الدهانة وسوق الغزل والقطن وسوق علاوي الحبوب نهاية سوق الدهانة وعند مدخل سوق الشورجة حتى انشدت هذه الارجوزة المدائحية ! !

صلوا على احمد يا الحاضرينّ

خير البرايا في العالمينا

فيردد الجمهور الدور : صلوا عليه وسلموا تسليما ، بلحن ايقاعي : وهي مستمرة بالقائها وانشادها وحماسها الديني الصوفي العذب المتسق:

حليمة لما رات انواره قد اشرقت .. مالت اليه وعانقت وقالت : هذا .. هذا نبينا !! خير البشر نبينا : صلوا على من جاءنا بالحق اظهر ديننا ! !

والجمهور يردد الدور : صلوا عليه وسلموا تسليما

وسار الموكب وقد وصل علاوي التمور والفاكهة في الشورجة وسوق الكوازين (الحباب والخناب والبسابيق والمشارب الفخارية المطلية بخليط القاشاني) والمواد الزجاجية « السيراميك » وسوق الغرابيل والمناخل (وهي المصنوعة من اوتار امعاء الحيوانات « المصارين » المنسوجة منها والمحبوك الناعم الدقيق ومنها المخرم الواسع ويسمى واحده منخلا وغالبا ما يستعمل لنخل اي تصفية الدقيق من مطحون حبوب القمح وغيره لعمل الخبز منه ، والمخرّم الواسع يسمى بـ « الغربال » او « الغربيل ») .. وفي نهاية سوق الشورجة الكبير ينتهي عنده سوق البقال خانة وفيه تباع اصناف البقالية والفواكه والاعناب الصيفية والشتوية الطازجة المحلية والجافة المستوردة من الهند وايران وتركيا ومن عمان وبقية امارات الخليج العربي والاحواز ويكون من ضمن هذه السوق سوق اخر هو سوق المواعين والفرفوري والأواني الزجاجية والفخارية المستوردة من الصين واليابان وروسيا على اختلاف اشكالها واحجامها وكانت تصنع خصيصا لتلائم الذوق البغدادي ومقتضياته الضرورية) ويختم سوق الشورجة بسوق المعاضد والاسوار وادوات الزينة النسائية كالودع والدهش والمسابح والقلائد المصنوعة من الزجاج الملون الرخيص ، وما اشتهرت به هذه البضائع الزجاجية فرع من السوق (دربونة) العلامة حسين بن روح احد الفقهاء والعلماء البارزين من ائمة المذهب الاثنى عشرية الامامية والذي توفي في القرن الثالث الهجري ودفن في داره في الشورجة وقد اقيم له مسجد في العهد العثماني وقد تجدد عدة مرات وما زال عامرا تؤمه الناس للصلاة) .. ومن هذا الحد يبدأ سوق العطارين (سوق العطاطير) حسب الاصطلاح البغدادي ..

والناظر الى الست سكينة حسن وهي بملاءتها اي ازارها او عباءتها يتبادر الى الذهن لاول وهلة انها مصرية تسير في شارع سيدي الحسين من ازقة وسكك القاهرة بانشادها وطاخمها البشري من المحبين والمريدين وكأن بغداد بمن فيها صارت القاهرة حيث لم تالف مثل ذلك من قبل ..

وعند بداية سوق العطاطير الى جامع مرجان (وهو السوق الكبير الذي يباع فيه كل شيء تحتاجه العائلة البغدادية المتحضرة وفيه عدة مخازن وانابير اي خانات وعنابير خاصة بالتجار المستوردين والمصدرين وباعة المفرد والجملة من السكر والشاي الحديث العهد في بغداد والبهارات والافاوية والصابون والعقاقير والاعشاب النباتية الطبية التي تجلب من الصين والهند والافغان وبلاد بخارى وما وراء النهر ومن بلاد سمرقند وطاشقند ومرو) ، وكنا نرى في هذه السوق التجار والباعة واصحاب الدكاكين والعمال والحمالين وعيونهم محدقة واعناقهم مشرئبة وانتباههم مرهف الى صوت مدائح وموالات وموشحات واراجيز وقطع الابيات الشعرية من تلاحين وترانيم الست سكينة حسن (الاوكسترا) العظيم عدا الموكب الشعبي الذي

صحبها من الحضرة الكيلانية المقدسة والذي قادته سكينة وشدته اليها بما تملك من مواهب نادرة كانت تفتقر اليها بغداد .. ومن هنا بدات تنشد بعض الابيات الشعرية من نظم شاعر الرسول حسان ابن ثابت ومن قصيدة طويلة صدحت بها من نغم الصبا جعلت الناس هادئين تسودهم الدهشة ولا تسمع منهم إلا نبرات الاعجاب وونات وآهات انتزعتها من صدورهم المكلومة وهي تغرد وليس تغريد العنادليب وهي تسجع وليس سجع الحمام وتقرا من هذه القصيدة :

الم تريا ان الملامـــــة نفعهـــــا
قليل اذا ما الشيء ولّى وادبـرا
تهيج البكـــاء والنـــدامة ثم لا
تغير شيئـــا غير ما كان قـــدّرا
اتيت رسول الله اذ جاء بالهـــدى
ويتلـــو كتـــابا كالمجـــرة نـــيرا
اقيم على التقوى وارضى بفعلهـــا
وكنت من النار المخـوفة احـــذرا

وظلت تردد هذه الابيات بعذوبة وموسيقية مدهشة من جامع مرجان حتى ســـوق البزازين وسوق الوتانية (الكببجية) حتى قهوة العنبار في الصبغة وخان الدفتر دار وسوق السراجية وخان الشابندر المجاور للمحكمة الشرعية .. وتنهال عليها الهبات والعطاءات والهدايا النقدية من قبل جمهور المستمعين واهل الخير والصلاح فيأخذها شيخنا الدليل المغربي وهذا الحد هو اخر الاسواق المسقفة الكبيرة التي ابتدأناها من سوق الدهانة حتى جامع الحيدرخانة وسوق الميدان وســوق السراي كما قدمنا وذكرناه سابقا بما فيها الاسواق الفرعية كسوق الحـدادين والتتنجية والتكمجية والاسكجية (باعة الاحذيةالقديمة المستعملة)وسوق باب الاغا ومدخل العاقولية وسوق المولى خانةبراس الجسر من جانب الرصافة ولو ان في بغداد كثيرا من الاسواق المهمة في انحائها الاخرى ومحلاتها القديمة الا انها ذات جماليات ومعقودات قصيرة غير متصلة بمجموع الاسواق الكبرى ذات السقوف الجمالية مثل سوق الفضل وسوق قمرالدين والصابونجية وسوق قنبرعلي وسوق حنون وسوق ابو سيفين وسوق ابو دودو وسوق راس القرية وســـوق الصدرية وسوق القاطرخانة وسوق العوينة وغيرها من الاسواق الصغيرة وهناك اسواق صغيرة ومحلية اخرى الا انها مكشوفة غير مسقفة مثل دكاكين حبّوب وسوق التسابيل وسوق قهوة شكر ونضوة عرب وما اليها وكل هذه الاسواق تمتد في ما يقارب الى نصف بغداد القديمة من ناحية الرصافة ولها مداخل ومخارج وتكون غير مستقيمة متعـــرجة وضيقة جدا في بعضها .

وتستمر الست سكينة حسن في انشادهـــا ومدائحها والجموع وراءها تردد دور انشادها وهي مارة امام جامع العدلية الكبير والمحكمة الشرعيــة وحمام القاضي وشريعة الوالي وشريعة النواب من محلة راس القرية وسوقها وحمام حيـــدر المقابل لمحلة الجنابيين ومركز شركة اسطيفن لنج التـي اتخذتها الحكومة العثمانية مركزا للشرطة (البوليس) لانضباط قانون البوليس النظامي ثم تعرج شطر جامع امين الپاچەچي ومنازل آل الپاچەچي وبيت الزبيق في محلة العمار وسبع ابكار ومدخل معامل النسيج والخياطة ومعامل الحدادة والنجـــارة الحكومية في العباخانة (اعمالت خانة فابريقەسي) التي هي مدخل محلة القاطرخانة وسوقها الكبير .. وهنا ياخذ الموكب بالسير السريع وتنشد الجموع اناشيد ايقاعية فترقص لها الصبية والاولاد والبنات ويتوقف الانشاد قليلا حين تمر الست سكينة حسن من جامع السيد سلطان علي ميممة وجهها نحو محلة المربعة ومنها نحو شارع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ثم في طريقها تمر بساحة الخلاني في محلة راس الساقية وتسلك سبيلها حتى تغيب عن الانظار في فناء جامع سيدنا الشيخ عبدالقادر الكيلاني قدس الله سره وعطر الله ضريحه واعلا مقامه حيث دلفت الى حجرتها لتستريح من عناء رحلتها اليوميــة المتعبة في اسواق بغداد وطرقاتها التي تستغرق في الغالب السبع ساعات كاملة ويتجدد الموكب ضحى كل يوم حتى تعود اهل بغداد التجمع حول بيوتهم ومنازلهم ومحال اعمالهم ومهنهم وحرفهم ليشنفوا اسماعهم بمدائح وانشاد وقصائد الست سكينة ويمتعوا انفسهم بعذوبة الالفاظ وسحر البيـــان ورخامة الصوت الذي تسحرهم به دائما ..

والحق انني سمعت كثيرا من اصوات النساء اللائي وهبهن الله قوة الحناجر وعذوبة ورقـــة الصوت وفن اداء التراتيم والغناء الذي يســمو بالارواح نحو اللطف والكمـــال وتهذيب المدارك والافهام لم اتاثر بشيء من هـــذا ما تاثرت بـــه من صوت ومهارة غناء الست سكينة حسن .. فقـــد سمعت صوت منيرة المهدية وموالاتها وقصائدهـا الغناة وسمعت وانا طفل غناء الست طيرة المصرية واغانيها وصوتها المذب الذي سحرت به عقول واذواق الشباب البغدادي وذلك سنة ١٩٠٦ ..

كما سمعت صوت وغناء السيدة ام كلثوم سنة ١٩٢٢ اميرة الطرب والغناء ، ثم سمعت غناء (نادرة) وغيرها من شهيرات المغنيات والمطربات المحترفات فتلاشت هذه الاصوات كلها امام صوت الست سكينة فلم يستهوني ولم يؤثر في اعماق احاسيسي وشعوري ولم يسحرني ويثير حماسي الى الفن والترنيم في تلاوة السيرة النبوية ومناقبها مثلما اثر في من صوت وغناء الست سكينة الفاضلة الكريمة والمرأة الزاهدة المؤمنة والتقية الورعة .. جاءت بغداد فلم تغني لاحد ولم تحضر حفلة طرب من الحفلات الخاصة ولم تحترف الغناء ليدر عليها المال من كل جانب وان ما تحصل عليه من هبات المعجبين يوزع الى فقراء بغداد وبالاخص منهم فقراء الحضرة الكيلانية بعد ان تقتات بشيء يسير منه ولو فعلت لكانت من اثرى المغنيات في العالم العربي .. ولم اكن مغاليا اذا قلت اني افضل حنجرة الست سكينة على حنجرة ام كلثوم على ما عرفت به من موهبة خارقة في فن الغناء ومكانة وشهرة في المجتمع العربي والشرقي .. بل كرست الست سكينة حياتها وفنها وانشادها لخدمة مدح الرسول والترانيم والموشحات الدينية والعناية الفائقة في تلحين وانشاد السيرة النبوية الخالدة ..

ومرت الايام وتوالت السنون وبدا العالم ينفض ما عليه من غبار الحرب العالمية الاولى وبدأت الامور تعود الى مجاريها الطبيعية وبدا اهل بغداد يستعيدون ذكرياتهم مع الست سكينة حسن المصرية وبدأ النشاط يدب في اسواق بغداد ومحالها التجارية ..

وفي ذات يوم استهواني حب الاستطلاع فدخلت محل شركة (بيضافون كمپني) لبيع الات الحاكي (فونوغراف) والاسطوانات المتنوعة وذلك سنة ١٩٢٥ وكان ذلك في سوق راس القرية وطلبت فهرسا ودليلا باسماء ما موجود لدى الشركة من الاسطوانات .. وبينما انا اقلب صفحات الكراس وما فيه من اسماء المغنين العرب على اختلاف اقطارهم اذ وقع نظري على اسم عابر اعرفه جيدا فدققت النظر وحدقت فيه بملء بصري ونظرت اليه بدقة وانتباه اثار شعوري وهزني كما هزني اول انشاد سمعته من الست سكينة فاذا انا باسطوانات الست سكينة حسن القرئة الحافظة وعددها اربع اسطوانات من سورة يوسف ، فتقدمت نحو بائع الشركة وطلبت منه الاربع اسطوانات دفعة واحدة وساومته قيمتها فطلب مني (ثلاثين روبية) وهي العملة الهندية الانكليزية المتداولة في العراق بعد الاحتلال فانقدته المبلغ ورقا بنكنوت واخذت اسطواناتي وحظيت بترتيل اعظم مجودة وقارئة للقرآن الكريم من النساء بصوت عذب شجي والقاء صوفي الهامي وحنجرة قوية ونغم مرخم ذات مقاطع موسيقية وهي تتصرف بادائها الترتيلي مما ياخذ بمجامع القلوب المستأنسة بذكر الله من كلامه الكريم .. وهل كنت اصدق باني في يوم من الايام سأسمع ذلك الصوت الذي فقدته ببغداد ، صوت الست سكينة واسمع منها ترتيل القرآن الكريم .. كم تملكني من شعور واحساس حين قبضت على الاسطوانات الاربع وتملكتها فوالله كاني تملكت الدنيا كلها .. وبقيت سنوات وانا اسمع ترتيل القرآن من هذه الاسطوانات ومن الاكرامافون الذي بحوزتي حتى عفى عليها الزمن وامحت آثار الصوت من تلكم الاسطوانات حتى بطل مفعولها .. وذهب الزمان بالاكرامافون وحل محله الراديو في الثلاثينات وسمعت من اذاعة مصر ومن مقرئي القرآن الكريم فلم اسمع في يوم ما صوت الست سكينة حسن مع ان لها تسجيلات كثيرة على الاسطوانات .. ودخلت سنة ١٩٤٠ وبينما انا اتصفح احدى المجلات المصرية فقرات نعي المرحومة الست سكينة حسن رحمها الله فحزنت على موتها حزنا عميقا .. ولا تزال تتردد على مسامعي اصداء ترتيلها وانشادها كلما سمعت صوت ام كلثوم يصدح على امواج الاثير . وفي يوم ما ذهبت الى السينما لمشاهدة احد افلام مطربة الشرق والامة العربية السيدة ام كلثوم وهو فلم (سلامة) وهي ترتل بعض آيات القرآن الكريم فاستبان لي الفارق بين الترتيلين فكان البون شاسعا وكبيرا بين الادائين بصوت السيدتين المذكورتين .

ذكرياتي عن الحرب العالمية الاولى وما صاحبها من احداث في بغداد

وقد حدثت احداث زمنية قبيل سنة ١٩١٥ منها الطبيعية ومنها الاخطاء في القيادة العسكرية : فمن هذه الاخطاء العسكرية التي اثرت فينا اي تاثير : انه في سنة ١٩١٤ اعلنت الحرب العالمية ودخلتها الدولة العثمانية بجانب المانيا ضد الحلفاء وجردت لها حملة عسكرية قوامها عشرون الف جندي مقاتل من لواء بغداد وقضاء الكاظمية وقضاء سامراء وبعض الاقضية التابعة لبغداد والاقضية التابعة الى لواء ديالى وسفرتهم الى شمال شرقي تركيا وعلى سفوح جبال القفقاس المتاخمة لتركيا لمجابهة القوات الروسية المهاجمة على حدود تركيا

وحدودنا الشمالية في مناطق الاكراد .. فصادف ان تساقطت الثلوج بكثرة هائلة على جبال القفقاس واشتد البرد وانهالت القطع الكبيرة من الثلوج على مخيّمات الجنود العراقيين الذين لم يألفوا برد الطبيعة وثلوجها فدفنتهم تحت هذا الركام من الثلج فماتوا الا قليلا وهذا القليل الذي نجا من الموت وفر من هول الكارثة وقع اسيرا في قبضة الجيش الروسي ، وعلى اثر ذلك تجمدت بحيرة (وان)(١٨) وصدرت اوامر احد القادة الاتراك ـ وتحت امرته كثير من الجنود العراقيين ـ الى قطع جيشه بالسير فوق البحيرة المتجمدة ظنا منه انها تحملهم وعتادهم وخيولهم لانها متجلدة صلبة فما اجتازوا واوغلوا في منتصفها الا وانفرجت وغاص الجيش تحتها بما فيه من رجال وسلاح ومؤن وخيول وقد غمرتهم مياه البحيرة غرقا والذين لا يزالون يسيرون خلفهم على ارض متجمدة تماما لما شاهدوا ما حل باخوانهم من الغرق والدمار اخذهم هول المصيبة وسادهم الفزع والخوف والهلع فهاموا على وجوههم تيها في تلك الآكام والجبال والثلوج فماتوا من شدة البرد والجوع والتعب وفشت الاوبئة المختلفة بالبقية الباقية من الجيش ولم ينج من تلك الحملة والتي يقدر عددها بعشرين الف جندي عراقي الا المائة او المائتين منهم على اكثر تقدير .. وتوالت اخبار النكبة على بغداد الثكلى فجعلت في كل بيت من بيوتها مناحة وعزاء وجزع نساؤها على ابنائها فلطمن الخدود وشققن الجيوب ونشرن الشعور واكتست بغداد ثوب الحزن وظلت هذه الفاجعة ذكرى مؤلمة ترويها الاجيال بعد الاجيال ..

والامر الطبيعي : هو الفيضان الهائل الذي اغرق بغداد ودمرها برمتها ولم ينج منه الى بعض المحلات العالية المرتفعة التي لم يصلها الماء . اما الاطراف والاماكن السكنية المنخفضة فقد غمرتها المياه وفر اهلها الى الاماكن المرتفعة حيث بيوت الاقرباء والاصدقاء والجوامع والكنائس يحتمون بها وينجون بانفسهم من طغيان دجلة الذي داهم بغداد على حين غرة فكنت ترى البيت الذي كان يستوعب عائلة او عائلتين قد ازدحم ببضعة عوائل بما فيهم دوابهم وانعامهم ، والدار الذي لم تغرقه المياه فقد هدمته الرطوبة واحالته خرائب تنعق فيها البوم .. انها لمصيبة وما اكبرها واعظمها من مصيبة شاهدتها وانا صبي وما ازال اتذكرها تثير في نفسي مكامن اللوعة والاسى .. وكان ذلك في ١٥ و ١٦ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ .

ولم تكد كارثة الغرق ان تهدأ بعد هبوط مناسيب نهر دجلة وروافده الا وفوجئنا بخطر الحريق(١٩) الذي التهم محلة العوينة وقسما من محلة المربعة وقسما من محلة الصدرية ومحلة الشيخ سراج الدين وقسما من محلة الحاج فتحي .. اما كيف حدث هذا الحريق المروع الهائل فاليك بيانه : لما اعلنت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ وضعت الدولة العثمانية يدها على الاموال الاجنبية التابعة لاشخاص وشركات دول الحلفاء اعداء الدولة فسفرتهم الى خارج ممالكها وكانت شركة (لنج) وشركة (بلوكي كري ومكنزي وشركاهم) البريطانيتين والتي تمتلك في بغداد كثيرا من محلات التجارة والاستيراد وبواخر كما بينا ، فكان لهما كذلك مستودعات بترولية وغازية ونفطية جمعتها الدولة في علوة المخضرات في العوينة لسعتها وكبر فنائها الذي استوعب اكبر كمية من صناديق النفط والمواد الاخرى القابلة للاشتعال السريع وفي صبيحة يوم من ايام شهر آيار سنة ١٩١٥ علا الجو دخان قاتم ساخم انتشر بسرعة هائلة فعم سماء بغداد واعقبه ضرام نار حادة وحدث بعدها دوي مخيف امتدت على اثره السنة النيران الى عنان السماء وظلت النيران تضطرم خمس عشرة يوما بلياليها .. وفي خلالها دعا داعي الحمى ليقوم الأهلون بواجبهم فهبوا شيبا وشبانا نساء ورجالا فاقتحموا النيران المستعرة وخاضوا ماء النزيز حول العلوة وانتشلوا البقية الباقية من صناديق الوقود وصفائح النفط التي لم تصلها النار بعد .. وقد التهمت النيران خلال الاربع عشرة يوما زهاء الثلثمائة دارا وخانا ودكانا الامر الذي جعل اهل بغداد يقعون في ضيق وحرج سبب بعض المجاعة من جراء هذه الحرائق والفيضانات وانتشرت الاوبئة في انحاء بغداد كالطاعون والتيفوئيد .

وفي خضم هذه المكاره والنوازل المحدقة فتح الحلفاء الجبهة الشرقية في العراق واحتل الانكليز البصرة والعمارة حتى وصلوا الى الكوت .. واخذ الاتراك يجندون الشباب والصبيان ممن لم يجند من قبل لان جميع ابناء بغداد جندوا وارسلوا الى القفقاس وهلكوا جميعا الا ما ندر كما قدمنا وذكرناه من قبل .. حتى انا وان سلمت من الموت فلم اسلم من مرض التيفوئيد لمدة اكثر من سنة حيث لا طبيب ولا دواء ولا معالجة في المستشفيات ولا رجال ولم يبق في بغداد بعد هذا التجنيد غير الاطفال والنساء والشيوخ والامراض والقحط والمجاعة وتوالت علينا الفواجع المتوالية فانستني حتى نفسي واوجاعي

وآلامي التي بقيت اعاني الامرين منها وما ان نقهت من مرضي حتى تم تسفيري الى جسر ديالى في الزعفرانية لحفر الخنادق (السوبيرات) للدفاع عن بغداد ضد الانكليز المستعمرين .. ولاول مرة بعد ابلالي من مرضي في اوائل سنة ١٩١٦ بوشر بشق شارع جديد طويل يبدأ من باب المعظم الى الباب الشرقي وفي مطلع سنة ١٩١٧ تم افتتاح الشارع من قبل والي بغداد خليل باشا وثبتت بعض الكتابات على جدران جامع السيد سلطان علي بالخط الفارسي (خليل باشا جادةسي) وجاء الانكليز ودخلوا بغداد بدعوى انهم جاءوا محررين لا فاتحين، وكان يوما مشؤوما هو يوم ١٩١٧/٣/١١ الذي دخل فيه الانكليز بغداد وكان حالهم اسوا على العراقيين فقد لاقوا منهم ما لاقوا من عنعنة وعجرفة وكبرياء مما لا يطاق مما عجل بالثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ـ ١٩٢١) وانتهت بقيام الحكم الأهلي الملكي في العراق .. وهكذا اسدلت صفحات سوداء تحت ظل الاحتلال العثماني وظروف الحرب العالمية وسيطرة المستعمرين الانكليز .. ! ! .

ذكرياتي مع مريم نرمه من اوائل الصحفيات في العراق

معرفتي بالسيدة الفاضلة مريم نرمه سنة ١٩٢٤ اذ كانت تسكن دارا في محلتنا (القاطرخانة) مقابل شرطة العباخانة التي هي اليوم بناية الثانوية الجعفرية في شارع الوثبة وبحكم الجوار دعتني السيدة لزيارتها في بيتها فلبيت الدعوة ، وشربنا القهوة وجرى بيننا الحديث عن الصحافة والادب والكتاب والضجة التي بدأ يثيرها بعض الشباب المتطرف حول سفور المراة وتبرجها ومناصرة الدعوة الى تحرر المراة وسفورها متاثرين ببعض الكتاب في مصر حيث الدعوة بدأ لها رواج من بعضهم وكانت السيدة مريم متاثرة اشد التاثر من حملتهم الشعواء على الحجاب والدعوة الى التبرج والسفور المطلق في بلد لا تسمح ظروفه الاجتماعية ان تروج فيه مثل هذه الدعوات ودون ان تسبق ذلك دعوة الى تعليم المراة وتثقيفها وكان من هؤلاء الشباب الاساتذة مصطفى علي وحسين الرحال وعوني بكر صدقي واخوه لطفي ومحمود السيد ، اذ اصدروا صحيفة يحررون فيها ما يلائم فكرتهم ويروج لدعوتهم .. وكانت السيدة مريم كلها ثورة ونقمة على هؤلاء الشبان ، وكلها نار حامية على الاوانس والسيدات اللواتي انسقن وراء هذه الدعوات من غير تبصر وروية وفي نظرها ان تكون مرحلة تعليم المراة الخطوة الاولى لتحريرها من كل الافكار والاوهام التي تسيطر على عقليتها وبعد ذلك فعلى المراة هي التي تقرر مصيرها بنفسها ، فالجهل آفة من الافات الاجتماعية الخطيرة التي يجب القضاء عليها بكل ثمن وعلى هؤلاء الشباب ان يصرفوا الجهد الى ذلك .

وكانت السيدة مريم امراة جاوزت العقد الثالث ؛ متزوجة ولكنها عقيم لا تنجب ، محافظة ومتدينة ملازمة البيعة في الكنيسة تصلي بكرة واصيلا ، ترتدي اللابس الطويلة ، وتتلفع بازار يضم اطراف جسمها ولا يظهر منها الا الوجه والكفان ولباسها شبيه باللباس الشرعي الاسلامي العربي الذي كانت ترتديه المراة المسلمة في الحواضر والبوادي والارياف .. وكانت تصب جام غضبها على (...) وعلى شقيقها (...) ، لانها اول فتاة عربية مسلمة نزعت حجابها واسفرت سفورا مطلقا .

وكانت السيدة مريم تكره قاسم امين صاحب هذه الدعوة في مصر وتعتبره اصل البلاء لانه اول من نادى بحقوق المراة وتحررها من القيود ودفعها الى اوضار المجتمع المزرق المنهري من الاداب تقليدا للمراة الغربية ... والمراة المثالية عندها هي الكاتبة والشاعرة والاديبة « ملك حفني ناصيف » المراة المثقفة ثقافة عالية ولكنها في نفس الوقت غير متبرجة ولا سافرة سفورا مطلقا متحجبة حجابا معتدلا ، فكانت ملك تكتب وتنظم القصائد وتدبج المقالات في الفضيلة والحشمة والاخلاق في مجلة « المقتطف » المصرية باسم « باحثة البادية » بمقالات متسلسلة تباعا ، وهي المراة التي وضعت الخطة الناجحة والقدوة الحسنة لتحرير الفتاة والمراة العربية وذلك عن طريق التحلي بالاداب والفنون والمثل والتعلم .

وكانت السيدة مريم تنظر الى السفور كقضية ثانوية فاللباس لا يغير شيئا من طبيعة المراة اذا عرفت نفسها وما لها وما عليها .. الا انها اي السيدة مريم لا تؤمن بالطفرة والقفزة السريعة التي تحركها الاهواء .

وكانت السيدة مريم ذات نزعة اصلاحية اجتماعية متاثرة ببعض الكتاب الغربيين ومنهم الكاتب الاجتماعي « جون سيمون » ونقده حالة المراة الاوربية والغربية على تنكرها وتمردها على واقع الحياة الزوجية .

وفي عام ١٩٢٨م اخبرتني السيدة مريم بانها

عزمت على اصدار مجلة ادبية عنوانها « فتــاة العراق »(٢٠) .. وفي عام ١٩٣٢ زرتها في دارهــا الجديدة التي اشترتها في عقد العريض من المحلة ذاتها ، وقرات لوحا من الخشب على واجهة باب دارها عليها (ادارة مجلة فتاة العراق) فاستبشرت خيرا، فطرقت الباب واستاذنت بالدخول فاستقبلتني السيدة مريم بالترحاب الحار والاستئناس وقدمتني الى شخص لم اكن اعرفه من قبل وقالت له : اقدم لك (اخي) وقالت لي : اقدم لك صديقي الاستاذ الكاتب الاديب (يونان عبو يونــان) فرحبت به وفرحت بلقائه لاني كنت كثير الاعجاب بكتاباتــه ومقالاته في الصحف والمجلات عن الاصطياف في ربوع الشمال الحبيب وعلى الاخص عن « سر عمادية » و « زاويته » و « بامرني » و « تل اســقف » و « بعشيقا » ومصيف « ديرمتي » وغيرها مــن المصايف العراقية .. وفي الحقيقة كانت كتــابات الاستاذ يونان شيقة وممتعة ومحببة للنفــوس وترغبها لزيارتها والاستمتاع بجمال الطبيعة فيها .

وفي نظري ان يونان اول داعية اعلامي ومرغب المصايف العراقية منذ سنة ١٩٢٦ حتى اواخر الثلاثينات عند بدء الحرب العالميــة الثانيــة ..

واردفت السيدة قولها : ان الاستاذ عبو سيكون رئيس تحرير مجلتي .. وفي سنة ١٩٣٤ صدر العدد الاول من مجلة « فتاة العراق » وفي العدد الثاني ساهمت بتحرير مقالة بقلمي عنوانها «وجوب العناية باللغة العربية في المدارس الاهلية» واقصد بها المدارس المستقلة عن المنهج الوزاري وعلــى الاخص المدارس الاجنبية والطوائفية الدينية منها..

وصدر العدد الاخر ولم يصدر عدد رابع حتى كتابة هذه السطور اي في سنة ١٩٦٩ ، واخبرتني السيدة مريم انها خسرت مائة دينار بسبب اصدار هذه المجلة التي لم يكتب لها الرواج والتوفيق وظلت اللوحة في مكانها تعلو باب دارها الى ما بعد انتهــاء الحرب تحمل اسم المجلة ! ! ..

وغمرتنا الحرب العالمية الثانية بما تحمل من مآسي وويلات، وتبدل الزمن وتغيرت الدنيا وحدثت احداث وانقطعت علاقتي بالسيدة مريم فلم اسمع عنها شيئا .. وفي يوم من ايام سنة ١٩٤٧ بينما كنت اسير في شارع « حافظ القاضي » في الكرادة الشرقية لفت نظري لوح قديمــة عتيقــة سبق ان الفتها فتفرستها ودققت النظر فيها فاذا بي امام تلك اللوحة التي تحمل ادارة مجلة فتاة العراق والتي طالما كنت اراها مثبتة فوق باب دار السيدة مريم بعقد العريض لم تتغير ولم تتبدل هي نفسهــا ماثلة امام عيني ، فسألت عن صاحب الدار : هل هي السيدة مريم نرمه ؟ ! فاجبت بالايجاب الا انها الان غير موجودة واظن ان اللوح موجودة الى الان ولكنني لا استطيع الوصول اليها لمرضي الذي اعاقني واقعدني فاصبحت رهين المحبسين ، المرض والشيخوخة ..

والذي علمتــــه من السيدة انهــا تعلمت في مدرســـة الراهبات القديمـــة واشتغلت بالتعليم الخصوصي لتدريس بنات ذوي الوجاهة ورجال الحكم في بيوتهن ، وكان زوجها (العم منصــور) موظفا في الكمارك والمكوس وهو رجل طيب القلب ، دمث الاخلاق ، هادىء النفس ..

هذا كل ما اعرفه وذكرياتي عن الســـيدة المحترمة مريم نرمه وعن انتاجها وتاريخهــا الادبي والصحفي والعلمي ، وقد ذكرني به بعض ما كتبه عنها السادة الافاضل : عن قدم صحفية عراقية مريم نرمه ام بولينا حسون ؟ ! !(٢١) .. وكلتاهما قد اشتغلتا بالكتابة والصحافة في آن واحد الا انه صدرت مجلة « ليلى » لبولينا حسون في اعداد سنة ١٩٢٤ او ١٩٢٥ وصدرت منها بضعة اعداد ثم احتجبت عن الصدور ، وبولينا كانت على نقيض السيدة مريم ، فكانت عصرية في زيها ونشأتها ، متحررة في تطورها واشتغلت في التعليم النسوي في المدارس الرسمية العراقية ، وبعد هذه السنوات لا اعلم عن السيدة مريم شيئا حتى يومي هذا(٢٢)..
واما الذوات الافاضــل الذين وردت اسماؤهم في هذا البحث فعلى ما اعلم : فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر فنرجو المعذرة عما بدا منا تجاههم من هفوات .. وما ذكرناه للتاريخ وللتاريخ فقط..

الدكتور داود الجلبي(٢٣)

بمناسبة اهتمام محافظة الموصل (نينوى) بافتتاح مكتبة المرحوم الدكتور داود الجلبي الذي خصص من املاكه وجعلها وقفا خاصا لهذه المكتبة التي تضم آلاف المجلدات ومنها المخطوطة النادرة والكتب المطبوعــة النفيســـة القيمــة وبمختلف اللغات(٢٤) .. وجعل هذه المكتبة(٢٥) بما فيها من

بنايات وقاعات وأثاث ورفوف ومناضد ومقاعد خاصة للمطالعة وسجلها وقفا رسميا خصصت لخدمة المواطنين من ابناء الموصل الحدباء والحق بها بعض المسقفات والعقارات يصرف ريعها وعوائدها على شؤون هذه المكتبة وعلى ما تحتاجه من كتب وموسوعات وتوسيعات في ملاكها في المستقبل ، وهي واقعة في محلة باب الدواسة في مدينة الموصل الفيحاء .. ووجود مثل هذه المكتبة مفخرة من مفاخر ابناء العراق في هذا القرن الذين يجعلون الثقافة للجميع ويرصدون لها الاموال من اجل نشر العلم والثقافة بين ابناء الجيل وفي مثل هذه المدينة العريقة الطيبة ..

وجدير بنا ان نلمح ولو باختصار واقتضاب عن ترجمة حياة المرحوم داود الجلبي .. ولد داود الجلبي في مدينة الموصل في اواخر سنة ١٨٧٩(٢٦) من سلالة اشتهرت بحرفة الطب والتطبب قبل قرنين من الزمان او اكثر في مدينة الموصل ، ولاجل المهنة .. وبعد ان اكمل الدراسة الاولية ومبادىء العلوم في مدارس الموصل والمكتب الاعدادي الملكي دراسته في اللغات في مدرسة الرسالة (الدومنيكية) وبعدها رحل الى الاستانة فدرس الطب في المدرسة الطبية العسكرية فيها ، وخدم في الجيش التركي الى نهاية الحرب العالمية الاولى ، ثم عاد الى العراق بعد الهدنة وبعد الثورة العراقية وتشكيل الحكم الملكي في العراق عاد الى الجيش واشتغل في مديرية الامور الطبية في وزارة الدفاع برتبة زعيم ، وكان احد الاعضاء في لجنة تدقيق المعاهدة العراقية ـ البريطانية .. ثم عين مديرا للصحة العامة ، وبعد احالته على التقاعد سنة ١٩٣٣ اشتغل بالطب في عيادة اهلية في الموصل خاصة به .. نال وسام الرافدين من النوع العسكري وشارك في جمعيات خيرية وطبية واجتماعية .. يتقن كثيرا من اللغات الاجنبية الى جانب اللغة العربية كالفارسية والتركية والفرنسية وشيئا من اللغة الانكليزية .. وكان ولعا بافراط في جمع الكتب واقتناء النادر والنفيس منها منذ شبابه حتى استطاع ان يكون من هواياته المفضلة مكتبته العامرة الذي نحن بصدد ذكرها .. وقبل سنوات من وفاته اقعدته واوهنته الشيخوخة فلازم بيته حتى اسلم الروح الى بارئها في مدينة الموصل مسقط راسه في ٢٨ ايار ١٩٦٠ .. وقد عاش الدكتور المرحوم داود الجلبي عمرا مديدا كريما نيف على التسعين عاما ..

وله من التاليف :(٢٧) (مخطوطات الموصل) وكتاب (الآثار الآرامية في العامية الموصلية) ، وكتب الموضوعات ونشر المقالات في مجلة لغة العرب لانستاس الكرملي ؛ وله بعض التصانيف غير المطبوعة للجاحظ وكتب اخرى لابن فارس وبعض المقالات والبحوث في مختلف المجلات والصحف المحلية والعربية في مصر ، ومراسلة الصحافة العربية والاجنبية بمختلف اللغات ..

***

الهوامش والتعليقات

(١) صبابيغ الآل ـ محلة من محلات الجانب الشرقي في في بغداد (الرصافة) .. ويحدها من جهة الشمال محلتا القشل والدهانة ، ومن الشرق محلتا الشيخ سراج الدين والحاج فتحي ، ومن الجنوب محلة القاطرخانة ، ومن الغرب محلة السبع ابكار .. ويعني هذا اللفظ في اللغتين الكردية والتركية اللون الأحمر او الصبغ الأحمر ، وتنسب هذه المحلة الى جماعة من الصباغين سكنوا هذا الموضع من بغداد القديمة ومارسوا فيها مهنة صبغ الخيوط والاقمشة المختلفة بالألوان وخاصة اللون الأحمر ، فنسبت المحلة اليوم واشتهر الاسم بهم .

(٢) محلة السبع ابكار احدى محلات الجانب الشرقي من بغداد (الرصافة) . ويحدها من جهة الشمال محلتا صبابيغ الآل والقاطرخانة ، ومن الجنوب نهر دجلة ومن الغرب محلة رأس القرية ويخترقها شارع الرشيد من وسطها .. وفي هذه المحلة مسجد آل الباچه‌چي الذي ذكره المرحوم العلامة محمود شكري الالوسي في « مساجد بغداد » : ان هذا المسجد في محلة نهر المعلى الشهيرة اليوم بمحلة سبع أبكار .. كما جاء في ذكر جامع السيد سلطان علي قوله : واقع على دجلة من نهر المعلى .

(٣) البكرة والكرد بمعنى واحد ، والكرد لفظة فارسية وتعني آلة رفع المياه من الأنهار والآبار واستخدامه لسقي المزروعات والبساتين .. وقوام الكرد بكرد واحدة او اكثر حسب الحاجة وكانت شائعة الاستعمال في شرائع بغداد بمثابة اسالة ماء بدائية ، اما طريقة سحب الماء وتوزيعه بواسطة الكرود فيتم بان يصب الماء بواسطة دلو في حوض أعد له على شريعة من شرائع دجلة فيذهب الماء بالساقية المحفورة تحت الأرض والمزفتة تزفيتا متقنا ولقد كان جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني

وجامع الشيخ عمر السهروردي قبل مشروع اسالة الماء الحديث يجهز لهما الماء من ساقية يجري فيها بواسطة (كرد) الاول منها نصب في شريعة الشيخ بالسنك والثاني في شريعة الميدان .. وقد سميت محلة راس الساقية نسبة الى تلك الساقية الممتدة من نهر دجلة الى جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني .. اما ارواء البساتين والحدائق المحيطة ببغداد فكانت تسقى بواسطة (النواعير) جمع ناعور والتي تسحبها الخيول او البغال .. اما بقية محلات بغداد فكانت تشتري الماء من السقائين وكانت طبقة السقائين منتشرة في كل مكان من بغداد وموزعين على محلاتها يستقون الماء من دجلة ومن الشرائع المشهورة عليه ، ثم ينقلونه الى البيوت في قرب كبيرة على ظهور الحمير او البغال او الخيول فكانت توضع على جانبي كل دابة قربتان وفي سنة ١٣٢٥هـ يقابلها سنة ١٩٠٧م ايام الوالي حازم بك انشئت ماكنة اسالة الماء في بغداد بواسطة مضخة نصبت في شريعة الميدان واجري الماء بواسطة انابيب ، وكان موضع هذه الماكنة في البوزخانة (محلة البقجة) امام مدرسة الصنائع التي هي اليوم قصر الثقافة والفنون في الميدان .. وكانت هذه الماكنة تسحب الماء من دجلة وترسله الى المحلات القريبة منها وهي : الميدان وبعض الحيدرخانة والصابونجية وجديد حسن باشا والطوب وكان مجموع البيوت التي يوزع اليها الماء في هذه المحلات ٢٦٠ دارا مشتركا لقاء اجرة شهرية لكل دار وهي عشرة قروش وهو مبلغ زهيد جدا وهو ما يساوي بعملة اليوم مئة فلس فارتاحت بغداد من عناء الارواء ونجت الجوامع والحمامات من مياه الابار المالحة .. وفي السنة التي تلتها اي في سنة ١٩٠٨م نصبت مضخة اخرى في شريعة المصبغة قريب من قهوة الشط نهاية شارع المستنصر من جهة نهر دجلة ومدت الانابيب لتوزع المياه الى المحلات القريبة منها ، ثم اشيع استعمال المضخات وتقلص مهام السقة في بغداد حتى ازيل بالمرة بعدئذ ..

(٤) وممن ذكر هذا المسجد (مسجد ال الباجه‌جي) السيد ابراهيم الدروبي في كتابه (البغداديون) ضمن مدارس بغداد فقال : « هذا المسجد واقع في محلة العمار سبع ابكار يتصل به من جهة شارع الرشيد محل ارشاد الصود ، وهو من اوقاف صاحبة الخيرات امينة خاتون بنت عبدالرحمن الباجه‌جي .. شيد هذا المسجد الحاج نعمان جلبي الباجه‌جي ابن عثمان جلبي سنة ١٢٢٦هـ .. وكان سابقا مدرسة علمية يدرس فيها العلوم العقلية والنقلية ثم اعاد الحاج نعمان بناء هذه المدرسة المذكورة واوقف عليها وعلى المسجد المذكور اوقافا معلومة وشرط صرف غلتها على لوازم المسجد والمدرسة بموجب الاعلام الصادر من محكمة شرعية بغداد المؤرخ ١٠ شوال سنة ١٢٥٣هـ . وقد درس في هذه المدرسة علماء اعلام منهم العلامة غلام رسول الهندي والعلامة الملا مصطفى امام وخطيب جامع السيد سلطان علي ومدرسها الحالي الفاضل عمر مولود الدبيه‌كي الكردي . وفي هذه المدرسة مكتبة قيمة تضم نوادر الكتب المخطوطة في التفسير والحديث والفقه واللغة والتاريخ والادب والفلسفة وغير ذلك من العلوم » .

(٥) لم تنسب هذه التكية الى السيد احمد بن علي بن ابراهيم الملقب بالسيد البدوي صاحب الطريقة المعروفة باسمه والمتوفى في مصر في مدينة طنطا سنة (٦٧٥هـ / ١٢٧٦م) . وانما نسبت هذه التكية لشيخ آخر من شيوخ السادة الرفاعية في بغداد اسمه (الشيخ بدوي) وله ترجمة وافية في كتاب « تنوير الابصار » لشيخ الاسلام ابي الهدى الصيادي الرفاعي .. وفي سنة ١٩٦٠م هدمت ادارة الاوقاف هذه التكية وقد نسجت كثيرا من الكرامات حول تهديم قبره مما كانت حديث اهل بغداد وعوامه حينذاك ، واقامت على انقاض التكية عمارة ضخمة ذات عدة طوابق تعرف اليوم بعمارة البدوي على شارع الرشيد في راس القرية وابقت القبر في حجرته ارضاء لعواطف العوام وتهدئة لثورتهم ولم ينقل الرفاة الى المقابر العامة بعد ان جددت عمارة الحجرة والصقت بالعمارة ويميزها باب من الحديد على شارع الرشيد ..

(٦) لا تزال هذه البناية قائمة اليوم وتمتاز عمارتها بالريازة البغدادية ، وتقع على شارع الرشيد جهة شارع النهر قرب جسر الاحرار مقابل عمارة كاظم مكية وهي تعود الى شركة (لنج) التي اسسها هنري لنج . وكانت شركة للنقل النهري في نهر دجلة وتعتبر بالنسبة للعراق بمثابة شركة الهند الشرقية بالنسبة للهند ، وعرف هنري لنج الشيء الكثير عن حوض نهر دجلة حيث قام بمسحه وتخطيطه ودراسته من عدة وجوه .. وكان هنري لنج هذا الساعد الايمن لـ (جيسني) في مغامراته الفاشلة في الفرات واصبحت شركة لنج من اربح الشركات ، وكانت على صلة بشركة الهند الشرقية ، وقامت هذه الشركة اخيرا بالاضافة الى النقل النهري باعمال تجارية واستيراد المكائن الزراعية .. وقد الغيت اعمال هذه الشركة في العهد الجمهوري ولم يبق لها كيان يذكر ..

(٧) رأس القرية : احدى محلات بغداد الرئيسة في الجانب الشرقي (الرصافة) والقريبة من شارع الرشيد قامت في وسطها اليوم ساحة عبدالوهاب الغريري التي اتخذت فيما بعد موقفا للسيارات تكتنفها عمارات حديثة واسواق عصرية .. وهناك من يلفظ الاسم بالتصغير وهذا هو الاشهر وتسميها العامة (راس الكريّة) .. اما الاتراك فكانوا يقولون (قرية باشي) بدون تصغير وقد ذكرها رحالتهم اولياچلبي بصورة (قورنه باشي) .. وسوق راس القرية واقع تحت شريعة خان التمر وهو يمتد من الشمال الى الجنوب وبه تتصل محلة راس القرية من جهة الشرق وهو قسم من الشارع المسمى اليوم بشارع النهر (شارع المستنصر) ..

والمحلة هذه شأنها شأن اية محلة من محلات بغداد القديمة تتكون من مجموعة عقود ودرابين وهي طرق متعرجة غير مستقيمة وضيقة جدا لعدم وجود التنظيمات البلدية في تخطيط المدن حينذاك فالطريق النافذ كانوا يسمونه عقد وغير النافذ يسمونه دربونة طالت ام قصرت .. فمن عقود محلة رأس القرية في

القرن الماضي ولا يزال آثارها باق الى وقت من هذا القرن وهي : عقد السقافي ، عد الخاصكي ، عقد الكاوور ، عقد القصيف ، عقد الرواق ، عقد حاجي امين ، حمام حيدر ، الجنابيين ، العمار ، تكية البدوي ، العقد الضيق وعقد ابو يعقوب .. واسم راس القرية هذا في رأي بعض الباحثين يعني بداية الاراضي السهلة او الواطئة المتخفضة ..

(٨) وخليل باشا هذا عرف بـ (خليل بك) ايضا : تولى ولاية بغداد وقيادة الجبهة في ١٢ كانون الثاني ١٩١٦م الموافق ٦ ربيع الاول ١٣٣٤هـ وفي ايامه الاولى اندحر الجيش البريطاني في معركة سلمان باك ، وحوصر في الكوت ، وفي عهد ولايته فتحت ببغداد اول (جادة) بعرض ١٦ مترا سميت بـ (جادة خليل باشا) .. وكان افتتاحها في ٢٣ تموز ١٩١٦م الموافق ٢٢ رمضان ١٣٣٤هـ . وهذا الشارع سماه البريطانيون بعد احتلالهم لبغداد (الشارع الجديد) وهو المسمى اليوم بشارع الرشيد نسبة الى الخليفة العباسي العظيم هرون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ) ..

وقد وصف المؤرخون « خليل باشا » هذا بانه كان من اعظم القادة العسكريين حنكة ومقدرة حربية وهو من كبار الاتحاديين الا انه بالرغم من ذلك كان منهمكا بالملذائذ مستسلما للنساء رغم اعاصير الخطر التي كانت تعصف بالبلاد من جميع اقطارها .. وقد هام وجدا باحدى المومسات في بغداد ، فاستولت عليه واستبدت بعقله والهته عن الامر المهم الذي انيط به ، حتى انه كان يقول لها وهو في لحظات نشوته : انا قائد الجبهة وانت الحاكم المطلق عليّ ! وما كان يعلم هذا المسكين ان هذه المومس التي حكمته حكما مطلقا هي الجاسوسة الانكليزية « فلتم » !..

(٩) المقصود بهذه الجادة هو شارع الرشيد الحالي ولم يكن من الباب المعظم الى الباب الشرقي في عهد خليل باشا بل امتد من الباب المعظم الى الكمرك في السنك ، بسبب أن بناية الكمرك التي اتخذت اليوم متحفا للازياء العراقية كانت في عهد الدولة العثمانية دار القنصلية البريطانية وتسمى عند العامة (القنصلخانة) وكانت البناية تمتد الى استقامة شارع الرشيد وقسما منها في دائرة البرق المركزية فامتد الشارع الى سور القنصلية وتوقف العمل فيه اذ اعترضت الحكومة البريطانية ان يهدم قسم من قنصليتها في بغداد واصر خليل باشا على هدمها وكادت ان تحدث ازمة سياسية بين بريطانيا والدولة العثمانية بسبب ذلك لولا اشتعال نيران الحرب العالمية الاولى وانشغال الدولتين بها فاهمل المشروع وتوقف الشارع الى هذا الحد وخسرت الدولة العثمانية الحرب وخرجت من العراق وحلت الدولة البريطانية محلها في احتلال العراق وفي عهدها امتد هذا الشارع الى الباب الشرقي عند الدبابخانة العسكرية وبمحاذاة نهر دجلة من جانبه الشرقي ...

(١٠) عرف ابناء الواقف السيد عيسى بذرية السيد عيسى وقد ذكر مجلسهم ضمن المجالس البغدادية السيد ابراهيم الدروبي في كتابه (البغداديون) فقال: هذا البيت من ارفع واجل بيوتات بغداد وال السيد عيسى سادة حسنية وقد نشأ منهم علماء اعلام ذكرهم الحيدري في كتابه (عنوان المجد) . وهذه الأسرة عريقة ببغداد ... وكان لآل السيد عيسى مجلس علمي ببغداد يتردد اليه العلماء الاعلام من آل النقيب وال الالوسي وال الجميل وال السويدي وال كبة ، وكانت لهذا البيت مكتبة حافلة بشتى العلوم وتضم نوادر المخطوطات » ..

(١١) الصباخانة ـ محلة من محال بغداد القديمة في الجانب الشرقي منها وتحيط بها المحلات التالية : السيد سلطان علي او المربعة من الجنوب والعمار سبع ابكار من الغرب والقاطرخانة وصبابيغ الآل من الشمال ومحلة الحاج فتحي من الشرق وكان موضع هذه المحلة يسمى سابقا (حمام الراعي) .. وفي عام ١٨٦٤م أسس الوالي نامق باشا اول معمل حديث للنسيج في العراق ، وهو الذي اطلق عليه البغداديون اسم (الصباخانة) او (القاطرخانة) وبه عرفت المحلة المحيطة به . وكان يدار بقوة البخار وينتج بعض حاجيات الجيش من البسة وخيام ، وحين جاء مدحت باشا عمل على تطوير المعمل وتوسيعه حتى وصل انتاجه في اليوم الواحد الى ثلثمائة متر من الاقمشة الصوفية واربعمائة متر من الاقمشة القطنية السميكة ..

(١٢) جامع الحاج فتحي ـ احدى محلات الجانب الشرقي من بغداد وسميت بهذا الاسم نسبة الى هذا الجامع الذي آل اليوم الى خربة تعود ملكيتها الى الاوقاف ويطل على شارع الجمهورية .. وقد ذكره العلامة محمود شكري الالوسي في « تاريخ مساجد بغداد » عند الكلام عن الحاج فتحي فقال : « سالت بعض من في الجامع الشيوخ والكهول عن الحاج فتحي الذي ينسب اليه المسجد والمحلة التي حوله فقالوا : كان على ما سمعنا درويشا جاء من الموصل واقام في المحل وصار له اتباع ومريدون في هذا المسجد ، ولما توفي دفن عند الباب عن شمال الداخل ، وقد جعلت الاوقاف قبره في عمارتها الاخيرة حانوتا .. عرفت أن هذا المسجد كان قفرا فاتخذه الحاج فتحي مسجدا عام ١١٦٩هـ » .

(١٣) من مذكرات السيد محمد رؤوف السيد طه الشيخلي والتي دونها في كتابه « مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها » يقول اثناء الكلام عن تعلمه في الكتاتيب في عهد الطفولة ، وكان الكتاب الذي تعلم لديه القرآن الكريم هو عمه السيد عبدالحميد الذي كان يباشر تعليم الاطفال مع شقيقه : فتعلمت لديه القرآن الكريم والكتابة وشيئا يسيرا من الحساب وكان للاخوين المذكورين وظيفة اخرى في جامع السيد عبدالكريم الجيلي وهو واقع في الطريق الذي بين جامع الحاج فتحي وجامع السيد سلطان علي وكان يسمى (عقد الجاموس) فكنت اذهب مع عمي السيد عبدالحميد عصر كل يوم الى جامع السيد عبدالكريم الجيلي فيتفقد نظافة المحل وحالة الاشجار من نخيل وغيرها لان الجامع المذكور كان متصلا ببستان صغيرة او قل الجامع هو داخل البستان ..

وكان في شريعة السيد سلطان علي كرد خاص برفع الماء من دجلة بواسطته فتؤمن حاجته من الماء أولا ثم تستمر الساقية في طريقها تحت الارض الى جامع السيد

عبدالكريم الجيلي فتسقي البستان ومن هناك الى جامع الحاج فتحي فتؤمن حاجة السبيل الموجود فيه ..

(١٤) جامع السيد سلطان علي ـ هذا الجامع مطل على دجلة من نهر المعلى من انهار بغداد القديمة وموضعه اليوم بمحلة سبع أبكار او الربعة بلصق شركة المخازن العراقية المركز الرئيسي على شارع الرشيد في بغداد.. يقول الدروبي في بناء الجامع : ولا يعلم بالتحقيق تاريخ بناء هذا الجامع الا انه يصادف العصر الذي بني فيه المدرسة المرجانية والنظر الى مئذنة كل منهما تجعلنا نقطع بان البناء متقارب في الزمان ان لم يكن مماثلا ومئذنة جامع النعماني لا تختلف عنهما .. وقد ذكر العلامة الحاج علي الالوسي القاضي في تعليق له على كتاب كلشن خلفا عند ذكر الشيخ علي ما نصه : والظاهر ان الشيخ علي هذا هو المنسوب اليه جامع السيد سلطان علي فانه ولي ببغداد وتوفي فيها وموضوع الجامع من مرافق دار الخلافة العباسية كما اكد ذلك الاستاذ المرحوم عباس العزاوي في تاريخه .. والحقيقة ان السيد علي هو والد الصوفي الشهير السيد احمد الرفاعي صاحب الطريقة المعروفة باسمه وله ترجمة وافية تؤكد الموضع الذي دفن فيه في كتاب « روضة الناظرين وخلاصة مناقب الصالحين » للعلامة الكبير الشيخ احمد بن محمد الوتري ، الموصلي الاصل ، البغدادي الدار ، المصري الوفاة الذي توفي في سنة ٩٨٠هـ .. وفي سنة ١٢١٠هـ جدد عمارة الجامع السلطان عبدالحميد خان العثماني وأنشأ فيه مدرستين لتدريس العلوم العقلية والنقلية وبنى فيه حجرا لطلاب العلم .. واما الكتابات التي على باب الجامع كما يذكر الدروبي فهي بخط عثمان باور الخطاط المشهور ، وعثمان باور هذا خطاط معروف من تلاميذ الخطاط الشهير بسامي بك ومن اثاره الخطية ما كتب على الكاشاني الازرق في مشهد الامام الاعظم والشيخ معروف الكرخي والواح خطية، وكان حسن الخط دعاه من الاستانة الى بغداد الحاج حسن باشا والي بغداد ايام ولايته وفي ايامه عاد الى استانبول وتوفي هناك سنة ١٣٢٢هـ. وفي هذا الجامع تكية للسادة الرفاعية من ال رجب الراوي وكان عميدها الشيخ ابراهيم الراوي ومجلسه الادبي والديني فيه يذكره اهل بغداد في جملة مجالسهم ولا تزال هذه التكية عامرة بروادها وتكون بنايتها في القسم العلوي من الجهة الشمالية من هذا الجامع ولها مكتبة قيمة تضم نوادر المخطوطات والكتب المطبوعة النفيسة ، والذي يقوم الان برعاية هذه التكية ومكتبتها الاستاذ المحامي جمال بن اسماعيل الراوي بعد وفاة الاستاذ الشاعر خاشع الراوي ـ رحمه الله ـ .

(١٥) جاءت تسمية (الباب الجنوبي) من جريان نهر دجلة من جهة الشمال الى الجنوب فيشطر مدينة بغداد الى قسمين ، فالجانب الغربي منه ويسمى (الكرخ) ، والجانب الشرقي ويسمى (الرصافة) .. اما تسمية (الباب الشرقي) فمن مدار الشمس فيكون موقع الباب في الجهة الشرقية من بغداد وهي جهة شروق الشمس وتنطبق التسميتان (الشمالي او الغربي) على الباب المعظم وفقا لذلك .

(١٦) لم يكن الكاتب دقيقا من الناحية التاريخية لأنه ليس من الباحثين ، فقد انشيء هذا السور في زمن الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة (٦١٨) هجرية كما تدل على ذلك الكتابة التي كانت على موضع من احد ابواب السور المسمى ب (باب الطلسم) وقيل ان تاسيسه يسبق ذلك بزمن غير يسير وان الخليفة الناصر انشأ بعض اقسامه وبالاخص ابوابه !! وعلى كل حال فان السور لم يكن في زمن ابي جعفر المنصور بل ولم تكن الرصافة معروفة في زمنه ، فاول ما بني من بغداد الجانب الغربي ومن بعده بنيت الرصافة . وقد هدمه الوالي مدحت باشا بدافع عدم فائدته ولاجل توسيع بغداد ..

وما كان للسور اثر او معالم ظاهرة في بغداد سوى ابوابه الاربعة وضلعي القلعة الخارجيين من جهة المجيدية (المستشفى الجمهوري ومدينة الطب) ومن جهة دجلة باعتبارهما من السور لانه كان متصلا بهما وكذا ضلعي الدباغخانة اي من الباب الشرقي الى دجلة ومن هناك ينعطف على زاوية قائمة بامتداد النهر الى شريعة القناهرة وبعض الاسس في محال اخرى متفرقة.. اما الآن فلم يبق من هذا وذاك سوى الباب الوسطاني القريب من مقبرة الشيخ عمر السهروردي وجامعه ..

(١٧) وذكر ايضا السيد محمد رؤوف الشيخلي في مذكراته مثل ذلك فقال : وكان يوجد في بغداد من العربات الخصوصية ثلاث او اربع عربات فقط وهي : عربة النقيب وعربة ابن جميل وعربة الوالي وعربة نصرت باشا مفتش الجيش .

وكان لبعض القناصل عربات ذات دولابين فقط ويجرها حصان واحد ويجلس فيها القنصل وهو سائقها وبجانبه زوجته فيخرجون للنزهة الى الباب الشرقي ثم يعودون من حيث أتوا ..

(١٨) تقع بحيرة « وان » في تركيا الشرقية بين جبال طوروس، وعلى ضفتها الشرقية تقع مدينة « وان » المشهورة ببساتينها وتنوع ثمارها .

(١٩) سميت علوة المخضرات التي وقع فيها هذا الحريق الهائل بـ « خان النفط » بعد خزن صفائح النفط فيها وذكر السيد عبدالكريم العلاف في « بغداد القديمة » هذا الحريق بالتفصيل فقال : وفي مساء يوم السبت ٢٢ جمادي الأولى سنة ١٣٣٠هـ ويقابلها سنة ١٩١٢م ايام الوالي جمال باشا حدث حريق هائل في بغداد بخان النفط الواقع في محلة العوينة العائد الى السيد محمد السيد محسن آل العطار وهم من السادة الحسينيين المعروفين في بغداد ودام هذا الحريق الى يوم ٣٠ من الشهر اي الى يوم السبت وكان ما التهمته النيران يربو على ثلاثة عشر الف صندوقا من النفط ومائتين وخمسين صندوقا من الكحول (اسبرتو) ومائتين صندوقا من البانزين ، وقد كنا نشاهد صفائح النفط تتطاير بعد الانفجار في الجو ، وهذا اعظم حريق في بغداد عرفته الحكومة العثمانية .. ولعل هذا الحريق اول حريق في بغداد وعقبه حريق ثان هو الذي ذكره صاحب المذكرات لاختلاف الروايتين في تاريخ وقوعه وكمية الخسائر وان اتحد المكان في كلا الروايتين

أن حدثنا في علوة المخضرات التي هي خان النفط في محلة العوينة في بغداد .. ورواية الصلاف هذه تطابق ما اورده الاستاذ عباس العزاوي في تاريخه ج ٨ ص ٢٣٠ .

(٢٠) ورد اسم المجلة « فتاة العرب » في كتاب «اول الطريق» لمؤلفته صبيحة الشيخ داود ، حيث ذكرت فيه : « أصدرت السيدة مريم نرمه مجلة « فتاة العرب » في ٦ أيار ١٩٢٧ ، وهي (مجلة أدبية نسائية اجتماعية غايتها خدمة الفتاة العراقية) . وكانت السيدة نرمة في طليعة الكاتبات اللواتي ساهمن في معالجة الشؤون الاخلاقية والاجتماعية في الصحافة على عهد الثورة العراقية ، الا انها لم تصدر مجلة باسمها قبل سنة ١٩٢٧ ..

ولدت السيدة مريم نرمة في بغداد في ٢ نيسان ١٨٩٠م، ووالدها المرحوم روفائيل يوسف رومايا ، ولقبت باسم « نرمه » وهي كلمة كلدانية فارسية ومعناها « لطيفة » وقد اقيم لها في ١٩ مايس ١٩٤٥م احتفال تكريمي بمناسبة ذكرى اليوبيل الفضي لمشاركتها في النشاط الادبي عن طريق الصحافة ، وكان عزم نرمة معقودا على اصدار مجلة باسم « فتاة العراق » عدلت عنها الى « فتاة العرب » بعد أن صدرت مجلة تحمل نفس العنوان (وكانت صاحبة امتيازها حسيبة قاسم راجي) . وقد عاشت « فتاة العرب » ستة اشهر واضطرت صاحبتها الى ايقافها بسبب الخسران المادي الذي لحقها ، وقالت : انه بلغ ٥) ليرة ذهبا ...

(٢١) كان ذلك بمناسبة العيد المئوي للصحافة العراقية (١٨٦٩ ـ ١٩٦٩) والذي دعت الى الاحتفال به وزارة الثقافة والاعلام لتكريم اولئك الذين وضعوا اللبنات الاولى في صرح الصحافة في القطر العراقي ومنهم السيدة مريم نرمة وقد شاركت في هذا الاحتفال ، وقد صدرت بالمناسبة كراس عن لجنة الاحتفال يعرف بهذه الصحيفة ويترجم حياتها بسطور * اسمها الكامل « مريم نرمه » . عمرها ٧٩ عاما .. ولدت في بغداد .. ثم انتقلت الى البصرة .. وعادت الى بغداد حيث لا زالت تعيش الان .. انها عراقية .. عربية .. بدأت اول كتاباتها الصحفية في الاول من ايار سنة ١٩٢١ . وذلك في مجلة « دار السلام » الادبية التي كان يصدرها المرحوم الاب انستاس الكرملي .. وكان عنوان المقال : « ثقفوا أولادكم وبناتكم لمكافحة الاستعمار » .. ثم نشرت سلسلة من المقالات والمواضيع في صحف عراقية عديدة كان منها : جريدة « العالم العربي » ومجلة « الصباح » وجريدة « الأحد » وغيرها .. ناقشت الكثير من الكتاب العالميين في أمور وطنية واجتماعية .. فقد ناقشت « الفرد كروس » الاستاذ بجامعة كاليفورنيا بامريكا وهاجمته لانه هاجم المراة العربية في مقالات نشرها في الصحف الامريكية .. وفي سنة ١٩٢٧ اصدرت جريدة « فتاة العرب » وجعلت شعارها « بلاد العرب للعرب » !! ورغم كل كتاباتها عن المراة ووجوب تثقيفها وتحررها فانها هي نفسها كانت محجبة حتى الى ما قبل بضع سنوات !! ..

وآخر ما قالته في عيد الصحافة هذا : « انني جدا سعيدة لأن تأتي حكومة وطنية ولاول مرة في تاريخ عراقنا الحبيب لتعطي الصحافة حقها .. وتحتفل بعيدها .. انها امنية غالية كانت تعتمل في صدري .. وفق الله العاملين للخير والصفاء .. !!

(٢٢) انها توفيت بعد كاتب المذكرات بسنوات .. في حدود سنة ١٩٧٣ والكاتب توفي في ٦ مايس ١٩٧١ ..

(٢٣) انظر ترجمته بتوسع وتفصيل فيما يلي : ١ ـ اعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث : مير بصري . الدليل العراقي لسنة ١٩٣٦ . ٣ ـ الرسالة الاسلامية ـ مجلة ديوان الاوقاف في العراق / العددان : ٧٠ و ٧١ ص ٦٤ . ٤ ـ الدكتور داود الجلبي حياته ومخطوطاته وخزانته : فيصل ديدوب .

(٢٤) بلغت الكتب عند انضمام مكتبة الدكتور داود الجلبي الى خزائن مكتبة الاوقاف في الموصل من المخطوطات (٢٠٩) ومن المطبوعات (٧١٤٤) ..

(٢٥) انشئت مكتبة داود الجلبي عملا بوصيته لتكون مكتبة عامة في الموصل تضم كتبه ومخطوطاته .. وتم تشييدها وافتتحت في حزيران سنة ١٩٦٨ .. وظلت تزاول هذه المكتبة عملها في خدمة المواطنين حتى انضمت خزانتها الى مكتبة الاوقاف العامة في الموصل في مايس سنة ١٩٧٣ .. وبيعت قسم من هذه الكتب الى مكتبة المتحف العراقي في بغداد من قبل ورثته ..

(٢٦) هو الدكتور داود بن محمد سليم بن احمد بن محمد الجلبي الموصلي .. ولد في الموصل في ١٦ كانون الاول سنة ١٨٧٩م/١٢٩٧هـ .

(٢٧) وهذه تاليفه على سبيل الحصر : مخطوطات الموصل (١٩٧٢) ، كتاب الطبيخ لمحمد بن الحسن الكاتب البغدادي (حققه ونشره سنة ١٩٣٤) ، الآثار الارامية في لغة الموصل العامية (١٩٣٥) ، اقتراح وهو بحث موسع مرفوع الى مجمع اللغة العربية في القاهرة عن تيسير القراءة والكتابة العربية (١٩٤٤) ، كلمات فارسية مستعملة في عامية الموصل (١٩٦٠) ، قاموس فرنسي عربي للاصطلاحات الطبية الخاصة بامراض الجلد (١٩٤٦) ، الفنديداد ـ وهو من كتب المجوس المقدسة ـ ترجمه عن اللغة الفرنسية (١٩٥٢) الطبيب محمد بن زكريا الرازي (١٩٤٨) ، الموصل ـ مجموعة محاضرات ـ (١٩٤٩) .. وله عدا ذلك مقالات وبحوث كثيرة نشر معظمها في مجلة لغة العرب والمقتطف ومجلات المجامع العلمية في دمشق وبغداد والقاهرة ومجلة غرفة تجارة بغداد .. وكان داود الجلبي فيما كتب عالما واسع الافاق ، دؤوبا على العمل ، حريصا على تنظيم وقته ، حتى شملت بحوثه وكتاباته مواضيع متعددة في شتى ميادين العلم والمعرفة ..

كشاف المراجع

١ ـ البغداديون : ابراهيم الدروبي .

٢ ـ بغداد القديمة : عبدالكريم العلاف .

٣ ـ دليل خارطة بغداد : الدكتور مصطفى جواد واحمد سوسة .

٤ ـ تاريخ بغداد : سليمان فائق ترجمة موسى كاظم نورس.

٥ ـ قلم وزير : من آثار ابراهيم صالح شكر تعليق خالد محسن اسماعيل .

٦ ـ مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها : السيد محمد رؤوف الشيخلي .

٧ ـ لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ـ الدكتور علي الوردي .

٨ ـ تاريخ العراق بين احتلالين : الاستاذ عباس العزاوي .

٩ ـ آفاق عربية العدد / ١٠ / حزيران / ١٩٧٩ . محلات بغداد لجمال بابان .

١٠ ـ لب الألباب : محمد صالح السهروردي .

١١ ـ مكتبة الاوقاف العامة تاريخها ونوادر مخطوطاتها : عبدالله الجبوري .

١٢ ـ تاريخ مساجد بغداد : محمود شكري الالوسي العلامة

١٣ ـ روضة الناظرين وخلاصة مناقب الصالحين : الشيخ محمد بن احمد الوتري .

١٤ ـ المنجد في الأدب والعلوم : فردينان توتل .

١٥ ـ أول الطريق : صبيحة الشيخ داود .

١٦ ـ كراس بمناسبة العيد المئوي للصحافة العراقية (١٨٦٩ ـ ١٩٦٩) صادر عن وزارة الثقافة والاعلام .

١٧ ـ اعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث : مير بصري.

١٨ ـ مجلة الرسالة الاسلامية / العددان : ٧٠ و ٧١ .

١٩ ـ الدكتور داود الجلبي حياته ومخطوطاته وخزانته : فيصل دبدوب .

٢٠ ـ الدليل العراقي لسنة ١٩٣٦ .

بغداد من خلال المقامات

صبيح صادق

القسم الثقافي ـ جريدة الجمهورية ـ بغداد

هذا البحث محاولة لاستشفاف الملامح العامة عن بغداد من خلال نصوص المقامات التي دارت احداثها فيها او قيلت حولها .. ولا يتوقع القارىء اكثر من ذلك .. فخطة هذا البحث هي جمع كل المقامات التي قيلت في بغداد واستخلاص المعالم الاجتماعية والاقتصادية وسواهما من المتفرقات التي تخص الحياة البغدادية في بحث مستقل يمتد من القرن الرابع الهجري القرن العاشر الميلادي حتى القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي .

وبصورة عامة فان قلة عدد المقامات قد سببت إرباكا في هذا الموضوع لتوفر نصوص عديدة في جانب من الجوانب وعدم توفرها في جانب آخر . ولم تكن جميع المقامات قد تحدثت عن بغداد فهناك من المقامات ما لم تكن لها علاقة ببغداد مثل مقامات الزمخشري والسيوطي وابن الوردي وغيرها .. ولكن المقامات المهمة مثل مقامات الهمداني والحريري والكازروني وغيرها تحدثت عنها . نعني مقامات الهمداني والحريري عدة مقامات منهما جرت احداثها في بغداد . ووردت في مقامات ابن ناقيا وابن ماري مقامتين في كل منهما جرتا في بغداد . وجاءت مقامات الكازروني والآلوسي كلها عن بغداد . بينما خصص الجزري مقامة واحدة عن بغداد ..

قسّم هذا البحث الى عدة اقسام ، فالقسم الاول يتحدث عن المواسم الاجتماعية والدينية كما صوّرتها المقامات ، ثم القسم الثاني عن الحالة الاقتصادية في بغداد . وفي القسم الثالث جوانب متفرقة مثل انطباعات اصحاب المقامات عن بغداد واهلها والوان الطعام والشراب عندهم والتعامل في السوق وبعض الفصول حول الحوادث التاريخية وغيرها ...

تم ترتيب النصوص حسب التدرج الزمني لصاحبها .. وفي احيان كثيرة قد يكون هناك نص واحد فقط او نصين يبتعد احدهما بعدة قرون عن الآخر .

من الملاحظات المهمة حول المقامات انها ظهرت ابان انحلال الدولة العربية الاسلامية سياسيا ، اي ان بغداد كانت في بداية اضمحلال حضارتها ولهذا جاءت الكثير من مظاهرها وصف لحالة التدهور الذي تعيشه وليس وصف لحالة التمدن التي شهدتها بغداد ..

والمقامات التي عثرنا فيها على مادة الموضوع هي :

(١) مقامات بديع الزمان الهمداني المتوفى عام ٣٩٨هـ/١٠٠٨م وقد طبعت طبعات عدة .

(٢) مقامات ابن ناقيا (عبدالله بن محمد) المتوفى عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م المطبوعة في استانبول ـ مطبعة احمد كامل ـ سنة ١٣٣٠هـ .

(٣) مقامات الحريري المتوفى عام ٥١٦هـ/١١٢٢م المطبوعة طبعات عدة .

(٤) مقامات ابن ماري/يحيى بن سعيد [المعروفة باسم المقامات المسيحية] المتوفى عام ٥٨٦هـ . وهي مخطوطة في مكتبة المتحف العراقي برقم ٣٢٠ ، وقد ورد نص المقامتين بعد هذا البحث .

(٥) مقامات الكازروني علي بن محمد المتوفى عام ٦٩٧هـ/١٢٩٨م بتحقيق الاستاذين كوركيس عواد وميخائيل عواد . مطبعة الارشاد بغداد ـ ١٩٦٢ .

(٦) مقامات ابن الصيقل الجزري المتوفى عام ٧٠١هـ/١٣٠١م بتحقيق الدكتور عباس مصطفى

الصالحي (رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة في المكتبة المركزية – جامعة بغداد .)

(٧) مقامات الآلوسي محمود بن عبدالله الحسيني المتوفى عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م المطبعة الحجرية في كربلاء . سنة ١٢٧٣هـ .

(٨) مقامات ناصيف اليازجي (مجمع البحرين) المتوفى عام ١٢٨٧هـ/١٨٧١م المكتبة التجارية بيروت .

المواسم الاجتماعية والدينية

كان الكازروني (القرن الرابع الهجري) اكثر اصحاب المقامات وصفا للمواسم في بغداد مثل مواسم رمضان والعيد والحج والربيع والترب وغيرها . والنصوص التي تم جمعها حول هذا الموضوع تعود الى القرن السابع الهجري – اي عصر الكازروني – وهي فترة مهمة من حياة بغداد لسقوطها بايدي المغول ، ومصادر هذه الفترة اقل بكثير من المصادر التي تؤرخ للفترة السابقة عليها ، ولهذا يمكن اضافة هذه النصوص الى نصوص كتب التاريخ في وصف بغداد .

شهر رمضان

يصف الكازروني ما يحدث ببغداد في شهر رمضان حيث توزع الهدايا في ايامه الاولى على العلماء والمتصوفة والنبلاء ، وفي وقت الفطور من كل يوم كان الافطار يوزع على كل محتاج ، يقول الكازروني :

« ... شهر الصيام ، المختص بالعبادة والقيام ، المفتتح بالصدقات ، المنوّر الليالي بالصلوات ، ففي اول يوم منه يُفيضَ على العلماء والمتصوفة والنبلاء من بِدَر الانعام وبُدن الانعام ، ما يجاوز حد الاكثار . ويُغني وقت الافطار ، ثم تفتح آدُر المضيف للصوام والفقراء والايتام فلا يبقى من لا يشمله الانعام ويحصل له القوت في الصيام . وما من الملوك الا من عليه راتب ، وكذلك الصدور واصحاب المراتب يُفطر على اطباقهم الاماثل ، واطايب الالوان تصل الى الفقير والسائل » .

ثم ينتقل الى وصف ليالي شهر رمضان حيث توقد المصابيح وينشغل الناس بالصلوات او بقضاء اوقاتهم في السمر حتى وقت العشاء . ويقرأ آخرون القرآن . يقول الكازروني :

« ولياليه مشرقة بالمصابيح ، والمساجد منيرة بالصلوات والتراويح والصوام ملتهية بالملاذ والغناء والفرح الى منتهى وقت العشاء ثم تُرفع قناديل السحر وتتناغى شحارير التذكير وايامه كلها عبادة واوقاته طاعة وزيادة » .

ثم يصف عادة توزيع الهدايا قبل حلول عيد الفطر حيث يتم توزيعها على الجميع ..

« فاذا بقي من الشهر اربع ليال وعاد جديده كالأسمال ، خلع المخزن تشريفات الخليفة على صدور الدولة الشريفة ثم بعده الملوك وارباب المراتب والسادة و'لده الاطايب حتى يصل الانعام الى الخاص والعام فقلّ من لا ينال منها نصيباً وفي البعيد من لا يكون منها قريبا . »

موسم العيد

وصفت مقامة الكازروني (القرن السابع الهجري) موسم العيد في بغداد والتهيوء له ، وكان نفسه – اي الكازروني – معجباً بمظاهر العيد في بغداد ، فقال :

« يتهيأ الناس للعيد المشهود والمجمع المحشود الذي تكلُّ عن حسن وصفه السنة البلغاء وتعجز عن ادراك وصفه عقول الالباء فلا ينتهي الى نعته قول قائل ولا يصل الى مثله الاواخر ولا الاوائل ، ولا رُئي لأحد من الملوك ما يناسبه ولا حكي ان لهم مثله او ما يقاربه » .

ثم يصف الاحتفال الرسمي بهذه المناسبة والاحتفال الشعبي فيها :

يقول :

« يباكر اليه في احسن زينة ولباس ويجتمع لرؤية الموكب اكثر الناس ، ثم يجلس الخليفة في داره ويعرض الموكب بأهله وصفاره ، والملوك في احسن زينة وابهى حلية ، واعظم سكينة ، فلا يزال الموكب والعساكر تجري كالسيل في جمع كنجوم الليل ، كذلك ثلاثة ايام حتى ينقضي منقضاه ، ويصل آخره ومنتهاه وقد تكاملت للعالم المسارّ في آناء الليل والنهار ، فان كان الاضحى نحر الخليفة في ابوابه ، وكذلك اهل بلده ، رغبة في ثوابه فيمتار الفقراء ويؤجر الاغنياء ».

موسم الربيع

كان اهل بغداد يخرجون في الربيع الى الحدائق والبساتين والانهار ويقضون اوقاتهم هناك بين الغناء والموسيقى .. وقد وصف الكازروني (القرن الخامس الهجري) خروج اهل بغداد في الربيع فقال في مقامته :

« وامازمان الربيع ، وايام الوشي البديع فانهم كانوا يصطحبون ويتجمعون وينثالون » كانهم الى نُصب يوفضون » فينزلون الجواري في رهط من الجواري ، ويدخلون نهر عيسى ويباكرون نحو قصده تغليسا . فيجتمعون بالمحوّل اذ عليه في الحسن المعوّل فيخترفون اشجاره ويقطفون ثماره ونوّاره ، ويفترشون رياضه وازهاره وينزلون غيطانه وانهاره . ثم تعزف القيان وتصطخب العيدان وتصفق الغدران وترقص الاغصان وتميد الافنان وكلما دسع الراووق طاب المنوق وكلما بكى السحاب ضحك الحبّاب . وكلما طرب العود زمجرت الرعود وقد انتظموا في سلك الراحة واجتمعوا للاستراحة ، كذلك اياماً لايطعمون مناما . »

ثم يتحول الكازروني الى وصف ما آلت اليه بعد ذلك :

« الا انهم انتهكوا المحارم وارتكبوا المآثم واصروا على الفجور وسفك الخمور ، ولاجرم ان العرش اهتز غضبا ، وسُعّرت جهنم حصباً ؛ وازدادت لهبا ؛ فاخذهم الله تعالى اليه « اخذ عزيز مُقتدر » « ولقد تركناها آية فهل من مدكّر » فأين الملك الباذخ والشرف الشامخ ذهبت واللّه الشهوات ، بقيت التبعات ، وخشمت الاصوات ، وسقيت الرفات من اعظم العظات ... »

موسم الحج

ذكر الكازروني (القرن السابع الهجري) موسم الخروج للحج في بغداد فوصف مغادرة الحجاج بغداد وكيف يتم الاحتفال بهذه المناسبة على ضفاف دجلة ويكتظ الناس للمشاهدة ..

يقول الكازروني

« .. منها موسم الحاج وهو اعظم مواسم السنة التي تكل عن وصف حسنه الالسنة ، وتفتح فيه آذار المضيف لكل بائس من الحاج وضعيف ، وتضرب على دجلة الحياض والروايا ويؤذن بالحج في سائر الرعايا . ثم يهرع الناس الى الفرجة على التبريز في حلل الابريز ما بين فتى وفتاه وشاب قد فتن بحسنه فتاه . يرتفعون في رياض الجانب الغربي ما بين ماشٍ او ممتطٍ صهوة عربي فلا يزالون كذلك اياما يمرحون وحدانا وفناما (الجماعة من الناس) والسبل تجلى في المواكب الى الخيام وتُزف الى منازلها بالعبيد والخدام . فاول مايقدمها العلم وهو محمل الخاص وبعده الكوس وجند السفر ، والنوبة المكية في الاثر تتهادى بين الحجاب والدعاة ، والقراء في احسن الصفات ، ثم يتوالى في كل يوم سبيل بعد سبيل ورَحْل كل جهة محمل جميل ، حتى ينتهي خروج الحاج المجتمعين في الفجاج، فيخلع على الامير ويُكلّل ، ويُنعّم عليه ثم يُحمل ، فيخرج من ساعته ويدخل الحاج في طاعته . »

ثم يصف الكازروني بعد ذلك عودتهم بقوله :

« فاذا رجعوا سالمين فهو موسم ثانٍ للمتفرجين ، يُفض فيه من التشريفات على الحاشية والولاة مايدهش الناظر ويجلو النواظر . ومامنهم الا من قد يَخْنَخ بسلامة اهله مرحبين (بما اتاهم الله من فضله) » .

التنــزه

اعتاد اهل بغداد التنزه في العديد من الاماكن ، وقد وصفت المقامات تنزه اهل بغداد فيتحدث الهمداني (القرن الرابع الهجري) في مقامته القردية على لسان عيسى بن هشام اذ يقول :

بينا انا « على شاطىء الدجلة ، اتامل تلك الطرائف واتقصى تلك الزخارف ، اذ انتهيت الى حلقة رجال مزدحمين يلوي الطرب اعناقهم ويشق الضحك اشداقهم فساقني الحرص الى ما ساقهم حتى وقفت بمسمع صوت رجل دون مراى وجهه لشدة الهجمة وفرط الزحمة فاذا هو قرّاد يرقص قرده ويضحك من عنده .. »

وهذا النص يوضح هواية أهل بغداد بالتنزه على نهر دجلة وان بعض الناس كانوا يقومون ببعض الفعاليات كما هو الحال بالنسبة للقراد الذي يجتمع الناس عنده للترفيه والضحك ، وهذه القصة وان كانت من اختراع الهمداني الا انه يبدو انها كانت شيئاً عادياً آنذاك .

وفي القرن السابع الهجري وصف الكازروني خروج الناس للتنزه الى الحدائق والبساتين فقال :

« على ان الايام كلها كانت تمضي افراحاً ومواسم يرتاح اليها الناس ارتياحاً ففي كل سبت عيد جديد وموسم سعيد يخرج الناس الى الرياض والازاهير لسماع اصوات الشحارير والغلمان كالولدان والجواري كالحور الحسان ما بين اهيف واحور واكحل واغيد واعطر .

في البدر من وجنته نكتة
وفترة في العين من طرفه
اذا مشى جاذبه ردفه
كأنه يمشي الى خلفه

وطفلة تكامل شبابها وطاب عرفها وعذب رضابها ترمي عن قسي الحواجب بسهام الغنج الصوائب .

وتنال منك بحد مقلتها
ما لا تنال بحدها النصل
واذا نظرت الى محاسنها
فلكل موضع نظرة نبل

والناس في ارغد عيش واطيب زمان واعدل وقت واصفى اوان » .

موسم زيارة القبور

من المواسم التي سجلتها المقامات موسم زيارة القبور الذي تتم فيه مراسيم خاصة للترحم على الموتى بقراءة القرآن وايقاد الشموع وتوزيع الطعام والحلوى .

يقول الكازروني (القرن السابع الهجري) :

ومنها موسم الترب ، واليها المنقلب . فيركب الوزير في ارباب الدولة والامراء والصدور والكبراء ، في موكب مشهر الى الرصافة ، وهي مدفن ولاة الخلافة فيجتمعون بها للقراءة والدعاء واهداء الثواب للخلفاء كذلك اياماً يشرق فيها ويغرب . وقراء المواكب تشوق وتطرب فاذا كان الليل اجتمع المتصوفة والفقهاء ، واوقدت الشموع وقرأ القراء وشرع الوعاظ في الكلام والاحياء الى آخر الظلام فاذا اسفر الصباح وبادر المؤذن بالفلاح ، فض على المذكورين من الحلواء واطايب الطعام والغذاء ما يستغرق حد الاكثار ويعم ذوي الاقتار . »

حالة التعليم

لم نعثر على نصوص كثيرة حول طبيعة التعليم من خلال المقامات باستثناء اشارتين وردت الاولى في مقامات يحيى بن سعيد والثانية في مقامات الآلوسي .

في مقامات يحيى بن سعيد (القرن السادس الهجري) انتقاد للتعليم في مجال الطب حيث ورد في المقامة الخمسين التي تعرف بالداربة على لسان احد اساتذة الطب عندما ناقشه الراوية يحيى بن سلام فيقول له الاستاذ :

« اقتصروا من العلم على جس العرق بغير عرفان . ومن القارورة على الاصباغ والالوان وحوت نجوم اسرار جالينوس وبقراط . وروهت عقود اراء افلاطون وسقراط . وصار من كبر العصبة وكثر العصبة . يوما اليه بمفرج الغمم . ومحي الرمم . تالله ان تلك العمائم على عقول البهائم ما حوت قشب الملابس والبرانس غير افهام الانعام النسانس لو سألت احدهم مسئلة رايت ارضاً ممحلة ووجوها معبسة واموراً ملتبسة ، ثم انشد :

يتمقون احاديثاً لمكتسب
وفي السؤلات يبدون المعاذيرا
وهل ينال علوما جل موقعها
الا فتى جد تلقينا وتكريرا
واتلف النفس تدريساً اناط به
ركضاً الى العلم حتى اذهب الزبرا

ومن هذا النص يتوضح ان دراسة الطب اخذت تتدهور إن صح ما يقوله صاحب المقامة !

اما الآلوسي (القرن الثالث عشر الهجري) (التاسع عشر الميلادي) فقد وصف طبيعة تعليمه هو ؛ ومن خلاله يتوضح طبيعة تعليم الافراد آنذاك فقال :

« قرات على ابي علم النحو وطرفا من فقه الشافعية والفرائض وكان لي لزيد شفقتــه ومضاعف رافتــه بمنزلة الف رآلف ثم قرات على زيد وعمــرو ممن في مصري من علماء المصر » .

وفي مقامات ناصيف اليازجي (القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي) جاء في المقامة البغدادية :

« دخلت يــوماً بعض المدارس وإذا شيخنا الخزامي هناك جالس . والطلبة قد اقبلوا عليــه ، واحدقوا به واليــه . فسلمت عليــه تسليم المشــوق ، وابتهجت به ابتهــاج العاشــق بلقاء المشــوق . وجلسنا نتشاكى النــوى ونتباكي للجوى واذا امراة تنادي يا شاري اللبن الرخيص الثمن . وهي في اثنــاء الكلام تتلاعب في الاعراب على الثلاثــة الاحكام ... قال : والشــيخ بين ذلك يقلب وجهه في الســماء ويقول سبحان من علم آدم الاسمــاء ... قال : وما فرغ الشيخ من الكلام حتى ابتدر القيــام . فتعلقوا به وقالوا : لات حين مناص فان دواء الشقّ ان يحاص . ولقــد اتيتَ حيث ايِّس فلا تذهب من حيث ليس . فعاد الى المقام وقال صبراً : على مجامر الكرام . ثم اندفع في شرحــه كالينبوب حتى ملأ العيــون . ولما قضى الوطر نهض على الاثر فقام القوم يودعونه وهــم يودون لو يتبعونه ... » الخ .

الحالة الاقتصادية

ظهرت المقامات في القرن الرابــع الهجري/العاشر الميلادي اي في عصر الانهيــار السيــاسي لبغداد فتبع ذلك تدهــور اقتصادي واضح حيث تركزت الثروة بيد فئة معينة ، بينما عاشت الطبقة العامة في فقر وحرمان ، واذا ما عرفنا ان المقامات وبالذات مقامتي الهمداني والحريري قــد الفتا لغرض الكدية والحيلة في الحصول على المال الضح مدى اثر التدهور الاقتصادي في كتابة المقامات .

لقد صورت المقامات حالة الفقراء والمتسولين بشكل دقيق ووصفت الاساليب التي يتبعونها في الحصول على قوتهم ، وهي وان كانت قصصاً ادبية إلاّ انها تعكس وقائع حالــة بغــداد وانهيارها الاقتصادي آنذاك .

ففي القرن الرابع الهجري يضــع الهمداني مقامة باسم المقامة (المجاعية) وهي انعكاس للفقر والمجاعة آنذاك . يقول عيسى بن هشام :

« كنت ببغداد عــام مجاعة فملت الى جماعة قــد ضمَّهُم سِمْط الثريا . اطلب منهم شيا ... »

ثم يلتقي بغلام فيقول له :

« حالان لا يفلح صاحبهما : فقير كدّه الجوع وغريب لا يمكنه الرجوع فقــال الغلام : اي الثلمتين تتقدَّم سدُّها ؟

قلت : الجوع فقد بلغ مني مبلغا .

فيصف الغلام لعيسى بن هشام ثلاثة اشياء الاولى طعام والثانيــة شراب والثالثــة مجلس مريح) .

« قال عيسى بن هشام . قلت : انــا عبد الثلاثة .

فقال الغلام : وانا خادمهــا لو كانت .

فقلت : لا حياك الله احييت شهوات قد كان الياس اماتها ثم قبضت لهاتها فمن اي الخرابات انت .

فقال :

انا من ذوي الاسكندريــة
من نبعــة فيهم زكيــة
سخف الزمــان واهلــه
فركبت من سخف مطيــة

وهذه المقامة لا تحتاج الى تعليق في بيــان انتشار الجوع فعيسى بن هشام الذي يتوقــع ان الغلام (ابو الفتح الاسكندري) سيقدم له الطعام والشراب واذا به فقير مثله ! وهذه القطعــة وان كانت اقرب الى الطرفة ولكنها تعكس حالــة من الحالات التي عانتها بغداد .

ويحدثنــا الهمداني كــذلك في مقامتــه (الازازية) عن حيلة طريفة وفيها وصف للحاجــة الى الطعام جاء فيها :

حدثنــا عيسى بن هشــام قال ..
« اخذت عيناي رجلاً قد لف راســه ببرقع حياء ونصب جسده وبسط يــده واحتضن عياله ، وتابط اطفاله ، وهــو يقول بصوت يدفع الضعف في صــدره والمرض في ظهره .

ويلي على كفين من سويق
او شحمة تضربُ بالدقيق

او قصعة تملأ من خردبق
يفثأ عنا سطوات الريق
يقيمنا عن منهج الطريق
يا رازق الثروة بعد الضيق
سهّل على كفّ فتى لبيق
ذي نسب في مجده عريق

(ثم يميط لثامه فاذا به ابو الفتح الاسكندري) .

وفي المقامة (العراقية) يصف الهمداني حالة متسول شاب حزين يسأل الناس ..

« حدثنا عيسى بن هشام قال : طفت الآفاق حتى بلغت العراق ... واصلتني بغداد فبينما انا على الشط اذ عنّ لي فتىً في اطمار يسأل الناس ويحرمونه » .

واذا به ابو الفتح الاسكندري .

تدل هذه المقامة على انتشار عادة التسول حتى بين الشباب !

اما الحريري (القرن الخامس الهجري) فقد جاءت مقاماته في هذا المجال مشابهة لمقامات الهمداني وقد صورت حالة البؤس اكثر مما صورته مقامات الهمداني .. ففي المقامة البغدادية للحريري نلاحظ فقيراً يتمنى الموت .. ولا هم له سوى الحصول على لقمة تشبعه وكساء يغطي جسمه ..

جاء في هذه المقامة عندما تأتي عجوز الى مجلس فيه الحارث بن همام فتصف حالة فقرها بما يلي :

« فحبذا الموت الاحمر وتلوى من ترون عينه فراره (مثل يضرب لمن يدل ظاهره على باطنه) .

- وترجمانه اصفراره (اي تبيانه اصفراره) .
- قصوى بغية احدهم ثردة (اي نهاية ما يبتغيه احدهم ثريد) .
- وقصارى إمنيته بردة (اي منتهى ما يتمناه كساء يلبسه) .

ثم تبدأ هذه العجوز بالانشاد فتقول هذه المقطوعة المركزة حول حالتها الفقيرة التي تدفعها لقول القريض ابلاً في شيء من الطعام :

يا رازق النعّاب في عشه
وجابر العظم الكسير المهيض
اتح لنا اللهم من عرضه
من دنس الذم نقي رحيض
يطفىء نار الجوع عنا ولو
بمذقة من حازر او مخيض
فهل فتى يكشف ما نابهم
ويغنم الشكر الطويل العريض
فوالذي تعنو النواصي له
يوم وجوه الجمع سود وبيض
لولاهم لم تبد لي صفحة
ولا تصديت لنظم القريض

وفي نهاية القصة يظهر ان هذه العجوز هو ابو زيد . وهذه المقامة وان كانت تدل على حيلة طريفة ولكنها تعكس حالة التردي في المستوى المعاشي آنذاك .

وفي القرن السادس الهجري كتب يحيى بن سعيد المعروف بابن ماري في مقامته الثانية عشرة وردت فيها قصة رجل يدخل المستشفى وهو شحيح البدن وعندما يسأله احد اصدقائه بقوله :

« ما الذي دعاك الى هذا المقام والتردي برداء السقام وانت صحيح البدن طليق الرسن لا مانع لك عن سجن .

فقال :

لست من تذهب عليه الغلوطة وما عقالك بانشوطة لولا غريم كدّني تقاضيه ولم اجد ما يرضيه ما النجاة بهذه البقعة مع سعة الرقعة وها انا اكل اطايب ما بصنعه الطاهي ما يفاخر كسرى ويباهي من غير مشقة ولا تحفز لتعب وانشد :

نيل من زمانك ادنى
صفو ولو بالجنون
ان المكاسب شتى
والناس فيها فنون

والقصة واضحة في ان سبب دخوله المستشفى هو للحصول على الطعام مجانا . وهنا لابد ان نشير الى ملاحظة مهمة هي بالرغم من الانهيار السياسي والاقتصادي فان التقدم العلمي

كان لا يزال مزدهراً بدليل العناية التي يلاقيهـــا المرضى في المستشفيات ..

وفي القرن السابع الهجري كتب ابن الصيقل الجزري في مقامته البغدادية حيث يقول احدهم للآخر حول ما يعانيه :

ولما وردت هذا القليب (البئر) واردت في متجر الندامة التقليب ، بادرت لابُلَّ غلتي وابِل . من مرض هاتيك عِللَني فشغلتُ لوجود الالتياح (الجوع) وعدم الارتياح .. »

وبالرغم من ان ابن الصقيل الجزري في مقامته كان يركـز على اللفظ اكثر من الحادثــة إلا ان الشكوى من الجوع تعكس هذه الظاهرة آنذاك .

كدية اصحاب العلم

حاولت المقامات ابراز اهل الكدية من العلماء واهل المعرفة والادب اضطرتهم سوء حالتهم المادية الى الحيلة والكدية . وهي نتيجة طبيعية لاختلال التوازن الاقتصادي وسوء توزيع الثروة . وقـد ابرزت المقامات هؤلاء بانهـم من ذوي المكانـــة في المجتمع ثم دار الزمن دورته كي ينزلهم من عليائهم . وهي بذلك تعبر عن استياء اصحاب المقامات من هذه الظاهرة التي استشرت آنذاك .

ففي مقامات الهمداني (القـرن الرابـع الهجري) مثال لهذه الحالة في المقامة المجاعية عندما يسأل عيسى بن هشام الشخص الذي يناقشـــه حول انواع الطعام (ابو الفتح الاسكندري) يقول له : من اي الخرابات انت فقال :

انا من ذوي الاسكندريـه
من نبعـــة فيهم زكيـــة
سخف الزمـان واهلـــه
فركبت من سخفي مطيـة

وفي مقامته الازاذية ينشـــد احد الفقـراء مقطوعة فيقول فيها :

سهلٌ على كفِّ فتى لبيق
ذي نسب في مجـده عريق

وهي اشارات واضحة ولا تحتاج الى تعليق .

وجاء في المقامة القردية حينما يســأل عيسى ابن هشام ابا الفتح الاسكندري عما اوصله للحالته في اشتاله قراداً ينشد ابو الفتح :

الذنب للايـــام لالـــي
فاعتب على صرف الليالي
بالحمــق ادركت المنـى
ورفلتُ في حُلل الجمال

وهنا يتضح ان ابا الفتح لم يرض هو نفسه عن اسلوبه إلا انه مضطر اليه اضطراراً بسبب فقره وهو يعترف ان عمله احمق ولكن لا سبيل للحصول على ما يريد ..

وفي القرن الخامس الهجري يتحدث ابن ناقيا في مقامته الرابعة عن متسول فيقول :

« حــدثني بعض الاصـدقاء النازلين بشرقي الزوراء قال انصت ليلة من الليالي وانا في نفـــر من العيال قد ضم جمعنـــا الطعام وايقظ مصباحنا الظلام الى سائل بالباب يتوخى بكلامـــه الاعـراب وينطق بلسان الاعراب ويعتمد على غريب اللفظ ويمزج سؤاله بالوعظ ... »

والعبـــارات الاخيرة تدل على ان المتســول شخص من اهل المعرفة والثقافة .. اضطره الفقر الى التسول ..

وما بين القرنين الخامس والسادس الهجريين كتب الحريري عن هذه الظاهرة فجاء في المقامـــة (البغدادية) عندما تأتي عجوز (ابو زيد بلبــاس امرأة) الى المجلس الذي فيه الحارث بن همـام فقالت :

« لاريتكم اولاً شعاري . ثم لاريتكم اشعاري . فابرزت رُدْنَ درعٍ دَرِيس . وبرزت برزةَ عجوزٍ دَرْدَبِيس وانشأت تقول :

اشـكو الى اللـــه اشتكاء المريض
ريب الزمــان المتعـدي البغيض
يا قــوم انى من اناس غنـــوا
دهراً وجفن الدهـر عنهم غضيض
فخارهـم ليس لـــه دافــع
وصيتهـم في ذا الورى مستفيض

(الى آخر المقطوعة ..)

ومن هذه المقامة نرى ان شاعراً قوياً ينتحل شخصية امرأة كي يحقق غرضه . والقصــة وان كانت تدور حول الحيلة إلا انها تدل على ان اهـل المعرفة والعلم لم يكونوا بمنزلة يحسدون عليها ..

وفي مقامته (الشعرية) يتحـدث عن شيخ شاعر يرفع الدعوى ضد غلام سرق قصيدته وبعد

ذلك يتضح انهما متفقان كي يحصلا من الوالي على الهدايا ..

وفي القرن السادس الهجري كتب يحيى بن سعيد في مقامته الخمسين حادثة عن طبيب لا يقبل عيادة مريض ، إلا انه يغير رأيه بسبب المال ، ويقوم بخدعة لاجل الاحتفاظ بالهدايا . تقول المقامة بعد ان يأتي غلام لاصطحاب الطبيب فيقول الطبيب :

« تالله ما ارحل حتى انحل . ولا اعود مريضاً ، دون ان اعطى عطاء عريضاً . ولا اعاني سقيماً ، حتى ارى امراً مستقيماً . فنقده الغلام بقرطاس ولم يبد وجه مكاس فحين قام امتزجت بديمه ودخلت دار السلطان مع خدمه . فلما مثل بحضرته ، والتحق بزمرته شاهد مدنفاً لم يبق منه الا تما بانفاس ، متصعدة ونفس مترددة فقال : هذا ما كنا فيه ادعى الى من لا يمكن تلافيه . ثم حل جلابا بماء الورد وسقاه فانتعش انتعاشة ظن انه شفاه فافرغت عليه إكياس النضار انواعا . وصار بينهم ملكاً مطاعا فمذ ايس انخداعهم نهض . وقال في غد ينقضي المرض . فقلت يا من يمد في العلم باعا . ورفع في الفضائل شراعاً . اترجو لمن عاينت انصلاحاً . اوترى لمزاجه صلاحاً فقال : سبحان من خلق الناس طباعاً .. »

وهذه القصة تدل على ان الطبيب يقبل بخدعة اهل المريض مقابل الاحتفاظ بالهدايا .. وهي دلالة على شيوع الحاجة حتى تولد هذا الجشع والتكالب على المال .

وفي القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي قال الآلوسي في مقاماته بارتفاع شان الجهال وهو اشارة ضمنية بانحدار شان العلماء . يقول الآلوسي :

« يا بني

بغداد لم تزل بملأ فيها ان دبدني ان اجعل زمام امري في كل وقت من يدي ديني فلا تستغربوا علوّ سافل وارتفاع دني جاهل فمن اخلاق الزمان انه ملول والباطل جولة ويزول .

يا بني

ان في سوقية بغداد المحترفين من هو احسن بكثير من بعض من اعيانهم وقد غدوا عن سبيل الرشد منحرفين فاذا اضطررتم الى مجالسة احد فاختاروه من اولئك السوقية وان خيراً من اعيان السوء الكلاب السلوقية

لا يغرتكم الأوجه الغر

فيارب حية في رياض

وهذا النص لايشير الى كدية اهل العلم وحاجتهم إلا انه يُفهم منه من خلال ارتفاع شان الجهال والذي يعني بدوره انحطاط شأن العلماء .

حيل اهل الكدية

وضعت المقامات الحيل التي كان يمارسها اهل الكدية لتحصول على المال والطعام . فيصف الهمداني (القرن الرابع الهجري) في احدى مقاماته المنطلقة ببغداد قصة طريفة لشخص يريد ان ياكل مجاناً فلم تكن امامه سوى هذه الحيلة ..

تقول المقامة البغدادية للهمداني :

حدثنا عيسى بن هشام قال : اشتهيت الازاذ (نوع جيد من التمر) وانا ببغداد وليس معي عقد ، على نقد . فخرجت انتهز محالّه [امكنة بيع هذا التمر] حتى احلّني الكرخ فاذا انا بسوادي يسوق بالجهد حماره . ويطرف بالعقد إزاره فقلت : ظفرنا والله بصيد وحياك الله ابا زيد . من اين اقبلتَ . واين نزلت ومتى وافيت وهلمّ الى البيت . فقال السوادي : لست بابي زيد . ولكني ابو عبيدْ . فقلت : نعم لعن الله الشيطان وابعد النسيان انسانيك طول العهد واتصال البعد ... فقلت هلم الى البيت نصب غداء او في السوق نشتر شواء . والسوق اقرب وطعامه اطيب ... تم اتينا شوّاء (وبعد ان أكلا اطيب الاكل واحسن الشراب) ... خرجت وجلست بحيث اراه ولا يراني انظر ما يصنع فلما ابطأت عليه قام السوادي الى حماره فاعتلق الشوّاء بإزاره وقال : اين ثمن ما اكلت . فقال ابو زيد : اكلته ضيفا . فلكمه لكمة . وثنى عليه بلطمة ثم قال الشواء : هاك . ومتى دعوناك زن يا اخا القحّة عشرين فجعل السوادي يبكي ويحلّ عقدة باسنانه ويقول : كم قلت لذلك القريد انا ابو عبيد وهو يقول انت ابو زيد فانشدت :

اعمل لرزقك كلَّ آلـه
لا تقعدنَّ بكل حالـه
وانهض بكل عظيمـة
فالمرء يعجـز لا محالـه

وهذه القصة وان كانت تمثل قطعة ادبية ولكنها تتحدث عن وقائع او حوادث قريبة منه .

ويورد الهمداني كذلك في مقامته الصيرية والتي تدور حوادثها في بغداد قصة توضح كيف يمكن لانسان ان يجمع المال عن طريق حيل واساليب عديدة .. والقصة هي قصة غني يتعرض لكارثة فيفقر ثم يقوم باساليب وحيل عديدة حتى يرجع غنياً .. ويصف لنا الهمداني كيف يرجع هذا الشخص الى حالة الغنى وماذا عمل كي يصبح غنياً ؟

يقول على لسانه :

« فجمعت من النوادر والاخبار والاسمار والفوائد والآثار واشعار المتطرفين ونواميس المتخرفين ونوادر النادمين ورزق المنجمين ولطف المتطبين وكياد المخنثين ودخمسة الجرابزة وشيطنة الابالسة ما قصّر عنه فتيا الشعبي وحفظ الضبي وعلم الكلبي فاستردفت واجتديت وتوسلت وتكديت ومدحت وهاجيت حتى كسبت ثروة من المال ... »

وهنا يتضح ان الحيلة والمراوغة احد اهم الاساليب للكسب آنذاك .

ولابد من الاشارة كذلك الى ان جمع المال من خلال « النوادر والاخبار والاسمار والفوائد والآثار واشعار المتطرفين ... » وهي اشارة الى ان اهل العلم اضطروا الى امتهان الحيلة للحصول على المال ..

وفي القرن الخامس الهجري يتحدث ابن ناقيا في مقامته الثالثة عن حيل بعض المتسولين ومراوغتهم للحصول على ما يبغون . لتحدث القصة عن جماعة قدموا بغداد فذهب احدهم ليشتري لهم الغداء فيستغلهم احد المتسولين مدعيا انه من موطنهم تقول المقامة : انه

« ... صادف شخصاً بالفناء عارياً من البزة والحياء ، قد خلع اطماره ، وبسط ازاره ، واطلق يمينه ويساره وهو يقنص ويحبس ويجمع ويقصع وكأنهن لدى دروز قميصه فذٌ وتوءم سمسم مقشور فقال لي هازياً بتشعث الجدار وسُوء الجوار وهو ينشر زاده ويحل مزاده ، ما اشبه الجار بالدار ، فقلت من لك بالوطن الخاص وجامع ، وجامع ولد العاص ثم ذكرت الغوطة وابواب جيّرون وحننت حنين ميسون فرفع ذلك الشخص راسه وصاعد انفاسه وانتزع زفره من حيزومه الى خيشومه ثم قال واني لك مقروع ... وجعل يفيض عبرته ويُبدي لوعته ويندب غربته ويقول واشوقاه اليكم ابدا ، وواحسرتا على شربة من ماء بردا ... فيا لله فقد حزنني مقاله وساءني حاله فقلت له يا هذا ابشر بقرب الدار والرفيق السار والعود معنا الى البلد والاجتماع بالاهل والولد ودعوناه الى الطعام فتثاقل عن المقام، حتى اقسمنا عليه بحرمة البلدية فاسرع في الجية فناولناه ذنوباً من الطعام ... ثم دخل الامام ومن معه لصلاة الظهر ... فعجبنا من هربه وهم القوم بطلبه فاذا هو اليشكري فشكرنا الله على السلامة منه .. »

اما الحريري (القرن الخامس الهجري) فيصف في مقامته البغدادية حيل الشيخ الذي يتقمص دور العجوز كي يصل الى مراميه ووضح على الطريقة الشعرية كيف يستعمل الحيلة لتحقيق مآربه . تقول القصة ان ابا زيد مثل دور عجوز تلقي الشعر في احد المساجد ثم يكشف امره الحارث بن همام فينشد ابو زيد :

يا ليت شعري ادهري
احاط علماً بقدري
وهل درى كنه غوري
في الخدع ام ليس يدري
كم قد قمرت بنيه
بحيلتي وبمكري
... ...
... ...
ولو سلكت سبيلاً
مألوفة طول عمري
لخاب قدحي وقدحي
ودام عشري وخسري
فقل لمن لام هذا
عذري فدونك عذري

وهنا يمكن اضافة الملاحظة السابقة وهي كيف يحاول الشاعر والكدية من خلال شعره .

وفي مقامة اخرى للحريري وهي المقامة التمرية عن قصة طويلة تقوم على الحيلة للحصول على الهدايا وهي تتحدث عن شيخ يخضع لدى الوالي للقصيدتين تجري مساجلة بينهما فيعجب بكليهما ويمنحهما الهدايا . وكانت الحقيقة ان الشيخ هو ابو زيد والفتى فتاة وقد اتفقا على هذه الحيلة .

وهذه القصة هي الاخرى تدل على ان الادباء قد اضطروا لممارسة الحيلة كي يحصلوا على الاعطيات والهدايا .

وكتب يحيى بن سعيد المعروف بابن ماري في مقامته الثانية عشرة (القرن السادس الهجري) قصة رجل يدخل المستشفى مدعياً المرض كي يأكل ويشرب فيها دون مقابل .. تقول المقامة :

« قال الراوي فرايت بين يديه رياحين وفاكهة كل حين وهو بهيئة من العيش معجونة بخرق وطيش وعليه اثواب مصبغة ومعصفرة وتجاهه كتب منضدة وهو ينظر فيها نظر النقاب ومن حطط له عن وجه الادب النقاب فحين لمحته اعجبني سمته فتوسمته فاذا هو العلامة الفريد ابو عمرو البصري واسطة الفريد فتصفحت انماطه فاذا هو شيطان الحماطه فعلمت ان سر جنونه من احد فنونه فقلت ما الذي دعاك الى هذا المقام والتردي برداء السقام وانت صحيح البدن طليق الرسن لا مانع لك عن سجن فقال لست من تذهب عليه اغلوطة وما عقالك بانشوطة لولا غريم كدني تقاضيه ولم أجد ما يرضيه ما التجات بهذه البقعة مع سعة الرقعة وها انا اكل اطايب ما يصنعه الطاهي ما يفاخر كسرى ويباهي من غير مشقة لطلب ولا تحفز لتعب وانشد :

نيل من زمانك ادنى
صفو ولو بالجنون
ان المكاسب شتى
والناس فيها فنون

وهنا كذلك لابد من التنبيه الى ان صاحب الحيلة من العلماء !!

الفاظ التسول

حفظت لنا احدى المقامات ـ وهي المقامة الرابعة لابن ناقيا ـ الالفاظ التي يستعملها اصحاب الكدية وفيها من الادعاء بالمرض والجوع والغربة ، والاوصاف التي يطلقونها على الاشخاص الآخرين .

جاء في المقامة الرابعة لابن ناقيا (القرن الخامس الهجري) على لسان احد الفقراء الذي اخذ ينادي اهل الدار وقد تعمد واهم بعدم الجواب :

« يا اهل الدار اما تعون انا لله وانا اليه راجعون اتراهم شهود ام رقود عموا مساء اهل المنزل وحياكم الظلام المقبل وشهد لكم ضياء المحفل انا فقير المرميل (الفقير) وانا ذو الداء المُغل اعينوا السائل المبتلى والزمن الاعمى ولو بثفروق التمرة ثم غصة العبرة . كل ذلك ونحن لا نجيبه ولا نثنيه ثم غصة العبرة كل ذلك ونحن (اهل الدار) لا نجيبه ولا نثنيه ثم عاد الى ندائه واضرب عن بكائه فقال : يا اهل المنزل نعمتم مساء وطبتم ثناء ايا بني الانعام وبقية الكرام اجيبوا سائلكم . عجلوا نوالكم . قد اكفهر الدجا ... واضطرم الجزع في قلبي والوطن في الجانب الغربي فامنّا سمحتم بالرفد فصحتم بالرد . وانما اسأل تافهاً من الزاد لا يلثم اكالاً ولا ينقص مكيالاً ، ولو من نثارة الخوان كفتيل النواة او كابهام القطاة اللهم ابعثها على يد نجيب منهم ولو كفسيط الظُفر (قلامة الظفر) أو كحبة الثغر (العصفور) يا اهل العطاء ويا ارباب الثناء اتينكم طيّان الحشا بادي العشا (جوعان) عُريان في سرباله الممزق اطوى اللُقم ، واجمع اللُقم (الطريق) ولا صبية كالبغاث (صغار الطير) ولم يطعموا لماكاً مذ ثلاث ... كاعواد البَرْوَق (نوع من النبات) وكأسلال الشبرق (نوع من النبات) شُحُبُ الالوان عُجُفُ الابدان يقحمون الثرى ويتماوون من الطوى وانا اليه وانا اليه راجعون انما يستجيب الذين يسمعون » .

الحفلات ومجالس اللهو

في مقابل هذا الفقر كانت هناك طبقة غنية مترفة صورتها المقامات من خلال مجالس اللهو

والشراب فصورت البذخ والترف في الحياة البغدادية ..

يصف الهمداني (القرن الرابع الهجري) في مقامته الصيمرية مجالس لهو وشراب في بغداد فيتحدث عن شخص مترف كان ينظم المجالس لخلانه فيتحدث عن نفسه فيقول :

« لم نزل في صبوح وغبوق نتغذى بالجدايا الرضع والطباهجات الفارسية والمدققات الابراهيمية والقلايا المحرقة والكباب الرشيدي والحملان وشرابنا نبيذ العسل وسماعنا من المحسنات الحذاق ، الموصوفات في الآفاق ونقلنا اللوز المقشر والسكر الطَّبرزَد ، وريحاننا الورد وبخورنا الند .. »

وبعد افلاسه وفقره ثم غناه مرة اخرى يرجع له خلانه ويعود لحياة اللهو :

« وانتقلنا الى مجالس شراب فاحضرت لهم زهراء خندريسية ومغنيات حسان ومحسنات فاخذوا في شانهم وشربنا .. »

هذا بالنسبة لما وصفه الهمداني في القرن الرابع الهجري اما الحريري فقد وصف في القرن الخامس الهجري مجلساً للهو والشراب في مقامته (القطيعية) قال فيها :

« حكى الحارث بن همام عن جماعته .. اجتمعنا في يوم سَما دَجْنُهُ (ارتفع غيمه) ونما حُسْنه وحكم بالاصطباح مُزْنُه (سحابه) على ان نلتهي بالخروج الى بعض المروج لنسرح النواظر في الرياض والنواضر ونصقل الخواطر . بشيم المواطر (برؤية السحب المطرة) فبرزنا ونحن كالشهور عِدَّةً . وكندماني جذيمة (الابرش) مودة ، الى حديقة اخذت زخرفها وازينت ، وتنوعت ازاهيرها وتلونت ومعنا الكُمَيْت الشَّمُوس (الخمر) والسُّقاة الشموس والشَّادي (المغنى) الذي يطرب السامع ويلهيه ويقري كل سمع ما يشتهيه ، فلما اطمأن بنا الجلوس ودارت علينا الكؤوس وغلّ علينا ذمير (الشجاع) عليه طِمر (ثوب خلق) فتجهمناه تجهم الغيد الشيب ووجدنا صفو يومنا قد شيب ... الى ان غنى شادينا المغرب ومغردنا المطرب :

الا م سعاد لا تصلين حبلي
ولا تأوين لي مما الاقي
صبرت عليك حتى عيل صبري
وكادت تبلغ الروح التراقي
وها انا قد عزمت على انتصاف
اساقي فيه خلي ما يساقي
فإن وصلاً الذ به فوصل
وان صرماً فصرم كالطلاق

ولم نعثر على نص آخر يصف الحفلات في بغداد باستثناء الآلوسي الذي وصف لنا حفلة اقيمت له بمناسبة اكماله التعليم على شيخه وهي حفلة تختلف بالطبع عن حفلات اللهو .. ويمكن اضافة نص للكازروني (القرن السابع الهجري) في الحفلات المقامة بالمناسبات مثل شهر رمضان والحج ويمكن مراجعتها في فصل المناسبات الاجتماعية ضمن هذا البحث .

نعود الى الآلوسي (القرن الثاني عشر الهجري) الذي وصف حفلة تخرجه فقال في مقامته الثانية فقال :

« كان ذلك في المدرسة الخاتونية المقابلة مما يلي القبلة للحضرة القادرية وتفضلت صاحبتها السيدة عاتكة عابدة (كذا) كأنها زمن البرامكة ولقد رايت هناك دهماء القدور تهدر كالفنيق وتفوح طيباً كالمسك الفتيق ورايت هاتيك المائدة مثل عروس مائدة لا عيب فيها سوى اشتمالها على اصناف اطعمة تلذها الاعين وتميل اليها الانفس وتشتهيها ولم يبق في البلد عالم الا اكل منها وروى احاديث الشفاء عنها وانها بينهم كبدر السماء الا من هالتها من رقيق غمائم عمائم احرار العلماء .. »

ولا شك ان الحفلة التي يصفها الآلوسي تختلف في هدفها ونوعها عن الحفلتين السابقتين . وايراد نصها هنا للتمييز بين انواع الحفلات المقامة ببغداد وانماطها .

انواع الشراب

وردت في المقامات العديد من الانواع الشائعة للشراب في بغداد آنذاك . ففي المقامة الصيمرية للهمداني (القرن الرابع الهجري) يصور مجلس شراب وكان شرابهم « نبيذ العسل » .

ثم عندما يصف مجلساً آخر للشراب يقول : « فأحضرت لهم زهراء خندريسية » [الزهراء : المشرقة . والخندريسية : الخمر القديمة] .

وبعـــد ذلك عندما يوجه في طلب احدهـم يقول :

« فاحضرته وقدمت اليه طعاماً فأكل . وسقيته من الشراب القُطربلي فشـرب حتى ثمل . [القطربلي نسبة الى قطربل موضع بالعراق لخمره وشهره في الجودة والطيب] .

وفي المقامة المجاعية للهمـــداني كذلك عندما يبين عيسى بن هشام رغبة بالطعـــام وهو جائـع لسائل يسأله عن رغبته فيقول :

« لون لطيف الى خردل حريف [يريد نبيذ تمر اضيف اليه الخردل لتقويمـــه وزيادة لذته] .

وفي القرن الخامس الهجري وصف الحريري في مقامته القطيعية الشراب ومجالسه حيث يحكي الحارث بن همام عن جماعته في ذهابهم للهـــو . فيقـــول كانت : « معنـــا الكُمَيْتُ الشمـــوس [الخمر] . وهناك كانت حالة اخرى معاكسة هي الامتناع عن الشراب يصف الحريري على لســان احد الشيوخ الذين حضروا مجلس شـــراب فراح يصف امتناعه عن الشراب قائلاً :

نهاني الشيبُ عما فيـــه افراحي
فكيف اجمـــع بين الراح والرّاح
وهل يجوز اصطباحي من مُعتّقة
وقد أنار مشيب الرأس اصباحي
آليت لاخامَرَتْني الخَمْرُ ما علِقت
روحي بجسمي والفاظي بإفصاحي
ولا اكتـــسَتْ لي بكاسات السُّلاف يدٌ
ولا اجَلْتُ قِداحي بين اقداحِ
ولا صَرَفْتُ الى صِرْفٍ مشعشعةٍ
همّي ولارُحْتُ مرتاحاً الى رَاح
ولا تَظْمتُ على مَشْمُولَةٍ ابداً
شملي ولا اخْتَرتُ ندْماناً سوى الصّاحي

انواع الطعام

صورت المقامات انواعاً من الاطعمـــة التي كانت شائعة في بغداد فالهمداني (القرن الرابـع الهجري) يصف من خلال مقامته الجماعية انواعاً عديدة من هذه الاطعمـــة فعندما كان عيسى بن هشام جائعاً وجاء يطلب الطعام قابل شاباً يسأله عن حاجته فقال :

(١) رغيف على خوان نظيف [الخوان ما يوضـع عليه الطعام] .

(٢) وبقل قطيف الى خل ثقيف [اي بقل اضيف اليه خل شديد الحموضة] .

(٣) ولون لطيف الى خردل حريف [يريد نبيذ تمر اضيف اليه الخردل لتقويته] .

(٤) وشواء صفيف الى ملح خفيف [يقصـــد تنظيم قطع اللحم بشكل مصفوف في مشكة من حديد ثم يستوى على النار] .

(٥) يقدمه اليك الآن من لا يمطلك بوعـــد ولا يعذبك بصبر . ثم يعلك بعد ذلك باقـــداح ذهبية من راح عنبية . اذاك احب اليك ام اوساط محشــــوة واكواب مملوة وانقـال معدّدة . وفرش منضدة وانوار مجوّدة . ومُطربٌ مجيد . له من الغزال عينٌ وجيد فان لم ترد هذا ولا ذاك فما قولك في :

(٥) نحم طري [ويروى لحم طيري اي لحم طيور] .

(٦) وسمك نهري .

(٧) وباذنجان مقلي .

(٨) وراح قطربلّي [اي خمر مدينـــة قطربل المعروف بجودته] .

(٩) وتفاح جني [الذي جني من قريب] .

ومضجع وطي على مكان عليّ . حذاء نهر جرار وحوض ثرثار وجنة ذات انهار .

قال عيسى بن هشـــام فقلت : انا عبـــد الثلاثة .

ومن خلال مقامة الهمداني الازاذية تبين ان البائع كان يصفف الفواكه ويرتبها .

جاء في هذه المقامة :

« سرت غير بعيد الى رجل قد اخـذ اصناف الفواكه وصنفها . وجمع انواع الرطب وصففها فقبضت من كل شـيء احسنه » .

التعامل في السوق

يصف الهمداني (القرن الرابع الهجري) في مقامته البغدادية الطعام الذي يصنع في السـوق ومن خلاله تتبين العلاقة بين البائع والمشتري . ومنها نفهم ان الزبـون يطلب من الاكل احسـن ما يكون وفق مواصفات محددة ..

يقول عيسى بن هشام ـــ عندما يلتقي بابي عبيد ـــ لصاحب المطعم :

« ... ثم اتينا شواة يتقاطر شواؤه عرقاً . وتتسايل جوذاباته مرقاً . فقلت

افرز لابي زيد من هذا الشواء . ثم زن له من تلك الحلواء . واختر لـه من تلك الاطباق وانضد عليهـا اوراق الرّقاق ورش عليه شيئاً من ماء السماق لياكله ابو زيد هنيئاً » .

ثم يقول لصاحب الحلوى :

« وقلت لصاحب الحلوى : زن لابي زيد من اللوزينج رطلين فهو اجـرى في الحلوق وامضى في العـروق . وليكن لَيْلِي العمر يومي النشر رقيق القشـر كثيف الحشو لؤلؤي الدهـن . كوكبي اللون يذوب كالصمغ قبل المضغ لياكلـه ابو زيد هنيئاً .

ثم يصف بيع الماء المثلج من السقاء :

« ثم قلت : يا ابا زيد ما احوجنا الى ماء يشعشع بالثلج ليقمع هذه الصارّة ويفثأ هذه اللقم الحارة إجلس يا ابا زيد حتى ناتيك بسقاءٍ ياتيك بشربة ماء » .

ضرب البائع للزبون الذي لم يدفع

صورت المقامات في احد المشاهد الطريفـة كيف يتعامل البائع مع المشتري اذا امتنع الاخير عن الدفع ويبدو أن البائع آنـذاك لم يكن ليطلب الشرطة لتحل المشكلة بل كان كما يصفه الهمداني في مقامته البغداديـة حيث يفطر البائع اخـذ الحساب بالقوة . فبعد ان ورّط عيسى بن هشام ابا عبيد بالدخول الى المطعم ثم هرب منه تاركاً اياه كي يدفع الثمن . يصف ابن هشام الحالة :

« فلما ابطأت عليه قام السوادي الى حماره فاعتلق الشوّاء بإزاره . وقـال ابن ثمن ما اكلت . فقال ابو زيد : اكلته ضيفاً . فلكه لكمة . وثنى عليه بلطمـة ثم قال الشوّاء : هاك ومتى دعوناك . زن يا اخا القحة عشرين . فجعل السوادي يبكي ويحل عقـده باسنانه ويقول : كم قلت لذاك القريد . انا ابو عبيد وهـو يقول : انت ابو زيد » .

وصف حادثة الطاعون

يصف الآلوسي (القرن الثالث عشر الهجري/ القرن التاسع عشر الميلادي) حادثة الطاعون التي عصفت ببغداد أيام داود باشا والي بغداد فقال :

« جرت حادثة الطاعون فاجرت العيون العيون وعظم الهم وربا . وبلـغ السيل الزبى فقلت في نفسـي صبراً فهـذا والله تعالى اعلم آخر السهام وهل بعد هذا الأمـر الامـرّ مرمى لرام حتى اذا نضبت مياه العيون وخبت نيران الشجون جاء الوزير على رضى والي حلب فحاصر بغداد وجلب على واليها الوزير داود باشا ما جلب وكان نزول ذلك القضاء المحتوم في اواخر سنة ١٢٤٦ رغوم فحيث خلا الكـرخ ممن يهرع اليه ويقول في المهمات عليه اتخذني اهله سيّدا وملكوني منهم يدا وقلبا ابّدا خلت الديار فسدت غير مسوّد ومن الشقـاء تفرّدي بالسودد فلما غلا قدر القدر وعلا قدر عليّ بالغلبة على البلد وانتصر خرج على من نافقـا الغدر اهل النفـاق وبرز اليّ من زوايا المكر اهل الشقا والشقاق فجعلت اكفكف عني السهام بكف اخلطه مع بعض عظـام مدينة السلام . »

عزل علي رضا والي بغداد وتولية محمد نجيب

وصف الآلوسي (القرن الثالث عشر الهجري /التاسع عشر الميلادي) عزل الوالي علي رضـا وتولية محمد نجيب فقال :

« واول ما احسست بالشر وبدو مـا اضمره القدر وسر عند عزل نخبة الوزراء وروح جسـد الزوراء الوزير الذي لم تسمع بمثله في حسن الاخلاق فيما مضى مولاي المرحوم المبرور علي رضا .. »

ويتضح من هذا ان الآلوسي كان على صلـة وثيقة مع علي رضا على عكس علاقتـه مع محمد نجيب يقول الآلوسي حول تولية الاخير :

« ثم لما اقبل الوزير والدستور الكبير الحاج محمد نجيب باشا منفصلاً مـن وزارة دمشق الشام وقعـد على دست الوزارة في مدينة السلام جعل طفل ذلك الحال يشيب كل يوم ما لا يشيبه الطفل في احوال حيث عكف على ذلك الوالي كل عدّو ولى رخيص القدر لكن في العداوة غالي .. »

وصف اصحاب المقامات لبغداد

اختلف اصحاب المقامات في وصف بغداد . وقـد وصف كل واحد منهم جانباً من الجوانب فمنهم من نظر اليها باعتبارها دار الخلافة بينمـا اتفق آخرون الى وصف اهل بغداد وقد تاثر اهل

المقامات بارتفاع أو انهيار شأن بغداد السياسي ، ففي القرن الخامس الهجري يصفها الحريري في مقامته الشعرية بانها :

« حمى الخلافة والحرم العاصم من المخافة » .

بينما وصفها يحيى بن سعيد المعروف بابن ماري في القرن السادس الهجري في مقامته الخمسين بانها :

« حمى الامام ونقطة الاسلام » .

وقد بقيت سمعة بغداد كبيرة حتى القرن السابع الهجري حيث وصفها الكازروني في مقامته بقوله :

« كنت اسمع من جواب الاقطار وطرائق البلاد والامصار ان دار السلام هي كعبة الاسلام وحرم الامام ومعدن الكرام ودار الخلافة ومحل الامن من الخلافة .. »

إلا ان هذه النظرة سرعان ما تغيرت عندما رآها الكازروني بنفسه فكانت مفاجئة له :

« وافيتها بلدة خالية وامة جالية ودمنة حائلة ومحنة جائبة وقصوراً خاوية وعراصا باكية وقد رحل عنها سكانها وبان عنها قطانها وتمزقوا في البلاد ونزلوا في كل واد . وقصورها المشيدة مهدومة ونعماؤها مسلوبة معدومة موحشة لفقد قطانها باكية بلسان الحال على سكانها .. »

اما دار الخلافة فقال عنها :

« رايت حرم الخلافة مهاناً بعد ان كان كعبة واماناً فطاف بي ببعض قصوره واعتذر عن الباقي لقصوره وقال : يكفيك ما المحك واريك .. »

وامام هذه الحالة لم يكن امام الكازروني إلا رثاء بغداد :

« فوقفت ابكيها واندب ربوعها ومن ومن كان فيها :

واندب اطلالها تارة
وابكي على فرقة الظاعنينا
فلو ذهبت مقلة بالبكاء
لفرط الغرام لكنا عمينا

ويبدو ان الكازروني كان يندبها مقارباً مجدها الغابر بحاضرها الذي دمره الغزو المغولي ..

وبعد ذلك جاء الجزري (في القرن الثامن الهجري) فوصف بغداد :

« هذه دار سلام المؤمنين فادخلوها بسلام آمنين » .

ويبدو من هذا ان بغداد كانت قد استعادت بعض مكانتها بعد انتهاء الغزو المغولي لها .. اما في القرن الثاني عشر الهجري اي في العصر العثماني فان الآلوسي قد وصف تخلف بغداد لانها لم تكن سوى مجرد ولاية تابعة لا غير .. ويبدو ان الآلوسي كان متشائما من بغداد بسبب المحن التي تعرضت لها والتي كانت تسبب احياناً الاقتتال بين اهالي بغداد ولما كان الآلوسي قد عاصر هذه الاحداث فقد تنبه الى بساطة وتفاهة الاسباب التي يتصارعون من اجلها .. يقول الآلوسي :

« وقد رايت اهل الزوراء لا يجمعون على زور حق ولواضح كشمس الضحى في الظهور بل يكونون طائفتين في كل حادثة فان اتتم المكروه فالواجب ان يكونوا مع الطائفة المحقة والا فكونوا طائفة ثالثة . واحتازوا عن الطائفتين بمعزل وابعدوا عنها بالف الف منزل فذلك في هذه الايام ابعد عن الوقوع في مهاوي الملام » .

وكانت ظاهرة التقرب الى السلطة قد لاحظها الآلوسي فثبتها في مقاماته قائلاً :

« يا بني

ان معظم اهل بغداد ليعظمون المتردد الى السراي اكثر من تعظيمهم المتردد الى الكمة ويعطون من عصى ربه في اطاعة الوزير اكثر من اطاعتهم من اطاع في عصيانهم ربه ويكاد يقول لسان حالهم وانه لانصح من التقرير ان قبلتنا السراي والهنا جل شانه الوزير فتراهم قد جعلوا معظم شغلهم انهم يطوفون حوله وان لم يسامرهم طواف اصحاب السامري حول عجلهم فان استطعتم ان ترددوا احياناً الى الوزير فلا باس ولكن عليكم بالحشمة وقلة الكلام وقصر الجلوس وعدم معارضة احد من الجلوس » .

ولكن الآلوسي بالرغم من ذمه لبعض الناس في بغداد فانه كان متعلقا بها محباً لها وقوله فيها هو قول المخلص ويتوضح مدى حبه لوطنه بقوله :

« وحيث انكم لا تستطيعون فيما اظن الهجرة ولا تطيقون ترك الاوطان وان

كانت مرة بالمرء فعليكم بقلة الاختلاط وكثرة الاحتياط فلعلكم تحفظون من الامر الامر وتسلمون من ان ينطحكم ذو قرنين وليس باسكندر .. »

العاب تسلية

من خلال المقامة القردية للهمداني (القرن الرابع الهجرين) يبدو انه من الشائع ترقيص القرود على قارعة الطريق لجمع المال . جاء في هذه المقامة :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : بينا انا بمدينة السلام قافلاً من البلد الحرام، اميس ميس الرجلة على شاطىء الدجلة، اتأمل تلك الطرائف واتقصى تلك الزخارف اذ انتهيت الى حلقة رجال مزدحمين يلوي الطرب اعناقهم ويشق الضحك اشداقهم فساقني الحرص الى ما ساقهم حتى وقفت بمسمع صوت رجل دون مراى وجهه لشدة الهجمة . وفرط الزحمة فاذا هو قراد يرقص قرده ، ويضحك من عنده . »

ورد هذا النص في مجال التنزه كذلك . ولكننا نورده هنا لتوضيح لعبة شائعة في بغداد هي القراد الذي يقوم بترقيص القرد ، ويبدو ان هذه اللعبة كانت مشوقة ومسلية بدليل المزدحمين حول القراد ..

الساعاتية

اول ذكر ورد للساعات ببغداد في المقامات نجده في مقامة الكازروني (القرن السابع الهجري) والنص وإن كان قصيراً إلا انه مهم بالنسبة لحقبته الزمنية . قال الكازروني :

« وهذا دار الطبل ولكن اين الساكن ؟ كانت آهلة بالمبنكمين [البنكمات آلات يقدر بها الزمان] عامرة بالساعاتية لادراك وقت التأذين فاذا دخل وقت الصلاة ضربت النوبة في جميع الاوقات » .

والكازروني كما يتبين من نصه السابق تحدث عن الساعاتية في وقت انحلال صناعتهم فهو يقول « كانت آهلة بالمبنكمين .. » . فضلاً عن هذا النص يؤكد ان صناعة الساعات العربية والاهتمام بها جاء لضبط وقت الصلاة وتحديد مواعيدها ..

ملحق

المقامة الثانية عشرة من المقامات المسيحية

ليحيى بن سعيد [عن مخطوطة المتحف العراقي برقم ٢٢٠]

تنبيه : وردت في هذه المقامات عبارات وجمل مرتبكة وغير واضحة ، وقد اثبتناها كما هي دون تغيير او حذف .

روى يحيى بن سلام قال : حملني شرخ الشبيبة وميعة اللهو والطيبة الى انطوف في البيمارستانات واعيان موارد الحانات فخرجت يوماً في زمر من اقيال بني عامر بجناب فضل عامر وجَون جود ماهر بقرائح ارق من السلسال واخلاق اعذب من الماء الزلال فنشطنا امراس الاسراع ومددنا الى الفرجة باع الاطماع حتى دخلنا الى احد البيمارستانات العضدية لنصقل الافكار الصمدية لانها مجمع اصحاب العاهات والموقظة من سنة الترهات فحين وطئنا جحرة وخبرنا حجره (كذا) رأينا موسوساً وهو يقول اعتبروا يا ذوي العقول بمن عاد يهرب من دائه بعد الاستنارة برأيه ويُصفّد في السلاسل بعدما كان يفوق كل باسل فما زلت به توالى الاعلال حتى اودعته اكف الاغلال .

قال الراوي : فرأيت بين يديه رياحين وفاكهة كل حين وهو بهيئة من العيش معجونة بخرق وطيش وعليه اثواب مصبغة ومعضّدة وتجاهه كتب منضدة وهو ينظر فيها نظر النُقّاب ومن حُطّ له عن وجه الادب النقاب فحين لمحته اعجبني سمته فتوسمته فاذا هو العلامة الفريد ابو عمرو البصري واسطته الفريد فتصفحت انماطه فاذا هو شيطان الحُماطه فعلمت ان سر جنونه من احد فنونه فقلت ما الذي دعاك الى هذا المقام والتردي برداء السقام وانت صحيح البدن طليق الرسن لا مانع لك عن سجن فقال لست من تذهب عليه اغلوطة وما عقلك بانشوطة لولا غريم كدّني تقاضيه ولم اجد ما يرضيه ما التجأت بهذه البقعة مع سعة الرقعة وها انا اكل اطايب ما يصنعه الطاهي ما يفاخر كسرى ويباهي من غير مشقة لطلب ولا تحفز لتعب وانشد :

نِل من زمانك ادنى
صفو ولو بالجنون
ان المكاسب شتى
والناس فيها فنون

ذار الانـــام بحمـــق
ان الامـــام زَبـــون
بالنحل حينـاً وحينـا
بالخمـرة الزرجـون
وان يفتنــك بجـدٍ
امـر نتنل بالمجـون
ان النفـوس لدينـا
باذا النهى في شجـون
فربمـا نلت مجـداً
عن لفظـة هي دون
كم ساء امـرٌ قلوباً
وقبـل سُر عيـون
وكم تسـرُ بنـات
وكم تغـم البنـون
اسقي على طيب عيش
قد مزقتـه السنون
وجونة الصفـو تهمي
فيــه بغيث هتــون
ايـام وعـد الوطايا
على البـرايا ديـون
فكل مجمـع شـمل
قـد بددتـه المنون
وكل شـيء سـوى طارق المنون يهون

قال الراوي : فحين الكشف لأصحابي وانجاب ما نمق من لفظه العجاب قالوا ايها البارع في الاشعار الوحيد ابنْ لنا اي الشعراء المجيد . فقال : اما ابو نواس الفائق القياس فظهور اياته صدّع في خمرياته ولقد كان مبرزاً في الانساب اذا رآه كل نـابة ينساب . ملكَ سلاسة اللفظ وضبط ازمة الحفظ تيّه في الاراجيز عقل المجيز اتى باغراض المقبول وله عندهم المنزلـة وفرط القبول . واما ابو تمام فجزل الكلام بعيد المرام يلتحق بالجاهلية قريضه ويبرز في نخلاتهم اغريضه له السبق في حسن الفراسة في انتقاد الحماسة واذا ذكرت ابا عبادة . فلما ترد زيارة صناجة العرب ومحدث الطرب اختيارات شعره كثيـرة ومعانيه فايقة غزيرة تميل الى كوحه الكتاب من غير ارتياب . واما ابو الطيب ذو السحاب الصيت فناهيك باسمه عن اختبار وسمه صاحب الامثال متى حرك خفير فكيره ينثال لوز قصائده وبراعة قلائده لم يُضلّ من جمعنا حقير ولا فقد منهـا نقير . فمذ فرغ من الشرح بالغ في المدح قلنا لـه عرفنا عليك بمن شق الابحار وطيّب نوم الاسحار إلاّ ما خيّرت بين اللغة والنحو لنفرق بين الغيم والصحو فقال اما النحو في الكلام فكا الملح في الطعام رتّبه يستصغر الانام ويرى بعين الاعضام كل شيء مهراق به لم يُرقم النكير صوابه واستبهم بـه يقوّم اللسان وتعرف قيمة الانسـان فحين راى بعضنا قد غضب كأنه قد عضب قال لكن خيرة ما يُهذبُ المقولَ ويصلحُه ورفض رطبه واكل بلحه يكد الفكر عويصهُ ويمنع السلوك عيصـهُ وما يُغني في غريبه العمر غيرُ المشوش القمـر وهل هو الا معان تفيد كلاماً وارواحُ تستحيل احساماً وكم شاعر لم يفتر له حرفاً ولم يشربه ممزوجاً ولا صرفاً وهل ضحّ الاّ حين فسدت القرايح والطباع واقتاد السباع ضعافُ الضباع الا فاين انت من العرب العرباء الذين هم عند اهل هذا الجيل كالغرباء واما اللغة والمصنعة فالأصل الثابت والعود ذو النشر الذي يفوق نشر الصود ربّها يَعرفُ اعِنّة البلاغة كيف شاء ويذلل في رسائله الانشاء يجري في حلبة الرصف ويمر مرّ النجم في الذم والوصف قلمه يحطم الاسل ويمزج الصاب بالعسل وينشط الكسلان ويمنع سيل المجلان ولاها لم تعرف حقايق الاسماء ولم يفرق بين البيضاء ولا دماء غير ان غريبها تأباهُ النفوس اذا البثّ في الطروس هل يولد الاطرابَ الشمر الغريب ولو شدّت به غريب كم متقعر في كتابه لم يصل الى ايسر آرابه ثم دعني من هذا الشقاق والحجاج اما ترى نفاق ديوان ابن حجاج اما هـو اسلس الدواوين شعرا وارفعها قيمة وسعراً

قال الراوي : فما في الحشاش الا من شحذ له شباه ملام وراش حين ذمّ المتاشر من العربية ووحشي الالفاظ اللغوية ومضى يكسر عليه ارعاظَ النبل ويحتقر طلَّ فصاحته والوَبل فكانما هـي قلبه ولاط بلبّه ما خالج الضمائر فقال يا اولي البصائر ما قلت الاّ ما يُشير به الوقت وقـد خشيت ان السب منكم بحثمـه مقت مـا جنفي ما خشُنَ وصعُب والفُ ما لان وعذب إلا حين قلت جهابذة المنثور والمنظـوم ونقاد العلوم على العموم ثم انشد :

وتلك ليالي عيشه بُرد صفـوها
صقيل الحواشي والزمان مراهـق
تراوح فيها الصفو والصرف غافـل
فماديه بالافراج وهـو موافـق
عشية افراس الشباب ورَوْقـه
حبايس في اسـر النهى وطلايق
يهيم بوحشي الكلام اخـو النهى
كمـا هـام ذو وجد اذا لاح بارق
فكلٌ باخبار البلاغـة يقتـدي
وكل لاسباب البراعـة عاشـق

فلهفي على دهـــر تولى بفتيـــة
تقصّـر عمـــا نضدوه الحدايق

فلما ختم سمط مقاله اخذنا في تخفيف اثقاله ومنحناه بالنقود وفككناه من القيود ومثلنا به على المتوالي على المرض وشرحنا له امرءه ايراما ونقضا فقال لقد جئتم شيئاً اداً الا ما عبر عن نفســه وادى فمد سمع الايما قال رايك اسمى وقـــام واورد شعراً اعلى منزلة من الشعري :

يا من غـدا اوفى اورى فطنـــة
ان اشكل الامـر وان ابهمـــا
ومن غـــدا نائلـــه هامـــلاً
يفـوق صـوت الجون انى همى
مـن فـرط جـود لم تدع كفـــه
في الكيس دينـــاراً ولا درهمـــا
تالله مـــا بي علـــة تختشـــي
وقـــد اذعت القـــول كي تفهما

ثم خبر عقله وسبر نقنه وكتب له صكاً الى احد عماله بنصاب من ماله فاخذه اخذ شحاذ في العقد نفـــاذ وتركنا ونهض وقـــد بلغ النافلة والمفترض .

قال الراوي فتبعته الى العامل لانظـر اين لهذه من العامل فمذ بصر به وحل بربربة قال :

اوردَها سعـدٌ وسعـدٌ مشتمل
ورد سماح كالسحـاب المنهمل
لقــد رعت خيـر ثياب مكتهــل
وخير حافٍ في الورى ومنتعــل

ثم وضـع لديه التَّمـةَ وقد تغرغرت مقلتاه بالدموع فحين راى العامل دمعه الهائل نقده بمـا تضمنته الرقعة وزيادة اذنت خفضه بالرقعة فمر ينشد :

لولا الجنـــون لعانيت في البريـــة فقـــرا
وسقتني الدهـر كسراً لا يضمحل وعقـــرا
واصبحت اسطُر الضّر من رقاعى تنقـــرى
ولم اعــد جفـاني تنقـرى ولم اك اقـــرى
طوراً تراني بغـــاثاً ذلاً وطوراً صقـــرا
لكن اطيـر سريعـــا ولا اطيـر القـــرا

المقامة الخمسون من المقامات المسيحية

وتعرف بالدارية ليحيى بن سعيد المعروف بابن ماري [عن مخطوطة المتحف العراقي رقم ٣٢٠]

حدث يحيى بن سلام قال : حين لم تتخلف حانـــة . وما بقيت آنـــة . ورفضني من كان يخشاني ، وما احلني ولا اخشاني رفضت المقام . وقصدت دار السلام وتوركت بطن الجاريـــة . وتعلقت بالطائـرة السايـرة . المتسابة في العين النسياب الاين . فلم تزل في الحبب ، بين جري وخبب ، حتى احلتنا حمى الامام ، ونقطة الاسلام وكنت يومئذ اتعاطى الطب . واواضب الى تقلته ولا اغب . فحين وطئت عيثرها . وطمحت عينها واثرها . تقت الى شاغورها لا فرق بين صحاحها بزمر وتجاهه من الكتب امهتاتها . وقـــد طرزت حواشيها سمانهـــا . وهـــو يقلب كتاباً كتاباً . ويشرح بابا بابا . ويقول ذهب علم المزاج . واقتنع بحسن المعاشرة والامتزاج . فلا علاج ينجح ولا خير برجح . واقتصروا من العلم على جس العرق بغير عرفان . ومن القـــارورة على الاصباغ والالـــوان وحوت نجوم اسرار جالينوس وبقـــراط . ووهت عقود اراء افلاطون وسقراط . وصار من كبـــر العصبة وكثر العصبة . يوماً اليه بمفرج الغمم . ومحيي الرمم . تالله ان تلك العمائم على عقـــول البهائم . ما حـــوت متشب اللابس والبرانس غير افهام الانعـــام النـــانس . لو سالت احـــدهم مسئلة . رايت ارضاً ممحلة ووجـــوها معبسة . واموراً ملتبسة . ثم انشد :

ينمقـــون احاديثـــاً لمكتسب
وفي الولايـــات يبـدون المعـــاذيرا
ولا تقـــوم براهـــين لمعتـــذر
يقول ذا العلم عندي ظل مسطورا
وهل ينـــال علوماً جل موقعهـــا
الا فتى جـــد تلقينـــا وتكريـــرا
واتلف النفس تدريســـاً اناط بــــه
ركضاً الى العلم حتى اذهب الزبرا
ما اتعبـــوا خاطراً في كشـــف مسئلة
ولم يوطـــوا نردّ الخصـــم تقـــريرا
بالبحث يبرون ما يبرون مـــن سقم
وفي الخطـــاء يدمـــون المقـــاديرا

امهرهم لا يدري لم بعض الامراض تعدي وبعضها لا يعـــدي ومنها يتـــوارث عن الاباء فلا يدري . ولم الفالج والاستسقاء مع عموم الفساد. لا يتنافل عن الاجداد . وما السبب في حـــرارة الهواء . يبرد عنه الماء . وعلى اي وجـــه محار . يبري صب الماء البارد الكرار . وان مداواة الحار بالحار يضاد ما نقل عن الاخبار . واي الامراض يبرز بثلاث حلى . وبايها قيس كان اولي ولم مدح الراس الكبير . وذم الصغير . وحمد سعة الصدر . واستعيد من الضيق . كما يستعاد من كثرة شرب

الرخيق . وهل دم الكبد غير دم العروق . أم ليس بينهما فروق . وكيف دم الكبد غذاوه وهو التة . ام يغتذي به اذا اكملت في العروق استحالة وما الذي تغتذي به الاعصاب واللطيف . لبعد جنسها من جنس الدم واللفيف ، واي شيء اقدم الدم في الشريان او الروح . والحركة أحدث او الجنوح . وهل معما جعل من الاخلاط يرى لهـا في الدم اختلاط . ولم من حماه ملازمه احر من الرمضاء تبدي قارورته في حلة بيضاء . واني محل الحرارة الغريزية عند حدوث الحرارة الغريبة . وهـل يستقران معـاً وذاك باطل اذ لا يستقر الشيء وشانيه . او ينفر احدهما او يبيد وهذا مستحيل عنده ينقص اسل البدن ومبانيه .

قال الراوي : فحرت بمعضلاته . وتقت الى حل مشكلاته . فقلت : ايكون مثلك في هذا الاقليم . ولا يتصدى لهداية التعليم . فقـال نوء الكرام اخلف . وعرى الزمن جرف . وساد الطغـام . فما يفرق بين الحكمة والمنام . احدهم يحكم على الراوند بالبرودة وعلى الافيون بالحرارة . ويتناول الاشياء على غرارة . يقتنع من الطبيب بسبره . دون سبره . وبطبيب ذكره . ولو افرط في ذكره . واسعرك بحـار . ان عدلت جار . وان سكنت ثار . ما استقمت الامـال . ولا اعلت الاعال . بتماطي ما اتعاطى . ويسـرع الى مضرتي ولا يتباطىء . ما عدت مريضـاً الا كتب القصص ليفوز بالحصص فان جرت شدة عند بحران شبة الي . ونبه اعين الجناية علي . فكم سترت غيبه وحسنت عيبه . وهو لا يعبا باشفاقي . ويرى احراقي . دابه تصفيف لحيته ومد سبالـه . وتفويف سرباله . وتقذيف نباله . يحلب بسمنة وخمرة . ويخلب بدا واحبل وعمرة . ويخيـل للمنيف . القـاح البنين . ويصبغ الخضاب لمن شاب . ويرتب معاجين البـاه للشباب . يعتب بالحد بالحد . واسراح بالجد . ويعتب بالعدد . ونعم بالعدد ان ناقضه نفر وصاح . وان جادلتـه لم يصبر على الكفاح . يلسـع ويصيء . ويظلم واضيء . لو سال لم القى يجدث عقيب اختـلاج الشفقة . خرج من عدم الجواب الى السفه . لكن اداريه واماريه . ولا اباريه . لعدم من ينتقـد . ويوار المفتقـد . ادعى الى مريض كاني صاحب الوحي . ولم يبق في مَبقَـةَ في النحي . يرمون انقضاء المرض قبل اوانه وزواله دون تمام بحرانة . ولا يعلمون ان للأمراض مراتب . يسـهل صعبها القانون الراتب . ومنها ما يهلك المريض قبل التدبير ولا يفيد معه العقاقير . ومنها ماشـوطه يمتد ، ويقوى الم ويشتد . فاذا بلغ الانتها . انقطع عقده ووهي ثم لا يميزون بين من كد فكرة واتعب . وبين من غنى فاطرب .

قال الراوي فاخذبت بعض كتبه فلسبني بُحيمه عتبه . وقال احدكم يقدم اقدام الضرغام ولا يفرق بين الشهد والسـهام . ويقتنع بالقراة تقليـدا . ويجد منه لنفسـه توبيخا وتفنيداً . لا يدري حدوداً لتعاليم . ولا رسومها في الحد السـليم . ولا الثمانية الفوائد التي هي في صدور القراة كالقلائد . بل ان حضر مادبة هتك حريمها وحلل تحريمها . واكل اكل اكل من لا ينظر في مصلحته ولا يحفظ قوانين صحته . وقدم من المطعوم ما يبتغي ان يتاخر واخر ما يجب ان يقدم ويفخر ثم انشد :

نقت الاولى فاقوا الورى بالفهم في سـر الطبيعة
فغدوت اعرف نبض من يخفي التواصل والقطيعة
فبكـل شخص لي على ما في بواطنـه طليـعة
ففضـائلي عنـد الاكـابر والالى فاقـوا ذريعـة
ايـام تـاتي للورى بتـراجم النعمى شريعـة
ومرابـع ماهولـة بتـواتر الجـدوى مريعـة
لا احتـني نـوب الزمـان ولا حوادثـه القطعـة
واوامـري مسـموعـة تروي ومنزلتـي رفيعـة

قال يحيى بن سلام : فمالبث ان ورد خادم حصان . واخذ يخدعه كما تخدع الحصان فقال تالله مارحل حتى انحل . ولا اعود مريضاً . دون ان اعطى عطاء عريضاً . ولا اعاني سقيما حتى ارى امراً مستقيما تنقده الغلام بقرطاس . ولم يبد وجه مكاس فحين قـام امتزجت بديمة . ودخلت دار السلطان مع خدمه . فلما مثل بحضرته والتحق بزرمته شاهد مدنفا لم يبق منه الالقا بانفاس . متصعدة ونفس مترددة فقال :

هذا ما كنا فيه ادعى الى من الا يمكن تلافيه . ثم حل جلابا بماء الورد وسـقاه . فانتعش انتعاشة ظن انه شفاه . فافرغت عليه اكياس النضار انواعاً . وصار بينهم ملكاً مطاعاً . فمذ ايس انخداعهم نهض . وقال في غد ينقضي المرض . فقلت يا من يمد في العلم باعاً . ورفع في الفضائل شراعاً . اترجو لمن عانيت انصلاحاً . او ترى لمزاجه صلاحاً . فقال : سبحان من خلق الناس طباعاً . اما صاحبت من عاج وادعى . فاستتلى استيلاء الخفوت ساعة الحصور . فاسرع فقدان ان يبور وينادي بالويل والثبور .

فقـال الراوي : فتفرقنـا شغر بغر . وقد بلغت الارواح النفر .

الف ليلة وليلة عند مترجميها

الحياة العربية في العصور الوسطى
دراسات من الف ليلة وليلة

تاليف

ادوارد وليام لين(*)

ترجمة الدكتور

يحيى الجبوري

الاستاذ بجامعة قطر

السحر

ان الاعتقاد الراسخ بالسحر مقبول من غالبية المسلمين ، والذي ينكر حقيقة السحر بينهم يعتبرونه متشككا او كافرا . ان بعضهم يرى ان السحر قد ابطل عند بعثة النبي ، ولكن هؤلاء قليلون نسبيا . لقد درس كثير من المثقفين المسلمين في العصر الحاضر السحر بتعمق وامعان ؛ كما انفق عدد كبير من الناس من ذوي الثقافة الدنيا (وخاصة من معلمي المدارس) كثيرا او قليلا من وقتهم وذكائهم لمتابعة هذه المعرفة ؛ كي يستعينوا بها على اكتشاف الكنوز الدفينة ولاغراض السيمياء(**) ، ومعرفة انباء الغيب ، وللحصول على الذرية ، ولكسب المحبة والف النساء ؛ وللتأثير في العلاج والشفاء ، وللحماية من أثر العيون الشيطانية الشريرة ، وابتلاء او قتل اي عدو او منافس ، ولادراك مختلف الأغراض او الرغبات الاخرى .

هناك وصفان للسحر : واحد روحاني ، وهو مبجل من قبل الجميع عدا المتشككين بصدقه ، والآخر طبيعي ، وهو منهم ومفضوح من اكثر المتدينين الورعين والمثقفين على انه غش وخداع .

اولا ــ السحر الروحاني : ويعتمد بصورة رئيسة على تأثير اسماء الله الحسنى ، وقد ورد ذكره في القرآن ؛ ووسيلته الملائكة والجن . وهو على نوعين : علوى وسفلى ، او رحمانى (اى نسبة الى الرحمن) وشيطاني .

يعتبر السحر الرحماني علما سنيا ، ويدرس من قبل الناس الأخيار فقط ؛ ويستعمل لأغراض الخير وحسب ، ان القداسة في هذا الفرع من السحر متأتية من معرفة اسم الله الاعلى (الاسم الأعظم) ؛ الا ان هذه المعرفة لا تعطى لاحد الا للخاصة من احباب الله . وقد استطاع سليمان ان يسخر لسلطانه الجن والطير والريح بقوة الاسم الاعظم المنقوش على فص خاتمه ؛ وكذلك وزيره

(*) من اعمدة الاستشراق الانكليزي . ولد سنة ١٨٠١ وتوفى سنة ١٨٧٦ . وخلال وجوده في القاهرة كان يدعى (منصور افندي) . وفي مصر اتقن اللغة العربية . واشتهر بمعجمه الانكليزي ــ العربي (مد القاموس) . وهو الذي ترجم الى الانكليزية الف ليلة وليلة ترجمة كاملة اعتمد في طبعتها الثانية على نسخة بولاق العربية ، واثقلها بتعليقات ضافية هدفها افادة القارىء الاوربي . وقد جمعت فيما بعد هذه التعليقات ، ونشرت في كتاب مستقل عنوانه The Arabian Society in the Middle Ages (المجتمع العربي في القرون الوسطى) وهو هذا الذي يجده القارىء نصب عينيه الآن (رئيس تحرير المورد) .

(**) الكيمياء القديمة .

آصف (عصف) الذي ما ان نطق بالاسم الأعظم حتى جاء في لمح البصر بعرش ملكة سبأ الى القدس في حضرة الملك سليمان(١) . وتعد هذه معجزة هينة نسبة الى ما في الاسم الاعظم من أسرار تبلغ الى حد احياء الموتى ؛ وكذلك الامر في بقية اسماء الله اذ لها خاصيات اخرى حين ينطق بها او يكتب ، وكذلك القول في أسماء النبي وأسماء الملائكة وأسماء صالحي الجن ، يقال انها جميعا تستجيب لأغراض السحر الروحاني بواسطة ابتهالات معينة . ويكون السحر بتلاوة هذه الأسماء مع ابتهالات وذكر كلمات غامضة بالنسبة لغير المطلعين على هذا العلم وقراءة آيات من القرآن مع مجموعة ارقام مبهمة واشكال هندسية غريبة وصور تكتب في الغالب مركبة على شكل رقية (حجاب) وتستخدم لأغراض الخير .

ان الرقية عندما تستعمل لأغراض الخير والاحسان ، فانها تحترم من قبل العامة على انها فرع حلال او سحر رحماني ، ولكنها ليست كذلك عند المتعلمين ، والملاحظة نفسها تطبق بالنسبة لعلم الغيب .

أما السحر الشيطاني ، فهو كاسمه يدل على علم يعتمد على وسيلة الشر وبامرة اشرار الجن ، الذين تحصل خدماتهم باستخدام وسائل كتلك التي تستخدم بالنسبة لصالحي الجن . وقد حرم النبي هذا النوع من السحر ، وذمه كل اتباع المسلمين ، لانه يمارس لأغراض سيئة .

ان المسلمين يحترمون بابل على انها مصدر علم السحر ، الذي كان ، وهو - على ما تظن العامة - ما يزال يعلم هناك للبشر من قبل ملكين هبطا من السماء اسمهما هاروت وماروت ؛ وهما محبوسان ومعلقان من قدميهما في بئر عظيمة اغلقت بكومة من الصخور ، وفي رواية حولهما تقبل بصورة عامة على انها صحيحة ، ان هذين الملكين نتيجة لرغبتهما في الرحمة جعلهما الله سريعي التأثر بعواطف البشر ، واهبطا الى الارض لممارسة السحر ، وكلاهما مذنب وقد اذن لهما أن يختارا العقاب في الدنيا او في الآخرة ، فاختارا الأولى . وقد أرسلا الى الارض ليمارسا السحر ويغويا الآخرين ايضا بتعليمهم السحر ؛ الا انهما قد امرا الا يعلما هذا الفن لاي مخلوق الا ان يخبراه بحقيقة هذا العمل ويحذراه منه « وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر »(٢) . ان المحدث المشهور مجاهدا يروى بأنه زارهما بدلالة شخص يهودي ، فانطلق به اليهودي حتى اتى موضعا فرفع صخرة فاذا هو شبه سرداب فقال اليهودي لمجاهد: انزل معي وانظر اليهما ولا تذكر اسم الله تعالى ، قال مجاهد : فنزل اليهودي ونزلت معه ولم نزل نمشي حتى نظرت اليهما وهما كالجبلين العظيمين منكوسين على رؤوسهما والحديد في اعناقهما الى ركبتيهما . فلما رآهما مجاهد لم يملك نفسه ان ذكر اسم الله تعالى ؛ قال فاضطربا اضطرابا شديدا حتى كادا يقطعان ما عليهما من الحديد فهرب مجاهد واليهودي حتى خرجا ؛ فقال اليهودي لمجاهد اما قلت لك لا تفعل كدنا والله نهلك(٣) .

الرقية - واسمها السحر ؛ غالبا ما عرفت بانها فرع من السحر الشيطاني ؛ ولكن قسما قليلا من الناس يقول : لا بأس من ممارستها ، وهي عند بعض الناس تدرس مع الأمور الجيدة ، وتمارس بمعونة الجن الصالحين ، وبناء على ذلك فان هنالك علما هو السحر الجيد الذي ينبغي ان يحترم على انه فرع من السحر الالهي او السحر الحلال . يقال ان فاعلية هذا السحر تتم بواسطة التلفظ والابتهالات الموجهة الى الجن ويصاحب برش الماء او التراب وغيره على الشيء المقصود حتى يتغير ؛ ويمكن ان يتم سحر الناس بعدة طرق ؛ منها اصابتهم بالشلل او حتى بسلب الحياة منهم ، او بتأثير عواطف وانفعالات لا تقاوم لأجل اغراض معينة ، وقد يستطاع مسخ بعض الناس الى عفاريت ؛ وقد يحول آخرون الى حيوانات متوحشة ، او طيور ، او ما شابه ذلك .

ويعتقد ان العين الشريرة تسحر بقوة شديدة وبطريقة تورث الغم والكرب . ونسب الى النبي انه ذكر أثر العين(٤) ؛ وقد يعزى احيانا الى تأثير السحر كثير من الامراض او حتى الموت ، ان التمائم(٥) التي كثيرا ما تكتب فيها التعاويذ ، من

---

(١) سورة النمل ٢٧ / ٤٠ وتفسير الجلالين .

(٢) سورة البقرة ٢ / ١٠٢ .

(٣) القزويني ، رواية بئر بابل في كتابه عجائب المخلوقات.

(٤) انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٣٧ .

(٥) ان كلمة (Talisman) هو تحريف للكلمة العربية (طلسم) انا اكتب هذه الكلمة الاخيرة وفق الطريقة التي ينطق بها العرب عامة ، وهي الطريقة التي يكتبها شيخي ، ويكتبها بعضهم : طلسم (بكسر الطاء) و : طلسم (بكسر الطاء واللام المشددة) ،انها كلمة تستعمل للاشارات الخفية الغامضة ، وكذلك للاختام والصور وغيرها التي تنقش او تكتب ، وهذه الرموز هي علم التنجيم او نوع سحري آخر . ان الغاية المتوخاة من الطلاسم مختلفة ، احداها انيتوقى المرء سحر الآخرين، ←

النوع الذي وصف سابقا ، يلبسها كثير من المسلمين لأجل أن تمنع او تحفظ لابسها من السحر ، وللغرض نفسه تمارس عدة احتفالات وطقوس سخيفة مضحكة(*) .

اما علم الغيب الذي يطلق عليه اسم (الكهانة) فنذكره اوثق المراجع على انه فرع من السحر الشيطاني ، ولو ان بعض المسلمين لا يعتقدون به ، ووفق قول عن النبي ان ما يقوله المتنبئون يكون في بعض الاحيان صحيحا ، لان الجن تسترق السمع من السماء الدنيا لما يقوله الملائكة ويسمعون الاوامر التي قدرت في السماء ويحملونها الى المتنبئين ، وفي مثل هذه الحالات يرجم الشياطين بالشهب(٦) ، ويقال ان الكهنة تحصل على خدمات الشياطين هذه بفنون السحر ، وبواسطة اسماء يتوسلون بها ، وحرق البخور ، فيعلمون من الشياطين امورا غيبية ، لأن الشياطين قبل بعثة رسول الله كانوا يصعدون الى السماء ويتسمعون الى كلام الملائكة خلسة(٧) . ويظن ان اشرار الجن ما زالوا يصعدون الى السماء الدنيا ويأتون بأخبار الغيب الى السحرة في الأرض .

ان اكتشاف الكنوز المخبأة المشار اليها سابقا ، هي احدى الأغراض التي تدرس الكهانة لاجلها في الغالب ، ويتوصل اليها باسلوب الكهانة التي تعرف بضرب المندل ، ويظن انها تؤثر بمساعدة أشرار الجن ، ولكن اكثر المتنورين من المسلمين يحترمونها على انها فرع من السحر الطبيعي(٨) .

هنالك علم آخر ليس من السهل ان يصنف مع السحر الروحاني ، ولكنه ينبغي ان يوضع في منزلة بين هذا العلم وبين السحر الطبيعي ، ان هذا الفرع المهم من فروع الكهانة هو علم التنجيم، ويدعى علم النجوم ، ويدرس هذا العلم كثير من المسلمين في الوقت الحاضر ، ويستخدم في الغالب حين ينوون حسن الطالع كوضع اسس البناء او البدء بالسفر او ما شابه ، واكثر ما يستعمل هذا عند الفرس والاتراك . لقد ذكر النبي ان التنجيم ضرب من السحر(٩) .

والنوع الآخر من الكهانة هو ضرب الرمل(١٠) واسلوبه ان ترسم علامات معينة على الرمل (الذي اشتقوا التسمية منه) او على الورق ، وقيل انه يعتمد بصورة خاصة على علم النجوم .

ان العلم المعروف بالزجر او العيافة ، هو الضرب الثالث من الكهانة ، يعرف علم الغيب او الفال بصورة رئيسية من حركات واحوال او هيئات الطيور والغزلان وبقية حيوانات الطرد . وذلك ما كان يطلق عليه كلمة السانح ، وهو الحيوان الواقف او المار من جهته اليمنى نحو المشاهد ، وهذا يعني عند العرب فالا حسنا ، اما البارح ، فهو حيوان من هذا النوع الذي يمر على على جهته اليسرى بالنسبة للمشاهد ، وكانوا يعتبرونه نذير شؤم(١١) .

القيافة : تحت هذا الاسم تندرج معرفة الطالع من قراءة خطوط الكف والعلوم المتفرعة عنه ، وهو الضرب الرابع من الكهانة . اما التيمن او التفاؤل فهو بصورة خاصة نوع جيد ، ويكون التفاؤل من الاسماء او الكلمات التي تسمع مصادفة او تقرأ في كتاب .

ان اخذ الفال او قراءة الطالع من القرآن يعتبر بصورة عامة امرا حلالا . وقد تكون بعض الاحداث الطبيعية البسيطة مصدر تشاؤم ، ومثالا على ذلك ان احد الخلفاء اراد الغزو فاستشار المنجمين فأخبروه ان ينتظر سقوط الثريا وتفرقها وكان الوقت شتاء وعليه ان ينتظر الى الصيف وقت نضج التين والعنب ويكون عندئذ النصر بهذه العلامات ،ولكن الخليفة خالفهم وتقدم واحرز النصر(١٢) .

اما تفسير الاحلام ، والعبارة المستعملة (تعبير المنامات) فيجب ان تصنف ايضا ضمن فروع هذا العلم . ووفقا لقول النبي ان الفرع

وبصورة خاصة يكون حرزا ضد الحوادث ، او نوعا من الشرور ،وثانيها ان يصون الكنز مع من اودعه ، وثالثها بوساطة فركه يحصل على حضور وخدمة الجني .

(*) لعل المؤلف يشير الى احتفالات الزار عند عوام المصريين

(٦) انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٢٨٤ .

(٧) رواية عن العرب الجاهليين في مرآة الزمان .

(٨) بعض الاجراءات الغريبة لهذا النوع بواسطة مرآة الحبر السائلة ، وقد وصفت ذلك في كتابي (بيان اساليب وعادات المصريين المحدثين) فصل ١٢ ، وفي العدد ١١٧ من مجلة كوارترلي Quarterly review .

(٩) مشكاة المصابيح ٢/٢٨٥ .

(١٠) او ضرب الرمل (بفتح الميم) ويسمى ايضا علم الرمل، هناك عدة رسائل في علم الرمل كتبها كتاب شرقيون ، ولكني لم اطلع على واحدة منها ، ولم ار رقعة النجوم ، وانما رايت فقط طريقة التنجيم تجري على الورق ، ان اختراع هذا العلم ينسبه بعضهم الى ادريس ، وينسبه آخرون الى دانيال او الى حام بن نوح ، ويعزوه غيرهم الى هرمس الماجسطي .

(١١) مرآة الزمان ١/١ .

(١٢) الاسحاقي في روايته عن حكم المعتصم بن هارون .

التوحيد من الكهانة الذي يستحق ان يوثق به هو الاحلام الصادقة ، وقال : انها جزء من النبوة ، ولا شيء غيرها من النبوة ، الاحلام الصادقة من عند الله والفاسدة من الشيطان . عندما يجد احدكم حلما رديئا ليبصق ثلاث مرات عن جانبه الأيسر وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثا . وينقلب من الجانب الذي كان عليه الحلم الى الجانب الآخر(١٢) . وهذه القاعدة يتبعها كثير من المسلمين. وعلى العموم فانهم يعتمدون على الأحلام تماما . فقد تكون في بعض الاحيان وسائل لحسم القضايا المتنازع عليها في التاريخ والعلم . ان رؤية اي شيء أخضر في الحلم او ابيض او الماء ، يعتبر مباركا ، واي شيء اسود او احمر او نار ، يعتبر مشؤوما منحوسا .

هذا الاعتقاد الراسخ بالاحلام ، ستوضحه الحكاية الآتية ، حيث حكاها لي في القاهرة الشيخ محمد الطنطاوي الذي استقصى حقيقتها وتاكد من صحتها بعد فترة قصيرة من الطاعون الفظيع الذي حل سنة ١٨٣٥م :

ان تاجرا يعيش في الربع الحنفي من القاهرة ، حلم اثناء ذلك الطاعون ان احد عشر شخصا قد حملوا من بيته ليدفنوا في خارجه ضحايا لهذا المرض ، فاستيقظ في حال حزن شديد ورعب ، مفكرا ان اولئك الاحد عشر شخصا هم مجموع عدد سكان البيت بما فيهم هو نفسه ؛ وسيكون من العبث ان يحاول اضافة واحد او اكثر الى اعداد الساكنين في بيته ليتفادى مشيئة الله ويعطي نفسه فرصة للهرب ، ولذلك دعا جيرانه جميعا ، واعلمهم بالحلم الذي رآه ، وكانوا قد نصحوه بالرضوخ والتسليم للقدر المحتوم ببساطة ، وان يشكر الله الذي انذره في الوقت المناسب مع ما كان من فضل رحمته . وفي اليوم الثاني مات احد اولاده ، وبعد يوم او يومين ماتت زوجته ، واستمر الوباء يعبث في اسرته حتى لم يبق في البيت غيره . وكان من المستحيل عليه الآن ان يقبل باقل شك في صحة الرؤيا وحتمية الانذار ، ولذلك فبعد آخر وفاة من ساكني الدار مباشرة ، اجتمع الى صديق في الدكان المجاور وقال له ولعدة اشخاص آخرين من الدكاكين المجاورة والمقابلة ، انه ينبههم الى الحلم الذي رآه، واخبرهم بتحقق هذا الحلم كاملا ،وعبر عن اعتقاده بانه هو الشخص الحادي عشر الذي يجب ان يموت قريبا جدا . وقال : « ربما سأموت في هذه الليلة القادمة ، لذلك فأرجوكم بحق الله ان تأتوا غدا الى بيتي مبكرين ، وفي صباح اليوم التالي والذي بعده للضرورة ، لتروا اذا كنت قد مت ام لا . وعندما اموت ، فاني اريد ان ادفن دفنا لائقا ، ولاني وحيد ليس معي من يغسلني ويكفنني ، فلا ترددوا في تقديم هذه الخدمة ، وستنالون ثواب ذلك في الآخرة . لقد اشتريت كفني ، وستجدونه في زاوية الغرفة التي انام فيها ، واذا وجدتم باب البيت مقفلة وانا لا اجيب اذا طرقتم الباب فاكسروا المزلاج وافتحوا الباب » .

وحالما غربت الشمس رقد في سريره وحيدا، ولو انه لا يتوقع ان تغتمض عيناه ، لأن ذهنه كان مستغرقا في توقعات انتقاله الرهيب الى العالم الآخر ، ومحاسبته على حياته السابقة ، وحين احاط به ظلام الليل تصور على الاغلب انه قبض ، وشيء خافت او آخر في غرفته القاتمة ، انه شخص ملك الموت المرعب ، وقد شعر حقيقة بصوت انزلاق الباب وبشخص يتقدم نحو فراشه، فتجمد من هول الرعب ثم هتف : « من هذا » فأجاب صوت عبوس مهيب : « اسكت ، انا عزرائيل ملك الموت » فصرخ الرجل المفزوع : « ويلاه ، اشهد ان لا اله الا الله ، واشهد ان محمدا رسول الله ، لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم انا لله وانا اليه راجعون » ، ثم غطى نفسه بلحافه يحتمي به ، وسكن دون حراك ، وقلبه يخفق ، يتوقع في كل لحظة ان تنتزع روحه من قبل هذا الملك الذي لا يرحم . ومرت لحظات ودقائق ، وساعات ، وهو على هذه الحال ، دون اي امل في الخلاص من هذه التجربة ، لانه تصور ان الملك ينتظره ان يسلم نفسه ، او انه تركه الى حين ، وكان قد انشغل اولا بازهاق ارواح مئات البشر الذين حضر اجلهم في تلك الليلة وفي المدينة نفسها ، وارواح الآلاف الذين عليه ان يقبض ارواحهم في اماكن اخرى .

وحان طلوع النهار قبل ان تنتهي معاناته . وقد جاء جيرانه وفقا لوعدهم ، دخلوا غرفته ، فوجدوه ما زال في فراشه ، وقد لاحظوا انه قد تغطى وبلا حراك كانه جثة ، وشكوا فيما اذا كان ما زال حيا ، فنادوه ، فأجاب بصوت خافت ضئيل : « انني لم امت بعد ، ولكن ملك الموت جاءني في ظلام الليل ، واتوقع ان يعود في اية لحظة ليأخذ روحي ، ولذلك فلم تنته مشكلتي بعد ، فانتظروا لغسلي ودفني » فقال اصدقاؤه : « لكن لماذا ، هل تركت باب الدار مفتوحا » قال : « لقد اقفلته ، وربما فتحه ملك الموت » ، فقالوا :

---

(١٢) مشكاة المصابيح ٢٨٨/٢ .

« وكيف ؟ هل هو في ساحة الدار » قال : « اني اعرف ان لا احد في الدار . ولكن ربما كان ملك الموت الذي ينتظر لأخذ روحي جعل نفسه مرئيا لكم واخطأتم في عتمة الفجر على انه رجل » . قالوا : « انه لص ، اللص الذي اخذ كل شيء استطاع ان يحمله ،وقد اصيب بالطاعون بينما هو يسرق ، وهو ساقط الآن ميتا في باحة الدار عند عتبة السلم ، ممسكا بيده الشمعدان الفضي » فلما سمع صاحب الدار هذا . تأنى لحظة ، ثم رمى عنه نحافه وهتف : « الحمد لله رب العالمين ، ذلك اللص هو الحادي عشر ، وقد نجوت ، لاشك انه كان ذلك المحتال الذي جاءني في الليل وادعى انه ملك الموت . الحمد لله ، الحمد لله » .

لقد نجا هذا الرجل من الطاعون ، وكان مسرورا حين صار يقص هذه القصة . وان اللص استمع خلسة الى محادثته مع جيرانه . وجاء الى بيته في الظلام ، ودفع الباب الخشبي بكتفه فأزاح المزلاج من مكانه . ليس هناك شيء عجيب في الحلم ، ولا في نهايته ، فان طاعون سنة ١٨٣٥م قد قضى على كثير من البيوت وجعلها موحشة من اهلها ، وغالبا ما كان النحس على الصغار وكان سكان البيوت يتساءلون هل سيبقي الله احدا من الصغار .

ويحسن هنا ان نذكر التمييز بين الايام السعيدة المباركة وغير السعيدة المنحوسة . ان يومي الخميس والجمعة – وخاصة الجمعة – يعتبران مباركين ، الاثنين والاربعاء مشكوك فيهما الاحد والثلاثاء والسبت – وخاصة الاخير – ايام غير مباركة . يقال ان هناك سبعة ايام سيئة في كل شهر قمري ، وبصورة خاصة الثالث حيث قتل فيه قابيل اخاه هابيل ، والخامس الذي اخرج الله فيه آدم من الجنة ، واصيب فيه قوم يونس ، وقذف يوسف في الجب . اما الثالث عشر ففيه اباد الله ثروة ايوب ، وامتحنه ، وازال الملك من سليمان ، وفيه قتل اليهود الأنبياء . اليوم السادس عشر ، اهلك الله فيه ومحق قوم لوط ، ومسخ ثلاثمائة من النصارى الى خنازير ومن اليهود الى قردة ، وفيه شطر اليهود زكريا بالمنشار الى شطرين ؛ اليوم الحادي والعشرون ولد فيه فرعون ؛ وفيه اغرق ، وفيه اصيب قومه بالطاعون . اليوم السابع والعشرون قتل فيه نمرود سبعين امرأة ، وفيه رمى ابراهيم الخليل في النار وفيه ذبحت ناقة صالح . اليوم الخامس والعشرون ارسلت فيه الريح المهلكة على قوم هود(١٤) .

ثانيا : السحر الطبيعي الذي يعرف بالسيمياء ، وهو موضع اهتمام اغلب الاشخاص من مثقفي المسلمين : كما يهتمون كذلك بفن الحيل وخفة اليد ، ويبدو هذا منسجما مع السحر . لانه يؤثر في ظهوره كما يقولون ، ويثير خيالات ورؤى مبدعة مثيرة اقرب الى التخدير ؛ او تعاطي بعض المخدرات لانها وسيلة رئيسية في احداث التخيلات ، ولذلك كان البخور شيئا مهما عند اجراء هذه العمليات .

ومثل هذه الاشياء تستخدم في نوع آخر يعرف بـ (ضرب المندل) ، ويجدر بنا ان نذكر أن هذه المهارات تعتبر عند الكثير مؤثرة بواسطة السحر الطبيعي ، ولو ان الذي ذكرناه سابقا كان ذا علاقة بأشرار الجن ؛ ويكون للبخور دور هام فيه . اما الكيمياء فانها فرع من السحر الطبيعي ، وان كثيرا من المسلمين في الوقت الحاضر يدرسونها ؛ وكذلك يفعل بعض النابهين والعلماء .

ان اشهر السحرة الذين حصلوا على سمعة واسعة في مصر خلال فترة المائة سنة الأخيرة كان الشيخ احمد صادومة الذي عاش حوالي اكثر من سنة مضت(١٥) . روى لي عدة اشخاص من القاهرة ، اناس من النابهين وذوي التعليم الجيد مختلف القصص العجيبة لخوارقه ؛ يروون ذلك عن شهود عيان من ثقات الناس ، ولكن الرواية الاكثر تصديقا عن هذا الساحر تلك التي وجدتها عند مؤرخ ممتاز لتاريخ مصر الحديث ، يذكر هذا المؤلف ان الشيخ صادومة رجل مسن وقور المظهر ، تحدر اصله من مدينة سمنود في الدلتا ؛ وقد اكتسب شهرة واسعة وعظيمة جدا لعلمه بالسحر الروحاني والطبيعي ، ولتمكنه من مخاطبة الجن وجها لوجه ، ولاستطاعته ان يظهر الجن للاشخاص الآخرين وحتى للعميان منهم ، والناس الذين اطلعوا عليه عرفوه مؤرخا ؛ يقول هذا الكاتب : ان معاصريه على اختلاف آرائهم يحترمونه ، ومن هؤلاء النحوي المشهور والعالم الشيخ حسن الكفراوي الذي كان يجله على انه ولي من الدرجة الاولى ؛ وكلام هذا الرجل له تأثيرات كأنها (البراعة والسحر الطبيعي) ووصف سمعته بأنها تزداد حتى كانت تستميل الذين يمرون بامتحان النحس .

(١٤) الاسحاقي ، انهى روايته في حكم الامين .
(١٥) كتبت هذا في سنة ١٨٣٧م .

ان يوسف بك زعيم المماليك ، راى بعض معالم السحر مكتوبة على جسم احدى محظياته ؛ فملأه الغضب والحسد ، وامرها ان تخبره عمن فعل هذا بجسمها ،وهددها بالقتل ان لم تصدقه؛ فاعترفت له بان امراة اخذتها الى الشيخ صادومة ، وهو الذي كتب هذا الطلسم حتى يجذب لها حب سيدها ، وعندما سمع هذا ، ارسل على الفور بعض الحاضرين ليقبضوا على الساحر ويقتلوه ثم يرموه في النيل جزاء له على فعلته(١٦). ولكن الطريقة التي قبض بها عليه ، كما رويت لي من قبل احد اصدقائي ، تستحق ان تذكر : فعدة اشخاص يجازفون واحدا بعد الآخر ويحاولون ان يقبضوا عليه ، ولكن كل يد تمتد اليه لتمسكه تصاب بالشلل حالا ، لأن الشيخ يتلفظ بدمدمة من السحر ، حتى استطاع رجل كان يقف بجانبه ان يضع كمامة على فم الشيخ ، وعندها تعطل سحره.

من القصص التي رويت لي عن معجزات صادومة ، القصة التالية التي سنجعلها مثالا لسحره : لقد دعاه احد اصدقائه ليخرجا يتمشيان بعيدا ، فذهبا حوالي نصف ساعة مشيا في صحراء شمالي القاهرة ، وهناك جلسا سوية على ارض سهلية فيها رمل وحصى ، فتمتم الساحر بالفاظ ، فوجدا نفسيهما فجأة وسط حديقة ، كأنها من حدائق الجنة ، مشتملة على الأزهار واشجار الفاكهة من كل نوع ، واكتست الأرض بخضرة نضرة زاهية كأنها الزمردة ، وسقيت بمختلف الجداول العذبة الجارية ،ومدت لهما وجبة طعام من الذ المأكولات من لحوم وفاكهة وشراب ، اعدتها ايد غير مرئية ،واكل كلاهما حتى شبعا ، وتناولا جرعات وافرة من مختلف انواع الشراب . واخيرا غرق ضيف الساحر في نوم عميق ، وعندما صحا وجد نفسه ثانية في الارض الرملية ذات الحصى مع صادومة الذي ما زال الى جانبه .

من المحتمل ان القارىء سيعزو هذه الرؤيا الى فعل الافيون او بعض المخدرات المشابهة ، كما افترضت انا ، لاني لا استطيع ان اشك في نزاهة الرواية ، لانه لا يرضى بمثل هذا التفسير ؛ معتبرا كل الرواية قضية سحر من عمل وتاثير الجن.

الجن والشياطين DEMONOLOGY

المسلمون بعامة يؤمنون بثلاثة انواع مختلفة من المخلوقات العاقلة : الملائكة الذين خلقوا من النور ، والجن الذين خلقوا من النار ، والناس الذين خلقوا من التراب . الصنف الأول يدعى الملائكة (المفرد ملك) ، والثاني الجن (المفرد جني) والثالث الانس (المفرد انسي) يعد بعض المؤلفين ان الشياطين هم صنف مختلف عن الملائكة والجن؛ ولكن الراي الاكثر انتشارا والذي يطمئن اليه في اوثق المراجع ، هو انهم جن متمردون .

يقول القزويني : « يعتقد ان الملائكة من جوهر بسيط وهبوا مع الحياة النطق والعقل ، وهذا هو الفرق بينهم وبين الجن والشياطين ، وهو فرق في المرتبة . » ويضيف : « اعلم ان الملائكة قد طهروا من الرغبة الجسدية والميل الشهواني ، ونوازع الغضب ، يطيعون الله فيما يامرهم ، ولا يفعلون الا ما يؤمرون . طعامهم التسبيح بمجده ، وشرابهم بيان قدسه ؛ واحاديثهم حمد الله سبحانه ، وفرحتهم في عبادته ، لقد خلقوا باشكال مختلفة وبقوى متغايرة ان بعض الملائكة يوصف بانه يتخذ شكل المخلوقات المرئية . اربعة منهم ملائكة الطبقة العليا ، هم : جبريل ، ملك الوحي ، وميكائيل (ميشيل) ولي الاسرائيليين ، وعزرائيل ملك الموت ، واسرافيل ملك النفير ، حيث ينفخ في الصور مرتين ، او كما يقول البعض ثلاثا في نهاية العالم ـ نفخة واحدة ستمحق كل المخلوقات (بما فيهم اسرافيل نفسه)، ونفخة أخرى ، بعد اربعين سنة (ويبعث مرة ثانية لهذا الغرض مع جبريل وميكائيل) تبعث الموتى .

وتدعى هذه الطبقة من الملائكة ايضا ملائكة الرسل ، وهم ادنى مرتبة في المقام من الانبياء البشر والرسل ، ولو انهم ارفع منزلة من بقية الجنس البشري : ان الطبيعة الملائكية تعد ادنى مرتبة من الطبيعة البشرية ، لأن كل الملائكة قد امروا ان يسجدوا لآدم . وكل مؤمن يلازم بملكين حارسين يسجلان اعماله ، الاول الذي عن يمينه يكتب أعماله الصالحة ، والآخر الذي عن شماله يكتب سيئاته ، وفي راي ، ان عدد هؤلاء الملائكة هو خمسة ، او ستون ، او مائة وستون ، وهناك ملكان ايضا ، يقال لهما منكر (ناكر في العامية) ونكير ، اللذان يستجوبان كل الموتى ، ويعذبان الآثمين في قبورهم .

اما صنف الجن فيقال انهم خلقوا قبل آدم ببضعة آلاف من السنين ، ووفق حديث عن الرسول ان هذا الصنف يتكون من خمس طبقات، هم : الجان (وهؤلاء اقل قوة من الجميع) ، والجن ، والشياطين ، والعفاريت ، والمردة ،

(١٦) تاريخ الجبرتي ، رواية موت يوسف بك في سنة ١١٩١هـ ورواية موت الشيخ حسن الكفراوي في سنة ١٢٠٢هـ .

والآخرون هم الاعظم قوة ، والجان جعلوا جنا ، كما مسخ بعض الناس قردة وخنازير[١٧] . وعلى اية حال يجب ان يلاحظ هنا بان لفظتي الجن والجان تستعملان بصورة عامة بدون تمييز كاسمين لكل الاصناف (بضمنهم الاصناف الاخرى المذكورة سابقا) سواء اكانوا صالحين ام اشرارا . والكلمة السابقة هي الاكثر شيوعا ، وان كلمة الشيطان كذلك تستعمل غالبا لتدل على كل جني شرير . والعفريت هو جني شرير قوي . والمارد جني شرير من طبقة اعظم قوة . ويدعى الجن (وغالبا ما يراد الأشرار منهم) في الفارسية : ديف Deevs والجن الأعظم قوة في الشر ناراس Narahs (حيث يعني « الذكور » ولو انهم يقولون يكونون ذكورا واناثا) ، اما الجن الصالح فهو بريز Perees وتستعمل هذه الكلمة على الاكثر للاناث .

وفي حديث للنبي يقول فيه (بما معناه) : لقد خلق الجان من نار غير ذات دخان[١٨] وتستعمل كلمة الجان في بعض الأحيان اسما لابليس ، كما في الآية الآتية من القرآن : « والجان خلقناه من قبل من نار السموم »[١٩] ، (الجان : ابو الجن اي ابليس خلقناه من قبل : اي من قبل خلق آدم ، سموم : نار بلا دخان) . وتعني كلمة الجان ايضا « الحية » كما في سورة اخرى من القرآن[٢٠] ، واستعملت كلمة الجان في القرآن كذلك مرادفة للجن[٢١] . وفي المعنى الأخير يعتقد غالبا بانها استعملت في الحديث استشهادا على اول هذه الآية . هنالك عدة احاديث ظاهرة الاختلاف عن النبي حيث توفق بين ما قرر اعلاه ، في أحد الاحاديث يقال ان ابليس كان ابا لجميع الجان والشياطين[٢٢] ، والجان هنا مرادفة للجن؛ وفي حديث آخر : ان الجان كان ابا لجميع الجن[٢٣] ،وقد استعمل الجان هنا اسما لابليس.

يقول القزويني ، مؤلف من القرن الثالث عشر : « لقد اعتبر ان الجن حيوانات هوائية باجساد شفافة ، حيث تستطيع ان تتخذ اشكالا مختلفة ، والناس مختلفوا الراي في احترام هذه الكائنات ، ان البعض يعتبر الجن والشياطين مخلوقات متمردة ، وهؤلاء هم المعتزلة (فرقة من المسلمين المتنورين)(*) ويرى آخرون ان الله جل جلاله ، خلق الملائكة من ضوء النار ، والجن من لهيبها (الا ان هذا مخالف للراي السائد) ، والشياطين من دخانها ، (ويختلف ايضا عن الراي السائد) ، وكل هذه المخلوقات في العادة غير مرئية للناس[٢٤] ، ولكنهم قد يظهرون باي شكل يريدونه ، وحينما يتجسدون بأشكال يصبحون عندئذ مرئيين » . هذه الملاحظة الاخيرة تصور اوصافا متعددة للجن في (الف ليلة وليلة) حيث شكل المارد اولا غير معين ، او يشبه العود الهائل، ثم بعد ذلك يظهر بالتدريج بهيئة انسان حجمه اقل ضخامة .

يقال ان الله سبحانه خلق الجان (او الجن) قبل آدم بالفين من السنين (او على ما يقول بعض الكتاب اكثر من ذلك) ، ولذلك فهناك مؤمنون وكافرون ، وفيهم فرق وطوائف كالذي عند البشر[٢٥] . هناك من يقول ان نبيا اسمه يوسف قد ارسل الى الجن ، وآخرون يقولون بل لديهم فقط وعاظ ومنذرون ، وقالوا ايضا ان سبعين نبيا قبل محمد قد ارسلوا الى الجن والانس على السواء[٢٦] . ان الاعتقاد العام بان الجن قبل آدم كانوا قد حكموا باربعين (وفي رواية اثنين وسبعين) ملكا ، وقد اعطى الكتاب العرب لكل ملك اسم سليمان (Solomon) ، وقد اشتقوا لسميتهم

(١٧) مرآة الزمان (مخطوط في حيازتي) تاريخ كبير عاش مؤلفه في القرن الثالث عشر ، انظر ايضا القران سورة المائدة ٦٠/٥ قوله تعالى : « قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت اولئك شر مكانا واضل عن سواء السبيل » .

(١٨) مرآة الزمان ، وسورة الرحمن ١٤/٥٥ « وخلق الجان من مارج من نار » ، الكلمة التي تفيد (نارا بلا دخان) قد اسيء فهمها من قبل البعض على انها (شعلة من نار) ، وقد وضعها الجوهري (في الصحاح) بشكلها الصحيح ، وقال : ان هذه النار كانت هي التي خلق منها ابليس .

(١٩) سورة الحجر ٢٧/١٥ ، وتفسير الجلالين .

(٢٠) سورة النمل ١٠/٢٧ « والق عصاك فلما رآها تهتز كانها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف اني لا يخاف لدي المرسلون » .

(٢١) سورة الرحمن ٣٩/٥٥ ، ٧٤ « فيومئذ لا يسال عن ذنبه انس ولا جان » ، « لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان » ، وتفسير الجلالين .

(٢٢) حديث عكرمة عن ابن عباس في مرآة الزمان .

(٢٣) حديث مجاهد في المصدر نفسه .

* ان بعض ما بين قوسين، من اضافات لين بول - Lane Poole حفيد المؤلف ، وبعضها الاخر للمؤلف نفسه . وما سبق بكلمة (قلت) في الهامش فهو من ايضاحات وتعليقات المترجم .

(٢٤) لهذا سموا (جنا) و (جانا) . قلت : يريد ان اشتقاق الاسم جاء من جن الشيء اذا ستره واخفاه فهو مستور عن الرؤية غير منظور .

(٢٥) حديث عن النبي في مرآة الزمان .

(٢٦) المصدر السابق .

مسن هذا الاخير الذي كان يدعى جان ابن جان ، وهو كما يقول بعضهم ، الذي بنى اهرامات مصر . وقد جاءت الرواية الآتية عن الجن قبل زمن آدم عند القزويني : « يروى في التواريخ ان سلالة الجن في الزمان القديم ، قبل خلق آدم ، قد سكنت الارض وملأتها برا وبحرا ، سهلا وجبلا ، وكان فضل الله عليهم كثيرا ، وكانت لهم حكومة ونبوة ودين وشريعة ولكنهم خالفوا واذنبوا وعصوا انبياءهم ، وعثوا في الأرض مفسدين ، فأرسل الله سبحانه عليهم جيشا من الملائكة فملكوا الأرض وطردوا الجن الى اماكن من الجزر وسجنوا كثيرا منهم ، ومن هؤلاء الذين سجنوا كان (عزازيل) (سمي بعد ذلك ابليس من ابلاسه اي يأسه) ، وقد اعمل الذبح فيهم . وكان عزازيل في ذلك الوقت صغيرا ، وشب وسط الملائكة (ومن المرجح لهذا السبب ان عد واحدا منهم) ، واصبح متعلما بعلمهم ، وتقلد حكومتهم ، وقد امتدت ايامه حتى اصبح رئيسهم جميعا ، واستمر هذا لزمن طويل ، حتى ظهرت القضية بينه وبين آدم ، كما قال الله سبحانه: « واذ قلنا للملائكة اسجدوا(٢٧) لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن »(٢٨) .

ويخبرنا مؤلف آخر بان « ابليس قد ارسل سلطانا على الارض ، وحاكما على الجن الاف السنين ، بعد ان ارتقى الى السماء وبقي يتعبد حتى خلق الله آدم »(٢٩) وكان اسم ابليس في الاصل عزازيل (كما تقدم) او كما يقول آخرون (الحارث) ، وكنيته ابو مرة او ابو الغمر(٣٠) . انه من المختلف فيه كون ابليس من الملائكة او من الجن ، وهناك ثلاثة آراء حول هذه المسألة :

١ ــ انه كان من الملائكة ، من حديث عن ابن عباس . ٢ ــ انه كان من الشياطين (او اشرار الجن) كما ذكر في القرآن « الا ابليس كان من الجن » ، وهذا راي الحسن البصري ، والمعتقد به عموما . ٣ ــ انه لم يكن لا من الملائكة ولا من الجن ، بل خلق وحده من نار . لقد بنى ابن عباس رايه على بعض الآيات التي ساقها الحسن البصري « واذقلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن » (المستشهد بها سابقا) ؛ حيث فسرها بقوله : ان انبل واشرف الملائكة يسمون (الجن) لانهم مجتنون (محجوبون) عن اعين الملائكة الآخرين بسبب سمو مقامهم ، وكان ابليس واحدا من هؤلاء الجن . ويضيف بأنه كانت له السلطة على جميع من في السماء ومن في الارض ، وكان يعرف بطاووس الملائكة ، وذلك انه لم يكن هناك موضع في السماء الا خاضعا له ، فلما تمرد الجن فيالأرض ، ارسل الله فريقا من الملائكة فساقوهم الى الجزر والجبال ، واصبح ابليس يتيه عجبا ورفض ان يسجد لآدم ، فمسخه الله الى شيطان . ولكن هذا التعليل يتعارض مع آيات اخرى ، حيث يمثل ابليس قائلا : « خلقتني من نار وخلقته من طين »(٣١) ، ولذلك يناقش : « اذا كان قد خلق من النار اصلا كيف يكون قد خلق من نور ، لان الملائكة كلهم قد خلقوا من النور »(٣٢) ، وربما فسر الحديث الآية السابقة بأن ابليس كان قد اخذ اسيرا ، وقد سمت مكانته بين الملائكة . او ربما كان هناك حذف بعد كلمة (ملائكة) لانه يجب ان يستنتج بان الامر الذي القي الى الملائكة كان من البديهي ايضا ان يطاع من قبل الجن .

ووفقا لرواية ، ان ابليس وكل الشياطين هم مميزون عن بقية الجن بوجودهم الاطول ؛ ويضيف : « ان الشياطين هم اولاد ابليس ، ولا يموتون الا معه ، بينما (بقية) الجن يموتون قبله »(٣٣) ولذلك فانهم يعيشون عدة قرون ، ولكن هذا لايتفق مع اعتقاد العامة : بان ابليس وعديد من اشرار الجن يبقون طيلة بقاء الجنس البشري ، الا انهم يموتون قبل النشور العام ، وكذلك الملائكة فان آخر من يموت منهم ملك الموت عزرائيل . وبعد فليس كل اشرار الجن يعيشون طويلا ، فان عددا منهم يقتلون بالشهب التي ترجمهم بها السماء ، ولذلك فان العرب عندما يرون شهابا منقضا غالبا ما يهتفون : « اللهم ارجم اعداء الدين » ، وكذلك يقتل بعضهم من قبل الجن نفسه ، وحتى البشر يقتل قسما من الجن . ان النار التي خلق منها الجني تجري في شرايينه مكان الدم ولذلك عندما يصاب الجني بجرح مميت ، فان هذه النار تخرج من شرايينه وغالبا ما تهلكه وتحيله الى رماد .

والجن ، كما رأينا فيما سبق ، غير معصومين عن الخطأ ، يأكلون ويشربون ، ويكثرون

(٢٧) السجود هنا ليس عبادة ، بل هو انحناء وخضوع لكائن متميز .

(٢٨) سورة الكهف ٥٠ .

(٢٩) الطبري ، رواية عنه في مراة الزمان .

(٣٠) مراة الزمان .

(٣١) سورة الاعراف ١٢ ، وسورة ص اية ٧٦ .

(٣٢) مراة الزمان .

(٣٣) الحسن البصري في مراة الزمان . ان الزيادة التي اضفتها للنص (بقية) تستنتج من وجهة نظره دون ان يذكرها .

نوعهم في بعض الاحايين بالاتصال بالجنس البشري ، وبالطريقة الاخيرة فان النسل يشترك بطبيعة كل من الوالدين ، وهم يختلفون عن الملائكة في كل هذه الصلات ، ويتميز من بين اشرار الجن خمسة اولاد من ابناء رئيسهم ابليس ، هم : تير ، الذي يجلب المصائب والخسائر والاضرار ، والاعور ، الذي يحرض على الدعارة والفجور ، وسوط ، الذي يحث على الكذب ، وداسم ، الذي يسبب الكراهية بين الزوج والزوجة ، وزلمبور ، الذي يشرف على اماكن الريبة والشبهة(٢٤) .

اما الاشكال الاكثر شيوعا ، والمساكن او الاماكن التي يلجأ اليها الجن ، فيجب ان نصفها الآن ، الأحاديث الآتية عن النبي هي التي تفي بالغرض اكثر من غيرها مما رأيت ، للجن اشكال وهيئات مختلفة ، فهم يتخذون شكل الأفاعي ، والعقارب ، والأسود ، والذئاب ، والثعالب ، وغير ذلك(٢٥) . والجن ثلاثة انواع : نوع على الأرض ، وآخر في البحر ، والثالث في الهواء(٢٦) . ويتألف الجن من اربعين فرقة ، كل فرقة تتألف من ستمائة الف(٢٧) . والجن ثلاثة اصناف ايضا : صنف له اجنحة ويطير ، والآخر الافاعي والكلاب ، والثالث ينتقل من مكان الى آخر كالناس(٢٨) ، ويؤكد المصدر نفسه ان الحيات المنزلية هي من الجن(٢٩) . لقد امر النبي اصحابه ان يقتلوا الافاعي والعقارب اذا دخلت على المصلين ، ولكن في حالات اخرى يبدو انه طلب اولا ان تحذر الحيات بالابتعاد ، وبعدها اذا مكثت ان تقتل . وعلى اية حال فالعلماء يختلفون في الراي فيما اذا كان (كل) اصناف الحيات والافاعي يجب ان تحذر اولا ، او ان (بعضا) منها يكون كذلك ، لان الرسول قال : عليهم ان ياخذوا ميثاق الجن (من الراجح بعد الامر المذكور سابقا) بان عليهم الا يدخلوا منازل المؤمنين ، لذلك يشترط عليهم اذا دخلوا فانهم ينقضون ميثاقهم ويكون قتلهم مشروعا بدون تحذير سابق . ومع ذلك فيروى ان عائشة زوجة النبي قد قتلت افعى في غرفتها ، وقد رات في الحلم شيئا يخيفها ، فخشيت ان تكون هذه الافعى جنية مسلمة لانها لم تدخل غرفتها عندما كانت خالعة ثيابها ، فتصدقت

(٢٤) القزويني ، رواية عن مجاهد .

(٢٥) مجاهد عن ابن عباس في مراة الزمان .

(٢٦) الحسن البصري ، المرجع السابق .

(٢٧) عكرمة عن ابن عباس ، المرجع السابق .

(٢٨) مشكاة المصابيح ٣١٤/٢ .

(٢٩) المصدر السابق ٣١١/٢ ، ٣١٢ .

عائشة باثني عشر الف درهم (حوالي ٣٠٠ باون) كفارة ، وهي دية دم مسلم(٤٠) .

يقال ان الجن يظهرون للناس على الاغلب على شكل حيات ، وكلاب ، وقطط ، واناس وفي الحالة الاخيرة ، حالة ظهورهم على شكل اناس فانهم احيانا يظهرون بهيئة رجال عاديين واحيانا بحجم مارد جبار . فاذا كان الجن من الصالحين ، فانهم يبدون بعامة جميلين وخيّرين ، واذا كانوا اشرارا يظهرون بشكل بشع مرعب مخيف . وانهم يكونون مرئيين او غير مرئيين حسب رغبتهم ، وبسرعة خاطفة يمتد ويتسع ، او يتخلخل الى ذرات حيث يتكون شيئا آخر ، او يختفي فجاة في الارض او في الهواء ، او حتى في الجدار الصفيق.

يعترف كثير من المسلمين في هذه الأيام[*] انه راى الجن وكان على صلة بهم ، والشاهد في الحكاية الطريفة الآتية التي حكاها لي شخص فارسي عرفته في القاهرة . اسمه ابو القاسم من اهل جيلان ، ويعمل ملاحظا في مطبعة محمد علي ببولاق .

ان احد مواطني هذا الرجل ، الذي اكد لي بانه رجل صادق دون شك . كان يجلس على سطح بيت كان قد استاجره ، اطل على جماعة وقد ازفت ساعة انتهاء النهار ، وهو على عادته يدخن غليونه الفارسي ويمتع عينيه بالنظر الى مجموعة فتيات هنديات يسبحن في النهر وحينما كان ينظر اليهن تعلق قلبه بواحدة جميلة جدا ، كان يتمنى بشدة ان يمتلكها وتكون زوجة له . وعندما حل الليل جاءت اليه تلك الفتاة وقالت له: انها قد عرفت عاطفته ، وانها ترضى ان تكون زوجة له ، ولكن بشرط ان لا يرضى لامراة اخرى ان تاخذ مكانها او تشاركها ، وانها ستكون معه في الليل فقط . واخذ كل منهما عهد الزواج على الآخر ، ولم يشهد على ذلك الزواج الا الله ، وكانت سعادته عظيمة . حتى كان عصر أحد الايام وراى مره اخرى جماعة من الفتيات يسبحن في النهر ، فاثارت احداهن فيه رغبة وهوى اشد قوة وما كان اشد دهشته حينما راى هذه الحسناء الساحرة تقف أمامه عندما اقترب الليل، وقد قاوم الاغراء ما استطاع متنبها الى عهد الزواج الذي قطعه لزوجته ، وقد حاولت بكل وسائل الاغراء والغواية ان تغريه ، ولكنه اصر

(٤٠) مراة الزمان .

* كتب المؤلف كتابه هذا في القرن التاسع عشر ١٨٨٢م وهو تاريخ الطبعة الاولى .

على ألتمتع . ثم قالت له زائرته الجميلة بانها كانت زوجته نفسها ، وانها جنية ، ولذلك فمن الان فصاعدا ستزوره في صورة اية انثى يرغب فيها او يشتهيها .

ان الزوبعة التي هي اعصار يرفع الرمل والتراب على شكل عمود في علو هائل ، غالبا ما تكنس الصحاري والحقول ، ويعتقد ان هذه الزوبعة تثار بسبب طيران جني شرير ، ولكي يحمي العرب انفسهم من هذا الجني الذي (يركب الريح) كثيرا ما يهتفون : (حديد ، حديد) او (حديد يا مشؤوم) لأن الجن شديدو الخوف من هذا المعدن ، او انهم يكبرون : (الله اكبر)(٤١) .

وخرافة مشابهة لهذه سائدة مع شعور بالهيبة لاعصار البحار الذي يسبب عمودا من الماء متجها نحو السماء كما يرى في مغامرات الملك شهريار في مدخل « الف ليلة وليلة » .

ان الوطن الرئيس للجن ، كما يعتقد ، هو في جبال (القاف) ، حيث يفترض انهم يحيطون بكل ارضنا . ويعتقد كذلك انهم ينفذون من خلال الاجسام الصلبة من ارضنا ومن الأجسام التي في السماء ، يختارونها مواطن اصلية يلجأون اليها ، او مواضع يفزعون اليها بين حين وآخر كالحمامات ، والآبار ، والأفران ، والبيوت الخربة ، والاسواق ، ومفارق الطرق والبحار ، والأنهار . ولذلك فان العرب حينما يسكبون الماء على الأرض ، او داخل الحمام او عندما يدلون الدلو داخل البئر ، وفي مختلف الحالات الاخرى ، يقولون : (دستور) ، أو (دستور يا مباركين)(٤٢). يقال ان الارواح الشريرة (او اشرار الجن) ؛ كانت لهم الحرية لدخول اي من السموات السبع حتى ميلاد المسيح ، حينما طرد ثلاثة منهم ، وعند ميلاد محمد منع اربعة آخرون(٤٣) . وعلى اية حال فقد استمروا يصعدون الى حدود السماء الدنيا ليسترقوا السمع الى حديث الملائكة وما قدر الله من امور ليطلعوا على امور الغيب ، ويطلعون احيانا بعض الناس على ما يعرف بالطلاسم او طلبات معينة يجعلونها تفي بانجازات سحرية . ان ما قاله النبي عن ابليس في الحديث الآتي ينطبق ايضا على اشرار الجن الذين يرأسهم: مسكن ابليس المفضل بين الناس في الحمام ، واماكنه المفضلة التي يلجأ اليها هي الاسواق ومفارق الطرق ، طعامه كل ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه ، شرابه كل ما يسكر ، اذانه المزمار ، قرآنه الشعر ، حروف خطه اشارات من ضرب الرمل(٤٤) . كلامه الزور والبهتان ، احبولته النساء(٤٥) .

وفي اعتقاد العرب الاولين ان ذلك النوع المعين من الجن يشرف على اماكن بعينها ، وقد جاء في القرآن : « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا »(٤٦) ، وفي تفسير الجلالين وجدت التعليق الآتي على هذه الآية : « كانوا اذا اتوا واديا للجن نادى منادي الانس الى خيار الجن ان احبسوا عنا سفهاءكم ، فلم يغنهم ما وعظوا به فزادوهم رهقا » . ولايضاح هذا عليّ ان اذكر الحديث الاتي مقتبسا عن القزويني : « انه مروى عن احد رواة الحديث انه ومن معه اضطروا الى المبيت الى جوار راعي غنم في واد ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فاخذ حملا من الغنم ، فوثب الراعي فقال : يا عامر الوادي انا جار دارك ، فنادى مناد لانراه : يا سرحان ارسله ، فاتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم » . ونفس هذا المعتقد موجود عند العرب المعاصرين ، ومن المرجح انهم لا يستعملون مثل هذا النداء . وخرافة مشابهة تلك هي عادة مصرية قديمة سهلة التصديق ما تزال سائده عند اهل القاهرة، فهم يعتقدون بان كل ربع من هذه المدينة له حارس تابع خاص من الجن له شكل الافعى Agathodaemon (٤٧) .

لقد ذكر من قبل ان بعض الجن مسلمون ، وآخرين مشركون ، فالجن الصالحون يؤدون ما عليهم من فروض دينية ، وبخاصة اقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، والصيام خلال شهر رمضان ، والحج الى مكة وصعود جبل عرفات ؛ الا انهم في اداء هذه الواجبات لا يظهرون للبشر ، فهم غير مرئيين(٤٨) .

ذكرنا ان بعض الناس يستطيعون ان يحصلوا على بعض الخدمات من الجن ، وذلك بواسطة الطلاسم (التمائم) وابتهالات معينة ،

---

(٤١) المصريون المحدثون ، الفصل العاشر .
(٤٢) المرجع السابق .
(٤٣) سال في تعليقه على السورة ١٥ من القرآن .

(٤٤) كذا ترجمت كلمة (خط) لكن عند السيوطي : نزهة المتامل ومرشد المتاهل القسم السابع وجدت في موضعه كلمة (وشم) ، وهنالك خلافات طفيفة اخرى وحذف من هذا الحديث المستشهد به .
(٤٥) القزويني : عجائب المخلوقات .
(٤٦) سورة الجن ٦/٧٢ .
(٤٧) المصريون المحدثون الفصل العاشر .
(٤٨) المصريون المحدثون ، فصل ٢٤ .

والأمر الذي يساعد به الجن الناس والسحرة منهم خاصة هو ان يطلعوهم على معرفة احداث المستقبل ، كما وضح سابقا .

لم يعط اي انسان دوه وسلطان على الجن اطلاقا مثلما اعطي سليمان بن داود ، وذلك بفعل طلسم مدهش جدا يقال انه نزل عليه من السماء، لقد كان خاتما نقش عليه (الاسم الاعظم) ، وكان يتكون من جزاين ، جزء من نحاس وجزء من حديد ، وكان يختم بالنحاس ما يكتب من اوامر الى الجن الصالح ، ويختم بالحديد ما يكتب من اوامر الى اشرار الجن والشياطين (للسبب الذي ذكر سابقا من ان الجن يخافون من الحديد) ، واوامره في الناحيتين لها سلطان غير محدود ، وكذلك كانت أوامره تسرى على الطير والريح(٤٩)، ويقال كذلك ان سلطانه كان يشمل ضواري الوحش عامة . وكذلك كان وزيره عصف بن برخيا على علم بأسرر (الأسم الأعظم) فعندما ينطق به تتحقق اعظم المعجزات ، وتشتمل هذه المعجزات حتى على احياء الموتى ، وبموجب قوة هذا الاسم الاعظم المنقوش على خاتمه ، فقد الزم سليمان الجن ان يعاونوا في بناء هيكل القدس ، وفي اعمال مختلفة اخرى . وقد جعل كثيرا من اشرار الجن يهتدون الى الايمان ، واودع كثيرا غيرهم ممن تشبثوا بكفرهم في السجون ، ويقال ان سليمان كان ذا سلطان على كل الارض ، لهذا ، ربما كان اسم سليمان قد اطلق على عموم ملوك الجن في عهد ما قبل ادم ، عدا قصة سلطانه الشامل الذي نشأ من خصومته مع اولئك الملوك .

اما الاذى الذي يسببه اشرار الجن على الجنس البشري فهو على انواع مختلفة ، فكثيرا ما يختطف اشرار الجن النساء الجميلات ويحتفظون بهن بالقوة ويتخذونهن زوجات لهم او جواري .

ويؤكد الكتاب المسلمون ان الجن المؤذين او المزعجين غالبا ما يتعلقون على سطوح او على شبابيك البيوت ويرمون المارة من الناس بالحجارة ، وعندما يتملكون بيتا مهجورا فهم نادرا ما يفشلون في اثارة الروع والفزع لاي شخص يذهب للاقامة فيه . وهم ميالون كذلك الى سلب المؤونة وغيرها ، ولكي يصون كثير من المتعلمين والورعين ممتلكاتهم من مثل هذه السرقات ،تراهم يرددون البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) عندما يغفلون ابواب بيوتهم وغرفهم او حماماتهم، او عندما يغطون سلة الخبز ، او اي شيء يحتوي على الطعام(٥٠) وفي خلال شهر رمضان يعتقد ان اشرار الجن يحبسون في السجون ، ولذلك ففي الليلة الاخيرة من ذلك الشهر وبنفس الفكرة ترى النساء احيانا يرددن البسملة ويذررن الملح على ارض غرف بيوتهن(٥١) .

ولاستكمال هذه الصورة عن اعتقادات العرب بعالم الجن والشياطين ، يجب ان تضاف رواية عن مخلوقات متعددة شاع الاعتقاد بانها مرؤوسة من قبل الجن ومؤتمرة بامرهم .

احد هذه المخلوقات هو (الغول) ، حيث يعتبر في غالب الامر نوعا من الشياطين او انه جني شرير لانه ياكل الناس ، وقد وصف ايضا على انه جني او ساحر لانه يتخذ اشكالا مختلفة، ويقال ان الغيلان تظهر بصورة الكائنات البشرية وبصورة مختلف الحيوانات وبعدة اشكال اخرى غريبة الخلقة مفزعة ، تسكن المقابر والمواضع المهجورة ، وتتغذى باجساد الموتى من البشر ، وتقتل وتلتهم اي انسان يوقعه سؤ حظه في طريقها ، لذلك فكلمة (غول) تطلق على كل آكل للحم البشر . هناك مؤلف مشهور يرى ان الغول حيوان ركبه عفريت، فتراه يسكن في الصحارى وحيدا متخذا هيئة الانسان او الحيوان الوحشي ، ويظهر للشخص المسافر وحيدا في الليل وفي المحلات المهجورة ، ويحسبه المسافر مسافرا مثله ، فيخدعه ويجعله يضل طريقه(٥٢) .

ويقرر المؤلف رايا آخر هو : عندما تريد الشياطين ان تسترق السمع (من حدود السماء السفلى) ترجم بالشهب ، فبعضها يحترق ، وبعضها يسقط في البحر ، او الأنهار ، فيتحولون الى تماسيح ، ومنهم من يسقط على الارض فيصبح غولا . وقد اضاف المؤلف نفسه الرواية الآتية : « الغول اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفار ويتلون في ضروب الصور والثياب ذكرا كان او انثى، الا ان اكثر كلامهم على انه انثى »(٥٣)، ويؤكد ان عددا من صحابة النبي راوا الغيلان في اسفارهم ، وان عمر بن الخطاب من بين الصحابة راى غولا حينما سافر الى سوريا قبل الاسلام

(٤٩) سورة النمل ١٧ (وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون) وسورة ص ٣٦ (فسخرنا له الريح تجري بامره رخاء حيث اصاب) .

(٥٠) المصريون المحدثون ، فصل ١٠ .

(٥١) المرجع السابق .

(٥٢) القزويني : عجائب المخلوقات .

(٥٣) الجاحظ : الحيوان ١٥٨/٦ .

وضربها بسيفه . يبدو ان كلمة (الغول) تطلق على انثى العفاريت فقط من الاجناس التي مر وصفها سابقا ، اما المذكر فاسمه (قطرب) . يقال ان هذه المخلوقات وكذلك الغدار او الغرار والمخلوقات الاخرى المشابهة التي ستذكر في الحال : هي من نسل ابليس ومن امراة خلقها الله له من نار السموم (حيث تدل هنا كما ذكرت سابقا على نار بلا دخان) وذلك انهم خرجوا من بيضة(٥٤) . ويضاف ان انثى الغول تظهر للرجال في البراري باشكال مختلفة ، تتحدث معهم وفي بعض الاحيان تعرض نفسها عليهم .

الصعلة : مخلوق شيطاني آخر ، وصفه اكثر المؤلفين على انه من الجن ، يقال انه اكثر ما يوجد في الغابات ، وعندما تأسر الصعلة انسانا تجعله يرقص ، وتلعب معه كما تلعب القطة مع الفار . ان رجلا من اصفهان يؤكد ان كثيرا من هذه المخلوقات متوافرة في بلاده ، وفي بعض الاحيان يتمكن الذئب من اصطياد واحدة منها في الليل ، ويفترسها ، ولذلك فعندما ينشب الذئب فيها مخالبه تصرخ وتستغيث (انقذوني سيهلكني الذئب) او انها تستنجد وتنادي : (من سيطلقني، الذي سينقذني اعطيه المائة دينار التي معي) ولكن الناس يعرفون ان ذلك هو صراخ الصعلة . ولا ينقذها احد ، فياكلها الذئب(٥٥) . ان جزيرة في بحر الصين تعرف من قبل الجغرافيين العرب بجزيرة الصعلة ، سميت كذلك لان هذه المخلوقات الشيطانية تسكنها ، ويصفونها على انها مخلوقات قبيحة بشعة ، المعتقد انها شياطين من نسل البشر والجن ، وتاكل الناس(٥٦) .

الغدار او الغرار(٥٧) : مخلوق آخر من طبيعة مشابهة ، وصف على انه كائن يوجد على حدود اليمن ، واحيانا في تهامة ، وفي القسم العلوي من مصر . يقال انه يغوي الانسان ، ثم يعذبه بطريقة لا توصف ، او يروعه فقط ثم يتركه(٥٨) .

الدلحان : مخلوق شيطاني ايضا ، يسكن في جزر البحار ، له شكل الانسان ، يركب النعام ويأكل لحم البشر الذين يقذفهم البحر على

(٥٤) رواية من وهب بن منبه ، منقولة عن عرب الجاهلية في مراة الزمان .

(٥٥) حديث لوهب بن منبه ، منقول عن رواية حول العرب الجاهليين في مراة الزمان .

(٥٦) ابن الوردي القرن الرابع عشر ، مخطوط .

(٥٧) كتب اسمه مختلفا في مخطوطتين في حيازتي .

(٥٨) القزويني ، ومراة الزمان .

الشاطيء من حطام السفن . يقول البعض : أن الدلحان هاجم مرة سفينة في البحر ورغب ان يأخذ الملاحين ، ولكنهم قاوموه . وعندئذ اطلق صرخة جعلتهم يسقطون على وجوههم ثم اخذهم(٥٩) .

الشق : مخلوقات شيطانية اخرى ، لها شكل نصف بشري (مثل انسان مقسوم بالطول) ، ويعتقد بان النسناس من تناسل الشق والبشر . والشق المذكور يظهر للمسافرين ، وقد قتل بعض الناس شيطانا من هذا النوع ، قتله علقمة بن صفوان بن امية ، والمعروف ان احد الجن قد قتل صفوان هذا ، هكذا يقول القزويني .

النسناس (المذكور اعلاه) : يوصف بانه يشبه في نصفه انسانا ، له نصف راس ، ونصف جسم ، ويد واحدة ، ورجل واحدة ، بل يحجل بخفة سريعة جدا ، ويوجد هذا المخلوق في غابات اليمن . وينهي المؤلف حديثه بقوله : « ولكن الله اعلم بكل ذلك » ، ويقال ان النسناس يوجد في حضرموت اضافة الى اليمن ، وقد جيء بواحد من من هذه النسانيس حيا الى المتوكل . انه يشبه الانسان في شكله الا انه بنصف وجه ، وكان وجهه في صدره ، وله ذيل مثل ذيل الخروف ويقول : ان اهل حضرموت يأكلونه ، وان لحمه حلو ، وانه يتكاثر في منطقتهم فقط . ان رجلا يؤكد بانه ذهب هناك ورأى نسناسا محبوسا وهو يصرخ طالبا الرحمة ، ويناشده بحق الله وبحقه(٦٠) . ان جنسا من البشر الذين رؤوسهم في صدورهم ، يوصفون بانهم يسكنون في جزيرة تعرف بـ «جابة» (يظن انها جاوة) في بحر الهند(٦١) ، وكذلك يصفون نوعا آخر من النسناس يسكن جزيرة (رائج) في بحر الصين له اجنحة كأجنحة الخفاش(٦٢) .

الهاتف : مخلوق يسمع ولكنه لا يرى ، وغالبا ما يذكره الكتاب العرب ، وهو بصورة عامة المرشد لبعض التائهين الى طريق الخير او الى الاتجاه الصحيح في السفر او ينذرهم بالخطر .

(٥٩) القزويني ، في مخطوطتي لابن الوردي وجدت الاسم مكتوبا (دحلان) يذكر جزيرة تسمى بهذا الاسم في بحر عمان ، ويصف ساكنيها بانهم شياطين ياكلون لحم البشر، شكلهم كالانسان ويركبون ظهورا تشبه النعام ، وهنالك فصيلة كذلك تأتمر بامر الجن تعرف بالغواصة يغوصون في البحار .

(٦٠) مراة الزمان .

(٦١) ابن الوردي : خريدة العجائب ، مخطوط .

(٦٢) المصدر السابق .

وهنا في نهاية هذا الفصل ، يجب علي ان ابه القارىء الى ان التصورات الخرافية التي وصفت هي عامة سائدة عند جميع فئات العرب والمسلمين عامة ، سواء اكانوا من المتعلمين ام من العوام .

النساء

الشائع ان العاطفة الجنسية الشهوانية هي السائدة لدى العرب ، ولكني اعتقد ان من الظلم ان نفترض انهم جميعا يخلون من الشعور البرىء الصافي الذي يستحق ان يطلق عليه الحب الصادق حسبما صحت التجربة الكافية . ذلك انهم ليسوا كذلك كما يظهر جليا لكل شخص يخالطهم في المجتمع العادي ، يجب ان تتاح الفرص لمثل هذا الشخص ليطلع على من له صلة وثيقة بزوجات عدد من العرب اللواتي لهن جاذبية وجمال شخصي كان قد زال منذ وقت بعيد ، واللواتي لا يملكن ثروة وليس لهن نفوذ ، وليس لهن اقرباء ذوو مال وسلطان ، ليستميلوا ازواجهن فيحجموا عن طلاقهن . وكثيرا ما يحدث ايضا ، ان العرب يخلصون بعلاقاتهم للزوجة التي يمتلكونها ، حتى عندما تكون في سن كبيرة وجمال ضئيل ، وذلك بفضل العشرة الدائمة سواء لزوجة او اثنتين . اكثر هذا الراي اني آسف ان الاحظه على خلاف ما يتعلق بعرب المدن الى حد ما ، وقد سلم بذلك واحد من الم الرحالة المحدثين واكثرهم خبرة ، حيث اقام بين هؤلاء الناس وهو الرحالة المشهور بركهاردت Burckhardt (٦٣) وقد عزز هذا براي عدد من المؤلفين العرب الفضلاء (ولذلك فانه لا يعتبر كأنه عنصر لا يصدق) كما انه يدخل ضمن ملاحظتي الخاصة .

ان قصة ليلى والمجنون ، جولييت وروميو العرب ، مشهورة جدا بحيث لا تحتاج الى اعادتها هنا ، الا ان عدة قصص اخرى للحب القوي الراسخ ينبغي ان تدون فيما يأتي :

ان الخليفة يزيد بن عبدالملك كانت له جاريتان ، واحدة تسمى حبابة ، والاخرى سلامة ، وكان متعلقا بالاولى كثير الميل والغيرة عليها ، كان قد اشتراها بمائة الف درهم ، واشترى الثانية بعشرة آلاف درهم . وكان يحتجب عن الناس احيانا ثلاثة اشهر منصرفا الى صحبتهما مهملا تماما امور الرعية . وكان اخوه مسلمة يؤنبه على سلوكه هذا ، وكان يزيد يعد ان يثوب الى رشده ويعود الى عمله ، لكن هاتين المحظيتين كانتا تصرفانه عن غرضه ، وفي صباح اليوم التالي حين هم ان يخرج الى عمله سمع الغناء فاستثير فانصرف الى غنائهما وعناقهما والشرب معهما ، وصار منتشيا فرقص وغنى كالمجنون ، حتى حدث الحادث المشؤوم الذي وضع حدا لسروره : لقد اكلت حبابة رمانة ، فشرقت بحبة من الرمان فماتت فجأة .

(٦٣) روح الشرق ٤١٧/١ ، ٤١٨ .

كان حزن يزيد شديدا جدا ، فلم يفارق جثتها بل استمر يقبلها ويعانقها حتى تغيرت وانتنت ، وقد نبهه خدمه بأن افضل احترام لها ان يأمر بدفنها ، فرضي بعد ذلك ان يودعها الارض ، وبعد خمسة ايام اشتاقت نفسه ان يرى حبيبته فأمر ان يفتح قبرها ، ومع ان جثتها قد اصبحت بشعة ، فانه كان يراها كاحب ما رات عينه ، الا ان مسلمة امر بحزم ان يغلق القبر ثانية ، ولكن يزيد لم يكن قادرا ان يظل محروما من النظر الى جثة جاريته التي هي في الوقت نفسه سيدته ، لقد سقط في الفراش لا يتكلم وبعد مضي سبع عشرة ليلة لفظ انفاسه الاخيرة ، ودفن بجانب حبيبته حبابة . يقول الراوي : « اللهم ارحمهما جميعا »(٦٤) .

وفي الكتاب نفسه المقتبس منه الخبر السابق ، رواية مفادها ان هارون الرشيد زار سليمان بن ابي جعفر احد قواده ، فرأى معه جارية اسمها ضعيفة ، بارعة الجمال ، وقد بدا انه مبتلى بسحرها ، سأله ان يهبها له ، فأجابه لذلك ، ولكن سليمان لحزنه الشديد على فقد جاريته احس بالمرض ، وكان خلال مرضه يسمع وهو ينشد :

استجير بالله من المصيبة التي اصابتني بسبب الخليفة

الرحمة تشمل الناس والظلم من نصيب ضعيفة(٦٥)

ان حبها راسخ في قلبي كالحبر على وجه الصحيفة

وسأل الرشيد عن سبب مرضه فعرف انه فراق جاريته التي بها راحة باله . وتساق القصة دليلا على الحب الصادق العنيف . وربما يظن ان ما

(٦٤) كتاب العنوان في مكائد النسوان (مخطوط) .

(٦٥) لقد تغيرت هذه الكلمة قليلا الى (ضعيفه) بكسر الفاء ، تحمل معنى آخر تمني احد ضعفائه ، حرف العلة الاخير يكون ملغيا بسبب الوقف .

من لا يفي بالفرض ، فالقصة التالية من الكتاب نفسه اوفى بالغرض .

ذكر ان معاوية بن ابي سفيان كان جالسا ذات يوم بدمشق ، وكان المجلس مفتوح الجوانب لدخول النسيم ، فبينما هو في مجلسه اذ نظر الى رجل يمشي نحوه وهو يسرع في مشيته راجلا حافيا ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ، فتأمله معاوية وامر باحضاره وقال لئن كان هذا الاعرابي فقيرا لاغنينه ، وان كان مظلوما لانصفنه ، فلما مثل بين يديه انشده قصيدة يتظلم فيها من جور مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة (وقد صار خليفة فيما بعد الخليفة الرابع من الأمويين)، قال معاوية ما قصتك يا اعرابي ، قال : كانت لي بنت عم خطبتها الى ابيها فزوجني منها ، وكنت كلفا بها لما كانت فيه من كمال جمالها وعقلها فبقيت معها في اصلح حال وانعم بال مسرورا زمانا قرير العين ، وكانت لي صرمة من ابل وشويهات فكنت اعولها بها ، الا ان سنة من الجدب والمرض جردتني مما املك فبقيت سيء الحال فلما بلغ ذلك اباها حال بيني وبينها فانكرني ودفعها عني ، فاتيت عاملك مروان بن الحكم مشتكيا ، فاحضر عمي وابنته فلما وقفت بين يديه ونظر اليها والى حسنها وقعت منه موقع الاعجاب والاستحسان ، فصار لي يا امير المؤمنين خصما وانتهرني ، وامر بي الى السجن فبقيت كاني خررت من السماء في مكان سحيق ، ثم قال لابيها هل لك ان تزوجها مني وانقدك الف دينار وازيدك عشرة آلاف درهم وانا اضمن طلاقها ، فرضي عمي ، ثم احضرني مروان فقال لي : يا اعرابي طلق سعدى ، قلت : لا افعل ، فامر بضربي وكرر ذلك اياما فضربوني ضربا لا يقدر احد على وصفه وعرضني على السيف فخشيت على نفسي القتل فطلقتها طلقة واحدة ، وكان من العبث ان تحاول المراة المقاومة، وهكذا اصبحت زوجة لمروان .

ان البدوي المظلوم حين روى ما مر عليه من احداث سقط مغشيا عليه واستلقى على الارض كانه حية ميتة ، فلما استعاد البدوي وعيه كتب معاوية رسالة مع قصيدة شعر الى مروان يوبخه على ما انتهك من حرمة الرجل وتجاوز في امور الدين ،ويامره ان يطلق المراة ويرسلها مع رسوله، وان لم يفعل فسيكون جزاؤه الموت . ففعل مروان وارسل الجارية مع قصيدة على روى قصيدة معاوية مؤكدا له ان نظرة الى سعدى ستقنعه بان جمالها لا يمكن ان يقاوم . فلما رآها معاوية اشتهاها وطمع فيها ، وقال له معاوية : هل لك عنها من سلو ، وأعوضك عنها ثلاث جوار أبكار مع كل جارية منهن الف درهم على كل واحدة منهن عشر حنع من الخز والديباج والحرير والكتان واجرى عليك وعليهن ما يجري على المسلمين ، واجعل لك ولهن حظا من الصلات والنفقات ، فلما اتم معاويه كلامه غشي على الاعرابي وشهق شهقة ظن معاويه انه قد مات منها ، فلما افاق الاعرابي قال : يا امير المؤمنين لو اعطيتني كل ما احتوته الخلافة ما رضيت به دون سعدى ، فقال له معاوية : يا اعرابي ، انك مقر عندنا انك قد طلقتها ، وقد بانت منك ومن مروان ، ولكن نخيرها بيننا ، فوافق الاعرابي . وسأل معاوية الجارية : يا سعدى اينا احب اليك ، امير المؤمنين في عزه وشرفه وقصوره ، او مروان في غصبه واعتدائه ، او هذا الاعرابي في جوعه واطماره ، فاشارت سعدى الى ابن عمها وابت ان تخذله واختارت ان تصبر معه على السراء والضراء . فعجب معاوية من عقلها ومروءتها فوهبها عشرة الاف درهم ولحقت بابن عمها .

والامثلة كثيرة للحب الصادق العنيف ولغير المعقول ايضا دونها الكتاب العرب ، فيقال ان رجلا وقع في حب سيدة من تاثير رؤية يدها على الحائط ، ولما لم يستطع ان يظفر بها مات . ويقول كثير من الرجال انهم عانوا آلاما قاسية من عذارى رأوهن في الاحلام ، ويذكر آخرون انهم تاثروا بالحب عن طريق السماع فقط ، ان مؤلفا يروي انه كان يعرف معلما نابها قد شغف حبا بامراة اسمها ام عمرو لم يرها ولكنه سمع رجلا ينشد شعرا فيها ، وقد حزن حزنا شديدا حين علم بموتها فلزم بيته يومين وذلك عندما سمع ذلك الرجل ينشد :

لقد ذهب الحمار بأم عمرو
فما رجعت ولا رجع الحمار(٦٦)

وعلى القارىء ان يكون فكرة عن الصفات او المحاسن التي يعتد بها العرب عموما في جمال المراة ،ينبغي الا يتخيل ان السمنة المفرطة احدى هذه الصفات ، لانه يقال ان هذا هو الاعتبار الرئيس للجمال في المناطق الواسعة من شمالي افريقية ، بل على العكس ، فان الفتاة التي يلهم حسنها التعبير الاكثر انفعالا في الشعر والنثر ، هو المشهور بالرشاقة ،انها تشبه عصا الخيزران، ولطيفة كأنها غصن صفصاف شرقي . وجهها كالقمر المستدير ، ويتجلى التضاد بينه وبين لون

---

(٦٦) كتاب العنوان في مكائد النسوان .

شعرها الفاحم بلون الليل وهو مرسل يمتد وسط ظهرها ، وحمرة الخجل الوردية المنتشرة وسط الخدين ، اما الخال (الشامة) فيعتبر زيادة في الحسن ، والعرب بصورة خاصة مغالون في اعجابهم بهذه البقعة الطبيعية من الجمال ، فهي تشبه بالنسبة لمكانها نقطة عنبر على صحن مرمر او على سطح ياقوت . ان الاناكرون Anacreon الفارسي اثر في تحبيب الخال على خد الحبيبة في مدينتي سمرقند وبخارى .

ان جمال العيون العربية في سوادها الشديد(٦٧) ، واسعة وطويلة ، على شكل لوزة ، مملوءة بالبريق ، يلينها جفن منخفض بخفة ، وبرموش حريرية طويلة ، تعطي رقة وحنانا وتعبيرا بالضعف ، وهي مفعمة بالسحر ، ونادرا ما تكون محسنة بالخط الاسود الذي يرسم الكحل حدوده ، لاجل هذا فان الفتاة الجميلة تضيف الى ما يدعوه العرب بالكحل الطبيعي كحلا اكثر من الضروري مجاراة لاسلوب الجمال . ان حواجب العين رفيعة ومقوسة ، والجبين عريض وصاف كالعاج ، والانف مستقيم ، والفم صغير ، والشفاه حمراء متلألئة ، والاسنان « كالجمان موضوع في مرجان » . شكل الصدر مثل رمانتين ، الخصر اهيف ، الارداف عريضة وواسعة ، القدمان واليدان صغيرتان ، الاصابع ومستدق الاطراف واناملها مخضوبة بلون برتقالي احمر مستخلص من اوراق الحناء . ان الفتاة التي امتزجت فيها هذه المحاسن تعرض صورة زاهية من « شفق الاصابع الوردية » ، وان حبيبها لايذوق النوم اذا حضر طيفها ، ويكون مرآها بديلا عن الثريا في الليل الطويل .

ان سن الفتنة ما بين الرابعة عشر والسابعة عشر ، ومن ثم فان اشكال الانوثة تظهر في جمالها الاروع ، ولكن كثيرا من الفتيات يحزن محاسن كافية لخلب الباب الرجال في سن الثانية عشرة . ربما يرغب القارىء تحليلا اكثر دقة للجمال العربي ، والذي استطيع تقديمه هو الاكثر كمالا لديهم فيقولون : « اربعة اشياء في المراة يجب ان تكون سوداء هي : شعر الرأس ، والحاجبان ، ورموش العينين ، وسوداء العينين . واربعة بيضاء : لون البشرة ،وبياض العينين ، والاسنان ، والساقان . واربعة حمراء : اللسان ، والشفتان ، ووسط الخدين ، واللثات ، واربعة مدورة : الراس ، والرقبة ، والساعدان ، ورسغا القدمين ، واربعة طويلة : الظهر ، والاصابع ، والذراعان ، والساقان(٦٨) . واربعة واسعة : الجبهة ، والعينان ، والصدر ، والردفان . واربعة رقيقة : الحاجبان ، والانف ، والشفتان ، والاصابع ، واربعة ضخمة : الجزء الاسفل من الظهر ، والردفان ، والفخذان ، والركبتان . واربعة صغيرة الاذنان ، والنهدان واليدان ، والقدمان »(٦٩) .

ان السيدات العربيات مغرمات جدا بالشعر الوافر الطويل ، ومع ذلك يتوسعن مع هذه الحلية الطبيعية باضافة شعر اخر يتزين به ، الا ان النبي كره كل ما هو زائف تستميل به المراة زوجها ومن ثم تخدعه وتخيب أمله « لعن الله الواصلة والمستوصلة » تلك التي تصل شعرها بدون اذن زوجها ، اما اذا عملته بموافقته فليس محرما ، الا اذا كان من شعر بشري فهذا محرم بصورة قطعية(٧٠) . ولذلك فان النساء العربيات يفضلن خيوطا من حرير تضاف الى شعورهن(٧١) . يقص الشعر فوق الجبهة وهو قصير نوعما ، وتسدل على جانبي الوجه خصلتان وافرتان ، وتكون هاتان الخصلتان مجعدتين في الغالب على شكل حلقات واحيانا على شكل ضفائر ، اما بقية الشعر فيصفف ضفائر او جدائل تتدلى اسفل الظهر وهي على العموم من احدى عشرة الى خمس وعشرين ضفيرة ، ولكن غالبا ما تكون في عدد غير

(٦٧) العرب عموما يضمرون التحامل على العيون الزرقاء ، يقال ان هذا التحامل نانشىء عن الاعداد الكبيرة من ذوي العيون الزرقاء من اعدائهم الشماليين (الروم) .

(٦٨) في تحليل اخر من النوع نفسه ، يقال ان اربعة ينبغي ان تكون قصيرة : اليدان ، والقدمان ، واللسان ، والاسنان . ولكن هذا كلام مجازي ، والمعنى ان هذه الاعضاء يجب ان تحفظ داخل حدودها اللائقة (كتاب العنوان) .

(٦٩) مؤلف لم يذكر اسمه التيس عنه الاسحاقي في روايته عن المتوكل الخليفة العباسي .

(٧٠) كتاب العنوان .

(٧١) ان ارسال خيوط الشعر الحريرية مع رسالة ، تعبر السيدة عن شدة خضوعها واذعانها . والمعنى نفسه نقل باسلوب اكثر عنفا بارسال الشعر نفسه ، فحين حاصر الفرنجة القاهرة سنة ٥٦٤هـ ارسل العاضد اخر الخلفاء الفاطميين رسائل الى نور الدين محمود سلطان الشام يلتمس الاغاثة ومع الرسائل شعر زوجته ليريهم اذعانه واذعان خاصته (ابن الشحنة) . (المقريزي ايضا مع اختلاف طفيف كان هذا الحصار للمدينة القديمة التي تدعى الآن خطا مصر العتيقة كانت قد احرقت بامر من الوزير شاور ، دام الحريق اربعة وخمسين يوما . الخطط ، رواية عن خراب الفسطاط وحكم العاضد) ستانلي بول .

متساو ، تعتبر الأحدى عشرة قليلة ؛ الثلاث عشرة والخمس عشرة اكثر شيوعا ، وتكون ثلاث مرات عدد الشرائط الحريرية السوداء (شريط لكل ثلاث ضفائر ، وكل ثلاث تتحد في الاعلى) ، الطول من ستة عشر الى ثمانية عشر انجا ، تضفر مع الشعر لحوالي ربع الطول ، او انها تربط بالشريط او تشد بشريط حريري اسود وتعصب حول الرأس . ينظم هذا سوية مع زينة معينة من الذهب وغيره ليؤلف ما يسمى ب (الصفا) . ان الشكل الشائع هو المستطيل ، ملتف الطرف الأسفل المتجه الى الاعلى ، او المعكوس ، توصل (كل واحدة بحلقة صغيرة من طرفها الاعلى) بحوالي انج ، او اقل قليلا ، على حدة ، وفي نهاية كل شريط قناة ذهبية صغيرة ، او خرزة ذهبية صغيرة متعددة الزوايا والاضلاع ، ومن المألوف جدا ان يعلق من الأسفل بحلقة صغيرة ، عملة ذهبية (ليرة) قطرها اكثر قليلا من نصف انج ، هذا هو الوصف العام للصفا ، الا ان بعض السيدات يستبدلن بالليرة زينة زخرفية اخرى من الذهب ، اما وحدها او مع لؤلؤ في وسطها ، او يعلقن في هذا الموضع شرابة صغيرة من اللؤلؤ ، او يلحق معه لؤلؤ متناوب او زمرد في وسط شرائط ثلاثية ، ولؤلؤة مع كل حلية صغيرة من الذهب المذكورة اولا . وتعلق احيانا خرز المرجان كذلك على الطريقة نفسها في نظم اللآلىء . اظن ان الصفا الأجمل هو الاكثر تفردا من كل الزينات التي تلبسها النساء العربيات .

ان تألق الحلي الذهبية الصغيرة ، وخشخشتها سوية عندما تمشي المرأة له تأثير حيوي خاص . اما التيجان فهناك نوع دائري الشكل مزين بالجواهر (حافته السفلى رأسية ؛ والعليا مزخرفة ولها رؤوس اربعة او اكثر) على شكل قبة ، مزين اعلاه بالجواهر او بعض الحلي الاخرى ، هذا التاج كانت تلبسه النساء العربيات من الطبقات العليا أو ذوات الثراء العريض ، وكان هذا منذ قرنين مضيا ، اما النوع الآخر من التيجان فهو الذي يلبس الآن ويعرف بالقرص ، وهو حلية دائرية محدبة ، قطر القرص حوالي خمسة انجات مصنوع من الذهب ويرصف مع ماس كثير ، اول ما يصنع يكون على شكل اوراد واوراق وغيرها) ثم يخيط فوق قمة الطربوش ، تلبسه اكثر سيدات القاهرة عند ارتداء الحلة الكاملة(٧٢)

ان مشية السيدات العربيات جديرة بالملاحظة جدا . انهن يجعلن الجزء الأسفل من الجسم يميل من جهة الى اخرى حسب الخطوة ، وتتحرك اليدان في مستوى الحضن حيث يمسكن اطراف الرداء الخارجي (العباءة) ، خطواتهن بطيئة ، لا ينظرن حولهن ، ينظرن امامهن وعيونهن متجهة نحو الأرض .

ان مكر النساء يمثل الخضوع للجنس الاقوى عند العرب مع تكلف الفضيلة السامية ، التي غالبا ما تتردد في المحادثات العامة ، ذلك ان النساء ناقصات في الحكم والرأي الحسن ، وقد قبل هذا الرأي كحقيقة لا جدال فيها حتى من قبل النساء انفسهن ، وكما نقلوا عن النبي في خبر يؤكدونه ، ان النساء يملكن قدرة عالية من المكر المؤكد مع الميل الى التشهير ونشر الفضائح . ان خطاياهن العامة واضحة في كونها اكثر خطرا من فسوق الرجال ، يقول النبي : « اطلعت في الجنة فرأيت اكثر اهلها الفقراء . واطلعت في النار فرأيت اكثر اهلها النساء »(٧٣) ، ويقول الخليفة عمر عن النساء ورأيهن : «شاوروهن وخالفوهن» ولا يكون هذا لاجل المخالفة ولا عندما تكون لهن نصيحة اخرى ولكن لانهن يقلن بعواطفهن ؛ ويقول امام عالم : « من المرغوب للرجل قبل ان يشرع في امر مهم ، ان يشاور عشرة من الاشخاص النابهين من خاصة اصدقائه ، واذا لم يكن له اكثر من خمسة اصدقاء ، فعليه ان يستشير كلا منهم مرتين ، واذا لم يكن له اكثر من صديق ، فعليه ان يستشيره عشر مرات في عشر زيارات مختلفات ، واذا لم يكن لديه أحد ليشاوره ، فعليه ان يرجع الى زوجته ويشاورها ، وان يفعل نقيض ما تشير به عليه ، وبذلك يهتدي الى الصواب ويحقق مقصده »(٧٤) . ان الزوجة البرة الصالحة مستثناة طبعا من هذه القاعدة على انها امرأة يجلها المسلمون ، ولكن هذه المرأة الصالحة (كما يقولون على الأقل) نادرا ما توجد . يقال : ان المرأة عندما خلقت فرح بها الشيطان وقال : « انت نصف اعواني ومستودع سري ، وسهمي الذي به ارمي ولا أخطىء »(٧٥) .

ماذا نسمي المروءة التي كانت شائعة جدا لدى عرب الجاهلية ، وقلما تقل عند ذريتهم المسلمين . على اية حال ان النساء مهجورات من

(٧٢) ان نقش التاج في هذا الوصف ، وآخر من نوع اكثر شيوعا يمكن ان يشاهد في كتابي عن (المصريين المحدثين) الملحق ا .

(٧٣) كتاب العنوان ، ومشكاة المصابيح ٦٦٣/٢ .

(٧٤) الامام الجراني في كتابه (شرعة الاسلام) .

(٧٥) نزهة المتامل ، القسم الثاني .

قبل كثير من القبائل البدوية التي استقرت منذ عهد قصير . اذكر اني استيقظت مذعورا على صراخ امراة شابة من الجيران وكنت استمتع بجوار قبر قديم حيث اقيم في طيبة Thebes وقد كان احد الرجال البدو ينهال عليها ضربا شديدا لامر شائن كانت قد اقترفته .

ان الزواج امر محترم عند المسلمين عامة كعمل ايجابي ، والذي يفرط فيه بلا عذر مشروع يلام عليه بشدة ، يقول النبي : « اذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين »(٧٦) وفي حديث آخر ما معناه : انه سأل رجلا : هل انت متزوج ، فاجاب بالنفي ، وسأل عن عافيته فكانت جيدة فقال ما معناه : انت احد انصار الشيطان ، لان اكثر الشر الذي عليك من هجر الزواج ، واكثر ما تلقاه من اثم بعد الموت من هجر الزواج ، وفضلا عن ذلك فالمتزوجون يسلمون من قبل السوء ، وليس للشيطان من سلاح اكثر مضاء بالنسبة لعفة الرجال والنساء من هجر الزواج(٧٧) .

ان عدد النساء اللواتي يستطيع المسلم ان يتزوجهن ويجمع بينهن اربع نسوة ، له ان يتزوج المراة الحرة ، او يتخذ الجواري ، او يتخذ هؤلاء واولئك . ان راي اكثر الناس ، كما اعتقد ، بالنسبة للتدين الصحيح ان المرء ينبغي الا يتزوج اكثر من اربع نساء سواء كن زوجات او جواري ، او من النوعين سوية ...... ان عادة الاحتفاظ بعدد غير محدود من الجواري كان شائعا عند اثرياء المسلمين في القرن الاول الهجري ، واستمر كذلك . ان المؤلف المشهور المقتبس من كتابه في اعلاه ، يقدم المثل من سليمان ليبرهن بان امتلاك عدد كبير من الجواري ليس متناقضا مع التقوى والصلاح ، غير معتبر بان الله في البداية قد خلق ذكرا واحدا وانثى واحدة فقط .

للمسلم ان يطلق زوجته مرتين ويرجعها في كل مرة خلال مدة معينة حتى لو كان ذلك ضد رغبتها بحيث لا تمتد المدة اكثر من ثلاثة اشهر ، ما لم تكن حبلى ، وفي هذه الحالة عليها ان تنتظر حتى مولد طفلها قبل ان تصبح حرة وترتبط بزواج آخر ، وان الزوج في هذه الفترة ملزم باعالتها . واذا طلقها ثلاث مرات ، او طلقها ثلاثا بعبارة واحدة ، فانه لا يستطيع ان يرجعها مرة اخرى الا بعد ان تتزوج من شخص آخر وتطلق ثم تعود الى زوجها الاول بعقد جديد .

ليس من الشائع في الطبقات الوسطى ان يتزوج الرجل من زوجة واحدة في الوقت نفسه ، ولكن هناك قلة من الناس في العصر الوسيط لم يكن لهم زوجات متعددات ولكن يستعيضون عن ذلك بتغيير الزوجة الواحدة استسهالا للطلاق(٧٨). هناك حالات كثيرة للزواج المتعدد الكثير ، فيقال ان المغيرة بن شعبة قد تزوج ثمانين امراة خلال حياته(٧٩) . وهناك حالات اخرى دونها المؤلفون العرب تدل على تغير الحب ، اما الحالة الشاذة التي صادفتها ، فهي قصة محمد بن الطيب صباغ بغداد المتوفى سنة ٤٢٣ من الهجرة عن خمس وثمانين سنة من العمر ، ويعزو اليه مؤلف جليل بانه تزوج اكثر من تسعمائة امراة(٨٠) ، ولنفترض لاجل ذلك انه تزوج زوجته الاولى عندما كان عمره خمسة عشر عاما ، فسيكون قد تزوج بمعدل ثلاث عشرة امراة في كل عام . والنساء بطبيعة الحال لا يستطعن الزواج بعدة ازواج متعاقبين ، ليس فقط لان المراة لا يحق لها ان تتزوج اكثر من زوج في آن واحد ، بل لانها كذلك لا تستطيع ان تطلق زوجها، وعلى اية حال فهناك عدة حالات لنساء عربيات تزوجن عددا مدهشا من الرجال بتوال سريع . وتذكر من بين هؤلاء ام خارجة التي اصبحت مضرب المثل في سرعة الزواج . كانت هذه المراة من قبيلة بجيلة من اليمن ، وتزوجت اكثر من اربعين رجلا ، وان ابنها خارجة لا يعرف من هو ابوه ، وقد اعتادت ان تعقد الزواج باسرع طريقة ممكنة ، وذلك بان يقول لها الرجل : « خطب » (اي اخطبك للزواج)، فتجيب : « نكح » (اي موافقة) ، وهكذا تصبح زوجة له شرعا . ان لا خارجة اعدادا كبيرة من الذرية ، لقد نشأت عدة عشائر من ذريتها(٨١) .

ولاجل اختيار الزوجة ، فان الرجل في الغالب يعتمد على امه او بعض النساء الاخريات

(٧٦) مشكاة المصابيح ٧٩/٢ ، ١٦١/٢ طبعة جديدة المكتب الاسلامي ١٩٦١ .

(٧٧) نزهة المتامل القسم الاول .

(٧٨) ومع ذلك وعلى سبيل الاستثناء من جانب المراة ، فان شيخي (محمد عياد الطنطاوي) يكتب : « يعتبر كثير من الاشخاص ان الزواج للمرة الثانية من الاعمال الشائنة جدا ، وهذا الراي اكثر شيوعا في المدن والقرى ، وان الرعاع والدني هم بهذه الصفات ، ذلك ان المراة منهم اذا توفي زوجها وهي شابة ، او طلقها وهي صغيرة ، فهي تقضي طول حياتها ارملة ولا تتزوج مرة ثانية » .

(٧٩) نزهة المتامل ، القسم الاول .

(٨٠) مراة الزمان حوادث السنة المذكورة اعلاه .

(٨١) امثال العرب ومعجمي مادة (خطب) .

مسن قريباته ، او يعتمد على امراة مختصة بذلك تعرف بـ (الخاطبة) : وهناك عدة نساء ينجزن هذه الخدمة بالأجرة . ان الشرع يجيز للرجل ان يرى وجه الفتاة التي يريد ان يتزوجها ، قبل ان يعقد عليها ، ولكن في الأيام الحالية فان هذه الحرية من النادر ان تدرك ؛ الا عند الطبقات الدنيا ، ولا يسمح للرجل في هذه الحالة ان يكشف قناع اية امراة الا ان تكون زوجته او محظيته ، والا تلك النساء المحرمات عليه ان يتزوجهن شرعا ، وعند بعضهم لا يسمح للرجل ان يرى ابنة اخيه او ابنة اخته حاسرة وان كانت محرمة عليه(٨٢) ، ويجب ان يضاف بان العبد المملوك يجوز له ان يرى سيدته ، الا ان هذا الحق نادرا ما يسمح به في الأيام الحاضرة الا اذا كان المملوك مخصيا .

ان مخالفة الشرع المذكور اعلاه يعتبر ذنبا كبيرا لكلا الجانبين ، قال الرسول : « لعن الله الناظر والمنظور اليه »(٨٣) ، ومع ذلك فكثيرا ما يتغاضى عن ذلك بالنسبة للنساء من الطبقة العليا.

ان الرجل محرم عليه بالقرآن(٨٤) والسنة ان يتزوج امه ، او سلفها الآخرين ، والأخت او نسلها الآخرين ، او اخته من احد الوالدين (غير الشقيقة) ، وعمته او خالته ، او اسلافهما، وابنة اخيه او ابنة اخته او نسلهما، وامه في الرضاعة التي ارضعته خمس مرات خلال السنتين الأوليين ، او امراة تقرب له بالرضاعة من اية درجة حيث سيحرم زواجه منها اذا كانت قرابتها مشابهة له عن طريق الدم ، وام زوجته ، وابنة زوجته بشروط معينة ، وزوجة ابيه ، وزوجة ابنه ، ويمنع كذلك ان يتزوج اختين في آن واحد ، او العمة وابنة اخيها ، او الخالة وابنة اختها . ويحرم عليه ايضا أن يتزوج مملوكته غير المعتقة ، او مملوكة رجل آخر اذا كانت لديه في نفس الوقت زوجة حرة ، والا يتزوج اية امراة الا اذا كانت على دينه ، او كانت نصرانية او يهودية . اما المراة المسلمة فلا يجوز ان تتزوج الا رجلا من دينها . ان العلاقة الغرامية المحرمة مع أية امراة تمنع الرجل من التزوج من اي من قريباتها التي ستحرم عليه اذا كانت زوجته .

غالبا ما تختار ابنة العم زوجة لابن عمها ، باعتبار رابطة الدم التي قد تجعل صلة الزوجة بالزوج قوية ، او بسبب العاطفة التي تتكون بينهما في السنوات الأولى .

ان كفاءة المنزلة الاجتماعية كثيرا ما تؤخذ بعين الاعتبار ، وان الرجل في كثير من الأحيان لا يستطيع ان يتخذ ابنة رجل من مهنة او تجارة اخرى زوجة له ، ما لم يكن ذلك الرجل ادنى مرتبة منه . ولا يستطيع أن يتزوج الابنة الصغرى اذا كانت الكبرى لم تتزوج بعد .

ان الفتاة تتزوج في العادة في سن الثانية عشرة ، وفي بعض الأحيان في العاشرة ، او حتى في التاسعة . وان العادة الشهرية تاتي عموما بين السنة الثانية عشرة والسادسة عشرة . وينبغي ان تصبح إما في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة . أما الشبان فيتزوجون بعد هذه السن بقليل .

ان المطلب الأساسي جدا في الزوجة هو

---

(٨٢) ان ما يغشي المراة هو الازار او الابزار (لان الكلمة تكتب بشكلين مختلفين) ، قطعة من قماش الجوخ تلبسه غالبا النساء العربيات عندما يظهرن في مكان عام ، وهو حوالي مترين او اكثر عرضا (حسب طول من ترتديه) وثلاثة امتار طولا ، يتدلى جانب منه من الخلف ، فوق الجزء الاعلى من الراس والجبين ، ويضبط بحزام بخيط من الداخل ، ويتدلى الباقي الى الخلف ومن كل جهة نحو الارض او قريبا من ذلك ، وفي الاكثر يغطي الشخص كلية ، ويمسك الطرفان ليلتقيا من الامام ، وهكذا يخفي كل الاجزاء الاخرى من اللابس عدا جزءا صغيرا من الرداء الفضفاض غير المربوط (الذي هو صنف آخر للمشي او كساء متحرر) . اما برقع الوجه فانه في الغالب يصنع من شيت (خام قطني) ابيض ، الا ان برقعا مشابها من الحرير الاسود للمتزوجات ومن الحرير الابيض لغير المتزوجات ، وتلبسه الان نساء الطبقات العليا والوسطى ، ويعرف بالحبرة .

لقد ظهر نوع من غطاء الوجه يعرف بالعربية بالقناع ، قطعة من الحرير الوسلين ، حوالي ياردة او اكثر في الطول ، واقل قليلا في العرض ، يوضع جزء منه على الراس ، تحت الازار ، وتتدلى بقيته الى اسفل من الامام نحو الخصر او حوله ، ويغطي الوجه جميعه . اني ارى احيانا النساء العربيات وخاصة الوهابيات يلبسن قناعا من هذا النوع يتكون من الوسولين المطبوع، يغطي كل ملامحهن تماما ، وهو قماش واسع فضفاض بما فيه الكفاية بحيث يتيح لها ان ترى طريقها . لكن النوع الاكثر شيوعا من قناع الوجه العربي هو شقة طويلة من الموسلين الابيض ، او نوع من الكريشة (قماش رقيق جعد) السوداء ، يغطي كل الوجه عدا العينين ، ويصل قريبا من القدمين . يعلق من الاعلى بشريط رفيع يمر من اعلى الجبهة حيث يخيط كما تخيط نهايتا القناع بحزام يربط حول الراس ،هذا القناع يسمى (البرقع). النوع الأسود كثيرا ما يزين بنقود (ليرات) ذهبية ، ولآلىء غير حقيقية وغير ذلك تتصل بالجزء الاعلى . انه ليس غريبا مثل القناع الابيض ، ما لم تكن السيدة في حالة حزن او حداد .

(٨٣) مشكاة المصابيح رقم الحديث ٣١٢٥ .

(٨٤) سورة النساء ٢٢ ، ٢٤ .

الدين ، فالنبي يقول ما معناه : الزوجة الصالحة خير من الدنيا وما فيها . ويقول لقمان : « الزوجة الصالحة كالتاج على راس الملك ، والزوجة الشريرة كالحمل الثقيل على ظهر الرجل العجوز » . والمطالب الرئيسية الأخرى هي انسجام الطباع ، وجمال الشكل (البرء من أي عيب ، او خلل في الشكل او عدد الاعضاء) ، والاعتدال في مقدار المهر المطلوب ، ومن أصل جيد . يقال : « اذا لم تستطع ان تتزوج عذراء (وهي المرغوبة جدا) فتزوج امراة مطلقة ، وليست ارملة ، لان المطلقة ستتعلق بك وتحترم كلمتك فلن تطلقها ، بينما ستقول الأرملة في أي شيء يحدث : اللهم ارحم ذلك الشخص (تعني زوجها الاول) فقد تركني لمن لا يناسبني » ووفقا لمبدأ اناني آخر ، ان المراة غالبا ما تتفادى الطلاق من الرجل اذا كان لها طفل ، لأن قلبها على طفلها ، وتكون عدوة للرجل الذي يتزوجها فيما بعد(٨٥) .

ان العفة أمر ضروري ومؤكد عليه ايضا ولا يمكن ان يهمل ، ولكن هذا بالنسبة للقارىء الانجليزي يحتاج الى بعض التوضيح ، لقد سأل علي بن ابي طالب زوجته فاطمة : « من هي افضل النساء » ، فاجابت : « تلك التي لم تر الرجال ولم يروها »(٨٦) فالعفة لذلك من وجهة نظر المسلمين ، سامية جدا ، بان تخفي المراة نفسها وتحجب عينيها عن الرجال . قال النبي : « خير صفوف الرجال (في المسجد) اولها ، وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها ، وشرها اولها »(٨٧) ، ذلك لانهن ابعد عن الرجال ، الا ان الأفضل من هؤلاء واولئك النساء اللواتي يصلين في بيوتهن(٨٨) .

ان المراة الخصبة الولود مرغوبة كذلك عند اختيارها زوجة ، وتعرف خصوبتها عن طريق اقربائها ، لأن الاقرباء متشابهون في الاستعداد للنسل . واخيرا فان قناعة المراة معدودة من الضروريات يروى عن النبي انه حين سئل : اي النساء خير ، قال : التي تسره اذا نظر ، وتطيعه اذا امر ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره(٨٩) وللحصول على زوجة قنوعة ومطيعة فان كثيرا من الرجال يختارون زوجاتهم من الأوساط الاقل منزلة من منزلتهم ، ويفضل آخرون من هذه النظرة الجارية مكان الزوجة .

ان رضا الفتاة الصغيرة عند الزواج ليس مطلوبا ؛ فان الاب ، واذا كان متوفى فاقرب قريب راشد من الرجال ، او الوصي عليها بوصية ، او الموكل من قبل القاضي ، يكون وكيلا لها ، ويمضي عقد الزواج نيابة عنها . اما اذا كانت بالغة سن الرشد ، فانها هي التي تعين وكيلها . ان المهر المطلوب لتسجيل الزواج هو عشرة دراهم ، وهو الحد الادنى المسموح به ، وقد تزوج النبي محمد بعض زوجاته بمهر قدره عشرة دراهم ، ولوازم البيت البسيطة ، من مثل طاحونة يدوية لطحن الحبوب ، وجرة ماء ، ووسادة من جلد محشوة بليف النخيل ، ولكنه قد تزوج بعضهن بمهر قدره خمسمائة درهم(٩٠) .

ومع ازدياد الثروة والترف، زاد مبلغ المهر، الا انه بالنسبة لرأينا ما زال زهيدا ان مبلغا مساويا لحوالي عشرين باونا استرلينيا يكون متوسط المهر الشائع عند العرب في المجتمعات المتوسطة للبنت الباكر ، ونصف او ثلث او ربع هذا المبلغ للمراة المطلقة او الارملة . ان ثلثي المبلغ يدفع في العادة قبل عقد القران ، والقسم المتبقى يؤجل ليدفع الى المراة في حالة الطلاق او في حالة وفاة الزوج . ان والد الفتاة او الوصي عليها اذا لم تبلغ الرشد ، يتسلم المبلغ المؤجل من المهر ؛ ويعتبر ملكا لها ، وهو ينفقه في الغالب مع مبلغ اضافي من كيسه الخاص لأجل البنت في شراء الضروري من الاثاث والملابس وغير ذلك ؛ حيث ان الزوج لا يستطيع ان يأخذ منها شيئا ضد رغبتها .

ان عقد القران يكون عاما ، وفي الأيام الحالية يعقد بصورة شفوية فقط ، وفي بعض الأحيان تحرر وثيقة وتختم من قبل القاضي . ان أحسن الاوقات لعقد القران والزواج هو شهر شوال ، اما الشهر غير المناسب فهو شهر محرم . ان الاشخاص الذين لابد من حضورهم لانجاز العقد هم : العريس (او وكيله) ، ووكيل العروس (الذي يكتب الكتاب) ، وشاهدان من الرجال ؛ والحصول على هذين سهل ، والقاضي او معلم المدرسة ، او اشخاص آخرون لتلاوة الخطبة التي تتالف من كلمات قليلة في تحميد الله ، والصلاة على النبي . وآيات من القرآن تتعلق بالزواج . ويتلو الجميع سورة الفاتحة (او يفتحون سورة من القرآن) ، بعدما يدفع العريس النقود . ثم

(٨٥) نزهة المتامل ، القسم الرابع .

(٨٦) المصدر نفسه ، القسم السادس .

(٨٧) مشكاة المصابيح ٢٢٩/١ .

(٨٨) المصدر السابق ٢٣٤/١ يريد المؤلف الحديث : (لا تمنعوا نساءكم المساجد ، وبيوتهن خير لهن) .

(٨٩) مشكاة المصابيح ٢٠٧/٢ .

(٩٠) نزهة المتامل ، القسم الرابع .

يجلس العريس ووكيل العروس على الارض وجها لوجه ، ويمسك كل منهما بيد الآخر اليمنى ، رافعين الابهامين ويضغط كل منهما على ابهام الآخر . قبل الخطبة يضع القاضي او الشخص الذي يعقد القران منديلا على يدي العريس ووكيل العروس المتشابكتين ، وبعد الخطبة يلقن كلا من المتعاقدين الكلام الذي يرددانه . والخطبة بعامة تستعمل صيغة الكلمات الآتية او ما يشابهها : « لقد زوجتك ابنتي (او التي يمثلها كوكيل لها) فلانة بنت فلان (ويذكر اسم العروس) الباكر (او العذراء الراشدة او غير ذلك) بمهر قدره » . ويجيب العريس : « لقد قبلت منك زواجها من نفسي » . هذا كل ما هو ضروري ، الا ان الخطاب والجواب يكرر عادة مرتين او ثلاثا ، واحيانا يعبر بعبارات وصيغ كاملة ، ويختتم العقد بتلاوة سورة الفاتحة يتلوها كل الحاضرين.

ان هذه الخطبة او عقد القران كثيرا ما تتم قبل الزواج بعدة سنوات ، عندما يكون العريسان طفلين صغيرين ، او خلال طفولة الفتاة ، ولكن الاكثر شيوعا انها لا تزيد عن ثمانية او عشرة ايام من الزواج . ان اهل البيت يجهزون الاثاث والملابس للعروس ويرسلها اهل العروس الى بيت العريس ، وتنقل عادة على قافلة من الجمال ، قبل ان تصل العروس الى بيت العريس بيومين او ثلاثة ايام او اكثر .

ويحسن الآن ان نذكر الولائم ومواكب الزفاف ، وهي تشاهد في زواج الفتاة الباكر ؛ اما الأرملة او المطلقة التي تزوج ثانية ، ففي طريقة خفية . اني اصف عادات الزواج هذه وفقا لعادات القاهرة خاصة ، حيث يظهر لي انها اكثر مطابقة بصورة عامة مع الاوصاف والاشارات الواردة في « الف ليلة وليلة » . ان الوقت المستحسن والشائع جدا للزواج (الدخلة) هو ليلة الجمعة او الاثنين . وقبل هذه الليلة يقيم العريس وليمة لأصدقائه وقد تتكرر هذه مرتين او ثلاث مرات . ويزين بيته لعدة ليال وكذلك بيوت الجيران القريبين بمجموعات من المصابيح المضيئة او الفوانيس ، تعلق في واجهة البيوت ، ويعلق قسم منها بحبل عبر الشارع . وتعلق في هذه الحبال او غيرها اعلام صغيرة ، او قطع من الحرير المربعة مختلفة الالوان ، وغالبا ما تكون حمراء وخضراء ، يقول بعضهم ان الوليمة يجب ان تقام عند عقد القران ، ويقول آخرون بل عند الزواج ، يقول غيرهم بل تقام عند عقد القران والزواج كذلك(٩١).

(٩١) نزهة المتامل ، القسم الثامن .

ان العادة المتبعة عند اهل القاهرة ان يقيموا الوليمة في الليلة التي تسبق حفلات العرس (الزفاف) ، ووليمة اخرى في ليلة الزواج ، الا ان بعضهم قد يقيم ولائمه قبل ذلك . وقال النبي عن ولائم الزواج : « طعام اول يوم حق ، وطعام يوم الثاني سنة ، وطعام الثالث سمعة ، ومن سمع سمع الله به » ؛ وقد منع الاكل في الوليمة التي التي يراد بها التفاخر(٩٢) . ان من الواجب قبول دعوة وليمة الزواج ، او اي دعوة مشروعة اخرى، ولكن الضيف غير ملزم ان ياكل(٩٣) .ان الاشخاص المدعوين وكل الاصدقاء الحميمين غالبا مايرسلون هدايا من بعض انواع المؤونة قبل يوم او يومين . لقد اوصى النبي بأن ولائم الزواج يجب أن تكون معتدلة بعيدة عن الاسراف ، وافضل وليمة اولمها هي شاة واحدة(٩٤) . لقد رضي النبي عن مظاهر الفرح في احتفالات الزواج مع الغناء ، ووفقا لاحد الاحاديث اذن بالضرب بالدفوف ، وفي آخر ان الدف محرم(٩٥) . والطريقة المفضلة لتسلية الضيوف هي باجراء الذكر .

في اليوم الذي يسبق زفاف العروس الى بيت العريس تذهب العروس الى حمام عام بصحبة عدد من جاراتها وصديقاتها . وتكون الزفة عادة على شكل دائري كي تكون اعظم مظهرا، وعندما تغادر العروس الدار تستدير نحو اليمين، وفي القاهرة تسير العروس تحت مظلة او سرادق من حرير يحمله اربعة رجال ، ومع العروس امراتان من قريباتها واحدة عن يمينها واخرى عن يسارها ، وتمشي فتيات عذارى امام العروس ، ويتقدم على هؤلاء نساء متزوجات ، ويسير امام الزفة وخلفها مجموعة من الموسيقيين بالطبول والمزامير . تلبس العروس نوعا من التاج او الطاقية من الكرتون ، وتحجب كلية عن اعين الناس ، فتبرقع بشال من كشمير يوضع على تاجها وكل جسمها ، الا ان بعض الزينات الجميلة للرأس تربط من الخارج فتكون ظاهرة . وتلبس الأخريات افخر ما لديهن من لباس وزينة . عندما تكون العروس من منزلة عالية او ثرية ؛ واحيانا عندما تنتمي الى اسرة متوسطة ، فان النساء

(٩٢) نزهة المتامل القسم الثامن ، ومشكاة المصابيح ١٩٣/٢.

(٩٣) المصدر السابق ، وفي مشكاة المصابيح ١٩٢/٢ (اذا دعي احدكم الى طعام فليجب فان شاء طعم وان شاء ترك) .

(٩٤) مشكاة المصابيح ١٩١/٢ (ما اولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على احد من نسائه ما اولم على زينب ، اولم بشاة) .

(٩٥) نزهة المتامل .

يركبن على حمير بسروج عالية ، بدون موسيقى او مظلة ، والعروس وحدها تميز بشال كشمير بدلا من الحرير الاعتيادي الاسود الذي تغطى به . ويركب احيانا طواشي (خصي) او اكثر في المقدمة . وفي الحمام ، بعد عملية الغسيل الاعتيادية وغيرها ، تقام وليمة ، واحيانا حفلة تقيمها النساء المغنيات .

ويكون الرجوع الى البيت بالطريقة نفسها ، ان صديقات العروس يشاركن في حفلة مشابهة مع العروس ، ثم يخضبون يدي العروس وقدميها بالحناء ، ويكحلون عينيها بالكحل ، وتقدم صديقات العروس هدايا صغيرة من النقود ، ثم يخرجن . « من السنة ان تغسل العروس قدميها في وعاء نظيف ، وترش الماء في زوايا الغرفة ، فتكون البركة في ذلك . وكذلك تصقل وجهها ، وتلبس احسن حللها ، وتزين عينيها وحاجبيها ، وتخضب بالحناء ، ويجب عليها ان تمتنع خلال الاسبوع الاول عن اكل اي شيء يحتوي الخردل، وتمتنع عن اكل الخل والتفاح الحامض »(٩٦) .

تزف العروس الى بيت العريس (في اليوم التالي) بالطريقة نفسها التي اتبعت في يوم الحمام، وبابهة اكثر . ان بعض مواكب الزفاف في القاهرة للأشخاص من الطبقات الثرية جدا تتميز بصفات فردية ، فان الموكب عادة يتقدمه بهلوانات وموسيقيون ، وسقاة الماء الذين يحملونه بالقرب وبعض الراقصين والراقصات والمشعوذين وما اشبه ، مع اعداد من العربات المكشوفة المزينة او السيارات حيث تحتوي كل واحدة على مجموعة من اصحاب المهن او الصناعات يمثلون مهنتهم . وقد وصف الجبرتي موكبا من هذا النوع حيث : « مشى جميع ارباب الحرف والصنائع مع كل طائفة عربة وفيها هيئة صناعتهم ومن يشتغل فيها مثل القهوجي بآلته وكانونه ، والحلواني والفطاطري والحياك والقزاز بنوله ، حتى مبيض النحاس والحيطان والمعاجيني وبياعين البز وارباب الملاهي والنساء والمغنين وغيرهم ، كل طائفة في عربة ، وكان مجموعها نيفا وسبعين حرفة ، وذلك خلاف الملاعيب والبهالوين والرقاصين والجنك ثم الموكب ، وبعده الاغوات والحريم والملازمون والسعاة والجاويشية ، وبعدها عربة العروس من صناعة الافرنج بديعة الشكل ، وبعدها مماليك الخزنة والملبون الزروخ ، وبعدهم النوبة التركية والنفيرات ، وكانت زفة غريبة الوضع لم ينفق مثلها بعدها »(٩٧) .

وتكون العروس قد وصلت الدار ومن معها من النساء ، ويجلسن لتناول الطعام ، اما العريس فلم يكن قد شاهد العروس بعد . فهو الآن قد ذهب الى الحمام . وعندما يحل الليل يذهب مع موكب من اصدقائه الى المسجد ، ليؤدى العشاء ، ويصحبه الموسيقيون والمغنون ، او يصاحب بالمنشدين بقصائد في مدح النبي ، وبرجال يحملون المشاعل لها قوائم مع أطر اسطوانية من حديد مملوءة من الاعلى بخشب مشتعل . وعند عودة العريس يسير بين يديه مجموعة من خدمه يحملون شموعا مضيئة وباقات من الورود .

وحين يصل الدار ، يترك اصدقاءه في باحة البيت ، ويصعد الى العروس في الطابق الاعلى عادة حيث يجدها جالسة ، وعلى رأسها وشاح يخفي وجهها كله ، وتخدمها امرأة او اثنتان ، فيعطي العريس لخادمة العروس بعض النقود لتنسحب ، ثم يعطي العروس هدية نقدية (كثمن لكشف الوجه) ، ثم يزيح الوشاح عن وجهها قائلا : « بسم الله الرحمن الرحيم » وهو في الغالب يراها لأول مرة . ولأن هذا اللقاء هو الاول، حيث يدعى (الدخول) او (الدخلة) فينصح بأن يعطر نفسه ، وان ينثر بعض السكر واللوز على رأس العروس، وعلى كل امرأة معها ! وهذه العادة تقليد متوارث وما زالت موجودة! ، وقبل ان يقترب منها يؤدي ركعتين من الصلاة ، وكذلك تفعل العروس ان أمكن، ثم يمسك شعرها من ناحية جبينها ويقول : « اللهم بارك لي في زوجتي، وبارك لزوجتي في ، اللهم انعم علي بذرية منها ، وانعم عليها بذرية مني ، اللهم وحدنا بالسعادة كما انت واحد ، وفرقنا عندما تفرق بالسعادة »(٩٨) .

غالبا ما يحسب نجم العروسين لمعرفة في اي برج هما وهل سيتفقان عندما يكونان زوجا وزوجة ، وكثيرا ما يحسب النجم في هذه الايام بجمع قيمة الحروف العددية التي تتكون من اسمه واسمها مع اسم الام سوية ، واذا تذكرت الصواب ، فيطرح المبلغ كله من العدد اثنى عشر ، اذا كان اقل من اثنى عشر ، او يقسم على اثنى عشر اذا كان العدد كبيرا ، وهكذا يحصل على رقم البرج . ان العلامات الاثنتى عشرة تبدأ ببرج

(٩٦) نزهة المتأمل ١/١ ومشكاة المصابيح ٨٩/٢ .

(٩٧) تاريخ الجبرتي ١٢١/٢ — ١٣٢ رواية الامير محمد اغا البارودي المتوفى سنة ١٢٠٥هـ .

(٩٨) نزهة المتأمل ، القسم الثامن .

الحمل ، وهو يتوافق على التوالي مع عناصر : النار ، التراب ، الهواء ، الماء ، النار ، التراب ، وهكذا . واذا كانت علامات كلا الطرفين تدل على العناصر نفسها ، فانها تبشر بانهما سينسجمان ، ولكن اذااشارت الى عناصر مختلفة فان الاستنتاج سيكون بان احدهما سيؤثر في الآخر بالطريقة نفسها التي تؤثر العناصر في بعضها . واذا كان جوهر الرجل هو النار ، وجوهر المراة هو الماء ، فهذا يعني بان الرجل سيخضع لحكم المراة . وفي حسابات اخرى : تؤخذ القيمة العددية للحروف التي تكون اسم كل من الشخصين ، ثم تطرح الواحدة من الاخرى ، فاذا كان الباقي رقما فرديا غير شفعي فان الاستنتاج يكون عدم التوافق لدرجة التضاد .

اما ما يخص واجبات الزوجة فاهمها خدمة الزوج او السيد ، والعناية بالأطفال والواجبات البيتية اللازمة . ان اهم اشغال الزوجة الاخرى هي الغزل او الحياكة او شغل الابرة ، يروى عن النبي انه قال ما معناه : ان جلوس ساعة في عمل المغزل خير للنساء من عبادة سنة ، ويؤجرن على كل قطعة من الملابس ينسجنها اجر الشهادة . ويروى عن عائشة ان النبي قال لها : قولي للنساء ما اقول لك ؛ ما من امراة تغزل لتكسو نفسها فان الملائكة في السموات السبع تصلي ليغفر الله ذنوبها ؛ وستبعث من قبرها يوم الحساب مرتدية ثوبا من الجنة مع وشاح على راسها ، وامامها ملك وعن يمينها ملك يحمل لها كاسا من ماء السلسبيل من حوض الجنة ، ويأتيها ملك آخر يأخذها على جناحيه ويحملها الى الجنة . وعندما تدخل الجنة تقابلها ثمانون الف جارية ، كل جارية ، تجلب لها حلة مختلفة ، وسيكون لها مساكن من زمرد لها ثلاثة آلاف باب وعلى كل باب يقف ملك بيده هدية من اله العرش(٩٩) . ان المهنة المذكورة اعلاه تمارسها الاناث في الحريم في الطبقات الوسطى والعليا ، انهن يقضين معظم اوقات فراغهن في شغل الابرة ،وبخاصة في تطريز المناديل ،واوشحة الراس وغيرها ، على اطار يسمى (المنسج) ، يطرزن بالحرير الملون والمذهب ؛ وحتى النساء في بيوت الموسرة ، يملأن كيسهن الخاص من تطريز المناديل وامور اخرى بهذه الطريقة ، ويستخدمن (الدلالة) لتاخذ ما يعملن الى السوق او الى النساء الاخريات لبيعه(١٠٠) .

لاشك ان الانفصال الجنسي اعدم الاختلاط (بين الجنسين) روح الاتصال الحر بين الأشخاص من نفس الجنس وبطرق فاسدة ، وقد مكنهم هذا من الاختلاط سوية بصرف النظر عن الثروة او المركز ، ودون مجازفة بسبب عدم تكافؤ علاقات الزواج ، ولذلك لم يشعر بقسوة هذا الانفصال كل من الطرفين ولم يعتبروه امرا تعسفيا ، وقد وجد مجتمع الرجال خاصة في هذا درجة عالية من الراحة المألوفة والحرية الواسعة ، وهذا يصدق على الجنسين . وقد تسبب هذه العلاقات تعكيرا للسعادة الاسرية ، وتوثق العلاقات الشخصية بشكل ضيق طلبا للاستمتاع بحرية .

وعلينا ان نلاحظ ان من آثار هذا النظام ان جعل تقييد العلاقات بين الجنسين قبل الزواج يؤدي فيما بعد الى ضرورة تسهيل امر الطلاق ، فمن الظلم للرجل الذي يجد نفسه خائب الامل في توقعاته عن الزوجة ؛ التي لم يكن قد رآها من قبل ، الا يستطيع استبعادها ، هذا من ناحية ؛ ومن ناحية ثانية فاحيانا تجعل الضرورة جواز تعدد الزوجات ؛ للرجل الذي يجد زوجته الاولى غير مناسبة له ولا يستطيع طلاقها دون ان يقهرها على القبول ، واباحة تعدد الزوجات في هذه الحالة تصبح ضرورية كبديل للطلاق . وثالثا : ان حرية تعدد الزوجات تجعل تسهيلات الطلاق مطلوبة اكثر لسعادة النساء ، حتى عندما يكون للرجل زوجتان او اكثر ، وواحدة منهن غير راضية بوضعها ، فهو قادر على ان يخلي سبيلها . رابعا: ان جواز الطلاق يكون احيانا وسيلة لضبط الزوجات ، خوفا من الوقوع تحت نفوذ الزوجة الاولى ، او نفوذ اقربائها ، فيجبرونه على الطلاق اذا ما تزوج امراة ثانية ، وكثيرا ما يكون هذا رادعا للرجل . وهكذا فكلا هاتين الاباحتين ــ الزواج بأخرى والطلاق ــ لهما أهمية كبيرة في تكوين المجتمع الاسلامي ، ولهما بعض المنافع الخلقية ، وباعتبار ما لهما من منافع مادية علينا ان نتذكر ان الجذب والقحط اكثر شيوعا في الاجواء الحارة منه في الاجواء المعتدلة .

من الواضح ان النظام المسيحي يعارض تعدد الزوجات ، ولكن بالنسبة للطلاق فان بعضهم قد عارض فقط طلاق الزوجة ضد رغبتها ، الا بسبب واحد(١٠١) . غالبا ما يكون المسيحيون اكثر ظلما في حكمهم على الشريعة الاسلامية وعقائدها ، وبخاصة الحكم الذي يتفق

(٩٩) نزهة التامل ، القسم السابع .

(١٠٠) المصريون المحدثون ، فصل ٦ .

(١٠١) لقد وافق بروتستانت هنغارية على الطلاق في قضايا العار الذي لا شبهة فيه . اركهارت : روح الشرق ٢/١٦ .

مع الديانة الموسوية ، واعمال الرجال الصالحين ؛ من مثل تعدد الزوجات ، والطلاق ، والحرب دفاعا عن الدين ، والختان ، وحتى القضايا الصغيرة(١٠٢) .

لقد اراد النبي محمد ان يستبعد احد الأسباب الرئيسية لتعدد الزوجات وهي عدم رؤية الرجل للمراة ، فأوصى ان ينظر الرجل الى المراة التي يريد ان يتخذها زوجة له(١٠٣) . وقد صارت هذه السنة اعتيادية اكثر مما هي الآن ؛ فقد رخص لاتباعه كثيرا فسمح للرجل ان يجتمع بشكل ما بالمراة التي يختارها للزواج بحضور رجل او امراة من الاقارب (على ان تكون المذكورة محجبة) ، من غير مخالفة للنظام العام للفصل بين الجنسين ، ولكن نادرا ما يسمح اي من الوالدين من العرب الآن برخصة صغيرة كما أمر ، اللهم الا اولئك الذين من الطبقات الدنيا . وعلينا ان لانلوم المسلم بتعدد الزوجات ونكون اكثر اعتدالا اذا اوصينا بتحديد وتقليل العدد . واظن ايضا كما سمح موسى لقومه بسبب قسوة قلوبهم ان يطلقوا زوجاتهم ، وان الله اعلمهم ان لا يجمعوا بين الزوجات بينما يفعل ذلك البطاريك . وعلينا ان نكون اكثر موافقة كمؤمنين بالكتب المقدسة اذا سلمنا السماح بهذه الممارسة لتكون مؤدية الى الفضيلة اكثر من منعها ، بين الناس المشابهين من اليهود القدماء حيث سمح موسى بمثل هذه الحرية . وحقا ان محمدا قد اتخذ لنفسه عددا كبيرا من الزوجات اكثر من المسموح به للآخرين وقد لاحظت في مكان آخر(١٠٤) ان الدافع لهذا كان رغبته في النسل الى الاولاد الذكور اكثر من رغبته في متعة الزواج .

يقول كاتب درس الشريعة الاسلامية وآثارها بعمق : « في موضوع تعدد الزوجات ، فان اوربيا البحث له فرصة كاملة في مناقشة امراة تركية ،لان مشاعرها حتما بجانب المعارضين لتعدد الزوجات ، ولكنها بعد ذلك أجابت بقوة هائلة ، في مقارنة الآثار العملية للنظامين ، وفي نشر الاشاعات الواسعة عن قسوة وفجور اوربا . كل الاعتقادات بعاداتنا وقوانيننا تقف صفا معاديا ضد البلاد التي يقبل فيها مبدأ تعدد الزوجات ؛ ولكن بينما نحن نلوم الاسلام على تعدد الزوجات . فان الاسلام يجب ان يلومنا على تعدد الزوجات الفعلي الذي لم يقره قانون وينكره العرف ، اضافة الى مهانة العقل بسبب الفساد الخلقي »(١٠٥) .

وينبغي ان يلاحظ اضافة الى ذلك ان السماح بتعدد الزوجات لم يؤذن به كممارسة عامة ، لا ، بل انه رخصة لقساة القلوب كي يعصمهم من السلوك السيء ، وفي بعض الحالات كما لوحظ دائما ، يكون ذريعة لذوي القلوب الرقيقة في حالة الحب ايضا .

لقد لاحظت فيما سبق بان تعدد الزوجات « اكثر ندرة في الطبقات العليا والوسطى من المجتمع (في مصر واعتقد في الاقطار العربية الأخرى) منه في الطبقات الدنيا ؛ وحتى عند هؤلاء ليس شائعا جدا . ان الرجل الفقير يسمح لنفسه بزوجتين او اكثر لأن كل زوجة تكون قادرة ، ببعض الصناعات او الحرف لتزود نفسها بمعاشها الخاص تقريبا . الا ان اكثر الاشخاص من الطبقات العليا والوسطى يأنفون من هذا ، لأن العمل سيعرض الزوجة للكلفة والمضايقة . قد يتخذ الرجل زوجة ويكتشف انها عاقر ، ويكون متعلقا بها جدا فلا يطلقها ، ويرغب احيانا في الزواج من ثانية طلبا للذرية فقط ، ومن هذا الحافز قد يتزوج ثالثة ورابعة ، الا ان الرجل الهوائي المتقلب اكثر وضوحا ودافعه معروفة سواء بتعدد الزوجات او بتكرار الطلاق . وهؤلاء الذين يرضون هذه العاطفة بكثرة الزواج هم قلة بالمقارنة ، واني اعتقد ان ليس في كل عشرين رجلا ؛ الا رجلا واحدا له زوجتان »(١٠٦) . وآمل ان اكون قد اوضحت بأني اعتبر تعدد الزوجات ضرورة في نظام المجتمع الاسلامي ؛ كي يمنع الدعارة التي ستكون اسوا من تلك التي تسود الاقطار الاوربية وبشكل واسع وفظيع ؛ حيث ان الناس يرتبطون بالزواج بعد علاقات جنسية متبادلة ؛ اني اعتبر تعدد الزوجات (شرا) لابد منه .

(١٠٢) سالتني سيدة متدينة مرة فيما اذا كنت موافقا على طرق الشرقيين في الاكل « باساليبهم الوحشية » ، فاجبت : « لا تسميها اساليب وحشية بل سميها اسلوب ربنا ورسله » ، وبعض التسامح هنا مطلوب. كنت مقررا عندما ذهبت للشرق اول مرة ألا اوافق على طريقة الاكل بالاصابع عندما استطيع تجنبها ، ومع ذلك ، بعد ان رايت لاول مرة طريقة الاكل هذه ، استعملتها حالا وواظبت عليها .

(١٠٣) مشكاة المصابيح ١٦٣/٢ ، ١٦٤ . في الحديث : « اذا خطب احدكم امراة فان استطاع ان ينظر الى ما يدعوه الى نكاحها فليفعل » .

(١٠٤) مختارات من القرآن ، الطبعة الاولى ص ٥٩ .

(١٠٥) اركهارت ، روح الشرق ٤١٥/٢ ، ٤١٦ ، انظر الفصلين (حياة الحريم) و (دولة النساء) حيث اظن انهما احسن ما في الكتاب .

(١٠٦) المصريون المحدثون ، الفصل السادس .

عندما تعيش زوجتان او اكثر لرجل واحد سوية ، او عندما تزور كل منهما الاخرى ، فان الشعور بالغيرة ، هو شعور عام ، وغالبا ما يظهر، وخاصة من قبل الزوجة ــ او الزوجات ــ التي لا تستطيع ان تزعم الاولوية بأنها تزوجت قبل الاخرى او الاخريات ، او بسبب كونها اكثر حظوة عند زوجها من الاخريات(١٠٧) ؛ تتمتع الزوجة الاولى عادة بمنزلة أعلى ، لذلك فان الآباء غالبا ما يعترضون على اعطاء ابنتهم زوجة لرجل متزوج من زوجة اخرى ، وفي كثير من الاحيان يحدث بأن المراة التي تطلب للزواج تعترض على مثل هذه الشركة . ان الشرع يجيز في بعض الحالات ، دفعا للمضايقات التي تنشأ من تعدد الزوجات ، باعطاء كل زوجة حق اثاث معين ملائم للنوم والطبخ وغيره ، واضافة الى ذلك ، يشترط على الزوج ان يكون عادلا منصفا بين زوجاته في كل علاقاته . الا ان هناك بعض الصفات مثل الخصوبة وكثرة الولادة والجمال الفائق ، صفات تمكن المراة الثانية او الثالثة او الرابعة ، من اغتصاب مكان الزوجة الاولى ، ومع ذلك ، وكما لاحظت دائما ، ان المحبوب الدائم ليس الاكثر جمالا .

وعلى اية حال فهناك عدة حالات من المحبة الخالصة موجودة في قلوب الضرات . والقصة التالية لزوجتي والد الجبرتي المؤرخ المصري الحديث ، يرويها بنفسه ، وهي بلا شك صادقة ومثال ممتع . يقول المؤرخ متحدثا عن اول هاتين الزوجتين :

« ومن جملة برها لزوجها وطاعتها ، انها كانت تشتري له من السراري الحسان من مالها الخاص ، وتزينهن بالحلي والملابس الفاخرة ، وتقدمهن اليه ، وتعتقد حصول الاجر والثواب لها بذلك (في الجنة) . وكان يتزوج عليها كثيرا من الحرائر ويشتري الجواري فلا تتأثر من ذلك ، ولا يحصل عندها ما يحصل في النساء من الغيرة غالبا .

ومن الوقائع الغريبة الاخرى التي حدثت الحادثة التالية : انه لما حج (والد المؤلف الجبرتي) سنة ١١٥٦هـ (٤٣ــ١٧٤٤م) واجتمع به الشيخ عمر الحلبي بمكة ، اوصى بان يشتري له جارية بيضاء تكون بكرا دون البلوغ ، وصفتها كذا وكذا ، فلما عاد من الحج طلب من اليسرجية الجواري لينتقي منهن المطلوب ، فلم يزل حتى وقع على الغرض فاشتراها ، وادخلها عند زوجته ، حتى يرسلها مع من اوصاه بارسالها صحبته . فلما حضر وقت السفر اخبرها بذلك لتعمل لهم ما يجب من الزاد ونحو ذلك ، ولكنها قالت له : « انني احببت هذه الوصيفة حبا شديدا ولا اقدر على فراقها ؛ وليس لي اولاد ، وقد جعلتها مثل ابنتي » . وكذلك بكت الجارية زليخة وقالت : « لا افارق سيدتي ولا اذهب من عندها ابدا » . فقال : وما العمل ، قالت الزوجة : سادفع ثمنها من عندي ، واشتر انت غيرها . ففعل كذلك ، ثم انها اعتقتها ، وعقدت له عليها ، وجهزتها وفرشت لها حجرة خاصة بها ، وبنى بها في سنة ١١٦٥هـ؛ وكانت الزوجة الاولى لا تقدر على فراق هذه الفتاة ساعة واحدة ؛ على الرغم من انها قد اصبحت ضرتها ؛ وولدت له اولادا .

فلما كانت سنة ١١٨٢هـ مرضت الجارية ، فمرضت سيدتها ايضا لأجلها ، وانتشر المرض في الاثنتين ، وفي صباح احد الايام قامت الجارية فنظرت الى مولاتها وكانت في حالة سيئة على وشك الموت ، فبكت وقالت : « يارب وسيدي ؛ اذا كنت قد قضيت بموت مولاتي فاجعل يومي قبل يومها » ثم سقطت ، وازداد بها المرض ؛ وماتت في الليلة الثانية ، فاضجعوها بجنب مولاتها ؛ فلما استيقظت مولاتها في آخر الليل ؛ وجستها بيدها ، وصارت تقول : (زليخة ؛ زليخة) ، فلما قالوا لها : انها نائمة ، ولكنها اجابتهم : ان قلبي يحدثني انها ماتت ، ورايت في منامي ما يدل على ذلك . ثم قالوا لها : (حياتك الباقية)(١٠٨) ، فلما تحققت مما قالوا ، قامت وجلست ، وهي تقول : لاحياة لي بعد موتها ؛ وصارت تبكي وتنتحب حتى طلع النهار وشرعوا في تشهيلها وتجهيزها وغسلوها بين يديها وحملوا جنازتها الى القبر . فرجعت عندئذ الى فراشها ، وصارت تحتضر ؛ فجاءتها سكرات الموت فماتت في آخر النهار ، وفي اليوم التالي خرجوا بجنازتها ايضا الى القبر بالطريقة نفسها »(١٠٩) .

---

(١٠٧) الزوجة الاخرى تدعى باللغة العربية (ضرة) والكلمة مشتقة من (الضرر) اى الاذى لان الزوجة الاخرى عادة تقاسي المعاملة الضارة ، الواحدة تجاه الاخرى ، ان كلمة (ضرة) في العامية العربية (بتبديل اللين مكان الشدة ، الدال والضمة مكان الفتحة) تلفظ (درة) وفي المثل الشائع (عيشة الضرة مرة) « الطنطاوي » .

(١٠٨) هذه هي الطريقة المعتادة في اخبار الشخص بوفاة شخص آخر ، وكثيرا ما يقولون في الحالة نفسها (البقاء في حياتك) ثم يبدأ السؤال (من الذي مات) فيذكر الاسم .

(١٠٩) تاريخ الجبرتي ، الجزء الاول ، وفيات سنة ١١٨٨هـ.

تأملات في عالم ألف ليلة وليلة :

البناء الفني للحكاية في الليالي

بقلم

ياسين النصير

بغداد ـ الجمهورية العراقية

بدءاً يمكن ايراد هذه الملاحظات العامة حول الحكاية في الليالي ككل .

١ ـ لا تتشابه حكايات الليالي بعضها مع البعض الاخر ، فبعض الحكايات يستمر لعدة ليالٍ ، وبعضها يقتصر على ليلة واحدة(١) في حين تكون عدة حكايات في ليلة واحدة ، ويعطينا حجم الحكاية الشعبية والخرافية في الليالي مؤشراً شكلياً اوليا ، ومن ان الشكل الخارجي للحكاية ليس هو المهم في البناء ، بل ان مضمون ومحتوى الحكاية هو الذي يحدد حجمها وشكلها . فاذا كنا نعتبر بعض الحكايات اشبه بالقصة القصيرة ، فبعضها الاخر اشبه بالقصة القصيرة الطويلة ؛ وتعكس مسالة الطول والقصر وضعا فكريا معقداً؛ فالحكاية الطويلة التي تتفرع منها حكايات قصيرة عديدة ؛ تعتمد بطلا مركزيا واحدا ، كحكايات حسن البصري ، التي يدور حوله ابطال ثانويين يكونون رئيسين في بعض الحكايات ، كحكاية زوجته من الجان ، ثم تعود اليه الحكاية ثانية بعد ان يكون قد تركه القاص ليوضح لنا حالات الابطال الثانويين ، مثل هذه الحكاية الام ؛ الحكاية الرحم ؛تكاد تكون هي الاساس في الليالي؛ اذا ما اعتبرنا ان كل الليالي وحكاياتها اساساً ؛ هي حكاية شهريار وشهرزاد وقد تفرعت الى حكايات صغيرة وكبيرة توزعتها مدن وبحار ، ملوك وامراء ، خاصة وعامة ، انس وجن .. الخ ولكن مثل هذا الاعتقاد يسقط من الفهم البسيط لمعنى وشكل الحكاية الذي اعتمدته الليالي .. فالليالي ؛ اعتمدت لونين اساسيين من الحكاية . الحكاية الطويلة الموزعة الى حكايات صغيرة مرتبطة بها ومغذية لابعادها ، والحكاية القصيرة التي تتفرع احياناً من الحكايات الطويلة ، ولكنها تنتهي بانتهاء روايتها ، ولا يعود القاص الى بطلها او معناها ، ومن الحكايات الطويلة ، حكاية حسن البصري حكاية النعمان بن المنذر او حكاية ذات الدواهي ؛ او حكاية مسرور السياف ؛ وكما توضح لنا الليالي ان هؤلاء ليسوا الا ابطالا ثانويين ، فهناك خلف كل واحد منهم ملك او امير؛ من الجن او من الانس يدير شؤون الدولة او المملكة ؛ اما هؤلاء فليسوا الا اشخاصا مهمين ولكنهم ثانويين في تاريخ ذلك الملك او الامير .

٢ ـ وما دمنا نقرأ الليالي بطبعات منقحة: وموزعة حكاياتها على الف ليلة وليلة توزيعاً ذوقيا ، فان الزمن الداخلي لكل حكاية يبقى مجهولا . فقد وجدنا ان بعض الحكايات تتوزع على عدة ليالٍ ، ووجدنا عدة حكايات في ليلة واحدة ، او ان تكتفي الليلة بحكاية واحدة . مثل هذا التباين في الطول ، يلغي وحدة الزمن للحكاية الواحدة ؛ الزمن الخارجي ـ الذي تستغرقه شهرزاد للقص ، والزمن الداخلي ؛ الذي تستغرقه الحكاية فعلا ، وما دمنا لا نستطيع تحديد الزمنين من داخل الحكاية ، فان الليلة الواحدة لا تعطينا كامل الزمن الفعلي للحكاية ،

ولكن يصح اعتبارها ـ اي الليلة ـ معيارا نفسيا لوحدة الفن القصصي ، وهو معيار خارجي في كل الاحوال ، قد يساعدنا في فهم الوحدة الموضوعية للحالة التي كانت عليها شهرزاد وشهريار ، ولكنه لا يساعدنا في تكوين خصوصية معينة لمعنى وزمن الحكاية الواحدة .

الملاحظة الجوهرية ، ان الحكاية لا تنتهي كلها بانتهاء الليل ، بل بعض الحكايات القصيرة ينتهي قبل الفجر ، مما يستوجب على شهرزاد تغطية الوقت المتبقي بحكايات اخرى من ذات الجو نفسه ، او من تلك التي تركت قبل هذه الليلة ، كما ان بعض الحكايات تعبر الفجر ، ليصبح الفجر او الصباح حاجزا طبيعيا ونفسيا لفعل القص : بمعنى اخر ، ان الحكايات محكومة بزمن طبيعي خارجي هو الصباح ، ويعكس هذا الوضع حالة لم تتطرق اليها الكتب التي الفت عن الليالي ، الا وهي تاثير الطبيعة على النفس المشبعة بالظلام والموت ، وكان هذا الفعل هو جزء من حملة مسعى شهرزاد لازاحة القتل والامتهان الذي يمارسه شهريار ضد بني جنسها .

ويمكن الذهاب الى مدى ابعد في قضية الزمن في الحكاية ، فالحكاية ، تعتمد الوحدة العضوية بين الزمان والمكان ، الا ان المكان فيها دائما يكون اكثر كثافة ، واقل محدودية . وهذا يعكس الوعي الذي كان عليه القاص الشعبي يومذاك ، اي محدودية المعرفة بالعالم الطبيعي الذي يحيط به ، وعندما كان يريد توسيعه حسب ما تتطلبه الحكاية ، جعل ذلك من جزر الجان ، وفي العالم السفلي تحت الارض ، وفي البحار المجهولة والمجاهل غير المعروفة ، وابتكر لكل ذلك اسماء . اما الزمن الخاص بالحكاية ، فكان زمناً متعدداً اي انه طويل ، يطوي القاص في داخله الليل ، النهار ، الفصول والسنوات وقلما تتأثر عواطف الشخصيات بتغييرات الزمن ، وان حدث وتغيرت تطلب من القاص مسعى لان يوصل ما انقطع بالعودة ثانية الى المغامرة .

٣ ـ يمكن تقسيم الحكايات الى ثلاثة انواع رئيسية ، حكايات عن الانسان ، وحكايات الحيوان . والحكايات المختلطة . علماً بأن الحيوان هنا ، ما يشتمل عليه عالم الجن والمسخ وكل الاشكال غير الطبيعية ، ولكن الحكايات لا تكون صافية؛ فقد تبدأ بالانسان، وفي استمرارها تدفع الى مجرى الحكاية احياء اخرى ، طبيعية وغير طبيعية ؛ والحكايات الخاصة بالانسان وافعاله ، هي تلك التي كتبت متأخرة ، وحاكت احوال ومواضع الناس في العصر العباسي ، ويغلب عليها الطابع الاجتماعي ـ السياسي والديني ، وابطالها ممن عرفنا بهم التاريخ وحكت لنا عنهم الكتب ، اما الحكايات الخاصة بالانسان مع الحيوان او الجن ، فهي من ابتداع خيال القاص الذي اراد ان يوسع مدى فاعلية الحكاية ويشمل بها عالمين ، عالم الخفاء ، وعالم العيان ، وهو ما يجعلنا نقترب من حكاياته من المعنى الحقيقي للحكاية الشعبية ،حيث امتلكت مقومات لم تكن موجودة في الحكايات التي اعتمدت الانسان لوحده ، اما الحكايات الخاصة بالحيوان او الجن على مختلف اشكالهم والوانهم ، فهي النوع الذي يقربنا من الحكاية الخرافية ، وفيه نجد ذلك العالم الخفي وقد تشكل بوضع متماسك وبدا يمارس فعله وطقوسه بحرية تامة . وكما يبدو ان هذه الحكايات هي الاقدم في الليالي ، تليها الحكايات المختلطة ، ثم حكايات الانسان .

٤ ـ يلاحظ قارىء الحكايات ان اسلوبها بسيط ، وتركيب جملها عادي وسهل ، وتكثر فيه السكنات ، كصورة من الصور العامة اليومية المألوفة ، وكان الاسلوب بهذه الخصائص لا يمت من قريب او بعيد الى ما تعارفنا عليه من فنون الادب ، وصفاء العبارة وقوة المعنى ودقة التعبير . ويعكس هذا الوضع طابع العصر الذي كتبت فيه؛ ولكن ليس كل العصر ، وانما العصر الذي بدا فيه الأدب الشعبي يدون ، ويصبح مادة للتداول والقص ، وانتقال الحكاية من مرحلة الشفاهة الى مرحلة التدوين يبرز هنا الطابع الذاتي والفردي للقاص ، رغم مجهولية القاص ورغم تعدده ، هذا من جهة ومن جهة اخرى ان الادب المدون في الليالي ، هو ادب العامة ، وادب مجالس اللهو والطرب ، وادب البيوت والعوائل البسيطة ، ولكونه مزج السحر بالواقع ، والخيال بالممكن ، وحكى عن الشاذ والمنطقي ، والمعقول واللامعقول، وكان في تغطيته لهذا اللون من الاهتمام الشعبي يتقرب الى فهم العامة ، والى مداركهم البسيطة ، ويجعل من القص نفسه وسيلة لشيوع الادب الشفاهي اولا ثم تدوينه كما هو ثانيا ، ومما يؤكد هذه الحاجة ، ان الشعر الذي احتوته الليالي ، هو من النوع الساذج والتلفيقي ، والذي يجهد القاص نفسه لوضعه ضمن سياق الحدث القصصي تطعيماً بجو خاص ، وانتقاله بالسرد من حالة السماع الى حالة التخيل ، وتحويل هم السامع الى ما يحس به البطل لحظة تأزم الموقف ، والشعر

كما هو معروف ليس الا نظما عاديا ، لا روح فيه ولا قيمة متميزة ويستطيع القارىء ان يتصرف على الطريقة التي ادخل فيه الى مجرى الحكاية بسهولة ، فيشعر به وكأنه قطعة ملحقة من خارج المجرى النفسي والشعوري العام ؛ واضافة الى ركة كلماته . وعبارته ، ركة في صوره ، وتدن في معانيه ، ويعكس بالطبع حال الشعر في تلك المرحلة ، حيث اكثر فيه اللحن ، وتدخلت كلمات واجواء غير عربية نتيجة تبدل الولاة ، وتغيير الحالات الاجتماعية تمهيداً الى الانهيار التاريخي الكبير الذي حدث بسقوط بغداد .

كما احتوت الليالي على كل اساليب القص، الراوي ، والمتكلم والمخاطب ، وكانت كل هذه الضمائر ، تسير تحت غطاء ضمير الراوي شهرزاد؛ مما يجعل فن القص نفسه مستوعبا للطرق الشائعة في الحكاية الشعبية والخرافية على حد سواء ، يضاف الى ذلك ان هذه الضمائر، تنوعت بتنوع الاشكال التي تتجسد فيها الحكايات ، فهناك الحكاية التي تحكي حياة بطل ما ، ويكون السرد مصاحبا لهذا اللون ، وهناك المواعظ والنكت ، وهي من التي يتدخل الراوي في صياغتها كتعبير عن وضع ما داخل الحكاية ، وهناك الفنطازيا المتخيلة ، كقصص الجن والسحر ، ويكون الراوي هو الغالب في تجسيدها .. وباحتواء الليالي على هذه الاساليب ؛ تعرض لنا « وحدة » شاملة ، جامعة لاشكال السرد القصصي يومذاك فكانت بتمدد اشكاله تقرب الفهم بين العامة والخاصة وتوحد في المشاعر الاجتماعية العامة ، وتعطينا مؤشراً على طابع الحياة الثقافية في ذلك العصر .

« وتميل لغة الف ليلة وليلة عموماً الى النثر المسجوع وهي كثيراً ماتلائم بحق اناشيد الحب العاطفية التي كان عصر ازدهارها فيما بين القرن الثاني عشر ، حتى القرن الرابع عشر ، وهو نفس العصر الذي ازدهر فيه التروبادور في الغرب وشعراء الحب والاغنيات الشعبية ازدهاراً كبيرا وربما تأثر كذلك الادب الاوربي الذي تغنى بالحب، بفن الادب عند الاسبان العرب حينذاك »(٢) .

٥ ــ ويبقى بعد ذلك ما يسمى باسلوب الف ليلة وليلة الروائي ، الذي عد فتحاً في الاداب الاوربية يوم ترجمت بالفرنسية اليها قبل اكثر من مئتين وخمسين سنة خلت(٣) ويمكن ايجاز اسلوب الليالي الفني ، من انه ذلك التتابع الحدثي المتسلسل دون الوقوف عند حدث صغير معين بل ربط جميع الاحداث بوحدة مركزية هي الحالة التي كان عليها كل من شهريار وشهرزاد ، الا ان هذا الايجاز يخل بالمعنى الاساسي للفن الروائي في الليالي . ولكن نعيد هنا بعض ما اشرنا اليه اثناء الحديث ، لابد من البدء من اوليات هذا الاسلوب ، واقصد به بناء الحدث .

بدءاً ، نقول ان الحكاية المتنوعة . الشعبية والخرافية والاسطورية ، قد اختلفت داخلياً في تركيبها الفني ، بمعنى ان هذه الحكايات لاتتشابه فنياً لما تمتلكه كل واحدة منها بخصائص نوعية متميزة ؛ الا اننا نؤكد هنا ان هذا الاختلاف هو احد سمات فنها الروائي ، أي ان تنوع اساليب القص جعل لاسلوب الليالي العام ميزة روائية خاصة بها .

وثانياً ؛ ان الابطال ــ وقد جرى بعض الحديث عنهم ــ كانوا من الثانويين ، والذين يطلق عليهم لوكاتش ــ البطل التاريخي العالمي ــ وهؤلاء يمثلون بوضعيتهم الطبقية والفكرية ، الشخوص الاكثر التحاما بالاحداث الشعبية ؛ فهم نوافذ الخليفة او الامير على العامة ؛ وهم مجسات العامة لوضع المملكة او الخلافة ، ولكونهم كذلك احتلوا مساحة كبيرة من فن الرواية الخاص كذلك كانوا في الموقع الذي اتاح لهذا الفن من ان يتخذ جوانب خفية وعلنية من مسار التاريخ العام للدولة .

والخصيصة الثالثة ، ان الاحداث تتوالد ، بعضها من بعض ، ويحدث توالدها امتدادا ، فتخلف شخوصاً واوضاعاً جديدة ، بحيث لا نستطيع القول ؛ ان هذا الحدث ينتهي عند هذه الشخصية او في هذا الموقع ، هذا التوالد الحي ؛ الغى بشكل او باخر مركزية البطل ، كما الغى وقوف مجرى التاريخ عند حدث معين ، بل كان ينساق وراء الانسياب العام للتاريخ ، ويستوعب وهو في طريقه حركته ونموه واتساعه ، فتجد ان الليالي في بدئها كانت محدودة الفعل ، ثم تتوسع لتشمل ممالك وامصار ، قديمة وحديثة ، في الواقع وفي الخيال . ويشبه الفن في داخلها العلبة الصينية الكبيرة التي يمتلىء جوفها بعلب اصغر متشابهة ، فكلما فتحت واحدة ادت الى اخرى ، الا ان الامر في الليالي عكس ذلك يبدأ من العلبة الأصغر في الحلقة ؛ فما ان تضع العلبة الصغيرة ، حتى تحتاج لان تضع حولها علبة اكبر ، وهكذا تستمر العملية لتجد نفسك في اخر المطاف وقد استوعبت شمول الحياة والتاريخ الذي عاصرته . بل ومازالت تتسع لتشمل اوضاعا قائمة لحد الآن.

وتأكدت أهمية الفن الروائي لليالي ، مما اثرته في الرواية الادبية في فترة نشوئها ونهوضها ، فقد امدتها بطاقة تعبيرية شكلية وفكرية ، وليس ما عرضته الليالي من حالات واوضاع ، هو الذي اثار روائيو القرن التاسع عشر(٤) انما ما امدتهم به من سعة الخيال وتوالد الاحداث ، وامتداد المشاعر ، وعدم الوقوف عند منعطف واحد من منعطفات التاريخ ، وكانت بذلك توازن الحياة الاقطاعية والارستقراطية الادبية بشيء من الحياة العربية القديمة ، وكما اشرنا ان ترجمتها جاءت في نفس الفترة التي انتعش فيها الأدب الشعبي ، والاغاني ، وهذا يعكس في جانب منه الحاجة التاريخية الى من يستوعب هذه الطفرات في حياة الشعوب ، فكانت الليالي النافذة الاكثر سمة للواقع الادبي الجديد .

٦ ــ وتعزو العديد من الكتب ، ان اصل الليالي هندي وانها كتبت في القرنين التاسع والعاشر ، ويدلك الكتاب على هذا الأصل من ان طبيعة « الحكاية الهندية تمزج حكاية باخرى ثم مزجهما معاً في حكاية ثالثة ، وفي اسلوبها الذي يتوقف بالحكاية مرة ثم يصلها مرة اخرى ..»(٥)

الا ان الليالي ليست كلها حكايات هندية ، وهذا يعني ان الحكايات العربية تلبست الطريقة ذاتها التي اعتمدتها الحكاية الهندية .

وتؤكد كتب المستشرقين من ان العرب عرفوا انواعا عديدة من الحكايات ، الشعبية والخرافية ، وعدها بلاشير من ضروب النثر الادبي . وافرد لها فصلا كاملا في كتابه تاريخ الأدب العربي فعرفنا على الاسطورة البطولية ، والقصص الطريفة وقصص الشطار والاذكياء ، والقصص الغرامية والتعبير عن المثل الاخلاقية والحكمة والتجربة ، والاقوال المأثورة والامثال والحكم ، والقصة على لسان الحيوان والحكمة المثلية والحكاية التقوية . وظهور حب الاستطلاع وحكاية البدو شبه التاريخية .. الخ(٦) ، اضافة الى مايؤكده ادم ميتز من شيوع فن القصاص في بغداد وغيرها من المدن ، يوضح لنا ان للحكاية الشعبية والخرافية جذوراً تمتد الى القرنين الخامس والسادس استوعبتها الليالي ، كحكاية سليمان الحكيم ، واثر السحر والقدرة الخفية التي افردت لها الليالي الكثير .

وما يجعلنا نطمئن الى ان الحكاية في الليالي ذات جذور عربية واخرى فارسية وهندية هو ان الاسلام لم يقف بوجه هذا اللون من النثر ، بل ان القرآن كان يواجه لدى المشركين بدعوى انه ذا جذر خرافي ؛ الا ان القرآن اثبت العكس من ذلك عندما ربط « كلية » الحياة الجديدة التي دعا اليها بتاريخ الانسان ككل ، فكان يفرز بين حكايات الانبياء والمرسلين ، وبين خرافات العامة ، فانتصر للاولى باعتبارها جزءاً من ترسيخ الفكر الديني ــ الفلسفي ، ورفض الثانية باعتبارها جزءاً من ترسيخ العقلية الجاهلية . وقد نبذ النبي محمد (ص) حكايات « النفج » او « القشور »(٧) كما نبذتها بقية الاديان السماوية ، وقديماً نبذها افلاطون كذلك .

٧ ــ والحكاية ككل في الليالي ثلاثة اشكال متميزة ، الحكاية الخرافية ، والحكاية الشعبية ، والحكاية التي تجمع بين الاثنين ، ولهذا التنوع اسبابه الفنية التي نبعت اساسا من محتويات الحكاية نفسها . وقد اشبعتنا الكتب التي تحدثت عن انواع الحكايات بالتعريف والتفسير وفرز الخصائص العامة والخاصة لكل من الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية ، ويمكن الرجوع الى ذلك بسهولة(٨) ، الا ان النوع الثالث من الحكايات ، لم تتطرق اليه هذه الكتب الا لماماً ، فالحكاية البين بين ، او التي تجمع بطلا وحدثا خرافياً الى جانب بطل وحدث شعبي ؛ تجعلنا نركز عليها هنا ، باعتبارها الشكل الذي اوجدته الليالي . وفيرت به عن « كلية » الحس الشعبي العام الذي كان سائداً يومئذ ، والحديث عن « كلية » الحس الشعبي من خلال هذا النوع من الحكايات ، يقودنا الى تأكيد نواح هامة من خصائص التاريخ العام يومئذ ، وهو ما تطرقنا اليه بعض الشيء خلال هذه المقالة .

الا ان هذه الكتب تتحدث عن الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية من خلال الحكاية الاوربية والشرقية القديمة ، وهذا ما يجعل الكثير من الخصائص التي توردها منطبقة على حكايات الف ليلة وليلة ؛ ويبقى عدد اخر من الخصائص لم تشر اليه تلك الدراسات ، او اشارت اليه ضمناً ، ونكتفي هنا بايراد الفروق بين الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية التي كونها « ماكس لوتي » وادرجها دير لاين في كتابه الحكاية الخرافية(٩) واود هنا الاشارة ، الى ان هذه الخصائص مبعثرة ، وموزعة على جميع صفحات الكتب ، ولذلك لجأت هنا الى تلخيصها واعدادها بشكل يوضح الفروق بين الحكاية الخرافية والشعبية بدقة .

الحكاية الخرافية	الحكاية الشعبية
١ ـ لا تتسلسل الحوادث فيها ، وانما تتكرر ، ولذلك فهي تصور الموضوع مرة واحدة وبطريقة اكثر تركيزا بل اكثر اقتصادا .	١ ـ الحوادث فيها تتسلسل تسلسلا متصلا والموضوع فيها يسير في خط مستقيم .
٢ ـ الحكاية الخرافية ذات بنية مركبة .	٢ ـ الحكاية الشعبية ذات بنية بسيطة .
٣ ـ الحكاية الخرافية ذات بنية ملحمية مركبة.	٣ ـ الحكاية الشعبية لا تعتمد البنية الملحمية لانها متسلسلة تسلسلا متصلا .
٤ ـ تعطيك انطباعا بأن ما تسمعه فيها ، سبق وان سمعته أو هو من المعارف العامة .	٤ ـ لا تقف كليا عند هذا الشرط ، وان اعتمدته جزئياً ، لان الحكاية الشعبية منفتحة اكثر على الحياة وعرضة لان تزداد حجماً وفناً .
٥ ـ تركز حدثها حول شخصية رئيسية مركزية	٥ ـ لا تركز حدثها حول شخصية رئيسية دائماً ، بل انها تصور الانسان الوحيد .
٦ ـ لا تبتدىء الحكاية الخرافية فجاة بالحركة كما لا تنتهي فجاة بنهاية محددة .	٦ ـ بينما تعتمد الحكاية الشعبية وضوح البداية والنهاية .
٧ ـ الانسان في الحكاية الخرافية يتصل بمحض اختياره بقوى العالم الآخر .	٧ ـ الانسان في الحكاية الشعبية ، وحيد ومتفرد .
٨ ـ الحكاية الخرافية ذات طريقة تجريدية في العرض .	٨ ـ الحكاية الشعبية ذات طريقة حسية من العرض .
٩ ـ لا تفصل كثيرا في العوالم الاخرى .	٩ ـ تصور الحكاية الشعبية العوالم الاخرى بدقة وتفصيل ، مازجة كل ذلك بالطبيعة .
١٠ ـ الحكاية الخرافية تتحرك بين ما هو جاد وهزلي .	١٠ ـ الحكاية الشعبية جادة في طبيعتها.
١١ ـ لا تتحدث الحكاية الخرافية عن مخلوقات العالم الاخر بتفصيل . تحكى فقط عن العفاريت والجن والمردة ولكنها لا تصفهم.	١١ ـ تتحدث الحكاية الشعبية عن مخلوقات العالم الاخر بتفصيل ، عن ما ضيهم وعاداتهم اليومية .
١٢ ـ التبعات التي تلحق بطل الحكاية الخرافية تتحدد بما يستقبله من هذه القوى والتي تكون اما مساعدة له ، أو معادية ، ولذلك فالمردة والجن وغيرهما لهم قوة محددة من قبل .	١٢ ـ التبعات في الحكاية الشعبية هي الوفاء الذي هو نتاج للمواهب التي يستقبلها البطل من مخلوقات العالم الاخر . اي لا يكون دائماً مضاداً لها .
١٣ ـ الحكاية الخرافية تنتمي كلها الى الادب	١٣ ـ اما الحكاية الشعبية فتمد مزجاً بالواقع الحقيقي ؛ وليس لها طابع ادبي صرف ، انها تود لأن تحكى عن غرائب عالم الواقع وغرائب العالم الاخر .
١٤ ـ تنتمي الحكاية الخرافية كليا الى العالم الاخر ، الى الحقيقة الاخروية .	١٤ ـ تنتمي الحكاية الشعبية كلها الى الحقيقة الدنوية .
١٥ ـ عندما تتحدث الحكاية الخرافية عن الجنة مثلا ؛ تفرد التناقض بين فقر الحياة الارضية والحياة السماوية .	١٥ ـ تميل الحكاية الى تصور الفقر هذا ايضا ولكن المستخلص من الحياة الارضية فقط

الحكاية الخرافية	الحكاية الشعبية
١٦ ـ تعتمد الاحلام التي تصور المخاطر المفزعة والمواقف الصعبة .	١٦ ـ تعتمد عليها ولكن بحدود .
١٧ ـ تعيش في جو من السحر الكامل .	١٧ ـ تعيش في جو واقعي ، ولكنها تعرف القليل من السحر واشكال العالم المجهول. الا انه ليس السحر الذي تعتمده الحكاية الخرافية ويرجع ذلك الى اختلاف البطل بين الاثنين .
١٨ ـ بطل الحكاية الخرافية مغامر في الاغلب .	١٨ ـ بطل الحكاية الشعبية بالاضافة الى المغامرة اللازمة لـه ، يعيش الحوادث في العالم الواقعي ويصور المعايشة في العالم المجهول .
١٩ ـ بطل الحكاية الخرافيـــة كلي ، بمعنى ان الزمان والمكان عنده غير محسوسين .	١٩ ـ بينما بطـل الحكـاية الشعبيـة ، يعيش الحاضر والماضي والمستقبل ولذلك تفعل الحكاية في الزمان وفي المكان .
٢٠ ـ لا تتحـدد الحكـاية الخرافيـة بالانتماء الأسري ، القبلي .	٢٠ ـ تتحدد قيمة البطل في الحكاية الشعبية من انه ينتمي لهذه القبيلـة او تلك ، وان الحكاية الناجحة هي التي تمجد القبيلـة او الاسرة ، مؤكـدة على الروح الشعبي العام .
٢١ ـ مادة الحكاية الخرافية ورموزها تتلخص في انها صورة للشـيء المحرم الذي لا يحـق للبطل ان يقترب منه .	٢١ ـ لا تتحدد دائما بهذا الفهم وان استخدمته بعض الاحيان .
٢٢ ـ تصلح الحكاية الخرافية لما تمتلكه مـن رموز ومستويات غير واقعية ان تكون مادة لعلم النفس وللاداب ، كما كانت رموزها منتشرة في العديد من النتاجات الادبيـة والفنية خلال القرنين الماضيين .	٢٢ ـ تعطي الحكاية الشعبية طاقة فكرية لخيال الادباء ، ولكنهـا لا تصلـح ان تكون مادة للدراسة النفسية .
٢٣ ـ تعتمد الحكاية الخرافيـة على الاحساس الشعبي المتفائل .	٢٣ ـ بينما تعتمـد الحكـاية الشـعبية علـى الاحساس الذاتي .
٢٤ ـ يمكن اعتبار الحكاية الخرافية من اسمى صور الادب الرمزي .	٢٤ ـ لا ترتقي الحكاية الشعبية الى مثل هـذا المستوى .
٢٥ ـ الحكاية الخرافية، هي نتاج قوى الانسان الشاعرية ، وعلى مدى حقب عديدة مـن تاريخ الانسان وتتصل بتاريخها الى اقدم العصور .	٢٥ ـ اما الحكاية الشعبية فهي اقصـر زمناً ، ولكنها نتاج ايضاً لقوى الانسان الشاعرية والاجتماعية .
٢٦ ـ تهتم الحكاية الخرافية بالمتعة الفطرية في تصوير الامور الخارقة للمادة . تلك التي لا يمكننا على الاطلاق ان نصدقها .	٢٦ ـ تبنى الحكاية الشعبية بعض اجزائها على معتقدات الناس الحقيقية والبعض الاخـر على المتعة الفطرية .

وبالامكان ايراد عدد اخر من الفروق الثانوية فلقد حرصت هنا ان ادرج الفروق الجوهرية والاساسية بين الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية ، وغايتي من وراء ذلك ليس البحث في هذه الفروق ، ولا محاولة وضع جدول تفصيلي لهما ، وانما اردت ان اوضح لقارىء الليالي قضية مهمة وهي :

ان الحكاية في الليالي لاتتشابه احيانا مع اي من ابعاد الحكايتين بالتمام ، فهي تحمل من خصائص الخرافة شيئا ، ومن خصائص الحكاية الشعبية اشياء ، ولذلك يمكن ان نطلق عليها حكاية البين بين ، اي حكاية الليالي ذات الاجواء الاجتماعية الخاصة ، والتي تعبر عن مرحلة تاريخية مهمة من تطور المجتمع العربي ، عندما وجدت الحياة الشعبية مادتها الى جانب الموروث الحجمي الذي حمله الشعب من عادات وتقاليد واساطير ماضية ، ووضعت كل هذا المزيج الحضاري الجديد تحت سماء الدين الاسلامي فحذف واضاف ، وشذب وناض ،فجاءت حكاية الليالي ذات خصوصية اجتماعية ــ تاريخية تحمل في بنيتها ما تعارف عليه الدارسون من خصائص للحكايات ، كما حملت كما يقول دير لاين وغيره خصائص الحكاية الهندية والفارسية والبابلية والفرعونية ، وتوسعت باعتبارها نتاج المجتمع العربي الواسع الذي يطل على بحار ثلاثة ، لتشمل الحس الشعبي الاوربي الشامي في اغاني الرعاة والاناشيد والغنائيات التي بدات تظهر في ربوع اوربا يومذاك ، غير عادته النافذة الواسعة التي خلقها المجتمع العربي في اوربا ، الا وهي اسبانيا .

★

ومرة اخرى ، اعود لاكرر القول :ان الرحلة مع الليالي متعة لا تنهيها ، نهاية صفحاتها ، والرحلة مع الليالي ، اكتشاف تستحق ان يعرف المرء الوقت الكثير للايفاء بها .

الهوامش

(١) من الليالي القصيرة مثلا الليالي بين ٨١٠ و ٨٢٠ ، طبعة بولاق ــ اوفسيت ومن الليالي الطويلة ليلة ١٣٧، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ .. وعموما نجد ان ليالي الجزء الاول اطول بعض الشيء من ليالي الجزء الثاني ، وسبب ذلك يعود الى الناشر والمعد .

(٢) الحكاية الخرافية . فردبش دير لاين ، ترجمة الدكتورة نبيلة ابراهيم ص ١٩٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٠ ، حيث يعتبر عام ١٧٠٤ بداية لنقل حكايات الف ليلة وليلة الى اللغة الفرنسية .

(٤) المصدر السابق ص ١٩٠ .

(٥) المصدر السابق ص ١٩١ .

(٦) تاريخ الأدب العربي ، بلا شير ، ص ٤٠٤ ــ ص ٤٩٢ ، ترجمة د . ابراهيم الكيلاني ، دمشق ١٩٧٤ .

(٧) الحكاية الخرافية ص ١٢٨ .

(٨) بالاضافة الى كتاب الحكاية الخرافية ، كتاب اشكال التعبير الشعبي للدكتورة نبيلة ابراهيم الذي استفادت من الحكاية الخرافية الشيء الكثير .

(٩) الحكاية الخرافية ص ١٢٦ وما تلاها :
وهناك مصادر اخرى استفدت منها في هذه المادة ، اذكر منها :

١ ــ الرواية التاريخية ، تاليف جورج لوكاتش . الدكتور صالح جواد كاظم ونشرتها وزارة الثقافة والفنون العراقية عام ١٩٧٨ .

٢ ــ الملامح السياسية في حكايات الف ليلة وليلة . للاستاذ احمد محمد الشحاذ منشورات وزارة الثقافة والفنون العراقية عام ١٩٧٨م .

٣ ــ الطبعة التي اعتمدتها من الليالي ، هي طبعة بولاق ، اوفسيت مكتبة المثنى .

٤ ــ البطل في الادب والاساطير ، للدكتور شكري محمد عياد .

٥ ــ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، آدم متز .

العجوز في الف ليلة وليلة

بقلم
عبد الغني الملاح
بغداد - الجمهورية العراقية

ليست المهمة التي انيطت بالعجوز في قصص الف ليلة وليلة وحكاياتها مهمة مدانة اجتماعيا كما يتصورها القارىء لاول مرة ، او انها مهمة اقحمت لاسباغ روح الدعابة على الحكاية ، او محاولة لتجسيد التفسخ الاجتماعي الذي حل بعد اتساع الرقعة العربية والاسلامية اثر الفتوحات الكبيرة في العهود المختلفة التي ابتدات بعد الهجرة وانتهت في اواخر العهد العباسي وما طرا من تزاوج الحضارات القديمة الفارسية والهندية والرومانية والصينية مع الحضارة العربية القافزة بسرعة هائلة من التطور البدوي الى الطور الحضاري وما تخلل ذلك من تناقضات فكرية واجتماعية ونفسية ومد وجزر بين الانشداد بالتراث الموروث المكتسب ، مما جعل من الامور الطبيعية ان تسلك - العجوز - وهي من ابطال الليالي الرئيسيين - مسلكا متميزا وتتقمص الزهد تارة والسحر والاحتيال احيانا وقيادة العشاق الى معشوقاتهم او العاشقات الى عشاقهن لوجه الله تعالى او من اجل الكسب والاثراء .

وقبل ان نصدر حكما ساذجا على مهمات عجائز كتاب الف ليلة وليلة ، علينا ان نلقي نظرة سريعة بشيء من التأمل والمحاكمة العقلية على العصور الطويلة التي تم خلالها جمع هذه الحكايات في كتاب واحد ، وبصيغة اصح : على العصور المتداخلة ببعضها ضمن الحكاية الواحدة بالاضافة الى تلمس المقدرة الفنية والبراعة التي مارسها المؤلف او الحكواتي في جمع عدة مجتمعات ، مختلفة النشأة ، ومتباينة الاعراف ، ومتضاربة المكان ، ومتباعدة الزمان ، واطرها باطار واحد شفاف نرى من وراءه كل هذه التناقضات الزمانية والمكانية فها هي بغداد الاسطورة الى جانب الصين الاسطورة وها هي جزر الاندونوسيا و (واق الواق) الى جانب جزر بحر الروم (الابيض المتوسط) . وها هي مدن الفرنجة (اوربا) الى جانب مدن بلاد فارس وها هي صور كسرى انوشروان وحكمته الى جانب صور هارون الرشيد وعظمته وها هم حكماء الهند الى جانب ابي حنيفة والنظام . وها هم الملوك والوزراء يقفون الى جانب ملوك الجان وملوك القرود وها هم الزهاد والفلاسفة الى جانب المجوس والكفرة .

فاذن يضم كتاب الف ليلة وليلة تجارب الشعوب المختلفة والازمان المتعاقبة ، مطعمة بامال النفس الانسانية والامها المتشبثة بالاحلام والاخيله كما توحيها لها او تتمناها الشعوب المظلومة لتجتاز بهذه الاخيلة المطرزة بالاسماء الحقيقية في بعض الاحيان والاحداث الواقعة فعلا عبر التاريخ في احيان اخرى ، تجتاز النظم السائدة والمسيطرة على الانسان بصورة عامة وتعمل على فضح حماقات السلطان وابتعاده عن ادراك مصالح الفرد الذي لا يقدر ان يصل الى ماربه بالمداهنة والنفاق او بكنز يعثر عليه في باطن الارض او بجني مطيع للطلاسم والرموز او بعجوز تقوده الى تحقيق امنياته بالمكر والسحر والاحتيال .

وكانت الاوضاع السائدة والممارسات المعترف بها في تلك الفترات الزمنية بصورة عامة قد جعلت المجتمعات متلاطمة بالتناقضات الفكرية والاجتماعية والسياسية ، مما حدا بالفنان العبقري ان يتذرع بالتجربة ويسبغ عليها قليلا او كثيرا من الاخيلة لكي ينزح الحسرة والالم من صدور الاكثرية فتشعر بالراحة النفسية الموقتة او تتطور تلك الراحة الى

تصديق الحكاية ، وشفيع هذا التصديق الجهل العام في ادراك التجربة او مقارنتها فكريا بالموضوعية العلمية : (فاذا تتبعنا تاريخ الاداب وجدنا ان الخيال يسبق الواقع في وجوده فيها مهما اختلفت الامم)(١) بل يطغى عليه في كثير من الحالات ، وهذه الحقيقة التاريخية نابعة من المعاناة الانسانية المتلاحمة مع ازدواجية الخير والشر التي يتميز بها سلوك الانسان ومن التزاوج الفكري ما بين واقع الحال وبين الطموح نحو المركز والجاه والثروه والعيش الكريم بالنسبة للمفهوم العام . وكثيرا ما يكون هذا التزاوج نتيجة حتمية للتامل بالافكار الموروثة المقدسة او الافكار الذاتية الواقعة تحت مفاهيم ما يسمح به وما لا يسمح به ، مما يضطر الانسان الرافض ان يدلل على قدرته في ادراك ما هو مغلوط او ما هو غير عادل بافكار جديدة مختفية وراء الرمز في الحكاية او الاشارة في الاسطورة وذلك (بوصفه كائنا عضويا تخضع عملياته السلوكية والفكرية لعمليات عضوية تصبح شعورية ، يشكل مجموعها الكلي التصورات الذهنية للذات)(٢) وهذا القول ينطبق على كل المجتمعات غير المتجانسة بيئيا وغير المتجانسة فكريا فيكون للفرد حرية كاملة في الحركة الذهنية المكبوتة طالما لا توجد حواجز تعوق الاخيلة والاحلام بينما الحواجز متوفرة بقوة لاعاقة الطموح الانساني وامكاناته تحت شمار الحرام والحلال وما لم يسمح به التقليد او يسمح . وازاء هذه الحقائق البيئية في مجتمعات العصور الوسطة وما قبلها نما سلوك انساني معبر بالحكاية وبالرواية انشدت اليه المجاميع البشرية في مرحلة من مراحل تطورها الفكري مزيجا عجيبا من الايمان بالخرافة والايمان بالتحرر الفكري في آن واحد . فها هو الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور لا يضع الحجر الاساس لمدينة بغداد الا بعد ان يحدد له منجمه (نوبخت)(٣) ساعة المباشرة . وذلك عن قناعته بتأثير النجوم على اعمال اهل الارض بينما نجد في الفترة الزمنية نفسها الامام جعفر الصادق يؤسس قواعدا للفقه الاسلامي والامام ابو حنيفة يضع (نظرية المعاملات في الفقه الاسلامي) ومالك بن انس يفلسف الفقه الاسلامي(٤) . وذلك بادق ما تقتضيه الحاجة الاجتماعية للتعامل ضمن النصوص القرآنية والاحاديث النبوية في المعاملات اليومية التي يمارسها الانسان ويرتبط بها .

وكنموذج لهذا السلوك الانساني ما تطرقت اليه حكاية (تودد الجارية) اذ تحدثنا عن شاب كان (فريد دهره واحسن اهل زمانه وعصره ذا وجه مليح ولسان فصيح يتهادى تمايلا واعتدالا ويترامى تدللا واختيالا بخد احمر وجبين ازهر وعذار اخضر) . ورث اموالا طائلة عن ابيه فبذرها في مصاحبة اصدقاء السوء ولم يبق لديه غير جارية اسمها (تودد) فنصحته ان يبيعها الى الخليفة هارون الرشيد بعشرة الاف دينار بشرط امتحانها قبل عقد البيع ، فاظهرت براعة فائقة في علوم النحو والشعر والفقه والتفسير واللغة والموسيقى والفلك والفرائض والحساب واساطير الاولين واعراب القرآن والقراءات السبع والمساحة والرياضة والهندسة والفلسفة والحكمة والمنطق . وناظرت (النظام) شيخ المعتزلة فغلبته وناظرت غيره من العلماء والاطباء والمنجمين والمهندسين والفقهاء فانتصرت عليهم جميعا وعرتهم من ثيابهم تحقيرا لجهلهم وربحت جائزة الخليفة وعادت الى حبيبها الشاب .

وعندما يقرا الانسان المعاصر هذه الحكاية يلمس فيها روح الشماتة الموجودة لدى الطبقات الشعبية البعيدة عن السلطان ، بالعلماء القريبين من الخلافة كما يلمس العلوم الحقيقية ، ومناقشتها . ولكن الصواب في المناقشة جاء على لسان جارية عاشقة لشاب فقير معدم فاجتهدت عن طريق معرفتها العلمية للعودة الى المحبوب فافحمت بمنطقها وسعة معرفتها العلماء واظهرتهم امام الخليفة بمظهر الجهلة .

وتتكرر في الليالي ظاهرة الجواري البارعات في المعرفة وهن يناظرن في الشعر والغناء وغيره . وتسير هذه الظاهرة بخط مواز لظاهرة اخرى لاتقل اهمية عنها ؛ هي ظاهرة العجائز ودورهن الاجتماعي في فترة طويلة كانت فيها زحمة السبايا والرقيق واسواق النخاسة من العوامل المؤثرة في المجتمعات تحت نظام معترف به رسميا يمتد بعمقه التاريخي الى عهد الحضارات الاولى في وادي الرافدين ووادي النيل والاغريق والصين . ولكن تبلور هذا النظام في العهد العباسي بصورة خاصة دفع الحرائر الى الانزواء في دورهن بضغط من الرجل ، غير ان الانفعالات العضوية والنفسية لم تخب جذوتها فاحتاجت الى جني مطيع او مارد قدير او انسية متمرسة كائنة للاسرار كي تصل

(١) سهير القلماوي : الف ليلة وليلة ص ٢٤٦ .
(٢) ك. هول وج . لندزي : نظريات الشخصية ص ٤١٦ .
(٣) الهمداني : بغداد مدينة السلام . تحقيق د. صالح احمد العلي ص ٤٠ .
(٤) د. عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة ص ١٧٣ وما بعدها .

بوساطتها الى متطلبات الحياة المادية والحسية فجاءت حكايات الليالي تصور المراة في تلك المجتمعات على اختلاف طبقاتها بهذا الاتجاه السلوكي ، وحتى سيدة القصر العباسي الاولى زبيدة زوجة هارون الرشيد لم تسلم من هذا السلوك فصورتها الحكايات تتآمر على جاريتها (قوت القلوب) غيرة وحسدا وترسلها مع العبيد لتدفنها حية كما جاء في حكاية (غانم ابن ايوب) وقد سبغ الخيال رونقا جذابا على ذلك وصبغه اصبغا قويا بوانع هده الحياة(٥) المليئة بالعقد والتناقضات .

ويتميز مثل هذا الواقع المطرز بالخيال . او الخيال المبني على لمحات واقعية بحكاية تلك العجوز التي قادت شابا عاشقا الى دار قاضي بغداد للاتصال بابنته (الحرة) المحجوبة عن المجتمع وانشطته داخل الجدران ، ولكن (مزين بغداد) افسد تلك الخلوة الغرامية بثرثرته المعهودة . واهمية حكاية مزين بغداد - بنظري - تاتي من كونها الحكاية الوحيدة في حكايات الليالي التي تسجل لنا تاريخا ليكون بمثابة مؤشر ينبهنا الى الفترة الزمنية التي تم فيها تاليف هذه الحكاية بالذات . فقد جاء في وصف المزين عندما اراد ان يحلق راس الشاب العاشق قبيل ذهابه الى دار القاضي حسبما ارشدته العجوز على لسان العاشق نفسه ما ياتي : (ومد يده واخرج منديلا وفتحه واذا فيه اصطرلاب وهو سبع صفائح فاخذه ومضى الى وسط الدار ورفع راسه الى شعاع الشمس ونظر مليا وقال لي : اعلم انه مضى من يومنا هذا وهو يوم الجمعة ؛ وهو عاشر صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام وطالعه بمقتضى ما اوجبه علم حساب المريخ سبع درج وستة دقائق (كذا) وانفق انه يدل على ان حلق الشعر جيدا جدا)(٦) . فهذا النص بالاضافة الى ما فيه من حضارة الاصطرلاب وحساب النجوم يحدد لنا ان هذه القصة كتبت في او بعد العاشر من شهر صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة للهجرة . كما انه ينفي باصرار ما يظنه بعض الباحثين ان حكايات الليالي كانت قد اخذت صيغتها النهائية في عهد الدولة الفاطمية التي انتهى عهدها قبل هذا التاريخ . وهناك اكثر من حكاية تشير بشكل او باخر الى فترات تاريخية معلومة . كحكاية (الصعيدي وزوجته الفرنجية) التي تشير الى تحرير (عكا)(٧) من ايدي الصليبيين في عهد صلاح الدين الايوبي وحكاية الخياط والاحدب واليهودي والمباشر النصراني) التي ورد فيها اسم الخليفة (المستنصر بالله)(٨) وبهذه المؤشرات وغيرها نقدر ان نقرر ان مجموعة الليالي جاءت نتيجة للفكر الانساني من خلال عدة قرون اندمجت مع بعضها بازمان مختلفة كان لابطالها اوجه شبه بالنسبة للتطلعات العامة التي بقيت دوافع ظهورها لصيقة بالحرمان العام والقلق المستمري من اجل الثروة والجاه والعرض حيث (يوجه الراشدون سلوكهم في ضوء قواعد واضحة)(٩) وذلك يعني ان ظاهرة العجوز في الليالي تجسيد لمعاناة الجواري والحرائر على حد سواء بكل جوانبها المضطربة مما جعل سلوكها في الليالي امتدادا للذات المحرومة فراحت تخطط لتحقيق امال تعينها على سحق الحرمان بسلوك كان بمبرره المجتمع السائد مقبولا بالاضافة الى خضوعه لوقائع اليومية في ممارسات الحياة .

وتتميز عجوز الف ليلة وليلة بالمقدرة على التكيف الخلقي . فهي زاهدة تحمل سبحة لذكر الله وابريقا للوضوء وهي ساحرة تركب الزير وتطير به وهي فارسة شجاعة ومقاتلة بارعة وهي انسية خبيثة كعجوز الروم ذات الدواهي في (حكاية عمر النعمان) وهي جنية طيبة كعجوز (جزيرة واق الواق) في حكاية (الحسن البصري) وهي عربية كعجوز (مزين بغداد) وهي (فرنجية) كعجوز اديرة بلاد الفرنجة في حكاية علاءالدين ومريم الزنارية . وهذا التحول يمثل تداخل الحضارات باوسع مظاهره من جراء سعة الرقعة الجغرافية للامبراطورية الاسلامية . ومن جهة اخرى ان هذا التداخل يشرح لنا بشكل مباشر او شكل مواسط العوامل الفريدة بالنسبة لهيكل كل حكاية من الحكايات على حدة . وهذه الادوار المختلفة لا يمكن فصمها عن حياة الفرد فهي (استمرار الطبيعة العضوية للسلوك من حيث انه لا يمكن فهم جزء منفرد منه بطريقة عزله عن بقية الشخص الممارس له) كما يقول (هنري موراي) وهذا السلوك مستمد من حاجة قاعدة الهرم الاجتماعي وتشابك اولياته الفكرية والبيئية ؛ فليس من حقنا ونحن نعيش مفاهيم القرن العشرين ؛ ادانة سلوك العجوز في

(٥) سهير القلماوي : الف ليلة وليلة ص ٢٨ .

(٦) الف ليلة وليلة ج ١ ص ٩٠ بولاق .

(٧) حرر صلاح الدين الايوبي عكا سنة ٥٨٣ للهجرة راجع ابن الاثير في الكامل ج ٩ ص ١٧٩ .

(٨) ان كان المقصود بالمستنصر ابن الخليفة الظاهر بالله فانه تقلد الخلافة سنة ٦٢٣ للهجرة وان كان المقصود به المستنصر بالله الذي هرب الى مصر بعد سقوط بغداد على يد هولاكو في عهد سلطان مصر الملك بيبرس فقد بويع في مصر سنة ٦٥٨ للهجرة .

(٩) ك . هول . وج . لندزي : نظريات الشخصية ص ٢٦٢ .

حكاية تحمل الاسطورة والخيال بنفس كميات الواقع المستمد من طفرة نقلت البداوة بكل اعرافها الى موقع الحضارات المعقدة ، فلم تهضم اعرافهـــا بالسرعة المطلوبة مما زاد المجتمعات تعقيدا وشذوذا، فنتج من جراء ذلك حكايات ذات بناء خاص يعتمد على الجارية العاشقة والزوجة الخائنة والعجوز القوادة وصاحب الثروة الذي لا يعرف قيمة لثروته والفقير المعدوم الذي ينتظر كنوز سليمان بمعجزة والشيخ المجوسي الذي يؤذي المسلمين والتاجر المغامر والعفريت الذي يجوب السماء فيقطع ارجاء الكون بغمضة عين ولا يخشى من شيء سوى ذكر الله عندما يكون قريبا من السماء الدنيا .

فكل هذه الصور المعبرة عن تكوين شخصية مجتمعات الف ليلة وليلة تؤكد تاثير المتغيرات العقلية في تكوين الشخصية عبر تلك العصور وتبرير نموها ومراحل ذلك النمو . ولكن الحكاية المقبولة للتعبير عن تلك المتغيرات قفزت من اعماق النفس الانسانية كانفعال حتمي شانه نقل التراكمات المتفاعلة في اللاشعور الى السطح . اذ يقول علماء النفس انه ليس للمفاهيم السائدة جميعا ما يربطها بالشعور الواعي، وانما بعضها وربما اكثرها مربوط بالشعور غير الواعي. فمن الطبيعي اذن ان تكون تلك الحكايات التي ليس لها رباط قوي بالمفاهيم المعلنة متولدة بشكل اخيلة يحدد صيغتها سلوك الفرد دون وعيه. ولا يكون الفرد في هذه الحالة : فيما اذا كان حكواتيا او مستمعا ميالا الى التصديق فحسب وانما يكون ميالا ايضا الى تبرير ما يحكي او ما يسمع . لانـــه ينقلب من مدهوش الى توفيقي بين تناقضـــات الحاجات الكامنة في اعماقه وبين الحاجات الظاهرة وبذلك يضمن انفسه رضا الاعراف السائدة من جهةورضا الاحلامالمرغوب فيها التيترفض الاعراف السائدة وتضع الاخيلة بديلا عن طريق احلام اليقظة بقدر ما تتسع لذلك اعماق النفس المليئة بالتراكمات المضغوطة الخاضعة لسلطان الجهاز العصبي الذي كثيرا ما يتخبط في عزل ما هو معقول عن ما هو غير معقول ويعجز عن ذلك بتاثير الطموح للحصول على ما هو مرغوب دون ما هو غير مرغوب حتى لو كان ذلك عن طريق وسيط ساحر او مارد طائر او كنز وافر . او جارية جميلة او شمطاء ماكرة. ولكي نفهم دور عجوز الليالي فهما موضوعيا علينا ان نتحرى عنها بشيء من التفصيل ونعاملها بالتحليل والتعليل . اذ اننا كثيرا ما نلاحظها عندما تكون قائدة لجيوش الجن والعفاريت تعجز عن ايصال المشوق الى معشوقته الا بمساعدة غيرها كما كان وضعها في حكاية الحسن البصري ، وعندما تكون (محتالة) (كدليلة) تضطر الى الاستنجاد بابنتها الجميلة (زينب النصابة) لايقاع المسؤولين في الحب فتسلب اموالهم . بينما نجدها عندما تكون زاهدة تقوم بعمل لا اخلاقي فتفرق بين الزوجين (نعم ونعمه) طمعا بجائزة السلطان . وهـذه الادوار المختلفة والمتباينة تجرنا جـرا الى التفاصيـل . فلنختار اربع عجائز لهذا التحليل الموجز .

اولا ــ عجوز جزيرة واق الواق :

قبل التطرق الى الحكاية لابد من الاجابة على سؤال كثيرا ما شغل فكر الباحثين وهو : هل جزيرة واق الواق خيالية اخترعها الحكواتي أم هي جزيرة حقيقية ؟ وان كانت كذلك فاين موقعها ؟

يرى بعض الباحثين انها جزيرة (سيلان) وبعضهم قال انها جزر اليابان ومنهم من قال انها جزر الفلبين . ولكن شيئا واحدا كان يجب ان ينتبه له الباحثون وهو ان هذه اللفظة (واق الواق) لا تزال لحد الان اسما جغرافيا يقع في ساحل الجنوب الشرقي لاستراليا ويسمى (واغ واغ) او يلفظ بالكاف الفارسية (واك واك) . وقد ثبتته دائرة المعـارف البريطانيـة في اطلســـها بهذا اللفظ (Wagga - Wagga)(١٠) كما توجد في جـزيرة (سليبس) الاندونيسية هضبة اسمها (وا ــ وو) (Wa - Wo)(١١) وهناك جزيرة صغيرة قرب جزيرة (غينيا الجديدة) تابعة الى اندونسيا ايضا اسمها (ويك او)(Waig - Eo)(١٢) فهذه الاسماء الجغرافية المعروفةوالتي ثبتتاسماؤها حسبما يلفظها السكان المحليون تقودنا الى الظن بل الى الاعتقاد بان البحار العربي وصل هذه الجزر النائية وسمع اسماءها من اهلها (ويغ واغ) (واك واك) ونقلها الى عربيته (واق واق) . فتشبث بها الحكواتي وسبغ عليها فنه الاسطوري وتحدث عنها باعتبارها من الجزر التي يسكنها الجن وذلك في حكاية (حسن الصائغ البصري) .

وتتلخص الحكاية بكون حسن البصري غادر البصرة مخدوعا على يد مجوسي طمعا بتعلم صناعة الكيمياء والحصول على المسحوق الذي يحول المعادن الرخيصة الى ذهب وبعد مغامرة بحرية مميتة اكتشف الخدعة ولكنه عثر قرب (جبـــل

(١٠) راجع اطلس دائرة المعارف البريطانية ص ٣٦٤ بالنسبة للفهرست الجغرافي وص ٦٦ بالنسبة للموقع على الخريطة . طبعة ١٩٦٥ .

(١١) المصدر نفسه ص ٦٢ .

(١٢) المصدر نفسه ص ٦٢ .

السحاب) على (جنية جميلة) كانت هي وجنيات اخريات يأتين الى بحيرة بهيئة الطير وينزعن عنهن ريشهن ويلعبن داخل الماء ويسبحن . فتزوجها بعد ان احتال عليها بخطف ريشها المنزوع وعاد بها زوجة حليلة الى بغداد . وسمعت بجمالها السيدة زبيدة فارسلت تستدعيها للنظر اليها . وكان زوجها حسن البصري قد اخفى ثوبها الريش لئلا تلبسه وتهرب وذلك من شدة حبه لها . فاستغلت الجنية اعجاب السيدة زبيدة بها وطلبت ان تتدخل في احضار الثوب الريشي وتشاهدها وهي ترقص به . وحاولت ام حسن البصري ان تفهم السيدة زبيدة ان ابنها مسافر وزوجته تحاول الهرب فلم تقتنع بل ارسلت واحضرت الثوب الريش بالقوة فلبسته الجارية وطارت هاربة بعد ان قالت لحماتها (اذا جاء ولدك وطالت عليه ايام الفراق واشتهى القرب والتلاق وهزته رياح المحبة والاشتياق فليجئني الى جزائر (واق الواق) ، ثم طارت .

ويعود (حسن) فيكتشف هروب زوجته فيغامر في رحلة مليئة بالمتاعب ويجتاز (الجزر) الكثيرة بمساعدة شيوخ الجان والعفاريت حتى يصل الى جزيرة (الواق) . وهنا يبدأ دور العجوز الكبير في ايصال حسن البصري الى زوجته . وقد ورد اسم (جزيرة الكافور) خلال رحلته . وكان قد اخبره المارد العفريت (ابو الريش) ان جزيرة (واق) لا يسكنها غير النساء فاذا طلع اليها عليه ان يختفي تحت احدى الدكاك الموجودة على الساحل حيث كل دكة تجلس عليها فتاة ثم يتشبث بصاحبة الدكة التي سيختارها في توصيله الى محبوبته . ولكن حظه سيكون ضعيفا لان ساكنات تلك الجزيرة يقتلن كل رجل . فعليه ان يكون حذرا ، فاختار دكة واختفى تحتها .

فلما اقبل الليل جاء خلق كثير من النساء مثل الجراد وسيوفهن مشهورة في ايديهن ثم جلسن على الدكاك للاستراحة فجلست واحدة منهن على الدكة التي تحتها (حسن) فاخذ طرف ثوبها وصار يقبل يديها وقدميها فقالت له (يا هذا قم واقفا ان تراك احداهن تقتلك) فقال لها (يا سيدتي انا في جيرتك) وحكى لها قصته ثم رآها عجوزا كبيرة وعلم انها قائدة لجيش النساء في هذه الجزيرة واسمها (شواهي ذات الدواهي) . ثم علم بعد ذلك أن زوجته هي بنت ملك الجان . وعملت العجوز جهدها لمساعدته ولكنها اخفقت تجاه عناد (نور الهدى) اخت زوجة حسن البصري الكبرى والتي كانت حاكمة على تلك الجزيرة .

وبعد عقبات وتعرض للهلاك يعثر حسن البصري على ولدين يتخاصمان في قسمة (طاقية الاخفاء) و (قضيب مسحور) تطيع الجان مالكه اذا ضرب به الارض كان قد خلفهما لهما والدهما . فيحصل حسن البصري على القضيب والطاقية وبهما يحصل على زوجته وينقذ العجوز من غضب (نور الهدى) بعد ان علمت انها كانت السبب في حماية هذا الرجل الذي دخل جزيرة واق الواق التي لا يسكنها غير النساء ، وانها عرضت عليه جميع النساء ليتعرف على زوجته من بينهن غير مراعية للتقاليد العامة في الجزيرة .

هذا هو ملخص الحكاية . فاذا اردنا تحليل رموزها ابقدر ما يتعلق بموضوعنا في هذا البحث) فلابد لنا من محاولة الاجابة على مثل هذه الاسئلة لفهم طبيعة الانفعالات التي كونت مجتمعات الف ليلة وليلة في هذه الحكاية .

١ ــ لماذا لم تستجب السيدة زوجة هارون الرشيد الى توسلات أم حسن البصري في عدم تسليم ثوب الريش الى الجنية زوجة ابنها . وقد علمت مسبقا انها اذا لبسته يساعدها على الهرب ؟

٢ ــ لماذا كان سكان الجزيرة من النساء فقط ؛ ولماذا كانت زوجة البصري بنت ملك الجان ؟

٣ ــ لماذا اخفت الجنية العجوز سر دخول حسن البصري الى الجزيرة المحرمة على الرجال وهي في مركز المسؤولية قائدة لعسكر النساء ؟

٤ ــ لماذا اختار الحكواتي جزيرة واق الواق النائية جدا لتكون اهم مسرح لاحداث حكايته ؟

اختار القاص او الحكواتي اشهر سيدة في دار الخلافة العباسي لتكون رمزا حقيقيا للتباعد بين واقع السلطان وبين واقع المجتمع العام وتمكن بهذه الحكاية ان يوضح ان السلطان لا تهمه معاناة الناس ومصالحهم بقدر ما تهمه رغباته . فمن اجل ان تستمتع السيدة الاولى في القصر العباسي برقص الجارية الجنية وتتمتع بفنونها فرقت بين زوجين سعيدين ضاربة بذلك عرض الحائط ما علمته مسبقا من انها بنزوتها الانانية هذه ستحطم قلب انسان من اجل الحياة . واختار القاص جزيرة واق الواق وجعلها مسكنا للنساء فقط للاعتراض على نظام الحريم المحاط بالاساطير الباهرة . فهذه الجزيرة بمثابة تعريض بالنظام الذي خول المترفين والسلاطين يملأون قصورهم بالحريم عن طريق الاسر او سوق

النخاسين ويحيطون قصورهم بقليل او كثير من القدسية . فكان لابد ان تراود مخيلة العامة ضرورة بطل يقتحم هذه القصور تحديا لهذا النظام فكان (حسن البصري) هو البطل الذي تحمل المتاعب حتى اقتحم جزيرة واق الواق ولكي يسبغ القاص المتعة الذهنية . اختار اسم جزيرة حقيقية يتحدث عنها البحارة والتجار وجعل سكانها من بنات الجان لما في هذا الاختيار من توفيق بين التزاوج الفكري في تلك العصور بين الاسطورة وبين الواقع . وزيادة في تحدي نظام الحريم جعل القاص بطلة القصة بنت ملك الجان نفسه وذلك كاعتراض سلبي يوضح ان المراة نفسها حتى لو كانت اميرة هي في موقع الاعتراض على فقدان الروح الانسانية في ذلك النظام . ولكن قلة تجربتها كاميرة صبية مندفعة بعواطفها في الرضا والغضب والاستكانة والهرب كان لابد من ظهور امراة مجربة بلغت من العمر عتيا لتسهل المهمات الانسانية والحياتية . ومن هذه النظرة جاءت اهمية دور العجوز الجنية (ركابة الزبر) التي وقفت الى جانب عاشقين (انسي وجنية) وخاصمت السلطان وضحت بمركزها المرموق خارجة على قوانين تلك الجزيرة وانظمتها .

ثانيا ـ عجوز الروم .

وقد جاء ذكرها في حكاية (عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان) التي تدور احداثها حول الحروب الصليبية بدلالة وجود مثل هذا النص (فما مر ثلاثة شهور حتى تكاملت جيوش الروم ثم اقبلت الافرنج من سائر اطرافها كالفرنسيس والنيمسا ودبره وجورنه وبندق وجنويز وسائر عساكر بني الاصفر من القسطنطينية)(١٢) . او ورود هذا النص (فاستقبلهم الافرنج بقلوب اقوى من الصخر واصطدمت الرجال بالرجال ووقعت الابطال بالابطال) . او هذا النص (حتى برز له شركان وقلبه من الغيظ ملان وساق جواده حتى دنا الافرنجي في الميدان فكر عليه الافرنجي كالاسد الغضبان) .

ويتخلل الحكاية وقائع فردية بين المسلمين والافرنج خلال الهدنة وهي كثيرة الشبه بالهدنة التي اعلنها صلاح الدين الايوبي مع الجيوش الصليبية كما حدثنا عنها (مؤيد الدولة اسامة بن منقذ) وهو من امراء (شيزر) القلعة الاسلامية في سوريا ومن ضباط صلاح الدين الايوبي(١٤) . ومن خلال هذه الحكاية يبرز دور العجوز بصفتها اما لاحد ملوك الصليبيين وقد تنكرت بزي الصالحات المسلمات وتحدثت في فقه الشافعي وغيره وروت الحديث ، كل ذلك حتى تتقرب من القائد الاسلامي وتدس له السم انتقاما لما فعله بالجيوش النصرانية . واما خلال فترات الهدنة تتغير مهمة العجوز واذا بها تظهر بشكل قوادة تتصيد المشوقين وتقودهم الى عاشقاتهم كما حدث لعزيز وعزيزة(١٥) . ولو حققنا في اسباب تنكر عجوز الصليبيين بزي صالحات المسلمين وزهاداتهم لوجدنا ذلك مستمدا من الايمان العام الذي كان يغشى المجتمعات الاسلامية ويصدق بالخوارق والمعجزات على يد الصالحين والزهاد والدراويش والمتصوفة . فيروى لنا ابن الجوزي هذه الرواية قال (شهدت مجلس الشيخ الامام ابي عبدالله محمد البصري ببغداد وحضرته امراة فقالت يا سيدي انك كنت ممن شهد في صداقي وقد فقدت كتاب المهر واسالك ان تتفضل علي تقيم الشهادة بمجلس الحكم . فقال ما افعل حتى تاتيني بحلاوة فوقفت المراة وهي تظن انه يمزح بقوله لا تطيلي . لا امضي معك الا ان تاتيني بالحلاوة . فمضت ثم عادت فاخرجت من جيبها من تحت الازار قرطاسا فيه حلاوة يابسة . فتعجب اصحابه من طلبه الحلاوة مع زهده وتعففه فاخذ القرطاس وفتحه ورمى بالحلاوة قطعة قطعة حتى فرغ القرطاس . ونظره فاذا هو كتاب صداق المراة الذي فقدته فقال (خذي صداقك فهذا هو)(١٦) فاستعظم من حضره ذلك واعتبروه كرامة .

وهناك مئات القصص التي تناقلها ابناء الشعب دخلت كتب التراث عن الخوارق والكرامات التي لا يصدقها العامة فحسب بل يصدقها الخاصة بشكل يسهل مهمة عجوز الروم للتجسس على جيوش المسلمين وقتل قائد جيشهم مستغلة المزاج الشخصي في التشبث للبقاء في قمة المجتمع ، والطريف في عجوز الروم ان اسمها ايضا (شواهي ذات الدواهي) كعجوز الجن في جزيرة واق الواق .

---

(١٢) من الواضح ان المقصود بذلك وصول الجيوش الصليبية من فرنسا والنمسا ودبريه والبندقية وجنوة . ويبدو ان العرب كانوا يلفظون هذه الاسماء حتى وقت متاخر كما لفظها قاص الف ليلة وليلة . اذ قد ورد في كتاب (عجائب الاثار في التراجم والاخبار) للجبرتي ، من احداث سنة (١٢١٤) للهجرة وهي السنة التي انسحب فيها نابليون بونابارت من حصار احمد الجزار في عكا كلمة (النيمساء) بدل النمسا والفرنساوية بدل فرنسا او الفرنسيين . راجع الجبرتي ج ٢ ص ٢٨٦ .

(١٤) انظر كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ تحقيق فليب حتي سنة ١٩٣٠ .

(١٥) عبدالغني الملاح . رحلة عبر الف ليلة وليلة ص ٢٧ .

(١٦) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٧٠ .

ثالثا ـ عجوز الحجاج بن يوسف الثقفي

وجاء دورها في حكاية (نعم ونعمة) الزوجين السعيدين ولكن الحجاج سمع بجمال (نعم) فراى ان يسرقها من زوجها ويقدمها هدية الى الخليفة (عبدالملك بن مروان) باعتبارها جارية اشتراها له . ويحتال لهذا الامر بعجوز قامت بدور العابدات الصالحات المحافظات على الصلوات الخمس ودخلت دار (نعمة) في غيابه وخطفت زوجته وسلمتها الى الحجاج لقاء ثمن فارسلها بدوره الى الخليفة .

ونجد في هذه الحكاية مخيلة الحكواتي قد اختارت قصدا بطلا معروفا بالقسوة لتكون حكايته مقبولة وناجحة . واعطى في ذلك للعجوز دورها المقبول في تصوير الكيد غير الاخلاقي الذي تتردد في سلوكه الصبية الا اذا كانت ذات مصلحة مباشرة كعاشقة او مطلقة او ضرة او جارية مخطوفة . واما اذا كان الغرض هو التقرب من السلطان وخدمته ، فالعجوز هي المرشحة دائما لذلك .

رابعا ـ دليلة المحتالة

ودورها اكثر تعقيدا من غيرها لانها كانت تحتال لا لمجرد الاحتيال وانما لكي يصل خبرها الى السلطان فيخصص لها مرتبات وجوائز كما فعل لغيرها من المحتالين فحكايتها تصور بوضوح ان طريق المجد والوجاهة في تلك المجتمعات كان يتمثل بالاحتيال والسرقة وقطع الطرق ، واما المستقيمون في سلوكهم فليس امامهم غير الانكفاء على انفسهم .

ونجد دليلة المحتالة عندما عجزت عن مقاومة (علي الزيبق) استعانت بابنتها الجميلة (زينب النصابة) لتوقعه في حبائلها وتسرق اشياءه . وبالاضافة الى كون هذه الحكاية تشدنا شدا الى فترة زمنية كان فيها للعيارين والفتوة القول الفصل في حسم الاحداث كما حدث في الصراع على السلطة بين الامين والمامون وما تبع ذلك بعد مقتل المتوكل في تدخل الفتوة في تقرير مصير الحكام . بالاضافة الى ذلك فان الحكاية ذات ابعاد اجتماعية واقتصادية كحكاية البدوي الذي رضي ان يصلب بدل (دليلة) لقاء اكلة (زلابية بالعسل) او الصباغ الذي ذهبت ثروته الضئيلة لقاء وعد موهوم بالثروة الكبيرة .

من هذا نستدل ان اختيار العجوز لهذه الادوار المتناقضة في الليالي كان مستمدا من كون العجوز بحد ذاتها لم تكن في وضعها العام الذي لم يخولها (ان تحب وتشقى بالحب)(١٧) . وهذه الادوار لم تخرج عن كون مثل هذا الامر (كان جارفا قويا وكثرت القصص حتى افسد بعضها البعض)(١٨) بمجموع ابعادها وهذا الافساد ناتج عن الخوف من المستقبل والاعتراض على الحاضر . ويقول علماء النفس(١٩) (ان استجابة الخوف يمكن ان ترتبط بادلة او بمثيرات لا تسبب الخوف لدى الفرد الساذج(٢٠) وهذه المثيرات التي وجدناها في عجائز الف ليلة وليلة جزء لا يتجزء من شعور العوام السذج يبعث في نفوسهم الامل في العثور على كنز او جارية جميلة او اقتحام قصور حريم الاكابر كما في حكاية (الحشاش مع حريم بعض الاكابر) وهذا الاطمئنان هو الجائزة الحقيقية للاستجابة النفسية في السلوك المركب الذي تتردد مقوماته بين واقع الحال وبين الامل .

وهذا الانفعال النفسي الذي يحدث في اعماق الانسان عندما يسمع قصص الف ليلة وليلة او يقراها ناتج . قطعا من (التفاعلات المباشرة التي يوجبها دليل منفرد او موقف لدليل منفرد)(٢١) . وليس بالضرورة ان يكون هذا الدليل منطقيا طالما مستمد من رغبة الفرد لا معرفته ومن نزوته لا عقلانيته . وهذا الاتجاه العام ، اعتبره من اهم دوافع انتشار حكايات الليالي وما شابهها من حكايات الفلكلور التي دائما ترد الاعتبار للانسان العامي تجاه الدور المسورة والقصور المخزونة بالكنوز والحريم، واهمية العجوز في ارتياد تلك الدور بدون رقيب واقتحام تلك القصور من غير اعتراض حاجب، ذات دلالة اجتماعية خاصة . وقد انتبه القدماء الى هذه الدلالة فقالوا في معرض الامثال : (اذا العجوز ارتجبت فارجبها)(٢٢) وارادوا بذلك اذا خوفتك العجوز نفسها فخفها لكي لا تذكر منك ما تكره .

---

(١٧) سهير القلماوي : الف ليلة وليلة ص ٢٠٨ .

(١٨) المصدر السابق . ص ٢٠٨ .

(١٩) بالرغم من ان علم النفس اكتشفت قواعده متاخرة جدا بالنسبة لاخيلة الف ليلة وليلة فمن الممكن تطبيقها على كل الاحداث والمجتمعات ، التاريخية او الاسطورية او القصصية . وذلك لانها جميعها مترابطة ومستمدة بعضها من بعض .

(٢٠) نظريات الشخصية ص ٥٦١ .

(٢١) المصدر نفسه ص ٥٦٣ .

(٢٢) الميداني : مجمع الامثال ص ٦٨ المثل ٢٤) ٣ ط. الثانية.

الف ليلة وليلة

بقلم الدكتور
علي شلق
بيروت – لبنان

هذا الرقم !

العدد رمز ، مصنف على رتبة ، بل هو جوهر .

درج المفكرون على اعتبار العدد رمزاً لما ينتسب الى الرقمية منذ الصفر حتى نهاية النهايات ، تلك التي عبر عنها الرياضيون العرب بالكرّات ، والغربيون ، بالترليون والكاترليون والبليون .

بهذا العدد يتصنف كل موجود ، في رتبة من مراتب الوجود ، غير ان الفيلسوف اليوناني « فيثاغورث » يجد في العدد جوهر المعدود ، وانه بعد مذاهب طاليس ، وديموقريطس ، وهرقليطس ، وسواهم من الماديين الايليين ، اعلن ان الموجودات تتألف من اعداد ، وقد ذكر سابقوه انها تتألف تارة من الماء ، وتارة من النار ، او من العناصر الاربعة : النار ، الماء ، الهواء ، التراب . وهل يجيىء هذا العدد عرضاً ، او جوهراً ؟

العدد من حيث كونه رقماً او رتبة ، فهو عرض ، أما من حيث تألفه من عناصر ، او وحدات ، تشكل مجموع كيانه فهو جوهر ، ومن هنا تبدأ الفلسفة مرحلة جديدة مهدت لسقراط وافلاطون وارسطو ومن هنا اكتسب العدد قيمته فوق ماللحرف ، والنوطة ، وسواهما من الرموز ، ووسائل الابانة .

العدد في الاسلام

عرف المسلمون الاعداد كما عرفها سواهم من شعوب المدنيات ، وتميزوا بانهم مكتشفو الصفر الذي هو عدد متأهب للبدء ، ومخترعو علم الجبر الذي قفز بالرياضيات شوطاً بعيداً في مضمار البحث والكشف والتخطيط ، وحسبنا ان نقف على قيمة العدد في فكر الكيميائي ، الصوفي ، « جابر بن حيان » ، صاحب فكرة : « الاسم عين المسمى » وهو الذي احل العدد محل الروح او الهويّة الداخلية، ملتفتاً الى «فيثاغورث» « وهرمس » موطئاً للسوريالية التي رسم مذهبها « اندره بروتون » اليوم ، وعني بها ابن خلدون عناية كبرى في مقدمته ، الثلث الاخير .

وتجيىء حكايات « شهرزاد وشهريار » العربية ممهورة بهذا الرقم « الف ليلة وليلة » مسبوقة بمثل نسقه ، منخطبة كل ما عداه ، وذلك على سبيل الايقاع من جهة ، وعلى سبيل التمام من جهة اخرى ، فالرقم « الف » محطة كمية ، ونفسية ، لدى العربي ، إذ ان المئة كانت اكثر ما يدور العربي في فلكها في طرق معيشته المختلفة ، فحسبه من الابل مئة ومن الخيل مئة ، ومن القطع النقدية مئة ، اما ساعة يزيد ، ويتجاوز فالألف مدار احلامه ، وتمام شؤونه .

لعل المئة في الاصل من الماء الذى به الحياة، والألف من الالفة ، والتأليف ، والمادة لهذه

اللفظة تفيد الجمع ، قل مثل ذلك في الالف الحرف الاول من الابجدية ، حيث ترمز الى ما يتبعها من ابنائها الحروف الاخرى ، اذ هي في الدرجة الاولى رمز للصوت الاول ا.ا.ا. وهو يخرج من فتحة الفم ، منطلق من سقف الحلق ، ولذا عده علماء التجويد من الحروف الحلقية ، وهي ذات مزاج حاد ، حار ، عاطفي .

الى ذلك ، قرنت الالف بالباء ، واصبح هذا الاقتران عنوانا على الابجدية كلها ، وهي تشكل المرحلة المقطعية من النطق « اب » مشيرة الى الرمز الاقوى والاعلى للعائلة ، وارتسمت الالف في معظم لغات العالم منتصبة إشارة الى علامة الذكورة المبدعة ، والباء مسطحة للاشارة الى الانوثة .

بقي ان ندرك السر في تسمية العربي حكايات شهرزاد لشهريار تسمية عددية لها مغزيان : الاول في كونها الفا كناية عن اتمام ، والثانية في إضافة ليلة ، او العدد الواحد الى الالف ، فهل ان ذلك جاء لتمكين الايقاع من السمع ، او للمبالغة في التمام والكمال ، او ان بين الالف المرسومة كنهاية ، ومحطة ، جسرا ينقل من حال الى حال ، وعهد الى عهد ؟

ثم لماذا اورد اللفظ مؤنثا فقال ليلة بدل ليل او سمر ، او هزيع ، او ما شاكل ذلك ؟ ويهمنا ما في التانيث ذاته من الولادة ، والتولد ، والخصب ، وهل ان التسمية جاءت على لسان شهرزاد وهذا من حقها ؟ أم ان التسمية من صنع المؤلف الذي راعى في التسمية ناحية الانوثة ؟

الى ذلك فإن من شأن العربي ان يجيب على طالب العون منه بقوله : « لك ذلك وفوقه ، » . « لك ذلك وكرامة » . « لك ذلك وزيادة » « لك ذلك وواحدة . » أو أكثر إلى ما هنالك من صيغ القبول وتمكينه والتزيد فيه .

✻ ● ✻

ثم اننا إذا روينا في هذه التسمية العددية لوجدناها تشير الى ثلاث سنوات ، وتزيد ، وإن الليلة لا تنفصل عن النهار من حيث انها به تشكل اليوم ، فهي نصفه والنهار نصف آخر ، وهذه المدة كافية لانجاب نسل ، وتبديل احوال ، وتركيز أمور جديدة ، ولعل الرقم الف وليلة ، يشير الى عدد يتناول النساء اللواتي صرعهن شهريار ، وأن الليلة الواحدة الاخيرة تميزت عنهن شهرزاد عن باقي النساء .

أليس معقولا أن تكون ازمة الفاجعة دامت الف يوم ، وتسميتها بالليلة نصف اليوم نظراً الى ظروف الحزن الاسود ، والظلام المخيم على النسوة الشهرياريات وبؤسهن ، وبؤس عائلاتهن، وان تلك الليلة وحدها بعد الالف كانت مفتاح الفجر والخلاص ؟

✻ ● ✻

اخيراً ، عصر الف ليلة وليلة ، عصر عتمات، واشباح ، وتخاريف ، الى جانب كونه عصر رحلات . وترف يقابله بؤس ، وشموخ مفاجيء قد يؤدي الى سقوط فاجع ، وهذا ما يدفع الى الاستعانة بالصور ، والاحلام ، والماورائيات ، ويؤدي الى عناية كبرى بالطلسمات ، والالغاز ، خاصة الارقام ، والحروف ، والسيميائيات ، تلك التي عرفها المجتمع الاسلامي قبل ذلك بكثير. وذا مما يميل بنا الى ان التسمية رمز ، وليست رقما مقصورا لذاته ، الا اذا ارحنا انفسنا من عناء الافتراض ، والتمحل وهذا ليس في يد من تعود على البحث والايغال ، واخذنا التسمية على ظاهرها ، لنقر مع المؤلف ان شهرزاد بقيت تخرّف شهريار الف ليلة وليلة ، اي ما يزيد على ثلاث سنوات ، وانها نجحت كزوجة ، وحبيبة فاتنة ، وأم ، ومخلصة بنات جنسها من موت متدرج ، وانها كانت من الذكاء بحيث اعتمدت على عامل الزمن الذي به انتست شهريار حقده على بنات جنسها ، وتعهدت في نفسه شجرة الحب والثقة ، إلى أن مدت غصونها ، ومنحت براعمها زهراً وثمراً .

الليــــل

الليل عابس الملامح ، غريق في عتمة ذاته ، يسكن الخفاء ليفتح كوة الصباح من بصيرته العميقة .

ما فيه من سر ، ووحشة ، وستر ، يجعله موضوع الغن ، والذكرى ، والتامل ، والتآمر . الليل فيلسوف الزمن ، به تكتمل وتتنوع مناسج الرؤيا ، وملاءات الخيال ، مثلما ان النهار مركبة الشمس ذات الحوافر اللاهبة ، والرنين الأشقر .

فاي بحر لجّيّ ، امواجه تهدر صمتاً ، وتبوح بأفصح سور ، ينبع منه خمر اسود يكحل جفون العالم ، ويمنح النشوة للأشياء ، فاذا بكل ما فيه تجدد ، يطفيء السأم ، وينفي الرتابة ، على نغم مسترسل للوجود !!!

✻ ● ✻

في الليل جرت حوادث « الف ليلة وليلة » هذا الكتاب الذي عد من الصف الأول في مكتبة العالم . محور شخوصه المتمازين قبل الاسلام . عهد تاليفه بعد الاسلام وفي مجرى عهود الانحطاط السياسي بعد سقوط بغداد وآن اشرقت كواكب الأدب الشعبي ، والموسوعات، والمطولات الادبية، والعلمية .

— من هو مؤلفه ؟

— سؤال جوابه الصمت ، وربما كانت الاسئلة التي من هذا النسيج تحمل اجوبتها فيها ، او انها اسئلة غنية بالايحاء، تترك مجال الشوق منفتحا، فكل إجابة تجيىء ارخص من السؤال الذي لا تطفىء رياحها وهجه السحري ، وايقاعه الفاتن ، كانه سر من اسرار الحياة ، وملامح الغيوب .

احدية المؤلف

كاد الكاتبون عن الف ليلة وليلة يجمعون بعربيهم ، واعجميهم ، على ان المشتركين في تاليفه كثيرون ، وهذا ضرب من العجز عن فهم السر الادبي في المؤلف ، وهامشية في الدراسة ، نجد اننا ملزمون — بعد الروية ، والبحث ، ان « الف ليلة وليلة » كتاب عربي ، إسلامي ، لمؤلف واحد وان ذلك المؤلف غني الموهبة ، بعيد مطارح الخيال ، كثيف التجارب في الايام والليالي ، ذو بع بالتراث العربي القصصي ، وسواه من مقابس التاريخ الادبي العام خاصة ادب الفرس والهند ، واليونان ، وما اختلج في المنطقة العربية من موج يحتضن بعضه بعضاً بحكايات واقاصيص من متنوع ذهنيات الشعوب .

كتاب الف ليلة وليلة ذو المجلدات الاربعة بالعربية له مؤلف واحد ، واسلوب متناغم منسق مرسوم ، حامت حوله الاوهام مثلما حامت حول « هومير » مؤلف ملحمتي الالياذة والاوذيسة .

الشبه بين الاثرين : العربي واليوناني قائم، كما أن الشكوك حول التأليف والمؤلف تكاد تكون منسوجة على نول واحد ، وهذا يضفي على الاثرين سرابية خيال فياض الالوان .

* ● *

مما يرسخ الاحدية بصدد تاليف هذا الكتاب الممتع ، انه جاء امتدادا لخط طويل عريض في سياق القصص المنطلق من مناخ الشعب ، وانه منسوق على شبه بين الملامح يلتفت الى ما سبق ، ماحياً كل قول سواه دعت اليه عوامل الغفلة او العصبية ، او الرغبة في لبس ثوب المكتشف او العائد بالجديد .

فالعرب عرفوا من قبل بسنوات عدة كتابا على غرار الف ليلة وليلة ، وبالايقاع الموسيقي العددي لتسمية ذاتها ، الشيء الذي يشير إلى مزاج خاص باستخدام العددية الفيثاغورية ، ورموزها التي سحرت كثيرين من اقطاب الفكر العربي ، من طراز ابن خلدون ، وقبله جابر بن حيان .

« الف عبد وعبد » و «ألف جارية وجارية» كتابان من جملة كتب سبقت الف ليلة وليلة ، حسب الروايات العربية . وإحصائيات « ليتمان Littman » .

التسمية جارية على النغم الموسيقي ، والايقاع العددي ، في تناغم الحروف والالفاظ ، إذ أن المؤلفين العرب راعوا الناحية الجمالية في التسمية ، وهم ولوعون بذلك ولوعهم بالأرقام ، وقد جاء القياس مطابقاً لدى تسمية الف ليلة وليلة اقتباساً مما سلف .

ولكي نمنع القارىء بمضحكات اصحاب الاحاجي ، والتكهنات بخصوص جسد الكتاب ومؤلفه ، نعرض له طائفة منها . « ليتمان » ذاته ينسب التسمية الى واضع تركي . و «الشرواني» في تقدمته للطبعة الفارسية يزعم ان مؤلفه رجل سوري لافارسي ليلقى في الذهن صدى لتجرد والبعد عن العصبية ، وذا يزهينا اذ ربما كان هذا المؤلف حسب رأيه سوريا من لبنان ، واللبنانيون مشهورون بكثرة الاسفار ، وبعد مطارح الخيال ، وهم من سكان شاطىء المتوسط، بحر الحضارات القديمة الخصبة ، ولكي يرينا هذا « الشرواني » سعة آفاقه يتصور ان الطبعة السورية قد زيد فيها ، لينافس الغربي دسكاي Descay في هذا المضمار .

اما « سكوت Scott » فيعلن، وحسب ما يحلو له ، ان مؤلفه اكثر من واحد ، والاغرب ذلك ان « لنجلر » يقول : إن مؤلف هذه القصص هندي ، واني لاعجب كيف انه لم يضف : او صيني ، او اوسترالي او ... الى آخر الاوات .

ويعتمد هؤلاء الغربيون الذين فاتهم الفهم الصحيح ، وادراك سر التناغم في السبك العربي، على قولة للمسعودي في مروج الذهب ج٤ ص٨٩ الذي شكك ، وعدد ، مؤلفي الكتاب ، والمسعودي من عرفناه مخرفاً في معظم ما سجل حول مشاهداته ، واسفاره في مروج الذهب ، وان كان

قد فتح باب الادب الرحلي ، وسن سنة شريفة ، حلوة ، ممتعة لكتاب الرحلات ، بما وردنا من ادبهم الانساني ، الكوني ، ذي الانطباعات العذبة، الطفلة احيانا .

الى جانب هؤلاء المشككين ، الاحجوبين : يؤكد الاب صالحاني اليسوعي ان مؤلف الكتاب عربي ، انطلاقا من آراء الجهشياري ، وابن النديم .

بينما يعتمد « مكدونالد » Macdonald على الجهشياري وابن النديم ، وسواهما ، ليعلن ان مؤلف الكتاب هذه المرة فارسي ، لوجود اصوله في التسمية التالية : « هزار افسانه » ، ويشايعه كثيرون في هذا المجال .

لمحة من التاريخ

بعد ، اي شيء يكون كتاب الف ليلة وليلة ؟ ـ اول من ذكر كتاب الف ليلة وليلة من ادباء العرب ، ومؤرخيهم الرحالين ، المسعودي ؛ وهو من اعيان القرن الرابع الهجري ، بعد عصر الدويلات ؛ وقفاه ابن النديم في « الفهرست » .

فمتى ظهر هذا المؤلف العظيم الى الوجود ؟

أفي القرن الثالث الهجري ؛ مطلعه ؟ منتصفه ؟ ام ختامه ؟ او انه لمع في مطال القرن الرابع ؟ علماً بأن المسعودي عاش في اطار سنة ٣٣٦ هجرية ، وهو يتحدث عن الكتاب حديثا يشير الى بعد مصدره وزمنه بهذه العبارة :

« وهو خبر الملك ، والوزير ، وابنته ، وجاريتها دينارزاد ... »

هنا يبدو الخلاف واضحا بين رواية المسعودي ، وبين نص الكتاب الذي يطلق على الفتاة اسم « دنيازاد » وانها اخت « شهرزاد » لا جاريتها .

الظاهر ان الكتاب الف بعد عصر هرون الرشيد ، المحتضن عصر كليلة ودمنة السلفي ؛ وان الرشيد سجل انتصار العنصر الخلافي العربي على العنصر الوزاري الفارسي ، بينما انساق بعده عهد الامين الذي قتل بتدبير اعجمي ليستمين اخوه المأمون بالسيوف التي مهدت للسفاح والمنصور ، واجرى المأمون في خلافته ؛ وهو صهر الوزير الحسن بن سهل الفارسي تعويضا عن قتل الرشيد وزراءه البرامكة .

اليس منطقيا ان يكون الكتاب صدى لعنفوان ادبي عربي يستطيل ادبيا استطالة العرب سياسيا ؟

لعل ظهور ادب الموالي منذ بشار بن برد ، وابن المقفع ، وابان اللاحقي ، كان مما يلقي شبهة حول نسبة الكتاب الى مؤلف فارسي ، خاصة انه مطبوع بملامحهم ، ويدور حول بطلين هما « شهرزاد وشهريار » وإن الآداب القديمة التي خلدت على مر العصور وردتنا في صيغ : الملحمة، المسرحية ، القصص بانواعها .

وهنا لابد من سؤال ينبع من جو البطلين اللذين تدور حولهما حوادث الكتاب ، وهو : الا يمكن ان يجيء تاليف هذا الكتاب صدى لكليلة ودمنة ، كرد عربي متخايل في الامتاع ، والتخريف خاصة أنه يقبس بعض نماذج كليلة ودمنة ؟ ويعارض اثر ابن المقفع باللون العربي الاسلامي الصادق ؟

على ان ادب ابن المقفع المترجم على الاغلب، خلا كليلة ودمنة لا يبلغ مدى ادب الجاحظ العربي الاصل ولا يزيد على ما عرفنا من ادب المقامات ، وما على شاكلته من طراز ادب ابي حيان التوحيدي في المقابسات ، والامتاع والمؤانسة ، فالتحدي العربي إذن أصيل فعال .

ثم اذا كان كتاب الف ليلة وليلة ذا منطلق فارسي ، فهل هذا وحده كاف لتثبيته في الفارسية ؟ علما بأن مئات ، بل الاف الكتاب يضعون لمؤلفاتهم تسميات غريبة عن لغتهم ، ومناخاتهم ، في كل العصور . مثل ذلك ان « كليلة ودمنة » ذو اصول هندية ، كأصول الف ليلة وليلة الفارسية ، فهل ان هذا يجعل من كتاب ابن المقفع كتابا هنديا ؟

هذا مالا يقول به منصف .

إن الذي يثبت ولادة الف ليلة وليلة بعد العصر العباسي الرابع ، سيطرة اسمي بغداد والبصرة ، على معظم مواقف الكتاب ، وهما آنذاك كانتا في اوج عزهما الحضاري ، وكثافتهما البشرية ، ولكي نصل الى ما نهدف اليه بالسياق المنطقي ، نورد ما قاله ابن النديم في الفهرست ص ٣٠٤ من طبعة ليبزك سنة ١٨٧١ لدى تحدثه عن اصل « هزار افسانه » اي الف خرافة :

« ان ملكا من الملوك كان اذا تزوج امراة وبات معها ليلة قتلها من الغد ، فلما تزوج بجارية من اولاد الملوك ، لها عقل ودراية ، يقال لها

« شهرزاد » ابتدأت تخرفه ، وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ، ويسألها في الليلة التالية عن إتمام حديثها في الليلة السابقة، الى ان رزقت منه ولدا ، اظهرته للملك، واوقفته على حيلتها وتدبيرها ، وبراعتها في الانهاء والتشويق فاستعقلها ، ومال قلبه اليها فاستبقاها .» من هنا يبدو أن الكتاب ينطلق من مناخ فارسي ، وأن مؤلفه يمكن ان يكون بصرياً أو بغدادياً .

وقد يتراءى لبعض الباحثين ان مؤلف الكتاب مسيحي ، أو يهودي ، نظرا إلى ان قصاصين بارعين من المسيحيين واليهود أغنوا التراث العربي الاسلامي بالقصص المستمدة من التوراة والانجيل ، من طراز « وهب بن منبه » و « كعب الاحبار » .

على أن الروافد اليونانية وسواها من أصداء الوثنية ، تصب في بحر هذا الكتاب ، فهل من الدواعي أيضا أن يزعم زاعم ان مؤلفه يوناني ؟

ومن الزاعمين من يرى ان المسلمين يحرمون التحدث بالخرافات ، وأن بعضهم كان يتوقع إصابة المتحدث بشر عظيم، ويغفل هؤلاء الزاعمون من المستشرقين عن ان العرب عرفوا التخريف قبل الاسلام وعرفوه في مجرى الاسلام ، وليست قصيدة ذات القفا للنابغة ، واخيلة عبقر ، والاحقاف ، ويبرين ، ثم ما دار في فلك التصور وإن جاء في كتاب اليقين ، القرآن الكريم ، عن احوال الجنة والنار ، والجن ، والصور الادبية التي تبز ما عرفنا لهومير ، وفيرجيل ، وفياسا وفاليكي ، ثم ما شاع بعد ذلك عن اقاصيص العشق ، وامور المقامات ، واخبار الشياطين ، وكل رئي ، وطيف أو شبح ، مما يتسامح به لدى الغافلين ، ويبين مقدار أوهامهم .

اليس هذا كافيا لتتنفيه آراء هؤلاء ؟

روافد الكتاب

ازاء ذلك فما هي اشهر الروافد إلى الف ليلة وليلة ؟

جواباً ، يجد الباحث في دوحته جذورا هندية ، فارسية ، يونانية ، عراقية ، مصرية ، شامية ، يهودية ، مسيحية ، ونوافح متنوعة ، تهب من هنا ، وهنالك . على ان مؤلفي كتاب « قصة الادب في العالم » ، الدكتورين احمد امين ، وزكي نجيب محمود ، يقرران في مؤلفهما طبعة القاهرة سنة ١٩٤٣ صفحة ٤٢٢ ما يلي :

« فكان من القصص الشعبي « الف ليلة وليلة » ثم ظلت تنمو مع الزمن . وان قصة السندباد البحري لم تكن ملحقة بالف ليلة وليلة ، ويروى ان الجهشياري الف كتابا على نسق الف ليلة وليلة ، واختار فيه أسماراً من الامم ، ومات قبل أن يتمه . »

الكتاب اذن احدث مدرسة نحا نحوها غير اديب واحد ، مثلما فعل المتأدبون بصدد سالفه كليلة ودمنة .

على الرغم من القول بإضافة اقاصيص السندباد الى الكتاب ، فان هذا لا يقدح في وحدته ، وان مؤلفه واحد ، اذ ليس بين ايدي المفردين اي ثبت على صحة ما يتولونه أكاديميا ، ويبقى ان تناغم اجزاء الكتاب ، ووحدة اسلوبه ، ونسقه المؤتلف من الفه إلى يائه ، وطابعه العام المتميز بنكهة الغرابة ، والامتاع ، والجنس ، يؤكد وحدة فلذاته ، واحدية القلم الذي به اشرق على دهور الناس .

ثم ، اية مدعاة إلى نسبته في مصادر مختلفة ، من تراث الشعوب القديمة ، وكل ما فيه يشير الى عروبته ، واسلاميته ؟ اذ لا يتفق عقلا ولا زمنا ان يكون كاتبه قد جمع فيه مزقا ، ونتفا من مختلف آداب العالم ، فادبه البحري والبري من مصدر واحد ، بأسلوب متوحد ، مبني على الطرافة والمغامرة ، اعتمد فيه مؤلفه على منطلق فارسي للاغراب ، وان الفرس كانوا آنذاك مصدرا سحريا للمؤلفين العرب ، خاصة في الادب وعلى الاخص القصص ، لما لهم من سابق تاريخ مرتبط بأحداث العالم على مدى امبراطوريتي اليونان والرومان .

نحن اليوم نفعل في معظم ما نكتب من القصص مستمدين من الغرب ما فعله العرب بالنسبة الى الفرس ، وذلك لم يجعل ادبنا الراهن غربيا ، أو فارسيا ، على ان الادب فن ، والفن نفة الحياة والكون لكل البشر . كتب بديع الزمان الهمذاني مقاماته بالعربية ، وهو من اصل فارسي فهل تراه صنف لدى تعداد الادباء الا في الصف العربي ؟

وكتب جورج شحادة اللبناني العربي قصصه بالفرنسية ، فهل نعده اديبا عربيا وقد سكن لغة الآخرين ؟

* ● *

أدب البحر قليل في تراث ادبنا العربي ، بالنسبة الى تراث اليونان ، كما ان ادب الرمال قليل لدى ادباء الغرب قاطبة ، وذلك طبيعي . ولولا لمع من شعر امرىء القيس ، وطرفة ، وأدب القرآن الكريم ، وافاق الف ليلة وليلة ، ونسق مقامي من أدب « الحلبي » من اعيان القرن الرابع عشر ، لجاء الادب العربي قاحلا من البحريات وغرائبها .

مؤلف كتاب الف ليلة وليلة ، جسد اصداء الحضارة باستقرارها واغترابها ، موغلا بين الامواج ، مبتعداً عن سكون الصحراء ، مالئا الفراغ بأمتع محتوى ، ولعل البصرة هي التي نلهث بين جفونه . إنه لمن الثابت حسب مجرى حكايات الكتاب ، ونصوله أن المؤلف واسع الخيال ، قوي الذاكرة ، دقيق الملاحظة ، كثير الاسفار ، من سكان **الشواطىء** ، زاخم الشباب ، خبير بتقاليد الشعوب ، والمجتمعات ، بصير بنوازع النفس البشرية ، واشواق اللحم والدم ، أيام كانت بغداد ، وبعد ان كانت كالمدسة البلورية تجمع ما تفرق من اشعة الشمس ، كجمع بغداد مختلف الامم ، وذوبان الجميع في انصهار واحد ، منسوق على حد قولة « بروكلمن » في كتابه « تاريخ الشعوب الاسلامية » .

ملامحه العامة

وقعت عند دراستي الف ليلة وليلة ، طبعة صبيح ، أن المؤلف يعي في ذهنه حكايات لها اصول في تراث كثير من الشعوب القديمة ، كما يظهر اللون المصري ، الشامي ، العراقي واضحاً في معظم قصص الكتاب ، الى الاكثار من التحدث عن بحار الاهوال ، والجزر الغريبة ، والعفاريت والطلاسم ، والسحر ، والغدر ، والمؤامرات ، والضياع ، واللقاء .

ذلك جميعه صدى لروح العصر ، والمجتمع الذي افرخ فيه ادب الف ليلة وليلة ، وتعبير عن احلام الانسان ورغباته المكبوتة ، ومحاولة لردم الهوة بين الواقع المحروم ، والمؤمل المرتجى ، والتعويض عن السأم والذل ، تخلصاً من طبقة حاكمة مستغلة ، ومن فئة منهارة مهزومة ، الى عالم اللذة ، والاستعلاء ، والاستطالة ولو بالأوهام ... !

ذلك ادب شعب زهد من تقعر الفصحاء ، الى عفوية ادب الشعب ، ومن لغويات المتزمتين إلى ادب الحياة المترع بالنعمة ، ومن تحجر ابن البادية ، واسر ابن المدينة ، الى رحاب الانسان المثقف الحر ثقافة انسانية متأملة في الكون ، يجد في هذه اللغة التي مدت رواقها على قارات ثلاث ، والامة التي بسطت نفوذها على سائر بقاع الارض المتمدينة مجالا للاستيحاء ، والبحث عن خيوط لنوله الكبير .

- وقد ظهر لي أيضاً أن تأثر الف ليلة وليلة بكتاب كليلة ودمنة واضح ، وذلك في مثل حكاية « الحمار والثور مع صاحب الزرع » جـ ١ ص ٥ ، و جـ ٢ ص ٢٢ و ٣٠ ، و جـ ٤ ص ١٣٦ ، كذلك .
- اللون المصري في مثل صفحات ٦ ، ٦٥ ، ٦٨ ، من الجزء الاول .
- اما اللون العراقي فهو يظهر في اكثر من حكاية واحدة : وإن كان جاء أقل مما هو مشهور عن الكتاب . نظراً الى نسبة هذا المؤلف الى عصر الرشيد ، وتداعي اسم الكتاب واسم الرشيد . وبغداد التي هي بلد الف ليلة وليلة في كل ذهن لقد أحصيت ما يدور حول الرشيد في الكتاب، فاذا هو نذر يسير لا يتلاءم مع تلك الشهرة الشائعة .
- ولدى تقصي الآثار اليونانية ، فقد وجدتها بينة الملامح في مثل حكاية « حاسب كريم الدين » من الجزء الثالث صفحة ٩٤ ، وذلك عند ذكر الغول الذي هو صدى لسيكلوب « عوليس » بوجه آخر في أوذيسة هومير .
كما ان اصداء حروب طروادة كما وردت في الالياذة ، تبدو في جـ ٣ ص ٦٤ .
- الكتاب ممهور بالطابع الاسلامي في إطاره العام ، غير متخل عن اللون المسيحي كما في جـ ١ ص ١٣ .
- والمسحة الهندية تلوح في جـ ١ ص ٣٠ و جـ ٣ ص ١٠٤ .
- على ان الصفة الشامية ، والوجه اليهودي ، يلوحان في جـ ٣ ص ١٠ ، و ١٦ و ٢٧٤ .
- ثم أن الباحث يجد التماعات تشبه ما يجده في رسالة الغفران للمعري ، نلخصها في مثل قصة « بلوقيا » والحية جـ ٣ ص ٣٦ .
- كما تظهر معرفة المؤلف بمواقع بلدان العالم القصي مثل القوقاز ، وسيبيريا وسواهما ، مما يشير الى شيوع الدراسات الجغرافية آنذاك ،

وأنساع رقعة العالم الاسلامي ؛ الذي اصطبغ الكتاب بلونه .

— والمدهش حقاً ، المرهص بما يشبه النبوءة ، ان الكتاب يتحدث عن حروب تلتفت الى حروبنا اليوم ، إذ استخدم فيها سلاح لا يختلف عن سلاح عصرنا الذري ، والصاروخي ، حيث يلوح هذا في جـ ٣ ص ٧٢ .

— والجدير بالملاحظة ان في الكتاب لفتات اشتراكية سبقت الماركسية بمئات السنين ، هذا ليس عجيباً في عصور الفقر والحرمان ، وبعد ان عرف الناس اشتراكية « افلاطون » في الجمهورية ، ومن بعده « مزدك » الفارسي

— الجو العام المسيطر على الكتاب هو جو : المأكل ، المشرب ، الملبس ، المسكن ، المتع الجنسية بمختلف ضروبها ، وملاطف حرياتها ، ثم الغرابة ، والمفاجأة ، والمصادفة .

أسلوب الكتاب :

— يجنح اسلوب الف ليلة وليلة إلى البساطة في التعبير ، والوضوح ، والركة ، والعامية .

— كما يرسم ثقافة مؤلفه الادبية ، والتاريخية ، والجغرافية ، منطلقة من موهبة غنية .

— يكثر من ترديد بعض الحكايات ، والحوادث ، والصور ، والعبارات .

— لا يخلو من السقطات التاريخية مثل ذكره النابغة الذبياني في عهد عبدالملك بن مروان ، جـ ٣ ص ١٢٣ ولعل الناسخ خلط بين النابغة الجاهلي ، ونابغة من النوابغ الاسلاميين .

— يصل بعض القصص فيه الى قمة الروعة ، من حيث إحكام الحبكة ، وتأزم العقدة ، ولطف الحل ، كما في الجزء الثاني صفحة ٢٥٨ وذلك عند حكاية « فرس الآبنوس » ومثلها حكاية « عبدالله فاضل » عامل البصرة واخويه جـ ٤ ص ٢٦٦ .

ولا تسل عن التفكك ، والسذاجة ، وضعف النسج ، في كثير من القصص ، غير ناسين ان المجموعة تتميز بالخيال الرحب ، المثير للاشواق المهور بالغرابة ، الموشح بالمحال ، متمازاً بطائر الرخ ، وبساط الريح ، والخاتم السحري (لبّيك) والقمقم السليماني ، موطئاً لأروع اكتشاف في عصرنا الحاضر الذي لما يحقق كل صور الف ليلة وليلة في الواقع ، واوهامه المنداحة الجميلة ، عدا عن جلاله وجع الانسان من كونه ، ومختلف طبقات مجتمعه ، في مجاحفها ، ومتارفها ، صعودها وهبوطها .

اثره في الفن العالمي والعربي

تأثر بكتاب الف ليلة وليلة كثيرون من ادباء الغرب وفنانيه ، وظهرت الاقتباسات منه في القصص ، والمسرحيات ، والأفلام ، والشعر ، والمعارض اللاهية ، مثل ذلك إيحاؤه لأزاميل النحاتين ، وريشات الرسامين ، وتهاويل الراقصين ، وحكايات الاطفال ، واصبحت ليالي الف ليلة وليلة عنوانا على ظلال الشرق ، واطيافه خيالا ، وعذوبة ، وسحراً ، إلى مظهر للترف ، والازمات ، والفواجع ، والمباهج . جميعها ذات منازع انسانية في الصميم من مضامير الكائن البشري .

قد تخيبنا اقاصيص الكتاب فلا تتوفر في معظمها الشروط التي تترسمها القصة الحديثة. ومتى كانت هذه الشروط مقياساً نهائياً للقصص الخلاب ؟ ومتى كان الفنان الأصيل ملزماً بترسم الخطوط ، والقيود التي يفرضها النقاد او يفترضونها ؟ وهم إنما تعدوا ورسموا منطلقين من آثار الفنانين المبدعين الذين هم وحدهم يملكون المقاييس .

ثم هل في القصص العالمي ما يمنحنا المتعة، والنقلة من الواقع الى عالم الغبطة كالف ليلة وليلة ؟

يعتبر « ولز » ان كتاب الف ليلة وليلة اعجب واطرب قصص البشرية ، كذلك « فولتير » يعلن انه قرأ الكتاب مرات ، وانه لم يتعلم كتابة القصة إلا منه ، على أن اقاصيص « اندرسن » وجزيرة « بيكون » السعيدة ، وفردوس «ملتون» حملت اطياب الف ليلة وليلة .

وممن قبسوا منه ، وعنه « لشوسر » في تابعه ، و « ديكاميرون » في ايامه العشرة و « بوكاتشو » و « غوليفر » وكثير من كتاب الرحلات ، إلى جانب الصحف ، والحجاج ، والتجار ، والمرسلين المبشرين ، والصليبيين ، إذ انهمروا عليه ترجمة ، وإذاعة ، واقتباساً ، ودراسة ، وقد عنيت المطابع بإصدار اغلى ، واجمل النسخ التي بلغت اثماناً خيالية ، نظراً لصورها ، وتنسيقها ، وإخراجها الرائع .

وقد وقعت على نسخ منه بالفرنسية والانجليزية ، والالمانية فاذا جميعها مظهر لروعة الطبع والاخراج والتصوير .

كثيرة هي الكتب التي سعد بها اطفال اوربا والعالم ، وهل من طفل في الدنيا يجهل حكايات السندباد ، وعلاء الدين ، وعلي بابا ؟

بيد ان الفضل في نقل هذا السفر النفيس الى الغرب يعود الى بعض المشاهير من طراز « جان انطوان غلان الفرنسي » Y. A. Galland الذي قدمه في اثني عشر مجلداً على مجرى القرن الثامن عشر ، كما قبس منه الانجليزي « إدورد وليم لاين E. W. Lane » ثلاثة مجلدات في القرن التاسع عشر ، وريتشارد رد بورتون R. Burten نشره في عشرة اجزاء في القرن التاسع عشر ايضاً .

يضاف الى هؤلاء ما تمادى منه فلذات ، واساليب ، ومنطلقات ادبية وفنية لدى ادباء وفناني الغرب والشرقيين .

إسلامية الكتاب :

كتبت اقاصيص الف ليلة وليلة بلغة عربية ، في حضن الاسلام .

الاديب الفاطمي « يوسف بن اسماعيل » الف سيرة عنترة وانطلق بها من الواقع الى آفاق الاسطرة ، مواكباً صوراً جليلة من الالياذة والاوذيسة ، والماهابهاراته والراميانا . والانيادة.

لعل اديباً من طراز يوسف بن اسماعيل الف كتاب الف ليلة وليلة في المناخ العربي والاسلامي ، فالخيال في سيرة عنترة ، واخوات لها من نسق « الملك سيف » و « البهلوان » ليس غريباً عن الخيال في قصص الف ليلة وليلة وان كانت الموضوعات على تباين .

عنترة الاسطوري تزوج امراة من الجن فولدت له « الغضبان » وهذا كان يضرب بعموده الجبل فيشقه نصفين ، مثلما فجر « جوف » في الانيادة الجبل فجرت رياح كالخيول مطلقة الأعنة ، وكذلك فإن الزواج بالجنيات في الف ليلة وليلة كثير ، ومثله تعرف الفرسان بعناصر الطبيعة ، وقريب منه حب « نوسكا » جنية البحر البطل عوليس .

كذلك فان المناعم والمتارف لدى « السيرة » والف ليلة وليلة متشابهة ، وربما كان اختفاء اسم المؤلف سببه ان الكتاب يحشد كثيراً من صور الوثنيات ، واللذائذ الحسية ، والدعارة الجنسية . تلك التي تلذ القارىء بمقدار ما تتجافى عن الصيانة الاسلامية ، **ووقار العلماء** ، لذا عمد المؤلف الى الانطلاق من موضوع نسبه الى الفرس . ثم انساح في آفاق خياله .

الادب الشعبي البطولي جاء تعويضا عن فقدان البطل ، او المثل الاعلى ، وملأ لفراغ الحرمان ، وصدى للأحلام المستفيضة ، وإشباعاً لنهم ادبي يطلب صاحبه الابداع والخروج بجديد عن خط التقليد الملتزم ، الجاف ، في عصر فسدت امور السياسة ، وتفرقت اجزاء الامبراطورية العباسية مزقاً ، وتعرضت لهجمات مرعبات من مختلف الجهات .

الفاظ الف ليلة وليلة ، جمله ، صوره ، اصطلاحاته ، فواتحه ، معارضه ، خواتمه ، من نسق واحد .

الدعوات ، التمنيات ، العصبية الاسلامية، العبث بالزمن ، تخطي حدود الامكنة ، ازدهار عالم الكتاب بالمتارف ، وانفجاعه بالمآسي ، كل ذلك منسوق مرتسم على خارطة الجنة والنار واصداء البعث والقيامة ، لدى القرآن الكريم ، كذلك ثنايا لهاث المجتمعات والمدن والتقاليد والاخلاق . كل ذلك ممهور بالطابع العربي الاسلامي ، بعيداً عن اجواء مدن الفرس وسواها، بعداً قاصيا .

اذا كانت الاسماء في بعض الاحيان اجنبية، فان المحتوى عربي اسلامي . ذلك لا ينتقص من قدر الكتاب او يزيده ، نحقيقة مقداره انه وجد ، وانه كتاب عالمي .

معظم متارفه ومتعه صدى لمتارف ومناعم الجنة .

اكثر مظاهر العذاب فيه من اجواء جهنم ، والجانبان من مرسومات القرآن الكريم .

- السعلاة ، عبقر ، وبار ، الشيصبان ، الغول ، صور من **الجاهلية** .
- الجحيم ، الجنة ، الزقوم، السندس الاخضر، الانهار ، العسل ، من ادب الاسلام .
- صور المقامات (الهمذاني ، الحريري ، الزمخشري) تلتفت إليه .
- خيال رسالة الغفران له إليه خيط .

- أصداء جمهورية افلاطون وما ترامى الى المسلمين من تراث الامم الاسطوري ، وبعض الصور الفلسفية في خيال الاندلسيين والمشارقة مما نشتم عبيره فيه ، وكل ذلك لعب دوره في تكوين جسد الف ليلة وليلة .

إنه ادب الكادحين البائسين ، يتحدى ادب الارستوقراطية المستلين لظلال القصور ، واسماع السادة المتسلطين

هو أدب الحياة الصادق ، فوق ادب الصنمة الوارب ، يعرض صوراً لقلب الانسان واحلامه ، ونوازعه ، على مشارف ابناء الدهور .

جسد الكتاب :

استهل المؤلف كتابه بتقليد جرى عليه الاسلاميون ، فبسمل ، وصلعم ، ودعا للمؤمنين، ثم اشار الى غرضه من تاليف الكتاب ، وهو المائل في العظة والعبرة ، بسرده الاخبار ، والحكايات عن احوال الافراد ، والشعوب .

موضوع العبرة ، وبيان عجيب صنع الله في خلقه ، درج عليه مؤلفو الاسلام ، وعلى الاخص شيخ مفكريهم وادبائهم ، الجاحظ .

« حكي والله اعلم ، انه كان فيما مضى من قديم الزمان ، وسالف العصر والاوان ، ملك من ملوك ساسان ... »

- « والله اعلم » تقليد إسلامي شائع .

- اما السجع فهو من التزامات المتاخرين، بدءاً بابن العميد ، فالصاحب بن عباد ، فالهمذاني ومن جاؤوا بعدهم .

- « قديم الزمان ، وسالف العصر والاوان » عبارة شاعت في مأثور الادب الشعبي .

- « ملك من ملوك ساسان » تحديد نسبة الكتاب الى مرجع فارسي ، ومن هنا توهم المتوهمون ان مجرد نسبة الملك الى اصل اجنبي يستلزم ان يكون الكتاب كما نسب الناسب ، ولم يدر في خلد الواهمين انها طريقة للكتابة ، ورغبة شائعة ومن هنا اضطرب شان الجهشياري من القرن العاشر ، كما حدد بعضهم زمن ظهوره في مطالع القرن السادس عشر ، ،واخر دولة المماليك .

الكتاب لا يعين زمن ظهوره ، اما حوادثه فتبدأ في عهد الساسانيين ، ولا تحديد للزمن الذي توقفت فيه عن الجري ، وقد يخلط الكتاب اشياء التاريخ خلطاً فلا يستبين صواب ، فما العمل ؟

العبارة وحدها هي التي تشير الى الزمان والمكان كما اسلفنا .

العبارة : كلمات فصيحة ، الى عامية ، سوقية ، تسلك سبيل السجع ، والتكرار أحياناً وتجري على التقليد الاسلامي في البدء والختام ، وفيها من الدعاء ، والاستغفار ، أشياء عدة ، كما يكثر فيها الالحاح على الفاظ : العدل ، الظلم ، الخير، الشر ، الخيانة ، الوفاء ، الحيلة ، اليأس ، المتع، المبائس ، السحر ، الطلاسم .

اما الكوكب الذي يدور في إطار تلك الليالي فهو الجنس بكل اشواقه ، ومفاجآته ، ومكائده .

ذلك جميعه ملحوظ منذ عصر الدويلات شائع زاخر في عصور سموها عصور الانحطاط ، حتى آخر عهد المماليك .

- لا يبعد ان تكون كتب القصص الشعبي لهثت في آفاق عصر الصليبيين ، وحوله ،حيث شاع فكر المغامرة ، والبطولة ، طلباً للمثال النادر ، وانتظاراً المخلص ، وتعويضاً عن واقع منسحق، او تسلية للناس بعد ان شاع خيال الظل لابن دانيال .

- ابداع القصص سنة درجت عليها الشعوب ، ساعة تهرب النفوس من الواقع الملموس ، الى داخل النفس ، فينطلق الخيال ، وتلتفت الذاكرة ، شانهم في ذلك شأن الذين الزمتهم الطبيعة القاسية بزمهريرها ، وثلوجها أن يوغلوا في سراديب الذات ، وينطلقون في آفاق الخيال ، ليبدعوا في القص .

- ثم إن الجمع ، والاقتباس ، والاختراع ، ثلاثة وجوه تطل من جسد الف ليلة وليلة ولكنهما بما فيها من جانب الاختراع وحده ، مدينة بخلودها ، وروعة بنيانها ، واجمل ما فيها قصة « عبدالله فاضل » .

- تلك الاسماء : شهريار ، شهرزاد ، دنيازاد لوسيقاها ، ولانتمائها الى لغة تداخلت في ادب العرب منذ عهد الامويين ، واستطالت في عهد العباسيين ، أصبحت في عهد الدويلات تجنح نحو الذكرى من جهة ، ونحو التركز من اخرى ، مثلما دفعت العربية بآلاف الكلمات في بحيرة تلك اللغة ، فاغنتها ، ونسبتها .

ـ معظم أبطال تلك الاقاصيص فرسان ، تتشوق النفوس الى الفرح بمآتيهم ، وتترقب انتصاراتهم .

ـ العبيد والجواري ، والاماء ، يلعبون دوراً هاماً في مجرى حوادث الكتاب واخصها : الغدر العشق ، والخدمة ، والفتك ، والسحر ، شأنهم قديما كشأنهم اليوم ، فالاسود يختزن في جسده حرور شمسه ، فهو لذلك مقصد المشتهيات .

ـ العفاريت عنصر هام من عناصر الف ليلة وليلة ، فهم رمز الزمان الذي يتبدل ، ويبدل وهم مفاتيح الخرافة والاسطورة ، إذ أن العاجز عن وعي وجوده ، يلجأ الى كل مغيّب وخفي ليَحُلّ عقد حياته .

ـ الحقد ومظهره الغضب والانتقام ، حل شائع في الكتاب .

ـ الخلاص خاتمة مبهجة لاقاصيص الف ليلة وليلة ، تأكيداً على انها من بنات الاختراع مقصوبة على مد الاهواء ، والنوازع .

ـ الموت وجه راعب ، يترصد تلك النفوس التي تتحرك شخوصها مع مسرح الكتاب ، وهو « هادم اللذات ومفرق الجماعات » وكثيراً ما ينتهي لتولد منه حياة جديدة .

ـ طائر الرخ ، الجواهر الكريمة ، الاماكن الغريبة ، الجنيات ، التحكم بالزمان من روائعه السحرية .

● ✱ ●

« الف ليلة وليلة » مجموعة اقاصيص خيالية ، بعضها يلهث فيه الواقع ، مؤلفها واحد غير معروف ، وزمن ظهورها لا يبتعد عن فلك المماليك والصليبيين ، لغتها بين العامية والفصحى ، رصّعت بشعر مخترع ، ومروي ، قد لا يلتزم الشعر المخترع اشياء النحو والعروض شاعت في ثناياها مقابسات من اقاصيص الشعوب وملاحمها ، بدات بتقليد درجت عليه : « بلغني ايها الملك السعيد ... » وانهت كل حكاية ب : « وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح . » تلعب خيانة المراة فيها الدور الاهم الى جانب شكوك الرجل وقسوته ، وتنتهي بتفاهم شهريار وشهرزاد .

الكتاب عربي إسلامي تميز بالقدرة على الامتاع ، وتخطي الزمان والمكان ، مؤلفه موهوب خصيب ؛ ومثقف اريب ، وثائر على اوضاع المتسلطين ؛ منهمر على أشياء الشعب والمحرومين

لم نجر اقاصيص الكتاب على النسق الفني للقصة الحديثة التي شاعت في الغرب منذ القرن الثامن عشر ، واستعلت في التاسع عشر ؛ ولكنها تبقى رغم ذلك نموذجاً عالمياً للقصص الرائع ، لا تبلى ملاطفه ، وممتعاته على توالي الدهور .

★

المراجــع

١ ـ الف ليلة وليلة ، مجلدات ، طبع صبيح ـ القاهرة .
٢ ـ الف ليلة وليلة : سهير القلماوي .
٣ ـ معجم المطبوعات العربية : خليل سركيس .
٤ ـ قصصنا الشعبي : دكتور فؤاد علي .
٥ ـ من احوال الادب : احمد حسن الزيات .
٦ ـ القصة في الادب العربي : محمد يوسف نجم .
٧ ـ فن القصص : محمود تيمور .
٨ ـ دائرة معارف البستاني . ف . افرام .
٩ ـ دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية . E. D. l'Islam
١٠ ـ قصة الادب في العالم : للدكتورين احمد امين وزكي محمود .
١١ ـ الف ليلة وليلة : ميخائيل عواد ـ بغداد .
١٢ ـ الف ليلة وليلة : لفاروق سعد ـ الاهلية ـ بيروت .
١٣ ـ الف ليلة وليلة : القاهرة ـ الدراسات الادبية .
١٤ ـ الف ليلة وليلة : تحقيق العدوي ـ بولاق .
١٥ ـ الف ليلة وليلة : المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت .

بغداد في مطبوعات وزارة الثقافة والاعلام

بقلم

هدى شوكة بهنام

مجلة المورد ــ دار الجاحظ ــ بغداد

اسهمت وزارة الثقافة والاعلام في اصدار مجموعة طيبة من الكتب التراثية عن بغداد بين دراسة وتحقيق ، وقد رأيت ان اعرض للقراء طائفة منها .

مدرسة بغداد في التصوير الاسلامي

تراث الرسم البغدادي

ملامح مدرسة بغداد لتصوير الكتاب

اقامت وزارة الاعلام مهرجانا للواسطي في نيسان سنة ١٩٧٢ صدرت خلاله سلسلة فنية خاصة ، اخترت منها البحوث التالية :

١ ــ مدرسة بغداد في التصوير الاسلامي للدكتور زكي محمد حسن : تضمن بعد المدخل الموضوعات التالية :

تسمية هذه المدرسة .

عصر هذه المدرسة ومراكزها الفنية .

موضوعات التصوير في مدرسة بغداد ،

مخطوطات الكتب العلمية المزوقة ، مخطوطات الكتب الادبية المزوقة .

خصائص الاسلوب البغدادي في التصوير .

مصادر الاساليب الفنية في مدرسة بغداد .

يقع البحث في ٣٨ صفحة .

٢ ــ تراث الرسم البغدادي للدكتور محمد مكية : ابتدأ بمقدمة عن دراسة فن التصوير الاسلامي في مدرسة الرسم البغدادي وحوى الموضوعات التالية :

نشأة التصوير الاسلامي في بغداد .

مميزات فن التصوير البغدادي .

اما اقدم المخطوطات المصورة التي تنسب الى مدرسة بغداد فهي :

كتاب البيطرة .

كتاب الترياق لجالينوس .

كتاب الحشائش او خواص العقاقير لديسقوريدس .

كتاب الحيوان للجاحظ .

كتاب الحيل الميكانيكية او « كتاب الحيل الجامع بين العلم والعمل » .

كتاب صور الكواكب الثابتة .

المدرسة البغدادية الحديثة .

يقع البحث في ٢٦ صفحة .

٣ ــ ملامح مدرسة بغداد لتصوير الكتاب للاستاذ نوري الراوي ويبحث في الموضوعات التالية :

اصول المدرسة العراقية لتصوير الكتاب .

معاني تصويرات المصور البغدادي وخصائصها .

نظرة (عين الطائر) او النظرة الشمولية عند المصور البغدادي .

الملامح الرئيسة لمدرسة بغداد من خلال رسوم الواسطي لمقامات الحريري .

بعض المخطوطات العراقية المصورة :

كتاب البيطرة ، كتاب خواص العقاقير لديسقوريدس ، كتاب كليلة ودمنة .

يقع البحث في ١٨ صفحة وهو مترجم الى اللغة الانكليزية في خمس صفحات .

ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد

ضمن سلسلة كتب التراث (٣٦) قام الدكتور بشار عواد معروف بالتحقيق والتعليق على المجلد الاول من كتاب « ذيل تاريخ مدينة بغداد » تاليف الحافظ ابو عبدالله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثي المولود في سنة ٥٥٨هـ والمتوفى في سنة ٦٣٧هـ ، تم الطبع ببغداد سنة ١٩٧٤م/١٣٩٤هـ ، في ٣٦٨ صفحة وقد ابتدأ الكتاب بكلمات قالها المؤرخون في ابن الدبيثي ثم مفاتيح الكتاب والملاحظات ، وتقديم للمحقق جاء في ٦٤ صفحة حوى الموضوعات التالية :

عناية العرب بتاريخ جماهير الامة .
تواريخ المدن .
تواريخ بغداد التراجمية .
سيرة ابن الدبيثي .
سيرة موجزة جدا لحياته .
مكانته .
تاريخ بغداد لابن الدبيثي .
موارد تاريخ ابن الدبيثي .
اهمية تاريخ ابن الدبيثي .
نسخ الكتاب .

المختصر المحتاج اليه : هل هو « كتاب » ؟

نهج العمل في التحقيق .

وقد اعتمد المحقق على اربع نسخ مخطوطة :

١ ـ نسخة المنذري : المجلد الاول موجود في مكتبة شهيد علي باستانبول يحمل الرقم ١٨٧٠ ويقع في ٢٤٦ ورقة من ضمنها طرة النسخة في كل صفحة منه ٢٢ ـ ٢٣ سطرا وفي كل سطر ١٠ ـ ١١ كلمة . اوله بداية الكتاب (وهي الخطبة) وآخره حرف الجيم ؛ وهذه النسخة مكتوبة بخط دقيق ، وعليها خط الامام زكي الدين ابي محمد عبد العظيم المنذري المصري المتوفى سنة٦٥٦هـبملكية النسخة. ويشمل المجلد اثنين وعشرين جزءا حديثيا وقد كتب سنة ٦٣٥هـ بخط مشق اعتيادي لا التزام فيه بقواعد الخط المعروفة ، وفي اسفل الورقة الاخيرة من الجهة اليمنى على الحاشية كلمة « معارضة » للدلالة على ان النسخة مقابلة على الاصل المستنسخة منه ، وعلى النسخة ايضا قراءات لبعض العلماء مثبتة بخطهم ، منهم : ابن الصابوني المتوفى سنة ٦٨٠هـ وصاحب كتاب « تكملة اكمال الاكمال » ، وفي النسخة خطأ في التجليد ادى الى تقديم تراجم وتاخير اخرى واختلاط بعضها ببعض ؛ وقد صورت مكتبة الاوقاف العامة ببغداد نسخة من هذا المجلد ، وحفظ في خزانتها بالرقم (٤٥) .

والمجلد الثاني من نسخة المنذري محفوظ في المكتبة الاهلية بباريس تحت رقم (٥٩٢٢ عربيات ، ويقع في ٢٤٦ ورقة وهذا المجلد هو تكلمة للمجلد الاول المحفوظ في مكتبة (شهيد علي) ويشبهه بالوصف والخط والعنوان وملكية المنذري له المثبتة على طرة المجلد الذي يبدأ بحرف الحاء المهملة وينتهي بآخر الجزء الثالث والاربعين من الاصل ، فرغ من نسخه سنة ٦٢٦هـ بمقصورة الخطابة من جامع دمشق .

واعتبر المحقق هذه النسخة اصلا لانها ادق النسخ في الخط واقدمها ، ولانها نسخة المنذري الرجل المليء بفن التراجم ، ولاحتوائها على قراءة بعض العلماء لها .

٢ ـ نسخة المكتبة الاهلية بباريس (رقم ٥٩٢١) ؛ وهي تتكون من (٢٩٩) ورقة ، في كل ورقة (٢٣) سطر وفي كل سطر ١٠ ـ ١١ كلمة وخطها تعليق (فارسي) . وهي منسوخة من الجزء الاول الذي في مكتبة شهيد علي ، لكن لا يعرف ناسخها ولا تاريخ النسخ ، وفيها خروم وسقوطات.

٣ ـ نسخة المكتبة الاهلية بباريس (رقم ٢١٣٣) وهي تتكون من ٢١١ ورقة في كل ورقة ٢١ سطرا ، وفي كل سطر ١٠ كلمات ، والعناوين مكتوبة بخط اكبر وخطها واضح منقط لا يسير على نمط معروف من انواع الخطوط العربية لكنه شبيه بالنسخ .

وهذا المجلد هو المجلد الثاني من نسخة لا يعرف لها وجود ، واول هذا المجلد : ذكر من اسمه احمد واسم ابيه اسماعيل ، وينتهي بانتهاء الحاء المهملة . وهذه النسخة غير مؤرخة ، وقد استنتج المحقق بانها متاخرة نسبيا وليس لها فائدة لوجود تراجمها في نسخة المنذري .

٤ ـ نسخة كيمبرج (رقم ٢٩٢٤) وهي تتكون من ١٨١ ورقة في كل ورقة ٢٥ سطرا خطها مشق اعتيادي لا التزام فيه بقواعد الخط المعروفة؛ وقد ذهب اولها وبقي من بدايتها عجز ترجمة ابي الخير عبدالله بن عبدالله الروحي الجوهري، وينتهي المجلد بنهاية حرف العين من تاريخ ابن الدبيثي ، وهذه النسخة هي المجلد الثالث من نسخة لا علاقة لها بالنسخ السابقة وهي تفيد في تكملة نسخة المنذري المشار اليها سابقا وتبدأ من ترجمة « علي

ا ن الحسن بن عبدالله بن هبة الله المعروف بابن المسلمة » والى نهاية المجلد .

ومن مجموع هذه النسخ نحصل على تراجم جميع « المحمدين » وباقي الكتاب الى نهاية حرف العين ؛ ولعله يكون اكثر قليلا من ثلثي الكتاب .

وتنتهي المقدمة بخمس صور من مختلف النسخ التي اعتمدها المحقق في تحقيقه .

ويبدا الكتاب بمقدمة المؤلف ثم ذكر من اسمه محمد واسم ابيه احمد ؛

ويحوي تراجم :

١ ـ محمد بن احمد بن سليمان بن ابراهيم الخطيب ، ابو الغنائم يعرف بابن القارىء .

ويستمر الكتاب على هذه الطريقة :

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه ابراهيم ؛

٧٠ـ محمد بن ابراهيم بن عبيد الله الواعظ ، ابو الفتح .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه اسماعيل ؛

٧٨ـ محمد بن اسماعيل بن الحسن بن عبد العزيز الضبي ، ابو عبدالله .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه اسحاق ؛

٨٢ـ محمد بن اسحاق بن محمد بن هلال ابن المحسن بن ابراهيم بن هلال بن زهرون ، ابو الحسن بن ابي نصر بن ابي الحسن بن ابي الحسين ابن ابي علي بن ابي اسحاق الصابيء الكاتب .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه اسعد ؛

٨٤ـ محمد بن اسعد بن محمد بن نصر البغدادي ، ابو المظفر المعروف بابن حكيم الفقيه الحنفي الواعظ .

الاسماء المفردة في حرف الالف من آباء من اسمه محمد .

حرف الباء في اباء من اسمه محمد ؛

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه بركة ؛

٨٩ـ محمد بن بركة بن خلف بن الحسن بن كرما الصلحي الاصل ، ابو بكر .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه بختيار .

٩١ـ محمد بن بختيار بن عبدالله ؛ ابو عبدالله الشاعر المعروف بالابله .

الاسماء المفردة في حرف الباء في آباء من اسمه محمد .

حرف التاء في آباء من اسمه محمد ؛

٩٦ـ محمد بن تركانشاه ، ابو الوفاء الحاجب .

حرف الثاء في آباء من اسمه محمد ؛

٩٨ـ محمد بن ثابت بن يوسف بن عيسى ؛ ابو بكر النحوي .

حرف الجيم في آباء من اسمه محمد ؛

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه جعفر ؛

٩٩ـ محمد بن جعفر بن عقيل البصري الاصل البغدادي المولد والدار ، ابو العلاء .

حرف الحاء في آباء من اسمه محمد ؛

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه الحسن ؛

١٠٥ـ محمد بن الحسن بن علي الواعظ .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه الحسين ؛

١٢٧ـ محمد بن الحسين بن احمد بن حمدون بن يحيى المقرىء ؛ ابو غالب العدل .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه حمزة ؛

١٤٨ـ محمد بن حمزة بن محمد بن عبدالعزيز ابن علي ، ابو عبدالله

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه حامد ؛

١٥٥ـ محمد بن حامد بن فارس بن الحسين الذهلي ، ابو الحسين .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه حمد .

١٥٩ـ محمد بن حمد بن اسماعيل الهمذاني .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه حيدرة ؛

١٦١ـ محمد بن حيدرة بن عمر بن ابراهيم ابن محمد بن محمد بن احمد بن علي ... ابو المعمر ابن ابي المناقب العلوي الحسيني الزيدي .

الاسماء المفردة في حرف الحاء في آباء من اسمه محمد ؛

حرف الخاء في آباء من اسمه محمد ؛

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه خلف ؛

١٦٦ـ محمد بن خلف ابن الخشاب ، ابو الحسن البزاز .

حرف الدال في آباء من اسمه محمد ،

١٧٣ـ محمد بن دلف بن كرم بن فارس العكبري الاصل البغدادي المولد والدار ، ابو الكرم ابن ابي لفرج .

حرف الذال في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه ذاكر ،

١٧٤ـ محمد بن ذاكر بن محمد بن احمد بن عمر الخرقي ، ابو بكر .

حرف الراء في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه ريحان ،

١٧٦ـ محمد بن ريحان بن عبدالله الثقفي ، ابو عبدالله .

الاسماء المفردة في حرف الراء في آباء من اسمه محمد ،

حرف الزاي في آباء من اسمه محمد ،

١٨١ـ محمد بن زيد بن ابي نصر ، واسمه احمد ، بن علي بن باربس ، ابو محمد ،

حرف السين في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه سعد ،

١٨٢ـ محمد بن سعد بن سعيد ابن التاريخ ، ابو البركات الغسال يعرف بالحنبلي .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه سعيد ،

١٨٩ـ محمد بن سعيد بن محمد بن عمر ابن الرزاز ابو سعد بن ابي منصور .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه سعد الله ،

١٩٤ـ محمد بن سعدالله بن محمد بن عمر ابن سالم ، ابو عبدالله .

حرف الصاد في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه صدقة ،

١٩٨ـ محمد بن صدقة بن محمد ابن البوشنجي ابو المحاسن الكاتب .

الاسماء المفردة في حرف الصاد في آباء من اسمه محمد .

حرف الطاء في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه طاهر ،

٢٠٣ـ محمد بن طاهر الاندلسي،ابو عبدالله .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه طلحة ،

٢٠٦ـ محمد بن طلحة بن علي بن احمد بن الحسين بن عمر العامري ، ابو احمد المالكي .

حرف الظاء في آباء من اسمه محمد ،

٢٠٨ـ محمد بن ظفر بن احمد بن ثابت بن محمد الطرقي ، ابو عبدالله بن ابي الغنائم بن ابي العباس .

وهذه الترجمة هي الاخيرة في الكتاب وبها ينتهي المجلد الاول ، ويليه المجلد الثاني واوله حرف العين في آباء من اسمه محمد ، وهو قيد الطبع الان .

والكتاب مزود بفهارس عامة للمترجمين ، والاحالات ، والاماكن ، والكتب الواردة في المتن ، والاحاديث النبوية ، والقوافي ، ونظم الدولة العباسية . وجريدة المصادر والمراجع ، والمحتويات .

الدرس النحوي في بغداد

ضمن سلسلة الكتب الحديثة (٧١) نشر للدكتور مهدي المخزومي كتاب الدرس النحوي في بغداد ، ويتضمن الموضوعات التالية بعد المقدمة والتمهيد :

الكسائي ، علي بن حمزة (توفي سنة ١٨٩هـ)
اصحاب الكسائي .

الفراء ، ابو زكريا يحيى بن زياد (توفي سنة ٢٠٧هـ)
اصحاب الفراء .

ثعلب ، ابو العباس احمد بن يحيى (توفي سنة ٢٩١هـ)

خصائص المذهب البغدادي .
غلبة المذهب البصري ،
كوتولدفايل ومدرسة الكوفة
بروكلمان ومدرسة الكوفة
شوقي ضيف ومدرسة الكوفة

تلاميذ ثعلب والمبرد .
الطائفة الاولى جماعة ثعلب
الطائفة الثانية جماعة المبرد
الطائفة الثالثة جماعة ثعلب والمبرد معا .

الدرس النحوي في القرن الرابع :
ابن خالويه

ابن فارس
ابو الطيب المتنبي

الدرس النحوي في الآفاق :

١ ـ الدرس النحوي في مصر
٢ ـ الدرس النحوي في الاندلس

شيوع البغدادية وتاريخه
التسمية بالكوفية
شوقي ضيف والمذهب البغدادي المزعوم
الانصاري والمدرسة البغدادية المزعومة

خاتمة البحث .

وقد زود الكتاب بفهارس عامة لاعلام الاشخاص والكتب الواردة في صلب البحث ، والآيات والاشعار، وانصاف الابيات ، اضافة الى مصادر البحث ومراجعه وفهرست الموضوعات . وقد تم طبع الكتاب ببغداد سنة ١٣٩٥/١٩٧٥ ، وجاء في ٢٨٠ صفحة .

بغداد مدينة السلام

في سلسلة التراث (٦١) صدرت سنة ١٩٧٧ الطبعة الاولى من كتاب « بغداد مدينة السلام » لابن الفقيه الهمداني : احمد بن احمد بن محمد بن اسحق بن ابراهيم الاخباري ابو عبدالله . بتحقيق الدكتور صالح احمد العلي حيث ابتدأه بمقدمة عن « كتاب ابن الفقيه الهمداني عن بغداد واهميته » درس فيها الموضوعات التالية :

مكانة بغداد ، الكتب المؤلفة عن بغداد ، ابن الفقيه الهمداني وكتابه في البلدان ، محتويات الكتاب ، مصادره ، ابن الفقيه والخطيب ، ابن الفقيه الهمداني وياقوت ، مدح بغداد وذمها ، يزدجرد وكتابه في فضائل بغداد ، كتب الفضائل ، فضائل مصر ، محتوى كتاب يزدجرد ، الحمامات .

وقد اعتمد المحقق على نسخة فريدة مصورة عن مخطوطة مشهد اعارها له الاستاذ بول كاله ، ونسخة اخرى مصورة عن المصورة التي اقتناها معهد الدراسات الاسلامية اعارها له الدكتور حسين محفوظ وهذه النسخة اوسع من المختصر المطبوع لكتاب البلدان الذي نشره دي غويه ضمن السلسلة الجغرافية العربية ، ومن المقتطفات التي اقتبسها ياقوت من معجم البلدان والاشعري في تاريخ قم . فهذه النسخة كثير من مادتها موجود في المختصر ، الا انها تحوي مادة اضافية غنية عن جباية العراق وسامرا وواسط ومفاخرة لاهل البصرة وفصلا واسعا عن بغداد ، هو المقصود بالنشر في هذا الكتاب . ثم طبع فصل بغداد من كتاب الهمداني في باكو بالزنكوغراف مع مقدمة بالروسية عن بغداد ، وهذا المطبوع نادر وخال من التعليقات . وفي هذه المخطوطة الفريدة بعض الثغرات سببها الناسخ كالبتر في الكلام عن المقابر ، وكذلك توزيع المادة المتعلقة بموضوع واحد على اكثر من مكان ، وبعض النصوص المقحمة التي لا تنسجم في مادتها مع ما قبلها او بعدها ، ويعود هذا الاضطراب في توزيع المادة ايضا الى التجليد .

ثم ان هذا الفصل الخاص ببغداد ليس له الا عنوان عام هو « القول في مدينة السلام » والكلام بعده سرد متتابع غير مقسم الى فصول صغرى او فقرات مميزة .

ويتضمن الكتاب الموضوعات التالية بعد العنوان العام « القول في مدينة السلام بغداد » .

اسمها .
تأسيسها .
غارة المثنى .
بحث المنصور عن عاصمة .
اختيار الموضع .
جمع العمال .
استخدام ابي حنيفة .
السور .
موقعها .
قصة المقلاص .
التخطيط .
اهمية التدوير .
وصف المدينة .
محاولة هدم ايوان كسرى .
الاسواق
ابنية اخرى .
تاريخ اكتمال البناء .
بناء الرصافة .
تكاليف البناء .
النجوم .
شعر في مدح بغداد .
تاريخ التحول .
الموكلون بالبناء .
الابواب .
القرى في موقع بغداد .
القطائع .

العباسية .
معالم اخرى .
رحا البطريق .
الجسور .
الجانب الشرقي .
السويق .
مساحة بغداد .
مدح بغداد .
عود الى الانطاعات .
نزول الخلفاء بها .
سامرا .

نص مقحم .

يزدجرد بن مهبنداد .

مناخ بغداد .
علماء بغداد .
المنتوجات الزراعية .
الازدهار الصناعي .
شهرة منتوجات بغداد .
منتوجات مصر .
تمور بغداد .
القطن .
النمو العمراني .
مدح بغداد .

كلام السرخسي .

اخطار توسع بغداد .
خصائص مواقع مدن العراق الاخرى .
ميزات بغداد .
خصائص الموقع .
دجلة والفرات .
عود الى خصائص الاقاليم .
العراق مركز الدول الكبيرة .
خصائص الاقليم الرابع .
من اسباب انهيار الامويين .
خصائص المنصور .
لم يمت ببغداد خليفة .
النجوم .
مدح بغداد .

رجع الى كلام يزدجرد .

الحمامات .
هجرة الناس الى بغداد .
سعة الجامعين .
سعة المسجد الحرام .
مقدار الاستهلاك من دهن البزر .
استهلاك البقول .
استهلاك الاعشاب .
عدد المنازل .
استهلاك اللحم .
توفر المحاصيل .
توفر الادوية .
عود الى استهلاك اللحم .
المحاصيل الاخرى .
بيوت الشطرنج .
اقوال في مدح بغداد .
ما ذكر في ذم بغداد وكراهة نزولها .
اقوال من ذم بغداد .
نهر دجلة .

وجمع المحقق في نهاية الكتاب كلا من هوامش المقدمة والنص ويشمل : هوامش القول في مدينة السلام بغداد ، هوامش يزدجرد ، هوامش رجع الى كلام يزدجرد ؛ ثم وضع فهرسين للاعلام ، والامكنة والبلدان ؛ هذا والكتاب يقع في ١٩٢ صفحة وقد طبع في دار الطليعة بباريس .

تاريخ حوادث بغداد والبصرة

عن سلسلة كتب التراث (٧٣) صدر كتاب « تاريخ حوادث بغداد والبصرة من ١١٨٦ الى ١١٩٢هـ/١٧٧٢ ــ ١٧٧٨م » تاليف عبدالرحمن بن عبدالله السويدي البغدادي المولود سنة ١١٣٢هـ (١٧٢٠م) في الفترة الاخيرة من حكم والي بغداد حسن باشا (تولى بغداد من ١١١٦ الى ١١٣٦هـ / ١٧٠٤ ــ ١٧٢٣م) والمتوفى سنة(١٢٠٠هـ/١٧٨٥م) حقق الكتاب وقدم له وعلق عليه الدكتور عماد عبد السلام رؤوف وقد طبع ببغداد سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م في ١٦٨ صفحة .

ابتدا الكتاب بتمهيد للمحقق عن دراسة تاريخ العراق واهمية كتاب السويدي ومضمونه ومكانته، والنسخة التي حقق الكتاب عليها ، ومنهج التحقيق، ثم يقدم دراسة عن « مؤلف الكتاب عبد الرحمن السويدي » تتضمن الموضوعات التالية :

اسرته ، سيرته ، آثاره :

اولا ــ في التاريخ والسير .
ثانيا ــ في الفقه .

ثالثا ـ في الحكمة والعقائد والتصوف .

رابعا ـ في النحو والبلاغة .

خامسا ـ في الادب والشعر .

سادسا ـ في علم الفلك .

وقد اعتمد المحقق على نسخة خطية فريدة ، بخط مؤلفها ، موجودة في خزانة كتب المدرسة القادرية العامة الكائنة في جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ببغداد كتب عليها بخط متأخر العبارة « مؤلفه عبدالرحمن السويدي » وهي لا تؤثر في صحة نسبة المخطوطة الى مؤلفها السويدي .

تقع المخطوطة في (٥٦) ورقة ، مقياسها ٢٠×١٦ سم ، وفي كل صفحة ١١ سطرا ، مكتوبة بخط نسخ معتاد واضح ، وفيها شطب المؤلف على بعض العبارات مما رأى ان يغيره ، وكتب فوقها او بجوارها على الهامش عبارات اخرى بدلها وحرف بعض الاسماء احيانا ، ولغة الكتاب عربية بينة مسجوعة احيانا مع ابيات قليلة من نظم المؤلف ، ولا يخلو الكتاب من اخطاء املائية ونحوية لكنها قليلة واغلبها يتعلق بطريقة رسم الهمزة او الالف المقصورة .

والكتاب نموذج لفن كتابة « المذكرات الشخصية » التي يؤرخ اصحابها فيها لاحداث عصرهم من خلال تاريخهم لفترة معينة من فترات حياتهم ، لذا جاء الكتاب سردا متتابعا خاليا من العناوين والتقسيم الى فقرات مميزة ، وقد وصف فيه السويدي فترة مهمة من تاريخ العراق الحديث في اواخر القرن الثامن عشر للميلاد (الثاني عشر للهجرة) ، وهي فترة حافلة باحداث سريعة متتالية وبتغيرات جسيمة ، حيث وفد الطاعون على بغداد فالحلة فالبصرة ثم الزبير وغيرها من المدن وخلف وراءه المآسي والالام ، كما حاصرت جيوش كريم خان البصرة ودخلتها بعد دفاع ومقاومة ، وفي بغداد طالب عمر باشا الوالي المملوكي بنجدات عسكرية لمواجهة الموقف ، بينما اتهم باضاعته البصرة وايدت الدولة العثمانية هذه الدعوى لضرب المماليك والتخلص منهم ، ثم عزل عمر باشا وقتل ، ومن خلفه لم يستطع انقاذ الموقف في البصرة ، وفي الوقت نفسه نجحت المساعي لدى الباب العالي بالاعتماد على المماليك ، فعين عبدالله باشا واليا على بغداد ، وكان ضعيف الشخصية ، فاستغل الموقف احمد ذوي النفوذ في السراي وهو عجم محمد وجمع الى صفه المبعوث الرسمي للباب العالي في بغداد ، وعندما شك سكان بغداد بنوايا عجم تجمعوا ضده وقد تزعمهم مؤلف الكتاب ، ثم تزعم الموقف ابناء قبيلة العبيد العربية ، فلعبوا دورا كبيرا في قيادة البغداديين ودامت الفتنة اكثر من سنتين استعملت خلالها الاسلحة الثقيلة ، حتى اقر النظام احد القادة المماليك وهو حسن باشا ، لكن ضعفه ادى الى بروز عجم وتحالفه مع احد قطاع الطرق في شرق بغداد واعلن نفسه واليا وهدد بغداد ، وعجز الوالي حسن عن اتخاذ القرارات ادى الى فشل المحاولات المتكررة القضاء على هذا الخطر وعندما شعرت القيادات المحلية بخطورة الوضع قامت سنة ١٧٨٠م/١١٩٤هـ بحركة تمرد ضده ، انتهت بخروجه من بغداد وتعيين سليمان باشا واليا على بغداد وتوابعها .

والكتاب مزود بثبت لمراجع التحقيق وفهارس للاعلام ، والامكنة والبقاع ، والوظائف والمؤسسات الاجتماعية ، والاسلحة والادوات والملابس والامتعة والمحتويات .

اسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي

في سلسلة دراسات (١٦١) نشر كتاب « اسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي ١٤٥ ـ ٣٣٤هـ/٧٦٣ ـ ٩٤٥م » للدكتور حمدان عبدالمجيد الكبيسي ، تضمن بعد المقدمة اربعة ابواب وفي كل باب ثلاثة فصول :

الباب الاول : نشأة اسواق بغداد وتخطيطها

الفصل الاول : بناء المدينة المدورة .

ويتضمن الموضوعات التالية :

١ ـ اختيار موقع المدينة المدورة وتخطيطها .
٢ ـ تسمية المدينة المدورة .
٣ ـ موقع الاسواق في المدينة المدورة .

الفصل الثاني : انتقال الاسواق الى الكرخ

ويبحث الموضوعات التالية :

١ ـ دوافع نقل الاسواق من داخل المدينة المدورة .
٢ ـ مواقع اسواق الكرخ .

الفصل الثالث : اسواق الرصافة

ويبحث في :

١ ـ الدوافع السياسية والضرورات الاقتصادية .
٢ ـ مواقع اسواق الرصافة .

الباب الثاني : النشاط التجاري في اسواق بغداد

الفصل الاول : العوامل المؤثرة في النشاط التجاري باسواق بغداد .

ويبحث في :

١ ــ تطور المجتمع واجراءات المسؤولين .
٢ ــ الزيادة في رواتب الموظفين .
٣ ــ زيادة ارزاق الجند .
٤ ــ منح الخلفاء والوزراء .
٥ ــ الاستقرار السياسي في بغداد .
٦ ــ معوقات النشاط التجاري في اسواق بغداد .

الفصل الثاني : تخصص الاسواق وتعددها :

ويبحث في :

١ ــ تخصص اسواق الكرخ .
٢ ــ تخصص اسواق الرصافة .
٣ ــ الاسواق الجامعة .

الفصل الثالث : السلع الواردة على اسواق بغداد والصادرة عنها :

ويبحث في :

١ ــ الطرق المؤدية الى بغداد .
٢ ــ السلع الواردة على اسواق بغداد .
٣ ــ المعوقات التي قد تعرقل وصول السلع الى اسواق بغداد .
٤ ــ المواد الصادرة عن اسواق بغداد .

الباب الثالث : المعاملات المالية والتجارية

الفصل الاول : اسلوب التعامل في اسواق بغداد

ويبحث في :

١ ــ النظام النقدي .
٢ ــ استعمال الصك .
٣ ــ استخدام السفتجة .
٤ ــ دور الصراف في اسواق بغداد .

الفصل الثاني : الاسعار والاحتكار

ويبحث في :

١ ــ الزيادة المطردة في الاسعار .
٢ ــ الاحتكار .
٣ ــ موقف السلطة من زيادة الاسعار .

الفصل الثالث : الرقابة على الاسواق

ويبحث في :

١ ــ تطور وظيفة المحتسب .
٢ ــ تعيين عرفاء على الاسواق .

الباب الرابع : دور اهل السوق في الحياة العامة

الفصل الاول : العاملون في الاسواق

ويبحث في :

١ ــ اجناس العاملين في الاسواق .
٢ ــ دخل اهل اسواق بغداد .
٣ ــ مكانة اهل السوق الاجتماعية .

الفصل الثاني : اشتراك اهل السوق في الفتن والاضطرابات الداخلية

ويبحث في :

١ ــ موقف اهل السوق من النزاع بين الامين والمأمون .
٢ ــ موقف اهل السوق من الاضطرابات الداخلية .

الفصل الثالث : المنازعات بين اهل السوق

ويبحث في :

١ ــ تكتل اهل الحرف .
٢ ــ المنازعات بين الاصناف .

وللكتاب خاتمة وفهارس للاعلام والاماكن والمصادر العربية منها مخطوطة ومطبوعة ، والاجنبية والمحتويات ، مع خلاصة باللغة الانكليزية وعدة مخططات لبغداد في اول ادوارها العباسية . وقد صدر الكتاب عام ١٩٧٩م/١٣٩٩هـ في ٤٤٨ صفحة.

- ١ -

بغداد في ببليوغرافيا العمارة والفنون الاسلامية

بقـلم
ك. آ. سي. كرزويل
ترجمـــة
سلمان رفيق الراوي
مكتبة المتحف العراقي - بغداد

هـــذه قائمـــة ذكرها كرزويل في كتابـه« ببلوغرافية عن العمارة والفنون الاسلامية الـى سنة ١٩٦٠ » مرتبـــة هجائيا حسب المؤلف ، تضم الكتب والمقالات المتعلقـــة ببغـــداد ، قمت بترجمتها الى العربية لينتفع منهــا الباحثـــون والمتخصصون ورواد التراث ، كما واشكر الاستاذ عبدالحميد العلوجي رئيس تحرير مجلة المورد على توجيهاته الجادة ، راجياً المولى القدير ان يوفقنـــا جميعاً لخدمة التراث .

*

(A)

1. Anastase. Restes de monuments Abbasides á Baghdad. Al-Machriq, vol. 10, 1907 pp : 300-304 (in Arabic)

الأب انستاس ماري الكرملي . بقـــايا النصب العباسية في بغداد ، مجلة المشرق ١٩٠٧ ، المجلـد العاشـر ، ص‌ص : ٣٠٠ - ٣٠٤ (بالعربية) .

2. Anonymous. Wartime restoration of two famous building In Iraq - The Abbasid palace, Baghdad and the Arch of ctesiphon. The illustrated London news, 15th. April, 1944, pp : 444-45 with 7 illus.

مجهول المؤلف . إحياء بنايتين مشهورتين في العراق من زمن الحرب هو القصر العباسـي وطاق كسرى . مجلة اخبار لندن المصـورة ، ١٥ نيسان ١٩٤٤ ، ص‌ص : ٤٤٤ - ٤٤٥ ، مع سبعة صور .

3. Asad Talas. L'Enseignement chez les Arabes. La Madrasa Nizamiyya et histoire. Paris, Geuthner, 1939. pp : XII (12) and 125, with 4 plates. see pp : 26-33, 53-54 and is aplan of the Madrasa Mirjaniya.

اسعد طلس . مدارس العرب ؛ المدرسة النظاميـة وتاريخها . باريس ، گويتنر ، ١٩٣٩ ، ١٢ ص و ١٢٥ مع اربع لوحات ثم ملاحظـــة الصفحات ٢٦ - ٣٣ ؛ ٥٣ - ٥٥ واللوحات

٢ ـ ٤ (غير مرقمة) . اللوحة الثالثة هو تخطيط للمدرسة المرجانية .

(B)

4. Borghese, principe scipione. In Asia Siria - Euphrate - Babylonia. Con 235 illustrazioni da fotografie Large. Bergamo, 1904. Baghdad chapt. 10, 11.

بورغيس ، برنسيب سيبيون . في آسيا ـ سوريا ـ الفرات ـ بابل مع ٢٣٥ صورة برگاموا ، ١٩٠٤ . يضم الفصل العاشر والحادي عشر عن بغداد .

5. Bowen, Harold. The Nizamiya Madrasa and Baghdad Topography. Jour. Roy. Asiatic. socy., 1928, pp : 609-614, with a map. Adiscussion of the divergent views of Massignon and Levy.

بَوِنْ ، هَرولد . المدرسة النظامية وطبوغرافية بغداد . مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ، ١٩٢٨ ص ص : ٦٠٩ ـ ٦١٤ مع خارطة وتعليق على الصور لماسنون وليفي .

6. Bukhsh, S. Khuda. Baghdad. Journal of Indian History, vol. 4 No. 2, pp : 44-70, see pp : 45-47 and 52 ff.

بخش ، إس. خدا . بغداد . مجلة تاريخ الهند ، مجلد (٤) عدد ٢ ، ص ص ٤٤ ـ ٧٠ . انظر الصفحات ٤٥ ـ ٤٧ و ٥٢ .

(C)

7. Coke, Richard. Baghdad, the city of peace. London Thornton Butterworth, 1927. see pp : 29-43. pp : 343, 12 plates and a map.

كوك ، ريچارد . بغداد ، مدينة السلام . لندن ؛ ثورنتون بترورث ، ١٩٢٧ . ص ٣٤٣ مع (١٢) لوحة وخارطة ، انظر صفحة ٢٩ ـ ٤٣ . نقله الى العربية وقدم له وعلق عليه مصطفى جواد وفؤاد جميل يقع في جزاين طبع في بغداد ، ١٩٦٧ .

8. Creswell, K. A. C. The great mosque of Al-Mansur at Baghdad. Iraq, vol. 1, 1934. pp. : 105-111 with 2 figs. Aproposed reconstruction different from that of Herzfeld.

كرزويل ، ك. أ. سي . جامع المنصور الكبير في بغداد . مجلة العراق ، مجلد (١) ص ص : ١٠٥ ـ ١١١ ، ١٩٣٤ ؛ مع شكلين تختلف عما ذكره هيرتسفيلد .

(H)

9. Huart, Clement. Histoire de Bagdad dans les temps modernes. pp. 14 and 231 with 2 plates. Paris, Leroux, 1901. "Topographie de la ville de Bagdad" pp: VI - XIV.

هوار ، كليمان . تاريخ بغداد . ص ١٤ ، ٢٢١ مع لوحتين . باريس ؛ ليروكس ، ١٩٠١ ، طبوغرافية بغداد ص ٦ ـ ١٤ . عرّبه وعلّق عليه ناجي معروف . بغداد ، ١٩٦١ .

10. Iraq. Directorate of Antiquities. Remains of the Abbasid palace in Baghdad citadel. Baghdad, Government Press, 1935. illustrated with 7 figures and 47 plates. pp : 29 aniv.

العراق . مديرية الآثار العامة . بقايا القصر العباسي في قلعة بغداد . بغداد ، مطبعة الحكومة ، ١٩٣٥ ، مصور مع (٧) اشكال و (٤٧) لوحة الصفحات ٢٩ ، ٣ .

11. ———— . Dalil Mathaf al-Athar - Arabiya fi Khan Marjan bi Baghdad. (Guide to the Arab Museum at Khan Marjan at Baghdad) Baghdad, Government Press, 1938. pp : III and 47 with 47 plates see pp : 1-16 and plates 1-13 for the architecture of Khan Marjan and plates 14-20 for stucco dadoes, Mihrabs, etc. transported to the museum.

العراق . مديرية الآثار العامة . دليل متحف الآثار العربية في خان مرجان ببغداد . بغداد ، مطبعة الحكومة ، ١٩٣٨ ، ص ٣ ، ٤٧ مع ٣٨ لوحة انظر الصفحات (١ ـ ١٦) واللوحات (١ ـ ١٣) لعمارة خان مرجان واللوحات (١٤ ـ ٢٠) والمحراب الذي نقل الى المتحف العراقي .

12. Ishaq, Raphael Babu. Mahallat ash-shammasiya bi Baghdad fi Ahd al Khilafa al-Abbasiya (The Shamasiya quarter in Baghdad in the time of the Abbasid Khalifate) Sumer, 1953 vol. 9, No. 1, pp : 132-154.

أسحق ، رفائيل بابو . محلة الشماسية ببغداد في عهد الخلافة العباسية ، سومر ، مجلد ٩ ، الجزء الأول ، ١٩٥٣ ص‌ص ١٣٢ — ١٥٤ .

(K)

13. Kühnel, Ernst. Drachenportale. Zeitsch. für Kunstwissenschaft, vol. IV, 1950. Berlin, pp : 1-18, with 21 illus. Includes the Talisman Gate of Baghdad.

كينل ، إرنست . باب الطلسم . مجلة علوم الفن . برلين ، مجلد ٤ ، ١٩٥٠ ص‌ص ١ — ١٨ مع (٢١) صورة يتضمن طلسم باب بغداد .

14. Kurkis, Awwad-Al-Madrasa al-Mustansiriya bi Baghdad. (The Mustansiriya Madrasa at Baghdad) Sumer, vol. 1, No. 1, 1945 pp : 76-130, with 12 plates and 3 figs. with a summary in English pp : 12-25.

كوركيس عواد . المدرسة المستنصرية ببغداد . سومر ، مجلد ١ ، الجزء الاول ، ١٩٤٥ ، ص‌ص ٧٦ — ١٣٠ ، مع (١٢) لوحة وثلاثة اشكال مع موجز بالانكليزية ص‌ص ١٢ — ٢٥ .

15. ———— . al-Madrasa al-Mirjaniya. (The Mirijaniya Madrasa), Sumer, vol. 2, No. 1, 1946. pp : 125-126.

كوركيس عواد . المدرسة المرجانية ، سومر ، مجلد (٢) ، الجزء الاول ، ١٩٤٦ ص‌ص ١٢٥ — ١٢٦ .

16. ———— . ad-Dar al-Muizziya min Ashhur mabani Baghdad fi'l qarn ar-Ra'bili'l-Hijra. (The Muizziya palace : one of the most famous buildings of Baghdad in the fourth century of the Hijra) Sumer, vol. 10, No. 2, 1954 pp : 197-217.

كوركيس عواد . الدار المعزية من اشهر مباني بغداد في القرن الرابع الهجري . سومر ، مجلد (١٠) الجزء الثاني ص‌ص ١٩٧ — ٢١٧ .

(L)

17. Le Strange, Guy. Baghdad during the Abbasid Caliphate. Atopographical summary, with anotice of the contemporary Arabic and persian authorities. Journ. Roy. Asiatic society, 1899. pp : 847-893, with 2 plates. Review p. schwarz, O.L.Z. vil. 28, cols : 931-2.

لسترانج ، غي . بغداد في عهد الخلافة العباسية ، موجز طوبغرافي مع ملاحظات وشروح بالعربية والفارسية . مجلة الجمعية الاسيوية الملكية ، ١٨٩٩ ص‌ص ٨٤٧ — ٨٩٣ مع لوحتين . وقد عرف بهذا الكتاب شفارتس في مجلة الأدب الشرقي التي تصدر في المانيا ، مجلد ٢٨ ، العمود ٩٣١ — ٩٣٢ .
« ترجمه عن الانكليزية وعلق عليه بشير فرنسيس في جزاين . بغداد ، ١٩٣٦ » .

18. ———— . Baghdad during the Abassid Caliphate, from contemporary Arabic and persian sources. with 8 plans., oxford; clarendon press 1900. pp : 31 and 381. Review by G. Kampffmeyer, O.L.Z., vol. 6, pp : 418-419.

لسترانج ، غي . بغداد في عهد الخلافة العباسية ، شروح من المصادر العربية والفارسية . اكسفورد ، مطبعة ملارندون ، ١٩٠٠ ، مع (٨) مخططات ص ٣١ ، ٣٨١ يذكر فيها بغداد كما وعرفه كمبفماير في مجلة الأدب الشرقي التي تصدر في المانيا مجلد ٦ ص‌ص ٤١٨ — ٤١٩ .
« ترجمه عن الانكليزية وعلق عليه بشير فرنسيس في جزاين . ط ١ ، بغداد ، ١٩٣٦ » .

19. Levy, Reuben. The Nizamiya Madrasa at Baghdad. Journ. Roy. Asiatic socy., 1928, pp : 265-270.

ليفي ، روبن . المدرسة النظامية ببغداد ، مجلة الجمعية الاسيوية الملكية ، ١٩٢٨ ص‌ص ٢٦٥ — ٢٧٠ .

20. ———— .A Baghdad chronicle. Cambridge, univ. press, 1929. pp : XII, and 279, with 4 plates see 1. The building of the city pp : 11-25

ليفي ، روبن . تاريخ بغداد . كمبرج ، مطبعة الجامعة ، ١٩٢٩ ، ص ١٢ ، ٢٧٩ مع اربع

لوحات لاحظ الملحق الاول في بناء مدينة بغداد ص‌ص ١١ ــ ٢٥ . يتضمن الحياة الاجتماعية والسياسية في عهد الخلافة العباسية في بغداد .

21. Lloyd, Seton. Discovery in the Madrasat al Mirjania (Mirjan Mosque), Sumer, vol. 2, No. 1, 1946 pp : 10-12. Discovery of the fine carved brick decoration of the interior when acoating of plaster was stripped off.

لويد ، ستن . اكتشافات في المدرسة المرجانية (جامع مرجان) سومر المجلد الثاني ، الجزء الاول ، ١٩٤٦ ص ١٠ ــ ١٢ .

(M)

22. Massignon, Louis. Les saints musulmans enterres a Bagdad. Revue de L'Hi-stoire des Religions XXVIII, 1908, pp : 329 - 338.

ماسينون ، لويس . دخول رجال الدين المسلمون الى بغداد . مجلة اخبار تاريخ الديانات ، مجلد ٢٨ ، ١٩٠٨ ص‌ص ٣٢٩ ــ ٣٣٨ .

23. ———— . Les Medresehs de Bagdad. Bulletin d' L'Institut francais d'Archeologie orientale, 1909 VII, pp: 77-86, with 2 plates.

ماسينون ، لويس . مدارس بغداد . مجلة المعهد الآثاري الشرقي الفرنسي مجلد ٧ ، ص‌ص ٧٧ ــ ٨٦ مع لوحتين ، ١٩٠٩ .

24. ———— . Bagdad et sa topographie au moyen age : deux sources nouvelles. Comptes rendus de l'Academie des Inscriptions et Belles-Lettres, 1911. pp : 18 - 24.

ماسينون ، لويس . طبوغرافية بغداد في العصر الوسيط . مجلة اكاديمية كتابات الفنون الجميلة ، ص‌ص ١٨ ــ ٢٤ ، ١٩١١ .

25. Mustafá Jawwad. al-Qasr al-Abbasi fi'l Qalah bi Baghdad wa-huwa Dár al-Musanná al-Atique min Athar an Nasirlidin Allah al-Abbasi, (The Abbasid palace in the citadel at Baghdad which is the ancient Dar al-Musanná, one of the monuments of the Abbasid an Nasirlidin Allah), Sumer, vol. 1, No. 2, 1945, pp : 61-104, with 8 plates and 3 figs.

مصطفى جواد . القصر العباسي في القلعة ببغداد وهو دار المسناة العتيقة من آثار الناصر لدين الله العباسي . سومر ، مجلد ١ الجزء الثاني ، ١٩٤٥ ص‌ص ٦١ ــ ١٠٤ ، مصور مع ٨ لوحات وثلاثة اشكال .

26. ———— . Imárát al-Qarn as-Sadis ad-Dakhma fi Janib Sharqi min Baghdad Kharij Dar al-Khilafa (The great buildings of the sixth century on the eastern side of Baghdad outside the Dár al-Khilafa) Sumer, vol. 2, No. 1, 1946, pp : 55-76, with 2 illus. and a map.

مصطفى جواد . عمارات القرن السادس الضخمة في الجانب الشرقي من بغداد ، خارج دار الخلافة ، سومر ، مجلد ٢ ، الجزء الاول ، ١٩٤٦ ص‌ص ٥٥ ــ ٧٦ مع لوحتين وخارطة .

27. ———— . Imárát al Qarn as-Sadis ad-Dakhma fi Dár al-Khilafa al-Abbasiya. (The glorious buildings of the sixth century in the Abbasid Dár al-Khilafa) Sumer, vol. 2, No. 2, 1946, pp: 197-213, 1 fig.

مصطفى جواد . عمارات القرن السادس الضخمة في دار الخلافة العباسية . سومر ، مجلد ٢ ، الجزء الثاني ، ١٩٤٦ ، ص‌ص ١٩٧ ــ ٢١٣ ، مع شكل واحد .

28. ———— . al'Imárát al-Islamiya altiqiya al qáima fi Baghdad (The old Islamic buildings still existing in Baghdad) Sumer, vol. 3, No. 1, 1947, pp : 38-59, with 8 plates.

مصطفى جواد . العمارات الاسلامية العتيقة القائمة في بغداد . سومر ، مجلد ٣ ، الجزء الاول ، ١٩٤٧ ، ص‌ص ٣٨ ــ ٥٩ ، مصور مع ٨ لوحات .

29. ———— . ar-Rubut al-Baghdadiya wa atharuhá fi'th-thaqafat al-Islamiya. (The Ribáts of Baghdad and their influence on Islamic Learning) Sumer, vol. 10, No. 2, 1954. pp : 218-249.

مصطفى جواد . الربط البغدادية وآثرها في الثقافة الاسلامية ، مجلة سومر ، مجلد ١٠ ، الجزء الثاني ، ص‌ص ٢١٨ ــ ٢٤٩ ، ١٩٥٤ .

30. ———— . al-Madrasa al-Mustansiriya. (The Mustansiriya Madrasa) Sumer, vol. 14, 1958, pp : 27-75.

مصطفى جواد . المدرسة المستنصرية . سومر ، مجلد ١٤ ، ١٩٥٨ ص‌ص ٢٧ ـ ٧٥ .

(N)

31. Naji Maruf. al-Madrasa al-Mustansirya. Baghdad, Matbaát Dankur al-Haditha, 1935, pp. 88 and vi, with 18 illus.

ناجي معروف . المدرسة المستنصرية . بغداد ، مطبعة دنكور الحديثة ، ١٩٣٥ ، ٨٨ ص مع ١٨ صورة .

32. Nasir An-Naqshabandi - al-Madrasa al-Mirijania (The Mirijanyia Madrasa) Sumer, vol. 2, No. 1, 1946. pp : 33-54, with 12 plates.

ناصر النقشبندي . المدرسة المرجانية . سومر ، مجلد ٢ ، الجزء الاول ص‌ص ٣٣ ـ ٥٤ ، ١٩٤٦ مع ١٢ لوحة .

(P)

33. Pognon, H. Note. Journal Asiatique, serie, XIX, pp : 153-155; pp : 336-342. Notes, on Uigour, syrian and Arabic in scriptions found on the tomb of a saint in an ancient Jacobite convent, which convent he places in the XIIth. century.

بوينون ، هـ. ملاحظة ، المجلة الاسيوية ، مجلد ١٩ ، ص‌ص ١٥٣ ـ ١٥٥ ؛ ٣٣٦ ـ ٣٤٢ ، ملاحظات عن اويغور ، كتابات بالسريانية والعربية وجدت على ضريح القديس يعقوب في القرن الثاني عشر .

(S)

34. Salmon, Georges. L'Introduction to pographique a' L'histoire de Bagdad d' Aboú Bakr Ahmad Ibn Thabit Al-Khatib al-Baghdadi (392-463H.) 1002-1771 J.C.) Paris, Bouillon, 1904. pp : IV, 207 and 93 (Arabic text) Bibliotheque de L'Ecole des Hautes Etudes. Sciences hist. et phil. fasc. 148. Review : M. J. de Geoje, Journ. Asiatique serie III, pp: 158-69.

سالمون ، جورج . مقدمة طبوغرافيـة عن تاريخ بغداد لابي بكر احمد بن ثابت الخطيب البغدادي (٣٩٢ ـ ٤٦٣هـ/١٠٠٢ ـ ١٠٧١) باريس ، بويلون ، ١٩٠٤ . ص ٤ ، ٢١٧ ، (٩٣) صفحة نص بالعربية وهو من بحوث هوتس ، تاريخ العلوم والفلسفة سلسلة ١٤٨ وقد عرّفه م. ج. دي غويه في المجلة الاسيوية مجلد ٣ ، سلسلة ١٠ ، ص‌ص ١٥٨ ـ ١٦٩ . وهو موجود في مكتبة المتحف العراقي ـ القسم العربي والذي يسمى بالمقدمة لسالمون نص بالفرنسية والعربية تحت رقم (١٩٨) .

35. Shukri, Al-Alusi. La "Madrasah Mostansiriah á Bagdad sous les Califes. Al-Machriq ve annee, 1902, pp : 961-966 (in Arabic).

شكري الالوسي . المدرسة المستنصرية من كتاب مساجد بغداد ومدارسها . مجلة المشرق ، ١٩٠٢ ص‌ص ٩٦١ ـ ٩٦٦ .

(V)

36. Viollet, H. L'Architecture muslmane du XIII C Siecle en Irak. La Madrasa Mustansiriyah á Baghdad. Revue Archealogique, 2 me serie, XXI, pp : 1-18, with 20 illus.

فايلت ، هـ. العمارة الاسلامية في القرن الثالث عشر في العراق . المدرسة المستنصرية في بغداد . مجلة الاخبار الاثرية ، مجلد ٢١ ، ص‌ص ١ ـ ١٨ مع ٢٠ صورة ، ١٩١٣ .

The Reference :   **المصدر**

Creswell, K.A.C. A Bibliography of the Architecture, Arts and crafts of Islam to 1st. Jan., 1960. Cairo, The American univ. at Cairo press, 1961. pp : 202-204.

كرزويل ، ك. ا. سي . بيلوغرافية عن العمارة والفنون الاسلامية الى ١ يناير ١٩٦٠ ، القاهرة ؛ مطبعة الجامعة الامريكية في القاهرة ١٩٦١ . وقد وزع في لندن ، مطبعة جامعة اكسفورد ، ١٩٦١ . ص‌ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤ .

بغداد في رحلات الأجانب

اعـداد

سلمان وفيق الراوي

وهذه قائمة باسماء كتب الرحلات الموجودة في مكتبة المتحف العراقي والتي تبحث عن بغداد ، قمت بجمعها وترجمتها لتكون في خدمة الباحثين ، وتحتوي هذه القائمة على (٧٦) عنواناً . مرتبـة هجائيا حسب المؤلف ثم يتبعها العنـوان وبيانات النشر وبيانات التوريق .

★ ★

(A)

1. Alexander, Constance M. Baghdad in bygone days; from the Journal and correspondance of Claudius Rich, traveller, artist, linguist, antiquary an British resident at Baghdad, 1808-1821. London, John Murray, 1928. XVI+336 p., illus., figs., map.

الكسندر ، كونستانس إم . بغداد في الايام الماضية من خلال مراسلات كلوديوس ريچ ، الرحالة، الفنان ، اللغوي ، الآثاري والمقيم ببغـداد ١٨٠٨ ــ ١٨٢١ . طبـع في لنـدن ، جون مـاري ، ١٩٢٨ ، ٣٣٦ ص مزود بصـور واشكال وخارطة .

2. D'Anville, M. L'Euphrate et le Tigre. Paris, Impremire Royale, 1779. 147 p., illus., fold maps.

دي آنفيل ، إم. دجلة والفرات . باريس ، المطبعة الملكية ، ١٧٧٩ ، ١٤٧ ص ، مصور مـع خرائط مطوية . يضم فصلاً عن بغـداد في ص ١٢١ .

3. Auble, Emile. Bagdad, son schemin der fer importance, son avenir. Paris, 1917. 168 p. illus., amap.

اوبل ، اميل . بغداد واهميتها . طبع في باريس ، ١٩١٧ ، يقـع في ١٦٨ ص ، يتضمن عن بغداد والمواقع الاثرية في العراق ، فيه لوحات تمثل المواقع الأثرية .

(B)

4. Bagdad. Leiden, E. J. Brill, 1962. 465 p., illus., 2 fold maps. valume special : publié A' L'occasion du Mille deux centiéme anniversaire de la foundation.

بغداد . طبع ليدن ، ١٩٦٢ ، عدد خاص يضـم تاريخ ومدارس وفنون بغداد مزود بزخارف معمارية يضم اربعة فصول . صدر بمناسبة مرور الف عام على تأسيس مدينة بغداد .

5. Baghdad; Histoire, la province, Les Tribusnomades. Paris N. d. 358 p., illus.

بغداد ، تاريخها . مجهول المؤلف وسنة الطبع . طبع باريس ، ٣٥٨ ص .

6. Bell, Gertrude Margaret Lowthian. Amurath to Amurath. London, William Heinemann, 1911. 370 p., illus.,

بل ، كرترود مارگريت لوثيـان . عمـورات الى عمورات . طبع لندن ، ١٩١١ ، ٣٧٠ ص . مزود بصور . يحتوي على ٩ فصـول وان الفصل السادس خاص ببغداد .

7. ———— . The letters of Gertrude Bell; selected and ed. by Lady Bell. New York, Goni and Liveright, 1927. 2 vols.; plates, 2 maps.

بل ، ترترود مارگريت لوثيان . رسائل المس بل طبع نيويورك ، ١٩٢٧ ؛ مجلدين ، مصور فيه لوحات مع خريطتين .

8. Binder, Henry. Au Kurdistan; en Mesopotamie et en perse. Paris, Maison quantin, 1887. 453 p., illus. (200), 4 maps in cal.

بايندر ، هنري . كردستان وبلاد ما وراء النهرين وبلاد فارس . باريس : مايسون ، ١٨٨٧ ، ٤٥٣ ص مع (٢٠٠) صورة واربعة خرائط . يتضمن (١٥) فصلاً ويذكر بغداد في الفصول: التاسع ، العاشر ، الحادي عشر .

9. Buckingham. J. S. Travels in Mesopotamia; including a Journey from Aleppo to Baghdad a cross the Euphrates to orfah (Theur of chaldees) through the plains of the Turcomans ... London, Henry Colburn, 1827. 2 vols.

بكنهام ، ج. اس . رحلات بلاد ما وراء النهرين يتضمن الرحلة من حلب الى بغداد عبر الفرات الى اور ثم الى سهول التركمان . طبع لندن ١٨٢٧ . يقع في مجلدين .

ترجمة سليم طه التكريتي تحت عنوان رحلاتي الى العراق سنة ١٨١٦ طبع بغداد ، ١٩٦٧ - ١٩٦٩ في جزاين ومزود بصور

10. Budge, E. A. Wallis. By Nile and Tigris; A Narrative of Journey in Egypt and Mesopotamia behalf of the British Museum between the years, 1886 and 1913. 2 vols.

بج ، اي.ا. واليس . عند النيل ودجلة ، رحلات روائية في مصر وبلاد ماوراء النهرين لمصلحة المتحف البريطاني بين السنوات١٨٨٦-١٩١٣ يقع في مجلدين . يذكر بغداد ص ١٢٢،١٨٥ و٣١١ من المجلد الاول ، وص ١٤٢،٥٠ من المجلد الثاني يقع في كل مجلد (٤٥٦) ص مزود بصور .

ترجمه وعلق عليه فؤاد جميل طبع بغداد ، دار الزمان ، ١٩٦٦ في جزاين تحت عنوان رحلات الى العراق .

11. Burckhardt, John Lewis. Travels in Assyria; Media and persia; Including ajourney from Baghdad by mount Zagras. London, 1830. 2 vols., illus.

بوركهارت ، جون لويس . رحلات في بلاد اشور وميديا وبلاد الفرس . يتضمن رحلة من بغداد عند جبال زاكروس طبع لندن ، ١٨٣٠ يقع في مجلدين ، مصور .

(C)

12. Candler, Edmund. The Long road to Baghdad (Eye-witness) in Mesopotamia. London, Cassel & Co., 1919. 2 vols., illus., plates fold maps.

كنـدلر ، ادموند . الطريق الطويل الى بغداد . (شاهد عيان) في بلاد ما وراء النهرين . طبع لندن ، كيسل ، ١٩١٩ ، يقع في مجلدين ، مزود بصور ولوحات وخرائط مطوية .

13. Carnegy, Alexander., My log' persian Gulf & turkish Arabia. Bombay, Education, society press, 1878. 48 p.

كارنيجي ، الكسندر . الخليج العربي وتركيا وبلاد العرب . طبع ومباي : مطبعة جمعية التربية ، ١٨٧٨ ص ٤٨ . يصف بغداد ، والعراق .

14. Casey, Robert Joseph. Baghdad and points east. New York, J. H. sears & Co., 1931. 300 p.

كاسي ، روبرت جوزيف . بغداد ومفتاح الشرق . طبع نيويورك ، سيرز ١٩٣١ : ٣٠٠ ص . يتضمن (٣٤) فصلاً تحتل بغداد الفصول (١٣ ، ٣١ ، ٣٤) .

15. Chapple, Joe Mitchell. To Baghdad and back. London, The century Co. 1928. 298 p.

چبل ، جوي ميتشل . الى بغداد واليها . طبع لندن ، ١٩٢٨ ، ٢٩٨ ص يتضمن (٢٤) فصلاً بصف الحياة في بغداد ، مزود بصور وفيه قائمة بالصور التي تمثل المناطق التي مر بها .

16. Chiha, Habib K. La province de Bagdad, son pesse, son preast, son avenir, contenant aussi des notes ur le chemin de fer de Bagdad et une etude indite sur tribus namodes de la Mesopotaméa. Le Caire, Imprimeri El-Maaref, 1908. 358 p.

شيها حبيب ، لد . لواء بغداد ... طبع القاهرة ، ١٩٠٨ يقع في ٢٥٨ ص .

17- Coke, Richard. Baghdad; the city of peace. London, T. Butter worth, 1927. 343 p., illus; a map.

كوك ، ريچارد . بغداد مدينة السلام
طبع لندن ، ١٩٢٧ ، ٣٤٣ ص مزود بصور وخارطة نقله الى العربية وقدم له وعلق عليه مصطفى جواد و فؤاد جميل في جزأين ، بغداد ، ١٩٦٧ .

18. Cooke, Nat and Alexander R. Cury. Baghdad how to see it. Cairo, world wide, N. d. 24 p., illus., 2 fold maps.

كوك ، نات والكسندر ر. كوري . بغداد كما تراها. طبع القاهرة مجهول سنة الطبع يقع في ٢٢٤ ص ، مزود بصور مع خرائط مطوية . يتضمن لمحة تاريخية مفصلة عن بلاد ماوراء النهرين . بغداد ومواقعها الاثرية مزود بصور ملونة .

19. Cunliffe-Owen, Betty. Thro the gates of Memary (from the Bosphorus to Baghdad) London, Hutchinson, 1924. 267 p.

كنليف اويسن ، بتي . من خلال بوابات الذاكرة (من البسفور الى بغداد) طبع لندن ، ١٩٢٤ يقع في قسمين القسم الاول عن تركيا والقسم الثاني عن بلاد ما وراء النهرين ويضم (٤٩) فصلاً . يصف بغداد من الفصول ١٣ ـ ٢٠ مزود بصور .

(D)

20. De Gaury, Gerald. Arabian Journey and other desert travels. London, George G. Harrap, 1950. 190 p., illus, 31 pl., 3 maps.

دي غوري ، جيرالد . رحلة عربية ورحلات صحراوية اخرى . طبع لندن ، ١٩٥٠ ، ١٩٠ ص مزود بصور مع ٣١ لوحة وثلاثة خرائط مع النص يتكون من اربعة اقسام والقسم الثالث يبحث عن العراق وبغداد .

21. Denis de Rivoyre, Barthelemy Louis. Les rais Arabes et leur pays; Bagdad et les villes ignorces d'I Euphrate. Paris, Librairie plon, 1884. 318 p., illus., plates.

دينس دي ريفويه ، بارتلمي لويس . بغداد والفرات طبع باريس ، ١٨٨٤ ٢١٨ ص ، مصور ، لوحات .

22. Dickson, Mora. Baghdad and beyond. London, Dennis Dobson, 1961. 191 p., illus.

دكسون ، مورا . بغداد وما وراءها . طبع لندن ، ١٩٦١ ، ١٩١ ص مصور .

23. Donbhoe, Martin Henry. With the persian expedition. London, Edward Arnold, 1919. 276 p., illus.

دنهو ، مارتن هنري . مع البعثة الفارسية . طبع لندن . ادورد أرنولد ، ١٩١٩ . ٢٧٦ ص مزود بصور . يصف بغداد ودجلة والكوت .

(E)

24. Ellis, Tristram James. On a raft and through the desert; the narrative of an artist's Journey through northern syria Kurdistan, by the Tigris to Mosul and Baghdad and of areturn Journey ... London, Field & Turb, 1881. 122+128 p.

الس ، ترتسترام جيمس . طوف خلال الصحراء؛ رحلة روائية لفنان شمال سوريا وكردستان عند دجلة الى الموصل وبغداد ، طبع لندن ، سنة ١٨٨١ ، ١٢٢ ــ ١٢٨ ص .

25. Evers, Samuel. A Journal kept on a Journey from Bassora to Baghdad .... In the year 1779. Horsham, Arthur Ree, 1784.

اينفرز ، صموئيل . رحلة من البصرة الى بغداد سنة ١٧٧٩ طبع هورشام ١٧٨٤ .

(F)

26. Fogg. William Perry. Arabistan or the land of the Arabian nights, being travels through Egypt, Arabia and persia-Baghdad. London, Marston Law, 1875. 350 p.

فوگ ، وليم پيري . عربستان او ليالي العرب ، رحلة الى مصر وبلاد العرب وايران وبغداد طبع لندن ، ١٨٧٥ ، ٣٥٠ ص .
يقع في ٢٨ فصلاً وقد ذكر بغداد في الفصول ١٨ . ١٩ ، ٢٧ ، ٢٨) مزود بصور كثيرة .

27. Fraser, J. Baillie. Travels in Koordistan, Mesopotamia, including on account of parts of those countries hither to universited by Europeans with sketches of the character and manners of the Koordish and Arab tribes. London, Richard Bentley, 1840. 2 vols. illus..

فريزر ، ج بايلي . رحلات في بلاد كردستان وما وراء النهرين يتضمن بعض المخططات عن القبائل العربية ، طبع لندن ، ١٨٢٠ يقع في مجلدين : يضم المجلد الاول (١٥) رسالة ويضم بغداد في الرسالة الثامنة والتاسعة ، في حين يتضمن المجلد الثاني ١٩ رسالة يذكر بغداد في الرسالة الاولى والسابعة .

نقلها الى العربية جعفر خياط (القسم العراقي) ويعرف برحلة فريزر يصف العراق في الثلث الاول من القرن التاسع عشر .

(G)

28. Grant, Christina Phelps. The syrian desert, Caravans, travel and exploration. London, A. & C. Black, 1937. 410 p., illus., 16 pl., 4 maps.

گرنت ، كريستنا فيلبس . الصحراء السورية ، طبع لندن ، ١٩٣٧ ص ٤١٠ مزود بصور و١٦ لوحة واربعة خرائط . يتضمن جغرافية سوريا ، بلاد ماوراء النهرين ، دمشق ، بغداد .

29. Goold-Adams. Richard. Middle East Journey. London. John Murray, 1947. 1st. ed. 194 p.

گولد آدمز ، ريچارد . رحلة الشرق الاوسط ، طبع لندن ، ١٩٤٧ الطبعة الاولى . ١٩٤ ص يقع في تسع فصول يضم الفصل الثالث ص ٣٨ عن بغداد .

30- Groves. A. N. Journal of Mr. Anthony N. Groves missionary during a Journey from London to Baghdad through Russia, Georgia and persia also a Journal of some months residence at Baghdad. London, James Nisbet, 1831, 215 p.

گروفز ، انثوني . ن . رحلة گروفز خلال لندن بغداد مارا روسيا ، جورجيا وايران وكذلك يتضمن تقرير عن بقائه بعض الاشهر في بغداد طبع لندن سنة ١٨٣١ .

(H)

31. Hamid, Nawab Yar Gang. A trip to Baghdad. Bombay, The Bombay Gazette press, 1908. 61 p., illus. with an appendix at the end about of the Arab horse pp: 43 - 61.

حامد ، نواب يارگنك . رحلة الى بغداد . طبع بومباي ، مطبعة جريدة بومباي ، ١٩٠٨ ٦١ ص مصور يضم ملحق في اخر الكتاب عن الحصان العربي ص ٤٣ — ٦١ .

32- Harris, Walter Burton. From Batum to Baghdad via Tiflis Tabriz and persia, Kurdistan. Edinbourgh: W. Blackwood & sons, 1896. 335 p.

هريز ، ولتربرتون . من باتوم الى بغداد . طبع ادنبره ، ١٨٩٦ ص ٣٣٥ . يتضمن رحلة من طنجة ـ تبريز ـ ايران ـ المنطقة الكردية كرمنشاه ـ بغداد وقد وصفها سنة ١٨٩٦ مزود بصور وخرائط .

33. Hedin, Sven Anders. Bagdad, Babylon, Ninive. Leipzig. F. A. Brockhans, 1918. 410 p.

هيدن ، سفن اندرز . بغداد ، بابل ، نينوى . بالالمانية طبع ليبزج يقع في ٢٦ فصلا يصف بغداد في الفصول : ٩ ، ١٠ ، ١١ ، طبع سنة ١٩١٨ وصفحاته ٤١٠ صفحة مزود بصور .

34. Herchenbach. Bagdad; La reine du desert. Tours, 1884. 141 p.

هرشن باخ . بغداد . طبع طورس ، ١٨٨٤ ص ١٤١ . مقدمة من قبل سيمون .

35. Herzfeld, Ernst & Friedrich Sarre. Archaeologische reise im Euphrat und Tigris Gebiet mit einem beitrag arabische Inschriften von Max von Berchem. Berlin. Dietrich Reimen. 1911. 4 vols. illus., plates.

هرتسفيلد ، ارنست وفريدرج سارة . الرحلة الآثارية الى منطقة دجلة والفرات . مع بعض الخطوط العربية من قبل فون ماكس برشم طبع برلين ١٩١١ ، يقع في اربع مجلدات يتضمن المجلد الاول : الرحلة الاثارية الى منطقة دجلة والفرات بالوصف الدقيق

المعماري بينما يتضمن المجلد الثاني عن الفنون الاسلامية مزود بخرائط والمجلد الثالث يضم ١٢٠ لوحة مستقل واما المجلد الرابع يتضمن صور ولوحات ٢٢ صورة و ٢٨ لوحة مع ٥٩ صفحة يعتبر هذا الكتاب من اشهر ماكتب عن المواقع الاثرية في منطقة دجلة ، والفرات وهو المرجع الدقيق في المعلومات عن المناطق الاثرية وهو بالالمانية .

36. Helfritz, Hans. Unter der sonne des orients. Berlin, die Buchgemeinde, N. d.

هليفرتس ، هنس . تحت شمس الشرق . طبع برلين ، مجهول السنة وهو بالالمانية . يصف بغداد واسواقها في ص ١٢٠ وطرق دجلة ، والفرات مزود بصور ولوحات رائعة .

37. Heude, William. A voyage up the [... ... gulf] and a Journey overland from India to England in 1817. London, Longmans, 1819. 252 p., illus.

هويدا ، وليم . رحلة الى اعالي الخليج العربي من الهنـد الى انكلترا في سنة ١٨١٧ طبع لندن ، ١٨١٩ ص ٢٥٢ ص . مزود بصور

38. Hilmi, M. Kanuni Suleyman in Bagdat seferi; Yzam, Istanbul, Askeri matabaá, 1932. 38 p., illus., maps.

حلمي ، م . سليمان القانوني في بغداد ؛ طبع استانبول سنة ١٩٣٢ باللغة التركية ، ٣٨ص مزود بصور وخرائط .

39. Haurt, Clement. Histoire de Bagdad, dans les temps modernes. Paris, Ernst Leroux, 1901. 23 p. "Topographie de la ville de Bagdad" pp. VI-XIV.

هوار ، كليمان . تاريخ بغداد . ٢٣١ ص طبع باريس ؛ ١٩٠١ . عربية وعلق عليه ناجي معروف . بغداد ١٩٦١ .

(I)

40. Ibn Jubair, Muhammad Ibn Ahmad. The travels of Ibn Jubayr; being the chronicle of amedieval spanish Moor concerning his Journey to the Egypt of Saladi ... tr. from the original Arabic by R.J.C. Broadhurst. London, J. Cape, 1952. 430 p., fold maps.

ابن جبير ، محمد بن احمد . رحلة ابن جبير ترجمه الى الانكليزية ر. ج. سي. برودهرست . طبع لندن سنة ١٩٥٢ يقع في ٤٣٠ ص يضم صورا وخرائط مطوية . يصف فيها مصر ـ المدن المقدسة بغداد ـ القدس ـ صقلية .

(J)

41. Jastrow, Morris. The war and the Bagdad railway; the story of Asia minor and its relation to the present conflict. Philadelphia, J. B. Lippincott, 1917. 160 p., illus., plates.

جاسترو ، موريس . الحرب وسكة حديد بغداد قصة اسيا الصغرى وعلاقتها الصراع الدائر طبع فيلادليفيا سنة ١٩١٧ مزود بصور ، ولوحات ويقع في ١٦٠ ص .

42. Jebb, Lousia. By the desert way to Baghdad. London, T. Fischer unwine, 1909. 318 p., illus.

جب ، لوسيا . في الطريق الصحراوي الى بغداد . ١٩٠٩ مكون من ثلاثة اقسام يضم بغداد ، القسم الثالث . مزود بصور وخارطة وملحقا

43. Jones, James Felix. Memoires by Commander James Felix Jones. Bombay, Bombay Education Society press, 1857. 500 p., illus., 30 mays, plates, fold maps.

جونس ، جيمس فيلكس . مذكرات الجنرال ، جيمس فيلكس جونس . طبع بومباي ، ١٨٥٧ ٥٠٠ ص مزود بصور ولوحات وخرائط مطوية . يتضمن رحلة بحرية بالباخرة ، ويصف بغداد في يناير ١٨٤٦ والمناطق التي مر بها . وقد ترجم القسم العراقي الاستاذ عبدالوهاب الامين في مجلة المورد مج ٣/ع ١ ص ص ٢١ ـ ٤٥ ، م ٣/مج ٢ ص ص ٦٧ ـ ٨٠ تحت عنوان « بغداد في سنة ١٨٥٣ » ثم علق على المقال الاستاذ حميد مجيد هدو فابدى بعض الملاحظات والتصويبات في مجلة المورد مج ٤/ع ١ ص ص ٢٦١ ـ ٢٨٣ .

(K)

44. Keppel, George. Personal narrative of travels in Babylonia, Assyria, Media and Scythia in the year 1824. London, Henry Colburn, 1827. 2 vols. in one, fold maps.

كبل ، جورج . روايات شخصية لرحلات في بابل

اشور ، ميديا في سنة ١٨٢٤ . طبع لندن ، ١٨٢٧ . مجلدين في واحد ، يضم خرائط مطوية . يصف بغداد وبابل . .

45. Kinneir, John Macdonald Journey through Asia Minor, Armenia and Koordistan in the years 1813 and 1814, with remarks on the marches of Alexander. London. John Murray, 1818. 603 p.

كينر ، جون مكدونالد . رحلة خلال اسيا الصغرى ارمينيا ، وكردستان في سنة ١٨١٣ و ١٨١٤ طبع لندن ، ١٨١٨ يقع في ٦٠٣ ص . يضم فصل بغداد في ص ٤٧٦ ، ٦٠٠ .

(L)

46. Langengger, Felix. Durch verlorne Lande; von Bagdad nach Damaskus. Berlin, verlag von wilhelm susserott, 1911. 408 p., illus.

لنجگر ، فيلكس . خلال الارض المفقودة ، من بغداد الى دمشق . طبع برلين ، ١٩١١ ، ٤٠٨ ص بالالمانية .

47. Lloyd, Seton. Ruined cities of Iraq. London, H. Milford, 1942. 111 p., illus., 27 pl., maps.

لويد ، ستن . مدن العراق القديمة ، يصف المواقع الاثرية في العراق وما وراء النهرين ، مصور مع لوحات . طبع لندن ، ١٩٤٢ في ١١١ ص مزود بصور و٢٧ لوحة وخرائط .

48. Levy, Reuben. A Baghdad chronicle. Cambridge, the university press, 1929. 279 p., pl.

ليفي ، روبين . تاريخ بغداد ، ١٩٢٩ ، ٢٧٩ ص . مزود بصور واربع لوحات وعلى ملاحق ويضم الملحق الاول لمدينة بغداد ، ص ١١ — ٢٥ . يضم الحياة الاجتماعية والسياسية في بغداد في عهد الخلافة العباسية مزود بقائمة من المصادر .

(M)

49. Massignon, M Louis. Mission en Mesopotamie 1907-1908. Le Caire, Imprimirie de l' Institut Francais d'Archealogie orientale, 1910-1912. 2 vols., illus., plates.

ماسنيون ، م لويس . بعثة الى ما وراء النهرين ، ١٩٠٧ — ١٩٠٨ . القاهرة ، مطبعة المعهد الشرقي الفرنسي الآثاري ، في مجلدين مصور ومزود بلوحات .

50. Mignan, Robert. Travels in chaldaea; Including a Journey from Bussorah to Baghdad, Hillah and Babylon, performed on foot in 1827 with observations on the sites and remains of Babel, Selecia and Ctesiphon. London, Henry Colburn. 1829. 332 p. illus., fold maps.

ميگنان ، روبرت . رحلات في بلاد الكلدانيين يتضمن رحلة من البصرة الى بغداد ـ حلة ، بابل على القدم في سنة ١٨٢٧ مع بعض اللاحظات على المواقع الاثرية وبقايا بابل وسلوقيا وطيسفون (طاق كسرى) طبع لندن ، ١٨٢٩ يقع في ، ٢٣٣ ص ، مزود بصور مع خرائط مطوية .

51. Morton. H. V. Middle East; a record of travel in the countries of Egypt, palestine Iraq, Turkey and Greece. London, Methuen, 1941. 326 p.,

مورتن ، هـ.ف . الشرق الاوسط . سجل لرحلات الاقطار مصر ، فلسطين ، العراق ، وتركيا واليونان . طبع لندن ، ١٩٤١ يقع في ٣٢٦ص يقع في اربعة فصول وهو مقسم حسب الاقطار مصر ـ فلسطين ـ العراق ـ تركيا ـ اليونان وتصيب بغداد في الفصل الثاني . مزود بصور وخرائط .

52. Musil, Alois. The Middle Euphrates; a topographical, Itinerary. New York, 1927. 426 p.,

موزيل ، الويس . الفرات الاوسط . رحلة طبوغرافية . طبع نيويورك ، ١٩٢٧ من ، سلسلة الجمعية الجغرافية الامريكية للدراسات الاستطلاعية الشرقية رقم ٣ . يقع في ٤٢٦ ص . مقسم الى قسمين ويقع في (١٢) فصلاً تحتل بغداد الفصول (٣و٤، ٩) مع ملاحق مقسمة الى ٢١ قسما . مزود بصور عديدة مع النصوص ومخططات .

(P)

53. Platt, Thomas Comyn. Byrouth to Baghdad via palmyra by the desert route. Baghdad, the English press, 1927. 30 p.

بلات ، توماس كومن . من بيروت الى بغداد الى

بالمير على الطريق الصحراوي طبع في بغداد ١٩٢٧ ، يقع في ٣٠ ص .

54. Pionssot, Louis. Voyage de Bagdad Alep, 1808. Paris, J. André, 1899. 165 p., illus.

بيونسوت ، لويس . رحلة من بغداد الى حلب سنة ١٨٠٨ . طبع باريس ، ١٨٩٩ يقع في ١٦٥ ص مزود بصور يصف الجغرافية السياسية في بلاد ما وراء النهرين .

(R)

55. Raswan, Carl Reinhard. Escape from Baghdad. London, Hutchinson & Co., 1938. 277 p., illus.

رسوان ، كارل راين هارد . الهروب من بغداد . طبع لندن ، ١٩٣٨ يقع في ٢٧٧ ص مصور يصف المثائر الذهبية في بغداد يضم (٧٠) صورة وخريطتين .

56. Reitlinger, Gerald. A tower of skulls; a Journey through persia and Turkish Armenia. London, Duckworth, 1930.

رايتلنجر ، جيرالد . رحلة خلال بلاد فارس وتركيا وارمينيا . طبع لندن ، ١٩٣٠ ، ٣٢٦ ص مزود بصور وخرائط ويضم بغداد في الفصل الاول .

57. Reuther, Oscar. Das Wohnhaus in Bagdad und andren standten des Irak. Berlin, Verlag von Ernst Wasmuth, 1910. 119. p., illus.

رويتر ، اوسكار . البيت البغدادي وبيوت مدن العراق . طبع برلين سنة ١٩١٠ يقع في ١١٩ ص مزود بمخططات كثيرة للمدن العراقية .

58. Rich, Claudius James. Narrative of a residence in Koordistan and on the site of ancient Nineveh, with a Journal of a voyag down the Tigris to Baghdad and an account of a visit to shirauz and persepolis. London, James Duncan, 1836. 2 vols.

ريج ، كلوديوس جيمس . رحلة الى بلاد كردستان ومواقع نينوى ورحلة الى اسفل منطقة دجلة الى بغداد وزيارة الي شيرازوليرسبوليس ، طبع لندن ١٨٣٦ ، يقع في مجلدين ، وترجمها الاستاذ بهاء الدين نوري تحت عنوان (رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠) الى العربية سنة ١٩٥١ .

59. Rohrbach, Paul. Um Bagdad und Babylon; vom schauplatz deutscher Arbeit und zukunft im orient. Berlin, Hermann 8, Daetel, 1909. 110 p., illus., plates.

رورباخ ، باول . عند بغداد وبابل طبع برلين سنة ١٩٠٩ يقع في ١١٠ ص بالالمانية .

60. Rosen, Friedrich. Oriental memories of a german diplomatist. London, Methuen, 1930. 295 p., illus. plates, ports.

روزن ، فريدريج . مذكرات شرقية لدبلوماسي الماني . طبع لندن ، ١٩٣٠ مصور ولوحات ، ويقع في ٢٩٥ ص في وصف لبغداد .

61. Ross, Janet. Letters from the East by Henry James Ross, 1837-1857. London, J. M. Dent, 1902. 332 p., illus.

روز ، جانيت . رسائل من الشرق من هنري جيمس روز ١٨٣٧ — ١٨٥٧ . طبع لندن ، ١٩٠٢ ، ٣٣٢ ص . يتضمن وصف بغداد في ص ٣٠ ، ٣٤ ، ٤٠ .

62. Rouwolf, Leendert. Seer A anmerkely ke reysen no en door syrien ent Joodsche Land, Arabian, Mesopotamie, Babylonian, Assyrian, Armenien and Cut Jaar, 1573. Leyden, pieter Vander, 1581. 598 p., illus., plates, fold maps.

راؤولف ، ليندرت . رحلة الى سوريا وبلاد العرب وبلاد ما وراء النهرين ، ارمينيا طبع لندن سنة ١٥٨١ مزود بلوحات وخرائط . يقع في ٥٩٨ ص ، نقلها الى العربية الاستاذ سليم طه التكريتي عن النسخة الانكليزية تحت عنوان « رحلة المشرق الى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين » من منشورات وزارة الثقافة والفنون ، ١٩٧٨ ، ٢٣١ ص . كما ونشر فصولا من الترجمة في مجلة المورد مج ٥/ ع ٢ ص ٧٤ — ٨٢ .

(S)

63. Sachau, Edward. Am Euphrat und Tigris reisennotizen aus dem winter, 1897-1898. Leipzig, J. C. Hinrichsche Buchhandlung, 1900. 160 p., illus.

زخو ، ادورد . رحلة لدجلة والفرات في شتاء سنة ١٨٩٧ ــ ١٨٩٨ ، طبع ليبزج ، ١٩٠٠ في ١٦٠ ص ــ يتضمن رحلة من عدن ــ البصرة بغداد ــ الموصل ــ الدبر ــ حلب ــ الاسكندر ــ مزود بصور (٣٢) صورة وخمس خرائط يضم في اخره فهرس بالاسماء الجغرافية .

64. Samuel, Jacob. Journal of missionary tour through the desert of Arabia to Baghdad. Edinburgh, 1844. 323 p.

صموئيل يعقوب . رحلة خلال صحراء العرب الى بغداد . طبع ادنبرة سنة ١٨٤٤ يقع في٣٢٣ص

65. Sasson, Philip. The third route. London, William Heinemann, 1929. 291 p.

ساسون ، فيليب . الطريق الثالث . طبع لندن ، ١٩٢٩ ، ٢٩١ ص يضم (٢٠) فصلاً ديصف بغداد في الفصل التاسع .

66. Southgate, Horatio. Narrative of a tour through Armenia, Kurdistan, Persian and Mesopotamia. New York, D. Appelton, 1840. 2 vols.

سون كيت ، هورايتو . رحلة روائية الى ارمينيا كردستان ــ بلاد الفرس ــ وبلاد ماوراء النهرين ، يقع في مجلدين ، طبع نيويورك ، ١٨٤٠ . يتضمن المجلد الاول الوصف الدقيق لتركيا والمجلد الثاني يصف العراق وايران بغداد ــ كركوك ــ الموصل .

67. Stark, Freya. Baghdad sketches. London, John Murray, 1939. 269 p. illus., plates.

شتارك ، فريا . ملامح عن بغداد . طبع لندن ، ١٩٣٩ يقع في ٢٦٩ ص مزود ب (٣٥) صورة لمختلف الحياة الاجتماعية في بغداد والعراق طبع لاول مرة سنة ١٩٣٧ و ١٩٣٩ .

68. Stark, Freya. Beyond Euphrates; autobiography 1928-1933. London, John Murray, 1951. 341 p., illus.

شتارك ، فريا . ماوراء الفرات ، سيرة ذاتية لرحلة المؤلف من ١٩٢٨ ــ ١٩٣٣ طبع لندن ١٩٥١، يقع في ٣٤١ ص ، مزود بصور يتحدث عن الصحافة في بغداد سنة ١٩٣٢ اواخر سنة ١٩٣٣ .

69. ————. Dust in the Lion's paw; Autobiography 1939-1946. London, John Murray, 1961. 297 p., illus.

شتارك ، فريا . وحل في مخلب الاسد . سيرة ذاتية للمؤلف ورحلته من ١٩٣٩ ــ ١٩٤٦ ، طبع بلندن سنة ١٩٦١ ، يقع في قسمين ،ذكر بغداد في القسم الاول ، ص ٧٥ ــ ١٤٦ ، مزود بصور عن بغداد وجوامعها واسواقها .

70. ————. East is west. London, John Murray, 1945. 218 p., illus.

شتارك ، فريا . الشرق هو الغرب . طبع لندن ١٩٤٥ وهي الطبعة الاولى ، ٢١٨ ص مزود بصور يقع في اربعة فصول ، يضم الفصل الرابع عن العراق وبغداد ص ١٣٩ ــ ١٩٨ مع ملحق عن العراق .

71. ————. The valleys of the Assassins and other persian travels. London, John Murray, 1947. 319 p., illus.

شتارك ، فريا . اودية الحشاشين ورحلات فارسية اخرى طبع بغداد ١٩٤٧ ، ٣١٩ ص مزود بصور ، طبع لاول مرة ١٩٣٤ واعيد طبعه ، سنة ١٩٤٧ ، يقع في خمسة فصول ويتضمن الفصل الثاني عن بغداد ق ص ٤٨ .

72. Stevens, E. S. By Tigris and Euphrates. London, Hurst, 1923. 349 p., illus. (71 illus).

ستيفنس ، اي،اس . عند دجلة والفرات . طبع ، لندن ، ١٩٢٣ ، ٣٤٩ ص يحتوي على خمسة فصول وملحقين يتحدث عن المناطق المقدسة في بغداد والمدن القديمة آشور وبابل والحالة السياسية في العراق مزود بـ (٧١) صورة .

(W)

73. Warfield, William. The gate of Asia; a Journey from the [...... gulf] to the black sea. New York, (London) G. P. Putnam's Sons, 1916. 374 p., illus.

ورفيلد ، وليم . بوابة اسيا : رحلة من الخليج

العربي الى البحر الاسـود طبـع لنـدن ، ونيويورك ، ١٩١٦ ، ٣٧٤ ص مزود بصور . بصف اسيا — اعالي نهر دجـلة — بابل — كردستان — موصل ..

74. Webb, F. C. Up the Tigris to Baghdad. London, F. N. Spon, 1870. 66 p., illus. plates.

وب ، ف.س . من اعالي نهر دجلة الى بغداد . طبع لندن ، ١٨٧٠ ، ٦٦ص مزود بصور ، ولوحات ، فيه وصف روائي تاريخي عـن بغداد وعن طاق كسرى سنة ١٨٦٥ .

75. Wellsted, J. Raymond. Travels to the city of the Caliphs along the shores of the [......... gulf] and the Mediterranean including a voyage to the east of Arabia and a tour on the Island of Socatra. London, Henry Colburn, 1840. 2 vols., illus.

ولستد ، ج .ريموند . رحلات الى مدينة الخلافة من ساحل الخليج العربي والبحـر الابيض المتوسـط ، يتضمن رحلة شرق بلاد العرب ، ورحلة الى جزيرة سوكاترا ، طبع لندن ، ١٨٤٠ ، في مجلدين (٤٠٥ — ٣٤٧ ص) ، يتضمن المجلد الاول عن الخليج العربي مـع خارطة بينما يتضمن المجلد الثاني بلاد ماوراء النهرين وسواحل البحر الابيض المتوسط ، يضم ملاحق وفيه معجم في اخره باللغةالعربية ومايقابلها في لهجة اهل الجزيرة .

76. Wiese, Ernst. 10,000 miles through Arabia. London, Robert Hale, 1968. 192 illus.

ويز ، ارنست . عشرة الاف ميل في بلاد العرب ، طبع لندن ، ١٩٦٨ ١٩٢ ص ، يذكر مدينة هارون الرشيد (بغداد) في ص ٤٣ . مزود بصور .

• • •

استدراكات على كتاب «بغداد مدينة السلام»

لابن الفقيه الهمداني

تحقيق الدكتور صالح احمد العلي

بقلم

عبود الشالجي

بغداد ـ الجمهورية العراقية

الاستاذ الدكتور صالح احمد العلي اشهر من ان يعرف وقد اعتاد على ان يتحف المكتبة العربية بين حين واخر ببدائع من آثاره الدالة على فضله وكان آخر ما اتحف به المكتبة العربية كتاب بغداد مدينة السلام لابن الفقيه الهمداني فقد حققه وعلق عليه وشرح غامض الفاظه وقد تم اخراج الكتاب في مطابع باريس فاسبغ عليه الذوق ثوبا من الاناقة واللطف اضافة الى ما في مادة الكتاب من فائدة ونفع .

وقدم الدكتور المحقق ، للكتاب ، بمقدمة جمعت فاوعت ، على ايجازها ، بحث فيها مكانة بغداد ، وما الف عنها من كتب .

والذي آخذه على الاستاذ المحقق ، انه ـ على ما يظهر لي ـ قد عهد بتصحيح الملازم عند اعداد الكتاب للطبع ، الى غيره ؛ فصدر الكتاب وفيه ما فيه من اغلاط كنت اتمنى لو انه خرج سالما منها وقد اثبت في الثبت المرفق ، ما عثرت عليه منها لكي يجري اصلاحها عند تقديم الكتاب من اجل طبعه طبعة ثانية .

***

ثبت الاستدراكات

الصفحة	السطر	
٥	٨	اتخاذ سبقه من الخلفاء مقرهم (من) سامراء صوابه : (في) سامراء
٦	٢	كتاب بغداد (الطيفور) صوابه : (لاحمد بن ابي طاهر طيفور)

الصفحة	السطر	
٦	٤	يزدجرد بن (مهمنداد) اقول : سماه الاستاذ رضا تجدد ، محقق كتاب الفهرست المطبوع بطهران « يزدجرد بن مهبنداد » وتجدد اعرف بالاسم الصحيح ، والكلمة فارسية ، مهني : كبير ، رفيع . وداد : هبة .
	٩	ذكر المحقق ان خطط بغداد اشتملت في الجزء الاول من كتاب الخطيب البغدادي على الصفحات من ٦٦ ــ ١٢٠ صوابه : من ٥٦ ــ ١٢٠
٨	٩	مرة يزهد (من) الدنيا صوابه : يزهد (في) الدنيا
١٧	١٦	يزدجرد بن (مهبنداد) بالباء سماه المحقق هنا (مهبنداد) بالباء ، وسماه قبلا (مهمنداد) بالميم، والصحيح كما اثبتنا من قبل (مهبنداد)
٢٨	٣	واسمها الاول عند ( ) الزوراء قال المحقق : لعلها عند (الناس) اقول : ان المؤلف اورد كلمة (الناس) في اخر السطر ، ويقتضي ان تكون الكلمة ، على ما احتمل : (المؤرخين) فتكون الجملة : واسمها الاول عند المؤرخين ، الزوراء .
	١٥	(في جانب الشرقي) صوابه : (في الجانب الشرقي)
٢٩	١١	(فاطمه) وخوفه واستكتمه صوابه : (فاطمعه) من الاطماع
٣٠	١٢	فقال : الله اكبر ، والله هو صوابه : الله اكبر ، (انا) والله هو
٣١	٣	قال : (فاني) موضع بغداد ــ بالياء صوابه : (فانى) بالمقصورة
	٧	ولا يحمل الجند والرعية (الامثلة) صوابه : (إلاّ مثله)
	١٤	وهؤلاء (ثناء) الناحية ــ بالثاء صوابه : (تناء) الناحية ــ بالتاء والنون المشددة
	١٦	تكل واحد منهم قال قولا (يقدر) بالياء صوابه : (بقدر) بالباء
	٢١	فيما قد عملت عليه من البناء (من) احد هذه المواضع صوابه : (في) احد هذه المواضع
٣٢	١	فاللذان في الغربي (فهما) صوابه : (هما) بحذف الفاء
	٢	(كلواذي) بالياء صوابه : (كلواذى) بالمقصورة

الصفحة السطر

٧ (سامرا) بالسين

صوابه : (تامرا) بالتاء

٩ فاذا قطعت الجسر (و) اخربت القنطرة

صوابه : (او) اخربت القنطرة

٢٢ الحجاج بن (ارطاة) بهمزتين صوابه (ارطاة)

٢٣ ٤ فولاه (عدد اللبن) صوابه : فولاه (عقد) اللبن

١٩ (كلواذي) بالياء صوابه : (كلواذى) بالمقصورة

٢١ قصة (المقلاص)

صوابه : قصة (مقلاص) لانه اسم علم

٢٢ علي بن (بقطين) بالباء

صوابه : علي بن (يقطين) بيائين

٢٤ ٧ قد وجدناه في كتاب عندنا (يتوارثونه)

صوابه : (نتوارثه)

٢٤ ٧ قرن عن قرن الذي يبني مدنية

صوابه : (ان) الذي يبني مدنية

٩ واربحك هذا العناء

صوابه : واربحك (من) هذا العناء

١٣ نقلت في نفسي (لخفه) بالخاء والفاء

صوابه : (لحقه) بالحاء والقاف

١٦ كن بناحية (الصراة) بالصاد

صوابه : بناحية (السراة) بالسين

٣٥ ٢ الناس يتحرزون من مقلاصهم (ومقلاص) معي في البيت

صوابه : (ومقلاصي) معي في البيت

٧ وأمر ان (يوقد) هناك

صوابه : ان (يدق) هناك

٩ ثم امر الرماد (فخرج)

صوابه : (فطرح)

١٣ مما يلي الخندق (الشرافات)

صوابه : (الشرفات)

٣٦ ٨ والطاقات الصغار التي تلي (المرحبة)

صوابه : (الرحبة)

١٠ الحجاج بن (ارطأة)

صوابه : (ارطاة)

١٥و١٦ ورد ذكر (المقب ، الفزي ، الشنال) من دون ايضاح معانيها ومن دون اشارة الى المواضع التي يمكن التحقق من معانيها فيها

الصفحة	السطر	
٣٧	٨	فنتقض شيء من ذلك ، وحمل اجره الى بغداد ، والنفقة على هدمه وحمله صوابه : (وبلغت) النفقة على هدمه وحمله
٤٠	١٥	اعانيت في طول من الارض او عرض كبغداد من دار بها (مسكني) انخفض اقول : يقتضي ان ترفع كلمة (او عرض) من الشطر الثاني وتضاف الى الاول وان تحذف الياء من (مسكني) فتكون الجملة (بها مسكن انخفض)
٤١	١٦	ووكل البناء قواده صوابه : (الى) قواده
٤٢	٦	خالد بن عبدالله (القشري) بالشين صوابه : (القسري) بالسين
٤٣ ٤٤	٢ ١و٩و١٢	رستاق (الفروسشيج) صوابه : (الفروسيج) بحذف الشاء
٤٤	١٣	(الرحا) المعروفة بام جعفر صوابه : (الرحى) بالمقصورة
	١٧	قنطرة (الجديد) صوابه : (القنطرة الجديدة)
٤٨	١٩	ربض عمرو بن (اسفندياذ) بالذال صوابه : (اسفنديار) بالراء
٤٩	٢١	مربعة شبيب بن (واح) قال المحقق : ان ياقوت سماه (شبيب بن راح) اقول : الاسم الصحيح : شبيب بن (واج) بالجيم
٥٠	٥	العلاء بن موسى (الجورجاني) بالراء صوابه : (الجوزجاني) بالزاي
	١٩	(وخرجت) منازلهم صوابه : (وخربت)
٥١	٥	ابن (ضبه) بالياء والهاء صوابه : (ضبّة) بالباء المشددة والمقصورة
	٦	عامر بن دلجة ويحيى اخوهما عرقبا جمل عائشة صوابه : عامر بن دلجة (وبجير اخوه) وهما عرقبا جمل عائشة
	١٢	وكان باقلاها نهاية نقيل له (الباقلي) بالياء صوابه : وكان باقلاها نهاية (في الجوده) نقيل له (الباقلى) بالمقصورة
٥٢	٦	الساحة التي كانت مضربا (للبن) صوابها : مضربا (للّبن) باللام المشددة
٥٢	١و٨	مع (رحا) اتخذها هناك صوابها : (رحى) بالمقصورة
٥٦	١	وسويقة ابي عبيدالله منسوبة الى عبيدالله صوابه : منسوبة الى (ابي) عبيدالله

الصفحة	السطر	
	٨و١٠	وسوق العطش بناها سعيد (الحرسي) بالحاء والسيف اقول : هو سعيد (الخرسي) بالخاء ، اي الخراساني ، والنسبة الى خراسان : خرسي ، وخراساني ، وكذلك سماه الخطيب في تاريخه ٩٤/١ وصاحب اللباب ٣٥٤/١ واخطأ محقق تاريخ الطبري فسماه (سعيد الحرشي) واعتبر اخباره امتدادا لاخبار القائد العربي سعيد بن عمرو الحرشي الذي كان في السنة٨٢قائدا مظفرا ، وولي للامويين خراسان فلا يعقل ان يكون هو سعيد الذي وردت اخباره في خدمة العباسيين حتى السنة ١٨٩ ، وذكر الدوري في اخبار الدولة العباسية (ص ٢٠١) أن بكير ابن ماهان الداعية العباسي توجه في ايام يزيد بن عبدالملك الاموي الى خراسان مع سعيد الحرسي (بالحاء) وعلق الدوري على الخبر ، بانه لعله سعيد الحرشي ، وليس به
	١٦	ثم صار (ولاء) للرشيد صوابه : صار (ولاؤه) للرشيد
٥٧	٧	رأى فيها آزاجا (عتيقا) صوابه : آزاجا (عتيقة) لان الازاج جمع ازج ولا يجوز ان تكون الصفة مفردة والموصوف جمع
٥٨	٢	(كلواذي) بالياء صوابه : (كلواذى) بالمقصورة
	١٢	(وكان احد ، طلب من الحاجات) صوابه : (وكانت احدى) ما طلب من الحاجات
٥٩	١و٢	ان للدنيا وللزينة فيها والاثاث ... الخ اقول : هذان بيتان من الشعر ، اوردهما الخطيب في تاريخه ٩٧/١ وياقوت في معجمه ٣٦٣/٢ وكان المقتضي ايرادهما شعرا : اف للدنيا وللـ ـــزينة فيها والاثاث اذ حثا الترب على هيـ ـــلان في التربة حاث
٥٩	٩	ابن (رابطة) بنت ابي العباس السفاح صوابه : ابن (ربطة)
	١٤و١٨	شارع الزراديين (بياءين) صوابه : (الزرادين) بياء واحدة
	١٨	وكان اذا شرب دعا بالصورة (فيشرب) على هذه الشوارع صوابه : دعا بالصورة (فشرب)
	٢٢و٢٣	وكان ببغداد في شارع الثلاثة ابواب ثلثمائة مقلى (للتسويق) صوابه : (للسويق) بحذف التاء ، وما يزال هذا الاسم معروفا في بغداد ، وقد بحثت عنه بايجاز في الجزء الاول من كتاب نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي
٦٠	١١	اخذ الطول من الجانب الشرقي من بغداد فوجد (ما بني) حبلا صوابه : (ما يتي) حبلا

الصفحة	السطر	
٦١	١٢	(كلواذي) بالياء صوابه (كلواذى) بالمقصورة
	١٢	(عمى) بالعين صوابه : (غمى) بالغين وبالميم المشددة والمقصورة
	١٣	(بزوعى) بالعين صوابه (بزوغى) بالغين
	١٥	الظرف (فيها) يقتبس صوابه : (منها) يقتبس
	١٨	(مربعة) الجناب ـ بالياء صوابه : (مربعة) الجناب ـ بالياء
٦٢	٢	ليس لها (مشاة كمشاة) الجبال صوابه : ليس لها (مشتاة كمشتاة) الجمال
	٥	من وجع (للطحال) صوابه : من وجع (الطحال)
	٦	ولا (رادع) الجحفة صوابه : ولا (ردذع) الجحفة
	٨	و (شهرزوز) بزاءين صوابه : (شهرزور) بزاي واحدة
	١٠	ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين على تقلبها في كل ما حين اقول : صحة ترتيب الشطرين تحصل بان ترفع كلمة (الدين) من صدر الشطر الثاني وتلحق باخر الشطر الاول
٦٢	١١	ما بين قطربل والكرخ نرجسة (تندي) و (النبت) خيري ونسرين صوابه : (تندى) بالمقصورة (ومنبت) خيري ونسرين
	١٣	سقيا لتلك القصور (الشارعات) صوابها : (الشاهقات)
	١٣	(تحفى) بالحاء صوابها : (تخفي) من البقر الانسية العين
	١٦	فيها القصور التي (تهوى) بالمقصورة صوابها : (تهوي) بالياء
	١٧	من كل حراقة (تعلو) فقارتها قصر من التاج عال (ذي) اساطين صوابه : (يعلو) فقارتها قصر من التاج عال (ذو) اساطين
	٢٥	(حلفت ببغداد) التي لنسيمها صوابه : (خلفت بغداد) بالخاء واللام المشددة
٦٣	٢	(وليس) فيها الف الف منعم صوابه : (أوليس) فيها
	٨	ايا بغداد يا اسفي عليك متى (يغضي) الرجوع اليك صوابه : متى (يقضي) الرجوع (لنا) اليك
	٩	(قنعنا) سالين بكل خير صوابه : (فنحيا) سالين بكل خير اذ ان كلمة (قنعنا) لا تاتلف مع رغبته في السلامة والخير كله
	١١	(الا) ليت شعري عن الذين تركنا صوابه : حذف كلمة (الا) فيستقيم الشعر والمعنى

الصفحة	السطر	
	١٢	لعل المدى تطاول حتى اقول : لكي يستقيم الشعر يقتضي اضافة الواو على (لعل)
	١٥	على اهل بغداد السلام فانني (ازبد) لبيري عن ديارهم بعدا صوابه : (ازيد) لبيرى ــ بالزاي
٦٣	١٧	ايرحل (الف) ويقيم الف وتحيا لوعة ويموت (مصف) اقول : ان كلمة (وتحيا) التي اقحمت في عجز الشطر الاول هي من حصة الشطر الثاني . فيكون البيت بعد التصحيح ايرحــل (آلف) ويقيــم إلف وتحيا لوعة ويموت (نصف)
	٢١	لعل زماننا سيعود يوما فيرجع (الف ويسر الف) صوابه : فيرجع (آلف ويسرّ الف)
	٢٣و٢٤	وقال بعض الادباء : ببغداد يصفوا العيش ... الخ اقول : هذا شعر ، وكان المقتضي ان يكتب شعرا ببغــداد يصفــوا العيش للمتعبد وللقــارف اللاهي وللمتــودد
٦٤	٤	وردت كلمة (دريزل) قال المحقق انه لم يعرف معناها اقول : لعلها (دريزك) فارسية ، اصلها (درزي كردن) اي الخياطة يريد انها افرغت افراغا كالخياطة التي تناسب البدن
	٧	لم تر (عني) صوابه : لم تر (عيني)
	١١	تنطرة (البودان) بالواو صوابه : تنطرة (البردان) بالراء
	١٢	(الحطيمية) صوابه : (الحطمية) بياء واحدة
٦٥	١	(واقطع عبيدة) صوابه : (واقطع ام عبيدة) كما هو واضح في الصف الثاني
٦٦	٣و٤و٦و٨ ١٠و١٧و١٨	(سرمراي) اقول : الاسم اما سامراء او سر من رأى اما (سرمراي) بالياء فلم نسمع بها من قبل
	٥	(سر من راي) بالياء صوابه : (سر من راى) بالمقصورة
٦٦	١٧و١٨	ثم قتل المتوكل بها .. وانتقل (اليها) الناس عنها الى سر من رأى صوابه : ان نحذف كلمة (اليها)
٦٧	٤و٦	يزدجرد بن مهنبداد (بالباء) صوابه : (مهينداد) بالياء
	٩	وقالوا بها مقدمين لها بغداد العراق صوابه : مقدمين لها (على) بغداد العراق
	١١	ولا (بتوقيان) على مقدار صوابه : ولا (يوفيان) بالفاء
	٢١	(والحمام) والجماع صوابه : (والحجام) بالجيم

الصفحة	السطر		
٦٨	١٦	خطر عظيم (وعزر) جليل	صوابه : (وغرر) بالغين وراءين
	١٩	ومن يزيدك (بصرة)	صوابه : يزيدك (بصيرة)
	٢٢	ولا (اسيرهم) فهما	صوابه : ولا (ايسرهم) فهما
		وغلب عليها دون سواها « انا ربكم الاعلى »	صوابه : (وقال :) انا ربكم الاعلى
٦٩	٧	(او) قاضيا بقاض	صوابه : (و) قاضيا بقاض
	١١	(عدوا عداية وابن البهاليل من ابايه)	صوابه : (عدو اعدائه وابن البهاليل من آبائه)
	١٢	عبيدالله بن عبدالله بن (الطاهر)	صوابه : ابن (طاهر)
	١٣	(المنيقط) الناشيء	اقول : لم افهم معناها ، ولم استطع رد التصحيف الى اصله
٧٠	٢	(باغيان) السلطان	صوابه : (باغبان) بباءين فارسية معناه : البستاني
	٨	(اللقاح) بالقاف	صوابه : (اللفاح) بالفاء المشددة
	٨	(السبستان)	صوابه : (السيسبان)
٧٠	٩	(العضل)	صوابه : (العض) وهو صغار العضاه
	١٠	(الاسقيل)	صوابه : (اسقليناس)
	١٠	(البسلخية)	صوابه : (السليخة)
	١٠	(الزربن)	صوابه : (الزرنب)
	١٢	(المشبر)	اقول : لم اعثر على اصلها ولم استطع اصلاح التصحيف
	١٢	(التربذ) بالذال	صوابه : (التربد) بالدال
	١٣	(الخرنق) بالنون	صوابه : (الخرفق) بالفاء
	١٤	(التبل) بالتاء	صوابه : (الثبل) بالثاء المثلثة
	١٤	(الافستين)	صوابه : (الافسنتين) بزيادة نون
	١٤	(الجمد)	صوابه : (جمده)
	١٤	(الفنجمشك)	صوابه : (الفنجكشت)
	١٤	(الفافت) بالتاء	صوابه : (الخافث) بالثاء المثلثة

الصفحة السطر

١٤ (الموقدة) اقول لعله : (المرقد) اي البنج

١٧ (الماديان) بالدال

اقول : احسب ان صوابه : (الماذيان) بالذال

والماذي : العسل

٢١ (الامشرجات) بالميم صوابه : (الافشرجات) بالفاء

٢٦ فانهم كانوا دون ملوك الروم والهند وسائر الاطراف (واعلم)

صوابه : (الواو) من (واعلم) فتكون الجملة :

فانهم كانوا . . . (اعلم) بواقع الريف . . . الخ

٧١ ١ وهم كانوا الايمة في غرائب (الفاذيان)

اقول : اعد المحقق موضعا في الحاشية للحديث عن هذه الكلمة ثم فاته ذلك ، وانا احسب ـ ولا اقطع ـ بانه ربما كان اصل الكلمة الماذيات ـ اي الخمور

٥ الخمرة (البالية)

صوابه : (البابلية) نسبة الى بابل

١١ (الفازيات)

اقول : لم افهم معناها

٧٢ ٢ الشراب السوري

قال المحقق : الراجح ان الشراب السوري هو المنسوب الى سورا ، بلدة بين الكوفة وبغداد ، لم تذكر المصادر شهرتها بالشراب

اقول : جاء في معجم البلدان ١٨٥/٣

ما زلت أشربها وأسقي صاحبي حتى رأيت لسانه مكسورا

مما تخيرت التجار ببابل او ما تعتقه اليهود بسورا

١٦ ثم اقبل (قيثام) الحمام فغربلها صوابه : (قيّم) الحمام

٧٣ ٤ السكاكين (الكنابية) صوابه : (الكنباتية)

٨ كملك الديلم والطيلسان (وملك السوس)

قال المحقق في الحاشية (ص ١٥٥) : انها قد تكون محرفة عن (السرير) او عن (السيسحان)

اقول : احسب انها محرفة عن (سيس) بسينين بينهما ياء ذكرها ابو الفداء في تقويم البلدان (ص ٢٥٧) وقال عنها انها بلدة ملك الارمن وقاعدة ملكة وقاعدة الثغور الشمالية ، كما ذكرها ابن الاثير في اخبار السنة ٢٤٥

١٢ كما (يستقصون) على فقدانه

صوابه : (يتنغصون) على فقدانه

١٣ يصلون بعد المجاهدة . . . الى غير (المنفيين) من الطباخين

صوابه : الى غير (المتفننين) من الطباخين

الصفحة	السطر	
٧٢	١٦	زامرة (زمامية) بميمين اقول : وردت في حكاية ابي القاسم بلفظة (زنامية) بنون وبالنظر لكثرة التصحيف في حكاية ابي القاسم فاني لا ارجح احدى اللفظتين على الثانية وارجو ان يوفق احد المطلعين فيرشدنا الى اللفظ الصحيح .
	١٧	(رحيب) صوابه : (عريب)
	١٧	(زاعم) صوابه : (ناعم)
	١٨	ماشطة طاهرية وخازنة حريمية اقول : افرد المحقق موضعا في الحاشية لايضاح هذه الكلمة ، ثم فاته ذلك ، واحسب ان قوله طاهرية النسبة فيه الى آل طاهر بن الحسين ، وقوله حريمية النسبة فيه الى الحريم الطاهري
	١٩	(الذخائر المتهنّدات) صوابه : (الذخائر المتصيّدات)
٧٣	٢٣	(الديبقي) صوابه : (الدبيقي) الباء قبل الياء
٧٣	٢٣	فلعل القوم ان يفاخرونا بالمعادن ... (وكانوا) قد دلوا صوابه : (فكانوا) قد دلوا من انفسهم
٧٤	٥	وقد وجدنا (نصيبا ابعدنا) من المعدن كنصيب اقربنا منه صوابه : وقد وجدنا (ابعدنا نصيبا) من المعدن
	٧	باقصى (حجر) بالبر والطيلسان صوابه : باقصى (جحر) بجيم ثم حاء
	٨	(الخليجي) بالياء اقول : ذكره المحقق في الشرح (٤١) فسماه الخلنجي (بالنون) ولم يفسره ، ويظهر من سياق الكلام انه صنف من اصناف القماش الذي يصنع بمصر ، ولعل الاسم الصحيح (الخليجي) نسبة الى الخليج بمصر ، اما الخلنج فهو نوع من الخشب الذي يصنع من الصحاف والعساس ، قال الشاعر : ويسقي لبن البخت في عساس الخلنج
٧٤	١٢	وفي اقصى مكانته (من شأنه) صوابه : (وشأنه)
	١٧	ذلك هو القول (من) المجهزات (في) خراسان صوابه : (و) ذلك هو القول (في) المجهزات (من) خراسان
	١٨	ثم لا نجد (في) بغداد عند ذلك صوابه : ثم لا نجد (بغداد) ـ بحذف (في)
	١٩	لا قوام لها إلا ما هو اثبت بها صوابه : لا قوام لها إلا (بما) هو اثبت بها
٧٥	٥	بعلومه وآدابه وانسابه (واحسانه) صوابه : وانسابه (واحسابه)

الصفحة	السطر	
	١٢	اشرف من بلاد الري ونواحيها صوابه : (و) اشرف من بلاد الري
	٢٠	وهما شيخان مستوران قد (اسفّا) بالفاء المشددة صوابه : قد (اسنّا) بالنون المشددة
٧٦	٤	وانشد لكاتب من اهل (البنديتجيين) بياء ثم نون صوابه : (البندنيجين) بنون ثم ياء
	٥	هل غاية من بعد مصر (اجيبها) صوابه : (اجوبها)
	١٠	فعريش مصر هناك (فالغرما) بالغين صوابه : (فالفرما) بالفاء ولتمام البيت يقتضي ان تعاد الى عجز الشطر الاول كلمة (الى) التي اقحمت على صدر الشطر الثاني .
	١٦	لمصارع لم يبق في اجدائها (منهم) صدى برّ ولا صنديق صوابه : : رفع كلمة (منهم) من عجز الشطر الاول ووضعها في صدر الشطر الثاني
	١٧	ان (قال) فاعلم فغير موفق صوابه : ان (همّ) فاعلم وقد أورد المحقق اللفظ الصحيح في الحاشية ، وكنت ارجح لو ان يضع اللفظ الصحيح في المتن ، واشار الى الاصل الخطأ في الحاشية
٧٦	٢٠	لدعوت (بالتفريق) بالفاء صوابه : (بالتغريق) بالغين
	٢١	ودوام لوعة زفرتي (وشهيق) صوابه : (وشهيقي)
	٢٣	ونعيم دهـــر اغفلت ايامنـــا بالكـــرخ في قصف وفي تغشيـق اقول : لم افهم المعنى ، ولم استطع اصلاح المصحف .
٧٧	٤	فز بالرجوع الى العـراق وخلهـا (بمصر) فريقـا بعـد جمع فريق اقول : لعل الصواب : (تمضي) فريقا
	١٣	مليح الحركات (طريف) الشمائل صوابه : (ظريف) بالظاء
٧٨	٧	احتاج هؤلاء الحفظة الى سبعة آلاف درهم ومائتي الف درهم صوابه : الى سبعة آلاف (الف) درهم ومائتي الف درهم
	١١	ونقص من الاحاطة شيء قدر صوابه : شيء (له) قدر
	١٣	وان (القطت) بالتاء ــ الذي عليه المدار صوابه : (القطب) بالباء
	٢٢	وهم (مستلمون صوابه : وهم (مستلئمون)
٧٩	٨و١٤و١٧و٢٠	(سرمرى) صوابه : (سرّمرّى) بالتشديد
	١٣	وواسط (عل) حال صوابه : (على) حال
٨٠	٤	(يحوض) بريقه . بالحاء صوابه : (بجرض) بالجيم

الصفحة	السطر	
	١٢	فقد تركوا الرياسة للسلطان (ومحوا) بالميم صوابه : (وربحوا) بالباء
	١٤و١٥	وعوملوا من التعنت وطلب الرشى (وما ، لا يحتمله الا الذليل وذو (المعدة) القليل صوابه : (بما) لا يحتمله الا الذليل ، وذو (العدد) القليل
	١٧	عند خروجهم مع سهل بن سلامة في ارباض الحربية فانه اجتمع لما تطوع صوابه : اجتمع (اليه) لما تطوع
	٢٠	(تهاجوا) من جانبي مدينة السلام صوابه : (تهايجوا)
٨٠	٢٣	(فهربهم) واحترست من الاسراف احسب ان صوابه : (فقدرتهم)
٨١	٣	اما (القطع) الذي مدينة السلام منه صوابه : (الصقع) وقد اورد المحقق الاسم الصحيح في الحاشية وكنت ارجح له ان يورده في المتن ويشير الى الاصل في الحاشية
	٧و٨	ان الفرات يسيل بجميع الشام وسواحل بحر الروم ومصر صوابه : يسيل بجميع (ما يرد من) الشام ... الخ
	١٠و١٥	(قسطنطينه) صوابه : (قسطنطينية)
	١٠	(الصقالية) بالياء صوابه : (الصقالبة) بالباء
٨٢	٦	(جنابا) صوابه : (جنابة)
	٧	(اليمامه) بالهاء صوابه : (اليمامة) بالقصيرة
	١١	(ان إفجر) صوابه : (ان آفجر)
	١٢	امرت الارض ان (تطيعه) صوابه : ان (تطيعك)
	١٥	(قردي) بالياء صوابه : (قردى) بالمقصورة
	١٧	(سرمرى) صوابه : (سرّمرّي) بشدتين
	٢٥	الهواء (العدي) بالدال صوابه : (العذي) بالذال
٨٣	٤و٧	(الثبت) بثاء مثلثه صوابه : (التبت) بتاءين بينهما باء
	١٤	توسطوا (بصب) الفرات في دجلة صوابه : توسطوا (مصب) الفرات في دجلة
	١٩	ومدينة (الصفد) بالفاء صوابه : (الصغد) بالغين
٨٤	٨	(ذو الاكناف) بالنون صوابه : (ذو الاكتاف) بالتاء
	١٠	فدفع الى ايران هذا (القطع) صوابه : (الصقع)
٨٥	٨	(الديبل) بياءين صوابه : (الدبيل) بباء ثم باء
٨٦	٤	(المدير) الاكبر صوابه : (المدبّر) بباء مشددة

الصفحة	السطر		
	١٢	(والجزر) بالجيم	صوابه : (والخزر) بالخاء
	١٥	لو دبرت مملكة بعد خراسان	صوابه (في بُعدِ) خراسان
٨٧	٩	ويكاتب (ابا) هبيرة	صوابه : (ابن) هبيرة
	١١	ويوشك ان يكون لها (شرام) بالشين	صوابه : (ضِرام) بالضاد
	١٣	يخاطبه ابن هبيرة (نصر بن سيار) اقول : الارجح حذف الجملة الاخيرة (نصر بن سيار)	
	١٧	(فبلع) ـ بالعين ـ طنجة	صوابه : (فبلغ) طنجة
	١٩	ازهر السمان (أو)	صوابه : ان تحذف (أو)
	٢٠	اصحاب عبدالله بن عبدالله بن جعفر	صوابه : عبدالله (بن معاوية) بن عبدالله بن جعفر .
	٢٢	ويدخل الكوفة فيقيم بها ايضا (وجول) بلدان الجزيرة	صوابه : (ويجول)
	٢٢	وكان مع ابيه وعمومته (بالشراة) بالشين	صوابه : (بالسراة) بالسين
٨٨	١	لم يشاور احد طوى كشحه عن كل مشورة	صوابه : (و) طوى كشحه
	٥	اذا (انتفضت) بالاضعفين قوى (الجبل) بالجيم	صوابه : اذا (انتقضت) بالاضعفين قوى (الحبل) بالحاء
	٧	على (طوف) البساط	صوابه : على (طرف) البساط
٨٨	١٢	وفي (اكتاف) الشام ـ بالتاء	صوابه : وفي (اكناف) بالنون
	٢٠	(صائقة) الردم ـ بالقاف	صوابه : (صائفة) بالفاء
	٢٢	وان يوجد المأمون (لعبد) الله بن طاهر	صوابه : وان يوجد المأمون (عبدالله) بن طاهر
	٢٣	واخذ بابك من (البدء) بهمزة	صوابه : من (البدّ) بالدال المشددة ، وهو حصنه
٨٩	٦	وتوفي المعتصم (بسرمرين)	صوابه : (سُرّ مَرّى أو سامراء)
	١٢	(طالح) الوقت	صوابه : (طالع) الوقت
	١٥و١٦	وانشد دعبل (بمدح) بغداد (وبذم) (سرمرى)	صوابه : (يمدح) بغداد (ويذم) (سُرّ مَرّى)
	٢٠	ما سرمرى بسرمرى بل بل هي بؤس لمن رآها	صوابه : قلع كلمة (بل) من عجز الشطر الاول ، واضافتها الى صدر الشطر الثاني ، فيكون البيت : ما سرمرى بسرمرى هي بؤس لمن رآها
	٢١	برغم (انت) الذي بناها	صوابه : برغم (انف)

الصفحة	السطر	
٩٠	٢	ايام اذ نحن جيرة خلط (نيام) قبل (العشا) سامرها صوابه : (ينام) قبل (العشاء) سامرها
	٣	(و) إذ هي مثل العروس باطنها صوابه : حذف (الواو) من اول الشطر
	٣	دل (بعيد) الهوى (وطاهرها) صوابه : دل (بعيد) الهوى (وظاهرها)
٩٠	٤	جنة (الدنيا) ودار مضبطة صوابه : جنة (دنيا) ودار مغبطة
	٤	قل من النايبات (واثرها) بالثاء المثلثة صوابه : (واترها) من الوتر بالتاء
	٥	غالى باغلى (الثلاد) بالثاء المثلثة صوابه : (التلاد) بالتاء المثناة
	١١	اهل القرى والنـدى واندية (لمجد) اذا (عدت) معاخرها صوابه : واندية الـ (مجد) ،ذا (عدّدت) مفاخرها
	١٢	(اترنى) دنيا في عز مملكـة (سكرت) عراها لهم اكابرها صوابه : (انباء) دنيا في عـز مملكـــة (شـــدّت) عـــراها لهـــم اكابـــرها
٩٠	١٤	(مهمنداد) الكسروى صوابه : (مهينداد)
	١٨	كما (لا) يزيدوا صوابه : كما (لم) يزيدو:
	١٨	على ان (يقولوا) صوابه : (يقولون)
٩١	١٠	ان نأخذ (باوسطه) صوابه : (باوسطه)
	١٦	كل حمام يحتاج الى اربعة نفر لابد (لها) صوابه : لابد (له)
٩٢	٧	فاجتمع من ذلك (اثنى عشر الف فزل) صوابه : اثنى عشر (الف) الف فزل
	١٤	(فانه نصف قطر المنقلبين بامر الفروض) اقول : لم افهم هذه الجملة ، ولم استطع ردها الى اصلها
٩٣	٦	(جوخي) بالياء صوابها : (جوخى) بالمقصورة
	٦	(البندنيجيين) بثلاثة ياءات صوابه : (البندنيجين) بياءين
٩٣	١١	فلم (يلبثوا) فيها صوابه : فلم (يليتوا) فيها من لات فلان حقه : نقصه
	١٤	وساقتهم الاقدار مستجيرين (الى محل) لا (يضيق) بهم دياره ولا (يمتلىء) منهم اقطاره صوابه : مستجيرين (الى محل) لا (تضيق) بهم دياره ولا (تمتلىء) منهم اقطاره
	١٥	ولا يتحكم في اقواتهم (تجار) صوابه : (تجاره)
	١٥و١٦	ولا (تعجز) عن (مهبرتهم ممتازة) صوابه : ولا (يعجز) عن (ميرتهم ممتاره)

الصفحة	السطر	
	٢٢	وامر (ظريف) بالظاء صوابه : (طريف) بالطاء
	٢٤	كما لا يذهبان عن عقول العامة يشتمل عليها البرهان صوابه : (و) يشتمل عليها البرهان
٩٤	١٦	وسجوده (وقبامه) بالباء صوابه : (وقيامه) بالياء
	١٧	وما زيد فيه (مايتي) ذراع صوابه : (مائتا) ذراع
٩٥	٤	بقدرته على (توسعه) ما لا سبيل الى اتساعه الا به صوابه : على (توسعة) بالقصيرة
	٤	ولا حيلة في (خطه) بالخاء صوابه : في (حطه) بالحاء المهملة
	٨	ان الله يبسط (الاقرب) خلقه اليه صوابه : يبسط (لاقرب)
	١٤	الف الف وخمس مابة انسان صوابه : الف الف وخمس مابة (الف) انسان
٩٦	١٠	واذا جاز ذلك القول بفراسخ كثيرة صوابه : واذا جاز ذلك (جاز) القول بفراسخ كثيرة
٩٦	١١	الا ان الله عزوجل لم يعطنا القدرة على علم ذلك (ومعانيه) مثله صوابه : (ومعانية) مثله
	٢٣	ان (في) هذه المنازل ما يوقد فيه (امنا) عراقية وارطالا صوابه : ان (من) هذه المنازل ما يوقد فيه (امنانا او امناءا) ؛ والمن : الوزن المعروف
٩٧	٥	فحصل بمصابيح القناديل . . . من دهن البزر (الف الف رطل) صوابه : (الفا) الف رطل
	٢٢	ثم (الثناء) ـ بالثاء المثلثة ـ وارباب النعم صوابه : (التناء) بالتاء المثناة والنون المشددة
٩٨	٢	ما لا يحصى جرارا ولا يعد (رقاقا) بالراء صوابه : ولا يعد (زقاقا) جمع زق
	٢٣	فيكون حقها من الزيت (استظهار) الف الف رطل صوابه : (استظهارا) الف الف رطل
	٢٥	ولمصابيح المساجد ثلاثة (الف) الف رطل صوابه : ثلاثة (آلاف) الف رطل
٩٩	١٥	فان اسقطناه (لخصومه) بالميم صوابه : (لخصوصه) بصادين
	١٩	استهلاك (الاعشاب) بالشين صوابه : (الاعناب) بالنون
١٠٠	١	والنهروانات (والزوابي) بلا نقطة صوابه : (والزوابي) بالباء
	٢	(جوخي) بالياء صوابه : (جوخى) بالمقصورة
	١٢	فكان مبلغ ما اجتمع من هذه الارطال على اقرب الاسعار المعتدلة في الاعناب العامة ، حساب اثنى عشر رطلا بدرهم ، ستة عشر الف الف درهم في الشهر الواحد ، اربعمائة وثمانين الف الف درهم . اقول : الفارزة الاخيرة في الجملة ليست في مكانها الصحيح ، وقد ادى وضعها في غير موضعها ان تغير المعنى المقصود ، ويقتضي ان توضع الفارزة بين كلمة (درهم) وكلمة (في الشهر الواحد) ، فتكون الجملة : فكان مبلغ . . . ستة عشر الف درهم ، في الشهر الواحد اربعمائة وثمانين الف الف درهم

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٠	١٣	باسقاط الاطفال (والامراض)	صوابه : (وذوي الامراض)
	١٨	وترى ان يقنعوا من ذلك (ما لا يفي به) الا من هو في حكم القياس	صوابه : (ما لا يفي به) بالفاء
١٠١	١	(والثناء) وارباب الضياع	صوابه : (والتناء) بالتاء المثناة
	٥	ومن (لا تسع) يده (بغير) الميسور	صوابه : ومن (لا تتسع) يده (لغير) الميسور
١٠٢	٦	في ذلك اليوم الذي قلنا انه الاعياد	صوابه : قلنا انه (من) الاعياد
	١٠	ان الله لا يلطف (لامجاد) ما شاء من خلقه	صوابه : (لانجاد) ما شاء من خلقه
	١٩	من انواع ما في البر (والغرائب) ما في البحر	صوابه : (وغرائب) ما في البحر
١٠٢	٢٠	(والمارماس)	صوابه : (والمارماهي)
	٢٣	ولا حيلة لنا (من) عدّه واستيفائه	صوابه : (في) عدّه واستيفائه
	٢٤	او ظننت ان (غليلا) مات	صوابه : (عليلا) بالعين
١٠٣	٤	(فيعذر) وجود ذلك عليه	صوابه : (فتعذر) وجود ذلك
	٩	عظيم النصيب من (لطيف) الله	صوابه : من (لطف) الله
١٠٤	٤	اربعة (الف) الف وثمان مابة فرخ ودجاجة	صوابه : اربعة (آلاف) الف وثمان مابة (الف) فرخ ودجاجة
	١١	افحسبت انك اعتقدت ستين الف حمام	صوابه : افحسبت انك (لو) اعتقدت ... الخ
١٠٦	١٦	وتسعة (الف) الف وخمس مابة . . . الخ	صوابه : وتسعة (آلاف) الف ... الخ
١٠٧	١	تسع مائة (و) الف واثنان وسبعون الفا	صوابه : ان تحذف الواو فتكون : تسع مائة الف ... الخ
	١١	سبعة (الف) الف الف كر	صوابه : سبعة (آلاف) ...
	١٢	تسعة (الف) ... الخ	صوابه : تسعة (آلاف)
	١٤	بخمس مابة دينار	صوابه : بخمس مابة (الف) دينار
	١٩	في الخمس مابة دينار	صوابه : في الخمس مابة (الف) ...
	٢٢	تسعة (الف) الف الف	صوابه : تسعة (آلاف) ...
	٢٣	تسعة (الف) ... الخ	صوابه : تسعة (آلاف) ...
	٢٥	سبعة (الف) ... الخ	صوابه : سبعة (آلاف) ...

الصفحة	السطر	
١٠٨	٢	سبعة (الف) ... الخ صوابه : سبعة (آلاف)
	٢٠	كنت مع (جريز) بالزاي صوابه : (جرير) براءين
١٠٩	٤	ولها اربعة ابواب . . . يظهر (فيه) الفسق صوابه : يظهر (فيها) الفسق
	٧	ما اسست بغداد إلا على (الغلا) مرة حرق ومرة غرق ومرة فتنة احسب ان الصواب : ما اسست بغداد الا على (ثلاثة)
	١٧	ولم (يشناها) اهلها عن منكر صوابها : ولم (يشناه) اهلها عن منكر
	٢١	تظهر (رايات السود) من خراسان صوابه : (الرايات السود)
١١٠	١	فكيف بكم اذا حشرتم ذات نخل وكرم صوابه : (في) ذات نخل وكرم
	١و٢	يجتمع اليها كل بر وفاجر فقال بغداد صوابه : يجتمع اليها كل برّ وفاجر (قالوا : وما هي ؟) فقال : بغداد
	٢و٣	يقال له عبدالله يكون خلافته رخص (الشعر) بالشين صوابه : يكون (في) خلافته رخص (السعر) بالسين
١١٠	٧	ودير في موضع العتيقة وآخر يقابله (من) موضع الدعالجة صوابه : يقابله (في) موضع الدعالجة .
	٢٠	وافتض (من) ذلك صوابه : وافتض (في) ذلك
١١١	١	اما اسواقها (فكاذة) واما مساجدها فلاغية صوابه : اما اسواقها (فكادية) . .
	٥	(وان ارادوا بك) ان يفرقهم (فما يضيع) اما (سمعت) يقول فلما (اسفونا) انتقمنا منهم فاغرقناهم اجمعين . صوابه : (وان اراد ربك) ان يفرقهم (فما يصنع) ، اما سمعته يقول : فلما (آسفونا) انتقمنا منهم فاغرقنا هم اجمعين
	١١	كالمتبد في (الحشر) بالراء صوابه : كالمتعبد في (الحش) وهو الكنيف
	١٦	فان في جوارهم (مشتبه) لنار الحرص (وغصيص) الشهوات (معانيتهم) ذم القناعة (بصغير) النعم . صوابه : فان في جوارهم (مشبة) لنار الحرص (وغصص) الشهوات (معاشهم) ذم القناعة (وتصغير) النعم
	٢٠و٢١	فقال يقول لرجل يسكن بغداد لا بأس به صوابه : فقال لرجل يسكن بغداد لا بأس به ؟
	٢٢	قال ابو (الاحوض) بالضاد صوابه : (الاحوص) بالصاد
١١٢	٥	يجيء احدكم يسال عن (المسكن) كانه من عمل الله صوابه : يسال عن (المسالة) ... الخ
	٦	فاذا قيل له اين المسكن ، قال في (عشر) الظلمة صوابه : فاذا قيل له : اين المسكن ؟ قال : (في عش) الظلمة

الصفحة	السطر	
	٨	قل لمن اظهر التصوف للنـــا ... س وامسى (بعد) في الزهـاد صوابه : وامسى (يعد) في الزهاد
١١٢	٩	ليس بغداد منزل (للعباد) ... صوابه : منزل (العبّاد)
	١٢	ما انت يا بغداد الا سـلح ... اذا اعتراك مطر او(نفح)بالفاء صوابه : (او نضح) بالضاد
	١٥	وان (جفت) فتراب (برخ) بالخاء اقول : اولا صوابه : وان (خفقت) فتراب (برح) بالهاء المهملة ثانيا ـ هذا الشطر تتمة للبيت الذي سبقه في السطر ١٣
	١٥ـ١٨	اقول : اورد المحقق في هذه الاسطر ثلاثة ابيات ، هي في الواقع بيتان اثنان اذ ان ما جعله الشطر الاول للبيت الاول يقتضي ان يلحق بالبيت الذي سبقه في السطر ١٣ ، كما ان ما جعله الشطر الثاني في البيت الثالث ، انما هو نثر يقتضي ان يلحق بما بعده من الحديث ، وسأثبت الترتيب الصحيح لهذه الاسطر الحاقا بما قبلها وربطا لما بعدها : سأل المعتصم ابا العيناء عن بغداد ، وكان سيء الراي فيها ، فقال : هي يا امير المؤمنين كما قال عمارة بن عقيل : ما انت يا بغـداد الا سـلح ... اذا اعتـراك مطـر او نضح فــان خفقت فغبـار برح وكما قال آخر : هل الله من بغداد يا صاح مخرجي ... فاصبح لا تبدو لعين قصورهـا وميدانها المذري علينـا ترابهـا ... (اذا شحجت ابغالها) وحميرهـا فبي ام الوحول ، ومطرح النفول : عذرتها في طرقها : (وقذرها) في وسطها ، يموت اهلها في الصيف حرقا ، وفي الشتاء غرقا ... الخ
١١٢	٢١	(الغريب) بها مكدر ، (والمقرب) بها اهل احسب ان صوابه : (القريب) بها مكدر ، (والمغترب) بها اهل
	٢٢	شبابها (يتناهدون) وصبيانها (يواجرون) صوابه : شبابها (يتناهرون) وصبيانها (يؤاجرون)
١١٣	٣	كنوز قارون ان (يكون) له ... وعمـر (هـوج) وصبر ايوب صوابه : (ان تكون له) ... وعمر (نوح)
	٥	خلوا ســبيل العلـى لغـيرهم ونافسوا في الفسوق (والخوب) بالخاء صوابه (والحوب) بالحاء المهملة
	٧	اقمت ببغــداد اشــهرا ... وكنت ببغـداد ذا (غـيره) احسب ان صوابه : اقمت ببغـدادكم اشـهرا ... وكنت ببغـداد (ذاخبـره)
	٨	فما ان قطعت بها شـعرة ... وما ان (فتنت بها حـره) احسب ان صوابه : وما ان (نتت بها كسره)
	٩	وما ان (توفق لي) حاجة احسب ان صوابه : وما ان (وفقت في) حاجة

الصفحة	السطر	
	١٠	وعاندني الخير مذ جئتهـــا معاندة الضـرّة (للضـّرة) صوابه : معاندة الضرة (الضرة)
	١١	(واني عاشق بها درهمــا) (ومن لي يا صاح بالزهرة) الشطر الاول ، احسب أن صوابه : انا لم (اعاين بها درهما) الشطر الثاني ، احسب ان صوابه : (ومن لي يا صاح بالنقره) والنقرة : الفضة
١١٣	١٢	(فعجبي) بسيري الى بلـد كعجب الطفيلي بالسـفرة احسب ان صوابه : (عجلت) بسيري الى بلـدة (كعجل) الطفيلي بالسـفرة اقول : انا غير واثق من هذا التصويب
	١٥	وعـدت اليهـا فقرينتـي طلاق ثلاثا وجاريتي حـره احسب ان صوابه : وعـدت فصاحبتي طالـق ثلاثـا وجـاريتي حـره
	١٧	لقد طال في بغداد ليلـي ومن يبت ببغداد يصبح ليله غير (واحـد) صوابه : غير (راقد) وكنت ارجح لو ان المحقق وضـع الكلمـة الصحيحة في المتن ، واثبت الاصل الخطأ في الحاشية
	١٩	(ديارجة) شهب البطون صوابه : (دبازجة) بالزاي
	٢١	زعم الناس ان (الليل) يا بغداد صوابه : زعم الناس ان (ليلك) يا بغـ ـداد ليل يطيب فيه النسيم
	٢٣	وقليل الرخا يتبع الشدة صوابه : وقليل (الرخاء يتبع) الشـ ـدة عند العباد امر عظيم اقول : ان حذف البغداديين للهمزة ، لاينبغي ان يسري على الشعر ، لان حذفها في الشعر قد يؤدي الى اخلال بالوزن
	٢٥	ترحل في بغـداد دار اقامـة ولا عند (من جاء) ببغداد طائل صوابه : ولا عند (ذي جاه) ببغداد طائل
١١٤	٥	وسأله ايام الفتنة صوابه : في اضافة كلمة (فتى) فتكون الجملة : وسأله (فتى) ايام الفتنة
	١٢	وقال مكحول بن (جارية) احسب ان صوابه : ابن (حارثة)
	١٨	ولم (اتوانى) في بغداد حبا لاهلها صوابه : ولم (اثو) في بغداد حبا لاهلها
	١٩	سارحل عنها قاليا (لميراتهـا) واتركهم ترك (الملـوك للخايب) صوابه : سارحل عنها قاليا (لسـراتها) واتركهم ترك (الملـول المجانب)
	٢٠	في (حريم) النوائب صوابه : في (حرآم) النوائب

الصفحة	السطر		
	٢٣	تجده من كان (ذا) جئته	صوابه : (اذا) جئته
	٢٣	مستترا عنك (بافلاس) اقول : انا في شك من صحة وضع كلمة الافلاس هنا ولعل الاصل : مستترا عنك (باحباس)	
١١٥	٨	محبوب بن ابي (العشط) النهشلي	صوابه : ابن ابي (العشنط)
	٩	لروضة من رياض او طرف اقول : فيه نقص كلمة وصوابه : لروضة من رياض (الحزن) او طرف	
	١٣	انزو واخلط تسبيحا (بتلويث) ـ باللام	صوابه : اخلط تسبيحا (بتغويث) بالغين
	١٧	فيا ليت شعري هل أزورن بلدة قليل بها (او بائها وسيدها)	احسب أن صوابه : قليل بها (اوباؤها ووبيدها)
١١٥	١٨	وهل (اسمعت) الدهر اصوات ضمر تطالع بالركبان صمرا (حدودها) بالحاء المهملة	صوابه : واهل (اسمعن) الدهر صمرا (خدودها) بالخاء
	١٩	وهل ارين الدهر (نار) بارضها	صوابه : (ناراً) بأرضها
	٢٠	مبتدأ دجلة من تحت (حصر) في جبل بآمد	صوابه : من تحت (حصن) في جبل بآمد .
	٢٢	ثم تخالطها انهار عظيمة منها الخابور (والزرر)	صوابه : (والرزم)
١١٦	١	ومن تل (فما قان)	صوابه : ومن تل (فافان)
	٣	حتى تعيد الى (البطليح)	صوابه : (البطايح)
	١٢	ومقامها مقام (الشكور) بالشين	صوابه : (السكور) بالسين مفردها سكر
	١٧	فاما ياخذ منها	صوابه : فاما (ما) ياخذ منها
	١٧	(فالثافتان) الشتوية والصيفية اقول : لم اعثر على تفسير لهذه الكلمة ، وان كان وضعها في الكتاب يدل على انهما (قناتان) ولعل صوابها (فالشاختان) والشاخة : الساقية المتشعبة من النهر ، وما زال هذا اسمها ببغداد	
	١٩	(وتنخلان) شوارع سامراء	صوابه : (وتتخللان)
	٢١و٢٢	فلقصر ايامه لم يستو ذلك	صوابه : لم يستو (له) ذلك
١٢٣	٢٥	(والحنادق) بالحاء المهملة	صوابه : (والخنادق) بالخاء
١٢٥	٢٥	اورد الطبري خبر الراهب (والمقلاص)	صوابه : (ومقلاص) لانه اسم علم
١٣٤	٢١	مربعة شبيب بن روح (المرحة وذي)	صوابه : (المروروذي)

الصفحة	السطر		
	٢١	(كما ذكرني) ابن مخلد	صوابه : (كما ذكر لي)
١٣٥	١٧	من ولد (اهبان لهن) صيفي	صوابه : اهبان بن صيفي
١٤٠	٢٥و٢٦	قنطرة (بن) زريق	صوابه : قنطرة (بني) زريق
	٢٧	قوم من (البناء) المشهورين	صوابه : من (التناء) بالتاء
١٤٣	٤	سمي المخرم ببغداد (مخرجا) بالجيم صوابه : (مخرما)	
	٢٢و٢٣	ان الصالحية نسبت الى صالح بن المعروف بالمسكين صوابه : الى صالح بن (المنصور) المعروف بالمسكين	
١٤٤	٢٠	وانما يأكله (المتحملون) بالحاء	صوابه : (المتجملون) بالجيم
	٢٤	قال المحقق : لم اجد في المصادر ذكرا لشارع الثلاثة ابواب ولعله تحريف شارع الثلاثاء اقول : لم يرد في الخطط اسم لشارع اسمه (شارع الثلاثاء) وانما هو سوق الثلاثاء اما الموضع الذي سماه المؤلف بشارع الثلاثة ابواب ، فهو على ما وصفه في المنطقة التي تقع فيها سويقة نصر بن مالك وقنطرة البردان ؛ واين سوق الثلاثاء الواقع جنوبي المخرم من تلك المنطقة التي تقع غربي الرصافة ، والذي احسبه ان شارع الثلاثة ابواب هو الشارع الذي تقع في اطرافه الابواب الثلاثة : باب البردان ، وباب الطاق وباب الجسر	
١٤٥	١٥	ماذا ببغداد من طيب (الافان)	صوابه : من طيب (الافانين)
١٤٦	٢١	اليلتنا بذي (حشم) أنيري	صوابه : بذي (جشم) بالجيم
١٥٠	٢١	احمد بن ابراهيم (الاقليدس)	صوابه : (الاقليدسي)
١٥٣	٤	بطسوج (في) بادوريا	صوابه : طسوج بادوريا
	١٢	(والطيرزد) بالياء وهو التمر الذي يسميه البغداديون اليوم (تبرزل)	صوابه : (والطبرزد) بالباء
	١٢	(الخاستوى) بالمقصورة وهو التمر الذي يسميه البغداديون اليوم (الخستاوي)	صوابه : (الخاستوي)بالياء
١٥٥	١٩	(ماري) والله مغنية بغدادية	صوابه : (ما ارى) والله
	٢٠	(ولازاجرة) زنامية ، كانها (مراة محلية) صوابه : (ولا زامرة) زنامية ، كانها (مرآة مجلية)	
	٢١	خريجة (سارية) بالسين صوابها : خريجة (شارية) بالشين	
	٢٧	اورد المؤلف في الصفحة ٧٣ بعض الاسماء المشهورة في عالم الغناء والطرب فعلق المحقق بقوله : ان صاحب حكاية ابي القاسم البغدادي أورد اسماء عدد من المغنيات في بغداد « غير انه ليس فيها من الاسماء التي اوردها المؤلف » اقول : السبب في ذلك بين ، فان حكاية ابي القاسم البغدادي من تأليف ابي حيان التوحيدي ، وقد ذكر في كتابه حكاية ابي القاسم البغدادي اسماء المغنيات اللواتي سمعهن في منتصف القرن الرابع ، في حين ان مؤلف كتاب بغداد من رجال القرن الثالث ، وهو يتحدث عمن سبقه أو عاصره من المشهورين .	

الصفحة	السطر	
١٥٦	٣	يكنى ابا (دليجة) بالباء صوابه ابا (دليجة) بالياء المثناة
	٥	(وبنان) هو — صوابه : (وينان) بالباء
	١٢	(عريبية وثارية) بالثاء — صوابه : (وشارية) بالشين
	٢٦	ولعل منهم هو تحريف (ميتم) بياء ، ثم تاء صوابه : تحريف (متيّم) بتاء وياء مشددة
١٥٩	١٣	(السرخي) — صوابه : (السرخسي)
١٦٠	١–٨	اورد المحقق في ترجمة علي بن الجهم : ان الواثق خصه بمكانة خاصة ثم غضب عليه فحبسه وصادره ونفاه الى خراسان الصواب : ان المتوكل هو الذي صنع به ذلك
	٩	يزدجرد بن (مهبنداد) صوابه : (مهينداد) بالياء المثناة
١٦٧	٢	(ووحج مغلوقة مصدة) صوابه : (ودجج (أي دجاج) معلوفة مصدرة)
	٢٣	قال المحقق في بحثه عن (اللكاء) : لعله كان بلون اللك ، وهو احمر اقول : اصاب الاستاذ المحقق ، فان (اللكاء) تعريب الكلمة الفارسية (لكا) وتعني : السختيان ، والجلد غير المدبوغ ، او الورد الاحمر
١٦٨	١٣	قال : (دفعتنا) الضرورة الى المقام — صوابه : (دفعته) الضرورة
	١٦	قل ان اظهر التنسك في النـاس وامسى (بعد) في الزهاد صوابه : (يعد) في الزهاد
١٦٩	٦	سوى معشر (يحلو وحل) قليلهم يضاف الى بذل الندى وهو باخل صوابه : سوى معشر (قلوا ؛ وجل) قليلهم

تصويبات واستدراكات على (بغداد في سنة ١٨٥٣) لفيلكس جونس

بقلم

نجلة اسماعيل العزي

المؤسسة العامة للآثار ـ بغداد

قام السيد عبدالوهاب الامين بترجمة فصل من فصول كتاب السائح والقائد الانكليزي جيمس فيلكس جونس ، وقد بدأ ترجمته هذه بتقديم فيلكس جونس بمقدمة قصيرة هامة ، واوضح ان من جملة فصول كتاب جونس ، فصل (اقليم بغداد) ثم استطرد « وقد كان فصل اقليم بغداد من اهم فصول هذا السفر النفيس لما ضمه من معلومات ومشاهد لم يبق منها اثر الان وهو مزود بالصور التسجيلية لمختلف انواع المباني وذلك هذا الخارطة النفيسة للمدينة وهي بذاتها تعد انجازا لا مثيل له من جميع الوجوه ولذلك اثرنا نقله ونشره تباعا في المورد مع الخارطة اليتيمة وتصاويره المختلفة » .

لقد عكفت منذ مدة ليست باليسيرة على ترجمة هذا الكتاب الهام بالنسبة للعاملين في حقل الاثار وكذلك للمهتمين بشؤون التاريخ والخطط والجغرافية ، وقد قطعت فيه شوطا كبيرا هذا بالاضافة الى قيامي بترجمة فصل (اقليم بغداد) وتحقيق المعلومات الاثرية والتاريخية الواردة فيه ، لذلك وجدت العديد من المآخذ على ترجمة السيد الامين مع ما بذله من جهد مشكور بترجمة هذا الفصل ، فهو كما نرى مترجم وناقل للمادة الاجنبية الى اللغة العربية والترجمة او النقل من لغة الى اخرى تستدعي الامانة ونقل افكار المؤلف والحفاظ عليها ، هذا وقد اعتمد الكثير من الباحثين في شؤون العراق الاثرية والجغرافية والمساحة والري على هذا الكتاب وقد اشار البعض منهم اليه كما اغفل البعض الاخر الاشارة اليه ولكن مجهود السيد الامين بترجمة هذا الفصل مجهود واضح ومشكور وقد وجدت من الضروري ان ادون بعض الاستدراكات والتصويبات والاضافات التي سقطت من المترجم وتوخيت فيها استكمال الفائدة من ترجمة هذا الفصل .

هذا الكتاب هو مجموعة تقارير مقدمة الى حكومة بومباي التابعة لبريطانيا كما ذكر السيد المترجم ، وهذه التقارير بدات بالتقديم متسلسلة بالزمن اولها كان سنة ١٨٢٦ وآخرها سنة ١٨٥٤ وكان تاريخ نشر هذه المجموعة كاملة سنة ١٨٥٧ اي في الوقت الذي كانت بريطانيا تتطلع فيه الى العراق لتقدير ما فيه من امكانيات عظيمة في جميع الميادين فارسلت مختلف البعوث لمختلف الاغراض من رحالة وجوابين ومساحين ومهندسين وآثاريين ودبلوماسيين لدراسة احوال العراق تمهيدا للسيطرة عليه بعد انتزاعه من السيطرة العثمانية وذلك ما حدث فعلا سنة ١٩١٧ بعد الحرب العالمية الاولى ، وكان القائد فيلكس جونس من ضمن هؤلاء السائحين الذين ارسلتهم بريطانيا لهذا الغرض فكانت تقاريره هذه كتابا نشرته حكومة بومباي سنة ١٨٥٧ .

يقع الكتاب في خمسمئة صفحة ويحتل فصل اقليم بغداد الصفحات من ٣٠٤ الى ٤٠٢ اي مئة صفحة منه ويشمل ملاحظات ملحقة بخارطة بغداد تشمل تاريخ وموقع مدينة بغداد خاصة الشرقية منها باسوارها وسكانها ومناخها ومزود بتسعة صور لمناظر مرسومة باليد لمدينة بغداد وفيها ايضا ما يلي :

- وصف الجانب الشرقي للمدينة مع جداول بالمحلات والابنية الرئيسية التي تتضمنها بقسمي بغداد الشرقي والغربي تحتل الصفحات من ٣١٢ الى ٣٢٩ .
- جداول باسعار المواد الغذائية من الص ٣٤٢ الى الص ٣٤٥ .
- جداول باجور العمال والصناع والتجار من الص ٣٤٢ الى ٣٥١ .
- جداول بالاوزان والمقاييس والمكاييل السائدة في اسواق بغداد الص ٣٥٢ .
- جداول بانواع واجناس الدراهم في سوق بغداد ، من الص ٣٥٣ الى الص ٣٥٥ .
- ملاحظات عامة حول اقليم بغداد ، الص ٣٥٦ .
- عشائر العراق من الص ٣٦٩ الى الص ٣٨٦ .
- اصول الخيل ، الص ٣٨٦ .
- جداول بالطيور والحيوانات الصغيرة من الص ٣٨٩ الى الص ٤٠٢ .

هذا ما تضمنه فصل اقليم بغداد من مواد متسلسلة حسب مواضيعها وصفحاتها كما هو مذكور اعلاه ، وفيما يلي بعض المآخذ التي وقفت عليها حول ترجمة السيد الامين لهذا الفصل : ـ

أولا : الخارطة ـ وقد وصفها السيد الامين بـ (الخارطة اليتيمة) أو (الخارطة النفيسة) ، وهي بذاتها تعد انجازا لا مثيل له من جميع الوجوه ، وهي لعلا كذلك فان الخارطة هي اهم ما في فصل اقليم بغداد حيث ان هذا الفصل الذي يحتل مائة صفحة هو كما جاء في عنوانه ليس الا شـــروح وملاحظات تكون ملحقا بخارطة بغداد ، وقد نشرت هذه الخارطة قبل السيد الامين في ابحاث آثارية وخططية اخرى وان السيدالامين لم يمتني بنشرها وانما نشرها بدون ترجمة وحذف ارقام الاحالة من الجداول الملحقة بهذه الخارطة وتعتبر هذه الجداول مادة رئيسية في هذا الفصل فهي تحمل ارقاما لكل محلة وعقد وبناية عامة ولم يبين وجه العلاقة بين الجداول والخارطة علما بان هذه الجداول كتبت باللغتين العربية والانكليزية مع ترجمة الى الانكليزية بالمعاني الواردة فيها مثل ما يلي :

الرقم		المعنى
— No. I. Mahalat Suk al Chazil :	(محلة سوق الغزل)	— Quarter in the town
— Suk :	سوق	— Bazar
— Jama :	جامع	— Mosque
— Aked :	عقد	— Aked is a term signifying a group or knot of houses between two streets.
— Kahweh :	قهوة	— Coffe house
— Hamam :	حمام	— Bath
— Khan :	خان	— Caravanserai
— Jesser :	جسر	— Bridge
— Kishleh :	قشلا	— Barrack
— Madrasseh :	مدرسة	— College
— Musjed :	مسجد	— Small hous for prager

ثانيا : تصويبات عامة في الترجمة ذاتها ـ قبل الاشارة الى بعض التصويبات في نصوص الترجمة ذاتها هناك ملاحظات عامة كان من الواجب على المترجم الكريم اتباعها وهي :

أ ـ مقارنة التاريخ الهجري بالميلادي ، وكان المؤلف قد ذكرها كلها حسب ورودها بالاشارة اليها اسفل الصفحة فكان المترجم الكريم يصفها احيانا واحيانا يغفل عنها .

ب ـ عدم تدقيق بعض اسماء الاعلام والاماكن والبقـاع والمصادر العربية وبعض المصطلحات التي اوردها المؤلف مكتوبة بالحروف اللاتينية ، فكان من واجب المترجم تدقيقها مع بعض المختصين ووصفهـا بحروفها اللاتينية بين قوسين الى جانب العربية .

ج ـ عدم مراعاة التسلسل في الترجمة وسنأتي على ما فات المترجم الكريم بهذا الشأن .

وفيما يلي التصويبات في النصوص المترجمة :

ـ ذكر المترجم مدينة « اوبتس » في المقدمة والصحيح هـو (اوبس) (Opis)

ـ ورد في النص ٢٠٤ عنوان الفصل الذي ترجمه بـ (ملاحظات عن خارطة بغداد) وهو ما يلي :

D- Brief observation forming an appendix to the map of Baghdad, By Felix Jones, Commander Indian Navey, and Surveyor in Mesopotamia.

ويترجم العنوان وهو عنوان مهم لعلاقته الكبيرة بخارطة بغداد كما يلي :

ملاحظات مختصرة تكون ملحقا بخارطة بغداد ، وضعهـا فيلكس جونس القائد في البحرية الهندية والباحث في ما بين النهرين .

ـ ورد في نفس النص : (يمثل مخطط هذه الخارطة مدينة .. الخ) ، والصحيح (تمثل الخارطة التالية مخطط التي لمدينة ... الخ) .

ـ ورد : (فبعد الهدم التام الذي احاط بسلوقية وقطيفون حيث انشا خمسة من الآباء المبشرين الكرسي البابوي ، لجأ المتروبوليون الى هذا المركز وظل لقب (كبير اساقفة بابل لاصقا بهذا البحر الخضم من البابويه ... الخ) والصحيح كان من ما يلي :

.. وبعد خراب مدينتي سلوقية (Seleucia) وطيسفون (Ctesiphon) اللتين فيهما اسس الاباء المبشرين الاوائل بيعه النصارى الشرقية الكبرى ، ظل لقب بطرك بابـل مرتبطا بمقر البابوية ومعتبرا اكثر الالقاب فيها تشريفـا واحتراما .

ـ ورد اسم ديربلوت في تاريخ الاسلام . وهو كما كتبـه المؤلف كما يلي :

D. Herbelot's history of the Mahomedans.

ص ٣٠٥ ـ في الحديث عن الثلثمائة حمام يشير الى هامش رقم (٢) وفيه (يراجع كتاب تاريخ بغداد وكتاب خريدة العجائب حول هذا الموضوع) .

هامش (٢) ـ انظر في هذا الموضوع كتاب تاريخي بغداد Tarikhi Baghdad وكذلك الرسالة المسماة بـ (خريدة العجائب) Kharidat al Ajaib

ـ عند الحديث عن عصر المامون ترجم ما يلي : (وشجع العلوم والقضايا الفكرية العويصة ... الخ) وهي تترجم كما يلي : (وشجع الحركة العلمية والترجمة والعلوم بقسميها العلوم العقلية والعلوم النقلية .)

ص ٣٠٦ ـ (وفي تاريخ ابي الفدا نجد برنامجا من برامج الخلخلة في بلاط الخليفة المقتدر) الصحيح : ـ ويورد لنا ابو الفدا Abulfida في تاريخه وصفا دقيقا لمجلس فخم في بلاط الخليفة المقتدر جرى عند استقبال احدى سفارات الروم) .

ص ٣٠٧ ـ (... واليد التي كتب بها هارون الرشيد الى الامبراطور نيسفورس ودعاه فيها الكلب الروماني ... الخ).. الصحيح :

... ان الخليفة هارون الرشيد لما حرر رسالة الى امبراطور الروم نسفورس Nicephorus (اونقفور كما تسميه المصادر العربية) ، دعاه فيها بـ (كلب الروم) .

ـ (.. ثم استولت عليها تلك القبائل المعروفة باسم آق قوينلو او الابيض والاسود من الماشية حتي سنة ٩١٤ هـ ـ ١٥٠٥ م عندما فتحها العاهل الفارسي الشاه اسماعيل الصفوي) . والصحيح :

وتعاقبت الاسر التركمانية بالحكم عليها وهي المعروفة بالآق قوينلو Ak Koyunlu (الخروف الابيض) القره قوينلو Kara Koyunlu (الخروف الاسود) الى سنة ٩١٤ هـ ـ ١٥٠٥م حينما استولت عليها جيوش الشاه اسماعيل الصفوي (كـذا) Shah Ismail Suli

ـ الرحالة الدانماركي نايبوهر . وهو نيبور (Niebhur) .

ص ٣٠٨ ـ مابين السند وجبل طارق .. من جبل طارق الى بلاد ما وراء النهر (oxus)

ص ٣٠٩ ـ (ونجد في احدى الكتابات العربية البارزة على الجدار اللولبي لباب الطلسم) . والصحيح :

(.. اعلى الوجه المنحني لبرج باب الطلسم الاسطواني ، يوجد شريط من الكتابات الآجرية ..) .

ـ عند الحديث عن اسوار بغداد ورد ما يلي : (وللسور عشرة ابراج نصف مخباه في السور الخارجي؟ ... هامش؟ نجد في كتاب نشاة القلوب لعبدالله المصطافي ان سورا مبنيا بالكلس والطابوق ... الخ) والصحيح :

وللسور عشرة ابراج نصف اسطوانية تندمج بجداره الخارجي؟ هامش؟ .. ورد في كتاب نزهة القلوب لحمدالله المستوفي من ان سورا من الكلس والآجر المحروق جعل للخندق ... الخ .

Nushat al Qululo of Abdallah (كذا) Mustaf
لكنه يورده صحيحا في هامش ص ٢١٠
Hamdallah Mustafa

ثالثا : ص ٣١٢ ـ الجداول الملحقة بخارطة بغداد ـ لم يهتم السيد الامين بالارقام الواردة في الجداول التي هي في الحقيقة ارقام تخص الخارطة المذكورة لتعيين موقع كل محلة وجامع وعقد وقهوة . فكان على المترجم الكريم لكونه ناقلا وليس محققا ان ينقلها كما هي ملحقة بالخارطة خاصة وان الخارطة كما ذكر المترجم ، اهم مافي الفصل وهي ، (نفيسة) و (يتيمة) ، ولاشك في اهميتها ولكن المؤلف كتب الجداول باللغتين العربية والانكليزية وكتب الالفاظ والتسميات كما تلفظ بالعربية بحروف لاتينية يقابلها معناها بالانكليزية ،وقد كتبها كما كانت تلفظ في حينها ويبدو انه اخذها عن الادارة العثمانية في حينها ولكن المترجم تصرف ببعض الاسماء الواردة فيها وكتبها كما نلفظها في يومنا هذا وقد شرحت آنفا ما قام به المؤلف من كتابة الاسماء والالفاظ بالعربية (انظر نموذج للجداول مرفقة مع هذه الفقرة) وفيما يلي سأذكر فقط مافاته المترجم الكريم من ارقام الجداول والاسماء التي سقطت وتصحيح الالفاظ على جداول المؤلف فقط محتفظة بالجداول المصححة لنشرها كاملة محققة مع فصل اقليم بغداد .

الارقام	البناية او مجموعة البنايات التي تضمها محلة واحدة	اللفظ الصحيح ومافات المترجم من اسماء
١ ـ	محلة سوق الغزل	No - Mahalet Suk al Ghazil
	عقد الجيلاويين	عقد دجلاويين
٢ ـ	محلة راس القرية	الكريسة
	عقد السقالي	عقد سقالي
	جامع الخاصكي مابين سنة ١٠٩٤ هـ	واصله كنيسة قديمة .
	عقد الكاوور	عقد كاور
	العقد الضيق	ضيق
٣ ـ	محلة سيد سلطان علي	
	تكية مرزة علي	قزرة قلسي
	جامع حاج نعمان	حاجي نعمان
	عقد العجيليين	عجيلين

الارقام	البناية او مجموعة البنايات التي تضمها محلة واحدة	اللفظ الصحيح ومافات المترجم من اسماء
٤ ـ	محلة آت الماجي	
		ـ عقـــد اوينچي
٥ ـ	/	محلة اليهود وفيها كنيسهم الرئيسي
٦ ـ	محلة قنبر علي	
٧ ـ	جامع مرجـانيـة	المرجـانية
	جامع الرحبانيـة	جامع المرجانية
	خان المرجانيـة	وهو وقف للجامع وهو كما يدل عليه اسمه (خان الاورطمة)
	خان الاورتمة	هو الخان المســقوف
٩ ـ	محلة الحيدرخانة	حيـدرخانة
	عقد الجامع ـ بناه داود باشا سنة ١٢٤٣ هـ	ـ جامع داؤد باشا ، وهو جامع الحيدرخانة الـذي بني سنة ١٢٤٣ هـ ـ ١٨٢٧ م
		قهوة ايمش
١٠ ـ	جامع احمد الكهيـا	١٢١١ هـ ـ ١٧٩٦ م
١١ ـ	محلة حسين باشا . ٧٢٨ هـ	٧٢٢ هـ ـ ١٢٢٢ م
١٢ ـ	محلة الفضل	
	ـ	عقـد طاق ابو صلال
	عقد الشــبانة	التبـانة
	قهوة التختة بند (صاحبها ابو عصفور)	مال ابو عصفور
		عقـد دكان شلال
	ـ	عقـد سيد عبدالله
	جامع الفضل : بني سنة ١١٩٧ هـ	يقابله بالميلادي ١٧٨٢ م
	عقـد الچلمتچي	عقـد چباچي
	قهـوة الشبانـة	تبانـــة
١٣ ـ	محلة باب الاغـــا	
	عقـد الدشتي	دشـــت
	عقـد العلويـة	علويـــة
	عقـد المنارة المقطوعة	ميـنارة مكطومة
١٤ ـ	محلة العاقوليـة	
	عقـد العاقولية ... ١٠٩٥ هـ	يقابله بالميلادي ١٦٦٢ م
	عقد محمود اسطة	اسطـة
	عقـد الربيعي	روبيعـي
١٥ ـ	محلة جامع خضر بك	
	عقـــد كمش حلقة ... ١١٣٢ هـ	ـ ١٧٢٠ م
١٦ ـ	جامع العادلية	
١٧ ـ	قهـوة جديدة	
١٨ ـ	خان التمر	
١٩ ـ	خان الدفتردار	
٢٠ ـ	خان المصبغة	
٢١ ـ	خان الكمرك	
٢٢ ـ	سوق الصياغ	
٢٣ ـ	سوق هرج	
٢٤ ـ	سوق المولة خانة	
٢٥ ـ	محلة صبابيغ	
٢٦ ـ	جامع الوزير	

الارقام	البناية او مجموعة البنايات التي تضمها محلة واحدة	اللفظ الصحيح ومافات المترجم من اسماء
٢٧ -	جسر وقشــلا	الجسـر والقشلـة ويقعـان جنـوب المدرســة المستنصرية التي بنيت سنة ٦٣٠ هـ - ١٢٣٢ م وعليهـا كتابات بديعـة .
٢٨ -	القشــلا	البناية العسكرية ومعها المستشفى
٢٩ -	السراي	
٣٠ -	الحرم	
٣١ -	محلة باب المعظم	
	جامع الباشا داقو (كذا) بناه حسين ... ١٧٢٩ م	وهو جامع بناه حسن باشا سنة ١١٣٢ هـ - ١٧٢٠ م
	قهوة السلاخانة	ســلاخانة
٣٢ -	محلة الميدان	
	قهوة السقالي	ســقالي
٣٣ -	محلة البلنجية	بلانجية
	-	عقـد ويس بلانجية
	قهوة التخنة بنـد	تختـة بنـد
	قهوة اجق باشـا	باشي
٣٤ -	محلة ايلان ديلي	
	قهوة ابلي وللي	- ايلان ديلي
٣٥ -	محلة الرادبـة	
	جامع مراد باشـا	وهو جامع يسمى جامع المرادية بناه مراد باشا ... الخ
	-	عقـد المرادية
	-	خـان المراديـة
	عقــد مير البحر	مير بحـر
٣٦ -	محلة الطوبجية	الطبجيـة
	-	عقـد ميراخـور
	-	قهـوة دودي
٣٧ -	محلة القراغـول	قـره اول
	عقــد افتر جير	الفك جير
	عقــد القراغـول	قره‌اول
٣٨ -	محلة كولدنافر	
	-	قهوة تخته روانجي
	عقــد قليج عبداللـه	عقـد قليج
٣٩ -	محلة دكان شناوة	
	عقـد جوخـدار	جوقـدار
٤٠ -	محلة كنج عثمان	
	عقـد النعمانية	جامـع نعمانيـة
	عقـد كنج عثمان	قهـوة كنج عثمـان
٤١ -	مدرسة علي باشا	
٤٢ -	جامع الاصفية	اصـفية
٤٣ -	محلة المهدية	
	-	عقـد سيد هدبة
	-	عقـد شرّاد

الارقام	البناية او مجموعة البنايات التي تضمها محلة واحدة	اللفظ الصحيح ومافات المترجم من اسماء
٤٤ —	محلة عباس افندي	
٤٥ —	محلة قاضي الحاجات	
	قهوة خان الميرة	ـ الميوه
٤٦ —	محلة الطاطران	ططران
	—	عقد دركزلية
	عقد شمي	شمسي
٤٧ —	عقد شيخ سراج الدين	محلة جامع شيخ سراج الدين
٤٨ —	محلة الهيتاويين	هيتاويين
٤٩ —	محلة الفراشة	فراشة
	عقد منارة المكطوم	منارة المكتوم
	سوق البقال	البقال
	سوق التمارة	عقد التمارة
٥٠ —	محلة الشيخ	
	جامع الشيخ ، مسجد وضريح	ـ جامع ضريح الشيخ ... الخ
	—	عقد الحروف
	عقد الاغوات	الاغوان
	—	عقد الف
	—	الشيخ الف
	عقد المنزلاوي	المنلاوي
	عقد الخندق	الخناق
٥١ —	—	محلة راس الساقية
	—	قهوة التابيل
	جامع النعماني ... ٧٨٠ هـ	ـ بناه الشيخ محمد النعماني سنة ٧٣٠ هـ
٥٢ —	محلة السنك	سنك
	عقد الشطية	شطية
	—	قهوة باب الشرقي
٥٣ —	محلة جميلة	
	عقد المجدبة	المجادبة
٥٤ —	محلة بنات الحسن	
	عقد الوزي	الوزدي
	عقد الكوليه	كوليه
	عقد كاتب الدبية	العربية
٥٥ —	محلة العوينة	العيونية (كذا)
	عقد ربس العوينة	العيونية
	عقد الچناين	الجنابيين
	عقد العوينة	العيونية
	—	قهوة ربس العيونية
٥٦ —	محلة الدهانة	دهانة
		عقد طاق سلة
٥٧ —	محلة صبابيغ الال	
٥٨ —	محلة المربعة	مربعة
	عقد حرموش	هرقوش
	قهوة جبوب	حبوب

الارقام	البناية او مجموعة البنايات التي تضمها محلة واحدة	اللفظ الصحيح ومافات المترجم من اسماء	
٥٩ –	محلة شاه قولي		
٦٠ –	محلة دلال		
٦١ –	محلة جامع حمام المالح		
	–	عقـد باب جامع صغيرة	
٦٢ –	محلة المفرج		
	عقـد احمد حسني	حسـن	
٦٢ –	محلة ابو شبل		
	–	عقـدين غانچيـة	
	–	عقـد الكـور	
	سوق الچبقچية	الچيوغچيـة	
	سوق اليرغانچية	اليورغانچيـة	
	–	قهـوة الخفافين	
	سوق الطغمة (كـذا)		Suk Tumgheh
	قهـوة الطغمة (كـذا)		Kahwat Tumgheh
	سوق التنكچية	التكيـةچيـة	
	سوق الغريب	الضريـب	Suk el Durib
	–	خـان الكتان	
	خان اندريـه	اندريـه حنـة	
	جامع محمد بقال	خـان حاجي محمد بقـال	

محلات القسم الغربي من المدينة

	جامع الشيخ صندل ... ١٧٠٨ م	– ١٧٠٦ م	
	اوقفت عليه الدكاكين	– ... واسواق الحبوب	
٢–	جامع القيصرية	– القيميرية (كذا)	Kimeriyeh
٨–	محلة دهـاش	– دهامش	
	سوق حمادة	– محلة سوق حمادة . وكذلك كل الاسوق التي تتسلسل بعد سوق حمادة تسبقها كلمـة (محلـة)	
٢٤ –	الست زبيدة	– سته زبيدة	
	– جامع الست نفيسـة	سته نفيسة ، جامع بني سنة ١١١٣ هـ – ١٧٠٦ م	

رابعا : هذا وقد اسقط المترجم من الترجمة من هـذا الفصل في نفس العدد ترجمة الصفحات من ٢٢٩ الى ٢٤١ في الكتاب نفسه وهي تلي الجداول مباشرة ثم بعد ذلك ياتي المؤلف على ذكر عشائر العراق – والترجمة ما يلي : –

يمكن القول ان القسم الثالث من اسوار بغداد بني فـي الوقت الحاضر وكذلك ما تحتويه هذه الاسوار من سـاحات وحدائق وانقاض .

هذا ولقسم المدينة خليطا من السكان يبلـغ عددهم ستون الفـا بينما تتحمل مساحتها اربعة اضعاف هذا العدد ، ولامثيل لهذا الخليط السكاني واللغوي في اي مكان آخر . والاتراك هم الطبقة الحاكمة ويشغلون الحيز الشمالي منها ولليهود والنصارى محلات مستقلة خاصة بهم ، اما غالبيةالسكان فهم المسلمون ويشغلون اغلب اقسام المدينة ولا مثيل للتسامح بـين الاديان في اي مكان آخر في العالم الاسلامي كما في بغـداد وبمقارنة اوضاعهم مع بقية المدن الاسلامية نلاحظ انهم يتمتعون بالكثير من الحرية حيث يمكن لليهودي او المسيحي ان يمتطي ظهور الخيل بينما لا يسمح بذلك لهم او لغير المسلمين في بقية المدن الاسلامية بل عليهم ركوب البغال فقط او عادة المشـي على الاقدام للدلالة على الاختلاف الديني ، هذا ويمتهن اليهود مهنة الصرافة ويعاملون بكل ثقة من قبـل كافة الطبقـات ويشغلون هذه الوظيفة بمهارة واستحقاق .

وينقسم سكان المدينة المكون من ١٥ الف عائلة كما يلي :

فالاتراك أو من ينحدرون من اصل تركي ، ٤ الاف نسمة ويليهم الفرس او المنحدرون من عوائل فارسية ويبلغ عددهم الفين وخمسمائة وكذلك اليهود ، اما العوائل المسيحية فيبلغ عددهم الف وكذلك الاكراد ، ويبلغ عدد العرب الفين وكذلك البدو والغرباء ، ويبلغ مجموعهم خمسة عشر الفا وهم كما يلي :

الجنس	العدد مئة الف
الاتراك	٤ر٠٠٠
الفرس	٢ر٥٠٠
اليهود	٢ر٥٠٠
المسيحيون	١ر٠٠٠
العرب	٢ر٠٠٠
البدو والغرباء	٢ر٠٠٠
المجموع	١٥ر٠٠٠ خمسة عشر الف

اما اللغة السائدة بين السكان عامة فهي العربية العامية ، هذا ويتكلم مسيحيوا بغداد نفس اللهجة بقليل من التحريف واهمال بعض الحروف ، اما لغة الطبقة الحاكمة فهي التركية وتليها الفارسية بين التجار ، وتشيع اللغات الكردية والاثورية (الكلدانية) واللرية (اللورستانية) بين الطبقات الدنيا والعمال والحمالين . ويمكن سماع العبرية في محلات بغداد القديمة الخاصة باليهود اما المسيحيين الذين مع المذهب الروماني فيتكلمون العربية العامية السائدة عند عامة بغداد ، هذا ويمكن سماع ما يقرب من ثلاثة عشرة لغة في غرفة واحدة حينما يجتمع الانكليز والفرنسيون والروس والهنود على مائدة المقيم البريطاني .

وبالنسبة لمناخ بغداد ، فيعتبر مناخا صحيا بصورة عامة ، ولكن في فترات الادارة السيئة حينما اهملت السدود وغمرت مياه الفيضان المدينة تفشت الامراض الوبائية كالحميات خاصة ايام الحر الشديد التي تستغرق الاشهر من مايس الى تشرين الاول وهذه لو كانت خاضعة الى طرق الوقاية والحجر والحصول على الادوية لامكن القضاء على اغلب الامراض الوبائية لكن اهمال هذه الوسائل ادى الى تاخير القضاء عليها فاجتاحت البلد وسببت كوارث عظيمة .

هذا وتتباين درجات الحرارة تباينا شديدا حيث لاتطاق في بعض الاوقات واذا صاحبتها الرطوبة والوخامة بسبب مياه الفيضان التي تغمر الاراضي تفشت معها الامراض الوبائية . وفيما عدا هذه الفترات تتميز بغداد بجو معتدل نسبيا ، هذا ويجد العديد في بغداد جاذبيات مختلفة ، فقد فضل ملوك فارس القدماء السهول الواقعة الى الجنوب منها لتكون مشتى لهم ، كما يجد الهنود في جوها راحة كبيرة اما بالنسبة لطالبي الاستجمام والانكليز فيجدون في جوها وتربتها الكثير من الغريبات .

وهذا المناخ لا ينطبق على المناطق التي تبعد منه ميل جنوبها حيث تصبح الحرارة قاتلة وتنتشر الحميات وتبلغ درجات الحرارة شتاءا ٥٠° ف وتنخفض في الصباح الى ٢٦° ف ، وهذا الجو بارد بالنسبة للهنود الحجاج والزوار فهم الذين يلبسون الملابس الثقيلة الى حدما . اما في الصيف فتتراوح ما بين ٩٠° ف الى ١١٧° ف وهذا المعدل الاخير نادر ، والمعدل الاعتيادي هو ١٠٧° ف وفي الشتاء تتراوح مابين ٢٩ر٥٠° ف يصاحبها الغبار عادة ، ويدوم ثلاثة ايام لتنتهي بزوابع وامطار وتتبعها رياح شمالية غربية منعشة وسماء صافية مشرقة .

وبالاضافة الى الجداول السالفة الذكر نضيف ادناه جداول باسعار المواد الغذائية والحبوب في اسواق بغداد وقد وضعت بعناية السيد ريتشارد روجر امين الباخرة (كوميت) ذو الخبرة المحلية في هذا المضمار . وقد اضفنا اليها جداول مقارنة بالمكاييل والموازين والمقاسات ذات التسميات الانكليزية . مع جداول بالعملة الدارجة في اسواق بغداد ، ومن الجدير بالذكر ان هذه الاسعار واثمان التبادل النقدي والعملات غير ثابتة بل تتغير بتغير وضعية مدينة بغداد الاقتصادية ، ومدينة بغداد تعتمد في اقتصادياتها على ماجاورها من القرى وكذلك على الاماكن الاخرى التي تفصلها عنها الصحراء وهذه غير ثابتة التجهيز حيث تنقطع اوقات عدم الاستقرار والاضطرابات او بسبب تعرض القوافل العابرة الصحراء للسلب والنهب . هذا وتتحدد الاسعار داخل المدينة ايضا بنوعية المادة وهي اسعار جيدة ورخيصة الى حد ما ، ولو اخذنا بنظر الاعتبار اسعار المواد الغذائية الاساسية في بغداد لاعتبرناها مدينة رخيصة المعيشة الى حد كبير . هذا بالاضافة الى ان المخزون من الحبوب في الاهراءات يكون كميات معقولة تفي بتجهيز سكان بغداد اوقات الازمات . وهذه الحبوب تحصل عليها الحكومة من مزارع الحبوب في السهول المنتشرة حول مدينة الموصل وسهول الزابين بواسطة النقل النهري نزولا بنهر دجلة .

تعقيب على مقال «الربط البغدادية»

للاستاذ : عادل كامل الالوسي

بقلم الحاج

هاشم محمد الرجب

بغداد ـ الجمهورية العراقية

نشر الاستاذ عادل كامل الآلوسي في مجلة المورد العراقية (العدد الاول المجلد السابع لسنة ١٩٧٨) من صفحة ١١٢ الى صفحة ١٢٢) بحثا قيما بعنوان (الربط البغدادية في التاريخ والخطط) . وبالنظر لما تفرضه الامانة العلمية والتاريخية رايت التعقيب عليه بالاتي : ـ

اولا : ـ رباط السيد سلطان علي

ذكر الاستاذ عادل في صفحة (١١٧ و ١١٨) ما يلي : ـ « وذهب مؤرخون معاصرون مثل الدكتور مصطفى جواد وعباس العزاوي الى رأي مخالف كما يكون المرقد يعود في الاصل الى السيد سلطان علي ابن محمد بن فلاح بن المشعشع (ت٨٦١هـ/١٤٥٦م)[1] على اني لا اضيف شيئا الى ما قيل سوى ما اعرفه من ان لقب (السلطان) لم يطلق على احد من الصوفية الا ابن الفارض (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) الذي لقب بسلطان العاشقين ولم يثبت عندي ان المرقد المذكور هو بيت مالك بن المسيب نفسه » انتهى .

واقول : ـ ان هذا المرقد هو مرقد السيد علي بن يحيى بن ثابت بن علي الرفاعي[2] والد سيد احمد الرفاعي[3] شيخ ورئيس الطريقة الصوفية الرفاعية المشهور . وليس مرقد السيد سلطان علي بن محمد بن فلاح المشعشع المتوفى سنة ٨٦١هـ/١٤٥٦م وان المرقد هو بيت الامير مالك بن المسيب وذلك : ـ

قال ابن الساعي[4] في ذكر من توفي في خلافة

(١) قال الدكتور مصطفى جواد : ـ « ونحن لم نجد في رجال العراق من تسمى « بالسيد سلطان علي » الا السيد سلطان علي بن محمد بن فلاح المشعشع المقتول سنة ٨٦١هـ قتل في ايام پير بوداق بن جهان شاه بن قره يوسف التركماني القره قوينلي في خوزستان وسلخ جلده وحشي تبنا وجيء به الى بغداد في ١٦ جمادى الاخرة سنة ٨٦١هـ وارسل براسه الى جهان شاه كما في التاريخ الغياثي ص (٢٧٤) » انتهى . (دليل خارطة بغداد للدكتور مصطفى جواد واحمد سوسة حاشية ص ٣٠٤) .

وقال الاستاذ عباس العزاوي : ـ « من ولد السيد محمد المشعشع الوالي علي حكم في زمانه وقتل بسهم في حصاره لقلعة بهبهان سنة ٨٦١هـ » انتهى (تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ ص ١٤٩) .

(٢) الرفاعي : ـ نسبة الى جده السابع واسمه (الحسن المكي) ويعرف ب (رفاعه) توفي (اي الحسن المكي) سنة ٣٣١هـ/٩٤٢م باشبيلية (تاريخ ابن الساعي ص ٧٧) .

(٣) هو سيد احمد بن علي بن يحيى بن ثابت بن علي بن احمد المرتضى بن علي بن رفاعة الحسن الاصغر المكى ابن ابي رفاعة المهدي ويتصل نسبه بسيدنا موسى الكاظم (رض) توفى سيد احمد الرفاعي سنة ٥٧٨هـ .

(٤) هو علي بن انجب الساعاني البغدادي المتوفى سنة ٦٧٤هـ ١١٨٣م .

الناصر لدين الله العباسي(٥) : ـ « وممن توفي بايامه ولي الله تعالى العارف بالله الدال على انه السيد احمد بن السيد علي ابي الحسن الرفاعي . وكانت وفاته رضي الله عنه بام عبيدة قرية من اعمال واسط ولها شهرة في العراق . قدم ابوه سنة تسع عشرة وخمسمائة من واسط الى بغداد ليكشف للخليفة المسترشد(٦) فتن الباطنية والغلاة من اهل البدعة وليحرضه على دفع تلك المفاسد فصار ضيفا ببيت الامير مالك بن المسيب ورفع المسترشد مكانه ولكن لم يقدر على ازالة فتنة الباطنية ودفع مفاسدهم وتعلل باستفحال امر السلطان محمود(٧) بالعراق فانزعج السيد علي الرفاعي لذلك وجه وبعد اسبوع توفى ببغداد وعمل عليه ابن المسيب مشهدا براس القرية محلة بظاهر بغداد من جانبها الشرقي وفيه فقراء وله زوار ويؤثر عن السيد علي الرفاعي هذا من الكرامات اشياء كثيرة ويلقبه العامة بالسيد سلطان علي وله في قلوب الصالحين حرمة عظيمة »(٨) . انتهى .

وقد ذكر الاستاذ عباس العزاوي ان قبر سيد سلطان علي هذا هو قبر الشيخ علي الجلايري فقال : ـ « والظاهر ان شيخ علي هذا هو المنسوب اليه جامع سيد سلطان علي فانه ولي بغداد وتوفى فيها وموضع الجامع من مرافق دار الخلافة العباسية وهو الانسب بالسلاطين . واما ما يقال من انه ابو الرفاعي فذلك من الموضوعات »(٩) . انتهى .

وقد علق الدكتور مصطفى جواد على قول العزاوي هذا فقال : ـ « لم نجد فيما بين ايدينا من التواريخ ان الشيخ عليا توفى ببغداد فانه قتل في وقعة بينه وبين اخيه احمد في بلاد ايران كما جاء في التاريخ الغياثي وتاريخ العراق بين احتلالين ج٢

(٥) دامت خلافته من سنة ٥٧٥هـ الى ٦٢٢هـ (١١٨٠م ـ ١٢٢٥م) .

(٦) دامت خلافته من سنة ٥١٢هـ الى ٥٢٩هـ (١١١٨م ـ ١١٣٥م) .

(٧) هو السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي دامت سلطنته من سنة ٥١١هـ الى سنة ٥٢٥هـ (١١١٧م ـ ١١٣١م) .

(٨) مختصر تاريخ ابن الساعي ص (١١٢) مطبعة بولاق سنة ١٣٠٩هـ .

(٩) تاريخ العراق بين احتلالين ج٢ ص ١٧٣ . وهذه المعلومات نقلها الاستاذ العزاوي عن تعليق للشيخ علي علاء الدين الالوسي (١٢٧٧هـ ـ ١٣٤٠هـ / ١٨٦١ ـ ١٩٢١م) على كتاب « كلشن خلفا » المرتضى نظمي آل زاده من ذكر وفاة الشيخ علي شاهزادة بن اويس الجلايري سنة ٧٥٢هـ / ١٢٨٠م .

ص١٧٣ . ولا يزال الاختلاف في تاريخ القبر قائما »(١٠) . انتهى .

وقد عاد واستدرك الاستاذ العزاوي واكد ان هذا القبر هو قبر السيد سلطان علي والد السيد احمد الرفاعي وذلك في صفحة (٣٤١) من الجزء الثاني من كتابه (تاريخ العراق بين احتلالين) حيث قال : ـ « كنا قد تكلمنا على هذا الجامع بما وصل الينا والان بعد ان اوشك طبع الكتاب ان يتم عثرت على مجموعة عند بعض الاصدقاء الافاضل فرايت فيها ما ملخصه : السيد ابو الحسن علي بن يحيى ابن ثابت ابن حازم بن احمد بن علي بن رفاعة الحسن المكي نزيل اشبيليه الرفاعي الحسيني السيد الشريف سلطان العارفين ، ولد في البصرة عام٤٥٩هـ وتوفى ابوه السيد يحيى النقيب وله سنة واحدة وكفله اخواله الانصار وبنو خالته آل الصيرفي الامراء المشهورون في البصرة وشب على التقوى واخذ العلم والطريقة عن جده لامه الشيخ الكامل موسى ابي سعيد البخاري الانصاري شيخ البطائحيين . ولا زال يتردد الى البطائح لزيارة ابن خاله الشيخ الكبير السيد منصور البطائحي . وفي سنة ٤٩٧هـ سكن البطائح بامر الشيخ منصور وبتلك السنة زوجه باخته فاطمة الانصارية فاعقب منها اولادا مباركين اعظمهم السيد احمد الكبير الرفاعي . وكانت اقامة السيد ابي الحسن علي صاحب الترجمة بقرية حسن من البطائح الى ان جاءت سنة ٥١٩هـ فوقعت الفتن الكثيرة بواسط وكان الامام والمشار اليه بين طوائف الصوفية والزهاد ورجال العترة المحمدية فاجمع الناس على سفره لبغداد فتوجه ونزل ببيت الامير مالك المسيب براس القرية محلة ببغداد ، وقد كتب بشانه للخليفة ما يلزم ان يكتب عمادالدين زنكي صاحب واسط فاعزه الخليفة ورفع مكانه (ثم مرض) وبعد أسبوع من مرضه توفي وعمل له الامير مالك مشهدا براس القرية وهو الى الان يزار ويتبرك به وله منزلة في قلوب الناس » . انتهى .

وبعد هذا قال في نفس الصفحة : ـ « وهذه المجموعة تسمى « كتاب روضة الايمان في اخبار مشاهير الزمان » اولها : الحمد لله الاول والاخر . . الخ . للعلامة المحقق المدقق محمد بن ابي بكر بن علي بن عبدالملك بن حماد بن دكيين . ولا ادري من هو مؤلفها . اما تاريخها فهو ٥ رجب سنة ١٣٠٥هـ ولم يذكر كاتبها تاريخ نقلها . وفيها مباحث

(١٠) دليل خارطة بغداد حاشية ص (٢٠٤) .

تأريخيه وادبية وتتعرض كثيرا للرفاعية ورجالها وتصل بهم الى القرن العاشر ولم تتجاوز ذلك . وقد رايت عليها خط المرحوم شاكر الالوسي في غرة شعبان من هذه السنة . ثم رايت (كتاب روضة الناضرين وخلاصة مناقب الصالحين) للشيخ احمد ابن محمد الوتري المتوفى في عشر الثمانين وتسعمائة هجرية ينقل النص المذكور بعينه وكان قد اتم تلخيصه من كتابه (مناقب الصالحين وحجة اهل اليقين) سنة ٩٦٣هـ . وطبع كتاب روضة الناضرين في مصر سنة ١٣٠٦هـ . ونحن في حاجة ماسة الى ما يؤيد هذا النقل او يكشف غوامض تاريخنا ، ولعل القراء من له علم او نص يصلح في هذا الجامع » . انتهى .

وعليه ومما تقدم فقد تايد لنا بان القبر هو قبر السيد سلطان علي والد السيد احمد الرفاعي

ثانيا : ـ رباط النظامية

ذكر السيد عادل في صفحة (١١٩) ما يلي :ـ « يقع هذا الرباط عند (طولة الجندرمة) فيما يلي مسجد النعماني قرب كنج عثمان ، اسس زمن سلطنة عبدالمجيد(١١) سنة (١٢٦٥هـ ـ ١٨٤٨م) وقد ارخ نشأته الشاعر عبدالباقي(١٢) . وكان منقوشا على رخامة موضوعة فوق باب الرباط المذكور ، وامر خليل باشا(١٣) بهدمه واضافته الى الطريق وجعل قسما منه تابعا لدوائر الحكومة وانشأ عن الارض الباقية كما يقول صاحب العقد اللامع « روضة زاهية » ويضيف صاحب العقد ايضا ان الترك بعد الاحتلال شنقوا في فناء هذه الارض خلقا كثيرا . وهذا الرباط وكنج عثمان كانا متصلين بسراي الحكومة » . انتهى .

وقد علق السيد عادل على مسجد النعماني في حاشية الصفحة نفسها تحت رقم (٨٥) فقال : ـ « او الجامع النعماني من مساجد بغداد القديمة فيه منارة مطلة على الطريق جدده الوزير داود باشا(١٤) سنة (١٢٣٩هـ ـ ١٨٢٣م) وكتب على احد جدرانه بعد الفراغ من عمارته ثلاثة ابيات من الشعر تجدها عند الآلوسي (مساجد بغداد ص٧٦) وكانت المحلة التي فيها المسجد تسمى قديما بمحلة (راس الساقية) لمرور ساقية الماء العائدة الى جامع الشيخ عبدالقادر الجيلي التي فيها الماء من نهر دجلة والاتي منه بوسطة الكرود وكانت اكبر محلة في بغداد لوجود دار الخلافة فيها . » . انتهى .

اقول : ـ لقد حصل ارتباك عند الاستاذ عادل في تعيين محل وموقع هذا الرباط اذ اعتبر موقعه في محلة (راس الساقية) وهذا غير صحيح والصحيح هو موقعه في محلة الميدان الحالية وذلك : ـ

١ ـ لما كان موقع هذا الرباط عند(طولة الجندرمه) ومن المعلوم ان طولة الجندرمة كان موقعها في مكان مديرية شرطة محافظة بغداد الحالية وبما ان مديرية الشرطة هذه تقع في محلة الميدان اذن فالرباط موقعه في محلة الميدان .

٢ ـ لم يكن في يوم ما سراي الحكومة في العهد التركي في محلة راس الساقية وانما سراي الحكومة هو بناية القشلة الحالية ووزارة التربية (المعارف) سابقا وايج قلعة وهي (وزارة الدفاع الحالية) وكل هذه البنايات تقع في وقرب محلة الميدان

٣ ـ لقد حصل اشتباه عند الاستاذ عادل في اسم المسجد اذ يوجد مسجدان هما مسجد النعماني ومسجد النعمانية . الاول يقع في محلة راس الساقية والثاني يقع في محلة الميدان . وقد اعتبر الاستاذ عادل الرباط فيما يلي مسجد النعماني والصحيح هو فيما يلي مسجد النعمانية ، والدليل على ذلك هو ان الرباط وكنج عثمان كانا متصلين بسراي الحكومة وسراي الحكومة يقع في وقرب محلة الميدان كما ذكرنا ذلك(١٥) .

---

(١١) ولد السلطان عبدالحميد العثماني سنة ١٢٣٧هـ / ١٨٢١م وجلس على العرش سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م وتوفي سنة ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م .

(١٢) هو عبدالباقي بن سليمان بن احمد العمري الفاروقي الموصلي ولد سنة ١٧٩٠م وتوفي سنة ١٨٦٢م .

(١٣) خليل باشا قائد الجيش التركي في جبهة العراق في الحرب العالمية الاولى بعد القائد نور الدين بيك . وهو الذي حاصر الجيش الانكليزي مع قائده العام (طاوزند) في الكوت واسره مع جيشه سنة ١٩١٦ . وهو الذي خسر المعركة امام القائد العام للجيش الانكليزي (الجنرال مود) وسلم بغداد للانكليز في ١١ اذار سنة ١٩١٧ .

(١٤) داود باشا ولي على بغداد من سنة ١٢٣٢هـ ـ ١٨١٦م الى ١٢٤٧هـ ـ ١٨٣١م . وهو اخر الولاة المماليك الذين توالوا على حكم العراق في العهد التركي .

(١٥) كثير من الناس موجودون الآن حاليا ممن شاهدوا قبر كنج عثمان مع السبيل خانة التي كانت بجنبه اذ لم يمض وقت طويل على ازالة القبر والسبيل خانة بعدان

ومسجد النعمانية مجاور للمدرسة الاعدادية المركزية للبنين ومقابل دائرة البريد . بنته صاحبة الخيرات فاطمة خاتون بنت السيد بكتاش بن السيد ولى سنة (١١٨٥هـ-١٧٧١م) والحقت به مدرسة علمية لتدريس العلوم الدينية ووقفت على لوازمهما عقارات كثيرة وجعلت التولية من بعد لزوجها نعمان اغا(١٦) ابن الحاج ابراهيم اغا ومن بعده لاولاده(١٧) . واخر من تصدر للتدريس في هذه المدرسة العلامة الشيخ قاسم البياتي وحامد الملا حويش . وقد تخرج من هذه المدرسة علماء اعلام(١٨) .

اما جامع النعماني : - فيقع في محلة (راس الساقية) وليس له اي صلة بهذا الموضوع والنعماني : - نسبة الى حسام الدين النعماني وهو ابو الفرج احمد بن عمر بن محمد بن ثابت بن عثمان بن محمد بن عبدالرحمن بن ميمون بن محمود بن حسان بن سمعان بن يوسف بن اسماعيل بن حماد بن ابي حنيفة النعمان بن ثابت الفرغاني النعماني نزيل بغداد . اشتغل كثيرا وسمع الحديث من سراج الدين عمر القزويني(١٩) .

توفي حسام الدين سنة (٧٥٢هـ-١٣٨١م)(٢٠)

ثم نقل رفاته من قبره في محلة الميدان الى مقبرة الشهداء في باب المعظم وكان ذلك سنة ١٩١٧م .

(١٦) واليه نسب المسجد (النعمانية) .

(١٧) والان التولية محصورة بالسيد عثمان نوري آل رئيس الكتاب الذي هو من احفاد نعمان اغا .

(١٨) البغداديون مجالسهم واندبتهم للمرحوم ابراهيم الدروبي (ص ٢٠١) .

(١٩) سراج الدين :- هو الحافظ الكبير محدث العراق سراج الدين عمر بن علي بن عمر الحسيني القزويني ثم البغدادي ولد سنة (٦٨٣هـ - ١٢٨٥م) وعني بالحديث وسمع من الرشيد بن ابي القاسم ومحمد ابن عبدالمحسن الدواليبي والنجم احمد بن غزال وجمع جم . واجاز له التقي سليمان وغيره من دمشق وصنف التصانيف وعمل الفهرست واجاد فيه . روى عنه جماعة من آخرهم صاحب القاموس ، توفي سنة (٧٥٠هـ - ١٣٤٩م) .

وفي بغداد اليوم محلة تسمى باسمه (محلة سراج الدين) وقبره قائم الى اليوم في الجامع المسمى باسمه ايضا . وقد عمر الجامع الذي يقع في نفس المحلة (سراج الدين) والي بغداد التركي حسن باشا الجديد سنة (١١٣١هـ - ١٧١٨م) .

ملاحظة :- ولي حسن باشا الجديد على بغداد من سنة (١١١٦هـ - ١٧٠٤م) الى سنة ١١٣٦هـ - ١٧٢٣م) .

(٢٠) تاريخ العراق بين احتلالين ج٢ ص ١٦٣ .

* ❋ *